دير القديس أنبا مقار

المدخل لشرح إنجيل القديس يوحنا

دراسة وتحليل

الأب متى المسكين

محتويات الكتاب

الصفحة

الباب الرابع

الفصل الثالث:

مقدمـــة

في ختـام القرن الأول المسيحي كتب القديس يوحنا الرسول إنجيله في مدينة أفسس تحت إلحاح أساقفة كنائس آسيا الصغرى الذي كان هو أسقفاً على أهمها وهي كنيسة أفسس. هذا بحسب مصادر التقليد الكنسي المنحدر إلينا من القرن الثاني ومن مصادر عديدة أخرى سنأتي على ذكرها.

ومعلوم أن القديس بولس الرسول هو الذي أسس كنيسة أفسس قبل ظهور إنجيل القديس يوحنا بما يقرب من ثلاثين أو أربعين سنة تقريباً. وتأسيس كنيسة بالمفهوم اللاهوتي يعني إرساء قواعد الإيمان المسيحي بكل أركانه. والرسالة التي أرسلها القديس بولس الرسول إلى أهل أفسس تكشف عن المستوى اللاهوتي الذي بلغه ليس القديس بولس فحسب، بل والذين كُتبت الرسالة لهم، هذا الشعب الذي اتخذ هذه الرسالة منهاج إيمان وعقيدة وحياة وسلوك. من هذا نفهم لماذا كان هذا العمق اللاهوتي الذي اجتهد القديس يوحنا بإلهام الروح أن يستودعه إنجيله لهذا الشعب! إذ تحكمه نسبة المثيل للمثيل، لذلك حُسب إنجيل القديس يوحنا كضرورة تحتّمها المناسبة. فالقديس يوحنا كتب إنجيله لشعب كان قد بلغ شأواً كبيراً في النضج الإيماني والوعي المسيحي، وقدم نماذج لإيمانه بحالات استشهاد رفيعة المستوى. ولكن كان يعوز هذا الشعب الإطار الإنجيلي الذي يشرح لهم المصادر الفائقة التي انحدر منها الإيمان المسيحي بكل أسراره، ويقنّن لهم المفاهيم الجديدة التي نشأت نتيجة لكرازة القديس بولس الرسول محققاً إياها من فم المسيح مباشرة. الأمر الذي اشتاق أن يتممه القديس بولس الرسول يوماً ما بصفة خاصة وشخصية، كما يقول هو نفسه: «ثم بعد أربع عشرة سنة صعدتُ أيضاً إلى أورشليم... بموجب إعلان وعرضتُ عليهم (أي على القديسين بطرس ويعقوب ويوحنا) الإنجيل الذي أكرز به بين الأمم ولكن بانفراد على المعتَبَرين لئلا أكون أسعى أو قد سعيتُ باطلاً» (غل ٢: ١و٢). وها هو القديس يوحنا يضع ختم إنجيله على كل تعاليم بولس الرسول ليس بالإنفراد ولكن على الملأ على مشهد من الدنيا كلها.

وواضح أن إنجيل القديس يوحنا لا يهب الكنيسة في أفسس أو غيرها إيماناً جديداً بل يوثّق ويشرح الذي وُضِع. ولا يستحدث لها أسراراً ولكن يستعلن اللاهوت فيها حيًّا مشروحاً من فم

الرب. كما أنه لم يرفع إدراكات الكنيسة لترى مخلّصها جالساً في السموات، فهذا وضّحه أول مَن وضّحه الشهيد إستفانوس بعد يوم الخمسين بقليل، كما قالت به الأناجيل وصوّره سفر الرؤيا أروع تصوير. فكانت هذه كلها حقائق يعيش الشعب على هداها ويستمد منها إيمانه وحرارته. ولكن جاء إنجيل القديس يوحنا محمولاً بالروح ليتتبّع هذه الحقائق في أصولها وينابيعها الأولى قبل أن توجد الأرض أو تُصوَّر السماء مستقصياً عن المسيح — صاحب هذا الإيمان والخلاص والنور — لا في التاريخ في سجلات هيرودس ملك اليهودية ولا في منشور أوغسطس قيصر للإكتتاب العام ولكن في الأزلية، متعرِّفاً على المسيح ليس ضمن أسباط إسرائيل بل في حضن الله بصفته الكلمة الأزلي الكائن معه وفيه منذ البدء وهو الخالق، وقد صاحَبَه بالإستعلان فيما وراء الدهور والأزمان في خلقة الأكوان حتى إلى تجسده حينما صار الكلمة جسداً، نازلاً من السماء حاملاً رسالة حب الآب لخلاص العالم. واضطلع الروح القدس في إنجيل القديس يوحنا وعلى يد القديس يوحنا بعمل هو من أعظم أعمال الروح القدس إذ استعلن علاقة الآب بالإبن وعلاقة الإبن بالآب الكائنة منذ الأزل في ذات الله الواحد: «أنا والآب واحد» (يو١٠: ٣٠). وهكذا كشف عن لاهوت المسيح بأبلغ بيان وبأوثق بنيان. هذا السر أي سر بُنوّة المسيح لله الذي نلنا منه وفيه بتجسد الإبن وتكميل الفداء حق التبنّي وتكميل الخلاص وانفتاح الحياة الأبدية علينا. وقد صوّر إنجيل القديس يوحنا ومن فم المسيح سر انكشاف علاقة الله الآب بالمسيح هكذا: «تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضاً بأمثال (كما في الثلاثة الأناجيل على قدر نموهم الروحي) **بل أُخبركم عن الآب علانية**» (يو١٦: ٢٥). فكانت هي ساعة كتابة هذا الإنجيل بلا شك!

هذا هو إنجيل القديس يوحنا الذي قُدّم للكنيسة في ميعاده المحدد منذ الأزل، حينما بدت الكنيسة في نُضجها متعطشة غاية التعطُّش لمعرفة المزيد عن المسيح إلهها لتردّ به شوقها إليه وترد على الذين يعيّرونها كل يوم أين ومن أين جاء إلهها!! حينما وقفت أمام نشاط وثني وفلسفي منقطع النظير ولا قِبَلَ لها بمواجهته إلاَّ بقوة إيمان وحب!

ونحن نعلم ما هي أفسس ومَن هم الذين كانوا في أفسس سواء أيام بولس الرسول أو أيام كتابة سفر الرؤيا. فسفر الأعمال يحكي ضمن ما يحكي عن مغامرات بولس الرسول هناك هكذا: «ثم سكّن الكاتب الجمع (الهائج ضد بولس) وقال أيها الرجال الأفسسيون مَن هو الإنسان الذي لا يعلم أن مدينة الأفسسيين متعبدة لأرطاميس الإلهة العظيمة والتمثال الذي هبط من زَفْس» (أع١٩: ٣٥). فأفسس كانت إحدى مواطن الحضارات اليونانية وكانت تموج بالآلهة الكاذبة وعُبّادها هم أقوى الفلاسفة والمعلمين وغيرهم من أدباء اليونان ذائعي الصيت، وشعرائهم الأفذاذ الذين ألهبوا الفكر البشري للجري وراء المعرفة والجمال والحب والمجون والفن، واجتذبوا إلى صفوفهم

حتى من الطبقات العليا ذوي المعارف الفلسفية من المسيحيين وأضلُّوهم. ولقد جال القديس بولس الرسول جولاته الأولى في هذه المناطق، واستقطب غليان هذا النشاط المفرط في المعرفة الفلسفية وطوَّعه بكل الجهد، وعن أصالة روحية وإقناع إلهي، وذلك لحساب المسيح باعتراف الوثنيين أنفسهم «وأنتم تنظرون وتسمعون أنه ليس من أفسس فقط بل من جميع آسيا تقريباً استمال وأزاغ بولس هذا جمعاً كثيراً... فليس نصيبنا هذا وحده في خطر من أن يحصل في إهانة بل أيضاً هيكل أرطاميس الإلهة العظيمة أن يحسب لا شيء وأن سوف تُهدم عظمتها هي التي يعبدها جميع آسيا والمسكونة.» (أع١٩: ٢٦و٢٧)

فلما دخل الإيمان المسيحي في الصراع مع منطق الفلاسفة، كان الإيمان مجرد قوة فعَّالة تستمدها الكنيسة من حياة المسيح، كما في الأناجيل الثلاثة، تلهبها قوة صليبه. ولكن كان يعوزها منطق «الكلمة»: مَنْ هو المسيح ومن أين أتى؟ إزاء آلهة الفلاسفة التي هبطت من زَفْس؟ وهكذا ظهرت الحاجة أشد ما تكون الحاجة إلى «اللوغُس» النازل من السماء باسم الآب، والصاعد إليها بمجد الله، والعتيد أن يأتي في مجده ومجد أبيه مع ملائكته. ثم كان يعوز الكنيسة في محنة هذا الصراع الفلسفي التعبير عن الحق الذي لها وفيها، لا بالمنطق الفلسفي الأرضي، بل بالمنطق والإقناع الإلهي بحسب فكر المسيح ونُطقه، فجاء دور المعايير الروحية الفائقة التي هي كنوز الكنيسة والتي غطَّاها المسيح جميعها في عظاته المتوالية في إنجيل القديس يوحنا. ونجحت أيَّما نجاح على أساس خبرة القديس يوحنا «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا، ونعمة فوق نعمة... أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا» (يو١: ١٦و١٧). وقام الروح القدس في هذا الصراع الرهيب بعمله السري والعلني: «ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق» (يو١٦: ١٣). ولما عزَّت الشهادة شهد: «فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً» (يو١٥: ٢٦و٢٧). ولما شاءوا أن يرفعوا من قدر المسيح ويمجّدوه في أعين المتعظمين بعلمهم انبرى الروح يمجّد «ذاك يمجّدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم» (يو١٦: ١٤). ولم تكن الوثنية ولا الفلاسفة والأدباء اليونان هم وحدهم الجناح الذي دخل الحرب الطاحنة ضد المسيحية أيام القديس يوحنا الرسول، بل واليهود أيضاً كانوا يشكِّلون الجناح الأكثر حقداً وإثارة، الذين كانت لهم أكبر جالية في العالم بجوار مدينة أفسس، وكان لها مجمع ضخم ذكره المسيح في سفر الرؤيا بالأسى والحزن «اكتب إلى ملاك الكنيسة التي في فيلادلفيا هذا يقوله القدوس الحق... ها أنذا أجعل الذين من **مجمع الشيطان** من القائلين إنهم يهود وليسوا يهوداً بل يكذبون. ها أنذا أُصيِّرهم يأتون ويسجدون أمام رجليك ويعرفون أني أنا أحببتك.» (رؤ٣: ٧و٩)

كان هذا هو دور إنجيل القديس يوحنا الذي أعدَّه الله وسلَّحه بكل أسلحة الدفاع عن الحق والحياة للمحنة الكبرى التي أتت على الكنيسة من جناحي عالم الظلمة. ولكن نجحت الكنيسة

بإنجيلها وواجهت أخطر منحدراتها التاريخية بعد أن انتقل مركز وجودها الرسولي الأول من موطنه فلسطين بعد أن خُرِّبت أورشليم وهُدِم وحُرِق هيكلها، إلى أفسس في قلب العالم الوثني المتسلح بضراوة بكل أسلحة الضلال.

ولكن لم تكن الكنيسة تواجه صراع الخارج السافر وحده سواء من فلاسفة أو يهود متعصبين — غير يهود(1) — بل وكانت تواجه فراغاً مخيفاً من داخلها شعر به أساقفتها وشعبها خاصة من اليهود الذين دخلوا الإيمان المسيحي بتراث عبادتهم الأولى الزاخر بالقوانين والنواميس. الكل بدأ يطالب بعلاج المشاكل والتساؤلات التي نشأت كحتمية فرضتها توقف العبادة اليهودية بعد خراب أورشليم ونزوح اليهود منها سنة ٧٠م. فأين سيكون مركز العبادة المسيحية؟ **في أورشليم أم في جرزيم**؟ أم في روما. ثم **كيف ينبغي أن يكون السجود**؟ وما عدده وما أصول التطهيرات اللازمة لحصوله؟ كل هذا وخلفية الكنيسة الذهنية نشطة من جراء تعاليم القديس بولس الرسول الذي شجب هذا كله وأمر ببطلان الإتكال على أعمال الناموس، وعدم توسُّط الفرائض التي تؤدَّى جسدياً، والمناداة بحرية البنين، وإعطاء الأهمية القصوى للإيمان الشخصي للفرد، وعمومية الإنجيل والإيمان لكل الأمم، واستعلان لاهوت المسيح كأساس للإيمان وكقوة فعَّالة تعمل عملها لخلقة الإنسان خلقاً روحياً. هذا كله أصبح على ألسنة الأساقفةِ قبل الشعب، أسئلة تحتاج إلى شرح إنجيلي، تقدم بها الأساقفة رسمياً إلى القديس يوحنا بإلحاح ضاغط مع توسل وصلاة وصوم لكي يكتب إنجيله بصفته الرسول الوحيد على قيد الحياة وهو الذي عاين وشهد وشهادته حق باعتبار الجميع. وبحسب التقليد ارتضى القديس يوحنا بضغط آخر من الروح القدس أن يكتب إنجيله. وهذا ما يقوله التقليد من الشرق والغرب.

يقول القديس إكليمندس الذي عاش (١٥٠—٢١٥م):

[إن التقليد الذي استلمناه هو أن يوحنا وهو آخرهم جميعاً (آخر الإنجيليين) عندما لاحظ أن الحقائق الجسدية τὰ σωματικά صارت واضحة في الإنجيل (الثلاثة أناجيل الأولى) ألحَّ عليه أحباؤه. وبإلهام الروح القدس كتب إنجيله الروحي πνευματικὸν εὐαγγέλιον .](2)

هذا تقليد الشرق.

ثم جاءنا التقليد من الغرب في وثيقة موراتوري والمعروف أنها لهيبوليتس. وهذه الوثيقة يرق تاريخها إلى سنة (١٦٠—١٧٠م). تقول الوثيقة:

---

(١) «وتجديف القائلين أنهم يهود وليسوا يهوداً بل هم مجمع الشيطان.» (رؤ٢: ٩)

2 Euseb., Eccl. Hist. VI, 14, 7.

[الإنجيل الرابع هو بواسطة يوحنا أحد التلاميذ، إذ عندما توسل إليه زملاؤه التلاميذ والأساقفة في ذلك قال صوموا معي ثلاثة أيام ونحن نتفاوض مع بعض بكل ما يوحي به الله إلينا. وفي هذه الليلة عينها أُعلن لأندراوس أحد الرسل (السبعين) أن يوحنا عليه أن يكتب كل شيء تحت اسمه والكل يصدّق على ذلك. فإن كانت أمور كثيرة قد علّمت بها الأناجيل الأخرى وكلها استُعلنت بالروح الواحد فيما يخص الميلاد والآلام والقيامة وحديثه مع تلاميذه وفيما يخص مجيئه الأول والثاني، الأول باتضاع وتواضع وقد أكمله، والثاني يأتي بالمجد وبالقوة الملكية. فأي عجب، إذن، أن يوحنا بجرأة وشجاعة يحقق كل نقطة متكلماً عن نفسه في رسالته: «الذي رأيناه بعيوننا وسمعناه بآذاننا ولمسناه بأيدينا». هذه الأمور كتبها Scripsimus لأنه وضع على نفسه أن يكون لا شاهداً فقط بعينه وسمعه بل وكاتباً بكل عجائب أعمال الرب بترتيب.][3]

كما يصادق القديس إيرينيئوس على ما جاء في الوثيقتين، وقد سجّلنا كل أقواله في هذا الكتاب.

بهذا يتأكد لنا أن إنجيل القديس يوحنا اختص في التقليد بالروحانية واللاهوتية. وهذا تسجّل في قانون الأسفار المقدسة عدة مرات. ويقول عنه القديس أغسطينوس ما يلي:

[إن كل هذه الأناجيل الثلاثة لم تفارق نظرتها للأمور الأرضية إلاّ قليلاً يعني الأشياء التي أكملها المسيح على الأرض. أما بخصوص لاهوته فإنها جاءت قليلاً جداً. إذ تحدثوا بصفتهم بشراً يسيرون معه على الأرض، أما هذا الأخير هذا «النسر» يوحنا المبشر بالحقائق العليا فهو الذي حدّق بنظره مثبتاً إياه نحو النور العميق الأزلي] (العظة السادسة والثلاثون).

كذلك جاء في نفس هذه العظة:

[إن القديس يوحنا ليس كأنه بلا استحقاق من جهة العمق في الروحانيات شبّهوه بالنسر فهو قد رفع بشارته أعلى وأسمى كثيراً عن الثلاثة أناجيل الأخرى] (العظة السادسة والثلاثون).

ولكننا مع كل هذه الشهادات بخصوص القيمة اللاهوتية التي اختص بها إنجيل القديس يوحنا، نود لو نخفّض قليلاً من علياء أغسطينوس وغُلْوائه، فالأناجيل الأخرى وإن كانت قد قسّطت في استعلان لاهوت المسيح إلاّ أنها ما قصّرت قط وما أنقصت، فلاهوت المسيح يدمغها منذ بدء

---

3 Muratori, cited by: Barrett, Acc. to St. John., pp. 96, 97.

صفحاتها: «وهو ابن العليِّ يُدعى» (لو١: ٣٢)، «القدوس المولود منكِ يُدعى ابن الله» (لو١: ٣٥)، «ويُدعَى اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا» (مت١: ٢٣)، «وهذا هو الذي سيعمِّدكم بالروح القدس ونار» (مت٣: ١١، لو٣: ١٦)؛ وهل ننسى أول آية جاءت في إنجيل القديس مرقس هكذا: «بدءُ إنجيل يسوع المسيح ابن الله» (مر١: ١)، وهي آخر آية جاءت في إنجيل القديس يوحنا «لكي تؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله» (يو٢٠: ٣١)؛ ولكن كانت كل هذه الشهادات تحتاج بالفعل إلى شرح لاهوتي مفصَّل من فم المسيح مع تطبيق بالآية المباشرة.

نفهم من هذا أن كتابة إنجيل القديس يوحنا في هذه الحقبة الزمنية من تاريخ الكنيسة كان حصيلة إرادة إلهية استجابة إلى حاجة كنسية أَمْلَتْها ظروف تتعلق بحياة المؤمنين ونضجهم الروحي وبحياة الكنيسة واستمرار وجودها.

لذلك صحَّ القول أن إنجيل القديس يوحنا هو أصدق وثيقة تصوِّر لنا حالة الكنيسة المسيحية في ختام القرن الأول.

ولكن يلزم قراءة هذه الوثيقة، أي إنجيل القديس يوحنا هذا، على أصول لاهوتية قبل الأصول التاريخية مع دراسة واستقراء لنفهم ما فهمناه معاً الآن وأكثر.

ونحن لا نستطيع أن نختم مقدمتنا هذه عند هذا الحد؛ إذ يتحتَّم علينا أن نضيف، أن إنجيل القديس يوحنا كُتب في زمانه ليس لمواجهة صعاب زمانه وحاجة زمانه فحسب. فقد أسس الروح القدس هذا الإنجيل لكي يكون سهماً مبرياً في كف الكنيسة وسلاحاً مشهوراً في وجه الباطل أينما وُجِد في أي زمان ومكان، والتاريخ يقص علينا ذلك:

فقد دخلت الكنيسة في القرن الرابع الميلادي في حربها الضروس ضد آريوس الكافر الذي أنكر لاهوت المسيح ودوَّخ الكنيسة مع أتباعه، وأتباعه كانوا أساقفة صفًّا وراء صف، لأنها كانت رجعة تنذر بالخطر الوبيل، وقف فيها القديس أثناسيوس أسقف الإسكندرية ورئيس أساقفة مصر يحارب وحده، ولكن كان إنجيل القديس يوحنا هو معتمدَهُ، وكان سلاحه الأول والأمضى «تجسد الكلمة»، فهذا المعيار خير مَن يدافع به عن لاهوت المسيح. وكان إنجيل القديس يوحنا بمثابة الحصاة الناعمة في مقلاع داود التي غرسها في جبين جليات فأرداه صريعاً إزاء ما عيَّر به إله إسرائيل، هكذا فعل أثناسيوس وهكذا صرع الآريوسية التي عيَّرت الكنيسة في إلهها، فخرَّت صريعة تحت رجليه وهو رافعٌ إنجيل القديس يوحنا نحو السماء ينطق بقانون الإيمان الذي اعتمدته الكنيسة حتى اليوم.

وبعد القديس أثناسيوس بقرن من الزمان قام نسطور ليزعج الكنيسة من نحو إيمانها وأيضاً من جهة لاهوت المسيح وناسوته ففرَّقهما إلى اثنين كما إلى مسيحين. وهكذا بطعنة مسمومة أراد هدم الإيمان الأرثوذكسي من أساسه. فانبرى له القديس كيرلس الكبير أسقف الإسكندرية أيضاً ورئيس أساقفة مصر، شاهراً نفس السلاح — إنجيل القديس يوحنا — و «بالكلمة صار جسداً»، وما يؤول إليه هذا المعيار اللاهوتي من الحقائق الزاخرة بالمعاني؛ انطلق القديس كيرلس الكبير في حربه حتى دارت دائرتها على نسطور فانهزم وولَّى، وارتفع قرن كنيسة الإسكندرية فوق العالمين وفي يدها أيضاً إنجيل القديس يوحنا مع الإيمان القويم.

ولكن كان لا يزال يخفي الدهر حربه الأمضى سلاحاً ضد هذا الإنجيل نفسه لأنها كانت حرباً مزيَّنة بالعلم ومسلَّحة بالفلسفة والتاريخ فكانت أخطر الحروب. لأن الحروب السالفة صُوِّبت ضد الكنيسة من خارجها، فكان إنجيل القديس يوحنا دِرْعَها وسلاحها فغلبت به وغَلَب هو لها! أما هذه الحرب فجاءت مصوَّبة ضد صحة هذا الإنجيل ومِصْداقيته وكأنما شاء رئيس هذا العالم أن ينتزع من الكنيسة أعزَّ وأمْضَى سلاح لها، فعلى مدى مئتين من السنين تضافرت قوى العقول الجبارة لمؤرخين وفلاسفة وعلماء لاهوت من ألمع الشخصيات قامت تنقد إنجيل القديس يوحنا: من جهة زمان كتابته قالوا أنه من وضع ما بعد منتصف القرن الثاني، ومن جهة كاتبه أنكروا على القديس يوحنا الرسول كتابته، ومن جهة تقليده الخاص قالوا أنه مأخوذ من رسائل بولس الرسول، ثم قالوا لا بل مأخوذ من الثلاثة الأناجيل الأخرى، ومرَّة وهذا هو الأمرُّ قالوا أنه من مصادر عديدة منها الغنوسية والمانوية التي تعتبر يوحنا المعمدان مسيحها، ومنها مخطوطات وادي القمران اليهودية، ومنها فيلو العلاَّمة اليهودي ومنها الأسفار الخاصة بالحكمة. وأخيراً وما أخطر هذا الأخير قالوا أنه يجانب التاريخ ولا يتبع خط التقليد التاريخي للأناجيل لذلك لا يُعتبر إنجيلاً! غير ما قالوا أن الكنيسة ليست ممثَّلة فيه، وأن الأسرار الكنسية غائبة عنه. ولم يُبْقُوا فيه على شيء صالح!

ولكن الله — في وسط هذه الترهات التي بُليت بها جامعات وكليات اللاهوت في أوروبا وأمريكا — قَيَّض لهذا الإنجيل نخبة من أنقى رجال الروح واللاهوت تبوأ أغلبهم رئاسة جامعات وكليات لاهوت أيضاً وكراسي أسقفيات، حيَّا الله أساقفة كراسي أكسفورد ودورهام ومانسفلد بانجلترا لأنه من بين الذين جلسوا على هذه الكراسي بالذات انبرى ثلاثة منهم على التتابع هم علماء لاهوت عظام مشهودٌ لهم بالتقوى والإقتدار تصدوا لهذه التيارات فصدُّوا وفنَّدوا وردُّوا حتى كسروا حِدة هذا الهجوم النقدي المرير وذلك مع غيرهم من عشرات العلماء الأوفياء في ألمانيا وفرنسا، وانجلترا على وجه الخصوص، وقد أتينا على ذكر كثير منهم في كتابنا هذا. وبدفاعهم الحرِّ أخرجوا إنجيل القديس يوحنا بعد مائتي سنة سليماً مبرَّءاً على قدر ما أعطاهم الروح وعلى قدر ما سمحت به

تِقْنِيَّة العلم الشحيحة في تمشِّيها مع الروح.

وهنا يمكننا بشيء من الإطمئنان أن ننهي هذه المقدمة، لهذا الكتاب الذي سميناه **«المدخل لشرح إنجيل القديس يوحنا»**. وقصدنا من إصداره أن يكون تمهيداً لكتاب شرح إنجيل القديس يوحنا، لأنه يصعب إلى حد كبير البدء في شرح هذا الإنجيل قبل أن يكون القارىء قد أصبح على وعي عام بالمبادىء والإصطلاحات والرموز والخطوط العامة التي يسير عليها هذا الإنجيل.

وأملنا أن يقرأ القارىء ويتأنَّى ولا يعبر على التوضيحات التي فيه سريعاً بل يحتفظ بها في ذاكرته. فهذا هو قصد الكتابة الأساسي من هذا المدخل حتى يتجلى الشرح فيما بعد أمامه، وتُستعلن له كنوزه ومكنوناته.

مقدِّماً الشكر لله الذي قوَّاني حتى أنتهي من هذا الكتاب،
بالرغم من ضعفي وهزال إمكانياتي،
داعياً للقارىء بالنعمة الإلهية الفائضة من هذا الإنجيل!!

الأب متى المسكين

الباب الأول

إنجيل القديس يوحنا

كاتبه وظروف كتابته وطابعه الأساسي

الفصل الأول

القديس يوحنا الرسول

١ ــ شخصيته:

هو كاتب الإنجيل الرابع بحسب التقليد الكنسي، الأمر الذي سنعود إليه بالتفصيل.

وهو ــ غالباً ــ الإبن الأصغر لأبيه «**زَبْدي**» وأمه «**سالومة**» التي استقرأنا اسمها من مطابقة الآيتين: «وكانت أيضاً نساءٌ ينظرن من بعيد بينهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب الصغير ويوسي وسالومة» (مر١٥: ٤٠)؛ «وكانت هناك نساءٌ كثيرات ينظرن من بعيد وهن كُنَّ قد تَبِعْنَ يسوع من الجليل يخدمنه، وبينهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب ويوسي **وأم ابني زبدي**» (مت٢٧: ٥٥و٥٦). وواضح أنها كانت تتبع المسيح أيضاً كتلميذة وتخدمه من أموالها الخاصة، وظلت تتبعه حتى الصليب والقبر، فكانت من اللواتى حملن الطيب يوم الأحد لتحنيط الجسد: «وتبعته نساءٌ كُنَّ **قد أتين معه من الجليل** ونظرْنَ القبر وكيف وُضع جسدُه، فرجعن وأعددْن حنوطاً وأطياباً. وفي السبت استرحن حسب الوصية» (لو٢٣: ٥٥و٥٦)؛ «وبعد ما مضى السبت اشترت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب **وسالومة** حنوطاً ليأتين ويَدْهنَّه.» (مر١٦: ١)

والإنجيل يركِّز بشدة على تقوى هذه السيدة العظيمة سالومة (سالي، كما يختصرها الفرنجة)، فيوحي إلينا بأنها كانت مشبَّعة برؤى المجد الآتى ومتيقِّنة من شخصية المسيا الذي كانت تخدمه. فهي التي يقدمها لنا إنجيل القديس متى: «حينئذ تقدمت إليه أُم ابني زبدي مع ابنيها وسجدت وطلبت منه شيئاً، فقال لها: ماذا تريدين؟ قالت له: قُل أن يجلس ابناي هذان واحدٌ عن يمينك والآخر عن اليسار في ملكوتك» (مت٢٠: ٢٠و٢١). وهذا يعطينا انطباعاً عن خلفية الأسرة التي نشأ فيها القديس يوحنا الذي كان يصغر الرب بعشر سنين، ولكن لشدة غيرته ومحبته للمسيح صار أقرب إلى قلب المسيح لأنه كان أيضاً أصغر التلاميذ سناً. وفي التقليد اليهودي، فإن الأصغر في الأولاد يجلس دائماً على شمال أبيه تعبيراً عن الأقرب للقلب، وهذا سنراه في طقس العشاء الأخير.

أما «زبدي» أبوه فكان صاحب مركب للصيد في بحيرة جنيسارت (طبرية) ويقتني صيادين أجراء مما يدلُّ على تيسُّر حاله (مر ١: ٢٠). وكانت العائلة من بيت صيدا تحترف الصيد: «ثم اجتاز من هناك قليلاً فرأى يعقوب بن زبدي ويوحنا أخاه وهما في السفينة يصلحان الشباك» (مر ١: ١٩). ودعوة يوحنا جاءت مع دعوة أخيه يعقوب لأن بقية الآية السابقة تقول: «فدعاهما للوقت فتركا أباهما زبدي في السفينة مع الأجْرَى وذهبا وراءه» (مر ١: ٢٠). ولكن يعقوب المدعو بـ«الكبير» استشهد كأول شهيد من الرسل سنة ٤٤م.(١). والمعروف في التقليد أن سالومة هي أخت مريم أم الرب، فيوحنا يُعتبر بالتبعية ابن خالة الرب. ومن هنا بدأت التلمذة على كل مستوياتها التي أهّلته أن يسجل حتى نبضات قلب الرب.

٢ ـ ألقابه:

لقد لقَّبته الكنيسة بـ«اللاهوتي» و«يوحنا البتول» و«يوحنا الحبيب» و«التلميذ الذي يحبه يسوع» و«ابن الرعد» و«النسر الطائر في الأعالي» و«رسول المحبة» و«رائي العهد الجديد المبشِّر بالسماء الجديدة والأرض الجديدة، الذي قاس أورشليم الجديدة طولاً وعرضاً ونظر العرش السماوي وعاين الحياة الأبدية وعاشها».

ويوحنا في التقليد(٢) يُرسم دائماً بوجه هادىء وديع كوجه امرأة ويجعلون تحت قدميه نسراً حادّ البصر شديد المراس كمحاولة للتعبير عن شخصية يوحنا الوديعة المتحفِّظة والذي هو في نفس الوقت جسور ملتهبٌ غيرةً. وهكذا يراه القديس أغسطينوس في عظته السادسة لشرح إنجيل يوحنا: [ليس جديداً على آذانكم، يا أحبّة، أن يوحنا الإنجيلي يشبه النسر الذي يحلّق في العلالي مرتفعاً فوق أجواء الأرض المعتمة ليثبِّت نظره بعينين تخترقان نور الحق.]

وتحفُّظه الشديد هو الذي دعاه ليُسقِط اسمه عمداً من إنجيله ليتوارى عن أعين الناس، بل وأسقط اسم أمه سالومة واسم أخيه يعقوب واسم القديسة العذراء مريم، وفي نفس الوقت هو نفسه الذي طار وحلَّق في الأعالي واخترق لا السموات فحسب بل والزمان أيضاً وعاين أسرار الله في الأزل وكشف طبيعة «**الكلمة**»: «في البدء كان الكلمة.» (يو١: ١)

ويوحنا متحفِّظ، محترق بالمحبة الإلهية متحد بالرب ذهناً وقلباً.

وليس من بين البشر جميعاً من استطاع مثل يوحنا أن يخترق أعماق طبيعة الله فيرى جوهره،

(١) أع ١٢: ٢.

[2] Jerome, Comm. ad. Matt., PG VIII, 10.

المحبة، «الله محبة» (١يو٤: ٨)؛ و يرى لاهوت المسيح قبل مولده بالجسد: «وكان الكلمة الله» (يو١: ١)، بل و يستعلن «الحياة الأبدية» و يلمسها: «الذي كان من البدء الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه ولَمَسَتْه أيدينا من جهة كلمة الحياة؛ فإن الحياة أُظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرتْ لنا.» (١يو١: ١و٢)

عاصر المناداة بالملكوت على يد المعمدان منذ أول لحظة وتفتحت أذناه على البشارة الأولى لعهد النعمة المجانية: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو١: ٢٩). لم ينْسَ يوحنا قط هذه اللحظات الأولى من حياته وهو ينتقل من تحت يد المعمدان إلى تحت رِجْليْ المسيح وهو ابن عشرين سنة، فظل محتفظاً بها في قلبه يرددها على مدى الليالي والسنين حتى سجلها وهو ابن مئة سنة(٣).

٣ ــ صفاته كما تظهر في الإنجيل:

يوحنا كباقي التلاميذ كلهم من الجليل، وإن كانت اليهودية هي الموطن الأصلي للعائلة ــ بيت لحم اليهودية. أما يهوذا الإسخريوطي فكان من اليهودية. ولو أن الجليليين كانوا في عُرْف المتحذلقين من الفريسيين جهلة (أع٤: ١٣)، أي لا يجيدون حفظ تقاليد الربيين، إلا أنهم كانوا معروفين بغيرتهم الملتهبة ذوو بأس وأبطال لهم نفس مسحة أجدادهم الأوائل وروحهم المكافحة الوثَّابة. ونحن لا ننسى كيف اتحدت كلمتهم مرَّة أن يمسكوا المسيح بالقوة ويجعلوه ملكاً، لولا أنه خرج من وسطهم واختفى عنهم (يو٦: ١٤و١٥).

كان يوحنا واحداً من هؤلاء، إلا أن الإنجيل يذكر أن يوحنا كانت له صلة برؤساء الكهنة «وكان سمعان بطرس والتلميذ الآخر (يوحنا) يتبعان يسوع. وكان ذلك التلميذ معروفاً عند رئيس الكهنة» (يو١٨: ١٥)، (التقليد في الكنيسة يشير إلى أنه كان كاهناً(٤))، مما يكشف عن المستوى الخاص الذي يلمِّح به يوحنا عن نفسه من جهة درايته بالشئون الدينية العليا وسياسات رؤساء الكهنة وعن درايته التعليمية الخاصة. ومهنة الصيد لا تمنع أن يكون يوحنا كاهناً ــ كما يظن بعض المؤرخين ــ وأن يدرس تحت رعاية أمه سالومة التقية على أيدي معلمي اليهود. و يقيناً أنه تعلم كثيراً أثناء تلمذته للمعمدان عن كل ما يختص برجاء إسرائيل وملكوت الله الآتي سريعاً.

ولم يكن يوحنا فقط من الاثني عشر بل وكان أيضاً المحبوب من بين الثلاثة المختارين بطرس

---

(٣) القديس يوحنا ذهبي الفم يؤكد أنه كتب إنجيله وهو ابن مائة سنة وعاش بعدها عشرين سنة أيضاً:

Exell, Rev. J.S., The Biblical Illustrator, Saint John, London 1905, vol. 1, p. vii.

4 Euseb., Hist. Eccl., III, 31; V, 24.

ويعقوب ويوحنا. وإنه وإن ذُكر على مدى الأحداث كآخر الثلاثة، إلا أنه في النهاية وعند الصليب انكشف سِرُّ العلاقة العظمى التي كانت تربطه بالرب، ومستوى الثقة التي لا تُحدُّ عندما تسلّم من فم المسيح أغلى وديعة تركها المسيح على الأرض: «فلما رأى يسوعُ أُمَّه والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً قال لأمه: يا امرأة **هوذا ابنُكِ**. ثم قال للتلميذ **هوذا أُمُّكَ**. ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته.» (يو١٩: ٢٦و٢٧)

وهنا يقول المؤرخ «فيليب شاف»(٥) أنه يبدو أن القديس يوحنا كان يمتلك بيتاً خاصاً في أورشليم وهو الذي أخذ إليه القديسة مريم حالما سلّمها له المسيح على الصليب، [لذلك أيضاً لم يحضر القديس يوحنا ولا العذراء مريم مراسم دفن المسيح] وهنا يتحفنا العلاَّمة أوريجانس(٦) في تأملاته بخصوص قول المسيح «هوذا ابنكِ» فيقول إن **العذراء ليس لها إلا ابن واحد هو المسيح**(٧)؛ فيقول المسيح للعذراء «هوذا ابنُكِ» فكأنه يقول لها عن يوحنا, هذا هو المسيح!!. ثم يعود أوريجانس و يقول: «أليس كلُّ من يحيا بتقوى المسيح يمكنه أن يقول أيضاً لستُ أحيا أنا بل المسيح يحيا فيَّ؟» وهكذا يريد أوريجانس أن يرفع من مرتبة القديس يوحنا كاتب إنجيل المسيح، وكأنه يقول أنه مع شركة بِسِرّ الأم و بروح المسيح كتب يوحنا إنجيل المسيح، وهكذا كلٌّ [من أراد أن يشرح هذا الإنجيل أو يفهمه فعليه أن يتكىء على صدر يسوع وأن يأخذ العذراء شفيعة].

ويوحنا هو التلميذ الذي اتكأ على صدر يسوع وعرف سِرَّ الخائن. فعندما خرج يهوذا في الظلام بعيداً عن قلب المسيح كان يوحنا في النور أقرب ما يكون من القلب المجروح يُطيِّب بالأمانة جُرْح الخيانة.

يوحنا عاين مع التلميذين الآخرين يوم التجلي وسمع الصوت من المجد الأسنى يشهد للابن الحبيب. ولكن العجيب أن يوحنا لم يسجل في إنجيله حادثة التجلي متشبثاً بأنه كان يعيش التجلي كل يوم مع المسيح: «ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً» (يو١: ١٤). ويوحنا أيضاً أحد الثلاثة الذين رافقوا الرب مع باقي التلاميذ في جثسيماني وكانوا على قُرْب. ولكن لم يسمع أحدٌ الصلاة التي صلاَّها وسجلها كلمة كلمة إلا يوحنا!!

ولكن يوحنا كان الوحيد الذي حضر كل محاكمات الرب عن قرب؛ ولا يفوتنا هنا أن ننوِّه أن القديس يوحنا **رافق الرب بشجاعة** نادرة وجرأة وإقدام، فكان وهو في وسط المحاكمات

[5] NPNF, 2nd series, vol. XIV, p. 4, note 9.

[6] Origen, Comm. on John, ANF, vol. X, p. 300.

(٧) شهادة متقدمة من تقليد الكنيسة على أن المسيح لم يكن له أخوة من أمه.

والإتهامات في أمان كل الأمان ونجا. أما بطرس فرافق من بعيد والخوف والرعبة جعلاه يستبقي نفسه مع العبيد والخدم، وخوفه و بُعْده عن الرب أوقعاه في الإنكار والتجديف. وسار القديس يوحنا في موكب الصليب والعذراء تتوسد كتفه حتى الجلجثة، فاستحق أن يفوز بهذه الجوهرة في بيته. وتمَّ رجاء سالومة أمه، فقد وقف عن يمين عرش الصليب في مُلْكِه الغالب! ولكن كم بكى وكم سالت الدموع! وظل يوحنا رابط الجأش يتأمل مليًّا في معلِّمه المصلوب ولكن دون أن تلمحه الأم الحزينة التي وقف يشاركها وقفتها المصلوبة وقد جاز في قلبها السيف تماماً كنبوة سمعان الشيخ (لو٢: ٣٥).

يوحنا كان أول من نظر القبر فارغاً والأكفان وحدها موضوعة، فآمن أنه قام. يوحنا أول من تعرَّف على الرب عندما ظهر بعد القيامة لتلاميذه على بحيرة طبرية (يو٢١: ٧). وهذا ليس بحذق العين الفاحصة بل بالروح الكاشفة.

٤ — «بوانرجس»:

عجيب هذا الإسم الذي أعطاه الرب ليوحنا وأخيه يعقوب: «ابني **الرعد**» (مر٣: ١٧). فالمعروف عن «**الرعد**» أنه التعبير اليهودي عن صوت الله «إله المجد أرعد» (مز٢٩: ٣)، وكأن التسمية تحمل سر التعبير عن صوت أو كلمة الله. والمعروف أن المسيح شبَّه نفسه أيضاً بالبرق «... كما أن البرق الذي يبرق من ناحية تحت السماء يضيء إلى ناحية تحت السماء كذلك يكون أيضاً ابن الإنسان في يومه» (لو١٧: ٢٤). ولا يمكن أن تبرق السماء دون أن ترعد. وهكذا تأتي التسمية بإحكام أن يوحنا ابن الرعد سيشهد للنور والكلمة.

وعجيب أن يشهد يعقوب للمسيح مبكِّراً، فكان بداية الرعد، إذ كان أول من استشهد من الرسل تحت سيف هيرودس «وفي ذلك الوقت مدَّ هيرودس الملك يديه ليسيء إلى أناس من الكنيسة. فقتل يعقوب أخا يوحنا بالسيف» (أع١٢: ١و٢). فطارت روحه ترعد بالشهادة في أنحاء السموات كلها. أما يوحنا فكان آخر دمدمة للعهد الرسولي أرعدت بالشهادة للنور ولا يزال صداها تتجاوبه السموات والأرض بإنجيله الحي حتى يجيء يوم البرق الموعود: «قال له (أي لبطرس الرسول) يسوع: إن كنتُ أشاء أنه (أي يوحنا) يبقى حتى أجيء فماذا لك؟...» (يو٢١: ٢٢). وإن وعد الرب ببقاء يوحنا حتى يجيء أليس يعني استمرار صوت إنجيل يوحنا الذي ما يكفُّ عن أن يرعد معلناً عن النور الحقيقي في العالم كله حتى اليوم وإلى النهاية؟

٥ — رسول المحبة:

هذا اللقب هو صدىً لروح بشارته الملتهبة بالمحبة سواء في إنجيله أو رسائله. اسمعه يقرر: «كلُّ

من يحب فقد وُلد من الله ويعرف الله. ومن لا يحب لم يعرف الله، لأن الله محبة» (١يو٤: ٧و٨). هكذا عاش يوحنا الرسول بهذا المفهوم اللاهوتي للمحبة معتبراً أن محبة المسيح هي الحياة الأبدية كمعادلة عملية لا تقبل النقاش: «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة»، «من لا يحبُّ أخاه يبقَ في الموت»، بل إن «كلَّ من يبغض أخاه فهو قاتل نفس، وأنتم تعلمون أن كل قاتل نفس ليس له حياة أبدية ثابتة فيه» (١يو٣: ١٤و١٥). هكذا المحبة عند القديس يوحنا الرسول تعادل الحياة الأبدية بل وتعادل «النور»: «مَنْ قال إنه في النور وهو يبغض أخاه فهو إلى الآن في الظلمة. من يحب أخاه يثبت في النور وليس فيه عثرة.» (١يو٢: ٩و١٠)

والمحبة عند القديس يوحنا الرسول ليست مسألة فكر أو عاطفة: «يا أولادي لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق. وبهذا نعرف أننا من الحق ونسكِّن قلوبنا قدّامه.» (١يو٣: ١٨و١٩)

أما مصدر المحبة العامل والمتأجج في القلب فمصدره الوحيد محبة الله التي استُعلنت بمجيء المسيح: «بهذا أُظهرت محبة الله فينا أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به» (١يو٤: ٩). وكان عمل محبة الله في حياتنا متركِّزاً ومتأسِّساً في رفع قوة الخطية المميتة عن طبيعتنا: «في هذا هي المحبة ليس أننا نحن أحببنا الله (أولاً) بل أنه هو أحبنا وأرسل ابنه كفَّارة لخطايانا» (١يو٤: ١٠). لهذا أصبحت المحبة تعني رباط الحياة، أو شركة في عدم الموت! «نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً.» (١يو٤: ١٩)

أما أيٌّ من الإثنين أولاً، هل نحب الله أم نحب الإخوة؟ فيرد يوحنا على ذلك هكذا: «ولنا هذه الوصية منه أنَّ مَنْ يحبُّ الله يحب أخاه أيضاً» (١يو٤: ٢١)، ولكن هو نفسه يقول: «من لا يحبُّ أخاه الذي أبصره كيف يقدر أن يحب الله الذي لم يبصرْه» (١يو٤: ٢٠). بمعنى أن النجاح في محبة الإخوة دليل على النجاح في محبة الله. هكذا يضع القديس يوحنا الطريق العملي للمحبة ويكشف سرَّها العجيب أنها دائماً أبداً تبدأ من الله وإلى الله لتفيض على الآخرين.

وإن هذين اللقبين «ابن الرعد» و«رسول المحبة» يظهران بصورة واضحة في حياة القديس يوحنا الرسول، فمرّة نجده في غيرته وحماسته للرب يسأل — بصفته ابن الرعد — أن ناراً تنزل من السماء لتفني أهل السامرة حينما رفضوا أن يعبر الرب في أرضهم وهو متجه إلى أورشليم (لو٩: ٥٣و٥٤). ثم هو نفسه وبغيرته نفسها — بصفته ابن المحبة ورسولها — يذهب بعد ذلك مغلوباً من محبته إلى أهل السامرة أنفسهم ليكرز لهم ويهبهم الشفاء والعماد وإعطاء موهبة الروح القدس «ولما سمع الرسل الذين في أورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله، أرسلوا إليهم بطرس ويوحنا اللذين لما

نـزلا صلّيـا لأجلهـم لكي يقبلوا الروح القدس، لأنه لم يكن قد حلَّ بعد على أحد منهم. غير أنهم كـانـوا مـعـتـمـديـن باسم الرب يسوع. حينئذٍ وضعا الأيادي عليهم فقبلوا الروح القدس.» (أع٨: ١٤—١٧)

كما يـظـهر تبادل انطباع هذين اللقبين في كل مواقف كتاباته، فإن أشدّ وأعنف مواقف المسيح مع أعذب وأرقّ مجاملاته وتعاليمه يجمعها معاً في سهولة ويُسْر. فخبر عرس قانا الجليل بلطفه وبركاته المشبَّعة بروح المجاملة والإيناس استطاع أن يجمعه القديس يوحنا في أصحاح واحد مع خبر تطهير الهيكل تلك العملية العنيفة التي استلزمت استخدام السياط وقلب موائد الصيارفة وتوبيخه الصارم لحفظة الهيكل ورؤسائه.

وحتى سفر الرؤيا المملوء بالرعود والبروق والويلات لا يعدم مواقف للسلام ونشيد الراحة مع صورة مشرقة للسماء الجديدة والأرض الجديدة ونهر الحياة البللوري وأورشليم العروس المزيَّنة لعريسها وانتهاء عهد الحزن والكآبة والتنهد.

٦ — القديس يوحنا الرسول كما يظهر في سفر أعمال الرسل:

أصبح القديس يوحنا معتبراً في الكنيسة الأولى أحد الأعمدة الثلاثة: بطرس ويعقوب ويوحنا. أما عمله في هذه الفترة الأولى من حياة الكنيسة فيكاد يكون بلا مظهر برّاق مع أنه كان من أهم وأخطر الأعمال التي قام بها الرسل المسئولون بالنسبة للكنيسة الخالدة على ممر الدهور وهو التوفيق بين كنيسة الختان (اليهود) وكنيسة الغُرْلة (الأمم) ووضع الأساس اللازم للداخلين إلى الإيمان من الأمم. ويذكر ذلك القديس بولس الرسول: «فإذ علم بالنعمة المعطاة لي يعقوب وصفا **ويوحنا** المعتبرون أنهم أعمدة أعطوني وبرنابا يمين الشركة لنكون نحن للأمم وأما هم فللختان» (غل٢: ٩). وهذه إشارة إلى تبادل أسس الإيمان بين القديسين يوحنا وبولس وبطرس.

ويـقـدِّم سفر الأعمال يوحنا الرسول باعتباره الشخصية الثانية بعد بطرس الرسول في قوة البشارة وإتيان الأشفية والعجائب وقيادة كنيسة المسيحية الأولى. وهكذا أيضاً اعتبره سنهدريم اليهود حينما قبضوا على القديسَيْن بطرس ويوحنا للمحاكمة، ولكنهما أفحماهم بإجابات قاطعة فأطلقوهما. «فدعوهما وأوصوهما أن لا ينطقا البتَّة ولا يُعلِّما باسم يسوع. فأجابهم بطرس ويوحنا وقالا إنْ كان حقاً أمام الله أن نسمع لكم أكثر من الله فاحكموا. لأننا نحن لا يمكننا أن لا نتكلم بما رأينا وسمعنا. وبعد ما هدَّدوهما أيضاً أطلقوهما إذ لم يجدوا البتة كيف يعاقبونهما بسبب الشعب. لأن الجميع كانوا يمجِّدون الله على ما جرى. لأن الإنسان الذي صارت فيه آية الشفاء هذه كان له أكثر من أربعين سنة.» (أع٤: ١٨—٢٢)

وقد تصدر القديس يوحنا مع القديس بطرس أول إرسالية للكنيسة خارج أورشليم: «ولما سمع الرسل الذين في أورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله أرسلوا إليهم بطرس ويوحنا» (أع٨: ١٤). وعاد القديس بطرس مع القديس يوحنا إلى أورشليم مركز كرازتهما: «ثم إنهما بعد ما شهدا وتكلما بكلمة الرب رجعا إلى أورشليم وبَشَّرا قرىً كثيرة للسامريين» (أع٨: ٢٥). ولكن عند هذه الإشارة يتوقف سفر أعمال الرسل عن متابعة رسالة القديس يوحنا. إذ يبدو أنه غادر أورشليم حوالي سنة ٤٩م.[٨] أي بعد مجمع الرسل الأخير الذي حضره جميع الرسل والمشايخ وكل الكنيسة (أع١٥: ٢٢و٣٢؛ غل٢: ٩). إذ لا نسمع عنه عند زيارة القديس بولس الرسول إلى أورشليم في المرة الخامسة والأخيرة التي حدثت سنة ٥٨م.، وربما يكون ذلك بسبب نياحة القديسة العذراء مريم، لأنه معروف في التقليد أنها تنيحت حوالي سنة ٤٨م.، بينما غادر هو أورشليم بعد نياحتها مباشرة[٩]، وربما يكون قد ذهب إلى أنطاكية ومكث هناك مدة قبل استدعائه إلى أفسس[١٠].

٧ ــ القديس يوحنا الرسول في أفسس:

سفر الرؤيا يقدم لنا تأكيداً قاطعاً أن القديس يوحنا الرسول كان على رأس كنيسة أفسس، وكان مسئولاً أمام الله عن جميع كنائس آسيا السبع في ذلك الوقت: «يوحنا إلى السبع الكنائس التي في آسيا»، «وسمعت ورائي صوتاً عظيماً كصوت بوق»، «الذي تراه أَكتُبْ في كتاب وأرسل إلى السبع الكنائس التي في آسيا، إلى أفسس وإلى سميرنا وإلى بِرغامُس وإلى ثياتيرا وإلى ساردِسَ وإلى فيلادلفيا وإلى لاوُدكية.» (رؤ١: ٤و١٠و١١ وراجع رؤ٢و٣).

وقد شهد جميع الآباء القديسين الأوائل بهذه الحقيقة، وبأن القديس يوحنا قضى أيام حياته الأخيرة في أفسس؛ أمثال القديس إيرينيئوس[١١] وهو تلميذ القديس بوليكاربوس الأسقف الشهيد والذي كان تلميذاً للقديس يوحنا الرسول سنين طويلة؛ والعلاَّمة أكليمندس الإسكندري يؤكد أن القديس يوحنا الرسول رُسم أسقفاً على كل نواحي آسيا[١٢]، والعلاّمة أوريجانوس والعلاّمة ترتليانوس والمؤرخ يوسابيوس والقديس چيروم، هؤلاء كلهم شهدوا شهادة قاطعة أن القديس يوحنا الرسول عاش في أفسس حتى زمن حكم تراجان (٩٨ــ١١٧م). فإذا علمنا أن القديس يوحنا يصغر الرب بعشر سنوات فإن سني حياة يوحنا الرسول تكون حوالي ٩٠ سنة. ولكن القديس يوحنا ذهبي الفم يؤكد ــ من جهة أخرى ــ أنه عاش ١٢٠ سنة.

---

8 Daniélou, Jean, Christian Centuries, translated from French "Nouvelle Histoire de l'Eglise", New York, 1964, p. 41.

9 Ph. Schaff, History of the Christian Church, 1, p. 424.

10 Temple, William, Readings in St. John's Gospel, London 1952.

11 Adv. Haer. III, 1,1; 3,4; II, 22,5; Epiph. Haer. XXX, 24.

12 Daniélou, Jean, op. cit., 1, p. 41.

ولكن لم يتعرف المؤرخون المدققون على السنة التي دُعي فيها القديس يوحنا إلى أفسس ولكنهم استقروا جميعاً على أنها ليست قبل سنة ٦٣م. لأنه حتى هذا التاريخ كان القديس بولس الرسول لا يزال حيًّا وعلى صلة بأفسس، ولم يَذكُر في أيٍّ من رسائله ما يدلُّ على أن القديس يوحنا قد وصل إلى هناك.

ويُظَن أن استشهاد القديسين بطرس و بولس هو الذي دفع القديس يوحنا لتبني كنائس آسيا المترمِّلة، بحسب ترتيب الله ودعوته لإنقاذ هذا البناء الروحي الضخم الذي شيَّده القديس بولس الرسول بالجهد والدموع والآلام التي لا حصر لها قرابة ٣٠ سنة، والذي كان هدفاً لهجمات شريرة مفسدة من اليهود الدخلاء والوثنيين المتربِّصين للإنتقام لآلهتهم المدحورة.

وأفسس كانت في ذلك الوقت عاصمة آسيا الصغرى ومركزاً للثقافة اليونانية وللتجارة والدين أيضاً، فكان بها أكبر جالية يهودية مستوطنة منذ أن تفرقوا بعد السبي من بلاد ما بين النهرين. وقد وصف القديس يوحنا مجمعهم بمجمع الشيطان (رؤ٢: ٩). كما كان بها هيكل أرطاميس المشهور مركز عبادة «**ديانا**». وكانت أفسس ذائعة الصيت بسبب اشتغال شعرائها بأغاني هوميروس وفلسفة طاليس وأناكسيمينوس وأناكسيماندر.

وقد ظل القديس بولس يخدم فيها ثلاث سنوات متتالية من سنة ٥٤ إلى سنة ٥٧م. حتى أسس فيها كنيسة مركزية ظلت مصدراً للإشعاع في كل ظلمات آسيا الوثنية قروناً عديدة وهي التي كانت تباشر رعاية الكنائس الفرعية في البلاد الأخرى المتاخمة.

وفي ذلك يقول الوثنيون أنفسهم كما سجل عليهم ذلك سفر الأعمال: «...إنه ليس من أفسس فقط بل من جميع آسيا تقريباً استمال وأزاغ بولس هذا جمعاً كثيراً قائلاً: إن التي تُصنع بالأيادي ليست آلهة، فليس نصيبنا هذا وحده في خطر من أن يحصُلَ في إهانة بل أيضاً هيكل أرطاميس الإلهة العظيمة أن يُحسب لا شيء وأنْ سوف تُهدم عظمتها هي التي يعبدها جميع آسيا والمسكونة.» (أع١٩: ٢٦—٢٧)

وهكذا مهّد القديس بولس الرسول آسيا الصغرى كلها لتكون إيبارشية صالحة تقبل خدمة القديس يوحنا الهادئة العميقة، وذلك بأن مهّد الفكر الفلسفي لتقبُّل حقائق لاهوت المسيح — كما جاء في إنجيل يوحنا — مع المبادىء الروحية العميقة التي كان يستحيل أن تجد في ربوع فلسطين التربة التي تخصب فيها وتنمو. لذلك أصبحت أفسس بالنسبة لخدمة القديس يوحنا أعظم مركز يمكن أن يُطلَّ منه على كل العالم المسيحي لا من جهة جغرافيتها المكانية الملائمة فقط بل وأيضاً من

جهة تزعُّمها لكل التيارات العنيفة المعادية للمسيحية سواء كانت يهودية أو وثنية بآن واحد، إذ كانت أفسس أمَّ البدع التي لا حصر لها ومهبط كل التعاليم الفاسدة.

لذلك كان تقلُّد القديس يوحنا لهذه الأسقفية عملاً إلهياً محكاً. وهذا يبدو بصورة أوضح لو علمنا أن هذا قد تم قبيل خراب أورشليم وسقوطها بسنوات قليلة. وهكذا انتقلت القيادة الرسولية انتقالاً هادئاً طبيعياً من أورشليم — موطن اليهودية الذي كان يضغط بشدة على المسيحية المتفتحة حديثاً — إلى أفسس حيث البيئة المتفتحة الخصبة المهيَّأة لنمو حقائق الروح المسيحية العميقة. وظلت أفسس تنبض بالروح الرسولية الحرَّة بأنفاس يوحنا إنما بتحفُّظ شديد حتى نهاية القرن الأول أو أكثر قليلاً. ومن بعد القديس يوحنا استلم هذه الروح تلميذه القديس پوليكارپوس الذي كان أسقفاً على سميرنا (١١٠—١٥٥م.)، ثم القديس إيرينيئوس الذي استمد دفاعه عن الإيمان من روح يوحنا وإنجيله قبل أن ينتقل إلى أسقفية ليون بفرنسا.

وإنجيل يوحنا ورسائله يعتبران المصدر الوحيد للتعرف على حالة المسيحية والكنيسة على مدى أربعين سنة تقريباً أي منذ استشهاد القديس بولس الرسول حتى ختام القرن الأول(١٣)، والتي لولاها لظلت هذه الحقبة مظلمة في صفحات التاريخ الكنسي.

٨ — ترتيبات طقسية يقوم بها القديس يوحنا الرسول في كنيسة أفسس:

إن الكنائس التي أنشأها القديس بولس الرسول في أفسس لم تحتفظ من جميع الإحتفالات الكنسية الطقسية إلا بطقس خدمة السواعي، وطقس شركة كسر الخبز أي سر الإفخارستيا والصلاة كل يوم أحد من كل أسبوع(١٤)، والعماد طبعاً. ثم يسجِّل لنا المؤرخ الكنسي يوسابيوس نقلاً عن القديس بوليكراتس أسقف أفسس في نهاية القرن الثاني أنه بمجيء القديس يوحنا الرسول تثبَّت الإحتفال السنوي بطقس عيد الفصح، أي القيامة، إنما بالمعنى المسيحي الكامل. وقد حدد له الرسول اليوم الرابع عشر من نيسان كما هو تماماً في الطقس اليهودي(١٥) — وذلك بخلاف جميع كنائس العالم آنئذ وبعدئذ التي رفضت أن يكون عيدها الفصحي مع اليهود(١٦) — ولكن ليس بالمعنى ولا بالممارسة اليهودية، فالقديس يوحنا الرسول لم يكن يرى في طقوس اليهود وأعيادهم أي

13 Iren., Adv. Haer. II.22.5.

14 Neander, Aug., General History of the Christian Religion and Church, Transl. by J. Torrey, Vol. I, Edinburgh 1874, p. 388.

15 Hist. Eccl., III.31; V.24.

(١٦) وقد صارت أسقفيات الكنائس في العالم تعيِّد للفصح في الأحد الأول بعد ١٤ نيسان.

معنى مسيحي. ولكن كان العامل الأول لتحديد هذا اليوم بالذات هو الذكرى المقدسة لليوم الذي تألم فيه الرب وذُبح وصار فصحاً أبدياً. فهذا وحده هو الذي كان يملأ كل قلبه وإحساسه.

كذلك يقول القديس بوليكراتُس إن القديس يوحنا الرسول عيَّد للعنصرة الذي هو عيد الخمسين على أن يكون في اليوم الخمسين تذكارٌ أبديٌ لحلول الروح القدس على الكنيسة(١٧). علماً بأن إنجيل يوحنا هو الإنجيل الذي اهتم اهتماماً بالغاً بموضوع إرسال الروح القدس وإعطائه اسمه «الباراكليت» وصفاته وأعماله أي وظائفه في الكنيسة. وقد أسهب الإنجيل في موضوع شهادته للمسيح وتمجيده بصورة كبيرة. وطبعاً كان القديس يوحنا يكتب بعد حلول الروح القدس وعمله واستعلان قوته على مدى أكثر من خمسين سنة، فجاء الوصف مطابقاً للواقع وخصوصاً لدى القديس يوحنا الذي كان ممتلئاً وفائضاً من نعمته.

كما يصف المؤرخ الكنسي يوسابيوس نقلاً عن بوليكراتُس أسقف أفسس(١٨) أن القديس يوحنا الرسول كان كاهناً (إبريزفيتروس πρεσβύτερος)، وكان يحتفظ بملابس للخدمة الكنسية وكان يلبس الصدرة المقدسة على طقس نظام خدمة رؤساء الكهنة في العهد القديم(١٩). وهذا يرجحه ما جاء في سفر الرؤيا أصحاح ٢: ١٧.

ومن عدة ملابسات يمكننا أن نتأكد من صحة تقرير القديس بوليكراتُس من جهة كهنوت القديس يوحنا. فنحن نعرف أن أمه اسمها سالومة(٢٠) وهي أخت القديسة مريم العذراء(٢١)، كما نعلم أن العذراء القديسة مريم هي نسيبة أليصابات (لو١: ٣٦)، وأن زوج أليصابات هو الكاهن زكريا (لو١: ٥)، أي أن هناك صلات قوية للقديس يوحنا بالكهنوت والهيكل. ومن هنا جاءت معرفة القديس يوحنا برؤساء الكهنة وحضوره في دار رئيس الكهنة محاكمة المسيح دون التلاميذ جميعاً (يو١٨: ١٥)، كما يتضح لنا سبب وصية المسيح على الصليب للقديس يوحنا أن يعتني بالعذراء أمه كأُم له (يو١٩: ٢٥—٢٧) فهي خالته.

كذلك نفهم سرَّ تركيز القديس يوحنا على خدمة المسيح في اليهودية وأورشليم دون بقية الأناجيل لأن العائلة كلها سواء العذراء أو يوحنا هما من اليهودية — بيت لحم(٢٢).

---

17 Neander, op. cit., p. 391.

18 Eccl. Hist., III,31; V,24.

19 Ibid., V, 24,3.

(٢٠) أنظر صفحة ٢٨.

(٢١) أنظر صفحة ٢٨.

22 Raymond E. Brown, The Gospel acc. to John, p. xcviii.

كما نفهم سِرَّ انفراد القديس يوحنا بذكر المعجزات التي تمت في اليهودية وأورشليم، إذ أنه كان مرافقاً دائماً للمسيح هناك.

كما نفهم سِرَّ التقليد القديم في إنجيل يوحنا، أي الأقدم من المسجَّل في الثلاثة الأناجيل، لأن القديس يوحنا التحق بتلمذة المسيح مبكراً جداً أثناء وجود المسيح في اليهودية مع يوحنا المعمدان، ولأن القديس يوحنا انتقل من التلمذة ليوحنا المعمدان إلى التلمذة للمسيح (يو١: ٣٥—٣٩)، حيث كان المسيح يسكن في اليهودية: «فأتيا ونظرا أين كان يمكث.» (يو١: ٣٩)

كما نفهم أيضاً سِرَّ تركيز القديس يوحنا على ذكر شهادة المعمدان بدقة وإسهاب دون الثلاثة الأناجيل لأن القديس يوحنا كان تلميذاً للمعمدان ورأى وسمع كلَّ ما قاله المعمدان عن المسيح.

كما نفهم سِرَّ المركز العالي الذي كان يحتله القديس يوحنا مع أخيه القديس يعقوب بصفتهما من عائلة كهنوتية ومع القديس بطرس الرسول في الكنيسة الأولى في أورشليم، دون بقية الرسل، كأعمدة للكنيسة؛ إذ يقول القديس بولس الرسول عندما ذهب إلى أورشليم ليعرض خدمته على الكهنة وليأخذ منهم سلطان الخدمة هكذا: «ثم بعد أربع عشرة سنة صعدتُ أيضاً إلى أورشليم مع برنابا آخذاً معي تيطس أيضاً... وعرضتُ عليهم الإنجيل الذي أكرز به بين الأمم، ولكن بالإنفراد على المعتَبَرين... (فهؤلاء) المعتبَرون... يعقوب وصفا ويوحنا المعتَبَرون أنهم أعمدة أعطوني وبرنابا يمين الشركة...» (غل٢: ١—١٠)

كما نفهم سِرَّ تسجيل القديس يوحنا لتقرير مجمع السنهدريم ونبوة رئيس الكهنة قيافا كلمة كلمة (يو١١: ٤٧—٥٠) باعتباره واحداً من عائلة زمرة الكهنوت.

ويعود القديس إبيفانيوس أسقف قبرص ويردد لنا حقيقة استخدام القديس يوحنا للملابس الكهنوتية نقلاً عن القديس هيجسبوس. و يتفق المؤرخون الكنسيُّون دين ستانلي(٢٣) ولايتفوت(٢٤) وفيليب شاف(٢٥) أن هذه الإشارة تُعتبر أقدم وثيقة عن قدسية الملابس الكهنوتية المستخدمة في الكنيسة الآن.

٩ — رعاية القديس يوحنا لأسقفيته:

ينقل لنا العلاّمة اكليمندس الإسكندري (نهاية القرن الثاني)(٢٦) صورة مبدعة للقديس يوحنا

[23] Stanely, A.P., Sermons and Essays on the Apostolical Age, 1847, p. 285.

[24] Lightfoot, J.B., The Epistle of St. Paul to the Galatians, Zondervan, 1962, p. 362.

[25] Schaff, Philip, op. cit., p. 431.

[26] Clement of Alex., What Rich Man, 42; Cited by: Eusebius, Hist. Eccl. III, 23.

الرسول كأسقف حارٍّ بالروح وخادم خلاص أمين على نفوس رعيته، فيقص لنا كيف أنه حتى بعد أن صار متقدماً في السن كان يطوف بالكنائس يزور رعيته و يفتقدهم ويسأل عن التائبين الذين تابوا على يديه. ويقصُّ ضمناً قصة الشاب الذي ضلَّ بعد توبته، وكان قد سلَّمه لكاهن المدينة لرعايته، فصار لصّاً خطراً. فلما علم بذلك لم يرحم شيخوخته بل ذهب يبحث عنه في الجبال حتى وجده. فلما حاول الهرب منه جرى وراءه حتى لحق به وأعاده إلى حظيرة الإيمان مرة أخرى. هكذا كان القديس يوحنا الرسول نموذجاً لخدمة الأسقف.

وينقل لنا كلٌّ من القديس إبيفانيوس(٢٧) والقديس إيرينيئوس(٢٨)، وذلك على لسان القديس پوليكارپوس أسقف أزمير الشهيد، قصة واحدة عن أن القديس يوحنا تقابل مرة مع أحد الهراطقة، وهو كيرنثوس الذي كان ينكر التجسد ولاهوت المسيح، تقابل معه في حمام عمومي وتحت سقف واحد، فرفض أن يبقى معه في الحمام لئلا يسقط السقف بسبب غضب الله. وبالفعل فإنه بعد خروج القديس يوحنا سقط السقف على مَنْ فيه. وهذا السلوك الذي اتَّبعه القديس يوحنا مع كيرنثوس يتوافق مع دعوته في رسالته: «إن كان أحد يأتيكم ولا يجيء بهذا التعليم فلا تقبلوه في البيت ولا تقولوا له سلامٌ. لأن من يسلِّم عليه يشترك في أعماله الشريرة» (٢يو١٠و١١). وهذا بدوره يتفق مع الآية: «إن المعاشرات الردية تفسد الأخلاق الجيدة.» (١كو١٥: ٣٣)

كما ينقل لنا يوسابيوس القيصري على لسان أبولونيوس الكاتب الكنسي الذي يُظن أنه كان أسقفاً على أفسس، خبر معجزة أجراها القديس يوحنا الرسول إذ أقام ميتاً بمعونة القوة الإلهية في مدينة أفسس(٢٩).

وهناك تواتر في التقليد الكنسي المبكِّر قد وصل إلينا عن طريق العلاّمة ترتوليانوس يفيد بأن القديس يوحنا قد أُلقي في غلاية بها زيت مسخن إلى درجة الغليان ولكنه نجا منها بمعجزة(٣٠).

كما ينقل لنا القديس چيروم(٣١) صورة عن القديس يوحنا الرسول وهو يمارس خدمة المحبة حتى آخر لحظة من حياته وكان قد بلغ الشيخوخة. فكان يحمله تلاميذه على أذرعتهم ذاهبين به إلى الكنيسة ليقول عظته القصيرة التي كان يكررها بلا ملل: «يا أولادي الصغار أحبُّوا بعضكم بعضاً. هذه وصية الرب. وإذا عملتم بها وحدها فهذا يكفيكم».

---

27 Adv. Haer. XXX,24.

28 Adv. Haer. III,3,4.

29 Euseb. Hist. Eccl. V, 18,4.

30 Tertullian, Praescrip. Haer. 36.

31 Comm. ep. ad. Galat. VI:10.

كما يعطينا الراهب كاسيان([32]) (حوالي ٣٦٠–٤٣٥م.) صورة وديعة عن القديس يوحنا الرسول تكشف لنا عن نموذج حياته البسيطة واتساع إدراكه لمتطلبات النفس البشرية، فيقصُّ علينا كيف مرَّ بالقديس يوحنا يوماً من الأيام صيّادٌ يصطاد بسهم وقوس، فوجد القديس يوحنا يلاعب طائراً صغيراً فاندهش، فابتدره القديس قائلاً: «لماذا يدهشك أسلوبي البسيط في الترويح عن النفس والعقل الذي بدونه تتأذى الروح من الضغط والإرهاق؟ هل يمكنك أن توتِّر قوسك وتتركه هكذا دون أن ترخيه؟» فأجابه الصياد: «إنه يتلف». فقال له القديس يوحنا: «وهكذا ذهن الإنسان أيضاً».

ومن رسائل القديس يوحنا الرسول ندرك مدى قرب هذا الرسول المحبوب من شعبه بصورة فريدة لم نلحظها قط في رسول قبله بترديده: «أكتب إليكم أيها الأولاد» ... «أكتب إليكم أيها الآباء» ... «أكتب إليكم أيها الأحداث» (١يو٢: ١٣و١٤) ... «أيها **الأولاد** هي الساعة الأخيرة... والآن أيها **الأولاد** اثبتوا فيه» (١يو٢: ١٨و٢٨)، وكأنه بذلك يعكس روح المودة التي لمسها في الرب يسوع في تعامله مع التلاميذ في أيامه الأخيرة: «**يا أولادي** أنا معكم زماناً قليلاً بعد.» (يو١٣: ٣٣)

١٠ – القديس يوحنا في جزيرة بطمس:

مؤثرٌ للغاية مطلع رسالته الرؤيوية هكذا: «أنا يوحنا، **أخوكم وشريككم في الضيقة** وفي ملكوت يسوع المسيح **وصبره**، كنتُ في الجزيرة التي تُدعى بَطْمُس **من أجل كلمة الله** ومن أجل **شهادة يسوع المسيح**.» (رؤ١: ٩)

وتقع جزيرة بطمس في بحر إيجة في الإتجاه الجنوبي الغربي من أفسس. وهي جزيرة صخرية قاحلة ما تزال قائمة حتى الآن تحمل الشهادة لصدق الإنجيل والرائي. وكلُّ مَنْ فيها وما فيها يشهد للقديس يوحنا حتى جبالها وصخورها والمغارة العميقة في سفح أحد الجبال الشمالية المنفردة حيث رأى القديس يوحنا رؤياه، وحيث قامت هناك الآن مئات الكنائس وبيوت كثيرة سكانها عُشّاق لسيرة القديس يوحنا الرسول. وقد سمعت من أحد السائحين أن كل بيت يحتفظ بمبخرة يملأونها بخوراً كل صباح ويفتحون النوافذ المطلّة على المغارة ويبخرون بخوراً مع صلوات عطرة تشفُّعاً بصلوات صاحب الرؤيا والإنجيل.

أما الزمان الذي نُفي فيه القديس يوحنا إلى هذه الجزيرة فغير محقَّق تاريخه، ولكن معظم

[32] John Cassian, Conference XXIV,21.

المؤرخين يؤكدون أنه كان حوالي سنة ٩٥ ميلادية، ومنهم چيروم ويوسابيوس و بالأكثر إيرينيئوس (١٣٠–٢٠٠م.) الذي يقول بأن نفي القديس يوحنا كان في أواخر حكم الإمبراطور دوميتيان (تولى الحكم من ٨١–٩٦م). ولكن العالم «وستكُوت» وهو مؤرخ وعالم لاهوتي يرى أن مضمون سفر الرؤيا يفيد أن النفي كان قبل خراب أورشليم أي قبل سنة ٧٠م. والمعتقد أنه بمجرد موت دوميتيان (سنة ٩٦) عاد القديس يوحنا إلى أفسس وكتب بعد ذلك إنجيله.

١١ – تلاميذ القديس يوحنا الإنجيلي:

يعرِّفنا التقليد الكنسي المبكِّر أن تلاميذ القديس يوحنا الرسول ثلاثة هم: القديس إغناطيوس والقديس پوليكارپوس والقديس پاپياس(٣٣).

أ – القديس إغناطيوس: وقد سُجِّل في رواية استشهاده أنه «تلميذ يوحنا الرسول ورجل له كل الصفات الرسولية». وينص التقليد الكنسي أنه هو الولد الصغير الذي قرَّبه إليه الرب (وربما حمله على ذراعه) في وسط التلاميذ كرمز للتواضع، ولهذا سُمِّي حامل الإله «ثيئوفوروس» θεόφορος . وقد صار أسقفاً للكنيسة السريانية بأنطاكية. وتقبَّل الإستشهاد على يدي تراچان الإمبراطور، في روما حيث أُلقي للأسود.

ب – القديس پوليكارپوس: يقول عنه القديس إيرينيئوس إنه تعلَّم على يد الرسل وكان رفيقاً لكل من رأوا المسيح. وكان بحسب قول القديس إيرينيئوس هو أسقف أزمير (سميرنا). ولما أُمر قبل استشهاده أن يحلف باسم الإمبراطور ويجحد المسيح قال قولته المشهورة: «ستة وثمانين عاماً خدمت المسيح ولم يسيء إليَّ قط، فكيف أجحد ملكي ومخلِّصي؟» وفي وسط لهيب النار التي أُلقي فيها سبَّح الله قائلاً: «أشكرك لأنك حسبتني أهلاً أن أكون شريكاً في عداد شهدائك الذين شربوا من كأس مسيحك لقيامة الحياة الأبدية للنفس والجسد في عدم الفساد بروحك القدوس.» (٣٤)

ج – القديس پاپياس: وهو أسقف كنيسة هيرابوليس بفريجية مكان ميلاد القديس إبيكتاتيس. ويقول عنه القديس إيرينيئوس(٣٥) إنه من الأقدمين الذين استمعوا لتعاليم القديس يوحنا الإنجيلي، وهو رفيق لپوليكارپوس واستمع لكل من استمع للمسيح مباشرة. وقد جمع خمسة

---

[33] Exell, Rev. Joseph S., op. cit., p. viii.

(٣٤) رسالة أهل سميرنا عن استشهاد پوليكارپوس – فصل ١٤.

[35] Adv. Haer. V,33,4.

كتب من أقوال الرسل والذين رافقوا المسيح ولم يتبقَّ منها إلا قصاصات. كما أنه هو الذي قال إن القديس مرقس الرسول كتب إنجيله عن إملاء من فم القديس بطرس. وهو الذي بلَّغنا أن القديس متى الإنجيلي كتب إنجيله باللغة العبرية. وقد استشهد في نفس الوقت مع القديس بوليكاربوس(٣٦).

١٢ – «يبق إلى أن أجيء»:

قول المسيح هذا الذي خاطب به بطرس الرسول: «فلما رأى بطرس هذا (يوحنا) قال ليسوع: يا رب. وهذا (يوحنا) ما له (أو ما الذي سيصيبه)؟ قال له يسوع: إن كنتُ أشاء أنه يبق حتى أجيء فماذا لك؟ اتبعني أنت! فذاع هذا القول بين الإخوة إن ذلك التلميذ لا يموت...» (يو٢١: ٢١–٢٣)؛ على هذه الرواية تألفت مئات القصص وقد قرأت منها الكثير الذي يحكي أن يوحنا لا يزال يعيش. ولكن أطرف ما قرأت هو هذه الرواية، وقد وردت في أخبار أيام «يوحنا برومتون» كما يقصها كتاب:

The Biblical Illustrator, Saint John, by Rev. Joseph S. Exell, p. IX.

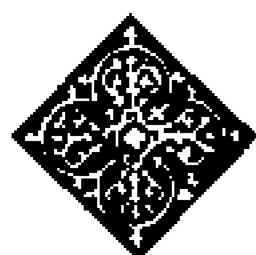
[حدث في أيام ملك إنجلترا المشهور القديس إدوارد الثامن المعترف (١٠٠٣– ١٠٦٦م.)(٣٧) وهو قديس قنّنته الكنيسة الإنجليزية سنة ١١٦١م. وتعيِّد له في ١٣ أكتوبر من كل سنة، أن كان يسير بعد خروجه من الكنيسة عقب الإحتفال بعيد القديس يوحنا الإنجيلي. وكان هذا الملك التقي يوقِّر القديس يوحنا بعد الرب يسوع والعذراء مريم، وكان ذلك في دير وستمينستر. وإذا بشحاذ يعترضه وطلب منه حسنة على اسم المسيح ومحبة في القديس يوحنا الإنجيلي. وكان الملك بطبعه كثير العطف على الفقراء. في الحال خلع خاتمه الملكي من أصبعه وأعطاه له دون أن يراه أحد. وبعد أن حكم الملك إدوارد أربعاً وعشرين سنة حدث أن إنجليزيّيْن كانا يحجّان في أورشليم في الأرض المقدسة. ولما همّا بالرجوع إلى وطنهما إنجلترا قابلهما سائح. وكعادة السوّاح استفسر منهما عن وطنهما، فقالا له إنهما من إنجلترا، فقال لهما: «عندما تعودان إلى بلدكما اذهبا إلى الملك إدوارد وبلّغاه السلام باسمي واشكراه على الحسنة التي أعطاني إياها في الشارع الفلاني في وستمينستر، لأنه حدث في يوم أني طلبت منه حسنة فأعطاني خاتمه هذا (يبدو أن اسم الملك كان منقوشاً على الخاتم). وقد احتفظت به حتى اليوم، والآن احملاه إليه وقولا له إنه بعد ستة أشهر من اليوم سوف يغادر

---

36 Exell, Joseph, loc. cit.

(٣٧) ورد اسم هذا الملك القديس وتاريخ حياته الحافل بأعمال القداسة وتلقيبه بالمعترف وتقنينه قديساً للكنيسة الإنجليزية في قاموس: Oxford Dict. of Chr. Church, Cross, p. 439.

العالم و ينضم إليّ ليكون معي إلى الأبد». فاندهش السائحان وقالا له: «ومَنْ أنت؟ وأين تسكن؟»، فأجابهما قائلاً: «أنا يوحنا الإنجيلي، وإدوارد ملككم هو صديقي، ولأجل قداسة حياته أعتبره عزيزاً عندي، فاذهبا و بلّغاه هذه الرسالة وأعطياه الخاتم على أني سأصلّي لله من أجله». واستلم الملك الرسالة والخاتم بابتهاج وأكرم السائحين الإنجليزيّين وعمل لهما وليمة ملكية. وابتدأ يعدُّ نفسه للرحيل. وفي عشية عيد ميلاد سنة ١٠٦٦م. مرض، وفي عشية عيد الظهور الإلهي أي «الغطاس» لنفس السنة توفي. أما الخاتم فسلّمه لرئيس رهبان دير وستمينستر ليحفظه كأثر هناك.]



الفصل الثاني

ظروف وملابسات كتابة إنجيل يوحنا وزمانها

١ ــ شهادات من التقليد الكنسي المبكر:

بحسب التقليد الذي استلمته الكنيسة الأولى وفي أول عصورها، فإن القديس يوحنا الرسول ابن زبدي أخا يعقوب الكبير هو الذي كتب الإنجيل الرابع في سنّ شيخوخته الأخيرة وذلك في مدينة أفسس بآسيا الصغرى وذلك في نهاية القرن الأول.

وسنقدّم فيما يلي أقدم الشهادات التي وصلت إلينا من التقليد الكنسي المبكّر عن نسبة هذا الإنجيل للقديس يوحنا الرسول:

أ ــ معروف أن علم اللاهوت الكنسي المهتم بفحص قضايا الإنجيل واللاهوت عامة يبتدىء بالقديس إيرينيئوس أسقف ليون الذي عاش وتربى في سني حياته الأولى في آسيا الصغرى وتربى تحت يدي القديس بوليكاربوس أسقف سميرنا (أزمير الآن). فهو مواطن أزميري. عاش ما بين عام ١٣٠ إلى ٢٠٠ م. ويُعتبر وَصْلة هامة بين الشرق والغرب. وأهم مخلَّفاته كتابه المعروف بـ« ضد الهرطقات» والذي فيه استخدم إنجيل يوحنا في دفاعه ضد الغنوسية والتي كان أهم زعمائها «فالنتينوس»، وضد المونتانيين، وقد كتبه سنة ١٨٠م. وهو الذي سجل أن الإنجيل الرابع هو من عمل القديس يوحنا الرسول حيث قال: (ويسجل المؤرخ يوسابيوس القيصري هذه الشهادات في كتابه «التاريخ الكنسي» ــ ٣ : ٢٣ : ٣):

[... وإن جميع الشيوخ Elders الذين رافقوا **يوحنا** تلميذ الرب في آسيا يحملون الشهادة أن **يوحنا** سلّمه (أي سلّم الإنجيل) إليهم. لأنه بقي معهم حتى حكم تراجان.](١)

---

[1] Adv. Haer. II, 22; 5.

[عندما كنت صبياً رأيتك في آسيا الصغرى مع بوليكاربوس تتمشى في خيلاء في الدهاليز الملكية محاولاً أن تلق الإستحسان. إني أذكر حوادث تلك الأيام بأكثر وضوح من حوادث هذه الأيام. لأن ما يحصِّله النشء فإنه ينمو مع عقولهم ولا يفارقها. حتى إني أستطيع أن أصف نفس المكان الذي كان يجلس فيه المغبوط بوليكاربوس عندما كان يتحدث، كما أذكر دخوله وخروجه وهيأته وشكله وحديثه للناس **وتصريحه عن علاقته مع يوحنا** ومع الآخرين الذين رأوا الرب. وكان يتذكر كلامهم وكل ما سمعه منهم عن الرب فيما يخص معجزاته وتعاليمه، باعتبارهم شهوداً لـ «كلمة الحياة». وكان يقصُّ هذه الأشياء التي كانت متفقة مع الأسفار. هذه الأشياء التي قيلت لي برحمة الله، كنتُ أستمع إليها بانتباه وكنت أحفظها ليس بورق وقلم ولكن في قلبي. وكنت أرددها باستمرار بنعمة من الله، وأستعيدها بأمانة].

هـ — وتوجد أيضاً شهادة أخرى للقديس إيرينيئوس يسجلها له المؤرخ يوسابيوس(٥):

[وبعد ذلك (أي بعد كتابة الأناجيل الثلاثة) فإن **يوحنا تلميذ الرب** الذي اتكأ أيضاً على صدره أخرج ἐξέδωκε إنجيله بينما كان في أفسس].

وهذه الشهادة غاية في البساطة والكفاية.

وتعتبر شهادة القديس إيرينيئوس هذه ذات وزن عالٍ، لأنه وكما يخبرنا هو بنفسه أنه وهو شاب كان يستمع إلى القديس بوليكاربوس أسقف سميرنا (أزمير الآن) الذي استُشهد سنة ١٥٥م. ومعلوم أن القديس بوليكاربوس أدرك القديس **يوحنا** وعاش في أيامه(٦).

و — وثمة مصدر آخر يسجل أن القديس يوحنا عاش ومات في أفسس يجيء لنا من بوليكراتُس أسقف أفسس كاتباً ذلك سنة ١٩٠م. للبابا فكتور بابا روما الذي خدم أسقفية روما ما بين عام ١٨٧—١٩٩م ذاكراً له:

[إن من بين النجوم الراقدة في أفسس **يوحنا** الذي اتكأ على صدر الرب الذي **كان كاهناً** والذي كان يلبس حزام الصدر الكهنوتي (الصَدْرة)، والذي كان شاهداً (للرب) ومعلِّماً. هذا أيضاً رقد في أفسس.](٧)

---

5 Ibid., V, 8, 4.

6 Ibid., V, 20, 6.

7 Ibid., III, 31, 3; V, 24, 2f.

ب – وفي نفس الكتاب يؤكد ذلك مرة أخرى بقوله:

[ولكن الكنيسة في أفسس أيضاً التي أسسها بولس والتي بقي فيها **يوحنا** حتى زمان تراجان هي شاهد أمين للتقليد الرسولي.](٢)

ج – هذا الكلام عينه الذي للقديس إيرينيئوس يعود المؤرخ يوسابيوس ويوضحه في كتابه «التاريخ الكنسي»(٣) وذلك بلسان القديس إيرينيئوس نفسه هكذا:

[ولكن پوليكارپوس ليس فقط تعلم على أيدي الرسل وتعرَّف على كثيرين من الذين عاينوا المسيح؛ بل أيضاً قد عيَّنه الرسل في آسيا (الصغرى) على كنيسة سميرنا (أزمير الآن). ونحن أيضاً رأيناه في شبابنا المبكِّر لأنه عاش زمناً طويلاً وتوفي شيخاً متقدماً جداً في العمر، وقد مات ميتة شهيد، جليلة ومجيدة. وكان يعلِّم دائماً الأمور التي تعلَّمها من الرسل والتي كانت الكنيسة قد استلمتها أيضاً والتي هي الحق وحدها. وكنائس آسيا كلها تشهد بهذه الأمور. وكذلك يشهد بهذا حتى اليوم كل الذين جاءوا تباعاً بعد پوليكارپوس الذي كان أميناً ومؤتمناً ومستحقاً بتفوق كبير عن المدعو ڤالنتينوس ومارسيون (هرطوقيان) وبقية الهراطقة. وكان پوليكارپوس أيضاً في روما على عهد أُنيسينتوس Anicentus، وقد ردَّ هناك كثيرين من الذين وقعوا تحت تأثير هؤلاء الهراطقة وعادوا إلى كنيسة الله. وكان يعلن أنه قد استلم من الرسل هذا المنهج الوحيد للحق الذي كان قد سُلِّم إلى الكنيسة. كما أنه يوجد (عندنا) مَنْ سمع منه أن **يوحنا تلميذ الرب** عندما كان ذاهباً إلى الحمام في أفسس ورأى كيرنثوس في الداخل، خرج مسرعاً من الحمام دون أن يستحم زاعقاً: «نخرج ونهرب لئلا يقع سقف الحمام لأن كيرنثوس عدو الحق فيه». وحدث مرة أن قابل مارسيون پوليكارپ فابتدره قائلاً: «ألا تعرفني مَنْ أنا؟» فأجابه پوليكارپوس. «نعم! أعلم: الإبن البكر للشيطان»].

د – كذلك احتفظ لنا التاريخ بصورة واضحة للعلاقة بين القديس إيرينيئوس والقديس پوليكارپوس في خطاب أرسله القديس إيرينيئوس إلى «فلورينوس» نقله لنا يوسابيوس المؤرخ الكنسي(٤)، يصحح له جنوحه عن الأرثوذكسية لأن تعاليمه الغنوستية لم تكن هي التعاليم التي استلمها من معلميه الأرثوذكس الأوائل. فيقول له القديس إيرينيئوس:

---

2 Adv. Haer. III, 3,4; all cited by Barrett, Acc. to John, p. 83.

3 Hist. Eccl. IV, 14, 3-8.

4 Ibid., V, 20, 4-8.

وقد دلّت الحفريات الحديثة في سلقوك Selcuk وهي تلّة بجوار أفسس وتحت كنيسة البازيليكا التي كانت قد أُقيمت تكريماً للقديس يوحنا الإنجيلي، على وجود قبر فخم البناء يعود زمنه إلى القرن الثالث الميلادي. وقد فحص العالم براون Brown في شرحه لإنجيل يوحنا (الجزء الأول صفحة ٣٧٤) هذه الأبحاث وقال إن هذا الأثر يؤكد شهادة پوليكراتُس عن قبر القديس يوحنا الرسول.

ز — كذلك تأتينا الشهادة أيضاً من الإسكندرية من العلاّمة اكليمندس الإسكندري (١٥٠—٢١٥م)، وهو تلميذ بنتينوس رئيس مدرسة الإسكندرية اللاهوتية وقد خلفه عليها عام ١٩٠م.، فيقول:

[إنه بعد موت الطاغية (يقصد الإمبراطور دوميتيان) رجع **يوحنا** إلى أفسس من جزيرة بطمس.](٨)

ح — كذلك يسجل لنا في كتابه المدعو «هيبوتيپوزيس **Hypotyposis**»:

[إن التقليد استلم أن **يوحنا** وهو آخرهم جميعاً (آخر الإنجيليين) عندما لاحظ أن الحقائق الجسدية (الخارجية) τὰ σωματικά قد صارت واضحة في الإنجيل، وإذ ألحَّ عليه أحباؤه، وبإلهام من الروح القدس، ألّف الإنجيل الروحي πνευματικὸν εὐαγγέλιον .](٩)

ونعتقد أن المؤرخ الكنسي يوسابيوس القيصري أخذ عن العلاّمة اكليمندس الإسكندري قوله عن رجوع القديس يوحنا الرسول من بَطْمُس بعد موت دوميتيان(١٠).

ط — كذلك يأتي ذكر إنجيل يوحنا ضمناً في وثيقة قديمة تصف أسفار العهد الجديد ردًّا على أتباع ماركيون (نهاية القرن الثاني) **Anti-Marcionite Prologue** وأيضاً في وثيقة «الموراتوري(*) **Muratori**» المنسوبة لهيپوليتُس، التي اكتُشفت سنة ١٧٤٠م. وهي ترقى إلى ما بين سنة ١٦٠—١٧٠م. وتُعتبر هاتان الوثيقتان من أقدم المصادر للتقليد الكنسي الغربي وللكنيسة الرومانية، وقد جاء في الأولى أنه:

[بحسب شروحات الكتب الخمسة التي ألّفها پاپياس التلميذ المحبوب ليوحنا (الرسول) أن إنجيل (يوحنا) كان قد أُكمل تأليفه وأُرسل لكنائس آسيا بواسطة يوحنا نفسه أثناء حياته.](١١)

---

8 Ibid., III, 23, 6.
9 Ibid., VI, 14, 7.
10 Ibid., III, 23,1.

(*) وثيقة الموراتوري منسوبة لمكتشفها المدعو: L.A. Muratori

11 Cited by: New Testament Intr. by Alfred Wikenhauser, p. 284.

علماً بأن پاپياس عاش في حقبة زمنية معاصرة جداً للقديس يوحنا الرسول (٦٠— ١٣٠م.) وكان أسقفاً على هيراپوليس في آسيا الصغرى ووصلتنا أجزاء من كتبه الخمسة على يدي القديس إيرينيئوس والمؤرخ يوسابيوس. ومن تسجيلات پاپياس يبدو بوضوح أن إنجيل يوحنا كان منسوباً للقديس يوحنا الرسول منذ سنة ١٣٥م. ومن هذا يتضح أن قبل حلول منتصف القرن الثاني كان قد رسخ في الكنيسة في كل أنحاء العالم أن إنجيل يوحنا هو للقديس يوحنا الرسول.

كما أن التسجيلات التي وصلت إلينا من مؤلفات اللاهوتيين والكنسيين والمدافعين إيرينيئوس واكليمندس الإسكندري وترتليانوس، والتي بها نصوص من الدفاع عن الإيمان المسيحي تحوي شواهد من إنجيل القديس يوحنا لا حصر لها، ففي دفاع القديس إيرينيئوس في رده على هرطقة ڤالنتينوس توجد استشهادات من الأناجيل الثلاثة، ومن الإنجيل الرابع وحده أي إنجيل يوحنا أكثر من ١٠٠ شهادة. كذلك اكليمندس الذي كان معلماً لأوريجانس، وهيپوليتس يحتفظ لنا التاريخ في دفاعه على أكثر من ٥٠٠ استشهاد من الأناجيل الأربعة وأكثرها من إنجيل يوحنا.

ي — وأما وثيقة الموراتوري فتقول:

[الإنجيل الرابع هو بواسطة يوحنا أحد التلاميذ. إذ عندما توسَّل إليه زملاؤه (التلاميذ) والأساقفة في ذلك قال: صوموا معي ثلاثة أيام ونحن نتفاوض مع بعضنا بكل ما يوحي الله به إلينا. في هذه الليلة عينها أُعلن لأندراوس أحد الرسل أن يوحنا عليه أن يكتب كل شيء تحت اسمه والكل يصدّق على ذلك. فإن كانت أمور كثيرة قد علِّمت بها الأناجيل الأخرى وكلُّها استُعلنت بالروح الواحد فيا يخص الميلاد (ميلاد الرب) وآلامه وقيامته وحديثه مع تلاميذه وفيا يخص مجيئه الأول ومجيئه الثاني، الأول بإتضاع وتواضع وقد أكمله والثاني بالمجد والقوة الملكية الذي سيأتي؛ فأيُّ عجب إذن، أنَّ يوحنا بجرأة وشجاعة يحقق كل نقطة متكلماً عن نفسه في رسالته: «الذي رأيناه بعيوننا وسمعناه بآذاننا ولمسناه بأيدينا... هذه الأمور نكتبها إليكم Scripsimus » (١يو١: ١و٤)، لأنه وضع على نفسه أن يكون لا شاهداً فقط بعينه وبسمعه بل وكاتباً بكل عجائب أعمال الرب بترتيب.][12]

وعلى الباحث أن يلاحظ أن كُلاًّ من القديس إيرينيئوس وكاتب وثيقة الموراتوري Muratori يؤكد أن القديس يوحنا إنما كتب إنجيله بإلحاح وتوسُّل من أحبائه وزملائه الأساقفة. وهذا الإتفاق في التسجيل له وزنه التاريخي؛ وإن كانت هذه الوثيقة تخطىء في وضع اسم

[12] Cited by: Barrett, Acc. to St. John, pp. 96, 97.

أندراوس الرسول ضمن سرد ملابسات كتابة إنجيل يوحنا لأنه لم يكن أحدٌ من الرسل على قيد الحياة وقت كتابة إنجيل يوحنا.

ك — كذلك يجيئنا من كتابات القديس پوليكارپوس الشهيد اقتباسات أصيلة من إنجيل يوحنا وباسمه واضحة غاية الوضوح علماً بأن القديس پوليكارپوس وبحسب أدق البحوث العلمية قد ثبت أنه استشهد سنة ١٥٥م. وكان له من العمر ٨٦ سنة. وهذا معناه أنه أمضى مع القديس يوحنا معظم حياته. بل ومن المعروف أنه عاشر غيره من الرسل إذ أنه [تعيَّن أسقفاً على كنيسة سميرنا من الرسل أنفسهم الذين كانوا معاينين وخُدَّاماً للرب.](١٣)، كما سجل ذلك أيضاً القديس إيرينيئوس في كتابه ضد الهرطقات (٣: ٣و٤). وفي إحدى رسائله يتكلم عن القديس پوليكارپوس بخصوص ذلك:

[... كما أذكر دخوله وخروجه وهيأته وشكله وحديثه للناس وتصريحه عن علاقته مع يوحنا ومع الآخرين الذين رأوا الرب. وكان يتذكر كلامهم وكل ما سمعه منهم عن الرب...]

عن رسالة القديس إيرينيئوس إلى فلورينوس(١٤)

لهذا فإن القديس پوليكارپوس يُعتبر بحسب التاريخ الكنسي مصدراً في غاية الأهمية، لأنه الشخصية التي تُعتبر العلاقة الحية للوحدة الإيمانية بين القرن الأول والقرن الثاني، وشهادته تُعتبر أحد البراهين الرسولية لإنجيل يوحنا الرسول. هذا ما كان يعتقده ويتمسك به جداً القديس إيرينيئوس الذي كان يمسك بحبل التقليد الرسولي بكل قواه، والكنيسة تفتخر به على أنه أبو التقليد الكنسي.

ل — وأيضاً العلاَّمة ترتليانُس (١٦٠—٢٢٠م.) وهو أب كنائس شمال أفريقيا، مواطن قرطاجنة. عاد من الوثنية كمحامٍ إلى المسيحية كمدافع سنة ١٩٥م. وصار موعوظاً ثم كاهناً — بحسب القديس چيروم — وقد دافع عن المسيحية بعد ذلك كل أيام حياته. وقد استشهد في دفاعه ضد هرطقة «مركيون» ذاكراً اسم إنجيل يوحنا مع الأناجيل الأخرى في دفاعه. ويقول العلماء أن النسخة من إنجيل يوحنا التي كانت في حوزة ترتليانُس كانت تُعتبر أقدم وثيقة لإنجيل يوحنا في ذلك الوقت إذ كانت في حيازته قبل قيام هرطقة مركيون (١٣٩—١٤٢م.). ومن محاجاة مركيون المرطوقي مع ترتليان يتضح بسهولة أن مركيون نفسه كان حائزاً على نسخة من إنجيل يوحنا.

وعلى سبيل الملاحظة للمعرفة فإن ترتليانُس هو أول كاتب لاتيني علَّم بكلمة **«الثالوث»**

13 Euseb., Hist. Eccl. IV, 14,3.

14 Ibid., V, 20,6.

باللاتينية Trinitas (١٥) تعبيراً عن الآب والإبن والروح القدس. وهو أول لاهوتي مسيحي يكتب باللاتينية قاطبة، بل ويُعتبر أول مَنْ نَحت العبارات اللاهوتية باللغة اللاتينية للغرب كله. ولكن للأسف فقد فَقَد كل عظمته الكنسية بسبب انحيازه للمونتانية (هرطقة العصر آنذاك). ولولا ذلك، لكان مُضارعاً للقديس أغسطينوس في رصانته وقوة محاجاته ودفاعه عن لاهوت الثالوث الأقدس وباقي التعاليم الأرثوذكسية (١٦).

م — كما يوجد لدينا شهادة لإنجيل يوحنا ساطعة من قبل عام ١٥٠م. وهي للقديس الشهيد يوستين(١٧) الذي كان لديه كل كتب الرسل وكان يسميها مذكرات Memoires الرسل. وقد استشهد في كتاباته بآيات من إنجيل يوحنا واستخدم اصطلاح «الكلمة» λόγος (الذي ورد في مطلع إنجيل يوحنا).

وفي حواره مع تريفو اليهودي الذي تم سنة ١٣٦م(١٨) الذي استشهد فيه بموضوع الألف سنة الذي جاء في سفر الرؤيا، قال فيه:

[إن إنساناً بيننا اسمه **يوحنا، وهو واحد من رسل المسيح**، الذي تنبأ في رؤيا أخذ فيها...]

وفي دفاعه بعد هذا التاريخ بعدة سنوات أظهر أنه على دراية بتعاليم إنجيل يوحنا وسردها ناسباً إياها إلى مسئولية القديس يوحنا.

ن — كذلك توجد شهادة من هرماس صاحب كتاب «الراعي» (١٤٢—١٧٤م.) الذي كان أسقفاً في هذه السنين على هيراكليس. ويشير في كتاباته إلى آيات من إنجيل يوحنا.

س — **القول الفصل:** وأخيراً ظهرت شهادة قاطعة مانعة من تحت رمال مصر من نجع حادي من صعيد مصر ظهر فيها جزء من إنجيل يوحنا، عبارة عن ورقة مخطوطة وعلى إحدى صفحاتها نص من إنجيل يوحنا الأصحاح ١٨ الأعداد من ٣١—٣٤. وعلى الوجه الآخر الأعداد من ٣٧—٣٨ لنفس الأصحاح. وهي الآن معروفة باسم بردية «رايلاند» ومحفوظة في مانشستر تحت رقم ٥٢.

---

15 Cross, Oxford Dict. of the Christ. Church., p. 1334.

وأما باللغة اليونانية فقد سبقه في استعمال هذه الكلمة τριάς ثاوفيلس الأنطاكي حوالي سنة ١٨٠م.

16 Ibid.

17 Westcott, Acc. to St. John, p. XXXI, XXXII.

18 Ibid., p. 12, Justin, Dial. 81.

وبحسب بحوث العلماء تأكد أن يكون تاريخها ليس بعد عام ١٣٠م. وهذا هو البرهان النهائي أن الإنجيل الرابع خرج خارج آسيا الصغرى في تاريخ لا يمكن أن يتعدى الجيل السابق على بداية القرن الثاني. وبهذا يكون زمن كتابة إنجيل يوحنا ليس بعد سنة ١٠٠م. وذلك بحسب كل علماء الكتاب المقدس بلا استثناء أي في الزمن الرسولي بكل تأكيد! بل إن كثيراً من العلماء يقول إنها النسخة الأولى الأصلية.

* * *

وفي ختام بحثنا عن أصالة نسبة إنجيل يوحنا للقديس الرسول ابن زبدي، ننبه ذهن القارىء إلى حتمية تفرض نفسها بشأن الإنجيل، فليس كاتب الإنجيل فقط هو الذي يضفي على الإنجيل صدقه وأصالته وقانونيته، وإن كان هذا لازماً أيضاً. ولكن صحة التقليد الرسولي الذي يقوم عليه الإنجيل وأصالة تعليمه والنور الإلهي الذي يشعُّ منه هو الذي يعطي للإنجيل أصالته بل ويعطي لكاتبه أيضاً صفته الرسولية بالضرورة. كذلك فإن شهادة الكنيسة الحية من فم لفم وأخيراً الممارسة الروحية، وهذا هو التاريخ العريض الطويل الممتد للأساقفة المدافعين عن الإيمان والقديسين والعُبَّاد والنُسَّاك واختباراتهم الفاخرة على مدى ألفي سنة، تنطقان بالقيمة الروحية واللاهوتية العظمى لإنجيل يوحنا وبالفضل لكاتبه. فلقد نجح إنجيل يوحنا في حمل وتوصيل الروح الرسولية والتقليد الرسولي الإيماني من جيل إلى جيل عَبْر عشرين قرناً من الزمان. وهوذا نحن نشهد مع القديس يوحنا القرن الأول ومع الرسل والكنيسة عَبْر الزمان كما شهدوا «ورأينا مجده مجداً كما لوحيدٍ من الآب مملوءاً نعمة وحقاً.» (يو١: ١٤)

٢ ـ الأسباب الملحَّة التي حتَّمت بكتابة إنجيل يوحنا:

حسب التقليد المبكر جداً المسلَّم للكنيسة فإن القديس يوحنا الرسول كتب إنجيله تحت إلحاح شديد ومتواصل من رجال الكنيسة الذين كانوا يعيشون ويعملون معه والذين سمعوا منه كل ما كان يعظ ويعلِّم به بما كان ينقله عن فم الرب، راغبين أن يكون تحت أيديهم وثيقة من فم يوحنا تلميذ الرب تشهد لصحة ما يعلِّمون به هم أيضاً وتهديهم الطريق. وبهذا يقول التقليد إنهم اضطروا يوحنا لكتابة إنجيله بعد أن تعهدوا بالصوم والصلاة.

وتوجد وثيقة من زمن مبكر تُدعى «تعاليم في سفر الرؤيا» لمؤلفها «فيكتورينوس» Victorinus الذي من مدينة بيتَّاو Pettau، والذي توفي سنة ٣٠٤م. تقول:

[إن يوحنا الرسول كتب إنجيله بعد كتابة سفر الرؤيا وذلك بعد أن أذاع كلٌّ من الهراطقة فالنتينوس Valentinus وكيرنثوس Cerinthus وإبيون Ebion وآخرون من مدرسة

الشيطان تعليمهم وذاع في كافة أركان الدنيا مما اضطر الأساقفة الذين على كل البلاد المجاورة أن يجتمعوا إلى القديس يوحنا واضطروه أن يكتب إنجيل شهادته.](١٩)

ويقرر القديس إبيفانيوس نفس هذه الحقائق مؤكداً أن القديس يوحنا الرسول كتب إنجيله في نهاية العصر الرسولي ردًّا على هرطقات القرن الأول بناءً على رجاء الكنائس(٢٠).

إذن، فسِرُّ الإلحاح على القديس يوحنا لكتابة إنجيله واضح لأن بلبلة الأفكار بسبب مهاجمة الهراطقة للإيمان المسيحي وتركيزهم على المسيح بالذات وإنكار لاهوته وقوة الخلاص والفداء الذي أكمله، مع عدم كفاية المكتوب والمتناقَل عن التقليد الرسولي، هذا هو الذي أقنع القديس يوحنا للرضوخ لإلحاح الأساقفة والشعب. ولماذا ألحُّوا عليه إلاَّ لكونهم قد سمعوا منه ما يصلح أن يكون إنجيلاً بالحق؟ ولماذا وثقوا فيه. إلاَّ لكونه تلميذاً ورسولاً؟

وفي هذا المعنى يقول العالِم هوسكنز(*) أسقف دورهام بإنجلترا في شرحه لإنجيل يوحنا:

[إن تقديم حياة المسيح على هيئة أخبار متقطعة (كما جاء في الأناجيل الثلاثة) لا بد وأن يكون قد أنشأ خطورة عظيمة في نهاية القرن الأول. لأن الجماعات المسيحية المتفرقة لم تكن قد استكملت بعد قانوناً للإيمان يمكن أن يحفظ هذه الأخبار في قالب لاهوتي. كما لم تكن هناك بعد عبادة أيًّا كان شكلها قائمة على قراءات رسمية ذات سلطان تهدف إلى غاية محددة مثل التي نقرأها مثلاً في مقدمة إنجيل يوحنا (وهذا أدى إلى مجرد معرفة تاريخية بالمسيح). لذلك فبسبب خطورة احتمال سوء فهم المسيح وعدم الدراية بالتقليد الصحيح الشفاهي والمكتوب آنئذ عن المسيح، صُمِّم إنجيل يوحنا لتثبيت المؤمنين.](٢١)

وقد أجمع الباحثون العلماء في الكتاب المقدس أن مادة إنجيل يوحنا تأتي من حيث الصياغة الزمنية متأخرة عن ما جاء في الأناجيل الثلاثة وتحمل مضمون شكل الحياة المسيحية في وضعها اللاحق على صيغة الحياة في زمان الأناجيل الأخرى وتنطق بما أصاب أورشليم من الخراب بعد حرب عام ٧٠م. وتبدُّد الشعب اليهودي.

---

19 PG V, 333, cited by: Westcott, op. cit., p. XXXVI.

20 Epiphan., Adv. Haer. XLI,12.

21 Hoskyns, According to St. John, p. 83; Schnackenburg, The Gospel according to St. John, New York 1982, p. 43.

(*) اقرأ فكرة عنه في الفصل الثاني من الباب السادس.

فبشيء من التعمق في الملاحظة بين ما أورده القديس يوحنا خصيصاً وبين الوضع السائد في آسيا الصغرى عموماً نجد الردود واضحة. فهو يعتني أن يورد كل ما جاء على لسان المسيح مما يصلح أن يكون ردًّا على المساءلات التي كانت تُطرح عليه كأسقف عاش مع المسيح، وحلاً للمشاكل اللاهوتية والروحية والفلسفية التي كانت تعترض الكنيسة في مواجهتها للأجواء الجديدة معتمداً على وعد الرب أن الروح القدس يعرِّفكم بكل الحق ويخبركم بأمور آتية وأنه سيتكلم في فكم، بينما تردُ الثلاثة الأناجيل على مقاومة اليهود للمسيح ورفضهم للإيمان بالتحذيرات المرعبة وبالكارثة المحتَّمة التي ستحل بالأمة اليهودية والقضاء المزمع أن يأخذ مجراه وشيكاً، كما ورد في إنجيل متى الأصحاح ٢٤ وفي إنجيل مرقس الأصحاح ١٣ وفي إنجيل لوقا الأصحاح ٢١.

— «لأن هذه أيام انتقام ليتم كل ما هو مكتوب. وويل للحبالى والمرضِعات في تلك الأيام. لأنه يكون ضيقٌ عظيم على الأرض المقدسة وسُخْط على هذا الشعب. ويقعون بفم السيف ويُسْبَوْنَ إلى جميع الأمم. وتكون أورشليم مدوسة من الأمم حتى تُكمَّل أزمنة الأمم.» (لو٢١: ٢٢—٢٤)

كل هذا كتبه القديس لوقا وأورشليم لم تكن قد سقطت بعد ولا حدث أي شيء من هذا الوعيد. أما في إنجيل يوحنا فالأمر جدّ مختلف، لأن كل شيء من هذه الأمور المرعبة كان قد حدث بالفعل. فإنجيل يوحنا كُتب سنة ١٠٠م. وخراب أورشليم تم سنة ٧٠م. لذلك لا نسمع في إنجيل يوحنا لا نبوة عن خراب أورشليم ولا ذكراً لهذه الويلات والحروب وما لابسها من ضيق عظيم سيلقى اليهود. إذن، فالقديس يوحنا يكتب موضِّحاً العاقبة، تصديقاً لما وعد به الرب فقد تم كله وأصبح على القديس يوحنا أن يوضح في كل مناسبة السرَّ وراء هذا السخط الذي تم عليهم. فكان يمعن في كشف كذبهم وريائهم وعنادهم في مصادمة الحق ورفضهم للنور والحياة والبركة كشعب بكر مختار؛ تماماً كما رفض عيسو البركة والبكورية رمز الإختيار!

وبهذا كشف إنجيل يوحنا السبب وراء رفضهم للمسيح ورفض المسيح لهم، لأن الداء كان متأصِّلاً ومتجذِّراً في أخلاقهم وسلوكهم ولذلك كان الجزاء محتَّماً: «ولكنكم لستم تؤمنون لأنكم لستم من خرافي كما قلت لكم.» (يو١٠: ٢٦)

ثم يسجِّل القديس يوحنا كيف وعلى طول المدى أخفقت الأمة اليهودية في الإختيار ورفضت المخلِّص الموعود والفادي الذي انتظرته الأجيال «إلى خاصَّته جاء وخاصَّتُه لم تقبله» (يو١: ١١). وهو بذلك يشير إلى سبب خراب أورشليم بصورة مخفية وبالتالي إلى سبب وجوده هو في أفسس بدل أورشليم واختياره للعمل بين الأمم. ولكنه أيضاً وفي شعور بالإخفاق والمرارة يعود ويصف رفض كثيرين للنور بين الأمم أيضاً: «إن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن

أعمالهم كانت شريرة» (يو٣: ١٩). وهكذا يتساوى معاً كل الرافضين للنور في الدينونة بلا تمييز «اليهودي أولاً ثم اليوناني» كما يقول القديس بولس الرسول (رو٢: ٩). ثم يضع القديس يوحنا القانون الذي سيسري على الجميع: «الذي يؤمن به لا يُدان والذي لا يؤمن قد دِينَ لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد. وهذه هي الدينونة إن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة.» (يو٣: ١٨و١٩)

ثم يواجه القديس يوحنا الإلحاح العام الذي كان يختلج في قلوب كل المؤمنين بعد رفض الله للشعب اليهودي رفضاً دعت الضرورة القصوى إليه وبعد خراب أورشليم وانقطاع العبادة بكل مراسيمها اليهودية وفقدان كل الميراث الأول بكل غناه وكل عمقه مرة واحدة. ما هو، إذن، إطار العبادة المسيحية؟ وماذا سيكون أساس العلاقة التي لله بشعبه الجديد؟ وكيف سيحقق الشعب المسيحي وعد الله في أن يقيم خيمة داود الساقطة (عا٩: ١١، أع١٥: ١٦)؟ وما هي الوصايا الجديدة المفروضة على الكنيسة لتحل بصورة إلهية ومجيدة محل العبادة المؤقتة والشكلية المعبَّر عنها بـ «شبه السماويات وظلها» (عب٨: ٥) التي كانت لإسرائيل؟

علماً بأنه عندما بدأ القديس يوحنا يكتب إنجيله، كانت الجماعات المسيحية — كما هو واضح من رسائل القديس بولس الرسول — في أوج نضوجها وانتظامها. ولكن السؤال الكبير الذي كان يواجهه الأساقفة مع الشعب في كل مكان هو كيف تُحكَمُ وتُدبَّرُ هذه الكنائس لتحقق نموذج ملكوت الله الذي نادى به المسيح؟ كان على القديس يوحنا أن يستلهم من كل حياة الرب وأقواله وتعاليمه بكل دقة وكل عمق وبكل وعي روحي تنبُّؤي ما يلزم تقديمه ليصلح أن يكون هو الأساس الإلهي الذي يُبنى عليه لاهوت المسيح بكل معنى الكلمة، وليكون هو أساس بنيان الكنيسة الخالدة على مدى كل العصور والأجيال، وليكون هو قوام بنيان النفس البشرية لتحيا وتلتصق وتتمجَّد بالرب.

فها هو من قصة السامرية يستوحي القانون الشامل الكامل لكل جوهر العبادة التي أعطاها الرب للكنيسة: «... آباؤنا سجدوا في هذا الجبل وأنتم تقولون أنَّ في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يُسجد فيه. قال لها (للمرأة السامرية) يسوع: يا امرأة (وكأنها الكنيسة وكل الأمم) صدِّقيني أنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للآب... تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق، لأن الآب طالب هؤلاء الساجدين له، الله روحٌ والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا.» (يو٤: ٢٠—٢٤)

وهكذا يضع القديس يوحنا، من فم المسيح، الحدَّ الفاصل بين العبادة بالشكل والحرف التي

نُقِضَت يوم نُقِضَ الهيكل وتوقفت يوم صلبوا رب المجد، لتقوم العبادة بالروح والحق والتي أعطيت لتكون جوهراً لدستور العبادة لكنيسة المسيح في كل أنحاء العالم وإلى الأبد.

ثم عاد القديس يوحنا في قصة نيقوديموس ومن خلال الحوار الساخن مع القديم الذي عَتَق وشاخ ليشرح كيف وضع المسيح القانون الجديد لدخول الحياة الأبدية لكل إنسان مهما كان وكيف يؤهَّل لقبول الروح لميلاد جديد ليأخذ عضويته السامية والجليلة في الهيكل الجديد أي جسد المسيح الذي كان يسمَّى أيام القديس يوحنا بقانون الإنضمام!! ليصير واحداً في شعب الله الجديد «الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله.» (يو٣: ٥)

ويعود إنجيل القديس يوحنا وبصفة فريدة ليوضح سلطان الخدمة والإرسالية الذي لا يعتمد على مدرسة للربيين ولا شهادة من السنهدريم بل على الروح القدس القوة الإلهية الناطقة في أفواههم والمنيرة لعقولهم وأفهامهم والموضِّحة والشارحة للحق كل الحق: «كما أرسلني الآب أُرسلكم أنا. ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس مَن غفرتم خطاياه تُغفر له ومن أمسكتم خطاياه أُمسكت.» (يو٢٠: ٢١-٢٣)

وهكذا أرسى إنجيل يوحنا الأساس لقانون متكامل للعبادة والخدمة على أنقاض الناموس الذي توقف لإنتهاء مدة صلاحيته بقيام الكنيسة وبدوام مسيرتها الجديدة في كل أنحاء العالم بقيادة الروح القدس وسلطانه.

وبدراسة إنجيل يوحنا نكتشف أنه كما اهتم ليعالج مشاكلَ وتساؤلات نشأت كحتمية فرضها توقُّف العبادة بعد خراب أورشليم والهيكل؛ كذلك من جهة أخرى نجده وقد انشغل إلى أقصى حدٍّ لتقنين المفاهيم الجديدة التي نشأت نتيجة كرازة القديس بولس الرسول في هذه المناطق. وهذه المفاهيم تتركز في معنى «حرية البنين» و«بطلان الإتكال على أعمال الناموس» و«الأهمية القصوى للإيمان الشخصي في الفرد» و«استعلان لاهوت المسيح» و«عمومية الإنجيل للأمم». فإنجيل يوحنا يوضح أن كل هذه الإتجاهات الجديدة التي انبثقت من كرازة الروح القدس على يدَيْ القديس بولس لم يغفلها المسيح في تعاليمه، فقد كان لكل واحدة منها موقف وتعليم.

وهكذا بدأ الروح القدس يعمل بصورة نشطة في ذهن القديس يوحنا ليرفع الغموض عن مواقف وتعاليم المسيح التي لم تكن مفهومة عندئذ يوم أن قيلت للرسل وهي على بُعْدٍ من زمانها، كقول المسيح للقديس بطرس (عند تمنُّعه من غسل المسيح لقدميه): «أجاب يسوع وقال: لستَ تعلم أنت الآن ما أنا أصنع ولكنك ستفهم فيما بعد» (يو١٣: ٧)؛ «... أما هو فكان يقول عن هيكل

جسده، فلما قام من الأموات تذكّر تلاميذه أنه قال هذا. فآمنوا بالكتاب وبالكلام الذي قاله يسوع.» (يو٢: ٢١و٢٢)

وحينما كشف القديس يوحنا المواقف والكلمات والتعاليم التي تركتها الأناجيل الأخرى ولم تأتِ على ذكرها، ظهرت شخصية المسيح بوضوح بالنسبة للعالم وكل المسيحيين. فالمسيح في إنجيل يوحنا أعظم من صانع معجزات، وأكثر من الملك الآتي، وليس هو المسيا موضوع انتظار اليهود لتخليص إسرائيل من عبودية الرومان كما خلّصهم موسى من مصر؛ بل هو «مخلِّص العالم» كله كما ورد على لسان أهل السامرة. وهو ابن الإنسان بمعنىً يَجُبُّ البشرية كلها، وهو ابن الله الوحيد الواحد مع الآب. وهنا يرفع إنجيل يوحنا الغطاء عن مفهوم ميلاد المسيح في بيت لحم ليكون على مستوى «التجسد». «فالكلمة صار جسداً» هو السر الأساسي وراء حياة المسيح وأقواله جميعاً وهو الآية من وراء المعجزات العظمى التي عملها لكي تشير كلها إلى مصدرها أنها هي هي أعمال الله المكمّلة والمجدّدة للخِلْقَة التي اضطلع بها سابقاً المسيح نفسه قبل تجسده. وهكذا لم يتم في أذهاننا وضع اللمسات الأخيرة على قصة الميلاد في المغارة وسر فرح جند السماء مع الناس على الأرض إلاّ بعد أن استوعبنا إعلان إنجيل يوحنا أن «**الكلمة** صار جسداً وحلّ بيننا» (يو١: ١٤). وبإعلان المسيح عن نفسه: «أنا هو القيامة والحياة»؛ «والذي رآني فقد رأى الآب»؛ و«أنا والآب واحد.» (يو١١: ٢٥؛ ١٤: ٩؛ ١٠: ٣٠)

كذلك فإن إنجيل يوحنا وضع على نفسه أن يضع الخلفية التاريخية مشروحة بفم المسيح ومقنّنة روحياً كإنجيل الله لكل تعاليم القديس بولس الرسول التي أذاعها بين الأمم وغرسها غرساً جيداً في قلوب وأذهان كنائس آسيا الصغرى السبع، وواجهها القديس يوحنا كتلميذ مسئول عن تحقيقها وانطباقها على تعاليم الرب نفسه. وهكذا وَجَد الإيمان المسيحي — مطبّقاً على إنجيل المسيح بيد القديس يوحنا — طريقه إلى كل مسيحي أُمي. فصراخ فيلبُّس الرسول المتعطش لرؤية ومعرفة الآب باعتبار ذلك منتهى أمله في الإيمان بالمسيح والله كتلميذ، هو في الحقيقة تصوير عملي لكل صراخ الأمم وصراخ المستقبل المسيحي كله في كل العالم فيما بعد. هذا صوَّره القديس يوحنا في إنجيله تصويراً مُبدعاً وأعطاه الرد كاملاً ومختصراً ملأ كتب اللاهوتيين شرحاً وتأملاً: «الذي رآني فقد رأى الآب». فهو — أي الكلمة المتجسد — الصورة المنظورة لجوهر الله بالقول والعمل!! «قال له يسوع: أنا هو الطريق والحق والحياة ليس أحد يأتي إلى الآب إلاّ بي. لو كنتم عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه. قال له فيلبُّس: يا سيد أرِنَا الآب وكفانا. قال له يسوع: أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبُّس؟ الذي رآني فقد رأى الآب. فكيف تقول أنت: أرِنَا الآب؟ ألست تؤمن أني أنا في الآب والآب فيَّ.» (يو١٤: ٦—١٠)

من أجل هذا كتب القديس يوحنا إنجيله ليصير الله لدى كل العالم في متناول الرؤيا القلبية بالتقوى والإيمان في نور أقوال المسيح وأعماله وإعلانه الصريح والواضح عن نفسه. فالمسيح في إنجيل يوحنا هو الإستعلان الكامل لله.

أنظر كيف يتتبّع القديس يوحنا تعاليم القديس بولس الرسول، فيستخرج أصولها الإلهية من فم المسيح:

تعاليم القديس بولس الرسول في رسائله	تعاليم المسيح في إنجيل يوحنا
«كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم.» (أف١: ٤)	«أنا أظهرت اسمك للناس الذين أعطيتني من العالم. **كانوا لك**[٢٢]**، وأعطيتهم لي.**» (يو١٧: ٦) «لست أسأل من أجل العالم بل من أجل الذين أعطيتني **لأنهم لك**» (يو١٧: ٩) «والآن مجّدني أنت أيها الآب عند ذاتك **بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم.**» (يو١٧: ٥) «لأنك أحببتني **قبل إنشاء العالم.**» (يو١٧: ٢٤)
«سبق فعيّننا **للتبني** بيسوع المسيح **لنفسه.**» (أف١: ٥)	«أما كل الذين قبلوه (أي قبلوا المسيح) فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا **أولاد الله** أي المؤمنون باسمه الذين **وُلدوا** ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل **من الله.**» (يو١: ١٢و١٣) «الحق الحق أقول لك إن كان أحد **لا يولد من فوق لا يقدر** أن يرى ملكوت الله.» (يو٣: ٣)

(٢٢) «كانوا لك وأعطيتهم لي» تعني أنهم كانوا يؤمنون بالله (الآب) حسب توراة العهد القديم، وفتح الله بصيرتهم واجتذبهم إلى المسيح لينالوا بواسطته التبنّي والخلاص من العبودية والدينونة. هكذا أعطاهم الآب للمسيح ليردّهم المسيح إليه كأبناء: وهذه الآية تُفهم جيداً في ضوء كلمات المسيح: «أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي.» (يو١٤: ١)

«المولود من الجسد جسدٌ هو و**المولود من الروح هو روح.**» (يو٣:٦)

«الذي فيه أيضاً نلنا نصيباً، **معيَّنين سابقاً** حسب قصد الذي يعمل كل شيء **حسب رأي مشيئته.**» (أف١: ١١)

«ليس أنتم اخترتموني بل **أنا اخترتُكم** وأقمتكم.» (يو١٥:١٦)
«**كل ما يعطيني الآب** فإليَّ يُقبل. ومَنْ يُقْبِلْ إليَّ لا أُخرجه خارجاً.» (يو٦:٣٧)
«لا يقدر أحد أن يُقبل إليَّ إنْ لم **يجتذبه الآب** الذي أرسلني...» (يو٦:٤٤)
«لا يقدر أحد أن يأتي إليَّ إن لم **يُعْطَ من أبي.**» (يو٦:٦٥)

«إن الأمم شركاء في الميراث والجسد ونوال موعده في المسيح.» (أف٣:٦)

«ولي **خراف** أُخَر ليست من هذه الحظيرة. ينبغي أن آتي بتلك أيضاً فتسمع صوتي وتكون **رعية واحدة وراعٍ واحد.**» (يو١٠:١٦)

«ألستم تعلمون أن **أجسادكم هي أعضاء المسيح.**» (١كو٦:١٥)
«أما أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً.» (١كو١٢:٢٧)
«لأننا أعضاء جسمه، من لحمه ومن عظامه.» (أف٥:٣٠)
«ننمو في كل شيء إلى ذاك الذي هو الرأس المسيح الذي منه كل الجسد مركباً معاً ومقترناً بمؤازرة.» (أف٤: ١٥و١٦)

«أنا الكرمة الحقيقية وأبي الكرَّام. كلُّ غصن فيَّ لا يأتي بثمر ينزعه. وكلُّ ما يأتي بثمر يُنَقِّيه ليأتي بثمر أكثر... **أنا الكرمة وأنتم الأغصان.** الذي **يثبت فيَّ وأنا فيه** هذا يأتي بثمر كثير.» (يو١٥: ١و٢و٥)

«أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم الذي لكم من الله.» (١كو٦:١٩)

«أما هو فكان يقول عن **هيكل جسده.**» (يو٢: ٢١)
«أنتم فيَّ وأنا فيكم.» (يو١٤:٢٠)
«أنا فيهم وأنت فيَّ.» (يو١٧:٢٣)

وكان أخطر ما يواجه القديس يوحنا الرسول هو من جهة جوهر الإيمان المسيحي وتقنينه لدى الشعوب الداخلة في الإيمان في جيل ابتعد عن اليهودية تماماً. وقد وضع القديس بولس الرسول أصوله الأولى على أساس عدم توسُّط الفرائض التي تؤدِّي جسدياً، والتي شجبها في كل رسائله جاعلاً الإيمان المسيحي قوة تغيير إلهية بالروح القدس تغيِّر طبيعة الإنسان من مستوى السلوك بحسب الجسد إلى مستوى السلوك بحسب الروح ليكون إنساناً جديداً خليقةً ثانية روحيةً؛ وإن هذه القوة تعتمد كليًا على اسم المسيح: «الذي به **لأجل اسمه** قَبِلْنا نعمة ورسالة لإطاعة الإيمان في جميع الأمم.» (رو١: ٥)

وهكذا جاء القديس يوحنا ليقنِّن هذا الإيمان عينه إنجيلياً وعلى مستوى نُطْق المسيح وبصورة واضحة معتمداً اعتماداً كلياً على «اسم المسيح» القوة المحيية والمغيِّرة والوالدة للإنسان الروحي:

«وأما كل الذين قَبِلُوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي **المؤمنون باسمه**» (يو١: ١٢)

«وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم، إذا آمنتم **حياة باسمه.**» (يو٢٠: ٣١)

«ومهما سألتم **باسمي** فذلك أفعله ليتمجَّد الآب بالإبن.» (يو١٤: ١٣)

وفي رسالته الأولى يعبِّر القديس يوحنا باختصار شديد عن علاقة جوهر الإيمان باسم المسيح هكذا: «كتبتُ هذا إليكم أنتم المؤمنين **باسم ابن الله** لكي تعلموا أن لكم حياة أبدية ولكي **تؤمنوا باسم ابن الله.**» (١يو٥: ١٣)

ومرة أخرى يقف القديس يوحنا ــ وهو في ختام القرن الأول ــ موقفاً حاسماً ودقيقاً في مواجهة النشاط الفكري الضخم الذي كانت تمارسه الأوساط المحيطة في أفسس وغيرها من الفلاسفة والمعلِّمين والأدباء والشعراء الذين كانوا قد ألهبوا الفكر البشري للجري وراء المعرفة. حتى المسيحيون أيضاً انغمسوا في مثل هذه المعارف. وقد ألقى القديس بولس الرسول بكل ثقله لاستقطاب هذا النشاط وقيَّمَهُ وسما فوقه معطياً في المقابل المدلولات الروحية الحقَّة في المسيح. فماذا سيعطيهم القديس يوحنا من أقوال الرب لتكون الدستور الدائم للمعرفة المستمدة من ينابيعها بل من ينبوعها الإلهي الأصيل والوحيد للحق، ومعناه وقيمته وفعله وأثره المحرِّر والمحيي؟ ثم ما هو التقييم العملي لعلاقة المنظور بغير المنظور (وبلغة الفلاسفة بما وراء الطبيعة)؟

هنا يُبرز إنجيل يوحنا مفهوم «الحق» كجوهر إلهي مُحيي وليس مجرد معرفة مجرَّدة موضوعية دون ذات تُحييها وتحققها ــ فينادي إنجيل يوحنا بفم المسيح: «تعرفون الحق، والحق يحرركم»، «أنا هو الحق»!! (يو٨: ٣٢؛ ١٤: ٦) والتحرر الحقيقي أو الحرية الحقيقية هو التحرر من رباط الخطية

وسلطانها الإستعبادي للنفس البشرية والذات ككل!! «كل مَنْ يعمل الخطية هو عبد للخطية» (يو٨: ٣٤). أما كيف نتحرر من الخطية فبواسطة ابن الله الذي يعتقنا من عبودية الخطية والموت وسلطان الجسد وشهواته وطغيان الشيطان بأوهامه، لأن ابن الله هو الوحيد الذي له سلطان على الخطية والموت، وهو القيامة والحياة: «فإن حرَّركم الإبن فبالحقيقة تكونون أحراراً.» (يو٨: ٣٦)

هذا الحوار يقدمه إنجيل يوحنا بلا ملل وفي مواضع كثيرة، لأن القديس يوحنا يعلم أنه يواجه جيل الفلاسفة وعُشَّاق المعرفة وعمالقة الفكر الباحثين عن الحق! لقد حطَّم إنجيل يوحنا أسمى ما بلغ إليه الفلاسفة من الإرتفاع بالمعرفة نحو تجريدها الكلِّي لتكون عقلية خالصة تحلِّق في سماء الفكر وحده دون الواقع حينما قال وفي بدء إنجيله: «والكلمة (اللوغُس) صار جسداً وحلَّ بيننا ورأينا مجده»!! (يو١: ١٤). وبهذا استعلن **«الحقيقة الأبدية»** أو **«الحق المطلق»** ورفع عنها نقاب العقل الخالص واستحضرها متجسدة في إنسان، في ملء التاريخ، عاش وتألم وصُلب ومات ثم قام أيضاً ليَهَبَ الإنسان خبرة الحياة والقيامة والنصرة على الموت والخطية لكل مَنْ يؤمن!

وهو في ذلك لم يكن يقصُّ قصة أو يعطي علماً بل كان يقدِّم شخص الحياة الأبدية شخص الحق وملء النور يسوع المسيح الذي عاش معه ورأته عيناه ولمسته يداه، هو هو كلمة الحياة والحق والحياة الأبدية التي كانت عند الآب.

وهكذا يقدم القديس يوحنا للعالِم الباحث وراء الحق والحياة الكاملة والأبدية شخص الحياة نفسها والحق نفسه لينال به كلُّ مَنْ آمن هذا الحق عينه وهذه الحياة الأبدية عينها: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو١٧: ٣)، «الحق الحق أقول لكم إن مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة.» (يو٥: ٢٤)

وعندما أعطى القديس يوحنا في مستهل إنجيله بشارته الحاسمة: «والكلمة صار جسداً»، كانت هذه هي البشارة الأولى من نوعها في عالم الفلاسفة والباحثين وراء فواصل اللامحدود بالمحدود والأبدي اللازمني بالزمني والنور بالظلمة: «والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه» (يو١: ٥). وهكذا صالح إنجيل يوحنا، في المسيح، الفكر المنطلق وراء اللامحدود بالواقع الحي المنظور والملموس، ورؤيا الرائين لما فوق الطبيعة بالتجربة الإختبارية الحية والمحيية.

وفي هذه كلها نرى أن مادة إنجيل يوحنا هي شاهدة بحد ذاتها لزمان ومكان كتابة هذا الإنجيل العجيب بل وللظروف التي حتَّمت بكتابته تحتيماً.

٣ ـ الغرض الأساسي من كتابة إنجيل يوحنا
كما يراه القديس يوحنا نفسه:

إن القديس يوحنا يوضِّح بجلاء وباختصار في نهاية الأصحاح العشرين الغرض الأساسي الذي من أجله كتب إنجيله هذا: «وآيات أُخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب في هذا الكتاب. وأما هذه فقد كُتِبَتْ لتؤمنوا أنَّ يسوع هو المسيح ابْنُ الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه» (يو٢٠: ٣٠و٣١). أي إن غرض الإنجيل هو:

أولاً: أن **يؤمن** القارىء أو السامع،

وثانياً: أن يحصل على **الحياة الأبدية** بهذا الإيمان.

والإيمان، عند إنجيل يوحنا، يتجه إلى حقيقتين أساسيتين:

الحقيقة الأولى: الإيمان بأن يسوع الإنسان الذي دُعي بهذا الإسم هو المسيح أي «مَسِيَّا اليهود» الذي عليه يتعلق كل رجاء إسرائيل، وهو محور كافة النبوات وغاية ونهاية وشرح كل أسفار العهد القديم.

الحقيقة الثانية: أن يسوع المسيح هذا هو هو ابن الله الحامل لجوهر الله مع الآب، وبسبب كونه قد صار إنساناً فهو بسبب جوهره الإلهي وبشريته معاً فهو قريب غاية القرب من كل بني الإنسان وهو يدعوهم بصفته الإلهية والبشرية أن يصيروا أبناء الله كامتياز يمنحه من واقع موته عن البشرية وقيامته.

وهكذا يعتمد شرح كل ما جاء في إنجيل يوحنا على هاتين الحقيقتين. ولقد تبرهنت، بالفعل والإختبار اليومي كما عاشته الكنيسة الأولى التي آمنت بهذا الإيمان، قوة هذا الإيمان **عندما انبثقت بالفعل الحياة الأبدية بكل برهان الروح ومواهبه في جماعة المؤمنين البسطاء** الذين اعتمدوا باسم المسيح مؤمنين بهاتين الحقيقتين: أن يسوع هو المسيح «المسيا»؛ وأنه هو ابن الله الآتي إلى العالم لفدائه.

أ ـ فكان إيمانهم **بالحقيقة الأولى** أن يسوع هو المسيح شهادة على صدق كل ما جاء في أسفار العهد القديم حيث كان يشهد المعتمد على أنه يؤمن بجميع أسفار العهد القديم.

ب ـ وكان إيمانهم **بالحقيقة الثانية** أن يسوع هو ابن الله شهادة على غنى ميراث المسيح في الله الموهوب لكل البشرية وعلى قدرة المسيح على إعطاء القيامة والتبنِّي والحياة الأبدية لكل مَنْ يؤمن به.

ونلاحظ أنه بالصفة الأولى، أي بأن يسوع هو المسيح، تلتحم المسيحية باليهودية فترث منها كل ميراث عطف الله ورحمته على كل الآباء والأنبياء القديسين القدامى.

أما بالصفة الثانية، أي بأن يسوع المسيح هو ابن الله نكون قد تحررنا كمسيحيين من كل حدود اليهودية الضيقة غاية الضيق.

٤ ـ تفنيد بعض الآراء فيما يخص غرض الكتابة لإنجيل يوحنا:

أ ـ يشترك بعض الآباء القدامى في الرأي القائل أن القصد من كتابة إنجيل يوحنا كان هو الدفاع عن المسيحية ضد الهرطقات التي كانت منتشرة في آسيا الصغرى واليونان في ذلك العصر. وهذه هي نظرية القديس إيرينيئوس[٢٣] وكذلك العلاّمة إيرونيموس (چيروم)[٢٤]. **ولكن الفكر الأرثوذكسي يستبعد تماماً أن يكون ذلك هو الأساس** أو كان الهدف الأساسي لكتابة الإنجيل. صحيح أن بعض الآيات تدحض تماماً هرطقة الإبيونيين وبدعة الدوسيتيين وادعاءات بعض تلاميذ يوحنا المعمدان الذين كانوا يقولون أن المعمدان هو صاحب الرسالة وليس المسيح، حيث جاء الرد في المواضع التالية: يو٣:٢٨؛ يو٥:٣٣ــ٣٦؛ يو١:٨و٩.

ولكن الحقيقة أن استعلان الإنجيل للحقائق الإلهية يأتي بصورة كاملة ومطلقة، فهي ليست بحد ذاتها دحضاً لرأي معين بل هي دحض لكل رأي، في كل مكان وزمان، يأتي مخالفاً للحقيقة الإلهية. فالحق المطلق هو أساس وهدف الإنجيل.

ونظرة واحدة على رسائل القديس يوحنا تجعلنا ندرك ما هو أسلوب الرد على الهرطقات الصريح الواضح والمباشر الذي يتبعه القديس يوحنا ضد هؤلاء المبتدعين أنفسهم، وذلك حينما يكون حُرًّا في الهجوم المباشر الذي يكتبه تحت مسئوليته وبلغته وفكره وإيمانه هو. ففي الرسالة الأولى يشير بأصبعه بكل جراءة ومواجهة ضد الإبيونيين (ومعنى اسمهم: الفقراء من اليهود، وهم شيعة تحط من قدر المسيح ومنهم «كيرنثوس» عدو القديس يوحنا) فيقول: «مَنْ هو الكذاب إلاَّ الذي ينكر أن يسوع هو المسيح. هذا هو ضد المسيح الذي ينكر الآب والإبن» (١يو٢:٢٢)؛ «...قد صار الآن أضْدادٌ للمسيح كثيرون» (١يو٢:١٨). أما ضد الدوسيتيين (أي الشبهيين وهم شيعة تقول إن المسيح لم يتجسد تجسداً حقيقياً بل كان شَبَهاً أو خيالاً وأن يهوذا الإسخريوطي صُلب بدل المسيح[٢٥]) فيقول: «...لأن أنبياءَ كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم. بهذا تعرفون روح الله: كلُّ روح يعترف

23 Iren., Adv. Haer. III, 11,1.

24 Hieron., Comm. on Matt., prolog.

25 Oxford Dict. of the Christ. Church, p. 409.

بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله؛ وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله. وهذا هو روح ضد المسيح الذي سمعتم أنه يأتي، والآن هو في العالم» (١يو٤: ١-٣).

ب - كذلك ينتحي بعض الآباء مثل يوسابيوس(٢٦) وإيرونيموس(٢٧) (چيروم) ناحية «نظرية التكميل»، أي أن إنجيل يوحنا جاء ليكمل ما في الثلاثة الأناجيل الأخرى. ولكن الحقيقة أن إنجيل يوحنا يختص بالكشف عن الأغوار اللاهوتية المتروكة في روايات الأناجيل الثلاثة وخاصة تلك الروايات التي سردت الأحاديث والتعاليم والحوار الذي كان يدور بين المسيح والتلاميذ وبين المسيح والمتعلمين من الكتبة والفريسيين أو مع الذين كانوا يناصبونه العداء ليمسكوه بكلمة، الذين ما برحوا يحاورونه في أدقّ وأخطر الأمور ليوقعوه في مخالفة قضاياهم. هذه التشكيلة المعقّدة من النزعات والثقافات والنيات استغلها القديس يوحنا في إبراز أقوال وتعاليم المسيح لأنه كان يعلم بالروح أنها نفس التشكيلة لكل عصر قادم، لذلك دقّق القديس يوحنا جداً في الكشف عن خلفيات النيات المختفية وراء هذه المصادمات والتي قدم عليها المسيح أقوى الردود، وهي الردود التي أصبحت كما هي في إنجيل القديس يوحنا أعظم مادة يمكن أن تواجه بها الكنيسة كل فلسفات وثقافات العالم المنحرفة في كل عصر.

فإن بدا لبعض علماء الكتاب المقدس وشُرّاحه أن التعاليم التي قدّمها القديس يوحنا في إنجيله إنما تكمل ما جاء في الأناجيل الثلاثة، فذلك مرجعه إلى **أنها تعاليم كاملة بحد ذاتها صالحة أن تكمّل كل معرفة حقيقية عن المسيح**، لأن الإلهام الروحي واضح غاية الوضوح والذي يُقال بالروح يكمل كل معرفة روحية. ولكن لم يكن قصد القديس يوحنا أبداً أن يكمل ما جاء في الأناجيل الأخرى، لأن العلماء يقررون بكل ثقة أن القديس يوحنا لم يكن لديه نسخ من الأناجيل الثلاثة.

ج - كذلك يتجه بعض المفسرين القدامى أمثال اكليمندس الإسكندري(٢٨) إلى فكرة أن إنجيل يوحنا كُتب من أجل التعليم بمعنى أنه جاء شرحاً للأناجيل الأخرى وليس سرداً تاريخياً كباقي الأناجيل. ولكن للأسف، لأنه حتى وإن كان بالفعل يشرح ما جاء في الأناجيل الأخرى إلا أن العامل الأساسي فيه هو صياغة الحقائق كما هي لغاية واحدة محدودة وهي هكذا: «**وأما**

26 Euseb., Hist. Eccl. III, 24.

27 Hieron., op. cit., prolog.

28 Euseb., op. cit., VI, 14,7.

هذه (الآيات) فقد كُتبت ... لكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه» (يو٢٠: ٣١). إذن، فهو يهدف إلى غاية عملية وليس نظرية تعليمية.

د – كما يقطع بعض الشُرَّاح بأن قصد إنجيل يوحنا كان هو التوفيق بين الأمور التي كان متنازعاً عليها لاهوتياً أو تاريخياً. ولكن الحقيقة أن إنجيل يوحنا قدّم مادة إلهية حية من أقوال المسيح وتعاليمه تصلح بحد ذاتها أن ترد وتوفِّق وتصالح بين كل المتناقضات، وهذا شأن الروح. فإنجيل يوحنا بأقوال المسيح التي فيه لا يمكن وضعه في موازنة أمام أية مشكلة مهما كانت، فهو وإن كان يردُّ عليها حتماً – لأنه الحق ذاته – إلا أنه في عظمة ورزانة يتفوق فوق كل المشاكل ويظل كذلك أبداً! فبهذا الشموخ واجه إنجيل يوحنا كل الفلسفات، ومنها فلسفة الغنوسيين[٢٩] أعتى شيعة للمتعلمين في العالم، وقد كانت أخطر الفلسفات طرًّا، ولكنه باستعلان الحق الذي في المسيح حكم عليها، وبقي الإنجيل وانمحت الغنوسية.

---

(٢٩) هم جماعة «المعرفة» يخلطون المسيحية بالسحر والخرافات. وأهم قادتهم ڤالنتينوس وفاسيليدس وماركيون. وإذا أراد القارىء معرفة شيء عن هذه الهرطقات كلها فليرجع إلى كتاب «التقليد وأهميته في الإيمان المسيحي»، الطبعة الثانية ١٩٨٧، ص ١٠٥–١١٥.

الفصل الثالث

طابع إنجيل يوحنا

بسيط، إعجازيٌّ في بساطته، صافٍ ليس فيه ما يعكّر الفكر وإن كان فيه ما يحيّر أعظم العقول، هادىء كهدوء الأبدية! كلماته حية محمولة على الروح، عميقة لا يمكن الوقوف لها على قرار، ترتفع بمَنْ يقرأها كأجنحة سرّية في سرعة وسهولة حتى تضعه أمام الله، وكأن كلامه رؤيا تسلب قارئها وَعْيَه فترة، ثم تتركه وحده ليحكم على نفسه.

ولم يكن جزافاً أن يصف القديس يوحنا القميص الذي كان يلبسه المسيح وقت أن صُلب: «وكان القميص بغير خياطة منسوجاً كله من فوق. فقال بعضهم لبعض لا نشقُّه بل نقترع عليه» (يو١٩: ٢٣و٢٤). نعم كان منسوجاً كله من فوق لم تضمّ أطرافه يدٌ، وحدة واحدة، كاملاً ومنسجماً. هكذا كان إنجيله! ولا يزالون يقترعون عليه لمَن يكون في حوزة إيمانه ولم يستطع أحد أن يشقه إلى الآن!

مَن يقرأ إنجيل يوحنا يمكن أن يبتدىء فيه، ولكن أن ينتهي منه فهذا أمر يفوق الزمن، فإنجيل يوحنا ليست له نهاية لأنه يسلّمك إلى ما وراء الكتابة وما بعد الزمن. وبحسب تعبير القديس يوحنا نفسه فهو يفوق طاقة العالم سعة وعلماً وإدراكاً: «وأشياء أُخر كثيرة صنعها يسوع إن كُتبت واحدة فواحدة فلست أظن أن العالم نفسه يَسَع الكتب المكتوبة. آمين» (يو٢١: ٢٥). وكأن قول المزمور قائم في ذهنه: «لكل كمال رأيت حدًّا، أما وصاياك فواسعة جداً.» (مز١١٩: ٩٦)

إنجيل يوحنا صورة حية للمسيحية التي تحمل طابع الرسولية في أوج نورها واستنارتها، كنيسة العصور الأولى، كنيسة الأغابي (ولائم المحبة) والأسرار والبتولية!!

الكنيسة القبطية لا تزال تحمل طابع إنجيل يوحنا. والذين يعيشون بروحها في إيمان وإخلاص وتقوى التزاماً بتراثها وتقليدها المسلّم مرة للقديسين هم جميعاً كثيرو الشَّبَه بالقديس يوحنا. لذلك،

فإنجيل يوحنا هو السِّفْر الروحي الذي أُعطِي أن يفكَّ ختومه لكل مَن تأجَّج حب المسيح والآب في قلبه وكان أميناً على ماضي التراث وحاضره.

فكر الإنجيل بحسب الشارحين له عموماً هو لاهوتي، أي منشغل بالله إلى أقصى حد، وهدفه أن يُشْغِل القارىء بالله ويُشعِل في قلبه جذوة الإيمان الحي الذي يورِّثه الحياة الأبدية. ولكنه لا يقدم لنا الله بدون مدخل حي تاريخي فهو حلقات من الإستعلانات عاشها وآمن بها أشد الإيمان ونادى وعلَّم بها وصلَّى بها ما يقرب من ثمانين سنة، إن قلنا أنه أتى إلى المسيح وهو ابن العشرين عاماً وأنهى حياته على الأرض وهو ابن المائة.

والقارىء إذا انتبه يكتشف أن إنجيل يوحنا، من المقدمة حتى النهاية، هو قصة واحدة لاهوتية منسجمة ومتحدة، أو هو استعلان إلهي مرتَّب وموقَّع تاريخياً، وهو كله واقعٌ تحت مبدأ عقائدي واحد يضم جميع أطرافه. وليلاحظ القارىء الدارس الواعي أن هذه الوحدة اللاهوتية المنسجمة لا تأتي جزافاً أو من مهارة بشر مهما أُوتي من مواهب، ولكنها صَنْعة حائك سماوي مُطرِّز بالنعمة. وإذا دقَّقنا نجد أن هذه الوحدة قائمة على عاملين: **الأول**، رؤية لاهوتية فائقة موحِّدة للتقليد الرسولي ككلٍّ الذي تقوم عليه كل الأناجيل، يراها الكاتب بالروح موقَّعة على كل أجزائه فتبدو الأجزاء مترابطة منسجمة وليست مجرد متفرقات من كلمات وعظات ومعجزات عملها المسيح في المكان والزمان، وبذلك يبرز إنجيل يوحنا شخص المسيح متألِّقاً بكامل صفاته متجمعة **في كل زواياه**، كما جاءت متفرقة في الأناجيل الأخرى. أما العامل **الثاني** فهو الغرض والهدف الواحد الذي يجمع أطرافه وهو الإيمان بالمسيح ابناً لله، الأمر الذي كان في زمان كتابته عزيزاً وضرورياً أقصى ما تكون الضرورة في وسط فوضى الهراطقة المحاربين للإيمان الصحيح.

وإنجيل يوحنا، إذا عبَّرنا عنه ببساطة، نجده شهادة وليس كرازة، فكاتبه يقف شاهداً لكل كلمة شاهدها وكتبها. وعلى عمق الحق الذي فيه، لا يمكن للقارىء أن يفلت من أن يقع هو الآخر تحت هذه الشهادة. وهذا هو غرض الإنجيل أو غرض الوحي الإلهي الذي أملاه. اسمعه وهو يشهد: «... وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا. الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا.» (١يو١: ٢و٣)

ويلزم جداً أن يعرف القارىء أن الكنيسة التي كُتب فيها هذا الإنجيل كانت واقعة أثناء الكتابة تحت اضطهاد بليغ مع مقاومات من جماعات منشقة ذات أصول كثيرة تحيِّر العقول، منها ما هو يهودي ومنها اليوناني ومنها جماعات مسيحية كانت أعضاءً في الكنيسة الأولى(١) وجرفتها تيارات

---

(١) يتضح ذلك من هذه الآية: «أُكتُبْ إلى ملاك كنيسة أفسس. هذا يقوله ... أنا عارف أعمالك وتعبك وصبرك وأنك لا تقدر أن تحتمل الأشرار، وقد جرَّبتَ القائلين أنهم رُسُلٌ وليسوا رُسُلاً فوجدتهم كاذبين.» (رؤ٢: ١و٢)

بعضها فلسفي وبعضها تصوُّفي وبعضها سرائري سحري. ومن هذه الجماعات مَنْ جاء من اليهودية قبل وبعد خراب أورشليم ومن روما والإسكندرية، ومنهم من كان مستوطناً تلك البلاد منذ مئات السنين بعد سبي ما بين النهرين لليهود. وهؤلاء هم جماعة اليهود الأصوليين الذين كانوا متمركزين في أفسس، وقد كان لهم كيان ومجمع وسنهدريم نَشِط. وقد ذكرهم القديس يوحنا في سفر الرؤيا (٢)، لذلك نسمع في إنجيل يوحنا - الذي تأثر من اضطهادهم جداً - ذكراً كثيراً لأعمال اليهود المقاومين للمسيح والإيمان.

إنجيل يوحنا له طابع كنسي سرائري يبدأ فيه تصوير الكنيسة بالإثني عشر في حياتهم السريّة حيث كان المسيح فيهم رأساً مدبّراً وليس رئيساً يحكم، فكان معهم وليس فوقهم «الله معنا» = «عمانوئيل»، «أنا **معكم** زماناً هذه مدته» (يو١٤: ٩)، ونسمع المسيح يخاطب الإثني عشر كأحباء بل كأولاد «لا أعود أسميكم عبيداً... بل **أحباء**» (يو١٥: ١٥)، «**يا أولادي** أنا **معكم** زماناً قليلاً بعد» (يو١٣: ٣٣)، «**يا غلمان** ألعل عندكم إداماً؟» (يو٢١: ٥)

والقديس يوحنا لم يشرح لنا اللاهوت على مستوى المنطق والعقل، أو على مستوى التأمل في ما وراء الطبيعة، وهو لم يعرّفنا حقيقة الله عن طريق الإستبطان أو الخبرة الصوفية أو عن طريق تداريب النسك والتطهيرات اللازمة؛ ولكنه قدّم لنا الله والحق والحياة الأبدية في شخص «رأيناه»: «الذي كان من البدء الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا، من جهة كلمة الحياة، فإن الحياة أُظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم...» (١يو١: ١و٢). إذ قدّم شخص ابن الله الوحيد متجسداً متأنّساً ليكلمنا بنفسه عن نفسه وعن أبيه الذي لم يره أحد قط إلاّ هو، الذي عرّفنا بسرّ الحياة الأبدية التي فيه والتي غلبت الموت وبها وفيها قام ونفخها في تلاميذه مقدّماً البرهان على ما يقول بما يعمل حتى «إن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال.» (يو١٠: ٣٨)

والقديس يوحنا نفسه يقف شاهداً لصدق لاهوت المسيح وتجسده إذ يقدّم نفسه بلا مواربة كشاهد عيان لما رآه وسمعه ولمسه، وكشريك أخذ بالفعل من ملئه الإلهي: «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة» (يو١: ١٦)، أي بفيض متصل. ثم هو في إنجيله يدعونا لمثل هذا الإيمان والأخذ ليكون لنا حياة باسمه.

والقديس يوحنا في إنجيله يقدّم لنا في عروض القصة أو الحادثة أو المعجزة المنظورة سرّ حضور

---

(٢) «أنا أعرف أعمالك وضيقتك وفقرك مع أنك غنيّ، وتجديف القائلين إنهم يهود وليسوا يهوداً بل هم مجمع الشيطان.» (رؤ٢: ٩)

الله غير المنظور كاشفاً عن الفعل الإلهي المنسوجة منه القصة أو المعجزة، فيحس القارىء بالجانب الروحي الخفي، ويجد نفسه في مواجهة السرّ الإلهي فيكتشف في المسيح بهاء مجد الله، ويرى فيه صورة جوهره: «لعازر هلمّ خارجاً.» (يو١١: ٤٣)

وهكذا وعلى مدى صفحات الإنجيل يتجلى في المسيح احتضان الأبدية للزمان باتفاق ومودة وجبروت المصالحة والمُصالح، كما يرى في المسيح ظهور غير المنظور في المنظور دون خداع أو خيال بل عن طريق اللمس والمشاهدة والواقع الحي، كما يرى في المسيح استعلان الحق **«بالكلمة»** أو بالآية سيّان، وفي النهاية يتحقق أن الله صار مدرَكاً في شخص المسيح يسوع وأن الحياة الأبدية قد انفتحت كل صنابيرها الغامرة بمفاعيلها السرية لتملأ النفس والعقل والقلب والروح، حيث يتقابل في شخص المسيح الإبن المحبوب قلب الله مع قلب الإنسان المهجور: «... الذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأظهر له ذاتي» (يو١٤: ٢١). وهكذا يتم الإستعلان عن طريق الحب، استعلان ذات المسيح وذات الله بالتالي. وغياب الحب هو غياب الله. «والذي يبغضني يبغض أبي أيضاً» (يو١٥: ٢٣). من أجل ذلك لقّبوا إنجيل يوحنا بالإنجيل الروحي وكاتبه بيوحنا اللاهوتي ويوحنا الحبيب، وذلك من واقع الأثر الفعلي الذي خطّه إنجيل يوحنا في الكنيسة الأولى وما حققته الكنيسة بالفعل من آياته.

ولاهوت إنجيل يوحنا غير جدلي، فهو يقدم الحقائق اللاهوتية كما هي، كما سمعها وكما رآها ووعاها وكما استلهمها بروحه فيما بعد بسِرّ الروح القدس الذي قاده بالوحي من أول كلمة إلى آخر كلمة. فهو لا يستدرج القارىء إلى النقاش أو الجدل ولكنه يعلن عن الحق باقتضاب شديد ولكن بسلطان. فالقديس يوحنا لم يكن بطبيعته رجل منطق، ولا الروح الذي فيه كان كذلك، بل كان نبيّ ورائي العهد الجديد. لم يحاول قط أن يبرهن على حقيقة واحدة ذكرها في الإنجيل، بل ترك الحقيقة تعلن عن نفسها بالسرّ الكائن فيها والروح الكائن في قارئها!

والقديس يوحنا يقرر الحقائق العميقة جداً بكلمات بسيطة جداً: «ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب» (يو١: ١٤). (ووحيد الآب ترجمة للكلمة اليونانية monogenes = μονογενής. والقديس يوحنا هو وحده الذي استخدم هذا التعبير دون باقي كاتبي الأناجيل. والتعبير يفيد «وحدة الجنس» فهو (المسيح) ابن وحيد ليس له مثيل، لأنه يمثل بنوّة فريدة لأنها في ذات الله. ويلاحَظ هنا أن القديس يوحنا يسمّي المسيح بـ**«الوحيد»** فقط دون ألقاب أو أوصاف أخرى).

والحقائق التي يقررها الإنجيل بالرغم من أنها ضوابط إيمانية عقائدية غاية في الدقة والعمق والشمول، فإنه يسردها دون أن ينبه الذهن إليها أو يشير إلى أهميتها «المولود من الجسد جسد هو،

والمولود من الروح هو روح» (يو٣: ٦). ويتحدث عن القاعدة ويطلقها كقانون إلهي ويترك الإستثناء فيقول: «ما دمتُ في العالم فأنا نور العالم» (يو٩: ٥). ولكن المعروف قطعاً أنه نور ليس لكل الذين في العالم بل كثيرون عثروا فيه وفضّلوا الظلمة عليه. هذا لم يشغل إنجيل يوحنا حتى لا ينحرف عقل القارىء وقلبه وراء السلبيات بل لكي ينطبع بالإيجابية الحرة وحسب. هو ينصح فقط: «سيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام» (يو١٢: ٣٥). فإذا دققنا نجد أن القديس يوحنا ينظر إلى الغاية التي يحددها الإلهام في قلبه ويصوِّب كلماته نحوها دون أن يعرِّج هنا أو هناك لأنه يعلم أن مهمته تنصبُّ كلها في قيادة النفس الإنسانية إلى موطنها السماوي؛ إنما تخرج الكلمات بروح رئاسي وبسلطان، مشيرة إلى الفم الذي كان قد نطقها! أليس هو الإنجيل تذكرة السَّفَر المختومة؟

إنجيل يوحنا يفترض في القارىء الإستعداد للسماع والفهم بل ويفترض فيه أيضاً الإيمان. فلو دقق القارىء في أسلوب إنجيل يوحنا فإنه يكتشف خلوَّه تماماً من طابع الشخصية للكاتب، فالحقائق مقدَّمة بسلطان الله يحس القارىء حينما يقرأها لأول وهلة أنها بعيدة المنال، بعيدة عن مستوى المعقولات التي نتصورها جميعاً: «...ينبغي أن تولدوا من فوق» (يو٣: ٧). قالها المسيح فلما تعثَّر فيها نيقوديموس أنكر عليه المسيح تعثُّره: «أنت معلِّم إسرائيل ولست تعلم هذا؟» لأنه مفروض أن نيقوديموس يملك مفاتيح ملكوت السموات. لأن الحق الإلهي لا يُناقَش بالعقل بل يُستلهم بالروح، فيجده الإنسان أسهل من كل علوم الدنيا. والقديس يوحنا لا يحاول تقريبه للقارىء لتفادي عثرة نيقوديموس على الأقل، ولكنه لا يتدخل قط من عنده لتبسيطها أو شرحها بل يتركك في موقف نيقوديموس تماماً. لقد توارى القديس يوحنا نهائياً عن المشاهد جميعها، وأخيراً وأخيراً جداً وفي نهاية إنجيله يقول كلمته ويبوح بالسر: «... هذا هو التلميذ الذي يشهد بهذا وكتب هذا. ونعلم أن شهادته حق» (يو٢١: ٢٤). فالقديس يوحنا اكتفى في إنجيله أن يقدم نفسه لا كشارح ولا كمُدافع ولا كمُحاجج ولكن كان مثلاً صادقاً لمَن شهد وآمن. وهو يدعوك إلى هذا عينه.

لذلك يحس القارىء أن دعوة الإيمان في إنجيل يوحنا شيء أعلى بكثير عن رغبة الكاتب، بل هي ضرورة ملحَّة تمليها على الكاتب سلطة إلهية تفوق معرفته وتفوق مقدرته بل وتفوق غيرته أيضاً!! فنحن مهما دققنا في الأحاديث الساخنة ومحاجاة المسيح مع اليهود التي سجَّلها القديس يوحنا لا نقف على أي أثر لشخصية القديس يوحنا، ولا على أية ملامح لانفعالاته ككاتب أو راوٍ أو شاهد، وهذا ليس من نوع التواضع ولا من قبيل عدم الإحساس بالذات كما يقول بعض المفسرين، ولكن هذا كان وضع كاتب الإنجيل أمام الصوت الإلهي الذي يرنُّ في أعماقه فكان يسجِّله كما هو.

لذلك حينما أراد القديس يوحنا في ختام إنجيله أن يعلن صوته بالشهادة لحق الإنجيل الذي كتب، لم يستطع أن يقول «أنا» بل «نحن»: «ونحن نعلم أن شهادته حقٌّ». هنا يتذكر القديس يوحنا بقية التلاميذ وكل الذين رأوا وسمعوا الرب وآمنوا به وكأنه معهم. ومع الرب بالروح كان هو يكتب وكان يشهد. فالقديس يوحنا تحصَّن في كلمة «نشهد» في صيغة الجمع، أي «نحن»، ويستمد منها سلطان الإنجيل كله!!!

ثم مَنْ هو الذي يستطيع أن يعلم في ذلك الوقت (سنة ١٠٠م.) أن شهادة إنجيل يوحنا حقٌّ؟؟ وكل الرسل ماتوا. ثم مَنْ ذا الذي له الحق أن يختم فوق شهادة رسول مثل يوحنا؟ علماً بأن منطق إنجيل يوحنا أساساً أنه يرتفع فوق مستوى شهادة الناس: «أنا لا أقبل شهادة من إنسان...» (يو٥: ٣٤). لذلك فشهادة القديس يوحنا الرسول المدموغة بكلمة «نحن» إنما هي أعمق تعبير عن حالة الشركة السرية التي ربطته شخصياً بالرب وبالروح وبكافة الرسل الذين عاينوا كل حقائق الإنجيل معه واشتركوا في حوادثه. فكلمة «نحن» هي في الواقع صوت الكنيسة الأولى كلها وعبر الدهور. وبذلك يكون القارىء مدعوًّا أيضاً ليكون واحداً من «نحن» كشاهد لحق المسيح الذي أتى ويأتي أيضاً، وذلك كمَنْ يرى ويسمع بعيني يوحنا وقلبه: «آمين. تعالَ أيُّها الرب يسوع.» (رؤ٢٢: ٢٠)

الباب الثاني

علاقة إنجيل القديس يوحنا بالعهد القديم

هي علاقة ممتدة تضرب جذورها في كل محيط العهد القديم. فإنجيل يوحنا بحد ذاته وحدة تجميع عظمى لكل الميراث والتراث: آباء وأنبياء وتوراة وناموس ومدارس ربيين والمفاتيح القديمة لملكوت السموات مع المسيا رجاء إسرائيل. سندرسها مع القارىء واحدة فواحدة لعله يكون من الوارثين. وسنجمعها في المواضيع الآتية:

١ — الخلفية العبرية في أسلوب القديس يوحنا.

٢ — التوراة والناموس في إنجيل يوحنا.

٣ — المسيا في العهد القديم وفي إنجيل يوحنا.

٤ — «إلى خاصته (اليهود) جاء». تفرُّد إنجيل يوحنا في الكشف عن سر كيف ولماذا «خاصته لم تقبله».

٥ — النقاط الرئيسية التي ركز عليها إنجيل يوحنا كاشفاً عن درايته الفذة للإمتيازات التي مُنحت لليهود، والمراحل التي عبرت فيها الأمة اليهودية، وتطبيق النبوات على أعمال المسيح.

* * *

الفصل الأول

الخلفية العبرية في أسلوب القديس يوحنا

لقد اتضح للعلماء أن إنجيل يوحنا له خلفية عبرية يهودية ذات أبعاد عميقة في ذهنية القديس يوحنا الرسول وفي كتابته. وهذا تأكَّد لهم بعد أن أرجع بعض العلماء كثيراً منها إلى أصولها الأرامية والعبرانية، وأشهرهم العالم بورني(١) الذي حلَّل تركيب الجمل، وأدوات الوصل، والضمائر، والأفعال، وأدوات النفي، وأثبت أن وراء اللغة اليونانية التي كتب بها القديس يوحنا إنجيله، توجد اللغة الأم للكاتب واضحة. وقد ترجم هذا العالم بعض الجمل إلى الأرامية لكي يثبت أصل التركيب بصورة رائعة حقاً، وسنقدِّم بعض الأمثلة لذلك.

ثم جاء بعد بورني العالم توري C.C. Torrey ليثبت صدق ما وصل إليه بورني بل و يتراءى له أن الأناجيل الأربعة مكتوبة أصلاً باللغة الأرامية ومترجمة إلى اليونانية(٢). وهذا يؤيد ما وصل إليه قديماً (نهاية القرن التاسع عشر ١٨٩٣م) العالم والأسقف لايتفوت، الذي قرر أن إنجيل يوحنا ربما يكون أكثر كتب العهد الجديد عبرانية(٣).

ولكن آخر ما وصلت إليه أبحاث هؤلاء العلماء هو أن القديس يوحنا كان صاحب لغتين: اللغة الأم الأرامية التي عاصر بها السيد المسيح وتكلَّم بها، واللغة المكتسبة اليونانية التي كتب بها إنجيله.

والقديس يوحنا يدرك أنه يكتب لغير اليهود لذلك اهتم بأن يترجم كل الإصطلاحات أو الكلمات الأرامية أو العبرية إلى معناها باليونانية، وعلى سبيل المثال كتب هكذا:

«كيفا وترجمتها الصفا أي الصخرة» (يو١: ٤٢)،

---

[1] Borney, Aramaic Origin of the fourth Gospel (1922).

[2] Hunter, According to John, p. 19.

[3] Ibid., p. 18.

«**مسيا** أي المسيح» (يو١: ٤١)،
«سلوام وتفسيره مُرْسَل» (يو٩: ٧)،
«توما أي التوأم» (يو١١: ١٦)،
«جَبَّاثَا أي البلاط» (يو١٩: ١٣)،
«جُلْجُثَة أي الجمجمة» (يو١٩: ١٧)،
«رَبُّوني أي معلم» (يو٢٠: ١٦).

كذلك يتميز أسلوب إنجيل يوحنا باستخدام واو العطف للربط بين الجمل أو شبه الجمل بدل التركيب للوصل الصحيح في اليونانية، مما يكشف عن تغلُّب اللغة الأم في لغة الكاتب، مثل: «وتَفَل...، وصَنَع...، وطلى...، وقال...» (يو٩: ٦و٧)، وهذا غير مألوف في اللغة اليونانية. وهكذا يكشف الأسلوب عن الأرامية المختفية وراء اليونانية.

كذلك يتميز أسلوب إنجيل يوحنا بالإستغناء عمّا نسميه أسماء الوصل، مثل «**الذي**» وحروف العلة «**لأن**» و«**لذلك**» و«**لكن**»، للربط بين الكلام حسب الأصول اليونانية المدرسية، بل إنه يسرد الكلام متتابعاً بدون تعقيد على سجيَّته الأرامية كجمل متراصة تعطي المعنى تماماً ولكنها تتجاوز أصول التراكيب اللغوية. وذلك واضح في أصحاح ١٥، إذ نجد الآيات متوالية ومتتالية وليست متصلة، لا يوصلها ببعض أي حرف أو كلمة: [«أنا الكرمة...، كل غصن...، وكل ما يأتي...، أنتم الآن أنقياء...، اثبتوا فيَّ...، كما أن الغصن...، أنا الكرمة...، الذي يثبت...، لأنكم بدوني...، إن كان أحد...، إن ثبتُّم...، بهذا يتمجَّد أبي...، كما أحبني الآب... إلخ»]. هذا أسلوب أرامي صرف يستخدمه القديس يوحنا خاصة عندما يسرد أقوال المسيح وكأنه يترجم ترجمة فورية.

كذلك لاحَظ علماء اللغة أن القديس يوحنا في أكثر من عشر آيات استخدم الضمائر بحشو زائد كما هو سائد تماماً في الأرامية. وهذا لا يستقيم إطلاقاً مع اللغة اليونانية (ولا حتى العربية):
«الذي **أنا** لست له مستحقاً أن أحلَّ سيور حذائه.» (يو١: ٢٧)
«أنك **أنت** أرسلتني.» (يو١٧: ٨و٢٥)

كذلك فرط في استخدام الضمائر في بدء الجمل:
«**وكل الذين** قبلوه **إليهم هو** أعطى...» (يو١: ١٢)
وهذا تركيب أرامي أكيد.

كذلك لاحَظ العلماء استخدام الإنجيل لحرف العلة «لكي» ἵνα ١٢٩ مرة أي أكثر من ضعف

إلى ثلاثة أضعاف استخدامه في الثلاثة الأناجيل الأخرى. وهو يكشف عن اللهجة الأرامية المتغلبة على نطق الكاتب، ولا يمكن أن تستقيم مع اليونانية الأصيلة.

وقد لاحظ العالِم بورني أن القديس يوحنا يستخدم حرف العلة «لكي» في غير موضعه اللغوي، إذ يستخدمه عوض اسم الوصل «الذي»؛ كما في الآية:

«هذا هو الخبز النازل من السماء **لكي** (الأصح لغويًّا «الذي») يأكل منه الإنسان ولا يموت.» (يو٦: ٥٠)

«بل تأتي ساعة **لكي** (في اليونانية) يظن فيها كل مَن يقتلكم أنه يقدم خدمة لله.» (يو١٦: ٢)

كما اكتشف العالِم بورني، وذلك سنة ١٩٢٥م، أن بترجمة كلام المسيح كما جاء في إنجيل القديس يوحنا ظهر أن الكلام جاء أصلاً إما سَجْعاً بالنثر وإما مُقفىً بالشعر، شأنه شأن الأسفار الموحى بها في المزامير والأمثال وغيرها، مما يشير إلى أنها إما من أصل أرامي محفوظ وإما أنها منقولة من أصل واحد مكتوب.

ولكن في سنة ١٩٤٦م جاء العالم متى بلاك(٤) الذي تقدم خطوة أكثر في أبحاث العالم بورني من جهة أصالة اللغة الأرامية التي وراء الإنجيل، فوجد ترادفاً بديعاً بين ألفاظ المسيح، وأعطى في ذلك المثل الذي جاء في الآية: «كل مَنْ يعمل الخطية فهو عبد للخطية» (يو٨: ٣٤)؛ حيث كلمة «يعمل» بالأرامية هي «**أبد**»، وكلمة «عبد» تنطق أيضاً «**أبد**».

كذلك في كلام المعمدان في قوله عن «**العريس** وسماع **صوت** العريس وأنه ينبغي أن **ينقص** المسيح **يزداد** أي يصير الكل». **في** الأرامية كلمة «العريس» تنطق **(كال ليثا)** والصوت **(قالا)**، وينقص **(قيلال)** ويزيد أي يصير الكل **(كلال)**. وهكذا فليتصور القارىء جمع هذه المترادفات ذات الصوت والرَّتم الواحد معاً كيف تكون الآية إبداعاً في الرتابة النغمية الموسيقية.

وأخيراً جاء العالم دوود Dodd وقرر أن الأرامية تقف وراء إنجيل يوحنا لتبيِّن أن شخصية كاتبه يهودي بكل تأكيد، بالرغم من الوسط الذي كان يعيش فيه واللغة اليونانية التي يتكلمها ويكتب بها.

كذلك يأتي علماء جدد أكثر اقتناعاً بأرامية وعبرية إنجيل يوحنا ويقررون بعد بحوث مضنية أن هناك تقليداً (منقولات محددة متوارثة بالتزام ودقة) سواء شفاهية محفوظة أو كتابةً، وراء كل أقوال

[4] Matthew Black: An Aramaic Approach to the Gospels & Acts, 3rd Ed. 1967, pp. 171,147.

المسيح المدوَّنة في إنجيل يوحنا، وليس من المستبعد بل هو من **العدل** أن نقول أن القديس يوحنا كان يحتفظ بها خاصة لديه([5])، وهؤلاء العلماء هم:

Driver, Bultmann, T.W. Manson, Matthew Black.

ولكن كان قد سبقهم منذ مائة عام تماماً العالم التقي لايتفوت وقرر ذلك على عهدته.

وواضح من أسلوب القديس يوحنا أنه يستخدم التبادل المعنوي بين النفي والإيجاب كما هو في أشعار المزامير تماماً. وذلك في اللغة العبرية يُقصد به من حيث الوحي زيادة التأكيد على السامع، وذلك كله صار من صميم التقليد العبري.

وهذا نجده واضحاً هكذا:

«كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان.» (١: ٣)

«فاعترف، ولم ينكر.» (١: ٢٠)

«لكن يسوع لم يأتمنهم على نفسه، لأنه كان يعرف... ما كان في الإنسان.» (٢: ٢٤و٢٥)

«كل مَن يؤمن به لا يهلك، بل تكون له الحياة الأبدية.» (٣: ١٦)

«وأما الغريب فلا تتبعه، بل تهرب منه.» (١٠: ٥)

«أنا كلمت العالم علانية، ... وفي الخفاء لم أتكلم بشيء.» (١٨: ٢٠)

كما يلاحِظ القارىء أن هذا نفسه هو أسلوبه في رسائله:

«الله نور، وليس فيه ظلمة البتة.» (١يو١: ٥)

«فهو كاذب، وليس الحق فيه.» (١يو٢: ٤)

«نضل أنفسنا، وليس الحق فينا.» (١يو١: ٨)

«نجعله كاذباً، وكلمته ليست فينا.» (١يو١: ١٠)

«وهي حق، وليست كذباً.» (١يو٢: ٢٧)

«يكون لنا ثقة، ولا نخجل منه.» (١يو٢: ٢٨)

كذلك يستخدم إنجيل يوحنا نفس أسلوب الوحي الذي جاء في سفر المزامير وهو تكرار الكلمات ذات الثقل العالي لتنبيه روح الإنسان لشدة أهميتها بصورة تأكيدية، كما جاء في مزمور ١١٩ من جهة: «ناموسك»، «وصاياك»، «أقوالك»، «شريعتك»، «أحكامك»، حيث تكرارها ملفت للنظر جداً. هكذا جاء في إنجيل يوحنا مثل مطلع الإنجيل من جهة «الكلمة»:

---

[5] Bultmann, cited by: Hunter, op. cit., pp. 17,22.

«الكلمة، والكلمة...، وكان الكلمة...» (١: ١)

كذلك «الشهادة» يكررها:
ـ «جاء للشهادة ليشهد...، بل ليشهد...» (١: ٧و٨) وذلك في آية واحدة.
ـ «إن كنت أشهد لنفسي، فشهادتى...، الذي يشهد لي...، ... أن شهادته التي يشهدها...، ... فشهد للحق...، وأنا لا أقبل شهادة...، وأما أنا فلي شهادة أعظم...، ... هي تشهد لي...، والآب نفسه... يشهد لي، وهي التي تشهد لي...» وهذه كلها جاءت متوالية وراء بعضها في الآيات (٥: ٣١—٣٩)

كذلك كلمة «السجود» تتكرر عشر مرات في خمس آيات متتالية:
«آباؤنا سجدوا...، ... يُسجد فيه...، تسجدون...، أنتم تسجدون...، أما نحن فنسجد...، ... حين الساجدون...، يسجدون...، ... مثل هؤلاء الساجدين له، ... والذين يسجدون...، ينبغي أن يسجدوا.» (٤: ٢٠—٢٤)

كذلك كلمة «الخبز» أي الجسد، تتكرر ١٦ مرة متتالية في أصحاح واحد (يو٦: ٢٧—٥٨). ولا يجهل القارىء قيمة «الجسد» في المسيح.

كذلك كلمة «الحياة» ومشتقاتها (الحي، يحيا... إلخ...) تتكرر ١٩ مرة متتالية في نفس هذا الأصحاح السادس.

كذلك كلمة «الثبات» ومشتقاتها (يثبت، اثبتوا... إلخ...) تتكرر ١٠ مرات في فقرة قصيرة (يو١٥: ١—١٠).

كذلك يهتم إنجيل يوحنا أن يكرر أيضاً الجمل وأشباه الجمل التي تحمل حقائق هامة عن المسيح للتركيز والترسيخ وزيادة الإستعلان:
«أنا هو الراعي الصالح، والراعي الصالح يبذل نفسه...، أما أنا فإني الراعي الصالح...» (يو١٠: ١١—١٤)

وواضح أمام القارىء أن كل المكررات في إنجيل يوحنا تحمل بحد ذاتها ثقلاً عالياً في الحياة الروحية وفي الفكر اللاهوتى الخلاصي، وإنجيل يوحنا في هذا يلتزم بالروح العبرية وبالدرجة الأولى.

ويلاحظ العالِم وستكوت(٦) أن إنجيل يوحنا يخالف الثلاثة الأناجيل الأخرى في إيراد ما جاء

[6] Westcott, The Gospel of St. John, LI.

على لسان المسيح: «فأجاب **قائلاً**» وهو التعبير الصحيح بحسب اللغة اليونانية. فإنجيل يوحنا يقول هكذا: «فأجاب **وقال**» (يو١: ٤٨و٥٠؛ ٢: ١٩؛ ٣: ٣و١٠؛ ٤: ١٣... إلخ...) وهو أسلوب أرامي صرف.

ثم جاء العالم الألماني أدولف سلاتر Adolf Slatter سنة ١٩٣٠م، واكتشف في إنجيل يوحنا آثاراً عبرية يهودية أكثر من الأرامية(٧)، وقدّم أمثلة غنية من التعبيرات الخاصة بالربيين وطريقتهم في التعبير. كما اكتشف أن كاتب الإنجيل يتقن طرق البحث والكتابة عند مدارس الربيين.

كذلك أمدّنا بعض العباقرة المتخصصين في اللغة العبرية بدراسات فتحت مجالات جديدة هامة في البحث وتأويل الإصطلاحات وردّها إلى معناها الأصلي العبري، أمثال: C.F. Moore سنة ١٩٢٧م، وأبحاثه تنحصر في الديانة اليهودية في فجر المسيحية، والعالم Israel Abraham سنة ١٩٣٧م، وأبحاثه في الفريسية والأناجيل، والعالم Starck Biller Beck's سنة ١٩٢٢ — ١٩٢٨م، وأبحاثه في شرح العهد الجديد بالنسبة للتلمود والمدراش.

وبهذه التحقيقات المتقدمة التي بلغها علماء اللغات السامية في دراسة إنجيل يوحنا، يكون قد أدخل أخيراً هذا الإنجيل بمنتهى الهدوء والثقة في جو الفكر اليهودي عائداً إلى تراث العهد القديم بأصوله وفروعه، تربته الأولى التي زُرع فيها.

* * *

---

(٧) على القارىء أن يعرف أن اللغة العبرانية هي اللغة المقدسة للتوراة والطقوس والصلوات. أما اللغة الأرامية فهي اللغة الدارجة للحديث والكتابة.

الفصل الثاني

التوراة والناموس في إنجيل القديس يوحنا

كلمة «التوراة» = «توراح» تُعتبَر المفتاح لكل الأبحاث والمفهومات والتعاليم اليهودية وكانت تعني عدة معاني. ولكن المعنى الأصلي القديم يفيد التوجيهات والتعليمات والتعاليم التي استلمها الملهَمون من فم الله.

وكان هذا المعنى يغطي:

أولاً: الوصايا، الشريعة كقوانين ونظم، **الأحكام** التي تسلمها مشرعو وقضاة وملوك إسرائيل من الله، وكانت تُجمَع تحت كلمة **الناموس.**

ثانياً: كل ما كان من الوحي الذي نطق به الكهنة سواء عموميين أو محليين.

ثالثاً: تعاليم أعطيت بفم الأنبياء تخص طبيعة الله وأوصافه ومعاملاته عبر التاريخ ومقاصده من جهة شعبه ومطالبه من الناس.

والخمسة الأسفار الأولى تسمى بالتوراة بنوع خصوصي. ولكن المعنى امتد ليشمل تعاليم الأسفار الأخرى وخاصة تعاليم الأنبياء.

كل هذا اعتُبر أنه استعلانات إلهية تحويها التوراة في المفهوم التقليدي.

أ ــ التوراة والترجمة السبعينية

عند بدء ترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية (الترجمة السبعينية) اختاروا كلمة **«الناموس»** = Law ليعبِّروا بها عن التوراة، ولكن أضافوا على ما كانت تحويه التوراة من أصول ثوابت ملحقات

ولكن كان الناموس لا يعبّر في الفكر اليهودي التقليدي عن التوراة، بل كان يعطي فقط المفهوم الأول المذكور أعلاه أي كل **الوصايا** من **قوانين ونظم وشريعة وأحكام**. فهذه وحدها التي كانت تسمى بالناموس في التقليد اليهودي القديم.

ولكن الترجمة السبعينية شملت بكلمة الناموس أموراً غريبة عن مفهوم التوراة في القديم مثل: **العوائد، والقواعد الوضعية، والمبادىء المعترف بها**، وهذه الإضافات هي من صنع الربيين التي قال عنها المسيح: «وصايا هي تعاليم الناس» أي ليست إلهية. وهي كلها إضافات يهودية مستحدثة بواسطة الربيين تحمل أخطاء شنيعة في التعليم كان من شأنها أن تطمس الحق في كلام الله، لذلك سماهم المسيح: «اُتركوهم، هم عميان قادة عميان، وإن كان أعمى يقود أعمى يسقطان كلاهما في حفرة» (مت١٥: ١٤) (أي في فخ الشيطان).

ب ــ مفهوم الناموس في العهد الجديد

ــ في حين أننا نجد مفهوم الناموس في الأناجيل الثلاثة وفي سفر الأعمال يقتصر على مضمون الخمسة الأسفار فقط بما تشملهم من قوانين كهنوتية وعلمانية؛

ــ وفي رسالة القديس يعقوب ابتدأ الناموس يأخذ مفهومه السائد آنئذ عند الرواقيين عن الحرية: «ولكن من اطّلع على الناموس الكامل ناموس الحرية...» (يع١: ٢٥)؛

ــ أما عند القديس بولس فكلمة الناموس تمتد لتشمل المعنى المتسع لتغطي كل العهد القديم باعتباره إعلانات عن الله، مع ميل واضح نحو الفكر اليوناني (الرواقي).

ــ نجد في إنجيل يوحنا، أو بمعنى أصح في فكر المسيح، أن حدود الناموس هي إلتزام كامل بمفهوم الناموس اليهودي كما حددته الترجمة السبعينية في حدود التوراة ولكن بمعناها المتسع والملتزم بحدود التوراة الأصيلة، أو بمعنى أوضح أنه لم يخرج عن التقليد اليهودي بحدوده المرسومة ولم ينحرف قط ناحية الأصول اليونانية.

هذا الإتجاه الإلتزامي في إنجيل يوحنا من جهة التوراة اليهودية، التي هي القاعدة الأساسية للفكر اليهودي، هو في غاية الأهمية كبرهان ضمني أصيل لتأصُّل إنجيل يوحنا والتزامه باليهودية. وهذه الدقة غير المعتادة بل والفائقة للتصور من نحو عدم الإنحراف ناحية الفكر اليوناني في ذلك الوقت وذلك المكان، وكون القديس يوحنا يكتب باليونانية لأهل العالم اليوناني آنئذ، لأمرٌ يذهل العقل.

فهو دليل بليغ لإرتباط كاتبه ارتباطاً عنيداً بنقل صورة صادقة أمينة حية لما قاله المسيح تماماً وبكل تحفُّظ.

ج — الناموس في إنجيل القديس يوحنا

١ — يو ٧ : ٥٠و٥١ «فقال لهم نيقوديموس — الذي جاء إليه ليلاً — وهو واحد منهم (من الفريسيين)، ألعلَّ ناموسَنا يدين إنساناً لم يسمع منه أولاً ويعرف ماذا فعل.»

حيث نص الناموس(١) هكذا: [أيُّ لحم ودم إذا سمع الكلمة من إنسان (مخالف) يُحكم عليه، فإذا لم يسمع منه أولاً فلا يقوم عليه الحكم.]

٢ — يو ٨ : ١٧و١٨ «وإن كنتُ أنا أدين فدينونتي حقٌّ لأني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني. وأيضاً في ناموسكم مكتوب أن شهادة رجلين حق. أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني». والمقابل في التوراة: أنظر عدد ٣٥: ٣٠، تث١٧: ٦، تث١٩: ١٥.

٣ — يو٧: ٢٣ وهنا يمعن الإنجيل في الكشف عن عمق وأصالة الدراية التي للقائل والكاتب بالناموس كما يفهمه الربيون حرفياً، حيث نجد التوراة منسوبة لموسى هكذا: «فإن كان الإنسان يقبل الختان في السبت لئلا يُنقض ناموس موسى أفتسخطون عليّ لأني شفيت إنساناً كله في السبت».

هنا تظهر معرفة المسيح الدقيقة في إنجيل يوحنا بالإستثناءات التي وضعها الربيون حيث يقول التلمود: [الختان يرد (ينقض) وصية السبت.](٢)

٤ — يو ٩ : تفتيح عيني المولود أعمى يوم السبت.

حيث أُقيمت محكمة جزئية (ليست على مستوى السنهدريم) وتتكون من عدد من الفريسيين تختص بطرد الأعضاء الذين يكسرون الناموس من المجمع أو ربما رجمهم.

وقد أقاموا القضية على أساس أن الأعمى الذي صار بصيراً يعترف بإنسان على أنه نبي مع أنه لا يحفظ السبت، فهو يستحق الرجم، على أن لا يُحسب هذا أنه نبي بل خاطىء.

أ — في البداية انقسم الفريسيون على بعضهم، فالفريق الأول تمسك بتعليم أحد الربيين

---

[1] Exod. R. 21.2. Cited by: Shlatta & Dodd. op. cit., p. 78.

[2] Ibid.

العظام وهو هاالليل الكبير(٣) صاحب المدرسة التي تتمسك بالحقائق الواقعة وفحصها على الواقع دون التأويل، فقالوا إن المسيح بما أنه أكمل معجزة لذلك لا يُحسب خاطئاً.

ب — المدرسة الأخرى لربي آخر اسمه شماي (٤)، وهي تأخذ بالنطق وبالمبدأ العام الذي يفوق الواقع، فقالوا هذا الشخص ليس من الله ولا يحسب نبياً صادقاً لأنه كسر الناموس.

وعلى أساس هذا الخلاف لجأوا إلى الولد نفسه بعد أن سألوا والديه وتحققوا من إتمام المعجزة وعرفوا أنه كامل السن يتحمل كل المسئوليات. وكانت النية مبيَّتة أن يجعلوا الأعمى الذي انفتحت عيناه يشهد أن يسوع ليس نبيًّا، لأنه يمكن الطعن في نبوته على أساس أنه رجل خاطىء لأنه يكسر الناموس، وحينئذ يَصْدُق حكم مدرسة شمَّاي على المسيح نفسه. فإذا لم يشهد أنه نبي حينئذ يشككوه في صحة عملية الشفاء كآخِر وسيلة لإخراجه هو من العقاب، وهذا يظهر من السلوك الآتي:

استدعوا الولد لثاني مرة وبادروه بأمر رسمي خطير (بحسب الناموس مبيّتين على غرض سيىء): «قالوا له: أعطِ مجداً لله Δός δόξαν τῷ θεῷ ». وهذه الجملة خطيرة للغاية — وكثير من الشرّاح لم يفطنوا إلى ما وراءها إذ حسبوها تمجيداً لله وحسب — ولكن هي جملة التمهيد القانوني لرجم الأعمى الذي تمت فيه المعجزة أو توقيع عقاب شديد عليه، وذلك بحسب شرح المِشْنا(٥)، إذ يتحتم قبل رجم المحكوم عليه أن يعترف، إذ تقول المِشْنا: [إنه وهم رافعون الحجر وهم على بعد عشرة أذرع (الذراع = ١٨ — ٢١ بوصة) يأمروه أن يعترف، وذلك بقولهم: «**أعطِ مجداً لله**»، وذلك بقصد أنه إذا مات يكون قد اعترف وأعطى المجد لله فيكون له نصيب في الدهر الآتي]. وهذا ما تم بالفعل في محاكمة عخان بن كرمي ورجمه: «فقال يشوع لعخان يا ابني أعطِ الآن مجداً للرب إله إسرائيل **واعترف له**، وأخبرني الآن ماذا عملت» (يش٧: ١٩). وبعد ذلك حكم برجمه هو وأسرته وحرق ممتلكاته.

فلما أعطى الولد المجد لله أصر على صحة المعجزة ورفض رفضاً باتاً الإنصياع وراءهم أن يسوع رجل خاطىء، بل ورفض أن يكرر لهم طريقة شفائه ولم يعبأ بنيتهم وتهديدهم له بالموت. فلما أيقنوا أن كل محاولاتهم باءت بالفشل شتموه [هذا خطأ قانوني]، وهددوه ملوِّحين بنوع العقوبة التي تناسب اتهاماً آخراً: «أنت تلميذ ذاك» مما يفيد بأنهم صمموا على تطبيق القرار الذي وضعه السنهدريم «أنَّ كل من يعترف بيسوع يُطرد من المجمع». ودافع الولد عن يسوع المسيح دفاعاً أظهر

---

3 Ibid.

4 Ibid., p. 18.

5 Cf. Mishnah san. 6,2. Ibid.

فيه أنه لم يُعط عينين فقط بل بصيرة وقلباً شجاعاً لا يهاب الموت في سبيل الشهادة للحق!!

وكان ردهم عليه: «أنت وُلدت في الخطايا بجملتك وأنت تعلمنا». لاحظ هنا سوء فهمهم لفقد العينين عند الأعمى أنه بسبب خطاياه وخطايا والديه (وُلدت في الخطية بجملتك). «أما نحن فإننا تلاميذ موسى» ومعروف أن هذا هو أرفع لقب فخري للفريسيين في التلمود(٦)... هنيئاً لهم!

وهكذا نجد في هذا الفصل أنه قد ورد على لسان يوحنا الرسول كل التعبيرات القضائية وأصول المحاكمات التي يتقنها الربيون، بكل دقة وأصالة مما يفيد قدرته الفذّة وتضلعه بأساليب الربيين وقوانين التوراة.

وأخيراً، فمن جهة الناموس لا ننسى أن القديس يوحنا منذ أن آمن بالمسيح وهو يترفع على ناموس موسى بجملته: «لأن الناموس بموسى أُعطي أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا» (يو١: ١٧)، حيث «النعمة والحق» كان اليهود الربيون يقولون أنها تأتي كثمرة لدراسة التلمود. فهنا يكون القديس يوحنا قد نفى عن التلمود هذه الموهبة ورفعها عنه بعد ظهورها واستعلانها علنياً في شخص يسوع المسيح، وهذا يفيد ضمناً دراية القديس يوحنا السابقة بقيمة التوراة عند الفريسيين.

د ـــ الحياة الأبدية بين التوراة والمسيح

وذلك فيما يخص نوال الحياة الأبدية وهي تأتي بلسان المسيح:
«الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي، لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته وليست لكم **كلمته ثابتة فيكم**، لأن الذي أرسله هو لستم أنتم تؤمنون به. فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن **لكم فيها حياةً أبدية.** وهي التي تشهد لي. ولا تريدون أن تأتوا إليَّ لتكون لكم حياة.» (يو٥: ٣٧—٤٠)

هذا الحديث يكشف عن دراية عميقة بمبادىء الربيين المتوارثة. فكلمة «**فتّشوا**» كلمة مدرسية ترد على لسان الربيين، وتعني الدراسة المركَّزة بشدة للتوراة أي «الميدْراش». فهذه الدراسة حسب تعليم الربيين الخاصة تؤدي إلى الحياة الأبدية: [التوراة بهذه الطريقة تعطي الذين يمارسونها حياة في هذا الدهر والدهر الآتي.](٧)

والإنجيل هنا يعارض هذا «الظن» بجملته وبكل ما يتبعه من جهد لسبب واحد وهو أن

---

6 Ibid., p. 81.

7 Pirqe Aboth vii.6. Cited by: C.H. Dodd, p. 82.

«كلمة الله اللوغس» أي استعلان الله الحقيقي غير موجود في قلوبهم «لأن كلمته ليست ثابتة فيكم». إذن، ليست كلمات التوراة بعد هي التي تعطي الحياة، ولكن كلمة الله المسيح الذي هو طريق الحياة وبابها الوحيد: «الكلام الذي أكلّمكم به هو روح وحياة.» (يو٦: ٦٣)

هـ — ماء الحياة بين التوراة والمسيح

في قصة عرس قانا الجليل نجد ستة أجران ماء مُعدَّة للتطهير حسب الناموس، لكلِّ يوم جُرْن واليوم السابع استراحة ليس له تطهير. هذه حوَّلها المسيح إلى خمر لتطهير آخر في سر الخمر المتحول إلى دم، فإن ذلك كان تطهيراً حسب الجسد وهذا تطهير وتقديس للروح بإهراق دم المسيح وانسكاب الحياة الأبدية منه.

وماء بئر يعقوب ذخر الأجيال وميراث أبناء يعقوب المحبوبين كبركة للحياة، هذا صار مُعْطِشاً بجلوس المسيح عليه. هذا حوَّله المسيح إلى ماءٍ حيٍّ ينبع إلى الأبد بالإيمان بالمسيح إسرائيل الجديد، عِوَض يعقوب إسرائيل القديم.

وإذا كان في التلمود تتركز الإشارات كلها وفي مواضيع عديدة وخاصة في المدراش (أي كتاب دراسة التوراة) أن التوراة هي ماء الحياة [كما أن الماء هو الحياة بالنسبة للعالم، هكذا كلمات التوراة هي حياة العالم.] شرح على سفر التثنية ١١: ٢٢—٢٨؛ فقد جاء إنجيل يوحنا ليركِّز على أن الإيمان بالمسيح وكلامه هو ينبوع ماء الحياة الأبدية.

و — خبز الحياة بين التوراة والمسيح

التوراة كانت تشير في تعليم الربيين أن كلامها هو خبز الحياة للسامعين، وأن عطية هذا الخبز من السماء صارت على يدي موسى: [إذا جاع عدوك فأطْعِمْه بكلام التوراة وإذا عطش فارْوِهِ بكلام التوراة](٨). جاء هذا على لسان رابي براخيا (بزيكتا ٨٠—ب).

وفي شروحات الربيين خلطوا بين خبز التوراة ومَنِّ موسى النازل من السماء، فيقولون أنه عندما ارتوى الشعب من ماء التوراة أرسل إليهم الماء من الصخرة، وعندما تغذى الشعب على كلام التوراة

---

[8] Ibid., p. 83.

نزل عليهم المنُّ من السماء. لذلك ظنوا أنه عند مجيء المسيا سينزل المن من السماء كعلامة لمجيئه.

وعلى هذا يردُّ إنجيل يوحنا: «آباؤنا أكلوا المن في البرية كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا. فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم **ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبي** (وهو) يعطيكم **الخبز الحقيقي** من السماء. لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب **حياة للعالم.** فقالوا له يا سيد أعطنا في كل حين هذا الخبز. فقال لهم يسوع أنا هو خبز الحياة، من يقبل إليّ **فلا يجوع** ومن يؤمن بي **فلا يعطش أبداً.**» (يو٦: ٣١—٣٥)

وبهذا يكون إنجيل يوحنا قد أنهى على رجاء الربيين في التوراة وفي المنِّ المنتظر بإعلانه عن نفسه أنه هو خبز الحياة الذي نزل فعلاً من السماء ليكون حياة للعالم كله سواء بكلمته كينبوع روح الحياة أو جسده كمأكلٍ للحق وللحياة الأبدية.

ز — الخمر بين التوراة والمسيح

لقد جعل الربِّيون الخمر رمزاً للتوراة أي أنها تُطيِّب القلب وتُبهج الفكر وذلك في شرحهم لكلام الحكمة الذي جاء في سفر الأمثال: «هلموا كُلوا من طعامي واشربوا من الخمر التي مزجتُها» (أم٩: ٥). فشرحها الربيون هكذا: [الله تكلم: ما السبب في جَعْلكم تأكلون المن وتشربون من البئر (الصخرة)؟ هذا بسبب أنكم قبلتم الأوامر والوصايا وهكذا باستحقاق خبز (التوراة أي كلامه) أكلتم المنَّ، واستحقاق الخمر التي مزجتُها لكم (أي كلام التوراة المشروح) شربتم من ماء البئر (الصخرة).](٩)
وبهذا يكون الربيون قد جعلوا الخمر رمز التوراة.

وعلى هذا كانت أول معجزة قام بها المسيح في إنجيل يوحنا هي إعطاءهم خمراً جيداً بتحويل الماء الذي للتطهير (رمز التوراة). وجاء على فم رئيس المتكأ تلميح أن الخمر الأول الذي كان يُعطى هو الدون أي رديئاً، وأن الجيد جاء بعد الرديء. وهكذا يمعن إنجيل يوحنا في إعطاء المقارنة بين خمر الربيين وخمر المسيح أي بين «شِبْه السموات وظِلِّها» (عب٨: ٥) وبين الحق الإلهي (الأليثيا) الذي استُعلِن بالمسيح.

9 Ibid., p. 84.

ح — النور بين التوراة والمسيح

في شرح الربيين لسفر العدد (٦: ٥٢) فصل ٤١ على بركة الكهنوت: [يضيء الرب بوجهه عليك أي بنور التوراة.]

وأيضاً في شرح (بابا باثرا ٤ أ) وشرح (بابا ابن بطا) موجهين كلامهم إلى هيرودس الكبير بعد أن قتل الربيين: [أنت قد أطفأت نور العالم]. وهذا كان شائعاً أيام المسيح، فكان رد المسيح عليهم هكذا: «أنا هو نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (يو٨: ١٢). وهذا أثار الفريسيين فقالوا له: «أنت تشهد لنفسك! شهادتك ليست حقاً. أجاب يسوع وقال لهم: وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق لأني أعلم من أين أتيتُ وإلى أين أذهب» (يو٨: ١٣و١٤). وطبعاً يشير المسيح هنا إلى المقارنة بين مجيء التوراة على فم موسى — بيد ملائكة — وبين مجيئه هو من الآب وأنه هو مصدر النور في التوراة. وللأسف جاء النور الحقيقي إلى خاصَّته أما خاصَّته فلم تقبله — لأنهم أحبوا الظلمة أكثر من النور.

وقد أشارت الأناجيل الثلاثة إلى حادثة التجلي: «وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور وإذا موسى وإيليا قد ظهرا لهم يتكلمان معه» (مت١٧: ٢و٣). وكانت هذه إشارة واضحة أن المسيح هو التوراة الجديدة كلمة الله المنيرة التي لما قبل موسى قديماً شِبْهها وظِلَّها فقط لمع وجهه. وها هنا موسى نفسه جاء ليشهد له.

ولم يكن جزافاً أيضاً أن يظهر المسيح لشاول في وسط النهار في السماء بوجه أكثر لمعاناً من الشمس لكي يدرك شاول أنه صار خادم الأقداس العليا وليس عبداً بعد ليُرقِّع ناموس موسى.

وفي إنجيل يوحنا لم تُذكر حادثة التجلي باعتبار أن المسيح كان متجلياً بطول إقامته: «ونحن رأينا مجده»، وهذه بحدِّ ذاتها إشارة أيضاً إلى التوراة الجديدة لإستعلان مجد الله بالإنجيل في وجه يسوع المسيح.

وهكذا تتضافر كافة الأسفار وخاصة إنجيل يوحنا في دحض دعوى الربيين والحكماء اليهود فيما يخص التعليم الصحيح عن الله وكلمته.

الفصل الثالث

المسيَّا في إنجيل القديس يوحنا (١)

ماشِيَّحْ (عبري) *māšîaḥ*

ماشيحا (أرامي) *m^e^šîḥā'* (يوناني) Μεσσίας

(يو ١: ٤١ و٤: ٢٥)

أ ــ لقب المسيا خالياً من المفهوم السياسي:

إنجيل يوحنا يُعتبر الوحيد بين جميع أسفار العهد الجديد الذي استخدم كلمة «مسيَّا» (وهي الترجمة اليونانية للكلمة العبرانية كما جاءت في كتب اليهود). وذلك في إنجيل يوحنا ١: ٤١: «هذا وَجَد أولاً أخاه سمعان فقال له قد وجدنا «**مسيَّا**» الذي تفسيره المسيح». وظل إنجيل يوحنا يستخدم بعد ذلك لقب المسيح بدل مسيَّا إلا في أصحاح ٤ عدد ٢٥: «قالت له المرأة أنا أعلم أن مسيَّا (الذي يُقال له المسيح) يأتي. فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء».

ولكن حَرَصَ إنجيل يوحنا أن يستخدم اللفظين «مسيَّا» و«المسيح» ليس بالمفهوم الذي كان متداولاً بين الشعب بحسب النبوات التي كانوا يترقبون تتميمها، لأن شخصية «مسيا» كانت مرتبطة في النبوات بالملك الذي سيأتي من بيت داود ليملك على إسرائيل مُلكاً فُهم في التقليد فهماً سياسياً، الأمر الذي تحاشاه إنجيل يوحنا بكل حرص في كل ما كان يرتبط بشخص الرب، حتى لا يظهر المسيح على الأساس السياسي الذي كان يتلهفه الشعب ويخشاه الفريسيون والربِّيون ويعملون له ألف حساب.

---

(١) «مسيَّا» بالعبري تعني «الممسوح»، لذلك ترجمتها السبعينية بـ«المسيح» أي الممسوح χριστός من أصل الكلمة χρίω أي «يمسح»، بمعنى «المدهون» بقرن الدهن مَلِكاً على إسرائيل. والوعد بالمسيح أو المسيَّا جاء على فم ناثان النبي لداود الملك بأن من نسله من يأتي ليملك على كرسيه لإسرائيل إلى الأبد (٢صم٧: ١٢ــ١٧).

علماً بأن كافة النبوات التي جاءت عن شخص المسيا أو الشخص المنقذ لإسرائيل كملك على بيت داود خلطت بين أوصاف الملك السياسي والملك الروحي، أي بين الشخصية الملكية التي تبدو دنيوية والشخصية الإلهية التي للمسيح. كذلك فالأناجيل الثلاثة لم تفرّق بوضوح في بادىء الأمر – خاصة إنجيل لوقا – بين هذه الصفات بل وأمعنت في التأكيد بأنه «المسيح الملك.» (لو٢٣: ٢)

ولكن إنجيل يوحنا حينما ذكر الملوكية للمسيح، أعلنها على أنها «ملك إسرائيل» (١: ٤٩)، وذلك على لسان نثنائيل. هذا صحيح لأن هذا هو لقب يهوه نفسه كما جاء في سفر إشعياء (٤٤: ٦).

غير أن هذا اللقب، أي «ملك إسرائيل»، اختاره أيضاً الكهنة والفريسيون حينما كانوا يخاطبون المسيح وهو على الصليب للتحقير (مت٢٧: ٤٢ ومر١٥: ٣٢).

أما إنجيل يوحنا فقد اختار هذين اللقبين معاً «مسيا» و«ملك إسرائيل» اللذين يخصّان ابن الله فعلاً. فـ«مسيًا» هو حسب آمال اليهود وتحقيق نبوات الأنبياء، و«ملك إسرائيل» (الجديد) هو على المستوى الروحي وليس السياسي، لأن السياسي ينحصر في لقب «**ملك اليهود**»، وقد ورد دون اختيار إنجيل يوحنا على لسان بيلاطس البنطي في يو١٨: ٣٣ حيث هذا اللقب مكروه غاية الكره عند اليهود: «فقال (بيلاطس) لليهود هوذا ملككم... أجاب رؤساء الكهنة ليس لنا ملك إلاَّ قيصر. فحينئذ أسْلَمه إليهم ليُصْلَب... وكتب بيلاطس عنواناً ووضعه على الصليب وكان مكتوباً يسوع الناصري **ملك اليهود**... فقال رؤساء كهنة اليهود لبيلاطس لا تكتب ملك اليهود.» (يو١٩: ١٤–٢١)

ولكن حينما سأله بيلاطس: «هل أنت ملك اليهود؟ أجابه يسوع أمِنْ ذاتك تقول هذا أم آخرون قالوا لك عني؟» (يو١٨: ٣٣و٣٤). وقصد المسيح بذلك أن يوجه سؤالاً خطيراً لبيلاطس بمعنى هل أجاوبُ على سؤالك على أنك وأنت روماني تعني هذا فعلاً؟ آخذاً كلمة «ملك» على أساس سياسي؟ فلما أجاب بيلاطس أنه إنما يكرر الإتهام الذي وضعه اليهود عليه وهم المسئولون عن ذلك الإتهام، حينئذ أجاب يسوع ليوضح له أنه فعلاً ملك ولكن ليس بالمفهوم السياسي: «مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خُدَّامي يجاهدون لكي لا أُسلَّم إلى اليهود. ولكن الآن ليست مملكتي من هنا». فانتهز بيلاطس هذه الفرصة ليأخذ عليه أنه قال أنه ملك قائلاً: «أفأنت إذاً ملك؟ أجاب يسوع أنت (الذي) تقول أني ملك. أنا أتيت إلى العالم لأشهد للحق هذا وُلدتُ أنا» (الترجمة الدقيقة) (يو١٨: ٣٦و٣٧).

وواضح أن الإنجيل يقصد من اصطلاح «ملك» في مضمون كلمة «مملكتي» لقب المسيَّا الخاص اليهودي كصاحب سلطان على المستوى الروحي ولكن «ملك» فقط لمن يعرف الحق وأنه جاء ليُسلِّم هذا الحق للعالم.

ولقد كان المسيح حريصاً أن لا يُشاعَ عنه أنه «المسيَّا» مسيح الرب: «وأنتم من تقولون أني أنا؟ فأجاب بطرس وقال **مسيح الله**. فانتهرهم وأوصى أن لا يقولوا ذلك لأحد» (لو٩: ٢٠و٢١) وذلك تحاشياً لخطأ إثارة مشكلة الملك السياسي.

ب ـ المسيَّا، لا يعرف أحد من أين يأتي:

«ولكن هذا نعلم من أين هو، وأما المسيح فمتى جاء لا يعرف أحد من أين هو» (يو٧:٢٧). هذا كان شائعاً في المصادر اليهودية عموماً أن المسيَّا قد أتى إلى العالم ولكنه مُخْفَى بالعناية الإلهية، وأنه سيظهر فجأة ولا يعرف أحد من أين يأتي، ويكون إنساناً كاملاً مهيَّأ للعمل الذي سيضطلع به وأهمه حكم إسرائيل، لذلك فمنذ ميلاده وحتى ظهوره سيكون أمراً مخفياً. وقد اجتهد بعض الربيين في التخمين أنه ربما يكون في روما أو في الشمال والبعض قال أنه اختفى في الفردوس لبعض الوقت. وفي مؤلَّف يهودي معاصر لإنجيل يوحنا وهو سفر عزرا الرابع ١٣: ٥٢ يُرمَز إليه بأنه سيظهر من البحر (على القارىء أن يربط ذلك مع سَيْر المسيح على المياه وظهوره فجأة في كفر ناحوم ـ يو٦: ٢٤و٢٥). على هذا الأساس بدأ اليهود يحاورون يسوع أنه لا يمكن أن يكون هو المسيَّا لأنه معروف أنه من الجليل، ولكن بتهكُّم ظاهر يرد عليهم المسيح أنه لا من روما ولا من الشمال ولا من الفردوس بل من الله نفسه: «فنادى يسوع وهو يعلِّم في الهيكل قائلاً: تعرفونني وتعرفون من أين أنا. ومن نفسي لم آتِ بل الذي أرسلني هو حق الذي أنتم لستم تعرفونه. أنا أعرفه لأني منه وهو أرسلني.» (يو٧: ٢٨و٢٩)

ج ـ المسيَّا لا يموت:

«فأجابه الجمع نحن سمعنا من الناموس (التوراة) أن المسيح يبقى إلى الأبد. فكيف تقول أنت إنه ينبغي أن يرتفع ابن الإنسان.» (يو١٢: ٣٤)

هذا لأن الشعب كان قد تسلم من الربيين تعاليم عن التوراة مأخوذة بالفكر الجسدي (إش٩: ٧) أن الملك الآتي (أي المسيا) سيحكم إلى الأبد، فأخذها الربِّيون أنه حكم زمني على الأرض.

ويدحض الإنجيل هذه الحجة ويرد عليها من واقع نصها الأصلي من الأنبياء. ويرد عليها بأن

الموت الذي سيباشره المسيح إنما بقصد أن يقوم ويبقى إلى الأبد، ليكون سلطانه على السماء والأرض، وليس ذلك فقط بل لكي يعطي كل من يؤمن به أن يبقى هو أيضاً حيًّا إلى الأبد.

الفصل الرابع

«جاء إلى خاصَّته وخاصَّته لم تقبله»

تفرُّد إنجيل يوحنا في الكشف عن سر كيف ولماذا «خاصَّته لم تقبله»

التخصص الأول والأساسي لإنجيل يوحنا هو استعلان طبيعة المسيح — كإبن الله — وبالتالي استعلان اسم الآب وتمجيده كنتيجة حتمية لإستعلان وظهور الإبن. ولكن وإن كان هذا الإستعلان يخص بالدرجة الأولى **خاصَّته** أي شعب إسرائيل، إلا أنه جاء وفي تصميمه أن يجمع خرافاً من حظائر أخر (١٠: ١٦) غير شعب إسرائيل، ويجمع «أبناء الله المتفرقين» (١١: ٥٢) في جميع أنحاء العالم الذين اختصَّهم الروح منذ البدء ببصيرة نيِّرة للسعي وراء الحق الذي كانوا يترقبونه «لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليَخلُص به العالم» (٣: ١٧)، «وأما من يفعل الحق فيُقْبِل إلى النور لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة» (٣: ٢١). «لهذا قد وُلدتُ أنا ولهذا قد أتيتُ إلى العالم لأشهد للحق. كلُّ مَنْ هو من الحق يسمع صوتي.» (١٨: ٣٧)

ولكن بالرغم من هذه الدائرة الهائلة المتسعة لعمل المسيح في العالم ومن أجل العالم، إلا أنه اختصَّ إسرائيل باستعلان ذاته أولاً ليتمجد إسرائيل، كوعد الآباء والأنبياء «نور إعلان للأمم ومجداً لشعبك إسرائيل.» (لو٢: ٣٢)

هذا وبالرغم من ذلك أيضاً نجد أن إنجيل يوحنا يقوم — أكثر من جميع أسفار العهد الجديد — بمهمة فَضْح عيوب هذه الأمة المختارة شعباً ورؤساء وكهنة وناموسيين وفريسيين وكشف المدى المؤسف الذي انتهت إليه العبادة المقدسة إلى تجارة!! «لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة» (يو٢: ١٦)؛ وكيف انتهى الناموس وانتهت الوصايا إلى تخريج فتاوي وتزييف حقائق حتى صارت «تعاليم هي وصايا الناس» (مت١٥: ٩، مر٧: ٧)، وانحرف شرحها عن الحق وأبعدها عن مصدرها الذي هو

النور والحق والحياة، حتى وقع المعلم والتلميذ في ظلمات الجهالة والفساد، والأعمى قاد الأعمى إلى الحفرة. «أتركوهم هم عميان قادة عميان» (مت١٥: ١٤). «لماذا لا تفهمون كلامي؟ لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي — مفرد λόγος (الحق) — أنتم من أب هو إبليس.» (يو٨: ٤٣و٤٤)

ولكن رسالته كانت تحتم أن يبدأ بإسرائيل، خاصّته. فكلمته الأولى لا بد أن تُزرَعَ في تربتها الأصلية لأن قلوباً كثيرة كانت تنتظرها بفارغ الصبر وهي معها على ميعاد. أليس هو القائل أن «الخلاص من اليهود» (يو٤: ٢٢)؟

لقد جهلوا الإستعلان وقت ظهوره لأن كلمة الله العظمى والمخوفة التي سُلِّمت إليهم بيد ملائكة بددوها وطمروها في طين أطماعهم وشهواتهم «الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي. لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته وليست لكم كلمته λόγος ثابتة فيكم.» (يو٥: ٣٧و٣٨)

وطبيعة الله الذي كانوا يعبدونه بالجهد نهاراً وليلاً بأوفر غيرة وتوقير وحماس لم يعرفوها إذ لم يكن لها وجودٌ في قلوبهم ولا أدركوا ماذا يعبدون ومَنْ يعبدون: «وسيفعلون هذا بكم لأنهم لم يعرفوا الآب ولا عرفوني» (يو١٦: ٣)، «فقالوا له أين هو أبوك. أجاب يسوع لستم تعرفونني أنا ولا أبي. لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» (يو٨: ١٩)، «أبي هو الذي يمجّدني الذي تقولون أنتم إنه إلهكم ولستم تعرفونه.» (يو٨: ٥٤و٥٥)

والمسيح يعنّفهم بشدة على كبريائهم الكاذب وثقتهم في الله التي ليس لها أساس في قلوبهم وسلوكهم. فحقائق إيمانهم المسلَّم إليهم وتاريخ عناية الله بهم وإعزازه لهم على أساس أمانتهم ذهبت أدراج الريح، وعاشوا وباتوا بلا تاريخ صادق وبلا ميراث لأن الله سحب كلمته من قلوبهم واستردَّ مفاتيح ملكوت السموات التي أغلقوها في وجه الداخلين، فلا دخلوا هم ولا جعلوا الداخلين يدخلون. فانغلقت عيونهم وقلوبهم عن أن ترى أو تسمع لأنهم أساءوا إلى إلههم واستهانوا بمخلّصهم.

الله تراءى لآبائهم، أما هم فعميت أبصارهم. فأين هم من ميراث يعقوب «فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل. قائلاً لأني نظرت الله وجهاً لوجه ونُجِّيَتْ نفسي» (تك٣٢: ٣٠). ثم أين هم من مخافة آبائهم ورعدتهم عند سماع صوت الله من بعيد؟ «وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخِّن. ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد. وقالوا لموسى تكلم أنت معنا فنسمع. ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت.» (خر٢٠: ١٨و١٩)

أين الأمانة والودّ وعبادة الحب التي أحب الله فيها إسرائيل كعروس فعاشت أيامها الحلوة في كَنَفِ عريسها الذي تراءى لهم فيها بشبه مجده، ومن فرحهم واطمئنانهم ودالتهم جلسوا أمامه وأكلوا

وشربوا في حضرته كإفخارستيا عظمى سابقة لأوانها: «ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شِبْه صَنْعَةٍ من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة. ولكنه لم يمدّ يده إلى أشراف بني إسرائيل. فرأوا الله وأكلوا وشربوا.» (خر٢٤: ١٠و١١)

ثم أيُّ شعبٍ من شعوب الأرض طُرًّا تعاهد الله معه بصوته وسط النار ولقَّنه كلام شريعته مسموعة ومكتوبة؟ عشر كلمات خرجت من فم الله كميثاق وعهد خانها إسرائيل وأفسدها وأعطى لصاحبها القفا دون الوجه، نقضوها وادَّعى رؤساؤهم ومعلموهم كذباً ورياءً أنهم لها حافظون: «فكلمكم الرب من وسط النار وأنتم سامعون صوت كلام ولكن لم ترَوا صورة بل صوتاً وأخبركم بعهده الذي أمركم أن تعملوا به (أي) الكلماتِ العَشْرِ وكتبه على لَوحَيْ حجر» (تث٤: ١٢و١٣). «من السماء أسْمَعَك صوته لينذرك. وعلى الأرض أراك ناره العظيمة وسمعت كلامه من وسط النار. ولأجل أنه أحب آباءك واختار نسلهم من بعدهم...» (تث٤: ٣٦و٣٧)؛ «وجهاً لوجه تكلم الرب معنا في الجبل من وسط النار أنا كنت واقفاً بين الرب وبينكم في ذلك الوقت لكي أخبركم بكلام الرب. لأنكم خفتم من أجل النار.» (تث٥: ٤و٥)

جاء المسيح في إنجيل يوحنا وكأنه يحاسبهم على كل هذه المراحم والعهود والوعود الطيبة مع كل التدليلات التي دلل الله بها شعبه الذي لم يَرْعَ عهداً ولا وعداً. بدأ المسيح يحاسب الرؤساء على الوكالة، كان يتكلم كمن هو نادم على المراحم العظمى التي أسبغها عليهم مجاناً فعبثوا بها وأهانوا مُعطيها: «لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم... الذي من الله يسمع كلام الله، لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله» (يو٨: ٣٩و٤٧). «لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونني لأنه هو كتب عني. فإن كنتم لستم تصدقون كتب ذاك فكيف تصدقون كلامي؟» (يو٥: ٤٦و٤٧)

الفصل الخامس

دراية إنجيل القديس يوحنا بالنسبة للعهد القديم

(١) درايته للإمتيازات الفائقة التي منحت لليهود.
(٢) درايته المدروسة للمراحل التي عبرت فيها الأمة اليهودية.
(٣) استخدامه للنبوات وخاصة ما كان يشير فيها للمسيا.

(١) وفي مطلع الإنجيل، وكأنها عريضة الإتهام التي تسبق المناقشة والحكم إزاء الإمتياز الصارخ الذي خانوه بإصرار راسخ: «إلى خاصَّته جاء (النور) وخاصَّته لم تقبله» (يو١: ١١): ذلك لأنهم أحبوا الظلمة أكثر من النور؛ يضع الإنجيل موضوع اليهود كإفتتاحية عامة لرسالة المسيح وكأنه الموضوع الشاغل للمسيح منذ البداية. وبهذا المعنى بدا المسيح وكأنه يطالب بمكانته المفروضة والمهمَلة بين المراكز الدينية!

أما كون المسيح يمتُّ لإسرائيل كما كان الله في العهد القديم، فهذا واقع ملموس. اسمعه وهو يستقبل تلميذاً يهودياً صادق الروح والعبادة، ولأول مرة، إنه نثنائيل: «هوذا **إسرائيلي حقاً** لا غش فيه» (يو١: ٤٧). اسمعه يخاطب السامرية مفتخراً بإسرائيل صَنْعة يديه: «إن الخلاص هو من اليهود» (يو٤: ٢٢). ومفتخراً بعبادة إسرائيل الذي وضع أساسها المتين: «**أما نحن فنسجد لِمَا نعلم!!**» (يو٤: ٢٢). ثم انظر أين يضع المسيح نفسه في الهيكل: «لا تجعلوا **بيت أبي** بيت تجارة.» (يو٢: ١٦)

وعلى هذه الركائز الهامة يبدأ إنجيل يوحنا في المقابل يبني أساس العهد الجديد: فهو مع **إسرائيل الحق** الذي لا غش فيه، أي مع الشعب **الجديد** من كل أنحاء العالم، على أساس **الخلاص** الذي يشمل كل العالم كلَّ من يُقْبِل إليه، وأساس **العبادة بالروح والحق**، والصلاة للآب بروح البنوة. وقد كان كل هذا الإمتياز الجديد من نصيب إسرائيل اليهود لو تعقَّلوا و«فتشوا الكتب» (يو٥: ٣٩)، وهي الأمانة التي وُكِّلوا عليها، ولكنهم رفضوا نصيبهم وداسوا على وعد الله بلا أي تمييز

فهلكوا وهلك امتيازهم وهلك كل من انحاز إليهم: «فلا تدخلون أنتم، ولا تدعون الداخلين يدخلون» (مت٢٣: ١٣). اختاروا الأرض وباعوا المسيح لئلا «يأتي الرومانيون ويأخذون موضعنا.» (يو١١: ٤٨)

(٢) **أما دراية إنجيل يوحنا بالمراحل التي عبرت فيها الأمة اليهودية** والتي تشير بلا ملل إلى مجيء المسيح وعهد الخلاص، فهي كالآتي:

+ **في إبراهيم**، أوضح كيف بدأ العهد مرتكزاً على إيمان إبراهيم النادر المثال. ولكن كان إبراهيم يتطلع إلى من يأتي ليحقق الوعد، إلى مَنْ كان قبله وسيأتي بعده: «أبوكم إبراهيم تهلّل بأن يرى يومي فرأى وفرح» و«قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن.» (يو٨: ٥٦و٥٨)

وإن كان في إبراهيم قد صار الوعد بالحرية للنسل «إننا ذرية إبراهيم ولم نُستعْبَد لأحد قط»، ففي المسيح حرية بالحق من الخطية أصل كل عبودية: «فإن حرَّركم الإبن فبالحقيقة تكونون أحراراً.» (يو٨: ٣٣و٣٦)

+ **وفي يعقوب** إسرائيل أوضح كيف رأى الآتي في حلم ليصل الأرض بالسماء: «الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان» (يو١: ٥١). فالذي رآه يعقوب إسرائيل في حلم كوعد، مارسه المسيح كعمل أمام عيونهم «كل حين في المجمع وفي الهيكل.» (يو١٨: ٢٠)

وإن كان يعقوب حفر بئراً ليشرب منه النسل الشريد، فهوذا ينبوع ماء الحياة مجاناً الذي ينبع إلى الأبد والذي كلُّ «من يشرب من (هذا) الماء لن يعطش إلى الأبد... بل يصير فيه ينبوع ماء (ينبع) إلى حياة أبدية».

+ **وفي موسى:**

الذي أعطاهم الناموس ولكن عسر عليهم حمله فألقوه عنهم كما يشهد بذلك بطرس الرسول أمام مجمع الرسل: «قام بطرس وقال لهم أيها الرجال الإخوة أنتم تعلمون أنه منذ أيام قديمة اختار الله بيننا أنه بفمي يسمع الأمم كلمة الإنجيل ويؤمنون... فالآن لماذا تجربون الله بوضع نير على عنق التلاميذ (وصايا الختان وغيره) **لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله**» (أع١٥: ٧-١٠). هذا الذي لم يستطع الآباء حمله جاء المسيح ليكمله كاملاً عنهم: «ما جئتُ لأنقضَ (الناموس) بل لأُكمّل (الناموس)» (مت٥: ١٧)، لا كغريب عن الناموس ولا عن واضع الناموس بل «مشهوداً له من الناموس والأنبياء» (رو٣: ٢١)، «لأنكم لو كنتم تصدّقون موسى لكنتم تصدقونني.» (يو٥: ٤٦)

+ السبت اليهودي:

ومرتين وهو يكسر سبت الناموس أمامهم في إنجيل يوحنا[1] حتى ينقل عقولهم من سبت الراحة الجسدية إلى سبت الراحة العليا الأبدي وإلى واضع السبت ورب السبت أيضاً. ولما قاوموه مدّعين لأنفسهم الحفاظ على الناموس، قدم لهم الرد القانوني إذ استحضر شاهدين على صحة كسره للوصية: الله الآب، بالإضافة إلى نفسه باعتباره الإبن المرسل. وأضاف: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو٥:١٧)، مؤكداً صلاحية الشاهدين بالأعمال التي يعملها باسم الآب وعلى أساس أن لا الله الآب ولا هو توقّفا عن العمل في السبت ولا بعد السبت.

+ الفصح اليهودي:

أما ذبيحة الناموس العظمى «الفصح» التي كانت محور الصلاة والطقوس التي تشير إلى مركز الخلاص السرّي أي «خروف الفصح»، جعلها إنجيل يوحنا **رسم افتتاح** لعهد النعمة في إنجيله، وذلك حينما أشار المعمدان إلى المسيح قبل أن يبدأ عمله: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو١:٢٩). ويعود إنجيل يوحنا ليجعله هو نفسه رسم الختام لإنجيله، مشيراً إلى المسيح الحمل المذبوح على الصليب: «وأما يسوع فلما جاءوا إليه لم يكسروا ساقيه لأنهم رأوه قد مات... لأن هذا كان ليتم الكتاب (الناموس والأنبياء) القائل عَظْمٌ لا يُكْسَرُ منه.» (يو١٩: ٣٣و٣٦)

وهكذا كان فصح العهد القديم ينتظر استعلان سرّه في المسيح.

+ الحية النحاسية:

وبسبب تمردهم أطلق الله عليهم الحيات المحرقة في البرية، ولما أدركوا خطيتهم رفع موسى الحية النحاسية على عصاته لكي كل من يرفع نظره إليها يُشفى ولا يموت. كانت الحية رمز الخطية، ولما لم يكن في مقدور موسى أن يرفع عنهم الخطية، مثَّل الخطية بالحية النحاسية والحية هي أصل الخطية وداؤها وكأنها ماتت. وهكذا تنبأ موسى بصورة عملية عن المسيح الذي سيقتل الخطية مع الحية بالجسد عندما يُرفع على الصليب ويفوز بالشيطان تحت رجليه ليسحق قوة رأسه المدبِّرة للخطية: «إذ جرَّد الرياسات والسلاطين، أشْهَرَهُم جهاراً ظافراً بهم فيه (أي في الصليب)» (كو٢: ١٥). ولم يدفع ثمن ذلك سوى سحق عَقِبِه، أي الجسد الذي أقامه من الموت حتى كلُّ من نظر بالإيمان إلى المسيح مصلوباً نال الشفاء والخلاص والقيامة من الخطية والموت.

وهكذا حلَّ إنجيل يوحنا سرَّ لغز الحية النحاسية التي كلُّ من نظر إليها يُشفى ولا يموت. وما لم

---

(١) في شفاء مريض بيت حسدا (يو٥:٩)، وفي شفاء المولود أعمى (يو٩:١٤).

يستطِعْه موسى أكمله المسيح. «وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان، لكي لا يهلك كلُّ مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية.» (يو٣: ١٤و١٥)

+ المن السماوي:

ثم يسلِّط إنجيل يوحنا نور الإستعلان ليكشف سر المن السماوي النازل من السماء، الذي أعال إسرائيل وأمَدَّهم بالحياة في قفر التيه أربعين سنة، فكان في ظاهره رعاية من السماء بإعجاز بالغ لشعب أعزَّه الله وأكرمه بأن يطعمه هكذا خبز السماء، وإذا بالإنجيل يستعلن فيه سر التجسد الإلهي للإبن الذي نزل من السماء ليعطي جسده على الأرض خبزاً للحياة كلُّ من يأكل منه لا يموت بل تكون له الحياة الأبدية: «آباؤنا أكلوا المنَّ في البرية كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا. فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء. لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم. ... أنا هو خبز الحياة. من يُقْبِل إليَّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً.» (يو٦: ٣١—٣٥)

وهكذا بمنتهى الإختصار يكشف الإنجيل كيف أن اليهود أَحَطُّوا من قيمة المن وجعلوه مجرد خبز سقط عليهم — بنوع ممتاز — من السماء بدعاء موسى، وكيف أن المسيح يميط اللثام عن عظمة هذا المن وسرِّه الإلهي الغالي الخطير: «ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبي...» (يو٦: ٣٢). فالمن كان عطية الآب السماوي حاملاً فيه سِرَّ بذل الإبن في جسد يغتذي عليه الإنسان في العالم كله لينال به وفيه الحياة الأبدية.

وهكذا يلاحظ القارىء أن كل ما كان امتيازاً محدوداً بالجسد لشعب إسرائيل، صار امتيازاً عاماً مطلقاً لكل الإنسان، وبالروح للحياة الأفضل أي الروحية الأبدية.

وعلى القارىء أن يلاحظ في هذه المقارنات كلها بين الناموس وموسى من جهة وبين المسيح من جهة أخرى، أن وظيفة إنجيل يوحنا كانت دائماً دائماً متركزة في استعلان طبيعة المسيح الإلهية الفائقة كأساس، وفي تكميله لكل خصائص الناموس وكل رجاء الآباء والأنبياء، وبالأكثر جداً في استعلان محبة الله الشديدة لإسرائيل وكيف توقفت لتمتد فتشمل العالم كله في شخص المسيح.

(٣) درايته بالنبوات وخاصة ما كان منها يشير إلى المسيح:

استخدم إنجيل يوحنا التعاليم المتأخرة للأنبياء الذين انشغلوا أو شَغَلهم الروح بوصف الملكوت والملك القادم، غير أن الإنجيل لم يدخل في التفاصيل ليشرح أعماق النبوة بل ترك ذلك للقارىء أو السامع بسبب الوضوح والضوء الساطع الذي ألقاه المسيح على كافة النبوات حتى أعماقها!

— من جهة الهيكل باعتباره قاعدة المُلك وعرشه وكيف بدأ المَلِكُ بتطهير كرسي مملكته؛ ومن جهة «المعرفة» التي تغطي الأرض كما تغطي المياه البحر؛ ثم محاولة قلب العرش كما حاول أخيتوفل قلب كرسي داود؛ ثم وضع نبوة إشعياء النبي عن ختام أعمال المسيا موضع التطبيق الحرفي في نهاية حياة المسيح بصورة مبدعة.

+ فمن جهة الهيكل:

قدَّم إنجيل يوحنا جسد المسيح باعتباره الهيكل الجديد الذي يجمع كافة المؤمنين به: «أجاب يسوع وقال لهم انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه... وأما هو فكان يقول عن هيكل جسده» (يو٢: ١٩و٢١) الذي صار يملأ السماء والأرض.

ولكن نَقْضَه للهيكل القديم سبقته محاولة تطهير حتى يركب الجديد على صورة صحيحة من أنقاض القديم: «فصنع سوطاً من حبال وطرد الجميع من الهيكل. الغنم والبقر وكَبَّ دراهم الصيارف وقلَّب موائدهم. وقال لباعة الحمام ارفعوا هذه من ههنا. لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة. فتذكر تلاميذه أنه مكتوب , **غَيرةُ بيتك أكلتني**،.» (يو٢: ١٥—١٧)

+ ومن جهة المَلِك القادم:

— «فأخذوا سعوف النخل وخرجوا للقائه وكانوا يصرخون أوصنا مبارك الآتي باسم الرب **ملك إسرائيل**. ووجد يسوع جحشاً فجلس عليه كما هو مكتوب. لا تخافي يا ابنة صهيون. هوذا مَلِكُكِ يأتي جالساً على جحش أتان. وهذه الأمور لم يفهمها تلاميذه أولاً. ولكن لما تمجد يسوع حينئذ **تذكَّروا أن هذه كانت مكتوبة عنه وأنهم صنعوا هذه له**.» (يو١٢: ١٣—١٦)

سمة زمان الملك الآتي:

+ ستفيض المعرفة كمياه البحر:

«لأن الأرض تمتلىء من معرفة مجد الرب كما تغطي المياه البحر.» (حب٢: ١٤)

«ها أيام تأتي يقول الرب وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهداً جديداً، ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم يوم أمسكتُهم بيدهم لأُخرجهم من أرض مصر حين نقضوا عهدي، فرفضتهم — يقول الرب — بل هذا هو العهد الذي أقطعه مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب. أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً. ولا يعلِّمون بعد كلُّ واحدٍ صاحبه وكلُّ واحد أخاه قائلين اعرفوا الرب لأنهم كلهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم — يقول الرب — لأني أصفح عن إثمهم ولا أذكر خطيتهم بعد.» (إر٣١: ٣١—٣٤)

وهذه هي الآية التي يقدمها إنجيل يوحنا ليعلن بها أن الأيام جاءت وصاحب العهد أتى، ووُضع العهد، وسكب الروح القدس روح المعرفة هكذا، حيث يقول المسيح عن نفسه: «لا يقدر أحد أن يُقْبِلَ إليَّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني وأنا أُقيمه في اليوم الأخير. **إنه مكتوب في الأنبياء (إرميا): ويكون الجميع متعلّمين من الله**. فكل من سمع من الآب وتعلَّم يُقْبِل اليَّ.» (يو٦: ٤٤و٤٥)

وهكذا يربط إنجيل يوحنا هذا الوعد التاريخي المهيب بالإله الآتي، كما ورد في سفر إرميا النبي، بتحقيقه في عمق الزمن في المسيح ومن فمه.

أما من جهة تحقيق فيض المعرفة كالمياه التي تغطي البحر فيقول: «وفي اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع ونادى قائلاً إن عطش أحد فليقبل إليَّ ويشرب. من آمن بي كما قال الكتاب (حبقّوق) **تجري من بطنه أنهار ماء حيٍّ. قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه**... فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا هذا بالحقيقة هو النبي، آخرون قالوا **هذا هو المسيح**.» (يو٧: ٣٧—٤١)

محاولة قلب العرش على طريقة أخيتوفل:

كان إعلاناً فَطِناً وجميلاً للغاية أن يكشف إنجيل يوحنا عن العلاقة النبوية المبدعة بين دور الإنقلاب الخائن الفاشل الذي حاول أخيتوفل أحد حكماء داود النبي القيام به ضد داود الملك والدور الأكثر خيانة والفاشل الذي قام به يهوذا أحد التلاميذ ضد مسيح الرب الملك الآتي على كرسي داود حسب النبوة. فيقول المسيح: «لست أقول عن جميعكم. أنا أعلم الذين اخترتهم. **لكن ليتم الكتاب** (المزامير): **الذي يأكل معي الخبز رفع عليَّ عَقِبَه**» (يو١٣: ١٨). لم يذكر أخيتوفل بالإسم، كما لم يذكر يهوذا بالإسم، لأن إنجيل يوحنا يتوسم في القارىء الدراية بالكتب والذكاء أيضاً. ولكن داود النبي قالها بوضوح سابقاً بنفس الكلمات: «أيضاً رجل سلامتي الذي وثقت به آكل خبزي رفع عليَّ عقبه.» (مز٤١: ٩)

+ تقرير ختامي بفم إشعياء النبي عن أعمال المسيا:

كان منظراً حزيناً أسيفاً غاية الأسف حينما تطلع التلاميذ الأمناء جداً لمعلمهم وتأكدوا كيف انتهت إليه خدمته من الفشل والصدود والعقوق، ولم يُخرجهم من هذا الحزن والأسى والأسف إلا عودة إلى النبوات يقرأون كيف حكت النبوة قديماً وسابقاً عما هو حاصل أمام أعينهم فارتدّت إليهم روحهم: «ومع أنه كان قد صنع أمامهم آيات هذا عددها لم يؤمنوا به. ليتم قول إشعياء النبي الذي قاله يا رب مَنْ صدَّق خبرنا ولمن استُعلنت ذراع الرب. لهذا لم يقدروا أن

يؤمنوا. لأن إشعياء قال أيضاً قد أعمى عيونهم.» (يو١٢: ٣٧—٤٠)

ومما اخترناه للقارىء أعلاه — سواء ما جاء بفم المسيح أو ما جاء تعليقاً عليه — يتضح للقارىء قدرة إنجيل يوحنا الفذَّة في اختراق كل موقف من المواقف التي وقفها المسيح وردَّها إلى أصولها وجذورها الأولى في النبوات والتوراة عموماً، باستعلان عميق ودراية فائقة، وذلك في حَبْك ليس له نظير وبروح العهد القديم، ثم الإمتداد بها لإعلان تكميلها بالروح في ملء الزمن «جئت لأُكمِّل»، كل ذلك في جمل قصيرة وكلمات بسيطة بلغت قمة الإعجاز الروحي حتى ينتهي القارىء حتماً إلى حقيقة هذا الإنجيل أنه كلمة الله بالحق.

الباب الثالث

المعايير الروحية التي يقوم عليها إنجيل القديس يوحنا

المعيار في الماديات هو الكيل الذي نكيل به الشيء لنعرف مقداره وقيمته؛ وفي الروحيات هو محاولة لقياس الأبعاد الروحية التي تحيط بالمسيح بقدر ما أعلنها هو عن نفسه وعن الآب وعن كيفية التعامل معه. وإنجيل يوحنا يهتم بهذه المعايير لأنها تعطي أولاً القيمة الروحية الأساسية لمعرفة المسيح ثم تؤسس عليها مقدار ما يتوجب علينا عمله بالنسبة للمسيح على أساس هذا المعيار.

فالمسيح «حقٌّ» هو؛ هذا معيار يقرر قيمة المسيح الروحية أو بالأصح الإلهية. وعلى أساس أن المسيح هو الحق، يقدم لنا الإنجيل ما يتوجب علينا عمله تجاه المسيح باعتباره أنه هو الحق، مثل أن نؤمن به إيماناً باتًّا وكلياً. لأنه إذا كان المسيح هو جوهر «**الحق**» أصبح الإيمان به هو الإيمان بالحق.

وكما أن الذي يتعامل بالمعايير المادية إذا هو غشَّ فيها يحاكَمُ بالقانون؛ كذلك في المعايير الروحية فإن كل من يخالف أصولها يُدان بحسب ما نطق به المسيح: «الكلام الذي تكلمت به هو يدينه.» (يو١٢: ٤٨)

بهذا نجد أن إنجيل يوحنا يقدم لنا في الحقيقة ناموساً كاملاً: **أولاً** استعلان معايير إلهية؛ **ثانياً** المعايير الإلهية أنشأت إلتزامات بشرية، **ثالثاً** والإلتزامات تخرجت منها قوانين وأحكام.

فحقيقة «الله نور» هي **أولاً** معيار، و«ليس فيه ظلمة البتة»، فهي معيار مطلق أي إلهيٌّ كامل.

وظهور هذا النور في المسيح أنشأ **ثانياً** إلتزاماً بالسير فيه كوصية أو أمر «سيروا ما دام لكم النور.» (يو١٢: ٣٥)

والوصية كالتزام تخرَّج منها **ثالثاً** قانون: كل من لا يسير في النور يدركه الظلام، وكل من يعيش في الظلام يُدان: «وهذه هي الدينونة أن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة.» (يو٣: ١٩)

وعلى القارىء أن يمعن التفكير في هذا الأمر لأن إنجيل يوحنا هو في الحقيقة إنجيل تشريعي

قانوني بالدرجة الأولى، أنظر كيف انتهى بمحاكمة عُقدت أمام محكمة عليا لم يشهد التاريخ لها نظير، إذ انضمت السلطتان العُظْميان: سلطة رئاسة الكهنوت اليهودي على سلطة الإمبراطورية الرومانية. فقراءة الإنجيل تحتاج إلى وعي قضائي، حتى إذا برز المعيار الروحي للإنسان؛ فعلى الضمير – حينئذٍ – أن يتيقظ للقانون الذي يتبعه حتماً ثم الدينونة.

وعلى القارىء أن يقيس نفسه ويحكم عليها بحسب الحكم الذي يتبع كسر الوصية، وإلا فلن يستفيد القارىء من استعلان المعايير الإلهية المتتابعة مثل: **النور، الحق، الحياة، الحب، الشهادة، المجد**... إلخ.

ويلاحظ القارىء أن الإنجيل لم يبوّب هذه المعايير والأحكام ولم يعمل عمل المشرِّع المتخصص، فلم يبرز القوانين والأحكام لتأخذ رنينها القضائي كموسى النبي؛ ولكنه يعمل عمل الشاهد فهو يقدم النواميس والأحكام كمن سمع ورأى والآن يشهد على صدق ما يقول، ويترك للقارىء أن يشهد أيضاً لنفسه أو عليها، وللكنيسة أن تضع المنهج.

والمعايير في إنجيل يوحنا إما تأتي كمتقابلات مثل:
الحق والشهادة، النور والمجد، الحياة والدينونة، الإيمان والمعرفة.
أو تأتي فرادى مثل «المحبة»، «**الشركة** = الوحدة أو الإتحاد».

الفصل الأول

الحق والشهادة

أ ـــ الحق

«الحق» الكلمة المفضلة التي كانت على لسان المسيح، ولِمَ لا، وهي كانت لهج الأنبياء ومحور الترديد في سفر المزامير، اقرأ مزمور ۱۱۹ وأنت تعرف ماذا كان «الحق» يعني عند داود النبي: «ليت طرقي تثبت في حفظ حقوقك...، يا رب علمني حقوقك...، أما عبدك فكان يهتم بحقوقك...، أنت اخترت لي طريق الحق...، ضَعْ لي يا رب ناموساً في طريق حقوقك...، لا تنزع من في قول الحق...، حقوقك كانت لي مزامير...، هذا صار لي لأني طلبت حقوقك...، فبصلاحك علمني حقوقك...، خير لي أنك أذللتني حتى أتعلم حقوقك...، حقوقك لم أنسَ...، كل وصاياك هي حق...، بعيد هو الخلاص من الخطاة الذين لم يطلبوا حقوقك...، بدء كلامك حق...، تفيض شفتاي بالتسبيح إذا علمتني حقوقك...»، كل هذا في مزمور واحد.

لقد ورث إنجيل يوحنا «الحق» كتعبير استعلاني يحمله المسيح للتعبير عن طبيعة الله أكثر من باقي أسفار العهد الجديد.

ويلاحظ أن كلمة «الحق» في اللغة العبرية ĕ'meth ذات مفهوم يختلف قليلاً عن مفهوم «الحق» في اللغة اليونانية. أما «الحق» الذي جاء على لسان المسيح فهو ينتهي في معظم المواضع إلى المعنى العبري القديم كما جاء في العهد القديم وخاصة المزامير وهي تعني: **الأمانة** Faithfulness ، **والصدق** Truthworthness ، وتفيد الديمومة Permanence وذلك من جهة الأخلاق واستقامتها، كما تفيد الثقة المؤكدة Sureness .

أما في اليونانية فتأتي بمعنى فلسفي وهو «الحقيقة» ἡ ἀλήθεια في المقابل لها وهو شبه الحقيقة أو ضدها وهو الغش والخداع Falsehood ، أو تأتي بمعنى Reality وهي الحقيقة الثابتة في مقابل المظهر Appearance .

والفرق بين المعنيين هو حاصل بين روح الشرق وروح الغرب، أو روح الأدب وروح العلم، أو روح الإنسان وروح الطبيعة، أو روح الضمير وروح العقل. وليس من العسير الوفاق بينهما، فالروحانية الحديثة التي تغلغلت القيم الجوهرية العليا المختفية في صميم المادة ألغت كثيراً من الفواصل والحواجز والأوهام التي كانت تمليها الفروق القاطعة في الذهنية القديمة بين المادة والروح أو بين المنظور وغير المنظور، فبعد تفجير الذرة والإنتهاء بها إلى مجرد طاقة تنتهي في غير المنظور بدون شكل ولا لون ولا كيان، تكون المادة قد كشفت عن صورة مطلقة عجيبة في جوهرها تمتُّ إلى الله مباشرة.

والمسيح كخالق للعالم المادي، أي هذه الطاقة الهائلة التي أبرزها إلى الوجود المادي المتعدد الأشكال والألوان، ليس من الصعب أن يجمع في نفسه بين «الحق» العبري الروحي القديم ἐ'meth و«الحق» أليثيا ἡ ἀλήθεια الفلسفي اليوناني الفكري المطلق الذي ينشغل بجوهر الوجود المادي. فهو جوهر الحياة وليس شبهها ولا مظهرها، وهو الأصل «بكر كل خليقة» (كو١: ١٥) وليس الصورة المخلوقة، وهو الروح بكل أعماقها وعلوها وكل مفاخرها ومجدها غير المنظور ولا المحدود، غير المدرَك، غير المفهوم وغير المعقول.

ولكن هو نفسه صاحب الجسد الملموس والمنظور والمدرَكُ المفهوم والمعقول جداً والمحبوب أيضاً. فقد جسَّد المسيح «أليثيا» اليونان وصالحها مع « ἐ'meth » العبرانيين، فهو الذي صالح الشعب مع الشعوب، والذي صالح السمائيين مع الأرضيين، والنفس مع الجسد! وهو كما هو بحسب الحق اليهودي الصادق الأمين والكائن الذي كان والذي أتى ويأتي أيضاً، الذي أُعطي كل سلطان مما في السموات وعلى الأرض معاً!!!

وكلمة «الحق» جاءت في إنجيل يوحنا للتعبير عن المسيحية عموماً كمعرفة شاملة تجمع في مسيحها كمال الأصول: «الله ... كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله **وارثاً لكل شيء الذي به أيضاً عمل العالمين** الذي وهو بهاء مجده ورسم جوهره **وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته...**» (عب١: ١–٣)، فالمسيح لأنه كلمة الله صار استعلاناً كاملاً للألوهة؛ لأنه إن كان عمل الكلمة في الإنسان العادي هو الإعلان عما في عقل الإنسان أو الكشف عن ماهية الإنسان نفسه، فكلمة الله هو **استعلان كامل لذات الله ولطبيعته** التي لم تكن مُعْلَنة قبلاً (يو١: ١٨).

وكذلك هو استعلان **كامل للحياة الأبدية** لأنه قام من الموت غالباً سلطانه إلى الأبد (يو١١: ٢٥).

وهو أيضاً **استعلان كامل للمحبة**، لأنه بذل نفسه للموت عن الإنسان (يو٣: ١٦)، **واستعلان كامل للحق** لأنه لم يكن فيه غشّ (يو١٤: ٦)، **واستعلان كامل للقداسة** لأنه لم يعمل خطية واحدة!! (يو٨: ٤٦).

وحينما قال المسيح «أنا الحق» كان هذا أكمل استعلان لله في ذاته كإبن له، وذلك ليس بالفكر بل على مستوى الحياة والعمل. فلم يكن في المسيح قط ما يُخلّ ما بين المعرفة المطلقة والعمل الكامل، أو بين الحياة الأبدية والمثل كمن مات وقام بإرادته، وهكذا صار «**الحق**» الذي حمله المسيح إلينا هبةً عظمى للإنسان الذي كان قد أعوزه وحدة المعرفة والعمل عوض ما كان يصرخ به القديس بولس الرسول: «لأني لست **أعرف** ما أنا **أفعله** إذ لست أفعل ما أريده بل ما أبغضه فإياه أفعل.» (رو٧: ١٥)

وكان التجسد في المسيح الذي حمله، وأعطانا به أعظم وأصدق تعبير عن «**وحدة المعرفة والعمل**» في «**جوهر الحق** الواحد».

وكانت القدرة الفائقة للمسيح التي جازها في ذاته في كيفية إعطاء ذاته للإنسان، هكذا بالموت عنا والقيامة لنا وبنا، هي التي منحتنا هذه الموهبة الإلهية أي وحدة «المعرفة والعمل» في جوهر الحق المسلَّم إلينا كعطية قائمة بذاتها بواسطة الروح القدس «**روح الحق**، الذي **يرشدكم إلى جميع الحق**.» (يو١٦: ١٣)

ولم يَعُد «**الحق**» في جوهره الإلهي شيئاً بعيد المنال، بعد أن تجسد المسيح، بمعنى حضوره الإلهي المبارك الذي تنازل به الله بين الناس «الله ظهر في الجسد» (١تى٣: ١٦) في شخص المسيح المبارك «وحلّ بيننا ورأينا مجده... مملوءاً نعمة **وحقاً**... **ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة**... أما النعمة **والحق** فبيسوع المسيح صارا.» (يو١: ١٤—١٧)

وقد صار وتم لنا بالفعل والعمل بحسب لاهوت القديس يوحنا أن من يثبت في الحق يثبت في الله، وأن من تنفتح بصيرته ويعرف الحق يعرف الله في طبيعته المستعلنة في الآب والإبن:
«ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا **بصيرة لنعرف الحق. ونحن في الحق في ابنه** يسوع المسيح. **هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية.**» (١يو٥: ٢٠)

وقد صار «الحق» هو العامل المهيمن على حياة الإنسان الجديد ومحور عمله أخذاً وعطاءً. والحق جوهر فعّال إذا تملَّك الإنسان حرَّره من كل قيد خاطىء: حرره من العالم وأهوائه، حرره من الجسد وإلحاحاته، حرره من الذات ورغباتها، حرره من الخطية وعبوديتها وشلَّ حركة جذورها الضاربة في الطبيعة البشرية القديمة، حرَّره من قصور العقل وخداع إدراكاته. لأن الحق يعطي رؤية صحيحة وأصيلة تخترق مظاهر الوجود جميعاً لتستقر في جوهرها صافية سالمة من كل غش وخداع المظاهر والأقنعة الخادعة التي للمادة. فالحق روح صافٍ «والروح هو الذي يشهد لأن الروح هو الحق» (١يو٥: ٦). وهو يحكم الأكوان بقانون لا تخرج المادة عن حتميته.

والرب يسوع المسيح ابن الله روح خالص في جسد منظور: «الله روح» (يو٤: ٢٤)، ولكن لا يخرج جسده عن كمال معطيات الروح فيه، فالإتحاد كامل ومطلق بين الروح الإلهية والجسد البشري. لذلك فإنجيل يوحنا يعطي آبن الله المتجسد طابع الروح والحق بلا اهتزاز.

ومن روائع التعبيرات عن «الحق» الإلهي قول المسيح عن جسده ودمه: «جسدي **مأكلٌ حقٌ**، ودمي **مشربٌ حقٌ**» (يو٦: ٥٥). هذه من التعبيرات النادرة التي تسخر من الإدراك الفلسفي للحق كونه عند الفلاسفة فكرياً مطلقاً ومجرداً. ولكن المسيح جاء ليعطي الإنسان أن يأكل الحق ويشربه بمعنى قبول روح الله ليستقر في أعماق هيكل الجسد.

هكذا دخل الله التاريخ البشري وفتحه عليه أي على الله، وعلى مصراعيه...

وهكذا اقتحم «الحق» الزمان الإنساني الذي تعفن بالجهالة ليعطيه تجديداً وامتداداً في نور الله وفي الحياة الأبدية.

وهكذا حاز الإنسان بالنهاية بصيرة روحية نيّرة يعرف بها الله معرفة الحب بل العشق الإلهي، فاستنار العقل البشري وأنار عتمة ليله الطويل وسطع نور الله في وجه يسوع المسيح من جديد على قلب الإنسان وروحه.

وكما أعطي الإنسان أن يأخذ الحق ويأكله أكلاً ويتمثله في جسده تمثيلاً فيقدسه وفي عقله فينيره، هكذا تحتم أن يُخرج الإنسان الحق من بطنه كأنهار ماء حي لأن هذا هو قانون الزرع والثمر، أو كما يقولون، حساب البيدر، فيقول الرب: «فليضيء نوركم هكذا قدام الناس» (مت٥: ١٦)، تماماً كما أعطي لكم أن «سيروا (في النور) ما دام لكم النور.» (يو١٢: ٣٥)

والحق في إنجيل يوحنا يقدس الإنسان «بالكلمة»: «أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي

كـلـمـتـكـم بـه» (يو١٥: ٣)، كذلك يقول طالباً من الآب: «قدّسهم في حقك، كلامك هو حق» (يو١٧: ١٧)!!

وليس بالكلمة فقط نتقدس بل بدعاء اسم المسيح وحضوره نتقدس: «الذي صار لنا حكمة من الله و برًّا وقداسة وفداء.» (١ كو١: ٣٠)

فـدخول المسيح إلى العالم مصالحة، وحضوره تقديس، وأن نلمسه نصير ملوكاً وكهنةً. أما حضور المسيح فـيـنـا فـهـو بصورة سريّة وسرائرية دائمة لا تنقطع طالما لنا هذه المشيئة: «فبهذه المشيئة نحن مـقـدَّسون **بتقديم جسد يسوع المسيح مرة واحدة**» (عب١٠: ١٠)؛ «لهذا قد وُلدتُ أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق (الله)، كل من هو من الحق يسمع صوتي. قال له بيلاطس — **وكأنه لا يرى يسوع** —: ما هو الحق؟» (يو١٨: ٣٧و٣٨)

والمسيح لم يجيء ليقيم حدود الحق بين الناس (لو١٢: ١٣)، ولكن ليعلن كمال الحق وملئه πλήρης، واستعلنه لتلاميذه كشهود للعالم كله: «والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب **مملوءاً** نعمة **وحقاً**» (يو١: ١٤)، «ومن **ملئه** نحن جميعاً أخذنا» (يو١: ١٦)، «لأن الناموس بموسى أعطي أما النعمة **والحق** فبيسوع المسيح صارا.» (يو١: ١٧)

وحينما قال: «أنا هو الطريق **والحق** والحياة» (يو١٤: ٦) فقد كان ذلك قمة الإستعلان الذاتي. ثم يعود و يقرر أن الحق يحرر والإبن يحرر: «تعرفون **الحق** والحق يحرركم» (يو٨: ٣٢)، «فإن حرَّركم **الإبن** فبالحقيقة تكونون أحراراً» (يو٨: ٣٦)، على أساس أن العبودية مصدرها الخطية، والخطية يبددها الحق كما أدانها المسيح بالجسد. لذلك أرسل المسيح روح الحق ليكمل عمل المسيح على الصليب لإعطاء الحرية لمن استعبدتهم الخطية.

والروح القدس يضطلع بإعلان الحق وإعلان المسيح معاً:
«ومتى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق (قليلاً قليلاً)» (يو١٦: ١٣)، «لأنه يأخذ مما لي ويخبركم...» (يو١٦: ١٤). هنا سر الملء أو الإمتلاء من الحق والمسيح. «والروح هو الذي يشهد (للمسيح فينا) لأن الروح هو الحق.» (١يو٥: ٦)

وهكذا يعطي إنجيل يوحنا تقييماً متوازياً ومتداخلاً بين الحق والمسيح موضحاً أن الإمتلاء من معرفة المسيح هو امتلاء من الروح القدس، وهو هو امتلاء أو ملء «**الحق**» أو ملء الحرية أو ملء التبني. «أما أنتم فلكم مسحة من القدوس وتعلمون كل شيء (تعرفون كل المعرفة — حسب النص اليوناني) لم أكتب إليكم لأنكم لستم **تعلمون الحق** بل لأنكم تعلمونه...» (١يو٢: ٢٠و٢١)

ويعود إنجيل يوحنا ويؤكد أن معرفة الحق ليست بالفكر، ونواله ليس كباقي المعارف، بل إن **طريقه هو الخشوع والتقوى ومخافة الله والإحساس بالتوبة الصادقة**، لأن طالب الحق هو طالب وجه الله. وهذا يتضح من هذا الحوار المحزن بين المسيح واليهود: «أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا... وأما أنا فلأني **أقول الحق** لستم تؤمنون بي. من منكم يبكتني على خطية؟ فإن كنت أقول الحق فلماذا لستم تؤمنون بي؟ الذي من الله يسمع كلام الله لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله.» (يو٨: ٤٤—٤٨)

ثم يأخذ القديس يوحنا هذه المعادلة ويصيغها بكلمات من عنده في رسالته هكذا: «نحن من الله فمن يعرف الله يسمع لنا ومن ليس من الله لا يسمع لنا. من هذا نعرف روح الحق وروح الضلال.» (١يو٤: ٦)

وبذلك يكشف القديس يوحنا على ضوء كلام الرب أن الروح القدس يزكّي الحق في قلوبنا لنسمع للحق أكثر فأكثر حتى يثبت فينا الحق ونتغير ونشهد له. وبالعكس فإن روح الشيطان أي روح الضلال يقاوم الحق (كما قاوم اليهود المسيح) ويرفضه ولا يعطي للإنسان فرصة أن يسمع له فينكره. أما علامة عمل الروح القدس أي روح الحق فينا فتكون دائماً بالإعتراف بالخطية والإستعداد للتوبة. أما إنكار ذلك فيكون دليلاً على **خلوّ القلب من الحق** الكاشف للنيّات والضمائر ووجود روح الضلال بدلاً عنه: «إن قلنا أنه ليس لنا خطية **نضل أنفسنا، وليس الحق فينا.**» (١يو١: ٨)

ثم يوضح القديس يوحنا في مواضع كثيرة أن الحق ليس مجرد معرفة فكرية لكنه قوة وفعل محرّك. ويركز ذلك في تصوير قدرة الحق — إذا سكن الضمير — على معونة الإنسان على تكميل الوصايا: «بهذا نعرف أننا قد **عرفناه إن حفظنا وصاياه**. من قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه، فهو كاذب، **وليس الحق فيه**» (١يو٢: ٣و٤). كذلك: «وأما من **يفعل الحق** (الوصية) فيقبل إلى النور لكي تظهر أعماله أنها **بالله معمولة**.» (يو٣: ٢١)

كذلك: «إن قلنا أن لنا شركة معه وسلكنا في الظلمة نكذب ولسنا **نعمل الحق**» (١يو١: ٦). فالحق فعل وعمل!!

هنا يلزم أن ننبه أن «الحق» في ختام العصر الرسولي كان معياراً عملياً يتغلغل كل المضمون المسيحي والحياة والسلوك. وأن الرباط بين الإيمان والحق لا ينفصم وقانونه هو: **«أن يسوع هو المسيح ابن الله الذي جاء في الجسد».**

وكان هو المعيار الذي تقاس عليه حياة الكنيسة برمتها كأساس لكل قوانين الإيمان: «نعلم أننا نحن من الله... ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق. ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية.» (١يوه: ١٩و٢٠)

لذلك — والأمر كذلك — يتحتم أن يكون المعيار الأول الذي يعيشه إنجيل يوحنا ويقدمه للعالم هو «**الحق**»، وكان على الإنجيل بعد ذلك أن يقدم ويزكي «**الشهادة**» لهذا الحق بكل وسيلة ممكنة. وهنا يأتي دور الشهادة في إنجيل يوحنا.

ب — الشهادة ἡ μαρτυρία

جاءت الشهادة في إنجيل يوحنا متعددة المراحل والدرجات وبحسب ترتيبها تكون كالآتي:
شهادة الآب، شهادة الإبن (المسيح نفسه)، شهادة الأعمال، شهادة الأسفار، شهادة المعمدان، شهادة التلاميذ، شهادة الروح القدس الناطق والمضيء في القلوب.

١ — شهادة الآب:

هذا ما يعلنه المسيح بفمه ويسجله عنه القديس يوحنا. وهذه الشهادة تُعتبر خاصة جداً وسريَّة للغاية كشفها المسيح ليعلن عن علاقته الصميمة أي الجوهرية بالآب.

«أنا لا أقبل شهادة من إنسان...، الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي μεμαρτύρηκε.» (يوه: ٣٤و٣٧)

«أنا هو الشاهد لنفسي و يشهد لي μαρτύρεῖ الآب الذي أرسلني.» (يو٨: ١٨)

يلاحظ هنا أن كلمة «يشهد» بالنسبة للآب تأتي في اللغة اليونانية التي كُتب بها الإنجيل في الصيغة الدائمة المستمرة والمستقرة، أي أنها قائمة دائمة حتى اليوم وإلى الأبد
μεμαρτύρηκε, μαρτύρεῖ

ويلاحظ أن المسيح يتكلم عن شهادة الآب ولا يقول شهادة «أبي»، لأن القصد الأساسي من شهادة الآب أن يَقبل الناس الإبن والآب معاً، لذلك فالشهادة وإن كانت تخص المسيح ولكنها مُستعلَنة للناس ليكون الله بالنهاية أباً للجميع (الآب) من خلاله.

وإذا بلغ الإنسان إلى الشعور الصادق والحقيق بأبوّة الله فإنه يدرك السر الإلهي الأعظم(١) القائم في طبيعة الله بين الآب والإبن الوحيد. لأن مفاعيل السر القائم بين الأبوّة والبُنوّة في ذات الله تمتد لتشمل كياننا، فنحس بالتبني لله في المسيح كأعظم هبة نالها الإنسان من لدن الله بعد العبودية التي عاش فيها تحت سلطان الخطية والشيطان. هذا ندركه بسهولة من حوار المسيح مع اليهود الرافضين المرفوضين: «فقالوا له إننا لم نولد من زنى، لنا أب واحد وهو الله (بالوراثة المغشوشة)، فقال لهم يسوع لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأني خرجت من قِبَل الله وأتيت. لأني لم آتِ من نفسي بل ذاك أرسلني... أنتم من أب هو إبليس.» (يو٨: ٤١—٤٤)

ويأخذ القديس يوحنا كلام المسيح هذا ويطبقه بصورة إيجابية غاية في العمق وذلك في رسالته هكذا: «إن كنا نقبل شهادة الناس فشهادة الله أعظم، لأن هذه هي شهادة الله التي قد شهد بها عن ابنه، من يؤمن بإبن الله فعنده الشهادة في نفسه» (١يو٥: ٩و١٠). أي أن شهادة الله للمسيح تحل في قلوبنا بالسر الإلهي ونحس بها، وذلك إذا آمنّا بأبوة الله للمسيح أي، كما يقول القديس يوحنا، إذا صدقنا الله فيما قاله عن بنوّة المسيح له: «من لا يصدق الله فقد جعله كاذباً لأنه لم يؤمن بالشهادة التي قد شهد بها الله عن ابنه.» (١يو٥: ١٠)

ويعود القديس يوحنا ليوضح كيف وبأيِّ معنى يكون حصولنا على فعل شهادة الله في أنفسنا عن ابنه وذلك عندما تبدأ تسري الحياة الأبدية في كياننا الروحي: «وهذه هي الشهادة: أن الله أعطانا حياة أبدية، وهذه الحياة الأبدية هي في ابنه. من له الإبن فله الحياة ومن ليس له ابن الله فليست له الحياة.» (١يو٥: ١١و١٢)

٢ — شهادة المسيح لنفسه:

«إن كنت أشهد لنفسي فشهادتى حق، لأني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب... أنتم حسب الجسد تدينون.» (يو٨: ١٤و١٥)

«أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني.» (يو٨: ١٨)

وهنا تتطابق الشهادتان، التي من الآب له والتي من نفسه لنفسه، فهما من مصدر واحد ذات إرادة ومشيئة واحدة لكليهما. فشهادة المسيح لنفسه هي في الحقيقة شهادة الآب له لأنه أوضح أن

(١) لا شك أن العلاقة الكائنة بين الآب والإبن في الله هي «**السر الإلهي الأعظم**» المذخر لنا في كل صفحات إنجيل يوحنا، وإن معرفتنا لهذا السر تنشىء فينا حتماً الحياة الأبدية (يو١٧: ٣)، بل ودخولاً في مجال هذه العلاقة أي في نعمة التبني لله التي هي أعظم نعمة أعطيت لبني البشر. وسنعود إلى شرح هذه الفكرة الأساسية في إنجيل يوحنا في مواضع عديدة من هذا المدخل.

كل أعماله وأقواله التي يعمل والتي يقول تنبع دائماً من الآب الذي أرسله:
«الكلام الذي أكلمكم به لست أتكلم به من نفسي لكن الآب الحالّ فيَّ هو يعمل الأعمال.» (يو١٤: ١٠)

لذلك نجد في شهادة المسيح لنفسه وثوقاً وتأكيداً وشموخاً يفوق أي قامة بشرية أو ملائكية: «الحق الحق أقول لك إننا إنما نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا ولستم تقبلون شهادتنا، إن كنت قلت لكم الأرضيات ولستم تؤمنون فكيف تؤمنون إن قلت لكم السماويات، وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء.» (يو٣: ١١—١٣)

والمعمدان كرر هذه الحقيقة بقوة وصلابة: «الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع، **وما رآه وسمعه به يشهد** وشهادته ليس أحد يقبلها. ومَنْ قَبِلَ شهادته فقد ختم أن الله صادق.» (يو٣: ٣١—٣٣)

وينوِّه المسيح دائماً أنه يشهد لنفسه لأن في شهادته لنفسه شهادة للحق، لأنه هو «الحق»: «أنا هو الطريق **والحق** والحياة» (يو١٤: ٦)، وبسبب قوة وعلوّ الحق الذي فيه كان لا بد أن يشهد للعالم كله معتمداً على أن كل من يسمع للحق سيسمع له حتماً ويؤمن به وبالتالي يؤمن بالذي أرسله فتكون له الحياة الأبدية: «**قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق**، كل من هو من الحق يسمع صوتي.» (يو١٨: ٣٧)

٣ — أعمال المسيح تشهد له:

المسيح يقدم أعماله كشهادة فائقة للحق والألوهة التي فيه أعظم من كل شهادة يمكن أن يقدمها إنسان أو نبي أو حتى ملاك: «وأما أنا فلي شهادة أعظم من يوحنا، لأن الأعمال التي أعطاني الآب لأكملها هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني، والآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي.» (يو٥: ٣٦و٣٧)

والأعمال التي يقدمها المسيح لتشهد له هي نفس أعمال الآب، فهي أعمال الله بلا نزاع: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو٥: ١٧)، الأمر الذي لم يطقْ سماعه اليهود وأرادوا أن يرجموه لأنه عادَلَ نفسه بالله. والأمر الذي هيَّج اليهود من هذه الشهادة لأعماله أنها بالفعل كانت تنطق بالحق الذي فيه وبالطبيعة الإلهية التي تعطيه هذه القوة وهذا السلطان المهيب: «إن كنت أنت المسيح فقُلْ لنا جهراً!!، أجابهم يسوع إني قلت لكم ولستم تؤمنون. **الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي**، ... أنا والآب واحد.» (يو١٠: ٢٤و٢٥و٣٠)

ولكي يجعل المسيح أعماله التي تشهد له تظل تشهد له إلى الأبد استودع تلاميذه والأتقياء من بعدهم في كل جيل أن يعملوا نفس هذه الأعمال: «الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضاً ويعمل أعظم منها لأني ماضٍ إلى أبي، ومهما سألتم باسمي فذلك أفعله ليتمجد الآب بالإبن.» (يو١٤: ١٢و١٣)

ويوضح المسيح بكل تأكيد وبتكرار دائم أن أعماله تشهد له لأنها أعمال الله ولا يمكن أن يعملها أحد إلا الله: «لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيري لم تكن لهم خطية. وأما الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي» (يو١٥: ٢٤)؛ «...مهما عمل ذاك (الآب) فهذا يعمله الإبن كذلك. لأن الآب يحب الإبن ويريه جميع ما هو يعمله... لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويُحيي كذلك الإبن أيضاً يُحيي من يشاء» (يو٥: ١٩—٢١)؛ «الآب الحال فيَّ هو يعمل الأعمال، صدقوني أني أنا في الآب والآب فيَّ.» (يو١٤: ١٠و١١)

٤ ــ شهادة الأسفار المقدسة:

كانت هذه أحد المصادر التي طالب المسيح أن يرجع اليهود المعاندون إليها، «فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية وهي التي تشهد لي، ولا تريدون أن تأتوا إليَّ لتكون لكم حياة» (يو٥: ٣٩و٤٠). «لا تظنوا أني أشكوكم إلى الآب، يوجد الذي يشكوكم وهو موسى (أي الأسفار الخمسة) الذي عليه رجاؤكم، لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونني لأنه هو كتب عني. فإن كنتم لستم تصدقون كتب ذاك فكيف تصدقون كلامي.» (يو٥: ٤٥—٤٧)

فإذا علمنا أن المسيح حدد دوره بالنسبة للعهد القديم هكذا: «ما جئت لأنقض بل لأكمل» (مت٥: ١٧)، كما يقدم القديس يوحنا العهد الجديد بيسوع المسيح كما تتركب النعمة ويتركب الحق على الأسفار القديمة لتضيئها وتشرحها هكذا: «لأن الناموس بموسى أعطي أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا.» (يو١: ١٧)

وهكذا يتضح من منهج إنجيل يوحنا بالنسبة لشهادة أسفار العهد القديم أنها كتبت لتبقى خالدة ولكن دورها الأول قد انتهى وهو دور التأديب كما يقول القديس بولس الرسول: «لكن قبلما جاء الإيمان كنا محروسين تحت الناموس مُغْلَقاً علينا إلى الإيمان العتيد أن يُعلن. إذاً قد كان **الناموس مؤدِّبنا إلى المسيح** لكي نتبرر بالإيمان. ولكن **بعد ما جاء الإيمان لسنا تحت مؤدِّب**» (غل٣: ٢٣—٢٥)؛ «وأما الآن فقد ظهر برُّ الله بدون الناموس مشهوداً له من الناموس والأنبياء، برُّ الله بالإيمان بيسوع المسيح.» (رو٣: ٢١و٢٢)

أي أن ليس بظهور المسيح يكون قد بطل العهد القديم بأسفاره، ولكن الحقيقة العظمى هي أنه بعد أن أكمل العهد القديم دوره كمؤدِّب بدأ دوره كشاهد للمسيح، وبذلك ازداد كرامة وتقديراً، بقدر ما زاد هو المسيح كرامة وتقديراً بشهادته عنه.

٥ ــ شهادة يوحنا المعمدان:

لقد كان يوحنا المعمدان آخر نبي (بل وأعظم من نبي لأنه رأى العريس) يمثل العهد القديم. وكانت عليه مسئولية محددة سبق وأن تنبأ بها إشعياء النبي وأدركها المعمدان بروحه عالماً أنه هو المقصود لتمهيد الطريق أمام المسيا: «ماذا تقول عن نفسك؟ قال أنا صوتُ صارخ في البرية قوِّموا طريق الرب، كما قال إشعياء النبي.» (يو١: ٢٢و٢٣)

ويلاحظ أن المعمدان كان ابن كاهن لذلك أرسل اليهود من أورشليم إليه بعثة لتقصِّي الحقائق، أرسلوها من «كهنة ولاويين»، لأن الأمر كان جدّ خطير ويتعلق بالنظام الكهنوتي كله ومستقبل إسرائيل، وهذه أول مرة يُذكر في الأناجيل عمل محدود للاويين في رسالة المسيح.

ورسالة المعمدان كنبي كانت محصورة بحسب إنجيل يوحنا في الشهادة والشهادة فقط لإعلان شخصية المسيح الموجود في وسطهم: «كان إنسان مرسل من الله اسمه يوحنا، هذا جاء للشهادة ليشهد للنور لكي يؤمن الكل بواسطته.» (يو١: ٦و٧)

كان يوحنا مثل شعاع من نور يسلطه الله في وسط ظلمات العهد القديم كله لينير لمصدر النور: «لم يكن هو **النور** بل ليشهد للنور... الحقيقي.» (يو١: ٨و٩)

كان نوره صناعياً مؤقتاً وليس حقيقياً أو جوهرياً: «كان هو **السراج الموقد** (بيد آخر)، المنير، وأنتم أردتم أن تبتهجوا بنوره **ساعة**» (يو٥: ٣٥). كان المعمدان يسير ناظراً إلى خلفه باحثاً أمامه عن آخر سيأتي بعده ولكنه كان قبله وذلك ليشهد له و يسلِّمه كل مسيرة التاريخ والأنبياء و يرقد. «هذا هو الذي قلت عنه يأتي بعدي رجل صار قدامي لأنه كان قبلي... الذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه... وأنا لم أكن أعرفه لكن **ليُظهر** لإسرائيل لذلك جئت أعمد بالماء... **وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله.**» (يو٥: ٣٠و٢٧و٣١و٣٤)

ولكن المسيح نفسه لم يكن ينتظر أو يترجى شهادة يوحنا له، لأن المسيح عنده الشهادة لنفسه كاملة ولا حاجة له لشهادة آخر من الناس، وإنما كانت شهادة يوحنا بتدبير خاص من الله لخلاص الشعب الجالس في الظلمة الذين كانوا في حاجة إلى هذه الشهادة حتى لا يخطئوا النور ولكنهم أخطأوه: «أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحق وأنا لا أقبل شهادة من إنسان ولكني أقول هذا

لتخلصوا أنتم.» (يو٥: ٣٣و٣٤)

ويوحنا المعمدان كان يعرف بالروح حدود رسالته ونهايتها، وعبَّر عن ذلك بكل أمانة: «أنتم أنفسكم تشهدون لي أني قلت لست أنا المسيح بل أني مرسل أمامه. من له العروس فهو العريس وأما صديق العريس الذي يقف ويسمعه يفرح فرحاً من أجل صوت العريس. إذاً فرحي هذا قد كمل. ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص.» (يو٣: ٢٨—٣٠)

٦ ــ شهادة التلاميذ:

حالة واحدة فقط طلب فيها المسيح من تلاميذه والناس أن يشهدوا، وهي بعد أن يرتفع وليس أثناء وجوده في الخدمة على الأرض: «ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الإبتداء.» (يو١٥: ٢٦و٢٧)

وقد أكمل القديس يوحنا بنفسه مع التلاميذ هذه الوصية بكل أمانة: «والذي عاين شهد وشهادته حقٌ وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم» (يو١٩: ٣٥)؛ «هذا هو التلميذ الذي يشهد بهذا وكتب هذا ونعلم أن شهادته حق.» (يو٢١: ٢٤)

٧ ــ شهادة الروح القدس:

كانت كل شهادة تمت للمسيح في جميع الشهادات السابقة تعتمد على مَن يوصِّلها لآذان الناس المفتوحة ولعيونهم وقلوبهم المعدَّة لإستقبال النور ولمَن يفسِّرها لهم ويؤكِّدها لهم، وإلاَّ ما كان يمكن أن يدركوا المقصود منها، لأنها شهادة «للحق» ولكن في مظهر ضعف في أفواه أناس بينما جوهر الحق المطلوب الشهادة له هو هو الله، لذلك تحتم أن يكون الروح القدس هو الذي يضطلع بهذه المهمة لأنه «روح الحق» (يو١٥: ٢٦) الذي «يرشد إلى جميع الحق» (يو١٦: ١٣) ويكون حاضراً في كل شهادة مشيراً ومرشداً ومفسِّراً ومقنعاً. لهذا كان أول استعلان للمسيح على يد يوحنا المعمدان قائماً على حضور وإعلان الروح القدس: «وأنا لم أكن أعرفه لكن ليُظْهَرَ لإسرائيل لذلك جئت أعمِّد بالماء... وأنا لم أكن أعرفه لكن الذي أرسلني لأُعمِّد بالماء ذاك قال لي **الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو** الذي يعمِّد بالروح القدس. وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله.» (يو١: ٣١و٣٣و٣٤)

وهكذا فتح الروح القدس باب الشهادة العلنية للمسيح بصفته «الحق» المتجسد الآتي إلى العالم. هذه الحقيقة رسخت رسوخاً في قلب القديس يوحنا لذلك نجده يحددها مرة أخرى في رسالته

بقوله: «والروح هو الذي يشهد لأن الروح هو الحق.» (١يو٥: ٦)

ومنذ هذه المعمودية المباركة – التي استُعلن فيها المسيح بظهور وحلول الروح القدس – وحتى الآن والروح القدس يضطلع بمهمته العظمى وهي الشهادة لحق المسيح – باعتباره هو نفسه روح الحق – متكلّماً وناطقاً في قلوب المؤمنين و بأفواههم، وعاملاً في الفكر والقلب والروح في كل الكنيسة بالأسرار «ومتى جاء المعزّي الذي سأُرسله أنا إليكم... فهو يشهد لي.» (يو١٥: ٢٦)

وهكذا تظهر الشهادة في إنجيل يوحنا كنسيج حيٍّ يملأ الإنجيل خيوطه في سبعة مستويات تبتدىء من الآب نفسه لتنتهي بالتلاميذ مدعّمة بالروح القدس طولاً وعرضاً؛ ثم تظل هذه الشهادة بكل مستوياتها مستمرة بكل قوتها ودعمها داخل الكنيسة وفي كل العالم حتى اليوم كما كانت أيام المسيح تتلاقى مرة مع الإيمان المذعن للحق فتنشىء نوراً واستنارة وخلاصاً وفرحاً لا يُنطَقُ به ومجيد؛ وتتلاقى مرات ومرات مع الجحود والإنكار فتنشىء دينونة العار والإزدراء عاراً أبدياً يظل لاصقاً بالإنسان حتى وإلى ما بعد مماته!!!

الفصل الثاني

النـور والمجـد

هذا هـو المعيـار الـثاني في التدرج المنهجي لإنجيل يوحنا بعد الحق والشهادة. وهذان المعياران يقومان على التوازي والإتصال لأن الشهادة لا تكون إلاَّ بعد استنارة؛ والحق يُشْتَعلَن في المجد.

أ ـــ النـور

إنجيل يـوحـنـا يـنـتـقل بسهولة بين النور الطبيعي والنور الحقيقي ليعطي للقارىء فرصة للتطبيق والموازنة: «قال لهم يسوع ,, **النور**،، (الحقيق) معكم زماناً قليلاً بعد فسيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام. والذي يسير في الظلام لا يعلم إلى أين يذهب.» (يو١٢: ٣٥)

هنـا ينتقل الإنجيل من إنسان يسير في الظلام ولا يعرف إلى أين يذهب، إلى إنسان يسير بعيداً عن المسيح (النور) فتداهمه الخطية ويستولي عليه الشيطان ويسقط في فخاخه. فهنا يكشف الإنجيل وظيفة النور الحقيقي **وهي كيف يفضح الخطية ويبددها.**

وخـطـوة إيجـابـيـة أكثر حينما يقارن بين نور النهار الساطع ونور الحق الكاشف، حيث يتضح أن النور الحقيقي وظيفته هي أيضاً **الإستعلان وكشف الأسرار** العليا المخفية: «ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني ما دام نهار. يأتي ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل. ما دمتُ في العالم فأنا نور العالم.» (يو٩: ٤و٥)

وهنـا يـوضـح الإنجيل أن النور الحقيقي (بالرغم من أنه لانهائي وغير محدود)، فهو يُعطى كفرصة محدودة جداً زمنيًّا: «النور معكم زماناً قليلاً بعد» (يو١٢: ٣٥)، بل ويُعْطى كفرصة قد لا تتكرر «ما دام لـكـم النور آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور» (يو١٢: ٣٦) مع مشابهة نور النهار بالمسيح نور

العالم من حيث الوظيفة.

وكثير من الناس يشتاق أن يعرف كيف يرى أو يؤمن بالمسيح **كنور**. والحقيقة أن الإيمان بالنور هو إدراك روحي صافٍ بوجود المسيح، وذلك بالوعي المسيحي الذي ننلناه بالإيمان وبالروح القدس، لا على هيئة أو شكل محدود ولكن ككيان يحل في القلب فيملأه فرحاً ونعيماً وسروراً، وعلامته تكون استعلانات لخفايا أقوال المسيح ووصاياه وفهمها فهماً روحياً عميقاً ومؤثراً ومجدداً. وهذه الإستعلانات هي بحد ذاتها تكوّن فعل النور في القلب.

وحينما يقول الإنجيل أن المسيح هو «النور الحقيقي» (يو١: ٩) حيث يجيء **النور** بأل التعريف τὸ Φῶς τὸ ἀληθινόν، فإن هذا يعني أنه هو الوحيد الذي يستعلن الحقائق الإلهية: «الله لم يَرَهُ أحد قط، الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر» (يو١: ١٨)؛ فعمل المسيح الأساسي هو إلقاء نور الإستعلان في قلب الإنسان المؤمن لكي يدرك الحق كل الحق «أنا قد جئت نوراً إلى العالم حتى كل مَن يؤمن بي لا يمكث في الظلمة» (يو١٢: ٤٦)، حيث الظلمة هي جهالة الخطية وعمى الروح، والنور هو استعلان معرفة الله للقداسة، وحيث النور هو الذي يكشف الظلمة وأعمالها فيبددها «يضيء في الظلمة.» (يو١: ٥)

لذلك فظهور النور هو حكم قضاء ضد الظلمة، ووضع الحد الفاصل بين الإنحياز للنور أو الإنحياز للظلمة، أي الإختيار الإجباري بين الإيمان ورفض الإيمان. واختيار الظلمة سببه حتماً الأعمال الشريرة: «**أحب** الناس الظلمة **أكثر** من النور **لأن أعمالهم كانت شريرة**» (يو٣: ١٩). وهنا يطغى الشر فيدفع عامليه أيضاً إلى بغضة النور «كل مَنْ يعمل السيآت **يبغض النور**» (يو٣: ٢٠). ولكن بغضة النور هنا لا تأتي كعامل إجباري ولكن بحسب خبث النفس التي لا تريد أن تفتضح: «ولا يأتي إلى النور لئلا توبَّخ أعماله.» (يو٣: ٢٠)

حينما يوصف الله بالنور، فلا يظن أحد أنه نور مرئي بالنظر أو الفكر، بل هو طبيعة الله غير المدرَكة بالعقل ولكنه مدرَك بالروح وهو كلّي الإدراك في ذاته. فالله مُدرَك كامل يُدرَكُ ولكن لا يُدْرَكُ كماله. والمسيح بصفته شعاعَ أو بهاءَ مجدِ الله فهو النور الذي جاء إلى العالم ليستعلن طبيعة الله غير المدرَكة.

ولكن حينما قال القديس يوحنا في مقدمة إنجيله أن «النور الحقيقي» (يو١: ٩) كان آتياً إلى العالم، فهنا لا يقصد نور المعرفة أو الإدراك أو البصيرة الكاشفة — أو النور الباطني — ولكن نور الخليقة الجديدة نور الحياة الأبدية، النور المرسل من طبيعة الله لكشف طبيعة الله. وهذا النور غير

«النور» في قول الإنجيل «فيه كانت الحياة والحياة كانت ,,نور الناس،،» (يو١: ٤)، هنا النور هو نور العقل والفهم والمعرفة التي مُنحت للخليقة العاقلة التي تقبَّلها الإنسان، بحسب شرح القديس كيرلس الكبير: [كما أن الكلمة هو الحياة في كل المخلوقات التي خُلقت إذ تقبَّلت الحياة منه، فهو أيضاً النور بالنسبة لحياة الإنسان الذي تقبَّل منه المعرفة والفهم](١). [أما الظلمة فهي الطبيعة التي يعوزها الإستنارة.](٢)

فجيء «الكلمة» إلى العالم في إنجيل يوحنا هو بداية عصر النور الجديد الذي يمكن أن يُدعى وحده نوراً حقاً. فهو «النور الحقيقي» (يو١: ٩) أي النور الجوهري حيث استعلنت طبيعة الله وتقبَّلها الإنسان الجديد بالروح ليؤهَّل لشركة النور بالإستعلان هنا بكشف الإيمان بالروح، وبالواقع هناك، في المجد.

ونور الإستعلان هو أرفع وأعلى من نور الإدراك والبصيرة أو الإستنارة، لأن نور الإستعلان يختص بالأخرويات أي بطبيعة الله، أي بالأمور الآتية غير المدركة بالعقل، التي نعيشها الآن كما في مرآة كما يقول القديس بولس الرسول (٢كو٣: ١٨) كسبق تذوُّق للمجد القادم.

وحينما يقول المسيح «أنا نور العالم» (يو٩: ٥) فالمعنى واضح للغاية إذ يعني أنه جاء إلى العالم ليستعلن طبيعة الله — كآب وابن، والتجسد والخلاص لجميع الأمم — وذلك للناس الذين في العالم الذين يؤمنون به. وطبيعة الله كانت سرًّا مختوماً لم يُعرَف به أحد قط سابقاً كقول القديس بولس الرسول: «أنه بإعلان عرفني بالسر... بسرِّ المسيح الذي في أجيال أُخَر لم يُعرَّف به بنو البشر كما قد أُعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح أن الأمم شركاء في الميراث والجسد (الناس الذين في العالم)» (أف٣: ٣—٦). هنا الإعلان هو الكشف بالروح القدس.

فالمسيح هو بالحقيقة «نور» العالم لأنه سلَّم للعالم سرَّ استعلان بنوَّته لله وسر حب الله الآب للعالم، هذا الحب الذي كلَّفه ذبح ابنه على الصليب، كذلك سلَّم العالم سر الأبُوّة والبُنوّة في الله وهو السر الذي انتهى بالإنسان إلى قبول الحياة الأبدية وإلى التبني أي الدخول في بنوة الله مع المسيح.

وهكذا بنور الإستعلان ليس فقط عرَّفنا المسيح بطبيعة الله وحسب بل إنه بنور الإستعلان نلنا

---

[1] St. Cyril the Great, Comm. on the Gospel of St. John, Book 1, Ch. 5, p. 68,86,87.

[2] Ibid.

أيضاً نصيباً في ذات سر أبوة الله إذ صرنا له بنين وصار هو لنا أباً. فالنور الحقيقي أحدث في الإنسان استعلاناً أدى إلى تبني وميراث سماوي. فنور المسيح هو نور استعلان الأخرويات التي صارت من نصيبنا منذ الآن. أي أن عمل النور لم يقف إلى حد المعرفة لله «بنورك نرى نوراً» (مز٣٦: ٩) فقط، بل جعلنا أيضاً شركاء في ذات النور، إذ صرنا بنور هذا الإستعلان أبناءً: «آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور.» (يو١٢: ٣٦)

والمسيح لما قال «سيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام» (يو١٢: ٣٥) يقصد أن نسير باجتهاد في جِدَّة الحياة أو الحياة الجديدة في المسيح، أي القيامة، أي الخليقة الأخرى التي من فوق، لئلا يدركنا الظلام أي لئلا يطغى علينا مرة أخرى ظلام الإنسان العتيق والحياة القديمة المستعبَدة لظلام الخطية وسلطان الظلمة!

لذلك فكما أن الحياة تنبعث من النور كذلك الموت يتبع الظلمة. لذلك يقول القديس يوحنا في رسالته «أن الله نور وليس فيه ظلمة البتة» (١يو١: ٥)، فهو الحياة المطلقة والقداسة المطلقة. وعلى هذا القياس يكون تلميح المسيح على نفسه أنه هو الحياة، أي ليس فيه ظلمة البتة بل هو نور كلي بقوله: «مَن منكم يُبكِّتني على خطية.» (يو٨: ٤٦)

والقديس يوحنا يستخرج لنا من هذا منهجاً عملياً كعلاقة حتمية مع النور: «إن قلنا أن لنا شركة معه (أي النور) وسلكنا في الظلمة (أي الخطية) نكذب ولسنا نعمل الحق.» (١يو١: ٦)

كذلك يربط القديس يوحنا بين **النور والحب** فهما طبيعة واحدة في الجوهر الإلهي: «الله نور» (١يو١: ٥)، «الله محبة» (١يو٤: ١٦)؛ وكذلك بين **الظلمة والبغضة** القاتلة وهاتان هما الصفتان اللتان اكتسبهما الشيطان بعصيان الله: «أيضاً وصية جديدة أكتب إليكم ما هو حق فيه وفيكم أن الظلمة قد مضت (هزيمة الشيطان) والنور الحقيقي الآن يضيء (معرفة المسيح بالإستعلان)، مَن قال أنه في النور وهو يبغض أخاه (مَن يبغض أخاه فهو قاتل نفس — والشيطان كان قتَّالاً للناس منذ البدء) فهو إلى الآن في الظلمة (في حضن الشيطان)، مَن يحب أخاه فهو يثبت في النور وليس فيه عثرة. وأما مَن يبغض أخاه فهو في الظلمة وفي الظلمة يسلك ولا يعلم إلى أين يمضي لأن الظلمة أعمت عينيه.» (١يو٢: ٨—١١)

وهكذا يعلن إنجيل يوحنا عن المعيار الدقيق والخطير «للنور».

ب ـ المجـد δόξα

لقد استخدم إنجيل يوحنا كلمة «المجد» ومشتقاتها على الأساس العبري بحسب الترجمة السبعينية. و«المجد» في المفهوم اللاهوتي بحسب تعبير الإنجيل عامة يشمل المعاني الآتية: «**العظمة الإلهية**»، «**القوة والقدرة الإلهية**»، «**بهاء الإشعاع اللاهوتي المدرَك أو المنظور بالعقل**». وهذه هي عموماً الحالة التي يتراءى فيها الوجود الإلهي سواء في العهد القديم أو الجديد في المسيح.

وحوادث **المجد المنظورة** المسجلة في الكتاب المقدس في العهد الجديد تكاد تكون في الحقيقة منظورة أيضاً بالعقل السامي أو الذهن الروحي وليس بالعين المجردة. فالمنظر الواحد يراه إنسان ولا يراه إنسان آخر معه كما في ظهور المسيح في السماء لبولس الرسول: «وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً» (أع ٩: ٧). أو قول إنجيل يوحنا عند آية تحويل الماء خمراً: «هذه بداءة الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل **وأظهَرَ مجده** فآمن به تلاميذه» (يو ٢: ١١)، هنا «أظهَرَ مجده» لا تفيد رؤية عينية أو منظراً يملأه النور والبهاء بل هو منظر معقول أظهَرَ فيه المسيح نفسه أي استعلن كيانه الإلهي غير المنظور، إنما التقطه التلاميذ بالرؤيا العقلية السامية، وهي التي لها تأثير مباشر على الفكر والقلب للإيمان المباشر.

هذه الرؤيا العقلية واضحة جداً في تعرُّف نثنائيل على مجد المسيح: «ورأى يسوع نثنائيل مُقْبِلاً إليه فقال عنه: هوذا إسرائيلي حقاً لا غش فيه، قال له نثنائيل **من أين تعرفني؟** أجاب يسوع وقال له **قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك**. أجاب نثنائيل وقال له **يا معلّم أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل.**» (يو ١: ٤٧ — ٤٩)

إذن كيف آمن نثنائيل هكذا بهذه القوة والتلقائية السريعة؟ حينما **أظهر المسيح نفسه** لنثنائيل بالروح أنه يعرف أموره الخاصة الداخلية، انكشف في الحال عن فكره وروحه بآن واحد حقيقة المسيح دون أي تعليم أو رؤية عينية فآمن وشهد لمجد المسيح مستعلناً طبيعته الإلهية التي بهرت روحه.

وليس فقط لنثنائيل الإسرائيلي حقاً الذي لا غش فيه أظهر المسيح مجده بل وأيضاً للسامرية الأُمية الخاطئة المنبوذة! «يا سيد **أرى أنك نبي!**» (يو٤: ١٩)، «هلموا انظروا إنساناً قال لي كل ما فعلت، أَلَعَلَّ **هذا هو المسيح**» (يو٤: ٢٩). وليس لمجرد أن المسيح قال لها كل ما فَعَلَتْ آمنت، ولكن لأن المسيح أظهَرَ نفسه لها كنور حقيقي كشف أعماق ظلمات كيانها فهزَّها هزًّا عنيفاً أطاح

بكل خزيها وماضيها فرأت فيه المخلّص والفادي **«لكل العالم»**.

وفي كل حالات الإيمان التي خضعت لحقيقة استعلان المسيح لذاته، كان المسيح يُستعلن فيها كنور حقيقي يزيح ظلمات الجهل والشك والحزن والألم والمرض بل والموت عن الإنسان، فيحضره أمامه وأمام الآب مطهَّراً بل ومقدَّساً وبلا لوم، فتكون استجابة الإيمان لفعل النور مذعنةً وتلقائية وبشهادة. لهذا لا يخشى المسيح أن يقول في صلاته للآب: **«وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني»** (يو١٧: ٢٢)، لأن النور الإلهي الذي يضفيه المسيح على قلب الخاطىء وفكره وكل كيانه يُلبسه ويتغلغل كيانه فيصبح وكأنه حاملٌ النور وشريك فيه: **«آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور.»** (يو١٢: ٣٦)

وأن نؤاخي النور ونسير فيه أو نسير معه، فلا بد وأن يُشعل القلب بالحرارة الفائقة ويملأ كيان الإنسان بهجة حتى ولو لم يدري: «وفيما هما يتكلمان ويتحاوران **اقترب إليهما يسوع** نفسه وكان **يمشي معهما** ولكن أُمسكت أعينهما عن معرفته... فألزماه قائلَيْن امكث **معنا** لأنه نحو المساء وقد مال النهار. فدخل ليمكث **معهما**. فلما اتكأ **معهما** أخذ خبزاً وبارك وكسّر وناولهما. **فانفتحت أعينهما وعرفاه** ثم اختفى عنهما. فقال بعضهما لبعض **ألم يكن قلبنا ملتهباً فينا إذ كان يكلمنا في الطريق...»** (لو٢٤: ١٥-٣٢). يلاحظ القارىء هنا أنه أخفى نفسه عنهما فلم يعرفاه، ولكن قلبهما كان ملتهباً فيهما؛ لأن النور إن أُمسك عن أن يفتح العين لترى ما لا يُرى فلا بد أن يحرق القلب؛ لأن النور فعّال في كل مجال لأنه مجد المسيح!؛ فإذا لم تَرَه العين الفائقة فلا بد أن يهتز له القلب اهتزازاً، لأنه كيف يغشانا مجد المسيح - بتفضُّل منه - ونبقى نحن كما نحن؟

وبالمقارنة مع الثلاثة الأناجيل والأسفار الأخرى في العهد الجديد نجد أن إنجيل يوحنا يمعن في إعلان مجد المسيح في حياته على الأرض بكثرة وفي مواقف عديدة، في حين أن الثلاثة الأناجيل وبقية الأسفار اقتصرت على الإعلان عن مجده بعد القيامة.

ففي سفر الأعمال يُقدِّم المسيح مُمَجَّداً في القيامة: «إله آبائنا أقام يسوع الذي أنتم قتلتموه معلّقين إياه على خشبة. هذا رفّعه الله بيمينه رئيساً ومخلّصاً...» (أع٥: ٣٠و٣١).

والقديس بولس الرسول يقدم المسيح ممجّداً في القيامة: «أقيم... بمجد الآب.» (رو٦: ٤)

ثم يقدمه ممجّداً في صعوده: «وبالإجماع عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد تبرّر في الروح تراءى لملائكة كُرز به بين الأمم أُومِنَ به في العالم رُفِعَ في المجد.» (١تي٣: ١٦)

والقديس الشهيد إسطفانوس يقدمه لنا ممجداً عن يمين الآب في السماء: «وأما هو فشخص إلى السماء وهو ممتلىء من الروح القدس فرأى مجد الله ويسوع قائماً عن يمين الله.» (أع٧: ٥٥)

والقديس بطرس الرسول يقدم المسيح ممجَّداً بعد اجتيازه الآلام أي بعد قيامته: «باحثين أي وقت أو ما الوقت الذي كان يدلُّ عليه روح المسيح الذي فيهم إذ سبق فشهد بالآلام التي للمسيح والأمجاد التي بعدها.» (١بط١: ١١)

كما يقدمه القديس بطرس الرسول حائزاً على مجد الآب بعد قيامته من الأموات: «أنتم الذين به تؤمنون بالله الذي أقامه من الأموات وأعطاه مجداً حتى أن إيمانكم ورجاءكم هما في الله.» (١بط١: ٢١)

وسفر الرؤيا يقدم المجد للمسيح من فم الأربعة والعشرين قسيساً والمسيح جالس على عرشه: «أنت مستحق أيها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة لأنك أنت خلقت كل الأشياء وهي بإرادتك كائنة وخُلِقَتْ.» (رؤ٤: ١١)

ويقدمه سفر العبرانيين كممجّد إلى الأبد بنفس الخاتمة التي تُقدَّم إلى الله: «ليكمّلكم في كل عمل صالح لتصنعوا مشيئته عاملاً فيكم ما يُرضي أمامه بيسوع المسيح الذي له المجد إلى أبد الآبدين آمين.» (عب١٣: ٢١)

والقديس بطرس الرسول يقدم هذه الخاتمة للتمجيد عينها: «إن كان يتكلم أحد فكأقوال الله وإن كان يخدم أحد فكأنه من قوة يمنحها الله لكي يتمجد الله في كل شيء بيسوع المسيح الذي له المجد والسلطان إلى أبد الآبدين آمين.» (١بط٤: ١١)

كما يستخدم سفر الرؤيا خاتمة التمجيد نفسها: «قائلين بصوت عظيم مستحق هو الخروف المذبوح أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة. وكل خليقة مما في السماء وعلى الأرض وتحت الأرض (الأموات) وما على البحر. كلُّ ما فيها سمعتها قائلة للجالس على العرش وللخروف: البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الآبدين.» (رؤ٥: ١٢و١٣)

والقديس بولس الرسول يقدم المجد للمسيح كصفة دائمة أو كإسم تعظيم: «لأن لو عرفوا لما صلبوا رب المجد.» (١كو٢: ٨)

والقديس يعقوب الرسول يعطيه نفس اللقب التمجيدي: «يا إخوتي لا يكن لكم إيمان ربنا يسوع المسيح رب المجد في المحاباة.» (يع٢: ١)

والقديس بطرس الرسول يقدم المسيح في استعلان مجده الآتي كمصدر فرح: «بل كما اشتركتم في آلام المسيح افرحوا لكي تفرحوا في استعلان مجده أيضاً مبتهجين» (١بط ٤: ١٣)؛ «أطلب إلى الشيوخ الذين بينكم أنا الشيخ رفيقهم والشاهد لآلام المسيح وشريك المجد العتيد أن يُعلن...» (١بط ٥: ١)

والقديس مرقس الرسول يقدم المسيح متكلماً عن نفسه في استعلان مجده العتيد هكذا: «وحينئذ يبصرون ابن الإنسان آتياً في سحاب بقوة كثيرة ومجد.» (مر١٣: ٢٦)

كل هذه الشواهد توضح أن جميع هذه الأسفار اقتصرت على إعلان مجد المسيح بعد القيامة. أما ذكر مجد المسيح قبل القيامة في بقية الأناجيل فهي محدودة للغاية، وتتعلق بقصة ميلاده وتجليه، أو ذكر مجيئه الثاني الذي يُحسَب أنه متعلق بالدهر الآتي أيضاً.

أما إنجيل يوحنا فينفرد دون جميع الأناجيل والأسفار في ذكر المسيح ممجداً في حياته على الأرض قبل الصليب وعليه! وهكذا يتبين للقارىء أن إنجيل يوحنا قد أصر على استعلان مجد المسيح معتبراً أن حياته على الأرض كانت كلها نوعاً من التجلي والرفعة: «وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء.» (يو٣: ١٣)

هذا هو المجد الذي رآه إشعياء بعين النبوة: «رأيت السيد جالساً على عرش عالٍ ومرتفع ومجده τῆς δόξης αὐτοῦ يملأ كل البيت» (إش٦: ١ — النسخة السبعينية). والقديس يوحنا يكشف سِرَّ ما رآه إشعياء من عرش مرتفع ومجد مالىء أنه هو هو المسيح المرتفع على صليبه الذي ملأ لا البيت فقط بل الأرض كلها والسماء: «قال هذا إشعياء حين رأى مجده وتكلم عنه.» (يو١٢: ٤١)

وكان أول استعلان لمجده في عرس قانا الجليل: «**وأظهر مجده** فآمن به تلاميذه» (يو٢: ١١). هذا في عرس قانا الجليل، مما جعل الكنيسة تعتبر **سر الزواج** على أعلى مستوى من التجلي **فهو سر المسيح والكنيسة**، كما يقرر ذلك القديس بولس الرسول. «من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً. هذا السر عظيم ولكنني أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة.» (أف ٥: ٣١و٣٢)

ولكن ليس للتلاميذ فقط أعلن المسيح مجده أو هو مستعد أن يُعلن مجده بل وأيضاً لكل من يؤمن به، كان من كان. فهو يقول لمرثا: «**ألم أقل لكِ إن آمنتِ ترين مجد الله**» (يو١١: ٤٠)، معتبراً أن بعض التجارب والضيقات تكون لمجد الله والمسيح بالرغم من ظاهرها البشع على مستوى شركة

الصليب، «فلما سمع يسوع قال: هذا المرض ليس للموت **بل لأجل مجد الله ليتمجد ابن الله به.**» (يو١١: ٤)

أما للأخصاء فإن استعلان مجده يصاحبه عطية: «والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً... ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة» (يو١: ١٤و١٦). هنا الرؤية تحتاج إلى إيمان واستعلان لحقيقة شخص المسيح.

وإنجيل يوحنا يعتبر أن أول ظهور علني لمجد المسيح على **مستوى العالم** هو الصليب: «لأن يسوع لم يكن قد مُجّد بعد» (يو٧: ٣٩). وهذا تؤكده الآيات:
— «وهذه الأمور لم يفهمها تلاميذه أولاً ولكن لما تمجد يسوع حينئذ تذكروا أن هذه كانت مكتوبة عنه...» (يو١٢: ١٦)
— «فلما خرج (يهوذا) قال يسوع: الآن تمجد ابن الإنسان وتمجد الله فيه.» (يو١٣: ٣١)
— «وإن كان الله قد تمجد فيه فإن الله سيمجده **في ذاته** ويمجده سريعاً.» (يو١٣: ٣٢)

وبهذا يعلن إنجيل يوحنا وبفم المسيح أن الصليب كان باب المجد: «أما كان ينبغي أن يتألم المسيح بهذا **ويدخل** إلى مجده.» (لو٢٤: ٢٦)

هذا هو المدخل الذي دخل منه المسيح مكتسباً هذا المجد لحسابنا بعرق جبينه وبدمه الذي سُفك على الأرض، ذلك فوق مجده المذّخر له عند الآب **في ذاته**. لذلك حقٌ له أن يقول: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني.» (يو١٧: ٢٢)

لقد وقعت حبة الحنطة وماتت، لذلك تحتم أن تعطي حياتها ومجدها لكثيرين: «قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان. الحق الحق أقول لكم إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتَمُتْ فهي تبقى وحدها، ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير.» (يو١٢: ٢٣و٢٤)

هكذا ربط إنجيل يوحنا بين الموت والقيامة وبين الآلام والمجد. فقد انتزع من الموت قيامة ومجداً له وللإنسان عامة!

ثم ألا ترى يا صديقي القارىء كيف أن آلامنا وضيقاتنا واختناقنا حتى الموت هي موقَّعة على مجد الله والمسيح ومنطبقة على الصليب وما بعده تمام الإنطباق؟ إنه لأمر مذهل أن يكون الصليب والألم والموت **مجداً** لحساب الإنسان المظلوم المهان. وكأن إنجيل يوحنا يسلمنا سرَّ رؤية مجد المسيح في نور حبه الإلهي ومن خلال منظار الآلام والضيقات والدموع، وأي مجد؟ مجد الله!!!

ولهذا انفرد هذا الإنجيل العجيب في التأكيد على استعلان مجد المسيح خلال كل حياته على الأرض لأنها كلها كانت آلاماً ومقاومة ومصادرة وخيانة، وليس في ذلك عجباً فإن كان الله قد تنازل ولبس جسداً فلا عجب أن يفوح المجد منه كلما تألم أو توجّع؛ ثم أليست هذه هي رائحة المسيح الذكية لله للذين يخلصون؟

الفصل الثالث

الحياة والدينونة

إن معياري «النور» و«المجد» اللذين هما النتيجة المباشرة لإستعلان الحق والشهادة، يؤديان بدورهما إلى معيارين آخرين هما: إمَّا الحياة الأبدية أو الدينونة. وبمعنى أبسط. فإن الذي يؤمن بالحق، يشهد له بالضرورة؛ والذي يؤمن ويشهد، ينفتح أمامه استعلان النور والمجد، فينال الحياة الأبدية. أما الذي لا يؤمن بالحق فهو لا يشهد له ولا يستطيع ولا يؤهَّل لإستعلان النور ولا لرؤيا المجد، وبالتالي لا ينال الحياة الأبدية بل يخضع للدينونة، لأنه يستحسن الظلام ولا يستحسن أن يبقي الله في معرفته. «**الذي يؤمن به (بالحق والنور) لا يُدانُ**، والذي **لا يؤمن قد دِينَ** لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد. وهذه هي الدينونة إن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة.» (يو٣: ١٨و١٩)

وهذا معناه في إنجيل يوحنا أن الإيمان باسم ابن الله يعتق من الدينونة المباشرة، أما الإنعتاق من الدينونة فمعناه الفعلي هو الدخول في الحياة الأبدية. وهذا يوضحه الإنجيل هكذا: «الحق الحق أقول لكم إنَّ مَن يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية، ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو٥: ٢٤). وهذا المعيار الذي وضعه المسيح في إنجيل يوحنا **يسري في هذا الزمان وفي القيامة والدهر الآتي**، وهذا أيضاً يوضحه الإنجيل هكذا: «**...تأتي ساعة** فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة **,الحياة**، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة.» (يو٥: ٢٨و٢٩)

هذا في اليوم الأخير، أما في الحاضر الزمني، فيقول أيضاً الإنجيل: «الحق الحق أقول لكم إنه **تأتي ساعة وهي الآن** حين يسمع الأموات (بالخطية) صوت ابن الله **والسامعون يحيون**» (يو٥: ٢٥). وهذا تم بالحرف الواحد في إقامة لعازر.

أ ــ الحياة في إنجيل القديس يوحنا

كلمة «الحياة» في الإنجيل عامة وفي العهد الجديد خاصة هي الحياة غير القابلة للموت. فالموت في المسيحية عموماً ليس ظاهرة طبيعية قائمة بذاتها أو هي حالة ضرورية. فالموت هو عقوبة الخطية.

و«**الحياة**» تختص بالله. فإسم الله هو «**الله الحي**» وهو الذي وحده له عدم الموت «الذي وحده له **عدم الموت** ساكناً في نور لا يُدْنَى منه، الذي لم يَرَهُ أحد من الناس ولا يقدر أن يراه» (١تى٦: ١٦)، وهو وحده الذي **يُحيي ويُميت** «...أمام الله الذي آمن به الذي يحيي الموتى ويدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة.» (رو٤: ١٧)

والحياة في الله والتي يعطيها الله بروحه هي وحدها التي تسمى حياة. ولكي نفرقها عن الحياة الجسدية التي مآلها للموت، **فهي** تسمى «**الحياة الحقيقية**» أو «الحياة الأبدية». وعلى هذا القياس يمكن أن تسمى الحياة التي يحياها الناس بالجسد أنها حياة الموت أو حتى «**الموت**» بالرغم من مظاهر القوة والحركة الطبيعية.

ولهذا فإن «**الحياة الحقيقية**» هي الحياة التي نكتسبها الآن لحساب ما بعد الموت، وهي التي يتحتم أن نحسب لها ألف حساب «لأن الرياضة الجسدية نافعة لقليل ولكن التقوى نافعة لكل شيء إذ لها **موعد الحياة الحاضرة والعتيدة**» (١تى٤: ٨). ويلاحظ هنا في هذه الآية وفي بكور بحثنا أن القديس بولس الرسول يقرن الحياة الأبدية بالحاضر والمستقبل. لهذا «فالحياة» في الكتاب المقدس تعني الحياة الأبدية، ولا يلزم أن يضاف إليها أي تعريف آخر. «وإن أعثرتك يدك فاقطعها خير لك أن **تدخل الحياة** أقطع من أن تكون لك يدان وتمضي إلى جهنم.» (مر٩: ٤٣)

و«الحياة» أو الحياة الأبدية لأنها تخلصت نهائياً من الموت، فهي بالنسبة للإنسان تعني «**الخلاص**».

والحياة الأبدية «**تُورَّث**»: «ماذا أعمل **لأرث** الحياة الأبدية» (مر١٠: ١٧)، و«**تُؤخَذ**»: «و**يأخذ** مائة ضعف الآن في هذا الزمان... مع اضطهادات **وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية**» (مر١٠: ٣٠)، و«**يُدخل إليها**.» (مر٩: ٤٣)

«الحياة» في الحاضر:

١ ــ كما جاءت في أسفار العهد الجديد عامة:

إن كل الأسفار في العهد الجديد تتحدث عن «**الحياة**» في المستقبل. ولكن السؤال الملحّ: وما

هو نصيب الحاضر من هذه الحياة الأبدية؟

والحقيقة أن الحياة الأبدية حادثة في الحاضر بكل تأكيد على أساس «**الرجاء الحي**» الذي نعيشه بالإيمان، حيث الرجاء يختص بالمستقبل، ولكن يُعاش ويمارس الآن في صميم الحاضر الزمني على أساس وعد الله الثابت: «مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي حسب رحمته الكثيرة **ولدنا ثانية، لرجاء حي، بقيامة يسوع المسيح** من الأموات. لميراث لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل **محفوظ**، في السموات لأجلكم.» (١بط١: ٣و٤)

هذا **الميلاد الثاني** هو بعينه «**الحياة الأبدية**» مُعاشة بالإنسان الجديد، وذلك برجاء حي نمارسه بقوة قيامة المسيح، وعلى أساس ميراث «**محفوظ**» لنا في السموات. إذن فحاضرنا الروحي مُعانٌ ومقوًى ومسنود بمستقبل حياة أبدية كُتبت وتسجلت وحُفِظَت لنا في السموات بصورة أكيدة. «فإن كان الله قد أعطاهم الموهبة كما لنا أيضاً بالسويّة مؤمنين بالرب يسوع المسيح فمَن أنا. أقادرٌ أن أمنع الله؟ فلما سمعوا ذلك سكتوا وكانوا يمجدون الله قائلين إذاً **أعطى اللهُ الأممَ أيضاً التوبة للحياة.**» (أع١١: ١٧و١٨)

ولكن الواقع والحقيقة هو أن الحياة الأبدية لا تظهر واضحة بصفاتها وإمكانياتها وقدراتها الهائلة في الحاضر، ولكن تبدو وكأنها عطية وهبة، في الخفاء تُعاش وتمارَسُ «**اهتموا بما فوق** لا بما على الأرض لأنكم قد مُتُّم **وحياتكم ,مستترة، مع المسيح في الله**، متى أظهر **,المسيحُ حياتُنا**، فحينئذٍ تُظهَرون أنتم أيضاً معه في المجد» (كو٣: ٢–٤). وهذا يعني تماماً أننا نمارس الحياة الأبدية الآن في الخفاء بدون مظهر ولا مجد بانتظار الإستعلان الكامل. والدليل القوي على اعتبار أن الحياة الأبدية يبدأ عملها وفعلها من الآن، قول بولس الرسول لتيموثاوس: «جاهد جهاد الإيمان الحسن **وأمسك بالحياة الأبدية التي إليها دُعِيتَ...**» (١تي٦: ١٢). شيء وحيد يميز ممارستنا للحياة الأبدية الآن عنها في الحياة الأخرى في المستقبل كون الأخيرة ليس فيها كآبة ولا حزن ولا تنهد بل فرح كامل دائم. أما في الحاضر فتكتنفها الضيقات والآلام.

٢ – «الحياة» عند القديس بولس الرسول:

كان القديس بولس الرسول أول مَن اعتبر «**الحياة الأبدية**» كحاضر نعيشه ونمارسه ونفرح فيه، إذ اعتبر أن المسيح بقيامته من الموت صار آدم الثاني الذي به ومنه خرجت البشرية الجديدة، حيث المؤمنون به ينتسبون. «ولكن الآن قد قام المسيح وصار باكورة الراقدين... ولكن كل واحد في رتبته المسيح باكورة ثم الذين للمسيح في مجيئه» (١كو١٥: ٢٠و٢٣). «لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعيَّنهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه ليكون هو بكراً بين إخوةٍ كثيرين» (رو٨: ٢٩). «وهو

رأس الجسد الكنيسة الذي هو البداءة بكرٌ من الأموات لكي يكون هو متقدماً في كل شيء.» (كو١: ١٨)

ولكن القديس بولس الرسول يرى أن الحياة الأبدية هي في المستقبل تكميل لِمَا ابتدأ الآن «وكما لبسنا صورة الترابي سنلبس أيضاً صورة السماوي» (١كو١٥: ٤٩)، حيث يُحسم التجديد الحادث الآن في سِرٍّ، بتجديد مستعلَنٍ منظور. «لأنه إن كان بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد فبالأولى كثيراً **الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر سيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح**» (رو٥: ١٧)، معتبراً أن الروح القدس الذي نأخذه في المعمودية هو عربون لما سيُكمَّل في المستقبل «نحن الذين لنا باكورة (عربون) الروح نحن أنفسنا أيضاً نئنُّ في أنفسنا متوقعين التبني فداء أجسادنا» (رو٨: ٢٣)، «لأننا بالرجاء خَلَصنا، ولكن الرجاء المنظور ليس رجاءً لأن ما ينظره أحد كيف يرجوه أيضاً. ولكن إن كنا نرجو ما لسنا ننظره فإننا نتوقعه بالصبر» (رو٨: ٢٤و٢٥)، «الذي ختمنا أيضاً وأعطى **عربون الروح في قلوبنا**.» (٢كو١: ٢٢)

والروح القدس عند القديس بولس هو الذي يضطلع الآن بإعطاء «الحياة» في الله: «الذي جعلنا كُفاةً لأن نكون خُدَّام عهد جديد لا الحرف بل الروح. لأن الحرف (الناموس) يقتل ولكن الروح يُحيي» (٢كو٣: ٦)، «لأن اهتمام الجسد هو موت ولكن اهتمام الروح هو حياة وسلام.» (رو٨: ٦)

+ **وبالكلمة** التي يكرز بها القديس بولس، تهب رياح النعمة التي سماها رائحة المسيح التي في الكلمة، لتُحْيي مَن يسمعها ويؤمن بها «لأننا **رائحة المسيح الذكيةِ لله... رائحة حياةٍ لحياة**» (٢كو٢: ١٥و١٦)، بل «والكلمة» الفعَّالة في المسيح سمَّاها القديس بولس كلمة الحياة «متمسِّكين بكلمة الحياة» (في٢: ١٦)، وأيضاً سفر الأعمال يعطي — على لسان الملاك — لكلام المسيح صفة الحياة المحيية «اذهبوا قفوا وكلِّموا الشعب في الهيكل **بجميع كلام هذه الحياة**» (أع٥: ٢٠). وهذا ما تمسك به القديس يوحنا الرسول من فم المسيح نفسه: «الروح هو الذي يحيي أما الجسد فلا يفيد شيئاً. **الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة**.» (يو٦: ٦٣)

لذلك **فالإنجيل** في عرف القديس بولس الرسول، هو الذي حطم الموت وأنار الحياة والخلود أمام وعي الإنسان وروحه «الذي خلَّصنا ودعانا دعوة مقدسة لا بمقتضى أعمالنا بل بمقتضى القصد والنعمة التي أُعطيت لنا في المسيح يسوع قبل الأزمنة الأزلية. وإنما أُظهرت الآن بظهور مخلصنا يسوع المسيح **الذي أبطل الموت وأنار الحياة والخلود بواسطة الإنجيل**.» (٢تي١: ٩و١٠)

+ كذلك فإن القديس بولس يؤمن ويمارس الحياة الأبدية في الحاضر بإحساس يقيني أن المسيح نفسه هو الذي يعطي هذه الحياة فيه التي يحياها «لأني مُتُّ بالناموس للناموس لأحيا لله. مع المسيح صلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ فما أحياه الآن في الجسد فإنما أحياه في الإيمان إيمان ابن الله الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي» (غل٢: ١٩و٢٠)، «**فإن كان المسيح فيكم** فالجسد ميت بسبب الخطية **وأما الروح فحياة** بسبب البر.» (رو٨: ١٠)

+ والحياة الأبدية هي **المقابل الإيجابي لغفران الخطية** لأن المقابل للخطية هو الموت. «لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت.» (رو٨: ٢)

+ والحياة الأبدية تفعل وتزدهر في الإنسان، بقدر ما يموت الإنسان بالجسد عن الخطية كل يوم. «حاملين في الجسد كل حين إماتة الرب يسوع لكي تظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا.» (٢كو٤: ١٠)

+ كذلك فالحياة الأبدية تنمو وتزدهر فينا، بقدر ما يقع علينا من ضيق واضطهاد واختناق حتى الموت «لأننا نحن الأحياء (خليقة جديدة) **نُسلَّم دائماً للموت** من أجل يسوع **لكي** تُظهَر حياة يسوع أيضاً في جسدنا المائت» (٢كو٤: ١١). وبالنهاية نظهر كمائتين بل ونكون كذلك بحسب الجسد وفي أعماق شعورنا وبالرغم من ذلك نحيا وتعمل فينا الحياة الأبدية بلا هوادة «كمائتين وها نحن نحيا» (٢كو٦: ٩)، وذلك بعد أن عدَّد القديس بولس الرسول أنواع الآلام والضيقات والضربات والشدائد والضرورات والسجون والإضطرابات والأتعاب والأسهار والأصوام، بصيت رديء وهوان، كمضلِّين، كمؤدَّبين، إنما في طهارة وصبر وعلم وأناة ولطف ومحبة بلا رياء في الروح القدس. إنه منهج متكامل يصحح ذاته ويوازن ذاته، والكفة الراجحة فيها المسيح دائماً ومعه وفيه الحياة الأبدية، وكأنما المسيح بحلوله في القلب يبتلع في جسده كل ما صادفنا ويصادفنا من جنون هذا العالم: «لأن لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح.» (في١: ٢١)

+ ويبقى شرط **ديمومة الحياة بروح المسيح** التي تثمر فينا للخلاص هو أن ندوم في سلوك حسب ما يطلبه الروح ويوعز به إلينا: «**إن كنا نعيش بالروح فلنسلك أيضاً بحسب الروح**» (غل٥: ٢٥). «ولكن إن كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد فستحيون. لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله» (رو٨: ١٣و١٤). على أن مهما كانت آلام الزمان الحاضر فهي لا تُقاس بأمجاد الحياة الأبدية التي ستُستعلَن فينا: «فإني أحسِبُ أن آلام الزمان الحاضر لا تُقاس بالمجد العتيد أن يُستعلن فينا.» (رو٨: ١٨)

+ على أن أول أثمار الروح الكثيرة هي المحبة كعلامة صدق السلوك بالروح. «وأما ثمر الروح فهو محبة...» (غل ٥: ٢٢)

كذلك فالحياة الأبدية عند القديس بولس تشمل معاً «المستقبل والحاضر»، وهو لم يحاول أن يصالح أو يوفّق بين الإثنين:

أ — **في المستقبل يؤكد:** «الذي سيجازي كلّ واحدٍ حسب أعماله، أما الذين بصبر في العمل الصالح يطلبون المجد والكرامة والبقاء **فبالحياة الأبدية**» (رو٢: ٦و٧)، «فبالأوْلى كثيراً الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر (الآن) سيملكون (في المستقبل) في الحياة بالواحد يسوع المسيح» (رو٥: ١٧)، «حتى كما ملكت الخطية في الموت هكذا تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا.» (رو٥: ٢١)

والذي يميّز الحياة الأبدية في المستقبل عن الحاضر الزمني عند القديس بولس هو حصولها في «**مجد**».

ب — **وفي الحاضر يؤكد:** «فدُفِنَّا معه بالمعمودية للموت حتى كما أُقيمَ المسيح من الأموات بمجد الآب **هكذا نسلك نحن أيضاً في جِدَّة الحياة**» (رو٦: ٤)، «كذلك أنتم أيضاً احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية ولكن **أحياء** لله بيسوع المسيح ربنا» (رو٦: ١١)، «ولا تقدموا أعضاءكم آلات إثم للخطية بل قدموا ذواتكم لله كأحياء من الأموات وأعضاءكم آلات بر لله» (رو٦: ١٣)، «لأن ناموس **روح الحياة** في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت.» (رو٨: ٢)

ج — وأحياناً يجمع القديس بولس «**الحاضر والمستقبل معاً**» تحت قوة روح الحياة وعمله «لأننا نعلم أنه إن نُقِضَ بيت خيمتنا الأرضي فلنا في السموات بناءٌ من الله، بيت غيرُ مصنوع بيدٍ أبديٌّ... فإننا نحن الذين في الخيمة نئن مثقلين إذ لسنا نريد أن نخلعها بل أن نلبس فوقها لكي يُبتلع المائت من الحياة، ولكن الذي صنعنا لهذا عينه **هو الله الذي أعطانا أيضاً عربون الروح**... فنثق ونُسَرُّ بالأولى أن نتغرَّب عن الجسد ونستوطن عند الرب. لذلك نحترس أيضاً، **مستوطنين كنا أو متغرِّبين**، (الذي يستوطن الجسد — أي في الحياة الجسدية — هو نفسه متغرِّب عن السماء ولكن يحيا بالروح) أن نكون مرضيين عنده، لأنه لا بد أننا جميعاً نُظهر أمام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شرًّا.» (٢كو٥: ١—١٠)

ولكن القديس بولس يؤمن أن الذي يعيش بروح الله، يتقدم وينمو في استعلان الحياة الأبدية

ومعرفة ربنا يسوع المسيح، ليتغير من صورة إلى صورة أفضل، ومن مجد إلى مجد أوفر «ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف (بدون برقع الناموس) كما في مرآة نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح» (٢ كو٣: ١٨)، «لذلك لا نفشل بل وإن كان إنساننا الخارج يفنى فالداخل يتجدد يوماً فيوماً.» (٢ كو٤: ١٦)

٣ ــ الحياة في إنجيل القديس يوحنا:

إن كان القديس بولس اقتفى أثر الحياة الأبدية في المسيح فوجدها في القيامة من الأموات، فإن القديس يوحنا يقتفي أثر الحياة الأبدية في المسيح قبل التجسد وفي التجسد بل وفي الموت ذاته. فالمسيح بصفته كلمة الله λόγος، والإبن الأزلي لله، **فهو «الحياة» وله الحياة في ذاته:**

ــ «فيه كانت الحياة...» (يو١: ٤)

ــ «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الإبن أن تكون له حياة في ذاته.» (يو٥: ٢٦)

ــ «كما أرسلني **الآب الحي**، وأنا حيٌّ بالآب فمَن يأكلني فهو يحيا بي.» (يو٦: ٥٧)

كذلك في رسائله نرى هذه الحقيقة التي يتشبث بها القديس يوحنا: أن الحياة الأبدية **أظهرت** بتجسد الكلمة:

ــ «الذي كان من البدء الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة **كلمة الحياة فإن الحياة أُظهرت** وقد رأينا ونشهد ونخبركم **بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا.**» (١يو١: ١و٢)

ــ «وهذه هي الشهادة أن الله أعطانا حياة أبدية وهذه الحياة هي في ابنه، **ومَن له الإبن فله الحياة، ومَن ليس له ابن الله فليست له الحياة.**» (١يو٥: ١١و١٢)

ــ «ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح، **هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية.**» (١يو٥: ٢٠)

لأن ابن الله لما تجسد وصارت له نفس بشرية أسلمها للموت كفدية عن البشرية «أنا هو الراعي الصالح والراعي الصالح **يبذل نفسه عن الخراف**» (يو١٠: ١١). ولكن بقيت حياته لم تنقطع ولم تتعطل بل ولم تتأثر بالموت!! «بعد قليل لا يراني العالم (بالموت) أيضاً (ثانياً) وأما أنتم فترونني **إني أنا حيٌّ، فأنتم ستحيون.**» (يو١٤: ١٩). التأكيد هنا على «**إني أنا حيٌّ**» في الوقت الذي لا يراني العالم فيه بحدوث الموت. وليس **حيٌّ** فقط بل **ومُحيي** بكامل قوته في الإحياء.

وإذا كان إنجيل يوحنا يدعو المسيح «الحياة» فذلك لكونه يستعلن حياة الله في ذاته كآب كونه ابنـاً له! مكمِّلاً مشورة الآب ورسالته ومعطياً وصايا الآب التي هي بعينها الحياة الأبدية «وأنا أعلم أن **وصيته هي حياة أبدية**» (يو١٢: ٥٠). بهذا يعطي المسيح عناصر الإيمان الحقيقي، لذلك يدعو نفسه عَلَناً وبوضوح **أنه هو الحياة**: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو١٤: ٦)، «**أنا هو القيامة والحياة** مَن آمن بي ولو مات فسيحيا» (يو١١: ٢٥). كما يدعو نفسه «**خبز الحياة**» (يو٦: ٥١) كونه يقيم أَوَد الروح ويشبعها، كما ويعطي **ماء الحياة** (يو٧: ٣٨) لأنه يهب الروح القدس الذي يروي العطاش إلى البر، **ونور الحياة** (يو١: ٤) لأنه يقودنا في طريق الحياة الأبدية، ويجعلنا كمَن يبصر ويشاهد بالإستعلان حقيقة الحياة الأبدية غير المنظورة ولا المُشاهَدَة. و«**كلامه روح وحياة**» (يو٦: ٦٣) لأن الكلمة التي تخرج من فمه تحيي المائتين بالخطية وعلى مستوى القبر.

الإيمان عنصر أساسي لنوال الحياة الأبدية في إنجيل يوحنا:

لأن الحياة الأبدية أُظهرت واستُعلنتْ بالمسيح وحده، لذلك فالإيمان به يمنح هذه الحياة: «لكي لا يهلك كل مَن يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية.» (يو٣: ١٥)؛ «الحق الحق أقول لكم مَن **يؤمن** بي فله **حياة أبدية**» (يو٦: ٤٧). بل إن إنجيل يوحنا كله مكتوب لغاية واحدة هي:

– «**لتؤمنوا** أن يسوع هو المسيح ابن الله، ولكي تكون لكم إذا **آمنتم حياة** باسمه.» (يو٢١: ٣١)

ويرفع القديس يوحنا المضادة الإيمانية للحصول على الحياة الأبدية في الحاضر والمستقبل إلى أعلى درجة حينما يقول: «الحق الحق أقول لكم إن مَن يسمع كلامي **ويؤمن** بالذي أرسلني **فله حياة أبدية** ولا يأتي إلى دينونة بل قد **انتقل من الموت إلى الحياة**» (يو٥: ٢٤). هنا الحاضر والمستقبل بالنسبة للحياة ملتحمان معاً وبآن واحد!

بل ويقتحم القديس يوحنا المستقبل ويستحضر منه **الساعة الأخيرة** ويجعلها ساعة اليوم الحاضر، بصورة سرية لا تخلو من عمق روحي هائل، باعتبار أن الكرازة بكلمة المسيح تحمل الحاضر والمستقبل بآن واحد. «**تأتي ساعة، وهي الآن**، حين **يسمع الأموات** صوت ابن الله **والسامعون يحيون**» (يو٥: ٢٥)، هذا يجري «**الآن**» في الحاضر على الخطاة فيتوبون ويقبلون الحياة الأبدية، ويجري في المستقبل على الأموات الذي في القبور حين يسمعون صوت ابن الله للقيامة والحياة الأبدية.

والسبب الفعَّال في هذه المضادة أن المسيح هو القيامة حتى وقبل أن يموت كما قال لمرثا: «أنا

هو القيامة والحياة» (يو١١: ٢٥)، أي أن المسيح يحمل روح القيامة والحياة في ذاته وهي التي غلب بها الموت. لذلك، فالذي يؤمن به يحيا حتى ولو مات لأنه سيحصل على روح القيامة التي يغلب بها الموت، أو بالحري وعلى الوجه الأصح، إنه لن يموت، طالما روح القيامة فيه، فهو سيجوز الموت حياً إن جاز هذا التعبير: «أنا هو القيامة والحياة. مَنْ آمن بي ولو مات فسيحيا. وكلُّ مَنْ كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد.» (يو١١: ٢٥و٢٦)

ولكي يؤكد المسيح سلطانه على إعطاء الحياة الأبدية الآن وكأنها الساعة الأخيرة قال وهو يصلي إلى الآب: «وأنا قد **أعطيتهم المجد** الذي أعطيتني» (يو١٧: ٢٢). هنا ولو أن المعنى منصبٌّ على مجد الدهر الآتي الذي هو من صميم عطايا المستقبل، إلا أنه يمنحه الآن بل وقد منحه! وهذا المجد الذي له والذي أعطاه لأخصّائه في هذا الدهر، ممتدٌّ ليكمل في الدهر الآتي: «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي الذي أعطيتني» (يو١٧: ٢٤). لقد أخضع المسيح المستقبل للحاضر بسلطان عطيته للحياة الأبدية التي هي فوق الزمان، وجعل الإتصال بين الحاضر والمستقبل وكأنه طريق واحد دائم ومتصل لا ينقطع: «ولكن مَنْ يشرب من الماء الذي أعطيه أنا (الآن) فلن يعطش إلى الأبد (كل المستقبل)، بل الماء الذي أعطيه (الآن) **يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية.**» (يو٤: ١٤)

فالحياة الأبدية في إنجيل يوحنا تمسك بالزمن وتمتد به إلى الأبدية كونها لا حدود زمانية لها، فالحياة هنا هي هي حياة الله التي بلا حدود ولا قياس: «اعملوا لا للطعام البائد بل **للطعام الباقي للحياة الأبدية، الذي يعطيكم ابن الإنسان (الآن)** لأن هذا الله الآب قد ختمه.» (يو٦: ٢٧)

ويخطىء مَن يقول إن إنجيل يوحنا أغفل انتظار الدهر الآتي أي الأخرويات = الإسخاتولوجي eschatology حينما جعل الحاضر يحمل قوة وبركات الدهر الآتي بالإيمان. ولكنها هي نظرة متعمقة في طبيعة المسيح «كحياة أبدية»، التي لا يمكن أن يحدّها الزمان أو يحجز قوتها وفعلها عن الذين قبلوا المسيح واتحدوا به وعاشوه.

كما وأن فعالية طبيعة المسيح كحياة أبدية جعلها تسري في الزمان كما تسري في الأبدية — كما أوردها في قصة لعازر كمثل مصغَّر — ولا يفرق بينهما إلا أنه في الزمان تسري جزئياً أو في سِرٍّ، وفي الأبدية في علانية وفي الملء.

أما قانون الأخرويات من جهة الأعمال فأبقاه الإنجيل كتقليد الرسل والكنيسة كما هو «لا تتعجبوا من هذا فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته فيخرج الذين فعلوا

الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (يو٥: ٢٨و٢٩)؛ كذلك «كلُّ مَن يرى الإبن ويؤمن به تكون له حياة أبدية **وأنا أقيمه في اليوم الأخير**» (يو٦: ٤٠). فأما كيف تصالح هذا الفكر مع القول الذي يقوله الإنجيل: «الحق الحق أقول لكم إن مَن يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد **انتقل من الموت إلى الحياة**» (يو٥: ٢٤)، أي يكون قد تخطَّى الدينونة، فالإجابة نأخذها من القديس بولس الذي جمع الفكرين معاً في آية واحدة: «**إذاً لا شيء من الدينونة الآن** على الذين هم في المسيح يسوع **السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح** لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت» (رو٨: ١و٢). إذن، روح الحياة أي الروح القدس في المسيح إذ يعتق من الخطية فإنه يعتق من الدينونة أيضاً. فالقديس يوحنا والقديس بولس اتفقا أن «**لا دينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع**». معنى ذلك لدى كلٍّ منهما أن الذين هم في المسيح يسوع نالوا الحياة الأبدية منذ الآن، وقد جازوا الدينونة فعلاً الآن بلا حساب أو عقاب. أما السبب فقد أوضحه القديس بولس: «لأن ناموس **روح الحياة** في المسيح يسوع قد **أعتقني من ناموس الخطية والموت**» الذي شرحه إنجيل يوحنا أن **الذي نال الحياة الأبدية معناه أنه انتقل من الموت إلى الحياة**. فالقديس بولس سلَّط قوة الحياة الأبدية على الخطية، والقديس يوحنا سلَّط الحياة الأبدية على الموت ذاته. أما الذي أضافه القديس بولس الرسول كون ذلك ينطبق على «**السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح**»، فهذا ما شرحه القديس يوحنا: أن ذلك ينطبق على الذين «**فعلوا الصالحات**».

من ذلك يتبين أن **رفع الدينونة الآن** عن الذين آمنوا بالمسيح ونالوا روح الحياة سواء عند القديس بولس أو القديس يوحنا هو سَبْقُ استعلان الإسخاتولوچيا أي أمور الآخرة وليس إلغاءً لها، فالكل سيقف أمام كرسي المسيح وأعمالهم تتبعهم.

العلاقة بين «الإيمان والمعجزات» في إنجيل يوحنا:

من الأشياء الملاحَظَة جداً في إنجيل يوحنا، أن كلمة «**الإيمان**» **لم تَرِدْ فيه ولا مرة واحدة**، وعوضاً عنها يأتي الفعل «يؤمن» ما يقرب من مائة مرة، مما يفيد أن إنجيل يوحنا لا يرى الإيمان إلا فاعلاً أي في حالة نشاط واجتهاد كقوة ذات عمل. المسيح عبَّر عن ذلك حينما سأل مُقْعَد بيت حسدا: «**أتريد** أن تبرأ» (يو٥: ٦) التي هي موضع «**هل تؤمن**»، بمعنى أن الإيمان هو إرادة ذات إصرار.

لذلك، في إنجيل يوحنا نشعر أن **الإيمان بالمسيح هو أكثر من تصديق** أن المسيح صانع

معجزات. وأن يؤمَن بالمسيح يعني أن يُدرَك — سواء من المعجزة أو من القول — أن المسيح هو المخلِّص ابن الله القادر على الإحياء من الموت. وإضافة على ذلك تسليم النفس له تسليماً كليًّا: «إن آمنتِ ترين مجد الله» (يو١١: ٤٠)؛ لأن المعجزة أو العمل في إنجيل يوحنا هو بحد ذاته عمل خلاصي أو مشيرٌ إلى الخلاص. فالإيمان به هو بمثابة الدخول فيه أو قبوله كفعل حياة أو كفاعل محيي «أتؤمن بابن الله؟... مَنْ هو يا سيد؟،... الذي يتكلم معك هو هو... أؤمن يا سيد وسجد له.» (يو٩: ٣٦—٣٨)

وبينما المعجزة أو العجيبة هي في الثلاثة الأناجيل «**عملٌ تعليميٌّ**»، نجدها في إنجيل يوحنا «**عمل لاهوتي**» مؤثِّر. لذلك فالمسيح لا يستسيغ إيمان الآيات والمعجزات: «ألا تؤمنون إن لم تروا آيات وعجائب» (يو٤: ٤٨)، ولكنه يطالب بإيمان الأعمال «إن لم تؤمنوا بي (بحسب التعليم) فآمنوا بالأعمال.» (يو١٠: ٣٨)

المحبة والفرح ثمار الحياة الأبدية في إنجيل يوحنا ورسائله:

في إنجيل يوحنا يلزمنا أن ندرك الوضع الذي حتَّم باستعلان الحياة الأبدية في الحاضر. فدخول المسيح إلى العالم أنشأ بحد ذاته أزمة إيمان خطيرة واجهها الإنسان ولا يزال: «الذي يؤمن به لا يُدان والذي لا يؤمن قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد» (يو٣: ١٨). لماذا؟ لأن الله ظهر في الجسد وصار واقعاً تاريخياً وبشرياً ملموساً. هي فرصة الإنسان العظمى والأخيرة، فأي عذر لمَن لا يؤمن؟ خاصةً وأن المسيح علَّم بالكلمة، وكشف أسرار الله، وسلَّط تعاليمه على اللحظة التي يعيشها الإنسان، حُرَّة تماماً عن الماضي بناموسه الثقيل، ومفتوحة بلا مانع على المستقبل الأبدي. فصارت كلمة المسيح هدفاً وطريقاً معاً وبآن واحد. أما الوصية التي أُخضع الإنسان تحتها فهي المحبة بالدرجة الأولى، أجل وصية. فالذي يثبت في المسيح يثبت في المحبة تلقائياً وبسرور: «**اثبتوا فيَّ وأنا فيكم.**» (يو١٥: ٤)

«كما أحبني الآب كذلك أحببتكم أنا. **اثبتوا في محبتي**»؛ «إن حفظتم وصاياي، **تثبتون في محبتي** كما أني أنا قد **حفظت وصايا أبي** وأثبت في محبته. كلمتكم بهذا لكي **يثبت فرحي فيكم، ويكمل فرحكم.**» (يو١٥: ٩—١١)

«**هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً** كما أحببتكم.» (يو١٥: ١٢)

وليكن واضحاً أمام القارىء أن الثبوت في المحبة ينشىء فرحاً مزدوجاً: فرح المسيح، وفرحنا.

معنى هذا أن الحياة الأبدية تأسست في ناموس الله والمسيح على المحبة:

«أيها الأحباء لنحب بعضنا بعضاً لأن **المحبة هي من الله، وكل مَنْ يحب فقد وُلد من الله** ويعرف الله، ومَنْ لا يحب لم يعرف الله **لأن الله محبة.**

بهذا أُظهرت محبة الله فينا أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به.

في هذا هي المحبة ليس أننا نحن أحببنا الله بل أنه هو أحبنا وأرسل ابنه كفارة لخطايانا.

أيها الأحباء إن كان الله قد أحبنا هكذا ينبغي لنا أيضاً أن يحب بعضنا بعضاً...

إن أحب بعضُنا بعضاً فالله يثبت فينا ومحبته قد تكملت فينا، بهذا نعرف أننا نثبت فيه وهو فينا أنه قد أعطانا من روحه...

ونحن قد عرفنا وصدّقنا المحبة التي لله فينا.

الله محبة. ومَنْ يثبت في المحبة يثبت في الله والله فيه،

بهذا تكملت المحبة فينا أن يكون لنا ثقة في يوم الدين...

نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً... مَنْ يحب الله يحب أخاه أيضاً.» (١يو٤: ٧-٢١)

هل محبة الله أولاً أم محبة الناس «بهذا نعرف أننا نحب أولاد الله إذا أحببنا الله وحفظنا وصاياه.» (١يو٥: ٢)

في هذه الآيات يتدرج القديس يوحنا في رسالته وبلغته وتحت وحي الروح القدس مسجلاً ناموس المسيح في العهد الجديد الذي ينبع من حقيقتين:

أولاً: أن «**الله محبة**». هذه هي طبيعة الله العاملة في الخليقة كلها، وفي الإنسان خاصة. لأن المحبة هي التي أرسلت الإبن ليكفّر عن خطايانا بموته، ويعطي الحياة الأبدية التي فيه: «هكذا **أحب الله العالم** حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له **الحياة الأبدية**» (يو٣: ١٦). هنا واضح أن الحياة الأبدية قائمة على المحبة. والمسيح ابن الله يشهد على ذلك ويوافق على ذبيحة نفسه بدافع المحبة لإعطاء هذه الحياة «ليس لأحد حب **أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه**. أنتم أحبائي...» (يو١٥: ١٣و١٤)

ثانياً: الحقيقة الثانية: إننا «نحبه لأنه هو أحبنا أولاً» (١يو٤: ١٩). من هنا **تنبع كل الوصايا وتنبع الطاعة** كالتزام لكل الوصايا، **وتنبع الحياة الأبدية.** فالمحبة أعطت وصيتها، ومَنْ ذا الذي يرفض الطاعة للمحبة؟

فالطاعة للمحبة كوصية المسيح تنشىء التلمذة للمسيح: «بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي (تلاميذ المحبة) إن كان لكم حب بعضاً لبعض.» (يو١٣: ٣٥)

بل والطاعة للمحبة كوصية المسيح تنشىء حالة بُنوّة لله ومعرفة لطبيعته (المحبة)، أي تلدنا من الله (من المحبة): «لأن المحبة هي من الله وكل مَنْ يحب فقد وُلد من الله ويعرف الله.» (١يو٤: ٧)

كما أن الطاعة للمحبة كوصية المسيح تفجر طاقات الحياة الأبدية «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة مَنْ لا يحب أخاه يبقى في الموت. كلُّ مَنْ يبغض أخاه فهو قاتل نفس، وأنتم تعلمون أن كل قاتل نفس ليس له حياة أبدية ثابتة فيه.» (١يو٣: ١٤و١٥)

كما أن الطاعة للمحبة كوصية تنشىء فينا ثقة ورجاء يوم الدين، أي في الآخرة بسبب الثبوت في المسيح والحياة الأبدية: «بهذا تكمّلت المحبة فينا أن يكون لنا ثقة في يوم الدين.» (١يو٤: ١٧)

كذلك يوضح القديس يوحنا أنه إن كانت «الحياة الأبدية» تعلن عن ذاتها علناً وجهاراً بالمحبة وكل أعمالها؛ فهي أيضاً تعلن عن ذاتها داخلياً في الضمير والقلب: «يا أولادي لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق... إن لامَتْنا قلوبنا (بسبب تقصير المحبة) فالله أعظم من قلوبنا ويعلم كل شيء... (لذلك) إن لم تلُمنا قلوبنا (يكون) فلنا ثقة من نحو الله.» (١يو٣: ١٨و٢٠و٢١)

الحياة الأبدية ترفع الغطاء عن أسرار الله وتوصل المعرفة بأعماقه:

ربما يكون هذا آخر ما بلغه إنجيل يوحنا من أسرار الحياة الأبدية التي انسكبت في قلوبنا بالإيمان بالمسيح ابن الله: «هذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو١٧: ٣). والمعنى المقصود واضح أن الحياة الأبدية هي بحد ذاتها معرفة الآب والإبن، أي نابعة من كشف واستعلان الصلة السرية بين الآب والإبن! فهي معيار لاهوتي — أي أن الحياة الأبدية هي استعلان طبيعة الله وحقيقته فيما يختص بعمله نحونا (الآب أرسل الإبن) الذي انتهى بالفعل إلى انسكاب الحياة الأبدية في حياتنا وكياننا. وهذه «المعرفة» سبق أن سجلها القديس يوحنا في قوله في المقدمة «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس،» (يو١: ٤)، كذلك قوله «كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم.» (يو١: ٩). وأن «مَنْ يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (يو٨: ١٢) أي النور المحيي. هذا هو نور المعرفة اللاهوتية لإستعلان الله في طبيعته كآب وابن؛ والمنتهي بالفعل إلى بذل الإبن، وتكميل الفداء، ونوال الخلاص، وقبول الحياة الأبدية. ولا يزال «النور الحقيقي» الذي يعرِّفنا بالآب والإبن يبدِّد ظلمات العالم، ويستعلن طبيعة الله المُحبة والفادية لمحبي الله، والمؤهّلين للخلاص حتى لمساكين الأرض «والمساكين يُبشَّرون» (مت١١: ٥، لو٧: ٢٢) لقبول الأبدية.

ب — الدينـــونة

κρῖμα

في إنجيل يوحنـا

الـديـنـونـة كـمـعـيـار تـوزن به الأفكار والأقوال والأعمال في إنجيل يوحنا تقف في مقابل الحياة الأبـديـة التي يـفـوز بـهـا المؤمـنـون بابن الله، الآن في سر، وإلى الأبد في القيامة الأخيرة، وهي أيضاً المقابل المضاد للخلاص في بقية الأناجيل والرسائل.

والدينونة هنا وضعناها في التقابل مع الحياة.

ولـكـن لا يـفـوتنا أن الدينونة تقف في إنجيل يوحنا كخلفية متجذرة في كل أصحاحاته، بل وفي الإنجيل نفسه ككل. فإنجيل يوحنا هو على ضوء كلمة الدينونة يُعتبر «**قضية**» يقف فيها المسيح ضد العالم، ورئيس هذا العالم، وأبناء هذا العالم. وما من آية يعملها المسيح إلا وترفع على العالم القضية، لـنـسـمـع مـن خـلالـهـا كـل الألفاظ القانونية التي يمكن أن تدور في أي محكمة بين المحامي والقاضي والشهود. فكلمة «الحق»، و«الظلم»، و«الدينونة»، و«يحكم بحسب الظاهر»، و«يحكم حكماً عـادلاً»، و«يـشكوهم إلى موسى»، و«يشكوهم إلى الآب»، وهو «صادق» و«ليس فيه ظلم»، و«لماذا تـطـلـبـون أن تـقـتلوني»، و«أشهد لنفسي»، و«شهادتي حق»، و«على شاهدين أو ثلاثة يكون الحكم»، و«أنا لا أطلب شهادة»، و«ألعل ناموسنا يدين إنساناً لم يسمع منه أولاً»، و«هو كـامـل الـسـن اسألوه فهو يتكلم عن نفسه»، و«ماذا تقول عن نفسك»، و«شهد ولم ينكر». هذا عـدا حديث المحاكمة، وهو ختام قضية إنجيل يوحنا أو قضية المسيح التي حُكم فيها عليه، فأخذ نص الحكم وطبّقه على الحاكم والحكام والشهود والعالم ورئيسه.

ويـلاحـظ كـيـف يـطـبـق المسيح باستمرار ضدهم الأحكام التي يحكمون بها أو يحتكمون إليها، والـشـهـود الـذيـن يـتخذونهم عوناً لهم يصيِّرهم المسيح قضاة يحكمون عليهم. إذ لما احتكموا لموسى إلى جانبهم في كسر السبت، صيَّر المسيح موسى قاضياً عليهم، ولما التجأوا إلى إبراهيم ليحتموا به، صيَّره المسيح شاهداً له ضدهم. وهكذا، وبينما يقف المسيح في كل إنجيل يوحنا متهماً يدافع عن نفسه فهو، في الحقيقة وعين الأمر، بدفاعه وشهادته عن نفسه يكون قد بلور القضية ضد سامعيه.

لهـذا يـنـبـغي على القارىء أن ينتبه في قراءة إنجيل يوحنا فهو «محكمة» و«قضاء» و«قضية». والـقـارىء لا يقف فيه متفرجاً فهو واقع تحت الشهادة الإلزامية، فإما يشهد للحق والنور والحياة فلا

يُدان، وإما يهرب من الشهادة أو ينكر فيقف منعزلاً عن الحق والنور والحياة، وهذه هي الدينونة!!

كان في أيام المسيح أن الذين يشتكون هم اليهود والمشكو في حقه هو المسيح، أما اليوم فالمشتكي هو العالم والمشكو في حقه هي المسيحية الحقة التي لا يطيق العالم طرقها، والشاهد الوحيد هو الروح القدس الذي يشهد ضد العالم ويدينه. وعليك أن تسأل نفسك لتعرف الحكم: المسيح أم العالم؟

أما ماهية الدينونة؟ فهي بحد ذاتها الإعلان النهائي لحالة الإنسان بالنسبة لله، عندما يقف منفصلاً عن الله وحيداً نتيجة رفضه للإيمان بابن الله. وذلك في مقابل الإنسان الذي آمن بابن الله، وصار في سلام **مع** الله **في** ابنه يسوع المسيح، أي أنه لم يعد وحده ولا بعيداً عن الله ولا منفصلاً عنه: «**أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح لأنه هو سلامنا الذي جعل الإثنين واحداً ونقض حائط السياج المتوسط أي العداوة**» (أف٢: ١٣–١٥). «أنتم فيَّ وأنا فيكم»، «أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد»، «لا أعود أُسميكم عبيداً... لكني قد سميتكم أحباء – لأني أعْلَمْتكم (معرفة الآب) بكل ما سمعته من أبي»، «اثبتوا فيَّ وأنا فيكم» (يو١٤: ٢٠؛ ١٧: ٢٣؛ ١٥: ١٥؛ ١٥: ٤)، وفي هذه الحالة تستحيل الدينونة «مَنْ سيشتكي على مختاري الله. الله هو الذي يبرِّر. **مَنْ هو الذي يدين. المسيح... الذي أيضاً يشفع فينا؟**» (رو٨: ٣٣و٣٤)

أما كيف ومتى تأتي الدينونة، فذلك عندما يرفض الإنسان هذه الدعوة التي يدعو المسيح إليها بإلحاح: «**تعالوا إليَّ**» (مت١١: ٢٨)، لكي ينال الإنسان المتعب والثقيل الأحمال، ليس الراحة فقط بل والحياة الأبدية **ولا يأتي إلى دينونة**. فإذا رفض الإنسان الإلتصاق بالله «ليصير معه روحاً واحداً» (١كو٦: ١٧) في المسيح يسوع فهو يبقى بلا مخلِّص ولا شفيع بلغة القديس بولس الرسول: «كنتم في ذلك الوقت بدون مسيح أجنبيين عن رعوية إسرائيل وغرباء عن عهود الموعد لا رجاء لكم وبلا إلهٍ في العالم» (أف٢: ١٢)، أو بلغة إنجيل يوحنا فهو يبقى بلا حياة أبدية، أي يبقى في الموت أو الظلمة، أي في الخطية وعبوديتها وأبوتها: «أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا.» (يو٨: ٤٤)

وفي هذه الحالة عندما يظهر المسيح، سواء الآن بالكلمة، أو في الآخرة جهاراً في مجده ومجد أبيه – حينئذ وفي ملء نور المسيح سوف ينكشف وضع الإنسان الرافض محكوماً عليه من نفسه.

والدينونة يحسُّها الإنسان الرافض في ضميره منذ الآن بإحساس الخوف، ولكن في الآخرة وعند

استعلان المسيح تكون الندامة مريعة واليأس قائماً دائماً. فالذي يبدأه الإنسان هنا يكمّله هناك. وشهادة الضمير هذه يقررها القديس يوحنا هكذا: «بهذا نعرف أننا من الحق ونُسكِّن قلوبنا قدامه. لأنه إن لامتنا قلوبنا فالله أعظم من قلوبنا ويعلم كل شيء!!... (ولكن) إن لم تَلُمْنا قلوبنا فلنا ثقة من نحو الله.» (١يو٣: ١٩—٢١)

ثم على أي أساس سيدين المسيح العالم وهو نفسه يقول: «لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليَخلُص به العالم؟» (يو٣: ١٧)

هنا يكشف الإنجيل عن أن الدينونة تتم على أساس سابق لاختيار الإنسان، وليس مجرد منطوق حكم يقع عليه. «**هذه هي الدينونة:** إن النور قد جاء إلى العالم **وأحب الناس الظلمة، أكثر من النور** لأن أعمالهم كانت شريرة. لأن **كل مَنْ يعمل السيئات يبغض النور** ولا يأتي إلى النور لئلا توبَّخ أعماله. وأما مَنْ يفعل الحق فيقبل إلى النور لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة.» (يو٣: ١٩—٢١)

بهذا يتبين أن الدينونة هي عملية اختيار من جهة الإنسان بمحض إرادته وتصميمه. والذي يشكل الحكم ويحدده هو كلام المسيح المقول والمُسجَّل «الكلام الذي تكلمت به **هو** يدينه» (يو١٢: ٤٨). والمسيح كونه «نور العالم» (يو٩: ٥) فهذا النور الفائق الفاحص والكاشف أستار القلوب والضمائر يفضح الأفكار والأقوال والأعمال وحتى النيات الخفيَّة، على أن النور يبقى بلا ملامة. لأنه كما أن النور يزكي أعمال أبناء النور فهو في نفس الوقت يوبِّخ أعمال الظلمة.

أي أن المسيح هو بآن واحد يبرر ويدين. فالكلمة التي قالها هي بحد ذاتها حكم عادل، مَنْ يقبلها يحيا بها ومَنْ يرفضها يُدان بها، وتبقى الكلمة إيجابية بكل معنى، صالحة إلى أقصى حدود الصلاح.

وهذه المضادة الإيجابية تظهر بوضوح في آية تفتيح عيني المولود أعمى. فالأعمى تقبَّل الكلمة وآمن بها وبصاحبها فاكتسب بصراً وغَنِمَ الحياة الأبدية، والفريسيون رفضوا الآية بجملتها واحتقروا الكلمة وقائلها، فعميت قلوبهم وعثروا في النور «لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم حتى يبصر الذي لا يبصرون ويعمى الذي يبصرون» (يو٩: ٣٩). من هذا المثل يتضح كيف سيدين المسيح العالم. فالأعمى آمن به فأبصر فخلُص، والمبصرون رفضوا فعميُوا وأُدينوا! والمسيح واقف بين الإثنين يعاملهما معاً بقول واحد وإعلان واحد: «فقلت لكم إنكم تموتون في خطاياكم، لأنكم إن لم تؤمنوا أني أنا هو، تموتون في خطاياكم» (يو٨: ٢٤). هذه هي الدينونة!! فالمسيح أكمل رسالته وأخذت

الكلمة مجراها وتسجّلت على كل نفس وعلى كل العالم! وفيها يكمن القبول والرفض، الحياة والموت، الخلاص والدينونة بآن واحد! «مَنْ رذلني ولم يقبل كلامي فله مَنْ يدينه. الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير.» (يو١٢: ٤٨)

وإنجيل يوحنا يضع القيامة بشقيها على مستوى واحد: «**قيامة الحياة**» في مقابل «**قيامة الدينونة.**» (يو٥: ٢٩)

وهكذا يقف معيار الدينونة وحكمها باستعداد لالتقاط مَنْ يخسر الحياة الأبدية. فالصوت الواحد المبارك يسمعه هذا فيقوم ويتبرر ويحيا إلى الأبد، ويسمعه ذاك فيقوم للدينونة والعار والحكم الأبدي. «فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته. فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة، أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً. كما أسمع أدين ودينونتي عادلة» (يو٥: ٢٨—٣٠). والصوت هو هو لا يتغير.

وهكذا تظل الدينونة في إنجيل يوحنا معياراً خطراً مربوطاً ربطاً محكماً مع غاية الإنجيل كله، وهو الإيمان أن يسوع المسيح هو ابن الله الحي.

الفصل الرابع

الإيمـان والمعرفـة

أ ــ الإيمـــان في إنجيل القديس يوحنا

ليس من بين جميع ما وهب الله للإنسان ما يضاهي هبة الإيمان.

كما أنـه لا يـوجـد في العالم قوة معاندة أو شريرة أو أي خسارة تستطيع أن تقف أمام قوة الإيمان المُعان بالصلاة. والمعروف بالتجربة أن الإيمان الثابت مع الصلاة ينقل الجبال. لذلك كان المسيح يتطلع دائماً إلى أي قدر من الإيمان في الإنسان حتى يستطيع أن يتمّ فيه معجزته. فإذا انعدم الإيمان توقفت المعجزة: «ولم يصنع هناك قوات كثيرة لعدم إيمانهم» (مت١٣: ٥٨). وكان يسأل الذي يريد أن يشفى «أتؤمن؟»

ومن الصعب أن ندخل في تعريف ما هو الإيمان في إنجيل يوحنا، فنحن بصدد إيمان يكشف حتى أعماق الله ويورِّث الحياة الأبدية وشركة مع الآب والإبن. ويكفي أن الإيمان في إنجيل يوحنا يبلغ إلى رؤية الله في طبيعته «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو١٤: ٩). إذن فهو إيمان يتعلق بخصائص طبيعة الله وذاته!!

والإيمان في إنجيل يوحنا يتعلق بالمسيح أي يتوقف على مقدار استعلان المسيح لنفسه واستعلانه للآب واستعلان العلاقة الذاتية بين الآب والإبن. وهذا يتحتم أن يستقبله وعي روحي عالٍ من طرف الإنسان. فهو استعلان لغير المنظور ليصير حقيقةً مُعاشة: «ورأينا مجده... ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا. ونعمة فوق نعمة» (يو١: ١٤و١٦). *لذلك فالإيمان في إنجيل يوحنا يرتفع فوق مخصصات العقل البشري وقياساته الزمنية المحدودة، فهو من مخصصات الوعي الروحي*: «الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا» (يو٤: ٢٤). وما السجود إلا عبادة، وما العبادة إلا

إيمان وتعلُّق شخصي!! هذا لا يتم إلا إذا أخذت الروح سيادة كاملة على الجسد: «المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح» (يو٣: ٦)، و«الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله.» (١ كو٢: ١٠)

وقوة الإيمان الفعَّال ترتكز على ركيزتين: **الأولى:** حرية الفكر والضمير من أي تأثير أو خوف أو استعباد؛ **والثانية:** اليقظة الروحية تجاه خداع الذات التي تتدخل لمصلحتها فتفسد الإنحياز للحق.

وكلمة «الإيمان» في أصلها العبري *he'emin* تعني **الثقة والرجاء معاً**، وهما الصفتان اللتان أخذ بهما القديس بولس الرسول: «الإيمان هو الثقة بما يُرجى والإيقان بأمور لا تُرى.» (عب١١: ١)

وفي العهد الجديد تأخذ كلمة «الإيمان» معنى **التصديق والإعتقاد والثقة.**

وفي كتابات القديس يوحنا خارج سفر الرؤيا لا تأتي كلمة «**الإيمان**» كإسم إلا مرة واحدة (١يو٥: ٤)، وبعد ذلك تأتي في صيغة **الفعل** بكثرة تفوق كل ما جاء في جميع أسفار العهد الجديد. فقد وردت ٩٨ مرة في إنجيل القديس يوحنا في مقابل ١١ مرة في إنجيل القديس متى و١٤ مرة في إنجيل القديس مرقس، و٩ مرات في إنجيل القديس لوقا. وفي كتابات القديس بولس تأتي بصيغة الفعل ٥٤ مرة. وتفيد قبول الكلام وتصديقه قلبياً أي بالوعي الروحي وذلك بتصديق سلطان المسيح الناطق بالكلمة، أو في المواقف الأعلى بسبب وضوح الرؤية والبصيرة الداخلية في تمييز الأصالة الذاتية للمسيح كصاحب رسالة واستعلان من فوق كما يقول القديس يوحنا: ونحن «رأينا مجده» (يو١: ١٤) وذلك بانفتاح الوعي، كذلك شهادة أهل السامرة: «إننا لسنا بعد بسبب كلامِكِ نؤمن لأننا نحن قد سمعنا ونعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلِّص العالم» (يو٤: ٤٢)، وأيضاً شهادة نثنائيل: «أجاب نثنائيل وقال له: يا معلم أنت ابن الله أنت ملك إسرائيل» (يو١: ٤٩)؛ وشهادة مرثا: «أتؤمنين بهذا؟ قالت له نعم يا سيد أنا قد آمنت أنك أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم.» (يو١١: ٢٦و٢٧)

والإيمان وضعه المسيح كشرط أساسي لنوال الحياة الأبدية: «إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية» (يو٥: ٢٤). «الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فله حياة أبدية.» (يو٦: ٤٧)

والإيمان يحتاج حتماً إلى بصيرة داخلية أسماها المسيح في مواضع أخرى: «من له أذنان للسمع فليسمع» (مت١٣: ٩و٤٣). هنا السماع سماع قلبي يفتح مغاليق الروح نحو خالقها: «...فآمنوا

بالكتاب والكلام الذي قاله يسوع» (يو٢: ٢١). هذا إيمان تصديق وخضوع لسلطان الكلمة الخارجة من فم المسيح لتخترق أعماق الوعي الروحي مباشرة. هنا العقل الجسدي يخضع لكلمة الله بدون مناقشة فيستوي العقل الروحي على عرش القلب.

والملاحظ أن الإيمان يرتبط بنوع البشارة، فنجد في الثلاثة الأناجيل الأولى أن كلمة «الإيمان» على فم المسيح تقع في اتجاه واحد هو **الثقة الكاملة بالله**.

أما في إنجيل يوحنا فيبدأ المسيح يسلِّط رسالته لقبول الإيمان به: «أنتم تؤمنون بالله **فآمنوا بي**» (يو١٤: ١)، والجزء الأول أي استخدام **الإيمان بالله** ليكون كخبرة أولى في التصديق اختبرها الإنسان وعاشها (الثلاثة الأناجيل) والجزء الثاني: **«فآمنوا بي»** المطلوب فيه قبول هبة وعطية المسيح بنفس التصديق للخلاص والسلام الداخلي المؤسَّسَيْن على الراحة والتسليم لله نفسه وهو الجزء التكميلي للإيمان الذي جاء المسيح ليكمله: «سلامي أترك لكم. سلامي أعطيكم. ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا.» (يو١٤: ٢٧)

ويتفق كلٌّ من القديس بولس الرسول والقديس يوحنا في تركيز الإيمان على المسيح. ولكن في إنجيل يوحنا يأخذ الإيمان بالمسيح أهميته القصوى بعناصره الأساسية:

١ — لأن المسيح استعلن للعالم بصفته «الكلمة الذاتي» كلمة الله بمعنى أنه هو الناطق الوحيد بسر الله الآب كاشفاً عن طبيعته: «الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر» (يو١: ١٨). لذلك أصبح الإيمان بالمسيح كابن، هو الطريق الوحيد لمعرفة **سِرِّ الله كآب** ونوال عطاياه في المسيح.

٢ — لذلك كانت رسالة المسيح الأساسية في إنجيل يوحنا هي الإعلان عن أبوَّة الله بصفته الشخصية كابن وحيد، وذلك بالقول والعمل والآية، مقدِّماً الآب السماوي من عمق كيانه البنوي.

٣ — وكانت غاية المسيح أن يقدم للإنسان عامة كل مخصصاته البنوية لدى الآب ليُدخل البشرية إلى أقدس وأسمى مجالات الآب وهي «محبته» لترتقي الخليقة المفدية إلى درجتها الأعلى التي على رجائها عاش الإنسان ويعيش وهي درجة البنوية لله — أي التبني — بعد العبودية للخطية والشيطان.

٤ — يترتب على درجة التبني سقوط كل الأحكام والعقوبات المنصوص عنها في شرائع عهد العبودية السالف أي الإنعتاق من الدينونة لتحل بدلاً عنها مخصصات البنين وميراثهم السمائي

والحصول على برّ الله المجاني بالمسيح يسوع، على أساس موت المسيح على الصليب كذبيحة، تلك التي قبلها الآب عن الخطاة، ثم قبول عطية الحياة الأبدية بقيامته من الأموات.

هذه هي عناصر الإيمان بالمسيح التي تُدخلنا في العهد الجديد مع الله، والتي على أساسها يقدم لنا المسيح ذاته لنؤمن به.

والإيمان المطلوب إزاء رسالة المسيح واستعلانه لطبيعة الله يتوقف على مدى انفتاح النفس البشرية في الداخل لقبول هذا الإستعلان الإلهي، وما يحتوي عليه من تجديد أو ميلاد بل خلقة جديدة. وقد سُئل المسيح: «ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله»، أجابهم المسيح في الحال: «هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله.» (يو٦: ٢٨و٢٩)

هنا الإيمان هو بمثابة قبول عمل الله وهذا يتطلب وعياً أخلاقياً يتناسب مع أهداف الإيمان السامية، كما يتطلب أن لا يعوّق الإيمان خداعٌ نفسي للشك أو الهروب أو التأجيل أو وضع عراقيل وهمية.

وينبغي أن يفهم القارىء أن الإيمان عند القديس يوحنا محدد وقاطع «كل من ينكر الإبن ليس له الآب أيضاً ومن يعترف بالإبن فله الآب أيضاً.» (١يو٢: ٢٣)

وهذا ما يؤكده المسيح نفسه في إنجيل يوحنا: «الذي يؤمن بالإبن له حياة أبدية. والذي لا يؤمن بالإبن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله» (يو٣: ٣٦). وليس هذا تعسُّفاً أو جزافاً، لأن بالمسيح مغفرة الخطايا وبدونه لا غفرانَ قط، والذي تحت عبودية الخطية هو واقع بإرادته تحت غضب الله، والذي يرفض الإبن يرفض ميراث البنين وبالتالي ليس له نصيب في الحياة الأبدية مع الله.

وأداة الإيمان المسيحي هي الوعي الروحي للنفس التي تسعى وتشغف بمستقبلها الأبدي، حيث يومض المسيح في أعماقها ومضات خاطفة كاشفة للحق الإلهي فتفهمه وتقبله وتشتعل بحبه اشتعالاً. وبمجرد أن تستقر النفس على الإيمان بالمسيح وتشغف به، يزداد عمل النور الإلهي فيها فتنمو في إدراك حقائق المسيح وتُستأمن على استعلانات الإنجيل وتتحكم بحكمة الروح القدس: «وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق» (يو١٦: ١٣)، وتزداد المعارف الروحية بدون معلم حيث تنمو حاسة الفطنة «وأما أنتم فالمسحة التي أخذتموها منه (عطية الروح القدس) ثابتة فيكم ولا حاجة بكم إلى أن يعلّمكم أحد. بل كما تُعلِّمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء وهي حق...» (١يو٢: ٢٧). والمسحة هي تقديس الروح القدس للنفس، حيث الروح هو معلم

الكنيسة.

ولكن لينتبه القارىء إلى موقع المعرفة من الإيمان لأن التقليد الروحي للكنيسة يضع الإيمان سبباً للمعرفة وليس العكس كما يظن الكثيرون، وهذا نستشفه من قول القديس بطرس الرسول في الإنجيل: «*نحن قد* **آمنا وعرفنا** *أنك أنت المسيح ابن الله الحي.*» (يو٦: ٦٩)

فالإيمان أولاً ثم المعرفة. فالإلهام يأتي أولاً ثم التفسير والشرح، الحق الإلهي يشرق أولاً في النفس كالبرق الخاطف يتبعه الفهم والإدراك والتوضيح. ثقة الإيمان تضع الأساس وعليه تُبنى المعرفة بأمان. ولكن تعود المعرفة لتزيد الإيمان وضوحاً وترسخه ترسيخاً فيصير ميراثاً أبدياً للإنسان.

على أن المعرفة إذا كانت بالروح فهي أعلى وزناً من الإيمان لأنه من المقطوع به أن المسيح يعرف الآب، ولا دخل للإيمان في هذا. فالإيمان لا يدخل في المعرفة المتبادلة بين الإبن والآب. أما الإيمان فيبقى في رتبة البشر، وأما المعرفة فترتفع حتى إلى قمة مجد اللاهوت!

لذلك في الأبدية يتخلف الإيمان وتبقى المعرفة، لتزداد جداً وينكشف أمامها الحق في مجد يترقى من مجد إلى مجد: «**لأننا نعلم بعض** العلم ونتنبأ بعض التنبؤ ولكن متى جاء الكامل **حينئذٍ يبطل ما هو بعض... الآن أعرف بعض المعرفة** لكن حينئذٍ سأعرف كما عُرفت. **أما الآن فيثبت الإيمان** والرجاء والمحبة...» (١ كو١٣: ٩و١٢و١٣)

ومعروف أن وظيفة الروحيين في الأبدية هي المعرفة لأن **المعرفة عمل الروحيين الأعظم**. ونستشف هذا من قول المسيح عن نفسه: «الذي أرسلني هو حق الذي **أنتم لستم تعرفونه، أنا أعرفه لأني منه** وهو أرسلني» (يو٧: ٢٨و٢٩)؛ «أبي هو الذي يمجدني الذي تقولون أنتم أنه **إلهكم ولستم تعرفونه**، وأما **أنا فأعرفه** وإن قلت إني لست أعرفه أكون مثلكم كاذباً **لكني أعرفه** وأحفظ قوله» (يو٨: ٥٤و٥٥)؛ «أما أنا فإني الراعي الصالح **وأعرف خاصّتي، وخاصّتي تعرفني**، كما أن **الآب يعرفني، وأنا أعرف الآب**» (يو١٠: ١٤و١٥)؛ «أيها الآب البار إن **العالم لم يعرفك أما أنا فعرفتك...**» (يو١٧: ٢٥)

هنا معرفة المسيح للآب ومعرفة الآب للمسيح هي معرفة خصائص اللاهوت الفائقة التي سنشترك فيها حتماً في الحياة الأبدية: «**وعرّفتُهم** اسمك **وسأعرّفهم** ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم» (يو١٧: ٢٦). ولكن العجيب جداً هو قول الرب أن **معرفة المسيح لخاصّته ومعرفة خاصّته له تكون مثل معرفة الآب للمسيح ومعرفة المسيح للآب**. هذا **عمق يفوق إدراكنا بل يفوق حتى تصورنا الآن!!** وهذا الأمر يلمح عليه القديس يوحنا في رسالته: «أيها الأحباء الآن نحن

أولاد الله ولم يُظْهَر بعد ماذا سنكون ولكن نعلم أنه إذا أُظهِر (المسيح) **نكون مثله**، لأننا سنراه (معرفة الرؤيا) كما هو (في كيانه الإلهي).» (١يو٣: ٢)

ولكن واضح أن هذه المعرفة الفائقة هناك تقف وحدها بدون **الإيمان!!** لأن الإيمان له عمل الحاضر أما في الأبدية فنحصد ثماره، والمعرفة هي ثمرة الإيمان الفاخرة. وبالتدقيق في مقابل استخدام إنجيل يوحنا للإيمان ومفاعيله الكثيرة نلاحظ أنه لم يَرِدْ فيه قط شيء عن **«التوبة»** μετάνοια، وهذا بسبب الإتجاه اللاهوتي لقوة الإيمان التي ابتلعت التوبة. ومن جهة أخرى نجد أن **«مفاعيل الإيمان»** أنتجت في إنجيل يوحنا ثمرة حتمية وهي **«المحبة»**، **كوجود «حي» فعَّال للإيمان** في الممارسة المسيحية لا بد منه، حتى إن فعل الإيمان وفعل المحبة يكونان هما القوة المتحركة في علاقة الإنسان المسيحي بالرب التي ترفعه إلى الحياة الأبدية المُعاشة.

والقارىء المدقق لإنجيل يوحنا يصطدم بشكوى مكتومة وحزينة بل ومؤلمة من طرف القديس يوحنا بسبب **«عدم الإيمان»** من قِبَلِ اليهود التي كانت تواجه كل عمل وكل قول للمسيح على مدى خدمته كلها. مما جعل الإيمان في المقابل يرتفع في إنجيل يوحنا إلى حالة **«نعمة»** تكون ممنوحة من الله رأساً! فالذين قبلوا المسيح وآمنوا به وتتلمذوا له هم أصلاً مدعوون من الآب بسَبْق ِتعيينٍ أو سَبْق ِاختيار: «لا يقدر أحد أن يُقبلَ إليَّ إنْ لم **يجتذبْه الآب** الذي أرسلني وأنا أُقيمه في اليوم الأخير» (يو٦: ٤٤)؛ **«كل ما يعطيني الآب فإليَّ يُقْبِل ومن يُقْبِل إليَّ لا أُخْرِجهُ** خارجاً» (يو٦: ٣٧)؛ «أنا أظهرتُ اسمك للناس الذين **أعطيتني** من العالم **كانوا لك، وأعطيتهم لي**» (يو١٧: ٦)؛ «لستُ أسأل من أجل العالم بل من أجل **الذين أعطيتني لأنهم لك**» (يو١٧: ٩)؛ «الذين **أعطيتني** حفظتهم ولم يهلك منهم أحد إلا ابن الهلاك» (يو١٧: ١٢)؛ «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين **أعطيتني** يكونون معي...» (يو١٧: ٢٤)

ولكن في مقابل هذا الإختيار المُسْبَق أو سبق التعيين من قِبَل الله الآب للمختارين وجذبهم إلى المسيح لينالوا بالإيمان به الخلاصَ المعدَّ لهم من قبل إنشاء العالم، فإن إنجيل يوحنا يقطع بأن قبولهم للمسيح وإيمانهم به يظل هو عمل اختيارهم الحر وبإرادة حرة لا إلزامَ ولا ضغط فيه!! مما يضع على الذين يرفضون الإيمان مسئولية خطيرة تبلغ حدَّ الخطيئة العظمى! «ولكن **منكم قومٌ لا يؤمنون لأن يسوع من البدء علم مَنْ هم الذين لا يؤمنون** ومَنْ هو الذي يُسلِّمه» (يو٦: ٦٤)؛ «ومتى جاء ذاك (الروح القدس) يبكِّت العالم على **خطيئة**،... أما على **خطيئة**، فلأنهم لا يؤمنون بي...» (يو١٦: ٨و٩)

ويلاحَظ في قول الإنجيل: «كلُّ **ما يعطيني** الآب فإليَّ **يُقْبِل**» (يو٦: ٣٧)، وكذلك

«إنْ لم يجتذبُه الآب...» (يو٦: ٤٤). إنه يشير إلى أن **قوة الإنجذاب نحو المسيح والإستماع إليه وقوة الإيمان بالمسيح التي تنتهي بالإتحاد به هي قوة موهوبة من الله الآب** تُطلَبُ بإلحاح. وهذا يوضحه الإنجيل في قول المسيح: «فإن كنت أقول الحق فلماذا لستم تؤمنون بي؟ **الذي من الله** يسمع كلام الله لذلك أنتم لستم تسمعون **لأنكم لستم من الله**» (يو٨: ٤٦و٤٧). ولكن لم يحاول القديس يوحنا أن يصالح بين سبق الإختيار من قِبَلِ الله للذين يؤمنون بالمسيح بل واجتذابهم أيضاً إلى الإيمان وبين حرية اختيار الذين يُقْبِلُون إلى المسيح ويؤمنون به بمحض إرادتهم. هذه المضادة حيَّرت المفسرين والشارحين للإنجيل على مدى كل العصور.

والواقع أن **سبق الإختيار يتوقف على علم الله المُسْبَق بإرادة الإنسان** الصالحة والتالفة إن كان سيؤمن أو لا يؤمن. أما الذي سيؤمن فمُدَّخرٌ له لدى الله نعمة الإنفتاح على المسيح وقوة الإيمان مكافأة حرة لإرادته الحسنة. وأما الذي لن يؤمن فقد خسر الإثنين النعمة والإيمان بإرادته الحرة أيضاً.

وهنا يسأل القارىء هل الإنسان مخيَّر أو مسيَّر؟، الرد هو أن الإنسان مخيَّر أن يختار الله أو العالم وبعد ذلك إن سار في الخير فالنعمة تقوده وتدبره وتمده بقوة إرادة أقوى لفعل الصلاح، أما إن سار في طريق العالم واتبع أهواء الجسد والشهوات فإنه يُساق بقوى الشر التي تدفعه دفعاً في طريق الباطل والضلال. فالإنسان يظل مسئولاً عن اختياره.

وعلى هذا أيضاً يؤكد إنجيل يوحنا أن هناك مسئولية خطيرة مُلقاة علينا لنؤسس منذ الآن إيماناً نشيطاً بالمعرفة التي لا تكتفي أبداً بل تطلب كل يوم المزيد لأن هذه الحياة هي التي ستكون موضوع مستقبلنا فوق. ويقيناً أن مسرَّة معرفة المسيح والآب التي نعيشها الآن بالإيمان هي أثمن وأجمل ما يمكن أن نعمله ونقتنيه ليس لمستقبلنا فحسب بل ولحاضرنا.

وقد ألمح إنجيل يوحنا إلى بعض الأسباب التي تقف وراء عدم الإيمان وهي في معظمها أخلاقية: «أحب الناس الظلمة أكثر من النور **لأن أعمالهم كانت شريرة**» (يو٣: ١٩)؛ «**كلُّ من يعمل السيِّآت يُبْغض النور**» (يو٣: ٢٠)؛ «**كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض** والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه» (يو٥: ٤٤)؛ «لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني... لماذا لا تفهمون كلامي؟ لأنكم **لا تقدرون أن تسمعوا** (تطيعوا) قولي. **أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا.**» (يو٨: ٤٢و٤٣و٤٤)

ب — معرفة الله في إنجيل يوحنا[1]

«هذه هي الحياة الأبدية أن **يعرفوك أنت** الإله الحقيقي وحدك **ويسوع** المسيح الذي أرسلته» (يو١٧: ٣). في إنجيل يوحنا لا يمكن الفصل بين الحياة الأبدية بمفهومها الناضج وبين المعرفة الإلهية في إدراكها الواقعي العملي. فالحياة الأبدية في إنجيل يوحنا هي الحياة مع الله، حياة لا علاقة لها بالزمن خالية من الموت وكل أسبابه ونتائجه، وهي حياة نابعة من طبيعة الله «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الإبن أن تكون له حياة في ذاته» (يو٥: ٢٦). فالحياة مع الله هي حياة مع الآب والإبن وبالتالي تَعرُّف كاملٌ وممتدٌّ في العلاقة بين الآب والإبن.

لذلك فانفتاح الوعي الروحي للإنسان لتقبُّل انسكاب قوة الحياة الأبدية «بالميلاد الثاني» أو «بالخليقة الجديدة» أو «بالميلاد من فوق» أو «بحلول الروح القدس» يُدخله في معرفة الله الذاتية أي معرفة الآب والإبن. أي أن معرفة الله بحسب الآية أعلاه: «أن يعرفوك **أنت** الإله الحقيقي وحدك **ويسوع المسيح** الذي أرسلته»، هي في الحقيقة ليست معرفة من معارف الإنسان الطبيعية، بل معرفة استعلانية، أي فيها ينكشف للروح أمور مخفية ليست من اختصاص الحياة الأرضية.

ولكي ندرك المعنى العميق لهذه المعرفة الروحية الخاصة بالله في إنجيل يوحنا يلزمنا في البداية التفريق بين المعرفة في الفلسفة اليونانية والمعرفة في التوراة أي عند العبرانيين.

١ — معرفة الله في الفلسفة اليونانية:

وتختص بالتأمل في الحقيقة النهائية في جوهرها غير المتغير. وواضح أن هذه الحقيقة ثابتة Static ومطلقة أي مجردة وبلا حدود. وفيها يجاهد الفكر البشري في الإنطلاق نحو هذا الجوهر الثابت. فالفكر المحدود يتحرك ولكن الله مطلق ثابت، يتحرك إليه الإنسان إما بعقله بالتمرينات الفكرية وإما بجسده بالتمرينات الجسدية، أو بكليهما.

٢ — معرفة الله عند العبرانيين:

وهي الإعتراف بالله من جهة أعماله التي يعملها عامة وخاصة للشعب الذي أحبه ثم الخضوع لمطالبه. وهنا تكون معرفة الله هي تعامل مع الله بالممارسة الشخصية والجماعية وذلك في صميم الزمان. حيث الله يأتي ويفتقد الإنسان ويقرِّبه إليه.

وبالرغم من وضوح الفرق بين المعنى اليوناني والمعنى العبري في معرفة الله إلا أنه بمرور الزمن

[1] C.H. Dodd, The Fourth Gospel, p. 151.

اختلط المعنيان وذلك بسبب ترجمة الأسفار العبرية للكتاب المقدس إلى اليونانية في النسخة السبعينية. لأن المترجم استخدم في ترجمة الكلمات العبرية ذات المعنى العبري الخاص كلمات يونانية لها معناها اليوناني الخاص جداً!! بحيث يستحيل على القارىء اليوناني للأسفار العبرية المترجمة أن يفهم المعنى العبري النقي وحده إذ حصل تزاوج بين المعاني. هذا بجوار عدم دراية المترجم اليهودي (الإثنان والسبعون شيخاً) بأصول الكلام العبري نفسه لطول المسافة الزمنية السحيقة بين زمن وضع هذه الأسفار وزمن ترجمتها، مما قد يورط المترجم في ترجمة منحرفة وإليك هذا المثل:

الأصل العبري الصحيح: هوشع ١٠: ١٢ «إزرعوا لأنفسكم بالبر احصدوا بحسب الصلاح احرثوا لأنفسكم حرثاً فإنه وقت لطلب الرب حتى يأتي **ويعلمكم البر**». لاحظ كلمة «يعلمكم البر» التي بمعنى تعليم عمل الصلاح.

الترجمة السبعينية: هوشع ١٠: ١٢ «ازرعوا لأنفسكم بالبر واحصدوا بحسب ثمر الحياة وأنيروا لأنفسكم نور المعرفة واطلبوا الرب حتى يأتيكم ثمر البر».

هنا في الترجمة السبعينية ضاعت من المترجم معرفة أصل الكلمة «يحرث» لأنها قريبة جداً من كلمة «مصباح» — فاستبدل كلمة «يحرث» بحسب تداعي المعنى من الكلمة التي بعدها (يعلّم البر) فبدل «**احرثوا لأنفسكم حرثاً**» قال: «**أنيروا نوراً**» وهكذا دخل في صميم التوراة اصطلاح جديد وخطير للغاية لم يكن له وجود أصلاً في العبرية وهو «نور المعرفة» φῶς γνώσεως

ولكي يتأكد القارىء من الإلتباس الذي وقع فيه هذا المترجم، نعود لكلمة «حرث حرثاً» لسفر آخر هو سفر إرميا حيث وردت فيه بحسب الترجمة السبعينية ولكن بمترجم آخر أكثر علماً ودراية بالأصول العبرية للكلمات، فنجدها في الترجمة اليونانية طبق الأصل في المعنى مثل الأصل العبري تماماً:

الأصل العبري: إرميا ٤: ٣ «لأن هكذا قال الرب لرجال يهوذا ولأورشليم احرثوا لأنفسكم حرثاً، ولا تزرعوا في الأشواك».

الترجمة السبعينية: إرميا ٤: ٣ «لأن هكذا قال الرب لرجال يهوذا وسكان أورشليم احرثوا لأنفسكم حرثاً جديداً، ولا تزرعوا في الأشواك».

والذي حدث هو أن انتشار الترجمة اليونانية (النسخة السبعينية) لأسفار العهد القديم بين اليهود من أصل يوناني الذين كانوا يعيشون في وسط الجماعات الغنوسية (العارفين بالله على هرطقات متعددة) قد استخدموا هذه الإصطلاحات الدخيلة في آدابهم الدينية وهكذا تقاربت المعارف والمعاني بين اليهود التقليديين (الأرثوذكس) الدارسين على النسخة السبعينية وبين هرطقات الغنوسية

أي جماعات العارفين بالله.

وهكذا بالتالي ورثت المسيحية عن اليهودية التقليدية أي عن أرثوذكس اليهود الذين تنصروا هذه المعارف والإصطلاحات التي هي أصلاً موجودة في الأدب اليوناني الصرف!

والذي يهمنا هنا هو اصطلاح «**معرفة الله**»، حيث صار هذا الإصطلاح متقارباً جداً في مفهومه بين العهد القديم (الترجمة السبعينية) وبين هرطقة الغنوسية. وهذا هو سر بلبلة العلماء الناقدين في تعثُّرهم من جهة المنابع التي استقى منها القديس يوحنا إنجيله معتقدين أنه أخذ عن الغنوسية وهذا غير صحيح بصورة قاطعة أثبتها العلماء اللاهوتيون المدققون.

٣ ــ معرفة الله عند القديس يوحنا:

والقديس يوحنا يهودي إسرائيلي لم يدرس على السبعينية ولكنه كان على دراية واسعة وعميقة بتعاليم الربيين سواء على النسخة العبرية أو على النسخة السبعينية. ولأنه عاش وكتب ليهود الشتات في آسيا الصغرى وللأمم على السواء، فكان يعرف أنه يكتب لمواطني الثقافة اليونانية. ولذلك اضطر أن يستخدم هذا التعبير: «**والعالم لم يعرفه**» (يو١: ١٠)، عندما قال عن «الكلمة» أنه كان في العالم. فالقديس يوحنا يقصد بعدم معرفة العالم للكلمة هنا معرفة اليونان المعرفة العقلية وليس المعرفة بالمعنى العبري أي على أساس التعامل والخضوع والطاعة كإله قريب.

وهذا الموقف وقفه أيضاً القديس بولس ولكنه طعَّمه بالمفهوم العبري فجاء على المستويين اليوناني الفكري والعبري العملي معاً حينما قال: «وكما لم يستحسنوا أن يُبقُوا الله **في معرفتهم** أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض **ليفعلوا** ما لا يليق» (رو١: ٢٨). فهنا يقرر القديس بولس الرسول (في رو١) أن هؤلاء الناس الفُجّار الذين يحجزون **الحق بالإثم** عمداً، والذين بالرغم من أن معرفة الله ظاهرة فيهم وأن الله أظهرها لهم إلا أنهم **لما عرفوا الله لم يمجّدوه** أو يشكروه كإله، وبذلك استحسنوا لأنفسهم أن لا يُبقوا الله في معرفتهم، لذلك **أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض ليعملوا ما لا يليق**. هنا واضح أنهم **أدركوا معرفة الله بعقولهم بالمعرفة اليونانية الفلسفية وأنكروه بأعمالهم** بحسب المفهوم العبري، لذلك حجز الله عنهم حتى الذهن المستنير أو البصيرة النيِّرة ليتمادوا في الباطل الذي انحازوا إليه.

هكذا أدخل القديس بولس الرسول المعرفة اليونانية في الإطار الأخلاقي ففضحها وفضح قصورها وعجزها. وأما من حيث «**معرفة الله**» وعلاقتها بالحياة الأبدية كما جاءت في الأصحاح السابع عشر عدد ٣: «وهذه هي الحياة الأبدية أن **يعرفوك** أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي

أرسلته»، نجد أن المضمون العبري لمعرفة الله واضح وقائم وهو مطابق نصاً وحرفاً لما جاء في التوراة الموضحة على النسخة السبعينية هكذا:

النسخة العبرية القديمة: (هوشع ٦: ١-٣): «هو افترس فيشفينا ضرب فيجبرنا يحيينا بعد يومين وفي اليوم الثالث يقيمنا فنحيا أمامه. فلنتبع الرب».

النسخة السبعينية: (هوشع ٦: ٢و٣): «سيضرب ويجبرنا، بعد يومين يشفينا وفي اليوم الثالث سنقوم ونحيا أمامه وسنعرفه، فلنتبع الرب لنعرف الرب».

والمعنى واضح أننا سنقوم من الأموات ونحيا في حضوره ويكون لنا معرفة به وسنتقدم في معرفة الرب. وهذا يعني ما يلي: أنَّ نعرف الرب هو هو أن نحيا أمامه أي يكون لنا حياة أبدية معه. ونلاحظ أن الآية الواردة في نبوة هوشع هي معرفة وحياة المستقبل، ولكن في إنجيل يوحنا تأتي في الحاضر الدائم وهذا هو لاهوت إنجيل يوحنا الذي يعيش بالإستعلان واقع كل الأخرويات في شخص المسيح ابن الله الكائن والذي كان والذي يأتي أيضاً.

من هذا نرى أن اللغة اليونانية حتمت بدخول معانٍ إضافية نراها واضحة في مقابل المعاني العبرية الصحيحة: «أيها الآب البار إن **العالم لم يعرفك، أما أنا فعرفتُك** وهؤلاء عرفوا أنك أرسلتني» (يو١٧: ٢٥). هنا واضح أن المعرفة الأولى لا يقصد بها إلا مجرد التعرُّف والإدراك العقلي حسب مستوى العالم، والتي مصيرها الإخفاق حتماً. أما المعرفة الثانية فهي تحمل أضخم احتواء لمعاني المعرفة العبرية، لأن المسيح «الكلمة» و«الإبن» هو المتكلم شارحاً معرفته للآب! وهكذا تقع اللغة اليونانية في عيب صارخ حينما استخدمت نفس الكلمة «يعرف» عند العالم وعند ابن الله على السواء بمستوى واحد!! هذا يفضح قصور اللغة اليونانية في ترجمة واستيعاب المعاني الأصيلة والعميقة المتوارثة من العهد القديم وهي معاني لاهوتية، أي على مستوى إلهي، منطوقة بروح الله على فم الأنبياء وقائمة على أساس معاشرة الله لشعبه في الضيق والسعة وفي الرضا والغضب، الأمر الذي لم تره ولم تسمع به أمة أو لغة ما على الأرض كلها.

وبذلك أصبح تحديد معنى معرفة الله يتوقف بالدرجة الأولى على موقعها من الحديث وعلى مستوى الشخص أو الشعب الذي يباشرها.

فحينما يتهم المسيح اليهود بعدم معرفتهم لله فهو يضع على رؤوسهم وِزْرَ كل معاملاتهم السيئة لله وعصيانهم وتمرُّدهم: «أجاب يسوع إن كنتُ أمجِّد نفسي فليس مجدي شيئاً أبي هو الذي يمجدني الذي تقولون أنتم إنه إلهكم **ولستم تعرفونه. وأما أنا فأعرفه** وإن قلت إني لست أعرفه أكون مثلكم

كاذباً، لكني **أعرفه وأحفظ قوله.**» (يو٨: ٥٤و٥٥)

هنا يختبىء خلف الكلام معنى عميق، لأن شعب إسرائيل معروف أن الله تبنَّاه، وأن الله جعل نفسه أباً لهم، ولكنهم لما رفضوه بأعمالهم وابتعدوا عن الحق والرحمة والعدل، رفضهم الله وأصبحوا ليسوا أولاداً بعد، وبذلك **لا يمكن أن يدَّعوا معرفته** مهما كانت غيرتهم ومهما كان علمهم وحفظهم لدقائق الناموس وللوصايا بالحرف والنقطة ومهما كانت درايتهم بكل أوصاف الله ومطالبه، لأنهم في حكم المسيح قد أصبحوا «من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا.» (يو٨: ٤٤)

وأما المسيح فيعلن عن حق أنه ابن الله **فهو يعرفه** حتماً وبحسب أصول الكلمة العبرية التي تقوم على الصلة الفعلية بين الآب والإبن، أي صلة الإتحاد المطلق.

فإذا بلغت معرفة الإنسان لله المستوى العبري هذا بلغ **الإتحاد** بالنسبة للإنسان مفهومه اللاهوتي إنما على مستوى الإمتياز وليس مستوى الطبيعة، حيث يرتقي الإتحاد إلى الخبرة التصوفية اليونانية المنشأ، والخبرة النسكية العبرية الأصل، كما فهمها القديس بطرس الرسول: «قدِّموا في إيمانكم فضيلة وفي الفضيلة معرفة... لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية» (٢بط١: ٥و٤)، وكما فهمها القديس بولس الرسول أيضاً: «الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله، فإن كنا أولاداً فإننا ورثة أيضاً، ورثة الله، ووارثون مع المسيح» (رو٨: ١٦و١٧). ووراثة الله مع المسيح هي أعظم تعبير عملي عن الإتحاد أو حياة الشركة مع الله. أو بحسب القديس يوحنا: «أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد.» (يو١٧: ٢٣)

٤ ــ تعرفون أني أنا هو ἐγώ εἰμι :

«قال لهم يسوع متى رفعتم ابن الإنسان فحينئذٍ **تفهمون أني أنا هو**» (يو٨: ٢٨) (وبحسب الأصل اليوناني «تعرفون» **γνώσεσθε**). هذه الآية عن معرفة الله ذات وزن عالٍ جداً، ندركه إذا عدنا للتقليد القديم بحسب إشعياء النبي «أنتم شهودي (يوجه كلامه إلى الأنبياء وبني الإنسان) يقول الرب وعبدي الذي اخترته (المسيح) **لكي تعرفوا وتؤمنوا بي وتفهموا ,أني أنا هو**. قبلي لم يُصوَّر إله وبعدي لا يكون. أنا أنا الرب وليس غيري مخلِّص» (إش٤٣: ١٠و١١). لاحظ أن تعبير «أنا هو = باليونانية ἐγώ εἰμι» هو «**التعريف بذات الله**» وهو اصطلاح موقوف على الذات الإلهية(٢).

---

(٢) أهم المواضع التي جاءت فيها عبارة ἐγώ εἰμι :

ــ في الترجمة السبعينية لأسفار موسى الخمسة مثل: خر٣: ١٤، لا١١: ٤٤و٤٥؛ لا١٩ إلى ٢٦ (٢٠ مرة)، تث٣٢: ٣٩.

ــ ولسفر إشعياء مثل: إش٤١: ٤و١٠؛ ٤٣: ١٠؛ ٤٥: ٨و١٨و١٩؛ ٤٦: ٤و٩؛ ٤٧: ٨و١٠؛ ٤٨: ١٢و١٧؛ ٥١: ١٢.

إذا طبَّقنا آية إشعياء النبي على ما جاء في إنجيل القديس يوحنا يتضح الآتي:

— **بالنسبة لشهادة الأخصَّاء:** «**وتشهدون** أنتم أيضاً لأنكم معي من الإبتداء.» (يو١٥: ٢٧)

— **بالنسبة لشهادة المسيح:** «الحق الحق أقول لك إننا نتكلم بما نعلم **ونشهد بما رأينا.**» (يو٣: ١١)

— **بالنسبة للإصطلاح «أنا هو»:** نجد التطابق مع آية إشعياء حيث تأتي الكلمة الفريدة «تفهمون» لتجعل التطابق محكماً، إذ تجيء في السِفْرين: «تفهمون إني أنا هو» كما هي بالحرف الواحد.

فالنطق الإلهي الذي جاء في إشعياء النبي يفيد المعرفة الأكيدة لله المدعَّمة بالفهم، أن الله هو هو صاحب المجد الفريد والمخلِّص لشعبه؛ كما تجيء بنفس المعنى تماماً في إنجيل يوحنا أنه متى رُفِعَ المسيح بالقيامة والصعود تعيَّن أنه ابن الله وأنه صاحب **المجد** الفريد **والمخلِّص** وليس غيره.

٥ — الفرق بين معرفة «التألُّه» ومعرفة «الإتحاد»:

يهمنا أن نوضح هنا أن المعرفة اليونانية الفلسفية التي تُمارَس بالتأمل في الحياة التصوفية إنما تقوم على التمرين العقلي والنفسي للإرتقاء فيا وراء الطبيعة، وهي ضمن ميراث التقليد الآبائي الكبادوكي والبيزنطي، وهي ترتقي بدرجات ملموسة بالإنسان حتى يبلغ بها إلى ما يسمى بالتألُّه Θέωσις Deification

أما المعرفة بحسب الخبرة العبرية التي انتقلت إلى المسيحية، فصارت «**المعرفة**» تقوم بالمعنى المسيحي على الإيمان العامل بالمحبة وبممارسة الفضيلة والتعفُّف التي يسميها القديس بولس الرسول «السلوك بالروح»، فهي قادرة أن تبلغ بالنعمة إلى «الإتحاد بالمسيح» التي يضع لها إنجيل يوحنا شرطين: «**المحبة**» و«**حفظ الوصية**»، حيث يثبت الإنسان في المسيح «اثبتوا فيَّ وأنا فيكم» (يو١٥: ٤) على مستوى الكرمة والأغصان. هذا الإتحاد بالمسيح وبالتالي بالله يدعمه سر الأكل والشرب من الجسد والدم فيصبح الإتحاد وكأنه موثَّق ومختوم بالروح والدم: «مَنْ يأكلني فهو يحيا بي» (يو٦: ٥٧)، «...الذي يعطيكم ابن الإنسان لأن هذا الله الآب قد ختمه» (يو٦: ٢٧). هنا مفهوم الوحدة أو الإتحاد بالله بلغ أعلى مستواه بتوسط المسيح على مستوى المعرفة والأكل السري!!

* — وأما في إنجيل يوحنا فقد وردت على فم المسيح ٢٤ مرة:
٤: ٢٦؛ ٦: ٢٠و٣٥و٤١و٤٨و٥١؛ ٨: ١٢و١٨و٢٣و٢٤و٢٨و٥٨؛ ١٠: ٧و٩و١١و١٤؛ ١١: ٢٥؛ ١٣: ١٩؛ ١٤: ٦؛ ١٥: ١و٥؛ ١٨: ٥و٦و٨.

٦ ــ معرفة «الحق»:

أصل مفهوم معرفة الحق (الأليثيا) هو الإدراك العقلي الميتافيزيقي أي ما وراء الطبيعة. باعتبار أن «الحق» هو الوجه الحقيقي في الموضوع Reality وهذا ميراث يوناني فلسفي صرف.

ولكن حينما استخدمه المسيح في إنجيل يوحنا، نرى أن شيئاً عجيباً قد دخل في مفهوم الإصطلاح اليوناني هذا، وجذبه ليتوافق مع الميراث العبري الأصيل لمعرفة «الله» الذي هو «الحق». فحينما يقول المسيح لليهود: «تعرفون الحق والحق يحرركم» (يو٨: ٣٢)، فهذا إصطلاح هلليني (يوناني فلسفي)، ومعناه أن التحرر أو الحرية يتوقف على إدراك الوجه الحقيقي Reality للموضوع، وهذا ــ بحد ذاته ــ كفيل بأن يحرر العقل من التزييف أي شبه الحق المخادعPseudoreality. ولكن هذا ما لا يقصده المسيح، بل هو يقصد المعرفة القائمة على الأعمال والسلوك بالخضوع والطاعة لوصايا الله، أي على الأساس العبري القويم. وهذا كشفه المسيح بوضوح عندما عاد ليطبق الحق على نفسه قائلاً: «إن حرَّركم الإبن فبالحقيقة تكونون أحراراً» (يو٨: ٣٦)؛ وهكذا جعل معرفة الحق موازية ومنطبقة على معرفة الخلاص من الخطية «مَنْ يعمل الخطية فهو عبد للخطية والعبد لا يبقى في البيت (بيت الحق أي الله) إلى الأبد، أما الإبن فيبقى إلى الأبد (أي يرث الحق)» (يو٨: ٣٤و٣٥). ثم يعود ويكشف حالة اليهود الذين صاروا عبيد خطية وتبنّاهم إبليس. وذلك ليس عن عدم إدراك الحق بالعقل لأنهم يدركون الحق فعلاً وعقلاً و باقتدار، ولكنهم ضلوا عن معرفة «الحق» بأعمالهم وسلوكهم الشائن «أنتم تعملون أعمال أبيكم... أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا، ذاك كان قتّالاً للناس منذ البدء، وهو لم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق (الأليثيا) متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مما له لأنه كذاب وأبو الكذاب (أي أن كلّ مَنْ يكذب يصبح ابنه بالتبعية).» (يو٨: ٤١ــ٤٤)

وهنا واضح أن إنجيل يوحنا استخدم «معرفة الحق» ليس بالمعنى الهلليني الفلسفي فقط، وإنما مزجه بالمعنى والمضمون المسيحي الدقيق وحسب التقليد العبري.

٧ ــ معرفة الله للإنسان:

لو رجعنا إلى التراث العبري القديم نقرأ: «إياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض لذلك أعاقبكم على جميع ذنوبكم» (عاموس ٣: ٢)؛ كذلك: «أنا أعرف أفرايم وإسرائيل ليس مخفياً عني» (هو٥: ٣)؛ وفي مثل آخر تبلغ معرفة الله للإنسان إلى أقصى حدود الود والمحبة: «ولم يقم بعدُ نبيٌّ في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه» (تث٣٤: ١٠)؛ كذلك وفي مثل آخر تبلغ حدود معرفة الله للإنسان إلى درجة الإختيار المُسْبَق والمبادرة للتقديس من طرف واحد،

أي من طرف الله دون أي إستحقاق عملي ظاهر من جهة الإنسان: «وأنت يا رب **عرفتني رأيتني واختبرتَ قلبي من جهتك**» (إرميا ١٢: ٣)؛ «فكانت كلمة الرب إليَّ قائلاً **قبلما صوَّرتُك في البطن عرفتُك**، وقبلما خرجت من الرحم قدَّستُك، جعلتُك نبيًّا للشعوب.» (إرميا ١: ٥)

وسَبْقُ معرفة الله للإنسان لا يتدخل في الإرادة الحرة التي تختار ما بين الخير والشر، بمعنى أنه سَبْقُ معرفة أعمال وسلوك ونيات وإرادة. لأن ليس عند الله زمن ما يحجب العمل فلا يُرى إلا بعد حدوثه، بل الرب يرى الأعمال وكأنها معمولة قبل أن تُعمل «يدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة» (رو٤: ١٧)!! لهذا يسبق أيضاً ويقدسها في ذخيرة محبته التي صوَّرت الكون قبل أن يتصور، والتي كتبت أسماءنا في كتاب الحياة الأبدية ليس قبل أن نولد فحسب، بل وقبل إنشاء العالم «اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه — في المحبة —» (أفسس ١: ٤)، أو بحسب تعبير إنجيل يوحنا: «أنا أظهرتُ اسمك للناس الذين أعطيتني من العالم، **كانوا لك** وأعطيتهم لي وقد حفظوا كلامك» (يو١٧: ٦). هنا «**معرفة الله للناس**» على أصول عبرية صافية جداً، وإن كان مظهرها قد يميل إلى المفهوم الهلليني العقلي، لهذا يمكن أن نقول إن الإنجيل جمع بين المعنيين بلا أي خلل في القصد المبارك.

ولكي ندرك عمق التراث العبري المستخدم في إنجيل يوحنا ودقته وطريقة تطعيمه بالفكر الهلليني، نأخذ هذا المثل وهو آية واحدة من سفر العدد نقرأها على النسخة العبرية القديمة، ثم نقرأها على النسخة السبعينية المترجمة إلى اليونانية، ومنها ندرك مقدار التحول الذي تم على أيدي المترجمين الربيين اليهود الإثنين والسبعين وقدرتهم على فهم التراث العبري وتقريبه إلى ذهن القارىء اليهودي اليوناني.

القراءة العبرية على التوراة: سفر العدد ١٦: ٤و٥ «فلما سمع موسى سقط على وجهه ثم كلم قورح وجميع قومه قائلاً: غداً **يعلن الرب مَنْ هو له**، ومَنْ المقدَّس حتى يُقرِّبه إليه. فالذي يختاره يقرِّبه إليه.»

القراءة على النسخة السبعينية: «ولما سمع موسى هذا سقط على وجهه وكلم قورح وكل جماعته قائلاً: **إن الله قد افتقد (زار) وعرف الذين له**، ومَنْ هو المقدَّس وقد قرَّبهم إلى نفسه، **والذين اختارهم لنفسه قد قرَّبهم إلى نفسه.**»

يلاحظ القارىء أن التغيير حدث بنوع من شرح للموقف المبهم الذي يحكي كيف سيختار الله مَنْ هم له.

وعلى القراءة السابقة وضع الربيون التعليم الدقيق بمقتضى صميم قراءة الترجمة اليونانية وذلك بوضع المبادىء التي تقنن **كيفية معرفة الله لشعبه:**

المبدأ الأول: الله يعرف الذين له،

المبدأ الثاني: الله قد اختارهم،

المبدأ الثالث: الله يقودهم (يقرِّبهم) إلى نفسه.

هذه المبادىء الثلاثة المسجلة عند الربيين، تكشف لنا عن مفهوم التراث العبري في **موضوع معرفة الله للناس**، التي كان يستحيل على اليهودي اليوناني أن يفهم شيئاً من الآية الغامضة المختصرة التي جاءت في التوراة العبرية هكذا: «غداً يعلن الله الذين له».

فإذا عدنا إلى إنجيل يوحنا — بخصوص معرفة الله للناس — نجد هذه الثلاثة المبادىء مرعية بمنتهى الدقة:

المبدأ الأول: «أما أنا فإني الراعي الصالح **وأعرف خاصَّتي** وخاصَّتي تعرفني» (يو١٠: ١٤)؛ «لأن **يسوع من البدء علم** مَنْ هم الذين لا يؤمنون ومَنْ هو الذي يسلمه» (يو٦: ٦٤)؛ «لكن يسوع لم يأتمنهم على نفسه لأنه كان **يعرف الجميع**.» (يو٢: ٢٤)

المبدأ الثاني: «لست أقول عن جميعكم **أنا أعلم الذين اخترتهم**» (يو١٣: ١٨)؛ «أليس **أني أنا اخترتكم** الإثني عشر وواحد منكم شيطان.» (يو٦: ٧٠)

المبدأ الثالث: «لا يقدر أحد أن يُقبل إليَّ إن لم يجتذبه (يُقرِّبه) الآب» (يو٦: ٤٤)؛ «وأنا إن ارتفعت عن الأرض **أجذب إليَّ** الجميع.» (يو١٢: ٣٢)

بهذا يتضح لنا المبدأ الذي يسير عليه إنجيل يوحنا من جهة **معرفة الله للناس**، وهي نفس الأصول والمبادىء الثلاثة التي قامت عليها تعاليم التوراة المبنية على أساس نعمة الله الكاشفة أستار القلوب، والإختيار المُسْبَق، والتقريب إلى الله، التي هي كلها من صميم خبرة الأنبياء العملية. وفي إنجيل يوحنا نجد أن الفاعل في هذه الثلاثة المبادىء: المعرفة، والإختيار، والتقريب، هو المسيح.

٨ — رؤية الله:

و«المعرفة» في مفهومها الإلهي الجديد في العهد الجديد تنحصر في شخص المسيح أساساً وتفرُّعاً. **فالمسيح هو الوحيد الذي يعرف الله والآب:** «الله لم يَرَهُ أحد قط، **الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر**» (يو١: ١٨)؛ «أنا أعرفه لأني منه وهو أرسلني» (يو٧:

٢٩)؛ «الآب يعرفني وأنا أعرف الآب.» (يو١٠: ١٥)

ونحن لا يمكن أن نعرف الله الآب إلا بواسطة المسيح، لأنه بدون الإبن لا يمكن أن يُستعلن الآب: «لا أحد يعرف الآب إلا الإبن ومن أراد الإبن أن يُعلن له.» (متى ١١: ٢٧)

فالمسيح، وخاصة في إنجيل يوحنا، هو المصدر الأساسي لمعرفة الله في ذاته، ولكن بالمسيح يسوع وفي المسيح يسوع، وإلاَّ استحال التعرُّف على الله: «هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو١٧: ٣). هنا إضافة «يسوع المسيح الذي أرسلته» التي يعتبرها كثير من الشرَّاح النقديين أنها زائدة ومضافة، هي في الحقيقة قلب الآية النابض ومفتاح سرها الوحيد. فإنه بالرب يسوع المسيح استُعلن الله الآب، الأمر الذي كان مخفياً مدى الدهور كلها وعلى جميع الآباء والأنبياء والقديسين في العهد القديم. فهو وحده الوسيط لمعرفة الآب: «لو كنتم عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» (يو١٤: ٧). بل ويفتح المسيح المجال للإنسان — ولأول مرة في تاريخ الإنسان — ليرى الله بواسطة يسوع المسيح: «الذي رآني فقد رأى الآب.» (يو١٤: ٩)

هنا اقترنت «معرفة الله» بـ«رؤية الله»، هذا اصطلاح هلليني تصوُّفي، أي يوناني صرف. فالرؤيا θεωρία ليس لها مكان في التقوى اليهودية، والعهد القديم لم يذكرها إلا في حيز ضيق جداً وليس كخبرة عامة مفتوحة للإنسان، فرؤية الله ليست اختباراً روحياً أو دينياً. فاليهودية الأرثوذكسية التقليدية تقرر أن رؤية الله مستحيلة على الإنسان في هذه الحياة: «لأن الإنسان لا يراني ويعيش» (خر٣٣: ٢٠). إنما هي من الموهوبات والبركات المحفوظة للإنسان في الدهر الآتي.

فمن أين أتى بها إنجيل يوحنا وعلى أي أساس؟

إنجيل يوحنا يعيش الدهر الآتي من بادىء بدئه حتى نهايته! لما قالت مرثا للمسيح أنها تؤمن أن أخوها لعازر سيقوم في اليوم الأخير استنكر عليها المسيح ذلك، وهو واقف أمامها، قائلاً: «أنا هو القيامة والحياة» (يو١١: ٢٥)!

فالدهر الآتي استُعلن في المسيح بصفته أنه هو هو الحياة الأبدية، فالحياة الأبدية ذاتها أُظهرت في المسيح، بحسب القديس يوحنا: «وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا» (١يو١: ٢). على أن المعيار التقليدي للعهد القديم وهو «أن الله لا يراه الإنسان ويعيش» محفوظ: «الله لم يَرَهُ أحدٌ قط (ولكن) الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو

خبَّر» (يو١: ١٨). إذن، لواحد فقط قد صارت وتمت رؤية الله: «ليس أن أحداً رأى الآب إلا الذي من الله هذا قد رأى الآب.» (يو٦: ٤٦)

إذن، فالمسيح والمسيح وحده هو الذي أُعطيت له معرفة الآب ورؤيته رؤية الذات للذات، والمثيل للمثيل!!! وهذه المعرفة التي هي بعينها رؤية الله قد وهبها لنا المسيح في ذاته «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو١٤: ٩). هذا هو جوهر الإيمان المسيحي: «فنادى يسوع وقال الذي يؤمن بي ليس يؤمن بي بل بالذي أرسلني، والذي يراني يرى الذي أرسلني» (يو١٢: ٤٤و٤٥). وهذا يقرره القديس يوحنا منذ بدء إنجيله: «والكلمة صار جسداً وحلّ بيننا ورأينا مجده، مجداً كما لوحيد من الآب.» (يو١: ١٤)

الفصل الخامس

الخطية والخلاص

أ ــ الخطية

«الخطية» عند القديس بولس الرسول:

لقد انتهى القديس بولس الرسول إلى هذا القرار اللاهوتي: «لأنه بأعمال الناموس، كلُّ ذي جسد لا يتبرَّر أمامه. لأن بالناموس معرفة الخطية» (رو٣: ٢٠)؛ مضافاً إليه: «فإنني لم أعرف الشهوة لو لم يقُلْ الناموس لا تَشْتَهِ» (رو٧: ٧). **لذلك فالخطية هي التعدي.**

فالناموس عرَّفنا بـ «الخطية»، بل أوْجَدها في الذهن والضمير وحددها وضخَّمها لتبدو خاطئة جداً، ثم أوْجَدَ لها العقوبات والموت. وفرض الناموس ذاته على الإنسان، و بذلك صار العالم كله سواء الذي هو في الناموس أو الذي بلا ناموس تحت قصاص من الله: «ونحن نعلم أن كل ما يقول الناموس فهو يكلم به الذين في الناموس، لكي يستدّ كل فم و(بالتالي) يصير العالم كله تحت قصاص من الله.» (رو٣: ١٩)

«الخلاص» عند القديس بولس الرسول:

«**وأما الآن فقد ظهر برُّ الله بدون الناموس** مشهوداً له من **الناموس** (موسى في التجلي والتوراة) **والأنبياء** (إيليا في التجلي، و بصفته أقوى الأنبياء، و بصفته الحاضر بروحه في يوحنا المعمدان)؛ برُّ الله **بالإيمان بيسوع المسيح** إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون لأنه لا فرق (بين يهودي وأممي) **إذ الجميع** أخطأوا وأعْوَزَهم مجد الله. **متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح** الذي قدمه الله **كفَّارة بالإيمان بدمه لإظهار برّه من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله.**» (رو٣: ٢١ــ٢٥)

«الخطية» في إنجيل القديس يوحنا:

إنجيل يوحنا يقسّم الناس إلى:

– **روحيـون** مولودون «من فوق»، «من الله»، يستمدون حياتهم وأفعالهم من الروح من فوق أي من الله:

ἐκ τοῦ Θεοῦ (يو٨: ٤٧) = ἐκ τῶν ἄνω (يو٨: ٢٣)

– **أرضيون** «من الأرض» يستمدون حياتهم وشهواتهم من العالم أي «من أسفل»:

ἐκ τοῦ κόσμου (يو١٥: ١٩؛ ٨: ٢٣) = ἐκ τῶν κάτω (يو٨: ٢٣)

«فقـال لهـم **أنتم من أسفل** أما **أنا فمن فوق**، أنتم من هذا العالم أما أنا فلست من هذا العالم. **فقلت لكم إنكم تموتون في خطاياكم.**» (يو٨: ٢٣و٢٤)

ثم عـاد الإنجيل يوضح هذا المبدأ أكثر «الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع. والذي من الأرض هو أرضي ومن الأرض يتكلم. الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع.» (يو٣: ٣١)

وهـكذا فالمسيح يحاصر **الخطية** ليس في ذاتها ولكن في الإنتماء إلى مصدرها، جاعلاً إرادة الإنتماء هي التي تحصر **الخاطىء** وتصبغه بالخطية.

والإنتماء بـالـنسبة للإنسان يكون إما إلى **فوق** إلى **السماء**، إلى **الروح**، إلى **الله**؛ أو إلى **أسفل**، إلى **الأرض**، إلى **الجسد**، إلى **الشيطان.**

وهـذا الـتقـسيم يوضـحه الإنجيل أنه ينطبق أيضاً على التلاميذ «أنا قد أعطيتهم كلامك والعالم أبغضهم، **لأنهم ليسوا من العالم** كما أني أنا لست من العالم.» (يو١٧: ١٤)

وهكذا فإرادة الإنسان في نوع الإنتماء هي التي تفتح للخطية لتدخل أو تغلق في وجهها الباب.

وهـذا الإنتماء عـينه هو الذي يقرر ويحدد نوع التعامل مع الله، و بالتالي نوع السلطان المعطى من الله للرسـل ثم للكنيسة، من جهة التعامل مع الخطية. فإذا أظهر الخاطىء انتماءه بالإعتراف وشهادة الضمير و بالفعل أنه أبغض الخطية ولم يَعُدْ ينتمي إلى مصادرها، فإنه ينال الحِلّ منها أو الفِكَاك عنها أو المغفرة لها (والمغفرة كلمة عبرانية الأصل تفيد معنى التغطية أو النسيان)، وإلا فإنها تُربط ويُقفل عليها وتُمسك:

إنجـيل الـقديس يوحنا: «ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس، مَنْ **غفرتم** خطاياه تُغْفَر له ومَنْ **أمسكتم** خطاياه أمسكت.» (يو٢٠: ٢٢و٢٣)

إنجيل القديس متى: «وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات **فكلُّ ما تربطه** على الأرض **يكون مربوطاً في السموات وكل ما تحلّه** على الأرض يكون **محلولاً في السموات**.» (مت١٦: ١٩)

ومعروف أن هذا السلطان هو أصلاً سلطان المسيح نفسه الذي تنبأ عنه إشعياء النبي:
— «وأجعل مفتاح بيت داود على كتفه **فيفتح** وليس مَنْ يغلق، **ويُغلق** وليس من يفتح.» (إش٢٢: ٢٢)

هذا السلطان أعطاه المسيح للكنيسة، وما بيت داود إلا الملكوت عينه.

والفتح والغلق أوضحه المسيح أنه بخصوص حق الدخول إلى الحظيرة، أي الكنيسة، أي الملكوت:

— «الحق الحق أقول لكم: إن الذي لا يدخل من الباب إلى حظيرة الخراف بل يطلع من موضع آخر فذاك سارق ولص، وأما الذي يدخل من الباب فهو راعي الخراف لهذا يفتح البواب... أنا هو الباب...» (يو١٠: ١—٣ و٩)

لذلك يعود القديس يوحنا في رسالته ويجعل الإنتماء أشد انحصاراً وأقوى وضوحاً: «أيها الأولاد لا يضلُّكم أحد، **مَنْ يفعل البر فهو بارٌّ** كما أن ذاك بارٌّ. **مَنْ يفعل الخطية فهو من إبليس** لأن إبليس **من البدء يخطىء**. لأجل هذا أُظهر ابن الله لكي ينقض أعمال إبليس. كلُّ مَنْ **هو مولود من الله لا يفعل الخطية** لأن زَرْعَه (بذرة الحياة الجديدة) يثبت فيه ولا يستطيع أن **يخطىء لأنه مولود من الله**.» (١يو٣: ٧—٩)

أولاً يُلاحَظ أن كلمة «مولود من الله» تفيد في النص اليوناني حالة الديمومة والإستمرار، **فهو** وُلد (بالمعمودية وبالروح) ولا يزال قائماً في حالة الولادة من الله كابن بالتبني بالنعمة. وهنا إشارة إلى الإنتماء الكلي والدائم إلى فوق والسماء والروح والله. أي لا يزال يتبع قيادة الروح وتأثيره. ويعلق العلاّمة أثيناغوراس[1] على هذه الديمومة قائلاً: [هم المسيحيون الذين صار عندهم الاحساس بالله أنه هو المثل والمستوى الأعلى للحياة].

أما المعنى أن «**المولود من الله لا يستطيع أن يخطىء**»، **فهو يعود** مباشرة إلى المعيار اللاهوتي لإنجيل يوحنا في أن **ابن الله والشيطان** نقيضان يستحيل بأي صورة أن يتفقا أو يتقابلا، وبالتالي أبناء الله المولودون من الله في المسيح وبالروح القدس يستحيل أن يتفقا أو يتقابلا مع الخطية التي

[1] Leg. pro. Christ c. 31, cited by Westcott: The Epistle of St. John, p. 107.

هي عمل الشيطان، طالما أن ولادتهم من الله حية وعاملة ومتصلة. حيث يستحيل عليهم عمل الخطية بصورة طبيعية نابعة من كيانهم الروحي، ولكن تأتي بصورة عارضة غريبة مدسوسة. حيث لا تمس الخطية كيان الإنسان الجديد أو جوهره الروحي. «نعلم أن كل مَنْ وُلِدَ من الله لا يخطىء، بل المولود من الله يحفظ نفسه والشرير لا يمسُّه.» (١يوه: ١٨)

هنا تأتي مواجهة المسيح لليهود باعتبارهم منتمين للشيطان لأنهم أضمروا قتل المسيح بإصرار وبشهوة شيطانية: «أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتّالاً للناس من البدء ولم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق. متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مما له لأنه كذاب وأبو الكذاب.» (يو٨: ٤٤)

وهكذا يربط إنجيل يوحنا بين الخطية والشيطان مصدرها الأول، حيث يرى في عمل الخطية ليس انتماءً فقط للشيطان بل خضوعاً له، حيث يفقد الإنسان حرية الإختيار فيصير عبداً للخطية مُساقاً بالقوة الشريرة: «الحق الحق أقول لكم: إن كلّ مَنْ يعمل الخطية هو عبد للخطية.» (يو٨: ٣٤)

لذلك حرص الإنجيل أن يوضح أن المسيح في هذا المجال عينه لم يعمل خطية واحدة!! «مَنْ منكم يبكّتني على خطية؟» (يو٨: ٤٦) هذا هو مستوى المسيح القدوس ابن الله؛ إذن فهو حرٌّ من الخطية لذلك فهو قادر أن يبرِّر ويحرر من الخطية: «فإن حرَّركم الإبن فبالحقيقة تكونون أحراراً.» (يو٨: ٣٦)

والمسيح لا يتعامل مع الخطية وحدها بل ومع مصدرها. فالمسيح أساساً ليس مديناً للشيطان بشيء قط: «رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيَّ شيء» (يو١٤: ٣٠)؛ لذلك استطاع أن يدحره ويدينه: «الآن دينونة هذا العالم، الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً.» (يو١٢: ٣١)

ب — الخلاص

الخلاص في إنجيل يوحنا:

واضح أن الأساس المبني عليه إنجيل يوحنا هو «مجيء ابن الله» من «فوق» من عند الآب حاملاً رسالة الخلاص العظمى التي أعدّها الله لخلاص العالم، وفي الحال ومنذ بدء الإنجيل أعلن عن هذه الرسالة التي حملها الإبن الوحيد: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية.» (يو٣: ١٦)

وكان أول تعليم عن الخلاص قدّمه المسيح هو الكشف عن أن خلاص الإنسان سيكون من نفس الباب والطريق الذي جاء منه المخلّص، مخاطباً به الناموس ممثّلاً في معلمه نيقوديموس: «إن كان أحد **لا يولد من فوق** لا يقدر أن يرى ملكوت الله... المولود من الروح هو روح. لا تتعجب أني قلت لك ينبغي أن تُولدوا من فوق.» (يو٣: ٣—٧)

وهكذا فتح المسيح الباب للخاطىء **لينتمي إلى فوق**، وأعد له الطريق بالفداء بالجسد على الصليب ثم القيامة ثم الصعود **لينتقل انتماء الإنسان نهائياً من أسفل إلى فوق**، من الأرض إلى السماء ليصير مع المسيح كالمسيح: «(هؤلاء) ليسوا من العالم كما أني أنا لست من العالم... بل (أسأل أن) تحفظهم من الشرير» (يو١٧: ١٤و١٥)، أما بعد العالم: «**أريد أن هؤلاء الذين** أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا.» (يو١٧: ٢٤)

لقد أحكم المسيح طريقة الخلاص ووثّقها بالروح القدس وختمها بختم الآب، عندما وهب الذين يؤمنون به أن **يصيروا أولاد الله** ليكونوا **في حمى القدير إلى الأبد**: «أما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي **المؤمنون باسمه**» (يو١: ١٢)، «خرافي... لن تهلك إلى الأبد ولا يخطفها أحد من يدي. أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي.» (يو١٠: ٢٧—٢٩)

وهكذا نقل الله الإنسان هذه النقلة الخلاصية العظمى، بدم ابنه، من عبودية العالم والخطية والشيطان إلى أولاده الأخصاء المحبوبين. وهكذا نقلهم من اللعنة الأولى إلى برّ الله الأبدي.

+ فبالميلاد من الماء والروح في إنجيل يوحنا تم للإنسان خلقة روحية جديدة، بها **حصل الإنسان على شهادة ميلاد سماوي موثّقة بالروح القدس ومختومة بختم الآب وعليها صورة الإبن.**

+ وبالإفخارستيا — في إنجيل يوحنا — عضّد المسيح الإنسان المولود من فوق — بخبز وخمر — **طعام السماء خبز الحياة، قوام الطبيعة الجديدة للإنسان الجديد. وهو في نفس الوقت (ترياق عدم الموت) عند الآباء** antidote **أي دواء عدم الموت.** «هذا هو الخبز النازل من السماء **لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت**» (يو٦: ٥٠). [يُعطى لمغفرة الخطايا وحياة أبدية لمَنْ يتناول منه — القداس].

+ وتقنين العبادة في إنجيل يوحنا «بالروح والحق»: «الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا» (يو٤: ٢٤). هذا **بمثابة سلاح المؤمن للخلاص للمحاربة ضد**

الخطية باليمين واليسار.

+ والغلبة عند القديس يوحنا ضد العالم هي في سِرّ الإيمان بالله: «لأن كل مَنْ وُلد من الله يغلب العالم، وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم إيماننا، **من هو الذي يغلب العالم إلا الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله.**» (١يو٥: ٤و٥)

فالإيمان بابن الله هو تذكرة سفر مختومة عليها الختم الملكي نخرج بها من العالم غير مديونين له بشيء: «الذي يؤمن به لا يُدان.» (يو٣: ١٨)

+ في إنجيل يوحنا يقدم لنا المسيح نفسه **نوراً للطريق كقوة داخلية بالكلمة الحية التي هي زاد الطريق، طريق الخلود المنير المؤدي إلى الحياة الأبدية.**

+ وعند القديس يوحنا، كلنا خطاة تحت الإعتراف: «إن قلنا أنه ليس لنا خطية نُضلُّ أنفسنا وليس الحق فينا. إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم» (١يو١: ٨و٩)؛ «إن قلنا أننا لم نخطيء نجعله كاذباً وكلمته ليست فينا» (١يو١: ١٠)؛ «ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية.» (١يو١: ٧)

فالإعتراف بالخطية عند القديس يوحنا هو التطهير الدائم.

+ وأخيراً يمنح إنجيل يوحنا الذين يعترفون باسم المسيح متقبّلين الإضطهاد والألم والموت، **وسام الزمالة في آلام الصليب ومعه فيزا للإقامة الدائمة مع الرب وكرتاً أخضراً للمواطنة السماوية الدائمة:**

— «إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم... إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم... لكنهم إنما يفعلون بكم هذا كله من أجل اسمي...» (يو١٥: ١٨و٢٠و٢١)
— «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني **يكونون معي حيث أكون أنا.**» (يو١٧: ٢٤)

الفصل السادس

المحبة والإتحاد بالآب والإبن

أ ــ المحبة في إنجيل يوحنا

المحبة ἡ ἀγάπη

فعل المحبة ἀγαπῶ, τὸ ἀγαπᾶν

فعل المحبة أو الصداقة φιλῶ, τὸ φιλεῖν

المحبة، المحبوب، الحبيب:

هناك فرق بين «الأغابي» ἡ ἀγάπη و«الفيلين» τὸ φιλεῖν في اليونانية. فالمحبة «أغابي» هي محبة قوية، وفيها إحساس بالوقار والتعقل. و«الفيلين» هي محبة أقوى وأكثر تقرُّباً.

وقد وردت هاتان اللفظتان للمحبة في نهاية إنجيل يوحنا (٢١: ١٥و١٧) حينما بادر المسيح بسؤال بطرس مرتين: «يا سمعان بن يونا أتحبني ἀγαπᾶν أكثر من هؤلاء؟»، ولكن بطرس يصمم في ردّه أنه يحبه حبًّا أقوى وأكثر (من هؤلاء) (φιλεῖν).

وعاد المسيح لثالث مرة يسأله، ولكن باستخدام فعل المحبة الذي استخدمه بطرس نفسه φιλεῖν وكأنه يراجعه على التمادي في التعبير عن حبه! وحينئذ حزن بطرس لأنه سأله ثلاث مرات وكأنه يُذكّره بالإنكار ثلاث مرات يوم المحاكمة!

ولكن يقول بعض الشرّاح أن العكس هو الصحيح حيث «الأغابي» أعلى قدراً في التعبير عن الفيلين. وأن ردَّ القديس بطرس كان في اتضاع إذ احتشم أن يستخدم الأغابي لعلوِّها عن قدره بالنسبة للمسيح. وهذا هو الأصح في نظر معظم علماء اللغة خصوصاً وأن إنجيل يوحنا قد أعلن أن «الله محبة» ἀγάπη (١يو٤: ٨)؛ وأن الله أحب ἠγάπησεν (من فعل: ἀγαπᾶν) العالم هكذا

(يو٣: ١٦) أي بهذا المقدار العالي جداً؛ وأن يوحنا نفسه هو التلميذ الذي كان يحبه (ἀγάπα) يسوع (يو١٣: ٢٣).

والمحبة (الأغابي) في لاهوت إنجيل يوحنا هي محبة تلقائية غير واجبة أو ملزمة، أي موهوبة دائماً؛ وهي فريدة وهي خالقة أو خلاَّقة، بمعنى أنها تخلق محبة أيضاً. وهي أصلاً تفيض من الله لأنها من طبيعته ثم لا تعود إليه فارغة، بل تعبِّد طريقاً لحاملها للوصول إلى الله للإلتصاق به ونوال المزيد منه لمحبة الآخرين بسخاء يفوق طبيعة البشر، والتي بدورها تؤثر في أقسى القلوب. وهي إذا سكنت القلب أنشأت فيه الحيرة والقلق إلى أن تنجح في التعبير عن نفسها بالعمل. وهذه الطبيعة للمحبة مأخوذة عن الله نفسه، فمحبة الله لم تستطع أن تنغلق على نفسها فيه فانطلقت في ميعادها المحتم لتعبِّر عن ذاتها في الله «هكذا أحب الله العالم حتى بذل...» (يو٣: ١٦)

كذلك هي التي في المسيح قد ساقته بقوتها التي لا تهدأ ولا تكفّ حتى أوصلته إلى الصليب لتكميل الفِدية؛ بل هي التي أقامته من الموت إلى الحياة لأنها لا تعيش في الموت؛ بل هي ذاتها الحياة وجوهرها، والتي انطلقت من قيامته لتفيض قوة قيامة لكل مَنْ احتواها وملكها: «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة» (١يو٣: ١٤). وهكذا فهي التي توصِّل إلى الموت: «ليس لأحد حبٌّ أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه» (يو١٥: ١٣)، وهي نفسها التي تقيم من الموت إلى الحياة!!

ولكن ينبغي أن نحترس أثناء التفريق بين «الأغابي» و«الفيلين» لأن كلاً منهما يتبادل المواقع محل الآخر في إنجيل يوحنا: فالآب يحب الإبن (ἀγαπᾶν) (يو٣: ٣٥)؛ وأيضاً الآب يحب الإبن (φιλεῖν) (يو٥: ٢٠)، مع الملاحظة أن الأغابي والفيلين هما الإثنان من أصل واحد عبري «أحب» «*'āhabh*»، وكلاهما يُستخدم في الحالات الصالحة وفي الحالات الرديئة المنحطة ولا حكم لأدب اللغة فيها. فإنسان يحب الله (ἀγαπᾶν) (١يو٤: ٢١)، وإنسان آخر يحب الظلمة (ἀγαπᾶν) (يو٣: ١٩).

وإنجيل يوحنا بجملته يُطلَق عليه إنجيل المحبة، وكاتبه هو التلميذ الذي يحبه يسوع أو يوحنا الحبيب حسب التقليد الكنسي الموروث، وآخر وصية قدمها القديس يوحنا لشعبه في كنيسة أفسس: «أيها الأولاد أحبوا بعضكم بعضاً»، وأعمق آية كتبها القديس يوحنا في حياته هي «الله محبة».

القديس بولس الرسول يقدم المحبة على الإيمان في الوزن الروحي، ويقول إنه لو كان له إيمان

ينقل الجبال وليس له محبة فهو عديم النفع؛ وأنه لو كانت له **معرفة** كل الأسرار وكل علم ولكن بدون محبة فهو كلا شيء، ثم يعود القديس بولس الرسول ويصالح الإيمان بالمحبة ليجعل منها ناموس المسيح الجديد ليحل محل ناموس العمل بحسب ناموس موسى. «لأنه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئاً ولا الغرلة بل **الإيمان العامل بالمحبة**» (غل٥: ٦). وهكذا يؤمِّن القديس بولس الرسول إنجيل المسيح من الإنحراف، فلا العمل وحده ولا الإيمان وحده ولا المحبة وحدها بل: «**الإيمان العامل بالمحبة**» !!! كثالوث متحد يجمع كل وصايا الإنجيل.

أما القديس يوحنا فعنده أن غياب المحبة يعني غياب الله لأن الله محبة. وأخطر ما يهدد المعرفة أو العلم هو فقدان عنصر **المحبة الباذلة**: «كل مَنْ يحب فقد وُلد من الله ويعرف الله. ومَنْ لا يحب لم يعرف الله لأن الله محبة» (١يو٤: ٧و٨). فأساس معرفة الله عند القديس يوحنا هو انفتاح القلب بوعي روحي لتقبُّل محبة الله والرد عليها، على شكل تكليف بأعمال وإنجازات: «يا سمعان بن يونا أتحبني... ارْعَ غنمي.» (يو٢١: ١٦)

فالمحبة في الفكر الإلهي هي «**فعل بذل**». «**هكذا أحب الله العالم حتى بذل** ابنه الوحيد...» (يو٣: ١٦)، «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه.» (يو١٥: ١٣)

وهذا ترجمه القديس بولس الرسول لنفسه بشعور صادق مؤثر للغاية: «أحبني وأسلم نفسه لأجلي.» (غل٢: ٢٠)

ويصيغها المسيح في سر الألوهة هكذا: «لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي...» (يو١٠: ١٧)

والله سبَّاق محبة، صاحب مبادرة في الحب منذ الدهر وليس أحد في الوجود إلاَّ ومَدِينٌ لله بالمحبة: «نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً.» (١يو٤: ١٩)

وأكثر ما يأسر قلب الإنسان حينما يتوب ويعي حقيقة عمل الله معه هو إحساسه بالمحبة الإلهية التي اشتراه بها المسيح على الصليب. هذا السر يدركه الخطاة الذين غالوا جداً في خطاياهم وفاجأهم المسيح وهم في الوحل، حينئذ لا يهنأ قلبهم المشتعل والمثقَّل بدين الحب إلا أن يقدِّم المثيل: «بهذا قد عرفنا المحبة، أن ذاك وضع نفسه لأجلنا فنحن ينبغي لنا أن نضع نفوسنا لأجل الإخوة.» (١يو٣: ١٦)

والقديس يوحنا، كخبير في الحب الإلهي، يعرف أن الحب هو «الحق» = **أليثيا** ἡ ἀλήθεια

في التعامل مع الله. فحب الله ينبغي أن يؤمّن عليه ضد كل غش أو خداع أو كذب: «يا أولادي لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل و**الحق**،... ونسكّن قلوبنا قدامه» (١يو٣: ١٨و١٩). وكأن القديس يوحنا يريدنا أن نعتبر الله واقفاً أمامنا يفحص محبتنا على قياس الحق ويُلْزِمَنا أن نقيس محبتنا على محبته!

والمسيح في إنجيل يوحنا يقرر أن دخولنا في **محبة الآب يلغي عبوديتنا**، باعتبار أن المقابل **للعبد** في إنجيل يوحنا ليس **الإبن فقط بل والمحبوب!** «لا أعود أسميكم عبيداً... لكني قد سميتكم أحباءَ لأني أعلمتكم بكل (الحب) ما سمعته من أبي.» (يو١٥: ١٥)

ب — الإتحاد بالله

أو وحدة الشركة مع الآب والإبن في إنجيل القديس يوحنا

حينما قال المسيح: «**أنا والآب واحد**» (يو١٠: ٣٠)، كان هذا تعبيراً ضمنياً عن قوة الوحدة الإلهية القائمة في الطبيعة الإلهية والفعَّالة في الكون كله، حتى أصبح الكون قائماً على تآلف العناصر وشدة اتحادها، خاصة في مكوّنات ذراتها. هذه الوحدة أو هذا الإتحاد البالغ منتهى القوة والإرتباط هي التي تعطي للعناصر أشكالها وألوانها وللطبيعة صفاتها ومظاهرها — ويكفي أن نعلم أنه حينما نجح الإنسان في فك وتحطيم هذا التآلف وهذه الوحدة الجبارة في «**الذرة**»، أنتج القنبلة الذرية، فإن كانت قوة الفك بهذا المقدار فماذا تكون قوة التجمع؟؟

ثم إن قوة هذه الوحدة القائمة في الذرّة يرتقي مفعولها في الإنسان الطبيعي لتؤآلف بين الإنسان والإنسان، ثم ترتقي لتؤآلف بين الإنسان والله! فإن كان العالم الطبيعي قائماً ومتأسساً على قوة الوحدة أو الإتحاد أو التآلف، فالعالم الإنساني الأكثر ارتقاءً لا يزال أيضاً يقوم ويتأسس على قوة هذه الوحدة التي تؤآلف بين الأفكار والعواطف والعادات والقلوب. كذلك فالعالم الروحي الأكثر ارتقاءً هو يقوم أيضاً ويتأسس على قوة هذه **الوحدة المنبعثة من الله**، وهي لا تزال تعمل في الإنسان حتى يبلغ الإنسان منتهى قصد الله من نحوه أي حينما يدخل الإنسان في شركة الحياة مع الله، حيث يكون الله صاحب المبادرة في هذا الجذب والتهذيب والتقديس لبلوغ هذه الوحدة فيه أو معه، هذه الوحدة التي كانت عند المسيح محور عمله، وأساس إرساليته، ومنتهى رجائه، وصلواته! «ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا ليؤمن العالم أنك أرسلتني.» (يو١٧: ٢١)

لينتبه القارىء! فليس من فراغ نحن نطلب الإتحاد مع الله أو هو تعالٍ أو طلبٌ ليس من حقنا بل هذا هو عمل الله بالأساس، وهو قد صار من صميم حق الإنسان حينما فداه المسيح وقدّسه وأهّله للإتحاد به. فالوحدة، أو الإتحاد مع الله، هي جوهر رسالة المسيح ومحور تعليمه وعلّة موته ورجاء قيامته ومشغولية شفاعته الآن لدى الآب عن ضعفنا.

اسمع القديس يوحنا كيف يبدأ رسائله بهذا الهدف الواحد والقصد الأساسي وعلّة شهادته وغاية كرازته: «الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به **لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا** (مع الرسل)، **وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح**. ونكتب إليكم هذا (الخبر السار) لكي يكون فرحكم كاملاً» (١يو١: ٣و٤). وهكذا لن يكمل فرح الإنسان و يدوم له إلاّ إذا بلغ هذه الشركة التي بلغها الرسل وعاشوها وكرزوا بها! بل هي أيضاً تأمين حفظ الإنسان من جذب العالم الشديد وإغراء الشيطان المحتال. لأن بها يمسك الإنسان بالله، بل ويمسك الله بالإنسان فلا يستطيع أن يخطفه أحد: «خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني، وأنا أعطيها حياة أبدية (من حياتي) ولن تهلك إلى الأبد **ولا يخطفها أحد من يدي. أبي الذي أعطاني إياها** هو أعظم من الكل (كل قوة شريرة) **ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي**. أنا والآب واحد.» (يو١٠: ٢٧—٣٠)

القديس بولس الرسول يرى أن سِرَّ الإتحاد بينه و بين الآب والإبن هو المستعلن بالحب — حب الله الجاذب — الذي لا تقوى على حلّ رباطه أية قوة مهما بلغ عتوُّها في السماء والأرض: «مَنْ سيفصلنا عن محبة المسيح؟ أشدَّةٌ أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عُرْيٌ أم خطر أم سيف؟... في هذه جميعها **يعظم انتصارنا بالذي أحبنا!** فإني **متيقن** أنه لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا رؤساء ولا قوات ولا أمور حاضرة ولا مستقبلة ولا علو ولا عمق ولا خليقة أخرى **تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا.**» (رو٨: ٣٥—٣٩)

هكذا يوضح القديس بولس الرسول، كما القديس يوحنا الرسول أيضاً، أن سر قوة الإتحاد أو الوحدة مع الله قادم إلينا ومنسكب علينا وفعّال فينا من قِبَلِ الله نفسه. فالحب هو حب الآب في المسيح نحونا: «ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به» (يو١٧: ٢٦)، فهو حب غالب وقهّار.

ثم لكي نثبت للقارىء أن هذه الوحدة التي نبتغيها أي الإتحاد مع الآب والإبن هي عمل المسيح وشغله الشاغل نقدم هذه الآيات المختارة:

— «**كما أحبني الآب كذلك أحببتكم** أنا اثبتوا في محبتي.» (يو١٥: ٩)
— «إن حفظتم وصاياي **تثبتون في محبتي** كما أني أنا حفظت وصايا أبي **وأثبت في محبته.**»

(يو١٥: ١٠)

— «**كل ما للآب هو لي لهذا قلت إنه** (أي إن الروح القدس) **يأخذ مما لي ويخبركم.**» (يو١٦: ١٥)

— «**الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني** وآمنتم أني من عند الله خرجت.» (يو١٦: ٢٧)

— «**الكلام الذي أعطيتني، قد أعطيتهم.**» (يو١٧: ٨)

— «**كل ما هو لي فهو لك. وما هو لك فهو لي وأنا ممجد فيهم.**» (يو١٧: ١٠)

— «أيها الآب القدوس احفظهم في اسمك الذين أعطيتني **ليكونوا واحداً كما نحن.**» (يو١٧: ١١)

— «لست أسأل من أجل هؤلاء (التلاميذ) فقط بل من أجل كل الذين يؤمنون بي بكلامهم، **ليكون الجميع واحداً، كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا.**» (يو١٧: ٢٠و٢١)

— «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني **ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد.**» (يو١٧: ٢٢)

— «أنا فيهم وأنت فيَّ **ليكونوا مكمَّلين إلى واحد.**» (يو١٧: ٢٣)

ربما يقتنع القارىء الآن أن الإتحاد بالله أو شركة الوحدة مع الآب والإبن هي محور إنجيل يوحنا وقضية الخلاص والحياة الأبدية التي جاء المسيح ليعلنها باسم الآب. وآخر آية استشهدنا بها «**أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد**» هي خلاصة هذا السر الخطير الذي استعلنه إنجيل يوحنا للعالم، أي أن الجوهر الإلهي الذي يجمع الآب بالإبن في ذات واحدة هو هو القوة التي تجمعنا فيها بالنعمة. وهو نفسه السر المكتوم منذ الدهور الذي أُعلِنَ لرسله القديسين بالروح حسب قول القديس بولس الرسول: «إنه بإعلان عرَّفني بالسرَّ... الذي بحسبه حينما تقرأونه تقدرون أن تفهموا درايتي بسر المسيح، الذي في أجيال أُخَر لم يُعرَّف به بنو البشر كما أعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح أن الأمم شركاءَ في الميراث (ميراث المسيح الإبن في الآب) والجسد (جسد المسيح الواحد ونحن أعضاء فيه) ونوال موعده (الحياة الأبدية مع الله) في المسيح بالإنجيل.» (أف٣: ٣—٦)

والإنسان — أنا وأنت وكلُّ مَنْ يؤمن ويحب الرب يسوع المسيح — مدعو في هذا السر المعلَن بالمسيح والقائم في المسيح لحسابنا، لكي يكون شريكاً في مجد المسيح وفي المحبة الإلهية التي هي صفة الوحدة ومجالها الفعال في الآب بالإبن. فجوهر الوحدة الإلهية وقوة الحب الإلهي المذخر في الآب والإبن أصبحت فعَّالة فينا بالمسيح.

اما مجمل صلاة المسيح للآب فيا يختص بهذه الوحدة التي تجمعنا في المسيح والآب فهي كالآتي :

أ ــ أن تنفتح بصيرة الإنسان ليعرف هذا السر القائم بين الآب والإبن ، لأنه بهذه المعرفة الإلهية تورّث الحياة الأبدية التي هي في حقيقتها شركة حياة مع الله .

ب ــ أن تنسكب قوة المحبة التي بين الآب والإبن في قلوب الذين أحبوا المسيح والآب لتستعلن بها أسس الوحدة أو الشركة مع الله .

ج ــ أن يحفظ الآب في اسمه كل الذين يؤمنون بالمسيح . أي يحفظهم من العالم ومن الشرير ويقدسهم في الحق بكلمته ليصيروا من خاصته ويؤهّلوا للإتحاد به .

د ــ أن تشمل المؤمنين باسم الآب والمسيح وحدة داخلية تربطهم بالآب والإبن ، على أساس أن حلول المسيح فيهم يؤهّلهم للإتحاد بالآب كما أن الآب حالٌ في المسيح . وبهذا ينتقل الإنسان نقلته العظمى ليعيش مع الله في وحدة غير منفصمة بعد .

على أن لا ننسى أن سر إتحاد الإنسان بالله قائم أساساً على القوة الإلهية التي جعلت «الكلمة صار جسداً» . فإتحاد اللاهوت بالناسوت في وحدة غير منفصمة هو هو الذي صار أساس الإتحاد في الإتجاه العكسي ، أي إتحاد الإنسان بالله . غير أن الأول إن كان تنازلاً إلهياً لم يفقد فيه الإبن شيئاً من لاهوته ، فالثاني إرتقاءٌ بشري يتحتم أن يفقد فيه الإنسان العبد إنسانه العتيق لينال امتياز التبني لله !

الباب الرابع

المفاهيم اللاهوتية الأساسية

في إنجيل القديس يوحنا

الفصل الأول

النظرة اللاهوتية إلى المسيح وعلاقته بالله الآب

ألقاب المسيح كما جاءت في الأصحاح الأول وما بعد ذلك:

إذا تمعنَّا في الأصحاح الأول من إنجيل يوحنا فإننا نندهش من عدد الألقاب التي وضعها القديس يوحنا في هذا الحيِّز الصغير من الإنجيل. ولكن إذا أدخلنا في الإعتبار الإتجاه المسيحي واللاهوتي الذي هو مقصد الإنجيل الأساسي، وفحصناها من جهة ترتيبها وصلتها ببعض وخلفيتها، حينئذ نزداد عجباً من عمق هذا الإنجيل.

وهي كما جاءت وبحسب ترتيبها كالآتي مرقَّمة بالأعداد في الأصحاح الأول:

«الكلمة»	في الأعداد ١و١٤.
«إله»	في العدد ١.
«الحياة والنور»	في الأعداد ٤و٥و٩.
«الوحيد» ὁ μονογενής	في الأعداد ١٤و١٨.
«الإبن الوحيد»	في العدد ١٨.
«حَمَل الله»	في الأعداد ٢٩و٣٦.
«ابن الله»	في الأعداد ٣٤و٤٩.
«المسيَّا»	في العدد ٤١.
«ملك إسرائيل»	في العدد ٤٩.
«ابن الإنسان»	في العدد ٥١.

وبالإضافة إلى هذه الألقاب يوجد أوصاف أخرى يمكن إلى حدٍّ ما اعتبارها ألقاباً، وفي نفس

الوقت هي تشير إلى وظيفة من وظائف المسيا الهامة، مثل:

«الذي يأتي بعدي»	في الأعداد ١٥و٢٧و٣٠.
«الذي هو قبل المعمدان»	في الأعداد ١٥و٣٠.
«الذي هو في حضن الآب»	في العدد ١٨.
«الذي يعمّد بالروح القدس»	في العدد ٣٣.

أما بقية الألقاب والصفات التي تقوم بوظيفة لاهوتية أو ليتورچية والتي تُحسب أيضاً كلقب في باقي الإنجيل وقد وردت معانيها في مواضعها في الشرح، فيمكن تلخيصها كالآتي:

«المعلم والسيد»	في يو ١٣: ١٣	لقب تأكيدي من فم المسيح نفسه.
«ربي وإلهي»	في يو ٢٠: ٢٨	اعتراف استعلاني بالروح من توما.
«مخلص العالم»	في يو ٤: ٤٢	اعتراف أهل السامرة وهو اعتراف عام هام.
«المسيح ابن الله الحي»	في يو ٦: ٦٩	لقب مسيّاني خالٍ من المعنى السياسي أو المادي.
«إني أنا هو ἐγώ εἰμι »	في يو ٨: ٢٤	ومواضع أخرى كثيرة إشارة إلى لاهوته وبنوته لله.
«الإبن»	في يو ٥: ١٩	أي أنه الإبن، وأن الله أبوه، وأنه كائن قبل إبراهيم.
«خبز الحياة»	في يو ٦: ٣٤و٤٨	لقب ليتورچي وروحي.
«الخبز النازل من السماء»	في يو ٦: ٥١	لقب ليتورچي استعلاني للمنّ في العهد القديم.
«نور العالم»	في يو ٨: ١٢	لقب استعلاني.
«الراعي الصالح»	في يو ١٠: ١١و١٤	لقب كنسي.
«الباب»	في يو ١٠: ٧	لقب لاهوتي خلاصي.
«الطريق»	في يو ١٤: ٦	لقب لاهوتي خلاصي.
«القيامة والحياة»	في يو ١١: ٢٥	لقب أخروي «إسكاتولوچي».
«الكرمة الحقيقية»	في يو ١٥: ١	لقب سرائري يحمل شكل الكنيسة، وواقعها وشعب الله والمسيح.

ولكن بالعودة إلى ألقاب الأصحاح الأول نجد أنه ليس جزافاً اهتم القديس يوحنا أن يكدّس هذه الألقاب في هذه المقدمة لإنجيله، فهي تكشف عن غرض ذي أهمية، ويكاد أن يكون لكل لقب سببٌ في موضعه. ففي آية: «في البدء كان ,, **الكلمة** ،،» يفيد موضع لقب «الكلمة» سبق

الوجود والكيان للترفّع بالمسيح عن مستوى المخلوقات؛ «**والكلمة** كان عند الله» يفيد **موضعها** نسبة المسيح لله، لأنه إذا لم يكن ينتسب إلى المخلوقات فلمَنْ ينتسب؟ — ثم «وكان **الكلمة الله**» يفيد موضعها طبيعته. فإذا كان الكلمة ينتسب إلى الله فما هي طبيعته؟ لذلك فإن ورود «الكلمة»، كلقب للمسيح في الثلاثة المواضع يفيد التعريف بالمسيح قبل التجسد. ولكن ماذا كان عمله؟ هنا يستعلن الإنجيل علاقة «**الكلمة**» بالخَلْق، حيث يكشف عن جوهر الكلمة الفعّال في الخليقة «حياة ونور». ثم ينتقل من سبق الوجود إلى الوجود الظاهري: «والكلمة صار جسداً»، فهنا يكتمل استعلان «الكلمة» بالنسبة للإنسان «حَلَّ بيننا».

+ **الوحيد** ὁ μονογενής (١:١٤):

جاءت هنا للتوضيح بسبب ذكر «**المجد**» الخاص بالمسيح «**الكلمة المتجسد**»، فلأن كل الخلائق السمائية ذات مجد هنا أراد القديس يوحنا أن يخص «**الكلمة المتجسد**» بمجد خاص جداً ومرتفع للغاية فهو مجد «**وحيد من الآب**» حيث تترجم صفة «**وحيد**» في التراث العبري بالإبن أو بالمحبوب ἀγαπητός سواءً بسواء، أو حتى تفيد **الإبن المحبوب**. هكذا وردت في الترجمة السبعينية: «خُذ ابنك **حبيبك** τὸν ἀγαπητόν (مقابل «وحيدك» في الأصل العبري) الذي تحبه» (تك٢٢: ٢). فلقب «الوحيد» جاء هنا في هذا الموضع للتفريق والتمييز بينه وبين كافة الممجدات السماوية: «ورأينا **مجده** مجد ,, **وحيد**،، من الآب»، **فهو مجد** خاص بالله استُعلن في الكلمة لما تجسد!! حيث حرف «**من**» παρά في «من الآب» يُفضَّل أن يضاف إلى «**المجد**» وليس إلى «الوحيد». أي «وحيد بمجد الآب» أو «وحيد بمجد من الآب»، لأن في هذا الموضع لم يتعرض الإنجيل بعد للعلاقة اللاهوتية بين الآب والإبن. وتؤكّد ذلك هذه الآية: «أيها الآب أريد أنَّ هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا **لينظروا مجدي، الذي أعطيتني، لأنك أحببتني، قبل إنشاء العالم**» (يو١٧: ٢٤). ويتفق في هذا الشرح القديس كيرلس الكبير وكثير من العلماء المحدثين.

الإبن الوحيد ὁ μονογενὴς υἱός (١:١٨):

هنا يدخل القديس يوحنا في صميم العلاقة الداخلية في الله، حيث أن الله لم يَرَهُ أحد قط، ولكن هنا يظهر «الكلمة المتجسد» أنه لا يزال يحتفظ بكل مخصصاته في الله قبل التجسد ككلمة الله **فهو الوحيد الذي رأى وخبَّر عن الله في ذاته** «**وما رآه وسمعه، به يشهد**... ومَنْ قبل شهادته فقد ختم أن الله صادق» (يو٣: ٣٢و٣٣)، حيث هنا في هذا الموضع يكون لقب «الإبن الوحيد» هو بقصد الإعلان عن ملء لاهوت الكلمة المتجسد على الأرض ليبدأ شهادته عن الله وقدرته الفريدة على استعلان حقائق الله. لذلك يُعتبر هذا اللقب بمثابة مِفصَلٍ يربط المقدمة بجسم الإنجيل

أو يربط الكلمة قبل التجسد بالكلمة بعد التجسد. أما هذا اللقب بصفته العمومية على مستوى الإنجيل كله فهو، بحسب وظيفة إنجيل يوحنا اللاهوتية في تخصصه في استعلان طبيعة الآب السماوي، يركّز في توضيح طبيعة الإبن فيذكره بصفة «الوحيد» «المونوجانيس»، ويخصص لها في الإنجيل أربعة مواضع ومرة أخرى في رسالته (يو١: ١٤و١٨، ٣: ١٦و١٨؛ ١يو٤: ٩).

وهو إن كان قد ذكرها في الأصحاح الأول مرتين، فهذا لكي يوضح مدى الأهمية والتأكيد المزمع به أن يلقي عليه الضوء في الإنجيل.

وتأكيده على صفة «الوحيد» هو لكي يؤمّن مفهومها ضد ما يمكن أن يتطرق إلى لقب الإبن من مفهومات تأملية هللينية أو مجازية فلسفية، فهو يقصد أنه ابن فريد من نوعه أو كما يُترجم «**وحيد الجنس**». فهي بُنُوّة فريدة من نوعها لا تُقارَن قط بأي مفهوم آخر للبنُوّة، وهي صفة جاءت بالدرجة الأولى لتخدم استعلان «**الآب**» باحتياط بالغ الحساسية لأنها تخص نفس القضية اللاهوتية التي انشغل بها المسيح جداً لترسيخ مفهوم «**الوحدة مع الآب**» القائمة على جوهر الحب «**الذاتي**» في طبيعة الله: «الآب يحب الإبن وقد دفع كل شيء في يده.» (يو٣: ٣٥)

وقد بلغ التأكيد في وحدة الإبن مع الآب أن قال المسيح لليهود: «**أنا والآب واحد**» (يو١٠: ٣٠)، وهذا أمر مريع ومرعب بالنسبة لليهود إذ يعبّر من وجهة نظرهم عن تجديف وتحرُّر من سلطان الله المطلق. وهذا قاله الرب في أمر شفاء المقعد مريض بيت حسدا يوم السبت، إذ كيف يُشفي يوم السبت؟ فلما أرادوا أن يقتلوه لأنه عمل هذا في سبت أجابهم يسوع: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو٥: ١٧)، «معادلاً نفسه بالله» (يو٥: ١٨) حسب قول اليهود: «فأجاب يسوع وقال لهم: الحق الحق أقول لكم لا يقدر الإبن أن يعمل من نفسه شيئاً إلاَّ ما ينظر الآب يعمل. لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الإبن كذلك.» (يو٥: ١٩)

ويعلّق على هذا الحوار أحد مشاهير علماء التلمود وهو الدكتور إزرائيل إبراهامز أن هذا الإنجيل (إنجيل يوحنا) يحتفظ لنا بحوار أصيل (حسب الأصول التلمودية للربيين) نابع من تقليد أصيل لم يَرِدْ قط في الأناجيل الأخرى في ناحية من تعاليم يسوع([1]).

وهكذا يؤكّد المسيح أنه لم يعادل نفسه بالله بمعنى التحرر من سلطان الله، وهو لا يدّعي لنفسه سلطاناً منفصلاً عن الله أبيه، بل يؤكّد أنه يستمد سلطانه من سلطان الله معلناً أنه ليس ثائراً على

[1] Cambridge Bib. Essays p. 181; In Studies in Pharisaism.

سلطان الله ولا مجدفاً، بل هو ابن طائع للآب عن وحدة مشيئة وإرادة وحبٍّ وعمل، وكلُّ ما يعمله فهو باتحاد مطلق مع الآب. فالآب والإبن لا يمثلان وجودين إلهيين منفصلين، بل: «أنا والآب واحد». هذا كله ينطوي تحت اللقب «الوحيد»، فهو ابن وحيد الجنس مع الآب: فكلمة «مونوجانيس» تخص الآب كما تخص الإبن. فقول القديس يوحنا أن «الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر» (يو١: ١٨)، يقصد بها أن هذا المؤهل الفريد والصلة الفريدة التي تربطه بالآب هي التي أعطته الحق، كل الحق، أن يخبِّر عن الله بما رآه وسمعه!!

«حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (١: ٢٩و٣٦):

لقب أضفاه يوحنا المعمدان على المسيح، وهو لقب فِصْحي بالدرجة الأولى، ذبائحي وليتورجي. ولكن المشكلة التي واجهت العلماء: كيف بلغ المعمدان إلى هذا التقرير، وما هو تفسيره؟ فنعتقد أنه واضح غاية الوضوح، فالمعمدان وهو يعلِّم أنه يفتتح العهد الجديد وأنه يمثل آخر أنبياء العهد القديم: «ينبغي أن ذلك يزيد (يصير الكل) وأني أنا أنقص» (يو٣: ٣٠)، فهو يقدم المسيح كفصح العهد الجديد لا كحمل يُذبح كل سنة أو كل صباح، ولكنه «حَمَل الله» الذي يرفع «الخطية» جملة وتفصيلاً. فالمعمدان بقوله هذا يسدل الستار على عهد الذبائح، ويختم على زمان النبوة والأنبياء ويسلِّم الشهادة لصاحبها، ولأن الشمس أشرقت فينبغي أن يُطفأ المصباح.

ويلاحظ أن المعمدان لا يقول «الحمل» فقط، بل «حمل الله»، فالله وجد في المسيح خروفه: «وكلم إسحق إبراهيم أباه وقال يا أبي. فقال هأنذا يا ابني. فقال هوذا النار والحطب، ولكن أين الخروف للمحرقة. فقال إبراهيم **الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابني.**» (تك٢٢: ٧و٨)

فقول المعمدان «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» صار هو اللقب الذي افتتح به إنجيل يوحنا رسالة المسيح الخلاصية أو بالحري درب الصليب! والمسيح هنا يظهر بمظهر العبد المتألم الطائع، والخروف المعدُّ للذبيحة من قبل إنشاء العالم معاً!

+ «ابن الله» كما جاء في الأصحاح الأول (١: ٣٤و٤٩):

وهو اللقب الثاني الذي أضفاه المعمدان على المسيح (يو١: ٣٤). والعجيب أن تأتي بعض المخطوطات (قراءة القديس أمبروسيوس) بهذا اللقب كالآتي: «الإبن المختار» أو «مختار الله»[2]. وهو نص اللقب الوارد عن المسيح بوضوح شديد في المزمور ٨٠: «يا إله الجنود ارجعن اطَّلع من السماء، وانظر وتعهد هذه الكرمة والغرس الذي غَرَسَتْهُ يمينك **والإبن الذي اخترته لنفسك.**» (مز٨٠: ١٤و١٥)

---

[2] Schnackenburg, According to St. John, p. 305.

ونفس اللقب «الإبن المختار» هو الذي ورد أيضاً في نبوة إشعياء النبي (إش٤٢: ١-٤)، كما استشهد بها القديس متى الرسول في إنجيله: «**هوذا فتاي الذي اخترتُه** حبيبي الذي سُرَّت به نفسي، أضع روحي عليه فيخبر الأمم بالحق.» (مت١٢: ١٨)

ويلاحظ أن هذا اللقب الذي أعطاه المعمدان للمسيح كما أعطاه أيضاً نثنائيل له، هو إعلان له رتّة مسيَّانية. فمعروف أن المسيَّا سيأتي كواحد مثل موسى، أي **كإبن من أبناء إسرائيل**، ولكن أمام الواقع الإستعلاني والعين والبصيرة المفتوحتين، رأى المعمدان بالرؤية كما رأى نثنائيل بالإيمان، أن هذا هو المسيا ولكن ليس كإبن إسرائيل بل «**ابن الله**». فاللقب مُتسحَّب من الفكر المسياني. فهو في فم المعمدان إعلان عن المسيَّا الحقيقي، وفي فم نثنائيل إيمان بالمسيا وشهادة.

+ «**المسيَّا**» كما جاء في الأصحاح الأول (١: ٤١):

اللقب الذي أعطاه أندراوس للمسيح «وجدنا مسيا الذي تفسيره المسيح» (يو١: ٤١)، وهو لقب تحت البحث والفحص والدراسة:

«وجدنا الذي **كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء** يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة» (يو١: ٤٥). وطالما بقي هو «**يسوع بن يوسف**» فهو لا يزال «**مسيا**» اليهود الذي يطلبه اليهود ليخلّصهم من الرومان. وهو لا يزال يحتاج أن يرتفع إلى «**يسوع ابن الله**».

+ «**ملك إسرائيل**» (١: ٤٩):

هذا اللقب جاء على شفتي نثنائيل كرد حاسم وسريع للقب الذي منحه المسيح لنثنائيل «هذا **إسرائيلي حقاً** لا غش فيه.» (يو١: ٤٧)

وهنا تحط مجموعة الألقاب السالفة في الأصحاح الأول عند مرحلتها الختامية، حيث اللقب المشتهى في نبوة إشعياء: «هكذا يقول الرب **ملك إسرائيل** وفاديه رب الجنود. أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيري» (إش٤٤: ٦). الذي يعود نثنائيل ويستعلن اللقب على مستوى المسيح الواقف أمامه: «أنت ابن الله».

+ «**ابن الإنسان**» كما جاء في الأصحاح الأول (١: ٥١):

أول لقب يعطيه المسيح لنفسه (يو١: ٥١) في إنجيل يوحنا، وفي الأصحاح الأول! ليرفع به الغطاء عن إرساليته ويفتتح به إنجيل أعماله، باعتباره السلم المنصوب بين الأرض والسماء. فإبن الإنسان جاء ليجعل الأرض تتصل بالسماء، ويجعل الإنسان يرى السماء مفتوحة، والملائكة تنزل أولاً حاملة رسالة وبشرى وخدمة العتيدين أن يرثوا الخلاص، بعد أن كانت تطلع أولا في حلم

يعقوب تحمل أخبار أحزان الإنسان (تك٢٨: ١٢).

واللقب «ابن الإنسان»، بالنسبة لسلم السماء وحلم يعقوب إسرائيل، يحمل إشارة صريحة أن المسيح هو «إسرائيل الجديد»، أي أن لقب ابن الإنسان يحمل في طياته معنى ناس أو شعب الله المفديّ في العهد الجديد. وقد اختاره المسيح بصفة ممتازة لأنه يخلو من الإحساس بالإنتماء إلى أي أمة أو شعب، كما يتناسب مع رسالة حمل «ضَعْفِ» الإنسان وأحزانه، فحينما يسمع أيُّ إنسان هذا اللقب يشعر بانتماء المسيح إليه، كما يسمعه المحزون والضعيف الرازح تحت ثقل الضعف البشري فيشعر بانتمائه إلى المسيح؛ أليس هو ابن الإنسان؟!!

وهذا اللقب جعله إنجيل القديس يوحنا ختام الأصحاح الأول، وهو أصحاح التعريف بالمسيح على مستوى العالم كله وعلى مستوى الأنشودة!!

المعنى اللاهوتي لألقاب المسيح في إنجيل يوحنا

١ — الكلمة . اللوغُس λόγος
في إنجيل يوحنا

لماذا اللوغُس في إنجيل يوحنا:

لقد اهتم القديس يوحنا أن يذكر علاقة اللوغُس الكلمة بالله في الأزل لندرك أزلية علاقة المسيح بالله.

واعتنى أن يذكر عمل الكلمة في الخلق المادي لكي ندرك أن الخليقة الجديدة الروحية التي أكملها المسيح هي تكميل متناسق مع عمله الأول.

كذلك أيضاً فالقديس يوحنا بدأ إنجيله بتوضيح اللوغُس وعلاقته بالله وصفاته الإلهية قبل التجسد ليكون هو أساس معرفتنا له بعد التجسد بعد أن صار هو يسوع المسيح. فالذي عمله القديس يوحنا هو أنه استعلن سيرة الرب يسوع في السموات عند الله في الأزل حتى لا نتوه في سيرته المتواضعة على الأرض وحتى لا تصبح بشريته المهانة عثرة لإيماننا كما أنذر هو بنفسه: «وطوبى لمَن لا يعثر فيّ» (مت ١١: ٦). لذلك، فنحن حينما نؤمن باللوغُس في وضعه قبل التجسد يكون ذلك في الواقع هو كمال إيماننا الصحيح بالمسيح، لذلك كان اعتناء القديس يوحنا أن يستهل إنجيله بهذه السيرة الإلهية للمسيح قبل التجسد.

اكتشاف اللوغُس في داخل إنجيل يوحنا:

ولكن حينما نركِّز الفكر في سيرة المسيح التي نعيشها معه في إنجيل القديس يوحنا لا ندرك لأول وهلة أنه «**كلمة الله**»، ولكن الذي ندركه عن إيمان ويقين أنه هو «**الله المتكلم**». فإذا زحزحنا هذا المنطوق ناحية الفكر المطلق يكون هو «**الله الكلمة**». فنحن عرفنا من المسيح نفسه أنه قبل إبراهيم كان **كائناً**، وبالتالي فهو كذلك قبل آدم بل والخليقة كلها، في البدء في الأزل، إذن فهو

لذلك فإذا عكسنا الوضع يكون أننا حينا نؤمن بالمسيح من واقع كينونته الأزلية التي أعلنها صراحة في الإنجيل، فنحن نؤمن باللوغُس الأزلي. لأن اللوغُس عُرف فقط لما تجسد، إذ أن صفات المسيح الإلهية تشير إليه بقوة لا تجارَى! فإذ قد علمنا أن في المسيح يحل كل ملء اللاهوت جسدياً، فإننا نعرف في الحال والتو أن اللوغُس قبل التجسد كان هو «ملء اللاهوت» (كو٢: ٩) دون جسد! ولما تجسد رأينا أنه مملوء نعمة وحقاً (يو١: ١٧). ومن هذا نعرف بكل يقين أنه قبل التجسد، أي وهو اللوغُس الأزلي، كان مملوءاً نعمة وحقاً.

ثم إن معاملات المسيح تجاه الإنسان عامة والخاطىء المظلوم خاصة وتجاه العالم بالتالي، تكشف لنا بكل وضوح واستعلان عن علاقة اللوغُس الأساسية تجاه العالم والإنسان وقضية خطية الإنسان وبؤسه وشقائه في الجسد منذ البدء!

لذلك فمن السهل أن نلمح في قصد اللوغُس الأزلي نيّة التجسد وأنه كان بالفعل متجهاً إلى هذه الغاية على مدى كل العصور السالفة كلها، إنما بتدرج بطيء للغاية يفوت على قدرة الإنسان في الملاحظة، فهو تدرُّج استعلاني قدَّمه القديس يوحنا باختصار شديد، ولكن غير ملحوظ بسبب كفاءة فكر الإنسان المحدود. ولكن الحقيقة أنه كان متجهاً نحو الإنسان بصفته النور الذي يضيء الظلمة حاملاً في البدء ليس جسد البشرية بل همَّها، واضعاً في النيّة والقصد حمل هذا الثقل عينه أخيراً، أي الجسد الإنساني، ليحرره من ظلمة الخطية والشقاء والموت، إلى أن أكمل التجسد وصار «ابن الإنسان» نور العالم!

ونحن لا نتجه إلى شرح لوغُس إنجيل يوحنا مبتدئين باللوغُس الذي في العالم وهو لوغس الفلاسفة يهوداً كانوا أو يونانيين، **ولكن نحن لا نعرف اللوغُس إلا في يسوع المسيح وفي يسوع المسيح نستعلنه.** فلا العالم ولا حتى المصنوعات الباهرة في العالم التي تنطق بلاهوت صانعها توصلنا إلى معرفة الله والحياة الأبدية والخلاص المعدّ للإنسان. ولكن الذي عرفناه بيقين المعرفة هو أن يسوع المسيح وحده هو الذي يعرِّفنا بالله أبيه وبالحياة الأبدية والخلاص. والذي يعرف الله في المسيح يسوع يدرك مَن هو اللوغُس الذي به صنع الله العالمين!

إن سرَّ ملء اللاهوت في المسيح بكل ما يحيطه من مفهوم فيا يخص قيام هذا اللاهوت قياماً ذاتياً وشخصياً في المسيح كأقنوم على مستوى أقنوم الآب ولكن متحداً به، إنما هو حقيقة اللوغُس!!

هذا اللاهوت الذي في المسيح الكامل والمساوي للآب، الكائن في المسيح قبل كون العالم

والذي به خلق العالم والذي كانت فيه الحياة والنور الإلهي اللذين دخلا في تكوين خلقة الإنسان، هذا اللاهوت — لاهوت المسيح — هو اللوغُس الأزلي.

وإن سر **ملء اللاهوت في المسيح** وحقيقة وجود الكلمة اللوغُس الأزلي تكشفه هذه الآية الواحدة: «**والكلمة صار جسداً**» (يو١: ١٤). فهي التي ربطت بل استعلنت الوجودين وجود المسيح فيما قبل التجسد في شخص اللوغُس ووجود اللوغُس في الجسد في شخص يسوع المسيح. لذلك كان من الطبيعي بل من الحق أن نعرف اللوغُس في المسيح ومن المسيح، لأنه هو الذي أخبرنا عمّا كان قبل تجسده حينما كان في حضن الآب كابن وحينما خرج من حضن الآب خالقاً ثم مخلّصاً لِمَا خلق.

ونستطيع أن نقول بحسب فكر القديس يوحنا إن أعظم آية عملها المسيح في حياته الممتدة في الأزلية هي تجسده، حيث صار اللوغُس الحامل لكل أسرار الله والخليقة وكل فكر الله الأزلي جسداً. لأن بهذه الآية المنظورة استعلن لنا المسيح كل أسرار الله وفكره منذ الأزل من ناحية خلقة العالم وخلاص الإنسان فأخذ العالم معناه الجديد «هكذا أحب الله العالم» (يو٣: ١٦) — وعرف الإنسان مكانه من الله — «أنا فيهم وأنت فيَّ.» (يو١٧: ٢٣)

من أين أتى القديس يوحنا بكلمة «اللوغُس»:

القديس يوحنا قبل أن يكتب عن الكلمة — اللوغُس — في الأزلية كان قد ملأ قلبه وفكره من الرب يسوع فأدرك فيه كل غنى «كلمة الله» وقوتها وكل حكمة الله وفهمه، بل قاس وتحقق من كل وعود الله وتحقيقها. لقد أدرك فيه، ليس اللوغُس — كلمة الله — وحده، بل وعظمة يهوه «أنا هو». وابتهج قلبه كابتهاج قلب العذراء بالله مخلّصها. لقد استعلن المسيح ذاته ليوحنا عن قرب، فأدرك يوحنا أنه هو الله متجسداً وأدرك سر أقنومه كابن قائم في حضن الآب. رأى قيامته من خلف صليبه، فأدرك فيه الألف والياء، البداية والنهاية، أدرك فيه اللوغُس في البدء، وابن الإنسان جالساً عن يمين العظمة في السموات. لما يتكلم القديس يوحنا عن اللوغُس فإن نظره لا يغيب عن المسيح ولا لحظة واحدة، ولما كان يصف أعمال المسيح وأقواله كان اللوغُس حاضراً في ذهنه لا يفارقه.

حينما بدأ القديس يوحنا يشخص في اللوغُس الأزلي في البدء، كان نور المسيح الذي يملأ ذهنه والمالىء للعالم حاضراً. ولما رأى الحياة المنيرة للناس في اللوغُس كانت عينه قد امتلأت واستنارت مسبقاً بالحياة الأبدية التي كانت في الآب واستُعلنت في المسيح. وحينما قال عن اللوغُس أن فيه كانت الحياة، كان كلام المسيح يرنُّ في قلبه: «**الكلام** الذي أُكلمكم به هو روح وحياة» (يو٦: ٦٣)، بل وأيضاً كلمات القديس بطرس: «إلى من نذهب. **كلام الحياة** الأبدية عندك»

(يو٦: ٦٨). وعندما قال: «**والحياة كانت نور الناس**» (يو١: ٤) كان يشير إلى قول المسيح: «من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له **نور الحياة**.» (يو٨: ١٢)

المسيح يعلن أنه هو الكلمة «اللوغُس»:

ولكن وإن لم يذكر إنجيل يوحنا الكلمة – اللوغُس – في غير المقدمة بصريح اللفظ أنه «الكلمة» أو كلمة الله، إلا أننا بالفحص المتأنّي نستشف من كل حديث للمسيح عن نفسه أنه **هو كلمة الله** بلا أي عناء:

«**أتكلم** بهذا كما **علّمني أبي**» (يو٨: ٢٨)؛

«أنا **أتكلم بما رأيت عند أبي**» (يو٨: ٣٨)؛

«**لأني لم أتكلم من نفسي** لكن **الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم**» (يو١٢: ٤٩)؛

«فما أتكلم أنا به **فكما قال لي الآب هكذا أتكلم**» (يو١٢: ٥٠)؛

«**الكلام** الذي **أكلمكم به لست أتكلم به من نفسي** لكن **الآب الحالّ فيَّ هو يعمل الأعمال**» (يو١٤: ١٠)؛

«**لأن الكلام الذي أعطيتني قد أعطيتهم** وهم قبلوا وعلموا يقيناً أني خرجت من عندك وآمنوا أنك أنت أرسلتني» (يو١٧: ٨)؛

«أنا قد أعطيتهم **كلامك**.» (يو١٧: ١٤)

وعلى ذلك نطبق ونقول إن المسيح كان ينطق «**بالكلمة**» **اللوغُس** التي أعطاها له الله فأعطاها هو للناس **لتعمل عملها في الخَلْق والتجديد**. ولكن معروف أن المسيح لما كان يتكلم كان يتكلم بالحق، أو **يتكلم الحق** ἀλήθεια لا لأنه تعلم الحق بل لأنه هو **الحق** ذاته ἡ ἀλήθεια : «أنا هو... **الحق**» (يو١٤: ١٦)، تماماً كما نقول أنه كان يعطي الحياة لأنه هو الحياة: «أنا هو... الحياة» (يو١٤: ١٦). **إذن، فكل ما هو «المسيح» هو «كلمته» اللوغُس! «فقال لهم يسوع أنا** من البدء **ما أكلمكم** أيضاً به.» (يو٨: ٢٥)

أي أن المسيح **لما كان يتكلم كان يستعلن ذاته** أنه هو هو ما يتكلم به، لأنه لما كان يتكلم بالحق كان يستعلن الحق في ذاته. «**فالكلمة**» عند المسيح هي «**ذاته**». **فالمسيح هو هو الكلمة – اللوغُس** – الذي خرج من **عند** الآب وأرسله الآب ليعطينا كلام الآب. وأقوى صورة للكلام الذي كان يتكلم به المسيح هو «**الحق**». وقد جعل من هذه الكلمة «**الحق**» المعيار الأعلى الذي يصف به قوله: «الحق الحق أقول لكم...» **فالكلمة عند المسيح هي الحق** ἀλήθεια

والمسيح جاء خصيصاً **ليستعلن الكلمة اللوغُس** باعتبارها كلمة الله الحق المطلق. ويكون بذلك أنه من الخطأ أن نحسب أن كلام المسيح هو مجرد كلام منطوق به بل هو هو الحق ἀλήθεια مُستعلَن في الكلام ومن الكلام. وهذا الحق ἡ ἀλήθεια الكائن في كلمة المسيح هو في الواقع تعبير حيٌّ عن فكر الله ومقاصده أو تعبير عن الله في ذاته **أو هو اللوغُس.**

هنا تظهر **الضرورة الحتمية لتسمية المسيح بالكلمة، لأننا بالكلمة وحدها أدركنا فكر الله ومقاصده بل أدركنا حقيقة الله.** فالكلمة اللوغُس هو الوسيط الحتمي الذي كان عليه أن يختزل الهوّة بين الله الحق المطلق والإنسان الذي وإن كان غريباً عن الحق ولكنه يحمل صورته ويسعى نحوه.

ومن هنا أيضاً كان يتحتم على اللوغُس الكلمة الأزلي أن يخرج من عند الآب ويتجسد حتى يكلمنا الله مباشرة فيه بكلمة الله الحية الفعالة المحيية لإعادة الخلق روحياً، وذلك أكمله الكلمة المتجسد بإعطاء ذاته للإنسان كمصدر للحق والحياة والنور.

لقد ابتدأ العهد القديم «**بكلمة الله**» التي أرسلها الله لشعب مختار ومدرَّب (إسرائيل) على فم الأنبياء **ليُعرِّفهم الحق.** ولكنهم تعثروا في فهمها وطاعتها فأخطأوا إلى المعرفة وإلى الله. لذلك تحتم أن يعطي الله للإنسان عامة «الكلمة ذاته» الذي هو الحق والحياة جوهرياً لا لكي **يعرِّف الإنسان** الله بل **ليعطيهم** ذاته، أي الله، يعطيهم الحق ἀλήθεια والحياة الأبدية: «الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامي τὸν λόγον μου ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو٥: ٢٤)؛ «من يأكلني فهو يحيا بي.» (يو٦: ٥٧)

القديس يوحنا يسلمنا سِرَّ معرفته باللوغُس:

مما سبق يتضح أن اللوغُس في إنجيل يوحنا يعسر فهمه إلا بعد أن يكون الإنسان قد استوعب كل كلام المسيح وتتبع أعماله حتى النهاية حتى بعد بلوغه الذكصا العليا عندما عاد الإبن راجعاً إلى الآب واستعاد مجده الأول، بعد أن أكمل رسالة حب الله من نحو العالم. لأن القارىء عندما يكون قد أكمل تَتَبُّعه لمسيرة الإبن على أرض الزمان ودخل معه دائرة الخلود في الأبدية حتى ولو من بعيد، حينئذٍ فقط يستطيع أن يستوعب فكر القديس يوحنا وهو يسرد مسيرة اللوغُس مبتدئاً من الأزلية حتى حلّه لنا على أرض الواقع الزمني.

القديس يوحنا رأى المسيرتين على الأرض وفي السماء ورافقه فيهما، لقد كان التلميذ الذي يحبه يسوع والوحيد الذي رافقه حتى الصليب. ثم هو وحده الذي اختير من بين التلاميذ والإنجيليين الذي

أخذ بالروح وعاين وشاهد ما يجري وراء أرضنا وزماننا؛ هناك في دائرة الخلود في صميم الحياة ومقابل الحضرة الإلهية: «يوحنا الذي شهد بكلمة الله وبشهادة يسوع المسيح بكل ما رآه... كنت في الروح في يوم الرب وسمعت ورائي صوتاً عظيماً كصوت بوق قائلاً: أنا هو الألف والياء الأول والآخر...» (رؤ١: ١و٢و١٠و١١)

تقرير القديس يوحنا عن اللوغُس والمسيح هو تقرير مزدوج: شهادة واستعلان، أي **سرد حقائق** نظرها وعاينها ثم **كشف مضمونها** وأسرارها: «ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فَرَسٌ أبيض والجالس عليه يُدعَى أميناً وصادقاً وبالعدل يحكم ويحارب. وعيناه كلهيب نار وعلى رأسه تيجان كثيرة وله اسم مكتوب ليس أحد يعرفه إلا هو. وهو متسربل بثوب مغموس بدم ويُدعى اسمه **كلمة الله** ὁ λόγος τοῦ θεοῦ والأجناد الذين في السماء كانوا يتبعونه.» (رؤ١٩: ١١—١٤)

والقديس يوحنا إنجيلي بالدرجة الأولى، فكل خبراته — عن كل أسرار المسيح والكلمة — يطرحها أمام الكنيسة لكي تشترك الجماعة فيما حصل عليه. في نهاية سرده لآيات المسيح في إنجيله يقول: «وأما هذه فقد كُتِبَتْ لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه.» (يو٢٠: ٣١)

وهو يُزيد هذا الإعلان وضوحاً وتأكيداً في رسالته: «الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا. وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح. ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً.» (١يو١: ٣و٤)

وفي مستهل رؤيته التي رآها بصورة ممتازة وفائقة لم يبلغها آخر يقول: «أنا يوحنا أخوكم وشريككم في الضيقة وفي ملكوت يسوع المسيح وصبره، كنتُ في الجزيرة التي تُدعى بَطْمُس من أجل كلمة الله ومن أجل شهادة يسوع المسيح... وسمعت ورائي صوتاً... والذي تراه أكتب في كتاب وأرسل إلى السبع الكنائس.» (رؤ١: ٩و١٠و١١)

فالقديس يوحنا يكتب مقدمة إنجيله عن اللوغُس مسجِّلاً كل ما رآه وعرفه وكل ما استُعلن له، يكتبها باسم الكنيسة: «نحن» ويستودعها صدر الكنيسة على مدى الدهور: «ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً.» (يو١: ١٤)

رؤية القديس يوحنا للوغُس:

+ اللوغُس عند القديس يوحنا كائن في البدء في «الأرخي» ἀρχή أي قبل الزمن. فهو لا يمتُّ للخليقة بشيء ولا للعالم بالتالي. هذا هو يسوع المسيح قبل أن يتجسد، عند القديس يوحنا.

وهو حينما يرفع عن المسيح في شخص اللوغُس أيَّ انتماء للعالم أو الخليقة فهو إنما يمهِّد لموقع المسيح من العالم والخليقة كخالق في البداية ثم مخلِّص وكقاضٍ وديَّان بالنهاية.

+ ذِكْرُ البدءِ «الأرخي» ἀρχή منسوباً للوغُس استدعى في الحال تحديد علاقة اللوغُس بالله لأن البدء خاص بالله وحده. فحدده يوحنا بقوله: «كان عند الله = πρὸς τὸν θεόν » وهي تفيد المكانة (لأن لفظ المكان يمتنع في الإلهيات). فكانة الكلمة اللوغُس بالنسبة لله هي «عنده» أي في المقابل المتَّجه على الدوام. وقد عرَّفها القديس يوحنا على مستوى الإستعلان للذات الإلهية بأن «الآب يحب الإبن» (يو٣: ٣٥). فالإبن متجه نحو الآب يجذبه حب الآب المستمر الأزلي والأبدي، عبَّر عن ذلك المسيح: «أنا حيٌّ بالآب.» (يو٦: ٥٧)

ويقابل جذب الآب انجذاب الإبن بالحب أيضاً، فالإبن يحب الآب: «ليفهم العالم أني أحب الآب.» (يو١٤: ٣١)

فما رآه القديس يوحنا في **اللوغُس** هو **«عند الله»** في المطلقات فيما وراء الزمن، استعلنه لنا في المسيح على مستوى الزمن بالفكر الشعوري الإنساني فقال إنها محبة أزلية مزدوجة بين المسيح الإبن والله الآب لا انفصام فيها!!

ورؤية القديس يوحنا **للوغُس في مكانته وهو عند الله كحالة وجود قائم بذاته ثابت وأزلي** يستعلنه لنا في المسيح على مستوى الزمن بالفكر اللاهوتي المسيحي أن المسيح قائم في الآب، والآب في الإبن: «أَلَسْتَ تؤمن أني أنا في الآب والآب فيَّ.» (يو١٤: ١٠)

وبالتجسد صار المسيح يخاطب الآب **«أنا فيهم وأنت فيَّ»** (يو١٧: ٢٣)، ومن جهة الأعمال التي كان يعملها المسيح: «الآب **الحال فيَّ** هو يعمل الأعمال.» (يو١٤: ١٠)

كذلك فإن رؤية القديس يوحنا الكلمة اللوغُس **قائماً عند الآب منذ البدء أي أزلياً** يعني أن قبل الكلمة لم يكن صمت أو سكوت في الله، فالله ناطق بالكلمة اللوغُس ولم يوجد قط غير ناطق باللوغُس، وهذا يستعلنه على مستوى الفكر المسيحي أن المسيح الإبن كائن دائم في حضن أبيه. لم يوجد الآب بدونه ولا وُجِد بدون الآب: «أنا والآب واحد»، «الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر.» (يو١٠: ٣٠، ١: ١٨)

ولكن الوجود الذاتي للكلمة اللوغُس عند الله πρὸς τὸν θεόν ككيان قائم بذاته قد يُفهم خطأ أنه ثنائية في الله وأيهما السابق وأيهما اللاحق. لهذا عجَّل القديس يوحنا بتوضيح وحدانية الله بقوله وكان الكلمة الله، مسجِّلاً للاهوت المسيحي امتناع الثنائية وبالتالي المرؤوسية أو التبعية في

الله. فليس في الله أول وثانٍ أو أعظم وأقل. وهذا استعلنه لنا على مستوى الإنجيل: «وكل ما هو لي فهو لك وما هو لك فهو لي» (١٧: ١٠)، «الآب يحب الإبن وقد دفع كل شيء في يده.» (٣: ٣٥)

هنا الكلمة — اللوغُس — والله لكل منها وجوده الذاتي غير أنهما ذات واحدة. صحيح أن هذا اللغز يتضح حلُّه بتفسير أن الآب والإبن ذات واحدة في الله، وكلٌّ من الآب والإبن له شخصه وذاته التي يتكلم بها. ولكن لنا أيضاً في «اسم الله» في العهد القديم توضيحاً صريحاً آخر: فاسم الله له كيان الله وعمل الله ولكن يعمل بمفرده كما يعمل الله بمفرده تماماً. «ها أنا مُرْسِلٌ ملاكاً أمام وجهك ليحفظك في الطريق وليجيء بك إلى المكان الذي أعددتُه. احترز منه واسمع لصوته ولا تتمرد عليه. **لأنه لا يصفح عن ذنوبكم لأن اسمي فيه**» (خر٢٣: ٢٠و٢١). كذلك أيضاً في إشعياء: «**هوذا اسم الرب يأتي** من بعيد غضبه مشتعلٌ والحريق عظيم. شفتاه ممتلئتان سخطاً ولسانه كنار آكلة. ونفخته كنهر غامر يبلغ إلى الرقبة لغربلة الأمم.» (إش٣٠: ٢٧و٢٨)

هكذا الكلمة — اللوغُس — يعمل عمل الله وهو قائم بمفرده في الله. واللوغُس في العهد القديم هو المشار إليه بأنا هو ἐγώ εἰμι (٣): «أنا هو أنا هو الرب المتكلم بالصدق»

ἐγώ εἰμι ἐγώ εἰμι Κύριος ὁ λαλῶν δικαιοσύνην (إش٤٥: ١٩ — السبعينية)

فكون اللوغُس قائماً عند الله في التساوي اللاهوتي أي بذات الطبيعة الإلهية الواحدة، صحَّ أن يقول: «وكان الكلمة الله» (يو١: ١) — وهنا الله في اليونانية بدون ألـ التعريف — حيث الكلمة اللوغُس هنا هو المبتدأ والخبر، هو الله، وهذا يعني أن **الكلمة بطبيعة الله** وليس بمعنى هو الله وإلاَّ كان يلزم أن يُقال أن الله هو الكلمة. هنا نسبة الله — بدون ألـ التعريف — للكلمة اللوغُس يعطيه حق «**الطبيعة الإلهية**» وليس «**الذات الإلهية الكلية**» وهكذا يظل «الله» محتفظاً بوحدانية الطبيعة والذات(٤).

هذا يستعلنه لنا القديس يوحنا على مستوى اللاهوت المسيحي أن الآب والإبن إله واحد — «أنا والآب واحد» (يو١٠: ٣٠) — وأنهما متساويان في الكرامة والمجد «لكي يكرم الجميع الإبن كما يكرمون الآب، مَن لا يكرم الإبن لا يكرم الآب الذي أرسله» (يو٥: ٢٣). أما المجد الواحد: «والآن مجّدني أنت أيها الآب **عند ذاتك** بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم» (يو١٧: ٥)، حيث صار الإبن كما كان «ربي وإلهي» (يو٢٠: ٢٨). «الذي رآني فقد رأى

(٣) أنظر الشرح تحت عنوان «أنا هو» ἐγώ εἰμι صفحة ٢٢٠.
(٤) ذات الله واحدة وحدانية مطلقة وهي ذات كاملة آب وإبن وروح قدس.

الآب.» (يو١٤: ٩)

+ ولكي يحرس القديس يوحنا التساوي الأقنومي أو الشخصي بين الكلمة اللوغُس والله أعطى الجملة الحارسة للوحدانية مرة أخرى «**هذا كان في البدء عند الله.**» (يو١: ٢)

«هذا» هنا تنصب على اللوغُس، فبعد أن قال «وكان الكلمة الله» (يو١: ١)، عاد وضبط المعنى حتى لا ينحرف نحو الثنائية أو تعدد الله فقال: «هذا كان في البدء عند الله»، أي أن **الله الكلمة كان عند الله.** هذا التناقض paradox ينحلُّ في الحال إذا فهمنا أن الكلمة اللوغُس هو «**الله متكلماً**»، **أو ناطقاً.** حينئذ يكون «الله متكلماً» ليس غريباً عن الله، ولا ثانياً له، بل هو **الإستعلان** الذاتي لله. فالكلمة اللوغُس هو المستعلِن لذات الله. هذا أيضاً يعود القديس يوحنا ويستعلنه في إنجيله على مستوى الإبن والآب. فالإبن هو المستعلِن للآب. هنا يتحتم أن يكون الإبن من طبيعة الآب ويساويه حتى يستطيع أن يقدم استعلاناً كاملاً وتاماً له. ولكن يظل الإبن والآب هما الله الواحد. الإبن في ذات الله هو المستعْلِن والآب هو ذات الله المستعْلَن. «الله لم يره أحد قط. الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر.» (يو١: ١٨)

+ ولكن لئلا يظهر اللوغُس وكأنه عمل استعلاني لله محصوراً في دائرة الزمن، أضاف القديس يوحنا مرة أخرى «**في البدء**»: «هذا كان في البدء عند الله» (يو١: ٢). وهذا بدوره يعود القديس يوحنا ويستعلنه لنا في المسيح على مستوى الفكر اللاهوتي أن الإبن قائم مع الآب منذ الأزل، لا يمتُّ للحدث الزمني: «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي الذي أعطيتني **لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم**» (يو١٧: ٢٤)؛ «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن.» (يو٨: ٥٨)

فإن كان اللوغُس هو الله — بدون «أل» التعريف — المستعلِن لله كما سبق وقلنا، أصبح كوننا نسمع من اللوغُس هو أننا نسمع لله رأساً. وبالتالي إذا تكلمنا عن اللوغُس فنحن نكون نتكلم عن الله. لأن هذا الإستعلان الذي يقوم به اللوغُس عن الله بالنسبة لنا هو **مشيئة الله لخلاصنا** الذي تم تدبيره عند الله منذ البدء وابتدأ اللوغُس بتنفيذه قبل الزمن منذ البدء.

ورُبَّ سائل يقول: وكيف يتم استعلان الله قبل الخلق وقبل الزمن ولحساب مَن يكون هذا الإستعلان؟ هنا لا يفوت على القارىء اللبيب أن القديس **يوحنا بدأ يستعلن لنا اللوغُس نفسه قبل الزمن وقبل الخلق** لما قال: «في البدء كان الكلمة» ثم «والكلمة كان عند الله»... إلخ. هذا بحد ذاته استعلان لله وللوغُس قبل الزمن وقبل الخلق! فنحن وإن كنا لم نكن قد خُلقنا بعد

ولكن الله بدأ يعمل لخلاصنا لأن الله هو الله لا يُستحدث عليه شيء، ولكن فعل الخلق هو الذي أوهمنا أن بدء علاقتنا بالله تبدأ عند بدء الخلق.

ولكن الله استودع في الإنسان وعياً روحياً بالغ العمق يمتد حتى خارج حدود الزمن والخلق لنعرف به الله في ذاته وصفاته وأعماله. فعلى أساس هذا الوعي وقبل أن يوجد فينا، كان الله يرتب خلاصنا. وهذا طرف من استعلان اللوغُس لله من نحونا من جهة تدبير خلاصنا.

سؤال آخر يطرأ على الذهن: وماذا كان قبل تدبير خلاصنا؟
أمران خطيران للغاية يمنعان أن يكون في الله سكون أو عدم:
الأول: هو الوعي العميق الممتد الذي استودعه الله في الإنسان وقدرته الهائلة في الإمتداد ليخترق الزمن وفعل الخلق ذاته، فهو بذلك يتحدى العدم ويسخر من السكون.
والثاني: هو «**في البدء كان الكلمة**» أي بدء الإستعلان الإلهي بالفعل لحساب الإنسان قبل الزمن والخلق، في الأزل!!

معنى «الكلمة» اللوغُس:

أما اسم «اللوغُس» الذي تُرجم بـ «الكلمة» في اللغة العربية فهو في الحقيقة ذو صلة جذرية بوظيفة اللوغُس ذاته بصفته «المستعلِن» Revealer لله بمعنى أن عمله هو أن يجعل الله معروفاً. فهو جدير بأن يكون «**الكلمة**» لأن «الكلمة» وليدة «**المطلق**» باعتبارها «**كلمة الله**» في إحدى صورها. فهي أعلى من مثيلها البشري بلا حدود. فالكلمة عند الإنسان وليدة العقل، والعقل البشري محدود. لذلك فاللوغُس أعلى من الفكر العقلي عند الإنسان.

كذلك فالكلمة اللوغُس حينما قام بفعل الخلق فهذا «الفعل» أعلى من مثيله لدى الإنسان، فاللوغُس كفعل هو أعلى من كل أفعال الإنسان. لأن فعل الإنسان محكوم تحت محدودية الخليقة؛ أما اللوغُس كفعل فهو خلاَّق ومُبدع من العدم لا يعتمد على القوة كطاقة مخلوقة. بل يعتمد على طاقة الله في الخلق والإبداع.

لذلك لا يصحُّ أن نشبِّه اللوغُس «**بالفكر**» ولا «**بالفعل**» لأن مفهوم الإنسان للفكر والفعل يختلف عن مضمونها الإلهي في اللوغُس كل الإختلاف. وهذا هو بعينه قصد القديس يوحنا من وضعه للكلمة «**في البدء كان الكلمة**»، أي قبل أن يوجد التفكير العقلي للإنسان وقبل الفعل المتولد من القوة المخلوقة عند الإنسان. ومن جهة هذا الأمر يستعلن لنا القديس يوحنا في شخص المسيح – على مستوى اللاهوت – بأن أقنوم المسيح استخدم «**الفكر**» واستخدم «**الفعل**»

(القوة) استخداماً. وذلك تحت سلطان «كلمته»: «كان يعلمهم كمَن له سلطان» (مر١: ٢٢)، «لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان» (يو٧: ٤٦)، «أعمالاً كثيرة حسنة أريتكم من عند أبي. بسبب أي عمل منها ترجمونني؟ أجابه اليهود قائلين: لسنا نرجمك لأجل عمل حسن بل لأجل تجديف. فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً» (يو١٠: ٣٢و٣٣). العمل «بالكلمة» هنا أعلى من مستوى الفعل البشري. فالمسيح لم يكن **إنسان العقل** ولا **إنسان الإلهام** ولم يكن **إنسان القوة الخارقة**، بل **إله العقل والقوة ورب الفكر والفعل** حتى في أعلى صورها. أو بمعنى آخر إن فكر المسيح الذي كان يعلِّم به والطاقة الإلهية التي كان يعمل بها الأعمال لم تكن تنتمي للزمن أو للخليقة بل كانت إلهية وكائنة فيه كيان الأزل: «أنا من البدء ما أكلمكم أيضاً به» (يو٨: ٢٥)، «تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني» (يو٧: ١٦)، «لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيري لم تكن لهم خطية.» (يو١٥: ٢٤)

دحض القول بأن «اللوغُس» مأخوذ من الفلاسفة:

القديس يوحنا لم يستلف **اللوغُس** من اليونان، ولا استقرأه من أسفار الحكمة ولا تعلَّمه على يد الغنوسيين أو ورثه عن فيلو بل لوغُس القديس يوحنا هو «**المسيح**» وقد أدركه القديس يوحنا من أقواله وتعليمه ثم استلمه بالرؤيا وتكلم عنه كما يتكلم الإنسان عن شخص يراه.

٢ ــ «المسيا» في إنجيل يوحنا

سبق أن قدَّمنا مفهوم لقب «المسيا» في إنجيل يوحنا في عرضنا لعلاقة هذا الإنجيل بالعهد القديم. (أنظر الباب الثاني ــ الفصل الثالث ــ ص ٨٩).

٣ — «ابن الإنسان» في إنجيل يوحنا
وبالتالي في اللاهوت المسيحي

لقد صار من أهم معالم إنجيل يوحنا العناية الكبيرة التي أعطاها للقب ابن الإنسان بصورة فريدة، فقد ورد في أكثر من أحد عشر موضعاً:

— «وملائكة الله **يصعدون وينزلون على ابن الإنسان**.» (١:٥١)

— «وليس أحد **صعد إلى السماء** إلاَّ الذي **نزل من السماء ابن الإنسان** الذي **هو في السماء**.» (٣:١٢)

— «وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن **يُرفع ابن الإنسان**.» (٣:١٤)

— «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الإبن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته... وأعطاه سلطاناً **أن يدين أيضاً لأنه ابن الإنسان**.» (٥:٢٦و٢٧)

— «اعملوا لا للطعام البائد **بل للطعام الباقي للحياة الأبدية الذي يعطيكم ابن الإنسان**، لأن هذا الله الآب قد ختمه.» (٦:٢٧)

— «فقال لهم يسوع: الحق الحق أقول لكم إن لم **تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه** فليس لكم حياة فيكم.» (٦:٥٣)

— «فإن رأيتم **ابن الإنسان صاعداً** إلى **حيث كان أولاً**...» (٦:٦٢)

— «فقال لهم يسوع: **متى رفعتم ابن الإنسان** فحينئذ تفهمون **أني أنا هو** ولست أفعل شيئاً من نفسي بل أتكلم بهذا كما علّمني أبي.» (٨:٢٨)

— «وأما يسوع فأجابهما قائلاً: قد أتت الساعة **ليتمجّد ابن الإنسان**.» (١٢:٢٣)

— «فأجابه الجميع نحن سمعنا من الناموس أن المسيح يبقى إلى الأبد، فكيف تقول أنت إنه ينبغي أن **يرتفع ابن الإنسان**؟ مَن هو هذا **ابن الإنسان**.» (١٢:٣٤)

— «فلما خرج قال يسوع: الآن **تمجّد ابن الإنسان، وتمجّد الله فيه**، إن كان الله قد تمجّد فيه فإن الله **سيمجّده في ذاته ويمجده سريعاً**.» (١٣: ٣١و٣٢)

والحقيقة المدهشة أن هذه النصوص تحمل تركيباً منسجماً ذا علاقة متصلة. فبالتحليل نجد الآتي:

١) في الآيات (٣: ١٢)، (٦: ٦٢) نجد أن ابن الإنسان **ينزل من السماء ويصعد ثانية**.

٢) وفي الآيات (٣: ١٤)، (٨: ٢٨)، (١٢: ٣٤) نجد **ارتفاع** ابن الإنسان إشارة إلى رفعه على صليب المجد.

٣) وفي الآيات (١٢: ٢٣)، (١٣: ٣١) نجد **تمجيد** ابن الإنسان.

فالثلاث المجموعات تصنع تركيباً متقابلاً ومتصلاً:

فالإرتفاع والتمجيد في الآيات (مجموعة ٢) و (مجموعة ٣) متصلان إتصالاً وثيقاً، وساعة الإرتفاع والتمجيد هي نفسها ساعة الصعود (كما في الآيات مجموعة ١)، وهي نفسها «**الآن**».

ثم بالتطبيق مع الخبز الحيّ النازل من السماء الذي هو شخص ابن الإنسان المعطي الحياة الأبدية، ومع خبز الإفخارستيا الذي يؤكل للحياة الأبدية وهو الخبز الذي يعطيه ابن الإنسان أيضاً نجد أن العلاقة وثيقة. فهو يمثل النزول والإرتفاع.

فالكلام الوارد بخصوص ابن الإنسان ليس مجرد أوصاف حسب الظاهر، بل هي حقائق جوهرية متصلة تُعتبر مفتاحاً لفهم الإنجيل روحياً.

وحينما سأل المسيح سائلٌ من الجمع: «ومَن هو ابن الإنسان» (يو١٢: ٣٤)، فإن هذا في الواقع يحمل لفتة من الإنجيل عميقة ومُبدعة فهو ينبه ذهن القارىء أنه **هو هو** «المسيّا» الذي على أساسه وُضعت أو قيلت الآيات **على ابن الإنسان** بتعليم عميق مسترسل ومتوازٍ ومتصل. وبشيء من الذكاء نفهم أن كلاً من السائل والقديس يوحنا يضمر من السؤال «مَن هو ابن الإنسان؟» توضيحاً لحقيقة شخص المسيح أنه المسيّا. وهذا الحوار متصل أو منتهي بقول المسيح: «متى رفعتم ابن الإنسان فحينئذ تفهمون أني أنا هو ἐγώ εἰμι» (٨: ٢٨) أي أنه المسيّا!!! ابن الله. أما الآن فهو المسيّا في سرٍّ!!

فـ«ابن الإنسان» هو اللقب المختار الذي يختفي وراءه لقب «المسيّا». ليظل محتجباً عند الرافضين كما كان الله في العهد القديم: «حقاً أنت إله محتجب يا إله إسرائيل المخلّص.» (إش٤٥: ١٥)

وحتى لو أخذنا الآية المنفردة بذاتها التي جاءت في الأصحاح الأول (١: ٥١) التي تفيد أن ابن الإنسان على الأرض هو بآن واحد في السماء بمعنى أنه باتصال دائم مع الله، فهذه الآية تحمل

المضمون الإلهي نفسه من جهة النزول والصعود وتفيد أنه نزل ليكلمنا عن ما هو في السماء كرسالة وبعدها يعود. وما نزول الملائكة وصعودها عليه إلاّ تعبيراً عملياً أو تكميلاً لعمل ابن الإنسان في الإتصال الدائم بين السماء والأرض. فابن الإنسان يعمل على الأرض وفي السماء بآن واحد. ولكن لينتبه القارىء فنحن نعلم مسبقاً الآن مضمون النزول والطلوع والغاية منه. ولكن أثناء خدمة المسيح التي يتتبعها الإنجيل جاء هذا التعليم ليمهد في أذهان التلاميذ لحوادث الصلب والقيامة والصعود. فهو تعليم غاية في الأهمية للتلاميذ والمؤمنين به الذين كانوا يسمعون آنئذ. وأيضاً لكي ينبه أذهان تلاميذه أنه مزمع أن يتركهم ويختفي عنهم في مفهوم الإرتفاع.

كذلك الآية التي تقول أن الدينونة أُعطيت له «لأنه ابن الإنسان» (٥: ٢٦) فهي في القراءة السرية بحسب إنجيل يوحنا تكون: **لأنه هو «المسيًّا» المخلّص والموعود به.** فلأنه سيخلّص الذين يؤمنون به فحتماً سيدين الذين لا يؤمنون، والإيمان به يتركز حسب قول المسيح نفسه في حالة الإرتفاع التي سيُستعلن فيها «ومتى رفعتم ابن الإنسان فحينئذ تفهمون (تعرفون) **أني أنا هو**».

وهكذا نجد أن نزول ابن الإنسان وارتفاعه يكوّنان معاً الهيكل التعليمي عن الخلاص والدينونة معاً مستعْلَناً في شخصه المنظور ومخفياً في اسمه الذي اختاره لنفسه. «لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق (أرتفع) لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المُعزّي. ولكن إن ذهبتُ أرسله إليكم. ومتى جاء ذاك يبكّت العالم على خطية **وعلى برّ وعلى دينونة**... وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين» (يو١٦: ٧-١١)؛ «الآن دينونة هذا العالم. الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً» (يو١٢: ٣١)؛ وقوله: **«الآن»** لا يفيد في لغة إنجيل يوحنا الآنيّة الزمنية بل رؤية المسيح النافذة التي تستحضر المستقبل في صميم الحاضر: «يدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة.» (رو٤: ١٧)

والفرق بين نظرة الأناجيل الثلاثة للقب ابن الإنسان بالنسبة للمسيح عنها في إنجيل يوحنا يتركز في كون هذا اللقب أخذ في هذه الأناجيل مأخذاً رُؤيوياً فقط على مستوى نبوة دانيال النبي، أي أنه لقب مستقبلي يستعلن فيه المسيح في مجيئه؛ ولذلك لم تنشغل الأناجيل بابن الإنسان كحالة واقعة على الأرض في ملء الزمن مثلما ركز إنجيل يوحنا معتبراً أن المستقبل الزمني انفتح على الحاضر في شخص ابن الله المتجسد إذ نزل ابن الإنسان من السماء بالفعل ليفتتح الملكوت الأبدي الذي تنبأ عنه دانيال. فابن الإنسان هو اللقب الأكثر مناسبة للمسيح في مجيئه (نزوله) وفي حياته على الأرض كما هو في ظهوره الآتي من السماء، بل وفي ملكوته الأبدي، أليس هو الذي أملَى على دانيال الإسم؟

وقد استشهدت أسفار العهد الجديد على العموم بما جاء عن ابن الإنسان في العهد القديم:

+ مما ورد في المزمور ٨:٤و٥: «فمَن هو الإنسان حتى تذكره أو ابن الإنسان حتى تفتقده. أنقصته قليلاً عن الملائكة (في مظهره وموته) و بالمجد والكرامة توَّجته (في قيامته)» — (الترجمة السبعينية).

+ وفي دانيال ٧: ١٣و١٤: «كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحاب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقرَّبوه قدامه، فأُعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبَّد له كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض.»(٤)

وقد استخدم المسيح في إنجيل القديس مرقس صورة ابن الإنسان وهو آتٍ على السحاب كما جاءت في نبوة دانيال: «أما هو فكان ساكتاً ولم يجب بشيء. فسأله رئيس الكهنة أيضاً وقال له: **أأنت المسيح** ابن المبارك. فقال يسوع: أنا هو، **وسوف تبصرون ابن الإنسان** جالساً عن يمين القوة وآتياً في سحاب السماء.» (مر١٤: ٦١و٦٢)

وواضح جداً من كلام المسيح أعلاه أنه كان يفضِّل لقب ابن الإنسان على لقب المسيَّا. كذلك أيضاً في قوله: «فقال لهم: وأنتم مَن تقولون أني أنا. فأجاب بطرس وقال له: أنت **المسيح**. فانتهرهم كي لا يقولوا لأحد عنه. **وابتدأ يعلِّمهم أن ابن الإنسان** ينبغي أن يتألم...» (مر٨: ٢٩—٣١)

وإنجيل يوحنا يبرز «**ابن الإنسان**» على مستوى «**ابن الله**» لا فرق على الإطلاق. فهو نزل من السماء ويصعد أيضاً وهو في كل المواضع متحد بالله وقائم فيه، فحتى أثناء وجوده على الأرض هو «ابن الإنسان الذي في السماء» (يو٣:١٣)، **والمسيح يضع العلاقة بينه كابن الإنسان وبين الله الآب كنموذج أعلى للعلاقة التي ينتهي إليها المؤمنون المختارون في اتحادهم بالله.** وابن الإنسان هو النور الحقيقي والخبز الحقيقي والكرمة الحقيقية بمعنى أنه الحقيقة المطلقة لعناصر الحياة كلها. لذلك حينما يحل المسيح في المؤمنين تصير لهم حقيقة الحياة أو الحياة الحقيقية، ويصيرون متحدين به كاتحاد الأغصان بالكرمة ذاتها. **وهنا تظهر الكلّية أو الشمولية التي يعنيها المسيح من لقبه المختار ابن الإنسان، فهو يحمل البشرية المفديَّة ويمثلها أمام الآب. فإبن الإنسان نزل من السماء ليجمع في شخصه وفي جسده البشرية المختارة، ويصعد إلى السماء بهم ليرثوا ميراثه وينظروا مجده ويكونوا معه حيث يكون.**

ولقب «**ابن الإنسان**» بالنسبة للاهوت المسيحي سواء في الأناجيل الثلاثة أو في رسائل بولس

---

(٤) المعتقد حسب التقليد وقانون الأسفار أن دانيال عاش في زمن السبي في القرن السادس قبل الميلاد.

الرسول أو في إنجيل يوحنا يحمل عقيدة لاهوتية مضمونها أن المسيح والمؤمنين يكوّنان جسداً واحداً إنساناً واحداً. يشرح ذلك القديس بولس الرسول على مستوى الجسد الواحد والمسيح رأس له: «الأمم شركاء في الميراث والجسد» (أف٣: ٦)؛ «... لأجل تكميل القديسين لعمل الخدمة **لبنيان جسد المسيح** إلى أن ننتهي جميعنا إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله إلى **إنسان كامل**، إلى قياس **قامة ملء المسيح**» (أف٤: ١٢و١٣)؛ «بل صادقين في المحبة ننمو في كل شيء إلى **ذاك الذي هو الرأس المسيح، الذي منه كل الجسد مركباً معاً...**» (أف٤: ١٥و١٦)

وهذا يشرحه القديس متى على المستوى العملي هكذا: «لأني جُعْت فأطعمتموني عطشت فسقيتموني كنت غريباً فآويتموني عرياناً فكسوتموني مريضاً فزرتموني محبوساً فأتيتم إليّ... الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم» (مت٢٥: ٣٥—٤٠)؛ وأيضاً في إنجيل متى: «مَن يقبلكم يقبلني.» (مت١٠: ٤٠)

أما إنجيل لوقا فيتفق أيضاً في هذه الوحدة: «الذي يسمع منكم يسمع مني والذي يرذلكم يرذلني.» (لو١٠: ١٦)

ويأتي إنجيل يوحنا ويقدم نفس التقليد «الحق الحق أقول لكم الذي يقبل مَن أرسله يقبلني.» (١٣: ٢٠)

هذه الرابطة أو الوحدة العملية بل **والوجودية** — أي بالإتحاد الجسدي — في شكلها وكيانها الكامل بين المسيح وشعبه هي هي قائمة ومكنونة في اللقب الذي اختاره المسيح لنفسه: «ابن الإنسان» !!

ونحن لو فحصنا بتدقيق ما جاء في نبوة دانيال نجد نفس الرابطة الكيانية بين ابن الإنسان «**وقديسي العلي**» إذ يذكرهما دانيال *النبي الواحد بدل الآخر في أخذ المملكة* وامتلاكها هكذا:

*«... **ابن الإنسان** أتى وجاء إلى القديم الأيام فقرّبوه قدامه. **فأُعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً*** **لتتعبَّد له** كل الشعوب والأمم والألسنة. **سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض... وأما قديسو العلي فيأخذون المملكة ويمتلكون المملكة إلى الأبد وإلى أبد الآبدين...** حتى جاء القديم الأيام **وأُعطي الدين لقديسي العلي** وبلغ الوقت **فامتلك القديسون المملكة...** والمملكة والسلطان وعظمة المملكة تحت كل السماء **تُعطى لشعب قديسي العلي. ملكوته (الماء** تعود على شعب قديسي العلي) **ملكوت أبدي وجميع السلاطين إياه يعبدون ويطيعون...**» (دا٧: ١٣—٢٧)

هنا التقابل بل التطابق بين «ابن الإنسان» وبين «شعب قديسي العلي» شيء مذهل للعقل حتى أن دانيال كان معذوراً أن يقف منذهلاً أمام عظمة هذا السر، سر احتواء ابن الإنسان لشعب قديسي العلي: «أما أنا دانيال فأفكاري أفزعتني كثيراً وتغيَّرت عليَّ هيأتي وحفظتُ الأمر في قلبي» (دا٧: ٢٨). وقديسو العلي عند دانيال هم شعب إسرائيل الجديد الذي يراه من خلف السنين.

وفي مزمور ٨٠، الذي تستشهد به أسفار العهد الجديد وتقليد الكنيسة حتى اليوم، يأتي ابن الإنسان، والكرمة، والإبن، والشعب، كلهم معاً والواحد بدل الآخر في تناسق ووحدة عجيبة الشكل(٥)!! «كرمة من مصر نقلْتَ... مدّت قضبانها إلى البحر وإلى النهر فروعها» (= أنا الكرمة وأنتم الأغصان — يو١٥: ٥)... يا إله الجنود ارجعنَّ اطّلع من السماء وانظر وتعهد هذه الكرمة، والغرس الذي غرسَتْه يمينك والإبن الذي اخترته لنفسك... وعلى ابن الإنسان الذي اخترته لنفسك، فلا نرتد عنك. أحْيِنا فندعو باسمك يا رب إله الجنود أَرْجِعْنا. أنر بوجهك فنخلص.» (مز ٨٠)

وهكذا يقف مزمور ٨٠ الدعامة الأولى والأكثر أهمية في جميع أسفار الكتاب بل ويتقدم على نبوة دانيال أيضاً في توضيح لقب «ابن الإنسان» الوارد في إنجيل يوحنا(٦).

والنص الوارد في إنجيل يوحنا (١: ٥١) واضح فيه كل الوضوح أن المسيح يتكلم وحلم يعقوب إسرائيل ماثل في ذهنه بصورته وألفاظه وحركته: «السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان...» حيث يرد «ابن الإنسان» بدل «إسرائيل» في حلم يعقوب. فلو أدركنا أن اسم يعقوب إسرائيل يؤخذ دائماً أبداً كشخص يعقوب إسرائيل وكشعب إسرائيل دون أي تفريق، حينئذ نفهم السر وراء اختيار المسيح لإسم ابن الإنسان ووضعه موضع إسرائيل في حلم يعقوب إسرائيل، وأن الملائكة عوض أن تصعد وتنزل على يعقوب إسرائيل(٧) يرد في كلام المسيح أنها تنزل وتصعد على ابن الإنسان، لذلك فإن ذلك هو القصد المضمر في اختيار المسيح لإسم ابن الإنسان وأن ذلك يشمل بالضرورة شعب المسيح، إسرائيل الجديد، الإنسان الجديد أو الخليقة الجديدة.

---

(٥) راجع شرح ما جاء في مزمور ٨٠ في عرضنا لرمز الكرمة.

6 C.H. Dodd, The Fourth Gospel, p. 245.

(٧) يميل كل علماء الكتاب الآن بعد فحص التقليد اليهودي في شرح سلّم يعقوب، إلى الأخذ بأن الملائكة تصعد وتنزل ليس على السلم بل على يعقوب إسرائيل، وبالتالي يكون إعلان المسيح عن نفسه كابن الإنسان أن الملائكة تنزل وتصعد عليه مطابق لحلم يعقوب.

وبالتالي فإن السماء المفتوحة هي لمختاري الله المفدين، والملائكة تنزل وتصعد على أولاد الله لخدمة العتيدين أن يرثوا الخلاص. لأن المسيح لم يكن قط محتاجاً لمعونة ملائكة. فإن كان ابن الإنسان قد تُوِّج بقيامته من الأموات **ملكاً** لقديسي الله فهو «جعلنا **ملوكاً** وكهنة لله أبيه» (رؤ١: ٦)، **لأننا** قمنا معه. **فهو** بحسب تعبير سفر الرؤيا **«ملك الملوك.»** (١٧: ١٤)

وفي دائرة العهد القديم يُعتبر نزول الملائكة على يعقوب إسرائيل وصعودهم عليه نوعاً من التمجيد الخاص. لذلك ربط الحكماء الربِّيون اليهود في تعليم «المِشْنَاة» بين صعود ونزول الملائكة على يعقوب في سفر التكوين، وبين تمجيد الله الخاص بيعقوب في إشعياء «وقال لي: أنت عبدي إسرائيل **الذي به أتمجَّد**» (إش٤٩: ٣) — أي أن الله يتمجَّد فيه. وتعود النبوة في الآية التي بعدها لتضع في فم يعقوب **كيف أنه تمجَّد** أيضاً — أي أن الله مجَّده: «والآن قال الرب جابلي من البطن عبداً له لإرجاع يعقوب إليه فينضم إليه إسرائيل **فأتمجَّد في عيني الرب** وإلهي يصير قوتي» (إش٤٩: ٥). وهذا ما يردده المسيح في إنجيل يوحنا بالمثل وبمنتهى التطابق عندما يقول بصفته ابن الإنسان **«الآن تمجَّد ابن الإنسان، وتمجَّد الله فيه»** (١٣: ٣١). ثم بالعودة إلى لماذا يتمجَّد الله في يعقوب ويتمجد يعقوب في عينيْ الله نجد أنَّ السبب واضح، إذ مذكور أنه سيجمع خراف بيت إسرائيل الضالة: «والآن قال الرب جابلي من البطن عبداً له **لإرجاع يعقوب إليه** (الشعب الضال) **فينضم إليه إسرائيل** فأتمجَّد...». وهذا أيضاً ينطبق على المسيح بصفته ابن الإنسان بمنتهى الدقة والتطابق «إذ كان رئيساً للكهنة في تلك السنة تنبأ أن يسوع مزمع أن يموت عن الأمة، وليس عن **الأمة فقط** بل **ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد.»** (يو١١: ٥١و٥٢)

وهنا يتضح أمران: الأول لماذا يموت المسيح؟ والثاني لماذا يتمجَّد الله في المسيح ويتمجَّد المسيح في الله؟ ويضيف الإنجيل إلى إرجاع أمة إسرائيل جَمْع شمل أبناء الله في العالم.

وأيضاً بالعودة إلى نبوة إشعياء نجد سبب عمل يعقوب لجمع شمل إسرائيل وخلاص كل الأمم وإرجاعهم إلى الله يعتمد على صفة الإستنارة الممتازة **ليعقوب**: «فقال قليلٌ أن تكون لي عبداً لإقامة أسباط يعقوب وردِّ محفوظي إسرائيل. **قد جعلتُك نوراً للأمم** لتكون خلاصي إلى أقصى الأرض» (إش٤٩: ٦). ثم يشرح إشعياء النبي **عمل النور** في يعقوب: «قائلاً للأَسْرَى اخرجوا. **للذين في الظلام اظهروا**» (إش٤٩: ٩). وبالمثل يأخذ إنجيل يوحنا نفس المبادرة لإبن الإنسان ليكون نوراً للذين يسيرون وراءه: «أنا قد جئتُ نوراً إلى العالم حتى كلُّ مَن يؤمن بي لا يمكث في الظلمة» (يو١٢: ٤٦)؛ «أنا هو نور العالم. مَن يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة.» (يو٨: ١٢)

ثم بالعودة إلى نبوة إشعياء نجد أن إرسالية «عبدي إسرائيل» تتحمل إطعام الشعب السائر وراءه ورعايتهم على المرتفعات فلا يجوعون ولا يعطشون: «على **الطرق يرعَوْن** وفي كل الهضاب **مرعاهم. لا يجوعون ولا يعطشون** ولا يضربهم حر ولا شمس لأن الذي يرحمهم يهديهم **وإلى ينابيع المياه يوردهم**» (إش٤٩: ٩و١٠). وإذا فحصنا إنجيل يوحنا نجد المطابقة لا تزال دقيقة ومتَّسقة مع النبوة: «أنا هو الباب. إنْ دخل بي أحد **فيخلص** ويدخل ويخرج ويجد **مرعى** — مَن يشرب **من الماء** الذي **أُ**عطيه أنا **فلن يعطش إلى الأبد**. بل الماء الذي **أُ**عطيه يصير فيه **ينبوع ماء** ينبع إلى حياة أبدية — أنا هو خبز الحياة. مَن يُقْبِل إليَّ **فلا يجوع** ومَن يؤمن بي **فلا يعطش** أبداً.» (يو١٠:٩؛ ٤:١٤؛ ٦:٣٥)

ولا يتوه عن بالنا أن في النبوة يظهر العبد (يعقوب إسرائيل) مرة أنه «**إسرائيل**» كشعب، ومرة أخرى يُعرَّف بأنه «**إسرائيل**» فرد كرسول من الله. وبمعنى استعلاني تكون **الفردية الشخصية، والجماعية الشعبية** ملتحمتان يستحيل التفريق بينهما لأنهما من صميم الشخصية ومن صميم العمل والإرسالية معاً. وهذا هو نفسه التعريف بمفهوم وبمضمون «ابن الإنسان» في إنجيل يوحنا.

وعلى أساس هذا المعنى العميق الذي يحويه «ابن الإنسان»، أي الإتحاد والإلتحام بين ابن الإنسان وبين شعبه المفدي = قديسي العلي = البشرية الجديدة، يمكن أن نفهم الآن المعنى العميق الذي يحتويه سر الإفخارستيا: «مَن يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه» (يو٦:٥٦)، «الحق الحق أقول لكم: إن لم **تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه** فليس لكم حياة فيكم» (يو٦:٥٣)، «مَن يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير» (يو٦:٥٤). **فما معنى هذا على ضوء مفهوم «ابن الإنسان»؟ واضح أن الإتحاد والإلتحام «بابن الإنسان»** هو رسالة المسيح، وهو هبته العظمى للقديسين، وهو صفته الذاتية والشخصية؛ لأن معنى **«ابن الإنسان» يحمل حتماً الإتحاد بشعب الله**، لذلك فأكل جسده وشرب دمه هو أعلى مفهوم جوهري منبثق من طبيعة المسيح وأعظم ضمان للإتحاد بابن الإنسان والحصول على الحياة الأبدية فيه، الأمر الذي من أجله نزل من السماء — تجسد — وصعد إلى السماء ليكمِّله، أما في اليوم الأخير فسيستعلنه!! أي أن لقب «**ابن الإنسان**» يفسر رسالة المسيح كلها بل يكشف عن كل مقاصد الله فيه من نحونا! وربما نعثر على أسرار ابن الإنسان أكثر في مضمون هذه الآية العجيبة «**لأنه يولد لنا ولد ونُعطَى ابناً** وتكون الرياسة على كتفه ويُدعى اسمه عجيباً مشيراً **إلهاً قديراً** أباً أبدياً رئيس السلام.» (إش٩:٦)

٤ — « ابن الله »

ὁ υἱὸς τοῦ θεοῦ

في إنجيل القديس يوحنا

لقب « الكلمة » كأساس لإستعلان بنوة المسيح لله:

حينما افتتح القديس يوحنا إنجيله بتسميته المسيح « الكلمة » = λόγος لم يكن هذا اللقب أول تسمية للمسيح تحمل تعليماً للكنيسة يفيد الصفة الوظيفية والتعبير اللاهوتي الخاص بالمسيح. كذلك فهذا اللقب لا يمتُّ إلى الحبك الشعري أو التصور البشري ولكنه حقيقة شخصية تقوم على الواقع بالدرجة الأولى.

ونحن هنا نقدم أربعة أمثلة من كتابات القديس بولس الرسول المعتبرة من المدوّنات الأولى للأسفار المقدسة في العهد الجديد: توضح فكر الكنيسة الأولى عن مَنْ هو المسيح بالنسبة للقب « الكلمة ».

(١) ١كو١: ٢١—٢٤:

«إذ كان العالم في حكمة الله لم يعرف الله بالحكمة... لأن اليهود يسألون آية واليونانيين يطلبون حكمة... وأما للمدعوين (أي المختارين) يهوداً و يونانيين فبالمسيح **«قوة الله»** و**«حكمة الله»**.

فالمسيح هنا هو القوة الفعالة لله والحكمة المفكرة لله.

(٢) ١كو٨: ٦:

«لكن لنا إله واحد: **الآب** الذي منه جميع الأشياء ونحن له، **وربٌّ** واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به».

وهنا المسيح هو العامل أو الفاعل في الخلق. وأيضاً الوسيط بين الله والناس.

(٣) كولوسي ١: ١٥—١٧:

«الذي هو صورة الله غير المنظور بكر كل خليقة. فإنه فيه خُلق الكل ما في السموات وما على الأرض ما يُرى وما لا يُرى سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين. الكل به وله قد خُلق. الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل».

المسيح صورة الله، هنا الصورة أو الأيقونة ليست مجرد طبعة طبق الأصل منظورة للأصل غير المنظور، بل استعلان ذاتي يستمد وجوده وذاته وحياته من الأصل ذاته، فهو ذات من ذات ووجود من وجود وحياة من حياة. الأول غير منظور والثاني منظور. فالتطابق مطلق وبالتالي فالتكامل مطلق.

(٤) عب١: ٢و٣:

«الله... كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثاً لكل شيء الذي به أيضاً عمل العالمين. الذي وهو بهاء مجده ورسم جوهره وحاملٌ كل الأشياء بكلمة قدرته...»

هنا واضح أن المسيح هو «كلمة الله» لنا، «وابن الله» و«فعل الله» الخالق. والخلقة هنا المُسْنَدة للمسيح هي عالم الروح والسماء وعالم الأرض جميعاً. كذلك فالمسيح هنا هو المجد المنظور لمجد الله الآب غير المنظور والصورة أي الرسم المدرَك لجوهر الله غير المدرَك، والذي يحمل كل شيء أي يجمع ويحوي ويسيطر على كل ما في الوجود بقوته الناطقة، أي بتدبير قوته الفكرية.

هكذا نجد أن بلوغ القديس يوحنا إلى تسمية المسيح في وجوده السابق على التجسد «بالكلمة» في مفهومها المطلق غير المحدود كأساس لإستعلان بنوّته لله بعد ذلك، إنما يمثل الخطوة الأخيرة في الطريق الذي عبر عليه الوحي الإلهي منذ البدء في تشخيص المسيح طبقاً لجوهره وأعماله وعلاقته الفريدة بالآب الذي انتهى بتجسده وتأنسه.

صفات المسيح في إنجيل القديس يوحنا تثبت أنه ابن الله:

وإذا درسنا محتويات إنجيل يوحنا فلن يكون من الصعب أن نبلغ إلى لقب «ابن الله» كلقب هو الأكثر مناسبة للمسيح، فجميع أقواله وأعماله تثبت بكل جراءة وتأكيد العلاقة الوثيقة والإتحاد الكامل مع أبيه. كما يؤكد هو ويشهد لنفسه أنه ابن الله (يو١٠: ٣٦).

والعوامل التي تبرز شخص المسيح وتكشف عن لاهوته و بنوّته الفريدة لله كثيرة:

١ — فمعرفة المسيح بكل الناس معرفة كاشفة لأفكارهم ونياتهم ومستقبل تصرفاتهم توضح حقيقة لاهوته. فهو قادر دائماً أن يقرأ ما في القلوب و يرد على الأفكار الحائرة دون سؤال:

+ «ورأى يسوع نثنائيل مقبلاً إليه فقال عنه هوذا إسرائيلي حقاً لا غش فيه، قال له نثنائيل من أين تعرفني؟ أجاب يسوع وقال له قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك. أجاب

نثنائيل وقال يا معلم **أنت ابن الله.**» (يو١: ٤٧—٤٩)

+ «وآمن كثيرون باسمه... لكن يسوع لم يأتمنهم على نفسه **لأنه كان يعرف الجميع** ولأنه لم يكن محتاجاً أن يشهد أحد عن الإنسان **لأنه علم ما كان في الإنسان.**» (يو٢: ٢٣—٢٥)

+ «أجابت المرأة وقالت: ليس لي زوج. قال لها يسوع: حسناً قُلتِ ليس لي زوج، **لأنه كان لكِ خمسة أزواج والذي لكِ الآن ليس هو زوجكِ، هذا قلتِ بالصدق.** قالت له المرأة يا سيد أرى أنك نبي.» (يو٤: ١٧—١٩)

+ «لكني قد عرَّفتكم أن ليست لكم محبة الله في أنفسكم.» (يو٥: ٤٢)

+ «ولكن منكم قوم لا يؤمنون. لأن يسوع من البدء علم من هم الذين لا يؤمنون ومن هو الذي يُسلِّمه.» (يو٦: ٦٤)

+ «فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه وقال لهم من تطلبون.» (يو١٨: ٤)

٢ — بل ويعلم من هو ومتى كان!!:
+ «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن ἐγώ εἰμι» (يو٨: ٥٨). وترجمتها الدقيقة: «قبل أن يأتي إبراهيم إلى الوجود أنا كائن».

٣ — ويعلم مدى سلطانه وماذا وضع الله في يديه ومن أين أتى وإلى أين يذهب:
+ «الآب يحب الإبن وقد دفع كل شيء في يده.» (يو٣: ٣٥)
+ «يسوع وهو عالم أن الآب قد دفع كل شيء إلى يديه وأنه من عند الله خرج وإلى الله يمضي...» (يو١٣: ٣)

+ «وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتى حق **لأني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب** وأما أنتم فلا تعلمون من أين آتى ولا إلى أين أذهب.» (يو٨: ١٤)

+ «خرجت من عند الآب وقد أتيت إلى العالم وأيضاً أترك العالم وأذهب إلى الآب.» (يو١٦: ٢٨)

٤ — ويعلم ماذا سيعمل ومتى يكمل العمل:
+ «بعد هذا رأى يسوع أن كل شيء قد كمل فلكي يتم الكتاب قال أنا عطشان.» (يو١٩: ٢٨)

٥ — وفي حضرته ليس التلاميذ فقط كانوا يخافونه بل و بيلاطس نفسه:
+ «نظروا يسوع ماشياً على البحر مقترباً من السفينة فخافوا.» (يو٦: ١٩)
+ «أجابه اليهود: لنا ناموس وحسب ناموسنا يجب أن يموت لأنه جعل نفسه ابن الله. فلما سمع بيلاطس هذا القول إزداد خوفاً.» (يو١٩: ٧و٨)

٦ — وحينما استنار المعمدان بالروح استطاع أن يتعرف على من هو المسيح:
+ «وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله.» (يو١: ٣٤)
+ «الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع... الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع.» (يو٣: ٣١)
+ «الآب يحب الإبن وقد دفع كل شيء في يده.» (يو٣: ٣٥)
+ «الذي يؤمن بالإبن له حياة أبدية والذي لا يؤمن بالإبن لن يرى حياة أبدية بل يمكث عليه غضب الله.» (يو٣: ٣٦)

على أن معنى «غضب الله» بالمفهوم الإيجابي الروحي في إنجيل يوحنا، هو الإنفصال عن دائرة حب الله والحياة معه المعلنة في ابنه.

كذلك عمومية رسالة المسيح في إنجيل يوحنا: برفع خطية العالم، خلاص العالم، دينونة العالم، إنارة كل إنسان آتٍ إلى العالم، رعاية حظائر أخرى غير حظيرة إسرائيل، وموته ليس عن أمة اليهود فقط بل وليجمع أبناء الله المتفرقين، وقد رأى فيه السامريون عن خبرة أنه «مخلّص العالم» (يو٤: ٤٢)؛ هذه العمومية المطلقة سواء لخلاص العالم أو دينونة العالم توضح ارتفاع وعلو شخصية المسيح فوق مستوى النبوة العادية بدون قياس.

وأعمال المسيح الإلهية المطابقة لعمل الله والصادرة من إرادة الآب تشهد لبنوته ومساواته للآب، ووحدته معه. وهذا ما ركز عليه المسيح نفسه في شهادته لبنوته للآب.

«الآب» و«الإبن» في إنجيل القديس يوحنا:
وقد ورد في إنجيل يوحنا تعبير **«الإبن»** بصفته المطلقة بدون ذكر الآب كما ورد تعبير **«الآب»** بدون ذكر الإبن، كما يتبادل لفظ **«الآب»** مع لفظ «الله» عند ذكر إرسال الإبن. وكل منهما — أي الآب والإبن — له أعمال وله صفات الألوهة متبادلة دون أي تميز **«بتساوٍ مطلق»** مما يستبعد أي ثنائية في **الطبيعة**. ثم يعود الإنجيل ويذكر الآب والإبن في توافق وحب ومجد وكرامة وإرادة ومشيئة وفكر وقول وعمل واحد مما يؤكد **«الوحدة»** المطلقة في **الذاتية**.

ومن التساوي المطلق بين الآب والإبن مع تبادل الوجود والكيان، يوضح قيام شخصين

متعادلين أو كما تسميهم الكنيسة أقنومين: «أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني» (يو٨: ١٨)، «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو٥: ١٧). ثم من واقع إتحادهما إتحاداً مطلقاً: «**أنا في الآب والآب فيَّ**» (يو١٤: ١٠)، و«**أنا والآب واحد**» (يو١٠: ٣٠)، يتضح أنهما **ذات واحدة!!**

فالآب والإبن لهما طبيعة واحدة أي جوهر إلهي واحد وهما ذات واحدة؛ بمعنى أن الذات الواحدة لله تحمل الأبوّة والبُنوّة معاً. وهذا ليس غريباً عن واقع أي «**ذات**». فالذات البشرية هي بحد ذاتها أب وابن معاً لا يفرقها إلا الزمن. فكل أب كان ابناً، وكل ابن يمكن أن يصير أباً والذات هي هي. ولكن لا يوجد في ذات الله عامل الزمن فهو أب وابن دائماً ومنذ الأزل ولم يكن الله قط أباً بدون ابن ولا كان ابناً بدون أب. فكيانهما واحد وكل واحد كائن في الآخر. وهذا هو سر الله أو سر اللاهوت الذي كان مخفياً عن عقل الإنسان وإدراكه إلى أن أعلنه الله بإرساله ابنه — متجسداً علناً — لتجديد خلقة الإنسان.

أولاً: الإبن: ورود الكلمة في الإنجيل بصورتها المطلقة:

١ : ١٤: «مجد كما **لوحيد** لأبيه» ὁ μονογενής .
٣ : ١٦: «أحب الله العالم حتى بذل **الإبن الوحيد**» (بحسب الأصل اليوناني).
٣ : ١٧: «لم يرسل الله **الإبن** إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم» (بحسب الأصل اليوناني).
٣ : ٣٥: «الآب يحب ,, **الإبن** ،، وقد دفع كل شيء في يده».
٣ : ٣٦: «الذي يؤمن **بالإبن** له حياة أبدية».
٣ : ٣٦: «الذي لا يؤمن **بالإبن** لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله».
٥ : ١٩: «لا يقدر **الإبن** أن يعمل من نفسه شيئاً إلاَّ ما ينظر الآب يعمل».
٥ : ١٩: «لأن مهما عمل ذاك (الآب) فهذا يعمله **الإبن** كذلك».
٥ : ٢٠: «لأن الآب يحب ,, **الإبن** ،، ويريه جميع ما هو يعمله».
٥ : ٢١: «لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويحيي، كذلك ,, **الإبن** ،، أيضاً يحيي من يشاء».
٥ : ٢٢: «لأن الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة **للإبن**».
٥ : ٢٣: «لكي يكرم الجميع ,, **الإبن** ،، كما يكرمون الآب».
٥ : ٢٣: «مَن لا يكرم ,, **الإبن** ،، لا يكرم الآب الذي أرسله».

٥:٢٦: «لأنـه كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى ,, **الإبن**،، أيضاً أن تكون له حياة في ذاته».

٦:٤٠: «كل مَن يرى **الإبن** ويؤمن به تكون له حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير».

٨:٣٥: «العبد لا يبقى في البيت إلى الأبد، أما ,, **الإبن**،، فيبقى إلى الأبد».

٨:٣٦: «فإن حرركم ,, **الإبن**،، فبالحقيقة تكونون أحراراً».

١٤:١٣: «مهما سألتم باسمي فذلك أفعله ليتمجد الآب ,, **بالإبن**،،».

١٧:١: «أيها الآب قد أتت الساعة، مجّد ,, **ابنك**،، ليمجّدك ,, **ابنك**،، أيضاً».

ويلاحظ أنه ورد في ٣:١٦و١٧ أن الإبن منسوب «لله» بكل وضوح عوض «الآب»، كما في مواضع أخرى كثيرة: «**الله**... بذل الإبن» (٣:١٦)، «**الله** أرسل الإبن» (٣:١٧)، هنا ترتاح كلمة «**الآب**» بعد ذلك في كل مواضعها على «**الله**» بدون اهتزاز.

كذلك يلاحظ أن هذه الشواهد كلها تقريباً نطقها «**المسيح**» بنفسه، فأوضح أنه هو هو «**الإبن**» كما قال بوضوح: «**أنا** أتكلم بما رأيت عند أبي.» (يو٨:٣٨)

فإذا بحثنا في الشواهد الخاصة بالإبن التي وردت عاليه لنستخلص منها رسالة «**الإبن**» الخاصة به والتي تفوق قامة أي نبي بل وجميع الأنبياء والملائكة والرؤساء معاً، نلخصها في الآتي:

١ — إرسالية «الإبن» من «**الله**» أو «**الآب**» للعالم كله!! كرسالة خلاص نحو العالم؛ تتناسب مع العلاقة التي تربط الآب بالإبن، قام بها الإبن بصورة كاملة وفائقة.

٢ — انتقال محبة الله إلى العالم عن طريق محبة الآب للإبن.

٣ — قيام الإبن بأعمال خير وصلاح نحو العالم هي أصلاً أعمال الله الخاصة لم يكن ممكناً أن يقوم بها إلاَّ الآب شخصياً.

٤ — تقديم الطاعة والمحبة والمجد لله الآب. قام بها الإبن نيابة عن العالم فكانت أعظم عمل تقبّله الله الآب من البشرية؛ جاء على مستوى عظمته.

٥ — رفع حالة الإنسان عامة من حالة العبودية إلى حالة البنوّة لله، كعمل يستحيل أن يقوم به إلاَّ الإبن بمؤهلاته الخاصة جداً.

٦ — إيجاد علاقة حب صميمية بين البشرية والله الآب تسمح بأن يطلب الإنسان من الله مهما يشاء باسم ابنه فيستجيب الله بتوسط شفاعة الإبن عند الآب.

٧ – كل مخصصات الإبن عند الآب من حب ومجد وحياة أبدية سلّمه الإبن للبشرية «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني.» (يو١٧: ٢٢)

ثانياً: «الآب»: ورود الكلمة في الإنجيل بصورتها المطلقة:

أ – الآب الذي أرسلني:

٥: ٣٦: «هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن **الآب** قد أرسلني».

٥: ٣٧: «**والآب** نفسه الذي أرسلني يشهد لي».

٦: ٤٤: «لا يقدر أحد أن يُقبل إليَّ إن لم يجتذبه ,,**الآب**،، **الذي أرسلني**».

٦: ٥٧: «**كما أرسلني الآب** الحي وأنا حيٌّ بالآب، فمَن يأكلني **فهو يحيا بي**».

٨: ١٦: «وإن كنت أنا أدين فدينونتي حق لأني لست وحدي بل أنا **والآب الذي أرسلني**».

٨: ١٨: «أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي ,,**الآب**،، **الذي أرسلني**».

١٠: ٣٦: «فالذي قدّسه **الآب وأرسله** إلى العالم أتقولون له إنك تجدف لأني قلت إني ابن الله».

١٢: ٤٩: «لأني لم أتكلم من نفسي لكن **الآب الذي أرسلني** هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم».

١٤: ٢٤: «الكلام الذي تسمعونه ليس لي بل ,,**للآب**،، **الذي أرسلني**».

٢٠: ٢١: «فقال لهم يسوع أيضاً: سلام لكم. كما **أرسلني الآب** أُرسلكم أنا».

وضع لفظ «الله» بدل «الآب» في إرسال الإبن:

٣: ١٧: «لأنه لم **يرسل** ,,**الله**،، **ابنه** إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم».

٣: ٣٤: «لأن الذي **أرسله الله** يتكلم بكلام الله».

٦: ٢٩: «أجاب يسوع وقال لهم هذا هو **عمل** ,,**الله**،، أن تؤمنوا بالذي **هو أرسله**».

٨: ٤٢: «لأني خرجت من **قِبَلِ الله** وأتيت. لأني لم آتِ من نفسي».

المسيح يخاطب الآب في الصلاة بصفته الإله الحقيقي الذي أرسله:

١١: ٤١و٤٢: «ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال: **أيها الآب** أشكرك لأنك سمعت لي... ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت. ليؤمنوا **أنك أرسلتني**».

١٧: ٣: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك **أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته**».

١٧ :٨: «وهم قبِلُوا وعلموا يقيناً أني خرجت من عندك وآمنوا **أنك أنت أرسلتني**».
١٧ :١٨: «**كما أرسلتني** إلى العالم أرسلتهم أنا إلى العالم».
١٧ :٢١: «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا ليؤمن العالم **أنك أرسلتني**».
١٧ :٢٣: «أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد وليعلم العالم **أنك أرسلتني** وأحببتهم كما أحببتني».
١٧ :٢٥: «أيها الآب البار إن العالم لم يعرفك أما أنا فعرفتك وهؤلاء عرفوا **أنك أنت أرسلتني**».

ب ـ الآب يعطي الإبن:

١٧ :١١: «أيها الآب القدوس احفظهم **في اسمك** ,, **الذي أعطيتني**،، ليكونوا واحداً كما نحن.» (٨)
١٧ :١٢: «حين كنت معهم في العالم كنت أحفظهم **في اسمك الذي أعطيتني**».
١٧ :٢٢: «وأنا قد **أعطيتهم المجد الذي أعطيتني** ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد».
١٧ :٢٤: «أيها الآب أريد أن هؤلاء **الذين أعطيتني** يكونون معي حيث أكون أنا».
١٧ :٨: «لأن الكلام الذي أعطيتني قد أعطيتُهم».
٥ :٣٦: «وأما أنا فلي شهادة أعظم من يوحنا **لأن الأعمال التي أعطاني الآب لأُكمِّلها** هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني».
١٧ :٤: «أنا مجّدتُك على الأرض. **العمل الذي أعطيتني** لأعمل قد أكملته».
٣ :٣٥: «الآب يحب الإبن وقد **دفع (أعطى) كل شيء** في يده».
١٣ :٣: «يسوع وهو عالم أن الآب قد **دفع (أعطى) كل شيء** إلى يديه».
٥ :٢٦: «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك **أعطى الإبن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته**».
٥ :٢٢: «لأن **الآب** لا يدين أحداً بل قد **أعطى كل الدينونة للإبن**».
٥ :٢٧: «**وأعطاه سلطاناً أن يدين** أيضاً لأنه ابن الإنسان».
١٧ :٢: «مجِّد ابنك ليمجّدك ابنك أيضاً **إذ أعطيته سلطاناً** على كل جسد ليعطي حياة أبدية **لكل مَن أعطيته**».
٦ :٣٧: «كل ما يعطيني الآب فإليّ يُقبل ومَن يُقبل إليَّ لا أُخرجه خارجاً».

---

(٨) بحسب الأبحاث ومراجعة المخطوطات الموثوق بها ثبت صحة «... اسمك الذي أعطيتني»، وليس «... الذين أعطيتني».
أنظر: Schnackenburg, According to St. John, vol. 3, p. 179.

٦: ٣٩: «وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني أن كل ما أعطاني لا أُتلف منه شيئاً بل أقيمه في اليوم الأخير».

١٠: ٢٩: «أبي الذي أعطاني إياها (الخراف) هو أعظم من الكل».

١٧: ٦: «أنا أظهرت اسمك للناس الذين أعطيتني من العالم».

١٧: ٧: «والآن علموا أن كل ما أعطيتني هو من عندك».

١٨: ٩: «ليتم القول الذي قاله إن الذين أعطيتني لم أهلك منهم أحداً».

٦: ٣٢—٣٥: «أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء: لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم... أنا هو خبز الحياة...

و٥١: الخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم».

وهذه هي أعظم عطية أعطاها الله الآب للعالم على أساس المحبة، أعطاه المسيح مبذولاً من أجل حياة العالم حتى لا يهلك كل مَن يؤمن به!

١٢: ٤٩و٥٠: «لأني لم أتكلم من نفسي لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم وأنا أعلم أن وصيته (تُختم بالصليب) هي حياة أبدية».

١٤: ٣١: «ولكن ليفهم العالم أني أحب الآب وكما أوصاني الآب هكذا أفعل».

١٠: ١٨: «ليس أحد يأخذها (أي نفسه) مني بل أضعها أنا من ذاتي (أموت بإرادتي). لي سلطان أن أضعها (أموت) ولي سلطان أن آخذها أيضاً (القيامة) هذه الوصية قبلتها من أبي!!».

١٥: ١٠: «إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي كما أني أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبت في محبته».

١٨: ١١: «فقال يسوع لبطرس: اجعل سيفك في الغمد. الكأس التي أعطاني الآب ألا أشربها؟».

وكانت هذه العطية هي لمجد المسيح وخلاص العالم.

ج — الآب يحب الإبن:

كَشْفُ سر عمق وحدة الآب مع الإبن وانعكاسها على حياة المسيح على الأرض.

١٣: ٣٥: «الآب يحب الإبن وقد دفع كل شيء في يده».

٥: ٢٠: «الآب يحب الإبن ويريه جميع ما هو يعمله وسيريه أعمالاً أعظم...».

١٠: ١٧: «لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي لآخذها أيضاً».

١٥ : ٩: «**كما أحبني الآب** كذلك أحببتكم أنا».

هذه الآيات والآيات الأخرى التي توضح الإتفاق بل الإنطباق الكلي بل الوحدة المشتركة في القول والعمل والسلوك حتى الموت، هذه كلها منبعها وحدة الجوهر أي الطبيعة مُضافاً إليها عمق الحب الإلهي المطلق بين الآب والإبن. هذا الذي رفع سيرة المسيح إلى مستوى الألوهة في كل شيء ولكنها ألوهة تفيض بالحب والحنان والإنعطاف الفائق نحو البشر. فهي قوة لاهوت مصبوبة في قالب من العواطف البشرية التي تسمو فوق قامة البشر. وهذا بالتالي ينطق بالعلاقة التي تربط المسيح بالله فهي فعلاً وبالضرورة علاقة ابن بآب، إنما على مستوى لاهوت. أو كيف يمكن أن يقول المسيح «قد أعطيت كل سلطان في السماء وعلى الأرض»؟ أو «كل شيء دُفع في يدي»؟ أو أن كل الدينونة أُعطيت لي؟ أو أنه يعطي الحياة الأبدية ويقيم من الموت الجسدي والروحي؟ أو أن الآب يمجّده عند ذاته بالمجد الذي له قبل كون العالم؟ أو أنه في الآب والآب فيه أو أنه يعرف كل ما عند الآب؟ أو أن كل ما للآب هو له أو أنه هو والآب واحد؟ لهذا قال المسيح عن حق أن مَن يعرفه يعرف الآب ومَن يراه فقد رأى الآب!! وكانت هذه منتهى رسالته في استعلان الله.

د ــ الآب يشهد للإبن[٩]، يضمن ويساند ويختم:

٥ : ٣٧: «**الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي**».

٨ : ١٨: «**أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني**».

واضح من كل ما سلف من الآيات أن الآب أرسل الإبن فصار يضمن رسالته ويساندها وخاصةً فيما يضطلع به الإبن من استعلان حقيقة الله وعمل الخلاص الذي جاء ليكمله. كما هو واضح أنه وقف وراء كل الأعمال والأقوال: «لأني لم أتكلم من نفسي لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم وأنا أعلم أن وصيته هي حياة أبدية فما أتكلم أنا به فكما قال لي الآب هكذا أتكلم.» (يو١٢: ٤٩و٥٠)

كما أنه واضح أيضاً كيف يساند الآب كل مجهودات الإبن فهو الذي يجذب المهيَّئين للإيمان ليُقبلوا إليه (يو٦: ٣٧و٤٤)؛ كما يساند بشهادته سواء العلنية من السماء بالصوت المسموع (يو١٢: ٢٨) أو بالأعمال التي تبرز مجد الإبن (يو٥: ٣٦). وما شهادة المعمدان للمسيح التي كان لها أكبر الأثر في بدء الخدمة إلاّ تدخلٌ مباشر من الآب. كما أن إرسال الروح القدس لتكميل الشهادة ولمؤازرة عمل المسيح وتكميله وتمجيده ما هي إلاّ تدبير خاص من الآب. بل وأيضاً فإن

---

(٩) أنظر الباب الثالث، الفصل الأول ص ١١٢.

قبول واستجابة صلاة المؤمنين باسم المسيح هي بحد ذاتها تمجيد للآب وللإبن وتزكية فائقة لعمله: «ومهما سألتم باسمي فذلك أفعله ليتمجّد الآب بالإبن» (يو١٤: ١٣)؛ «في ذلك اليوم تطلبون باسمي. ولست أقول لكم: إني أسأل الآب من أجلكم لأن الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني وآمنتم أني من عند الله خرجت.» (يو١٦: ٢٦و٢٧)

ثالثاً: «أبي»: ورود الكلمة بصورتها التخصصية في فم المسيح:

كثيراً ما يدعو المسيح الله الآب أباً خاصاً له «أبي»:

٢: ١٦: «لا تجعلوا **بيت أبي** بيت تجارة».

٥: ١٧: «**أبي** يعمل حتى الآن وأنا أعمل».

٥: ٤٣: «أنا قد أتيت **بإسم أبي**».

٦: ٣٢: «**أبي** يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء».

٨: ١٩: «لو عرفتموني لعرفتم **أبي** أيضاً».

٨: ٢٨: «أتكلم بهذا كما علّمني **أبي**».

٨: ٤٩: «لكني أكرم **أبي** وأنتم تهينونني».

٨: ٥٤: «**أبي** هو الذي يمجّدني».

١٠: ١٨: «هذه الوصية قبلتها من **أبي**».

١٠: ٢٥: «الأعمال التي أنا أعملها **باسم أبي** هي تشهد لي».

١٠: ٢٩: «**أبي** الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل ولا يقدر أحد أن **يخطف من يد أبي**».

١٠: ٣٢: «أعمال كثيرة حسنة أريتكم من عند **أبي**».

١٠: ٣٧: «إن كنت لست أعمل **أعمال أبي** فلا تؤمنوا بي».

١٤: ٢: «**في بيت أبي** منازل كثيرة».

١٤: ٧: «لو كنتم عرفتموني لعرفتم **أبي** أيضاً».

١٤: ٢٠: «في ذلك اليوم تعلمون **أني أنا في أبي** وأنتم فيَّ وأنا فيكم».

١٤: ٢١: «الذي يحبني **يحبه أبي**».

١٤: ٢٣: «إن أحبني أحد يحفظ كلامي **ويحبه أبي**».

١٥: ١: «أنا الكرمة الحقيقية **وأبي الكرام**».

١٥: ٨: «بهذا **يتمجّد أبي** أن تأتوا بثمر كثير فتكونون تلاميذي».

١٥: ١٠: «كما أني أنا قد حفظت **وصايا أبي** وأثبت في محبته».

١٥:١٥: «لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي».
١٥:٢٤: «أبغضوني أنا وأبي».
١٦:١٠: «إني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضاً».
٢٠:١٧: «إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم».

لم يجرؤ أحد غير المسيح أن يدعو الله أباً خاصاً له بهذا المعنى الفريد «أبي». فنحن ندعو الله «أبانا» بمعنى أنه أب لجميعنا بالتساوي، وأما أن يدعوه أحد «أبي» فهذا يعني أن له بنوّة فريدة من نوعها أي أنه «الإبن الوحيد». ولم يفُتْ على الفريسيين ما في هذه العبارة من خطورة إذ لما قال لهم المسيح «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» أرادوا أن يرجموه بتهمة أنه «**دعا الله أباً خاصاً له** πατέρα ἴδιον جاعلاً نفسه **مساوياً لله** ἴσον τῷ θεῷ» (يو٥:١٨ — بحسب الأصل اليوناني). فعبارة «أبي» في فم المسيح تعني أن المسيح يعتبر نفسه ابن الله الوحيد بل والمساوي أيضاً للآب، بشهادة الفريسيين أنفسهم!

ويلاحظ أن في إنجيل يوحنا كله لا نجد أي ذكر لله بأنه أب لنا إلا مرة واحدة فقط في الآية الأخيرة التي ذكرناها، وهي التي قالها الرب للمجدلية بعد القيامة «إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم». فالقديس يوحنا يحتجز إعلان أبوّة الله لنا إلى ما بعد القيامة (بخلاف الأناجيل الثلاثة الأولى — أنظر مثلاً مت٦:٣٢). وفي هذا إشارة لاهوتية إلى أن بنوّتنا نحن لله لم تتحقق بالفعل إلا بعد الصليب والقيامة، أي بعد أن دفع ثمنها الإبن الوحيد. وفي نص هذه الآية «أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» ما يفيد التبادل الخلاصي العجيب الذي تم بيننا وبين «ابن الله». فالله أصلاً ليس أباً لنا بل هو أب للإبن الوحيد، وأما لنا فهو إلهنا ونحن عبيد له، كذلك الله لم يكن أصلاً إلهاً للإبن الوحيد بل آب مساوٍ في الكرامة والألوهة، ولكن لما تجسد صار الله إلهاً لإبن الإنسان!!

فلما اشترك ابن الله في حال عبوديتنا، أشركنا معه في بنوته، فصار أبوه الخاص أباً لنا نحن أيضاً. «هو أخذ الذي لنا (حال عبوديتنا فصار الله إلها له)، وأعطانا الذي له (البنوة لله فصار الله أباً لنا) فلنسبحه ولنمجده ولنزيده علواً»!

لكن لينتبه القارىء! فإن بنوّتنا نحن لله لا يمكن أبداً أن تتساوى مع بنوة «ابن الله» الوحيد. فنحن أبناء بالتبني، وأما هو فهو يبقى الإبن الوحيد بحسب الطبيعة والجوهر. وإمعاناً في إبراز الفرق بين بنوتنا نحن لله وبنوة الإبن الوحيد، يتّبع القديس يوحنا قاعدة ثابتة في كل إنجيله ورسائله ولا يحيد عنها ولا مرة واحدة، وهي أنه يدعونا نحن باستمرار «أولاد الله» τὰ τέκνα τοῦ θεοῦ ،

الطريق من الآب وإليه:

لقد افتتح الآب بنفسه الطريق من السماء إلى قلب الإنسان بإرساله الإبن، كما افتتح الإبن بموته على الصليب وارتفاعه الطريق من الإنسان إلى قلب الله. وبمنتهى رضى الآب أعد الإبن منازل كثيرة في بيت الآب مهيأة لاستقبال مَن سيأخذهم إلى هناك «ليكونوا حيث يكون هو»، «وليتبعوا الخروف أينما سار».

الآب هنا يأخذ على عاتقه تكريم محبي ابنه ويقبلهم ويحبهم «لا تضطرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي. في بيت أبي منازل كثيرة... أنا أمضي لأُعدَّ لكم مكاناً. وإن مضيتُ وأعددتُ لكم مكاناً آتي أيضاً وآخذكم إليَّ حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً. وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق... أنا هو الطريق... ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي... لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً. ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه... الذي رآني فقد رأى الآب.» (يو١٤: ١—٩)

* * *

في جميع هذه الآيات التي انتخبناها والتي تخص «الإبن» والتي تخص «الآب» تتضح العروة الوثقى التي تربط الآب بالإبن، **وتُستعلن أعماق الصلة بينهما التي تؤلف جوهر الديانة المسيحية ومنهجها وقوة الخلاص القائمة على هذه الصلة والنابعة منها والتي تصب فيها**(١٠). حيث محور المسيحية الأساسي وقلبها النابض وسرُّها المعلن يتركز في صفة المسيح الجوهرية التي تجسد بها: أنه **«ابن الله»**. فهي كلمة السر أو مفتاح الإستعلان الذي به ندخل إلى الله الآب وإلى مضمون الخلاص والحياة الأبدية وتجديد الإنسان. بل ونكتشف من هذه الصلة أسرار الحب الإلهي بين الآب والإبن والعمل المشترك النابع من هذا الحب بائتلاف يفوق الوصف حباً في الإنسان وخلاصه وإعادته إلى كرامته الأولى.

ومن نجاح المسيح المذهل في طاعة الآب لتكميل إرادة الخلاص التي حملها إلى الأرض حتى الموت، وتكريمه وتمجيده للآب على الأرض وتكميله للعمل الذي أعطاه إياه، وفتح باب الخلاص الأبدي وإعلان بدء ملكوت الله بكل قدرة وسلطان، الذي نال عليه كل المجد «مجّدت وأمجّد أيضاً» يتضح بأبلغ بيان أنه حقاً **«ابن الله»**.

---

(١٠) أنظر هامش (١) ص ١١٣.

أما إرسال الروح القدس «روح الموعد القدوس» حسب وعد الإبن الذي تم علنا لتكميل الشهادة والرسالة التي اضطلع بها «ابن الله»، والذي لا يزال يعمل حتى اليوم وهذه الساعة في كل أنحاء العالم؛ فهو ختم صِدْق الله والمسيح الذي نتمسك به حتى الموت.

وبهذا صار «ابن الله» هو رأس مال الكنيسة وأساسها وجوهر لاهوتها وقوة خلاصها وفخر مسيحيتها.

وهكذا وفي ختام بحثنا عن «ابن الله»، وهي الصفة الجوهرية القائمة في الله التي استُعلنت في المسيح وكانت هي سر حياته وموته وقيامته والتي صارت أساساً للاهوت المسيحي، نجد أن هذه الصفة في إنجيل يوحنا مُعلنة بصورة عملية بعيداً عن مجادلات الفكر كحقيقة ينصبُّ عملها في خلاص الإنسان على أساس الفداء، أي الموت الذي جازه المسيح عن البشرية كلها وقيامته التي أنهى بها حكم الموت عن الإنسان.

وبذلك صار جوهر الإيمان المسيحي هو التجديد الروحي الكلي للمؤمن الذي صنعه المسيح بدمه وروحه ليؤهله للحياة الأبدية مع الله: «الحق الحق أقول لك: إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله»، «الحق الحق أقول لك: إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله»، «المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح.» (يو٣: ٣و٥و٦)

— «عمدوهم باسم الآب والإبن والروح القدس.» (مت٢٨: ١٩)

— «مَن آمن واعتمد خلص.» (مر١٦: ١٦)

٥ — «أنا هو» = ἐγώ εἰμι
وهو لقب الكينونة الإلهية

ينفرد إنجيل يوحنا دون بقية الأناجيل في استخدام هذا اللقب كما هو في أسفار العهد القديم بصورة مكثفة، فقد ورد فيه هذا اللقب على لسان المسيح ٢٦ مرة في حين ورد في الأناجيل الثلاثة الأخرى أربع مرات.

ويُعتبر هذا اللقب لقباً استعلانياً في إنجيل يوحنا، فهو يلفت النظر أن المتكلم هو نفس المتكلم في أسفار العهد القديم: «أنا هو الرب»، «أنا هو الرب الإله».

ويزيد إنجيل يوحنا في الإمعان للتأكيد على استعلان المسيح بهذا اللقب، بأن جعله اسماً شخصياً للمسيح في بعض المواضع، تماماً كما جاء كذلك في بعض مواضع العهد القديم للتعبير عن اسم الله. بل ويزيد على ذلك — ولكن بصورة استعلانية يكشف فيها مصدر الإسم — بأن يقول المسيح لله: «أيها الآب القدوس احفظهم في **اسمك الذي أعطيتني**» (يو١٧: ١١)؛ و«حين كنت معهم في العالم كنت أحفظهم في **اسمك الذي أعطيتني**» (يو١٧: ١٢). بمعنى أن اسم المسيح «أنا هو» الذي نادى به هو «اسم الله» الذي أعطاه الله للمسيح ليتكلم به معلناً أنه هو هو كلمة الله وأنه هو هو رسالة الله الشخصية، وهو حينما يتكلم فالله هو المتكلم.

وبسبب أهمية هذه الحقيقة ووضعها اللاهوتي الخطير، أوليناه عناية فائقة لما يضفيه هذا اللقب على المسيح في إنجيل يوحنا من قيمة استعلانية تفوق في وزنها كثيراً الإعتبارات الأخرى.

ولهذا رأينا أن نقدم مختصراً نبحث فيه أصول هذا اللقب ومعانيه. وقد رتبنا هذا البحث على النحو الآتي:

أولاً: لقب «أنا هو ἐγώ εἰμι» في أسفار العهد القديم.

ثانياً: لقب «أنا هو ἐγώ εἰμι» في إنجيل يوحنا.

ثالثاً: مقارنة للمضاهاة.

رابعاً[11]: فحص الأهداف الخلاصية لهذا اللقب على المستوى اللاهوتي المسيحي.

(١١) لم تُكتب كعنوان محدد، ولكن سنركّز اهتمامنا في أثناء عرضنا لهذه الثلاثة فقط على فحص الأهداف الخلاصية لهذا اللقب على المستوى اللاهوتي المسيحي.

أولاً : لقب «أنا هو ἐγώ εἰμι » في أسفار العهد القديم

جاء «أنا هو» في كلام الله خلال أسفار العهد القديم أول ما جاء ليعبّر عن اسم الله، كما أعْلمه لإبراهيم أولاً ثم موسى ثم شعب إسرائيل، ولكن بألفاظ متغيرة سنأتي على ذكرها جميعاً.

واسم الله في الحقيقة ليس، كأي اسم مجرد، اسم عَلَم يُعرف به الإنسان من بين الناس، ولكن اسم الله جاء يحمل طبيعة الله وصفاته، وهي عناصر أساسية يتكون منها الإسم، وصارت هي نفسها عناصر الإيمان بالله نفسه. لذلك يمتنع معرفة الله إلاّ إذا آمن الإنسان بعناصر هذا الإسم الذي تحوطه الأسرار والهيبة والجلال.

فالذي يؤمن باسم الله هو الإنسان الذي عرف طبيعة الله وأدرك صفاته وبالتالي انضوى تحت سلطانه وخضع لمشيئة صفاته. من هذا نفهم لماذا كان «الإسم»، أي اسم الله، محل رهبة ومخافة وحذر شديد. وتمدُّنا النسخة السبعينية لترجمة التوراة بالنص الأصلي والصحيح للآية لاويين ٢٤:١٦: «**كل مَن نطق بإسم الرب** موتاً يموت، كل جماعة إسرائيل ترجمه بالحجارة سواء كان دخيلاً أو مواطناً، يموت لأنه نطق بإسم الرب». ولكن الترجمة العربية أوردتها: «**كل مَن جدَّف**». إن اسم الله كان غير كلمة «**الرب**». أما كلمة «الرب» فقد وُضعت مكانها تفادياً لنطق الإسم الذي كان عليه هذا التحذير، وسيأتي الكلام عليه.

اسم الله: يَهْوَه YHVH

نقرأها في سفر الخروج ٣: ١٥: «وقال الله أيضاً لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل يَهْوَه(١٢) إله آبائكم إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلني إليكم».

ويهوه بحروفها اللاتينية **YHVH** (١٣) بدون تشكيل وردت بالإنجليزية **Yahwah**. ولكن في عصر النهضة حوالي سنة ١٦٠٠م عُدِّلت الكلمة فصارت تُكتب **Jehova**، غير أن الكلمة «يَهْوَه» بنطقها الأصلي ضاعت معالمها وطريقة نطقها من اللسان اليهودي، وذلك منذ حوالي سنة ٣٠٠ قبل الميلاد بسبب إحجامهم عن كتابتها أصلاً في الأسفار، إذ بسبب الخوف والرهبة من هذا الإسم

---

(١٢) جاء في هامش الكتاب المقدس ــ طبعة بيروت ــ تفسيراً لهذه الكلمة هكذا: [يهوه في العبرانية اسم علم للإله الحقيقي معناه «يكون» وقد تُرجم في هذه الترجمة بلفظة «رب»].

(١٣) أنظر: Oxford Dict. of Chr. Chur.: Yahwah

استبدلوه بالكلمة العبرية «أدوناي» التي في العربية «الرب»، وفي الإنجليزية Lord، وفي اليونانية κύριος كما جاءت في النسخة السبعينية، وفي اللاتينية Dominus كما جاءت في الفولجاتا، وفي الألمانية Herr، وفي الفرنسية Seigneur.

أصل كلمة يهوه وعلاقتها بـ «أنا هو» ἐγώ εἰμι :

أول ما جاءت كلمة «يهوه» كما سبق وقلنا كانت في سفر الخروج كتلقين من الله لموسى ليُعلم بها شعب إسرائيل. ولكن جذورها الأولى ظهرت في آية سابقة في نفس الأصحاح: «فقال موسى لله ها أنا آتي إلى بني إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني إليكم، فإذا قالوا لي: ما اسمه؟ فماذا أقول لهم؟ فقال الله لموسى: ,**أهيه الذي أهيه**،. وقال هكذا تقول لبني إسرائيل **أهيه** أرسلني إليكم.» (خر٣: ١٣—١٤)

وفي هامش الكتاب المقدس — طبعة بيروت — يقدم المترجم تفسيراً عربياً للكلمة ويقول: ومعناه «**أكون الذي أكون**». هذا يفسر لنا معنى اسم الله فهو يعني الكائن، لأن الأصل اليوناني لهذا الإسم «أهيه الذي أهيه» هو « ἐγώ εἰμι ὁ ὤν » وترجمتها بالإنجليزية « I am the being » أي «**أنا الكينونة**».

وقد وصلنا التفسير العبري لهذا الإصطلاح «أهيه الذي أهيه» إذ يقول أن معناها: « I am who cause to be »، أو« I am he who cause to be ». وترجمته: «أنا الذي أُقيم الكيان أو الوجود» أو «أنا هو الذي أُقيم الكيان أو الوجود».

أما ظهور الله لإبراهيم فقد عرَّف فيه نفسه لإبراهيم هكذا: «أنا الله القدير» (تك١٧: ١). وجاءت بالعبرية: «إلوهيم شداي».

وقد أعْلَم الله موسى أنه سابقاً لم يكن يُعرف بإسم يهوه «ثم كلم الله موسى وقال له أنا الرب وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء وأما باسمي ,**يهوه**، فلم أعرف عندهم.» (خر٦: ٢و٣)

بدء تدهور النطق واختفاء الكلمة «يَهْوَه» وظهور «أنا هو»:

وبسبب التحذير الواضح من نطق اسم الله كما جاء في لاويين ٢٤: ١٦ — طبعاً في غير الصلوات والتلاوات فإنهم اكتفوا بالكلمة «أدوناي» بدلاً منها — بدأ الإسم «يهوه» ينحصر في الإستخدام الطقسي فقط، ثم بعد ذلك بدأ يزحف على المخطوطات كلها، فلكي يتحاشى القارىء نطق يهوه — (التي لا نعرف الآن لا نحن ولا اليهود في كل العالم نطقها الصحيح) — وضعوا عليها

تشكيلاً من عندهم هو نفسه التشكيل الذي تنطق به أدوناي، وهو فتحة ثم ضمَّة ثم فتحة، حتى إذا لمح القارىء هذا التشكيل على كلمة YHVH ينطق آدُونَاي بدلاً عنها.

وأخيراً وفي القرن الثالث اتفق اليهود على حذف كلمة «يهوه» من المخطوطات، ووضع كلمة «أدوناي» عوضاً عنها مع البادئة «**أنا هو**»، حيث «**هو**» تأتي من كلمة «أهْيَه الذي هو أهْيَه» أي الكائن، وفي مفهومنا العربي تعني «الهوية» أي الكينونة الشخصية أو ما نسميه تحقيق الشخصية. فـ«أنا هو» تعني «**أنا الكائن بذاتي**». لذلك فإن «**هو**» تحسب في العبري في هذا الموضع فعلاً وليس ضميراً، لذلك تجيء في الإنجليزية I am . فبدل أن كانت تُقرأ «**أنا يهوه**» صارت «**أنا هو أدوناي**»، «أنا هو الرب». وكثيراً ما تأتي «**أنا هو**» بدون تعريف آخر، فتكون هي التعبير الكامل عن «يهوه» أي اسم الله.

وهكذا بعد أن كان الإسم «يهوه» هو الإسم الوحيد، بدأ يزاحمه الإسم «أدوناي». فإزاء ورود «يهوه» ٦٧٠٠ مرة في كافة الأسفار في القرن العاشر قبل الميلاد، ورد لفظ «أدوناي» ٤٥٠ مرة، وكثيراً ما كان يُضاف «أدوناي» على «يهوه» للتفخيم: «السيد الرب»[١٤]. حتى جاء زمن النسخة السبعينية حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، فأُبدلت يهوه نهائياً بأدوناي = الرب ὁ κύριος.

ولكن بقيت «**أنا هو**» ἐγώ εἰμι هي التعبير المباشر للإسم «يَهْوَه». وهي شديدة التأثير على السمع، حيث تعني كما قلنا: «**أنا هو الكائن بذاتي، والمقيم لكل كيان**». ولا يزال هذا الإسم يهوه وعلاقته بـ«أنا هو» محل أبحاث.

أنا هو ἐγώ εἰμι:

وهي إما تجيء بمفردها لتعبِّر عن الإسم الكامل لله. أو تجيء ومعها الأسماء الأخرى:

١ — «أنا هو» وباليونانية ἐγώ εἰμι .

وبالعبرية «أني هـُ ani hu » = אֲנִי־הוּא:

٢ — أو تجيء ومعها «**الرب**» وباليونانية κύριος .

وبالعبرية «أدوناي adonai ».

٣ — أو تجيء ومعها «**الرب الإله**» وباليونانية κύριος ὁ θεός .

وبالعبرية «**أني أدوناي إيل:** el, elohim ».

(١٤) أنظر مثلاً تك ١٥: ٢ (אֲדֹנָי יְהוִה) (أدوناي يهوه) حيث تُرجمت «أيها السيد الرب».

ويلاحظ أنها في العبرية لا تأخذ الفعل hu «هو» = «am» فهي «أني أدوناي». أما في اليونانية فهي إما تأتي بدون فعل أو بالفعل «am» = «ἐγώ εἰμι» أو «ἐγώ». علماً بأن إضافة «الرب»، و«الإله» أو «الرب الإله» مع «أنا هو» تعتمد على موضع اسم الله من الآية: هل يقولها الله للتعريف بنفسه أو للتأكيد على وجوده أو للتحذير. ولكن للأسف الشديد فإنه وبالرغم من الحساسية الشديدة من جهة الإضافة أو الحذف بالنسبة للفظ «أنا هو» للتعبير عن اسم الله، نجد النسخة العربية كثيراً ما تحذف «هو» من النص وتقول مباشرة «أنا الرب» أو «أنا الرب الإله» في حين أنها تأتي في النص اليوناني في السبعينية **«أنا هو»**. وهذا في الحقيقة يضيّع علينا في النسخة العربية مفهوم «أنا هو» بحد ذاته في الآية. لذلك التزمنا بالرجوع إلى النص اليوناني في السبعينية في إيراد الآيات بجوار النص العربي.

وسوف يندهش القارىء حينما يعلم أن اسم الله **«أنا هو»** سواء جاء هكذا مطلقاً بدون إضافات أو مع الإضافات مثل «أنا هو الرب» أو «أنا هو الرب الإله»، جاء في مجموع أسفار العهد القديم ١٠٦ مرات، في حين أنه جاء في إنجيل يوحنا ٢٦ مرة، وفي بقية الأناجيل الثلاثة أربع مرات. وهذا يعني بوضوح أن إنجيل يوحنا هو إنجيل استعلاني كُتب بالروح خصيصاً ليستعلن «أنا هو الله» في كل ما يختص بـ«أنا هو» من معانٍ وأهداف لاهوتية.

وقد ورد هذا النص «أنا هو» في سفر اللاويين ٢٤ مرة، وفي الأصحاح التاسع عشر بمفرده ورد اثنتي عشرة مرة. وهذا بالنسبة لكونه السفر المختص بالفرائض والوصايا الهامة جداً، والتي لا يزال معظمها يُعتبر من أرقى التوصيات الأخلاقية الموروثة في العالم المتحضر مما يعني أنها كانت فرائض تأسيسية للبشرية كلها، ولذلك دعَّمها باسمه إزاء كل فريضة هامة منها.

كذلك ورد في سفر حزقيال ٣٢ مرة، وهو سفر الأخرويات والرؤى والنبوات عن أيام المسيا، لذلك جاءت «أنا هو» كضمان عهد وتوكيد وَعْدٍ.

أما سفر إشعياء ففي جزئه الأول ١ ــ ٤٠ المعروف بإشعياء الأول فلم يَرِدْ فيه ولا مرة واحدة. ولكن من أصحاح ٤١ ــ ٦١ جاء ١٩ مرة، وهو ما يسمى بسفر إشعياء الثاني، وكلها تختص بتعزية إسرائيل عمَّا أصابها وبما سيُعوَّض لها بالحب والبركات والمعرفة والنور في أواخر الأيام.

علماً بأننا أسقطنا من أمثلتنا كل الآيات التي لم يرد فيها **«أنا هو»** أي التي تقول «أنا الرب» أو «أنا الرب الإله»، وذلك لسبب واحد هو أننا بصدد شرح **«أنا هو»** ومعناها وقيمتها في إنجيل يوحنا.

وقد حدث في أيام ما قبل المسيح بمدة أن زاد التدقيق في عدم ذكر اسم «يهوه» حتى في الطقس، فما كان من الكهنة الذين كانوا يسبّحون بمزمور ١١٧ وهم يدورون حول المذبح بأوصانا أن استعاضوا بالإلهام عن يهوه في «أنا هو يهوه» بأن قالوها تلقائياً «**أنا وهو**»(١٥) بدل «أنا هو يهوه» أي بإضافة واو العطف. ومنذ ذلك الحين سرت في كل الليتورجيات وفسرها المفسرون بعد ذلك (رابي فنحاس Pinchas — منتصف القرن الثاني) بأنها تعني إسرائيل كشعب «أنا وإسرائيل». ولكن الواضح أنها تعبير سرّي عن الله. وواضح أيضاً أن المسيح استخدمها أو فكّ رموزها حينما كان يقول «**أنا وأبي**»، «**ولست أنا وحدي**»، «**أنا والآب الذي أرسلني**».

المواضع الأساسية التي جاءت فيها «أنا هو ἐγώ εἰμι» في العهد القديم

لكي نخرج بفكرة عامة جامعة عن الإصطلاح المقدس «أنا هو ἐγώ εἰμι» الذي جاء في العهد القديم معبّراً عن شخص الله، يمكننا حصر المواضع والأسباب التي جاءت فيها «أنا هو ἐγώ εἰμι» في المجموعات المختارة الآتية:

١ — المجموعة الأولى:

ويأتي «**أنا هو**» لتستعلن شخص الله وكأنها رد على سؤال مضمر: **مَنْ أنت؟** فالله هنا يبادر بتعريف نفسه.

أ — خر٣: ١٣و١٤: «فإذا قالوا لي ما اسمه؟ فماذا أقول لهم؟ فقال الله لموسى: أهيه الذي أهيه». وقد جاءت في السبعينية ἐγώ εἰμι ὁ ὤν ويفهمها العبرانيون أنها تعني إما: I am he who cause to be أو I am who cause to be وترجمتها «**أنا هو الذي يقيم الوجود**» أو «**أنا الذي أقيم الوجود**». ولكن النسخة الإنجليزية ترجمتها I am the being أي «**أنا الوجود**» أو «**أنا الكينونة**».

والكلمة المُحيِّرة هنا هي ὤν. ولكي نعطي فكرة عنها نقرأها في آية أخرى وردت فيها بمعنى **القادر على كل شيء أو كلّي القدرة:**

---

15 C.H. Dodd. op. cit. 95.

خر٦: ٣: «وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب **,بأني الإله القادر على كل شيء**،...» باليوناني θεός ὤν . وتُقرأ « ὤν » في النسخة العبرية = شدّاي، وتُترجم بالإنجليزية هكذا God Almighty . وبهذا تكون الكلمة اليونانية « ὤν » قد ظهرت أول ما ظهرت في زمن إبراهيم أب الآباء، وكانت تعني «شدّاي» أي القادر على كل شيء = omnipotent . وظلت هذه الصيغة بهذا المعنى قائمة ومستخدمة بكل لغة حتى هذا اليوم أي «كلّي القدرة».

ب ــ تك١٧: ١: **«وظهر الله لإبراهيم وقال له: أنا الله القدير. سِرْ أمامي وكُن كاملا»**.

هذا هو الموقف الذي أشارت إليه الآية السالفة ونفس النص أيضاً **«أنا الله القدير»**. وواضح أن الله هنا يعرِّف نفسه لإبراهيم لأول مرة. فهي بداية تاريخ تعرُّف البشرية على الله، أو بالحري أول استعلان الله لنفسه للبشرية على مستوى التاريخ. ويلاحظ أن الترجمة العربية أسقطت «هو» مع أنها موجودة في النسخة السبعينية « ἐγώ εἰμι ὁ θεός σου » «أنا هو إلهك». ولكن في الأصل العبري جاءت: «أني إيل شدّاي» بدون «هو»، لأن «هو» هي أصلاً مرتبطة بـ«يهوه»، ويهوه هو الإسم الكلّي القداسة الذي أعلن أول ما أعلن لموسى النبي (خر٦: ٣): «وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب **,بأني الإله القادر**، على كل شيء وأما بإسمي **,يَهْوَه**، فلم أُعرف عندهم».

وهكذا صار **«أنا هو يهوه»** هو الإسم الرسمي عند شعب إسرائيل منذ أيام موسى النبي: «وقال الله أيضاً لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل **يَهْوَه** ــ إله آبائكم، إله إبراهيم، وإله إسحق، وإله يعقوب ــ أرسلني إليكم، **هذا اسمي إلى الأبد وهذا ذكري إلى دور فدور.**» (خر٣: ١٥)

ج ــ تك٢٦: ٢٤: **«فظهر له الرب في تلك الليلة وقال له: أنا إله إبراهيم أبيك. لا تخف لأني معك»**.

وفي الترجمة السبعينية جاءت « ἐγώ εἰμι ὁ θεός Ἀβραάμ »، ويلاحظ أن السبعينية جاء فيها «**أنا هو** إله إبراهيم»، بينما جاءت في

الترجمة العربية بدون «هو»: «أنا إله إبراهيم». كما يلاحظ أيضاً أن التعريف بإسم «أنا هو» في هذه الآية جاء معتمداً على ما شرحه الله عن نفسه من المعاني سابقاً لإبراهيم بسبب قوله: «أنا إله أبيك».

د — خر٧:٥: **«فيعرف المصريون أني أنا الرب حينما أمدُّ يدي على مصر وأُخرج بني إسرائيل من بينهم».**
في السبعينية جاء فيها **«أنا هو الرب»** « ἐγώ εἰμι ὁ κύριος ».

هـ — خر١٤:١٨: **«فيعرف المصريون أني أنا الرب حين أتمجّد».**
في السبعينية جاء فيها **«أنا هو الرب»** ἐγώ εἰμι ὁ κύριος .

و — مز٤٦:١٠: **«كُفّوا واعلموا أني أنا هو الله»** ἐγώ εἰμι ὁ θεός .

٢ — المجموعة الثانية:

وتأتي الأوصاف المضافة للإسم «أنا هو» لتفيد الجواب على سؤال مضمر: **مَنْ أنت؟ وماذا تريد؟** ومواضعها دائماً في إعطاء الوصايا العشر وفي فرائض سفر اللاويين، وخاصة عند الكلام عن القداسة والتقديس لإعطاء الوصايا ضغطاً وتأكيداً أو رهبة ووقاراً.

أ — خر٢٠:٢و٣: **«أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر... لا يكن لك آلهة أخرى أمامي»**. وفي السبعينية جاءت: **«أنا هو الرب إلهك»**.

ἐγώ εἰμι κύριος ὁ θεός σου

ب — خر٢٠:٥: **«لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور»**. وفي السبعينية جاءت: **«أنا هو الرب إلهك»**.

ἐγὼ γάρ εἰμι κύριος ὁ θεός σου

ج — لا١١:٤٤: **«إني أنا الرب إلهكم فتتقدسون وتكونون قديسين لأني أنا قدوس»**. وفي السبعينية جاءت: **«أنا هو الرب إلهكم»**.

ἐγώ εἰμι κύριος ὁ θεὸς ὑμῶν

د — لا١٩:١٢: **«لا تحلفوا باسمي للكذب فتُدنّس اسم إلهك. أنا الرب»**. وفي السبعينية جاءت: **«أنا هو الرب إلهكم»**.

ἐγώ εἰμι κύριος ὁ θεὸς ὑμῶν

هـ - لا ١٩: ١٤: «لا تشتم الأصم وقدام الأعمى لا تجعل معثرة. بل اخشَ إلهك. أنا الرب». وفي السبعينية جاءت: «أنا هو الرب إلهكم».

ἐγώ εἰμι κύριος ὁ θεὸς ὑμῶν

٣ - المجموعة الثالثة:

وتأتي الأوصاف المضافة للإسم «أنا هو» لتفيد الجواب على سؤال مضمر: مَن أنت؟ وما هي قدراتك الذاتية؟ وهي التي تختص بتفرُّد الله في الألوهة والقدرة والخلاص:

أ - يوئيل ٢: ٢٧: «وتعلمون أني أنا في وسط إسرائيل وأني أنا الرب إلهكم وليس غيري». وفي السبعينية تجيء: «أنا هو وأنا الرب إلهكم».

ἐγώ εἰμι, καὶ ἐγὼ κύριος ὁ θεὸς ὑμῶν

ب - إش ٤٨: ١٢ و١٣:

«اسمع لي يا يعقوب وإسرائيل الذي دعوتُه. أنا هو. أنا الأول وأنا الآخر ويدي أسست الأرض ويميني نشرت السموات». وفي السبعينية: «أنا هو الأول وأنا هو إلى الدهر».

ἐγώ εἰμι πρῶτος καὶ ἐγώ εἰμι εἰς τὸν αἰῶνα.

ج - إش ٤١: ٤: «أنا الرب الأول ومع الآخرين أنا هو». وصحتها في السبعينية: «أنا الله الأول وإلى نهاية المستقبل أنا هو».

ἐγὼ θεὸς πρῶτος, καὶ εἰς τὰ ἐπερχόμενα ἐγώ εἰμι

د - إر ٢٣: ٢٣ و٢٤:

«ألَعَلِّي إله من قريب يقول الرب ولست إلهاً من بعيد... أنا يقول الرب. أما أملأ أنا السموات والأرض؟ يقول الرب». في السبعينية: «أنا هو الله من قريب». θεὸς ἐγγίζων ἐγώ εἰμι

هـ - حز ٣٧: ٥ و٦: «هكذا قال السيد الرب لهذه العظام هأنذا أُدخل فيكم روحاً فتحيون، وأضع عليكم عصباً وأكسيكم لحماً وأبسط عليكم جلداً وأجعل فيكم روحاً فتحيون وتعلمون أني أنا الرب».

في السبعينية: «أنا هو الرب». ἐγώ εἰμι κύριος

و ــ حز٣٧: ١٣و١٤:

«فتعلمون أني أنا الرب عند فتحي قبوركم وإصعادي إياكم من قبوركم يا شعبي وأجعل روحي فيكم فتحيون».

في السبعينية جاءت: **«أنا هو الرب»**. ἐγώ εἰμι κύριος

ز ــ ملا١: ١٤: **«لأني أنا ملك عظيم قال رب الجنود واسمي مهيب بين الأمم»**. في السبعينية: «,أنا هو، ملك عظيم».

διότι βασιλεὺς μέγας ἐγώ εἰμι.

٤ ــ المجموعة الرابعة:

وتأتي فيها الأوصاف المضافة لـ «**أنا هو**» لتفيد الجواب على سؤال مضمر: **مَن أنت؟ وماذا تستطيع عمله لنا؟**؛ وفيها يقدّم الله نفسه كماحي الذنوب، والمخلِّص، والشافي، والمُعزِّي، والراعي، ومعلم الطريق، والمتكلم بالحق والبر.

أ ــ إش٤٣: ٢٥: **«أنا أنا هو الماحي ذنوبك لأجل نفسي وخطاياك لا أذكرها»**. وجاءت في السبعينية ἐγώ εἰμι ἐγώ εἰμι . التكرار هنا للتأكيد وللتحميل على «أنا هو» باعتبارها اسماً شخصياً، وهي شديدة الشبه بقول المسيح المتميز في إنجيل يوحنا: «الحق الحق أقول لكم».

ب ــ مز٣٥: ٣: **«قلْ لنفسي خلاصُكِ أنا»**.

في السبعينية **«أنا هو»**. σωτηρία σου ἐγώ εἰμι

ج ــ خر١٥: ٢٦: **«إني أنا الرب شافيك»**.

وفي السبعينية **«لأني أنا هو الرب إلهك شافيك»**.

ἐγὼ γάρ εἰμι κύριος ὁ θεός σου.

د ــ إش٥١: ١٢: **«أنا أنا هو مُعزِّيكم»**. وفي السبعينية: **«أنا هو أنا هو»**.

ἐγώ εἰμι, ἐγώ εἰμι ὁ παρακαλῶν σε.

هـ ــ حز٣٤: ١٥: **«أنا أرعى غنمي وأُربضها يقول السيد الرب وسيعلمون أني أنا هو الرب»**. جاءت في السبعينية:

ἐγὼ βοσκήσω ... ἐγὼ ἀναπαύσω ... ἐγώ εἰμι κύριος.

و ـ إش٤٨: ١٧: «هكذا يقول الرب ,فاديك، قدوس إسرائيل:
أنا الرب إلهك معلمك لتنتفع،
وأُمشِّيك في طريق تسلك فيه».
وفي السبعينية: «أنا هو إلهك علمتك كيف تجد الطريق الذي تسلك فيه». .ἐγώ εἰμι ὁ θεός σου

ز ـ إش٤٥: ١٩: «أنا أنا الرب متكلم بالصدق (الحق) ومُخبر بالإستقامة».
في السبعينية جاءت: «أنا هو أنا هو». ἐγώ εἰμι ἐγώ εἰμι

ح ـ تث ٣٢: ٣٩: «انظروا الآن أنا أنا هو وليس إله معي. أنا أُميت وأُحيي».
في السبعينية: «انظروا انظروا إني أنا هو» (إلحاح للتحذير).
ἴδετε ἴδετε ὅτι ἐγώ εἰμι.

٥ ـ المجموعة الخامسة:

وهي التي فيها تجيء «أنا هو» في وضعها الخاص كإسم «الله». فمجرد النطق بها يشير إلى أن الله هو المتكلم ويدعو إلى الإيمان به.

أ ـ إش٥٢: ٦: «لذلك يعرف شعبي اسمي. لذلك في ذلك اليوم يعرفون أني ,,أنا هو،، المتكلم هأنذا». وفي السبعينية ترجمتها الصحيحة: «لذلك فإن شعبي سيعرف اسمي في ذلك اليوم إني ,أنا هو، المتكلم».
ἐγώ εἰμι αὐτός ὁ λαλῶν

ب ـ إش٤٣: ١٠: «أنتم شهودي يقول الرب وعبدي الذي اخترته لكي تعرفوا وتؤمنوا بي وتفهموا إني أنا هو». وفي السبعينية تجيء الترجمة هكذا: «أنتم شهودي وأنا أيضاً أشهد يقول الرب الإله وعبدي الذي اخترته لكي تعرفوا وتؤمنوا وتفهموا إني أنا هو». ὅτι ἐγώ εἰμι

يلاحظ أن «أنا هو» التي جاءت في هذه الآيات هي المقابل للعبري «أني هُـ אֲנִי־הוּא» وهي المترجمة بالإنجليزية «I am». حيث يتضح أن «هو» في «أنا هو» ليست مجرد ضمير بل فعل كينونة أو هويّة. وهي من وجهة النظر العبرية ذات صلة أساسية بـ«يهوه» الإسم المقدس الذي يتحاشى اليهود كتابته أو قراءته.

وهذه النماذج التي قدمناها هي محاولة لحصر المعاني والمواقف التي قيلت فيها أو قيلت بسببها. ولكن بالرغم من تنوُّع المواقف والمعاني، إلاَّ أن «أنا هو» ἐγώ εἰμι تربطها معاً في وحدة الشخص والكيان المتكلم، وإن كانت الأسفار الأولى جاءت مشحونة بـ «أنا هو» على مستوى التعريف بقدرات الله الفائقة لإستعلان صفات الله بالنسبة للشعب عامة، لكن نجد الأسفار الأخيرة أي النبوات تجيء «أنا هو» فيها مشحونة أيضاً بالوعود القادمة من جهة التعزيات والفداء والخلاص وخاصة في سفر إشعياء. وهذا ينقلنا بسهولة إلى إنجيل يوحنا.

ثانياً: «أنا هو ἐγώ εἰμι» في إنجيل يوحنا

إذا تأملنا في موقف الله بالنسبة لإبراهيم حينما بدأ يعلن نفسه له دون كل عشيرته وأهله، أو بالنسبة لموسى وهو يرعى غنمات يثرون حميه على جبل سيناء، أو حينما استقبل شعب إسرائيل في مصر الخبر من فم موسى أن الإله الذي يُدعى يَهْوَه يدعوهم للخروج من بلد قُدُور اللحم والبصل والكُرّات، نجد أن المسيح في بداية خدمته واستعلانه لنفسه سواء لتلاميذه الأخصاء أو للشعب اليهودي ذاته واجه نفس المواقف والظروف.

فإن كان الله في القديم رأى أن يبتدىء يُعرِّف نفسه من مصدر القوة هكذا فعل المسيح:

«أنتم من أسفل أما ,أنا هو، فمن فوق.» (يو٨: ٢٣)

ἐγὼ ἐκ τῶν ἄνω εἰμι

«أنا هو لستُ من هذا العالم.» (يو٨: ٢٣)

ἐγὼ οὐκ εἰμὶ ἐκ τοῦ κόσμου τούτου.

«قبل أن يكون إبراهيم ,أنا هو، (كائن) ἐγὼ εἰμι .» (يو٨: ٥٨)

وإن كان الله قد أعلن لهم قوة «أنا هو» بأنه يميت ويحيي (تث٣٢: ٣٩)، فالمسيح رأى أن يعلن لهم هذا أيضاً: «كذلك الإبن أيضاً يُحيي مَنْ يشاء»، و«**أنا هو** القيامة والحياة.» (يو٥: ٢١؛ ١١: ٢٥)

وإن كان الله لما أراد أن يعدهم بوعود طيبة للغاية عضَّدها بـ«أنا هو» كنوع من ضمان العهد، هكذا أيضاً وبالتمام فعل المسيح «**أنا هو** خبز الحياة»، «**أنا هو** نور العالم»، «**أنا هو** الراعي الصالح»، «**أنا هو** الطريق والحق والحياة.» (يو٦: ٣٥؛ ٩: ٤؛ ١٠: ١١؛ ١٤: ٦)

وهكذا تجد أيها القارىء العزيز أن «**أنا هو**» الله العهد القديم بكل معناها وبكل ما يسندها من قوة إلهية وبكل ما يدعو إليها من ظروف غاية في الأهمية، صارت هي «**أنا هو**» المسيح في إنجيل يوحنا بكل انطباق. ولم يجد المسيح أي حذر أو ما يدعو للحذر في استخدامها بالرغم من سطوع شكلها ونبراتها في أسماع اليهود، حتى إنهم لما سمعوها واضحة من فم المسيح رفعوا الحجارة ليرجموه لأنهم لم يخطئوا معناها ولا القصد منها!!!

ولكن ــ وهذا بكل تأكيد ــ لم يستخدمها المسيح كمَنْ يريد أن يعلن أنه هو الله!!، بل

استخلمها بالفعل ليستعلن الله الذي فيه، وأن يعلن بكل قوة ويقين عن «أنا ἐγώ» الله الذي فيه «أنا في الآب والآب فيَّ» (يو١٤: ١٠)، والآب والإبن واحد «أنا والآب واحد» (يو١٠: ٣٠)، هكذا رسالة المسيح العظمى هي استعلان الله فيه كآب واستعلان لاهوته كإبن متجسد لله.

فإن كان المسيح في موقف استعلاني لذات الله بالحقيقة، فاستخدامه لـ«أنا هو» هي ضرورة حتَّمها التجسد. بل هي استمرار لاستخدام الله لـ«**أنا هو**» في الأسفار المقدسة القديمة بلا أي اهتزاز أو نشاز ومن مصدر السلطة ذاتها.

والمسيح لم يغفل مصدر السلطة الذي به يتكلم. «الكلام الذي تسمعونه ليس لي بل للآب الذي أرسلني» (يو١٤: ٢٤). فـ«**أنا هو**» المسيح هي من داخل «**أنا هو**» الله الذي أرسلني، فوعد «**الفداء**» و«**العزاء**» و«**الخلاص**» و«**القيامة**» و«**الحياة**» التي وعدها الله في العهد القديم، ها هوذا قد جاء لينفذها. «**فأنا هو المسيح**» تجمع الوعد والتنفيذ معاً! اسمه وهو يقول في هذا الصدد: «أنا هو الطريق والحق والحياة ليس أحد يأتي إلى الآب إلاَّ بي» (يو١٤: ٦). إذن فـ«**أنا هو**» المسيح هي الموصِّل الوحيد والكاشف لأعماق «أنا هو» الله: «ألست تؤمن أني أنا في الآب والآب فيَّ»؛ «أنا والآب واحد» (يو١٤: ١١؛ ١٠: ٣٠). نعم فـ«أنا هو» واحدة في الأسفار جميعاً قديمها وجديدها.

ولكي نعطي للقارىء فكرة جليلة عن «أنا هو» في إنجيل يوحنا جمعناها في مجموعات، كل منها ينضوي تحت رؤية واحدة وربما هدف واحد.

المجموعة الأولى:

وفيها «أنا هو» تأتي **حرَّة** وبدون خبر أو أوصاف حيث يستعلن فيها المسيح ذاته فقط. لذلك فهي الإسم السري والخاص للمسيح بكل أصالة المعنى.

١ ــ يو٤: ٢٦: «قال لها يسوع, **أنا هو**, الذي يكلمك». يقابلها في اليونانية Ἐγώ εἰμι
٢ ــ يو٦: ٢٠: «فقال لهم, **أنا هو**, لا تخافوا». يقابلها في اليونانية Ἐγώ εἰμι
٣ ــ يو٨: ٢٤: «لأنكم إن لم تؤمنوا, **إني أنا هو**, تموتون في خطاياكم». يقابلها في اليونانية ἐγώ εἰμι
٤ ــ يو٨: ٢٨: «فقال لهم يسوع متى رفعتم ابن الإنسان فحينئذٍ تفهمون, **إني أنا هو**». يقابلها في اليونانية ἐγώ εἰμι
٥ ــ يو٨: ٥٨: «فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم **أنا** (كائن)

هو». يقابلها في اليونانية ἐγώ εἰμι

٦ – يو١٣: ١٩: «أقول لكم الآن قبل أن يكون حتى متى كان تؤمنون أني ,**أنا هو**،».
يقابلها في اليونانية ἐγώ εἰμι

٧ – يو١٨: ٤و٥:
«مَن تطلبون؟ أجابوه: يسوع الناصري. قال لهم يسوع: ,**أنا هو**،».
يقابلها في اليونانية Ἐγώ εἰμι

٨ – يو١٨: ٦: «فلما قال لهم إني ,**أنا هو**، رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض».
يقابلها في اليونانية Ἐγώ εἰμι

٩ – يو١٨: ٨: «أجاب يسوع قد قلت لكم أني ,**أنا هو**،» يقابلها في اليونانية ἐγώ εἰμι

المسيح هنا في هذه التسعة الأمثلة يقدم نفسه فيها بالصفة المطلقة «**أنا هو**ἐγώ εἰμι» وهي تعريف حقيقي لشخصه على مستوى القدرات الفائقة التي لا يُسمع عنها إلا في أسفار العهد القديم، كما أن عُلُوَّها وسُمُوَّها مستمدان من قائلها في العهد القديم؛ ولكن هنا على مستوى تتميم الوعد! [رجاء الرجوع إلى كل مثل].

في المثل الأول: يعرِّف نفسه أنه هو **المتكلِّم** كما جاء في القديم «**فتعرفون أني أنا هو المتكلم**. هانذا» (إش٥٢: ٦) التي جاءت في السبعينية:

ὅτι ἐγώ εἰμι αὐτὸς ὁ λαλῶν.

ويلاحظ تشابهها الشديد مع ما جاء في إنجيل يوحنا للسامرية: «أنا هو المتكلم» ἐγώ εἰμι ὁ λαλῶν σοι.

وفي المثل الثاني: يعرِّف نفسه من مستوى الحال **كسائر على المياه!** (قارن أي٩: ٨ الماشي على أعالي البحر).

وفي الثالث: يعرِّف نفسه أنه **الوحيد الذي يغفر الخطايا!** (قارن إش٤٣: ٢٥ أنا هو الماحي ذنوبك).

وفي الرابع: يعرِّف نفسه من **مستوى المجد الذي سيبلغه حتماً** إن بالصليب أو بالقيامة.

وفي الخامس: إنه كان **الكائن الأزلي قبل إبراهيم** والأنبياء وكل كائن.

وفي السادس: أنه هو **المتخطي الزمن والعارف بما سيكون.**

وفي السابع: يظهر بشخصيته على حقيقتها وعلى مستوى قائلها في العهد القديم.

وهكذا في الثامن والتاسع. وفي هذين المثلين يُلمّح الإنجيل على أنه إذا استحالت المعرفة بالإقناع فلا مانع أن يُظهر لهم ذاته بحضرته الإلهية التي لما رأوها **سقطوا على الأرض.** كما ظهر الملاك لحمار بلعام وبعد ثلاث مرات يخلي فيها الحمار الطريق للملاك الذي يعترضه فيضربه بلعام بلا ذنب، أدرك بلعام ما أدركه الحمار بعد أن وبّخه حيوان أعجمي **فسقط على الأرض:** «خرَّ ساجداً على وجهه» (اقرأ سفر العدد ٢٢: ٢٢—٣٥)، وتم القول «الثور يعرف قانيه والحمار مِعْلَف صاحبه؛ أما إسرائيل فلا يعرف شعبي لا يفهم.» (إش١: ٣)

ولكن يتبقى السؤال فإن كان المسيح له هذه القدرات الفائقة والتي من خلالها وعلى أساسها يقف كإنسان — وهو يسوع — ويقول «**أنا هو**»، فما هو قصد المسيح بالأساس؟ إلا أن يُظهر نفسه أنه حامل «**لإسم الله**» كما في أسفار العهد القديم، ليس اختطافاً بل عن نفس القدرات الشخصية الفائقة لله قديماً التي تكلم عنها الله أنه سيوظّفها لخدمة الإنسان، وبقيت هكذا معلّقة إلى أن جاء المسيح وأكملها.

لذلك فإن لجوء المسيح للتعبير عن شخصه بهذا الإسم «**أنا هو**» هو من أقوى وأقصر الإستعلانات التي استخدمها المسيح لإستعلان لاهوته المختفي تحت ستار بشريته. ولما صرَّح المسيح أنه مع إمعانه في استخدام «**أنا هو**» إنما كان يستعلن اسم الآب أيضاً؛ صارت جميع الأقوال والأعمال التي عملها وقالها بالتركيز مع هذا الإسم «**أنا هو**» هي الوسيلة الفائقة والبارعة التي استعلن بها شخصه الإلهي وعلاقته المساوية لله الآب معاً. فقول المسيح «**أنا هو** ἐγώ εἰμι» بملء معناها هو المقابل السري لقوله: «أنا والآب واحد» (يو١٠: ٣٠). ولكي يشرح ذلك قال مراراً إنه جاء بإسم الآب: «أنا قد أتيت بإسم أبي (**أنا هو** ἐγώ εἰμι) ولستم تقبلونني. إنْ أتى آخر بإسم نفسه فذلك تقبلونه.» (يو٥: ٤٣)

فالأمر الذي كان يعتبره اليهود أنه تجديف على اسم الله: «لسنا نرجمك من أجل عمل حسن بل لأجل تجديف فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً» (يو١٠: ٣٣، ٨: ٥٩)؛ هو في الحقيقة إثبات أنه جاء بإسم الله «أنا هو» المعروف، وذلك بكل يقين، من أسفار العهد القديم ولم يجيء باسم نفسه، وقد قدم لهم الدليل الواضح على ذلك أنه لا يطلب مجد نفسه بل مجد الذي أرسله.

ولما طالبوه بإلحاح أن يقول «**من هو**» وهل هو المسيح؟ أوضح تأكيداً لقوله أنه لم يأتِ بإسم نفسه حتى ولو كان هو المسيا!!: «إني قلت لكم (إني أنا هو) ولستم تؤمنون، الأعمال التي أنا **أعملها بإسم أبي — أنا هو** ἐγώ εἰμι **— هي تشهد لي»** (يو١٠: ٢٥). **فلما ربط المسيح بين الأعمال التي يعملها «باسم الآب»** وبين قوله عن نفسه «**أنا هو**» قطع عليهم خط الرجعة

بالنسبة للتجديف، فهو ليس آخر بالنسبة لله، ولا هو يختطف اسمه طالما يعمل عمل الله ويمجد اسمه. لذلك فبكل جرأة وكل صدق وحق وإخلاص يخاطب المسيح الله قائلاً: «أنا أظهرتُ اسمك للناس» (يو١٧: ٦)، «وعرَّفتهم اسمك وسأعرِّفهم» (يو١٧: ٢٦). وذلك طبعاً عن طريق الجمع بين عمل الله واسم الله «أنا هو».

وفي موضع آخر أيضاً يوضح أنه لا يختلس اسم الله لنفسه بل إن الله هو هو الذي أعطاه اسمه عن حق وجدارة وليس تنازلاً: «أيها الآب القدوس **احفظهم في اسمك الذي أعطيتني**» (يو١٧: ١١)، علماً بأن الترجمة العربية غير دقيقة بينما الأصل اليوناني يوضح ذلك بلا لَبْس[16]: «حينما كنتُ معهم في العالم كنتُ **أحفظهم في اسمك الذي أعطيتني**»[17] (يو١٧: ١٢).

وفي موقف آخر أكثر حساسية صرَّح المسيح لتلاميذه أن المجد الذي سيحوزه بالإرتفاع على الصليب هو بعينه مجد لإسم الآب: «أما يسوع فأجابهما قائلاً قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان» (يو١٢: ٢٣). وبعدها مباشرة خاطب الآب ليسمعوه لأن الصوت الذي جاء من السماء كان لهم: «أيها الآب مجِّد اسمك (الذي فيَّ). فجاء الصوت مجَّدتُ وأمجِّدُ أيضاً.» (يو١٢: ٢٨)

أما كيف مجَّد الله اسمه في المسيح، فهذا واضح، لأنه من بعد تلك الساعة أصبح اسم المسيح قوة مجيدة بمجد ذاته وصار بموازاة اسم الله في المجد: «**ومهما سألتم باسمي** فذلك أفعله ليتمجد الآب بالإبن» (يو١٤: ١٣)، «**إن سألتم شيئاً باسمي** فإني أفعله» (يو١٤: ١٤). «لكي يعطيكم الآب **كل ما طلبتم باسمي**» (يو١٥: ١٦). «وفي ذلك اليوم لا تسألونني شيئاً. الحق الحق أقول لكم إن **كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم**.» (يو١٦: ٢٣)

وهكذا صار اسم المسيح «**أنا هو**» ذا قوة فعَّالة ليس في الأرض فقط بل وفي السماء لدى الآب، **فباسم المسيح طلب المسيح من الآب أن يرسل الروح القدس، فأرسل**: «وأما المعزي (الباراكليت) الروح القدس الذي سيرسله الآب **باسمي** فهو يعلمكم كل شيء ويذكِّركم بكل ما قلته لكم.» (يو١٤: ٢٦)

وهكذا نفهم أن اسم المسيح «**أنا هو**» قد صار بالموت والقيامة على مستوى قوة الروح القدس وعمله. لذلك نفهم قوة السر الكائن في الإيمان باسم المسيح ابن الله، ومدى الخسارة في عدم الإيمان

---

16 ἐν τῷ ὀνόματί σου ᾧ δέδωκάς μοι.

17 Ibid.

به. «الذي يؤمن به لا يُدان، والذي لا يؤمن به فقد دِينَ لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد» (يو٣:١٨). أنظر كيف صارت «**قوة الإسم**» على مستوى غفران الخطايا.

وقد انتبه جميع الآباء الرسل القديسين إلى **القوة الإلهية التي صارت كائنة في اسم المسيح** وترجوه إلى معناه القديم الأول: «لذلك رفّعه الله أيضاً وأعطاه **اسماً فوق كل اسم** لكي **تجثو باسم يسوع** كل ركبة ممّن في السموات ومن على الأرض ومن تحت الأرض ويعترف كل لسان أن **يسوع هو رب** κύριος **لمجد الله الآب**» (في٢: ٨–١١). يلاحظ القارىء هنا أن اسم المسيح بدأ يأخذ ترجمته كما شرحناها في أسفار العهد القديم. فقد قام – شيخ الفريسيين سابقاً – بولس الرسول بترجمة «**أنا هو**» مباشرة إلى المقابل السرّي **κύριος** رب الذي استخدمه الربيون والفريسيون في أسفار العهد القديم عندما حوّلوا يهوه إلى κύριος أي «رب» ليتفادوا النطق بالإسم المقدس.

وأيضاً نجد شرحاً للإسم طريفاً للغاية إذ جاء من فم المسيح نفسه:

في مت ٢٢: ٤١–٤٤: «وفيما كان الفريسيون مجتمعين سألهم يسوع قائلاً ماذا تظنون في المسيح ابن من هو؟ فقالوا له ابن داود. قال لهم فكيف يدعوه داود **بالروح رباً** κύριον قائلاً **قال الرب لربي** κύριος τῷ κυρίῳ μου اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك». فهنا باللغة اليهودية السرّية التي يفهمها الفريسيون تماماً: الله ربٌّ والمسيح ربٌّ في قوله: «قال الرب لربي».

أع٢: ٣٦: «فليعلم يقيناً جميع بيت إسرائيل أن الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم رباً **κύριον ومسيحاً**χριστόν».

رو١٠: ٩و١٢و١٣:

«لأنك إن اعترفت بفمك **بالرب يسوع** κύριον Ἰησοῦν وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خَلُصْتَ... لأنه لا فرق بين اليهودي واليوناني لأن رباً واحداً للجميع ὁ γὰρ αὐτὸς κύριος πάντων غنياً لجميع الذين يدعون به لأن كل من يدعو **بإسم الرب** τὸ ὄνομα κυρίου يخلص».

١كو٨: ٦: «لنا **إله واحد الآب** εἶς θεὸς ὁ πατήρ الذي منه جميع الأشياء ونحن له **ورب واحد يسوع المسيح**». εἶς κύριος Ἰησοῦς Χριστός.

١كو١٢: ٣: «ليس أحد يقدر أن يقول **يسوع رب** ΚΥΡΙΟΣ ΙΗΣΟΥΣ إلا بالروح القدس».

أف ٤ : ٥ : «رب واحد εἷς κύριος وإيمان واحد ومعمودية واحدة».

والآن إذا فحصنا الأمر بوعي مسيحي أصيل، غير تاركين الوعي التقليدي اليهودي الأول، الذي كشف لنا مكنوناته الإلهية شيخ الفريسيين المتقدم على أترابه جميعاً في العلم والمعرفة والأصول التفسيرية للتوراة، فماذا نجد؟ نجد أن القديس بولس الرسول هو الذي اكتشف **الأصول الأولى التي نبع منها اسم المسيح** بحكم استعلان شخصه الإلهي المجيد. فهو الذي ترجم ليس اسم المسيح بل شخصه المهيب بما يوازيه ويساويه في القديم **فوجده بالعلم وبالروح معاً أنه هو هو ὁ κύριος الرب** في كل أسفار العهد القديم، دون أن يلتفت إلى «أنا هو ἐγώ εἰμι » ولا مرة واحدة لأنه لم يسمع المسيح قط متكلماً بالسر بل سمعه ممجّداً متكلماً من السماء وهالة النور تغطيه. ثم يجيء بعده القديس يوحنا الرسول فيكتشف في المسيح سر **«اسمه»** الذي يستخدمه باستمرار دون أن يلتفت إليه أحد ἐγώ εἰμι «أنا هو» فيسلط عليه الأضواء ويركزها بشدّة ويكرر إبرازه للوعي المسيحي الفاحص لعله يدرك الجذور ويكتشف الحق العجيب الذي يحتويه الإسم!

فإذا جمعنا وعي بولس المدعو سابقاً شاول العجيب مع وعي يوحنا المدعو بالحبيب، ظهر لنا إنجيل يوحنا تحت أضواء الأسفار الإلهية القديمة اسماً وحقاً وعملاً.

فإذا عدنا إلى أسفار العهد القديم لنفحص متى وكيف توارد الإسمان معاً **«إله ورب»** كما أوردهما القديس بولس الرسول في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس **«إله واحد** الآب... **ورب واحد** يسوع المسيح» (١ كو٨: ٦)، نجد ذلك واضحاً في سفر الخروج **٦: ٢ و٣** «ثم كلم الله موسى وقال له أنا **الرب** وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأني **الإله** القادر على كل شيء = θεός ὤν وأما باسمي يهوه (**رب** كما جاءت في السبعينية) ὄνομά μου κύριος فلم أعرف عندهم»: **اسمان إله ورب، والمتكلم واحد!**

لقد انكشف هذا الحق **الإلهي** مرة واحدة لتوما التلميذ الذي كان يحتاج في إيمانه إلى التأكيد بوضع الأصبع على جروح المسيح القائم من الموت! فلما تأكد صرخ **«ربي وإلهي»** (يو٢٠: ٢٨). إذن، فبالقديس توما صحّ وتأكد قول المسيح: «متى رفعتم ابن الإنسان (أي تمجّد) فحينئذ تعرفون **إني أنا هو** ἐγώ εἰμι = ,, **الرب الإله**،،».

المجموعة الثانية:

وهي مجموعة **«أنا هو»** التي جاءت مع قول الرب: **«حيث أكون أنا»** أو حيث أتيت وإلى حيث أذهب. فإذا كانت **«أنا هو** ἐγώ εἰμι » هي التعبير عن الكينونة الذاتية، فمن الواضح إذن أنها تأتي متصلة بالكينونة المكانية، حيث المكان بالنسبة للمسيح هو كما نعلم سمائي محض «ابن

الإنسان الذي نزل من السماء» و«ابن الإنسان الذي هو في السماء».

١ — يو٧: ٣٤: «ستطلبونني ولا تجدونني وحيث **أكون أنا هو** ὅπου εἰμὶ ἐγώ لا تقدرون أن تأتوا.» (تكرر هذا القول في يو٧: ٣٦)

٢ — يو٨: ٢٣: «فقال لهم أنتم من أسفل أما **أنا هو فمن فوق**».
ἐγὼ ἐκ τῶν ἄνω εἰμί
«أنتم من هذا العالم أما **أنا هو** فلست من هذا العالم».
ἐγὼ οὐκ εἰμὶ ἐκ τοῦ κόσμου τούτου

٣ — يو٨: ١٨و١٩: «**أنا هو** ἐγώ εἰμι الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني. فقالوا له: **أين** هو أبوك؟ أجاب يسوع: لستم تعرفونني أنا ولا أبي».
«وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق لأني أعلم **من أين** أتيت **وإلى أين** أذهب.» (يو٨: ١٤)

٤ — يو١٢: ٢٦: «إن كان أحد يخدمني فليتبعني **وحيث أكون ,,أنا هو،،** ὅπου εἰμὶ ἐγώ هناك يكون خادمي. وإن كان أحد يخدمني يكرمه الآب».

٥ — يو١٤: ٣: «وإن مضيت وأعددت لكم مكاناً آتي أيضاً وآخذكم إليّ **حتى حيث أكون ,,أنا هو،،** ὅπου εἰμὶ ἐγώ تكونون أنتم أيضاً».

٦ — يو١٧: ٢٤: «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي **حيث أكون ,,أنا هو،،** ὅπου εἰμὶ ἐγώ ».

+ في «أنا هو» **في المثل الأول** يوضح المسيح استحالة وصول الإنسان إلى حيث يكون «حيث أكون أنا هو» ὅπου εἰμὶ ἐγώ لأن هذا المكان فائق عن مستوى إدراك أو وصول الإنسان. هنا يعلن التوافق الكلي بين «أنا هو» والمكان الذي سيذهب إليه. فهو يستعلن كيانه الذاتي المطلق في وجوده الإلهي المطلق الخارج عن المكان المدرك للإنسان. والقصد الأساسي من هذا الإستعلان الفائق أن الفرصة للإيمان به محدودة. بجوار تسجيل خطأ شنيع يرتكبه اليهود في رفض رسالته.

+ **في المثل الثاني**: يوضح المسيح مقر سكناه في الأعالي حتى ينبّه ذهنهم الكليل بواسطة

إشارتين شديدتي الوقع على الأذن «**أنا هو**» و«أنا من فوق». «**فأنا هو**» قول ذات الله، و«أنا من فوق» قول لا يقوله إلاَّ الساكن في السموات الذي يقدمون له الخدمة والإكرام كل يوم. هذا الفهم لا يسقطه إلاَّ الأذن التي تغرَّبت عن الصوت الإلهي وعن مضمون العبادة.

+ **في المثل الثالث**: ترتبط «أنا هو» بالشهادة وترتبط الشهادة بمعرفة «من حيث أتى المسيح» و«إلى حيث سيذهب» «**أنا هو** الشاهد لنفسي وشهادتي حق لأني أعرف من حيث أتيت وإلى أين أذهب».

هنا حجَّة المسيح القوية في رسالته الإلهية. فإن كانوا يرونه إنساناً يتكلم إلاَّ أن كلامه يسفر عن ألوهية تتكلم بسلطان. فإن كان قوله: «أنا هو نور العالم» صار مصدر احتجاج الفريسيين لأنه بهذا يشهد لنفسه، فاحتجاج المسيح أنه يشهد للنور كالتزام لأنه كيف لا يشهد النور لنفسه، وإن شهد فهو حق، فإذا شهد الإنسان أي إنسان للحق فهو يشهد بقوة لأنه يعرف المصدر الذي يشهد له. فما بالك إذا كان النور أو الحق يشهد لنفسه وهو هو نفسه مصدر النور والحق. فالمسيح يعرف من أين أتى، هذه هي قوة إرساليته كنور وحق؛ ويعرف إلى أين يذهب، وهذا مصدر دينونة العالم. هكذا ارتبط اسم المسيح «**أنا هو**» بـ«**حيث أكون**» لحساب خلاص العالم.

+ **في المثل الرابع**: هنا النقلة الخلاصية التي جاء من أجلها المسيح ليجعل «**حيث يكون خادمي**» تساوي «**حيث أكون أنا** ὅπου εἰμὶ ἐγώ». هذا هو السخاء الإلهي العجيب أن يجعل كينونته اللانهائية الذاتية والمكانية مفتوحة على الإنسان «فسيروا ما دام لكم النور». «الذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأظهر له ذاتي» (يو١٢: ٣٥؛ ١٤: ٢١). هكذا صار الإيمان بالمسيح كخدمة في النور وحياة في حب بالنسبة للإنسان. لأن «أنا هو ἐγώ εἰμι» صار جسداً فصرنا فيه لا خدَّام إلهيات بل في شركة طبيعته وأمجاده. وهكذا صار الإنسان يحيا من داخل «أنا هو ἐγώ εἰμι»، بل وصار «أنا هو» يحيا في الإنسان.

+ **وفي المثل الخامس**: عجيب قول الرب أنه سيذهب ويعد لهم مكاناً في اللامكان!! قصد الرب واضح، أنه ذاهب ليفتتح ببشريته طريقاً إلى الأقداس العليا يصلح أن يقتفي أثره الإنسان وهو ممسك به ليدخل إلى المواضع السماوية، تلك التي يقف اللسان عاجزاً عن أوصافها. لقد تنازل الله أيَّما تنازل عندما صار حيث نكون نحن، أي تجسد. والآن صار التنازل الأعظم أن نكون نحن حيث يكون هو. لقد قلنا أن «أنا هو» في الأسفار القديمة، أي الله، صار جسداً، فصار لنا بالحق مكان في «أنا هو». إنه حق اكتسبته البشرية بتجسد ابن الله. والآن تظهر المقاصد الحسنة والغاية الإلهية

العبريين السائدين في أيام المسيح الموروثين من واقع النبوات، عبارة عن رموز ترمز للتوراة والناموس وإسرائيل... إلخ. ولكن لما اتخذها المسيح لنفسه بصفته الإلهية «أنا هو» رفعها إلى مستوى الحقائق الإلهية التي تُعاش، وهو لم يكن لها مفسراً بل مُستعلِناً لحقائق الله في ذاته بأعماله!

وعلى سبيل المثال، فالنور المعروف أنه كناية عن الله، لأنه قادهم في البرية على هيئة عمود من السحاب المضيء يضيء لهم طريق التيه نحو كنعان الأرضية. ظلّوا يعيّدون له باعتباره الرمز الذي يعيشون على ذكراه فقط كل سنة مرة في عيد المظال فيضيئون المنارات في رواق النساء ليضيء أورشليم! في هذه اللحظة وقف المسيح وقال: «أنا هو نور العالم». هنا فكّ المسيح رمز النور عند إسرائيل، ليس كأنه نور لإسرائيل يضيء أورشليم، بل باعتباره نور العالم، وليس للتعييد السنوي، بل: «مَن يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (يو٨: ١٢)، أي نور يُعاش بالليل والنهار، في الأيام السوداء والبيضاء، في الظعن (الترحال المضني) أو الإقامة على السواء، نور للحياة وليس للعيد.

ولكن بأن يدعم المسيح كَوْنَه النور بالإسم المقدس «أنا هو»، جعل النور طبيعة تشع من المسيح كصفة إلهية دخلت العالم جديداً في شخص يسوع. هنا الإسم الإلهي «أنا هو» صار فعلاً يضيء كيان الإنسان في العالم – فأين هذا من منارات رواق النساء يوم عيد المظال؟ أنظر كيف رفع المسيح الرمز إلى حق يُعاش لما استعلنه في ذاته!

ويعوزني الوقت والمجال الضيق الذي أتيح لي لأشرح كلمة «أنا هو» في إنجيل يوحنا، لأمرّ على هذه الأمثلة كلها مثلاً مثلاً، فهذا معناه أني سأكلّف بشرح إنجيل يوحنا كله من خلال «أنا هو».

ويكفي أن نقول أن المسيح لما استخدم هذه الرموز مدعّمة ومقوّاة بـ«أنا هو» فرفعها إلى مستوى الحقائق الإلهية الدائمة في ذاته؛ لم يقصد استعلان ذاته أو استعلان الآب وحسب، بل كانت الغاية الأكثر عجباً وإدهاشاً لنا في هذه الأمثلة جميعاً هي توصيل هذه الحقائق الإلهية إلى الناس على المستوى المفهوم والمحسوس.

وبذلك فإن هذه الأسماء التي تقدست بالحق الإلهي، سواء «الراعي» أو «الخبز» أو «الكرمة»، لما تبنّاها المسيح في «أنا هو» في إنجيل يوحنا، صارت منهج خلاص واستعلان أسرار المسيح التي هي بالمفهوم الغربي الكريستولوجيا أو منهج المسيحيات العميق. إذ جعلت أعمال الخلاص منظورة في المسيح بصورة ساطعة ورموز رفع عنها الغطاء فإذ هي «أليثيا» حق وحياة بلا تحفظ. وبسهولة ظل المسيح يقودنا من خلال هذه الـ«أنا هو» من آية لآية حتى أقنعنا أن نأكل جسده ونشرب دمه، وأننا إن فعلنا ذلك صرنا أغصاناً حقيقية في كرمة حقيقية عصيرها يحمل سر

الدم والحياة بالروح الأزلي فيها.

وحينما قال: «أنا هو الباب»، اندهشنا كيف يكون هذا، ولما أكمل قوله أن «**لا أحد يدخل إلى الآب إلا بي**» زال الإندهاش وجاء العجب بهذه البساطة المتناهية كيف يشرح المسيح منهج الخلاص بهذا القدر، ولكن بشيء من التعمق تزداد الرؤيا ويزداد العجب لأن «أنا هو» ليست مجرد «أنا» بل هي تعبير عن الكينونة والطبيعة الإلهية الكائنة بذاتها، فالباب هنا لما نُسب لـ «أنا هو» ارتفع من مجرد منظر مرسوم أو صورة أو حتى رمز، إلى حقيقة إلهية قائمة لو فقدها الإنسان ضاعت منه الحياة الأبدية!!

لقد صوَّر لنا المسيح بهذه الصورة التي ضمها إلى طبيعته بقوله: «أنا هو» كل محيط الخلاص من كل نواحيه التي تحمل سر الحياة للإنسان من الراعي الصالح لخبز الحياة للكرمة الحقيقية؛ كل هذه الصور التي ملأت آفاق الليتورجيا في الكنيسة بل وكل فنونها المقدسة بل وملأت العالم.

ثالثاً: مقارنة للمضاهاة

الآن نجد من السهولة وبعد أن استوفينا «أنا هو ἐγώ εἰμι» في كلٍّ من العهدين القديم والجديد، أن نقدم مقارنة بسيطة ومختصرة بين «أنا هو» العهد القديم و«أنا هو» العهد الجديد لنرى مقدار التوازي البديع أحياناً ومقدار التقابل الملفت للنظر ثم مقدار التكميل المثير للدهشة والإيمان. ففي التوازي نرى «أنا هو» في مقابل «أنا هو» وكل منهما يناظر الآخر في الدقة والموقف والمعنى وفي التقابل مقدار التشابه الذي يجعل «أنا هو» الجديد هو بعينه القديم، أما التكميل فنرى كيف «أنا هو» العهد القديم ظلت معلقة بلا تكميل تنتظر «أنا هو» الجديد الذي تمم وأكمل الوعد والعهد، فصار «أنا هو» الله في القديم أميناً وصادقاً فيما قال، وصار المسيح «أنا هو» الكلمة الذي أكمل الوعد بكل أمانة البذل وصدق العمل.

أنا هو العهد القديم على فم الله	**أنا هو** العهد الجديد على فم المسيح
خر٣: ١٣و١٤: «فإذا قالوا لي ما اسمه فماذا أقول لهم؟ فقال الله لموسى **أكون الذي أكون**» (أنا هو) ومعناها في العبري واليوناني: **أنا الكائن بذاتي.**	**يو٨: ٥٣و٥٨:** «ألعلك أعظم من أبينا إبراهيم الذي مات؟... مَنْ تجعل نفسك؟ الحق الحق أقول لكم: قبل أن يكون إبراهيم **أنا كائن**». الترجمة العربية ترجمت «أنا هو» مباشرة إلى أنا كائن.
خر١٤: ١٨: «فيعرف المصريون ,,**أني أنا هو**،، حينما **أتمجّد**». الترجمة العربية قدمت أنا الرب والأصل أنا هو.	**يو٨: ٢٨:** «**فمتى رفعتم** ابن الإنسان فحينئذ تفهمون ,,**إني أنا هو**،،». علماً بأن رفع المسيح على الصليب والقيامة هو **التمجيد.**
إش٤٣: ١٠، تث٣٢: ٣٩: «**لكي تعرفوا وتؤمنوا بي وتفهموا إني أنا هو**»، «انظروا الآن. أنا أنا هو وليس إله معي **أنا أُميت وأُحيي**».	**يو٨: ٢٤:** «**لأنكم إن لم تؤمنوا إني أنا هو، تموتون في خطاياكم**».

تك٢٦: ٢٤:

«فظهر له الرب في تلك الليلة وقال له: **أنا هو** إله إبراهيم أبيك **لا تخف** لأني معك».

يو٦: ١٧—٢٠:

«وكان الظلام قد أقبل،... وهاج البحر... ونظروا يسوع ماشياً على البحر... فقال لهم: **أنا هو لا تخافوا**».

إش٤٨: ١٧:

«**أنا هو الرب إلهك معلمك**... أمشيك في **طريق** تسلك فيه».

يو١٤: ٤و٦:

«**وتعلمون** حيث أنا أذهب **وتعلمون الطريق... أنا هو الطريق والحق والحياة**».

حز٣٤: ١٥و٣٠:

«**أنا أرعى غنمي** وأربضها يقول السيد الرب... **فيعلمون أني أنا هو الرب**».

يو١٠: ١٤:

«**أنا هو الراعي الصالح** وأعرف خاصتي **وخاصتي تعرفني**».

حز٣٧: ٦؛ حز٣٧: ١٢—١٤:

«أضع عليكم عصباً وأكسيكم لحماً وأبسط عليكم جلداً وأجعل فيكم روحاً **فتحيون وتعلمون أني أنا هو الرب**».

«ها أنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبي... **فتعلمون أني أنا هو الرب عند فتحي قبوركم وإصعادي إياكم من قبوركم يا شعبي وأجعل روحي فيكم فتحيون**».

يو١١: ٢٥؛ يو١١: ٤٣:

«قال لها يسوع: أنا هو القيامة والحياة من آمن بي **ولو مات فسيحيا**».

«**لعازر هلم خارجاً**».

إش٤٨: ١٢و١٣:

«اسمع لي يا يعقوب وإسرائيل الذي دعوته **أنا هو. أنا الأول وأنا الآخر**. ويدي أسست **الأرض** ويميني **نشرت السموات**».

في سفر الرؤيا للقديس يوحنا

رؤ١: ٨؛ رؤ١: ١٧و١٨:

«**أنا هو الألف والياء. البداية والنهاية** يقول الرب الكائن والذي كان والذي يأتي **القادر على كل شيء**».

«**أنا هو الأول والآخر** والحي وكنت ميتاً وها أنا حي إلى أبد الآبدين».

إش ٤١: ٤:

«مَنْ فعل وصنع داعياً الأجيال من البدء. أنا الرب الأول ومع الآخرين أنا هو».

رؤ٢١: ٦:

«قد تمَّ. أنا هو الألف والياء البداية والنهاية. أنا أعطي العطشان من ينبوع ماء الحياة مجاناً».

إر١٧: ١٠:

«أنا الرب فاحص القلب مُختبر الكُلَى لأُعطي كل واحد حسب طرقه حسب ثمر أعماله».

رؤ٢: ٢٣:

«فستعرف جميع الكنائس أني أنا هو الفاحص الكُلَى والقلوب وسأُعطي كل واحد منكم بحسب أعماله».

الفصل الثاني

الروح القدس في إنجيل القديس يوحنا

«الباراكليت»

في الترجمة العربية لإنجيل يوحنا لم يذكر المترجم اسم «الباراكليت» بهذا اللفظ المعرَّبة حروفه. وهذا نقص معيب وتصرُّف من المترجم حيث ترجم معناها من اليونانية إلى معناها بالعربية وجعلها اسم صفة: «المعزّي» παράκλητος

فإذا فحصنا كلمة «الروح» τὸ πνεῦμα نجدها تأتي في الإنجيل، في اللغة اليونانية الأصلية، لغوياً ومن جهة النحو — كإسم مجرَّد، أي اسم معنوي يفيد المعنى العام، ومحايد الجنس (لا مذكر ولا مؤنث) neuter . والكلمة تعني إما ريح أو رياح أو نفخة أو نَفَس أو ملاك أو روح إنسان، أو الروح القدس حيث وُضعت صفة «القدس» كصفة خاصة للتعبير عن روح الله «القدوس» (١).

أما لفظ «الباراكليت» فيأتي **كإسم علَم شخص مذكَّر**. لذلك يُعتبر إنجيل يوحنا هو الإنجيل الوحيد الذي أعطى للروح القدس — لغوياً من جهة النحو — صفته الشخصية إذ نقله لغوياً من دائرة المجرَّدات كقوة إلى ذات مُشخَّصة. وبهذا يكون إنجيل يوحنا قد مهد بهذا اللقب لمفهوم الثالوث الأقدس(٢).

ولكن بحسب الأبحاث اللغوية فإن العلماء لم يستقروا على ترجمة لهذا الإسم «الباراكليت» **وقد اتفقوا جميعاً على ترك الإسم كما هو بألفاظه المنقولة عن اللفظ اليوناني، «الباراكليت»**،

---

[1] Liddle and Scott Lex.

[2] Barrett. op. cit. p. 77.

وذلك بسبب تعدد معنى الكلمة باليونانية. وهذه هي المعاني التي تحويها هذه الكلمة:

١ – تأتي بمعنى المُعين = called to the side of ، أي بغرض المساعدة.

٢ – كما جاءت في الترجمة اللاتينية advocatus كإصطلاح شرعي يفيد معنى المستشار أو المحامي للدفاع الرسمي في المحكمة. وقد وجدها العالم وستكوت Westcott في كتابات الربيين تفيد هذا المعنى.

٣ – في رسالة برنابا (كُتبت ما بين عام ٧٠ – ١٠٠ م.) علّق الكاتب على كلمة «الباراكليت» بمعنى المعزّي Consoler أو المُريح Comforter وهي الصفة التي صارت شائعة عند الآباء اليونان. ويقول العلماء أنه بالرغم من الإحترام الفائق الذي يكنُّه العلماء لرأي الآباء اليونان إلا أنه ببحث الكلمة وُجد أنها لا تفيد الإيجابية فقط أي العطاء الإيجابي مثل إعطاء العزاء أو الراحة ولكن يفيد فعلها أيضاً درء الخطر، أي منع السلبيات، بمعنى «**الدفاع**»؛ **فهو** يشفع ويتوسل ويدافع عن شعب المسيح، والآيات التي توضح ذلك تكشف عن صدق هذا المعنى مثل: «فمتى ساقوكم ليسلّموكم فلا تعتنوا من قبل بما تتكلمون ولا تهتموا. بل مهما أعطيتم في تلك الساعة فبذلك تكلموا. **لأن لستم أنتم المتكلمين بل الروح القدس**» (مرقس ١٣: ١١). وهنا فإن الروح القدس يكون هو المتكلِّم فهو يأخذ وظيفة المحامي والمدافع والمعين أيضاً. وفي الآية المقابلة في هذا المعنى في إنجيل لوقا تجيء هكذا: «لأن الروح القدس **يعلّمكم في تلك الساعة ما يجب أن تقولوه**» (لو١٢: ١١). وهنا الروح القدس يأخذ وظيفة المعلّم والناصح والمرشد في وقت الخطر.

وعمل الروح القدس بوجه عام في إنجيل يوحنا نجمله في النقاط الآتية:

١ – يُعتبر هو العامل الأساسي في فاعلية الأسرار (٣: ٥؛ ٦: ٦٣)، سواء المعمودية أو الإفخارستيا حيث بواسطة الروح القدس ينال المؤمن في الأسرار مواعيد الله ومواهبه وعطية الحياة الأبدية.

٢ – هو عماد الإقتراب من الله بالعبادة. فالعبادة لله في العهد الجديد هي «بالروح والحق» و«الآب طالبٌ مثل هؤلاء الساجدين له... بالروح والحق» (يو٤: ٢٣و٢٤). إذن، فليس بالوسائل المادية ولا الجسدية بل بالروح لأن الله روح.

٣ – هو أساس وقوة الخدمة في الكنيسة حيث تقف الإرسالية كعمل إلهي مساوٍ لإرسالية الآب للإبن: «كما أرسلني الآب أرسلكم أنا. ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس» (يو٢٠: ٢١و٢٢). وهكذا الخدمة، فهي لا تقوم إلا بقوة الروح القدس.

٤ ــ مقارعة الروح القدس لروح العالم، فهو يوبخه ويكشف أعماله ويضعه تحت الدينونة. وطبعاً يكون ذلك من خلال شهادة الكنيسة.

٥ ــ الروح القدس هو الذي سيكشف الأمور الخاصة بالمستقبل أي كل ما يتعلق بالآخرة والأخرويات = الإسخاتولوجيا والحياة القادمة: «يخبركم بأمور آتية» (١٦: ١٣). أي سيكون له وظيفة الأنبياء في العهد القديم والتي تحققت في العهد الجديد. فهو سيعلن لنا ما هو آتٍ، وما هو فوق، وهي الأمور التي أعدها الله لمحبيه. وإن كان عمله الآن هو أن يعرِّفنا كل الحق فهو يكشف لنا كيف سيستعلن هذا الحق يوماً ما ليكون عوناً لمحبيه وعاراً على رافضيه؛ أي أنه سيكمّل عمل المسيح.

وفي إنجيل يوحنا جاء التعريف بالروح القدس في مواضع خمسة:

التعريف الأول:

ويأتي على لسان يوحنا المعمدان: «وأنا لم أكن أعرفه. لكن ليُظهَرَ لإسرائيل، لذلك جئت أعمد بالماء. وشهد يوحنا قائلاً إني قد رأيت الروح نازلاً مثل حمامة من السماء فاستقر عليه. وأنا لم أكن أعرفه. لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك قال لي الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس. وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله.» (يو١: ٣١ــ٣٤)

هنا عمل الروح القدس كان أول عمل يتم من السماء على الأرض مباشرة لإستعلان شخص يسوع المسيح أن هذا هو ابن الله. كما كان أول إعلان عن علاقة المعمودية بالروح القدس. ولو رجعنا إلى القديس مرقس في رواية عماد المسيح نجد المرادف هكذا: «وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السموات قد انشقت والروح مثل حمامة نازلاً عليه. وكان صوت من السموات. أنت ابني الحبيب الذي به سررت» (مر١: ١٠و١١). وهكذا يبدأ الروح القدس عمله في استعلان بنوّة المسيح لله. ومن الروايتين يتضح أن عمل الروح القدس في عماد المسيح كان **لإظهار، أو للإعلان عن شخص المسيح أنه ابن الله**، كشهادة مسموعة لكلٍّ من المسيح والمعمدان. ويلاحظ أن هذه هي الوظيفة الأساسية للروح القدس: «هو يشهد لي.» (يو١٥: ٢٦)

أما كيف أن المسيح سيعمدكم بالروح القدس (يو١: ٣٣) حسب قول المعمدان، فهذا يتضح من حديث المسيح مع نيقوديموس: «إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله... الحق الحق أقول لك إننا **إنما نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا** ولستم تقبلون شهادتنا.» (يو٣: ٥و١١)

ولكن المسيح لم يعمد بالماء كما جاء على لسان القديس يوحنا الرسول: «مع أن يسوع نفسه لم يكن يعمد بل تلاميذه» (يو٤: ٢)، أما الروح المعمّد فكان يهبه المسيح في كلماته: «أنتم الآن أنقياء، لسبب الكلام الذي كلمتكم به» (يو١٥: ٣) «**الكلام** الذي أكلمكم به **هو روح وحياة.**» (يو٦: ٦٣)

أما الروح القدس كشخص ذي عمل محدد في الخلاص فلم يبدأ عمله أثناء حياة المسيح: «من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي. قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه. لأن الروح القدس **لم يكن قد أُعطي بعد لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد بعد** (أي لم يُصلب ويقوم بعد).» (يو٧: ٣٨و٣٩)

ولكن المسيح بعد القيامة مباشرة نفخ في تلاميذه قائلاً: «اقبلوا الروح القدس» (يو٢٠: ٢٢) (كمقدمة ليوم الخمسين)، وأعطاهم سلطان مغفرة الخطايا.

التعريف الثاني:

وقد جاء بلسان المسيح: «وأنا أطلب من الآب فيعطيكم **معزياً آخر** ليمكث معكم إلى الأبد. **روح الحق** الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه. وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم **ويكون فيكم.**» (يو١٤: ١٦و١٧)

هنا الروح القدس يأخذ وظيفة التعزية والشفاعة معاً في معنى الباراكليت تماماً عوض المسيح. كذلك يأخذ صفة إلهية خاصة بالمسيح نفسه أي «الحق». فإن كان المسيح هو «**الحق**» فالروح القدس هو «**روح الحق**». فكما أن «الحق» الذي في المسيح كان مرشداً للتلاميذ أنه ابن الله، كذلك فإن «روح الحق» سيصير مرشداً للتلاميذ للتعرُّف على الآب والإبن. كذلك كما أن المسيح وعد أنه سيكون فيهم: «**أنا فيهم وأنت فيَّ**» (يو١٧: ٢٣)، كذلك عن الروح القدس، فقد وعد المسيحُ أنه سيكون «**فيهم**».

التعريف الثالث:

«بهذا كلمتكم وأنا عندكم. وأما المعزّي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكّركم بكل ما قلته لكم.» (يو١٤: ٢٥و٢٦)

وهنا يَعِدُ المسيح تلاميذه وهو موجود معهم أنه بعد أن يتركهم فإن الآب **سيرسل الروح** *القدس باسم المسيح كما أُرسل المسيح باسم الآب، ليعلّمهم كما كان المسيح يعلّمهم،* وهنا يضيف كلمة «كل شيء» وهي الأشياء التي لم يستطيعوا معرفتها من المسيح بسبب عدم وجود

الروح القدس: «إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن» (يو١٦: ١٢)، وهذه هي التي سيملنها لهم بواسطة الروح القدس الذي سيأخذ مما له ويخبرهم! وقد تم هذا بصورة عظمى في كتابة إنجيل يوحنا نفسه! وقول المسيح أن الآب سيرسل الروح القدس باسمه – أي باسم المسيح – يعني أنه سيضطلع بتكميل رسالة المسيح قولاً وعملاً، كما أتى المسيح باسم الآب ليكمل إرادة الآب قولاً وعملاً.

التعريف الرابع:

«ومتى جاء ,**المعزي**، الذي سأرسله ,أنا، إليكم من ,**الآب**، روح الحق الذي **من عند الآب ينبثق. فهو يشهد لي** – وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الإبتداء.» (يو١٥: ٢٦و٢٧)

هنا يبلغ الإعلان عن «**شخص**» (أقنوم) الروح القدس وطبيعته (جوهره) أقصى إعلان في أسفار العهد الجديد. وذلك من جهة علاقته بالآب والإبن حيث يبلغ الثالوث المقدس أول ظهوره على فم المسيح في إنجيل يوحنا هكذا: «**سأرسله أنا إليكم من الآب**».

ويعود المسيح ويكشف عن كيفية خروج الروح القدس كأقنوم من عند الآب هكذا: «**الذي من عند الآب ينبثق**»: ὃ παρὰ τοῦ πατρὸς ἐκπορεύεται

هنا بحسب تحقيق العلماء المتخصصين تكون ἐκπορεύεται حينما تأتي وحدها تفيد الإنبثاق أو الخروج وحسب، فإذا أخذت الحرف ἐκ فهي تفيد الإنبثاق «**من المنبع أي من الجوهر**»، وقد جاءت بهذا التركيب في الآية: «وسيفٌ ماضٍ ذو حدين **يخرج من فمه** ووجهه كالشمس وهي تضيء في قوتها» (رؤ١: ١٦). أما الوضع الثاني أي الخروج أو الإنبثاق «**كإرسال**» فهي تحتاج حتماً إلى الحرف παρά **أي من عند أو من جانب**. وهي الجملة المعروفة والسائدة في **خروج الإبن من عند الآب** بمعنى الإرسال، مثل «لأن الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني وآمنتم أني **من عند الله خرجتُ**» (يو١٦: ٢٧). وهنا النص على انبثاق الروح القدس من عند الآب يقطع بخروج أو انبثاق الروح القدس **من عند الآب** «**كإرسال**» زمني. كما جاءت في الموضعين: «ومتى جاء المعزِّي الذي **سأرسله أنا إليكم من الآب**» وباليونانية:

ὃν ἐγὼ πέμψω ὑμῖν παρὰ τοῦ πατρός

«روح الحق **الذي من عند الآب ينبثق** فهو يشهد لي»: وباليونانية:

τὸ πνεῦμα τῆς ἀληθείας ὃ παρὰ τοῦ πατρὸς ἐκπορεύεται

لذلك عندما قرر الآباء في المجامع المسكونية مسوقين بالروح القدس نفسه، أن انبثاقه هو صدور

من المنبع وليس مجرد إرسال زمني، هذا من جهة طبيعته **وعلاقته الذاتية** الأزلية بالآب — قالوا هكذا:

ونؤمن بالروح القدس الرب المحيي **المنبثق من الآب**:

هكذا باليونانية: τὸ πνεῦμα τὸ ἅγιον τὸ ἐκ τοῦ πατρὸς ἐκπορευόμενον

لتفيد الإنبثاق الأزلي غير الزمني بحسب الجوهر. أي أنهم استخدموا ἐκ أي «**خروج من**» بدل الحرف παρά «خروج من **عنده** أو من جانبه أو من جواره». ونقلوا الفعل من وضعه في مضارع الصيغة الإخبارية الذي يمكن أن يفيد المستقبل ἐκπορεύεται إلى وضع المفعول به المضارع الدائم ἐκπορευόμενον ليفيد الإستمرار الكياني للروح القدس في انبثاقه من الآب[٣].

والذي يهمنا في هذا المجال هو أن إرسال الروح القدس المرسَل من عند الآب يفيد هنا عملية الشهادة **للحق** بصفته «روح الحق»، أي أن يشهد لحق المسيح فيما يخص حقيقة ارتفاعه أي صلبه كختام كل أعماله على الأرض الذي ارتفع به أيضاً إلى أعلى السموات. فهنا إرسالية الروح القدس هي للتوعية والدفاع معاً عن حقيقة صلب المسيح في محيط الناس. وفي نفس الوقت قصد المسيح قصداً من هذه الآية التعريف بالروح القدس وبصلته الأزلية بالآب والإبن فهو دائماً من الآب بالإبن.

كما يلاحظ أن المسيح هنا لم يقل «سأرسله لكم من عند أبي» بل «من عند ,**الآب**،» للتعبير عن أبوّة الله العامة للناس، فالروح القدس مُرسَل من الله الآب للناس تماماً كالإبن المرسَل من الله الآب للعالم. وكما أن العالم لم يعرف «**الكلمة**»، كذلك الروح القدس «لا يعرفه العالم.» (يو١٤: ١٧)

ومعنى أن الروح القدس يشهد للمسيح هو أنه ينطق داخل قلوبهم سواء للوعظ أو لكتابة الأناجيل والرسائل كما يقول قانون الإيمان: «الناطق في الأنبياء». وفي ذلك يقول القديس أغسطينوس: «لأنه هو سينطق، لذلك أنتم حتماً ستتكلمون، هو ينطق في قلوبكم وأنتم تتكلمون بأفواهكم، هو بالإلهام وأنتم بالكلمة» — شرح يوحنا ٩٣. (PL 35)

التعريف الخامس:

«لكني أقول لكم إنه خير لكم أن أنطلق. لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي. ولكن إن

---

[3] Westcott op. cit. p. 224,225.

ذهبت أرسله إليكم. ومتى جاء ذاك يبكّت العالم على خطية وعلى برٍّ وعلى دينونة. أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بي. وأما على بر فلأني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضاً. وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين.» (يو١٦: ٧—١١)

المسيح يكشف هنا بوضوح امتناع تلازم الخدمتين معاً: خدمة التجسد وخدمة عمل الروح القدس. فخدمة الإبن متجسداً تختص باستعلان وتمجيد الآب؛ وخدمة الروح القدس تختص باستعلان وتمجيد الإبن. وبالنهاية فالخدمتان هما عمل واحد متصل لاستعلان طبيعة الله وعمله في الثالوث الأقدس.

لذلك يشدد المسيح على أنه بالنسبة للتلاميذ فخير لهم أن ينطلق حتى يبدأ الروح القدس يكمل لهم استعلان كل الأمور أو، كما يقول المسيح، «كل شيء» و«كل الحق»، دون أن تنقطع شركتهم غير المنظورة مع المسيح الذي وعد أن يكون فيهم ومعهم كل الأيام.

على أن وظيفة الروح تظل بالنسبة للعالم في حدود عمل المبكّت إزاء كل جحود وعدم إيمان ليظل فيه بصيصٌ من الأمل في التوبة وذلك بواسطة الوعظ بالكلمة وشهادة الكنيسة للمسيح: «الروح يشهد لي وأنتم أيضاً تشهدون.» (يو١٥: ٢٦و٢٧)

التعريف السادس:

«إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كلُّ ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية. ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم.» (يو١٦: ١٢—١٤)

هنا يصرِّح المسيح أن كل التعاليم والإعلانات التي أكملها مع تلاميذه، سواء ما تخص الآب أو ما تخصه أو ما يخص علاقتهم بالملكوت والحياة الأبدية وأمور حياتهم اليومية، لم تغطّها الثلاث السنين والنصف التي قضاها معهم، ليس بسبب قصر المدة بل بسبب عدم استطاعتهم استيعاب أعماق أسرار الروح، خاصة أخبار الصليب والجلد وسفك الدم — لوحيد من الآب المملوء نعمة وحقاً!! فإن مجرد تصوُّر هذا الحِمْل فقط يقصم الظهر ويذهل العقل الطبيعي «من صدَّق خبرنا؟ ولمن استُعلنت ذراع الرب» «واندهش منك كثيرون» (إش٥٣: ١؛ ٥٢: ١٤)، أو كما يقول المسيح نفسه: «لا تستطيعون أن تحتملوا الآن» (يو١٦: ١٢)، حيث جاءت كلمة «تحتملوا» بمعنى «الحِمْل الثقيل» βαστάζειν وباللاتينية في الفولجاتا Portare . ولاحظ كلمة «الآن» فالمسيح كان يدرك فداحة تصوُّر الصليب على التلاميذ، ولكنه بعد أن صُلب ثم تمجد وارتفع وصار

أعلى من السموات، صار هذا الحمل خفيفاً هيناً، فصار حمل المسيح هذا عينه — أي الصليب — هو ناموس المسيح البديع: «احملوا نيري عليكم ... لأن نيري هيِّن وحملي خفيف.» (مت ١١: ٢٩و٣٠)

هذا الحِمْل حمله القديس بولس فاستلذَّ به أيَّما لذة وسمَّاه «ناموس المسيح»، وصار يبشر به: «احملوا بعضكم أثقال بعض (أي احملوا صلبان بعضكم بعضاً) وهكذا تمموا ناموس المسيح.» (غل٦: ٢)

فالقيامة بروحها المبهج أفقدت الصليب ثقله وألغت مرارته وحزنه. وهذا كله صنعه الروح القدس، فهذه صَنْعته!!

وهكذا بمجيء الروح القدس سوف تمتد خدمة الإستعلان وإدراك الحق الإلهي من جميع نواحيه وفي كل الأمور حتى إلى كمال استطاعة الوعي البشري، لأن البصيرة ستنمو والمعرفة ستزداد لحساب مجد المسيح والآب.

أما قوله: «**ويخبركم بأمور آتية**»، فتأتي في اللغة اليونانية معرَّفة بأداة التعريف τὰ ἐρχόμενα أي بأمور المستقبل المعدَّة من قِبَل الله للتنفيذ في وقتها. وهذا ينصب على كيفية نمو الكنيسة وتأسيسها وقيامها واكتمال هيأتها مع مرور السنين لتمثيل «النظام الإلهي» عوض النظام اليهودي المتداعي، بإعتبار الكنيسة هي الإستعلان الزمني لملكوت الله على الأرض، كونها خاضعة للتدبير الإلهي ومُسيَّرة بالروح القدس.

الفصل الثالث

الكنيسة والأسرار في إنجيل القديس يوحنا

١ ــ الكنيسة بالمفهوم اللاهوتي في إنجيل القديس يوحنا(١)

الكنيسة في واقعها الإلهي نشأت في اللحظة التي قال فيها المسيح للتلاميذ: «كما أرسلني الآب أرسلكم أنا. ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس. من غفرتم خطاياه تُغفر له. ومن أمسكتم خطاياه أُمسكت.» (يو٢٠: ٢١–٢٣)

هنا الكنيسة قامت وتأسست على الثالوث الأقدس الآب والإبن (المسيح) والروح القدس، تستمد رسالتها أو إرساليتها في العالم من الآب والإبن وبسلطان الروح القدس لغفران الخطايا.

ولو دققنا النظر، لوجدنا أن رسالة إنجيل يوحنا من أوله إلى آخره تهدف إلى ظهور الكنيسة المسيحية في مقابل اختفاء الكنيسة اليهودية التي رفضت وجودها بيدها. علماً بأن القديس يوحنا كان يكتب إنجيله ويشخص إلى الكنيسة التي أمامه وهي بنت سبعين سنة! وهي وسط أعنف تيارات الإضطهاد والضغط من كل جهة.

وقد استخدم القديس يوحنا في إنجيله بعض الرموز اللاهوتية للتعبير عن المضمون الكنسي والسرائري. **فمن جهة الأسرار** نجد أن الماء والميلاد الجديد يعبّران عن المعمودية(٢)، والخبز النازل من السماء الباقي للحياة الأبدية المبذول من أجل حياة العالم والمأكول بالروح، يعبّر عن

---

(١) لم نشأ أن نُعثر القارىء بآراء النقاد ونقدهم السلبي المرير لإنجيل يوحنا بادّعاء أنه أغفل الكنيسة كمفهوم لاهوتي وكشعب مختار وكجماعة ذات وجود سرائري ولاهوتي. ولكن اكتفينا بالرد.

(٢) أنظر ذلك بأكثر تفصيل في فصل «الرموز في إنجيل القديس يوحنا».

الإفخارستيا(٣)، والماء والدم النابعان من جنب المسيح يعبّران عن سرّي الحياة الأبدية النابعَين من المسيح، وهما المعمودية والإفخارستيا معاً، كسرَّين متلازمين وحتميين(٤)، وتحويل الماء خمراً في عرس قانا بحضور المسيح يُعبّر عن تقديس سِرّ الزيجة(٥)، ورفعه إلى مستوى بهجة التجديد بالحضور الإلهي عوض ثمرة الحزن الأول (تك٣: ١٦و١٧).

وأما من جهة الكنيسة نفسها فقد عبّر عنها إنجيل يوحنا على أنها شعب الله وأولاد الله، وذلك بالرموز المقروءة روحياً أيضاً:

أ — فيبدأ إنجيل يوحنا **بتعريف شعب المسيح** الجديد أي الكنيسة بصورة سرّيّة بأنه شعب عوض شعب، وخاصّةٌ مقبولة عِوَض خاصّةٍ مرفوضة: «جاء إلى خاصته (شعب اليهود) وخاصّتُه لم تقبله (الرفض الحتمي). **أما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله** (شعباً جديداً بالتبني) أي المؤمنون باسمه (الإيمان الجديد بالإسم)، الذين وُلدوا ليس من دم (آدم الأول) ولا من مشيئة جسد (شهوة الزيجة) ولا من مشيئة رجل (إرادة بشرية) بل من الله (ميلاداً روحياً سماوياً من فوق).» (يو١: ١١—١٣)

ب — ووضع إنجيل يوحنا **قاعدة العبادة** للكنيسة في ناموس المسيح عوض ناموس العبادة الجسدي في العهد القديم «ولكن تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون (عوض السجود الشكلي بالجسد) يسجدون للآب بالروح والحق (بدافع الروح القدس وتدبيره وإلهامه للكنيسة). لأن الآب **طالبٌ** مثل هؤلاء الساجدين له (عنصر العبادة في الكنيسة يعبّر عن تتميم مشيئة وإلحاح من الله «طالبٌ»). الله روح (تفوُّق العبادة في الكنيسة عن كل تصوُّرات العهد القديم الحسّية) والذين يسجدون له فبالروح والحق (العبادة في الكنيسة مستمدة من طبيعة الله) ينبغي أن يسجدوا.» (يو٤: ٢٣—٢٤)

ج — **الفردية والجماعية** في الكنيسة:

١ — في مَثَل «أنا الكرمة وأنتم الأغصان»: هنا ليس هذا الرمز سهلاً كما يتراءى لأول وهلة، فأصل الرمز أو المَثَل مأخوذ من كرمة العهد القديم (مز٨٠: ٨و١٤). وفيها «أنا» **هو ابن الإنسان**

(٣) أنظر نفس الفصل المذكور.

(٤) أنظر نفس الفصل المذكور.

(٥) أنظر نفس الفصل المذكور.

متحداً بشعب الله(٦). لذلك فبالرغم من حتمية الإيمان الفردي والثبوت الفردي للمسيحي في المسيح إلا أن المسيح هنا يجمع ويوحِّد الأغصان في نفسه: «**اثبتوا فيَّ وأنا فيكم**» (يو١٥: ٤). فالكنيسة هنا موجودة ومُعلَنة بالفرد والجماعة في المسيح. والذي يحكم الثبوت الفردي في الكرمة واحتساب الفرد عضواً حياً ضمن الجماعة أي الكنيسة هو **إثماره**. فهنا قانون صلاحية الفرد وصحة الجماعة قائم كالسيف «**كلُّ غصن فيَّ لا يأتي بثمر ينزعه (يُقطع)**» (يو١٥: ٢)، كما يقوم في الحال بجواره وفي مقابله قانون النمو والتوبة ليخفف من شدته ويستقطب حدوثه: «**وكل ما يأتي بثمرٍ ينقِّيه ليأتي بثمرٍ أكثر.**» (يو١٥: ٢)

ولكن الذي يتحتم الإنتباه إليه جداً هو حقيقة تأهيل العضو وكيفية اتصاله بالكنيسة. فالتأهيل والكيفية يضعها مَثَل الكرمة في وضع الإلتحام الطبيعي العضوي الحي القائم على التغذية الحية بعصارة الحياة القادمة من أصل الكرمة. فالعضوية في الكنيسة ليست عضوية نظام وتنظيم ودفع أموال وتقييد أسماء في كشوفات أو اعتراف شفاهي أو عضوية فخرية، بل تغذية وإثمار «بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً.» (يو١٥: ٥)

فإذا كانت الكرمة والأغصان هي الكنيسة، إذن فقد صحَّ القانون القائل أن: [خارج الكنيسة لا يوجد خلاص]، وأن **الإنفصال عن الكنيسة هو موت**، لأنه يحمل حتماً الحرمان من كل وعد المسيح للكنيسة. لذلك فكلمة «اثبتوا فيَّ وأنا فيكم» ذات وزن عالٍ جداً على مستوى الكنيسة الحية.

وجَمْع شمل المؤمنين في الكنيسة هو عمل سرِّي من أعمال المسيح الفائقة نسمع صداه في صلاة المسيح للآب: «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا» (يو١٧: ٢١). وهنا فإن عامل الحب الإلهي المتبادَل هو العنصر الموحِّد للفرد في المسيح وفي الجماعة لإستعلان الكنيسة: «الذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأظهر له ذاتي» (يو١٤: ٢١). فالفردية في الكنيسة قائمة على الإيمان الفردي، والجماعية في الكنيسة قائمة على المحبة؛ ولا غِنَى عنها كليهما، لأن الكنيسة في إنجيل يوحنا مبنية على الإيمان والمحبة: «بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إن كان لكم حبٌّ بعضاً لبعض» (يو١٣: ٣٥). بهذا يُحسب إنجيل يوحنا أنه بالدرجة الأولى إنجيل استعلان طبيعة الكنيسة الفائقة المستمدة من حضور المسيح الدائم وفعل محبته السرِّي الذي يفوق العقل.

(٦) أنظر ما جاء في شرح لقب «ابن الإنسان» عن التحام **الشخصية الفردية مع الجماعية الشعبية** حيث نقدِّم أيضاً شرحاً مفصلاً للمزمور الثمانين.

٢ — في مَثَل الراعي الصالح:

كذلك فإن الفردية المختفية في الجماعة، والجماعة المبنية على الفردية واضحة في مَثَل المسيح كراعٍ صالح في قوله «**ولي خراف أُخر** ليست من هذه الحظيرة ينبغي أن آتي بتلك أيضاً فتسمع صوتي **وتكون رعيّةٌ واحدة وراعٍ واحد**» (يو١٠: ١٦). هنا منتهى كمال استعلان سر الوحدة في الكنيسة المجموعة من خراف كثيرة ذات أوطان وألوان أخر. ومن هنا جاء الإصطلاح الكنسي المجيد كنيسة واحدة وحيدة **جامعة** رسولية. وهذه اللمحة للصفة الإلهية الجامعة للكنيسة كانت حاضرة في ذهن القديس يوحنا بوضوح حينما شرح نبوّة قيافا رئيس الكهنة: «ولا تفكرون أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب (اليهودي — الخراف العتيقة) ولا تهلك الأمة كلها — ولم يقل هذا من نفسه بل إذ كان رئيساً للكهنة في تلك السنة تنبأ أن يسوع مزمعٌ أن يموت عن الأمّة. وليس عن الأمّة فقط بل **ليجمع أبناء الله المتفرقين** (في العالم) **إلى واحد.**» (يو١١: ٥٠ — ٥٢)

فالرعية والخراف والحظيرة كلها رموز تهدف لتحديد موقع الكنيسة من المسيح. فهي رعية المسيح وخراف المسيح وحظيرة المسيح (يو١٠: ١٦). وهنا الصورة الجماعية للكنيسة تبدو ممتازة جداً كملكية شخصية للمسيح، فهو الراعي، والكنيسة هي الرعية، تعرف صوته وتتبعه حيث يقودها. هنا رباط الإلتزام الواحد بالآخر يبدو وكأنه بلا انفكاك. فعلى مستوى قول المسيح «أنا هو الراعي الصالح» تقف الكنيسة لترد قائلة: «وأنا هي الرعية — المدعوة والمختارة والمحبوبة — التي للراعي الصالح». فلا الراعي يبقى بلا رعية ولا الرعية تبقى بلا راعٍ. والإيمان هو الرباط الذي يربطها به: «إلى من نذهب. كلام الحياة الأبدية عندك. ونحن قد آمنّا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي» (يو٦: ٦٨و٦٩). ويرد المسيح «الراعي» على ذلك بقوله: «أليس أني أنا اخترتكم أنتم الإثني عشر.» (يو٦: ٧٠)

د — سر الكنيسة كعروس المسيح:

مَثَل العريس والعروس: على فم المعمدان جاء هذا التعبير الكنسي كاستعلان غاية في السمو لوظيفة المسيح بالنسبة للكنيسة وموقع يوحنا المعمدان من هذا السر: «**مَنْ له العروس فهو العريس، وأما صديق العريس الذي يقف ويسمعه فيفرح فرحاً من أجل صوت العريس.** إذاً فرحي هذا قد كمل. ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص» (يو٣: ٢٩ — ٣٠). هنا استعلان *السر القائم في علاقة المسيح بالكنيسة علاقة عروس بعريس. في العهد القديم كان* **شعب إسرائيل** محسوباً أنه مربوط بالله كزوجة، ولكن لما أخطأ شعب إسرائيل خطية تستوجب الطلاق، **أعلن الله** حالة طلاق رسمي لشعب إسرائيل كما قال الرب بفم إشعياء النبي: (هنا نقدم **القراءة الصحيحة** بحسب النسخة السبعينية): «هكذا قال الرب (يسأل) **ما العلة التي يحملها** كتاب طلاق **أمكم؟**

أو من هو الدائن الذي بعتكم له؟ (ويقدم الله الجواب) هوذا من أجل آثامكم قد بُعتم ومن أجل ذنوبكم طلقتُ أمكم» (إش ٥٠: ١و٢). والآن نحن بصدد العروس الجديدة (الشعب والكنيسة الجديدة) التي جاء يوحنا المعمدان بروح إيليا لكي يعلن ويوثّق عُرْسَها. فالمعمدان هو الإشبين المرسَل من عمق الماضي بروح إيليا الذي طالما تاق توقاً لرؤية هذا العريس من خلال حُجُب ظلام الماضي. لذلك أيَّ فرح يكون للمعمدان إذ رأى وسمع صوت العريس؟ في الواقع إن المتكلم هنا هو هو إيليا، نعم كم هي فرْحَتُك يا إيليا، لقد انتظرتها انتظاراً وها هي تكملت لك. أما النقصان فليس للمعمدان ولا لإيليا بعد، ولكن لكنيسة البرية كنيسة العهد القديم في شكلها ومبناها. وأما الزيادة فهي ليست للمسيح، فكيف يزداد مَنْ «مِنْ ملئه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة» (١٦:١)؟ لأن المسيح هو استعلان الله الكامل، والله لا يزداد كمالاً، وإنما الذي ازداد ويزداد فهو العروس كنيسة المسيح التي سقاها دمه، العروس التي زُفّت إليه يوم صلبوته، حين غسلها بالماء وقدسها بالدم النابعين من جنبه المفتوح.

وسِرُّ الكنيسة كعروس لمسيحها الذي اختارها وفداها وغسلها بالماء والدم واضح في سفر الرؤيا أيضاً: «لنفرح ونتهلل ونُعْطِه المجد لأن عُرْس الخروف قد جاء وامرأته هيَّأت نفسها وأُعطيت أن تلبس بزًّا نقياً بهياً (كتان أبيض) لأن البزّ هو تبرُّرات القديسين» (رؤ١٩: ٧و٨). فالقديس يوحنا إنما هو على يقين مما رأى وسمع. والكنيسة في سفر الرؤيا هي هي أورشليم الجديدة التي سيستعلن مجدها في مجيء المسيح:

— «وتكلَّم معي قائلاً هلمَّ فأُريك العروس امرأة الخروف. وذهب بي بالروح إلى جبل عظيم عالٍ وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من عند الله...» (رؤ٢١: ٩و١٠)

— «وأنا يوحنا رأيتُ المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيَّأة كعروس مزيَّنة لرجلها. وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً: هوذا مسكن الله مع الناس، وهو سيسكن معهم، وهم يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم إلهاً لهم.» (رؤ٢١: ٢و٣)

فأين تكون أمامها أورشليم العتيقة قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين؟

وإذا ظهر المسيح مشتهى الأنبياء ورأته العين ولمسته اليد، فأين يقف المعمدان أو إيليا أو كل النبوات؟ وإذا «ظهرت الآية العظيمة في السماء امرأة متسربلة بالشمس (المسيح) والقمر (يوحنا المعمدان) تحت رجليها، وعلى رأسها إكليل من اثني عشر كوكباً (الرسل)» (رؤ١٢: ١)، فأين تكون التي بكى عليها المسيح التي لم تعرف زمان افتقادها، التي صلبت مخلِّصها وجلست وحدها تبكي على زمان ترمُّلها؟!!

هـ – سر الكنيسة وخروج الماء والدم من جنب المسيح:

لقد أعطى القديس يوحنا أهمية كبيرة لحادثة خروج الماء والدم من جنب المسيح على الصليب، مع أن بقية الإنجيليين لم يهتموا ولا حتى بذكرها:

– «وللوقت خرج **دمٌ وماء**. والذي عاين شهد وشهادته حقٌّ وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم.» (يو١٩: ٣٥)

ثم عاد في رسالته الأولى إلى تأكيد أهمية هذه الحادثة:

– «هذا هو الذي أتى **بماء ودم** يسوع المسيح. لا بالماء فقط بل بالماء والدم. والروح هو الذي يشهد.» (١يو٥: ٨)

ويتضح من هذا التركيز على هذه الحادثة أن لها أهمية لاهوتية أساسية في فكر القديس يوحنا. وقد اعتبر كثير من الآباء أن القديس يوحنا يريد أن يشير بذلك إلى خروج أسرار الكنيسة أي المعمودية (الماء) والإفخارستيا (الدم)، وبالتالي إلى خروج الكنيسة نفسها بصفتها حواء الجديدة، من جنب المسيح النائم على الصليب، كما خرجت حواء الأولى من جنب آدم النائم (القديسون أغسطينوس وكيرلس الأورشليمي وذهبي الفم وغيرهم حسب تحقيق العالِم Lagrange)[7].

وجدير بالملاحظة أننا نجد ما يوازي هذا الفكر عند القديس بولس الرسول إذ أنه في نهاية حديثه عن الكنيسة كعروس للمسيح قال:

«فإننا نحن جسده من لحمه ومن عظامه» (أف٥: ٣٠). وواضح أن هذا الإقتباس مأخوذ من قول آدم في سفر التكوين عقب خروج حواء من جنبه حيث قال: «هذه الآن عَظْمٌ من عظمي ولحم من لحمي.» (تك٢: ٢٣)

و – الكنيسة في جوهرها وحدة في الآب والإبن:

الكنيسة تستمد جوهرها وكيانها الحقيقي من الوحدة الأزلية الكائنة بين الآب والإبن. يتضح ذلك من كلام الرب السري في صلاته الأخيرة (يو١٧):

+ «**كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا**» (يو١٧: ٢١)؛ حيث يظهر من ذلك أن الوحدة الأزلية بين الآب والإبن ليست فقط **النموذج الأعلى** (بقوله «**كما**»...) لوحدتنا الكنسية، بل هي فوق ذلك **الوسط الإلهي** المعروض علينا أن ندخل فيه: «**ليكونوا واحداً فينا**»، لنتحقق **داخله** وحدتنا الكنسية. فالكنيسة بالأساس مغمورة في هذا الوسط الإلهي الذي هو الحب المتبادل بين الآب والإبن.

---

[7] M.-J. Lagrange, Evangile selon saint Jean, Paris, 1925, p. 499.

+ «**أنا فيهم** (بالتجسد) **وأنت فيَّ** (بعلاقتي الجوهرية بك كإبن وحيد لك، كائن فيك منذ الأزل) ليكونوا مكمَّلين إلى واحد. وليعلم العالم أنك أرسلتني.» (يو١٧: ٢٣)

عبارة «أنا فيهم» بدأت تتحقق لما صار الكلمة جسداً، فإن تجسد الكلمة هو جوهر تكوين الكنيسة، أي جوهر دخولنا في الوحدة مع الآب والإبن. **فالكنيسة بالأساس هي امتداد لتجسد الكلمة أي لإتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح**(٨).

+ **الكنيسة في جوهرها شركة مع الآب والإبن:** ما سمعه القديس يوحنا من فم الرب في صلاته الأخيرة عن وحدة المؤمنين في الآب وفي الإبن، أعاد صياغته في رسالته الأولى مستخدماً عبارة «الشركة» κοινωνίαν، تلك الكلمة التي دخلت فيما بعد في التقليد المسيحي للتعبير عن «الشركة الكنسية»:

«**نخبركم به لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا** κοινωνία (الشركة الكنسية). **وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح** (الشركة مع الآب والإبن هي الأساس الوحيد الذي تُبنى عليه الشركة الكنسية). **ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً** (هذه الوحدة مع الآب والإبن التي نحن مدعوون أن ندخل إليها في سر الكنيسة، والتي تفوق الزمن، هي سر الفرح الكامل).» (١يو١: ٣و٤)(٩)

ز ــ النظام وتدبير الخدمة في الكنيسة، في إنجيل يوحنا:

لم يضع لها إنجيل يوحنا مفردات كثيرة ولكن وضع لها قاعدته العريضة التي إن سارت عليها الكنيسة وسار عليها رؤساؤها عاشت وازدهرت، وإن تمردت عليها انحصرت وتضايقت: «فلما كان قد غسل أرجلهم وأخذ ثيابه واتكأ أيضاً قال لهم: أتفهمون ما قد صنعت بكم؟ أنتم تدعونني معلماً وسيداً وحسناً تقولون لأني أنا كذلك. فإن كنت وأنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض لأني أعطيتكم مثالاً حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم

---

(٨) راجع شرح هذه النقطة بأكثر تفصيل في كتاب: «العنصرة» للمؤلف، (أعيد طبعه ضمن كتاب: «الروح القدس الرب المحيي» ص١٣٥ــ١٨١)، حيث يقول: «لقد استُعلنت الكنيسة أول ما استعلنت في تجسد الإبن؛ لأن إتحاد اللاهوت بالناسوت هو في الواقع أصل ومعنى وحقيقة الكنيسة (إجتماع الله بالناس). لذلك فظهور الله في جسد إنسان هو أول استعلان لطبيعة الكنيسة وتحقيق وجودها عملياً على الأرض... فإذا نظرنا إلى المسيح المولود من العذراء من جهة اللاهوت الكنسي لتيقَّنا أنه هو هو الكنيسة في معناها الإلهي المطلق» (ص١٥٣). «إذن غاية التجسد الإلهي قد بلغت ذروتها يوم الخمسين حينما صار الكل في المسيح... لقد صار وكمل في العلية ما بُدِىء به في بيت لحم. لقد وُلد المسيح في بيت لحم لتولد الكنيسة في العلية.» (ص١٥٦)

(٩) راجع ما جاء في الباب الثالث ــ الفصل السادس عن الوحدة والشركة مع الله كمعيار ودرجة التأليه في إنجيل القديس يوحنا (ص١٧٣ وما يليها).

أيضاً. الحق الحق أقول لكم إنه ليس عبد أعظم من سيده ولا رسول أعظم من مُرسله. **إن علمتم هذا فطوباكم إن عملتموه»** (يو١٣: ١٢-١٧). **هذا هو قانون النظام في الكنيسة وقاعدة التدبير فيها.**

ح - الإرسالية وتنصيب الرعاة ومنحهم سلطاناً لمغفرة الخطايا والكرازة، في إنجيل القديس يوحنا:

- «الحق الحق أقول لكم الذي يقبل مَنْ أرسله يقبلني. والذي يقبلني يقبل الذي أرسلني.» (يو١٣: ٢٠)

السيد المسيح هنا يتبنى عملية تعيين الرسل والمرسلين والإرساليات، ويرفع من قدر المرسل رفعاً إلهياً خطيراً، فالمرسل المسيحي يحمل اسم المسيح والآب، ورسالته أخطر مما يتصور الناس فهي على التوازي والتكامل مع إرسالية الآب للإبن. **هذا هو المفهوم الإلهي للإرساليات في الكنيسة.**

- «أنا أرسلتكم لتحصدوا ما لم تتعبوا فيه. آخرون تعبوا وأنتم قد دخلتم على تعبهم.» (يو٤: ٣٨)

عمل المرسَلين سبق المسيح وأسس منهجه وتولى تذليل مصاعبه، وزرع وسق ونمّى، وما بقي على المرسَل إلا الحصاد. لقد تولى المسيح رفع كل أتعاب الخدمة وعثراتها بعمله الروحي الحَقي، وضمن للعامل نجاحه وفرحه.

- «يا سمعان بن يونا **أتحبني أكثر من هؤلاء؟** قال له نعم يا رب أنت تعلم أني أحبك. قال له **ارعَ خرافي.»** (يو٢١: ١٥)

الرعاية في الكنيسة هي أمر تنصيب من قِبَل راعي الرعاة الأعظم. **ومؤهلات الراعي في الكنيسة التي تجعله متقدماً على خراف الرعية هي المحبة الأكثر:** «أكثر من هؤلاء».

- «فقال لهم يسوع أيضاً سلام لكم. **كما أرسلني الآب أُرسلكم أنا.** ولما قال هذا **نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس. مَنْ غفرتم خطاياه تُغفر له. ومَنْ أمسكتم خطاياه أُمسكت.»** (يو٢٠: ٢١-٢٣)

المسيح يمنح المرسَلين في الكنيسة سلامه الخاص ليمنحوه بدورهم، وروحه القدوس لمغفرة خطايا الشعب أو لحجب الغفران (للتأديب والتوبة).

هنا يضطلع الروح القدس بوظيفة الكنيسة: «وأما المعزّي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي **فهو يعلّمكم كل شيء ويذكّركم بكل ما قلته لكم»** (يو١٤: ٢٦). «روح الحق الذي

لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم **فتعرفونه لأنه ماكثٌ معكم ويكون فيكم**» (يو١٤: ١٧). «روح الحق الذي من عند الآب ينبثق **فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً...**» (يو١٥: ٢٦و٢٧). «وأما متى جاء ذاك روح الحق **فهو يرشدكم إلى جميع الحق...، ويخبركم بأمور آتية. ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم.**» (يو١٦: ١٣و١٤)

وهكذا إذ تكون الكنيسة قد تكامل نضجها، في منظور إنجيل القديس يوحنا، تنطلق لتكرز بما رأت وسمعت ببشارة الفرح: «الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به لكي يكون لكم شركة معنا، وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح — (بالروح القدس) — ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً.» (١يو١: ٣و٤)

ط — مركز الرسل في الكنيسة في مفهوم القديس يوحنا:

— «وسور المدينة (الكنيسة) كان له اثنا عشر **أساساً** وعليها أسماء **رسل الخروف** الإثني عشر.» (رؤ٢١: ١٤)

الكنيسة في مفهوم القديس يوحنا كما رآها في رؤياه مبنية على أساس الرسل. أما **أسماؤهم** المكتوبة على الأساس فهي تعبير قوي عن حضورهم الدائم بالروح في الكنيسة، ويمثله الآن التقليد الرسولي المدوَّن في الأربعة الأناجيل، والشفاهي المسلَّم للكنيسة في الأسرار وشرح الكلمة بالتسليم.

— «أما أنتم فما سمعتموه من البدء فليثبت إذاً فيكم.» (١يو٢: ٢٤)

لقد آزرهم المسيح بالروح القدس حتى يتذكروا كل ما قاله لهم ويعلّمهم كل الحق ويأخذ ما للمسيح ويخبرهم بالأمور التي عسر عليهم فهمها في حينها حتى يشهدوا له: «أنتم تشهدون أيضاً **لأنكم معي من الإبتداء**» (يو١٥: ٢٧). هذه هي الميزة العظمى التي كانت لشهادة الرسل والتي عليها وبها قامت الكنيسة في كل العالم. ولقد حملت الكنيسة في كيانها هذه الشهادة كذخيرة لا يمكن أن تتكرر قط. فعندما نقول إن الكنيسة **رسولية**، فهذا يعني أنها تحمل الشهادة المدموغة بالروح القدس وختم المسيح.

ي — رؤية الكنيسة من الداخل:

«**إصعد إلى هنا** فأُريك ما لا بد أن يصير بعد هذا. وللوقت صرت في الروح وإذا عرش موضوع في السماء وعلى العرش جالس. وكان الجالس في المنظر شبه حجر اليَشْب والعَقيق، وقوسُ قُزَح حول العرش في المنظر شبه الزُمُرُّد. **وحول العرش أربعة وعشرون عرشاً. ورأيت على العروش أربعة وعشرين شيخاً (قسيساً) جالسين متسربلين بثياب بيض وعلى رؤوسهم أكاليل من ذهب.**» (رؤ٤: ١—٤)

القديس يوحنا صعد إلى السماويات ورأى، كما صعد موسى بالروح ورأى؛ هذا رأى شبه السماويات وظلّها، وذاك رأى السماويات عينها. أما موسى فصنع خيمة الإجتماع كما رآها بالروح؛ وأما القديس يوحنا فرتّب نظام الكنيسة وترتيبها من الداخل لتكون صورة منظورة لما سيكون في السماء. وكان القديس يوحنا بالفعل يلبس ملابس رئيس الكهنة بيضاءً وعليه صدرة وربما إكليل([10]). ونعتقد أن الكنيسة تسلمت منه شكلها وترتيبها الداخلي وترتيب جلوس الأسقف وحوله الكهنة. ونستدل هذا من رسائل القديس إغناطيوس أسقف أنطاكية، وهو تلميذ القديس يوحنا، وذلك في رسائله الست التي كتبها سنة ١٠٧ إلى كنائس آسيا ومقدونيا وهو في طريقه إلى الإستشهاد في روما، حيث يحث أساقفة الكنائس — وحتى إلى پوليكارپوس نفسه أسقف سميرنا — على كيفية الإجتماع والجلوس داخل الكنيسة واحترام الأسقف: [حيث يكون الأسقف في موضع الله والكهنة في موضع جماعة الرسل]([11])، تماماً حسب الرؤيا التي رآها القديس يوحنا في السماء حيث عرش الله يحيط به عروش الأربعة والعشرين شيخاً بملابسهم البيضاء وأكاليلهم.

وهكذا أيضاً نتأكد من بقية رسائل القديس إغناطيوس أن النظام والقانون الكنسيين وتدبير الخدمة بدأت تأخذ كمالها الإلهي في أيام القديس يوحنا وبعده.

٢ — الأسرار الكنسية في إنجيل القديس يوحنا

يقول العالم باريت في صفحة ٦٩ من كتابه شرح إنجيل القديس يوحنا: [في إنجيل القديس يوحنا توجد تعاليم عن الأسرار أكثر من بقية الأناجيل]. هذا رداً على النقاد الذين يقولون إن إنجيل يوحنا يخلو من الحديث عن الأسرار الكنسية.

وقد سبق أن قلنا في تعريفنا للكنيسة، أن الرموز الخاصة بالأسرار في إنجيل القديس يوحنا تحمل معاني خصبة للغاية **«الميلاد من الروح»، «الماء الحي»، «الميلاد الثاني من فوق»، «تفتيح عيني الأعمى»، و«الإغتسال في بركة سلوام»**، مقعد بيت حسدا ذو الـ٣٨ سنة على سرير الخطية. كلها أنوار مسلّطة على المعمودية تشرح كل لاهوتها. وكذلك **وليمة الغذاء في حضرة الرب** في معجزة الخمس الخبزات، **والخبز النازل من السماء الذي مَنْ يأكله لا يموت، الشكر الإفخارستي عليه، والمسيح ناظر إلى أعلى، وتكسير الخبز (القسمة) والتوزيع، وجمع الكسر حتى**

---

[10] Euseb. Eccl. Hist. III,31; V,24.

[11] Ep. Magn VI, Trall. ii,iii cited by W.F. Hourd Christ. Acc. to St. John, p. 129.

لا يضيع شيء، «**أكل الحق وشرب الحق**». ثم **الخمر في عرس قانا الجليل والكرمة**، أنوار مسلطة كلها على سر الإفخارستيا. **وحضور المسيح (كعريس حقيقي) في عرس قانا الجليل، والأم العذراء حاضرة أيضاً (الكنيسة)**، أنوار مسلطة على سر الزيجة. **ونفخ الروح القدس في وجه التلاميذ وإرسالهم للخدمة وإعطاؤهم سلطان غفران الخطايا**، أضواء مسلطة على سرّي الكهنوت والإعتراف.

وفي هذه الرموز جميعاً يُبرز إنجيل يوحنا الصلة الجوهرية بين الأسرار والمسيح، فكلها تنبع منه وتبق قائمة ودائمة فيه. وقد التزم السيد المسيح بالرموز في حديثه عن المعمودية (يو ٣) وعن الإفخارستيا (يو ٦)، ولم يشرح السر عملياً لأنه لم يكن يكلم الكنيسة آنئذ بل كان يتكلم إما مع معلم الناموس أو في المجمع في كفرناحوم.

وإنجيل يوحنا ينفرد دون بقية الأناجيل في شرح الغرض من هذه الأسرار وتوضيح لزومها وأهميتها المطلقة بالنسبة للحياة الأبدية، بل ويجعل من ممارستها حتمية خلاصية: «**إن كان أحد لا يولد** من فوق **لا يقدر** أن يرى ملكوت الله» (يو٣: ٣)، «**إن كان أحد لا يولد** من الماء والروح **لا يقدر** أن يدخل ملكوت الله» (يو٣: ٥). ولكن جاءت كلها بلغة سرية مستقبلية، **فهو** يتكلم مع اليهود ولكن يخاطب كنيسة الدهور: «**إن لم تأكلوا** جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه **فليس لكم حياة فيكم**» (يو٦: ٥٣). اليهود رفضوا هذا وبعض التلاميذ أيضاً، لأن الكلام لم يكن لهم.

وواضح أن اختصاص إنجيل يوحنا يتجاوز دائماً الممارسات الشكلية لأنه كان يتكلم مع غير المختصين بالشكل والأداء. فهو لم يصف طريقة ممارسة سر العماد، ولا وصف طريقة ممارسة سر الإفخارستيا؛ ولكنه تجاوز الشكل والحركة إلى المضمون والجوهر. ويكفي أنه لم يذكر قط كلمة واحدة عن ميلاد المسيح أو نسبه أو بلده أو عماده. ولكنه أسهب في وصف تجسده الذي هو التعبير اللاهوتي عن الميلاد. ثم أسهب في وصف شهادة يوحنا المعمدان وما سمعه بالروح القدس وشهادة الله عن ابن الله وقت العماد.

كذلك يختص إنجيل يوحنا بالتأكيد على دور الروح القدس في المعمودية، فبعد أن ذكر الميلاد من فوق والميلاد من الماء والروح، عاد ثالثة ليؤكد أنه ميلاد من الروح القدس: «**هكذا كل من وُلد من الروح**» (يو٣: ٣و٧و٥و٨). كذلك في سر الإفخارستيا، فإنه بعد أن وضع أساس الإفخارستيا كأكل الجسد وشرب الدم، عاد وأكد أن للروح القدس الفعل الجوهري في عملية السر بأكمله. «**الروح هو الذي يحيي**، أما الجسد — كمجرد طعام بالفم — فلا يفيد شيئاً. الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة.» (يو٦: ٦٣)

ويلاحظ أن «الجسد» في الإفخارستيا هو التعبير الكامل عن جسد المسيح الحي الذي مات وقام. ولا يمكن فصم الجسد عن الروح القدس الذي فيه باعتبار أنه جسد الإبن الوحيد الحامل لروح الله، كذلك لا يمكن فصله عن الروح القدس الذي حلَّ عليه واستقر فيه، فالذي يأكل الجسد يقبل الروح القدس الذي فيه. لذلك فالجسد محيي «لأني أنا حيٌّ فأنتم ستحيون» (يو١٤: ١٩). وكذلك الدم فهو في المسيح قائم «بروح أزلي» (عب٩: ١٤)، ومعروف في لاهوت العهد القديم أن «الحياة في الدم» (لا١٧: ١٠و١٦). أما دم المسيح ففيه الحياة البشرية والحياة الأبدية معاً أو الحياة التي بلا فساد أو موت، فالذي يشربه يتحد به ويحيا إلى الأبد ولا يجوز عليه الموت. لذلك اعتبر الآباء القديسون أن الإفخارستيا هي antidote أو ترياق عدم الموت أو الدواء الذي يمنع الموت. وقد أجمل القديس يوحنا في رسالته الأولى عمل الروح مع الماء مع الدم كعمل واحد ذي شهادة «والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة الروح والماء والدم والثلاثة هم في الواحد.» (١يو٥: ٨)

ثم يعود القديس يوحنا ليؤكد على العمل السرائري في حياة المسيح بصورة عميقة للغاية. فبحسب الإنجيل عامة كتقليد رسولي، فإن حياة السيد المسيح تبدأ بالمعمودية والروح القدس وتختم بالإفخارستيا، طقساً في الثلاثة الأناجيل، وتعليماً في إنجيل يوحنا، وتطبيقاً على الصليب في الأناجيل الأربعة. ويُعقِّب على هذا القديس يوحنا في رسالته بقوله عن المسيح ككل: «هذا هو الذي أتى بماءٍ ودمٍ يسوعُ المسيحُ، لا بالماء فقط (يوحنا المعمدان) بل بالماء والدم، والروح هو الذي يشهد لأن الروح هو الحق» (١يو٥: ٦). لأن الروح القدس هو الذي شهد في المعمودية وهو أيضاً اضطلع بإقامة المسيح من الموت (رو١: ٤)، معلناً بذلك أن دم الصليب كان للفداء.

+ وقد أكد القديس يوحنا ثلاث مرات على قيمة الإعتراف بالخطايا كسرٍّ من أسرار الغفران والشفاعة:

— «ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية.» (١يو١: ٧)

— «إن قلنا إنه ليس لنا خطية نُضلُّ أنفسنا وليس الحق فينا. إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل (أمين بحسب الوعد وعادل بحسب القضاء) حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم.» (١يو١: ٨و٩)

— «إن قلنا إننا لم نخطىء نجعله كاذباً وكلمته ليست فينا... وإن أخطأ أحد فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار، وهو كفارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضاً.» (١يو١: ١٠، ١يو٢: ١و٢)

+ كما يبرز القديس يوحنا **الإيمان بالمسيح** على أساس أنه **سر خلاصي:**

— «كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد وُلد من الله.» (١يو٥: ١)

— «كلُّ من وُلد من الله يغلب العالم. وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم إيماننا.» (١يو٥: ٤)

— «من هو الذي يغلب العالم إلا الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله.» (١يو٥: ٥)

الفصل الرابع

الرموز في إنجيل القديس يوحنا

(أو اللاهوت الرمزي)

الراعي الصالح، الكرمة الحقيقية، الخبز الحي، الماء الحي... إلخ.

يستخدم المسيح هذه الرموز في إنجيل يوحنا لتوضيح حقائق أبدية. وهذه هي إحدى خصائص إنجيل يوحنا.

١ ـ رمز الراعي الصالح:

في مثل «أنا هو الراعي الصالح» يقول الرب إنه هو باب الخراف أيضاً، ويستحيل بحسب المدلولات أن يكون الراعي هو الباب؛ فهذه رموز تهدف إلى حقيقة أخرى إلهية أو لاهوتية عالية جداً. فبعد أن يعرِّف المسيح نفسه بأنه هو الراعي وأنه هو باب الخراف وأنه «يعرف خاصته وخاصته تعرفه»، يرتفع مرة واحدة بالرمز ليُدخله في دائرة الله ليكشف عن هويّته هكذا: «كما أن الآب يعرفني وأنا أعرف الآب...» (يو١٠: ١٥)، ثم من داخل الرمز يشير إلى رسالته حتى منتهاها بكلمة: «وأنا أضع نفسي عن الخراف» (يو١٠: ١٥). فالمسيح يستخدم كلمة «الراعي» وكلمة «الباب» وكلمة «الخراف» كشِفْرَة أو رمز لموضوع حقيقي على مستوى عمله الإلهي وهو: كيف سيخلّص المؤمنين باسمه الذين عرفوه وعرفهم، وسوف يعطيهم الحياة الأبدية، وكيف ستكون الصلة بينه وبينهم؟

والمسيح لم يستخدم هذه الرموز كشيء جديد، بل هي بعينها رموز العهد القديم التي استخدمها الله مع شعبه. في العهد القديم معروف من المزامير أن «الرب راعٍ»، فَهُوَ يرعى شعبه، وشعبه هو بمثابة خراف «الرعية»: «نحن شعبك وغنم رعايتك» (مز٧٩: ١٣). والله نفسه هو «الراعي».

والنبوّة تشير على أن الله سيأتي كراعٍ له صفة القوة والبأس مع حنان وعطف: «هوذا السيد الرب بقوة يأتي، وذراعه تحكم له. هوذا أُجرته معه (ليس أجيراً) وعُمْلته معه. كراعٍ يرعى قطيعه. بذراعه يجمع الحملان، وفي حضنه يحملها، ويقود المرضعات.» (إش٤٠: ١٠و١١)

ولكن على مدى السنين اختار الله رعاة من المختارين من الشعب ليقوموا بالرعاية من تحته هو «كراعي الرعاة الأعظم». «واختار داود عبده وأخذه من حظائر الغنم، من خلف المرضَعات أتى به ليرعى يعقوب شعبه وإسرائيل ميراثه، فرعاهم حسب كمال قلبه وبمهارة يديه هداهم.» (مز٧٨: ٧٠—٧٢)

ولكن في السبي ابتدأ الله يصرِّح على فم أنبيائه أنه سيعاقب الرعاة، وأنه فيما بعد سيرعى بنفسه ويقيم رعاة أيضاً. والإشارة واضحة على المسيح والرسل ثم الكنيسة: «ويل للرعاة الذين يهلكون ويبددون غنم رعيَّتي يقول الرب. لذلك هكذا قال الرب إله إسرائيل عن الرعاة الذين يرعون شعبي. أنتم بدَّدتم غنمي وطردتموها ولم تتعهدوها. ها أنذا أُعاقبكم على شر أعمالكم يقول الرب. وأنا أجمع بقية غنمي من جميع الأراضي... وأُقيم عليها رعاة يرعونها فلا تخاف بعد ولا ترتعد ولا تُفْقَد يقول الرب.» (إر٢٣: ١—٤)

ولكن على مدى الأيام فسد الرعاة وأفسدوا الرعية جداً، ومن جهة هذا الأمر يصرخ حزقيال النبي: «وكان إليَّ كلام الرب قائلاً: يا ابن آدم تنبَّأ على رعاة إسرائيل، تنبأ وقُلْ لهم: هكذا قال السيد الرب للرعاة، **ويل لرعاة إسرائيل** الذين كانوا يرعون أنفسهم، **ألا يرعى الرعاة الغنم**. تأكلون الشحم وتلبسون الصوف وتذبحون السمين ولا ترعون الغنم (أي نهبوا الرعية). المريض لم تقوُّوه والمجروح لم تَعْصِبوه والمكسور لم تُجبروه والمطرود لم تستردُّوه والضال لم تطلبوه، بل بشدة وبعنف تسلَّطتم عليهم. فتشتَّتت بلا راعٍ وصارت مأكلاً لجميع وحوش الحقل وتشتتت. ضلَّت غنمي في كل الجبال وعلى كل تلٍّ عالٍ. وعلى كل وجه الأرض تشتتت غنمي ولم يكن من يسأل أو يفتش... هكذا قال السيد الرب: ها أنذا على الرعاة وأطلب غنمي من يدهم **وأكفُّهم عن رَعْي الغنم**. ... هكذا قال السيد الرب: **ها أنذا أسأل عن غنمي وأفتقدها كما يفتقد الراعي قطيعه... أرعاها في مرعى جيد... أنا أرعى غنمي وأربضها يقول السيد الرب.**» (حز٣٤: ١—١٥)

ويقول المسيح: «إن كل الذين جاءوا قبلي (من الرعاة) هم سُرَّاق ولصوص» (يو١٠: ٨)، والله نحَّاهم: «أكفُّهم عن رعْي الغنم». وجاء هو بنفسه يهوه بنفسه: «أنا أرعى غنمي يقول السيد الرب». وزاد المسيح بقوله: «أنا أضع نفسي عن الخراف»، وجعل هذا برهاناً لصلاحه: «أنا هو

الراعي الصالح. والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف.» (يو١٠: ١١)

والآن لو تأمل القارىء جيداً في نبوة حزقيال(١) في قوله إن الله سيكفُّ الرعاة المفسدين عن رعْي الغنم وأنه سيرعى بنفسه الغنم، فإنه لا يجد لهذا القول أي تنفيذ عملي في العهد القديم من بعد زمان حزقيال النبي. فلا الرب أوقف الرعاة عن الرعاية، ولا الرب قام بنفسه برعاية الشعب، بل على النقيض أهمل الأمة تماماً، وظلت كلمة الرب محبوسة بلا نبي ولا معلم إلى مجيء المسيح، ما عدا نبوات الأنبياء الصغار الذين جاءوا من بعد حزقيال وحَذَوا حَذْوَه في نقد أعمال الرعاة.

وفجأة وبعد أربعمائة سنة من آخر نبي من الأنبياء الصغار، كلها صمتٌ، يأتي العهد الجديد ويقف المسيح فيقول: «أنا هو الراعي الصالح» (يو١٠: ١١)، ويؤكد: «أنا باب الخراف. جميع الذين أتوا قبلي (من الرعاة) هم سُرَّاق ولصوص» (يو١٠: ٧و٨). وهكذا ومن هذا الصوت القوي ندرك أن يهوه يتكلم، فهذا صوت السيد الرب الذي نطق في حزقيال قديماً.

وبهذا ينكشف أمامنا سر قوله: «أنا هو الراعي الصالح»، أي أنه ليس مثل رعاة إسرائيل الذين سرقوا الشعب ونهبوه ونتفوا صوفه وأكلوا لحمه وعصروا لَبَنه حتى الدم، بل هو «صالح». وفي موضع آخر صرَّح بغاية الوضوح أن ليس «صالحاً» إلا الله. وهكذا يصل بنا الرمز إلى استعلان شخص المسيح استعلاناً كاملاً.

وهذا هو أسلوب إنجيل يوحنا في استخدام الرمز، إذ يستعلن به الجديد المخفيَّ في القديم، ويضرب به من بعيد ما فسد وساء، ويرفع به من قرَّبه الله ورفعه وعلاَّه.

٢ — رمز الكرمة:

وأيضاً إذا جئنا إلى رمز الكرمة في قول الرب: «أنا الكرمة وأنتم الأغصان» (يو١٥: ٥)، والكرَّام يقظ، كلُّ غصن فيه لا يثمر يقطعه والذي يثمر ينقيه ليأتي بثمر أكثر. فلو نحَّينا جانباً شرح العلاقة الحيَّة السرية بين الكرمة وأغصانها وبين عصير الكرمة ودم المسيح الذي يعطي حياة أبدية للأغصان الثابتة والمثمرة — لو نحَّينا هذا جانباً لنسأل: لماذا اختار المسيح هذا الرمز بالذات؟

فإننا نجد هنا العودة إلى الوعود والتوسلات المقبولة التي قُدِّمت في العهد القديم عن الكرمة

---

(١) حزقيال النبي: كتب نُبوَّته قبل وبعد السبي، حوالي (٥٩٧—٥٨٦ق.م.) وهو ثالث الأنبياء الكبار وآخرهم بعد إشعياء وإرميا.

ومضمونها. فنرى في مثل المسيح أنه يتمم وعداً وعده الله على لسان داود بالروح، وعلى لسان إشعياء أيضاً نرى وعداً لم يتم قط في العهد القديم حتى نهايته إلى أن جاء المسيح ليعلن أن زمان تحقيق وعد الله ورجاءات الأنبياء بالروح قد تم في شخصه!!

نبوة إشعياء: كما يتغنى إشعياء بأغنية حزينة عن «**الكرمة**»، فالروح القدس ينطق على فمه نشيداً مُبْكياً عن كرمة (كانت محبوبة لله)، والكرمة هي الشعب، أي شعب إسرائيل قديماً الذي أعزَّه جداً واعتنى به للغاية كما يعتني كرّام صالح بكرمه. ثم يعطي الروح الكلمة للمسيح ليتكلم عن كرمه ويحتكم إلى شعبه شعب يهوذا (أي الكرمة ذاتها)، ويُفصح عن عزمه على كسر أسوارها أي رفع العناية الإلهية بها ثم هدمها، وقد هدمها بالفعل سنة ٧٠م؛ ويوصي السماء أن لا تمطر عليها، أي يرفع نعمته ورحمته عنها. وفعلاً صار شعب إسرائيل ويهوذا مهاناً مرذولاً في العالم كله. «لأنشِدنَّ عن حبيب نشيد محبّي (أي محبوبي my beloved) لكرمه: كان لحبيبي كَرم على أكمة خصبة فنقبه ونقى حجارته وغرسه كرم سورق (سورق للأسف كلمة يونانية عن العبرية وضعت كما هي σωρήκ وترجمتها جيد أو مختار)، وبنى برجاً في وسطه ونَقَر فيه أيضاً معصرة فانتظر أن يصنع عنباً فصنع عنباً رديئاً. والآن يا سكان أورشليم ورجال يهوذا، احكموا بيني وبين كرمي. ماذا يُصنع أيضاً لكرمي وأنا لم أصنعه له. لماذا إذ انتظرت أن يصنع عنباً صنع عنباً رديئاً. فالآن أُعرِّفكم ماذا أصنع بكرمي. أنزع سياجه فيصير للرعي. أهدم جدرانه فيصير للدّوس. وأجعله خراباً لا يُقضب ولا يُنقب فيطلع شوك وحَسك وأوصي الغيم أن لا يُمطر عليه مطراً. إن كرم رب الجنود هو بيت إسرائيل وغرسُ لذّته رجال يهوذا. فانتظر حقاً، فإذا سَفْكُ دمٍ؛ وعدلاً، فإذا صراخٌ.» (إش٥: ١—٧)

تعقيب على نبوة إشعياء: ولكن ما جاء في المزمور ٨٠: ٨—١٧ يُعتبر تشفُّعاً واسترحاماً لِمَا جاء في إشعياء النبي هنا. فنبوة إشعياء تنتهي بخراب الأمة وهجران الله لشعب إسرائيل وصبِّ غضبه ونقمته عليه. ولكن المزمور ٨٠ الذي يتكلم عن كرمة داود، سبق فنظر إلى ما بعد الخراب والغضب والهجران، وتطلع من بعيد إلى الكنيسة الجديدة — إسرائيل الجديد — الكرمة المحبوبة التي غرسها المسيح في جسده ومن جسده، ورواها بدمه وسيَّج حولها بالروح القدس لتبقى إلى الأبد.

نبوة كرمة داود: «كرمةً من مصر نقَلْتَ(٢). طردتَ أمماً وغرستها. هيّأتَ قدامها فأصّلَتْ أُصولها فملأت الأرض. غطى الجبال ظلُّها، وأغصانُها أرزَ الله. مدَّت قضبانها إلى البحر، وإلى النهر

---

(٢) هنا الكرمة هي شعب إسرائيل الذي انحدر من فلسطين كفرع جاف أو نخْلة تحتاج إلى رعاية كثيفة لتنمو نمواً جيداً، أرسلها الله إلى مصر وشُتِلت هناك في أرض الفراعنة لتشرب الحكمة، وترضع الفنون، وتتهذب بأخلاق الفراعنة الأماجد، وتنمو وتزدهر على =

فروعها. فلماذا هدَمْتَ جدرانها فيقطفها كل عابري الطريق. يُفسدها الخنزير من الوعر ويرعاها وحش البرية. يا إله الجنود ارجعنَّ اطَّلع من السماء وانظر وتعهَّد هذه الكرمة، والغَرْس الذي غرسته يمينك، و,, **الإبن**،، الذي اخترته لنفسك... لتكن يدك على رَجُل يمينك وعلى **ابن** آدم (أي ابن الإنسان) الذي اخترته لنفسك.» (مز٨٠: ٨–١٧)

واضح هنا أن الرمز «الكرمة» يستعلن من داخله «أشخاصاً»؛ فيوجد «**الإبن**» الذي اخترته لنفسك، ويوجد «**ابن الإنسان**» الذي اخترته أيضاً لنفسك بجوار «الكرمة» في حد ذاتها التي ينصبُّ مدلولها على شعب إسرائيل بكل وضوح. ولكن النبوة تجمع الكرمة (الشعب)، و«الإبن»، و«ابن الإنسان» في مفهوم واحد: كيف يكون ذلك؟ هذا أمر مستحيل حسب الشكل والمنطق([٣]).

ثم نأتي إلى الدعاء الملحّ، وهو مُقدَّم بالروح: «ارْجِعَنَّ اطَّلع من السماء، وانظر وتعهَّد هذه الكرمة...، وهذا الإبن...، رَجُل يمينك...، وعلى ابن الإنسان...».

وهذا لم يتم في العهد القديم على الإطلاق، فالله بعد داود لم يفتقد هذا الشعب، و«الإبن» الذي هو المسيَّا لم يظهر، ولا عُرف مَنْ هو «رَجُل يمين الرب»، ولا مَن هو «ابن الإنسان».

ولكن يأتي المسيح ويقول: «أنا هو الكرمة الحقيقية» (يو١٥: ١)، هنا وبكلمة **الحقيقية** ἀληθεια يرتفع إلى الطبيعة الإلهية. ويعود المسيح مباشرة ويميط اللثام عن علاقة هذه «**الكرمة الحقيقية**» (أي المسيح) بالله، فيقول: «**وأبي** الكرَّام» (يو١٥: ١)، أي أنه «**ابن الكرَّام**». وهنا يرتفع بالرمز حتى يوصله بالله مباشرة. إذن، فالكرمة ليست مجرد شجرة بل هي «**الإبن**» — «**ابن الكرَّام**». ثم يعود مباشرة ويقول: «وأنتم الأغصان» (يو١٥: ٥). إذن، فهو من نوع أو من جنس الأغصان؟؟ أي هو «**ابن الإنسان**». وهكذا وفي آية واحدة أخذ المسيح الرمز من العهد القديم: «**الكرمة**» واستعلن بها **ذاته الإلهية، وعلاقته بالآب، وتجسُّده، مرة واحدة**، أليس هذا عجباً؟؟ وليس هذا فقط، بل بقوله أنه ابن الكرَّام وابن الإنسان معاً يفيد اتحاده بشعبه، فهو يستعلن الكنيسة من داخله، الكرمة الحقيقية الكاملة، «أنتم فيَّ وأنا فيكم»، الكنيسة الجديدة التي نقلها من الأرض إلى السماء. لذلك أخذت الكنيسة مَثَل الكرمة هذا وجعلت منه تسبحة ترددها

= ضفاف النيل، حتى ضربت جذورها وصَلُحَتْ للنقل فنقلها الله من مصر. وفي مصر أيضاً غَرَس كنيسته المحبوبة، كنيسة القبط، التي كانت معلّمة المسكونة. فمصر هي حقل الله الذي تبنَّاه لنفسه.

(٣) راجع شرح لقب «ابن الإنسان» واتصاله بما جاء في المزمور ٨٠، ص٢٠١.

على مدى الأجيال، فهذا اللحن يُقال في القداس الإلهي([4]).

ولولا أن المسيح قال هذا المثل لظلت نبوة كرمة داود (في المزمور ٨٠، وفي نبوات إشعياء) متعطلة كوعد بلا تنفيذ، وكدعاء بلا استجابة. وهذا مستحيل في منهج الله والأنبياء.

٣ ـ رمز «الخبز النازل من السماء»:

«خبز السماء» لم يكن يُنظر إليه كرمز في العهد القديم، بل كحقيقة واقعة، ولكن في حدود الجسد، فهو خبز الشبع الجسدي «فقال لهم موسى: هو الخبز (المنّ) **الذي أعطاكم الرب لتأكلوا**» (خر١٦: ١٥). وقد أسماه داود في المزمور **بخبز السماء**: «سألوا فأتاهم بالسلوى **وخبز السماء أشبعهم**» (مز١٠٥: ٤٠). كما أسماه المزمور أيضاً **خبز الملائكة**: «أكل الإنسان خبز الملائكة.» (مز٧٨: ٢٥)

ونحميا يدعوه **خبزاً من السماء**: «وأعطيتهم **خبزاً من السماء** لجوعهم وأخرجت لهم ماءً من الصخرة لعطشهم» (نح٩: ١٥). هذا الخبز الذي عبَّر عنه نحميا **«خبزٌ من السماء»** ــ الذي هو نفس تعبير المسيح «أنا هو الخبز الحي **النازل من السماء**» (يو٦: ٥١) ــ كان يفتقر حقاً إلى تصحيح، فإن «خبزٌ من السماء» لا يمكن أن يكون لجوع الإنسان الجسدي. فالأرض مسئولة عن خبز الجسد، وعرق جبين الإنسان (ثمرة الخطية) هو الذي ينتج هذا الخبز.

فالمن الذي نزل من السماء كان خبزاً، نعم، ولكن على مستوى النبوة لما هو آتٍ. فالله سبق فأنبأ عن نزول «الخبز الحي الحقيقي»، خبز الحياة الأبدية، لإعالة شعبه ليس في قفر التيه في سيناء، بل في قفر تيه العالم.

والمسيح لما صنع معجزة الخمس الخبزات والسمكتين حيث الخبز كان بديلاً للمن، والسمك بديلاً للسلوى، كان يريد أن ينبه ذهن إسرائيل وهم في قفر بيت صيدا الجليل أن بديل المن المادي قائم أمام أعينهم، إذ بثَّ قوته الإلهية التي من السماء فجعل الخمس الخبزات تطعم خمسة آلاف رجل، أي رفع حدود العدد والرقم، ألغاه وأبطله ليمتد إلى مالانهاية، إلى مئات ألوف ألوف، أو إلى العالم كله، بل ويفيض لملء الشبع.

---

(٤) [أيها الرب إله القوات، ارجع واطلع من السماء،
أنظر وتعهد هذه الكرمة، أصلحها وثبتها،
هذه التي غرستها يمينك.]
ويُعرف هذا اللحن في الطقس باسم «أسبسمس واطس».

وهكذا هو يمهد لقَوْلته الإلهية المستعلنة لشخصه وطبيعته: «أنا هو الخبز... النازل من السماء الواهب حياة للعالم» (يو٦: ٤١و٣٣). فكما فتح عينيْ الأعمى المولود بلا عينين خالقاً له البصر من جديد ليرى نور العالم لكي يستطيع أن يقول بالحق كل الحق: «أنا هو نور العالم» (يو٩:٥)، ويكون صادقاً؛ كذلك بثَّ قوّته السمائية في الخبز ليشبع الألوف لكي يستطيع أن يقول: «أنا هو خبز الحياة... النازل من السماء» (يو٦: ٣٥و٣٣). إن سِرَّ الشبع الذي بثّه في الخبز بلا حدود هو هو قوته الإلهية التي أعلنها لهم في وضعها الروحي الأصيل، كسرِّ شبع الروح والحياة، الذي أسماه: «الطعام الباقي للحياة الأبدية»؛ في مقابل المنّ أو الخمس الخبزات، أي «الطعام البائد»، إلا إذا اكتشف فيه الإنسان سِرَّ الرمز.

فالمسيح صحَّح الوضع القديم في سيناء إذ جعل «خبز السماء» هذا أو «خبز من السماء» (ثمرة محبة الله) ليس لإشباع الجوع الجسدي للإنسان، بل لإشباع جوعه الروحي. وهو لا يؤكل بالفم، وإنما يؤكل بالروح، فخبز السماء هو زاد السماء وليس زاداً للأرض. فلا يُعقل أبداً أن الله يعطي خبزاً من عنده من السماء لأَوَدِ الجسد ليأكله الإنسان ويموت، حاشا. فهذا كان رمزاً أرضياً للآتي. وهو ككل رموز العهد القديم يظل في حدوده المادية شبه الحقيقية ينتظر مَنْ يحقِّقه على مستوى «الحقيقة ἀλήθεια». إلى أن جاء المسيح وقال: **«أنا هو الخبز الحقيقي»**: «ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء، بل أبي يعطيكم **الخبز الحقيقي من السماء**» (يو٦:٣٢)، «**أنا هو خبز الحياة**» (يو٦: ٣٥). فالمن لم يكن خبزاً حقيقياً، بل شِبْه الحقيقة كباقي كل رموز وصور العهد القديم: «شِبْه السمويات وظلُّها.» (عب٨: ٥)

— **كان «الرمز» القديم كلُّ مَنْ يأكله يجوع أيضاً**، أما الخبز الحقيقي الذي فكَّ الرمز فالذي يأكله لا يجوع إلى الأبد: «أنا هو خبز الحياة، مَنْ يُقْبِل إليَّ فلا يجوع، ومَنْ يؤمن بي فلا يعطش أبداً.» (يو٦: ٣٥)

— **وكان «الرمز» القديم كلُّ مَنْ يأكله يموت أيضاً**، أما الخبز الحقيقي الذي فكَّ الرمز فالذي يأكله لا يموت: «أنا هو خبز الحياة. آباؤكم أكلوا المنَّ (خبز السماء الرمزي) في البرية وماتوا. هذا هو الخبز (الحقيقي) النازل من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت.» (يو٦: ٤٨—٥٠)

— *كان «الرمز» القديم مأكلاً زائلاً، أما الخبز الحقيقي الذي فكّ رمز الأكل من الخبز فهو* مأكلٌ حقيقيٌ باقٍ إلى الأبد: «الخبز الذي أنا أُعطي هو جسدي... جسدي مأكلٌ حقٌ ἀληθής.» (يو٦: ٥١و٥٥)

— **كان «الرمز» القديم في صورة مادية ميتة، ينتن إذا تُرِك لليوم الثاني**، أما الخبز الحقيقي الذي فكَّ الرمز فهو حيٌّ ومحيي: «أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد.» (يو٦: ٥١)

— **كان «الرمز» القديم أكْلُه يُنْشِيء شهوة:** «جلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب... كما زنى أناس منهم...» (١كو١٠: ٧و٨). أما الخبز الحقيقي فيُبطل الشهوة وينشيء تقوى: «مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه.» (يو٦: ٥٦)

— **كان «الرمز» القديم لامتداد الحياة الأرضية للإنسان العتيق**، أما الخبز الحقيقي فهو طعام الحياة الأبدية لقوام الإنسان الجديد: «مَنْ يأكلني فهو يحيا بي» (يو٦: ٥٧)، كما «أنا حيٌّ بالآب» (يو٦: ٥٧)!!

والآن، فلينظر القارىء كيف اقتحم المسيح هذا الرمز: «خبز من السماء (المنُّ)» ليكشف قصوره في القديم وعدم توافقه على الإطلاق مع طبيعة الإنسان، إذ هو «**مَنُّ السماء**»، ولكنه لم يشبع ولم يُغني عن جوع بل أنشأ شهوة بل خطية بل موتاً. لهذا كان أمراً حتمياً، وبالضرورة، أن يتبنى المسيح هذا «**الرمز**»؛ ليستعلن فيه طبيعته السماوية، ونزوله الحقيقي من السماء، ومصدره الإلهي، وفعله المحيي الخلاَّق في طبيعة الإنسان. الأمر الذي من أجله أنزل الله المنَّ من السماء في القديم، ليكون عربوناً لعطية الله العظمى بتجسد ابنه المسيح يسوع الذي جاء ليعطي الإنسان الجديد خلقته الروحية الثانية، ويقيم أَوَدَها من جسده الإلهي لتحيا ولا تموت، ولتؤهَّل لحياة الأبد.

لقد سلَّم المسيح لكنيسته الأولى هذا **الرمز المستعلَن بالروح** في جسده للأكل وفي دمه للشرب، لتظل تُطعم بهما أولاد الله المخلوقين جديداً حسب صورة خالقهم، لا أربعين سنة كخبز الدموع والمشقَّة والتيه الذي ينتظر راحة في أرض كنعان وقمحها، ولكن إلى نهاية كل الدهور كطعام الحق والفرح والتهليل وبهجة القيامة، لحياة ممتدة في المسيح إلى أن يجيء.

٤ — رمز الماء النابع من جنب الصخرة:

أولاً: رمز المياه في القديم:

أ — الوجه السلبي للمياه: كانت المياه في وجهها السلبي مخيفة في الفكر اليهودي، فمياه الفيضان تمثل غضب الله على عالم الأشرار أرضاً وزرعاً وأحياءً وذلك سواء في الفيضان أو في انطباق مياه البحر الأحمر على الأعداء المتعقِّبين للشعب الهارب من مصر فقتلتهم؛ أما هم فالمياه خدمتهم وسهَّلت طريقهم «شقَّ البحر فعبَّرهم ونصب المياه كندٍّ» (مز٧٨: ١٣). «وانتهر بحر سوف فيبس وسيَّرهم في اللجج كالبرِّية. وخلَّصهم من يد المبغض وفداهم من يد العدو، وغطَّت المياه

مضايقيهم واحدٌ منهم لم يَبْقَ.» (مز١٠٦: ٩–١١)

ولكن في هذا الوجه السلبي للمياه المخيفة كان الله صاحب سلطان على المياه يطأها بقدمه. «أبصرتْكَ المياه يا الله، أبصرتْكَ المياه ففزعت. ارتعدت أيضاً اللجج» (مز٧٧: ١٦). «في البحر طريقك وسبلك في المياه الكثيرة وآثارك لم تعرف» (مز٧٧: ١٩). هكذا سار المسيح فوق المياه؛ كما أن المياه وهي عدوٌ، فتحت طريقاً لأرجل الكهنة وبعدهم الشعب ليعبروا نهر الأردن (يش٣: ٨و١٤)؛ وكذلك إيليا وأليشع من بعده (٢مل٢: ٨).

وفي التقليد اليهودي بحسب إشعياء النبي، فالمياه تمثل في وجهها السلبي القوى الشريرة، فتمثَّل بالتنين الحية القديمة، بينما سلطان الله يطأها: «استيقظي استيقظي، البسي قوة يا ذراعَ الرب، استيقظي كما في أيام القِدم كما في الأدوار (الدهور) القديمة، ألستِ أنتِ القاطعة رَهَبَ الطاعنة التنين. ألستِ أنتِ هي المنشِّفة البحر مياه الغمر العظيم الجاعلة أعماق البحر طريقاً لعبور المفديين. ومفديو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بالترنم وعلى رؤوسهم فرحٌ أبدي.» (إش٥١: ٩–١١)

ب ــ الوجه الإيجابي للمياه:

١ ــ المياه النابعة من جنب الصخرة:

وهذا الوجه الإيجابي للمياه له شأن عظيم في التقليد والأدب اليهودي وعند الربيين. فالصخرة التي نبعت منها المياه في برية سيناء لم تكن صخرة عادية بل هي جزءٌ مقدس من الأرض أخرج الماء من الأعماق، وهذه المياه، في عُرْف هذا التقليد، هي المسئولة عن إبطال كل فيضان على الأرض، فهي التي أوقفت غضب الله!! فلم تعد المياه تُميت وتمسح الحياة من على وجه الأرض! *بل وإن المياه النابعة من جنب هذه الصخرة إنما تسري في عروق تتخلل كل الأرض في كل أنحاء العالم!* وهذه المياه هي المسئولة عن خصوبة الأرض، وهي تنبع من الصخرة استجابة للصلوات والطقوس التي تقدم على رمز الصخرة المقدسة (كانت تقدم فوق مذبح المحرقة في الهيكل من جرة فضية تُملأ من مياه بركة سلوام، وتُفرَّغ على المذبح المعتبر أنه هو الصخرة بضربها على المذبح فتنشق ويخرج منها الماء الذي يفيض على المذبح– وذلك في طقس عيد المظال)، حيث من هذا المكان سوف ينبع نهر الفردوس في الدهر الآتي وهو نهر الخلاص لري المخلَّصين(*). لقد اهتم المسيح أن يحضر هذا العيد ويَستعلن نفسه ــ في هذه اللحظة التي تنكسر فيها الجرة ويخرج منها الماء ــ وذلك ليلغي هذا الطقس، ويعلن أنه هو الصخرة وأن ماءَها هو الروح الذي سيعطيه، الذي هو نهر الفردوس لري المخلَّصين بلا نزاع.

* Theological Dict. of the N.T., Vol. VIII, p. 320.

٢ ـ مياه التطهير:

أما الجزء الآخر في الوجه الإيجابي للمياه، فهو مياه التطهير:

وبالإضافة إلى مسألة الغسيل والتنظيف، فالمياه كانت تدخل في مفهوم التقديس، في ترحيض الجسم في المناسبات المقدسة وخاصة عند التراتي والوقوف أمام الله أو في هيكله (لا ١١ــ ١٥). ويُشترط في مياه التطهير للتقديس أن تكون مياهاً جارية أي مياهاً حية: «ويأمر الكاهن أن يُذبح العصفور الواحد في إناء خزف على ماء حي (من مصدر مياه جارية). أما العصفور الحي فيأخذه مع خشب الأرز والقرمز والزوفا ويغمسها مع العصفور الحي في دم العصفور المذبوح على الماء الحي، وينضح على المتطهِّر من البَرَص سبع مرات فيطهِّره ثم يطلق العصفور الحي على وجه الصحراء» (لا ١٤: ٥ــ ٧). وواضح هنا الفداء بالماء والدم، وواضح أيضاً أن الدم هو من عصفور «مذبوح حيٍّ»، إشارة بليغة لدم الصليب وللماء والدم اللذين خرجا من جنب المخلص الذي طهَّرنا من بَرَص الخطية!!

وعلى هذا المنوال يتم التطهير بالماء في الناموس على أشكال متعددة، ولكن مضمونها كله يجمعه المزمور هكذا: «طهِّرني بالزوفا فأطْهُر. اغسلني فأبيضَّ أكثر من الثلج... استرْ وجهك عن خطاياي وامْحُ كل آثامي» (مز٥١: ٧ــ ٩). هنا تلميح اسكاتولوجي ــ أي أخروي ــ للتطهير بالروح وبماء إلهي من نوع يقدمه الله.

هذا الأمر يوضحه حزقيال النبي بغاية الوضوح: «وأرش عليكم ماءً طاهراً فتُطهَّرون، من كل نجاستكم ومن كل أصنامكم أطهِّركم. وأعطيكم قلباً جديداً وأجعل روحاً جديداً في داخلكم» (حز٣٦: ٢٥و٢٦). ويلاحَظ هنا أهمية اقتران الماء الطاهر (الإلهي) مع الروح الجديد: «وأجعل روحي في داخلكم» (حز٣٦: ٢٧)، مع التجديد ممثَّلاً في القلب. فالله هنا سوف يطهِّر شعبه بماء طاهر من عنده، وبروحه الخاص في داخلهم ــ الأمر الذي لم يحدث قط في العهد القديم ــ والذي دفع الله أن يعطي هذا العهد الجديد وهذا الوعد والموعد، هو عدم نفع ماء تطهير الناموس والطقوس!

وإشعياء النبي يوضح أن مثل هذا التطهير الإلهي بهذا الماء الطاهر وهذا الروح إنما هو وعد إلهي سيتم في حينه ــ ولم يتم قط على مدى كل العهد القديم: «ويكون أن الذي يبقى في صهيون والذي يُترك في أورشليم (مشيراً إلى ما سيحدث بعد خراب سنة ٧٠م) يُسمَّى قدوساً: (بولس الرسول يسمي المسيحيين بالقديسين في...)، كلُّ من كُتب للحياة في أورشليم. إذا غسل السيد قَذَر بنات صهيون ونقَّى دم أورشليم من وسطها بروح القضاء وروح الإحراق.» (إش٤: ٣و٤)

طقس غسل الأيدي ومعناه اللاهوتي: «إذا وُجد قتيل في الأرض التي يعطيك الرب إلهك

لتملكها واقعاً في الحقل لا يُعلم من قَتَله... يغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتيل أيديهم على العِجْلة (البقرة) المكسورة العُنُق في الوادي، ويصرِّحون ويقولون أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر. اغفر لشعبك إسرائيل الذي فديت يا رب ولا تجعل دم بريء في وسط شعبك إسرائيل. فيُغفر لهم الدم»(٦) (تث٢١: ١—٨). وهذا أصل وسبب غسل الأيدي قبل كل صلاة. «حين تبسطون أيديكم أسْتُر عينيَّ عنكم. وإن كثَّرتم الصلاة لا أسمع. **أيديكم ملآنة دماً. اغتسلوا.** تنقَّوا. اعزلوا شر أفعالكم من أمام عينيَّ. كُفُّوا عن فعل الشر.» (إش١: ١٥و١٦)

«أغْسِل يديَّ في النقاوة فأطوف بمذبحك يا رب» (مز٢٦: ٦)؛ بمعنى أنه يعلن براءته من كل خطية وإثم.

وقد صار طقس غسل الأيدي قبل الإقتراب من الصلاة والوقوف أمام الله طقساً كهنوتياً هاماً ولدى المتنسكين أيضاً فكان يُعمل به لدى الربيين والأسينيين. ثم تطور عند اليهود وصار طقساً إلزامياً لدى كل اليهود أي كل الشعب قبل الأكل.

وكان الإعتقاد السائد الراسخ والسائد لدى الربيين اليهود أن الماء لا يُطهِّر بذاته لذلك كان يلزم تكرار التطهير. وهذا هو تعليم الربيين أيام المسيح: [في كل حياتك (إعلم) أن الميت لا يدنِّس وأن الماء لا يطهر ولكنها وصايا ملك الملوك.](٧)

وكان إيمان الأسينيين اليهود السائد هو [الله سوف يقوم بالتطهير النهائي وسوف ينضح روح الحق مثل غسيل الماء]، معتمدين على نبوة حزقيال النبي: «وأرشُّ عليكم ماءً طاهراً فتُطهَّرون من كل نجاستكم... وأعطيكم قلباً جديداً وأجعل روحاً جديداً في داخلكم... وأجعل روحي في داخلكم.» (حز٣٦: ٢٥—٢٧)

ومعروف أن المسيح رفض مبدأ تطهير اليدين قبل الأكل لا من جهة الغسيل للنظافة ولكن بمعنى التطهير الطقسي، لأن المسيح كان يطلب نقاوة القلب لا نقاوة اليدين. «ولما رأوا بعضاً من تلاميذه *يأكلون خبزاً بأيدٍ* ***دنسة*** *أي غير مغسولة لاموا. لأن الفريسيين وكل اليهود إن لم يغسلوا أيديهم*

---

(٦) في إنجيل القديس متى يذكر أن بيلاطس أجرى هذا العمل: «فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئاً بل بالحري يحدث شغب أخذ ماءً وغسل يديه قدام الجميع قائلاً إني بريء من دم هذا البار. أبصروا أنتم» (مت٢٧: ٢٤). وللأسف الشديد أخذ الشعب على مسئوليته هذا الدم: «فأجاب جميع الشعب وقالوا: دمه علينا وعلى أولادنا» (مت٢٧: ٢٥). وليتهم ما قالوا أبداً أبداً.

7 Theological Dict. of the N.T., op. cit., p. 321.

باعتناء لا يأكلون... ثم سأله الفريسيون والكتبة لماذا لا يسلك تلاميذك حسب تقليد الشيوخ بل يأكلون خبزاً بأيدٍ غير مغسولة. فأجاب وقال لهم حسناً تنبأ إشعياء عنكم أنتم المرائين كما هو مكتوب: هذا الشعب يكرمني بشفتيه وأما قلبه فبتعد عني بعيداً. وباطلاً يعبدونني وهم يعلّمون تعاليم هي وصايا الناس.» (مر٧: ٢—٧)

من هذا يتضح أن التطهير بالماء في مفهومه الميكانيكي، كمجرد غسيل لتتميم تعاليم الناس، يُخْلي وصايا الله من مضمونها الروحي.

٣ ــ الله مصدر المياه الحية:

ــ «شعبي عمل شرّين: تركوني أنا ينبوع المياه الحية لينقروا لأنفسهم آباراً آباراً مشققة لا تضبط ماءً.» (إر٢: ١٣)

ــ «يروون من دسم بيتك ومن نهر نعمتك تسقيهم، لأن عندك ينبوع الحياة. بنورك نرى نوراً.» (مز٣٦: ٨و٩)

إذن فلا بد أن يكون هناك عطش إلى الله:

ــ «يا الله إلهي أنت. إليك أبكّر. عطشت إليك نفسي.» (مز٦٣: ١)

ــ «كما يشتاق الإيل (الغزال) إلى جداول المياه هكذا تشتاق نفسي إليك يا الله.» (مز٤٢: ١)

ــ «عطشت نفسي إلى الله إلى الإله الحي. متى أجيء وأتراءى قدام الله.» (مز٤٢: ٢)

ــ «هوذا أيام تأتي يقول السيد الرب أرسل جوعاً في الأرض (٤٠٠ سنة من آخر الأنبياء إلى السيد المسيح) لا جوعاً للخبز ولا عطشاً للماء بل لاستماع كلمات الرب.» (عا٨: ١١)

ــ «أيها العطاش جميعاً هلموا إلى المياه والذي ليس له فضة تعالوا اشتروا وكُلُوا، هلموا اشتروا بلا فضة وبلا ثمن خمراً ولبناً.» (إش٥٥: ١)

ــ «لأني أسكب ماءً على العطشان وسيولاً على اليابسة، أسكب روحي على نسلك وبركتي على ذُرّيتك.» (إش٤٤: ٣)

ثانياً: رمز المياه في العهد الجديد:

هذه النبوات كلها لم تتحقق في العهد القديم، وهي نبوات يتحتم بالضرورة أن تتحقق ليكون الله صادقاً في كل مواعيده وتعهداته. كذلك فإن الصفات التي أوْرَدتها النبوات عن الله أنه يعطي الماء ويروي العطشان ويطهّر ويغسل بماء طاهر، هذه كلها كان لا بد أن تتم وتُستعْلَن. إنجيل

القديس يوحنا أخذ على عاتقه أن يسجل للمسيح كل الأعمال التي تعهد الله قديماً أن يكملها بنفسه في وقتها وزمانها المحدد؛ هذه أكملها المسيح وأعلنها وحققها بنفسه، كما جاءت تماماً حسب قول المسيح «ليتم الكتاب.» (يو١٣: ١٨ ولو٢٤: ٤٤)

+ فالماء، كعدوٍّ عنيد يهدد بالموت، وطأه المسيح بقدميه وسار عليه كما على اليابس. ولما اتحد الماء مع الريح العاصف ليهيج البحر ويهدد بالموت، انتهر الرب الريح والبحر معاً، فهدأت الرياح وصمت البحر. وكأن المسيح يواجه تنيناً حيّاً ينتهره، فيسمع التنين ويرضخ. وهكذا حقق الله نبوة إشعياء التي يستصرخ الله فيها أن يستعيد الله عمله كما كان في القديم ويهتف بذراع الرب أن استيقظي: «استيقظي استيقظي إلبسي قوةً يا ذراع الرب، استيقظي كما في أيام القدم... ألستِ أنتِ هي المنشِّفة البحر مياه الغمر العظيم الجاعلة أعماق البحر طريقاً لعبور المفديين» (إش ٥١: ٩و١٠). ومن هو «ذراع الرب» الذي يستصرخه إشعياء لكي يُستعلن، إلا يسوع المسيح الآتي في ملء الأيام، الذي لَبِس القوة وتمنطق بها، وسار على وجه الماء العاصف، وأخرس الريح، والبحر أبكمه؟

— «وهاج البحر من ريح عظيمة تهب... ونظروا يسوع ماشياً على البحر.» (يو٦: ١٨و١٩)

— «يا معلم أما يهمك أننا نهلك. فقام وانتهر الريح وقال للبحر اسكتْ. ابكمْ. فسكنت الريح وصار هدوء عظيم... فخافوا خوفاً عظيماً وقالوا بعضهم لبعض **من هو هذا، فإن الريح أيضاً والبحر يطيعانه.**» (مر٤: ٣٨—٤١)

سؤالهم هذا له مدلوله، فالله وحده الذي له سلطان إسكات عجيج البحار وانتهار الريح:

— «المهدِّىء عجيج البحار عجيج أمواجها.» (مز٦٥: ٧)

— «يا رب إله الجنود مَنْ مِثْلك قوي؟ ... أنت متسلِّط على كبرياء البحر. عند ارتفاع لججه أنت تسكِّنها.» (مز٨٩: ٨و٩)

— «هم رأوا أعمال الرب وعجائبه في العمق. أمر فأهاج ريحاً عاصفة فرفعت أمواجه. يصعدون إلى السموات يهبطون إلى الأعماق. ذابت أنفسهم بالشقاء... يتمايلون ويترنحون مثل السكران وكل حكمتهم ابتُلعت. فيصرخون إلى الرب في ضيقهم ومن شدائدهم يخلِّصهم. يهدىء العاصفة فتسكن وتسكت أمواجها. فيفرحون لأنهم هدأوا فيهديهم إلى المرفأ الذي يريدونه.» (مز١٠٧: ٢٣—٣٠)

هكذا تم بالحرف الواحد للتلاميذ يوم عبروا بحيرة طبرية. وهكذا آمنوا أن قوة الله ورحمته ومعونته

هي في المسيح في فمه وصوته الذي أسكت البحر وأبكم الرياح، ونجاهم من الهلاك.

+ أما الوجه الإيجابي للماء، فالصخرة نفسها التي ضربها موسى بعصاه فخرج الماء منها، كانت هي المسيح، في وضعها السرّي، أي ما كانت الصخرة بمائها الذي خرج من جنبها بضربة عصا موسى (خر١٧: ٦) إلا رمزاً ملموساً للمسيح الذي طُعن في جنبه بالحربة فخرج منه دم وماء لخلاص العالم: «لأنهم كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم والصخرة كانت المسيح» (١كو١٠: ٤).

ولكن العجيب حقاً أن يذكر القديس بولس أن الماء الذي كان يخرج من الصخرة في سيناء كان شراباً روحياً. «وجميعهم أكلوا طعاماً واحداً روحياً (المن) وجميعهم شربوا شراباً واحداً روحياً، لأنهم كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم والصخرة كانت المسيح.» (١كو١٠: ٣و٤)

فلينتبه القارىء إلى سر الرمز قديماً، فالصخرة كانت روحية والماء كان شراباً روحياً، ولكن بسبب عدم إيمان الشعب وضعف رؤيته وكثرة تذمره على الله أخفى عن عيونهم حقيقة الصخرة وحقيقة مائها. فهل إلى الأبد يبقى هذا السر الإلهي مكتوماً؟ فإن كان قد جاء الزمان الذي تفتحت فيه قلوب وعيون وأسماع الإنسان بقبول الإيمان وتصديق الحق وطاعة الله وانسكاب الروح القدس، لذلك كان من المحتم أن يعلن المسيح عن نفسه أنه كان هو الطعام الروحي الذي أكلوه في هيئة المنّ ولم يعرفوه، وهو هو الشراب الروحي الذي شربوه وارتووا من الصخرة في برية سيناء الذي تذمروا عليه. أما هؤلاء القوم، شعب إسرائيل — فلم ينتفعوا بما أكلوا وبما شربوا، إذ يقول القديس بولس الرسول: «لكن بأكثرهم لم يُسَرَّ الله لأنهم طُرحوا في القفر... وهذه الأمور حدثت مثالاً لنا.» (١كو١٠: ٥و٦)

لذلك فالمسيح — وهو حاضر في عيد المظال، في اليوم العظيم منه وهم يحتفلون فيه بخروج الماء من الصخرة في سيناء بكسر جرّة فضية مملوءة ماءً من بِرْكة سلوام على مذبح المحرقة المحتسب أنه هو الصخرة — وقف ونادى وكأنه يقول أنا هو الصخرة وأنا هو ينبوع الماء الحي: «وفي اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع ونادى قائلاً إنْ عطِشَ أحد فليُقْبِل إليّ ويشرب. من آمن بي كما قال الكتاب، تجري من بطنه أنهار ماء حيّ.» (يو٧: ٣٧و٣٨)

هذا، ولو أضفنا إليه ما يقوله المسيح للسامرية بنوع خاص، لأدركنا تفوُّق واقع المسيح عن مضمون النبوة: «كلُّ من يشرب من هذا الماء (بئر يعقوب وماء بركات الآباء) يعطش أيضاً،

ولكن مَنْ يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد. **بل الماء الذي أُعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية.»** (يو٤: ١٣و١٤)

واضح من قول الرب أن ماء بئر يعقوب لم يغني السامرية عن فعل الخطية مع أنه ماء الآباء الذي يحمل ذكراهم وبركاتهم، ولكن الماء الذي يعطيه المسيح يطفىء الشهوة ويبطل فعل الخطية فلا يعود الإنسان يعطش إلى حياة الدنيا حياة الخطية أو التعلُّق بهذا العالم؛ على أساس أن هناك فرقاً جوهرياً بين هذا الماء وذاك: فماء بئر يعقوب هو أصلاً مادة أرضية لحاجة الجسد أما «ماء الحياة» الذي يعطيه المسيح فهو ليس ماءً مادياً أرضياً بل هو كلمة الله وفعْلُه — روح وحياة — حينما يستقبلها الإنسان بقلبه وروحه بواسطة الروح القدس الذي يحولها في قلب الإنسان إلى شهادة وكرازة وإلى صلاة وعبادة، فلا يعود الإنسان يعطش بعد إلى أمور العالم وخطاياه، لأن ينبوع الروح القدس يظل يفيض من قلبه تعزيات وأفراحاً يتعزَّى بها ويفرح ويعزِّي الآخرين ويُفرِّح قلوبهم أيضاً.

يلاحظ القارىء أن تعبيرات المسيح عن عطيته الروحية وقدرته على فك رموز العهد القديم في شخصه تفوق تعبيرات النبوات التي جاءت عنه جميعاً وتزيد عليها أضعافاً. فإنسان العهد الجديد الذي آمن بالمسيح والتصق بالرب كالغصن الملتصق في أصل الكرمة لا يرتوي من المسيح والروح فقط حسب كل رجاء ودعاء الأنبياء بل ينبع منه الروح أيضاً ويفيض ارتواءً للآخرين. هذا لم يخطر على بال النبي في تصوراته وتوسلاته القديمة للعهد الجديد.

كذلك فإن الماء الحقيقي الذي يعطيه المسيح دعاه بماء **«الحياة»** أو **«الحقيق»**، لأنه ليس فقط يغسل ويطهر البدن ويروي العطش، بل أيضاً يجدد الداخل ويخلق الإنسان لحياة أسمى. والشُّرب من الماء الذي يعطيه المسيح هو هو عملية الإيمان بالمسيح، فهو استقاءٌ وارتواءٌ بالروح كأرض عطشانة فاضت عليها المياه، حيث تتقبل الطبيعة البشرية الجافة المتعفنة وشبه الميتة روح المسيح، فتحيا وتنتعش وتزهر وتعطي أثمارها للخلاص.

٥ — رمز الخبز والماء معاً:

«الخبز الحي والماء الحي»، «المأكل الحقُّ والمشرب الحقُّ».

الصلة الكامنة بين الحقيقي وغير الحقيقي:

نحن لا نشتهي الخبز من أجل الأكل ولا نشتهي الماء من أجل الشرب، كذلك نحن لا نشتهي الأكل والشرب في ذاتها ولا حتى من أجل الشبع والإرتواء، ولكن هناك علَّة نفسانية خفيَّة هامة

للغاية وراء الأكل والشرب هي:

أولاً: الخوف من الجوع والعطش وبالتالي من الموت.

ثانياً: رغبة ملحة ومستميتة في الحياة. فنحن في الحقيقة نشتهي الحياة شهوة غلاّبة كما نخاف خوفاً طبيعياً جباناً من الموت. لذلك نأكل ونشرب بنَهم أحياناً. ولكن لسان حالنا، ونحن نكرر الأكل ونكرر الشرب بلا هوادة، هو أننا نرغب أشد الرغبة في دوام الحياة أو الحياة الدائمة، وهذا مستحيل، لأن دوام الحياة هو الحياة الأبدية، والحياة الأبدية يستحيل بلوغها عن طريق الأكل والشرب اللذين مآلهما للفناء.

إذن، هنا في شهوة الأكل من الخبز البائد يكمن خداع بصر لا بد أن نتحول عنه، فنطلب ونشتهي الخبز الحقيقي والماء الحقيقي. المسيح وحده عنده خبز الحياة الأبدية وشراب الحياة الأبدية — الذي يأكله ويشربه يحيا ولا يموت — ولكن هذا الخبز وهذا الشراب هو في الحقيقة كلمته التي هي روح وحياة، فهو لا يتم عن طريق الجسد بل عن طريق الروح، أي يؤكل ويُشْرَب بالروح، ليس لملء البطن بل لملء قامة الإنسان الروحية، ليؤهّل أن يكون إنساناً جديداً كاملاً لائقاً للحياة الأبدية.

هذا الخبز الحي والماء الحي إذ هما «**روح**» و«**حياة**»، هما أيضاً للأكل الدائم والشرب الدائم مرات ومرات: «فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء.» (١ كو١١: ٢٦)

إذن، فأكل خبز الحياة وشُرب ماء الحياة لا ينتهيان عند حدٍّ أيضاً. ولكن كل مرة نأكل من طعام الحق ونشرب من شراب الحق نزداد في الحق وفي الحياة، وليس كأكل خبز الجسد وشرب ماء الجسد اللذين ينتهيان كل مرة إلى جوع ونقصان، وربما إلى مرض أو إلى موت.

والمسيح يقول إنه يعطي خبز الحياة وماء الحياة دائماً وباستمرار: «من يُقْبِل إليَّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً.» (يو٦: ٣٥)، كما تقول الحكمة: «الذي يأكلني يجوع إليَّ والذي يشربني يعود إليَّ عطشاناً» (ابن سيراخ ٢٤: ٢١). لأنه بمجرد أن يذوق الإنسان هذا الطعام وهذا الشراب فلن يطلب شبعاً من آخر، لأن استعلان الحياة الأبدية التي في المسيح هي بحد ذاتها شبعٌ فوق شبع وارتواءٌ فوق ارتواء لا ينتهيان. فالإنسان جائع أصلاً وبالأساس إلى الحياة مع الله، ولن يسدَّ جوعه إلا الله: «من يأكلني فهو يحيا بي» (يو٦: ٥٧). القديس بولس الرسول أكل وشبع فقال: «لي الحياة هي المسيح» (في١: ٢١). وما معجزة الخمس الخبزات إلا وسيلة إيضاح!! تم تطبيقها على الصليب.

وإشعياء النبي يصدِّق بنبوته على قول المسيح هكذا: «**لا يجوعون ولا يعطشون... لأن الذي** يرحمهم يهديهم، وإلى ينابيع المياه (الحقيقية) يوردهم» (إش٤٩: ١٠). إشعياء يتكلم عن خبز الحياة الذي كل من يأكله لا يجوع إلى شيء غيره، وماء الحياة الذي كل من يشرب منه يعود إليه وحده. فهو ليس ماءً بعد، بل هو الروح، وهو ينبوع الخلاص. كما تنبأ إشعياء أيضاً: «**هوذا الله خلاصي فأطمئن ولا أرتعب** (من موت)، لأن ياه يهوه قوتي وترنيمتي وقد صار لي خلاصاً. **فتستقون مياهاً بفرح من ينابيع الخلاص.**» (إش١٢: ٢و٣)

وإنجيل القديس يوحنا يُلِحُّ على القارىء أن لا يخطأ خطأ السامرية، إذ ظنت أن المياه الحية الحقيقية التي يعطيها المسيح ستستقي منها وهي في الحرام، وتسقي زوجها الذي هو ليس زوجها، أو أن هذه المياه ستغنيها عن عطش الجسد والحاجة إلى الماء الطبيعي، وتريحها من عناء الذهاب إلى البئر كل يوم وثقل الدلو وبُطء البكرة التي هدَّت ذراعيها، هذا خداع بصر؛ يسقط فيه كل يوم معظمنا وأعظمنا حينما يطلبون المسيح وعطاياه — وفي وسطهم حرام — ليزدادوا راحة جسدية أو شبعاً من مالٍ أو عيال أو نجاح أو مكاسب، أو هرباً من حزن أو اضطهاد أو موت! لأن هذا معناه أننا أخطأنا الرؤيا كما أخطأت السامرية.

واستعلان سر المعمودية من كلام المسيح واضح في حديثه عن الماء. فقوله: «إن عطش أحد فليقبل إليَّ ويشرب. مَنْ آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي» (يو٧: ٣٧و٣٨)، لم يَفُتْ على القديس يوحنا أن يعلن فيه سر المعمودية الكامن وراء الكلمات، فعقَّب على كلام المسيح بقوله: «**قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه، لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد بعد.**» (يو٧: ٣٩)

هنا يلزم بكل احتراس فهم أن الروح القدس في المعمودية مرتبط ارتباطاً كلياً بموت المسيح، أي بالدم المسفوك على الصليب. لذلك فإن الروح القدس لم يُعطَ إلا بعد أن أتم المسيح الفداء بالدم. لهذا يضغط القديس يوحنا بشدة على حقيقة خروج دم وماء من جنب المسيح المطعون (يو١٩: ٣٤)، إشارة بليغة إلى ارتباط المعمودية بالدم وبالإفخارستيا، وبالتالي بموت المسيح!! حيث يتقدس الجسد بالماء الطاهر أي المتقدِّس، والروح أو النفس أو القلب يتقدس بالدم والروح القدس. ولهذا أيضاً فإن المسيح لم يعطِ «ماء الحياة» إلاَّ بعد قيامته، وذلك بإرسال الروح القدس يوم الخمسين، حيث بدأ الرسل العماد بالماء والروح القدس باسم الثالوث: «ومتى جاء المعزِّي الذي سأُرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق **فهو يشهد لي**، وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الابتداء» (يو١٥: ٢٦و٢٧). هذه الشهادة للمسيح من الروح القدس

والرسل معاً بدأت واستمرت بالمعمودية (الماء) وبالإفخارستيا (الدم). لهذا كان ولا يزال من طقس المعمّدين الأساسي هو تناول الجسد والدم بعد العماد مباشرة. أما الآن فيحل الإعتراف الذي هو بمثابة ختم التوبة، والتوبة هي المعمودية الثانية المتكررة قبل كل تناول من الجسد والدم. حتى الكاهن نفسه يتحتم عليه أن يستبرىء ذمته ويغسل يديه قبل أن يقترب من الجسد والدم.

إذن، فالعطش هو للحياة الأبدية، والشرب هو الإيمان بالمسيح وقبول الروح القدس، والأنهار الحية النابعة من داخل المؤمن هي هي الروح القدس بمفاعيله الخلاصية من كرازة وشهادة. إذن، فعطية المسيح للذي يقبل — أي يؤمن به — هي الروح القدس — الذي يعتمد به — الذي يسكن قلبه ويبق معه إلى الأبد، وهو الذي يحييه أي يُدخله الحياة، الحياة الأبدية. هذا هو الماء الحي. فالروح القدس يأخذ في الأسفار المقدسة صفات الماء الطبيعي ولكن فعله يكون روحياً. لذلك، فالمعمودية بالروح القدس تسمى اغتسالاً للنفس، في التقليد الكتابي والكنسي والليتورجي. ويُقال عن الروح القدس أنه «ينسكب» مع أن الإنسكاب صفة الماء: «بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد **الروح القدس الذي سكبه** بغنى علينا بيسوع المسيح مخلصنا» (تي٣: ٥و٦). وهو نفس الإصطلاح الذي استخدمه يوئيل النبي: «ويكون بعد ذلك إني **أسكب روحي على كل** بشر... وعلى العبيد أيضاً وعلى الإماء **أسكب روحي** في تلك الأيام» (يوئيل ٢: ٢٨و٢٩). وحتى اسم «**النهر**» يستعيره الأنبياء للتدليل على الروح القدس: «ومن **نهر نعمتك تسقيهم**» (مز٣٦: ٨)، مع أن التقّي هو من عمل الماء.

نعود إلى ما قلناه أن إنجيل القديس يوحنا يحتّم أن معمودية الماء تشمل في مضمونها الإلهي السري دم المسيح (أي موته). من جهة هذا يصرّح القديس يوحنا في رسالته الأولى هكذا: «هذا هو الذي أتى **بماءٍ ودمٍ**، يسوع المسيح؛ لا بالماء فقط بل **بالماء والدم**. **والروح هو الذي يشهد** لأن الروح هو الحق. فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة «**الآب والكلمة والروح القدس**»، وهؤلاء الثلاثة هم واحد، والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة «**الروح والماء والدم**» والثلاثة هم في الواحد» (١يو٥: ٦—٨). علماً بأن المسيح نفسه — بحسب اللاهوت الآبائي — هو الذي يعمّد كما هو واضح في هذه الآية: «كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها لكي **يقدسها مُطهّراً إياها بغسل الماء بالكلمة**» (أف٥: ٢٥و٢٦). حيث «**بالكلمة**» يعني الدعاء بمنطوق دستور أو قانون الإيمان الخاص بالعماد، و«دعاء» الإسم حيث الإسم — اسم المسيح — يجعل المعمودية صبغة. وهذا الطقس يلغي جميع طقوس الغسولات والتطهيرات في العهد القديم؛ وحيث المعمودية لا تُكرّر قط لأنها ليست اغتسالاً بالمعنى المادي بل هي ختم، وصبغة، وتقديس.

والأمر الهام الذي ينبغي ملاحظته أن ماء المعمودية يعتبره بعض المعلمين أنه مادة المعمودية الساذجة، ولكن الروح القدس هو الفعّال في المعتمد في سر المعمودية. غير أن القديس كيرلس الكبير ينبه أن الماء يتقدس بالروح القدس ويكون له فعل روحي إلهي: [إذ كما أن الإنسان مركّب في طبيعته وليس بسيطاً، وهو مركّب من جسد محسوس ونفس عاقلة، لذلك فهو محتاج شفاءً مزدوجاً ليبلغ ميلاده الجديد لكلا العنصرين فيه، أي الجسد والنفس. لأن **بالروح تتقدس روح الإنسان؛ وبالماء الذي تقدّس يُقدّس الجسد.** لأن الماء إذا وُضع في إبريق على النار فإنه بملامسته للنار يتقبل في طبيعته فعل تأثير النار. **هكذا يفعل الروح القدس، فإن الماء المحسوس تتغير طبيعته** trans-elemented **أو يتغير معدنه إلى تأثير إلهي غير منطوق به فيقدّس كل من يقترب إليه**](٨). من هنا كان ترتيب الكنيسة الأولى من جهة تصريف ماء المعمودية في نهر جارٍ وليس في البالوعات(٩).

ويشترك مع القديس كيرلس الإسكندري الكبير الآباء الأوائل، فهو تقليد منذ ما قبل القرن الثاني وبعده:

فالقديس إغناطيوس الأنطاكي المعروف بصلته بالقديس يوحنا الرسول يقول في رسالته إلى أفسس: [إنه وُلد واعتمد ليُطهِّر (يقدِّس) καθαρίζω الماء بآلامه] (أفسس ١٨ : ٢).

كذلك العلاَّمة ترتليانس يقول نفس الشيء: [المخلِّص نفسه اعتمد لكي يقدِّس sanctify كل مياه التجديد](١٠).

ومن بعد القرن الثاني ابتدأ يوضع دعاءٌ خاص بالإسم epiclesis على الماء للتقديس، وقد ذكر ذلك كلٌّ من القديسين كبريانوس وإيرينيئوس، كما ذكره العلاَّمة أوريجانوس من قبل (في تفسيره يو٣: ٥). وهو مذكور أيضاً في مؤلَّف العلاَّمة هيبوليتس «في التقليد الرسولي» (٢١ : ٦).

والعلاَّمة ترتليانُس يذكر في كتابه عن المعمودية: [الروح بحسب جوهره السمائي ينزل على الماء بواسطة الدعاء إلى الله ويمنح الماء قوة التقديس.](١١)



(٨) شرح إنجيل القديس يوحنا ٣: ٦-٨ ص١٦٨ وص١٦٩ = Lib. of Fathers of the H.C. Church, vol. I.

(٩) لم نحاول أن نشرح سر العماد أو طقسه لأن ليس المجال هنا مجاله، إذ اكتفينا بالعبور بمجرد عبور على رمز «الماء» في العهد القديم وفك رموزه في العهد الجديد.

10 Adv. Judaeos 8.

11 Tert. Bapt. 4, cf. 8.

والذي يهمنا من هذه الرموز جميعاً، التي اخترنا الأمثلة الهامة منها، هو توضيح أن كل الرموز التي وقفت وتصلّبت عند حدودها الأرضية في الواقع المنظور في العهد القديم، حينما تبنّاها المسيح استعلنها كحقائق للحياة الأبدية، فصارت لُبَّ الإنجيل، ثم تبنّتها الكنيسة باعتبارها جسد المسيح المستعلَن في هاته الرموز، واستحضرت فيها الجسد الحقيقي بالروح والكلمة، وصارت سرَّها الإلهي ككرمة حقيقية تلد أغصاناً جُدداً، وتُرضعهم من عصيرها للحياة: فالخبز، بدعاء الإسم عليه، يُستعلَن فيه سر الجسد المأكول كطعام الحق ἀλήθεια ، والخمر يُستعلَن فيه سرُّ الدم الإلهي كذلك كشراب الحق ἀλήθεια ، أو شراب الروح.

والماء أيضاً، بدعاء الإسم عليه، يحل الروح القدس عليه وفيه، فيتقدَّس ويَلِد حياة جديدة كخليقة روحية. هذا كله نابعٌ من أن المسيح تبنى هذه الرموز، فاستعلن فيها حياة جديدة للإنسان من كل نوع.

والمسيح لما صنع بداية معجزاته، أعلن بغاية القوة والوضوح عن سر التحول هذا الذي هو هو صميم وقلب رسالته، وذلك حينما حوَّل ستة أجران ماء التطهير إلى خمر جيد، و«الجيد» في المفهوم الإنجيلي يرق إلى «الروحي». والتحول هنا هو تحوُّل في صميم طبيعة الناموس والمادة.

ثم انتقالاً من تحويله الخمس الخبزات والسمكتين إلى طعام يشبع الآلاف بلا حدود، يصبح التحول هنا واقعاً في صميم الحدود التي تنحصر فيها **المادة**، فهو قام بفكِّ هذه الحدود لتقبل «**اللانهائية**» في صميم طبيعتها، واللانهائية صفة الروح اللامحدود. ثم لما أمسك الخبزة في يده وقسمها وقال: «خذوا كُلُوا جسدي المكسور عنكم»، قام بإجراء تحوُّل هو قمة التحول الفائق من المادة الميتة التي هي الخبز إلى الجسد الحي المحيي بالروح الذي فيه، فمهّد لحقيقة القيامة. كذلك لما أمسك الكأس الذي به الخمر الممزوج بالماء وقال: «هذا هو دمي، خذوا اشربوا منه كلكم»، فإنه قام هنا بعملية تحوُّل من خمر إلى دم هي مثيل لتحوُّل الخبز إلى جسدٍ أي من مادة ميتة إلى روح، لأن الروح في الدم — حسب إيمان الكتاب (لا ١٧: ١١).

وبالنهاية، كما قال للعازر الميت المنتن: «قم»، فقام وعاش ودبَّت فيه الحياة، **محوّلاً** الموت إلى قيامة؛ هكذا سلَّم الإنسان طريق التحول كله من القديم إلى الجديد، من أسفل إلى فوق، من أرضي إلى سمائي، من موت إلى حياة، حيث انتهى بالتحول إلى صميم خِلْقَة الإنسان من خليقة أول عتيقة ميتة إلى خليقة أخرى روحية سماوية مُعدّة لميراث الحياة مع الله. وكل هذا التحوُّل يتم **بمجرد دعاء «الإسم»** الذي هو هو حالة «**حضور إلهي سري**».

وإن إنجيل القديس يوحنا غنيٌّ بصورة عميقة للغاية في الكشف عن سر الحضور الإلهي، هذا الذي بدأ منذ قال: «والكلمة صار جسداً، وحلَّ بيننا، **ورأينا مجده... ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا**» (يو١: ١٤و١٦)! هنا الأبدي غير الزمني صار زمنياً، ظهر كحادثة، عاش بيننا وعشناه ولمسته أيدينا ورأته عيوننا. وهو هو الحق والحياة عينها!! الأليثيا ἀλήθεια .

وإنجيل القديس يوحنا كله يستضيء بهذه الحقيقة الأساسية: «الكلمة صار جسداً»، وبالتالي فإن المادة صارت متجلية بحلول اللاهوت فيها؛ وهكذا صارت الرموز المادية القديمة متجلية بحلول الحق الإلهي «الأليثيا» فيها. فاللاهوت الرمزي الذي يتّبعه القديس يوحنا في إنجيله، يحمل الطابع الأساسي لهذا الإنجيل كله الذي هو حلول اللاهوت في المادة المنظورة! حتى خرجت المادة المنظورة من حدودها الميتة وصارت حاملة للحق الأزلي «الأليثيا»!

لقد استطاع المسيح أن يمجد المظهر الإنساني ويكرم المادة التي يتعامل معها الإنسان لحسابه، ويفك لغز الرموز وسرّها ويستعلن فيها لاهوته والخلاص الذي يمارسه، ويطعم الإنسان ويسقيه بالأليثيا، بل ويُلبسه الروح الإلهي عوض ثوب الخطية. لذلك دُعي الإنسان في العهد الجديد باللابس الروح = «**ابنفماتوفورس**» بل واللابس المسيح = «**خريستوفورس**»، بل واللابس الإله = «**ثيئوفورس**».

الفصل الخامس

المعجزات (الآيات) في إنجيل القديس يوحنا

«آية» باليونانية σημεῖον

«عمل» باليونانية ἔργον

«معجزة» باليونانية τεράς

«قوة» باليونانية δύναμις

في كل أسفار العهد الجديد نقابل هذه الإصطلاحات للتعبير عن المعجزات التي صنعها الرب، فكل معجزة تحوي ثلاثة مفاعيل أو ثلاثة مؤثرات:

الأول: الدهشة، التي تترك الناس في تعجب واندهال.

الثاني: القوة، وجمعها قوات، وهذا تعبير عن سلطان الله المؤثر على أي جزء من الإنسان ليصلحه ويعيد له القوة والعمل، سواء العقل، أو البدن، أو النفس، أو القلب الكسير.

الثالث: الإشارة إلى عمل الله ووجوده «ملكوت الله»، سواء في الطبيعة أو في الرحمة والمحبة الموجّهة للإنسان.

معنى المعجزة في الأناجيل الثلاثة الأولى:

إنها حقيقة واضحة أن الثلاثة الأناجيل جعلت **«استعلان»** ملكوت الله — **«ومجيئه»** — هو الهدف اللاهوتي الذي تتحرك نحوه كل المعجزات. وملكوت الله يعني **«حكم الله»** كمفهوم أخروي (اسخاتولوچي)، ويفيد عمل الله الفائق لخلاص الإنسان وغلبة الشر وتأسيس النظام الإلهي الجديد أي العهد الجديد. وليس ذلك بمجرد الرجاء أو التمني في الأفق البعيد — كشأن النبوات، وإنما كحقيقة واقعة منظورة وملموسة. فكانت القوات المعمولة، أي المعجزات، بمثابة

الإشارة والدليل على افتتاح عهد مجيء ملكوت الله بقوة بواسطة المسيّا — أي المسيح — الذي فيه تُستعلَن قوة الله الحي حسب النبوات.

وقد كانت هذه القوات، إما بالمعجزات وخاصة الأشفية كطرد لروح السقم، باعتبار الأمراض استبداداً من جانب قُوى الطبيعة بضعف الإنسان؛ أو بتمزيق قوة الشياطين التي كانت قد استبدت بالإنسان، وقد صار ذلك كله إعلاناً عن غلبة الشر وانهزامه.

إذن، كانت القوات المعمولة بواسطة المسيح في الأناجيل الثلاثة هي بمثابة ظهور ملكوت الله أو حكم الله بالفعل!! وذلك كجزء لا يتجزأ من رسالة المسيح: «ولكن إن كنت بأصبع الله أُخرِجُ الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله» (لو١١: ٢٠؛ مت١٢: ٢٨)؛ «واشْفُوا المرضى... وقولوا لهم قد اقترب منكم ملكوت الله.» (لو١٠: ٩؛ مت١٠: ٧و٨)

وفي نفس الوقت، كان يصاحب المعجزات ويسندها الأمثال التي فاه بها الرب يسوع المسيح عن مجيء ونمو ملكوت الله.

كذلك، ومن وجهة أخرى، كان لهذه المعجزات مغزى آخر أشار إليه المسيح في الثلاثة الأناجيل، كقوات خارقة تعلن عن تكميل النبوات التي تخص مجيء الزمان وظهور المسيا وتتميم وعد الله. وذلك واضح غاية الوضوح من قول الرب لتلميذي المعمدان اللذين جاءا بسؤال من معلمهم: «هل هو الآتي أم ننتظر آخر؟»؛ «فأجاب يسوع وقال لهما اذهبا وأخبرا يوحنا بما رأيتما وسمعتما. إن العُمْيَ يُبْصرون والعُرْج يمشون والبُرْصَ يُطهَّرون والصُّمّ يسمعون والموتى يقومون والمساكين يُبشَّرون. وطوبى لمن لا يعثر فيَّ» (لو٧: ٢٢—٢٣). وهذا الرد يسترجع ما قاله إشعياء النبي عن ظهور ملكوت الله والمسيا سمعاً وبصراً: «ويسمع في ذلك اليوم الصمُّ أقوال السفر، وتنظر من القتام والظلمة عيون العُمْي» (إش٢٩: ١٨)؛ «حينئذٍ تتفقح عيون العُمْي، وآذان الصُّمّ تتفتح» (إش٣٥: ٥)؛ «روح السيد الرب عليَّ لأن الرب مسحني لأُبشِّر المساكين، أرسلني لأعصِبَ منكسري القلب، لأنادي للمسبيين بالعِتْق وللمأسورين بالإطلاق» (إش٦١: ١). الأمر الذي طوَّب المسيح فيه عيون تلاميذه وآذانهم لأنها سمعت ورأت ملكوت الله بقوة قولاً وعملاً!!

الآيات في إنجيل القديس يوحنا: آية = σημεῖον وآيات = σημεῖα

وقد اختص إنجيل يوحنا بـ«الآيات» للتعبير والإشارة والإعلان عن سر وجود الله، أي حضوره، وسر محبته للإنسان في المعجزات التي كان يعملها المسيح. وقد وردت هذه الكلمة ١٧ مرة في إنجيل يوحنا، وهي تأتي بمعنى «المعجزة» و«القوات»، وهما اللفظان اللذان اختارتهما الأناجيل

الثلاثة. أما إنجيل يوحنا فقد امتنع عن استخدامها بمعناها الوارد في الثلاثة الأناجيل للإعلان عن مجيء ملكوت الله – كما قلنا – واستبدل الكلمة «**معجزة**» بالكلمة «**آية**» **للإعلان عن مجد الله وعن عمله الخلاصي.**

وواضح أن القديس يوحنا تحاشى في إنجيله أن يقدم «المسيَّا» بصورة القوة الزمنية كملك بالمفهوم السياسي حسب ترقُّب اليهود الخاطىء؛ إذ اعتبر جميع المعجزات التي صنعها المسيح أنها مجرد آيات تشير إلى أن المسيح هو ابن الله! على أساس أن هذه «الأعمال» هي أعمال يعملها الله الآب الحالُّ فيه، توضيحاً وإعلاناً عن أن الآب يعمل الأعمال بالإبن. الآب «**مشيئة**» والإبن «**فعل**»، الآب «فِكْر»، والإبن «نُطْق». فالآب والإبن هما واحد يعملان عملاً واحداً.

وقد ركز إنجيل القديس يوحنا على كلمة «الآية» للعمل الذي يعمله المسيح على أساس أن العمل إنما يشير إشارة خفية إلى، أو يعلن إعلاناً صامتاً عن معانٍ روحية أو حقيقة إلهية أكبر من المعجزة بحد ذاتها.

وفي العهد القديم الذي يستند إليه إنجيل يوحنا، فإن الآية التي كان يعملها النبي، فبجوار أنها كانت حَدَثاً هاماً يحدث في الحال فهي كانت أيضاً وفي واقع الأمر تعني شيئاً سيحدث في المستقبل، ولكنه يكون قد بدأ بالفعل في التدبير الإلهي!

فالآية، التي هي بالعبرية oth «عوت»، هي عمل رمزي تحمل مُسْبَقاً صورة لما هو آتٍ وتمهداً بتحقيقه كعربون يقطع بالتتميم في حينه ولا بد!! فمثلاً في سفر إرميا حينما أخذ إرميا النبي حسب قول الرب الجرة الفخارية وكسرها في وادي ابن هنوم (إر١٩: ١–٣)، لم يكن ذلك مجرد عمل درامي يوضح كيف سيكون خراب أورشليم كتحطيم الجُرَّة الفخارية، ولكن كان يُحتَسب في الواقع الروحي والإلهي أنه جزء لا يتجزأ من العملية ولكنه غير مرئي، «لأنه متمِّمُ أمرٍ وقاضٍ بالبر. لأن الرب يصنع أمراً مقضياً به على الأرض» (رو٩: ٢٨). فالعمل النبوي ولو أنه يشير إلى حَدَث قادم، إلا أنه يُحسَبُ من جهة الله أنه قد تم.

إنجيل يوحنا يمتد بهذا المفهوم النبوي للمعجزة كآية تحدث في الزمن المنظور، لتشير إلى حدث أو حقيقة قد تمت بالروح في غير المنظور، كبداية لعهد كامل وشامل قد بدأ بالفعل، وليس يُنتَظَرُ في المستقبل. فالأعمى منذ ولادته صُنعت فيه معجزة خَلْقِ عينٍ جديدة يرى بها نور العالم، إشارة تقول وتنادي وتشهد وتحكي أن «النور الإلهي الحقيقي» قد دخل بالفعل والقول إلى العالم!! وأن المسيح – الذي كأنه أخذ من نوره وأعطى للأعمى – هو النور الحقيقي الصانع المعجزة، وهو الخالق

بالضرورة فيما كان — الخلق القديم — وهو الخالق الآن، إنما الآن خِلْقَة جديدة أعمق وأبعد من العين التي ترى نور العالم. لأن الأعمى بعد أن قَبِلَ نور عينيه ليرى العالم، تعرَّف على المسيح وآمن أنه ابن الله، فتعرَّف على الله في المسيح، وهذا هو «**النور الحقيقي**». وهذا النور الحقيقي قد بدأ وجوده وبدأ فعله في الإنسان العائش في ظلمة العالم المادية والروحية، وسوف يستمر وجوده وفعله إلى الأبد: «**ما دمت في العالم فأنا نور العالم**» (يو٩: ٥)، «**وها أنا معكم** كل الأيام إلى انقضاء الدهر.» (مت٢٨: ٢٠)

وهكذا يرى معي القارىء أن هذه الوسيلة في التعليم هي أقوى وأعمق الوسائل طُرًّا في تعليم الحقائق الروحية التي تختص بالله وتعلن عنه وعن وجوده وعمله، وهذا ما شهد به نيقوديموس معلم الناموس: «فقال (نيقوديموس) له: يا **معلِّم** نعلم أنك قد أتيت **من الله** «**معلِّماً**» لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه **الآيات** التي أنت تعملها إن لم يكن الله معه.» (يو٣: ٢)

كذلك، فإن إطعام المسيح للجموع الحاشدة في مكان قفر حتى شبعوا وفاض عنهم اثنتي عشرة قفة مملوءة كِسَراً، من الخمس الخبزات والسمكتين، إنما هو بمثابة عمل إلهي غير منظور قد ابتدأ فعله في العالم في ذلك اليوم وسيظل فاعلاً وفائضاً إلى نهاية الدهور، ولكن ليس على مستوى الظاهر، بل كأن المسيح كان يقسم فعلاً من جسده ولحمه ويُطْعِم هؤلاء الجائعين. لذلك شرح هذا العمل هكذا: «اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية الذي **يعطيكم ابن الإنسان لأن** هذا — ابن الإنسان — الله الآب قد ختمه (ليكون هو الخبز الحي السماوي)» (يو٦: ٢٧) [حيث كلمة «ختمه» تعود على «ابن الإنسان» ولا تعود على «الطعام» وذلك بحسب التحليل اللغوي للكلمات اليونانية للآية.]؛ «**أنا هو خبز الحياة. مَنْ** يُقبِل إليَّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً» (يو٦: ٣٥)؛ «**الخبز الذي أنا أُعطي هو جسدي** الذي أبذله من أجل **حياة** العالم» (يو٦: ٥١)؛ «من يأكلني فهو يحيا بي» (يو٦: ٥٧)؛ وهذه هي الحياة الأبدية.

فالمعجزة الباهرة من خارجها لا تفيد شيئاً: «الروح هو الذي يُحيي. أما الجسد فلا يفيد شيئاً» (يو٦: ٦٣)، ولكن الآية التي فيها، هي استعلان روحي لعمل خطير للغاية لفعلٍ جديد لا يمتُّ للجسد أو العالم، بل هو عمل وفعل الله لحياة متصلة بالله.

القديس يوحنا يؤكد على هذه الحقيقة ويشير إليها مراراً حتى ينتبه القارىء والسامع. **في** معجزة قانا الجليل عندما حوَّل المسيح الماء خمراً، أردف خبر المعجزة بقوله أنها كانت «آية»: «هذه بداية **الآيات** فعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده فآمن به تلاميذه» (يو٢: ١١). وكلمة «**أظهر مجده**» تعني «استعلن وجوده» أو «**استعلن حضوره الإلهي**»، وهذا المعنى الذي عبَّر عنه القديس

يوحنا من قبل بقوله عن كلمة الله «**وحلَّ بيننا، ورأينا مجده**» (يو١: ١٤). هذا الحلول أو استعلان الحضور هو هو المجد بعينه. وهذه الآية يقول عنها الإنجيل أنها «بداية الآيات»، أي بدء استعلان حضور الله، الذي كان على مستوى تحويل الماء رمز التطهير إلى خمر رمز الفداء بالدم. والمسيح أكمل استعلان هذا التحويل بآخر آيات التحويل عندما أمسك كأس «**الخمر الممزوج بالماء**» بيده وقال: **هذا هو «دمي»**، «خذوا اشربوا منه كلكم». إذ أصبح في يد الإنسان وفي فمه «**سر التحوُّل نفسه**»، الذي به يتحول الإنسان من القديم الجسدي إلى الجديد الروحي.

والقديس يوحنا يعتبر أن إنجيله إنما هو سجلٌّ يحوي آيات ذكرها باختيارٍ خاص من ضمن ألوف آيات أخرى، حتى إنَّ كلَّ من قَبِلَها ويؤمن ينال الحياة: «وآيات أُخَر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تُكتب في هذا الكتاب، وأما هذه فقد كُتِبَت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم، إذا آمنتم، حياة باسمه.» (يو٢٠: ٣٠—٣١)

مقارنة بين مفهوم المعجزات في الثلاثة الأناجيل ومفهوم الآيات في إنجيل القديس يوحنا:

لم يُكثر المسيح من استعمال كلمة «آيات»، ولكنه استخدم في موضعها ومعناها كلمة «أعمال» ἔργα التي جاءت ١٨ مرة ليصف بها «أعمال الآب»، أو الأعمال التي أعطاه الآب أن يعملها؛ بل واستخدمها أيضاً ليشرح كل رسالته: «**العمل** الذي أعطيتني لأعمل قد أكملتُه» (يو١٧: ٤). والمسيح، بهذا الإصطلاح، إنما يشير إلى أعمال الله في العهد القديم سواء في الخليقة أو في التمهيد للخلاص. وبذلك يجمع المسيح بين أعمال الله في العهد القديم وأعماله في العهد الجديد، وصرَّح بذلك قائلاً: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو٥: ١٧). ولكن القديس يوحنا هو الذي يعبِّر عن هذه الأعمال بأنها آيات، مشيراً بذلك إلى نفس الآيات أيضاً التي أجراها الله في القديم، خاصة في مصر في أعمال الخروج التي تشكل الخلفية الذهنية في الإنجيل. فالمعجزات كانت في القديم في حقيقتها آياتٍ تشير إلى ما هو سيصير حادثاً مع المسيح.

إذن، تسمية أعمال المسيح بالمعجزات هو عودة إلى الوراء، ولكن تسميتها بالأعمال هو امتداد صحيح لأعمال الله، وتسميتها من جهة القديس يوحنا بالآيات هو إشارة إلى أن عمل المسيح قد أكمل القصد من معجزات القديم. فمعجزة الخمس الخبزات هي، في حقيقتها الإستعلانية، ليست معجزة بل آية تشير إلى أن معجزة المنّ في سيناء قد استعلنها المسيح في نفسه كخبز حي نازل من السماء باعتبار أن العهد الجديد المشار إليه في القديم قد جاء واستُعلن.

وبمعنى توضيحي، فإن ملكوت الله الذي كان العهد القديم يشير إلى مجيئه وظهوره في ملء الزمان قد جاء وظهر في المسيح وبه.

إذن، عدم ذكر كلمة «ملكوت الله» في إنجيل يوحنا – إلا مرة واحدة مع نيقوديموس (يو٣: ٣و٥) – لا يشكّل أي نقص في إنجيل يوحنا، فالإنجيل يعبّر عن مجيء ملكوت الله بالآيات التي يصنعها المسيح، كأعمال حقيقية يعملها الآب به، مفتتحاً بها عصر الخلاص واستعلان دخول الله في تاريخ الإنسان، فهي ليست معجزات بعد ولا حتى آيات بالنسبة للمسيح نفسه بل هي أعمال ممتدة للآب وله!! وهذه الأعمال لم تعُدْ تعبّر عن مجيء ملكوت الله بل عن مجد الله المنظور، وعن الخلاص والحق والحياة في صميم الواقع الزمني. وهكذا، فإن ما تعتبره الثلاثة الأناجيل في **المعجزات** التي كان يعملها المسيح أنها إعلان عن **ملكوت الله**، يعتبرها إنجيل يوحنا هي نفسها، ولكن تحت اسم «**أعمال**»، أنها هي هي ملكوت الله تحت اسم «**الحياة الأبدية**» وأنها قد أُظهِرَت.

«الأعمال» في إنجيل القديس يوحنا: عمل = ἔργον ؛ أعمال = ἔργα

لقد صمم إنجيل يوحنا أن يسمي المعجزات أو الآيات التي كان يعملها المسيح «**أعمال**»؛ وهي نفس الكلمة التي تُطلق على أعمالنا العادية سواء كانت شراً أو خيراً. وكان قصد المسيح والإنجيل من ذلك هو لكي يردّ المعجزات إلى وضعها الصحيح عند الله والمسيح، فهي ليست معجزات، لا بالنسبة لله ولا بالنسبة للمسيح. بل إن كل الأمور الفائقة التصور والإدراك عندنا، هي أعمال الله العادية التي باشرها المسيح كابن الله! فإصرار الإنجيل على اعتبار أن المعجزات هي مجرد **أعمال**، يهدف مباشرة إلى التعريف بالمسيح أنه ليس مجرد إنسان كما يدل مظهره، ولكنه أيضاً إله حسب حقيقته وجوهره. فأعمال المسيح هي أعمال الله، وأعمال الله كلها معجزات في نظرنا وتفكيرنا.

لذلك يصِرُّ المسيح أيضاً من وجه آخر بأن هذه الأعمال هي أعمال الله وهي «بالآب معمولة»، والآب الحالُّ فيه هو يعمل الأعمال (يو١٤: ١٠)، والله لا يقصد أن يعمل أعمالاً إعجازية مخصوصة لتظهر لنا باهرة وأخّاذة حتى نؤمن بالمسيح الذي يعملها، ولكن العكس صحيح، فالمسيح يصِرُّ على أنها مجرد أعمال الله التي يعملها منذ البدء في الخلق، وأنه إنما يكمل أعمال الخليقة التي بدأها مع الآب: «أبي يعمل **حتى الآن** وأنا أعمل» (يو٥: ١٧)، وأنه يستمر في تكميلها، إنما على المستوى الروحي التجديدي، أي لتجديد خلقة الإنسان وإصلاح ما فسد فيها.

وحينما اعترض اليهود على شفاء المسيح للإنسان المشلول المقعد منذ ٣٨ سنة في يوم سبت، كان رد المسيح عن هذه الآية أنه يتمم ويصحح ويقيم من الموت الخليقة التي خلقها مع الآب. وواضح من قوله للمقعد بعد أن شفاه: «فلا تخطىء أيضاً لئلا يكون لك أشر» (يو٥: ١٤)، أن الرجل هو

الذي أفسد خلقته بإرادته، بعمله الشر، والمسيح إنما رفع عنه لعنة الخطية المفسدة فصار صحيحاً. وقوله: «لا تخطىء أيضاً»، معناه أنه صار الآن بلا خطيئة، أي خلقة جديدة، فكلمة المسيح مجدِّدة ولها قوة الخلق والإحياء والتجديد.

لذلك، كان المسيح يعترض على الذين يطلبون منه عمل المعجزات لكي يؤمنوا به: «لا تؤمنون إن لم تروا آيات وعجائب» (يو٤: ٤٨). فهو يعملها من ذاته لأنها عمله الذي جاء ليعمله، والآب أرسله لكي يعمل أعمال الآب. ويكفي أن يروه يعمل الأعمال التي لم يعملها أحد قبله ليدركوا أنه ابن الله. فإذا أصرُّوا على طلب معجزة، فمعنى ذلك أنهم لم يؤمنوا به أنه ابن الله بل مجرد إنسان صانع معجزات مدهشة فيكرموه لذاته؛ مع أنه جاء ليشهد بهذه الأعمال للآب الذي أرسله. فالذي يؤمن بالأعمال، فهو يمجد الآب الذي أرسله، وبالتالي يمجده لأنه يعمل أعمال الله. لذلك كان المسيح يكرر قوله لليهود: «إن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال، لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ وأنا فيه» (يو١٠: ٣٨).

والقديس يوحنا لم يذكر حادثة التجلي كأنها عمل فريد أو آية فريدة في حياة المسيح، لأنه رأى في أعمال المسيح كلها والتي كان يعملها ويعلِّم بها كل يوم أنها «تجلي» بأقصى معناه: وهو إظهار مجده وإعلان نوره. لذلك كان تعليق القديس يوحنا على معجزة قانا الجليل أنه بها «**أَظْهَرَ مجده**»، أي بالمعنى اللغوي اليوناني والروحي واللاهوتي أنه «**تجلَّى**»، **فإظهار المجد هو إظهار أو استعلان وجوده الإلهي**. وقول المسيح في صلاته للآب: «أنا أظهرت اسمك للناس، أنا مجَّدتك على الأرض» (يو١٧: ٦و٤) يُعني أنه أظهر وجوده وحلوله فيه على الأرض، وهذا منتهى «**التجلي**» لله في المسيح.

كذلك في تفتيح عيني أعمى مولود بلا عينين، فإن هذا عمل الله. فإذا عمله المسيح فهو يقوم بعمل الله المختص بصميم خلقة الإنسان. لذلك لما سأله تلاميذه عن هذا الأعمى: «من أخطأ هذا أم أبواه» (يو٩: ٢)، كان رد المسيح: «لا هذا أخطأ ولا أبواه لكن **لتظهر أعمال الله فيه، ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني**» (يو٩: ٣-٤). عمل المسيح في تفتيح عيني الأعمى هو آية وليس معجزة، هو عمل من صميم اختصاص عمل المسيح والله معاً، **وهذا هو استعلان شخص المسيح أنه ابن الله** الذي أرسله الله إلى العالم ليعمل أعمال الله ليتعرف الناس على الإبن من خلال عمل الآب. وهذه هي رسالة محبة الله للعالم أنه أرسل ابنه ليعلن عن محبة الله نحو الإنسان التي استُعلنت في أَوَج قوتها بالفداء. وهذا ما قرره المسيح في نهاية إرساليته وهو على عتبة الصليب: «**العمل** الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته... ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم»

(يو١٧: ٤و٢٦). وهذه كانت شهوة المسيح الأساسية وشغله الشاغل الذي كان ينسيه الطعام والشراب: «طعامي أن أصنع مشيئة الذي أرسلني **وأتمم عمله.**» (يو٤: ٣٤)

وفي نهاية **«الأعمال»** نلفت نظر القارىء أن كلمة «أعمال = Ἔργον — Ἔργα » هو اللفظ الذي اختاره المسيح، ولم يستخدم كلمة «آية» إلا مرتين في غير وضعها كأعمال. لذلك فكلمة **«أعمال»** في إنجيل يوحنا وعلى فم المسيح هي جزء لا يتجزأ من المنهج اللاهوتي في الإنجيل باعتبار أن المسيح بالأعمال (التي نسميها نحن بالمعجزات والآيات) إنما يمارس عمله الإلهي الذاتي مع الآب. **على أن كل عمل إلهي هو في الحقيقة يحمل في طياته استعلاناً أي آية تشير إلى طبيعة المسيح الإلهية. فالآية تأتي كإشارة داخل «العمل»، فالعمل هو الأساس في الإستعلان، والآية مستخرجة منه.**

الفصل السادس

الشخصيات الواردة في إنجيل القديس يوحنا وهي نماذج للبشرية المتجاوبة أو الرافضة للنور

في إنجيل القديس يوحنا يلمح القارىء حركة مدٌّ عام إلى الأمام، صعوداً وهبوطاً، تسير جنباً إلى جنب مع حركة استعلان المسيح كابن الله في امتدادها وتدرُّجها في الإستعلان.

فجميع الشخصيات التي احتكت بالمسيح إما تزداد هبوطاً إلى أسفل؛ أو تزداد ارتفاعاً إلى الأعلى، إما تتمادى في المقاومة والعناد وعدم الإيمان؛ وإما تتمادى في القبول والإذعان والإيمان. هذه الحقيقة وليدة التأثر المباشر بحركة استعلان حقيقة المسيح كنور الآب. فالنور يكشف ذوي البصيرة ويزيدهم إبصاراً، كذلك وبنفس المقدار يفضح الكارهين للنور ويُفقدهم الرؤيا: «لدينونة أتيتُ أنا إلى هذا العالم حتى يبصر الذين لا يبصرون ويعمى الذين يبصرون.» (يو٩: ٣٩)

أولاً: الرافضون: «جاء إلى خاصّته، وخاصّتهُ لم تقبله»:

الشعب اليهودي ينقسم في إنجيل القديس يوحنا إلى قسمين رئيسيين، يسميها الإنجيل «الجموع»، و«اليهود».

أ ــ الجموع: ὁ ὄχλος

وهم يمثلون التجمعات العامة للسكان اليهود الذين يظهرون في مسرح الحياة اليومية في الإنجيل، وأغلبهم من منطقة الجليل. وهم شديدو الإنفعال، وليس لهم سياسة محددة ولا يثبتون على رأيهم، يتجمعون بسرعة لكل بادرة تطرأ في محيطهم. وهم الذين استقبلوا المسيح استقبالاً حافلاً عند نزوله إلى منطقتهم، أي الجليل، بعد رؤيتهم المعجزات التي صنعها المسيح في أورشليم (يو٤: ٤٥)، وهم الذين كانوا يتبعونه في جموع غفيرة: «خمسة آلاف رجل ما عدا النساء والأولاد» (مت١٤: ٢١)،

وكانوا يزحفون خلفه حتى إلى الجبال، وعلى مدى اليوم كله، حتى بلا طعام!! وعلى القارىء أن يتصور هذا الحشد الهائل يسير وراء المعلم دون أي اعتبار لتعب أو جوع أو زمن: في إنجيل القديس متى نقرأ: «الموضع خلاء والوقت قد مضى» (مت١٤: ١٥)، وإنجيل القديس مرقس يقول: «فابتدأ يعلمهم **كثيراً**، وبعد **ساعات كثيرة** تقدّم تلاميذه ...» (مر٦: ٣٤و٣٥)، وفي إنجيل القديس لوقا: «فابتدأ النهار يميل» (لو٩: ١٢). هذا المنظر يكشف لنا عن أمرين: الأول طباع أهل الجليل، والثاني شدة تأثير المسيح في قلوب الناس، فإنه على قدر امتداد النور، على قدر ما كان امتداد حركة الشعب.

أما إيمان أهل الجليل فصار ملتهباً بعد سماعهم للمسيح هذه الساعات الطوال، حتى إنهم بعد أن رأوا معجزة الخمس الخبزات والسمكتين لم يحتملوا التسويف فيما أضمروه بل تحركوا ليختطفوه ويجعلوه ملكاً بالقوة (يو٦: ١٥).

كانوا يتركون بيوتهم ومدنهم ويزحفون وراءه صعوداً إلى أورشليم في كل المناسبات، ويذكرهم الإنجيل بكلمة «جموع كثيرة» مثل عيّنة «الخمسة الآلاف». ويلاحظ القارىء أن الجليليين هم الذين تبعوا المسيح إلى أورشليم ومعهم سعف النخيل وزفّوه في موكب ملكي ارتجت له أورشليم المدينة، وبالأخص لما انضم إليهم سكان أورشليم الذين كانوا قد زاروا بالأمس بيت عنيا لتعزية مرثا ومريم ورأوا معجزة قيامة لعازر: «ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة من هذا؟ فقالت الجموع هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل.» (مت٢١: ١٠—١١)

كما، وللأسف، هم أيضاً الجليليون الذين دفعهم رؤساء الكهنة والشيوخ ليصرخوا أمام بيلاطس: «أصلبه أصلبه»: «ولكن رؤساء الكهنة والشيوخ حرّضوا **الجموع**...» (مت٢٧: ٢٠). وهذا المشهد الأخير المبكي حقاً يوضح مدى خطية رؤساء الكهنة والشيوخ في تضليل هذا الشعب الطيب المتحمس الذي كان على أتم استعداد للإيمان والشهادة! وهل ننسى أن معظم التلاميذ الإثني عشر كانوا من الجليل؟...

ب — اليهود:

وهؤلاء يأتون في المقابل للجموع في إنجيل يوحنا. فكما أن كلمة «الجموع» اصطلاح يعبّر عن أخلاق أهل الجليل، كذلك كلمة «اليهود» فهي اصطلاح يعبّر عن أخلاق وسلوك أهل أورشليم العاصمة: «وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت؟» (يو١: ١٩) وكما أن «**الجموع**» موطنهم **الجليل**، كذلك «**اليهود**» فإن موطنهم إقليم **اليهودية**، وهو القسم الجنوبي من فلسطين وعاصمته أورشليم.

ولكن بينا «الجموع» كانوا يمثلون جماعة، أكثر مما يمثلون اتجاهاً فكرياً، إذ ليست لهم مبادىء معينة، نجد اليهود يتمسكون جداً بآمال الأمة وانتظار الشعب لمسيًا الملك القومي لسيادة اليهود على العالم، فهم يمثلون أصدق تمثيل العنصرية اليهودية المتعصّبة بالطبيعة.

بدأ اليهود مصادمتهم مع المسيح في أول معجزة تمت في سبت: «إنه سبتٌ. لا يحلُّ لك أن تحمل سريرك» (يو٥: ١٠). وأنهوا رسالة تعصبهم، التي أنهوا بها في الحقيقة على أنفسهم، حينما وقفوا يحرسون السبت بتكسير أرجل المحكوم عليهم ليُنْهوا على حياتهم قبل حلول السبت: «فلكي لا تبقى الأجساد على الصليب في السبت لأن يوم ذلك السبت كان عظيماً سأل **اليهود** بيلاطس أن تُكسر سيقانهم ويُرفعوا.» (يو١٩: ٣١)

وبينما كانت «الجموع» تقف تسمع التعاليم بانفعال وإعجاب وقبول: «فقالوا له يا سيد أعْطِنا في كل حين هذا الخبز» (يو٦: ٣٤)، نجد اليهود يعترضون ويشوشون ويتذمرون: «فكان اليهود يتذمرون عليه لأنه قال أنا هو الخبز الذي نزل من السماء» (يو٦: ٤١). وحتى إذا ما رأوا بعضاً من زملائهم اليهود وقد قبلوا التعليم بفرح كانوا ينازعونهم: «فخاصم اليهود بعضهم بعضاً قائلين كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل.» (يو٦: ٥٢)

وإذا وقفت «**الجموع**» تصغي، كانت تخاف أن تُظْهِر مشاعرها ومديحها أو إيمانها بالتعليم خوفاً من «**اليهود**»: «وكان في ,, **الجموع** ،، مناجاة كثيرة من نحوه، بعضهم يقولون إنه صالح، وآخرون يقولون لا بل يُضل الشعب. ولكن لم يكن أحد يتكلم عنه جهاراً **لسبب الخوف من اليهود**.» (يو٧: ١٢—١٣)

وحتى إذا اقتنع اليهود وآمنوا بالفعل، كانوا يقدمون التحفُّظات على الكلام والإستفسارات الإستنكارية التي تنتهي بهم إلى النكوص: «فقال يسوع **لليهود الذين آمنوا به**: إنكم إن ثَبَتُّم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي، وتعرفون الحق والحق يحرركم، أجابوه إننا ذرية إبراهيم ولم نُستَعبَد لأحدٍ قط، كيف تقول أنت إنكم تصيرون أحراراً؟» (يو٨: ٣١—٣٣) وهكذا انتهى بهم الموقف إلى الرفض الكامل: «لماذا لا تفهمون كلامي، لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي، أنتم من أب هو إبليس.» (يو٨: ٤٣و٤٤)

ومن أجل غيرتهم على الناموس كانوا مستعدين أن يرجموا المسيح: «فتناول اليهود أيضاً حجارة ليرجموه.» (يو١٠: ٣١)

واليهود كانوا في الحقيقة هم العنصر الغالب في التقرير النهائي بضرورة صلب المسيح، لأن قيافا

نفسه لم يستطع أن يقرر ذلك إلا بعد أن أشار إلى اليهود لكي يتحركوا: «وكان قيافا هو الذي أشار على اليهود أنه خيرٌ أن يموت إنسان واحد عن الشعب.» (يو١٨: ١٤)

واليهود هم الذين وقفوا وَقْفة إصرار أمام بيلاطس ليُصْدِر حكمه بالصلب: «فقال لهم بيلاطس خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم، فقال له اليهود لا يجوز لنا أن نقتل أحداً (هذا كذب فقد قتلوا استفانوس فيما بعد).» (يو١٨: ٣١)

والمسيح نفسه كان يعرف تماماً أنهم العنصر الأساسي في صلبه: «لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدّامي يجاهدون لكي لا أُسلَّم إلى اليهود» (يو١٨: ٣٦)؛ «خرج (بيلاطس) أيضاً إلى اليهود وقال لهم أنا لست أجد فيه عِلَّةً واحدة، ولكم عادة أن أطلق لكم واحداً في الفصح، أفتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود؟ فصرخوا أيضاً جميعهم قائلين ليس هذا بل باراباس. وكان باراباس لصاً.» (يو١٨: ٣٨—٤٠)

والقديس يوحنا لا يتحامل في إنجيله على اليهود، ولكنه بعد أن مرَّت به هذه السنين الطوال، فإنه ينظر نظرة حزن وأسى متأملاً كيف أن المسيح كان يترجى لـ«إسرائيل» الخلاص، ويرى فيهم من الصفاء والصدق ما يصلح أن يكون لهم دورٌ في الخلاص. اسمعه وهو يسجِّل للمسيح قوله عن نثنائيل: «**هوذا إسرائيلي حقاً، لا غشَّ فيه**» (يو١: ٤٧)، فهنا «إسرائيل» واقعة في ضمير المسيح موقع الحق بحسب ما كان يترجَّى. أو اسمعه وهو يسجل للمعمدان قوله: «وأنا لم أكن أعرفه لكن **ليُظْهَرَ لإسرائيل** لذلك جئت أعمِّد بالماء» (يو١: ٣١)، هنا «إسرائيل» صاحبة الحق الأول في التعرُّف على مسيحها!! وذلك بحسب ما كان يظن ويترجى المعمدان بل والمسيح نفسه: «لأن الخلاص هو من اليهود.» (يو٤: ٢٢)

وإنجيل القديس يوحنا يهتم بصورة عامة أن يجعل خدمة المسيح على خلفية يهودية، فكل عمل وكل قول يجعله يتحرك على خلفية يهودية والأمثلة كثيرة:

فإن معجزة تحويل الماء إلى خمر في عُرْس قانا الجليل أجراها على خلفية يهودية: «وكانت ستة أجران من حجارة موضوعة هناك حسب تطهير ,,**اليهود**،،.» (يو٢: ٦)

ومعجزة الخمس الخبزات وحديث الجليل المطوَّل في الأصحاح السادس يجريان على خلفية من اليهود مع أنه كان في الجليل: «فصعد يسوع إلى الجبل وجلس هناك مع تلاميذه، وكان الفصح عيد ,,**اليهود**،، قريباً.» (يو٦: ٣—٤)

ومعجزة ابن خادم الملك التي صنعها وهو في الجليل، هذه أيضاً صنعها على خلفية من اليهودية

واليهود: «هذا إذ سمع أن يسوع قد جاء ,,من اليهودية،، إلى الجليل انطلق إليه وسأله...» (يو٤: ٤٧)؛ «هذه أيضاً آية ثانية صنعها يسوع لما جاء من ,,اليهودية،، إلى الجليل.» (يو٤: ٥٤)

وحتى لما جاء إلى الجليل ليقيم فيها، أقام فيها على خلفية من اليهودية واليهود: «وكان يسوع يتردد بعد هذا في الجليل، لأنه لم يُرِدْ أن يتردد في اليهودية لأن ,,اليهود،، كانوا يطلبون أن يقتلوه.» (يو٧: ١)

ولما ترك المسيح الجليل وصعد إلى أورشليم، كان ذلك أيضاً على خلفية من ,,اليهود،،: «وبعد هذا كان عيدٌ ,,لليهود،، فصعد يسوع إلى أورشليم.» (يو٥: ١)

ولما بشَّر المرأة السامرية بالخلاص وقبلت الإيمان، بشَّرها على أساس اليهود: «لأن الخلاص هو من ,,اليهود،،.» (يو٤: ٢٢)

هذا الإصرار في جعل اليهود واليهودية خلفية عامة لخدمة المسيح المطوَّلة، يوضح عقيدة القديس يوحنا الراسخة أن اليهود كانوا أصحاب الحق الأول في خدمة المسيح وفي الخلاص لولا أنهم لم يقبلوه.

بل ولا يزال القديس يوحنا يلحُّ على هذه الحقيقة — إنما بصورة سرية ورمزية أيضاً — حتى آخر لحظة على الصليب حينما التفت المسيح إلى أمه وقال، آخر ما قال، للتلميذ الذي كان يسوع يحبه: «هوذا أمك» (يو١٩: ٢٧)؛ القديس يوحنا يسجلها باهتمام وكأنها الوصية الأخيرة للكنيسة ممثلة في القديس يوحنا — آخر رسول للمسيح وآخر تلميذ — أن تبقى الأمة اليهودية (أم المسيح)، ممثَّلة في جميع أسفارها وذخائر أنبيائها وروحانيتها، قائمة كأم للكنيسة ترضع لبنها العتيق المعتق. كما أن وصية المسيح لأمه «هوذا ابنُكِ» (يو١٩: ٢٦) أن تبقى الكنيسة (التلميذ الذي كان يسوع يحبه) في حضن الأم العتيقة لا تنفصل عنها.

وقد صار ذلك بالفعل، إذ احتضنت الكنيسة العهد القديم وصارت تغتذي من كنوزه حتى اليوم.

واليهود ينقسمون عامة إلى شيعتين: شيعة الفريسيين، وشيعة الصدوقيين. أما الصدوقيون فلم يذكرهم القديس يوحنا بالإسم ولكنه يذكر خصائصهم تحت اسم **رؤساء الكهنة**، زمرة حنان وقيافا، الرؤساء المغامرون الذين يختلفون على طول الخط مع زمرة الفريسيين الغيورين على الدين. على أن الفريقين — الصدوقيين والفريسيين — يظهرون في مظهر الإتحاد ويعملون معاً داخل المجمع

الكبير: «سمع الفريسيون الجمع يتناجون بهذا من نحوه (أي المسيح) فأرسل الفريسيون ورؤساء الكهنة خُدّاماً ليمسكوه» (يو٧: ٣٢). «فجاء الخُدّام إلى رؤساء الكهنة والفريسيين...» (يو٧: ٤٥)؛ «فجمع رؤساء الكهنة والفريسيون مجمعاً وقالوا ماذا نصنع...» (يو١١: ٤٧)؛ «وكان أيضاً رؤساء الكهنة والفريسيون قد أصدروا أمراً...» (يو١١: ٥٧)؛ «فأخذ يهوذا الجند وخداماً من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح.» (يو١٨: ٣)

وهم يجتمعون ضمناً لتوحيد كلمتهم ككتلة متعاونة شكلاً، ولكن غير منسجمة في الداخل. ويأتي رؤساء الكهنة في المركز الأول من جهة القسوة واستخدام العنف، ولكن ما يستفز رؤساء الكهنة (الصدوقيين) هو الإستشعار بأي خطر نحو نظامهم الكهنوتي. أما الفريسيون، وهم الممثّلون الشرعيون لليهود، فكان ما يستفزهم هو الإخلال بالناموس، وهم الذين أرسلوا بعثة تقصّي الحقائق عن خدمة المعمدان (يو١: ٢٤)؛ وأيضاً ما ترامى لأسماعهم عن أن الرب يعمّد، إذ اعتبروا ذلك أمراً خطيراً بالنسبة لسلطانهم، بل إن هذا وحده كان كفيلاً أن يعجّل بالصدام والصليب، لذلك نسمع: «فلما علم الرب أن الفريسيين سمعوا أن يسوع يُصيِّر ويعمّد تلاميذ أكثر من يوحنا — مع أن يسوع نفسه لم يكن يعمّد بل تلاميذه — ترك اليهودية ومضى أيضاً إلى الجليل» (يو٤: ١—٣)، لأن الساعة لم تكن قد جاءت بعد.

والفريسيون يحتقرون اليهود غير المتعلمين ويرفضون آراءهم: «فأجابهم الفريسيون ألعلكم أنتم أيضاً قد ضللتم. ألعل أحداً من الرؤساء أو من الفريسيين آمن به. ولكن هذا الشعب الذي لا يفهم الناموس هو ملعون» (يو٧: ٤٧—٤٩). والذي كان يستفز كبرياء الفريسيين بشدة، تفرُّد المسيح بسلطانه الذي كان يعلِّم به: «فقال له الفريسيون أنت تشهد لنفسك، شهادتك ليست حقاً» (يو٨: ١٣). كما أدانوا معجزات المسيح الباهرة ليس لسبب إلاَّ لأنها عُملت في سبت (يو٩: ١٦).

والفريسيون هم الذين أخذوا على عاتقهم حرمان وطرد أتباع المسيح: «ولكن مع ذلك آمن به كثيرون من الرؤساء أيضاً، غير أنهم لسبب الفريسيين لم يعترفوا به لئلا يصيروا خارج المجمع، لأنهم أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله.» (يو١٢: ٤٢و٤٣)

ولكن في ختام صداماتهم المتوالية بلغهم الإعياء، وأُصيبوا بخيبة أمل من جراء نجاح المسيح واكتساحه الميدان رغماً عن محاصراتهم: «فقال الفريسيون بعضهم لبعض انظروا إنكم لا تنفعون شيئاً هوذا العالم قد ذهب وراءه» (يو١٢: ١٩). **ومن بعدها تنحّوا وتركوا أمر تدبير خطة قتل المسيح لرؤساء الكهنة وحدهم، إذ لم يَعُدْ الإنجيل يذكرهم بعد ذلك مع رؤساء الكهنة.** وهذا يظهر من قول بيلاطس للمسيح: «ألعلّي أنا يهودي؟ أُمَّتُك ورؤساء الكهنة أسلموك إليّ»

(يو١٨: ٣٥)؛ «فلما رآه رؤساء الكهنة والخُدَّام صرخوا قائلين أصلبه أصلبه» (يو١٩: ٦). ولكي ينتهوا قسراً من قضية المسيح، ضغطوا على بيلاطس وأحرجوه، فجحدوا إيمانهم بالله علناً وكفروا بيهوه الملك العظيم الذي رعاهم وتبنَّاهم هذا الدهر كله: «ليس لنا ملك إلاَّ قيصر.» (يو١٩: ١٥)

وعلى العموم، فإن الصراع العنيف الذي لم يكُفّ أبداً في إنجيل يوحنا بين اليهود والمسيح والذي تحمَّله المسيح حتى أقصاه، كان يمثل ولا يزال صراع العالم مع الكنيسة الذي لم يهدأ ولا يوماً واحداً ولن يهدأ: «أنا قد أعطيتُهم كلامك؛ والعالم أبغضهم لأنهم ليسوا من العالم، كما أني أنا لست من العالم. لست أسأل أن تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير» (يو١٧: ١٤و١٥). وقد صدق الذي قاله القديس بولس الرسول: «إن كنا نتألم معه لكي نتمجَّد أيضاً معه» (رو٨: ١٧). ولكن يقولها إنجيل يوحنا بصورة الواقع الحاضر: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني.» (يو١٧: ٢٢)

ومن جهة الأخلاق أو السلوك الفردي وخط الرفض العريض، أي عدم الإيمان الذي أظهره اليهود والرومان في أثناء آلام الرب وصلبه، نجد ثلاثة عوامل شخصية تحكَّمت في ثلاث نفوس انحطَّت مقاديرها فأصابها العمى والضعف والأنانية:

+ أما **العمى** فبلغ أقصاه عند رئيس الكهنة الذي جلب الخراب على أُمَّته إذ حكم على دم بريء!!

+ وأما **الضعف** فكان في الوالي الروماني الذي انقطع عزمه، وامتنع حَزْمه، وأهان كبرياء القضاء الروماني: «فقال لهم بيلاطس خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم!!» (يو١٨: ٣١)؛ «وقال لهم: أنا لست أجد فيه علَّة واحدة!!!» (يو١٨: ٣٨)

+ وأما **الأنانية** فكانت في التلميذ الذي خان المحبة وأسْلَمَ معلمه.

ثلاثة أشخاص، ولكنهم، في الحقيقة كما يقدمهم لنا إنجيل يوحنا، هم ثلاثة عناصر مرذولة تمثل لا الرفض فقط، بل والعداوة تجاه الإيمان: «**اليهود**»، و«**الأمم**»، و«**التلميذ**».

+++ **فقيافا** يمسك عليه الإنجيل تصريحه الخطير الذي يكشف الإتجاه النفسي عند اليهود عموماً، ويمثلهم الرؤساء والمسئولون حينما يصيبهم العمى **فيضحُّوا** بمستقبل الرسالة في سبيل الحفاظ على حطام الدنيا: «فقال لهم واحدٌ منهم، وهو قيافا، كان رئيساً للكهنة في تلك السنة: أنتم لستم تعرفون شيئاً ولا تفكرون أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها» (يو١١: ٤٩و٥٠). هكذا بلغ العمى أن تُقتَل البراءة ويُزهَق الحق لتبقى الأرض ويبقى الكيان! وعند هذه

المشورة توقفت العناية الإلهية عن مسار الكهنوت اليهودي، ورُفعَتْ اليد العالية عن حماية الأمة، وأنطفأ مصباح الله في هيكل اليهود إلى الأبد.

فإن كانت الأمة اليهودية قد بدأت مع إبراهيم حينما قدّم ابنه اسحق ذبيحة لله حيث كان هذا قمة الإيمان الذي بنيت عليه الأمة؛ فقد انتهت وانتهى إيمانها مع رئيس الكهنة قيافا عندما قدّم ابن الله ذبيحة على مذبح الرومان.

+++ والأمم ويمثلهم **بيلاطس**. وتعليقنا عليه هو هذه الآية من القديس بولس الرسول: «فإن كان لكم محاكم في أمور هذه الحياة فأجْلِسُوا المحتقّرين في الكنيسة قضاة. لتخجيلكم أقول. أهكذا ليس بينكم حكيم ولا واحد يقدر أن يقضي بين إخوته. لكن الأخ يحاكم الأخ، وذلك عند غير المؤمنين. فالآن فيكم عيب مطلقاً لأن عندكم محاكمات بعضكم مع بعض. لماذا لا تُظلَمون بالحري. لماذا لا تُسلَبون بالحري. لكن أنتم تَظلِمون وتَسلُبون، وذلك للإخوة. أم لستم تعلمون أن الظالمين لا يرثون ملكوت الله؟» (١كو٦: ٤—٩)

+++ أما **يهوذا** التلميذ الذي سرق الصندوق، فليس عجباً إن هو باع النور. والذي أحب المال *كان سهلاً عليه أن يدوس المحبة*. ولكن *يهوذا كان تلميذاً*، وكان *داخل الجماعة*، وكان مؤتمناً على سر الكنيسة الصغيرة أي الإثني عشر، لذلك استطاع أن يسلّم معلمه في الوقت المناسب وفي المكان المناسب. فكانت خطيته أعظم: «الذي أسلَمني إليك له خطية أعظم.» (يو١٩: ١١)

يهوذا — بحسب إنجيل يوحنا — مثّل دور أخيتوفل الذي كان مشيراً لداود يجلس على مائدته ويأكل أفضل خبزه، هذا لما دخله الشيطان خان سيده داود مسيح الرب، وأشار على ابنه (ابن داود) أبشالوم أن يقتل أباه داود ليجلس ملكاً عوضاً عنه، ولما خابت مشورة أخيتوفل بموت أبشالوم ذهب وخنق نفسه، هذا ما فعله يهوذا! ولهذا قال الرب: «لكن ليتم الكتاب، الذي يأكل معي الخبز رفع عليّ عقبه» (يو١٣: ١٨). أما الكتاب الذي أشار إليه الرب فهو المزمور ٤١: ٩: «رجل سلامتي الذي وثقتُ به، آكل خبزي، رفع عليّ عَقِبَه».

ثانياً: المؤمنون:

«أما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله.» (يو١: ١٢)

وكما يقدم إنجيل يوحنا الأشخاص الرافضين في مدٍّ متهاوٍ إلى أسفل، حتى بلغ بهم الرفض وعدم الإيمان مبلغ تسليم الرب والمعلم للقتل وبيد تلميذ من الإثني عشر، هكذا يقدم الإنجيل المدّ الإيماني

الصاعد في النور إلى أعلى الدرجات. وهكذا نأتي إلى الأشخاص الذين سمعوا وقبلوا وآمنوا وتحمسوا وصاروا من التابعين.

وإذا أردنا أن نلقي نظرة على التلاميذ الذين تسابقوا في الصعود على سلَّم الإيمان، ينبغي أن نترك الرسل الذين ذكرتهم الأناجيل الثلاثة الأولى؛ كبطرس وأولاد زبدي وأمهم، والشخصيات الحبيبة التي رافقت طفولة المسيح ولازمته حتى النهاية، والنسوة التقيات اللائي أخذن على أنفسهن متابعة المسيح في اليهودية والجليل وأورشليم حتى الصليب والصرف عليه من أموالهن الخاصة؛ لنأتي إلى الشخصيات التي لم تذكرها الأناجيل الثلاثة، وكيف يُبْرِز سجاياهم عن وعي روحي ونفساني عميق، إذ يضعهم القديس يوحنا في تيار الإنجيل فتتَّسق حركتهم الإيمانية مع حركة المدّ صعوداً في استعلان المسيح.

ويضع القديس يوحنا في افتتاحية طريق التعرف على الرب، «نثنائيل»، كزهرة تفتحت مبكراً لتعطّر طريق الشهادة الحلو: «أجاب نثنائيل وقال له: يا معلم أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل» (يو١: ٤٩). ويلازمه على الطريق في خطواته الأولى «أندراوس»، الذي ظهر كمَن كان يدرس باجتهاد متى يأتي المسيح، «قد **وجدنا** مسيًّا» (يو١: ٤١). وكذلك «فيلُبُّس»، واحدٌ من زمرة الباحثين باهتمام مِنْ أين يأتي المسيح: «فيلبس وجد نثنائيل وقال له: وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء يسوع ابن يوسف الذي من **الناصرة**» (يو١: ٤٥). وفيلبس هذا هو القديس والرسول الذي يقول أقدم التقليد الموروث عن العلاَّمة اكليمندس الإسكندري[1] إنه هو التلميذ الذي سأل الرب أن يذهب ويدفن أباه، فتلقى هذا الرد الحاسم: «اتبعني ودَعْ الموتى يدفنون موتاهم» (مت٨: ٢٢)، فترك وتبع وكان من الرابحين!...

كما يقدم لنا شخصية «توما» باعتباره إمام الشكَّاكين في المنهج المسيحي، ولكنه شكَّ من أجل مزيد من الإيمان، فانتهى به شكُّه إلى صرخة استعلان لم يبلغها أحد قبله: «ربي وإلهي.» (يو٢٠: ٢٨)

والقديس يوحنا يمهد في إنجيله تمهيداً رائعاً لموكب الخطاة، تقوده أُمية أو نصف يهودية، هي سامرية مكروهة مع كل السامريين، ولكن المسيح جاء من أجل المكروهين، فقد قيل عنه هو نفسه في الأنبياء: «هكذا قال الرب فادي إسرائيل قدوسه للمُهَان النفس، **لمكروه الأمة**، لعبد المتسلطين...» (إش٤٩: ٧). كانت مكروهة ولكن أحبها المسيح ليتم في هذه السامرية العجيبة قول

[1] Clement of Alexandria, Stromata III.4 ch 25.

هوشع النبي «سأدعو التي ليست محبوبة محبوبة» (رو٩: ٢٥، هو٢: ٢٣ في الترجمة السبعينية)، ويتم في هذا الشعب السامري العجيب: «سأدعو الذي ليس شعبي شعبي» (رو٩: ٢٥، هو٢: ٢٣). كانت السامرية رائدة التائبين بل والمبشِّرين، فخلصت، وخلَّصت مدينة!!

وبعدها تأتي تلك التي كرَّمها الإنجيل بل والدنيا كلها: «المجدلية». ومَنْ ذا الذي لا يعرف المجدلية؟ التي هي «مادلين» — باللغة الفرنسية؟ هذه التي استأسرت بعطف المسيح بعد أن كانت أسيرة لسبعة شياطين، فحفظت الجميل حتى الصليب والقبر وأيضاً القيامة. فكانت أول من نطق المسيح باسمها: «يا مريم»، كأول كلمة بعد أنين الصليب وغصَّة الموت وصمت القبر!!

وإنجيل يوحنا لا يقدِّم روايات عن شخصيات، بل سهام من نور انطلقت تتقدم طريق النور الحقيقي وتتبعه شهادة تلو شهادة شيء يخطف الأبصار، منها مَن كان يسير بسرعة الضوء «أنت ابن الله» (يو١: ٣٤و٤٩؛ ١١: ٢٧). ومنها مَن كان يتدحرج كطفل يمسك بتلابيب أمه يسير الهوينا، ولكنه ملتصق بالنور: «توما»: «لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه» (يو١١: ١٦). ومنها مَنْ كان يقدِّم رِجلاً ويؤخِّر أخرى بإيمان زاحف كأنه يجر وراءه ثقلاً: «نيقوديموس» معلم إسرائيل، الذي جاء إلى المسيح مع صبح البشارة، وانتهى إليه في غسق الكرازة، ليُنزل الجسد من فوق الصليب ويستودعه القبر في إيمان ذاهل لا يعرف متى أتاه وكيف يعلنه!

وفي تصوير القديس يوحنا، نرى من خلف نيقوديموس، السامرية تظهر وهي الإنسانة اللاهية أو التي يلهو بها الناس، والتي بعد مناوشة لم تستغرق بعض الساعة ختمت لهو صباها بجدِّية الرجال، وتركت جرَّتها التي هي بمثابة صَنَمها — ماء العطش — رهن إيمان اليقين الذي استبدَّ بها، وكان لسان حالها: «لا خطية بعد الآن» و«لا» لكل أهل مدينتها ما دام «مسيًّا» الآتي قد أتى!! فلا عودة لبئر يعقوب؛ ونبع الحياة قد صار في أعماقها. ومثلما قالت وعملت، هكذا قال كل أهل مدينتها وعملوا؛ وسرق السامريون الخلاص من اليهود إذ شهدوا: «هذا هو بالحقيقة المسيح مخلِّص العالم.» (يو٤: ٤٢)

ولكن ليس جزافاً أن يضع القديس يوحنا صورة السامرية في مقابل صورة نيقوديموس، فهذا النقيض البالغ حد المبالغة نراه في سباق الإيمان في إنجيل يوحنا: فقمة العلم في وجه قمة الجهالة: يهوديٌّ هو معلم إسرائيل فريسيٌّ حامي حمى أكاديمية التوراة وقداسة الناموس، عضو مجلس السنهدريم الأعلى، عَلَمٌ في أورشليم العاصمة المقدسة، وعلى مشارف هيكل الله يأتيه خلسة في ظلام الليل يسأل عن كُنْه المسيح؛ والصورة الأخرى: امرأة سامرية جاهلة، فتيلة مدخِّنة، ودخانها يعمي العيون السليمة، لا نبَضَ فيها يُنبيء بأي حياة، فقد استهلكتها الخطية واللامبالاة، قابلها أو هي قابلته على

مشارف هيكل جرزيم المكرّس لعبادة منشقة حيث يسجدون لِمَا لا يعلمون، تأتيه في وضح النهار وقت الظهيرة والشمس ساطعة والكل غادٍ ورائح يطلب البئر!! يسألها المسيح ليشرب، وهي تُعرض عن السماع، وتستنكر السؤال، وتجفل من الحديث. والرب يتودد إليها، يُظْهِر فَقْره ويُخْفِي غِنَاه: «الذي افتقر من أجلنا وهو غني» (٢كو٨: ٩)، لأنه لم يكن عطشاناً إلى مائها، ولكنه كان جائعاً حقاً لمشيئة الآب التي من أجلها نزل فقيراً متغرِّباً إلى عالم الخطاة والخطية، حتى أوصلته قدماه المتعبتان إلى البئر وإلى السامرية.

حديث نيقوديموس **بدأ مزخرفاً بالتودد**: «يا معلم نعلم أنك قد أتيت من الله معلماً، لأن ليس أحدٌ يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه» (يو٣: ٢)، ولكنه كان **محشوًّا بالتنكر والإستنكار**: «كيف يمكن؟؟» (يو٣: ٤)؛ «ألعلَّه يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية؟؟» (يو٣: ٤)؛ «كيف يمكن أن يكون هذا؟؟» (يو٣: ٩). كان نيقوديموس عصِيَّ الإيمان، لأن بُرْقع الناموس أخفى عنه نور وجه المسيح! فلما أعيي المسيح من ردِّه وصدِّه، تركه **ثلاث سنوات ونصف!...**

وحديث السامرية بدأ بشبه عراك، كقطة قد استفزتها المباغتة فأخرجت أظافرها. **وقد بدأت السامرية بالتنكُّر والإستنكار**: «كيف تطلب مني لتشرب وأنت يهودي وأنا امرأة سامرية؟» (يو٤: ٩). ثلاثة استنكارات في جملة واحدة، فالشرب من يد السامريين نجاسة كأكل لحم الخنازير، واليهودي لا يعامل السامريين أصلاً، والرجل لا يليق به أن يكلم امرأة!! وسرعان ما نظرت إليه مليًّا لتقول له: «يا سيد أرى أنك نبي» (يو٤: ١٩). ولكنه استصغر نظرتها، وكثَّف لها نور استعلانه، فارتفعت بسرعة النور الذي اخترق قلبها. وظلت تتساءل في هواجس أفكارها عمَّا سمعته وهي صغيرة عن «مسيَّا» آتٍ يستطيع أن يرد على كل سؤال ويحل كل مشاكل الإنسان — ومشاكلها كثيرة — ألعله يكون هو «المسيَّا»؟ وأخيراً رمت بدلوها وهي هيَّابة تقول وكأنها تسأل أو تتمنى: «أنا أعلم أن مسيَّا الذي يُقال له المسيح يأتي، فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء» (يو٤: ٢٥). فسمعت منه «أنا هو ἐγώ εἰμι» (يو٤: ٢٦). وهكذا، **وفي أقل ما يمكن أن يسمح به الزمن** لاستعلان حقيقة المسيح، بلغت هذه السامرية في سهولة عجيبة إلى قمة الإيمان: «هذا هو المسيح.» (يو٤: ٢٩)

نماذج أخرى للإيمان الزاحف في إنجيل القديس يوحنا:

إيمان فيلبس:

قلنا إن فيلبس، كما يقول التقليد، هو التلميذ الذي لما دعاه المسيح طلب مهلة لكي يدفن أباه،

فبادره المسيح بأن يُعدّل مسار إيمانه فيترك الموتى يدفنون موتاهم ويهتم هو بإتباع المسيح، أي الحياة. هذا في بكور تعرُّفه على المسيح وعلى معنى الإيمان، فتوكَّل فيلُبُّس على مَنْ يُحيي الموتى، وانتقل من الموت إلى الحياة وكان من التابعين. ولكن بقايا إيمان الموتى كان لا يزال لاصقاً فيه، هذا كان يعلمه المسيح ويعلمه القديس يوحنا. وكان على المسيح أن يزيل بقايا رائحة الموت من إيمان فيلبس. إلى أن جاءت معجزة الخمس الخبزات والسمكتين، وأبصر المسيح الجمع الحاشد من حوله وكانوا قد قضوا ساعات طويلة في الإستماع إلى وعظ المسيح وجاعوا والمكان كان قفراً؛ فابتدر المسيح فيلُبُّس يسأله: «من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء؟» (يو٦: ٥). يقول القديس يوحنا: «إنما قال هذا ليمتحنه لأنه هو علم ما هو مزمع أن يفعل» (يو٦: ٦). ويكاد هذا القول يحكي عن كيف كان إيمان فيلبس موضع امتحان في نظر التلاميذ، أو على الأقل في نظر يوحنا. وما حسبه المسيح ويوحنا كان صحيحاً إذ جاء رد فيلبس خالياً من الإيمان جملة وتفصيلاً، إذ بعد تقدير عدد الرجال والنساء والأولاد وحساب ما يكفيهم من طعام وبعد عملية حسابية تقوم على الجمع والضرب والقسمة، أجاب فيلبس: «لا يكفيهم خبز بمئتي دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً» (يو٦: ٧). هذا هو إيمان الحسابات وهو قرين إيمان دفن الموتى.

لم يكن جزافاً أن يسرد القديس يوحنا هذه الرواية، فهو هنا يضع الحد الفاصل بين إيمان وإيمان، إيمان المنطق والعقل والواقع والحسابات، وإيمان المسيح الذي يقيم الموتى ويدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة، إيمان الخمسة الآلاف رجل والخمس الخبزات لا تقبل القسمة على الإطلاق، فالقديس يوحنا يعرض لنا نموذج ما ينبغي أن يكون عليه إيمان الذين يتبعون المسيح. ووقف فيلبس يوزع مع الموزعين من الخمس الخبزات ومن السمكتين ما أشبع الخمسة الآلاف رجل ومن معهم من النساء والأولاد، ثم انطلق مع التلاميذ يجمع الكِسَر المتبقية ما ملأ اثنتي عشرة قفة مملوءة!!

كان درساً لمن يجوع في حضرة المسيح، يتعلمُ منه من يريد أن يتعلم أن مع المسيح «شبع سرور ويمينهُ ملآنة خيرات» (راجع مز١٦: ١١). وكان درساً لفيلُبُّس أن يجحد حساباته والأرقام، طالما هو يتبع من دُفع له كل سلطان ما في السموات وما على الأرض.

ولكن إيمان فيلبس كان لا يزال ينبض فيه عِرْق الموتى. وكان المسيح على استعداد لإستئصاله أيضاً. فلما طرح المسيح في أواخر كرازته مشروع تسليم تلاميذه الطريق إلى الآب الذي عبَّده بالكلمة والروح والحياة وهو مزمع أن يدشّنه بجسده، انفجر فيلبس دون باقي التلاميذ يسأل سؤاله الذي ينضح بنسيان كل تعاليم المسيح – وكأنه لم يسمع منه قط علاقته بالآب أن الفكر فكره والقول

قوله والعمل عمله والمشيئة مشيئته والحب حبه والحياة حياته؟ فماذا يتبقى لفيلبس أن يسأل: «يا سيد أرنا الآب وكفانا» (يو١٤: ٨)؟ هذه لما سمعها المسيح أخذ يراجع مع فيلبس الدروس من أولها متحسّراً على زمان طويل قضاه فيلبس يسمع ولا يفهم وينظر ولا يرى ويسير مع السائرين دون أن يعرف الهدف. أجابه المسيح باختصار: «أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس؟؟؟» (يو١٤: ٩) وأردف بعد وقفة حزن ليعطي الحقيقة الإلهية النهائية لشخصه وعمله ورسالته: «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو١٤: ٩). وعاد يستنكر على فيلبس وعلى كل مؤمن وتابع مثل هذا السؤال الذي يعني عدم الإيمان: «فكيف تقول أنت أرنا الآب؟ ألست تؤمن أني أنا في الآب والآب فيّ» (يو١٤: ٩ــ ١٠). وبهذا القول يكون المسيح قد راجع مع فيلبس وكل إنسان، في كل زمان ومكان، ما هو الإيمان المسيحي وكيف يتخلص من أعمال الموتى ومنطق حسابات الدنيا ويرى المسيح صورةً منظورةً لله الآب غير المنظور.

إيمان توما:

كان إيمان توما ينقصه الرجاء الحي، وهذا العيب الخطير إذا أصاب الإيمان يجعله يحتاج إلى «العيان»، أي لا يثق إلا بما يرى ويسمع ويفهم. لأن الإيمان الصحيح غير المُعَاب هو: «الثقة بما يُرجى والإيقان بأمور لا تُرى» (عب١١: ١)، كما يقول القديس بولس الرسول، أي أن نثق أننا ننال ما نترجاه مثلاً، أو نؤمن بالله غير المنظور أو ننتظر قيامة الأموات.

وإيمان توما ظهر ضعفه أولاً عندما كان المسيح موجوداً في بيت عَبْرة أو بيت عنيا عبر الأردن (شرق الأردن) ــ ومعروف في التقليد اليهودي أن المسيح كان له خمسة تلاميذ من عبر الأردن وكان توماً واحداً منهم. وجاءه رسول من عند مرثا ومريم يخبره أن لعازر مريض، فقال المسيح بعد أن عرف أنه مات: «لنذهب إلى هناك» أي إلى اليهودية، وكان اليهود هناك متربصين به يريدون أن يقتلوه، فجزع توما من فكرة الذهاب إلى اليهودية ولكنه سلّم نفسه للموت على أنه ليس رجاء في الحياة إن هم ذهبوا إلى اليهودية، فقال واليأس يخيم على قوله: «فقال توما الذي يُقال له التوأم للتلاميذ رفقائه لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه» (يو١١: ١٦). واضح من هذا القول أن توما يحب المسيح ويؤمن به ويتبعه من كل قلبه، ولكنه كان قد قرر أن إتّباع المسيح ليس وراءه إلا الآلام والموت، ولكن لا مانع من الإتّباع.

وعلى نفس المنوال كان المسيح قد لاحظ اضطراب التلاميذ، وأولهم في هذا كان توما، عندما أحسوا من كلام الرب أنه ينوي تركهم وأن هناك موتاً ينتظره: «لا تضطرب قلوبكم أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي» (يو١٤: ١). واضح أن المسيح يراجعهم في مستوى إيمانهم به إذ لم يكونوا قد وثقوا

بعد أنه «ابن الله» والإيمان به ينبغي أن يكون على مستوى الإيمان بالله. ثم أضاف: «في بيت أبي منازل كثيرة، وإلا فإني كنت قد قلت لكم، أنا أمضي لأعدّ لكم مكاناً، وإن مضيتُ وأعددتُ لكم مكاناً آتي أيضاً وآخذكم إليّ حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً، وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق» (يو١٤: ٢-٤). وهنا يمهد المسيح في أذهان التلاميذ لقبول أخبار انطلاقه إلى الآب عَبْر الصليب، وتدشينه الطريق إلى الأقداس العليا بدمه، مفتتحاً الباب لعودة الإنسان إلى كرامته الأولى للحياة في حضرة الله. ولكن توما لم يفهم شيئاً: «قال له توما يا سيد لسنا نعلم أين تذهب فكيف نقدر أن نعرف الطريق» (يو١٤: ٥). لا هو فهم أين يذهب المسيح — وكان المسيح لم يكن له رسالة إلا تعزية توما والبقاء بجواره إلى الأبد، ولا هو فهم معنى الطريق المؤدي إلى السماء وكأنه سيعيش على الأرض مخلداً، ولا هو فهم معنى الصليب! وفي جملة مختصرة للغاية أراد المسيح من توما أن يمسك به وكفاه كالطفل الذي يضج من صعوبة السير مع أمه ولا يعلم إلى أين تسير، فتقول له: «امسك في ثوبي واتبعني وكفى»: «قال له يسوع أنا هو الطريق والحق والحياة، ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي» (يو١٤: ٦). فإن كان المسيح هو الطريق فلماذا تنعي همَّ الطريق؟

وفجأة أخذ المعلم منه ورآه وقد احتواه القبر، إلى هنا توقف إيمان توما. فلما قام المسيح من بين الأموات وبلغته الأخبار — وغالباً كان توما متغيباً عبر الأردن في مدينته؛ فلم يصدقها. ولما تواترت الأخبار أكثر فأكثر، حضر توما إلى أورشليم وقابل التلاميذ ولكنه لم يتزحزح عن إيمان الصليب والجروح والموت والقبر: «فقال له التلاميذ الآخرون قد رأينا الرب. فقال لهم إن لم أبصر في يديه أثر المسامير وأضع أصبعي في أثر المسامير وأضع يدي في جنبه لا أؤمن» (يو٢٠: ٢٥). إيمانٌ تُعوزه الرؤيا ويعوزه تصديق الشهادة، هو هو إيمان الموت وكفى وهو الذي تعوزه الحياة. لكن الحياة، وهي المسيح، قد أظهرت في إيمان القديس يوحنا الرسول وهي تحت الرؤيا والعيان، لذلك لم يمانع المسيح المُقام أن يظهر لتوما خصيصاً، وليس في الحقيقة لتوما ولكن لكل من بلغ في إيمانه شك توما وأعوزه اليقين؛ ولكي تبقى شهادة توما صكاً محفوظاً في خزانة الإنجيل يُغني عن وضع الأصبع في أثر المسامير واليد في الجنب المفتوح!! «ثم قال لتوما هات إصبعك إلى هنا وأبصر يديَّ وهاتِ يدك، وضَعْها في جنبي، ولا تكون غير مؤمن بل مؤمناً.» (يو٢٠: ٢٧)

ولأول ولآخر مرة في تاريخ الإيمان بل في تاريخ الإنسان يتحسس إنسانٌ القيامة بإصبعه ويده. إيمان توما بلغ هنا النهاية، بل بلغ الذروة: «أجاب توما وقال له ربي وإلهي» (يو٢٠: ٢٨). لكن صبر الرب على شكوك توما بلغ أيضاً النهاية والذروة، فلم يعُدْ يطيق هذا المنهج جملة وتفصيلاً: «قال له يسوع لأنك رأيتني يا توما آمنت. طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يو٢٠: ٢٩). لقد حصر الرب

الطوبى أي البركة والسعادة في الإيمان الذي لا يطلب العيان.

ولينتبه القارىء فإنجيل القديس يوحنا ليس منشغلاً في تصوير شخصياته ولا كشف سِرّ أعمالهم وحياتهم، ولكنه يقصد من هذا العرض المتعدِّد القامات لرجال الإيمان ونسائه أن يُبرز شخص المسيح، بحد ذاته، كيف يلقي ضوءه فيغيِّر من فكر الإنسان وسلوكه من قامة إلى قامة ومن مجد إلى مجد. هذا هو شغل إنجيل القديس يوحنا الشاغل.

الفصل السابع

الرباط السري الذي يربط إنجيل القديس يوحنا

إنجيل القديس يوحنا لا يستقيم فهمه أو شرحه على مستوى كل تعليم بمفرده أو كل آية بمفردها، أو حتى كل أصحاح بمفرده، دون الإلتفات إلى الرباط السري الذي يربط الحديث بالمعجزة والمعجزة بمعجزة أخرى، سواء جاءت قبلها أو جاءت بعدها. فهناك ارتباط دقيق وعميق يربط بين حديث وآخر وبين معجزة وأخرى، بل وبين بدايته ونهايته. هذا الإرتباط الذي يسري في كل الإنجيل يلحُّ على القارىء حتى يكتشفه. وبمجرد أن يكتشفه يعتبر أنه حصل على مفتاح الإنجيل الذي يدرك به مسار الروح في كل كلماته وأصحاحاته، ويبدأ يحس بحركة الروح تنتقل إلى قلبه وفكره وتضيء ذهنه. وهذا هو هو الإستعلان في إنجيل يوحنا، وهو من عمل الروح القدس الذي أوحى بالإنجيل وأملاه، وهذا ما ينشده كاتب الإنجيل أقصى ما ينشده!

هذا مع العلم أن كل آية تخدم موضعها تماماً، لتعطي المضمون الذي يقصده الحديث كجزء قائم بذاته، ليكون خطوة في كشف أو استعلان الحق والغرض الذي يهدف إليه الإنجيل. إلا أن كل آية بما يتصل بها من حديث وتعليم هي، في حقيقتها الكبرى، مرتبطة بآيات أخرى لتعطي في النهاية الصورة الكاملة المتدرِّجة للإستعلان الذي يهدف إليه الإنجيل.

ويكفي لكي نلفت نظر القارىء إلى هذه الحقيقة أن نقول إن الموضوع الرئيسي الذي يهدف إليه الإنجيل هو: «**لكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه**» (يو٢٠: ٣١)؛ وأن بداية التعليم الذي بدأ به إنجيل يوحنا هو «**ينبغي أن تولدوا من فوق**» (يو٣: ٧)؛ وينتهي بمعجزة القيامة من الأموات!

وهكذا فإن إنجيل يوحنا يحوي منهجاً تفصيلياً يخضع لحساسية متناهية من حيث ترتيب وتدرج المبادىء الأساسية بحيث لا يحتمل على الإطلاق أي تغيير في مواضع الآيات والتعاليم وإلا تختل *الوحدة القوية التي يبرزها الفكر الخلَّاق الذي وضعها!!*

وعلى سبيل المثال نقدم آية تفتيح عيني الأعمى:

إذ نجد أن الإنجيل قبل أن يسرد قصة تفتيح عيني المولود أعمى مباشرة، يقدم المسيح معلناً عن نفسه أنه نور العالم: «**أنا هو نور العالم**» (يو٩: ٥)؛ فيبدو الكلام صعباً يحتاج إلى ما يبرهنه ويصدق عليه، لأن المتكلم الواقف أمامهم هو مجرد إنسان بحسب مظهره، وهم يعرفونه ويعرفون أسرته ومدينته، فكيف يُقبَل أن يكون هو نور العالم؟ وكيف؟ ولكن بعد خطوات وبدون تقديم أو تعليق يقدم الإنجيل معجزة شفاء المولود أعمى ويرى الناس أن الأعمى صار بصيراً وبالتالي كيف تحولت الظلمة عنده إلى نور. ولكن للأسف، فالناس ينشغلون بمعجزة الشفاء ـــ بحد ذاتها ـــ التي تمت في السبت، كما انشغلوا في قوله: «أنا هو نور العالم» كمقولة بحد ذاتها دون أن يربطوا ما قال بما عمل حتى يدركوا من يكون هذا الذي يعطي الأعمى نور العالم؟ لذلك فاتهم تطبيق القول على العمل ليروا أن العمل ينطق بحد ذاته بصدق ما قال، وهذا ما أخذه المسيح على اليهود، ويا ليته لا يأخذه أيضاً على القارىء. لأنه بمجرد الإحساس بالإرتباط بين كلام المسيح وعمله، تتكون لدى القارىء حاسة انفتاح البصيرة لإدراك سر المسيح.

وأيضاً حتى وبعد أن سرد الإنجيل المعجزة، لم يكتفِ الإنجيل بذلك. بل لكي يلفت الإنجيل فكر القارىء إلى الغاية من التعليم والغاية من المعجزة، عاد يحكي عن كيف قابل المسيح هذا الأعمى عينه، وكيف عرض عليه الإيمان به كإبن الله؛ فنجد الأعمى بلا أي تردد على الإطلاق يؤمن في الحال ويسجد. وهكذا يكشف الإنجيل عن معجزة أخرى يودُّها ويتمناها للقارىء، وهي انفتاح بصيرة الأعمى روحياً وإدراكه سر المسيح، فنال الحياة الأبدية بعد أن نال نور العالم. الأعمى البصير ربط بين ما تم له وبين هذا الذي فتح عينيه، فقبله في الحال بصفته التي أعلن بها عن نفسه وزاد عليها أن سجد له متعبِّداً!!

وهكذا، فإن ربط التعليم بالمعجزة ينشىء الإيمان. ثم بالتعليم والآية والإيمان يشير الإنجيل في صمت مهيب إلى صدق بدء الشهادة التي يشهد بها القديس يوحنا للمسيح أن «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس» (يو١: ٤). وبذلك يربط الإنجيل بين ما جاء في الأصحاح التاسع بما جاء في الأصحاح الأول، دون أي لفت نظر أو شرح، ليعطي القارىء فرصة لكي يدخل هذا المجال ويعيشه.

وعلى نمط المثال السابق وبنفس العمق، يربط الإنجيل بين ما جاء في الأصحاح الثالث بما جاء في الأصحاح الرابع دون أي تعليق أو لفت نظر. ففي الأصحاح الثالث ينفتح المشهد فجأة عن فريسي كبير معلم للناموس يأتي إلى المسيح في الظلام ليسأل عن الرسالة، فلا يردُّ المسيح عليه في

موضوع سؤاله، بل يداهمه بحقيقة تقطع عليه خط الرجعة في حواره الذي يريده، وتقلب كيان تفكيره، إذ تُنهي من دائرة معرفته كل مذخرات علمه وتعليمه؛ إذ قال له المسيح مباشرة لا يمكن لإنسان أن يرى أو يدخل ملكوت الله إلا إذا وُلد من جديد!! ولما اعترض واستنكر ووضع العقبات، بادره المسيح كما بادرنا معه: «أنت معلم إسرائيل ولست تعلم هذا» (يو٣: ١٠)، لكي ينتبه ذهننا أن العهد القديم انتهى بمعلميه، لأنه هوذا معلم إسرائيل لا يعرف. إذن، فقد انتهت المعرفة من القائمين على المعرفة. وأخيراً يتركه المسيح بعد أن وضع أساساً جديداً ومتيناً للعهد الجديد. وهنا يصمت الإنجيل.

وبعدها يدخل الإنجيل إلى الأصحاح الرابع ليقدم لنا المرأة السامرية، امرأة خاطئة بلا اسم، ليست يهودية ولا أممية، ولا تعلم أي علم، هذه اختارها السيد المسيح ليطبق عليها درس نيقوديموس. ومن خلال مناقشة قصيرة عن ماء بئر يعقوب — ماء بركات الآباء — الغاطس في قاع البئر وشحّه والمُعطش أيضاً، كناية عن تراث الماضي وعدم نفعه، يكلمها المسيح عن الماء الحي. فبسرعة مدهشة طلبته ولكن في غير استعداد، فاستدرجها المسيح لتعترف بما فيها وبخطاياها، فاعترفت ولم تنكر، وكانت صادقة، فسكب عليها الماء الحي أي الروح. فاغترفت من الماء، وكانت أول من شهد عن المسيًا من غير اليهود. وهنا يصمت الإنجيل أيضاً، ليترك القارىء يفكر ويفهم أن نصف الأممية قد وُلدت من جديد من الماء والروح على يدي المسيح؛ من حيث تعذرت ولادة معلم الناموس! ولكن صمت الإنجيل هناك عند نيقوديموس وهنا عند السامرية هو التعليم الروحي عند إنجيل يوحنا، لأن فيه دعوة سريّة للقارىء ليرى ويقرر كيف خسر نيقوديموس العرض وكيف ربحته السامرية، وعلى أية شروط!!

ولكن لا ينتهي الربط بين هذين الأصحاحين بعد. إذ أننا لو عُدْنا إلى الأصحاح الأول نجد أصل وشرح الأساس اللاهوتي والإيماني الذي فرّق أو الذي ربط بين نيقوديموس والسامرية!! أي بين الأصحاحين الثالث والرابع بجملتها: «وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه، الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل، بل من الله.» (يو١: ١٢و١٣)

هذا هو إنجيل يوحنا، يشرح بإسهاب، ويقدم المعجزة ببساطة، ويترك للقارىء فرصة ليستعلن المسيح.

وعلى مدى الإنجيل يحاول الكاتب أن ينبه ذهن القارىء بالرباط العميق الهادف، الذي يربط بين الحوادث والأقوال والمعجزات، وذلك بأن يذكّر القارىء بالمواقف السابقة التي يكون قد عبرها

بأصحاحات كثيرة حتى يلتحم ذهن الإنسان بسر الإنجيل وينمو الإستعلان في قلبه.

فمثلاً في الأصحاح الأول عدد ٣٠ يعطي الإنجيل فرصة ليوحنا المعمدان أن يشهد للمسيح قائلاً: «هذا هو الذي قلت عنه: يأتي بعدي رجل صار قدامي (في الرتبة) لأنه كان قبلي (أزلي)». وبعد ذلك في الأصحاح الثالث عدد ٢٦ يعتمد الإنجيل على ذاكرة القارىء فيما قرأ في الأصحاح الأول عن هذه الشهادة: «فجاءوا إلى يوحنا وقالوا له يا معلم هوذا الذي كان معك في عبر الأردن (المسيح) الذي **أنت قد شهدت له** هو يعمِّد».

وبالمثل يذكر الإنجيل في الأصحاح الأول كلام الفريسيين ليوحنا المعمدان هكذا: «فسألوه وقالوا له فما بالك تعمِّد إنْ كنتَ لست المسيح»؟ وبعد ثلاثة أصحاحات يعود الإنجيل ويستخدم ذاكرة القارىء فيما قرأ؛ حينما يواجه يوحنا المعمدان الفريسيين: «**أنتم أنفسكم تشهدون لي أني قلت لست أنا المسيح.**» (يو٣: ٢٨)

ثم يعود الإنجيل في الأصحاح الخامس يستخدم هاتين الواقعتين معاً حينما يقول بفم المسيح مخاطباً الفريسيين: «أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحق.» (يو٥: ٣٣)

وأيضاً يقول المسيح في الأصحاح السابع مخاطباً اليهود: «ستطلبونني ولا تجدونني وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا» (يو٧: ٣٤). ويعود المسيح في الأصحاح الثالث عشر يعقب على هذا القول مخاطباً تلاميذه: «يا أولادي أنا معكم زماناً قليلاً بعد، ستطلبونني، **وكما قلت لليهود**، حيث أذهب أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا.» (يو١٣: ٣٣)

أما من حيث التدرج في الإستعلان مع الترابط الشديد في الأقوال والمعجزات فنعطي هذا المثل:

نقرأ في الأصحاح الخامس: «كما أن الآب له **حياة** في ذاته كذلك أعطى الإبن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته» (يو٥: ٢٦). وذلك توضيحاً للآية التي أتت قبلها هكذا: «الحق الحق أقول لكم إنه تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون.» (يو٥: ٢٥)

ثم في الأصحاح الحادي عشر إذ يقترب من المعجزة — الآية — التي نوى أن يصنعها، يصرِّح بأكثر وضوح وهو في طريقه لقبر لعازر الميت مشيراً إلى المعجزة أنها قيامة حقيقية من الموت بإعطاء الحياة: «أنا هو القيامة والحياة» (يو١١: ٢٥). ثم أمام قبر لعازر الميت يقول لمرثا: «إن آمنتِ ترين مجد الله» (يو١١: ٤٠)، مشيراً إلى أن إقامة الميت من القبر وإعطاءه الحياة هو تمجيد لله الآب الذي أعطاه هذا السلطان. وأخيراً يخاطب الميت كما يخاطب حيًّا: «لعازر هلم خارجاً»

(يو١١: ٤٣)، فيقوم لعازر من بين الأموات، ويثبت المسيح أنه حقاً هو القيامة والحياة، ليطبقها على نفسه على الصليب وما بعده.

والآن إذا عدنا إلى الأصحاح الأول نجد الأساس اللاهوتي الذي بُنيت عليه كل هذه الأقوال وهذه المعجزات: «كان الكلمة الله... فيه كانت الحياة» (يو١: ١و٤). هذه في الواقع هي المسحة الروحية التي كُتِب بها إنجيل يوحنا.

فإذا عاد القارىء إلى هذه الآيات وغيرها وراجعها في مواضعها بتدقيق وبحث عن المقابل والمكمِّل، يدرك شدة تداخل المواقف في الإنجيل واعتماد بعضها على بعض بصورة رتيبة دقيقة مركبة الواحدة فوق الأخرى، في امتداد مع ارتفاع متواصل في الإستعلان لخدمة بناء فكر وإيمان القارىء على أساس قوي لا يهتز.

هذا في الواقع قليل من كثير مما يفوق طاقة أي مؤلف بشري مهما كانت قدراته، وهذا بحد ذاته عجيبة في حد ذاتها وآية تهون بجوارها أي معجزة مهما كانت باهرة. فالروح واضح في الرباط الذي يربط بين القول والمعجزة، والمعجزة والمعجزة، والأصحاح والأصحاح، والبداية والنهاية.

هذا مع ملاحظة أن البؤرة التي تتجمَّع فيها جميع هذه الأضواء المتسلطة من جميع الآيات وجميع التعاليم وجميع الرموز إنما هي **شخص المسيح نفسه**[1] باعتباره الكلمة المتجسد، أي باعتبار شخصه الإلهي الظاهر في جسد إنسان! فكل ما في إنجيل يوحنا، سواء كان حادثة أو آية أو تعليماً أو رمزاً، إنما يهدف إلى إلقاء ضوء جديد على هذه الحقيقة العظمى المعلَنة من بدء الأصحاح الأول: أن المسيح هو الكلمة وقد صار جسداً وحلَّ بيننا — ثم يُعتبر بالتالي دعوة سرية للقارىء ليؤمن به أنه ابن الله فينال منه الحياة الأبدية!

---

(١) راجع ما جاء في نهاية فصل «الرموز في إنجيل القديس يوحنا»، وفي نهاية فصل «المعجزات في إنجيل القديس يوحنا»، وفي نهاية فصل «الشخصيات في إنجيل القديس يوحنا»، وفي المقارنة بين «ملكوت الله» في إنجيل يوحنا والثلاثة أناجيل الأخرى.

الباب الخامس

علاقة إنجيل القديس يوحنا بأسفار العهد الجديد

لم نشأ أن نضع المقارنات بين إنجيل يوحنا وبقية أسفار العهد الجديد من الرسائل وأناجيل ورؤيا، إلا بعد أن نكون قد قدّمنا عرضاً شاملاً لمحتويات إنجيل يوحنا نفسه. لذلك جاء هذا الباب متأخراً من جهة الترتيب المنهجي في الدراسة، ولكنه جاء في صميم موضعه من جهة المادة والعرض اللازمين لعمل المقارنات.

الفصل الأول

الرسائل المنسوبة للقديس يوحنا

توجد علاقة صميمية بين رسائل القديس يوحنا وإنجيله مما لا يَدَعْ هناك أي شك في نسبة إنجيل يوحنا لنفس كاتب الرسائل. علماً بأن الرسالة الأولى تأتي غفلاً من أسماء، أما الثانية والثالثة فتأتيان باسم الشيخ أو الكاهن πρεσβύτερος ولكن كلها تحمل الطابع الرسولي.

والرسائل تأتي بمفهومها الوعظي كشرح لدستور الإنجيل القائم على الحوادث التاريخية من آيات وتعاليم، وقد سُجّل كلٌ منها في أوانه وموضعه.

والرسالة الأولى بالذات تصور ما جاء في الإنجيل إنما في أسلوب شرحي ووعظي، ولكن بالرغم من التشابه المتوازي في الفكر والتركيب بين الرسالة والإنجيل إلاّ أنه يبقى بعض الإختلافات في الإتجاهات العامة:

أ — في الرسائل نجد النظرية التعليمية قائمة على إبراز بشرية المسيح، بينما نجد في الإنجيل أن الإتجاه كله متجه ناحية إظهار مجده الإلهي. فالثقل التعليمي في الرسائل واقع كله على أن المسيا — أي المسيح — رجاء الأمم هو هو «يسوع»: «كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله. وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله» (١يو٤: ٢و٣)، مما جعل كاتب الرسالة ينشغل في إثبات إنسانية المسيح الكاملة ويسوق التيار التاريخي في حياة المسيح إلى الروحيات المثالية. وهذا يتمشى تماماً مع عمل الواعظ والمبشر، في مقابل عمل الإنجيلي الذي يقوم على الدعم التاريخي لتصديق الدعوة.

ب — كما يوجد فارق هام في النظرة إلى الأخرويات، أي الأمور الخاصة باليوم الأخير والقيامة والحياة الأبدية وما يتبع ذلك. فالإنجيل يمرُّ في تعليمه على مجيء الرب (٢١: ٢٢)، (١٤: ٣) كما يمرُّ على ذكر اليوم الأخير (٦: ٤٠و٤٤)، ويذكر الدينونة العتيدة (٥: ٢٨) كل هذه يلمسها لمساً رفيقاً

دون أن يركّز عليها أو يجعلها هدفاً خاصاً لتعليمه. بعكس ما جاء في الرسائل، فاستعلان المسيح (٢:٢٨) وحضوره يبرزان كحقائق هامة ومحورية يركّز عليها وينتظر وقوعها تاريخياً وفي العالم. فإنه سيأتي تماماً كما أتى بالجسد: «لأنه قد دخل إلى العالم مُضلّون كثيرون لا يعترفون بيسوع المسيح آتياً (مستقبلاً) في الجسد» (٢يو٧). «والآن أيها الأولاد اثبتوا فيه حتى إذا أُظهر يكون لنا ثقة ولا نخجل منه في مجيئه.» (١يو٢:٢٨)

ج ــ كذلك هناك فارق واضح في موضوع الشفاعة ἱλασμός عند الآب، فهي في الرسالة واضحة ودقيقة دقة كاملة أكثر منها في الإنجيل، وكذلك الإعتراف بالخطايا:
ــ «إن قلنا أنه ليس لنا خطية نضل أنفسنا وليس الحق فينا. إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم.» (١يو١:٨و٩)
ــ «وإن أخطأ أحد فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار، وهو كفّارة ἱλασμός لخطايانا، ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضاً.» (١يو٢:١و٢)

د ــ كذلك في الرسالة الأولى يبرز القديس يوحنا موضوعاً جديداً وهو «**المسحة**» التي ينالها المسيحيون: «وأما أنتم فلكم مسحة من القدوس وتعلمون كل شيء» (١يو٢:٢٠)، «وأما أنتم **فالمسحة التي أخذتموها منه** ثابتة فيكم ولا حاجة بكم إلى أن يعلمكم أحد، بل كما تعلمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء وهي حق وليست كذباً، كما علمتكم تثبتون فيه.» (١يو٢:٢٧)

والقديس يوحنا يذكرها في سفر الرؤيا أيضاً **بصورة عملية** عالية القدر ومجيدة للغاية:
ــ «... ومن يسوع المسيح الشاهد الأمين البِكْر من الأموات ورئيس **ملوك** الأرض (ممسوح) الذي أحبنا وقد غسلنا من خطايانا بدمه **وجعلنا ملوكاً وكهنة** (ممسوحين بالروح القدس) لله أبيه له المجد والسلطان إلى أبد الآبدين آمين.» (رؤ١:٥و٦)

هـ ــ ومعروف في التقليد الكنسي والشرحي أن الرسالة هي من تأليف القديس يوحنا اللاهوتي، أما كلام الإنجيل فهو فوق أنه موحى به من الروح القدس حسب تقليد الكنيسة، فهو أيضاً كلام المسيح منقولاً، وله طابع الأصالة ومأخوذاً على أنه قاعدة أساسية وقضية إلهية مسلّمة بسلطان إلهي.

ولكن الواضح أن القديس يوحنا أخذ كلام المسيح ومعجزاته وصاغها، لتكون صورة حية تشهد بواقعها الإلهي بما يصلح أن يكون إنجيلاً للإيمان يقوم على أساس التقليد الرسولي. وبناء على ذلك نجد القاعدة التاريخية في الإنجيل قد انكسرت في الرسائل ولم يعد لها التوقيع الزمني أو ملابسات

الظروف بل انطلقت التعاليم حرة ومطلقة تصلح لكل تاريخ.

و – كذلك نجد كلام الرسائل مكشوفاً وواضحاً لا يحتاج إلى تأويل. أما كلام الإنجيل فله تيارات تحتية، محمولٌ على الرمز يحتاج إلى شرح وتفسير كما هو واضح من المقارنة الآتية، حيث سيجد القارىء التوازي المدهش بين الإنجيل والرسائل، كما يتضح أن الرسائل كأنها الشرح والتفسير المطابق تماماً وأحياناً الرد أو الحل لسؤال كيف؟

الإنجيل	الرسائل
٣ : ١٦ «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية».	١يو ٤ : ٩ «بهذا أُظهرت محبة الله فينا أن الله أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به».
٨ : ١٢ «أنا هو نور العالم، من يتبعني لا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة».	١يو ١ : ٥–٧ «الله نور وليس فيه ظلمة البتة. إن قلنا أن لنا شركة معه وسلكنا في الظلمة نكذب ولسنا نعمل الحق. ولكن إن سلكنا في النور كما هو في النور فلنا شركة بعضنا مع بعض».
١٥ : ٢٣ «الذي يبغضني يبغض أبي أيضاً».	١يو ٢ : ٢٣ «من ينكر الإبن ليس له الآب أيضاً ومن يعترف بالإبن فله الآب أيضاً».
٣ : ١١ «إننا إنما نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا».	١يو ١ : ٢ «الحياة أُظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا».
٥ : ٣٢–٣٤ «الذي يشهد لي هو آخر وأنا أعلم أن شهادته التي يشهدها لي هي حق. أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحق. وأنا لا أقبل شهادة من إنسان».	١يو ٥ : ٩ «إن كنا نقبل شهادة الناس فشهادة الله أعظم، لأن هذه هي شهادة الله التي قد شهد بها عن ابنه».

٥ : ٢٤ «إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة».

١يو ٣ : ١٤ «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة».

٥ : ٣٨ «وليست لكم كلمته ثابتة فيكم».

١يو ٢ : ١٤ «وكلمة الله ثابتة فيكم».

٦ : ٥٦ «من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه».

١يو ٤ : ١٥ «من اعترف أن يسوع هو ابن الله فالله يثبت فيه وهو في الله».

٨ : ٢٩ «والذي أرسلني هو معي ولم يتركني الآب وحدي لأني في كل حين أفعل ما يرضيه».

١يو ٣ : ٢٢ «ومهما سألنا ننال منه لأننا نحفظ وصاياه ونعمل الأعمال المرضيّة أمامه».

٨ : ٤٤ «ذاك كان قتّالاً للناس من البدء».

١يو ٣ : ٨ «لأن إبليس من البدء يخطىء».

٨ : ٤٦ «من منكم يبكّتني على خطية».

١يو ٣ : ٥ «ليس فيه خطية».

٨ : ٤٧ «الذي من الله يسمع كلام الله، لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله».

١يو ٤ : ٦ «نحن من الله، فمَنْ يعرف الله يسمع لنا، ومن ليس من الله لا يسمع لنا».

١٠ : ١٥ «وأنا أضع نفسي عن الخراف».

١يو ٣ : ١٦ «بهذا قد عرفنا المحبة أن ذاك وضع نفسه لأجلنا».

١٢ : ٣٥ «الذي يسير في الظلام لا يعلم إلى أين يذهب».

١يو ٢ : ١١ «من يبغض أخاه فهو في الظلمة وفي الظلمة يسلك ولا يعلم أين يمضي».

١٣ : ٣٤ «وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضاً، كما أحببتكم أنا تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً».

١يو ٣ : ٢٣ «وهذه هي وصيته أن نؤمن باسم ابنه يسوع المسيح ونحب بعضنا بعضاً كما أعطانا وصية».

١٥ : ١٠ «إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي».	١يو ٤ : ١٦ «ونحن قد عرفنا وصدقنا المحبة التي لله فينا. الله محبة، ومَنْ يثبت في المحبة يثبت في الله والله فيه».
١٥ : ١٨ «إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم».	١يو ٣ : ١٣ «لا تتعجبوا يا إخوتي إن كان العالم يبغضكم».
١٦ : ٢٤ «إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي. اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً».	١يو ١ : ٤ «ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً».
١٦ : ٣٣ «ثقوا أنا قد غلبت العالم».	١يو ٥ : ٤ «هذه هي الغلبة التي تغلب العالم إيماننا».
٢٠ : ٣١ «وأما هذه فقد كُتِبَت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم، إذا آمنتم، حياة باسمه».	١يو ٥ : ١٣ «كتبت هذا إليكم أنتم المؤمنين باسم ابن الله لكي تعلموا أن لكم حياة أبدية ولكي تؤمنوا باسم ابن الله».

كذلك نقدم على التوازي مجمل التعاليم التي قدمها القديس يوحنا في بداية إنجيله وهي من تأليفه في مقابل ما جاء في رسالته الأولى:

الإنجيل	الرسالة
١ : ١ «في البدء كان الكلمة ... وكان الكلمة الله».	١ : ١ «الذي كان من البدء ... من جهة كلمة الحياة».
	١ : ٢ «... ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب».
١ : ٩ «كان النور الحقيقي ... آتياً إلى العالم».	٢ : ٨ «إن الظلمة قد مضت والنور الحقيقي الآن يضيء».

١ : ١٢ «وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله».	٣ : ١و٢ «أنظروا أية محبة أعطانا الآب حتى تُدعى أولاد الله... أيها الأحباء الآن نحن أولاد الله».
١ : ١٢ «... أي المؤمنون باسمه».	٥ : ١٣ «أنتم المؤمنين باسم ابن الله».
١ : ١٣ «الذين وُلِدوا ... من الله».	٥ : ١ «كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد وُلِد من الله».
١ : ١٤ «والكلمة صار جسداً وحل بيننا».	٤ : ٢ «كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله».
١ : ١٤ «ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب».	١ : ١ «الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه».
١ : ١٨ «الله لم يَرَهُ أحد قط».	٤ : ١٢ «الله لم ينظره أحد قط».

هذا التطابق بين رسالة القديس يوحنا الأولى وبين إنجيله، بل وهذا الإنضباط في المعنى البالغ الدقة والصحة، والذي نجده في رسالته التي كتبها مبكراً جداً عن إنجيله، يشهد بلا نزاع أنه كان يحمل كل تعاليم إنجيله بين ضلوعه قبل أن يضع إنجيله. كما يتضح لدى القارىء أننا أمام معلم رسولي عالي القدر والقدرة لم يَحِدْ عن الخط الرسولي في تعليمه أو في إنجيله، بل ارتفع به إلى القمة!!

الفصل الثاني

العلاقة بين إنجيل القديس يوحنا وسفر الرؤيا

يلاحظ القارىء في إنجيل يوحنا ألفاظاً واصطلاحات تُستخدم في الأسفار الرؤيوية، وبالأخص سفر دانيال وكذلك سفر الرؤيا مثل:

١ — اسم «**ابن الإنسان**» واسم «**المسيّا**»، وهما الإسمان المحبوبان اللذان كانا دائماً على لسان المسيح.

٢ — كذلك تعبير «**ملكوت الله**»، و«**ملكوت المسيح**»، ويجمعهما بالنهاية في قوله: «ولكن الآن ليست **مملكتي** من هنا.» (يو١٨: ٣٦)

٣ — كذلك يذكر إنجيل يوحنا «قيامة الأجساد من القبور» (يو٥: ٢٨و١١: ٤٣)، وبعدها يذكر الدينونة (٥: ٢٩) سواء للذين فعلوا الصالحات أو للذين فعلوا السيئات. وهذا التعبير ورد بنفس التعبير في رؤيا دانيال ١٢: ٢٢. ثم يطوِّر مفهوم القيامة ومفهوم الدينونة ويجعلها من أفعال الحاضر الزمني (يو٥: ٢٤و٢٥ و١١: ٢٤—٢٦ و١٢: ٣١)؛ وهذا يوضح أن الخط الرؤيوي يغلب على روح الإنجيل.

٤ — كما يذكر الإنجيل أن «ابن الإنسان» هو الذي سيدين، وهذا تعبير رؤيوي (يو٥: ٢٧).
هذا يمهد الذهن لقبول العلاقة بين كاتب الإنجيل وكاتب سفر الرؤيا.

ويُعتبر سفر الرؤيا من حيث المذهب التعليمي وسيطاً بين الثلاثة الأناجيل الأولى وإنجيل يوحنا، ويكوِّن حلقة اتصال بينهما.

والأفكار التي تضع الخطوط الأساسية في إنجيل يوحنا نجدها واردة بصورة ما في سفر الرؤيا، ولكنها صورة متطورة من تعاليم الرسل في عصرها الأول. وقد نشأت إثر الظروف القاسية التي

دخلت فيها الكنيسة بعد خراب أورشليم والهيكل ووقوع الكنيسة في اضطهاد ظالم من روما، بعد أن أخذت بذنب اليهود دون تفريق.

وبالرغم من ذلك، فإن سفر الرؤيا ينسجم عن قرب مع إنجيل يوحنا في التعاليم وترتيب الأفكار حتى أنه يُظهر سفر الرؤيا كأنه البذرة التي انطلق منها إنجيل يوحنا بطبيعة التقدم الذي تفرضه الحياة الروحية في الكنيسة.

نقاط التلاقي بين سفر الرؤيا وإنجيل القديس يوحنا:

إن نقاط التلاقي بين السفرين هي أكثر كثيراً مما يظن القارىء العادي لأول وهلة. فالفكرة الرئيسية فيهما كليهما واحدة!!

١ — فكل منهما يقدم صورة **للصراع** الهائل بين قوى الخير والصلاح وقوى الشر الهدامة. ولكن في إنجيل يوحنا يُصاغ هذا الصراع على أساس أخلاقي ومُدْرَكات واضحة لاهوتية؛ أما في سفر الرؤيا فيقدم نفس الصراع إنما في مناظر وصور رمزية.

إنجيل يوحنا يصيغ القوى المتصارعة في مسمياتها المطلقة، كالنور والظلمة والحياة والموت والمحبة والبغضة والحرية والعبودية.

أما سفر الرؤيا فيقدمها في أشخاصها: الله والمسيح والملكوت والكنيسة في مقابل الشيطان والوحش والنبي الكذاب.

ولكن الشخصية المركزية في كلا السفرين هي المسيح، الذي حينما يبلغ نصرته النهائية ينتهي التاريخ وتبلغ المناظر أوَجّ كمالها. أما النصرة فتنعقد على شخص المسيح أولاً ثم أعماله. ولكن هذه النصرة الحقيقية تبدو دائماً في هيئة خذلان ظاهري: ألم، ذبح، دم، صليب، موت:

— «هؤلاء هم الذين أتوا من **الضيقة العظيمة**، وقد غسّلوا ثيابهم وبيضوا ثيابهم في دم **الخروف**.» (رؤ٧: ١٤)

— «وهم غلبوه **بدم الخروف** وبكلمة شهادتهم ولم يحبوا حياتهم حتى **الموت**.» (رؤ١٢: ١١)

— «ومن يسوع المسيح الشاهد الأمين البكر من **الأموات** ورئيس ملوك الأرض. الذي أحبنا وقد غسلنا من خطايانا **بدمه** وجعلنا ملوكاً وكهنة لله أبيه.» (رؤ١: ٥و٦)

— «وستنظره كل عين والذين **طعنوه** وينوح عليه جميع قبائل الأرض. نعم آمين.» (رؤ١: ٧)

— «لأنك **ذُبحت** واشتريتنا لله بدمك.» (رؤ٥: ٩)

— «مستحق هو الخروف **المذبوح** أن يأخذ القدرة والغِنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة.» (رؤ٥: ١٢)

وفي كلا السفرين يكون ظهور مجد المسيح واستعلان قدرته وسلطانه من بعد امتحان وأزمة عنيفة ومحاكمة: «فلم يستطع أحد في السماء ولا على الأرض ولا تحت الأرض أن يفتح السفر ولا أن ينظر إليه (سفر خطايا العالم والقضايا المرفوعة من الشيطان ضد خطاة الأرض). فصرت أنا أبكي كثيراً لأنه لم يوجد أحد مستحقاً أن يفتح السفر ويقرأه ولا أن ينظر إليه. فقال لي واحد من الشيوخ: لا تَبْكِ، هوذا قد غَلَبَ (على الصليب) الأسدُ الذي من سبط يهوذا، أصلُ داود، ليفتح السفر ويفكَّ ختومه السبعة.» (رؤ٥: ٣ — ٥)

ويضطلع سفر الرؤيا بشرح تاريخي مثالي يحلل فيه المجرى المأساوي لعدم الإيمان ومقاومة الحق حتى الموت، الذي يوازيه في إنجيل يوحنا مجمل الأصحاح الثامن، والذي ينتهي بالحقيقة السافرة لعدم إيمان اليهود ومقاومتهم وبغضتهم الشنيعة للمسيح حتى تدبير القتل: «**أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا**. ذلك كان قتّالاً للناس من البدء» (يو٨: ٤٤)؛ في مقابل سفر الرؤيا: «**والتنين وقف أمام** المرأة العتيدة أن تلد **حتى يبتلع ولدها** متى وَلَدت. فوَلَدت ابناً ذكراً عتيداً أن يرعى جميع الأمم بعصاً من حديد واختُطِف ولدها إلى الله وإلى عرشه.» (رؤ١٢: ٤ و٥)

كذلك وبوضوح سافر: «أنا أعرف أعمالك وضيقتك وفقرك مع أنك غني. **وتجديف القائلين *إنهم يهود وليسوا يهوداً بل هم مجمع الشيطان*.**» (رؤ٢: ٩)

— «هأنذا أجعل الذين من مجمع الشيطان من القائلين أنهم يهود وليسوا يهوداً بل يكذبون، هأنذا أصيِّرهم يأتون ويسجدون أمام رجليك ويعرفون أني أنا أحببتك.» (رؤ٣: ٩)

كذلك في كلا السفرين يعاني المؤمنون مرارة الإضطهاد والتشريد ولا منقذ، إلا بالتمسك بالإيمان وحفظ شهادة المسيح ووصاياه حتى الموت؛ ففي إنجيل يوحنا نقرأ:

— «سيُخرِجونكم من المجامع، بل تأتي ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله.» (يو١٦: ٢)

— «إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم... إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم.» (يو١٥: ١٨و٢٠)

— «اثبتوا في محبتي. إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي.» (يو١٥: ٩و١٠)

— «الحق الحق أقول لكم إنكم ستبكون وتنوحون والعالم يفرح. أنتم ستحزنون ولكن حزنكم يتحول إلى فرح... فأنتم كذلك عندكم الآن حزن ولكن سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم ولا ينزع أحد فرحكم منكم.» (يو١٦: ٢٠و٢٢)

وفي مقابل ذلك نقرأ في سفر الرؤيا:

— «**فغضب التنين** على المرأة (الكنيسة) **وذهب ليصنع حرباً مع باقي نسلها الذين يحفظون وصايا الله وعندهم شهادة يسوع المسيح.**» (رؤ١٢: ١٧)

— «**هنا صبر القديسين** هنا الذين **يحفظون وصايا الله وإيمان يسوع.**» (رؤ١٤: ١٢)

— «أنا عارف أعمالك وتعبك **وصبرك وأنك لا تقدر أن تحتمل الأشرار وقد جرَّبت القائلين إنهم رسل وليسوا رسلاً فوجدتهم كاذبين وقد احتملت، ولك صبر، وتعبت من أجل اسمي ولم تكِلّ...**

لا تخف البتة مما أنت عتيد **أن تتألم به. هوذا إبليس مزمع أن يلقي بعضاً منكم في السجن لكي تُجرَّبوا ويكون لكم ضيق... كن أميناً إلى الموت**... أنا عارف أعمالك وأين تسكن حيث كرسي الشيطان **وأنت متمسك باسمي ولم تنكر إيماني... من يغلب فسأعطيه أن يأكل من المن المخفي** وأعطيه حصاة بيضاء وعلى الحصاة اسم جديد.» (رؤ٢: ٢و٣و١٠و١٣و١٧)

٢ — وسفر الرؤيا كالإنجيل لا يغفل فيها القديس يوحنا **الخصوصية التي لليهود** الذين ابتدأ منهم الخلاص للعالم كله «لأن الخلاص هو من اليهود» (يو٤: ٢٢). ولكن ينتهي بالخلاص لعمومية العالم كله: «هوذا يأتي مع السحاب وستنظره **كل عين**، والذين طعنوه (اليهود)، وينوح عليه جميع قبائل الأرض» (رؤ١: ٧)؛ «فحدثت أصوات عظيمة في السماء قائلة **قد صارت ممالك العالم لربنا ومسيحه** فسيملك إلى أبد الآبدين» (رؤ١١: ١٥)؛ «وسمعت صوتاً عظيماً قائلاً في السماء **الآن صار خلاص إلهنا** وقدرته وملكه وسلطان مسيحه.» (رؤ١٢: ١٠)

٣ — والملاحظ أن كلاً من إنجيل يوحنا وسفر الرؤيا موثّق ومختوم **بالشهادة**، ليكونا على مستوى العمومية. وهي شهادة متعددة السلطة والسلطان، وعلى رأسها شهادة الرب يسوع نفسه لضمان خلاص كل من يتمسك بالمسيح والإنعتاق من غضب الله وهلاك الموت، الأمر الذي كفَّله كلٌّ من الإنجيل وسفر الرؤيا بسخاء!

فنقرأ في مستهل سفر الرؤيا هكذا:

— «إعلان يسوع المسيح الذي أعطاه إياه الله ليُري عبيده ما لا بد أن يكون عن قريب وبيَّنه مُرسَلاً بيد ملاكه لعبده يوحنا، **الذي شهد بكلمة الله — وبشهادة يسوع المسيح** بكل ما رآه.» (رؤ١: ١و٢)

— «*كنتُ في الجزيرة التي تُدعى بَطْمُس من أجل كلمة الله ومن أجل شهادة يسوع المسيح.*» (رؤ١: ٩)

— «اسجد لله، **فإن شهادة يسوع هي روح النبوّة.**» (رؤ١٩: ١٠)

أما إنجيل يوحنا فروح الشهادة فيه تغطي الإنجيل كله.

٤ — وفي سفر الرؤيا نرى أن التركيز على بشرية المسيح مع الشهادة «شهادة يسوع»، وهذا ما اختصره الإنجيل في الآية: «والكلمة صار جسداً» (يو١: ١٤)، يرتقي أيضاً إلى الإستعلان الصريح لبنوّة المسيح لله: «هذا يقوله ابن الله» (رؤ٢: ١٨ — أنظر أيضاً رؤ٢: ٢٧ و٣: ٥). ثم من إعطائه «المجد والسلطان» للمسيح (رؤ٥: ١٣) على مستوى الله، جنباً إلى جنب مع «الجالس على العرش»، ينكشف شخص المسيح كما جاء في الإنجيل: «أنا والآب واحد.» (يو١٠: ٣٠)

٥ — ومن روح سفر الرؤيا التي تتعلق بتجسد المسيح وظهوره الإنساني، تنبثق العلاقة القوية بين سفر الرؤيا وإنجيل يوحنا والتي تقوم على **تنازل الله وسكناه مع الإنسان**، كدليل مباشر على نجاح المسيح في أداء رسالة الفداء والمصالحة النهائية مع الله.

فكما نقرأ في إنجيل يوحنا: «أجاب يسوع وقال له إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي، **وإليه نأتي وعنده نصنع منزلاً**» (يو١٤: ٢٣)؛ يرد عليه سفر الرؤيا بمطابقة فريدة: «هأنذا واقف على الباب وأقرع (القلوب المُحبّة) إن سمع أحد صوتي وفتح الباب **أدخل إليه وأتعشّى معه وهو معي**» (رؤ٣: ٢٠)؛ «وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً هوذا مسكن الله مع الناس **وهو سيسكن معهم.**» (رؤ٢١: ٣)

مقارنة بين إنجيل القديس يوحنا وسفر الرؤيا:

بقدر ما يوجد بين السفرين من تطابق في الأفكار الهامة التي تحكم مسار المحتوى كله، إلا أنه توجد أيضاً مواضيع مواجهة عامة بين الإثنين نلخصها كالآتي:

١ ــ **موضوع المجيء الثاني:** في سفر الرؤيا نجده هو الموضوع الرئيسي، ولكن في إنجيل يوحنا لا يضمه في الوضع الرئيسي، بل يتلامس معه دون تركيز.

٢ ــ **الدينونة:** بقدر وضوح موضوع المجيء الثاني العلني في سفر الرؤيا، كذلك الدينونة، في حين أن إنجيل يوحنا يجعل من الدينونة عملاً روحياً حيث كل واحد يدين نفسه ويحاكمها على ضوء الإنجيل: «من رذلني ولم يقبل كلامي فله من يدينه. الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير» (يو١٢: ٤٨). هذا بالنسبة لليوم الأخير، ولكن في مواضع أخرى يجعل الدينونة منفصلة عن الزمن: «إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة.» (يو٥: ٢٤)

أما في سفر الرؤيا فتأتي الدينونة واضحة: «ثم رأيت عرشاً عظيماً أبيض والجالس عليه الذي من وجهه هربت الأرض والسماء (انتهاء الزمن) ولم يوجد لهما موضع، ورأيت الأموات صغاراً وكباراً واقفين أمام الله وانفتحت أسفار وانفتح سفر آخر هو سفر الحياة، ودِينَ الأموات مما هو مكتوب في الأسفار بحسب أعمالهم. وسلَّم البحر الأموات الذين فيه وسلَّم الموت والهاوية الأموات الذين فيها ودينوا كل واحد بحسب أعماله.» (رؤ٢٠: ١١ــ١٣)

٣ ــ **منظر الختام** في سفر الرؤيا سماء جديدة وأرض جديدة، أي تجديد العالم؛ في حين نجد إنجيل يوحنا يجعل الختام «**في بيت أبي** منازل كثيرة» (يو١٤: ٢). فلو انتبهنا لقول المسيح على الهيكل «لا تجعلوا **بيت أبي** بيت تجارة...» (يو٢: ١٦)، ثم قوله أيضاً على الهيكل: «**انقضوا هذا الهيكل** وفي ثلاثة أيام أقيمه» (يو٢: ١٩)، ثم التفسير الذي انتهى إليه التلاميذ لما قال المسيح: «**وأما هو** فكان يقول عن **هيكل جسده**» (يو٢: ٢١)، من هذا نستطيع أن نفهم أن «في بيت أبي منازل كثيرة» تعني **الكنيسة السماوية**، أي **جسده**، وحيث «**المنازل**» هي مقام كل عضو في جسد المسيح السري!

٤ ــ **النصرة والتغيير النهائي** في سفر الرؤيا نراهما من الخارج، وبالقوة، وفي مضمون المستقبل الزمني ومصوَّران بتصوير مادي، في حين يقدم إنجيل يوحنا النصرة والتغيير اللذين يمارسهما المؤمن في الداخل بالروح وبتأثير روحي. وهما يتمان في الحاضر، حيث الحاضر الإلهي في المسيح هو استعلان

المستقبل بعينه، أي بمعنى آخر أن الخلاص والتغيير ونوال الحياة الأبدية كل هذا يتم منفصلاً عن الزمن.

٥ — **الصراع بين الخير والشر:** في سفر الرؤيا يمثَّل بمناظر عديدة، كمعركة مهولة بين المسيح وبين اليهودية الكاذبة، وعبادة الأوثان، والسلطة الرومانية الإمبراطورية المضطهِدة، وكل حليف لها أو خليفة، كذلك وبالأكثر مع النبوة الكاذبة. في حين يقدمه إنجيل يوحنا على حقيقته كصدام خفي ولكن دائم بين النور والظلمة، وبين الحق والباطل، وبين البر والخطية.

٦ — **أدوات الشر والباطل:** في سفر الرؤيا وحوش وتنانين ذات مناظر مفزعة وكأنها أرواح متجسدة منظورة. في حين يقدمها الإنجيل في إطار روح التزييف، وتعاليم فاسدة، وشهوات الشر الداخلية.

٧ — **أعمال الله:** يقدمها سفر الرؤيا كحياة ملؤها الأحزان والتعب، تتخللها الإنهزامات والصراخ ليتدخل الله بالنقمة ويعطي النصرة والسلام الدائم. في حين يقدم إنجيل يوحنا أعمال الله كلها متركزة في شخص المسيح، ومتعلقة به أساساً وكلياً، الذي عندما يفتقد قلب أحبائه بحضوره الإلهي يملأ الحياة فرحاً وسروراً ونعيماً في وسط أحزان الدنيا دون أن يتأثروا بها.

٨ — **شكل المسيحية وطبيعتها:**

أ — إذا نظرناها في سفر الرؤيا بمنظار يهودي متنصِّر، أي من خلال جو زمانها، فإننا نرى الكنيسة بالخيال اليهودي الذي كان يشتهي أن يرى ويعيش زمن المسيا. فالكنيسة هي التكميل الضمني لنبوات العهد القديم، وخطوطها العريضة في العالم كمثل إسرائيل الجديدة النموذجية الشاملة للعالم: «وسمعت عدد المختومين مئة وأربعة وأربعين ألفاً مختومين من كل سبط من بني إسرائيل...» (رؤ٧: ٤)

وفيها أورشليم الجديدة، وهيكلها الإلهي، عوض ما خرَّبه الرومان: «مَنْ يغلبْ، فسأجعله عموداً في هيكل إلهي ولا يعود يخرج إلى خارج (الطرد من المجمع)، وأكتب عليه اسم إلهي واسم مدينة إلهي أورشليم الجديدة النازلة من السماء من عند إلهي واسمي الجديد.» (رؤ٣: ١٢)

— «لم أرَ فيها هيكلاً.» (رؤ٢١: ٢٢)

أما العبادة فهي على مستوى الطهارة بالفكر اليهودي: «لأن خارجاً الكلاب (النجاسة) والسحرة والزناة والقتلة وعبدة الأوثان وكل من يحب ويصنع كذباً... ولا تكون لعنة في ما بعد.

وعرش الله والخروف يكون فيها وعبيده يخدمونه.» (رو٢٢: ١٥و٣)

ب ــ فإذا رجعنا إلى إنجيل يوحنا ونظرنا إلى المسيحية فيه بنظرٍ مسيحي صاف أي من خلال رؤية المؤمنين في زمان كتابة الإنجيل (سنة ١٠٠م)، فالمسيحية يُنادَى بها باعتبارها الحق المكمَّل الخالص؛ حيث تظهر اليهودية كعدوٍّ مقاوم لكلمة المسيح في العالم، كذلك تظهر معزولة عن المسيحية تماماً وخارجاً عنها، متعفِّنة، لا يُحسب لها حساب: «أجابوا (اليهود) وقالوا له أبونا هو إبراهيم. قال لهم يسوع... أنتم من أب هو إبليس.» (يو٨: ٣٩و٤٤)

٩ ــ **النظرة إلى الله والتعبير عنه:**

في سفر الرؤيا يُنظر إلى الله بنفس نظرة العهد القديم، فهو «القادر على كل شيء (الكلي القدرة)» (رؤ١: ٨)، «الكائن والذي كان» (رؤ١: ٨ و١١: ١٧)، والذي يتمم دينونة عادلة على كل العالم (رؤ١١: ١٨).

ولكن لا يذكر السفر شيئاً قط عن محبة الله، وإرساله لإبنه، ولكنه يذكر الروح والكنيسة: «الروح والعروس يقولان تعال» (رؤ٢٢: ١٧).

في حين يستعلن إنجيل يوحنا الله في صفاته الجوهرية كآب وابن، ويستعلن عمل الله الآب فيما يخص محبته للعالم الخاطيء، كما يستعلن صلته السرية الدائمة بالعالم وغرضه من وجود العالم وخطة الخلاص العظمى التي أضمَرها الله منذ قبل إنشاء العالم. ويذكر الروح القدس بأسمائه وأعماله المتعددة.

١٠ ــ كما يوجد بين السفرين نقاط اختلاف واضحة في اللغة، سواء في الكلمات أو في الأسلوب. لذلك فالإختلاف بين وجهات النظر تزداد مع اختلاف اللغة.

ويلاحظ أن عدم انتظام الأسلوب في سفر الرؤيا لا يُنسب كثيراً للجهل باللغة، بقدر ما يُنسب إلى عدم التدقيق في اختيار الألفاظ. ويُعزى ذلك للغرائب والمفازع التي رآها القديس يوحنا، وفي نفس الوقت لا ننسى أن الكاتب يكتب بلغة غريبة عليه.

على أنه يمكن اعتبار إمكانية التغيير إلى الأفضل، إذا وضعنا في الحسبان فارق الزمن الطويل منذ بدأ الكاتب يخالط القوم الذين يكتب بلغتهم؛ ونقصد الزمن من كتابة سفر الرؤيا إلى كتابة إنجيل يوحنا، بمعنى أن القديس يوحنا أتقن اللغة اليونانية بعد ما مكث في أفسس ما يزيد على ثلاثين سنة! لأن كتابة سفر الرؤيا تمت بحسب حسابات العلماء بعد خراب أورشليم والهيكل سنة

٧٠م، وإنجيل يوحنا كما علمنا تم حوالي سنة ١٠٠م.

وبالرغم من أن كثيرين من العلماء يقطعون بعدم نسبة سفر الرؤيا للقديس يوحنا بصورة جازمة، يقف بعضٌ من أشهر وألمع العلماء مثل «و. بوسّيت» W. Bousset الذي كتب أعظم تفسير لسفر الرؤيا باللغة الألمانية، وكذلك «ر. هـ. تشارلز» R.H. Charles الذي كتب مجلدين في حلقة I.C.C. للشرح باللغة الإنجليزية ويعتبر أكمل شرح ظهر في هذا الموضوع. وكلا المؤلفين يؤكدان أنه بالرغم من الإختلافات ذات القيمة في الأسلوب والمحتوى التي توحي باختلاف المؤلف في كل من الإنجيل وسفر الرؤيا، إلا أن التشابه بينهما في الجمل والتعاليم تُظهر أن هناك بالقطع علاقة كبيرة بين نفس كاتب الإنجيل وكاتب سفر الرؤيا([1]).

ويقدّم العالم الألماني المشهور «جوهانس ڤايز» نظريته التي تقول إن كتابة سفر الرؤيا والرسائل والإنجيل تمت من وسط حلقة خاصة بنفس الكتّاب في نفس المكان ونفس الزمان تقريباً، ولها نفس التركيب الواحد!

هذه هي باختصار شديد نقاط الإتفاق والإختلاف بين سفر الرؤيا وإنجيل يوحنا. ولكن هذه النقاط في الإختلاف والوفاق يمكن استقراء نتائج لها:

أ — فالإختلافات بين السفرين إنما تُعزَى إلى اختلاف في ظروف كتابة كل منهما. على أنه لا يوجد ثمة تناقض بينهما ما يمس شخصية الكاتب، أي أن الإختلاف ليس بالدرجة التي تنتهي بنا إلى القطع باختلاف شخصية الكاتبين. علماً بأن الكنيسة القبطية تؤمن أن كاتب سفر الرؤيا هو القديس الرسول يوحنا بن زبدي.

ب — بدراسة محتوى السفرين، يتضح أن كتابة سفر الرؤيا أقدم من كتابة إنجيل يوحنا، وهي أقل وضوحاً وأقل ترتيباً سواء في الفكر أو الأسلوب. ولكن موضوع سفر الرؤيا يحمل أفكاراً تقدمية عن زمن كتابة الأناجيل الثلاثة الأولى سواء في أسلوب الشرح أو الرموز الحية.

ومن المؤكد أن سفر الرؤيا كُتب بعد أن ختم القديس بولس الرسول رسائله، بل بعد استشهاده الحزين مع القديس بطرس الرسول.

كما نلاحظ أن سفر الرؤيا قريب من الرسالة إلى العبرانيين ورسالتي بطرس الرسول ورسالة يهوذا، التي فيها لا تزال المسيحية ماسكة بتلابيب العهد القديم.

[1] Howard, W.F., op. cit., p. 14.

وأخيراً، وبينما نجد سفر الرؤيا يلحُّ على سرعة مجيء الرب، كرسالتي بطرس الرسول، وذلك بسبب عنف الإضطهاد والضغط الذي كان واقعاً على الكنيسة آنئذ، نجد أن مجيء الرب في إنجيل يوحنا له معنىً روحي واقعي في الحاضر المُعاش الآن. لهذا فإن إنجيل يوحنا يُعتبر أنه بمثابة الردُّ الروحي على صراخ سفر الرؤيا. فمادة إنجيل يوحنا صَقَلتها السنين، وأضاءت لها الحوادث، فازدادت ثراءً وواقعية روحية بمرور الزمن.

وكان ضياع مركز الديانة اليهودية بتحطيم أورشليم والهيكل وتشريد اليهود، هو البداية الحاسمة المتألقة التي رسَّخت أقدام المسيحية، وسار بها الروح على دروب العالم الواسع يرشد أقدام الرسل أينما ساروا إلى الحق كل الحق حسب الوعد.

وهكذا يقع سفر الرؤيا كحلقة ربط بين الأناجيل الثلاثة وإنجيل يوحنا، فتعاليم سفر الرؤيا عن المسيح وأعماله تُظهر نوع التقدم في الإستعلان الذي سار فيه السفر بعد الأناجيل الثلاثة. ومن الأوصاف الآتية يتضح للقارىء مدى التقدم في التعبير عن صفات المسيح وأعماله:

+ الأسد الغالب من سبط يهوذا، أصل وذُرِّيَّة داود، كوكب الصبح المنير: رؤ٥:٥، رؤ٢٢:١٦.
+ ذُبح، مصلوب، مطعون، قام حيًّا من الأموات: رؤ١١:٨ و٥:٩ و١:٧ و١:٥.
+ غسلنا بدمه من خطايانا، اشترانا بدمه لله: رؤ١:٥ و٥:٩.
+ أعطانا الغلبة بدمه: رؤ١٢:١١.
+ رُفع في مجد وكرامة، وأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة: رؤ٥:١٢.
+ شهادته هي روح النبوة: رؤ١٩:١٠.
+ رئيس كهنة متمنطق على صدره: رؤ١:١٢.
+ «ابن الله»، «كما أخذت أنا أيضاً من عند أبي» رؤ٢:١٨ و٢:٢٧ و٣:٥.
+ ابن الإنسان: رؤ١:١٢.
+ القدوس الحق: رؤ٣:٧.
+ كلمة الله: رؤ١٩:١٣.
+ ملك الملوك ورب الأرباب: رؤ١٧:١٤.
+ الأجناد التي في السماوات يتبعونه (رب الجنود): رؤ١٩:١٤.
+ الألف والياء، البداية والنهاية، الأول والآخر: رؤ١:٨ و١:١٧.
+ قائم مع الله في المجد والكرامة والسلطان: رؤ٥:١٣.

+ صارت له مع الله كل ممالك العالم، وسيملك إلى أبد الآبدين: رؤ١١: ١٥.

وهكذا يلاحظ القارىء أن سفر الرؤيا يعطي المسيح كل ألقاب الله في العهد القديم. وفي الوقت الذي تخلو فيه الثلاثة الأناجيل من أيِّ ذكر للمسيح قبل تجسده، نجد سفر الرؤيا يعطي تلميحات بخصوص وجوده السابق للتجسد، فيصف المسيح:

١ — بالألف والياء، البداية والنهاية، الأول والآخر: ١: ٨ و١: ١٧.

٢ — الكائن والذي كان والذي يأتي، القادر على كل شيء: ١: ٨.

٣ — بداءة خلقة الله (العِلّة الأولى للخلق): ٣: ١٤.

٤ — كلمة الله: ١٩: ١٣.

وهذه هي الإرهاصات الأولى التي وُضعت خطوط إنجيل يوحنا على ضوئها. فالقديس يوحنا سمع بأذنه اسم ابن الله «الكلمة»، فلم يأخذها من غنوسيين أو غيرهم. وهكذا نتحسس بداية معرفة «اللوغُس»، ولكن في غلاف من مفهومات وألقاب العهد القديم الخاصة بالله وحده. فإذا كان رسول ما قد استطاع أن يسمع ويرى «المعلم» الذي كان يتبعه كتلميذ بهذه الأوصاف كلها، ويُزيد عليها أنه رأى القوات السمائية تعطيه الخضوع والولاء والعبادة والسجود وتتبعه، فلا يوجد أية صعوبة في فهم كيف ارتفع هذا الرسول والتلميذ الرائي — دون أن يأخذ الفكر البشري بالعنف بل في هوادة وتؤدة روحية — ليرى الحقيقة في السر الأزلي الذي كان مخفياً، أي: «في البدء كان الكلمة... والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده» !! (يو١: ١و١٤)

وفي الختام، ومن دراسة الأناجيل الثلاثة وبعدها سفر الرؤيا ثم إنجيل يوحنا على التتابع، يظهر لنا بالتمام كيف استطاع الوحي الإلهي أن يرتفع بالفكر البشري تحت الظروف المواتية والمتتالية لكي يصل إلى إعلان ملء مجد المسيح ابن الله، ليس مرة واحدة ولكن خطوة خطوة، مستعيناً بتعاليم الأنبياء: «لأننا لم نتبع خرافات مصنَّعة، إذ عرَّفناكم بقوة ربنا يسوع المسيح ومجيئه، بل قد كنا معاينين عظمته، لأنه أخذ من الله الآب كرامة ومجداً، إذ أقبل عليه صوت كهذا من المجد الأسنى: هذا هو ابني الحبيب الذي أنا سررت به. ونحن سمعنا هذا الصوت مُقْبلاً من السماء، إذ كنا معه في الجبل المقدس. وعندنا الكلمة النبوية وهي أثبتُ التي تفعلون حسناً إنْ انتبهتم إليها كما إلى سراج منير في موضع مظلم، إلى أن ينفجر النهار ويطلع كوكب الصبح في قلوبكم.» (٢بط١: ١٦—١٩)

الفصل الثالث

العلاقة بين إنجيل القديس يوحنا والثلاثة الأناجيل الأخرى

ما هو الإنجيل وكيف نقترب إليه؟

«إنجيل» كلمة ليست عربية بل يونانية صرف: εὐαγγέλιον (إڤانجِليُون)، وهي من مقطعين:

الأول — εὐ يعني سار أو مفرح.

والثاني من كلمة ἀγγελία وتعني خبر أو رسالة أو بشارة. فبادىء ذي بدء ينبغي أن نعلم أننا نتعامل مع إنجيل، أي مع الخبر السار أو البشارة المفرحة. فهو ليس مؤلَّف أدبي أو علمي أو تاريخي، بل رسالة خلاص مبهجة جاء بها المسيح معلناً عن كشف أو استعلان أو انفتاح طريق الخلود والحياة الأبدية وبدء زمان الأُخرويات. «ما أجمل على الجبال قدمي **المبشر المُخبر بالسلام، المبشر بالخير، المُخبر بالخلاص،** εὐαγγελιζόμενος، القائل لصهيون: قد مَلَكَ إلهُك» (إش٥٢: ٧). فالمبشِّر بالسلام وبالخلاص يقول: قد مَلَكَ الإله!

ويسوع المسيح الذي في الأناجيل الثلاثة بَشَّر بإنجيل الله: «وبعدما أُسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل **يكرز ببشارة ملكوت الله، ويقول قد كَمُل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل**» (مر١: ١٤و١٥). فالمسيح الذي بشَّر بإنجيل «**مُلْك الله**»، استُعْلن في النهاية أنه هو هو «**إنجيل الله**» كما يراه ويعلِّم به القديس بولس:

«بولس عبدٌ ليسوع المسيح، المدعوُّ رسولاً المُفرَزُ **لإنجيل الله** الذي سبق فوعد به بأنبيائه في الكتب المقدسة عن ابنه...» (رو١: ١و٢)

وكما تراه الكنيسة وتعيشه، فإنجيلها هو ربنا يسوع المسيح، الألف والياء فيه! فالمناداة بالكلمة الشفهية عن استعلان الخلاص الذي تم في المسيح وبه، التي قالها المسيح عن نفسه، كُتبت بعد

ذلك في كتاب هو الإنجيل، مسجّلاً فيه كل ما قال المسيح وعمل، و بالدرجة الأولى موته وقيامته، حتى يقبله الناس ويؤمنوا به فيخلصوا.

فإذا أقدم العلم والعلماء ليفحصوا «الإنجيل» على مستوى كلماته وتراكيبه وحروفه وأسلوبه الأدبي فقط، دون أن ينتبهوا لمحتواه الروحي الأساسي، يكون العلم والعلماء قد عثروا عثرة بليغة تكاد تكون مميتة في فهم الإنجيليين وقصدهم الذي كتبوا من أجله الأناجيل.

فهل أقدم الإنجيليون على تسجيل أناجيلهم بقصد سرد رواية حياة يسوع الناصري كسفر أخبار أيام وأقوال وأعمال **فقط**؟ هذا ما توهّمه العلماء النقديون، وكان هو الباب الخاطىء الذي دخلوا منه فتاهوا وهم يبحثون عن صحة التواريخ وأوليات الكلام وأواخره، وأشكاله ومصادره، ومعقولية الحوادث وتصنيفها، وإخضاعها للمقابلات بين هذا الإنجيل وذاك.

وهكذا عندما بدأت المقارنات بين الأناجيل على المستوى التاريخي والحرفي واللفظي، ظهر في الحال إنجيل يوحنا أنه مخالف لبقية الأناجيل الثلاثة، فابتدأت تتسلط عليه أضواء النقّاد؛ واصطدموا حتماً، وبالضرورة، بالمفارقات والمتضادات بين إنجيل يوحنا والثلاثة الأناجيل لأنهم سقطوا تحت مقتل الحرف: «الحرف يقتل» (٢كو٣: ٦)، وأما الروح ففلت من بين أيديهم وعقولهم المتصارعة مع الحق الإلهي المختبىء وراء الحرف المكتوب. وهكذا انطمست معالم التركيب الروحي العميق في الإنجيل أمام عقولهم، ليس في إنجيل يوحنا فحسب بل وكل الأناجيل.

تمايز إنجيل يوحنا عن الثلاثة الأناجيل الأخرى:

ليس من العسير على أي قارىء أن يلحظ الفارق في الرواية وإبراز شخصية المسيح، عندما يقرأ الأناجيل الثلاثة، ثم يدخل في قراءة إنجيل يوحنا.

فإنجيل يوحنا يوضّح، بما لا يدعو إلى الشك، أن المسيحية فيه قد بلغت مرحلتها المتقدمة في الفكر، وأن الكنيسة دخلت دوراً حاسماً في التاريخ. فقد انقضى ما يقرب من ٥٠ سنة بين كتابة الأناجيل الثلاثة وكتابة إنجيل يوحنا[1].

هذه النظرة من نحو الأناجيل، وتفوّق إنجيل يوحنا عليها، أمر ثابت في التقليد الآبائي في شرح إنجيل يوحنا. وفي هذا يقول القديس أغسطينوس:

[إن الأربعة الأناجيل، أو بالحري الأربعة الكُتب التي للإنجيل الواحد؛ نرى فيها القديس

---

[1] Leon-Dufour, Xavier, The Gospel & History, p. 41.

يوحنا الرسول، ليس بعدم استحقاق من جهة معرفته الروحية يُمثَّل بالنسر الذي ارتفع بتعاليمه أعلى وأكثر سموًّا من الثلاثة الأناجيل الأخرى. وارتفاعه بتعاليمه هذه (عظاته) رفع قلوبنا بالمثل. لأن الثلاثة الإنجيليين تمشّوا مع الرب على مستوى الأرض كما مع إنسان، أما فيما يختص بلاهوته فلم يتكلموا إلاّ قليلاً. أما هذا الإنجيلي — يوحنا — فقد نأى عن الأرض والتمشي فيها، إذ أرعد علينا من علٍ منذ افتتاح حديثه، وحلّق مرتفعاً ليس فوق الأرض وكل دائرة الكون أرضاً وسماءً؛ بل وفوق جيوش الملائكة وكل طغمات القوات غير المنظورة، حتى أتى إلى مَنْ خلق العالمين.](2)

وبالرغم من أن التقليد الكنسي يؤكد أن القديس يوحنا كان على دراية بالأناجيل الثلاثة وكتب إنجيله على هذا الأساس، إلا أن رأي العلماء المشهورين والمقتدرين في أبحاث الكتاب المقدس ومن دول كثيرة، استقر على أن إنجيل يوحنا مستقلٌ تماماً عن الأناجيل الثلاثة الأخرى، بمعنى أنه لم يأخذ عن إنجيل آخر، وإن كان على دراية حتمية بالتقليد الرسولي الذي استخدمته الأناجيل الأربعة على السواء.

ومن العلماء المعتدّ بهم حديثاً مَنْ قال إن إنجيل يوحنا أخذ من الأناجيل الأخرى، مثل العالم المشهور Barrett C.K. ، وخاصة من إنجيل مرقس، لأن هناك عدة حوادث وأحاديث جاءت بنفس ترتيبها هنا وهناك. ولكن انبرى له العالم Leon Morris (3) سنة ١٩٧١م عميد جامعة ملبورن بأستراليا، وفنّد أقواله وبراهينه وأضْعَفَ من حُججه، ونقد جدوله الذي تعب فيه طويلاً، وأثبت صحة رأي العلماء القائلين باستقلال إنجيل يوحنا تماماً.

ونحن نرى — وبحسب التقليد القبطي الذي يقول أن القديس يوحنا هو كاتب سفر الرؤيا وإنجيله — أن انفراد إنجيل يوحنا عن باقي الأناجيل هو بسبب استلامه أموراً أكثر استعلاناً، خاصة فيما استلمه مباشرة من المسيح في الرؤيا. ومَن يدري ماذا أخذ بعد الرؤيا؟ وكان يجب أن يكون هذا واضحاً ومعلوماً عند الجميع.

ونحن لا نريد أن نقارن أيضاً أو نوفّق بين الأربعة الأناجيل على مستوى الحرف، بل على مستوى الروح العميق.

---

2 St. August., Hom. on Gosp. of St. John, tract. XXXVI.

3 Morris, Leon, The Gosp. accord. to St. John, p. 51.

ملكوت الله في الثلاثة الأناجيل، وما يقابله في إنجيل القديس يوحنا:

يأتي تشبيه ملكوت الله في الثلاثة الأناجيل على شكل أمثلة من **أمور الحياة الأرضية**، فمثلاً يُشبَّه ملكوت السموات بحبة خردل، أو بشبكة أُلقيت في البحر، أو بقمح زُرع وأخذ ينمو... إلخ. ثم ينتهي بنا إلى سؤال محيِّر: وما هو ومَن هو ملكوت الله؟

في إنجيل يوحنا يأتي بنفس التشبيه بعينه، ولكن ليس على «**ملكوت الله**» بل على «**المسيح نفسه**»!! فالمسيح يشبِّه نفسه **بأمور الحياة الأرضية**: «أنا هو الباب»، «أنا هو الطريق»، «أنا هو الكرمة»، أو يشبِّه نفسه **بحبة الحنطة**، التي وقعت لتموت ثم تقوم وتنمو لتأتي بثمر كثير!! (يو١٢: ٢٤). **وواضح هنا أن إنجيل يوحنا يضع المسيح نفسه موضع ملكوت الله**[٤] **وبهذا يشرح ما هو ملكوت الله الذي ركَّزت عليه الثلاثة الأناجيل!!**

وهنا فهمنا أن ملكوت الله هو امتلاك الله للإنسان، ودخول الإنسان في مُلْك الله، في شخص المسيح نفسه!!!

فتشبيه ملكوت الله بحبة خردل أخذت تنمو حتى صارت شجرة تتآوى فيها طيور السماء، هذا التشبيه وحده يحتاج إلى تفسير، فيأتي إنجيل يوحنا ويقول شارحاً ومُضيفاً الإستعلان الخفي في المثل، وهو المسيح نفسه! لأن حبة الخردل أو حبة الحنطة سيَّان، يتحتم أن تقع لتموت أولاً ثم تقوم. وهنا يضع المسيح نفسه موضع هذه الحبَّة، فيُصلب ويموت ويُدفن في الأرض، ويقوم كشجرة كبيرة أو كنيسة، يملك عليها الله، أو كرمة حقيقية ذات أغصان تتآوى فيها طيور السماء أي أبناء الله، يأويهم المسيح في حضنه، أو كأعضاء في جسده يرعاهم ويعولهم!

هكذا يستطيع إنجيل يوحنا أن يعطي التفسير لكافة الأمثال التي جاءت في الثلاثة الأناجيل، على أساس أن التشبيه يقوم بالنسبة لشخص المسيح نفسه — فالمسيح أعطى بحياته وموته وقيامته ما يكفي لشرح كل ما يخصُّ الإنسان في الحاضر والمستقبل. وليس من الصعب بعد أن فكَّ القديس يوحنا في إنجيله الرمز في المثل، أن يعود القارىء ليشرح لنفسه كل أمثال المسيح.

بهذا يُعتبر إنجيل يوحنا — بسبب قوة الإستعلان الذاتي للمسيح فيه — شارحاً ومكمِّلاً لكل ما جاء في الثلاثة الأناجيل مكوِّناً منها وحدة واحدة أو إنجيلاً واحداً. حتى إنه بدون إنجيل يوحنا، تبدو الثلاثة الأناجيل كسؤال يحتاج إلى حل!

---

(٤) وهذا يتفق تماماً مع سمة إنجيل يوحنا في تسليط الأضواء على **شخص المسيح نفسه**، في كل ما يتضمنه هذا الإنجيل من أحاديث وتعاليم ورموز ومعجزات. وقد سبق الإشارة إلى ذلك.

المسيح في الأربعة الأناجيل:

الثلاثة الأناجيل الأولى أبرزت المسيح **في صورته البشرية**، أي أنها ركّزت على تأنُس الإله، وطبعاً لم تُغفل لاهوته إذ هو مُعلَن في معجزاته وقيامته.

فجاء إنجيل يوحنا وأبرز المسيح في صورته الإلهية، أي أنه ركّز على لاهوت المسيح ولم يُغفِل الجسد أيضاً إذ أعلنه واضحاً: «والكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا» (يو١: ١٤)!!

ومن هذا الجدول البسيط الآتي لبعض المواقف يتبين، إلى حدٍّ ما، هذه المقابلة المكمّلة لبعضها:

الثلاثة الأناجيل [التركيز على الصورة البشرية]	إنجيل يوحنا [التركيز على اللاهوت]
مت ١: ١ و١: ١٨ **,,ميلاد،، المسيح الجسدي:** + «**كتاب ميلاد** يسوع المسيح **ابن داود**...». + «أما **ولادة** يسوع المسيح فكانت هكذا...».	يو ١: ١و١٤ **الميلاد الأزلي أو البنوة الأزلية على الأصح:** «**في البدء كان الكلمة** والكلمة كان عند الله **وكان الكلمة الله**» ... «**والكلمة صار** جسداً».
لو ٢: ٥٢ «كان ,,**يتقدم**،، **في الحكمة والقامة والنعمة** عند الله والناس».	يو ١: ١٤و١٦ «وحلّ بيننا ورأينا **مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً**، ... **ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا**. ونعمة فوق نعمة».
مت ٩: ٢٧ **معجزة الأعميين:** «تبعه أعميان يصرخان ويقولان: ارحمنا يا ابن **داود**».	يو ٩: ٧و٣٥–٣٨ **معجزة المولود أعمى:** «فمضى واغتسل وأتى بصيراً... وقال له أتؤمن «**بابن الله**»... من هو يا سيد لأومن به؟... قد رأيته والذي يتكلم معك هو هو. فقال أومن يا سيد، **وسجد له**».

مت ١٢ : ١ — ٨

كسر السبت والتشبيه بداود:

«**فجاع تلاميذه** وابتدأوا يقطفون سنابل **ويأكلون.** فالفريسيون ... قالوا ... لا يحل فعله في السبت.

فقال لهم أما قرأتم **ما فعله داود...**

فإن ابن **الإنسان** هو رب السبت أيضاً».

يو ٥ : ١٦ — ١٨

كسر السبت والتشبيه بالله الآب نفسه:

«كان اليهود يطردون يسوع ويطلبون أن يقتلوه لأنه عمل هذا في سبت.

فأجابهم يسوع **أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل ...**

... لم ينقض السبت فقط بل قال أيضاً **أن الله أبوه معادلاً نفسه بالله**».

مر ٦ : ١ ؛ مت ١٣ : ٥٤

وطن المسيح الأرضي:

«وخرج من هناك **وجاء إلى وطنه** وتبعه تلاميذه».

«ولما جاء إلى **وطنه** كان يعلمهم في مجامعهم».

يو ٨ : ٢٣ و١ : ١٨ و١٦ : ٢٨ و٣ : ١٣

وطن المسيح السماوي:

«أنتم من أسفل أما **أنا فمن فوق**؛ أنتم من هذا العالم **أما أنا فلست من هذا العالم**».

«**الإبن الوحيد** الذي هو **في حضن الآب** هو خبَّر».

«**خرجتُ من عند الآب**، وقد أتيتُ إلى العالم، وأيضاً أترك العالم **وأذهب إلى الآب**».

«ليس أحدٌ صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ***ابن الإنسان الذي هو في السماء***».

مت ٢٦ : ٣٦ — ٣٩

في مواجهة الصليب، مواجهة الجسد للموت:

«اجلسوا ههنا حتى أمضي **وأُصلي** هناك... وابتدأ **يحزن ويكتئب.** فقال لهم نفسي حزينة جداً حتى الموت... **اسهروا معي... وخرَّ على وجهه** وكان يصلي...».

يو ١٧ : ١ و٤ و٥ و١٨ : ٤

في مواجهة الصليب، مواجهة اللاهوت للموت:

«أيها الآب قد أتت الساعة. **مجّد ابنك ليمجّدك ابنك أيضاً**».

«**أنا مجدتك على الأرض**. العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته. **والآن مجّدني أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم**».

«**وخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه**».

لو ٢٣ : ٤ و١١
أمام بيلاطس: مجرد إنسان محتقر:
«**إني لا أجد علة في هذا الإنسان**».
«**فاحتقره هيرودس**».

يو ١٨ : ٣٣—٣٧
أمام بيلاطس: ملك ومُلكُه ليس من هذا العالم:
«ودعا يسوعَ وقال له **أنت ملك اليهود؟**...
أجاب يسوع **مملكتي ليست من هذا العالم!**...
فقال له بيلاطس **أفأنت إذن ملك؟** ... **أنت تقول** أني ملك. **لهذا قد وُلدتُ أنا** ولهذا قد أتيتُ إلى العالم **لأشهد للحق**.

لو ٢٤ : ٤١ و٤٣ و٥١
بعد القيامة: تحقيق صحة الجسد:
«قال لهم أعندكم ههنا طعام؟... **فأخذ وأكل قدامهم**».
«**وأصعد إلى السماء**».

يو ٢٠ : ٢٨ و١٧
بعد القيامة: تحقيق لاهوت المسيح:
«أجاب توما وقال له: **ربي وإلهي...**».
«**إني أصعد إلى أبي**».

من هذه المقابلة، يتضح بأجلى بيان مقدار تركيز إنجيل يوحنا على استعلان لاهوت المسيح في جميع المواقف وعلى كافة المستويات، وكأنه يشرح الأناجيل الثلاثة قولاً على قول؛ هم يشهدون على تأنُّس الإله وكيف سلك كواحد من بني البشر، ويوحنا يشهد للاهوته الفائق كإله يسكن بين بني البشر(*). لهذا لم يكن في منهج القديس يوحنا أن يوقِّع حياة المسيح تاريخياً على دقائق الزمان وثوانيه، لأنه كان مشغولاً باستعلان الأزلية فيما يخص المسيح في لاهوته وفي علوِّ مجده وأسراره، وبالنهاية انتهى إلى ما يقصده: «**وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله**»!! (يو٢٠: ٣١)

ولكي يأخذ القارىء فكرة خاطفة عن رؤية إنجيل يوحنا للمسيح اسمعه وهو يقول: «خرجتُ من عند الآب، وقد أتيتُ إلى العالم، وأيضاً أتركُ العالم وأذهب إلى الآب»!! (يو١٦: ٢٨)

فبالرغم من الخروج والمجيء والذهاب على مستوى الحركة الزمنية والمكانية، التي هي قصة

(*) ويعلق على هذا العالم K.E. Schäfer بقلم شناكنبرج: [نحن نرى المسيح في إنجيل يوحنا من خلال شفافية واضحة، ... مثل الثلاثة الأناجيل أيضاً. والفكرة التي أعمت كثيرين من العلماء أن المسيح ظهر كإله فقط في إنجيل يوحنا وكإنسان فقط في الأناجيل الأخرى قد انتهت تماماً اليوم. وقد تأكدنا مرة أخرى أن مسيح الأناجيل الثلاثة حتى وفي إنجيل القديس مرقس هو أيضاً شخصية إلهية.] Cited by Schnack. op. cit. p. 14 n. 14.

الأناجيل الثلاثة المتحركة داخل إطار الزمن أي التاريخ، يبقى المسيح كما هو في إنجيل يوحنا: «الإبن الوحيد الذي هو في حضن الآب» (يو١: ١٨)، «ابن الإنسان الذي هو في السماء» (يو٣: ١٣). وكأنما يتمجد الزمان إلى لحظة، ويتلاشى المكان من الرؤيا العينية، ليُستعلن المسيح ومكانته فوق الزمان والمكان — وبلغة سفر الرؤيا: «**الكائن**، والذي **كان**، والذي **يأتي**» (رؤ١: ٨)؛ «**والحي**، وكنتُ ميتاً، وها **أنا حي** إلى أبد الآبدين.» (رؤ١: ١٨)

وهكذا نجد في الأناجيل الأربعة صورة للمسيح صحيحة متكاملة تماماً، ومنْ الأربعة الأناجيل يتكون منهج اللاهوت الكامل الذي دخلت فيه الكنيسة وعبرت به ثلاثة مجامع مهيبة وثلاثة قرون طويلة مع جهاد الإيمان الدامي، خرجت بعدها باستعلان وحدة الناسوت واللاهوت فصارت الكنيسة بلاهوتها التوحيدي ضامنة وحدة الأناجيل الأربعة، وصارت الأناجيل الأربعة ضامنة لكيان الكنيسة كمصدر لحياتها وبقائها.

ومن هنا وبالتالي، نرى التقليد الكنسي حارساً لصحة العقيدة ووحدة الأناجيل. فقد تسلمت الكنيسة القبطية من آباء الكنيسة العظام من بدء القديس اكليمندس الإسكندري (١٥٠ — ٢١٥م)، وهو تلميذ بنتينوس مدير المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية وقد خلفه عليها سنة ١٩٠م، تسلمتْ منه هذا التسجيل الهام الذي وصلنا عن طريق كتاب: «تاريخ الكنيسة ليوسابيوس القيصري»:

[وفي ذلك الوقت كان يوحنا الرسول والإنجيلي الذي كان يسوع يحبه، لا يزال حيًّا في آسيا يدير كنائس ذلك الإقليم، إذ كان قد عاد من منفاه في الجزيرة بعد موت دوميتيان.

واكليمندس في كتابه المعنون: «كيف يتسنى للغني أن يخلص» يحدد الوقت (الذي عاد فيه يوحنا من منفاه) قائلاً: «لقد عاد من جزيرة بَطْمُس إلى أفسس بعد موت الطاغية» (أي دوميتيان سنة ٩٨م).](٦)

[وأيضاً يقدِّم اكليمندس تقليد الآباء الأولين عن ترتيب الأناجيل على الوجه التالي فيقول... وآخر الكل لما رأى يوحنا أن المظهر البشري τὰ σωματικόν قد استُوفي في الأناجيل (الثلاثة)، لذلك ألَّف إنجيله الروحي πνευματικόν وذلك برجاء من أحبائه وباستنارة الروح القدس.](٧)

---

6 Euseb. E.H. III, 23,1,5,6.

7 Ibid. VI, 14,5-7.

باعتبار أن التلاميذ عبيد الرب وهو السيد الذي أرسلهم والذي غسل أرجلهم، ليكون هذا طقساً أبدياً للمرسلين، لا كبير فيهم ولا صغير. بل الكبير والسيد هو العبد والخادم.

والعجيب أن التقليد الذي يقدمه إنجيل لوقا ربط إتضاع الخدمة بعمل الإرسالية أيضاً؛ مما يوضح بلا شك أن المحور الأساسي الذي كان يقوم عليه تعليم الرب من جهة غسل الأرجل، كطقس إتضاع الخدام والمرسَلين، مربوط أصلاً بالإرسالية.

٧ — يهوذا وليلة القبض:

لوقا ٢٢ : ٣ :	«**فدخل الشيطان في يهوذا** الذي يدعى الإسخريوطي وهو من جملة الإثني عشر».
يوحنا ١٣ : ٢ :	«فحين كان العشاء وقد **ألقى الشيطان في قلب يهوذا** سمعان الإسخريوطي أن يسلِّمه».
لوقا ٢٢ : ٥٣ :	«لكن هذه ساعتكم **وسلطان الظلمة**».
يوحنا ١٣ : ٣٠ :	«فذاك لما أخذ اللقمة خرج للوقت وكان **ليلاً**».
يوحنا ١٩ : ١١ :	«لم يكن لك عليَّ **سلطان** البتة».
يوحنا ٩ : ٤ :	«يأتي **ليلٌ** حين لا يستطيع أحد أن يعمل...» (انتهاء عمل المسيح بظهور سلطان الظلمة).
يوحنا ١١ : ١٠ :	«إن كان أحد يمشي **في الليل** يعثر لأن النور ليس فيه» (سلطان الظلمة في غياب النور).
يوحنا ١٢ : ٣٥ :	«فسيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم **الظلام**» (عدم الإيمان بالنور دخول في الظلمة).
لوقا ١٢ : ٣٩ :	«اعلموا هذا أنه لو عرف **ربُّ البيت في أية ساعة يأتي السارق لسهر...**»
يوحنا ١٨ : ٢و٤ :	«وكان يهوذا **مسلِّمه** (اللص الذي جاء لينقب دار المحبة) **يعرف الموضع...**»
	«فخرج **يسوع وهو عالم** بكل ما يأتي عليه (رب البيت الذي يعرف في أية ساعة سيأتي السارق...)».

٨ — إنكار بطرس: إنكار بطرس لثاني مرة ولثالث مرة ليس أمام جارية، كما جاء في إنجيل مرقس وإنجيل متى. وليس جزافاً أن يتفق إنجيل لوقا وإنجيل يوحنا أن الإنكار الثاني والثالث كانا أمام رجل آخر وليس جارية.

يوحنا فكرز قبل مجيئه بمعمودية التوبة لجميع شعب إسرائيل. ولما صار يوحنا يكمّل سَعْيَه جعل يقول مَنْ تظنون أني أنا؟ لست أنا إياه. لكن هوذا يأتي بعدي الذي لست مستحقاً أن أحلّ حذاء قدميه. أيها الرجال الإخوة بني جنس إبراهيم والذين بينكم يتّقون الله، إليكم أُرسلت كلمة هذا الخلاص. لأن الساكنين في أورشليم ورؤساءهم لم يعرفوا هذا. وأقوال الأنبياء التي تُقرأ كل سبت تمموها إذ حكموا عليه. ومع أنهم لم يجدوا علة واحدة للموت طلبوا من بيلاطس أن يُقتل. ولما تمموا كلّ ما كُتب عنه أنزلوه عن الخشبة ووضعوه في قبر. ولكن الله أقامه من الأموات. وظهر أياماً كثيرة للذين صعدوا معه من الجليل إلى أورشليم الذين هم شهوده عند الشعب. ونحن نبشركم بالموعد الذي صار لآبائنا».

ب — الأناجيل اهتمت بتاريخ المسيح قبل تاريخ ميلاده. فالقديس متى والقديس لوقا اهتما بذكر النسل الذي انحدر منه. فالأول أوصله إلى إبراهيم أب الآباء لأنه كتب لليهود، والثاني أوصله إلى الله لأنه كتب للأمم أي كل العالم.

والقديس يوحنا تتبع ما قبل التاريخ، ميلاده في السجلات السماوية عينها. وهكذا اشتركت الأناجيل في تسليط الضوء على ما قبل الميلاد أي التجسد، كلٌّ من منظار رؤياه.

ج — المسار التاريخي المحقّق والذي له القيمة الذاتية العظمى في الأناجيل الأربعة هو خط سير المسيح في كرازته من **الجليل إلى أورشليم**، الذي يقدمه كل إنجيل من زاوية لاهوتية معينة تعطي له الصبغة التقليدية الحقيقية التي تقوم عليها رواية **الإنجيل**. هذا المسار عينه يقدمه إنجيل يوحنا مع تركيز شديد حسب وجهة نظر لاهوتية غاية في الحكمة وعمق المعنى والأصالة، إذ يوضح في هذا المسار المرات العديدة التي صعد فيها إلى أورشليم لحضور كل الأعياد الرسمية، التي إذا توقعت على الزمن أشارت إلى ثلاث سنوات كاملة في الخدمة، وكانت هي الحَكَم الأعلى لحصر طول خدمة المسيح على الأرض. كما أوضحت، من جهة أخرى، القيمة الإلهية لبروز خدمة المسيح في أورشليم والهيكل التي سبق أن تركزت عليها كل النبوات بتكرار لا يمل.

د — طُبُوغرافية الأناجيل الأربعة موزعة بالتساوي على جميعها ما عدا إنجيل يوحنا، إذ يقدم فوق التقليد الذي سارت عليه الثلاثة الأناجيل مواقع جديدة لمدن وقرى ومواضع وأسماء في فلسطين ذات أصالة وعراقة، حقق مصداقية أسمائها ومواقعها بكل دقة علماءُ الآثار والبرديات الحديثة، مما يشير إلى تقليد عريق ممتد قبل وبعد ما سجله الثلاثة الأناجيل. وهذا بحد ذاته أضاف إلى «الإنجيل»، ككلٍّ، مساحة جديدة لمعرفةٍ أكثر وأدق تشمل التاريخ والجغرافيا وإضافات لحوادث وأعمال دخلت في حوزة الإنجيل ككل. ونلخصها في الآتي:

١ — بيت عَبْرَة عبر الأردن حيث كان المعمدان يعمد (١: ٢٨)، (١٠: ٤٠).

٢ — بيت صيدا باعتبارها الجديد أنها وطن بطرس وأندراوس وفيلبس (١: ٤٤).

٣ — قانا الجليل حيث صنع الرب المعجزة الأولى (٢: ١—١١)، كذلك معجزة شفاء خادم الملك (٤: ٤٦—٥٤)، وباعتبارها وطن نثنائيل (٢١: ٢).

٤ — عين نون بقرب ساليم (٣: ٢٣)، وهو موضع آخر من المواضع التي كان يعمد فيها المعمدان.

٥ — بئر يعقوب في السامرة، وكذلك سوخار (٤: ٥و١١و٣٩).

٦ — بركة بيت حسدا والخمسة الأروقة في أورشليم (٥: ٢).

٧ — مدينة طبرية على بحيرة جنيسارت (٦: ١و٢٣ و٢١: ١).

٨ — بركة سلوام في أورشليم (٩: ٧و١١).

٩ — أفرايم في برية (١١: ٥٤).

١٠ — جباثا أي الرصيف بقرب البريتوريم (١٩: ١٧).

١١ — قبر المسيح في بستان (١٩: ٤١ و٢٠: ١٥).

هـ — أضاف إنجيل يوحنا إلى خدمة المسيح في الثلاثة الأناجيل جزءاً هاماً للغاية لم يُذكر في الثلاثة الأناجيل، وهي خدمته المبكرة في اليهودية قبل ظهوره في الجليل، حيث يذكر فيها حوادث دقيقة غاية في الأهمية:

١ — البعثة الرسمية التي أرسلتها السلطات الدينية من أورشليم لإستجواب يوحنا المعمدان (يو١: ١٩—٢٨).

٢ — وصف يوحنا المعمدان لشخصه ورسالته وشهادته للمسيح (١: ٢٩—٣٤).

٣ — انضمام التلاميذ الأوائل للمسيح الذين انتقلوا من مدرسة يوحنا المعمدان ليلتحقوا بالمسيح، وذلك في (١: ٣٥—٥١).

٤ — ذكر المعجزة الأولى في عرس قانا الجليل وإظهار مجده (٢: ١—١١).

٥ — تطهير الهيكل في أورشليم في بداية خدمته (٢: ١٣—٢٢).

٦ — الحديث مع نيقوديموس وتوضيح معنى المعمودية بالماء والروح ولزومها الحتمي (٣: ١—١١).

٧ — ممارسة التلاميذ لعمل العماد في اليهودية (٣: ٢٢—٣٠).

٨ — العودة إلى الجليل عبوراً بالسامرة (٤: ١—٤٢).

٩ — المعجزة الثانية في قانا الجليل (٤: ٤٦—٥٤).

وهذه الأعمال كلها كانت تهدف إلى توضيح أسس الإيمان واستعلان المسيح بالكلمة والآية.

و – خطاب الوداع بعد العشاء بحجمه المطوّل الذي يشمل أسس العلاقات الوطيدة والحميمة مع أولاده ومحبيه، الذين أحبهم إلى المنتهى؛ حيث تتركز فيه كل الوصايا والنصائح التي جاءت متفرقة في الأناجيل الأخرى. ويلاحظ أن مادة حديث الوداع في إنجيل يوحنا تأتي روحية أخروية مطروحة للإيمان والممارسة، مع وعد أكيد بإرسال الروح القدس، وهي تقابل في المكان من رواية الإنجيل عامة حديث المسيح الخاص لتلاميذه في الثلاثة الأناجيل الأخرى عن علامات الأزمنة الأخيرة (الأخرويات) في صورتها الزمنية الأرضية وتكوين صورة لمجتمع التلاميذ بعد انطلاق الرب.

ز – صلاة المسيح بنبرة رئيس كهنة أعظم يتشفع وكأنه قائم في الأقداس العليا بهيئته الملكية؛ وهي مزدحمة بصور لاهوتية للعلائق التي تربط الآب بالإبن وبالكنيسة.

ح – تحويل خط المعجزات في الثلاثة الأناجيل من الصورة الإعجازية، كحوادث خارقة للعادة يُستدلُّ منها ضمناً أن أصبع الله فيها، إلى آيات في إنجيل يوحنا تشير بالتعليم الذي يرافقها إلى شخص المسيح لإستعلان لاهوته وإرساليته مباشرة. فالهدف واحد ولكن عرض المعجزات وشرحها يختلف. والإختلاف ينتهي إلى ائتلاف في النهاية لخدمة معنى الإنجيل.

ط – أخيراً، الأسرار التي حددتها الأناجيل بصورتها الليتورجية العملية المصوَّرة بالحركة أخذها إنجيل يوحنا كما هي دون الناحية العملية، وشرحها على المستوى اللاهوتي.

التقابل بين إنجيل القديس يوحنا،
وكلٌّ من إنجيل القديس مرقس وإنجيل القديس لوقا:

أولاً: التقابل بين إنجيل القديس يوحنا وإنجيل القديس مرقس:[10]

أ ــ التقابل في المواضيع والتحركات:

إنجيل القديس يوحنا	إنجيل القديس مرقس
عمل المعمدان وشهادته: ١:١٩ــ٣٦	١ : ٤ــ٨
مغادرة اليهودية والذهاب إلى الجليل: ٤ــ٣	١ : ١٤
إطعام الجموع: ٦:١ــ١٣	٦ : ٣٤ــ٤٤
السير على الماء: ٦:١٦ــ٢١	٦ : ٤٥ــ٥٢
إعتراف بطرس: ٦:٦٨و٦٩	٨ : ٢٩
مغادرة الجليل نحو أورشليم: ٧:١٠ــ١٤	٩ : ٣٠ و١٠:١و٣٢و٤٦
دخول أورشليم والدهن بالطيب: ١٢:١٢ــ١٥ و١٢:١ــ٨	١١ : ١ــ١٠ و١٤:٣ــ٩
العشاء الأخير والتنبُّؤ بالتسليم: ١٣:١ و١٧:٢٦	١٤ : ١٧ــ٢٦
القبض: ١٨:١ــ١١	١٤ : ٤٣ــ٥٢
الآلام والقيامة: ١٨:١٢ــ٢٠:٢٩	١٤ : ٥٣ــ١٦:٨

ب ــ التقابل في الألفاظ التي باليونانية بصورة حرفية:

١:٢٧: «هو الذي يأتي بعدي الذي صار قدامي الذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه».	١:٧ «وكان يكرز قائلاً: يأتي بعدي من هو أقوى مني الذي لست أهلاً أن أنحني وأحل سيور حذائه».

[10] Barrett, C.K., The Gospel Acc. to St. John, pp. 34,35,36.

١: ٢٦و٣٢و٣٣و٣٤:
«أنا أعمد بماء».
«رأيت الروح نازلاً مثل حمامة من السماء فاستقر عليه».
«فهذا هو الذي يعمدكم بالروح القدس».
«وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله».

١: ٨و١٠و١١:
«أنا عمدتكم بالماء وأما هو فسيعمدكم بالروح القدس».
«وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السموات قد انشقت والروح مثل حمامة نازلاً عليه.
وكان صوت من السموات: أنت ابني الحبيب الذي سررت به».

٦: ٧و٩و١٠و١٣:
«أجابه فيلبس: لا يكفيهم خبز **بمئتي دينار** ليأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً».
«هنا غلام معه **خمسة أرغفة شعير وسمكتان**».
«إجعلوا الناس يتكئون وكان في المكان **عشب كثير**».
«فجمعوا وملأوا **اثنتي عشر قفة من الكسر** من خمسة أرغفة الشعير التي فضلت عن الآكلين».

٦: ٣٧و٣٨و٣٩و٤٣و٤٤:
«أعطوهم أنتم ليأكلوا فقالوا له أنمضي ونبتاع خبزاً **بمئتي دينار** ونعطيهم ليأكلوا».
«كم رغيفاً عندكم. اذهبوا وانظروا ولما علموا قالوا **خمسة وسمكتان**».
«فأمرهم أن يجعلوا الجمع يتكئون رفاقاً رفاقاً **على العشب الأخضر**».
«ثم رفعوا **من الكسر اثنتي عشر قفة** مملوءة ومن السمك. وكان الذين أكلوا من الأرغفة نحو خمسة آلاف رجل».

٦: ٢٠:
«فقال لهم: **أنا هو لا تخافوا**».

٦: ٥٠:
«فللوقت كلمهم وقال لهم: ثقوا. **أنا هو لا تخافوا**».

٦: ٦٨و٦٩:
«فأجابه سمعان بطرس: ... ونحن قد آمنا وعرفنا أنك **أنت المسيح** ابن الله الحي».

٨: ٢٩:
«وأنتم من تقولون إني أنا؟
فأجاب بطرس وقال له: **أنت المسيح**».

:١٣:١٢
«فأخذوا سعوف النخل وخرجوا للقائه وكانوا يصرخون: أوصنا مبارك الآتي باسم الرب ملك إسرائيل».

:٩:١١
«والذين تقدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون قائلين أوصنًا مبارك الآتي باسم الرب».

:٣:١٢
«فأخذت مريم منا من طيب ناردين خالص كثير الثمن، ودهنت قدمي يسوع، ومسحت قدميه بشعرها».

:٣:١٤
«وفيا هو في بيت عنيا في بيت سمعان الأبرص وهو متكىء، جاءت امرأة معها قارورة طيب ناردين خالص كثير الثمن فكسرت القارورة وسكبته على رأسه».

:٥:١٢
«لماذا لم يُبَعْ هذا الطيب بثلاثمائة دينار ويُعْطَ للفقراء».

:٥:١٤
«لأنه كان يمكن أن يباع هذا بأكثر من ثلثمائة دينار ويعطى للفقراء».

:٨:١٢
«لأن الفقراء معكم في كل حين وأما أنا فلست معكم في كل حين».

:٧:١٤
«لأن الفقراء معكم في كل حين ومتى أردتم تقدرون أن تعملوا بهم خيراً وأما أنا فلست معكم في كل حين».

:٢١:١٣
«ولما قال يسوع هذا اضطرب بالروح وشهد وقال: الحق الحق أقول لكم أن واحداً منكم سيسلمني».

:١٨:١٤
«الحق أقول لكم أن واحداً منكم يسلمني».

:٣٨:١٣
«الحق الحق أقول لك لا يصيح الديك حتى تنكرني ثلاث مرات».

:٣٠:١٤
«الحق أقول لك إنك اليوم في هذه الليلة قبل أن يصيح الديك مرتين تنكرني ثلاث مرات».

:١٨: ١٠	:١٤: ٤٧
«ثم أن سمعان بطرس كان معه سيف **فاستله** وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى. وكان اسم العبد ملخس».	«فاستل واحد من الحاضرين **السيف وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه**».

:١٩: ١٩	:١٥: ٢٦
«وكتب بيلاطس **عنواناً** ووضعه على الصليب وكان مكتوباً يسوع الناصري **ملك اليهود**».	«**وكان عنوان علته مكتوباً ملك اليهود**».

وتعليق العالم شناكنبرج على هذا التوافق في المواضيع والمواضع، وفي الحوادث والأحاديث في كل من إنجيل القديس مرقس والقديس يوحنا، وأيضاً في التشابه الحرفي واللفظي في الآيات، يقول إنه يُحتَمَل جداً أن يكون القديس يوحنا قد اطّلع مباشرة على أقوال مختصرة من إنجيل مرقس وأعاد صياغة الكلام، أو ربما يكون قد بَلَغه مجمل التقليد الذي ينسب للقديس مرقس بواسطة السماع فقط، أو ربما يكون هناك مصدر واحد مختصر أخذ منه الجميع، كلٌّ بقدر وعيه ولغته وأسلوبه، مما أنشأ بعض الإختلافات. ولكننا نظلم النصوص إذا قلنا إن القديس يوحنا كان عنده النص الحرفي لإنجيل مرقس.[11]

ثانياً: التقابل بين إنجيل يوحنا وإنجيل لوقا:

إن الصلة الوثيقة بين الإنجيلين تدعونا هنا لمزيد من الإهتمام أيضاً.

١ — السؤال الذي كان قد حيَّر الشعب في البداية: **هل يوحنا المعمدان هو المسيح؟**

لوقا ٣: ١٥: «وإذ كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا **لعله المسيح؟**»

يو ١: ١٩و٢٠: «وهذه هي شهادة يوحنا، حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت. فاعترف ولم ينكر وأقرَّ **إني لست أنا المسيح**».

٢ — **صيد السمك الوفير:** *حيث يذكر لوقا وحده هذه الحادثة، ولكن في بدء الخدمة:*

لوقا ٥: ١—١١: «يا معلم **قد تعبنا الليل كله ولم نأخذ شيئاً ولكن على كلمتك ألقي الشبكة**، ولما فعلوا ذلك **أمسكوا سمكاً كثيراً جداً فصارت شبكتهم تتخرق**».

---

11 Schnackenburg, op. cit., p. 29,30.

يوحنا ٢١: ١–١٩: «**وفي تلك الليلة لم يمسكوا شيئاً**. ولما كان الصبح وقف يسوع على الشاطئ... **فقال لهم: ألقوا الشبكة** إلى جانب السفينة الأيمن، فتجدوا. فألقوا، **ولم يعودوا يقدرون أن يجذبوها من كثرة السمك**».

٣ – **دهان الطيب**: في إنجيلي مرقس ومتى يوصف الدهان أنه للرأس، ولكن إنجيل لوقا يتفق هنا مع إنجيل يوحنا في نفس التقليد بالنسبة لدهن الرجلين:

لوقا ٧: ٣٦–٥٠: «وإذا امرأة في المدينة كانت خاطئة، إذ علمت أنه متكىء في بيت الفريسي جاءت بقارورة طيب ووقفت عند قدميه من ورائه باكية، وابتدأت **تبلُّ قدميه بالدموع وكانت تمسحها بشعر رأسها وتقبّل قدميه وتدهنها بالطيب**».

يوحنا ١٢: ٣: «فأخذت مريم مناً من طيب ناردين خالص كثير الثمن **ودهنت قدمي يسوع ومسحت قدميه بشعرها**».

٤ – **أختا بيت عنيا**: خدمة مرثا؛ وقعود مريم.

لوقا ١٠: ٣٨–٤٢: «وفيما هم سائرون، دخل قرية فقبلته امرأة اسمها مرثا في بيتها. وكانت لهذه أخت تُدعى مريم، التي جلست عند قدميْ يسوع، وكانت تسمع كلامه. **وأما مرثا فكانت مرتبكة في خدمة كثيرة فوقفت**، وقالت: يا رب أما تُبالي، فإن أختي قد تركتني أخدم وحدي، فقُلْ لها أن تعينني. فأجاب يسوع وقال لها: **مرثا مرثا، أنتِ تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة**، ولكن الحاجة إلى واحد. فاختارت مريم النصيب الصالح الذي لن يُنْزَع منها».

يوحنا ١٢: ٢و٣: «فصنعوا له هناك عشاءً. **وكانت مرثا تخدم**، وأما لعازر فكان أحد المتكئين معه. **فأخذت مريم مناً** من طيب ناردين...»

٥ – دخول أورشليم: اتفاق كل من إنجيل يوحنا وإنجيل لوقا في ذكر الهتاف بالمسيح «كملك»، وذكر الفريسيين فقط:

لوقا ١٩: ٣٨و٣٩: «**مباركٌ الملك الآتي باسم الرب**. سلامٌ في السماء ومجدٌ في الأعالي».
«**وأما بعض الفريسيين من الجمع فقالوا له**: يا معلم انتهر تلاميذك».

يوحنا ١٢: ١٣و١٩: «وكانوا يصرخون: أوصنّا، **مباركٌ الآتي باسم الرب ملك إسرائيل**».
«**فقال الفريسيون بعضهم لبعض**: أنظروا إنكم لا تنفعون شيئاً؛ هوذا

العالم قد ذهب وراءه».

٦ — **على العشاء الأخير:** حيث يعطي إنجيل لوقا بعض الكلمات التي تكشف عن وجود حديث مطول لم يسجَّل (إلا في إنجيل يوحنا):

لوقا ٢٢: ٢٤—٢٨: «**وكانت بينهم مشاجرة من منهم يُظن أنه يكون أكبر** (بطرس أم يهوذا)».
«**وأما أنتم فليس هكذا. بل الكبير فيكم ليكن كالأصغر، والمتقدم كالخادم**».
«لأن من هو الأكبر؟ الذي يتكىء أم الذي يخدم؟ أليس الذي يتكىء ولكن **أنا بينكم كالذي يخدم**».

يوحنا ١٣: ٤—١٤: «**وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ** ويمسحها بالمنشفة التي كان متزراً بها. **فجاء إلى سمعان بطرس...**».

قوله هنا فجاء إلى سمعان بطرس يكشف أن أحد التلاميذ سبق بطرس! هل هو يهوذا؟ غالباً. وهل المشاجرة على من يجلس بجوار الرب على العشاء كانت بينهما؟ غالباً. فلما صمم يهوذا أن يُغسل أولاً، وغُسل، وهذا لم يَرُقْ للمسيح، قال تعليمه عن مَنْ ينبغي أن يكون الأول، ومَنْ السيد. وكذلك لم يعجب بطرس الذي أراد أن يُظْهِر بجاحة يهوذا، فلما جاء عليه الدور بعد يهوذا رفض أن يغسله المعلم لإظهار الإلتزام بالإتضاع تجاه المعلم والرب.

وبعد أن غسل الرب أرجلهم جاء دور التوبيخ: «أتفهمون ما قد صنعت بكم؟ أنتم تدعونني معلماً وسيداً وحسناً تقولون، لأني أنا كذلك. فإن كنتُ وأنا السيد والمعلم قد غسلتُ أرجلكم، فأنتم يجب عليكم (كتلاميذ ومُرسَلين) أن يغسل بعضكم أرجل بعض...» هنا كلمة «أتفهمون» موجهة للمتشاجرين سواء ليلة العشاء أو في القرن العشرين، من رؤساء كراسٍ وطوائف وملل. وهي توضح أنه إنما يقدم درساً عملياً لخطأ حدث وهو المشاجرة، والتي أمسك القديس يوحنا عن ذكرها حسب خط الفكر الإنجيلي السائر عليه أن لا يُظْهِر عيوب التلاميذ.

لوقا ٢٢: ٣٥: «**حينما أرسلتكم** بلا كيس ولا مزود هل أعوزكم شيء».
يوحنا ١٣: ١٦: «الحق الحق أقول لكم أنه ليس ... **رسول أعظم من مُرْسِلِه...**».

وواضح هنا أن خدمة غسل الأرجل ارتبطت بالإرسالية وطقس المرسَلين. والمسيح أعطاهم مثالاً لخضوع بعضهم لبعض في عمل الإرسالية، إذ وهو الذي أرسلهم وسيرسلهم، غسل أرجلهم

لوقا ٢٢: ٥٨—٦٠: «وبعد قليل رآه آخر وقال: **أنت منهم** فقال بطرس: يا إنسان لست أنا».

«ولما مضى نحو ساعة واحدة **أكد آخر قائلاً بالحق هذا أيضاً كان معه لأنه جليليٌّ أيضاً** فقال بطرس: يا إنسان لست أعرف ما تقول».

يوحنا ١٨: ١٨ و٢٥—٢٧:

«وكان **العبيد والخدّام** واقفين وهم قد أضرموا جمراً لأنه كان بَرْدٌ...».

«وسمعان بطرس كان واقفاً يصطلي **فقالوا له: ألستَ أنت أيضاً من تلاميذه**. فأنكر ذاك وقال: لستُ أنا. قال واحد من **عبيد رئيس الكهنة**، وهو نسيب الذي قطع بطرس أذنه: **أما رأيتك أنا معه في البستان؛** فأنكر بطرس...».

٩ — **المحاكمة أمام بيلاطس:** ليس أمراً بسيطاً أن يقرر كل من الإنجيليين القديسين لوقا ويوحنا أن الوالي الروماني أعلن ثلاث مرات أن يسوع كان بريئاً، وأن الشعب (كما في الإنجيلين)، وليس الرؤساء، كانوا في موضع المسئولية الظاهرة. كما يتضح من الإنجيلين أنه ليست هناك ملامة على الوالي الروماني، أكثر مما هو واضح في كل من إنجيل متى وإنجيل مرقس.

لوقا ٢٣: ٤و١٤و١٥و٢٠و٢٢:

«فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة والجموع: **إني لا أجد علةً في هذا الإنسان**».

«وقال لهم: قد قدمتم إليَّ هذا الإنسان كمن يفسد الشعب، وها أنا قد فحصت قدامكم **ولم أجد في هذا الإنسان علةً مما تشتكون به عليه**، ولا هيرودس أيضاً».

«فناداهم أيضاً بيلاطس وهو يريد أن يطلق يسوع...».

«فقال لهم ثالثة: **فأي شر عمل هذا؟ إني لا أجد فيه علةً للموت**».

يوحنا ١٨: ٣٨: «ولما قال هذا خرج أيضاً إلى اليهود وقال لهم: **أنا لست أجد فيه علةً واحدة**».

١٩: ٤و٦: «فخرج بيلاطس أيضاً خارجاً وقال لهم: أنا أخرجه إليكم لتعلموا **أني لست أجد فيه علةً واحدة**».

«قال لهم بيلاطس: خذوه أنتم واصلبوه **لأني لست أجد فيه علةً**».

١٠ ــ **الآلام:** هنـا يتفق إنجيل لوقا مع إنجيل يوحنا في كونهما لم يذكرا شُرْب الخل لإحداث تخدير لرفع المعاناة الشديدة والآلام. وذلك بعكس إنجيل متى وإنجيل مرقس.

١١ ــ إرسال الروح القدس:

لوقا ٢٤: ٤٩: «وهـا أنا **أرسل إليكم موعد أبي.** فأقيموا في مدينة أورشليم إلى أن تُلبَسوا قوة من الأعالي».

يوحنا ١٥: ٢٦: «ومتى جاء المعزّي (الباراكليت) **الذي سأرسله إليكم من الآب، روح الحق الذي من عند الآب** ينبثق، فهو يشهد لي».

ويـعلّق الـعالم شنـاكنبرج على هذا التوافق الشديد بين تقليد الإنجيل في إنجيل لوقا وفي إنجيل يوحنا، ويقول:

[لـيـس من الـسـهـل أن يـتجاهل الإنسان هذا التوافق الذي يربط بين الإنجيلين في موضوع التـقـلـيد وتاريخه. ولكنه ليس بالدرجة التي تجعلنا نقرر أن القديس يوحنا كان أمامه إنجيل لوقـا أو رجـع إلـيه في تدوين إنجيله، كما يقول العالم باريت Barrett والعالم لي Lee، ولا حتى يجوز أن نـتـصور أن يوحنا قابل لوقا واستق منه شيئاً من مراجعه، ثم استعادها بالذاكرة كما يقول كوميل Kümmel].

ولـكـن مـن الـمـعقول أن نقول إن القديس لوقا رجع إلى المصادر التي لها دراية بما يعرفه القديس يوحنا أو إلى نفس القديس يوحنا، ولكن ليس العكس؛ خاصة وأن القديس لوقا أعلن في إنجيله أنه استق مـعلوماته من الذين «كانوا معاينين وخُدّاماً للكلمة»؛ خاصة وأن رواية الميلاد بكل أسرارها ودقـائـقـهـا تكشف ببيان عن أن القديسة العذراء مريم كانت وراء هذه البيانات السرية والخطيرة. ومعروف أن القديسة مريم كانت تعيش مع القديس يوحنا.

مجمل الأبحاث التي انتهى إليها العلماء من جهة علاقة إنجيل يوحنا بالثلاثة الأناجيل الأخرى:

١ ــ كـون الـقديس يوحنا اعتمد في تدوين إنجيله على نصوص الثلاثة الأناجيل، فهذا أمر غير محتمل.

٢ ــ الـتـقابل الوارد بين إنجيل القديس مرقس وإنجيل القديس يوحنا في مواضع متعددة، يطرح احـتـمـال إطّلاع الـقـديس يوحنا على نصوص أُولى من التقليد الذي اعتمد عليه القديس مرقس في تدوين إنجيله.

٣ ــ التقابل الوارد بين إنجيل القديس لوقا وإنجيل القديس يوحنا، لا يوحي قطعاً باحتمال إطّلاع القديس يوحنا على نصوص كتابية للقديس لوقا، ولكن التقابل بينهما يشرحه وحدة التقليد الذي اعتمد عليه كلٌّ منهما، وتقليد القديس يوحنا يبدو أسبق تاريخياً في بعض النواحي من تقليد بقية الأناجيل.

٤ ــ تقليد القديس يوحنا على وجه العموم يبدو فريداً، حرًّا، لا يعتمد على ما ورد في الإناجيل الثلاثة.

٥ ــ إنجيل القديس يوحنا لا يُصدر أحكاماً، لا ضمنياً ولا من قريب أو من بعيد، على ما ورد في الأناجيل الثلاثة.

٦ ــ كذلك فإنجيل يوحنا له أسلوبه المنفرد به وطريقته في عرض مواضيعه وحوادثه، ولا يظهر منه أي بادرة تثبت أنه يصحح ما ورد في الأناجيل الأخرى أو يحل محله.

٧ ــ كون إنجيل يوحنا على دراية بالتقليد سواء شفاهياً أو على هيئة نصوص متفرقة ــ والذي استقت منه الأناجيل الثلاثة موادها ــ أمر وارد، بل وواضح أن إنجيل يوحنا يفترض في قرائه وسامعيه أنهم على دراية بكل ما جاء في التقليد القديم والذي انتشر عن طريق الكرازة في كل الأنحاء، وصار معروفاً ومحفوظاً ومدروساً لدى كل الخدّام والوعاظ والمبشرين؛ سواء من دقائق سر العماد أو سر الإفخارستيا أو خدمة الكنيسة، أي الليتورجيات أو قوانين الرسل من جهة السلوك ووصايا الإيمان. بل وإن الجميع يعرف عن معجزات المسيح أكثر مما أورده هو في إنجيله.

وكان للقديس يوحنا ملاحظات على أسس الإيمان والتعليم السائد في الكنائس عن حياة المسيح، وهي التي أنارت روحه حتى وجد أنه قد وُضع عليه، بل تحتّم، أن يكتب إنجيله، حتى يجعل هذه الأسس عينها التي للإيمان أكثر عمقاً وتجذُّراً في الحق والحياة الأبدية، وأن تكون ذات معرفة لاهوتية مكشوفة وقوية بالرب.

٨ ــ من جهة الروايات التصويرية لحياة المسيح وتحركاته وأقواله وأمثاله الحيَّة المبدعة التي تغطي كل أحوال الناس وحياتهم وأفكارهم وسلوكهم وهمومهم وآمالهم، فإن إنجيل يوحنا يبدو فيها مقسَّطاً جداً عن الأناجيل الأخرى، بل ومختصراً وملتزماً وحذراً أشد الحذر عن بقية الأناجيل الثلاثة التي انطلقت على سجيَّة الفكر تروي بلا حذر و بلا هدف محدد مسبقاً عمَّا رأت وسمعت وتركت للقارىء أن يستخلص لنفسه ما ينفعه.

ولكن إنجيل يوحنا يعطي معلومات لاهوتية جد خطيرة وكثيرة، بل ووفيرة، أكثر من كل الأناجيل الثلاثة مجتمعة، أحكم القديس يوحنا حبكها بالروح على مستوى الرواية والتاريخ. ولكن أيّ رواية وأي تاريخ؟ رواية كسَهْمٍ من النور خاطف ومصوَّب لقلب القارىء، لا يلوي يميناً أو يساراً حتى يصيب هدفه الذي وُضع الإنجيل كله من أجله: لاهوت المسيح! بل إن إنجيل يوحنا صاغ الروايات الأخرى صياغة في قالب لاهوتي، لا تُقرأ إلاّ على مستوى الرؤية الأعلى والهدف الأسمى، سواء حينما طرح رواية المعمدان وشهاداته، أو حينما عرض للآلام وأتينها ومعانيها، أو لقيمة الصليب ومجد المصلوب عليه في اليوم والساعة حيث وحين كان يُذبح الخروف تماماً!

٩ — إنجيل يوحنا يطرح أمام القارىء الباحث تقليداً رسولياً موازياً لما جاء في الثلاثة الأناجيل، يحمل رسوخاً في الأصالة وفي الأقدمية الزمنية، يضارع الثلاثة الأناجيل ويحملها على كتفيه. فهو يقدم خدمة المسيح في اليهودية قبل خدمة الجليل من الأصحاح الأول وحتى الثالث، وبعد الجليل من الأصحاح السابع حتى الحادي عشر، في حين اقتصرت الأناجيل الثلاثة على خدمة المسيح في الجليل فقط وانشغلت بها حتى الصلب.

ويركِّز إنجيل يوحنا على أعياد اليهود جميعاً في هيكل أورشليم حيث يحضرها المسيح جميعها، ويخصها بالمعاني الإلهية الجديدة التي أعطت للعهد الجديد جدَّته. في عيد المظال تذكار التيه والصخرة والماء، حين يحتفل اليهود بذكرى الماء، فيقف المسيح في الهيكل وينادي: «إن عطش أحد فليُقْبِلْ إليَّ ويشربْ. مَن آمن بي، كما قال الكتاب، تجري من بطنه أنهار ماء حي. قال هذا عن الروح...» (يو٧: ٣٧—٣٩). ولما جاء ميعاد إيقاد المنارتين العظيمتين في بيت النساء — وهذا تذكار لعمود النور الذي كان يرافقهم في ليل التيه — وقف المسيح قائلاً: «أنا هو نور العالم مَن يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة.» (يو٨: ١٢)

وفي عيد الفصح وفي بكور خدمته دخل الهيكل، «ووجد في الهيكل الذين كانوا يبيعون بقراً وغنماً وحماماً...» (يو٢: ١٤)، «طرد... الغنم والبقر وكبَّ دراهم الصيارف وقلب موائدهم. وقال لباعة الحمام: ارفعوا هذه من ههنا» (يو٢: ١٥و١٦). فقد انتهى عهد الذبائح جميعاً، والخلاص لم يَعُدْ بذهب ولا فضة!!.

وهكذا تعقَّب إنجيل يوحنا فصول القصة والرواية يستخلص منها الجوهر — πνευματικόν — بعد أن استنفذت الأناجيل الأخرى جمال المظهر — σωματικόν (١٢) — وهذا واضح غاية

(١٢) راجع ص ٢١ وهو اقتباس يوسابيوس في كتابه تاريخ الكنيسة لتقليد كليمندس الإسكندري عن الدافع لكتابة إنجيل يوحنا.

الوضوح في:

أ - قصة الخمس الخبزات[١٣] والسمكتين، فبعد أن عرضتها الأناجيل الثلاثة في أسلوبها القصصي الإعجازي المبدع، أخذها إنجيل يوحنا كما هي ليعرض عليها شرح حقيقة الخبز الحي النازل من السماء، أساساً ومنطوقاً للإفخارستيا بكل أسرار لاهوتها ومفهومها الروحي!! وهكذا قدم إنجيل يوحنا التقليد الرسولي عينه مقروءاً على مستوى العقيدة والإيمان والحق والحياة. له صيغة القِدَم التي للتاريخ وجِدّة الروح التي للحياة.

ب - في قصة تفتيح عيني الأعمى، التي جاءت مثيلاتها في الثلاثة الأناجيل كقصة إعجاز لرحمة الله على يدي المسيح، يأخذها القديس يوحنا ويوضّح أن المولود أعمى إشارة إلى احتجاب نور المسيح عن المولودين من الرحم، ثم يقول المسيح للأعمى: اذهب اغتسل في بركة سلوام، حيث تأتي كلمة «اغتسل» بمعنى العماد في اللغة اليونانية، هنا تبدأ قصة الأعمى لتهدف إلى كشف سر المعمودية. ثم يقول الإنجيل أنه أتى بصيراً، ليشير إلى موهبة **الإستنارة**، ليدخل هذا الإصطلاح في علم لاهوت الأسرار في الكنيسة في وصف العماد.

ولكن إنجيل يوحنا لا يكتفي بالعماد فقط ليكون وحده فعل استنارة حقيقياً، لذلك يبحث عنه المسيح فيجده في الهيكل (عابداً) فيقول له: هل تؤمن بابن الله؟ ويعرِّفه المسيح بنفسه فيؤمن، ثم يسجد سجوداً حقيقياً، وهكذا يضع الإنجيل الإيمان ختماً للمعمودية حتمياً، والسجود فعلاً ملازماً ضرورياً.

فانظر، أيها القارىء، كيف يضع إنجيل يوحنا اللمسات الروحية واللاهوتية والإيمانية والعبادية في القصة التي وردت في الثلاثة الأناجيل كمجرد معجزة، ليشرِّع بها ومنها قانون الإيمان بالأسرار والعبادة للكنيسة على ممر الدهور.

ج - وإذا أخذنا حديث الرب مع نيقوديموس «معلم الناموس لإسرائيل»، نرى كيف يكمِّل إنجيل يوحنا توضيح قوة سر العماد في معناه اللاهوتي والخلاصي، كحتمية لا مناص منها لرؤية ملكوت السموات والدخول إليه، فالعماد هنا على مستوى «الميلاد الثاني» للإنسان ليصير الإنسان

(١٣) ولا تزال الكنيسة القبطية تحتفظ ضمن ممارستها للإفخارستيا بعدد «الخمس الخبزات» في تقديم الحمل، إشارة وتحقيقاً لسر الإفخارستيا في هذا الرقم الذي يشير إشارات مبدعة إلى مجيء المسيح من صلب الخمسة الأسفار لتوراة العهد القديم، وإلى مجيء المسيح بعد خمسة آلاف سنة من عناء بني آدم بعد خروج أبيهم آدم من لدن الله مطروداً، وإلى اكتمال أجيال غضب الله على بني العصاة «لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور **أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضيّ**» (خر٢٠: ٥)، في المسيح وبه أشرق الجيل الخامس جيل الإحسان ومحبة الله.

بواسطته طفلاً مرة ثانية مبرَّراً بالروح، «كخليقة جديدة» بحد ذاتها، كما من آدم ثانٍ بفعل الروح القدس — روح الله، وليصير إنساناً روحياً بعد الترابي ليرث مُلْكَ الحياة الأبدية مع الله. وبهذا يكون إنجيل يوحنا قد شرح الموقفين معاً (الحديث مع نيقوديموس ومعجزة المولود أعمى)، مُسْتعلناً فيهما ومنهما سر حضور المسيح كنور، وسر فعل المسيح الخلاصي كولادة، وسر الروح للخلقة، كل ذلك مكنوزاً ومختوماً عليه في سر المعمودية.

١٠ — إن كل اختلاف عثر عليه النقاد بين إنجيل يوحنا والثلاثة الأناجيل الأخرى هو اختلاف في الحرف، يحتِّمه الأسلوب الأدبي وقصد الراوي. ولكنه هو هو بعينه ائتلاف بالروح ما بعده ائتلاف، ولكن إذا قُرِيء بالروح وليس على مسطرة التاريخ!

ويصوِّر العالم شناكنبرج صورة بديعة لإنجيل يوحنا بقوله:

[إن الموضوع الأساسي عند يوحنا الذي أخذه على نفسه بشجاعة وجرأة هو: أن يضع الحدود والمعالم الواضحة لشخصية المسيح المهيبة، الذي أتى بالخلاص واستعلن لنا آفاق الخلود؛ وأن يكشف عن بهاء مجد الكلمة اللوغُس من واقع حياته على الأرض وحلوله بيننا؛ وأن يوضح أهمية حوادث الخلاص الذي تمَّ والدائم كما هو إلى الأبد، والذي كان قد اختزنه لنا الماضي؛ وأن يسجل لنا الكلمات التي قالها مرة ابن الله عندما دخل إلى العالم، لكي تُسمع بعد ذلك بلا انقطاع. وتبقى كما هي مُلِحَّة تفرض ذاتها. وكان هاجس يوحنا الأوحد أن يُعرِّف يسوع بين الناس أنه هو المسيح الحاضر في جماعته، سواء في الكلمة الملقاة على الأسماع أو في العبادة أو الأسرار.

وكان اشتياق يوحنا الذي كان يبثُّه بالروح القدس حسب وعد المسيح، أن يربط ويوثِّق زمن المسيح وأيامه بأيام الروح القدس (التي نحياها): «وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية؛ ذاك يمجِّدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم... ويذكِّركم بكل ما قلته لكم» (يو١٦: ١٣و١٤ — ١٤: ٢٦)، لأن يوحنا كان يدرك أن الروح سوف يُعْطى بكلمة المسيح (٦: ٦٣)، وفي الأسرار التي فيها يتحقق فعل الخلاص ويثمر (١٩: ٣٤— ١يو٥: ٦)، بواسطة الكنيسة التي حملت رسالة المسيح وتبنَّت فم المتكلم والمبشِّر وسلطانه أيضاً لخلاص الإنسان (٢٠: ٢٢).](١٤)

14 Schnackenburg, op. cit., p.43.

الباب السادس

شرح ونقد إنجيل القديس يوحنا

على مدى العصور

الفصل الأول

شرح إنجيل القديس يوحنا
عند آباء الكنيسة

تراث الشرق

شرح العلامة أوريجانوس:

هذا العملاق الإسكندري الذي أرهق التاريخ بسيرته وبلبل أفكارنا بعقيدته، كتب شرح إنجيل يوحنا بناءً على رجاء أحد أصدقائه المدعو أمبروسيوس. كتب الخمسة الأجزاء الأولى في الإسكندرية سنة ٢٢٥م(١)، وذلك قبل رسامته كاهناً في قيصرية سنة ٢٢٨م. ثم جاءت الإضطرابات التي دخل فيها فتوقف العمل. الباقي من الشرح كتبه في المنفى ثم في قيصرية. ويقول يوسابيوس المؤرخ إن كل ما وصل إليه من شرح أوريجانوس لإنجيل يوحنا يقع في ٢٢ كتاباً. ويقول القديس چيروم إنها تقع في ٣٤ كتاباً. ويقول روفينوس إنها تقع في ٣٢ كتاباً. أما الواقع والحاضر بين أيدينا الآن فهي ثمانية كتب فقط، وهي تحوي أجزاءً من الشرح متفرقة حتى الأصحاح الثالث عشر من عدد ٢ — ٣٣. ويقدِّر العلماء أن ما كتبه يتجاوز الخمسين كتاباً(٢).

ويقول العلاَّمة «وستكوت» أسقف دورهام، إن شرح أوريجانوس يحوي أخطاءه وإبداعاته معاً وبأعلى قياس، وهو شرح مطوَّل ولكن متقطع ينتحي ناحية التأمل والتخيُّل، ولكن تربطه أفكار سامية ونبيلة وومضات من الحق.

ويُعتبر أوريجانوس، في مجال شرح الإنجيل، صاحب مدرسة جديدة في الأدب اللاهوتي. ويقول

[1] Euseb., Hist. Eccl. VI.24,1.

[2] Westcott, The Gospel according to Saint John, p. xcv.

العلاَّمة شناكنبرج إن أوريجانوس كتب شرحه لإنجيل يوحنا بقصد تفنيد ومقاومة شرح الغنوسيين المزيَّف لإنجيل يوحنا الذي كتبه أحد أئمتهم المدعو «هيراكليون»، وأن شرح أوريجانوس أصيل بحسب عقيدة الكنيسة (٣).

وقد استخرج أوريجانوس المعاني الروحية العميقة من آياته، ولكنه استخدم المجاز أو الإستعارة التمثيلية (أي مشبِّهاً شيئاً بشيء ليبلغ إلى معنى أعمق) إلى حد كبير. كان ملتصقاً دائماً في شرحه إما بالتقليد اليوناني أو اليهودي. وقد بلغ منتهى العمق في استعلان عظمة «**كلمة**» الله التي كانت مختبئة تحت ستار الحرف في العهد القديم وخاصة في حادثة «**تطهير الهيكل**» (الكتاب العاشر: المقطع ٢٣)، وفي المقابل في كيف بلغ «**الكلمة**» إلى قامة التواضع وذلة (العبد) في العهد الجديد في حادثة «**غسل الأرجل**» (الكتاب ٣٢: المقطع ٤)، مدَّثراً بثوب معفَّر بتراب الأرض.

وأوريجانوس لم يشأ في شرحه أن يلغي الحرف في المعنى، ولكنه حاول دائماً أن يتجاوزه فيقول:
[إني أعتقد أن كل الأسفار حينما تبلغ إلى معناها الكامل والصحيح، **فهي** تبق مجرد مدخل إلى معرفة الأسس البسيطة للإيمان. فكِّر قليلاً في بئر يعقوب التي شرب منها الآباء وأبناؤهم يوماً ما، فهم الآن لا يشربون منها ولا أبناؤهم لأن لهم الآن مشرباً أفضل عما كان، لأن الماء الذي يعطيه المسيح الآن هو أسمى من المكتوب.] (كتاب ١٣: مقطع ٥)

وكان مفتاح الأمان والضمان للشرح الصادق الأمين عند أوريجانوس الذي يضبط الكلام ويتفوق عليه هو:
أولاً: سلطان كنيسة المسيح المقدسة (الكتاب ٥: مقطع ٨).
ثانياً: التعليم الرسولي فيما يختص بمعرفة الأسرار (الكتاب ١٠: مقطع ١٨).

أما نقطة الهجوم التي ركَّز عليها أوريجانوس ضد الغنوسيين، **فهي** أنهم [وضعوا شرحاً جزافياً يتناسب مع أفكارهم وليس له شهادة من التقليد] – (كتاب ٢: مقطع ١٤ وكتاب ١٣: مقطع ١٧).

والمضمون العام لشرح العلاَّمة أوريجانوس يهدف نحو ترسيخ الإيمان المسيحي عامة والإيمان بالأمور المستقبلية أي الأخرويات. أما أسفار العهد القديم التي يمثلها «بئر يعقوب»، [**فهي إذا**

---

(٣) توجد بعض التفسيرات في شرح أوريجانوس تُعتبر خارجة عن التقليد الصحيح والعقيدة.

3 Schnackenburg, The Gospel according to Saint John, p. 202.

فُهمت جيداً فإنها تؤدي إلى المسيح وتصبح حينئذ بالحق تنبع إلى حياة أبدية.] (كتاب ٣: مقطع ٦). [وكلمة المسيح الآن تقودنا إلى الفصح الثالث، حيث البصخة اليهودية هي الفصح الأول، وفصح المسيح الحمل الذي ذُبح لأجلنا هو الفصح الثاني. أما الفصح الثالث فهو الذي نعيِّده معاً في ألفة المعيِّدين مع ربوات ملائكة بلا عدد في الفصح الأكمل للخروج السعيد.] (الكتاب العاشر: مقطع ١٨).

واستخدام الإستعارة عند العلاّمة أوريجانوس، ولو أنها تبدو غريبة على أسماعنا (الكلام هنا للعلاّمة «شناكنبرج» وهو كاثوليكي غربي)، ولكن إذا استوعبنا هذه الطريقة وانتهينا إلى خلفيتها، نجد وراءها معرفة عميقة لكلمة الله التي تجسدت في اللوغُس المتجسد ولكن بقيت هكذا محتجبة، حتى إنه لا يمكن تفريغ كل ما تحويه من الشرح.

+ + +

والخطوة التالية بعد العلامة أوريجانوس في شرح إنجيل القديس يوحنا تأخرت كثيراً: من سنة ٢٢٥م حتى سنة ٣٩١م أي أكثر من قرن ونصف، ولم تأتِ من الإسكندرية بل أتت على يد مدرسة أنطاكية وهي المنافسة لمدرسة الإسكندرية.

وكان هناك اختلاف في التراث الفكري بين الإسكندرية ويمثلها العلامة أوريجانوس، وبين أنطاكية ويمثلها القديس يوحنا ذهبي الفم[4].

أنطاكية تبحث في الأسفار المقدسة عن معناها المقدس الواضح.

الإسكندرية (وقيصرية وفيها أوريجانوس) تبحث في الأسفار المقدسة عن شخص المسيح.

أنطاكية تطعن في استخدام الإستعارات والتأملات كونها تهدم القيمة الواقعية للإنجيل كوثيقة تاريخية تمتُّ إلى الماضي وتحوله إلى تعابير من الخيال (كذا).

والإسكندرية تسخر من أنطاكية وتسمي كل من يتمسك بحرفية الكلمة أنه جسداني!

غير أنه لم يكن بين أنطاكية والإسكندرية صراع أو تعارض، بل بالعكس كان هناك اتفاق عريض مؤسس على أهمية التقليد في الشرح أهمية مطلقة.

على أن العلاّمة أوريجانوس كان يرمي بثقله نحو اكتشاف الصور البارعة للمسيح من خلال

4 Quasten, Patrology II, p. 122.

الإلهام الذي تحويه الكلمة بحد ذاتها، أكثر من انحصاره في حوادث الإنجيل. فكل سطر في الإنجيل مملوءٌ بأسرار المسيح المذخرة والمدفونة خلف السطور.

ولكن أنطاكية انشغلت بالبحث عن صور المسيح في العهد القديم.

وما اختلاف الأسلوب في الشرح بين المدرستين إلا اختلاف في الفكر. فالإسكندرية مدرسة المُثُل Idealism والتأملات Speculation ، التي تستمد انتسابها من أفلاطون؛ أما أنطاكية فهي مدرسة الواقعية Realism (الحسية) والتجريبية Empiricism ، التي تستمد انتسابها من أرسطو. فالأولى تميل إلى التصوُّف؛ والثانية تميل إلى العقلانية.

وكان القديس يوحنا ذهبي الفم أشهر تلامذة مدرسة أنطاكية؛ وكان ثيئوذور المبسوستي أشهر متطرِّفيها!!

ولكن للأسف، فالعقلانية الأنطاكية انتهت بمدرستها إلى الهرطقة على يد لوسيان معلم أريوس.

وفي ختام الكلمة عن شرح إنجيل يوحنا للعلاَّمة أوريجانوس، يتحتم أن نعترف أنه إذا كان القديس أثناسيوس قد حطم أريوس والأريوسية في مصر والعالم كله معتمداً على إنجيل يوحنا، فالعلاَّمة أوريجانوس هو الذي حطَّم الغنوسية في مصر وأيضاً في العالم معتمداً أيضاً على إنجيل يوحنا (٥).

شرح القديس يوحنا ذهبي الفم:

القديس يوحنا ربيب المدرسة الأنطاكية بكل مذخراتها الفكرية. بليغ وحكيم لذلك دُعي بذهبي الفم.

قدَّم ٨٨ عظة على إنجيل القديس يوحنا مسجَّلة كلها ومحفوظة في مجموعة الباترولوجيا جريكا أي الآباء الذين كتبوا باليونانية (PG 59). وهي عظات جاءت أقصر من عظاته على إنجيل القديس متى. ألقاها حوالي سنة ٣٩١م. وكل عظة لم تكن تستغرق أكثر من ١٠ — ١٥ دقيقة. وكان يلقيها في الصباح. **وأسلوبها جدلي** لأنه كان يوجهها نحو الأريوسيين الذين كانوا يستخدمون الآيات التي تحقِّر وتصغِّر من المسيح. لهذا بلور القديس ذهبي الفم نظرية التنازل συγκατάβασις بالنسبة لله ليصدَّ بها تهجُّم الأريوسيين على بشرية المسيح وضعفه. ويقصد بها القديس ذهبي الفم كيف **جسَّد**

---

[5] Barrett, op. cit., p. 116.

الله كلمته في الإنجيل على هيئة الإنسان ولغته. وهذا التعبير اللاهوتي يقف مساوياً لتعبير العلاّمة أوريجانوس في استعلان معنى الكلمة في الأسفار، غير أن القديس ذهبي الفم لم يتبع الخط الروحي مثل العلاّمة أوريجانوس.

وكعيّنة من الشرح(٦) اللاهوتي للقديس يوحنا ذهبي الفم نقدم بلسان المسيح المقطع الآتي:

[أنا الإله وابن الله بالحق، وأنا من جوهره البسيط المبارك، لست في حاجة أن يشهد لي أحد، وحتى إذا لم يشهد أحد فأنا لا أفقد شيئاً من جوهري. ولكن لأني أهتم بخلاص الكثيرين قد نزلت إلى هذا الإتضاع حتى أطلب شهادة لي من إنسان.] (العظة ٦)

ويعود يشرح هذا الموضوع مراراً وتكراراً هكذا:

[لأنه صار ابن بشر، الذي هو ابن الله ذاته، حتى يجعل بني الإنسان أولاد الله. لأن العالي إذا التأم مع الحطيط فهذا لن يمس كرامته؛ في حين أنه يرفع الآخر من الحضيض، وهذا هو الحادث مع الرب. فهو لم يُنقص من طبيعته شيئاً بتنازله هذا Condescension، ولكنه رفعنا نحن الذين كنا في العار قعوداً، ومن الظلام جلوساً انتشلنا إلى نوره العجيب.] (العظة الحادية عشر)

ومثل العلاّمة أوريجانوس، يعتبر القديس يوحنا ذهبي الفم أنه ليس للهراطقة المفصولين عن الكنيسة الحق في استخدام الأسفار المقدسة، لأن الأسفار تستمد حقها من حق الكنيسة.

ويقول العلاّمة «وستكوت» أن شرحه واستشهاده بالآيات واضح، شديد الحيوية وبليغ؛ ولكن القارىء إذ يؤخذ بأسلوبه، تفوته المعاني والإتجاهات السرية التي للإنجيل نفسه(٧).

شرح القديس كيرلس الإسكندري:

هو واحد من أعظم قديسي الكنيسة الأولى، لذلك يدعى بالكبير. ألّف شرحه لإنجيل يوحنا من بداية سنة ٤٢٥م. ولم يكمل إلا سنة ٤٢٨م. أسلوبه كما يصفه «كواستن»(٨) أبعد من أن يكون جذّاباً للقارىء، متداخل، وأحياناً يتجاوز الحد في التمادي في الشرح، مزخرف، جميل، ولكن محتوياته تكشف عن عمق الفكر وغنى في الآراء، مجادل واضح ذو حجّة، تأملاته ومحاجاته تكشف عن موهبته كمؤلّف وتجعل من كتابه منابع لتاريخ العقيدة والعلم المسيحي بالدرجة الأولى.

---

6 Quasten, op. cit., III, p. 439.

7 Westcott, op. cit., p. xcv.

8 Quasten, Patrology III, p. 119.

وفي مقدمة شرحه نبَّه أنه سيعطي عناية خاصة إلى المعنى العقيدي للنص، ودحض تعاليم الهراطقة. والقديس كيرلس يجهد في شرحه ليثبت أن الإبن له جوهر الآب، وأن الآب والإبن كلٌ منهما له شخصه القائم.

وهو يقف معارضاً لمدرسة أنطاكية. وواضح أنه ألَّف شرحه لإنجيل يوحنا قبل قيام نسطور، لذلك لم يذكر في كتابه شيئاً عن نسطور، كما لم يذكر الإصطلاح المحبب عنده «الثيئوتوكس» (والدة الإله) الذي نحته خصيصاً لمقاومة بدعة نسطور. كما يُعتبر شرحه لإنجيل يوحنا هو أول تآليفه في الشرح. وقد احتفظ لنا الزمن بكل شرحه للإنجيل في اثني عشر كتاباً كلها موجودة، ونسبتها للقديس كيرلس مُثْبَتة، ما عدا الكتابين السابع والثامن اللذين ضاعا ولم تصل لنا منهما إلا أجزاء قليلة مشكوكٌ في صدق نسبتها للقديس كيرلس(٩).

ولكن بالرغم من ذلك يبقى هذا الشرح ذخيرة عقائدية آبائية. ويعبِّر القديس كيرلس فيه عن أن لغة البشر عاجزة عن أن تستوفي الحق الإلهي فيه كما يجب؛ أو أن تكشف عن مقدار تنازل الكلمة في الأسفار كما يقتضي بالعدل.

أما رأينا الخاص في شرح القديس كيرلس لإنجيل يوحنا، فهو كنز لاهوتي وروحي وكنسي وسرائري مليء بالدرر المختفية وراء الجدل العنيف ضد الهراطقة، وهو يحتاج إلى صبر كثير وكثير جداً لكي يستوعب القارىء كنوزه.

ويقول العالم «وستكوت» عن شرحه: أنه بشرح القديس كيرلس الكبير يكون قد انتهى عصر كبار شُرَّاح الإنجيل للعصر الآبائي.

القديس أثناسيوس:

وفي مجال القيمة الشرحية لإنجيل يوحنا لا نستطيع أن ننسى القديس أثناسيوس، فهو وإن لم يصدر شرحاً لإنجيل يوحنا، ولكنه أقام لاهوته على **«تجسد الكلمة»**، وحارب حروب الرب ضد أريوس بسلاح إنجيل يوحنا، ووضع أساس الأرثوذكسية راسخاً معتمداً على هذا الإنجيل، فحوَّل مجرى المسيحية في العالم: «العالم كله ضدك يا أثناسيوس»، وأجاب أثناسيوس ومعه إنجيل يوحنا: «وأنا ضد العالم».

9 Quasten, op. cit., III, p. 123.

شرح القديس أغسطينوس:

يقول قاموس أكسفورد للكنيسة المسيحية عن كتاباته وشروحاته هكذا: [إن أهمية القديس أغسطينوس تكمن في قدرته الفذَّة في فهمه للحق المسيحي... وبدون هذه الألمعية الفكرية (موهبة) وعمق الإدراك الروحي، كان لا يمكن أن يأخذ اللاهوت الغربي شكله المعروف لنا الآن.](١٠)

قدم القديس أغسطينوس شرحه لإنجيل يوحنا ضمن عظات — جاءت في مقالات سنة ٤١٤—٤١٦م. ويقول عنها العالم «وستكوت»(١١) إنه فيما كان القديس يوحنا ذهبي الفم ضعيفاً في بعض نواحي شرحه، برز القديس أغسطينوس فيها قوياً لا يُجارَى. ولكن جهله باللغة اليونانية خانه كثيراً في تبني بعض المعاني غير الصحيحة للكلمات. ولكن ذكاءه الفذ جعله يدخل بالرغم من ذلك في المعنى الأصيل الذي يقصده الإنجيل، وبمنتهى الوعي والبصيرة التي ربما تفوت على شارح آخر عالم لغات متضلع في اليونانية. ولكن من الصعب جداً ترجمة شرحه الذي جاء باللاتينية ترجمة تصيب كل الأعماق التي انتهى إليها.

ويقول عنه «شناكنبرج»(١٢) إن أسلوبه يخلو من المحاجاة ويتجاوز المناوشات العقائدية. وشرحه في إنجيل يوحنا بلغ منتهى النضج اللاهوتي. فهو ينطلق مباشرة نحو التأمل بالآية دون التوقف على معاني الكلمات. ومثل نظرائه الآباء القديسين الأوائل، ركَّز بصورة أساسية على اللاهوت، يعجنه بالآيات ويقدمه طعاماً للمسيحي يسند إيمانه في وسط فوضى المراطقة. وعظاته هذه لا تزال محتفظة بحظوتها ومكانها الأثيل في الخدمات الكنسية لدى الغرب، شأنها شأن القديس يوحنا ذهبي الفم في الشرق.

---

[10] Op. cit. p. 107.

[11] Op. cit. p. xcv.

[12] Schnackenburg, op. cit., p. 205.

الفصل الثاني

تتبُّع حركة شرح إنجيل القديس يوحنا

في العصر الحديث

في ضوء عمليات النقد والدفاع

نقدّم للقارىء مختصراً للبحث الذي قام به العالم H.R. Reynolds في المقدمة التي كتبها لشرح إنجيل يوحنا في مجموعة Pulpit Commentary المجلد السابع عشر.

— منذ عصر ما بعد الرسل حتى نهاية القرن السابع عشر لم يرتفع صوت واحد ينتقد إنجيل يوحنا من حيث أصالة مؤلفه، القديس يوحنا اللاهوتي، ومادته، وعلاقته الصحيحة بالأناجيل الثلاثة الأخرى، وخطه التاريخي.

— ولكن بدأ النقاش في التباين بين الأناجيل الثلاثة والإنجيل الرابع في أوائل القرن الثامن عشر افتتحه العالم «لُكْلِرْك» Le Clerc [1] (١٦٥٧—١٧٣٦) مع العالم Lampe، وعلى مدى قرن من الزمان استمر هذا النقاش الذي بلغ حد الصراع.

— ثم هدأت حدة هذا النقاش إلى أن أشعله العالم الإنجليزي «إيفانسون» Evanson [2] (١٧٣١—١٨٠٥)، وذلك سنة ١٧٩٢. وللأسف، أنه بالرغم من تفاهة وزنه الروحي فقد كان أثره مسموماً في أوروبا. وقد قام في المقابل له في ألمانيا الناقد «إيكرمان» Eckermann

(١) وهو أرمني الأصل، عالم لاهوتي، وأستاذ مادة الكتاب المقدس، وأستاذ فلسفة، منهجه عقلي. وقد طعن في أصالة التوراة لموسى النبي. وهو متحرر الفكر غير تقليدي. عدو القواعد التعليمية، أعطى للعقل حق نقد الإيمان.

(٢) وهو ضد الثالوث ولا يؤمن بلاهوت المسيح. ويُعتبر أول من أشعل الهجوم ضد إنجيل يوحنا، منكراً أن يكون القديس يوحنا هو كاتبه. ولا يؤمن إلا بإنجيل القديس لوقا.

(١٧٩٦)، وبعده الناقد الأكثر خطورة «برتشنيدر» Bretschneider (١٨٢٠).

— وقام «برايستل» Priestel مع العالم «سمبسون» Simpson بالرد.

— ولكن دخل معركة النقد لاهوتي ألماني شديد الوطأة اسمه «هردر» Horder Gottesied (١٧٤٤—١٨٠٣)، معلناً أن القديس يوحنا إنما كان يتعامل في إنجيله مع «مسيح نموذجي» وليس «مسيح التاريخ — (هكذا)». وبذلك بدأت المدرسة الألمانية وتزعمت النقد.

— فقامت مدرسة لاهوتيي روما بالرد، وتصدت لكل هذا النقد، وآزرها العالم الكاثوليكي «هوج» Leunord Hug (١٧٦٥—١٨٤٦)، وبعض العلماء اللوثريين وأهمهم الألماني المستشرق «أيشورن» Eichorn (١٧٥٢—١٨٢٧)، وهو أستاذ ضليع في الإنجيل واللغات الشرقية ومادة الفلسفة في جامعة جوتنبرج. وهو أول مَن أحيا علم المقارنات العلمية والبحث الدقيق لإثبات صحة الأناجيل من الكتابات الشرقية والمخطوطات القديمة الأخرى. وآزره في الرد العالِم Koind .

— وبأعمال هؤلاء المدافعين توقفت حركة المقاومة.

— ولكن بعد ذلك بقليل انفجرت حدة النقد السلبي المتحرر على يد «برتشنيدر» Bretschneider [٣] سنة ١٨٢٠. وقد تمادى في التفريق بين المسيح في إنجيل يوحنا والأناجيل الأخرى. وقد رد عليه كل من «أولهوزن» و«لوكه» Lüke.

— وكانت ألمانيا في ذلك الوقت مفتونة بمواهب «شلايرماخر» (١٧٦٨—١٨٣٤)، وهو لاهوتي ألماني عبَّر عن «الإيمان بأنه الإحساس بالإعتماد الكلي على الله». وقد تأثر به كثيراً العالم المشهور «هارناك». وكان «شلايرماخر» معجباً بإنجيل يوحنا أشد ما يكون الإعجاب. وقد انبرى للنقد السلبي الموجَّه لإنجيل يوحنا حتى أوقفه. وكان واسع التأثير بأسلوبه التقوي والتأملي. وقد تأثر به أيضاً العالم والمؤرخ الكنسي الليتورجي (اليهودي الأصل) «نياندر» وتنصَّر على يديه وتعمَّد. وهدأت حدة النقد ضد إنجيل يوحنا حتى سنة ١٨٣٥.

— ثم قام «شتراوس» (١٨٠٨—١٨٧٤)، وهو لاهوتي ألماني هاجم حياة المسيح وأنكر أن يكون القديس يوحنا الرسول هو صاحب إنجيل يوحنا. وكان له أسوأ الأثر على كل المدرسة اللاهوتية البروتستانتية في توبنجن، وازداد تأثيره حتى طُرد منها. ولكن عاد «شتراوس» نفسه بتأثير

---

(٣) لاهوتي ألماني أشد من هاجم صحة الخط التاريخي في إنجيل يوحنا، وذلك سنة ١٨٢٠.

العالم اليهودي المتنصّر الفذّ «نياندر» Neander (١٧٨٩ — ١٨٥٠) الذي حاججه حتى ردّه إلى الصواب. فعاد وصحّح إيمانه في الطبعة الثالثة من كتابه (١٨٣٨). ولكنه عاد إلى نقده ومهاجمته لإنجيل يوحنا في الطبعة الرابعة من كتابه سنة ١٨٤٠، محاولاً بذلك مهادنة مدرسة توبنجن Tübingen التي قامت في ذلك الوقت لمساندة «شتراوس» في نقده السلبي لإنجيل يوحنا، مدّعية أنه من وضع متأخر عن القرن الأول بمائة سنة، ولا علاقة له بالقديس يوحنا الرسول، وأنه من تأليف غنوسي.

وحينما ظهرت مؤلفات «ڤايس» C.H. Weisse سنة ١٨٤٠ الذي اعتبر أن إنجيل يوحنا ما هو إلا قصة خيالية مؤلّفة غير واقعية، انبرى له العلاّمة «فورمان» Formann ونقد نظريته ودحضها بمقدرة عالية فأسكته. ولكن الأثر السلبي ما فتىء يشتعل تحت التراب.

— وانضم إلى حركة النقد «بور» F.C. Baur (١٨٠٩ — ١٨٨٢). وهو لاهوتي ألماني فاق «شتراوس» في نقده، وهو مؤسس مدرسة توبنجن النقدية على أسس تاريخية. كما انضم إليه أيضاً «شويجلر» (١٨١٩ — ١٨٥٧)، و«زِلّر» Zeller ، مؤكدَيْن أن إنجيل يوحنا من وضع سنة ١٦٠.

— وازدادت حركة النقد بواسطة مدرسة توبنجن على يد «ألبرت توما» Albrecht Thoma (١٨٨٢)، و«هولتزمان» Holtzmann (١٨٨٥) اللذين جاهرا بأن تعاليم القديس يوحنا مأخوذة من رسائل القديس بولس الرسول.

— وفي أوج عصر المدرسة النقدية السلبية المتحررة التي يُعتبر أصحابها خارج دائرة الإيمان السليم، قامت مدرسة **«النُّقَّاد المعتدلين»**، كما سماهم التاريخ. وبالرغم من صدق النوايا لدى هؤلاء في الجري العلمي وراء الحقيقة التاريخية، كما يقولون، إلاّ أنهم أضرُّوا بالإنجيل أكثر مما نفعوا، وأساءوا إلى حرارة الإيمان وقوة تماسك الكنيسة في كل أنحاء أوروبا وأمريكا دون أن يدروا، بسبب تنشيط ذهن الشباب في النقد وضياع هيبة الإنجيل والإيمان المسيحي عامة؛ وإليهم يعود السبب في هبوط مستوى الإيمان واضمحلال التقوى وضياع الشباب وتخبُّط رجال الدين وتمرد الإكليروس الكاثوليكي على النمط التقليدي والسلوك التقَوي. لذلك فعليهم دينونة لا يعرف قسوتها إلاّ الديّان.

ويتزعم هذه المدرسة — غير بعض الذين سردنا أخبارهم — وعلى مدى السنين كل من: برونو Bruno Bauer ، «فردناند» Ferdinand ، «شفجلر» Schwegler ، «يوليخر» Jülicher ، «رڤيل» Reville ، وآخرهم تاريخياً وأكثرهم تأثيراً على العلماء الآخرين هو العالم الكاثوليكي

«لويزي» Loisy (١٨٤٧ــ١٩٤٠)، وهو «مودرنست» أي تقدمي، ناقد متحرر غير منضبط، كان يدرس إنجيل يوحنا على أساس أنه من وضع ما بعد منتصف القرن الثاني، مؤكِّداً ذلك كحقيقة لا تُنقض. حتى ظهرت بردية رايلاند في صعيد مصر تؤكِّد في المقابل أن الإنجيل من وضع لا يتجاوز القرن الأول بأي حال، وكانت لطمة له. وكان إيمانه الكاثوليكي متزعزعاً خاصة بعد أن درس على «رينان» الفيلسوف والمؤرخ (الملحد). وكان قد وصل إلى أستاذية كرسي الأسفار المقدسة بالرغم من ميوله نحو عقيدة الـ pantheism أي تألُّه الكون أي أن الكون والله أو الله والكون شيء واحد، وهي عقيدة هندية الأصل. وأخيراً انتهى إلى مجرد مدرس تاريخ في الكوليج دي فرانس. والعجيب أنه ما من شارح حديث لإنجيل يوحنا إلاَّ ويتخذ شرح لويزي هذا مرجعاً له.

ــ وفي الوقت الذي تضافرت فيه العقول الجبَّارة لهدم إنجيل يوحنا بالنقد السلبي غير البنَّاء، كانت هناك مجموعة من العلماء من مختلف الجنسيات يحدوهم روح الإيمان والتقوى والعلم أيضاً للدفاع عن صحة إنجيل يوحنا وأصالة مستواه الروحي، وحقَّقوا أن كاتبه هو القديس يوحنا الرسول بن زبدي، وأن الخط التاريخي فيه أشد صحة مما كان يظن هؤلاء النقاد، وأن منهجه اللاهوتي والسرائري والكنسي فائق القيمة، وقد استخدم معظمهم المنهج التقليدي في البحث العلمي الدقيق. وأثبت معظمهم أن إنجيل القديس يوحنا من وضع نهاية القرن الأول سنة ١٠٠م.، أو ربما أقل قليلاً. الأمر الذي أثبتت البرديات التي اكتُشفت بعد ذلك بنصف قرن صحة وصدق أبحاثهم. ولكن لا تخلو هذه الأبحاث والشروحات من الهنَّات التي يمليها الفكر العلمي، فتقف ذات لون باهت يسهل فرزها إزاء ضوء الإيمان الأرثوذكسي الساطع.

وأهم هؤلاء العلماء بوجه عام ومختصر هم:

العالم الألماني «بليك» Bleck (١٧٩٣ــ١٨٥٩)، الألماني «دي وت» De Wette، «رويز» Reuss، «لوثاردت» Luthardt، «جوديت» Godet، «زَهن» Zahn، «شانز» Schanz، «كنابنبور» Knabenbaur، «لبين» Lepin، «جراندميزون» Grandmaison، «تلمان» Tillmann، «لاجرانج» Lagrange.

أما العلماء ذوو الشهرة العالمية القدامى والمحدثين الذين استطعنا الحصول على شرحهم لإنجيل يوحنا، واطَّلعنا على أبحاثهم ودراستهم، إما مباشرة أو عن طريق تعليقات لعلماء آخرين عنهم، فنأتي على ذكرهم هنا بشيء من التفصيل دون أن نستطرد في بقية المؤلفين العديدين ذوي الشهرة المحدودة في بلادهم والذين لم نغفل ذكرهم أثناء الدراسة والتعليق والشرح.

١ – اللاهوتيون العلماء التقليديون ذوو الشهرة العالمية، وشروحاتهم لإنجيل القديس يوحنا:

وهم المعتبرون البقية الباقية من المحافظين القدامى الذين يمتُّون بشيء كثير إلى فكر الآباء القديسين الأوائل. والعجيب أن معظمهم له سيرة في التقوى مشهودٌ لها، ومؤلفاتهم تُعتبر أهم ما يمكن أن يتثقف به أي دارس للإنجيل دون خطر كثير.

وهم حسب ترتيب ظهور شروحاتهم لإنجيل يوحنا زمنياً كالآتي:

١ – **هنجستنبرج:** HENGSTENBERG, ERNEST WILHELM

(١٨٠٢–١٨٦٩)

لاهوتي ألماني درس على نياندر. أصدر شرحه لإنجيل يوحنا سنة ١٨٢١ على أسس دفاعية عن الإيمان والأخلاق والتقوى الشخصية. يستشهد فيه بالآباء القديسين الأوائل وعلى خلفية غزيرة من العهد القديم. ولكن المؤلَّف يخلو من الأبحاث العلمية للكلمات والمواضيع. وهو مؤلَّف قيِّم في مجلدين ضمن مجموعة «كلارك» للمكتبة الكاثوليكية اللاهوتية.

٢ – **ثولوك:** THOLUCK,F.AUGUST

(١٧٩٩–١٨٧٧)

درس على نياندر. لاهوتي ألماني تقي.

قاوم العقلانية في ألمانيا في جيله. أخرج شرح إنجيل يوحنا سنة ١٨٢٧ لتثبيت الإيمان وتقويم الأخلاق. له دراسات تقوية. كان ذا تأثير أخلاقي كبير على جيل الشباب، فكان راعياً من الدرجة الأولى.

٣ – **ماير:** MEYER, H.AUGUST WILHELM

(١٨٠٠–١٨٧٣)

عالم ألماني. كاهن زاول خدمته بنجاح. ضليع في اللاهوت. شرح الأناجيل كلها ومنها إنجيل يوحنا وسفر الأعمال ورسائل القديس بولس الرسول بين سنة ١٨٣٢–١٨٥٢. وهي تُمتدح من كافة العلماء والمؤلفين، فقد استوفى كل أصول الشرح الدقيق واهتم بمعاني الكلمات لأنه كان ضليعاً في اللغة اليونانية. أعيد طبع مؤلفاته العديد من المرات، وخرجت باللغة الإنجليزية في عشرين مجلداً، ولا تزال تُطبع، وهي متداولة حتى اليوم.

٤ ـ **بليك:** BLEEK, FRUDRICH

(١٨٩٣-١٩٥٩)

لاهوتي ألماني محافظ، أستاذ شرح الإنجيل. أخرج شرحه لإنجيل يوحنا سنة ١٩٤٠ على أصول تقليدية. محاجج ومدافع عن الأصول التقليدية مع أنه باحث ومحلل.

٥ ـ **وستكوت:** WESTCOTT, B.FOSS

(١٨٢٥-١٩٠١)

إنجليزي. أسقف دورهام. صديق العمر للعالم لايتفوت.

مؤلف لتاريخ الأسفار المقدسة وقانونها، ولشرح مقدمات الإناجيل. أستاذ لاهوت سابق في كمبردج. نقّح وصحّح الإنجيل باللغة اليونانية. أخرج شرحه القيّم لإنجيل يوحنا ورسالته سنة ١٨٨١ بحسب الأصول اليونانية آية آية على مثال شرح المدرسة الإنجليزية. كرّس نفسه لمساعدة الإرساليات التبشيرية. ورعاية الطلبة روحياً في كمبردج ولا تزال هناك المؤسسة التي تحمل اسمه. ذاع صيته بسبب شرحه لإنجيل يوحنا، إذ اعتُبر لدى لاهوتيي كل إنجلترا وأوروبا بأجمعها أساساً لا غنى عنه لكل شرح مهما كان. تمسك بالناحية التقليدية، سواء للشرح أو للمعنى أو التاريخ أو صحة نسبة الإنجيل الرابع لكاتبه القديس يوحنا الرسول والتلميذ، وأفرد لذلك جزءاً كبيراً من كتابه يصح أن يكون كتاباً بمفرده. له بصيرة نافذة نحو عمق المعاني. واعتمد في بعض الأحيان على شروحات الآباء القديسين الأوائل. ورفع من رؤية المسيح الإله المتجسد.

٦ ـ **هوسكنز:** HOSKYNS, SIR EDWYN CLEMENT

(١٨٨٤-١٩٣٧)

لاهوتي إنجليزي حديث محافظ تقي. عميد إحدى كليات كمبردج.

إشتهر بسبب مؤلَّفه «مسيح الثلاثة الأناجيل»، الذي فيه حاجج وبرهن أن المدعو «يسوع التاريخ» لدى البروتستانت الأحرار ليس يسوع التاريخ في شيء ولا يمت للتاريخ. ودافع عن الأناجيل بشدة ضد مدارس النقد وهو عقائدي، موضوعيُّ المبدأ. للأسف مات دون أن ينتهي من الورقات الأخيرة في مؤلفه اللاهوتي في شرح إنجيل يوحنا الذي بدأه سنة ١٩٢٣، والذي أكمله له F.N. Davey سنة ١٩٤٠.

وقد عارض وحاجج النقاد. مُثْبِتاً وحدة وأصالة إنجيل يوحنا. وأبرز المعنى والمعيار اللاهوتي فيه ككل. جمع بين أسلوب الآباء القديسين مستشهداً بهم، وبين البحث العلمي الحديث برصانته ودقته. وقد كان لهذا العالم تأثيره الروحي على كافة طلبة اللاهوت في جيله، وترك أثره اللاهوتي

الحميد لكل إنجلترا.

٧ — دودد: DODD, Charles Harold

(١٨٨٤—١٩٧٣)

إنجليزي لاهوتي متخصص لدراسة العهد الجديد، خادم إنجيل للكنيسة. أستاذ لاهوت في مانسفيلد وأكسفورد ومنشستر وكامبردج.

تعيَّن سنة ١٩٥٠ رئيس هيئة إعادة ترجمة الإنجيل. يتمسك بسلطان الإنجيل ويؤلِّف له، وبسلطان التقليد الرسولي والمناداة بالإنجيل. واهتم وكتب عن الأُخرويات كما جاءت في العهد القديم، وبتحقيقها في كلمات المسيح من جهة مجيء ملكوت الله، وكيف تمت بالتجسد وأثرها على البشرية. كذلك كتب عن خط الخلاص في المسيحية كما أعلنه الله على مدى التاريخ الكتابي وتحقق بقيامة المسيح. كما قدَّم لكتابه عن إنجيل يوحنا سنة ١٩٥٣، وأضاف إليه أبحاثاً أخرى سنة ١٩٦٣ فيما يختص بالخط التاريخي.

وقد جاهد هذا العالم المتحفظ بأقصى طاقته لكي يملأ الفجوات التي استحدثها النقاد في إنجيل يوحنا من جهة الخط التاريخي فيه، ومنابع النصوص، ومدى أصالة النقل والتسجيل في حدود الإيمان، ولكنه تمشى مع العلم والعقل والمنطق إلى أقصى الحدود التي يسمح بها الإيمان، ولكنها خرجت به اضطراراً عن أصالة التقليد.

ويقرر هذا العالم في مقدمة كتابه للإنجيل هكذا: [لقد نحَّيت جانباً الأسئلة التي تختص بالنقد الخالص]، مما يفيد صدق إيمانه. كما كتب في خاتمة كتابه بحثاً مقتضباً للغاية عن الخط التاريخي لإنجيل يوحنا مدافعاً عنه قدر ما يحتمله «المنطق». كما أثبت هذا العالم المدقق [أن وراء إنجيل يوحنا تقليداً رسولياً أقدم في أجزائه من التقليد العام الذي يقف خلف الثلاثة الأناجيل الأخرى.](٤)

٨ — باريت: C.K. Barrett

إنجليزي. لاهوتي. لغوي. أسقف دورهام. أصدر كتابه عن «شرح إنجيل القديس يوحنا» سنة ١٩٥٥ معتمداً على النص اليوناني. تشابك مع الفكر النقدي وظل يتأرجح بين إغراء الأخذ به والدفاع ضده. لذلك، فبالرغم من أصالة الشرح على النص اليوناني إلاَّ أن الخلفية غير صلبة. وقد ظل مأخوذاً بآراء بولتمان Bultmann العالم الألماني الناقد الذي لا يؤمن بالمعجزات ولا بالخوارق،

____

[4] C.H. Dodd: Hist. Trad. in the Fourth Gospel, p. 423.

ولكنه خالفه وقاومه في أمور كثيرة. وقد ردَّ ردوداً قوية ومقنعة على نظرية إحلال بعض أجزاء في إنجيل يوحنا موضع الأخرى، وعلى نظرية دخول مؤلفين كثيرين للإنجيل غير كاتبه (أنظر كتابه ص ١٨ — ٢٠).

كما تحدى بولتمان في قوله إن القديس يوحنا فقد الرؤية الواضحة للكنيسة، لأن الكنيسة غير موجودة في إنجيل يوحنا في نظر بولتمان. فردَّ عليه «باريت» في كتابه ص ٧٨ بقوله: [إن يوحنا كان أكثر وعياً من أي إنجيلي آخر بوجود الكنيسة]، مقدّماً صلاة المسيح من أجل كل مَن يؤمن بالمسيح في كل أنحاء العالم هكذا: [«ولست أسأل من أجل هؤلاء فقط، بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم» (يو١٧: ٢٠). وعاد واستشهد بالمسيح في إنجيل يوحنا، حينما طوَّب كل شعب المسيح الذين يؤمنون به دون أن يروا المسيح أو معجزاته: «لأنك رأيتني يا توما آمنت. طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يو٢٠: ٢٩). بل وفي بداية إنجيل يوحنا رفع القديس يوحنا الكنيسة الجديدة لتحل محل المرفوضة: «إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله، أما كل الذين قبلوه — أي المسيحيون — فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون بإسمه» (يو١: ١١و١٢)، موضحاً أنهم ليسوا أولاد إبراهيم بعد بل أولاد الله] — أي المولودون له من الماء والروح.

٩ — **رايموند براون**: Raymond E. Brown = وينطق ريمون بالفرنسية.
أستاذ لاهوت أمريكي في ولاية بلتيمور. عالم كاثوليكي متحرر.
أصدر شرحه لإنجيل يوحنا في جزئين ضمن مجموعة «أنكور بايبل» **Anchor Bible** (١٩٦٦ — ١٩٧١). ويقول عن نفسه أنه حصد ثمار أفضل الأبحاث والآراء التي خرجت لجميع المؤلفين كاثوليك وبروتستانت. عارضاً إياها ضمن آرائه الخاصة في عرض زاخر بالفكر. وهو، في مضمونه العام، تقليدي ومدافع عن أصالة الإنجيل وتقليده وتاريخه ضد جميع عناصر النقد لكافة النُّقَّاد مع هنَّات لا يخلو منها الفكر الحر مهما كان.

١٠ — **لايتفوت** : **Lightfoot**
لكي لا يرتبك القارىء الباحث في هذا الإسم، يلزم أن نفرق بين ثلاثة بهذا الإسم كلهم إنجليز:
الأول: **John Lightfoot**
(١٦٠٢ — ١٦٧٥)
وهو يهودي ربي متنصِّر — كان علاَّمة زمانه وأسدى أفضالاً في شرح نصوص العهد الجديد. وكان مَنْجماً لذخائر المعرفة، لم يتفوق عليه أحد من بعده. وشغل مناصب رئاسية في جامعتي

وستمنستر وكمبردج.

الثاني: Joseph Barber Lightfoot

(١٨٢٨ — ١٨٨٩)

وهو أسقف دورهام — كان أستاذاً للاهوت. وأحد الذين راجعوا الإنجيل باليونانية — الإنجليزية. وقد اهتم بأبحاث العهد الجديد. واشتغل في إخراج مجموعة أبحاث الآباء الرسوليين وأظهر في ذلك مقدرة علمية عالية.

ومن جهة إنجيل يوحنا فقد اشترك مع العلاّمة اللاهوتي الألماني Zahn (١٨٣٨ — ١٩٣٣) (وهو أيضاً آبائي محافظ بارع ألّف شرحاً لإنجيل القديس يوحنا سنة ١٩٠٨). وقد اشترك الإثنان في مقالة ضد حاخام يهودي يدعى «بار صليبي»، أوضحا فيها أصالة إنجيل القديس يوحنا وسمو مستواه الروحي والتاريخي. وأثبتا أن تاريخ كتابة إنجيل يوحنا لا يتعدى سنة ١٠٠ م.

الثالث: Robert Henry Lightfoot

(١٨٨٣ — ١٩٥٣)

عميد إحدى كليات أكسفورد، وكتب كتابه في شرح إنجيل القديس يوحنا، ولكنه توفي قبل أن يصدره وأخرجه له C.F. Evans سنة ١٩٥٦. ويتميز بالدقة والحرص الشديد في البحث والرد على النُّقَّاد الشكليين. له إيمان مسيحي عميق صامت. وكان له تأثير تقوي بليغ على طلبة أكسفورد في أيامه.

١١ — شناكنبرج: Schnackenburg Rudolf

(١٩١٤ —   )

عالم كاثوليكي ألماني — أستاذ لاهوت في جامعة فورزبرج. أخرج شرحه لإنجيل يوحنا سنة ١٩٦٥. هو شارح للأسفار المقدسة قدير، متحفظ تقليدي، يسير في خطه الفكري حسب أصول تعليم الكنيسة بدقة وحسب أصول العلم بمنتهى الدقة. قد قيَّضه الله والتاريخ ليرد على أصحاب التحرر الفكري في النقد السلبي والشك كأساس لكل شرحهم، أمثال «بولتمان» الذي يقول عنه قاموس أكسفورد: «قاموس أكسفورد للكنيسة المسيحية» في صفحة ٢٠٦ بالحرف الواحد: [وفي كتابه «عن المسيح سنة ١٩٢٦» تمادى في نقده إلى الحد الذي قرر فيه تجاهل وإنكار العمل الفدائي للمسيح بل وتعاليمه الأخلاقية — وذلك بمنتهى النقد والشك معاً ووضع ثغرة بل فجوة بل جفوة بين الإيمان والتاريخ. ونادى بحتمية إخلاء أسفار العهد الجديد من (الخرافات Entmythologisierung). وهو لا يعتبر أن الميلاد البتولي من العذراء للمسيح ليس وحده هو

الخرافة فحسب بل إن الإنجيل كله مبنيٌّ على الخرافات]. هذا هو بولتمان المرجع الذي تهافت عليه جميع النقاد الذين شرحوا الإنجيل في أوروبا وأمريكا حتى اليوم.

نقول إن الله قيّض لنا هذا العالم القدير شناكنبرج ليكبح جماح هؤلاء النقاد الذين أتلفوا الإيمان والكنيسة بإفراط.

وعن شناكنبرج يقول العلماء الذين باشروا أبحاثه:

[إن «مشكلة إنجيل يوحنا» التي أزعجت وكدّرت كل باحثي العهد الجديد إلى ما يقرب من مائتي سنة — قد أرسى هذا العالم حلولاً لها. وفوق الأسئلة المطروحة للبحث والفحص التي تخص إنجيل يوحنا مثل علاقته بالثلاثة الأناجيل الأخرى واختلاف تكوينه الكلامي من جهة الشكل والمصادر التي يعتمد عليها، كان ولا يزال الهمُّ الأول — الذي أغفله جميع النقاد — هو رسالته الروحية كأساس للديانة. وهذا المجال عينه هو الذي اهتم به شناكنبرج في إنجيل يوحنا: «فهو شرح لاهوتي». وإن كان لم يضع ثقله على المشاكل اللفظية والكلامية أو المقارنات أو الأحوال التاريخية، إلا أنه عرض لها وخاض فيها بقدر ما يمكن أن تعطي معرفة أفضل لرسالة الخلاص المذاعة في هذا الإنجيل الذي أثبت أنه أغنى الأناجيل].

وشناكنبرج هو صاحب المبدأ القائل: [الذي يهمنا للغاية هو قصد كاتب الإنجيل وليست آراؤنا نحن فيما كان لازماً عليه كيف يدوّن إنجيله بحسب معاييرنا نحن عن التاريخ][5]. علماً بأن هذا العالم استشهد بجميع كتب الآباء القديسين الأوائل ولم يترك مرجعاً كنسياً واحداً إلا واستشهد به.

٢ — مدارس شرح إنجيل القديس يوحنا في الوقت الحاضر:

(بحسب رؤية العالم شناكنبرج)

أولاً: المدرسة الألمانية النقدية:

وقد وضع بولتمان بَصْمته عليها، فهي لا تزال تحت تأثير شرحه لإنجيل يوحنا الذي أرجع أصوله إلى التعاليم الغنوسية، وجرّده من أسمى ما فيه بدعوى تنقيته من الخرافات، وعلى الأخص إلغاؤه لحقيقة الفداء. وقدم تحليله ببراعة العقل الذي أخذ بالعقول. وبحسب رأينا فإنه أحلَّ حذق النقد بدل قناعة النعمة. ويعتبره العلماء المفتونون به أنه بلغ القمة في أسلوب الشرح اللاهوتي التقدمي.

---

[5] Schnackenburg, op. cit., p. 24,25.

أما رأي المتحفظين والكنسيين من زملائه الألمان(٦)، فهو أنه قد أصاب الذين يتتبعونه بالغثيان بسبب تعقيداته في إرجاع أصول الإنجيل إلى عديد من الجذور اليونانية والغنوسية وحتى الإيرانية والوثنية!!، مما جعل حمل النقد الذي طال زمنه في هذا المجال فوق الإحتمال. وقد صبغ بولتمان طريقة شرحه وتفسيره لبشارة القديس يوحنا بالوجودية، وأقام لاهوته على التطبيق الوجودي أي مواجهة لاهوت المسيح بالواقع العملي في الحاضر الزمني بالنسبة للإنسان. أما كيف يكون ذلك مع أنه جرَّد اللاهوت من عمل النعمة والإعجاز وتدخُّل الله الفائق، فهذا وإن كنا نندهش له، إلا أن هذا — رغماً عن أنفنا — صار موضة العصر في شرح إنجيل يوحنا عند المدرسة الألمانية النقدية ومن يتبع رأيها وهم الأكثرون.

ثانياً: المدرسة الإنجليزية التقليدية:

وهي قائمة على أعمال رجال عظماء حقاً تبوأوا المراكز العليا في الكنيسة وفي العلم والتقوى بالدرجة الأولى. وأهم هذه الأعمال هي للعالم «هوسكن» و«دودد» من الأنجليكان. وقد تبوأت مركزاً سامياً بسبب التزامهم بالتقليد والآباء. وقد بقيت مدرستهم حيَّة حتى هذا اليوم علماً بأنها استقت أصولها التقليدية الرزينة ممن سبقوهم مثل العالم «وستكوت» الذي لا يزال شرحه منذ ٨٠ عاماً متداولاً حتى اليوم. وقد نأت المدرسة الإنجليزية بنفسها حتى اليوم عن التحليل والنقد الحرفي.

وفي مواجهة المدرسة الألمانية الحديثة، قام العالم الإنجليزي التقي الأسقف باريت **C.K. Barrett** وقدم شرحه اللاهوتي الدقيق القائم على أصول الشرح التقليدي عند الإنجليز وهو التعمق في النص والإلتزام بمعنى الكلمات والآيات في مواضعها. ويُعتبر شرحه عملية موازنة رائعة وملفتة للأنظار بحسب رأي شناكنبرج الألماني. كذلك العالم اللاهوتي جون مارش عميد كلية مانسفيلد في أكسفورد الذي قدم شرحه سنة ١٩٦٨.

ثالثاً: المدرسة الألمانية التقليدية:

ويتزعمها فريقان متفقان: الفريق البروتستانتي وأهم علمائه:

Kümmel, T. Zahn, A. Schletter, F. Büchcel

والكاثوليك وأهمهم شناكنبرج. وهؤلاء يقفون الآن في مواجهة هذا التيار النقدي العنيف يصدونه بأقصى قدر من الدراسة والمعرفة والإتزان مع تمسكهم بالإيمان الصحيح والتقليد. ويساندهم بالطبع الكاثوليك من أوروبا وأمريكا أمثال: **Raymond E. Brown, Xavier Léon-Dufour, S.J.**

ولاجرانج **Lagrange**

---

6 Schnackenburg, op. cit., p. 211.

وعلى العموم فإن المدرسة الحديثة التقليدية انتحت ناحية الشرح اللاهوتي لإنجيل يوحنا متمسكة بالنص وبالمعنى الحرفي للكلمة والآية قبل كل شيء، لتُخرج الكنوز المختفية في هذا الإنجيل.

وإلى هنا نكتفي بهذا القدر الضئيل من عرض كتب الشرح لإنجيل يوحنا عند الغرب والتعرف على أهم شارحيها. والذي يريد أن يدرس إنجيل يوحنا لا يستثقل مشقة البحث. وطالما كان القارىء أو الباحث والشارح متسلحاً بالإيمان عن وعي مسيحي، فسوف يسخِّر له الروح معرفة الحق مهما اختفت وراء الأغلفة التي يصطنعها العقل البشري.

الفصل الثالث

النقد الموجَّه لإنجيل القديس يوحنا والرد عليـه

كنـا نـود أن لا نشغل فكر القارىء القبطي، وهو بوجه عام صاحب فكر إيجابي وتقليدي، بهذا الموضوع المثير. ولكن إذ قد أقحم على الكنيسة في كل العالم وبالتالي على جميع المؤمنين، شاءوا أو أبـوْا، هـذا الصـراع الخاص بـالخط التاريخي في إنجيل يوحنا؛ وذلك ليس من طرف معلم واحد أو مدرسة فكر معينـة، بـل من جميع مدارس اللاهوت في كافة أنحاء العالم حيث يتزعم هذا الفكر جماعات مـن ألمع أساتذة اللاهوت ومن جميع الطوائف في أوروبا وأمريكا على السواء؛ لذلك فإننا ونحن لا نـريد أن يظل القارىء والدارس القبطي خالي الذهن من جهة هذا النقد، بل هذا الصراع الفكري العالمي، خاصة وأن كثيرين من شبابنا وربما بعض رجال الكهنوت يدرسون في هذه المعاهد أو ينقلون عنها؛

لذلك، حاولنا عرض خلاصة لنواحي هذه الدراسات النقدية، والرد عليها قدر الإمكان.

ويـقـدم لنا العالم اللاهوتى الأمريكي الكاثوليكي «رايموند إي براون» Raymond E. Brown ملخص هذه الإنتقادات في مقدمة كتابه الحديث في إنجيل يوحنا في الجمل الآتية:

[في نهـايـة الـقـرن الـسـالـف وفي الـسنين الأولى من القرن العشرين الحالي، دخلت مدارس المعرفة في حقـبـة مـن التطرُّف الشكَّاك نحو هذا الإنجيل (إنجيل يوحنا). وقد وضعوا **تاريخاً لـكـتـابـتـه** مـتـأخراً للغاية، إذ جعلوه من إنتاج منتصف القرن الثاني الميلادي، كما ادَّعوا أنه **نـتـاج الـفـكـر الـيـوناني، وجرَّدوه نهائياً من أي قيمة تاريخية** مدَّعين أن لا علاقة له بيسوع النـاصـري إلاَّ في القليل: وحتى النواة الصغيرة التي تمتُّ للحقيقة التي اتخذها المؤلف أساساً لعمله هي في اعتقادهم **منقولة من الثلاثة الأناجيل**... ومن نافلة القول أن نذكر أن قلَّة من الناقدين هم الذين كانوا يعتقدون أن هذا الإنجيل **يحمل مجرد ظل علاقة بيوحنا بن زبدي**

الرسول والتلميذ. وإن بعضاً من هذه المواقف الشكّاكية و بالأخص المتعلقة بكاتبه، والمصادر التي أخذ منها مادته لا تزال تتردد في تآليف بعضٍ من ألمع العلماء حتى اليوم.

ولكن المكتشفات الأثرية والبردية من النصوص القديمة التي ظهرت أخيراً، وقد أصبح لها الأثر البليغ غير المرتقب؛ جعلتنا نتحدى، عن علم وأصالة فكرية، كل وجهات النظر النقدية التي كانت قد وطّدت أقدامها وأخذت طابع الرسوخ ظلماً. والآن، أدركنا كم كانت الأسس التي بُنيت عليها هذه التحاليل الشكّاكية الضخمة أنها تافهة وقابلة للكسر.](١)

ولا يزال أمامنا الهجوم السافر الذي بلا أي أساس الذي قام به «كيرسوب ليك» Kirsopp Lake منذ أربعين سنة فقط، وها نحن نورده بالحرف الواحد:

[إنجيل يوحنا قد يحتوي على متناثرات قليلة من التقليد الحقيقي، ولكن على العموم هو قصة خيالية تعتمد على الوهم (كذا).](٢)

وقد علق على قوله هذا أحد اللاهوتيين التقليديين المدافعين عن الإنجيل وهو العالم هنتر A.M. Hunter بقوله: [هذا الحكم لا نسمعه عادة إلاَّ بخصوص كتب الهراطقة].

ولكن بعد ذلك ليس بكثير، بل وفي غضون ثلاثين سنة، ردَّ عليه العالم الباحث دودد C.H. Dodd في بحثه الذي أخرجه عن: «التاريخ في إنجيل يوحنا» بقوله: [إن وراء إنجيل يوحنا تقليداً قديما ــ أقدم من الثلاثة الأناجيل، ومستقلاً عنهم، هو جدير بالتقدير التام لخطورته، لأنه سيعيننا في التعرف على الحقائق التاريخية التي تخص الرب يسوع المسيح.](٣)

كما ينتهي هذا العالم الأمريكي الكاثوليكي في بحثه لإنجيل يوحنا في طبعته الأخيرة سنة ١٩٨٤ إلى الحقيقة الآتية: [ونحن نؤمن أن إنجيل يوحنا يقوم على تقليد راسخ من الأقوال والأعمال للمسيح. وهذا التقليد في بعض نواحيه واضح أنه أصيل وأولي. كما نؤمن أن إنجيل يوحنا يعطينا معلومات تاريخية صحيحة عن المسيح لم يحتفظ بها أيٌّ من الأناجيل الثلاثة.](٤)

---

1 Brown, Raymond, p. XXI.

2 Albert Schweizer Jubilee Book p. 431.

3 Dodd, C.H., The Hist. Trad. in the fourth Gospel, p. 433.

4 Brown, Raymond, op. cit., p. 41.

أولاً: المصادر المزعوم أنها أثّرت على القديس يوحنا في كتابة إنجيله

وسنعرض أولاً إلى الإدِّعاءات التي تقول أن إنجيل يوحنا أخذ مادته من أصول غير مسيحية.

وبادىء ذي بدء نقول:

إن إنجيل يوحنا كُتب باللغة اليونانية، وفي مدينة أفسس إحدى مواطن الحضارة اليونانية. وقبل أن يدخلها القديس يوحنا الرسول بحوالي ٥٠٠ سنة، كان فيها الفيلسوف هيراكليتوس Heraclitus أول من استخدم لفظة «اللوغُس» أي «الكلمة». لذلك يظن كثير من العلماء أن بعض أسفار العهد الجديد مدين نوعاً ما للفلسفة اليونانية، كما تمادى غيرهم من العلماء في اعتبار إنجيل يوحنا يردد أفكاراً لأفلاطون مثل قوله: «أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق.» (يو٨: ٢٣)

Ὑμεῖς ἐκ τῶν κάτω ἐστέ, ἐγὼ ἐκ τῶν ἄνω εἰμί·

كذلك «الخبز الطبيعي Natural »، و«الخبز الحقيقي Real ».

غير أنه لا تقلقنا هذه التصورات؛ فالأفلاطونية كانت تملأ جو العالم آنئذ، وقد رشح منها كثير من الإصطلاحات في التعاليم العبرية.

كما أتى غيرهم من العلماء مَنْ قال إن إنجيل يوحنا أخذ عن «فيلو» الفيلسوف اليهودي الإسكندري المعاصر للمسيح وللقديس يوحنا الرسول. ولكن لم يستطع أحد قط أن يبرهن هذا الزعم(٥). فلقد ظل الفيلسوف اليهودي خامل الصيت حتى في أيام زمانه، بينما صار إنجيل يوحنا وهو تحت الفحص الجهري نحو ألفي سنة شامخ الرأس، يمسك بناصية عالم الروح والإيمان والحب والعبادة والتصوف المسيحي واللاهوت، في أعلى وأعمق مُدرَكاته!!

١ — فلسفة هِرْمِسْ وإنجيل يوحنا(٦):

كثير من العلماء، ومنهم C.H. Dodd ، غرَّتهم المشابهة بين الكتابات التصوفية التي نشأت في مصر المسماة Hermetic writings ، وكان لها أتباع روحيون وفلاسفة. ونحن لا نستخف بهذا التراث، ولكن التحقيقات أثبتت أنه من عصر متأخر عن زمن الإنجيل.

هذه الكتابات تأخذ اسمها من الإله المدعو Hermes Trismegistus ، وهو اللقب اليوناني للإله المصري توت Thoth، وتعاليمه عبارة عن عدة رسائل أهمها الرسالة المدعوة Poimandres ،

---

[5] Hunter, A.M., Accord. to St. John, p. 33.

[6] Ibid., p. 24.

وهي لجماعة الهرماتيين الذين كانوا يعيشون في مدينة الأقصر بصعيد مصر كجماعة إخوة روحيين fellowship حوالي القرن الثاني الميلادي(٧). وكانت لهم مواهب روحية فائقة. وهم يُعتبرون الورثة الشرعيين لحكماء مصر وأسرارها. وفلسفتهم تخلط بين الأفلاطونية والرواقية الهللينية مع مواريث الشرق، سواء الهند أو مصر، لتخرج بتعاليم تصوفية عن الخلاص بالمعرفة.

وبالرغم من وجود بعض انطباقات بين هذه التعاليم و بين إنجيل يوحنا، إلاَّ أن تاريخ هذه التعاليم لم يتحقق تزامنه مع إنجيل يوحنا. فهي لا تزال محصورة بين القرن الثاني والقرن الثالث بعد الميلاد. لذلك، فمن المستحيل القول بأن إنجيل يوحنا اقتبس من اصطلاحاتها، بل ربما العكس. ولقد تأكد ذلك بعد ظهور بعض الآثار المكتشفة حديثاً، والتي توضح أن هذه الكتابات المنسوبة لهذه الجماعات أخذت وجودها باللغة اليونانية بعد القرن الثاني(٨).

٢ ــ الفلسفة الغنوسية وإنجيل القديس يوحنا: Gnostics

كان العالمان «رايتزنشتين» **Reitzenstein** و«بوسيه» **Bousset** أول مَنْ نادى بالتأثير الذي جرى على إنجيل يوحنا من الغنوسية وفلسفتها، وذلك في السنين الأولى من القرن العشرين. وقد تبنّى نظرتها بشيء من الإصرار والتمادي كلٌّ من العالمين **W.Bauer & Bultmann** . وذلك في العصر الحديث.

والمسألة الغنوسية مسألة عويصة ومعقدة. وقد قرر العالم **J. Munck** (٩) أن: [الغنوسية كمصطلح علمي لم يُقبل حتى الآن بوجه عام بتحديدات علمية مُتَّفق عليها]. وكل ما هو معروف منها الآن هو الثنائيات التي تقوم عليها كأساس لكل تعاليمها.

والغنوسية تؤمن بالوسائط المتعددة بين الله والإنسان، ومنها وسائط معادية. وهي تقول بأن النفس البشرية هي شرارة إلهية حبيسة المادة، وأن المعرفة وحدها كفيلة بأن تخلِّص النفس من الشرور وتوصلها إلى النور، وأن الذين يبلغون ذلك قليلون. وهي فلسفة معقدة على العموم، وكانت محدودة بين الذين يعرفونها.

وفلسفة الغنوسية تقوم، مثل جميع ديانات الفراعنة والشرق القديم، على فكرة أن الله سيخلِّص العالم بواسطة عملية موت وقيامة حيَّة، وأن الداخلين في هذه الديانات عليهم أن يمارسوا طقوساً

---

[7] Wagner, O.H., U.S.A. The Light of Egypt. T.H. Burgoyns, 1889, 2 Vols.

[8] Hunter, A.M., idem.

[9] CINTI (Current Issues in New Testament Interpretation), New York, 1962.

وأسراراً معينة تختلف باختلاف الديانة والعصر لكي يصيروا معدودين لهذا الإله، وأنهم سيقومون بعد الموت بقوى كوكبية تحفظهم من الموت. فالخلاص عند الغنوسيين لم يكن أكثر من تأملات وتعاريف ومسرّات عقلية وممارسات تصوفية، كانت تقتحمها قوى سحرية ينهزم أمامها العقل.

وواضح أن المسيحية، وبخاصة إنجيل يوحنا، تقف كواقع تاريخي مشاهد، مشهوداً له وفعّالاً بالروح؛ في مقابل هذه القصص الخرافية التي من نسج الخيال والتي لم تكن إلاَّ إرهاصات من الروح البشرية وهي تنزع إلى الخلاص، الذي كان قد أعده الله، وسبق وتنبأ عنه جميع الأنبياء القديسين منذ القِدَم، ولكن بصورة معتمة جداً.

وماذا حدث بظهور إنجيل يوحنا؟ لقد انحسرت كل هذه الديانات، وتلاشت كما تتلاشى الخرافة أمام الحقيقة، لأن إنجيل يوحنا — وإن كان قد استخدم بعض ألفاظ أو اصطلاحات الغنوسيين — فقد كان ذلك لأنه كان يكتب إلى الوسط الذي كانوا يعيشون فيه وأثّروا عليه، بل وكان يكتب لهم هم أيضاً ولكثير من المسيحيين الذين كانوا قد انضموا إليهم. وأقوى تشبيه عملي يمكن أن نقدمه لهذه المقابلة بين المسيحية في إنجيل يوحنا والغنوسية، هو ما جاء في سفر الخروج بخصوص الحقيقي والسحري هكذا: «وفَعَلاَ هكذا كما أمر الرب: طرح هرون عصاه أمام فرعون وأمام عبيده فصارت ثعباناً. فدعا فرعون أيضاً الحكماء والسحرة، ففعل عرّافو مصر أيضاً بسحرهم كذلك، طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصي ثعابين. ولكن عصا هرون ابتلعت عصيّهم.» (خر٧: ١٠—١٢)

وهكذا عاشت المسيحية وتنصّر الغنوسيون، وعاش إنجيل يوحنا وصار دستور الإيمان لكل مسيحيي العالم. واندثرت الغنوسية بكل تعاليمها وكتبها.

وإن كان إنجيل يوحنا قد تأثر كذلك ببعض الأفكار والعبارات اليونانية، فيقول العالم باريت(١٠): [وهل ننسى أن فلسطين كانت جزءاً من العالم اليوناني؟ وكلٌّ من العنصر الفلسطيني الحر واليوناني الحر أيضاً هو موجود في كافة أسفار العهد الجديد، ولا يمكن فصلهما، ولكنهما ملتحمان معاً ومتفقان معاً في إبراز شخص يسوع المسيح. ولم يكن إنجيل يوحنا وحده الذي ظهر فيه العنصر اليوناني، فالعنصر اليوناني كان قد ضغط بشدة على المضمون والشكل للتراث اليهودي].

ولكن بظهور مخطوطات وبرديات نجع حمادي سنة ١٩٤٦ وهي مكتبة للغنوسيين، عُثر فيها على إنجيلهم الأساسي **إنجيل الحق، وإنجيل توما** مترجماً بالقبطية عن اليونانية، وفيها شخصية المسيح

---

10 Barrett, op. cit., p. 32.

بأوصاف مزيّفة تطابق تعاليمهم؛ بهذه المكتشفات أصبحت المقارنة سهلة وواضحة بين إنجيل يوحنا وهذه المزيّفات الهللينية الأصل، كما تأكّد أن زمان انتشار هذه الفلسفة كان في القرن الثاني، أي بعد إنجيل يوحنا، وإن كان يُعتقَد أن لها جذوراً وثنية أقدم. ويقول العلاّمة «و. ف. ألبْرايْت» W.F. Albright (١١) أن هؤلاء الغنوسيين الذين شغلوا بال آبائنا القديسين إيرينيئوس وهيبوليتُس مدة في مواجهات ساخنة، هم في حقيقتهم أسوأ بكثير مما ظنُّوهم، فالخط الوثني ظاهر في تعاليمهم. وإنجيل يوحنا يحمل ضمناً ما يصلح أن يكون قطعاً لخط الرجعة على جميع تعاليمهم. وكذا تعاليم الدوسيتيين الذين كانوا يدّعون أنهم فرع من الغنوسية أيضاً. كل هؤلاء شجبهم إنجيل يوحنا دون مواجهة.

٣ — الماندِيون وإنجيل القديس يوحنا:

الماندِيون يُدعَوْن أيضاً بالناصريين Nasareans أي «**النصارى**». وأصل تسميتهم Manda من كلمة «ماندا» التي تعني «**المعرفة**»، أي جماعة المعرفة. وهم قسم من الغنوسيين يتخذون القديس يوحنا المعمدان شفيعاً لهم ويعتبرون أنفسهم من أتباعه. وبعضٌ من هذه الشيعة لا يزال يعيش إلى الآن في جنوب العراق. وعندما قام العلاّمة الألماني «ليدزباركي» Lidzbarki بترجمة كتبهم (١٩١٥—١٩٢٥)، وأهمها الجنزا أو الكنز Treasure وهو من القرن السابع، ظهر فيها بعض ألفاظ متشابهة مع إنجيل يوحنا مثل الحياة والنور والمجد ورموز الماء والخبز والراعي، وتعاليم عن فادٍ نزل من السماء إلى عالم الظلمة ليمارس الفداء لأتباعه قبل عودته إلى السماء. وفي الحال انتشرت حمّى «**الماندية**» بين العلماء، إذ وجدت كل أدوات التشابه في التعليم مع إنجيل يوحنا. وأشد مَنْ أصابت هذه الحمّى كان هو العلاّمة الألماني «بولتمان» للأسف، الذي ظن، بل أقدم على القول، أن هذه الشيعة أقدم من المسيحية؛ ولكنه لم يستطع أن يوفر لهذا الظن أي برهان. إذ أن كل ما يعرّفنا عن هذه الشيعة إنما هو كتابات القرن السابع الميلادي، حيث لا يُذكر فيها القديس يوحنا المعمدان باسمه الإنجيلي بل بإسمه العربي «يحيى» بن زكريا. والمعتقد أن هذه الشيعة فرع شارد من المسيحية، وأتباعها من أشد أعداء المسيحية. وكانوا يدعون أنفسهم «نصارى» وقت الغزو الإسلامي حتى يتهربوا وراء «**أهل الكتاب**». وكانت لهم صلة بجماعة الإيبيونيين(١٢).

ومن أسرارهم **تكرار المعمودية** لمساعدة الروح على ترك الجسد بعد الموت. ولكن للأسف ليست أمامنا مراجع كافية لكشف الغطاء عن هذه الجماعة، لأن كل مراجعهم لا تزال باللغة الألمانية،

---

[11] Albright, W.F., The Background of the New Testament and its Eschatology, Cambridge University Press, 1965, p. 162.

[12] Hunter, A.M., op. cit., p. 23-33.

إلاّ مرجع مختصر للمؤرخ العلاّمة نياندر(١٣) مترجم إلى الإنجليزية، وهو الذي أعطانا صورة مبسطة عن العلاقة القائمة بين «الإيبيونيين» Ebionites والنصارى أي «المانديين» الذين كانوا يقدّسون يوحنا المعمدان وينسبون إليه كل مواهب إيليا، لما كانوا يعتبرون أورشليم (قبل خرابها) أنها مدينة الله. وكانوا يعيشون على أمل عودة المسيح السريعة ليعيد لأورشليم أمجادها وملوكيتها لحكم الألف سنة (هكذا). وقد كان الإيبيونيون بؤرة فساد بالنسبة للشعب المسيحي الذي تأثر بهم.

ويمدنا أوريجانُس(١٤) – بصفة خاصة – ببعض الأخبار عن وجود بقايا لهم (في زمانه) في فلسطين. واستطاع أن يعرف أنهم قسمان: قسم يؤمن بميلاد المسيح الإلهي من العذراء، وقسم يرفض ذلك. كذلك يمدُّنا چيروم(١٥) بمعلومات تفيد أن جماعة أخرى منهم كانت تعيش في «بيريه» بسوريا في القرن الرابع، وكانوا يُعرفون باسم «النصارى» Nazareth، وكانوا يقاومون العزوبية ويأمرون بالزواج، وهؤلاء هم الذين عُرفوا بعد ذلك بالماندية.

٤ – مخطوطات وادي القمران وإنجيل القديس يوحنا:

وهي الكتابات التي اكتُشفت حديثاً في التلال المطلّة على البحر الميت. وأهم هذه المخطوطات هي: «منهج التلمذة» وهو كتاب قوانين الجماعة، و«العهد الدمشقي»، و«شرح على حبقوق»، و«درّج التطويبات»، و«درّج الشهادات»، و«حرب أبناء النور ضد أبناء الظلمة». وهذه المخطوطات تحمل بقايا تعاليم حياة الأسينيين، وهم جماعة رهبان اليهود، وتعاليمهم يهودية تقدمية تقترب من تعاليم العهد الجديد، ومن إنجيل يوحنا بصفة خاصة. وتغطي هذه الكتابات حقبة زمنية تنحصر بين نهاية القرن الثاني قبل الميلاد وبداية القرن الأول الميلادي. وربما يكون القديس يوحنا قد اطّلع على شيء منها.

وأول عالم جمع بين تعاليم هؤلاء الأسينيين وبين إنجيل يوحنا، هو العالم K.G. Kuhn، وذلك سنة ١٩٥٠. وأهم هذه التعاليم، المتقابلات: أولاد النور وأبناء الظلمة، الخير والشر، الذين **يعملون الحق** علماً بأن الحق لا يُعمل بل يُعرف فقط في المنهج الفكري اليوناني. إذن، نحن في عمق تراث العهد القديم حيث يتركز تعليمهم: «كل مَنْ يعمل الحق يكره الخطأ»، و«كل مَنْ اختار الخطأ فهو يسلك في الشر ويخاف من الحق». هذه الإصطلاحات قريبة من لغة إنجيل يوحنا.

ولكن الروابط بين هذه الكتابات وبين إنجيل يوحنا تبدو ضعيفة. فزعماء النور وزعماء الظلمة

---

13 Neander, General Ch. Hist., vol. II, 13-34.

14 Origen, C. Cels., I, V, c. 61.

15 Hieronymos, Commentar in Jsai. I. IX. c. 20.

هي مخلوقات في تعاليم القمرانيين — فزعيم النور هو ملاك — ولكن في إنجيل يوحنا النور مشخَّص في المسيح ابن الله؛ كذلك فإن معركة أبناء النور ضد أبناء الظلمة لن تنتهي إلاَّ بالمعركة الفاصلة القادمة، وهي عقيدة يهودية عامة من حيث المبادىء العامة التي تحكم العالم. أما في إنجيل يوحنا فهذه المعركة انتهت على الصليب بالنصرة الأبدية لحساب النور وأبناء النور، و بالقيامة داس المسيح على رأس رئيس الظلام وكل جنوده. «الآن النور يضيء»!! «الآن دينونة هذا العالم. الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً.» (يو١٢: ٣١)

وعندما قال القديس يوحنا في الأصحاح الأول أن «النور الحقيقي» كان آتياً إلى العالم لم يقصد نور المعرفة أو نور معرفة الناموس ولا نور الفكر، إنما نور الحياة الأبدية، نور استعلان الخليقة الجديدة «الجالسون في الظلمة وظلال **الموت** أشرق عليهم نور» نور **الحياة!!** هذه هي الحياة الجديدة بالروح. هذا الفهم بعيدٌ غاية البعد عن مفهومات وادي القمران بالنسبة للنور وأبناء النور وحرب أبناء النور!!

فإذا كان رد القمرانيين على السؤال كيف أصير «ابناً للنور»؟ هو بأن أسلك بحرفية الناموس وأتتلمذ لمعرفة التوراة! فإن ردَّ إنجيل يوحنا هو أن **أؤمن بالمسيح!!** و بالإختصار، فالفارق الأعظم بين تعاليم وادي القمران وإنجيل يوحنا هو شخص يسوع المسيح ابن الله المتجسد. وهذا غائب عن فكر، بل وعن خيال عُبَّاد وادي القمران.

إن الضجَّة الكبرى التي واكبت اكتشاف مخطوطات وادي القمران قد خمدت بعد التمعن فيما تعنيه الكلمات والمسمَّيات والإصطلاحات. فهي وإن كانت متشابهة مع إنجيل يوحنا، ولكن مدلولها يختلف اختلافاً لا وفاق فيه على الإطلاق.

٥ — فيلو العلاَّمة اليهودي وإنجيل القديس يوحنا:

لقد وُلد العلاَّمة فيلو سنة ٢٠ قبل الميلاد، وتوفي سنة ٤٩ ميلادية. وهو إسكندري المولد والوطن. وقد آل على نفسه أن يصالح العبرية والهللينية، ونحو هذه الغاية ركَّز كل كتاباته الغزيرة، شارحاً وموضحاً المعاني الدفينة التي احتوتها نصوص العهد القديم بطريقة روحية فلسفية تجريدية لا تخلو من إبداع.

وقد امتد أثره امتداداً ضعيفاً لا يُذكر بين يهود الإسكندرية، ولكن بلغت تعاليمه، عن طريق الصدفة، إلى مدينة أفسس بآسيا الصغرى بنزوح أحد تلاميذه إلى هناك، وهو أبُلُّوس المذكور في سفر أعمال الرسل (أع١٨: ٢٤و٢٥): «ثم أقبل إلى أفسس يهودي اسمه أبُلُّوس إسكندري الجنس رجلٌ فصيح مقتدر في الكتب. كان هذا خبيراً في طريق الرب، وكان وهو حار بالروح يتكلم

ويعلم بتدقيق ما يختص بالرب عارفاً معمودية يوحنا فقط».

وقد كان، في غالبية الأمر، تلميذاً لفيلو قبل أن ينتهي في علمه بأسفار العهد القديم إلى حقيقة الرب يسوع المسيح. وعن طريق أبلُّوس هذا، عرفت أفسس شيئاً عن اللوغُس الذي اتَّخذه فيلو أساساً لشرح التوراة وعماداً لمذهبه اللاهوتي الفلسفي.

ولكن ليس هذا معناه أن أبلُّوس أو فيلو أخصب إنجيل يوحنا بمعرفته الفلسفية، ولكن كل ما يمكن أن يُقال أن كل استفادة القديس يوحنا لا تخرج عمَّا استفادته الكنيسة من أبلُّوس قبل أن يعتمد ويقبل المسيح على يديْ أكيلا و بريسكلا. أو كما كان بولس الرسول وعاءً صالحاً لقبول معرفة الرب يسوع المسيح بسبب غيرته على معرفة الله والحق. أي أنه بسبب ما أضفاه فيلو من معرفة روحية بالأسفار المقدسة، و بعد ما أرساه القديس بولس الرسول أيضاً، فقد تهيَّأ لأهل أفسس استعداد صالح لقبول إنجيل يوحنا بمستواه اللاهوتي الفائق..

وقد كان فيلو يهودياً مُخْلِصاً لميراثه يدين بالخضوع الكلي للتوراة، معطياً إياها السلطان المطلق. ولكنه كان يطرق الآيات بفكر قد تشبَّع بالفلسفة الأفلاطونية الرواقية إلى الدرجة التي استطاع أن يحوِّل فيها كل اصطلاح طقسي أو ناموسي في التوراة إلى إحساس روحي محض، كذلك يحوِّل كل إحساس روحي إلى اصطلاح أفلاطوني رواقي. وكان يجني من عمله هذا تزكية عظمى للديانة اليهودية لدى العالم اليوناني.

ولكن هناك فرق شاسع بين مذهب فيلو الذي يرفع حقائق التوراة إلى المثال المطلق الأفلاطوني، و بين إنجيل يوحنا الذي يقدم المثال المطلق الإلهي في حالة متجسدة ملموسة ومنظورة.

فمثلاً، نحن نجد في كلٍّ من إنجيل يوحنا وكتابات فيلو هذه الحقيقة: «الله نور». أما فيلو فقد التقطها من المزمور «الرب نوري وخلاصي» (مز٢٧: ١)، فرفع هذه الحقيقة إلى فكر تأملي مجرَّدٍ، قرر بعده أن «الله نور» ثم استرسل في هذا المعنى، ثم يستخرج بطريق المنطق ما يلي: [بما أن الله هو النور فهو يرى ذاته، وهو قادر أن يعلن عن ذاته. وبما أنه بالنور نرى النور (اقتباس من مزمور آخر)، فالله لا يمكن أن يُرى إلا بواسطة الله]. والذي يقرأ هذا، يظن أنها مطابقة إلى حد ما لِمَا جاء في إنجيل يوحنا: «أنا هو نور العالم»، «مَنْ يتبعني فلا يمشي في الظلمة»، «أنا أشهد لنفسي وشهادتي حق»، «ولا يستطيع أحد أن يأتي إلى الآب إلاَّ بي». ولكن بالرغم من المشابهة المعنوية إلاَّ أن هناك خطاً فاصلاً يفصل كلام فيلو المصنَّع عن كلام إنجيل يوحنا الصادر من منبع النور؛ كما تفصل العين الحاذقة الوردة الصناعية عن الوردة الطبيعية الحيَّة. فيلو يتكلم عقلياً عمَّا استطاع

أن يدركه بالتأمُّل، وإنجيل يوحنا يتكلم الله فيه عن نفسه كنور حقيقي أظهر ذاته للعالم، فاستنار؛ كما فتح عينيْ المولود أعمى فرأى نور العالم. فأية مطابقة هذه تلك التي يراها النُّقَّاد بين فيلو والإنجيل؟

كذلك فإن كُلاً من فيلو والإنجيل يقول إن: «الله ينبوع ماء حي»، وبهذا يمكن أن يقع الناقد في ضلالة الإقتباس، أي اقتباس الإنجيل من فيلو! ولكن فيلو قرأ آية إرميا النبي: «تركوني أنا ينبوع المياه الحيَّة» (إر٢: ١٣)، التي تُقرأ أيضاً «ينبوع الحياة». ثم تأمل فيلو في مفهوم الماء، وفي الحال قال إن الماء هو كلام التوراة، أي الحق أو الحكمة أو الحياة ذاتها، وانتهى بذلك فيلو إلى القول أن الله هو المصدر أو الصلة الأولى أو المثال الأول للحياة والحق والحكمة.

فمَنْ يقرأ لفيلو هذا الكلام يتذكر قول الإنجيل: «مَنْ يشرب من الماء الذي أُعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد، بل الماء الذي أُعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية» (يو٤: ١٤). وهنا أيضاً يظهر الفارق الشاسع بين الإثنين، فالأول كرسام يرسم الماء على الحائط للعطشان، والثاني يقدِّم ماءً حقيقياً يروي العطشان ريًّا. وهنا المسيح إنما يحقق قول إرميا النبي، لأنه قد جاء ليكمل النبوة بالفعل والعمل. فإرميا كان يتنبأ عن المسيح، فإذا تكلم المسيح بما قال إرميا فهو إنما يتكلم عن نفسه بالحق، فهو صاحب العهد القديم بكل نبواته: «فإن شهادة يسوع هي روح النبوة» (رؤ١٩: ١٠). ولكن إذا تكلم فيلو عمَّا قاله إرميا، فهو، في حقيقة الأمر، يتكلم عن المسيح، ولكن **دون أن يدري**[١٦].

٦ ـ أسفار الحكمة وإنجيل القديس يوحنا:

الأسفار التي تتكلم عن «**الحكمة**» في العهد القديم إما من الأسفار المعتبرة من الأسفار القانونية الأولى مثل سفرَيْ الأمثال والجامعة، أو من تلك الأسفار المعتبرة أسفاراً قانونية ثانية مثل سفرَيْ الحكمة وحكمة يشوع بن سيراخ، أو من الأسفار غير القانونية ولكن المعتمدة لدى الباحثين مثل سفر أخنوخ.

ومن قراءة هذه الأسفار يتضح لنا أن إنجيل يوحنا كان في تقديمه للمسيح قبل التجسد بأنه هو «**الكلمة**» و«**الإبن الوحيد**» مُشخَّصاً تشخيصاً كاملاً، أي بلغة اللاهوت كأقنوم إلهي قائم في الله ومع الله، كان ذلك بإلهام الروح القدس الفائق، بحيث لم تخرج أوصافه عن الخط النبوي الذي

---

16 - ICC, Bernard, pp. 93,94.
- Hoskyns, op. cit., p. 158.
- Dodd, C.H., op. cit., pp. 54-74.

كان قد سبق الروح وأعطى ظلالاً عنه في أسفار الحكمة. ولكن معرفة القديس يوحنا بـ «الكلمة» هي معرفة اختبارية مُعَاشة، ولم يستمدها من دراسة أسفار الحكمة ولا أية كتب أخرى: «الذي رأيناه بعيوننا... ولمسته أيدينا من جهة **كلمة** الحياة.» (١يو١: ١)

ويتضح هذا التوافق من الجدول الآتى[١٧]:

	إنجيل يوحنا		أسفار الحكمة
١: ١	«في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله».	أم٨: ٢٢	«الرب قناني (جعلني) أول طرقه».
		أم٨: ٣٠	«كنت عنده».
٣: ١	«كل شيء به كان».	حكمة ٩: ٢	«خالق الإنسان بحكمتك».
		أم٨: ٣٠	«كنت عنده صانعاً».
		أم٣: ١٩	«الرب بالحكمة أسس الأرض».
		حكمة ٧: ٢٢	«الحكمة صانعة كل شيء».
٤: ١	«فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس».	أم٨: ٣٥	«مَنْ يجدني يجد الحياة».
		حكمة ٧: ٢٦	«الحكمة ضياء النور الأزلي».
٥: ١	«والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه».	حكمة ٧: ٢٩	«إذا قيست بالنور تقدمت عليه».
		حكمة ٧: ٣٠	«لأن النور يعقبه الليل أما الحكمة فلا يغلبها الشر».

17 Hunter, op. cit., p. 33.

١٠:١ «كان في العالم». سيراخ ٢٤:٥و٦ «إني خرجت من فم العلي بكراً قبل كل خليقة. وجعلت النور يشرق في السموات على الدوام وغشيت الأرض كلها بالضباب».

١٠:١ «والعالم لم يعرفه». أم ١:٢٩ «رفضوا الحكمة».

١١:١ «جاء إلى خاصّته وخاصّته لم تقبله». أخنوخ ٤٢:٢ «ذهبت الحكمة لتجعل مسكنها بين الناس فلم تجد لها مكاناً».

١٢:١ «وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله». حكمة ٧:٢٧ «تحل في النفوس القديسة فتنشيء أحباءً لله وأنبياء».

١٤:١ «وحلَّ بيننا». سيراخ ٢٤:٨ «والذي صنعني عيَّن مقر مسكني وقال اسكُني في يعقوب».

«مجد ابن وحيد لأبيه». حكمة ٧:٢٢—٢٥ «فإن فيها ,, **الروح الفَهِمَ، القُدُسَ**،، ، المولود الوحيد، بخار قوة الله، وصدور مجد القدير الخالص».

قدَّم هذه المقابلة الجيدة الإختيار العالم رندل هَرِّس J. Rendel Harris (١٨)، وفيها يتضح أمام القارىء مقدار القُرْبى الشديدة في الأسلوب والمعنى بين أسفار الحكمة وإنجيل يوحنا، وكيف أن

18 Harris, J. Rendel, The Origin of the Prologue to St. John, G 1917.

الحكمة يقدمها الوحي مشخَّصة قائمة مع الله، وعند الله، وأمام الله. وكثيراً ما كان ينتقل كاتب سفر الحكمة من الحكمة إلى الله ومن الله إلى الحكمة، في العمل، دون أدنى تفريق أو حذر!! حيث تتقارب بصورة ملفتة للنظر أوصاف الحكمة وأوصاف الكلمة عند القديس يوحنا، وكلاهما يأتي مُعبِّراً عن فكر الله، وعمل الله، وإرادة الله، لا على مستوى الفكر الخالص أو مجرد العمل، بل ككيان قائم بذاته متغلغل في الكون وفي الإنسان والخليقة.

والقديس بولس الرسول يلمح هذا ويعبِّر عنه هكذا: «بالمسيح يسوع الذي صار لنا حكمة من الله و برًّا وقداسة وفداء.» (١ كو١: ٣٠)

ولكن مهما كان التشابه والتقابل والتناسق بين الحكمة و«الكلمة» عند القديس يوحنا، إلاَّ أن «الكلمة» يظل متميزاً بتفوُّق شخصي في وضوح بلغ عظمته وتفرُّده حينما بلغ حد الظهور العلني متجسداً!! «والكلمة صار جسداً» ومتأنساً «كابن الإنسان»، ليستعلن في نفسه ومرَّةً واحدة وإلى الأبد سِرَّ أبُوَّة الله التي اكتمل حنانها وحبها في شخص يسوع المسيح نحو العالم والإنسان الخاطىء!!

ثانياً: النقد الموجَّه للخط التاريخي في إنجيل القديس يوحنا

وهذا النقد بنوع خاص شغل العلماء المحافظين والتقليديين، وخاصة الأتقياء منهم، بل وأقضّ مضاجعهم. وقد حاولوا جميعاً، كلٌّ منهم حسب قامته في الإلهام والمعرفة، معاً، أن يرد على احتجاجات المؤرخين العلميين ويصدّ الثغرات التي فتحوها للنيْل من الأصالة التاريخية لهذا الإنجيل؛ كما يقول العالم اللاهوتي التقليدي هوسكنز: [إن الدراسة الحديثة للإنجيل الرابع قد ألقت على الكنيسة مشكلة ضاغطة ألا وهي مشكلة التاريخ][١٩]. ثم يعود ويسخر من هؤلاء العلماء الملتزمين بالعلم التاريخي حينما أرادوا أن يطبِّقوا علمهم على منهج إنجيل يوحنا بقوله:

[إن كاتب الإنجيل الرابع من ناحيته يضغط أكثر على قرَّائه بعمق لاهوتي متفتح نحو ما هو أكثر أهمية من مشكلة التاريخ، وما هو محيِّر أيضاً — لأي فكر علمي — حينما يطرح «جسد» يسوع ابن الإنسان للأكل، ودمه للشرب!! ثم يضغط أيضاً بضرورة أن يتذكر الناس كل ما قاله[٢٠] (يو١٤: ٢٦)؟

---

[19] Hoskyns, op. cit., p. 58.

(٢٠) الإعتماد هنا لم يصبح على دقة الكاتب أو دقة التسجيل أو دقة التاريخ أو دقة الفهم، إنما على الروح القدس.

مرة أخرى نقول: جسد، دم، أكل، شرب، وضرورة تذكُّر كلامه؟؟ إنه صعب أن يتصور الإنسان مثل هذه اللغة التي تصعق الفكر، وبالأكثر حينما نحاول أن ننظر من خلالها إلى العنصر التاريخي! ولكن وبإصرار أكثر لا يقنع كاتب الإنجيل أن يستقر فكر القارىء حتى على نوعية وأهمية التاريخ هنا، بل يعود ويزحزح الفكر: «الروح هو الذي يحيي، أما الجسد فلا يفيد شيئاً!!» (يو٦: ٦٣)

إذن، على قياس الروح القدس وقيادته فقط تصبح كلمات المسيح ذات قيمة وقدر عال: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يو٦: ٦٣). ولكن إذا لم يفهموا كلام المسيح فالعلَّة تكون هنا أن **المسيح نفسه «ككلمة» = لوغُس قد فات عليهم هم إدراكه**: «لماذا **لا تفهمون كلامي**. لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي (كلمتي = لوغُس) τὸν λόγον τὸν ἐμόν » (يو٨: ٤٣). والنتيجة بالضرورة أن كلمات المسيح تحتاج لفهمها إلى شرح خاص من الروح ومن الحق فقط! «وأما المُعزِّي، الروح القدس، الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكِّركم بكل ما قلته لكم» (يو١٤: ٢٦)... فإذا أُخذت كلماته باعتبار أنها رواية تاريخية وحسب، فإنها تصبح تافهة للغاية وبلا معنى! «تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني. إن شاء أحد أن يعمل مشيئته(٢١)، يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا به من نفسي.» (يو٧: ١٦و١٧)

نعم، هذه هي شهادة كاتب الإنجيل شهادة تنطلق كطعنة خنجر في قلب العالم!! ذلك إن كان العالم هو العالم الذي أوْجدَ نفسه بنفسه وأن له نظامه وحقَّه الطبيعيين (أي إن كان بلا تاريخ إلهي)، وهي هي أيضاً الشهادة التي يطرحها الإنجيل الرابع كطعنة أيضاً في قلب التاريخ، إن كان التاريخ هو التاريخ الذي يحوي في طيَّاته برهان نفسه ومعناه الذي يقبل وحده التحليل والوصف.

بل لا نبتعد عن الصواب إذا ما قلنا أن المسيح نفسه كان مهدَّداً في وجوده ـــ إن كان كما تصوره اليهود ـــ قد ظهر على **مسرح التاريخ «بتأكيد من ذاته وحسب»** مبتدرين إيَّاه بسؤال التحدي: «**مَنْ تجعلْ نفسك؟**» (يو٨: ٥٣)، حيث إذا أراد كلمة واحدة فيكون هذا هو التجديف! وهنا نقف ونلتفت إلى ما كان يدور في ذهن كاتب الإنجيل آنئذ، إذ علينا أن نتصور أي وعي للتاريخ وأي إحساس كان يتجاوب في قلبه حينئذ عن مشكلة التاريخ. هنا الكاتب كان بصدد مشكلة لا يمكن التهرُّب منها، فحقيقة موت وحياة يسوع الناصري تاريخياً كان يتحتَّم أن تدعمها معرفة بتعاليمه وأعماله وظروف موته بالقدر الذي

(٢١) أي مَنْ أراد في قلبه أن يعمل حسب مشيئة الله، تنفتح بصيرته ويعرف في الحال مصدر تعليم المسيح.

يكفي لكي يتجرأ ويكتب، لا عجالة عن أصول الديانة المسيحية، ولكن **إنجيلاً!**](٢٢)

وفي النهاية يقول هذا العالم المدافع عن الأصالة التاريخية لإنجيل يوحنا:

[ونحن نصرُّ على أن كاتب الإنجيل الرابع لم يضع بإنجيله ملحقاً تاريخياً لإضافة شيء على المعرفة التاريخية للكنيسة الأولى، بل إنه أعاد لها صياغة التاريخ الإنجيلي برُمَّته، وذلك بمقتضى تقارير ذات أصالة من واقع تعاليم المسيح وأعماله. وقد صنع الكاتب هذا ليس بسلطان شاهد عيان كرسول، بل بسلطان أعظم، كتلميذ كان يسوع نفسه يحبه، وقد ائتمنه وأسرَّ إليه بمعنى حياته وموته!... **بهذا يكون الإنجيل الرابع قد أصبح هو الوثيقة التاريخية بالدرجة الأولى**، أما الثلاثة الأناجيل الأخرى فهي، من بعده، وثائق أيضاً تاريخية لها أهميتها، ولكن ليس بينها من تناقض، وليس فيها ما يتعارض مع التاريخ بحسب قصد الإنجيل الأسمى.](٢٣)

22 Ibid., pp. 58,59.

23 Ibid., pp. 67,68.

١ — إنجيل القديس يوحنا له هدف محدد يتجاوز مفهوم التاريخ:

إنجيل يوحنا له هدفه المحدد الذي يسعى إليه كاتبه القديس يوحنا منذ أول كلمة فيه، ليكمّله بالروح حسب مشيئة الله المستعلَنة له. تماماً كما نقرأ للقديس لوقا في مطلع إنجيله عن الهدف المحدد الذي أوحى به الروح القدس له ليكمّله حسب مشيئة الله المعلنة له. أما القديس لوقا فكان هدفه أن يستعرض تاريخ قصة الأمور المتيقنة عنده كما سلَّمها له الذين كانوا معاينين وخداماً «للكلمة»، أي المسيح منذ البدء. ووعد الكاتب أن يكون ذلك بالتدقيق ليتأكد القارىء من صحة الكلام الذي سمعه سابقاً بالنقل الشفهي (لو١: ١—٤).

أما القديس يوحنا فهدفه المحدَّد له من الروح سجله في ختام إنجيله، حينما أحس بالروح أن الذي كتبه فيه الكفاية ليحقق الهدف. وهدفه كان إيمان القارىء بشخص يسوع المسيح إيماناً يكفيه ليستعلن منه أن **يسوع المسيح هو ابن الله**؛ لأن بهذا الإيمان، كان القديس يوحنا متيقناً أن القارىء سوف ينال الحياة الأبدية «باسم» المسيح (يو٢٠: ٣٠و٣١). والقديس لوقا، إن كان قد اعتمد في سرد رواية إنجيله على ما تسلمه من الذين عاينوا المسيح وخدموا الكلمة أي التلاميذ: «أنتم الذين تبعتم معي في التجديد»؛ فالقديس يوحنا كان هو الذي عاين الرب يسوع وخدم معه كتلميذ امتاز عن جميع التلاميذ الآخرين بأن يسوع كان **«يحبه»**. وهذه الكلمة «يحبه» تشير إشارة بليغة إلى ما وراءها: «الذي يحبني، أحبه **وأُظهر له ذاتي**». وبالفعل نتيقَّن نحن من إنجيله أن الرب أعلن له «ذاته». وكلمة «ذاته» — أي ذات المسيح — تفيد **«مَنْ هو»**، وما هي **«صلته بالله»**، وسر **«عمله ورسالته»**. وهذا هو بعينه ما سلَّمه إلينا القديس يوحنا في إنجيله. وقد كان هذا هدفه من بدء الإنجيل حتى نهايته.

إذن، فإنجيل يوحنا لم يأتِ قصة ولا مجرد سرد أخبار مسموعة أو منقولة كما هي عن المسيح، ولكن استعلاناً لشاهد عيان مؤتمن لدى المسيح نفسه كتلميذ محبوب مفتوح العينين والسمع، يشهد أن يسوع المسيح نفسه هو ابن الله. ولهذا الهدف اختار القديس يوحنا من بين الأقوال التي قالها الرب وسمعها هو والأعمال التي رآها هو، ما يثبت للقارىء أن المسيح هو ابن الله. والقديس يوحنا لم يُلْزم نفسه ولا ألزم القارىء — كما تعهَّد القديس لوقا — أنه سيتبع الخط التاريخي بدقة لحياة السيد المسيح من البداية حتى النهاية، كما قال القديس لوقا، بل قال بكل وضوح إن: **«آيات أُخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تُكتب** في هذا الكتاب» (يو٢٠: ٣٠). أي أنه تخلى عن الرتابة

التاريخية كما تخلى عن أن يكتب كل ما رأى وسمع، لأنه واحد من التلاميذ الذين صُنعت قدامهم هذه الآيات. ولكنه اختار ما يختص بهدفه فقط: «وأما هذه (الآيات) فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله؛ ولكي تكون لكم، إذا آمنتم، حياة بإسمه.» (يو٢٠: ٣١)

٢ — تحرُّك الأصحاحات نحو الهدف اللاهوتي:

وواضح من إنجيل يوحنا، كيف خضع والتزم بهذا الهدف بكل دقة، سواء في مجموعه ككل أو في أجزائه التي يقدمها الكاتب لتخدم قضية الإيمان بيسوع المسيح ابن الله، لينال القارىء والسامع حياة بإسمه. لذلك نلحظ بشيء من الإندهاش روح الإلهام واضحة وكيف ينمو خط الإستعلان نمواً متزايداً متّزناً نحو هذه الغاية بكل انتباه كلما اقتربنا من النهاية. كما نلحظ أن خط النمو الإستعلاني هذا يربط بإحكام بين الحوادث والأقوال، وينتقل بها جميعاً في قوة وانسجام وترابط، وكأن الأصحاحات حيَّة تسير مع القارىء، لا يُترك منها كلمة واحدة، بل الكل يتحرك معاً صوب الهدف!

على أن هذا التوقيع للحوادث والأقوال توخّى الإلتزام بالخط التاريخي قدر ما يسمح به الحال، لأن حركة الإنجيل مرتبطة أساساً بهدف لاهوتي صميم. فالقارىء المتفتح الوعي والبصيرة يمكنه أن يلحظ عدم غياب الخط التاريخي هذا من داخل الحركة الإستعلانية.

فعِوَض أن يبدأ الإنجيل بقصة ميلاد المسيح زمنياً على مستوى التاريخ المدني كبقية الأناجيل، قدَّم لنا هذا الميلاد بعينه وما هو قبل الميلاد أيضاً، إنما على المستوى اللاهوتي. إذ قال أولاً: «**في البدء كان الكلمة**... وكان الكلمة الله» (يو١: ١)، ثم «**والكلمة صار جسداً** وحل بيننا.» (يو١: ١٤)

وعِوَض أن يقدِّم يوحنا المعمدان على مستوى التاريخ كمعمِّد للمسيح، قدَّمه كشاهد لاهوتي لبنوة المسيح لله «وأنا قد رأيت وشهدت أن **هذا هو ابن الله**» (يو١: ٣٤)، وأنه سيعمد بالروح القدس. وأضاف شهادة أخرى للمسيح تشير إلى نهاية عمله الخلاصي بالصليب حينما قال المعمدان: «هوذا حَمَلُ الله الذي يرفع خطية العالم» (يو١: ٢٩). وهكذا حملت الشهادة كل ما يختص بالمسيح لاهوتياً!!

وحياة السيد المسيح العلنية التي يقدمها إنجيل يوحنا تبتدىء **في عمق الزمن وعمق الله معاً**: «**والكلمة صار جسداً** وحل بيننا ورأينا مجده، مَجْدَ **وحيدٍ لأبيه**، مملوءاً نعمة وحقاً» (يو١: ١٤). وهكذا تفصح الآية أن «الكلمة» صار ابن الإنسان، وهو ابن الله، بآنٍ واحد.

ثم أنهى إنجيل يوحنا حياة الرب العلنية **بالموت، وباستعلان مجد الإبن معاً: «أيها الآب قد أتت الساعة، مجّد ابنك.»** (يو١٧: ١)

والآن، فلينظر القارىء ويحكم هل يمكن أن يكون تلاحم بين التاريخ واللاهوت أكثر من هذا تلاحماً؟ أو بين الزمن والأبدية؟

وبديهي أن يدرك القارىء أن **ما كان يحتفظ به القديس يوحنا من الحضور الإلهي في ذهنه وتقييمه لدقائق حياة المسيح وربطها بالهدف، كان من المستحيل أن يتخلى عنه لحظة واحدة لكي ينتبه لمجرى التاريخ** فيبحث، مثل القديس لوقا، عن أوغسطس قيصر روما في ذلك الزمان وعن كيرينيوس والي سوريا، أو يبحث مع القديس متى عن هيرودس ملك البلاد وخوفه على عرش مُلْكه، أو يتبع منهج القديس مرقس في البحث عن حياة المعمدان الخاصة في البراري ولِبْسه وبَرّ الإبل وأكلهِ العسلَ والجراد. هذا كله كان، في الحقيقة، يخرج عن منهج الروح الذي كان يعمل في قلب يوحنا وفكره، **فلم يكن يلمع في ذهنه إلاَّ شخص يسوع المسيح المستعلَن في بنوّته الأزلية لله.** ونحو هذا الهدف ركّز فكره وقلمه وذاكرته وروحه متحسساً قصاصات الورق أو الرق التي كان قد سجل عليها مذكراته منذ أيامه الأولى مع المعلم.

لهذا كان القديس يوحنا يكتب على خلفية حية تحمل صدق تاريخها معها دون بحث منه أو عناء. فلم تفقد هذه الخلفية ضياء الحق واللاهوت فيها. لذلك، فإنه في توقيعاته للحوادث، ومهما استطرد فيها، فإن القارىء يشعر أن القديس يوحنا وهو يكتب ويسجل أقوال الرب وأعماله لم يكن يعمل حساب النُّقَّاد والمتشككين، المعتبَرين عالة على الإنجيل، بل نحّاهم من رؤيته ومن إنجيله منذ البداية: «الذي لا يؤمن قد دِيْنَ» (يو٣: ١٨). وكان يكتب عن الحق وقد التزم به، وكان يسجل عن «الحياة» فانحصر فيها. فلا الطابع الرسولي المتميز بسلطانه، ولا الأمانة التاريخية، أصاب أيٌّ منها أدنى انحراف على مدى الكتاب كله، بالرغم من أنه كان عليه أن يصيغها بلغة اليونان بينما هي حاضرة في ذهنه برطانتها الآرامية (الآرامية هي لغته الوطنية).

٣ ــ مميزات القديس يوحنا التي أهّلته لإستعلان أسرار المسيح، وتدوين الإنجيل:

وهناك سؤال محيِّر يطرح نفسه على فكر القارىء إذا هو انتحى ناحية الفحص **العقلي** أو الفهم **المنطقي**: وهو إلى أي مدى يستطيع رسول ــ مثل القديس يوحنا ــ أن يسترجع حياة المسيح، حتى وإن كان كشخص كان يعاشره بلا تحفُّظ، إذ كيف يسجل ما قاله المسيح وما عمله والمناقشات التي دارت بدقتها المتناهية والأحاديث المطوّلة وصلاته السرية الخاصة للآب كما سجلها في إنجيله؟

مع ما كانت تنطوي عليه هذه المناقشات والأحاديث من اتجاهات خفيَّة في ذهن المسيح أو ذهن الجموع أو الأفراد المجادلين؟ هذا و بعد عدد عديد من السنين يزيد عن نصف قرن؟ علماً بأنها لم تسجَّل في الأناجيل الأخرى؟

وللرد على هذا السؤال البالغ الأهمية بالنسبة لحياة القارىء نقول:

إن كان «ابن الله ــ الكلمة» قد تجسد، أو بتعبير القديس بولس الرسول «الله ظهر في الجسد»، إذن **فهنا استعلان فائق قد حدث بالفعل**، وقد حدث ومعه مجاله الإستعلاني لفتح بصيرة الإنسان، وهذا ما حدث وما كان قائماً في ذهن القديس يوحنا، وقد حمَّله الروح مسئولية استعلان هذا الحدث الإلهي. والإستعلان في ذاته كمٌّ روحيٌّ هائلٌ لا يتناقص قط بمرور السنين، بل يزداد توهجاً ولمعاناً في الذهن، لأن من صميم طبيعة استعلان الله الإمتداد والإنتشار في كيان الإنسان إلى مالانهاية. بهذا يكون إنجيل يوحنا يُشكِّل فيضاناً إلهامياً من الإستعلانات المتتابعة المقترنة بالحوادث لكشف أخطر أسرار الله استعلاناً وهي «**طبيعته الذاتية**»، التي هي طبيعة المسيح؛ والتي استطاع القديس يوحنا بالجهد أن يصيغ لها حدوداً بالقلم، فاختار من ألوف الحوادث والأقوال والآيات ما يستطيع أن يقدمه ليغطي حياة المسيح كلها باختصار بالغ دون أن يخرج عن التقليد الرسولي المعروف والمذاع في الأناجيل آنذاك.

هذا الجهد الروحي المبذول، بالرغم من ضخامته، اعتبره القديس يوحنا قاصراً ومقصِّراً في استيعاب كل أطراف حياة المسيح وكل ما قال وعمل، وعبَّر عن ذلك بتصوُّره أن العالم كله لا يسع الكتب أو المكتوب إن هي استوعبت حياة المسيح بدقائقها!!! «وآيات أُخر **كثيرة** صنع يسوع قدام تلاميذه لم تُكتب في هذا الكتاب.» (يو٢٠: ٣٠)

«وأشياء أُخر **كثيرة** صنعها يسوع إن كُتبتْ واحدة واحدة، فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة.» (يو٢١: ٢٥)

(أ) أما كيف سجل القديس يوحنا أحاديث المسيح، وبالأخص الصلاة الأخيرة في أصحاح ١٧ بعد العشاء الأخير بما تحتويه من أسرار وعمق لاهوتي ومخاطبة مباشرة للآب تُعْتَبر كلها أحاسيسَ وعواطف ذاتية (علماً بأن القديس يوحنا حسب ما نعرفه عنه من الأناجيل الأخرى لم يختلِ وحده بالمسيح بعد العشاء الأخير، وأنه كان نائماً ولم يستطع أن يسهر في جثسيماني بحسب القديس لوقا، وكان المسيح بعيداً، وعلى بعد رمية حجر من القديس يوحنا، ومعه بطرس و يعقوب الثلاثة الذين اختارهم المسيح أن يكونوا بقربه وقت الصلاة التي قدمها بعرق يتصبب كالدم)؛ فتى وكيف عرف يوحنا دقائق هذه الصلاة؟

للإجابة نقدّم أولاً هذه الآيات:

١ — «قد كلمتكم بهذا بأمثالٍ ولكن **تأتي ساعة** حين لا أكلمكم أيضاً بأمثالٍ **بل أخبركم عن الآب علانية**» (يو١٦: ٢٥). *وهذا ما قاله المسيح للتلاميذ قبل صلاته المسجلة في* الأصحاح ١٧ بدقائق؟!

٢ — «**إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن.** وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه.» (يو١٦: ١٢و١٣)
وهذا قاله يسوع لتلاميذه قبل صلاته المسجّلة في أصحاح ١٧ مباشرة.

٣ — «أيها الآب البار... عرّفتُهم اسمك، وسأُعرّفهم، ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به...» (يو١٧: ٢٥و٢٦)

بخصوص الآية رقم (١):

والآن متى أتت هذه الساعة التي تكلم عنها المسيح التي كلمهم فيها عن الآب علانية؟

+ واضح، إذن، أن ما كتبه القديس يوحنا لا يقع تحت بند «الكلام بأمثال» — الأناجيل الثلاثة — بل هي إخبار عن الآب علانية، وهي التي تشمل كل تعاليم المسيح في إنجيل يوحنا عن الآب، ومعها الصلاة في الأصحاح ١٧. هذه هي كلها الكلام عن الآب علانية، وهو من تعليم *المسيح المباشر للقديس يوحنا بالروح القدس.*

وهذه الساعة هي ما بعد القيامة، لأن «*قد أتت الساعة*» هي ساعة *الصليب*. ولكن «تأتي ساعة» هي بالضرورة ما بعد ساعة الصليب.

بخصوص الآيتين رقم (٢) و(٣):

كذلك ما هي الأمور التي لم يكونوا يستطيعون أن يحتملوها حتى قبل هذه الصلاة؟ وقالها لهم بعد ذلك؟

ومتى عرّفهم المسيح بالمزيد عن اسم الآب بعد أن صُلب أمامهم؟

+ إذاً الأمور التي لم يكونوا يحتملونها والتي اضطلع بها الروح القدس بعد حلوله، والتعريف الإضافي الذي يختص باسم الآب، فهو ما اكتسبته الكنيسة بالروح القدس، سواء في إنجيل يوحنا أو على مدى القرون الأربعة الأولى، وهو الذي بواسطته دافعت عن إيمانها وانتشر وجودها في كل أنحاء العالم ولا يزال. إذن، كان يتحتّم أن يتكلم المسيح علانية عن الآب، وبدون أمثال، في إنجيل يوحنا — الذي خلا من الأمثال بالفعل — حتى يكون الله صادقاً، وحتى نعرف الأمور التي لا

يحتملها أي إنسان بدون نعمة الروح القدس.

(ب) كذلك السؤال الذي قد يطرحه الفاحص العقلاني: كيف ومتى عرف القديس يوحنا حديث السامرية مع المسيح؟ علماً بأن التلاميذ كانوا قد ذهبوا ليبتاعوا طعاماً.

(ج) أو كيف وممَّن عرف القديس يوحنا الحديث الذي دار بين بيلاطس والمسيح؟

نقول: إذا لم يكن المسيح هو الذي قصَّ على يوحنا ما حدث، وإذا لم تكن هي السامرية نفسها، وإذا لم يكن بيلاطس، الذي تنصَّر وتعمَّد بحسب التقليد، هو الذي قصَّ ما دار بينه و بين المسيح، وإذا لم يكن القديس يوحنا موجوداً بالفعل دون بقية التلاميذ مع المسيح على بئر يعقوب؛ فالرد قد يمتد أيضاً ليشمل معظم أحاديث المسيح، وهو كالآتي:
معروف جيداً ومسجَّل في سفر الرؤيا أن طبيعة القديس يوحنا طبيعة رؤيوية، أي أن روحه حرة تستطيع في أي وقت أن تدخل في مجال الروح الخالص لترى حوادث في غاية من الدقة والتسلسل والخطورة، وتسمع حديثاً حدث أو سيحدث سيَّان، بل وتسمع حواراً درامياً حزيناً بين أرواح الذين قُتلوا و بين المسيح. وأُعطي للقديس يوحنا أن يعي بالروح ويفهم ويتذكر ويسجل بعد ذلك كل ما سمع بالحرف الواحد، وأن يصف ما رأى بمنتهى الدقة دون أن يزيد أو يُنقص، رغماً عن أن ما رأى يفوق العقل والوصف. وكان محدِّث القديس يوحنا مرة ملاكٌ معيَّنٌ للتفهيم والتعريف، ومرة كان المسيح نفسه وهو في مجده. كذلك ومن سفر الرؤيا عرفنا وتأكدنا كيف أن المسيح كان يعرِّفه بالأمور، مرة بالرموز ومرة بالعَلَن جهاراً، فتعلم يوحنا كيف يعبِّر وكيف يسجل. لذلك أصبح واضحاً أمامنا إمكانية استقبال القديس يوحنا لكل المعارف والمفهومات، سواء في ماضيها أو مستقبلها، سيَّان، وذلك من مصادرها العليا بلا عناء، سواء بإملاء، أو إعلان الروح، أو بإرشاد الملاك بكل ما تم على مستوى حياة المسيح، بل ومن الأشخاص الذين تكلموا مع المسيح بأنفسهم، لأن «أرواح الأنبياء خاضعة للأنبياء.» (١ كو١٤: ٣٢)

وهل ينسى الفاحص العقلاني أن المسيح نفسه تحدث بنفسه حديثاً مطوَّلاً في سفر الرؤيا — وذلك بعد قيامة المسيح وصعوده بما لا يقل عن ثلاثين سنة أو يزيد؟ بل وأمر القديس يوحنا أن يكتب ما سمع ورأى في سِفرٍ وأن يعلنه للناس: «إعلان يسوع المسيح الذي أعطاه إياه الله ليُري عبيده ما لا بد أن يكون عن قريب، وبيَّنه مرسلاً بيد ملاكه لعبده يوحنا الذي شهد بكلمة الله و بشهادة يسوع المسيح بكل ما رآه.» (رؤ١: ١و٢)

فإن جاء سفر الرؤيا برموز وأمثال، فقد أُعطي ليوحنا أن يكتب إنجيلاً ليس برموز وأمثال، بل

بما أخبره المسيح عن الآب علانية. ألم يَعِد المسيح بذلك؟ وهوذا قد حقق وعده.

كذلك لو فحصنا الأمر ذاته مع القديس بولس الرسول، نجده يصرِّح بمنتهى الوضوح أنه لم يستلم إنجيله من إنسان، بل ولم يتعلمه من إنسان، بل قد استلمه وتعلَّمه من المسيح مباشرة بإعلان: «وأعرِّفكم أيها الإخوة الإنجيل الذي بَشَّرتُ به إنه ليس بحسب إنسان، **لأني لم أقبله من عند إنسان ولا عُلِّمته، بل بإعلان يسوع المسيح.**» (غل ١: ١١و١٢)

أليس هذا مثالاً حيًّا وشهادة ناطقة يمكن أن ندرك بها كيفية كتابة الأناجيل؟ وسرد حوادثها وتسجيل كلماتها؟ لكي نطمئن تماماً أن كل ما لا نعرف مصدره، بالتحقيق أو بالمقارنة أو حتى بالعقل، فحتماً يكون مصدره الإعلان الفائق، لأننا نتعامل مع إنجيل الله وليس كتاب تاريخ. وليكن في الحسبان أن القديس بولس لم ير المسيح بالجسد إطلاقاً. والقديس بولس الرسول كان يعرف تماماً أنه ليس له فقط أُعطي إعلان الإنجيل، بل ولبقية الرسل، وخاصة الذين تعامل معهم، وهم بطرس ويعقوب ويوحنا المعتبرين أعمدة الكنيسة. «أنه بإعلان عرَّفني بالسرِّ — كما سبقتُ فكتبتُ بالإيجاز — الذي بحسبه حينما تقرأونه تقدرون أن تعرفوا درايتي بسر المسيح، الذي في أجيال أُخر لم يُعرَّف به بنو البشر، **كما قد أُعلن الآن لرُسُله القديسين** وأنبيائه بالروح» (أف ٣: ٣—٥). واضح إذن أن بني البشر عليهم أن يخضعوا لمعرفة إعلان يسوع المسيح فيما يخص إنجيله إن كانوا يريدون الإيمان به، لا أن يبحثوا عن مصدره الذي أُعطي فقط لرسله وأنبيائه بالروح.

وفي النهاية هنا نقول ما يقوله التقليد الرسولي، أن مَنْ يريد أن يقرأ الإنجيل أو يفحصه، عليه أن يضع في اعتباره أنه يقرأ أو يفحص على أساس أنه يتبع قصد كاتب الإنجيل وما يريد أن يعلنه ويبشِّر به، باعتبار أن مادة الإنجيل هي تقرير يشمل البشارة ملتحمة بالتاريخ. وليس له أن يقرأ على أساس كيف كُتب، أو ما ينبغي أن يُكتب عليه إنجيله من معايير نضعها حسب قصدنا. لأن القصد الأول والأخير من القراءة أو البحث هو الوصول إلى الإيمان، والإيمان في البداية والنهاية هو تصديق ما فوق التاريخ، وتسليم الفكر والقلب والحياة كلها له — أي لله. علماً بأن القديس يوحنا الرسول يقدم لنا إنجيله أو المسيح من خلال إيمانه! وهذا لا يمنعنا من أن نستخدم كل أسلحة العلم لبلوغ اليقين لإيماننا، ولمزيد من المعرفة والفهم، حيث يبقى العلم أو كل العلوم في موضع الخادم للحقيقة لا سيداً عليها.

ولكن أن نبحث عن الحَبْك التاريخي في صياغة عمق روحي هائل مثل هذا له هدفه الروحي الأوحد، فهذا مطلب تعسُّفي مماحك.

٤ — إنجيل القديس يوحنا اختص بالناحية اللاهوتية معتمداً على التقليد الرسولي العام:

لم يقل إنجيل يوحنا أنه الإنجيل الوحيد، بل هو كُتِبَ بعد أن استوفت الأناجيل الأخرى كل ما يختص بالتاريخ المدني الروماني واليهودي، وبعد أن تتبّعت التاريخ الآبائي حتى إبراهيم وآدم، واستوفت طوبوغرافية الأرض التي سار عليها المسيح وتنقَّل بين ربوعها، وبعد أن رصدت السنين والشهور والأيام والليالي حتى استوفت الإطار الإنساني الذي يخص المسيح من كافة الوجوه. هكذا قال التقليد الآبائي الكنسي بأعلى صوته مؤكّداً أن القديس يوحنا كتب إنجيله الروحي بإلحاح زملائه بعد أن استوفت الأناجيل الأخرى ما يخص الأمور الظاهرة أي الجسدية التي للمسيح، والقديس يوحنا نفسه كتب على هذا الأساس.

ويقول التقليد الكنسي:

[إنه اعتماداً على صحة ما جاء إلينا من فم الشيوخ، كتقليد، أن القديس يوحنا آخر الإنجيليين حينما رأى أن الأناجيل الموجودة اهتمت بالحقائق الجسدية — أي التي تخص الجسد τὰ σωματικά — في تسجيلها وإذ ضُغِط عليه من قِبَل أحبائه، تحرك بالروح من قِبَلِ الله وكتب إنجيله الروحي πνευματικὸν εὐαγγέλιον .](٢٤)

(إكليمندس الإسكندري)
(سنة ١٥٠—٢١٥)

ونحن لا يمكن أن نغفل شهادة الآباء القديسين الأوائل وأساقفة الكنائس العظمى، التي بها استطاع إنجيل يوحنا أن يقف أمام أعنف التيارات المعادية للإيمان، لأنه يحمل جوهر الإيمان بالمسيح ودقائق العناصر اللاهوتية التي أقامت الهيكل العام للإيمان المسيحي مع الأناجيل الثلاثة.

ولقد واجه المسيح نفسه مثل هذه الأفكار فقد سأل تلاميذه يوماً: «مَنْ يقول الناس إني أنا؟» (مت١٦: ١٣، مر٨: ٢٧، لو٩: ١٨). وكأن المسيح بهذا السؤال يسبق ويخاطب علماء اللاهوت في هذه الأيام الذين يطالبونه — كما طالبه اليهود «مَنْ تجعل نفسك؟» (يو٨: ٥٣) — بتحقيق ذاته تاريخياً في إنجيل يوحنا. فكان رد التلاميذ أن بعضهم يقول: «إنه إيليا». وهكذا تطوح التاريخ ألف سنة عن الواقع أمام عيونهم. لأن التقييم المباشر للإستعلان الباهر يلهي الذهن عن مفردات التاريخ. ولكن رسوخ الإستعلان الإلهي في ذهن القديس يوحنا وامتداده ونموّه وانتشاره على مسافة زمنية كبيرة للغاية (نصف قرن ويزيد) مع نضوج الشيخوخة، كل هذا جعله قادراً حقاً أن يحيط

---

24 Clement of Alex., cited by Euseb. Hist. Eccl., VI, 14,7; cited by Westcott, op. cit., p. XXXV.

بحدود هذا الإستعلان في اختصار مدهش، دون أن يتوه في شعاب التأمُّلات أو غيبوبة الرؤى.

فالواقعية في إنجيل يوحنا قوية، والواقع هو دائماً ابن أمين للتاريخ. فالقديس يوحنا قبل أن يكتب إنجيله، كان يملك في مخازن قلبه المضيء وثائق تاريخية حدثت أمامه في الزمان والمكان تتعلق بهذه الإعلانات الإلهية، والتي هي على أعلى ما يمكن من الخطورة، إذ تختص بالكنيسة وحياة العالم وتطور البشرية، أؤتمن عليها هذا القديس بكل ذخائرها. وكان يجترُّها كل يوم ويحكي عنها ويعظ، فكان بريقها يزداد مع الأيام ويتوضح. وأخيراً، وبعد إلحاح أحبائه ورؤساء الكنائس السبع من حوله مع جميع أولاده صمَّم أن يكتب، فكان الإنجيل. وهو عبارة عن وثائق تحمل مفرداتها ومجملها الإستعلان الخاص بحياة وخلاص العالم!! ولكن لأن مادة هذه الوثائق تختص بلاهوت الإبن ومستقبل البشرية والحياة الأبدية، فمن المعقول أن يتضاءل فيها العنصر التاريخي كعنصر حرّ منفرد بجوار الأغوار اللاهوتية. ولا لَوْمَ على الكاتب؛ إذ كان يكفيه أن يكون أميناً للحادثة اللاهوتية أولاً وقبل كل شيء، فهي التي يهدف إليها.

وكما كان القديس يوحنا، كذلك كانت الكنيسة في القرن الأول والثاني. فقد اعتبر القديس يوحنا أن كل ما غاب في إنجيله هو مسجَّل في التقليد الرسولي الذي يحفظه الناس كما هو في الأناجيل الثلاثة. لأن التقليد الشفاهي بتاريخه ودقائقه كان متواتراً ومحفوظاً في الكنيسة كلها آنئذ، بل وكان المادة الحية للوعاظ والأساقفة يكتبون ويعظون ويعلّمون منه. فتعاليم القديس بولس الرسول كانت تملأ كل آسيا واليونان وروما. وبالإطلاع على رسائل القديس بوليكاربوس (استُشهد سنة ١٥٥م عن ٨٦ سنة) تلميذ يوحنا الرسول وأسقف أزمير، يتضح أن كل التقليد الرسولي في الثلاثة الأناجيل وتعاليم إنجيل يوحنا — دون النص — حاضرة في كتاباته!! وكذلك تعليم القديس إغناطيوس أسقف أنطاكية، وهو تلميذ القديس يوحنا؛ وأيضاً تعاليم القديس إيرينيئوس الذي صار أسقفاً على ليون بفرنسا، وهو تلميذ بوليكاربوس، فهو أصلاً مواطن أزميرلي (من سميرنا) (١٣٠ — ٢٠٠م)، وهو المحسوب أنه أبو التقليد. إذن، فالقديس يوحنا كتب إنجيله معتمداً على أساس التقليد الرسولي بتاريخه ودقائقه. والمعروف والمتداوَل في كل الكنائس آنئذ، وليس كإنجيل منفرد. لذلك نجده لا يستطرد في المجال التاريخي.

والواقع أن مردَّ هذا الصراع الفكري ضد الخط التاريخي لإنجيل يوحنا، هو بالأساس في فكر ووعي هؤلاء العلماء القدامى والمحدثين الذين طفحوا بالنقد المرير تجاه غياب العنصر التاريخي من إنجيل يوحنا؛ وذلك بسبب عدم القدرة الإيمانية في هؤلاء لرؤية الزمنيات ملتحمة مع الأبديات، سواء في شخص المسيح نفسه أو في أقواله وأعماله. ومما سبق وقلنا يتبين للقارىء زَيْفُ هذا النقد،

فالأناجيل عموماً وإنجيل يوحنا على وجه الخصوص، ليست وثائق تاريخية تُحاسَب على صحة أو دقة التاريخ فيها، بل هي «**وقائع روحية**»، أو «**حوادث إلهية**» تمّت في صميم الزمن، كما سبق وقلنا: فـ«**الله ظهر في الجسد**» بحسب القديس بولس الرسول، أو «**الكلمة صار جسداً**» بحسب القديس يوحنا التلميذ والرسول، تماماً كما جاء في إنجيل لوقا «فلذلك أيضاً **القدوس المولود منك يُدعى ابن الله**» (لو١: ٣٥). فسجل ميلاده محوَّل من سجل سابق مركزه السماء بعيداً عن أيدي المؤرخين. أو كما قال القديس يوحنا في رسالته الأولى «الحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا» (١يو١: ٢). **فالله دخل التاريخ الإنساني واقتحم الزمن**، ليس بالرؤيا ولا في حلم ولا بصوت يسمعه القلب كما في العهد القديم، بل على واقع إنساني حيٍّ منظور وملموس، هو الرب يسوع المسيح. وهذه معجزة التجسُّد، وهي معجزة الله والإنسان.

فالآن، لا يمكن فصْل العنصر الإلهي الخالص عن العنصر الزمني الخالص، كما يقول ويؤكِّد علم اللاهوت عن اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح ـــ الذي هو أساس التضادّ بين الزمنيّ والأبديّ ـــ الذي صار توافقاً واتحاداً في المسيح. فهذا الإتحاد غير منقسم ولا منفصل، فمن جهة اللاهوت لم يحدث له أي تغيير بعد التحامه بالإنسان وزمن الإنسان، سوى الظهور والإستعلان عن طريق الكلمة والمعجزة والآية. **ولكن الزمن هو الذي انفتح على اللاهوت لما انفتح اللاهوت له، فرأى ما لا يُرى وسمع ما لا يخطر على قلب بشر. والإنسان والزمان أخذا ما لم يكن لهما أصلاً**. فالمسيح كإنسان سار على الماء، فأين الجاذبية الأرضية وأين رعبة الأعماق واللجج؟ كما غطّى اللاهوت ضعف الجسد وألغى سلطة الموت ومحنة الزمن، فالمسيح أقام لعازر من الموت بعد أن أنْتن، والمسيح نفسه قام من بين الأموات في اليوم الثالث: «فأين شوكتُك يا موتُ؟ وأين غلبتكِ يا هاوية؟» (١كو١٥: ٥٥)، وأين أنت أيها التاريخ؟

ـــ «فأقول هذا أيها الإخوة الوقت منذ الآن مُقصَّر... والذين يستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه، لأن هيئة هذا العالم تزول، فأريد أن تكونوا بلا همٍّ.» (١كو٧: ٢٩ ـــ ٣٢)

هذا هو طغيان المستقبل على الحاضر الزمني في المسيحية. أو كما قال المسيح لتلميذ دعاه فأراد أن يدفن أباه أولاً: «دَعْ الموتى يدفنون موتاهم، وأما أنت فاذهبْ ونادِ بملكوت الله» (لو٩: ٦٠)، أو كما وضعها القديس متى: «**اتبعني، ودَعْ الموتى** يدفنون موتاهم» (مت٨: ٢٢). وهذا هو طغيان الروح والحياة الأبدية في المسيحية على أمور العالم الزائلة!!!

كل هذا صار لحساب الإنسان ليدخل ويمتد في الحياة الأخرى، الحياة الأبدية غير الزمنية. لذلك، فالذي يريد أن يقرأ الإنجيل، أيَّ إنجيل، أو يدرسه؛ فإن لم يكن له الحاسة الإيمانية، أي

البصيرة الروحية المفتوحة على الله بحسب الوعي المسيحي التقليدي الصادق، فهو لن يدرك هذا **الإلتحام الذي أكمله المسيح — الكلمة المتجسد — في نفسه، التحام الأبدي والزمني، الإلهي والإنساني معاً.** أما الذي يريد أن يفصل العنصر الإنساني في المسيح عن العنصر اللاهوتي ليتمعن في «**يسوع التاريخ**»، أو يوقِّع حياة المسيح على الأصول التاريخية، فسيفصل بين ما هو إنساني وما هو لاهوتي. **مع أن المسيح لن يُعرف ولن يُستعلن إلاّ إلهاً متجسداً.** لذلك فإن محاولة توقيع حياة المسيح على الزمن استرضاءً للعقل وعلم أصول التاريخ وإراحةً للمنطق، هي نكسة تشبه نكسة توما: «إن لم أبصر في يديه أثر المسامير وأضع إصبعي في أثر المسامير وأضع يدي في جنبه، لا أؤمن.» (يو٢٠: ٢٥)

إذن، فالذي يتحتَّم على كل لاهوتي أن يفهمه أن التاريخ والعنصر الزمني لدى الإنسان الجديد، أخذ طبيعة جديدة بعد الإيمان بتجسد ابن الله وموته وقيامته من بين الأموات وإرساله الروح القدس. فبعد أن كانت الحادثة الزمنية — كولادة إنسان مثلاً — تؤول بعد حدوثها بكل دقائقها وصحتها وفن تسجيلها إلى سجل الأموات وتصير إلى العدم، صار الآن تاريخ البشرية الجديدة أو الزمن الجديد الحي في الإنجيل يؤرِّخ للأحياء وليس للأموات، ويسجَّل في السموات: «فإن سيرتنا نحن هي في السموات» (في٣: ٢٠) — كإنسان يعتمد ويؤمن بالمسيح ويعيش بالتقوى والمحبة الأخوية — فهذا كما يقول القديس يوحنا (عن نفسه) «قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو٥: ٢٤، ١يو٣: ١٤)، وسيظل حيًّا «ولن يموت إلى الأبد» كما قال المسيح ووعد، وسيُكتب اسمه في سفر الحياة، وإيمانه سيولِّد إيماناً لآخرين، وهكذا إلى أبد الآبدين. «لأنكم لم تأتوا إلى جبل **ملموس**... بل... وإلى وسيط العهد الجديد يسوع، وإلى دم رشٍّ يتكلم أفضل من هابيل.» (عب١٢: ١٨ — ٢٤)

كذلك، فإن كل ما لمسه المسيح وتبنَّاه من الإنسان وزمنيات الإنسان سواء بيده أو بالكلمة، فإنه تجلى وأخذ طبيعة جديدة أو خلقة جديدة أو خلقة ثانية: كالماء، والخمر، والخبز، والجسد، والدم، والأعمي، والمشلول، والكسيح، والميت، والقبر، حتى الموت نفسه تحول إلى حياة؛ فأين مَطْلب منطق التاريخ؟ وأين رتابة الزمن ومادته؟ وكيف نقرب هذه المواد عقلياً بعد تحولها؟؟ ونكاد نقول قول القديس بولس الرسول إن نظام الزمن وحتمية التاريخ، بقسوته وبهمومه وأحزانه وأوجاعه، كان مؤدِّبنا طوال أزمنة ما قبل المسيح؛ و بعد أن صرنا في المسيح، فلسنا بعد تحت رحمة أنظمة الزمن وحتميات ومنطق التاريخ، بل تحت رحمة الحياة الجديدة الأبدية ونعمة رب الحياة وتدبير الروح القدس.

لقد كان حقاً ما قاله الآباء والأنبياء بالروح عن زمن المسيح أنه «أواخر الأيام» أو «الأيام الأخيرة»، وأنه «ملء الزمن»، أو «ملء الدهور»؛ بمعنى أنه بمجيء المسيح يكون قد اكتمل «**زمان العقوبة**» للإنسان، وانتهى «**تاريخ اللعنة**» وحكم الموت، وابتدأ «**زمان الحياة**»، زمان الروح القدس الذي أعطى التاريخ الإنساني أبعاداً جديدة ومعنىً جديداً وثوباً جديداً.

٥ — مقياس التاريخ يتجه ناحية الظاهر،
ومقياس اللاهوت يتجه نحو الجوهر:

اللاهوتي الذي نوى أن يفحص ويُقيِّم التاريخ الزمني في إنجيل يوحنا، يلزمه أن لا يغفل مقياس التاريخ الحقيقي اللاهوتي الذي تعيش به الكنيسة الحياة الأبدية وتحيا خلاصها فيه ألفي سنة، حتى أصبحت هي بحد ذاتها شهادة لصدق الإنجيل. وعليه أن يفرز بروحه ويتحسس بحسِّه الإيماني حركته، أي حركة التاريخ اللاهوتي وهدفه، ولا مانع أن يقارن بينه وبين التاريخ الزمني ليعرف ويُطبِّق سرعة حركة الكنيسة الروحية والخلاصية بالنسبة لمسار العالم والزمن على مرِّ السنين، فينقد الكنيسة وليس حق الإنجيل!!

إن وقوف العالِم اللاهوتي الذي يحكم بالتاريخ ويحتكم له ضد حادثة من حوادث الإنجيل باعتبارها لم توفِّ الشروط العلمية للحادثة الزمنية ولمظهرها وقياسها الزمني بحسب العقل وعلم التاريخ الأصولي، إنما هو يحاول أن يطمس معالم تدخُّل الله في الحادثة الزمنية، الذي هو جوهر الحادثة، أو كمَنْ يحاول أن يختزل المسيح إلى مجرد إنسان «يُدعى يسوع».

فالذي يقف أمام معجزة تحويل الماء إلى خمر بالنسبة إلى مفهومها الزمني كأن في ذلك ترفاً بحسب منظرها الخارجي، يفقد في الحال تقييم قوة التحويل الإلهية التي ابتدأ بها الله أعماله في المسيح وبالمسيح في جوهر المادة، ليبرهن أن العتيق قَدِمَ وشاخ، وأن الكل يَلْزَم أن يولد من جديد ليصير جديداً. وكأنه يقول للتلاميذ وكل العالم: هذا هو معنى وحقيقة رسالتي أن أُحوِّل الماء إلى خمر، أُحوِّل الميت إلى حياة والحياة إلى فرح، وأن ليس بالتطهير بالماء ينجو الإنسان من الدنس والخطية بل بشرب الروح والدم يخلص ويتقدس. ثم إذا هو نظر إلى كمية الخمر البالغة في حجمها أمراً فائقاً لحد التعقُّل، إذ أن الستة الأجران ماءً تحولت بحجمها إلى خمر بما يساوي ١٢٨ جالوناً، فيرى في هذا الكم الهائل دعوة إلى عدم الإتزان والإدمان.

فهذه الرؤيا النقدية تنحصر فقط في فكر الإنسان الناقد فتُفقده في الحال رؤيا المجد، لأنها تطمس معالم اليد العالية التي تدخلت في تشكيل هذا الرقم، والسرُّ الذي يختفي وراء هذه الوفرة

والكثرة، وهو الإشارة الواضحة إلى التحوُّل المقصود من بؤس الحاجة في القديم: «ليس لديهم خمر (فرح)»، إلى ملء البهجة والوفرة والمسرة الروحية بسبب حضور الله بتدخُّل العريس الحقيقي في حفلة عرس الإنسان. وكأن المسيح حينما قال للخدم: «**استقوا الآن**» ينبّه نظر اللاهوتي القدير أن يكمل من عنده قول الأنبياء «**من ينبوع الحياة مجاناً**» الذي يفيض بلا حدود.

وإذا لاحظ القارىء يجد أن التعظيم والمغالاة الرقمية أمرٌ مقصودٌ في إنجيل يوحنا على وجه العموم. فالسامرية كان لها **خمسة أزواج وحق الذي معها ليس زوجها** (منتهى الفجور)!!، والأعمي **أعمى منذ ولادته** (منتهى الشقاء)!!، والمقعد له **٣٨ سنة** (منتهى الذل)!!، والخمر المحوَّل **١٢٨ جالوناً** (منتهى الوفرة)!!، والخبز: **خمس خبزات لخمسة آلاف رجل ما عدا النساء والأطفال** (منتهى السخاء)!!، ولعازر **له أربعة أيام في القبر وقد أنتن** (منتهى اليأس)!!. والإنجيل لم يختَرْ هذه الأرقام، ولكن الذي اختارها حقاً هو المسيح عن قَصْدٍ ليُجْري فيها عمله، وليستعلن فيها سلطانه على فك الحدود الضيقة والميتة والذليلة البائسة، والإنطلاق بقلب الإنسان وفكره المحدود إلى رَحْبِ وفرح اللامحدود واللازمني!!

كذلك، إذا توقف اللاهوتي الذي يقيس الإنجيل والمسيح بمقياس الزمن وشروطه ومتطلباته إزاء حديث مطوّل، أو وصف معجزة الخمس الخبزات التي أطعم بها المسيح خمسة آلاف بكل دقائقها؛ فيرى فيها خروجاً عن حدود المنطق الزمني، مُستنقصاً من القديس يوحنا كمؤرخ إنجيلي كيف يؤرخ لحادثة يزعم أنه رآها وذلك بعد خمسين سنة من حدوثها؛ فإن مثل هذا المؤرخ اللاهوتي يكون قد فقد عاملين أساسيين هما اللذان يسندان هذه الحادثة.

الأول: وهو الشرح الذي قدمه إنجيل يوحنا بفم المسيح عن سر هذا الخبز، وعن معنى الكثرة والوفرة فيه حينما قال أن هذا الخبز هو في الحقيقة جسده المقدس، وأنه مُزمع أن يمزقه على الصليب ويطرحه على العالم كله، وليس على خمسة آلاف فقط، ليأكل منه الإنسان ويشبع ويفيض.

وهنا أيضاً عودة إلى سر التحوُّل، فبعد أن كان الإنسان يأكل خبزه بعرق جبينه والآكلون يموتون بعد حين، صار الإنسان مُخوَّلاً أن يأكل من خبز السماء والآكل منه لا يموت، إذ هو خبز الحياة الأبدية. وهكذا تمّت النبوة «**ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل ,, كلمة،، تخرج من فم الله**» (تث٨: ٣، مت٤: ٤). وتمّت كما ذكرها الإنجيل في المسيح، هوذا: «**الكلمة صار جسداً**» (يو١: ١٤)!! و«خذوا **كلوا هذا هو جسدي**» (مت٢٦: ٢٦، مر١٤: ٢٢). [خذوا **كلوا منه كلكم** لأن هذا هو **جسدي**] (القداس الإلهي). إذن، فمعجزة الخمس الخبزات تكون قد استوفت أسبابها واستُعلِنَ الحق المختفي في مظهرها.

العامل الثاني: وهو الرواية: فإن كان القديس يوحنا يؤرخ لأعمال «الكلمة»، وهذا واضح منذ بدء إنجيله، فالأناجيل الأخرى أخذت على نفسها أن تضع اللمسات التاريخية، كُلٌّ في مجاله بصدق وإحكام، وذلك في هذه القصة التي تحمل كل المواصفات التاريخية هكذا: «فمضوا في السفينة إلى موضع خلاء... فرآهم الجموع... فتراكضوا إلى هناك من جميع المدن مشاةً... فتحنن عليهم... وبعد ساعات كثيرة... الموضع خلاء والوقت قد مضى... إصرفهم... ليبتاعوا لهم خبزاً.. أعطوهم أنتم ليأكلوا... كم رغيفاً عندكم... خمسة وسمكتان... فأمرهم أن يجعلوا الجميع يتكئون رفاقاً رفاقاً على العشب الأخضر. فاتكأوا صفوفاً صفوفاً مئة مئة وخمسين خمسين. فأخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره إلى السماء وبارك ثم كسَّر الأرغفة وأعطى تلاميذه ليقدموا إليهم. وقسَّم السمكتين للجميع. فأكل الجميع وشبعوا. ثم رفعوا من الكسر اثنتي عشرة قفة مملوءة ومن السمك. وكان الذين أكلوا من الأرغفة نحو خمسة آلاف رجل.» (مر٦: ٣٢—٤٤)

إذن، لا يمكن أن يحكم التاريخ على هيكل هذه القصة بالزّيف، لأن مظهرها مطابقٌ للتاريخ، كما لا يمكن أن يحكم التاريخ على المسيح في إنجيل يوحنا أنه خرج عن حدوده فيما عمل، لأن جوهر القصة مطابقٌ لهدف لاهوتي أكمله المسيح في قلب التاريخ.

وحينما يتوقف اللاهوتيون المدافعون عن التاريخ إزاء معجزة إقامة لعازر من الموت، يطرحون مشكلتين: **الأولى:** هل أو كيف نصدق أن المسيح أقام لعازر من الموت حقاً؟ والمشكلة **الثانية:** لماذا لم يذكر الإنجيليون الثلاثة هذه المعجزة أيضاً وهي هامة؟

والرد على المشكلة **الأولى** نقول: إن المسيح سبق وأعلن مراراً أنه سيقيم الموتى موتى الخطية وموتى القبور! وسواء في إنجيل يوحنا «الحق الحق أقول لكم: إنه تأتي ساعة، وهي الآن، حين يسمع **الأموات** صوت ابن الله **والسامعون يحيون**» (يو٥: ٢٥)، «لا تتعجبوا من هذا فإنه تأتي ساعة فيها يسمع **جميع الذين في القبور** صوته، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (يو٥: ٢٨و٢٩)؛ وكذلك في الأناجيل الأخرى «أما يوحنا فلما سمع في السجن بأعمال المسيح أرسل اثنين من تلاميذه وقال له: أنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟ فأجاب يسوع وقال لهما: اذهبا وأخبرا يوحنا بما تسمعان وتنظران. العُمْي يُبصرون والعُرْج يمشون والبُرْص يطهَّرون والصُّمُّ يسمعون **والموتى يقومون...**» (مت١١: ٢—٦، لو٧: ٢٢)؛ فواضح هنا من كلمة «الموتى» التي أتت بالجمع، أن المسيح أقام عدة أموات وليس لعازر فقط. ويروي الإنجيليون أيضاً قصة إقامة ابن أرملة نايين، وابنة يايرس. بهذا تكون رواية إقامة لعازر من الموت مدعَّمة من التاريخ المعترَف به في الأناجيل الثلاثة الأخرى.

أما المشكلة الثانية: أن الأناجيل الأخرى لم تذكر حادثة إقامة لعازر من الموت؛ فمن متابعة خدمة المسيح نجد أن الثلاثة الأناجيل لم تذكر خدمة المسيح في اليهودية التي بدأت مع يوحنا المعمدان، والتي ذكرها إنجيل يوحنا فقط في الأصحاحات (١—٣)، (٧). ويذكر إنجيل يوحنا فقط دون باقي الأناجيل أنه دعا له خمسة تلاميذ من هناك. وهذا مسجّل في كتاب «**تلمود**» اليهود(٢٥).

ويُلاحَظ في رحلة المسيح إلى اليهودية قبل الصليب بأسبوعين تقريباً حينما وصله خبر مرض لعازر، أن إنجيل يوحنا لم يذكر وجود التلاميذ الإثني عشر، ويبدو واضحاً أن كثيراً من تلاميذه كانوا غائبين عن هذه الرحلة، ومنهم غالباً القديسين متى وبطرس، وهما اللذان تفرَّع منهما التقليد الرسولي في الأناجيل الثلاثة. وهذا قد يكون هو السبب الأساسي في عدم ذكر حادثة إقامة لعازر من الموت، واكتفى الإنجيليون الآخرون بذكر حادثتي إقامة ابن أرملة نايين وابنة يايرس كما رأوهما، واكتفى يوحنا بذكر إقامة لعازر من الموت.

واهتمام القديس يوحنا بذكر حادثة إقامة لعازر من الموت دون غيرها، فذلك يعود إلى **أهمية لاهوتية** رفعت القصة إلى أقصى خطورتها **التاريخية**، إذ التحمت بموت المسيح وقيامته لأنه، كما سبق وقلنا، فإن السبب الأساسي الذي من أجله اجتمع السنهدريم وقرر قتل المسيح مذكور في إنجيل مرقس وكذلك كل من إنجيل متى وإنجيل لوقا، أنه تم بعد عملية تطهير الهيكل التي أجراها المسيح قبل الصلب بأسبوع واحد، ولكن إنجيل يوحنا ذكر عملية تطهير الهيكل في بداية خدمته مشيراً بذلك إلى سلطانه وإلى مفهوم رسالته في جلتها. أما السبب الأساسي الذي اجتمع السنهدريم من أجله فجعله بعد إقامة لعازر من الموت: «فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه.» (يو١١: ٥٣)

وبتحقيق أدق المؤرِّخين واللاهوتيين رُئي أن تاريخ تسلسل الأحداث والأسباب لقتل المسيح صحيحة في إنجيل يوحنا، ومدعَّمة للتاريخ بدرجة كبيرة.

وهكذا نجد أن تركيز المدارس النقدية على معجزات المسيح في إنجيل يوحنا فاقدة للرؤية اللاهوتية، بل وللرؤية التاريخية الصحيحة المنسجمة مع الإنجيل.

وبهذا يثبت لنا أن الهيكل العام لإنجيل يوحنا مترابط، يسير بالحوادث والكلمات ككلٍّ متحرك نحو هدف لاهوتي خطير لا ينبغي إغفاله، بل يلزم تثبيت النظر إليه إذا أراد أي إنسان أن يفهم الإنجيل أو ينقده، فهو ينتهي إلى علاقة حية بين الله والإنسان كواقع لا يحتاج إلى برهان، لأن

---

25 Hunter, A.M., op. cit., p. 58.

الكنيسة تعيشه في ملء صدقه وهي تتحرك نحوه عبر الزمان دون توقُّف، حتى تبلغ إليه ويبلغ فيها الإنسان إلى مكانته الأولى في حضن الله.

٦ ــ **منطق التاريخ يلزم أن يخضع لمنطق اللاهوت:**

قيمة التاريخ أو الزمن في إنجيل يوحنا هي «الإستعلان» الإلهي موقَّعاً على التاريخ والزمن خطوة خطوة، **وبهذا يكون قد أصبح للتاريخ والزمن الإنساني قيمة إلهية جديدة**، ويكون هناك بالنهاية استحالة أن يخضع الإستعلان الإلهي الذي هو جوهر الحادثة للزمن وللتاريخ البشري الذي هو مظهر الحادثة. فالإستعلان قد يختار خطوة متقدمة لاهوتياً على خطوة متأخرة زمنياً حسب قياس عمل الروح وإلهام النعمة وغاية الإستعلان. أي أن الزمن فيما يخص المسيح عليه أن يخضع للإستعلان ويقبل بالترتيب الإستعلاني الذي جاء في الإنجيل، ويراجع نفسه، فربما يُرغمه الإستعلان لجعل «الأحد» قبل «السبت» كما سجَّل القديس يوحنا حادثة تطهير الهيكل في مستهل إنجيله وبداية الخدمة، أي قدمها ثلاث سنوات عن ما سجلته الأناجيل الأخرى في ختام الخدمة ونهاية الإنجيل قبل الصليب مباشرة، فاستحسن المؤرخون اللاهوتيون هذا العمل جداً مع أنه مخالف لمنطق التاريخ. لأن الترتيب الإستعلاني هو السيد والسائد، وقد جاء ليُعيد صياغة التاريخ الذي أفسده الإنسان أو الذي أفسد الإنسان، سيَّان.

وهنا كان اعتراض المسيح العنيف على الذين آخذوه كيف يصنع معجزة شفاء لأعمى أو كسيح يوم السبت؟ لأن هذا العمل في مضمون الفكر الناموسي نقضٌ للتاريخ وإهانة لكرامة السبت الزماني وقداسته أما رد المسيح فكان بالإيجاب، أي: نعم أنا أنقض التاريخ بالرغم من الوصية حتى لا يسود الزمن على الله الذي هو واضعُه وخالقُه: فـ«أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو٥: ١٧)، بمعنى أن «**عمل الله الإستعلاني**» لا يخضع للتاريخ ولا رتابة الزمن: فـ«السبت إنما جُعِلَ لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت» (مر٢: ٢٧). والإنسان خُلق قبل السبت، فإن كان السبت خُلق أو أقامه الله ليخدم الإنسان، فكم يكون الزمن بالنسبة لأمور الله أو لإستعلان شخصه أو طبيعته؟؟ فـ«**ابن الإنسان هو رب السبت أيضا**» (مت١٢: ٨) أي خالقه، أي أعلى من السبت وأسْبَق وأبْقى. فكلُّ ما كان يعمله المسيح هو قبل السبت، حتى ولو كان في السبت، بمعنى أن **تدبير الله هو قبل الزمن وأزليٌّ في أصله ومَنْشَئه**، «لأنه متمِّمُ أمرٍ وقاضٍ بالبر، لأن الربَّ **يصنع أمراً مقضياً به على الأرض**.» (رو٩: ٢٨)

وبهذا يكون تحليل قضايا إنجيل يوحنا من قِبَل اللاهوتيين النقديين تاريخياً أي زمنياً، أمراً مشيناً للإيمان المسيحي ولمعنى الخلاص ولإستعلان شخص يسوع المسيح والآب! وكان الأجدر والأصح أن

يُحلّل الإستعلان على مستواه الخاص به، فيكون هو تاريخ الإنجيل الصحيح.

٧ — التحليل التاريخي لحياة المسيح لا يصلح وحده أن يكون قاعدة للإيمان:

التحليل التاريخي العلمي للحوادث، أي التاريخ الحرُّ، يقيِّم الحادثة على أساس العِلَّة والمعلول، أي السبب والأثر، مع تقييم القيمة الظاهرية من الشيء أو الموضوع أو الإنسان بالنسبة لغيره من الحقائق التي على نفس مستواه سواء من جهة أي إنسان أو عمله.

وهذا النوع من التحليل التاريخي لا يستقيم تطبيقه على حوادث وأقوال المسيح وشخصه. بل لا يمكن ولا يصح، وليس من الحق أو العدل، لأن المسيح — بأقواله وأعماله — يحمل الحق في جوهره وليس في مظهره أو في مظهر أعماله. فالمسيح في مظهره «عَبْدٌ متألم»؛ وفي جوهره إله ممجَّد. وهذه كلها يستحيل قياسها على أشخاص آخرين أو أعمال لأشخاص آخرين. والمسيح يؤكِّد ذلك: «لو لم أكن **قد عملتُ** بينهم **أعمالاً لم يعملها أحدٌ غيري** لم تكن لهم خطية» (يو١٥: ٢٤). فكل آيات المسيح وتعاليمه لا تقيَّم ولا توصَف بلغة التاريخ، لأنه لا توجد ثوابت أخرى يُقاس عليها لا من جهة شخصه ولا من جهة أعماله. فبالأَوْلى، لا يُحكَم عليها من أحد بل هي تَحكُم على كل أحد.

صحيح أن الثلاثة الإنجيليين وقَّعوا حياة المسيح على التاريخ قدر ما استطاعوا، **هذا حسب الظاهر**، وهذا حسن. ولكن من أجل أن الأناجيل الثلاثة أخذتها الكنيسة هكذا على المستوى التاريخي **كقصة متيَقّنة عندها** وجعلتها أساساً لإيمانها، نقول إنه بسبب هذا الأمر نفسه انطلق القديس يوحنا في آخر القرن الأول لتاريخ الكنيسة — حينما رأى أن الكنيسة اكتفت بظاهر حياة المسيح ليكون هو إنجيلها و بشارتها بملكوت الله — انطلق مُساقاً من الروح القدس **ليستعلن لاهوت المسيح** من داخل حياة المسيح هذه وتعاليمه نفسها التي قدَّمتها الأناجيل الأخرى في ظاهرها التاريخي. وهذا هو نص التقليد الكنسي الذي استلمته الكنيسة عن القديس إكليمندس الإسكندري الذي سجَّله له يوسابيوس القيصري وأذاعه. يقول القديس إكليمندس:

[إنه اعتماداً على صحة ما جاء إلينا من فم الشيوخ كتقليد أن القديس يوحنا آخر الإنجيليين **حينما رأى أن الأناجيل الموجودة اهتمت بحقائق الظروف الخارجية** τὰ σωματικά **في تسجيلها**، وإذ ضُغط عليه من قِبَل أحبائه **تحرَّك بالروح من قِبَل الله وكتب إنجيله الروحي** = τὸ πνευματικὸν εὐαγγέλιον .](٢٦)

---

26 Euseb. Hist. Eccl., VI, 14,5-7.

لذلك، فعلى مدى إنجيله كله أرسى القديس يوحنا كل مفردات المنهج اللاهوتي منطوقاً بفم المسيح، ومُنتخَباً من تعاليمه وآياته ليخدم إيمان الكنيسة التي بَنَتْ عليه لاهوتها وعقيدتها، والتي دافعت به عن كيانها مقابل المراطقة الذين تضافروا على مدى أربعة قرون لهدمها، مستخدمين ضدها أسلحة المنطق والتاريخ والتعاليم المزيّفة.

٨ — صيغ الأفعال الزمنية فقدت حدودها بدخول الله إلى ملء الزمن:

القديس يوحنا وهو يكتب عن «**الحق**» كان يعلم ماذا يكتب، ولمَنْ يكتب، ولماذا يكتب. وعلماء اللغة أثبتوا أن لغة إنجيل يوحنا جاءت في معظمها في صيغة المستقبل، فقد كان يرى التاريخ أمامه بما سيأتيه الزمن، وعمل له ألف حساب. والمسيح كان يتكلم عن نفسه بالصيغة الحاضرة الدائمة «أنا هو القيامة والحياة» (يو١١: ٢٥)، لأنه كان يرى نفسه في لاهوته ويتكلم عن الأزلية القائمة فيه: «**قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن**» (يو٨: ٥٨)، هي لغة تسمو فوق الزمن والتاريخ معاً. كما يعبّر بالصيغة الدائمة القائمة عن علاقته الأزلية بالآب: «الآب يحب الإبن» (يو٣: ٣٥؛ ٥: ٢٠). فإذا تكلم المسيح عن الإنسان الذي يؤمن به، فإنه يرفع عنه ثقل الزمن ويحصره معه في الأبدية بصورة غاية في الروعة والإعجاب: «إني أنا حيٌّ فأنتم ستحيون» (يو١٤: ١٩)، «مَنْ آمن بي ولو مات فسيحيا.» (يو١١: ٢٥)

وهكذا جاءت صيغ الماضي والحاضر والمستقبل في إنجيل يوحنا لا تخدم التطوُّر الزمني كما جاءت في الأناجيل الأخرى، كأن تقول عن المسيح «وأما يسوع فكان **يتقدَّم** في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس» (لو٢: ٥٢)، بل كلها جاءت لتخدم تدرُّج استعلان طبيعة المسيح بقدر استيعاب إيمان الناس: «ومن **ملئه** نحن جميعاً أخذنا نعمة فوق نعمة» (يو١: ١٦)، «مجَّدتُ وأُمجِّد أيضاً» (يو١٢: ٢٨). كما اتجهت أفعال الخلاص نحو الأخرويات، ولكن في صورتها الحاضرة: «إن آمنتِ ترين مجد الله» (يو١١: ٤٠). ولقد ألمحت الأناجيل الأخرى إلى هذه الحقيقة: «وبعدما أُسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول: **قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله** فتوبوا وآمنوا بالإنجيل» (مر١: ١٤و١٥)؛ أين التاريخ هنا وأين الزمان؟ لقد وضعه الرب خلف ظهره: «قد كمل الزمان» — حتى يستطيع أن يبدأ الكرازة بالأزليات والأخرويات التي تدفقت وأشرقت على الإنسان النائم الجالس في الظلمة وظلال الموت. فالمسيح لم يُلغِ الزمن، ولكن استعلن الملكوت من فوقه فأضاء ظُلماته.

فإذا حاول اللاهوتيون أن يؤرِّخوا «ليسوع التاريخ» كما يقولون، فإنهم يفصلونه عن لاهوته، ويُفسدون كرازته ويُخفون مجد الأخرويات وحضورها في الزمن.

ويلاحظ القارىء أن مجيء الروح القدس في ملء الزمن — في اليوم الخمسين لقيامة الرب — هو الذي كشف الأخرويات لروح الإنسان، وجعلها حاضرة في قلبه وروحه وعاملة فيه في حاضره الزمني. فالپاراكليت في إنجيل يوحنا منوط به **استعلان الأخرويات** وتذوُّقها، وهذه وظيفته بالأساس: «**ويخبركم بأمور آتية**» (يو١٦: ١٣). وبهذا تجلى الزمن في حاضره عند الإنسان بواسطة الروح القدس، وصار جزءاً لا يتجزأ من المستقبل الأبدي — والروح القدس لم يُلغِ الزمن، بل استعلن فيه الأبدي.

وهذا هو المعنى الخفي وراء قول المسيح: «الحق أقول لكم: إن من القيّام ههنا قوماً لا يذوقون الموت حتى **يروا** ملكوت الله قد أتى بقوة» (مر٩: ١)، والقديس يوحنا شهد بذلك: «الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه... فإن الحياة أُظهرت... ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا» (١يو١: ١و٢)، مشيراً بذلك إلى مجيء الروح القدس ومعه ملء الملكوت وطبيعته. المستقبل هنا دخل في الحاضر الزمني.

وقول المسيح في إنجيل يوحنا: «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو١٤: ٩): هنا الرؤيا ليست للجسد مع أنها في الجسد. فهي ليست في السمات الزمنية للمسيح، وإلاَّ فلن يروا فيه إلاَّ إنساناً «مضروباً من الله ومذلولاً» (إش٥٣: ٤)، «مكروه الأمة وعَبْد المتسلِّطين» (إش٤٩: ٧)، بل هي رؤيا الإيمان من خلال كلامه وأعماله واسمه المعلَن دائماً: «أنا هو» (يهوه الكائن بذاته)، ومن خلال قيامته بعد موت الفداء الذي أكمله. هذه كلها أكملها في الجسد في وسط الزمان ولكن ليست بالجسد. لذلك يعثُر فيه اللاهوتيون الذين يؤرِّخون «ليسوع التاريخ». فجسد المسيح لا يؤمَن به في ذاته، بل في اللاهوت المستعلَن فيه، فنرى فيه قوة الله و برّه وقداسته وفداءه لنا، حيث تتركز كل آمال الإنسان وخلاص البشرية الذي هو وَعْد الله للعالم: «ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة مولوداً تحت الناموس ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبنِّي... إذاً لستَ بعدُ عبداً بل ابناً وإن كنتَ ابناً فوارثٌ (أنت) لله بالمسيح.» (غل٤: ٤—٧)

٩ — التاريخ يبحث في الماضي والإنجيل يعيش المستقبل:

والأمر الذي فات على المؤرخين اللاهوتيين، الذين دخلوا في سباق النقد لإنجيل يوحنا كونه لم يأخذ الخط التاريخي أساساً لروايته، (مع أنه لم يقُلْ أنه يكتب رواية، بل تحقيقاً لاهوتياً انتخبه من أقوال المسيح وتعاليمه التي بناها على معجزات جعلها آيات لصدق ما يقول ويعلِّم)، نقول أن الذي فاتهم هو: أن المؤرخ مهما توخّى الدقة في بحثه وراء الحقائق نفعاً للحقيقة — كما يقولون — فهو يبحث في الماضي، والماضي فقط! لأن التاريخ لا يبحث في الحاضر ولا المستقبل؛ ولكن الإنجيل

وهو البشارة المفرحة، يعيش في الإسخاتولوجي (الأخرويات) أي المستقبل، هادفاً إلى غاية لاهوتية حية قائمة في الحاضر وممتدة في المستقبل، ولا تأخذ من الماضي إلاَّ مزيداً من استعلانها، وصدقاً لتكميلها.

فالزمن عند إنجيل يوحنا هو «الآن» الممتد والماسك بالأبدية: «مَنْ كان حياً **(الآن)** وآمن بي فلن **يموت ,,إلى الأبد،،**». لماذا؟ لأن المسيح وهو هو «القيامة والحياة» حضر في «الآن» أو «الآنِيَّة الزمنية»، وهو الأزلي الأبدي بآن واحد: «يقول الرب **الكائن** والذي **كان** والذي **يأتي** القادر على كل شيء» (رؤ١: ٨). لذلك أصبح لا قيمة للماضي في عُرْف الإنجيل إلاَّ بالقدر الذي يجاوب به على الحاضر ويحل مشاكله.

فمثلاً، ليس قيمة بعد لكل أسفار العهد القديم إذا لم تشترك مع النعمة في حل مشكلة الضمير الملوَّث بالخطية الذي يئن تحت ثقل اللوم والدينونة واللعنة والموت؟!!! المسيح أعطى الحلّ لهذه المحنة العظمى التي يعيشها الإنسان في حاضره، فلا بد أن تُطبَّق على كل حاضر لكل إنسان آتٍ إلى العالم، وبالتالي لكل البشرية وإلى نهاية الدهور. علماً بأن هذا الحل أي الخلاص الأبدي الذي أكمله المسيح لكل إنسان، يمتد بأثر رجعي على كل عاملي الصلاح الخائفين الله منذ بدء الدهور. وهكذا غطَّى المسيح العجز الزمني، وأنهى على قصور التاريخ وأنينه، بل أدخل الماضي في نور استعلانه.

دخول المسيح في الزمن الإنساني تحت التاريخ، أعطى للزمن والتاريخ معنًى متسعاً جديداً، إذ ألغى الناموس بأحكامه ودينونته — **الناموس باعتباره قاضي التاريخ والمؤدِّب الزمني** — وبهذا أعطى لماضي الإنسان شرحاً جديداً مبهجاً، إذ كشف غطاءه الأسود، واستعلن جنين **«الخلاص الحق والحياة الأبدية»** الذي كان مُصوَّراً في أحشائه ولم يقْوَ على ولادته، «هذا اليوم يوم شدة وتأديب وإهانة، لأن الأجِنَّة دَنَتْ إلى المولد، ولا قوة على الولادة.» (إش٣٧: ٣)

فالتجسُّد جلَّى التاريخ — أي غيَّر هيأته — وأعلن في صميم حركته قصد الله السعيد، فأفْقَدَ التاريخ الإنساني عتامته. فأخذ التاريخ في الإنجيل مسحة الله، وأصبح يضيء بنور الله أمام خُطى السائرين فيه. «ومفديُّو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بترنُّم وفرح أبديٍّ على رؤوسهم. ابتهاج وفرح يدركانهم. ويهرب الحزن والتنهد» (إش٣٥: ١٠). كما أخذ الإنجيل، بحكم الضرورة والإستعلان الذي حدث، أخذ يؤرِّخ لمستقبل الكنيسة، لأنه وضع أقدامها على عتبة ملكوت الله الأبدي: «توبوا لأنه **قد اقترب** منكم ملكوت الله»؛ ثم غرس الملكوت في داخل قلب الإنسان الميت فطعَّمه بالحياة: «ها ملكوت الله **داخلكم**». وهكذا بدأت الكنيسة تكتب أعمالها حسب

وهو البشارة المفرحة، يعيش في الإسخاتولوچي (الأخرويات) أي المستقبل، هادفاً إلى غاية لاهوتية حية قائمة في الحاضر وممتدة في المستقبل، ولا تأخذ من الماضي إلاَّ مزيداً من استعلانها، وصدقاً لتكميلها.

فالزمن عند إنجيل يوحنا هو «الآن» الممتد والماسك بالأبدية: «مَنْ كان حياً (**الآن**) وآمن بي فلن يموت ،،**إلى الأبد**،،». لماذا؟ لأن المسيح وهو هو «القيامة والحياة» حضر في «الآن» أو «الآنِيَّة الزمنية»، وهو الأزلي الأبدي بآن واحد: «يقول الرب **الكائن** والذي **كان** والذي **يأتي** القادر على كل شيء» (رؤ١: ٨). لذلك أصبح لا قيمة للماضي في عُرْف الإنجيل إلاَّ بالقدر الذي يجاوب به على الحاضر ويحل مشاكله.

فمثلاً، ليس قيمة بعد لكل أسفار العهد القديم إذا لم تشترك مع النعمة في حل مشكلة الضمير الملوَّث بالخطية الذي يئن تحت ثقل اللوم والدينونة واللعنة والموت؟!!! المسيح أعطى الحلّ لهذه المحنة العظمى التي يعيشها الإنسان في حاضره، فلا بد أن تُطبَّق على كل حاضر لكل إنسان آتٍ إلى العالم، وبالتالي لكل البشرية وإلى نهاية الدهور. علماً بأن هذا الحل أي الخلاص الأبدي الذي أكمله المسيح لكل إنسان، يمتد بأثر رجعي على كل عاملي الصلاح الخائفين الله منذ بدء الدهور. وهكذا غطَّى المسيح العجز الزمني، وأنهى على قصور التاريخ وأنينه، بل أدخل الماضي في نور استعلانه.

دخول المسيح في الزمن الإنساني تحت التاريخ، أعطى للزمن والتاريخ معنىً متسعاً جديداً، إذ ألغى الناموس بأحكامه ودينونته — **الناموس باعتباره قاضي التاريخ والمؤدِّب الزمني** — وبهذا أعطى لماضي الإنسان شرحاً جديداً مبهجاً، إذ كشف غطاءه الأسود، واستعلن جنين «**الخلاص والحق والحياة الأبدية**» الذي كان مُصوَّراً في أحشائه ولم يقْوَ على ولادته، «هذا اليوم يوم شدة وتأديب وإهانة، لأن الأجِنَّة دَنَتْ إلى المولد، ولا قوة على الولادة.» (إش٣٧: ٣)

فالتجسُّد جلَّى التاريخ — أي غيَّر هيأته — وأعلن في صميم حركته قصد الله السعيد، **فأفْقَدَ** التاريخ الإنساني عتامته. فأخذ التاريخ في الإنجيل مسحة الله، وأصبح يضيء بنور الله أمام خُطى السائرين فيه. «ومفديُّو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بترنُّم وفرح أبديٍّ على رؤوسهم. ابتهاج وفرح يدركانهم. ويهرب الحزن والتنهد» (إش ٣٥: ١٠). كما أخذ الإنجيل، بحكم الضرورة والإستعلان الذي حدث، أخذ يؤرِّخ لمستقبل الكنيسة، لأنه وضع أقدامها على عتبة ملكوت الله الأبدي: «توبوا لأنه **قد اقترب** منكم ملكوت الله»؛ ثم غرس الملكوت في داخل قلب الإنسان الميت فطعَّمه بالحياة: «ها ملكوت الله **داخلكم**». وهكذا بدأت الكنيسة تكتب أعمالها حسب

لذلك، إذا تدخل العالِم اللاهوتي ومعه مقياس الزمن الطبيعي — الذي ينظر دائماً إلى الوراء — ليقيس به قامة المسيح في الحوادث والأعمال المعمولة، فهو فوق أنه يخطىء فإنه يعطّل مسار التاريخ الحقيقي أو الإلهي المندفع إلى الأمام وإلى فوق، ويظلمه أشد الظلم. فالنقد «غير الحقيقي»، أي الذي يصطدم بالحق، يوقف حركة الكنيسة بإعثار أولاد الله، فيعرقل مسيرة الخلاص ويحمل دينونة تعثُّرها الذي تعانيه الآن في كل أوروبا وأمريكا.

— إنتهى الكتاب —

ويليه كتاب شرح إنجيل القديس يوحنا

كتاب : شرح إنجيل القديس يوحنا ـ الجزء الأول
(من الأصحاح الأول حتى الأصحاح الثاني
المؤلف : الأب متى المسكين .
الطبعة الأولى : ١٩٩٠ .
مطبعة دير القديس أنبا مقار ـــ وادي النطرون .
ص . ب . ٢٧٨٠ القاهرة .
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٨٩٧٣/ ١٩٩٠ .
رقم الإيداع الدولي : ISBN 977 - 240 - 000 - 6

ثمن النسخة ثلاثون جنيهاً

مقدمة الكتاب

سبق أن أصدرنا مقدمة عامة في كتاب قائم بذاته تحت اسم « المدخل لشرح إنجيل القديس يوحنا »، ويقع في ٤١٦ صفحة من القَطْع الكبير. وهو يشمل دراسة وتحليلاً للإنجيل كله في ستة أبواب يحتوي على ٢٦ فصلاً.

ولا غنى عن قراءة المدخل لفهم شرح إنجيل القديس يوحنا. بل ونوصي بأن يكون المدخل في متناول يد القارىء أثناء قراءته للشرح، لأن العودة إليه لفهم بعض الأمور المحالة إليه تفيد القارىء في استيعاب المعنى.

اعتراف بالفضل

لقد طُبع هذا الكتاب في مطبعة دير القديس أنبا مقار بوادي النطرون، وقام بالإشراف على مراحل طبع الكتاب بداية من النسخة الخطّية وإعادة تنقيحها وإصلاح الأخطاء فيها، ومراجعة القواعد العربية ونحو الكلام، ومراجعة الآيات بالعربية، ثم اليونانية، وإعادة تبويب الكتاب وتنسيق فصوله؛ ثم إخراجه على آلة الجمع التصويري ودخوله تحت المونتاج (عملية القص واللصق وضبط مقاسات الصفحات وترقيمها)، بالإضافة إلى عمليات التصوير للوحات الواردة بالكتاب من تصوير وتحميض وتكبير وتصغير، ثم الحفر على اللوحات المحسّسة للطباعة، ثم دخوله للطبع على آلة الطباعة الأوفست، ثم تطبيق أفرخ الورق المطبوعة كملازم، ثم تخييط الملازم معاً والتجليد؛ كل هذا قام به الآباء الرهبان الأعزاء الأجلاء، بما استلزم من جهد وصبر ودقة وفن بلغ على أيديهم أقصى إتقانه.

ونحن إذ نذكر أسماءهم وهم في غنى عن الذكر والذكرى، فسيرتهم مكتوبة في السموات؛ ولكن يطيب لقلب الكاتب أن ينسب الفضل لأصحابه، فلولاهم ما خرج هذا الكتاب، وما استمتع القارىء بهذا الإخراج البديع.

(الآباء بحسب ترتيب أقدميتهم الرهبانية، ودور كل راهب في إخراج الكتاب)

الأب إرميا	مراجعة البروفات والقواعد العربية ونحو الكلام.
الأب يوحنا	نسخ النسخة الخطية ومراجعة البروفات وعمل فهرس الموضوعات.
الأب وديد	تنقيح النسخة الخطية ومراجعة الآيات باليونانية وإعادة تبويب الكتاب وتنسيق فصوله.
الأب باسيليوس	المراجعات الفنية في مراحل جمع وطبع الكتاب.
الأب ديمتري	نسخ النسخة الأولى عن المسوّدة التي بخط المؤلف.
الأب ويصا	عمل رتوش الأفلام وتصوير وتجهيز لوحات الطباعة المحسّسة.
الأب برتي	جمع النص على آلة الجمع التصويري، وتقديم البروفة الأولى.
الأب لونجينوس	آلة الطباعة الأوفست ـــ آلة تطبيق الملازم ـــ آلة خياطة الملازم ـــ آلة القص ـــ التجليد.
الأب أخنوخ	جمع النص على آلة الجمع التصويري.
الأب سوريال	المونتاج وتصوير الأفلام، وعمل فهرس الآيات وفهرس أقوال الآباء.
الأب يسطس	جمع النص على آلة الجمع التصويري.
الأب دوماديوس	مضاهاة بروفات الجمع التصويري على الأصول المنسوخة للكتاب.
الأب إبيفانيوس	المونتاج وتصوير الأفلام، وعمل فهرس الآيات وفهرس أقوال الآباء.
الأب داميانوس	تصوير الأفلام.

وأخيراً ـــ نستودع هذا الكتاب بالمجهود المبذول فيه ليد القارىء، داعين له بالبركة، راجين الله أن يستخدمه لزيادة المعرفة والتقوى وتمجيد اسم الله القدوس.

دير القديس أنبا مقار — الأربعاء ٢١ نوفمبر سنة ١٩٩٠
تذكار رئيس الملائكة الجليل ميخائيل

ترتيب الأماكن التي تردد فيها المسيح أثناء الخدمة

ينفرد إنجيل القديس يوحنا بتوضيح المراحل المتعددة التي مرت بها خدمة الرب بين اليهودية والسامرة والجليل. فبينما نجد بقية الأناجيل تقتصر على ذكر معمودية المسيح في اليهودية، ثم انتقاله إلى الجليل حيث تدور معظم تعاليمه ومعجزاته ثم صعوده مرة واحدة فقط إلى أورشليم التي انتهت بصلبه، نجد إنجيل يوحنا ينفرد بكشف انتقال الرب مرات متعددة بين اليهودية والسامرة والجليل، وذلك على النحو التالي[1]:

أولاً: في اليهودية أيام المعمدان: ١: ٢٨ــ٥١.

ثانياً: في الجليل: ٢: ١ــ١٢.

ثالثاً: في أورشليم واليهودية: ٢: ١٣ــ٣: ٣٦.

رابعاً: في السامرة: ٤: ٤ــ٤٢.

خامساً: في الجليل: ٤: ٤٣ــ٥٤.

سادساً: في أورشليم: ٥: ١ــ٤٧.

سابعاً: في الجليل: ٦: ١ــ٧١.

ثامناً: في أورشليم: ٧: ١ــ١٠: ٣٩.

أ ــ في عيد المظال: ٧: ١ــ٨: ٥٩.

ب ــ في عيد التجديد: ٩: ١ــ١٠: ٣٩.

(اعتزال مؤقت في عبر الأُردن ١٠: ٤٠ــ٤٢).

تاسعاً: في اليهودية في بيت عنيا: ١١: ١ــ٥٣.

(اعتزال مؤقت في مدينة أفرايم ١١: ٥٤ــ٥٧).

عاشراً: من بيت عنيا إلى أورشليم: للمرة الأخيرة ١٢: ١ــ١٩: ٤٢.

حادي عشر: بعد القيامة في أورشليم: الأصحاح العشرون كله.

ثاني عشر: بعد القيامة في الجليل: الأصحاح الحادي والعشرون كله.

---

(١) ارجع إلى المدخل ص ٣٠٠ــ٣٠١، حيث تجد السبب الذي جعل القديس يوحنا يتمسك بالتركيز على خدمة الرب في اليهودية.

المحتويات

الأصحاح الأول

مقدمة إنجيل القديس يوحنا

مقدمة إنجيل القديس يوحنا تشمل الأصحاح الأول برُمّته.
وهي تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: (١:١ــ١٨)

استعلان يسوع المسيح في الأزلية بصفته «الكلمة»، وفي الزمن «الكلمة المتجسد»، والتدرج في الإستعلان من «الكلمة» في الأزل إلى «الكلمة صار جسداً» في شخص يسوع المسيح.

القسم الثاني: (١:١٩ــ٥١)

ويختص بالشهادة أن يسوع هو المسيح ابن الله، ويشمل:

١ ــ **شهادة القديس يوحنا المعمدان**، وهي على عدة مراحل:

أ ــ الجواب بالنفي ١:١٩ــ٢٢

ب ــ الجواب بالإيجاب ١:٢٣ــ٢٨

ج ــ الشهادة للمسيح ١:٢٩ــ٣٤

د ــ المعمدان يبدأ يسلم الوديعة ١:٣٥ــ٣٧

٢ ــ **شهادة التلاميذ** ــ المسيح يبدأ عمله باختيار تلاميذه، وهم يشهدون له:

أ ــ شهادة أندراوس ١:٤٠ــ٤٢

ب ــ شهادة فيلبُّس ١:٤٣ــ٤٦

ج ــ شهادة نثنائيل ١:٤٧ــ٥١

القسم الأول من المقدمة

استعلان يسوع المسيح «الكلمة المتجسد»

١ : ١ ــ ١٨

في جو روحي متكاثف ومتعاظم في الإرتفاع يطير بنا القديس يوحنا محمولاً بالروح، شاخصاً نحو المسيح في الأزلية قبل أن يأخذ صورة الإنسان أو يتحدد اسم له أو شكل يمكن أن يستقر عليه الفكر أو العقل الناظر.

ويبدأ القديس يوحنا(١) يصفه كمن يرى وكمن يعي ما يرى، بتأكيد يفوق كل ثقة بلغها فكر بشر. وبآيات قصيرة غاية القصر، يوضح ما يرى، وكل آية رؤية بحد ذاتها لا يمكن تجاوزها بسهولة. فآياته تخطف البصر العقلي خطفاً وتحبسه في المجال الذي تحدده كل آية. وبالكاد، عندما يتشبع الوعي بمضمونها العميق والمتسع الممتد، يجذبه هذا الإنجيلي الطائر ليطير به إلى آية أخرى أو رؤية أعلى متصلة بسابقتها أشد الاتصال. ولكن بسبب نورها الخاطف، فإنها تستحوذ على الوعي بأجمعه فتفقده الصلة بسابقتها، فلا يعود يرى سواها. وهكذا تبدو الآيات الأولى من هذا الإنجيل وكأنها مراقٍ يرقاها العقل الروحي بجهد شديد، ولا يبقى للذهن، من بعد أن يعبرها، سوى أكداس من أنوار متشابكة يتمنى لو يُعطى فرصة ليميز منها بين نور ونور فلا يجد. ولما يحاول الإنسان المتأمل الدارس أن يمزج بينها ليحصل الفكر على صورة واحدة لها، يبتلع في خضم أعماقها؛ شأنها في ذلك شأن اللامحدودات الإلهية حينما يشخص إليها وعي الإنسان الروحي فإنها تصطدم بمحدوديته، فيعود منها مبهوراً دون حصيلةٍ ما يمكن أن يسلمها للسان أو القلم!

(١) سنكتفي في ذكرنا لاسم القديس يوحنا الرسول والإنجيلي والتلميذ المحبوب باسمه «يوحنا» مسبوقاً بحرف «ق.» اختصاراً لكلمة «قديس»، كما سنكتفي في ذكرنا للقديس يوحنا المعمدان باسم «المعمدان» تسهيلاً للقارئ.

شيء واحد يخرج به قارىء الآيات الأولى من إنجيل يوحنا، أنه أمام استعلان لأعمق أسرار الله، حيث يأخذه هذا الإنجيلي الطائر ويوقفه أمام الحق الأزلي وجهاً لوجه ثم يقول له: ماذا ترى؟ قل لو استطعت!!

أما لسان حال الناظر منّا مهما كان حاذقاً في الرؤيا، فهو يقول: نعم أرى ما ترى، بل ويقين أحس بمن أرى، ولكن أن أصف ما أرى يتوقف العقل مني وينعقد اللسان فيَّ، فما بالك بالقلم؟

هذا هو يسوع المسيح فيما قبل التجسد، لم يره ق. يوحنا بطبيعة البشر بل في طبيعة الله الكلية، وليس منفرداً بل قائماً مع الله في صلة ذاتية كلية وأزلية؛ ليس إلهاً ثانياً ولكن واحداً مع الله في الألوهة لا يفارقه، **كالكلمة في العقل**، فلا العقل يوجد بدونها ولا الكلمة توجد بدون العقل. ولكن لا شكل له ولا هيئة ولا أية صورة يمكن أن يلتقطها الفكر المتخيل أو العقل الذي يستند على القياس أو على الحواس. فأين القياس وأين الحواس من الله ومن المطلقات؟؟ ولكن ق. يوحنا رأى بالعقل الروحي السامي، ووعى ما رأى بالوعي المسيحي الإيماني الذي أعطي أن يتخطى المحدودات والزمنيات والمتغيرات. رآه «**الكلمة**» بالاسم كما من واقع رؤياه السابقة: «يُدعى اسمه كلمة الله» (رؤ١٩: ١٣). كما رآه «**الألف والياء**» (الألفا والأوميجا) بمفهوم الكلِّية الكونية كما سمعها من فم المسيح وهو يصف نفسه له في سفر الرؤيا: «أنا هو **الألف والياء** البداية والنهاية، يقول الرب الكائن والذي كان والذي يأتي القادر على كل شيء» (رؤ١: ٨). وما تعني الألف والياء؟ إلا الكلمة!!

إذن فهو «**الكلمة الكلية المطلقة**»، وليس حرفين أو كل الحروف بل كل ما تعبّر عنه كل الكلمات في تشكيلاتها جميعاً من أفعال وأعمال ومعانٍ وأوصاف وتعبيرات خرجت وتخرج عن الله لتعبّر عن الله وعن مشيئته، وتعلنه. فهو «الكلمة» في مضمونها الكلي، القادرة، أو على وجه الأصح القادر قدرة الله نفسه في استعلان الله.

رآه خارجاً عن الزمن لأن الزمن هو أحد أعماله.

ورآه قبل كل خليقة لأن الخليقة كلها فعل من أفعاله.

رآه مع الله في البدء خالقاً لكل ذي بدء مخلوق، فهو البداية كطبيعة الله التي بلا بداية. وهو نهاية كل ذي نهاية لأنه النهاية التي بلا نهاية.

في المدركات الروحية الصافية هو الأول، الذي به تتصوّر المدركات فتُدرَك. وهو الذي لا يستقطبه إدراك لأنه فوق كل ما يبلغه الإدراك: **لأن الله في كلمته مُدرَك كامل يُدرَك ولكن لا يُدرَك كماله!** «فلما رأيته سقطت عند رجليه كميت فوضع يده اليمنى عليَّ قائلاً لي: لا تخف أنا

هو الأول والآخر.» (رؤ١: ١٧)

لقد اتفق الآباء القديسون الذين قدموا شرحاً لإنجيل يوحنا ـــ وخاصة ذهبي الفم وأغسطينوس ـــ أن هذه المقدمة ليست من وضع بشر، فهي تحمل طابع الإملاء من الروح القدس.

والكنيسة القبطية تقرأ هذه المقدمة التي تتحدث عن **«البدء»** في كل **صباح** في صلاة باكر، لتستلهم من البدء الأزلي بدءاً مقدساً ليومها الروحي وتقدس بها الزمن.

أما الكنيسة الغربية فهي أكثر هياماً بهذه المقدمة، فهي تقرأها على المولودين الجدد وكأنها تلدهم بها مرة أخرى من الله وتنير أمامهم طريق الحياة والخلود. وتقرأها على المرضى ليستمدوا منها الحياة ويسلطوا بها النور على الظلمة ليبددها. ويقرأونها كآخر مقطع في صلوات القداس ليحققوا بها «الكلمة صار جسداً»، ويرحبوا بالذي «حلّ بينهم»، ويتقبلوا منه «النعمة والحق»، وليأخذوا من «ملئه» البركات. ومنهم من يكتبها في لفائف يربطونها حول أعناقهم، كما كان يصنع العبرانيون بالتوراة، ويربطونها على معصمهم وبين أعينهم!

وهذا كله يؤكد السمو الروحي المنبثّ في كلمات هذه المقدمة ويستدعي منا التعمق في استجلاء معانيها لاستقبال مزيد من الحياة والنور.

كثير من الشرّاح يرون في هذه المقدمة نوعاً من التقديم للإنجيل يحمل اختصاراً لمضامينه، وآخرون يرونها كخاتمة يلخص بها ق. يوحنا إنجيله. ونحن نرى أن هذه الآراء تنطبق على مفهوم التأليف المعتاد للكتب العادية. أما في إنجيل يوحنا ـــ وهو إنجيل استعلاني برمّته ـــ فتأتي هذه المقدمة بروح الشهادة. فالقديس يوحنا يسجل لنا فيها بوحي من الروح القدس مضمون الآية: «الروح القدس يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً» (يو١٥: ٢٦و٢٧). وهو يصرّح بذلك في رسالته الأُولى:

ـــ «الذي كان من البدء، الذي سمعناه، الذي **رأيناه بعيوننا**، الذي شاهدناه (بالمشاهدة الإيمانية= ἐθεασάμεθα) ولمسته أيدينا، من جهة **«كلمة الحياة»**؛ فإن الحياة أُظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم...» (١يو١: ١و٢)

ويلاحظ القارىء أن الآيات في هذه المقدمة تسمو فوق الشرح وتتجاوز قصد التقديم أو التلخيص، بل تأتي كحقائق مرصوصة، وكأنها قوانين أو بنود لعقيدة، وقد أخذتها الكنيسة على هذا الوضع مأخذاً جدِّياً، في كل العصور، وخاصة في العصور الأُولى حينما جعلت من هذه القوانين والبنود أسلحة إيمان ودروع حاربت بها وانتصرت؛ ثم صاغت منها الكنيسة دستوراً لإيمانها.

وإن كانت مقدمة إنجيل يوحنا جاءت لتحاكي المقدمات الأخرى في الأسفار المقدسة مثل ما جاء في الأناجيل الثلاثة من حيث سيرة المسيح، إذ ركز كلٌّ من القديسين متى ولوقا على ميلاده بالجسد وعلى نسب هذا الميلاد الجسدي، حيث ذهب كل منهما يفتش عن المسيح في أعماق إسرائيل البعيدة والقريبة، واختص إنجيل مرقس بصوت المعمدان الصارخ في البرية كبداية لسيرة المسيح وفاقاً لما جاء في إشعياء النبي؛ إلا أن مقدمة إنجيل يوحنا تخطت الميلاد الجسدي وتخطت سيرة الخدمة وطارت فوق هامة التاريخ والزمان فيما وراء الآباء والأنبياء وإبراهيم وآدم والأرض والسماء وكل الخلائق والأكوان؛ لتحط على حضن الله في الأزلية في جراءة لا يدانيها جراءة نبي أو ملاك. وهناك وفي أعماق الله رأى ق. يوحنا وعاين «الكلمة» مصوراً فيه كل مشيئة الله من جهة الخلق والخلاص وحتى التجديد!!

ولكن لا تأتي مقدمة إنجيل يوحنا وكأنها بلا مثيل أو شبيه، فمقدمة الرسالة الأولى ليوحنا الرسول نفسه(٢) تحمل ــ بتاريخ سابق عن الإنجيل ــ نفس الطابع الشعري ونفس الامتداد في الأزلية ورؤية ما لا يرى، رؤية «الحياة الأبدية» عند الله، كأول إرهاصة لأقنوم «**الكلمة**» في التعبير عن شخص المسيح!

كذلك تأتي مقدمة الرسالة إلى العبرانيين(٣) تحمل نفس طابع اللحن الشعري أيضاً بنفس الكثافة الروحية ونفس الإنطلاقة الجريئة لرؤية «**المسيح**» كآخر مرحلة لاستعلان «**الله متكلماً**» في إنسان مُستعلناً إياه «كابن الله» في ملء بهاء مجد الله، والصورة المنظورة لجوهر الله غير المنظور، والكلمة الذي تكلم فيه الله والذي له ميراث كل ما لله، الذي خلق به الله الدهور والذي يقيم العالم بكلمة قدرته، والذي بعد أن أكمل التطهير بالفداء جلس عن يمين العظمة في الأعالي.

كذلك في بقية كتابات القديس بولس الرسول نلمح نفس الرؤية الفائقة ونفس الإعلانات بنفس الومضات الإلهامية التي تفوق مستويات البشر. ففي الرسالة إلى فيلبي(٤) تسجل لبولس الرسول نفس المعاينة الأزلية للمسيح وهو قائم في صورة الله مع الله كائناً بالتعادل الجوهري، ثم عاين سر المسيح في الأزلية كيف أجرى إخلاءً لنفسه من صورة مجد الألوهة ليتسنى له أن يظهر في صورة اتضاع العبيد ويكون في شبه الناس. وبهذا الشكل اكتسب أكمل الاتضاع حتى موت الصليب الذي أهّله وهو في هيئة الإنسان أن يرفعه الله إلى رفعة المجد معه، لتعبده كل خليقة في

(٢) ١يو ١: ١ ــ ٤.
(٣) عب ١: ١ ــ ٤.
(٤) في ٢: ٦ ــ ١١.

السماء والأرض على حقيقته كرب لحساب **مجد** الله الآب.

وبنفس الزخم الروحي والرؤية المتكاثفة المتعددة المناظر والصور يقدم بولس الرسول تسجيلاً لومضات إعلانية سريعة تخطف البصر العقلي في رسالته إلى كولوسي(٥). ففي هذه الرسالة تبتدىء رؤيته لحقيقة سر المسيح باعتباره **«منظور الله»** أو **«الله المنظور»** فهو **«أيقونة الله»** ــ أي الصورة المتقنة لله غير المنظور، وبالتالي تستمد منه الخليقة كلها صورتها ــ كبكرها ــ أي كحامل لأصل وجودها. فكل خليقة في السموات والأرض **«فيه خُلقت»**، **«وفيه تقوم»**، كل ما يمكن أن نراه وكل ما لا يمكن أن نراه من أصحاب العروش السماوية والسيادات والرآسات والسلاطين، فهذه كلها خُلقت بواسطته وخُلقت من أجله. وهو سابق على جميعها في الوجود، وكلها معاً تتخذ منه قيامها وقوامها. والكنيسة المحسوبة جسده السري، هو رأس هذا الجسد. وهو البداية، وأول من قام من الأموات، ويبقى بذلك متقدماً في كل شيء. لأن **«ملء الله»** سُرَّ أن يحلّ فيه، والله سُرّ أن يصالح به الكل لنفسه سواء في الأرض أو في السماء صانعاً السلام بدم صليبه.

وبتسبحة شعرية غاية في الإختصار يسجل بولس الرسول في رسالته الأُولى لتيموثاوس(٦) ومضة إلهامية مبهرة فيها كل مضمون سر المسيح، السر الذي أسماه **«سر التقوى»**، معبّراً عن الإستعلان الإلهي للمسيح هكذا:

«الله ظهر في الجسد... رُفع في المجد»!! (١تي٣:١٦)

وسواء ق. يوحنا أو القديس بولس، فليس من فراغ يأتياننا بالجديد وباليقين عن المسيح، فكلٌّ منهما أُخذ في الرؤيا وارتفع في الأعالي وعاين منظر الرب وسمع كلمة من فمه. فنسمع عن ق. يوحنا هكذا: «إعلان يسوع المسيح الذي أعطاه إياه الله ليُري عبيده ما لا بد أن يكون عن قريب وبيَّنه مُرسَلاً بيد ملاكه **لعبده يوحنا، الذي شهد بكلمة الله وبشهادة يسوع المسيح بكل ما رآه**» (رؤ١:١و٢). أما عن ق. بولس فنقرأ هكذا عن القديس حنانيا وهو يخاطب شاول: «إله آبائنا انتخبك لتعلم مشيئته **وتبصر البار وتسمع صوتاً من فمه** لأنك ستكون له **شاهداً لجميع الناس بما رأيت وسمعت**» (أع٢٢:١٤و١٥)؛ «وأُعرِّفكم أيها الإخوة الإنجيل الذي بشرت به أنه ليس بحسب إنسان لأني لم أقبله من عند إنسان ولا عُلِّمته، بل بإعلان يسوع المسيح.» (غل١:١١و١٢)

(٥) كو١:١٥ــ٢٠.
(٦) ١تي٣:١٦.

١ : ١ **«في البدءِ كانَ الكَلِمَةُ، والكَلِمَةُ كانَ عندَ الله، وكانَ الكلمةُ الله».**

يفتتح ق. يوحنا إنجيله بهذه الآية ذات الثلاث وصلات، المتناسقة والموزونة على موسيقى الشعر العبري. وهي تعطينا صورة عن طابع إنجيل يوحنا بل وق. يوحنا نفسه. ويُلاحظ أن في الثلاث الجُمل يتكرر الفاعل (الاسم) «الكلمة»، كما يتكرر الفعل «**كان**» الدالُّ على الكينونة وليس على الزمن، وتترابط الجمل بحرف عطف لتنضغط إلى أقل حيِّز ممكن. ومن هذا التركيب القويّ المقصود قصداً، يظهر مقدار الجهد الفكري الذي يبلغ أقصى حدود الإجهاد لإبراز أضخم المعاني التي يمكن أن يبلغها الإتساع الفكري البشري، وذلك للتعرُّف على أسس طبيعة «الكلمة»، في علاقته بالزمن، وفي كيانه الذاتي بالله، وفي جوهره الإلهي.

كان في البدء، كان مع الله، كان هو الله.

وعندما نستمر في قراءة الأصحاح الأول نجد أن هذه الثلاث الجُمل التي تزدحم بها هذه الآية الأُولى، جاءت لتردَّ في النهاية وتتوازن مع ثلاث جُمل جاءت في الآية ١٤ لحظة التجسد: «والكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا...».

فالكلمة الذي «**كان**» (في كينونة دائمة أزلية خارج الزمن) ــ «**صار**» أي دخل الزمن،
والكلمة الذي **كان** «**الله**» (أي في طبيعة الله) ــ «**صار جسداً**» أي في طبيعة الإنسان،
والكلمة الذي كان «**عند الله**» (حالٌ في الله) ــ «**حلَّ بيننا**».

وبهذه الآية الأُولى وما احتوته من استعلان كامل عن «**الكلمة**» يكون ق. يوحنا قد وضع أساس إنجيله، وبالتالي دستور الإيمان المسيحي، فيما يخص شخص المسيح باعتباره الكلمة المتجسد:

فالمسيح «الكلمة» لم يتخذ شخصيته بالميلاد الجسدي ولا حتى لحظة الخَلْق. أي أنه ليس مخلوقاً ولا مُحْدَثاً؛ بل كان في البدء قائماً منذ الأزل.
والمسيح «الكلمة» لا ينفرد بوجوده من دون الله؛ بل هو كائن في الله.
والمسيح «الكلمة» بظهوره في الجسد لم يكن مجرد إنسان أو نبي؛ بل وهو بطبيعة الله وجوهره، قد تجسَّد.

وبهذه المؤهلات صار «**للكلمة**» المتجسِّد، أي المسيح، القدرة والسلطان أن يستعلن كل حقائق الله.

«في البدء»:

يتجه ق. يوحنا بهذه اللفظة ἐν ἀρχῇ التي تنطق بالعبرية «براشيت» إلى الاسم التقليدي عند اليهود لسفر التكوين، الذي يبتدىء بهذه الكلمة «**في البدء** خلق الله». وهذا هو الأسلوب السري «المِسْتيكي» للقديس يوحنا. أما القصد فواضح، فهو سيتكلم بإنجيله عن الخليقة الجديدة. و«**بدء**» الخليقة الجديدة عند ق. يوحنا هو المسيح: «أنا هو... البداية والنهاية»، «أنا هو **الأول** والآخر»، «أنا هو **الألف** والياء» (رؤ١: ٨و٢: ٨). وبحسب القديس كيرلس الكبير، فهو البدء الذي بلا بدءٍ.

و«البدء» في إنجيل يوحنا ليس هو البدء في سفر التكوين، لأن بدء سفر التكوين هو الخلق ــ أي بدء الزمن ــ أما البدء في إنجيل يوحنا فهو ما قبل الخلق والزمن والتاريخ والإدراك. وليس قبل الخَلْق إلا الله!

ولكن ق. يوحنا لم يكتب في البدء كان «**الله**»، لأنه لم يكن بصدد الحديث أو الإعلان عن الله. بل قال في البدء كان «**الكلمة**» لأنه سيتكلم حالاً عن الخَلْق الذي تم «بكلمة» الله، ولكن لن يتوقف عند الخلق ــ كسفر التكوين ــ بل سيتجاوزه حالاً إلى الخلاص الذي تم بتجسد «**الكلمة**». من هنا كان همُّ ق. يوحنا أن يعرِّفنا «**بالكلمة**» قبل أن يتجسد، ليستعلن لنا قيمة وجلال التجسد، وبالتالي قيمة وجلال المسيح وعظمة وقوة الخلاص الذي تم. ولكن من أين أتى ق. يوحنا بمفهوم هذا البدء اللازمني، قبل الخليقة؟

قطعاً ذلك لم يكن من العهد القديم؛ فالعهد القديم، وإن سجَّل لبدء الخلق، لكنه لم يتعرض لِمَا قبل الخلق. والعهد القديم اضطلع بعمل الكلمة ولم يضطلع بطبيعة الكلمة. ولمَّا تعرَّض لكلمة الله لم يتعرض لها بوصفها الأقنومي الذاتي المطلق بل كفعل قوة في حدود الحدث الزمني. إذ كان «الكلمة» الذاتي المطلق غائباً غياباً كاملاً عن الوعي اليهودي. إشعياء النبي أحس بهذا الغياب إحساساً مؤلماً فقال: «حقاً أنت إلهٌ مُحْتَجِبٌ يا إله إسرائيل المخلِّص.» (إش٤٥: ١٥)

لذلك نحن نرى، وبالتأكيد، أن تأثير المسيح بجلال مقولاته كان هو المصدر الأساسي في تكوين فكر ق. يوحنا اللاهوتي، سواء من جهة أقنومية الكلمة الأزلي، أو من جهة مفهوم وجوده قبل الزمن «في البدء». وإنه من واقع استعلان المسيح لنفسه، استعلن ق. يوحنا الكلمة، فمن آيتين ظاهرتين وبارزتين في أقوال المسيح يتضح أصل ومفهوم «البدء» اللازمني للكلمة في إنجيل يوحنا:

الآية الأولى: «والآن مجِّدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي **عندك** قبل كون

العالم.» (يو١٧: ٥)

الآية الثانية: «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا، لينظروا مجدي الذي أعطيتني، لأنك **أحببتني قبل إنشاء العالم.»** (يو١٧: ٢٤)

«كان الكلمة»:

«كان» هنا لا تدل على فعل زمني بل على **الكينونة الدائمة** وهي تخص **الوجود اللازمني**، وتُستخدم للدلالة على الأمور المطلقة أي غير المخلوقة.

فعندما نقول: «في البدء كان الكلمة» يعني أن للكلمة كينونة أو كياناً قائماً في البدء أي في الأزل. وهنا يتجه الفكر مباشرة إلى التعريف الذي عرَّف الله به نفسه لموسى لما سأله هذا عن اسمه، فكان الرد: «أهْيه الذي أهْيه»، وتفسيره حسب ما جاء في طبعة الكتاب المقدس (هامش سفلي) «أكون الذي أكون». والمقصد من هذا التعبير واضح غاية الوضوح وهو «أنا الكائن بذاتي»، أو كما يترجمها الإنجليز: "I am the being" = أي **أنا الكينونة.**

فـ«في البدء كان الكلمة» تعني أن الكلمة كائن منذ الأزل، وهذا يسلمنا مباشرة إلى القول إنه لم يكن بمفرده بل «كان عند الله». ويُلاحظ هنا أنها جاءت «كان» وليس «كانت» لتناسب مؤنث الكلمة العربية لغوياً، وهذا قصور وخلل في الترجمة العربية لأن «الكلمة» أصلاً في اللغة العبرية **مذكَّر** = **«قُوْل»** = **"Kol"**، وتُرجمت باليونانية λόγος وهي مذكر أيضاً.

«الكلمة»: اللوغس(٧).

«في البدء كان الكلمة»: هذا الإصطلاح العميق المختصر من أين أتى به ق. يوحنا؟

لقد لجأ الشُّرَّاح في ذلك إلى عدة مصادر، ولكن من المصادر الواضحة أمامنا التي مهَّدت لهذا القديس الرائي تسميته للمسيح «بالكلمة» مصدرين:

أولاً: سفر الرؤيا، إذ سمع بأذنيه ما يقوله الروح واصفاً المسيح وهو متجنِّد للحرب، راكباً فرساً أبيضاً، دلالة على المقاصد السلامية، وعلى رأسه تيجان كثيرة، رمزاً للنصرة المتعددة المكاسب لحساب الإنسان، وعيناه كلهيب نار تذيب القلوب الصخرية، «وله اسم مكتوب ليس أحد يعرفه إلاَّ هو، وهو متسربل بثوب مغموس بدم ويُدعى **اسمه "كلمة الله".»** (رؤ١٩: ١٢و١٣)

وهنا يظهر أن اسم «الكلمة» متعاظم الشأن لدى السمائيين، **فهو صفة المسيح المحاربة** والديَّانة والمتسلطة والقائدة، لأنه يقول في بقية الآية: «والأجناد الذين في السماء كانوا يتبعونه على

(٧) راجع شرح لقب «الكلمة» في المدخل ص١٨٥ــ١٩٥.

خيلٍ بيضٍ لابسين بزًا أبيض ونقيًا، ومن فمه يخرج سيف ماضٍ لكي يضرب به الأمم وهو سيرعاهم بعصاً من حديد وهو يدوس معصرة خمر سخط وغضب الله القادر على كل شيء. وله على ثوبه وعلى فخذه اسم مكتوب: ملك الملوك ورب الأرباب» (رؤ١٩: ١٤–١٦). وهذه الصورة تمثل واقع «الكلمة» لدى السمائيين. والثوب المغموس بالدم علامة أبدية لانهزام وقهر العدو لأنها تذكار الصليب. فهي شهادة لغلبته على العالم «ثقوا أنا قد غلبت العالم» (يو١٦: ٣٣) — «وهم غلبوه **بدم** الخروف وبكلمة شهادتهم.» (رؤ١٢: ١١)

ولكن يلاحظ هنا أن اسمه «**كلمة الله**» يعبِّر عن حالة خروج من الله وإرسال للإعلان عن مشيئة الله وتتميمها بقوة واقتدار. فهو اسم «الكلمة» بعد أن اضطلع بالعمل والرسالة. لذلك جاء اسمه «كلمة الله».

أما اسم «**الكلمة**» فقط الذي كتبه ق. يوحنا في إنجيله بوحي الروح فهو يعبِّر عن ما قبل الخروج والإرسال والإعلان عن الله، أي اسمه الذاتي، وليس هو صفة عمل. وهو اسم مُحاط بالهيبة والجلال «وكان الكلمة الله». فهو اسم له كفاءة واستحقاق ذاتي لكل ملء اللاهوت خلْواً من عمل أو رسالة.(٨)

ثانياً: والمصدر الثاني الأكثر أثراً في تكوين الفكر اللاهوتي للقديس يوحنا بخصوص «**الكلمة اللوغُس**»، هو تشديد المسيح بصورة متكررة أنه **كلمة الله** بصورة ذاتية وشخصية، وأن كلامه الذي يقوله هو «روح وحياة». وبالرجوع إلى الآيات في نصها اليوناني يظهر بوضوح أن المسيح يعتبر كل ما يقوله هو «اللوغس»، وأنه هو اللوغُس أي «**الكلمة**».

وسنعيد كتابة الآيات في نصها اليوناني لنرى مدى وضوح حقيقة اللوغُس عند المسيح. لأن الترجمة العربية أخطأت وتجاوزت لفظ «اللوغُس» المفرد = «كلمة» وجعلته بالجمع «كلام». فاختفى المعنى.

علاقة اللوغُس بالمسيح من واقع كلامه:

+ «من يسمع (كلامي) **كلمتي** τὸν λόγον μου ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية.» (يو٥: ٢٤)

هنا المعنى ينصبُّ على أن الذي يقبل اللوغُس المسيح ويؤمن بالله الذي أرسله يكون له الحياة

(٨) E. W. Hengstenberg, *Commentary on the Gosp. of St. John*, p. 13.

الأبدية. ومعروف أن الذي يقبل «كلمة» أو لوغس المسيح يعني أنه يقبل المسيح. هنا المسيح واللوغس على التساوي.

+ «أنتم الآن أنقياء لسبب (الكلام) **الكلمة** = اللوغس τὸν λόγον الذي كلمتكم به.» (يو١٥: ٣)

الكلمة اللوغس هنا مجرد سماعه ووعيه فإنه ينقي القلب، حيث المعنى يتمحور حول قبول المسيح نفسه والإيمان به.

+ «إن كان أحد يحفظ (كلامي) **كلمتي** τὸν ἐμὸν λόγον فلن يرى الموت إلى الأبد.» (يو٨: ٥١)

ومعروف أن الذي يؤمن بالمسيح هو الذي لن يرى الموت. فاللوغس والمسيح هنا على التساوي.

+ «فقال يسوع لليهود الذين آمنوا به إنكم إن ثبتُّم في (كلامي) **كلمتي** ἐν τῷ λόγῳ τῷ ἐμῷ فبالحقيقة تكونون تلاميذي وتعرفون الحق والحق يحرركم.» (يو٨: ٣١و٣٢)

هنا الثبوت في كلمة المسيح أي اللوغس يكشف عن التلمذة الحقيقية للمسيح أي أن التلمذة لكلمة المسيح هي التلمذة للمسيح بعينها.
ومعروف من آيات أخرى أن الثبوت في كلمة المسيح هو هو الثبوت في المسيح نفسه (يو١٥: ٧).

+ «(الكلام) **الكلمة** ὁ λόγος الذي تسمعونه ليس لي بل للآب الذي أرسلني.» (يو١٤: ٢٤)

المسيح يوضح هنا أن **كلمته أي اللوغس** ليس منفرداً من دون الله فهو اللوغس الذي أرسله الله سواء شخصه أو كلمته واحد!!

+ «أنا قد أعطيتهم (كلامك) **كلمتك** τὸν λόγον σου والعالم أبغضهم.» (يو١٧: ١٤)
معروف أن **العالم أبغض المسيح** وبالتالي أبغض الذين قبلوا **كلمة الله** أي اللوغس. هنا المسيح ولوغس الله على التساوي.

+ «(كلامك) **كلمتك** ὁ λόγος ὁ σὸς هو حق.» (يو١٧: ١٧)
ومعروف أن المسيح أعلن بكل قوة ووضوح «أنا هو... **الحق**» (يو١٤: ٦). وهنا اللوغس والمسيح والحق على التساوي المطلق. بل يمكن استخلاص أن **المسيح هو اللوغس** مباشرة.

ومعروف أيضاً أن المسيح أعطى الحق أي اللوغس في كلامه عموماً، أي أن حديثه كان يحوي سر «الكلمة»، سر «اللوغس»، سر **«المسيح»**. وهذا يتضح من الآية الآتية:

«لماذا لا تفهمون **كلامي** τὴν λαλιὰν τὴν ἐμὴν لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا (قولي)[٩] **كلمتي** ἀκούειν τὸν λόγον τὸν ἐμόν .» (يو ٨: ٤٣)

هنا واضح أن كلام المسيح شيء و«الكلمة» أي اللوغس الكائن في كلام المسيح شيء آخر. فالكلمة اللوغس هو سرُّ الله وهو المسيح وهو الحق المخفي في الكلام. فالذي يسمع الصوت الله وسرّه، أي الحق، من وسط الكلام يفهم كل الكلام في الحال.

ومن هذه الآية نستخلص أن **«الكلمة» اللوغس** هو محور كل تعاليم المسيح وهو القلب النابض في إنجيل يوحنا وعليه يقوم الإنجيل كله!! ولذلك، وإن كان يتهيأ لجميع الشرّاح أن ق. يوحنا لم يستخدم اصطلاح (اسم) **«الكلمة»** اللوغس إلا في موضعين اثنين من مقدمة إنجيله في الأصحاح الأول، إلا أن الواقع والحقيقة أن اللوغس هو محور إنجيل يوحنا وملخص لاهوته.

فكما أن **كلمة الله اللوغس**، وبالعبرية «قول إلوهيم»، جاء في الأسفار المقدسة قديماً منطوقاً بفم الأنبياء وكان يحمل الحياة للذين يثبتون فيه، فقد جاء الكلمة اللوغس بنفسه في شخص يسوع المسيح معلناً الحق ومعطياً الحياة. ولكن يظل هناك فارق بين الكلام المقول واللوغس المحتوى داخله: «والآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي. لم تسمعوا صوته φωνὴν قط، ولا أبصرتم هيئته، **وليست لكم كلمته** τὸν λόγον αὐτοῦ **ثابتة فيكم... فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية، وهي التي تشهد لي، ولا تريدون أن تأتوا إليّ لتكون لكم حياة.»** (يو ٥: ٣٧–٣٩)

المسيح هنا يستعلن نفسه بمنتهى الحذق الإلهي أنه هو **اللوغس!** فهو يوضح أن كلمة الله اللوغس التي يفتشون عليها في الكتب (الأسفار) لكي تعطيهم حياة أبدية أخطأوا إليها فأخطأوها، ولم ينتبهوا إليها حينما استعلنها المسيح في نفسه لما جاء بنفسه إليهم: «إلى خاصته جاء»، فلم يأتوا هم إليه، مع أنه بصفته اللوغس الذي يبحثون عنه قادر أن يعطيهم الحياة الأبدية!!

لذلك، فجوهر الإستعلان في إنجيل يوحنا محكوم بمستوى السماع الروحي للكلمة **«اللوغس»**، وهو الحق المثبت في كلام المسيح، على أن هذا **«اللوغس»** هو سرُّ الإنجيل وسرُّ الله وسرُّ المسيح.

(٩) هنا تجيء كلمة «قولي» التي وضعناها بين قوسين لأنها لا تفيد معنى اللوغس «الكلمة» باللغة العربية، و[illegible] بالنطق **العبري** تكون صحيحة تماماً وتفيد معنى اللوغس، لأن «اللوغس» بالعبرانية ينطق (قول).

وهو لا يوجد جامداً أو ساكناً، بل على الدوام ينطلق من بين السطور والكلمات، كومضات من نور أو دفقات حياة تنطلق بلا توقف.

وبهذا نرى أن اللوغس في إنجيل يوحنا لا يحتاج إلى شرح أو تعريف أو فهم، فهو هو المسيح، والروح واقف على استعداد يأخذ مما للمسيح «اللوغس» ويخبركم ἀναγγελεῖ ὑμῖν. والمسيح لا يعطي كلام الحق ليُفهم، بل هو يُعطي الحق ليُعاش؛ ولا يعطي كلاماً يصلح للحياة بل يعطي الحياة. فهذا هو سر كلامه: «روح وحياة»، وهذا يوصلنا إلى مقدمة الإنجيل بكل هدوء، فالمسيح هو «الكلمة اللوغس».

فإن كان ق. يوحنا قد أعطى للمسيح اسم **«الكلمة» اللوغس** فهو فعل ذلك من واقع استعلان المسيح لنفسه من خلال تعليمه. على أن قدرة ق. يوحنا على استشفاف هذا الاسم وطرحه في مستهل إنجيله ــ ليس على أن «كلمة الله» ــ بل على أنه **«الكلمة» اللوغس** يعتبر إلهاماً إلهياً وعلى مستوى المساهمة العظمى للاهوت المسيحي. وهي جرأة يستحيل أن يأتيها عقل بشر؛ فهي جرأة مَنْ رأى وعاين أن **«يسوع المسيح هو الكلمة»**: «هذا هو التلميذ الذي يشهد بهذا وكتب هذا. ونعلم أن شهادته حق.» (يو٢١: ٢٤)

وهذه المعلومة البسيطة في مظهرها صارت هي الحقيقة الإلهية العظمى في تاريخ معرفة الإنسان لله!

«في البدء كان الكلمة»:

قلنا أن «في البدء» تفيد ما قبل الخلْق، وبالتالي ما قبل الزمن، فتكون بالتحديد هي الأزلية. وقلنا أن «كان» لا تفيد فعل الزمن الماضي الناقص ولكن تفيد الكينونة الدائمة المطلق. أي أن الكلمة اللوغس هو «كائن أزلي». فمن أين أتى ق. يوحنا بهذا التوصيف الخطير للمسيح؟

أمامنا مصدران واضحان استشف منهما ق. يوحنا وصف المسيح بالكينونة الأزلية:

الأول: قول المسيح صراحة لليهود: «أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومي فرأى وفرح. فقال له اليهود ليس لك خمسون سنة بعد أفرأيت إبراهيم؟ قال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم **قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن.**» (يو٨: ٥٦ــ٥٨)

قول المسيح **«أنا كائن»** كشف عن كينونته اللازمنية الأزلية. لأنه لو كان قد قال: «أنا كنت»، لدخل المعنى في إطار الزمن وأصبح مجرد أسبقية زمنية، ولكن بقوله: **«أنا كائن»**= ἐγὼ εἰμί أصبحت المقارنة بين إبراهيم والمسيح شاسعة جداً وبلا قياس، فهي مقارنة بين **مخلوق**

وغير مخلوق، **بين زمني وأزلي**. إذن، فهو كائن قبل كل الآباء والأنبياء وكل الخليقة.

هذا القول الذي قاله المسيح «قبل أن يكون إبراهيم **أنا كائن**» انطبع في قلب ق. يوحنا وأخذ الأولوية على كل ما عداه من الأوصاف التي استعلنها المسيح في ذاته.

الثاني: أما الموضع الثاني الذي عزَّز صورة المسيح في ذهن يوحنا وإيمانه بصفته الكائن الأزلي، فهو قوله المملوء سرًّا وجلالاً ورهبةً: «**إن لم تؤمنوا أني أنا هو** ἐγώ εἰμι تموتون في خطاياكم.» (يو٨: ٢٤)

هنا نرجو القارىء الرجوع لشرح سر التسمية ἐγώ εἰμι في كتاب «المدخل لشرح إنجيل ق. يوحنا» ص٢١٨ــ٢٤٦. ويكفي هنا أن نقول أن هذا هو نفسه اسم الله الشخصي الذي قاله لموسى في مستهل سفر الخروج ٣: ١٣و١٤:

«فقال موسى لله ها أنا آتي إلى بني إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني إليكم. فإذا قالوا لي ما اسمه فماذا أقول لهم. فقال الله لموسى **أهْيَه الذي أهْيَه** ἐγώ εἰμι ὁ ὤν. وقال هكذا تقول لبني إسرائيل أهْيَه أرسلني إليكم».

وهذا الاسم صار توضيحه في هامش الكتاب المقدس هكذا: «**أكون الذي أكون**» وترجمتها بالإنجليزية **I am the being**، وتُفهم بالعربية «**أنا الكائن بذاتي**»= **هذا هو اسم الله**.

ويلاحظ في هذا الشرط الخطير الذي قدمه المسيح لليهود لكي تُغفر خطاياهم أنه يتحتم أن يؤمنوا بأنه يقدم لهم في منظوره الشخصي الله غير المنظور ذا الجلال والعظمة، وأن وجوده المنظور أمامهم يجمع كل الكيان اللامحدود والمحدود، المنظور وغير المنظور، وإلا فإنهم يموتون في خطاياهم(١٠). لماذا؟ لأنه هو الذي سيحمل كفَّارة خطاياهم، ولأنه هو هو «الله ظهر في الجسد.» (١تي٣: ١٦)

وفي رد المسيح التالي على اليهود يتضح أكثر تأكيد المسيح على استعلان شخصيته الأزلية: «فقالوا له **من أنت؟** فقال لهم يسوع **أنا من البدء** ما أكلمكم أيضاً به» (يو٨: ٢٥). ويشرحها القديس أغسطينوس باختصار هكذا: [صدِّقوني أنني **أنا البداية** لأني قلت لكم هذا].

كما يلاحظ أنه قبل أن يستعلن المسيح وجوده الأزلي بقوله «**أنا هو**»= «أنا هو الكائن بذاتي» في الآية ٨: ٢٤، قدم لهذا القول بالآية: «أنتم من أسفل **أما أنا فمن فوق؛** أنتم من هذا

[10] Westcott, *The Gosp. acc. to St. John*, p. 131.

العالم **أما أنا فلست من هذا العالم** » (يو٨: ٢٣). هذا كله يعزِّز استعلانه لذاته أنه كائن بذاته منذ البدء.

لقد انطبع هذا الاستعلان أيضاً في ذهن ق. يوحنا وأدرك بيقين أن شخصية المسيح تحمل الكيان الإلهي الأزلي، وأنه يحمل **اسم ذات الله** بكل جلاله وأنه منه البدء وبلا بداية. لذلك استهل ق. يوحنا إنجيله بقوله: «**في البدء كان الكلمة**». وكان هذا حصيلة معرفته اليقينية بالمسيح عن قرب، إن لم يكن عن إملاء الروح نفسه.

« كان الكلمة » :

لماذا لم يكتب ق. يوحنا « كلمة الله » كما هي معروفة في جميع الأسفار القديمة؟

يلاحظ القارىء أن ق. يوحنا يقدم المسيح قبل التجسد، وقبل إبراهيم: «أنا كائن»، ويقدمه قبل « كل شيء به كان »، أي قبل الخليقة جميعها في الأرض وفي السموات، أي قبل الزمن: «في البدء» الأزلي. قبل التاريخ، قبل الفهم والإدراك عموماً. وذلك لأنه لم يكن بعد للكلمة إرسالية خارج الله، فهو يصفه في كيانه أو كينونته في الذات الإلهية وحسب. ولأنه ــ أي «الكلمة» ــ لم يبدأ في استعلان الله أو يخبِّر عن الله أو عما عند الله، إذ لم تكن توجد خليقة ما تسمع أو تفهم. لذلك فلا يجوز أن يوصف بأنه الكلمة المرسَلة أو كلمة الله الخارجة لتعمل لحساب الله. بل كان «الكلمة» مكتفياً بالوجود المطلق في الله.

+ وبمجرد أن بدأ الخلق، بدأ عمل الكلمة في العالم المخلوق يشهد لإرادة الله بالقوة التي فيه، وهذا يصفه ق. يوحنا بـ«النور». بدأ الكلمة عمله في العالم المخلوق كنور وحياة ــ وهذا هو الاستعلان الثاني **« للكلمة »**.

+ وجاءت خلقة الإنسان على صورة الله، فَهيماً وناطقاً وسامعاً، وهنا بدأ عمل «الكلمة» في الإنسان (العهد القديم بكل أسفاره) باعتباره « **كلمة الله** » المرسَلة المسموعة والمفهومة ــ وهذا هو الاستعلان الثالث « للكلمة ».

+ وقد جاء كلمة الله إلى خاصته، أي شعب إسرائيل، متكلماً في الأنبياء، فلما لم يقبلوه «تجسد الكلمة» ــ وهذا هو الاستعلان الرابع للكلمة ــ وذلك ليعلن ويخبِّر عن الله جهاراً وعلانيةً دون وسيط ــ لا كلمة الله المجردة المرسلة المسموعة والمفهومة فقط أي قوة غير مشخَّصة ــ ولكن الله الكلمة الشخص المسموع والمنظور والملموس أيضاً. «الذي رآني فقد رأى الآب.» (يو١٤: ٩)

لذلك حينما قال ق. يوحنا «في البدء كان "**الكلمة**"»، فهو يقول عن شخص «الكلمة» اللوغس في ذاته وفي البدء، وليس في عمله بعد!، معرَّفاً بـ«ال» ولكن ليس معرَّفاً بعمل.

«والكلمة كان عند الله»:

كلمة **«عند»** πρός ، كما يرى العلماء في اللغة وشُرَّاح الكتاب المقدس، لا تفيد مجرد الوجود معاً كاثنين يعيشان في شركة، ولا حتى تعني اتحاداً بالمفهوم العام، أو وجوداً مكانياً بأية علاقة كانت. ولكن هي تفيد علاقة متصلة، يشرحها المسيح نفسه في موضع آخر إنما بعد التجسد بقوله: «الحق الحق أقول لكم لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الآب يعمل. لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك.» (يو٥: ١٩)

وهذا يفيد في نظر العالم Westcott أن الوجود الشخصي للكلمة كان يتحقق في اتصال فعَّال دائم وشركة كاملة مع الله، وهذه هي حقيقة «الكلمة» عند الله قبل أن يبدأ يستعلن الله.

وقد ورد هذا الاصطلاح: «**عند** πρός » في موضع مماثل يُعتبر بحد ذاته أقدم وأوضح شرح لمعنى «والكلمة كان عند الله»، وذلك في الآية التي كتبها ق. يوحنا نفسه في رسالته الأُولى عن الحياة الأبدية التي «كانت **عند الآب**» ἦν πρὸς τὸν πατέρα و«أُظهرت». وهنا يتضح أن الحياة الأبدية التي كانت عند الآب كانت تحقق ذاتها في علائق الاتصال الداخلي بالله[11]. وهذا هو بعينه الذي يعنيه الروح بقول الإنجيل: «والكلمة كان عند الله».

ويقول العالم شناكنبرج: [إن «عند = πρός » لا تفيد هنا الحركة تجاه هدف ما بل إن πρός تأتي مُعادِلَة وبالتبادل أحياناً مع παρὰ τῷ θεῷ كما قالها المسيح في صلاته: «والآن مجِّدني أنت أيها الآب **عند ذاتك** = παρὰ σεαυτῷ بالمجد الذي كان لي **عندك** παρὰ σοί قبل كَوْن العالم» (يو١٧: ٥).]

ويقول شناكنبرج: [إن هذا المجد الذي كان له عند الآب هو هو اتصاله الوثيق بالله وهو قائم باتصال الحياة الأبدية المعطاة بالحب (يو١٧: ٢٤). لذلك فإن في هذه المقدمة يتأكد أن كينونة اللوغس ــ بالأصل ــ هي وجود فعَّال بالحب، له ملء حياة الله والمجد معه.][12]

---

[11] Westcott, *The Gosp. acc. to St. John,* p. 3.

[12] Schnackenburg, *The Gosp. acc. to St. John,* p. 234.

ويشرحها القديس يوحنا ذهبي الفم قائلاً: [إن الكلمة هو وجود شخصي جوهري οὐσία ἐνυπόστατος صادر προελθοῦσα بدون تألم ἀπαθῶς من الآب نفسه، فهذا كما سبق وأن أشرت هو اصطلاح **«الكلمة»**. وأيضاً قوله «في البدء كان الكلمة» هذا يوضح أزليته. كذلك أيضاً «والكلمة كان عند الله»، يكون بذلك قد أعلن لنا أنه معه في الأزلية = His Co-eternity حتى إذا سمعتم أنه «في البدء كان الكلمة» لا تخطئون في تصوركم أن حياة الآب تختلف عنه (عن الكلمة) بأي مسافة زمنية أو أي امتداد، فيتحدد بذلك خطأ بدءٌ خاصٌ للابن الوحيد، ولذلك أردف يقول: «والكلمة كان عند الله». ولهذا فهو أزلي كالآب نفسه لأن **«الآب»** لم يكن أبداً بدون **«الكلمة»**، بل كان الله مع الله، كلٌّ في أقنومه الخاص ὑποστάσει .](١٣)

ومن هذا الشرح لذهبي الفم نفهم أن «عند πρός» تساوي مفهوم **«المعيَّة الأزلية»**، أي أن الكلمة كان **مع** الآب في الأزل دون افتراق.

ومن هذه الشروحات على قول ق. يوحنا: «والكلمة كان عند الله (الآب)»، فيما قبل الخلق وقبل حركة الكلمة في الإعلان عن الله سواء في الخليقة عامة أو في الإنسان؛ نرى أن لا **الله** ولا **الكلمة** كان في حاجة إلى خلقة العالم ــ وإنما الخلقة جاءت كإرادة حب: «هكذا أحب الله العالم..» (يو٣: ١٦) ــ لأن كلًّا منهما كان في اكتفاء كلي بالآخر، فشركة المجد المتصل، وشركة الفهم والإدراك المتبادل، وشركة الحياة المتصلة، وشركة الأزلية الدائمة، جعلت «الله والكلمة» كُلًّا واحداً كليَّ المجد، مُدرِكٌ كامل كليُّ الحياة، وهو نفس مستوى الآب والابن كما سنرى ــ فيما بعد ــ كون طبيعة الحب المتفجرة والمتبادَلة بين الأُبوّة والبُنوّة جعلت ذات الله المتكاملة كلية الاكتفاء وكلية الحب والكرامة والمجد.

«والكلمة كان عند الله» تعطينا تصوُّراً أن الكلمة ــ اللوغُس ــ قبل الخليقة يمثل القوة المُدرِكة لكل مشيئة الله والقائمة الدائمة على أتم استعداد لتنفيذ هذه المشيئة.

أو يمكن أن نرى اللوغُس قبل الخليقة أيضاً، القائم الدائم المؤتمن على كل خطط الله الأزلية، وهو على أتم استعداد لإخراجها للوجود عندما يحين ميعادها.

كذلك يمكن ــ من قول بولس الرسول ــ أن نرى اللوغُس قبل تأسيس العالم وهو قائم عند

(13) NPNF, 1st Ser., Vol. XIV, p. 16,17.

الله، يحمل صوراً وقوائمَ بأسماء كل الذين اختارهم الله ليمارس دوره معهم وفيهم بكل وسائل التقديس، ليقفوا أمام الله يوماً ما بلا لوم حسب سخاء محبته: «مبارَكٌ الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح **كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدَّامه في المحبة.**» (أف١: ٣و٤)

بهذا يتضح أمامنا أنه حتى وقبل خلقة السموات والأرض وقبل كل الدهور ــ وقبل أن يُرسَل ليعلن مشيئة الله ــ كان **«للكلمة»** اللوغُس عمل خاص من جهة الخلاص، واهتمام بالمفديين، وتدبير الخطط مع الله لتكميل مسرة حب الله: «حسب قصد الذي يعمل كل شيء حسب رأي مشيئته لنكون لمدح مجده، **نحن الذين قد سبق رجاؤنا في المسيح.**» (أف١: ١١و١٢)

وعلى أساس هذه الصلات الجوهرية والوثيقة بين (الكلمة ــ اللوغُس) والله، والتي هي على مستوى الوحدة الخصبة ذات الفعالية، أصبح «للكلمة» اللوغُس ــ حينما أُرسل بعد ذلك ليعلن الله ومشيئته ــ أن يقول: «الله لم يَرَه أحد قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر» (يو١: ١٨). هذه الآية تشرح ــ على المستوى الشخصي والعاطفي ــ مركز اللوغُس عند الله. فهو وجود ملتحم ودائم ولكن متميز وشخصي.

«وكان الكلمة الله»:

هنا كلمة **«الله»** جاءت في الأصل اليوناني θεός غير معرَّفة بـ«الـ» ὁ، بعكس الجملة السابقة «والكلمة كان عند الله» ὁ θεός، حيث كلمة الله معرَّفة بـ«الـ». ففي الجملة الأُولى **«والكلمة كان عند الله»**، نجد أن «الكلمة» λόγος معرَّفة بـ«الـ» ὁ و**«الله»** θεός معرَّف بـ«الـ» ὁ توضيحاً أن لكل منهما وجوده الشخصي، وحيث «الله» المعرَّف بـ«الـ» يحمل معنى الذات الكلية. أما في الجملة الثانية فالقصد من قوله: «وكان الكلمة الله» هو تعيين الجوهر أي طبيعة «الكلمة» أنها إلهية، ولا يُقصد تعريف الكلمة أنه هو الله من جهة الذات.

وهنا يُحذَّر أن تُقرأ «الله» ὁ θεός معرَّفاً بـ«الـ» في «وكان الكلمة الله» وإلا يكون لا فرق بين الكلمة والله، وبالتالي لا فرق بين الآب والابن، وهذه هي بدعة سابيليوس الذي قال أنها مجرد أسماء، في حين أن الإيمان المسيحي يقول أن الأقانيم في الله متميزة: فالآب ليس هو الابن ولا الابن هو الآب، وكل أقنوم له اختصاصه الإلهي. كذلك فالله ليس هو الكلمة والكلمة ليس هو الله (الكلي).

وهنا يقابلنا قصور مكشوف في اللغة العربية، فلا توجد كلمة «الله» بدون التعريف بـ«الـ».

وقد يتراءى للبعض أنه يمكن أن يُقال «وكان الكلمة إلهاً»، وهذا أيضاً انحراف لأن الكلمة اللوغُس (أو الابن) ليس إلهاً «آخر» أو «ثان» غير الله الواحد، كما أن الله ليس فيه آلهة ــ بالمثنى أو الجمع ــ فالله **إله واحد** آبٌ وابنٌ وروحٌ قُدُسٌ.

والمعنى يكون أن الكلمة اللوغس ليس بمفرده الذات الكلية لله، ولكن الله والكلمة هو «الله». وكما نقول الله الابن والله الآب يمكن أن نقول «الله الكلمة» أو «الكلمة الله» لتعريف ماهية الكلمة، وذلك بقصد التفريق بين طبيعة الخليقة سواء في السماء أو الأرض أو الإنسان وبين طبيعة **«الكلمة»** اللوغُس. **فالكلمة كان الله** ولم يكن العالم أو الخليقة أو الإنسان. لأنه يجدر بنا هنا أن نوجّه نظر القارىء أن في أيام القديس يوحنا كانت هذه الثلاث البدع موجودة. فكان هناك من ينادي بأن [الكلمة اللوغُس هو العالم]، ومن يقول أنه [كان رئيس ملائكة]، ومن يقول أنه [كان إنساناً]. وبهذا يتضح جداً المعنى والقصد من قول القديس يوحنا: **«وكان الكلمة الله»**.

ولينتبه القارىء، لأن طبيعة الله ليست كطبيعة أعلى المخلوقات مهما عَلَتْ وسَمَتْ هذه المخلوقات، فطبيعة الملائكة والإنسان فيها المفرد والجمع، فيها الملاك وربوات الملائكة، وفيها الإنسان وملايين الناس. أما طبيعة الله فهي طبيعة مطلقة لا تقبل المفرد ولا المثنى ولا الجمع العدديَّيْن، فهي منزَّهة عن العددية، طبيعة بسيطة غير مركبة، وهي واحدة لأنها وحيدة لواحد مطلق. والكلمة فيها متحد بالله اتحاداً مطلقاً، فالله والكلمة هو الله الواحد الأحد.

مقارنة بين كلمة الله وكلمة الإنسان:

+ **«الكلمة»** في الإنسان تصوّر شخصية الإنسان تصويراً جزئياً، وقد تخطىء فتبقى كلمة الإنسان شيئاً ويبقى الإنسان شيئاً آخر.

أما **«كلمة الله»** فهي صورة كاملة لله كمالاً مطلقاً، حيث التطابق بين الله وكلمته يفوق حدّ التساوي في المفهوم البشري، لأن التطابق في المطلق ــ أي الله ــ غير المحدود هو أعلى مفهوم للتساوي الذي هو الوحدة عينها، لأنه لا توجد ثنائية قط في المطلقات وبالضرورة في الله.

لذلك فالتطابق بين **إرادة الله وفعل كلمته** يبلغ من التساوي حد التطابق المطلق. فالكلمة يقول ويعمل بحسب مشيئة الله بالتمام والكمال، وهذا نسمعه في وصف المسيح لنفسه باستمرار: «**لأني لم أتكلم من نفسي**، لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم. وأنا أعلم أن وصيته هي حياة أبدية، فما أتكلم أنا به فكما قال لي الآب هكذا أتكلم»

(يو١٢: ٤٩و٥٠). هذا من جهة الكلام، كذلك من جهة العمل: «الحق الحق أقول لكم **لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً** إلا ما ينظر الآب يعمل، لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك» (يو٥: ١٩). هنا تطابق كلي في القول والعمل، ومن هنا الوحدة المطلقة الكلية: «ألستَ تؤمن أني أنا في الآب والآب فيَّ، الكلام الذي أُكلمكم به لست أتكلم به من نفسي، لكن الآب الحال فيَّ هو يعمل الأعمال.» (يو١٤: ١٠)

+ وكلمة الإنسان مهما بلغت في تعبيرها عن حالة الإنسان ومداخله، فهي في طبيعتها مجرد ظاهرة أو مظهر مسموع أو مكتوب أو معمول لا يمثِّل طبيعة الإنسان تمثيلاً كليًّا؛ ولكن كلمة الله ــ اللوغُس ــ يحمل طبيعة الله ويعبِّر عن ذاته تعبيراً كليًّا مطلقاً، فإذا خرج اللوغُس من لَدُن الله فهو خروج غير زمني وغير محدود، وهو يظل قائماً في الله ويعمل خارج الله، فهو يمثل الحضرة الإلهية بكل طبيعتها وقوتها وجلالها، يحمل اسم الله وسلطانه كذات الله.

وهكذا فكون «**كلمة الله**» هو أقنوم (شخص) ــ عند الله وفي الله ــ بحد ذاته، فهذا امتياز لطبيعة الله الفائقة عن طبيعتنا. لذلك فالفارق يفوق تصوُّرنا جداً لأنه ليس له مثيل في طبيعتنا. وهذا أيضاً أحد كمالات الله وخصائصه واتساع قدراته التي تزيد كثيراً عن تصورنا.

+ كذلك، إذا كانت كلمة الإنسان كريمة عند نفسه وعزيزة لديه، وهو يطالب بكرامتها وحتمية تنفيذها لأنها تعبِّر عن ذاته؛ فكم تكون كلمة الله؟

وهذا نسمعه تماماً في تعاليم المسيح عن نفسه! باعتباره «الكلمة» والابن المرسَل: «الآب يحب الابن ويريه جميع ما هو يعمله... لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويُحيي كذلك الابن أيضاً يُحيي من يشاء. لأن الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة للابن، **لكي يكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب. من لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذي أرسله.**» (يو٥: ٢٠ــ٢٣)، «الذي يؤمن بي ليس يؤمن بي بل بالذي أرسلني، والذي يراني يرى الذي أرسلني» (يو١٢: ٤٤و٤٥)، «أنا والآب واحد» (يو١٠: ٣٠)، «الذي رآني فقد رأى الآب.» (يو١٤: ٩)

والآن، أنظر أيها القارىء، وأعِدْ النظر على ضوء ما قلناه في قول ق. يوحنا: «وكان الكلمة الله»!

أما إذا تبادر إلى ذهنك: ولماذا بدأ الإنجيل بـ«**الكلمة**» ولم يبدأ بوصف «الابن»؟ فالجواب

هو أن ق. يوحنا يتتبع المسيح قبل التجسد وقبل الأنبياء وقبل الخليقة ليجعلك تراه في حقيقة شخصه قبل الخلق وهو قائم في الأزلية عند الله، تمهيداً لاستعلان بنوته.

١ : ٢ **«هذا كان في البدء عند الله».**

«هذا» هنا تكرار مقصود به **«اللوغس»** في القول السابق: «في البدء كان **الكلمة** **والكلمة** كان عند الله وكان **الكلمة** الله»، ليؤكد أمرين غاية في الأهمية بالنسبة لما هو مزمع أن يقوله عن **الكلمة** بالنسبة للخلق: **الأمر الأول** أن **الكلمة أزلي**، **والثاني** أن الكلمة **هو من جوهر الله وطبيعته**، ومؤكداً مرة أخرى أن **«هذا كان في البدء عند الله»** أي قبل أن يكون العالم وكافة المخلوقات.

وتأكيد ق. يوحنا على **«عند الله»** لثاني مرة لا يخلو من إشارة ذكيّة، أن هذه العلاقة القائمة الدائمة بين الكلمة والله هي بحد ذاتها سِرٌّ من أسرار الخلق.

كما أن التأكيد على أزلية الكلمة مع الله تقطع بالهوة السحيقة التي تفصل بين **«الكلمة»** وبين **«الخَلْق المُحدَثِ الزمني»**، المخلوق بالكلمة.

وفي التعليق على قول الإنجيل: «هذا كان في البدء عند الله» يشرح القديس يوحنا ذهبي الفم: [لقد أعاد ثانية القول «هذا كان في البدء عند الله» أي أزلي تماماً كالآب، لأن الآب لم يكن قط بدون الكلمة، بل كان الكلمة الله مع الله كلٌّ بشخصه ὑπόστασις .](14)

ونحن نرى أن العودة إلى **«البدء عند الله»** مرة أخرى هي حارس يحرس التعبير من الإنحراف نحو الثنائية بين الكلمة والله.

١ : ٣ **«كلُ شيءٍ به كانَ، وبغيرِهِ لم يكن شيءٌ ممَّا كانَ».**

«وقد جعلتُ أقوالي في فمك (اللوغس)، وبظل يدي
سترتُك لغَرْسِ السموات وتأسيس الأرض، ولتقول
لصهيون أنتِ شعبي.» (إش ٥١ : ١٦)

وهكذا ينحدر ق. يوحنا سريعاً من تحليقه فيما وراء الزمن في الأزلية، ومن الشخوص الفائق

(١٤) العظة الثالثة.

في كيان اللوغُس عند الله الذي أوقفنا أمامه وفي مواجهته لحظة، لينزل بنا إلى واقعنا المادي إلى الخليقة بكافة أشكالها وأنواعها فيما يُرى وما لا يُرى.

ولا يخفى على الدارس للفكر اليهودي القديم أن يلمح في هذه الآية تقابل الوزن العبري بالإيجاب ثم السلب باتصال، ليغوص بنا في أعماق وأطراف المعنى، وليجمع بينهما فكر واحد متكامل محبوك لا يأتيه الشك من أي جانب: «كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان»، حيث لا يزال التركيز هنا على الكلمة اللوغُس باعتباره العامل الوحيد في الخلق. فكل الخليقة أخذت وجودها وكيانها المرئي وغير المرئي **منه**، ولا توجد خليقة قط يمكن أن تتخذ لها وجوداً **بدونه**.

وبينما يظل الكلمة أزليًا كما هو، أخذت منه الخليقة مبدأها الزمني، وارتبطت به ارتباط الوجود والكيان والحركة والدوام على مستوى الزمن، وظلّ هو حرّاً منها لا يحدُّه زمان أو كيان.

+ هنا «**كل شيء** πάντα» يفيد كل شيء بمفرداته واحداً واحداً، وليس كل شيء كجمع كلي، وإلا كانت تُكتب τὰ πάντα، كما جاءت في رسالة بولس الرسول: «فإنه فيه خُلِقَ **الكل**...» (كو١: ١٦). وبالتأكيد فإن «**كل** شيء» هنا يعود على تنوع الخلائق من روحية وبشرية ومادية، ليقطع خط الرجعة على بدع القائلين أن اللوغُس هو العالم أو أنه كان ملاكاً أو كان مجرد إنسان.

+ «**به كان**»، والأصح بحسب الأُصول والمعنى اليوناني «به صار».
والمعنى المقصود هو «به خُلِق»، لأن «**كان**» هنا كما جاءت في اللغة العربية توقعنا في خطأ وارتباك لأنها لم تجيء في اليونانية ἦν التي تفيد الكينونة، بل ἐγένετο وتعني «صار» أو «ظهر في الوجود»، أو «خُلِقَ».
وبحسب العالم وستكوت(١٥) فإن فِعْل «**خَلَقَ**» يأتي على ثلاث صور من الأفعال:

الأول: يخلق κτίζειν. **والثاني:** يصنع ποιεῖν وذلك بالنسبة للخالق.
والثالث: يصير γίγνεσθαι

١ ــ **والفعل الأول «يخلق»** كما جاء في (كو١: ١٦و١٧): «فإنه فيه خُلِقَ ἐκτίσθη

(15) Westcott, *op. cit.*, p. 4.

الكل ما في السموات وما على الأرض ما يُرى وما لا يُرى سواءٌ كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين، الكل به وله قد خُلق، الذي هو قبل كل شيء **وفيه** ἐν αὐτῷ يقوم الكل (hold together) = συνέστηκεν». وهنا يأخذ فعل «**خَلَقَ**» معنى وحقيقة التصميم والتخطيط والقصد من الشيء قبل صنعه في ذهن الخالق.

٢ ــ **أما الفعل الثاني «صنع»** كما جاء في إنجيل مرقس: «من بدء الخليقة ذكراً وأنثى **خلقهما** الله ἐποίησεν» (مر١٠: ٦)، فهي تفيد النتيجة الفعلية أو الشيء الناتج من الخلق كصنعه. كما هو واضح جداً من قول بولس الرسول: «لأننا نحن **عمله** ἐσμεν ποίημα = product (وترجمتها بالإنجليزية واضحة للغاية = for we are his workmanship) مخلوقين في المسيح يسوع لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدّها...» (أف٢: ١٠)

٣ ــ **أما الفعل الثالث «يصير»** ἐγένετο الذي نحن بصدده هنا، «كلُّ شيء به (**كان**) **صار**»، **فهو يفيد القانون الخاص الذي بمقتضاه يتم ظهور الشيء حسب تدبير العناية الإلهية.**

وأوضح مثلٍ لذلك ما جاء في الفعلين المستخدمين في الآية ١: ١٤: «والكلمة **صار** ἐγένετο جسداً»؛ وفي الآية ١: ١٧: «لأن الناموس بموسى أُعطي أما النعمة والحق فبيسوع المسيح **صارا** ἐγένετο».

وهنا تنكشف **قوة هذا الفعل كمعبِّر عن كيفية الاستعلان عن النظام والتدبير الإلهيين وإظهارهما للوجود.** بمعنى أنه قبل أن يخلق الله العالم بالكلمة كان هناك تدبير وخطة ونظام وقانون انتهت جميعاً إلى استعلان خطة العالم بوجوده، وانتهت إلى استعلان تجسد الكلمة، ثم انتهت إلى استعلان النعمة والحق في المسيح يسوع. وهذا هو المعنى النوعي والتحديدي لفعل ἐγένετο

+ «به» = διά : الحرف اليوناني διά لا يفيد المعنى باللغة العربية «به»، ولكن معنى آخر أعمق يمكن أن يُترجم «**بواسطته**» التي تأتي بالإنجليزية through him وليس by him التي هي ὑπό .

لهذا فحرف δι' αὐτοῦ يعطي معنى أكثر علاقة بين الكلمة اللوغُس وبين الخليقة. أي أن كل شيء هو **به وفيه** بآنٍ واحد، وليس به فقط، فالكلمة بعد أن خَلَقَ، ظل حافظاً ومقيماً وماسكاً ومُدبِّراً للخلق. المسيح عبَّر عن ذلك بقوله: «بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً.» (يو١٥: ٥)

والعلاقة الممتدة بين **الخليقة والكلمة** تتضح من كلام القديس بولس الرسول:
«فإن **فيه** خُلق الكل ἐν αὐτῷ ...
الكل به وله قد خُلق δι᾽ αὐτοῦ ...
وفيه يقوم الكل ἐν αὐτῷ συνέστηκεν .» (كو١: ١٦و١٧)
أي أن الخليقة بواسطته خُلقت، وفيه هي مخلوقة وقائمة ومتماسكة معاً.

هذا يوضحه ق. يوحنا بمنتهى الإختصار بقوله:
«وبغيره لم يكن شيء مما كان»، والترجمة الأصح: «وبغيره لم **يَصِرْ** شيء مما **صار**».
وكلمة «بغيره» تفيد «بعيداً عنه» أي: «بدونه» لا يصير لها وجود وكيان.
وبهذا تكون الخليقة قائمةً تحت عاملين:
العامل الأول: الاعتماد الكلي على التوسط الإلهي بواسطة الكلمة.
العامل الثاني: الحضرة الإلهية الدائمة التي تقيم وتحفظ كيانها.

فالخليقة أولاً صارت إلى الوجود بواسطة الكلمة، ثم أخذت وتأخذ قيامها وتماسكها ودوامها معاً بالكلمة أيضاً.

هذا الأمر توضحه الرسالة إلى العبرانيين عندما يقول: «الذي به أيضاً عمل العالمين، الذي وهو بهاء مجده ورسم جوهره **وحامل** φέρων τε **كل الأشياء بكلمة** قدرته» (عب١: ٢و٣)؛ حيث **«به»** توضِّح سر بقاء ودوام الخليقة كونها محمولة بقوة الكلمة. فهنا سر الخَلْق، وسر قيام الخلق، وسر دوام الخلق.

ويزيد القديس بولس الرسول هذا الوضع الأخير وضوحاً بقوله: «لأننا به **نحيا، ونتحرك، ونوجد.**» (أع١٧: ٢٨)

نفهم من هذا صحة قول بولس الرسول أن الله موجود وظاهر في الخليقة بصورة تجعل تجاهله دينونة على الإنسان — أي إنسان في العالم — «إذ معرفة الله ظاهرة فيهم لأن الله أظهرها لهم. لأن أموره غير المنظورة تُرى منذ خلق العالم مُدرَكةً بالمصنوعات، قدرته السرمدية ولاهوته حتى إنهم بلا عذر.» (رو١: ١٩و٢٠)

ثم وجود الخليقة في مجال العمل الإلهي بل والوجود الإلهي أيضاً، الذي منه تأخذ كيانها ووجودها وحياتها وحركتها وكل تدبيرها الذي تحكمه مئات بل ألوف بل ملايين الملايين من

القوانين والقياسات والضوابط والصفات الموروثة والمكتسبة والموهوبة، التي بلغ الإنسان إلى معرفتها والتي لم يبلغ إليها بعد والتي لن يبلغ إليها في هذا الدهر قط، والتي تتحكم في سير الكون بل الأكوان بسمائه ومجرّاته والأرض وما عليها من جوامدَ وأحياء نباتية وحيوانية والإنسان، ناهيك عن السماء الروحانية بكل أجنادها، هذه كلها لولا الضبط الإلهي الذي بالكلمة ما صارت وما سارت.

أما السؤال التقليدي الذي أثاره الإنسان في كل عصوره وعلى كل مستوياته الفلسفية والدينية: هل العالم مُحْدَثٌ أم أزلي؟

فيرد القديس أوغسطينوس على هذا بقوله أنه مُحْدَث بالنسبة لواقعه الظاهري، ولكنه كان موجوداً عند الله كخطة ونظام قبل أن يكون ويظهر في الوجود. (١٦)

والقديس يوحنا باختياره فعل «صار» ἐγένετο لتوضيح خلقة الله لكل أشياء العالم واحدة واحدة بواسطة الكلمة، يقطع خط الرجعة على نظرية أفلاطون بأزلية العالم، كما يقطع خط الرجعة على نظرية كل من الغنوسيين وفيلو اليهودي بثنائية خلقة العالم بين شر وخير، وأيضاً ينتفي أن يكون لغير الكلمة اللوغس أي وساطة أخرى في الخلق، خاصة بتشديده على استحالة الخلقة بدون «**الكلمة**»، باستخدامه النفي للتأكيد «وبغيره لم يكن شيء مما كان».

كما ولينتبه القارىء كيف بدأ ق. يوحنا بوضع الأساس في حقيقة الخلق والخليقة بقوله: «والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله». حتى إذا جاء إلى الخلق وقال أن «به» ـــ أي بواسطة الكلمة ـــ خلق الله العالم، لا يكون أمام القارىء أي فرصة ليظن أن الكلمة أقل من الله الخالق حينما يكون عملُ «**الكلمة**» هو توسطي فقط أي «بواسطة» الكلمة. لأن المعنى في كُلّيته يكون بالنهاية: بواسطة الله خلق الله العالم.

والقديس ذهبي الفم يرى أن ذكر ق. يوحنا لخلقة العالم هنا، لا يركّز بالدرجة الأُولى على عمل الكلمة كما يركز على وحدة العمل الخلقي مع الله إمعاناً في إظهار لاهوته وتفوّقه فوق كل الخلائق. (١٧)

كما تنبري جملة النفي «وبغيره لم يكن شيء مما كان»، لتؤكد أن «توسط» الكلمة في الخلق أساسي بالدرجة الأُولى، إذ بدونه يستحيل الخلق أو دوام الخليقة.

---

[16] NPNF, Ist Ser., Vol. VII, p. 12.

[17] *Op. cit.*, Vol. V, p. 2.

والقديس بولس الرسول يرى بالروح وبالرؤية السماوية الفائقة علاقة المسيح بالخليقة الأُولى، ما رآه ق. يوحنا بصورة محققة وكاملة، فلا يكتفي بأن يجعل عمل المسيح «الكلمة» توسطياً بمفهوم مستوى المساعدة الآلية لله، بل يرفع رؤيتنا لنرى الخليقة كلها حتى الروحانية كلها قائمة فيه تتخذ منه وجودها وحركتها وبقاءها ودوامها: «فإنه **فيه** " ἐν " **خُلِقَ الكل** ما في السموات وما على الأرض ما يُرى وما لا يُرى سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين، **الكل** "**به**" و"**له**" " εἰς "و" δι' " قد خُلق، الذي هو قبل كل شيء "**وفيه**" يقوم الكل.» (كو١: ١٦و١٧)

وليلاحظ القارىء هذه الحروف الثلاثة: «فيه وبه وله» التي تحكم العلاقة بين الخليقة والخالق.

وسفر الرؤيا يعطينا صورة إضافية حيَّة مبدعة تنطق بمستوى خضوع كافة الخليقة الروحانية بالنسبة للمسيح الخالق لها، فكافة الأجناد السماوية تتبعه: «والأجناد الذين في السماء كانوا يتبعونه على خيل بيض لابسين بزًّا أبيض ونقيًّا.» (رؤ١٩: ١٤)

وهنا يجدر بنا أن نتأمل في هذه الخليقة كلها المتعددة الممالك: سمائية بجندها الروحاني وبنجومها وأقمارها وأفلاكها ومجراتها التي يتوه فيها عقل الإنسان، والأرض بجمادها ونباتها وحيوانها وإنسانها، كيف يتبناها الله جميعاً كأب ويدبرها الكلمة كراعٍ! أعظم ما فيها ــ والعِظَم في الخليقة فوق حدود تصور الإنسان ــ كأقل ما فيها، حتى العصفور له موضع في قلب الله ومكانة وعناية: «هكذا أحب الله العالم!...» (يو٣: ١٦)

ثم اسمع ما يقوله المسيح كخبير في شئون خلقته: «أليس عصفوران يباعان بفلس وواحد منهما **لا يسقط على الأرض بدون أبيكم؟** وأما أنتم فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة. فلا تخافوا، أنتم أفضل من عصافير كثيرة» (مت١٠: ٢٩ــ٣١). ويزيد على هذا القول نفسه القديس لوقا في إنجيله من جهة هذه العصافير أيضاً ويقول: «**واحدٌ منها ليس منسياً أمام الله**»!! (لو١٢: ٦)

أما من جهة الإنسان الذي خلقه الله على صورته كشبهه، فتقول الحكمة (الكلمة ــ اللوغس): «لما وضع للبحر حدَّه، فلا تتعدى المياه تُخمَه، لما رسم أسس الأرض، كنتُ عنده صانعاً وكنتُ كلَّ يوم لذَّتَه فَرِحةً دائماً قدَّامه، فَرِحةً في مسكونةِ أرضِهِ **ولذَّاتي مع بني آدم.**» (أم٨: ٢٩ــ٣١)

١ : ٤ «فيهِ كانتِ الحياةُ والحياةُ كانت نورَ الناسِ».

«تُحِبُّ الرَّبَ إلهَكَ، وتسمعُ لصوتِهِ، وتلتصقُ بهِ، لأنه هو حياتك...» (تث٣٠: ٢٠)
«لأن عندك ينبوع الحياة وبنورك نرى نوراً.» (مز٣٦: ٩)

هنا يكشف ق. يوحنا عمقاً إلهياً من أعماق «الكلمة». فالكلمة فيه الحياة أصلاً وأساساً كإحدى خصائص الجوهر الإلهي الأزلي. (١٨)

وقد كشف المسيح سرَّها هكذا: «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته (حياة ذاتية)، كذلك أعطى الابن أن تكون له حياة في ذاته (أي حياة ذاتية غير مكتسبة).» (يو٥: ٢٦)

وجوهر الحياة في الكلمة ليس كالحياة التي نعيشها ونعرفها، بل هي الحياة الأبدية التي من أخص خصائصها أنها تُحيي، أي لها القدرة على خَلْقِ الحياة التي نعرفها ونعيش لوناً من ألوانها في عمرنا الزمني على الأرض، والتي عرَّفها المسيح بقوله: «لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويُحيي كذلك الابن أيضاً يُحيي من يشاء.» (يو٥: ٢١)

وحينما يقول ق. يوحنا أن «فيه كانت الحياة»، فإنه يشرح بدقة وبصورة مباشرة ما جاء في الآية قبلها: «كلُّ شيءٍ به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان». إذن، سِرُّ قوة الخَلْق لدى اللوغُس الكلمة متمركز بصورة أساسية في امتلاك الكلمة لجوهر الحياة امتلاكاً ذاتياً.

وعلى القارىء أن يلاحظ أنه لم يقلْ: «فيه "حياة"» أي «حيٌّ» وحسب، بل «فيه "الحياة"» كينبوع: «أنا هو الألف والياء البداية والنهاية. أنا أعطي العطشان من ينبوع ماء الحياة مجاناً.» (رؤ٢١: ٦)

وحينما يقول ق. يوحنا أن «فيه كانت الحياة»، بعد قوله: «كلُّ شيءٍ به كان»، فهو يشير ضمناً إلى علَّة الارتباط الجوهري بين الخليقة والكلمة، بصورة دائمة، وأيضاً ارتباط الكلمة بالخليقة كمصدر الحياة فيها ولها وبصورة دائمة أيضاً، فهو قوام حياتها: «لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد.» (أع١٧: ٢٨)

---

(١٨) راجع المدخل ص١٣٥.

وللأسف الشديد فنحن لا ندرك الآن من هذه الحياة إلاَّ صورها الظاهرة المربوطة بالزمن، أما جوهرها غير المنظور وغير الزمني الذي هو لها الامتداد الأسْمَى، والأكثر بهاءً وجمالاً، الذي لا يشوبه حزن ولا كآبة ولا تنهد، والروحاني الصرف؛ فهو، وإن كنا نعيشه بالإيمان، إلاَّ أنه محجوز عن فكرنا كما هو محجوز عن أعيننا، بانتظار استعلانه في الأبدية.

ولكن ما يقصده ق. يوحنا من قوله: «فيه كانت الحياة»، ليس هو الحياة التي هي قوام المخلوقات، لأن «حياة» المخلوقات هي الحياة المخلوقة، أما الحياة في الكلمة **فهي** «الحياة الخالقة» أي جوهر الحياة الفعال والتي نعرِّفها بـ«الحياة الأبدية»: «فإن الحياة أُظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا.» (١يو١: ٢)

١: ٤ **«والحياةُ كانت نور الناسِ».** (١٩)

«**الربُّ نوري** وخلاصي.» (مز٢٧: ١)
«قد **جعلتُكَ نوراً** للأمم لتكون خلاصي إلى أقصى الأرض.» (إش٤٩: ٦)

بنفس تدرُّج مراحل الخلق في سفر التكوين، يضع ق. يوحنا الإنسان كختام لكل الخليقة. وفي الحال يربط خلقة الإنسان بالحياة الأبدية، الأساس الذي خُلق عليه الإنسان إذ خلقه الله على صورته، وبالتالي ليبقى معه ويحيا أمامه **إلى الأبد**(٢٠)، وذلك بقوله: «والحياة كانت نور الناس». فالحياة الطبيعية الزمنية التي كانت لكل الخليقة والتي أخذ منها الإنسان نصيبه، أضاف الله عليها نصيباً ممتازاً عن فائق الخلائق، بأن وهبه نور الحياة الأبدية الذي به يدرك الله ويستمع إليه ويتكلم معه.

ولكن هنا في الآية: «والحياة كانت نور الناس»، يختزل ق. يوحنا مرحلة الحياة الأرضية كلها ولا يستبقي من عطية الله في الخَلْق بالنسبة للإنسان **إلا نور معرفته**؛ الأمر الذي هو رسالة الكلمة اللوغُس بالدرجة الأولى، بل ورسالة إنجيل يوحنا برُمَّته: «**وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك** أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو١٧: ٣)

---

(١٩) راجع ما جاء عن معيار «النور» في المدخل ص١١٩ــ١٢٢.

(٢٠) وذلك بحسب مطلع قداس القديس باسيليوس حسب النص اليوناني: «يا الله العظيم الأبدي الذي خلق الإنسان على الخلود»، وهي أصلاً مقتبسة من سفر الحكمة (٢: ٢٣): «فإن الله خلق الإنسان خالداً، وصنعه على صورة ذاته».

وإنجيل يوحنا هنا تزدحم فيه الأسرار. فالإنسان المدلل الذي خُلق في جنة عدن تحت ظلال شجرة الحياة التي كان مزمعاً أن يأكل منها ويحيا إلى الأبد، لكنه حرم نفسه منها بإرادته، مع أنها غُرست له وهو خُلق لها؛ وهو الذي كانت تغطيه سحابة الحياة النيِّرة، تضيء فكره وروحه فيرى الله ويتحدث إليه، ولكنه أخطأ وغطّى نفسه حتى لا يراه الله ولا يرى هو الله؛ ولكن الله عاد فتذكّر وعده وتذكر حبه، فأرسل «**الكلمة**» في ملء الزمان، لا كشجرة حياة بل «خبز الحياة»، فأكل الإنسان منه وارتدت روح الله فيه وعاش إلى الأبد؛ وانفتحت عيناه وعاين «نور الحياة» وعرف الحياة الأبدية.

وهكذا يشير ق. يوحنا في هذه الآية: «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس»، إشارة قديرة بليغة إلى الأصول الأُولى من جهة السِرّ الذي كان مخفيًّا في كلمة الله عند الخلق من جهة نصيب الإنسان حسب مسرة قصد الله أن يحيا بحياة الله ويستنير بنوره: «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس»، الأمر الذي تحقق في المسيح، وحقّقه المسيح جهاراً: «**أنا هو الطريق والحق والحياة**» (يو١٤: ٦)، «**أنا نور العالم.**» (يو٩: ٥)

فالقديس يوحنا يكشف لنا في مقدمة إنجيله عن عطيتَيْ الحياة والنور اللتين كانتا مختفيتين في اللوغُس منذ الأزل، واللتين كشفهما لنا المسيح وحققهما وسكبهما علينا سكيباً على مستوى المنظور والزمن، أو ربما على الوجه الأصح أن ما سكبه المسيح من ملئه علينا في أواخر الأيام من الحياة والنور، هما في الحقيقة من مذخرات الأزل، من ملء لاهوت «الكلمة»، حتى تدرك عظم النصيب الإلهي الذي صار لنا، وجلال وهيبة المسيح الذي جاءنا من عند الآب.

علاقة الحياة بالنور في هذه الآية:

تتكرر كلمة «الحياة» في إنجيل يوحنا أكثر من ثلاثين مرة، وجميعها يتجه معناه نحو الحياة الأبدية على أساس مفهوم الخلاص. ولكن ق. يوحنا حتى ورود هذه الآية ١ : ٤ لم يكن قد بلغ نقطة التجسد بعد، فالحياة التي كانت في «الكلمة»: «فيه كانت الحياة»، لا ينصبُّ معناها في هذه الآية نحو الخلاص كما يتسرّع بعض الشُّراح في شرحهم. ولكنها هي الحياة التي تكلم عنها ق. يوحنا في رسالته الأُولى: «الحياة الأبدية التي كانت عند الآب» و(ثم) «أُظهرت لنا». أما قوله: «والحياة كانت نور الناس»، فهنا أول فعل الامتداد للحياة الأبدية التي كانت عند الآب وفي اللوغس الكلمة لتواجه الإنسان وليتواجه بها الإنسان فيما قبل التجسد.

ثم إن الحياة الأبدية في حقيقتها هي «حياة الله»، ولا يقترب منها الإنسان، ولا هي

تقترب إليه، إلا بالاستعلان، بمعنى أن الكشف يكون عن طريق الاستنارة بالروح وليس برؤيا العين. ومن خصائص طبيعة الحياة الأبدية «**النور**» الإلهي، فالله طبيعته «النور»: «الله نور» (١يو١: ٥)، «ساكناً في نور لا يُدنى منه، الذي لم يَرَه أحد من الناس ولا يقدر أن يراه.» (١تي٦: ١٦)

وهنا كشفٌ لنوعين من النور: الأول جوهري وهو طبيعة الله، والثاني مخلوق: «ساكناً في نور لا يُدنى منه»، وهو الطاقة الأُولى والعظمى التي انحدرت منها كل الطاقات والمجالات والمادة المخلوقة.

فرؤية النور الإلهي أو الدخول في مجاله لا يكون قط من خلال الطبيعة الجسدية للإنسان بل من خلال الروح، حينما تنشط من الداخل، أو حينما تقتحمها القوة الإلهية المنيرة من الخارج. وفي كلا الحالين يكون الجسد بكل مَلَكاته في حالة توقف مؤقت لاستقبال المعرفة. وفي هذا الوقت يرى الإنسان النور الإلهي رؤيا الروح، ويدركه بإدراك العقل الروحي، وحينئذٍ يختفي نور النهار ويضمحل نور الشمس، لأن نور الطبيعة الإلهية أعلى مجالاً وأسمى نوعاً بدرجة لا تُقاس.

ــ «وحدث لي بعد ما رجعت إلى أورشليم وكنت أصلي في الهيكل أني حصلتُ في **غيبة فرأيته...**» (أع٢٢: ١٧)

ــ «فحدث لي وأنا ذاهب ومتقرِّب إلى دمشق أنه نحو نصف النهار بغتةً (اقتحام) **أبرق حولي من السماء نور عظيم**، فسقطت على الأرض...» (أع٢٢: ٦و٧)

ــ «رأيت في نصف النهار... **نوراً من السماء "أفضل" من لمعان "الشمس"** قد أبرق حولي.» (أع٢٦: ١٣)

ويلاحظ القارىء أن **ظهور النور الإلهي** الطاغي لشاول لم يكن عن استحقاق أو يدخل بأي حال من الأحوال في مضمون استعداد طبيعة شاول، لا بالصلاة ولا بالإيمان بالمسيح ولا بالحب ولا بالتصوُّف ولا على أي أساس بشري، بل هو اقتحام للطبيعة الجسدية من جهة واحدة بمقتضى تدبير الله.

وليكن معلوماً أن رؤية بولس لهذا النور الإلهي، ومعه الصوت الإلهي يعرِّف نفسه له أنه هو يسوع، هذه الرؤية بحدِّ ذاتها أدخلت بولس الرسول في مجال معرفة المسيح والاتصال به والتعلم منه كل سني حياته. فمن خلال هذا النور الكاشف والمضيء للذهن الروحي تعلَّم بولس وعلَّم إنجيل الحياة الأبدية والخلاص:

ــ «وأعرِّفكم أيها الإخوة **الإنجيل الذي بشَّرتُ** به، أنه **ليس بحسب إنسان** لأني **لم أقبله من عند إنسان ولا عُلِّمته، بل بإعلان يسوع المسيح.** فإنكم سمعتم بسيرتي قبلاً في الديانة اليهودية أني كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط وأُتلِفُها.» (غل ١: ١١ــ١٣)

ثم لاحظ أيها القارىء العزيز أن الحياة الأبدية التي دخل إليها بولس الرسول **ظهرت له «كنور» بالنسبة للوعي الروحي، وأنشأت فيه وفي الحال استنارة فائقة** لإدراك سر المسيح وسر الخلاص وسر لاهوت المسيح بكل أعماقه.

ثم لاحظ أن بولس الرسول اكتشف أن هذا النور، وهذه الحياة التي اندفقت فيه، هي بفعل وحضور يسوع المسيح المتكلم بنفسه من السماء: «من أنت يا سيد؟»، ــ «أنا يسوع الذي أنت تضطهده.» (أع ٩: ٥)

ومثل آخر يوضح معنى النور وعمله، وذلك في شهادة بطرس الرسول المفاجئة للمسيح: «فأجابه سمعان بطرس يا رب إلى من نذهب، كلام الحياة الأبدية عندك، ونحن قد آمنَّا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي» (يو٦: ٦٨و٦٩). وكان تعليق المسيح على قول ق. بطرس هذا كما جاء في إنجيل ق. متى: «فأجاب يسوع وقال له: طوبى لك يا سمعان بن يونَّا **إن لحماً ودماً لم يُعلنْ لك لكن أبي الذي في السموات**» (مت١٦: ١٧). معنى هذا أن بطرس نال استنارة ذهنية ونور الله أضاء فكره وروحه ليتقبل استعلاناً مباشراً عن المسيح من الله، هذا هو النور الذي يتقبله الإنسان عندما يدخل من عتبة الحياة الأبدية.

والإنجيل بعد ذلك يشرح بقوة وبإفصاح مدهش عن هذه الحقيقة: «أنا هو نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل **يكون له نور الحياة.**» (يو٨: ١٢)

فإذا سرنا في النور فنحن نكون في عمق الحياة مع الله ومعرفته.

وقد ارتبط النور بالمحبة في إنجيل يوحنا، وهذا ليس عجيباً. فالله محبة، والله نور أيضاً، وهكذا ارتبط النور بالصلاح وارتبطت الظلمة بالأعمال الشريرة وبالدينونة، بآن واحد: «وهذه هي الدينونة أن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة.» (يو٣: ١٩)

وهذا يعني أن غياب النور عن الإنسان يكون باختياره، لأنه يرفض الحياة في النور أي في الحق والمحبة والقداسة. وغياب النور عن الإنسان معناه غياب الله، حيث يختفي الهدف الحقيقي للحياة،

بل وتفقد الحياة قيمتها العليا ومعناها، فلا يعود الإنسان يرى نفسه ولا يعود يعرف لماذا يعيش.

١ : ٥　«والنورُ يضيءُ في الظلمةِ والظلمةُ لم تُدرِكْهُ».

هنا يضع ق. يوحنا، ولأول مرة، «**النور**» في مقابل «**الظلمة**»، الوجود في مقابل العدم!

أما النور فقد عرَّفه بعد ذلك أنه «**النور الحقيقي**» = τὸ φῶς τὸ ἀληθινόν ، وهكذا يتضح أنه طبيعة الله. لأن هناك فرقاً هائلاً بين النور المخلوق الذي هو قوة وطاقة وبين النور الخالق الذي هو حياة.

فإن كنا في الآية السابقة قد وجدنا الحياة الأبدية ــ التي في الكلمة ــ وقد دخلت في علاقة مباشرة مع الإنسان بعد الخليقة «كل شيء به كان»، وهذه الحياة كانت هي مصدر النور للناس: «والحياة كانت نور الناس»؛ فهنا في هذه الآية: «النور يضيء في الظلمة» يزيد المعنى السابق إيضاحاً من جهة مبادرة النور من تلقاء ذاته للقيام بعمله الجوهري أي «**الإضاءة**»، بمعنى أن الكلمة لم يُلْقِ على الإنسان كل مهمة التعرُّف على النور أو الوصول إليه. فالنور الإلهي يضيء من ذاته ومن سخاء طبيعته الإلهية، كما يصفه إشعياء النبي: «ويكون نور القمر كنور الشمس، ونور الشمس يكون سبعة أضعاف كنور سبعة أيام في يوم يجبِّر الرب كَسْرَ شعبه ويشفي رضَّ ضَرْبِه» (إش٣٠: ٢٦). وهو ما يصفه بولس الرسول في اختباره العجيب: «رأيتُ في نصف النهار في الطريق، أيها الملك، نوراً من السماء أفضل من لمعان الشمس قد أبرق حولي وحول الذاهبين معي.» (أع٢٦: ١٣)

وهنا نلتقط الفكرة المبدأية في علاقة النور بالخليقة، فحقيقة «النور يضيء في الظلمة» في معناها الخصب تفيد نصرة الخَلْق على العدم، كما تفيد نصرة الحق على الباطل، أو معرفة الله على الجهالة، وبالنهاية وعلى الواقع الملموس تجسد الكلمة ذاته فيما بعد. لأن هذا هو بالفعل دخول النور إلى العالم المظلم: «وهذه هي الدينونة أن **النور قد جاء إلى العالم**...» (يو٣: ١٩). وبدخول النور إلى ظلمة العالم انقسم عالم الإنسان إلى إنسان النور وإنسان الظلمة. وإن كان إنسان الظلمة يعيث فساداً وتخريباً، ولكن لن يتغلب غيرُ الموجود على الموجود. فإنسان النور اكتسب وجوداً أزلياً، أما الظلمة فتنتهي إلى العدم ولن يبقى إلا النور.

كذلك ففي هذه الآية يكون ق. يوحنا لا يزال منحصراً في الكلمة وعلاقته **بالناس**، لأن

«الإضاءة» هي **نور الاستعلان** بالنسبة للخليقة ذات الإدراك الروحي عامة، وذلك قبل أن يحصر عمله مع خاصَّته أي مع شعب إسرائيل. فقوله: «النور يضيء في الظلمة» يتجه إلى مطلق **عمل «الكلمة» في الظلمة بالنسبة للإنسان عامة**، دون تخصيص حقبة زمنية أو شعب معين أو أية ظروف خاصة. فالإشارة هنا إلى طبيعة عمل جوهر النور الإلهي في الكلمة تجاه طبيعة الإنسان الروحية كإنسان. وهذه الحقيقة أشار إليها القديس بولس الرسول هكذا: «لأن الأمم الذين ليس عندهم ناموس **متى فعلوا بالطبيعة ما هو في الناموس، فهؤلاء، إذ ليس لهم الناموس، هم ناموس لأنفسهم، الذين يُظهِرون عمل الناموس مكتوباً في قلوبهم شاهداً أيضاً ضميرهم وأفكارهم فيما بينها مشتكية أو محتجة.**» (رو٢: ١٤و١٥)

واضح من كلام القديس بولس أن النور الإلهي لم يحرم الأمم من الحصول على صورة منيرة لقوانين الله الأخلاقية التي تصلح أن تدينهم وتبكِّت ضمائرهم.

كذلك سبق أن استشهدنا بقول للقديس بولس الرسول على نفس المستوى باعتبار **أن الله أظهر معرفته للناس عامة** منذ الدهر: «إذ معرفة الله ظاهرة فيهم **لأن الله أظهرها لهم**، لأن أموره غير المنظورة (لاهوته) **تُرى منذ خلق العالم مُدرَكَة بالمصنوعات، قدرته السرمدية ولاهوته حتى إنهم بلا عذر.**» (رو١: ١٩و٢٠)

واضح، إذن، أن النور يضيء في الظلمة بصورة عامة منذ بدء الخلق، لأن هذا عمل يختص بصميم طبيعة الكلمة بالنسبة للناس، باعتبار أن الإنسان مخلوق مُدْرِكٌ على صورة الله، والله مُدْرِكٌ كامل، فالعلاقة بينه وبين الكلمة علاقة كيانية، حيث يستمد منه الإنسان كيانه وإحساسه بنفسه عامة، وإدراكه الروحي خاصة. لذلك تقول الآية: **«حتى إنهم بلا عذر».**

ما هي الظلمة:

عرفنا أن النور الحقيقي هو طبيعة الله و«الكلمة»، ومعلوم أن «الظلمة» بحسب معرفة الإنسان المادية والقياسية هي غياب النور ليس إلاَّ، أي لا توجد ظلمة ــ ككيان بحد ذاته ــ ولكن الظلمة **تصير كياناً** بغياب النور. وهذا المقياس ينطبق على المعنى الروحي **«للظلمة»** بمفهومها الروحي إلى حد كبير. فإذا أخذنا «النور» مأخذاً شخصياً يكون **«النور»** هو الله من جهة طبيعته. وبالتالي تكون «الظلمة» هي الشخص الذي يخلو من طبيعة الله المضيئة والمنيرة (روحيًّا) خلوًّا تامًّا سواء كان هذا شيطاناً أو إنساناً. وقد عرَّفنا الإنجيل بكل يقين أن شخص الظلمة هو الشيطان. حيث يقدم لنا الإنجيل معرفة الله وكلمته أنه «المحيي» للإنسان جسدياً وروحياً، والشيطان أنه «قتَّال

للناس منذ البدء»، جسدياً وروحياً، وإن الله وكلمته أمين وصادق في كل ما يقول ويعمل، وأن الشيطان «كذَّاب وأبو الكذاب» (يو٨: ٤٤). ومن ذلك نرى أن الله نور حقاً وأن الشيطان ظلمة بالحقيقة، ويدعوه المسيح بـ«سلطان الظلمة»: «هذه ساعتكم وسلطان الظلمة» (لو٢٢: ٥٣)، وهي ساعة تزوير حكم الموت للمسيح.

فإذا عرَّفنا الظلمة بحد ذاتها خُلواً من شخص، أي من جهة طبيعتها وعملها، تكون هي السالبية بكل معانيها وأعمالها:

فإن كان **النور** الحقيقي أي الله = هو «المحبة»، وهو «الرحمة»، و«السلام»، و«الحق»، و«الأمانة»؛ يكون **الظلام** أو الظلمة = هي اللامحبة وكل ما يتفرع منها، البغض والكراهية والحقد والحسد والنميمة والذم والقتل، إلخ.

وهي اللارحمة وكل ما يتفرع منها، القسوة والنقمة والتعذيب، إلخ.

وهي اللاسلام وكل ما يتفرع منه، القلق والضيق والاضطراب والتشويش والخوف، إلخ.

وهي اللاحق وكل ما يتفرع منه، الغش والتزوير والتحريف والكذب، إلخ.

وهي اللاأمانة وكل ما يتفرع منها، الخيانة والإختلاس والسرقة، إلخ.

فهذه كلها أعمال «الظلمة» التي تتخذ وجودها ونشاطها من غياب **«النور»**.

لذلك عندما يقول ق. يوحنا إن: «الله نور **وليس فيه ظلمة البتة**» (١يو١: ٥)، فهذا يعني خلو طبيعته المنيرة الخيِّرة من كل السالبية خُلوًّا باتًّا.

وعندما يقول إن الحياة الأبدية التي في «الكلمة» = «فيه كانت الحياة»، وهذه الحياة هي «نور الناس»، فهو يقصد بكل تأكيد أن حياة «الكلمة» في الناس هي مصدر كل الإيجابيات، فهي حضرة نور الله وصفاته داخل النفس البشرية حيث ينمو الحب وتزدهر الرحمة وينشر السلام ويتجذَّر الحق وتثبت الأمانة. وذلك كله يتم على جهتين:

فمن جهة الخالق وكلمته، فإنه يتعهد صورته التي خلق لتبقى على صورة خالقها،

ومن جهة الإنسان تنزع الصورة فيه بحسب طبيعتها لتحاكي أصلها وتتعدَّل عليه.

هذا كله بدأ منذ الخلق وسار في طريق الزمن، مرَّةً يعلو ومرةً ينخفض، من شعب لشعب ومن إنسان لإنسان، والله يعدِّل طريقته بحسب اعوجاج الإنسان أو استقامته، من إعلان لإعلان، ومن تزكية لتزكية، ليبلغ قصده من الخلق يوم خَلَق. إلى أن «أُظهرت الحياة الأبدية» ــ التي في الكلمة ــ التي كانت عند الآب في صميم جوهرها، وتجسَّد النور بملء فعله كآخر مرحلة من خطة

الله الأزلية، ليأخذ الإنسان صورة خالقه ويدخل معه الحياة في حال التبني.

وقول ق. يوحنا أن «النور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه»، هو تصوير بديع لحال الإنسان الذي أخفق كثيراً ومراراً في الإمساك بالنور أو التعرُّف عليه. فأول إخفاق شنيع ومريع كان في انحياز آدم وحواء إلى الظلمة وخروجهما من دائرة النور الفعَّال. ثم على مدى كل الأزمنة القديمة وعلى مستوى الفهماء والحكماء والشعراء والفلاسفة الكبار، أخفق الإنسان أن يمسك بالنور أو يتحول إليه: «لأنهم لما عرفوا الله لم يمجّدوه أو يشكروه كإله بل حمقوا في أفكارهم وأظلمَ قلبهم الغبي، وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء، وأبدلوا مجد الله الذي لا يفنى بشبه صورة الإنسان الذي يفنى (تماثيل حجرية) والطيور والدواب (العِجْل) والزحافات.» (رو١: ٢١-٢٣)

بل ويمعن بولس الرسول في إظهار مدى تسرُّب النور الإلهي والحكمة الإلهية إلى حكماء العالم قديماً، وخاصة حكماء أثينا، وبالرغم من امتلاكهم لـ«**حكمة الله**»، فإنهم لم يخضعوا لنورها، وبالتالي لم يدركوا الله! «لأنه إذ كان **العالم في حكمة الله** لم يعرف الله **بالحكمة**، استحسن الله أن يخلِّص المؤمنين بجهالة الكرازة (الصليب).» (١كو١: ٢١)

وهذا ما يقصده ق. يوحنا في تصويره لمرحلة عمل «الكلمة» في العالم والناس فيما قبل ظهوره في العهد القديم على ألسنة الأنبياء، كـ«كلمة الله» **وكنور**، عندما اختار له أخصاءً من شعب اختاره لنفسه للإعلان عن الله وعن قُرْب.

الظلمة تتعقب النور:

يقول ق. يوحنا أن «النور يضيء» وهذا بحكم طبيعته الإلهية الخيِّرة، وهو يضيء على الجميع بلا استثناء كما يقول الإنجيل: «يشرق شمسه على الأشرار والصالحين» (مت٥: ٤٥). ولكن لكي يبين الله عظم صلاحه فإنه يركِّز عمل نوره على الظلمة والجالسين في الظلمة.

ولقد تحدد منذ الدهر بفم أنبياء كثيرين أن المسيح سيكون «نوراً للأمم» بقدر ما سيكون «مجداً لشعبك إسرائيل» (لو٢: ٣٢). لذلك أصبح من طبيعة النور الخلاصية أنه يتعقب الظلمة منذ الأزل: «للرب حرب مع عماليق من دَوْرٍ إلى دَوْر» (خر١٧: ١٦). وهو يفتش عن الذين له في مسالك الأرض كلها: «الشعب السالك في الظلمة أبصر نوراً عظيماً. الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور.» (إش٩: ٢)

وتعقُّب النور للظلمة أنشأ بالتالي ترصُّداً وتعقُّباً مضاداً من جهة الظلمة تجاه النور، وذلك

بحسب قانون الأفعال والحركات، مادية كانت أو روحية، القائل بأن لكل فعلٍ ردَّ فعلٍ، بمقتضى تدبير الله تجاه إبليس المدعو أيضاً «سلطان الظلمة»، حينما قال الله للحية التي كانت تنطق بفم إبليس: «وأضع عداوة بينكِ وبين المرأة وبين نسلك ونسلها، هو يسحق (يرصد τηρήσει) رأسكِ وأنتِ تسحقين (ترصدين τηρήσεις) عَقِبَه.» (تك٣: ١٥)

وقول ق. يوحنا أن «الظلمة لم تدركْه» هو وصف دقيق للعجز الذي ظهر به الشيطان في صراعه ضد **مصدر** النور بطول الزمن وعلى مدى الحياة.

فقد لخَّص سفر الرؤيا معركة المسيح مع إبليس والعالم هكذا: «فنظرتُ وإذا فرسٌ أبيض والجالس عليه معه قوس وقد أُعطي إكليلاً **وخرج غالباً ولكي يغلب.**» (رؤ٦: ٢)

وهنا غلبة النور على الظلمة تأتي على مرحلتين: الأُولى في الفعل الماضي «خرج غالباً»، والثانية لأفعال قادمة «ولكي يغلب».

وحرب الظلمة، من اسمها تُعرف أنها حرب خداع وتزييف، لها صورة الحرب وهي ليست حرباً، ولها صورة الحق وهي الكذب بعينه.

بدأها الشيطان بحديث الحية مع الإنسان وهو في صورة الأضعف «حواء»: «**أحقاً قال الله لا تأكلا من "كل" شجر الجنة؟**» (تك٣: ١). هذا أول تزييف للحق، فالله لم يقل هذا ولكن هذا مدخل التشكيك.

ثم يبني الشيطان على التشكيك فكرة لها صورة الصدق، وهي الكذب المسموم، والتجربة التي صدَّقها الإنسان فمات بالفعل: «فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمسَّاه **لئلا تموتا**. فقالت الحية للمرأة **لن تموتا**...» (تك٣: ٢ـ٤). فأكل الإنسان ومات. هذه الحرب، حرب الغواية والغش والخداع، قائمة بحسب بولس الرسول كما هي حتى اليوم: «ولكنني أخاف أنه **كما خدعت الحية حواء بمكرها هكذا تُفسَد أذهانكم عن البساطة التي في المسيح.**» (٢كو١١: ٣)

ولكن أقوى مواجهة تمت بين النور والظلمة على مدى تاريخ الإنسان وعمره كانت مع المسيح: «لأن رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيَّ شيء» (يو١٤: ٣٠)، «من منكم يبكِّتني على خطية.» (يو٨: ٤٦)

ولكن الشيطان استخدم سلطان الظلمة أكثر من حدوده ووثق في أدوات القتل التي يملكها من

شهود زور ورؤساء يبخرون للكذب وحرفية الناموس القاتلة وحناجر الشعب الجاهل وقاضٍ جبان. وهكذا، فإنه وعلى الصليب رأى بولس الرسول كيف تم القبض على رؤساء الظلمة وكيف فُضحوا وشُهِّر بهم: «إذ محا الصك الذي علينا في الفرائض الذي كان ضدًّا لنا وقد رفعه من الوسط مسمِّراً إيَّاه بالصليب. إذ جرَّد الرياسات والسلاطين أشهرهم (فضحهم) جهاراً ظافراً بهم (قبض عليهم) فيه (أي في الصليب).» (كو٢: ١٤و١٥)

ومن هذا، ولهذا، صار الصليب رعبة للشيطان وسلاحاً ضد كل أعمال الظلمة.

فإذا أردنا أن نبلور حرب الظلمة الأُولى مع آدم وحواء، فهذه يلخصها لنا القداس الإلهي في مطلعه قائلاً: «والموت الذي دخل إلى العالم **بحسد إبليس...**». أما إذا أردنا أن نبلور حرب الظلمة الكبرى على الصليب، فهذه يلخصها الإنجيل بقوله: «فأجابهم بيلاطس قائلاً أتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود؟ لأنه عرف أن رؤساء الكهنة كانوا قد **أسلموه حسداً**.» (مر١٥: ٩و١٠)

فالحسد ـ وهو الصفة الأُولى لمن فقد النعمة ـ كان عمل الظلمة تجاه الإنسان لحجز النور عنه ولإطفاء النور ذاته، ولكن قرار الإنجيل الأخير أن الظلمة لم تدرِك قصدها!! ولن تدركْ!!

١: ٦ ـ ٨ **«كان إنسانٌ مُرْسَلٌ من الله اسمُهُ يُوحَنَّا. هذا جاءَ للشهادةِ ليشهَدَ للنُّورِ لكي يؤمِنَ الكلُّ بواسطتِهِ، لم يَكُنْ هو النورَ بل ليشهَدَ للنورِ».**

لا يزال التسلسل الإعلاني عن الكلمة يسير في مجراه، من الأزلية عند الله، ثم إلى الخلق، ثم إلى الحياة في الناس، وإلى النور. وهنا يبدأ ق. يوحنا ليدخل «بالكلمة» إلى مجال التاريخ الإنجيلي.

والملاحظ أن الأناجيل بعد أن استوفت قصة ميلاد المسيح، بدأت على الفور تاريخ الإنجيل بذكر يوحنا المعمدان كبدءٍ للخدمة العملية والكرازة. هذا ما سار عليه ق. يوحنا، إذ بعد أن استوفى استعلان وجود المسيح السابق على ميلاده أي تجسده، بدأ يؤرِّخ. ولكن أسلوب ق. يوحنا يرتفع دائماً بالتاريخ إلى ما هو فوق التاريخ. فإن كل كلمة ذَكَرها عن المعمدان وضعها في المقابل لما ذكره عن المسيح، ليجعل المقارنة تنطق بألوهية المسيح.

فـ« **كان إنسان** » يقابلها **«وكان الكلمة الله.»**[٢١]

---

(٢١) ومما يؤيد المفارقة المقصودة بين «كان إنسان»، و«كان الكلمة الله»، أن «كان الكلمة» جاءت في صيغة فعل

ثم «**مُرْسَلٌ من الله**» يأتي الفعل مبنيًّا للمجهول بصورة تجعل التركيز يقع على الإرسالية في حدّ ذاتها وعلى هدفها، فهي إرسالية إلهية ولكن المُرسَل «إنسانٌ اسمه يوحنا». والقديس يوحنا يركّز على الإرسالية أنها من الله باعتبار أن هذه الإرسالية، وليس شخصه، هي التي تُعطي المعمدان أهميته.

«**اسمه يوحنا**» هنا لو رجعنا إلى إنجيل لوقا (١: ٥٩—٦٦) وقرأنا قصة تسمية يوحنا، نفهم لماذا ركّز ق. يوحنا الإنجيلي على «**الاسم**»، من حيث القصد من التسمية، ثم معنى الاسم. فالقصد في قصة إنجيل لوقا مربوط بعلاقته بمجيء المسيح، والمعنى «الله يتحنن» يشير إلى تحنن الله بإرسال المخلّص. فالتسمية والاسم بالنسبة للمعمدان يخدمان الإعلان عن المسيح الكلمة المتجسد. كذلك لا ننسى أن اسم كاتب الإنجيل هو يوحنا. فبالرغم من أن الأناجيل الثلاثة ذكرت المعمدان باسمه «يوحنا» مضافاً إليه لقبه الشهير جداً «المعمدان»، حتى يميزوه عن يوحنا الإنجيلي، إلا أن يوحنا نفسه لم يذكر لقب المعمدان مكتفياً بيوحنا، لأنه ليس ما يدعو للتمييز فهو كاتب الإنجيل. وهذا ما أخذه كثير من الشُّرّاح لإثبات أن كاتب الإنجيل الرابع هو يوحنا.

«هذا جاء للشهادة ليشهد للنور»:

«هذا» كحرف إشارة يفيد في أسلوب ق. يوحنا العودة إلى الشخص بكل صفاته المذكورة، حيث يجعل مجيئه لقصدٍ محدد وهو «**الشهادة للنور**». وهذا هو محور كل ما سيجيء عن المعمدان في إنجيل يوحنا. ويلاحظ كيف يحصر ق. يوحنا عمل المعمدان في «الشهادة»، ثم كيف يعود ويؤكد حدود هذه الشهادة أيضاً، فهو جاء للشهادة فقط، وشهادته هي للنور فقط. فهو يركّز على الشهادة وليس الشاهد نفسه.

وهنا يتبادر إلى ذهن القارىء سؤال: ولماذا هذا التحديد والحصر والقصر؟؟

للرد نقول: إن عاملين أحدهما إيجابي والآخر سلبي كانا يتحكمان في الحديث عن المعمدان بالنسبة لإنجيل يوحنا وخاصة في زمن كتابته:

العامل الأول الإيجابي: هو أهمية شهادة المعمدان القصوى بالنسبة للإنجيل كونه ممثلاً للعهد القديم بأنبيائه والمعاصر للمسيح، علماً بأن الشهادة μαρτυρία تحتل في إنجيل يوحنا مركزاً هاماً

= الكينونة ἦν بمعنى الوجود اللازمني (ارجع إلى شرح ذلك في الآية ١:١ — ص٢٦). وأما «كان إنسان» فقد جاءت ἐγένετο بمعنى «صار» وهو من مرادفات أفعال الخلق (ارجع إلى شرح ذلك في الآية ١:٣ — ص٣٩). وسنشرح مرة أخرى المفارقة الكبيرة بين فعل الكينونة εἰμί منسوباً للمسيح وفعل الصيرورة γενέσθαι منسوباً للمخلوق (إبراهيم) في شرحنا للآية ٨:٥٨.

(وتَـرِد فيه ١٤ مرة، في حين ترد في إنجيل مرقس ٣ مرات، وفي إنجيل لوقا مرة واحدة، وتغيب عن إنجيـل متـى تماماً. كـما يرد الفعل «يشهد» ٣٣ مرة في إنجيل يوحنا، ولا يرد نهائياً في إنجيل مـرقس ويرد مرة واحدة في كل من إنجيلي متى ولوقا). وهكذا يستخدم إنجيل يوحنا الشهادة أكثر من أي سفر آخر في العهد الجديد.

وتوجـد في إنـجيـل يوحنا سبعة أنواع من الشهادات للمسيح(٢٢)، منها ثلاثة مختصة بالأقانيم الثلاثة:

شهادة الآب: ٥: ٣١و٣٤و٣٧، ٨: ١٨.
شهادة المسيح لنفسه: ٨: ١٤و١٨، ٣: ١١و٣٢، ١٨: ٣٧.
شهادة الروح القدس: ١٥: ٢٦، ١٦: ١٤.
ثم شهادة الأعمال التي يعملها المسيح: ٥: ٣٦، ١٠: ٢٥، ١٤: ١١، ١٥: ٢٤.
ثم شهادة الأسفار المقدسة: ٥: ٣٩و٤٦.
والشاهد السادس هو يوحنا المعمدان.

أما الـشـهـادة الـسـابعة فهي لمجموعة عديدة من الأشخاص منهم التلاميذ ١٥: ٢٧، ١٩: ٣٥، ٢١: ٢٤، ثم السامرية في بكور الرسالة، وكذلك نثنائيل، وبطرس في الختام. كما لا ننسى شهادة توما الفائقة القدر، وشهادة الأعمى الذي صار بصيراً.

على أن الشهادة كما يقدمها ق. يوحنا في شخص المعمدان هي بمثابة وضع الرقبة تحت سيف القاتل. فالذي يشهد للمسيح أنه ابن الله كان عليه أولاً أن يفرِّط في نفسه وفي الحياة، ولذلك تأتي شهـادته توكيداً «**للحق**» الذي كان عنده أعلى قيمة من الحياة. ويسلمنا ق. يوحنا إنجيله محمولاً على رقاب كثيرة أولهم المعمدان.

العامل الثاني وهو السلبي: لأنه قامت شيعة يهودية نصف مسيحية تتعصَّب للمعمدان كونه هـو المسيح، نسمع عن بدايتها في إنجيل لوقا: «وإذ كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون في قلوبهم عن **يوحنا لعله المسيح...**» (لو٣: ١٥). ثم في سفر الأعمال: «ثم أقبل إلى أفسس **يهودي** اسمه أبُلُّوس إسكندري الجنس رجل فصيح مقتدر في الكتب. كان هذا خبيراً في طريق الرب (التنبؤات عن المسيـا)، وكان وهو حار بالروح يتكلم ويعلِّم بتدقيق ما يختص بالرب **عارفاً معمودية يوحنا**

(٢٢) راجع المدخل ص١١٢ــ١١٨.

فقط» (أع١٨ : ٢٤و٢٥)، كذلك: «بولس بعد ما اجتاز في النواحي العالية جاء إلى أفسس، فإذ وجد تلاميذ قال لهم هل قبلتم الروح القدس لما آمنتم. قالوا له ولا سمعنا أنه يوجد الروح القدس. فقال لهم **فبماذا اعتمدتم، فقالوا بمعمودية يوحنا**. فقال بولس إن يوحنا عمّد بمعمودية التوبة قائلاً للشعب أن يؤمنوا بالذي يأتي بعده أي بالمسيح يسوع. فلما سمعوا اعتمدوا باسم الرب يسوع. ولما وضع بولس يديه عليهم حلّ الروح القدس عليهم فطفقوا يتكلمون بلغات ويتنبأون. **وكان جميع الرجال نحو اثني عشر**.» (أع١٩ : ١ـــ٧)

وفي ختام القرن الأول بلغت هذه الشيعة شأواً كبيراً بلبل الكرازة، هذا مما جعل ق. يوحنا يركز على كون المعمدان جاء للشهادة فقط ليشهد للنور ولم يكن هو النور، واستطرد في توضيح ذلك كلما جاء ذكر المعمدان.

«جاء للشهادة ليشهد للنور»:

على ضوء ما قيل عن المعمدان نفهم لماذا يقصر ق. يوحنا مجيء المعمدان للشهادة فقط، حتى إنه لا يذكر معمودية المسيح تحت يد المعمدان، وذلك عن قصد، لأنه يبدو أن هذه أُخذت خطأ لتضيف من قدر عظمة المعمدان لا لتضيف من قدر تواضع الرب. كما أن ق. يوحنا يوضح في النهاية ومن فم المعمدان أنه حتى وإن كان قد أرسله الله ليعمد، فهذا لكي يظهر المسيح لإسرائيل.

ولا يتبادر إلى الذهن أن ق. يوحنا كان ينتقص من شخصية المعمدان في شيء، بل أعطاه صفات مكرمة «مُرْسَلٌ من الله» و«صديق العريس»، وسجّل له أعظم شهادة للمسيح جاءت على لسان إنسان: «وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله» (يو١ : ٣٤)؛ «هوذا حمل الله.» (يو١ : ٣٦)

«ليشهد للنور»:

شهادة المعمدان للنور في عُرْف ق. يوحنا لا تزال محصورة في مفهوم **«نور الكلمة»**، إذ لم يذكر التجسد بعد. فالمعمدان يحمل رسالتين:

الرسالة الأولى: تختص بالأنبياء، إذ لا ينبغي أن ننسى أنه حامل لروح إيليا عظيم الأنبياء الذي أغلق السموات وفتحها بكلمة، والوحيد من بين كافة الأنبياء الذي ارتفع حيًّا إلى السماء عياناً في مركبة نارية وخيول نارية. والمسيح يشهد للمعمدان أنه فعلاً كان إيليا، مرة تلميحاً ومرة تصريحاً: «بل ماذا خرجتم لتنظروا، أنبياً؟ نعم أقول لكم وأفضل من نبي. **هذا هو الذي كُتب عنه ها أنا أُرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيىء طريقك قدامك**. لأني أقول لكم إنه بين

المولودين من النساء ليس نبي أعظم من يوحنا المعمدان ولكن الأصغر في ملكوت الله أعظم منه.» (لو٧: ٢٦ــ٢٨)

وهذا الملاك الذي يقول عنه المسيح هنا هو وارد في سفر ملاخي النبي آخر أسفار العهد القديم، ووارد على صورتين، إحداهما هذه الصورة في (ملاخي ٣: ١)، والصورة الأخرى: «هأنذا أُرسل **إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب** اليوم العظيم والمخوف.» (ملاخي ٤: ٥)

أما المرة الأخرى التي صرَّح فيها المسيح أن المعمدان هو هو إيليا فجاءت هكذا: «ومن أيام يوحنا المعمدان إلى الآن ملكوت السموات يُغصب والغاصبون يختطفونه. لأن جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبأوا. **وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي، من له أذنان للسمع فليسمع.**» (مت١١: ١٢ــ١٥)

ومرة أخرى أكثر وضوحاً: «وسأله تلاميذه قائلين فلماذا يقول الكتبة أن إيليا ينبغي أن يأتي أولاً. فأجاب يسوع وقال لهم إن **إيليا يأتي أولاً** ويرد كل شيء. ولكني أقول لكم إن **إيليا قد جاء ولم يعرفوه** بل عملوا به كل ما أرادوا. كذلك ابن الإنسان أيضاً سوف يتألم منهم. حينئذ فهم التلاميذ أنه **قال لهم عن يوحنا المعمدان.**» (مت١٧: ١٠ــ١٣)

إذن، فالمعمدان يتكلم ويشهد للنور بروح إيليا كمن يمثّل العهد القديم بكل أنواره وأمجاده وشجاعته. فلما انتقل ق. يوحنا الإنجيلي من إضاءة النور العامة للإنسان عامة «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس»، و«النور أضاء في الظلمة والظلمة لم تدركه» في مفهومها العام أيضاً، أراد أن يخطو أول خطوة في وصف إضاءة النور الخاصة والأكثر إستعلاناً لشعب خاص، وذلك بواسطة الأنبياء، فقدم ق. يوحنا شخص المعمدان كمن يمثل النبوة في مجملها وفي أشد لمعانها «نبي وأعظم من نبي»، «وليس من بين المولودين من النساء من هو أعظم منه».

الرسالة الثانية للمعمدان تختص بأنه هو السابق الصابغ الذي جاء ليعدّ طريق الرب، أي يمهّد للنور، وليس الشاهد فقط بل والمشاهِدُ أيضاً. وهذا أعطاه أن يكون «أعظم من نبي»، فهو صديق العريس أو «اشبينه»، له الكرامة الأولى في حفلة ظهور العريس. ولكن الخطأ المريع أن يُظنَّ أنه العريس، وهو مجرد مصباح أضاء في آخر الليل في مطلع الفجر حتى خرجت الشمس من حجابها، وحينئذ جيِّدٌ أن يُطفأ المصباح: «فرحي هذا قد كمل. ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص.» (يو٣: ٢٩و٣٠)

«لكي يؤمن الكل بواسطته»:

هذه الجملة مرتبطة بسابقتها ومتوقفة عليها، فهو جاء «ليشهد للنور»، «ليؤمن الكلُّ». وهنا تكون الشهادة هي السبب المفروض لإيمان «الكل»، حيث الشهادة ستتضح بعد ذلك أنها شهادة مَنْ رأى وسمع: «وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله.» (يو١: ٣٤)

و«الكلُّ» هنا تمتد لتشمل الشعب المُرسَل إليه وكل من تبلغه الشهادة هذه على مدى الدهور، لأن هذه كانت دائماً هي روح الأنبياء في رؤيتهم وشهادتهم للمسيّا النور القادم: «**نوراً للأمم** ومجداً لشعب إسرائيل». ولذلك يكون في كلمة «الكلُّ» انفتاح الدعوة الجديدة على العالم أجمع بكل وضوح. ولكن للقديس يوحنا تلميح لا يخطىء في قوله «**الكل**» فهو يستثني «البعض» الذين آمنوا بالمعمدان كونه المسيّا الآتي وكانوا قلّة ضالة.

«لم يكن هو النور، بل ليشهد للنور»:

لو لم يكن قد أخطأ الناس في تقييم المعمدان ما اضطر ق. يوحنا الإنجيلي أن يبرزه في هذه المقارنة الأليمة. ولكن أليس ق. يوحنا نفسه هو التلميذ السابق للمعمدان؟ وعن شهادة المعمدان للنور الحقيقي نقل يوحنا تلمذته من المعمدان للمسيح؟ (يو١: ٣٥ــ٣٩). فالآن هو أقدر مَنْ يقيّم نور المعمدان على نور المسيح.

وفي الحقيقة فإن النور لا يحتاج إلى شهادة بل رؤيا، ولكن لأن الناس أصبحت لا ترى، لزمَتْ الشهادة. فشهادة المعمدان شهادة راءٍ بالدرجة الأولى. المعمدان رأى النور فانعكس النور عليه فاستضاء، فأخطأ الناس الرؤيا وحسبوه هو النور، ولكنه انعكاس النور ليس إلاّ: كمصباح استمد نوره من يد النور. والمصباح لا يضيء إلاّ في «موضع» مظلم في غياب النور، شأنه شأن كل نبوة: «وعندنا الكلمة النبوية ــ وهي أثبت ــ التي تفعلون حسناً إن انتبهتم إليها كما إلى **سراج منير في موضع مظلم** إلى أن **ينفجر النهار** ويطلع **كوكب الصبح** في قلوبكم» (٢بط١: ١٩)، «**أنا يسوع** أرسلتُ ملاكي لأشهد لكم بهذه الأمور عن الكنائس. **أنا** أصل وذُرِّية داود **كوكب الصبح المنير.**» (رؤ٢٢: ١٦)

ولما فتح القديس زكريا الكاهن فمه ليتنبأ ساعة ميلاد المعمدان وصف هذا المنظر عينه: «وامتلأ زكريا أبوه من الروح القدس وتنبأ قائلاً: ... وأنت أيها الصبي نبي العليّ تدعى لأنك **تتقدم أمام** وجه الرب لتعدّ طرقه. لتعطي شعبه معرفة الخلاص بمغفرة خطاياهم. بأحشاء رحمة إلهنا التي بها افتقدنا **المُشْرِقُ من العلاء، ليضيء على الجالسين في الظلمة وظلال الموت** لكي

يهدي أقدامنا في طريق السلام.» (لو١: ٦٧ــ٧٩)

١: ٩ **«كان النورُ الحقيقيُّ الذي يُنيرُ كلَّ إنسانٍ آتياً إلى العالمِ».**

عودة مرة أخرى إلى حركة النور الدائمة والمستمرة نحو التجسد: أولاً البدء والأزلية حيث «الكلمة»، ثم إلى الخلق، ثم إلى الحياة واستعلانه «نور الناس»، ثم إلى العمل الدائب ضد الظلمة في كل مجالاتها، ثم توقُّف للشهادة للنور والتعريف به باعتباره النور الوحيد الكامل والدائم والمستمر. ثم استعلان صفته هنا لأول مرة بأنه **«النور الحقيقي»**.

والحقيقي ἀληθινόν هنا لا تفيد أكثر من أنه هو وحده الذي يكشف الحق الكلي، وأنه هو الحقيقي وغيره غير كامل وغير دائم وغير مستمر. وهذا الاصطلاح يُستخدم في إنجيل يوحنا كثيراً(٢٣) مثل الخبز **«الحقيقي»** النازل من السماء، والكرمة **«الحقيقية»** حيث الآب هو الكرَّام!! والساجدون **«الحقيقيون»** الذين يسجدون لله بالروح والحق. و«أنت الإله **الحقيقي** وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو١٧: ٣). والحقيقي هو ما يمتُّ إلى «الحق» ἀληθείᾳ .

فإن كان المعمدان «نوراً» فهو ليس «النور الحقيقي»، ولكنه نور على مستوى المصباح المنار غير الكامل وغير الدائم وغير المستمر.

وقوله **«ينير كل إنسان»** لها إفادة كبيرة مترامية الأطراف تعني أنه وهو النور الحقيقي الذي يكشف الله ويعلنه، وليس نوراً آخر ولا واسطة أخرى مهما كانت توصل إلى الله، فهو الواسطة والطريق الوحيد إلى الله. كلُّ من يأتي إلى هذا النور أو كل من أتى إلى هذا النور الحقيقي تنفتح بصيرته ويستعلن الله فيه، أي يرى نفسه أمام الله، أي أمام خالقه ونافخ روحه في أنفه، أي يتعرَّف على مصدر وجوده وحياته. وليس ذلك فقط بل كلُّ من يدخل في هذا النور الحقيقي، أو يدخل هذا النور الحقيقي إليه، فإنه يرى العالم نفسه رؤية أخرى غير مظهر العالم، يراه في الله ويرى الله فيه ويدرك لاهوته بالمصنوعات التي فيه كما يقول بولس الرسول، أي يرى أصل العالم كما يرى أصل وجوده كإنسان.

وهكذا بالمقابل، يكون الإنسان الذي لا يأتي إلى النور لأن أعماله شريرة، فإنه لا يرى نفسه

(٢٣) أنظر المدخل ص ٢٧٢ و٢٧٤ و٢٨٧ و٢٨٨.

أمام الله ولا يرى الله في العالم، أي لا يرى الله جملة وتفصيلاً، فيحيا فاقداً رؤية حقيقة نفسه، أي يرى نفسه في الظلام.

ومن هنا نفهم، تجاوزاً، أن للنور عملاً سلبياً. فهو إذا رفضه إنسان انعمت عيناه. وهذا معنى القول: «أعمى عيونهم وأغلظ قلوبهم» (يو١٢: ٤٠). وهنا يظهر بوضوح قول المسيح للفريسيين: «لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم حتى يبصر الذين لا يبصرون ويعمى الذين يبصرون.» (يو٩: ٣٩)

«الذي ينير كل إنسان»:

لقد سبق ق. يوحنا وأوضح أن «الحياة كانت نور الناس». فالحياة الأبدية التي النور جوهرها، هذا النور الذي يُعتبر عمله الأول والأعظم هو الإنفتاح على وعي الإنسان لقبول الحقائق الإلهية، هذه الحياة الأبدية التي كانت في «الكلمة عند الله» والتي صارت عاملة في الخليقة — كان عملها في الإنسان هو سَكْب النور لتدريب وعي الإنسان. ولكن عاد القديس وقال إن الظلمة قد طغت على الإنسان فمنعته من إدراك كُنْه هذا النور وحقيقته؛ الأمر الذي دعا الله أن يجعل لـ«الكلمة» و«النور» وسيطاً مساعداً هم الأنبياء. ولكنه ينبه أيضاً أن الأنبياء، الذين جاء المعمدان ليمثلهم بروح إيليا وقوته، لم يكونوا هم النور بل مجرد شهود له، مجرد مصابيح مضاءة. ونحن نعلم أيضاً أن شهادتهم لم تُقبل! مما دعا الله أن يجعل «النور» يأخذ طريقه الأخير نحو الإنسان على مستوى التجسد. فالنور الذي ينير كل إنسان بلغ قوته العظمى في المسيح «أنا هو نور العالم.» (يو٨: ١٢)

وقول ق. يوحنا أن «النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان»، هنا يصف النور الحقيقي من واقع عمله الأساسي وليس من واقع النتائج، فالنتيجة دائماً جاءت لا تساوي عمل النور وقوته. فالإنسان دائماً وعلى جميع الأحوال لا يعوزه هذا النور في الإحساس به في القلب والضمير وفي الخليقة من حوله وفي الحياة التي تعجُّ بآيات الله الناطقة بنوره ووجوده؛ ولكن أيضاً فالإنسان دائماً وعلى جميع الأحوال لم يرتفع لمستوى حب الله وعنايته وفاعلية النور الإلهي العامل فيه ومن حوله. وهذا بالذات كان السبب الذي جعل الله يزيد من استعلان ذاته ويقترب أكثر فأكثر من الإنسان على مدى التاريخ.

ونلاحظ أن حالة الإستمرار التي أتت بها صيغة الفعل «الذي ينير» تكررت كثيراً في مواضع أخرى مما يكشف عن ديمومة في مقاصد الله منذ البدء، للإستمرار في الإتصال بالإنسان بكافة

الطرق، فنحن نسمع المسيح يقول: «هذا هو الخبز النازل من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت» (يو٦: ٥٠). وهذا نفسه وإن كان يشير إلى التجسد، وكأنه نزول دائم ليمدّ الإنسان بالحياة الدائمة حتى لا يموت الإنسان، فكم بالحري النور النازل باستمرار: «أنا هو نور العالم» (يو٨: ١٢)، والحياة النازلة: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو١٤: ٦)، والحب النازل: «هكذا أحب الله العالم» (يو٣: ١٦). هذا يكشف عن تنازل الله المستمر نحو الإنسان حتى «صار جسداً»!!

ثم عودة مرة أخرى هنا لتركيز ق. يوحنا على **«كل إنسان»**، فإن كان يبدو أمراً صعباً فَهْمُ كيفية استنارة **«كل إنسان»** بـ«الكلمة» عملياً؛ ولكن لينتبه القارىء كيف سيتم هذا رغماً عن كل إنسان، عندما يتجسَّد الكلمة آخذاً طبيعة كل إنسان أو كل البشرية لنفسه، لا ليضيئها، وحسب، بل لتتحد بالنور إتحاداً أزلياً!! جاعلاً النور بذلك حقاً مشروعاً لكل إنسان بلا تمييز، كلُّ من يؤمن! لأن الإنسان هو من خلقة النور ولأن النور هو أصل خلقة الإنسان!! لذلك حقَّ للمسيح أن يقول: «أنا هو نور العالم» لأنه هو خالقه. كما يحق أن يقال بكل تأكيد أن «**العالم به وله** قد خُلِق» (كو١: ١٦). فالكلمة خَلَقَ العالم ليتجلى فيه، ولينتهي العالم إليه!!

«كان آتياً إلى العالم»:

تقرأها بعض المصادر على أساس أنها صفة «لكل إنسان»، أي «كل إنسان آتٍ إلى العالم»؛ ولكن الأصح عند معظم الثقاة أنها خبر للنور الحقيقي: «كان النور الحقيقي آتياً إلى العالم». ومما يرجح هذه القراءة أنه بعد ذلك أتى فعلاً إلى العالم بالتجسد!!

١ : ١٠ **«كانَ في العالمِ وكُوِّنَ العالمُ بِهِ ولم يَعْرِفْهُ العالمُ».**

يلزم أن ننتبه إلى الرؤية المتسعة لمفهوم ق. يوحنا عن الكلمة وعلاقته بالعالم، وذلك بالتفريق بين «كل شيء به كان» ويعني العالم بكل ما فيه، وبين «النور أضاء في الظلمة والظلمة لم تدركه»، وهنا الظلمة هي ظلمة العالم والإضاءة هي استعلان الله لكل من له إدراك في العالم أي الإنسان، فالعالم هنا هو عالم الإنسان. أما قوله: «كان النور الحقيقي آتياً إلى العالم»، فهنا انتقال أساسي من عمل الكلمة على مستوى الخَلْق والإضاءة إلى عمل الكلمة بالحضور الشخصي للإعلان عن الله.

ومن هنا نفهم قوله «كان في العالم»، بمعنى أنه كان عاملاً بالإضاءة أي بالاستعلان

الإدراكي لكل من له إدراك، كما نفهم «وكُوِّن العالم به» بمعنى الخلقة ودوام الخلقة متصلة بخالقها، أما النتيجة الدائمة أو رد فعل العالم، وباستمرار، فهو «لم يعرفْه العالم». وهنا «لم يعرفْه العالم» لا يعني عدم المعرفة بالإستضاءة العامة، ولكن عدم التعرف الشخصي عليه وعدم الاستجابة له أخلاقياً، وبالتالي الوقوف في الظلمة ومع الظلمة ضد الله، لأن عدم الإذعان للنور هو التحرر من سلطانه، وكأن لا خالق له، بل وكأنه هو خالق ذاته أو موجودٌ من تلقاء ذاته، وهذه هي نظرة الملحدين تماماً ونظرة اللاأدريين ومؤلِّهي العالم.

وهنا يتضح أيضاً عمق التفسير الروحي لثنائية وجود النور والظلمة في لاهوت ق. يوحنا. فالظلمة في العالم أو في الإنسان ليس الله صانعها، بل الإنسان وحده مسئول عن صنعها بنفسه بالسير في الخطية والشر. فالظلمة ليست كالنور، فهي ليس لها أصل وجودي كالنور، بل هي من إفرازات التاريخ والسلوك الإنساني. وبكل اختصار تكون الظلمة هي غياب النور، ويكون عمل النور في الإنسان هو العودة إلى الله، أي الخلاص، وعمل الظلمة بالمقابل هو الدينونة، أي الحرمان من الله. وهكذا أيضاً ينقسم العالم في لاهوت ق. يوحنا إلى عالم قابل للنور والخلاص، وهو العالم الذي أحبه الله، وعالم رافض للنور وواقع تحت الرفض والدينونة. وهذا هو الذي حدا بالكلمة أو جعله يتخذ الخطوة الأكثر استعلاناً وهي: المجيء الشخصي.

١ : ١١ «**إلى خاصَّتِهِ جاءَ وخاصَّتُهُ لم تَقبَلْهُ**».

التدرج السابق في الاستعلان كان يبشر بهذه النتيجة الحتمية. فالعالم من آدم حتى إبراهيم ثم موسى لم يُعْدَم النور الإلهي، ولم يمتنع عنه صوت الله، ولم يمتنع على الإنسان أن يدعو باسم الرب. فنحن نسمع مبكراً جداً في أيام شيث بن آدم أن في أيامه ابتدأ الإنسان أن يدعو باسم الرب: «ولشيث أيضاً وُلد ابن فدعا اسمه أنوش. حينئذٍ ابتُدِىء أن يُدعى باسم الرب» (تك٤ : ٢٦). معنى هذا أن الإنسان كان في هذا الزمان السحيق يعرف الله معرفة شخصية وبالاسم!!

ثم بعد ذلك الزمان بعدة مئات من السنين نسمع بشخصية قديسة على المستوى العملي ارتفع بمعرفة الله والمناداة باسمه إلى مستوى السيرة السماوية والمسيرة العاشقة مع الله، بنوع يفوق تصورنا وكأنها زمالة أو أخوية: «وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه.» (تك٥ : ٢٤)

كذلك وبعد ذلك بأزمنة جاء نوح الذي أظلمت الدنيا في أيامه وانحصر النور الإلهي عن وعي الإنسان وضميره، وبحسب تعبير الوحي المقدس: «وفسدت الأرض أمام الله وامتلأت الأرض

ظلماً... إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض» (تك٦: ١١و١٢). ولكن من بين هؤلاء وُجد نوح البار: «وكان نوح رجلاً باراً كاملاً في أجياله وسار نوح مع الله» (تك٦: ٩). وهكذا وفي وسط الظلام الدامس لم يعدم «الكلمة» إنساناً يشهد للنور ويعيشه فيصبح شفيعاً لمزيد من استمراره ولمزيد من استعلانه وأخيراً **«جاء إلى خاصته»**.

«إلى خاصته جاء، وخاصته لم تقبله»:

من نشيد موسى النبي الذي قاله للوداع قبل موته نفهم أن الله قسّم شعوب الأرض ــ وجعلها تحت حراسات ربما بعض الملائكة[٢٤] ــ أما شعب إسرائيل فكان من نصيب الرب يرعاه بنفسه، أو بحسب تعبيره للأنبياء: «اقتناه لنفسه خاصة»: «حينما قسّم العليُّ للأمم، حين فرّق بني آدم، نصب تخوماً لشعوب حسب عدد بني إسرائيل (أي كثيرة). **إن قِسْمَ الرب هو شعبه، يعقوب حبل نصيبه.** وجده في أرض قفر وفي خلاء مستوحش خرب. أحاط به ولاحظه وصانه كحدقة عينه. كما يحرّك النسر عشّه وعلى فراخه يرفُّ ويبسط جناحيه ويأخذها ويحملها على مناكبه، هكذا الرب وحده اقتاده وليس معه إله أجنبي.» (تث٣٢: ٨ــ١٢)

ويلزم التفريق بين كلمة **«خاصته»** الأولى εἰς τὰ ἴδια لأنها جاءت بصيغة المحايد (neuter)، أي ليس مذكر ولا مؤنث، أي لا تفيد معنى الإنسان، وهنا ينصبُّ المعنى على الأرض والوطن وعلى البيت، أي بيته وبلده. والمعنى ينحصر في نهاية الأيّام وليس منذ إبراهيم أو موسى، بل في ملء الزمان، أي مجيء المسيح. أما كلمة **«خاصّته»** الثانية فجاءت بالمذكر الجمع للعاقل οἱ ἴδιοι وهنا ينصبُّ المعنى على الشعب ككل، أي شعبه. وكذلك فإن المعنى ينصبُّ هنا على مجيء المسيا.

وهكذا تفيد هذه الآية أن مجيء الكلمة انحصر انحصاراً هذه المرّة في رقعة أرض خاصة وفي شعب مختار خاص دون بقية الأراضي والشعوب، وكأنهما «بيت الله وأهله».

وإليك أيها القارىء من الآيات البيّنات ما يوضح ذلك:

ــ «ترنّمي وافرحي يا بنت صهيون لأني هأنذا آتي **وأسكن في وسطك يقول الرب** (وحلّ بيننا). فيتصل أمم كثيرة بالرب في ذلك اليوم ويكونون لي شعباً، فأسكن في وسطك فتعلمين أن **رب الجنود قد أرسلني إليك. والرب يرث يهوذا نصيبه في الأرض المقدسة** ويختار أورشليم

---

(٢٤) يُفهم من كلام دانيال النبي بعد السبي، أن الرئيس الموكل على شعب إسرائيل صار هو الملاك ميخائيل (دا١٠: ١٣و٢١، ١٢: ١).

بعد.» (زك٢: ١٠ــ١٢)

ولكن ليس معنى ذلك أن الشعب المرفوض سابقاً سيمتلك الأرض التي اختارها الرب ليسكن فيها ــ في نهاية الأيام ــ بل تنص النبوة على أنه بالرغم من أن الرب سيأتي إلى الأرض، خاصَّتِه، ويسكن فيها، إلاّ أن الشعب سيُطوَّح به بعيداً في الأُمم بسبب رفضه:

ــ «لا تفرح يا إسرائيل طرباً كالشعوب لأنك قد زنيت عن إلهك... لا يسكنون في أرض الرب بل يرجع أفرايم إلى مصر ويأكلون النجس في أشور.» (هو٩: ١ــ٣)

والسبب يذكره بوضوح إرميا النبي: «وأتيت بكم إلى أرض بساتين لتأكلوا ثمرها وخيرها. فأتيتم ونجّستم **أرضي** وجعلتم **ميراثي** رجْساً» (إر٢: ٧). والأساس الذي بمقتضاه سكن شعب إسرائيل فلسطين هو أن هذه الأرض مِلْكٌ للرب وهم غرباء ونُزلاء فيها، ليس فيها حق بيع أو شراء!!:

ــ «والأرض لا تُباع البتة، **لأن لي الأرض وأنتم غرباء ونزلاء عندي.**» (لا٢٥: ٢٣)

أما شعب إسرائيل فاعتبرهم الرب خاصَّته، أي أهله وشعبه وعبيده الخصوصيين، وكأنه اشتراهم لنفسه، فهم ليسوا أحراراً في أنفسهم:

ــ «لأن بني إسرائيل لي عبيد، هم عبيدي الذين أخرجتُهم من أرض مصر، أنا الرب إلهكم.» (لا٢٥: ٥٥)

ــ «فالآن إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي **تكونون لي خاصَّة** من بين جميع الشعوب، فإن لي كل الأرض، وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة» (خر١٩: ٥و٦)

ــ «لأنك أنت **شعبٌ مقدّس للرب** إلهك، إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له **شعباً أخصّ** من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض، ليس لأنكم أكثر من سائر الشعوب، (ولكن) التصق الرب بكم واختاركم لأنكم أقل من سائر الشعوب، بل من محبة الرب إياكم وحِفْظِهِ القَسَم الذي أقْسَمَ لآبائكم...» (تث٧: ٦و٧)

ــ «أنتم **أولاد للرب إلهكم**،... لأنك شعب مقدّس للرب إلهك، وقد اختارك الرب لكي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض.» (تث١٤: ١و٢)

ـ «وواعدك الربُّ اليوم أن تكون له شعباً خاصاً، كما قال لك، وتحفظ جميع وصاياه، وأن يجعلك مستعلياً على جميع القبائل التي عملها، في الثناء والاسم والبهاء، وأن تكون شعباً مقدساً للرب إلهك. كما قال.» (تث٢٦: ١٨و١٩)

ولكن للأسف لم يحتفظ إسرائيل بلقبه ولا باسمه ولا بحبّ الله له، ولا كرَّم اختياره له ولا حافظ على عهده، بل ارتد عن إلهه: «وأعطوا القفا لا الوجه» (إر٧: ٢٤). والقول في ذلك كثير جداً يملأ كل أسفار العهد القديم. ولكن أبشع أوصاف الإرتداد جاءت من فم موسى نفسه، أي من بكور مسيرة الشعب خلف الله، ويا للفضيحة:

ـ «أنصتي أيتها السموات فأتكلم، ولتسمع الأرضُ أقوال فمي. يهطل كالمطر تعليمي ويقطُر كالنَّدى كلامي، كالطَّلِّ على الكلأ وكالوابل على العشب... أفْسَد له الذين ليسوا أولاده عيبهم... جيلٌ أعوجٌ ملتوٍ. ألربَّ تكافئون بهذا **يا شعباً غبياً غير حكيم؟** أليس هو أباك ومقتنيك، ثم عملك وأنشأك؟ ... فرأى الرب ورذل من الغيظ بنيه وبناته. **وقال أحجبُ وجهي عنهم**... جيل متقلِّب، أولاد لا أمانة فيهم... إنهم **أمة عديمة الرأي ولا بصيرة فيهم** (غياب نور الكلمة).» (تث٣٢: ١إلخ)

واضح أن أعمال الشعب الشريرة وأخصها الزنا وعبادة الأصنام التي أُغرم بها الشعب، وأحياناً كثيرة كان ذلك بقيادة ملوكهم، هذه الأعمال الشريرة **حجبت وجه الله عنهم**. وهذا معناه المباشر توقُّف عمل «نور الكلمة» وحجز المعرفة والرأي الصواب والفهم والمشورة الحسنة عنهم، وذلك حتى لا يلوِّثوا اسم الله وكرامته ويخلطوا بين عمل الشر وعمل الله. وهذا بدوره مما حدا بالله، أو جعله يتقدم خطوة أكثر في الاستعلان عن نفسه بمجيء «الكلمة» مجيئاً منظوراً، حتى يتسنى لله أن يتكلم مع خاصَّته مباشرة دون وسيط أو نبي: «الله **بعد ما كلَّم الآباء بالأنبياء** قديماً بأنواع وطرق كثيرة، **كلَّمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه**...» (عب١: ١و٢)

ولكن كان لا يزال غضب الله على الشعب، الذي فسد بقيادة رؤسائه، قائماً. بمعنى أنه كان قد حجب وجهه عنهم وانقطع عنهم عمل «نور الكلمة» كما سبق، فكان من الصعب على الشعب المنغمس في الشر مع رؤسائه ومعلميه أن يتعرَّف على المسيَّا الذي أتى، أي «الكلمة» الذي جاء بنفسه. وهذا يصفه ق. يوحنا في إنجيله في أصحاح ١٢، ولكن بصورة جمع فيها انقطاع النور الإلهي منذ القديم عن الشعب المرتد عن الله مع عدم إيمانهم بالمسيَّا، أي «الكلمة» عندما ظهر، أي المسيح الذي جاء إليهم، هكذا:

ـ «ومع أنه كان قد صنع أمامهم آيات هذا عددها لم يؤمنوا به، ليتم قول إشعياء النبي

الذي قاله: يا رب من صدّق خبرنا ولمن استعلنت **ذراع الرب** (المسيح). لهذا لم يقدروا أن يؤمنوا. لأن إشعياء قال أيضاً، قد أعمى عيونهم وأغلظ قلوبهم لئلا يبصروا بعيونهم ويشعروا بقلوبهم ويرجعوا فأشفيهم. قال إشعياء هذا حين رأى مجده وتكلم عنه.» (يو١٢: ٣٧ــ٤١)

والآن إلى إشعياء لندرس هذا الوضع الخطير:

ــ «في سنة وفاة عُزِّيا الملك رأيت السيد جالساً على كرسي عالٍ ومرتفعٍ وأذياله تملأ الهيكل. السَّرافيم واقفون فوقه، لكل واحد ستة أجنحة. باثنين يغطي وجهه وباثنين يغطي رجليه وباثنين يطير. وهذا نادى ذاك وقال قدوس قدوس قدوس رب الجنود مجدُهُ مِلءُ كلِّ الأرض. فاهتزت أساسات العَتَب من صوت الصارخ وامتلأ البيتُ دخاناً. فقلت ويلٌ لي إني قد هلكتُ لأني إنسانٌ نجسُ الشفتين وأنا ساكن بين شعب نجسِ الشفتين، لأن عينيَّ قد رأتا الملكَ ربَّ الجنود. فطار إليَّ واحدٌ من السَّرافيم وبيده جمرةٌ قد أخذها بمِلقَطٍ من على المذبح، ومسَّ بها فمي وقال إن هذه قد مَسَّت شفتيك فانتُزع إثمك وكُفِّر عن خطيَّتك. ثم سمعت صوتَ السيد قائلاً مَنْ أرسِلُ ومَنْ يذهب من أجلنا. فقلت هأنذا أرسِلْني. فقال: اذهب وقُلْ لهذا الشعب اسمعوا سمعاً ولا تفهموا وأبصروا إبصاراً ولا تعرفوا. غَلِّظْ قلبَ هذا الشعبِ وثَقِّلْ أذنيْهِ واطمُسْ عينيْهِ لئلا يُبصِرَ بعينيه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه ويرجع فيُشفى.» (إش٦: ١ــ١٠)

يلاحظ القارىء أن رسالة إشعياء النبي بدأت برؤية «يهوه»، كما يُعبَّر عنه بالملك رب الجنود، وهو هو «**الكلمة**»، أي المسيَّا بحسب المظهر، ولكن في ملء مجده الذي اعتبره إشعياء أنه هو يهوه «**الله**». لذلك قال ويل لي لأني رأيت الله، فسوف أموت، ولكن حدثت عملية تطهير لتجعل لإشعياء النبي قوة أو قدرة على رؤية «مجد الله» دون أن يموت. واستلم إشعياء الرسالة من «يهوه» الذي هو «الكلمة المترائي في مجده». وهذه الرسالة هي بعينها نص النبوة عما سيحدث عند ظهور المسيا، أي الكلمة، بشخصه، أي المسيح. فإنهم لن يصدقوه ولن يتعرفوا عليه. ثم شرح «يهوه»، أي «الكلمة الجالس على عرش مجده»، شرح لإشعياء سِرَّ عدم إيمان هذا الشعب، ومضمون هذا السِرّ وهو أنه بسبب سيرة هذا الشعب الفاسدة بقيادة رؤسائه الفاسدين، وبسبب عدم إيمانهم بالله، وارتدادهم كل الأجيال السالفة عن عبادة الله، وإمعانهم في عمل الشرور وأقبحها الزنا وعبادة الأصنام، فإن الله قد حجب وجهه عنهم، بمعنى أنه قطع عنهم «نور الكلمة»، فامتنعت عنهم المعرفة وانطمست البصيرة وانحجبت رؤية الحق، وهذا قد صنعه الله منذ القدم واستمر في عقوبته عن قصد؛ حتى إذا ظهر المسيَّا «الكلمة» لا يتعرَّفون عليه فلا يرجعوا إليه، فلا يُشفَوْا، وذلك حتى لا يستمرون في الجمع بين الإفتخار بالله والإمعان في الشر فيلوّثون رسالة

المسيح.

ويُلاحَظ أن الذي رآه إشعياء أنه «يهوه» الملك رب الجنود قال عنه ق. يوحنا أنه هو هو المسيح: «قال هذا إشعياء عندما رأى مجده (مجد المسيح) وتكلم عنه.» (يو١٢: ٤١)

الآن فهمنا معنى «جاء إلى خاصّته»، أي جاء إلى وطنه وبيته، وإلى «خاصته» ـــ أي إلى شعبه الأخصّاء جداً دون جميع شعوب العالم، فلم يقبلوه. والأمر المذهل والمفزع أن الرفض كان عنيفاً إجماعياً، رؤساء كهنة وكتبة وفريسيين ورؤساء شعب وكل الشعب المضلَّل وحتى بعض التلاميذ، بلا أي تعقُّل بل بلا أي سبب: «وأما الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي، لكن لكي تتم الكلمة المكتوبة في ناموسهم أنهم **أبغضوني بلا سبب.**» (يو١٥: ٢٤و٢٥)

أما المكتوب في الناموس الذي يشير إليه المسيح فهو مز٣٥: ١٩ ومز٦٩: ٤:
ـــ «لا يشمت بي الذين هم أعدائي باطلاً، ولا يتغامز بالعين الذين **يبغضونني بلا سبب.**» (مز٣٥: ١٩)
ـــ «أكثر من شعر رأسي الذين **يبغضونني بلا سبب**... اعتزَّ... أعدائي ظلماً. حينئذٍ رددتُ الذي لم أخطفْه.» (مز٦٩: ٤)

لقد احتار بيلاطس فيهم حينما أخذ يتلفت يميناً ويساراً يستجدي من يساعده في إطلاق سراحه، سواء من الرؤساء أو حتى من الشعب الذي التجأ إليه متوسلاً أن يختاره عوض باراباس، ولكن بحَّ صوته بلا نتيجة فحكم على أساس كلمتهم: «دمه علينا وعلى أولادنا»!! (مت٢٧: ٢٥) وكأنما قد حوصر النور إذ «لم يعرفه العالم». وهوذا الآن حتى خاصته أبغضوه ولم يقبلوه، الذين أعدّهم خصيصاً بنفسه لنفسه منذ الدهر إعداداً متعدد النواحي، وأغدق عليهم إغداقاً ليس له من مزيد، في الأرض والمطر والزرع والضَّرْع والبركات، مع العلم والمعرفة والمشورة، وكلّمهم بالأنبياء مبكراً ومؤخراً، وجهّزهم أحسن تجهيز إذ قدّسهم وقدّس أرضهم وأقام مَقْدِسَه في وسطهم، وبعد كل ذلك ليس فقط لم يقبلوه بل وأبغضوه، وبلا سبب، أو ربما بسبب أنهم أحبوا الظلمة أكثر من النور.

«جاء» ἦλθεν:

هنا نجد أن «**الكلمة**» يتخطى كل حدود العمل من على بُعْدٍ، ويأتي بنفسه مجيئاً محدداً واضح المعالم مرئياً ومسموعاً مشاهَداً وملموساً، مجيئاً توَّج به كل طرق استعلاناته الأُولى جميعاً سواء في العالم ككل أو حتى إسرائيل بكل تاريخها القديم. ولكنه مجيء كان في مرحلته الأُولى إلى

خاصته: «لم أُرسَلْ إلاَّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة.» (مت١٥: ٢٤)

ولكن هذا المجيء لما بلغ أقصاه في الاستعلان لخاصته، كما بلغ أقصاه في الرفض، وانتهى الاستعلان وانتهى الرفض على أيدي خاصته بالصلب، استُعلن هو هو بذاته ــ أي هذا المجيء المقدس والمبارك ــ على مستوى العالم كله والبشرية جمعاء وذلك لما «الكلمة صار جسداً».

وبذلك يتضح تماماً من تدرُّج ق. يوحنا في الكشف عن تدرُّج الاستعلان الذي مارسه «الكلمة» في ذاته بالتجسد أنه تم بالفعل على مرحلتين أو على وجهين:

المرحلة الأُولى أو الوجه الأول: باعتباره **«المسيَّا»** قمة الاستعلان أو الاستعلانات التي أتمها **مع شعبه المقدس إسرائيل** لكشف خطة الفداء لشعبه والخلاص حسب وعده.

والمرحلة الثانية أو الوجه الثاني: باعتباره **«الكلمة صار جسداً»**، **«كنور للأمم»**، وفداءً وخلاصاً إلى أقصى الأرض.

في المرحلة الأُولى واجه من خاصته نكوصاً شعبياً منقطع النظير كسيد مرفوض، مع الصليب، وسقوط الأمة!

وفي المرحلة الثانية قوبل قبولاً فردياً كربٍّ لمجد الآب، امتد، ولا يزال يمتد، إلى أقصى الأرض وأقصى الزمن.

لأنه لو يلاحظ القارىء، يكتشف أن الكنيسة المسيحية لم ترث الكنيس اليهودي بناموسه وبقوانينه وتراثه، ولا قامت الكنيسة المسيحية على أنقاض الهيكل المهدوم، لأن الكنيسة المسيحية هي **«الهيكل الجديد»**، «المسيح نفسه» مُشتهى كل الدهور: «فنحن من لحمه ومن عظامه» (أف٥: ٣٠)، «وبيْتُه نحن.» (عب٣: ٦)

١: ١٢ «وأمَّا كلُّ الذينَ قبِلُوهُ، فأعطاهُم سُلطاناً أنْ يصيروا أولادَ الله. أي المؤمنُونَ باسمِهِ».

لقد جاء إلى خاصته كوطن فلم يجد له مكاناً، وجاء إلى خاصته كأُمَّة فلم تقبله، ولكن كان لا بد من شهود، فالله لا يترك نفسه بلا شاهد. فإزاء رفض الأمة تقدم أفراد، وبصفتهم الشخصية آمنوا به وقبلوه، لا كيهود بل كمسيحيين!! طُردوا من المجمع والهيكل كوثنيين، ليفتحوا الطريق

أمام كل الأمم!! فقدوا البنوّة لموسى وإبراهيم، فصاروا محسوبين على مستوى شعوب الدنيا، فأعطاهم الله وأعطى معهم كل شعوب الدنيا حق البنوية منه وله رأساً، ليكونوا رؤوساً لشعب جديد: «أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي» (مت١٦ : ١٨)، «شعب اقتناء»= (انتساب لله) (١بط٢ : ٩)، «شركاء الطبيعة الإلهية» (٢بط١ : ٤)، بامتياز حق التبني لله مباشرة يولدون له، من رحم نعمته، مقدسين، ومختومين بختم روح الله كأعضاء أحياء في جسد ابنه كما «من لحمه ومن عظامه» (أف٥ : ٣٠)، عوض ختان اللحم وتسجيل الاسم في سجلات المولودين من دم إبراهيم.

إن الإمتياز الكبير المجاني الذي أعطاه الله في البدء لإسرائيل في حدود الخصوصية المنحصرة في جنس وشعب محدد: «فتقول لفرعون هكذا يقول الرب إسرائيل ابني البكر» (خر٤ : ٢٢)، «لما كان إسرائيل غلاماً أحببته ومن مصر دعوت ابني» (هو١١ : ١)، هذا الإمتياز الكبير الفريد والمجاني الذي افتتح الله به عهد علاقة حبه مع الإنسان ممثَّلاً في إسرائيل، أطلقه الآن بلا قيود جنسية أو شعوبية للمؤمنين أفراداً، لأن عهد الله ووعوده كلها بلا ندامة (رو١١ : ٢٩). وهكذا صار الرسل الأولون النموذج الجديد والكامل للابن الجديد البكر، عوض إسرائيل الأُمة التي لم تَصُنْ عهد البنوة ولا عهد البكورية. اسمع القديس يعقوب يقول: «شاء **فوَلَدنا** بـ"كلمة الحق" لكي نكون **باكورة** من خلائقه.» (يع١ : ١٨)

«أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله»:

كان شعب إسرائيل يفتخر على السلطان الذي له كشعب مختار من الله على أساس محبة الله لآبائهم الأوائل إبراهيم وإسحق ويعقوب. وكان هذا السلطان يكتسبه الفرد بالولادة من أب يهودي وأم يهودية، فيرث نصيبه في محبة الله لآبائه. ولكن السلطان الذي أعطاه الله لكل من يقبل المسيح هو سلطان شخصي لا يُورَث ولا يُورَّث بحسب الجسد، بل هو إعطاء حق إقامة علاقة بنوية مباشرة مع الله على مستوى علاقة الله مع إسرائيل نفسه وأكثر. لأن إسرائيل أخذ صفة «الابن» كلقب، أما من يقبل يسوع المسيح باعتباره المسيّا الموعود فإنه يأخذ حق البنوية من الله رأساً، لأنه آمن بالوعد وحكم بصدق الله وأمانته: «الذي يأتي من السماء (المسيح) هو فوق الجميع، وما رآه وسمعه به يشهد وشهادته ليس أحد يقبلها، ومَنْ قَبِل شهادته فقد ختم أن الله صادق.» (يو٣ : ٣١ــ٣٣)

وليلاحظ القارىء أن الآية لا تقول: «أما الذين قبلوه يصيرون أولاد الله» مباشرة، بل تقول «أعطاهم سلطاناً أن يصيروا...»، بمعنى أن قبولهم للنور أي للمسيّا حسب الإيمان بالوعد، يضعهم

أولاً **موضع** البنين ـــ أبناء النور ـــ ليصيروا بعد ذلك أولاداً بالحق بمزيد من إيمانهم بالمسيّا. وعندنا آية أخرى مطابقة جاءت بالروح على لسان بطرس الرسول توضح أن معرفة المسيح الكاملة تعطي سلطاناً، حسب قدرة الله، ليصير بها مَنْ يقبلها شريكاً في الطبيعة الإلهية: «**كما أن قدرته الإلهية** قد وهبت لنا كل ما هو للحياة والتقوى (بواسطة) **بمعرفة (يسوع المسيح)** الذي دعانا إلى مجده وفضيلته ἰδίᾳ δόξῃ καὶ ἀρετῇ اللذين بهما قد **وُهبت لنا المواعيد** العظمى والثمينة **لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية.**» (٢بط١: ٣و٤)

نفهم من هذا أن عدم قبول خاصته له (للنور) حرمهم في الحال من (النور)، أي من سلطان البنويّة الممنوح لهم كهبة ولقب «إسرائيل البكر»، مما أنشأ حتماً وبالضرورة للذين عرفوه وقبلوه حقاً في المواعيد العظمى والثمينة أن يصيروا **«أولاد الله»**.

ولكن لا يزال أمام الذين قبلوا ـــ النور ـــ المسيح كأفراد من خاصّته أن يتعرّفوا أكثر على المسيا الذي قبلوه، فأمامهم مرتقًى من الإيمان يتحتم أن يتسلّقوه: إيمان الصليب وما بعد الصليب، لذلك نحن هنا لا نزال في درجة استعلان ما قبل «الكلمة صار جسداً» مباشرة.

«أولاد الله» τέκνα = «**آمنوا** بالنور لتصيروا **أبناء النور**» (يو١٢: ٣٦):

ق. يوحنا لا يستخدم كلمة «**ابن** υἱός» إلا للمسيح فقط، كما يلاحظ أيضاً في أسلوب ق. يوحنا أنه لم يستخدم المفرد من «الأولاد» قط، وكأنما في تفكير ق. يوحنا أن التبني هو «شركة طبيعة» تتضح أكثر عنده في قوله: «الذين وُلدوا» بالجمع، وكأنما يمعن في التفريق بين بَنويّة شعب إسرائيل وبنوية شعب المسيح، فالأُولى بالميراث الجسدي والثانية بالميلاد الروحي.

«المؤمنون باسمه»:

ق. يوحنا يتقدم في فعل التقدم في الاستعلان من النور إلى المسيا إلى ابن الله ثم إلى رد الفعل الإيجابي من «القبول» إلى **«الإيمان»**.

وكلمة «المؤمنون» هنا τοῖς πιστεύουσιν جاءت بحالة قائمة دائمة كرد فعل دائم لاستعلان المسيا أنه ابن الله برسوخ وتأكيد على أساس فريد من المعرفة والوعي للاستعلان الجديد، يقابلها تماماً قول ق. يوحنا في رسالته: «كتبت هذا إليكم أنتم المؤمنين باسم ابن الله لكي تعلموا أن لكم حياة أبدية ولكي تؤمنوا باسم ابن الله» (١يو٥: ١٣)، وكأنما يود أن يقول لنا: آه لو عرفتم قيمة الإيمان بابن الله فإنكم سوف تمسكون بالإيمان باسم ابن الله حتى الموت لأنكم ستحيون.

هذه الحالة نسمعها في بكور ظهور المسيا بوضوح من فم نثنائيل، أول الخاصّة الذين قبلوه ثم آمنوا به: «يا معلم أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل.» (يو١: ٤٩)

«باسمه»:

«الاسم» في لاهوت ق. يوحنا، وبالتالي في لاهوت الكنيسة الأولى وكبار لاهوتييها، هو المُعبِّر عن الشخص في حالة وجود وتجلي. فالذي يؤمن «**باسم**» ابن الله لا يعني ذلك أن نبحث عن ما هو اسمه، بل يعني أن هذا الإيمان: إيمان ثابت مع تعلُّق شخصي فيه ثقة وأمانة واتكال، بل فيه بهجة وفرح، لأنه يعبِّر عن حالة تجلي وحضور إلهي. فاسم الله من الوجهة الفعلية التصوفية هو الحضرة الذاتية الإلهية عندما ينادي فيها المؤمن الله، كحاضرٍ، ويتكلم معه وهو أمامه. وهذا نجده واضحاً وثابتاً في قول الرب للتلاميذ قبل الصعود: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمِّدوهم **باسم** الآب والابن والروح القدس.» (مت٢٨: ١٩)

فالاسم هنا يعني الدعاء للحضور والتجلي والمشاركة، بمعنى أن التعميد باسم الثالوث هو مباشرة الثالوث بالتعميد بناءً على الدعاء بالاسم. وكذلك في الإفخارستيا وفي كل سر من أسرار الكنيسة، فإنه يجرى بالدعاء بالاسم لحضور الله وتتميم السر.

ومعروف أن النطق باسم الله أو باسم ابن الله له قوة وسلطان الحضور الإلهي تماماً. وهذا نسمعه من التلاميذ: «فرجع السبعون بفرح قائلين يا رب حتى الشياطين تخضع لنا **باسمك.**» (لو١٠: ١٧)

كذلك فالدعاء بالاسم انتقل إلى مناداة القديسين بأسمائهم، لا لكي يسمعوا بل لكي يحضروا، فالدعاء باسم القديس هو تكليف حُبي متواضع للحضور للمعونة. «**ادعُ** الآن. فهل لك من مجيب. وإلى أي القديسين تلتفت» (أي٥: ١). فالدعاء بالاسم هو استدعاء.

وفي قول ق. يوحنا «المؤمنون باسمه» معنى التعرف على يسوع أنه هو المسيح، وهذه هي الدرجة الحرجة في إيمان الإنسان اليهودي. فالذي قَبِل يسوع على أنه هو المسيح يكون قد انتقل من العهد القديم إلى العهد الجديد، وهذا بحد ذاته هو الذي يعبَّر عنه بالميلاد الجديد أو الخليقة الجديدة في المسيح، لأن التعرُّف على المسيح أنه ابن الله هو تحصيل حاصل. لأن المعروف في الفكر اليهودي المتقدم والذي ينتظر الخلاص بالروح أن المسيا هو ابن الله. وهذا الأمر واضح من أول نُطق إيماني لنثنائيل، كما سبق وذكرنا. وهذا يعبِّر عنه ق. يوحنا بغاية الوضوح في رسالته الأُولى بقوله: «كلُّ من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد وُلد من الله.» (١يو٥: ١)

١٣:١ **«الذين وُلِدُوا ليسَ من دمٍ ولا من مشيئةِ جسدٍ ولا من مشيئةِ رجلٍ، بل من الله».**

ق. يوحنا بدأ يرافق الاستعلان بالرد العملي من جهة الإنسان اليهودي ــ وليست الأُمة اليهودية ــ ليوضح القيمة العظمى لاستعلان كلمة الله عندما جاء إلى خاصته ــ على مستوى المسيا ــ فقبله بعض الشخصيات اليهودية. **فالاستعلان** واكبه **إيمان**، والإيمان **رافقه ميلاد جديد** للإنسان، جديد على عقل الإنسان غاية الجدّة. وكان إيمان هؤلاء الأشخاص الأفراد اليهود هو باكورة الخليقة الجديدة الذين خمّروا عجين الأمم كله. هذا ما صرّح به القديس يعقوب الرسول معبِّراً عن نفسه وزملائه الرسل: «شاء **فولَدنا** بـ"كلمة الحق" لكي نكون **باكورة من خلائقه.**» (يع ١ : ١٨)

ولينتبه القارىء، لأن مفهوم الميلاد من الله، أو قول يعقوب الرسول: «ولدنا بكلمة الحق»، أو قوله: «باكورة من خلائقه (الجديدة)»، هذه كلها تعبير عن «الحياة الأبدية» مع الله، وهذا هو ملخص اللاهوت بل خلاصة إنجيل يوحنا الذي بلْوَرَه في ختام الأصحاح العشرين بهذه الكلمات عينها: «وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله، ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه.» (يو ٢٠ : ٣١)

«وُلدوا ليس من "دم" ولا من مشيئة "جسد" ولا من مشيئة "رجل"»:

لأول مرة بالنسبة للإنسان العادي يُسمع عن ميلاد لا تتدخل فيه أيٍّ من العناصر الطبيعية (الدماء). نعم، لأن النتيجة ليست لحساب حياة طبيعية، والمولود ليس لحساب هذا العالم الطبيعي.

كما نجد في هذا الميلاد غياباً كاملاً للغرائز الطبيعية (مشيئة جسد)، لذلك فالمولود هنا ليس خاضعاً جبرياً لسطوتها. كما يغيب عن هذا الميلاد (مشيئة الإنسان)، وبالتالي فتوجيه الحياة الجديدة بأفعالها لا تنبع من مشيئة بشرية.

هذا هو مجمل الثلاثة المعايير السلبية: «ليس. ولا. ولا». ولو نلاحظ، نجد أن ق. يوحنا لم يضع هذه المعايير المنفية جزافاً، بل هو يتدرج بها من الأسفل إلى الأعلى. فالمعيار المنفي **الأول هو** المصدر الطبيعي للحياة الطبيعية «الدم»، **والثاني هو** المحرك الطبيعي للحياة المخلوقة «مشيئة الجسد»، **والثالث هو** جماع الشخصية الإنسانية التي تُصرِّف أمور الحياة الطبيعية «مشيئة رجل».

ومن السهل فهم العناصر الثلاثة الأخلاقية التي تتخلص منها الحياة الجديدة بهذا الميلاد الجديد:

العنصر الأول: عدم اعتماد الحياة الجديدة على توريث الحياة من السَلَف، وتحرُّرها من الغرائز والشهوة. واستقلالُها عن قدرة الإنسان. فما أعجبها حياة!!

«ليس من دم»:

الترجمة الحرفية الصحيحة: «ليس من دماء»، لأن «دم» جاءت بالجمع في اللغتين اليونانية واللاتينية: ex sanguinibus = ἐξ αἱμάτων. فهنا خرجت الترجمة العربية عن النص فأساءت إلى المعنى كما يقصده ق. يوحنا.

و«الدم» بالجمع يُقصد بها دم الأب ودم الأم، كما يرى القديس أغسطينوس. وجمعها يفيد معنى كافة العناصر الطبيعية التي يتكون منها الجسد من ذكر وأنثى.

كما أننا نعرف لغة ق. يوحنا السرية لماذا يتحاشى قول **«الدم»** بالمفرد، فهذا هو افتخار اليهود، إنه كبرياء الجنس، فاليهودي مولود من «دم» يهودي ـــ تعبيراً عن الجنس المختار ـــ موروث من إبراهيم وإسحق ويعقوب، كما **يتحاشى** ق. يوحنا المفرد في قوله: «مولودين ليس من **دم** (كما جاء في الترجمة العربية)» لأننا مولودون بالحقيقة من «دم» هو دم يسوع المسيح: الميلاد الذي لم يُستعلن بعد، لأن هذا مخصَّص لدرجة الاستعلان القادمة للكلمة حينما صار جسداً ـــ وتخضَّب جسده على الصليب بهذا الدم غفراناً لكل العالم ـــ أما الآن فنحن محصورون في «الكلمة» المستعلَن بالمسيَّا، وفي المسيَّا، أي يسوع المسيح، لليهود فيما قبل **الصليب**، أي ليس بعدُ مكان للدم.

«ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل»:

هنا يحصر ق. يوحنا معنى الميلاد الروحي للإنسان، أو الخليقة الجديدة، أو معنى أولاد الله أو الميلاد من الله، في أنه ينأى كليةً عن ما يتعلّق بالخليقة الحيوانية عامة والخليقة البشرية خاصة. فهو ميلاد خليقة أخرى للإنسان من فوق، فيها يصير الله أباً جديداً عظيماً للإنسان الذي به تُلغى عملياً القيمة المتبقية للإنسان اليهودي من "الأبُوّة": «لنا إبراهيم أباً» (مت٣: ٩) التي يسعى الإنسان أن ينضوي تحتها: «لا تَدْعُوا لكم أباً على الأرض لأن **أباكم واحد الذي في السموات.**» (مت٢٣: ٩)

«بل من الله»:

«الولادة من الله» عقيدة متكاملة راسخة عند ق. يوحنا، يلذُّ لنا أن نستعرضها أمام القارىء:

١ ــ «وأما هذه فقد كُتبت (إنجيل يوحنا بأكمله) لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة (ميلاداً جديداً) باسمه.» (يو٢٠: ٣١)

٢ ــ «كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد **وُلد من الله.**» (١يو٥: ٩)

٣ ــ «أنظروا أية محبة أعطانا الله حتى **نُدعى أولاد الله**... أيها الأحباء الآن **نحن أولاد الله.**» (١يو٣: ١و٢)

٤ ــ «أيها الأحباء لنحب بعضنا بعضاً لأن المحبة هي من الله، **وكل من يحب فقد وُلد من الله** ويعرف الله.» (١يو٤: ٧)

٥ ــ «إن علمتم أنه بار (المسيح) هو، فاعلموا أن كل من يصنع البر **مولود منه.**» (١يو٢: ٢٩)

٦ ــ «نعلم أن **كل مَنْ وُلد مِنَ الله** لا يخطىء بل **المولود من الله يحفظ نفسه** والشرير لا يمسَّه.» (١يو٥: ٨)

٧ ــ «كل من هو **مولود من الله** لا يفعل الخطية، لأن زرعه (زرع الله) يثبت فيه، ولا يستطيع أن يخطىء **لأنه مولود من الله.**» (١يو٣: ٩).

من بين هذه الآيات السبع نجد الآية رقم (٢) هي الآية المتحكمة فيها جميعاً، وهي رأس مبدأ الميلاد من الله. لأن يسوع المسيح، كما في الآية رقم (١) هو ابن الله، والرسالة التي جاء ليكملها هي أن يرفعنا معه وفيه إلى حالة التبني لله.

فالذي يؤمن بأن يسوع هو المسيح فهو يكون قد قَبِل بالتالي الرسالة أي أن يكون أحد أولاد الله.

كذلك فإن العلة الأساسية التي على أساسها نصير أولاداً له، لا تعتمد على شيء حسن فينا، ولكن إلحاح محبته لنا، وهو مضمون الآية رقم (٣). وكذلك الآية يو٣: ١٦: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية».

كذلك فإن الوصية الأُولى والعظمى هي المحبة لله والقريب لأنها الردُّ الوحيد اللائق لمحبته لنا.

فإذا نجح الإنسان في تكميل هذه الوصية، فإنه حتماً يكون قد وُلد من الله. لأن الله «محبة»، ويستحيل لأحد أن يستمد المحبة الإلهية إلا من الله مصدرها، وهذا هو مضمون الآية رقم (٤).

كذلك فإن ناموس المسيح الذي جاء ليؤسسه هو ناموس البر الإلهي، أي السلوك بمقتضى الرحمة والحق معاً، والعدل والسلام معاً، وهذا مستحيل أن يأتيه إنسان ما إلا إذا أخذ قوة هذا البر من المسيح لأنه «**بار**» و«يبرر كثيرين»، وهذا مضمون الآية رقم (٥).

كذلك إن كان المسيح قد حلَّ بالإيمان في القلب، وثبت الإنسان في الروح القدس، فقد تسلَّح ضد الشيطان والخطية من جهة الغواية والفعل معاً، وأصبح متحصّناً ضده، وهذا مضمون الآية رقم (٦).

وهذه الآية يقابلها من جهة العقيدة عند ق. بولس مطابقَة، إنما على الوجه الإيجابي البديع: «لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله، إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف بل أخذتم **روح التبني**، الذي به نصرخ (عند الضيقة) يا أبا الآب، الروح نفسه يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله.» (رو٨: ١٤—١٦)

كذلك نعلم أن ليس إنسان لا يخطىء، وأن المسيح وحده بلا خطية، وجاء ليكسر شوكة الخطية المميتة، وقد رفعها بالفعل، وخلَّص الإنسان من ناموسها القاتل. لذلك إن كان إنسان ما قد قبل المسيح وآمن به وحلَّ المسيح بالإيمان في قلبه وقبل الروح القدس، فلا يمكن أن هذا الإنسان يخطىء خطية للموت وهذا مضمون الآية رقم (٧).

وقول ق. يوحنا هنا: «لأن زرع الله sperma ثابت فيه» قول خطير في الواقع، نفهم منه أن الذين يستقبلون روح الأبُوَّة داخلهم فإنها تخصبهم وتصيّرهم أولاداً لله، وأن الله يصير أباهم، ليس بالاسم ولا بالمجاز، بل بالقوة الوالدة للروح، الأمر الذي هو أقوى ألف مرة من الولادة التي أخذوها بالجسد وانحدروا منها بواسطة زرع البشر الفاني. لأن الإنسان حينما تسكنه بذرة الروح لأبُوَّة الله، تصير فيه قوة خالقة تخلقه جديداً، وتنميه لينمو حسب صورة خالقه في البر والقداسة والحق. وبحق وقوة أبوّة الله التي تسكن الإنسان، لا يُعدُّ الله بالنسبة للإنسان حاملاً عصا التأديب بعد، بل فاتحاً أذرع الحب ليضم خليقته التي تاهت عنه ثم عادت تحمل جمال صورته.

ولا يعدُّ الإنسان بالنسبة لله خليقة عاصية متمردة بل أبناء حضنه، يضمهم إليه ويقبّلهم قبلة الآب الذي عثر على ابنه الضال فوقع على عنقه وقبَّله تقبيلاً. لأن الإنسان لم يَعُدْ متغرباً عن الله، بل بواسطة ابنه الوحيد المحبوب الذي أخذ جسدنا لنفسه صار الإنسان على مستوى مَعَزَّة الابن الوحيد ووريثاً معه لكل حب الآب.

وفي ختام الآية التي نحن بصددها من الإنجيل، أي الآية ١٣:١، يلزمنا أن ننبّه أنه إزاء الرفض الشعبي للأمة اليهودية لاستعلان الكلمة في شخص يسوع باعتباره المسيَّا الآتي، واجهنا هذه المرة أفراداً من خاصته، تلاميذ ورسلاً وكهنةً ورؤساءً من الشعب، قبلوه وآمنوا باسمه أنه هو ابن الله الآتي إلى العالم، والتصقوا به فصاروا أولاد الله عوض بني إسرائيل، وأهل بيت الله عوض أعضاء في السنهدريم، واستناروا بنوره وصاروا رسلاً له للعالم، فكانوا منفذاً للنور للجالسين في الظلمة وظلال الموت، المقيدين بالذل والحديد. أما العالم ـــ أي الأمم ـــ فلم يكونوا على موعد مع الله بانتظار المسيا كاليهود، فلهؤلاء استعْلن «المسيح الكلمة» نفسه استعلانه الأخير والأعظم للعالم كله، لا كابن داود بل «**ابن الإنسان**»!! «**الله ظهر في الجسد.**» (١تي٣:٦)

١٤:١ «**والكلمةُ صارَ جسداً وحَلَّ بيننا ورأينا مجدَهُ مجداً كما لوحيدٍ من الآبِ مملوءاً نعمةً وحقاً**».

تقسيم هذه الآية:

(أ) **والكلمة صار جسداً.**

(ب) **وحلَّ بيننا.**

(ج) **ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب.**

(د) **مملوءاً نعمة وحقاً.**

نتذكر الاستعلان السالف الذي أكمله «**الكلمة**» أنه كان على مستوى تكميل وعد سابق بفم كل الأنبياء، أكمله بالمجيء الفعلي في ملء الزمن: «إلى خاصَّته **جاء**». وكان مجيئه استعلاناً محصوراً في شعب هو خاصته وفي أرض هي من خاصته. ولكن الآن يَستعلن «الكلمة» ذاته على غير موعد وعلى مستوى البشرية كلها والعالم أجمع.

وهكذا نكاد نصفق بأيدينا لهذا الإنجيلي البديع ذي البصيرة الحادة والرؤيا المترامية الأطراف، الذي واكب الكلمة في درجات استعلانه من الأزلية قبل الزمن، عبوراً بالخليقة والحياة والنور الذي لم ينحصر عن الإنسان قط منذ أن خُلق، إلى الآباء والأنبياء والشعب المختار والحياة الأبدية المكنوزة في الكتب لمن يفتش عنها، إلى المعمدان يشهد للنور، إلى الرفض والمصادرة حتى منتهاها، إلى الاستعلان الأخير الذي نعيشه في ملء نوره وبهائه، كل ذلك أيها القارىء العزيز في أربع عشرة آية لم تأخذ من إنجيله أكثر من نصف صفحة!!

أ ـــ «**والكلمة صار جسداً**»:

«الواو» هنا καὶ تتبع المسلسل الذي جاء في أول الأصحاح، فهو عودٌ على ذي بدء. ومن ذلك نلمح وبسهولة في قوله: «والكلمة صار جسداً» تكملة مفاجئة للآية الأولى بكل إحكام، ونقرأها معاً هكذا: «**في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله والكلمة صار جسداً**».

وهنا آخر مرة نسمع فيها ق. يوحنا يذكر «**الكلمة**»، إذ يدخل بها إنجيل الخلاص لنرى الكلمة في شخص المسيّا.

هنا يتفضل الله وينزل بنفسه إلى عالمه الذي خلق، لا كزائر روحي بشبه ملاك أو رئيس ملائكة، ولا كضيف غريب يباغت الإنسان في عقر داره، بل نزل كإنسان ليعيش مع الإنسان كإنسان، وليتكلم مع الإنسان بعد أن أخفقت كل الوسائل في توصيل كلمته إليه. جاء في «الجسد» ليتحدث مع كل ذي جسد: «إذ أعطيته سلطاناً على كل جسد πάσης σαρκός ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته.» (يو١٧: ٢)

نعم قد جاء الله بنفسه في الكلمة المتجسد ومعه الحياة الأبدية والنور الحقيقي في الجسد مُخْفيين في الجسد ولكن منظوران بالرؤيا الإيمانية النفَّاذة التي تنفذ خلال الظواهر والحجب والظلال والأقنعة لتقع على الحقيقة مباشرة = رؤية منفتحة على الإيمان ἐθεασάμεθα. لذلك كلُّ من كان له عين ترى وأذن تسمع، رأى مجده وسمع صوت الله فيه فعاش: «أما رأيت يسوع المسيح ربنا.» (١كو٩: ١)

لذلك بقدر ما كان الله الكلمة المتجسد نوراً وحياةً أبدية لمن وقعت عينه ـــ ἐθεασάμεθα ـــ على اللاهوت الذي فيه، بقدر ما كان الكلمة المتجسد عثرة للعين التي توقفت عند حجاب الجسد، فاختفى عنها الله والحياة والنور معاً. «طوبى لمن لا يعثر فيَّ.» (مت١١: ٦)

وكأنما سر التجسد هو الظل المرافق «للكلمة» منذ البدء! فـ«**سِرُّ**» التجسد الإلهي فوق أنه يحتضن كل ما عداه من أسرار الاستعلانات السابقة ـــ للكلمة ـــ ويكمّلها، فهو ـــ أي «**سِرُّ**» التجسد ـــ يحمله معه في وجوده المطلق منذ البدء وفي كيانه الإلهي «وكان الكلمة الله»، منطوياً تحت حب الله للعالم!!

وهكذا وبسهولة أيضاً نلمح في «الكلمة» احتضان الأزلية للزمن وانعطاف الله على الإنسان!

فسِرُّ المصالحة العظمى التي جاء ليصنعها الكلمة بين العالم والله: «أي إن الله كان في المسيح مُصالِحاً العالمَ لنفسه» (٢كو٥: ١٩)، هذه المصالحة كانت دوافعها وأدواتها كائنةً فيه منذ الأزل!

انظر معي أيها القارىء العزيز وتمعَّن كيف أن «الكلمة» يحتضن الأزلية والزمان معاً «**في البدء كان** الكلمة»، «والكلمة **صار**...»،

وكيف ينعطف اللاهوت على الإنسان: «والكلمة **كان عند الله**»، و«**حلَّ بيننا**»:

فالزمن خرج من رَحم الأزلية، وحبُّ الله للإنسان كان كامناً في حضنه الأزلي.

ثم انظر كيف يجمع «الكلمة» في نفسه الله والإنسان: «وكان الكلمة **الله**» و«الكلمة **صار جسداً**».

ثم انظر كيف نجح الكلمة أخيراً نجاحاً منقطع النظير في استعلان ذاته واستعلان الله فيه: «ورأينا مجده مجداً كما لوحيدٍ من الآب مملوءاً نعمةً وحقاً».

«والكلمة صار جسداً»: هنا، وهنا أخيراً، استقرق. يوحنا بعد تحليقه طائراً وراء الكلمة في الأزلية محدّقاً في الله ليراه عنده قائماً، وفي الخليقة هناك خالقاً، وفي الحياة نوراً مرفوضاً ومقبولاً، وكنا نحن نلهث وراء يوحنا ما عسى أن يكون «**الكلمة**» هذا، وما هيئته أو صورته، حتى انقطعت أنفاسنا؛ وأخيراً حطَّ هذا النسر الجسور المتمرس في التحديق في نور الله، حطَّ بـ«**الكلمة**» على «**جسد**» إنسان فعرفنا في الحال أنه «**يسوع المسيح**».

«مناجاة»

أيها الكلمة والفعل الأزلي، الكائن الذاتي، الله منطوقاً لنا بالكلمة والله مُستعلَناً لنا بالفعل، الفاعل بكل قدرات الله ومشيئته في الخلق والتدبير، القائم الدائم في الذات الإلهية العظمى، الملتحم جوهريًّا وذاتيًّا بـ«أنا» الله بالحب المطلق، وصاحب الاسم الإلهي معه «أنا هو» ἐγώ εἰμι، المنطلق من كيان الله لاستعلان الله بلا انقطاع، الحامل للكلّية الإلهية بغير تجزؤ، والعامل بسلطان الله بلا نقصان مع الله كإرادة وفعل معاً، كليُّ القدرة وكليُّ المعرفة وكليُّ الوجود، غير المُنحصِرُ في ذاته وغير المحدود وغير المبتدىء.

فأنت البداية التي بلا بداية، والنهاية التي بلا نهاية ــ التي ينتهي عندها كل ذي نهاية، غير المتغيِّر، والمتغيرات كلها فِعْلٌ من أفعالك.

الزمان منك أخذ حركته ودورانه ليحكي عن عظمة سكونك الفعال وتعاليك عن كل ظلّ دوران، وإليك ينتهي وعندك يهدأ من كل حركاته، فأنت السكون الضابط لكل حركة.

أما المكان الذي تمثله روائع الأكوان كخيمة أقمْت أعمدتها في وسط الوجود المطلق، فهي تحكي بوجودها المحدود عن جبروت الله ووجودك غير المحدود ولا منظور. فكل الأكوان بما تحوي من بدائع المخلوقات المعروفة وغير المعروفة، هي صفحة منبسطة تعكس طَرْفاً من بهاء مجد الله فيك غير المدرَك. فأنت الكلمة الله الذي هو وحده بالفعل والكلمة استعلن عظمة الله غير المدرك ولا معروف والذي لن يُدرك ولن يُعرف إلا فيك.

فهذا البدء الزماني والمكاني السحيق في القدم، هو بكُلّياته وجُزْئياته فعلٌ حدَثَ من أفعال أزليتك، خرج إلى الوجود كما صوَّرَتْهُ قدرة الله ومشيئته فيك.

أيها الكلمة الله الذاتي الذي كنت محتجباً في الله، مع أنك أنت الحامل لاستعلان الله، لقد استعلنت نور الله الذي كان سيظل محتجباً لولا هذا العالم الذي خلقت، الذي حمل إلينا رسالة ناطقة من خلف آياته الجبارة، تحكي عن الإرادة العظمى التي أرادتْه، وحكمة الفعل الإلهي الذي به خُلق.

فالمصنوعات فيه تحكي عن لاهوت الصانع، فكل الأفلاك والمجرّات والعوالم التي يضج بها الفضاء بقوانين تحرُّكها وتقلُّبها، وانضباطها الخاضع لسلطان الدقة الهندسية

الفائقة، تحكي لنا عن ما هي الإرادة الإلهية التي أرادت والفعل الإلهي الذي خَلَقَ، تحكي عنك أيها الكلمة ذو الحكمة والقوة والسلطان والمجد والجلال العامل لحساب استعلان الله، تحكي عن حب الله القائم في العالم لحساب العالم، فانبثَّ فيه قانون المحبة والتآلف الذي يحكم حركتها جميعاً من جماد ونبات وحيوان وإنسان. **فكل ذرَّة،** بحركتها الباطنية المنسجمة والمنضبطة في تآلف فائق القدر والوصف، تحكي عن التآلف بين الإرادة والفعل في ذات الله الذي خَلَق. أما القوة الذرية المرعبة التي ظهرت عند انشطارها فهي تحكي عن القوة الإلهية التي جمعت وضبطت.

وهذا **الإنسان** الذي خَلَقْتَ، حسب قصد محبة الله التي تعمل كل شيء حسب رأي مشيئته في المحبة، خَلَقْتَه بامتياز الإدراك والنطق والحب، ليدركك ويدرك فيك الله المُدرَكُ الكامل الذي يُدرَك ولا يُدرك كماله، ويحبك ويقيس حب الله فيك؛ وصوَّرتَه ليكون في النهاية على صورة خالقه ليستمتع بالحياة الأبدية ويحيا الخلود وينأى عن العجز والفساد.

هناك قبل كون العالم وأنت قائم في مجدك مع الله، عندما نويت أنت في أزليتك أن تحمل صورته البائسة التي انحطَّ إليها، لترفعه أنت إلى صورتك في ملء الزمان وعند انتهاء أزمنة شقاء الإنسان، خَلَعْتَ ثوب مجدك الظاهري لتقوى على حمل اتضاعنا وخساسة طبيعتنا، وأتيت إلينا على الأرض وصرت جسداً، وأنت الكلمة الذي لا تسعك السموات.

وهكذا لما أخذت هيئة بنوّتنا، تعرَّفنا عليك حالاً أنك أنت أنت ابن الله الذي منك انبثقت كل بنوَّة، فأنت الحامل للبنوّة الإلهية جوهراً وذاتاً، التي كل بنوَّة في العالم المخلوق هي صورة منك.

وهكذا وأنت أصل كل بُنوَّة، لما حملت صورة بنوتنا اكتشفنا فيك الأصل: وتعرَّفنا عليك أنت الابن الوحيد لأبيه. وأدركنا بالروح مقصدك الحميد، أنك لبست صورة بنوّتنا لترفعها إلى مستوى جوهر بنوّتك. وتجعل الصورة التي ماتت تحيا من جديد، وتنطق باسم الله «يا أبَّا الآب».

أيها الرب يسوع المسيح الكلمة ابن الله الذاتي، كليُّ الكرامة والمجد مع الله أبيك، الآن عرفناك أنك أنت أنت الكلمة الذي كان، والكائن في البدء ومنذ الأزل عند الله.

فبعد ما أكملت استعلان الله بالخلق الناطق بلاهوت الله في كل المصنوعات التي خَلَقْتَ، التي تحكي عن جبروت خالقها، تجسدت بشبه خليقتك التي خلقت، مع أنك أنت لا تزال قِوَام الخلائق طُرًّا، فكلها تتخذ وجودها ودوامها بتدبير حكمتك، فأنت حياة ونور كل أحد.

أنت «**الكلمة**» الذي كان، والمستعلَن لنا «**ابن الله**» الآن،

هكذا نؤمن وهكذا نعترف، أنك بعد أن أكملت استعلان الله بالكلمة، جئت إلينا لتكمل استعلان الله بالجسد. ولكننا من خلال اتضاع بشريتك أدركنا وتيقّنّا من مجد ألوهيتك ومجد الآب الذي أعلَنْتَهُ ببنوّتك. فإن كانت الخليقة هي لغتك، فقد أعطانا الروح فكَّ شِفْرتها، فأدركنا أن نور بصائرنا الذي به نراك هو رَجْعٌ لشعاع نورك، وحياتنا وميضٌ من حياتك. وحتى الحب الذي يقوّم حياتنا وأجناسنا وأُسَرنا وأفرادنا كقانون يتغلغل كل ذي جسد، هو هو حبُّ الآب فيك الذي منه سَكَبْتَ هذا الحب في خليقتك لما خَلَقْتَ. فإن كان قانون الحب عندنا هو علة حياتنا الذي يجمع كل جنس ويضم كل أسرة ويوحِّد الذكر بالأنثى والابن مع أبيه وأمه، فما ذلك إلا أنك أنت أحببتنا قبل أن تخلقنا وأحببتنا قبل أن تفدينا، فصار الحبُّ هو علة وجودنا وخلاصنا، الذي يحكي بقوة عن الحب الذي فيك من نحونا ونحو أبيك، الذي هو من طبيعتك.

ولم تكتفِ أن يبقى حبك حبيس الخليقة التي خلقت، بل أفضت من روحك القدوس، سِرَّ الحب الأقدس، على أرواحنا فتخطّينا حدود الخلائق، وارتقينا بالحب فوق طبيعتنا، والتصقنا بالله فيك، لنبقى معه فيك روحاً في روح، لأن «من التصق بالرب فهو روح واحد» (١ كو٦: ١٧)، فبلغنا غاية الحب وبلغنا الرؤية العظمى، لأن «**الذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأُظهر له ذاتي**» (يو١٤: ٢١)، وصرنا من «أهل بيت الله» (أف٢: ١٩).

وهكذا بعد أن كنا عاراً في خليقتك، صرنا بالحب شركاءَ مجدك، نأخذ منه ونعطيك. وهكذا أكملت استعلان الله فينا لما سكبت فينا أُبوّة الله المنسكبة فيك، فاستعلنا الله أباً لنا وورَّثْتنا ما هو ليس لنا...

لما أراد الله أن يكمّل حديثه معنا ليعرّفنا بمحبته ويكشف لنا عن أحشاء رحمته بعد أن كلّم الآباء بالأنبياء، كلّمنا فيك، فتكلمت معنا بفم أبيك، أنت الكلمة والابنُ والله الناطق بسر الوجود. فتجسدت لتكون أقرب إلينا من أنفسنا، فنسمعك سمع الأُذن ونراك رؤيا العين، وكابن الإنسان وأنت ابن الله تكلمت مع الإنسان، فكان الصوت صوت إنسان والمتكلم هو الله!!

ولما لبست صورة الترابي بعد أن أخليت ذاتك، لم تستطع أن تخفي ذاتك لأن حضرتك الإلهية كشفت سر اتضاعك، وكان صوت أبيك سبّاقاً لتعريفنا بك: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت له اسمعوا.» (مت١٧: ٥)

والروح القدس لم يَطِقْ قعوداً في السماء بل أخذ جناحي حمامة وطار وحطّ عليك، فرآه

المعمدان لما استقر عليك، فعرفك ونادى وشهد هذا هو ابن الله. بل وإن روح البنوّة التي فيك استعلنت مجد بنوّتك للعيون المفتوحة، فرأوا فيك مجد الابن الوحيد وشهدوا له، ومن ملء لاهوتك أخذ تلاميذك وامتلأوا نعمةً وحقاً.

سجّلت بأعمالك شهادة لاهوتك، وأعلنت بالكلمة سِرَّ بُنوّتك الفريدة لأبيك، ففيك استُعلن الآب حالما استُعلنت البنوّة، وكلاهما كان الصفة الجوهرية التي كانت محتجبة، والقائمة في ذات الله: البنوة مع الأُبوّة، وهكذا استكملت استعلان الأُبوّة التي لك خاصة، في الله أبيك والتي نقلت عطفها إلينا وحبها فينا كما هو فيك.

الله لم يره أحد قط، هكذا قلت، ولهذا جئت لتخبرنا أنت وحدك بالخبر اليقين وبما رأيت وعاينت وسمعت، فعليك أنت الكلمة وُضع كل حِمْل استعلان الله منذ البدء.

أنت الابن المحبوب الذي استودعك الله أبوك ملء سِرّ حبه الأبوي، هذا لم يستأمن أن يرسل سواك إلينا في ختام عهد تأديبنا، لتبلّغنا حُبّك كعريس، وتنقل لنا حب أبيك كما هو فيك، وتنقلنا إلى حال العروس في بيت أبيك، وتمنحنا رتبة البنين لله كامتياز ــ في قوة ونعمة بنوّتك الذاتية لأبيك ــ بعد أن فديتنا بحياتك ودم صليبك، لنرث معك وفيك ميراث البنين، بعد أن كنا عبيداً وكان مقامنا خارج السياجات.

أيها الكلمة الأزلي ذا القوة والجلال، يا مسيح الصليب والقبر والقيامة، يا ابن الله المحبوب لأبيه، الجالس عن يمين العظمة في الأعالي، والمكلّل بالمجد والكرامة، ما الخليقة كلها في السماء وعلى الأرض بكل أفرادها ومكوّناتها، والإنسان على رأسها، إلا انعكاسٌ فعالٌ لحب الآب لك ولحبك لأبيك القائم الدائم في الذات الإلهية العظمى، هذا الحب الماسك بأطراف العالم الذي لولاه لانفرط عِقْدُه، بل إن العالم كله والإنسان على رأسه إن هو إلاَّ استعلان في صميم الزمان لسِرّ الحب الذي كان عند الله في الأزل من نحو العالم والإنسان، الذي كان يكمن فيه سِرُّ خلاص الإنسان، وباستعلان حب الله في الإنسان واستعلان الأُبوّة والبُنوّة للإنسان صار الإنسان هو الصورة المجسّدة الضئيلة التي تحكي عن سر اكتفاء الله في ذاته.

أنت «مَنْ لي في السماء، ومعك لا أريد شيئاً على الأرض.» (مز٧٣: ٢٥)

لك نقدم الشكر مع التسبيح والسجود والمجد الدائم لك مع أبيك الصالح والروح القدس الله الواحد أبينا وسيِّد كل أحد.

«والكلمة صار جسداً» = καὶ ὁ λόγος σὰρξ ἐγένετο (Gr.)

Verbum caro factum est (Vulg.)

«صار» هنا ἐγένετο لا تفيد التغيير كما لا تفيد أن الكلمة تَوقّف عن أن يكون الكلمة. لأن «الكلمة» بدءُ كلِّ ذي بدء، له جوهر الله وطبيعته، لذلك فهو غير قابل للتغيير وغير قابل للتحول. ولكن القول «صار» يفيد اتخاذه درجة في الاستعلان تتناسب مع ضعف إدراكنا، لأن عجز الأنبياء في توصيل «الكلمة» للناس وفشل الناس في إدراك «الكلمة» جعلا الكلمة يأخذ حالة أكثر اقتراباً لإدراكنا، حتى يتمم فيها استعلاناً أكثر لله.

كذلك نجد أن قوله: **«صار»** هنا تتصل بمفهوم عميق مع **«صار»** التي جاءت في الآية ١ : ٢: «كل شيء به **صار**»، إذ نلمح أن ق. يوحنا يكاد يقول أن الكلمة هو أصل ومركز الخليقة القديمة والخليقة الجديدة، فالأُولى «به صارت» والثانية «فيه صارت» و«صار هو رأساً لها»، وكأن ق. يوحنا يود أن يقول 'أنه صار إلى الذي به صار'. ومن هنا جاء القول «بِكْرُ كل خليقة» (كو١ : ١٥)، لأنه هو أيضاً أول قيامة الأموات!!

كذلك فإن «الجسد» الذي صار إليه وفيه؛ لا يعبّر عن جزء من الإنسان، ولكنه تعبير لاهوتي عن طبيعة الإنسان ككل، جسداً ونفساً وروحاً.

وكلمة «الجسد» هي تعبير سائد في العهد القديم يعبّر عن البشرية ككل، ونسمع ذلك في قول يوئيل النبي (في الترجمة السبعينية): «ويكون بعد ذلك أني أسكب روحي على كل **جسد...**» ἐπὶ πᾶσαν σάρκα، التي جاءت في الترجمة العربية «على كل **بشر.**» (يوئيل ٢ : ٢٨)

والمعنى أن «الكلمة» الذي «كان في البدء، وكان عند الله، وكان الله»، صار إنساناً كاملاً له كل ما للطبيعة البشرية من صفات ــ ما عدا الخطية وحدها ــ وهو هو الكلمة، كما كان قبل التجسد هكذا بقي كما هو بعد التجسد.

وق. يوحنا ــ عن حكمة روحية وبصيرة لاهوتية ــ اختار كلمة «صار»، ولم يقل «أخذ جسداً»، كما يخطىء بعض اللاهوتيين، فهو لم **«يأخذ»** وإلاّ كان من المحتمل أن **«يترك»**؛ كذلك لم يقل «**حلّ** في الجسد» مجرد حلول وإلاّ احتمل الإخلاء والترْك؛ بل قال «صار» بحيث يستحيل أن يتراجع فيما صار إليه لأن الصيرورة هنا شملت كيانه كله!

وحينما قال صار «**جسداً**»، فهو بحكمة اختار كلمة «**جسد**»، فهو لا يقصد أنه صار إنساناً

ما مجرد واحد من الناس. ولكنه يقصد أنه صار «بشراً» له **«ملء الطبيعة البشرية كلها»**. لذلك نسمع المسيح يعطي نفسه اسم **«ابن الإنسان»** ليعبِّر عن البشرية كلها القائمة فيه. وفعلاً قد عبَّر بحياته على الأرض تعبيراً كاملاً عن الطبيعة البشرية بكل ضعفها وأعوازها دون خطأ أو خطية، دون أن يتنازل لحظة واحدة ولا طرفة عين عن كونه **«الكلمة»** الله أو «**الله** الكلمة». وبهذا استطاع أن يرفع الطبيعة البشرية التي صار فيها إلى منتهى الكمال: «لأجلهم أُقدِّس أنا ذاتي» (يو١٧: ١٩). لأن القصد من التجسد هو استعلان أن **«يسوع»** هو المسيَّا **«الكلمة»** الأزلي: «كلُّ روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله» (١يو٤: ٢)، حيث كلمة **«جاء في الجسد»** تضيف إلى مفهوم «صار جسداً» الأُولى مفهوم الديمومة في التجسد الكامل دون أي تغيير. لأن «صار جسداً» وحدها تفيد الحقيقة أنه صار بطبيعة الإنسان كاملة، أما قوله: **«جاء في الجسد»** فتفيد التواجد في هذه الحقيقة، والإستمرار فيها.

أما **تأكيد التجسد** أو أن الجسد الذي صار به هو **جسد بشري داخل في مسلسل البشرية**، فهذا يقرره بولس الرسول في رسالته إلى رومية: «بولس عبد **ليسوع المسيح**... الذي سبق **فوعد به بأنبيائه في الكتب المقدسة** عن ابنه الذي **صار من نسل داود من جهة الجسد**.» (رو١: ١-٣)

واختصار هذه الآية هو كالآتي: «**يسوع، المسيا، ابن الله، تجسَّد!!**»

ثم إن التأكيد على أن البشرية التي صار بها هي **بشرية حقيقية متألمة وقابلة للموت**، فهذا يصفه أيضاً بولس الرسول: «فالله، إذ **أرسل ابنه في شِبْه جسد الخطية** ولأجل الخطية، دان الخطية في الجسد.» (رو٨: ٣)

أما قوله: «**شِبْه** جسد الخطية» **فهو ليفرقه من «جسد الخطية»**، فجسد المسيح يحمل كل مكوِّنات جسد الخطية ما عدا الخطية، لأن بشرية المسيح وُجدت ــ لحظة ما وُجدت ــ متحدة بلاهوته!! فلم يكن ممكناً أن تداهم ــ الجسد ــ عناصر الخطية، بل ولأن جسد المسيح كان **خالياً** خُلوًّا تاماً من عنصر الخطية، استطاع **بلاهوته** أن يدين ــ أي يحكم ويعاقب ويفرز الخطية بالجسد عندما حمل عقوبتها عليه وهو بريءٌ منها. فالصليب والموت كانا أقصى فضيحة للخطية وأعظم تتويج لجسد الإنسان بالنصرة عليها: «فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس.» (عب٢: ١٤)

ولكن السؤال الكبير المحيِّر: كيف أمكن «للكلمة الله» أو «الله الكلمة» وهو في ملء لاهوته

ومجده أن «يصير جسداً»، ويوجد في الهيئة كإنسان؟ بمعنى أن مجد اللاهوت حينما يحلُّ حلولاً ذاتياً ودائماً في جسد إنسان ــ علماً بأنه كان أكثر من حلول إذ هو اتحاد وصيرورة ــ فإنه يمنع الجسد من أن يظهر بصورته الطبيعية، فبهاء مجد الله يصعق العين الترابية، وهوذا المثل أمامنا عملياً وواضحاً، فالمسيح نفسه لما استُعلن لبولس الرسول بعد القيامة وهو في مجده لم يحتمله لا بولس ولا الذين معه: «رأيت في **نصف النهار** في الطريق أيها الملك **نوراً من السماء أفضل من لمعان الشمس قد أبرق حولي وحول الذاهبين معي. فلما سقطنا جميعاً على الأرض** سمعت صوتاً يكلمني ويقول باللغة العبرانية شاول شاول لماذا تضطهدني... فقلت أنا "من أنت يا سيد" فقال "**أنا يسوع** الذي أنت تضطهده".» (أع٢٦: ١٣ــ١٥)

ولكن الذي نعرفه تماماً أن يسوع المسيح حينما كان يعيش على الأرض، لم يكن له هذا النور الذي هو أشد لمعاناً من نور الشمس وقت الظهيرة!

هنا يقول بولس الرسول أنه لكي يحلّ ملء اللاهوت في الجسد ويتَّحد به، لزمه أولاً أن يتخلى عن مجده الإلهي المنظور: «الذي كان في صورة الله لم يحسب خلسةً أن يكون معادلاً لله، لكنه أخلى نفسه ἀλλὰ ἑαυτὸν ἐκένωσεν آخذاً صورة (هيئة) μορφήν عبد صائراً في شبه الناس» (في٢: ٦و٧). وهذا هو الذي عبّر عنه اللاهوتيون باسم «**الإخلاء**» (الكينوسيس) = κένωσις باعتباره عملاً يتبع قدرة الله على كل شيء التي بها يقدر أن يخلي ذاته ــ في الظاهر ــ عن مجده.

ولكن هذا الإخلاء لم يُنقص من كل خصائص اللاهوت التي حلّ بها الكلمة في «الجسد» **واتحد به**، إذ يقول بولس الرسول: «**فإنه فيه يحلُّ كل ملء اللاهوت جسدياً**، وأنتم مملوؤون فيه!!» (كو٢: ٩)

من هذا نستطيع أن ندرك مدى عمق وضخامة المعنى في قول ق. يوحنا، وبمنتهى الإختصار: «والكلمة صار جسداً»، فهنا قد بلغ استعلان الكلمة أوَجَ قوته وعمقه وفعله لأن «جسد الكلمة» هذا، الذي هو جسد يسوع المسيح، أصبح أعلى قوة إلهية حصل عليها الإنسان ليدرك الله بها وفيها ويقترب إليه.

فجسد الكلمة ــ أي جسد يسوع المسيح ــ صار هو الطريق المفتوح أمام الإنسان إلى الأقداس العليا في السماء: «فإذ لنا أيها الإخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس بدم يسوع، طريقاً كرّسه لنا حديثاً حيًّا بالحجاب أي **جسده**...» (عب١٠: ١٩و٢٠). لأننا سبق أن قلنا أن يسوع المسيح

«دان الخطية بالجسد»، فبالصليب أي بموت الجسد عن الخطية صار «الجسد» معبراً سرِّياً إلى الأمجاد العليا.

ثم إن هذا «الجسد» ــ جسد الكلمة يسوع المسيح **ابن الله** ــ الذي **قدَّمه الله نفسه** ذبيحة خطية على مذبح خطية العالم كـ«**حمل الله الذي يرفع خطية العالم**» [فاشْتمَّه أبوه الصالح وقت المساء على الجلجثة](٢٥)، فأصبح لحمه **يؤكل بالسِرِّ، أي بالروح للتقديس**. وهذا نسمعه من فم الرب قديماً متمَّماً بالفعل كنبوة ونموذج لذبيحة المسيح على الصليب يوم الفصح:
ــ «تكون لكم شاةٌ (حملاً) صحيحةً ذكراً ابن سنة... ويكون عندكم تحت الحفظ إلى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر (نيسان)، ثم يذبحه كل جمهور جماعة إسرائيل في العشية، ويأخذون من الدم ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا في البيوت التي يأكلونه فيها. ويأكلون اللحم تلك الليلة مشويًّا بالنار مع فطير، على أعشاب مرة يأكلونه... **هو فصح للرب**.» (خر١٢: ٥و٦و٧و٨و١١)

هذا هو المسيح فصحنا، فقد قبضوا عليه وتحفظوا عليه حتى اليوم الرابع عشر ــ بحسب إنجيل يوحنا ــ واشترك كل جمهور جماعة شعب إسرائيل في ذبحه على الصليب «حسب الطقس»، وأهرقوا دمه على الصليب وعلى الأرض، على خلفية من نار الآلام ومرارة التعذيب، فكان هو «**الفصح الحقيقي**» الذي تم على اسمه أول فصح في مصر: «وتكون جثتاهما على شارع المدينة العظيمة التي تُدعى روحيًّا سدوم، **ومصر حيث صُلب ربنا أيضاً**» (رؤ١١: ٨). هذا هو فصحنا الحقيقي المذبوح لنا: «لأن فصحنا أيضاً المسيح قد ذُبح لأجلنا.» (١كو٥: ٧)

وكما أن الذين أكلوا الفصح الأول عبر عليهم الهلاك ولم يقتحمهم حسب وعد الله لكل من أطاع وأكل لحم الفصح واختبأ وراء الدم. والذين لم يأكلوا ولم يتحصنوا بالدم أهلكهم المهلك؛ هكذا صار الأكل والشرب من فصحنا الجديد حمل الله الذي يرفع خطية العالم.

الفصح القديم كان بالرمز لنموذج جسدي، أما فصحنا الجديد فبالحق على مستوى الروح: «جسدي مأكلٌ حقٌّ ودمي مشربٌ حقٌّ... فمن يأكلني فهو يحيا بي.» (يو٦: ٥٥و٥٧)

والإنذار الأول بالهلاك لمن لم يشترك في الفصح بقِيَ هو كما هو:
ــ «من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير.» (يو٦: ٥٤)
ــ «إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم.» (يو٦: ٥٣)

(٢٥) لحن يقال في أسبوع الآلام، وعلى مدار السنة، في ثيئوتوكية الأحد، وفي صلاة يقولها الكاهن سراً أثناء دورة البخور.

ثم هذا هو بعينه «الجسد» الذي «صار للكلمة».

وهو الجسد الذي بذله عن حياة العالم على الصليب.

وهو الجسد الذي هو بالحقيقة «**خبز السماء**»، «**حبة الحنطة**» التي سقطت من السماء على أرض الشقاء فماتت، ثم قامت واستقامت، وأتت بِغَلَّةٍ وفيرة ملأت أهراء الحياة.

وهكذا يكون بـ«الكلمة صار جسداً» قد صار تأسيس طريق الخلاص للدخول إلى الأقداس العليا، وتأسيس **سر الاتحاد الجديد ــ بالإفخارستيا**. فجسد الكلمة، أي «**يسوع**» المسيح ابن الله، صار خبز الحياة الذي يأكل منه الإنسان ولا يموت. فهنا اتحاد ذو شقين:

الأول: اتحاد على مستوى الطبيعة الإلهية: «كما أن قدرته الإلهية قد وهبت لنا كل ما هو للحياة والتقوى... اللذين بهما قد وُهب لنا المواعيد العظمى والثمينة لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية» (٢بط١: ٣و٤)؛ «لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله.» (أف٣: ١٩)

والثاني على مستوى الذات، أي شخصي: «ليحلَّ المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أف٣: ١٧)؛ «مع المسيح صُلِبْتُ فأحيا، لا أنا، بل المسيح يحيا فيَّ. فما أحياه الآن في الجسد، فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله الذي أحبني وأسْلم نفسه لأجلي» (غل٢: ٢٠)؛ «إن أحبني أحد يحفظ كلامي ويحبه أبي وإليه نأتي وعنده نصنع منزلاً.» (يو١٤: ٢٣)

فكل هذه النعم والمواعيد العظمى والثمينة، وهذا الخلاص العجيب، وهذا الحب الإلهي الذي جعل هياكل أجسادنا وأرواحنا منزلاً مريحاً لسكنى الآب والمسيح والروح القدس لتغيير طبيعتنا وتقديسها، وهذه الشركة والزمالة والمؤازرة في الحياة الحاضرة مع شخص الكلمة يسوع المسيح ابن الله؛ كل هذا تم لما انتهى «الكلمة» إلى قراره الأخير: «أن يصير جسداً».

والآن يلزمنا أن نعود لندقق في المعاني اللاهوتية التي يتضمنها «**التجسد**» حتى نتجنب الإنزلاقات التي وقع فيها أئمة الهراطقة الذين خرجوا عن حدود الإيمان الصحيح بالتجسد:

١ ــ البشرية التي «صار» إليها وبها الكلمة ــ أي التجسد ــ هي **بشرية كاملة وصحيحة للإنسان الكامل**. وهذا ما وقع فيه أبوليناريوس الذي قال بأن البشرية التي أخذها المسيح لنفسه لم تكن كاملة. فهو أخذ جسداً ولكن هذا الجسد لم يكن جسماً كاملاً كما لإنسان عادي.

٢ ــ البشرية التي صار بها المسيح **كانت بشرية حقيقية ودائمة**. وهذا ما وقع فيه جماعة الغنوسيين (العارفين) الذين قالوا أن الكلمة أخذ جسداً حسب الظاهر فقط ولمدة قصيرة وبقي غريباً عن نفسه. فالكلمة عندهم صار جسداً ولكنه لم يلبس هذا الجسد. كما ضلَّ **الدوسيتيون**

الذين قالوا إن الجسد كان خيالاً أو شبَهاً فقط. ولم يكن حقيقياً.

٣ ـ **إن الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية اتحدتا بالتجسد اتحاداً كلياً وكاملاً وصارتا واحداً.** ولكن هذا الاتحاد لم يغيِّر شيئاً من كلتا الطبيعتين، كلٌّ في مجاله، فهو **«إله متأنس»** وليس إلهاً وإنساناً وكأنه ازدواج للشخصية. فلم يأتِ عملاً إلهياً دون أن يكون الجسد شريكاً فيه، ولم يعمل عملاً جسدياً دون أن يكون اللاهوت شريكاً فيه. فلما أقام لعازر من الموت، أقامه بقوة لاهوته وبصوت فمه معاً.

ولما مات، مات بالجسد، واللاهوت فيه لم يفارقه حيًّا وميِّتاً، لذلك لم يفسد الجسد ولذلك قام!! ولذلك أيضاً كان موته نصرة للجسد والروح معاً وكان فداءً وخلاصاً! فإذا لم يكن اللاهوت ملازماً وشريكاً في الآلام والموت لاستحالت الآلام أن تكون آلاماً خلاصية والموت موتاً فدائياً. فالله فدانا بالجسد، والدم كان دماً إلهيًّا. «فكم بالحري يكون **دم المسيح الذي بروح أزلي** قدَّم نفسه لله.» (عب٩: ١٤)

ولما قال: «أنا هو القيامة والحياة» (يو١١: ٢٥)، قالها على أساس **لاهوت** القيامة الكائن في الجسد المتحد به؛ فلما قام، **قام بقوة لاهوته وبالجسد.** ولما بكى، كان ذلك أعظم تعبير عن شركة اللاهوت (الله) في أحزان الإنسان موضَّحاً بالجسد: «في كل ضيقهم تضايق...» (إش٦٣: ٩)

وهكذا لم يأتِ المسيح عملاً إلاَّ واللاهوت له فيه كما للناسوت. لأن بعد الاتحاد لا يمكن أن تعمل أي طبيعة منهما بانفراد عن الأخرى، لأن شخص المسيح، أي أقنومه، واحد هو الذي جمع الطبيعتين ووحَّدهما في واحدية ذاتية، فيستحيل عليه أن يكون له مشيئتان ولا إرادتان ولا قولان ولا نظرتان قبالة موضوع واحد. فجاءت أعماله كلها تنطق بوحدة **بشرية كاملة ناضجة نفساً وجسداً وروحاً، مع لاهوت كامل فعال على مستوى الله قوة وسلطاناً ومجداً.**

وهذا كله واضح لا يحتاج إلى مجادلة في قول ق. يوحنا «والكلمة **صار** جسداً». و«**صار**» هنا تنص وتؤكِّد على عملية توحيد سرِّي فائق للغاية أتاها الكلمة مع الجسد في ذاته ليعيش فيه إلى الأبد ويعمل به كل أعمال الخلاص، بل ويمجد به الله والآب، بل ويعيش به في مجده الذي كان له قبل إنشاء العالم، فكلمة «صار» أصبحت هي مركز الوحي اللاهوتي الصحيح. لأنه وإن كانت كلمة «صار» في قوله «والكلمة صار جسداً» تحمل في طيَّاتها عمليات إلهية سرية خطيرة في معزل عن قدرة فكر الإنسان، وهيهات للإنسان أن يبلغ مداها؛ إلا أن شيئاً واحداً يتحتَّم علينا

أن لا نفوته، وهو أنه إذا لم يكن قد صالح الله «الكلمة بالجسد» لما «صار الكلمة جسداً»، لما أمكن أن يصالح الكلمةُ المتجسد اللهَ بالإنسان! أو كيف يصالح الآب الكلي القداسة بالإنسان الذي بلغ الحضيض في الخطية والنجاسة؟

وإن كان المسيح الكلمة المتجسد قد وقف يتشفع ويحامي ويطلب لدى الله الآب عن الإنسان الخاطىء، مُطالباً الله أن يجعله واحداً في الآب والابن: «ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني» (يو١٧: ٢١)، لأن رسالة المسيح «الكلمة المتجسد» تتركز وتتلخص في هذا المطلب الواحد الأخير أن الإنسان يصير واحداً مع الآب والابن؛ فكيف يُتصور أن يكون الكلمة قد أخفق في أن يوحِّد اللاهوت بالناسوت إلى واحد في نفسه؟

وعندما قال المسيح: «أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد» (يو١٧: ٢٣)، فهل لم يكن يحسب حساب الناسوت الذي له؟ وكيف يُعقل أن نصير نحن **واحداً في المسيح، وواحداً في الآب مع المسيح**، ونبلغ إلى **«الشركة في الطبيعة الإلهية»**، إذا تصورنا أن المسيح نفسه قد أخفق أن يُصيِّر اللاهوت والناسوت **واحداً** فيه؟!

إذن، فإيمان الكنيسة القبطية الأرثوذكسية هو إيمان إنجيلي بالدرجة الأولى، ولاهوتها هو من عمق أعماق لاهوت إنجيل يوحنا؛ عندما تقول أن الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية صارتا **واحداً** بالاتحاد في أقنوم الكلمة المتجسد وليس اثنين بعد الاتحاد، وأن المسيح كانت له بالتالي حتماً وبالضرورة مشيئة واحدة وإرادة واحدة.

هذا الأمر اختلط على أوطاخي إذ اعتبر أن اتحاد الطبيعتين أنشأ طبيعة ثالثة، واحدة، كانت فيها الطبيعة البشرية منسحبة وكأن لا وجود لها. فسمَّاه اللاهوتيون **Monophysite** وألصقوا هذا الإصطلاح بالكنيسة القبطية، وهي من الأوطاخية ومن هذا الإفتراء براء!!

فعندنا «الكلمة صار جسداً» تعني أن كلًّا من الكلمة والجسد صارا واحداً، يعملان معاً بانسجام فائق، نتيجة اتحاد كامل، إذ وحَّد بينهما المسيح في ذاته ليعملا عملاً واحداً بمشيئة واحدة وإرادة واحدة ورأي واحد هي مشيئته وإرادته الذاتية الواحدة التي يستمدها من الآب. وفي وحدة الطبيعة والذات التي عاش بها المسيح ويعيش بها حتى الآن وإلى الأبد مع الله، سيظهر بها كما كان يعيش فيها على الأرض: «ولكن نعلم أنه إذا أُظهر نكون مثله، **لأننا سنراه كما هو.**» (١يو٣: ٢)

٤ ــ إن بشرية المسيح **كانت عامة وليست بشرية فردية.** فهو كان، ونادى بأنه **«ابن الإنسان»** أكثر مما عُرف أنه من الناصرة أو الجليل أو ابن داود. كما كانت بشريته كاملة تسمو فوق اعتبارات الجنس ذكراً أو أنثى. وهذا واضح ومُضمَّن في قول ق. يوحنا «صار **جسداً**» ولم يقل صار إنساناً ــ وهذه لَفْتة بديعة ــ حتى يشمل كل ما للإنسان دون أن يستثني شيئاً منه.

٥ ــ قولنا أن الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية اجتمعتا واتحدتا إلى واحد في شخص «الكلمة»، أي يسوع المسيح، ثم قولنا أن المسيح وحَّدهما إلى واحد في ذاته، وبناءً على ذلك **كانت له مشيئة واحدة وإرادة واحدة،** هذا يقطع خط الرجعة على كل أشكال «النسطورية» التي قالت أنه كان له شخصية إلهية بجوار شخصية بشرية كل منهما تعمل عملها الخاص بها. وذلك نشأ بضرورة الحال لـمَّا اعتبروا أن الطبيعتين اللاهوتية والبشرية لم تأتيا فيه إلى اتحاد ووحدة!! فعندهم كل طبيعة برزت بشخصية تحمل خواصها. وهذا تقسيم شنيع في شخص المسيح الواحد. علماً بأن «الكلمة الذي كان في البدء، وكان عند الله، وكان الله، والكلمة صار جسداً»؛ نقول أن شخص الكلمة أو أقنومه لما صار جسداً لم يأخذ شخصية جديدة عما كان له، ولم يغيِّر شخصيته الإلهية، بل نسمع المسيح ــ أي الكلمة المتجسد ــ يقول بقوة وجلال **«أنا هو»**: «أنا هو الحق والحياة والنور»!!! «وقبل أن يكون إبراهيم **أنا** كائن»، و«إن لم تؤمنوا أني **أنا هو** تموتون في خطاياكم» (يو٨: ٢٤)، «وليس أحد صعد إلى السماء إلاَّ الذي نزل من السماء **ابن الإنسان الذي هو في السماء.**» (يو٣: ١٣)

٦ ــ **إن الطبيعة البشرية التي صار فيها الكلمة تأثرت تأثراً مباشراً باللاهوت،** فبعد أن كانت تحت لعنة الموت رفع عنها الكلمة هذه اللعنة بلاهوته لحظة صار فيها، وفي هذا يقول القديس كيرلس الكبير: [لأنه كان من الضروري عندما صار الجسد جسداً له أن يشترك في عدم الموت الذي له ــ أي الذي للكلمة.](٢٦)

٧ ــ كذلك **فالطبيعة البشرية التي صارت للكلمة وصار الكلمة لها لما أخذت قوة عدم الموت أخذت فيها قوة القيامة من الأموات.** لذلك قام الجسد من الموت دون أن يُمسك فيه.

وهكذا فإن قول ق. يوحنا «والكلمة صار **جسداً**» فتح أمام اللاهوتيين كل كنوز اللاهوت التي كانت مخبأة لحساب **«الجسد»** الكلي أي البشرية عامة. لأن التجسد كان في حقيقته تنازلاً

[26] Cyril of Alexandria, *op. cit.*, p. 109.

إلهياً سخياً إلينا، حاملاً على ذراعيه كل ما يمكن أن يعطيه الله للإنسان مما كان هو محتاجاً إليه أو مما كانت محسوبة له أصلاً في الخليقة الأُولى وفقدها بالخطية وبالبعد عنه.

هذه العطايا الإلهيَّة السخيَّة، حمَّل الله أصولها ونموذجها الكامل لجسده أي بشريته، التي صيَّرها له وصيَّر نفسه لها كعيِّنة لما هو مزمع أن يصنعه في جسد البشرية. ولو أدركنا هذه الحقيقة لأدركنا سر لاهوت بولس الرسول كله، بل وسِرّ إنجيل يوحنا وبقية الأناجيل وكل أقوال المسيح:

أ ـ فبولس الرسول فهم «الكلمة صار جسداً» بأن ملء اللاهوت حلَّ في جسد الكلمة «فإنه فيه يحلُّ **كل ملء اللاهوت جسدياً**» (كو٢: ٩). فيتمسك بذلك بولس الرسول بالحرف الواحد، كما أصبح حقاً لنا أن نمتلىء منه أو فيه: «لكي **تمتلئوا إلى كل ملء الله**» (أف٣: ١٩)، «وأنتم **مملوؤون فيه**» (كو٢: ١٠). أو حسب تعبير ق. يوحنا «ومن **ملئه** نحن جيعاً أخذنا، ونعمة فوق نعمة.» (يو١: ١٦)

ب ـ ولأن لعنة **الموت** رُفعت عن «جسد الكلمة» وحل محلها **قوة القيامة وملء الحياة الأبدية** نتيجة الاتحاد الإلهي، كذلك أصبح لنا هذا الحق عينه:

«مَنْ آمن بي ولو مات **فسيحيا**، وكل مَنْ كان حيًّا وآمن بي **فلن يموت إلى الأبد**.» (يو١١: ٢٥و٢٦)

«مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله **حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة** بل قد **انتقل من الموت إلى الحياة**.» (يو٥: ٢٤)

«مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي فله **حياة أبدية** وأنا **أُقيمه في اليوم الأخير**.» (يو٦: ٥٤)

وهنا قوة ومركز الإفخارستيا المنقطع النظير، المترتب أصلاً على أن «الكلمة صار جسداً»، إذ أن «الجسد» بمفهوم «**اللحم**» و«**الدم**» في الكلمة أي «جسد الكلمة» صار فيه وصار له كل ما للكلمة من قوة إلهية مذخرة فيه وعاملة به للشفاء من الموت، لذلك سمَّاه الآباء «ترياق (دواء) عدم الموت»؛ بل ولإعطاء الحياة الأبدية، بل ولأخذ قوة القيامة ونور الخلود، لأنه «**جسد الكلمة**» أو إن جاز القول «**جسد الله**» أو «**جسد الحياة الأبدية**» أو «**جسد النور**»**!!** فانظر أيها القارىء وتمعَّن كيف يأكل ويشرب الإنسان بالسرِّ «جسداً» مُذَّخراً فيه كل كنوز الله هذه مجاناً.

ب ــ «وحلَّ بيننا»:

كلمة «حلَّ» تأتي في اليونانية ἐσκήνωσεν . وأصل الكلمة مأخوذ من كلمة الخيمة σκηνή. وهكذا فهي تشير إلى السُّكنى أو الحلول كما يضرب الإنسان خيمة على الأرض.

ثم تأتي كلمة «بيننا» ἐν ἡμῖν لتزيد معنى الإقامة في خيمة وسط شعبه، إشارة إلى الحياة التي سيحياها على الأرض. فهي لا تعني السُّكنى فقط بل الإقامة والمعيشة. والحياة في الجسد كما في خيمة هو تراث فكري يهودي نسمع عنه من بطرس الرسول «عالماً أن خلع مسكني (الأصح خيمتي σκηνώματός μου) قريب كما أعلن لي ربنا يسوع المسيح أيضاً.» (يو٢١: ١٨و١٩، ٢بط١: ١٤). وكذلك عند بولس الرسول «لأننا نعلم أنه إن نُقض بيت خيمتنا σκήνους الأرضي (الجسد) فلنا في السموات بناءٌ من الله بيتٌ غيرُ مصنوعٍ بيدٍ أبديٌّ.» (٢كو٥: ١)

ولكن قصد ق. يوحنا الأساسي من ذكر هذا التعبير ــ أي الحلول في الخيمة ــ هو رفع أبصارنا إلى ما صنع «يهوه» الرب قديماً عندما حلَّ في خيمة الإجتماع وسط شعب إسرائيل.

ــ «ثم غطّت السحابة خيمة الإجتماع **وملأ بهاءُ الربِّ المسكنَ** ἡ σκηνή ، فلم يقدر موسى أن يدخل خيمة الإجتماع.» (خر٤٠: ٣٤و٣٥)

ــ «لأني لم **أسكنْ** في بيت منذ يومَ أصعدت بني إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم بل كنت أسير في خيمة وفي **مسكن** ἐν σκηνῇ .» (٢صم٧: ٦)

وبهذا يكون ق. يوحنا قد ربط بين حلول يهوه قديماً في خيمة الإجتماع وسط الشعب حيث ملأ بهاؤه المسكن، وبين حلول الكلمة في خيمة جسده الذي لم يستطع أن يخفي بها مجده عن أصحاب العيون المفتوحة «ورأينا مجده»، بالرغم من الإخلاء الظاهري الذي أجراه في ذاته ومن اتضاع هيئة جسده.

والعجيب أن الروح لا يتركنا بلا توضيح، فالنبوات لم تترك حتى هذا الحلول والسُّكنى في آخر الأيام دون إشارة، فنسمع عنه من زكريا النبي «ترنمي وافرحي يا بنت صهيون لأني **هأنذا آتي وأسكن في وسطك يقول الرب.**» (زك٢: ١٠)

هذا من جهة الحلول **«في وسطنا».**

كما يعطينا حزقيال النبي صورة أخرى للحلول «من فوق»: «ويكون **مسكني فوقهم** وأكون لهم إلهاً ويكونون لي شعباً.» (حز٣٧: ٢٧)

ولا نستغرب قوله: «مسكني "**فوقهم**"»، فهذا في الواقع كان موضع سُكنَى يهوه الرب العظيم داخل خيمة الإجتماع **فوق «الغطاء»** على التابوت. وغطاء التابوت هذا له شأن عظيم جداً سواء في اللاهوت العبري القديم ــ وكان اسمه عندهم **«الشاكيناه»**، وهو **«السكن»** أي **«موضع السُّكنى»**، وطبعاً دون ذكر اسم **«الله»** احتراماً وتوقيراً ــ أو في اللاهوت الطقسي في الكنيسة القبطية (الإيلاستيريون)(٢٧). «وصنع غطاء من ذهب نقي طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف، وصنع كروبين (الشاروبيم) من ذهب... وكان الكروبان باسطَيْن أجنحتهما إلى فوق مُظلِّلين بأجنحتهما فوق الغطاء ووجهاهما كل واحد إلى الآخر» (خر٣٧: ٦ــ٩). وقد حدَّد الله مكان تواجده على هذا الغطاء هكذا:

ــ «وقال الرب لموسى كلِّم هارون أخاك أن لا يدخل كل وقت إلى القدس داخل الحجاب **أمام الغطاء** الذي على التابوت لئلا يموت، **لأني في السحاب أتراءى على الغطاء.**» (لا١٦: ٢)

ــ «وأنا أجتمع بك هناك وأتكلم معك **من على الغطاء**، من بين الكروبين، اللذين **على تابوت** الشهادة بكل ما أوصيك به إلى بني إسرائيل.» (خر٢٥: ٢٢ ــ الترجمة البيروتية)

ــ أما الترجمة السبعينية: «وسأُعلن لك نفسي γνωσθήσομαί σοι من هناك **وأتكلم معك من فوق الغطاء** = ἱλαστηρίου من بين الكروبيْن اللذين فوق تابوت الشهادة بكل الأشياء التي أُكلِّفك بها بخصوص بني إسرائيل».

وفي العبري تُترجم «الإيلاستيريون» بـ«الكابوراة» kappôreth، ويترجمها بعض العلماء بكرسي الرحمة، إشارة إلى مركز المسيح الشفاعي؛ ولكن معظم العلماء المدققين يربطون معناها بالكفَّارة وليس بالشفاعة، لأن المعنى الجذري في العبرية يقوم على الذبيحة، فهو معنى ذبائحي ينسجم مع الكفَّارة وليس الشفاعة. لأن رئيس الكهنة يدخل مرة واحدة في السنة في يوم الكفارة إلى قدس الأقداس لينضح من ذبيحة الخطية على الكبُّوراة أي غطاء التابوت أي الإيلاستيريون. وبولس الرسول يقطع بأن المسيح قد صار هو الإيلاستيريون وقد تخضب بدم نفسه فصار الكبُّوراة الإلهية والكفَّارة الدائمة (رو٣: ٢٥).

من هذا يتضح أن عبادة يهوه قديماً ارتبطت بخيمة الإجتماع وحلوله فيها وكان مركز خيمة الإجتماع الأقدس هو التابوت، وأقدس ما في التابوت هو غطاؤه حيث يسكن يهوه بصفة دائمة،

---

(٢٧) على القارىء الرجوع إلى تسابيح شهر كيهك حيث يتكرر ذكر «الإيلاستيريون» مئات المرات باهتمام كبير للغاية. وهو نفس الإهتمام والمركز الذي كان يحتله الشاكيناه لدى العبرانيين.

كما يُفهم من الآيات السابقة.

وفي اللاهوت العبري، يُعتبر الغطاء هذا أو الشاكيناه هو موضع **«سكن»** يهوه المقدس الدائم سواء في ترحاله قديماً أو إقامته الدائمة في الهيكل. وقد قدّس العبرانيون اسم الشاكيناه «السكن» وجعلوه عوض اسم الله أو «الحضرة الإلهية»، فجاءت الترجمة العبرية للآية: «ويجعلون لي مَقْدِساً (هيكلاً) لأسكن في وسطهم» (خر٢٥: ٨) في الترجوم هكذا: «وسأجعلُ الشاكيناه تسكن في وسطهم»(٢٨). لذلك فإن قول ق. يوحنا «وسكن بيننا» كان يهدف بقوة إلى لفت أنظارنا إلى الحضرة الإلهية أو موضع سكناه في القديم.

وقد التقط آباء الكنيسة القبطية الأوائل هذا الوضع الفائق والممتاز لغطاء التابوت = الشاكيناه (السكن)، وجعلوه تعبيراً عن التجسد، وجعلوا العذراء القديسة مريم هي الغطاء الذهب الذي حلّ عليه الله، أو سكنت فيه الحضرة الإلهية.

غير أن بولس الرسول استخدم لفظة «الغطاء» ἱλαστήριον بمعنى الكفّارة في الآية: «الذي قدّمه الله كفّارة ἱλαστήριον بالإيمان بدمه» (رو٣: ٢٥)، وهي الكلمة العبرية الأصل «كبُّوراة» المسماة أيضاً «كرسي الرحمة».

من هنا جاءت النبوة «ويكون مسكني "**فوقهم**" وأكون لهم إلهاً ويكونون لي شعباً» (حز٣٧: ٢٧). فإنجيل لوقا يسجل لنا كيفية مدخل الكلمة إلى الجسد الذي حلّ فيه هكذا «الروح القدس "**يحل عليك**" **وقوة العليّ** "**تظلّلك**"، فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يُدعى ابن الله» (لو١: ٣٥). فهنا واضح أنه بدأ سكناه هكذا **«يحلُّ عليكِ»**، وبدأ مجد الله وقوته تخيّم **«فوق»** جسد البشرية الممثَّل في العذراء القديسة الثيئوتوكس.

ويحلو لنا أن نكمّل بأن ترحال يهوه قديماً «ساكناً» وسط شعبه، من خيمة إلى خيمة ومن موضع إلى موضع مع الشعب التائه أربعين سنة، وفي العبور الإعجازي للأردن، حيث التابوت كان يتقدم المسيرة، ثم الإقامة الساخطة في وسط شعب متمرد غليظ الرقبة الذي أعطوه القفا دون الوجه جزاء ترحاله المضني معهم هذه السنين كلها، أخيراً وأخيراً جداً استقر في **«جسد الإنسان: الشاكيناه الحقيقي والحضرة الحقيقية لله»**، التي وثّق أعمدتها في السماء وعلى الأرض: «وليس أحد صعد إلى السماء إلاَّ الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء» (يو٣: ١٣)

[28] Raymond E. Brown, *op. cit.*, vol. I, p. 33.

ليعيش فينا ومعنا دائماً وإلى الأبد «وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر.» (مت٢٨: ٢٠)

ج ــ «**ورأينا مجده**»[٢٩]:

واضح أن «**حلَّ بيننا**» بمفهومها المنطبق على سكنى الحضرة الإلهية في الجسد على مستوى خيمة الإجتماع لا بد أن يرافقها استعلان المجد. وهنا يقدم ق. يوحنا شهادته كواحد من الذين رأوا هذا المجد.

وكلمة «رأينا» ἐθεασάμεθα باللغة اليونانية تتبع مجموعة الرؤية غير العضوية التي ليست بالعين بل بالإيمان للاستعلان. فكلمة «يرى» باليونانية عند ق. يوحنا وردت على ستة تركيبات تختلف في اللفظ بعضها عن بعض، بينما هي تأتي في الترجمة العربية بتركيب واحد: «يرى»، أما في اليونانية فهي:

ὁρᾶν, ἰδεῖν, ὄψεσθαι, βλέπειν, θεᾶσθαι & θεωρεῖν

وهي تنقسم إلى ثلاث مجموعات كلٌّ منها له موضع خاص للتعبير عن نوع من الرؤيا الخاصة. ولفظة ἐθεασάμεθα هنا تتبع الرؤيا الخاصة بالاستعلان، سواء بخصوص حادثة أو لشخص المسيح نفسه الذي يستعلن ذاته من خلال كلماته وأعماله. وهذا النوع من الرؤيا لا يتبع الرؤيا الروحية التي للروحيين، التي يروا بها ما لا يُرى، ولكنها هنا رؤية الإيمان البسيط الذي يستعلن الحق بمقدار ما يعلن الحق ذاته. وهذا كان سلوك المسيح العجيب، الذي كان يعمل ويتكلم مُعلناً الحق الذي فيه، الذي كلُّ مَنْ كان عنده حاسة الإيمان كان يقبله ويؤمن، لأنه كان يرى الحق الذي فيه. وهذا النوع من الإيمان أو رؤية الإيمان لا يحتاج في الحقيقة للرؤية العينية وهو الذي نص عليه المسيح بقوله لتوما: «**لأنك رأيتني** يا توما آمنتَ، طوبى للذين آمنوا **ولم يَرَوْا**» (يو٢٠: ٢٩). هذه الطوبى المذخرة **في رؤية الإيمان بلا عيان** هي التي بقيت لنا حتى اليوم كما يقول بطرس الرسول: «الذي وإن **لم تروه** تحبونه، ذلك وإن كنتم **لا ترونه** الآن لكن تؤمنون به فتبتهجون بفرح لا يُنطق به ومجيد.» (١بط١: ٨)

هنا يتحتَّم علينا، أيها القارىء العزيز، أن نوضح قيمة رؤية الإيمان غير العيني ἐθεασάμεθα، إذ أنه أصلاً قام على رؤية علنية منظورة ومحسوسة إذ كانت تخص الكلمة المتجسد، هذه الرؤية العلنية التي ارتفعت عندهم إلى رؤية غير مُعتمِدة على النظر والسمع، هذه هي الرؤية

(٢٩) أنظر توضيح معيار «المجد» في المدخل ص١٢٣ــ١٢٨.

الإيمانية الصرف، التي سلّمها الرسل للكنيسة، فصارت هي أساس الإيمان القويم غير المعتمد على المشاهدة ورؤيا العين، ولكن بقي الرسل هم أساس هذا الإيمان الوحيد. لذلك نحن نؤمن بالرسولية الكنسية عن حق وأصالة وضرورة حتّمتها رؤيتهم ἐθεασάμεθα القائمة على الرؤية العينية والمشاهدة واللمس التي اختُصُّوا بها وحدهم دون جميع من رأوا الرب. لهذا صار الإيمان الرسولي المؤسس على ἐθεασάμεθα هو ذخيرة الكنيسة، التي عليها نعيش، وبها نمسك كَمَنْ يمسك بالحياة الأبدية.

وهذا الأساس الرسولي الإيماني القائم على الرؤية الإيمانية غير العينية ἐθεασάμεθα يضعه ق. يوحنا الرسول موضع الشهادة الرسولية، لكي يُعتمد بختم رسولي: «ونحن قد نظرنا τεθεάμεθα ونشهد أن الآب قد أرسل الابن مخلِّصاً للعالم» (١يو٤: ١٤)، «الذي كان من البدء، الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ἐθεασάμεθα ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة...» (١يو١: ١). لذلك نستطيع بكل يقين أن نقول أن الإيمان غير العيني القائم على الرؤيا الصادقة هو إيمان تاريخي بالدرجة الأولى، له جذر تاريخي عاينه الرسل وعاشوه، لأن الله ظهر في الجسد وفي التاريخ. لهذا فكل مَن بلغ بالحقيقة إلى رؤية الرسل هذه ἐθεασάμεθα لابن الله يكون قد بلغ الرؤية الأمثل بكل تأكيد، أي يكون قد واجه معجزة التجسد ووضع يده على الجسد ورأى وشاهد ولمس، وذلك من خلال إيمان الرسل وشهادتهم. لذلك لم تصبح معجزة التجسد حبيسة تاريخ جيل الرسل. لقد استطاع الرسل بالرؤيا غير العينية ἐθεασάμεθα أن يجعلوا معجزة التجسد معجزة كل جيل. لقد أخرجوها من حيِّزها التاريخي إلى ما هو فوق التاريخ وبعده.

ولعل أقوى المواضع التي ذُكر فيها كيف شوهد المجد علناً وعياناً هو حادثة التجلي، ولو أن ق. يوحنا لم يذكرها مع أنه كان أحد ثلاثة شهود لها، وقد سجّل هذه الحادثة كل من الأناجيل الثلاثة: «**أخذ بطرس ويوحنا ويعقوب.** وصعد إلى جبل ليصلي. وفيما هو يصلي **صارت هيئة وجهه متغيرة** ولباسه مبيضاً لامعاً. وإذا رجلان يتكلمان معه وهما **موسى وإيليا،** اللذان **ظهرا بمجد،** وتكلما عن خروجه الذي كان عتيداً أن يكمّله في أورشليم. وأما بطرس واللذان معه فكانوا قد تثقلوا بالنوم. فلما استيقظوا **رأوا مجده** والرجلين الواقفين معه. وفيما هما يفارقانه قال بطرس ليسوع: يا معلم جيد أن نكون ههنا، **فلنصنع ثلاث مظال** σκηνάς لك واحدة ولموسى واحدة ولإيليا واحدة. وهو لا يعلم ما يقول. وفيما هو يقول ذلك كانت **سحابة فظللتهم** فخافوا عندما دخلوا في السحابة. وصار صوت من السحابة قائلاً: هذا هو ابني الحبيب. له اسمعوا.» (لو٩: ٢٨ــ٣٥)

وفي هذا الحادث نلتقط عدة أمور تهمنا في شرح الآية التي نحن بصددها:

١ ـــ «أخذ بطرس ويوحنا ويعقوب».

٢ ـــ «صارت هيئة وجهه متغيرة» يقول عنها القديس متى في إنجيله: «**وتغيرت هيئته** μετεμορφώθη (تجلى)، **وأضاء وجهه كالشمس**، وصارت ثيابه **بيضاء كالنور.**» (مت١٧: ٢)

٣ ـــ «**موسى وإيليا اللذان ظهرا بمجد**».

٤ ـــ «**فلما استيقظوا رأوا مجده**».

٥ ـــ «**فلنصنع ثلاث مظال** لك واحدة ولموسى واحدة ولإيليا واحدة».

٦ ـــ «**كانت سحابة فظللتهم**». يقول عنها القديس متى الإنجيلي أنها «سحابة نيِّرة».

٧ ـــ «وصار صوت من السحابة قائلاً **هذا هو ابني الحبيب. له اسمعوا**».

ونحن إذا عدنا إلى الحادثة المماثلة في العهد القديم مع موسى، نجد الآتي: «فصعد موسى إلى الجبل فغطّى السحاب الجبل وحلَّ مجد الرب على جبل سيناء وغطّاه السحاب... وكان منظر مجد الرب كنار آكلة...» (خر٢٤: ١٥و١٦و١٧)

ففي هذا المنظر وكل مناظر استعلان مجد يهوه الله في العهد القديم نجد أنه بمجرد اقتراب الله من الشعب، أو بالأكثر من موسى وهارون، أو اقتراب موسى وهارون أمام الله، كان يصاحب ذلك ظهور واستعلان مجد الله! فإن كان الأمر هكذا في القديم فكم وكم بالحري بعدما اقترب الله ثم اقترب ثم تواجه مع الإنسان داخل الإنسان كيف لا يستعلن مجده فيه!

وإن حادثة التجلي تجمع الظهورين معاً والمجدين معاً: مجد الآب في السحابة النيِّرة التي ظللتهم مع صوته الآتي من المجد الأسنى، مع مجد الابن ونور الكلمة يغشى «الجسد» فيجعل الوجه يضيء كالشمس.

ثم علينا أن نعود إلى ذاكرة القديس بطرس لنسمع منه ما يتذكره عن حادثة التجلي هذه بعينها:

ـــ «لأننا لم نتبع خرافات مصنَّعة، إذ عرَّفناكم **بقوة ربنا يسوع المسيح ومجيئه**، بل قد كنَّا **معاينين عظمته. لأنه أخذ من الله الآب كرامة ومجداً** إذ أقبل عليه **صوت كهذا من المجد الأسنى: هذا هو ابني الحبيب الذي أنا سُررتُ به.** ونحن سمعنا هذا الصوت مقبلاً من السماء **إذ كنَّا معه** في الجبل المقدس.» (٢بط١: ١٦ــ١٨)

واضح من هذه الشواهد أن ق. يوحنا حينما قال: «**ونحن**»، **فهو** يقصد الخاصة جداً من تلاميذه وهم الثلاثة الذين كان قد انتخبهم من الاثني عشر ليُطْلعهم على سِرِّ مجده هذا، كما أطْلع موسى سابقاً على الجبل في سيناء، حيث تقول النبوة أنه «**سيراه كل بشر.**» (إش ٤٠: ٥)

وقد يظهر تعارضٌ في قول النبوة قديماً على فم إشعياء النبي بخصوص هذه الرؤية وهذا المجد: «عزُّوا عزُّوا شعبي يقول إلهكم. طيِّبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمل، أن إثمها قد عُفِي عنه أنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها. صوتُ صارخٍ في البرية أعِدُّوا طريق الرب، قوِّموا في القفر سبيلاً لإلهنا. كل وَطاءٍ يرتفع، وكل جبل وأكمة ينخفض، ويصير المعوجُّ مستقيماً والعراقيب سهلاً. **فيُعلَن مجد الرب ويراه كل بشر معاً لأن فم الرب تكلم.**» (إش ٤٠: ١ــ٥)

ولكن كان دأب الأنبياء أن يختصروا الزمن اختصاراً، فآلاف السنين تصير غداً أو سريعاً، لأن الرؤيا تكون في وهج شدتها متجمعة معاً وليست موزَّعة على السنين والأجيال. وقد تم بالفعل **الجزء الأول من الإعلان عن مجد الرب**، ورآه الأخصَّاء والمقرَّبون والمختارون والمفديُّون، فمجَّدوا صاحب المجد. أما **الجزء الثاني من الإعلان عن مجد الرب فهو مؤجَّل** للجزء الباقي من البشرية حينما يرونه في مجيئه الثاني، في ملء مجده ومجد أبيه مع ملائكته (مت ٢٤: ٣٠، رؤ ١: ٧).

وقوله: «**رأينا**»، **فهو** يتكلم عن رؤيا غير عادية كانت تحت سحابة نيِّرة، أي في الحضرة الإلهية، التي تطابق حضور «يهوه» قديماً على جبل سيناء، في السحابة التي ظللته. وهنا إشارة سرِّية إلى التعرُّف على شخصية المسيح. وحضور موسى وإيليا في التجلي **بمجد** هو إشارة ضمنية إلى قوله: «مشهوداً له من الناموس (موسى) والأنبياء (إيليا)» (رو ٣: ٢١). وكلمة «**بمجد**» بالنسبة لموسى وإيليا تفيد ارتفاع كرامة الناموس والأنبياء في أشخاص مُمثِّليهما موسى وإيليا.

وقوله: «**رأينا مجده**»، فهو يقصد مجد «الكلمة بعد أن صار جسداً» أي يسوع المسيح. وقد اتضح من تسجيلات حادثة التجلي أنه فعلاً تغيرت هيئته الجسدية ولمع وجهه كالشمس وابيضَّت حتى ثيابه كالنور. ويصف القديس بطرس هذا المجد الذي رآه على الجبل أنه عاين عظمته، أي **جلاله** μεγαλειότητος **وقدرته** δύναμιν، وأنه أخذ من الآب **كرامة** τιμὴν **ومجداً** δόξαν: «**مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً**».

هنا فإن تكرار كلمة «المجد» هو بقصد التركيز ولفت الإنتباه لكي لا نتوه في تواضع «الجسد» أو في مضمون الإخلاء. فالمجد مُعلَنٌ ومنظور للعيون التي لا يلزمها الإخلاء والتي

أدركت حقيقة «الكلمة» اللوغُس، مهما تنازل وأخذ منظراً: **«هكذا مُفْسَداً أكثر من الرجل»** حسب قول إشعياء النبي (٥٢ : ١٤). لأن خطيئتنا هي التي حتَّمت على العين الضعيفة أن تراه **«لا منظر (له) فنشتهيه.»** (٥٣ : ٢)

أوَ ليس **«الكلمة»** اللوغُس هو صوت الله ونداؤه، وهو قوله وأمره، فكيف نسمع صوت الله من فم اللوغُس ولا نحس بالمجد المحاط به، هذا إذا أحسنَّا الرؤيا؟ لأنه حتى اليهود العاديون لمحوا في كلامه مجد الله وسلطانه «لأنه كان يعلِّمهم كمَنْ له سلطان وليس كالكتبة» (مت٧ : ٢٩)!! أو بمعنى متقدم قليلاً عن الآية، إن المجد الذي رأوا ما هو إلا حب الآب منطبعاً عليه فلم يستطع أن يخفيه، واستطاعوا هم أن يستشفُّوه من فيض النعمة التي كانت عليه والحق الخارج منه الذي يهز كيان الإنسان الروحي.

وهذا المجد الذي رأوه فيه الذي هو حب الآب المنطبع عليه هو هو الذي جعل من الذين قبلوه أولاداً لله، أي أن هذا الحب نفسه أو المجد نفسه لما آمنوا به أدْخلهم في مجاله فصاروا أولاد الله أي الحائزين على الحب الأبوي.

ونلاحظ أنه بظهور الكلمة في الجسد صار استعلان المجد الذي فيه. وقول ق. يوحنا أن هذا المجد لمحوه وتيقّنوا منه أنه مجد ابن وحيد لأبيه أو بالحري هو مجد الآب للابن الوحيد، هذا يوضّح لنا سرًّا من أخطر الأسرار، أن استعلان المجد في الكلمة المتجسد كشف في الحال سِرَّ الآب والابن فيه، فبالرغم من أنه ظهر كابن، ولكن المجد كان مجد الآب في الابن. ولهذا أيضاً صار كل مَنْ يرى الابن برؤية الإيمان ἐθεασάμεθα فإنه يرى الآب بالضرورة، لأن مجد اللاهوت في الابن يشمل معه مجد الآب بآن واحد بدون شرح ولا توضيح: «الذي رآني فقد رأى الآب.» (يو١٤ : ٩)

ق. يوحنا يجمع هنا جلة ما رآه وسمعه واختبره مع الخاصة من التلاميذ ويؤكد ذلك بقوله: **«ونحن»**.

فهو سمع بنفسه الرب يسوع المسيح يخاطب الآب عن مجده الخاص له عند الآب (يو١٧ : ٥ و٢٤)، بل وسمع الآب يوافق بأنه «مجّد وسيمجّد أيضاً» (يو١٢ : ٢٨)، بل وسمع ورأى هذا المجد في حادثة التجلي المذكورة سابقاً، بل شاهد وعاين وشهد لأعمال الرب يسوع المسيح التي تنطق جميعها بمجده وأوضحها عرس قانا الجليل ومعجزة تحويل الماء خمراً التي بها أظهر المسيح مجده لتلاميذه فآمنوا به. هذا ولا ننسى المجد الذي عايشه ق. يوحنا مع كوكب الصبح المنير يسوع المسيح

نفسه في سفر الرؤيا: «ووجهه كالشمس وهي تضيء في قوتها.» (رؤ١:١٦)

«مجداً كما لوحيد من الآب»:

هنا يُقصد بحرف **كما** = ὡς أن المجد الذي ظهر به الكلمة المتجسد هو المناسب والمطابق فقط لابن الله، الذي له وحده يليق كل مجد الله «الآب كالابن».

«وحيد من الآب» = μονογενοῦς ـ «مونوجانيس» والكلمة من مقطعين μόνος = واحد (Single) ـ γένος= نوع (Kind). وهذا الوصف بالنسبة للكلمة المتجسد هو استعلان الحب الأبوي لله وهو من أعمق وأعز الاستعلانات التي عرفها الإنسان عن الله.

و«المونوجانيس» كأعظم وأعز استعلان للحب الإلهي فاز به العالم لما بلغ ملء أحزانه وأعوزه مجد الله، إذ انشقت السماء بالفعل وأرسل الله محبوبه ليدبر العالم ويرعى الإنسان: «هكذا **أحب** الله العالم حتى بذل **ابنه الوحيد** (المونوجانيس) لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (يو٣:١٦). لاحظ الارتباط بين «أحب» و«الابن الوحيد».

وإذا أردت أن تعرف أيها القارىء العزيز قيمة هذا المحبوب الوحيد عند الله، اسمع ما يقوله: «الذي يؤمن به لا يُدان والذي لا يؤمن قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد (المونوجانيس)» (يو٣:١٨)، وقوله: «الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني.» (يو١٦:٢٦)

وق. يوحنا يصادق على هذا ويزيد: «بهذا أُظْهِرَت محبة الله فينا أن الله أرسل ابنه الوحيد (المونوجانيس) إلى العالم لكي نحيا به» (١يو٤:٩). أي أن المونوجانيس عند ق. يوحنا هو أعظم حدث من أحداث الحب الإلهي الذي استُعلن لنا في يسوع المسيح.

وحينما يقول ق. يوحنا أن المونوجانيس كائن في الحضن الأبوي فهو يضع المحبة في موضعها، ويشير إلينا من أين انفتح لنا ينبوع هذا الحب. وإن كان هذا هو الموضع الذي خصَّصه الآب للمونوجانيس، إذن فأي موضع يليق به عند الإنسان ليضعه فيه إلا القلب!!؟

هذا الوصف ليس من عند ق. يوحنا بل هو نفس الصفة التي أعطاها صوت الله الآتي من السماء، أو كما يقول ق. بطرس: من المجد الأسنى، والذي سمعه ق. بطرس بنفسه هكذا: **«هذا هو ابني الحبيب الذي أنا سررت به»** (٢بط١:١٧). فالمونوجانيس تفيد أنه ابن حبيب وموضع مسرة أبيه الفريدة الذي لا يُشاركه فيها آخر قط. وهذا الإصطلاح في الاستخدام يأتي للمذكر والمؤنث على السواء وقد جاء في مواضع كثيرة.

وكلمة المونوجانيس بحسب تحقيق العلماء[30] لا تحمل معنى الولادة أو المولود[31] وأدلتهم في ذلك ورود هذا الوصف في حالات يتعذر بل يمتنع فيها معنى الولادة أو المولود مثل:

١ ـــ **في وصف إسحق ابن إبراهيم** من فم الله نفسه: «وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم. فقال له يا إبراهيم، فقال هاءنذا. فقال خذ ابنك وحيدك ـــ μονογενής ـــ **الذي تحبه** إسحق، واذهب إلى أرض المريّا وأصعِدْه هناك محرقة...» (تك ٢٢: ١و٢).

والمعروف أن إبراهيم وُلد له ابنان وليس ابناً **واحداً**، فهو ليس وحيداً. ولكن كان إسحق هو **«الابن الوحيد المحبوب عند أبيه»، وهذا هو المونوجانيس ضبطاً وربطاً.**

٢ ـــ كما ورد هذا الوصف العادي على ابن أرملة نايين: «إذا ميت محمول ابن **وحيد** μονογενής لأمه وهي أرملة» (لو ٧: ١٢). ومن هنا تأتي كلمة «مونوجانيس» باعتبارها «قيمة» عالية وغالية جداً عند هذه الأرملة.

٣ ـــ «وإذا رجل اسمه يايرُس... لأنه كان له بنت **وحيدة** μονογενής.» (لو ٨: ٤١و٤٢)

٤ ـــ «ثم أتى يفتاح إلى المصفاة إلى بيته. وإذا بابنته خارجةً للقائه بدفوف ورقص وهي **وحيدة** μονογενής. لم يكن له ابن ولا ابنة غيرها» (قض ١١: ٣٤). وهنا أيضاً المونوجانيس تأتي **كصفة تحمل قيمة عالية للغاية.**

٥ ـــ وقد جاءت في معانٍ كثيرة لا علاقة لها بالبنوة ولا بالميلاد، ولكن أتت في معنى الوحيد المحبوب للغاية بالنسبة للإنسان وهي نفسه: «**نفسي وحيدتي**»: «...يا قوتي أسرع إلى نصرتي. أنقذ من السيف **نفسي** من يد الكلب **وحيدتي** μονογενῆ μου.» (مز ٢٢: ١٩و٢٠، ٣٥: ١٧)

٦ ـــ وجاءت بمعنى أنا **وحدي**: «التفت إليَّ وارحمني لأني **وَحْدٌ** μονογενής ومسكين أنا.» (مز ٢٥: ١٦)

وقد جاءت هذه الكلمة μονογενής في اللغة العبرية في مواضع كثيرة بمعنى المحبوب فقط ἀγαπητός وهي قريبة من كلمة المغبوط.

ولكن كانت نظرة آباء ما قبل نيقية منحصرة نوعاً ما في معنى «الولودة» وهذا لا تحتمله الكلمة.

---

30 Westcott, *op. cit.*, p. 12.

31 Leon Morris, *The Gosp. acc. to St. John*, p. 105.

«كما لوحيدٍ من الآب»:

هنا يبدأ ق. يوحنا يضع أساس استعلان الكلمة بعد التجسد والتأنس، فهو يكشف عن **درجة بنوة الكلمة لله** حيث **«الكلمة هو الابن»** في الذات الإلهية والله هو الآب. وق. يوحنا يعلن عن اكتشافه للابن عن طريق المجد الذي استُعلن في الكلمة لما تجسد، تماماً كما أعلنت الأناجيل بفم الملاك عن الحبل الإلهي للابن بالميلاد الإعجازي الفائق من العذراء مريم وبشارة الملاك العلنية بذلك: «الروح القدس يحلُّ عليكِ، وقوة العلي تظلِّلكِ، فلذلك أيضاً القدُّوس المولود منكِ يُدعى **ابن الله.**» (لو١: ٣٥)

وقد أعاد المسيح نفسه صياغة نطق الملاك هذا بتأكيد قائلاً: «فالذي قدّسه الآب وأرسله إلى العالم أتقولون له إنك تجدِّف لأني قلت إني **ابن الله.**» (يو١٠: ٣٦)

وكما استُعلن للقديس بولس **بالقيامة من الأموات بمجد الآب:** «وتعيَّن **ابن الله** بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات.» (رو١: ٣، ٦: ٤)

وكما تيقن القديس لوقا الإنجيلي بإعلان من المسيح نفسه أنه سيأتي كابن الله في مجده ومجد أبيه: «متى جاء بمجده ومجد الآب والملائكة القديسين.» (لو٩: ٢٦)

وهكذا نرى هذه الاستعلانات كلها متدرجة من جهة يقينية استعلان درجة البنوة لله هكذا:
أولاً: بالميلاد: **دُعِي** ابن الله بفم الملاك.
ثانياً: بالقيامة: **تعيَّن** ابن الله بالقوة من جهة روح القداسة.
ثالثاً: بالمعايشة والمعاينة: رأيناه ابن الله ــ مع ق. يوحنا.
رابعاً: بوعد المسيح نفسه أنه يأتي ثانياً كابن الله في مجده ومجد أبيه.
خامساً: بتصريح المسيح نفسه.

«من الآب»: παρὰ πατρός

وقول ق. يوحنا «من الآب» يشير ويركِّز على **«نسبة المجد والبنوة** بين الآب والابن»، كما تفيد أيضاً «الإرسالية»= ابن وحيد مُرْسَل من الآب: «أنا أعرفه لأني "**منه**" وهو "**أرسلني**".» (يو٧: ٢٩)

وقول ق. يوحنا: «كما لوحيد من الآب» تفيد بحسب لاهوت ق. يوحنا، وهو اللاهوت

الذي استرعى انتباه آباء الكنيسة الأوائل، أنها تفيد علاقة يبدو فيها الابن مرتبطاً في وجوده بالآب ارتباطاً ذاتياً وجوهرياً، فهو ليس فقط ابن للآب بل ومُرْسَلٌ منه رسالة يؤديها بحتمية (الطاعة)(٣٢). **وحتى المجد الذي للابن فهو ليس مجرد مجد الابن** بل مجد ابن وحيد **من الآب.**

والقديس بطرس يوضح هذه النسبة بغاية الدقة هكذا: «لأنه '**أخذ من الله**'، كرامة **ومجداً**» (٢بط١: ١٧). إذن فهو «**مجد من الآب**» للابن، وبهذا ينكشف لنا المعنى المختفي وراء قول ق. يوحنا: «مجداً كما لوحيد **من الآب**». ولا ينبغي أن يفوتنا أن كلمة «وحيد لأبيه» تفيد معنى الفرادة في الحب حيث يستحوذ الابن على كل حب الآب. هذا نسمعه من الله بغاية الوضوح والتركيز «**ابني الحبيب**»، أي أن «مجد ابن وحيد لأبيه» تعني بكل العمق استعلان **«مجد الحب الأبوي»** في المسيح للتلاميذ، وبالتالي للكنيسة، لأن كل مجد الابن ورثته الكنيسة لأنها جسده المملوء نعمة وحقاً.

وهكذا فإنه **بحب الآب للابن** تم **الخلق**، وتم **الفداء، وتأسست الكنيسة!** لأن بحب الآب للابن «**كان كل شيء**» في الخليقة الجديدة مثل القديمة، وبدون حب الابن للآب **لم يكن شيء مما كان**، وهكذا أحب الله العالم ففداه بحياة ابنه: «بذل ابنه الوحيد.» **(يو٣: ١٦)**

فالعلاقة بين الآب والابن علاقة(٣٣) تشمل وتتغلغل كل ما للابن حتى أنه لا يوجد الابن منفرداً بصفة لاهوتية خاصة به على الإطلاق إلا كونه ابناً.

ومن الملفت للنظر أن الله الآب بالنسبة للمسيح الابن في إنجيل يوحنا مذكور ١٣٧ مرة(٣٤)، في حين أن إنجيل متى مذكور فيه ٦٤ مرة فقط، وإنجيل لوقا ٥٦ مرة، وإنجيل مرقس ١٨ مرة.

هذا يلزم أن ينتبه ذهننا أن إنجيل يوحنا يتخصص في توضيح علاقة الآب بالابن والابن بالآب، أو بتعبير أصح يركِّز على استعلان سر الأُبوَّة والبُنوَّة في عملية الخلاص والفداء والتبنِّي.

لذلك فبعد الأصحاح الأول الذي كرَّسه لاستعلان «الكلمة» باعتباره الشخصية المحتجبة في الله: «حقاً أنت إلهٌ مُحْتَجِبٌ يا إلهَ إسرائيل المخلِّص» (إش٤٥: ١٥)؛ نجد ق. يوحنا بعد تجسد

[32] Barrett, *The Gosp. acc. to St. John*, p. 139.

(٣٣) راجع المدخل ص ٢١٦.
(٣٤) راجع المدخل ص ٢١٠ـــ٢١٥.

الكلمة يركِّز على المسيح كابن الله حتى نهاية الإنجيل، كاشفاً دور الآب كأساس لعمل الابن الخلاصي.

د ـ **«مملوءاً نعمة وحقاً»:**

بعد أن حلّق ق. يوحنا في ذكرياته السالفة عن الأمجاد التي رآها واستعلنها في الابن الوحيد ووقعت عينه ويده عليها في المسيح، الذي اكتشف فيه سر الحياة الأبدية ومجد البنوة الوحيدة للآب؛ يعود بنا إلى ذكرياته عن «الكلمة» في شخص يسوع المسيح كما اختبره في حياته الخاصة والعامة وسلوكه مع الأحباء والأعداء. وأعطى هذه الشهادة أنه كان مملوءاً نعمةً وحقاً... فالنعمة والحق هي الصفات الإلهية المتجسدة «للكلمة» المتجسد.

هي أصلاً صفات الله الكائنة فيه، ولكن بتجسد الكلمة استُعلنت هذه الصفات لأنها صارت في موضع العطاء، وتجهزت لتصير هبة تُمنح للناس: «وتعرفون **الحق والحق** يحرركم... فإن حرركم الابن **فبالحقيقة** تكونون أحراراً.» (يو٨: ٣٢و٣٦)

«النعمة»: χάρις

لم تُستخدم في إنجيل يوحنا إلا هنا وفي الآية ١٧ من هذا الأصحاح فقط. وأما الحق فهو الصفة الإلهية التي تجيء في القمة بالنسبة للكلمة المتجسد، والتي أعلن عنها المسيح جهاراً: «أنا هو الطريق **والحق** والحياة.» (يو١٤: ٦)

وهاتان الصفتان هما المقابل في العهد الجديد اللتان تعامل بهما الله معنا في شخص يسوع المسيح، كما كان يتعامل بهما يهوه قديماً: «فنزل الرب في السحاب. فوقف عنده (موسى) هناك ونادى باسم الرب. فاجتاز الرب قدامه ونادى: الربُّ الربُّ إلهٌ رحيم ورءوف، بطيء الغضب **وكثير الإحسان** والوفاء، حافظ الإحسان إلى ألوف، غافر الإثم والمعصية والخطية، **ولكنه لن يُبرىءَ إبراءً**» (خر٣٤: ٥ـ٧). فيهوه «**رحيم**» ولكنه «**لن يبرىء**».

لذلك فالنعمة والحق في العهد الجديد هما المقابل الحقيقي للناموس والدينونة كما وضعهما ق. يوحنا نفسه في الآية ١٧ القادمة.

والنعمة في مفهوم ق. يوحنا إذا كانت في مقابل الناموس فهي عملية الفداء والخلاص بكل مشتملاتها ونتائجها، وبالأخص جداً في أنه جعلنا أولاداً وأحباءً بل وأحراراً بعد أن كنا عبيداً تحت سطوة الناموس بمقتضى سلطان الخطية المُذِلّ. بل وتشمل النعمة حتماً كلّ نِعَمِ الله χάριτες

من مواهب؛ بل وبالأكثر جداً اتصالنا بالآب واتحادنا بالابن. أي أن النعمة عند ق. يوحنا هي هي التجسد الذي أجراه الكلمة في نفسه، فهي بالتالي شخص يسوع المسيح نفسه بالدرجة الأولى. لأن فيه وبه نلنا كل النعمة بل كل النعم. لذلك هكذا ظهر الكلمة لما تجسد أنه مملوء نعمة وحقاً، أي كله نعمة وكله حق، على مستوى العطاء.

فنعمة الآب لنا هي أنه بذل ابنه الوحيد من أجلنا ليكون لنا حياة أبدية باسمه، ثم وَلَدَنا لنفسه لما قبلنا ابنه بالإيمان في قلوبنا وحياتنا. الآب ولدنا لنفسه باتصال وليس بالمجاز أو التصور. لأن نعمة الآب لنا هي انعطاف ذاتي والتحام سرِّي. فكلمة «**مولودين من الله**» هي من الجدِّية والحقيقة العملية الروحية على مستوى أعلى من «**الميلاد من الدم ومشيئة الجسد ومشيئة الرجل**»، أي أنها بقوة فعل سرِّي فائق يسري في كياننا الروحي فيغيِّره ليكون على صورة خالقه كما ينمو الولد ويتشكل على صورة والده. «كل من هو مولود من الله لا يفعل خطية لأن زرعَهُ (زرع الله) sperma يثبت فيه ولا يستطيع أن يخطىء لأنه مولود من الله.» (١يو٣: ٩)

ونعمة الآب هي مكمِّلة لنعمة الابن لنا الذي تنازل وأخذ جسدنا لذاته ليهيِّئنا بالتقديس الذي أجراه لنا، لنكون مؤهَّلين لتبنِّي الآب لنا.

«**الحق**» ἀλήθεια (٣٥):

الحق بالنسبة للقديس يوحنا ليس هو الصدق الذي هو عكس الكذب، بل الحقيقة Reality في مقابل **الشِّبه أو الظِل**.

فكل أعمال ومعاملات الله قديماً كانت شبه السماويات وظلّها، «إذ يوجد الكهنة الذين يُقدِّمون قرابين حسب الناموس، الذين يخدمون **شبه** السمويات **وظلَّها** كما أُوحي إلى موسى وهو مزمع أن يصنع المسكن» (عب٨: ٤و٥). وكل رؤية الله مهما سَمَت كانت ليس أكثر من «**شِبْه** الله يعاين» كما جاء على لسان الله: «فقال (الرب) اسمعا كلامي: إن كان منكم نبيٌّ للرب فبالرؤيا أستعلِنُ له في الحلم أكلِّمه. أما عبدي موسى فليس هكذا بل هو أمين في كل بيتي، فماً إلى فم وعياناً أتكلم معه لا بالألغاز، **وشِبْهَ الربِّ يُعاين.**» (عد١٢: ٦ـ٨)

ولكن الآن، وباستعلان الله في الكلمة المتجسد أي شخص يسوع المسيح، ليس بعد كلام الله في حلم ولا بالألغاز بل «كلَّمنا ... في ابنه»، «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة»

(٣٥) انظر شرح معيار «الحق» في المدخل ص ١٠٦ـ١١٢.

(عب١ : ٢؛ يو٦ : ٦٣)، ولا بالشِبْه نعاين الله بل بالحق بـ«الأليثيا»: «الذي رآني فقد رأى الآب (الله)»، «أنا هو... الحق...» (يو١٤ : ٩و٦)

فـ«**الحق**» هنا عند ق. يوحنا هو **استعلان الله في ذاته** استعلاناً حقيقياً كاملاً كآب تبنَّانا، وعرفناه أباً ووالداً لنا، ليس بولادة مجازية أو كمنحة ولكن باتصال وفعل سرِّي: «كلُّ من يحب فقد وُلد من الله» (١يو٤ : ٧)، وكابن أخذ جسدنا ومات عنا وفدانا.

فعندما يقول ق. يوحنا أنه مملوء نعمة وحقاً فهو يعني أنه بالقياس وبقدر ما يستطيع الإنسان أن يقيس ويستوعب فهو الاستعلان الكلي لكل ملء الله سواء من جهة **نعمته** أو من جهة **ذاته**. والكلام كله منصبٌّ على «الكلمة صار جسداً».

ولكي ندرك صلة «**الحق الأليثيا**» **باستعلان الابن** عند ق. يوحنا نسمع من المسيح بوضوح قوله بأن «**الحق**» و«الابن» واحد هكذا: «إن ثبتُّم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي، وتعرفون **الحق والحق يحرركم**» (يو٨ : ٣١)، «فإن حرَّركم **الابن** فبالحقيقة تكونون أحراراً.» (يو٨ : ٣٦)

ويُلاحظ هنا أن «**معرفة الابن**» معرفة ثابتة توصِّل إلى «**معرفة الحق**»، ومعرفة الحق أو الابن كلتاهما تحرر. والمعرفة هنا ليست بنت الفهم والدراسة بل حصيلة رؤيا واستعلان. فالذي يستعلن «الابن» ويدركه في ذاته يستعلن «الحق». أو بمعنى أكثر وضوحاً الذي يستعلن الله «**كآب وابن**» يبلغ إلى منتهى الحق، لأنه يلده **ابناً حُرًّا لله!** هذا كلُّ ما نترجاه من النعمة وكل ما نطلبه من الحق، وهذا قد صار لنا لما صار الكلمة جسداً.

١ : ١٥ «يوحنا شهد له ونادى قائلاً هذا هو الذي قلتُ عنه إن الذي يأتي بعدي صار قدامي لأنه كان قبلي».

هنا ق. يوحنا الإنجيلي يقدم هذه الجملة الإعتراضية بعد وصفه لأمجاد الكلمة المتجسد، مشيراً ومعلناً عن دخول الكلمة المتجسد إلى بدء عمله، الذي لما باشره كشف في الحال عن شخصية المسيا «الكلمة المتجسد»، أنه وإن كان قد جاء متأخراً عن المعمدان إلا أن وظيفته أعلنت جهاراً أنه كائن قبله، ليس من جهة الوقت أو الزمن بل الوجود والكيان: «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن.» (يو٨: ٥٨)

وق. يوحنا يقدم هذه الشهادة من فم المعمدان نفسه ليثبت بها للكلمة المتجسد التقدم المطلق: **«لأنه كان قبلي»**، ليس في العمل وحسب، بل وفي الوجود والكيان السابق على المعمدان؛ الذي وإن كان المعمدان قد سبق المسيح فهذا لكي يعلن عنه و يعدّ الطريق له، وليس ليتقدم عليه في الكرامة.

وتأتي شهادة المعمدان في الفعل المضارع μαρτυρεῖ = يشهد (باستمرار)، لتوضح دوام الحقيقة التي يشهد عنها، بخصوص الشخص المرتقب والمترجَّى ظهوره وطبعاً هو «المسيَّا».

وحينما يقول: «نادى»، فهذه في الأصل تعبير عن الصراخ κέκραγεν الملفت للنظر والذي يكون بالصوت العالي تعبيراً عن خطورة وأهمية من يشير إليه، كما تفيد بصورة خفية أنها الصرخة التي أطلقها ومات عندما ماتت الصرخة، ولم تَعُدْ تتبع التاريخ بل صارت معلومة حية قائمة أبد الدهر. كذلك فإن صراخ الشهادة κράζειν هو التصوير الإنجيلي لعمل الإلهام الروحي الذي يتدفق مرة واحدة في الإنسان فيطلقه بانفعال: «**وامتلأت** أليصابات **من الروح القدس وصرخت بصوت عظيم** وقالت مباركة أنتِ في النساء ومباركة هي ثمرة بطنك» (لو١: ٤١و٤٢). وهذا ما يقصده ق. يوحنا في تسجيله لشهادة المعمدان أنها كانت بنُطْق إلهي.

وغرض إنجيل ق. يوحنا من وضع هذه الشهادة هنا هكذا هو لحساب المؤمن الذي سيأتي عَبْر الزمان، الذي هو أنا وأنت أيها القارىء العزيز، ليأخذ من هذه الشهادة الهامّة جداً، باعتبارها ختم آخِر أنبياء العهد القديم على صدق مجيء المسيا بالجسد في ملء الزمن حسب توقعات كل الأنبياء والآباء والتاريخ اليهودي كله، وأنه وإن جاء في ملء التاريخ إلا أنه كان قائماً قبل التاريخ.

وقد اكتفى الإنجيليون الثلاثة في ذلك بقولهم وبصفة عامة: «يأتي بعدي من هو أقوى مني»؛ ثم في تقييمهم لارتفاع كرامة المسيح بالنسبة للمعمدان سجلوا ما قاله بنفسه:

- «لست أهلاً أن أحمل حذاءه.» (مت٣: ١١)
- «لست أهلاً أن أنحني وأحلّ سيور حذائه.» (مر١: ٧)
- «لست أهلاً أن أحلّ سيور حذائه.» (لو٣: ١٦)

أما ق. يوحنا فقد حدَّد شخصية المعمدان بالنسبة للمسيح، فالمسيح كائن قبل المعمدان. كذلك فعمل المسيح سابق على عمل المعمدان. هذا هو معنى «**كان قبلي**»: **كائناً وعاملاً.**

وشهادة المعمدان التي يقدمها ق. يوحنا هنا تخدم قضية طبيعة وشخصية الكلمة المتجسد تأكيداً أن التجسد أبقى على لاهوت وأزلية الكلمة كما كان. فكأن مجمل قول ق. يوحنا هو أن الكلمة لما صار جسداً بقي كما هو إذ رأينا مجده واستعلنَّا فيه أنه مجدٌ وحيدٍ لأبيه مملوء نعمة وحقاً، والمعمدان شهد لسمو طبيعته الفائقة ولأسبقيته عليه بلا حدود.

١: ١٦ «**ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا، ونعمة فوق نعمة**».

القراءة الصحيحة باللغة اليونانية حسب آباء الإسكندرية تقول: «وبسبب هذا = ὅτι نحن جميعاً أخذنا من ملئه، ونعمة فوق نعمة».

وهذه الآية ولو أنها معتمدة على الآية ١٤ قبل السابقة، «(ونحن) **رأينا مجده**... مملوءاً نعمة وحقاً»، إلا أن هذه الآية هنا تؤكد حقيقة الآية ١٤ عملياً بسبب أخْذِنا من عطاياه. وهكذا يأتي فعل «**أَخَذْنا**» تأكيداً وتصديقاً لفعل «**رأينا**». هذا يزيده التركيب اللغوي اليوناني قوةً وإيضاحاً بسبب أن فعل «**أخذنا**» ἐλάβομεν الذي يعني **أكثر من** «**أخذنا**»، خاصة حينما يأتي بعد شهادة أو معتمداً عليها، إذ يفيد معنى الأخذ على مستوى المَسْك أو القبض أو الاستحواذ سواء فعلاً أو فهماً، وحينئذ ترسَّخ معنى الإيمان اليقيني أو ملء الإيمان؛ حيث «الأخذ أو القبض على» تفيد الفهم والإيمان والقبول والاستحقاق معاً.

وينكشف هذا المعنى حينما نسمع العكس في قول المسيح: «روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله (يأخذه) = λαβεῖν لأنه لا يراه ولا يعرفه» (يو١٤: ١٧). أي أن الأخذ على مستوى القبول يعتمد على رؤيا وتأمل وملاحظة واستحقاق، وإلا يمتنع. ولهذا السبب بالذات، أي لأنهم رأوا مجده رؤية التحقق، لذلك أو «**لهذا السبب**» أخذوا نعمة فوق نعمة.

ولقد ظن بعض آباء العصر الأول مثل أوريجانس وهيراكليدس وغيرهما، الذين اضطلعوا بشرح إنجيل يوحنا أن هذه الآية هي تكملة لحديث المعمدان وشهادته، ولكن تسلسل الكلام والمعنى يمنع ذلك، بالإضافة إلى أن قول ق. يوحنا «نحن **جميعاً**» ليس أسلوب المعمدان، ولا هو من حقه أن يقول ذلك، لأنه جاء كصوتِ **واحدٍ** صارخٍ يعدُّ الطريق وليس ليمتلىء. فالمتكلم هنا هو ق. يوحنا الإنجيلي — كما يقول كلٌّ من القديسين ذهبي الفم وأغسطينوس وكيرلس الكبير. فبعد أن قدم شهادته مع التلاميذ في قوله: **«ونحن» رأينا مجده**، يقدم لنا شهادة الكنيسة معه: **«ونحن جميعاً** أخذنا».

وبهذا تكون هذه الآية هي أول إشارة إلى علاقة الكلمة المتجسد المملوء نعمة وحقاً بالكنيسة التي أخذت من ملئه. وتسلسل الكلام يكون هكذا: «ونحن التلاميذ رأينا مجده مجدَ وحيدٍ لأبيه، وعرفنا وتيقّنا أنه مملوء نعمة وحقاً، وبسبب هذا نحن جميعاً — أي الكنيسة كلها — أخذت من ملئه».

الإشارة هنا بليغة وتشير إلى فيض الحب الذي يتفجر من الكلمة المتجسد على هيئة نِعَمٍ وعطايا متلاحقة الواحدة تمسك بالأخرى. فكل نعمة تؤدي إلى نعمة أكثر. ثم انظر كيف يركّز ق. يوحنا على «جميعاً»، وكأنه لم يترك أحداً في الكنيسة دون أن يغدق عليه نعمة ولو لم يَدْرِ.

ملئه : πλήρωμα

متصلة بسابقتها «مملوء» πλήρης وهي تشير إلى الكثرة والفيض، كما تجيء في اللاتينية Plenitudo (كما وردت في نسخة الـVulgate).

فإذا علمنا أن πλήρωμα هي صيغة الحال المأخوذ من أصل الفعل πληροῦν الذي معناه يكمّل (To make complete)، إذن، فالكلمة تعني كمال الملء أو منتهى الملء. وهذا ما يقصده القديس بولس الرسول بقوله: «لأنه فيه سُرَّ (الآب) أن يحلَّ "**كلُّ**" الملء» = πᾶν τὸ πλήρωμα (كو١: ١٩). والملء هنا تعبير لاهوتي يختص بطبيعة الله، فهو الوحيد الملء الكلي والمالىء الكل. ومن روح إنجيل يوحنا يأتي عمل الملء على أساس الحياة الأبدية. فمن ملء الحياة الأبدية يملأ **«الله الكلمة»** الفرد أو الكنيسة، بالحياة الأبدية.

وفي الحقيقة، وبنظرة واحدة ثاقبة، نرى أن ملء اللوغُس المتجسد الآتي إلينا من جهته هو، هو ملء الحياة والمجد وحب الآب، ولكن من الجهة الأخرى بالنسبة لنا فهو الخلاص الكلي بكل مشتملاته من موت وقيامة وفداء وتبرير وصعود وحياة أبدية ومجد وشركة في الطبيعة الإلهية، بكل

ما يتبع ذلك من مواهب ضرورية وعطايا امتياز وتبنّي وحب إلهي فائق:
ــ «لأن الذي أرسله الله يتكلم بكلام الله، لأنه **ليس بكَيْلٍ يعطي الله الروح.**» (يو٣: ٣٥)
ــ «كما أرسلني الآب الحي وأنا حيٌّ بالآب فمن يأكلني فهو يحيا بي.» (يو٦: ٥٧)

وكلمة «الملء» πλήρωμα محبوبة جداً عند ق. بولس، فهي تملأ قلبه بالإحساس الغامر بفيض النعمة في المسيح يسوع بصورة طاغية. فقد وردت عنده خمس مرات في رسالتي أفسس وكولوسي. وهذه الكلمة بالذات تُعتبر هنا وصلة ذات اعتبار كبير بين لاهوت ق. بولس ولاهوت ق. يوحنا، وبالأخص التي جاءت في الرسالة إلى كولوسي:
ــ «لأنه فيه سُرَّ أن **يحلّ كل الملء**، وأن **يُصالح به الكل** لنفسه، عاملاً الصلح بدم صليبه، بواسطته، سواءٌ **كان ما على الأرض أم ما في السموات.**» (كو١: ١٩و٢٠)

ــ «**فإنه فيه يحلُّ كل ملء اللاهوت جسدياً، وأنتم مملوؤون فيه.**» (كو٢: ٩و١٠)

ــ «وأَخْضَع كل شيء تحت قدميه وإيَّاه جعل رأساً فوق **كل شيء للكنيسة التي هي جسده ملء الذي يملأ الكل في الكل.**» (أف١: ٢٢و٢٣)

ــ «...وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة، **لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله.**» (أف٣: ١٩)

ــ «إلى أن ننتهي جميعنا إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله، إلى إنسان كامل، **إلى قياس قامة ملء المسيح.**» (أف٤: ١٣)

بولس الرسول يرى ملء المسيح هو **ملء الله**، وأن الإيمان بالمسيح والدخول في محبته الفائقة المعرفة هو الطريق للأخذ من هذا الملء حتى الملء الكامل الذي للمسيح، وذلك عندما يتحد المؤمنون في وحدة الإيمان ومعرفة ابن الله. وكل واحد يأخذ من هذا الملء قدر ما تؤهله رؤية إيمانه لمجد المسيح وحبه، وأيضاً قدر ما تؤهله صلته في الكنيسة كعضو في جسدها. لأنه للكنيسة المتحدة فقط أُعْطي ملء المسيح كل الملء، على أساس شدة الحب الذي يجمع أعضاءها ليصير لها ما للرأس بالضرورة الحتمية؛ لأن مجد الرأس هو للجسد، وفخر الجسد هو الرأس.

ق. يوحنا في هذه الآية يقول قول ق. بولس تماماً، إنما باختصار شعري بليغ، كما يُجمل هذا المبدأ اللاهوتي في صلاة المسيح قائلاً للآب القول المستجاب: «وأنا قد أعطيتُهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد» (يو١٧: ٢٢)، هذا هو المجد الذي أخذ من ملئه ق.

يوحنا وأخذت الكنيسة معه.

وهنا لا يفوتنا لمحة لاهوتية نخرج بها من هذا المضمار — في القول عن الملء — من جهة نصيب التجسد من هذا الملء الذي يؤكده و يرسّخه بولس الرسول بقوله: «لأنه فيه سُرَّ أن يحلَّ كلُّ الملء»، و«فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً»، والذي يردُّ عليه ق. يوحنا بقوله: «والكلمة صار جسداً... مملوءًا نعمة وحقاً». هنا ظفر «**الجسد**» بالملء الإلهي، ملء اللاهوت، فدخلته البشرية من أوسع أبوابه لأنه جسد «الكلمة»، الذي انفرش عليه اللاهوت، فمدّد أطرافه ووسّع تُخُمه وأبعاده حتى وَسِعَ ما للاهوت من ملء. هنا دخلت الكنيسة التي هي جسده إلى اللانهائية، لا باستحياء، بل بجراءةِ الذي خلقها وفداها ورفعها من التراب إلى السماء.

«...أخذنا، ونعمة فوق نعمة»:

«**أخذنا**» تأتي هنا بدون مفعول به، «من ملئه نحن جميعاً أخذنا». لأن الملء ليس مجزّءًا، هو فعلاً عطايا ونعم كثيرة وبلا حصر أو على الأصح «بلا كيل». ولكن الملء يُوزّع ليعود فيتجمع، فهو ملء **واحد**، ولا بد حتماً بعد أن يتوزع لكل واحد حسب حاجته وبمسرة الله، أن يصير وينتهي إلى **واحد**، «إلى أن ننتهي جميعنا إلى **وحدانية** الإيمان ومعرفة ابن الله إلى **إنسان** كامل إلى قياس قامة ملء المسيح.» (أف ٤: ١٣)

«ونعمة فوق نعمة»: χάριν ἀντὶ χάριτος

في هذه الآية ذهب الشُّرَّاح كل مذهب، فمنهم من قال — وهم بعض آباء الكنيسة ومنهم ذهبي الفم وكيرلس الكبير — أن نعمة مقابل نعمة تعني نعمة العهد الجديد مقابل نعمة العهد القديم، أي الناموس، ولكن قولهم مردود عليه في الآية ١٧ التي جعلت الناموس هو المقابل للنعمة ومتدنّي عنها: «لأن الناموس بموسى أُعطي، **أما** النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا».

وبولس الرسول يضع الناموس مضاداً للنعمة، وليس مساوياً لها أو حتى بديلاً عنها: (رو٤: ١٤—١٦).

ولكن علماء الشرح المدققين(٣٦) اتفقوا حديثاً على أن ἀντὶ تفيد الملاحقة والمتابعة التي لا تنتهي لعطايا النعم المتجددة دائماً وإلى الأبد من لدن الرب يسوع المسيح:

[Une grâce répondent à sa grâce](٣٧)،

36 Schnackenburg, op. cit., p. 275.

37 P. Jouën: *Recherches de Sciences Rel.* 22 (1932) 206.

أي أن كل نعمة تأتي تنادي نعمة أخرى فترد عليها تلك وتأتي.

فكل نعمة يقابلها نعمة أعمق وأعلى، ونعمة الرب لا تقف ولا تُحدُّ: «لأنه ليس بكَيْلٍ يعطي الله الروح.» (يو٣: ٣٤)

القديس أغسطينوس في عظته الثالثة على الأصحاح الأول لإنجيل يوحنا يشرحها مطوّلاً بما يفيد أن من ملئه نحن أخذنا، هذا مجمل الأخذ، ثم أضاف الإنجيل: «ونعمة فوق نعمة»، فمثلاً الإيمان نعمة و يقابل الإيمان نعمة أخرى وهي الحياة الأبدية، وهكذا.

فإذا عاد القارىء بذاكرته إلى ما قلناه(٣٨) بخصوص طابع إنجيل يوحنا الاستعلاني والمتدرج في استعلانه للمسيح والآب، نجد في هذا القول: «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة» ما يفيد أيضاً الامتداد الاستعلاني للمسيح حتى وإلى الأبد. لأن تلاحق النعم وتلاحق الامتلاء من ملئه ــ أي من ملء النعمة والحق ــ هو أساساً و بالدرجة الأُولى يخدم قضية استعلان حقيقة المسيح الذي لا نهاية لملئه. وفي المنهج الروحي العملي معروف أن كل نعمة يحصل عليها الإنسان إنما ترفعه إلى نعمة أخرى أعلى، لأن النعمة هي بحد ذاتها قوة رافعة، لذلك نسمع القول أن «من يضع نفسه يرتفع» (مت٢٣: ١٢، لو١٤: ١١، ١٨: ١٤)، وما ذلك إلا لأن الإتضاع نعمة، فنعمة الإتضاع ترفع إلى نعمة المجد. وقد يتهيأ أحياناً للإنسان الروحي الذي يمارس الحب الإلهي أنه بلغ المنتهى من النعم والسعادة، و يكاد يقول: كفى، هنا قد بلغت النهاية. ولكن إذ بالنعمة ترفعه إلى مستوى أعلى فينظر وراءه وكأنه لم يكن سابقاً قد بلغ شيئاً!!، وهكذا فلينتبه القارىء أننا أمام قديس إنجيلي متمرس يتكلم من أعماق يعيشها و بكلمات قليلة يسلمها لمن يسير على دَرْبه.

وكما سُرَّ الآب «أن يحلَّ في المسيح كل ملء اللاهوت جسدياً»، كذلك سُرَّ المسيح بنفس القدر والسخاء والحب أن يَصُبَّ كل ملء نعم اللاهوت الذي له في الكنيسة التي هي جسده، لتمتلىء إلى كل ملء نعم الله، لأنها تأسست على دم الحب وشربت منه الروح الأزلي الذي لن يكفَّ أن يأخذ مما للمسيح و يَصبُّ فيها صباً حتى تمتلىء إلى كل ملء الله. فلا تستغربنَّ، أيها القارىء، قول ق. يوحنا: «ونعمة فوق نعمة»، لأن المنعم صمم أن «المجد الذي لي أنا أعطيتُهم»، بل ونفـَّذ بالفعل السرِّي حالة حلول واتحاد وعطاء نعم بلا حدٍّ ولا عدٍّ للذين آمنوا وتبعوا وشهدوا له في كل عصر: «أنا فيهم وأنت فيَّ» (يو١٧: ٢٣). لذلك فسريان النعمة لن

(٣٨) أنظر كتاب المدخل ص٦٦ــ٧١.

يكفّ، طالما كان الاتحاد مفتوحاً.

وشهادة ق. يوحنا هنا خاصةً بإضافة «جميعاً»، و«نحن جميعاً»، هي ليست شهادة فقط، بل واعتراف، بل وصلاة شكر بلسان الكنيسة كلها ولسان القارىء.

فهي تسبحة اعتراف بفضل المسيح يسوع الدائم والأبدي، فلا يوجد مكان أو زمان في الكنيسة يخلو من نعمته، ولا دخل إليه أحد وخرج فارغاً؛ فمراحمه لا تزال تتجدد كل صباح، وفي الفجر تتساقط نعمته كالطلِّ على الكلأ، من يبكِّر إليه يجده، ومن يسهر إليه يتعشى معه. هو هو وحده وليس آخر يعطي ولا حدود لعطائه، ونحن جميعاً جميعاً نأخذ بلا عدًّ ولا مكيال.

١ :١٧ **«لأن الناموسَ بموسى أُعطيَ، أما النعمةُ والحقُّ فبيسوعَ المسيح صارا».**

هنا يدفع ق. يوحنا الاستعلان إلى أقصاه فيبرز الاسم الذي ملأ خياله منذ أن بدأ يكتب إنجيله. هنا برز ختم الرسالة حيث يقرأ بغاية الوضوح اسم صاحبها: «يسوع المسيح».

وهذا هو آخر درجات استعلان مؤهلات «الكلمة»، وقد وضعه في مقابل الناموس أي التوراة جملة بل والعهد القديم برُمّته، موضحاً أن الناموس أي التوراة لم تأتِ لا بنعمة ولا بحق، لا بسبب قصور فيها فهي «**كلمة الله**» بالدرجة الأُولى، ولكن كان القصور في الشعب برؤسائه وكهنته الذين لم يلتصقوا بالله ليدركوا النور الذي فيها، ممّا حدا بالله أن يأتي بنفسه و يلتصق بالإنسان و يسكب فيه من روحه النعمة والحق.

فإذا عُدْنا بالذاكرة إلى مخطط استعلاناته لشخص يسوع المسيح السابقة نجدها هكذا:

١ ــ «الكلمة في البدء» أي الأزلية.

٢ ــ «"الكلمة" عند الله».

٣ ــ «الكلمة الله».

٤ ــ «الكلمة» **كخالق:** «كل شيء به كان».

٥ ــ «الكلمة» **كحياة:** «فيه كانت الحياة».

٦ ــ «الكلمة» **نور:** «والحياة كانت نور الناس».

٧ ــ «الكلمة» **ضد الظلمة:** «والنور أضاء في الظلمة».

٨ ــ «الكلمة» **آتياً إلى العالم:** «كان في العالم» كنور.

٩ ــ «الكلمة» **أتى إلى خاصته:** كلمة الله في الأنبياء ــ **«المسيّا».**

١٠ ــ «الكلمة» **«صار جسداً»**.

١١ ــ «الكلمة» **في هيكله الجديد**: «حلَّ (سكن) بيننا».

١٢ ــ استعلان **الكلمة المتجسد أنه «ابن الله»** مملوء نعمةً وحقاً.

١٣ ــ استعلان **الكلمة كملء الكنيسة**: نحن جميعاً مملوؤون فيه.

١٤ ــ استعلان **الكلمة في شخص «يسوع المسيح»** والعهد الجديد **والإعلان عن انتهاء عهد الناموس: «لأن الناموس بموسى أُعطي، أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا»**.

تأتي هذه الآية موازية للآية السابقة ومترتبة عليها. فظهور النعمة والحق بالملء الإلهي الكلي هو إيذان بانتهاء عصر الناموس، عصر العقوبة والظل. وظهور شخص يسوع المسيح الذي تفسيره اللاهوتي من الآيات السابقة هو «**يسوع**» = الكلمة المتجسد، «**المسيح**» = المسيَّا الآتي، هو إيذان حتمي بانتهاء عصر موسى.

فكون الله قد بدأ «**يكلِّمنا في المسيَّا ابنه**»، فهذا معناه أن عهد «**الكلمة في موسى والأنبياء**» انتهى، والآن قد صار يكلمنا الله بلا وسيط! ليس على أساس القانون والعصا بل بالنعمة والحق.

فعهد المسيح أو المسيحية مبنيٌّ على النعمة، النعمة تغطِّي حياة المسيحي منذ أن يعتمد وحتى يلتحق بوطنه السمائي. ولكن ليست النعمة عطية واحدة على وتيرة واحدة، بل هي نعمة بانية وممتدة لملء حياة المسيحي: «نعمة فوق نعمة». والنعمة ليست وحدها تبني وليست وحدها توصِّل، بل النعمة في المسيحية مؤسسة على الحق، ليس على الشكل ولا الخارج أو الشِّبه أو الزائل، بل هي نعمة الله الموصِّلة إلى الله.

ولكي يتأكد القارىء أن «اسم يسوع المسيح» كان يملأ فكر ق. يوحنا ويُملي عليه كل استعلاناته بتدرجها المدهش هذا، نقدم هاتين الآيتين:

ــ «وهذه هي **الحياة الأبدية** أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك **ويسوع المسيح** الذي أرسلته.» (يو١٧: ٣)

ــ «وآيات أُخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تُكتب في هذا الكتاب. وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أن **يسوع هو المسيح ابن الله** ولكي تكون لكم إذا آمنتم **حياة باسمه**.» (يو٢٠: ٣٠و٣١)

هذا وإن اسم «يسوع» يحتلُّ أكبر مساحة إنجيلية على الإطلاق عند ق. يوحنا، فقد ورد ٢٣٧ مرة في حين أنه ورد في إنجيل ق. متى ١٥٠ مرة وإنجيل ق. مرقس ٨١ مرة وإنجيل ق. لوقا ٨٩ مرة.

ولقد انتحى كثير من الشراح نحو كشف المفارقة بين الناموس والنعمة، أي العهد القديم والجديد، أو موسى والمسيح. ولكن في الحقيقة نحن نسترشد بقول المسيح نفسه ما جئت لأنقض بل لأُكمل: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئتُ لأنقض بل لأُكمل.» (مت٥ :١٧)

ولكي نوضح مدى التكميل أو مدى الكمال في ناموس المسيح بالنسبة لناموس موسى، نقدم للقارىء هذه الوصية الجديدة لعهد ناموس النعمة: «سمعتم أنه قيل عين بعين وسنٌّ بسنٍّ، **وأما أنا فأقول لكم** لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدّك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً.» (مت٥ : ٣٨و٣٩)

إذن، إذا أردنا أن نعمل مقارنة بين عهد الناموس وعهد النعمة، فهذه المقارنة لن تخرج عن قول المسيح أنها مقارنة بين الناقص والكامل الذي أكمله المسيح على الصليب بموته الفدائي: «قد أُكمل» (يو١٩ : ٣٠)، فكان هو سر النعمة كلها.

فكل ما كان ناقصاً في ناموس موسى، أكمله المسيح في نفسه ثم أعطاه لنا مجاناً. وهذه هي النعمة كل النعمة. أو بأكثر دقة ووضوح فإن المقارنة بين الناموس والنعمة هي في حقيقتها مقارنة بين **الجسد والروح!**

ولكن نقص الناموس لم يكن بسبب موسى ولا من الله الذي أعطاه، فالمسيح يقول بهذا الصدد: «ما جئت لأنقض بل لأُكمل، فإني الحق أقول لكم **إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل**» (مت٥ :١٧و١٨). ولكن الناقص كان ناقصاً بسبب الذين أُعطي لهم. والمسيح يقول بهذا الصدد: «فتقدم الفريسيون وسألوه: هل يحل للرجل أن يطلّق امرأته ليجربوه. فأجاب وقال لهم: بماذا أوصاكم **موسى**؟ فقالوا: موسى أذِنَ أن يُكتب كتاب طلاق فتُطلّق. فأجاب يسوع وقال لهم: **من أجل قساوة قلوبكم كتب لكم هذه الوصية**. ولكن من بدء الخليقة ذكراً وأنثى خلقهما الله، من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسداً واحداً. إذاً ليسا بعد اثنين بل جسد واحد. فالذي جمّعه الله لا يفرقه إنسان.» (مر١٠ : ٢ــ٩)

وبولس الرسول يؤكد ذلك تأكيداً موضحاً أن الخطية كانت قد ملكت الإنسان واستعبدته حتى صيّرت له الصالح موتاً: «لأن الخطية وهي متخذة فرصة بالوصية خدعتني بها وقتلتني، **إذاً الناموس مقدس والوصية مقدسة وعادلة وصالحة.** فهل صار لي الصالح موتاً؟ حاشا، بل الخطية، لكي تظهر خطية مُنْشِئة لي بالصالح موتاً. لكي تصير الخطية خاطئة جداً بالوصية» (رو٧: ١١ــ١٣). وهذا هو سِرُّ الإثم الكائن في العالم الذي دوّخ الإنسان. أي أن علّة ضعف الناموس وعجزه عن أن ينشيء شيئاً صالحاً للإنسان هي الخطيئة التي كانت قد ملكت وسادت وقتلت!! وهذه العلة ــ أي الخطيئة ــ التي **ألغت قوة الناموس** ومسخت روحانيته وجعلته غير صالح، مع أنه صالح، **هي هي التي ألغاها المسيح، وقتلها في جسده.** وهذا ما يوضحه بولس الرسول أيّما توضيح:

ــ «إذاً لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع السالكين ليس **حسب الجسد (الناموس)** بل **حسب الروح (النعمة)** لأن **ناموس روح الحياة** في المسيح يسوع قد أعتقني من **ناموس الخطية والموت.** لأنه ما كان الناموس عاجزاً عنه في ما كان (الإنسان) **ضعيفاً بالجسد،** فالله إذ أرسل ابنه في شبه جسد الخطية (أي بدون خطية) ولأجل الخطية (التي عطلت عمل الناموس)، دان الخطية في الجسد (الصليب) لكي يتم حكم الناموس فينا (ونأخذ صك براءة ممضي باسم المسيح ومختوم بالدم) **نحن السالكين ليس حسب الجسد (الناموس) بل حسب الروح (الإنجيل).**» (رو٨: ١ــ٤)

فعوض الخطية أعطى المسيح النعمة!! وعوض حكم الناموس بموت الخاطيء، أعطى المسيح برّه الشخصي لتبرير الخاطيء ليحيا إلى الأبد ولا يموت أبداً.

وبينما كان الناموس وكل وصايا وفرائض وعبادة الناموس بالجسد هي شبه السموات وظلُّها، إذ بالمسيح يجعل الوصية والعبادة بالروح والحق هي السموات عينها التي جاء منها، وهي طبيعة الله وحياته التي جاء ليخبِّر بها.

١ : ١٨ «الله لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر».

هذه هي آخر آية في منظومة مقدمة إنجيل يوحنا. وهي بمثابة الرتاج أو صمام الأمن الذي يغلق في وجه كل محاولة كانت أو ستكون. إن هي وقفت لتناطح صاحب هذا الاسم الأخير المستعلَن ــ يسوع المسيح ــ في كونه الوحيد بصفته الابن المحبوب لله، الذي استطاع ويستطيع إلى الأبد أن يخبر عن الله أبيه الخبر اليقين والبشارة المفرحة. فليست هذه الآية تقع كسابقتها في مواجهة موسى أو

غيره من الأنبياء، بل وكل ادّعاء يجيء ليتحدث ويخبّر عن الله: «الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي، لم تسمعوا صوته قط ولا أبْصرتُم هيئته» (يو٥: ٣٧). ولكن كان همُّ ق. يوحنا ليس إسكات أصوات ادّعاء المتكلمين بفم الله في زمانه أو غير زمانه، بل كان همُّه بالأساس إرساء قاعدة حق إنجيل يسوع المسيح ابن الله، على أساس أن يسوع المسيح ابن الله هو الاستعلان الكامل والوحيد لله، الذي به نرى الله، وفيه نرى الآب، ومنه نعرف كل ما عند الآب:

+ «وأنا ما سمعته منه فهذا أقوله للعالم.» (يو٨: ٢٦)
+ «وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله.» (يو٨: ٤٠)
+ «أعمالاً كثيرة حسنة أريتُكم من عند أبي.» (يو١٠: ٣٢)
+ «لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً، ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه.» (يو١٤: ٧)
+ «لأني أعْلَمْتُكم بكلِّ ما سمعتُه من أبي.» (يو١٥: ١٥)
+ «لا أكلمكم أيضاً بأمثال بل أخبركم عن الآب علانية.» (يو١٦: ٢٥)

فجميع طرق الاستعلان السالفة لم تكن كافية لتبلِّغ الإنسان حقيقة الله؛ و بواسطتها جميعاً أخفق الإنسان أن يرى الله أو يسمع صوته. أما في الابن الوحيد الكائن في حضن الآب فقد استُعلن الله، مرئياً ومسموعاً:

+ «الذي رآني فقد رأى الآب.» (يو١٤: ٩)
+ «الكلام الذي تسمعونه ليس لي بل للآب الذي أرسلني.» (يو١٤: ٢٤)

والآية بحدّ ذاتها تضع الله في السمو المطلق وتقنع الإنسان الذي انطلق يفحص الله أن يعود إلى بيته ودائرة محدوديته. كما تقنع الإنسان الطموح الذي يتحرق اشتياقاً وحباً لله أن يلتجىء إلى الابن المتجسد ليُشبع منه وفيه كل اشتياقاته وحبه، فالابن المتجسد هو الابن المحبوب الحامل ليس فقط لمعرفة الآب بل لكل حبه. فـ«المونوجانيس» كصفة الابن يجمع صفتين جوهريتين لله: البُنوّة الفريدة، والحب الفريد.

فلو انتبهنا إلى الآية السالفة (١٧) باعتبارها الآية الفاصلة بين العهد القديم والعهد الجديد سواء من جهة طبيعته أو صاحبه: «**الناموس بموسى** أعطي أما **النعمة والحق فبيسوع المسيح** صارا»، نجد أنها ينقصها المزيد من التوضيح. وهذا هو الذي تكمله الآية التي نحن بصددها. فموسى وكل الشخصيات العظيمة والمقرَّبة إلى الله على مدى العهد القديم كله لم يحظَ أحد منها برؤية الله رؤية حقيقية، وإنما كان كله بالشبه، وبالتالي تكون كذلك كل توصيات ووصايا العهد القديم هي حتماً «شِبْه السماويات وظلَّها»، وحتى الإنسان نفسه، كل إنسان، فهو مخلوق أصلاً على **شبه** الله

وصورته. ولكن الآن وفي المسيح ليس الأمر كذلك، فهو الصورة الحقيقية لله، بل هو «الحق» في ذاته وفي كل أقواله:

ــ «فقال (موسى) أرِني مجدك. فقال أجيز كل جودتي قدامك وأنادي باسم الرب قدامك. وأتراءف على مَنْ أتراءف وأرحم مَنْ أرحم. وقال **لا تقدر أن ترى وجهي، لأن الإنسان لا يراني ويعيش**.» (خر٣٣: ١٨ــ٢٠)

هذا في مقابل صاحب العهد الجديد ومؤسِّسه يسوع المسيح الابن الوحيد، فهو ليس كذلك بل هو وكما أشارت الآية السابقة ملء النعمة **والحق**:

«(ابن) وحيد من الآب مملوءاً نعمة **وحقاً**». و«الابن الوحيد (الإله) الذي **هو في حضن الآب هو خبَّر**».

فهو الابن الحقيقي والفريد لله، الذي ليس فقط رأى الله ويعرفه بل هو قائم فيه **في موضع** الحضن أو على الأصح في **حالة** الحضن أي العمق الخفي والخاص والسري جداً، المستريح والفعال في الله الذي لا يحتلُّه إلا «**الابن الحبيب الذي سُررت به**» μονογενὴς.

«في حضن الآب»:

يلاحظ أنها لم تجيء εἰς τὸν κόλπον ولكن ἐν τῷ κόλπῳ. وهذا في التعبير اليوناني الدقيق يفيد ليس «في حضن الآب» بل «في داخل حضن الآب». وحتى هذا الوجود في الداخل ليس جامداً غير متحرك، بل هو وجود **«متداخل»** أي دائم الإتجاه نحو الحضن الأبوي[٣٩]. وبهذا يصبح هذا التعبير مشابهاً للتعبير الأول في الآية الأولى πρὸς τὸν θεόν «عند الله»، فهو وجود قائم متداخل ممتد في الله، وبذلك يكون التشديد في المعنى متركِّزاً نحو كيفية الصلة الذاتية «الابن بالآب»، فهي صلة تداخل وتَضَامٍّ كلي ومطلق، لأن الابن والآب هما الواحد المطلق.

وبهذا التعبير اللاهوتي الدقيق يمتنع تصوُّر الثنائية بين الآب والابن، لأنه حتى بعدما أُرسل الابن في مهمة الخلاص العظمى حسب مسرة الآب وحبه للعالم والإنسان، ظل الابن هو كما هو قائماً في الآب ومتجهاً نحوه بتداخل كلي ومطلق، فهو كان على الأرض وفي السماء، في جسد

---

[39] J. De La Potterie (*Biblica* XLIII 1962, pp. 366-387) (365):

[Tourné vers le sein du Père, comme pour décrire le Fils, éternellement concient de recevoir de ce sein toute sa vie, tout son être.]

[«**المتجه نحو حضن الآب**»، وكأنه بهذه العبارة يريد أن يصف الابن بإحساسه الأزلي أنه يتقبل من هذا الحضن حياته كلها بل وكيانه كله]!

إنسـان، وهو هو في الآب دون أدنى مفارقة ذاتية «وليس أحد صعد إلى السماء إلاَّ الذي نزل من السماء، ابن الإنسان الذي هو في السماء.» (يو٣: ١٣)

وفي هذا يقول القديس أغسطينوس في عظاته على إنجيل يوحنا:

[لقد أضيف الإنسان إليه، أما الله فلم يُفقد منه. لقد أخلى نفسه ليس بأنه فَقَدَ شيئاً مما له، ولكن بأخْذِه لنفسه ما لم يكن له.](٤٠)

من موضع هذا الحضن، أو على الأصح من واقع **هذه الحالة**، يخبرنا الابن عن الله كأبيه، أو بالحري يكشف لنا عن حقيقة طبيعة ذات الله.

ويجيء التعبير عن ذلك هنا في الآية باللغة اليونانية بترجمتها الصحيحة عن أقدم المخطوطات، وهو الوضع الذي أخذ به معظم الآباء، هكذا:

μονογενὴς θεὸς ὁ ὢν εἰς τὸν κόλπον τοῦ πατρός ، أي «الابن الوحيد الإله الكائن بذاته في حضن الآب». وهي الصفات الكاملة التي كانت تنقص ألقاب المسيح في الآية السالفة: «أما النعمة والحق **فبيسوع المسيح صارا**»؛ وهو تعبير يتجه مباشرة نحو العلاقة الشخصية بين الآب والابن، وتفيد أن الابن **كائن بالحب** في الآب، والمسيح عبَّر عن هذه العلاقة أصدق تعبير بقوله:

- «لأني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني.» (يو٨: ١٦)
- «والذي أرسلني هو معي ولم يتركني الآب وحدي لأني في كل حين أفعل ما يرضيه.» (يو٨: ٢٩)
- «وتتركونني وحدي، وأنا لست وحدي لأن الآب معي.» (يو١٦: ٣٢)
- «أنا في الآب والآب فيَّ.» (يو١٤: ١٠)

وهذا هو التعبير الشخصي المعبِّر عن علاقة الكينونة التي تربط الآب بالابن، مقابل التعبير الفكري الذي صوَّر علاقة الكلمة بالله على مستوى العمل والخلق، «والكلمة كان عند الله». فإذا أردنا أن نقارن بين التعبيرين فإنه يكون هكذا: فكما أن الكلمة تكون دائماً في حضن العقل، أو كما يكون الفعل مختفياً في الإرادة، هكذا الابن في حضن الآب.

وهذا الاستعلان يخدم قضية الإنجيل كله. لأنه بالتالي يكون «كل ما يقول ويعمل ويشرح»

---

(40) Augustine, *op. cit.*, VIII 3, XVII 16.

عن الله «أبيه»، هو الحق الواحد والوحيد لأنه يخبّرنا بما يرى ويعرف.

ويجيء الفعل «يخبّر = ἐξηγήσατο» يحمل هذه المعاني مجتمعة، فهو يخبّر بالخبر الإنجيلي الذي يشرح ويفسر ما خَفِيَ عن الله ويعلّم ويوضح.

ومعروف أن اللغات الحديثة أخذت هذه الكلمة ἐξηγήσατο دون أي تحريف لتجعل منها نفس المعنى أي الشرح **والتفسير** والتوضيح للأمور المخفية (exegesis = علم التفسير). وفي الحقيقة إن المعنى لهذه الكلمة يتسحّب على المسيح نفسه بكل ارتياح، **فهو** بذاته وبحياته وتجسده هو هو الآب. فالمسيح هو **«الله المعلَن»**، **«والله هو مَنْ أعلنه المسيح»** ἐξήγησις في ذاته وأقواله وأعماله. بل إن المسيح في عُرْف الآباء القديسين هو «الإنجيل» لأنه هو «الخبر المفرح»، أليس هو **«الكلمة»**؟

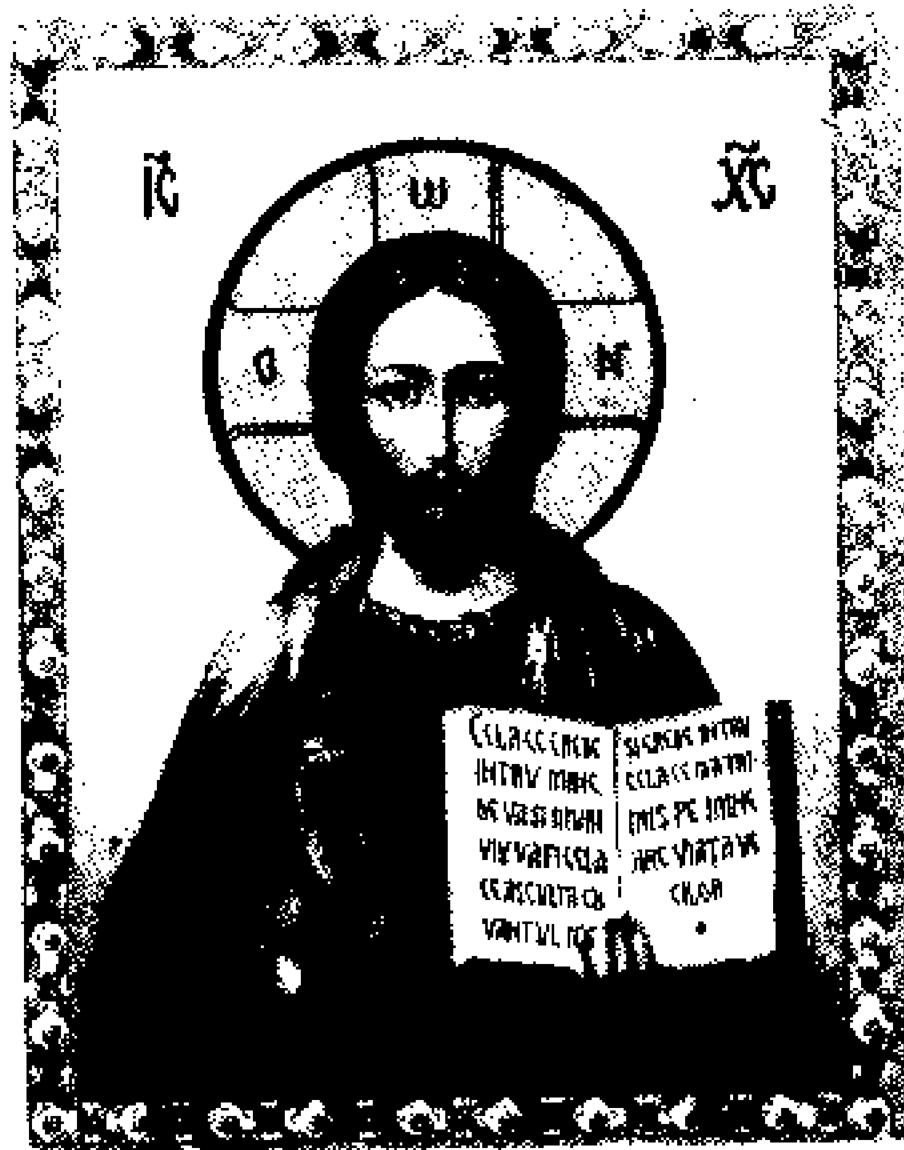
وبهذه الكلمة يسلّم ق. يوحنا فكر القارىء إلى **بداية رواية الإنجيل** مباشرة في الآية القادمة بثقة وبكل هدوء. فانظر، أيها القارىء، وتعجّب لهذه الدقة المتناهية وهذا الحبك اللفظي والمعنوي، هذا ليس حرفاً بل هو روح!!

كما يلاحَظ أنه عن قصد ودراية يقدّم لنا ق. يوحنا هذه الآية الأخيرة واصفاً صاحب العهد الجديد بل وصاحب الإنجيل بهذه الصفات، فهو يقصد التأكيد على أن كل ما سيجيء ــ في هذا الإنجيل ــ على لسان المسيح هو «الحق»، **فهو أولاً «كلمة الله»**، وهو **«المملوء نعمة وحقاً»**، وهو **«الابن الإله القائم في حضن الآب»**، هذه هي مؤهلات الذي أتى بالخبر الإنجيلي. وهو يخبرنا، نحن البشر، خبر **القُرْبَى**، والسُّكْنى في البيت الواحد. **فهو** يكلمنا ليس بالرؤيا ولا بالحلم، «فالكلمة صار جسداً وحلّ بيننا»، فهو وهو كونه **«كلمة الله»** يكلمنا «بالجسد» كإنسان وهو الله.

وفي ختام هذه المقدمة يمكن أن نضع أمام القارىء أهم وأخطر الكلمات التي جمعها وكدّسها ق. يوحنا في المقدمة، والتي ستقوم عليها كل رواية الإنجيل باعتبارها أساس لاهوت إنجيل يوحنا:

الحياة، النور، الظلمة، الشهادة، العالم، المجد، ابن الله الوحيد، الحق، يُقْبل، يؤمن، اسمه، يولد من الله.

أما الكلمات الهامة جداً التي جاءت في المقدمة فقط واختفت من باقي الإنجيل فهي «الكلمة»، «النعمة»، «الملء»، لأنها بعد التجسد أخذت صورة الفعل والعمل. فالكلمة صار متكلماً، والنعمة صارت عطية، والملء صار توزيعاً.



القسم الثاني من المقدمة

الشهادة μαρτυρία

١:١٩ـــ٥١

وهي تختص بالشهادة أن يسوع هو المسيح ابن الله . وهي تشمل :

١ ـــ شهادة القديس يوحنا المعمدان ـــ وهي تمثل شهادة الوحي النبوي بالإلهام . وقد جاءت على عدة مراحل :

أ ـــ الجواب بالنفي : ١:١٩ـــ٢٢ .

ب ـــ الجواب بالإيجاب : ١:٢٣ـــ٢٨ .

ج ـــ الشهادة للمسيح : ١:٢٩ـــ٣٤ .

د ـــ المعمدان يبدأ يسلّم الوديعة : ١:٣٥ـــ٣٧ .

٢ ـــ شهادة التلاميذ ـــ وهي شهادة الرؤية الإيمانية «وقد رأينا مجده» ἐθεασάμεθα وهي تشمل :

أ ـــ شهادة أندراوس : ١:٤٠ـــ٤٢ .

ب ـــ شهادة فيلبس : ١:٤٣ـــ٤٦ .

ج ـــ شهادة نثنائيل : ١:٤٧ـــ٥١ .

١ ــ شهادة القديس يوحنا المعمدان:

لقد سبق للقديس يوحنا أن أورد المعمدان كشاهد مرتين:

الأولى: ١ :٧ كشاهد للنور: «هذا جاء للشهادة ليشهد للنور لكي يؤمن الكل بواسطته». وهذه الشهادة لا تدخل في سياق التاريخ، بل وُضعت كمعيار شخصي للمعمدان تحدد حجم شخصه وعمله.

والثانية: ١ :١٥: «يوحنا (المعمدان) شهد له ونادى قائلاً هذا هو الذي قلتُ عنه إن الذي يأتي بعدي صار قدامي (١ :٢٧) لأنه كان قبلي».

وهي منسوبة لشهادة قادمة ١ :٢٧، التقطها ق. يوحنا وقدَّمها عن موضعها لتخدم واقعية «الكلمة صار جسداً»، أي أن الكلمة دخل التاريخ في حيز محدد جاء ترتيبه بعد المعمدان: «يأتي بعدي»؛ ولكن، بسرعة، يستدرك المعمدان هذه المعلومة الزمنية بإعطاء معلومة غير زمنية عن الكلمة الذي صار جسداً بأنه كان قبله، ليس زمنياً، بل كيانياً، بما يفيد تجاوز البشرية ككل. وهذه الشهادة سجلها ق. يوحنا الرسول ليؤكد بها ضمناً تدنِّي رتبة المعمدان عن رتبة المسيح: «صار قدامي لأنه كان قبلي».

وهنا في ١ :١٩ يبدأ ق. يوحنا إنجيله تاريخياً على مستوى الوقائع اليومية، مبتدئاً بالمعمدان حسب التقليد الرسولي الذي استلمته الكنيسة وتسجَّل لها في سفر الأعمال: «فينبغي أن الرجال الذين اجتمعوا معنا كل الزمان الذي فيه دخل إلينا الرب يسوع وخرج: "**منذ معمودية يوحنا**" إلى اليوم الذي ارتفع فيه عنا.» (أع ١ :٢١ــ٢٢)

وهكذا يحصر التقليد الرسولي في سفر الأعمال ــ بفم بطرس الرسول ــ زمان ظهور المسيح وعمله، أي إنجيل البشارة ابتداءً من المعمدان.

والقديس بطرس يؤكد ذلك مرة أخرى وفي سفر الأعمال أيضاً: «أنتم تعلمون الأمر الذي **صار في كل اليهودية مبتدئاً من الجليل بعد المعمودية التي كرز بها يوحنا ــ يسوع** الذي من الناصرة كيف مسحه الله بالروح القدس والقوة.» (أع ١٠ :٣٧ــ٣٨)

وواضح أيضاً من شهادة بولس الرسول أنه استلم هذا التقليد الرسولي وعلَّم به كما هو: «فقام بولس وأشار بيده وقال: ... أقام الله لإسرائيل مخلِّصاً يسوع **إذ سبق يوحنا فكرز قبل مجيئه بمعمودية التوبة لجميع شعب إسرائيل.**» (أع ١٣ :١٦و٢٣و٢٤)

وهذا هو النص الذي ابتدأ ق. مرقس به إنجيله: «**بدء إنجيل يسوع المسيح ابن الله كما هو مكتوب في الأنبياء ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي** الذي يهيىء طريقك قدامك. صوتُ صارخ في البرية، أعدُّوا طريق الرب، اصنعوا سُبُلَه مستقيمة. **كان يوحنا يُعمِّد في البرية ويكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا.**» (مر١: ١ــ ٤)

أما ق. يوحنا فلم يلتفت إلى شخصية المعمدان في حد ذاته، مثلما سارت عليه الأناجيل، من حيث ميلاده وحياته في البرية ولِبْسه وأكله وشربه والظروف التي أحاطت به جميعاً، كذلك موقفه مع هيرودس رئيس رُبْع الجليل وهيروديا والسجن والسيف، والأمور التي انتهت بموت المعمدان. كما لم يذكر ق. يوحنا خدمة المعمدان الفريدة من نوعها في أخذ اعترافات الشعب وقبول توبتهم قبل التعميد، الذي كان في اعتبار الإنجيليين ــ وخاصة ق. متى ــ نقطة انطلاق لخدمة المسيح، إذ اعتبر أن عماد المسيح بمعمودية التوبة على يد المعمدان هو عملية استقطاب عظمى ينوب فيها المسيح عن كل الشعب تائباً: «هذا هو ابني الحبيب الذي سُررتُ به»، وذلك عوض إسرائيل الابن الذي أخطأ وزاغ وأعوزه الخلاص. ولكن حتى هذا الزخْم الروحي في التقليد الإنجيلي تحاشاه ق. يوحنا، لأنه كان مهتماً في مستهل إنجيله بكشف العلاقة بين المعمدان كمجرد إنسان مُرسَل من الله، وصوتِ صارخ يشهد للمسيح، وبين المسيح كنور حقيقي يضيء لكل إنسان.

أما معمودية التوبة التي هي وظيفة المعمدان، فيراها ق. يوحنا أن هدفها الوحيد هو استعلان المسيح(٤١): «في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه»، وذلك على مستويين:

المستوى الأول: أن بدء عمل المعمدان بإعلان معمودية التوبة للشعب هو، بحساب الساعة السماوية، إيذانٌ بافتتاح عهد المسيا أي المسيح، وذلك بعلامة سماوية لقَّنها الروح للمعمدان، حتى إذا رآها يشهد في الحال لصاحب العهد الذي من أجله جاء ليفتح الطريق أمامه.

المستوى الثاني: أن بخدمة التوبة والتعميد بالماء و«**مغفرة خطايا**» تنفتح بصيرة الشعب فيتهيأ لقبول المسيَّا: «ليؤمن الكل بواسطته». وهذا هو ما قصده إشعياء وردَّده المعمدان من «إعداد الطريق قدامه» (راجع لو١: ٧٦و٧٧).

هدف إنجيل يوحنا كان منصباً على تجميع الشهادات **الموثوق بها** للمسيح. لذلك نجده يهتم جداً في بدء ذكر المعمدان (١: ٦) أنه **كان مُرسَلاً من الله ليشهد:** «كان إنسانٌ مُرْسَلٌ من الله

---

(٤١) ارجع إلى كتاب أعياد الظهور الإلهي للمؤلف (طبعة ١٩٨٠)، وعلى الأخص إلى مقالة «عيد الغطاس رؤية وشهادة»، (ص ٢٦٩ــ٢٧٨) ــ وهي أصلاً عظة عيد الغطاس سنة ١٩٧٧.

اسمه يوحنا هذا جاء للشهادة». كما يعتني ق. يوحنا أن يجعل شهادة المعمدان القائمة على رؤيته للروح القدس، وهو يستقر على المسيح وسماعه الصوت الآتي من السماء، أن تشهد لبُنُوّته لله — ليست شهادة ذاتية ترتكز على موهبة طبيعية أو إلهام خاص بالمعمدان — ولكن ترتكز على توجيه إلهي وإعطاء علامة سماوية خطيرة يلتزم بها المعمدان للاستعلان، وذلك ضماناً لصدق الشهادة ودقّتها: «**وأنا لم أكن أعرفه لكن** ليُظْهَر لإسرائيل، لذلك جئتُ أُعمِّد بالماء... **وأنا لم أكن أعرفه، لكن** الذي أرسلني لأُعمِّد بالماء ذاك قال لي: **الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه** فهذا هو الذي يعمِّد بالروح القدس، وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله.» (يو١: ٣١و٣٣و٣٤)

١ : ١٩ **«وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت».**

لأول مرة يذكر ق. يوحنا اللاويين! فالمسألة مسألة **تطهير**، وهي الأمور الخاصة بهم وحدهم. أما الكهنة، فالأمر بالنسبة لهم جِدّ خطير، لأن هناك إجراء طقسي عام على مستوى الشعب: اعتراف وتوبة وتعميد، أمر لم يحدث من قبل في تاريخ شعب إسرائيل وهو من صميم اختصاص الكهنة.

أما كلمة «اليهود» فهي تعبير عن الهيئة العامة الرئاسية للشعب أي السنهدريم. فقد شكّل لجنة لتقصّي الحقائق. إنه تكليف من الناموس، هو قانون يرتكز على وصية: «وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلاماً لم أُوْصِهِ أن يتكلم به أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي. وإن قُلتَ في قلبك كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب؟ فما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يَصِرْ، فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبي فلا تخَفْ منه.» (تث١٨: ٢٠—٢٢)

وهذه الوصية أعطاها الله — أي جاءت في التوراة — بعد ذكر الوعد بمجيء «**النبي**» من وسط شعب إسرائيل مثل موسى، ويقصد «المسيّا»: «يقيم لك الرب إلهك **نبياً من وسطك** من إخوتك، مثلي، له تسمعون.» (تث١٨: ١٥)

ماذا حدث؟

ق. يوحنا يعتمد هنا اعتماداً كليًّا على رواية الأناجيل فيما يخص الأمور التي واكبت قيام المعمدان بوظيفته «كمُرْسَل من الله» لأخذ اعترافات الشعب والتعميد وقبول التوبة.

لم يكن من السهل أن يتحرك السنهدريم ويرسل هذه اللجنة للفحص، إلاَّ بعد أن بلغت حركة المعمدان أقصاها بعماد المسيح وإعطاء الشهادة العلنية أن: **«هذا هو ابن الله»**، و**«حَمَل الله الذي يرفع خطية العالم»**. أمرٌ أصاب الرؤساء على كل مستوياتهم بالذهول والإضطراب والقلق. هل جاء المسيا؟ وكيف لم يمر أولاً على الهيكل والسنهدريم؟ ويتعرف عليه الرؤساء أولاً ويخضع لموجبات الناموس؟

ــ «فأجابهم الفريسيون: ألعلكم أنتم أيضاً ضللتم، ألعل أحداً من **الرؤساء أو من الفريسيين** آمن به. ولكن هذا الشعب الذي لا يفهم **الناموس هو ملعون.**» (يو٧: ٤٧ــ٤٩)

الأخبار ترد للرؤساء كل يوم: جموع الشعب الحاشدة تتسابق لعبور الأُردن لرؤيته والإستماع إليه، شخص مديد القامة نحيف، متمنطق بالجلد، وجهه كالنار، نبيُّ الهيئة، جهوري الصوت، يوبِّخ الفريسيين، وهم أمراء التعليم؛ يعنِّفهم أعنف توبيخ، يدعوهم أولاد الثعابين، ومعهم ومثلهم الصدُّوقيون، يهددهم ويهدد رؤساءهم بالقطع، كشجرة لا تصنع ثمراً جيداً مأواها النار!

أورشليم واليهودية وجميع الكور وما حول الأُردن، جماعات جماعات، تزحف بلا توقف تبكي وتنوح معترفةً بخطاياها، تتسابق لتعتمد تحت يده. هو لا يكفُّ عن فضح خطاياها، كلَّ فئة بعارها، وكل وظيفة بعثراتها، وهي ترتعد تحت تهديد قضاء الله الخارج من فمه كالسيف. لقد هطلت السماء، بعد أن توقف غيث الله أربعمائة سنة لم يسمع فيها أحدٌ صوت نبي.

أما تقليد الأناجيل الأُخرى فيعطي صورة لعماد المسيح تحت يد يوحنا المعمدان: المسيح قادم، المعمدان يلمحه فيخفِّض صوته وترتخي يداه، يخرج من الماء ويقف أمامه خاشعاً، المسيح يدعوه لمتابعة عمله، المعمدان يتنحَّى ويطلب أن ينعكس الوضع، المسيح يدرك أنه مولود تحت الناموس، يطلب: «ينبغي أن نكمِّل كل برٍّ» ليكفي احتياج **كل العالم**، المعمدان يُجري الطقس والعهد ينتقل من يد ليد ومن الماء إلى الروح، السماء تنفتح، الروح القدس ينحدر **«ليستقر»** عليه واستقر ليغطيه، صوت الآب من السماء: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت». المعمدان يؤمن ويشهد على مرأى ومسمع من تلاميذه، وينقص لينطفىء، لأن النور الحقيقي جاء. ولكن إنجيل يوحنا لا يذكر عماد المسيح.

«وهذه هي شهادة يوحنا» ἡ μαρτυρία :

الشهادة للمسيح عند ق. يوحنا تُعتبر ذات قيمة إيمانية عظمى، نظراً لأن الكلمة المتجسد ابن الله لم يكشف لاهوته بصورة علنية ولا طرح طبيعته ومجده للمارة، بل اختزنها للعين المؤمنة لترى

وتشهد وتبلِّغ القصد. لذلك اعتنى ق. يوحنا ليقدِّم في بداية إنجيله شهادات قويَّة وقوية من أشخاص موثوق بهم تحت عهدته كتلميذ محبوب مختار ومؤتمن، يسجل لهم كَمَن سمع وعاين بنفسه. أليس هو تلميذ المعمدان أصلاً؟

«حين أرسل إليه اليهودُ من أورشليم كهنةً ولاويين»:

يلاحظ القارىء مقدار الحبك القانوني بل القضائي الذي خرجت من تحت يده هذه الشهادة، فليس عبثاً أن يدقق ق. يوحنا في نوع اللجنة القضائية وتشكيلها القانوني من الطبقتين الموكَّل إليهما من الله فحص و بحث وخدمة قضايا الشعب: «كهنة ولاويين»(٤٢). وهي موفدة من قِبَلِ محكمة اليهود ــ الرئيسية في أورشليم ــ السنهدريم (٧١ عضواً). وليس ذلك فقط بل عاد ق. يوحنا في معرض الإنجيل ليكرر أن شهادة المعمدان معتمدة لدى المسيح نفسه أنها حق!

«الذي يشهد لي هو آخر (المعمدان) وأنا أعلم أن شهادته التي يشهدها لي هي حق. أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحق» (يو٥: ٣٢و٣٣). وكل هذا التوثيق الذي يوثَق به ق. يوحنا شهادة المعمدان، إنما هو ليقبل القارىء هذه الشهادة لتكون عنصراً لإيمان لا يتزعزع. ومرَّة أخرى ننبه ذهن القارىء إلى مدى أهمية القول إننا نؤمن بكنيسة واحدة **«رسولية»**. فبالرسل ومن خلال الرسل استعلن المسيح نفسه لهم، وشاهدوه وشهدوا له، واعتمدنا نحن على مشاهدتهم وشهادتهم.

«ليسألوه مَنْ أنت»:

هنا يلذُّ لنا أن نكرر ما قاله ق. يوحنا سابقاً عن المعمدان: «كان إنسانٌ مُرسَلٌ **من الله** اسمُهُ يوحنا». ولكن من **الأمور** البديعة الملفتة للنظر التطابق المحبوك بين ما قاله ق. يوحنا وما جاء أصلاً في ملاخي النبي عنه: «**هأنذا أرسل** ملاكي **فيهيىء** الطريق **أمامي**» (ملا٣: ١). فالذي قاله الله عن نفسه «**هأنذا** أرسلُ»، حوَّله ق. يوحنا كما هو إلى صاحب الإرسالية «**مُرسَلٌ من الله**». ثم حدث التصويب المباشر نحو المسيح أنه هو هو الله «يهوه» العهد القديم المتكلم في فم الأنبياء. وهذا يتضح من قول الله: «أنا (الله) أُرسِلُ ملاكي "**أمامي**"»، حيث «**أمامي**» صارت «**أمام المسيح**».

(٤٢) اللاويون المذكورون هنا هم الكتبة والناموسيون في الأناجيل الأخرى، وهم من السبط المقدس ولكن ليسوا من عائلة هرون بالذات.
عن: Hengstenberg op. cit., vol. I, p. 61.

أ ــ الجواب بالنفي:

كانت التعليمات المعطاة لأعضاء لجنة تقصّي الحقائق المرسَلة من السنهدريم هي التحقُّق الشخصي من المعمدان بأسئلة محددة يتحتم أن يجاوب عليها واحدةً فواحدةً، حتى يتحققوا من شخصيته «هل هو المسيَّا»؟ وهذا أهم سؤال، لأن الذي شاع آنئذ أنه هو المسيَّا وقد جاء. لذلك وُضع السؤال قاطعاً مانعاً. «مَن أنت؟»، هذا في البداية.

والذي ضخَّم في أسماع السنهدريم خطورة قيام هذا النبي هو تجرُّؤه على توبيخ الفريسيين أنفسهم بعنف بالغ وهم أئمة الأمة علماً وتعليماً، والصدُّوقيين وهم طبقة الكهنوت، مطالباً إياهم بالتوبة وأن لا يتكلوا على برّ أنفسهم أو نَسَبهم: «يا أولاد الأفاعي مَن أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي؟ فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة، ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أباً.» (مت٣: ٧ــ٩»

ولم يفُتْ على المسيح هذا الشموخ النبوي الذي لم يبلغه نبي، فقال عنه أنه أعظم من نبي: كَوْنَه شاهد النور وشهد له، وكَوْنَه لم يَجْفل أمام علماء الأمة ومعلميها، بل ولم يحفل بكاهن أو لاوي!!

١ : ٢٠ **«فاعترف ولم ينكر وأقرَّ أني لستُ أنا المسيح».**

رفض المعمدان رفضاً قاطعاً أن يعرِّف نفسه على قياس أية شخصية سابقة مرصودة في عالم رؤى اليهود: لا المسيَّا ولا إيليا ولا النبي ولا أي آخر. لأنه يعلم تماماً أنه جاء ليحمل شهادة لمَنْ هو أقوى منه، الذي يأتي بعده وهو لا يعرفه الآن ــ فإن أردتم أن تعرفوا مَنْ أنا، فأنا صوتُ صارخ! يعدُّ الطريق لقادم.

«اعترف ولم ينكر»:

يبدو النفي هنا أنه للتأكيد. فالمعمدان عُرف لدى الكثيرين أنه المسيَّا، والأخطر أن بعضاً من تلاميذه تمسكوا بهذا الإدِّعاء وكوَّنوا شيعة تمجّده باعتباره المسيَّا.[٤٣]

فسؤال لجنة الفحص وتقصِّي الحقائق لم يُسأل من فراغ، فهي تواجهه بسؤال حرج للغاية، لأن

(٤٣) نظر المدخل ص ٣٨٥؛ وشرح الآيات ١: ٥ــ٨ ص ٥٦و٥٧.

التلاميذ الذين يتبعونه والشعب الواقف والسامع كان قد أُخذ بهيبته وظنوه فعلاً المسيَّا:
— «وإذ كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح...» (لو٣: ١٥)
— «ولما صار يوحنا (المعمدان) يكمل سعيه، جعل يقول: مَن تظنون أني أنا؟ لست أنا إياه لكن هوذا يأتي بعدي الذي لست مستحقاً أن أحُلَّ حذاء قدميه.» (أع١٣: ٢٥)

هٰذا أسرع المعمدان ولم يتنكر لحقيقته **مؤكداً**، والتأكيد هنا بسبب الإشاعات التي ملأت اليهودية وأورشليم، **أني لست أنا المسيح**. والجملة المنفية هنا ذات تركيب يوناني خاص ἐγὼ οὐκ εἰμί تزيد معنى التصحيح في ذهن السامع وليس كمجرد رد على سؤال؛ بمعنى: أنا لست أنا المسيح، فالمسيح في وسطكم ولستم تعرفونه! وكأنه يرد على أفكارهم **وليس على** مجرد سؤالهم.

وليلاحظ القارىء أن المعمدان استخدم النفي على كل الأسئلة. «**لست أنا**»، فهنا «أنا» منفية οὐκ εἰμί، تاركاً للمسيح فقط ἐγώ εἰμι «أنا هو»، أو «أنا القادر على كل شيء».

١: ٢١ «**فسألوه إذاً ماذا. إيليا أنت، فقال لست أنا. ألنبي أنت، فأجاب لا**».

«إذاً ماذا»؟

هنا يتضح للغاية حيرة اللجنة التي تفحص وتتحقق، لأنهم جاءوا وهم متأكدون أنه سيعلن أنه المسيَّا حسب كل ما سمعوه وحسب سلطان التعليم والتوبيخ الذي في فمه، بل وحسب جرأته في إجراء التعميد وأخْذِ اعترافات الشعب وقبول توبتهم، حتى الفريسيين والصدوقيين ورجال الجيش!

ويلاحظ القارىء أن اللجنة كانت تتوق أن تسمع منه أنه المسيَّا، لأن الجو الذي ملأ ربوع فلسطين كان جوًّا مسيانياً على أعلى درجة، لأنه بدأ بالحقيقة والفعل حسب وعد كل الأنبياء وبالأكثر ملاخي النبي (٤: ٥)، وحسب لغة الملاك لزكريا الكاهن (لو١: ١٧) أبو المعمدان، بل وحسب نبوة زكريا الكاهن نفسه. فهذه الحوادث سرعان ما طار خبرها ليملأ ربوع أورشليم والبلاد. ولكن لم يكن للمعمدان أي حق في هذا الإدّعاء قط، فهو من سبط كهنوتي، أما المسيَّا فهو معروف أنه يأتي من نسل داود سبط يهوذا.

إذاً ماذا؟ بالأكثر جداً وبحسب الواقع فهوذا المعمدان قد جاء بقوة إيليا وروحه.

«إيليا أنت؟ فقال لست أنا»:

إذا لم يكن المعمدان هو المسيَّا، فيلزم أن يكون هو الآتي قبل يوم الرب العظيم حسب نُبوّة

ملاخي. وهنا تعارض واضح أن يقول: «لست أنا». لأن كل الأناجيل الثلاثة تقول إنه إيليا، ومن فم المسيح:

ــ «وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي، مَن له أذنان للسمع فليسمع.» (مت١١: ١٤)

ــ «ولكنني أقول لكم إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا. كذلك ابن الإنسان أيضاً سوف يتألم منهم.» (مت١٧: ١٢)

وهذا التصريح كرره القديس مرقس في إنجيله (٩: ١٣). وهذه الإعتمادات كلها قائمة على نبوات واضحة(٤٤):

ملاخي ٣: ١ (٤٥٠ قبل الميلاد):

«ها أنا أُرسل ملاكي فيهيىء الطريق أمامي. و يأتي بغتة إلى هيكله السيد الذي تطلبونه وملاك العهد الذي تُسَرُّون به، هوذا يأتي، قال رب الجنود».

ملاخي ٤: ٥:

«ها أنا أُرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب العظيم المخوف، فيردَّ قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم، لئلا آتي وأضرب الأرض بلَعْنٍ»!

إشعياء ٤٠: ١ــ٥ (دُعِيَ للنبوة حوالي ٦٠٠ قبل الميلاد):

«عزُّوا عزُّوا شعبي، يقول إلهكم، طيِّبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمل، أن إثمها قد عُفي عنه... صوتُ صارخٍ في البرية أعِدُّوا طريق الرب قوِّموا في القفر سبيلاً لإلهنا. كل وَطاءٍ يرتفع، وكل جبلٍ وأكَمَةٍ ينخفض، و يصير المعوجُّ مستقيماً والعراقيبُ سهلاً، فيُعْلَنُ مجدُ الرب و يراه كل بشر معاً، لأن فم الرب تكلم».

لقد احتار جميع الشُّراح لإنجيل يوحنا في هذا التعارض، لأن شخصية إيليا مهيَّأة من كل الوجوه بحسب تقارير الأنبياء في العهد القديم أن تكون هي الشخصية المسيَّانية الأولى قبل المسيح، فهو رُفع إلى السماء حيًّا (٢مل٢: ١١) باستعداد المجيء، وهو الذي ربط السماء فلم تمطر ثلاث سنوات، ثم هو الذي صلَّى فهطلت الأمطار؛ إمعاناً في تعريفنا بشخصيته أنه أُعطي أن يتعامل مع

(٤٤) في محاورات القديس يوستينوس مع تريفو اليهودي يوضح أن التراث اليهودي يقول إن المسِيَّا سيظل غير معروف، وحتى هو نفسه سيظل غير عارف لنفسه ولا قوة له، حتى يأتي إيليا ليمسحه ويجعله معروفاً عند الجميع.

Just. Dial. Try. VIII, ANF I, p. 199.

الله مباشرة. وملاخي النبي يكشف الستار عن شخصية إيليا أنها مُعدّة ليوم الرب العظيم، لردّ القلوب على القلوب أي إعداد طريق الحب الإلهي الذي سينسكب من السماء على كل بشر.

ولكن نحن لا نرى أيَّ تعارض إذا تمسَّكنا بأسلوب ق. يوحنا السرّي، فالسؤال المباشر للمعمدان: «هل هو المسيَّا»، كان يعني في ذهن اللجنة الفاحصة أن المعمدان هو شخص المسيَّا، وعلى السؤال كان الرد القاطع: «أنا لست المسيَّا». ثم يجيء السؤال الثاني على نفس النمط **«هل أنت هو إيليا»؟** هنا في الحقيقة المعمدان يعلم تماماً أنه يوحنا المعمدان فقط، هكذا وُلد وهكذا تُسمّي وهكذا عاش وهكذا دُعي بالروح ليؤدي رسالة الشهادة. أما النبوات التي قالت إن إيليا يأتي فقد أساء فهمها اليهود بأن إيليا سيظهر بالجسد كإيليا «إيليا أنت»؟ طبعاً لا، أنا يوحنا بن زكريا.

ولكن المعمدان كان يعلم بالروح الذي فيه أنه أخذ من الله قوة إيليا و بأس روحه، وقد مارس القوة في توبيخ معلّمي إسرائيل ورؤسائه، ومارس بأس الروح في معاملته هيرودس. لهذا كان المعمدان يحمل مؤهلات إيليا، ولكن ليس شخصه ولا جسده؛ لذلك لما أُعطِيَ الفرصة أن يتكلم إيجابياً قال: «أنا صوتُ صارخٍ في البرية...». وهي نبوة إشعياء النبي عن مجيء عهد المسيَّا، عهد «عزاءِ أورشليم». فهو هنا يصرِّح ويعلن ويشهد أنه القادم لإعداد طريق الرب وأنه وإن كان ليس المسيَّا فهو المتقدِّم عليه وظيفيًّا: «يأتي بعدي الذي لستُ مستحقاً أن أحلّ سيور حذائه». وكأنما يقول صراحةً للذي يريد أن يفهم ويؤمن: «نعم أنا الذي **قيل عنه** إيليا يأتي، ولكني أنا يوحنا».

لأنه في كل شرحٍ للعهدين القديم والجديد معروف أن نبوة ملاخي هي التوضيح الدقيق لنبوة إشعياء، أي أن الصوت الصارخ في البرية هو صوتٌ بروح إيليا وقوته!!

إذن، فإجابة يوحنا وإن كانت بالسَّلْب، فهي حسب أسلوب ق. يوحنا فرصة ليؤمنوا من خلالها ــ إذا أرادوا ــ أنَّ هوذا عهدُ المسيَّا قد أتى، وهوذا إيليا أمامكم بروحه وقوته، ولكنه لم يسلِّمهم نفسه ليهزأوا بها، لأنه كمعلمه كان يعرف ما في صدورهم!! لقد أخفى الحقيقة الروحية عن الذين لن يصدقوها وأبقى لهم الجسد!

ثم أليس هذا هو نفس رد المسيح على الثلاثة التلاميذ الأخصَّاء بطرس ويعقوب ويوحنا، بعد أن أمْضَوْا معه ساعة من ساعات أمجاد المجد الأسنى على الجبل المقدس، ورأوا إيليا وموسى في حالة تجلي أيضاً وقد حضرا وتكلما معه، تعبيراً عن التحام العهد القديم بناموسه وأنبيائه بالجديد، وأن

بالتجلي والإستعلان يُدرَك المسيح على ضوء الناموس والأنبياء. أما التلاميذ فظنوا أن إيليا لا بد وأن يبقى كما رأوه ليعدّ للرب حسب وعد النبوة، وأن موسى سيبقى حتماً ليشهد للرب؛ لذلك أسرع بطرس وهو لا يدري ما يقول ـــ لأنه يقول بالروح ـــ أن تُصنع ثلاث مظال واحدة للرب وأخرى لموسى والثالثة لإيليا، هكذا كان منظر العهد الجديد منظوراً في مُخيِّلة بطرس. لذلك لما ذهبت السحابة (الحضرة الإلهية) ونظروا المسيح وحده تحسَّروا. وفيما هم نازلون من الجبل سأله تلاميذه ـــ إن كان إيليا هكذا تركهم واختفى ـــ «فلماذا يقول الكتبة (اللاويون) أن إيليا ينبغي أن يأتي أولاً؟» (مت١٧ : ١٠)، فكانت إجابة الرب أن إيليا جاء بالروح والقوة في شخص المعمدان ولم ينتبهوا إليه أو يدركوه لأنهم كانوا يعتقدون أنه سيأتي بشخصه وجسده القديم، لذلك أهانوه وقتلوه، نفس الأمر الذي سيقترفونه بجنونهم معي: «فأجاب يسوع وقال لهم إن إيليا يأتي أولاً ويردُّ كل شيء. ولكني أقول لكم إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا؛ **كذلك ابن الإنسان أيضاً سوف يتألم منهم**، حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان.» (مت١٧ : ١١ـــ١٣)

«ألنبي أنت؟ فأجاب لا»!

ليلاحظ القارىء الإقتضاب التنازلي في النفي، الأسلوب الذي استخدمه المعمدان وكأنه نوع من التحدي. وهذا يظهر في اليونانية بوضوح أيضاً:

١ ـــ **لست أنا** ἐγώ οὐκ εἰμί وتُترجم «أنا لست هو».

٢ ـــ **لست أنا** οὐκ εἰμί .

٣ ـــ **لا** οὔ .

شخصية «النبي» هذا لم تكن معروفة لا في أذهانهم ولا في أذهان الشعب. وهي ربما تكون الشخصية التي قال عنها الله (تث١٨ : ١٨): «أُقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك وأجْعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أُوصيه به»، وهي إحدى النبوات التي تصوِّر شخصية المسيا.

وكان رد المعمدان بالنفي، مع ملاحظة أن كلمة «النبي» جاءت معرَّفة بـ«أل». فالسؤال لم يَرِدْ «هل أنت نبي»؟ وإلا كان الرد معروفاً مسبّقاً، فهو كان محسوباً أنه نبي لدى كل الشعب، والمسيح نفسه أمَّن على هذا وزاد عليه «وأعظم من نبي».

١ : ٢٢ **«فقالوا له: مَنْ أنتَ لنعطي جواباً للذين أرسلونا، ماذا تقول عن نفسك»؟**

ب ــ الجواب بالإيجاب:

١ :٢٣ **«قال: أنا صوتُ صارخٍ في البرية قوّموا طريق الرب، كما قال إشعياء النبي».**

عجيبٌ هو تعبير إشعياء النبي عن الصابغ السابق يوحنا المعمدان هذا، لقد وضعه قبل أن يجيء بستمائة سنة. فهذا التعبير «صوتُ صارخٍ» يخلو من تحقيق الذات بل يفقدها في مسار عملها كالصراخ الذي ما يفتأ إلاَّ ويتلاشى ولا يوجد له وجود. اسمع ما يقوله المعمدان عن نفسه تحقيقاً لهذا الوصف الذي أعطاه إيّاه إشعياء النبي: «ينبغي أن ذاك يزيد وأني أنا أنقص»!! وكأنما صراخ الشهادة أُضيف إلى المسيح لتتلاشى قوته من الصارخ الشاهد!

لقد تبارى جميع الإنجيليين ليسجلوا له نبوة إشعياء بأكملها خاصة القديس لوقا ــ حباً وكرامة! أما هو ــ المعمدان ــ فاكتفى لنفسه بجملتين منها. وهل يحتاج أعضاء لجنة الفحص وتقصّي الحقائق الموقرون إلى التعريف بما آلت إليه حال البلاد في عهدهم وما يحتاجه هذا الحال من إصلاح ليناسب الملك الآتي؟

١ :٢٤و٢٥ **«وكان المُرْسَلُون من الفريسيين. فسألوه وقالوا له: فما بالك تعمّد إن كنتَ أنت لستَ المسيح ولا إيليا ولا النبي»؟**

المعنى هنا عميق وخبيث جداً، فهو نوع من الإصطياد للإدانة. فالتعميد بالنسبة للفكر اليهودي لا يجوز إلا للأجانب الذين يريدون الإنضمام للشعب المختار ــ لأن الأمم أنجاس مناكيد. فكيف يجرؤ هذا الإنسان، الذي هو ليس المسيح وليس إيليا وليس النبي، أن يعمّد الأمة المقدسة، والشعب المبارك المختار وكأنه نجس يحتاج إلى التطهير أو غريب عن الله يحتاج إلى التبنّي؟ إنها إساءة لقداسة الأمة ولكرامة اليهود والرؤساء والسلطات!!

كذلك كان أخوف ما يخافه الرؤساء أن تكون هذه المعمودية مسيَّانية الهدف، أي خلاصية من قِبَلِ الله، ويجريها إنسان لا يمتُّ للهيئات الكهنوتية والفريسية، فيكون معناه أنهم قد عُزِلوا. لذلك تركز سؤالهم أخيراً في معنى عماده: «لماذا تعمّد»؟

١ :٢٦و٢٧ **«أجابهم يوحنا قائلاً: أنا أعمّد بماءٍ ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه، هو الذي يأتي بعدي، الذي صار قدّامي، الذي لستُ بمستحق أن أحُلَّ سيور حذائه».**

وكأني بالمعمدان يقول:

أنا أعمد بماء ومعموديتي ليست كمعمودية المسيّا، فمهما كان مظهرها الجماعي، فهي أيضاً

تمهيد أو إظهار لعمل أعظم هو وشيك أن يقوم به صاحبه القائم في وسطكم. فإن كنتم لستم تعرفونه (وهي خطية اليهود المتكررة على مدى الإنجيل كله)، لكنني أنا أعرفه وأنا بالنسبة له لست أكثر من عبدٍ يحمل له حذاءه، يخلعه من قدميه: يفك سيوره، وحتى هذا يكون فوق استحقاقي ومقامي. فعملي كوني أُعمِّد ليس أكثر من عمل خادم يمهِّد لعمل سيده ليُظْهِره. إذن، فمعموديتي وخدمتي ينبغي أن لا تقلقكم. ألم يقُلْ إشعياء تمهيداً لعصر المسيا: «اغتسلوا، تنقُّوا، اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني، كُفُّوا عن فعل الشر؟» (إش١ : ١٦)

وليمنتبه القارىء أن المتكلم بهذه الكلمات الإنسحاقية أمام لجنة تقصّي الحقائق هو في حقيقته ـــ التي يعرفها المسيح ـــ نبي وأعظم من نبي، ولم يقم من بين مولودي النساء أعظم منه.

فهل ننسى قامة إيليا الذي أرعب قلب ملك، والذي فلق الأردن بردائه، وأغلق السماء بكلمة وفتحها بصلاة؟ ومن جهة قوته حتى من جهة الجسد، دخل سِباقاً مع أقوى فرسان إسرائيل في مركبة ملكية فسبق!!

هذا هو روح المعمدان الآن، مضافاً إليه النور الذي انطبع على وجهه لما تطلّع في وجه عريس البشرية، والسماء مفتوحة، والروح القدس حالٌّ عليه والآب ينادي: «ابني الحبيب الذي به سُرِرْتُ» !!

نحن نمسك القلم عن الإسهاب في دور يوحنا المعمدان في الكرازة وكيف ألْهب قلب الشعب من جهة النسك والتقوى ومخافة الله والتوبة عن المعاصي، لأن هذا الدور لم يشأ ق. يوحنا أن يخوض فيه لئلا تختلط الكرازة في الظل مع الكرازة في النور، فالمعمدان عند ق. يوحنا لم يجيء ليكرز بل ليشهد.

لذلك وقف أعضاء اللجنة في حيرة من أمرهم. فقد ذاب قلبهم من هيبة الواقف أمامهم وانسحاق المتكلم في آن واحد، ولعلهم انسحبوا من الكبير إلى الصغير كما فعل المشتكون على تلك المرأة البائسة (يو٨ : ٩)!

ولا يذكر ق. يوحنا ماذا تم من جهة لجنة الفحص، ولكن الواضح أنها انسحبت دون أي لفت نظر، فلم تجد في المعمدان ما يقلقها، هذا بالإضافة إلى أن المعمدان، وهو كان معروفاً عند الشعب أنه «نبي»، دخل هذا في الإعتبار لدى اللجنة لأن الرؤساء غير الواثقين من كفاءتهم يخافون الشعب دائماً. كما أن الأنبياء وهم دائماً مُرْسَلُون من الله رأساً لم يكونوا في حاجة أبداً أن

يتملقوا الرؤساء أو الشعب، بل على العكس كانت رسالتهم توبيخ الرؤساء وإيقاظ الشعب.

١:٢٨ **«هذا كان في بيت عَبْرَة، في عبر الأردن حيث كان يوحنا يعمّد».**

أسلوب ق. يوحنا يتميز بهذا الهدوء المفاجيء، فبعد صخب العرض المثير لأسئلة اللجنة المحرجة للمعمدان والتي أثارت القارىء بلا شك، يقطع الحديث فجأة ويذكر جملة عَرَضية تُنهي المنظر وتُنسي القارىء حرارة المصادمة:

«بيت عَبْرَة»:

واضح من الإسم فعلاً أنها عبر الأردن وكان اسمها «بيت عنيا» في معظم المخطوطات وأهمها. وهذا الإسم بيت عبرة أو عباراه أو بارَة مذكور في قض٧:٢٤ (أنظر هامش الكتاب المقدس) — ونحن نستفيد من ذكر هذا المكان لأننا نعلم أن المعمدان بدأ كرازته في اليهودية أي على الشاطىء الغربي للأردن: «وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية» (مت٣:١). ولكن يبدو أنه بدأ العماد عَبْر الأردن في هذا المكان: «ومضى (يسوع) أيضاً إلى عَبْر الأردن إلى المكان الذي كان يوحنا **يعمّد فيه أولاً** ومكث هناك.» (يو١٠:٤٠)

وهذا يعطينا توضيحاً أن عملية استجواب المعمدان تمت بعد مدة طويلة من بدء كرازته وحتى بعد بدء ممارسته للتعميد. وفي قوله: «في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه»، يشير هنا إلى المسيح، وليس بالضرورة أنه كان واقفاً فعلاً في هذا الوقت ولكن يقصد أنه قائم بينكم. وفي قوله: «لستم تعرفونه»، بالرغم من الصورة المهيبة جداً التي أعطاها له في قوله أنه ليس مستحقاً أن يحل سيور حذائه، يشير المعمدان إلى جهلهم الفاضح بوجود المسيًا، سواء عن عمى قلب أو تجاهل، وفي كلتا الحالتين يصرف أنظارهم عن شخصه هو ليهتموا بمن يستحق الإهتمام!...

مكان البشارة:

أولاً: اليهودية

(١:٢٩—٥١)

ج — الشهادة للمسيح ابن الله:

١:٢٩—٣٤:

كان ردُّ فعل حضور اللجنة واستجواب المعمدان وسط الجمع الحاشد، وعودة اللجنة دون اتخاذ أي إجراء، أن زاد حماس الشعب وارتفعت معنويات تلاميذ يوحنا بالنسبة لمعلمهم.

ولكن ظهر من الحديث أمرٌ أذهَل تلاميذ المعمدان: مَنْ هذا الذي لا يستحق معلمهم أن يحل سيور حذائه؟ واضح أن اللهفة والتطلع لمعرفة «الأقوى» بلغت ذروتها، ولم يعد خافياً أن المعمدان عمد المسيح ربما دون أن يلاحظ ذلك أحد.

ولكن بعد إحراج أعضاء اللجنة للمعمدان واضطراره للإعلان عن هذا الرجل الذي أتى بعده وهو «قبله»، الذي وإن كان يعمِّد فهو يعمِّد لحسابه ليُستعلَن له وللشعب؛ كان يتحتم أن يعلن عنه بسرعة ليغطي موقفه. لأن من ردود المعمدان يتضح أنه لم يجيء إلا ليعد طريقه ــ إنْ كرازة أو تعميداً ــ فلم يكن الشعب وحده في لهفة أن يعرف المسيَّا أو تلاميذ المعمدان أيضاً، بل والمعمدان نفسه كان وهو يمارس تعميده للناس قَلِقاً يشرئب برأسه ويتلفت يميناً ويساراً لعله يراه فيُخلي ورديته ويعود من حيث أتى. ولكن هذه المرة ليس على مركبته العتيقة وفرسانه النارية الطائرة!!

١ : ٢٩ «وفي الغد نظر يوحنا يسوعَ مُقْبلاً إليه، فقال: هوذا حَمَلُ الله الذي يرفع خطية العالم».

كل الظروف توحي إلينا أن المسيح كان خارجاً للتو من التجربة مع إبليس. لأننا نعلم من الأناجيل الأخرى أنه بعد التجربة دخل الخدمة وبدأ الكرازة، وهنا في هذه الآية واضح أن المسيح جاء عن قصد، إذ أن خدمته حريٌّ بها أن تبدأ بشهادةٍ وإعلانٍ، كان هو في غير حاجة إليها، ولكن كان الشعب يحتاجها بكل تأكيد، وكانت لحظة تسليم وتسلُّم: «ينبغي أن ذاك يزيد وأني أنا أنقص». هذا ليس بلسان المعمدان وحده، بل بلسان جميع الأنبياء والعهد القديم بكل مشتملاته.

ويضيف ذهبي الفم أن مجيء المسيح ثانياً للمعمدان بعد عماده كان خصيصاً ليعلنه ويُظهره لإسرائيل:

[لأنه لهذا جاء ليعطي يوحنا المعمدان فرصة لكي يعلن رؤيته (رأيه) ثانية أيضاً لأنه بقوله هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم فإنه يمنع كل شك.](٤٥)

«هوذا حَمَل الله الذي يرفع خطية العالم»:

كانت ومضة إلهامية نطق فيها المعمدان نطقه الخالد «هذا هو حمل الله...»، شهادة من فوق الواقع والزمن لا تعتمد قط على معرفة لا سابقة ولا لاحقة، ولا تستمدها من خلفية ذبائح أو

(45) Op. cit., p. 59.

طقوس ـــ كما تاه معظم الشرّاح ـــ فالمعمدان ليس مشرّعاً ولا هو دارس للتشريع، ولا هو جاء ليعيد للشريعة سطوتها المتهالكة ولا مجدها الذاوي. ولكن المعمدان كانت وظيفته تدور حول الخطية، هو يعرفها، و يعرف استحالة غسلها بالماء. كان يعلم أنه يغسل بالماء ولا فائدة ولا قيمة إلا مع الذي سيغسل بالروح القدس، فلما رآه كانت الخطية شغله الشاغل الذي ملأ ذهنه، رآه كَحَمَل بلا عيب، بلا خطية! ورآه والروح القدس مستقر على رأسه، ليشير الإشارة الإلهية: أنَّ بهذا يكون العماد، وبهذا يكون الخلاص!!

ولكن أوّاه، لقد لمح في عينيه الحزينتين صورة الصليب، و بالمنظر المعقول رآه خروفاً قائماً كأنه مذبوح، فلما هتف المعمدان: «هوذا حَمَلُ الله الذي يرفع خطية العالم» كان ينطق بما يرى!

المعمدان رأى ذلك بيقين، ولكنها كانت رؤيا، أما نحن فأخذنا منه أخذاً وذُقنا كيف يرفع الخطية!!

وهوذا العالم وقد صار له موضعٌ في السماء وأمام عرش الله يهتف: «... أمام الخروف ولهم كل واحد قيثارات وجامات من ذهب مملوءة بخوراً هي صلوات القديسين وهم يترنمون ترنيمة جديدة. قائلين: مستحق أنت أن تأخذ السفر وتفتح ختومه لأنك ذُبحت واشتريتنا لله بدمك من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة.» (رؤ ٥: ٨و٩)

والسؤال الذي نلقيه على القارىء: لو لم يجيء الحَمَل هذا فماذا كان حال العالم اليوم؟

ولكن لا ننسى أن كل ما كان، وكل ما هو كائن من نِعمٍ و بركات ومُثُلٍ عليا أخلاقية وروحية في العالم لن تساوي تماماً ثمن الدم المدفوع. لذلك، فحتماً حتماً لا يزال أمام العالم بقية من نِعمٍ ومجد وسلام أكثر مما كان!!! لأن الدم لا يزال يتدفق من الخروف القائم كأنه مذبوح!!

المعمدان نبي يستمد أقواله بالإلهام من مصادرها العليا دون سبق إعداد أو معرفة، كالرائي في سفر الرؤيا لما رأى المسيح برؤيا الخلاص كخروف قائم كأنه مذبوح، فلا العين رأت خروفاً ولا المسيح تحول إلى ذبيحة منظورة، ولكن هذه كلها يسميها الصوفيون (The Mystics) رؤيا «التورية»، أي بالنظر المعقول الذي لا يمتُّ للواقع المادي بشيء.

فلما قال المعمدان: هوذا «حمل الله»، لم يكن قد رأى المسيح حَمَلا ولكنه رأى مجمل الفداء كله في لمحة ذهنية خاطفة، ورأى الخلاص شاملاً كافياً للعالم، بل ورأى العالم فيه مفديًا، ورأى الخطية بثقلها الدهري ترتفع من فوق كاهل العالم المحني تحتها هذه الدهور كلها، لتوضع فوق المسيح الحَمَل، فلا توجد. هذا هو الحَمَل الذي سأل عنه إسحق عندما لمح السكين والحطب في يد

إبراهيم أبيه، وهذا هو الحمل الذي تخيَّله إبراهيم «الله "**يَرَى له**" الحَمَل للمحرقة يا ابني» (تك ٢٢ : ٨). نعم لقد رآه الله **لنفسه** قبل الدهور، وأعدَّه بترتيب تسجل في سجلات الملائكة وكل الروحانيين، فباتوا يَعدُّون الأيام لمجيئه ويُعدُّون أنفسهم لظهوره. وإن كان في هذا اليوم قد مرَّ على الأرض ولم يلمحه إلاَّ الحاملُ لروح إيليا، فالسماء عيَّدت له بطقس «**السجود**»، اشتركت فيه كل خوارس الملائكة: «ومتى أدخل البِكْر إلى العالم يقول: **ولتسجدْ له كل ملائكة الله**» (عب ١ : ٦)

وإن كان المعمدان الناطق بالروح القدس والناظر بروح إيليا قد لمح «الحَمَل» وهو رافعٌ خطية العالم، فما ذلك إلا أن الحَمَل ذاته كان **حاملاً على جسده** منظر خطايا كل العالم متزاحمة فوقه: «لذلك عند دخوله إلى العالم يقول: ذبيحةً وقرباناً لم تُرِدْ ولكن **هيَّأتَ لي جسداً**» (عب ١٠ : ٥). فكان هو الذبيحة الحقيقية لذبائح الرموز كلها، والحمل الحقيقي الذي لا ينبغي قط أن نبحث عن اسم له بين حملان الرموز، لأنه توجد حملان كثيرة ذات مناظر حسنة للغاية: حمل إسحق المذبوح تحت يد أبيه (تك ٢٢ : ١٠)، وحملان موسى المتعددة المناظر والمنافع، وحمل إشعياء المساق صامتاً إلى الذبح (إش ٥٣ : ٦ و٧)، وحمل إرميا الذي تُعدُّ من ورائه أفكار للهلاك (إر ١١ : ١٩)(٤٦)، وحمل بطرس الرسول الذي بلا عيب (١بط ١ : ١٩)، وحمل بولس المكنيُّ عنه بالفصح الذي ذُبح (١كو ٥ : ٧)، وحمل سفر الرؤيا القائم كأنه مذبوح وهو الغالب (رؤ ٥ : ٦). حملان حسنة كثيرة ولكن ليست كحمل المعمدان ذي الإسم المهيب العجيب: «**حمل الله**». اسم يَجُبُّ الأسماء جميعاً ويجمع في نفسه قوة الذبائح جميعاً ويفوقها تفوقاً، يكملها على الأرض ويبقى هو هو حمل الله الرافع خطية العالم حتى ملء كل الدهور.

ولا تنسَ، أيها الباحث المدقق، أن تعريف المسيح بـ«الحمل الرافع خطية العالم» جاء قبل البدء بخدمة الصليب، فهذا التعبير يُعتبر أقوى وأكبر نبوة عن الفداء الذي سيتم قبل أن يبدأ بلحظات أو قبل الصليب بثلاث سنوات.

ولكن، لو تتذكر الحديث الذي تم بين موسى و«**إيليا**»، وإيليا بالذات مع المسيح على مسمع من التلاميذ على جبل التجلي، وهو حديث مأساوي: «وإذا رجلان يتكلمان معه هما موسى وإيليا اللذان ظهرا بمجد وتكلما **عن خروجه الذي كان عتيداً أن يكمله في أورشليم**» (لو ٩ :

(٤٦) الآية المترجمة باللغة العربية لا تحمل المعنى الصحيح فهي مترجمة «خروف داجن»، ولكنها في الترجمة اليونانية الأصلية عن العبرية هي خروف بلا شر أي خروف بلا عيب أو خروف طيب هكذا: ἐγὼ δὲ ὡς ἀρνίον ἄκακον

٣٠و٣١)؛ فهذا هو إيليا يظهر في ملء المجد، ولكن كان حديثه وهمُّه في الخروج العتيد أن يكمله المسيح في أورشليم أي حمله للصليب وخروجه خارج أورشليم ليُصْلَب. ثم علينا أن نتذكر دائماً أن القديس يوحنا المعمدان كان يحيا ويتحرك بروح إيليا، وبمعنى أكثر شمولية كان المعمدان شخصاً رؤيوياً يرى ما لا يُرى.

حتماً احتوتْ رؤية المعمدان الحَمَلَ وهو رافعٌ خطية العالم كلَّ مضمون المأساة ولكن دون مفردات، فهل تُرفع الخطية بلا ثمن؟ وهل توضع الخطية على الحَمَل دون مساعدة السكين؟ وهل يتحمل حَمَل واحد خطية العالم كله، إن لم يكن هذا العالم بجملته محمولاً أصلاً على كتفيه، والخطية في العالم هي جزؤه الأثقل حِمْلاً؟؟

وبقدر ما تتعدد أسماء خطية العالم بقدر ما يمكن أن تتعدد «وظيفة الحَمَل»، فهو حمل «**المحرقة**» و«**الخطية**» و«**الإثم**»، ولأن العالم وقع تحت **أسر الخطية** أرضاً صار الحَمَل للعالم «**فصحاً**» أيضاً. فمن العبث أن نسأل المعمدان ماذا كان يرى في ذبيحة الحمل؟ هل محرقة؟ أم فصحاً؟ كل ما يعرفه المعمدان عن يقين أنه فكَّ سيور حذائه، وغَسَله بالماء، وأفْرَزَه من بين الشعب ليكون جاهزاً قبل الرابع عشر (من نيسان) بثلاثة أيام سنين، حسب طقس تقويم الأنبياء، لأن يوم النبي هو بسنة، حسب دانيال.

وليس من الخارج فقط جهَّزه الصابغ السابق لهذا اليوم، بل وحمَّله من الداخل كلَّ ذنوب التائبين الذين اعترفوا وتابوا واعتمدوا على يديه: «هذا جاء للشهادة ليَشْهَدَ للنور ليؤمنَ **الكل بواسطته**.» (يو١: ٧)

ولكن أليس أيضاً في اسم «**الحَمَل**» **الإلهي** ما يُفصح عن وداعة الله ولطفه وحنانه؟ فهو فوق أنه اسم ذبيح؛ فهو اسم الوداعة القادر على الصفح والغفران حسب غنى لطفه كإله وإمهاله وطول أناته، علماً بأن لطف حمل الله يقتاد إلى التوبة ولا يَحسبُ للإنسان خطية!

كذلك يلزمنا أن ننتبه إلى الإيجاز الهائل والتركيز الممعن في الإختزال في أسلوب المعمدان في هذه الآية. فهو لم يذكر أنواع الخطايا، بل أوجزها في كلمة «**الخطية**» لكي تحمل المعنى الكلي للخطايا أو «ناموس الخطية الكامل الكائن في أعضائي» حسب تعبير بولس الرسول (رو٧: ٢٣). ولكن أيضاً «خطية العالم» لا تزال تحمل أوزاراً أخرى للعالم الثائر على الله، الجاحد لمحبته، الرافض ليده الممدودة طول الدهور.

ولم يذكر المعمدان نوع الذبيحة، بالتالي، التي سيؤديها **الحَمَل**، ولكنه ركَّز تركيزاً في قوتها في كلمة: «**يرفع**» التي تشمل كل معنى الكفَّارة والغفران بل والصفح، بما ينصبُّ على معنى رفع الأثر أيضاً.

يرفع: الذي يرفع = ὁ αἴρων :

جاءت في المضارع بمعنى الذي يرفع ويظل يرفع خطية العالم. وهي الكلمة التي استخدمها ق. يوحنا نفسه في رسالته الأولى ٣ : ٥ «وتعلمون أن ذاك أُظهر لكي **يرفع** خطايانا وليس فيه خطية». وهذا التعبير «يرفع خطية العالم» هو تعبير عميق وجليل للغاية أخذته الكنيسة كما هو وأدخلته في ليتورجياتها (تسبحة الملائكة في صلاة باكر بالأجبية(٤٧)، والقسمة السرياني) فصار تعبيراً ليتورجياً جليل القدر خاصة عند الغرب، حيث يقولون قبل التناول مباشرة:

[Agnus Dei qui tollis peccata mundi, miserere nobis].

[يا حمل الله الرافع خطية العالم، ارحمنا].

ولم يذكر المعمدان أيَّ إنسان أو الشعب الذي يشمله عمل الحَمَل، بل جمع شمل كل الناس والشعوب معاً في كلمة «**العالم**» دون أن يحدد ماضياً له أو مستقبلاً، لكي ينضوي تحت لواء عمل الحمل كل إنسان ـــ كان مَن كان ـــ في كل العالم.

١ : ٣٠ **«هذا هو الذي قلتُ عنه: يأتي بعدي رجل صار قُدامي لأنه كان قبلي».**

المعمدان يكرر هذا الوصف وكأنه يوثِّق بين الواقع الذي مثله والنبوة التي تحدِّد موقعه «هأنذا أرسل ملاكي فيهيىء الطريق **أمامي**...» (ملا ٣ : ١). ثم يرجع على «**الآتي بعده**» ليصحح الوضع من جهة الأسبقية في الوجود والكرامة «**كان قبلي**» "πρῶτός μου".

والحقيقة التي كانت تشغل بال المعمدان هي الدور الذي وُضِع عليه أن يؤديه، فقد كان صعباً على نفسه للغاية أن يأتي إليه مَنْ هو أعظم منه ليعتمد منه، وليس ليعتمد منه فقط، بل و يأتي تائباً نائباً عن الشعب معترفاً بخطايا أُمَّته وهو ليس فيه خطية ولا شِبه شر!! «حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه ولكن يوحنا منعه قائلاً: أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إليَّ. فأجاب يسوع وقال له: اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل برٍّ، حينئذ سمح

(٤٧) جدير بالذكر أن تسبحة الملائكة في الأجبية التي يقال فيها: [يا حمل الله يا حامل خطية العالم، ارحمنا] هي أقدم تسابيح الكنيسة المسيحية. وهي لا تزال تقال بكاملها حتى الآن في كل من الطقس القبطي والبيزنطي واللاتيني.

له.» (مت٣: ١٣ـــ١٥)

هـذا مـن واقع إنجيل القديس متى، حيث يتضح أن المعمدان كان يعرف المسيح وكان يعرف حتماً كل ما لابس ميلاده الإعجازي، فكان يعرف أنه **أفضل منه بالروح**. هذا بحسب ما يُفهم من مضمون رواية إنجيل القديس متى. لهذا حاول أن يمنعه لكي لا يُخجل تواضعه و يضع يده على مَنْ هو أفضل منه. ولكن من رواية إنجيل القديس يوحنا نكمل الصورة أنه بالرغم من أنه كان يعرفه بالجسد، إلاَّ أنه لم يكن يعرف قط أن هذا هو هو المسيَّا وأنه هو هو ابن الله.

هذا الإجراء وما لابسه ـــ أي تعميد الرب ـــ لم يأتِ على ذكره ق. يوحنا، لأن الوصف بهذا التحديد يجعل معمودية المسيح تُفهم وكأنها دور أساسي في عملية الخلاص، والحقيقة التي أبرزها إنجيل يوحنا هي أن **عماد المسيح لم يكن إلاَّ وسيلة لاستعلان المسيح والتعرُّف عليه** كما سيجيء على لسان المعمدان في الآيات القادمة.

والتقليد الرسولي والكنسي عامةً، بل ومفردات اللاهوت الخلاصي، لا تشير قط أن المسيح اعتمد على يد المعمدان عن الخطاة، أو اعترف بالخطايا عن الخطاة، أو تاب عن الخطاة، بمعنى أن معمودية يوحنا لا تدخل قط في مفردات الخلاص الذي أكمله المسيح عن الخطاة. بل إن من الأمور الثابتة إنجيلياً ولاهوتياً أن عمل المعمدان برُمَّته لا يدخل دائرة التجديد في تأسيس ملكوت الله.

وفي هذا يقول ذهبي الفم:

[في الحقيقة، إن المسيح غير محتاج للمعمودية لا التي كانت له (على يد المعمدان) ولا معمودية الآخرين الذين (عمدهم المعمدان). بل بالأحرى فإن **«المعمودية»** ذاتها كانت في حاجة إلى قوة المسيح لأن الشيء الذي كان ينقص الكل هو التقديس النهائي الذي كان يحتاجه كلُّ مَن يعتمد، ألا وهو الروح القدس الذي أعطاه المسيح لما جاء][48].

فالمعمدان لم يُحسب مع التلاميذ لا الإثني عشر ولا السبعين «فقال لهم يسوع: الحق أقول لكم إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد، متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر.» (مت١٩: ٢٨)

«الحق أقول لكم: لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان، ولكن الأصغر في ملكوت السموات أعظم منه.» (مت١١: ١١)

---

48 *Op. cit.*, p. 60.

١ : ٣١ «وأنا لم أكن أعرفه لكن ليُظهَرَ لإسرائيل، لذلك جئتُ أُعمِّد بالماء».

«وأنا لم أكن أعرفه»:

قد تعني هذه الجملة أنه لم يكن يعرفه «كمسيًّا»، وربما كان يعرف يسوع كأحد أقربائه. ولو أن الآية في إنجيل القديس لوقا توضح أنه تغرَّب كل أيام حياته في البرية حتى يوم بدء خدمته: «أما الصبي فكان ينمو ويتقوى بالروح وكان في البراري إلى يوم ظهوره لإسرائيل.» (لو١ : ٨٠)

«لكن ليُظهَرَ (المسيح) لإسرائيل لذلك جئت أُعمِّد بالماء»:

والقديس ذهبي الفم يقول إنه صرَّح بذلك لينفي أن علاقة القرابة به أو الصداقة ذات علاقة بتعميد المسيح. (٤٩)

واضح جداً أن المعمدان تلقى ليس فقط حدود رسالته، أي التعميد بالماء كواسطة للتوبة وخَتْم لها بعد الإعتراف والندم وذلك إعداداً لقلوب الآباء والأبناء قبل مجيء «الرب»؛ بل وأيضاً فإن إجراء التعميد هو بحد ذاته وبصورة أساسية سيكون واسطة لإعلان شخصية المسيًّا لكل إسرائيل، أي للأمة، حسب الوعد النبوي. وقد أمدَّنا القديس يوستين الشهيد برواية من فم تريفو اليهودي تُعتبر ميراثاً يهودياً مُسلَّماً فيما يخص ظهور المسيا:

[أما المسيًّا عندما يولد، فهو يوجد في مكان ما يبقى مجهولاً، وحتى هو نفسه لا يعرف نفسه (خطأ = «ينبغي أن أكون فيما لأبي»)، ولا تكون له قوة حتى يأتي إيليا ويمسحه (خطأ = **يعمِّده**) وبهذا يُظهِره للجميع...] (٥٠)

ومن هذا التنبؤ في التراث اليهودي، يتضح أن كل ما يخص مجيء المسيًّا كانت معرفته قد سَرَت بين الشعب كإحدى الوسائل الهامة لتسهيل التعرُّف عليه.

وفي هذه الآية يكون المعمدان قد ردَّ الرد المقنع لكل من تسوِّلُه نفسه أن يرى في عماد المسيح تحت يد المعمدان نوعاً من التكريس أو المسحة كما يخطىء الفكر اليهودي، أو يرى في المعمدان نوعاً من التفوق على المسيح بأي نوع. ذلك أن عِلَّة عماد المسيح، بل عِلَّة كل وظيفة المعمدان كمعمِّد، هي لكي يُظهِرَ «المسيًّا» لإسرائيل، وليعرف الجميع أن يسوع الذي من ناصرة الجليل هو المسيًّا الآتي.

---

[49] *Op. cit.*, Hom. XVII, p. 59.

[50] Justin and Trypho. C.8. ANF vol. I, p. 199.

١ : ٣٢و٣٣ «وشهد يوحنا (المعمدان) قائلاً: إني قد رأيتُ الروح نازلاً مثل حمامة من السماء فاستقرَّ عليه. وأنا لم أكن أعرفه، لكن الذي أرسلني لأُعمّد بالماء ذاك قال لي: الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو الذي سيعمّد بالروح القدس».

الآية الأُولى على لسان الرسول ق. يوحنا وقد سمعها بأذنيه منه رأساً، لذلك أورَدَها هنا في البداية تأكيداً لما سيرويه عن لسان المعمدان نفسه. وفي شهادة الرسول يتذكر أنه وصف الروح القدس الذي نزل من السماء واستقر عليه بأنه كان «مثل حمامة»، وهذا هو التقليد الرسولي كما وصفه الإنجيليون الثلاثة.

والذي يلفت أنظارنا هو قول المعمدان: «إني قد رأيتُ τεθέαμαι الروح». هنا كلمة **«الرؤيا»** تأتي بمعنى المشاهدة فوق العادة أي الرؤيا الإيمانية. هنا وهنا فقط تكمن القدرة السرية الموهوبة للمعمدان مُسبقاً منذ أن كان في بطن أمه لكشف سر المسيح! وحضور الروح القدس هنا هو الحضرة الإلهية التي من خلالها وهب للمعمدان الرؤية الإيمانية التي بها اكتشف سر المسيح ابن الله. فكانت نعمة **«رؤية»** الروح τεθέαμαι هي التي أوصلته لنعمة رؤية المسيح والإيمان أنه هو المسيا ابن الله.

ويخطىء مَن يعتبر حلول الروح القدس هو حلول أقنومي أو أن المسيح امتلأ بالروح وقتئذ. فالمسيح هو الكلمة المتجسد ابن الله قبل أن يعتمد كما هو بعد أن اعتمد، واحدٌ مع الآب والروح القدس بالإتحاد، جوهر واحد للآب والابن والروح القدس.

علماً بأن كلمة: «ومستقراً عليه» هي جزء من العلامة أو جزء آخر من الدليل، لكي يتأكد به المعمدان أن مَن تستقر عليه الحمامة تماماً هو هو يكون.
كذلك لا يقول اللاهوت إن المسيح صار مسيحاً بعد العماد، بل هو المسيح يوم أن حُبل به في البطن، فهو ممسوح من الله ملكاً للدهور كلها ورئيس كهنة الخيرات العتيدة لحظة أن قبلَ الإرسالية، لحظة أنْ أخلى ذاته ليأخذ شكل العبد و يصير في الهيئة كإنسان وهو الله.

أي أن المسحة التي أخذها على الأردن **هي مسحة بدء الخدمة كإشارة من الروح فقط** وليست للملء أو الإرسالية، فالإرسالية تمت قبل التجسد، والملء فيه لحظة حُبِلَ به في البطن حين قدّسه الله وأرسله إلى العالم. وللتأكيد نعود فنقول إن الحلول والملء والتقديس والمسح هذه كلها تمت بالتجسد وليس بالعماد. والعماد أظهَرَها وأعلنها وأطلقها للعمل.

فالذي تم على الأردن هو عملية التكريس العلني التي هي بمثابة استعلان بدء حياة المسيح المخصصة للصليب؛ انتقل بعدها المسيح من الحياة العادية التي كان يظهر فيها كأنه إنسان عادي ــ نجار الناصرة ــ إلى حياة الصليب العلنية حيث يظهر فيها لاهوته بانفتاح السماء وإعلان الآب عن حقيقته المخفية أنه ابنه الحبيب. والروح القدس النازل عليه للتعيين والإشارة كَشَفَ في الحال للمعمدان ــ بالعين الإيمانية ــ أنه ابن الله المملوء من الروح القدس والمزمع أن يعمِّد بالروح القدس.

فهذه المسحة التي تمت بصوت الآب من السماء وحضور الروح القدس والمعمدان كشاهد، كانت هي بدء الإرسالية العملية بصورتها العلنية وبشهادة الشهود في السماء والأرض، لم يأخذ المسيح فيها مؤهلات جديدة للخدمة فهو الكامل وملءُ الذي يملأ الكل. **ولكن هذه المسحة استعلنت علناً بُنوَّته للآب واحتيازه ملء حب الآب وملء الروح القدس. فهي** كانت لحظة تنصيب للخدمة وليست إعداداً أو تكميلاً. وهذه اللحظة عينها قال عنها المسيح بعدئذ «من أجلهم أنا أُقدّس **ذاتي**». ويلاحَظ أنه لم يقل «أُقدس جسدي»، فالجسد مقدس باتحاد اللاهوت، منذ كان في البطن، تقديساً كلياً وكاملاً لا يحتاج قط إلى تكميل أو تقديس آخر في المعمودية، وإلاَّ أصبنا حقيقة إتحاد اللاهوت بالناسوت إصابة خطرة وبليغة ــ ولكن قوله هو: **«أُقدّسُ ذاتي»**، وتفيد «أُقدّس ذاتي بإرادتي»، بمعنى أُكرِّس حياتي منذ لحظة المسحة للإرسالية تكريساً كلياً لحساب الفداء وذبيحة الصليب التي فيها وبها وحدها نتقدس نحن.

من هذا يتضح قوله: «**من أجلهم** أنا أقدّس ذاتي»، أي من أجلهم أُخصِّص حياتي للموت عنهم، ولا تفيد أبداً أنه لم يكن مقدَّساً قبل أن يحصر حياته العملية في خدمة الصليب وحده، بل كان مقدَّساً بل قدوساً من البطن: «فأجاب الملاك وقال لها الروح القدس يحل عليكِ وقوة العلي تظللكِ فلذلك أيضاً **القُدُّوس** المولود منكِ يُدعى ابن الله» (لو١: ٣٥). هذه شهادة الملاك من السماء. لذلك فحياته كلها كانت مقدسة وهو وُلد لحساب الصليب.

ولكننا نعلم من الإنجيل أنه مارس حياته العملية ثلاثين سنة وكان نجاراً في الناصرة، ولكن بعد لحظة المسحة أي التكريس للخدمة في الأردن انحصرت حياته في الصليب. هذا هو بدء «من أجلهم أُقدّس ذاتي»، وفيها استعلن لاهوته وبنوّته للآب، وبالتالي وبالضرورة استُعلن مِلؤه من الروح القدس لما حَلَّ عليه الروح القدس، مشيراً إليه، فكانت مسحة استعلان، فظهر للناس وخاصة للتلاميذ في هذا الملء، فهو لم يمتلىء من الروح القدس في الأُردن بل بالحري استُعلن ملؤه من الروح القدس كما استُعلنت بنوّته للآب تماماً وبالتساوي. فالابن له الروح القدس خاصة

كالآب؛ وهو لا يأخذه بل يعطيه.

نفهم من هذا أن قول القديس لوقا في إنجيله: «أما يسوع فرجع من الأُردن ممتلئاً من الروح القدس» أنه رجع من الأُردن وقد استعلن مِلْؤه من الروح القدس(٥١). لأننا بالمثل لا نستطيع أن نقول أنه 'رجع من الأُردن وهو ابن الله' كأنه أخذ البنوة الإلهية في العماد؟ فكما أن المسيح كان ابن الله قبل العماد وبعد العماد، هكذا يتحتم أنه كان ممتلئاً من الروح القدس قبل العماد وبعد العماد. ولا يجوز لاهوتياً أن يُقال أن المسيح امتلأ من الروح القدس مرتين كبطرس أو بولس.

والمعمدان دائماً يكرر «**وأنا لم أكن أعرفه**»، ولكن ليس المعمدان وحسب، بل إن المسيح فعلاً كان مخفياً عن أقرب المقرَّبين إليه: «لأن إخوته أيضاً لم يكونوا يؤمنون به» (يو٧: ٥). فالمسيح باعتباره المسيَّا الآتي، ابن الله، عُرف لحظة حلول الروح القدس عليه من السماء كإشارة عليا ونداء الصوت من المجد الأسنى: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» (مت٣: ١٧). فهذه لحظة دخوله إلى العالم مُخلِّصاً وفادياً، لحظة الخدمة التي بدأت بالعدّ التنازلي حتى نقطة الصفر حينما قال: «قد أكمل» (يو١٩: ٣٠)، وأسلم الروح على الصليب!

ومرة أخرى يتضح لنا دور المعمدان الرئيسي في استعلان شخص المسيَّا يسوع المسيح ابن الله، وهذا هو محور الأصحاح الأول في إنجيل ق. يوحنا بل وفي الإنجيل كله. فمن الخطأ الظن أنه بحسب إنجيل ق. يوحنا كان للمعمدان دور ما في الخلاص أو في ملكوت الله، لأن هذا كله هو عمل المسيح وحده. كذلك نفهم أن المعمدان أخذ وعداً إلهياً مباشراً مُسْبقاً من مصدر لم يصرِّح به، ولكنه هو هو الله وليس آخر وهو الآب الذي يشهد دائماً للابن، أنَّ في أثناء التعميد فإن الذي يرى الروح نازلاً ومستقراً عليه يكون هو المسيَّا الآتي: «الذي سيعمِّد بالروح القدس».

ولم يُشِرْ المعمدان إلى أن المسيح أخذ الروح القدس، ولا المسيح نفسه أشار إلى مثل هذا.

ومرة أخرى نُصحح ما جاء في شرح كثيرٍ من كتب الشرح، فإن عماد المسيح واستقرار الروح القدس عليه بهيئة حمامة لم يكن أبداً لتأهيل المسيح للتعميد بالروح القدس أو لنوال الروح القدس أصلاً(٥٢)، وإنما كان لاستعلان المسيح وإظهاره لإسرائيل.

بل و يقول ذهبي الفم إن المعمدان نفسه لم يكن في حاجة شخصية للتعميد أكثر من أنه

(٥١) «ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً».

52 Westcott, *op. cit.*, p. 22.

بواسطة الإغتسال يُعدُّ الآخرين للإيمان بالمسيح:

[هو (المعمدان) لم يكن، إذن، بحاجة إلى المعمودية (بالماء)، ولا هذا الإغتسال كان له هدف أكثر من أن يعدّ الآخرين جميعاً كطريق للإيمان بالمسيح، لأن المعمدان لم يقل ــ بالنسبة للعماد ــ «حتى لكي أُطهِّر الذين يعتمدون» أو «حتى لكي أُخلِّصهم من خطاياهم»، ولكن قال «لكي أُظْهِرَه لإسرائيل».](٥٣)

١ : ٣٤ «وأنا قد رأيتُ وشهِدتُ أن هذا هو ابنُ الله».

الرواية هنا تبلغ قمة استعلانها، فيسوع الذي جاء يكرز ويعمِّد بالروح القدس بعد المعمدان هو المسيَّا ابن الله. وهذه الشهادة العملية من فم المعمدان تأتي بعد رؤية عينية إيمانية عالية بسَبْق إعلان روحي، وبإلهام مُسْبَق، وبعلامة معينة من السماء لا يأتيها الباطل من أي جانب. فهي علامة من صُنْع الروح القدس وعمله، وهو روح الحق. ويكون ق. يوحنا قد وضع هنا شهادته التي جاءت في ختام المقدمة في آية (١٧و١٨) كآخر استعلان «للكلمة»، في مقابل شهادة المعمدان العملية كأول استعلان من داخل الإنجيل، أو في الحقيقة في أول الإنجيل على مستوى الكرازة.

«**ابن الله**» ὁ υἱὸς τοῦ θεοῦ :

ورد هذا الوصف المهيب في سفر دانيال: «فأجاب (نبوخذ نَصَّر) وقال ها أنا أنظر أربعة رجال محلولين يمشون في وسط النار وما بهم ضرر، ومنظر الرابع شبيه (بابن الآلهة) ــ خطأ في الترجمة والأصل السبعيني عن العبري الأصلي يُقرأ: ابن الله υἱῷ Θεοῦ .» (دا٣: ٢٥). لقد مهَّد المعمدان لإعلان هذا اللقب أو الوصف «ابن الله» للمسيَّا أعظم تمهيد بثلاثةِ أقوال هامة:

القول الأول:

«أنا لستُ أهلاً أن أَحُلَّ سيور حذائه». فهذا التعبير لا يصح ولا يحق أن يقال عن إنسان أي إنسان مهما كان! «فهذا هو ابن الله» ليس من فم المعمدان بل من أعماق إيمانه وقلبه.

أما القول الثاني:

إنه «**سيعمِّد بالروح القدس**» فهذه كانت الإشارة البليغة أنه «**ابن الله**». فلم يحدث قط

---

[53] Chrysostome, *op. cit.*, p. 59.

ولن يحدث قط أن عمَّد إنسانٌ ما بالروح القدس، فمنذ أن ظهر ابن الله حتى هذه الساعة فالذي يعمِّد بالروح القدس هو ابن الله، وهو بنفسه الذي يعمِّد على يد كلِّ من كانت له صلاحية التعميد كاهناً كان أو أسقفاً أو رئيس أساقفةٍ؛ فخادم السر يخدم، ولكن الذي يعمِّد بالروح القدس هو المسيح ابنُ الله بنفسه. فالروح القدس هو الأقنوم المساوي للآب والابن، فلا يعطيه إلاَّ الابنُ بمشورة الآب.

أما القول الثالث:

نوع العلامة التي أعطاها الله للمعمدان لكي يعرف بها هذا الشخص المهيب الإلهي، فهي علامة ليست من بين كل ما في الأرض وما في السموات من خليقة كانت. فلم تكن العلامة ملاكاً ولا رئيس ملائكة بل العلامة هي «**روح الله**» نفسه. ولكي تستطيع عينا المعمدان رؤية روح الله الذي لا يُرى جاءه الروح بهيئة حمامة نازلة من السماء من موضع الروح لتربط في وعي المعمدان بين المُشَار إليه وبين موطنه الأصلي، ثم وسيلة الإشارة.

المعمدان يعلم تماماً بروحه وفكره وكل كيانه أنه جاء يمهِّد الطريق لظهور «الله»، لهذا كان في ردوده أمام اللجنة واثقاً في نفسه، أنه في نفسه ليس شيئاً بالمرة أمام ذاك الذي جاء ليعلن عنه. وحينما يقول إنجيل ق. يوحنا إن المعمدان رأى وشهد وقال بالروح إن هذا هو «**ابن الله**»، فهو يقصد الابن الحقيقي للآب الحقيقي، الله الواحد بذاته وجوهره.

وكما قال ق. يوحنا «ونحن رأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب» عن رؤية إيمانية كاشفة أدرك فيها المجد الحالَّ على الكلمة المتجسد الرب يسوع أنه ليس مجداً خُلواً من أُبُوَّة، إذ رأى المجد مجدَ آبٍ لابن، ومجدَ ابنٍ في آب، فكان المجدُ الحالُّ عليه وفيه، كان ينطق في وعي ق. يوحنا أن هذا هو الحب الأبوي المنسكب على الابن يتلألأ كنور في نور.

هكذا المعمدان رأى هو أيضاً برؤية الإيمان في حضور الروح القدس، والسماء مفتوحة، والروح يشير بإشارات بليغة، بعضها منظور والآخر ناطق في قلب المعمدان: أن هذا هو الابن الحبيب لأبيه له اسمعوا؛ فكيف لا يسمع ولا ينطق بما رأى وسمع.

إن هذه الومضات الإلهامية كثيرة في الإنجيل، انظروا بطرس الرسول كيف انفتح وعيه فجأة في حضرة المسيح واستقبل إعلاناً نطقه الله الآب نفسه في قلبه، فهتف به لسانه: «أنت هو المسيح **ابن الله الحي**»، ففرح به المسيح وأراد أن يشجعه أكثر، فكشف له كيف ومن أين جاءته هذه الشهادة العليا: «فأجاب يسوع وقال له طوبى لك يا سمعان بن يونا، إنَّ لحماً ودماً لم **يعلن لك**

ولكن أبي الذي في السموات.» (مت١٦: ١٧)

نثنائيل التلميذ الجديد الطيب اكتشف في المسيح صفته الجوهرية الإلهية بإلهام، كالبرق، وبمنتهى السرعة والجرأة والثقة، حينما أعطاه المسيح إشارة صغيرة أصابت كبده وفي الصميم: «أجاب نثنائيل وقال له يا معلم أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل.» (يو١: ٤٩)

مرثا التي اهتمت بأمور كثيرة حباً في المعلم، وهي في سحق حزنها ومرارة نفسها، لما نظرت إلى الرب نظرة عتاب كيف ترك أخاها ليبتلعه الموت وتركها فريسة الألم بلا رجاء، أعاد إليها الرب النظرة بومضة من إشعاع مجده الذاتي ــ فرأته كما هو ــ واستنطقها الإيمان فنطقت. «أتؤمنين بهذا؟ قالت له: نعم يا سيد أنا قد آمنت أنك أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم.» (يو١١: ٢٦و٢٧)

وذلك الأعمى الفصيح أول مُدافع عن المسيح في تاريخ المسيحية والإنجيل، لما وجده المسيح أحبه وأراد أن يُسعده بالنور السماوي فعرَّفه بابن الله؛ فقال له الأعمى البصير مَن هو يا سيد؟ فقال: الذي يكلمك، ونظر إليه، فنفذت النظرة إلى أعماق وعيه المسيحي. فهتف أؤمن وسجد!!

وفي ذلك يقول القديس كيرلس الكبير عمود الدين:

[وكأنما المطوّب (يوحنا) الإنجيلي يبدو أنه يقول بكثير من الثقة ــ مع المعمدان ــ هذا هو ابن الله الواحد الوحيد بطبعه (جوهر الله) وريث كل ما يخص الآب ἰδιότητος . ونحن أيضاً الذين قد تشكَّلنا أبناءً له بالتبني وبواسطته دُعينا بالنعمة إلى كرامة البُنُوَّة. لأنه كما أن من الله الآب تُسمَّيت كل أُبوّة πατρία مما في السموات والأرض بكونه أباً بالحقيقة أصلاً ومنذ البدء، هكذا كلُّ بُنُوَّة هي أيضاً من «الابن» كونه هو وحده حقاً وأصلاً هو الابن من جوهر ذات الله.](٥٤)

د ــ المعمدان يبدأ يسلم الوديعة:

١: ٣٥ــ٣٧ **«وفي الغد أيضاً كان يوحنا واقفاً هو واثنان من تلاميذه. فنظر إلى يسوع ماشياً فقال: هوذا حمل الله. فسمعه التلميذان يتكلم، فتبعا يسوع.»**(٥٥)

بحسب تقديرات العلماء المدققين يقع هذا الغد الذي يتكلم عنه ق. يوحنا في مستهل الإعتدال

[54] Cyril, *op. cit.*, p. 147.

(٥٥) راجع كتيب «لقد وجدنا يسوع»، للمؤلف.

الربيعي قبل الفصح الأول للمسيح، أي قبل ١٤ نيسان (أبريل) بقليل. وهذا الميعاد يشير إليه القديس اكلمندس (في عظته الأولى ١٦:١). كما يلاحظ القارىء أننا هنا في نهاية خدمة المعمدان وفي بداية خدمة الرب، وهذا واقع في «**اليهودية**» أي في الجنوب، ولم يكن الرب قد انطلق بعد إلى الجليل في «**إسرائيل**» في الشمال.

وغنيٌّ عن البيان أن فلسطين تنقسم إلى مملكتين: مملكة اليهودية في الجنوب ومملكة إسرائيل في الشمال، وأن عاصمة اليهودية هي أورشليم وهي عاصمة كل البلاد. لذلك فإن إنجيل يوحنا هو الوحيد الذي يذكر بداية خدمة الرب في اليهودية قبل خدمة الجليل سواء في أول الخدمة أو في نهايتها. لذلك فهو الوحيد الذي يذكر بداية اختيار تلاميذه الأوائل من اليهودية، وهو أيضاً الوحيد الذي يذكر معجزة لعازر التي تمت في اليهودية، كما أنه هو الوحيد الذي يذكر خدمة المسيح في أورشليم (اليهودية) على مدى ثلاثة أعياد للفصح وأعياد أخرى إضافية. وذلك معروف لأن ق. يوحنا بن زبدي هو أول تلميذ التصق به منذ أول لحظة خدمة المسيح إذ كان أولاً تلميذاً للمعمدان ثم انتقل إلى تلمذة المسيح.

«وفي الغد أيضاً كان يوحنا (المعمدان) واقفاً هو واثنان من تلاميذه». لاحظ أن ق. يوحنا لا يلقي الكلام جزافاً، فهو يذكر بالذات اثنين من تلاميذه دون أن يذكر اسميهما. فأولاً يذكر اثنين لأنه يقدم للقارىء شهادة، وكل شهادة لا تصح إذا لم تكن على يد اثنين «وأيضاً في ناموسكم مكتوب أن شهادة رجلين حق» (يو٨: ١٧). أما ثانياً، فلا يذكر اسميهما لأنه هو واحد منهما ولا يريد أبداً أن يذكر اسمه. أما اسم الثاني فيذكره فيما بعد في الآية (٤٠) «كان أندراوس أخو سمعان بطرس واحداً من الإثنين اللذين سمعا يوحنا وتبعاه (المسيح)».

أما كيف عرفنا أن الأول هو ق. يوحنا بن زبدي فلأنه يقص لنا حادثة كيف انتقلا من تلمذة المعمدان إلى المسيح بدقة لا يمكن أن تكون منقولة عن آخر بل هي رواية شاهد عيان.

ولا ينبغي للقارىء أن يرتبك إذا قرأ في الأناجيل الأخرى طريقة أخرى لدعوة التلاميذ؛ لأن في الحقيقة أنهما دعوتان: الأولى وهي التي اهتم بها ق. يوحنا جداً هي «**دعوة للتلمذة**» والرفقة مع المسيح، أما الدعوة الثانية فواضح أنها قاطعة و يرافقها أن كل واحد ترك كل شيء حتى بيته وأولاده وتبع المسيح فهي «**دعوة الرسولية**»، ومعروف أنه كان للمسيح تلاميذ كثيرون، وكثير منهم من اليهودية ولكن كان له اثنا عشر رسولاً فقط، اختارهم من بين تلاميذه. ولكن واحداً منهم سقط.

«فنظر إلى يسوع ماشياً فقال هوذا حمل الله فسمعه التلميذان يتكلم فتبعا يسوع»:

التكرار هنا ذو معنى آخر، فذكر «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» في الآية السابقة (٢٩) كان نُطقاً استعلانياً يخص المسيح نفسه والعالم؛ أما هنا «هوذا حمل الله» (٣٦) تفيد التعليم والشهادة لتلميذيه الخصوصيين اللذين كانا معه، فهو كان يكلمهم عن المسيح، وفجأة نظر المسيح ماشياً فأشار نحوه وكان حديثه «فسمعه التلميذان يتكلم» هو نفس الحديث الذي يكرره دائماً: أنا أعمِّد بالماء ولكن هذا يعمد بالروح القدس، هذا هو العريس وأنا لست إلَّا صديقاً للعريس، هذا ينبغي أن يزيد وأني أنا أنقص. أي كان حديثاً يتعلق بصميم خدمته وهي إعداد الطريق للرب وإرشاد تلاميذه لمَن هو أقوى منه، أما هنا فهو يكشف ضمناً عن خلاصهما وفدائهما المُذخَّر لهما في هذا الحَمَل الإلهي!!

ولا يفوتنا هنا أن نلقي ضوءاً على عظمة هذا الإنسان المدعو من الله الذي اسمه يوحنا (المعمدان)، إذ ليس من الهيِّن أبداً أن يقول معلمٌ لتلاميذه أن معلماً آخر هو أعظم مني، أو إنْ هم تركوه ليلتحقوا بمَن هو أعظم منه فإنه يبقى فرحاً: «فرحي الآن قد كمل»!!! ولكن كان المعمدان حقاً أعظم من نبي، وكان المسيح حقاً أعظم من المعمدان!!!

وهذا واضح من الآية المقتضبة جداً التي قالها ق. يوحنا: «فسمعه التلميذان يتكلم فتبعا يسوع»، وكأنه يقول: فأطاع التلميذان نصيحة معلمهم وإرشاده وللحال تبعا يسوع. وفي هذا القول البسيط تَتَصوَّر أكبر حركة في التاريخ اليهودي والمسيحي معاً وهي حركة انبثاق الكنيسة الجديدة من جسم الكنيسة العتيقة كنيسة البرية المتغربة في قفار الأرض.

هذه الحركة الإلهية التدبير والتنفيذ نجح المعمدان في تمريرها من بين يديه كعملاق يحتضن الخيمة العتيقة، خيمة داود، بعُمُدها الساقطة وسقفها الذي أكله الزمن، ويسلِّمها لمَن يطويها ويخلقها جديدة من جسده، وعُمُدها تمس الأرض وسجوفها(٥٦) السماء بعينها.

(٥٦) السجف وجمعها سجوف = الحجاب وجمعها حُجب.

٢ ـــ شهادة التلاميذ:

المسيح يبدأ عمله باختيار تلاميذه وهم يشهدون له:

١ : ٣٨ **«فالتفت يسوع ونظرهما يتبعان فقال لهما: ماذا تطلبان؟ فقالا: ربي، الذي تفسيره يا معلم، أين تمكث؟»**

الآية باليونانية تبدأ بـ«لكن»، وبهذا يصير تصوير هذه الحركة بأدق وأجمل مما هي في صورتها العربية. فهي تعني أن المسيح كان ماراً في طريقه وأن التلميذين قررا السير وراءه، فسارا يَسْترقان الخطى تهيُّباً ووقاراً، **«ولكن»** الرب أدرك مقصدهما فأراد أن يفتح أمامهما الباب، إنْ للحوار أو الدخول، فالتفت إلى خلف، وهنا توقفت أرجلهما أو أبطأتا اضطراراً، لما نظر إليهما وهما هكذا يسترقان الخطى بحذر وهيبة خلفه ـــ فابتسم ولا شك ـــ قائلاً بترحاب: «عاوزين إيه؟» **ماذا** تريدان؟ لم يقل **مَنْ** تريدان، لأنه يعلم مقصدهما، ولكنه قصد بسؤاله هذا أن يسهِّل عليهما الإفصاح عن عزمهما.

وبهذا النطق: **«ماذا تطلبان؟»** ثم **«تعاليا وانظرا»**، سجَّل ق. يوحنا أول كلمات نطقها الرب في إنجيله.

١ : ٣٩ **«فقال لهما تعاليا وانظرا».**

«**تعالوا وانظروا** أعمال الله إنه رهيب في أعماله
نحو بني الإنسان.» (مز٦٦: ٦ـــ السبعينية)

ولو أننا وضعنا السؤال مع الجواب: «**أين تمكث، تعاليا وانظرا**»، لنشأ لدينا معيارٌ عمليٌّ للإيمان. فالسؤال موجَّه من التلميذ الباحث عن الله (أين أنت؟)، والجواب هو دعوة من الله للدخول في الرؤيا (تعال وانظر!)

ولا يخفى عن القارىء أنه بالرغم من أن هذا المعيار للإيمان يبدو غريباً على الأسماع نوعاً ما في هذه الأيام، ولكنه هو هو المعيار الأبدي منذ البدء والوحيد الذي يعيش عليه أولاد الله في كل العصور حتى اليوم.

الكنيسة لا تزال، بفم يوحنا الرسول وفم جميع التلاميذ الأتقياء الذين طلبوه فوجدوه، ورأوه فعرفوه، تنادي: تعالوا وانظروا. بل المسيح بنفسه لا يقول تعالوا وانظروا فحسب، بل وأيضاً:

«جسُّوني وانظروا»، من يأكلني يحيا بي. واسألوا توما بل اسألوا أصبعه ماذا رأيت وماذا عاينت؟ توما وضع أصبعه على أعمال الله الرهيبة فصرخ: ربي وإلهي.

الكنيسة ذاخرة بأعمال الله الرهيبة. المسيح استودعها كل أعماله المجيدة: «كلُّ مَجدِ ابنة الملك من الداخل، مزيَّنة بأنواع كثيرة»، «أعمال مجيدة قد قيلت عنكِ يا مدينة الله».

وأن تكون «مع المسيح» مثلما اشتهى تلميذا المعمدان أندراوس و يوحنا بل «ومكثا عنده»، فهذه هي شهوة أتقياء الله، ونقول ــ وهذا عجب أيضاً ــ أنها بالمقابل رغبة المسيح الملحَّة جداً!!

ــ «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني (ومكثوا معه هنا) يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي الذي أعطيتني لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم.» (يو١٧: ٢٤)

وجواب المسيح: «تعاليا وانظرا»!! هو أن مقصدهما الحقيقي وشهوة قلبهما الصادقة لا يمكن أن تتم لهما إلا **«معه»** حيث يمكن أن **«يرياه» فيعرفاه**، فيصير لهما **«كل ما يريدان»**، كل شهوة قلبيهما وأكثر.

وكلمة «تعاليا» ἔρχεσθε تأتي بالفعل المضارع الأمر الذي يفيد المجيء إلى المسيح ليس بصفة عرضية ولكن بصفة مستمرة. ونتيجة ذلك هي «ستنظران» ὄψεσθε التي تفيد فعلاً رؤيوياً حقيقياً بمعنى: حينما تأتون إليَّ فإنكم ترونني على حقيقتي ويتم لكم كل شيء.

أما لماذا كان المسيح سخياً معهما بهذا المعنى؟ فلأنهما قدما مُسْبقاً **«فعل إيمان»** بأن **«تبعاه»**.

ولا بد، يا عزيزي القارىء، أن فعل الإيمان إذا كان هكذا صادقاً ومتحركاً، أن يتبعه فعل رؤيا.

«فأتيا ونظرا أين يمكث ومكثا عنده ذلك اليوم وكان نحو الساعة العاشرة»:

كان هذا يوماً من أيام ابن الإنسان لم يُنسَ ق. يوحنا طول حياته، ولن تنساه الكنيسة ما عاشت، فهذا هو أول يوم لها في بيت يسوع = الذي عرَّفته الكنيسة في سرِّها «باليوطا ١٠»(٥٧) ورقَّمه لها يوحنا الحبيب حتى تفهم السر لتحتفظ به لأولادها الذين يحفظون السر!

(٥٧) شرح عدد ١٠ في الطقس الكنسي، وهو المقابل العددي لأول حرف من اسم المسيح I «إيسوس» = Ἰησοῦς

وقصة الإنجيل، يا إخوة، عجيبة وهي مملوءة أسراراً، سرّاً في مقابل سر، أو سراً فوق سر! فيوم الكنيسة الأول في حياة الرب قضاه التلاميذ في بيت يسوع كما قيل الآن، وقد كان أن ردّ المسيح للكنيسة الزيارة في آخر يوم له بأن زار التلاميذ في بيتهم وهم مجتمعون: «ولما كانت عشية ذلك اليوم وهو أول الأسبوع وكانت الأبواب مغلقة حيث كان التلاميذ مجتمعين لسبب الخوف من اليهود، جاء يسوع ووقف في الوسط وقال لهم سلام لكم» (يو٢٠: ١٩). في يومها الأول كانت الكنيسة في القماط خارجة من اغتسال الماء، وفي يومها الأخير مع الرب قبلت الروح القدس لما نفخه في التلاميذ فأخذت ملء قامتها.

أ ــ شهادة أندراوس:

١: ٤٠و٤١و٤٢ **«كان أندراوس أخو سمعان بطرس واحداً من الاثنين اللذين سمعا يوحنا وتبعاه.**
هذا وجد أولاً أخاه سمعان فقال له: قد وجدنا مسيّا، الذي تفسيره المسيح.
فجاء به إلى يسوع فنظر إليه يسوع وقال:
أنت سمعان بن يونا أنت تُدعى صَفَا الذي تفسيره بطرس».

لقد أثمرت زيارة أندراوس للمسيح، فلقد تيقن أنه المسيّا. وللحال (أول شيء عمله بعد الزيارة) بحث عن أخيه سمعان وأخبره بالخبر المفرح: «قد وجدنا المسيّا». ولا ننسى أن أندراوس تَتَلْمَذَ أولاً على المعمدان النبي الناسك المُرسَل من الله لإظهار المسيّا والشهادة له، فهو قادر أن يقنع أخاه أنه حقاً قد وَجَد المسيّا.

ويلاحظ أنه يجمع بين نفسه وواحد آخر «**قد وجدنا**»، هنا يذكر ق. يوحنا نفسه دون أن يذكر اسمه!! ويعطينا العالم هنجستنبرج(٥٨) شرحاً آخر لكلمة: «هذا وجد أولاً أخاه سمعان»، إذ يرى أن كلمة «أولاً» جاءت لتفيد أن التلميذين أندراوس والآخر (يوحنا) ذهبا ليبحثا كل واحد عن أخيه ليُحضره: أندراوس يبحث عن سمعان أخيه، ويوحنا يبحث عن يعقوب أخيه، ولكن أندراوس وجد أولاً أخاه، وهذا الشرح مقبول وقد أخذ به بعض علماء التفسير ويقوم هذا التفسير على أساس أن ق. يوحنا يرفض دائماً أن يذكر اسمه أو اسم أخيه يعقوب.

«أنت تدعى صَفَا ــ بطرس»:

ليس كل التلاميذ أخذوا أسماءً جديدة، والله منذ إبراهيم يعطي من يحمِّلهم مسئوليات جساماً

[58] *Op. cit.*, p. 95,96.

أسماءَ جديدة. ويُلاحَظ أن هذه المسئوليات ذات طابع أُخروي وتتعلق بالتجديد المزمَع أن يكون: فإبراهيم أخذ لأن فيه تتبارك كل الأمم. يعقوب دُعي إسرائيل أي الناظر الله وقد وصفه الله بـ«ابني البكر» كرمز للآتي الذي هو وحده الناظر الله والابن الوحيد. موسى لم يأخذ ولم يُسمَح له أن يدخل أرض الميعاد لأنه ارتبط بالناموس، والناموس زمنيٌّ وعَتَق وشاخ وأعطى مكانه للنعمة والحق.

سمعان بطرس أخذ، لأن «على هذه الصخرة ابني كنيستي». يوحنا مع أخيه يعقوب أخذا «بَوانَرْجس»(٥٩) لأن يوحنا دوَّى صوته بعد البرق (المسيح) دوياً يتساوى مع حجم النور بصورة ليس لها نظير ولا يزال يدوِّي.

والملاحظ أن في إنجيل ق. يوحنا فقط أُعطي الاسم الجديد لـ«سمعان» بعد أن فحصه الرب بنظرة عميقة، حيث لا يُذكر في الأناجيل الأخرى إلا باسمه الكامل سمعان المدعو بطرس أو سمعان بطرس دون ذكر كيف ولماذا أُعطي هذا الاسم. ومرة أخرى نقول إن هذا بسبب عدم تعرُّض الأناجيل الأخرى لخدمة المسيح الأُولى في اليهودية.

كذلك من الأمور المفرحة لفكر الباحث أن يجد أن هذه الأسماء التي ظهرت معاً في الأصحاح الأول لإنجيل ق. يوحنا كبداية لحركة **التلمذة:** أندراوس وبطرس ويوحنا ويعقوب، نجد هذه الأسماء أيضاً معاً وهي نفسها كانت بداية حركة الدعوة للرسولية، بحيث إذا لم ينتبه القارىء إلى ما تم في إنجيل ق. يوحنا بالنسبة لدعوة هذه الأسماء للتلمذة، ويقرأ ملابسات دعوة المسيح لهذه الأسماء لتتبعه لخدمة الرسولية، يرتبك ويحس بأنها تخرج عن الواقع المألوف، إذ لمَّا دعاهم المسيح كما هو مدوَّن في إنجيل ق. متى استجابوا فوراً وتركوا الشباك والصيد والعائلة بجملتها وانضموا إلى المسيح فجأة وبلا تحفُّظ.

ولكن الأمر له تمهيد وتعليم وتدريب سابق:

«وإذ كان يسوع ماشياً عند بحر الجليل أبصر أخوين **سمعان الذي يُقال له بطرس** وأندراوس أخاه يلقيان شبكة في البحر فإنهما كانا صيادين. فقال لهما هلمَّ ورائي فأجعلكما صياديْ الناس. **فللوقت تركا الشباك وتبعاه!!** ثم اجتاز من هناك فرأى أخوين آخرين يعقوب بن زبدي ويوحنا أخاه في السفينة مع زبدي أبيهما يُصْلِحان شباكهما فدعاهما، **فللوقت تركا**

(٥٩) في النطق التقليدي مفردها بونرجس أي صاحب أو ابن الرعد فأتى المثنى «بوا» أي صاحبا أو ابنا النرجس أي الرعد. انظر المدخل ص ٣٢.

السفينة وأباهما وتبعاه.» (مت ٤ : ١٨ــ٢٢)

هذه التلقائية السريعة من جهة هؤلاء الأربعة وتركهم كل شيء واتّباعهم الرب نهائياً، يصعب جداً بل يتعذر فهمها أو قبولها كما هي، ولكن بعد أن قدّم لنا ق. يوحنا حركة التلمذة الأُولى على مستوى التعارف أولاً ثم الصداقة والأُلفة الشديدة وتغيير بعض الأسماء والتلمذة، أصبحت دعوة هؤلاء للرسولية بوضعها الحاسم كما جاءت في إنجيل ق. متى مفهومة بل وجديرة بالإعجاب؛ فالقرار كانوا في الحقيقة قد اتخذوه مع أنفسهم لإتّباع الرب تماماً ولم يكن ينقصهم إلا لحظة الدعوة التي استقبلوها بحماس حاسم.

ب ــ شهادة فِيلُبُّس:

١ : ٤٣و٤٤ **«وفي الغد أراد يسوع أن يخرج إلى الجليل. فوجد فِيلُبُّس، فقال له: اتبعني. وكان فِيلُبُّس من بيت صيدا، من مدينة أندراوس وبطرس».**

من هذه الآية وفي زمانها، انتقل المسيح من خدمة اليهودية التي انحصرت في اختيار بعض تلاميذ له، وربما في بعض أعمال أخرى، إلى خدمة الجليل التي بدأ بها الإنجيليون الثلاثة أناجيلهم.

ويبدو أن ملاقاة فِيلُبُّس تمت أيضاً على الضفة الشرقية من الأردن(٦٠)، قبل أن يرتحل المسيح منها متجهاً نحو الشمال. ويُلاحَظ أن ق. يوحنا يذكر، بعد ذكر الملاقاة مباشرة، أن فِيلُبُّس هو من بيت صيدا من مدينة أندراوس وبطرس، وكأنه يربط بين الملاقاة والدعوة السريعة المقتضبة وبين أندراوس وبطرس. بمعنى أن فِيلُبُّس كان رفيقاً للأخوَيْن، وكان يعلم كل شيء عن المسيح، وربما كان قد تم التعارف معه، بل ويرجح العالم وستكوت أن فِيلُبُّس كان تلميذاً للمعمدان أيضاً.

ويُلاحظ أن في اللغة اليونانية تجيء كلمة «**من**» بيت صيدا بحرف ἀπό، والتي تفيد بلد الإقامة والمعيشة، ثم «**من**» بحرف ἐκ وتفيد مدينة أندراوس وبطرس أي «من كفرناحوم» (مر ١ : ٢١و٢٩) وهي مدينة الميلاد.

---

[60] ICC, Bernard, *op. cit.*, p. 61.

و يقول التقليد أن فِيلُبُّس هو الشخص الذي لما دعاه المسيح اعتذر طالباً أن يدفن أباه أولاً، فكانت إجابة المسيح: «اتبعني، ودَعْ الموتى يدفنون موتاهم.» (مت٨: ٢٢)

[بخصوص إيمان فِيلُبُّس انظر المدخل ص٣٠٧ــ٣٠٩].

١: ٤٥ «فيلبس وجد نثنائيل وقال له: وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء، يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة.»(٦١)

يبدو أن كل من أتته الدعوة واستقبلها بفرح الروح، تحولت فيه إلى بشارة وكرازة.

«ونثنائيل» اسم عبري يعني الله أعطى أو «عطية الله» = عطاالله. والمقابل اليوناني لها هو الاسم «ثيئوذور» بنفس المعنى ــ «تادرس». وقد عرَّفه ق. يوحنا في (٢١: ٢) أنه من «قانا الجليل». ومن تسلسل الآيات والأصحاحات حيث وردت «قانا الجليل» مباشرة بعد هذا الكلام في أصحاح ٢: ١، يظهر أن فيلبس وجد نثنائيل في قانا نفسها.

أما مَن هو نثنائيل؟ فلم نسمع عنه في الأناجيل الثلاثة مع أنه أصبح رسولاً. بعض العلماء مثل «زاهن» Zahn ووستكوت(٦٢) رأوا أن التصاق اسم فيلبس مع نثنائيل في البداية تحوَّل إلى التصاق فيلبس مع برثلماوس في تعداد الرسل، بالإضافة إلى أن الستة التلاميذ الذين التصقوا بالرب في البداية وآخرهم نثنائيل، ذُكروا بعد ذلك معاً وآخرهم بَرْثُلماوس بدل نثنائيل: «وجعل لسمعان اسم بطرس، و يعقوب بن زبدي و يوحنا أخا يعقوب وجعل لهما اسم بوانرجس أي ابني الرعد، وأندراوس، وفيلبس، و برثلماوس...» (مر٣: ١٦ــ١٩)

ومن قول فيلبس **«وجدنا»** بالجمع، يتضح أنه كان ضمن التلاميذ الأوائل الذين تعرفوا على الرب بعد كلام المعمدان عنه.

«الذي كتب عنه موسى» (تث١٨: ١٥):

كانت الأسفار المقدسة بين أيديهم يفحصونها ليل نهار مع المترقبين خلاص إسرائيل؛ وطالما توقفوا معاً عند إشارات وَمَضَت أمام قلوبهم بالروح عن المسيَّا الذي يترقبون ظهوره، إذ كان يُلهب قلوبهم: «أنا أحب الذين يحبونني والذين يبكرون إليَّ يجدونني» (أم٨: ١٧)؛ «لأنكم لو كنتم

(٦١) لقد شرح المؤلف حديث الرب مع نثنائيل شرحاً روحياً فيما سبق في كتاب: «الإيمان بالمسيح»، ص ١٠٨ــ١١٠ من الطبعة الأولى.

62 Westcott, *op. cit.*, p. 26.

تصدقون موسى لكنتم تصدقونني لأنه هو كتب عني.» (يو٥ : ٤٦)

«يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة(٦٣)»:

لقد أبْقَى ق. يوحنا معرفة فيلُبُّس في حيِّزها البشري بالنسبة للمسيح كما كانت على لسان فيلُبُّس. ولكن واضح غاية الوضوح أنه تعريف أفْضَى إلى تعريف آخر في قلب فيلُبُّس لم يسعفه الفكر أن يظهره آنئذ فاستبدل الكلام بالرؤيا «تعال وانظر».

١ : ٤٦ **«فقال له نثنائيل: أَمِن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح؟ فقال له فيلُبُّس: تعال وانظر».**

كان الذين يترقبون ظهور المسيَّا، يربطون بين عظمة المسيَّا وعظمة المدينة التي سيظهر فيها وقُدْسيتها وشهرتها وأشهر الأنبياء الذين ظهروا فيها، ولكن نثنائيل صُدم لما سمع اسم الناصرة، خاصَّة وأن اسم الناصرة بالعبرية مأخوذ من اسم فرع الشجرة غير الطبيعي الذي يخرج من أسفل الجزع (أصل) الشجرة ويسمى بالعربي «نسر»، وهو قريب النطق من العبري «نتسير» المأخوذ منه كلمة الناصرة.

«ويخرج قضيب من جذع (خطأ والصح جذر ῥίζης) يسَّى، و ينبت غصن (نتسير / نسر) من أصوله ῥίζης، ويحلُّ عليه روح الرب...» (إش١١ : ١)

فاسم الناصرة خامل في الطبيعة كما هو خامل في الأسفار تماماً. فنثنائيل يتكلم عن وعي ودراية. ولكن ألم يأخذ المسيَّا شكل العبد «محتقر ومخذول» (إش٥٣ : ٣)؟ وهو على كلٍّ دُعِيَ «ناصرياً»، ولكنه وُلد في بيت لحم اليهودية.

أما الذين يقولون إن «الجليل» أيضاً هو خامل الذكر ولم يخرج منه نبي «أجابوا وقالوا له: ألعلك أنت أيضاً من الجليل فتش وانظر إنه لم يقم نبي من الجليل» (يو٧ : ٥٢)؛ فهذا غير صحيح وعن غير دراية يتكلمون. فكل من يونان النبي وعزيَّا النبي وناحوم النبي وربما إيليا النبي أيضاً وأليشع النبي وعاموس النبي كانوا جليليين وكانوا أجلاء. والجليل كانت أرضها مقدسة وسماؤها مفتوحة! أما ردُّ فيلُبُّس العملي فهو: «تعال وانظر»، حسب خبرته الشخصية وما سمعه من كل الذين رأوه أنه ليس من رأى كمَن سمع، فرؤية المسيح إن كانت عن جدٍّ وإخلاص فهي تكفي لكي يترك الإنسان كل شيء و يتبعه.

(٦٣) أنظر كتاب: «أعياد الظهور الإلهي» للمؤلف، ص ٢١٠ ــ ٢١٢ من الطبعة الأولى.

ج ــ شهادة نثنائيل:

٤٧:١ **«ورأى يسوع نثنائيل مقبلاً إليه فقال عنه هوذا إسرائيلي حقاً لا غش فيه».**

ومَن هو إسرائيل غير الحق؟ والذي كان فيه الغش؟ لأن يعقوب الذي تغيَّر اسمه فيما بعد إلى **إسرائيل** أخذ بركة البكورية بالغش إذ غش أخاه وغش أباه. فقد لبس جلد معزى ليبدو ملمسه خشناً لإسحق أبيه الذي كان قد فقد بصره ــ ليظهر كأنه عيسو الابن البكر الذي كان أشعراً، وذلك لكي يصلِّي عليه أبوه ويعطيه البركة الأخيرة، وكأنه ابنه البكر، وهو ليس كذلك. وفعلاً سرق البركة وعاش بها وجازت عليه بالفعل لأن هكذا دعاء الوالدين الأخير يكون نافذاً.

«فدخل إلى أبيه وقال يا أبي، فقال هأنذا مَن أنت يا ابني؟ فقال **يعقوب** لأبيه: **أنا عيسو** بكرك... فتقدم يعقوب إلى إسحق أبيه فجسَّه، فقال: الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدي عيسو (جلد المعزى)... فباركه، وقال له: هل أنت هو ابني عيسو؟؟ فقال: أنا هو.» (تك٢٧: ١٨ــ٢٤)

ولكن هذه الحركة لم ترضِ الرب، وغيَّر اسمه فيما بعد إلى إسرائيل، ولكن ظلَّت هذه الوصمة لاصقة به كل أيام حياته وأولاده من بعده!

والآن نحن بصدد إسرائيل العهد الجديد أشخاصاً وشعباً، أي إسرائيل الحقيقي ἀληθής. فكان لما ظهر نثنائيل أمام المسيح أن رأى فيه شخصيةً ملتهبة صادقة تطلب البركة عن حق وليس عن غش. فبعين المسيح الفاحصة رآه «**إسرائيلي حقاً**» بمعنى أنه يطلب وجه الله عن حق في بحثه عن شخص المسيَّا، ورآه أن لا غش فيه بمعنى أنه رأى استقامة نفسه وقلبه كأفضل ما كان عليه إسرائيل لما رأى حلمه والسلم المنصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء وملائكة الله صاعدة ونازلة عليها (تك٢٨: ١٠ــ١٥).

٤٨:١ **«فقال له: من أين تعرفني. أجاب يسوع وقال له: قبل أن دعاك فيلُبُّس وأنت تحت التينة رأيتك».**

لقد أُخِذَ نثنائيل بترحاب المسيح واهتزت أعماقه لما أعطاه علامة كشفت له سراً من أسراره لا يعرفه أحد غيره، فأدرك سلطان المسيح على «معرفة ما في الإنسان». وهكذا ليس فقط أثبت المسيح أنه يعرفه بل وأنه رآه فأحس نثنائيل أن ليس شيءٌ ما مخفياً عن عينيه، لهذا فإن كان فيلُبُّس يقول له عن يسوع الناصرة أنه المسيَّا بحسب الناموس والأنبياء فهو قد تيقَّن بنفسه أنه ابن الله كما قال عنه المعمدان.

١ : ٤٩ «أجاب نثنائيل وقال له: يا معلم أنت ابن الله أنت ملك إسرائيل».

كان إعلان المعمدان الذي هتف به ونادى أن هذا هو ابن الله قد ملأ أسماع الناس وأخذ صداه تُردّده قلوب الأتقياء الذين يترقبون الخلاص بفارغ الصبر. فلما بدرت من المسيح بادرة صغيرة ألمح فيها لنثنائيل عن شخصه حتى انهمر عليه إحساس الخلاص كالسيل.

فهوذا ابن الله حسب وعد الدهور على لسان المعمدان، وهوذا المُلك يُردُّ لإسرائيل في ابن الله هذا القادر المقتدر. إنها ومضة إلهامية كشفت له الأطراف المترامية لملك المسيَّا الموعود ولكن بغير وضوح.

١ : ٥٠ «أجاب يسوع وقال له: هل آمنت لأني قلت لك إني رأيتك تحت التينة، سوف ترى أعظم من هذا».

الرؤية التي يقصدها المسيح هنا هي رؤية أمور تختص بالمسيح يدرك منها حقيقة المسيح أكثر أو أعظم مما رأى الآن. لأن دائماً أبداً الأمور الأعظم في الإنجيل هي أمور الله. والمقارنة هنا دقيقة وسرية، فهي مقارنة بين مستوى ما رأى المسيح من نثنائيل وهو مختفي تحت التينة ـــ لأن الكلمة اليونانية «تحت» تشير إلى نوع من الخفية ὑποκάτω ـــ وما سيراه نثنائيل من المسيح وهو مخفي تحت الجسد!! فالثانية أعظم بلا قياس وهذا ستبرهنه الآية القادمة. ووعْد المسيح هذا لنثنائيل هو مرتب على ملاحظة المسيح الأُولى لنثنائيل أنه إسرائيلي **حقاً لا غش** فيه من جهة سعيه للتعرف على الله سعياً يسنده **الحق والصدق معاً**، كما هو مرتب على سرعة إيمان نثنائيل الملفتة للنظر. وهذا قد أصبح قانوناً في أمور البحث عن الله والسعي المخلص الخالص في معرفته.

١ : ٥١ «وقال له: الحق الحق أقول لكم (من الآن) ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان».

«الحق الحق أقول لكم»:

هذا الإصطلاح بصورته المزدوجة لا يَرِدْ إلاَّ في العهد الجديد ولا يَرِدْ إلاَّ في إنجيل يوحنا الذي لا تَرِدْ فيه مفردة كما هي في باقي الأناجيل.

«من الآن»:

شبه الجملة الزمانية هذه لا نجدها في الأصل اليوناني ولا في التراجم الأخرى. ويقول عنها العالم الكتابي واللغوي «وستكوت» أن أفضل المراجع ذات القيمة العالية لا تأخذ بها؛ لأن

وجودها يخل بالمعنى و يغيِّر مفهومه اللاهوتي.

فإذا أخذنا بها يكون المعنى: أن منذ بدء الخدمة فقط يبدأ ابن الإنسان ليكون الصلة بين السماء والأرض. **ولكن الأصح لاهوتياً أن لا نأخذ بها** بحسب أكثرية المخطوطات الأصلية التي لا ترد فيها.

ويكون المعنى أن بتجسد الابن، أي لما الكلمة صار جسداً، صارت الصلة بين السماء والأرض واردة دائماً في شخص ابن الإنسان. لأن من المقطوع به لاهوتياً أن الابن المتجسد، بسبب كون «الجسد» متحداً اتحاداً كلياً وكاملاً باللاهوت، صار هو الواسطة لدخول الإنسان إلى الله أي قدس الأقداس. «فإذ لنا أيها الإخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس بدم يسوع **طريقاً (سُلَّماً) كرَّسه لنا حديثاً حياً بالحجاب أي جسده...**» (عب١٠: ١٩). لذلك أيضاً قال: «أنا هو **الطريق**.» (يو١٤: ٦)

وواضح أن ق. يوحنا يسجل هنا مبدأ لاهوتياً عاماً. كذلك لا يقدمه بصيغة المفرد حسب مجرى الحديث مع نثنائيل بل يطلقه عاماً للجميع «الحق الحق أقول لكم» بهذه الصيغة التوكيدية التي تأتي دائماً قبل كل مبدأ استعلاني.

«السماء مفتوحة»:

السماء المفتوحة رآها يعقوب إسرائيل هكذا: «ما هذا إلاَّ بيت الله (على الأرض) وهذا باب السماء (فوق).» (تك٢٨: ١٧)

لم يرَ السماء مفتوحة إلاَّ إسطفانوس الشماس الشهيد، ورأى فعلاً ابن الإنسان جالساً عن يمين الله، ومن بعده رآها بولس الرسول ورأى وجه يسوع يُطلُّ منها بأكثر من الشمس لمعاناً. أما ق. يوحنا فدخل في الرؤيا وعاش فيها يجوسُ ويسجِّل مناظرها.

ولكن القصد من قول المسيح هنا أننا نرى السماء مفتوحة، هو افتتاح مغاليق رحمة الله على الإنسان واستعلان رضى الآب السماوي بسبب تجسد الابن. فالسماء انفتحت بواسطة التجسد لحساب الإنسان.

وقد عبَّر المسيح عن ذلك بأجلى وضوح أنه هو «الباب»، وما الباب إلاَّ باب السماء.

أما منظر الملائكة يصعدون و ينزلون على ابن الإنسان، فهو أنه وإن كان قد حدث هذا بصورة ضئيلة جداً سواء عند ميلاده أو عماده أو أثناء الصوم، إلاَّ أنه لم يرها أحد: «وصارت الملائكة

تخدمه» (مر١: ١٣)؛ كما نجد ذكر الملائكة في القيامة وهي تخدم وتحرس القبر (لو٢٠: ١٢)؛ كما نسمع عنها في القداس الإلهي، في أثنائه وبعد انتهائه: «يا ملاك هذه الصعيدة...؟» (القداس الإلهي)؛ كما ذكر المسيح نفسه إمكانية إحضاره جيشاً من الملائكة لو أراد: «أتظن أني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي ليقدم لي أكثر من اثني عشر جيشاً من الملائكة.» (مت٢٦: ٥٣)

ولكن المقصود من منظر الملائكة هو الأمجاد والنعم التي رافقت التجسد والتي من أهمها انفتاح بصيرة كل الذين شاهدوا المسيح وشهدوا له ممجَّداً، والذين خدموا تجسده بانفتاح بصائرهم وأرواحهم، ووعظوا وشرحوا أمجاد تجسده، كما يقول القديس أغسطينوس. ولكن تظل الملائكة عندنا هي هي كما رآها المسيح تماماً تنزل وتطلع مستندة على كلمته، محمَّلة بعطايا ومشورات الآب والمسيح لخدمة العتيدين أن يرثوا الخلاص (عب٢: ١٤).

أما القصد النهائي من هذا القول بخصوص انفتاح السماء والملائكة تصعد وتنزل على ابن الإنسان حيث لم يُذكر السلم، فإن قول المسيح هذا هو عودة بقلوب وأذهان التلاميذ ومن يأتي بعدهم إلى رؤية يعقوب إسرائيل كرأس لشعب الله قديماً، باعتبار أنه وهو رأس الكنيسة شعب الله الجديد جاء ليحقق وعد الله فيها، وقد حققها: «ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض.» (تك٢٨: ١٢–١٥)

ولم يذكر المسيح السلم الذي رآه يعقوب، وذلك عن قصد لأنه هو السلم، هذا المنصوب على الأرض ورأسه يمس السماء!! «**ابن الإنسان**» وبالعبرية «**بار أنوش**» «وليس أحد صعد إلى السماء إلاَّ الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء» (يو٣: ١٣)، الذي أوْصَل الأرض بالسماء، وربط السمائيين بالأرضيين، وافتتح بجسده طريقاً صاعداً إلى الأقداس العليا دشَّنه بدمه يوم الجلجثة، به نصعد وكأننا صرنا بأجنحة، وعليه تنحدر إلينا الملائكة وأرواح الأبرار المكمَّلة في المجد، وعلى أكتافها نِعَم وبركات مختومة بدم الحمل ورضى الله.

وهكذا تحقق حلم يعقوب، وكل ما كان رؤىً عند الأنبياء، صار حقائق نحياها كل يوم.

سوف نقسّم إنجيل ق. يوحنا إلى خمسة أجزاء، هي في الواقع خمسة بشارات أي خمسة أناجيل:

الجزء الأول: **إنجيل التجديد** ٢ : ١ ــ ٤ : ٤٥.
الجزء الثاني: **إنجيل قوة الكلمة** ٤ : ٤٦ ــ ٥ : ٤٧.
الجزء الثالث: **إنجيل الاستعلان** ٦ : ١ ــ ١٢ : ٥٠.
الجزء الرابع: **إنجيل المحبة** ١٣ : ١ ــ ١٧ : ٢٦.
الجزء الخامس: **إنجيل الفداء** ١٨ : ١ ــ إلى آخر الإنجيل.

الجزء الأول : إنجيل التجديد

٢ : ١ ــ ٤ : ٤٥

«قيل لكم في القديم... أما أنا فأقول لكم.»
(مت٥: ٢١ـ٤٣)
«أنتم الذين تبعتموني في التجديد.» (مت١٩: ٢٨)

الإنتقال من القديم إلى الجديد:

و يقابله في الأناجيل الأُخرى «قد سمعتم أنه قيل للقدماء... أما أنا فأقول لكم» (مت٥: ٢١). ولكن ما قدمته الأناجيل الأُخرى بالتعليم يقدمه إنجيل يوحنا من داخل المعجزة وشرحها والاستعلان المترتب عليها.

وفي كل جزء من أجزاء «إنجيل التجديد» سيجد القارىء مقابلة واضحة ومستمرة بين **القديم** وبين **الجديد** الذي جاء الرب يسوع ليؤسسه، ثم سيتضح نتيجة لذلك **استعلانٌ** معيَّن لشخص الرب، وذلك على النحو التالي:

١ ــ معجزة تحويل الماء إلى خمر في عُرْس قانا الجليل: ٢: ١ــ١٢

القديم: ماء التطهير الناموسي.

الجديد: الخمر = الدم والحياة الجديدة.

الاستعلان: العريس الحقيقي يقدم دمه المسفوك لإسعاد البشرية.

٢ ــ تطهير الهيكل: ٢: ١٣ــ٢٢

القديم: هيكل أورشليم المبني بالحجارة في ست وأربعين سنة.

الجديد: «هيكل جسده» المُقام من الموت: «وفي ثلاثة أيام أقيمه».

القديم: ذبائح الحيوانات ــ بقر وغنم وحمام.

الجديد: ذبيحة جسده «انقضوا هذا الهيكل... أما هو فكان يقول عن هيكل جسده».

القديم: التجارة بالدين: الصيارف والدراهم.

الجديد: «لا تجعلوا بيت أبي (الكنيسة) بيت تجارة».

الاستعلان: المسيح ابن الله: بيت «**أبي**».

٣ ــ مع نيقوديموس ليلاً:

أ ــ الحديث المباشر مع نيقوديموس ٣:١ــ١٢

القديم: ملكوت الله بالمعرفة، والمفاتيح مع الفريسيين «أنت معلم إسرائيل ولست تعلم هذا».

الجديد: ملكوت الله بالميلاد الثاني من فوق، من الماء والروح.

الاستعلان: «ليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء **ابن الإنسان الذي هو في السماء**».

ب ــ الحديث غير المباشر مع نيقوديموس ٣:١٣ــ٢١

القديم: الحية النحاسية المرفوعة على خشبة، والمريض الناظر إليها يُشفى من عضة الحية.

الجديد: «هكذا ينبغي أن يُرفَعَ ابن الإنسان، لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية».

الاستعلان: موت ابن الله على الصليب لإعطاء الفداء للحياة.

القديم: ظلمة الأعمال الشريرة ــ بغضة النور ــ الدينونة.

الجديد: الإقبال إلى النور بأفعال الحق المعمولة بالله.

الاستعلان: «**النور** جاء إلى العالم».

٤ ــ تكميل شهادة المعمدان ٣:٢٢ــ٣٦

القديم: «الذي من الأرض هو أرضيٌّ ومن الأرض يتكلم».

الجديد: «الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع. ينبغي أن ذاك يزيد وأني أنا أنقص».

الاستعلان: المسيح العريس الحقيقي: «من له العروس فهو العريس».

٥ ــ في السامرة ٤:٤ــ٤٢

أ ــ الحديث مع السامرية: ٤:٧ــ٢٦

القديم: بئر ــ بركات وذكريات الآباء الجسدية ــ، ذات الماء المعطش.

الجديد: المسيح ينبوع الحياة الأبدية، والذي يشرب منه لا يعطش أبداً.

القديم: السجود في جبل أورشليم لليهود وجرزيم للسامريين الذين يسجدون **لما لا يعلمون**.

الجديد: «تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون بالروح والحق "للآب"».

القديم: «أنا أعلم أن مسيًا يأتي... ذاك يخبرنا بكل شيء».
الجديد والاستعلان: «أنا هو».

ب — الحديث مع التلاميذ: ٤: ٢٧—٣٨
القديم: «يا معلم كُلْ».
الجديد: «لي طعام لآكل لستم تعرفونه أنتم؛ طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله».

القديم: الأنبياء الذين زرعوا بالدموع.
الجديد: التلاميذ يحصدون ما لم يتعبوا فيه.

الاستعلان:

ج — إيمان السامريين: المسيح هو «مخلِّص العالم» ٤: ٣٩—٤٢

الأصحاح الثاني

الأصحاح الثاني

مكان البشارة:

ثانياً: في الجليل

(٢: ١ـ١٢)

١ ـ معجزة تحويل الماء إلى خمر في عرس قانا الجليل (*)

«من له العروس فهو العريس.» (يو٣: ٢٩)

القديم: ماء التطهير الناموسي.

الجديد: الخمر = الدم والحياة الجديدة.

الاستعلان: العريس الحقيقي يقدِّم دمه المسفوك لإسعاد البشرية.

لم يكن جزافاً أن يبدأ المسيح ظهوره العلني في **«حفلة عرس»** ويصنع أولى آياته في تحويل **«الماء إلى خمر»، فهو** يبدأ الخدمة العلنية وإنجيل آياته هكذا:

«وفي اليوم الثالث كان عُرْسٌ في قانا "**الجليل**" وكانت أُمُّ يسوع هناك.» (يو٢: ١)

فإذا علمنا أن بدء خدمة المسيح في إنجيل مرقس هكذا: «جاء يسوع إلى "**الجليل**" **يكرز ببشارة ملكوت الله**» (مر١: ١٤)، وإنجيل القديس متى أيضاً مثله: «من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز **ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت الله.**» (مت٤: ١٧)؛

كذلك إذا رجعنا إلى مفهوم ملكوت الله نجده حسب التقليد الإنجيلي الرسولي هكذا: «يشبه ملكوت السموات إنساناً **ملكاً صنع عرساً لابنه...**» (مت٢٢: ٢ـ١٤)؛ وأيضاً: «يشبه **ملكوت السموات** عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن لاستقبال العريس...» (مت٢٥: ١ـ١٣)؛

ثم لو دققنا؛ نكتشف أن المسيح نفسه يصوِّر كل فترة وجوده على الأرض في وسط أولاده وتلاميذه ومحبيه **بحفلة عرس ممتدة:** «فجاءوا وقالوا لماذا يصوم تلاميذ يوحنا والفريسيين وأما تلاميذك فلا يصومون فقال لهم يسوع **هل يستطيع بنو العرس** أن يصوموا **والعريس معهم. ما دام العريس معهم** لا يستطيعون أن يصوموا. ولكن ستأتي أيام **حين يُرْفَع العريس** عنهم فحينئذٍ يصومون في تلك الأيام.» (مر٢: ١٨ـ٢٠)

(*) يُقرأ هذا الفصل (٢: ١ـ١١) في عيد عرس قانا الجليل (١٣ طوبة) وهو اليوم الثالث بعد عيد الغطاس كما يقول الإنجيل: «**وفي اليوم الثالث**». ويُعتبر هذا العيد اليوم الأخير من أعياد الظهور الإلهي («الثيئوفانيا»): «**وأظهر مجده فآمن به تلاميذه**».

وهكذا نستطيع أن نأخذ صورة مؤكدة عن ما يبدو عليه المسيح **في نظر نفسه:** المسيح يرى نفسه عريساً، أينما سار وأينما حلَّ، حتى وهو في حفلة عُرس لآخر، عريساً يبدأ يدشن ملكوته!

ق. يوحنا استحال عليه تحقيق الرمز بحرفيته على الواقع بأن يصوِّر المسيح كعريس في عُرس قانا الجليل، فاكتفى أن يُدعى المسيح إلى عُرس «الجليل» كعريس حقيقي ولكن غير ظاهر إلاَّ لأخصَّائه، ولم يظهر إلاَّ عندما قيل: «ليس لديهم خمر». قد فرغ الفرح من إسرائيل...!!، **«ليس لديهم خمر»** وماذا يبقى من العرس إذا لم يكن لهم خمر(١)؟ إنه الرمز الحقيقي لسر الشركة مع الله أو الانفتاح على الملكوت!! والخمر هو التعبير اللاهوتي عن بهجة الخلاص في الأزمنة الماسيَّانية!! وفي الوعي المسيحي اللاهوتي هو كأس الخلاص بعينه «اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يُسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا.» (مت٢٦: ٢٧و٢٨)

وإن كان قد حدث فجأة أن فرغ الخمر في عرس قانا الجليل، ولكن عند ق. يوحنا كان هذا أمراً تحتِّمه النبوات، لأن بهجة الخلاص قد انقطعت بالفعل من العهد القديم. ولم يكتشف أحد أن خمر العُرس في عُرس الناموس قد انقطع إلاَّ أُمُّ يسوع التي أصبحت تحسُّ بوجود الله أينما ذهبت من عدم وجوده. وفي هذا يقول النبي تعبيراً عن أواخر أيام العهد القديم: «اصحوا أيها السكارى، وابكوا ووَلْوِلوا يا جميع شاربي الخمر على العصير، **لأنه قد انقطع عن أفواهكم.**» (يؤ١: ٥)

وق. يوحنا يقدم «الأُمَّ» باعتبارها أول مَن اكتشف أن **«ليس لهم خمر»!** والخمر تعبير عن سر الشركة مع الله ـــ كما قلنا ـــ ولدالَّتها لدى العريسين، ولدى العهدين، أي لدى عريس الناموس لأنه يبدو أنه كان أحد أقربائها، ولدى عريس الملكوت الحقيقي لأنه ابن لها بالحق، تقدمت بملتمسها: **«ليس لهم خمر»،** ومع الطلب نظرة استعطاف من **«أُمّ إسرائيل القديم بالتمثيل»**(٢) و**«أُمّ إسرائيل الجديد باللحم والدم».** وكأنها تقول له: اعلنْ عن وجودك!! فكان أن حوَّل عريس الملكوت ماءهم الذي للتطهير إلى «خمر على طقس عشاء الرب». هكذا شربها تلاميذه وأحباؤه «الذين تبعوه **في التجديد**». وهكذا وبها أظهر **مجده** لهم، فانفتحت

---

(١) يقول الربيون اليهود: [لا مسرةً إلا مع الخمر] (Pes. 109a) عن العالم ليون موريس: «شرح إنجيل يوحنا»، ص١٧٩.

(٢) يقول أحد الشرَّاح الذي أخذ عنه كثيرون إن المسيح لما قال للقديس يوحنا وهو على الصليب: «هذه أُمُّك»، فإنه كان يرمز إلى العذراء على أنها هي «إسرائيل»، أي العهد القديم، وبنوع من التوصية والوصاية أن تتعهد الكنيسة الشعب اليهودي بتراثه **كأنه أمٌّ لها**، كما كان شعب إسرائيل أمًّا للمسيح. ثم قال لوالدته: «يا امرأة هذا ابنُكِ»، لكي ينبه إسرائيل وكل الشعب اليهودي بتراثه أن الكنيسة هي بنت العهد القديم. وقد سبق الإشارة إلى ذلك في المدخل ص٣٠١.

أعينهم لما شربوا ورأوا هالة **مجده** فآمنوا. لقد عرفوه كما عرفه تلميذا عمواس وقت كسر الخبز؛ لأنه في اثنين يُستعلَن السر، وقت رفع الكأس ووقت كسر الخبز، أينما كان المسيح على عشاء!!، فما بالك والمسيح يضيف إليها لمسة فصحية: «إن **ساعتي** لم تأتِ بعد»، ولكن **أُمَّه** استقدمتها له!!

لقد ملأت الخمر أجرانهم وفاضت، وفي هذا يقول يوئيل النبي نفسه لما نظر بالروح عودة العريس إلى عروسه: «فتُملأ البيادرُ حنطة **وتفيض حياض المعاصر خمراً وزيتاً**» (يؤ ٢ : ٢٤). أما إشعياء النبي فشعر بالفرح الذي ملأ قلوب الداعين والمدعوين، وعبَّر عنه من وراء الأزمنة: «وكفرح العريس بالعروس يفرح بكِ إلهُكِ» (إش ٦٢ : ٥). أما بنو العُرْس القديم ففرحوا «**بالشراب» البائد لأنهم شربوا منه فوجدوه جيداً**؛ وأما بنو الملكوت فأدركوا سر حضور الله فيه، وبالتالي سر الخمر وسر الآية، وآمنوا بالمسيح؛ ولكن ظلَّ سرُّ العريس مكتوماً حتى يوم الصليب، ويوم استُعلن كيف فدى العريسُ عروسَه واشتراها بدمه الذي استودع سرَّه في خمر الكرمة الذي يملأ كل أجران العالم.

القصـــة:

١:٢ «وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل وكانت أُمُّ يسوع هناك».

نحن في نهاية الرحلة التي بدأها الرب من بيت «عبارا» عَبْر الأردن على الشاطىء الشرقي، وكان معه في بداية الرحلة التلميذان الجديدان أندراوس ويوحنا اللذان انضم إليهما سمعان بطرس ويعقوب، ثم في بداية المسيرة انضم فيلُبُّس ثم نثنائيل، أربعة باسم يهودي واثنان باسم يوناني، وهذا ليس جزافاً في إنجيل يوحنا. والمسافة طويلة يقدّرها العالم وسْتكُوت[٣] باختباره الشخصي بحوالي ٦٠ ميلاً، ليبلغ الناصرة أولاً ثم قانا الجليل، وكله من على الضفة الشرقية لنهر الأُردن.

اليوم الثالث:

العدد هنا يبدأ من الآية ١ : ٤٣: «وفي الغد أراد يسوع أن يخرج إلى الجليل فوجد فيلُبُّس...»، ولكن كثيرين من الشُرَّاح الذين تستهويهم الأعداد وتأويلها يقولون إن اليوم الثالث هو القيامة التي بها استعلَن المسيح ذاته. ولأنه هنا في هذه الآية يقص قصة استعلان، فقد صدَّرها بهذا الرقم للفت الإنتباه.

---

[3] *Op. cit.*, p. 36.

عُرس في قانا الجليل:

العُرس عند اليهود يستمر أسبوعاً على الأقل ويبدأ في المساء. ومعروف في التقاليد اليهودية أنه إذا كانت العروس عذراء يكون زواجها يوم الأربعاء، وإلاَّ يكون زواجها يوم الخميس.

«فجمع لابان جميع أهل المكان وصنع وليمة. وكان في المساء (في الظلام) أنه أخذ ليئة (بدل راحيل) ابنته وأتى بها إليه فدخل عليها... وفي الصباح إذا هي ليئة فقال للابان ما هذا الذي صنعت بي أليس براحيل خدمت عندك؟ فلماذا خدعتني. فقال لابان... **أكمل أسبوع هذه،** فنعطيك تلك أيضاً بالخدمة...» (تك٢٩: ٢٢—٢٧)

كذلك في قصة زواج شمشون من المرأة الفلسطينية نقرأ:

«ونزل أبواه إلى المرأة فعمل هناك شمشون **وليمة لأنه هكذا كان يفعل الفتيان**... فقال لهم شمشون لأُحاجِيَنَّكُم أحجية فإذا حللتموها لي **في سبعة أيام الوليمة**...» (قض١٤: ١١و١٢)

قانا الجليل:

«قانا» دائماً تُذْكَر باسم «الجليل» للتفريق بينها وبين قانا أخرى كانت في منطقة سوريا. وهي المكان المعروف الآن بـ«خِرْبة» قانا، وهي على بعد ٩ أميال شمال الناصرة.

«أم يسوع»:

لم يذكر اسمها ق. يوحنا قط في كل إنجيله وحتى عندما ذكر اسم يوسف (١: ٤٥) لم يذكر اسمها، فهذا هو المنهج الفكري والروحي العجيب الذي اختطّه هذا الإنجيلي: لا اسمه ولا اسم أُمّه ولا اسم العذراء مريم. ولكن ليس من الهيِّن على ق. يوحنا أن يذكر «أم يسوع» إلا إذا كان الدور الذي ستقوم به في غاية الأهمية ويحوطه السرُّ من كل جانب.

وفي نظرنا[٤] أن العذراء القديسة مريم في هذه القصة تقف كنبيَّة تتوسط بين عهدين وتتوسط بين عريسين، وتتطلب المستحيل من ابنها فيعطيها!

وواضح من ملابسات القصة أنها لم تكن مدعوَّة بقدر ما كانت داعية وصاحبة أمر في البيت. فيبدو أن هذا الزواج كان يمتُّ إليها بصلة أكثر من أنها كبيرة، إذ ما أن وصل المسيح إلى البيت بعد الرحلة المضنية إلاَّ ووجد منها الرسالة أنها سبقته إلى العرس، وهي في انتظاره. فاستجاب في الحال، بالرغم من أن الرحلة كانت مضنية للغاية.

---

(٤) انظر كتاب: «العذراء القديسة مريم الثيئوتوكس (والدة الإله)» للمؤلف، طبعة ثانية ١٩٧٩، ص٨٧—٨٩.

٢:٢ «ودُعِيَ أيضاً يسوع وتلاميذه إلى العرس».

عجيب حقاً أن يُدعى عريسٌ ــ وهو في أَوَج عُرسه ــ إلى حفلة عُرس. إنها مضادة **Paradox** يمتنع أن تكون جزءاً من إنجيل. وإذا قبِلَها الإنجيل هكذا بمستواها الظاهري هذا، لخرج الإنجيل عن حقيقة مستواه، إذ كيف يتسع درب الصليب لحفلة عُرْس؟؟ ولولا أن المسيح يعلم ما سيصنع هناك لامتنع، بل لأنه كان قد سبق ودبَّر كيف يُظهر مجده في هذا العُرس على أساس الصليب وفي مستواه، لذلك قَبِلَ الدعوة، وأصرَّ أن يأخذ تلاميذه أيضاً لأنهم الوجه الآخر من حفلة عُرسه الخاصة. أليس هو القائل «من أجلهم أُقدّس أنا ذاتي» (يو١٧: ١٩) بمعنى أُكرِّس نفسي للصليب من أجلهم؟

٣:٢ «ولما فرغت الخمر قالت أمُّ يسوع له: ليس لهم خمر».

هذا هو المحور الذي تدور حوله القصة. وهذا هو السبب الذي اجتذب المسيح إلى العرس، وهذا هو الدور الذي كشفت فيه الأم عن دورها الشفاعي الكبير.

ماذا حدث؟ يقول القائلون وهم على صواب ــ إن هم أخذوا بمظاهر القصة ــ أن حضور المسيح وتلاميذه وأحبائه، وهم كثرة، أخلَّ بترتيبات رئيس المتكأ؛ فاستُنْفِذَ الموجود من الخمر حتى فرغت فجأة. ولكن إن أخذنا بجوهر الإنجيل وأسلوب ق. يوحنا ومقاصده البعيدة الهدف والرؤيا، فحضور المسيح أيضاً هو الذي كشف رداءة الخمر وأفرغها من مضمونها. فهل ممكن أن يكون على مائدة عشاء الرب خمر غير جيدة؟ أو كأس غير كأس الرب؟ الخمر في حضرة الرب وفي يده هي الرمز الكامل والحقيقي للشركة مع الله.

أليس من أجل ذلك دعته أمه ليصحّح، ليس «نقص الخمر»، بل «نقص وجود الله وحضوره»؟

«ليس لهم خمر»:

هذا التعبير مِسْتِيكي، أي سِرِّيٌّ، بالدرجة الأُولى، يعني ليس لهم فرح ولا سرور حقيقي بالله، إن الأمُ العذراء القديسة مريم نذيرة الرب والتي تقدست بالروح القدس نفساً وجسداً وروحاً يستحيل أن تعني إلا هذا، العذراء القديسة التي عرفت أن تقول: «تعظِّم نفسي الرب **وتبتهج روحي بالله مخلصي**» (لو١: ٤٦)، تعرف إن كان من خمر الناس تبتهج الروح أم من خمر الله، فحينما قالت "ليس لهم خمر" كان ذلك بمثابة مُلْتَمس عاجل وسرِّي أن يمارس عمله كإله.

والظروف كلها حسب الظاهر كانت مواتية، فخمرهم فعلاً نفدت، والنفوس الحاضرة قلقة وملتهبة شوقاً تريد أن ترى من يسوع عملاً، بعد كل الأخبار المذهلة والمتزاحمة التي ملأت البلاد كلها عما قاله المعمدان وعما شاهده وشهد به، وخاصة حينما أعلن أن المسيح هو العريس وأما هو فصديق العريس! كانت عين العذراء وقلبها على عمل إعجازي مثل ما عمل المسيح تماماً. وكما اشتهت العذراء، عَمِل المسيح، وزاد، لأن حب العريس أقوى من حب العروس. ولكن عتاب المسيح الوحيد للعذراء الأم أنها عجَّلت بالصليب!! ونحن لا زلنا في صفِّها «لم تأتِ **ساعتي** بعد» !!

٢ : ٤ **«فقال لها يسوع ما لي ولكِ يا امرأة لم تأتِ ساعتي بعد».**

الإشارة هنا خفية ترمي إلى أن الرب لا يعمل إلا بحسب مشيئة الآب، وأن العمل الذي تطلبه «الأم» يدخل في تحديد ساعة الصليب!! والمعنى الآن سهل فهو يقصد أن بدء العمل بأول آية يستعلن شخصه حتماً؛ و بهذا يكون قد حدَّد بالضرورة بدء العدّ التنازلي للصليب، لأن عمل الرب وهو متصبٌّ كله ومحصور في عمل الفداء والخلاص، كان محسوباً عليه من أعدائه، أي ضده. فكأنما الأم بطلبها صنع الآية، وهي الأُولى، نبَّهت وأعطت الأعداء الإشارة للبدء، فحددت دون أن تقصد ساعة الصليب. ولم يكن المسيح يشاء أبداً أن تكون أُمُّه هي التي تقف هكذا على بداية درب الصليب!

أما قوله لأمه: **«يا امرأة»** فهذا اللقب لا يُفهم على مستوى لغة ق. يوحنا إلا إذا قارنَّاه بما خاطبها به الرب عندما أتت الساعة وهو على نهاية درب الصليب! : **«يا امرأة هوذا ابنُكِ»**. وهكذا يشير الرب بلغته السرية التي يجيد ق. يوحنا فهمها وتسجيلها كيف كانت أُمُّه القديسة العذراء مريم تمثل **«المرأة»** وهي تفتتح وتختم معه ــ كآدم الثاني ــ سكة الصليب، وكشريكة أحزان وكمن يجوز في نفسها سيف!! حسب نبوة سمعان الشيخ الجليل.

٢ : ٥ **«قالت أُمُّه للخدام** (= الذياكونين διακόνοις) **مهما قال لكم فافعلوه».**

هي وحدها التي فهمت كل شيء من ردِّ ابنها، الذي احتار فيه كل شارحي الكتاب، فبالرغم من صورته الجافة حسب الظاهر إلا أنها اعتبرته يحمل علامات الرضى والتنفيذ. فأوصت الخدام بطاعة كل ما يقول، وكلمة **«الخدام»** هنا تأخذ معنى خدمة الطقوس والأسرار، وهي

عجيبة حقاً في موضعها(٥)؛ **فهي تزيد من معنى الوجود السري للمسيح كعريس ومن مستوى الخمر السرائري.**

فالكلمة العادية والطبيعية للخدام حسب تحقيق العلماء هي إما ὑπηρέται أو δοῦλοι ، ولكن ق. يوحنا يصر في هذا الموقف، أمام حضرة المسيح ووجود أمه العذراء القديسة مريم وشركة التلاميذ القديسين، أن يختار لخدمة توزيع الخمر الذي يُعتبَر وكأنه من يد المسيح، لفظة «الذياكونين» ليزيد من ترجيح فعل سرائري حادث.

٢: ٦ «وكانت ستة أجران من حجارة موضوعة هناك حسب تطهير اليهود يسع كل واحد مطرين أو ثلاثة».

الستة الأجران للتطهير لستة أيام الأسبوع، لأن السابع وهو السبت ليس فيه خروج ولا دخول ولا عمل ما فليس له تطهيرات. وكان كل جرن يُخصَّص ليومه، أما سعتها الكبيرة فلأن التطهيرات كانت قد فاقت عن الحد، فليس اليدان فقط بل والقدمان والأوعية هي التي تتطهر، وقبل وبعد الأكل، حتى الكراسي وشِلَتْ الجلوس والأسِرَّة: «لأن الفريسيين وكل اليهود إن لم يغسلوا أيديهم باعتناء لا يأكلون متمسكين بتقليد الشيوخ، ومن السوق إن لم يغتسلوا لا يأكلون، وأشياء أخرى كثيرة تسلموها للتمسك بها من غسل كؤوس (أكواب الماء والخمر) وأباريق وآنية نحاس (الحلل) وأسِرَّة.» (مر٧: ٣و٤)

وهذه الأواني الفخارية الكبيرة الحجم لا تزال تُستخدم في نفس المناطق المذكورة، ويوجد منها أحجام أكبر في الأديرة إلى الآن.

مَطَرين أو ثلاثة:

هذا المقياس يساوي في جملة الأجران الستة حوالي ١٣٤ جالوناً. علماً بأن الجالون يساوي ٤,٥٤ لتراً.

٢: ٧ «قال لهم يسوع املأوا الأجران ماء. فملأوها إلى فوق».

هنا المسيح يأخذ موقف الذي يُجري السر أو الآية سيان، وكونه يأمر الذياكونيين بملء الأجران ماءً فهو يحضر بنفسه كيفية العمل ومادة السر مع أخصاء الخدمة. واستجابة الخدام الفورية لملء

(٥) الذياكونيون هم الشمامسة خدام هيكل الرب.

١٣٤ جالوناً من الماء، أي ما يزيد عن ٣٠ صفيحة ماء، أخذ وقتاً وجهداً ليس بقليل، لأن الأجران كلها كانت قد فرغت من الماء بسبب عدد المدعوين الكبير. كل هذا جعل المنظر مثيراً ومُلفتاً جداً للأنظار، وهذا بحد ذاته تحضير ليس بقليل بالنسبة لأداء المعجزة.

والملاحظ أن الخدم ملأوا الأجران حتى حافتها العليا ἕως ἄνω . هكذا يصنع المسيح دائماً: فهو «الملء الذي يملأ الكل في الكل» (أف ١: ٢٣)، «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة» (يو ١: ١٦). وهذا **الملء** حتى الحافة يمثل في الحقيقة مع **الكثرة الهائلة** في الكمية المتحولة إلى خمر، مستوى عطية المسيح الروحية: «لأنه ليس بِكَيْلٍ يعطي الله الروح» (يو٣: ٣٤)؛ و«القادر أن يفعل فوق كل شيء أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر بحسب القوة التي تعمل فينا» (أف٣: ٢٠)، يعطي دائماً «بحسب غنى مجده» (أف٣: ١٦)، وبحسب «غنى المسيح الذي لا يُستقصَى...» (أف٣: ٨)

هذه الصورة الفائضة لعمل النعمة في عطية المسيح هي المعيار المنصوص عنه للعهد الماسيَّاني، أي العهد الجديد، عهد الخلاص، عهد الفيض والملء.

لذلك لزم هنا، بالدرجة الأولى، مع هذه الكثرة أن ينتزع المسيح من رئيس المتكأ الشهادة بنوع جودة الخمر الذي ينفي عنه صورته المادية المؤدية للخلاعة والسكر. فالكثرة والفيض والملء هنا إنما تعمل لحساب فرح الروح و بهجة حضور الله. الأمر الذي طلبته العذراء وتمنته أن يكون فكان. والكثرة مع الملء والفيض في هذه الآية توازي تماماً ما حدث في آية الخمس الخبزات والسمكتين، والكثرة في صيد السمك الأخير حتى كادت الشباك تتخرق.

أما التمادي في وصف الملء والسعة والأعداد فهي الصفة الملازمة لآيات إنجيل يوحنا، فهدم الهيكل الذي تم بناؤه في ٤٦ سنة يتم في ثلاثة أيام، والأعمى مولود من بطن أمه أعمى، والمشلول له ٣٨ سنة في مرضه، والخمس الخبزات والسمكتان أشبعت خمسة آلاف رجل ما عدا النساء والأطفال، ولعازر قام بعد أربعة أيام في القبر، فاختيار التمادي هو جزء من اختيار الآية.

٢: ٨ **«ثم قال لهم استقوا الآن وقدِّموا لرئيس المتكأ، فقدَّموا».**

«الأشياء العتيقة قد مضت هوذا الكل قد صار جديداً.» (٢كو٥: ١٧)

«استقُوا الآن»: Ἀντλήσατε

هذه الكلمة أحدثت ضجة في عقول الشراح ــ وأكثرهم العلامة وستكوت ــ فهي تعني في

الأصل اللغوي «اسحبوا». فما كان من هذا العالِم والذين تشيَّعوا له أن ظن أنهم يسحبون من النهر أو البئر أو من مصدر آخر، لأن كلمة «اسحبوا» لا تصلح إلا للرفع بالجردل أو بآنية بحبل من البئر أو خلافه. وقد فات على هؤلاء العلماء المتمدينين أن الأجران الحجرية الكبيرة ذات فوهة واسعة وليس لها أي وسيلة لرفع الماء منها إلا بسحبها بالكوز ذي اليد المعروفة، سواء كان من النحاس وهذا هو غالب الأمر جداً، أو من الفخار، والكلمة ἀντλήσατε باليونانية هي نفس الكلمة بالعربية الدارجة «يَنْطَلُ»، و«نَطَل» الماء أي أخذه من مصدر عميق بالكوز أيضاً وليس فيها أي لَبْس أو إبهام.

رئيس المتكأ: ἀρχιτρίκλινος

وأيضاً هذه الكلمة لم تُفهم عند علماء الغرب، لأنها عادة شرقية أن يخدم و يضبط الحفلة بأكملها رجل يتبرع بذلك و يكون غالباً من أهل العرس، و يكون مرموق الكرامة، وهو يصنع ذلك تكريماً منه وتنازلاً لأهل العرس. ولذلك تكون له الكرامة الأُولى في الحفل، وكلمته تكون نافذة على الجميع. لأن في حفلات العرس عند الشرقيين غالباً ما يخرج الشباب عن حدودهم إما بالتهليل أو بالشرب الكثير أو بالتذمر، وهذا يحتاج إلى قدرة عالية جداً من الضبط. فبحسب الأُصول الشرقية، أوعز المسيح للخدم أن يقدموا من الخمر لهذه الشخصية، أي لرئيس المتكأ، فقدَّموا.

وقد يحدث أن يكون رئيس المتكأ أحد رؤساء الدين الذي يُجري طقوس الزواج، وقد يبقى في العُرس كمدعوٍّ فوق العادة وهنا تكون له كرامة مضاعفة.

وكان يهم المسيح جداً أن يشرب رئيس المتكأ من الخمر الجديدة، وذلك **أولاً: حسب طقس العشاء.** فالمسيح هنا اعتبر نفسه رب الأسرة أو العريس الإلهي، وأن كل المدعوين وأهل البيت بمثابة أولاده أو مدعوِّيه. وكان الطقس يحتم أن المسيح يذوق و يعطي لأكبر الموجودين و بعد ذلك يدور الدور حتى الأصغر، وهذا هو طقس العشاء العادي عند اليهود. أما السبب **الثاني** فلكي ينتزع منه المسيح الشهادة لنوع الخمر الإلهي الذي صنعه المسيح بنفسه أو على الأصح من نفسه. لأن كل آية كان يصنعها المسيح كانت تحتاج إلى **قوة إلهية تخرج منه.** «لما سَمِعَتْ بيسوع جاءت في الجمع من وراء ومسَّت ثوبه. لأنها قالت إن مَسَسْتُ ولو ثيابه شُفيتُ. فللوقت جفَّ ينبوع دمها وعلمت في جسمها أنها قد برئت من الداء. فللوقت التفت يسوع بين الجمع شاعراً في نفسه **بالقوة التي خرجت منه** وقال من لَمَس ثيابي...» (مر٥: ٢٧ــ ٣٠)

كان الخمر الجديد الذي صنعه يسوع يحمل قوة إلهية ــ فالكرمة الحقيقية تعطي من عصيرها خمراً حقيقياً. هذه القوة ظهرت عند رئيس المتكأ تحت إحساس الجودة ليس إلا، وعند كثيرين ظهرت مُبهجة للغاية كبهجة حضور الله في القلب، وعند التلاميذ فتحت أعينهم وعاينوا حضور الله ومجد المسيح فآمنوا. وهذا شأن كل سِرّ الله حتى اليوم.

٢: ٩-١٠ **«فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمراً ولم يكن يعلم من أين هي، لكن الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا، فدعى رئيس المتكأ العريس وقال له كل إنسان إنما يضع الخمر الجيدة أولاً ومتى سكروا فحينئذ الدون أما أنت فقد أبقَيْتَ الخمر الجيدة إلى الآن».**

يلزم أن نستدرك القول إن أجران الماء التي للتطهير إنما موضعها يكون في الفَسْحة في مدخل البيت وليس داخله. والأجران لم تتحرك من مكانها أثناء صُنْع الآية، فهي ثقيلة جداً بالإضافة إلى أن حجمها يمنع أن تكون داخل البيت. لذلك حينما صنع المسيح آية تحويل الماء إلى خمر، صنعها بعيداً عن أهل العرس والمدعوين الذين في الداخل. لذلك قُدِّمت لهم الخمر وهم لا يدرون من أين أتت. وهذا أيضاً يُضاف إلى أن سر التحوُّل لا يعرف أحد كيف أتى.

والإشارة الروحية أو السرية واضحة أن آية تحويل القديم إلى جديد، أي ماء التطهير إلى خمر عشاء، صُنعت خارج حدود الناموس. وبالرغم من واقعها المنظور والمحسوس إلا أن لا الرئيس المكلَّف بضبط حدود الناموس ولا العريس ــ عريس الناموس ــ كانا على دراية بها أو بصانعها الذي هو «العريس الحقيقي»، ولكن «الخدام» وهم في الناموس الطبقة المترسِّبة من المجتمع التي تكتسب لقمتها بعرق جبينها، كانوا يعلمون: «فجاء الخدام إلى رؤساء الكهنة والفريسيين. فقال هؤلاء لهم لماذا لم تأتوا به؟ أجاب الخدام لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان» (يو٧: ٤٥و٤٦)، والإنجيل اهتم بوضعهم كشهود.

«ومتى سكروا فحينئذٍ الدون»:

الكلام هنا لا يقع على الحاضرين، فلم يسكر أحد بعد، ولكن في حدود المثل الشائع يتكلم هنا رئيس المتكأ. وفي الحقيقة الكلام هنا يرمي إلى أبعاد تغوص في الواقع اليهودي الذي صار حاله كحال «مَنْ سكروا فحينئذٍ الدون»، وفي هذا يقول إشعياء النبي: «ولكن هؤلاء أيضاً ضلوا بالخمر وتاهوا بالمسكر، الكاهن والنبي ترنَّحا بالمسكر، ابتلعتهما الخمر، تاها من المسكر، ضلاً في الرؤيا، قلقا في القضاء. فإن جميع الموائد امتلأت قيئاً وقذراً ليس مكان. لِمَنْ يُعلِّمُ معرفة ولمن يُفهِمُ

تعليماً...» (إش٢٨: ٧-٩). نعم فليس ــ من واقع الحال ــ أردأ من هذا خمر ولا أردأ من هذا حال.

«أما أنت فقد أبقَيْتَ الخمر الجيدة إلى الآن»:

«الخمر الجيدة»: καλὸν οἶνον

كلمة «جيدة» καλὸν هنا التي تُترجم أيضاً في إنجيل يوحنا «حسن» و«صالح». فإذا قرأناها إنجيلياً وبإحساس العهد الجديد وخاصة أعمال المسيح، فهي قريبة ونسيبة لكلمة «الحق» ἀλήθεια. فهي نفس الكلمة المستخدمة في «أنا هو الراعي **الصالح** ἐγώ εἰμι ὁ ποιμὴν ὁ καλός»(يو١٠: ١١)، وهي أيضاً المستخدمة في قوله: «**أعمالاً كثيرة حسنة** (= ἔργα καλά) أريتكم من عند أبي.» (يو١٠: ٣٢)

والسؤال هنا: هل يمكن أن تُقبل صفة «**جيدة**» بهذا الوضع والإحساس الإنجيلي على أنها خمر جيدة للمذاق والشرب الجسدي؟ أم أنها خمر لها علاقة جيدة بالكرمة الحقيقية؟ نحن في الواقع نرى أن «الخمر الجيدة» هي المحور الذي تدور حوله الآية، فهي آية تحويل الماء الساذج لغسل الجسد إلى خمر العهد الجديد «الجيدة»، أي الروحية، لتفريقها عن الخمر العادية. ولكن بنو العرس صنفان: صنفٌ شَرِب الخمر الجيدة فانحصرت جودتها عندهم في مذاقها وحسب فأعجبتهم، كما أعجب الذين أكلوا من الخمس الخبزات وسعوا وراء المسيح يطلبون المزيد من الخبز البائد؛ أما بنو الملكوت وهم الصنف الذي يرافق العريس الحقيقي، فلما شربوها انفتحت أعينهم(٦) وتجلى العريس في أعينهم وقلوبهم وإيمانهم فعرفوه أنه هو المسيح الحمل ابن الله كما رآه المعمدان.

عرس قانا الجليل والكنيسة:

الكنيسة منذ ما قبل القرن الرابع وهي تعيِّد للميلاد والغطاس وعرس قانا الجليل عيداً واحداً متصلاً، وأسمته «عيد الظهور الإلهي»، باعتبار أن ما تم في الميلاد بظهور الله في الجسد أي «الكلمة صار جسداً» ــ بشهادة الملائكة ــ هو الذي نظره المعمدان والتلاميذ في الأردن حيث استُعلن بشهادة الروح القدس والآب من السماء أنه ابن الله، وأنه هو العريس، والمعمدان صديق العريس رأى وفرح، وهو الذي تم في عرس قانا الجليل حينما أظهر المسيح ذاته أنه ابن الله بتحويل ماء التطهير الذي للناموس إلى خمر العهد الجديد الذي يحمل سر الفداء والخلاص ــ وسر

(٦) و«**الخمر الجيدة**» تشير خفياً إلى أنها خمر غير عادية أو خمر «**جديدة**»، وهي أيضاً تشير إشارة خفية، ولكن يلمحها الملهمون، إلى خمر الروح، خمر الشركة مع الله التي سيشربها المسيح معنا في ملكوته: «وأقول لكم إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي.» (مت٢٦: ٢٩)

العريس الحقيقي ـــ بشهادة أُمِّ المسيح والتلاميذ.

٢ : ١١ **«هذه بداية الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل، وأظهر مجده، فآمن به تلاميذه».**

واضح السبب أن هذه هي بداية الآيات التي صنعها يسوع، لأنها آية «استعلان» بالأساس؛ فهي أحد الأعمدة الثلاثة التي تقيم عليها الكنيسة عيد الظهور الإلهي «الإبيفانيا». وهي لا يوجد لها مثيل أو مشابه في معجزات الثلاثة الأناجيل الأخرى.

وقوله هنا: «أظهر مجده فآمن به تلاميذه» هي في التحقيق الأول والعملي لقول ق. يوحنا في المقدمة: «ونحن رأينا مجده»، ولهذا فلا ينبغي أن نأخذ هذه القصة بوجهها البسيط مجرد معجزة في عرس ريفي.

فالقصة في عمقها تعكس صورة لـ«وليمة المسيا» وتأخذ ضوءها الإنجيلي من عشاء عُرْس الخروف في الرؤيا (١٩ :٧ــ٩). لم تنحدر القصة في مفرداتها لتعطي لوناً إفخارستياً(٧) تتعلق به الكنيسة لتكمّل به خمس خبزات وليمة المسيا في الجبل: هناك الخبز وهنا الخمر. هكذا استوقفت هذه القصة أفكار قراء الإنجيل من آبائنا الأوائل. وكأنما المسيح ظهر في القصتين كمَلْكيصادق يعضد الكنيسة بخبز وخمر إلى أن يأتي الوقت ليكشف عن سرِّهما فيه.

وقفة قصيرة

٢ : ١٢ **«وبعد هذا انحدر إلى كفرناحوم هو وأمه وإخوته وتلاميذه وأقاموا هناك أياماً ليست كثيرة».** (٨)

لا يذكر هنا ق. يوحنا أين كان يعيش المسيح مع أمه وإخوته قبل ذلك، كذلك لم يذكرْ يوسف خطيب مريم والمحسوب خطأً أنه كان أباه، كذلك لم يذكر أخواته. وهنا لزم التوضيح ليكون القارىء متتبعاً خطوات تنقُّل المسيح مع أمه المذكورة هنا.

أولاً: معروف أنه بعد عودة يوسف ومريم والصبي يسوع من مصر، أن يوسف خاف أن يعود

(٧) إرجع إلى مقالة «عرس قانا الجليل» في كتاب: «أعياد الظهور الإلهي»، الطبعة الأُولى سنة ١٩٨٠، ص ٣١١ــ٣٢٢، وعلى الخصوص ص٣١٨.

(٨) توضح المخطوطة الإسكندرانية المشهورة مع مخطوطات أخرى هامة أن المسيح وحده هو الذي لم يبقَ في كفرناحوم إلا مدة قليلة إذ تقول «وأقام» بدل «وأقاموا». و يعوّل عليها علماء كثيرون أن الأسرة انتقلت في هذا الوقت انتقالاً نهائياً إلى كفرناحوم.

إلى اليهودية (مملكة الجنوب وعاصمتها أورشليم)، فذهب إلى الجليل: «وإذ أُوحي إليه في حلم، انصرف إلى نواحي الجليل وأتى وسكن في مدينة يُقال لها ناصرة.» (مت٢: ٢٢و٢٣)

ثانياً: عاش المسيح في طاعة أبيه وأمه. وفي سن الثانية عشرة وضحت عليه الدعوة والرسالة حينما قال لأُمه عندما عاتبته على تركه للرفقة وبقائه في الهيكل في أورشليم عند عودتهم من الفصح: «لماذا فَعَلت بنا هكذا. هوذا أبوك وأنا كنا نطلبك معذَّبَيْن. فقال لهما لماذا كنتما تطلبانني ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون في ما **لأبي**، فلم يفهما الكلام الذي قاله لهما. ثم نزل معهما وجاء إلى الناصرة وكان خاضعاً لهما.» (لو٢: ٤٩ـــ٥١)

ثالثاً: لما بلغ سن الثلاثين سنة، وكان قد تربى مع يوسف الذي كانت صَنْعَتُه النجارة (مت١٣: ٥٥)، وكان المسيح أيضاً قد تعلم مهنة النجارة، واستلم العمل موضع يوسف فكان هو نجار الناصرة. وهذا واضح في قول أهل الناصرة: «أليس هذا هو النجار ابن مريم.» (مر٦: ٣)

سمع المسيح بظهور المعمدان في اليهودية فانحدر من الجليل، وبالذات من الناصرة، إلى يوحنا: «وفي تلك الأيام جاء يسوع من "ناصرة الجليل" واعتمد من يوحنا في الأُردن.» (مر١: ٩)

رابعاً: بعد العماد وشهادة يوحنا انطلق المسيح في رحلته من بيت عَبَارة حيث كان المعمدان يُعمِّد إلى الجليل، فبلغها في ثلاثة أيام مع تلاميذه الستة كما شرحنا في الآية يو٢: ١١. ولما بلغ الناصرة وجد الدعوة من أمه لحضور عرس قانا الجليل حيث سبقته إلى هناك.

وتقول الآية أنه بعد العرس، انحدر المسيح مع أمه وإخوته وتلاميذه إلى كفرناحوم، ولم يذكر يوسف. وبذلك يُحسب أنه كان قد انتقل. كذلك لم تُذكر أخوات المسيح ـــ وهنَّ من أولاد يوسف بالطبع من زواج سابق حسب التقليد ـــ لأنهن كُنَّ على ما يُظَن قد تزوَّجْنَ.

وتقول الآية أنهم بقوا في كفرناحوم أياماً ليست كثيرة، مما يتضح أنهم رجعوا إلى الناصرة بعد مدة.

خامساً: ويمدنا القديس مرقس بمعلومة واضحة أن المسيح بعد ذلك انتقل والأسرة ما عدا الأخوات انتقالاً نهائياً إلى كفرناحوم: «وترك الناصرة وأتى وسكن في كفرناحوم التي عند البحر(٩).» (مت٤: ١٣)

(٩) «عند البحر» تنخفض كفرناحوم في مستواها الأرضي عن سطح البحر.

إرميا ٢٥: ٣٠ «الرب من العلاء يزمجر ومن مسكن قدسه (الهيكل) يطلق صوته».

ولكن أيضاً لا تغيب «الجليل» عن روح النبوة فقد سلّطها إشعياء أيضاً على كل المناطق التي خدم فيها الرب:

ــ «ولكن لا يكون ظلام للتي عليها ضيق. كما أهان الزمان الأول أرض زبولون وأرض نفتالي **يُكرِمُ الأخير طريق البحر عبر الأُردن جليل الأمم** الشعب السالك في الظلمة أبصر نوراً عظيماً، الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور.» (إش٩: ١و٢)

لذلك كان من الأمور المتيقنة لدى المنتظرين الفداء لإسرائيل أن يظهر المسيًا في أورشليم وفي اليهودية أول ما يظهر. وهو بالفعل ظهر أولاً في اليهودية على نهر الأُردن مع السابق الصابغ، واستُعلن أنه ابن الله وحمل الله الذي جاء ليرفع خطية العالم، هناك في بيت عبارة عبر الأُردن. هذا فوق أنه وُلد في بيت لحم اليهودية حسب النبوات أيضاً.

٢ ــ تطهير الهيكل
(٢: ١٣ــ ٢٥)

مكان البشارة: «ويأتي بغتة إلى هيكله السيد»

ثالثاً: في اليهودية (ملاخي ٣: ١)

هذه الحادثة هي الجزء الثاني من «إنجيل التجديد»، وسنجد فيها المقابلة مستمرة بين القديم والجديد.

القديم: هيكل أورشليم المبني بالحجارة في ستّ وأربعين سنة.
الجديد: «هيكل جسده» المقام من الموت «وفي ثلاثة أيام أقيمه».

القديم: ذبائح الحيوانات ــ بقر وغنم وحمام.
الجديد: ذبيحة جسده: «انقضوا هذا الهيكل... أما هو فكان يقول عن هيكل جسده».

القديم: التجارة بالدين ــ الصيارف والدراهم.
الجديد: «لا تجعلوا بيت أبي (الكنيسة) بيت تجارة».
الاستعلان: المسيح ابن الله: «بيت "**أبي**"».

يشرح ملاخي النبي هذه الحادثة في سفره بالروح رابطاً ربطاً محكماً بين مجيء المعمدان (وعماد

المسيح)، ثم ظهور الرب في الهيكل بصورة تنطق بها الأناجيل نطقاً على مستوى الواقع الذي تم.

ــ «هأنذا **أُرسل ملاكي فيهيىء الطريق أمامي، ويأتي بغتة إلى هيكله السيد الذي تطلبونه** وملاك العهد الذي تُسرُّون به. هوذا يأتي، قال رب الجنود، ومَنْ يحتمل يوم مجيئه ومَنْ يثبت عند ظهوره، لأنه مثل نار المَمَحّص ومثل أشنان القَصّار، فيجلس ممَحِّصاً ومنقِّياً للفضة فينقِّي بني لاوي (الكهنة)، ويصفِّيهم كالذهب والفضة، ليكونوا **مقرِّبين للرب تقدمة بالبر، فتكون تقدمة يهوذا وأورشليم** مَرْضيَّة للرب كما في أيام القِدَم وكما في السنين القديمة.» (ملاخي ٣: ١ـــ٤)

ــ «هوذا الرجل "**الغصنُ اسمه**" (يدعى ناصرياً) ومن مكانه ينبت ويبني هيكل الرب، فهو يبني هيكل الرب وهو يحمل الجلال ويجلس ويتسلط على كرسيه ويكون كاهناً على كرسيه...» (زك٦: ١٢و١٣)

٢: ١٣و١٤ **«وكان فصحُ اليهودِ قريباً فصَعِدَ يسوعُ إلى أورشليمَ. ووجدَ في الهيكلِ الذين كانوا يبيعون بقراً وغنماً وحماماً، والصيارفَ جُلوساً».**

فصح اليهود:

ليس تبرُّؤاً من اليهود وليس امتهاناً لفصحهم كتب ق. يوحنا «فصح **اليهود**» ولكن أولاً لتمييزه عن الفصح **المسيحي**، لأنه يكتب في وقت كان قد استتب فيه التعييد للفصح في الكنيسة. وقد ظل ق. يوحنا هو الوحيد من أساقفة كراسي المسكونة آنئذ الذي يعيّده في زمانه المحدد أي الرابع عشر من شهر نيسان، لأن صوت المعمدان الصارخ أن هذا هو حمل الله الذي يرفع خطية العالم لم يفارق أذني ق. يوحنا، وكأن الرابع عشر من نيسان خُلق من أجل حمل الله وليس من أجل ذبيحة إسرائيل. وقد انعقد لواء تعيين زمان الفصح في العالم بعدئذ على كرسي الإسكندرية كل سنة بمنشور يوزعه على كراسي العالم.

«فصعد يسوع إلى أورشليم»:

لم تكن بطبيعة الحال هذه أول زيارة له لأُورشليم، فقد اعتاد دخولها والحياة فيها منذ أن كان صبياً. وكان يُظن أن له أقرباءً في أورشليم ومنزلاً ينزلون فيه. ولكن هنا هي الزيارة الأُولى التي يدخلها كمَنْ يفتقد مدينته وشعبه الخاص، دخلها وهو يحمل على كتفيه الرئاسة ومسئوليتها، لا بقصد القصاص والمحاكمة كما يتهيأ من النصوص، ولكن كمَنْ يريد أن يجمع أولاده في حِضْنه: «يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المُرْسَلِين **إليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك**

كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا.» (مت٢٣: ٣٧)

وواضح من النص بعد ذلك أنه أخذ يجول في المدينة ويصنع آياتٍ، إذ في الآية (٢٣) بعد ذلك يقول الكتاب: «ولما كان في أورشليم في عيد الفصح آمن كثيرون باسمه، إذ رأوا الآيات التي صنع». فهي كانت زيارة تاريخية نبوية ظهر فيها المسيح باعتباره المسيَّا، رآها الآباء والأنبياء من خلف حُجُب الزمان وحيُّوها، وبفارغ الصبر ترقبها البنون: «لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب» (إش٢: ٣). أما بقية الآية فهي من صميم اختصاصنا نحن الأمم: «فيقضي بين الأمم ويُنْصِف لشعوب كثيرين» (إش٢: ٤). أما البقية الأخيرة من الآية فتخص أولادنا والآتين من بعدنا: «فيطبعون سيوفهم محاريثَ ورماحهم مَنَاجِلَ. لا ترفع أُمة على أُمة سيفاً، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد» !!

ويلزمنا هنا أن نقف وقفة قصيرة لكي نوضح أن حادثة تطهير الهيكل ذكرها الإنجيليون الثلاثة في نهاية خدمة المسيح. أما هنا في إنجيل يوحنا فتُذْكَر في بداية خدمته. وهذا الإختلاف ظاهري، بالرغم من أنه دوَّخ العلماء وقسمهم على بعض بين مَنْ يتشيع للتطهير في نهاية الخدمة ومَنْ يتشيع له في بداية الخدمة، وكأنما هناك خلل في الأناجيل. ولكن لو تمعَّنا الأسباب، لبَطُل الخلاف. فالأناجيل الثلاثة اكتفت بخدمة المسيح في الجليل، ولم تذكر للمسيح زيارة لأُورشليم ودخوله الهيكل إلا مرة واحدة التي ذهب إليها وصُلب فظهر لأول وهلة في الأذهان أن زيارة أورشليم مربوطة بزيارة تطهير الهيكل، مربوطة بصلب الرب، ثم ترسَّخ في الأذهان صورته في الهيكل كمسيَّا الدينونة.

ولكن يأتي إنجيل ق. يوحنا ويضيف على التقليد الرسولي تقليداً رسولياً آخر يكشف عن خدمة الرب في أورشليم واليهودية قبل خدمة الجليل وبعد خدمة الجليل، ويحدد زيارات الرب لأُورشليم والهيكل في زيارته المبكرة الأُولى، فظهر للأذهان أن زيارته لأُورشليم وتطهيره للهيكل في بداية الخدمة مربوطة باستعلان ذاته وبداية عمل رسالته للتطهير والإصلاح. فظهر بصورة مسيَّا التطهير، السيد الذي جاء إلى هيكله فجأة.

ولقد أراحت الكنائس التقليدية نفسها وقبلت بالزيارتين، إلا أن الكنيسة الكاثوليكية اقتنعت أخيراً أنها زيارة واحدة ولكن لم تحددها. (١١)

[11] Schnackenburg, *op. cit.*, p. 354.

«ووجد في الهيكل الذين كانوا يبيعون بقراً وغنماً وحماماً والصيارف جلوساً»:

الهيكل: ἱερῷ

يلزم للقارىء أن يفرق بين الهيكل، ككل، الذي يأتي في اليوناني باسم (Hieron) ἱερόν وهو يحتوي على الأروقة، وأولها ناحية الخارج هو رواق الأمم، وله حاجز يمنع الدخول إلى الداخل ومكتوب عليه بكل اللغات تحذير بالموت للمخالف! أما الجزء الداخلي المخصص للعبادة والصلاة فيسمى ناووس (Naos) ναός. ولكن للأسف يأتي الاسمان في اللغة العربية باسم «الهيكل»، وهذا يهين التعبير اللاهوتي أن جسد المسيح هو الهيكل الحقيقي المخصص للعبادة كما سيجيء في الآية (٢٣) بعد ذلك. لأن الهيكل (المقدس) ναός الداخلي هو الذي قيل عنه أنه هو الذي يمثل جسد الرب، وبالتالي كياننا نحن في المسيح.

وهكذا يلاحظ القارىء أن المسيح في الآية (١٣) يدخل الهيكل ἱερόν ويطرد الباعة، وفي الآية (٢٣) يقول انقضوا هذا الهيكل ναός. ولأن الفارق بينهما كبير للذي يتحسس المعاني ويتعمقها، نقدم للقارىء أيضاً المواضع التي أتت فيها كلمة **«هيكل» بمعنى «الأروقة»**، والمواضع التي جاءت فيها كلمة **«هيكل» بمعنى «القُدس المقدَّس»** ليتذوق الفارق بينهما في مواضعه:

	«الهيكل» بمعنى «الأروقة» ἱερόν		**«الهيكل» بمعنى «القُدس» ναός**
مت٤: ١	«ثم أخذه إبليس وأوقفه على جناح **الهيكل**».	مت٢٣: ١٦و١٧	«مَنْ حلف **بالهيكل** فليس بشيء... **الهيكل** الذي يقدس الذهب».
مت١٢: ٦	«ولكن أقول لكم إن ههنا أعظم من **الهيكل**».	مت٢٣: ٣٥	«دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين **الهيكل** والمذبح».
مت٢٤: ١	«ثم خرج يسوع ومضى من **الهيكل**».	مت٢٧: ٥	«فطرح الفضة في **الهيكل** وانصرف وخنق نفسه».
لو٢: ٣٧	«وهي أرملة لا تفارق **الهيكل**». (واضح أنها في رواق النساء).		(لاحظ أن يهوذا دخل إلى الكهنة في مكان خدمتهم داخل القدس وهذه بحد ذاتها مصيبة إذ تكشف نوع العلاقة المشبوهة بينه وبين رئيس الكهنة).
لو٢: ٤٦	«وجداه (يسوع) في **الهيكل** وسط المعلمين». (واضح أنه رواق سليمان).		
يو١٠: ٢٣	«وكان يسوع يتمشى في **الهيكل** في رواق سليمان فاحتاط به اليهود».	مت٢٧: ٥١	«وإذا حجاب **الهيكل** قد انشق».

وبهذا نكون قد وصلنا إلى معنى الهيكل الذي دخله يسوع حيث وجد الذين يبيعون ويشترون الذبائح وذلك في رواق الأمم.

ولأول وهلة يتبادر إلى الذهن: ماذا أزعج المسيح من هذا المنظر؟ واضح أن الرواق رواق الأمم الذين يأتون من مشارق الأرض ومغاربها: «بيتي بيت الصلاة يُدْعَى **لكل الشعوب**» (إش٥٦:٧)، لينظروا هيكل يهوه إله اليهود، وربما ليتعلموا شيئاً عن هذه العبادة المقدسة التي ذاع صيتها في العالم كله. ولكن هذا السوق التجاري المكتظ بالحيوانات وروثها وروائحها لم يجعل للهيكل هيبته ولا مكاناً للداخلين من الأمم؛ علماً بأن رسالة المسيح هي للأمم بالدرجة الأُولى ولكن عبر اليهود. وهذه السوق التجارية الضخمة هي التي سمح بها قيافا رئيس الكهنة الرسمي، ولكن كانت تُدار لحساب بيت حنان رئيس الكهنة المخلوع. (١٢)

«ووجد الذين يبيعون بقراً وغنماً وحماماً والصيارف جلوساً»:

هذه هي الذبائح الكبرى والصغرى في الناموس، كل مجموعة على حدة، مع بائعيها المحترفين وهي مخصصة للبيع بالنسبة للغرباء الذين يأتون من خارج البلاد وليست لهم دراية بالأسواق الخارجية. فهذه السوق تضمن لهم ذبائح بلا لوم على أن يدفعوا **مزيداً** من الثمن. ولكن هذه كلها في عُرْف الناموس نجاسات لا تقبلها الشريعة ومُحرَّم وجودها في بيت الله.

أما الصيارف = κερματιστής فقد أتت في هذه الآية بهذا الاسم لتفيد الصيارف الذين يستبدلون المبالغ الكبيرة بالمبالغ الصغيرة، ولكن في الآية القادمة (١٥) أتت كلمة «الصيارف» بمدلول يوناني آخر κολλυβιστῶν وهي تفيد الصيارف الذين يغيِّرون العملة الأجنبية بعملة الهيكل. لأنه كان ممنوعاً التداول بأي عملة عليها صورة قيصر أو أية إشارة تفيد الآلهة الأجنبية وهي عملة جميع البلاد. بالإضافة إلى أن تغيير العملة يكون نظير فرق، كذلك فإنهم يقتطعون من المبالغ «النصف شيكل» وهي ضريبة كل يهودي من خارج البلاد نظير دخوله الهيكل.

---

(١٢) «حنان» هو رئيس لكهنة اليهود من سنة ٦ بعد الميلاد إلى ١٥ بعد الميلاد. وفي آخر سنة له عزله الوالي الروماني فاليروس جراتس وخلفه نسيبه المدعو قيافا (زوج ابنته). ولكن حنان ظل يمارس سلطته بجبروت طاغ، وهو الذي حاكم المسيح أولاً وحاكم الرسل بعد ذلك (أع٤:٦). Westcott, see note on Mark xi.16

٢: ١٥و١٦ **«فصنع سوطاً من حبال وطرد الجميع من الهيكل الغنم والبقر وكبَّ دراهمَ الصيارف وقلَّب موائدهم وقال لباعة الحمام ارفعوا هذه من ههنا. لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة».**

«اسمعوا كلام الرب يا قضاة سدوم. أصغوا إلى شريعة إلهنا يا شعب عمورة. لماذا لي كثرة ذبائحكم يقول الرب. اتَّخمْتُ من محرقاتِ كِباش وشحم مسمَّنات و بدم عجول وخرفان وتيوس ما أُسَرُّ. حينما تأتون لتظهروا أمامي، مَنْ طلَب هذا من أيديكم أن تدوسوا دوري؟ ... البخور هو مكرهة لي. رأس الشهر والسبت ونداء المحفل. لست أطيق الإثم والاعتكاف. رؤوس شهوركم وأعيادكم بَغَضَتْها نفسي، صارت عليَّ ثِقلاً، مَلِلْتُ حَمْلها. فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم، وإن كثَّرتم الصلاة لا أسمع. أيديكم ملآنة دماً. اغتسلوا، تنقُّوا، اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني، كُفُّوا عن فعل الشر. تعلموا فعل الخير، اطلبوا الحق، انصفوا المظلوم، اقضوا لليتيم، حاموا عن الأرملة.»

(إش ١: ١٠—١٧)

يُعتبر عمل المسيح هنا أول حركة تطهير يقوم بها. وصدق هنا قول بطرس الرسول الذي نقله عن الأنبياء: «لأنه الوقت لابتداء القضاء من بيت الله.» (١بط ٤: ١٧)

وهنا لفتة طقسية وروحية عالية القدر لا نريد أن نفوتها، لأن هذا الوقت الذي فيه دخل المسيح الهيكل للتطهير هو عشية الفصح، بداية رفع الخمير من البيوت، رمز بداية حياة طاهرة جديدة لسنة جديدة، وللتعييد سبعة أيام عيد الفطير. فالمسيح أراد، إنما من روح المناسبة وضرورتها، أن يُعيد للأمة طهارتها ونقاوتها، أو بالحري أراد أن يدقَّ ساعة التجديد عالياً لبداية أزمنة تجديد العالم كله.

لم يكن سوطاً بالمعنى الصحيح، وإنما مجموعة من حبال ملفوفة أخذها من أيدي تجار البهائم. لها شكل وليس لها فعل، فهي رمز السلطان وليس لتأديب الأشرار. و يلاحظ أنه كان للمسيح هيئة مخيفة ومرعبة، أليس هو المسيَّا كما جاء عند صلبه: «فقال لهم إني **أنا هو**، فرجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض» (يو١٨: ٦)؟! مع أنهم كانوا جنوداً رومانيين قلبُهم كقلب أسد، مع خُدَّام رؤساء الكهنة.

ولك، أيها القارىء، أن تتصور مدى الرعبة والإنزعاج اللذين حلاَّ بكل أصحاب هذا السوق ومدى إذعانهم لصورة العنف الزائد هنا، وهذا يتضمن أيضاً إحساس الجميع بالخطأ المريع والخطية التي كانوا يقترفونها في حق بيت الله. وكان المنظر والعمل ليس مجرد تطهير وحسب بل إعلان ظهور المسيَّا لذوي العيون المفتوحة!

والذي يلفت نظر قارىء إنجيل يوحنا هو أنه طرد الغنم والبقر جميعاً، فالمعنى الصارخ أنه قد انقضى عهد الذبائح، والهيكل بدون الذبائح لا وجود له بحسب الطقس لأنه فرائض إجبارية على الكهنة وعلى الشعب أيضاً، إذ منصوص في الناموس أن لا تتراءى أمام الله ويدك فارغة! «لا يظهروا أمامي فارغين» (خر٢٣: ١٥)؛ «ثلاث مرات في السنة يحضر جميع ذكورك أمام الرب إلهك في المكان الذي يختاره في عيد الفطير وعيد الأسابيع وعيد المظال ولا يحضروا أمام الرب فارغين» (تث١٦: ١٦). وبهذا يكون المسيح قد أفرغ الهيكل من مضمونه كهيكل ذبائح وعطايا:

— «يا امرأة صدقيني إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل (جرزيم) ولا في أورشليم يسجدون للآب.» (يو٤: ٢١)

وواضح من كلام الرب بعد ذلك أنه استعاض عن كل الذبائح وما إليها «بالصلاة»: «بيتي بيت الصلاة يُدْعَى».

والذي يلفت النظر الترتيب العكسي للذبائح الذي أورده ق. يوحنا هنا، حيث ذكر الغنم قبل البقر «**الغنم والبقر ثم الحمام**»، وكلمة «**جميعاً**». هذا الترتيب يسترجع إلى الذهن في الحال المزمور ٨: ٧: «الغنم والبقر جميعاً وطيور السماء». هذا المزمور ماسيَّاني بالدرجة الأُولى فهو مختص بـ«**ابن الإنسان**»، الذي أنقصه قليلاً عن الملائكة (طبعاً بسبب الموت) «وبمجد وبهاءٍ كلَّلته» بسبب القيامة. وهو نفس المزمور الذي تكلم عنه إنجيل متى على لسان المسيح قائلاً: «أما قرأتم قط من أفواه الأطفال والرُّضَّع هيأت تسبيحاً» (مت٢١: ١٦، مز٨: ٢)، الأمر الذي حدث في نفس الهيكل: «والأولاد يصرخون في الهيكل ويقولون أوصنَّا لابن داود.» (مت٢١: ١٥)

كما ينبغي أن نلفت النظر إلى أن هذه السوق التجارية المليئة بالأوزار كان مقرها في رواق الأمم حيث يمكن الدخول لبائعي الحيوانات والمتعهدين بأكلها وشربها، وهم غالباً من طبقة الفلسطينيين الوطنيين أي الكنعانيين أصلاً الذين أُعطي لهم أن يمارسوا الأعمال التي تُحسَب أنها نجسة عند اليهود. وهنا تظهر نبوة زكريا النبي واضحة:

«وفي ذلك اليوم لا يكون بعد كَنْعانيٌّ في بيت رب الجنود.» (زك١٤: ٢١)

ومعروف أن الكنعانيين كانوا تجار غش: «الكنعاني في يده موازين الغش.» (هو١٢: ٧)

وهكذا تكون قد كملت الصورة التي رآها إرميا النبي من وراء الدهور ووصفها وصف رؤية العين:

— «هل صار هذا البيت الذي دُعِيَ باسمي عليه مغارة لصوص في أعينكم؟ هأنذا أيضاً قد رأيت يقول الرب.» (إر٧: ١١)

وهي النبوة التي أخذت بها الأناجيل: مت٢١: ١٣ ومر١١: ١٧ ولو١٩: ٤٦، ونقلت النبوة على لسان المسيح. أما في إنجيل يوحنا فقد اقتصر كلام الرب على قوله: «**لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة**».

بيت تجارة: οἶκον ἐμπορίου

يقابلها في اللاتيني **negotiationis** وتعني مكان حركة مقايضات وهكذا صار الهيكل ليس هيكل الله بل احتله أصحاب المهن والمصالح الخاصة وفقد هدوء الصلاة.

وقد قالها المسيح في بكور حياته: «ينبغي أن أكون فيما لأبي» (لو٢: ٤٩)، حينما مكث في الهيكل مع المعلمين. أما الإشارة إلى أن «بيت أبي بيت الصلاة يدعى»، فهي مأخوذة من إشعياء النبي كواقع الحال على أحسن حال:

— «آتي بهم إلى جبل قدسي وأُفرِّحهم في بيت صلاتي وتكون محرقاتهم وذبائحهم مقبولة على مذبحي لأن بيتي بيت الصلاة يُدْعَى لكل الشعوب.» (إش٥٦: ٧)

وهي طرف النبوة التي جاءت على لسان المسيح في لو١٩: ٤٦.

ولكن لغة المسيح انقلبت على هؤلاء المخالفين المتشبثين بخُلفِهم، فبدل «بيتي» و«بيت أبي» و«بيت الصلاة» قال لهم أخيراً وعلى هذا الهيكل والبيت عينه: «هوذا **بيتكم** يترك لكم خراباً» !! (مت٢٣: ٣٨)

هنا يكون المسيح قد أجرى عملاً نبوياً وماسيَّانياً بالدرجة الأُولى تشهد له كل هذه النبوات التي قيلت، والقصد الأساسي أن يعلن المسيح نفسه لهم أنه هو «السيد الذي تطلبونه» وأنه هو هو «ملاك العهد الجديد الذي يُسَرُّون به». وهنا تجيء كلمة «ملاك» في النبوة بالنسبة للعهد الجديد في توازٍ مع العهد الأول الذي استلموه بيد ملاك حسب تقليدهم: «أنتم الذين أخذتم الناموس بترتيب ملائكة ولم تحفظوه» (أع٧: ٥٣)، وأيضاً: «لأنه إن كانت الكلمة (التوراة) التي تكلم

بها ملائكة قد صارت ثابتة وكل تعدٍّ ومعصية نال مجازاة عادلة فكيف ننجو نحن إن أهملنا خلاصاً هذا مقداره **قد ابتدأ الرب بالتكلُّم به.**» (عب٢: ٢و٣)

ولكن كان نصيب عمله في الهيكل مثل كل آية عملها وكل تعليم، حيث كان يقابله البعض من الخاصة بالفرح والإيمان، و يبنون عليه ما قيل من الأنبياء فيتثبت أكثر، والبعض الآخر يقابله بالصدّ والمصادرة وطلب المزيد من البرهان. وسوف نرى أنه بسبب هذا العمل الذي عمله المسيح في الهيكل بدأت عمليات التربُّص بالمسيح لقتله، لأن رؤساء الكهنة رأوا في ذلك خطراً داهماً على مجال رزقهم.

١٧:٢ **«فتذكَّر تلاميذه أنه مكتوب غيرة بيتك أكلتني».**

هذا هو الإيمان، إيمان التلاميذ المقابل لعدم إيمان اليهود. طبعاً تذكُّر التلاميذ هنا يعود إلى ما بعد القيامة، والذي يؤكد هذا المعنى الآية التي ستجيء بعدها (٢٢). وماذا تذكَّر التلاميذ؟ تذكروا كلام الأنبياء لما تحققوا أن المسيح هو حقاً الذي تكلم عنه الأنبياء. والإشارة هنا إلى المزمور ٦٩: ٩، وهو مزمور مليء بالتنبوات عن آلام المسيح خطوة خطوة، وهو الذي تستخدمه الكنيسة في أسبوع الآلام. ومن قراءة المزمور الذي لمع في ذهن التلاميذ بالروح نعلم أنهم رأوا في المسيح ليس من هو صاحب البيت فقط والذي من أجله يحتمل الهوان بل ومن أجل أمانته للبيت ــ أي للذين يعبدون بالحق ــ «من أجلك احتملت العار... تعييرات معيِّريك وقعت عليَّ» (مز٦٩: ٧و٩)، فإنه يعرِّض نفسه للآلام.

ولا يخلو هذا المزمور من غَمْزٍ ولَمْزٍ إلى عدم نفع الذبائح، فيأتي حبكاً على ما صنعه الرب في هذا اليوم: «أُسبِّح اسم الله بتسبيح وأعظِّمه بحمد، فيُستطاب عند الرب أكثر من ثور بقر ذي قرون وأظلاف.» (مز٦٩: ٣٠و٣١)

وهذا المزمور مليء حقاً بالإشارات النبوية التي تمت بحروفها، فمنه أخذ المسيح قوله: «لكي تتم الكلمة المكتوبة في ناموسهم أنهم **أبغضوني بلا سبب**» (يو١٥: ٢٥). وجاءت في نفس المزمور: «أكثر من شعر رأسي الذين **أبغضوني بلا سبب.**» (مز٦٩: ٤)

كذلك قوله: «**أنا عطشان**»، «وكان إناءٌ موضوعاً مملوًّا خلاً» (يو١٩: ٢٨و٢٩). وجاءت في المزمور: «**وفي عطشي يسقونني خلاً**» (مز٦٩: ٢١)، «يبس حلقي» (مز٦٩: ٣). ولكن كما أن داود صاحب المزمور الذي يئن أنينه النبوي ــ أنهى المزمور بتسبيح اسم الله وتمجيده «يرى ذلك

الودعاء فيفرحون وتحيا قلوبكم يا طالبي الله... تُسبِّحه السموات والأرض والبحار وكل ما يدبُّ فيها...» (مز٦٩: ٣٢و٣٤)، كذلك انتهت آلام المسيح التي احتملها، بسبب غيرته هذه، بتسبيح القيامة.

١٨:٢ «فأجاب اليهود وقالوا له أيَّة آية ترينا حتى تفعل هذا».

هي أولاً محاولة لإظهار أنفسهم أنهم هم أصحاب السلطة ولكن بنوع من الحياء! وثانياً هي نوع من الدفاع عن عدم إيمانهم، لذلك لم يحتج اليهود ولا أصحاب السوق ولا المنتفعون لأن العمل يشهد أنه عمل الله. والخطأ الذي ارتكبوه لا يحتمل الدفاع أو المماحكة. وخِزي حنان في ذلك اليوم كان فوق ما يتصور أحد وكل ما يمكن أن يقوله اللص ــ العظيم في عين نفسه ــ للعسكري الذي قبض عليه وهو متلبس بالجريمة هو أن يطلب من العسكري أن يثبت شخصيته أن له الحق في القبض عليه. ولكن المسيح ليس في موقع الدفاع ولا استجاب لهم بما كانوا يطلبون. بل أنْبأهم، ولكن بأسلوب الأحجية، بالعقاب الحتمي الذي سيقع عليهم نظير عدم قبولهم لدعوته للتطهير، بالإضافة إلى التنكُّر له وهو صاحب البيت. وبلغة الأنبياء في العهد القديم يقول قائل... فماذا يصنع بهم؟ **يأخذ بيته منهم ويهدمه حتى التراب ويقيم لنفسه ما هو أفضل منه ثم يبددهم في أقصى الأرض. ولا يكون هو الذي هدمه عليهم، بل هم الذين هدموه على أنفسهم:**

١٩:٢ «أجاب يسوع وقال لهم انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه».

«هوذا الرجل **الغصن** اسمه (يدعى ناصرياً) ومن مكانه ينبت ويبني هيكل الرب، فهو يبني هيكل الرب وهو يحمل الجلال...» (زك٦: ١٢و١٣)

«انقضوا هذا الهيكل»:

كلمة «ينقض» تجيء في اليوناني λύσατε بمعنى «يَفكُّ» أو «يحل» وتصلح للهدم أو القتل. المسيح يتكلم عن هيكل جسده، وقد ثبت أن هيكل جسده هو الكنيسة وهي نحن أعضاؤه، والكنيسة ــ الشعب الجديد ــ هي التي أخذت موضع الهيكل ــ الشعب اليهودي الرافض للمسيح ــ وورثت كل معانيه الروحية وأهمها وأعظمها وأخطرها وجود الله وحلوله فيها.

المسيح هنا يقول لهم مسبقاً ما هم مزمعون أن يعملوه بالفعل، فهو تحصيل حاصل، اقتلوا أو إذا

قتلتم جسدي سيان، ففي ثلاثة أيام سأقيمه من الموت ليصير هو هيكل الله الذي يجمع أبناء الله من العالم كله، هذه هي معجزتي. المسيح لم يتكلم قط عن هيكلهم بل عن هيكله، الذي سيحل محل هيكلهم الذي سيزول (سيُنقض) عندما يقتلونه (ينقضونه).

ولسان حال المسيح يقول: لحظة أن تقتلوني ستقتلون أنفسكم وتهدمون هيكلكم، أما أنا فسأقوم وأُقيم بجسدي هيكلي جديداً، وأما أنتم وهيكلكم فستزولون.

المسيح هنا يعطيهم آية بالفعل وهي «في ثلاثة أيام أُقيمه» التي وضعها بصيغة أخرى في إنجيل آخر هكذا:

«جيل شرير فاسق يلتمس آية فلا تُعطى له آية إلاَّ آية يونان النبي.» (مت١٦: ٤)

فكما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا سيكون المسيح في باطن الأرض ويقوم بعدها. فما ستهدمونه سأصنع فيه آيتي وأُقيمه في ثلاثة أيام، ولكنكم بذلك ستهدمون أنفسكم وهيكلكم ولن تقوموا.

ولم تمر على رؤساء الكهنة والفريسيين هذه الكلمات دون أن يَعُوا حقيقتها، فهم في النهاية تذكروا كلامه ووضعوا النقط على الحروف، فأدركوا فعلاً أنه قد يقوم في اليوم الثالث: «وفي الغد الذي بعد الاستعداد اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون إلى بيلاطس قائلين يا سيد قد تذكرنا أن ذلك المضل قال وهو حي إني بعد ثلاثة أيام أقوم. **فَمُرْ** بضبط القبر...» (مت٢٧: ٦٢و٦٣و٦٤)

أمر مستحيل أن يقول المسيح إنه يهدم هيكل أورشليم ليبني غيره في ثلاثة أيام كما قدم اليهود اتهامهم في محاكمة يسوع أمام بيلاطس كعلة من علل طلب صلبه. فهو القائل للسامرية: «أنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل **ولا في أورشليم تسجدون للآب.**» (يو٤: ٢٠و٢١)

فالمسيح هنا لا يتحدى اليهود المفتخرين بهيكلهم بل ينذرهم بالخراب الذي سيحيق بهيكلهم بسبب أنهم: **أولاً** لم يقبلوا عمله كمَنْ يطالب بتطهير الهيكل «بيت أبي» فيتعرفوا عليه، **وثانياً** بالنتيجة الحتمية في استمرارهم لرفضه وإنكارهم وعدم إيمانهم به الذي سينتهي بخراب هيكلهم.

«كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها **ولم تريدوا، هوذا بيتكم يترك لكم خراباً.**» (مت٢٣: ٣٧و٣٨؛ انظر مت٢٤: ٢).

ويلزمنا توضيح الأمر لاهوتياً، فالهيكل القديم كانت قوته وقداسته وأهميته في حضور الله فيه. والآن وقد تجسد الكلمة وظهر الله في الجسد وحل فيه ملء اللاهوت صار جسد المسيح هو الهيكل

بالدرجة الأولى أي الهيكل الحقيقي، ولم يعد للهيكل القديم وجود إلا بصفته الظل الوشيك الإختفاء.

فبتجسد الكلمة، أي بميلاد المسيح، بدأ العدُّ التنازلي لانتهاء عصر الهياكل المبنية باليد، أي هياكل الظل، لأن الهيكل القديم كما أراه الله لموسى كان شبه السمويات وظلها، والآن قد جاء رب السموات ونورها. وبدخول المسيح داخل الهيكل ــ لتطهيره ــ كانت الفرصة الوحيدة لليهود، لو كانوا قد قبلوه لأعطى للهيكل القديم معناه الجديد وتقديسه الحقيقي الكامل، أن الله حل في هيكله ــ فلا بأس أن يبقى ــ طالما الله فيه ولكن لما رفضوه أصبح تطهيره فاقد القيمة، وخروج المسيح منه إيذاناً بعدم نفعه، والحكم بقتل المسيح كان بمثابة الحكم بهدم الهيكل، لأن الهيكل القديم بميلاد المسيح أصبح يستمد معناه ووجوده من الهيكل الجديد أي جسد المسيح لأن الله حالٌّ فيه. لهذا قال المسيح في موضع آخر **عن نفسه**: «ولكن أقول لكم إن ههنا أعظم من الهيكل.» (مت١٢: ٦)

وإذا حلَّلنا نفسية رؤساء اليهود هنا على العموم في طلبهم آية من المسيح حتى يؤمنوا برسالته وسلطانه أنه من الله، لوجدنا أن هذه هي في الحقيقة حال كل نفس لا تريد أن تجازف بمركزها وسلطانها وراحتها؛ فهي تطلب آية ومزيداً من الآية لتتخطى خوفها وعجزها وقصورها عن المجازفة؛ ولكن الإيمان مجازفة بالدرجة الأُولى. لذلك فالإيمان صعب جداً على الرؤساء والعظماء وذوي العيش الرغد الهانيء.

أما لنا نحن فهذا أيضاً حادث، فالمسيح لا يعطي آية ولا علامة ولا كلمة واحدة لكي تبدأ **عملاً إيمانياً** لأن هذا سيحرمك من مجازفة الإيمان التي هي عضده وقوته. أو كيف ولماذا يعطي الله الأكاليل لأصحاب الإيمان؟

٢ : ٢٠ **«فقال اليهود في ستٍ وأربعينَ سنة بُني هذا الهيكل ναόν أفأنت في ثلاثة أيام تقيمه».**

لقد بُدِيء في بناء الهيكل في خريف سنة ٢٠ق.م. على يد هيرودس الكبير، في السنة الثامنة عشرة من ولايته واكتمل بناؤه سنة ٦٤ ميلادية على يد هيرودس أغريباس الثاني بحسب يوسيفوس المؤرخ اليهودي.(١٣)

[13] Jos. (B.J.), 1.21 (16).1 = Ant. XV.11 (14.1).

أما رقم الستة والأربعون سنة فهي في زمان زيارة المسيح للهيكل. وذلك في ربيع سنة ٢٧م احتمالاً! واليهود هنا وهم محصورون في أفكارهم التي تدور بين الحرف والرقم لم يستطيعوا أن يدركوا مضمون الآية التي قدمها لهم أن في ثلاثة أيام **يقيمه** ἐγερεῖς وليس يبنيه. والعجيب أنهم يكررون نفس لفظة «**يقيمه**» التي قالها المسيح دون أن يتمعّنوا مقصدها. لأن المسيح لم يقصد أن الهيكل من حيث العبادة وسكنى الله يمكن أن يُنْقَضَ، وإنما سينفكُّ و ينحلُّ ليخرج منه هيكل العبادة الجديدة: الكنيسة، بنوع من التجلي والقيامة. حيث الحرف يصير روحاً والحجارة المنحوتة بالأزميل تصير حجارة حية منحوتة بالروح القدس. وغسل التطهير يصير غسل الميلاد والخلقة الجديدة. ودم الذبائح يصير دم المسيح بروح أزلي.

٢ : ٢١ **«أما هو فكان يقول عن هيكل جسده».**

لم تكن هذه الشهادة وليدة ساعتها ولكن ق. يوحنا في الآية القادمة (٢٢) يوضح أن هذه هي حصيلة القيامة والإستضاءة الروحية التي نالوها بالروح القدس التي انعكست قليلاً قليلاً على جميع حياته وأقواله السابقة له، فتحققوها على الواقع وعلى النبوات. لأن في هذه الآية وحدها يكمن كل تعاليم المسيح، فهي قلب اللاهوت المسيحي النابض. فجسد المسيح في اللاهوت المسيحي يمتد ليشمل شخصه ككل كما جاء في الأصحاح الأول، والكلمة **صار جسداً**.

+ والجسد هو ملء الروح القدس وملء اللاهوت وكل كنوز الحكمة والمعرفة.
+ الآب الحال فيَّ يعمل الأعمال والأقوال والمشيئة.
+ والجسد هو فصح العالم والذبيحة التي رفعت خطية العالم، فهو حمل الله.
+ وهو خبز الحياة النازل من السماء ليأكل منه الإنسان ولا يموت، و يقوم في اليوم الأخير، فهو المأكل الحق والمشرب الحق.
+ وهو المؤمنون مجتمعين، وهو رأس الكنيسة، والكرمة الحقيقية، والمؤمنون كأغصان مثمرة.
+ وهو أورشليم الجديدة المزيّنة، وهيكل الله الجديد!!

والبديع في قول ق. يوحنا هنا أنه ينقل لنا صورة حية لذكرياته وما سجلته أذناه وقلبه الذي كان يختزن الكلام والمعرفة التي كانت تنمو على مستوى نفس الدرجات التي سجلها لنا في إنجيله آية وراء آية وأصحاحاً وراء أصحاح، إلى أن أشرق عليها روح القيامة فأخذت الآيات والأصحاحات وضوحها الإلهي وعمقها الروحي ونورها النفاذ و برهانها الساطع وقوتها للبشارة.

ولكن بقيت بعض أقوال المسيح مدة طويلة وهي لا تزال تحت التحقيق أثناء حياة التلاميذ أنفسهم مثل سقوط أورشليم بالحرب التي دارت حولها حسب قول الرب وخراب الهيكل، فهذه تمت سنة ٧٠م أي بعد قيامته بحوالي أربعين سنة. بل ولا تزال حتى يومنا هذا بعض أقوال المسيح تمر تحت التنفيذ وتنتظر استعلانها.

٢ : ٢٢ «فلما قام من الأموات تذكر تلاميذه أنه قال هذا فآمنوا بالكتاب والكلام الذي قاله يسوع».

سيان أن يُقال «قام من الأموات» حيث يكون هو الذي قام أو أُقيم من الأموات بواسطة الله.

١ ــ المواضع التي ذكر فيها أنه قام من الأموات تعبيراً عن استعلان قوته للقيامة والإقامة من الموت هي:

مرقس ٨ : ٣١: «إن ابن الإنسان ينبغي أن يتألم كثيراً و يرفض من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة و يُقتل و بعد ثلاثة أيام يقوم» μετὰ τρεῖς ἡμέρας ἀναστῆναι ، مرقس ٩ : ٩، لوقا ٢٤ : ٧.

٢ ــ أما المواضع التي ذُكر فيها أن الله أقامه من الأموات تعبيراً عن الموت وكأنه رقاد والله أيقظه:

أع ٣ : ١٥: «ورئيس الحياة قتلتموه، الذي أقامه الله من الأموات»

ὁ θεὸς ἤγειρεν ἐκ νεκρῶν ؛ (٤ : ١٠؛ ٥ : ٣٠؛ ١٠ : ٤٠؛ ١٣ : ٣٠و٣٧، رو٤ : ٢٤؛ ٨ : ١١؛ ١٠ : ٩، ١كو١٥ : ١٥... إلخ).

«تذكَّر تلاميذه... فآمنوا بالكتاب والكلام الذي قاله»:

هذا يوضح مدى قوة الاستعلان الذي حدث للتلاميذ بعد القيامة حيث تكشفت أمامهم جميع أقوال الرب حتى الكلمات ومعانيها بصورة جزئية مضيئة قبل أن يدونوها، ولكن الاستعلان امتد وشمل ما جاء في الأسفار جميعاً والنبوات خاصة بالنسبة لكل كلمة وكل موقف، مما جعلهم يزدادون في الإيمان بالاثنين أي بالأسفار وبالكلمات التي قالها المسيح. لأنك لا تتصور، يا قارئي العزيز، مدى الانبهار الذهني والروحي الذي يتغلغل أعماق الإنسان عندما يطابق قولاً من أقوال المسيح أو عملاً من أعماله على نبوة سبق وأن صاغت نفس الكلام أو العمل بنفس وصفه وظروفه،

لأن النبوة إلهام ونطق بالروح، وكلام المسيح روح وحياة، فعندما ينطبق الإلهام على الروح تنشأ قوة مؤثرة للتصديق بوعي إيماني لا يفارق الإنسان. فتبدو النبوة باهرة منيرة و يبدو كلام المسيح نوراً ورسالةً وحقاً.

نحن لا ننسى قول الكتاب عن المسيح بعد القيامة كيف اجتمع مع تلاميذه وفتح ذهنهم ليفهموا الكتب:

ـــ «هذا هو الكلام الذي كلمتُكم به وأنا بعد معكم، أنه لا بد أن يتم جميع ما هو مكتوب عني في ناموس موسى والأنبياء والمزامير. حينئذ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب.» (لو٢٤: ٤٤و٤٥)

هذه هي قوة الاستعلان أساس تدوين الأناجيل، وهذه هي القوة التي انطلق بها التلاميذ إلى كل أنحاء العالم ليكرزوا ببشارة الملكوت مدعمين أقوالهم بالأسفار وبمنطق لا يُعانَد. ولم تعدم الكنيسة في كل جيلٍ مَنْ يهبهم الله هذه القوة التي ظهرت على أشدها في عصر النهضات والإرساليات التي بلغت أقصى المسكونة. وكم نحن الآن في أشد العوز لهذه القوة.



وقفة قصيرة في نهاية تطهير الهيكل

ليس جزافاً أن يقدم لنا ق. يوحنا حادثة تطهير الهيكل في بداية خدمة المسيح العلنية وفي أورشليم وفي الهيكل بالذات. فهي الأساس الذي جاء المسيح ليبني عليه العهد الجديد عهد الخلاص والتجديد للإنسان القائم على سر الموت والحياة: «انقضوا هذا الهيكل، وفي ثلاثة أيام أقيمه». هذا الموت وهذه القيامة تممها المسيح، ولكن باشتراك اليهود الفعلي في عملية الموت أي القتل «انقضوا». هذه الجريمة التي اقترفوها لم تكن وليدة الساعة أبداً، بل هي حصيلة ونتيجة حتمية لحياة طويلة ممتدة لهؤلاء الرؤساء وهذا الشعب في عصيان الله والتعدي على كل وصاياه وتعاليمه. ولو جمعنا الآيات التي تصف هذا العصيان والتمرد على الله لخرج كتاب بحجم الأسفار والنبوات إلاَّ قليلاً!

وليست هي مجرد جهالة عابرة بل متعمَّدة، إذ ترك المعلمون والربيُّون وكل طبقات ذوي المعرفة والدراسة والكتابة للتوراة ــ تركوا التمسك بكلمات الله المنيرة وأهملوا الأعمال التي هي من صميم عمل الروح التي رُمز لها «**بختان القلب**»؛ كما قالها موسى النبي؛ وهو تعبير عن ختم الروح القدس «**روحك القدوس لا تنزعه مني**»، «**وقلباً جديداً اخلقه فيَّ**»، «**وغسيل الروح**»، «**اغسلني كثيراً**»، «**ومن خطيتي تطهرني**»، «**نقِّ قلبي وكليتيَّ**»؛ وغيرها مئات وألوف من أعمال الروح القادرة فعلاً أن تجدد الشعب وتجعل معلميه على أعلى درجة من الإستنارة فلا يتعثرون في معرفة ما؛ أقول تركوا منهج الروح والحق والتجديد والإلتصاق بالله، وتمسكوا بالذبائح يبيعونها للشعب بالحرام و يقدمونها لله كعملية استرضاء تماماً على مستوى الأصنام.

فالمسيح هنا وفي هيكل قدسه يعرض عليهم في هذا اليوم إما تطهيراً وإما هدماً. والعجيب أن في الاثنين ــ أي في التطهير وفي الهدم ــ يتلقى جسده الثمن، ففي التطهير يحمل في جسده كل خطاياهم، وفي الهدم يسلمه للموت. ولكنهم رفضوا التطهير وقبلوا بالقتل!

٢ : ٢٣ «ولما كان في أورشليم في عيد الفصح آمن كثيرون باسمه إذ رأوا الآيات التي صنع».

كان هذا هو أول عيد للفصح يحضره المسيح في أورشليم. والعمل الكبير الذي عمله عشية العيد بتطهير الهيكل لفت إليه الأنظار، وصار اسم المسيًا على كل لسان. ووقوف رؤساء الكهنة حيارى إزاء العمل الذي عمله في الهيكل دون قبول أو رفض جعل المعيِّدين من كافة الطبقات تتهافت على رؤياه وسماعه. وكانت الفرصة مواتية لعمل معجزات كثيرة أبهرت الرائين وجعلتهم دون تعمق أو تحقق يؤمنون باسم المسيًا الآتي دون أن يتعرفوا على شخص المسيح الذي هو أكثر من مسيًا، لذلك كان إيمانهم بالاسم دون الشخص. كان هذا الإيمان في عُرف المسيح «إيمان الآيات»، وهو تقريباً مرفوض لأنه كما سبق وقاله في مثل آخر: «والمزروع على الأماكن المحجرة (قلوب ناشفة) هو الذي يسمع الكلمة **وحالاً يقبلها بفرح**، ولكن ليس له أصل في ذاته بل هو إلى حين، فإذا حدث ضيق أو اضطهاد من أجل الكلمة فحالاً يعثر.» (مت١٣: ٢٠و٢١)

ويلاحظ القارىء أن ق. يوحنا هنا مهتم بتقديم عيِّنات من الأعمال التجديدية، وليس بصدد ذكر آيات ومعجزات إلاَّ بقدر ما هي عمل تجديدي من القديم إلى الجديد، كما رأيناه في عرس قانا الجليل وفي الهيكل. وهو يمهد هنا للدخول في حوار خطير مع معلم كبير من معلمي إسرائيل بهذا الصدد. هو الآخر رأى الآيات في العيد وتحقق منها وكان يبدو عليه أنه مال ناحية الإيمان بالمسيح ولكن معرفته حجزته عن الحق!!

٢ : ٢٤ «لكن يسوع لم يأتمنهم على نفسه لأنه كان يعرف الجميع، ولأنه لم يكن محتاجاً أن يشهد أحد عن الإنسان، لأنه علم ما كان في الإنسان».

كثيرون بالطبع تحمسوا حماساً منقطع النظير، وأرادوا أن يرفعوه إلى المستوى الذي وقف عنده تفكيرهم كنبي أو زعيم! وحتى كمسيًا. ولكن المسيح كان يرى أنهم يريدون أن يعملوا شيئاً لأنفسهم هم، أو بالحري أن يعملوا لأنفسهم شيئاً على حسابه، فلم تفُتْ على المسيح نياتهم فلم يأتمنهم على نفسه، وغاب عنهم بالطريقة التي اعتادها.

كثيرون تباروا لكي يقنعوه بصدق نياتهم، وكثيرون شهدوا لكثيرين أنهم صادقون في حماسهم ولكنه لم يكن محتاجاً أن يشهد له أحد عن الإنسان، وما كان في الإنسان، «... فاحص القلوب والكُلَى الله البار...» (مز٧: ٩). «فستعرف جميع الكنائس أني أنا هو الفاحص الكُلَى والقلوب وسأعطي كل واحد منكم بحسب أعماله.» (رؤ٢: ٢٣)

الأصحاح الثالث

الأصحاح الثالث

مكان البشارة

لا زلنا في الجليل

(تابع «إنجيل التجديد»)

٣ ــ مع نيقوديموس ليلاً (*)
(٣ : ١ ــ ٢١)

هذا هو الحديث الأول للمسيح من أحد عشر حديثاً سجلها ق. يوحنا في إنجيله، جاءت معظمها موجهة إلى الرؤساء.

من الأصحاح الثاني خرجنا بحصيلة كبيرة، فمن تطهير الهيكل انتهينا إلى أن المسيح عرض عليهم مضمون رسالته: التطهير أو الهدم (سر الموت والقيامة)، فرفضوا التطهير وقبلوا بالقتل.

وهنا ندخل إلى الأصحاح الثالث لنتواجه مع واحد من أكبر معلمي إسرائيل، والمسيح يشرح له على مستوى الفعل والعمل نفس السر = سر التجديد بالهدم والبناء ــ الذي أعلن عنه في الهيكل ــ بالنسبة للأمة كلها. ولكن ــ هنا ــ في مضمون تجديد الفرد هدم العتيق وميلاد الجديد للدخول في هيكل الله الجديد، **ملكوت الله**.

وعلى وجه الملاحظة، نرى أن من هنا يبدأ إنجيل يوحنا مسيرته بالتوازي مع الأناجيل الأخرى التي تبدأ بالمناداة بملكوت السموات، ولكن على مستوى التوبة: «من ذلك الزمن ابتدأ يسوع يكرز ويقول **توبوا** لأنه قد اقترب **ملكوت السموات**» (مت ٤ : ١٧). ولكن هناك «**ملكوت السموات**» وهنا «**ملكوت الله**»، وسيان.

والتوبة كما جاءت في الأناجيل الثلاثة الأُولى التي تُدعى باليونانية «ميطانيا»، التي تفسيرها «تغيير» أو «تجديد الذهن»: « μετανοεῖτε توبوا» ــ هي في إنجيل يوحنا موت وقيامة في مضمون سر «الميلاد الثاني»، وهي «المعمودية بالماء والروح القدس»، حيث في الماء يكون الدفن أو سر الموت، وبالروح تكون القيامة لحياة جديدة. والمعمودية هي درجة متقدمة على

(*) يُقرأ هذا الفصل (يو٣: ١ ــ ١٣) في قداس الجمعة السادسة من الصوم الكبير وهي التي تسبق مباشرة «أحد التناصير» أي أحد المعمودية، وذلك بسبب ما جاء فيه عن «الميلاد من الماء والروح».

التوبة: «توبوا **وليعتمد** كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا **فتقبلوا عطية الروح القدس**» (أع٢: ٣٨). التوبة رنينها في النفس سهل، مجرد تغيير فكر وأسلوب وحياة، صحيح هي تحتاج إلى حزم وحسم وتصميم ومثابرة، ولكن المعمودية خطرة، تتطلب الموت عن حياة قديمة كشرط أساسي لقبول حياة جديدة مُعَانة بالروح القدس. هي حقاً و بالحقيقة هدمٌ و بناءٌ، والهدم صعب للغاية!!!

هنا يصطدم نيقوديموس بحقيقة المسيحية، **فيجفل** و يصمت، و يظل يتحايل على نفسه ثلاث سنوات حتى غلبها وقَبِل بالهدم، فكان الموت وكانت القيامة له وعلى يديه!

نيقوديموس يمثل في إنجيل يوحنا شخصية فريدة وممتازة، فهو قمة النخبة المختارة من إسرائيل التوراة والناموس والتلمود والمِشْنَاه وكل علوم الفريسيين بفروعها، الذي جاء إلى المسيح يحمل معه رجاء الأمة اليهودية، وقلق ذوي الحساسية منها الذين يترجون إصلاحاً على مستوى الإمتداد دون أي مساس بالقديم. كان يرى في المسيح «رابي» أي معلم يهودي محترف الناموس والتوراة. صحيح أنه كان من ضمن الكثيرين الذين آمنوا باسم المسيح الذين ذكرهم ق. يوحنا: «ولما كان في أورشليم في عيد الفصح آمن كثيرون باسمه **إذ رأوا الآيات التي صنع**» (يو٢: ٢٤). وهذا واضح من قول نيقوديموس في افتتاح حديثه مع المسيح «يا معلم (رابي)، نعلم أنك قد أتيت من الله معلماً لأن ليس أحد يقدر **أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل** إن لم يكن الله معه.» (يو٣: ٢)

ولكنه جاء بعقلية ومؤهلات فريسي لا يؤمن بالتجديد، ولكن يؤمن بالقداسة التي يحصل عليها الإنسان بالممارسة قليلاً قليلاً، يكون الإنسان فيها صاحب الجهد والمبادرة، وأما الله فيرى ويجازي بالمكافأة.

و يقول المؤرخ اليهودي يوسيفوس:

[إن المنهج الفريسي يعلِّم أن الإنسان في مقدوره أن يعمل البر أو لا يعمله، وإن إرادة الإنسان مسئولة عن صنع الحق أو الباطل ــ وهم يُغلِّفون أنفسهم بقداسة كلها من صُنع أنفسهم.](١)

من هذا نحن نستطيع أن نستشف ماذا كان يرجو نيقوديموس أن يسمعه من «رابي» يسوع

---

1 Hengstenberg, Vol. I, p. 156.

المسيح!! فبحسب منهجه الفريسي كان ينتظر أن يتعلم من المسيح ممارسات فائقة على ما تعلمه، يستطيع أن ينمي بها مواهبه و يزداد في برّه الشخصي وقداسته، و بذلك يكون مستحقاً أن يكون مواطناً لملكوت السموات التي سمع عنها من فم الرب. وقولنا هذا ليس جزافاً، فالمعروف لدى الفريسيين المدققين **أن المسيَّا حينما يأتي سيكون معلماً للبر:** «هوذا قد جعلتُه **شارعاً** للشعوب، رئيساً **وموصياً** للشعوب» (إش٥٥: ٤)، بل سؤال الذي ركض وراء يسوع جاثياً يوضح أيضاً ذلك: «أيها المعلم الصالح **ماذا أعمل** لأرث الحياة الأبدية.» (مر١٠: ١٧)

كل هذه الأنظار والمشاعر كانت تجري في مخيلة نيقوديموس وهو يسترق الخُطى ليلاً نحو البيت الذي كان يخلو إليه المسيح بعد عناء النهار الطويل، وهو غالباً البيت الذي تملكه عائلة ق. يوحنا. وقد استقبله المسيح بالترحاب وفتح له قلبه، ولكن المسيح عرف فكر نيقوديموس ــ كما يقول ق. يوحنا عن قصد وقبل أن يدخل في قصة نيقوديموس مباشرة: «لأنه علم ما كان في الإنسان.» (يو٢: ٢٥)

أ ــ الحديث المباشر مع نيقوديموس: (٣: ١ــ١٢)

وتستمر فيه المقابلة بين القديم والجديد على النحو التالي:

القديم: ملكوت الله بالعلم والممارسات، والمفاتيح مع الفريسيين: «أنت معلم إسرائيل ولست تعلم هذا».

الجديد: ملكوت الله بالميلاد الثاني من فوق من الماء والروح.

الاستعلان: «ليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء **ابن الإنسان الذي هو في السماء**».

٣: ١ **«كان إنسانٌ من الفريسيينَ اسمُهُ نيقوديموسُ رئيسٌ لليهودِ».**

هذا الاسم لم يذكره أحد من الإنجيليين.

كان رئيساً لليهود: ἄρχων τῶν Ἰουδαίων

هذا يعني أنه عضو في المجلس الأعلى للأمة، أي السنهدريم. وكذلك جاء في الآية ١٠ أنه: «معلّم إسرائيل»، وهي تقابل «دكتور في القانون» أي في الناموس اليهودي. و باللغة الكنسية عندنا هي «أرخُن»، ولكن الأرخُن عندنا هو للشعب وليس لرجال الدين، وهي مأخوذة أصلاً من النظام الشعبي اليهودي «رؤساء الشعب» ἄρχοντες τοῦ λαοῦ (أع ٤: ٨).

٣ : ٢ «هذا جاء إلى يسوع ليلاً وقال له: يا معلم نعلم أنك أتيت من الله معلّماً، لأنه ليس أحدٌ يقدرُ أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه».

«جاء ليلاً»:

لقد تركت في ذهن ق. يوحنا هذه الزيارة «في ظلام الليل» أثراً لا يمحى، فقد ذكرها له ثلاث مرات في كل مرة يذكر اسمه، وكأنها أصبحت صفة أو لقباً؛ هذا في الحقيقة يكشف عن شعور ق. يوحنا بمدى الحذر أو الخوف الذي اتّصف به نيقوديموس. ففي وسط مجمع السنهدريم تقدم نيقوديموس مدافعاً، ولكن بحذر شديد: «قال لهم نيقوديموس ــ الذي **جاء إليه ليلاً** ــ وهو واحد منهم» (يو٧: ٥٠)، وأيضاً بعد إنزال جسد الرب من على الصليب جاء نيقوديموس بحذر أيضاً، ولكن بالتقابل كان التلاميذ قد تركوا المسيح وهربوا!! «وجاء أيضاً نيقوديموس الذي أتى أولاً إلى يسوع **ليلاً** وهو حاملٌ مزيجَ مُرٍّ وعودٍ نحو مائة منًا» (يو١٩: ٣٩). مع أنه جاء إليه ليلاً أول مرة، جاء وهو مؤمن باسم المسيح أي «المسيَّا»، ولكن دون علاقة شخصية أو إيمان شخصي فهو إيمان بالاسم، وفي المرة الثانية التي دافع فيها عن المسيح داخل السنهدريم دافع بحذر دون إظهار أي تعاطف مع المسيح، وعند أول مواجهة من الزملاء صمت؛ أما في المرة الأخيرة، وقد صار تلميذاً بالفعل للرب، إلا أنه أيضاً جاء مع يوسف الذي من الرامة: «ولكن **خِفْيةً** لسبب **الخوف** من اليهود.» (١٩: ٣٨)

هذا الحذر والخوف يوضح بكل جلاء أن الإيمان بالمسيح لم يبلغ بعد إلى **الإيمان «الحي» بابن الله كمخلّص حقيقي**، حيث يجد الإنسان في المسيح دواءً لجبانة الضمير، الدواء الذي يحوِّله من جبان رعديد كبطرس إلى شجاع صنديد كبطرس أيضاً: «أنا لست أعرف هذا الرجل». هذا الكلام قاله بطرس عن المسيح!!! أمام جارية!!!، «حينئذ امتلأ بطرس من الروح القدس وقال لهم: يا رؤساء الشعب وشيوخ إسرائيل إن كنا نُفحص اليوم عن إحسان إلى إنسان سقيم بماذا شُفي هذا، ليكن معلوماً عند جميعكم وجميع شعب إسرائيل أنه باسم يسوع المسيح الناصري الذي صلبتموه أنتم الذي أقامه الله من الأموات...» (أع٤: ٨ــ١٠). وهذا الكلام قاله أيضاً بطرس بعد أن قبل الإيمان الحي بابن الله!!!

ولكن أسلوب ق. يوحنا يُتعجب له، فهو يقول و يردد القول أنه جاء ليلاً ولا يمكن أن يفرِّط و يقول كلمة واحدة على جُبْن الرجل أو إيمانه، ولكن الذي يعرف أسلوب ق. يوحنا يعرف أنه قال هذا عن الرجل وقال أكثر!! فقوله أنه جاء ليلاً وتكراره لذكر الليل كفيل بحسب أسلوبه أن نفهم منه أنه إيمان الظلام، بمعنى أنه لم يعثر بعد على «أقنوم النور»، وأنه لا يزال بعيداً عن الحب وما

يحويه الحب من الإخلاص والثقة والأمانة وعدم الخوف، هذا هو تفسير «الليل» عند ق. يوحنا: «فذاك (يهوذا) لما أخذ اللقمة خرج للوقت **وكان ليلاً**.» (يو١٣: ٣٠)

«يا معلِّم ῥαββί نعلم أنك أتيت من الله معلِّماً»:

هذا الاعتراف بالمسيح، كونه مُعلِّماً، من شخص مثل نيقوديموس هو تقييم كبير لإنسان لم يؤمن بالمسيح بعد كابن الله. وكلمة «رابي» تعني أكثر من معلم باللغة العربية لأنها من جذر كلمة يهودية تعني كبير أو عظيم، وهي على ثلاث درجات: «راب» و«رابي» و«رابون»، و«رابون» هي أعلاها ـــ هذا اللقب مستحدث منذ أيام مدرسة شماي وهاليل. ونيقوديموس يعطيه هذا اللقب بالرغم من أنه ليس من خريجي مدارسهم: «فتعجب اليهود قائلين كيف هذا يعرف الكتب وهو **لم يتعلم**» (يو٧: ١٥)، إلا أنه رأى بحسب قياسات علمه أنه كان مستنيراً بالمعرفة الإلهية، وأنه جاء من الله. وهذا تعبير عبري قديم يُقيِّم به الأشخاص الموهوبون. وهو بأسلوب مؤدب خفي يُشرك زملاءه علماء الناموس الذين استمعوا إلى المسيح في رأيه هذا بقوله: «**نعلم**» بالجمع. وبتعبير مَنْ هو مأخوذ بتعاليم المسيح، يصرِّح بحرارة أن تعليمه من الله مباشرة: «أتيت من الله معلِّماً»، وهو نفس التعبير الذي يكرره المسيح عن تعليمه: «تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني» (يو٧: ١٦). وهذا يتضمن بالفعل أنه مُرْسَل. ولكن **خطأ نيقوديموس** أنه يُقْصِرُ ملامح التفوق الإلهي عند المسيح في حدود «معلم» فقط διδάσκαλος التي تأتي في اللاتينية "magister"، حتى ولو كان موهوباً.

«لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه»:

وهنا يكمن الخطأ الثاني لنيقوديموس، أنه اعتبر عمل الآيات أنه هو الدليل أن المسيح هو رجل الله. ومعروف أن الرابيين الأتقياء كانوا يجترحون المعجزات ليثبتوا تقواهم وليبرهنوا على صحة تعاليمهم(٢). وهكذا ربط نيقوديموس آيات المسيح بحالة التقوى التي حصل عليها المسيح، على مستوى الرابيين الأتقياء.

«إن لم يكن الله معه»:

هذا اصطلاح عبري كتابي مذكور بكثرة في العهد القديم: «فظهر له الرب في تلك الليلة وقال له: أنا إله إبراهيم أبيك، لا تخف **لأني معك**» (تك٢٦: ٢٤). وهذا الكلام لإسحق ابن إبراهيم. وكذلك: «فظهر له ملاك الرب وقال له: **الرب معك** يا جبار البأس» (قض٦: ١٢)،

[2] See Fiebig, *Judische Wundergeschichten*, 19f. (healing through prayer) cited by Schnackenburg, p. 366.

وهـذا الكلام لجدعون. وواضح من الإصطلاح أن الذي يكون الله معه، لا يزيد عن كونه مُعَاناً من الله لإتيان أمر يطلبه الله. إلى هنا توقف إيمان نيقوديموس بالنسبة للمسيح والآيات التي رآها والتعليم الذي سمعه منه. ومنه ترى أنه كان يعيش في جو عالم الفريسيين والربيين، وأنه لم يخرج بإيمانه خارج الدراسات التي تلقاها.

٣:٣ **«أجاب يسوع وقال له الحقَّ الحقَّ أقولُ لك: إنْ كان أحدٌ لا يولدُ من فوقُ لا يقدرُ أن يرى ملكوتَ الله».**

يلاحظ القارىء اللبيب أن المسيح هنا لا يجاوب على كلام نيقوديموس بل **أجاب على أفكاره**، وهنا أيضاً يلزم أن تلفت نظر القارىء أن يتمعن لماذا قبل أن يدخل ق. يوحنا في سَرْد قصة نيقوديموس، قال عن المسيح وهو يقصد ما يقول «لأنه علم ما كان في الإنسان».

وهكذا وباختصار بالغ يقول ق. يوحنا «أجاب يسوع»، فهو يجيب على استفسار نيقوديموس كاشفاً أمام القارىء كيف أن المسيح علم ما كان يجول في فكر هذا الفريسي، وكيف بحذق المعلم الإلهي يقود السائل المتخفِّي وراء الألفاظ المنمقة إلى الحقيقة التي يسعى إليها. فنيقوديموس لم يرتقِ بتفكيره ولا إلى لحظة لكي يدرك مَنْ هو المسيح الذي يتكلم معه على حقيقته، ولكن كان يدور ويلف عسى أن ينال منه معرفة تنفعه وليس إيماناً يعيشه. وكان كل همّه أن يزداد معرفة على المعرفة التي عنده والتي يعتز بها أيّما اعتزاز! وإذ بالرب يردّ على أفكاره موضحاً أنه ليس عنده، ولا هو على استعداد، أن يقول أو يعمل شيئاً على ذي قديم، ولكن عمله أن يخلق جديداً، يخلق بدءاً جديداً!! فملكوت الله التي يتمناها نيقوديموس لا يمكن أن يراها، بمعنى أن يعرفها معرفة الرؤيا، إلا إذا وُلد جديداً.

«الحق الحق»:

هذه البادئة في الكلام عند المسيح تفيد التوكيد أول ما تفيد، ثم تهيىء ذهن السامع والقارىء ليستعد لقبول معرفة جديدة وصعبة نوعاً ما أو أمراً قد أُشْكِل على الدنيا معرفته سابقاً، وهو بصدد حل هذا الإشكال حلاً نهائياً وجذرياً. فهي بادئة تفيد في الغالب فكراً جديداً يحمل تعليماً إلهياً يمتد بفكر الإنسان خطوة إلى الأمام وإلى أعلى، وسيكررها المسيح مرتين في هذا الأصحاح.

«يولد من فوق» γεννηθῇ ἄνωθεν (٣):

«من فوق» ἄνωθεν تُترجم أيضاً **«من جديد، ثانية»**، وقد اختلفت المخطوطات القديمة في ترجمتها. فالترجمة اللاتينية denuo renatus (أي يولد ثانية)، والترجمة القبطية، والترجمة السريانية، أخذت **بالولادة «الثانية ـــ من جديد»** وقد تمشى مع هذه الترجمة كلٌّ من الشهيد يوستين(٤)، واكلمندس الإسكندري(٥)، وترتوليان(٦)، وكذلك أغسطين وجيروم ومعظم الكُتَّاب المحدثين.

وبعض الشُرَّاح ارتأوا أن يتركوا ذلك لحرية المترجم طالما هي تحتمل أكثر من ترجمة أصيلة مثل العالم «باريت» Barrett. ولكن إذا عدنا لإنجيل ق. يوحنا نفسه وفحصنا اتجاهه الذي يرجحه في المواضع التي ذكرت فيها هذه الكلمة ἄνωθεν (٣: ٣١؛ ١٩: ١١و٢٣) وتعاليمه عن الولادة من الله (١: ١٣، ١يو٢: ٢٩؛ ٣: ٩؛ ٤: ٧؛ ٥: ١)، نتحقق أن المعنى المرجح هو «الميلاد من فوق» مُعتبِراً أنها حادث يبدأ وينشأ من السماء ويتم للإنسان بقوى إلهية تفوق فهم وفحص وضبط الإنسان. ولكن لا ننسى أن فهمها على أساس الميلاد الثاني هو من صميم الكتاب المقدس أيضاً في هذه المواضع (١بط١: ٣و٢٣، تيطس ٣: ٥).

ولكن الملاحظ أن نيقوديموس فهمها أنها ولادة ثانية ـــ من جديد، لهذا تبادر إلى ذهنه فوراً كيف يدخل بطن أمه من جديد!!

«لا يقدر أن يرى ملكوت الله»:

ما يقصده المسيح أنه بهذه الولادة من فوق، أي الفائقة على قدرات الإنسان، يدخل الإنسان في اتصال بالوجود الجديد الفوقاني ـــ أي ملكوت الله ـــ وذلك بكل يقين عن طريق قدرات جديدة ومواهب جديدة. وبدون هذا الدخول في محيط الوجود الجديد ـــ الولادة من فوق ـــ لا يستطيع أن يرى، أي يتعرف على هذا الملكوت!

وواضحٌ الكلام أننا في آدم خرجنا من حضرة الله مطرودين وحُرمنا من رؤيته، فبإمكانياتنا الجسدية التي ورثناها من آدم وقع علينا الحكم الذي وقع على آدم وهو الخروج من دائرة الله وعدم رؤيته. لذلك فلكي نعود ونرى الله، مجرد رؤية، يلزم أن نولد ولادة أخرى ليست من آدم وهي

3 Schnackenburg, *op. cit.*, p. 367.
4 Apol., 61,4.
5 Proptrept., IX,82.
6 De Bapt., XIII.

حتماً وبالضرورة، يلزم أن تكون من فوق، من الله!! حتى بهذه الإمكانيات الجديدة نعود ونرى الله.

«لا يقدر» οὐ δύναται :

أي لا يضبط قوة على الاتصال بملكوت الله سواء كان بالرؤية أو حتى التمتع بالتأمل، والسبب هو العجز الروحي الناتج من الفساد الأخلاقي الذي جعل الجسد لا يقوى على اللحاق بمطالب الروح ومستواها؛ لأن رؤية الإنسان الطبيعي ـــ الجسدي ـــ محصورة في حدود الطبيعة ـــ الجسديات ـــ فإذا أراد الإنسان أن يرى ما فوق الطبيعة ـــ الروحيات ـــ فلا بد له من المثيل ـــ الميلاد الروحي ـــ أي ما فوق الطبيعة داخله ـــ «ملكوت الله داخلكم» ـــ ليتواجه المثيل مع المثيل. هذا هو عمل الله الفائق في روح الإنسان ليمنحه ما هو منه خاصة ليراه أو يحيا معه.

والذي يلزم أن ننتبه إليه هنا هو القول القاطع المانع الذي وضعه الرب بالنسبة لمحاولة التطلع إلى ملكوته «لا يقدر»، بمعنى أنه محال على الإنسان أن يرى الله هنا أو هناك دون أن ينال من الله هنا المؤهلات الإلهية التي تجعله يراه كما هو: «أيها الأحباء **الآن نحن أولاد الله** (الميلاد من فوق) ولم يُظْهَر بعد ماذا سنكون، ولكن نعلم أنه **إذا أُظهِر نكون مثله لأننا سنراه كما هو.**» (١يو٣: ٢)

«ملكوت الله»: [راجع «المدخل»، ص٣٣٨]

يذكرها ق. يوحنا في إنجيله مرتين فقط وهما اللتان جاءتا متتابعتين في هذه الآية والآية (٥)، وقد استعاض عن هذا الإصطلاح بإصطلاح آخر وهو الحياة الأبدية على مدى إنجيله ورسائله. وقد جاء كثيراً اسم «ملكوت الله» في الأناجيل الأخرى، وأيضاً باسم «ملكوت السموات».

والاسم أصلاً عبراني مستخدم في العهد القديم. وهو يعبِّر في الأدب العبري عن «امتلاك الله»، أو «تدبير وإدارة الله»، والله هو الملك الأزلي والأبدي: «الرب قد ملك فلتبتهج الأرض... العدل والحق قاعدة كرسيه» (مز٩٧: ١و٢)، «الرب قد ملك، ترتعد الشعوب» (مز٩٩: ١). وكان من المفروض أن تكون مملكة الله على الأرض منظورة وواضحة، ولكن لأن «الشعوب ـــ الأمم» لا تعبده، لذلك اقتصر على إسرائيل. فإسرائيل ـــ كانت ـــ هي مملكة الله المنظورة على الأرض «الرب عظيم في صهيون». ولكن لا يزال الله ينتظر خضوع الشعوب وذلك «في يوم الرب».

ولكن نشأ في الفكر العبري إحساس طاغ بأن «ملكوت الله» له معنى روحي أعمق من مظاهر العبادة والمعاملات الطبيعية، وأنه «ملكوت غير منظور» في عمق هذه الحياة التي نحياها؛

ثم ظهر في أيام المسيح إحساس آخر بأن «ملكوت الله» له معنى «أُخروي» أي eschatological، أي لن ينكشف إلاّ في غيبة النظام الحاضر للعالم.

أما في العهد الجديد وبالمعنى المسيحي، فقد انبرى ملكوت الله ليأخذ الصدارة في كل تعاليم المسيح ووصاياه وأمثاله كغاية عظمى للإنسان في كل حياته وجهاده ومسعاه. لقد كان أول مَنْ نادى به بهذا المعنى هو المعمدان (مت٣: ٢)، وكرز به المسيح أول ما كرز (مت٤: ١٧).

وقد صفَّى المسيح ونقَّى معنى الملكوت على المستويين الديني والأخلاقي، وحدَّد الصفات التي يتطلبها الله لداخلي ملكوته ومنها الآتي:

+ التخلي عن كل ضروريات الحياة إذا تعارضت مع الملكوت حتى الأسرة (لو١٨: ٢٩).
+ الإستغناء عن أعزِّ ما للجسد إذا تعارض مع الملكوت، حتى العين واليد والرِجْل (مر٩: ٤٧).
+ السهر والمثابرة وربط القلب والفكر بهذه الغاية العظمى (مت٢٥: ١-١٣).
+ الحرمان المؤكد لذوي البر الذاتي الذين يُزكُّون أنفسهم (مت٨: ١١).
+ استحالة دخول الأغنياء المتكلين على أموالهم (مر١٠: ٢٣).
+ الملكوت من نصيب المتواضعين والذين لهم روح الطفولة (مت٥: ٣، مر١٠: ١٥، يو٣: ٣-٥).

وفي كل مَثَل من الأمثلة التي قدّمها المسيح عن ملكوت الله كان يتصحح ويتحدد ويتجلى ويتضح معناه أكثر فأكثر.

وقفة قصيرة

وفي التعليم المسيحي، وبمقتضى الفهم اللاهوتي لملكوت الله، يمكن وضعه تحت ثلاثة بنود متكاملة:

الملكوت في المستقبل، الملكوت في الحاضر، الكنيسة باعتبارها الملكوت.

الملكوت في المستقبل:

لقد أفصح المسيح في تعاليمه عن هذا البعد للملكوت، وهو البعد المستقبلي، بمعنى انتظار استعلان ملكوت الله بصورة لم نرها من قبل، ولم يتعرض لما هو سابقاً في حديثه عن الملكوت. وهو الذي أمر تلاميذه - وبالتالي نحن أيضاً - أن نطلبه كل يوم «ليأتِ ملكوتك»

(مت٦ : ١٠). وقد ألمح لهذا البعد الملكوتي في المستقبل بمثل العشر العذارى والعريس الذي يأتي فجأة! أو الزرع الذي ينمو، أو الزوان في وسط الزرع الصالح الذي ينتظر الحصاد ليفصل الزوان من الحنطة.

وقد ترسّخ هذا البعد الملكوتي في ذهن الكنيسة منذ البدء وهي تنتظر استعلانه بفارغ الصبر، وربطته ربطاً لاهوتياً محكماً لمجيئه الثاني وجعلت هذا الترقُّب جزءاً من قانون إيمانها مع الدينونة والحياة الأبدية، وميعادها حددته بقيامة الأجساد.

ولا يزال الفكر الأُرثوذكسي على إصراره وإلحاحه بانتظار مجيء ملكوت الله واستعلانه مهما تأخر.

الملكوت في الحاضر:

في تعليم المسيح، يشير الرب إلى «حقيقة» أي جوهر هذا الملكوت كحالة فائقة ذات اتصال بالله، أنها قائمة في الحاضر الزمني ولكنها حقيقة مخفية ككنز في حقل وجده إنسان فباع كل شيء واشتراه.

فالرب حينما بدأ يكرز، جعل الملكوت في متناول اليد: «قد اقترب ἤγγικεν » (مت٣ : ٢؛ ٤ : ١٧). وحينما كان يشفي، كان بحسب تعبيره أن هذا الشفاء تم بأصبع الله، وهذا معناه أنه قد «**أقبل عليكم** ملكوت الله» (مت١٢ : ٢٨). وحينما حاول البعض أن يأخذوا صورة عن مجيء ملكوت الله قال لهم: «ملكوت الله داخلكم» ἐντὸς ὑμῶν (لو١٧ : ٢١). والذي أضعف تأكيدات المسيح التي تملأ الأناجيل بأن ملكوت الله هو قوة الله في الحاضر الزمني، انشغال الكنيسة الأُولى بانتظار مجيء الملكوت قريباً جداً وبأنه على وشك الظهور يوماً بعد يوم.

ولكن بقيت توكيدات المسيح بملكوت الحاضر الزمني كأساس راسخ لإعادة فكر الكنيسة وربطه بالحاضر، بقول الوحي أنه «جعلنا ملوكاً وكهنة لله أبيه» (رؤ ١ : ٦و٩؛ ٥ : ١٠)، وقول الوحي: «نقلنا إلى ملكوت ابن محبته» (كو١ : ١٣)، والتي منها يظهر أن ملكوت الله هو حقيقة واقعة امتلكتها الكنيسة: «ليس أكلاً وشرباً بل هو برٌّ وسلام وفرح في الروح القدس.» (رو ١٤ : ١٧)

ولكن هذه النظرة في التعليم الأُرثوذكسي لا تلغي ولا تُغني عن انتظار الملكوت الآتي بقوة ومجد، حيث يتلاشى الشر الذي يقاوم ظهوره.

فالملكوت في الحاضر هو ملكوت الخلاص الذي ظهر وأُعلن وقد تم وأُكمل، وعلينا أن نستنفذ

قوته وبركاته. والملكوت الآتي هو ملكوت الحياة والميراث في المجد العتيد.

الكنيسة باعتبارها ملكوت الله:

كان القديس أغسطينوس أول مَنْ اعتبر المختارين في الكنيسة الآن المعيَّنين للحياة الأبدية أنهم يمثلون ملكوت الله أو ملكوت المسيح، في مقابل الأشرار الذين تحويهم الكنيسة أيضاً باعتبارهم «مملكة الشيطان». ومرة أخرى وضع المختارين كأنهم: «**مدينة الله**»= (Civita Dei) في مواجهة الأشرار: «**مدينة الأرض**»= (Civitas terrena). ولكي نحصل على صورة صحيحة للكنيسة كملكوت الله، يلزم أن نعود إلى العهد القديم حينما كان الله يملك على شعب إسرائيل، فكانت إسرائيل بهيكلها الذي كان يحلُّ فيه الله بصورة منظورة هي ملكوت الله المنظور على الأرض، ولكن كان لإسرائيل ولهيكلها صورة أخرى غير منظورة، صورة روحية حيث كان الله يحيا بالفعل بالروح في قلوب آبائها وأنبيائها وقديسيها، بل كان يملك حقاً على قلوب أتقيائها الذين تركوا لنا سيرهم المرتفعة في القداسة وطاعة الله المذهلة والحب الإلهي المتدفق في قلوبهم. وهذه الأسفار الشعرية، كسفر الأمثال والجامعة والمزامير وغيرها تحكي عن ملكوت الله الخفي غير المنظور الذي كانت تحياه إسرائيل تحت حكم الله وتدبيره.

كل هذا انتهى شكلاً وموضوعاً برفض إسرائيل أن يملك عليها الله: «ليس لنا ملك إلا قيصر». بل وامتدت أيديهم إلى فاديهم وملكهم فقتلوه «خذه خذه أصلبه... أأصلب ملككم» (يو١٩: ١٥). أما الذين قبلوه منهم وترجَّوا أن يملك عليهم ويفديهم فصنع منهم شعبه الجديد، الكنيسة التي خُلقت بتجسد الكلمة وتدشَّنت بدم صليبه وامتلأت بملء الله يوم الخمسين. وسرعان ما انضمَّ إليها كل الذين كُتبت أسماؤهم في سفر الحياة المعينين للحياة الأبدية منذ البدء، فصار فيها من الآباء والأنبياء والشهداء والقديسين ما يفوق الأولين، وعوض لوحي العهد ذوي الأربعة الأوجه، صارت الأربعة الأناجيل المكتوبة حقاً وفعلاً بأصبع الله، وبقية الأسفار الحية التي تشهد كيف قام الملكوت وامتد وكيف جلس الله على عرش القلوب وحكم.

وإن كانت الكنيسة لا يُعطي شكلُها الأرضي المنظور صورة جيدة لملكوت الله بسبب معاثر الإنسان، إلا أن الله العامل فيها بالأسرار غير المنظورة أقام من الكنيسة سماءً جديدة. فهو يلد فيها لنفسه كل يوم ألوفاً من خلائقه الروحانية بشكل خالقها وعلى صورته ــ بالحق ــ في القداسة والبر، يُلبسهم بيديه ثياب الروحانيين ويطعمهم من جسده ويسقيهم من دمه ويتعهدهم برحمته حتى يصلح كل واحد منهم أن يكون عضواً في جسده، شريكاً في آلامه هنا، وهناك شريك مجده في مُلْكه الأبدي. وهكذا فإن ملكوت الله يُستعلن الآن في الكنيسة بالآلام، وهناك بالمجد.

٣ : ٤ «قال له نيقوديموس: كيف يمكنُ للإنسان أن يولدَ وهو شيخٌ، ألعلّه يقدر أن يدخلَ بطنَ أمِّهِ ثانيةً ويولد».

الحقيقة هنا أن نيقوديموس لا يدّعي الجهالة ولا يتوقح بالسخرية على عقيدة الميلاد الثاني، بل هو بكل صدق وأمانة يصوِّر مدى الصعوبة البالغة، التي تبلغ مدى الإستحالة، كَوْنَ الإنسان ينجح في أن يحصل على بداية حياة جديدة بميلاد جديد. وهذا التصوير ــ غير المبالَغ فيه ــ أن الميلاد الثاني يساوي دخول شيخ في بطن أمه ثانية ويولد، هو محاولة منه ليدفع المسيح «كمعلِّم بالحق» أن يشرح له كيف يكون هكذا أو ما هي الوسيلة التي بها يمكن للإنسان أن يولد ثانية؟ ولهذا ردَّ عليه المسيح ردًّا مباشراً على فكره هكذا.

وليُلاحِظ القارىء أنه كما أن المسيح ابتدره بقوله: «إن لم يولد الإنسان ثانية (أو من فوق)»، هكذا كان ردُّ نيقوديموس صحيحاً ومناسباً: «كيف يولد»؟ وأضاف من عنده تصوُّره عن استحالة الأمر.

وليتمهل القارىء على هذا الفريسي العاتي، ليدرك أعماق إجابته. وعليك أن تتصور معه إنساناً ذا ماضٍ طويل وعريض في التكيُّف بالعالم والناس والتعوُّد على عادات وأفكار وسلوك مدى ستين سنة مثلاً، كيف يتخطاها، كيف ينساها، كيف يجعلها كأنها لم تكن ليبدأ من جديد وكأنه ما عاش هذه السنين، كيف؟

ثم صبراً جميلاً، وفرضاً أنه أمكن أن يمحو هذا محواً وكأنه لم يكن؛ ولكن كيف تبقى له «نفسه» هي هي التي سيبدأ بها، لأن النفس معجونة بصور الحياة منذ أن يعرف الإنسان نفسه، بل انطباع الأيام وحوادث الدهر تختزنها النفس أكثر مما يختزنها الجسد ألف مرة!!! لاحظ أن نيقوديموس يتكلم من عمق أعماق نفسه ومن طول حياته وخبراته التي ما جاء إلى المسيح إلاَّ لكي يعدِّل فيها ويصحح، ولكن أن يلغيها كلها فهذا أمر جد خطير وغير وارد.

ثم لا تسخر من رد نيقوديموس كونه يصوِّر نفسه وهو يدخل بطن أمه، فهذا هو الجزء الأقل في المشكلة، لأن الجزء الأكبر هو «النفس»، نفسها، كيف يعطيها بدءاً جديداً. فإذا استحال على الشيخ دخول بطن أمه ليولد من جديد، فالإستحالة الأكبر أن يدخل داخل نفسه ليلغي ما صنعته السنين وما خطَّه الدهر فيها. وبهذا يكون نيقوديموس قد صوَّر ــ دون أن يدري ــ القيمة الفائقة للميلاد من فوق مع ما يحويه من غفران ومصالحة.

٣ : ٥ **«أجاب يسوع الحقّ الحقّ أقولُ لك: إن كان أحدٌ لا يولدُ من الماءِ والروحِ لا يقدر أن يدخلَ ملكوتَ الله».**

سؤال نيقوديموس هو كيف يولد؟ هل من بطن أمه؟ هنا إجابة المسيح جاءت مباشرة على السؤال، فالميلاد ليس جسدياً بل هو ميلاد روحاني للنفس، ووسائله ليست لحمية لا من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله: من الماء والروح. هو ميلاد غير منظور، سماوي.

والمسيح يستخدم حرف «من» الذي ترجمه ق. يوحنا في إنجيله باليونانية ἐκ أو ἐξ ويفيد من داخل، أي يدخل الإنسان الماء ويغشاه الروح ويقوم أو يخرج مولوداً جديداً. هنا الروح هو العنصر السماوي الأساسي المختص «بفوق»، المعتبر كينبوع أو مصدر الحياة العليا، وهنا تتركز النقلة الكبرى الجديدة للإنسان. والآن لماذا الماء؟ فالروح معروف أنه عامل الخلق والتجديد، وما هو دور الماء؟ وحتماً الماء هنا ليس هو ماء المعمدان، بل ماء المسيح الذي مضمونه السري والسرائري هو روح هو سماوي؛ لأننا نعلم تماماً في مفهوم الماء حتى في أوائل معرفة الإنسان والخلق أنه يوجد نوعان من المياه: مياه فوق الجَلَد (السماء) ومياه تحت الجَلَد وهو البحار والأنهار: «وقال الله ليكن جَلَد firmament = στερέωμα (أي سماء) في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه، فعمل الله الجَلَد وفَصَل بين المياه التي تحت الجَلَد والمياه التي فوق الجَلَد، وكان كذلك. **ودعا الله الجَلَد سماءً.**» (تك١: ٦ــ٨)

فالمياه التي حوَّلها المسيح في عرس قانا، حوَّلها من مياه تخدم الأغراض الوقتية إلى خمر يخدم الأغراض الروحانية، أي نقل مفهوم مياه تطهِّر الجسد إلى مياه تختص بالروح. كذلك في مياه بئر يعقوب نرى المياه التي تخدم الأغراض الجسدية التي أعطاها الإنجيل صورة الأغراض الحيوانية الخالصة إذ أضاف على الذين شربوا منها بعد يعقوب وبنيه **الماشية** أيضاً، إمعاناً في أنها مياه أرضية محضة ليس فيها ما يختص بالبركة ولا بالروح. ولكن هنا يرفع المسيح من مستوى المياه إلى ما فوق الجَلَد أي ليست مياه أرضية، وهذا يتم بحلول الروح القدس عليها وتقديسها. فتصير مصدراً لانبعاث حياة جديدة ليست أرضية بل روحانية.

معروف أن المعمودية ثلاث خطوات أو مراحل: الأُولى اعتراف بالخطايا، الخطوة الثانية قبول الغفران، الثالثة تغطيس في الماء. هنا تكمل المعمودية كختم توبة. فالتغطيس في الماء هو بمثابة قبول أو الدخول في الموت عن الحياة السالفة، حيث الماء هنا هو بعنصره الأصلي الأرضي أولاً للموت ثم بعنصره الروحي التقديسي السماوي للتقديس، ثم الخروج من الماء استعداداً لحياة

جديدة. هنا تكون قد انتهت معمودية الماء ليبدأ عمل الروح القدس وهو إعطاء حياة جديدة للنفس كنسمة حياة من فم الله، تؤهلها للدخول في الحياة الأبدية، أي ملكوت الله، والترائي أمامه. هذا بالإضافة إلى أن بصلاة التقديس على الماء يتقدس الماء و يقدس الجسد حسب قول القديس كيرلس الكبير:

[لأنه بما أن الإنسان مكوَّن من جسد ونفس عاقلة، فإنه يحتاج إلى عمليتي شفاء ليصير له ميلاد جديد، لأنه بالروح يتقدس روح الإنسان **وبالماء الذي تقدس** يتقدس الجسد. لأن الماء بعمل الروح يتحول معدنه إلى مؤثر إلهي غير منطوق به و يقدس كل مَن يحل فوقهم.][7]

إذن، الميلاد من الماء والروح هو عملية موت عن حياة جسدية سالفة، وتقديس، ثم قبول حياة جديدة مخلوقة بالروح القدس، لتؤهِّل النفس للحياة مع الله في ملكوته. وليس أبداً أن معمودية الماء هي عملية تختص بالخارج أو أنها عملية خارجية ظاهرية، بل هي الأساس العميق الذي عليه يعمل الروح القدس في الخَلْق، لأنه يستحيل أن الفاسد يلبس عدم فساد. فلا بد أن تجري أولاً عملية **الموت الإرادي وبمؤازرة النعمة** أيضاً ــ وذلك في المعمودية(٨) ــ عن حياة جسدية سالفة، بالنية الكاملة والضمير الطاهر؛ وهكذا يمكن التقديس حتى يتمكن الروح القدس بعدها أن يخلق في النفس حياة جديدة بالروح.

و بالنسبة لنيقوديموس، فالميلاد من الماء والروح، أمر ليس غريباً ولا جديداً على مسامع نيقوديموس، فكل الذين اعتمدوا على يد يوحنا المعمدان سمعوا من المعمدان أن المسيح سيعمدهم بالروح القدس، وأن معموديته إنما هي التمهيد الإلهي ــ حسب إرسالية الله له ــ لكي يهييء العمل لمعمودية المسيح بالروح القدس. فقول المسيح أن تولدوا من الماء والروح هو رنين مسموع في كل أنحاء اليهودية.

ولكن للأسف فإن الفريسيين رفضوا معمودية يوحنا: «وأما الفريسيون والناموسيون فرفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم غير معتمدين منه» (لو٧: ٣٠). وهكذا قطعوا على أنفسهم فرصة عمل الروح القدس بالتالي.

---

[7] Cyril the Great, *op. cit.*, Vol. 1. Book II, ch. III.

(٨) هنا الموت ليس موتاً ظاهرياً بل موت يأخذ حقيقته من موت المسيح، لأن المسيح مات موتاً حقيقياً عن كل مَنْ يؤمن به، فأصبح موت المسيح الحقيقي هو العامل في المعمودية لحصولنا على موت حقيقي عن حياة سالفة لقبول حياة جديدة من عمل الروح القدس، هي من حياة المسيح.

ومعروف أنه بعد قيامة المسيح صارت معمودية الماء والروح تتمان معاً في جرن المعمودية: «لا بأعمالٍ في برٍّ عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته خلّصنا **بغسل الميلاد الثاني**، وتجديد الروح القدس.» (تيطس٣: ٥)

وهكذا أصبح الميلاد الثاني من الماء والروح بالسر هو نفسه الميلاد من الله بالوعد.

وأخيراً يلزمنا أن نعي تماماً أن المسيح حينما قال هنا بالولادة من الماء والروح إنما يقولها بصورة نبوية إلى حدٍّ ما، فمعمودية الروح القدس لم تكن قد بدأت بعد. حتى أن المسيح لم يذكر كلمة «المعمودية» لأن تركيزه كان على الخلقة الجديدة بالروح كنتيجة.

«يدخل ملكوت الله»:

هنا انتقل المسيح من حالة الرؤية الفكرية أو التعرف على ماهية هذا الملكوت، إلى الدخول فيه، وهو اصطلاح قريب جداً لذهن نيقوديموس، لأن الدخول إلى أرض الموعد: كنعان الأرضية، كصورة مصغَّرة توضيحية، كانت ماثلة أمام نيقوديموس؛ فكما هو مواطن في أرض الميعاد؛ مطلوب منه أن يكون مواطناً في ملكوت الله. وكما كان للدخول إلى أرض الموعد شروط جسدية (الختانة)؛ هكذا للدخول إلى ملكوت الله شروطٌ روحية (المعمودية).

٦:٣ **«المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح».**

في البداية نود لو يلاحظ القارىء أننا لا زلنا مع فكر إنجيل ق. يوحنا الهادف إلى توضيح استعلان رسالة المسيح، وبالتالي استعلان المسيح من وراء استعلان رسالته. فالقارىء يذكر الآية الأُولى: تحويل الماء إلى خمر، وهذا التحويل يشمل تحويل العبادة من الغُسْلات والتطهيرات بالماء إلى شُرب الروح وكأس الخلاص، وفي تطهير الهيكل وضح لنا عملية تحويل الهيكل ــ مركز العبادة ــ من صناعة يد إنسان في ٤٦ سنة إلى هيكل جسد المسيح بالقيامة من الأموات، حيث صار جسد المسيح هو الكنيسة مركز العبادة بالروح والحق؛ والآن في حديث نيقوديموس دخلنا في مفهوم تحويل الإنسان نفسه من حياة قديمة حسب الجسد إلى حياة جديدة حسب الروح، بالميلاد الثاني من فوق.

والمسيح هنا في هذه الآية يقطع خط الرجعة على نيقوديموس حتى لا يفكر إطلاقاً في الخلط بين خلقة الجسد الآدمية القديمة وخلقة الروح الجديدة. فلا يوجد تطور من الجسد إلى الروح، ولا امتداد، ولا تطعيم، ولا تخطي الحدود بالمعرفة، أو بالتقوى، أو بأي عمل يستطيع الإنسان أن يأتيه

بقوته أو إرادته أو حتى بمواهبه! فالمولود من الجسد يبقى جسدياً ــ حسب أصله ــ والمولود من الروح لم يَعُدْ إنساناً جسدياً بعد، بل روحاً أو روحياً ــ حسب أصله أيضاً.

فالجسد هنا هو العنصر البشري، والروح هو العنصر الإلهي الفائق. ولا يقصد المسيح هنا بالجسدي والروحي: «جسد هو، هو روح» الإتجاه المعتاد بالتعبير عن الجسد «بالمادي»، ولكن الإتجاه في الحقيقة أعمق وأجلّ، فهو يقصد الإنتهاء إلى **«لا شيء»** بالنسبة لنهاية الميلاد من الجسد، وبلوغ «الوجود الحقيقي» بالميلاد من الروح، الوجود مع الله للبقاء والخلود، فالمولود من الجسد غريب ونزيل على الأرض، وزائل، سواء أدرك ذلك في نفسه، أو تلاهى وتعامى عن حقيقة غُربته وزواله.

أما المولود من الروح فقد دخل المعجزة الإلهية ليدرك وجوده الحقيقي، ويتيقن أنه صار غير مهدَّد بالزوال، ويحسُّ أنه استوطن السماء بالفعل، ويمارس كل يوم وجوده برجاء حي يتجدد باستمرار.

وكل مَنْ تأمل في وجوده وحياته وأعماله يدرك حقيقة نفسه إن كان يعيش على لا شيء أو يعيش على رجاء الوجود مع الله، وحينئذ يقيِّم الميلاد من الروح ويسعى نحوه بكل عزمه وتصميمه.

وكما أن الولادة من الجسد تعطي الإنسان صفات جسدية خاصة منها الميل لإشباع رغبات الجسد، هكذا الميلاد من الروح يعطي النفس صفات روحية أهمها الإلتصاق بالله خالقها وإمكانية النزوع إليه من كل الفكر والنفس والقدرة!

وبالتالي كما أن الولادة من الجسد تهيىء الإنسان للحياة بالجسد في هذا العالم، هكذا الميلاد من الروح ــ من فوق ــ يهيىء الإنسان للحياة ــ فوق ــ في ملكوت الله: «إن كنتم قد قمتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق» (كو٣: ١). ولأن الإنسان أصلاً هو مخلوق من جسد ــ ونفس عاقلة روحية ــ أصبحت حاجة الإنسان المولود من الجسد يقابلها بالضرورة حاجة الميلاد من الروح، كما أن تعلُّق الإنسان بالحياة على الأرض يقابله تعلُّق الإنسان بالحياة فوق بالروح.

إنه نزوع **طبيعي**(٩) في الإنسان، بحسب حركة الروح الذي فيه، التي نفخها الله في أنفه، أن يتطلع إلى الخلود والإمتداد في الحياة إلى ما هو أعظم وأعلى وأرقى دائماً، وحنين الإنسان إلى الله

---

(٩) إرجع إلى شرح هذا النزوع الطبيعي الذي سبق أن دعاه المؤلف «غريزة العودة إلى الله» في مقال: «اختيار الله في حياة الراهب»، مجلة مرقس فبراير ١٩٧٥، ص٥و٦.

والسماء والقداسة لم ينطفىء منه قط مهما تكدست الخطية فوق رأسه. الإنسان مخلوق أصلاً على صورة الله والصورة تنزع إلى التقرب من أصلها، كما أن الله يحن دائماً إلى صورته و يودُّها بقربه. ولو دققنا الرؤية أو تعمقنا الإنسان، ولو أنصفنا في تقييمه، لوجدناه روحاً لا جسداً، الإنسان الذي يحيا بجسده يحيا غريباً عن نفسه النزَّاعة نحو الروح والله! الإنسان يشقى بجسده بسبب وجود روحه الرقيبة عليه التي تستصغر دائماً من أعماله وأفكاره وميوله حينما تتطلع إلى خالقها.

الإنسان لا يستمتع وجوده الحقيقي الذي يشتاق إليه و يتمناه، أو حتى الذي يجهله، ولكن الروح لا تجهل ما لها. فالإنسان يتأوَّه ولا يعلم ماذا يريد، فقط هو غير راضٍ عما هو فيه، الأفضل دائماً دائماً غائبٌ عنه، مهما أجهد ذاته للحاق به، وكل ما يحصل عليه يبقى ليس هو الذي له. فالميلاد الروحاني الجديد للإنسان هو معجزته التي يعيش على رجائها، مهما كانت مخفية عنه وغائبة عن وعيه. إنه حالما يحصل عليها، يصير هو الإنسان الذي يريده، هو نفسه تماماً، وليس أقل ولا أنملة. ميلاد الإنسان روحياً من فوق هو بداية الوجود الحقيقي له الذي هو له حقاً، حيث تستقر نفسه على مركزها الثابت الأصيل الذي ليس على أرض الزعازع والأوهام بل فوق. الإنسان المولود من فوق يتشبث بالأبدية فلا يعود الزمن يقلقه ولا توافه الأعمال.

ثم ألا ترى، عزيزي القارىء، أن الإنسان ليس حراً أن يختار بين أن يعيش بالجسد أو بالروح؟ لأنه إن لم يَعِش بالروح، فهو لا يعيش أصلاً وأبداً. أنظر إلى نيقوديموس الذي جاء يطلب الأفضل وهو معلم إسرائيل الأعلى، فاكتشف أنه حقاً وفعلاً لا يعيش!!

يقولون إن الإنسان حرٌّ، يختار مصيره بنفسه، هذا غش وخداع، فمصير الإنسان هو الذي يقنع الإنسان أن يتخلى عن حريته!! ومصير الإنسان تحدده ماهيته، يحدده كيانه، يحدده أصله الذي انحدر منه والذي فقده على الطريق، فصار بدونه كلا شيء، فإن هو أصرَّ على حريته صار إلى لا شيء. إن نداء الأم التي تاه ابنها عنها يسمعه الولد وهو على بعد فراسخ وأميال، والإنسان يسمع في أعماقه نداء الله مهما بَعُد عن الله وطال بعاده.

المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح، الجسد لن يوصلنا إلى الله! إن الجسد لا يطيق الله: «محبة الجسد عداوة لله»!! فلكي يقبل الإنسان معجزة الميلاد الثاني من فوق يلزمه حتماً أن يُخضع الجسد لمعجزة الموت: أن يكفَّ الجسد عن أن يحيا لنفسه و يكفَّ عن أن يقود مسيرة الحياة: «وكان يُقتاد بالروح.» (لو٤: ١)

٣: ٧ **«لا تتعجب أني قلت لك ينبغي أن تولدوا من فوق».**

هذه الآية مرتَّبة على سابقتها، أي إذا كان المولود من الجسد يبقى جسداً والمولود من الروح يصير روحاً، إذن، لا تتعجب إذا قلت لك ينبغي أن تولدوا من فوق! هذا إذا كنت تريد أن تصير رجلاً روحياً وتتأهَّل للحياة في ملكوت الله. أو بمعنى أكثر وضوحاً إذا كنت قد جئت إليَّ لتتعلم كيف تحيا كما ينبغي لإنسان يريد أن يدخل ملكوت الله، فلن تنفعك الأعمال الجسدية كلها، مهما كانت، فهي من الجسد وتؤول إلى الجسد، ولكن يلزم أن تصير إنساناً روحياً تحيا بالروح وليس بالجسد: «فلا تتعجب إذا قلت لك ينبغي أن تولدوا من فوق».

٣: ٨ **«الريح تهُبُّ حيث تشاءُ وتسمعُ صوتها لكنك لا تعلمُ من أين تأتي ولا إلى أين تذهب، هكذا كلُّ مَنْ وُلدَ من الروح».**

في اللغة العربية يصير كلام المسيح هنا ــ الذي يبرهن به على عدم قدرة الإنسان على ملاحقة عمل الروح القدس ومعرفة كيفية عمله ــ يصير فهمه صعباً نوعاً ما، لأنه في اللغة اليونانية التي كُتب بها الإنجيل واللغة العبرية وهي اللغة الأصلية التي تكلم بها المسيح ــ يأتي اسم «الروح» مطابقاً لاسم «الريح» حرفياً، بل حتى كلمة «**يهبُّ**» الريح تأتي من أصل كلمة الريح.

ولكن القصد العام من كلام المسيح يمكن تشبيهه بشجرة هادئة وفجأة تجد أغصانها تتحرك وأوراقها تصفق وتسمع صوت الريح يتخللها بوضوح فتعرف أن الشجرة استهدفت لعمل الريح، ولكن لا تعرف من أين أتى الريح ولا إلى أين سيذهب، هكذا كلُّ من وُلد من الروح، تظهر عليه علامات عمل الروح القدس بغاية الوضوح والقوة، في كلامه، في تصرفه، في فهمه، في حبه، في صبره، في اتضاعه، في شجاعته، في حكمته، في رؤيته للأمور الروحية وأمور العالم الحاضر. وباختصار تجده إنساناً آخر غير الذي كنت تعرفه، فتعرف بكل يقين أنه استُهدف لعمل الروح القدس بالميلاد من فوق.

ولكن ليس قصد المسيح أن يوضح أن الميلاد الثاني من فوق يمكن شرحه تماماً، فهذا يبقى سرأ لا يمكن أن يعرفه إلا الذي أخذه، ولكن شرح المسيح هو توضيحي يعتمد على المقارنة التي تبقى في حدود الجسديات. فالرياح لا تخرج عن كونها قوة طبيعية مادية: «كما أنك لا تعلم طريق الريح... كذلك لا تعلم أعمال الله الذي يصنع الجميع.» (جا١١: ٥)

٣: ٩ «أجاب نيقوديموس وقال كيف يمكن أن يكون هذا = γενέσθαι ».

«اذهب وقُلْ لهذا الشعب: اسمعوا سمعاً ولا تفهموا وأبصروا إبصاراً ولا تعرفوا. غلِّظ قلب هذا الشعب وثقِّلْ أذنيه واطمسْ عينيه، لئلا يُبصِرَ بعينيه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه ويرجع فيُشفى»!!! (إش٦: ٩و١٠)

«إن القساوة قد حصلت جزئياً لإسرائيل **إلى أن يدخل** ملءُ الأمم. وهكذا سيخلُص جميع إسرائيل.» (رو١١: ٥و٦)

السؤال يطلب توضيحاً، لأن الكلمة «كيف يكون هذا» هي باليونانية: «كيف هذا يصير أو يتم»، فالسؤال هو عن عملية الولادة الثانية كيف تكون. وفي الحقيقة إنه أمر غير محتمل من هذا المعلم أن يسأل هذا السؤال، لأن المسيح أوضح له أن هذا العمل فائق وهو من اختصاص حركة الروح القدس أي حسب قوانين عمل الله تجاه الإنسان؛ أي بمنتهى الوضوح والصراحة أدخل المسيح عملية الميلاد الثاني من فوق ومن الماء والروح في دائرة اختصاصه هو، أي في محيط معرفته وعلمه فيما يخص عمل الله.

٣: ١٠ «أجاب يسوع وقال له: أنت معلم إسرائيل ولست تعلم هذا؟».

مراجعة بل مساءلة أليمة، يوجهها المسيح بل الله لمعلم التوراة والقيِّم على إنارة شعب الله، لا يوجهها لنيقوديموس بل لكل معلِّمي إسرائيل وفرِّيسييه وكَتَبتِه في شخص نيقوديموس. ألم يتكلم الله على فم كل أنبيائه ومختاريه عن عمل الروح في الإنسان وتغييره كلية حتى إنه يصير شخصاً آخر؟

+ «فأخذ صموئيل قنينة الدهن وصب على رأسه وقبَّله وقال... **يحل عليك روح الرب** فتتنبأ معهم **وتتحول إلى رجل آخر...** وكان عندما أدار كتفه لكي يذهب من عند صموئيل أن الله أعطاه **قلباً آخر!!** وأتت جميع هذه الآيات في ذلك اليوم، ولما جاءوا إلى هناك إلى جَبْعَة، إذا بزمرة من الأنبياء لقيته. فحلَّ عليه روح الله فتنبأ في وسطهم.» (١صم١٠: ١و٦و٩و١٠)

وهل يكون عمل الروح للتجديد وتغيير الإنسان أكثر من هذا؟

+ «فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه وسط إخوته وحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعداً.» (١صم١٦: ١٣)

وهل هذا ليس على مستوى ميلاد ثانٍ للإنسان ليحيا بالروح كل أيامه؟

+ ومن جهة الخلق الجديد في الإنسان ألم تسمع من داود النبي نفسه ــ عندما أخطأ إلى الله ــ كيف صرخ: «قلباً نقياً اخلُق فيَّ يا الله وروحاً مستقيماً جدد في داخلي» (مز٥١: ١٠)؛ أليس هذا خلقاً جديداً وبعد التجديد أيضاً! لأنه رأى أن صومه وصلاته وعبادته وتسابيحه لن تغنيه عن التجديد والخلق الجديد؟

+ ثم ألم يتكلم حزقيال النبي معلماً وشارحاً عن ما سيتم بالحرف الواحد في أيام المسيّا الذي وقف نيقوديموس أمامه ولم يتذكر كلمة واحدة مما قال: «وأعطيهم قلباً واحداً، وأجعل في داخلكم **روحاً جديداً، وأنزع قلب الحجر من لحمهم وأعطيهم قلب لحم.**» (حز١١: ١٩)

أليس هذا ميلاداً جماعياً كولادة شعب بمواهب روحية واحدة؟

+ ثم ألم يحذِّر حزقيال النبي أيضاً الذين يتوانون عن مثل هذا التجديد الذي سيمنحه الله في وقته: «اطرحوا عنكم كل معاصيكم التي عصيتُم بها (التوبة) واعملوا لأنفسكم **قلباً جديداً وروحاً جديدة** فلماذا تموتون يا بيت إسرائيل» (حز١٨: ٣١). فبدل أن يركض معلمو التوراة والناموس وفي مقدمتهم نيقوديموس لينالوا القلب الجديد والروح الجديد، جاء يسأل بلسانهم «كيف يكون هذا؟»

+ ثم ها هوذا أيضاً حزقيال يجمع عمل الماء مع عمل الروح باعتبار ذلك سر قوة التجديد الذي سيرسله الله لهم على يدي المسيّا: «**وأرش عليكم ماءً طاهراً فتطهرون** من كل نجاساتكم ومن كل أصنامكم أطهركم، وأعطيكم **قلباً جديداً** وأجعل **روحاً جديدة** في داخلكم.» (حز٣٦: ٢٥و٢٦)

+ ثم هوذا حزقيال أيضاً ينال من الله أمراً صريحاً بأن «يتنبأ للروح أن يهب»، وهو بالحرف الواحد نفس الإصطلاح الذي استعمله الرب يسوع: «الريح تهبُّ حيث تشاء...»، حتى صار معلم إسرائيل بلا عذر أن يجهل كيف يكون هذا: «فقال لي تنبَّأ للروح يا ابن آدم وقُلْ للروح هكذا قال السيد الرب: **هلمَّ يا روح من الرياح الأربع، وهُبَّ على هؤلاء القتلى ليحيوا.** فتنبأتُ كما أمرني، فدخل فيهم الروح، فحيوا وقاموا على أقدامهم، جيش عظيم جداً جداً. ثم قال لي: يا ابن آدم هذه العظام هي كل بيت إسرائيل. ها هم يقولون يبست عظامنا وهلك رجاؤنا. قد انقطعنا. لذلك تنبأ وقُلْ لهم: هكذا قال السيد الرب: هأنذا أفتح قبوركم وأصعدكم

من قبوركم يا شعبي... **وأجعل روحي فيكم فتحيون.**» (حز٣٧: ٩ــ١٤)

+ ثم من جهة العهد الجديد الذي وعد به الله، وكيف سيتولّى الله بنفسه تعليم الشعب بأن يلقِّن قلوبهم علم معرفته فلا يحتاجون إلى معلم بعد بل يكون الله هو «المعلِّم»: «ها أيام تأتي يقول الرب وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا **عهداً جديداً**، ليس كالعهد (الأول)... أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً. ولا يعلِّمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد أخاه قائلين اعرفوا الرب، لأنهم كلهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم ــ يقول الرب ــ لأني أصفح عن إثمهم ولا أذكر خطيتهم بعد» (إر٣١: ٣١ــ٣٤). أليس هذا هو عهد التجديد وميلاد الإنسان الجديد وعلم الله الجديد؟

+ ثم كيف أن الله يلد أولاداً و يلد مدينة و يلد شعباً ويمخض بهم بالروح و يلدهم؟ كان إشعياء في ذلك واضحاً غاية الوضوح: «بل افرحوا وابتهجوا إلى الأبد في ما أنا خالق، لأني هأنذا خالقٌ أورشليم بهجة وشعبها فرحاً. فأبتهج بأورشليم وأفرح بشعبي... مَنْ سمع مثل هذا. من رأى مثل هذه: هل تمخض بلاد في يوم واحد، أو تولد أُمَّة دفعة واحدة؟ فقد مخِضَتْ صهيون، بل وَلَدَتْ بنيها. هل أنا أُمْخِض ولا أُولِّد يقول الرب.» (إش٦٥: ١٨و١٩؛ ٦٦: ٨و٩)

+ وعن عمل الروح القدس جهاراً وانسكابه بلا كيل، يقول يوئيل النبي: «ويكون بعد ذلك أني أسكب روحي على كل بشر، فيتنبأ بنوكم و بناتكم ويحلم شيوخكم أحلاماً ويرى شبابكم رؤًى؛ وعلى العبيد أيضاً وعلى الإماء أسكب روحي في تلك الأيام.» (يوئيل ٢: ٢٨و٢٩)

فماذا إذاً؟ أليس هذا دليلاً على أن معلمي الشعب تركوا تعاليم الله الحية المبهجة وتعزياته التي بلا عدد، نسوها وأهملوها، ففقدوا حاسة الرؤية العقلية والروحية لما انشغلوا بالقوانين الحرفية والوصايا الجسدية. فلما جاء العصر الموعود وتحققت كل وعود الله وظهر المسيَّا الذي يطلبونه وانسكب الروح، لم يعرفوه. وأمام تحقيق أجل مواعيد الله وهي خَلْق الإنسان خلقاً روحياً جديداً بقلب جديد وروح جديد، وقف نيقوديموس يسأل كيف يكون هذا؟؟ بدل أن يقول ها أنذا!!

١١:٣ «الحق الحق أقول لك: إننا إنما نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا ولستم تقبلون شهادتنا».

هنا الآية امتداد للسؤال الإستنكاري الذي طرحه الرب على نيقوديموس موبخاً: «أنت معلم إسرائيل ولست تعلم هذا»؟

هنا يقول الرب: أما أنا فأعلم، و يعلم معي و يشهد عليك كل الذين تنبأوا عن هذه الأيام، وعن عمل الله الذي وعد به والذي هو غريب في عينيك. والمسيح لما يتكلم يتكلم عن مصدر المعرفة والرؤية، ولما يشهد يشهد ومعه الآب الذي أرسله. وإن جاءت الكلمات في هذه الآية بالجمع فهي بسبب تعذُّر القول بالشهادة بالمفرد، فالشهادة الشرعية لا بد أن تكون لأكثر من واحد، لذلك جمع الشهادة والعلم معاً: «نعلم ونشهد».

وقد جاءت هذه الآية نفسها مرة أخرى، وفي هذا الأصحاح أيضاً، عن المسيح ولكن بمنطوق الشخص الثالث الغائب: «ما رآه وسمعه به يشهد، وشهادته ليس أحدٌ يقبلها.» (يو٣: ٣٢). أما قولنا أن الآب يشهد معه، فهذا يؤكده أيضاً بعد ذلك قول الآية: «ومَنْ قَبِلَ شهادته، فقد خَتَم أن الله صادق.» (يو٣: ٣٣)

ولكن تمشّياً مع فكر نيقوديموس الأرضي والمحدود، فمن الممكن أن يكون الرب قد تماشى معه على مستوى رؤيته. فالرب يتكلم و بجواره تلاميذه الذين كانوا سابقاً أيضاً تلاميذ المعمدان، هؤلاء رأوا وعلموا يقيناً ما هو الميلاد من الماء وما هو عمل الروح القدس في الماء ومع الماء. فالمسيح يتكلم ومعه مَنْ يعلم ومَنْ رأى و يشهد. وإن كان هذا الفكر لا يلزمنا نحن الذين نعلم مَنْ هو الذي يعرف بالحق، ومَنْ هو الذي رأى بالحق!!

١٢:٣ «إن كنتُ قلتُ لكم الأرضيات ولستم تؤمنون، فكيف تؤمنون إن قلت لكم السمويات».

«أنا الرب إلهك الذي أسس السموات وخلق الأرض الذي يداي صورت كل جند السموات ولكني لم أظهرها لك حتى لا تذهب وراءها.» (هو١٣: ٤ — حسب الترجمة السبعينية)

الأرضيات هنا، بحسب لغة ق. يوحنا وحسبما تكون الكلمات صادرة من فم المسيح وتشبيهاته، فهي تعني الأمور الروحية كالميلاد الثاني إنما مشروحة على المستوى الجسدي بأمثال أرضية «كالريح التي تهب»، أو الجسد «كالخبز المكسور»، أو الدم «كالخمر الممزوج في الكأس»؛ فإذا لم يستطع اليهود أن يؤمنوا بالروحيات بالرغم من تجسيدها على مستوى فهم الأرضيات فكيف يؤمنون بها لو استعلنها لهم على مستوى جوهرها السمائي والإلهي؟

واضح جداً أن عجز معلم إسرائيل هذا المرموق الذي جاء ليمثل أعلى طبقة متعلمة في إسرائيل،

أقول إن عجزه في ملاحقة شرح الرب للميلاد الثاني للإنسان من الماء والروح بالرغم من أن الرب أعطاه مثلاً موازياً من الأمور الأرضية، هذا العجز جعل الرب يقتصد جداً في التعمق في شرح الأمور الروحية التي تتبع حتماً الميلاد الجديد والتي تختص بصورة الإنسان ومؤهلاته وكفاءاته في رؤية الله والدخول إلى الملكوت، بل وجعله يكفُّ عن الإسترسال في أمور السماء نفسها، وهذا أمر يحزُّ في نفوسنا. هذا التعجيز عينه واجهه بولس الرسول عند الإسترسال في أسرار الروح للكورنثيين: «وأنا أيها الإخوة لم أستطع أن أكلمكم كروحيين بل كجسديين، كأطفال في المسيح سقيْتُكُم لبناً لا طعاماً لأنكم لم تكونوا بعد تستطيعون بل الآن أيضاً لا تستطيعون» (١كو٣: ١و٢). ويرد على هذا الكلام سفر العبرانيين: «لأن كلَّ مَنْ يتناول اللبن هو عديم الخبرة في كلام البر لأنه طفل وأما الطعام القوي فللبالغين، الذين بسبب التمرُّن قد صارت لهم الحواس (الروحية) مدرَّبة على التمييز بين الخير والشر» (عب٥: ١٣و١٤). وطبعاً فإن ما يقصده الرب من قوله «الأرضيات» هو النصيب الذي يتلقاه أولاد الله من الروح هنا على الأرض، مشروحاً بأمثلة أرضية مثل الميلاد من الماء والروح، وهو يختص بالسلوك والحياة هنا. السماويات هي النصيب المعدُّ لأولاد الله في السماء، وهو الجزء الأعظم والأكمل للخلاص الذي بُديء به هنا. لأن الميلاد الثاني وإن كان يحدث الآن في هذا الزمان وعلى الأرض، ولكنه أصلاً وبالنهاية هو لحساب الملكوت والحياة مع الله.

وكلام الرب لا يفيد أنه لن يتكلم أو يُعلِّم عن السماويات عامة، بل الكلام موجَّه للفريسيين الذين عجزوا عن اللحاق ببداية المسيرة الروحانية بالميلاد (من الماء والروح). فكيف سيقبلون مثلاً الأكل من الجسد والدم الإلهيين، أو «أنا والآب واحد»، أو الفداء بدم ابن الله، أو القيامة من الأموات، أو الصعود والجلوس عن يمين الآب؟

ب ــ الحديث غير المباشر مع نيقوديموس (٣:١٣ــ ٢١):

وتستمر فيه المقابلة بين القديم والجديد على النحو التالي:

القديم: الحية النحاسية المرفوعة على خشبة، والمريض الناظر إليها يُشفى من عضة الحية.

الجديد: «هكذا ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية».

الاستعلان: موت ابن الله على الصليب.

القديم: ظلمة الأعمال الشريرة ــ بُغْضة النور ــ الدينونة.

الجديد: الإقبال إلى النور بأفعال الحق المعمولة بالله.

الاستعلان: «**النور** جاء إلى العالم».

٣:١٣ **«وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء».**

يقول بعض من الشراح إن الكلام مع نيقوديموس قد انتهى عند الآية السابقة (١٢)، ولكن معظم الشراح قالوا بانتهاء الحديث مع نيقوديموس عند الآية (١٥). وربما يكون بعض الآباء قد أخذوا بهذا الفكر، ولكن لا يوجد قط ما يبرر هذا وذاك. فكلام المسيح واضح ومُسترسَل، بل ومتحمِّس لكي يعطي نيقوديموس أقصى ما يمكن من عناصر التجديد والحياة الأبدية التي جاء من أجلها.

ويلزم هنا أن ننبه ذهن القارىء لبداية حديث نيقوديموس بقوله: «**يا معلم نعلم أنك أتيت من الله "مُعلِّماً"...**». هنا في الواقع يقسم نيقوديموس نظرته للمسيح إلى جزئين: **الأول: شخص المسيح، والجزء الثاني: رسالته.**

وعلى هذا القياس، كان ردُّ المسيح المسترسل الطويل. فبدء كل ذي بدء هو أن المسيح لم يجىء معلماً يعلِّم بعلم أفضل، بل جاء ليعطي حياة أفضل ـــ من فوق حيث أتى ـــ فهو لا يعلِّم علم الملكوت بل يلد من روحه، من السماء، أبناءً جدداً للملكوت. أما من جهة شخصه أنه أتى من الله مُعلِّماً فقد ردَّ المسيح أنه نزل من السماء ـــ بعمل سيشرحه حالاً ـــ (الإرتفاع على الصليب والبذل والحياة الأبدية)، وسيصعد إلى السماء، ليبقى هناك. لأنه هو من هناك! وهكذا يستمر المسيح.

كذلك ينبغي أيضاً أن ننتبه، لأن الميلاد الذي جاء المسيح ليعطيه «**من فوق**»، هذا الذي صَعَب على نيقوديموس فهمه وتفسيره، سيبدأ المسيح ليوضح له سهولة الميلاد من فوق كونه هو «**من فوق**»، وكون ارتفاعه (على الصليب) سيعطي الحياة الأبدية التي هي عنصر الحياة في الميلاد من فوق. لهذا ينبغي الإلتفات إلى الترابط بين عناصر الحديث، لأنها غاية في العمق.

تبتدىء الآية هنا بحرف «و» καὶ وهي تصل الكلام بالسابق مع إعطاء فكر جديد يفوق في قوته ما ذُكر سابقاً. فالمعنى في جملته يكون هكذا: ولو أنه يوجد مَنْ لا يصدق أمور السماء، ولكن الذي يتكلم هنا عن أمور السماء هو مَنْ نزل من السماء، ابن الإنسان (بالتجسد) وهو أصلاً في السماء! إلا أنه لن يمكث على الأرض كثيراً فهو سيصعد إلى السماء كما كان. والكلام يحوي

معاني أخرى داخل مضمون هذا النزول والصعود وهي أسرار السماء، ويلزم أن ننفتح لقبوها كما أنه يلزم أن نفتح أعين قلوبنا لإدراك مَنْ هو هذا: «**ابن الإنسان**» الذي نزل من السماء لنتعرف عليه شخصياً لأنه سيوضح نفسه بأعماله.

«ليس أحد صعد إلى السماء»:

«صعد» ἀναβέβηκεν هنا الفعل في المضارع التام الذي يفيد الحدوث المكتمل والمستمر إلى الآن (perfect). ولذلك أضاف «ابن الإنسان **الذي في السماء** (الآن)»، ويلزم هنا أن نذكر ما سبق أن قاله ق. يوحنا: «الله لم يَرَهُ أحد قط. الابن الوحيد الذي **هو في حضن الآب** هو خَبَّر».

والمعنى أنه ليس إنسان قط استطاع أن يرتفع إلى مناطق الحق العليا ليتحقق منها، ولا أحد أيضاً أُعطيت له أسرار السموات إلا «ابن الإنسان» الذي يحمل في كيانه البشرية كلها ويمثلها تمثيلاً. فهو وحده عنده معرفة الحق المطلق بجملتها، ليس كَمَنْ يستقبلها أو يتعلمها، بل هي تنبع فيه كَمَنْ يمتلكها. وهو لما صعد إلى السماء، لا يكون كَمَنْ يرتفع، أو يُرفع، فهو يحمل مجد الصعود في ذاته، لأنه هو على الأرض ليس كَمَنْ يقيم أو يستوطن بل كزائر نزل من السماء لمهمة ورسالة — بالتجسد، فالسماء هي وطنه. لذلك فأمور السماء كلها هي معرفته الخاصة، وليس كأنه يتعرف عليها كشيء ليس له، فهي صورة من حياته جاء ليورِّثها لنا. وهنا فعل **«الصعود»** تم مرة واحدة مكتملة الفعل.

«نزل من السماء»:

«نزل» καταβάς وهو فعل في زمن الماضي البسيط aorist. ويلزم أن ننتبه أن قوله «نزل من السماء» هو التعبير الذي يتجسم لنا في قوله: «والكلمة صار جسداً» حيث جاء الفعل **صار** ἐγένετο أيضاً في زمن aorist كتعبير عن صحة حدوث التجسد في صميم الزمن. غير أن زمن الـ aorist لا ينفي استمرارية النزول، ولذلك جاء نفس الفعل في آية أخرى في زمن المضارع المستمر καταβαίνων الذي يفيد دوام النزول، لأن التجسد أو النزول فعل حدث καταβάς ولا يزال حادثاً καταβαίνων وقائماً إلى الأبد.

«لأن خبز الله هو النازل καταβαίνων من السماء، الواهب حياة للعالم» (يو٦: ٣٣) — يلاحظ هنا أن النزول في حالة الدوام — وموطن صاحب هذا الجسد هوالسماء أصلاً: «ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبي يعطيكم **الخبز الحقيقي من السماء**».

وكأنما الرسالة الأصيلة للمسيح التي نزل إليها من السماء هي ليعطينا جسده ــ على الدوام ــ خبزاً حقيقياً لنحيا به ــ على الدوام. أما الذين يُعْرِضُون عن هذا الخبز الحقيقي المحيي ويرفضونه، فحجتهم هي هذه: «أليس هذا هو يسوع بن يوسف الذي نحن عارفون بأبيه وأمه فكيف يقول هذا إني نزلتُ من السماء» (يو٦: ٤٢)، «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكله؟» (يو٦: ٥٢). هذه هي عثرة **«إتضاع»** المسيح!! «وطوبى لمَنْ لا يعثر فيَّ.» (يو٦: ٤٢)

وليلاحظ القارىء أن **«النزول من السماء»** هو اصطلاح خاص بالله في العهد القديم: «... ويكونوا مستعدين لليوم الثالث، لأنه في اليوم الثالث **ينزل الرب** أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء» (خر١٩: ١١)، «**فأنزل أنا** وأتكلم معك هناك وآخذ من الروح الذي عليك وأضع عليهم فيحملون معك ثقل الشعب.» (عدد ١١: ١٧)

وتُعتبر الآية التي نحن بصددها: «... إلاَّ الذي **نزل من السماء، ابن الإنسان، الذي هو في السماء**» شرحاً مبسَّطاً غاية التبسيط للتجسد على أساس آيات العهد القديم التي ذكر فيها **«نزول الله»** ولكن استُبدل فيها **«ابن الإنسان»** بدل كلمة **«الله»** بسبب **«ظهور الله في الجسد»** (١تي٣: ١٦). فإذا علمنا أن الذي «نزل من السماء» **هو ابن الله** حينئذ تتضح الآية: «لأني نزلتُ من السماء، ليس لأعمل مشيئتي، بل مشيئة الذي أرسلني.» (يو٦: ٣٨)

والآن إذا انتبهنا إلى **مفهوم** «النزول من السماء» بصورته العامة، نرى أن نزول ابن الإنسان في هذه الآية التي نحن بصددها (١٣) لا يختص فقط باستعلان أسرار السماء بل توصيل رسالة الخلاص والحياة الأبدية، أو باللغة التي تناسب نيقوديموس إعطاء الدخول إلى ملكوت الله.

كما يُلاحَظ أن هذه الآية (١٣)، لو دققنا في مشتملاتها من حيث **رسالة النزول ورسالة الصعود**، نجد أنها تجمع كل أعمال المسيح: التجسد ــ وأعمال الفداء والخلاص حتى الصعود. لذلك لا نستغرب أن الآية التي تأتي بعدها مباشرة (١٤) تتكلم عن أول فعل من أفعال الخلاص وهو الصليب، ولكن في صورة «ارتفاع». تعبيراً عن المجد الذي سيليه حتماً وذلك باستخدام رمز الحية.

٣: ١٤و١٥ «وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان(١٠) لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية».

هنا بداية عمل ابن الإنسان، شرحها المسيح على مستوى فكر نيقوديموس معلم إسرائيل:

ويمكن شرح الموضوع هكذا: قصة سقوط الإنسان بدأت بالحية التي استطاعت أن تسرِّب الخطية القاتلة للإنسان. وقد أفلح الناموس (التوراة) على يد موسى (عدد ٢١: ٧) أن يصوِّر بالرمز الخلاص المزمع أن يتم للإنسان المسموم بشوكة الموت، أي الخطية التي هي من صنع الحية. فانتهز موسى فرصة انتشار الحيات المحرقة أي التي تتلمَّظ بلونها الضارب إلى الحمرة كالنار المحرقة — التي ترمز إلى جهنم — التي بدأت تفتك بالشعب غليظ الرقبة جزاء تمرده على الله مرة ثانية كأبيهم آدم. فأقام موسى بمشورة الله الذي يصوِّر أشباه السمويات وظلها، تمثال حية نحاسية حمراء وأقامها على عود من الخشب عالياً في وسط الشعب؛ وأمر أنَّ كلَّ مَنْ تلدغه حية، عليه **فقط أن ينظر إلى الحية** بإيمان فيُشفى.

فالحية، كرمز، هي حاملة الموت؛ ولكن تمثال الحية النحاسية، هو حيَّة ميِّتة، سُمُّها مقتول. هكذا اختار الله أن تكون الحية النحاسية هي رمز المسيح الذي أخذ **خطية الإنسان ككلٍّ** في جسده ومات بها، فقتل الخطية بالجسد. لهذا يُقال أن المسيح أمات الموت!! ودان الخطية بالجسد، أي حَكَمَ عليها حكماً مؤبداً بالعدم حينما مات بها ثم قام. وبقيامته أعطانا الصليب الذي صُلب

(١٠) لقد راجعنا الآباء في ما قالوه عن الحية النحاسية غير أننا لم نعثر على كبد الحقيقة.

فالقديس يوستين في حواره مع تريفو عندما سأله تريفو اليهودي عن هذا الرمز كان جوابه: [أنا لا أستطيع أن أعطي جواباً في هذا لأني طالما سألت معلِّميَّ فلم يعطوني جواباً شافياً] (Dial., ch. 94, ANF, Vol. I, p. 246).

القديس أمبروسيوس يقول: [إن حيَّتي هي حية صالحة لأنه لا يخرج سمٌّ من فمها بل الدواء الشافي] (في شرحه على المزمور ١٤٣ عظة ٦ مقطع ١٥).

يقول أوريجانوس: [إن الحية النحاسية هي الشبه للمخلِّص، ولكنه لم يكن هو الحية لكنه كان يمثلها] (عظة ١١ على حزقيال مقطع ٣).

القديس غريغوريوس النيسي يشرح ذلك مطولاً فيقول: [إن الناموس يوضِّح لنا أن المنظور على الصليب كان على شبه الحية، ولكن لم يكن حية كما يقول بولس الرسول: «في شبه جسد الخطية» (رو٨: ٣) لأن الحية الحقيقية هي الخطية، والذي يلجأ للخطية يأخذ طبيعة الحية. فالإنسان أُخلي من الخطية بواسطة الذي أخذ شكل الخطية وصار على شكلها وهو الذي تغير بشبه الحية] (De Vita Moysis, PG 44,413,415). وقد حذا حذوه ذهبي الفم وثيئوفيلس الأنطاكي.

ويقول القديس إبيفانيوس أسقف قبرص نفس الفكرة تقريباً وأضاف: [إن الحية كانت تمثل المسيح. فاليهود حينما عاملوا المسيح كأنه حية، فقد أصابهم سمُّ الحية أي الشيطان. وحينئذ جاء الشفاء للذين عضَّتهم الحية حينما رُفعت الحية] (Haer. XXXVII, ch. 7, pp. 273 f).

القديس أغسطينوس يقول: [إن رفع الحية هو موت المسيح] (Aug., De pecc. mer. et rem., I, 32).

عليه كصكٍّ ينص **حكم إعدام الخطية، وموت الموت** حتى نُشْهِره أمام الضمير، وفي يوم الدينونة العتيد. فالآن، الذي ينظر إلى الصليبِ والجسدُ عليه ميتاً، مؤمناً بما صنع المسيح بالخطية، فهو يحيا «الذي حمل هو نفسه خطايانا في جسده على الخشبة لكي نموت عن الخطايا فنحيا للبر» (١بط ٢: ٢٤).(١١)

فلكي نفهم كل سر رفع الحية النحاسية في البرية، يلزم أولاً فهم الحقيقة التي قام عليها هذا الرمز قديماً. أي أن موت المسيح على الصليب وما تم بسببه من الخلاص والحياة من موت محقق ــ هو الذي يشرح معنى رفع الحية النحاسية في البرية. أي أنه يلزم قراءة الآية من الآخر كالآتي: «ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان ــ كما رفع موسى الحية في البرية»، لأنه بدون سرِّ الحياة التي تمت بموت المسيح على الصليب، يبقى مَثَل الحية النحاسية المرفوعة في البرية لغزاً يستحيل حلُّه.

«هكذا "ينبغي" "أن يرفع" ابن الإنسان»:

: so must = οὕτως δεῖ

كلمة **«ينبغي»** ضعيفة في تعبيرها عن المقصود في الأصل اليوناني، فكان الواجب أن تكون الترجمة **«يتحتم»** must. ولماذا يتحتم؟

في الحقيقة إن استخدام كلمة **«ابن الإنسان»** هنا هي تعبير مكشوف عن التجسد، فيلزم للقارىء أن ينتبه دائماً حينما يقابل كلمة «ابن الإنسان»(١٢) أن يترجمها في ذهنه إلى ما تم في التجسد، وخاصة اتحاد اللاهوت بالناسوت في شخص المسيح. فلأن ابن الله **«تجسد»**، أي صار «ابناً للإنسان»، فهنا **سرُّ الضرورة الحتمية أن يتألم** أي يرتفع على الصليب؛ لأنه لم يتجسد إلاَّ لكي يتألم بالجسد ويموت ليتم الخلاص للإنسان: «لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة»!! (يو١٢: ٢٧) ولكن لأن الجسد متحد باللاهوت، فبمقتضى لاهوت ابن الإنسان **أصبح من المحتم وبالضرورة** أن يقوم ابن الإنسان و يرتفع، أي يصعد إلى السماء حيث كان!

ولكن لأن أسلوب ق. يوحنا في التسجيل عميق غاية العمق ومتسع غاية الإتساع، وكل ذلك في اختصار بالغ الشحّ، استخدم هنا بلسان المسيح **«الإرتفاع»** لكي يشمل **الإرتفاع على الصليب** في ألم، ثم بالتالي الإرتفاع **أي الصعود إلى السماء** في مجد.

(١١) أنظر ما جاء عن الحية النحاسية في المدخل ص ٩٨.

(١٢) راجع المدخل ص ١٩٦ــ٢٠٣.

والآن إذا عُدْنا لقراءة الآية مرة أخرى **من الأول**: «وكما رفع موسى الحية في البرية...» يظهر المعنى القوي المقصود وهو أنه كما حدث الشفاء للذين عضّتهم الحية في البرية عندما رفع موسى الحية النحاسية، «هكذا يتحتم أن يُرفع ابن الإنسان» ليحدث الشفاء من الخطية والموت الذي من صُنْع الحية القديمة.

لاحظ أن في «الرفع» ὑψωθῆναι سواء كان للحية النحاسية أو المسيح يكمن سر الخلاص.

«لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية»:

لا زلنا ننظر، بالتوازي، شعب إسرائيل في البرية وهو منطرحٌ على الأرض جثثاً هالكة من سُمّ الحية، ولكن كلُّ مَنْ أطاع وآمن ونظر إلى تمثال الحية النحاسية عاش.

المنظر هنا يعود و يصوِّر المسيح مرفوعاً ــ في لغز ــ لأن ميعاد الصليب لم يَجِئْ بعد، والكلام لنيقوديموس. فكلُّ مَنْ يرفع قلبه بالإيمان إليه ينجو من الهلاك الأكثر من هلاك سُمّ الحية المحرقة، الذي يورد الجسد إلى العطب، لأن هلاك عدم الإيمان بالمسيح يغلق على الإنسان في حضن الحية القديمة (إبليس) التي تمتص منه رحيق الحياة أولاً بأول، ولا ينتظر بعد الموت إلاَّ الموت، حيث نشيد الهاوية: «إذا رَجَوْتُ الهاوية بيتاً لي وفي الظلام مهّدتُ فراشي، وقلتُ للقبر أنت أبي وللدود أنت أمي وأختي، فأين إذاً آمالي، آمالي مَنْ يعاينها؟ تهبط إلى مغاليق الهاوية إذ ترتاح معاً في التراب.» (أيوب ١٧: ١٣ــ١٦)

«تكون له الحياة الأبدية»:

الذي كان ينظر إلى الحية النحاسية كان يقوم ويحيا، تماماً وهكذا مَنْ بالإيمان ينظر إلى المسيح ἐθεασάμεθα تدبُّ فيه عناصر الخلود، وتنسحب منه قوى الموت والفساد فلا يسود عليه الموت بعد، لأنه بعد الموت تكون له الحياة الأبدية!!

و يلذ لنا أن نتأمل في أسلوب الآية البديع في قوله «تكون "**له**" **الحياة** الأبدية»، وليس بمجرد «يحيا إلى الأبد» وكأن الحياة الأبدية لم تَعُدْ مِنّة أو حَسَنة من حسنات الله عليه، بل تصبح الحياة الأبدية له وكأنه **يمتلكها**، فتحلُّ كل بركاتها عليه. و بأسلوب القديس بولس الرسول لا يمتلكها فقط بل «**يرثها**» **!!**

٣:١٦ **«لأنه هكذا أحبَّ الله العالمَ حتى بذلَ ابنه الوحيدَ لكي لا يهلِكَ كلُّ مَنْ يؤمنُ به بل تكونُ له الحياةُ الأبدية».**

نلاحظ أن في الآيتين المتلاحقتين تتكرر نفس الكلمات **«لا يهلك كلُّ مَنْ يؤمن به»**. هذا هو التشديد الذي أتت من أجله الآية الثانية، فالتركيز فيهما هو على **الإيمان**. الكلام مُوَجَّه لنيقوديموس، ليس العمل بالناموس هو الذي يؤدي إلى الحياة الأبدية ولا التعليم ولا الآيات بل **«الإيمان»**. والمسيح إذ أعطى مَثَل ورمز الحيَّة النحاسية، يعطي أبسط صورة **للإيمان بكلمةِ** وعد الله على يد موسى أن مَنْ ينظر إلى الحية النحاسية المرفوعة يُشفى؛ ثم يطبِّق على ابن الإنسان، ليرتفع بالإيمان من مجرد كلمةٍ وعدٍ إلى استعلان أول وأبسط صورة للفداء: «ابن الإنسان» مرفوعاً عن الأرض بمعنى الموت، ثم يكمِّل الاستعلان إلى أقصاه أن ابن الإنسان المرفوع عن الأرض هو في حقيقته ابن الله المبذول للموت.

كان منظر الحية النحاسية معلقة على عود مرتفع في وسط إسرائيل منظراً عجيباً وغريباً، ليس على الشعب الموجوع من الحيَّة فقط بل وعلى جميع علماء اليهود والربيين. فهذه الحادثة أو المعجزة لم يستطع الفكر اليهودي أن يلاحقها.

فكم بالحري مثيلتها أن «يُرفع ابن الإنسان» ليكون منظراً للناس (ميتاً على خشبة)، حتى كلُّ مَنْ ينظر و يؤمن، ينجو من الهلاك الأبدي و يأخذ نصيباً في الحياة الأبدية. صحيح أنه منظر معروض للإيمان، والإيمان لا يعتمد على المنظور. ولكن ما هو جوهر هذا المظهر؟

هنا يتحتم «الارتفاع» فوق هذا الرمز القديم، ونتجه إلى السماء لكي نكتشف السر والجوهر عند الله:

«لأنه هكذا أحب الله العالم» ــ سر محبة الله للعالم:

«لأنه» γάρ ، **«لأن»** يأتي بعدها جملة مسبَّبة تفيد رداً على كل ما سبق وأُشكل فهمه. المسيح هنا يعطي العلَّة والسبب في قوله «ينبغي **أن يُرفع ابن الإنسان**»، «كما **رُفعت الحية** على العصاة في البرِّية»، بل و يعطي العلة والسبب في ورود نفس هذه الحادثة قديماً باعتبارها عملاً نبوياً بالتمثيل، فَكَّ المسيح رموزه في مفهوم الصليب. ويمتد الجواب أيضاً ليعطي العلَّة والسبب بل والمعنى في قول المعمدان: **«هذا هو حمل الله الذي يرفع خطية العالم»** (يو١: ٢٩)!! أما العلَّة والسبب فهي أن **«الله أحبَّ العالم»!!!**

موسى رفع الحية النحاسية في البرية، لا لكي يُشفى، بالنظر إليها، الشعبُ الموجوع من عضّة الحية فقط، بل لتكون تصويراً نبوياً بالغ الدقة والتمثيل للعالم كيف يُشفى بالنظر إلى المسيح المصلوب الذي امتصَّ سُمَّ الحية، فأفرغ الحية من سمِّها وأبطل مفعول السم بجسده القائم من الموت حيًّا.

المسيح هنا يربط ربطاً غاية في الإختزال والقوة بين حب الله للشعب الذي اقتناه لنفسه وحبّه للعالم أجمع بكل أممه، بقوله: «**كما رفع موسى الحية**»، **هكذا** «ينبغي أو يتحتم أن **يُرفع ابن الإنسان**». والمقارنة بين الحُبَّين، حب الله لإسرائيل وحب الله للعالم، تبدو شاسعة البون جداً. فأي نسبة هذه بين التفريط في قطعة نحاس مطروقة على شبه حية ميتة، وبين التفريط والبذل للموت لابن الإنسان الذي هو في الحقيقة الابن الوحيد لله على الصليب!! أو بين شفاءٍ من عضّة حيَّة لمتابعة حياة على الأرض، وبين شفاءٍ من موت الخطية لقبول حياة أبدية!!

فلو عرفنا أن «حب الله» يخص طبيعته الأزلية، لأدركنا أن الأمور التي جرى عملها في القديم من جهة رفع الحية النحاسية ثم فك رموزها برفع ابن الإنسان على الصليب التي بدأ المسيح هنا يطرحها في وعي الإنسان، قد سبق وتم تجهيزها في المشورة العليا الأزلية!

مركز العالم عند الله:

لقد كانت التوراة كلها بكل أسفارها شحيحة غاية الشح من جهة ذكر أو حتى تلميح عن محبة الله للعالم. فالأمم في الأسفار منبوذون، بل ولم يفرق أي قول نبوي بين الأمم والأصنام؛ فوضْعُهُم كان موضعاً واحداً دائماً، وامتد هذا التقييم عند اليهود حتى رأوا الأمم «كلاباً» أو في مصافِّهم. في حين نسمع أن الله سبق «**فوعد**» إبراهيم أبا الجنس اليهودي عامة أن في نسله (بذرته) **تتبارك كل الأمم!** من هذا نفهم أن الأمم كانوا ذوي ذكر وحب مكتوم عند الله، وإنما من وراء اليهود الشعب المختار.

ثم إذ نخطو خطوة أخرى، نرى من ثنايا هذا الوعد أن الشعب اليهودي إنما اختير ليكون خميرة جيدة يُلقي فيها الله ببذرة الإيمان والتقوى والعبادة والإخلاص لله، مع محبة خاصة حتى تتخمر الخميرة بفضائل معرفة يهوه وحبه، ثم يعود و يوزعها على كل الأرض لتخمر العجين كله. أو بصورة أوضح أن الله اختار وأحب شعب إسرائيل في إبراهيم **من أجل بركة العالم كله!**

فلما بدأت تفسد الخميرة ــ إلا الجزء اليسير منها ــ فتح الله الباب للأمم لترث ميراث الله في قطعة الخميرة النموذجية التي نجحت وصلحت. وحينئذ صار من العدل وَقْفُ كل الصلات الممتازة والعطايا السخية والعناية الفائقة المحصورة في شعب إسرائيل؛ ليتيسر نقلها إلى الأمم بصورة أعم

وأشمل، وعلى مستوى العلن والروح لا الجسد. هذا أوضحه الإنجيل من فم الرب عند قوله: **«وتكون أورشليم مدوسة من الأمم حتى تُكمَّل أزمنة الأمم»** (لو٢١: ٢٤). ثم أوضحها بولس الرسول بالروح: «فإني لست أريد أيها الإخوة أن تجهلوا هذا السر لئلا تكونوا عند أنفسكم حكماء، **أن القساوة قد حصلت جزئياً لإسرائيل إلى أن يدخل ملؤ الأمم**، وهكذا سيخلُص جميع إسرائيل... من جهة الإنجيل **هم أعداء من أجلكم** وأما من جهة الإختيار فهم أحباء من أجل الآباء، لأن هبات الله ودعوته هي بلا ندامة.» (رو١١: ٢٥ــ٢٩)

كل هذا يوضح أن الله كان يحب العالم، ولكنه لم يستطع أن يمارس حبّه في عالم كان يعبد المخلوق دون الخالق. ولكن لما نضجت الشعوب وبدأت تقرع باب الله انفتحت أحشاء رحمة الله وانكشف سرُّه المخفي الذي كان محجوزاً عن أعين الشعب المدلَّل.

إبراهيم وابنه الوحيد المحبوب المقدَّم ذبيحة؛ وسر بركة الأمم:

وإذا عدنا إلى قصة إبراهيم وكيف قدم **«ابنه الوحيد اسحق الذي يحبه»** بنية تقدمته ذبيحة طاعة لصوت الله، نرى الصورة الأصلية لحب الله نحو العالم المذَّخر في قلب الله منذ الدهور الذي «كان كائناً قبل أن يكون إبراهيم».

فقبل أن يطلب الله من إبراهيم أن يقدم ابنه ذبيحة، وَعَده على أساس **تقواه** أن يكون أباً لأمم كثيرة: «أما أنا فهوذا عهدي معك وتكون **أباً لجمهور من الأمم**، وأثمرك كثيراً جداً **وأجعلك أمماً**، وملوك منك يخرجون» (تك١٧: ٤ــ٦). وبعد أن أطاع إبراهيم ودخل التجربة ونجح وقدّم ابنه فعلاً وفي يده السكين، أن ناداه الله: «وقال بذاتي أقسمت يقول الرب أني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك، أباركك مباركة وأُكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطيء البحر **ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض، من أجل أنك سمعت لقولي.**» (تك٢٢: ١٦ــ١٨)

واضح، إذن، أن الله أحب العالم في إبراهيم قبل أن يكون شعب إسرائيل. ولكن لماذا طلب الله من إبراهيم أن يقدّم ابنه وحيده الذي يحبه إسحق ذبيحة؟؟

لقد كان في هذه القصة أول وأعظم نموذج أو آية نبوية أو رمز(١٣) فيه **إفصاح عن نيّة الله**

(١٣) إعلم أن الرموز هي أفعال تتم بالشكل لحساب التكميل بالجوهر والفعل، فهي جزء لا يتجزأ من الواقع العملي، ارجع للمدخل صفحة ٢٨٧ــ٢٨٨. وارجع أيضاً إلى شرحنا للقب ἐγώ εἰμι حيث نبيّن «كيف رفع المسيح الرمز إلى حق يُعاش لما استعمله في ذاته» (المدخل صفحة ٢٤٢).

في خلاص العالم بتقديم ابنه وحيده الذي يحبه على الصليب. ففي هذه القصة تذكرة دائمة، لليهود خاصة، لكي يدركوا **نيته من نحو العالم**، قبل أن يوجد اليهود، حتى إذا جاء دور التنفيذ يكونون على بيِّنة، وقدمها أيضاً للعالم عامة ولكل الأمم مُسجّلة في الأسفار بغاية الوضوح، لكي يطّلعوا على نيّة الله منذ القديم من جهة نصيبهم المعدّ المذخر لهم في مخازن مراحم الله، حتى إذا جاء الميعاد لا يقولون لماذا كنت قد نسيتنا هذا الدهر كله!

ولكن لمن قدّم إبراهيم ذبيحته، ومن أجل مَنْ كان هذا كله؟

واضح أن الله وضع هذا النموذج العالي السرِّية لينفذه إبراهيم في ابنه وحيده إسحق أبي الشعب الإسرائيلي كله **من أجل الأمم!!!** لأن أجر إبراهيم عن هذه الطاعة العظمى لم يأخذه إبراهيم لنفسه، فهو لم يَرَ الأمم ولا درى ببركاتها، بل **أخذه العالم بسببه** أو **عوضاً عنه!!** وقد نفذه إبراهيم بالنية أعظم وأكمل تنفيذ، فأكمل التاريخ صورة هذا التدبير الإلهي بأن صار شعب إسرائيل ضحية لتدخل الأمم مجال حب الله عوضاً عنهم. ولكن بقى الفعل أو التنفيذ الفعلي، هذه الدهور السالفة كلها، ليُلقى أخيراً على ابن الله الوحيد لكشف سر هذا الحب:

«حتى بذل ابنه الوحيد»:

يلاحظ في الآية السابقة أن الذي «رُفع» **هو ابن الإنسان**، وهنا في هذه الآية الذي **«بُذل»** في مضمون **الإرسال** هو **«الابن»**، وهكذا يتدرَّج المسيح من «رفع الحية» إلى «رفع ابن الإنسان» إلى إرسالية «الابن الوحيد»، تَدرُّجاً من أسفل إلى أعلى.

هنا أول استعلان عن **«أبوة الله»** في إنجيل ق. يوحنا بعد المقدمة. و يلاحظ القارىء أن التركيز هنا على «الله **كأب**» بالرغم من أن البذل واقع على الابن كما حدث في إبراهيم وابنه إسحق!! فعملية الخلاص تبدأ من الله وليس المسيح، والجهد الشعوري وآثار «البذل» بل والتضحية الإلهية واقعة على **الآب** أكثر مما هي واقعة على الابن: «الذي **لم يُشفق** على ابنه، بل **بذله** لأجلنا أجمعين، كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شيء!» (رو٨: ٣٢). وإن كان الآب لم يشفق على ابنه، فهو في الحقيقة وعين الأمر لم يشفق على نفسه؛ فالابن قائم في الآب قياماً كلياً لا يمكن أن يحدث له شيء بدون شركة الآب. إن طاعة إسحق لأبيه لما حمل «الحطب على ظهره» (**الصليب**) وتمدُّده على المذبح الذي بناه إبراهيم أعطيا لإبراهيم أبيه الكرامة المضاعفة في عين الله، مع أن الضحية كانت في إسحق، إلا أن قوة الذبيحة وطاعتها تركزت بصفة أساسية لحساب إبراهيم الأب!! بل إن قوة الذبيحة التي **قدّمها** «إبراهيم» بالنيّة كأب هي التي **عادت بالبركة على كل شعوب الأرض!** هكذا فكل الذي صنعه المسيح وصُنع في المسيح هو لحساب الآب.

من هنا نفهم لماذا ألحَّ المسيح في إنجيل ق. يوحنا أن يعطي **كل الكرامة وكل المجد مع كل المشيئة وكل العمل، وكل القول**، للآب بل وحتى الكأس: «الكأس التي **أعطانيها الآب** ألا أشربها» (يو١٨: ١١)، وكأنها كأس الآب!

لذلك من اللائق جداً أن ننتبه إلى أن الخلاص كله الذي أكمله المسيح في هذا البذل الذي تحمَّله الابن هو بالأساس «**عملية حب قائمة في قلب الله ومنتهية إليه**»، ولكي **نُقيِّم هذا الحب الأبوي لله من نحو العالم**، يكفي أن نقيس **مقدار البذل ونوعه**، **فهو** ليس مسألة فكر أو مجرد مشيئة أو تنازل من جهة الله في تحمُّل أي تضحية من جهة الكرامة، بل إن البذل **عملية مسَّت طبيعة الله** وجرحت مشاعر الأُبُوَّة الإلهية في عمق ذات الله كأب يبذل ابنه للعبودية والمذلَّة والموت!! إذ تغرب ابن الله الوحيد، القائم في حضن الآب، على الأرض في الجسد الذي قَبِلَ فيه المهانة والاحتقار والظلم والاضطهاد والبُغضة ثم الملاحقة للقتل حتى الذبح على الصليب، والآب تحمَّل عمق الفعل ونتائجه. وهذا واضح من قول المسيح: «العمل الذي أعطيتني **لأعمل** قد أكملتُه» (يو١٧: ٤). هذا هو قياس درجة حب الله من نحو العالم. وليس بين درجة **حب الله من نحو العالم** ودرجة **البذل التي عاناها الله في ابنه** أي مبالغة بل هي موازية في الحجم والقدر، فالبذل مساوٍ لدرجة الحب تماماً.

فالحب تَساوى مع البذل، والبذل جاء متساوياً مع الحب. وهذا الارتفاع الصارخ والباهظ في الثمن المدفوع جاء مساوياً للنتيجة المطلوبة وهي خلاص العالم وفداء وتبني الإنسان!!

وهنا يتبلور السر الخطير وينطق نطقاً أن **الفداء بالابن** الوحيد، **أنشأ ــ ولا بد أن يُنشيء ــ بُنوَّة فريدة للإنسان!**

فالله كان لا يمكن أن يفرِّط في ابنه ولا يشفق عليه، إلاَّ إذا كان الثمن والهدف مساويين تماماً للبذل! فبنوَّة **الإنسان** لله التي آلت للإنسان بموت الابن الوحيد كريمة وكريمة جداً في عين الله الآب.

وبالنهاية نجد أن محبة الله للعالم تعادلت مع بذل الابن الوحيد على الصليب تمام التعادل، وبذل الابن الوحيد على الصليب تعادل تماماً مع منح الإنسان درجة البنوة لله حبّاً وصُلحاً وسلاماً ومسرةً.

إذن، كم بالحري ينبغي أن تكون هذه الهبة، **هبة التبنِّي**، كريمة وعزيزة وفائقة القدر عندنا؟

«لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية»:

هنا يضع المسيح قوة **«حب»** الله الآب الذي أنشأ قوة **«بذل»** عالية القدر والقيمة ـــ اشترك فيها الآب والابن معاً ـــ لتساوي في فعلها **«رفع الهلاك»** عن الإنسان.

أما بالنسبة لقياس حالة الهلاك التي يرزح تحتها كل إنسان في العالم فذلك يمكن قياسه؛ فمن جهة الإنسان نجد الخطية قد ملكت على الإنسان غرائزه وسلوكه، فأفقدته الحركة نحو الحق والبر والتعفف، وورَّثته العجز في الرؤية، فغاب الله القدوس وارتضى الإنسان بالموت كنهاية لشقائه على الأرض.

أما من طرف الله فقد وقفت الخطية من الإنسان موقفاً معادياً من الله، فصارت كحجاب عازل ليس فقط يحرم الإنسان من الاتصال المباشر بالله، بل ومنعت الله من أن يسكب حبه على الإنسان الذي خلقه على صورته ليعيش معه و يستمتع بالحياة الأبدية خُلْواً من حزن أو كآبة أو تنهُّد في نوره العجيب.

فكان لا بد أن تُرفع الخطية من الوسط بكل آثارها المخرِّبة والمهلكة من جهة الإنسان وفي نظر الله معاً، لكي يسكب الله حبه من جديد.

أما من جهة الإنسان: فتحتم أن يولد من جديد، يولد ثانية من الله كما جبله الله يوم جبله في المرة الأولى، إنما هذه المرة ليس بمجرد نفخة بل باتحاده بروح الله، خلقة جديدة بكل مواهبها السماوية.

أما من جهة الله: فبأن تنفتح أحضان مراحم الله الأبدية بلا مانع ليصنع بابنه خلاصاً أبدياً وليسكب محبته، كل محبته الأبوية في قلب الإنسان ومعها الحياة الأبدية بعمل روح الله القدوس.

و بالنهاية نرى في هذا الفصل عوامل الأساس الراسخ الذي أرساه الله لتكميل خلاص العالم:

العامل الأول فيها، وهو الأمر الذي قضى به الله قضاءً، وانتهى ولن يتراجع عنه، ولا يمكن التراجع عنه، هو أنه **أعلن عن حبه عملياً «هكذا أحب الله العالم» بتقديم حياة ابنه على الصليب** من أجل كل إنسان.

العامل الثاني إرسال روحه القدوس «الريح تهب حيث تشاء» كوعد ثابت من جهة الله لا يفارق الإنسان، بل يسقيه الروح والمحبة والحياة، والامتداد بوعي الإنسان لفحص أعماق الله

والإغتذاء من نعمته. وقد أكمل الله وعده هذا بعد أن أكمل الابن الوحيد أساسيات الخلاص والفداء.

والعامل الثالث لتكميل هذا الخلاص ولإطلاق هذه المحبة لتعمل عملها بلا مانع في طبيعة الإنسان لتخلقها من جديد، لزم **إيمان الإنسان** «كل من يؤمن به...». ولكن الإيمان المطلوب ليس بالفكر ولا بالجهد والقياس، ولكن **«الإيمان بحب الله وتصديق وعده»** الذي هو مستعد على مستوى القَسَم الذي أقسم به لإبراهيم، بأن يستقبل الخاطىء يوم يعود إليه ربما هكذا: 'بذاتي أقسمت يقول الرب ـ "بذل ابنه" ـ لأنك آمنت بابني الذي بذلته على الصليب من أجلك فإني أباركك بركة... وأجعلك فيه ابناً لي لأجل أنك صدّقت حبي!' في هذا يقول حزقيال النبي: **«حيٌّ أنا، يقول السيد الرب، إني لا أُسَرُّ بموت الشرير، بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا»** (حز٣٣: ١١). وهكذا ليس على الله عمل أكثر من المحبة التي تحققت بموت ابنه عن كل خطاة الأرض، كما ليس على الإنسان عمل أقل من الإيمان بهذا الحب وهذا البذل ليقبل الحياة ويحيا.

المفردات اللغوية للآية:

«أحبَّ»: ἠγάπησεν

أقوى صياغة باللغة اليونانية للتعبير عن المحبة(١٤)، وقد جاءت المحبة هنا مُشَدَّدة بأكثر من معناها حينما أضاف إليها «هكذا» أو «بهذا القدر أحب الله». وللعلم، فإن ق. يوحنا استخدم «أحب» «أغابي» في إنجيله ٣٦ مرة، وهذا يكشف عن ضرورتها المُلحَّة في التعبير عن لاهوت ق. يوحنا أو بالحري علاقة الله بالناس. وهذا واضح غاية الوضوح في أنه جعل «المحبة» توازي في فعلها التجسد والموت معاً. «هكذا **أحب**... حتى **بذل**...» ولكن هذا الحب بهذا القدر والتكثيف والفعل الممتد، سواء في التجسد بكل أصالته وجماله، أو في الموت بكل هيبته وجلاله، لا يُدرَك قوته حقاً أو يُستعلن عمقه وطوله وعرضه وارتفاعه إلا في الذي يؤمن بالابن، فينال هذا العطاء بكل سخائه و يعيش هذه الحقيقة الإلهية، وحينئذ يتحقق فعلاً أن الله محبة.

«بَذَلَ»: ἔδωκεν

في الحقيقة الترجمة العربية هنا غنية، فقد جاءت بالمعنى ووفَّت حق امتداده ليشمل **«الإرسال»** إلى العالم بالتجسد، كما يشمل تقدمته مبذولاً على الصليب.

---

(١٤) راجع المدخل صفحة ١٧٠ الفقرة الأخيرة بالذات.

ومما يحقق لنا هذا المعنى المتسع للكلمة، كيف استخدمها بولس الرسول لتوفي نفس المعنى هكذا: «الذي **لم يُشفِقْ على ابنه** بل **بذله** = παρέδωκεν لأجلنا أجمعين، **كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شيء!!**» (رو٨: ٣٢)

«ابنه الوحيد»: τὸν μονογενῆ

«ابنه الوحيد» جاءت هنا لتزيد من معنى فداحة البذل وقوة الحب معاً. ولا تخلو هذه الكلمة «ابنه الوحيد» من تلميح غاية في الرقة والحساسية إلى المساوي الأقل والضعيف ـ ومع الفارق ـ عند إبراهيم بالنسبة لإسحق!

«لكي لا يهلك»: μὴ ἀπόληται

هذه الكلمة تُعتبر من خصائص اللغة عند ق. يوحنا، وهي إما تأتي غير متعدية (بمعنى يَهلَك) أو متعدية على مفعول به (بمعنى يُهلِك)، وقد يكون في هذه الحالة المفعول به هو نفس الفاعل بمعنى أن الإنسان (يُهلِك ذاته)، وحينما تأتي غير متعدية قد يكون المعنى الضياع أو الفقدان «اجمعوا الكسر الفاضلة لكي **لا يضيع** شيء μή τι ἀπόληται » (يو٦: ١٢)، أو قد يكون المعنى «**الهلاك**»، كما جاءت هنا: «لكي **لا يهلك**» (يو٣: ١٦)، أو قد يكون المعنى «الزوال والإبادة»: «اعملوا لا للطعام **البائد** ἀπολλυμένην بل للطعام الباقي للحياة الأبدية.» (يو٦: ٢٧)

وواضح أن الهلاك أو الفناء أو الإبادة هي نصيب الشيء أو الشخص الذي ينفصل عن الله و يبقى متمركزاً في نفسه.

«الحياة الأبدية»: ζωὴν αἰώνιον

في غير إنجيل ق. يوحنا تعني حياة الدهر الآتي بحسب مفهومها اليهودي الرباني التقليدي، ولكن عند ق. يوحنا تميل أكثر إلى معنى الحياة التي بلا نهاية أو الحياة مع الله «**كعطية حاضرة**» الآن من الله، وهي تقابل ملكوت الله في الأناجيل الأخرى. وملكوت الله أيضاً عند ق. يوحنا، ولو أنها عطية الدهر الآتي، ولكن المسيح بدأها الآن وصارت حقيقة مُعاشة في المسيح. (١٥)

(١٥) أنظر المدخل صفحة ١٣٦ــ١٣٨ بخصوص الحياة الأبدية المعاشة منذ الآن بحسب مفهوم ق. يوحنا.
وانظر أيضاً شرح الآية يو٣: ٣ بخصوص الترادف بين معنى الملكوت والحياة الأبدية في إنجيل يوحنا (صفحة ٢٠٧ من هذا الكتاب).

٣:١٧ «لأنه لم يُرسِلْ الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليَخلُص به العالم».

«قد شمَّر الرب عن ذراع قُدسهِ أمام عيون كل الأمم
فترى كل أطراف الأرض خلاص إلهنا.»
(إش٥٢ : ١٠)

يلاحظ القارىء ازدواج الفكر السلبي ثم الإيجابي. ففي السالفة «... جاء لكي لا يهلك، بل يكون له الحياة». وهنا «لا يدين بل ليخلص». هذا أسلوب ق. يوحنا وهو نوع من التحديد القاطع للمعنى، كما سيجيء في الآيات القادمة أيضاً الإيجابي ثم السلبي: «الذي يؤمن لا يدان والذي لا يؤمن فقد دين».

كما سيجيء أيضاً في الآية بعد القادمة: «أحب الظلمة أكثر من النور، كل من يعمل السيئات يبغض النور وكل من يفعل الحق يُقْبِل إلى النور».

كانت كل تحقيقات الربيين عن نبوات مجيء المسيّا تفيد أنه سيعلّي من شأن الأمة و يدين الشعوب و يسحق الأمم و يبيدها، وكان روح هذا التعليم بالذات أحد العثرات والمعوقات التي وقفت حائلاً دون قبول المسيح، وكان نيقوديموس أحد الأئمة الذين تشبعوا بهذه الروح العدائية نحو أمم العالم و يقابلها روح التعالي والفخار بالعنصرية اليهودية والإعتداد الشنيع بالفريسية وإتقان التعليم بالحرف. هنا يصحح المسيح و يوضح أن هدف المسيّا الأساسي هو الخلاص لكل أمم العالم وليس الدينونة. وإن تحتمت الدينونة، فلا تكون هدفاً لمجيء المسيّا قط، وإنما جزاءً للذين انعمت بصائرهم وانسدّت آذانهم وصاروا من سواقط الخلاص، وهذا وذاك لليهودي قبل الأممي!!

ولا ينبغي أن يغيب عن البال أن الحكم بالدينونة والموت والهلاك هو القانون الذي يرزح أصلاً تحته كل بني آدم، لأن الكل وُلد بالخطية والكل أخطأ وزاغ. والمسيّا جاء ليرفع الخطية، و بالتالي قانون الموت واللعنة، فالذي يرفضه يحكم على نفسه بالبقاء تحت الخطية واللعنة!!! بل و يكمّل، برفض المسيح، مكيال خطاياه.

والذي يفحص فكر إنجيل يوحنا يشعر كأنه يدافع عن شيء و يرفع الملامة عن الله! نعم، فقد حدثت الكارثة وسقطت أورشليم واندكّت حتى التراب وتخرّب الهيكل وحُرق عن آخره. هذه هي الخلفية التي يكتب ق. يوحنا على ضوئها إنجيله. فهو يستميت ليبرىء الله من كل ما حدث، الذي بدا وكأنه نقمة مروعة حلّت بالمعاندين، فالعلامات بحسب النبوات كانت واضحة في سلوك

كل الطبقات المتعلِّمة مع كل أعضاء المجمع مع غالبية الشعب، إن لم نقل كله في رفض صوت الكلمة، إلا أفراداً يعدون بالعشرات وحسب.

ق. يوحنا يكتب إنجيله الآن ونحن في نهاية القرن الأول، وأورشليم سقطت بهيكلها سنة ٧٠م، أي مضى الآن ثلاثون سنة تقريباً، وقد تشتت الشعب وخربت البلاد وانتهى اليهود إلى الصفر، لذلك يقول إن الله لم يرسل ابنه إلى العالم ليدين العالم، أي لم يكن خراب أورشليم وتهدُّم الهيكل وحرقه على مستوى الدينونة. لأن رسالة الابن الوحيد هي تنفيذ وصية الحب الأبوي من نحو العالم للخلاص حتى لا يهلك أحد، كلُّ من يؤمن. أما ما حدث لأورشليم والهيكل وللأمة اليهودية، فهو النصيب الذي حدَّده المسئولون مع الشعب لأنفسهم؛ لقد حكموا بأنفسهم على أنفسهم بانتهاء زمان الحب لما رفضوا الابن الحبيب، وحكموا على الهيكل بالهدم لما هدموا هيكل ابن الإنسان بالرغم من تحذيره لهم. لقد سَعَوْا في الظلمة ضد النور، فأدركتهم الظلمة وانتهى لهم زمن النور. أما الذين كانت أعمالهم صالحة، فهؤلاء أحبوا النور وتقبَّلوا رسالة الحب: «بهذا أُظهرت محبة الله فينا أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به.» (١يو٤: ٩)

وواضح أن إنجيل ق. يوحنا يضع الحب في رأس قائمة هذه الآيات، حتى يرفع من الدينونة رائحة البُغضة الإلهية؛ فالذين خلصوا بنداء المحبة ظهر فيهم فعل المحبة، والذين رفضوا نداء المحبة دخلوا تحت الحرمان منها بإرادتهم. فالدينونة أصبحت حرماناً من محبة الله وليست غضباً منسكباً عليهم. (١٦)

والقصد كله الذي يريد أن يخلص إليه الإنجيل هو أن المحبة أصل الدينونة والمتسببة فيها، لأنه لولا المحبة ما كان خلاصٌ ولولا الخلاص ما كانت دينونة. وهذا هو سلاح المحبة الرهيب ذو الحدين.

١٨:٣ «الذي يؤمن به لا يُدانُ؛ والذي لا يؤمنُ به قد دِيْنَ، لأنه لم يؤمنْ باسم ابنِ اللهِ الوحيدِ».

يلاحظ اختلاف الفعلين «لا يُدان» و«قد دِينَ». فالذي يؤمن، يكون قد خرج من دائرة

(١٦) يمكن للقارىء الذي يطلب شرحاً مزيداً لهذه النقطة أن يرجع لكتاب: «الحدود المتسعة للإيمان بالله» للمؤلف، ص٥٢ إلى ٦٣.

الدينونة أصلاً وكُلاً لأنه صار «في المسيح». أما الذي لم يؤمن فقد خرج من دائرة المسيح والخلاص وصار في الوجه المعادي. لأن عدم الإيمان باسم ابن الله هو عدم الإيمان بالله وبالخلاص الذي تم باسمه. ويلاحظ أن كلمة «الوحيد» جاءت هنا للتذكير بالمحبة، فهو الابن الوحيد لأنه المحبوب، فهنا يكون عدم الإيمان قد بلغ إلى مجافاة محبة الله، بل وتعدى عدم الإيمان بالمحبة إلى عدم التصديق، وكأنه يجعل الله كاذباً. فمجيء ابن الله برسالة حب الآب الذي أنهى على حالة الركود التي كان يعيشها العالم، قد قسمه في الحال إلى مؤمن مُستقبِلٍ لرسالة المحبة، وغير مؤمن رافضٍ لرسالة المحبة؛ وبالتالي إلى مخلَّصٍ وغير قابل للخلاص، وغريبٍ عن روح الله أي قائم في الموت بعيداً عن الله!

والدينونة على هذا هي من عمل رفض الإيمان وليست من عمل الله. ولكن الأصل والأساس هو الإيمان الذي جاء به المسيح للحياة: «الحق الحق أقول لكم إنَّ مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة.» (يو٥: ٢٤)

ولكن إنجيل ق. يوحنا لا يقطع خط الرجعة على من يرفض الإيمان، بل طالما هو رافض للإيمان فهو واقع تحت الدينونة لأنه هو نفسه الذي يصنع لنفسه الدينونة برفضه؛ ولكن إذا رجع وقَبِلَ الإيمان، يكون قد خرج من الطوق الحديدي الذي وضعه بنفسه في رقبته: «لأنكم إنْ لم تؤمنوا أني أنا هو تموتون في خطاياكم» (يو٨: ٢٤)، «ما دام لكم النور آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور.» (يو١٢: ٣٦)

فالمسيح باقٍ كما هو، وصوته قائم يدعو للخلاص، وكلمة الإيمان في فمك إنْ نطقتها ربحت نفسك والحياة. فالمناداة بالدينونة في إنجيل ق. يوحنا نشأت بسبب الكرازة بالخلاص وليست لتهديد أو وعيد للذين لا يؤمنون، والإنجيل أصلاً موضوع لغير المؤمنين ليكونوا مؤمنين. ولكن نبرات التحذير هي التي تطغى على الكارز خوفاً على حياة الإنسان. لذلك فالمطالبة بسرعة القطع إما مع النور أو الظلمة، هو اختيار بين الحياة أو الموت، ليس للتخويف بل للترغيب، لأن صوت الله منذ القديم يقول: «قد جعلتُ قدامك الحياة والموت، البركة واللعنة، فاختر الحياة لكي تحيا أنت ونسلك.» (تث٣٠: ١٩)

٣: ١٩ «وهذه هي الدينونة إن النورَ قد جاءَ إلى العالمِ وأحبَّ الناسُ الظلمةَ أكثرَ من النورِ لأن أعمالَهم كانت شريرةً».

هنا يربط ق. يوحنا «الدينونة بالنور». ولكي تظهر الدينونة بمعناها الأسهل نقول إنها

القضاء. فالقضاء لا يمكن أن ينعقد لواؤه إلا بوجود أداة التمييز بين الخطأ والصواب للحكم بالعقاب أو البراءة. ونحن هنا بصدد الروحيات، فالقضاء أداته الوحيدة هي النور الإلهي الذي يفرّق بين أعمال الظلمة وأعمال النور.

فيقول ق. يوحنا أنه بمجيء النور إلى العالم وجَبَ القضاء وتحتم، لأن العالم به الشر أصلاً و به الخير أيضاً؛ فكل من ينحاز إلى النور فهذا يوضح أنه أحب النور. والذي يرفض النور معناه أنه أحب الظلمة أكثر من النور. والنور هنا في هذه الحالة هو أداة التفريق والتمييز، وفي نفس الوقت هو القاضي. من هنا جاء الإلتباس أن الذي يبغض النور و يقع عليه العقاب يبدو كأن هناك عداوة أو نقمة بين القاضي وهو المسيح و بين الرافض للنور. ولكن لرفع هذا الإلتباس نقول إن القاضي يحكم بمقتضى قانون ولا يحكم حكماً كأنه من عنده، ولكن الحكم أو الدينونة منشأها النور كأداة أو قانون، وليس القاضي نفسه، فالقاضي يحكم بما يحكم به النور أو قانون النور، وقانون النور مطلق أزلي وليس وضعياً أو مجرد اجتهاد أو تفكير شخصي.

بدخول النور، وهو المسيح، ومعه الحق الإلهي إلى العالم انقسم العالم إلى مُحبّي النور ومُحبّي الظلمة و بدأ في الحال روح القضاء يأخذ عمله.

والذي يجعل القضاء يطالب بحقه من الآن هو التقرير النهائي الذي اتخذه الذين رفضوا النور، لأنهم «أحبوا» ἠγάπησαν ، وهذا فعل في اللغة اليونانية aorist يفيد القرار القاطع المنتهى منه في محبة الظلمة، والخطورة الكبيرة هنا هي أن هذا الحب الذي ينتمي إلى نوع من العشق أو الارتباط هو ليس فقط حباً لأعمال الظلمة من سرقة وزنى وفجور وكذب وعداوة، بل إن هذه الأعمال تمتد لتتعاقد مع أقنوم الظلمة ــ رئيس هذا العالم ــ وهو القوة المشَخّصة المحرِّضة على أعمال الشرور. من هنا جاء القضاء كعمل لا مناص منه لكبح جماح القوة الشريرة والحد من تجبرها. فالنور وراءه شخص ابن الله والظلمة وراءها إبليس، لذلك فمبغضو النور ليسوا محايدين بل منحازين للظلمة ضد النور، فنشاطهم سلبي بالنسبة للنور، لهذا يتدخل القضاء للفرز والعزل والمحاصرة.

ومعروف بالقطع أن الشيطان كرئيس لهذا العالم المحرِّض على كل الشرور قد دِيْنَ: «لأن رئيس هذا العالم قد دِيْنَ» (يو١٦: ١١). أي إن دينونة الشيطان وخروج حكم القضاء عليه تم يوم صلبوت المسيح، لذلك فإن الذين يرفضون النور هم بنوع ما ينحازون إلى رئيس هذا العالم، و بالتالي يقعون تحت الدينونة والرفض: «الآن دينونة هذا العالم، الآن يُطْرَح رئيس هذا العالم

خارجاً.» (يو١٢: ٣١)

«لأن أعمالهم كانت شريرة»:

دور الأعمال هنا محدود، فالأعمال الشريرة لا تمنع الإنسان أن يطلب الخلاص منها و يرتمي تحت أرجل المخلِّص لينجو. فالأشرار الذين تمرغوا في كل أصناف الشرور خرج منهم قديسون، يُتشفع بهم. ولكن المفهوم من الأعمال الشريرة هنا أنها عطلت كثيرين عن الخلاص. لأن تمادي الإنسان في أعمال الشر وانغماسه فيها يولِّد عادات وارتباطات ومجاملات تنازع الإنسان في إرادته وتنكر عليه حريته في التخلص منها أو حتى الاقتراب من مصادر النور، ثم تؤثر تأثيراً مستمراً على الآخرين.

٣: ٢٠ **«لأن كلَّ من يعملُ السيئات يُبغِضُ النورَ ولا يأتي إلى النورِ لئلا توبَّخ أعمالُه».**

«يعمل السيئات»: φαῦλα

هنا كلمة **«سيئات»** تختلف عن الكلمة مثيلتها التي جاءت في الآية السابقة «أعمال **شريرة**» πονηρά التي تفيد الضلوع في الخطية. أما السيئات فهي التي تعني «أعمال بطّالة» (Bad) أي أعمال خسيسة وحقيرة. وهي بدء الدخول في أعمال الظلمة غير المثمرة، التي قد يستهين بها الإنسان لأنها ليست خطايا ثقيلة ولكن خطورتها هي في أنها تجعله يهرب من النور و يبغض الدعوة إليه، خشية أن تُوبَّخ أعماله من أحبائه وأصدقائه الذين يخلصون إليه: «**إني كل من أُحبه أُوبخه وأُؤدبه.** فكُنْ غيوراً وتُبْ» (رؤ٣: ١٩). «لأن الأمور الحادثة منهم سرّاً ذِكرُها أيضاً قبيح، ولكن الكلَّ إذا **توبِّخ يُظْهَرُ بالنور**، لأن كلَّ ما أُظهِر (اعتُرِفَ به) فهو نورٌ، لذلك يقول: "استيقظ أيها النائم وقُمْ مِنَ الأموات فيضيءَ لك المسيح"» (أف٥: ١٢-١٤). هنا الكلام كله موجَّه نحو أصحاب العادات السيئة التي تتصل بالحياة الداخلية للإنسان والتي يحاول أن يخفيها.

لاحظ أن المتكلم هنا هو المسيح كاشف أستار القلوب، وهو يحدث اليهود والرؤساء والمعلمين ومدَّعي الفضيلة الذين انغمسوا في السيئات، وكانت النتيجة أنهم احتجُّوا جزعين من كلام المسيح، متأففين من تسليط النور عليهم، و بالنهاية صاروا هاربين ورافضين.

فمَنْ يرفض المسيح، تقف وراءه إما السيرة السيئة والإنغماس في الخطية، أو كبرياء الأخلاق والذات.

إذن، فرفض المسيح والهروب من النور ليس مسألة اختيار فقط، بل إن العوامل النفسية المبنية على السلوك الإرادي السيىء هي صاحبة الكلمة فيه وعليه.

٣ : ٢١ «وأما من يَفعَلُ الحقَّ فيُقْبِلُ إلى النورِ لكي تظهرَ أعمالُه أنها باللهِ معمولةٌ».

فِعْلُ الحق: τὴν ἀλήθειαν

هو في المقابل لـ«يعمل السيئات». هناك فعل السيئات بالجمع؛ وهنا عمل «الحق» بالمفرد الذي يحوي في صدقه ونُبْله كل ما صيته حسنٌ ونافعٌ.

ولكن الذي يسترعي انتباهنا هو الإصطلاح الجديد «**عمل الحق**»، فهل الحق يُعمل؟(١٧) هنا الحق أصلاً هو فكر ورؤية روحية وانكشاف بصيرة، ولكن هذا يحتاج إلى تحقيق وعمل، فإذا نفّذت الفكرة السامية أو الإلهام الروحي الصادق الموحى به، فهو يصير عمل الحق.

والآن تقف هذه الآية في مقابل الآية السالفة لتوضح أن في وسط ظلام ليل الشرور والسيئات، يعيش أيضاً الحق والنور، وإزاء الهاربين من النور بسبب ما ثقّلوا به أجسادهم وأرواحهم من أعمال الظلمة، يوجد أيضاً المهلّلون للنور والهاتفون للحق الذين تثقلت أرواحهم بمحبة المسيح والحق، يسرعون ليقدموا برهان حبهم بأعمالهم، وليكشفوا أفكارهم ونيّاتهم في النور لتزداد نوراً، ويمجدون الله الذي أنقذهم من سلطان الظلمة.

والمنظر لا يزال هو بعينه، فالمسيح يخاطب الذين عثروا فيه وهربوا والذين سَعَوْا إليه فرحين مستبشرين سواء بسواء، موضحاً أن أعمالهم في الخفاء كانت هي المسئولة عن جزعهم منه أو قبولهم إليه.

«بالله معمولة»:

إن مجرد عرض أعمال البرّ خطر، وكشف خفايا السلوك بالتقوى أخطر؛ لأن ذلك يؤول بالضرورة إلى الوقوع في خطية البر الذاتي والاعتداد بالنفس والتفاخر. ولكن يوجد عرض للأعمال الخيِّرة وسردٌ للسيرة التقية، مضمون النفع ومؤمَّنٌ عليه ضد الانزلاق في البر الذاتي وهو تمجيد الله كونه هو هو صاحب العمل وصاحب السيرة، حيث يقتنع السامع أن «الله هو العامل فيكم أن

(١٧) قد شرحنا في المدخل كيف أن «الحق» بالمفهوم العبري يختص بالأخلاق واستقامتها (ص١٠٦)، وكذلك «المعرفة» في المفهوم العبري هي تعامل مع الله (ص١٥٣).

تريدوا وأن تعملوا من أجل المسَّرة.» (في٢: ١٣)

«اذهب إلى بيتك وإلى أهلك وأخبرهم كم صنع الرب بك ورحمك.» (مر٥: ١٩)

هنا لا يفوتنا قول المسيح أنه «لا يقدر أحد أن يُقبلَ إليَّ (الحق)، إن لم يجتذبه الآب (أولاً)» (يو٦: ٤٤). فالمجيء إلى النور يتحمل النور شيئاً من المسئولية فيه، فالنور محبوب جداً عند أصحاب العيون الصحيحة ومكروه للغاية عند ذوي العيون المريضة، فلا ينجذب إلى النور إلا من كان أهلاً له. هنا «**عمل الحق**» من جهة «**وبالله معمولة**» من جهة أخرى تفيد الانجذاب المتبادل. فيسرُّ النعمة يسري في أولاد النعمة. والحكمة تنادي أولادها وتتبرر من بنيها، والحق يطلب محبيه. والله هو دائماً صاحب المبادرة ولكنه دائماً يتنازل عن دوره الأول: «قد ذكرتُ لكِ غيرة صباكِ، محبة خطبتكِ، ذهابكِ ورائي في البرية.» (إر٢: ٢)

[انتهى حديث نيقوديموس والتعقيب عليه.]



مكان البشارة:
لا زلنا في اليهودية

(تابع «إنجيل التجديد»)

٤ ـ المعمدان يكمِّل شهادته كآخر صوت للعهد القديم يُسمع في الإنجيل (٣:٢٢ـ٣٦)

هذا هو الجزء الرابع من «إنجيل التجديد» وتستمر فيه المقابلة بين القديم والجديد على النحو التالي:

القديم: «الذي من الأرض هو أرضي ومن الأرض يتكلم».

الجديد: «الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع... ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص».

الاستعلان: المسيح العريس الحقيقي: «مَنْ له العروس فهو العريس».

٣:٢٢ **«وبعد هذا جاء يسوع وتلاميذه إلى أرض اليهودية ومكث معهم هناك وكان يُعمِّد».**

«وبعد هذا»: μετὰ ταῦτα

وَصْلة يضعها ق. يوحنا دائماً في سرد روايته لينقل القارىء من حديث لحديث، ومع نقلة الحديث نقلة في المكان والزمان، لا يفصح عنها عن قصد، لأنها لا تدخل ــ في اعتباره ــ في صلب الرواية.

نعلم أن المسيح كان في أورشليم حيث تمَّ الحديث الأخير مع نيقوديموس الذي انقطع وغاب فجأة، حسب عادة ق. يوحنا حينما يرى أن أهم جزء في الحديث قد استُوعِب، وحيث يسترسل بعد ذلك في التعقيب، إنْ بواسطة المسيح مباشرة أو عن لسانه. وهنا نأتي إلى أرض اليهودية شرق جبال أورشليم على ضفاف نهر الأُردن، حيث مكث المسيح مدة ــ لا يُفصَح عنها ــ مع تلاميذه.

«وكان يعمِّد»:

هذه الجملة القصيرة غريبة علينا نوعاً ما، فالمسيح معروف عنه أنه لم يعمِّد: «مع أن يسوع

نفسه لم يكن يعمِّد بل تلاميذه» (٤ : ٢). ولكن يبدو أن المسيح كان يكرز بالتوبة حسب ما جاء في إنجيل القديس مرقس (١ : ١٥).

وقد علقَّ على ذلك كلٌّ من القديس ذهبي الفم والقديس أُغسطينوس بأنها لا تُحسَب معمودية سرائرية بحسب الفكر المسيحي(١٨). ولكن الواضح من هذه الآية وما بعدها هو أن ق. يوحنا يمهد بها لحديث المعمدان الأخير لتكميل شهادته للمسيح.

٣ : ٢٣ «وكان يوحنا أيضاً يُعمِّد في عينِ نونٍ بقُربِ ساليمَ لأنه كان هناك مياهٌ كثيرةٌ وكانوا يأتون و يعتمدون».

لا يزال المعمدان يمارس وظيفته في الإعداد بالتوبة لملكوت الله كسابقٍ يُعدُّ الطريق للآتي بعده. ولكن يبدو أن هذه المرة لم يتلاقَ مع المسيح بل ظلَّ في مكانه. ولكن لماذا ترك مكانه المختار الأول «عبر الأُردن»؟ يرد على هذا السؤال العالِم «أولمستد Olmstead» بأن المعمدان ترك أرض عَبْر الأُردن التي تتبع هيرودس أنتيباس وجاء إلى منطقة أخرى فيها المياه كثيرة، بسبب العداوة التي نشأت بين المعمدان وهيرودس بعد أن وبَّخه (علناً) على سيرته بالنسبة لزوجة أخيه.(١٩)

«عين نون»:

تبارى الشراح في التعليق على هذا الاسم، فمنهم من أنكر وجوده بالمرة لأنه لم يعثر عليه جغرافياً، ومنهم من شدَّد عليه جداً باعتباره المركز الأساسي لخدمة المعمدان وإقامته مع تلاميذه، والذي صار فيما بعد موطن جماعة المنتمين للقديس يوحنا المعمدان. و يشرح ذلك العالِم «بُولتمان» مضيفاً إلى ذلك أن عين نون تفيد معنًى رمزياً وهو «النبع القريب من الخلاص»: لأنه بقرب «ساليم» **وساليم تُفَسَّر بـ«الخلاص».** (٢٠)

وعلى كل حال فإن هذه المنطقة تقع غرب نهر الأُردن في البراري الواقعة على ضفافه. وهذه المنطقة على الحدود بين اليهودية والسامرة بقرب مدينة «بيت شان» شرق نابلس الحالية.(٢١)

[18] Chrysostome, On John, *Hom.* 29.1; Augustine, *Ep.* 44.10.

[19] Olmstead, cited by Schnackenburg, *op. cit.*, p. 412 note 7.

[20] Bultmann, *op. cit.*, p. 170 note 9.

[21] Westcott, *op. cit.*, p. 58.

نابلس واسمها نيابوليس Neapolis أي المدينة الجديدة عوض «شكيم» القديمة.

وكان لا يزال الشعب يتدفق على المعمدان للتوبة وسماع كلماته، ولكن يبدو أن في هذا التعبير نوعاً من المقارنة بين العدد الكبير الذين كانوا يأتون إلى المسيح، وبين الذين كانوا يأتون للمعمدان؛ وقد ظهر تناقص عدد الذين كانوا يأتون إلى المعمدان في تعبيرين هامين جاءوا بعد ذلك:

الأول: تقرير لتلاميذ المعمدان في الآية ٢٦ القادمة: «فجاءوا إلى المعمدان وقالوا له: يا معلم هوذا الذي كان معك في عبر الأُردن الذي أنت قد شَهِدْتَ له هو يُعَمِّد، والجميع يأتون إليه».

والتعبير الثاني جاء على فم المعمدان نفسه كتحصيل حاصلٍ وبحكم الواقع: «ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص.» (٣: ٣٠)

ولكن على أي حال كان همُّ ق. يوحنا هو تسجيل الشهادة الأخيرة والأعظم من فم المعمدان فيما يخص المسيح، هذه الشهادة التي رفعت المعمدان في تاريخ المسيحية إلى المستوى اللائق كنبيٍّ وأعظم من نبي!!!

٣: ٢٤ «لأنه لم يكن يوحنا قد أُلقي بعد في السجن».

تُعتبر هذه الآية ذات وزن تاريخي عالٍ للغاية، لأن ق. يوحنا يضعها وهو يعرف ما وراءها من التقليد المسجَّل في الأناجيل الأخرى. إذ أن هذه الحقيقة، أي «وضع يوحنا في السجن وموته بعد ذلك»، تُعتبر نقطة البدء لخدمة المسيح في الجليل كما سجلها ق. مرقس وأخذ عنه بقية الإنجيليين: «وبعدما أُسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله. ويقول قد كَمَل الزمان.» (مر١: ١٤و١٥)

ولكن هنا ق. يوحنا يكشف عن تقليد رسولي أقدم حيث يوضح أنه حتى وقبل أن يوضع المعمدان في السجن كان المسيح يخدم؛ وليس في الجليل بل في أورشليم بالدرجة الأُولى وفي اليهودية، وهي الفترة التي أغفلها التقليد عند الإنجيليين الثلاثة. من هنا تظهر أهمية إنجيل يوحنا من جهة سرد وقائع حياة المسيح على مستوى التاريخ الدقيق والحوادث، وما يتبعها من تعاليم.

وذِكْرُ ق. يوحنا لهذه الواقعة بالذات: «لم يكن يوحنا قد أُلقي بعد في السجن»، دون أن يكون لها سبب واضح، يكشف بوضوح أن ق. يوحنا يعرف التقليد الذي كتب منه القديس مرقس، ويلمِّح إلى أنه يورد هنا إضافة هامة عليه أغفلتها الأناجيل الأخرى. كذلك يلزمنا أن ننتبه جداً إلى هدف ق. يوحنا الأساسي من سرده خدمة المسيح في أورشليم واليهودية قبل الجليل؛ لأن الأناجيل الأخرى اهتمت بأعمال المسيح ومعجزاته بالدرجة الأُولى والتي تركزت بصورة ما في

الجليل، أما ق. يوحنا فقد اهتم إلى أقصى حد باستعلان شخصية المسيح المسيَّانية من تعليمه أكثر من معجزاته. وقد رأينا إحدى صور هذه التعاليم الباهرة في حديثه مع نيقوديموس في أورشليم التي تختص بأساس الخلاص والتجديد والملكوت.

٣: ٢٥و٢٦ **«وحدثت مباحثة من تلاميذ يوحنا مع يهودٍ من جهة التطهير. فجاءوا إلى يوحنا وقالوا له يا معلم هوذا الذي كان معك في عبر الأُردن الذي أنت قد شهِدْتَ له هو يُعَمِّد، والجميع يأتون إليه».**

«وحينئذ»: οὖν

جاءت في أول الآية في الأصل اليوناني. وقد فات على المترجم العربي هذا الظرف الزماني **«حينئذ»** وأسقطه من الترجمة مع أنه يحمل ثقل كل المعنى في الآيات القادمة كلها بلا مبالغة. فالقديس يوحنا، وهو مختزل لغوي بالدرجة الأُولى، أراد أن ينبه القارىء بأقل كلام ممكن أن تواجد المسيح في مقابل المعمدان وهما يمارسان نفس العمل وهو «العماد»، أنشأ منافسة اضطرارية بين تلاميذ المعمدان والمُعمَّدين من اليهود؛ لأنه حتماً حدث اختلاف في وجهة نظر التعميد، فمعمودية يوحنا ذات لون إعدادي **فقط** لمعمودية المسيح بالروح القدس، وحتى ولو أن المسيح لم يُعمِّد بالروح القدس ولكن يفهم تماماً من حديثه السابق مع نيقوديموس أن المعمودية في نظر المسيح هي خلقة جديدة وميلاد ثانٍ من فوق وليست غسيلاً وتطهيراً. هذا المعنى كله أضمره ق. يوحنا في الظرف الزماني «حينئذ» المستخدم ليس على المستوى الزماني ولكن بمعنى: **«وعلى هذا نشأ الآتي»**، وهو مدخل يرتب الكلام على ما قبله.

«حدثت مباحثة من تلاميذ يوحنا مع يهود من جهة التطهير»:

نحن لا ننسى كيف ركَّز ق. يوحنا على مسألة التطهير أولاً في عرس قانا الجليل، كيف حوَّل المسيح ماء التطهير إلى خمر جيد (حقيقي)، مشيراً إلى التحوُّل المزمع والذي يتحتم أن يكون لكل طقوس ووصايا التطهيرات بكافة أنواعها؛ علماً بأن الستة الأجران تغطي تطهيرات الأسبوع بكامله! وبعدها مباشرة: «اهدموا هذا الهيكل»، بعد أن أخرج منه كل ذبائحه الكبيرة والصغيرة، مشيراً إلى انتهاء عصر الذبائح وكل نظام العبادة القائم عليها. ثم انتقل إلى نيقوديموس معلم الناموس والممثِّل لكل دقائق الإيمان اليهودي الذي انتهى الحديث معه على أساس حتمية الميلاد الثاني من فوق كأساس للإيمان والعبادة وكشرط أول لدخول ملكوت الله؛ كاشفاً له سر معمودية العهد الجديد. و بهذا يكون المسيح قد أكمل الصورة لعملية إحلال الجديد عوض القديم.

ولكن يبقى آخر مرحلة من الإنتفاضة اليهودية لإعادة الحياة إلى القديم التي أخذت طريقها خلسة من خلال الإنسان المُرسَل من الله ـ يوحنا ـ لإعداد الطريق للآتي، إذ تضخَّم عمل المعمدان من خلال حماس تلاميذه على أنه هو الطريق الموعود، فأخذوا يصوِّرون للآتين لمعمودية يوحنا أن هذا هو التطهير الذي سيُحيي إسرائيل.

وترامت إلى أسماع المسيح ما يُقال وما يُشاع، فجاء بقرب المعمدان يباشر تعليمه من جهة المعمودية من فوق، وكأنه تكميل لدرس المسيح لنيقوديموس، وفي الحال هرع الناس «**الجميع**» إلى المسيح يسمعون و يعتمدون؛ مع أنه لم يكن يُعَمِّد بل تلاميذه، وتأثر الناس واستنارت أذهانهم من جهة حتمية الميلاد الجديد من فوق، و بالتالي عدم نفع التطهير بالماء، فضجَّ تلاميذ المعمدان وذهبوا في حماس وتحدٍّ يستثيرون معلمهم.

٢٦:٣ «فجاءوا إلى يوحنا وقالوا له: يا معلمُ هوذا الذي كان معَكَ في عَبْر الأُردن الذي أنت قد شَهِدتَ له، هو يُعَمِّدُ والجميعُ يأتون إليه».

واضح للغاية أن تلاميذ المعمدان لم يتأثروا قط بنداء المعمدان من جهة الأقوى الآتي بعده الذي لا يستحق أن يحمل حذاءه، ولا تأثروا من شهادة المعمدان بحسب رؤية وسماع الروح القدس وهو يشهد للمسيح الذي اعتمد من يدي معلمهم، كما لم يتأثروا قط من شخص المسيح ذاته. وكتلاميذٍ لمعلِّم مرموق، أخذوا يحاصرون معلمهم حتى يدافع عن نفسه.

فابتدأوا يشيرون إلى المسيح بـ«هوذا الذي كان معك»، معبِّرين بذلك عن اعتقادهم بالتساوي بين المعلِّمَيْن. ثم بدأوا يذكِّرونه بالإحسان الذي صنعه في المسيح، إذ شهد له كما يشهد القاضي العادل بالحق. وهذا أيضاً يعبِّر عن اعتقادهم بأفضلية المعمدان وكأنه يشهد لأحد تلاميذه. ولكنهم أبقوْا على نقطة الإنزعاج التي ملأت نفوسهم إلى آخر الحديث أو الشكوى، إذ قالوا أخيراً: «**هو يُعمِّد والجميع يأتون إليه**»، معبِّرين بذلك عن أمرين: الأول أن المسيح بدأ يظهر في أعينهم كمنافسٍ أو متعدٍّ على وظيفة معلمهم «هو يُعمِّد»؛ والأمر الثاني وهو الأخطر: أن «**الجميع يأتون إليه**»، بمعنى أن وظيفة معلمهم صارت مهدَّدة. وواضح في ذلك التهويل الحاقد والغاضب والمثير.

وإذا قارنّا هذا التقرير بما قيل عنه في نفس الموضوع بعد ذلك، يظهر التهويل وتلفيق ما يُنسب للمسيح: «وما رآه وسمعه به يشهد وشهادته **ليس أحد يقبلها!!**» (٣:٣٢)؛ وكانوا يعتقدون أن هذا وحده كفيل أن يحرك ساكن معلمهم. وفي الحقيقة، وبحسب أسلوب إنجيل يوحنا، فقد أخذ

هؤلاء التلاميذ ــ المتعصِّبون لمعلِّمهم ــ موقف الفريسيين الحاقدين لما واجهوا نفس الموقف: «فقال الفريسيون بعضهم لبعض أنظروا إنكم لا تنفعون شيئاً **هوذا العالم** قد ذهب وراءه» (يو١٢: ١٩). كان هذا التقرير المسموم كفيلاً بأن يزعج المعمدان و يهيج غضبه لو لم يكن مرسلاً من الله وروح الله هو الذي يقود نفسه و يوجهها مع لمسات رقيقة من روح الإتضاع.

وكان يمكن أن نفسِّر هذا التقرير بصورة عكسية تماماً لِما يحتمله بأن يكون بشارة سارة ومفرحة للمعمدان من تلاميذه عن الذي شهد له، أنه هوذا قد صار ناجحاً والجميع يأتون إليه! وهذا أيضاً ما يتمشى مع كرازة المعمدان بالنسبة للمسيَّا الآتي، لولا أننا نعرف تماماً أن هؤلاء التلاميذ كوَّنوا شيعة تشيَّعت لمعلمهم وقاومت المسيحية بعنف و بقيت إلى عدة قرون، وكانت في أوج نشاطها أيام كتابة ق. يوحنا لإنجيله. (٢٢)

٣: ٢٧ «أجاب يوحنا وقال: لا يقدرُ إنسانٌ أن يأخذَ شيئاً إنْ لم يكن قد أُعْطِيَ من السماء».

في إجابة المعمدان نلمح ثلاثة مبادىء هامة يردُّ بها على غيرة التلاميذ الغاضبة:

أولاً: يضع المعمدان المبدأ الأساسي الذي يقوم عليه الاستعلان النبوي بصفة عامة (الآية٢٧).
ثانياً: يطبِّق المبدأ الإلهامي على عمله الذي كُلِّف به، سواء فيما شهد به سابقاً (الآية٢٨) أو ما يشهد به لاحقاً (الآية٢٩).
ثالثاً: استنباط النتيجة الحتمية للتطبيق الأمين (الآية٣٠).

وهو يبدأ الحديث لا رداً على تلاميذه، ولكن كتوعية عامة ترفع من مستوى تفكيرهم كمعلومة عامة وأساسية، مفادها أن أي معلم صادق لا يأخذ إلاّ ما منحته السماء له. وهذا يشرح بهدوء و بساطة أساس العلاقة التي تربطه بالمسيح كسابقٍ يعدُّ له الطريق. فسواء هو أو المسيح، فلا يأتي بشيء إلاّ كما استلمه من مخازن النِعَم (السماء). هذا الرد يضع حدًّا لتفكير التلاميذ ويُنْهي على روح المنافسة التي عصفت بهم. كما أن هذا الرد بعينه يوضح أن ما اشتكى منه تلاميذه قد وقع منه موقع الإستحسان بل وصار له كإكليل فرح.

ويُلاحَظ أن المعمدان وضع المسيح موضع نفسه على المستوى من جهة الأخذ والعطاء، فيقول:

---

(٢٢) عُرفت هذه الشيعة باسم شيعة المانديين أو الناصريين. أنظر المدخل ص٣٨٥.

"أنا لا أدَّعي لنفسي سلطة لم آخذها، أما هو الذي تتكلمون عنه فلا يمارس سلطة و يكون لها اعتبارها إذا لم يكن قد تلقَّاها من الله."

هنا المعمدان ينفي أن يكون لإرادة الإنسان عمل يُحاسَبُ عليه إن كان هو قد أعطى في حدود ما أخذ.

٣ : ٢٨ «أنتم أنفُسُكم تشهدون لي أني قلتُ لستُ أنا المسيح بل إني مُرْسَلٌ أمامَهُ».

هنا المعمدان يطبِّق المبدأ الذي قاله على شهادته الأُولى التي شهد بها على نفسه بالنسبة للعمل الذي يقوم به و بالنسبة للشخص المنوط به هذا العمل الكبير: "فلو تذكرتم ما قلتهُ سابقاً تدركون كم أنتم مخطئون فيما تظنون وفيما تقولون، ألم أقل لست أنا المسيح؟ فحينما أعلنتُ عن رسالتي قلتُ إنها وقتية ومحدودة، ولم أدَّعي لنفسي المكانة الأعلى ولا بكلمة واحدة حتى تأخذوها حُجَّة لِما تفكِّرون، أنتم شهود لي وعلى أنفسكم."

«لست أنا المسيح»:

هنا يعلن المعمدان عن هويَّة من تكلَّم عنه التلاميذ بلفظة «**هوذا**»، و«**هو**»، و«شهدتَ **له**»، و«**يأتون إليه**». وتكلّم عنه المعمدان «**كإنسان**» و«**رجل** صار قدامي».

الآن يُعلن المعمدان عن اسمه وهويَّته: «**المسيح**» بكل يقين وتعيين. نعم، ولكي يُعلَن لإسرائيل، أُرسلتُ أمامه، لا كأني سابق بل كمن يعدُّ و يفسح الطريق لمن هو أعلى.

٣ : ٢٩ «مَنْ له العروسُ فهو العريسُ. وأما صديقُ العريسِ الذي يقفُ ويسمعه فيفرحُ فرحاً من أجلِ صوتِ العريسِ. إذاً فرحي هذا قد كَمَلَ».

بينما تكلم المعمدان عن نفسه بوضوح وعلانية، إلا أنه لما جاء للمسيح سواء من جهة شخصه أو عمله نجده بدأ يستخدم الأسلوب السرِّي. ولكن كلماته جاءت مُحْكَمة تردُّ رداً صحيحاً محبوكاً، على مستوى فكر التوراة والأنبياء. فأسفار العهد القديم ــ وخاصة الأنبياء ــ لا تكفُّ من البداية وحتى النهاية عن وصف يهوه بالنسبة لإسرائيل كعريسٍ وعروس:

هوشع ٢ : ١٩ــ٢١: «وأَخْطُبكِ لنفسي إلى الأبد وأخطُبكِ لنفسي بالعدل والحق والإحسان والمراحم، أخطُبكِ لنفسي بالأمانة فتعرفين الرب. و يكون في ذلك اليوم

أني أستجيب، يقول الرب، أستجيب السموات وهي تستجيب الأرض».

حزقيال ١٦ :٨: «فمررتُ بكِ ورأيتكِ وإذا زمنكِ زمن الحب، فَبَسَطتُ ذيلي عليكِ، وسترت عورتكِ، وحلفت لكِ، ودخلت معكِ، في عهدٍ، يقول السيد الرب، **فصرتِ لي**».

فالآن لا يصف المعمدانُ المسيحَ بـ«العريس» مباشرة، بل جعلها للسامع بديهية وعلى السامع أن يقرر. فمن ذا الذي له العروس؟ ثم من هي العروس بالتحديد؟

ق. يوحنا الإنجيلي قدير في تقديم الصور الرمزية في حَبْك قصصي نادر المثال، كل صورة تخدم موقعها بأصالة وواقعية، ولكن الصورة تهدف إلى عمل أعلى بكثير من واقعها القصصي. المعمدان هنا صورة للنبي المخلص المجتهد العظيم حقاً، بشهادة المسيح، ولكن لا يخرج عن كونه مولودَ النساء، خدم موقعه كصوتِ صارخ في برية العالم فأسْمَعَ العالمين، ومهّد للآتي بعده بتقواه ونُسكه وصِدْقه وشجاعته؛ ثم بكرازته بحرارة التوبة وغسل الجسد. ولكن ق. يوحنا الإنجيلي يلتقط له صورة أعلى كممثل لأنبياء العهد القديم جميعاً، جاء بروح إيليا ليتكلم ويشهد باسم الأنبياء جميعاً عن حق وجدارة.

ثم يروي ق. يوحنا أن المعمدان، بصفته العليا هذه، أُنيط به غير إعداد الطريق، أو من ضمن ضروريات إعداد الطريق، إعدادُ العروس التي اتّسخت جداً، ليس كإعداد إيليا في القديم بالتوبيخ والعنف والإنذار وقفل السماء وحجز المطر عن إنسان إسرائيل وحيوانه، بل بغسل الجسد والضمير بالماء والنصيحة والإعتراف والتوبة وإعداد الآباء والأبناء حتى تُرَدَّ قلوبُهم بعضهم لبعض، لكي تتلقى الأرض بركة الآتي باسم الرب. وها هو الآن قد أكمل المهمة على أقصى صورة سمحت له بها العروس المتبلّدة من كثرة السنين وكثرة الإثم ــ وقد جاء بها ممسكاً بيدها ومن وراء الحدود الفاصلة بين القديم والجديد يسلّمها للعريس الذي تطوّع ليغسلها بدمه.

تقول الآية، أو يقول المعمدان، إنه كصديق العريس لا يرى العريس بل يسمعه فقط، وكفاه هذا، فدور «النبوّة» لا يزيد عن كونه صديق العريس، كما وأن الحدود والسدود التي تفصل ليل النبوّة عن صُبْح المسيَّا، العريس، جدّ قاسية وعاتية وليست لها عيون تنظر بها بل آذان تتحسس بها الأصوات الآتية من بعيد وفي الظلام: «هذا جاء لا يأكل ولا يشرب»، وهذا «جاء يأكل ويشرب»، هذا «يصوم تلاميذه»، وهذا «تلاميذه لا يصومون»، لأنهم يعيّدون لعُرْسِه القادم، «هذا من الأرض يتكلم وهذا من السماء». فالفواصل جدّ كبيرة، فكرية وزمنية وشخصية

وروحية، فيكفي للنبي الحاذق أن يتعرَّف على صوت المسيَّا، وكفى النبوّة كرامةً أن تصادق العريس. أما وبعد أن يسمع النبي صوت من تنبأ عنه ــ الأمر الذي لم يحدث قط في تاريخ النبوة والأنبياء ــ فهذا حَدَثٌ جَلَلٌ أُعطي للمعمدان دون جميع الأنبياء؛ لأن بأُذن المعمدان تسمَّع جميع أنبياء الله في كل الدهور السالفة صوت العريس الذي طالما وصفوه بغير رؤيا وتسمَّعوه في ظلام الأحلام بغير صوت. فقد صدق المعمدان حين قال: «فرحي الآن قد كمل»، فهو فرح جميع الأنبياء والآباء الذين نظروا المواعيد من بعيد وحيُّوها وماتوا على رجاء هذا اليوم. فالمعمدان إنما يتكلم بروح إيليا وفم كل الأنبياء. وهل للنبي فرحٌ يرجوه أكثر من أن يحقق الله له نبوته وفي حياته؟ كان المعمدان صوتاً صارخاً، ردَّد صوت المسيح صداه فسمعتهما الآجال والأجيال.

٣ : ٣٠ **«ينبغي أن ذلك يزيدُ وأني أنا أنقُصُ».**

تأتي «ينبغي» بصورة ضعيفة، فهي في أصلها اليوناني يتحتم must، لأن هذا يتعلق بالقانون الإلهي. نعم فقد انتهى دور الأنبياء والنبوة بظهور الذي تركزت فيه كل النبوات. فإذا خرجت الشمس لزم إطفاء المصابيح. أو هو غروب نجم على أحسن الأحوال لشروق شمس على أفقها!! وهذا القول هو النبوة الأخيرة ليوحنا المعمدان عن بزوغ فجر العصر الماسيَّاني الذي طالما حلم به الآباء والأنبياء. فالمعمدان وإن كان يتكلم عن نفسه كصورة أدَّت مهمتها بأمانة، إلا أن ق. يوحنا الإنجيلي يرتفع بهذه الصورة ليرى فيها آخر صوت يسمعه الإنجيل، ليس للأنبياء وحسب بل وللعهد القديم قاطبة.

فقد انقضى عهد الظلمة وأشرق نور الحياة. وإن ظهر المعمدان بهذه الكلمات على مستوى الإتضاع حقاً، فإنما هو إتضاع من حكم الواقع أو، كما يقولون، تحصيل الحاصل.

وبشهادة المعمدان هذه أمام تلاميذه، يكون قد صَادَق المسيحَ في تعليمه ضمناً عن المعمودية الأفضل التي من فوق، التي شرحها لنيقوديموس بإسهاب وعكَّرت مزاج التلاميذ النُّسَّاك، والناسك يصبح دائماً متضايقاً في نفسه إذا غاب عنه عمل الروح. بل و يكون المعمدان قد صادق نفسه عندما قال سابقاً: «أنا أُعمِّد بماءٍ ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه هو الذي يأتي بعدي... فهذا هو الذي يعمِّد بالروح القدس» (يو١ : ٢٦و٢٧و٣٣). وإن ذهاب «الجميع» ــ كما يقول تلاميذه ــ للمسيح ليعتمدوا، هو الصحيح، وهو بعينه ما يقوله أن «من له العروس فهو العريس». فليس «الجميع» فقط ينبغي أن يعتمدوا له بل والعالم كله، «لأنه هكذا أحب الله العالم» عوض إسرائيل!

٣١:٣ «الذي يأتي من فوقُ هو فوقَ الجميع والذي من الأرض هو أرضيٌّ ومن الأرضِ يتكلمُ. الذي يأتي من السماء هو فوقَ الجميع».

يشترك كافة الشُرَّاح في الرأي ما عدا العالم «هوسكنز» والعالم «هنجستنبرج» بأن حديث المعمدان وشهادته تنتهيان عند الآية (٣٠)، بعد ذلك ينقسم العلماء إلى من يقول أن الباقي على لسان المسيح، وإلى من يقول أنه بقلم يوحنا الرسول، ولكن الآباء الأوائل ذهبي الفم وأُغسطينوس وغيرهما لا يرون هذا الرأي الأخير بل يعتبرون أن شهادة المعمدان مستمرة حتى نهاية الأصحاح — وسنأخذ برأيهم؛ لأن الكلام لا يخلو من لمسات حية هي من روح المعمدان، باعتبار أن المعمدان انكشفت له السماء وعرف صوت الروح القدس وسمع شهادة الآب من نحو الابن.

غير أن شرح الكلام لو كان على لسان المسيح شيء، وشرحه من قلم يوحنا الرسول شيء، وشرحه بفكر المعمدان شيء آخر تماماً، وسيكون أضعفهم[٢٣] بلا نزاع، لأن المسألة مسألة استعلان، ولم يُعطَ للمعمدان أن يستعلن المسيح إلاَّ كونه الآتي، لأن المعمدان محكومٌ بفكر العهد القديم.

«الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع»:

يلاحَظ أن الفعل في المضارع المستمر فهو مجيء أو إرسال دائم ومستمر. و«من فوق» هي نفس الوصف الذي أعطاه المسيح للميلاد من فوق ἄνωθεν، وقد فسرها المعمدان ثانياً بقوله: «الذي يأتي من السماء». الإشارة هنا إلى المسيح الذي يتكلم عنه المعمدان؛ وهو يتكلم عن خبرة، لأنه أخذ تعليمات واضحة وصريحة من الله أن الذي يرى الروح القدس نازلاً ومستقراً عليه يكون هو الذي يعمِّد بالروح القدس. وبالفعل رأى وشهد أنه ابن الله، فليس أكبر من ذلك دليلاً ليقول المعمدان أن المسيح من فوق من السماء، هذا يوضح أن المعمدان يعلم تماماً من أين أتى المسيح.

فإذا كان المسيح هو من فوق، من السماء، فهو بحكم علوّ مكانته وطبيعته يكون الأعلى أي فوق الجميع بلا نزاع، كرامة ومجداً وعلماً وتأثيراً. وفي الحال يلتفت المعمدان إلى نفسه، وبالتالي إلى كل معلِّم من هذه الأرض، حاصراً كل معرفته، كإنسان من الأرض وعلى مستوى الأرض، في أن فعلها وأثرها محدودان، وهذا يوضح بالتالي أن المعمدان مقتنع أن رسالته محدودة بمحدوديته. وهذا

(٢٣) حينما نتعرض لشرح هذه الآيات من مستوى فكر المعمدان سنكون محاصرين في أضيق مستوى المعرفة عن سر المسيح، لأن المعمدان تحددت وظيفته وكذلك مواهبه في الإعداد له وليس استعلانه.

صدقٌ منتهى الصدق، خاصة فيما تعنيه معمودية الماء فقط. وذلك على مستوى «المولود من الجسد جسدٌ هو، والمولود من الروح هو روح».

٣ : ٣٢ «وما رآهُ وسمعَهُ به يشهدُ وشهادتُه ليس أحدٌ يقبلُها».

كانت شهادة المعمدان عن نفسه أنه ليس هو المسيح، وعن المسيح أنه الذي سيعمِّد بالروح القدس، بمفهوم التغيير الجذري لحياة الناس لتكون لحساب الله والحياة الأبدية، وأنه هو الحَمَل الذي يرفع خطية العالم، باعتبار رسالته الفدائية للخلاص لمغفرة الخطايا. وأنه هو العريس الحقيقي للشعب أو للأمة الذي انتظرته كل الأجيال السالفة. ولكن هنا تمتد شهادة المعمدان إلى آفاق أخرى لأول مرة يطرقها، وهي إجتهادية، إذ أنه يتكلم عن **شهادة المسيح لنفسه ولرسالته**. وهي بالنسبة للمعمدان حقيقة بديهية، فلأن المسيح من فوق من السماء فهو جاء ليشهد بما يعرفه سمعاً ورؤية ـــ وهو قطعاً أعلى مما يعرفه كل مَنْ على الأرض ـــ لذلك إذ أن هذه الشهادة تفوق المعرفة الطبيعية للناس، إذ هي تختص بالمعارف السماوية، لذلك «ليس أحدٌ يقبلها»؛ ولو أن ذلك ليس بالأمر المقطوع به لأن بعض الناس قَبِلَها. والمعمدان اعتبر نفسه أحد الذين قبلوها، وهو الآن يشهد بذلك.

المعمدان هنا لا يتكلم عن الجموع التي التفت حول المسيح، فهذه الظاهرة تُخفي حقيقة هو يعلمها وقد فهمها قبل غيره: أن جوهر رسالة المسيح قائم على أساس أنه «ابن الله»، وأنه مُقْدِمٌ على تجديد كل شيء بالروح القدس، وخاصة بتقديم نفسه عوض الذبائح بصفته حَمَل الله الذي وحده يرفع خطية العالم؛ فعلى أساس هذه الحقائق سيُقاوَم ولا أحد يريد أن يستجيب لرسالته التي أخذها من فوق. وأوضح دليل على ذلك، الهزَّة التي اهتزَّها هو من الأعماق وكادت تعصف به، والتي أعلن عنها الإنجيل أنه في يوم محنته أرسل اثنين من تلاميذه يسأل المسيح نفسه: «أنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟» والتي كان ردُّها باختصار: «طوبى لمن لا يعثر فيَّ» (مت١١: ١ـــ٦). والمعمدان يعود إلى أعماق نفسه المضيئة بروح الحق والنبوة، فيرى أن المسيح بحد ذاته هو الحامل لشهادة الله ولِمَا رأى وسمع عند الله كما قال هو عن نفسه: «أنا أتكلم بما رأيت عند أبي... وأنا إنسان قد كلَّمكم بالحق الذي سمعه من الله» (يو٨: ٣٨و٤٠)، هو أنه أقصى ما يستطيع أن يعبِّر به الإنسان عن قبوله للحق وضمان تعهُّده بالشهادة بذلك.

وإن كان المعمدان لم يكمل فيما يخص نصيب الذين لا يقبلون شهادة الله هذه، فالقديس يوحنا نفسه يقدِّمها في رسالته: «لأن هذه هي شهادة الله التي قد شهد بها الله عن ابنه. من يؤمن بابن الله، فعنده الشهادة في نفسه. من لا يصدق الله، فقد جعله كاذباً لأنه لم يؤمن بالشهادة التي

قد شهد بها الله عن ابنه.» (١يو٥: ٩و١٠)

٣: ٣٣ «ومنْ قَبِلَ شَهادَتَه، فقد ختمَ أن الله صادق».

خَتَمَ = ἐσφράγισεν

المرة الأخرى التي نسمع فيها عن «الختم» فيما يخص الله هي الآية: «اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية (جسد المسيح) الذي يعطيكم ابن الإنسان لأن هذا الله الآب قد **خَتَمَهُ**» (يو٦: ٢٧). فإذا كان الله قد خَتَمَ المسيح أو جسد المسيح، فهذا يعني أنه حامل للخلود وعدم الموت إزاء الطعام البائد الذي خَتَمهُ العالم والإنسان. فهنا في آية المعمدان يكون الذي قَبِلَ المسيح كمن قَبِلَ صدق خِتْم الله وخَتَم هو أيضاً على صدق الله. ومعروف أن المعَمَّدين بالروح القدس والماء يأخذون مثل هذا الختم السريّ الإلهي من الروح القدس: «الذي فيه أيضاً أنتم، إذ سمعتم كلمة الحق إنجيل خلاصكم، الذي فيه أيضاً إذ آمنتم، **خُتِمْتُم** بروح الموعد القدوس الذي هو عربون ميراثنا» (أف١: ١٣و١٤). و يقول العالم الكبير لايتفوت Lightfoot إن هناك قولاً نبيلاً عند الربيين اليهود يقول: [إن ختم الله هو الحق]، بمعنى إن كل ما هو من الله مختوم بختم الحق.

و بذلك، فإن كلّ مَنْ يقبل المسيح يكون كَمَنْ قَبِلَ كل الحق من الله. ففيه تكمل كل مواعيد الله الصادقة الحقيقية غير الكاذبة: «الذي أرْسَلَني هو حق وأنا ما سمعته منه فهذا أقوله للعالم.» (يو٨: ٢٦)

٣: ٣٤ «لأن الذي أرسلَهُ الله يتكلّمُ بكلامِ الله. لأنه ليس بِكَيْلٍ يعطي الله الروحَ».

إن برهانَ صدق الله مختومٌ به على كل ما يقول المسيح و يعمل، والله أرسله محمّلاً برسالة روحية تفيض بآيات وكلام الحياة: «يارب إلى من نذهب. كلام الحياة الأبدية عندك» (يو٦: ٦٨). و يكفي لأي إنسان أن يعرف أن كل ما قاله المسيح ونطق به هو هو «كلام الله» نصاً وروحاً. ولكن ليس كأجزاء، إنما كرسالة كلية كاملة هي رسالة الله.

لكل الأنبياء كان الله يعطي الروح بمقياس ومكيال ἐκ μέτρου مجزّءاً ومقسَّطاً تقسيطاً على قدر ما يحمل روح النبي وعلى قدر ما يتحمل السامع واحتمالات الظرف. أما للمسيح فبلا كيل ولا قسط يعطي الله الروح، بل إلى كل ملء الروح والله. لأن قياس ملء المسيح هو قياس الله.

ومقياس ملء الآب والابن هو الحب.

٣: ٣٥ «الآب يحب الابن وقد دفع كل شيء في يده».

في إنجيل متى سمع المعمدان صوت الله: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت.» (مت٣: ١٧)

المعمدان ليس غريباً عن حقيقة الآب والابن. لقد كان أول من أعلن عن هذا السر في العهد الجديد قاطبة، وأول من شهد له: «وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله» (يو١: ٣٤)؛ بل وأول من وثَّق وثيقة منظورة من الآب للابن وقت العماد حينما حلَّ الروح القدس على هيئة حمامة استقرت فوق المسيح. فعلم للحال وللتو أن هذا هو الذي سيعمِّد بالروح القدس، وأنه قد استؤمن على كل ما للآب.

«كل شيء»: πάντα

دُفع له الحياة الأبدية بكل أسرارها والدينونة في المقابل، دُفع له سلطانه الخاص مع اسمه الخاص، دُفع له كل النعمة وكل الحق، أعطاه كل ما له و بلا حدود.

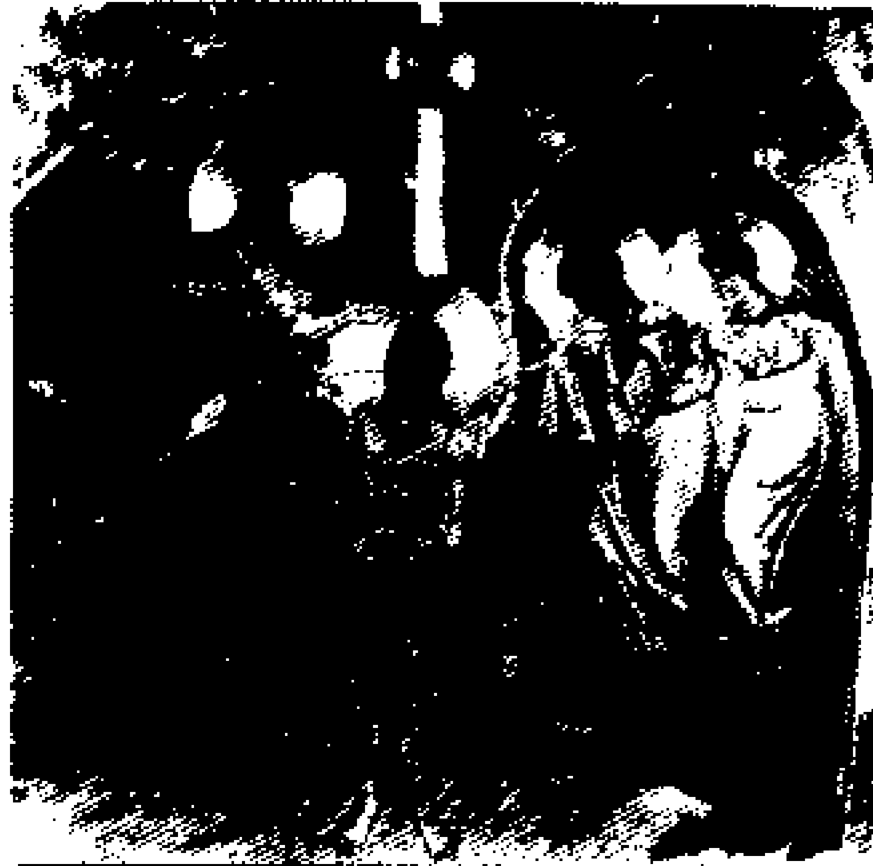
٣: ٣٦ «الذي يؤمن بالابن له حياةٌ أبديةٌ والذي لا يؤمنُ بالابن لن يرى حياةً بل يمكثُ عليهِ غضبُ الله».

المعمدان أُعطي له بصورة فريدة أن يطَّلع على الصورة النبوية للمسيح كما كانت في ذهن موسى في التوراة، وفي نفس الوقت يرى و يسمع شهادة الله عن ابنه؛ ثم يتقابل مع المسيح وجهاً لوجه فيتحقق من كل ما سمع ورأى. ففي توراة موسى كانت صورة المسيح، باعتباره النبي الآتي، تحمل معها تهديداً واضحاً بالقطع من الحياة لكل من لا يسمع لصوت هذا النبي الآتي: «فإن موسى قال للآباء إن نبياً مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم له تسمعون في كل ما يكلمكم به، و يكون **أن النفس التي لا تسمع لذلك النبي تُباد منْ الشعب**» (أع٣: ٢٢و٢٣). وقد تحقق المعمدان أول من تحقق من شخصية ذلك النبي المُقَام أنه «ابن الله»، وأنه موضوع مسرة الله، فتيقن أن الإيمان به هو حياة وأن رفضه هو عودة الإنسان تحت قانون غضب الله على الذين لا يطيعون. لأن بحسب منطق المعمدان يكون أنَّ الذين يؤمنون به يجعلون **الله صادقاً**، والذين لا يؤمنون يجعلون **الله كاذباً** لأنهم لا يؤمنون بشهادة الله عن ابنه. فهنا تنشأ الخصومة بين الإنسان

والله، فعدم الإيمان بالابن هو بنوعٍ ما تعدٍّ على صدق الله بما يحتمل العداوة ضد الحق. هنا يُدخِل الإنسان نفسه كمقاوم لتدبير الله ومعطِّلٍ لعمله: «شاول شاول لماذا تضطهدني... صعبٌ عليك أن ترفس مناخس.» (أع٩: ٤و٥)

تعقيب على شهادة المعمدان

نحن مدينون إلى علاقة ق. يوحنا الرسول الصميمة بالمعمدان، فهو كان من تلاميذه المتقدمين قبل أن ينضم إلى تلمذة المسيح، فبسبب هذه العلاقة التي تربطه بالمعمدان وتلاميذه، وهم زملاء ق. يوحنا القدامى، استطاع أن يتعرف على أدق وأكثر الحركات سراً التي جرت بين تلاميذ المعمدان واليهود من ناحية، وبين هؤلاء التلاميذ والمعمدان من جهة أخرى؛ لأن كل أقوال المعمدان التي تسجلت في إنجيل يوحنا في هذا الأصحاح هي من التعاليم السرِّية الخاصة التي باح بها المعمدان لتلاميذه ليضعهم في الموضع الصحيح بالنسبة لرسالة المسيح وشخصه. ولكن للأسف لم يكن هؤلاء التلاميذ المعمدانيون على مستوى نور معلمهم ورسالته؛ إذ قد استهوتهم رسالة النسك الدقيقة والصارمة التي اختطها لهم معلِّمهم: «لماذا يصوم تلاميذ يوحنا والفريسيين وأما تلاميذك فلا يصومون» (مر٣: ١٨). وتمادوا فيها بعد موته وكوَّنوا لأنفسهم شيعة رفعت من المعمدان ونسكه وتعاليمه ونصَّبت نفسها عدواً لرسالة المسيح.



الأصحاح الرابع

الأصحاح الرابع

هذا الأصحاح يشمل موضوعين أساسيين:

الأول: خدمة المسيح في السامرة ٤: ١ـ ٤٢ (*) وهو الجزء الخامس والأخير من «إنجيل التجديد».

والثاني: شفاء ابن خادم الملك ٤: ٤٣ـ ٥٤ وهو أول جزء من «إنجيل قوة الكلمة».

(*) يُقرأ إنجيل السامرية في الأحد الرابع من الصوم الكبير المسمى بأحد السامرية أو أحد النصف، وذلك على اعتبار أنه يقدم لنا حالة توبة مثالية، فهو مناسب لموسم الصوم الكبير. وتكرر قراءته في الأحد الثالث من الخمسين المقدسة، وذلك بسبب ما جاء فيه عن «ماء الحياة الأبدية»، فهو مناسب للخمسين المقدسة موسم القيامة والحياة الأبدية.

وأخيراً يُقرأ مرة ثالثة في مساء عيد حلول الروح القدس في صلاة السجدة، وذلك لما جاء فيه عن السجود بالروح والحق.

مكان البشارة
رابعاً ــ في السامرة
(٤ : ٤ــ٤٢)

(تابع «إنجيل التجديد»)

٥ ــ خدمة المسيح في السامرة

تقديم:

الحديث الذي ينقله لنا ق. يوحنا في هذا الأصحاح يُعتبر من الأحاديث الهامة والنادرة، لأنه حديث شخصي جداً ومطوّل مع فرد، امرأة، وقليلاً ما تحدّث المسيح عن خصوصيات إنسان وانتهى به إلى الإيمان بمثل هذه السرعة والرتابة والتدرج المبهر في الاستعلان عن ذاته. وعلى القارىء أن يربط بين مثل هذه الأحاديث النادرة وبين الغاية النهائية التي وضعها هذا الإنجيلي الملهم بالنسبة للقارىء مباشرة: «لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه.» (يو٢٠: ٣١)

كانت العلاقات بين اليهود وأهل السامرة على مستوى من التعالي من جهة اليهود، والبغضة والعداوة من جهة السامريين، ربما كانت هي الواقع الذي جعل المسيح يركب هذا الصعب ويذلّله لحساب محبة الآب نحو العالم، ونحو الملكوت المعدّ للبعيدين، لأننا نسمع في سفر الأعمال عن تشتُّت بعض التلاميذ وذهابهم إلى السامرة بعد حادثة قتل إسطفانوس على يديْ شاول (بولس الرسول فيما بعد) وحدوث «اضطهاد عظيم على الكنيسة التي في أورشليم فتشتت الجميع في كور اليهودية والسامرة ما عدا الرسل.» (أع٨: ١)

وهكذا صارت السامرة، مكروهة الأمة اليهودية، ملجأً أميناً لأول المسيحيين بفضل زيارة المسيح لهذا البلد وزرع بذرة الملكوت هناك. كذلك نسمع عن بعثة رسمية بقيادة فيلبُّس، أحد الشمامسة، قام بها في السامرة: «فانحدر فيلبُّس إلى مدينة من السامرة وكان يكرز لهم بالمسيح. وكان الجموع يصغون بنفس واحدة إلى ما يقوله فيلبُّس عند استماعهم ونظرهم الآيات التي صنعها. لأن كثيرين من الذين بهم أرواح نجسة كانت تخرج صارخة بصوت عظيم، وكثيرون من المفلوجين والعُرْج شُفوا. فكان فرح عظيم في تلك المدينة» (أع٨: ٥ــ٨). بل ودخلت السامرة رسمياً في إيبارشية أورشليم تحت تدبير الرسل وعنايتهم الخاصة: «ولما سمع الرسل الذين في أورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله أرسلوا إليهم بطرس و يوحنا اللذين لما نزلا صليا لأجلهم لكي يقبلوا الروح القدس. لأنه لم يكن قد حلّ بعد على أحدٍ منهم غير أنهم كانوا معتمِدين باسم

الرب يسوع. حينئذ وضعا الأيادي عليهم فقبِلوا الروح القدس.» (أع٨: ١٤ـــ١٧)

وهكذا كانت السامرة ذات موضع أثير عند ق. يوحنا. وكم نشكر الله الذي أهّل هذا الرسول القديس أن يكتب لنا سر قصة السامرة من البدء. فهو الوحيد الذي ألقى ضوء الإنجيل على هذا الشعب كاشفاً سر بدء نمو بذرة «حبة الخردل» التي ألقاها المسيح في قلب امرأة نصف أمية، فنبت حالاً الملكوت وتمهدت لأرجل بشارة الرسل، ليُغرس الروح القدس في قلوب شعب اختاره الرب بعد أن نبذه اليهود والتاريخ.

وموضع قصة السامرة في تسلسل إنجيل ق. يوحنا محكم شديد الإحكام، يتبع مخططاً روحياً غاية في الإلهام. فالقارىء يذكر كيف افتقد الرب أول ما افتقد الشعب اليهودي الذي يعيِّد في حفلة عرس، وهناك أظهر العريس الحقيقي نفسه لشعب إسرائيل الذي كان قد فرغ منه خمر الحب والفرح والملكوت. فعالجه المسيح بأن حول تطهير الماء الذي لا ينفع ولا يشفع بخمر الحياة الجديدة الجيدة. ثم يذكر كيف افتقد الرب هيكله، وقام في وجه النظام الكهنوتي الذي ترك الحق والرحمة وانشغل بذبيحة البقر والغنم والحمام وتحويل الصلاة إلى مصدر رزق ولو بغير حلال؛ فأطلق سراح البقر والغنم ورفع الحمام من هناك ناقضاً التطهير بالذبائح، ومشيراً إلى ذبيحته الوحيدة، التي أضمرها لإقامة هيكل جديد عوض القديم.

وبعدها يذكر القارىء أنه تقابل مع الناموس مُمثَّلاً في شخص معلم إسرائيل نيقوديموس، الذي يمثل السنهدريم وكل طبقة المعلمين، وكيف قلّب له نظام التعليم من أساسه، جاعلاً ملكوت الله رهن ولادة الإنسان من فوق من الماء والروح، حتى ولو كان قد شاخ في العلم والتعليم. وبعدها اصطنع مقابلة سريعة ـــ دون تقابل ـــ لخدمة المعمدان، قبل أن يختمها المعمدان بالسجن، ليوضّح لتلاميذه المتعصبين للنسك والتطهير كأنه الباب الجديد للخلاص، مع أن زمن التطهيرات كان قد انتهى عندما انفتح الباب الوحيد للخلاص، ولا أحد قط يستطيع أن يغلقه أو يقلده.

وهكذا بعد أن تمت مقابلة الشعب في عُرس، ومقابلة الكهنوت في هيكله، ومقابلة الناموس في معلمه، ومقابلة المعمودية «بالماء فقط» في عجزها النسكي؛ كان عليه أن يعطي لفتة لشعب غريب كان قد تَجَاوَرَ في كل الأزمنة السالفة، مع إسرائيل شعب النور والمعرفة، فما عتم إلاّ أن ازداد عتامة، وتخبط بين أسفار موسى وأصول العبادة وبين هيكل أورشليم وهيكل جرزيم.

ما هي السامرة ومن هم السامريون؟

أما السامرة نفسها فكانت جزءاً لا يتجزأ من أرض فلسطين التي كانت مقسمة خاصة بعد

العودة من السبي ـ وإلى الآن ـ إلى اليهودية والسامرة وإسرائيل (الجليل). وكانت مساحتها بحسب إدرزهايم[1] العالم اليهودي المتنصر ـ تبلغ ٤٧ ميلاً من الشمال إلى الجنوب وأربعين ميلاً من الشرق للغرب، تحدها أرض اليهودية في الجنوب ونهر الأردن من الشرق، ومن الغرب سهل شارون (الذي كان يتبع اليهودية أيضاً)، ومن الشمال الجليل عند سهل يزرعيل. أي أنها ورثت أرض منسّى وأفرايم سبطي إسرائيل ليوسف.

وأرض السامرة أجمل وأخصب من أرض اليهودية. ولكن في أيام المسيح تقلصت وصارت لا تحتوي إلا على بعض مدن قليلة بجوار عاصمتها السامرة. والسامرة كعاصمة لإسرائيل مملكة الشمال بناها الملك عُمْري حوالي سنة ٩٢٥ ق.م[2]؛ وكان اسمها شَمْرون نسبة لصاحبها شَامِر (وانقلبت الشين سين حسب النطق العربي فصارت سامرة) الذي كان يملك الجبل كله وهو باسمه جبل شمرون: «في السنة الواحدة والثلاثين لآسا ملك يهوذا، ملك عُمْري على إسرائيل اثنتي عشرة سنة واشترى جبل السامرة (شمرون) منْ شَامِر صاحب جبل السامرة.» (١مل١٦: ٢٣ـ ٢٥)

والسامرة دخلت في حرب طاحنة وخُربت ثم عُمّرت مرات ومرات، وكان يتبادل غزوَها واحتلالها كلٌّ من مصر وسوريا مبتدئاً من زمن الملك شِيْشَق سنة ٩١٨ ق.م، وهذه أول غزوة قامت بها مصر، وهي التي فيها أخلى فلسطين والهيكل من كل الذهب والتحف التي خلّفها سليمان الملك. وفي إحدى غزوات أشور سُبي شعبها على يد الملك شلمناصر الثالث (أو سرجون) وذلك سنة ٧٢١ ق.م أيام عُزيّا الملك، الذي خان العهد مع آشور والتجأ إلى مصر للمعونة. وكانت النتيجة أن خربت البلاد عن آخرها، وسُبي كل شعب مملكة إسرائيل في الشمال (سماريا)، وانمحى تاريخ إسرائيل منذ ذلك الوقت كمملكة في العالم.

ومدينة السامرة في أيام المسيح كانت بقرب المدينة شكيم التي عاش فيها الآباء إبراهيم وإسحق و يعقوب. والتي تخربت سنة ١٢٨ ق.م على يد يوحنا هركانوس، والتي بُني عوضاً عنها على بعد ميل ونصف مدينة أخرى، وصار اسمها نابلس (وأصلها نيابوليس Neapolis أي المدينة الجديدة). وشكيم عاصمة السامرة سابقاً كانت إحدى مدن الملجأ الست في كل أرض الأسباط.

---

[1] Edersheim, A., *The Life and Time of Jesus the Messiah.*

[2] Marsh, John. *The Gospel of St. John,* p. 208.
But the Cambridge Bible Commentary gives other dates p. 70-71.

هنا الأطلس التوضيحي يقول إن الملك عُمْري ملك من سنة ٨٧٦ـ ٨٦٩ ق.م، وإن الملك شيشَق قام بغزوته سنة ٩١٨ق.م، وإن شَلْمناصَّر الثالث كان عصره من سنة ٨٥٩ـ ٨٢٤ق.م.

أما السامريون، وأصلاً كانوا يُدْعَوْن «كُتييِّم» (Kuthim)، فهم بقايا العشرة الأسباط الذين رُحّلوا إلى بلاد السبي على يد الملك الغازي شلمناصر (أو بحسب أبحاث كتابات الآثار: سرجون) سنة ٧٢١ ق.م، والذين تزاوجوا من الوثنيين الذين أُرسلوا من آشور ليحلُّوا محل أهل البلاد، كذلك مع أهل الأرض القدامى، ولكن الدم اليهودي كان هو الغالب.

وأصل العداوة المُرَّة التي نشأت بين اليهود واليهودية وأهل السامرة وأرضها، كان هو عملية الإصلاح التي قام بها نحميا وعزرا الكاهن في تصفية الدم اليهودي، وطرد كل من تزاوج من السامرة، وعدم السماح لأهل السامرة بالرغم من الإلحاح الشديد أن يُسمح لهم بالمساعدة في بناء الهيكل أو أن ينضموا إلى اليهودية وعبادة أورشليم أو يلتحقوا بالسنهدريم، مما نتج عنه شعورٌ بالبغضة لم ينطفيء أواره حتى اليوم. وذهبت العداوة إلى درجة القنص وقتل كل يهودي يعبر السامرة. ولكن هذه العداوة كانت تزداد وتخفُّ من جيل إلى آخر.

ولكن عبادة السامريين كانت مبتورة بسبب قلة التعليم، مع أنهم كانوا يعيِّدون للفصح بذبح الخروف ويقيمون الشعائر والعبادة بدقة تفوق اليهود، وكذلك بحسب أسفار موسى الخمسة فقط التي احتفظوا منها بنسخة غاية في القدم يرجع تاريخها إلى حوالي سنة ٤٠٠ ق.م(٣) أيام نحميا وعزرا الكاهن، والتي تُعتبر أحد مصادر البحث الهامة في المقارنات بين الآيات. وكانوا يؤمنون بالقيامة، غير أن اليهود أنكروا عليهم هذا الإيمان وكانوا يعتبرونهم هراطقة. ولكن في أيام الحاخام شمعون بن غمالائيل معلم إسرائيل العظيم قرر أنهم يُحسَبون إسرائيليين، وأن أرضهم ليست نجسة ولا طعامهم، بعكس رابي «يهودا» المحسوب أنه قديس عند شيعته فكان يتشدد وينعتهم بالوثنيين. وطبعاً الأساس في ذلك هو روح العداوة التي لا تعرف للحق حدوداً.

كانت عبادة السامريين تُقام في هيكلهم على جبل جرزيم الذي أُقيم سنة ٤٠٩ ق.م، وقد حدث في هذه الأيام أن رئيس كهنة اليهود الكبير المدعو ياددوا Jaddua امتنع من أن يسمح لأخيه المدعو منسَّى أن يتزوج بنت سنبلَّط السامري وأرغمه على الفرار من اليهودية. فذهب هذا الأخير وأقام نفسه رئيس كهنة لهيكل جرزيم عند السامريين. وهكذا صار جبل جرزيم مركز عبادة رسمياً، وصارت كل مراسيم العبادة تحمل صورة طبق الأصل من العبادة اليهودية. ولكن لما انضم السامريون إلى السوريين الذين غزوا المكابيين، وذلك سنة ١٣٠ ق.م، قام يوحنا هركانوس بهدم هيكلهم ولم يُبنَ بعد ذلك. كذلك مدينة السامرة التي بعد أن خربت بكاملها بُنيت من جديد على

---

(٣) Cambridge Bible Commentary, p. 142.

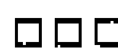
يد هيرودس وصارت من أجمل المدن، وأسماها سِبَسْطية على شرف أُغسْطس قيصر، كما أُعيد بناء شكيم وسُمِّيت على شرف العائلة المالكة في روما «فلافيا نيابوليس» وهي نابلس الحالية. (٤)

وقد ظهر عطف المسيح على السامرة والسامريين في عدة مواضع غير الذي نحن بصدده الآن:

١ ــ في الموضع الذي طَهَّر فيه العشرة البرص: «فواحد منهم لما رأى أنه شفي رجع يمجِّد الله بصوت عظيم وخرَّ على وجهه عند رجليه شاكراً له، وكان سامرياً. فأجاب يسوع وقال: أليس العشرة قد طهروا فأين التسعة؟ ألم يوجد من يرجع ليعطي مجداً لله غير هذا الغريب الجنس؟» (لو١٧: ١٥ــ١٨). وهنا يدعوه المسيح غريب الجنس بحسب تسمية اليهود للسامريين، ولكنه ضِمناً امتدحه وامتدح جنسه أكثر من اليهود. وفي هذا المثل مقارنة مكتومة بين أخلاق اليهود وروحهم المبتعدة عن الله حتى وفي عدم ردّهم على صنع الخير لهم، وبين السامريين المعترفين بفضل الله وبصوت عظيم.

٢ ــ الموضع الآخر وهو أعظم وأجلّ تكريم قدَّمه المسيح للسامرة والسامريين، إذ أعطى مثلاً صار فيه السامري الصالح لقباً جليلاً ذا شأن عظيم في الحياة المسيحية. هذا المثل قاله المسيح ردّاً على سؤال متبجِّح ليهودي يسأل: «من هو قريبي؟»، في الوصية التي تقول: «تحب قريبك مثل نفسك» (لا ١٩: ١٨). فأعطى المسيح مثلاً لاذعاً قدّم فيه أن كاهناً لم يتحرك لينقذ إنساناً يهودياً نازلاً من أورشليم متجهاً نحو أريحا مُعرّى ومجروحاً ومضروباً ملقىً بين حيٍّ وميت على الطريق. ولا أيضاً تحرَّك لهذا المنظر يهوديٌّ لاويٌّ أي من خدام الهيكل. «ولكن سامرياً مسافراً جاء إليه ولما رآه تحنن، فتقدم وضمد جراحاته، وصبَّ عليها زيتاً وخمراً وأركبه على دابته، وأتى به إلى فندق واعتنى به، وفي الغد لما مضى أخرج دينارين وأعطاهما لصاحب الفندق وقال له اعتنِ به، ومهما أنفقت أكثر فعند رجوعي أُوفيك. فأيُّ هؤلاء الثلاثة تُرى صار قريباً للذي وقع بين اللصوص؟» (لو١٠: ٣٣ــ٣٦).

٣ ــ أما الموضع الأخير فقد وضع فيه المسيح في عنق الكنيسة لتكمل ما صنعه هو: «لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم وتكونون لي شهوداً في أورشليم وفي كل اليهودية **والسامرة** وإلى أقصى الأرض.» (أع١: ٨)



(٤) للمزيد من التعرف على السامرة والسامريين نرجو الرجوع إلى كتاب العلاّمة إدِرْزهايم:

Edersheim, A., "The Life and Time of Jesus the Messiah", Part Two, p. 430.-34.

والآن إلى ما يتضمنه حديث المسيح في السامرة واستجابة أهلها:

١ ــ يقدم لنا ق. يوحنا عرضاً لإيمان أهل السامرة النصف أميين، فإذا هو الإيمان الحاضر المستجيب المعلن عن نفسه ببراءة ويقين وصحة: «أنت مخلِّص العالم»، ومن كل قلوبهم، إزاء:

أولاً: أهل أورشليم مركز العبادة والمتعبِّدين بإيمانهم السطحي الهزيل المتهافت على الآية والمعجزة.

وثانياً: إيمانُ معلِّم إسرائيل التائه الحائر ممثِّل صفوة العلماء والمتعلمين، مع رد فعل الفريسيين على تعاليم المسيح المملوء شكاً وخبثاً ومصادرة.

وهكذا يقدم لنا ق. يوحنا هذه الإستراحة الإيمانية بين هؤلاء مِنْ غيرِ اليهود، على طريق الكرازة لليهود المملوء تعسفاً وضيقاً وجحوداً.

٢ ــ يعلو بنا ق. يوحنا في هذه الوقفات القليلة مع السامريين إلى أقصى استعلان بلغة المسيح عن نفسه. فمع السامرية استدرج إيمانها حتى بلغت به **المسيا**، فوافقها معلناً **«أنا هو»**.

أما درجات الاستعلان البارزة فما أوضحها في هذه الكلمات المتلاحقة:

ــ «أنت يهودي وأنا امرأة سامرية».

ــ «يا سيد κύριε».

ــ «لا دلو لك والبئر عميقة ألعلك أعظم من أبينا يعقوب؟».

ــ «أعطني هذا الماء لكي لا أعطش».

ــ «يا سيد أرى أنك نبي».

ــ «أنا أعلم أن مسيا يأتي = (أنا هو)».

ومع السامريين الذين عاشرهم عدة أيام آكلاً وشارباً من خبزهم ومائهم ملاطفاً متحنناً، حتى بلغ بهم الإيمان أن رأوه بيقين الرؤيا والشهادة: **«أنت مخلص العالم»**.

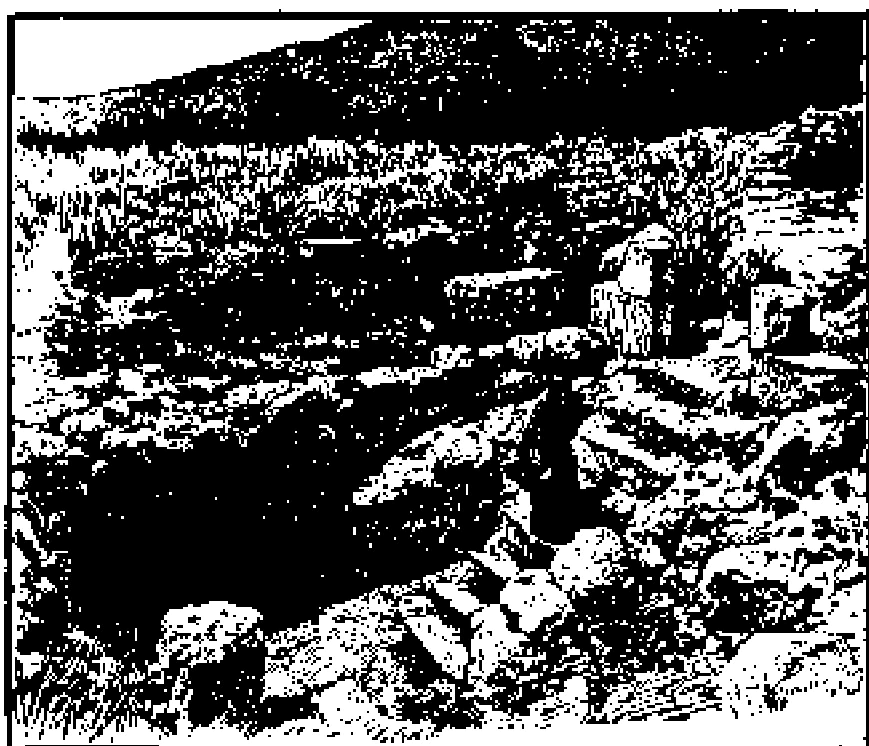
٣ ــ قرب نهاية قصة السامرة يفتتح المسيح سجل الإرساليات المزمع أن يكون، وذلك لأول مرة في إنجيله هكذا، وفي بكور أعماله متكلماً عن المرسَلين، وزَرع الدموع، وحصاد الفرح، وكأنه يدرِّب أولاده كما يدرب النسر فراخه على التحليق والصيد. وقد كان بالفعل أن تمت أول إرسالية نقرأ عنها في أصحاح ٨ أعمال الرسل على يد فيلبُّس أحد الشمامسة السبعة، تلاها إرسالية تزعَّمها القديس بطرس، ولكن كان ق. يوحنا روحها الذي شغف بأهلها أيَّما شغف، بعد أن امتص من

المعلم روح المسامحة واللطف والحب والتحنن على الرافضين والمرفوضين سواء، وهكذا خلع ق. يوحنا ثوبه اليهودي الأول المطرز بالعلياء والكبرياء ولبس مسوح المسيح:

ــ «وأرسل أمام وجهه رسلاً فذهبوا قريةً للسامريين حتى يعدُّوا له، فلم يقبلوه لأن وجهه كان متجهاً نحو أورشليم ــ فلما رأى ذلك تلميذاه يعقوب ويوحنا قالا: يا رب أتريد أن نقول أن تنزل نار من السماء فتفنيهم كما فعل إيليا أيضاً. فالتفت وانتهرهما وقال: لستما تعلمان من أي روح أنتما، لأن ابن الإنسان لم يأتِ ليُهلك أنفس الناس بل ليخلِّص.» (لو٩: ٥٢ــ٥٦)

وهكذا يشاء الله أن يكون ق. يوحنا أول من يضع يده على رؤوسهم ويستنزل لهم الروح القدس فيحلُّ عليهم ويصيروا من التابعين.

٤ ــ في هذه الرحلة المشوقة في أرض السامرة أعلن المسيح ولأول مرة عن الماء الحي الذي يعطيه، وأن كلَّ من يشرب منه لا يعطش أبداً، وعن العبادة بالروح والحق وأن الله روح وهو يطلب الساجدين له بالروح والحق، وعن هيكل العبادة الذي حيَّر الناس بألوانه وأشكاله، بأن وضع أول أساس لأُورشليم السماوية على الأرض حيث لا هيكل أورشليم ولا هيكل جرزيم: «وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من السماء من عند الله... ولم أرَ فيها هيكلاً لأن الرب الله القادر على كل شيء هو والخروف هيكلها.» (رؤ٢١: ١٠و٢٢)



الشرح:

٤ : ١و٢و٣ **«فلما عَلِمَ الربُّ أن الفريسيينَ سمعوا أن يسوعَ يُصيِّر ويُعمِّدُ تلاميذَ أكثرَ من يوحنا، مع أن يسوعَ نفسَهُ لم يكن يُعمِّدُ بل تلاميذُهُ، ترك اليهوديةَ ومضى أيضاً إلى الجليلِ».**

«فلما»: Ὡς οὖν

إذا جاءت في بداية الكلام، فهي دائماً تحمل نوع الإرتباط وتُحمِّل الآية على ما قبلها. فهنا **«فلما»** تعني: «وحينئذ عندما» علم الرب. وهنا التحميل يجيء مرتكزاً على ما حدث من تلاميذ المعمدان والإثارة التي أحدثوها، خاصة عندما أشاعوا أن «الجميع» يأتون إلى المسيح وأن المسيح يُعمِّد تلاميذ أكثر من يوحنا؛ هذا الخبر ترامى لأسماع الفريسيين وغالباً فإنهم أعدُّوا العُدَّة للمصادرة. هذا علمه المسيح قبل وقته، فأخذ الاحتياط تجنُّباً للمصادمة ـــ قبل ميعاد الساعة ـــ مع الفريسيين المحسوبين أنهم أعداء الإيمان.

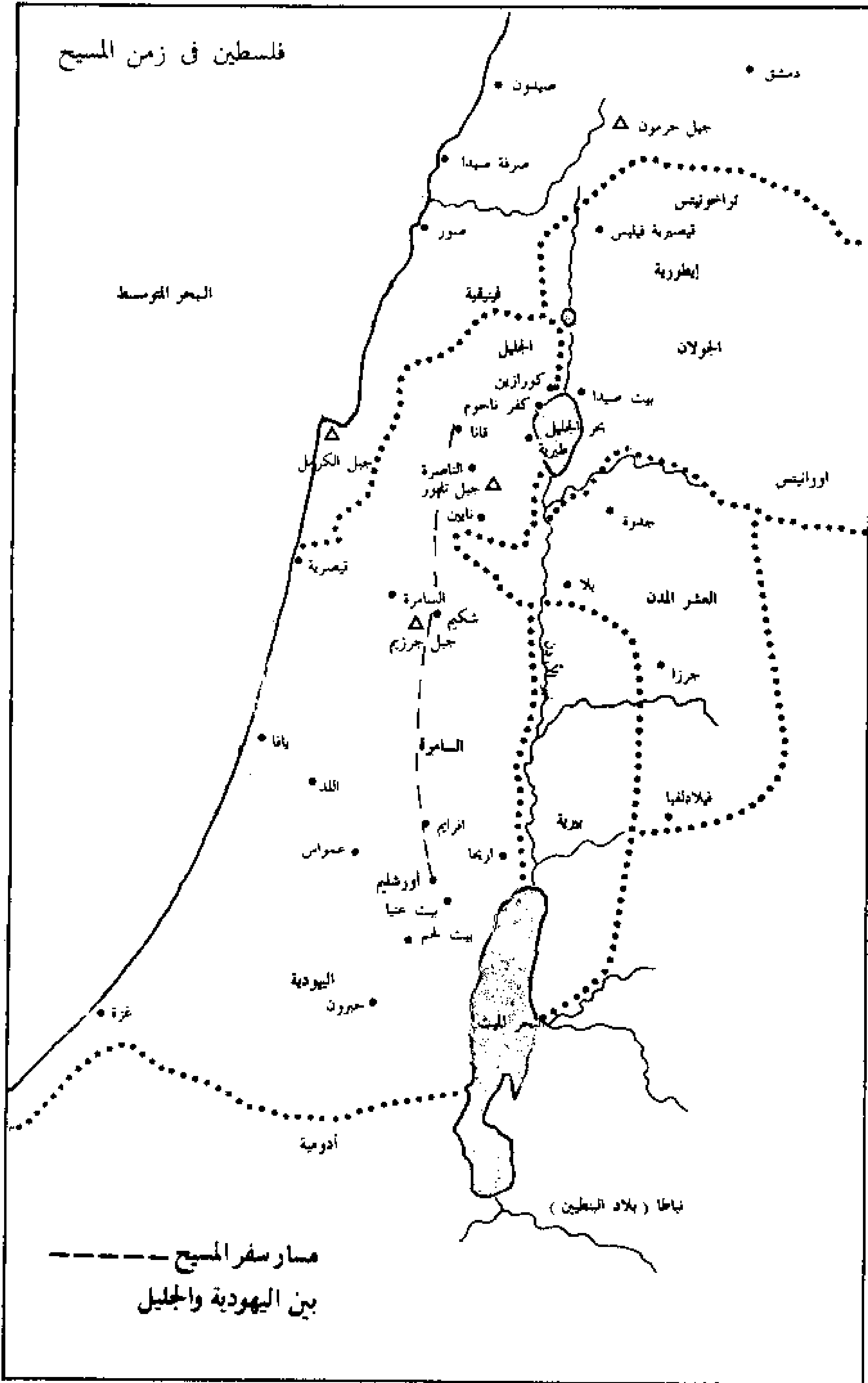
ويوضح ق. يوحنا أن الإشاعة حملت مضموناً كاذباً أن المسيح يعمِّد، فصححها ق. يوحنا قائلاً: «مع أن يسوع نفسه لم يكن يُعمِّد بل تلاميذه». وهذا توضيح لا بد منه، لأن المعمودية لم تكن قد أخذت وضعها المسيحي كسرٍّ يختص بملكوت السموات، بمعنى أنها لم تكن مُدعَّمة بالروح القدس بعد، فقد كانت مجرد إعداد لمعمودية قادمة. هذا بالإضافة إلى أن سر المعمودية في المسيحية يشمل أساساً مضمون موت المسيح وقيامته، وهذا لم يكن قد تم بعد.

«ترك اليهودية» (ينسحب): ἀφίημι

وقرر المسيح أن ينسحب ـــ وجاءت في العربية «ترك» ـــ ينسحب من عمله في اليهودية ويمضي أيضاً إلى الجليل. و«ينسحب» هي الترجمة الدقيقة لما يعنيه الفعل اليوناني ἀφίημι في هذا الموضع. ولكنها لم ترد في الترجمات العربية للعهد الجديد وهي تفيد: «ترك الأمر على ما هو عليه ليبلغ نهايته من نفسه».

«ومضى أيضاً إلى الجليل»:

«أيضاً» هنا منسوبة إلى القول السابق في ١ :٤٣: «وفي الغد أراد يسوع أن يخرج إلى الجليل». وكانت هذه هي المرة الأُولى، أما هنا فهي المرة الثانية. والسر في أن ق. يوحنا يضع هنا **«أيضاً»** هو سِرٌّ خطير للغاية، لأنه يود أن يؤكد التفريق بين زيارتين تمَّتا للجليل: الأُولى بعد



فلسطين فى زمن المسيح
دمشق
صيدون
جبل حرمون
صرفة صيدا
تراخونيتس
صور
قيصرية فيلبس
إيطورية
البحر المتوسط
فينيقية
الجليل
الجولان
كورازين
بيت صيدا
كفر ناحوم
بحر الجليل
قانا
طبرية
جبل الكرمل
الناصرة
جبل تابور
اورانيتس
نايين
جدرة
قيصرية
بلا
العشر المدن
السامرة
شكيم
جبل جرزيم
جرزا
يافا
السامرة
اللد
فيلادلفيا
افرايم
بيرية
عمواس
اريحا
أورشليم
بيت عنيا
بيت لحم
اليهودية
حبرون
غزة
البحر الميت
أدومية
نباطا (بلاد النبطيين)
مسار سفر المسيح ------
بين اليهودية والجليل

خدمته في اليهودية أول مرة؛ والثانية وهي هذه، بعد خدمته في اليهودية لثاني مرة، الأمر الذي أغفله الإنجيليون الثلاثة وجعلوا خدمته في الجليل قائمة بذاتها دون الإشارة إلى خدمته في اليهودية.

٤ : ٤ **«وكان لا بدّ لهُ أن يجتازَ السامرة».**

«وكان لا بد له ἔδει » تفيد نوعاً من **الإستعجال** أو ــ وهو الأصح ــ نوعاً من **الإلتزام**. لذلك نرى المسيح يتخذ طريقه من داخل السامرة مع أنه طريق شاق وحارٌّ (صيفاً)، بالإضافة إلى أنه محظور نوعاً ما بسبب تكرُّه اليهود من الإختلاط والسير في أرض السامرة واحتمال تعدّي أهل السامرة على المارِّين أحياناً. أما الطريق الآخر الأسهل فكان من غرب الأُردن ينطلق شمالاً حتى إلى الناصرة. وإن كان يبدو للباحث العادي أن هذا الاختيار هو وليد الحاجة إلى الإسراع في مغادرة اليهودية، ولكن الحقيقة التي كان يعلمها المسيح هي أنه كان ملتزماً بمهمة، فقد كان عطشاناً إلى ماء السامرة كعطشه على الصليب من أجل الخطاة. وكان طريق اليهودية إلى الجليل عَبْر السامرة يستغرق ثلاثة أيام، بحسب يوسيفوس المؤرخ اليهودي.

٤ : ٥ **«فأتى إلى مدينة من السامرة يقال لها سوخار، بقرب الضَّيْعة التي وهبها يعقوب ليوسف ابنه».**

سوخار:

الآن تسمى «عسكر». وقد بُحث عن هذا الاسم فوُجد في أخبار أيام السامرة في المخطوطات، ومكتوب اسمها إسكار Yskar في مدونات القرن الثاني عشر(٥)، وهي تقع تحت سفح جبل عيبال وهو جبل اللعنات، وفي مقابله تماماً جبل جِرِزِّيم جبل البركات، وبين السفحين تقع مدينة شكيم التي كانت عاصمة مملكة إسرائيل بالقرب من مدينة السامرة التي تحوَّل اسمها أيام هيرودس الملك إلى سِبَسْطية نسبة إلى أغسطُس قيصر [حيث **أُغُسْطُس** (*) باللاتيني يقابلها **سبستوس** Σεβαστός باليونانية]، ولكنها في أيام المسيح لم تكن قد أخذت صورتها واسمها بالكامل. (٦)

ــ «وإذا جاء بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لكي تمتلكها فاجعل البركة

---

5 Conder. in "Palest. Exploration report", 1877, p. 150, cited by Westcott, *op. cit.*, p. 67.

(*) أوغسطس أو أغسطس تعني صاحب السمو أو الرفعة، وكذلك سباسطوس.

6 Cambridge Bible Commentary, p. 52. أنظر الصورة الفوتوغرافية والخريطة.

على جبل جِرزِّيم واللعنة على جبل عيبال.» (تث١١: ٢٩)
ـ «وأوصى موسى الشعب في ذلك اليوم قائلاً: هؤلاء يقفون على جبل جرزيم لكي يباركوا الشعب حين تعبرون الأُردن: شمعون ولاوي ويهوذا ويساكر ويوسف وبنيامين. وهؤلاء يقفون على جبل عيبال للَعنة. رأوبين وجاد وأشير وزبولون ودان ونفتالي.» (تث٢٧: ١١ـــ١٣)

«الضيعة التي وهبها يعقوب ليوسف ابنه»:

في بَرَكة يعقوب إسرائيل الأخيرة وهو على سريره في مصر (تك٤٨: ٢٠ـــ٢٢)، وهو واضع يديه على **أفرايم ومنسَّى**، وهب يوسف هذا المكان أي هذه الضيعة المذكورة في تك٣٣: ١٧ـــ٢٠. وكانت كلمات يعقوب هكذا: «وباركهما في ذلك اليوم قائلاً: بك يُبارِك إسرائيلُ قائلاً يجعلك الله كأفرايم ومَنَسَّى، مقدِّماً أفرايم على مَنَسَّى. وقال إسرائيل ليوسف: ها أنا أموت ولكن الله سيكون معكم ويردُّكم إلى أرض آبائكم. وأنا قد وهبت لك سهماً واحداً فوق إخوتك أخذته من يد الأموريين بسيفي وقوسي.» (تك٤٨: ٢٠ـــ٢٢)

وهناك في سفر يشوع يتضح صحة هذه الدعوى: «وعظام يوسف التي أصعدها بنو إسرئيل من مصر دفنوها في شكيم في منطقة الحقل التي اشتراها يعقوب من بني حمور أبي "شكيم" بمائة قسيطة فصارت لبني يوسف ملكاً» (يش٢٤: ٣٢). ولا يزال قبر يوسف هناك بجوار هذا البئر حتى اليوم.

فإذا علمنا أن سبطي أفرايم ومنسى كان نصيبهما من أرض كنعان منطقة السامرة الآن بعينها، تكون دعوى السامريين بانتسابهم ليعقوب صحيحة، وأنهم وارثون بركة يعقوب في أفرايم ومَنَسَّى صحيحة أيضاً. ولكن واقعهم الروحي والإلهي كان متدهوراً للغاية. كذلك يتضح من كلام السامرية للمسيح بعد ذلك: «ألعلَّك أعظم من أبينا يعقوب الذي أعطانا البئر وشرب منها هو وبنوه ومواشيه»، تأكيداً لميراث الأرض والبركة.

٦:٤ «وكانت هناك بئر يعقوب. فإذ كان يسوع قد تَعِبَ من السفر جلسَ هكذا على البئر، وكان نحو الساعة السادسة».

«ليس مثل الله يا يشورون، يركب السماء في معونتك والغمام في عظمته، الإله القديم ملجأ والأذرع الأبدية من تحت. فطرد من قدامك العدو وقال أهلِكْ. فيسكن

إسرائيل آمناً وحده. تكون عين يعقوب إلى أرض حنطة
وخمر، وسماؤه تقطر ندى.» (تث٣٣: ٢٦ـــ٢٨)

«بئر يعقوب»:

هذه البئر موجودة حتى الآن تحت عناية الجهات الرسمية المحتفظة بالآثار. وكان عمقها في الأصل نحو ١٠٦ أقدام، ومياهها ترشح إليها من الأرض حولها فهي شحيحة نوعاً ما. وقد نزل في هذه البئر الرحَّالة اللفتنانت أندرسون في مايو سنة ١٨٦٦ فوجد عمقها ٧٥ قدماً ـــ ونصف قطرها ٧ قدم ـــ ولكنها كانت مطموسة وليس بها ماء، وكانت مُغَشَّاة بحجارة غشيمة ولكن متماسكة.(٧)

والذي حيَّر العلماء هو لماذا هذه البئر شحيحة المياه مع أن حواليها ينابيع غزيرة في شكيم وكل الدائرة؟ وكان الردُّ هو أن يعقوب وهو متغرب هناك وقد اشترى قطعة الأرض هذه، أراد أولاً أن يكون له مصدر مياه خاصة به هو وبنوه ومواشيه. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان حفر بئر في الأرض يعتبر آنئذ وضع يد ملكية يثبت ملكيته للأرض الواقع فيها البئر: «ثم أتى يعقوب سالماً إلى مدينة شكيم التي في أرض كنعان حين جاء من فدان أرام (بين النهرين)، ونزل أمام المدينة. وابتاع قطعة الحقل التي نصب فيها خيمته من يد بني حمور أبي شكيم بمئة قسيطة. وأقام هناك مذبحاً ودعاه إيل (إيل مفرد إلوهيم) إله إسرائيل.» (تك٣٣: ١٨ـــ٢٠)

«تعب يسوع من السفر»:

تعب يسوع من وعثاء السفر، أليس هو ابن الإنسان؟ أليس من أجل هذا تجشَّم رحلة النزول من حضن الآب ليشارك الإنسان شقاءه وأتعابه وأسفاره؟ ولكنه جيد أن يتعب يسوع مجرَّباً مثلنا في كل شيء ما خلا الخطية وحدها، لكي يستطيع أن يعين المجرَّبين والتعابى. ولكن لعلَّه تعب من رحلة السفر الطويلة مع الشعب الذي أعطاه القفا دون الوجه: «مددت يديَّ طول النهار إلى شعب معاند ومقاوم.» (رو١٠: ٢١)

«جلس هكذا على البئر وكان نحو الساعة السادسة»:

«هكذا: οὕτως » تفيد أنه جلس بدون ترتيب المكان الذي يجلس عليه من شدة التعب ـــ أو بمعنى متعباً هكذا ـــ وطبعاً كان جلوسه على الحجارة المرصوصة حول البئر. والبئر كان يبعد عن سوخار حوالي كيلو متر ونصف. وكان الوقت منتصف الظهيرة فأضاف الجو بحرارته على تعب الطريق جفاف الريق!!

---

7 Warren's Recovery of Jerusalem, pp. 464ff, cited by Westcott, *op. cit.*, p. 68.

وهل هي من مصادفات الحديث والرواية؟ أو أن هناك علاقة بين هذه القصة ومأساة الصليب، ففي الاثنين نقرأ عن التعب والعطش ونحو الساعة السادسة من النهار. بل والأدهش أن نقرأ في الروايتين أن التلاميذ تركوه وحده!!

«البئر»:

يورد ق. يوحنا في هذه الرواية لفظين متباعدين يعبّران عن البئر:

الأول: πηγή

ويعني ينبوع ماء، وفي أصوله اللغوية سواء باليوناني أو العبري أو العربي، يكون بمعنى «عين» بالعربي. وبالعبري "ayn" وهو الينبوع الطبيعي الذي لم تنقره يد إنسان وماؤه جارٍ أي حيٌّ. وهذا اللفظ التعبيري يذكره ق. يوحنا إذا كان ملازماً للرب سواء **جلس عليه أو أعطى هو منه ماءً حياً:** «يصير فيه ينبوع πηγή ماءٍ ينبع إلى حياة أبدية.» (٤ : ١٤)

الثاني: φρέαρ

وهو البئر المحفور باليد أو مصنوع كخزان، ويكون غالباً عميقاً ومياهه شحيحة وراكدة. واللفظة بالعربية مثل العبرية «بئر» "Béer". والعجيب أن هذا اللفظ التعبيري يذكره ق. يوحنا عندما يكون ملازماً للسامرية: «يا سيِّد لا دَلْوَ لك والبئر φρέαρ عميقة» (٤ : ١١)، وأيضاً عندما قالت: «ألعلك أعظم من أبينا يعقوب الذي أعطانا البئر φρέαρ وشرب منها هو وبنوه ومواشيه» (٤ : ١٢).

وهكذا يكشف لنا ق. يوحنا عن منهجه الروحي، ويبثُّه بالحديث بثّاً كمَنْ يطوِّع الألفاظ لفكره اللاهوتي، وكأنه يريد أن يردد الآية: «شعبي عمل شرَّيْن. تركوني أنا ينبوع πηγὴν المياه الحيَّة لينقروا لأنفسهم آباراً (خزانات) λάκκους مُشقَّقَة لا تضبط ماءً.» (إر٢ : ١٣)

أليس في هذا التصوير البديع باللعب بالألفاظ ما يكشف عن رؤية كاتب الإنجيل أن بئر يعقوب هو هو المسيح ينبوع الحياة: «أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية، أنا أُعطي العطشانَ من ينبوع ماء الحياة مجاناً... مَنْ يسمعْ فلْيَقُلْ تعالَ، ومَنْ يعطشْ فليأتِ، ومَنْ يُرِدْ فليأخذْ ماء حياة مجاناً.» (رؤ٢١ : ٦؛ ٢٢ : ١٧)

أما **«الساعة السادسة»**: فليست الساعات عند ق. يوحنا بلا حساب. أليست هي عينها

ساعة الخلاص التي قال فيها «أنا عطشان»؟ إنه دائماً على ميعاد مع الخطاة في منتصف النهار قبل أن يأتي ليدين في نصف الليل.

أ ــ حديث الرب مع السامرية: (٤: ٧ــ٢٦)

وتظهر فيه المقابلة بين القديم والجديد على النحو التالي:

القديم: بئر بركات وذكريات الآباء الجسدية، ذات الماء المُعْطش.

الجديد: المسيح ينبوع الحياة الأبدية، والذي يشرب منه لا يعطش أبداً.

القديم: السجود في جبل أورشليم لليهود، وجِرِزِّيم للسامريين الذين يسجدون **لما لا يعلمون.**

الجديد: «تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون بالروح والحق **"للآب"**».

القديم: «أنا أعلم أن مسيًّا يأتي... ذاك يخبرنا بكل شيء».

الجديد والاستعلان: «أنا هو»!

٤: ٧و٨ **«فجاءت امرأة من السامرة لتستقي ماءً، فقال لها يسوع: أعطيني لأشرب، لأن تلاميذَهُ كانوا قد مَضَوْا إلى المدينةِ ليبتاعُوا طعاماً».**

واضح أنه لو كان المسيح مع تلاميذه لما طلب ماءً من امرأة. ولكن يتساءل الشُّرَّاح لماذا تأتي امرأة لتستقي من بئر عميقة وحواليها عيون ماء كثيرة في المنطقة؟ كما يتساءلون لماذا تأتي وقت الظهيرة وهو ليس ميعاد استقاء؟ فالرد على ذلك بسيط ولكنه مُحرِجٌ. فالمرأة ذات سمعة سيئة، فهي اختارت وقتاً لا يكون فيه أحدٌ من نسوة المدينة يستقي، كما أنها اختارت البئر الأقرب إلى قريتها. فالبئر تبعد عن سوخار حوالي نصف ميل. ولكن ق. يوحنا لم يلتفت إلى هذه التفرعات التي تُلْهِي القارىء عن لُبِّ الحوار ونتائجه، وهذا هو أسلوب ق. يوحنا أن لا يتدخل في معرض القصة إلاَّ إذا التزم اللفظ بالتوضيح.

ولكن ماذا يوحي إلينا هذا المنظر؟ امرأة تستقي من بئر في منتصف النهار، والامرأة كجنس يُنْظَر إليه بخفَّة عند الحكماء في أعين أنفسهم: «وكانوا يتعجبون أنه يتكلم مع امرأة» (٤: ٢٧)، ثم عند اليهود بازدراء وامتهان. فليست صنعة المرأة السَّقْي من الآبار إن كانت امرأة ذات بيت

وخدم. ولكن هنا نرى الرب يكسر حاجز الجنس القائم بين الرجل والمرأة، وحاجز العداوة القائم بين الإنسان والإنسان، لأننا سنسمع حالاً أن اليهود لا يعاملون السامريين. ولكن أيضاً يكسر حاجز الطبقات ما بين ذي حيثية وغير ذي حيثية. فالمنظر أمامنا خصب يوحي بأن الجالس على البئر يمثل السمو غير الموجود في البشر. فإن قال: «أعطيني لأشرب»، فهو سؤال للأخذ، يخفي النية في العطاء. وهذا شأن الله دائماً: «يا ابني أعطني قلبك ولْتُلاحظ عيناك طرقي.» (أم٢٣: ٢٦)

السامرية فرغ ماؤها في منتصف النهار، مثل عرس قانا الذي فرغ خمره. فإن كان اليهود قد أعوزهم سرُّ الفرح، فالسامريون أعوزهم سرُّ الحياة.

ليس مصادفةً أن تأتي امرأة سامرية لتستقي والمسيح جالس على بئر يعقوب. ليس هذا من صُنع القَدَر بل مِنْ صُنع: مَنْ يصنع «أمراً مقضياً به على الأرض» (رو٩: ٢٨). فقد ساق الروح هذه المرأة التي هي خير من يمثل البشرية المُهانة التي خارج السياجات، لتصنع هذه المقابلة التي تم تدبيرها منذ الأزل. امرأة مُهانة من شعب ذليل، ليس غريباً عليها أن تتقابل مع مَنْ لَبِس الغُربة وأخذ شكل العبد المهان: «قليلٌ أن تكون لي عبداً لإقامة أسباط يعقوب وردِّ محفوظي إسرائيل. فقد جعلتُك نوراً للأمم لتكون خلاصي إلى أقصى الأرض. هكذا قال الرب فادي إسرائيل قدُّوسُه **للمُهان النفس، لمكروه الأمة، لعبد المتسلِّطين**» (إش٤٩: ٦و٧). لقد سُجِّلت هذه المقابلة ليس في سفر إشعياء أول ما سُجِّلت، بل في سجل الأزل، لحساب مَنْ لبس ابن الله من أجلهم شكل العبد المهان!!

«أعطيني لأشرب»:

القول ينضح بالمفارقة الصارخة. ينبوع ماء الحياة يطلب أن يشرب من ماء بئر مُعْطِش ومن يد امرأة جفَّ منها ماءُ الحياء؟ ولكن دائماً أبداً تقف مفارقات الله مع الإنسان لحساب الإنسان. وهو دائماً يحتاج إلينا ليعطينا. ولكن قول الرب محسوب حسابه، وليحسب معي القارىء كلمات الرب للمرأة السامرية وهذه هي أولها: فسوف يجدها سبع كلمات بكل ميزان العدّ والتصنيف وليس زيادة ولا نقصان. فكلمات الرب دائماً محسوبة ومُقنَّنة: انظر العَشْر الوصايا، وانظر السبعة التطويبات، والسبعة التوسلات في الصلاة الربانية، والسبعة الأمثال في إنجيل متى ١٣: ٣، والسبع الكلمات الأخيرة له على الصليب؛ تجد أن أقوال الرب تأتي مُحْكَمة الوزن والعدّ.

«لأن تلاميذه كانوا قد مضوا إلى المدينة ليبتاعوا طعاماً»:

من ملابسات القصة يبدو بترجيح شديد أن الرب أرسل تلاميذه ليبقى وحده. ولكن من المحتمل جداً أن ق. يوحنا بقي وحده معه. وكانت هذه مشيئة الرب وألحَّ عليها، لأنه ليس من المعقول بأي حال من الأحوال أن التلاميذ **جميعهم** يذهبون ليبتاعوا طعاماً و يتركون الرب وحده على طريق السامرة. هذا أمر غير محتمل ولا مقبول من مسلسل القصة. فهم في أرض غريبة وأيضاً مُعادية(٨). إذن، فكان هذا بناءً على إلحاح المعلم حتى يخلو بخروفه الضال الذي طالما فتش عنه. أما ق. يوحنا فربما هو الذي ألحَّ على البقاء معه واستجاب له الرب لأنه لا يغيّر شيئاً من الإحساس بوحدة المعلم. فكان هذا لحساب تسجيل هذه القصة المملوءة تعليماً وتجديداً. أما سكوت ق. يوحنا عن هذا التوضيح فهو أسلوبه المفضل في روايته.

٤ : ٩ «فقالت له المرأة السامرية: كيف تطلب مني لتشرب وأنت يهوديٌ وأنا امرأةٌ سامرية».

أمر غير مرتقب، وغريب عليها كل الغرابة، أن يتكلم رجلٌ مع امرأة و يهوديٌّ مع سامرية، و يطلب يشرب ماءً من إناءٍ سامري منجس! وفوق هذا ما بال العداوة المحتدمة التي بيننا؟

ولكن ليس هذا كله الذي كان في حُسبان هذه المرأة ولكن الأخطر من الكل الذي قفز إلى مقدمة تفكيرها أنها أحست بقداسة الجالس على البئر ورأت الخطر محدقاً بها، فاستنفرت فيها الخطيَّة قواها لتصدّ الهجوم قبل أن يقع، وتسد على النور مساره الذي كان قد اخترق قلبها عنوة... قابلت رقة الرب بجفاء مصطنع وصوَّبت الكلمات في وقاحة متعمَّدة، وكأنها تراجع تعدّي رجلٍ على حياء امرأة، أو ترد عنها خدشاً لعفتها المزعومة: «كيف تطلب مني لتشرب وأنت يهودي وأنا امرأة سامرية!»(٩) ولكن هيهات! فالعين الإلهية لا ترتخ، والقداسة لا تهادن، وسهم النور يستحيل أن تصدّه جحافلُ الظلمة. فالنور يضيء باقتدار، والظلمة مهما تحصَّنت وشاكست فهي لا تقوى على صدّه. فالخاطىء يبادر النور بلطمة، ولكنه يكون كمن يلاطم الهواء يسقط بعدها صريعاً له. وعاد الرب يلحُّ في دعواه والرب لا يُغلب أبداً، وكأنه المحتاج يلوّح بالعطاء، و يتمادى في شرح صدق دعواه، يتودد لها لكي يبدد الإحراج عنها وهو يخفي شباكه وراء كلماته... هو يطرح اللطف

(٨) يقص يوسيفوس المؤرخ عن صدامات دامية حدثت بين السامريين واليهود سنة ٥٢م. Ant. XX.118-136.

(٩) لاحظ أن التلاميذ أنفسهم اندهشوا لما رأوا معلمهم يتكلم مع امرأة: «وكانوا يتعجبون أنه يتكلم مع امرأة» (٤ : ٢٧). وهذا بحد ذاته يُظهر الفارق الهائل بين فكر المعلم وتلاميذه.

وهي تبرز الحراب: «اليهود لا يعاملون السامريين». ثم بدأت الحواجز تنهار...

١٠:٤ «أجاب يسوع وقال لها: لو كنتِ تعلَمين عطيّةَ الله ومَنْ هو الذي يقول لكِ أعطيني لأشربَ لطلبتِ أنتِ منهُ فأعطاكِ ماءً حيًّا».

ـ **عطية الله** δωρεὰν	إش٩:٦	«**أعطينا** ابناً». υἱὸς ἐδόθη ἡμῖν	
	يو٣:١٦	«هكذا أحب الله العالم حتى **أعطى** ابنه الوحيد». ἔδωκεν	
ـ **ماءً حيًّا** ὕδωρ ζῶν	يو١:٤	«فيه كانت الحياة». ζωή	
	رؤ٧:١٧	«لأن الخروف الذي في وسط العرش يرعاهم ويقتادهم إلى ينابيع ماء حية». ἐπὶ ζωῆς πηγὰς ὑδάτων	
	رؤ٢٢:١	«وأراني نهراً صافياً من **ماء حياة** لامعاً كبلّور خارجاً من عرش الله والخروف». ὕδατος ζωῆς	
	إش١٢:٣	«فتستقون مياهاً بفرح من ينابيع الخلاص». ὕδωρ μετ᾽ εὐφροσύνης ἐκ τῶν πηγῶν τοῦ σωτηρίου.	
	إش٤٤:٣	«أسكب (أعطي) ماءً على العطشان أسكب روحي على نسلك». ὅτι ἐγὼ δώσω ὕδωρ... ἐπιθήσω τὸ πνεῦμά μου.	
	يؤ٢:٢٨	«أسكب روحي على كل بشر». ἐκχεῶ ἀπὸ τοῦ πνεύματός μου.	

المسيح يبدأ قوله بكلمة: «**لو كنتِ تعلمين**»؛ هو لا يتمنى لها أن تنكشف بصيرتها وتستعلن الشخص الجالس أمامها، بل بالفعل يفتح أمامها الباب وينبه ذهنها أن تُحسنَ الرؤيا، ويوحي إليها أن تطلب منه عطية، وهذا هو مفتاح الصلة الحقيقية التي بها تنشأ العلاقة القوية بين الله والإنسان.

وفعلاً نجح المسيح في هذا الإيحاء العجيب، وفعلاً طلبت، وإن جاء الطلب غير صحيح فقد عدّله لها حتى بلغت المستوى! كذلك فإن المسيح ينبهها أنها محتاجة أن تعلم «من هو» ولا تعثر في منظره هكذا، المتعَب والمجهَد والعطشان! وكأنه يقول لها: "التفتي جيداً لأني افتقرت وأنا غني كما أنا، ولكني افتقرت لأغنيكم، فلا تتعثري في منظر بشريتي هكذا، بل ارفعي بصرك لتري

حقيقتي." وهذا قد تم بالحرف الواحد وفي أقل ما يمكن من الزمن!

في الحقيقة المسيح هنا بقوله «لو كنتِ تعلمين "**عطية الله** "» إنما يقدم نفسه للبشرية الخاطئة كما قصد أبوه الصالح تماماً: «هكذا أحب الله العالم حتى "أعطى" ἔδωκεν **ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة**». ثم يعود و يربط هذه العطية، وهي نفسه، بالماء ثم بالحياة، ولكن في صورة الماء الحي أي الجاري، ومن هنا التبس على السامرية الأمر. وهذا أسلوب ق. يوحنا في استخدام اللفظ الذي يرمي إلى معنيين: الأول عادي ومادي، والثاني روحي وإلهي!!

والماء الحي الذي في عُرْف العهد القديم هو مجرد ماء جارٍ من نهر أو خلافه، هو في العهد الجديد «الماء المُحيي» كعطية الله للإنسان على مستوى ماء الشرب الذي يُحيي الجسد بالأساس وبدونه يموت الإنسان. فالماء الحي عند المسيح هو «**الحياة الأبدية نفسها**». ولكن منظوره ومفهومه على أساس الحياة الجسدية التي يستمدها الجسد من الماء. أما الماء الطبيعي، إذا نال قوة روحية بالصلاة، فإنه يُعتبر ماءً للتقديس، وهو قادر أن يعطي الحياة الأبدية بالمعمودية بسبب قوة الحياة التي حلّت فيه بالصلاة.

كذلك وحينما نسمع في المزمور قول داود النبي: «عطِشَتْ إليك نفسي» (مز٦٣: ١)، فهو صراخ في طلب الحياة كصراخ العطشان إلى الماء طلباً للحياة. وهنا يكون الله هو بمثابة الماء الحي أو ماء الحياة أو الماء المحيي!! ولكنه هنا يسمى بالماء الحقيقي ἀληθινόν لنفرِّقه عن الماء الزائل.

ولو رجعنا بنظرة خاطفة إلى الوراء، لرأينا الماء عنصراً أساسياً في التغيير للتحول من القديم إلى الجديد في تعاليم المسيح الماضية. ففي عُرس قانا وجدنا الماء يتحول خمراً، ومع نيقوديموس الإنسان يتحول إلى خليقة جديدة «بالماء والروح»، ومع معمودية المعمدان يلزم الماءَ الروحُ القدس وإلاَّ بَطَل مفعوله. وهنا يقدم المسيح "**نفسه كينبوع ماء حي**" يفيض على من يعطش إليه و يطلب. وكان الماء في كل هذه المواقف هو الماء الحي الذي يعني بالنهاية «الأليثيا» أو الله نفسه.

و يلزمنا جداً أن نرتفع بالحوار في شكله الفردي، لا كأن المسيح سيعطي السامرية وحدها، ولكن علينا أن ننظره من أفق أوسع يشمل كل مَنْ كان على مستوى السامرية: «إنسان صنع عشاءً عظيماً ودعا كثيرين وأرسل عبده في ساعة العشاء ليقول للمدعوّين تعالوا لأن كل شيء قد أُعِدَّ، **فابتدأ الجميع برأي واحد يستعفون**... حينئذ غضب رب البيت وقال لعبده **اخرُج عاجلاً**

إلى شوارع المدينة وأزِقَّتها وأدْخِلْ إلى هنا المساكين والجُدْعَ والعُرْجَ والعُمْي... **اخرُج إلى الطرق والسياجات وألزِمْهُم بالدخول** حتى يمتلىء بيتي.» (لو١٤: ١٦-٢٣)

لو أدركنا أن حقيقة ينبوع الماء الحي تخص الله القدير في العهد القديم كما هو واضح من الآية عن **ينبوع الماء الحي بكل وضوح:** «أيها الرب رجاء إسرائيل كل الذين يتركونك يخزون. الحائدون عني في التراب يُكتبون لأنهم **تركوا الرب ينبوع المياه الحيَّة** πηγὴν ζωῆς, τὸν κύριον إشفني يا رب فأُشفى... لأنك أنت تسبيحتي» (إر١٧: ١٣و١٤)، لأدركنا في الحال أن المسيح هنا في هذه الآية إنما يستعلن نفسه من خلال الماء الحي بكل يقين.

وإن أردت أيها القارىء أن تعرف صحة هذه العقيدة اللاهوتية أن المسيح هو الرب القدير ينبوع المياه الحية الذي يشفي كل جراح البشرية ويخلِّص الذين في الحضيض، فانتظر إلى نهاية هذه القصة لترى كيف نضح الرب عليها بالماء الحي فشُفِيَتْ وكيف سكب عليها من روحه فخَلُصتْ وقامت واستقامت، وتأهلت البشرية العاهرة أن تأخذ رتبة البنين وتصير تلميذاً ومعلماً!!

٤: ١١   **«قالت المرأة يا سيد** κύριε ، Lord ، **لا دَلْوَ لك والبئرُ عميقةٌ. فمن أين لك الماءُ الحيُّ».**

أخيراً رضيت العاصية أن تدخل الحوار!... فالعرض سخي غاية السخاء ولكنه غير معقول البتة؛ وهكذا دائماً عطية الله. وأنَّى للخاطىء أن يدرك حقيقة العطاء الإلهي وهو مرتبك بعطايا العالم، والفرق بين العطائين لا يُقاس ولا يحدُّ؟ هكذا أصرَّت النفس المنطوية على عجزها التي لم تَذُقْ بعد عطاء الله، ولسان حالها: وهل تمطر السماء ذهباً؟ «أتحيا هذه العظام»؟ (حز٣٧: ٣)، «هكذا قال السيد الرب لهذه العظام ها أنذا أُدخل فيكم روحاً فتحيون.» (حز٣٧: ٥)

«يا سيد لا دلو لك والبئر عميقة»:

هكذا تغيرت صورة المسيح عند السامرية مِنْ «أنت يهودي» إلى «يا سيد κύριε ». وهكذا ينجح المسيح دائماً في أن يغيِّر، لا صورته، بل صورة مَنْ يسمع إليه فيراه أكثر على حقيقته. ولكن الخاطىء يضع العراقيل دائماً في وجه من يحاول خلاصه!!

«يا سيد لا دلو لك والبئر عميقة»؛ لقد استقرت الخطيئة في القاع وهيهات أن تصل إليها، ولكن خيطاً رفيعاً من الأمل يستقر خلف «يا سيد». أليس في هذه الكلمة ما يعني أنه صار

صاحب السيادة على نفسها؟ صحيح أنها تتمسك بنظرة المستحيل، ولكن لعل «السيد» عنده شيء؟

«فمن أين لك الماء الحي»:

لقد عجزت أن ترى في الأفق حلًّا، فإذا كان ليس له دلو ليستقي من بئر فكيف يعطي هذا ماءً جارياً وكأنه من ينبوع؟ هكذا تضع النفس لها قيوداً وتقفل على نفسها بالقَدَر لترضى بعجزها وتقطع الطريق على المحاولة، ولكن عند الرب حلولٌ تفوق القَدَر والمقدَّرات، وتتعدى كل الإمكانيات والتصورات: «والقادر أن يفعل فوق كل شيء أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر بحسب القوة التي تعمل فينا.» (أف٣: ٢٠)

٤ : ١٢ «ألعلَّك أعظمُ من أبينا يعقوبَ الذي أعطانا البئرَ وشَرِبَ منها هو وبنوهُ ومَواشِيهِ».

عودة سريعة إلى الخلف ليتحصن الخاطىء في ماضيه ليراه حسناً وأفضل على كل حال من القفز نحو المجهول، هكذا تشبث نيقوديموس بشيخوخته ورأى فيها استحالة الدخول في ضيق البطن ليولد من جديد؛ بل هكذا رأى رؤساء الكهنة والفريسيون أن الهيكل بوضعه أفضل من تعديل يودي بحياة الأمة؛ بل وهكذا رأى تلاميذ المعمدان أن معمودية الماء أفضل من التغيير نحو معمودية الروح.

إن أصعب ما يلاقيه الخاطىء هو كيف يقفز نحو المجهول، ولكن هذا هو مطلب الإيمان الأول.

هكذا تعود السامرية تتشبث ببركات الآباء وبطَوْطَم البئر الذي ورثوه عن يعقوب، وكأنه يُغني عن كل جديد! فمياهه الشحيحة الراكدة هي أفضل من الماء الحي.

يلاحَظ هنا أن الإنجيل يورد كلمة «وشرب منها هو وبنوه **"ومواشيه"**»، وهذا للإمعان في تحديد وظيفة الماء، باعتباره ماءً جسدياً أو حيوانياً محضاً في مقابل ما سيكشف عنه بخصوص «الماء الحي» الذي هو الماء المختص بالحياة الجديدة السماوية، التي طالما تغنَّى بها الربِّيون اليهود أنها هي هي التوراة. فالتوراة (الناموس) في تأملاتهم هي الماء الحقيقي التي تُجلي العين وتُنير البصيرة، والتي صحَّح معناها المسيح بأنها هي الحياة الأبدية التي تنبع في روح الإنسان بالروح القدس: «لأن الناموس (التوراة) بموسى أُعطي. أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا» (يو١: ١٧). فمياه الربِّيين لم تخرج عن كونها مياهَ الحرف لتطهير الجسد، أما مياه الرب يسوع

فهي مياه الروح للحياة الأبدية.

"إن كنتُ لا أرى معه دلواً ولا حبلاً"، أو «إن لم أضع إصبعي في أثر المسامير»! (يو٢٠: ٢٥). ولكنها تبحث في المستحيلات على كل حال، لأن في تقليد اليهود في التلمود وعند السامريين، أن يعقوب وهو عاطش مع بنيه ومواشيه وقف وصلى على البئر ونادى باسم الرب، ففاض منه ماءٌ حيٌّ أي جارٍ، وظل هكذا نابعاً والمياه تجري منه عشرين سنة، ولكن منذ ذلك الزمان لم نسمع أن هذا البئر فاض ماؤه ـــ فالسامريون يدّعون أنهم من نسل أولاد يوسف ابن يعقوب، أفرايم ومَنَسَّى الذين امتلكوا السامرة.

«فهل أنت أعظم من أبينا يعقوب؟»

وهنا يلذُّ للقديس يوحنا أن يُبْرِزَ هذا التساؤل كتساؤل اليهود: «ألعلَّك أعظم من أبينا إبراهيم... مَنْ تجعلُ نفسك؟» (يو٨: ٥٣). وذلك لينبه ذهن القارىء أن: نعم «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» (يو٨: ٥٨). أما هنا فيرد المسيح بطريقة أخرى ولو أنه لا يمانع أن يدخل هذا السباق فهو: «ههنا أعظم من الهيكل» (مت١٢: ٦)، و«ابن الإنسان هو رب السبت» (مت١٢: ٧)، و«قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» (يو٨: ٥٨)، و«هوذا أعظم من سليمان ههنا» (مت١٢: ٤٢)، و«هوذا أعظم من يونان ههنا» (مت١٢: ٤١). ولكنه هنا بهدوء سيأخذ بيدها وعينها حتى ترى فيه من هو أعظم من أبيها يعقوب!!

٤: ١٣و١٤ **«أجاب يسوع وقال لها: كلُّ مَنْ يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً. ولكن من يشرب من الماء الذي أُعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد. بل الماء الذي أُعطيه يصير فيه ينبوع ماءٍ ينبع إلى حياة أبدية».**

إش٤٩: ١٠ «لا يجوعون ولا يعطشون، ولا يضربهم حرٌّ ولا شمسٌ، لأن الذي يرحمهم يُهديهم، وإلى ينابيع المياه يوردهم».

رؤ٧: ١٦ «لن يجوعوا بعد ولن يعطشوا بعد، ولا تقع عليهم الشمس ولا شيءٌ من الحر. لأن الخروف في وسط العرش يرعاهم و يقتادهم إلى ينابيع ماءٍ حيَّة».

رؤ٢١: ٦ «أنا أُعطي العطشان من ينبوع ماء الحياة مجاناً».

إش٥٥: ١ «أيها العطاش جميعاً هلموا إلى المياه».

يو٦: ٣٥ «فقال لهم يسوع أنا هو خبز الحياة من يُقْبِل إليَّ فلا
يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً».

يلزمنا هنا في البداية أن نوضح الفرق بين «**هذا الماء**» ماء يعقوب؛ و«**الماء الذي أُعطيه أنا**»(١٠)؛ والفرق بين «**يعطشُ أيضاً**»؛ و«**لن يعطش إلى الأبد**». فالمسيح هنا يستخدم الماء موضوع الحوار استخداماً من واقع حال الإنسان فيما يخص جسده، وفيما يخص روحه؛ فيما يخص حياته على الأرض، وفيما يخص حياته الأبدية. فالجسد يعطش ويعطش ويعود إلى الماء كل مرة، فهو لا يرتوي أبداً أبداً؛ ولكن الروح تعطش، فإذا ارتوت فلن تعطش أبداً لأنها ترتوي من ماء الحياة الأبدية؛ أو الماء الحي أو الماء الحقيقي، الذي هو الحياة الأبدية نفسها: «وهذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو١٧: ٣)

المسيح يضع إصبعه على نفسه ويشير إلى ذاته، «والماء الذي أعطيه» هو عطية الاستعلان التي إذا سكبها على قلب الإنسان ووعيه فإنه يتعرف على حقيقة المسيح، فيدخل مجال الحق الإلهي وينتمي بروحه إلى السماويات؛ ومن كل ما هو سامٍ يشبع ويرتع ويمتلىء ويرتوي، فلا تعود الأشياء التي في الدنيا موضع عطش أو تلهُّف أو متعة روح.

المسيح يضرب على الوتر الحساس ليرنَّ صوته في أعماق النفس المتعبة التي نهبتها الشهوات والملذّات والجري وراء سراب الغرور والمتعة، التي كلما شربت منها النفس ازدادت عطشاً إليها دون أن يدري الإنسان أنها تمتص رحيق حياته ونضارته وإرادته وكرامته، وأخيراً تتركه صريعاً للندم واليأس وخيبة الأمل. هذه هي «يعطش أيضاً».

«لن يعطش إلى الأبد»:

إنها قولة صدق ذات رنين حي تردده ألوف ألوف وربوات ربوات الأرواح القديسة في السماء بآمين.

إنها مقولة تتجلى في حياة مَنْ يُقْبِل ويشرب كل يوم، ولكنها سوف تبلغ أوج تجليها في المجد الأعلى، ومنتهى تحقيقها في ملكوت ابن الله: «لا يجوعون ولا يعطشون ولا يضربهم حر ولا شمس، لأن الذي يرحمهم يهديهم، وإلى ينابيع المياه يوردهم» (إش٤٩: ١٠). هذا يراه إشعياء من وراء الدهور، ينطقه بروح الله، فتردُّ عليه أرواح الأبرار التي تكملت في المجد: «لأن الخروف الذي في

وسط العرش يرعاهم.» (رؤ٧: ١٦)

هو هو المسيح المتكلم، «ينبوع الحياة الأبدية»، هنا **«بالاستعلان»** وهناك بالرؤيا والمشاهدة والعيان.

كل من أدْمَنَ على شرب المياه المُعْطِشة هنا، يتمنى في يوم من الأيام لو لم يولد حينما يبلغ به العمر أرذله؛ أما الذي ذاق الحياة في المسيح يسوع فهو كل يوم يولد جديداً.

كل من ضيَّع العمر في ملذات هذا الدهر وضيَّقت عليه الدنيا بعد ذلك، يتمنى لو يموت؛ أما الذي استعلن المسيح واستنشق الحياة الأبدية فيه، فهو يحيا كل يوم حياة جديدة ولن يموت أبداً.

«بل الماء الذي أُعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية».

إش١٢: ٢و٣ «هوذا الله خلاصي فأطمئن ولا أرتعب، لأن ياه يهوه قوتي وترنيمتي وقد صار لي خلاصاً. فتستقون مياهاً بفرح من ينابيع الخلاص».

نش٤: ١٢ «أختي العروس جنَّة مُغلقة، عين مقفلة، ينبوع مختوم».

«الماء الذي أعطيه» هو نعمة الاستعلان بالروح القدس، و بالاستعلان يتجلى المسيح في قلب الإنسان، فيشعر بالخلاص كقوة تجرف حياته كلها كنهر جارف لا يستطيع أن يحجزه، فينطلق لسانه بالفرح والتهليل و يظل ينبع بفيضان. و يعيش باطمئنان في بهجة الخلاص، يشرب منها و يعبُّ عبَّاً كل يوم، و يفيض على كل مَنْ يتعرف عليه، و يظل يفيض إلى أن يلتحم بالحياة الأبدية، وحينئذ ينجلي الخلاص في أكمل مفاعيله ومباهجه إلى أبد الدهور.

وهذا يعني أن الماء الذي يعطيه المسيح الآن يتحول فيه إلى خلاص في الحاضر يمتد إلى أبد الآبدين.

و بقدر ما يحتاج الخلاص هنا إلى مزيد من الشرب أي الاستعلان، بقدر ما في النهاية يصير في الإنسان قوة تزداد من تلقاء ذاتها حيث يصبح المسيح في القلب هو نفسه ينبوع الخلاص الذي لا يجف.

فـ«المياه الحية»، وقد أسماها المسيح «عطية الله»، حينما تستقر في نفس الإنسان تصبح قوة

حية فاعلة بذاتها تسكن هيكل الإنسان الروحي وتعمل فيه، تُحييه وتُهذبه وتُجدده. مثلها مثل عطية «**الحياة**» التي ينالها الإنسان من «**أكل الجسد**» الذي هو العطية الكبرى: «مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية.» (يو٦: ٥٤)

ومثلها مثل «**كلمة الله**»: «كَتَبْتُ إليكم أيها الأحداث لأنكم أقوياء وكلمة الله ثابتة فيكم.» (١يو٢: ١٤)

ومثلها مثل «**الحق**»: «من أجل الحق الذي يثبت فينا وسيكون معنا إلى الأبد.» (٢يو٢)

ومثلها مثل «**روح الحق**»: «روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم.» (يو١٤: ١٧)

ومثلها مثل «**مَسْحة النعمة**»: «وأما أنتم فالمَسْحَة التي أخذتموها منه ثابتة فيكم ولا حاجة بكم أن يُعلِّمكم أحدٌ، بل كما تُعلِّمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء، وهي حقٌّ وليست كذباً كما عَلَّمَتْكم تثبتون فيه.» (١يو٢: ٢٧)

ومثلها مثل «**بذرة الله** Sperma of God»: «كل مَنْ هو مولود من الله لا يفعل خطية (طوعاً)، لأن زرعه (زرع الله) يثبت فيه، ولا يستطيع أن يخطيء لأنه مولودٌ من الله.» (١يو٣: ٩)

هكذا «**المياه الحية**»، روح الاستعلان ومعرفة الله، فإنها تسكن وتنبع فيه بلا توقف كالمياه الجارية وبلا نهاية، وتفيض قوة وراء قوة بلا نقصان بل بزيادة، حتى كما يقول بولس الرسول إلى «ملء الله».

وهكذا فإن نفس الإنسان التي تم فيها تجلي المسيح بالاستعلان، **أي شربت من ينبوع الخلاص، تصير هي بذاتها ينبوع خلاص**، كما يخاطبها سليمان النبي في نشيد الأنشاد: «أختي العروس جنة مُغلقة، عينٌ مقفلة، ينبوعٌ مختومٌ» (نش٤: ١٢)، بمعنى أن مواردها في الداخل وليس لها حاجة من الخارج: «ينبوع جَنَّاتٍ، بئر مياهٍ حية، وسيول من لبنان» (نش٤: ١٥). وسفر الرؤيا يكشف لنا عن مصدر الإندفاق ومنبع الفيضان الحر الدائم في داخل النفس هكذا: «وأراني نهراً صافياً من ماء حياة لامعاً كبلُّور خارجاً من عرش الله والخروف.» (رؤ٢٢: ١)

وقانون الارتواء من روح الله هو الامتلاء للزمان الحاضر والفيض الدائم، ثم الحياة الأبدية التي نلناها هنا نصعد بها إلى فوق حيث مصدرها: «وإن مَضَيتُ وأعددت لكم مكاناً، آتي أيضاً وآخذكم إليَّ، حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً.» (يو١٤: ٣)

٤ : ١٥　«قالت له المرأةُ: يا سيدُ أعطِني هذا الماء لكي لا أعطشَ ولا آتي إلى هنا لأستقيَ».

لقد نجح هذا السيد البديع، فهوذا استجابت السامرية إلى قول الرب: «... **لطلبتِ أنت منه فأعطاكِ** ماءً حيًّا». هذه أولى علامات العودة، عودة النفس إلى خالقها تلغلغ بطلبات كطفل يطلب على قدر تفكيره!!

كانت المرأة صادقة صدق الطفولة وهي تطبق كلام الرب: «مَنْ يشرب من الماء الذي أعطيه أنا **فلن يعطش**»، فقالت هي: «**أعطني** هذا الماء لكي **لا أعطش**». وأكملت من عندها: «حتى لا آتي إلى هنا وأستقي».

لقد استهوتها فكرة الماء الذي كل مَنْ يشرب منه لا يعطش، وأضافت بالضرورة ولا يتعب ويجيء ليستقي، لقد هدَّها مشوار كل يوم حاملة جَرَّتها فارغة وملآنة؛ وكَلَّ ذراعاها من فَرْد الحبل وثَنْيه ورفع الجرة بثقلها، الحبل بذراع والجرَّة بذراع، حتى ضاقت ذرعاً! ولكن لو كان هذا هو كل همِّ الإنسان، وحتى مثله مائة ألف مرة لما غُلب الله من تحننه و بذل ابنه على الصليب من أجل الإنسان.

ولكن في قولها: «حتى لا آتي إلى هنا وأستقي»، فيه معنى الاغتناء ليس لما هو لذاتها فحسب، بل للذين تخدمهم أيضاً، وإلا على مَ سيعيش مَنْ تخدمهم؟ وهنا يلتقط الرب الخيط من فمها و يطلب أن يرى مَنْ تخدمهم.

٤ : ١٦　«قال لها يسوع: اذهبي وادْعِي زوجَكِ وتعالَيْ إلى ههنا».

نعم يجب أن يأتي مَنْ تخدمه، وهو بالتقدير المبدئي زوجها، لأن العطية بحسب نظرها هي، تعني زوجها أيضاً. ولكن الرب الذي قرأ فكرها وضع هذا الطلب محكاً لصدق قبولها العرض بأخذ العطية، و بالأكثر اختباراً لمدى صحة إيمانها بالكلام ومستوى يقظة ضميرها. الرب هنا يركِّز على السامرية نفسها وليس على زوجها أو أهلها، لأنه بتوبتها وإيمانها هي، سيُقبل الجميع، فهو هنا

مستمر في إعدادها هي للعطية، ولأنه يستطيع أن يغفر الخطية فهو يستطيع أن يراها ويحاصرها بالضرورة. والآن وقد صارت خطيتها هي العقبة الوحيدة في وجه نوال العطية، لذا كان يتحتم كشفها والإعتراف بها تمهيداً لرفعها لتصبح على مستوى العطية. وحينئذ كما قال المسيح نفسه حينما تشرب هي من الماء الحي فإنه سينبع منها و يفيض على الزوج وعلى المدينة كلها. المسيح هنا يعرف الجواب مُسْبقاً: «ليس لي زوج»، عار المرأة الأعظم، لذلك يضع المسيح إصبعه على الجرح، ومِشْرَطه على الورم، ولكن برقة فائقة كمَنْ يستخدم المخدر حتى لا يشعر المريض بالألم. لقد تدرج معها وهو يسندها حتى تقوى على نطق ما لا يُنطق. وهكذا بلغ بها إلى نقطة اليقظة العظمى للضمير.

٤: ١٧و١٨ **«أجابت المرأةُ وقالتْ: ليس لي زوجٌ. قال لها يسوعُ: حسناً قلتِ ليس لي زوجٌ، لأنه كان لكِ خمسةُ أزواجٍ، والذي لكِ الآن ليس هو زوجَكِ. هذا قلتِ بالصدقِ».**

إجابة مقتضبة يلفها الحزن في مسحة من الألم كما من سهم يخترق القلب. هي رجفة الضمير الذي يجاهد كي يغلب انهياره، و يتلمس القوة من العين المسلَّطة عليه!

كان رد المسيح الفوري هو قبول الإعتراف أحسن قبول: «حسناً قلتِ». وهكذا جاء السند الذي كانت تحتاجه لتغلب انهيارها. وهكذا يسند المسيح «المُعْييَ بكلمة» (إش ٥٠: ٤)، «أسندني فأخلُص» (مز١١٩: ١١٧). ليس العمل الذي وراء اعترافها هو الحسن، بل الحسن جداً أن تعترف به، فقولُ الحق عندما يشهد به الإنسان على خطاياه يُحسَبُ حقاً.

وعندئذ رفع المسيح النقاب عن شخصيته قليلاً وأخذ يسرد لها قصة حياتها كما في مرآة.

لأنه كان لها خمسة أزواج والذي لها الآن ليس زوجاً، ونحن لا نريد أن نخوض في ما لم يخُضْ فيه المسيح، ولكن شيئاً واحداً كان واضحاً من كلام المسيح أن وراء حياتها مأساة من الخيانات واستباحة الحرام اعترفت به السامرية ليس للمسيح فقط، فهو يعرف كل شيء ولا يحتاج إلى تفصيلات، ولكنها اعترفت هي بنفسها لأهل مدينتها أيضاً؛ وإن أعظم الإعتراف ما جاء علناً: «وقالت للناس... إنساناً قال لي كل ما فعلتُ!!» (يو٤: ٢٩)

حينما يستيقظ الضمير لا يعود يبالي بما يُقال عنه، بل يكون كل همّه أن يقول هو عن نفسه، لا يعود ماضيه مخفياً وراءه، بل يصير مكشوفاً أمامه: «وخطيتي أمامي دائماً» (مز٥١: ٣). والجرح

الذي كان يخفيه يرفع عنه العَصَابة و يستعرضه لمَنْ هو قادر أن يشفيه.

والمسيح في كشفه هنا لبقية سر مأساة السامرية إنما يكشف لها عن قدرته على محوها، وكأنه يكمل عنها اعترافَ ما لم تقوَ على الاعتراف به، ليستعيد لها صحة نفسها لتستضيء عيناها وتراه على حقيقته.

١٩:٤ «قالت له المرأةُ يا سيدُ أرى أنكَ نبيٌّ».

لقد أحسَّنَتْ الرؤيا θεωρῶ . فكلمة «أرى» هنا لا تفيد الانطباع السريع بل قمة استملان متدرج يبلغه المتصوفون حينما يُحدِّقون بعقلهم في الله طويلاً، وتسمى هذه الدرجة عند المتصوفين بالتؤرية ـــ أي الرؤيا العقلية.

من الصعب علينا جداً أن نحس بما أحسَّته هذه المرأة عندما واجهها المسيح بكشف حياتها المخفية. إنه مزيج من الرهبة والرعبة مع قناعة بهيبة الجالس أمامها، وكأن حياتها كلها صارت مكشوفة أمام عينيه. ولكن عقلها ارتفع سريعاً لترى فيه إنساناً ذا اتصال بالله يستمد منه قوته وسلطانه.

حينما أفرغت المرأة خطيئتها استضاءت عيناها، وتأهلت لترى المسيح الرؤية الأُولى على صحة، وإنما في غير اكتمالها: «فتطلع وقال أبصر الناس كأشجار يمشون. ثم وضع يديه أيضاً على عينيه وجعله يتطلع، فعاد صحيحاً، وأبصر كل إنسان جلياً» (مر٨: ٢٤و٢٥). هذه أول مفاعيل عطية الماء الحي التي استقرت في أعماقها؛ وهذه أول حركة للإيمان يتحرك به قلبها.

لقد تدرجت في رؤيتها للمسيح من **«أنت يهودي»** إلى **«يا سيد»** إلى **«أرى أنك نبي»**. وهكذا تنجلي العين حينما يغتسل الجسد والنفس، والإعتراف بالخطية يرفع ثقلها عن القلب والضمير كما يرفع عقابها عن النفس. وهذه هي «عطية الله» التي وعدها المسيح بها، وهكذا علمت المرأة بالحق مَنْ الذي يقول لها أعطيني لأشرب. وهكذا أيضاً اكتشفت المرأة غنى المسيح من خلف فقره المصطنع، وعَطَش مَنْ له ينبوع الماء الحي.

ولم تكن رؤيتها أنه نبي لتقرير حق الواقع وحسب، بل لأنها ربطت بين امتيازه الإلهي كصاحب صلة بالله و بين حالها الفاضح فرأت فيه المنقذ. ولكن إلى مَنْ مِنْ الآلهة سيذهب بها هذا النبي؟ إله إسرائيل وأورشليم وجبل صهيون، أم إله السامريين وجبل جرزيم؟ إنها تود أن تعرف

إلى مَنْ تقدم توبتها وذبيحة خطيتها.

٤ : ٢٠ **«آباؤنا سَجَدُوا في هذا الجبلِ وأنتُم تقولونَ إن في أورُشَليمَ الموضِعَ الذي ينبغي أنْ يُسجَدَ فيهِ».**

من يصدق أن هذه النفس العفنة تنقلب بهذه السرعة إلى تائبة تبحث عن مكان للصلاة وتدقق في صحة المكان لتضمن توبة مقبولة؟ أمر لا يشغل بال إلا كبار اللاهوتيين.

لأن صحة أورشليم لتكون المكان الوحيد والفريد للعبادة والصلاة هي أعوص المشاكل أمام دارسي الناموس، وقد استطاع اليهود أن يزحزحوا هذا النير من على أعناق الشعب بأن قالوا بصحة المجامع المحلية لكل بلد.

أما هذا الإشكال اللاهوتي بالنسبة للسامريين فقد ظل كما هو، أعوص مما هو لليهودي ألف مرة، لأن أورشليم وهيكلها محظوران على السامري؟ فكيف الفكاك من القيود التي وضعها الإنسان في عنق نفسه؟؟

على كل حال هذا هو نبيٌّ مؤتمن، وهو من اليهود ولكن في غير تعصب، وقد أصبح قريباً منا عاطفاً علينا، فهو وحده القادر أن يحل معضلتنا، هل نتبع آباءنا القديسين البطاركة الأوائل الذين سجدوا في هذا الجبل أم أن أورشليم وحدها مكان العبادة؟ على كل حال كان هذا السؤال يحمل في طياته شكّاً في صلاحية جرزيم!!

فالمعروف أن يعقوب أبا الأسباط عَبَد الله في هذا المكان: «ثم أتى يعقوب سالماً إلى مدينة شكيم التي في أرض كنعان حين جاء من فدان أرام، ونزل أمام المدينة وابتاع قطعة الحقل التي نصب فيها خيمته من يد بني حمور أبي شكيم بمائة قسيطة، **وأقام هناك مذبحاً، ودعاه إيل إله إسرائيل.**» (تك٣٣: ١٨ــ٢٠)

في هذا الجبل: جِرِزِّيم Gerizim

المقصود هو جبل جِرِزِّيم الذي تقع البئر تحت سفحه مباشرة، وتقول التقاليد أن إبراهيم أبا الآباء أصلح مذبحاً هناك بنيَّة تقديم إسحق ابنه حسب أمر الرب. وعلى هذا الجبل أيضاً تقابل مع ملكي صادق الذي باركه هناك. كما أن جِرِزِّيم هو الجبل الذي أمر موسى أن يقف عليه ستة من أهم الأسباط لتقول البركات على من يعمل بالناموس (تث٢٧: ١٢). وفي توراة السامريين مكتوب

أن المذبح الذي أقيم للعبادة الأولى كان على جرزيم وليس على عيبال (تث٢٧: ٤ــ٨). والسامرية الآن تضع التقليد السامري المؤكد في مواجهة التعليم اليهودي غير المستند على وثائق!

و يُعتقَد أن الذي بنى المذبح على جبل جرزيم هو أخو رئيس كهنة أورشليم، حينما طرده أخوه من أورشليم بسبب زواجه من بنت سنبلّط حاكم السامرة، وهو فارسي الأصل. فحينما طرده أخوه ذهب و بنى هذا الهيكل على جبل جرزيم وقام هو كرئيس كهنة بإقامة العبادة حسب الأصول اليهودية بمنتهى الدقة (نح١٣: ٢٨). كذلك فإن يوسيفوس المؤرخ اليهودي(١١) يقول في تاريخه إن السامريين طلبوا من الإسكندر الأكبر الإذن ببناء الهيكل، فسمح لهم. و يضيف يوسيفوس على تاريخ نحميا بأن أعطى اسم «منسّى» على أنه كان رئيس كهنة هيكل جرزيم وكان نسيباً لسنبلّط حاكم السامرة الفارسي(١٢). و يبدو من هذا التقرير أن تصريح الإسكندر الأكبر لم يكن للبناء بل ربما لإعادة بنائه، لأن الفرق بين زمن نحميا وزمن الإسكندر مائة سنة.

وقد هدم يوحنا هركانوس أحد المكابيين هذا الهيكل سنة ١٢٨ق.م ولكن ظل السامريون يعبدون في نفس المكان و يقيمون الفصح والصلاة في مواعيدها. و يتجهون نحوه بالصلاة كقِبْلة إذا كانوا بعيدين عنه!

٤: ٢١ «قالَ لها يسوعُ يا امرأةُ صدِّقيني إنَّهُ تأتي ساعةٌ لا في هذا الجبلِ ولا في أورشليمَ تسجُدونَ للآبِ».

«تأتي ساعة»:

هذه هي البشارة بالعهد الجديد، وهذه الساعة قريبة «تأتي»، وهي ساعة المسيح بلا شك، لأن بصلب المسيح أُلغيت الذبائح وأُلغيت المذابح وأُلغيت الهياكل، إذ قد صار هو الذبيحة الأوحد للخلاص على المذبح الناطق السماوي في هيكل الله غير المصنوع بالأيادي حينما تكون العبادة والسجود لأب الجميع.

«تسجدون للآب»:

نقلة حاذقة وخطيرة من «آباؤنا» بالصورة المحصورة التعصبية إلى «الآب» الواحد الكلي للجميع. فعوض الانتماء التعصبي للبشر هوذا الانتماء لله الآب الحر المنفتح على كل بني البشر.

[11] Ant. XI,321-4.

[12] Ant. XI,302f.

وعوض العبادتين المتنافرتين المتعاديتين، هذه عبادة الواحد الأحد، وعوض الهيكلين المتصارعين بينهما هوذا الهيكل الواحد بيت الآب السماوي الذي يجمع الأولاد جميعاً دون نزيل أو غريب. وكأنما بجلوس المسيح على بئر يعقوب وفي أرض السامرة يعلن نفسه أنه يعقوب الجديد، إسرائيل البشرية كلها، الينبوع الحقيقي لماء الحياة الذي يجمع القريبين والبعيدين في ذاته و يضمهم إلى هيكل جسده، الآن بالحب والاستعلان، و بعد قليل بالدم على الصليب. «وتأتي ساعة» هي بعينها ساعة الفجر الآن التي تشير إلى ساعة الصليب السادسة، حين تُحل مشكلة السامرة والسامريين، وحين ترتفع العبادة فوق مستوى الأماكن والبلاد والجبال لتصير بالروح، والروح ليس لها وطن على الأرض بل موطنها السماء.

ولا ننسى أن في أول كلمة «"صدقيني" يا امرأة» ما يكفيها من اليقين والعزاء، عوض امتهان اليهود لهم والتعالي عليهم، يكفيها أن يكون «الآب» هو قِبْلة السجود، وهو قابلٌ الساجدين له.

٤ : ٢٢ «أنتم تسجُدونَ لِمَا لَسْتُم تعلَمُونَ؛ أما نحنُ فنسجدُ لما نعلَمُ، لأن الخلاصَ هو من اليهودِ».

«تسجدون لما لستم تعلمون»:

المسيح هنا يستدرك ما قد يُفهم من تساوي أُورشليم بجرزيم بانتهاء عصرهما معاً بحلول الساعة. فإن كانت العبادة في هيكل أُورشليم ستبطُل، وكذلك بالتالي و بالأوْلَى في جبل جرزيم، فليس هذا معناه أن عبادة اليهود خاطئة، ولكنها في سبيلها إلى الارتفاع فوق ذاتها لتبلغ الكمال في الله، أما عبادة جرزيم فهي وإن كانت عبادة مُقدَّمة في صورتها إلى الله ولكن الله نفسه غير معروف لدى السامريين. ومعلوم أن السامريين لا يؤمنون بالأنبياء جميعاً؛ في حين أن الأنبياء عند اليهود هم الذين تكلم الله بواسطتهم معلناً عن ذاته، و بالتالي كان اليهود ذوي معرفة صحيحة بالله، و بالتالي أيضاً أصبح السامريون محرومين من معرفة الله الصحيحة. فالناموس وحده بدون إلهام وتعليم سماوي ونبوة لا يخلِّص لأنه حرف والحرف وحده ــ أي القانون ــ يقتل إذا كان بدون مَنْ يرحم و يُشفق.

هنا المسيح لا يدافع عن اليهود ولا اليهودية، ولكنه يدافع عن الحق المُعْلَن لليهود فقط دون أقطار العالم أجمع، و يدافع عن مصدر الخلاص الآتي، بل الحاضر، أمام السامرية، المتكلم باسم الحق والخلاص، وهو نفسه المخلِّص الآتي الذي أتى! كما أن المسيح هنا لا يهاجم السامريين ولا

عبادتهم ولا معبودهم، بل يشفق على عبادتهم التي تذهب سدًى بسبب غياب الحقيقة منها وفقدان «استعلان الله» على حقيقته بفقدان وسطاء الاستعلان والإلهام وهم الأنبياء. لأن تسلسل الأنبياء انتهى بمجيء من تنبأوا عنه وهو المخلِّص؛ فصحَّ تنبؤهم وصحَّت نبواتهم. لذلك قال المسيح بكل يقين: **«إن الخلاص هو من اليهود»**؛ لأن الخلاص ابتدأ بالاستعلان عنه ووصفه الأنبياء وكأنه حاضر، ورآه الآباء القديسون ونظروه من بعيد وحيُّوه وماتوا على رجاء. وهوذا ساعة الخلاص قد دقَّت دقاتها على صوت المعمدان وأصبحت حاضرة بحضور صاحبها.

٤ : ٢٣ **«ولكنْ تأتي ساعةٌ، وهي الآنَ، حينَ الساجِدُونَ الحقيقيُّونَ يسجدُونَ للآبِ بالروحِ والحقِّ».**

«ولكن»: ἀλλά

هنا يبدأ الكلام بـ«لكن»، وهي تعود على ما فات، أي على اختلاف العبادة باختلاف الحق فيها، وكأن المسيح يريد أن يقول: لنترك **«الآن»** الخلافات، لأن **«الآن»** أتت الساعة التي أصبح مفهوم السجود الحقيقي فيها يقوم على أساسين جديدين:

الأساس الأول: الساجدون أنفسهم إذ يتحتم أن يكونوا حقيقيين ἀληθινοί. و«الحقيقي» في إنجيل يوحنا وعند المسيح هو «الأليثيا»، و«الأليثيا» هي الله أو الانتماء الصادق لله، ويعني أن الساجدين يتحتم أن يكونوا لله عائشين، ليكونوا لله ساجدين، بمعنى أن يكونوا قد أفرزوا أنفسهم من العالم وتقدسوا لله، أي تخصصوا بالمعمودية وما تفرضه المعمودية في حياتهم وأفكارهم وأعمالهم فيما يخص الحق: «المولود من الروح هو روح».

الأساس الثاني: أن يكون سجودهم لله الآب آب الجميع، وليس آباً لشعب دون شعب، أو أمة دون أمة، أو جنس دون جنس، ويكون سجودهم للآب «بالروح والحق» ἐν πνεύματι καὶ ἀληθείᾳ

وهنا المسيح يرمي عصفورين بحجر واحد، فالعبادة بالروح يهاجم بها عبادة إسرائيل التي هي عبادة بالحرف، وهذه العبادة لم تَعُدْ مقبولة عند الله لأنها لم تَعُدْ بذي أثر ولا فائدة. والعبادة بالحق يهاجم بها عبادة السامريين فهي عبادة مزيفة أخذت الشكل دون الجوهر والاسم دون الحقيقة. وهي منذ البدء بلا فائدة: «أنتم تسجدون لما لستم تعلمون».

ولكن كيف تكون عبادة الإنسان «**الآن**» بالروح والحق؟

«**الآن**» يقصد بها المسيح حضوره الشخصي الذي جعل الساعة حاضرة دائمة بحضوره، فالأبدية فيه مُعلَنة في عمق الحاضر الزمني. فـ«**الآن**» بوجود المسيح ــ الابن النازل من حضن الآب ــ هي الأبدية المستعلنة والحاضرة في الزمن، وهي كل المستقبل الروحي للإنسان.

+ والمسيح جعل، بالتجسد، **الإتصال بين البشرية والله أمراً حادثاً حدوثاً حقيقياً** وإلى الأزل ومفتوحاً على الجميع. وبهذا انفتح أمام الإنسان مجال الإتصال الروحي بالله سواء بالصلاة أو السجود بمعنى أن السجود بالروح صار متوفراً للإنسان في المسيح.

+ كذلك فالمسيح ــ الابن الوحيد ــ **هو الاستعلان الكامل لله** بالنسبة للإنسان كلُّ مَنْ يؤمن. إذن، أصبح الإنسان يعبد مَنْ يعرفه معرفة حقيقية وهذا هو السجود بالحق بكل معنى: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك و يسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو١٧: ٣)

ولكن يُلاحَظ أن المسيح لم يتمجد بعد، ولم يحل الروح القدس بعد. لذلك، فالعبادة بالروح والحق التي قال عنها المسيح آنئذ هي عبادة المستقبل ــ بينما العبادة في الهيكل لا تزال قائمة ــ ولكن لأنه قد تم التجسد والمسيح حاضر «**الآن**»، إذن فالساعة موجودة ولكن لم يتم استعلانها الكلي بعد.

«**السجود**» لله هو عملية اتصال. يستحيل الإتصال بالله بواسطة العنصر الجسدي في الإنسان الذي هو منتمٍ إلى الحياة الأرضية.

«الله روح»، وقد وضع في الإنسان عنصراً روحياً يقيم كيانه، وهو متفوق على الجسد، ووُضع هذا العنصر أي «الروح» ليكون أداة اتصال بالله: «وإله السلام نفسه يقدسكم بالتمام ولتُحفَظْ **روحكم** ونفسكم وجسدكم كاملة بلا لوم عند مجيء ربنا يسوع المسيح» (١تس٥: ٢٣). وروح الإنسان في وضعه الصحيح خاضع لروح الله: «الروح هو الذي يُحيي، أما الجسد فلا يفيد شيئاً» (يو٦: ٦٣). إذن، فمجال العبادة قد أصبح في المسيح هو المجال الأسمى الذي يتلاقى فيه الله والإنسان، أي أن زمان العبادة تحت توصيات وتعليمات جسدية قد انتهى: «أشكر إلهي بيسوع المسيح... فإن الله الذي أَعْبُدُه بروحي في إنجيل ابنه شاهدٌ لي كيف بلا انقطاع أذكركم.» (رو١: ٨و٩)

«لأن الآبَ طالبٌ مثلَ هؤلاء الساجِدينَ لهُ» (بالروح والحق).

«لأن»: καὶ γάρ

بادئة تجعل الآتي من الكلام يؤكد ويضمن ويسهّل ما فات من الكلام.

فالعبادة بالروح والحق، وإن بدتْ بالنسبة للإنسان مطلباً أعلى من إمكانياته، إلا أن هذا أمر متيسِّر. لأن καὶ γάρ الله يسعى من جهته طالباً وجاذباً مثل هؤلاء الذين يسعون للسجود له بهذه الشروط، فلأن الله روح فهو يطلب الساجدين بالروح، ولأنه هو الحق فهو يطلب الساجدين بالحق. فالله من جهته عامل مشجِّع وجاذِب ومسهِّل لكل الساعين للعبادة والسجود بالروح والحق؛ لأن هذه هي مسرة طبيعته.

٤ : ٢٤ **«الله رُوحٌ. والذين يسجدونَ له فبالروحِ والحقِّ ينبغي أن يسجُدُوا».**

المسيح يرتفع بمفهوم الله ليرتفع بمفهوم الإتصال به. فـ«الله روح» بمعنى أنه لا يدخل في كيانه أي شيء من قياسات العالم المنظور لا الزمان ولا المكان ولا المحدودية، وأهم تركيز هنا هو على المكان، لا أورشليم ولا جرزيم. وقد سبق وقلنا إن الله وضع في الإنسان عنصراً روحياً وهو الروح ليقيم كيانه كمخلوق روحي، ليتسنى له الإتصال بالله والوجود في حضرته دون النظر إلى الزمان أو المكان أو الشكل أو اللغة. لذلك فالعبادة والسجود لله لكي تكون منظورة من الله ولكي يراها ويسمعها ويستجيب لها، يلزم أن تكون من طبيعته بالروح والحق غير ملتزمة لا بزمان ولا بمكان لا بيهود ولا بسامريين. وهنا كلمة «ينبغي» تعني «يلزم إلزاماً» و«يتحتم تحتيماً»، أي لا يمكن أن تُقبل عبادة وسجود إلا إذا ارتفعت لمستوى الروح والحق، بمعنى أن لا ترتبط قط لا بأمكنة ولا بأزمنة ولا بأجناس ما.

وبنظرة سريعة إلى الخلف، نستطيع أن نحصل على محور التجديد في إنجيل يوحنا في الأمثلة السابقة. فالخمر الجيد ــ في قانا، والهيكل الجديد ــ في أورشليم، والماء والروح والميلاد من فوق عند نيقوديموس، والتعميد بالروح القدس على ضوء المعمدان، والماء الحي والعبادة بالروح والحق للسامرية؛ هذه كلها **عناصر الإنتقال من الحياة حسب الجسد إلى الحياة حسب الروح**، أي عناصر التجديد والخلقة الجديدة التي يرسِّخ المسيح مفاهيمها بالتدريج. كما أن هذه العناصر جميعها، الخمر والهيكل والميلاد الفوقاني والتعميد بالروح والسجود بالروح والحق، هي المقابل الروحي الحق والمطلق الذي لا تحدُّه حدود بشرية أيًّا كانت تجاه اليهودية وكل العبادات الأخرى

للإنسان. هذه هي صورة العهد الجديد للإنسان عادة، التي صارت في محيط «تأتي ساعة وهي الآن».

والعجيب حقاً أن هنا هذه العناصر أو الرموز الحية: الخمر الجديد، الهيكل الجديد، الإنسان الجديد، العبادة بالروح والحق، تتركز في شخص المسيح نفسه: «أنا هو الذي يُكلِّمكِ»!

علينا الآن أن نجسّد هذه المعاني المطلقة «**بالروح**» و«**الحق**»، حتى نفهم كيف يكون السجود بالروح والحق على مستوى حياتنا اليومية وعبادتنا. فالسجود بحد ذاته هو «بالجسد شكلاً» فإذا بقي السجود بشكله الجسدي والعددي فقط فهو لا يُحسب أنه سجود بالروح. ولكن إذا انطلق الإنسان من داخل السجود الجسدي بروحه بإحساس الوجود في حضرة الله، يُحسب سجوداً بالروح. والسجود بالروح له مواصفات روحية تثبت حقيقته. فإن روح الإنسان في حضرة الله تكون خاشعة غاية الخشوع، منضبطة، غير مشتتة، مطروحة أمام الله، مكشوفة بكل عيوبها وأخطائها، كما تكون الروح في حالة استقبال أكثر من كونها متكلمة وذات مطالب، شديدة التركيز والحساسية لاستماع تعليمات الله وتوبيخ الروح، أو تقبل التشجيعات الخفية أو الرد على أسئلة روحية للبنيان.

كذلك السجود بالروح لا يمنع أن يلتزم بالمواعيد والعدد وأصول السجود. ولكن إذا اكتفى الإنسان بالإتقان الشكلي فلن ينتفع شيئاً، وذلك يظهر بوضوح حينما يُنهي الإنسان سجوده وعبادته ويخرج كما دخل وذهنه مشغول بأموره الخاصة أو العامة. فعلامة السجود بالروح هي أن يخرج الإنسان من حضرة الله مفعماً بمشاعر الرضى والراحة والفرح مهما كانت أموره محزنة. فالحزن والضيقة والألم والشكوى كل هذه يتحتم أن ننفضها عنا قبل الدخول في حضرة الله للسجود. حالة خروجنا من السجود يكشف هل كنا حقاً في حضرة الله، وهل حصل إتصال فعلي أم لا. السجود بالروح في حضرة الله ليس هو واجباً، بل ضرورة روحية كالأكل والشرب والدواء والعلاج تماماً بالنسبة للجسد. إذا لم نمارس السجود بالروح، فالروح تجفُّ و يتعطل عملها، فتنقفل رؤية الإنسان ولا يحس بوجود الله، وقليلاً قليلاً ينكمش الإيمان و يفقد الإنسان حرارة الروح وتبدأ المُثُل العليا تهتز أمامه، و يزحف الشك على إيمانه، و يفقد الإحساس بصدق الإنجيل والله، و يشك في الحياة الأبدية، لأن أداة الإتصال بالله قد أصبحت عاطلة، أي الروح الموضوعة في الإنسان لهذا الأمر.

يلزم أن يفهم الإنسان أن الله وضع فيه الروح كأداة إتصال بالله، فإذا لم تُستخدم تُنزع مواهبها من الإنسان، وروح الإنسان الأمينة والنشطة والملتصقة بالله على الدوام تصير مكان سُكنى الروح القدس ومرافقته، فإذا أهمل الإنسان السجود بالروح، لا يعود يحظى بزيارة الروح القدس والنعمة. والخطية تترصده، فتتعتم الرؤيا: «روحك القدوس (يا رب) لا تنزعه مني»

(مز٥١: ١١). فإن كان الله قد وضع الروح في الإنسان رغبةً منه أن يتصل بواسطتها مع الإنسان، إذن أصبح السجود بالروح جزءاً لا يتجزأ من كيان الإنسان بالنسبة لحياته مع الله. لأنه كما أُعطي الإنسان الشهية للأكل، كذلك أُعطي الروح للعبادة والسجود والصلاة. فإذا كان الإنسان يعرِّض نفسه للموت إذا لم يأكل، هكذا فهو معرَّض للموت إذا لم يسجد بالروح. غير أن الموت الروحي لا يشعر به الجسد، والنفس المستهترة لا تعيره اهتماماً. ولكن في نهاية عمر الإنسان يستيقظ ضميره فيرى عظم الخسارة بل المصيبة التي اكتسبها لنفسه بإهمال الإتصال بالله الذي سيذهب ليتراءى أمامه. لذلك فالمرجو أن يختبر الإنسان نفسه بعد كل سجود هل كان بالروح أم لا، وهل اتصل بالله فعلاً أم لا.

٤: ٢٥ «قالت له المرأةُ: أنا أعلم أن مسيّا ــ الذي يُقالُ له المسيحُ ــ يأتي. فمتى جاءَ ذاكَ يُخبِرُنا بكلِّ شيءٍ».

هنا عنصران في صميم الواقع في هذا الحوار، يسيران جنباً إلى جنب. الأول أن السامرية بدأت تحس بقرب المسيح منها وبدأ الإشعاع الروحي الشخصي يطغى على الحديث، وهذا أمر في غاية الأهمية، لأن الإنسان إذا ابتدأ ينفتح على الله قليلاً، فإن الله ينفتح عليه كثيراً. وهكذا تدخل السامرية، دون أن تدري، في المجال الروحي للمسيح، وهذا هو الذي جعلها تلقائياً تمتد بفكرها نحو النبي الموعود الذي سجلته توراتهم في سفر التثنية الذي وعد به موسى.

أما العنصر الثاني فهو تسلسل الحديث، فقد انتهت السامرية إلى القول بأن اليهودي الواقف أمامها، وهو السيد، هو نبي. ولكن في تصريحه الأخير عن العبادة بالروح والحق التي ستكون لا في أورشليم ولا في جرزيم جعلها تنطلق في تفكيرها من نحوه، إنه يتكلم بأبعد من إمكانيات نبي، فالنبي الواقف أمامها لو كان يهودياً فهو حتماً سيُزكّي أورشليم فوق جرزيم، ولكنه لا يفعل ما يتحتم على النبي اليهودي أن يعمله، فمَنْ يكون؟ وقفت السامرية أمام المسيح حائرة. أيمكن أن يكون هذا هو مسيّا الذي طالما سمعوا عنه وانتظروه؟ لم تستطع أن تقطع بالأمر، لأن الرؤيا غير كافية أمامها. وهذا أمر في غاية الأهمية أيضاً، لأن أي شك من نحو الله يجعل صورة الله تهتز فوراً. لهذا اتخذت على الفور مبادرة من شأنها أن تكشف الحقيقة وتقطع بالأمر، فألقت بسؤالها أمامه، وهو ليس سؤالاً بل تساؤل، والرد عليه كفيل إما بأن يقطع الشك باليقين إن قال نعم، وإلاَّ فعليها أن تنطوي مرة أخرى على نفسها بانتظار مسيّا ــ هذا الذي يستطيع وحده أن يُعرِّفها بالحقيقة وبكل شيء. والله دائماً يرحب جداً أن يدخل أي اختبار. وقصة جدعون أحد قضاة بني إسرائيل يتضح

فيها هذا المبدأ. ففي أول مقابلة مع ملاك الله الذي أمره أن يخرج ويحارب الأعداء، قدّم جدعون أول اختبار لصحة شخصيته وصحة كلامه وهو أن يبقى في مكانه في بيدر الحقل حتى يعود إليه بجدي يذبحه له ذبيحة تكريم، فوافق. وثاني اختبار قدّمه لصحة وعد الرب أن يكون الرب معهم في الحرب أن قدّم اختباره الثاني بصورة جزّة صوف وضعها في الطلّ بالليل، وفي أول يوم اشترط على الرب أن يملأ الطلُّ ــ أي الندى ــ الجزّة ولا يمس الأرض حولها، فوافق الرب وصنع ما طلب جدعون. وفي ثاني يوم غيّر الإختبار أن ينزل الطلُّ حول الجزّة ولا يمس الجزّة نفسها، وكان أن فعل الرب ما طلب. فتأكد جدعون وحارب وغلب. وكان الرب عند حسن ظن جدعون!

«أنا أعلم أن مسيّا ــ الذي يقال له المسيح ــ يأتي. فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء»:

يقول «شناكنبرج» في بحثه عن عقيدة السامريين فيما يختص بالمسيا هكذا:

[انتظار العهد الماسيَّاني عند السامريين ــ كما تقول به هذه المرأة ــ يأتي مطابقاً لِمَا نقرأه من المصادر المحفوظة عن السامريين. فالمسيّا كان اسمه عندهم «تا. إب»، ومعناها قريب من اللغة العربية أي «الآيب» بمعنى الآتي أو الراجع وذلك بحسب التوراة (تث١٨: ١٨). فهو محسوب عندهم أنه النبي الذي سيظهر في آخر الأيام خليفة لموسى النبي. ولأهمية هذا النص من التوراة عند السامريين فقد جعلهم على رجاء مستمر. ومما جعله أمراً هاماً جداً عندهم أن في توراتهم تسجّل هذا الوعد بعد العشر الوصايا. وهذا المعنى «تا. إب» في مفهومهم هو قائد سياسي، فهو سيعيد مملكة إسرائيل (السامرة) مثل مسيّا اليهود على مستوى مملكة داود. غير أنه بسبب اتصاله بموسى، فقد تحتم أن يكون من سبط لاوي. إذن، فكونه هو كاهناً فهو سيعيد لهم العبادة الحقّة، أما دوره كنبي مُسْتَعلِن للحقائق وكمعلم فهو أمر منتظَر ومترقّب بحسب مفهوم النبوة (تث١٨: ١٨).

وفي كتابهم المسمَّى (ممار مركا) ــ وهو من القرن الثالث الميلادي ــ في الفصل الرابع والمقطع ١٢ يقول: إنه سيعلن الحق! و يوسيفوس المؤرخ اليهودي المعاصر للقديس يوحنا يسجل و يؤكد في تاريخه أن السامريين لهم رجاء بمجيء المسيا. ويحقق العلماء في صحة مجيء كلمة «مسيّا» بدون «أل» التعريف في قول السامرية... ليكون مطابقاً لاسم المسيّا عندهم وهو بدون «أل» التعريف. وعندما قالت السامرية: «الذي يُقال له المسيح» فهي تترجم اسمه عندهم باسمه عند اليهود.](١٣)

[13] Schnackenburg, *op. cit.*, p. 441.

٤ : ٢٦ «**قال لها يسوع "أنا هو" الذي أكلمك**»! ἐγώ εἰμι, ὁ λαλῶν σοι

توقُّع المرأة لهذه الحقيقة، هو الذي دفع المسيح لإعلانها. لم يكن المسيح قادراً، بعد، أن يحجز عنها هذه الحقيقة حينما بلغتها وتوقفت عند حدودها عاجزة تطلب وتمد يدها لكي يُدخلها إلى النور أو يُدْخل النور إليها. لقد أدركت تماماً أن وراء هذا الإنسان شيئاً أعظم من نبي ولكنها تعثرت في أمرين: الأول أنه يهودي، والثاني هذا الجسد المتعب العطشان. إن عثرة التجسد تقف الحاجز الأخير للإيمان الذي إذا تخطاه الإنسان بلغ إلى رؤية الله. والله وضع هذا الحجاب الحاجز بينه و بين الإنسان لاختبار هذا الإيمان، فهو الحاجز، وهو نفسه الطريق الموصل إلى السماء إلى قدس الأقداس: «طريقاً كرّسه لنا حديثاً حيًّا بالحجاب أي جسده.» (عب١٠: ٢٠)

يلاحَظ في الترجمة العربية(١٤) أنها أخفت «أنا هو» ἐγώ εἰμι دون معرفة. فهنا يقع هذا الإصطلاح كاسم شخصي لـ«يهوه»(١٥) كما تنطقه جميع أسفار العهد القديم. فالمسيح يُبرز شخصيته ليس كالمسيًا الذي تنتظره هي أو اليهود عموماً، كمن يردُّ المُلْكَ أو يُعلِّم التوراة عن صحة أو يبني هياكل و يصحح عبادات، بل هو «يهوه» الذي يصنع كل شيء جديداً. نطقه المسيح وهو مغطى بالسرّية التي لا يفكُّها إلا من يبحث عنه!!

هذه هي المرة الأُولى والوحيدة التي يعلن فيها المسيح عن شخصيته المسيَّانية قبل المحاكمة، يقابلها في إنجيل مرقس فقط موقفٌ مماثلٌ: «لأن من سقاكم كأس ماء باسمي لأنكم للمسيح فالحق أقول لكم إنه لا يضيع أجره.» (مر٩: ٤١)

وعلى القارىء أن يلاحظ أسلوب المسيح في إنجيل يوحنا في الإعلان عن نفسه، فمع نيقوديموس ابتدأ من «الريح التي تهب حيث تشاء»، مع صورة سرية للماء لقيام أولاد الله مولودين جدداً من فوق؛ ومع السامرية ابتدأ من الماء الذي «من يشربه لا يعطش أبداً»، الصورة السرية للمياه التي تولد منها النفوس الجدد أيضاً.

أما نيقوديموس فتعثَّر، شأنه شأن معلِّم الحَرْف في العهد القديم: «لأن الأجنَّة دنت إلى المولد ولا قوة على الولادة» (إش٣٧: ٣)؛ وأما السامرية فطلبت بشغف وشربت بنَهمٍ، ورأت المسيَّا، وتتلمذت وصارت طليعة الأمم.

(١٤) جاءت هذه الآية في طبعة بيروت: «أنا الذي أكلمك هو».

(١٥) أنظر شرح «أنا هو» كاسم شخصي ليهوه في المدخل ص٢١٨-٢٤٦ وعلى الخصوص ص٢٢١.

لقد سقط عن السامرية ثوبها المنجّس بقذر الخطية، حينما انفتحت عينها مليًّا ورأت المسيح أمامها مُستعلناً. فقد ولّت منها في الحال شياطين الظلمة، ولفّها نور المسيح. إذ لَمَّا يسقط عن النفس ثوبها المنجّس، تتولى الملائكة إلباسها ثياب النور، وهي الثياب المزخرفة عند زكريا النبي: «وكان يهوشع لابساً ثياباً قذرة وواقفاً قدام الملاك فأجاب وكلّم الواقفين قدامه قائلاً: انزعوا عنه الثياب القذرة. وقال انظرْ قد أذهبتُ عنك إثمك وألبسك ثياباً مزخرفة... وملاك الرب واقف» (زك٣: ٣ـ٥). نعم لقد لبست الأمم فرحتها يوم لبست السامرية ثيابها المزخرفة.

ب ـ حديث الرب مع التلاميذ: (٤: ٢٧ـ٣٨)

وتستمر فيه المقابلة بين القديم والجديد على النحو التالي:

القديم: «يا معلّم كُلْ».

الجديد: «لي طعام لآكل لستم تعرفونه أنتم. طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله».

القديم: الأنبياء الذين زرعوا بالدموع.

الجديد: التلاميذ يحصدون ما لم يتعبوا فيه.

٤: ٢٧ **«وعند ذلك جاء تلاميذه وكانوا يتعجبون أنه يتكلم مع امرأة ولكن لم يقل أحدٌ ماذا تطلُبُ أو لماذا تتكلَّمُ معها».**

+ **إحدى بركات الخدمة اليومية في المجامع:**
[أشكرك أنت الرب الذي لم تخلقني امرأة].

+ **إنذار الحكماء اليهود:**
[الرجل لا يتكلم مع امرأة في مكان عام حتى ولو كانت زوجته].

+ **قول للربانيين اليهود:**
[إنه خير لكلمات التوراة أن تُحرق من أن تُلقى على مسامع امرأة].

+ [سأل جليلي امرأة يهودية في الطريق أين الطريق إلى لِدّة؟ أجابت أيها الجليلي الأحمق ألم تسمع أنه ليس للرجل أن يتكلم مع امرأة في الطريق وأنت تسأل الطريق إلى لدّة؟].
رابي يوسا (١٦)

---

16 Morris, Leon, *The Gosp. acc. to St. John*, p. 274.

+ [أي رجل يعطي ابنته أي معرفة عن التوراة
يكون هذا بمثابة أنه يعلمها الدعارة؟؟؟].

رابي إلعازار(١٧)

+ بولس الرسول:
[ليس ذكر وأنثى لأنكم جميعاً واحداً في
المسيح يسوع] (غل٣: ٢٨).

عند هذا الحد من الحوار الذي انتهى باستعلان المسيح لذاته، وصل التلاميذ، ومن بعيد رأوا المعلم والسامرية فتعجبوا متحشِّمين أن يتكلموا، لأن من عادة حكماء اليهود والرابيين والمعلمين عموماً أن لا يتحادثوا مع امرأة في الطريق مهما كان الأمر.

ولكن هذا التعجب بحد ذاته يكشف أن التلاميذ كانوا لا يزالون بعيدين جداً عن فكر المسيح والمسيحية. وهذا يوضح مدى التغيُّر الهائل الذي حدث للمجتمع اليهودي بالنسبة للمرأة بالذات، لما آمن بالمسيح واعتمد لوصاياه وقَبِلَ استعلان الحق الإلهي، الذي أضاء ذهن الإنسان وحياته.

و يقول العالم «ليون موريس» في كتابه لشرح إنجيل يوحنا في هذا الموضع إنه حتى إلى الآن حينما يُلقى السؤال في المجتمع اليهودي عن وضع المرأة يقال لهم: [إذا كنا الآن نحس أن المرأة قد حازت على أفضل التغيير في وضعها، فهذا في المجتمع المسيحي وليس بحسب الرؤية اليهودية القديمة]. (١٨)

«ولكن لم يقل أحدٌ ماذا تطلب أو لماذا تتكلم معها»:

هذان السؤالان اللذان لم يخرجا إلى حيِّز الوجود، يوضحان العلاقة القائمة بين المعلم والتلاميذ كيف كانت تقوم على أساس الإحترام الشديد والوقار والخشية. وهذا فعلاً أحد الآداب اليهودية التي ورثتها المسيحية وظهرت في الحياة الرهبانية القائمة دائماً على المعلم والتلميذ، ولكن للأسف لم تَدُمْ، فعصرنا الذي نعيشه الآن انقلبت فيه المُثُل والأوضاع، وضاع الميراث والتراث بل ضاع منهج الحياة والحياء.

---

[17] Ibid.

[18] Ibid.

٤ : ٢٨ «فتركت المرأة جَرَّتها ومضتْ إلى المدينة وقالتْ للناسِ».

استجابة المرأة هذه المرة ليس بالقول بل بالعمل. لم تَقُلْ: ماذا ستعمل وإلى أين تذهب، ولكنها تركت جرَّتها تأكيداً أنها لا بد حاضرة وأنها ستأتي أمراً هاماً!

عادت المرأة إلى أهل مدينتها في غير ثوبها المنجَّس بالقذر الذي به عرفوها، ولكن بثوبها الجديد المزركش بالنور صُنْعَ يَدِ النعمة وتطريز ملائكة، وافتهم و بُشْرى الخلاص على فمها.

إنه أمرٌ لا يستطيع العقل أن يلاحقه، كيف أن هذه السنين كلها التي عاشتها هذه النفس في وحل الخطية تُغتسل في ساعة وأقل؟ لك يا عزيزي القارىء أن تحكم في نور هذه «التوبة العاجلة جداً» مدى تفاهة الخطية بطولها وعرضها وعمقها وخطوطها التي ترسَّخت في الشعور واللاشعور وقيدت الغرائز واستعبدت الأعضاء وكل الجسد!!

كيف انحلَّت و بادت هذه كلها في مواجهة النور وفعل النعمة!! انظر إلى جبروت الوقوف في حضرة الرب وماذا يصنع الحوار الصريح مع القادر على كل شيء! انظر الآن وتمعَّن في معنى التجديد، ومعنى الميلاد من فوق، ومعنى التحول من القديم إلى الجديد، ليس عادات وغرائز وحسب، بل قيم وتقاليد وقيود من حديد! تَفكَّر الآن كيف يُخلق الإنسان من جديد من فوق، كيف يغتسل بل يتقدَّس بل يلبس النور كثوب.

وما أخفق معلِّم الناموس في فهمه، مارسته السامرية في أعلى صوره. ألا ترى معي هنا لماذا بكل صدق وحق أخذ الله الملكوت من اليهود وسلَّمه للأمم؟ وكيف كانت السامرية باكورة ثماره؟

ذهبت السامرية إلى البئر بالجرَّة على رأسها والدموع على خدَّيها تبكي حظها ولا مَنْ يُعزِّي، فالشماتة خلفها!! وعادت إلى المدينة والفرحة تملأ قلبها، إكليل القداسة فوق رأسها وإنجيل البشارة على قدميها: «ومفديُّو الرب يرجعون و يأتون إلى صهيون (العليا) بترنُّم، وفرحٌ أبديٌّ على رؤوسهم. ابتهاج وفرح يدركانهم، و يهرب الحزن والتنهد.» (إش ٣٥ : ١٠)

٤ : ٢٩ «وقالت للناس هلمُّوا انظروا إنساناً قالَ لي كلَّ ما فعلتُ. ألعلَّ هذا هو المسيحُ».

لم تَدْعُ زوجها بل دعت الناس، كل الناس!
تركت جرَّتها، نسيت صَنْعتها، لم تَعُدْ تذكر بيتها ولا ماضيها، أهملت الجسد!

المسيح وحده ملأ فكرها، ملأ قلبها. دخلت مياهه أعماقها ففاضت أنهار ماء حيٍّ. لا بد أن يصير للناس كل ما صار لي.

هلموا هلموا: «أيها العطاش جميعاً هلموا إلى المياه والذي ليس له فضة تعالوا... اسمعوا فتحيا أنفسكم.» (إش٥٥: ١و٣)

«إنساناً قال لي كل ما فعلت»:

إن المبالغة التي تتكلم بها هي صادقة: «كل ما فعلت»، مع أن المسيح راجعها في أمر الخمسة والموجود معها الآن! ولكن المسيح فتح وعيها فاسترجعت كل ما فعلت وكأنها قالته، كأنها اعترفت به واحدة فواحدة. هكذا يستيقظ وعي الإنسان عندما يتوب. و بعدها تُمحى ذكرياته وتتلاشى سيئاته وتُترك له زلأته ولا يعود يذكر هو ولا يذكر له الناس ولا الله شيئاً واحداً مما فعل...

ولكن واحسرتاه على الذي كتم خطاياه وختم على خزيه وعار صباه، فهذه كلها تعود وتستيقظ معه في حضرة الديَّان، بعضها يجري أمامه، و بعضها يجري خلفه، وكأنه واقف وسط أعدائه.

«ألعلَّ هذا هو المسيح»:

إنها تعلم تمام العلم اليقين أنه مسيًا بلا نزاع، هو قال لها: «أنا هو». لقد دخلت الكلمة أعماقها، لقد صار المسيح مصوَّراً في قلبها وضميرها، لقد غطَّى كل صورة عداه، ومسح كل وجه سواه. لقد صار المسيح عريس حياتها الذي استعاد بتوليتها وأنعش أمل الحياة والوجود والخلود في أعماق أعماقها... ولكنها لم تُرِدْ أن تَسْتَبِقَ حكم المدينة عليه لئلا يناقضوها فيما قالت وفيما اعتقدت. تركت لهم الحكم، ولكن دفعتهم للمجيء لينالوا ويحكموا بأنفسهم ما حَكَمت و يعتقدوا ما اعتقدت، وقد كان!!!

٤ : ٣٠ «فخرجوا من المدينة وأتوا إليه».

الكل يجري و يتراكض... إشعياء يراهم و ينذهل من رؤياهم: «ها أُمة لا تعرفها تدعوها، وأُمة لم تعرفك تركض إليك... لأنه قد مجَّدك!» (إش٥٥: ٥)

لقد سمعوا نداءها واستجابوا لحرارة دعوتها وصدق مشاعرها. لقد وثقوا من صدق قولها، فأين هذه من صاحبة السيرة الأُولى التي كان يحتقرها كل ناظر ولا يأبه بقولها أحد! التي كانت تمشي

تتلصص الطرق التي فرغت من عابريها وتختار الأوقات التي لا يسير فيها أحد لتسير وحدها منطوية على خزيها!

٤ : ٣١ـ٣٣ «وفي أثناءِ ذلك سألَه تلاميذُهُ قائلينَ: يا معلمُ كلْ. فقال لهم: أنا لي طعامٌ لآكل لستم تعرفونَهُ أنتم. فقال التلاميذ بعضُهُم لبعضٍ: ألعلَّ أحداً أتاهُ بشيءٍ ليأكُلَ».

كان المعلم عطشاناً لماء السامرية ولكن ليس جوعاناً لطعام التلاميذ.

كان عطشه للماء يخفي وراءه عطشاً لخلاص السامرية والسامريين. والجوع إلى طعام المشيئة الأبوية أخفى هنا جوع الجسد، ليس عن تعالٍ فهو ابن الإنسان، ولكن عن أفضلية.

والتلاميذ هنا عادوا فأخذوا دور السامرية، هو قال لها عن الماء الحيِّ الذي مَنْ يشربه لا يعطش أبداً، وهي ظنته ماءً لراحة الجسد؛ وهو هنا يقول عن طعام يأكله بالحب الإلهي لتكميل مسرة الآب وهم ظنوه طعاماً أكله خلسة من يد عابر سبيل!!

٤ : ٣٤ «قال لهم يسوعُ: طعامي أنْ أعملَ مشيئةَ الذي أرسلَني وأتمِّمَ عَمَلَهُ».

المسيح تجتاحه الرغبة الإلهية لخلاص الناس بعنف يغطي كل أعواز الجسد! هنا يستعلن سر الحركة الإلهية في نفس وجسد المسيح كيف تحل محل كل رغبات وشهوات وحاجة الجسد والنفس معاً!

إن الأصوام العالية القدر والقدرة التي مارسها الرب سواء في الأربعين على الجبل وحده أو غيرها هي لرفع الجسد والنفس البشرية لتتصادق مع الرغبات الإلهية المقدسة التي للاهوته!! هنا حالة مصغَّرة من هذه الحالات التي كانت تعلن عن وجودها إزاء المهمَّات الكبرى! هنا مطالب اللاهوت تُغطِّي على مطالب الجسد، وتدعو الجسد للتآلف معها ليشبع من المشيئة المقدسة و يقنع بمجد الرسالة! هنا الجسد يستجيب بكل حرارته وقوته فتلتهمه نار الجذوة الإلهية فلا يبقى فيه إلاَّ إرادة موحَّدة لتكميل الرسالة حتى كمالها. وكأن المسيح يريد أن يقول لهم جئت لأعطي نفسي طعاماً لحياة الناس فوق أن آكل طعام الناس لأحيا. حياتي ليست من طعام الجسد بل من حياة الآب: «كما أرسلني الآبُ الحيُّ وأنا حيٌّ بالآب، فمَنْ يأكلني فهو يحيا بي.» (يو٦: ٥٧)

لا ننسى أبداً أن جسد المسيح تعيَّن أصلاً وأساساً ليكون ذبيحة وليس لمجاراة أعوازه!! والذبيحة بدأت يوم أن خرج إلى العالم ينادي بالخلاص، الخلاص المعقود لواؤه على ذبيحة الجسد!! الذبيحة لم تبدأ وتنتهي عند الصليب، بل تراءى المسيح في إنجيله مذبوحاً بالنية من اليهود كل يوم!! أما هو فلم يشفق على الجسد، بل بسرور كان يقدمه للآب كل يوم في الأتعاب والإضطهادات والجوع والعطش ذبيحة مسرة!! «**لذلك عند دخوله إلى العالم يقول** ذبيحة وقرباناً لم تُرِدْ ولكن هيَّأت لي جسداً. بمحرقات وذبائح للخطية لم تُسرَّ. ثم قلت هأنذا أجيء، في دَرْجِ الكتاب مكتوبٌ عني، لأفعل مشيئتك يا الله.» (عب١٠: ٥-٧)

إن العمل الحاسم الحازم الذي أخذه الرب في نفسه وعلى نفسه أنه قدَّس المشيئة كليةً لعمل الفداء!! «لأجلهم أُقدِّس أنا ذاتي» (يو١٧: ١٩)! لقد أفرغ المسيح كل عافية الجسد حتى آخر قطرة إلى أن قالها وهو مرتاح «قد أُكمل» (يو١٩: ٣٠). ليس أنه كان يسعى متسرعاً أن يشرب الكأس، بل بتمهُّل فائق الوصف والقدرة، وبتغييرات جذرية في تنوُّع الخدمة وتغيير الإتجاه في المسير وتغيير الأماكن للخدمة وللتوقف عن العمل، ثم الإستئناف. كان يتحاشى الصدام المبكر مع القاتلين، حتى إلى درجة استخدام القدرة الفائقة في إخفاء وجوده، حتى يكمِّل كل العمل الذي كان يستلمه من الآب يوماً بيوم... لقد قالها أيضاً وهو مرتاح: «أنا مجَّدتُك على الأرض. العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملتُه» (يو١٧: ٤)!!! ولكن أي تكميل؟ تكميل الآلام بالآلام: «لأنه لاقَ بذاك الذي من أجله الكل وبه الكل، وهو آتٍ بأبناءٍ كثيرين إلى المجد، أن يكمِّل رئيسَ خلاصِهم بالآلام.» (عب٢: ١٠)

نعم، وقد صار هذا التكميل المتقن لحساب كل البشرية ويزيد: «وإذ كُمِّل صار لجميع الذين يطيعونه سبب خلاصٍ أبدي.» (عب٥: ٩)

فإذا كان تصميم المسيح الحاسم شديداً لهذا الحدّ في تكميل مشيئة الآب الذي أرسله وتتميم عمله، لذلك كان همُّه الطاغي أن ينفِّذ الخطة المرسومة بكل اعتناء، حتى صارت إرادة المسيح ومشيئته مبتلعة تماماً في مشيئة الآب من نحو العمل الموضوع أمامه. لذلك لا نتعجب أن يُسقِط في الطريق كل اهتمامات الجسد ومشيئات الناس والأهل: «فأجاب وقال (للقائل له): مَنْ هي أُمي ومَنْ هم إخوتي. ثم مدَّ يده نحو تلاميذه وقال ها أُمي وإخوتي. لأن مَنْ يصنع مشيئة أبي الذي في السموات هو أخي وأختي وأُمي.» (مت١٢: ٤٨-٥٠)

٤ : ٣٥ «أما تقولونَ إنه يكونُ أربعةُ أشهرٍ ثم يأتي الحصادُ. ها أنا أقولُ لكم ارفعوا أعينَكم وانظروا الحقولَ إنها قد ابيضَّت للحصادِ».

كان تقاطر أهل السامرة في جموع متلاحمة لابسين ثيابهم التقليدية البيضاء كأنهم حقل قمح نضج للحصاد، فللحال اتخذه المسيح «كمثل» لعمل الملكوت المتسع بالنسبة للأزمنة القادمة بعد: «العمل وتكميل الخلاص بالآلام»، الذي هو بحسب تشبيه المسيح سقوط حبة الحنطة في الأرض لتموت ثم تخرج من جديد حقلاً من القمح للحصاد.

في هذه القصة، قصة السامرية، تستطيع الأذن الحساسة أن تتبين أنها موقَّعة على أنغام الصلبوت.

+ درجة درجة تبتدىء النغمة واضحة بمنظر المسيح «**متعب من السفر**»؛ وكأنه سفر الخدمة المجهد الطويل الذي انتهى بالضرب والجلد وضَفْر إكليل الشوك.

+ وهنا تبتدىء النغمة تعلو قليلاً حينما تقول القصة حرفياً أنها «**كان نحو الساعة السادسة**»**!!** بلغة **ساعة الصليب تماماً**.

+ ثم تزداد النغمة صراخاً حينما يقول المسيح: «**أعطيني لأشرب**»؛ «**أنا عطشان**» بلغة الصليب تماماً.

+ ثم النغمة تزداد لتصير صراخاً مدوِّياً حينما يقول المسيح «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني **وأتمم عمله**»؛ يقابلها على نفس السلم «**قد أُكمِل**».

+ ثم تهبط النغمة حزينة ممزوجة برجاء حيٍّ حينما يقول المسيح: «**الماء الذي أنا أعطيه**»؛ لترد عليها أنغام الصليب «وخرج منه دم **وماء**».

+ ثم عَوْدٌ على ذي بَدْءٍ: «لأن تلاميذه كانوا قد مضوا» **(وتركوه وحده)**... لتتقابل في انسجام مع نغمة «تأتي ساعة وقد أتت الآن تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته **وتتركونني وحدي**.» **(يو١٦: ٣٢)**

+ ثم عودة أكثر إلى خلف لنسمع: «انظروا الحقول (القمح) قد ابيضَّت للحصاد...»؛ واسمع نغمة «إن لم تقع **حبة الحنطة** في الأرض وتَمُتْ فهي تبقى وحدها. ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير.» **(يو١٢: ٢٤)**

+ ثم اسمع نغمة القوة عندما انتهى الرب مع السامرية إلى ما انتهى إليه، حينما تساءلت عن المسيًا فقال لها: «**أنا هو الذي أكلِّمك**»؛

+ وعلى جانب الصليب و بنفس القوة، وحينما تساءل بيلاطس: «أفأنت إذاً ملك»، أجاب يسوع: «**أنت تقول إني ملك لهذا قد وُلدت أنا**».

+ ثم اسمع كودة الختام العالية جداً والسريعة جداً بصوت أهل السامرة يعلنون بلا تحفظ: «**هذا هو بالحقيقة المسيح مخلِّص العالم**»؛

+ واسمع النغمة المقابلة بنفس الرتْم من قائد حرس المائة: «**حقاً كان هذا الإنسان ابن الله**».

ليس من اللازم أن هذا التوافق كان في ذهن ق. يوحنا، ولكن الروح لا يخطأ حينما يؤلف بين أُقوال وأقوال قارناً الروحيات بالروحيات.

ولكن نستشف من هذه المقابلة أن قصة السامرية هي لقطة من منظر الصلبوت، معها في الحال جانب من بدء الخدمة وافتتاح الإرساليات. فالمسيح يتكلم عن الحصاد. والحصاد في إنجيل المسيح له ميعادان محددان لا ثالث لهما: الحصاد الأول حصاد المؤمنين بالكرازة، وهذا بدأ بعد القيامة ولن ينتهي إلاَّ يوم القيامة، حيث الحصاد الثاني للدينونة!!

أما الأول: «الحصاد كثير ولكن الفعلة قليلون، فاطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فَعَلَة إلى حصاده.» (مت٩: ٣٧و٣٨)

أما الثاني: «وخرج ملاك آخر من الهيكل يصرخ بصوت عظيم إلى الجالس على السحابة: أرسِلْ منجلك واحصدْ، لأنه قد جاءت الساعة للحصاد، إذ قد يَبس حصيدُ الأرض! فألقى الجالس على السحابة مِنْجله على الأرض فحُصدت الأرض.» (رؤ١٤: ١٥و١٦)

وأصل قصة الأربعة الأشهر والحصاد والحقول المبيضَّة التي حيرت جميع الشراح هي حسب ظننا كالآتي:

كان التلاميذ يتكلمون مع بعضهم وأمامهم حقول القمح مخضرّة على سفوح جبل جرزيم، أخصب بقاع إسرائيل، والزرع له في الأرض شهران وكانوا يتناجون أن بعد أربعة أشهر يكون

الحصاد. لأن القمح يستمر في الأرض ستة شهور كاملة حتى يُحصد: من منتصف أكتوبر إلى منتصف أبريل. علماً بأن منتصف أبريل أي وقت الحصاد المبكر هو هو زمن الصليب بالضبط. لذلك هنا كلمة «أربعة أشهر» من فم المسيح و«ثم يأتي الحصاد» إشارة واضحة جداً لتكميل عمله رسمياً على الصليب: «قد أُكمل»!!

وهنا الربط واضح بين قول المسيح: «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني **وأتمم عمله**» وبين الأربعة الأشهر والحصاد في حديث المسيح الذي جاء بعده مباشرة!! هنا ليس تداعي الألفاظ ولا هو تداعي الأفكار، بل الحَبْك في إنجيل يوحنا.

بقية المعنى يتمشى معنا هكذا: أنتم تقولون أن بعد أربعة أشهر يكون الحصاد، وأنا أقول لكم ها هو الحصاد أمامكم والحقول أمامكم ابيضَّت للحصاد، فالسامريون كانوا يتقاطرون بثيابهم البيضاء مسرعين نحو المسيح بقيادة مَنْ آمنت وكانت أول الكارزين: «ارفعي عينيك حواليكِ وانظري. كلهم قد اجتمعوا أتوا إليك. حيٌّ أنا يقول الرب أنكِ تَلبسين كلهم كحُليٍّ، وتتمنطقين بهم كعروس.» (إش٤٩: ١٨)

هذا في الحقيقة منظر مبكر جداً جداً عن ميعاده، لأننا لسنا في زمان الحصاد لنفوس المؤمنين بالمسيح الذين يتقاطرون إليه بهذه اللهفة!! ولكن هذا ما حدث بسبب شدة التأثير الذي حدث للسامرية بسبب استعلان المسيح لنفسه استعلاناً كاملاً بقوة لاهوته: «أنا هو»، الذي لم يحدث قط وكأنه استعلان ما بعد القيامة. فكانت كرازة المسيح للسامرية على مستوى استعلان كامل لمسيح القيامة والخلاص والحياة الأبدية. وكان تأثير السامرية على السامريين من نفس النوع، لأن أمامهم امرأة خاطئة تحولت إلى قديسة، فكان هذا كفيلاً بصدق استعلان المسيح فيها!! فكان هذا الحقل البشري القادم لقبول الإيمان نموذجاً مبدعاً وكاملاً للحصاد القادم!!

٤: ٣٦و٣٧ «والحاصد يأخذ أجرةً ويجمعُ ثمراً للحياةِ الأبديةِ لكي يفرحَ الزارعُ والحاصدُ معاً. لأنه في هذا يصدُقُ القولُ إنَّ واحداً يزرعُ وآخر يحصدُ».

لاحظ أن الحاصد هنا لم يتعب، إنه يتلقى نفوساً آمنت جاهزةً للحياة الأبدية. ولكن عجيب هو الرب، فقد جعل للحاصد أجرةً لأنه يجمع مع المسيح وللمسيح حصيداً لن يتبدد. وفي الحقيقة إن الكلام هنا عميق وسرِّيٌّ للغاية، يُلزمنا أن نَسْتبق الكلام لنقرأ في الأصحاح السادس عن «عمل الله»: «هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسَلَهُ» (يو٦: ٢٩). وبعد، يظهر من

الكلام بغاية الوضوح أن «عمل الله» هو بمثابة الأكل من المنّ الحقيقي الخبز الذي أرسله الله!!! «أنا هو خبز الحياة» ـــ «مَنْ يأكلني يحيا بي»!

ثم لو رجعنا قليلاً في نفس الموضوع نجد المسيح يقول: «اعملوا لا للطعام البائد (الخبز اليومي) بل للطعام الباقي (الخبز الحي) للحياة الأبدية الذي يعطيكم ابن الإنسان، لأن هذا الله الآب قد ختمه» (يو٦: ٢٧). «**ختمه**» هنا تعود ليس على الطعام، لأن هذا الفعل جاء واقعاً على شخص مذكر في اللغة ـــ وهو المسيح ـــ وليس على الطعام (المؤنث في اللغة اليونانية). فالطعام الباقي للحياة الأبدية الذي الآب ختمه هو المسيح، والعمل نفسه لحساب المسيح! «**اعملوا للطعام**». فهنا «**الحاصد ثمر الحياة الأبدية**» هو «**عامل للطعام الباقي للحياة الأبدية**»!! بمعنى أن الخادم أو المرسَل **طعامُه** هو الآخر أن يعمل للحياة الأبدية، يأكل المسيح و يُطعِمَ الناس من أطايبه!! هذه هي أجرة المرسَل والكارز والخادم للكلمة أيًّا كان!!

«لكي يفرح الزارع والحاصد معاً. لأنه في هذا يصدق القول أن واحداً يزرع وآخر يحصد»:

واضح أن المسيح يقصد هنا كل الذين تعبوا في كلمة الله منذ أن جاءت كلمة الله وكان لها من يحملها و يتكلم بها و يزرعها في قلوب الناس على كل الأجيال السالفة. لأننا نسمع عن مثل هؤلاء الذين خلّصوا نفوساً منذ القديم سمعاً مبهراً: «والفاهمون يضيئون كضياء الجلد والذين ردُّوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور» (دا١٢: ٣). هؤلاء هم الذين زرعوا الكلمة في قلوب سامعيهم ومضوا. ليس أنهم أشخاص الماضي الذي يُنسى، ولا هم تعبوا وانتهى تعبهم إلى نسيان، حاشا لرب الحصاد ديان الأرض كلها أن لا يصنع عدلاً؛ فهؤلاء يعيِّدون الآن عيد الأبدية في عُرسِ فرح الخروف، هاتفين بالمجد إلى أبد الآبدين مع ربوات هم محفل ملائكة! هناك يتلاقى الزارع والحاصد معاً وعلى «رؤوسهم فرح أبدي».

٤: ٣٨ **«أنا أرسلتُكم لتحصدُوا ما لم تتعَبوا فيهِ. آخرونَ تَعِبُوا وأنتم قد دخلتُم على تَعَبِهم».**

لكي يستقيم الشرح يلزم أن نفهم ما هو تعب الزارع وما هو تعب الحاصد. كذلك ما هو فرح هذا وما هو فرح ذاك. أما تعب الزارع فليس من الجهد المبذول والتعب المضني وسفك الدم، لأن هذا اشترك فيه الأنبياء تماماً على مستوى الرسل: «وآخرون عُذِّبوا ولم يقبلوا النجاة لكي ينالوا قيامة أفضل. وآخرون تجربوا في هُزءٍ وجلدٍ، ثم في قيودٍ أيضاً وحبس. رُجموا نُشروا جُرِّبوا ماتوا قتلاً بالسيف، طافوا في جلود غنم وجلود معزى، معتازين مكروبين مُذلّين، وهم لم يكن العالم

مستحقاً لهم. تائهين في براري وجبال ومغاير وشقوق الأرض. فهؤلاء كلهم، مشهوداً لهم بالإيمان، لم ينالوا الموعد إذ سبق الله فنظر لنا شيئاً أفضل لكي لا يُكْمَلُوا بدوننا» (عب ١١: ٣٥ـــ٤٠). أما عيِّنة آلام وتعب وعذاب وقتل واستشهاد الحاصدين فهو بكل تأكيد مماثل بالحرف الواحد!

إذن، ففرق التعب الوحيد أن هؤلاء الآباء والأنبياء القديسين القدامى جاهدوا دون رؤية: «من بعيد نظروها» !! (عب ١١: ١٣). لم يذوقوا الخلاص، ولا عرفوا الحب الفادي، ولا سمعوا صوت العريس، ولا فرحوا بالرب في ملء استعلان مجده، ولا تشدَّدوا هكذا بالروح القدس المعزِّي؛ فكان تعبهم مريراً ومرارتهم بلا حلاوة. أما الرسل ومَنْ بَعدهم من المُرسَلِين والكارزين فلا يُحسَب تعبهم الجسدي قط بجوار الفرح والعزاء والقوة والمجد الذي كانوا يعيشونه. إن أعظم مَنْ تَعِب وتألم فيهم كان بولس الرسول، وكان أبهج شيء عنده أن يكمِّل نقائص شدائد المسيح في جسده. اسمعه في آخر قول له: «جاهدتُ الجهاد الحسن... وأخيراً قد وُضع لي إكليل البر» (٢تي٤: ٧و٨). لذلك كان المسيح نفسه يغبطهم: «والتفت إلى تلاميذه على انفراد وقال: طوبى للعيون التي تنظر ما تنظرونه لأني أقول لكم إن أنبياء كثيرين وملوكاً أرادوا أن ينظروا ما أنتم تنظرون ولم ينظروا وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا» (لو١٠: ٢٣و٢٤). واضح، إذن، أن تعب التلاميذ والمرسَلين عموماً عادله بهجة الخلاص وفرح الروح وزمالة المجد مع المسيح، فما عاد يُحسَبُ تعباً بل فرحاً: «الآن **أفرح في آلامي لأجلكم**» (كو١: ٢٤)، «ودعوا الرسل **وجلدوهم** وأوصوهم أن لا يتكلموا باسم يسوع ثم أطلقوهم. وأما هم **فذهبوا فرحين** من أمام المجمع لأنهم حُسِبوا مستأهلين أن يُهانوا من أجل اسمه» (أع٥: ٤٠و٤١). إذن، صحَ قول المسيح أن آخرين تعبوا وأنتم قد دخلتم على تعبهم.

ج ــ إيمان السامريين: (٤: ٣٩ـــ٤٢)

الاستعلان: «هذا هو مخلِّص العالم».

٤: ٣٩ـــ٤١ «فآمنَ بهِ من تلكَ المدينةِ كثيرونَ من السَّامريينَ بسببِ كلامِ المرأةِ التي كانت تشهدُ أنهُ قالَ لي كلَّ ما فعلتُ. فلما جاءَ إليه السَّامريون سألوهُ أن يمكُثَ عندهم، فمكثَ هناكَ يومينِ. فآمنَ به أكثرُ جداً بسببِ كلامِهِ».

أمامنا نوعان من الإيمان: إيمان عن طريق الشهادة: «فآمن كثيرون بسبب كلام المرأة»، وإيمان مباشر عن طريق الاستعلان بالكلمة: «فآمن به **أكثر جداً** بسبب كلامه». والذي يسترعي

انتباهنا هنا هذا الإستعداد المتوفر جداً عند السامريين سواء للإيمان عن طريق مجرد الشهادة، أو بالأكثر عن طريق الكلمة المباشرة.

والذي يسترعي الانتباه في إيمان هذا الشعب السامري، أنهم لم يطلبوا آيات أو عجائب، بل كان إيمانهم مبنياً على القناعة الروحية وصدق الاستعلان من خلال الكلمة.

إن ق. يوحنا اهتم بأن يضع هذا المثل الإيماني عن السامريين في مقابل المثيل له عند اليهود، ليوضح كيف أن استعلان المسيح يمتد أكثر و بسرعة واستجابة تلقائية عند غير اليهود. وهكذا انفتح باب الأمم للإيمان على مصراعيه ــ مبتدئاً من السامرة ــ ونحن.

ولكن يُلاحَظ أن المسيح مكث هناك يومين. الرقم هنا مثير للدهشة فهو ليس ثلاثة أيام كالعادة. المعنى الدفين هنا أن إيمان السامرة جاء قبل الميعاد، جاء ناقص النُّضج، ينقصه الإيمان بالقيامة.

٤ : ٤٢ «وقالوا للمرأة: إننا لسنا بعد بسبب كلامِكِ نؤمنُ؛ لأننا نحن قد سمعنا ونعلَمُ أن هذا هو بالحقيقةِ المسيحُ مخلِّصُ العالم».

لقد أحب الرب السامريين ــ أعداء اليهود ــ لكونهم منبوذين وخارج السياجات. لقد أكمل الله فيهم مَثَله المشهور عن الرجل الغني الذي صنع عشاءً **عظيماً** وأرسل عبده يدعو المدعوِّين: «وأرسل "**عبده**" في ساعة العشاء ليقول للمدعوين (اليهود، أبناء الملكوت): تعالوا... فابتدأ الجميع برأي واحد يستعفون... حينئذ غضب رب البيت وقال لعبده أخرج عاجلاً إلى شوارع المدينة وأزِقَّتها وأدْخِلْ إلى هنا المساكين والجُدْع والعُرْج والعُمْي (مساكين اليهود الذين صنع معهم آياته). فقال العبد: يا سيد قد صار كما أمرتَ، و يوجد أيضاً مكان. فقال السيد **أُخْرُجْ إلى الطرق والسياجات وألزمهم بالدخول حتى يمتلىء بيتي.**» (لو١٤: ١٦ــ٢٣)

في الحقيقة كان مسلك المسيح مع السامرية نوعاً من الإلزام المقبول. لقد عرض عليها الخلاص وأقنعها بضرورته فقبلته تحت اقتناع طاغٍ شبه التزام!! وهذا من حق الأمم، لأن الخلاص غريب عنهم. أما اليهود: «فالخلاص من اليهود»، يعرفونه وهم مدعوُّون له!! فلما رفضوه، قال الغني: «لأني أقول لكم إنه ليس واحد من أولئك الرجال المدعوِّين يذوق عشائي.» (لو١٤: ٢٤)

وليلاحظ القارىء مسلك المسيح الذي جعلهم يهتفون به مخلِّصاً للعالم!! فأولاً لم يَنْحَزْ لمكان

العبادة عند اليهود في أورشليم ضد عبادة السامريين في جرزِّيم، إلا أنه تمسَّك «بالحق والروح في العبادة». إذن، فهو يصح أن يكون حَكَماً عادلاً لكل دين!! ثم إنه لم يفرق بين جنس وجنس! إذن فهو يصح أن يكون كبيراً على كل الأجناس!! ثم إنه ذهب إلى عقر دارهم المنجَّس عند اليهود، وأكل من أكلهم الممنوع، وشرب من شربهم المحرَّم. إذن فهو يصحُّ أن يكون حبيباً لكل الناس والمنبوذين بالدرجة الأُولى. ثم إنه خلَّص أخطى خطاة مدينتهم ثم كلَّمهم بكلمة الخلاص عينها فآمنوا بها وخلصوا! فكيف لا يكون هذا المسيَّا مخلِّص العالم؟

اللقب الذي أعطاه السامريون للمسيح هو أعلى استعلان لاهوتي للمسيح في الإنجيل! وقد جاء عن شدة تأثرهم به باقتناع، وشدة عوزهم إليه بلهفة، ثم إحساسهم بالعزلة المُرَّة عن اليهود التي يحسُّها العالم كله والتي رفعها عنهم، فلماذا لا يرفعها عن العالم كله؟ وتم قول هوشع النبي: «سأدعو الذي ليس شعبي شعبي والتي ليست محبوبة محبوبة، و يكون في الموضع الذي قيل لهم فيه لستم شعبي أنه هناك يُدْعَوْن أبناء الله الحيّ.» (وردت في رومية ٩: ٢٥و٢٦)

أما السامرية فظلت أُغنية الكارزين. و يذكر لنا التقليد أن الكنيسة الأُولى قننتها كقديسة تحت اسم St. Photina القديسة فوتينا (فوتنة باللسان العربي) والاسم باليوناني Φωτινα أي المضيئة. وتعيِّد لها الكنيسة الغربية في ٢٠ مارس. ([١٩])



[19] ICC, Bernard, vol. I, p. 136.

الجزء الثاني: إنجيل قوة الكلمة

[٤:٤٦ ـ ٥:٤٧]

«**إنجيل قوة الكلمة**» يشمل معجزتين أجراهما المسيح **بمجرد النطق بالكلمة** ثم عقَّب على المعجزة الثانية بتوضيح **قوة الكلمة**:

+ **المعجزة الأُولى: شفاء ابن خادم الملك** ــ وقد تمت في الجليل (٤:٤٦ــ٥٤):
«فآمن الرجل **بالكلمة**».

+ **والمعجزة الثانية: شفاء مريض بِرْكة بيت حسدا** وقد تمت في أُورشليم. و بها يبدأ الأصحاح الخامس، وقد تمت أيضاً بمجرد كلمة من المسيح: «قُمْ احمل سريرك وامشِ».

وقد عقَّب عليها الرب في بقية الأصحاح الخامس بتوضيح قوة الكلمة المحيية: «**مَنْ يسمع كلامي**... قد انتقل من الموت إلى الحياة» ... «يسمع الأموات **صوت ابن الله** والسامعون يحيون». ثم كشف سبب عدم إيمان اليهود، لأن «ليست لكم **كلمته** ثابتة فيكم».

+ +
+

مكان البشارة:
خامساً ــ في الجليل
(٤:٤٣ــ٥٤)

شفاء ابن خادم الملك

الترحيب بالمسيح في الجليل، وصُنعْ آية واحدة في قانا الجليل ذات طابع جديد:

٤ : ٤٣و٤٤ «وبعد اليومينِ خرجَ من هناكَ ومضى إلى الجليلِ. لأن يسوعَ نفسَهُ شَهِدَ أنْ ليس لنبيٍّ كرامةٌ في وطنِهِ».

«فيا رب الجنود القاضي العدل فاحص الكُلى والقلب، دعني أرى انتقامك منهم لأني لك كشفتُ دعواي. لذلك هكذا قال الرب عن أهل عناثوث الذين يطلبون نفسك قائلين لا تتنبأ باسم الرب فلا تموت بيدنا!! لذلك هكذا قال رب الجنود: هأنذا أعاقبهم، يموت الشبان بالسيف ويموت بنوهم و بناتهم بالجوع.»
(إر١١: ٢٠ــ٢٢)

لقد حفر المسيح الزارعُ السماوي في أرض السامرة وألقى بذار الكلمة، ولما اطمأن إلى حفظ الوديعة بعد يومين غادر أرض السامرة وانطلق إلى الجليل. وكما يقول القديس كيرلس الكبير(٢٠):
[عبر في منتصف الطريق إلى الناصرة فأعطاها ظهره. وانطلق إلى الجليل الأعلى ــ لأنها لم تقبله في السابق ــ وقال عليها مَثَله المشهور: «ليس لنبي كرامة في وطنه»؛ ليس لأنه يسعى إلى كرامة الكرازة ولكن لأن عمل الخدمة لا يثمر في أرض يمتنع عليها شرب الماء، والآية يصعب إتيانها في قلب بلا أمانة].

وهنا يلمِّح المسيح إلى العلاقة بين تكريم الله ورضاه: «أُكرِمُ الذين يكرمونني والذين يحتقرونني يَصْغرون» (أم٢: ٣٠). ولم يصنع آياتٍ في كفرناحوم لأنهم لم يكونوا يؤمنون به.

[20] St. Cyril, *op. cit.*, p. 231.

٤ : ٤٥ «فلما جاءَ إلى الجليلِ، قَبِلَه الجليليونَ، إذ كانوا قد عاينوا كلَّ ما فعل في أورشليمَ في العيدِ لأنهم هم أيضاً جاءوا إلى العيدِ».

حتى هذا القبول من الجليليين يضعه ق. يوحنا موضع الهزال والتفاهة، إنما بلغته المملوءة سراً، عندما أضاف إلى ترحابهم السبب فيه: ليس من أجل شخص المسيح ولكن لأنهم عاينوا آياته. فرق شاسع بين تقريرق. يوحنا عن إيمان السامريين الذي ترسخ في قلوبهم دون آية واحدة: «نحن قد سمعنا ونعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلِّص العالم»، وبين إيمان الجليليين الذي هو بلا إيمان، القائم على رؤية الآيات وحسب. وصحَّ في السامريين قول إشعياء النبي: «أصغيتُ إلى الذين لم يسألوا. وُجدتُ من الذين لم يطلبوني. قلتُ هأنذا هأنذا لأمَّة لم تُسمَّ باسمي» (إش٦٥: ١). أما عن اليهود فـ: «بسطتُ يديَّ طولَ النهار إلى شعبٍ متمرد» (إش٦٥: ٢، رو١٠: ٢١). ويلزم أن ينتبه القارىء، فمستقبلاً سوف يرفض الجليليون المسيح أيضاً في الأصحاح السادس والعدد ٦٦.

٤ : ٤٦ «فجاءَ يسوعُ أيضاً إلى قانا الجليلِ حيثُ صَنعَ الماء خمراً. وكان خادمٌ للملك ابنُهُ مريضٌ في كفرناحومَ».

كلمة «أيضاً» تعني ثانيةً، فالمسيح يسعى ثانياً إلى من يقبله أولاً. لقد تأثر به أهل قانا وأحبوه عندما صنع عندهم معجزته الأُولى في تحويل الماء خمراً جيداً، فأحبهم هو أيضاً وها هوذا يعود إليهم وعلى استعداد لعمل المزيد.

«خادم للملك ابنه مريض»:

أما الملك فبحسب تحقيق العلماء هو هيرودس أنتيباس رئيس ربع على الجليل، وكان معروفاً في الشعب باسم «**الملك**». وكثير من العلماء يقولون إن هذا الخادم هو «خوزي» (المذكور في إنجيل لوقا ٨: ٣) أو ربما «مناين» (المذكور في سفر الأعمال ١٣: ١). وخوزي هو زوج يُونَّا المرأة التي كانت تتبع المسيح مع النساء اللاتي كُنَّ يخدمنه من أموالهن الخاصة.

٤ : ٤٧ «هذا إذ سمع أن يسوعَ قد جاء من اليهودية إلى الجليل، انطلق إليه وسأله أن ينزل ويشفي ابنه لأنه كان مُشرفاً على الموت».

«وسأله أن "ينزل"»:

يلاحظ أن كفرناحوم واقعة على شاطىء البحيرة (بحر الجليل). أما «قانا» فهي على هضبة

أعلى كثيراً من مستوى البحر. والذي يهمنا هنا هو دقة الوصف الذي يعطيه ق. يوحنا لطبيعة المكان وطبيعة الحركة، مما يوضح بلا مواربة أنه مواطن عاش في هذه المناطق ودرسها وانطبعت في ذاكرته، كما أنه يسجِّل كلمات هذا الضابط الملكي حرفياً كما فاه بها، وكأنها مسجَّلة عنده. على أن المسافة بين كفرناحوم وقانا الجليل تبلغ بحسب تحقيق يوسيفوس المؤرخ اليهودي حوالي ١٦ ميلاً، قطعها هذا الضابط الملكي راكباً على الأرجح.

٤ :٤٨ «فقال له يسوع لا تؤمنون إن لم تَروا آيات وعجائب؟»

المسيح هنا يستحث الإيمان بدون آية، الإيمان بالكلمة. فالإيمان بالكلمة يستقر في القلب حيث تنمو الكلمة ويثمر، أما إيمان الآية فيستقر في العقل حيث القياس والمقابلة والشك والنسيان.

والعجيب حقاً أن في نفس هذه القصة بل وفي صميم هذه الآية آمن الضابط الملكي **«بالكلمة»**، فكانت **«الحياة»** هي الجائزة الممنوحة له في الحال. لذلك نلاحظ أنه في توبيخ المسيح، دائماً دائماً يكمن الباب المستور والعطية المخفية والحل المفرح والعزاء المقيم لو التفت الإنسان وقَبِلَ التوبيخ طالباً النور: «أومن يا سيد فأعِنْ عدم إيماني.» (مر٩: ٢٤)

«آيات وعجائب»: σημεῖα καὶ τέρατα

العجيبة هي الآية على المستوى المذهل للعقل، الذي يثير إما التعجب الشديد أو الإعجاب الأشد.

ويلاحظ أن مجيء هذين اللفظين معاً يقتصر على موضعهما هنا في إنجيل يوحنا. أما بالنسبة لأسفار العهد الجديد وأسفار العهد القديم فورودهما معاً موجود وبصورة مكثَّفة. والمقصود هنا هو الإعتماد على الرؤية العينية أو المظهر الباهر الشكلي للآية والمعجزة. ولكن يوجد إيمان صحيح قائم على الآية ولكن ليس القائم على الرؤية العينية، بل على المعنى والإحساس الباطني بالوعي والفطنة المسيحية، كآية تحويل الماء خمراً في عرس قانا الجليل التي على أثرها آمن به تلاميذه.

٤ :٤٩ «قال له خادمُ الملكِ: يا سيد انزلْ قبلَ أن يموتَ ابني».

لقد فرغ صبر الأب، والجزع على ابنه جعله ينسى آداب الحديث مع من جاء يطلب منه الحياة!! فلم يكن قد أدرك بعد ــ مثل مرثا ــ أن سلطانه يتجاوز القبر والموت، وأن كلمته من على بُعدٍ تُحيي وتقيم من الموت.

ق. يوحنا يلقينا مرة واحدة في قلب القصة الملتهب! أبٌ ملهوف على ابنه المريض وقد بلغ حافة الموت. والابن عزيز أعزّ من النفس لدى الأب الحنون. وها الأمل قد انقطع من جهة كل علاج ممكن، وقد أطلّ الموت بظلّه الكئيب والمفزع مصمماً على قطع شريان الحياة لمن تحبه نفس الأب.

لاحظ أن ق. يوحنا لم يهتم بمن هو هذا الخادم، أممي هو أو يهودي، لم يعطِ جواباً، كما لم يهتم باسم الابن وعمره، يكفي أن ليس في الوجود أعزّ من الابن. ولكن الذي يثير انتباه ق. يوحنا، و يود أيضاً أن يثير انتباهنا إليه، هو الزمن وسلطانه بأيامه وساعاته ودقائقه على قلب ضعيف الإيمان: إنه الفزع.

وق. يوحنا يترجم لنا أثر تباطؤ المسيح في الاستجابة كما يودها الضابط الملكي الذي لم يتعود قط إلا أن يأمر فيُطاع، وكيف أنشأ هذا التباطؤ في نفس هذا الضابط قلقاً مريعاً إزاء تصوُّره الموت وهو يزحف نحو فريسته.

ثم يترجم لنا القلق الذي انتاب هذا الضابط إلى إلحاح، فهو يتجنب الدخول في بحث كيفية الإيمان دون أن تحدث المعجزة، وهو جاء يطلب المعجزة وليس الإيمان!! ولم يكن المسيح في تصوُّره إلا صانع معجزات، هذه مهنته!! وهذه نظرة أهل زماننا إلى القديسين أيضاً، فهم أصحاب كرامات وحسب، يُطلب منهم عمل المعجزات وإلا فكيف يُدعَوْن قديسين؟ لا «ينظرون إلى سيرتهم» كما قال الكتاب (عب١٣ : ٧)، ولكن ينتظرون معوناتهم وحسب!

شيء واحد يلحُّ على ذهن الضابط الملكي كيف يقنع صانع المعجزات هذا بالنزول فوراً لانقاذ حياة ابنه!

٤ : ٥٠ «قال له يسوع اذهب ابنُك حيٌّ! فآمن الرجلُ بالكلمةِ التي قالها له يسوعُ وذهب».

أمام الرب كانت ثلاثة عوامل تحثه أن يقول كلمته:

الأول: ثقة الرجل وتعبه في السفر ٢٥ كيلومتراً حتى التقى به، فهو لم يُرِدْ أن يخيِّب ظنه.

الثاني: الابن المريض، وها قضية الفصل بين الموت والحياة أُلقيتْ بين يديه، فكيف لا يفصل لحساب الحياة وهو ربُّها!!

ثالثاً: الإلحاح الذي يطوِّبه الرب جداً: صلُّوا صلُّوا ولا تملُّوا، الذي ضرب عليه مَثَل الأرملة المظلومة أمام قاضي الظلم وكيف أن إلحاحها غلَبَ ظلم القاضي. فكيف لا يُغلب وهو قاضي العدل!!

«اذهب ابنُكَ حيٌّ»:　　[أقمتَ الطبيعة بالكلمة] القداس الإلهي.
[مُنْقِذُ حياتنا من الفساد] القداس الإلهي.

قولة لا يقولها إلاّ الله. ولقد عظَّمها الضابط الملكي أيّما تعظيم، وكأنه تلقَّاها من قائده الأعلى، وكأني به يضرب الكعبين و يرفع يده بالتحية وكأنه أمام ملك. لقد أخذ الكلمة كما هي وكأنها تأشيرة واجبة التنفيذ في الحال. انحنى الضابط أمام الرب كجندي ملتزم بالطاعة وانسحب من أمامه ومعه الكنز الذي استؤمن على استيعابه وما بقي أمامه إلا التحقيق. كانت الخطورة مُحْدِقة به على طول الطريق، لأنه كان قد «آمن بالكلمة» دون صاحبها. إلى ذلك الحين لم يكن المسيح عنده موجوداً بشخصه، بل اكتفى بالكلمة منه، يحققها دون أن يتحقق بعد من شخصه، شأنه شأن من يُكْرِم الإنجيل وينحني أمامه ويُقبِّله ويضعه على رأسه ويستودعه خزانة من ذهب، ثم ويُقبِّل كل يد تخدمه، أما صاحب الإنجيل والكلمة فغائب عنه، لا يعلم منه إلا اسمه.

٤ :٥١و٥٢　**«وفيما هو نازلٌ استقبله عبيدُهُ وأخبروه قائلينَ إنَّ ابنَكَ حيٌّ. فاستخبرَهُم عن الساعة التي فيها أخذ يَتعافى، فقالوا له أمسِ في الساعةِ السابعةِ تركتهُ الحمَّى».**

كان هذا السؤال هو الاختبار الفاصل في قلب هذا الضابط الملكي الذي أضمر كيف سيقيِّم المسيح به، فإن كان الولد قد شُفي في الساعة التي فيها نطق المسيح كلمته، يكُنْ هو المخلِّص حقاً، و به يؤمن حتماً، وإلا فلا إيمان البتة! ولكن بيني و بينك أيها القارىء العزيز أبهذا يُقيِّم الخالدُ الأبديُّ؟ أنُعادِلُ القديرَ بمنافِعِنا الخاصة؟ أنساوي ربَّ الحياة بشفاء جسد؟ ولكن لا مانع لدى المسيح: «فالذي يُقبِلُ إليَّ لا أُخْرِجه خارجاً» (يو٦: ٣٧)، «وفتيلة مدخنة لا يطفىء» (مت١٢: ٢٠)! أليس هو الراعي الصالح الذي يسعى وراء الخروف الضال، والذي له خراف أُخر ينبغي أن يأتي بها من خلف السياجات؟ ألم يأتِ بالسامرية حالاً، وقد ضمَّ شعباً في يوم واحد؟!

٤ : ٥٣ «ففهم الأبُ أنه في "تلكَ الساعةِ" التي قالَ لهُ فيها يسوعُ إن ابنَكَ حيٌّ؛ فآمنَ هو وبيتُهُ كلُّهُ».

«فآمن هو وبيته كله»:

لقد أفرخت «الكلمة» الحيَّة التي خبأها في قلبه وهو مسرع نحو بيته. لقد انفتح الكنز وخرجت منه الحياة ومعها الإيمان المؤدي إلى الحياة الأفضل! هنا، ولأول مرة، نسمع مبكراً عن إيمان عائلي برُمَّته. وأهل البيت بالنسبة للضابط الملكي يضم أفراداً وحاشية وخدماً كثيرين، صورة طبق الأصل من السامرية التي قادت مدينة إلى الإيمان بالمسيح. لذلك فإن وضع قصة شفاء ابن الضابط الملكي بعد قصة السامرية يدخل في مخطَّط إنجيل ق. يوحنا تحت عنوان: «**السامرة في مقابل اليهودية**»، و«**الأمم في مقابل الجليل**». والتفسير للاثنين هو القبول إزاء الرفض.

هنا تلحُّ علينا المقارنة المبدعة التي يشير إليها ق. يوحنا دون أن يعلن عنها. فالانطباق مبدع حقاً: وهي قصة إيليا النبي مع أرملة صَرْفة صيدا الأممية التي ألمح إليها الرب في إنجيل لوقا (٤ : ٢٥). كيف أقام ابنها من الموت حياً: «فسمع الرب صوت إيليا فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش. فأخذ إيليا الولد ونزل من العلية إلى البيت ودفعه لأمه وقال إيليا: انظري **ابنك حيٌّ**؛ فقالت المرأة لإيليا: "**هذا الوقت علمتُ** أنك رجل **الله** وأن كلام الرب في فمك حق".» (١مل١٧ : ٢٢ـــ٢٤)

وليلاحظ القارىء أن الكلمات التي قالها إيليا والتي قالتها المرأة تتجاوب حرفياً مع ما تم بين المسيح والضابط الملكي. ولكن تمتاز قصة الضابط الملكي بأن المسيح أقام الولد حيًّا بكلمة وعلى بُعْد ١٦ ميلاً. وحينما يدقق القارىء في قصة خادم الملك القصيرة هذه، يندهش كيف تزاحمت فيها المعايير اللاهوتية والكلمات ذات الوزن العالي عند إنجيل يوحنا: «الأب» ـــ «الابن» ـــ «الموت» ـــ «الحياة» ـــ «الكلمة» ـــ «الإيمان». وكيف اقترنت «الحياة بالموت» فصُرِع الموت، و«الإيمان بالكلمة» فانتهى إلى «الإيمان بالمسيح». ثم انظر كيف يبرز ق. يوحنا التكرار في كلام المسيح «**ابنك حيّ، فآمن**»، «**ابنك حيّ**»، «**ابنك حيّ، فآمن**»، لينتهي بنا إلى هذا المعيار المسيحي الأعظم: **الإيمان سِرُّ الحياة.**

كذلك يهمنا أن نوضح كيف يتخذ ق. يوحنا من هذه الآية القائمة على هذا المعيار، وهو أن الإيمان عنصر الحياة الذي يقيم من الموت، يتخذها أساساً لتعليمه. فبعد أن قدَّم الفعل العملي الصامت بالآية، يبتدىء في الأصحاح القادم مباشرة يبني عليه تعليمه، وذلك في الحوار العنيف

الذي دار مع اليهود حول قدرة المسيح وسلطانه على إعطاء الحياة بالمساواة مع الله: «كما أن الآب يقيم الأموات ويُحيي، كذلك الابن أيضاً يُحيي من يشاء» (يو٥: ٢١). كذلك يتخذ المسيح من إيمان الضابط الملكي «بالكلمة» الذي أوْصَلَه بالفعل إلى الحياة بالنسبة لابنه أساساً لتعليمه: «من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية.» (يو٥: ٢٤)

نفهم من هذا أن معجزات الشفاء في إنجيل يوحنا، إنما يعرضها بحساب معين يقوم على أساس التعليم المبني عليها. فهدف المعجزة عند إنجيل يوحنا هو استعلان المسيح وليس فقط عمل رحمة.

٤: ٥٤ «هذه أيضاً آيةٌ ثانيةٌ صنعها يسوعُ لمَّا جاءَ من اليهوديةِ إلى الجليلِ».

هي محاولة من ق. يوحنا لتنبيه أذهاننا إلى الترابط الشديد بين الآيتين اللتين صنعهما الرب في قانا الجليل. ففي بداية القصة يشير إلى الآية الأولى: «فجاء يسوع أيضاً إلى قانا الجليل حيث صنع الماء خمراً». وهنا يكرر الإشارة: «هذه آية ثانية». والهدف المشترك بين الآيتين هو «إظهار مجده» كما في الأولى أمام تلاميذه؛ هكذا في الثانية أمام حشد من بيت الضابط الذي يُعتقد أنه أُممي «فآمن هو وبيته كله». هنا الاستعلان يأخذ صورة متقدمة في الثانية عن الأولى. وهكذا يسير إنجيل يوحنا في هذا النمط من الاستعلان المتدرج.

والملاحظ أيضاً أن الآيتين تشتركان في سِمات أساسية بالنسبة لإنجيل يوحنا وهي لحظات الحرج البالغ. في الآية الأولى فروغ الخمر في وسط حفل العرس. في الآية الثانية: ابنه «كان مُشرفاً على الموت»، «قبل أن يموت ابني». ثم ردُّ الفعل السخي جداً: ستة أجران ملآنة خمراً (١٣٤ جالون = ٦٠٠ لتراً تقريباً) في الآية الأولى، وفي الثانية: «اذهب ابنك حيّ».



الأصحاح الخامس

وقفة قصيرة

المرحلة التي تميزت بالصدام السافر مع الفريسيين
من الأصحاح الخامس حتى الثاني عشر:

على مدى الأصحاحات السالفة أكمل المسيح تقديم نفسه لكل فئات اليهود:
في أورشليم: للفريسيين والرؤساء.
في اليهودية: للشعب المتعصب.
في السامرة: للشعب المنبوذ.
وفي الجليل: للشعب الساذج فلاحين وصيادين.

وبذلك يكون قد استوفى عناصر الإيمان المناسب لهذه الفئات المتباينة كلٌّ على مستوى ثقافته وإدراكه.

ومن الآن يبدأ الصدام الذي بدأت بذاره مبكرة في اليهودية أو أورشليم، ويستمر إلى أن ينتهي بالآلام. وسوف نواجه في الأحاديث والمناقشات التي سنعبر عليها نماذج من الإيمان، ونماذج من الرفض، على التوازي؛ حيث بالكلمات الموجّهة والأعمال ذات الأهداف، استعلن المسيح أفكار اليهود المناهضة والتي جاءت بلا تعقل ولا فهم. أما أشدها عنفاً على المستوى المأساوي غير المعقول، فكان في أورشليم. وكانت المناسبات المختارة هي الأعياد الرسمية للأمة. وقد تبلورت هذه الصدامات على ثلاثة محاور لثلاث آيات خارقة صنعها المسيح.

الأولى: شفاء المريض المقعد منذ ثماني وثلاثين سنة في بيت حسدا: **الأصحاح الخامس.**
الثانية: شفاء الأعمى المولود هكذا من بطن أمه: **الأصحاح التاسع.**
الثالثة: إقامة لعازر من الموت: **الأصحاح الحادي عشر.**

ولكن يتخلل هذه المجموعة المترابطة، **الأصحاح السادس** ــ الذي تتم حوادثه في الجليل، وهو يبدو لكثيرين من الشرَّاح وكأنه في غير موضعه، وكان ينبغي ــ في نظرهم ــ أن يكون موضع الأصحاح الخامس. ولكن تبويب ق. يوحنا، في الحقيقة يعتمد لا على التسلسل الجغرافي ولا

التاريخي، ولكن على طبيعة التعاليم والحوادث من جهة استعلان الرب لذاته، واستعلان أفكار قلوب اليهود. لهذا فإن الأصحاح السادس نجده يتبع فعلاً مجموعة الصدامات **واستعلان المسيح لشخصه كابن الله.** كما يكشف الشعب بل والتلاميذ الذين كانوا على غير المستوى، سواء للتلمذة أو للأمانة، إذ تركوا المسيح ولم يعودوا يسيرون وراءه. لذلك استحسن ق. يوحنا أن يضمّه إلى أعمال الرب التي أكملها في أورشليم بالرغم من أن حوادثه جرت في الجليل.

وهذه المجموعة من الصدامات التي تقع من الأصحاح الخامس حتى الأصحاح الثاني عشر تنقسم من جهة عنف الصدام إلى قسمين:

الأول: مجرد بادئة لريح الصدامات، وتستغرق الأصحاحين الخامس والسادس.

الثاني: الصدام في أوَج عنفه، و يستغرق من الأصحاح السابع حتى نهاية الثاني عشر.

مكان البشارة
سادساً ــ في أُورشليم
(٥: ١ـــ٤٧)

الأصحاح الخامس

شفاء مريض بركة بيت حسدا
والمصادمة الأُولى مع اليهود

الأصحاح الخامس يُعتبر تكميلاً لإنجيل «قوة الكلمة» الذي ابتدأ في الأصحاح الرابع بمعجزة شفاء ابن خادم الملك ٤: ٤٦ـــ٥٤.

والأصحاح الخامس ينقسم إلى أربعة أقسام واضحة:

القسم الأول: سردٌ لتفاصيل الآية التي صنعها المسيح، أعداد من ١ـــ١٨، وتنتهي بمحاولة قتل المسيح.

القسم الثاني: شرح تفصيلي لمركز الابن من الله الآب وماهية الابن في ذاته، أعداد من ١٩ـــ٣٠.

القسم الثالث: الشهادة للابن، **أولاً** من المعمدان، **ثانياً** من الآب، **ثالثاً** من الأعمال، **رابعاً** من الأسفار: ٣١ـــ٤١.

القسم الرابع: أسباب عدم إيمان اليهود: ٤٢ـــ٤٧.

على أن ما ورد في القسمين الثاني والثالث، أي شرح ماهية الابن وعلاقته بالآب، ثم الشهادة للابن على كل المستويات كما وردت في هذا الأصحاح، فهو يُعتبر الأساس الذي يبني عليه إنجيل يوحنا كل تعاليم المسيح.

والمسيح يخاطب في هذا الأصحاح أعلى مستوى لفئات الأمة، والإشارة ستجيء عنهم واضحة هكذا: «ها هو يتكلم جهاراً ولا يقولون له شيئاً. **ألعل الرؤساء** عرفوا يقيناً أن هذا هو المسيح حقاً.» (يو٧: ٢٦)

القسم الأول من الأصحاح الخامس

(١ــ١٨)

معجزة شفاء مريض بركة بيت حسدا(*)
وحوار مع الفريسيين ينتهي بمحاولة قتل المسيح

٥ : ١　«وبعد هذا كان عيدٌ لليهودِ، فصَعِدَ يسوعُ إلى أُورشليمَ».

«بعد هذا» : μετὰ ταῦτα

وتعني في اليونانية «بعد نفس هذه الأمور كحوادث»، وبها يقصد ق. يوحنا الإنتقال من مجموعة حوادث إلى مجموعة أخرى من الحوادث (أنظر ٣ : ٢٢ و٦ : ١)، وهذا الاصطلاح غير μετὰ τοῦτο التي تفيد مجرد التسلسل الزمني أي «بعد هذا الزمن» (أنظر ٢ : ١٢ و١١ : ٧).

«كان عيدٌ لليهود»:

تأتي «**عيد**» بدون «الـ» التعريف، أي ليس هو عيد الفصح، بل أحد الأعياد الأخرى، ويعتقد كل من القديس كيرلس(١) والقديس ذهبي الفم(٢) أنه عيد **الخمسين**. فإذا أخذنا بهذا التقرير يكون المسيح قد زار السامرة في بكور الصيف (مايو) بعد الفصح الذي أمضاه في أورشليم، كما يفيد أنه مكث في الجليل فترة قصيرة. ويقول العالم شناكنبرج أن الأخذ بهذا الرأي صائب، إذ يجعل التسلسل التاريخي في إنجيل يوحنا صحيحاً؛ حيث يأتي عيد المظال بعده في الأصحاح السابع، وعيد التجديد في الأصحاح العاشر، والفصح الأخير في الأصحاحين ١١و١٢. وهذا بعكس ما يقول كثير من الشراح الآخرين أن هذا العيد كان عيد **المظال** وذلك بسبب أن كلمة «عيد لليهود» جاءت بدون تعريف، وهذا ينطبق فقط على عيد المظال بحسب تحقيقات العهد القديم. وصعود المسيح لأُورشليم في عيد الخمسين ولو أنه أحد الواجبات اليهودية الملزمة للزيارة، لأن الأعياد الملزمة للحضور إلى أورشليم ثلاثة: الفصح والخمسين والمظال؛ إلا أن المسيح كان يتخذ من الأعياد عموماً فرصاً لمحاجاة الرؤساء والفريسيين، وللاتصال بجماهير الحجاج الآتين من كل أركان البلاد.

وعيد الخمسين من الأعياد الهامة التي يحتفل بها اليهود لتذكار استلام موسى للناموس على جبل

(*) يُقرأ هذا الفصل (يو٥ : ١ــ١٨) في الأحد الخامس من الصوم الكبير المعروف بـ«أحد المخلّع»، وذلك لأنه يمثل حالة شفاء تصحبها توبة: «ها أنت قد برئت. **فلا تخطيء أيضاً** لئلا يكون لك أشرُّ».

1 St. Cyril the Great, *op. cit.*, p. 237.

2 Chrysostom, *op. cit.*, *Hom.* 36, p. 125.

سيناء. ومن هنا يجيء في هذا الأصحاح تلميح المسيح بعد ذلك ـ في نقاشه مع الفريسيين ـ بخصوص كتب موسى أي الناموس: «يوجد الذي يشكوكم وهو موسى الذي عليه رجاؤكم، لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونني، لأنه هو كتب عني، فإن كنتم لستم تصدقون كتب ذاك (أي التوراة وهي محور تذكار هذا العيد) فكيف تصدقون كلامي» (يو٥: ٤٥ـ٤٧). **هنا يجعل المسيح كلامه على مستوى التوراة.**

على أن كثيراً من الشراح ومن الآباء أيضاً يصِرُّ على أنه كان **عيد الفصح** الثاني الذي حضره المسيح والذي بالحساب الدقيق يقع سنة ٢٨ ميلادية. ودليلهم على ذلك ما ذُكر في الأصحاح السادس أن عيد الفصح كان قريباً (٦: ٤). على أن عيد الفصح الأول الذي حضره المسيح، ذُكر في الأصحاح الثاني عدد ١٣، وقد وقع سنة ٢٧ ميلادية. أما الفصح الأخير الذي صلب فيه الرب (يو١١و١٢) فوقع في سنة ٢٩ ميلادية. و بذلك يكون الرب قد حضر ثلاثة أعياد فصحية أثناء خدمته، صُلب في ثالثها، و بذلك تكون مدة خدمته حسب توقيعات إنجيل يوحنا وحسب التقليد القبطي ثلاث سنوات ونيف.(٣)

«فصعد يسوع إلى أورشليم»:

هنا يلمح ق. يوحنا أن المسيح لم يشأ أن يأخذ تلاميذه بل صعد وحده، وكلمة «صعد» ـ كما جاءت في الأصل اليوناني ـ تفيد الذهاب الرسمي للعيد كالمعتاد حسب الناموس. و يبدو أن الرب شاء أن يصعد وحده حتى لا يظهر أيضاً بصورة مثيرة، بل دخل المدينة متخفياً منعاً للإثارة التي بدأت تأخذ وضعها العنيف. و يظهر هذا من التسجيل الواضح للقديس يوحنا: «أما الذي شُفي فلم يكن يعلم من هو، لأن يسوع اعتزل إذ كان في الموضع جمعٌ.» (٥: ١٣)

٥: ٢ **«وفي أورشليمَ عند بابِ الضأنِ بركة يُقال لها بالعبرانية بيت حِسْدَا** (بتسدا) **لها خمسةُ أروقةٍ».**

«باب الضأن»:

هذا الباب هو في سور مدينة أورشليم من ناحية الشرق وكان قريباً من الهيكل (أنظر نح٣: ١). وفي سفر نحميا يذكر أن بناء هذا الباب كان من نصيب الكهنة. و يبدو أنه كان ذا صلة خاصة بالذبائح التي تدخل منه للهيكل.

---

[3] See: ICC, *op. cit.*, ciii; Lightfoot, *op. cit.*, p. 148.

بركة بيت حسدا:

أبحاث كثيرة أجراها العلماء حول هذا الاسم: من «بيت زاتا» (بيت الزيتون)، إلى «بيت صيدا» محوَّرة، إلى «بيت إزدا» Bet Esda «بيت الفيضان». كما وُجد اسمها منقوشاً في دَرَج من النحاس في حفريات وادي قمران مكتوباً هكذا: Bet Esdatayin، و يعني «بيت إزد المجوزْ» (أي ذو العينين). بمعنى أن البركة لها حوضان يفيض فيهما الماء. ولكن أصح القراءات جميعاً ما جاء في النسخة الإسكندرانية اسم «بيت حسدا» Bet hesda وتعني «بيت الرحمة» بسبب الأشفية التي كانت تُجرى فيها.

والعجيب أن النقَّاد سلَّطوا نقدهم على إنجيل يوحنا بخصوص هذه البركة بهذا الاسم معتقدين أن ق. يوحنا اخترع هذا الاسم لهذه البركة ــ إذ كانت قد اندثرت معالمها. ولكن في هذا القرن تم اكتشاف هذه البركة بجوار كنيسة القديسة حِنَّة بواسطة رهبان الآباء البيض. ولما أكملوا حفرياتهم ظهرت البركة ولها بالفعل خمسة أروقة (أنظر الصورة). والبركة مساحتها كبيرة، فهي بعرض ١٦٥ـــ٢٢٠ قدماً وطول ٣١٥ قدماً، مقسومة من نصفها بحاجز جعلها بركتين: واحدة شمالية والأخرى جنوبية، ولها على جوانبها الأربعة صفوف أعمدة، وكذلك على الحاجز الذي يقسمها. و بذلك ظهرت الخمسة الأروقة، ولها منزل مدرج كسلالم.

وقول ق. يوحنا أن هذه البركة يُقال لها «بالعبرانية» بيت حسدا، يقصد «باللغة الأرامية الدارجة» بين الشعب (العائد من السبي). كما يلاحظ أن هذا الاسم يفيد مبنى أكثر منه نبع ماء، لأن الخمسة الأروقة جعلت منه مصحَّة يؤمُّها المئات. وقد قام ببنائها بعض الخيِّرين؛ و يُقال أن هيرودس الكبير هو الذي أقامها. وقد ظلَّت هذه المصحَّة قائمة حتى إلى ما قبل خراب أورشليم سنة ٧٠م.

٥ : ٣ «في هذه كان مضطجعاً جمهورٌ كثيرٌ من مرضَى وعُمي وعُرج وعُسْم يتوقعون تحريكَ الماءِ».

«العُسْم»: ξηρῶν

وهم مرضى بأنواع الشلل. وقد ذكر نوع مرضهم في آخر قائمة المرضى لأن مريض هذه القصة واحد منهم. وهو المرض الذي أعيا الطب والدواء على حد سواء حتى اليوم.

«تحريك الماء»:

عودة مرة أخرى إلى **«الماء»** الذي يرافقنا منذ عرس قانا الجليل عبْر نيقوديموس والسامرية، وهنا أيضاً.

و«تحريك الماء» هي جملة فيها محاولة لمحاكاة الماء الجاري أو الماء الحي الذي تمناه المريض ولم يبلغه قط. وفي هذا تعبير مِسْتيكي (سرِّي) يشير إلى المسيح «الماء الحي» الذي وافاه هذا المريض السعيد فشفاه.

٥ : ٤ «لأن ملاكاً كان ينزلُ أحياناً في البركةِ ويحرِّك الماءَ، فمَنْ نزل أولاً بعد تحريكِ الماءِ كان يبرأُمن أيِّ مرضٍ اعتراهُ».

هذه الآية لم توجد في معظم المخطوطات الهامة ولكنها موجودة في بعض منها، وقد ذكرها بعض الآباء ومنهم ذهبي الفم[4] معتبراً أن [البركة والماء هنا هما سبق تصوير للمعمودية، لكي يعطي اليهود صورة مُسْبقة لما ستأتي به المعمودية في المسيح. وتحريك الماء بواسطة الملاك هو تمهيد تصويري لما سيعمله الروح القدس ربُّ الملائكة.] وشرح ذهبي الفم هنا يتبع إلى حد ما الخط السرِّي المستيكي الذي ينهجه ق. يوحنا.

«بركة»: κολυμβήθρα

وهي نفس الكلمة الطقسية المستخدمة للتعبير عن جرن المعمودية. ولو أنها مشتقة من أصل κολυμβάω أي يسبح أو يعوم. وقول ق. يوحنا أن «ملاكاً كان ينزل أحياناً في البركة ويحرك الماء»، يعطينا تقريراً إنجيلياً عن تدخل سمائي إعجازي في العهد القديم لشفاء الأمراض الميئوس منها بنوع من الرحمة الإلهية، وذلك بحسب ترجمة اسمها «بيت حسدا». وهذا ليس غريباً لا على ق. يوحنا ولا على العهد القديم برمته. فالقديس يوحنا رأى في رؤياه هذا الملاك عينه واسمه **«ملاك الماء»**: «وسمعت ملاك المياه يقول عادلٌ أنت أيها الكائن والذي كان والذي يكون لأنك حكمت هكذا.» (رؤ١٦: ٥)

أما قوة الحياة والشفاء التي جعلها الله في الماء فهي تراث إلهي يملأ العهد القديم، ونحن لا ننسى الصخرة التي تفجرت ماءً تحت عصا موسى في سفر الخروج، وكان الماء للحياة والشفاء، لأن

---

[4] *Op. cit.*, p. 126.

«الصخرة كانت المسيح» (١كو١٠: ٤)، وإذا لم يذكر سفر الخروج حالات شفاء للماء إلا أن الماء كان له هذه الطبيعة والقوة، فلم نسمع بأن أحداً كان يمرض قط بطول الأربعين سنة: «ثيابك لم تَبْلَ عليك، ورِجْلُك لم تتورم هذه الأربعين سنة.» (تث٨: ٤)

كذلك لا نجهل الشفاء الذي أجراه أليشع النبي لنعمان السرياني بالإغتسال في مياه الأُردن، الأمر الذي طهَّره من داء البَرص الوبيل. والمسيح أيضاً ألمح إلى سر الله في ماء بركة سلوام بالذات، حينما أمر الأعمى الذي صنع له من ريقه مقلة من طين، أن يغتسل في بركة سلوام فأتى بصيراً. والشفاء والصحة في بركة سلوام وغيرها هو إرهاصة من إرهاصات عمل الروح القدس في سر المعمودية الذي استعلنه المسيح في مُقعَد بيت حسدا. بل ولا تزال بعض سراديب روما(٥) تشير إلى المعمودية برسم هذا المُقعد ذي الثماني والثلاثين سنة الذابل الساق، وهو يسير بقوَّة حاملاً سريره على ظهره، تعبيراً فنياً مبدعاً عن «**سر المعمودية**»، باعتبار أن المعمودية تعيد مشلول الخطية صحيحَ الروح معافى حاملاً شهادة حياته المائتة السابقة على ظهره، على أساس أن المسيح هو الماء الحي الذي يعطي الحياة ويقيم من الموت عوض ماء بركة بيت حسدا الذي عزَّ على مريضها، فامتنع عليه أن يُشفى. وهذه إشارة ضمنية رائعة إلى عجز العهد القديم بمائه — وعلى كل صورة — أن يُطهِّر أو يشفي أو يُروي.

ومعروف أن ثلاث قراءات من الإنجيل كانت تُقرأ على المعمَّدين الجُدد في الكنيسة الأُولى: الحديث مع نيقوديموس، وقصة المقعد، وتفتيح عيني الأعمى(٦).

٥: ٥—٦ «وكان هناك إنسانٌ به مرضٌ منذ ثمانٍ وثلاثينَ سنةً. هذا رآه يسوعُ مُضطجِعاً وعَلِمَ أن لهُ زماناً كثيراً، فقال له: أتريد أن تبرأ».

ثماني وثلاثون سنة في المرض. هنا استحالة أن يكون هو الشلل المعروف، سواء النصفي أو الكُلِّي، لأن المعروف في الطب أن مريضه يكون محدود الحياة بمدة قليلة. فهو ربما كان نوعاً من المرض الذي يُقعد المريض عن الحركة. ولكن لا يفوتنا أسلوب ق. يوحنا في اختيار الآيات ذات اللون الصارخ ليقدمها كنموذج لتفوُّق المسيح الإلهي، فالأعمى «**منذ ولادته**»، والميت له «**أربعة أيام في القبر**»، وهذا المريض له «**ثماني وثلاثين سنة**» في مرضه، فالآية هنا مختارة من وسط مئات وربما ألوف كنموذج للقوة الفائقة.

[5] *Atlas of the Early Christian World*, trans. & ed. by Mary F. Hedlund & H.H. Rowley, London, 1958, p. 42.

[6] Brown, Raymond E., *op. cit.*, p. 211.

«أتريد أن تبرأ؟»:

اختـار الرب هذا المُقْعَد ليُجري فيه آية الشفاء المجاني دون أن يطلب، هنا أسلوب ق. يوحنا السرّي، فهو يرمي إلى أبعد من المقعد ومن الآية في حد ذاتها. لأننا نعلم من أسفار العهد القديم أن شفاء الأعمى والأعرج ــ وهما آيتا الأصحاحين الخامس والتاسع ــ سيكون علامة مجيء المسيا وافتتاح عهد النعمة والخلاص. فإشعياء النبي يسبق و يصف المنظر بعينه: «هو يأتي ويخلّصكم، حينئذ تتفقح عيون العمي وآذان الصُم تتفتح، حينئذ **يقفز الأعرج (المشلول)** كالأيِّل (كالغزال) و يترنم لسان الأخرس، لأنه قد انفجرت في البرية مياه وأنهار في القفر.» (إش٣٥: ٤ــ٦)

«و يسمع في ذلك اليوم الصمُّ أقوالَ السفر، وتنظر من القتام والظلمة عيونُ العُمي، و يزداد البائسون فرحاً بالرب، و يهتف مساكين الناس بقدوس إسرائيل.» (إش٢٩: ١٨و١٩)

أما إرميا النبي فيصف المنظر باتفاق: «سبّحوا وقولوا: خلِّص يا رب شعبك بقية إسرائيل... بينهم الأعمى **والأعرج**... جمْعٌ عظيم يرجع إلى هنا.» (إر٣١: ٧و٨)

وداود النبي يشترك في الرؤيا: «الرب يطلق الأسرى، الرب يفتح أعين العُمْي، الرب **يقوِّم المنحنين**...» (مز١٤٦: ٧و٨)

وهكذا يقف الأنبياء من وراء الأزمنة والدهور يتطلعون إلى يوم مريض بركة بيت حسدا، والأعمى المولود هكذا من بطن أمه، مع كل الآيات الأخرى التي صنعها يسوع، فيرد عليهم ق. يوحنا بلغته السرية: "هوذا اليوم قد أتى ومن له أذنان للسمع فليسمع!"

«أتريد أن تبرأ»؟

«ها أنت قد برئت فلا تخطىء أيضاً لئلا يكون لك أشرُّ.» (٥: ١٤)

كشف القديس بولس الرسول عن أخطر مشكلة أدبية وأخلاقية بل وروحية تواجه الإنسان في الحياة عندما تعرّض لعمل الإرادة في صراعها مع الخطية قائلاً: «لأني لست أعرف ما أنا أفعله **إذ لست أفعل ما أريده**، بل ما أبغضه فإياه أفعل... فالآن لست بعد أفعل ذلك أنا بل الخطية الساكنة فيَّ... **لأن الإرادة حاضرة عندي وأما أن أفعل الحُسْنَى** فلست أجد. **لأني لست أفعل الصالح الذي أريده بل الشر الذي لست أريده فإياه أفعل.**» (راجع رو٧: ١٤ــ٢٥)

فهنا يستعرض لنا بولس الرسول الإنسان الطبيعي في عراكه الداخلي مع الخير والشر، بعد أن

تعرف على ناموس الله من جهة الحق والباطل. فبولس اكتشف في داخله ناموسين: ناموس الخطية المسيطر على الجسد بأعضائه، وناموس الخير والصلاح المسيطر على ذهنه (عقله الروحي)؛ ووجد في الصراع القائم بينهما الإرادة مغلوبة، والخطية غالبة، وبالتالي فالذهن الروحي مكسور ومُهان، والأعضاء متمردة تستمرىء الإثم رغماً عن الإرادة الرافضة!!

ولكن بولس الرسول اكتشف أيضاً في المسيح يسوع ناموساً ثالثاً أعلى وأكثر قوة وسيطرة هو «ناموس روح الحياة»، أي قوة وفعل الروح القدس الموهوب للإنسان مجاناً بالإيمان الذي يأخذه الإنسان حالما يؤمن بالمسيح ويصدق مواعيده، ويخضع لوصاياه، معترفاً بخطاياه واثقاً من غفرانها المجاني بالدم بدون نقاش أو شرح أو تحفظ: «لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت». وفي الحال تيقّن أن «لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح.» (راجع رو٧و٨)

ولكن الخطر الأكبر قائم بالنسبة للإنسان الذي **فقد «إرادة الخير والصلاح»**، فهو يفعل الخطية راضياً دون احتجاج من الضمير أو رفض من الإرادة، وبالتالي يكون الذهن الروحي قد انطمست فيه معالم ناموس الله من جهة الخير والشر، فلم يَعُدْ عقله منشغلاً بما يُرضي الله أو بما يهينه.

هنا يأتي المعنى العميق وراء سؤال الرب لمريض الثماني والثلاثين سنة: «**أتريد أن تبرأ؟**» ـــ بمعنى: هل لا زالت لك إرادة الشفاء والحياة الأفضل؟ لقد علم الرب أن هذه الفترة الزمنية الطويلة في ذلّة المرض والكساح قد حطّمت نفس هذا الإنسان، والخطورة هنا تكمن في فقدان الإرادة نحو استعادة الحياة، حتى وإن كان قد بذل جهداً جسدياً عنيفاً ومستمراً ربما كل يوم مرّة أو مرتين للنزول في البركة، والتي باءت كلها بالفشل. والرب هنا لا يسأل عن إرادة الغريزة نحو صحة الحياة التي يستوي فيها الإنسان والحيوان حتى وإلى آخر لحظة من عمره، وإنما يسأل عن إرادة استعادة الحياة التي بلا خطية، لأن بُرْء الجسد متوقف على البرء من الخطية. وهذا القصد الإلهي في كلام الرب واضح من انتهار الرب له لَمّا لاقاه بعد ذلك: «ها أنت قد برئت فلا تخطىء أيضاً (أي ثانيةً) لئلا يكون لك أشرُّ.» (٥ : ١٤)

بهذا المعنى يكون الرب قد وضع النقاط على الحروف لتظهر كل قصة هذا الإنسان قبل مرضه وفي مرضه، حتى تبقى إلى الأبد عبرة لكل إنسان!... فقد عاش هذا الإنسان في اقتراف الخطيئة مما كان سبباً في ضياع صحته حتى آلت إليه ما آلت إليه من الضمور والشلل! لقد انصاع وراء شهوة

الخطيئة فاستعبدته وحطّمته. والرب لما رآه تحنن عليه من تلقاء ذاته إذ لمح فيه بقايا إرادة، فبادره بسؤاله: «أتريد أن تبرأ؟» ليستنفر فيه الرجاء الذي استبدت به محاولات الثماني والثلاثين سنة البائسة، ولكي يستنهض فيه الإرادة نحو الحياة الأفضل. و يلاحظ القارىء أن الرب لم يسأله عن إيمانه، فالإيمان يُبْحَث عنه بعد أن نستوثق من وجود الإرادة. لأن الإيمان فعل إرادة. فالرب يستنفر الإرادة في الإنسان ــ إرادة الإيمان بالحياة ــ ليرسي فوقها قوة الحياة الأفضل.

فانظر، أيها القارىء، كيف أن الرب لا ييأس من خلاص الخطاة، هو يطلبهم و يستنهض إرادتهم. فكيف ييأس الخاطىء من رحمة رب الحياة؟ وق. يوحنا يقدم مريض الثماني والثلاثين سنة نموذجاً لإرادة الحياة بالنسبة لخاطىء لم تنطفىء منه جذوة الحياة. و يقدم المسيح في منظرِ مَنْ قيل عنه: «قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة مدخنة لا يطفىء.» (مت١٢: ٢٠)

هذا مما جعل الآباء القدامى وكثيراً من العلماء المحدثين يرون في قصة هذا المريض إشارة إلى شعب إسرائيل الذي أقام في التيه «ثماني وثلاثين سنة»، ثم عاش تحت «الخمسة» الأسفار التي للتوراة يترجى حياة وشفاءً، فلم يجد: «... الآن قوموا واعبروا وادي زَارَدَ، فعبرنا وادي زَارَدَ. والأيام التي سرنا فيها من قادش برنيع حتى عبرنا وادي زَارَدَ كانت ثماني وثلاثين سنة حتى فني كل الجيل... و يَدُ الرب أيضاً كانت عليهم لإبادتهم من وسط المحلة حتى فَنُوا.» (تث٢: ١٣ــ١٥)

ولكن ليعذرني القارىء إذا قلت إن هذا إسراف في التأويل يُخرج الرواية عن أصالتها التلقائية كما رواها ق. يوحنا و يُضعف من معناها الروحي.

٥: ٧ **«أجابه المريضُ يا سيدُ ليس لي إنسانٌ يلقيني في البركة متى تحرَّك الماءُ بل بينما أنا آتٍ ينزلُ قدامي آخرُ».**

كان ردّاً من واقع الحال، وكأني به يريد أن يقول: "أما الإرادة فهي حاضرة عندي يا سيد ولكن أن أجد قوة على التنفيذ فلست أجد"!!! وهو ردٌّ صائب غاية الصواب استدرَّ حنان الرب، ولكن خيبة أمل المريض لم تكن في إرادته التي استخدمها مئات المرات، ولكن في بني الإنسان الذين لم يُؤْتَوْا الرحمة، فهلاَّ ترحم أنت؟ «الأخ لن يفدي الإنسان فداءً.» (مز٤٩: ٧)

ولكن بالرغم من صحة الرد وصحة التعليل، إلاّ أن القضية تحولت في نظر المقعد من قضية حياة في الخطيئة ضد نفسه والله، إلى خطأ الناس وخطية الآخرين. وهذه طبيعة الخطيئة تخفي

نفسها عن مصدرها الحقيقي لتظهر وكأن صاحبها منها براءٌ!! وهكذا تبلغ النفس البشرية تزييفها للحق، الأمر الذي يطوِّح بها بعيداً عن الله وعن رحمته.

لقد وقع «أيوب» البار في هذا التزييف لمّا أتته بلواه، فنسبها إلى الله، وأخذ يعاتبه «يُكثر جروحي بلا سبب» (أي ٩ : ١٧) (هكذا)!! و«كغافل عن الرحمة» و«قد نسي حسنات أيوب الكثيرة في غابر الأزمان» (أيوب أصحاح ٣١)! وماذا كان رد القدير، الذي عيناه تخترقان أستار الظلام وأمسُ مكشوف أمامه كاليوم؟ قال له قولته المشهورة: **«تستذنبُني لكي تتبرر أنت؟»** (أي ٤٠ : ٨). ولكن وبالنهاية قَبِلَ الرب ذنب أيوب على نفسه وبرَّره وأبرأه!! أليس هو الفادي الذي حمل عارنا؟ وهل تغيَّر الرب أبداً؟

«يا سيد ليس لي إنسان يلقيني في البركة»:

لقد استدر عطف السيد. أليس هو القائل على فم إشعياء النبي: «فرأى أنه ليس إنسان، وتحيَّر من أنه ليس شفيع» (إش ٥٩ : ١٦)، فحنَّت أحشاؤه، «فخلَّصت ذراعه لنفسه، وبرُّه هو عضده، فلبس البرَّ كدرع وخوذة الخلاص على رأسه» (إش ٥٩ : ١٧). ونظر إلى المُقْعَد وكأنه ينظر إلى الشعب بأكمله أو الإنسان ككل!! وقال قولته وكأن ظهره مسنود على الصليب: **«قم احمل سريرك وامْشِ»**.

٥ : ٨ و٩ «قال له يسوع قُم احمِلْ سريرَك وامْشِ. فحالاً بَرِئَ الإنسانُ وحملَ سريرَه ومشَى. وكان في ذلك اليوم سبتٌ».

ألم يقل ق. يوحنا في بدء روايته: «فصعد يسوع إلى أورشليم»؟ إذن، فقد أتى الفادي إلى صهيون. هكذا رآه إشعياء من وراء الدهور: «ويأتي الفادي إلى صهيون وإلى التائبين عن المعصية في يعقوب يقول الرب... قومي استنيري لأنه قد جاء نورك، ومجد الرب أشرق عليكِ» (إش ٥٩ : ٢٠ و٦٠ : ١). فليست بركة بيت حِسْدا (بيت الرحمة) ذات الخمسة الأروقة لتُترجَّى بعد، ولا المياه التي تحرِّكها الملائكة، بل ينبوع الرحمة الدائمة والفائضة مجاناً بلا وسيط وبلا شروط! هي كلمة صدرت منه فأحيت العاجز، وشددت أوصال جسده المنحلّ، وحركت عضلاته الضامرة، دبَّت فيها قوة الله فأحْيَتْها بأقوى مما كانت. وظَهْرهُ الذي انحنى تحت عبء السنين الطوال قام واستقام، وحمل ثقل سريره كظهر شاب يستعرض قواه! لقد صار ماضيه الحزين كقصة وشهادة. وهذا حال كل من صدَّق وآمن بكلمة المسيح. لم يقل ق. يوحنا أن المُقْعَد آمن بالكلمة، ولا حتى عرف مَنْ هو الذي يكلمه!! لكنها **«الكلمة»** التي خرجت من فم المسيح **«الكلمة»**.

فليـنتبه القارىء إلى قوة «**الكلمة**» في حد ذاتها، إنها تنتهر الخطية فتلاشيها، وتنتهر المرض فتلغي سطوته. لقد قال المسيح: إن «الكلام الذي أُكلّمُكم به هو روح وحياة» (يو٦ : ٦٣). فإن كانت كلمة المسيح هكذا بهذه القوة فكيف لا نُسْكِنُها قلوبنا؟ وما الذي يقف دون أن تعمل عملها فينا؟ لقد أصابت المُقْعَد وهو منطرح على سريره، فلماذا لا تصيبنا ونحن منطرحون تحت صليبه؟ و«كلمة» المسيح تعمل عملها ولا تحتاج إلاّ لمن «**يسمعها**» و يكون محتاجاً إليها.

لقد استخدم المسيح هذا الإجراء الفريد من نوعه في شفاء المُقْعَد، الذي لم يكن يعي مَنْ هو الذي يكلمه، في إثبات صحة وصدق استعلانه لنفسه: «تأتي ساعة وهي الآن حين **يسمع الأموات** (بالخطية) صوت ابن الله والسامعون يحيون» (يو٥ : ٢٥). فالمُقْعد نموذج «**لموتى الخطية**» الذين يعيشون موتهم وهم يريدون الحياة، الذي حالما سمع صوت المسيح قام وحمل سريره ومشى.

فانظر، أيها القارىء، كيف يقدم ق. يوحنا عناصر قصة شفاء المقعد بكل دقة وترتيب وحكمة مذهلة لتكون هي نفسها عناصر الحوار اللاهوتي العميق الذي أجراه المسيح مع اليهود بعد ذلك كونه «يعطي الحياة لمن يشاء» (قارن يو٥ : ٢١)، وأن كل من يسمع مجرد صوته يحيا ولو كان من سكان القبور (قارن يو٥ : ٢٨).

و بالنهاية هي ليست مجرد قصة شفاء أو معجزة باهرة من معجزات المسيح، بل هي قصة عمل الفداء مصوَّرة بعمقها.

ولو يلاحظ القارىء، يجد أن ق. يوحنا على غير العادة لا يذكر أنها آية؛ كذلك نجد الرب في هذه القصة صاحب مبادرة إذ أعطى الشفاء كآمر: «**قُمْ، احمل، امشِ**». فخضع له المريض كمن يخضع لفعل دخل كيانه وجدد حاله دون أن يكون له أية استجابة واعية مُسْبَقة؛ وأنه شُفي في الحال دون إجراءات ثانوية كالغسل في البركة أو خلافه. كذلك فلم يشترط عليه الرب أي شرط، وهذه هي طبيعة الفداء بكل جلاء، مجانية مطلقة، من طرف واحد وهو الله في شخص يسوع المسيح.

نحن كلنا هذا المُقْعَد، إذا أردنا أن نفهم الفداء ونعيه، وإذا تكرمنا أن نقبله طواعية! فنحن تقبَّلنا هذا الفداء ونحن بعد خطاة مطروحو الجسد تحت ذِلَّة جبروت الخطية ولا حراك لنا؛ وفعل الفداء سَرَى فينا ولم يعُدْ لنا ــ إن كنا نفهم ــ إلا أن نحمل سريرنا ونذهب نبشر بالذي صنع

معنا هذا الفضل الفائق. ولا نعود نخطىء بل نحدّث بفضل الذي دعانا إلى الحياة في نوره العجيب.

٥:١٠و١١ «فقال اليهودُ للذي شُفيَ: إنه سبتٌ، لا يحلُّ لك أن تحملَ سريرَك. أجابهم: إن الذي أبرأني هو قال لي احمِلْ سريرك وامشِ».

وفي الحقيقة إن المسيح لم يصنع هذه الآية بالرغم من أنه «سبت»، بل **لأنه** «سبت». لأن هذا الاختيار هو جزء من خطة استعلان المسيح لنفسه باعتباره «ربَّ السبت» حسبما قال مرة (مر٢: ٢٨ ولو٦: ٥)؛ ولكونه جاء ليعطي **«سبتاً»** جديداً، أي راحة «جديدة» عوض الراحة الجسدية القديمة (عب٤: ١٠).

أما إجابة المقعد فتنمُّ عن تقدير لمن قال له قُمْ ... واحمل ... وامشِ، أكثر من تقديره لموضوع السبت، لقد ذُهِلَ المُقْعَد؛ أبَعْدَ أن أفنى عمره في الكساح الذي هو فيه وجاء مَنْ شفاه، يُطالَب بذنب شفائه وحَمْلِ سريره وسَيْرِهِ على رجليه صحيحة؟ إن هذه المغالطة المناقضة للواقع ظهرت في قلب ذلك المريض صارخة مستغيثة! لمن أسمع، ولمن أُطيع؟ للناموس الذي عجز عن أن يشفي عجزي؟ أو لذلك الإنسان الذي شفاني وقواني ودعاني للسير على قدميَّ؟ لقد قصد المسيح ذلك قصداً، أن يضع هذه الموازنة بصورتها العملية ليس في نظر المُقْعَد وحده ــ وهو صاحب الحق الأول في المقارنة والموازنة بين الناموس وذلك الإنسان!! ــ بل وفي نظر البشرية كلها!!

ولينتبه القارىء، فإن المسيح هنا لا يقدم ناموساً يُحفظ، ولا قانوناً يُحكم بمقتضاه، ولا نظاماً يُدْرَس؛ بل قدم نفسه للمُقْعَد في **«كلمة»** قالها فكانت له للشفاء والحياة.

٥:١٢ «فسألوه: مَنْ هو الإنسان الذي قال لك احمل سريرك وامشِ».

لاحظ هنا أنهم لا يستفسرون عن الذي شفاه لأنهم يعرفونه تمام المعرفة؛ ولكنهم يسخرون من قول الرجل إذ يضعون **«هذا الإنسان»** في مقابل سبت **«الله وناموسه»**.

ثم انظر كيف يتجاهل هؤلاء الفريسيون عمل الآية المذهلة، التي لو كانت قد حدثت في أيامنا هذه لرجّت العالم كله، ولا يرون في كل ما صار للمُقْعد إلا كونه يحمل سريره في يوم الراحة، و ينظرون إلى ذلك بمنظار مرعب، إذ يرون في ذلك استحقاقه للموت!! رجماً!!
[إذا حدث أن حمل أي إنسان أي شيء من مكان عام إلى بيته الخاص في السبت ويكون

ذلك عمداً فإنه يكون مستحقاً للموت رجماً.](٧)

إنهم يبحثون عن الموت في كل ما هو حياة، وصحَّ فيهم قول المسيح أنهم: «يُصفُّون عن البعوضة و يبلعون الجمل.» (مت٢٣: ٢٤)

٥: ١٣ «أما الذي شُفي فلم يكن يعلم مَنْ هو، لأن يسوعَ اعتزلَ، إذ كان في الموضع جمعٌ».

لم يكن من طبيعة المسيح أن يلفت أنظار الناس إليه، فهو ينتخب الذين يتكلم معهم، و ينتخب الوقت المناسب، والمكان اللائق، والظرف الذي ينطلق منه تعليمه.

٥: ١٤ «بعد ذلكَ وجده يسوعُ في الهيكلِ، وقالَ لهُ: ها أنت قد بَرئتَ، فلا تخطِئْ أيضاً لئلاَّ يكونَ لكَ أشرُّ».

ليعلم القارىء أن قدرة المسيح على الشفاء وإعطاء صحة الحياة قائمة أصلاً ومتأسسة على سِرِّ الفداء وقدرته على مغفرة الخطية، الذي دفع ثمنه بسفك دمه على الصليب. والمسيح كان يعمل و يتكلم على أساس أنه مصلوب، لأن الصلب أمر قد تقرَّر منذ الأزل، فلم يَعُدْ المسيح خاضعاً لتصريف الفعل **«يصلب»** كماضٍ، وحاضر، ومستقبل. فالمسيح مصلوب في الفكر التوراتي أو الطقس الموسوي منذ أن ذُبح خروف الفصح الأول: «وتكون جثتاهما على شارع المدينة العظيمة التي تُدعى روحياً سدوم **ومصر حيث صُلِبَ ربنا أيضاً.**» (رؤ١١: ٨)

و بحسب فكر بولس الرسول، فالصليب هو قصد الله الذي قصده في المسيح منذ الدهور: «لي أنا أصغر جميع القديسين أُعطيت هذه النعمة، أن أُبشّر بين الأمم بغنى المسيح الذي لا يُستقصى، وأُنيرَ الجميع في ما هو **شركة السر المكتوم منذ الدهور،** في الله خالق الجميع بيسوع المسيح؛ لكي يُعرَّف الآن عند الرؤساء والسلاطين في السماويات بواسطة الكنيسة بحكمة الله المتنوعة، حسب قصد الدهور الذي **صنعه في المسيح يسوع ربنا.**» (أف٣: ٨—١١)

وعند بطرس الرسول، هو معروف قبل تأسيس العالم: «بل بدمٍ كريم كما من حَمَلٍ بلا عيب ولا دنس، دم المسيح، معروفاً سابقاً قبل تأسيس العالم، ولكن قد أُظهر في الأزمنة الأخيرة

[7] Sabb. a., quoted by Wünsche; cited by Westcott, *op. cit.*, p. 83.

من أجلكم.» (١بط١: ١٩و٢٠)

فقدرة المسيح على الشفاء والإقامة من الموت نابعة من قوة ذبيحة نفسه القائمة والدائمة فيه، والتي قدَّمها على الصليب، في الوقت المعيَّن، عن كل خطاة الأرض، من أول الزمان وإلى آخر كل زمان.

بهذه القوة والقدرة الذبائحية والفدائية التي فيه، أُعطي مُقْعَد بيت حِسْدا الشفاء والحياة الجديدة، على أساس أن كل خطاياه وعاره السابق حمله المسيح عنه في جسده بانتظار يوم الصليب. لذلك لا نسمع أن المسيح قد دان هذا المقعد، ولكن فقط، ولكي يضمن له هذه الحياة التي أعطاها له كي تبقى له بلا دينونة، أمره بل آزره بنصيحة تكاد تكون دعاءً: أن لا يخطىء أيضاً أي ثانيةً، وذلك حينما وجده في الهيكل، لئلا يسقط عنه العفو الذي أعطاه لخلاصه المجاني. كما أن المسيح لم يشأ أن يظل هذا المريض الذي نال نعمة الشفاء جاهلاً بمن شفاه، فأعلن نفسه له ليعطيه فرصة الإيمان بالمسيح وقتما اكتمل انتباه وعيه المسيحي.

ثم قول المسيح: «لا تُخطىء أيضاً»، فيه إيماءة إلى أن علّة مرضه الذي طال واستطال هي الخطية، فالخطية هي علة الإنسان الأُولى التي أوجبت عليه الموت. والمرض مهما كان، فهو جزءٌ من الموت الذي ورثه الإنسان من رأس جنسنا آدم الأول، ولكن يقابله الآن الحياة التي ورثناها من المسيح الذي وَلَدنا ثانية بالروح لله، والذي صار رأس الجسد أي الكنيسة، والذي حوّل الموت إلى حياة بالإيمان به، وحوَّل المرض من تأديب وعقاب إلى علّة لتمجيد الله!!: «يا معلم مَنْ أخطأ هذا (الأعمى) أم أبواه حتى وُلد أعمى؟ أجاب يسوع: لا هذا أخطأ ولا أبواه، لكن لتظهر أعمال الله فيه» (يو٩: ٢و٣)؛ «فلما سمع يسوع قال: هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله، ليتمجَّد ابن الله به.» (يو١١: ٤)

وهكذا كل مرض مهما كان ومهما أصاب، فهو لمجد الله، إذا حوّلناه إلى شكر حقيقي واحتملناه بصبر، فيتمجَّد الله فينا بسبب هذا المرض عينه!! لذلك لم يَفُتْ على ق. يوحنا أن يكمِّل قائلاً:

«بعد ذلك وجده يسوع في الهيكل»:

واضح أن المُقْعَد اتجه مباشرة إلى الهيكل ــ ربما حاملاً سريره ــ وهذا هو الذي أثار حوله العاصفة، ولكن القصد واضح أنه أراد أن **يقدِّم الشكر لله!** مما يلفت نظرنا أنه كان على شيء من التقوى، فالفتيلة المدخِّنة ما فتئت تدخِّن حتى اشتعلت!

٥ :١٥ «فمضى الإنسانُ وأخبرَ اليهودَ أن يسوعَ هو الذي أبرأهُ».

واضح أن المُقْعَد وجد في المسيح مَنْ يستطيع أن يتحمل عنه تهمة حمل السرير، فأسرع في تبرئة نفسه، لا خيانة لمَنْ شفاه، بل اعترافاً من واقع الحال. ثم أن المسيح لم يُوْصِهِ أن لا يقول لأحد، حتى يُحسب أنه أخلَّ بالوصية، بل ذهب ليُبري نفسه للكاهن اعترافاً بفضل الله ومَنْ شفاه.

المصادمة الأُولى مع اليهود:

المسيح يعلن عن لاهوته وشخصيته الماسيانية في أعمق ما بلغه إنجيل ق. يوحنا، بطرحه أعظم قضية لاهوتية لتحتل الصدارة في الإيمان المسيحي، وذلك في خطوات متلاحقة و بتنظيم متدرج منسجم من الاستعلانات التي تكشف عن طبيعة الآب والابن والوحدة الفعلية القائمة بينهما.

والموقف الذي يقفه المسيح هنا أمام اليهود يتَّسم بالشجاعة البالغة القوة والاتزان، وهو يكشف عن ألوهيته أمام أعدائه المتربصين به، دون حذر، وهو يعلم تمام العلم أنه بذلك يخطب الموت و يستدعيه، ولكنه بآنٍ واحد يُرسي أساس الإيمان المسيحي برُمَّته! أما سامعوه فكانوا ــ و يتحتم أن يكونوا ــ إما واحد يصدِّق القول تصديق الإيمان فيقبل المسيح ربّاً وإلهاً، وإما واحد يصرُّ بأسنانه إذ يراه مجدِّفاً ومستحقَّ الموت بلا رحمة. ولم يقف المسيح من قبل مثل هذا الموقف الحرج الذي فيه يتقاسم سامعوه الحب الطاغي والكراهية المرَّة بلا توسط! و بالفعل كان هذا الدفاع اللاهوتي المنقطع النظير هو هو بعينه أدلَّة الإتهام التي قدمته إلى الصليب! كما صار هو بعينه دستور الحب والإيمان عند ملايين الملايين من بني الإنسان!

خطوات الاستعلان:

١ ــ «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل.» (آية ١٧)

٢ ــ «كما أن الآبَ يقيم الأموات و يُحيي، كذلك الابن أيضاً يُحيي مَنْ يشاء.» (آية ٢١)

٣ ــ «الآب لا يدين أحداً، بل قد أعطى كل الدينونة للابن.» (آية ٢٢)

٤ ــ «لكي يكرم الجميعُ الابنَ، كما يكرمون الآب.» (آية ٢٣)

٥ ــ «مَنْ يسمعْ كلامي و يؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة.» (آية ٢٤)

٦ ــ «تأتي ساعة، وهي الآن، حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون.» (آية ٢٥)

٧ ــ «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في

ذاته.» (آية ٢٦)

٨ ـــ «وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً، لأنه ابن الإنسان.» (آية ٢٧)

٩ ـــ «تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة.» (آيات ٢٨و٢٩)

و يلاحظ أن هذه الحقائق الأساسية في لاهوت المسيح، المقدّمة هنا كدستور عمل، هي التي انبثقت منها كل تعاليمه التي قدّمها قبل أو بعد ذلك، سواء كونه خبز الحياة، أو الماء الحي، أو نور الحياة، أو الراعي الصالح، أو الكرمة الحقيقية، أو القيامة والحياة.

٥ : ١٦ «ولهذا كان اليهودُ يطردونَ يسوعَ و يطلبون أن يقتلُوه لأنه عملَ هذا في سَبْتٍ».

«الشرير يراقب الصديق محاولاً أن يميته.» (مز٣٧: ٣٢)

«ولهذا» = διὰ τοῦτο

أي «بسبب ما عمله يسوع في السبت»، ولكن تأتي كلمة «عَمِلَ» في اليونانية ἐποίει بمعنى «بسبب **ما تعوّد أن يعمله**»، أي بصيغة التكرار والدوام من جهة كسر الناموس علناً و بإصرار و باستمرار، إذ كان يكاد لا يعمل آياته إلا في السبت.

وهذه في الحقيقة أول مرة يعلن فيها اليهود عن عداوتهم بالفعل، بنيّة القتل. وهذا يعود إلى المغالاة التي فاقت كل الحدود في حفظ السبت، حتى بلغت إلى الحد الذي تساءل فيه كبار الربيين عن مدى خضوع الله نفسه لهذه الوصية! ويخبرنا العالم دودد[8] في شرحه لإنجيل يوحنا أنه قد جرى بالفعل حوار بين أشهر أربعة ربيين يهود وهم غمالائيل الثاني و يشوع بن حنانيا والعازر ابن عزاريا ورابي عقيبا، أثناء وجودهم معاً في روما سنة ٩٥م، أي في زمن كتابة إنجيل يوحنا، وقد انتهى بهم الحوار إلى تقرير أن [الله يحفظ الوصية لأنه لا يعمل خارج حدود مسكنه أي السماء والأرض، ولا يسير مسافة أطول من قامته، لذلك فعمل الله هو في الحدود المسموحة!] أنظر وتعجب!!

من هنا كان رد المسيح عليهم، لأنه إذ كان يعلم مدى جنونهم في إخضاع الله للوصية قال لهم: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل»، فالله ليس تحت تحكم الزمان والمكان والحركة فهذه

[8] Dodd, C.H., *op. cit.*, p. 320.

كلها نواميس زائلة.

١٧:٥ «فأجابهم يسوع: أبي يعملُ حتى الآنَ وأنا أعملُ».

بمعنى أن الله لم يتوقف عن عمله قط، فهو لا يزال يعمل وإلاَّ تتوقف الحياة. فالله لم يخلق الخليقة بواسطة اللوغس الابن ثم تركها تعمل من تلقاء ذاتها كما يقول الذين لا يؤمنون بالله والخلق! وإلاَّ تختل موازين الانضباط والتناسق والاستمرارية، فالله يحكم و يدين الخليقة بقوانين دائمة لا تخضع لفكر الإنسان.

والمسيح يضع نفسه مع الله الآب كمسئول عن الخليقة، وخاصَّة فيما يخصُّه من جهة قيامها ودوامها، وبالأكثر من جهة فدائها وخلاصها وتجديدها وتكميلها: «الله... كلَّمنا في هذه الأيام الأخيرة في **ابنه** الذي جعله وارثاً لكل شيء الذي به أيضاً عمل العالمين. الذي، وهو بهاء مجده ورسمُ جوهره، **وحاملٌ كل الأشياء بكلمة قدرته**، بعدما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا جلس في يمين العظمة في الأعالي.» (عب١: ١ــ٣)

كذلك يقول بولس الرسول في سفر العبرانيين صراحة كيف أسس الابن الأرض والسموات، وكيف أنها تتغيَّر وفي النهاية يتلاشى شكلها المادي المنظور، أما المسيح الابن فلن يتغيَّر ولا يتبدَّل: «وأما عن الابن (فيقول:) كرسيك يا الله (الابن) إلى دهر الدهور **قضيب الإستقامة قضيب مُلْكِكَ**، أحببتَ البرَّ وأبغضتَ الإثم، من أجل ذلك مسحك الله إلهك بزيت الابتهاج أكثر من شركائك. وأنت يا رب في البدء أسست الأرض، والسمواتُ هي عمل يديك، هي تبيد ولكن أنت تبقى، وكلها كثوب تبلى وكرداء تطويها فتتغير. ولكن أنت أنت وسنوك لن تفنى.» (عب١: ٨ــ١٢)

ثم يعود القديس بولس في رسالة أفسس ليوضح مركز المسيح من جهة الخليقة كلها في السماء وعلى الأرض، كيف أن تدبير الله منذ الأزل جعلها تتمحور في المسيح، وتنجمع، وتتحد بواسطته في انسجام يفوق تصور الإنسان: «إذ عرَّفنا بسرِّ مشيئته، حسب مسرته التي قصدها في نفسه، لتدبير ملء الأزمنة **ليجمع كل شيء في المسيح** ما في السموات وما على الأرض في ذاك (المسيح).» (أف١: ٩و١٠)

بهذا يتضح لنا قول المسيح: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل». فالخليقة كلها في السماء والأرض لا تزال في دور الخلق والتجديد والترقِّي، وفق مشيئة الله وتدبيره مع المسيح الابن، لغايةٍ

ستظهر في النهاية حينما يُخضع الله كل شيء لسلطان المسيح الابن: «لأنه يجب أن يملك، حتى يضع جميع الأعداء تحت قدميه. آخر عدو يُبطَل هو الموت.» (١كو١٥: ٢٥و٢٦)

وربوبية المسيح فوق الخليقة وكل نواميسها واضحة من قول المسيح: «ثم قال لهم: السبت إنما جُعِلَ لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت، إذاً ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً.» (مر٢: ٢٧و٢٨)

فالمسيح، بعمله الأشفية وصُنْع الرحمة في يوم السبت، كان يقوم في الحقيقة بعملية تكميلية للخلق مساوية في مضمونها الإلهي للخلق ذاته. فالذي يجعل الأعمى المولود هكذا يصبح له عينان والميت المدفون وله أربعة أيام يقوم، إنما يعمل عملاً من صميم جوهر الخلق والخالق، مما يثبت أن أعمال الخلق لم تنتهِ في نظر الله في اليوم السابع!

أما سبت المسيح الحقيقي فكان بعد أن أكمل أعمال الفداء وخلاص الإنسان على الصليب «قد أُكمل» (يو١٩: ٣٠)؛ أما بحسب الجسد فقد استراح في القبر: «لأن يوم ذلك السبت كان عظيماً» (يو١٩: ٣١)، وأما بحسب الروح فبعد أن أكمل المسيح آلامه دخل إلى راحته العليا أي مجده: «أَمَا كان ينبغي أن المسيح يتألم بهذا و يدخل إلى مجده؟» (لو٢٤: ٢٦)

ودخول المسيح إلى مجده هو بحد ذاته الراحة العظمى التي يحكي عنها سفر العبرانيين هكذا: «لأن الذي دخل راحته **استراح هو أيضاً من أعماله، كما الله، من أعماله**، فلنجتهد أن ندخل تلك الراحة.» (عب٤: ١٠و١١)

وهنا يُلاحَظ التوازي بين قول المسيح: «**أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل**» وبين «استراح **هو** أيضاً من أعماله كما **الله** من أعماله». فالعمل على التوازي، والراحة على التوازي بين الآب والابن كلٌّ في مجاله، ومجال الاثنين هو تكميل مجال واحد! لذلك يستطرد سفر العبرانيين و يقول إن راحتنا، أي سَبْتنا، هو «**راحة**» المسيح وسَبْتهُ وقد أُكملت مرة واحدة وإلى الأبد، «**إذاً بقيت راحة** لشعب الله» (عب٤: ٩)، و يقصد هنا راحة جديدة غير راحة السبت، وهي الشركة في سبت المسيح أي موته لبلوغ القيامة التي هي غاية ونهاية كل الأعمال؛ والراحة التي تمت فيها ذبيحة المسيح وقبولها لدى الآب فتمت المصالحة بين الإنسان والله.

من هذا نفهم الآن لماذا كانت وصية السبت هامة وصارمة وخطيرة بهذا المقدار في الناموس القديم وكان ثمن التعدي هو الموت حتماً!! ليس لأنها كانت ذات مدلول أو نفع خلاصي بأي

وجه من الوجوه، بل لأنها كانت تشير بالرمز إلى سبت العهد الجديد، سبت الله الأبدي، الذي كان ثمنه موت ابن الله أيضاً في القبر كنهاية لكل أعمال الناموس، الذي أُبطل بموت المسيح الفدائي. اسمع ما يقوله سفر العبرانيين كيف انتهى هذا الناموس بكل وصاياه من سبت وخلافه: «فلو كان بالكهنوت اللاوي كمال، إذ الشعب أخذ الناموس عليه (على أساس الكهنوت اللاوي)، ماذا كانت الحاجة بعد إلى أن يقوم كاهن آخر (الرب يسوع) على رتبة ملكي صادق ولا يقال على رتبة هارون؟ لأنه إن تغيَّر الكهنوت، فبالضرورة يصير تغيُّرٌ للناموس أيضاً» (عب٧: ١١و١٢)، «فإنه يصير إبطال الوصية السابقة من أجل ضعفها وعدم نفعها، إذ الناموس لم يكمِّل شيئاً.» (عب٧: ١٨و١٩)

ثم يعود سفر العبرانيين و يتكلم بعد ذلك عن راحة الله في سبت الله الأبدي الذي أكمله المسيح بموته، والذي به فتح الباب لدخول الإنسان في هذه الراحة عينها أي الحياة الأبدية.

يبدأ بولس الرسول الحوار في رسالته للعبرانيين بوصف بني إسرائيل وهم في التيه وقد أغضبوا الله بقلة إيمانهم بقوله هكذا: «... حتى أقسمتُ في غضبي **لن يدخلوا راحتي**، انظروا أيها الإخوة أن لا يكون في أحدكم قلب شرير بعدم إيمان في الارتداد عن الله الحي... ولِمَنْ أقسَمَ لن يدخلوا راحته إلا للذين لم يطيعوا؟ فنرى أنهم لم يقدروا أن يدخلوا لعدم الإيمان. فلْنَخَفْ أنه مع بقاء وعد بالدخول إلى راحته يُرى أحد منكم أنه قد خاب منه... لأننا نحن المؤمنين ندخل الراحة... مع كون الأعمال قد أُكملت منذ تأسيس العالم. لأنه قال في موضع عن السابع هكذا: واستراح الله في اليوم السابع من جميع أعماله. وفي هذا (هنا) أيضاً (يقول) لن يدخلوا راحتي؟... إذاً بقيت راحة لشعب الله! لأن الذي (المسيح) دخل راحته (السبت الأبدي) استراح هو أيضاً من أعماله كما الله من أعماله. فلنجتهد أن ندخل تلك الراحة لئلا يسقط أحد في عبرة العصيان هذه عينها.» (عب٣: ١١و١٢و١٨و١٩)، (٤: ١و٣و٤و٥و٩و١٠و١١).

واضح، إذاً، أن سَبْتَنَا الأبدي الذي يقوم على إيماننا بالمسيح بموته وقيامته، قد ألغى وإلى الأبد سبت الناموس الرمزي الذي كان شبهاً للسماويات وظلها.

ولكن يُلاحظ أن المسيح في قوله: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل»، لا يجعل عمله منفصلاً عن عمل الله بل متآزراً معه، كما يُفهم تماماً أن المسيح ينفي نفياً باتاً أن يكون خاضعاً تحت «**أعمال الله**»، وبالتالي تحت فكرة استراحة الله، بل أعلى منها وقوّاماً عليها، وهذا هو الذي أثار حفيظة اليهود أيّما إثارة.

١٨:٥ «فمن أجلِ هذا كان اليهودُ يطلبونَ أكثرَ أنْ يقتلُوه. لأنه لم يَنقُض السبتَ فقط، بل قال أيضاً إن الله أبوهُ مُعادِلاً نفسَهُ بالله».

لقد فهم اليهود كل ما ضمَّنه المسيح في قوله المختصر جداً: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل». فهو أولاً وقبل كل شيء قد ألغى سلطة الناموس وأبطل الاعتراف بوصية السبت علناً وبإصرار! معتمداً على ادعائه الصلة المطلقة بالله!

«إن الله أبوه»: πατέρα ἴδιον τὸν θεόν

الكلمة الخطيرة في هذه الآية هي ἴδιον التي تفيد الملكية الشخصية أي أن الله أبوه **الشخصي الذاتي**. وهنا يصبح المسيح ابن الله ومعادلاً له، ولقد وقعت على أسماع اليهود كالصاعقة، فهذا عين التجديف إن نظروه كإنسان. وهنا تكون مصيبتهم هم وتجديفهم هم وليس المسيح. وبالتالي اعتبروا أنه يدّعي أن عمله (وهو إنسان) يساوي عمل الله، وبذلك يكون قد كسر وصية السبت بمعنى أنه حلّها أي فكَّ رباطها وناموسها، وبالتالي أبطل الخضوع لناموسها.

وفي الحقيقة هذه كانت بالفعل نظرة المسيح، ونحن لا ننسى قوله: «انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أُقيمه» (يو٢: ١٩)، «أما هو فكان يقول عن هيكل جسده» (يو٢: ٢١). أي أنه ليس السبت فقط بل والعبادة الهيكلية بكل مشتملاتها وطقوسها وناموسها وكهنوتها وأعيادها وسبوتها بالتالي، وقد جعل «هيكل جسده» بمفهوم ذبيحته أي موته وقيامته، بكل أعضائه الجدد أي الكنيسة، هي الهيكل الجديد.

ولو أحسنّا الرؤية من جهة سر العداوة المرّة التي تراكمت في قلوب هؤلاء اليهود غير المؤمنين به والمعاندين له نجدها في عدم فهمهم وعدم قبولهم من قريب أو بعيد كونه يقول عن نفسه إنه ابن الله الذاتي ἴδιον. ولقد ضجُّوا من هذا التعبير، وأخيراً صارحوه عن سبب محاولتهم قتله قائلين: «وأنت **إنسان، تجعل نفسك إلهاً**» (يو١٠: ٣٣). ولكن لو أحسنوا الرؤية لرأوه العكس: «وهو إله، جعل نفسه إنساناً» !!

ولقد صَرَّ هؤلاء اليهود عداوتهم في قلوبهم من نحو قوله أنه **«ابن الله»**، حتى أفصحوا عنها بمرارة كعلّة طلبهم لصلبه أمام بيلاطس: «فلما رآه رؤساء الكهنة والخدام صرخوا قائلين اصلبْه اصلُبْه. قال لهم بيلاطس خذوه أنتم واصلبوه لأني لست أجد فيه علة. أجابه اليهود: لنا ناموسٌ، وحسب ناموسنا يجب أن يموت، لأنه جعلَ نفسَه ابنَ الله.» (يو١٩: ٦و٧)

ثـم يـا لحـذق هذا القديس يوحنا الرسول كيف يصوِّر لنا عثرة اليهود بقوة وعنف وجلاء لتكون لنا هي نفسها أساساً للإيمان الواثق الوثيق!! «الذي يؤمن به لا يدان والذي لا يؤمن قد دِينَ، لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد.» (يو٣: ١٨)

والـذي دخـل في روع اليهود وطمس معالم رؤية الحق وسماعه، تَصَوُّرهم أن المسيح وهو إنسان يجـعـل نـفسه إلهاً، ثم بادعائه أن الله أبوه يجعل نفسه **«إلهاً مقابل إله»** وهو الله، وبذلك يكون في نظرهم **إلهاً ثانياً**. ومن هذه النقطة بالذات بدأ المسيح شرحه وتوضيحه لمعنى الابن بالنسبة للآب في الله الواحد! وذلك في كل الحوار القادم (من آية ١٩ إلى ٢٣).



القسم الثاني من الأصحاح الخامس

شرح تفصيلي لمركز الابن من الله الآب
وماهية الابن في ذاته

(٥ : ١٩ــ٣٠)

يتميز الجزء الأول من الإجابة الشاملة التي أجاب بها الرب على اعتراضات اليهود أنها تتخصص في توضيح طبيعة الابن وامتيازاته وتنقسم إلى قسمين:

قسم يختص بالعلاقات مع الآب ويستمر من الآية ١٩ إلى الآية ٢٣.
والقسم الآخر يختص بالعلاقات مع الناس من الآية ٢٤ إلى الآية ٢٩.

أما في العلاقات مع الآب، فيوضح أنه سواء كان في العمل أو في الكرامة، فالابن مطابق للآب تماماً، وذلك لكي ينظر الناس في عمل الابن عمل الآب، فأعمال الابن تستعلن عمل الآب غير المنظور عن قرب ورؤية (٩). وحتى يكون بتكريمهم الابن المنظور لهم يكرمون الآب غير المنظور. ويوضح المسيح ذلك بأربعة أدلة على أساس أنه يستحيل على الابن أن يعمل من ذاته شيئاً بدون الآب، وكل دليل يقدمه يبدأ بحرف «لأن» γάρ.

(أ) **«لأن»** مهما عمل ذاك (الآب) فهذا يعمله الابن كذلك (١٩).
(ب) **«لأن»** الآب يحب الابن ويريه جميع ما هو يعمله وسيريه أعمالاً أعظم من هذه (إقامة المقعد) لتتعجبوا أنتم (٢٠).
(ج) **«لأنه»** كما أن الآب يقيم الأموات ويُحيي، كذلك الابن أيضاً يُحيي من يشاء (٢١).
(د) **«لأن»** الآب لا يدين أحداً، بل قد أعطى كل الدينونة للابن.

"وبناءً على ذلك":

«لكي ἵνα يكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب. من لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذي أرسله»! (٢٢و٢٣)

---

(٩) وسوف نرى هذا التطابق في الرؤيا: «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو١٤: ٩). وفي السمع أيضاً؛ فالذي يسمع الابن يسمع الآب (يو١٢: ٤٩ و١٤: ١٠).

١٩:٥ «فأجابَ يسوعُ وقال لهُم: الحقَّ الحقَّ أقولُ لكم لا يقدرُ "الابنُ" أن يعملَ من نفسِهِ شيئاً إلا ما ينظرُ الآبَ يعملُ، لأن مهما عَمِلَ ذاكَ فهذا يعمَلُهُ الابنُ كذلكَ».

يُلاحَظ هنا أن كلمة «**الابن**» تأتي بمفردها، وقد وردت هنا في الآيات من ١٩—٢٦ ثماني مرات، في حين أنها أتت في كل الإنجيل قبل ذلك وبعد ذلك عشر مرات فقط(١٠)، هذا يجعلنا نفهم أن الإنجيل يركِّز جداً في هذه الآيات على القاعدة الإيمانية التي سيسهب بعد ذلك في شرحها.

وفي البداية ينبغي أن نلاحظ أن هذا الحوار جرى مع أشخاص قلائل مدرَّبين في المعرفة، فريسيين محنَّكين. وهذا يظهر من الإختصار الذي نهجه المسيح في تقريره للحقائق وارتفاعه إلى مستواها المطلق، الأمر الذي يحتاج إلى فهم وعمق.

ثم نلاحظ ثانياً، أن المسيح تحاشى أن يتكلم بضمير المتكلم «أنا»، كما لم يذكر الصفات التي اعتاد أن يلقِّب بها نفسه «كابن الإنسان»، أو حتى «ابن الله». ولكنه يقتصر هنا على التوصيف المطلق «**للابن**» بالنسبة إلى «**الآب**» على مستوى المفهوم البشري للآب والابن، وذلك لكي لا يصدم تفكيرهم في البداية، بل يأخذهم أولاً على المستوى المطلق للأمور ثم يتدرج بهم للتطبيق، فيُظهِر شخصه بوضوح في الآية (٢٤): «الذي يسمع **كلامي** τὸν λόγον μου» ثم في الآية (٣٠) «أنا» ἐγὼ.

فابتدأ هكذا: **أن «الابن لا يقدر أن يعمل من نفسه شيئاً»!**

هذه حقيقة مسلَّم بها؛ ثم إن الابن ينظر إلى ما يعمله الآب ويعمل مثله تماماً إذا كان الابن مطيعاً ومخلصاً ومحباً للآب! هذه حقيقة أيضاً مسلَّم بها تماماً. إذن فالمسيح يتكلم عن «**أُبُوَّة**» صادقة عاملة «**وبُنُوَّة**» صادقة عاملة. وهذا يتضمن بالضرورة أن إرادة الابن تكون منبثقة من إرادة الآب طالما العمل متطابق. ويقول ذهبي الفم أن [«لا يعمل من نفسه شيئاً» ليس قَوْلَ من يلغي سلطانه بل إعلاناً عن التساوي المطلق غير المتغير عن الآب في القوة والمشيئة.](١١)

«ما ينظر الآب يعمل»:

يلاحظ أن المسيح **يستخدم هنا في هذه الآية فعل «ينظر» في صيغة المضارع وهو**

(١٠) راجع المدخل ص٢٠٨ و٢٠٩، حيث ستجد أن كلمة الابن ὁ υἱός وردت بصفتها المطلقة في كل من الآيات التالية: يو٣:١٦و١٧و٣٥و٣٦ مرتان — [يو٥:١٩ مرتان و٢٠و٢١و٢٢و٢٣ مرتان و٢٦] — يو٦:٤٠ و٨:٣٥و٣٦ و١٤:١٣ و١٧:١.

11 Chrysostom, *op. cit.*, p. 136.

باليونانية βλέπῃ، وهذا يفيد صلة الآب بالابن حال تجسده. كما سيجيء الفعل أيضاً في المضارع في الآية (٣٠) أنه يدين «**كما أسمع أدين**». أما حينما **يستخدم المسيح الفعل الماضي فهو يشير إلى ما رآه وسمعه عند الآب قبل تجسده** كقوله: «أنا أتكلم **بما رأيتُ** عند أبي» (يو٨: ٣٨)، وكذلك: «وأنا **ما سمعته منه** فهذا أقوله للعالم» (يو٨: ٢٦). وهذا تأكيد ضمني لإثبات سَبْق وجود المسيح قبل تجسده.

كذلك قول المسيح: «الأعمال التي أعطاني الآب لأُكمِّلها... الآب قد أرسلني» (يو٥: ٣٦)، ففعل «أعطاني» وفعل «أرسلني» تفيد وجوده السابق على تجسده. كذلك أيضاً قوله: «لأني خرجتُ من قِبَلِ الله وأتيتُ. لأني لم آتِ من نفسي بل ذاك أرسلني.» (يو٨: ٤٢)

والمُلاحظ أن فعل «أرسلني» الذي يفيد ما قبل التجسد يأتي معه فعل «ما سمعتُ»، أو «ما رأيتُ»، أو «ما أتكلمُ»، كما في الآيات يو٣: ١١ــ١٣؛ ٣: ٣١و٣٢؛ ٨: ٢٦و٣٨؛ ١٢: ٤٩؛ ١٥: ١٥؛ ٥: ٣٦؛ ٧: ١٦؛ ١٤: ٢٤.

ولكن من كل الإفادات التي أفاد بها المسيح عن سبق وجوده مع الآب أو «**عند الله**» لم يستخدمها المسيح ليستعلن شخصه، أو يزيد من هيبته، ولكن استخدمها ليفيد صدق كلامه وصدق رؤيته وأهمية إرساليته للعالم. وهذا يتضح جداً في قوله: «الحق الحق أقول لك: إننا **إنما نتكلم بما نعلم؟ ونشهد بما رأينا** ولستم تقبلون شهادتنا. إن كنت قلت لكم الأرضيات ولستم تؤمنون فكيف تؤمنون إن قلت لكم السمويات. وليس أحد صعد إلى السماء إلاَّ الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء.» (يو٣: ١١ــ١٣)

فكلمة المسيح هي من واقع رؤيا وسماع الآب، هي شهادة مهداة للإنسان للتصديق الفوري والإيمان بلا فحص، هي الآب منظوراً ومتكلماً ومُشاهداً في روح الابن. الذي يصدِّق كلمة المسيح تدخله الكلمة كروح للحياة، وهو يدخل الكلمة كمَنْ يدخل الملكوت أو الحياة الأبدية. الذي يسمع صوت المسيح ويستودعه أمانة قلبه ويحيطه بالتجلّة والكرامة والمجد يسمع صوت الآب، بل يقبل الآب، كابن عثر على أبيه. كلمة المسيح لا تحتاج إلى شرح ولكن تحتاج إلى إيمان فهي تشرح نفسها لمَنْ تدخل قلبه، يكفي أن يقول عنها المسيح إنها «روح وحياة.» (يو٦: ٦٣)

هنا المسيح يقصد بغاية الوضوح أن يقول لليهود أن الأعمال التي يعملها يستحيل اعتبارها منفصلة عن أعمال الآب، فهو لا يكسر السبت على مسئوليته دون الله؛ كذلك الإرادة، فإن وِحْدة العمل تحتم وِحْدة الإرادة. وهنا يبرز جوهر القضية وأساس العثرة عندهم، كون المسيح أصبح يُنظر

عندهم إلهاً ثانياً. فهو هنا يبرهن أن كلًّا من العمل والإرادة ليس منفصلاً عن الله ولا يعمل عملاً بدون الله، فالابن يعمل عمل الآب، والآب يعمل بالابن، والعمل واحد!! فالوحدة الإلهية مصونة مائة بالمائة. ولقد تسحَّب هذا الحق الإلهي بنوع ما على الذين يؤمنون بالمسيح أيضاً، فالمسيحي الحقيقي الذي آمن بالمسيح، والمسيح حلَّ بالإيمان في قلبه، يعمل حسب المسيح و يفكر حسب المسيح و يشاء حسب المسيح. إنها نعمة الابن حلَّت على الذين يحبون الله: «لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا» (في ٢ : ١٣)!!؟ لذلك يستطيع أن يقول كما قال بولس الرسول: «أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ.» (غل ٢ : ٢٠)

وقد زاد المسيح هذا التأكيد بقوة لا تُجارَى بقوله في الآية (٣٠) القادمة: «**أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً** ــ كما أسمع (من الآب) أدين ودينونتي عادلة ــ **لأني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني**»، «**لا يقدر الابن أن يعمل... إلا ما ينظر.**» (٥ : ١٩)

هنا التحديد قاطع مانع من جهة العمل وعدم القدرة على العمل، وهذا بحد ذاته ينبغي أن يسترعي انتباهنا جداً. **فعدم قدرة الابن أن يعمل إلاَّ ما ينظر الآب يعمله، يُظْهِر هنا أن التطابق كلي، ومن هنا يأتي جوهر الوحدة المطلق.** والتأمين هنا ضد الثنائية بالغ الحذر. والقضية واضحة وسهلة، فالابن جاء ليستعلن عمل الآب وإرادة الآب ومحبة الآب، فالعمل الذي يعمله هو عمل الآب: «الآب الحالُّ فيَّ هو يعمل الأعمال» (يو ١٤ : ١٠)، وكذلك الإرادة: «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله.» (يو ٤ : ٣٤)

ومرة أخرى يقول المسيح: «**الابن لا يقدر أن يعمل**»... هذا ليس تحديداً لسلطان الابن ولا لقدرة الابن ولا لطبيعة الابن ولا انتقاصاً من قدرة الابن عن قدرة الآب، **ولكن هو** حَسْمٌ لقضية الثنائية التي شغلت بال الفريسيين والناس. فالمسيح يستطيع كل شيء إلاَّ شيئاً واحداً لا يستطيعه، وهو أن يكون شيئاً غير الله إرادة وعملاً!! لأنه أصلاً جاء ليستعلن لنا الله الآب بطبيعة الله الذي فيه، فيستحيل أن يعمل عملاً خارجاً عن إرادة الله وعمله!! هذا يكون ضد رسالته وضد طبيعته وهذا محال عليه أن يأتيه.

ويلاحظ القارىء هنا كيف يربط المسيح ربطاً ــ لا ينفذ إليه الباطل قط ــ بين الابن المنظور والمتجسد على الأرض وبين الآب غير المنظور في السماء، فهذا جوهر الإعلان الإلهي. فعمل المسيح الأساسي كمستعلِن لأبيه، مُحْكَم غاية الإحكام حتى لا ينفذ إليه الفكر ناحية الفصل، وإلاَّ يكون السقوط في الثنائية المحرَّمة والمحرومة.

«لأن "مهما" عمل ذاك (الآب) فهذا يعمله الابن كذلك» = «"مهما" عمل الآب يعمله الابن كذلك»:

في «**مهما**» تكمن قوة الابن المطلقة، هنا التطابق لا يكتفي بالحدود المعقولة أو المنظورة بين الآب والابن، ولكن تتسع وتتسع لتبلغ اللانهائية: — «**مهما**» — غير المدركة للإنسان. أي أن الوحدة القائمة بين الآب والابن مؤمَّنة ضد تفكير عقل الإنسان وقياساته، فوحدانية الله لله، فهي فائقة، وليس للإنسان إلاَّ أن يصدِّقها و يهتف بعظمة قوتها وجلال مجدها.

والمسيح في هذه الآية يرتفع فوق كبرياء الفريسيين بشموخ يفوق مستوى ما اعتادوا أن يسمعوه أو يتعلموه، فقد وقف أمامهم يتكلم بصوت الله وهم يتأملون و يتصورون ما يقول؛ وأما شخصه الإلهي على حقيقته، فهم قط ما رأوه ولا تصوروه. تبّاً للعيون التي تنظر ولا تنظر والآذان التي تسمع ولا تسمع!

«الحق الحق أقول لكم»:

ولا يفوتنا مطلع كلام المسيح: «الحق الحق أقول لكم»، والتي يقولها ثلاث مرات في هذا الحوار الممتد، وهي بمثابة القَسَمَ الإلهي في العهد القديم: «بذاتي أقسمتُ يقول الرب» (تك22: 16)، وهي تفيد دائماً الكشف عن حقيقة جديدة مقدسة مؤكَّدة تأكيداً، وهامة للغاية كانت مخفية عن الإنسان و يعلنها المسيح كجزء من عمله الاستعلاني لله الآب، ويلزم أن تسجَّل في قلب الإنسان لتكون موضع تصديق مطلق؛ و بذلك تُكوِّن ركناً ركيناً في الإيمان المسيحي. وهذه الآية التي جاءت بعدها هي العنصر الأول فيها.

5: 20 «لأن الآبَ يحبُّ الابنَ ويريهِ جميعَ ما هو يعملُهُ وسيريهِ أعمالاً أعظمَ من هذهِ لتتعجَّبوا أنتمُ».

«يحب»: (*) φιλέω/φιλεῖ

هنا يأتي الفعل في المضارع المستمر، فالآب يحب الابن حبّاً دائماً لم ولن ينقطع، أي هو حب الإتحاد أو على الأصح الوحدة الكلية.

كما يُلاحَظ أن فعل «يريه δείκνυσιν» يأتي أيضاً على مستوى فعل المحبة أي في المضارع الدائم. والمعروف أن جوهر المحبة عطاء، وهنا عطاء المحبة هو العمل الذي يريه الآب للابن،

(*) أنظر المدخل ص170—176.

وعمل المحبة عند الآب والابن هو آية، هو معجزة، هو حياة أبدية، في صورة أقوال وأعمال!

المسيح يكشف أساس التطابق في العمل بين الابن والآب: وكلمة «المحبة φιλεῖν» المستخدمة هنا لا تفيد التوقير والمشاعر المنعكسة من التعارف المعبَّر عنها في مواضع أخرى بالأغابي ἀγαπᾶν، فهذه تنبع من حكم الفكر والخبرة الشخصية، بعكس الـ«فيلين φιλεῖν» فهي محبة الكيان والطبيعة. وهذه توضح العلاقة الذاتية بين شخص الآب والابن. وهكذا بالابن ومن خلال الابن تستعلن محبة الله الآب التي للابن، التي صارت لنا، في صورة الأعمال التي يعملها الابن، فهي كلها أعمال المحبة الخالصة. والابن حينما يعمل أعمال الآب فهو يردُّ على حب الآب: «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله» (يو٤: ٣٤). **فالأعمال التي يعملها المسيح هي بحد ذاتها استعلان دائم لمحبة الله.** لذلك تأتي كل أعمال المسيح وهي تتضوَّع(*) برائحة حب الآب، سواء مع هذا المقعد أو الأعمى المولود هكذا أو كل الآيات التي أجراها يسوع، فالحب الإلهي هو غايتها وعلّتها معاً، لذلك صحَّ قول المسيح في صلاته للآب: «أنا مجَّدتُك على الأرض. العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملتُه.» (يو١٧: ٤)

هنا يستعلن المسيح سر المحبة في الله كعنصر قائم في الذات الإلهية بين الآب والابن، وسر حب الآب للابن، فقد أعطي المسيح الامتياز الأعظم لاستعلان الآب أقصى ما يكون الاستعلان. فالتطابق في العمل والإرادة بين الآب والابن نابع من التحام الحب، وليس التعالي أو الامتياز. فالحب الإلهي القائم في الذات الإلهية هو سر وحدة العمل والفكر والإرادة. ولكن لأن الابن الآن قد تجسد آخذاً صورة الإنسان، أصبح من واقع الحال البشري أن يتكلم المسيح قائلاً إن الآب «يُريه» كل ما هو يعمله، وأصبح أيضاً من واقع التقدم البشري الخاضع للزمان أن يتكلم المسيح و يقول «وسيُريه» أعمالاً أعظم، لأن التدرج في الاستعلان خاصة من مستوى الماديات إلى الروحيات يناسب الإنسان. أما الأعمال التي هي أعظم من معجزة شفاء المقعد، مثل إعطاء الحياة بالخلاص أي الحياة الأبدية بالقيامة من الأموات ـــ وبالتالي الدينونة ـــ فهي الأعظم. لأن الأمور الأقل هي للجسد والأعظم هي للروح: «فقال له سيده: نِعِمَّا أيها العبد الصالح والأمين. كُنتَ أميناً في القليل فأقيمك على الكثير. ادخلْ إلى فرح سيدك.» (مت٢٥: ٢١)

«لكي تتعجبوا أنتم»:

مع أن المسيح لا يميل إلى إتيان العجائب ليتعجب الناس، لأن الإيمان الذي يسعى أن يعطيه

(*) أي تتحرك وتنتشر برائحة حب الآب.

المسيح يعطيه كعطية: «لأنكم بالنعمة مخلَّصون "**بالإيمان**" وذلك ليس منكم **هو عطية الله**» (أف ٢: ٨)، ويعطيه نتيجة الثقة واليقين الذي يستقر في قلب مَنْ يسمع الكلمة طائعاً ببساطة قلب وليس بتعجب الذهن؛ ولكنه هنا يتكلم إلى الفريسيين بنوع خاص، كنوع من غير المؤمنين المعاندين، لذلك يؤكد ويشدد على نوعيتهم الخاصة بقوله: «**أنتم**» " ὑμεῖς " إضافة إلى صيغة المخاطب. ولماذا؟ لأنهم لا يخضعون لمنطق الإيمان الروحي ولا يتقبّلون عمل الابن في شفاء المقعد، فأصبح لا بد أن يريهم أعمالاً أعظم لكي يُخضع أذهانهم العاتية، حتى إذا ما أنكروها أيضاً يكونون كمَنْ عميت أبصارهم وانسدَّت آذانهم ودخلوا تحت الدينونة بإرادتهم. لأنهم إذا لم يقبلوا الابن وقد عمل أمامهم أعمال الآب يكونون قد رفضوا الآب: «هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني.» (يو٥: ٣٦)

٥: ٢١ «لأنه كما أن الآبَ يقيمُ الأمواتَ ويُحيي، كذلك الابنُ أيضاً يُحيي من يشاءُ».

لقد شفى أمامهم المقعد، وكان هذا واضحاً جداً أنه إنما يعطي نموذجاً مبسطاً لسلطانه الفائق على المرض الميئوس منه، الذي يعتبر الشفاء منه نوعاً من تجديد الحياة. فلأنهم لم يؤمنوا، لزم أن يكشف عن مدى قوة هذا السلطان الذي له بالإقامة من الموت وإعطاء الحياة؛ العمل الذي هو من اختصاص الله وحده.

وبقوله: «كذلك الابن»، ينقل إلى أذهانهم صورة الآب الذي فيه، المساوية للآب في كل شيء، ليس على المستوى المحدود في آية أو معجزة ولكن على المستوى الكلي لكل الناس وفي كل الظروف والأحوال: «**يُحيي من يشاء**». فسلطان الابن على الأموات والأحياء سلطان مطلق، فهو الذي «**يُحيي**»، والأموات عنده تحت سلطانه كالأحياء يأمرهم فيأتمرون ويدعوهم للحياة فيلبُّون. نعم، فليس أمام غير المؤمنين إلاّ أن يتعجبوا، وتعجُّبُهم سيدينهم في اليوم الأخير: «لا تتعجبوا من هذا فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته فيخرج ... الذين عملوا السيئات (أبغضوا النور ولم يؤمنوا بالنور) إلى قيامة الدينونة.» (يو٥: ٢٨و٢٩)

والمسيح يكلم هنا الفريسيين الحافظين لمواد دستور إيمانهم، وهو ينقل لهم صورة طبق الأصل من إحدى صلواتهم المسماة بالبراكوت وهي البركة الثانية من البركات الثماني عشرة: (شيمون عسر)

[أنت أيها الرب المقتدر إلى الأبد. أنت الذي تُحيي الموتى. وأنت القوي للخلاص، أنت الذي تسند الأحياء برحمتك، وأنت الذي بحنانك العظيم تقيم الموتى وتحييهم. أنت الذي

تصنع الصلاح من نحو الراقدين في التراب. أنت صادق في وعدك بقيامة الأموات. مبارك أنت أيها الرب يا من تقيم الأموات.](١٢)

٥ : ٢٢ **«لأن الآب لا يَدينُ أحداً بل قد أعطى كلَّ الدينونةِ للابنِ».**

الذي يعطي الحياة لا بد أن يحكم فيها وعليها، والذي يقيم الموتى له أن يحاسبهم، هذه حتمية الامتياز الذي أعطي للابن. والمسيح يكلِّم الفريسيين العارفين بالناموس: «فالذي يخطىء يموت» (قارن حز١٨ : ٢٠). إذن، فالذي يقيم من الموت هو الذي يغفر الخطايا، والذي يغفر يدين، لأن الذي يُحيي يُميت أيضاً!!

والآب إذ أعطى الدينونة للابن، فليس معنى ذلك أنه لا يدين بل أنه يدين بالابن. فكما خلق العالم به، كذلك به أيضاً يدين العالم. فالآب لا يدين أحداً بدون الابن، لأنه أعطاه أن يُحيي من يشاء وهذا يستلزم أن يدين.

أما قول المسيح أنه قد أعطى «**كل**» الدينونة، فمعناه أنه قد تولى الحكم هنا وهناك، على الأرض وفي السماء. أما هنا فعلى قياس ما أظهر النور واستعلن الآب: «لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي» (يو١٥ : ١٥)، «أنا هو نور العالم» (يو٨ : ١٢)؛ فالذي يتبع ويسمع وينفتح بالروح ويقبل الاستعلان، فقد جاز الدينونة، ويكون قد انتقل من الظلمة إلى النور، ومن الموت إلى الحياة، فيدخل في الحقيقة العظمى وينهمر عليه فرح الله الآب. والذي يحجب النور عن عينيه بيديه يدخل الظلمة برجليه، والذي يسدُّ الصوت إلى أذنيه، فقد دين وحرم نفسه من رؤية الله والحياة.

أما دينونة السماء فستكون: إما بأكاليل المجد: «قد جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السعي، حفظت الإيمان، وأخيراً قد وُضِعَ لي **إكليل البر الذي يَهَبهُ لي في ذلك اليوم الرب الديان العادل**، وليس لي فقط بل **لجميع الذين يحبون ظهوره أيضاً**» (٢تي٤ : ٧و٨)؛ وإما: «أقول لكم لا أعرفكم من أين أنتم؟ تَبَاعَدوا عني يا جميع فاعلي الظلم هناك يكون البكاء وصرير الأسنان.» (لو١٣ : ٢٧و٢٨)

---

[12] Westcott, *op. cit.*, p. 86.

وبقية البركات الثماني عشرة تجدها في كتاب: «الإفخارستيا والقداس»، للمؤلف، طبعة ١٩٧٧، ص١١٨—١٢٢.

٥ : ٢٣ «لكي يُكرمَ الجميعُ الابنَ كما يُكرمونَ الآبَ. مَنْ لا يكرم الابنَ لا يكرم الآبَ الذي أرسلَهُ».

المسيح هنا يعلن صراحة ولأول مرة عن لاهوته المساوي للآب بلا مواربة، مع أنه شخصياً لا يطلب الكرامة لنفسه: «مجداً من الناس لست أقبل» (يو٥ : ٤١). ولكنه يطلب مجد الآب: «من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه وأما من يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم» (يو٧ : ١٨)، ولكن كيف يمجّد الناس الآب وهم يرفضون بل و يهينون الابن؟ «لكني أكرم أبي وأنتم تهينونني. أنا لست أطلب مجدي، يوجد من يطلب و يدين» (يو٨: ٤٩و٥٠). فالواقع الإلهي هو أن الآب أرسل ابنه لكي يستعلن حقيقة الله الآب والحياة الأبدية التي عنده! التي فيها و بها الخلاص، لذلك أصبح الابن حاملاً بالضرورة كرامة الآب ومجده: «أنا مجّدتك على الأرض» (يو١٧ : ٤). لذلك يتحتم لكي يمجد الناس الآب أن يمجدوا الابن، هذا من جهة شخص الابن في ذاته، وإضافة إلى ذلك فإن الابن يمثل شخص الآب الذي أرسله، فالذي لا يمجد الابن ــ المسيح ــ لا يكرم الآب الذي أرسله. والمسألة في عمق معناها ليست مسألة مُرسِل ومُرسَل، بل مسألة الوحدة القائمة بينهما!!

هذا يعني أن المسيح يطالب بمجد الآب سواء في شخصه كابن الآب أو بصفته كمُرسَل من الآب ويمثله بذاته! لذلك فعدم تكريم الابن هو كذلك بالنسبة للآب. والذي يزدري بالمسيح يزدري بالله الآب وعقابه أشرّ: «من خالف ناموس موسى فعلى شاهدين أو ثلاثة شهود يموت بدون رأفة. فكم عقاباً أشرّ تظنون أنه يُحسب مستحقاً من داس ابن الله وحَسِبَ دم العهد الذي قُدِّس به دنساً وازدرى بروح النعمة ... مخيفٌ هو الوقوع في يدي الله الحي.» (عب١٠ : ٢٨ــ ٣١)

وتحقيقاً لبنوّة المسيح للآب قام المسيح بشفاء الناس وإعطائهم الحياة على أساس غفران الخطايا، الأمر الذي هو من صميم اختصاص الله الآب: «ولكن لكي تعلموا أن لابن الإنسان سلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايا حينئذ قال للمفلوج قم احمل فراشك واذهب إلى بيتك.» (مت٩ : ٦)

وتحقيقاً لكون المسيح مُرسَلاً من الآب، فقد باشر أعمال الآب: «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله» (يو٤ : ٣٤). ولكن إذ أعطى الله الابن سلطاناً لكي يشفي ويحيي ويقيم من الموت، تحتّم أن يعطيه أيضاً سلطاناً لكي يدين، لأن غفران الخطايا هو الجزء الأعظم من سلطان القاضي أو الديان. وحينما تقول الآية التي نحن بصددها وفي مستهلّها: **«لكي»**، فهي تعني «وبناءً على ذلك»، أي بناءً على كل ما سلف، بمعنى بناءً على أن الابن يعمل عمل

الآب، وبناءً على أن الآب يحب الابن ويريه كل ما يعمل، وبناءً على أن الابن يقيم الأموات ويعطي حياة، وبناءً على أن الآب أعطى كل الدينونة للابن؛ بناءً على ذلك كله، تحتم أن يكرم الناس الابن كما يكرمون الآب، وإلاَّ فالمهانة وعدم الإكرام تصبح موجَّهة للآب الذي أعطاه كل هذا والذي أرسله أيضاً.

ولكن واضح تصميم الآب أنه لكي يكون للابن الكرامة والمجد المساويين للآب في كل شيء، أعطاه كل الدينونة لتخضع له كل خليقة ما في السموات وما على الأرض. هنا حقٌ للمسيح أن يقول: «أنا والآب واحد» (يو١٠: ٣٠)، وأن يخاطب الآب: «كل ما هو لي فهو لك وما هو لك فهو لي وأنا ممجَّد فيهم» (يو١٧: ١٠)؛ وكذلك، وعن حق وعن يقين واستحقاق، أن يُدعى المسيح ابن الله، وأن يدعو المسيح الله الآب «أبي».

ولكن يخطىء الناس وإلى يومنا هذا في أنهم يفهمون أن المجد قد صار كله للابن، لذلك لم تَعُدْ الغالبية من المؤمنين يقدمون المجد والكرامة إلا للمسيح ولا يُذْكر مجد الآب إلا في الجمل الرسمية من الصلوات المحفوظة. **لذلك وجب هنا أن ننبه أن المسيح جاء ليستعلن الآب، حتى تكون صلتنا بالآب أكثر وضوحاً وتغلغلاً في الفكر والقلب بالعبادة الشخصية. والحقيقة التي يتحتم أن يفهمها كل مؤمن أنه كلما ازدادت صلتنا بالمسيح ازداد حضور الآب في القلب بصورة عملية؛ فإذا ضعفت صورة الله الآب في الوعي، فهذا معناه أن الوعي المسيحي ناقص جداً والإيمان يحتاج إلى مراجعة شديدة:** «في ذلك اليوم تطلبون باسمي، ولست أقول لكم أني أسأل الآب من أجلكم لأن الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني.» (يو١٦: ٢٦و٢٧)

ومن صميم الإيمان الحي الموصل للحياة بالفعل أن يكون **إيماننا بالآب هو الموصل لإيماننا بالمسيح**، لأن المسيح هو عطية الله الآب لنا: «لو كنتِ تعلمين **عطية الله** ومَنْ هو الذي يقول لكِ أعطيني لأشرب» (يو٤: ١٠)، ثم أن المسيح سبق وأعلن أنه: «**لا يقدر أحد أن يُقْبِل إليَّ إنْ لم يجتذبه الآب الذي أرسلني**» (يو٦: ٤٤)، وأن كافة التلاميذ المخلصين للمسيح هم عطية الله الآب للمسيح: «كانوا لك وأعطيتهم لي» (يو١٧: ٦). فحتى الشكر الذي نقدمه يتحتم أن نقدمه دواماً للآب في اسم المسيح (أف٥: ٢٠، كو٣: ١٧)، علماً بأن جوهر الإيمان والعبادة ينص أن المجد والكرامة ــ τιμή ــ متساوية تماماً بين الآب والابن والروح القدس، لذلك تحتم أن تكون العلاقة الشخصية الحية والعملية مع الحب المتبادل للثالوث الأقدس متساوية.

٥ : ٢٤ «الحقَّ الحقَّ أقولُ لكم: إنَّ مَنْ يسمعُ كلامي ويؤمنُ بالذي أرسلني، فلهُ حياةٌ أبديةٌ، ولا يأتي إلى دينونةٍ، بل قد انتقلَ من الموتِ إلى الحياةِ».

مرة أخرى يستعلن المسيح الوحدة الترابطية بين الآب والابن إنما بصورة غير ملحوظة، إذ يعتبر أن الخلاص لا يتم للإنسان إلاَّ بالآب والابن. فالإيمان الذي يربط بينهما يؤدي إلى الحياة الأبدية ويعتق من الموت الحقيقي وليس موت الجسد.

ونعود سريعاً إلى قول المسيح: «الحق الحق أقول لكم»، التي هي الإعلان الرسمي الإلهي على مستوى القَسَم، والذي يتصدَّر حقيقة جديدة كانت مخفية وقد صار إعلانها علناً لتكون ركناً أساسياً في الإيمان المسيحي.

وهنا يلزم، أيها القارىء العزيز، أن ننتبه غاية الإنتباه، إنما في خشوع وخضوع كلي لسلطان الكلمة، لأن وراءها أعظم عطية يمكن أن ينالها الإنسان على الأرض. وأقدِّم لك هذه الخطوات لكي تصل إلى سرِّ هذه الآية:

١ ــ مطلوب بساطة قلب وفكر يشبه فكر الأطفال لقراءة وفهم أقوال المسيح وهذا القول بالذات!

٢ ــ مطلوب تصديق قلبي وفكري بهدوء وتركيز في المعنى الذي تحويه الكلمات في أقوال المسيح.

٣ ــ مطلوب معرفة أن هذه الآية تحمل وصية ضمنية أي ما يشبه الأمر الإلهي، وكل وصية أو أمر إلهي يُقبل فوراً بدون أسئلة جانبية أو طلب زيادة وضوح أو شرح. فالأمر يحمل قوَّته في قبوله كما هو بدون فحص. وحالما يقبل الإنسان الأمر، يبدأ الأمر يفسِّر نفسه ويلقِّن الإنسان كيف يمكن تكميله والحصول على كل ضماناته. هذا ينطبق على كل وصايا المسيح.

والأمر، أي الوصية، في هذه الآية: **«إن مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني»**، يمكن وضعه كالآتي: «اسمع صوتي وآمن بالذي أرسلني».

٤ ــ كل **وصية** للمسيح تحمل معها **«وعداً»**، بمعنى أن كل وصية تحمل معها عطية سخية تفوق العقل، لأن كل وعود المسيح هي فائقة جداً على الطبيعة. لا يمكن أن يعطي المسيح أمراً أي وصية دون أن يصرِّح ضمناً بالوعد والعطية السخية التي تتبعها حتماً. وكل وعود المسيح مطلوب تصديقها بالقلب بشدة كما هي.

والوعد الذي في هذه الوصية هو: «له حياة أبدية»، وأنه «لا يأتي إلى دينونة»، أي ينعتق من الدينونة بمغفرة خطاياه، سواء في الحاضر في الضمير أو في المستقبل في الدينونة العامة، بل قد انتقل من الموت الحقيقي (غير الجسدي أي موت الخطية) إلى الحياة (الحقيقية). هذا يتم بالتصديق الإيماني.

والآن مطلوب أن تقرأ الآية مرة أخرى بكل هدوء وعلى المهل وتطبق الشروط السالفة. والنتيجة ستكون في حالة النجاح في التطبيق أن يحصل الإنسان على الإحساس بأن سر الآية قد انفتح على النفس، وأن الإنسان دخل في الكلمات والكلمات دخلت في الإنسان وصار الإنسان في مواجهة المسيح والآب والحياة الأبدية!

أما بعد ذلك فيلزم تكميل الإيمان بدراسة الكلمة ومعرفة دقائق الإيمان وممارسة العبادة كما تفرضها الكنيسة بتدقيق.

«مَنْ يسمع كلامي»:

«أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك **وأجعل كلامي في فمه** فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي **لا يسمع لكلامي** الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه.» (تث١٨: ١٨و١٩)

«يوقظ كل صباح، يوقظ لي أذناً لأسمع كالمتعلمين، السيد الرب فتح لي أذناً وأنا لم أعاند، إلى الوراء لم أرتد.» (إش٥٠: ٤و٥)

السمع هنا ليس سمع الأذن الموصل إلى العقل للفهم المنطقي فحسب، بل يتضمن دخول الكلام ـــ وهو روح ـــ من الأذن إلى القلب ليحركه، لأن الكلمة فيها حياة. إذا تحرك القلب تحت وطأة سماع الكلمة يكون سماعاً صادقاً حقيقياً قال عنه المسيح في سفر الرؤيا: «مَنْ له أذن فليسمع ما يقوله الروح» (رؤ٢: ٧). هنا يطلب المسيح أذناً روحية تسمع بالروح! وفي إنجيل القديس متى يقول: «وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا (يوحنا المعمدان) المزمع أن يأتي. مَنْ له أذنان للسمع فليسمع» (مت١١: ١٤و١٥). هنا يطلب الأذن التي تقبل الحقيقة وما وراءها، **لأنه إن كان المعمدان هو إيليا إذن فيسوع هو المسيّا الآتي!!** والمسيح يطلب الأذن التي تسمع الروح وتفهم القصد وتؤمن بالوعد!!

«يسمع كلمتي»: ὁ τὸν λόγον μου ἀκούων

«كلام الحياة الأبدية عندك.» (يو٦: ٦٨)

«وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن... الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير.» (يو١٢: ٤٧و٤٨)

هنا جدير بنا أن نفرق بين «**يسمع صوتي**» التي ستأتي في الآية القادمة (٢٥)، و«**يسمع كلمتي**» في الآية (٢٤). والفرق بينهما كبير، فصوت المسيح قوة روحية حينما يستقبله القلب المشتاق له، ترن فيه رنة الحياة وتهتز أوتاره بل جدرانه، كمَنْ يستقبل رب الحياة. أما الكلمة فهي إنجيل الخلاص، والصوت كائن في الكلمة وفي كل آية. الكلمة تمنح حقيقةً ومعنًى روحياً ووعداً وتأكيداً، وهي قادرة أن تغير وتجدد وتَلِد من جديد، أما الصوت فهو صوت شخص ابن الله الذي يعلن عن وجوده ومعه الحب والحياة والعطف والحنان، وكأن الإنسان بلغ الملكوت: «خرافي تسمع صوتي.» (يو١٠: ٢٧)

ثم يلزمنا هنا أن نصحح الترجمة العربية، فهي ليست «يسمع كلامي» بل «يسمع كلمتي» **(اللوغس)**، ومعناها الكلي: «يقبلني باعتباري "**الكلمة**" المتجسد، الابن الوحيد المحبوب ناطقاً بصوت الآب واسمه».

ومعروف أن المسيح بمجرد أن قال كلمته، فقد انقسم العالم إلى مَنْ يسمع وإلى مَنْ لا يسمع، إلى مؤمن وإلى رافض، الذي يسمع يؤمن والذي يؤمن **«لا يأتي إلى دينونة»**. وهذا اصطلاح يهودي معناه البسيط أنه لا يُطلَبُ حضوره أمام القاضي أو الديَّان، بمعنى المعافاة المطلقة أو البراءة بدون محاكمة.

«ويؤمن بالذي أرسلني»:

المسيح هنا يعتمد على كل ما استعلنه عن الآب. فهو يطالب كل مَنْ يعرف الآب كما استعلنه المسيح، أن يؤمن به، بمعنى أن يؤمن بما نقل الابن عنه من قول أو وعد. فمثلاً نقل المسيح عن الآب هكذا: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (يو٣: ١٦). المطلوب هنا تصديق كلام الآب تصديقاً ينفذ في العقل ويخترق القلب ويملأه، فيؤمن بصدق الآب وصدق وعده: أنه أحبَّنا بالفعل وأنه أرسل ابنه بالفعل فديةً لكلِّ مَنْ يؤمن، فلا يهلك بل ينال الحياة الأبدية.

وكوننا نؤمن أن الآب كان صادقاً وأرسل ابنه ليفدينا، هذا بحدّ ذاته هو الإيمان بالآب،

ويجعل الآب له علاقة مباشرة بنا: «الآب نفسه يحبكم لأنكم أحببتموني وآمنتم أني من عند الله خرجت» (يو١٦: ٢٧)، «وهم قَبِلُوا وعلموا يقيناً أني خرجتُ من عندك وآمنوا أنك أنت أرسلتني.» (يو١٧: ٨)

انظر أيها القارىء كيف أن الإيمانِ بوعد الآب وصدق كلمته هو النصف المكمِّل للإيمان بالمسيح المؤدي للحياة الأبدية والانعتاق من الدينونة.

«له حياة أبدية»:

المسيح لا يسوِّف، فالمعنى ينصبُّ على الحاضر ἔχει = له **الآن** وكل أوان، لأن الحياة الأبدية غير مرتبطة بالزمن. الحياة الأبدية مثل كل عطايا الله الروحية هي فائقة على الطبيعة، هي فوق الزمان، هي لنا إذا أخذناها الآن، فتبقى معنا إلى الأبد.

«انتقل من الموت إلى الحياة»:

لينتبه القارىء ولا يرفع الأفعال هنا إلى المستقبل، فهي قد تمَّت!! «يكون قد انتقل» هنا المسيح يصوِّر حالةً مقضيًّا بها، حكماً نافذَ المفعول، وكأنه قد صار! بمعنى أن المؤمن الذي انتهى في نفسه من قضية سماع كلمة المسيح واخترقت أذنه الروحية واستقرت في القلب وأصبحت حقيقة إيمانية، وصدَّق كلام الآب وآمن به، فإنه يشعر في قلبه شعور الإيمان اليقيني أنه قد غُفرت خطاياه، وأنه قد سقطت عنه كل الدينونة، وكفَّ عنه صراخ الضمير المشتكي واللائم الدائم، ويحس أنه انتقل من حالة ظلمة قلبية محيطة إلى نور الله، وفرح يدوم مع شكر لا يهدأ «كل حين على كل شيء.» (أف٥: ٢٠)

وإنجيل يوحنا قدير في أن يستحضر الفعل الأُخروي الذي كنا ننتظره وكأنه سيحدث بعد الموت، يحضره في الآنيَّة الزمنية: **الآن** وفي هذه الساعة: «تأتي ساعة **"وهي الآن"** حين يسمع الأموات (بالخطية) صوت ابن الله والسامعون يحيون» (يو٥: ٢٥). ولكن مطلوب الأذن الروحية الآن!

المسيح في إنجيل يوحنا يُلهمنا استعلاناً جديداً عن الموت والحياة!! فالموت الجسدي القديم والرعبة المحيطة به قد انتهيا إلى الأبد وحل محلَّهما الموت الأخطر: وهو موت الخطية الذي كان منسيًّا أو مخفيًّا. و«الحياة» القديمة التي كنا ننتظرها خطأً بعد الموت فلا نكاد نذكرها أو نفهمها أو نحسها، استعلنها المسيح في الحاضر إذ أسقط عنها الزمن الكاذب فظهرت بقوة أكثر من قوة الحياة بالجسد: «فإن **الحياة أُظْهِرت** وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب

وأُظهِرت لنا... ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً.» (١يو١: ٢و٤)

بهذا المعنى الاستعلاني الجديد الذي يقدمه المسيح في هذه الآية، نفهم كيف يؤكد المسيح أن مَنْ يسمع كلامه ويؤمن بالذي أرسله يكون قد انتقل من الموت إلى الحياة، إنه اختبار الحاضر: «تأتي ساعة وهي الآن»!! والانتقال من الموت إلى الحياة، بمعنى سقوط الدينونة وشروق فجر الحياة الأبدية، من شأنه أن يجعل الإنسان يشعر بكيانه **في المسيح والآب** ولا يعود يعيش لنفسه!! فالذي آمن به الإنسان وصدَّقه يُحسُّه ويراه ويحبه ويعيشه!!!

ولكن كون الإنسان قَبِل الآب والابن في كيانه وعاش الحياة الأبدية بنوع ما الآن، لا يعني أنه لا يوجد موت للجسد أو أن هذه هي كل الحياة الأبدية. فالذي نختبره ونأخذه بالإيمان الآن تأخذه ــ كما يقول بولس الرسول ــ كعربون، والعربون دائماً يكون نسبةً ضئيلةً إذا قارنّاه بالحصيلة الكلية: «نحن الذين قد سبق رجاؤنا في المسيح، الذي فيه أيضاً أنتم **إذ سمعتم كلمة الحق إنجيل خلاصكم**، الذي فيه أيضاً **إذ آمنتم خُتِمتم بروح الموعد القدوس**، الذي **هو عربون ميراثنا**، لفداء المُقْتَنى لمدح مجده.» (أف١: ١٢ــ١٤)

وعلى العموم فالمسيح في هذه الآيات لا يقدم تعليماً بقدر ما يطرح عملاً؛ فهو يحفِّز السامع والقارىء ليأخذ قراره، إنه نفس موقفه تجاه اليهود، يطرحه على الإنسان على مدى الدهور. إنه لا يعلِّمهم بل يتحداهم، يطرح الحياة والموت أمامهم، فإما يقبلون الحياة فيه، وإما يقتلونه فَيَبقَوْا في الموت إلى الأبد.

٥: ٢٥ «الحقَّ الحقَّ أقولُ لكم: إنه تأتي ساعةٌ، وهي الآنَ، حينَ يسمعُ الأمواتُ صوتَ ابنِ الله والسامعونَ يحيَوْنَ!».

«تأتي ساعة، وهي الآن»:

على القارىء أن ينتبه إلى الفارق الكبير بين قول الرب في هذه الآية **«تأتي ساعة وهي الآن»**، وبين قوله في الآية القادمة «تأتي ساعة» بدون «الآن». فالأُولى تشير إلى الواقع الحاضر وهو الواقع الروحي، فهي ساعة الخلاص والوقت المقبول الذي تكلم عنه إشعياء النبي (إش٤٩: ٨؛ ٦١: ٢). أما الثانية التي أتت بدون **«الآن»**، فهي تشير إلى المستقبل في نهاية الزمان وهي ساعة الدينونة.

القيامة بالروح قادمة كما تنتظرها الأجيال والآن هي حاضرة. المسيح يؤكد ما يؤمن به الجميع

أن استعلان القيامة القادمة في نهاية الزمان هي أمر حتمي بحسب رجاء اليهود، ولكن الجديد الذي لم يكن يتوقعه أحد هو استعلان المسيح لبدء عمل هذه القوة القادرة على الإقامة من الموت الآن، وهي بعينها قوة الحياة الأبدية! هذه القوة التي تحيي الموتى قائمة وكائنة في الكلمة التي ينطقها المسيح. والكلمة التي ينطقها المسيح هي استعلان الآب والحياة الأبدية التي كانت عنده، وها هو المسيح يستعلنها بالكلمة المنطوقة والآية المعمولة: «والسامعون يحيون»!

هنا ينقل المسيح كل التراث اليهودي عن المستقبل الذهبي البعيد والمجهول والذي فيه تسود إسرائيل على العالمين والذي عبّر عنه الأنبياء «بذلك اليوم»، وعن الآمال العريضة المذخرة فيه، ينقله فجأة إلى هذه الساعة الآن: «فقال لي تنبأ على هذه العظام وقل لها أيتها العظام اليابسة "**اسمعي**" كلمة الرب»، «هكذا قال السيد الرب لهذه العظام، هأنذا أُدخل فيكم روحاً فتحيَوْن... وتعلمون أني أنا الرب»، «ثم قال لي يا ابن آدم (ابن الإنسان) هذه العظام هي كل بيت إسرائيل. ها هم يقولون **يبست عظامنا، وهلك رجاؤنا، قد انقطعنا** (بسبب الخطية وغياب الله)؛ لذلك تنبأ وقُلْ لهم: هكذا قال السيد الرب هأنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبي... وأجعل روحي فيكم فتحيون... و يكون لجميعهم راعٍ واحد.» (حزقيال ٣٧)

واضح هنا أن الأنين و يَبَس العظام وانقطاع الرجاء على لسان النبي بالروح يعبِّر أقوى تعبير عن حالة إسرائيل الروحية أيام المسيح.

أما قول الله على لسان حزقيال: «**أيتها العظام اليابسة اسمعي كلمة الرب**»، فهي هي قول الرب بعينه: «**تأتي ساعة حين يسمع الأموات صوت ابن الله**».

وكلمة «الأموات» هنا يلزم أن نفهمها على أنها موتى الخطية أو عدم الإيمان بالمسيح، لأن موتى الجسد سيذكرهم المسيح بالتحقيق مع صفة مضاعفة ليفرقهم عن موتى الخطية بقوله: «تأتي ساعة فيها يسمع جميع **الذين في القبور** صوته فيخرج ...»، والفرق في الذين يسمعون بين الآيتين، هو أن سامعي صوت المسيح في الآية التي نحن بصددها هم موتى الخطية ولا يذكر هنا «**جميع**»، لأن فيهم من يسمع و يستجيب وفيهم من لا يسمع ولا يستجيب، حيث تأتي كلمة «السمع» في اللغة اليونانية بمعنى السمع والقبول؛ أما موتى الآية القادمة فيذكر فيها «الجميع» لأن جميع الموتى سوف يقومون للدينونة بلا تفريق.

لقد سبق وأعلن المسيح في الأصحاح الرابع عن مجيء هذه الساعة المنتظرة منذ الدهور، ساعة ما بعد الزمن، ساعة الأخرويات، أي أزمنة الحياة الأبدية التي ليست أزمنة الجسديات، حينما قال:

«تأتي ساعة وهي **الآن** حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق، لأن الآب طالبٌ مثل هؤلاء الساجدين له» (يو٤: ٢٣). هنا يصف المسيح جوهر العبادة اللائقة بالله، لأن الله روح والساجدون له يتحتم أن يسجدوا له بالروح. الآن نفهم سرَّ هذه الآية التي مرت علينا، فمعناها ينحصر في أنه لا عبادة مقبولة أو منظورة أو مسموعة من الله إلاّ عبادة القائمين من الأموات الذين انتقلوا من الموت إلى الحياة، أي الذين سمعوا صوت ابن الله، بمعنى قبوله ليجلس الابن على عرش القلب ويدبر ويسود، والذين آمنوا بالذي أرسله أي آمنوا بالآب كونه أرسل ابنه مبذولاً على الصليب حتى لا يهلك كلُّ من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية. فالإيمان بالآب مُسْتَعْلَن عملُه وقوته في إرسالية الابن. والذين أقامهم المسيح من الموت «**الآن**» هم الذين غُفِرتْ خطاياهم، فسقطت عنهم الدينونة وانتقلوا من الموت إلى الحياة، فدخلوا في برِّ المسيح ليتبرأوا أمام الله كأبناء بلا لوم. والقديس بولس يتكلم عن موتى الخطية بوضوح: «وأنتم إذ كنتم **أمواتاً بالذنوب والخطايا**.... ونحن **أموات بالخطايا، أحيانا** مع المسيح.» (أف٢: ١و٥)

هؤلاء هم الساجدون بالروح الذين يطلبهم الله ودفع ثمن حياتهم الجديدة ببذل ابنه الوحيد. أما كيف يسجدون «**بالروح**» فهذا عرفته الكنيسة جيداً في يوم الخمسين ومارسته بقوة، حتى إن صلاة التلاميذ كانت تزعزع المكان: «ولما صلُّوا تزعزع المكان الذي كانوا مجتمعين فيه وامتلأ الجميع من الروح القدس.» (أع٤: ٣١)

لقد تحقق قول الرب ولا يزال من جهة الساجدين بالروح ومن جهة الذين يسمعون بالروح! «فتأتي ساعة وهي الآن»، ولا زالت إلى «**الآن**» حاضرة في عمق الزمن وهي ليست من الزمن في شيء!

ثم عودة إلى «**الحق الحق أقول لكم**» التي استهل بها المسيح هذه الآية. فالحقيقة الإيمانية الجديدة التي يعلنها المسيح والمحسوبة أنها ركن ركين في الإيمان المسيحي، هي أن الإنسان الذي مات بالخطية وانطفأت جذوة روحه تحت سلطانها المهلك، مدعو للحياة من جديد. كلمة المسيح فيها حياته وهذه هي «**القيامة الأُولى**» التي عبر عنها الروح في سفر الرؤيا: «مُبارك ومُقدَّس من له نصيب في القيامة الأُولى، هؤلاء ليس للموت الثاني (الدينونة) سلطان عليهم.» (رؤ٢٠: ٦)

«يسمع صوت ابن الله»:

أنظر المقارنة بين «يسمع كلامي» و«يسمع صوتي» في شرح الآية السابقة (ص٣٥٦و٣٥٧).

«ابن الله»:

هذه واحدة من ثلاث مرات في إنجيل يوحنا يذكر المسيح فيها أنه «ابن الله» بوضوح وعلانية، أما المرتان الأخريان فهما: في آية (١٠: ٣٦)، آية (١١: ٤). وهذه الصفة الجوهرية يتمسك بها ق. يوحنا سواء من فم المسيح أو من البراهين العملية والاستعلانية التي تيقَّن منها، وجعل من هذه الصفة ركيزة الإيمان الأُولى لإنجيله: «لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح **ابن الله**.» (يو٢١: ٣١)

٥: ٢٦ «لأنه كما أن الآبَ له حياةٌ في ذاتِهِ كذلك "أعطى" الابنَ أيضاً أن تكونَ له حياةٌ في ذاتِهِ».

الكلام هنا هو في صميم الطبيعة الإلهية. والمسيح يحدد موقعه من هذه الطبيعة بالنسبة للآب. ولكن لا يمكن الكلام عن **الطبيعة** الإلهية دون التعبير عن **الذات** الإلهية.

الطبيعة الإلهية يشترك فيها الآب والابن على السواء. فالطبيعة الإلهية للآب هي نفسها الطبيعة الإلهية للابن. «والحياة» هي من صميم خواص الطبيعة الإلهية.

ولكن الحياة في الله ليست ممنوحة ولكن هي خاصية الذات الإلهية، فكيان الله حي بذاته. «أنا الكائن بذاتي ἐγώ εἰμι». والذات الإلهية واحدة، هي آب وابن كلٌّ منهما قائم في الذات الإلهية الواحدة. فالآب له بالضرورة الحتمية حياة في ذاته الإلهية، والابن بنفس الضرورة الحتمية له حياة في ذاته الإلهية.

الآية هنا لا تفيد على الإطلاق أن الآب «**أعطى**» حياة للابن في ذاته، هذا مُحال؛ **ولكن الآب أعطى الابن «أن يكون»** له حياة في ذاته كما الآب له حياة في ذاته، أي أن هذا هو حال كيان الأُبوّة والبُنوّة!

فإذا كانت طبيعة الحياة الذاتية هي في الابن كما في الآب، فلماذا أضاف المسيح القول أن الآب **أعطى الابن أن يكون له هذا؟** واضح أن السبب هو التمييز بين الآب والابن في الذات الإلهية.

وإليك قول ذهبي الفم في هذا الموضوع:

[أترى كيف أن المسيح يعلن التعادل الكامل بينهما إلاّ في نقطة واحدة وهي أنه: واحد هو الآب، وواحد هو الابن. لأن بقوله «قد أعطى» يوضح هذا التمايز، ولكنه يعلن أن كل

شيء ما عدا هذا متساوٍ تماماً. وعليه فمن الواضح أن الابن يعمل كل شيء بسلطان وقوة مثل الآب تماماً. وأن الابن لا يأخذ قوة من أي مصدر كان لأنه له حياة كما الآب له حياة.](١٣)

٥ : ٢٧ **«وأعطاه سلطاناً أن يدينَ أيضاً لأنه ابنُ الإنسانِ».**

في كل الامتيازات المذكورة في التسع الخطوات التي أعلن المسيح فيها لاهوته (أنظر صفحة ٣٣٨)، يقف هذا الامتياز وحده ليختص ببشرية المسيح. فهنا امتياز الدينونة أخذه المسيح باعتباره **«ابن إنسان»** حسب القراءة اليونانية الصحيحة υἱὸς ἀνθρώπου بدون التعريف بـ«الـ» = τοῦ. وذلك يعني أن المسيح يتبوأ مركز الدينونة العالي ليس بصفته ممثلاً للبشرية، وإلا لزم أن يكون «ابن الإنسان»، ولكن المذكور هنا هو «ابن إنسان»، فرفع «الـ» التعريف توضح أن اصطلاح «ابن الإنسان» لا يفيد شخص المسيح بل الجنس أي أنه يدين كإنسان! وهذا المعنى يحمل منتهى العدالة الإلهية إذ جعل الديان الذي يقضي لبني الإنسان هو **«ابن الإنسان»**، أي من جنس مَنْ يقضي لهم: هذا ما يقرره بولس الرسول في سفر العبرانيين بوضوح: «من ثَمَّ كان ينبغي أن يشبه إخوته في كل شيء **لكي يكون رحيماً** ورئيس كهنة أميناً فيما لله حتى يُكفِّر خطايا الشعب. لأنه فيما هو قد تألم مجرباً يقدر أن يعين المجرَّبين... لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضعفاتنا بل مُجرَّب في كل شيء مثلنا بلا خطية. فلنتقدم بثقة إلى عرش النعمة لكي ننال رحمة ونجد نعمة عوناً في حينه (نجد نعمة للمعونة في وقت الحاجة)» (عب٢: ١٧و١٨؛ ٤: ١٥و١٦). لذلك أصبح من خصائص المسيح العجيبة التي تميزه كقاضٍ للبشرية أنه يشفع في المذنبين! «وأما هذا فمن أجل أنه يبقى إلى الأبد له كهنوت لا يزول (بصفته مُقدِّم أقدس وأعظم ذبيحة حية على عرش الله)، فمن ثَمَّ يقدر أن يخلِّص أيضاً إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله إذ هو حي في كل حين يشفع فيهم» (عب٧: ٢٤و٢٥). أي أن ديان الناس هو بعينه محامي البشرية الأول. وقد جمع بولس الرسول هاتين الوظيفتين معاً هكذا: «من هو **الذي يدين؟** المسيح، الذي مات بل بالحري قام أيضاً الذي هو أيضاً عن يمين الله، **الذي أيضاً يشفع فينا**» (رو٨: ٣٤ — ترجمة مصححة عن اليونانية).

إذن، خطير حقاً أن نفقد لأنفسنا وظيفة الشفاعة هذه برفضنا المسيح الشفيع فلا يبقى لنا منه إلا الدينونة!!

---

13 Chrysostom, *op. cit.*, p. 139.

واستخدام المسيح للفظ «ابن إنسان» هنا ينبهنا مباشرة إلى نبوة دانيال: «كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل **ابن إنسان** أتى وجاء إلى القديم الأيام (الآب) **فقرّبوه قدامه** فأعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبّد له كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض» (دا٧: ١٣و١٤). وبولس الرسول أدخل في اللاهوت صفة المسيح «الإنسان» بقوله: «فإنه إذ الموت بإنسان **بإنسان أيضاً قيامة الأموات**» (١ كو١٥: ٢١)؛ موضحاً بذلك الجنس البشري الذي يتجنس به المسيح ليكمل به عمل الفداء!

وهكذا يتضح لنا أن في قول المسيح: «**وأعطاه أن يدين أيضاً لأنه ابن إنسان**»، تلميحاً واضحاً لنبوة دانيال التي يحاول المسيح فيها أن ينبه ذهن اليهود إليها لينتبهوا إلى شخصه، ولكن شكراً لله، فالذي عثر فيه اليهود صار لنا دليل حياة ومرساة إيمان.

٥: ٢٨و٢٩ **«لا تتعجبوا من هذا، فإنه تأتي ساعةٌ فيها يسمعُ جميعُ الذينَ في القبورِ صوتَه، فيخرجُ الذينَ فعلوا الصالحاتِ إلى قيامةِ الحياةِ، والذين عمِلوا السيئاتِ إلى قيامةِ الدينونةِ».**

لقد طرح المسيح أمامهم في الآية (٢٥) درجة أولى من درجات السمع والحياة: «تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون». هنا سماع صوت المسيح، والإنسان لا يزال يعيش، ولو أنه ميت بالخطية في الحقيقة! وهنا السماع هو في درجته الاختيارية، كذلك الحياة التي ينالها من جراء غفران الخطية هي حياة جديدة في صميم الحياة القديمة، حياة حقيقية بالروح في صميم حياة الجسد الزائلة.

ففي هذه القوة التي للرب في إقامة موتى الخطية لقبول حياة أبدية، يقول الرب: «لا تتعجبوا، لأنه تأتي الساعة الأخيرة ــ ليست الآن ــ تأتي في وقتها المحدد، فيسمع جميع الموتى (موتى القبور)». هنا قيامتان، لأنه في الحقيقة لو تمشينا مع لاهوت ق. يوحنا وفهمه للموت والحياة والقيامة، يكون موتى القبور هم إما الذين فاتتهم القيامة الأولى ــ التوبة والغفران والمعمودية ــ **ولم يسمعوا لصوت المسيح** ولا اقتنعوا بندائه للتوبة ولا رجعوا عن سيرة الخطية، بل استمروا في غيّهم في طريق الموت الروحي وضاع عليهم زمن الخلاص، واحتوت أجسادهم القبور؛ هؤلاء يسمعون صوت المسيح ــ ليس المخلّص بعد ــ بل الديّان، وهو الصوت الذي يدعوهم لتقديم حساب الحياة ويطالبهم بثمن دمه الذي سفكه من أجلهم فازدروا به، ويطالبهم بثمر الإنجيل

الذي طرحه أمامهم بين أيديهم، فطرحوه تحت أرجلهم وداسوا على الكلمة وأهانوا الروح. هؤلاء لهم قيامة واحدة أو صحوة يصحونها على الضمير المعذَّب حيث يواجهون الدينونة بل ويقيمون فيها؛ أما القيامة الأخرى، فهي للذين أحبوا النور وكانت أعمالهم بالله معمولة، فهؤلاء لهم القيامة الثانية في ملكوت ابن الله حيث ميراث المجد. والمسيح يخاطب اليهود أن هنا لهم أن يتعجبوا كما يشاءون، لأن ما سبق وقاله بخصوص القيامة الروحية الأُولى لموتى الخطية، لهم أن يقبلوا به أو لا يقبلوا، أما إقامته الجبرية لكل ذي جسد فهو أمر حتمي سوف يخضعون له صاغرين.

ولو يلاحظ القارىء أن الرب سبق وطرح أمام نيقوديموس دعوته نفسها: «لا تتعجب أني قلت لك ينبغي أن تولدوا من فوق» (يو٣: ٧). فلهذا قال له: «لا تتعجب أنه ينبغي أن تولد من جديد»، ولهؤلاء قال: لا تتعجبوا أنكم سوف تقومون لدينونة عتيدة. فسماع الأذن اليهودية المنغمسة في الماديات والدنيويات صعب عليها أن تقبل التجديد لتحيا للروح. وأصعب من ذلك أن تصدق أنها ستُدان: والكلام لنا أيضاً...

فعلوا الصالحات وعملوا السيئات:

هو التعبير العملي عن الإيمان وعدم الإيمان، قبول النور ورفض النور، محبة الحق وبغضة الحق، فالذي آمن بالمسيح قد صار له عمل صالح بالدرجة الأُولى: «فقالوا له: ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله. أجاب يسوع وقال لهم: **هذا هو عمل الله أن تؤمنوا** بالذي هو أرسله» (يو٦: ٢٨و٢٩). لأن الذي آمن بالمسيح يعني على المستوى الإيماني الحقيقي أنه قد صار يعيش للمسيح والمسيح يحيا فيه، وصار الروح القدس يعمل معه أعمال الله الصالحة. ويستحيل لأحد أن يؤمن بالمسيح ولا يكون له عمل صالح.

أما الذي لا يؤمن، فلا يملك الصالح ــ الله ــ الذي يعمله ــ أو يعمل لحسابه ــ ولا يعرف ما هو الصلاح الذي يطلبه. والشجرة تُعْرَفُ من ثمارها (مت٧: ١٩و٢٠). ولو تلاحظ تجد أن المسيح في الآية ٢٥ والآية ٢٨ أوضح أنه صاحب دينونتين: الأُولى ــ دينونة خلاص ــ للضمير ليُحييه ويُقيمه من موت الخطية، والدينونة الثانية للحكم على مَنْ قَبِل ومَنْ رفض. فالذي قَبِل دينونة الضمير الأُولى ينجو من الدينونة الدائمة اللائمة لأنه يكون قد قَبِلَ الحياة الأبدية ويعيشها. والذي رفض دينونة الضمير يكون قد ضاعت عليه فرصة التوبة وفرصة الحياة أيضاً، ولا تبقى له إلا دينونة الندم.

الإيمان والأعمال: كما تقدمه الكنيسة سواء بتعليم القديس يوحنا الرسول، أو بتعاليم الرسل الآخرين.

١ ــ **توجد دينونة «للإيمان» قاطعة:** «الذي يؤمن به لا يُدان والذي لا يؤمن به قد دِينَ لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد.» (يو٣: ١٨)

و يشرحها ق. يوحنا في رسالته هكذا: «إن كنا نقبل شهادة الناس فشهادة الله أعظم، لأن هذه هي شهادة الله التي قد شهد بها عن ابنه. مَنْ يؤمن بابن الله، فعنده الشهادة في نفسه. مَنْ لا يصدِّق الله، فقد جعله كاذباً لأنه لم يؤمن بالشهادة التي قد شهد بها الله عن ابنه. وهذه هي الشهادة (قوة الشهادة وصدقها) أن الله أعطانا حياة أبدية، **وهذه الحياة هي في ابنه.** مَنْ له الابن، فله الحياة؛ ومَنْ ليس له ابن الله، فليست له الحياة.» (١يو٥: ٩ ــ ١٢)

وهذا يعني به ق. يوحنا أن الإيمان بالمسيح له شهادة حاضرة، وهي الحياة الأبدية التي تكون قد انسكبت في قلب مَنْ آمن بالمسيح، وصار يحيا في ملء نعمة الروح. فمَنْ له هذه الحياة تكون له الشهادة في نفسه ومن الآخرين، أنه مؤمن حقاً بالمسيح، و يكون هذا بحد ذاته برهانَ رفع الدينونة عنه إلى الأبد. وذلك بعكس مَنْ ليس له إيمان ولا شهادة. فإن الدينونة تظل تلاحقه الآن بسبب عدم الإيمان، وفي النهاية بسبب سوء الأعمال!!

٢ ــ **وتوجد دينونة «للأعمال» قاطعة:**

ــ «ونحن نعلم أن **دينونة** الله هي حسب الحق **على الذين يفعلون** مثل هذه. **أفَتَظنُّ** هذا أيها الإنسان الذي تدين الذين يفعلون مثل هذه وأنت تفعلها أنك تنجو من دينونة الله. أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته غير عالم أن لطف الله إنما يقتادُك إلى التوبة. ولكنك من أجل قساوتك وقلبك غير التائب تَذْخَرُ لنفسك غضباً في **يوم الغضب واستعلان دينونة الله العادلة، الذي سيجازي كل واحد حسب "أعماله".** أما الذين **بصبر في العمل الصالح** يطلبون المجد والكرامة والبقاء، **فبالحياة الأبدية.** وأما الذين هم من أهل التحزُّب ولا يطاوعون للحق **بل يطاوعون للإثم، فسخطٌ وغضبٌ، شدةٌ وضيقٌ على كل نفس إنسان يفعل الشر... ومجد وكرامة وسلام لكل مَنْ يفعل الصلاح.**» (رو٢: ٢ ــ ١٠)

ــ و يعود القديس بولس الرسول يؤكد حتمية وقوفنا أمام الديان:

«لأنه **لا بد** أننا جميعاً نُظْهَرُ أمام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شراً.» (٢كو٥: ١٠)

ـ بطرس الرسول أيضاً يشترك في هذا التأكيد عينه:
«الذين سوف يعطون حساباً للذي **هو على استعداد أن يدين الأحياء والأموات.**» (١بط٤: ٥)

ـ وبولس الرسول يحدد الدينونة بيوم معين يصفه للوثنيين ببساطة هكذا:
«فالله الآن يأمر جميع الناس في كل مكان أن يتوبوا متغاضياً عن أزمنة الجهل. لأنه أقام يوماً هو فيه مزمع أن يدين المسكونة بالعدل برجل (إنسان) قد عيَّنه مُقدِّماً للجميع إيماناً إذ أقامه من الأموات.» (أع١٧: ٣٠و٣١)

ـ ويحدد بولس الرسول هذا اليوم الذي للدينونة بيوم ظهور المسيح هكذا:
«أنا أناشدك إذاً أمام الله والرب يسوع المسيح **العتيد أن يدين الأحياء والأموات عند ظهوره وملكوته...**» (٢تي٤: ١)

ـ علماً بأن عقيدة الإيمان بدينونة الأعمال مع القيامة هي راسخة في إيمان الكنيسة منذ أيام الرسل:
«قيامة الأموات والدينونة الأبدية.» (عب٦: ٢)

ـ كما استقر الإيمان الأول في الكنيسة بأن المسيح كـ«ربّ» هو الذي سيضطلع بالدينونة وذلك من فم المسيح نفسه:
«هذا أقامه الله في اليوم الثالث؛ وأعطى أن يصير ظاهراً ليس لجميع الشعب بل لشهود سبق الله فانتخبهم، لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات. **وأوصانا أن نكرز للشعب ونشهد بأن هذا هو المعيَّن من الله ديّاناً للأحياء والأموات.**» (أع١٠: ٤٠ـ٤٢)

وق. يوحنا يقدم نفس التعاليم موضحاً دينونة الأحياء بأنها فرصة التوبة وإعطاء الحياة الأبدية المعتبرة القيامة الأولى في الآية (٥: ٢٥)، وموضحاً دينونة الأموات معبِّراً عنها «بالذين في القبور». إنها الدينونة التي بلا خلاص ولا توبة حيث الحكم الأخير، فهي قيامة يتميز فيها الذين قبلوا الحياة الأبدية بالإيمان عن الذين ضاعت عليهم فرصة الحياة برفضهم للإيمان.

وقد مهد ق. يوحنا لسلطان المسيح على الأحياء والأموات في الآية (٢١) بقوله: «لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويُحيي، كذلك الابن أيضاً يُحيي مَنْ يشاء». هنا سلطان المسيح واضح في قوة القيامة من الأموات التي تلازمها الدينونة، وفي قوة إعطاء الحياة لمَنْ يشاء التي تختص بدعوة

أموات الخطية للقيامة الأُولى لنوال الحياة الأبدية من الآن.

على أن ق. يوحنا يزيد رسالة المسيح الأساسية وضوحاً **بالنسبة للمختارين** سواء في حياتهم الآن أو في قيامتهم من الموت هكذا: «وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني أن كل ما أعطاني لا أُتلف منه شيئاً بل أُقيمه في اليوم الأخير. لأن هذه مشيئة الذي أرسلني أن كل مَنْ يرى الابن θεωρῶν (رؤية إيمان بالروح) ويؤمن به تكون له حياة أبدية (من الآن) وأنا أُقيمه في اليوم الأخير.» (يو٦: ٣٩و٤٠)

ويزيد المسيح نفسه تأكيداً لقوة الحياة والقيامة التي ينالها مَنْ يؤمن به، وذلك بفاعلية سر التناول من جسده ودمه الذي يرشّح فيه قوة الحياة والقيامة من الأموات ــ وهو المسمَّى عند الآباء «ترياق عدم الموت» ــ هكذا:

«مَنْ يأكل جسدي و يشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أُقيمه في اليوم الأخير.» (يو٦: ٥٤)

لهذا ربطت الكنيسة بحسم بين سر الإفخارستيا (المؤسس على الموت والقيامة) وسر غفران الخطايا، باعتبار أن غفران الخطايا هو التمهيد الحتمي للانعتاق من الدينونة و بالتالي لنوال الحياة الأبدية في القيامة.

وإن كان ق. يوحنا لم يحدد «قيامة الأجساد» بالنص إلا أنه لمّح لها بقوله: «الذين في القبور» حيث القبور μνημείοις تعني «غرفة **حفظ** الجسد» في المنطق اللغوي للكلمة، وقد اختارها ق. يوحنا عن الكلمة الأُخرى τάφος التي تعني «مكان **سكنى** الموتى»، وهو تعبير غير واقعي وغير روحي. ولكن الأجساد سواء في مفهوم القديس بولس أو القديس يوحنا ليست مادية وإن كانت على صورتها:

«هكذا أيضاً قيامة الأموات يُزرع في فساد، و يُقام في عدم فساد؛ يُزرع في هوان، ويُقام في مجدٍ؛ يُزرع في ضعف، ويُقام في قوة؛ يُزرع جسماً حيوانياً و يُقام **جسماً روحانياً**. يوجد جسم حيواني، ويوجد **جسم روحاني**.» (١ كو١٥: ٤٢ــ٤٤)

ولكن واضح وبالنهاية أن ق. يوحنا صبَّ كل اهتمامه في كل هذه الآيات على قدرة المسيح الحالية في إعطاء حياة أبدية لموتى الخطية؛ ولهؤلاء أسّس عن قصد واهتمام بالغ سر الجسد والدم ليسند فعل إيمانهم بهذا العمل السري الفائق عن التعبير. لذلك، وفي ختام هذه الآيات، نود لو نلفت النظر لخطورة التأكد من رسوخ فعل الإيمان بالمسيح الذي يكون له شهادة في الإنسان حسب

تعبير ق. يوحنا، وهذه الشهادة هي في الإحساس بالحياة الأبدية وفعلها الفائق لجعل الحياة تسمو فوق الطبيعة البشرية ولها برهانها الصادق: نصرة وفرح دائم مع شهادة.

ولا ينخدع الإنسان المسيحي بأن له إيماناً بالمسيح وهو لا يعيش هذه الحياة، لأنه سينخدع حتماً وبالتالي بأن له أعمالاً صالحة تظهر في عينه أنها صالحة وهي ليست كذلك في عين الله. ويكفي ليقظة الضمير أن نضع هذه الآية أمام كل قارىء ليلتفت إلى نفسه:

«**أنا عارف أعمالك**، أن لك اسماً **أنك حي وأنت ميت**. كُن ساهراً وشدِّد ما بقي الذي هو عتيد أن يموت **لأني لم أجد أعمالك كاملة أمام الله**. فاذكر كيف أخذت، وسمعت، واحفظ وتُبْ فإني إن لم تسهر أُقدِم عليك كلص ولا تعلم أية ساعة أُقدِم عليك» (رؤ٣: ١ـــ٣). وهذا نموذج من دينونة المسيح للضمير في الحياة الحاضرة. وطوبى لمَنْ يقع تحت هذا الصوت...

٥: ٣٠ «أنا لا أقدرُ أن أفعلَ من نفسي شيئاً. كما أسمعُ أدينُ. ودينونتي عادلةٌ، لأني لا أطلبُ مشيئتي، بل مشيئةَ الآب الذي أرسلني».

«أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً»:

المسيح ينتقل هنا من التكلم بصيغة «الابن» في الآيات السالفة إلى التكلم بصفته الأنا « ἐγώ ».

نرجو الرجوع لشرح الآية (١٩) لأن فيها الإفادة كاملة عن عمق هذا المعنى ومغزاه اللاهوتي (راجع ص ٣٤٥ـــ٣٤٩).

«كما أسمع أدين»:

إذا لم نحسن فهم معنى هذا القول سينحرف بنا المعنى إلى مفهوم خاطىء سقط فيه كثيرون ممَّن تعرضوا لشرح هذه الآية ـــ قدامى ومُحْدَثين ـــ إذ قالوا باعتماد الابن اعتماداً كاملاً على الآب. ولكن واقع التساوي المطلق بين الابن والآب لا يجيز قول الاعتماد. فالحقيقة أن الآب يدين والابن ينفذ الدينونة، والعلاقة **بين الفعل غير المنظور لنا عند الآب ـــ يدين ـــ والفعل المُنَفَّذ المنظور لنا عند الابن كمنفِّذ للدينونة هما فعل واحد** ليس بينهما أعلى وأدنى، أو واحد منهما أصلي والثاني مقلِّد، أو الأول أمر والثاني طاعة عمياء. ولكن الفارق الوحيد هو أن **الأول غير منظور، عند الآب؛ والثاني أصبح منظوراً بالابن**. ويلزمنا أن نزيد الأمر هنا وضوحاً، فكل فعل وفكر ومشيئة وتدبير عند الآب يقوم الابن أولاً باستعلانه للمنظور، ثانياً بتنفيذه عملياً في واقع

الإنسان. وبين الفعل وتنفيذه والفكر واستعلانه والمشيئة وتكميلها والتدبير وإخراجه لحيز الوجود المنظور تساوٍ كامل ومطلق في القوة والحكمة والمعرفة. لذلك لا يصح ولا يجوز أن نقول إن الابن يعتمد في عمله أو كلامه أو تعليمه على الآب، وإلاَّ لزم أن نقول بالتالي أن الآب يعتمد على الابن بنفس المقدار، لأنه إن كان الابن يعتمد على الآب في معرفته لكيفية العمل والقول، فالآب يعتمد على الابن في كيفية التنفيذ الدقيق الكامل. ولكن الأصح أن لا نقول بالإعتماد أحدهما على الآخر، بل نقول بالإتفاق المطلق والتساوي المطلق بين عمل الآب وعمل الابن، فالمشيئة واحدة والعمل واحد والفكر واحد والكلمة واحدة عند الآب والابن، ولكنها غير منظورة لنا عند الآب ومنظورة لنا بالابن. فالابن يرى ما عند الآب وينفذ أمامنا ما يراه. والابن يسمع ما عند الآب ويقول لنا ما يسمعه. والابن يعرف مشيئة الآب ويكمل المشيئة كما هي.

وهنا يتحتم أن نفهم أن «**القدرة**» على تنفيذ كل ما عند الآب تنفيذاً كاملاً تماماً يستلزم نفس «**القدرة**» التي عند الآب، وإلا ما استطاع المسيح أن يُخرج إلى حيز الوجود والعمل كل ما يريده الآب ويشاءه!! وهذه هي رسالة الابن ــ بحسب قدرته المساوية للآب ــ أن يعرِّفنا بالآب ويستعلن لنا كل ما عند الآب، لأنه لا توجد خليقة كائنة ما كانت، سواء رؤساء ملائكة أو ملائكة أو أنبياء، يستطيعون أن يعرفوا أو يروا الله **كما هو**، أو يدركوا مشيئته **كما هي**، أو يسمعوا صوته، أو يفهموا **حكمته**، سوى الابن الوحيد. لذلك يقول المسيح نفسه: «الله لم يره أحد قط الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر.» (يو١: ١٨)

«دينونتي عادلة»:

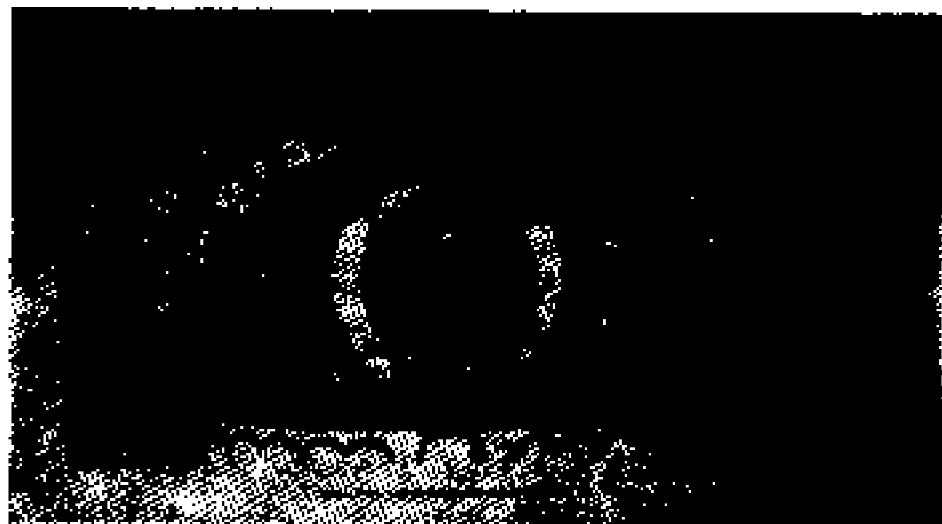
قالوا إن العدالة هنا يستمدها المسيح من الله. ولكن لو صحَّ هذا لفقدنا وظيفة المسيح في حد ذاتها. لأنه إن كان الله هو الذي سيدين بدون المسيح فمَنْ سيخلص؟ المسيح هنا له دور فعَّال في الدينونة، ليس معنا بل مع الله أبيه أولاً. فقد تبوأ مركزاً جديداً أمام الله الديَّان من واقع تجسده وموته الكفاري، وهو دور الشفيع! وشفاعة المسيح ليست كلامية بل كدافع ديون! فقد استطاع المسيح بتقديم ذبيحة نفسه من أجل الخطاة أن يطالب باستحقاق براءة موكليه بمقتضى الدم المسفوك المتكلم والمُطالِب بأقصى حدود الرحمة أمام قضاء الله على العصاة. **والآب ارتضى بالمسيح مُصَالِحاً، وقد وكَّله رسمياً أن يصالح له العالم بدم صليبه**. فبعد المداولة، **يسمع المسيح من الآب** الحكم وينطقه. ولكن ما أعدَلَها دينونة، تلك التي تعتمد في نُطْقها على شفاعة الدم المسفوك.

«لأني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني»:

مشيئة المسيح هي، كليًّا وجزئياً، أن يصنع مشيئة الآب: «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأُتمم عمله» (يو٤: ٣٤). وأما ما هي مشيئة الآب فهي هكذا: «هذه مشيئة الآب الذي أرسلني أن كل ما أعطاني لا أُتلِفُ منه شيئاً، بل أُقيمه في اليوم الأخير. لأن هذه هي مشيئة الذي أرسلني أن كلَّ مَنْ يرى الابن ويؤمن به تكون له حياة أبدية وأنا أُقيمه في اليوم الأخير» (يو٦: ٣٩و٤٠). فإن كانت مشيئة الآب هكذا تنسجم انسجاماً بديعاً مع إرادة الابن الذي أخذ على عاتقه تنفيذها بكل قدرته وقوته، ثم إن كانت مشيئة الآب هكذا حِفْظ أولاده من الشرير وهذا كان هو هو عمل الابن الوحيد، فقد تطابقت مشيئة الآب على عمل الابن، والنتيجة هي ارتفاع عدالة الدينونة بعمل الابن.

ولكن هذه العدالة المُعتمِدة أساساً على شفاعة دم المسيح، هي بدورها شديدة الوطأة على الرافضين. صحيح أن اليهود الذين يخاطبهم المسيح هنا كان فكرهم خالياً من موضوع الدم والشفاعة، ولكن لم يكن فكر المسيح يخلو منه ولا فكر كاتب الإنجيل. فدينونة المسيح العتيدة تستمد قوتها بل رحمتها من قضية الصليب وهكذا الموت التعسفي الذي جازه وحيثيات الحكم الذي اتخذه المسيح أساساً لتبرئة الخطاة:

ــ «مَنْ سيشتكي على مختاري الله؟ الله هو الذي يبرِّر، مَنْ **هو الذي يدين؟ المسيح الذي مات بل بالحري قام أيضاً، الذي هو أيضاً عن يمين الله** ــ (تعادل القضاة) ــ الذي أيضاً يشفع فينا.» (رو٨: ٣٣و٣٤)



القسم الثالث من الأصحاح الخامس

الشهادة للابن: من المعمدان، من الآب، من الأعمال، من الأسفار
(٥: ٣١ـ ٤١)

المسيح يدعم مركزه الإلهي كديان بالشهادة أمام اليهود،
والقديس يوحنا ينتفع من وراء ذلك بتدعيم الإيمان بالمسيح لدى المؤمنين.

٥: ٣١ **«إن كنتُ أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقاً».**

يُلاحَظ في إنجيل يوحنا أن الشهادة تأتي دائماً مدعَّمة بالدينونة. لقد كانت الآيات السالفة مرتكزة على محور الدينونة. والآن ينتقل المسيح من استعلان عمله كديَّان إلى تدعيم هذا العمل الإلهي بالشهادة. وبادىء ذي بدء، فالمسيح كما سنرى لا يقبل الشهادة من إنسان (٥: ٣٤) تماماً كما أنه **لا يقبل مجداً** من إنسان (٥: ٤١).

هذا له معنى لدى المسيح، سواء طرحه أمام اليهود أو طرحناه نحن على مستوى اللاهوت، لأن الذي يعتمد على شهادة الناس يحتاج إلى الناس و يعتمد عليهم، وهذا لا يستقيم عند المسيح ولا يستقيم لاهوتياً.

ولكن أيضاً إن كان المسيح يشهد لنفسه أمام اليهود، فهو يضع نفسه تحت معايير أحكامهم بالقبول أو الرفض، فيظهر كمَنْ يبحث عن أو يطلب استحسانهم أو موافقتهم، وكأنه يطلب مجداً من الناس لنفسه.

لذلك، **فلكي يكون المسيح** حرًّا من الناس ـــ وهو بالحق كذلك ـــ رفض أيضاً أن يشهد لنفسه أمامهم، مع أنَّ له الحق أن يشهد لنفسه (٨: ١٤) وقد أعطى المبرِّر لذلك في حينه.

وهكذا رفض المسيح أن يقبل شهادة من أحد، كما رفض أن يشهد لنفسه، ولم يحسب مجداً من الناس أمراً يهمُّه!

أما قول المسيح «إن كنت أشهد لنفسي **فشهادتي ليست حقاً**»، فهذا يعني به أنها ليست حقاً لدى اليهود وحسب معاييرهم، ناموسيةً كانت أو عُرفيةً. لأننا نعلم بحسب الحق أن شهادة المسيح هي الحق بعينه.

ولكن المسيح هنا يقطع خط الرجعة على المتشككين والرافضين، فلا يعطيهم فرصة للمعارضة. ولا يسمح لهم أن يظنوا عنه أنه يطلب أن يتمجد في أعينهم! أي في عين بشر. وهنا يظهر بوضوح حذر المسيح من أن يجعل خط استعلانه الإلهي سواء للآب أو لنفسه أن يتداخل فيما هو بشري. فالحق الإلهي كالمجد الإلهي، ليس في عوز ما إلى ما هو بشريٍّ قط.

ولكي نتأكد من هذا الأسلوب الإلهي الذي يسير عليه المسيح، يمكن أن نسمعه وهو يؤكد ذلك من وجهة نظره الحرَّة هكذا: «فقال له الفريسيون أنت تشهد لنفسك، شهادتُك ليست حقاً» ـــ (بحسب العرف والناموس اليهودي الإنساني) ـــ فكان رد المسيح مُفحِماً هكذا: «أجاب يسوع وقال لهم وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق، لأني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب، وأما أنتم فلا تعلمون من أين آتي ولا إلى أين أذهب» (٨: ١٣و١٤). هنا المسيح يقول ما معناه: وإن كنتُ أرفض أن أشهد لنفسي بحسب معيار العالم الذي ينظر إلى مَنْ يشهد لنفسه على أنه يطلب مجد نفسه، إلاَّ أني أشهد لنفسي ولكن ليس بحسب معيار العالم الذي لا يعرفني ولا يعرف المجد الذي أتيت منه ولا المجد الذي أنا ذاهب إليه، بل أشهد لنفسي بحسب معرفتي لذاتي من أين أنا وإلى أين أنا!!

٥ : ٣٢ «الذي يشهدُ لي هو آخرُ وأنا أعلمُ أنَّ شهادتَهُ التي يشهدُها لي هي حقٌّ».

لقد أخطأ مَنْ قال إن المسيح يتكلم هنا عن شهادة يوحنا المعمدان. فشهادة المعمدان ـــ كما سيذكرها المسيح بعد ذلك ـــ وصفها المسيح بأنها كانت مؤقتة وجاءت وكأنها مجاملة أو لتسوية الوضع أمام الفريسيين الذين سألوه. في حين أن المسيح يتكلم هنا عن الشهادة التي تقيم حجَّته أنه الديَّان!! والتي عليها يبني المسيح أصالة وجوده ورسالته وتعاليمه! وسيجيء ذكرها بالتفصيل بعد ذلك سواء في الآية (٣٧) أو في الأصحاح ٨:١٨.

كذلك يُلاحَظ أن الفعل **«يشهد»** يجيء في زمن المضارع الدائم (ὁ μαρτυρῶν - μαρτυρεῖ)، وهذا لا يستقيم إطلاقاً في حالة شهادة إنسان مثل المعمدان، ولكن يطابق الشهادة من الله.

«وأنا أعلم»:

هنا يأتي الفعل οἶδα الذي يفيد المعرفة الكاملة والمطلقة وهي تختلف عن المعرفة التي تأتي بالبحث والاختبار ἔγνωκα والتي جاءت بعد ذلك في الآية (٤٢): «ولكني قد **عَرَفْتُكم** أنْ ليست لكم محبة الله في أنفسكم».

ويُلاحَظ أن قول المسيح هنا يشير إشارة سرّيّة بليغة إلى علاقة المسيح بالآب كونها شخصية وكاملة ومطلقة، وكونها إحدى الثوابت العميقة التي يحياها المسيح في داخله.

«إن شهادته التي يشهدها لي هي حق»:

تأتي بنوع من التعيين والتخصيص، والتي تفيد الإستمرارية ذات الوضوح والبرهان الداخلي والتأكيد الشخصي لدى المسيح. ثم قوله «**إنها حق**» يفيد المعرفة الفائقة بـ«**الأليثيا**»، وهو الحق الثابت الإلهي. ويلزم هنا أن نمتد أكثر لنسمعه يقول عن الآب بالنسبة لليهود أنهم «**لا يعرفونه**» سواء في الآيات ٥: ٣٧و٣٨ أو في الأصحاح ٨: ١٩.

هنا تتضح معرفة المسيح بالآب أنها فوق الناموس والأنبياء والإجتهاد بكل صنوفه، كما يتضح في نفس الوقت علّة عدم قبول اليهود للمسيح وهي الحجاب الكثيف الذي يحجز اليهود عن التعرُّف على الابن بسبب تغرُّبهم عن **الله الآب**، أي تمسُّكهم بالحرف، فعَمِيَتْ أعينهم عن «الكلمة» بمفهومها وواقعها الحي. وهذا ما أشار إليه المسيح بعد ذلك بقوله: «وليست لكم كلمته ثابتة فيكم.» (٥: ٣٨)

٥: ٣٣و٣٤ **«أنتم أرسلتُم إلى يوحَنّا** (المعمدان) **فشَهِدَ للحق. وأنا لا أقبلُ شهادةً من إنسانٍ، ولكني أقولُ هذا لتخلُصُوا أنتُم».**

يلاحظ القارىء المقارنة بين «أنتم» و«أنا». «أنتم» كان يهمكم أن تسمعوا شهادة من إنسان، أما «أنا» فلا أقبل شهادة من إنسان! ولكني أقول ذلك لكي أذكّركم بما علمتموه وسمعتموه منه، لأنه قال لكم الحق وشهد له أمامكم، لعلكم تخلصون.

ويظهر حِذْق ق. يوحنا الباهر هنا في أنه ذكر شهادة المعمدان مباشرة في هذه الآية بعد أن ذكر شهادة الآب «آخر» ــ (غير نفسه) ــ في الآية السابقة. وهذا لكي يقطع خط الرَّجعة على مَنْ يفكر أن المسيح بقوله: «آخر» كان يقصد المعمدان. ولكن للأسف لم ينتبه كثيرٌ جداً من الشراح لهذه اللفتة.

والسبب الذي أغوى الشُرَّاح في الخلط بين الـ «آخر» وهو الآب وبين شهادة المعمدان، هو أن المسيح ألمح لشهادة الآب بلغة خاصة وسرية إلى حد ما. لأن كلمة «آخر» هي في الحقيقة تكملة لـ«أنا» أي أنها شهادة اثنين «**أنا والآخر**». والعجيب أن يظن الشراح أن الآخر هو المعمدان! فهل المعمدان يمكن جمعه مع «أنا» المسيح لتكون شهادة واحدة حسب الحق؟

«أنتم أرسلتم ... فشهد»:

يلاحظ هنا في الوضع التاريخي للشهادة التي أعطاها ق. يوحنا، أنها جاءت في الماضي بكل ملابساتها؛ صحيح أنه شهد للحق، وهذا كان يلزم أن يؤول إلى إيمان اليهود بالمسيح ليخلصوا. ولكن شهادته انتهت، ونُسِيَ المعمدان، ونُسيت شهادته، وذلك بالنسبة للفريسيين الذين يبحثون عن الحق عبثاً. شهادة المعمدان بصفته المُرْسَل من الله للشهادة كانت بحسب الحق تماماً، وهذا يوضح أن اليهود عثروا ليس فيمَنْ شهد له المعمدان بالحق، أي المسيح، ولكنهم أيضاً عثروا في الله الذي أرسل المعمدان ليشهد للحق، وبالضرورة عثروا في الحق ذاته، فصارت شهادة المعمدان ضدهم: «جميع الشعب إذ سمعوا والعشارون برَّروا الله، معتمدين بمعمودية يوحنا. **وأما الفريسيون والناموسيون فرفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم غير معتمدين منه.**» (لو٧: ٢٩و٣٠)

٥: ٣٥ «كان هو السراجَ المُوقَدَ المُنيرَ وأنتم أردتم أن تبتهجُوا بنورِهِ ساعةً».

«كان» فعل ماض أي «ليس هو الآن»، ربما في السجن أو قد مات، ولكن على كل حال قد توقف عن الإشتعال والإنارة. «**لم يكن هو النور**» على كل حال «**بل جاء ليشهد للنور**»، فالمصباح يُوقَدُ لكي ينير، ولكنه لا ينير من ذاته. والمصباح يستهلك ذاته، فالنور الذي يعطيه وقتي وإلى زمن محدود.

«وأنتم أردتم أن تبتهجوا بنوره ساعة»:

هنا الكلام سرّي للغاية، فالمسيح يراجع اليهود لأنهم ظنُّوا المعمدان أنه المسيا، وهكذا برزت الإرادة البشرية الخاطئة محاولةً أن تُلزم الإرادة الإلهية أن يكون هو المسيَّا، وقد هلَّلوا له، مفتعلين البهجة للخلاص الكاذب «**ساعة**»، في حين أن بهجة الخلاص «**أبدية**». وهكذا تبدو الإشارة هنا سرِّية حزينة وخطيرة للغاية بخصوص سجن المعمدان وموته السريع جداً، أليس خطأهم الشنيع في التعرُّف على النور الحقيقي وجَعْلُهم المعمدان نوراً عِوَض كونه شاهداً للنور هو الذي أسرع بإنهاء رسالة المعمدان؟ أرادوا، بعناد قلبهم وزَيفْ رؤياهم، أن يبتهجوا بنوره ساعة ففقدوه إلى الأبد؟ لقد شهد المعمدان نفسه أن نور مصباحه يلزم أن ينقص ليزداد النور الحقيقي، ولكنهم أرادوا أن

يشعلوه بزيادة فانطفأ بين أيديهم!! وعِوَض أن يؤمنوا بشهادته ليخلصوا، عثروا في نوره فانْعَمَتْ بصائرهم عن الحق الذي شهد له.

٥ : ٣٦ «وأما أنا فلي شهادةٌ أعظمُ من يوحنَّا لأن الأعمالَ التي أعطاني الآبُ لأُكمِّلَها، هذه الأعمالُ بعينها التي أنا أعْمَلُها هي تشهدُ لي أنَّ الآبَ قد أرسلَني».

الأعمال عند المسيح يضعها في أعلى وأقصى اهتماماته، فهي برهان إرساليته والأساس الذي يبني عليه رسالته:

+ «الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي.» (يو١٠ : ٢٥)
+ «أعمالاً كثيرة حسنة أريْتُكم من عند أبي.» (يو١٠ : ٣٢)
+ «إن كنتُ لست أعمل أعمال أبي، فلا تؤمنوا بي. ولكن إن كنت أعمل، فإن لم تؤمنوا بي، فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ وأنا فيه.» (يو١٠ : ٣٧و٣٨)
+ «الآب الحالُّ فيَّ هو يعمل الأعمال. صدقوني إني في الآب والآب فيَّ، وإلاَّ فصدِّقوني لسبب الأعمال نفسها.» (يو١٤ : ١٠و١١)
+ «لو لم أكنْ قد عملتُ بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيري لم تكن لهم خطية، وأما الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي.» (يو١٥ : ٢٤)
+ «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله.» (يو٤ : ٣٤)
+ «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته.» (يو١٧ : ٤)

فالأعمال عند المسيح في الواقع تغطي حياته على الأرض كمُستعلن لله الآب. وكلها تصبُّ في اتجاهين متقابلين: الدينونة، وإعطاء الحياة؛ وهما محور رسالته بكل ما تشمله من تعليم وصُنْع آيات أي بالقول والفعل، وهذه هي بعينها شهادته التي يشهد بها على الدوام. وهذه هي التي يقول عنها أن له شهادةً أعظم من يوحنا.

فالعمل عند المسيح شهادة متواصلة، يشهد بها وتشهد له، فهي الحق والحق شهادة بحد ذاته! لذلك فكل كلمة وكل فعل في المسيح يحمل عنصراً إيمانياً لأنه يحمل الحق. فإذا توافق مع الفكر، اهتز له القلب في الحال وتجلَّى المسيح بالإيمان. من هنا كان اهتمام المسيح بتكميل الأعمال التي أعطاه الآب بالغَ الحد، لأنها كما قلنا تشهد له أبلغ شهادة ليس في آذان الناس بقدر ما في قلوبهم. لذلك صحَّ القول: «مَنْ قَبِلَ شهادته (أي آمن بالقول والعمل) فقد ختم أن الله صادق.» (يو٣ : ٣٣)

وهذا عجيب جداً وجدير بنا أن نلتفت إليه، **فإيماننا بالمسيح هو بعينه تصديق الله**، بمعنى أنه يمجد الله أيضاً: «هذه هي شهادة الله التي قد شهد بها عن ابنه، مَنْ يؤمن بابن الله فعنده الشهادة في نفسه. مَنْ لا يصدق الله فقد جعله كاذباً لأنه لم يؤمن بالشهادة التي قد شهد بها الله عن ابنه.» (١يو٥: ٩و١٠)

هنا أيضاً جدير بنا أن نلتفت إلى قوة الكلام، فالذي يؤمن بابن الله يصبح وله شهادة في قلبه مدموغة بصدق الله ولا يعود في حاجة أن يطلب مزيداً من شهادة أو مزيداً من تأكيد. فالإيمان بالمسيح يحمل تأكيده فيه لأنه هو شهادة صدق الله. وهل ممكن أن يكون فوق شهادة صدق الله شهادة تصديق أيضاً؟

والمسيح يؤكد لنا ذلك بقوة وفي سرٍّ، لكل مَنْ ينفتح قلبه ليفهم: «أجابهم يسوع وقال تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني. إن شاء أحد أن يعمل مشيئته (مشيئة الله) يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسي. مَنْ يتكلم (و يعمل) من نفسه يطلب مجد نفسه وأما مَنْ يطلب مجد الذي أرسله فهو "صادق" وليس فيه ظلم.» (يو٧: ١٦—١٨)

«الأعمال التي أعطاني الآب لأُكملها»:

+ «الأعمال التي **أعطاني** δέδωκεν الآب.» (يو٥: ٣٦)

ق. يوحنا يختص بالتشديد على **«العطاء»** في علاقة الآب بالابن(١٤):

+ «الآب يحب الابن وقد دفع δέδωκεν كل شيء في يده.» (يو٣: ٣٥)
+ «يسوع وهو عالم أن الآب **قد دفع** ἔδωκεν **كل شيء إلى يديه** وأنه من عند الله خرج وإلى الله يمضي...» (يو١٣: ٣)
+ «الآب لا يدين أحداً، بل **قد أعطى كل الدينونة للابن.**» (يو٥: ٢٢)
+ «**وأعطاه سلطاناً أن يدين** أيضاً لأنه ابن الإنسان.» (يو٥: ٢٧)
+ «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك **أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته.**» (يو٥: ٢٦)
+ «وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني، **أن كل ما أعطاني (المختارون) لا أتلف منه شيئاً بل أُقيمه** في اليوم الأخير.» (يو٦: ٣٩)

(١٤) راجع المدخل ص ٢١١.

+ «**إذ أعطيته سلطاناً على كل جسد ليعطي حياة أبدية** لكل مَنْ أعْطَيْته.» (يو١٧: ٢)
+ «**العمل الذي أعطيتني** لأعمل قد أكملتُه.» (يو١٧: ٤)
+ «أنا أظهرتُ اسمك **للناس الذين أعطيتني** من العالم. كانوا لك، وأعطيتَهم لي.» (يو١٧: ٦)
+ «كنت أحفظهم **في اسمك الذين أعطيتني**.» (يو١٧: ١٢)
+ «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا، **لينظروا مجدي الذي أعطيتني لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم**.» (يو١٧: ٢٤)
+ «الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم.» (يو١٢: ٤٩)

لكي نفهم مستوى فعل العطاء بين الآب والابن يلزم أن نفهم أن العطاء من الآب إلى الابن هو بالأساس للإستعلان ثم للتكميل(١٥).

فعملُ الآب يعطيه الآب للابن، ليُخْرجه إلى حيز الوجود. لذلك فعمل الابن هو استعلان بالفكر والفعل لنفس عمل الآب على مستوى التنفيذ. فكل شيء وكل عمل وكل مشيئة هي عند الآب غير منظورة، والآب يعطيها للابن ليُظْهِرَها، أو يعطي الابن أن يُظْهِرَها و يُعلنها على مستوى الفعل والواقع المنظور.

لذلك، فالأعمال عند الآب والابن هي واحدة، غير منظورة عند الآب ومنظورة بالابن. من هذا نفهم أن «**العطاء**» في الله من الآب للابن لا يفيد الأخذ بالنسبة للابن بمفهومه السالبي، كما لا يفيد التكليف بنوع الأمر من الأعلى للأقل بل هو للتكميل فالابن يكمل عمل الآب.

واضح هنا الهدف من إعطاء الآب الأعمال للابن، حيث كلمة «**يُكمّلها**» هنا تفيد التكميل حتى النهاية أو حتى الكمال τελειώσω. إذن، فليس مجرد التكميل ولا مجرد النهاية، بل المعنى يتضمن **بلوغ النهاية الحقيقية**، فالعمل ليس للتكميل بل **للكمال! أي يكمّلها كمالاً وليس تكميلاً**. وهذا الأسلوب العجيب الذي اختص به ق. يوحنا يجعلنا نرى الأعمال التي يعملها الابن دائماً في مستوى «**الكمال المسيحي**» «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملتُه (كمالاً) τελειώσας.» (يو١٧: ٤)

ــ «أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا **مكمّلين** (كمالاً) τετελειωμένοι إلى واحد.» (يو١٧: ٢٣)

(١٥) أنظر شرح أصحاح ١٧: ٨و٩.

ـــ «بعد هذا رأى يسوع أن كل شيء قد **كَمَلَ** (كمالاً) τετέλεσται ، فلكي يتم الكتاب قال أنا عطشان.» (يو١٩ : ٢٨)

ويشترك القديس بولس في سفر العبرانيين في هذا الأسلوب من جهة الكمال المسيحي: «لأنه لاقَ بذاك الذي من أجله الكلُّ وبه الكلُّ، وهو آتٍ بأبناء كثيرين إلى المجد، أن **يكمِّل** رئيس خلاصهم بالآلام» (عب٢ : ١٠). هنا يرتفع مفهوم الآلام إلى مستوى بلوغ الكمال!

ـــ «وإذ **كُمِّل**، صار لجميع الذين يطيعونه سبَبَ خلاص أبدي.» (عب٥ : ٩)

٥ : ٣٧و٣٨ **«والآب نفسه الذي أرسلني هو يشهد ـــ (قد شهد)[١٦] ـــ لي. لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته وليست لكم كلمته ثابتة فيكم لأن الذي أرسله هو لستم أنتم تؤمنون به».**

المسيح ينتقل من شهادة الأعمال التي يعملها، وهي نفسها أعمال الآب، إلى شهادة الآب نفسه بصورة مباشرة: «لأني لستُ وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني» (يو٨ : ١٦). وهو يعود ويكرر ذلك في نفس الأصحاح بقوله: «الذي أرسلني هو معي ولم يتركني الآب وحدي لأني في كل حين أفعل ما يرضيه» (يو٨ : ٢٩). لذلك فمن المستحيل أن نتصور الابن وحده بدون الآب بأي حال من الأحوال.

لذلك حينما يشهد الابن لنفسه، تكون شهادة الآب مع شهادته حتماً: «أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي μαρτυρεῖ الآب الذي أرسلني» (يو٨ : ١٨). هكذا تأتي شهادة الآب في الأصحاح الثامن في صيغة الفعل المضارع الدائم.

أما شهادة الآب في الآية التي نحن بصددها فقد جاءت بالفعل الماضي (٥ : ٣٧) = μεμαρτύρηκεν ، وهي الشهادة الذي شهد بها الله على فم الأنبياء كما جاءت في الأسفار المقدسة، والتي انتهت بشهادة المعمدان، والتي على أساسها ذكر المسيح «**كلمة الله**» ـــ في الأسفار ـــ موبخاً اليهود أنهم لم يثبتوا فيها: «وليست لكم **كلمته** ثابتة فيكم» (يو٥ : ٣٨)، كذلك عاد فذكر الأسفار بوضوح في الأصحاح العاشر قائلاً إنها تشهد له (١٠ : ٣٥).

---

(١٦) الترجمة العربية هنا يلزم أن تُصحَّح: فهي في اليونانية جاءت في الماضي التام: «**قد شهد**» μεμαρτύρηκεν .

٥: ٣٧و٣٨ «لم تسمَعُوا صوتَهُ قطُّ ولا أبصَرْتُم هيئتَهُ. وليست لكم كلمتُهُ ثابتةً فيكُم، لأنَّ الذي أرسَلَهُ هو لستُم أنتم تؤمنونَ بهِ».

المسيح يبدأ هنا يستعلن ذاته على أنه هو هو صوت الآب وهيئته، وكلمته أيضاً، ولكن ليس بالعيان بل بالإيمان؛ ليس برؤية العين وسماع الأذن التي انحبست في الماديات، وإنما بالعين الروحية التي يمكن أن ترى الله في المسيح، والأُذن الروحية المفتوحة على صوت الله في المسيح الذي هو الوعي المسيحي. فاليهود إذ رفضوا المسيح، **رفضوا صوت الله**، وانحجب عنهم الله واختفى من محيط حياتهم لما عجزوا أن يتحققوا من المسيح. أما كلمته ــ التي بَثَّها في الأسفار ــ فضاعت من متناول إدراكهم.

المسيح يوضح هنا أن قبول «إرسالية المسيح» هو بعينه الانفتاح على صوت الله وكلمة الله وهيأته، وإرسالية المسيح مثبتة وواضحة في الأسفار المقدسة، والمسيح هو نفسه كلمة الله في الأسفار. فلو كانوا أخلصوا للأسفار المقدسة وثبتوا في كلمة الله، لكان من السهل عليهم أن يؤمنوا بالمسيح. والتأكيد هنا على الشهادة، شهادة الله للمسيح التي أكملها لهم في الأسفار المقدسة.

٥: ٣٩ «فتِّشوا الكتبَ لأنكم تظنونَ أنَّ لكم فيها حياةً أبديةً وهي التي تشهدُ لي».

هنا بلغ المسيح نهاية التوضيح. فاللوم عليهم شديد، لأنهم وهم متخصصون في البحث في الأسفار المقدسة وشرحها وتأويلها، كيف بعد هذه السنين كلها من البحث والتفتيش لم ينفتح ذهنهم على سر الحياة الأبدية الكائنة في الأسفار ليدركوا منها الأمور المختصة بالمسيح؟ فالشهادة التي تقدمها الأسفار للمسيح غزيرة وواضحة: «ثم ابتدأ من موسى ومن جميع الأنبياء يفسر لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب» (لو٢٤: ٢٧). فالأسفار المقدسة هي بحد ذاتها استعلان كامل للمسيح، وهي لم تترك شيئاً من حياته وأعماله وموته وقيامته والخلاص الذي أكمله بالفداء بذبيحة نفسه إلاَّ وتعرضت له في أكثر من موضع. إن شهادة الأسفار للمسيح تكاد تكون صورة كاملة طبق الأصل من حياته وأعماله:

ــ «لأنه أخذ من الله الآب كرامة ومجداً، إذ أقبل عليه صوت كهذا من المجد الأسنى: هذا هو ابني الحبيب الذي أنا سُرِرْتُ به. ونحن سمعنا هذا الصوت مُقْبِلاً من السماء إذ كُنَّا معه في الجبل المقدس. **وعندنا الكلمة النبوية وهي أَثْبَتُ، التي تفعلون حسناً إن انتبهتم إليها كما إلى سراج منير في موضع مُظلم، إلى أن ينفجر النهار ويطلع كوكب الصبح في قلوبكم. عالمين هذا أولاً أن كل نبوة الكتاب ليست من تفسير خاص لأنه لم تأتِ نبوة قط بمشيئة**

إنسان، بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس.» (٢بط١: ١٧ــ٢١)

و يعود القديس بطرس لموضوع البحث والتفتيش في الكتب وفي الزمان عن المسيح هكذا:
ــ **«الخلاص الذي فتش وبحث عنه أنبياء الذين تنبأوا عن النعمة التي لأجلكم، باحثين أي وقت أو ما الوقت الذي كان يدلُّ عليه روح المسيح الذي فيهم، إذ سبق (بالنبوَّة)، فشهد بالآلام التي للمسيح والأمجاد التي بعدها.»** (١بط١: ١٠و١١)

«فتشوا»: ἐρευνᾶτε

في المعنى اليوناني تدل على الفحص الدقيق الشديد المثابر للأسفار، الذي يتجه ناحية التأويل والتفسير الروحي والسرِّي للمدراش. وللتدليل على هذا المعنى نأتي بقول للعلامة الفريسي اليهودي هلّــليل: [قد اعتاد هلّليل القول: مزيدٌ من التوراة، مزيدٌ من النار!! من اقتنى كلمات التوراة، اقتنى لنفسه حياة الدهر الآتي](١٧). ويتمادى العشق القلبي والفكري بكلمات التوراة عندهم حتى قالوا: [إن التعرُّف على الله في التوراة، حتى ولو لم يكن مصحوباً بتوبة، يجعلها تعطي غفراناً للخطايا](١٨). طبعاً خطأ لأن التعرف على الله يأتي ومعه التوبة.

المسيح لا يقول لهم «فتشوا»، لكي يبدأوا و يفتشوا؛ بل هو يراجع عليهم مهنتهم في المعرفة وجهادهم في الدراسة التي كلها باءت بالفشل. لقد ظنوا أن في الحرْف ــ الناموس ــ حياة فاشتبكوا مع الموت ــ (كسر السبت) ــ وما قاموا ولا استقاموا. ولم تأتِ مراجعة الرب لهم من فراغ، لقد واجههم بالعلَّة القاتلة التي قتلت فيهم حاسة الكلمة والحياة والروح: «ليست لكم محبة الله في أنفسكم» (٥: ٤٢). وليس هذا فقط بل: «وتقبلون مجداً بعضكم من بعض، والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه.» (٥: ٤٤)

والمسيح يضمِّن اتهامه حقيقة مخفية غاية في الأهمية وهي: إن كونهم قد أخفقوا أن يسمعوا صوت المسيح يعني أنهم أخفقوا في أن يسمعوا صوت الله في الأسفار!! وهذا عودة مرة أخرى للآية (٢٤): «الحق الحق أقول لكم: إن **مَنْ يسمع كلامي** و يؤمن بالذي أرسلني **فله حياة أبدية**». اليهود كانوا يبحثون عن الحياة الأبدية بواسطة تفتيشهم للأسفار. كانوا يجرون وراء صوت الله! وها هوذا صوت الله في فم المسيح؛ ولكنهم لأنهم لم يكونوا على مستوى صوت الله في الأسفار لم يجدوه، فعثروا في صوت المسيح ولم يتبيَّنوه!

[17] Westcott, *op. cit.*, p. 91.
[18] Ibid.

٥ : ٤٠ «ولا تريدون أن تأتوا إليَّ لتكون لكم حياة»!

المسيح هنا ينبههم، وكأنه يقول لهم إنتبهوا، شهادة الله لي في الأسفار لا تزال قائمة أمامكم، إنتبهوا، أنا هو صوت الله!! لا تفوِّتوا الفرصة على أنفسكم، تعالوا لأن عندي حياة لكم!! الحياة الأبدية التي تفتشون عليها في الأسفار هي معي، هي فيَّ، هي أنا: «فإن الحياة أُظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا.» (١يو١: ٢)

«ولا تريدون... لتكون لكم حياة»:

إنها أخطر جريمة يقترفها الإنسان ضد نفسه! حينما يشعر بالدعوة للعودة إلى الله، و يكون باب الحياة قد فُتح أمامه، والصوت يدعوه مُلحاً في الدعوة، مُشْفِقاً، مُشجعاً، مُتوسلاً!! فتقف الإرادة لتَسُدَّ منفذ الحياة، مُتعلِّلة بعلل كلها الضلال والموت بعينه!!

٥ : ٤١ «مجداً من الناس لستُ أَقْبَلُ».

تتمشى الشهادة مع المجد في إنجيل ق. يوحنا سلباً وإيجاباً. المسيح لا يقبل شهادة من الناس لذلك لا يقبل المجد أيضاً من الناس. لأن كِلاَ الوصفين يستلزم الإعتماد على الإنسان والخضوع لمعايير البشر.

المسيح يطرح هذه الآية أمام اليهود تأميناً لهم حتى يأتوا إليه. فهو لا يطلب المجد لنفسه ولا يقبله من أحد، ولكن يطلبهم هم ليُقْبلوا إليه. المسيح يكرر بأسلوب آخر ما سبق أن قاله «وأنا لا أقبل شهادة من إنسان. ولكني أقول هذا لتخلصوا أنتم.» (يو٥: ٣٤)



القسم الرابع من الأصحاح الخامس

أسباب عدم إيمان اليهود

(٥ : ٤٢—٤٧)

٥ : ٤٢ «ولكني قد عرفتُكم أن ليست لكم محبة الله في أنفسكم».

تسلسل الأفكار يأتي هكذا: المسيح لا يقبل المجد من الناس، لأن مجد المسيح الوحيد هو مع الآب وفيه. ولا أحد يستطيع أن يأتي إلى المسيح إن لم يجتذبه الآب أولاً. اليهود **«لا يريدون»** أن يأتوا إلى المسيح، لأن الآب لا يجتذبهم، والآب لا يجتذبهم لأنهم ليست لهم محبة الله في أنفسهم. لو كانوا أحبوا الله، لجاءوا إلى المسيح بإرادتهم. لذلك، فرفْضُهم للمسيح علامة على أنهم في عداوة مع الله. لقد أصابهم المسيح هنا في مقتلٍ!!!

«عرفْتُكم»: ἔγνωκα

عن اختبار ويقين، المسيح هنا يستعلن مخبآت قلوبهم، المخفية ليس عن عين الله بل عن أعينهم هم!! فالفاقد لمحبة الله لا يعلم أين يسير، لأن الظلمة قد أعمت عينيه!!

«في أنفسكم»:

المحبة موجودة حتماً في أفواههم وفي محفوظاتهم ونصوص إيمانهم، فهي أولى الوصايا. ولكن المسيح فحص أنفسهم فلم يجدها!! وإذا غابت المحبة عن القلب، سكنت البغضة: «وأما الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي. لكن لكي تتم الكلمة المكتوبة في ناموسهم إنهم أبغضوني بلا سبب.» (يو١٥: ٢٤و٢٥)

٥ : ٤٣ «أنا قد أتيتُ باسم أبي، ولستم تقبلونني. إن أتى آخر باسم نفسه، فذلك تقبلونه».

تغرُّب اليهود عن محبة الله أفقدهم القدرة على التعرف على المسيح لما جاء باسم الآب، مع أن **«قوة الاسم»** عاملة في المسيح، ولها برهانها القوي في تعاليم المسيح وأعماله. كيف تغاضى

اليهود عن ذلك؟ هذا في الحقيقة محيِّر لعقولنا للغاية! هذا بالإضافة إلى التحذير المخيف الذي أنذر به الله الذين لا يطيعون المسيَّا الآتي والمتكلم باسم الله: «و يكون أن الإنسان الذي **لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به "باسمي"** أنا أُطالبه» (تث١٨: ١٩). ولكن فقدان حب الله أفقدهم كل ما هو لله، فلم يَبْقَ لهم إلا ما هو لأنفسهم. لذلك، إن جاءهم مَنْ يتكلم باسم **نفسه**، رأوا فيه أنفسهم فيقبلونه.

٥: ٤٤ «كيف تقدِرُون أن تؤمِنُوا، وأنتم تقبَلُونَ مجداً بعضُكم من بعضٍ، والمجدُ الذي من الإلهِ الواحدِ لستم تطلُبُونَهُ».

«كيف تقدرون أن تؤمنوا»:

الإيمان في أبسط وأقوى صوره هو «تمجيد الله» بالقول والعمل؛ ثمر الإيمان الفاخر هو التسبيح بمجد الله على الدوام. إذا انشغل المؤمن بتمجيد الآخرين ضعفت قوة تسبيح الله من قلبه. والذي انشغل بتسبيح مجد الناس عجز لسانه عن النطق بمجد الله.

فإذا كان انشغال الإنسان بتمجيد الناس هكذا يحطُّ من قدرته على عمل واجبات الإيمان نحو الله، فكم بالحري إذا انشغل إنسان بطلب المجد لنفسه؟

وإذا كان طلب الإنسان المجد لنفسه هكذا يحطُّه عن أداء واجبات الإيمان من نحو الله، فكم أيضاً يكون لو استهان ولم يطلب ولم يُعطِ المجد الذي للإله الواحد؟ ثم أليست هذه هي العلّة التي أنهت على مجد إسرائيل وبني إسرائيل وأتت بالخراب على الهيكل والمدينة والشعب والأمّة؟ وأطاحت بالميراث والتراث؟ وعلى الناس أن يختاروا بين مجد الله ومجد أنفسهم!

٥: ٤٥ «لا تظنوا أني أشكُوكُم إلى الآبِ. يوجَدُ الذي يشكُوكُم وهو موسَى الذي عليهِ رجاؤُكُم».

المسيح يُحيل قضية اليهود على محكمة الإختصاص: أي الناموس بقيادة موسى، لأن وظيفة الابن تبقى كمُصالح وشفيع لدى الآب فقط عن الذين يؤمنون به؛ أما مَنْ أخطأ في الناموس وتعدَّى ولم يُعطِ الكرامة لمَنْ له الكرامة، فبالناموس يُدان. وإن كنتم تلاميذ موسى ــ حسب ما تقولون ــ فموسى يُطالب. والمسيح هنا يوقعهم في تناقض مُشين، لأنهم بتصرفهم المُعادي للمسيح وتمسكهم بناموس موسى بآن واحد، يُظهرون ويكشفون تناقضهم. فموسى كتب عن المسيح فكيف

يعادونه، إن كانوا يؤمنون بموسى وإله موسى حقاً؟

٥: ٤٦و٤٧ **«لأنكم لو كنتم تصدّقون موسى، لكنتم تصدقونني، لأنه هو كتب عني. فإن كنتم لستم تصدقون كتب ذاك فكيف تصدقون كلامي»**.

موقف خطير للغاية، فالفريسيون يتصرفون كقضاة لناموس موسى، ويطالبون بالتطبيق الحرفي للناموس، الذي بلغوا به إلى المطالبة بموت المسيح بسبب كسر وصية السبت. والمسيح واقف على قمة الناموس بصفته النبي الذي سيقيمه الله بدل موسى رأساً برأس: **«نبياً» «مثلي»**. وهذا الذي عليه ينعقد لواء المرحلة الأخرى للناموس، وهي مرحلة الإنتقال من الحرف للروح، بوصايا وتعاليم وذبيحة أعظم، وبكلام آخر يضعه الله في فمه، يبدو كلامه حينئذ وكأنه مخالف للناموس الأول؛ لذلك احتاط الله وسبق وحكم ضد مَنْ يتمرد على هذا النبي الآخر، فكلُّ مَنْ يسمع ولم يُطِعْ، يقع في الحال تحت حكم الله وليس الناموس «أنا أُطالبه»: «يقيم لك الرب إلهك نبيًّا من وسطك من إخوتك **مثلي له تسمعون!**... أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم **مثلك**، وأجعل كلامي في فمه، **فيكلّمهم بكل ما أُوصيه به ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أُطالبه.**» (تث١٨: ١٥—١٩)

والآن يقدّم المسيح دعواه ضد حَفَظَةِ الناموس والقوّامين على شرفه. وكأنّي به يقول لهم وأمام موسى: هوذا أنا الذي مثل موسى أتيتُ بحسب وعد الناموس، وهوذا باسم الله أتكلم وبوصية الله أوصي، فإن سمعتم لي كنتم تلاميذ موسى عن حق، وأبناء الله الحي؛ وإن لم تسمعوا فأنتم تحت الحكم، وموسى والناموس يشهدان ضدكم!



الأصحاح السادس

الجزء الثالث: إنجيل الاستعلان

استعلان طبيعة المسيح وشخصه

استعلان الآب والابن

ويشمل الأصحاحات من السادس حتى الثاني عشر

الأصحاح السادس: استعلان طبيعة المسيح "المُخْبية" وشخصه السماوي.

«أنا هو خبز الحياة.» (٦: ٤٨)

- «هذا هو الخبزُ النازلُ **من السماء** لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت.» (٦: ٥٠)
- «مَنْ يأكلني فهو يحيا بي.» (٦: ٥٧)
- «الخبز الذي أنا أُعطي هو جسدي الذي أبذُله **من أجل حياة العالم.**» (٦: ٥١)

الأصحاح السابع: استعلان طبيعة المسيح "الروحية" (الصخرة).

[أنا هو الماء الحي].

- «إنْ عطش أحدٌ فليُقْبِلْ إليَّ ويشربْ.» (٧: ٣٧)
- «مَنْ آمن بي ... تجري من بطنه أنهار **ماء حيٍّ.**» (٧: ٣٨)
- «قال هذا عن **الروح** الذي كان المؤمنون به مُزْمِعين أنْ يَقْبلوه.» (٧: ٣٩)

الأصحاح الثامن: استعلان طبيعة المسيح "النورانية" المحرِّرة الأزلية.

«أنا هو نور العالم.» (٨: ١٢)

- «من يَتْبعْني، فلا يمشي في الظلمة، بل يكون له **نور الحياة.**» (٨: ١٢)
- «إنْ حرَّركم الابن فبالحقيقة تكونون **أحراراً.**» (٨: ٣٦)
- «قبل أن يكون إبراهيم، **أنا كائن.**» (٨: ٥٨)

الأصحاح التاسع: التطبيق العملي لاستعلان طبيعة المسيح النورانية.
«ما دمتُ في العالم، فأنا نور العالم.» (٩ : ٥)

- «أتؤمن بابن الله ... قد رأيته والذي يتكلم معك هو هو.» (٩ : ٣٥ــ٣٧)
- «لدينونةٍ أتيتُ أنا إلى هذا العالم حتى يُبصر الذين لا يبصرون ويَعْمى الذين يُبصرون.» (٩ : ٣٩)

الأصحاح العاشر: أ ــ استعلان عمل المسيح الفدائي من نحونا:
«أنا هو الراعي الصالح.» (١٠ : ١١)

- «والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف.» (١٠ : ١١)
- «خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني. وأنا أعطيها حياة أبدية.» (١٠ : ٢٧و٢٨)

ب ــ استعلان بنوة المسيح ومساواته للآب:

- «لأني قلتُ إني ابن الله...» (١٠ : ٣٦)
- «أنا والآب واحد.» (١٠ : ٣٠)

الأصحاح الحادي عشر: استعلان قوة المسيح المُحيية والمُقيمة من الموت.
«أنا هو القيامة والحياة.» (١١ : ٢٥)

- «من آمن بي ولو مات فسيحيا.» (١١ : ٢٥)
- «لَعَازر هلمَّ خارجاً.» (١١ : ٤٣)

الأصحاح الثاني عشر حتى عدد ٣٦:

استعلان ملوكية المسيح ودينونة رئيس هذا العالم.

- «أوصَنَّا مباركٌ الآتي باسم الرب ملك إسرائيل.» (١٢ : ١٣)
- «الآن دينونة هذا العالم. الآن يُطْرَحُ رئيس هذا العالم خارجاً.» (١٢ : ٣١)

ختام لإنجيل الاستعلان: (١٢ : ٣٧ــ٤٣).

ملخص لإنجيل الاستعلان: (١٢ : ٤٤ــ٥٠).

مكان البشارة
سابعاً ــ في الجليل
(٦: ١ــ٧١)

الأصحاح السادس
استعلان طبيعة المسيح المُحيية وشخصه السماوي

«أنا هو خبز الحياة»(١)

ويشمل هذا الأصحاح:

١ ــ المعجزة التي سيجعلها المسيح آية تعليمه: **إشباع الجموع** (٦: ١ــ١٥).

٢ ــ الآية الملازمة لإشباع الجموع: **السير على الماء** (٦: ١٦ــ٢١).

٣ ــ **حديث الرب في مجمع كفرناحوم عن جسده كخبز الحياة الأبدية**، موسى طلب فأرسل الله المن من السماء لإعالة الشعب في البرية، المسيح هو نفسه الخبز الحي الذي نزل من السماء ليأكله الإنسان فيحيا إلى الأبد (٦: ٢١ــ٧١).

يلزم لنا من بداية هذا الأصحاح حتى نهاية الإنجيل أن ننتبه لما سيعلنه المسيح عن نفسه، فالمعجزات كلها عبارة عن آيات أو إشارات توضح مَنْ هو المسيح. فالتركيز ليس على المعجزة ولا حتى على تأثيرها من جهة إيمان الناس، ولكن على ما تشير إليه من جهة مَنْ هو المسيح.(٢)

لذلك سنواجه في هذا الأصحاح قول المسيح عن نفسه: **«أنا هو»** والتي تأتي في الأصل كاسم شخصي لله: «أنا الكائن بذاتي» ἐγώ εἰμι، أي أنها أصلاً تتعلق بطبيعة وكيان الله، وقد استخدمها المسيح بتأكيد وإصرار، وسوف تتكرر في إنجيل يوحنا في مواضع عديدة(٣)، وتأتي هنا **«أنا هو خبز الحياة»**.

---

(١) تُقرأ أجزاءٌ من هذا الأصحاح في كلٍّ من عشية وباكر وقداس الأحد الثاني من **الخمسين المقدسة** (وهو أول أحد في الخمسين المقدسة بعد أحد توما)، وذلك بسبب أن الإفخارستيا هي سر الحياة الأبدية وعربون القيامة: «فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير». ولنفس هذا السبب تكرَّر قراءة أجزاء من هذا الأصحاح في مناسبات عديدة من الخمسين المقدسة (عشية الثلاثاء الأول وعشية السبت الأول وقداس السبت الثاني وقداس الجمعة الثانية وقداس السبت الثالث وعشية الأحد الرابع من الخمسين المقدسة). وبالإضافة لذلك تُقرأ أيضاً فصول من هذا الأصحاح **في الصوم الكبير** (قداس الخميس السادس والأربعاء السابع)، وذلك على اعتبار أن الصوم الكبير هو الموسم الذي نشتاق فيه إلى **خبز الحياة** بدلاً من الطعام البائد. ولنفس السبب وكاستعداد للدخول في الصوم الكبير تتلى فصول من هذا الأصحاح في الأربعة الآحاد التي تسبق مباشرة الصوم الكبير (وهي الأحد الرابع من طوبة والأحد الأول والثاني والثالث من أمشير).

(٢) راجع المدخل ص٢٩٠ــ٢٩٣.

(٣) راجع المدخل ص٢٣١ــ٢٤٣.

١ ــ معجزة إشباع الجموع

(٦: ١ــ١٥)

«هكذا قال الرب في وقت القبول استجبتك وفي يوم الخلاص أعنتك فأحفظك وأجعلك عهداً للشعب... قائلاً للأسرى اخرجوا للذين في الظلام اظهروا. على الطرق يرعون وفي كل الهضاب مرعاهم. لا يجوعون ولا يعطشون ولا يضربهم حر ولا شمس لأن الذي يرحمهم يهديهم وإلى ينابيع المياه يوردهم.» (إش٤٩: ٨ــ١٠)

ملاحظات هامة:

لاحظ أن المسيح انتقل من الخدمة في أورشليم، وذهب إلى الجليل حيث أجرى هذه المعجزة. وتُعتبر هذه الحادثة أنها الوحيدة في خدمة المسيح العامة التي تُذكر **في الأربعة الأناجيل بدون استثناء، قبل زيارة المسيح الأخيرة لأُورشليم ليُصلب هناك: (مت١٤: ١٣ــ٢١، مر٦: ٣٠ــ٤٤، لو٩: ١٠ــ١٧، يو٦: ١ــ١٥).** وهذا مما ينبه فكر القارىء إلى الأهمية القصوى لهذه القصة وما سيبني الإنجيل عليها من مبادىء لاهوتية.

ق. يوحنا ينفرد هنا ببعض بيانات هامة في سرد هذه القصة؛ فقبل أن يبدأها، ينبه القارىء **أن فصح (البصخة) اليهود كان قريباً.** هنا أسلوب ق. يوحنا السرائري أو اللاهوتي يظهر بوضوح لأن **«الفصح»** بالمفهوم المسيحي هو تقديم **جسد المسيح** ذبيحة، أي أصل وأساس الإفخارستيا، الخبز الذي نكسره كل يوم على المذبح. إذن، فهو يسبق القصة بفتح الأذهان أنه بصدد ربط الخبز المكسور ــ الذي شكر عليه الرب وبارك وبثَّه قوة روحية من عنده فأشبع به الخمسة الآلاف من خمس الخبزات ــ ربطه بالإفخارستيا أي جسد المسيح المكسور لإشباع العالم بالروح للحياة الأبدية.[٤]

(٤) توجد في سراديب روما رسومات حائطية توضح مائدة إفخارستية وعليها خمس خبزات وسمكتين إشارة إلى أن معجزة إشباع الجموع أخذتها الكنيسة الأُولى على أنها ذات هدف إفخارستي.

كذلك وُجد في مدينة هيرابوليس Hierapolis بأسيا الصغرى شاهد على قبر أبركيوس Abrecius مكتوب عليه ΙΧΘΥΣ وهو اسم السمكة باليونانية حيث أوائل الحروف تُقرأ: «يسوع المسيح ابن الله مخلِّص»، مع إشارة إلى خبز وكأس الإفخارستيا. أنظر:

Raymond E. Brown, op. cit., Vol. I, p. 247.

علماً بأن ربط الخبز الجديد الحي النازل من السماء بالفصح يتوازى مع ربط «**الفصح**» بنزول «**المن**» في طقوس الفصح اليهودي، وهذا ما سيركز عليه المسيح في حواره مع اليهود.

كذلك فالرواية في إنجيل يوحنا أكثر توضيحاً من بقية الأناجيل، فهي ذات ملامح حيَّة ودقيقة، تشير بلا أي تحفظ أن الراوي كان واحداً من الموجودين سواء أثناء المعجزة الأُولى أي إشباع الجموع، أو الثانية وهي السير على الماء. فهو الوحيد الذي يذكر أنهم جدَّفوا نحو خمس وعشرين غلوة أو ثلاثين. فتقدير المسافة هنا تقدير شخصي يتوخى الدقَّة؛ مما يعطي الرواية إحساساً حيًّا بواقعية واعية وذاكرة حديدية، أو قُلْ هي تذكير من الروح القدس.

كذلك فمن الصعب أن لا نلتفت إلى الغاية التي يهدف إليها ق. يوحنا من ربط معجزة إشباع الجموع من الخبز مع معجزة السير على الماء(*) واختفاء المسيح عن الذين أرادوا أن يجعلوه ملكاً. فهو **أولاً** بصدد تقديم المسيح في موازنة مع موسى حيث «المن» يترادف مع **السير في البحر الأحمر**، ليوضح أن عهد الشبع والمسرَّة المادية المحلية كميراث أرض تفيض لبناً وعسلاً قد انتهى، ونحن بصدد عهد الروح لِشبَع وسرورِ الروح للإنسان عامة لميراث الحياة الأبدية وفيض الروح القدس. **وثانياً**، الانتقال بالفكر اليهودي من انتظار مسيًّا اليهود المحدود الذي سيعيد المُلْكَ لإسرائيل، ويحرر الأمَّة ويخلِّصها من عبودية الرومان، ويعطي المنَّ من السماء، ويحطم الأمم كموسى الجديد؛ إلى حقيقة المسيح الإلهية في العهد الجديد والخلاص العام من الخطية وتحرير الإنسان ــ كل إنسان ــ من عبودية الشيطان إلى حرية أولاد الله.

القصة:

(أ) ظروف المعجزة (١ــ٤).

(ب) التحضير للمعجزة (٥ــ١٠).

(ج) إشباع الجموع (١١ــ١٣).

(د) تأثير المعجزة (١٤ــ١٥).

(*) كان في التقليد اليهودي عند الربيين أن المسيا سيأتي من البحر، أي ماشياً على الماء. فهنا معجزة سير المسيح على الماء آتياً إلى تلاميذه في الظلام تنبيه من قِبَل المسيح لأذهان اليهود أنه المسيًّا دون أن يعلن ذلك.

أ ـــ ظروف المعجزة : (١ـــ٤).

٦ : ١و٢ «بعد هذا مَضَى يسوعُ إلى عَبْرِ بحرِ الجليلِ وهو بحرُ طبريَّةَ. وتَبِعَهُ جمعٌ كثيرٌ لأنهم أبصَرُوا آياتِهِ التي كان يصنعُها في المرضَى».

«**بعد هذا**» التي ابتدأ بها ق. يوحنا الآية متصلة بآخر آية (٢)، أي بعد أن أجرى آيات شفاء لأمراض كثيرة في منطقة الجليل، التي اختصَّها بأكثر وقت من خدمته. بعد هذا عبر في قارب كبير ـــ أي سفينة صيد ذات الحجم الكبير ـــ (تَسَعُ ثلاثة عشر شخصاً) هو وتلاميذه. وقد عبر البحيرة من ناحية الغرب، أي من كفرناحوم (عدد ٢٤) التي كان يخدم فيها، وهي مقر إقامته مع التلاميذ، متجهين إلى ناحية الشمال الشرقي عبر بحر الجليل وهو بحر طبرية.

بحر طبرية:

لا يُذكر اسم بحر الجليل بهذا الاسم إلا في إنجيل ق. يوحنا، وهو الاسم الحكومي أو الرسمي لبحر الجليل بعد إقامة طبرية العاصمة (غير المقدسة) التي أقامها هيرودس رئيس ربع الجليل شرق بحر الجليل وذلك سنة ٢٦م.

والقديس لوقا الإنجيلي يذكر اسم المدينة التي ذهب إليها الرب هو وتلاميذه (طلباً للراحة) أنها بيت صيدا شرقاً. وهي ليست بيت صيدا التي في غرب البحيرة بل بيت صيدا أخرى منسوبة ليولياس الذي أقامها باسمه، «فأخذهم وانصرف منفرداً إلى موضع خلاء لمدينة تسمى **بيت صيدا.**» (لو٩: ١٠)

وهذه المدينة تسمى الآن «التلُّ». وهي في أقصى الشمال الشرقي للبحيرة ـــ وتقع في منطقة الجولان. أما مكان عمل المعجزة فيبعد عنها بحوالي ميل واحد (و يسمى الآن «البطيحة»)، و به عشب أخضر للرعي يزدهر وقت الفصح فعلاً[٦]. أما المسافة ـــ على الأرض ـــ بين هذا المكان الذي سعى إليه الرب للراحة و بين كفرناحوم التي أتت منها الجموع جرياً وراء الرب فهي حوالي تسعة أميال، أي نحو ساعتين مشياً على الأقدام، وكانت الجموع في غاية الحماس والفرح بسبب الآيات الكثيرة التي صنعها الرب، وكان معظمها لشفاء مرضاهم.

---

6 See: ICC, *op. cit.* Vol. I, p. 171.

٦ : ٣و٤ «فصَعِدَ يسوعُ إلى جبلٍ (تلٍّ) وجَلَسَ هُناكَ مع تلاميذِهِ. وكان الفصحُ عيدُ اليهودِ قريباً».

المسيح هنا وحده على التل مع تلاميذه والشعب كله تحت التل يرى ويسمع. القديس يوحنا يود أن يُدخلنا معه في هذا المنظر ليستحضر في ذهننا نفس منظر موسى النبي على الجبل، بعد أن أكمل الفصح الأول ومسح عار العبودية عن الشعب المذلول، وعَبَر إلى سيناء يتنسم رائحة الحرية، وكان الشعب كله واقفاً ليسمع و يرى و يرتعب: «وقال لموسى اصعد إلى الرب أنت وهرون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، واسجدوا من بعيدٍ، ويقترب موسى وحدَهُ إلى الرب وهم لا يقتربون، وأما الشعب فلا يصعد معه.» (خر٢٤: ١و٢)

وعلى القارىء أن يتذكر دائماً أن حلول عيد الفصح عند اليهود كان يوقظ فيهم مشاعر الحرية التي فقدوها تحت عبودية الرومان، وكانوا يتحرّقون شوقاً إلى المخلِّص الذي تكلم عنه موسى ليُعيد إليهم الحرية ويخلِّصهم من نير الرومان. فكانت حساسيتهم مرهفة للغاية، يصورها هنا ق. يوحنا أروع تصوير بكلمات مختصرة للغاية، نتمنى أن لا تفوت على مشاعر القارىء. إذ أن كل كلمة تحمل كمًّا من المشاعر يصعب سردها. ولكن إذا وضعنا الكلمات الأساسية بجوار بعضها حينئذ ينكشف سِرُّ الإنجيل:

«صعد يسوع على الجبل» ــ «عيد الفصح» ــ «أكلوا وشبعوا» ــ «هذا هو بالحقيقة النبي» ــ «علم يسوع أنهم مزمعون أن يختطفوه ليجعلوه ملكاً».

إذن، فالإنجيل يضعنا داخل مشهد من المشاهد الحية التي عاشها الرب وسط شعب أخفق في الرؤيا، إذ انتهى إلى قرار حاسم أن المسيح نبيٌّ، وكان عليه حتماً أن يصحح ويكشف عن حقيقة نفسه أنه ليس موسى جديداً بل هو هو الرب الإله، وأنه ليس موسى الذي عليه أن يذبح الفصح للشعب بل هو هو الفصح نفسه، الخروف المذبوح الذي يتحتم أن يؤكل لحمه، ولكن لأنه هو حَمَلُ الله الذي دمهُ بروح أزلي، فكان ــ بخلاف الفصح الأرضي ــ يلزم أن يُشرب دمهُ أيضاً!!

وإن كان فصح مصر الأول عهد خلاص من عبودية مصر، فالمسيح فصح خلاص أبدي لحياة أبدية.

فالرب صعد إلى الجبل وقلبهُ مملوءٌ بهذه الرؤيا. ألم يسمع المسيح بأذنيه ما قاله يوحنا المعمدان عنه: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو١: ٢٩)؟ ثم ألم يضع المسيح في نفسه أنه

الراعي الصالح الذي يضع نفسه عن الخراف؟ والآن هوذا الخراف اجتمعت حوله على سطح التل كما يصفها إنجيل القديس مرقس (٦: ٣٤): «فلما خرج يسوع، رأى جمعاً كثيراً، فتحنن عليهم، إذ كانوا كخراف لا راعي لها فابتدأ يعلّمهم كثيراً». وبدأ الرب يقسم الخبز ويُعطي وكأنه يقتطع من لحمه ودمه ليُطعم الخراف الجائعة. أكل الشعب وشبع ولم يدرِ ماذا أكل، إذ حَسِبَ اليهود أنهم أكلوا خبز الأرض، ولكن كان الرب وحده يعلم ماذا أعطى وماذا سيُعطي.

ب ــ التحضير للمعجزة: (٥ــ١٠).

٦: ٥ــ٧ **«فرفعَ يسوعُ عينيهِ، ونظرَ أن جمعاً كثيراً مُقبِلٌ إليهِ. فقال لفيلبُّس: مِنْ أينَ نَبْتاعُ خبزاً ليأكلَ هؤلاء؟ وإنما قال هذا ليمتحنَهُ ــ لأنه هو عَلِمَ ما هو مُزمِعٌ أن يفعل. أجابه فيلبُّس: لا يكفيهِم خبزٌ بمئتي دينارٍ ليأخُذَ كلُّ واحدٍ منهُم شيئاً يسيراً».**

ق. يوحنا يهتم هنا بحوار المسيح مع فيلبُّس، ومنذ بداية الإنجيل وق. يوحنا يركّز على شخصية فيلبُّس(٧)، فهو التلميذ الذي لم يأتِ إلى المسيح، بل المسيح هو الذي ذهب إليه في البداية ليدعوه (يو١: ٤٣)، وهو الذي في النهاية بعد زمانٍ طويل مع المسيح هذه مدّته، ودون جميع التلاميذ، يسأل الرب: «يا سيد أرنا الآب»، مما أدهش الرب فردّ عليه لائماً: «قال له يسوع أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبُّس» (يو١٤: ٨و٩). وهنا وفي هذا الأصحاح، بادره الرب بالسؤال: «من أين نبتاع خبزاً ليأكل هذا الجمع؟»، فلم يكتفِ فيلبُّس بصعوبة السؤال من جهة «من **أين** نبتاع الخبز»، إذ أضاف إلى السؤال صعوبة أخرى هي الأهم عنده إذ «**بكم يتكلّف** هذا الخبز». الرب هنا يريد أن يكشف وضع فيلبُّس بالنسبة للرسالة.

فيلبُّس يتبع الرب، ولكن بحساباته الخاصة وفي أضيق حدود الإيمان الشكلي، الرب اختاره لمميزات خاصة في أخلاقه المستقيمة وطيبة قلبه وقدرته في اتباع الرب، ولكن لم تكن له حرارة الإيمان بالرب، وبطولة المغامرة لتحقيق متطلبات الإيمان الحيّ؛ وكان على الرب أن يكشف له، بل يكشف لنا، بل يكشفنا معه، أن هذا الإيمان الهزيل، بل الميت، لا يوافق الإيمان المسيحي الحي القائم على قدرة الرب الفائقة. وكأن معجزة إشباع الخمسة الآلاف من خمس الخبزات، مقصودة قصداً لتحطيم حسابات الأرقام والتحفظات التي يضعها العقل القاصر، والحكمة الإنسانية

(٧) راجع المدخل ص ٣٠٥ و٣٠٧ــ٣٠٩.

الكاذبة، في طريق اتِّباع الرب إلى الصليب، ثم إلى المجد والحياة الأبدية. فإمّا الحسابات والأرقام مع العقل، ومعها الشُحّ والعوز إن في الأخذ أو العطاء؛ وإمّا الإيمان بالمستحيل مع الله ومعه الشِبَع الفائض والسخاء في التوزيع والحياة الأفضل.(٨)

وليس جزافاً أن يسترعي انتباه ق. يوحنا إهتمامُ المسيح الشديد بفيلبُّس لامتحان قلبه قبل البدء بالمعجزة. فالمقصود هو القارىء والكنيسة كلها، لكي يُمتحن الإنسان قبل البدء بالمعجزة فيكون على مستوى الإيمان بالمسيح كربٍّ وإله، وهو يقرأ ويتأمل ليحصل على نصيبه هو أيضاً من شبع الحياة، بل ومن الفائض أيضاً.

ولينتبه القارىء جداً أن المسيح جاء، ليس ليسدّ الأعواز، بل ليملأ ويفيض، فهو القائل: «... أتيتُ لتكون لهم حياة **وليكون لهم أفضل**» (يو١٠:١٠)، حيث الترجمة «أفضل» هنا قاصرة جداً، لأن معناها الحرفي بحسب اللغة اليونانية: حياة الكثرة والفَيْض والسموّ اللانهائي:

περισσόν ،life of abundance, excellence and preeminence

وهذه الأوصاف تليق فقط بالحياة الأبدية. فنحن مدعوُّون، ليس فقط لأن نؤمن به كربٍّ وإله في ذاته، بل وأن نؤمن أن في يديه شِبَع سرور: «تُعرِّفُني سُبُل الحياة، أمامك شِبَعُ سرور، وفي يمينك نِعَمٌ إلى الأبد» (مز١٦: ١١). فمن أهم وأعظم أوصاف الحياة الأبدية التي يعطيها الله لمتَّقيه، الفيضُ في الحب والسرور والسلام والشبع حتى الملء في الأخذ والعطاء. ومن أوصاف الله الملازمة له أنه «غَنِيٌّ في المراحم» (أنظر أف٢: ٤)، بل وغنيٌّ جداً.

«فرفع يسوع عينيه ونظر أن جمعاً كثيراً مُقْبِلٌ إليه، فقال لفيلبُّس: من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء. وإنما قال هذا ليمتحنه لأنه هو عَلِمَ ما هو مُزْمِع أن يفعل»:

لقد كانت صفة المسيح الأُولى مع تلاميذه أنه «المعلِّم»، ولقد كانت وسيلة الرب للإرتقاء بإيمان تلاميذه هي التلقين والتعليم والإمتحان. فبالرغم من أنه كان يعلم ما هو مزمع أن يفعله، ولكنه وضع فيلبس أمام السؤال الحرج للإمتحان: «من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء»؟ وتركه يُقدِّر دون أن يوعز إليه بالحل. ولقد اكتشف فيلبُّس بعد أن أكمل الرب المعجزة مقدار القصور المريع الذي وقع فيه، إذ تحطمت كل حساباته. وهذه هي نفسها الإمتحانات التي يضعها المسيح أمام كنيسته وتلاميذه كل يوم، ولا تزال مشكلة الحصول على «المئتي دينار» هي المشكلة الوحيدة أمام حسابات عدم الإيمان، لأنه بحسب أصول حسابات عدم الإيمان يكون الوضع الإقتصادي

(٨) يلاحظ أن الأصل المشتق منه كلمة «فَضَلَت» عنهم من الكسر περισσεύω (يو٦: ١٢و١٣) هو نفس الأصل المركَّب منه كلمة: «أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم **أفضل** περισσόν .» (يو١٠:١٠)

والمادي هو الحل الأساسي لانتعاش المشاريع والذي ينتهي بها دائماً إلى الإفلاس الروحي. فنحن الآن نقرأ على كل مؤسسة الإعلان الحزين بمقتضى حسابات عدم الإيمان «**مطلوب مئتي دينار لإشباع الجموع**»، ويُجمع مليون جنيه، ولا تزال الجموع جائعة للحق.

هنا السؤال الساخر الذي على فم كل إنسان ناقد: وهل السماء تمطر ذهباً؟ وهو نفس القول الساخر الذي وجهه الشيطان للمسيح، والذي واجهه الرب وهو في أشد محنة الجوع الحقيقي: «قُلْ أن تصير هذه الحجارة خبزاً» (مت ٤ : ٣). هذا في الواقع معناه الروحي هو محاولة تقييد عمل الله بفرض حلولنا العاجزة بحسب أصول حسابات عدم الإيمان. وعليه، يتحتم أن ندرك أن الإيمان وحده هو الذي يخلق الحلول لأصعب المشاكل، بل يخلق المواعيد: «**بالإيمان** قدَّم إبراهيم إسحق وهو مُجرَّب، قدَّم الذي قَبِلَ **المواعيد** وحيده.» (عب ١١ : ١٧)

٦ : ٨و٩ «قال له واحدٌ من تلاميذِهِ وهو أندراوُسُ أخو سِمْعَانَ بُطرُسَ، هُنا غُلامٌ معهُ خَمْسَةُ(٩) أرغِفَةِ شعيرٍ وسمكتانِ. ولكن ما هذا لِمِثْلِ هؤلاءِ؟».

مرة أخرى يُلقي علينا الإنجيل درساً ثميناً في إحترام الإمكانيات الضعيفة والمواهب الصغيرة. من يستطيع أن يصدق أن هذا الغلام الصغير المجهول الهويّة يتدخل تدخلاً مباشراً في تكميل معجزة كبيرة بهذا الحد؟ لم تكن تدري أُمُّه حينما دسّت في مخلاته هذه الأرغفة الشعير الخمسة والسمكتين على عجل، حينما ألحَّ عليها للسماح له باللحاق بالمعلم مع الأهل والصحاب؛ ويا لفرحة الأم حينما أتاها ولدها في المساء يجري ويطفر ويلهث يقص عليها، وهو مقطوع الأنفاس، قصة أرغفتها الخمسة والسمكتين، التي أمسكها الرب بيديه، وباركها فأشبعت آلاف الرجال والنساء والأطفال، والأم تسمع وهي ذاهلة لا تريد أن تصدق. ومن يصدِّق أن مشاعر الأُمومة الحانية نحو حبيبها الصغير تتحول هكذا إلى بركات فائضة في يدي الرب خلال «خمسة أرغفة شعير وسمكتين».

خبز الشعير أرخص من خبز القمح وهو غذاء الفقراء، وهذا تمادٍ في إظهار ضعف عطايانا التي يمكن أن يباركها الله لتصير لملء الشبَع والغِنَى، أما السمكتان فبحسب تحقيقات علماء الكتاب المقدس ــ كانتا مملَّحتين(١٠)، وهي عادة أهل السواحل في الإحتفاظ بفائض أسماكهم. وقد أتت

(٩) لمعرفة المعنى السري وراء عدد الخمسة أرغفة، ارجع إلى المدخل ص٣٥٨ هامش رقم ١٣.

(١٠) لا تزال عادة تذكار أكل هذه الأسماك المملحة تمارس يوم شم النسيم حينما تجتمع الجموع معاً في اليوم التالي لعيد الفصح (القيامة) عند الأقباط.

الكلمة اليونانية «ὀψάριον» لتفيد أنها من نوع الأسماك الصغيرة التي نسميها في اللغة الدارجة «بساريا».

«ولكن ما هذا لمثل هؤلاء»:

هذه مقارنة حسابات تؤدي إلى الطرق المسدودة والأبواب المغلقة. وهي مقارنة أعوازنا واحتياجاتنا بالنسبة لأرصدة إيماننا، وهي دائماً بالناقص، والفشلُ مصيرُها المحتم. ولكن كم مئاتٍ وألوفٍ الأشخاص اعتمدوا على حسابات الخمس الخبزات والسمكتين، وهي حسابات الإيمان الذي يصرف من مخازن الله السرية، المملوءة دائماً حتى الفيض، فأقاموا مئات وألوف من مشاريع البر للفقراء والأيتام والمُعْوَزين، قامت ونجحت وآوت الملايين على مر العصور وكان دليلها الإقتصادي الوحيد الخمس الخبزات والسمكتين.

إذن، فلنتذكر على الدوام هذه المعادلة الإيمانية أن خمسة فقط مضروبة في الإيمان تساوي خمسة آلاف زائد اثنتي عشرة قفة.

٦ : ١٠ «فقال يسوع اجعلوا الناس يتّكئونَ. وكان في المكانِ عُشبٌ كثيرٌ. فاتّكأ الرجالُ وعددهم نحو خمسة آلاف».

يلاحظ القارىء هنا أن الرب أمر التلاميذ أن ينظموا الجموع إعداداً للأكل. فمن الناحية العامة قال لهم أن «**اجعلوا الناس**»، وهنا تُستخدم كلمة ἀνθρώπους لتفيد الرجال والنساء والأطفال عامة. ثم أمر أن يجلس الرجال بترتيب، وهنا تُستخدم كلمة ἄνδρες وهي تعني الرجال فقط، حيث تذكر الأناجيل الأخرى أن الرب أمر أن يكونوا مجموعات، مئة مئة وخمسين خمسين: «فأمرهم أن يجعلوا الجميع يتكئون رفاقاً رفاقاً على **العشب الأخضر**. فاتكأوا صفوفاً صفوفاً، مئة مئة وخمسين خمسين.» (مر٦ : ٣٩و٤٠)

و يُلاحَظ أن النساء والأطفال لم يُحسبوا ضمن العدد وذلك حسب عادة اليهود ــ لأنهم يستثنون النساء والأولاد من التعداد ــ وكذلك لأن عددهم يبدو أنه كان صغيراً.

كما يلاحظ القارىء وضوح فكرة الاهتمام بالنظام والترتيب «رفاقاً رفاقاً» التي تأتي باليونانية συμπόσια συμπόσια ، ثم الصفوف تتكون من مجموعات مجموعات πρασιαί πρασιαί ، وهذا الوصف لا يأتي إلا في وصف الحدائق بنظام مجموعات الزهور كل مجموعة معاً. فانظر أيها القارىء وتأمل. وسبق أن نبهنا أن ظهور العشب الأخضر يناسب بالفعل

زمن قرب الفصح وهو نهاية أشهر الربيع (أبريل) بعد الشهور المطيرة، وكأن الأناجيل اتفقت معاً لتقدم لنا صورة مبدعة نمّقتها روح المسيح الجمالية، مما أبهرت عيون التلاميذ، وجعلت هذه المعجزة مرسومة بدقة في أذهانهم.

كما أن الأناجيل ذكرت العشب الأخضر بتوضيح مما يزيد الرواية واقعية، أن الراوي شاهد عيان، وهو يستحضر لأذهاننا وصف المزمور للمسيح الراعي للخراف: «الرب راعيَّ فلا يُعْوِزُني شيء، في مراعٍ **خضر** يربضني إلى مياه الراحة يوردني.» (مز٢٣: ١-٢)

وفي الحقيقة نستطيع أن نستشف من وصف ق. يوحنا وبقية الأناجيل صورة ما كان يجري في قلب المسيح. فالمشهد يعود بنا إلى سفر الخروج ويستحضر إلى ذهننا منظر شعب إسرائيل بعد أن رأى الله على الجبل، كيف جلسوا على السفح وأكلوا وشربوا في حضرة الله: «ثم صعد موسى ... ورأوا إله إسرائيل (بحسب ما تراءى لهم) وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل **فرأوا الله وأكلوا وشربوا.**» (خر٢٤: ٩-١١)

فهذا الذي حدث في سفر الخروج ما هو إلا نبوة إفخارستية من الدرجة الأُولى، حققها المسيح على المستوى السري الملموس، حيث اجتمع فيها للإنسان رؤية **الله والأكل والشرب في حضرته**، وهو نفس ما يصرخ به الشماس على المذبح في بداية القداس الإحتفالي:

[أيها الإكليروس وكل الشعب، بطلبة وشكر، بهدوء وسكوت، ارفعوا أعينكم إلى ناحية المشرق لتنظروا المذبح، وجسد ودم عمانوئيل إلهنا موضوعين عليه ...]

(القداس الإلهي: «خدمة الشماس والألحان»، صفحة ٨٢و٨٣)

ج - إشباع الجموع: (١١-١٣).

٦: ١١ **«وأخذ يسوع الأرغفة وشكَرَ ووزَّعَ على التلاميذِ والتلاميذُ أعطوا المتَّكِئينَ. وكذلك من السمكتين بقدرِ ما شاءُوا».**

وأخيراً أخذ يسوع الخمسة الأرغفة على يديه وشكر. وهكذا بدأت قصة البركة العظمى في حياة الإنسان. وهنا تمَّت عملية التحوُّل السري العجيب؛ فالمادة الميتة أُخصبت بروح الحياة، فتحول المحدود إلى اللامحدود، والقليل إلى الكثير الفائض بلا حدود، والخبز البائد إلى عيِّنة لخبز حي يحمل سِرَّ الله، يتكاثر دون أن يخضع لأية معادلة أو نسبة يعقلها أو يفهمها الإنسان. لقد تحولت كل لقمة

في يد الرب إلى نعمة، يأكلها الجاهل فيحس بالشبع ولا يعرف من أين أتاه الشبع فيطلب المزيد، ويأكلها المؤمن فتنفتح عيناه ويمسك باليد التي ألقت في قلبه بالنور. هي خبزة شعير في فم الجائع المتلهف لملء البطن، وهي جوهرة ثمينة عليها ختم الآب في عين الجائع لروح الله. هي لقمة سائغة لذيذة في فم الأحمق، وهي نفسها للحكيم جمرة نار تحرق الخطية وتزيل العار عن الذي تنجست شفتاه. هي لقمةٌ لسدّ جوع الجسد أكلها الجليليون فشبعوا، وهي السر الذي تشتهي الملائكة أن تطّلع عليه (١بط١: ١٢)، بل والأنبياء والملوك اشتهوا مجرد أن يَرَوْها فلم يروا (لو١٠: ٢٤).

ولينتبه القارىء، فحينما يقول الإنجيل إن المسيح «شكر» ــ أي شكر الآب ــ فهو يُشرك الآب في البركة و يثبت أنه ــ «خبز» ــ بحسب مشيئة الآب. وهذا هو «خَتْمُ الآب». ولهذا أيضاً لا يتم فعل السر في الإفخارستيا إلا بالدعاء باسم الآب والابن والروح القدس.

وتأتي كلمة **«شكر»** بلفظها السرائري: εὐχαριστήσας (من إفخارستية) في إنجيل ق. يوحنا فقط، وهي الفعل المسيحي المقابل للفظ اليهودي **Berekah** أي «بارك»، الذي استُخدم في الأناجيل الأخرى.

ولكن يلاحظ القراء الذين يشتغلون بمفهومات إجراء سر الإفخارستيا، أن بعد الشكر يلزم فعل «كَسَرَ»، وهي اللفظة الملازمة دائماً وحتماً لفعل الإفخارستيا. «و بارك وقسم» كما جاءت في الأناجيل الأخرى، «و باركه وقسمه، وأعطاه ...» (القداس الإلهي).

ولكن ق. يوحنا يلتزم بمفهوم عجيب حقاً بالنسبة للفصح الحقيقي الذي ذُبح من أجلنا، أي جسد يسوع على الصليب. **إذ اهتم ق. يوحنا جداً أن يذكر أن ذبيحة المسيح العظمى لم يُكْسَرْ لها عظمٌ:** «وأما يسوع فلما جاءوا إليه **لم يكسروا** ساقيه لأنهم رأوه قد مات ... لأن هذا كان ليتم الكتاب القائل **عظمٌ لا يُكسر منه**» (يو١٩: ٣٣و٣٦). لذلك، و بالرغم من أن الأناجيل الأخرى اهتمت أن تذكر الفعل الإفخارستي الملازم للبركة وهو **«كَسَرَ»** الخبز، توضيحاً أن الرب أجرى فعلاً إفخارستياً للخمس الخبزات؛ نجد ق. يوحنا ــ و بعكس المألوف ــ لا يذكر الكسر بالمرة إمعاناً منه لمطابقة أكثر حرفية بين الفِعْل الإفخارستي الذي أجراه على الخمس الخبزات و بين الفِعْل الإفخارستي الذي تم في جسده الذي لم يُكسر على الصليب!

فانظر أيها القارىء وتأمل في قدرة ق. يوحنا للربط المُذهل بين الآية التي أجراها المسيح و بين تطبيقها الذي تم على الصليب. وكأنه يود أن يقول إن الخبز الحي النازل من السماء، الذي هو جسده، الذي قدّمه على الصليب عن حياة العالم كله، لا يتجزأ ولا يُكسر بل يُعطى ككلٍّ:

«من يأكلني فهو يحيا بي» (يو٦ : ٥٧). وهذا المفهوم يلزمنا نحن أيضاً، فنحن حينما نتناول من سر الذبيحة المُقدَّمة على المذبح؛ إنما نتناول، ليس كسرة خبزٍ، بل المسيح كله. كما نلاحظ أن كلمة «شَكَرَ» و«وزّع» على التلاميذ تأتي بنفس الوضع الإفخارستي كما جاء في سر العشاء الأخير.

٦ : ١٢و١٣ «فلما شَبِعُوا (امتلأوا)، قالَ لتلاميذِهِ: اجمعُوا الكِسَرَ الفاضِلَةَ لكي لا يضيعَ شيءٌ. فجَمَعُوا وملأوا اثنتي عشرة قفةً من الكِسَرِ من خمسةِ أرغفةِ الشعيرِ التي فَضَلَتْ عن الآكِلِينَ».

يُلاحَظ في التفسير اللفظي أن كلمة «شبعوا» تُرجمت هكذا إلى العربية خطأ، لأن أصلها اليوناني ἐνεπλήσθησαν معناه «**امتلأوا**». وهذا الفعل يأتي ليس فقط لكي يفيد الشبع من الجوع بل ليفيد «**الملء**»، حيث يمتد المعنى ــ عند ق. يوحنا ــ إلى الناحية الكلية أي الملء النفسي والروحي بالراحة والسرور. أما كلمة «الشِبَع» من الجوع فقط فقد أوردها ق. يوحنا في كلام المسيح للتعبير العكسي عند الذين لم يدركوا السر: «الحق الحق أقول لكم أنتم تطلبونني ليس لأنكم رأيتم آيات، بل لأنكم أكلتم من الخبز **فشبعتم**» (يو٦ : ٢٦)؛ حيث «شبعتم» باللغة اليونانية ἐχορτάσθητε. والمعنى المقصود واضح، أن الرب أعطاهم أن يذوقوا خبز الإفخارستيا **ليمتلئوا** حياةً «ونعمةً» وسروراً وتنفتح أعينهم فيدركوا سر الرب، ولكنهم أغفلوا ما ذاقوه من نعمة وسعادة وجَرَوْا وراء شهوة بطونهم وجهالة عقولهم وطلبوا منه بعد كل ذلك أن يصنع لهم آية، كأن يُحْدِر لهم منًّا من السماء مثل موسى ليأكلوا ويشبعوا مجاناً. هذا هو أسلوب ق. يوحنا في استخدام الألفاظ للتعبير عن المعاني العميقة التي تحتاج إلى تعمق وفحص دقيق. أما الأناجيل الأخرى فاكتفت بكلمة «الشِبَع» بمعنى ملء البطن فقط: ἐχορτάσθησαν (مت١٤ : ٢٠ ومر٦ : ٤٢ ولو٩ : ١٧).

ومما يزيد هذا التفسير يقيناً، أنه بالرغم من أن إنجيل القديس مرقس ذكر أن التلاميذ جمعوا من الكسر اثنتي عشرة قفة «**مملوءة**» حيث جاءت كلمة «مملوءة» باللفظ اليوناني πλήρεις، نجد أن ق. يوحنا لم يشأ أن يذكر كلمة «مملوءة» بالنسبة للقفف، فكلمة «الملء» كانت عند ق. يوحنا ذات عمق كبير ولم يستخدمها قبل ذلك إلا في معنى «ملء المسيح»، «ومن **ملئه** نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة.» (يو١ : ١٦)

وفي وصف الإفخارستيا في «الديداخي»(١١) تأتي أيضاً كلمة «الملء» بالنسبة للأكل من الإفخارستيا هكذا:

[فإذا امتلأتم μετὰ δὲ τὸ ἐμπλησθῆναι (أي شبعتم) أعطوا شكراً هكذا ...]

وأما كلمة «الكِسَر» κλάσματα فلم تَرِد في كتب العهد الجديد إلا في قصة إشباع الجموع في الأربعة الأناجيل. وفي العهد القديم أتت مرتين ولكن ليس بنفس المعنى إذ أتت في صيغة «فتات»: «لأجل حفنة شعير ولأجل **فتات** من الخبز» (حز١٣: ١٩)، وكذلك في سفر القضاة جاءت بالمفرد: «أسند قلبك **بكسرة** خبز» (قض١٩: ٥). وقد دخلت بصيغة الفعل في طقس الإفخارستيا بصورة ملازمة لـ«بَارَكَ وكَسَر»، وعند القديس بولس: «الخبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح.» (١كو١٠: ١٦)

أما كلمة «**قفة**» فتأتي في اليونانية بنفس اللفظ κόφινος ويُظن أنها كانت تُستخدم مع الجموع لملء العَليقة لإطعام الدواب التي كان يركبها الناس. أما كلمة «سَلّ» التي جاءت في نفس الوضع بالنسبة لمعجزة إشباع الأربعة الآلاف فجاءت باليونانية σπυρίς، وقد وردت هي نفسها في سفر الأعمال (٩: ٢٥)، وتحت كلمة «زنبيل» (٢كو١١: ٣٣)، وكانت تَسَعُ رجلاً جالساً فيها. ومن هذا يتضح لنا حجم القفَّة في ذلك الوقت.

ويلاحظ أن إنجيل ق. يوحنا هو الوحيد الذي ذكر أن الرب بنفسه هو الذي أمر التلاميذ أن **يجمعوا الكِسَر الفاضلة**، وأضاف إضافة ذات قيمة إفخارستية عالية للغاية حينما ذكر السبب: **«لكي لا يضيعَ شيءٌ»**.

وهنا يلزم أن ننتبه أن المسيح ركّز على الخبز وحده دون السمك، لكي تُجمع كل كِسَره، ثم أردف أن ذلك لكي «لا يضيع منه شيء». هذه الجملة ذاتها نسمعها من فم الرب بعد ذلك على مستوى النفوس المؤمنة: «وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني أن كل ما أعطاني "**لا أُتْلِف منه شيئاً**" بل أُقيمه في اليوم الأخير» (يو٦: ٣٩). إذن، فقول الرب بالنسبة للكِسَرِ الفاضلة «**لكي لا يضيع منها شيء**»، إشارة بليغة أن الخبز الذي باركه «إفخاريستياس» قد تحول إلى خبز إفخارستي مقدس، فلا ينبغي أن يتلف منه شيء، وهو يرمي من بعيد لتصوير المؤمنين الآكلين من جسده. علماً بأن كلمة «**لا يضيع**» وكلمة «**لا يتلف**» المترادفتين في اللغة العربية، جاءتا في

(١١) الديداخي ١٠: ١. أنظر كتاب: «الإفخارستيا والقداس» للمؤلف، طبعة ١٩٧٧، ص٣٠٠.

الأصل اليوناني بتركيب واحد بمعنى «ينحل» : μὴ ἀπολέσω, μή τι ἀπόληται. وفي شرح المسيح لمعنى الخبز الحي ذكر الخبز الذي يتلف أو يضيع بكلمة «البائد» وهي نفس الكلمة اليونانية ἀπολλυμένην .

كذلك فإن اهتمام الرب بأن يجمع التلاميذ الكِسَر الفاضلة وإعطاء السبب لذلك لكي «**لا يضيع منه شيء**»، إشارة أخرى ذات هدف بعيد وعميق. فهو يقارن بين الخبز الإفخارستي، أي «خبز الشكر» السري في العهد الجديد، وبين «المن» الذي أكله الشعب في البرية بالضيق، والذي كان **لا يَفْضُل** منه شيءٌ، إذ كان **على قدر حاجتهم اليومية فقط**: «ولما كالوا بالعُمِر (عُشر القفة) لم يُفضِلِ المُكثِّر، والمُقلّل لم يُنقِص. كانوا قد التقطوا كلُّ واحدٍ على حسب أكْلِهِ» (خر١٦: ١٨). كذلك، فكان إذا طمع أحد في إبقاء شيء منه، فإنه كان يتلف و ينتنُّ: «لكنهم لم يسمعوا لموسى، بل أبْقَى منه أُناسٌ إلى الصباح فتولّد فيه دودٌ وأنْتَنَ فسخط عليهم موسى.» (خر١٦: ٢٠)

وواضح الآن من قول الرب باهتمام أن تُجمع الكِسَر الفاضلة لكي **لا يضيع** منها شيء، أن هذا في الحقيقة إشارة إلى أن هذا الخبز الإفخارستي المقدس ليس خبز العَوَز والحاجة فقط بل خبزُ الزيادة والفضلة والكثرة: «أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل (زيادة)» (يو١٠: ١٠)، كما هو أيضاً إشارة إلى أنه ليس للضياع والتلف، بل هو خبز ينبغي أن يبقى، بمعنى أن الذي يأكله بعين مفتوحة وقلب مؤمن لا تضيع حياته ولا تتلف بل تبقى وتحيا. وهذه المعاني العميقة سيعود الرب و يشرحها بدقة على مستوى «الخبز الحي» النازل من السماء الذي يعطيه هو، أي جسده، في مقارنة واضحة مع المن الذي أكله آباؤهم وماتوا. ولكن ما أشهى المعاني المستترة في هذا الإنجيل العجيب!!!

و يلاحظ القارىء أن من هذه الإشارة التي اهتم بها الرب: أن يجمعوا الكسر الفاضلة لكي لا يضيع منها شيء، أخذت الكنيسة منذ البدء نفس هذا الاهتمام وطبَّقته على كسر الخبز السرِّي أي جسد الرب في سر الإفخارستيا، حيث يجتهد الكاهن والشماس معاً أن يجمعوا الفتات المتبقية ــ في الصينية ــ بعد توزيع الجسد، و يلتقطها الكاهن باهتمام حتى لا يضيع منها شيء.

كما أن جمع الكسر المتفرقة معاً في اثنتي عشرة قفة لا يزال يحمل معنى روحياً متسعاً. فقد اتخذته الكنيسة في طقس الإفخارستيا ليشير إلى جمع شمل المتفرقين من أبناء الله، بل ووضعت الكنيسة في الطقس الإفخارستي دعاءها الرسمي على هذا المعنى بالذات، وذلك في ترتيب طقس

ليتورجية «الديداخي»، التي يُظن أنها من وضع الرسل أنفسهم:

[أما بخصوص «المكسور» (أي الخبز المكسور) κλάσμα فقولوا هكذا: نشكرك يا أبانا ... كما كان هذا «المكسور» (أي الخبز المكسور) مبعثراً فوق التلال ــ(قمحاً)ــ ثم جُمع معاً وصار واحداً، هكذا اجعل كنيستك تجتمع معاً من أقاصي الأرض إلى ملكوتك.](١٢)

ومع الفحص والتدقيق، نجد أن نفس الكلمات بلفظها اليوناني التي جاءت هنا في هذه الإفخارستيا، جاءت في معجزة كسر الخمس الخبزات وجمع الكِسَر التي فضلت. وهذه الكلمات هي: «كِسَر الخبز» κλάσματα، و«شَكَر» εὐχαριστήσας، «على الجبل» ὄρος، «اجمعوا» و«تجمعت معاً» συνηγάγετε. فإذا أضفنا إليها ما ذُكر في إنجيل ق. يوحنا عن محاولة جَعْل المسيح **ملِكاً** بعد معجزة الخمس الخبزات مباشرة، تكون قد تطابقت أيضاً كلمة «ملكوتك» ــ الواردة في الديداخي ــ مع «المسيح كملك». (١٣)

وبالنهاية نستطيع أن نقول إن رواية إطعام الجموع من الخمس الخبزات بكل تفاصيلها جاءت بوضع إفخارستي غاية في العمق الروحي، أخذته الكنيسة حتى بكلماته وحروفه، إلى درجة أن الكنيسة في العصور الأُولى كانت تفضِّل أن يكون الخبز الإفخارستي من الشعير! (١٤)

أما التدقيق في كون الكسر قد جُمعت في اثنتي عشرة قفة، فهذا إشارة واضحة إلى جمع أبناء الله المتفرقين في كنيسة الرسل الاثني عشر المتحدة، في شخص يسوع.

كذلك لا يفوتني أنا كاتب هذه السطور أن أحكي للقارىء أن في أيامي وجدتُ تدقيقاً زائداً عن الحد في البيوت في جمع كِسَرِ أو فتافيت الخبز بوجه خاص بعد الأكل باهتمام بالغ، بإحساس جعلني شديد الانتباه والسؤال دائماً في ذهني، لماذا هذه المبالغة في جمع الكِسَر أو فتافيت الخبز خاصة؟ وإني رأيت بعينيَّ أن أمي كانت تجمع الكِسَر وتقبِّلها قبل أن تضعها في سلة الخبز بعد الأكل. وأخيراً أدركتُ أن التراث القبطي لا يزال مطبوعاً بقصة الخمس الخبزات، وأن البيت القبطي كان وربما لا يزال يعايش إنجيل يوحنا، بل المسيح.

(١٢) الديداخي ٩: ٣و٤. أنظر كتاب: «الإفخارستيا والقداس» للمؤلف، طبعة ١٩٧٧، ص ٣٠٠.

13 Brown, Raymond E., *op. cit.*, Vol. 1, p. 248.

14 Ibid, p. 248, citing J. McHugh, *VD* 39 (1961), 222-39.

د ـــ تأثير المعجزة: (١٤ـــ١٥).

٦ : ١٤و١٥ «فلما رأى الناسُ الآيةَ التي صَنَعَها يسوعُ قالُوا إنَّ هذا هو بالحقيقةِ النبيُّ الآتي إلى العالم. وأما يسوعُ فإذ عَلِمَ أنهم مُزمِعونَ أن يأتُوا ويختطِفُوهُ ليجعلُوهُ مَلِكاً انصَرَفَ أيضاً إلى الجَبَلِ وحدَهُ».

وهنا نأتي، أيها القارىء العزيز، إلى أخطر ما في قصة إشباع الجموع من سالبية وجهالة وخروج عن خط الإيمان الصحيح بالنسبة لحقيقة المسيح المخلِّص والفادي.

واضح من بداية القصة حينما ذكر الإنجيل: «وتبعه جمع كثير لأنهم أبصروا آياته التي كان يصنعها في المرضى» (يو٦ : ٢)، أن هؤلاء الذين تبعوا الرب كانوا مأخوذين بالمعجزات التي تمت لمرضاهم وربما كان فيهم نفس المرضى الذين شفاهم الرب. فلما جاءت معجزة إشباعهم في القفر وصل بهم الحماس إلى أقصاه، ولكنه لم يكن حماساً روحياً في أهدافه بل جسدياً وسياسياً في مرماه، خاصة إذا أضفنا هذا الحماس الجسدي للشبع الإعجازي المبهر إلى الإحساس بالضيق من العبودية المرّة، التي كانوا يعانونها تحت حكم الرومان عامةً وحكم هيرودس ملك الجليل خاصةً، بعدما أَقْدَمَ على قتل يوحنا المعمدان في السجن، علماً بأن يوحنا المعمدان كان نبياً محبوباً لدى الناس.

والآن، لقد رأى المتحمسون من الجليليين صورة تنطبق على النبي الذي ينتظرونه مثل موسى يمكن أن يشبعهم خبزاً ويحررهم من العبودية حسب تحقيقات الربيين: «يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون.» (تث١٨ : ١٥)

ولكن الرب أجرى معجزة إشباع هؤلاء الخمسة الآلاف مع نساء وأولاد لأنه كان لا يمكن أن يصرفهم جائعين، لأن الراعي لا يُعذِّب خرافه. فالرب عندما كان يُجري معجزة ـــ أي معجزة ـــ لم يكن يقصد المعجزة بحد ذاتها، ولم تكن المعجزة معجزة بالنسبة له، فهذا عمله. فعمل المسيح هو عمل الله، وأعمال الله كلها معجزات عند الإنسان ولكن ليس عند الله[١٥]. كل عمل من أعمال الله التي كان يجريها المسيح كان يحمل إشارةً أو شهادةً أو برهانَ الله الذي في المسيح.

فعندما أخذ المسيح الخبزات الخمس على يديه وشكر، **صار الخبز حاملاً سِرَّ الله وقوته، صار**

(١٥) راجع المدخل ص٢٩٤.

خبزَ الله ولكن في سر، فلم يَعُدْ خبز الشقاء والعَوَز والجوع الذي تُعَدُّ خبزاته بالأرقام، بل خبز الراحة والسعة والشبع والزيادة بسبب قوة الله المحيية. فالزيادة التي حدثت في الخمس الخبزات هي من فعل الروح، والمسيح كان يدرك ذلك، وكان رد الفعل الذي ينتظره هو أن الناس الذين أكلوا من بركة وقوة الله، أن يمجّدوا الله و يدركوا سِرَّ الله الفائض في المسيح فيؤمنوا بالمسيح بصفته التي أعلنها عن نفسه و يصدقوه أنه ابن الله.

ولكن خطأ الناس دائماً هو أنهم يستخلصون من بركات الله الخاصة لهم مزيداً من التعالي على الآخرين، مغالاة في التعظُّم بعقائدهم، وفرصة لطلب النقمة على أعدائهم. على هذا الأساس أراد بعض المتحمسين من الخمسة الآلاف أن يتخلصوا من واقع جوعهم وعوزهم وأمراضهم وعبوديتهم تحت أرجل الرومان واستبداد هيرودس بأن يصنعوا من المسيح مخلّصاً ومُنتقِماً لهم حسب فكر قلوبهم، و ينصّبوه ملكاً لأنفسهم بالشكل الذي يستحسنوه. وقد وضعوا في قلوبهم أنه إذا رفض، فعليهم أن يختطفوه عنوة ويجعلوه ملكاً بالقوة، الشيء الذي لم يُسمع به قط على مدى كل تاريخ شعب يعبد الله بالحق!

طبعاً، ردُّ الفعل عند القارىء هو أن هذه جهالة، ولكن المحزن أن العالم لا يزال يطلب ذلك، بل وكثير من الحكومات والكنائس والعقائد والمتدينين يصلُّون و يطلبون و يلحون على الله والمسيح أن يكون ملكاً عليهم وحدهم، ليردَّ عنهم ظلم الآخرين، و ينصرهم على الأقوياء والمستبدين! فالحروب الصليبية باسم المسيح كان شعارها الصليب مرسوماً على البيارق والسيوف، لقد نصَّبوا المسيح بالفعل ملكاً محارباً بالسيف والرمح ليقتل ويحطم المغيرين والأعداء. كذلك أيضاً كانت محاكم التفتيش والقتل وإشعال النار في المؤمنين غير الخاضعين لسلطان البابوات (آنذاك)، كان كل هذا يجري باسم المسيح الذي نصَّبه خلفاء أباطرة الرومان ملكاً لأنفسهم على روما وحدها ليُخضع العالم تحت أرجلهم؛ بل ولا يزال حتى اليوم كل كنيسة وكل عقيدة تطلب وتلح وتؤكد على المسيح أن يلتزم بنصرتها كملك عليها، بالدفاع عنها، والانتقام من أعدائها. ولو كان ممكناً أن يظهر المسيح لهم لاختطفوه ولأرادوا أن يجعلوه ملكاً عليهم وحدهم و بالقوة.

لهذا كان قلب المسيح ثقيلاً وحزيناً على هؤلاء الجليليين الذين تاهوا عن الله وعن خلاصهم الحقيقي، وفقدوا الرؤية الصحيحة للمسيح كمخلِّص وفادٍ. ولم يكن أمام المسيح بعد أن صنع المعجزة إلا أن يختفي فجأة عنهم «وينصرف وحده»!

ولا يزال المسيح إلى الآن يرفض أن يكون ملكاً عنصرياً أو عقائدياً على شعب ما أو على عقيدة

ما، أو يكون واسطة لتسهيل الحياة الطبيعية، أو ضامناً لمسرات الناس الأرضية، فـ«المسيح هو ربٌّ **لمجد الله الآب**» (في٢: ١١). وآيات المسيح كلها هي لمجد الآب الذي لن يتأتى إلا بحب الناس بعضهم للبعض، والعفو عن الخاطىء المذنب. وإن قول المسيح: «أنا مجَّدتك على الأرض» (يو١٧: ٤)، يعني أنه أعطى نفسه ذبيحة حب لكل الناس، والمسيح هو مسيح العالم كله لحساب الآب السماوي.



٢ ـ الآية الملازمة لإشباع الجموع

السير على الماء[١٦]

(٦ : ١٦ـ ٢١)

«أبصرتك المياه يا الله، أبصرتك المياه ففزعت، ارتعدت أيضاً اللُّجج ... في البحر طريقُك وسُبُلك في المياه الكثيرة وآثارُك لم تُعرَف.» (مز٧٧: ١٦و١٩)

«الباسِطُ السمواتِ وحدَهُ والماشي على أعالي البحر.» (أيوب ٩: ٨)

٦: ١٦ـ ٢١ **«ولما كان المساءُ نزلَ تلاميذُهُ إلى البحرِ. فدخلوا السفينةَ وكانوا يذهبونَ إلى عبْرِ البحرِ إلى كفرناحومَ. وكان الظلامُ قد أقْبَلَ، ولم يَكُنْ يسوعُ قد أتى إليهِم. وهاجَ البحرُ من ريحٍ عظيمةٍ تَهُبُّ. فلما كانوا قد جَدَّفوا نحو خمسٍ وعشرين أو ثلاثين غَلْوَةً σταδίους نظرُوا يسوعَ ماشياً على البحرِ مُقترِباً من السفينةِ؛ فخَافُوا. فقال لهم: أنا هو لا تخافُوا. فرَضُوا أن يقبَلُوهُ في السفينةِ، وللوقتِ صارَت السفينةُ إلى الأرض التي كانوا ذاهِبينَ إليها».**

«أنت متسلِّطٌ على كبرياء البحر عند ارتفاع لُجَجِه أنت تسكِّنها.» (مز٨٩: ٩)

لقد اشترك مع إنجيل ق. يوحنا، في رواية هذه المعجزة الملازمة لمعجزة إشباع الجموع، كلٌّ من إنجيل القديس متى (١٤: ٢٢)، وإنجيل القديس مرقس (٦: ٤٥)، ولكن بأوصاف تختلف اختلافات طفيفة.

فبينما يسرد ق. يوحنا هذه المعجزة باختصار شديد، نقرأ في إنجيل القديس مرقس أن المسيح «ألْزَمَ تلاميذه أن يدخلوا السفينة ويسبقوا إلى العَبْر، إلى بيت صيدا (الجليل)، حتى يكون قد صرف الجمع. وبعدما ودَّعهم مضى إلى الجبل ليصلي» (مر٦: ٤٥و٤٦). بهذا تكمل الصورة التي أعطاها ق. يوحنا في إنجيله حيث يتضح من كلمة «ألْزَمَ» تلاميذه، عند القديس مرقس، أن

(١٦) راجع المدخل ص٢٧٩ـ ٢٨١.

الرب استخدم سلطانه أمام إلحاح التلاميذ في البقاء معه خوفاً عليه من المتحمسين الذين أرادوا أن يختطفوه، ولكن الرب هو الرب، لا يحتاج إلى آخر. كذلك نفهم من كلمة «"ويسبقوا" إلى العَبْر»، أن الرب وعدهم بالمجيء إليهم. ولكن كيف سيتقابل معهم؟ لم توضح الأناجيل ذلك، وربما كان الإتفاق أن يسيروا بالسفينة بحذاء الشاطىء الشمالي للبحيرة، حيث يقابلهم سائراً على الشاطىء. لذلك نقرأ في إنجيل ق. يوحنا: «وكان الظلام قد أقبل، **ولم يكن يسوع قد أتى إليهم.**» (٦ :١٧)

ويُلاحَظ أن الرب ألزم تلاميذه على ركوب السفينة في المساء ὀψία، فـ«المساءُ» هنا لا تفيد المقصود من كلمة «أبسيا» اليونانية، فكلمة «أبسيا» في اليونانية تفيد «الغروب» أي آخر ساعات النهار ولكن قبل ظلام الليل. فالتلاميذ ركبوا السفينة في الغروب. وعندما حلَّ الظلام ــ وهذا هو بدء الليل الذي يكون بعد الغروب بحوالي ساعة ــ يقول إنجيل ق. يوحنا أن بدخول الليل لم يكن يسوع قد أتى إليهم بعد، فانقطع أملهم من رؤيته سائراً على الشاطىء.

وق. يوحنا هنا لا يورد كلمة «**الظلام**» إلاّ ووراءها معنى غياب النور أي المسيح، وهكذا ينسج ق. يوحنا من الألفاظ معاني أعمق من مجرد شكلها ومعناها البسيط. ومعنى مجيء الظلام بأسلوب ق. يوحنا يكون غياب النور أو الإيمان أي عدم مجيء المسيح، وهذا يحمل معه حدوث تجربة خطرة، فيقول مباشرة: «**وهاج** البحر من ريح عظيمة تهُبُّ»، حيث التجربة هنا تصنعها الطبيعة سواء الرياح أو الأمواج بإيعاز من رئيس سلطان الهواء ــ القوة المعادية ــ كما يقول القديس بولس (أف ٢ :٢). وهكذا يكون غياب المسيح قد كشف عن حضور المجرِّب. ومن سياق القصة ــ كما جاء في إنجيل القديس مرقس: «ولما صار المساء كانت السفينة **في وسط البحر، وهو على البرِّ وحده**، ورآهم **معذَّبين** في الجذف، لأن الريح كانت ضدهم» (٦ :٤٧و٤٨). نفهم من ذلك أن الرياح كانت شمالية غربية، واتجاه السفينة كان نحو الشمال الغربي وهذا اتجاه موقع كفرناحوم. والنتيجة أن الرياح والأمواج قذفت بالسفينة إلى عمق البحيرة بعيداً جداً عن الشاطىء. فإذا عرفنا أن أقصى عرض للبحيرة(١٧) كان نحو أربعين غَلْوة στάδιον بالقياس الروماني، والغَلْوة أو الستاديون تساوي حوالي ٢٠٠ متراً، أي أن عرض البحيرة حوالي ٨ كيلومترات. وق. يوحنا يذكر أنهم جذَّفوا نحو خمس وعشرين أو ثلاثين غَلْوة أي ما بين خمسة

(١٧) الآن طول بحيرة الجليل ٢١ كيلومتراً وعرضها ١٢ كيلومتراً. ولكن بحسب القياسات في زمن يوسيفوس (القرن الأول للميلاد) كان عرض البحيرة ٤٠ ستاديون أي ٨ كيلومترات، وطولها ١٤٠ ستاديون أي ٢٧ كيلومتراً. علماً بأن الستاديون στάδιον يساوي ٦٠٠ قدم.

إلى ستة كيلومترات بعيداً عن الشاطىء. ويضيف القديس مرقس أن ذلك استغرق منهم وقتاً طويلاً حيث أصبحوا في الهزيع الرابع: «ونحو الهزيع الرابع من الليل أتاهم ماشياً على البحر» (مر٦:٤٨). والهزيع الرابع يقابل الساعة الثالثة بعد نصف الليل. وهذا معناه أنهم ظلوا يجدِّفون معذَّبين من الرياح والأمواج التي ضدهم نحو عشر ساعات متواصلة بلا راحة!!

وهكذا أيضاً، وبالمعنى الروحي العميق، يجيء المسيح في الهزيع الرابع من الليل للمعذَّبين الذين ينتظرونه بفروغ الصبر. وداود النبي، وكأنه كان على الشاطىء الآخر وراء الدهور السالفة يرصد بالنبوّة هذا المنظر المأساوي العجيب، وكيف سيجيء الرب حتماً في الميعاد للخلاص المرسوم يقول:

ـــ «النازلون إلى البحر في السفن، العاملون عملاً في المياه الكثيرة، هم رأوا أعمال الرب وعجائبه في العمق، أمر فأهاج ريحاً عاصفة فرفعت أمواجه، يصعدون إلى السموات، يهبطون إلى الأعماق؛ ذابت أنفسهم بالشقاء. يتمايلون ويترنحون مثل السكران وكل حكمتهم ابتُلِعَتْ. فيصرخون إلى الرب في ضيقهم، ومن شدائدهم يخلصهم. يُهْدِئُ العاصفة، فتسْكُنُ، وتسكت أمواجها. فيفرحون لأنهم هدأوا. فيَهديهم إلى المرفإ الذي يريدونه. فليحمدوا الرب على رحمته وعجائبه لبني آدم.» (مز١٠٧: ٢٣ـــ٣١)

إن قول ق. يوحنا أنهم «نظروا يسوع ماشياً على البحر مقترباً من السفينة فخافوا فقال لهم "أنا هو" لا تخافوا»، يحمل مقارنة على التوازي بين موسى والمسيح تأتي في موضع الإعجاز والإعجاب، لأن موسى بعد أكل خروف الفصح مباشرة انطلق بالشعب إلى البحر الأحمر ليشقّه ويسير وسط أمواجه بإعجاز يُتعجَّب منه.

وبالعودة إلى قصة الخمس الخبزات وما رادفها من ذكر الفصح، يأتي مباشرة ذِكْرُ المسيح ماشياً على البحر المضطرب ليعطي تكملة المقارنة مع موسى، الذي لكي يعبر البحر الأحمر مع الشعب أمره الرب أن يَفْلِقَ المياه ليسير على اليابس في العمق، أما الرب فسار هنا وهو يتهادى على سطح المياه: أبصَرَتْهُ المياه ففَزِعَتْ!! «أبصرتك المياه يا الله أبصرتك المياه ففزعت ارتعدت أيضاً اللجج .... في البحر طريقُك وسُبلك في المياه الكثيرة وآثارُك لم تُعْرَف» (مز٧٧: ١٦و١٩). أما كيف فزعت المياه وارتعدت اللجج، فهذا يصفه القديس مرقس في اختصار شديد: «فصعد إليهم إلى السفينة فسَكَنَت الريح، فبُهتُوا وتعجبوا في أنفسهم جداً إلى الغاية.» (مر٦:٥١)

أما سلطانه على الرياح والأمواج فيصفه القديس مرقس في موضع آخر هكذا: «فحدث نوءُ

ريح عظيم، فكانت الأمواج تضرب إلى السفينة حتى صارت تمتلىء. وكان هو في المؤخر على وسادة نائماً. فأيقظوه وقالوا له: يا معلم أما يَهمُّك أننا نهلك؟ فقام **وانتهر الريح وقال للبحر: أسكتْ، إبْكَمْ. فسكنت الريح وصار هدوء عظيم. وقال لهم ما بالكم خائفين هكذا. كيف لا إيمان لكم.** فخافوا خوفاً عظيماً وقالوا بعضهم لبعض: من هو هذا فإن الريح أيضاً والبحر يطيعانه.» (مر٤: ٣٧—٤١)

«فرضوا أن يقبلوه (يأخذوه) في السفينة»:

الآن يلزم أن نصحح الترجمة العربية للآية: «فرضوا أن يقبلوه في السفينة...» والتي جاءت في الترجمة الإنجليزية بصورة أفضل: and willingly received. هنا فعل إرادة ومشيئة وليس «رضا». وقد جاء الفعل في اليونانية في زمن الماضي المتصل كحالة مستديمة، بمعنى أنه كانت لهم إرادة بتلهُّف أن يدخل السفينة ἤθελον οὖν λαβεῖν، وقد جاءت في الترجمة اللاتينية: voluerunt accipere لتفيد الشعور المتلهِّف بالإرادة لاستقبال الرب. والذي يُزيد هذا المعنى تأكيداً، ما جاء في إنجيل القديس مرقس: «وأتاهم ماشياً على البحر **وأراد** أن يتجاوزهم...» ونحن نفهم من هذا أن الرب كان سائراً على الأمواج بمحاذاتهم، ولم يكن له قصدٌ أن يدخل السفينة، مكتفياً بأن يُظهر نفسه لهم ليبدِّد خوفهم، ولكن على العكس، فقد ازداد خوفهم من أن يكون الذي يرونه خيالاً فطمأنهم بصوته و بالجملة المعهودة: «''أنا هو'' Ἐγώ εἰμι لا تخافوا». و«أنا هو»، التي سجلها هنا ق. يوحنا، تأتي برنينها اللاهوتي المعبِّر عن شخص الله، فالمسيح أراد أن يعلن عن حضوره الإلهي لتلاميذه في هذه المناسبة. فلما اطمأنوا أنه الرب، أظهروا إرادتهم أن يأخذوه معهم في السفينة. وكلمة «فرضوا أن يقبلوه» بلغة ق. يوحنا السرائرية تفيد قبول الإيمان بعد نفور الخوف الذي يأتي من عدم الإيمان: «كيف لا إيمان لكم» (مر٤: ٤٠). كذلك حينما تدخَّل بطرس ليختبر حقيقة أنه الرب، (كما ورد في إنجيل متى): «وفي الهزيع الرابع من الليل مضى إليهم يسوع ماشياً على البحر. فلما أبصره التلاميذ ماشياً على البحر اضطربوا قائلين إنه خيال، ومن الخوف صرخوا. فللوقت كلمهم يسوع قائلاً: تشجعوا — أنا هو — لا تخافوا. فأجابه بطرس وقال: يا سيد، إنْ كُنتَ أنت هو **فَمُرْني أن آتي إليك** على الماء.» (مت١٤: ٢٥—٢٨).

يتضح من هذا أكثر أن الرب كان ماشياً بمحاذاة السفينة، كما يتضح أن بطرس أراد أن يسير نحوه **ليسير معه**.

كذلك فإن قول إنجيل القديس مرقس: «فأراد أن يتجاوزهم»، لا يأتي بدون معنى أو أهمية لاهوتية، فهذا هو وضع الله حينما كان يتراءى للإنسان قديماً، مثلما تراءى لموسى؛ حينما اجتاز

الربُّ، أي تجاوزَه، ليرى موسى خَلْفَه ولا يرى وجهه: «فقال (موسى): أرِني مجدك. فقال (الله): أجيز كل جودتي قدامك، وأنادي باسم الرب (أنا هو ἐγώ εἰμι) قدامك، وأتراءف على من أتراءف وأرحم من أرحم. وقال: لا تقدر أن ترى وجهي، لأن الإنسان لا يراني و يعيش. وقال الرب: هوذا عندي مكان فتقف على الصخرة، و يكون متى **اجتاز** مجدي، أني أضعُكَ في نُقْرةٍ من الصخرة، وأستُرك بيدي حتى **أجتاز**، ثم أرفعُ يدي فتنظرُ ورائي. وأما وجهي فلا يُرَى.» (خر٣٣: ١٨ــ٢٣)

وهكذا نرى الربَّ يسير بجوار موسى ويجتاز أمامه، حيث يقول الوحي الإلهي هنا بضرورة أن يجتاز الرب حتى يمكن للإنسان التعرُّف عليه.

كذلك نرى نفس الوضع مع إيليا حينما تراءى له الله **بعد أن اجتاز** أمامه «فقال (الرب): اخرُجْ وقِفْ على الجبل أمام الرب، **وإذا بالرب عابرٌ (مجتاز)**، وريحٌ عظيمةٌ وشديدة قد شَقَّت الجبال وكَسَّرت الصخور أمام الرب ولم يكن الرب في الريح. و بعد الريح زلزلة ولم يكن الرب في الزلزلة. و بعد الزلزلة نارٌ ولم يكن الرب في النار. و بعد النار صوتٌ منخفضٌ خفيفٌ. **فلما سمع إيليا، لفَّ وجهه بردائه وخرج ووقف** في باب المغارة، **وإذا بصوت إليه** يقول: مالك ههنا يا إيليا.» (١مل١٩: ١١ــ١٣)

وهنا أيضاً نرى عبور الرب (اجتيازه) أمام إيليا ضرورة إلهية يشترطها الوحي، حتى يمكن التعرُّف عليه بعد ذلك **من صوته**.

وهذا ما حدث تماماً في قصة سير الرب على المياه بجوار السفينة واجتيازه: «وأراد أن يتجاوزهم»، ثم إذ صرخوا كان صوته إليهم: «"أنا هو" ἐγώ εἰμι لا تخافوا». هكذا استعلن المسيح ذاته لهم كرَبٍّ وإله، وليس كخيال، فتعرَّفوا عليه، فأرادوا في الحال أن يأخذوه في السفينة. هنا يضيف القديس مرقس: «فصعد إليهم في السفينة». وهذا أيضاً ردٌّ مباشر على كثير من العلماء الذين أرادوا أن يقلِّلوا من معجزة السير على البحر، إذ قالوا أن قول الإنجيل: «ماشياً على البحر»، يفيد أنه كان يسير على شاطيء البحيرة وليس على الماء. فبشيء من البصيرة والدقة العلمية نكتشف زيف تحليلهم للكلمات، إذ يقول القديس مرقس إنه صعد إليهم في السفينة، فلو كان المسيح سائراً على الشاطيء لكان القول: **«ونزل»** إليهم في السفينة، لأن الشاطيء أعلى من مستوى البحر والسفينة. ولكنه يقول إنه صعد إليهم في السفينة، لأن مستوى الموج الذي كان يسير عليه منخفضٌ عن مستوى السفينة.

كذلك يضيف القديس مرقس «فسكنت الريح». نعم، فدخول الرب إلى سفينتنا المضطربة، يتبعه حتماً سكونٌ وهدوءٌ. وهنا يتضح القصد الإنجيلي أن الرب هو قاهرُ قُوَى الموت وسلطانه.

٦ : ٢١ «وللوقتِ صارَت السفينةُ إلى الأرضِ التي كانُوا ذاهبينَ إليها».

هنا يضيف ق. يوحنا معجزة أخرى على نفس مستوى السير على الماء، تتوافق تماماً مع سلطان الرب على إخضاع عنف الريح ولجج البحر. فالذي أضافته الرياح العاصفة من مشقة على الرحلة، وما كسحته الأمواج من مسافة زائدة، رفعه الرب من حساب الرحلة؛ فللحال وجدوا أنفسهم على الشاطىء. وهنا تطابق لنص ق. يوحنا على النص النبوي في المزمور الذي صوَّر هذه الرحلة من وراء الأزمنة، أمرٌ يتعجب له: «يُهْدِئُ العاصفة فتسكُنُ، وتسكت أمواجها. فيفرحون، **لأنهم هَدَأُوا، فيَهْديهم إلى المرفإِ الذي يريدونه**» (مز١٠٧: ٢٩و٣٠).(١٨)

وبلغة ق. يوحنا، فإنهم حالما قبلوه بإرادة فرحة، بلغوا شاطىء الأمان. إنها صورة حية لنهاية تجربة بحر الحياة الصاخب، ومعاندة القوى الشريرة التي تقف معاندة إلى أن يدخل الرب سفينة العبور، لتصير للحال في ميناء الراحة الأبدي.

هنا نكتفي بالشرح القليل الذي قدمناه من خلال السطور أثناء تحليلنا للنصوص الواردة في القصة. لأن الشرح الكامل سوف يقدمه المسيح بنفسه وبإسهاب في مجمع كفرناحوم في اليوم الثاني من وصول السفينة إلى كفرناحوم.



(١٨) [ألا إني سائح طالب دار السما موطني، لا بد أن تنتهي غربتي وأمضي إلى موطني].

٣ ــ حديث الرب في مجمع كفرناحوم عن جسده الحي كخبز الحياة الأبدية (١٩)

هذا الحديث ينقسم إلى ثلاثة أقسام مطوّلة، وكل قسم يبدأ بمبادرة من اليهود:

أ ــ الجزء الأول من الحديث (٦:٢٦ــ٤٠): ويبدأ بالسؤال البسيط: «ولما وجدوه في عبر البحر قالوا له: يا معلم متى صرت هنا؟»

ب ــ الجزء الثاني من الحديث (٦:٤١ــ٥١): ويبدأ بتذمر بسؤال استنكاري: «فكان اليهود يتذمرون عليه لأنه قال أنا هو الخبز الذي نزل من السماء، وقالوا: أليس هذا هو يسوع ابن يوسف الذي نحن عارفون بأبيه وأمه...».

ج ــ الجزء الثالث من الحديث (٦:٥٢ــ٥٨): ويبدأ إثر منازعة فيما بينهم: «فخاصم اليهود بعضهم بعضاً قائلين: كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل؟»

وكانت الحقائق التي جاءت رداً على هذه الأسئلة الثلاثة، كفاية لكل حديث، كالآتي:

الجزء الأول من الحديث: اختص باستعلان الحياة الأبدية المخفية في جسد المسيح: «أنا هو خبز الحياة».

الجزء الثاني من الحديث: اختص بعلاقة الابن بالآب: «ليس أن أحداً رأى الآب إلاّ الذي من الله. هذا قد رأى الآب»؛ «لا يقدر أحدٌ أن يُقبِلَ إليَّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني...»

الجزء الثالث من الحديث: اختص بالحصول على المسيح الكلمة المتجسد بأكل جسده وشرب دمه: «من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية... فمن يأكلني فهو يحيا بي».

(١٩) راجع المدخل ص٢٧٣ــ٢٧٥ و٢٨٢ــ٢٨٤.

التمهيد لحديث الرب: (٦: ٢٢ــ٢٥).

٦: ٢٢ــ٢٥ **«وفي الغَدِ لـمَّا رأى الجـمعُ الذينَ كانوا واقِفينَ في عَبْرِ البحرِ أنه لم تكن هناك سفينةٌ أخرى سوى واحدةٍ، وهي تلك التي دَخلَها تلاميذُهُ، وأن يسوعَ لم يدخل السفينةَ مع تلاميذِهِ بل مضى تلاميذُهُ وحدَهُم؛ غيرَ أنه جاءت سفنٌ من طبرية إلى قُربِ الموضعِ الذي أكلوا فيهِ الخبزَ إذ شَكَرَ الربُّ. فلمَّا رأى الجَمْعُ أن يسوعَ ليس هو هناكَ ولا تلاميذُهُ، دخلُوا هم أيضاً السفنَ وجاءوا إلى كفرناحومَ يطلبون يسوعَ. ولمَّا وجدُوه في عَبْرِ البحرِ قالوا له: يا مُعَلِّمُ متى صِرْتَ هُنا».**

من هذه الرواية يتضح لنا أن الجموع كانت تراقب المسيح مراقبة شديدة لعلهم يستطيعون أن ينجحوا في محاصرته وإقناعه أن يُنصِّبوه ملكاً، حسب الرواية السابقة. وقد لاحظ الجمع، وخاصة المتحمسون منهم، أن التلاميذ مضوا وحدهم، وأما الرب فبقي على الجبل وحده وأنهم في الصباح لم يجدوه.

«غير أنه جاءت سفن من طبرية إلى قرب الموضع الذي أكلوا فيه الخبز τὸν ἄρτον إذ شكر الرب»:

هذا تعبير إفخارستي واضح: «الذي شكر عليه الرب» أي الذي باركه أو قدّسه الرب بصلاة الشكر أو الإفخارستيا.

ويلاحظ هنا أن مجيء السفن إلى هذا الموضع ليس طبيعياً، فالمكان ليس به مرفأ. ولكن إذا لاحظنا أن الريح العاصف الشديد كان يهب من الشمال الغربي، لأدركنا في الحال أن الرياح اكتسحت سفناً (بدون «الـ» التعريف أي عرضاً)، إلى هذه الناحية الشرقية، فانتهزها الرجال المتحمسون وركبوا هذه السفن إلى كفرناحوم بحثاً عن المعلم. وبهذا أيضاً ندرك أن هؤلاء الرجال كانوا في غاية الحماس ومتأثرين غاية التأثر من عجيبة الخبز الذي أكلوا وفاض عنهم. ومما زاد من حماسهم، اكتشافهم عند عثورهم عليه في كفرناحوم أن المسيح لم يركب أي سفينة، ولا بد أنه شاع خبر عبوره البحيرة سائراً على الماء، فأهاج آمالهم في مملكة الأحلام التي كانوا يحلمون بها. وسؤالهم له: «متى (أو كيف على وجه الأصح) صرت هنا؟»، هو محاولة ملحّة منهم ليكشف لهم المعلم عن سِرِّ قدرته المتعاظمة في نظرهم علانية، ولكن للأسف فإن كل هذا الحماس والسعي والأمل الذي اعتمل في نفوسهم بخصوص المسيح، لم يخرج عن المحيط المادي والسياسي الذي كانوا يحلمون به على مستوى ما كان يعيش فيه آباؤهم مع موسى.

وهنا يبدأ المسيح يصحح مفهوماتهم عن قدراته الفائقة ومصدرها وغايتها، و يصحح المقارنة الخاطئة بينه و بين موسى، و يضع أسس العلاقة الصحيحة التي تربطه بالإنسان على نور العلاقة التي تربطه بالآب السماوي.

أ ـ الجزء الأول من الحديث: (٦: ٢٦ـ ٤٠).

«أجابهم يسوع وقال: الحق الحق أقول لكم أنتم تطلبونني ليس لأنكم رأيتم آيات، بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم. اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية الذي يعطيكم ابن الإنسان، لأن هذا الله الآب قد ختمه. فقالوا له ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله؟ أجاب يسوع وقال لهم: هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله. فقالوا له: فأية آية تصنع لنرى ونؤمن بك؟ ماذا تعمل؟ آباؤنا أكلوا المنّ في البرية، كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا.

فقال لهم يسوع: الحق الحق أقول لكم ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء، بل أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء. لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم. فقالوا له: يا سيد أعطنا في كل حين هذا الخبز. فقال لهم يسوع: أنا هو خبز الحياة. من يُقْبِلْ إليَّ فلا يجوع، ومن يؤمنْ بي فلا يعطش أبداً، ولكني قلت لكم إنكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون، كلُّ ما يعطيني الآب فإليَّ يُقْبِل، ومنْ يُقْبِلْ إليَّ لا أُخرِجُه خارجاً؛ لأني قد نزلتُ من السماء ليس لأعمل مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني؛ وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني أنَّ كل ما أعطاني لا أُتْلِف منه شيئاً بل أُقيمه في اليوم الأخير، لأن هذه هي مشيئة الذي أرسلني أنَّ كلَّ مَنْ يرى الابن و يؤمن به، تكون له حياة أبدية، وأنا أُقيمه في اليوم الأخير».

٦: ٢٦و٢٧ **«أجابَهُمْ يسوعُ وقالَ: الحقّ الحقّ أقولُ لكم أنتم تطلبونَني ليس لأنكم رأيتم آياتٍ، بل لأنكم أكلتُم من الخبزِ فشبعتم، اعملوا لا للطعامِ البائدِ، بل للطعامِ الباقي للحياة الأبدية الذي يعطيكم ابنُ الإنسانِ، لأن هذا الله الآبُ قد خَتَمَهُ».**

كان رد المسيح على سؤالهم عنه رداً كاشفاً حاسماً مبكِّتاً، ومعناه أنكم لستم تطلبونني بل تطلبون عطاياي. لـمّا أكلتم من الخبز لم تروا فيه آية بل طعاماً للشبع، كما لم تروا في كل الأشفية التي صنعتُها أمامكم أية إشارة أو آية إلى مَنْ صنعها، بل ربحاً وراحة للجسد تطمعون في المزيد منه وتطلبون الأكثر والأعجب؛ حيث يلاحظ هنا أن قول الإنجيل: «ليس لأنكم رأيتم آيات» يفيد **«رؤية الإيمان»** وهي غائبة عنهم.

ويلاحظ القارىء أن المسيح نفسه لم يكن يرى في الآيات التي يصنعها للناس من أشفية وغيرها مجرد أعمال رحمة أو محبة أو عطف، بل فعل إثارة لعقولهم وقلوبهم، حتى يدركوا ويؤمنوا بحقيقة شخصه، لكي بالإيمان به تكون لهم الحياة الأفضل والنعمة الدائمة الأبدية والشبع الحقيقي لأرواحهم وليس لأجسادهم. وهذا نفهمه بوضوح من تبكيته لهم: «اعملوا لا للطعام البائد ـــ الخبز للشبع الجسدي ـــ بل للطعام الباقي للحياة الأبدية (جسد المسيح نفسه) الذي يعطيكم ابن الإنسان، لأن هذا الله الآبُ قد ختمه».

ليتذكر القارىء قولَ الربِّ أثناء جمع الكسر في الاثنتي عشرة قفة: «لكي لا يضيع منه شيء» (آية ١٢). هنا كلمة «يضيع» هي نفسها التي جاءت هنا بمعنى «يبيد» أو «البائد»، إشارة من الرب أن الخبز الذي كسره ووزعه عليهم ينبغي أن لا يضيع فهو ليس من نوع الخبز البائد، بمعنى أن فيه سر الديمومة والحياة، إنْ بلغوا سِرَّ القوة التي كانت فيه ـــ بالإيمان بالمسيح ـــ الذي باركه وقدَّسه وأعطاه.

وهنا نرى أن الرب يشير إلى أن كل أعماله وآياته التي صنع قد تُؤخذ وتُفهمُ وتُؤكلُ على أنها بائدة، أي مادية أرضية، إذا لم يؤخذ المسيح الذي فيها بالإيمان. كما أنها قد تؤخذ وتُفْهَمُ على أنها باقية وحيَّة وأبدية إذا أُخذ المسيح القائم فيها بالسِّرّ.

وهنا يستهدف ق. يوحنا القارىء والسامع، فهو يروي رواية المسيح مع الجليليين واليهود ليس كتاريخ أو قصة، بل كفعل إشارة وآية موجهة لقلب القارىء والسامع. وعطايا المسيح ـــ أي عطايا ـــ يستحيل أن تعمل للحياة الأبدية أو يكون لها نفع روحي إذا لم يكن المسيح هو قصدُها الكلِّي ومنتهى غايتها. فالذي يطلب من المسيح أن يُشفى، لن ينتفع من شفائه شيئاً إذا لم تكن الصحة المعطاة المتمنَّاة هي آيةً بحد ذاتها تعمل لحساب المسيح، وإلا يكون شفاؤه كملءِ بطن الجليليين من الخمس الخبزات التي للإفخارستيا المسيح، ليس إلاّ.

يُلاحَظ هنا كلمة «"**يعطيكم**" ابن الإنسان»، فالكلمة باليونانية δώσει هي عطية للحياة الأبدية، وهي من نفس أصل الكلمة التي رأيناها في قصة السامرية: «لو كنتِ تعلمين **عطية** الله τὴν δωρεὰν τοῦ θεοῦ » (يو٤ : ١٠)، فهي هناك «**عطية المياه**» الحية للحياة الأبدية، وهنا «عطية الطعام ـــ أي الخبز الحي» للحياة الأبدية.

وهنا يُضمر النص الإنجيلي فعل الروح القدس المحيي، إن كان في الماء للمعمودية للميلاد الثاني، وإن كان في الخبز أي الجسد للإفخارستيا كطعام الحياة الدائمة.

أما كلمة «**خـتـمـه**» ἐσφράγισεν فهي هنا واقعة **على المسيح، وليس على «الطعام»** βρῶσιν لأنها تأتي واقعة على اسم مذكر عاقل وليس على مؤنث حيث كلمة «طعام» في اليونانية مؤنثة، وهي تأتي في كتابات العهد الجديد لتفيد فعل الروح القدس في الميلاد الثاني أي ختم المعمودية (أف١: ١٣ و٢كو١: ٢٢)؛ أما هنا وهي تخص المسيح فتفيد ختم التقديس: «الذي **قدَّسه** الآب وأرسله إلى العالم» (يو١٠: ٣٦). ختم **التقديس** الذي تم بواسطة الآب سواء في الميلاد: «فلذلك أيضاً **القدوس** المولود منكِ يدعى ابن الله» (لو١: ٣٥)، «لأن الذي حُبِلَ به فيها هو من الروح **القدس**» (مت١: ٢٠)، أو في المعمودية: «الذي ترى الروح **القدس** نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو الذي سيعمِّد بالروح **القدس**. وأنا قد رأيتُ وشهدتُ أن هذا هو ابن الله» (يو١: ٣٣ــ٣٤)، أو في القيامة: «وتعيَّن ابنُ الله بقوة من جهة روح **القداسة** بالقيامة من الأموات.» (رو١: ٤)

كما تأتي «خَتَمَهُ» في قول الإنجيل: «لأن "**هذا**" الله الآب قد ختمه» بمعنى إضافي أن الله الآب قد «شهد له بنفسه». [كما نقول في أحاديثنا أنا مستعد أن **أختم** وأبصم على هذا أنه حق، حيث يفيد قولنا هذا شهادة للتصديق]. وهذا المعنى تكرر كثيراً في إنجيل ق. يوحنا (أنظر يو٣: ٣٣). ولكن المعنى الثاني أن الآب يشهد له يأتي مترتباً على المعنى الأول أن: «**الآب قدَّسه**».

كما يُلاحَظ أنه للمرة الأولى والوحيدة في كل الأناجيل يأتي التعبير عن الله بـ«الله الآب» من فم المسيح بالمعنى العام، لأن المعتاد أن يقول المسيح إما أبي أو الآب، ولكن أن يأتي الله بالصيغة الأبوية العامة من فم المسيح، فهذا ليفيد أنه ليس ختماً خاصاً بالمسيح نفسه ولكن ختماً خاصاً بالإنسان ككلٍّ، فهو ختم أبوة الله على جسد الابن الوحيد، الكلمة المتجسد، ليصير الله به أباً لكل من يقبله (و يتناول منه).

٦: ٢٨ «فقالوا له: ماذا نفعلُ حتى نعمَلَ أعمالَ الله».

سؤال مستمد من قول الرب السابق: «"**اعملوا**" ... للطعام الباقي للحياة الأبدية».

كان هؤلاء الجليليون يريدون أن **يأخذوا**، يأخذوا شبعاً جسدياً وراحة وكبرياءً وسلطةً، ليتحرروا بالجسد، فأرادوا وتحمسوا لأن يستخدموا الرب لتكميل شهواتهم بأن يجعلوه ملكاً. والمسيح الآن يردُّهم إلى الوضع الصحيح الذي يوصلهم إلى أكثر مما كانوا يريدون و يشتهون، ولكن ليس

لحساب الجسد الفاني، والطعام البائد، والعبودية السياسية، والعالم الذي وُضع بجملته في يد الشرير؛ ولكن لحساب الروح والحياة الأبدية. والمسيح، كملك سماوي، يعطي عطايا للمجد، وذلك بأن يعملوا و يعطوا و يبذلوا ويخسروا كل شيء لامتلاك المسيح كملك على قلوبهم لمجد الله. وشتان بين شهوة الأخذ وشهوة العطاء. فالأُولى دائماً لحساب الجسد البائد، والثانية لحساب الجسد المُقام في مجد.

وأما سؤالهم للمسيح: «ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله؟»، فهو سؤال يبدو صحيحاً في مظهره، ولكنه يضمر إصراراً على استخدام القدرة المظهرية، من عبادة وطقس، والفكر أو التدبير المادي كوسيلة للعمل، فالسؤال يكون صحيحاً إن هم قالوا: ما هو عمل الله لنعمله مباشرة؛ ولكنهم وضعوا قوة أنفسهم قبل قوة عمل الله: «ماذا **نفعل** حتى **نعمل**».

هذا هو انطباع الفكر اليهودي العام، وهذا يتضح من رد المسيح المصحّح الكاشف أن عمل الله لا يحتاج إلى فعل إنسان بل إلى إيمان: «هذا هو **عمل الله، أن تؤمنوا** بالذي هو أرسله»، هذا هو عمل الله، وهو العمل الوحيد الذي يطلبه الله لكي ينالوا الطعام الباقي للحياة الأبدية ولكي يحيوا إلى الأبد.

٦ : ٢٩ **«أجابَ يسوعُ وقال لهم: هذا هو عملُ الله أن تؤمِنُوا بالذي هو أرسَلَهُ».**

الرب هنا يكشف سر قصورهم في فهم كل الآيات التي عملها أمامهم، وفي فهم جوهر معجزة الخمس الخبزات التي فجرت شهوتهم للعودة إلى القوة والمُلْكِ. فلأنهم **أخفقوا في أن يرتفعوا بالآيات من مجرد الانتفاع بها إلى الإيمان البسيط السهل بالذي صنعها، لذلك ضاع عليهم الانتفاع بعمل الله لخلاصهم ولنوال الحياة الأبدية.**

والمسيح الآن يردُّهم إلى الوضع الصحيح بالنسبة له وللآيات التي صنعها، و بالنسبة لآمالهم في فهم المُلْكِ والحرية والخلاص. فـ«**عمل**» الله الذي عمله ــ و يلاحظ القارىء أن كلمة العمل هنا جاءت بالمفرد الفريد ــ هو أنه أرسل لهم مَنْ سيخلّصهم ويحررهم و يُشبعهم و يُفرحهم و يُحييهم من الموت، وهو العمل الأعظَم من كل الأعمال التي عملها لهم الله في السابق، والعمل **الوحيد** الذي يحوي كل الأعمال الأخرى و يكملها و يستعلن الله فيها، سواء عمل الخلقة أو بركات الآباء أو التوراة أو الناموس أو الأنبياء، فإذا آمنوا به يكونون قد آمنوا بكل أعمال الله وتمّموها، وختموا أن الله صادق: «ومَنْ قَبِلَ شهادته فقد ختم أن الله صادق، لأن الذي أرسله الله

يتكلم بكلام الله.» (يو٣: ٣٣ـ٣٤)

وإذ يتكلم هنا إنجيل يوحنا بصدد الخبز الباقي للحياة الأبدية وكيفية الحصول عليه عملياً بالنسبة لسؤال الجليليين: «ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله؟»، لا يمكن أن يتوه عن ذهننا قول المسيح بنفسه عن نفسه وعن هذا الطعام عينه أنه هو هو عَمَل مشيئة الآب!! وقد حدث سابقاً حينما سأله التلاميذ أن يأكل وهم حول بئر يعقوب: «وفي أثناء ذلك سأله تلاميذه قائلين يا معلم كُل. فقال لهم أنا لي طعام لآكل لستم تعرفونه أنتم ... **طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله**» (يو٤: ٣١ـ٣٤). هنا يكمن جوهر معنى الطعام في قول المسيح: «هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله»، لأنه إن كان المسيح قد عمل مشيئة الله الآب الذي أرسله، واعتبر هذا العمل بمثابة طعامه السري الأسمى الذي يغتذي عليه، فكم وكم يكون الإيمان بالمسيح؟ ألا يكون هو الطعام الذي فيه عمل كل مشيئة الآب والابن معاً!؟ وماذا كان طعام المسيح السري إلاّ تكميل كل مسرة ومشيئة الآب من نحو خلاص العالم الذي أحبه بتقديم جسده على الصليب؟ فإذا كان طعام المسيح السري هو تقديم جسده على الصليب، إذن فقد صار جسده طعامنا السري الذي فيه تكميل كل مشيئة ومسرة وحب الآب والابن معاً من نحو خلاصنا وحياتنا. و يُلاحَظ أن في قول المسيح: «هذا هو عمل الله أن "**تؤمنوا**"»، جاءت كلمة "**تؤمنوا**"، بالقراءة اليونانية المصححة على النسخ الأكثر صحة، فبدل كلمة πιστεύσητε تُقْرأ πιστεύητε ([٢٠])، وقد جاءت كفعل دائم مستمر الذي يفيد معنى «الشركة والارتباط السري الدائم».

٦: ٣٠و٣١ «فقالوا له: فأيةَ آيةٍ تصنع لنرى ونؤمنَ بكَ. ماذا تعمل؟ آباؤنا أكَلُوا المَنَّ في البريَّةِ كما هو مكتوبٌ أنه أعطاهُم خُبزاً من السماءِ ليأكُلُوا».

يلاحظ هنا أن الجليليين الذين رأوا معجزة الخمس الخبزات وأكلوا وشبعوا واعتبروها حافزاً لهم مناسباً جداً لكي يُنصّبوا المسيح ملكاً، اعتماداً على أنها معجزة مكافئة لمعجزة موسى والمن ذات رنين واضح وشديد أن المسيح حتماً هو النبي؛ عادوا يضيفون على طلبهم آية من السماء، أو بالأحرى إنزال المنّ من السماء. وهنا نرى دخول عنصر جديد على فكر هؤلاء الجليليين شككهم فيما انتهوا إليه سابقاً، من أنه بمقتضى معجزة الخمس الخبزات والسمكتين يستحق أن يكون ملكاً؛ وهذا كان من تأثير دخول عناصر متعلمة فريسية أخرى في النقاش، مما يفيد أيضاً أن تكملة الحديث هنا **يدور** في مجمع اليهود في كفرناحوم.

[20] ICC, *op. cit.*, p. 193.

هنا ينبغي أن نرجع إلى الفكر اليهودي المعتمد ــ في زمن المسيح ــ الذي استقى منه اليهود هذا الطلب من المسيح بانزال المن من السماء لإثبات أنه المسيَّا الذي ينتظرونه. فالمعروف أن هذا الفكر الذي كان ينادي به المتعلمون من اليهود يرجع إلى الكتابات الرؤيوية التي كانت سائدة ــ بتحقيق العلماء ــ في ذلك الزمن، مثل رؤية باروخ التي جاء فيها:

[إنه سيأتي زمان فيه تنفتح مخازن المنِّ، و ينزل المنُّ من السماء، وسيأكلون منه في هذه السنين (زمن ملوكية المسيَّا على الأرض)، لأن هؤلاء هم الذين سينتهي إليهم كمال الزمان.][21]

كذلك كان شائعاً قول للربيين يقول: [إن الذي فدى في السابق، أنزل لهم المن. كذلك فادينا في الأيام الأخيرة سيُنْزِل لنا المنَّ، كما هو مكتوب في المزمور: «تكون حَفْنَةُ بُرٍّ (قمح) في الأرض في رؤوس الجبال» (مز٧٢: ١٦)]. في حين أن نزول المنِّ من السماء كان مجرد رمز لنزول الكلمة المتجسد. ومعروف أن **الرمز لا يُحيي، والرمز أيضاً لا يتكرر،** فكان المن رمزاً لما سيأتي. وأوضحُ تعبير لذلك أن نزول المنّ من السماء توقّف عندما دخل بنو إسرائيل أرض كنعان وأكلوا من ثمر الحنطة، لأن الوقت آنذاك كان في الربيع. وثمر الحنطة (الخبز) كان واضحاً أنه إشارة إلى كلمة الله. فالمنُّ ــ **كرمز** ــ توقّف لما أكلوا من الحنطة التي هي الخبز. وها هو المسيح يقدم جسده الإلهي باعتباره أنه هو الخبز **الحقيقي**. فإن كان العهد القديم كان قائماً بالمنّ؛ فالعهد الجديد قائم بالخبز الحقيقي، والحقيقي يلغي الرمز. والعهد القديم وإن كان قائماً بالناموس كخمسة أسفار موسى؛ فالعهد الجديد قائم بكلمة الله الحية.

وقد أصبح من المُسلَّمات في تعاليم الربيين في ذلك الوقت أن عودة نزول المن من السماء ستكون هي العلامة المميزة والثابتة التي ستلازم مجيء المسيا، والتي أصبح اليهود يترقبونها بفارغ الصبر. وهكذا كان طلب اليهود من المسيح أن يُجْرِيَ آية نزول المن من السماء، لازمةً لكي يُثبت بها صدق دعوته. علماً بأن التعبير عن المنّ بأنه الخبز السمائي كان أمراً مألوفاً لدى اليهود، كما ورد في المزامير: «أمْطَرَ عليهم مَنّاً للأكل **وبُرَّ (قمح) السماء أعطاهم**. أكَلَ الإنسانُ خبز الملائكة، أرسل عليهم زاداً للشبع» (مز٧٨: ٢٤و٢٥). كما أن واقع قول المسيح لهم: «اعملوا... **للطعام (الخبز) الباقي** للحياة الأبدية»، كان حافزاً لهم ليطلبوا مزيداً، من واقع النص.

---

[21] II Baruch XXIX.8. Cited by C.H. Dodd, *The Fourth Gospel*, p. 335.

هذا مما حدا بالمسيح أن يصحح لهم مفهوم **معنى المنّ** و يصحح لهم **مَنْ هو الذي أنزل المنّ من السماء**. كما صحح لهم مفهوم استخدام الخبز السمائي.

٦: ٣٢و٣٣ «فقال لهم يسوعُ: الحقَّ الحقَّ أقولُ لكم ليسَ موسى أعطاكُم الخبزَ من السماءِ، بل أبي يُعطيكُمُ الخبزَ الحقيقيَّ من السماءِ، لأن خبزَ اللهِ هو النازلُ من السماءِ الواهبُ حياةً للعالمِ».

المسيح هنا يصحح بأن المنّ لم يكن إلاّ رمزاً فقط للخبز السمائي، لقد جاء من السماء فعلاً والله هو الذي أرسله عليهم، وليس موسى، ولكنه كان رمزاً للحقيقي الذي هو «**مأكلٌ حقٌّ**»، فلم يكن المن خبزاً جوهرياً ἄρτος ἀληθινός. أما الخبز الذي يتكلم عنه المسيح فهو خبز جوهري، أي حقيقي يختص بطبيعة الله والعبادة الحقة الذي سبق المسيح وعرَّفها للسامرية هكذا: «ولكن تأتي ساعة وهي الآن (ساعة المسيح) حين الساجدون "**الحقيقيون**" يسجدون للآب "**بالروح والحق**."» (يو٤: ٢٣)

هنا الخبز الذي يتكلم عنه المسيح هو خبز حقيقي من الله ومُقدَّم إلى الله، و بقوله «النازل» كفعل دائم النزول، يشير إلى طبيعته الفائقة غير الزمنية. فالمنُّ مهما كان على مستوى المعجزة باعتباره نزل من السماء، إلاّ أنه كرمز فقط لا يختص بطبيعة الله ولكن بطبيعة الإنسان المادية؛ ولذلك فإنه إذا تُرك، كان ينتنُّ و يضربه الدود شأن جثة الإنسان التي تغتذي منه، **فهو "خبزٌ بائدٌ"**: «الأطعمة للجوف والجوف للأطعمة، والله سيبيد هذا وتلك.» (١كو٦: ١٣)

المسيح هنا يهتم، في الواقع، بتصحيح نظرة اليهود ومفهومهم لحقيقة طبيعة الأُخرويات، أو الزمن الماسياني الذي كانوا يترقبونه؛ فقد أخطأت كل التعاليم اليهودية في هذا الأمر وربطته بالخيرات المادية والسلام المادي الجسدي، وقد تسرَّب إلى بعض الآفاق المسيحية في العصور الأُولى هذا التعليم اليهودي الخاطىء والفاسد، والذي اعتُبر أنه هرطقة، أي تعليم غريب غير إلهي، وظلت هذه الهرطقة لاصقة في بعض الشيع المسيحية حتى اليوم سواء في مفهوم عصر الألف سنة أو في مفهوم القيامة والحياة الجديدة بأنها حياة جسدية تماماً.

والمسيح يشدِّد جداً في ردِّه على السامرية أن هذا العصر قد حضر وصار بالفعل منذ «**الآن**»، ولم يعُدْ مستقبلاً آخرَ للإنسان، إذ بمجيء المسيح قد بدأت الساعة. كما يشدد أيضاً على أن العبادة الحقيقية لهذا العصر ليست في أورشليم ولا في مجامع من حجارة أو طوب أو على تلال مرتفعة أو

جبال، ولا هي سجود مظهري بالجسد: «قال لها يسوع يا امرأة صدّقيني إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للآب.» (يو٤: ٢١)

والعصر الروحي الجديد الذي وصفه بأنه «تأتي ساعة وهي **الآن**»، **لا ينتمي بعد للمظاهر الجسدية** سواء في العبادة أو عطايا الله جميعاً، بل الكل يتعلق بالروح لأنه عصر الحضور الإلهي، وكلُّ ما يتعلق به يتناسب مع طبيعة الله، أي يكون بالروح والحق.

فلما تكلم مع السامرية فيما يختص بالماء، رفعه في مفهوم السامرية من ماء الجسد الذي يسدُّ العطش الجسدي، إلى الماء الروحي، الذي يروي الإنسان بصورة دائمة للحياة الأبدية. و يُلاحَظ أن عطية الماء من الصخرة والمن من السماء تجيء دائماً مجتمعة في تذكار عطايا الله الإعجازية في القديم. كما جاء في سفر نحميا: «وأعطيتهم **خبزاً** من السماء لجوعهم، وأخرجت لهم **ماءً** من الصخرة لعطشهم.» (نح٩: ١٥)

وهنا يلزمنا أن ننتبه كيف ربط أيضاً ق. يوحنا في إنجيله على التوالي وعلى نفس المستوى بين الماء الحي في قصة السامرية والخبز الحي في قصة إشباع الجموع، لكن ليس كأنهما عطايا للشبع والإرتواء الجسدي لامتداد الحياة الجسدية المحدودة، بل كعطية واحدة سرية مُستعلَنة في شخص المسيح لنوال الحياة الأبدية مع الله بلا حدود: «أنا هو خبز الحياة. من يُقْبِلْ إليَّ فلا **يجوع**، ومَنْ يؤمنْ بي فلا **يعطش** أبداً.» (يو٦: ٣٥)

المسيح يتكلم هنا عن الخبز بالنسبة للعصر الماسياني على أنه:

خبز ليس لإشباع الجسد، بل خبز حقيقي، أي جوهري، لإشباع الروح للحياة الأبدية.

فهو خبز لا يختص بالجسد المادي، لأن الجسد بالمفهوم المادي لا يفيد شيئاً: «الروح هو الذي يُحْيي، أما الجسد فلا يفيد شيئاً.» (يو٦: ٦٣)

هذا المعنى ينقلنا إلى مفهوم أن هذا الخبز يستحيل أن يأتي أو يكون بواسطة إنسان، لأنه خبز روحي جوهري يختص بطبيعة الله،

فهو خبز الله الحقيقي الذي يتحتم أن يكون خبزاً سمائياً، لا أرضياً، بالمعنى الحقيقي.

وأن يكون موهوباً من الله ليس على المستوى الزماني كأنه يختص بزمن ما يأتي في المستقبل.

بل خبز حقيقي ἀληθινός يختص بالأبدية القائمة في الله باستعلانه في الحاضر الدائم إلى أبد الآبدين: «تأتي ساعة **وهي الآن**».

وأن يكون خبزاً غير محدود بالزمن كالمن الذي دام فقط أربعين سنة وانقطع لعدم الحاجة إليه،

بل هو خبز دائم الفعل والعمل،

غير محدود لشعب كما كان المنُّ في القديم، بل خبز خاص بالعالم كله: «لأن خبز الله ـ (أي الخبز الذي هو من طبيعة الله) ـ هو النازل من السماء (أي ليس من طبيعة الأرض) الواهب **حياة للعالم** (حياة سمائية من نفس طبيعة مصدره السمائي)» (يو٦: ٣٣)، حيث الإشارة هنا بدأت تتركز في **شخص** سمائي وليس في **شيء** أرضي.

فالمسيح يشير خفيًا هنا إلى نفسه، وإن كان لا يتعجل الاستعلان عن نفسه أنه هو الخبز الحي الحقيقي النازل من السماء، مما جعلهم يظنون أن هذا الخبز هو شيء يمكن أن يُعطى لهم فيريحهم من زراعة وحصاد وطحين وعجين وخبيز وتخزين.

ولكن يمكن أن نتعمق مع القارىء، إذا أطال أناته علينا، لنشرح له معنى أعمق لمفهوم التوراة كخبز وطعام عند الروحيين المتأملين من متصوفي اليهود وكبار الربيين على مستوى «فيلو» اليهودي وغيره الذين أخذوا عن سفر الحكمة قوله:

«الحكمة بَنَتْ بيتها، نحَتَتْ أعمدتها السبعة، ذبحت ذِبْحَها، مَزَجَت خمرها، أيضاً رتَّبت مائدتها، أرسلت جواريها تنادي على ظهور أعالي المدينة: مَنْ هو جاهل فلْيَمِلْ إلى هنا، والناقص الفهم قالت له: هَلُمُّوا كُلُوا من طعامي واشربوا من الخمر التي مزجتُها. اتركوا الجهالات فتَحْيَوْا، وسيروا في طريق الفهم.» (أمثال٩: ١ـ٦)

فقد اعتبروا التوراة، أي الناموس، أنه الغذاء الروحي والخبز المتحصِّل من القراءة والهذيذ المتواصل فيهما. علماً بأن ق. يوحنا كان متيقظاً منذ مطلع إنجيله إلى هذا الاتجاه، وقد أطاح بهذه النظرية في آية واحدة: «لأن الناموس بموسى أُعطي، أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا» (يو١: ١٧). وهنا وضع الإنجيل الحد الفاصل بين طبيعة الناموس وهدفه، وبين طبيعة النعمة والحق. فالأول (أي الناموس) كان لتهذيب الحياة بالسلوك البشري في خوف الله، والثاني كان لقبول حياة الغبطة بالروح والشركة في الحق، أي قبول طبيعة الله.

وقد امتد «فيلو» العالم المتصوف اليهودي بمفهوم الخبز الروحي إلى المنِّ أيضاً، معتبراً أن المنَّ هو رمز **للتوراة** وتعبير عن «**الحكمة**»، كما جاء في سفر الأمثال.

وهنا يشير المسيح إلى أن المنَّ لم يكن إلاّ رمزاً والرمز لا يُحيي؛ ولم يكن هو الخبز الحقيقي الذي يؤدي إلى الحياة الأبدية، وبالتالي فإن المن باعتباره خبز التوراة عند حكماء اليهود لم يؤدِّ ولن يؤدي إلى الحكمة الحقَّة ولا إلى معرفة الله الحقيقية.

ولكن بينما كان المسيح يضع أسس الحكمة الحقيقية و يشرح معنى الخبز الحقيقي، توطئةً للدخول في مفهوم ذبيحة الحكمة العظمى، بتقديم جسده وليمة على مائدة الحياة الأبدية؛ هبط فكر اليهود إلى مستوى السامرية عندما سمعت بالماء الحي فطلبته لكي يُغْنيها عن عطش وجهد وعن جذب هذا العالم الشديد، فسألوه:

٦ : ٣٤ «فقالوا له يا سيدُ أَعْطِنا في كلِ حينٍ هذا الخبزَ».

وتشديد سؤال اليهود على أن يكون عطاء هذا الخبز **كل حين** لا يجيء من فكرهم، بل لأن المسيح أكدَّ وشدَّدَ على أن خبز الله هو «النازل من السماء»، حيث جاءت كلمة «النازل» كفعل دائم السريان في الصيغة الدائمة المستمرة. فظنوه أنه ينزل كل يوم. وفي الواقع لا نرى في سؤالهم هنا: «يا سيد أعطنا في كل حين هذا الخبز» أي انحراف في محيط فهمهم أنه خبز ينزل إليهم من السماء فيعطيهم حياة دائمة. غير أن اعتراضهم الشديد على هذا الخبز ظهر بوضوح حينما كشف المسيح عن سر هذا الخبز أنه هو جسده الذي سيبذله عن حياة العالم. بعكس السامرية التي سألت نفس السؤال ببساطة: «يا سيد أعطني هذا الماء لكي لا أعطش ولا آتي إلى هنا لأستقي» (يو٤: ١٥)، ثم علمت أن هذا الماء ليس ماءً للشرب بل هو دعوة لسيرة مقدسة وطاهرة فيها ترتوي من حب الله والمسيح، أو بمعنى آخر، هو توبة؛ فلم تعترض، بل اعترفت وتابت وتطهرت، وقَبِلَتْ المسيح مخلِّصاً، بل و بشَّرت، وكأنما يريدنا الإنجيل أن نعرف أن الخاطىء (السامرة) لما لم يتمسك ببرِّه واعترف بخطيته خَلُصَ، والبار ــ (اليهود) ــ في عين نفسه هلك.

٦ : ٣٥ «فقالَ لهمْ يسوعُ أنا هو خبزُ الحياةِ من يُقْبِلْ إليَّ فلا يجوعُ، ومن يؤمِنْ بي فلا يعطشُ أبداً».

لمَّا سألت السامرية المسيح أن يعطيها من مائه الحي لكي لا تعطش، أعطاها نفسه فقَبِلَتْه.

وعلى نفس المستوى لمَّا طلب منه اليهود أن يعطيهم من خبز الله الحقيقي، أشار إلى نفسه: «... يا سيد أعْطِنا في كل حين هذا الخبز، قال لهم: **أنا هو خبز الحياة من يُقْبِلْ إليَّ فلا يجوع**»، فلو كانوا قد قبلوا منه عطية نفسه، لما جاعوا. العطية جاهزة أمامهم والخبز حاضر: «أنا هو خبز الحياة»، «أنا هو نور العالم»، «أنا هو الباب»، «أنا هو الطريق»، «أنا هو الحق»، «أنا هو الراعي الصالح»، «أنا هو الكرمة الحقيقية»، «أنا هو القيامة»، «أنا هو الحياة»... فهل يمكن أن يكون التعريف بنفسه أكثر من هذا؟! لو فتشوا الكتب لوجدوه، إنه هو الحياة الأبدية: خبزاً وماءً؛

فهو يخاطب اليهود أصحاب التوراة وميراث الأنبياء بطوله وعرضه، فهوذا الذي يغطي هذه النبوات كلها بالنسبة للحياة الأبدية يقول لهم علانية: «أنا هو»، **«أنا هو» خبز الحياة وماؤها**. اسمع ما تقوله التوراة وهي ترمز إلى المسيح:

+ «هوذا **الإنسان قد صار كواحد منا** عارفاً الخير والشر. والآن لعله يمدُّ يدهُ و يأخذ من شجرة الحياة أيضاً و يأكل ويحيا إلى الأبد.» (تك٣: ٢٢)
+ «**وشجرة الحياة** في وسط الجنة.» (تك٢: ٩)
+ «مَنْ يغلب فسأعطيه أن يأكل من **شجرة الحياة** التي في وسط فردوس الله.» (رؤ٢: ٧)
+ «طوبى للإنسان الذي يجد الحكمة ... هي **شجرة حياة لممسكيها** والمتمسك بها مغبوط.» (أم٣: ١٣و١٨)
+ «ثمر الصديق **شجرة حياة**.» (أم١١: ٣٠)
+ «**وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة**، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس (الأناجيل الأربعة).» (تك٢: ١٠)
+ «وأراني نهراً صافياً من ماءِ حياةٍ لامعاً كَبلُّور، خارجاً من عرش الله والخروف ... وعلى النهر من هنا ومن هناك **شجرة حياة**.» (رؤ٢٢: ١و٢)
+ «**يروون من دَسَم بيتك**، ومن **نهر نِعَمِكَ تسقيهم** لأن **عندك ينبوع الحياة** و بنورك نرى نوراً.» (مز٣٦: ٨و٩»
+ «أنا هو الألف والياء البداية والنهاية، أنا **أُعطي العطشان من ينبوع ماء الحياة مجاناً**.» (رؤ٢١: ٦)

والرب في قوله لليهود: «أنا هو خبز الحياة، مَنْ يُقْبِلْ إليَّ **فلا يجوع**، ومن يؤمن بي **فلا يعطش أبداً**»، يجمع الأكل والشرب معاً، فهو الطعام السمائي الكلي والكافي، الذي عاد ووصفه كسِرِّ الإفخارستيا الأبدية، الذي هنا نأكله ونشربه بالسر وهناك نشبع ونرتوي منه بالحق إلى الأبد.

أنظر أيها القارىء في قوله **«أبداً»**: **«لا يعطش أبداً»**، «من **يأكل** جسدي **ويشرب** دمي فله **حياة أبدية**» ... «الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم.» (يو٦: ٥٤و٥٣)

فهو شجرة الحياة الوحيد المستعلَن هناك بالحق، وهنا بالسر المكتوم. ولكن المسيح سواء هنا أو هناك هو مأكلٌ حقٌّ ومَشْرَبٌ حقٌّ، منه نستمد قوة الحياة ونورها وفرحها ومسرتَّها الآن، و**«الآن»**

عند المسيح مربوط «**بالأبد**»، لأنه في المسيح المستقبلُ حاضِرٌ كله وممتدٌّ بلا تغيير فيه ولا ظل دوران. فما نراه هنا في مرآة نراه هناك هو هو وجهاً لوجه.

إسمعه وهو يقول للسامرية التائبة: «من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا **فلن يعطش إلى الأبد** بل الماء الذي أُعطيه يصير فيه ينبوع **ماء ينبع إلى حياة أبدية**» (يو٤: ١٤). ثم اذكر كيف ارتوت هذه التائبة المباركة من ماء الحياة وأرْوَتْ آخرين. وتأمل أيها القارىء في قوله: «من **يُقْبِلْ** إليَّ فلا يجوع، ومن **يؤمن** بي فلا يعطش ...»، فهو لا يُخيب رجاء من يُقْبِلُ إليه لأن في يمينه شِبع سرور: «أمامك شِبَعُ سرور. في يمينك نِعَمٌ إلى الأبد» (مز١٦: ١١). وإشعياء النبي يقول: «يقودك الرب **على الدوام** ويشبع في الجدُوب نفسك، ويُنشِّط عظامك، فتصير كجنةٍ ريًا وكنبع مياهٍ **لا تنقطع** مياهه.» (إش٥٨: ١١)

فالمسيح يقدم نفسه لليهود ولنا كطعام حقيقي **«مأكلٌ حقٌّ» يدوم هنا وفي السموات، ولا ينقطع قط.** فالشبع من المسيح هو شبع إلهي سمائي لا يؤول إلى جوع دنيوي قط. والارتواء من المسيح هو ارتواء الروح بالروح. فينبوع المسيح ينبوع سمائي إلهي ينسكب بجملته في أحشاء الإنسان لينبع فيه ومنه، هذا وعد المسيح وعمل الروح الذي يجري الآن أمام عيوننا، وطوبى لمن يرى و يسمع.

هذا الكلام حلو كشهد العسل، ولكن هناك فرق بين من يشتهي عطايا المسيح ومن يشتهي المسيح نفسه. فالجليليون كانوا كالسامرية، لمَّا سمعوا هذا الكلام الحلو الذي يقطر عسلاً قالوا له: هات منه يا سيد، ولقبوه بالسيد تملقاً لعلهم يفوزون بعطاياه، ولكن كاشف الكُلى والقلوب أدرك أنهم يقبلون عطاياه ولا يقبلونه هو، و يؤمنون بمنفعة مواهبه ولا يؤمنون به هو. فلما قال: **«أنا هو»** ازدروا به و بعطاياه. فوضع لهم الشرط كالمشرط: عطاياي لمن يُقْبِلُ إليَّ، وغِنَايَ لمن يؤمن بي.

٦: ٣٦ «ولكني قلتُ لكم إنكم قد رأيتُموني ولستم تؤْمِنُونَ».

الكلام هنا تكملة للقول: «أنا هو خبز الحياة»، وردًّا على قولهم: «أعطنا في كل حين هذا الخبز»، لقد أخطأوا الرؤية وتزيَّفَتْ لهم الحقيقة، بل الحق الناصع، بسبب تركيزهم الكلي على شهواتهم ومنافعهم وآمالهم الدنيوية الكاذبة. فخبز الحياة الذي قدمه المسيح لهم هو شخصه، ولكنهم تجاوزوه وأرادوا آية المن النازل من السماء، لأن ذلك كان يُرضي شهواتهم.

فهنا يواجه المسيح رؤيتهم المزيفة ويحاول أن يردهم للحقيقة مرة أخرى: «ولكني قلت لكم إنكم قد **رأيتموني ولستم تؤمنون**». الإشارة هنا إلى آية سابقة هي: «الحق الحق أقول لكم أنتم تطلبونني ليس لأنكم **رأيتم آيات**، بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم» (يو٦: ٢٦)، لقد رأوا الآية واضحة أمامهم عندما بارك الخبز وأطعمهم: خمسة آلاف من خمس خبزات، فكان شخصه هو محور الآية لأنهم رأوه كمُعطي خبز الشِبَع، كصاحب بركة السماء، هذه البركة التي رأوها بل أكلوها، ولكنهم آمنوا بالخبز الذي ملأ بطونهم ولم يؤمنوا لا بالبركة ولا بمصدرها. لماذا؟

هنا يشرح لهم المسيح سبب عدم إيمانهم **وهو أنهم مرفوضون من الله الآب**، فلو كانوا مقبولين لدى الله الآب لكان الآب قد سلّمهم للابن، ولكانوا أقبلوا على الابن بمسرة إرادتهم، ولكان الابن قد أدخلهم في النور وصاروا أبناء الله. أما لماذا رفضهم الله؟ فالمسيح يشير بكل وضوح إلى آية سابقة وهي: «هذا هو عمل الله أن **تؤمنوا بالذي هو أرسله**» (يو٦: ٢٩)، عندما يعمل عمل الله. فالمسيح عمل أمامهم وتحت بصرهم عمل الله، مبرهناً أنه هو الذي أرسله الله لهم؛ ولكن:

«قد رأيتموني ولستم تؤمنون»:

بالإضافة إلى رؤية المسيح صانعاً معجزات، وهذا بحد ذاته هو عمل الله الذي ينبغي أن يؤدي إلى التعرف على المسيح شخصياً كمُرْسَلٍ من الله وابن له، يركِّز المسيح هنا وفي مرات أخرى أيضاً على **التعرُّف عليه شخصياً بدون آيات**. هذا نعرفه بوضوح من قوله لفيلبُّس: «أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبُّس، **الذي رآني فقد رأى الآب**، فكيف تقول أنت أرِنَا الآب» (يو١٤: ٩). وهذا يشير إلى أن شخص الرب كان يحمل سمات إلهية لا تخفى عن العيون المفتوحة التي طوّبها الرب: «فإني الحق أقول لكم إن أنبياءَ وأبراراً كثيرين اشتهوا أن يَرَوْا **ما أنتم ترون** ولم يَرَوْا، وأن يسمعوا **ما أنتم تسمعون** ولم يسمعوا» (مت١٣: ١٧). الرؤيا هنا والسمع حاستان مفتوحتان على الإيمان. فالحواس البشرية جُعلت لا لتخدم الجسد فقط، بل هي متصلة بالروح إذا تهذبت بالكلمة الإلهية وخضعت لهاتف الخير وإيحاء الروح.

ولكن شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظُّم المعيشة تُتلف حواس الإنسان وتُخضعها لتخدم ملذات الإنسان، فيُصاب بالعمى والصمم الروحيين.

فالرب يتعجب جداً من فيلبُّس كيف فات عليه **الإحساس** بالحقيقة الإلهية الكائنة في المسيح، كما يتعجب جداً من اليهود هنا **الذين لم يؤمنوا به، حتى** بعد أن رأوه متكلماً بكلام الله وعاملاً أعمال الله.

ولكن المسيح يشدد أولاً على سهولة وإمكانية الإيمان به بدون رؤية آيات وأعمال ولكنهم أخطأوا رؤيته لأنهم أخطأوا إلى الله: «فقالوا له أين هو أبوك؟ أجاب يسوع لستم تعرفونني أنا ولا أبي، لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً.» (يو٨: ١٩)

ثم يتنازل المسيح إلى واجب الإيمان به إذا تكلم كلام الله: «فإن كنتُ أقول الحق فلماذا لستم تؤمنون بي؟ الذي من الله يسمع كلام الله لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله» (يو٨: ٤٦و٤٧)؛ «لو لم أكن قد جئت وكلَّمتُهم لم تكن لهم خطية، وأما الآن فليس لهم عُذْر في خطيتهم.» (يو١٥: ٢٢)

ثم يتنازل المسيح أكثر ويرى أنه من الواجب بل ومن الضرورة أن يؤمنوا به لأنه يعمل أعمال الله: «إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي، ولكن إن كنت أعمل فإن لم تؤمنوا بي (شخصياً) فآمنوا بالأعمال، لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ وأنا فيه.» (يو١٠: ٣٧و٣٨)

أي أن الإيمان بالمسيح مفتوح في الدرجة الأولى برؤيا بدون قول أو عمل، وإلا فالدرجة الثانية بالقول وبالعمل، فإن انغلق الإيمان وانحجب المسيح حتى بعد الرؤيا والقول والعمل، فهذه علامة غضب الله.

٦: ٣٧ «كلُّ ما يعطيني الآب فإليَّ يُقبِلُ. ومَنْ يُقبِلْ إليَّ، لا أُخرجه خارجاً».

يلاحظ القارىء هنا أن الآية تبتدىء بـ«**كلُّ**»، أي أن عطية الله الآب للمسيح تأتي بالجمع، ولكن الذين يُقبِلون إلى المسيح من هذا الجمع يأتون واحداً واحداً بالمفرد، حسب جذب الآب لكل واحد في وقته وترتيبه؛ فطريق المسيح ضيِّق لا يَسَعْ في المسير إلاَّ واحداً فواحداً — فالأخ لا يستطيع أن يفدي أخاه (راجع مز٤٩: ٧). فعلاقتنا بالمسيح فردية كعريس وعروس، ولكن العجب أن المفديين حينما يتكامل كلُّ واحد منهم في المسيح، يجمعهم المسيح معاً بسَقْي الروح الواحد ليصيروا مرة أخرى واحداً في المسيح، كعذراء مخطوبة لرجل واحد، كعريس وعروس، مع أنه لا حَصْرَ لها من الكثرة، كنيسةً لا عيب فيها، عروساً متسربلة بصلوات القديسين وعِطْرِهم، نازلةً من السماء مزيَّنة بكل فضائل المسيح.

وإذا أراد القارىء أن يتعمق هذا المعنى ويتذوق هذه المقارنة، فليسمع ما يقوله وما يسبِّح به بولس الرسول، إذ يرى أن كلَّ المفديين والمختارين كانوا مجموعين معاً ككلٍّ، كجسد واحد في المسيح الذي يجمعهم في كيانه الإلهي قبل أن يتجسد، قبل أن يكون زمان بَعْدُ ولا عالَمٌ: «مبارك

الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح. كما **اختارنا فيه قبل تأسيس العالم** لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة.» (أف ١: ٣و٤)

فعطية الآب للمسيح: «كلُّ ما يعطيني الآب» هي كلٌ ومجموع، ومن الكل يُقْبِلُ إلى المسيح كلُّ فرد لينال التبني الموضوع لنا على أساس قبول موت الرب وقيامته، حسب الخطة المرسومة منذ الأزل: «إذ سبق فعيَّننا ــ بلا حدود ــ للتبنّي ــ (لنأخذه) بيسوع المسيح، لنفسه حسب مسرة مشيئته.» (أف ١: ٥)

وهنا تتقابل مشيئة الله مع مشيئة المسيح في سيمفونية الطاعة والبذل، بصورة رفعت البشرية إلى مستوى الحياة الأبدية مع الله.

ــ «مجِّد ابنَك ليمجِّدك ابنُك أيضاً، إذ أعطيته سلطاناً **على "كل" جسد** (الدعوة عامة) **ليعطي حياة أبدية "لكل مَنْ" أعطيته.»** (يو١٧: ١و٢)

ــ «أبي الذي أعطاني إياها ــ وأنا أعطيها حياة أبدية.» (يو١٠: ٢٩و٢٨)

وهذا هو منتهى سر الاتفاق في العمل الإلهي بين الآب والابن.

والمسيح يقرر حقيقة غاية في السخاء المدفوع ثمنه دماً: «ومن يُقْبِلْ إليَّ **لا** أُخرِجه خارجاً». هنا اللغة العربية عاجزة عن أن توفي للمسيح حق التشديد الشديد على وعده هذا، فحرف النفي البسيط «لا» يجيء في اليونانية بصورة مشددة للغاية **οὐ μή** الذي جاءت ترجمته في الإنجليزية: **I will in no wise** الذي قد نترجمه إلى: "يستحيل بأي حال".

فتصوَّر، أيها القارىء، هذا الوعد الذي يجيء كأنه عَهْدٌ بأن الرب يستحيل بأي حال أن يُخْرِجَ مَنْ يُقْبِلُ إليه، مما يجعل كلامه لليهود هنا مؤكَّداً أنهم لم يأتوا إليه، بل وبصراحة مضمرة، أنهم مرفوضون من الله ومطرودون من لَدُنِه، لأنهم لم يُقْبِلوا إلى المسيح ولا حتى قَبِلوه.

أما كلمة **«خارجاً»** في قوله «أُخرِجُه خارجاً»، فهي كلمة قاسية جداً ومُرّة للغاية، وتظهر مرارتها في قوله: «الآن دينونة هذا العالم، الآن يُطرح رئيس هذا العالم **خارجاً**.» (يو١٢: ٣١)

والآن، أيها القارىء العزيز، ينبغي أن نسأل هل أَقْبَلْتَ إلى المسيح بالحق قولاً وعملاً؟ إذا كان ذلك فأنت ضمن عطية الآب ــ غير المحدودة بعدد أو زمن أو قانون ما. فالعالم كله، لو يشاء، مدعوٌّ إلى حضن الآب ــ فأنت للمسيح مُعيَّن ومُخْتَارٌ للحياة الأبدية. وإن لم يكن ذلك

بعد، فأمامك الدعوة مفتوحة، ألقِ بنفسك على مشيئة الله لتشعر بجذب الآب لك وتكتشف فيه محبة المسيح وسرَّه.

٦:٣٨و٣٩ **«لأني قد نزلتُ من السماءِ ليس لأعْمَلَ مشيئتي بل مشيئة الذي أرسَلَني. وهذه مشيئةُ الآبِ الذي أرسَلَني أنَّ كلَّ ما أعطاني لا أُتْلِفُ منهُ شيئاً بل أُقيمُهُ في اليومِ الأخيرِ».**

الكلام هنا مكمِّل لقول المسيح أن: «مَنْ يُقْبِلْ إليَّ، لا أُخرجه خارجاً، "**لأني**" قد نزلت من السماء ليس لأُعمل مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني». الكلام هنا يُزيد التأكيد على شدة اهتمام المسيح في تأدية رسالته بالنسبة للذين أعطاهم الآب له ليهبهم الحياة الأبدية.

وهكذا بقدر ما أُعطِيَ المسيح سلطاناً على كل جسد ليعطيه الحياة الأبدية (يو١٧: ٢)، بقدر ما أخذ على نفسه الحفاظ على كل نفس تأتي إليه أن لا تتلف أو تضيع. وهذا الضمان يظل قائماً حتى اليوم الأخير الذي فيه تنال النفس نصيبها في القيامة العظمى، هذا التأكيد يكرره المسيح كثيراً بسبب ضعف إيمان الإنسان بالمستقبل: «لأنكم لستم من خرافي كما قلت لكم، خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني، وأنا أُعطيها حياة أبدية ولن تهلك إلى الأبد، ولا يخطفها أحدٌ من يدي. أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل (إبراهيم وموسى والأنبياء)، ولا يقدر أحدٌ أن يخطف من يد أبي. أنا والآب واحد.» (يو١٠: ٢٦ــ٣٠)

هذا وصف تصويري مُبْدع لحقيقة العناية الإلهية في قوتها الهائلة والشاملة لحفظ الكون كله بكل أجزائه، ثم العناية الخاصة جداً بالنفوس البشرية التي التجأت إلى المسيح في ضعفها المتناهي مستندة إلى معونته أمام قُوَى الشر الهائلة، التي تبدو في طغيانها وكأنها قادرة أن تبتلع البشرية كلها: «ولا يخطفها أحدٌ من يدي» التي لها قوة يد الآب. فالمسيح هو الابن الوحيد المُرْسَل من الآب، والذي نزل من السماء لتأدية هذه الرسالة بكل دقة وقوة وسلطان حتى اليوم الأخير، الذي فيه تُستعلن خطة الخلاص العُظمى بكل أمجادها، وتلتحم قوى الحياة الأبدية التي ننالها الآن ــ بالسر في الحاضر ــ بقوى الحياة الأبدية المستعلنة في الله، والتي سنشترك فيها إلى كل ملء الله!

وقد لاحظ بعض علماء الكتاب المقدس أن الآيات المتتابعة ٣٧و٣٨ و٣٩و٤٠ لا تختص بحديث الخبز السمائي موضوع الجدل الذي انشغل به الجليليون، ولكن الحقيقة أن الجليليين في سؤالهم المسيح: «ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله؟»، هذا السؤال هو الذي ردَّ عليه المسيح أن:

«عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله»، ثم ابتدأ ينتقل من التركيز على موضوع الخبز الحي إلى موضوع رسالته العامة أولاً بصفته أنه هو «**عمل الله**» المطروح للإيمان به، ثم ابتدأ يشرح ما هو عمل الله في المسيح من إرساليته وتتميم مشيئة الآب الذي أرسله، ثم ما هي هذه المشيئة التي التزم بها المسيح أشد الالتزام.

٦ : ٤٠ «**لأنَّ هذه هي مشيئةُ الذي أرسَلَني أنَّ كلَّ مَنْ يَرَى الابنَ ويؤمنُ بِهِ، تكونُ لهُ حياةٌ أبديةٌ، وأنا أُقيمُهُ في اليومِ الأخيرِ**».

واضح هنا أن المسيح يشرح الإجابة على نفس سؤال الجليليين له: ما هو عمل الله الذي يمكن أن نفعل؟ كما أنه هو إعادة توضيح لرد المسيح: **هذا هو عمل الله**: أن تؤمنوا بالذي هو أرسله: أي تصدقوه!!

والإضافة التي أضافها المسيح جديداً في هذه الآية هي كيفية الإيمان به: «**كلُّ مَنْ يرى الابن**»، كذلك، الإيمان به: «**تكون له الحياة الأبدية** (منذ الآن)»، ويكمل فعل هذه الحياة، واستعلانها بتجلي الجسد الروحاني في اليوم الأخير: «وأنا أقيمه في اليوم الأخير»، وهذه الآية تأتي لتوضيح وتأكيد آية سابقة بنفس المعنى: «ولكني قلت لكم إنكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون» (يو٦ : ٣٦). فالإضافة الجديدة توضح لهم أن **عدم الإيمان به**، أي عدم تصديقه بعد أن رأوه يعمل مشيئة الله وسمعوه يتكلم بكلام الله وأكلوا البركة الإلهية من يديه، معناه أنهم رفضوا مشيئة الله، وحرموا أنفسهم من الحياة الأبدية.

«كل من يرى الابن»:

كلمة «**يرى**» هنا لا تمتُّ إلى النظر الطبيعي بالعين ولكنها رؤية بالقلب والفكر الروحي المدرَّب بالكلمة. وتأتي باليونانية θεωρῶν واضحة جداً لتفيد هذا المعنى. وهي تمتُّ إلى معنى التأمل الذي نسميه في التدريب التصوفي «التاورية»، وفيها يرتقي الفكر إلى رؤية الحقائق الإلهية حيث يستنير الفكر بالنور الإلهي الداخلي. وهذا المعنى يوضحه المسيح مرة أخرى في آية تالية: «**الذي يراني** θεωρῶν **يرى الذي أرسلني. أنا قد جئتُ نوراً** إلى العالم حتى كلُّ مَنْ يؤمن بي لا يمكث في الظلمة.» (يو١٢: ٤٥و٤٦)

التدرج في هذه الآية هام للغاية، فالرؤية توصل إلى النور، أي التأمل القلبي والذهني في

المسيح وأقواله وأعماله بعمق وتمعن، والذي يكشف بسهولة الله الذي في المسيح والذي هو أرسله، فيرى الإنسانُ الحقَّ الإلهي و يصدقه و يؤمن به و يدخل في الاستنارة الإلهية المحيية.

هذه ليست عملية معقدة ولا تعتمد على أي مجهود بشري، بل إن مجرد قبول المسيح والإيمان به يصل بهذه العملية إلى أقصاها بدون حساب زمني: «بنورك (يارب) نرى نوراً ... لأن عندك ينبوع الحياة.» (مز٣٦: ٩)

فمن الرؤيا إلى النور إلى الحياة، هذه هي القاعدة الإلهية في المسيح بالإيمان: «بعد قليل لا يراني θεωρεῖ العالم أيضاً (ستنحجب حقيقة المسيح عن العالم بواسطة عثرة الموت على الصليب) وأما أنتم **فترونني** θεωρεῖτε **إني أنا حي** فأنتم ستحيون.» (يو١٤: ١٩)

ب ــ الجزء الثاني من الحديث: (٤١: ٥١).

٦: ٤١و٤٢ **«فكان اليهود يتذمَّرونَ عليهِ لأنهُ قالَ أنا هو الخبزُ الذي نزلَ مِنَ السماءِ، وقالُوا أليسَ هذا هو يسوعُ بنُ يوسفَ الذي نحنُ عارفونَ بأبيهِ وأُمِهِ. فكيف يقولُ هذا إني نَزَلتُ من السماءِ».**

هنا ابتدأ العنصر اليهودي المتعلِّم يظهر في الحوار، مما يفيد أن الحديث كان فعلاً داخل مجمع كفرناحوم. والتذمر طبيعة لم تفارق بني إسرائيل منذ أن خرجوا من مصر، وكان الله يعاقبهم على تذمرهم، ولكنهم كانوا دائماً يعودون إلى هذا الداء الوبيل الذي أودى بحياتهم كأُمة. وكان موضوع تذمرهم هنا قولُ الرب: «**أنا هو الخبز** الذي **نزل من السماء**»، وهو مجمل ما قاله المسيح عن نفسه في ثلاث آيات سابقة (٣٣و٣٥و٣٨): «خبز الله هو النازل من السماء»، «أنا هو خبز الحياة»، «لأني قد نزلتُ من السماء».

وواضح أنَّ وضع المسيح البشري المعروف لديهم وقف عثرة في قبول لاهوته، وهذا هو سر التجسد بكامله. ولم يكن معروفاً على المستوى العام ميلاد المسيح البتولي من عذراء، ولكن حتى ولو لم يكن معلوماً شيء عن سر ميلاد المسيح البتولي، فكلام الرب كان يكفي جداً أن يشير إلى ذلك السر بدون أي صعوبة أو نقاش. لذلك نرى ق. يوحنا في إنجيله يتحاشى الخوض في أنساب المسيح ويتخطى كل روايات الميلاد مكتفياً باستعلان لاهوت المسيح من فم المسيح نفسه، استعلاناً لا يترك أي مجال للتحقيق البشري أو لشهادة الشهود.

وعلى هذا الأساس تماماً كان ردُّ المسيح عليهم:

٦ :٤٣ـ٤٧ **«فأجاب يسوعُ وقالَ لهُمْ لا تَتَذمَّرُوا فيما بينَكم. لا يقدِرُ أحدٌ أنْ يُقْبِلَ إليَّ، إنْ لـم يجتـذِبْهُ الآبُ الذي أرسَلَني، وأنا أُقيمُهُ في اليومِ الأخيرِ. إنه مكتوبٌ في الأنبياءِ ويكونُ الجميعُ متعلِّمينَ من الله. فكلُّ مَنْ سَمِعَ من الآبِ وتَعلَّم يُقْبِلُ إليَّ. ليس أنَّ أحداً رأى الآبَ إلاَّ الذي من الله. هذا قد رأى الآبَ. الحقَّ الحقَّ أقولُ لكُمْ مَنْ يؤمِنُ بي فلَهُ حياةٌ أبديةٌ».**

يجيب الرب على موضوع تذمُّرهم، وهو قوله عن نزوله من السماء، بأنه لا يأتي إليَّ أحدٌ بالفحص ومعرفة الأنساب، أما الذي تعلم من الله فهذا يأتي إليَّ، لأن الله هو أبي الذي أرسلني وهو يجتذب إليَّ كلَّ الذين فتحوا عيونهم وقلوبهم لقبول مشيئة الآب، لأن مشيئة الآب هي رسالتي وعملي.

وهنا يستشهد المسيح بكلام إرميا النبي: «**بل هذا هو العهد** الذي أَقْطَعه مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام، يقول الرب، **أجعل شريعتي في داخلهم، وأكتبها على قلوبهم**، وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً، **ولا يعلِّمون بعدُ كلُّ واحدٍ صاحبه وكلُّ واحدٍ أخاه** قائلين: **اعرفوا الرب، لأنهم كلهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم**، يقول الرب.» (إر٣١: ٣٣و٣٤)

المسيح هنا نقل العلم واحتكار المعرفة من أئمة اليهود ــ خاصة الفريسيين، وهم الذين كانوا يتزعمون دائماً معارضة المسيح ومصادرة أقواله وإثارة الشعب ضد تعاليمه ــ كما هو حادث في هذا الموضوع أمامنا ــ نقله إلى عامة الشعب مباشرة وبلا تعليم، وهنا إشارة قوية جداً إلى عمل الروح القدس. المسيح يستشهد بهذه النبوة التي تقول إن العهد الجديد الذي سيقطعه الرب مع بني إسرائيل لن يجعل الشريعة محتكرة للتعليم العقلي والتلقين الشفاهي، بل سيجعلها مكتوبة بأصبعه ــ أي بالروح القدس ــ في ألواح قلوبهم اللحمية حيث لا يعود أحدٌ يحتكر لنفسه التعليم. ولا يعلِّم الواحد الآخر معرفة الرب، لأنهم كلهم من صغيرهم إلى كبيرهم سيعرفون الرب، لأنهم سيكونون متعلِّمين من الله. والمسيح هنا يركز على كلمة «**كل**»، فلا صغير في العلم، ولا كبير في التعليم، بل الجميع بلا تفريق: «كلُّ مَنْ سمع من الآب وتعلَّم يُقْبِلُ إليَّ» بدون وسيط أو معلِّم أو رابي.

فالمسيح يتكلم عن ظهور هذا العهد الذي قطعه الله على نفسه، وأكَّده بالأنبياء، وها هو قد أرسل ابنه لتنفيذه على أساس أن كلمة الله سيكتبها الآب في قلوبهم: «لكن ماذا يقول؟ الكلمة

قريبة منك في فمك وفي قلبك، أي كلمة الإيمان التي نكرز بها» (رو١٠:٨). كل من يسمع لها ويصدقها فإنه يصبح متعلماً بدون معلم، ويجتذبه الآب إلى المسيح لينال به الوعد بالحياة الأبدية: فـ«كل من سمع من الآب وتعلَّم يُقْبِلُ إليَّ». وتلاميذ الرب كانوا أول برهان صادق لقيام ذلك العهد.

والمسيح يضع نفسه كمعلِّم لـ«**معرفة الله**» هذه، ولكن ليس كمن يعلِّم عن كتاب مكتوب أو معلِّم مشهور، بل كمن **رأى الله في جوهره** وفي سرِّه الأعظم كآب له سمع منه وتعلم: «ليس أن أحداً رأى الآب إلاَّ الذي من الله. هذا قد رأى الآب.» (يو٦:٤٦)

لذلك كان المسيح ـ الكلمة ـ هو الوحيد الذي يتكلم بكلام الله: «لأن الذي أرسله الله يتكلم بكلام الله» (يو٣:٣٤). فمن يسمع من المسيح فهو يسمع من الله رأساً، فمن سمع وتعلم يُقْبِلُ إلي المسيح، مُذعناً مؤمناً أنه بالحقيقة ابن الله. والعلاَّمة ديديموس الضرير[٢٢] يضع بطرس الرسول في إيمانه واعترافه مثلاً لذلك، والقديس أغسطينوس[٢٣] أيضاً يقول بهذا المعنى.

وسنرى المسيح في موضع آخر قادم كيف يكشف لليهود أنهم لا يسمعون له أو يسمعون منه ولكنهم يسمعون من إبليس: «لماذا لا تفهمون كلامي؟ لأنكم لا تقدرون أن **تسمعوا** قولي. أنتم "**من أب**" هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا...» (يو٨: ٤٣و٤٤). هنا يكشف الرب سِرَّ من رفض المسيح وقاومه.

٦:٤٥و٤٦ **«كلُّ مَنْ سَمِعَ مِنَ الآبِ وتعلَّم، يُقْبِلُ إليَّ. (لأن) ليسَ أنَّ أحداً رأى الآبَ إلاَّ الذي من الله. هذا قد رأى الآبَ».**

هنا يقدم المسيح لليهود نقلة كبيرة وتحوُّلاً جذرياً من عهد موسى الذي يُقال أنه رأى الله، ومن عهد الأنبياء الذين تكلموا عن رؤيا وسَمَعٍ من الله، أنهم في الحقيقة **لم يروا الله في ذاته، في طبيعته الإلهية وجوهره**، بل يقول سفر العبرانيين أنه كلمهم «بأنواع وطرق كثيرة» (عب١:١). فهم إنما رأوا شبه الرب كقول الله الصريح: «فنزل الرب في عمود سحاب ووقف في باب الخيمة ودعا هرون ومريم (اللذين كانا قد تكلما ضد موسى بسبب زواجه من امرأة حبشية) فخرجا كلاهما. فقال: اسمعا كلامي. إن كان منكم نبيٌّ للرب **فبالرؤيا أستعلنُ له في الحُلم أكلِّمهُ.**

---

[22] Schnackenburg, *op. cit.*, p. 451.

[23] Tract. on John, xxvi,8.

وأما عبدي موسى فليس هكذا بل هو أمينٌ في كل بيتي. فماً إلى فمٍ وعياناً أتكلم معه لا بالألغاز، **وشِبْهَ الربِّ يعاينُ**. فلماذا لا تخشيان أنْ تتكلما على عبدي موسى؟» (عدد١٢: ٥ــ٨). وكلمة الإنجيل واضحة: «الله لم يَرَهُ أحدٌ قط.» (يو١: ١٨)

أما الرب يسوع فيقول عن نفسه علناً وجهاراً إنه رأى الله، ومنه خرج، لأنه من طبيعته وجوهره، لذلك فقد رآه في ذاته، حيث الرؤيا هنا رؤية الذات للذات. فالآب والابن ذات واحدة.

«ليس أن أحداً رأى الآب إلاَّ الذي من الله. هذا قد رأى الآب»:

فالرؤيا هنا **رؤيا ذاتية**، ليس بالعين ولا بالتأمل بل رؤية تطابق المثيل على المثيل، فالابن يرى الآب كما يرى الآب الابن، لأن وحدة الذات والجوهر والطبيعة جعلت المعرفة بينهما واحدة: «ليس أحدٌ يعرف الابن إلاَّ الآب. ولا أحد يعرف الآب إلاَّ الابن» (مت١١: ٢٧). والمشيئة والكلمة واحدة والعمل واحد، لذلك قال لفيلبس: «الذي رآني فقد رأى الآب» في كل شيء (يو١٤: ٩). هذا عبَّر عنه المسيح في قوله للآب: «كل ما هو لي فهو لك وما هو لك فهو لي» (يو١٧: ١٠). ثم في موضع آخر قادم يتجمع كل ذلك في قول واحد: «أنا والآب واحد.» (يو١٠: ٣٠)

وبناء على أنه هو الوحيد الذي رأى الله الآب وخبَّر، أصبح الإيمان بشخصه وبكلمته وعمله ضرورة حتمية، لأن الله الآب يتكلم ويعمل به: «الله بعدما كلَّم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة، **كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه** الذي جعله وارثاً لكل شيء.» (عب١: ١و٢)

والمسيح ينتهي من قوله أنه الوحيد الذي رأى **الآب**، إلى حتمية الإيمان به لنوال الحياة الأبدية.

٦: ٤٧ **«الحقَّ الحقَّ أقول لكُمْ مَنْ يؤْمِن بي فلَهُ حياةٌ أبديةٌ».**

لماذا؟ لأن هذه هي رسالته ــ الحياة الأبدية ــ التي أرسله الآب إلى العالم ليكملها، وقد أكملها، وأعطاها، بسفك دمه فدية عن العالم كله، لكلِّ من يؤمن به. وهذا هو تسلسل الكلام: المسيح هو الوحيد الذي رأى الآب، لأنه هو الوحيد «الذي من الله παρὰ τοῦ θεοῦ» (يو٦: ٤٦)، لذلك إن سمعوا له وآمنوا به يكونون قد سمعوا الآب، وبالتالي ينالون القصد من رسالته، ورسالته هي أن ينالوا الحياة الأبدية.

ثم يبتدىء الإنجيل بعد ذلك في توضيح كيف يؤمنون به لينالوا الحياة الأبدية. وعلى مستوى أن لا حياة بدون أكل وشرب وتنفُّس، هكذا سيعطيهم أن يأكلوه و يشربوه و يتنفسوا روحه القدوس.

هذا هو موضوع حديث المسيح حتى نهاية الأصحاح.

٦: ٤٨ــ٥١ **«أنا هو خبزُ الحياةِ. آباؤكم أكلوا المنَّ في البريةِ وماتوا. هذا هو الخبزُ النازلُ من السماءِ لكي يأكلَ منه الإنسانُ ولا يموتَ. أنا هو الخبزُ الحيُّ الذي نزلَ من السماءِ. إنْ أكلَ أحدٌ مِنْ هذا الخبزِ يحيا إلى الأبدِ. والخبزُ الذي أنا أُعطي هو جَسَدِي الذي أبذُلُهُ مِنْ أجلِ حياةِ العالمِ».**

يبدو لأول وهلة أن الكلام هنا مكرَّر ومُعَاد. ولكن كل كلمة وكل آية تأخذ وضعها وترتيبها بإحكام.

«أنا هو خبز الحياة»:

هذه الآية تأتي كشرح توضيحي للآيات السابقة: «الحق الحق أقول لكم مَنْ يؤمن بي، **فله حياة أبدية**». أي أن المسيح اعتبر نفسه خبزاً لنوال الحياة الأبدية، حيث كلٌّ من المسيح والخبز الذي يعطيه يَهَبُ الحياة الأبدية، لأن الحياة الأبدية فيه. فالمسيح فيه الحياة و يعطي الحياة، لأن المسيح حيٌّ ومحيي: «لأني أنا حيٌّ، فأنتم ستحيون» (يو١٤: ١٩). وخبز الحياة هو كذلك خبز حي، فهو يعطي الحياة لأنه خبز الله، لأنه جسد المسيح. فالتطابق الذي يجعله المسيح بين كيانه الحي **«أنا هو»** المحيي، وبين كيان الخبز الحي **«الجسد»** المحيي هو تطابقٌ كلِّي؛ لذلك يعود المسيح بعد ذلك و يوضح هذا التطابق هكذا: «أنا هو الخبز الحي». وهنا يكمن سر التجسد العجيب الرهيب على مستوى إتحاد الكيان الإلهي **«أنا هو»** بـ**«الجسد»** البشري المولود من الروح القدس إتحاداً سرياً كاملاً أبدياً.

والحيرة التي يقع فيها العقل الذي لم يقبل سر التجسد تكون حيرة حقيقية، إذ كيف يمكن للمسيح وهو إنسان أن يكون خبزاً ــ والخبز معروف أنه يؤكل لقوام الحياة الجسدية؛ أما للذين قبلوا سر التجسد، أي بالإيمان بالمسيح الكلمة المتجسد، يصير من السهل عليهم أن يدركوا سر الإفخارستيا في قول الرب: **«الخبز الذي أنا أُعطي هو جسدي»**. فهذا هو غاية التجسد، فالمسيح تجسد ليعطي جسده الحي للعالم ليكون بذرة الخليقة الجديدة. هذه الحقيقة سرية للغاية والذي يقبلها إنما يقبلها بالإيمان. والمسيح عرض الإيمان به على اليهود لينكشف لهم السر فرفضوه:

«إن كلَّ مَنْ يرى الابن ويؤمن به، تكون له الحياة الأبدية؛ ولكني قلت لكم إنكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون». فقبول المسيح، أي المجيء إليه والإيمان به أولاً، كفيل بأن يكشف كل أسرار المسيح والحياة الأبدية. ولكن **الخطأ الذي ارتكبه اليهود، والذي لا يزال يرتكبه العالم، أن الناس يريدون أن يعرفوا سر المسيح قبل أن يأتوا إليه ويؤمنوا به، وهذا مستحيل.**

والآن فالنصيحة العظمى التي نقدمها للناس جميعاً هي أن يأتوا إليه بلا فحص وأن يقبلوه ويؤمنوا به لتنفتح عيونهم وقلوبهم ويدركوا سر المسيح والله بكل يقين، وسر الحياة الأبدية.

والمسيح في قوله إنه «يعطي جسده» يصير فاعلاً: «أنا هو»، ومفعولاً به: «جسدي» بآن واحد!! فالمسيح كائن في الله وفي الجسد معاً بآن واحد، لذلك حينما يبذل جسده فهو يعطي نفسه في هذا الجسد ليصير الآكل من الجسد إتحاداً به وبالله الآب، وقوة هذا الإتحاد هي الحياة الأبدية.

«الخبز الذي أنا أُعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم»:

والخبز الحي هو جسد المسيح الذي سيُذبح بإرادته، الذي فيه الحياة الأبدية غير القابلة للموت، ليكون ذبيحة إلهية حية حياةً أبدية، لكي كلُّ مَنْ يأكل منها يحيا فيه وفي الله الآب، على أنه يستحيل على أحد أن يأكل منه أكلاً حقيقياً إلاَّ إذا كان قد آمن حقاً بالمسيح. لأن الأكل الحق من الجسد الحق لا يكون إلاَّ بالإيمان الحق، فهنا ليس مجرد الأكل يُحيي، ولكن الأكل بالروح والحق هو الذي يحيي.

٦: ٤٨ـــ٥٠ «أنا هو خبزُ الحياةِ. آباؤكم أكلوا المنَّ في البرية وماتوا. هذا هو الخبز النازل من السماء (حقاً) لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت».

وهنا يأتي الرد على اليهود بالمقارنة مع المنِّ الذي نزل من السماء. فيقول المسيح: «آباؤكم أكلوا المنَّ في البرية "**وماتوا** ἀπέθανον "» والترجمة اليونانية الحرفية: «وقد صاروا **مائتين** أو أمواتاً»، وبهذا لا تأتي هنا بمعنى الموت الطبيعي بل صاروا أمواتاً أو **مائتين روحياً**. وهذا يؤكده المقابل في الآية القادمة: «هذا هو الخبز... يأكل منه الإنسان **ولا يموت**». علماً بأننا نأكل من خبز الحياة (الإفخارستيا) ونموت جسدياً. فهنا «لا يموت» تأتي بمعنى عدم الموت الروحي؛ وفي المقابل من جهة المنِّ، فإن كلَّ من أكل المنَّ مات ـــ أي مات روحياً. وهذا كان عقاباً لعدم الإيمان والتذمر وعمل الشرور والزنا. فالعيب كان فيهم، وليس بسبب عيب في المن كطعام من السماء. كما يوضح ذلك بولس الرسول في سفر العبرانيين: «ولِمَنْ أقْسَمَ لن يدخلوا راحته إلاَّ

للذين لم **يطيعوا**. فنرى أنهم لم يقدروا أن يدخلوا **لعدم الإيمان**» (عب٣: ١٨و١٩). علماً بأن كلمة «راحته» رفعها بولس الرسول من راحة أرض كنعان إلى راحة الله الخاصة: «فلنجتهد (بالإيمان) أن **ندخل (نحن) تلك الراحة** لئلا يسقط أحدٌ (منا) في عِبْرَة العصيان هذه عينها» (عب٤: ١١). إذن، فالذين أكلوا المنَّ الذي نزل من السماء لم يُنْفعهم أكلُهم من المن، وذلك بسبب خطيتهم، فحُرموا من دخول السماء.

«آباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا»:

ليَنتبه الدارس للكلمة إلى القصد الذي يهدف إليه المسيح هنا(٢٤)، **فهو لا يلغي المضمون** الروحي والسمائي للمن، بل على العكس، فالقصد الذي يهدف إليه المسيح هو أنه بالرغم من أنهم أكلوا المن إلاَّ أنهم ماتوا. لأننا نعلم علم اليقين أن الوحي المقدس على فم بولس الرسول أوضح أن **المن كان طعاماً روحياً** كما كان الماء الخارج من الصخرة شراباً روحياً، أي بالمفهوم الكتابي أن الطعام، أي المن والماء، أي الصخرة، كانت رمزاً للمسيح. ولكن الطعام الروحي والشراب الروحي لم ينفعا آكليه وشاربيه بسبب **عدم الإيمان، والتذمر على الله وشهوة الشرور والزنا:**

ـــ «وجميعهم أكلوا **طعاماً واحداً روحياً**، وجميعهم **شربوا شراباً واحداً روحياً**، لأنهم كانوا يشربون **من صخرة روحية تابعتهم والصخرة كانت المسيح**. لكن بأكثرهم لم يُسَرَّ الله لأنهم طُرحوا في القفر. وهذه الأمور حدثت مثالاً لنا، حتى لا نكون نحن **مشتهين شروراً كما اشتهى أولئك**... جلس الشعب للأكل والشرب (الروحي) **ثم قاموا للَّعب. ولا نزنِ كما زنى أناسٌ منهم** فسقط في يوم واحد ثلاثةٌ وعشرون ألفاً، **ولا نُجرِّب المسيح كما جرَّب أيضاً أناسٌ منهم** فأهلكتهم الحيات، ولا تتذمروا كما تذمر أيضاً أناس منهم فأهلكهم **المُهْلِك**.» (١كو١٠: ٣ـــ١٠)

وبالتطبيق، يقول المسيح ويشدد على الإيمان به قبل أن يخوض في مفهوم الأكل والشرب من خبز الحياة الذي يعطيه، الذي هو جسده الذي سيبذله على الصليب من أجل حياة العالم. **فهذا** الخبز الحي النازل من السماء حقاً هو أيضاً لن يفيدهم شيئاً إذا لم يؤمنوا به. **المسيح جمع الإيمان**

(٢٤) مع مزيد من الأسف والحزن فقد وقع علماء الكتاب المقدس في خطأ فهم كلام المسيح عن المن: «آباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا»، بأن المن كان طعاماً جسدياً بلا قيمة روحية، لذلك كلُّ من أكله مات وطُرِح جسدُه في القفر. في حين أن هذا هو الواقع أيضاً في أكل جسد المسيح، أي الإفخارستيا، فنحن نأكل الجسد المقدس ونموت أيضاً وتُطرح أجسادنا في القبور. فكلمة **«ماتوا»** فُهمت خطأ وعلى القارىء الانتباه إلى هذا الشرح.

به **والآكل منه كفعل روحي واحد.** فالذي يؤمن به يأكل حياة أبدية، والذي لا يؤمن به يأكل دينونة.

وواضح أن هؤلاء اليهود المحاججين لم يؤمنوا به بل وتذمروا عليه، على نفس مستوى ما عمل آباؤهم في البرية مع الله. هذا هو الذي جعل المسيح يركِّز على صفة الأكل من الخبز الحي الجديد، أي جسده والشرب من دمه بعد ذلك.

لذلك جعل المسيح الإيمان به وسماع كلمته وطاعته وعدم التذمر شرطاً أولاً وأساسياً لكي «يأكل منه الإنسان ولا يموت». وهذا نجده واضحاً جداً في الآيات التي سبقت الإعلان عن أن الخبز الحي الجديد هو جسده المبذول لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت. وهنا نعيد قول المسيح الذي جعله شرطاً للدخول في مفهوم الأكل من جسده: «وقال لهم **لا تتذمروا... كلُّ** من سمع من الآب وتعلم "**يُقْبِلُ إليَّ**"... **من يؤمن بي فله حياة أبدية...** أنا هو خبز الحياة».

وهذا يعود علينا بالتوضيح أن الإيمان بالمسيح وقبوله مع الشكر الدائم، شرط أساسي لاستعلان الروح في الإفخارستيا ونوال الحياة الأبدية.

يلاحظ القارىء أن جسد الرب الذي يعطيه، أو الذي بذله عن حياة الإنسان، قدَّمه أصلاً وأساساً لكي يرفع الخطية ويلغيها ويكفِّر عنها ويمسح دينونتها ويزيل آثارها المدمرة في جسد الإنسان وعقله وروحه. ثم نظرة واحدة سليمة إلى حال الإنسان قبل المسيح توضح لنا لماذا أعطانا جسده هذا. فالخطية أفرغت الإنسان من مضمونه ككيان مخلوق بيد الله على صورة الله وفيه نفخة روح الله!! الخطية أعمت عين الإنسان، وسدَّت أذنيه عن رؤية الحق والنور والله وسماع صوته المحيي. الخطية استبدَّت بالإنسان، وسادت عليه، واستعبدته لكل ما هو إثم ونجاسة وعار، وجعلته يتآخى مع الحيوان بل مع الشيطان، وأوردته مهالك الموت، فصار جسده المضيء بنور الله تلفُّه الظلمة. وعوض نفخة الله المحيية المبهجة، صارت تتردد في جنباته رياح الموت وعواصف الرعبة والخوف ممن له سلطان الموت أي إبليس. الكل أخطأ وزاغ وأعوزه مجد الله، ليس من يعمل الصلاح، ليس ولا واحد!! (راجع رو٣: ٢٣ ومز١٤: ٣). والجوع إلى الله والحق جعل الإنسان يتلمس الله في السماء والأرض والحجر والشجر.

الله تحنن على صورته ولم يشأ إطلاقاً أن يفسد جماله فيها، أو أن يسحب روحه منها، أو تسود ظلمة الخطية على نور بهاء معرفته، أو تبقى غنى نعمته عاجزة عن أن تُشبع جوع الإنسان.

لهذا تجسد ابن الله ليطعمنا من جسده، ليردّ جوعنا إلى شبع حقيقي من الله، ويسقينا من دمه لتسري روحه فينا مرة أخرى للحياة من بعد موت. وهكذا، ولكي يقيمنا الله من الموت والعدم، أعطانا نفسه لنأكله، لكي يستبدل جسدنا بجسده ودمنا بدمه، وهكذا لا نعود نحيا نحن للموت بل هو يحيا فينا للحياة، فنحن الآن «أعضاء جسمه، من لحمه ومن عظامه.» (أف٥: ٣٠)

فلو ارتفعنا هنا بمستوى الخبز والمنّ والأكل إلى المستوى الروحي الذي أراد بعض الربيين أن يرتفعوا إليه، باعتبار المنّ أنه هو التوراة أي الناموس؛ نجد المقارنة أصبحت أكثر صحة وأقوى بياناً. فالخبز الحي، أي جسد المسيح المبذول أي المذبوح من أجل حياة العالم، هو المقابل للتوراة أو الناموس، مؤسساً على النعمة المجانية (البذل) للخلاص والحياة. أما التوراة أو الناموس فهو مؤسس على معرفة ناموس الخطية وحكم الموت للمخالف. فالأول جاء للحياة في مقابل الثاني الذي كان للدينونة والموت. فالذي أكل من خبز المن، مات بسبب المخالفة والخطية التي بلا كفَّارة، في مقابل أن الذي يأكل من الجسد الحي يحيا ولا يموت بسبب نعمة التبرير المجانية ورفع الخطية المميتة.

فإن كان المن الذي نزل من السماء بواسطة موسى، الذي هو رمز للناموس، قد أكله آباؤهم وماتوا روحياً بسبب المخالفة والخطية التي بلا كفَّارة، فلم يدخلوا راحة الله؛ فالمقارنة أصبحت أيضاً بين موسى: «لأن الناموس بموسى أُعطي»؛ وبين المسيح: «أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا». وهذا ليس على مستوى الأفضلية بين المسيح وموسى، بل على مستوى السببية لأن كلًّا من ناموس موسى والمن لم ينتفع به إسرائيل بسبب التعدي، لهذا جاء المسيح ورفع التعدي، بل ووهب عوض التعدي نعمة، ليعطي الحياة مجاناً بجسده المبذول عن حياة العالم؛ نأكله فنعيش!!

وعلى القارىء أن ينتبه إلى تسلسل المعاني وترابطها في إنجيل ق. يوحنا التي جاءت هكذا:

(أ) أبي يعطيكم **الخبز الحقيقي** من السماء.

(ب) **خبز الله، هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم.**

(ج) **أنا هو خبز الحياة.** آباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا. هذا هو الخبز **النازل** من السماء **لكي** يأكل منه الإنسان ولا يموت.

(د) أنا هو الخبز **الحي** الذي **نزل من السماء.**

(هـ) الخبز الذي **أنا أعطي هو جسدي.**

(و) الذي **أبذله** من أجل حياة العالم.

ويلاحظ القارىء أن الآيات (أ) ، (ب) هي وصف المشورة الإلهية كتقرير حقيقة يراد تتميمها. فالخبز **الحقيقي هو خبز الله**، أي أنه يمتُّ إلى طبيعة الله، فكلمة الحقيقي ἀληθινός هي صفة لا تطلق على الماديات، لأنها صفة الله وصفة المسيح: «أنا هو... الحق» (يو١٤: ٦). وهذا الخبز الحقيقي، الذي هو خبز الله، موطنه الدائم «من السماء». ولكن مشورة الله تقررت أن هذا الخبز يأخذ حالة نزول من السماء لإعطاء حياة أبدية للعالم. وهنا «**نازل**» هو تقرير حال لم يدخل في حيز الفعل.

ثم تأتي الآية (ج) حيث يكشف فيها المسيح عن صفة هذا الخبز أنه هو هو نفسه: «خبز الحياة» ــ أي **الخاص «بالحياة الأبدية»** الذي وُضع له أن ينزل من السماء (حال) ــ لكي يأكل منه الإنسان كغذاء روحي دائم فلا يذوق الموت الروحي.

ثم تأتي الآية (د) ويضيف فيها المسيح صفة ذاتية جوهرية لهذا الخبز وهو أنه خبز **«حيٌّ»** = ὁ ζῶν ، أي أن جوهره حياة. ثم يُدخل المسيح هذا الخبز الحقيقي، أي خبز الله الذي موطنه السماء والمعيَّن له النزول من السماء، يُدخله في حالة الحركة الفعلية في صميم الزمن: «الذي **نزل**». وهنا يعلن عن سر التجسد الذي تم في صميم حركة الزمان وصار فعلاً ماضياً.

ثم تأتي الآية (هـ) وفيها يكشف أكثر عن صلة هذا الخبز بنفسه، أنه جسده، وهنا يجعل الخبز يعبّر عن نفسه وعن جسده معاً.

ثم تأتي الآية (و) وفيها يكشف عن نيّة مبيّتة عند المسيح ومقرّرة، أن هذا الخبز، أي جسده، هو معدٌّ الآن لحالة بذل أو ذبح إرادي.

وإلى هنا يكون المسيح قد أعدَّ الفكر للدخول في سر المسيح الأعظم، وهو الفداء بالموت أي الصليب، بعد أن **أمَّن على الجسد من الموت الروحي**، عندما قرر أنه **«خبز حيٌّ»** وأنه «حيٌّ بالآب» حياة أبدية لا يرقى إليها الموت المادي. فالموت على الصليب أنشأ غلبةً على الموت، وقد استُعلنت الحياة الأبدية التي فيه.

كما يكون قد أعدَّ الفكر لحتمية الأكل من هذا الجسد ليحيا به الإنسان إلى الأبد، أي لنوال الحياة الأبدية التي فيه.

أما الأكل من هذا الجسد فقد أحدث الصدمة الأخيرة لعقول اليهود، والذي بدأ الرب يؤكده دون أن يشرحه، متجاوزاً جهلهم هكذا:

ج ــ الجزء الثالث من الحديث: (٦: ٥٢ــ٥٨).

٦: ٥٢ «فخاصَمَ اليهودُ بعضُهُم بَعْضاً قائلينَ كيفَ يقدِرُ هذا أنْ يعطِيَنا جَسَدَهُ لنأكُلَ».

كان تذمر اليهود سابقاً ينصبُّ على شخصيته كيف يقول: «**أنا هو خبز الحياة الذي نزل من السماء**... أليس هذا هو يسوع بن يوسف الذي نحن عارفون بأبيه وأمه، فكيف يقول هذا **إني** نزلت من السماء؟» (يو٦: ٤١و٤٢). وهنا كان **ردُّ المسيح يتعلق باستعلان شخصه** وعلاقته بالآب والسماء: (٦: ٤٣ــ٤٧).

أما هنا فيتحول السؤال إلى: «**كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل؟**»

والمخاصمة فيما بينهم تأتي بمفهوم الانقسام وحدّة الاختلاف. فكلمة «خصام» أتت باليونانية ἐμάχοντο على مستوى المحاربة بالرأي والكلمة. **فبعضهم فهمها على مستوى الروح وقَبِلَها، والآخر فهِمَها على مستوى الجسد الطبيعي، فرفضها بشدة.**

وللأسف فإن هذه الخصومة وهذا الانقسام قائمان حتى اليوم بين الكنائس، على نفس أساس الانقسام في الفهم، بين الارتفاع إلى المستوى الروحي السرائري وبين النزول إلى المستوى المادي الطبيعي. ولا نريد أن نخوض هنا في صحة العقائد من عدمها، ولكن سنلتزم في الشرح بالدقة وأمانة وروحانية الكلمة التي يقولها الرب؛ متذكرين دائماً أبداً، فيما يختص بأصول العلاقة بالمسيح، أنها تقوم على أساس أن قبول إعلان الرب عن نفسه والإيمان به والخضوع لسلطانه الإلهي، يؤدي إلى استعلان أسراره باستنارة الروح. وهذا ما حاوله المسيح مع اليهود: أن يقبلوه أولاً، إن كان بالكلمة أو بالآية أو بالعمل، لكي يستعلن لهم حقيقته، ولكنهم أصرُّوا على: «**كيف**» و«**لماذا**» و«**مَنْ أعطاك هذا السلطان**» و«**أين هو أبوك؟**»، فظلوا محبوسين في ظلمة الشك أبداً تحت سلطان العقل والمعقول: «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل؟»

أما ردود المسيح، فقد ظن علماء الكتاب أنها لم تعبأ قط بتشككات اليهود، وأنه لم يتنازل ولا بكلمة واحدة ليردّ على أسئلتهم، أو يشرح لهم كيف سيقدر أن يعطيهم جسده، أو ما معنى أن يأكلوه. هذه في الحقيقة نظرة غير صحيحة، فالرب اعتنى جداً بالرد دائماً؛ إنما كعادته، كانت ردوده تحتاج إلى مَنْ يكشف عن عمق معناها والأسرار التي تحويها، ليعرف أنها فعلاً ردود كاملة وصحيحة عن كيف سيعطي جسده وكيف سيأكلونه. وإلا فما كان جيداً ولا لائقاً من المسيح أن يبدأ ردّه بجملته الرهيبة التي تزيد الحق حقاً بقوله:

٦: ٥٣ «فقال لهم يسوع الحقَّ الحقَّ أقولُ لكُمْ إنْ لم تأكُلُوا جَسَدَ ابنِ الإنسانِ وتشربوا دَمَهُ، فليسَ لكم حياةٌ فيكُم».

الرب يقول مخاطباً اليهود، وليس اليهود فقط، بل والتلاميذ، وليس الاثنا عشر فقط بل ويخاطب السبعين الآخرين أيضاً حسب التقليد. أما «كيف يقدر»، وهو الجزء الأول من السؤال المحيِّر لعقول اليهود، فيرد المسيح عليه هكذا: بأن تأكلوا جسده وتشربوا دمه. فإذا كان الجسد يؤكل وحده، فهذا يعني أنه سينفصل عنه الدم؛ فهنا الإشارة صارخة إلى عملية الصليب العنيفة التي سيجوزها على أيديهم. **فاليهود هم أنفسهم الذين، بتقديمه للموت على الصليب، سيجعلونه «قادراً» أن يعطيهم جسده للأكل ودمه للشرب.** هذا هو الرد على: «**كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده...**»

أما الجزء الثاني من سؤالهم المحير: «**كيف يعطينا جسده "لنأكل"**»، فكان ردُّ المسيح عليه أنه ليس الجسد وحده الذي سيؤكل، بل والدم يُشرب أيضاً. فالعثرة التي صدمت عقولهم من حيث استحالة أكل الجسد البشري، حوّلها المسيح إلى استحالة أشد، استحالة، بشرب الدم البشري! وحينئذ يصبح لا مفرَّ من فهم آخر للأكل والشرب بالنسبة للجسد والدم، فهنا مفهوم ذبائحي رفيع المستوى تعايشوا معه مئات السنين، والإشارة واضحة إلى ذبح إسحق بأمر الله الذي طلب من إبراهيم أن يقدمه ذبيحة له جسداً ودماً.

فإن كان اليهود قد أضمروا صلبه، فالرب يسوع قَبِل ذلك برضى الطاعة للآب كإسحق لأبيه، أما شرب الدم فهو مُحرَّمٌ بأمر الله بالنسبة للذبائح الحيوانية، والسبب أعلنه الوحي هكذا: لأن الدم فيه الروح وهو أيضاً رباط النفس بالجسد:

«لحماً بحياتِهِ دَمِهِ لا تأكلوهُ.» (تك ٩: ٤)

«لكن احترز أن لا تأكل الدم، لأن الدم هو النفس فلا تأكل النفس مع اللحم.» (تث ١٢: ٢٣)

فإعلان المسيح هنا عن شرب دمه يرتفع أولاً بمفهوم ذبيحته عن الذبائح الأخرى، و يرتفع ثانياً بمفهوم شرب دمه إلى مفهوم شرب غير جسدي وقبول روح الحياة في دم المسيح للتقديس، وهكذا يتم الارتباط بنفسه ارتباطاً أبدياً:

ـــ «لأنه إنْ كان دم ثيران وتيوس ورماد عجلةٍ مرشوش على المُنجسين يُقدس إلى طهارة

الجسد، فكم بالحري يكون دم المسيح الذي بروح أزلي قدّم نفسه لله بلا عيب يُطهر ضمائركم من أعمالٍ ميتةٍ لتخدموا الله الحي.» (عب٩: ١٣و١٤)

أي أن حياة المسيح الأبدية التي في دمه تنتقل إلى مَنْ يشرب دمه بالإيمان. وهذا ما شدد عليه المسيح كنتيجة حتمية لمن يشرب دمه: «إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان **وتشربوا دمه فليس لكم حياة (أبدية) فيكم**».

أما كلمة الاحتقار التي وجهوها للمسيح: «كيف يقدر **هذا** أن يعطينا جسده لنأكل»، فرد عليها المسيح أن «هذا» الذي احتقروه هو **«ابن الإنسان»** الذي أشار إليه دانيال في رؤياه أنه هو الذي سيكون عليه رجاء اليهود الذين ترجوه وانتظروه:

ــ «كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سُحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاءَ إلى قديم الأيام، فقرَّبوه قُدَّامهُ (ذبيحة)، فأُعطيَ سلطاناً ومجداً وملكوتاً **لتتعبّد له** كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض.» (دانيال٧: ١٣و١٤)

وقول المسيح واضح: «الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد **ابن الإنسان** وتشربوا دمه...». وهكذا يردُّ المسيح على احتقارهم بأن أظهر لهم عماهم، أنهم مزمعون أن يذبحوا من تَرَجَّوه منذ آبائهم وانتظروه بفارغ الصبر، وأن الذي احتقروه هو هو الذي ستتعبّد له كل الشعوب.

وهنا يلزمنا أن ننبه القارىء أن يحترس من شرح بعض علماء الكتاب المقدس الذين رأوا في كلمة «ابن الإنسان» هنا بالذات، أي من جهة أكل جسد ابن الإنسان وشرب دمه، أن المعنى يشير إلى أن الرب يقدم ويبذل بشريته his humanity. وهذا أمر مؤسف ومُحزن للغاية، فهذه النظرية هي بعينها نظرية فصل طبيعة المسيح إلى طبيعتين فصلاً واضحاً صارخاً لا تؤمن به الأُرثوذكسية اللاخلقيدونية القبطية. لأن المسيح أشار مراراً وبوضوح أنه **سيبذل نفسه** وليس جسده وحده أو بشريته. فهو سيبذل نفسه في جسده، ولا يمكن أن «أنا هو» ينفصل عن جسده، ولا يمكن أن تنفصل نفسه عن الله أبيه بحسب إيمان الكنيسة أن «**لاهوته لم ينفصل قط لا عن نفسه ولا عن جسده**» (القداس الإلهي). فالمسيح متحد بالآب وبالجسد إتحاداً ليس فيه انفصال، لذلك يقول الكتاب: «هكذا أحب الله العالم حتى **بذل ابنه** ...» (يو٣: ١٦)، ولم يقل حتى بذل جسد ابنه.

فلينتبه القارىء بل وكل عالِم وباحث وشارح بل وكل لاهوتي، أن ذبيحة الصليب هي

المسيح ككل، والذي قدم هذه الذبيحة هو الآب والابن معاً؛ الآب بسبب حبه للعالم، والابن بسبب حبه للآب. فهي ذبيحة حب فيها كل حب الآب وكل حب الابن وطاعته، مظهرها جسد إنسان مصلوب على الصليب، وجوهرها **حب إلهي مذبوح**. أما قوة الصليب والذبيحة التي عليه فلا تكمن في الجسد الظاهر للعيان، لأنه حسب قول المسيح: «الجسد لا يفيد شيئاً» (يو٦: ٦٣)، بل قوة الذبيحة التي أنشأت خلاصاً وفداءً ومصالحة، فهي تكمن بالدرجة الأُولى في **الروح والنفس** ــ ثم الجسد ــ بكل كيانها الإلهي البشري معاً. فالمسيح، ككل، هو الذي تحمَّل العار والخزي؛ أي أن الابن في ملء كيانه الإلهي يُرْضِي الآب، لكي يخلص الإنسان من اللعنة، أما الموت الذي ماته المسيح على الصليب، فكان يستحيل أن يقع على الجسد وحده **لينشىء قوة خلاص**، إلا إذا قَبِلَه الابن بكل إرادته ومشيئته الإلهيتين، لأن جسد المسيح وإن كان قد قَبِل الموت، إلا أنه كان غير مستحق للموت! والموت تمَّ للجسد **بسبب** قبول ورضى الآب أولاً: «لتكن لا إرادتي بل إرادتك» (لو٢٢: ٤٢)، **وبسبب** قبول ورضى الابن: «لأجل هذا أتيت "أنا" (الابن في ملء اللاهوت) إلى هذه الساعة.» (يو١٢: ٢٧)

إذن، فالموت على الصليب الذي تم للمسيح، اشترك فيه الآب والابن اشتراكاً فعلياً.

لذلك، فنحن حينما نأكل جسد المسيح ونشرب دمه فنحن نأكل «الكلمة المتجسد»، نأكل المسيح ككل: «من يأكلني فهو يحيا بي» (يو٦: ٥٧)، نأكل كل حب الآب من نحونا، ممثَّلاً في مشيئته التي تمت في ذبح الابن، ونأكل كل حب المسيح ممثَّلاً في منتهى طاعة الابن للآب حتى الموت، لتكميل خلاص الإنسان. وهذا بعينه هو انفتاح سر الإتحاد الدائم بين الآب والابن علينا الذي ننالة في هذا السر، وبهذا ندخل في صميم الحياة الخاصة التي بين الآب والابن التي هي هي الحياة الأبدية.

وعلى القارىء والباحث أن ينتبه دائماً أبداً، أن المسيح حينما يتكلم، فكلامه لا يؤخذ على المستوى العادي الطبيعي: «الكلام الذي أُكلمكم به هو روح وحياة.» (يو٦: ٦٣)

ثم عاد المسيح ونقل الإشارة من النبوة عن ابن الإنسان إلى الواقع الحي أمامهم، أي إلى نفسه. المسيح هنا يستحضر الأُخرويات اليهودية المترجَّاة إلى الحاضر الزمني في شخصه. فاستعلن نفسه أنه هو هو **«ابن الإنسان»** رجاء الدهور الذي قَبِل عن رضى أن يكون ذبيحتهم بسبب المسرة الموضوعة أمامه في طاعة الآب وفي حُبِّه للخطاة:

٦ : ٥٤ «مَنْ يأكُلُ جَسَدِي ويشربُ دَمِي فلهُ حياةٌ أبديةٌ وأنا أُقيمُهُ في اليومِ الأخيرِ».

أي أن يكون له حياة لا تزول من الآن وتُستعلن في اليوم الأخير، وتتمجد بالقيامة إلى الأبد. وهكذا يصبح أكل الجسد وشُرب الدم هو هو تحقيق مجد الأُخرويات التي ترقَّبها اليهود على أساس أن الجسد والدم هما طعام الحياة الأبدية النازل من السماء لحياة ممجَّدة لا تزول إلى أن يجيء الرب: «كل مرة تأكلون من هذا الخبز وتشربون من هذه الكأس تبشرون بموتي وتعترفون بقيامتي وتذكرونني إلى أن أجيء» (القداس الإلهي).

وهنا يُلاحَظ أن كلمة «يأكل» لم تأتِ في وضعها العادي φαγεῖν، بل جاءت في اليونانية τρώγειν بمعنى الأكل الدائم المسرور والذي لا ينتهي بزمن معين، وكذلك الشُرب بمعنى الشركة الدائمة بالفعل والكلمة والروح على أساس الإفخارستيا في مفهومها الفائق.

ويُلاحَظ هنا أن الرب لا يدخل في المحاجاة ولا النقاش بعقلية اليهود السلبية، ولكنه احتفظ دائماً بخط الإيجابية الواقعية في استعلان نفسه بالنسبة للآب وللإنسان على محور واحد وهو ذبيحة نفسه.

٦ : ٥٥ «لأن جَسَدِي مأكَلٌ حقٌ ودَمِي مَشْرَبٌ حقٌ».

هذه هي الإضافة الجديدة التي يشرح بها المسيح حقيقة أكل جسده وشُرب دمه. فهنا لا يزال المسيح يخاطب اليهود الذين اعتقدوا أن المنَّ هو خبز سماوي كعلامة مطلوبة في الأيام الأخيرة للتحقق أن مسيرة الله مع شعبه في البرية ستستأنف ثانية لافتتاح عصر المجد لإسرائيل.

فهو يقول هنا أن **جسده هو الطعام «الحقيقي»، ودمه هو الشراب «الحقيقي»**، وليس المن أو ما يشبه المن ولا ماء الصخرة أو ما يشبهها. وهذا هو المعنى الأبسط والأضعف الذي يخاطب به عقول اليهود. ولكن المعنى الأعمق والأهم هو بالنسبة لمستوى حديث المسيح الذي يهدف به إلى استعلان الحق فيما يخص شخصه بالنسبة لعلاقته بالآب وبالإنسان.

فكلمة «الحق»(٢٥) التي أتت مرتين في مأكل الجسد وشرب الدم هي استعلان لجوهر الجسد ولجوهر الدم. وكلمة «الحق» جاءت في اليونانية في بعض المخطوطات ἀληθής «الحق»،

(٢٥) راجع المدخل ص١٠٩.

والمخطوطات الأخرى ἀληθῶς «حقاً». فالأُولى أي «الحق» ἀληθής تأتي بمعنى الواقع الحقيقي «**ضد الظاهر**» أو بالمفهوم اللاهوتي facts، والثانية أي «حقاً» ἀληθῶς تأتي بالمفهوم اللاهوتي «**ضد المزيّف**» أي أصلي genuine وتهدف إلى معنى أنه مأكلٌ يختص **بحاجة الإنسان «الحقيقية»** وليس للحاجة العارضة كالجوع. والحاجة الحقيقية للإنسان هي لروحه.

وهكذا يتحقق فعلاً أن قول المسيح يهدف إلى إقناع اليهود أن جسده ودمه ἀληθῶς أي للحاجة الحقيقية بالنسبة لإسرائيل ــ أي الحياة الأبدية ــ وليس لحاجة ملء البطن أو المسرة بعمل إعجازي ــ لحياة المجد الدنيوي ــ كما تجيء كلمة ἀληθής للمعنى الأعمق كما فهمها وسجلها الإنجيل، أن **الأكل من الجسد** ليس كما تصوروا أنه أكل قطعة لحم جسد إنسان عادي وأن **الشرب من الدم** ليس هو شرب ملء الفم من الدم المادي حسب ظاهر المعنى، وظاهر اللحم والدم، بل هو **أكل روحي بالحق وبالجوهر**، أي **أكل الجسد كله بملء الكلمة فيه.** «والكلمة صار جسداً» (يو١: ١٤)، أي «**أكل سر التجسد بأكمله**»، هذا هو جوهر الجسد، وشرب الدم هو **شرب أو احتواء كل دم ذبيحة المسيح على الصليب** أي «**شرب سر الفداء**»، «**بشرب كل حياة المسيح التي في دمه**». هذا هو المأكل الحق للجسد والشرب الحق للدم، لأن الحق لا يتجزأ قط وهو يختص بالإلهيات.

ولا ننسى أن كلام المسيح دائماً أبداً **هو روح وحياة.** ولكن لا ننسى أيضاً أن كلام المسيح كان مسموعاً بالأذن اللحمية ونحن الآن نقرأه بالحروف المكتوبة، وقول المسيح أن الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا، وأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له، فهنا الروح والحق في السجود لا يلغيان السجود الجسدي بل يرفعانه إلى مستوى الروح والحق. هكذا أيضاً في أكل الجسد وشرب الدم فإنه يجري على المستوى الجسدي المحسوس المنظور في سر الإفخارستيا بالخبز والخمر، لأن المسيح المأكول محسوس ومنظور، ولكن المأخوذ منه للحياة الأبدية هو الروح والحق على مستوى «أنا هو الحق».

ولكن حتى هذه الآية لم يُفصح المسيح عن إجراء سر الإفخارستيا بالخبز والخمر لأن ميعاده لم يحضر بعد. فالمسيح هنا يضع الأساس الذي سيبني عليه يوم الخميس سرَّه الخالد، ثم يتمم هذا السر بالفعل يوم الجمعة. على أن ق. يوحنا لم يطرق جميع الأسرار على مستواها الطقسي المادي، بل استعلنها جميعاً على المستوى الإلهي الروحي. فقد ذكر الميلاد الثاني من الماء والروح، ولكنه لم يذكر كلمة واحدة عن إجراء سر العماد؛ وذكر الجسد والدم والأكل والشرب منهما، ولم يذكر كلمة واحدة عن كيفية إجراء سرِّ الإفخارستيا بالخبز والخمر؛ وذكر التجسد الإلهي بعمق لا

يُجارَى وعن حياة الكلمة قبل التجسد، ولم يكتب كلمة واحدة عن ولادة المسيح العجيبة أو سر بتولية العذراء مريم ولا حتى اسمها مع أنها عاشت معه زمناً طويلاً في بيته.

هذا هو ق. يوحنا وهذا هو إنجيله، فهو دائماً أبداً يتكلم عما لم يتكلم عنه بقية الإنجيليين، وشُغْلُه الشاغل هو استعلان الحق الإلهي في حياة المسيح وكل أعماله وأقواله.

٦:٥٦ «مَنْ يأكُلْ جَسَدِي ويَشْرَبْ دَمِي يَثْبُتْ فيَّ وأنا فِيهِ».

هنا ينتقل المسيح بعقول اليهود نقلة كبيرة وهامة للغاية، فالأكل من المنّ السماوي لم يغير شيئاً من طبيعة آبائهم، فقد ماتوا «روحياً» بمفهوم أنهم حُرموا من الدخول إلى راحة الله بسبب عدم الإيمان، وبالأكثر بسبب العصيان والتذمر على الله والتمرد، بل واستخدام الأكل للذة الجسد وشهوة النفس: «كما هو مكتوب جلس الشعب للأكل (من المن) والشرب (من ماء الصخرة)، ثم قاموا للعب، ولا نزنِ كما زنى أناس منهم...» (١كو١٠: ٧و٨). واضح أن الأكل من المن والشرب من ماء الصخرة مع أنه كان «طعاماً روحياً وشراباً روحياً» (١كو١٠: ٣و٤)، إلا أنه لم يغيِّر من طبيعتهم شيئاً، بل تحول لهم الأكل والشرب إلى لعب وزنا.

هنا يعطي المسيح المقارنة بين أكل وشرب يثمر موتاً لأنه لم يتغلغل جوهر الروح والنفس، وبين خبز الحياة الذي يعطيه المسيح بجسده ودمه لينشىء حياة أبدية؛ فجسده مأكلٌ حقٌّ أي جوهريٌّ، أي إلهيٌّ، وفي نفس الوقت هو جسد ذاتي أي يختص بشخص المسيح ابن الله. فالذي يأكل منه، أو على الأصح **يأكله**، فالجسد يصير فيه **ويبقى فيه** كما هو، جسد ابن الله الوحيد بصفاته الحية.

ويلاحظ القارىء أن كلمة «يثبت» كما جاءت بالعربية هي في اللغة اليونانية يبقى μένει وهو نفس الفعل المشتقّ منه كلمة «الباقي»: «الخبز "**الباقي**" للحياة الأبدية μένουσαν» في الآية ٢٧.

وكذلك الدم، فالذي يشرب منه أو على الأصح يشربه، يصير الدم فيه **ويبقى فيه** دم ابن الله الوحيد المذبوح بصفاته، بالروح الأزلي الذي فيه ونفس المسيح الحية الخالدة.

وبمعنى كليٍّ، يكون كل «مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي»، أصير أنا كلّي فيه وأبقى فيه بجسدي، أي بسر تجسُّدي، وبدمي، أي بسر فدائي بحياتي وموتي وقيامتي، فيصير موتي فيه لموته

أي فدائه، وحياتي لحياته الأبدية، وتصير قيامتي لقيامته في ملء المجد.

وهكذا يتم القول بالحرف الواحد: «يثبت فيَّ وأنا فيه». هذا الثبوت هنا عجيب حقاً وسرِّيٌّ للغاية. فهو ثبوت الجسد الإلهي بالجسد (الروحي) للإنسان وثبوت الروح الأزلي بروح الإنسان، وهذا هو الذي ينشىء فينا القيامة. إنه التحام حي، شخص بشخص، ينشىء إتحاداً ووحدة. وهذا هو ما حَدَا ببولس الرسول أن يقول: **«لأننا أعضاء جسمه من لحمه وعظامه.»** (أف٥: ٣٠)

والعجيب أيضاً في سر الثبوت هذا أنه مُتبادَلٌ لتأمين الإتحاد، خوفاً من ضعف الإنسان وانفلاته. فنحن لا نثبت فيه بإمكانياتنا الضعيفة وإيماننا الأضعف فقط، وإلا فالإنفكاك وشيك الحدوث لا محالة، لذلك أمَّنه المسيح بنفسه أيَّما تأمين: «يثبت فيَّ **وأنا فيه**». ولاحظ هنا، أيها القارىء العزيز، أن الثبوت جاء هنا فردياً **لكل مَنْ** يأكل و يشرب بإيمان، واحداً واحداً. إنها علاقة فردية أنشأها المسيح بموته عن كل نفس، لأنها علاقة حب، بل عِشْق متبادل، ملأت قلب المسيح نحو النفس البشرية كعريس وعروس. ولكن لا يخطىء الفاهم والشارح، فالحب سبب، والبذل ثم الثبوت والإتحاد نتيجة: **«هكذا أحب... حتى بذل»** «ليس لأحد "**حب**" أعظم من هذا أن "**يضع أحد نفسه**" لأجل أحبائه» (يو١٥: ١٣)؛ «الذي عنده وصاياي ويحفظها **فهو الذي يحبني**، والذي يحبني يحبه أبي، **وأنا أُحبه وأُظهر له ذاتي.** في ذلك اليوم تعلمون أني **أنا في أبي وأنتم فيَّ وأنا فيكم.**» (يو١٤: ٢١و٢٠)

إذن لا يخطىء أحد ويفهم أن الأكل من الجسد والشرب من الدم أنه فريضة، أو هو طقس فرضه المسيح كما فرض موسى الناموس كقانون، بل هو فعل محبة وثمرة عشق متبادل بين النفس والمسيح المذبوح كعريس من أجلها. لذلك يصرِّح المسيح لليهود بمواجهة صعبة ومُرَّة: إنهم محرومون من خبزه الحي، من جسده ودمه، لأنهم رفضوه كابن الله الحبيب: «لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني.» (يو٨: ٤٢)

أما بالنسبة للربط بين الآيات، فبعكس ما يرى كثير من علماء الكتاب المقدس بأن الآيات مكررة وغير مترابطة، نجدها نحن مترابطة أشد الارتباط لو أخذنا بالعمق الروحي الذي هو من خصائص هذا الإنجيل، فقوله: «لأن جسدي مأكلٌ حقٌّ ودمي مشربٌ حقٌّ»، فهو هنا ينقل الأكل والشرب من الجسد والدم إلى مستوى «الحق»، أي مستوى **«أنا هو»**، أي بالمفهوم اللاهوتي، إلى مستوى الجوهر الذاتي، أي بتوضيح أكثر إلى مستوى **«أنا»** = الذات الإلهية للابن + **«هو»** كيان الابن أي جوهره أو طبيعته.

لذلك فالتسلسل يأتي هنا بمنتهى القوة والعمق حينما يقول بعد ذلك: «مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت "فيَّ"، و"أنا" فيه». «**فالحق**» في الآية السابقة يُفسَّر في الآية التي بعدها بـ «**أنا**».

وإلى هنا لم ينحرف المسيح بنظره أو توجيه كلماته بعيداً عن اليهود الذين يحاجونه، كما يرى علماء الكتاب المقدس، ولكن المسيح كان، بآن واحد، ينظر إلى تلاميذه وإلينا وإلى الأجيال كلها إلى منتهى الدهور، لذلك تجيء كلمات المسيح دائماً ذات أبعاد متسعة لا تغيب عن القلوب المتسعة.

٦:٥٧ **«كما أرسَلَني الآبُ الحيُّ وأنا حيٌّ بالآبِ (كذلك)، فمَنْ يأكُلْني فهو يَحْيَا بي».**

وهنا ختام التنقل بالفكر اليهودي إلى نهايته وغايته العظمى. فلقد تدرج المسيح تدرُّجاً غاية في الدقة والاستعلان:

- من **الخبز الباقي** للحياة الأبدية الذي يعطيكم ابن الإنسان،
- إلى «**خبز الله** النازل من السماء»،
- إلى «أنا هو خبز الحياة»،
- إلى «**أنا هو** الخبز الحي **الذي نزل** من السماء»،
- إلى «الخبز الذي أنا أعطي **هو جسدي الذي أبذله** من أجل حياة العالم»،
- إلى «**إنْ** لم **تأكلوا جسد** ابن الإنسان وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم»،
- إلى «من يأكل جسدي ويشرب دمي **فله حياة أبدية،** وأنا أُقيمه في اليوم الأخير»،
- إلى «جسدي **مأكلٌ حقٌّ** ودمي مشربٌ حقٌّ»،
- إلى «مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي **يثبت فيَّ وأنا فيه**»؛
- إلى هذه الآية الأخيرة التي نحن بصددها: «من يأكلني **فهو يحيا بي**».

هنا في هذه الآية الأخيرة، يعلن المسيح وجوده الكلي ككلٍّ as a whole — «يحيا بي» — في إفخارستيا الجسد والدم، كحياة نحياها في حياته.

«كما أرسلني الآب الحي وأنا حيٌّ بالآب، فمَنْ يأكلني فهو يحيا بي»:

«أرسلني الآب»:

الإرسالية هنا تستهدف الإعلان عن «التجسد»، ولكنها تتضمن معنًى ضمنياً ذا أهمية، وهو

وحدة التناسق بين الآب والابن على أساس وحدة الكرامة، وليس كسيد وعبد: «لكي يكرمَ الجميعُ الابن كما يكرمون الآب. من لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذي أرسله.» (يو٥: ٢٣)

وهنا يضع المسيح إرساليته في الموازنة المتوازنة «**كما** ...، ... **كذلك**» التي يلجأ إليها المسيح ليجعل علاقته بالآب مثلاً يُحتذى ويُمتلك لنا: مثل «**كما أرسلتني** إلى العالم، (كذلك) **أرسلتُهم** أنا إلى العالم» (يو١٧: ١٨)، «**كما أحبني** الآب، **كذلك أحببتكم** أنا» (يو١٥: ٩)؛ «... **كما** أنك أنت أيها **الآب فيَّ** وأنا فيك (**كذلك**) ليكونوا **هم** أيضاً واحداً **فينا**.» (يو١٧: ٢١)

وق. يوحنا يستخدم نفس أسلوب المسيح في رسالته: «مَنْ قال إنه ثابت فيه ينبغي أنه كما سَلَكَ ذاك (تجاه الآب) هكذا يسلك هو أيضاً.» (١يو٢: ٦)

فإذا كانت الإرسالية تستهدف معنى التجسد والشهادة والاستعلان للآب، فالمسيح يضعها ضمن الأشياء الموهوبة لنا عندما «نأكله» في سر الإفخارستيا. فعندما نأكله، نحيا بحياته بكل مخصصاتها مثل: «**كما أنَّ الآب يعرفني** وأنا أعرف الآب، (**كذلك**) **أعرف خاصتي** وخاصتي تعرفني.» (يو١٠: ١٥و١٤)

والمسيح نقل لنا في شخصه بجسده ودمه علاقته بالآب وعلاقة الآب به.

«الآب الحي»:

صفة من الصفات الجوهرية أي الطبيعية لله التي طالما وُصف بها الله في العهد القديم: «لأنه مَنْ هو مِنْ جميع البشر الذي سمع صوت **الله الحي** يتكلم من وسط النار مثلنا وعاش.» (تث٥: ٢٦)

أما كلمة «الحي» فهي ليست صفة شخصية فقط وإنما صفة جوهرية ــ كما قلنا ــ يعبر عنها المزمور: «عندك ينبوع الحياة.» (مز٣٦: ٩)

«وأنا حيٌّ بالآب»:

هنا اللغة العربية قاصرة عن أداء المعنى الوارد في الأصل اليوناني διὰ τὸν πατέρα والتي تجيء بمعنى «بسبب»: "Because" or "on account of" والتي لا يمكن فهمها في اللغة اليونانية على أن الآب علة أو آلة لحياة المسيح، إذ كان يتحتم أن تجيء διὰ τοῦ πατρός .

والتعبير «أنا حيٌّ بالآب» تعبير لاهوتي مبسَّط معناه أن الابن لا يحيا وحده، ولكن حياة الآب هي حياة الابن.

فإذا أكلنا الجسد والدم، فنحن لا نعود نحيا وحدنا، بل نحيا **حياة المسيح النابعة من نفس ينبوع الآب.** وهكذا يتم الرباط الإلهي بين الإنسان والله الآب بحياة المسيح التي ننالها ونحيا بها من الإفخارستيا، أي الجسد والدم.

ونلاحظ أن المسيح سبق وأعلن أن له حياة أبدية **في ذاته**، وكلمة «في ذاته» تعني في صميم طبيعته وجوهره: «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته» (يو٥: ٢٦). فهنا الحياة الذاتية للآب والابن واحدة، لأن **الحياة الأبدية هي من جوهر الطبيعة الإلهية.** ولكي تكون العلاقة بين الآب والابن واضحة في ذهن القارىء، فليفهم أن الابن يستمد من الآب بنُوَّته فقط، وهذه العلاقة ليست مستحدثة قط، أي لم يكن هناك زمن ما لم يكن في الذات الإلهية بنوَّة، بل البنوَّة والأُبوَّة قائمتان أزلياً في ذات الله الأزلية. فالأُبوة صفة جوهرية في الله، والبنوة مثلها تماماً صفة جوهرية في الله. أما الطبيعة ــ أي الجوهر ــ فواحد، فطبيعة الآب هي طبيعة الابن، وحياة الآب هي حياة الابن، لأن الحياة ليست صفة ذاتية بل جوهرية. فالمسيح هو الحياة الأبدية من جهة طبيعته، وهذا يعلنه ق. يوحنا في بداية رسالته الأُولى هكذا:

«فإن **الحياة أُظهرت**، وقد رأينا ونشهد ونخبركم **بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا.**» (١يو١: ٢)

أما المسيح فقد كرر مراراً وتكراراً أنه هو الحياة: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو١٤: ٦)، «أنا هو القيامة والحياة.» (يو١١: ٢٥)

فهنا قول المسيح **«أنا حيٌّ بالآب» يفيد إتحاد الأُبوَّة بالبنوَّة في حياة واحدة غير منفصلة**، يكشفها المسيح ويعلنها بالقول والعمل. أما هنا في هذه الآية فهو يسلمها لمن يأكل جسده و يشرب دمه لأنه يحيا به: **«من يأكلني فهو يحيا بي»، وبالتالي يحيا بالآب، لأن المسيح حيٌّ بالآب.**

وبمعنى آخر أيضاً: فلأن **«الآب حيٌّ»**، فيتحتم بالضرورة أن يكون **الابن حيّاً**، لأن الابن بالآب قائم و يكون ويحيا، وكما أن **الابن (المسيح بالتجسد) حيٌّ** فيتحتم بالضرورة أن من يأكل المسيح **يصير حيّاً**، لأن الإنسان بتناوله الجسد والدم يصير ويقوم ويدوم في المسيح و بالمسيح.

وقد أعلنها المسيح في موضع قادم: «إني أنا حيٌّ فأنتم ستحيون» (يو١٤: ١٩)، و يصفها ق. يوحنا في نهاية رسالته الأولى بمنتهى الوضوح والقوة: «وهذه هي الشهادة أن الله أعطانا **حياة أبدية**. وهذه الحياة هي في ابنه. **من له الابن فله الحياة** ومن ليس له ابن الله فليست له الحياة... ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق، ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق **والحياة الأبدية**.» (١يو٥: ١١و١٢و٢٠)

أما إذا أردنا أن نفهم القصد والغاية العُظمى من أكل جسد المسيح وشُرْبِ دمه كمأكلٍ حقٍّ ومَشْرَبٍ حقٍّ، هذا الذي عبَّر عنه المسيح أخيراً: «من يأكلني فهو يحيا بي»، فعلينا أن نعود إلى فكر بولس الرسول الذي يعبِّر عنه تعبيراً واقعياً غاية في العمق والتصوير اللاهوتي لمفهوم كيف يتحول جسد المسيح فينا إلى جسد كلي وشامل ــ جسد سري ــ نصير فيه أعضاءً بل نصير من نفس مادته الروحية الفائقة: «لأننا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه.» (أف ٥: ٣٠)

فانظر، أيها القارىء، وافهم أن الإفخارستيا، أي الأكل والشرب من جسد المسيح ودمه بالروح والحق والشكر، هي المدخل الحسي والروحي واللاهوتي بآن واحد للدخول في جسد المسيح السري، بل للاتحاد به أيضاً، بل للثبوت الأبدي، بل للحياة الأبدية والتمجيد الدائم.

وهنا بعد أن استعلن المسيح وجوده الذاتي الكلي كحياة في الجسد والدم،
و بعد أن استعلن الثبوت المتبادل بين المسيح والإنسان من خلال الجسد والدم؛
كشف الرب الاستعلان الأخير بأن **الإنسان أصبح له نصيبٌ مع الله الآب**، أي ثبوت حياة الإنسان ــ بالتالي ــ بالله الآب أيضاً من خلال المسيح الحي في الإنسان، بالجسد والدم، أي من خلال الإفخارستيا في مضمون ذبيحة المسيح.

وهكذا يصل المسيح بالفكر اليهودي إلى **أساس العهد الجديد بدم المسيح**، كعهدِ دمٍ بروح **أزلي يربط الإنسان بالله الحي!!**

هذا العهد الجديد استعلنه المسيح وسجله بالقول والكلمة يوم الخميس: «**هذا هو جسدي** ... هذا هو **دمي الذي للعهد الجديد**، الذي يُسْفَكُ من أجل كثيرين» (مر١٤: ٢٢و٢٤). ثم حققه على مستوى ذبح الجسد وسفك الدم الفعلي يوم الجمعة.

وهكذا يضع المسيح الفكر اليهودي أمام عهد جديد بفصح جديد، ليس بالمنّ ولا بلحم خروف مذبوح، ولكن بذبيحة نفسه التي هم مزمعون ومضمرون تقديمها، ليصير **جسده ودمه هما عهد الله الجديد مع شعبه.**

والمسيح يوضح بذلك لليهود أن المن الجديد الذي يطلبونه يستلزم عهداً جديداً سبق الرب وأعلن عنه بفم أنبيائه:

ــ «لأنه يقول لهم لائماً هوذا أيام تأتي، يقول الرب، حين أُكمِّل مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا **عهداً جديداً، لا كالعهد الذي عملته مع آبائهم** يوم أمْسَكتُ بيدهم لأُخرجهم من أرض مصر، لأنهم لم يثبُتوا في عهدي وأنا أهملتهم، يقول الرب. لأن هذا هو العهد الذي أعهده مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام، يقول الرب، أجْعلُ نواميسي في أذهانهم وأكتبها على قلوبهم، وأنا أكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً.» (عب٨: ٨ــ١٠)

وهكذا يقدم المسيح جسده ودمه لليهود المزمعين أن يذبحوه، كمنٍّ جديد وفصح جديد معاً ــ للحياة وليس للموت بعد ــ حيث يصير دمه وثيقة عهد الله الجديد مع شعبه؛ وهذا يعبِّر عنه بطرس الرسول في رسالته الثانية هكذا:

ــ «كما أن قدرته الإلهية **قد وهبت لنا كل ما هو للحياة** (الأبدية) والتقوى، بمعرفة الذي دعانا بالمجد والفضيلة، اللذين بهما قد وَهَبَ لنا **المواعيد** (العهد) العظمى والثمينة، **لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية.**» (٢بط١: ٣ــ٤)

فحياة الآب والابن المتحدة، وهي صميم الطبيعة الإلهية، سلَّمها لنا المسيح في الجسد والدم، لنشترك فيها فنحيا بالله وبالتقوى.

٦: ٥٨ «هذا هو الخبزُ الذي نزلَ من السماءِ، ليسَ كما أكلَ آباؤُكم المنَّ وماتوا. مَنْ يأكلْ هذا الخبزَ فإنه يَحْيَا إلى الأبدِ».

وعودة المسيح على ذي بدء لنفس الآية التي انطلق منها ليشرح لليهود معنى الخبز الحقيقي النازل من السماء، هذا الذي يطلبونه بخداع البصر كأنه المنُّ القديم، هذا الرجوع والذي يختم به المسيح شرحه المطوّل، يثبت أن نظر المسيح المثبت على اليهود المحاججين كما هو لم ينحرف، فهم كانوا من البداية إلى النهاية الهدف الذي سلّط عليه كل إعلاناته. ولكن للأسف لم تكن لهم أذن تسمع، ولا عيون تبصر، فآباؤهم أكلوا المن وماتوا، وهم اشتهوا أن يأكلوه، فما أكلوه، وما عاشوا.

فكان كلام المسيح على آذانهم كلغز بقي بلا حلّ، أو بحسب قول المسيح نفسه: «لكم قد أعطيَ أنْ تعرفوا أسرار ملكوت الله، وأما للباقين فبأمثالٍ حتى إنهم مبصرين لا يُبْصِرونَ وسامعين لا يفهمون» (لو٨: ١٠). وليتمعَّن القارىء مليًّا في كلمة «أسرار ملكوت الله»، لأنها هي هي موضوع حديثه في الجسد والدم، كما يلاحظ أن أسرار ملكوت الله تعبر على العيون فلا تراها وعلى الآذان فلا تسمعها لأن سر الرب لمتَّقيه (أو لخائفيه) (مز٢٥: ١٤). والذي يصدِّق أقوال الله وهي كلها تحمل سر الله، فالله يعلن له أسراره فيفهمها و يُسَرُّ بها: «تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضاً بأمثالٍ، بل أخبركم عن الآب علانيةً» (يو١٦: ٢٥)، وهذا تم بالحرف الواحد في عشاء الخميس، وفي يوم الخمسين.

«هذا هو الخبز»:

في هذه الكلمة الصغيرة «**هذا هو**» يعبر الرب بشريط أقواله كلها من «الخبز النازل من السماء» إلى «مَنْ يأكلني يحيا بي»، والتي انتهى بها إلى، والتي تحوي في داخلها، سر موت الرب وقيامته. **فالأكل** يحمل، بقوة، معنى الذبيحة المذبوحة. «**ويحيا بي**» يحمل معنى القيامة والحياة. **والاثنان معاً** يحملان الشركة الكاملة السرية في فعل وقوة الفداء والخلاص؛ كما يطرحان، مُسبقاً، سر الإفخارستيا الذي سيأتيه الرب في وقته.

كما يلاحظ القارىء أن كلمة «**هذا هو**» تجيء لتشير إشارة مباشرة ومنطبقة انطباقاً سرياً على قول المسيح «**أنا هو**». لأن الخبز النازل من السماء أصبح واقعاً حياً ملموساً مشخَّصاً في المتكلم، أي ابن الله الكلمة المتجسد الذي ذُبح فعلاً وقام وهو حي.



التعقيب على حديث الرب في مجمع كفرناحوم
(٦ : ٥٩ــ٧١)

٦ : ٥٩ «قالَ هذا في المجمع وهو يعلّمُ في كفرناحومَ».

ق. يوحنا هو المتكلم الآن، وهو يعيّن المكان الذي تم فيه حديث المسيح الذي سبق أن سجّله، أي في المجمع، ولم يكن ذلك أثناء العبادة ولكن في وقت التعليم. ومن الأمور التي تبهج القارىء أن بقايا آثار مجمع كفرناحوم هذا لا تزال قائمة بصورة حية جميلة في فلسطين، في الموضع المعروف بـ«تل حوم» (أنظر الصورة)، حيث وجد العالم وِلْسن أثناء حفرياته حجراً كبيراً محفوراً عليه صورة وعاء المن.[٢٦]

والمعروف أن درس نزول المن كان ضمن خدمة الصباح في مجامع اليهود. والدروس في المجمع كانت تُقام في أيام السبت والاثنين والخميس.

٦ : ٦٠ــ٦٣ «فقال كثيرونَ من تلاميذِهِ، إذ سَمِعوا، إنَّ هذا الكلامَ صعبٌ. مَنْ يقدرُ أنْ يسمعَهُ. فعلمَ يسوعُ في نفسِهِ أن تلاميذَهُ يتذمَّرونَ على هذا، فقال لهم: أهذا يُعْثِرُكم؟ فإن رأيتم ابنَ الإنسانِ صاعِداً إلى حيثُ كان أوّلاً. الروحُ هو الذي يُحيي أما الجسدُ فلا يُفيدُ شيئاً. الكلامُ الذي أكلمكم به هو روحٌ وحياةٌ».

«الروح هو الذي يُحيي أما الجسد فلا يفيد شيئاً. الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة»:

المسيح يلحُّ على العقل البشري أن لا يهبط بالإلهيات إلى مستوى التراب، ولقد كرر ذلك في كل حديث، ولكن ليس بنفس الهدف.

فأولاً مع نيقوديموس، كان الهدف هو **الميلاد الجديد للإنسان من فوق وبالروح،** ولما عجز عن إدراك «الميلاد الثاني» الروحي للإنسان، اضطر المسيح أن يقول له: **«المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح»** (يو٣: ٦). أما كيف يتم ذلك؟ فمن المستحيل على العقل البشري متابعته، كما لو أردت أن تتتبّع ريحاً تهبُّ، فأنت لا تعرف لا من أين تأتي ولا إلى أين تذهب، هكذا كلُّ مَنْ وُلد من الروح، فأنت ترى فيه الواقع المتغير أي الإنسان الروحي الجديد

[26] Warren's recovery of Jerusalem, p. 344. Cited by: Westcott, *op. cit.*, p. 108.

بالعقل الروحي الجديد، فتندهش، ولكن يتعذر عليك الفحص.

وثانياً مع المرأة السامرية، كان الهدف أن يسقيها الماء الحي أي الروح القدس، ولما تفكرت أنه ماء جسدي وعجزت عن إدراك شُرْب الماء الحي، طلب منها أن تتوب عن خطاياها التي كانت سر العجز، فلما تابت شربت من الماء الحي. ولكن كيف شربته؟ لا نعلم، الذي نعلمه أنها صارت مُبشِّرة بالخلاص، وقادرة أن تسقي الآخرين، لأن نبع المياه الحية اندفق في أحشائها.

وثالثاً مع الجليليين، أراد أن يُطعمهم من خبز الحياة النازل من فوق، فحسبوه مَنًّا، وعجزوا عن فهم خبز الحياة. طلب منهم أن يؤمنوا به أولاً حتى يدركوا سر جسده المذبوح وسر دمه المسفوك اللذين هما خبز الحياة الأبدية، فلما عثروا – حتى تلاميذه عثروا – في كيفية أكل الجسد وشُرب الدم، عاد مرة أخرى يقول إن كلامه على مستوى الروح وليس على مستوى الجسد. فهو أكلٌ حقٌ وشربٌ حقٌ، أي **أكل جسدٍ روحيٍّ سماويٍّ، وشُرب دمٍ روحيٍّ سماويٍّ – وليس أكل جسدِ إنسانٍ وشُرب دم إنسانٍ – بل هو أكل الكلمة في الجسد وشُرب الروح في الدم.** أما كيف يكون ذلك؟ فهذا ما لا يمكن أن يلاحقه العقل، تماماً كما لا يمكن أن يلاحق كيف صار الكلمة جسداً. هكذا وبنفس السرية يصير الإنسان بالأكل من الجسد والشُرب من الدم إنساناً روحياً يتغذى بالروح وسر الكلمة، الكلمة الذي كان منذ البدء عند الله، الفعَّالُ في الخليقة، فلكي يكمل فعله في الخليقة البشرية، أخذ جسداً؛ وبدون هذا الجسد لم يكن ممكناً أن تبلغنا كلمة الله كفعلِ خلاصٍ. فكلمة الله في ذاتها مُخلِّصة، ولكنها لم تخلِّص بالفعل إلا بالجسد والدم على مستوى الذبح وسفك الدم.

فاللاهوتيون وأصحاب الفكر القائل أن الأكل والشرب هما على مستوى الإيمان بالكلمة المقروءة والمبشَّر بها فقط، وليس بالخبز والخمر المتحوِّلين، يتجاوزون سر التجسد كفعل حدث، ويتخطَّوْن عملية الذبح وسفك الدم كفعل حدث، هذه التي بها أدركنا سِرَّ الكلمة ابن الله!! أي أن الأكل من جسد المسيح والشرب من دم المسيح يستحيل أن يكون نظرياً تأملياً تصوفياً بالفكر أو حتى بالإيمان فقط. إن الأكل من الجسد والشرب من الدم هما **شركة في فعل مأسوي عنيف،** شركة في ألمٍ وغُصَّةِ موتٍ وقيامة، وليس شركة في مبدأ إيماني يؤخذ بالفهم. فالله لم يخلِّص العالم بالكلمة المنطوقة، بل بالكلمة المتجسدة المذبوحة.

إن قول الرب: «**الكلام الذي أُكلمكم به هو روح وحياة**»، لا معنى له ولا قوة إلاَّ **بفعل الموت والقيامة.** «فالروح والحياة» لم يُستعلنا لنا، ولن يُستعلنا فينا إلاَّ **بشركة فعلية** في الموت

هذا عينه، وفي القيامة هذه عينها، وهذا لن يتم فينا إلاَّ بأكل الجسد الذي فيه سِرُّ الموت وشرب الدم الذي فيه سِرُّ الحياة.

لذلك، وبالنهاية، يكون استعلان الحياة الأبدية هو بالكلمة الحية، وفي الفعل المحيي معاً، بلا تعارض أو تمييز.

أما سِرُّ الإفخارستيا الذي أسسه الرب في عشاء الخميس بالخبز والخمر، اللذين بثَّ فيهما سِرَّ جسده ودمه، أي سر تجسُّده وذبحه، فقد جاء بعد أن أكمل المسيح استعلان الموت والقيامة في نفسه، مقدِّماً جسده ودمه عطيةَ حبٍّ مُسْبقة لأحبائه كخبز الحياة الأبدية، كحقيقة مطلقة لا بد أن تؤخذ أولاً بحد ذاتها قبل أن تُطبَّق على مادة سر الإفخارستيا. فالمسيح قدم الحقيقة المطلقة أولاً، ثم بعد ذلك أخضعها للممارسة العملية. فالإفخارستيا حقيقة مطلقة بقوة سر المسيح للممارسة عملياً.

وفي سر الإفخارستيا تتحد الكلمة المطلقة بالفعل المنظور:

[... كلُّ مرة **تأكلون** من هذا الخبز **وتشربون** من هذه الكأس، **تبشرون** بموتي **وتعترفون** بقيامتي] (القداس الإلهي).

الأكل ينشيء بشارة، والشرب ينشيء اعترافاً، وهكذا نشترك في حياة المسيح وموته بالسر والكلمة معاً، بالحقيقة المطلقة والفعل المنظور.

وليُلاحظ القارىء أن المسيح لم يَرُدّ على نيقوديموس حينما سأله: «كيف يمكن أن يكون هذا» (يو٣: ٩)، عن الميلاد من الروح ــ كما أنه لم يرد على اليهود عندما سألوا: «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل»، لأن المسيح قصر استعلان الفعل السرائري، سواء في المعمودية أو الإفخارستيا فقط على الذين آمنوا بالكلمة. وكل ما استطاع المسيح أن يُزيده شرحاً هو قوله إن الكلام الذي يقوله «روح وحياة»، لأن الجسد، أي المادة، لا يفيد شيئاً بحد ذاته، ولكن الروح والحياة اللذين في الجسد والدم يفيدان في كل شيء.

وق. يوحنا تحاشى ذكر الطقس ليوفي الحقيقة الروحية المطلقة فهمها وعملها أولاً، وهو بذلك يحرس الطقس من أن يُبتر فيكون بشكله المادي نهايةً بحد ذاته، فتسقط الكنيسة في أحد خطأين: الخطأ الأول أن تحسب المادة فعَّالة بحد ذاتها، والخطأ الثاني أن ينحصر سر الإفخارستيا في أن يكون مجرد رمز.

وللقديس أُغسطينوس شرح يفيد هذا المعنى إذ يقول:

[وهكذا يريد المسيح أن يُفهَم هذا الأكل وهذا الشرب على أنهما واسطة للشركة في جسده وأعضائه التي هي الكنيسة... فالسِرُّ في الإفخارستيا هو الوحدة في المسيح القائمة بين الجسد والدم اللذين يُقدَّمان على مائدة الرب يومياً في بعض الكنائس وعلى فترات معينة في كنائس أخرى، واللذين يتناولهما البعض للحياة والبعض الآخر للهلاك. أما السرُّ نفسه فهو موضوع لحياة كل الناس وليس لهلاك أحد بالمرة لكل من يتناوله] (عظه ١٦: ١٥ على إنجيل يوحنا).

[هكذا فإن معنى أن يأكل الإنسان من الجسد وأن يشرب من الدم، هو أن يَثْبُتَ في المسيح والمسيح يثبتُ فيه؛ وبالتالي فإن كل من لا يثبُتُ في المسيح والمسيح لا يثبت فيه، فهو بلا شك لم يأكل جسده ولا شرب دمه، بل إنه في الحقيقة أكل وشرب من سر عظيم بهذا المقدار لدينونة نفسه] (عظه ١٦: ١٨ على إنجيل يوحنا).

وهكذا جمع القديس أُغسطينوس بين الحقائق المطلقة التي شرحها الرب وبين عمل السر في الإفخارستيا، وجعل الحقائق المطلقة حارساً لصحة السر وعمله.

وهنا نسمع أن **كثيرين** من تلاميذه قالوا: «هذا الكلام صعب من يقدر أن يسمعه»، لنتذكر دائماً قول النبوّة عند ميلاد المسيح على فم سمعان الشيخ: «ها إن **هذا** قد وُضع **لسقوط وقيام** كثيرين في إسرائيل، ولعلامةٍ تُقاوَمُ.» (لو٢: ٣٤)

لقد سقط **هؤلاء الكثيرون** من تلاميذه عن مستوى الروح والحياة. وكلمة «**كثيرون**» توضح النسبة بينهم وبين الاثني عشر، أي بين الذين يسقطون والذين يقومون في المسيح يسوع على مستوى الإيمان وتصديق الرب، وهي دائماً نسبة محزنة. وهي ليست محزنة لأنها على المستوى العام فقط بل وعلى المستوى الخاص جداً، إذ هي قائمة بين المدعوِّين أيضاً: «هكذا يكون الآخِرون أولين والأوَّلون آخِرين. لأن كثيرين يُدْعَوْنَ **وقليلين** يُنتخبون.» (مت٢٠: ١٦)

لماذا؟؟؟ لأن الكثيرين يحكّمون العقل والمنطق، **والقليلون** هم الذين يطيعون الإيمان والكلمة ببساطة قلب، والعقل بطبيعته يحكم حسب مقاييس العالم، ويبدأ بفرح كاذب وينتهي بالحزن والتشاؤم (مت٢٢: ١٣و١٤)، أما القلب فيعيش بمقياس الروح، ويبدأ بالتسليم الهادىء وينتهي إلى الفرح والابتهاج: «وإذ هم **يكسرون** الخبز في البيوت كانوا يتناولون الطعام **بابتهاج وبساطة قلب** مسبحين الله ولهم نعمة لدى جميع الشعب.» (أع٢: ٤٦و٤٧)

«هذا الكلام صعب»:

كلمة «صعب» تأتي في اليونانية بمعنى «التصلب» σκληρός من σκέλλω أي «يجف» أو «ينشف»، وهذه الكلمة يفهمها الأطباء، إذ هي تُستخدم لوصف الأوعية الدموية حينما تُصاب بالتصلب وعدم الليونة فتمنع مسيرة الدم فيها. فلو أضفنا إليها الكلمة التي جاءت بعدها: «من يقدر أن يسمعه ἀκούειν »، فهذا يكمل المعنى بأن كلام المسيح لم يدخل مجاري أسماعهم، لأن آذانهم الروحية مسدودة ولم تنفتح بكل الكلام الروحي الذي قاله المسيح، والكلمة صارت ثقيلة على آذانهم وغير مقبولة، والنتيجة أنهم بدأوا يتذمرون، لأن: «**مَنْ ليس معي فهو عليَّ**» (مت١٢: ٣٠)، لأن الأُذن الطبيعية احتكرت العقل وامتلأت بمتطلبات الدنيا. أما صعوبة الكلمة التي انسدت آذانهم عن قبولها، فهي على مستويين مرتفعين:

الأول الذي سقطوا من دونه وهو: كيف أن «يسوع بن يوسف الذي نحن عارفون بأبيه وأمه» يكون قد نزل من السماء؟

والثاني: «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل» ودمه لنشرب؟

لهذا كان ردُّ المسيح على الصعوبة الأُولى هكذا: ماذا سيكون موقفكم حينما ترون ابن الإنسان صاعداً إلى السماء حيث كان أولاً ومن حيث نزل؟

والمستوى الثاني الذي سقطوا منه وعثروا فيه كان ردُّه عليه أن الجسد المأكول ليس لحماً بشرياً، بل جسداً إلهياً حقيقياً يؤكل بالحق أي بالروح (في الصورة التي سيعطيها، أي الخبز)، والدم ليس دماً بشرياً بل هو دم بروح أزلي يُشْرَب بالروح (في الصورة التي يعطيها، أي الكأس)، لأن أكل الجسد بالجسد لا يفيد شيئاً، **ولكن الأكل الروحي للجسد بالروح يُحْيي**.

وقد عقَّب المسيح على ما قاله فيما يخص الأكل والشرب، بأنه على مستوى الروح والحياة ويوصِّل إليهما، وهما كأساس للروح يُبْنَى عليه القلب ويرتفع، أما العقل أو الجسد فلا يستطيع أن يبلغ إليهما.

ويلاحظ القارىء أن المستوى الأول الذي أنشأ صعوبة عند التلاميذ المزيَّفين يختص بنزول المسيح من السماء، **وهذا يفيد التجسد الإلهي، وهو حجر الأساس في بناء الإيمان**. أما المستوى الثاني الذي أعثرهم والذي يختص بالأكل من الجسد والشرب من الدم، **فيفيد الفداء والخلاص، وهو جوهر الإيمان وتاجه.**

«فإن رأيتم ابن الإنسان صاعداً إلى حيث كان أولاً»:

هذه هي المرة الأُولى التي يذكر فيها إنجيل ق. يوحنا **«صعود»** الرب باللفظ الواضح، إذ لم يذكر إنجيل ق. يوحنا صعود الرب إلا بعد قيامته، حينما قال للمجدلية: «...اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم.» (يو٢٠:١٧)

أما إغفال ذكره حادثة الصعود ذاتها في الرواية، بعد القيامة فلأن الأناجيل الأخرى استوفت شرحها كرواية. بينما اهتم ق. يوحنا بالآيات والإعلانات التي لم تذكرها الأناجيل الأخرى، واستوفى **الشرح اللاهوتي للصعود** مراراً وتكراراً في قول المسيح إنه نزل من السماء، والذي نزل سيصعد حتماً:

«**وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء** ابن الإنسان **الذي هو في** السماء.» (يو٣:١٣)

«أنا معكم زماناً يسيراً بعد ثم **أمضي إلى الذي أرسلني**.» (يو٧:٣٣)

«أما يسوع قبل عيد الفصح وهو عالم أن ساعته قد جاءت **لينتقل من هذا العالم إلى الآب**...» (يو١٣:١)

«**أنا أمضي** لأُعد لكم مكاناً.» (يو١٤:٢)

«وتعلمون **حيث أنا أذهب** وتعلمون الطريق.» (يو١٤:٤)

«**لأني ماضٍ إلى أبي**.» (يو١٤:١٢)

«سمعتم أني قلت لكم **أنا أذهب** ثم آتي إليكم.» (يو١٤:٢٨)

«وأما الآن **فأنا ماضٍ** إلى الذي أرسلني ... **إنه خير لكم أن أنطلق**، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المُعزي.» (يو١٦: ٥و٧)

«... **فلأني ذاهب إلى أبي** ولا ترونني أيضاً.» (يو١٦:١٠)

«خرجت من عند الآب وقد أتيت إلى العالم، وأيضاً أترك العالم **وأذهب إلى الآب**.» (يو١٦:٢٨)

«ولست أنا بعد في العالم، وأما هؤلاء فهم في العالم، **وأنا آتي إليك**.» (يو١٧:١١)

«وأما الآن فإني **آتي إليك**.» (يو١٧:١٣)

هنا يعطينا إنجيل ق. يوحنا **رؤية لاهوتية عميقة** ومبدعة عن **«معنى»** الصعود **«وقوته»**.

فمعنى الصعود لاهوتياً:

هو أن النزول، أي التجسد، رسالة مؤقتة (زماناً قليلاً) انتهت تماماً بالصليب، وهي خاصة

بابن الله المتجسد وحده: «ليس أحد صعد ... إلاَّ الذي نزل» (يو٣:١٣). والصعود تكميلٌ للنزول.

أما الإقامة الدائمة فهي في السماء: «ابن الإنسان الذي هو في السماء.» (يو٣:١٣)

والنزول تحقيق فعلي وعملي مُبْدع من جهة الله في مشاركة الإنسان: «حلَّ بيننا» (يو١:١٤)؛ «اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا.» (مت١:٢٣)

أما قوة الصعود:

فهي في ارتباطه بإرسال الروح القدس الذي حل محل المسيح وكمَّل عمله، وكان الشرط الوحيد والأساسي لإرسال الروح القدس هو صعود المسيح، إذ أن صعود المسيح كان جزءاً أساسياً لتكميل الخلاص. علماً بأن الصعود كان قوة روحية هائلة فكَّت أسْرَ المقيَّدين بالروح: «سبى سبياً وأعطى الناس عطايا» (أف٤:٨)، كما أنه بالصعود تم إعداد مكان لنا في أقداس الله العليا: «دخل مرة واحدة إلى الأقداس فوجد فداءً أبديًا» (عب٦:٢٠ و٩:١٢)، بل وفتح طريقاً ملكياً صاعداً إلى السماء: «وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق» (يو١٤:٤)، «طريقاً كرَّسه لنا حديثاً حيًا بالحجاب، أي جسده.» (عب١٠:٢٠)

لذلك، فقوة الصعود أصبحت هبة لنا، حتى أننا نحسب بالإيمان أنه أصعدنا معه وأجلسنا معه في السماويات (أف٢:٦)، والذي يقرأ الأصحاحين الأول والثاني من سفر الأعمال يشعر بقوة الصعود وكيف ألهبت قلوب التلاميذ لينطلقوا في الصلاة استعداداً لقبول الروح القدس لبدء كرازة العالم!!

وأخيراً، فإن صعود الرب أثبت لاهوت المسيح، أولاً لأن الرب كان **يُعلِّم بالصعود وتحدث عنه**، كالنزول تماماً، أي أنه كان عنده جزءاً أساسياً في خطة الخلاص، وثانياً صعوده بالجسد بعد الموت والقيامة استعلن به مجده الإلهي وأثبت به أن نزوله وتجسده كان حقيقة خلاصية. وصعوده بقوة لاهوته وسلطانه تميَّز عن صعود إيليا بأن قيل عن إيليا أنه «أُصعد بواسطة الرب»، وبأن ذلك تم في مركبة أُرسلت إليه لتحمل ثقله البشري أو ثقل خطاياه، وأن هذه المركبة كانت نارية للتطهير ليؤهَّل للدخول في عالم الأرواح المبرَّرة (٢مل٢: ١ــ١١).

كذلك، فإن صعود المسيح إلى فوق كان إشارة إلى البركة العظمى التي وهبها للعالم، كما كان إشارة مبدعة إلى أنه جعل أعداءه تحت قدميه. كما كان صعوده، بحسب تعليمات الملائكة للتلاميذ، إشارة وآية عُظمى أنه كما صعد هكذا سوف يأتي أيضاً في مجده ومجد أبيه (لو٩:٢٦)؛

ونحن بهذا ننتظر مجيئه بفارغ الصبر في رجاء حار صادق، «نعم ... آمين تعالَ أيها الرب يسوع.» (رؤ٢٢: ٢٠)

٦: ٦٤—٦٦ **«ولكن منكم قومٌ لا يؤمنونَ ــ لأنَّ يسوعَ مِنَ البدءِ عَلِمَ مَنْ هُم الذينَ لا يؤمنون ومَنْ هو الذي يُسلِّمه ــ فقال: لهذا قلتُ لكم إنهُ لا يقدِرُ أحدٌ أنْ يأتي إليَّ إنْ لم يُعْطَ مِنْ أبي. مِنْ هذا الوقتِ رَجَعَ كثيرونَ مِنْ تلاميذِهِ إلى الوراءِ ولم يعودُوا يَمشُونَ مَعَهُ».**

المسيح يوجه الكلام هنا إلى مجموعة كبيرة من تلاميذه(٢٧) ربما السبعين الذين كان منهم القديسان مرقس ولوقا، ويفرزهم بعينه الفاحصة كاشفاً الذين لا يؤمنون به أمام ضمائرهم. لأن تذمُّرهم السابق وعدم إيمانهم كانا في داخل قلوبهم وغير مُعلَنَيْن. ولكن من العسير أن يخادع الإنسان الله. فالمسيح هنا يعلن لاهوته من خلال درايته بالقلوب وما تخفيه. فلما واجههم المسيح بحقيقة ضمائرهم، لم يستطيعوا أن يستمرُّوا في مسيرتهم الكاذبة مع الرب، فكشفوا نيّتهم بأن تركوه علناً، ولم يعودوا يسيرون معه، بل **رجعوا إلى الوراء** وساروا في طريقهم. وما ألعنها مسيرة! «وكما لم يستحسنوا أن يُبْقُوا الله في معرفتهم أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض.» (رو١: ٢٨)

والمسيح هنا يعود فيكرر أمام تلاميذه عامة أنه لا يجمع تلاميذه جزافاً؛ ولا أحد يأتي إليه من ذاته، بل إن كان المسيح يختار أحداً فإنه يختار الذي دعاه الآب، وإن كان أحد يأتي إليه فهو الذي يجذبه الآب. لذلك فالمسيح غير آسف على المفقود وغير خائف على الموجود. فالمفقود ليس من نصيبه أصلاً، والموجود لا يستطيع أحد أن يخطفه من يده لأنه أخذه من يد الآب!

وبسبب علم المسيح بالذي له وبالذي ليس له، لم يكن يمالىء ولم يكن يهادِن، ولا يترجَّى ولا يسترضي، فكانت كلمته دائماً أَمْضَى من كل سيف ذي حدين، تدخل إلى مفارق النفس والروح، وتميِّز أفكار القلب ونياته (عب٤: ١٢).

«من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء، ولم يعودوا يسيرون معه»:

يا حسرة البشرية كلها على هؤلاء التلاميذ. كيف صاروا عاراً على مسيرة الحب والوفاء.

---

(٢٧) يقول هيبوليتس الإسكندري أن القديس مرقس والقديس لوقا كانا من السبعين رسولاً:

Cited by: ICC, Bernard, *op. cit.*, Vol. I, p. 220.

اسمع ما قيل عن حب المسيح لتلاميذه: «... إذ كان قد أحب خاصته الذين في العالم، أحبهم إلى المنتهى.» (يو١٣: ١)

الآن نحن نعلم أن الرب كان يتكلم معهم من مصدر الحق الإلهي،
كان يدعوهم إلى شركته في الآب أن يكونوا واحداً معه في مسيرة الحياة الأبدية،
كان يعرض عليهم سر أكله وشربه بالروح لإتحاد أبدي،
كان يكشف لهم عمق أعماق أسرار الله ليكونوا، لا علماءَ ولا خبراءَ فيها فحسب، بل وشركاء، شركاء لا في معرفته بل شركاء في الطبيعة الإلهية بكل مذخراتها ومواهبها لبني الإنسان.
لم يكن يفرض نفسه للأكل والشرب من مستوى الأسياد والعظماء حينما يدعون العبيد لحرية مقيَّدة، بأن يأكلوا معهم على مائدتهم تكريماً لهم،
بل كان يدعوهم من المستوى الأقلّ، من مركز الخدم والعبيد، «... آخذاً صورة عبدٍ» (في٢: ٧)، و يدعوهم ليكونوا شركاء معه في مجد الألوهة: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني» (يو١٧: ٢٢). أعطى مجده في اتضاع العبيد، في وداعة الخدّام، في دموع التوسل: «قام عن العشاء وخلع ثيابه (ثياب الكرامة) وأخذ منشفةً واتَّزر بها (على وسطه كعبد) ثم صبَّ (بيده) ماءً في مغسل (طشت)، وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها (أيضاً) بالمنشفة التي كان متَّزراً بها ... فلما كان قد غسل أرجلهم ... قال لهم: أنتم تدعونني معلماً وسيداً وحسناً تقولون لأني أنا كذلك، فإن كنت وأنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم، فأنتم يجب عليكم أنْ يغسل بعضكم أرجل بعض.» (يو١٣: ٤و ٥ و١٢و١٣و١٤)

ولكن التلاميذ لم يستحسنوا كلام المسيح وقرروا أن يقطعوا علاقتهم به، وعادوا إلى الوراء إلى سيرتهم الأُولى وفضلوها على مسيرته، لأنها أصبحت ثقيلة على قلبهم، وصارت تكلفهم خسارة أرباحهم المعنوية والمادية:
بعضهم كانت علة دوافعهم كرامة وعادات وتقاليد،
وآخرون كانت دوافعهم مالية وأرباحاً من الحرام والممنوعات،
وآخرون كانت غير ذلك، وآخرون وآخرون، هذه الدوافع كانت مخفية في قاع القلب تنتهز العلل والمسوغات التي تبرِّر الترك. فمالهم والتواضع والمحبة، ومالهم والتوبة المكلِّفة، ومالهم للدخول في أسرار الله ومواهب الروح، ومالهم وتكاليف القداسة وربح الحلال الضيق! لقد ظنوه في البداية غنيمة يغتنمون من ورائها المزيد من الأرباح والكرامات والجلوس عن اليمين واليسار في مُلكه الذي توهموه وجاهدوا من أجله. وهوذا الآن يعرض عليهم موته وذبيحته وتقسيم جسده وشرب

دمه، فهل هذا هو ما يخرجون به من الغنيمة؟

وبعد عِشْرَةٍ قصيرة كان هذا الفراق الحزين والمؤلم على قلب المعلم، لم يتركهم بل هم الذين تركوه، حتى يهوذا لم يطرده الرب بل احتمله بصبر فائق حتى آخر الطريق وإلى أن طرد نفسه، فقد قال الرب مرة: «ومن يُقْبِلُ إليَّ لا أُخرجه خارجاً» (يو٦: ٣٧). ولكن إن كان ترك المسيح هكذا يبدو سهلاً هيناً، فالخسارة فادحة عليهم وعلى أولادهم وإلى الأبد.

«ومن تلك الساعة»:

وما أشقاها ساعة! إنها ساعة بؤس في يوم رفض، لا تزال تتكرر وتُذْكَرُ حتى هذه الساعة.

إنها ساعة لعنة في تاريخ المؤمنين الذين يبيعون الرب والإيمان بلا ثمن أو بثمن بخس، وبخس للغاية.

٦: ٦٧و٦٨ «فقال يسوعُ للاثني عَشَرَ: ألعلَّكم أنتم أيضاً تريدُونَ أن تمضُوا؟ أجابَهُ سِمْعَانُ بطرسُ: يا ربُّ إلى مَنْ نذهبُ، كلامُ الحياةِ الأبديةِ عندَكَ».

السؤال هنا الذي يسأله المسيح للاثني عشر هو سؤال استنكاري، يستفز به حرية الرأي والإرادة فيهم. ومعلوم أن الرد عليه سيكون بالنفي، مما يفيد أن الرب يسأله لطرح الحرية أمام الاختيار حتى يستوثق كلٌّ واحد فيهم من موقفه وأمام نفسه، لأنه، في الواقع وعين الأمر، كان يوجد بينهم مَنْ هو مهيّأ للسقوط، ومن هو ساقط بالفعل، فبطرس لولا مساندة الرب له في اللحظة الحرجة لهوى وصار كنجم سقط، أما يهوذا حامل الصندوق ــ أو بلغة الزمن الحاضر: مدير الإدارة المالية أو أمين الخزانة لزمرة التلاميذ ــ فكان يسرق أولاً بأول ما يقع في الصندوق، والذي يسرق يبيع دائماً بأرخص الثمن، فقد باع معلمه بحصيلة يوم أو يومين.

«يا رب إلى مَنْ نذهب، كلام الحياة الأبدية عندك»:

في الحقيقة، كان ردُّ بطرس ليس تماماً رداً على سؤال المسيح، بل كان هو الرد الحاسم القاسم على جحود التلاميذ الذين رجعوا إلى الوراء ولم يعودوا يسيرون معهم ولا مع معلمهم. وكأنما رآهم داود النبي من وراء الزمن وتكلم بلسانهم: «هذا كلُّه جاء علينا وما نسيناك **ولا خُنَّا في عهدك،** لم يرتدَّ قلبُنا إلى وراءٍ ولا مالت خطوتنا عن طريقك.» (مز٤٤: ١٧و١٨)

لقد كانت شهادة بطرس أقوى شهادة نطق بها التلاميذ، وقد جاءت متوافقة مع فكر المسيح، ولو أنها لا تدخل إلى عمقه. فقد جاءت بما يتناسب مع حاجتهم، فقد رأوا في المسيح كنز الحياة

الأبدية الذي لا يفرغ؛ وليس مجرد الكلمات أو الحديث في ذاته؛ ولكنه الكلام المؤدي إلى الحياة الأبدية الذي شعرت به قلوبهم ووثقوا منه بعقولهم، فنطقت به أفواههم.

ويُلاحَظ أن رد بطرس بهذه الآية: «كلام الحياة الأبدية عندك»، هو مستمد من قول المسيح: «**الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة**»، «من يسمع كلامي... فله الحياة الأبدية» (يو٦: ٦٣ و٥: ٢٤)، كما هو رد مفحم على التلاميذ الذين خانهم إيمانهم واعتبروا أن كلام المسيح صعب. كما هو أيضاً ردٌّ يؤمِّن به بطرس تأميناً مباشراً على ما أعلنه الرب أنه «خبز الحياة» المعطِي الحياة الأبدية، كما هو «ماء الحياة» ونورها.

وعلى هذا الأساس: «**إلى من نذهب**»، إن كان هو الوحيد الذي يقود إلى الحياة الأبدية، فهنا إشارة موبِّخة ومستهينة برجوع بعض التلاميذ إلى الوراء، كما هي إشارة إلى فكر الجليليين الذين يطلبون نبيًّا يكون على مستوى موسى ويعطيهم المن من السماء.

وهكذا يضع بطرس المقارنة المستحيلة بين المسيح وبين أي آخر. فكلام المسيح في نظر بطرس يشهد للمسيح أنه هو هو وليس آخر الذي ينبغي أن "**يُذهب إليه**" أو بلغة المسيح: «**يأتي إليَّ**»، الذي في موضع آخر يترجمه بطرس الرسول هكذا: «ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك» (لو١٨: ٢٨)، وبهذه الآية كان بطرس الرسول يمهد لبقية اعترافه:

٦: ٦٩ «ونحن قد آمنَّا وعَرَفْنا أنَّك (قدوس الله) أنت المسيحُ ابنُ الله الحيِّ».

بطرس لا يزال يتكلم بلسان التلاميذ، لأنه كان أكثرهم اندفاعاً وحرارة، ولو أنه ليس أكثرهم إيماناً أو محبة للمسيح. ويُلاحَظ أن بطرس يضع الإيمان والمعرفة في موضعهما الصحيح، فالإيمان باعتباره تصديق الله ببساطة قلب بدون محاورة العقل يأتي أولاً، ومنه يستمد السلوك طبيعته المتواضعة والأمينة. كما يستضيء العقل الروحي بنور المعرفة فيبلغ به الإيمانُ حدَّ العمل كشهادة، وحدَّ الرؤيا العقلية فيتواجه مع الحق الإلهي، وهنا يبلغ الإيمان اليقين.

ولم يكن هذا المبدأ الإيماني عند بطرس مجرد فكر عارض بل نسمعه بعد ذلك بسنين كثيرة يشرح هذا المبدأ عينه في رسالته الثانية: «ولهذا عينه، وأنتم باذلون كل اجتهاد، قدِّموا في **إيمانكم** فضيلة (عمل) وفي الفضيلة **معرفة** (رؤية مستنيرة).» (٢بط١: ٥)

والرب يسوع يؤمِّن على هذا بقوله: «وهم **قبلوا** (آمنوا) **وعلموا** يقيناً (بالسلوك والفكر) أني

خرجت من عندك» (يو١٧: ٨). وبولس الرسول يؤكد ذلك جاعلاً القلب مخزناً للإيمان والفم مخرجاً للمعرفة والشهادة: «**لأن القلب يؤمَن به للبر، والفم يُعترَف به للخلاص.**» (رو١٠: ١٠)

هذا المبدأ يتنكر له كثير من علماء الكتاب المقدس، مع أنه هو المفتاح السري الذي إذا استهان به الإنسان شقَّ عليه الإيمان البسيط الفعَّال وسقط عن المعرفة الصحيحة المستنيرة بالروح. علماً بأنه قد تجيء كلمة «المعرفة» قبل كلمة «الإيمان» في بعض مواضع الإنجيل، وهذا لا يقلل من أهمية اشتراكهما معاً في بلوغ الحق الإلهي، فلا معرفة بدون إيمان ولا إيمان بدون معرفة.

وقول بطرس: «**أنت المسيح، ابن الله الحي**»، هي شهادة ذات وزنٍ عالٍ، لأنها تجيء بعد خيانة الجزء الأكبر من التلاميذ، كما تجيء بعد أن أعلن المسيح عن هدف مجيئه، وهو الموت الذي يُعتبر في نظر بطرس إخفاقاً شديداً للرجاء الذي وضعه بطرس والتلاميذ أن يكون المسيح ملكاً يحكم ويسود ويعطيهم نصيبهم في الحكم. فهذه الشهادة لا تأتي مجاملة ولا من أجل رجاء كاذب، بل عن يقين. ومضمون هذه الشهادة هو أن التلاميذ قَبِلُوا المسيح وآمنوا به وتبعوه بإخلاص، فعلموا بالخبرة والواقع أنه **هو المسيح ابن الله**، أو **قدوس الله**، كما جاءت في بعض المخطوطات، و«**قدوس الله**» تأتي في فم المسيح كأساس للتعرف عليه: «فالذي **قدَّسه الآب** وأرسله إلى العالم أتقولون له إنك تجدف لأني قلت **إني ابن الله**؟» (يو١٠: ٣٦)

وتأتي الصفتان معاً في فم الملاك المبشر: «فأجاب الملاك وقال لها: الروح القدس يحلُّ عليكِ وقوة العلي تظللكِ، فلذلك أيضاً **القدُّوس المولود منك** يُدعى **ابن الله**.» (لو١: ٣٥)

فـ«قدوس الله» هي صفة المسيح الأُولى التي يمكن أن تُبنى عليها كل الصفات الإلهية الأخرى، من جهة إرساله إلى العالم أو كشف سر تجسده أو كشف سر بنوته لله.

ويُلاحظ أن المسيح خاطب الله بـ«**الآب القدوس**» (يو١٧: ١١). فهنا، إذ يلقِّب بطرسُ المسيحَ بـ«**قدوس الله**» يضعه في موضع المساواة في الكرامة والقداسة مع الآب من حيث الطبيعة الواحدة للآب وللمسيح (القداسة).

وفي سفر الرؤيا يلقبه الوحي: «هذا يقوله **القدوس الحق** الذي له مفتاح بيت داود...» (رؤ٣: ٧)، وكلمة «قدوس» هي مدخل إلى طبيعة الله واستعلان الصلة بصميم هذه الطبيعة. فتسمية «**قدوس الله**» للمسيح هي تأكيد لطبيعة المسيح المُعلِنة لطبيعة الله، واستعلان لصلة

المسيح بالله كواحد معه. وصفة هذه القدُّوسية في المسيح هي فريدة لشخصه التي جاء ليعطيها لتلاميذه والمؤمنين به بذبيحة نفسه، ليشتركوا بجسده ودمه في هذه القداسة.

ومرَّة أخرى يردُّ بطرس على المستوى الإلهي العميق الذي يتكلم منه المسيح، فبطرس حينما قال: «**أنت هو**» فهو يجيب إجابة مباشرة على قول المسيح: «أنا هو» ἐγώ εἰμι، وهي اسم ذات الله، فالمسيح يقولها ليستعلن بها نفسه والآب، بهذا المعنى يكون كلام بطرس صحيحاً وواقعياً؛ حينما قال: «نحن قد آمنا "**وعرفنا**"»، فهنا كلمة "عرفنا" التي تجيء باليونانية: ἐγνώκαμεν تتضمن **معرفة الاستعلان** وكشف الحقيقة التي أظهرها بطرس.

وعلى كل حال، فإن شهادة بطرس الرسول توضح الثقة المطلقة والأمانة والتبعية للمسيح، هذا ما أراد أن يعلنه بطرس للمسيح، مؤكِّداً أن كل كلامه عن الحياة الأبدية قد صار هو أكلَهم وشُربَهم بالفعل. وهكذا أُلقيت النار على الأرض لكي تحرق وتنير، تحرق الأفكار والنيات التي تغتذي على الظلمة فترتد، وتنير وتبهج القلوب التي تسعى نحو النور فتمتد.

٦: ٧٠و٧١ **«أجابهم يسوع: أليس إني أنا اخترتكم الاثني عشر وواحدٌ منكم شيطانٌ. قال عن يهوذا سمعان الإسخريوطي لأن هذا كان مزمعاً أن يُسَلِّمَهُ وهو واحدٌ من الاثني عَشَرَ».**

وحتى بعد رجوع كثيرين من التلاميذ إلى الوراء فلا يزال في حظيرة الاثني عشر ذئبٌ، ليس مرتداً إلى الوراء فحسب بل وجاحد وخائن أيضاً، إذ وهو يمارس التلمذة مع التلاميذ كان يمارس وظيفة الجاسوس للذي يدبِّر عملية التسليم. أمر مؤلم وفظيع. فلولا طبيعة قلب الرب وعطفه على التلاميذ بلا استثناء لأُفرز هذا الخائن منذ اللحظة الأولى، فالتلاميذ كانوا متيقظين له واكتشفوا ممارسته لسرقة الصندوق أولاً بأول، فكانوا يعضُّون على نواجذهم(٢٨)، ولكن لم يجرؤ أحد أن يفاتح المسيح بحقيقة هذا التلميذ الخائن، ولا المسيح نفسه شاء أن يفضح سرَّه وسريرته، بالرغم من أنه كان يعلم منذ البدء مَنْ سيُسلِّمه!!

فبعد ما أعلن بطرس بحماس وشجاعة عن إيمان الجماعة وثقة الاثني عشر، لم يَنْسَقْ الرب وراء هذه الشهادة، لأنها لم تكن تخص إلا أحد عشر فقط! فأراد أن يصحح الشهادة، لا من

(٢٨) النواجذ أي الضروس، وهذا تعبير عن الصبر.

حيث مضمونها، ولكن من حيث مَنْ يحملها ويمثلها منهم!

وحينما قال الرب ردًّا على اعتراف بطرس: «أليس إني أنا اخترتكم الاثني عشر»، لم يقصد العدد في مفرداته ولكن كان يصوِّر إسرائيل الجديد في بطن الكنيسة، فالتصوير كامل من حيث مضمون العهد، والعهد لا يقوم على الأفراد، لذلك لما سقط الخائن ومات بيد نفسه لم يفرق شيئاً، إذ انتخب التلاميذ من يلحم العدد على أصله، فـ«الاثني عشر» عدد لا يحوي عدداً، بل يحوي كنيسة ذات رأس واحد لجسد واحد. ولكن الألم الذي كان يعتصر قلب المسيح، وهو يشير إلى خائن من وسط تلاميذه الأخصّاء، كان واضحاً في كلماته: «أليس إني اخترتكم»، فهو يشير بحزن شديد إلى براءة قلبه وضميره، وإلى حبه الشامل الكامل الذي لا يتوقف في عمله وقصده ذلك كله أمام خائن وهو يستمع. لقد اختار يهوذا ليُظهر فيه منتهى حبه المجاني الذي يقوم على عدم انحيازه للصالح دون الطالح: «أو ما يَحِلُّ لي أن أفعل ما أريد بما لي **أم عينك شريرة لأني أنا صالح.**» (مت٢٠: ١٥)

المسيح حينما أطاع الله الآب حتى إلى الموت، موت الصليب، كان يُظهر في طاعته صفة البنوّة الفريدة. ولكن حينما احتمل المسيح خيانة يهوذا كل يوم حتى الذبح، كان يُظهِرُ في احتماله صبر الله على الخطاة.

أعمال كثيرة عملها المسيح في الظاهر والخفاء استعلن فيها صفات الألوهة والنُّبل البشري معاً، التي كانت تلتحم في انسجام بديع، ولكن احتماله ليهوذا سنين طويلة حتى إلى يوم العشاء، وهو يعلم أنه سيسلِّمه كان من روائع صفات الكلمة المتجسد!!

ولكن طول أناة المسيح على التلميذ الخائن كانت تذخر له غضباً يوم الغضب واستعلان دينونة عادلة، دون أن يغضب المسيح أو يندم أو يدين.

«والذي سلَّمني إليك له خطية أعظم.» (يو١٩: ١١)

«**أما أنا فلستُ أدين أحداً.**» (يو٨: ١٥)

«وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا **لا أدينه**، لأني **لم آتِ لأدين العالم** بل لأُخلِّص العالم. من رذلني ولم يقبل كلامي **فله من يَدينُهُ، الكلام الذي تكلمت به هو يَدينُهُ في اليوم الأخير.**» (يو١٢: ٤٧و٤٨)

«وواحد منكم شيطان»: = واحد من الأخصّاء التابعين.

لو كان يهوذا قد ارتد إلى الوراء مع المرتدين ومعه الصندوق، لكان هذا له أكثر شرفاً وأقل

نقمة!!

ولكنه استمرأ بساطة روح التلاميذ وطيبة قلب المعلم!! وسار في موكب القديسين حاملاً عاره داخل صندوق!! «وكان الصندوق معه وكان يحمل ما يُلْقَى فيه.» (يو١٢: ٦)

كان عمل الشيطان منذ بدء خدمة المسيح أن يرد المسيح إلى الوراء: «أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي» (مت٤: ٩)، «فقال له يسوع اذهب يا شيطان» (مت٤: ١٠)، فذهب الشيطان مدحوراً.

ولكن يهوذا بإغراء الفضة خرَّ وسَجَد، فدخله الشيطان وصال به وجال، وتبع المعلم مع التابعين، وحَبَكَ الخطة مع رؤساء الكهنة وقضاة روما ... «فبعد اللقمة دخله الشيطان. فقال له يسوع: ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة.» (يو١٣: ٢٧)

كان يسوع يرى يهوذا في اتفاق وتردٍّ مع الشيطان، ملتصقاً به على الدوام، فلم يشأ أن يفرِّق بين عمل هذا وعمل ذاك، لأنهما صارا واحداً، فكان من حق المسيح أن يسمي يهوذا بالشيطان.

وحتى بطرس نفسه لما أراد أن يُثني المسيح عن مشيئة الآب في قبول الصليب، الذي من أجله كان قد جاء، نظر الرب فرأى بطرس ملتحفاً بالشيطان وقد تبخرت منه ادعاءات الإيمان، فلم يتردد الرب أن يخاطب الشيطان فيه: «فالتفت وقال لبطرس: اذهب عني يا شيطان أنت مَعْثَرة لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس» (مت١٦: ٢٢و٢٣). ولكن بطرس ــ بالكاد ــ فلت من قبضة الشيطان بسبب "بقية" إيمان: «ولكني طلبت من أجلك لكي لا يفنى إيمانك» (لو٢٢: ٣٢). ولكن يهوذا لم يكن له إيمان البقية.

ولكن تبقى إشارة المسيح الحزينة «واحدٌ منكم»، ذات مَغزى، لم يعيِّن الرب من هو هذا الواحد الذي سيخون، فكان على كل واحد يتبع الرب في كل زمان ومكان أن يفحص نفسه! وخاصة حاملي الصناديق!!

وهكذا ينتهي أصحاح خبز الحياة الذي سيُبذل عن **حياة** العالم، بالإشارة إلى **الموت** المزمع أن يكون، والإشارة أيضاً إلى أن هذا الموت هو بسبب عدم الإيمان الذي حتماً ينتهي إلى خيانة!!

الأصحاح السابع

مكان البشارة
ثامناً ــ في أورشليم
في عيد المظال
(٧:١ ــ ٨:٥٩)

الأصحاح السابع

استعلان طبيعة المسيح «الروحية» (الصخرة)

[أنا هو الماء الحي]

١ ــ ظروف زيارة المسيح لأُورشليم في عيد المظال (٧:١ــ١٣).
٢ ــ محادثات في منتصف العيد (٧:١٤ــ٣٦).
٣ ــ محادثات اليوم الأخير من العيد (٧:٣٧ــ٥٢).

١ ــ ظروف زيارة المسيح لأُورشليم في عيد المظال: (٧:١ــ١٣).

٧:١ **«وكان يسوعُ يتردَّدُ بعدَ هذا في الجليلِ. لأنه لم يُرِدْ أن يتردَّدَ في اليهوديةِ لأن اليهودَ كانوا يطلُبُونَ أن يقتُلوه».**

لقد لخص ق. يوحنا في مقدمة إنجيله نصيب الخدمة التي قام بها الرب نحو شعبه: «جاء إلى خاصته وخاصته لم تقبله» (يو١: ١١)، ونراها:

في اليهودية: «لأن اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه».
وفي الجليل: سنقرأ حالاً: «ولما كان إخوته قد صعدوا حينئذٍ صعد هو أيضاً إلى العيد، لا ظاهراً، بل كأنه في الخفاء.» (يو٧: ١٠)
وهكذا ترك الرب الجليل لآخر مرة وفي الخفاء. فبعد أن أشبع الخمسة الآلاف وأجرى الآيات الكثيرة هناك، رفضوه وصادروا أقواله، وتركه كثيرون من تلاميذه ولم يعودوا يسيرون معه.

أما في أُورشليم: فسترى كيف أن أعنف رفض له كان ينتظره هناك، مع التهديد بالقتل بصورة متلاحقة وشديدة حتى انتهى بالصليب.

ونقرأ على التوالي في هذا الأصحاح السابع وما يليه (الثامن) هكذا:

٧: ١٣ : «ولكن **لم يكن أحدٌ يتكلم عنه جهاراً** لسبب **الخوف من اليهود**».

٧: ١٩ : «أليس موسى قد أعطاكم الناموس وليس أحد منكم يعمل الناموس. **لماذا تطلبون أن تقتلوني**».

٧: ٢٥ : «فقال قوم من أهل أُورشليم أليس هذا هو الذي **يطلبون أن يقتلوه**».

٧: ٣٠ : «فطلبوا أن **يمسكوه**».

٧: ٣٢ : «فأرسل الفريسيون ورؤساء الكهنة خدّاماً **ليمسكوه**».

٧: ٤٤ : «وكان قومٌ منهم يريدون أن **يمسكوه**».

٨: ٣٧ : «أنا عالمٌ أنكم ذُرِّية إبراهيم. لكنكم **تطلبون أن تقتلوني**».

٨: ٤٠ : «ولكنكم الآن **تطلبون أن تقتلوني**، وأنا إنسان قد كلَّمكم بالحق الذي سمعه من الله».

٨: ٥٠ : «فرفعوا حجارة **ليرجموه**».

وصدق فيه قول إشعياء النبي: «هكذا قال الرب فادي إسرائيل قدُّوسُهُ **للمُهان النفس، لمكروه الأمة، لعَبْد المتسلِّطين**... في وقت القبول استجبتُك. وفي يوم الخلاص أعنتك... وأجعلك عهداً للشعب...» (إش٤٩: ٧و٨)

ويهمنا أن نوضح من قول ق. يوحنا في هذه الآية أن المسيح كان يتردد في اليهودية قبل مجيئه إلى الجليل، وهذا يمثل الجزء الأول من خدمته التي أغفلها الإنجيليون الثلاثة.

٧: ٢ **«وكان عيد اليهود عيد المظال قريباً»**.

«في اليوم الخامس عشر من هذا الشهر السابع عيد المظال سبعة أيام للرب. في اليوم الأول محفلٌ مقدسٌ... سبعة أيام تقربون وقوداً للرب. في اليوم الثامن يكون لكم محفل مقدس تقربون وقوداً للرب إنه اعتكاف (راحة).» (لا٢٣: ٣٤–٣٦)

يقول المؤرخ اليهودي يوسيفوس أن عيد المظال هو أكبر وأقدس أعياد اليهود([1]) وأكثرهم مسرَّة

[1] Jos., *Antiq.* VIII, 4.1.

للشعب. وكان يقع في شهر تشري اليهودي، سابع شهور التقويم العبري، وكان العيد يستغرق سبعة أيام مع يوم أخير للراحة ويُسمى اليوم العظيم من العيد (١٥—٢٢)، وهذا الشهر يوافق شهر سبتمبر—أكتوبر بالتقويم الغربي، وهو آخر الأعياد للسنة المقدسة(٢). ويخرج اليهود في هذا العيد إلى العراء ويعيشون في مظال σκηναί يصنعونها من أغصان الأشجار تذكاراً لمعيشة اليهود ٤٠ سنة في البرية بعد خروجهم من مصر (عدد٢٩: ١٢—٣٨).

وهذا العيد بالذات كان يُنْظَر إليه أنه مرتبط برجاء آخِر الأيام وأمجاد وخيرات منتظرة. ولكن في أيام المسيح كانت قد أُضيفت طقوس أخرى تذكارية تعليمية. ففي كل يوم كان رئيس الكهنة يخرج بملابسه الرسمية مع جوقة اللاويين، ومعهم قِدْرٌ من الذهب يملأونها ماءً من بركة سلوام، ويدخل بها رئيس الكهنة ويصبُّها على المذبح، وتُصْرَف في وادي قدرون، في مجرى من الفضة، وذلك تذكاراً للصخرة التي أخرجت الماء وسقت شعب إسرائيل في البرية(٣). ويرد اللاويون عليه بالآلات الموسيقية نشيد هالليل الكبير وتسابيح صهيون، ويرددون مقطعاً من إشعياء النبي (١٢: ٢و٣و٦): «هوذا الله خلاصي فأطمئن ولا أرتعب، لأن ياه يهوه قوتي وترنيمتي وقد صار لي خلاصاً. **فتستقون مياهاً بفرح من ينابيع الخلاص**... صوِّتي واهتفي يا ساكنة صهيون لأن **قدوس إسرائيل عظيم في وسطك**». [وهو نفس النشيد الذي تستخدمه الكنيسة القبطية في أيام أسبوع الآلام باعتبار أن المسيح أُخرج خارج أورشليم حاملاً صليبه، فالكنيسة تعيِّد لهذا الخروج: «لذلك يسوع أيضاً لكي يقدِّس الشعب بدم نفسه تألم خارج الباب. فلنخرج إذاً إليه خارج المحلة حاملين عاره» (عب١٣: ١٢و١٣). وهو نفس الخروج الذي تكلم عنه موسى وإيليا حينما ظهرا مع الرب في التجلي: «وإذا رجلان يتكلمان معه وهما موسى وإيليا. اللذان ظهرا بمجدٍ **وتكلما عن خروجه الذي كان عتيداً أن يُكمِّله في أُورشليم**... وفيما هما يفارقانه قال بطرس ليسوع: يا معلم جيدٌ أنْ نكون ههنا. **فلنصنع ثلاث مظال. لك واحدة ولموسى واحدة ولإيليا واحدة**» (لو٩: ٣٠—٣٣). وهكذا واضح أن **خروج المسيح** خارج الباب الذي **يعني آلامه ثم صلبه**، مرتبط في ذهن العهد القديم **بالمظال** وهو عيد الخروج خارج أبواب البيوت في أورشليم والإقامة في المظال، الذي هو تذكار **الخروج في البرية** والحياة في العراء، **تمهيداً لدخول** أرض الميعاد.]

---

(٢) ويلاحظ أن الأعياد الرئيسية لليهود لها علاقة كبيرة بالأرض والزرع:
فعيد الفصح هو بداية الحصاد والباكورات؛
وعيد الخمسين هو كمال الحصاد؛
وعيد المظال جمع حصاد العنب والزيتون **والشكر** على بركات السنة كلها.
(٣) راجع المدخل ص٢٧٦.

وقد اتخذ الرب ذلك المشهد أساساً لتعليمه: «وفي اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع ونادى قائلاً: إن عطش أحد فَلْيُقْبِلْ إليَّ ويشرب. من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي» (يو٧: ٣٧و٣٨)، وهذا ردًّا على هتاف اللاويين بالنسبة لنشيد الصخرة التي أخرجت الماء.

كذلك، كان من طقوس ذلك العيد أنه في أول يوم فيه كان يُبْدأ بإنارة المنارة الذهبية الكبرى ذات الثماني الشُعَب والأربع المنارات الأخرى التي كانت توضع في رواق النساء. وكانت أنوارها تنعكس على كل البيوت في أورشليم **ويتلألأ ضوؤها في سماء أُورشليم كلها حتى جبل الزيتون.** وكانت تُضَاءُ شُعْبَةٌ في كل يوم، حتى اليوم الأخير الثامن حيث تُضاء الشعبة الأخيرة وذلك تذكاراً **لعمود النور** الذي كان يقود شعب إسرائيل بالليل في البرية. وقد استخدم الرب هذا المنظر أيضاً لتقديم تعليمه بالمقابل: «ثم كلمهم يسوع أيضاً قائلاً **أنا هو نور العالم.** من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة.» (يو٨: ١٢)

وكان منظر المسيح وهو يعلم بصفته **«الصخرة الحقيقية»** و**«النور الحقيقي»** في وسط الشعب وهو مبعثر في عراء أُورشليم في **مظالّه** σκηναι، وكأنه في التيه متبدِّ، يصوِّره إنجيل يوحنا وكأن: «الكلمة صار جسداً وحل بيننا ἐσκήνωσεν» يلاقي الشعب التائه المهموم الذي لم يصل بعد إلى راحته ولا ظفر بوعد ميراثه... وقد جاءهم الرب بملء تحقيق وعد الدهور، ومعه راحة الله إلى الأبد، ومفتاح بيت داود ذي المنازل الكثيرة (يو١٤: ٢) يفتح ولا أحد يُغلق: «وكرسيه كالشمس أمامي. مثل القمر يُثَبَّتُ إلى الدهر. والشاهد في السماء أمينٌ. سلاه.» (مز٨٩: ٣٦و٣٧)

وأمام **الذبائح الكثيرة** التي يمتاز بها هذا العيد دون جميع الأعياد، وقف المسيح يقول لليهود: «أليس موسى قد أعطاكم الناموس وليس أحد منكم يعمل الناموس. لماذا تطلبون أن **تقتلوني؟**» (يو٧: ١٩)؛ وكأنه يسلِّم بالأمر الواقع باعتباره الذبيحة العتيدة ولكن يطلب التفسير من جهة سلوكهم.

وقد التقط الكتبة والفريسيون امرأة في العيد أمسكوها وهي تخطىء. وبإباءٍ وشَمَم قالوا للمسيح إن موسى في الناموس أمر أنَّ مثل هذه تُرجَم. ونسي هؤلاء الأئمة والعظماء أن آباءهم الذين يفتخرون بشرف النسب إليهم، فعلوا فِعْلَتَها وهم في البرية متبدِّين على شكل حالهم في هذا العيد بالذات. ولعل ق. يوحنا ذكر هذه القصة في هذا العيد لهذه المناسبة: «جلس الشعب للأكل

والشرب ثم قاموا للّعب... كما زنى أناس منهم فسقط في يوم واحد ثلاثة وعشرون ألفاً» (١كو١٠: ٧و٨). وأخيراً وبعد تحقيق للضمير أجراه المسيح بهدوء ثبت أن كل المشتكين عليها كانوا خطاة. أما المسيح فرأى فيها صورة لحال شعبه، فتحنن وعفا عنها وعنه، ودفع ثمن خطيئتها دمَهُ !!! هذا كله كان في عيد المظال.

٧: ٣ـــ٥ **«فقالَ له إخوتُهُ انتَقِلْ مِنْ هنا واذهَبْ إلى اليهوديةِ لكي يرَى تلاميذُك أيضاً أعمَالك التي تعملُ. لأنه ليسَ أحدٌ يعملُ شيئاً في الخفاءِ وهو يريدُ أنْ يكونَ علانيةً. إنْ كنت تعملُ هذه الأشياءَ فأظْهِرْ نفسَكَ للعالمِ. لأنَّ إخوتَهُ أيضاً لم يكونُوا يؤمنونَ بهِ».**

«فقال له إخوته»:

هؤلاء الإخوة هم بحسب تسجيل القديس متى (١٣: ٥٥): يعقوب و يوسي وسمعان و يهوذا. وهم بحسب تحقيقات العالم Lightfoot[٤] بالمقارنة مع إنجيل مرقس (٣: ٢١و٣١) أن هؤلاء الإخوة هم أولاد يوسف خطيب مريم من زواج سابق، و باعتبارهم أكبر سناً قدموا هذه النصيحة كأنهم يرشدون الرب. و يلاحظ أن إنجيل يوحنا يفصلهم عن التلاميذ وعن الرسل. مع ملاحظة أن عدم انسجامهم شعورياً مع المسيح والإفصاح عن عدم إيمانهم به يضعهم في وضع حرج واستفهام على ضوء الاعتراف الجريء الواضح الذي قدمه بطرس الرسول منذ قليل (يو٦: ٦٨و٦٩). وهم بنصيحتهم هذه، أي الذهاب لليهودية (أورشليم)، يقدمون في الواقع انتقاداً ضمنياً للمسيح أنه تخلّف عن عيد الفصح السالف، وعن غيابه عن أورشليم الذي طال لمدة ستة شهور. والآن هي فرصة في هذا العيد لكي يرى الجموع المزدحمة كلها في أورشليم في هذه المناسبة أعماله ومعجزاته، حيث يجتمع كل تلاميذه الكثيرين الذين تبعوه في اليهودية: «فلما علم الرب أن الفريسيين سمعوا أن يسوع **يصيِّر و يعمِّد تلاميذ أكثر** من يوحنا...» (يو٤: ١)، بل وكان أيضاً له من بين أعضاء السنهدريم من يتودَّدون إليه سرًّا مثل نيقوديموس (يو٣: ١)، وهؤلاء في نظر إخوته يمكن أن يكونوا عَزْوة(٥) له إذا رأوا أعماله الجديدة.

---

[٤] Lightfoot, J.B., *op. cit.*, Excursus II. Cited by Westcott, *op. cit.*, p. 116.

والقديس إبيفانيوس أسقف قبرص (٤٠٣م) يؤيد هذا الرأي.

(٥) أي يشدُّون أزره.

٧ : ٤—٧ **«لأنه ليس أحدٌ يعمل شيئاً في الخفاء وهو يريد أن يكون علانية. إن كنت تعمل هذه الأشياء فأظهر نفسك للعالم. لأن إخوته أيضاً لم يكونوا يؤمنون به.**
فقال لهم يسوع إنَّ وقتي لم يَحْضُرْ بعدُ. وأما وقتُكم ففي كلِّ حينٍ حاضِرٌ. لا يقدرُ العالمُ أنْ يبغضكم ولكنه يُبغضُني أنا لأني أشهَدُ عليه أن أعمالَهُ شرِّيرَةٌ».

يبدو هنا الكلام الذي قاله إخوة الرب وكأنه غير واضح، لكن رد المسيح عليه يُظْهِر كل خفاياه. فالذي يوضح المعنى ثلاث جمل:
الأولى: قالها ق. يوحنا وهي: «لأنَّ إخوته أيضاً لم يكونوا يؤمنون به».
والثانية: قالها الرب: «وقتي لم يحضر بعد».
والثالثة: «لا يقدر العالم أن يبغضكم».

بهذا نفهم أن إخوة الرب أرادوا أن يدفعوه للظهور في أورشليم في العيد. ولكنهم يضعون نصيحتهم في قالب من النقد الشديد غير اللائق؛ إذ لاحظوا أنه بقي في الجليل وحولها مختفياً لمدة ستة أشهر، لم يذهب لأورشليم ولم يحضر أعيادها طول هذه المدة، فاعتبروا ذلك أنه جبن أو خوف من الظهور العلني بسبب أن اليهود هددوه بالقتل في أورشليم آخر مرة. ووجه النقد والتعيير عندهم هو أنه يدّعي أن أعماله يعملها على المستوى العلني العام، فكيف يختفي و يعمل أعماله في القرى فقط، «إنْ كنت تعمل ... فأظهِر نفسك للعالم». وهكذا تظهر هذه النصيحة التي فيها حثٌّ ودفعٌ للظهور أن فيها تعييراً وشماتة، ولا تأتي من مصدر صادق، بل لأنهم لم يكونوا يؤمنون به. أي لم يدركوا هذه السنين كلها رسالته الإلهية أو يشعروا بشخصه الفائق. وهذا يكشف عمى قلوبهم بل و يكشف ضمناً استحالة أن يكونوا إخوته من **الأم**، لأن موقفهم يكشف انعدام الروح الأخوية والأسرية تماماً. وردُّ المسيح عليهم بالرفض يوضح موقفه و يفضح موقفهم.

أما دفاعه عن أسلوب اختفائه هذه المدة في الجليل فهو لأنه يتحاشى استباق الحوادث والزمن، لأنه يعلم أن **ساعة الصليب** ــ وهي نفسها **ساعة الظهور العلني** للعالم ــ يتلقى ميعادَها من الآب رأساً: **«لم تأتِ بعد»**. فأي إثارة زائدة للرؤساء في أورشليم ــ إذا ظهر علناً بتحدٍّ ــ قد تخلق مشاكل تُعطِّل خطَّة التسليم الهادىء التي دبرها الآب السماوي والتي يعلمها مُسْبَقاً و يريدها في حينها. **«وقتي لم يَحْضُرْ بعد»**. ولكن شهادتي ضد العالم وأعماله الشريرة باقية كما هي، و بالتالي لا يزال أمامه عمل وشهادة وتعليم. أما وقتهم فحاضر كل حين ــ يستطيعون أن يذهبوا إلى أورشليم حينما يشاءون كزائرين، **أما المسيح فلا يذهب هذه المرة إلا ليُصْلَب!!**

أما موقف إخوته المفضوح فيردُّ عليه بطريق غير مباشر، «لا يقدر العالم أن يُبغضكم(٦)» ... لأنه سبق وأن شهد على العالم «أن أعماله شريرة». وهذا يفيد أن العالم لا يُبغضهم لأن أعمالهم متوافقة مع العالم. ولهذا فقط لم يكونوا يؤمنون به، لأنهم كانوا يطلبون ما للعالم، ولا هو كان يؤمن بهم، وهذا واضح غاية الوضوح على الصليب، إذ سلَّم أُمَّه القديسة العذراء مريم ليوحنا تلميذه، ولم يُسلمها لهؤلاء الإخوة المزعومين الحقودين. ولا يفوت علينا أن يوحنا هنا بالذات كان يعلم بسلوكهم ونياتهم. وفي الوقت الذي يفضح فيه المسيح نيَّتهم وأعمالهم، يعلن أنه لم ولن يُهادِن العالم ولا الشر الذي في أعمالهم:

«ولكنه يبغضني أنا لأني أشهد عليه أن أعماله شريرة»:

هنا يتضح أن أهل العالم لا يحتملون التبكيت، و يواجهون كشف الخطايا بالهجوم والبُغضة وإن لزم فبالقتل.

و يلاحظ القارىء أن انتقاد أعمال الرب سهل، و يسقط فيه كل من لم يحتفظ في قلبه بصورة صادقة للإيمان بالرب، بالضبط كما يسهل انتقاد الله في أعماله في الخليقة، بسبب قِصَر النظر وعدم شمول الإدراك البشري لقدرة وقوة الله غير المحدودة واللانهائية.

وقد سقط يهوذا ليس الإسخريوطي أحد التلاميذ الاثني عشر في نفس السقطة التي هوى فيها إخوة الرب ــ حتى في الليلة الأخيرة قبل التسليم ــ وذلك بانتقاد أقوال الرب وأعماله، ولكن ليس بسبب عدم الإيمان وإنما بسبب ما أضمره يهوذا من انتظار محبة العالم، وهذا بسبب عدم الثبوت في كلام الرب ومحبته: «قال له يهوذا ليس الإسخريوطي يا سيد ماذا حدث حتى إنك مزمع أن **تُظْهِر ذاتك لنا وليس للعالم**» (يو١٤: ٢٢). والعجيب أن الرب لم يرد مباشرة على يهوذا موضحاً هذا الأمر، لأن الرب علم أن علة سؤاله لا ترجع إلى طلب المعرفة بل محبة العالم، وهذا بالتالي يرجع لعدم ثبوته في الرب، لا في كلامه ولا في محبته: «أجابه الرب **إن أحبني أحد يحفظ كلامي**، ويحبه أبي، وإليه نأتي وعنده نصنع منزلاً.» (يو١٤: ٢٣)

وهكذا يشترك الجليليون مع التلاميذ الذين رجعوا إلى الوراء، مع إخوة الرب، وحتى مع يهوذا ليس الإسخريوطي في خداع البصر الذي وقعوا فيه جميعاً، بسبب انتظارهم اليهودي التقليدي الكاذب لمجد دنيوي في شخص ملوكية المسيَّا، فلما أدركوا أن نهاية رسالة المسيح هي موت وذبح

---

(٦) العالم هنا عند إنجيل يوحنا هو العالم بدون الله، عالم بدون نعمة و بلا نور و بلا حياة أبدية.

وجسد ودم، انقلبوا ناقدين وناقمين وعلى الأقل جداً غير فاهمين...

ولكن هذا الموقف من إخوة الرب لم يمنع أن يصبح يعقوب أخو الرب واحداً من الرسل فيما بعد، ولا أن يكون يهوذا ليس الإسخريوطي أحد التلاميذ الإثني عشر المؤتمنين. وهذان الاثنان بالذات يبدو أن خبرتهما المؤلمة أنشأت إيماناً ساخناً حاراً بعد استعلان مجد الرب بالقيامة، فكتب كل منهما رسالته. ولكن يبدو من الرسالتين مدى تأثر الشخصية بالتقليد والقوالب اليهودية القديمة إلى حدٍّ ما، مما يكشف عن سر عثرتهم الأولى.

٧ : ٨ ـ ١٠　**«اصعَدُوا أنتُم إلى هذا العيدِ. أنا لستُ أصعدُ بعدُ إلى هذا العيدِ لأن وقتي لم يُكمَلْ بعدُ. قال لهم هذا ومكثَ في الجليلِ. ولما كان إخوتُهُ قد صَعِدُوا (...) حينئذٍ صَعِدَ هو أيضاً (إلى العيدِ)(٧) لا ظاهِراً بل كأنه في الخفاءِ».**

بالرغم من تضارب أفكار علماء الكتاب المقدس في هذه الآيات إلاَّ أن المعنى واضح أمامنا كل الوضوح. فإخوة الرب لم يكن قصدهم من ذهاب المسيح للعيد إلاَّ للظهور العلني أمام العالم وعمل الآيات جهاراً ليجمع حوله التلاميذ وذلك لعلَّة في النفس. ورد المسيح واضح: «اصعدوا أنتم إلى **هذا** العيد» بالقصد الذي ترونه من مشاركة المعيِّدين في الاحتفالات وأفراح هذا العيد، حيث كانوا يذهبون في جماعات كبيرة، وهذا يشير إلى أن رفض المسيح يكاد يكون لهم هم ولصُحْبتهم ولأفكارهم وليس للذهاب إلى العيد.

أولاً: ورود كلمة «**بعد**»: «أنا لا أصعد **بعد** إلى هذا العيد»، معناها واضح وهو: «أنا لا أصعد "**الآن**"». وهذا توضحه بقية الرواية هكذا: «فلما صعدوا صعد هو **أيضاً**». إذن، فعدم صعوده لم يقصد منه النفي الكامل للصعود بل النفي للظرف الزماني الآن و بصحبتهم، لأنه صعد بعد ذلك بمفرده. و بالرغم من ورود الكلمتين مترادفتين «**صعدوا ... وصعد أيضاً**»، إلا أن الزمن بينهما كبير وسيظهر ذلك من الشرح.

ثانيا: أما المسيح **فهو** لا يصعد أصلاً إلى العيد ليعيِّد أو يشارك في التعييد، إلاَّ أنه **صعد إلى أُورشليم** في هذا العيد ليكمِّل عملاً آخر غير العيد.

(٧) توجد مخطوطات كثيرة لم ترِد فيها هذه الإضافة بل وردت هكذا: «ولما كان إخوته قد صعدوا **إلى العيد** حينئذٍ...». أنظر: The Pulpit Commentary, p. 307.

ثالثاً: إن صعودهم كان في جماعة، أي صعود علني ترافقه التسابيح والزمر والطبل وأغصان النخيل، وهذا غير الصعود الذي كان يُضْمِره الرب أن لا يكون علنياً بل في الخفاء، ودون أن يأخذ تلاميذه معه، لأنه كان لا يريد إثارة الأوساط الرئاسية في أورشليم، كما أنه لم يكن مثل بقية المعيِّدين، بل صعد إلى أورشليم ليكمِّل رسالته ويسلم حياته. فهو لم يصعد للعيد ليقدم ذبائح بل صعد ليقدم ذبيحة نفسه. هذا هو المعنى بل المعاني المستترة وراء الكلمات التي تبدو متضاربة شكلاً فقط: «اصعدوا (إلى العيد) أنتم، **أنا لا أصعد بعد إلى هذا العيد** ولما صعدوا **صعد هو أيضاً**».

رابعاً: نفهم من الأناجيل الأخرى أن الرب لم يصعد مباشرة إلى أورشليم كما جاء في إنجيل القديس متى (١٩: ١): «ولما أكمل يسوع هذا الكلام **انتقل من الجليل وجاء إلى تخوم اليهودية من عبر الأُردن**»، أي عَبَرَ في إقليم بيريه. وكذلك كما جاء في إنجيل القديس مرقس (١٠: ١): «وقام من هناك وجاء إلى **تخوم اليهودية من عَبْر الأُردن** فاجتمع إليه جموع أيضاً، وكعادته كان أيضاً يعلمهم». وهذا يؤكد كلام الرب أنه فعلاً لم يكن مقصده أورشليم مباشرة لحضور العيد، إذ أمضى مدة طويلة في عبوره الأُردن في إقليم بيريه، ثم منها عبر ثانية إلى تخوم اليهودية ثم إلى أورشليم. وهذا يتوافق جداً مع إنجيل ق. يوحنا في موضع متقدم: «فطلبوا أيضاً أن يمسكوه فخرج من أيديهم ومضى أيضاً إلى عبر الأُردن إلى المكان الذي كان يوحنا يُعمِّد فيه أولاً ومكث هناك» (يو١٠: ٣٩و٤٠). وفي نهاية رحلته حطَّ الرحال في قرية بيت عنيا بجوار أورشليم لزيارة خاطفة لمرثا ومريم وأخيهم لعازر (قبل معجزة إقامته من الموت): «وفيما هم سائرون دخل قرية، فقَبِلَتْه امرأة اسمها مرثا في بيتها وكانت لهذه أختٌ تُدعَى مريم التي جلست عند قدميَّ يسوع وكانت تسمع كلامه» (لو١٠: ٣٨و٣٩). ومن قرية بيت عنيا دخل إلى أورشليم في منتصف العيد.

٧: ١١-١٤ **«فكان اليهودُ يطلُبُونَه في العيدِ ويقولُونَ أينَ ذاكَ. فكان في الجُمُوعِ مناجاةٌ كثيرةٌ من نحوِهِ. بعضُهُم يقولون إنه صالحٌ. وآخرونَ يقولونَ لا بل يُضِلُّ الشعبَ. ولكن لم يكُنْ أحدٌ يتكلَّمُ عنهُ جِهاراً لسببِ الخوفِ من اليهودِ. ولما كان العيدُ قد انتصَفَ صَعِدَ يسوعُ إلى الهيكلِ وكان يُعلِّمُ».**

واضح من هذا الكلام أن المسيح كان غائباً في الأيام الأُولى من العيد: **«أين ذاك»**، وواضح جداً أنه لم يظهر إلاَّ في منتصف العيد: «ولما كان العيد قد انتصف صعد يسوع».

«فكان "اليهود" يطلبونه في العيد ويقولون "أين ذاك"»:

كلمة «اليهود» هنا تشمل المُعَادِين له والأصدقاء، والمُعَادون هم الرؤساء والفريسيون الذين قاوموه بشدة، كما جاء في الأصحاح الخامس، وكان رده عليهم موبِّخاً عنيفاً فبلغت الخصومة أقصاها: «كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه. لا تظنوا أني أشكوكم إلى الآب. يوجد الذي يشكوكم وهو موسى الذي عليه رجاؤكم.» (يو٥: ٤٤و٤٥)

وهؤلاء كانوا يبحثون عنه في كل الجماعات القادمة من الجليل ــ على مستوى مباحث أمن الدولة ــ ولم يجدوه. وهكذا صحَّ فكر المسيح وقوله لإخوته: «اصعدوا أنتم إلى هذا العيد أنا لست أصعد بعد إلى هذا العيد» (يو٧: ٨)، لأنه تخلف عن الركب حتى لا يعطي أعداءه فرصة لتدبير المكائد.

«أين ذاك»:

تأتي كلمة «**ذاك**» ἐκεῖνος في قالب الإحتقار والحقد والتنمُّر، كما جاءت كلمة «كيف يقدر **هذا** أن يعطينا جسده لنأكل» (يو٦: ٥٢)، بمعنى الازدراء والتجاهل. وهذا يكشف مقدار ما بلغه الصدام من التربُّص به وانتظاره مدة ستة شهور منذ ترك أورشليم، لأن ضغينتهم لم تهدأ.

«وكان في الجموع مناجاة كثيرة من نحوه. بعضهم يقولون إنه صالح. وآخرون يقولون "لا" بل يضلُّ الشعب»:

كلمة «مناجاة» ترجمة ركيكة للأصل اليوناني γογγυσμός والتي تأتي بمعنى **لَغَطْ** وهي باللاتينية **murmur** (ويعرفها الأطباء كوصف لدقات القلب غير المنتظمة). واللغط هو بالنسبة للشعب أصواتٌ غير منسجمة أو متضاربة بين من يقول أنه صالح ἀγαθός أي طيب ومستقيم ولا عيب فيه، وهي صفة من صفات الله: «ليس أحدٌ صالحاً إلا واحدٌ وهو الله» (مت١٩: ١٧)، أوردها إنجيل يوحنا عن عَمْد ليعلن بها الإتجاه الإيماني الصحيح؛ والآخر **ينفي الصلاح عنه على أساس سياسي وناموسي: لأنه «يُضلُّ الشعب»**، سواء من جهة السبت أو من جهة إدِّعاء أنه المسيَّا. وهي نفس العلة التي قدمها رؤساء الكهنة ضده ليُصْلب (لو٢٣: ٢و١٤). ولكن بالرغم من ذلك لم يستطع الرؤساء هؤلاء أن يحركوا الشعب ضده، لأنه كان قد اكتسب ثقتهم: «وقالوا ليس في العيد لئلا يكون شَغَبٌ في الشعب.» (مت٢٦: ٥)

«لسبب الخوف من اليهود»:

اليهود هنا تتضح صفتهم، فهم ولاة الشعب سواء فريسيين أو كتبة أو كهنة. فبالرغم من أنهم لم يصدروا حكمهم عليه بعد، ولكن نيّاتهم كانت معروفة للشعب، لذلك كان الذين يساندونه بالرأي والفعل لا يجرؤون أن يُظهِروا ذلك جهاراً.

٢ ــ محادثات في منتصف عيد المظال: (٧: ١٤ــ٣٦).

تنقسم هذه التعاليم إلى ثلاثة أقسام بحسب الأشخاص الذين يسألون والرد عليهم.

أ ــ تعاليم موجّهة لليهود: (٧: ١٤ــ٢٤).

ب ــ تعاليم موجّهة إلى سكان أورشليم: (٧: ٢٥ــ٣١).

ج ــ تعاليم موجّهة إلى الخُدّام المُرسَلين من الفريسيين ورؤساء الكهنة: (٧: ٣٢ــ٣٦).

٧: ١٤ــ١٨ **«ولما كان العيدُ قد انتصَفَ صَعِدَ يسوعُ إلى الهيكلِ وكان يُعلِّمُ. فتعجَّبَ اليهودُ قائلينَ كيف هذا يعرفُ الكتبَ وهو لم يتعلَّمْ. أجابَهُم يسوعُ وقالَ تعليمي ليسَ لي بل للّذي أرسَلَني. إن شاءَ أحدٌ أن يعمَلَ مشيئتَهُ يعرفُ التعليمَ هل هو من الله أم أتكلَّمُ أنا من نفسِي. مَنْ يتكلَّمُ مِنْ نفسِهِ يطلُبُ مجدَ نفسِهِ. وأما مَنْ يطلُبُ مجدَ الذي أرسَلَهُ فهو صادِقٌ وليس فيه ظلمٌ».**

انتصاف العيد، أي في اليوم الرابع من بدايته، وواضح هنا بالتأكيد أن المسيح لم يحضر العيد من أوله بالفعل. كما أن ظهوره في منتصف العيد بعد أن أجهد الرؤساء أنفسهم في البحث عنه، يوضح ظهوره **المفاجىء** لهم. وهذا يقصده المسيح و يدركه ق. يوحنا جيداً ويحاول أن يُبرزه بصورة نبوية، فهذا تحقيق فعلي لقول ملاخي النبي: «هأنذا أُرسل ملاكي فيهيىء الطريق **أمامي. ويأتي "بغتة" إلى هيكله السيد الذي تطلبونه**... ومَنْ **يحتمل** يوم مجيئه ومَنْ **يثبت** عند ظهوره لأنه مثل نار.» (مل٣: ١و٢)

والعجيب حقاً أن زكريا النبي يصف ذلك اليوم الذي فيه يتغير كل شيء بمجيء الرب أنه يكون عيد المظال بعينه!! «و يكون أن كل الباقي من "**جميع الأمم**" الذين جاءوا على أورشليم يصعدون من سنة إلى سنة **ليسجدوا للملك رب الجنود وليعيّدوا عيد المظال**» (زك١٤: ١٦). وحينما قدّم إخوة الرب النصيحة ــ دون أن يقصدوا الحق ــ كانت نبوة دهرية دون أن يدركوها أو يحترموها: «أظهِرْ ذاتك "**للعالم**"»، وتأتي مُحكمة على نبوة زكريا السابقة أن ذلك يكون في

عيد المظال. وهي رنين مبدع مسموع للنبوة التي قدمها سمعان الشيخ: «الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام لأن عيني قد **أبصرتا خلاصك** الذي أعددته قدام وجه **"جميع الشعوب"** (يهود الشتات من كافة أقطار وشعوب الأرض) **نور إعلان للأمم ومجداً لشعبك إسرائيل.**» (لو٢: ٢٩و٣٠)

ولاحظ أن الرب في هذا العيد وقف وقال: **«أنا هو نور العالم»** كما سيأتي (٨: ١٢). كما سيتكلم في هذا الأصحاح أيضاً عن الحياة والنور، فيأتي الكلام موقَّعاً توقيعاً صادقاً على ما جاء في مقدمة الإنجيل: «فيه كانت **الحياة** والحياة كانت **نور** الناس.» (يو١: ٤)

أ ـــ تعاليم موجهة لليهود: (٧: ١٤ـــ٢٤).

وتنحصر في:
مصدر رسالته (١٦ـــ١٨)؛
في دحض الشرح الخاطىء للناموس (٧ـــ١٩)؛
وضد روح وتاريخ الناموس (٢٠ـــ٢٤).

مصدر رسالته:

٧: ١٥ **«فتعجَّبَ اليهودُ قائلينَ كيف هذا يعرف الكتبَ وهو لم يتعلَّم».**

«كيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلَّم»:
واضح هنا أن الكتب تعني الأسفار المقدسة، وكلمة **«يتعلم»** تفيد التلمذة للربيين ودراسة اللغة، ولكن المقصود طريقة التعليم بسلطان والشرح والحوار وضرب الأمثال والإقناع! فهي التي أذْهَلَت كلَّ مَنْ سمعه حتى أعداءه. فنقرأ في كلٍّ من إنجيل مرقس وإنجيل متى وإنجيل لوقا:
«وللوقت دخل المجمع في السبت وصار يُعلِّم. **فبُهتوا مِنْ تعليمه، لأنه كان يعلِّمهم كمَنْ له سلطان وليس كالكتبة.**» (مر١: ٢١و٢٢، قارن متى ٧: ٨)

«ولما كان السبت ابتدأ يعلِّم في المجمع. وكثيرون إذ سمعوا، **بُهتوا قائلين: مِنْ أين لهذا هذه. وما هذه الحكمة التي أُعطيت له...**» (مر٦: ٢، قارن متى ١٣: ٥٤)

«وكان الجميع يشهدون له **ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه.**» (لو٤: ٢٢)

ولكن أصعب من كل ما يمكن تصوُّره في التعليم اليهودي هو الدخول في دقائق الناموس وشرحه. وهذا هو ما أراد ق. يوحنا تقديمه من جهة قدرة المسيح الفائقة على ذلك، و يقصد بذلك قصداً أن يكشف المصدر الإلهي في المسيح.

ومعروف أن أي ناموسيٍّ لا تُقبل شهادته أو شرحه للناموس إلاَّ إذا أعلن عن الشخص الذي تلقى عنه المعلومة المطروحة للكلام، والذي يتحتم أن يكون «ربّي» أي معلم سنهدريي رسمي ومُعتَرَف به. و يلاحِظ القارىء أن الرب يسوع استخدم نفس الأسلوب الناموسي رداً على اندهاش الذين سمعوا تعليمه، والذي لا بد أنه كان تعليماً عن الناموس:

٧:١٦ **«أجابهم يسوعُ وقالَ: تعليمي ليسَ لي بل للّذي أرسَلَني».**

«تعليمي ليس لي (ليس مني) بل للذي أرسلني»:
أي مستمدٌ من الله رأساً. فالكلام والتعاليم التي أقولها منسوبةٌ، ليس لمعلّم ولا لربّي أو ناموسي، بل منسوبة إلى صاحبها وهو الآب الذي أرسلني! هذا رد قاطع ومُفحِم.

٧:١٧ **«إن شاءَ أحدٌ أنْ يعمَلَ مشيئتهُ يعرف التعليمَ هل هو من الله أم أتكلّمُ أنا من نفسي».**

هنا المسيح يطرح أمام سامعيه الوسيلة للتحقُّق من المصدر الإلهي لتعليمه، ليتأكد أنه تعليم الله وليس تعليم «ربّي» أو حتى تعليم المسيح. فهو يقول أن الطريقة الوحيدة هي طريقة عملية أخلاقية توافقية. فإذا استطاع إنسان أن يتوافق مع مشيئة الله، أي أن يكون فكره وسلوكه بحسب مشيئة الله، فإنه يدرك في الحال ما أقوله أنا إن كان هو كلام الله، وإن كان يوضح مشيئة الله، أم أتكلم أنا من نفسي. وبمعنى آخر أيضاً، فإن الإنسان الذي يؤمن حقاً أن المسيح قد أتى من الآب يكون هو الإنسان الذي شاء و يشاء أن يعمل و يعرف مشيئة الآب. وهذا هو الأسلوب المحبّب للمسيح وهو الأسلوب العملي جداً والبسيط للغاية المطروح أمام كل إنسان دائماً أبداً: ونبسطه أمام القارىء في أربع كلمات:

آمنْ بالرب، **تستعلنْ** أسراره؛
تعالَ ليسوع، **تكتشفْ** الله؛
اخضعْ لمشيئته، **تُدركْ** مشيئته.

والعكس مستحيل المستحيل. فالفحص والدراسة والتحليل لا توصل إلى الحقيقة الإلهية الكائنة في أقوال المسيح وتعاليمه. فلو كان المسيح يتكلم من نفسه و يعلّم من نفسه و بسلطانه الشخصي، لكان من الممكن إخضاع كل أقواله وتعاليمه للفحص العقلي والنقد لكشف محتواها حسب الثوابت الأدبية. ولكن الحقيقة المذهلة أن كل كلام المسيح، وكل تعاليمه، ليست له ولا منه ولكنها من الله الآب ولله الآب؛ وأصبح التسليم لها حتمية روحية كلية.

١٨:٧ **«مَنْ يتكلَّمُ مِنْ نفسهِ يطلبُ مجدَ نفسهِ؛ وأمّا مَنْ يطلبُ مجدَ الذي أرسلهُ، فهو صادقٌ وليس فيه ظلمٌ».**

المسيح هنا يثبت أنه مرتبط بالمصدر الذي يقول و يعلّم لحسابه. فلو كان تعليمه هو حصيلة فكره ودراسته الخاصة، لكان يطلب ثمنه شهرة أو مجداً لنفسه. ولكن الآن لا يطلب لنفسه شيئاً، لا شهرةً ولا مجداً ولا أتعاباً خاصة، ولكنه يطلب مجد الله أبيه الذي أرسله فقط. إذن، فلأنه أخرج نفسه من التأثير الشخصي في عملية التعليم وأصبح التعليم كله خاصاً بالله، يكون التعليم إلهياً مائة بالمائة، وحقاً وصدقاً وليس فيه أي ابتزاز، و يكون المسيح صادقاً وعادلاً في كل ما يقول، وليس ظالماً كما يفترون.

نفهم من هذا بالنسبة لأنفسنا، أن طلب المجد الشخصي والسعي إليه يثبتان تزييف التعليم وابتزاز مجد الآخر وهو الله. كذلك فإن صدق التعليم الإلهي وصدق المُعلم الذي من الله يتوقفان على لمن يطلبُ المعلمُ المجدَ: لنفسه أم لله؟ والرب سبق وو بخ الفريسيين، وهم معلمو الشعب: **«كيفَ تقدرونَ أنْ تُؤمنوا وأنتم تقبلونَ مجداً بعضُكُمْ مِنْ بعضٍ؟»** (يو٥ : ٤٤). الرب هنا أخرج الفريسيين ليس من دائرة التعليم الصحيح فحسب، بل ومن دائرة الإيمان بالله، لأن الإيمان بالله يتوقف بالدرجة الأُولى على تمجيد الله.

والرب هنا في الآية: **«مَنْ يتكلم مِنْ نفسه يطلب مجد نفسه»**، يطبّق نفس المبدأ على نفسه على نمط ما وجّهه إلى الفريسيين. ثم يعود يوجه التعليم الصحيح إلى غايته الصحيحة: **«أما مَنْ يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق وليس فيه ظلمٌ (أي عادل)»**.

و يلاحظ الدارس المدقق أن هذا المبدأ ينطبق تماماً على قول القديس بولس: «لكنه **أخلى نفسه**» (في٢ : ٧). فالمسيح أخلى نفسه من المجد وطلب المجد: «مجداً مِنَ الناسِ لستُ أقبلُ» (يو٥ : ٤١)، بل ومن الكرامة أيضاً كما رأيناه في غسل أرجل تلاميذه كعبد: «أجابَ يسوعُ: أنا

ليسَ بي شيطانٌ لكني أُكرِمُ أبي وأنتم تُهينونني. أنا لستُ أطلبُ مجدي، يوجدُ مَنْ يطلبُ و يَدينُ» (يو٨: ٤٩ و٥٠). وذلك كله لحساب مجد وكرامة الآب الذي أرسله!! والنتيجة أن الآب ردَّ له المجد مجدين، إذ ردَّ عليه الآب بصوت مسموع من السماء علناً: «**مجّدتُ وأُمجّدُ** أيضاً» (يو١٢: ٢٨). فالذي أخلى نفسه من المجد، عاد إليه المجد مضاعفاً: مجدٌ في الأرض ومجدٌ في السماء! ولكن الذي يطلب و يأخذ مجداً من الناس وهو أصلاً لحساب مجد الله، فإنه بتعبير الإنجيل **ظالمٌ ومبتزٌ**. اسمع ما يقول الرب بشأنه: «لا تظنوا أني أشكوكم إلى الآب، يوجد الذي يشكوكم.» (يو٥: ٤٥)

١٩:٧ «أليسَ مُوسى قد أعطاكُم النَّامُوسَ وليسَ أحدٌ منكم يعمَلُ الناموسَ. لماذا تطلبونَ أنْ تقتُلوني؟».

المسيح هنا ينقل التعليم نقلة خطيرة، فهو يهاجم الفريسيين على أرضهم المزعومة وفي بيتهم الذي جعلوه مغارة لصوص: يهاجمهم في أمانتهم للناموس بل وفي معرفتهم له بل وفي عملهم به. و يهاجمهم داخل الهيكل وليس في الخفاء أو في زاو ية!! ولكن على أي أساس يهاجمهم؟

الكلام هنا متصل اتصالاً وثيقاً بما قبله، وليس كما يظن خطأً علماء الكتاب أنه متصل بالأصحاح الخامس، حيث يدّعون أنه نقل وتغيير في ترتيب الأصحاحات. لقد قال الرب في الآيات السابقة: «تعليمي ليسَ لي بلْ للذي أرسلني. إن شاءَ أحدٌ أن **يعمل مشيئتهُ، يعرف** التعليم هل هو مِنَ الله أمْ أتكلَّمُ أنا مِنْ نفسي» (يو٧: ١٦و١٧). فهو يبني على هذا الكلام أنهم **لا يعملون مشيئة الآب** لأنهم لم يعرفوا تعليم المسيح أنه من الله. هذا أولاً، أما ثانياً، فلأنهم على خلاف ناموس موسى وقواعده وأصوله **يريدون أن يقتلوه،** مع أنه جاء ليُكمّل الناموس. وهكذا بينما هم يتهمونه بكسر السبت بدون حق، ها هو الآن يقيم عليهم الدعوى أنهم لا يكسرون الناموس فحسب، بل و يعملون ضده بمحاولة قتله مع أنه يعمل مشيئة الله.

و يلاحظ القارىء أن في الأصحاح الخامس ينتهي المسيح إلى إقامة الدعوى ضدهم أيضاً على أساس الناموس، ويجعل الناموس نفسه قاضياً وديّاناً وشاكياً ضدهم، على أساس أنهم لا يقرأون الناموس قراءة صحيحة واعية، وإلاَّ كانوا قد عرفوا منها أنها تشهد له، إذ قال لهم: «فتشوا الكتب» (يو٥: ٣٩)، وأيضاً على أساس أنه ليس لهم محبة الله فيهم، لأنه وهو ابن محبة الله رفضوه ولم يقبلوه مع أنه جاء باسم أبيه ولم يجيء إليهم باسم نفسه!! ثم أضاف على الدعوى ضدهم في الأصحاح الخامس شكوى ثقيلة للغاية، إذ اتهمهم بأن ليس لهم إيمان بالله، لأن مجد الله أنكروه

وطلبوا مجد أنفسهم و بدأوا يطلبون مجد الناس بعضهم من بعض.

أما هنا، في الأصحاح السابع، فالدعوى قائمة عليهم على أساس التعليم نفسه وذلك بشهادتهم هم: «**كيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلم؟**»، فبالرغم من اعترافهم بمعرفته المدهشة بالكتب، وقدرته ذات السلطان في التعليم وليس كالكتبة والفريسيين ــ وطبعاً هذا يعود على أن تعليم الكتبة والفريسيين قائمٌ على ناموس موسى، أما تعليم المسيح فهو من المصدر الأعلى من الناموس أي الله نفسه، كما أن تعليم المسيح جاء ليكمل كل تعاليم سابقة و يصححها ــ فبالرغم من اعترافهم هذا إلاَّ أنهم بسبب أن المسيح لا يمتُّ إلى مدارسهم ومُعلِّميهم، اعتبروه أنه يُضلُّ الشعب، مع أن تعليمه من الله. ولو كانوا «**يعملون الناموس**»، أو بمعنى آخر لو كانوا يقيسون التعليم الذي يُعلِّم به المسيح على الناموس، لأدركوا مصدر التعليم أنه من الله. ولكنهم لأنهم «**لا يعملون الناموس**»، خرجوا عن مقياس الناموس، فانْعَمَت بصيرتهم وطلبوا أن يقتلوا الذي جاء ليُكمِّل لهم الناموس!

٧: ٢٠ ــ ٢٤ «**أجابَ الجمعُ وقالوا بكَ شيطانٌ، مَنْ يَطلُبُ أنْ يقتُلَكَ؟ أجابَ يسوعُ وقالَ لهُمْ عملاً واحداً عَمِلْتُ فتتعجَّبونَ جميعاً، لهذا أعطاكُم موسى الختانَ ــ ليس أنه مِنْ موسى بل من الآباءِ ــ ففي السَّبْتِ تَختِنُونَ الإنسانَ. فإنْ كانَ الإنسانُ يقبَلُ الختانَ في السَّبْتِ لئلا يُنْقَضَ ناموسُ موسى أفتسخطونَ عليَّ لأني شَفَيْتُ إنساناً كلَّهُ في السبتِ. لا تَحْكُموا حسبَ الظاهرِ بل احكُمُوا حُكْماً عادِلاً**».

حينما تَنْعَمي بصيرة الإنسان، يرى الأبيض أسوداً. فعكس الرؤيا الصحيحة للمسيح أنه ابن الله، رأوه وكأن به شيطان. والدليل على أن البصيرة قد انْعَمَتْ عند هؤلاء، أنهم كانوا قد رأوا بأعينهم كيف شفي مريض بيت حسدا المشلول وتعجبوا جميعهم من هذه الآية. إذن، فكان ينبغي أن تُقيَّم هذه الآية تقييماً صحيحاً، فهي عُملت في السبت، فكان ينبغي أن تُنسب لبركات الله في السبت كما تُنسب لبركات الناموس، هذا هو الحكم الصحيح. والرب أعطاهم جَوَاز عملِ الختان في يوم السبت (الختان يُعْمل إلزاماً في اليوم الثامن من الولادة ــ فاحتمال وقوعه في سبتٍ أمر وارد دائماً ــ فالختان يُعمَل أصلاً من أجل الصحة ــ أي الطهارة ــ وكلمة الشفاء الواردة باليونانية تفيد الصحة الجسدية ὑγιῆ التي تُنطق Hygie والتي جاءت منها الكلمة الإنجليزية Hygiene أي الصحة العامة، فإذا تطهر الإنسان في اليوم الثامن أصبح صحيحاً ومقبولاً في جماعة بني إسرائيل).

فإن كان الختان يُعمل أصلاً من أجل صحة الإنسان، فكم وكم بالحري أن يَشفي المسيح إنساناً كسيحاً مشلولاً ليصير صحيحاً، ليس في عضو واحد بل في كل أعضاء جسمه؟ وهنا يظهر المسيح أنه يعمل فعلاً مكمِّلاً للناموس، إذ جعل الإنسان كله طاهراً. وهذا في الحقيقة جزء لا يتجزأ من عملية الفداء، فلا ننسى إطلاقاً قول إشعياء النبي أننا بجلداته شُفينا وأنه حمل أمراضنا وأسقامنا عليه (إش٥٣: ٥و٤). فعملية الشفاء الروحي التي أجراها المسيح لنا أجراها من رصيد آلامه ودمه.

كما يظهر المسيح أنه يكرم السبت و يكمل بركاته، بأن عمل فيه أعمالاً لمجد الله وتكريم الإنسان. و يكفي كرامةً لهذه السبوت أن جعل السبت يوماً من أيام ابن الإنسان، بسبب أعمال الشفاء التي أكملها فيه.

ثم يعود المسيح لائماً هؤلاء، سواء كانوا فريسيين أو من العامة قائلاً: «لا تحكموا حسب الظاهر بل احكموا حكماً عادلاً». هنا لفتة من لفتات المسيح الخطيرة، إذ اعتبر أن الأعمال الطقسية والمراسيم والقوانين تحمل صورتين للحق الإلهي، صورة ظاهرية تُرى بالعين وصورة جوهرية حقيقية تُقاس على برّ الله أو حقّ الله. فالصورة الظاهرية نسبها المسيح للعين κατ' ὄψιν والصورة الجوهرية نسبها للحق أو البر δικαίαν κρίσιν . والخلط بينهما أو الاكتفاء بالظاهر، كفيل بأن يُضيِّع حق الله و يطمس معالم البرّ الإلهي. والنتيجة أنهم من أجل حفظ رسوم يوم السبت، رفضوا رب السبت وقرروا قتله.

ب ــ تعاليم موجهة إلى سكان أورشليم: (٧: ٢٥ــ ٣١).

٧: ٢٥ــ٢٧ **«فقالَ قومٌ مِنْ أهلِ أورشليمَ أليسَ هذا هوَ الذي يطلبونَ أنْ يقتلوهُ. وها هوَ يتكلَّمُ جِهاراً ولا يقولونَ لهُ شيئاً. ألعلَّ الرؤساءَ عَرَفوا يقيناً أنَّ هذا هو المسيحُ حقاً. ولكنَّ هذا نعلمُ مِنْ أينَ هوَ. وأمَّا المسيحُ فمتى جاءَ لا يعرِفُ أحدٌ مِنْ أينَ هو».**

يلزمنا هنا أن نفرق بين الأوساط التي يتكلم معها المسيح[٨]: اليهود ويمثلهم دائماً الفريسيون، والجموع وهم أهل الجليل وعامة الشعب، **وأهل أورشليم** وهم سكان العاصمة ولهم دائماً دراية

(٨) راجع المدخل ص٢٩٨.

بأحوال الرؤساء وسياساتهم ولكن لم يكونوا موافقين دائماً على أعمالهم.

وهنا يبرز هذا العنصر الذي كان واقفاً يراقب الحوار الذي استظهر فيه المسيح على خصومه من اليهود والجموع، الذين، في الحال، انحازوا لجانب المسيح نوعاً ما، وبدأوا يستنتجون من صمت اليهود أن خططهم لقتله غير لائقة. وتقدموا في استنتاجهم **خطوة أخرى: ألعل الرؤساء يتيقنون من صدق رسالته أنه المسيح؟**

ولكن العقبة التي وقفت إزاء تفكيرهم وتقريرهم عن صحة رسالة المسيح والتيقُّن من شخصه، هي أن المتداوَل بين عامة الشعب، متعلمين وغير متعلمين، وخاصة في الأوساط التي تمارس حضور التعليم في الهيكل والمجامع، كان أن المسيح حينما يأتي لا يعرف أحد من أين يأتي؛ وذلك من واقع الكتابات الرؤيوية(٩). ولكن كان معروفاً عن المسيح أنه من الجليل، ومن الناصرة، وأنه مولود في بيت لحم، وأن أباه (؟) وأمه معروفان لديهم وحتى إخوته وأخواته (؟).

وأيضاً يرد المسيح على ما كان يدور في قلوب هؤلاء الأُورشليميين وقد عرفه بإحساسه الإلهي:

٧: ٢٨ـــ٣١ **«فنادى يسوعُ وهوَيُعلّمُ في الهيكلِ قائلاً تعرِفونني وتعرفونَ مِنْ أينَ أنا ومِنْ نفسي لم آتِ بل الذي أرسلَني هو حقٌّ الذي أنتم لستم تعرفونهُ. أنا أعرفهُ لأني منهُ وهو أرسلني. فطلبوا أنْ يُمسِكُوهُ. ولمْ يُلقِ أحَدٌ يَداً عليهِ لأنَّ ساعتهُ لم تكن قد جاءت بعدُ. فآمَنَ بهِ كثيرونَ من الجمعِ وقالوا ألعلَّ المسيحَ متى جاء يعمَلُ آياتٍ أكثَرَ من هذه التي عَمِلَها هذا».**

لقد أدرك المسيح بإحساسه الإلهي ما كان يدور في قلوبهم، ووافق على أنهم يعرفونه ويعرفون من أين أتى، ولكن معرفتهم للأسف كانت أيضاً حسب الظاهر. والظاهر لا يحل محل الحق والجوهر، وإنما يشير إليه إشارة بليغة؛ فكونه «من الناصرة» إشارة ليست بسيطة، بل هي نبويَّة، وتفيد حقيقته، لو أنهم فتشوا الكتب. وكونه مولوداً في بيت لحم، هذه أيضاً إشارة نبوية تفيد حقيقته، لو أنهم فتشوا الكتب. وهكذا نرى أنه حتى الظاهر عجزوا عن أن يسيروا على هُداه ليدخلوا إلى الحقيقة المخفية تحته. لذلك جاهر المسيح بصوت عالٍ ـــ لأن كلمة «نادى» تأتي باليونانية ἔκραξεν وتفيد «الصراخ» أو «المناداة بصوت عالٍ»؛ وقال: «مِنْ نفسي لم آتِ، بل

(٩) راجع المدخل ص٩١. هذه الكتب المسماة أبوكريفا العهد القديم التي تعرض لهذا الموضوع هي سفر أخنوخ ٤٨: ٦ وسفر عزرا الرابع ١٣: ٥١.

الذي أرسلني هو حقٌّ الذي أنتم لستم تعرفونهُ». وهكذا بدأ المسيح يستعلن لهم ما هو تحت الظاهر، أي مِنْ أين أتى ومَنْ هو: أمورٌ تمتُّ إلى الحق الذي يفوق معرفتهم الناموسية، ويلزم أن يتقبَّلوها لتكمل معرفتهم. فـ«الحق» الذي أرسل المسيح لا يعرفه إلا المسيح، والمسيح يعرفه لأنه منه، أي أنه هو نفسه من الحق. والكلام كان واضحاً بالنسبة للسامعين إذ أدركوا أنه يتكلم عن الله، وأنه هو من الله، وأن الله هو الذي أرسله؛ لأنه قد سبق وأوضح ذلك مراراً. ولكن الجديد في الموضوع هو أن المسيح بذلك قد أخرس الذين يتماحكون بقولهم إن المسيح لما يأتي لا يعرف أحدٌ **من أين يأتي ولا مَنْ هو**. فهو الآن يقول لهم جهاراً وفي الهيكل إني أتيتُ من عند الله ــ من حيث لا يعرفون ــ وليس من الأرض أو البحر، وأنه هو ابن الله، وليس كما يظنون أنه ابن يوسف.

ولما فهموا أنهم في نظره لا يعرفون الله ولا يعرفون حتى الكتب، اغتاظوا وتحركوا و«طلبوا أن يمسكوه»، لأن انفعالهم كان على مستوى الهَوَس الناموسي. ويكمل الإنجيل أنهم لم يستطيعوا أن يلقوا عليه اليد لأن ذلك كان فوق طاقتهم الهزيلة، ولأنه ينبغي أنه هو الذي يسلِّم ذاته حسب التدبير الإلهي عندما تأتي الساعة!...

ولكن في الجانب الآخر كان قوم يسمعون ويميزون بين الحق والكذب وبين النور والظلمة. قوم رأوا في كل آية عملها المسيح برهاناً صادقاً على دعوته، ثم رأوا في العدد المهول من الآيات المعمولة تأكيداً على صدق دعوته. ويمكن أن ندعوهم مؤمني الآيات: «ألعلَّ المسيح **متى جاءَ** يعمل آيات أكثر من هذه التي عملها هذا؟». ونفهم من قولهم هذا أنهم كانوا يطبِّقون، في أفكارهم، بين المسيَّا الذي سمعوا عنه وعن أوصافه من المعلمين وبين يسوع الواقف أمامهم ووراءه هذه الآيات كلها!...

ج ــ تعاليم موجهة إلى الخدام المرسلين من الفريسيين ورؤساء الكهنة: (٧: ٣٢ــ٣٦).

٧: ٣٢ــ٣٦ **«سَمِعَ الفريسيُّونَ الجمعَ يتناجَوْنَ بهذا من نَحْوِهِ، فأرسلَ الفريسيُّونَ ورؤساءُ الكهنةِ خدَّاماً ليُمْسِكوه. فقالَ لهم يسوعُ: أنا معَكُمْ زماناً يسيراً بَعْدُ ثم أمْضي إلى الذي أرسَلَني. سَتَطلبونني ولا تَجِدُونَني، وحيثُ أكونُ أنا لا تقدِرُونَ أنتم أنْ تأتُوا. فقالَ اليهودُ فيما بينهم: إلى أينَ هذا مُزْمِعٌ أن يذهبَ حتى لا**

نَجِدَهُ نَحنُ. ألعلّهُ مُزْمِعٌ أنْ يذهَبَ إلى شَتَاتِ اليونانيينَ ويُعلِّمَ اليونانيينَ. ما هذا القولُ الذي قالَ سَتَطلبُونَني ولا تجِدُونَني وحيثُ أكونُ أنا لا تقدِرُونَ أنتم أن تأتوا».

الآن نحن ندخل المرحلة الثالثة من المحادثة:

كان حديث الشعب عن المسيح يُلتقط أولاً بأول ويُبلَّغ به مجمع السنهدريم الذي يضم كل الطبقات الدينية المسئولة، من فريسيين ورؤساء كهنة عاملين وغير عاملين. فبمجرد أن بلغ السنهدريم خبر إنحياز قطاع من الشعب لتعاليم المسيح، تشكَّلت لجنة في الحال، وأرسلت مجموعة من الخَدَم ــ وهم ضباط يأتمرون بأمر السنهدريم ــ لهم صفة رسمية تخوّل لهم القبض على الأشخاص.

رؤساء الكهنة:

وهذه الفئة تتشكل من الرؤساء السابقين: حنّان، والرئيس الحالي قيافا، ومَنْ يساعده مِنْ أبنائهم: أليعازار بن حنّان، وسمعان بن قمحيت، وإسماعيل بن قابي، وكذلك أعضاء أُخر من العائلات الرئاسية(١٠)، علماً بأن لقب رؤساء الكهنة لا يمتُّ للوظيفة الدينية بقدر ما يعني العمل السياسي ــ كما نسمع ذلك في سفر الأعمال: «وحدث في الغدِ أن رؤساءهم وشيوخهم وكتبتهم اجتَمَعُوا إلى أورشليمَ مع حنَّان رئيسِ الكهنةِ وقيافا ويوحنا والإسكندرِ وجميع الذين كانوا من عشيرة رؤساء الكهنة» (أع ٤: ٥و٦). وهذه التشكيلة هي صورة للسنهدريم συνέδριον ، وهو الهيئة العليا لمحكمة القضاء العالي، ومركزها أورشليم، والتي تشكلت لأداء عملها أثناء حكم الرومان وكان عليها تصريف الأمور، ولكن لم يكن في سلطتها إصدار حكم الموت على أحد. وكان من سياسة الرومان أن يساندوا سلطة السنهدريم.

والسنهدريم(١١): كان يتكون من ثلاث طبقات:

الأولى: رؤساء الكهنة العاملين وكل رؤساء الكهنة السابقين وبعض أبنائهم، وهي الهيئة الأرستقراطية في أورشليم، وكان مركز عملهم ورزقهم من الهيكل، ولم يكن لهم صلة كبيرة بالمجامع المحلية. وكانوا يلعبون بمصير الأمة اليهودية تحت ستار السلطة الدينية.

الثانية: الصدُّوقيون وكانوا يتسمون بالكهنة πρεσβύτεροι أو الشيوخ. ولم يكونوا كهنة

---

[10] Derenbourg, *Hist. de Palest.*, pp. 230f.

[11] ICC, Bernard, *op. cit.*, p. 277-8.

بالمعنى الديني ولكنهم كانوا دائماً ملتصقين برؤساء الكهنة، **ولهم صفة قضائية**. والكهنة ورؤساء الكهنة كانوا في عداء وصدام خفي مستمر مع الطبقة الثالثة.

الثالثة: وهم **«الفريسيون»** أو **«الكتبة»**، وهم ما يمكن أن **نسميهم طبقة المحامين** ويُسَمَّوْن باليونانية «الكتبة» γραμματεύς، أو «الناموسيون» νομικός (ولم يذكرهم بهذا الاسم ق. يوحنا في إنجيله)، وكانوا يُذكَرون تحت اسم «الفريسيين». وهؤلاء كانت لهم دراية دقيقة وواسعة بالناموس اليهودي والتقاليد المتعلقة به. وكانت وظيفتهم متابعة تطبيق الشريعة بتزمُّت يفوق حد الوصف. وكانت تدخلاتهم وسلطانهم متزايدين على المجامع المحلية وليس الهيكل؛ أي لم يكن لهم تدخُّل في مراسيم العبادة، وإنما الحفاظ على التقاليد وتعاليمها. لذلك كان صدامهم مع المسيح متواصلاً، وكانوا يندسُّون وسط الشعب ليديروا الحوار والأسئلة والإعتراضات، وكانوا يبلِّغون السنهدريم في الحال بأي انحراف عن أفكارهم المقفولة. وقد ورد ذكرهم تحت اسم الفريسيين: «فقال الفريسيون بعضهم لبعض: انظروا إنكم لا تنفعون شيئاً (لم يُحسنوا إحكام التضييق عليه وعلى تعاليمه) هوذا العالم قد ذهب وراءه.» (يو١٢: ١٩)

وقد انضم هؤلاء مع الصدوقيين (الكهنة) في عملية القبض على المسيح ومحاكمته، تحت اسم الفريسيين: «فأخذ يهوذا الجند وخُدَّاماً (ضباط) من عند رؤساء الكهنة **والفريسيين** وجاءوا إلى هناك بمشاعل ...» (يو١٨: ٣)

«فأرسل الفريسيون ورؤساء الكهنة»:

فالمحركون الأساسيون في هذه العملية هم الفريسيون. ولكن بدون أمر رسمي من رؤساء الكهنة لا يمكن تنفيذ أي حكم في السنهدريم. لذلك نجد أن أية حركة نحو تطبيق أية عملية يلزم أن يشترك فيها رؤساء الكهنة مع الفريسيين، كما يجيء في (٧: ٤٥، ١١: ٥٧)، حيث يكوِّنان معاً السلطة المنفذة للسنهدريم.

«فقال لهم يسوع أنا معكم زماناً يسيراً بعد، ثم أمضي إلى الذي أرسلني»:

المسيح هنا أمام ضباط السنهدريم الذين معهم أمر للقبض عليه، يخاطبهم الرب بصفتهم أنهم هم الذين سيقبضون عليه فعلاً بعد قليل (يوم الخميس). فما معنى التسرُّع **«وهو» ليس معه أمر (من الآب) بالتسليم؟**

الخدام الضباط وجدوا أنفسهم أمام سلطة ذات مستوى أرقى وأعلى لم يواجهوها من قبل، شلَّت

أيديهم وجمّدت أرجلهم. لم يكن سهلاً على أنفسهم ولا على **وظائفهم** أن يعودوا بدونه، ولكن كان سهلاً عليهم أن يفقدوا «**هذه**» و«**تلك**» ولا يمدُّوا أيديهم عليه!!! لم يكن الخوف وحده الذي أرْعَبَهم من الاقتراب إليه، ولكن كلامه كان فيه روح وحياة أنعشت نفوسهم المجدبة، ورفعت من أرواحهم فوق السنهدريم والقوانين والوظائف والحياة والموت. فعادوا فرحين لأنهم لم يقبضوا عليه، وليكنْ ما يكون ...

أما الزمان اليسير الذي حسبه الرب وقاسه: فكان ستة شهور ليأتي الفصح الأخير وليكمل الزمان ويُذبح المسيح فصحنا ...

«ثم أمضي إلى الذي أرسلني»:

كلمة «**أمضي**» هنا، وهي بمعنى مجرد الذهاب، تأتي مترادفة مع كلمتين بنفس المعنى ولكن بشرح آخر: «وإنْ **مضيتُ** وأعددت لكم مكاناً آتي أيضاً وآخذكم إليَّ ...» (يو١٤: ٣). والكلمة الثالثة: «إن **ذهبتُ** أرسله إليكم» (يو١٦: ٧). ويهمنا هنا أن نشرح الفرق بين هذه الثلاثة الأفعال المترادفة.

فالأُولى: «أمضي إلى الذي أرسلني» (٧: ٣٣). هنا المضي ὑπάγω تفيد عملاً شخصياً بمعنى «**الإنسحاب**». وقد أتت أيضاً في يو٨: ١٤: «وأعلم من أين أتيت وإلى أين **أذهب**» ὑπάγω. وفي الآية ١٣: ٣: «وأنه من عند الله خرج وإلى الله **يمضي**». وفي الآية ١٤: ٤: «وتعلمون حيث أنا **أذهب** وتعلمون الطريق». وفي الآية ١٦: ٥: «وأما الآن فأنا **ماضٍ** إلى الذي أرسلني». ويلاحظ هنا أن معنى المضي في اللغة اليونانية هو مجرد إنسحاب شخصي يفيد معناه فقط.

والثانية: وقد أتت في الآية ١٤: ٣: «وإن **مضيتُ** وأعددت لكم مكاناً ...» πορεύομαι. وفي الآية ٧: ٣٥: «ألعله مزمع أن **يذهب** إلى شتات اليونانيين ويُعلم هناك». وفي الآية ١٦: ٧: «ولكن إن **ذهبت** أرسله إليكم». وهنا ينصبُّ معنى «الذهاب» باللغة اليونانية على القصد منه، **فهو ذهاب ومضيٌّ له عمل وهدف. فيظهر الذهاب أنه مكمِّل لإرسالية لها غاية.**

والثالثة: وقد أتت في ١٦: ٧: «إنه خير لكم أن **أنطلق**» ἀπέρχομαι. وفي الآية ٦: ٦٨: «يا رب إلى من **نذهب** وكلام الحياة الأبدية عندك». وهنا الذهاب يأتي باللغة اليونانية بمعنى **الفراق فقط**. ومجرد الفراق هو الذي تشدد عليه الآية بالرغم من أن الفراق نفسه قد يُنشيء شيئاً آخر.

وقد اعتنينا بتوضيح هذه الفروقات لسبب واحد، وهو أن اللغة العربية تقف عاجزة في مواقف كثيرة عن أن تعبِّر عن المعنى بكلمة واحدة، فتأتي الكلمة غير كافية إطلاقاً لشرح المعنى كما رأينا. فالذهاب قد يكون لعمل ما، وقد يكون إنسحاباً، وقد يكون مجرد ذهاب فُرْقَة.

«أمضي إلى الذي أرسلني»:

لا يزال المسيح هنا يخاطب **الذين أرسلهم** السنهدريم، وهو يتكلم بنفس المشاعر التي تجول في قلوبهم فهو **مُرْسَل** كما هم **مُرْسَلون**، هم مرسلون من السنهدريم وهو مُرْسَلٌ من الله. والكلام واضح لهم ومؤثر للغاية. رسالتهم قبض ودينونة وعنف، هم كرهوها أشد الكُره، ولولا أكل العيش لتركوها. ورسالته وضحت أمامهم أنها للحب والسلام والفرح والشفاء والشكر. لقد خجلوا جداً من أنفسهم وعادوا يتحدثون بفضل الذي سمعوه.

«ستطلبونني ولا تجدونني وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا»:

بمجرد سماع هذه الآية يتوارد إلى الذهن قول الرب: «اطلبوا تجدوا» (مت٧: ٧). ولكن هنا للأسف سيطلبون ولا يجدون، ليس لفوات الوقت، ولكن لفوات الفهم والإدراك والتعرف على المُرْسَل والراسل. فهي فرصة حرجة للغاية لا تتكرر ولن تتكرر بالنسبة للذين رأوه وأنكروه، للذين سمعوه ورفضوه، للذين تحدث إليهم وابتسم في وجههم وأفاض من حبه عليهم، وفي النهاية رجعوا إلى الوراء ولم يعودوا يسيرون لا معه ولا خلفه. هؤلاء سيطلبونه بعد، ولكن لن يجدوه لأنه يكون قد أنهى رسالة النظر والسمع واللمس، ودخل في مجال مجد التجلي الأبدي حيث لا يُرى بعد بالعين بل بالإيمان ... سيذهب المسيح كعريس إلى خدره الأبدي السرّي، و يُغلَقُ الباب حينما تغرب شمس يوم الإفتقاد: «كم مرة أردت أن أجمع أولادك ... ولم تريدوا» (لو١٣: ٣٤). فإلى الذين قبلوه يقول: «تعالوا إليَّ»؛ وإلى الذين رفضوه يقول: «اذهبوا عني». إنها لحظات في عمر الإنسان تقرر مصيره الأبدي والذين تفوتهم ساعة الخلاص المعروضة دائماً **«الآن»**، يطلبونها بعد فلا يجدونها.

«... ألعله مزمع أن يذهب إلى شَتات اليونانيين ويُعلِّم اليونانيين»:

لقد بحَّ صوت المسيح إزاء آذان مسدودة. لقد سبق وردَّ في الآيات السابقة على **«من أين أتى»**، **«ومن هو»** التي كانت علّة التعرف عليه، وهم علموا أنه يقول عن الله مصدر كيانه ومصدر مجيئه. وهوذا الآن يكمِّل القول أنه ذاهب إلى الذي أرسله، ولكن إلى هناك لا يستطيع أحد أن يتبعه، وهو إن كان معهم الآن فهو إلى زمان قليل للغاية ... ولكن طاشت عقولهم في جغرافية الأرض وإلى أماكن التمشي فيها واستقرت في مواضع اليونانيين. أليس أنه مولود في الناصرة أو بيت لحم وأبوه وأمه عندنا ... فعساه قد قرر أن يغيّر المواضع والأوطان، إن كان قد عزَّ عليه العودة

إلى الجليل. إلى هذا الحد الضيِّق الغريب انتهت أفكارهم وتأملاتهم وانتهى ذكاؤهم الأحمق. ولكن شيئاً واحداً صادقاً ظل لاصقاً بعقولهم هو أنه ذاهبٌ، لا خوفاً منهم، ولكن رغبة في التعليم، فهو لا يزال في مخيلتهم أنه هو هو «المعلم»، حيث يعلِّم هناك شتات اليهود. ولهذا الأمر ارتاحت جداً عقول ضباط السنهدريم، فهو وإن كان سيكون نوراً للأمم هناك فهو لا يزال يطلب مجد إسرائيل. على قدر هذا تنبأوا وهم لا يدرون ... ولكن بقي السؤال محيراً لعقولهم: ما هذا القول الذي قال، ستطلبونني ولا تجدونني وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا؟ وكان على المسيح أن يضع هذا في قلبه ليوضحه لنا شيئاً فشيئاً.

٣ ــ محادثات اليوم الأخير من العيد: (٧: ٣٧ــ٥٣).

٧: ٣٧ــ٣٩ **«وفي اليومِ الأخيرِ العظيمِ من العيدِ وقفَ يسوعُ ونادَى قائلاً إنْ عَطِشَ أحدٌ فليُقبِلْ إليَّ ويشربْ. مَنْ آمنَ بي كما قالَ الكتابُ تَجْرِي مِنْ بطنِهِ أنهارُ ماءٍ حيٍّ. قالَ هذا عن الروحِ الذي كانَ المؤمنونَ بِهِ مزمعينَ أنْ يَقْبَلُوهُ، لأن يسوعَ لمْ يَكُنْ قَدْ مُجِّدَ بَعْدُ».** (١٢)

«وفي اليوم الأخير العظيم من العيد»:

كان العيد سبعة أيام يعيشونها في مظال من فروع الشجر التي تمثل التيه أربعين سنة في المظال في البرية (أنظر شرح الآية ٧: ٢)، أما اليوم الثامن فكان يُعامَلُ كأيام السبوت، فكانت له كرامة السبت، لذلك سُمِّيَ باليوم الكبير أو العظيم، ويمثل عندهم في الذكرى يوم الوصول إلى أرض كنعان. والآن في زماننا هذا يعيِّد اليهود له عيداً خاصاً يُسمونه «الهَنوكة» أو عيد الأنوار، وهو يلي عيد الشكر عند الأمريكان. ويُعيِّدون له بإنارة المنارة ذات الشُعَبِ الثماني، حيث تبقى الشعبة الثامنة لتُنار في هذا اليوم.

وفي كل يوم من الأيام السبعة ــ حسب ما سبق ووصفنا ــ كان رئيس الكهنة يذهب باحتفال خاص إلى بركة سلوام ويملأ جرة من الذهب ماءً يصبُّها على مذبح النحاس وقت ذبيحة الصباح، حيث تجري المياه في مجرى خاص من الفضة لتصبَّ في وادي قدرون. وأثناء ذلك يسبحون تسبحة إشعياء النبي مع المزامير (أنظر شرح الآية يو٧: ٢).

---

(١٢) هذا الفصل (٧: ٣٧ــ٥٣) يُقرأ في صلاة عشية عيد الخمسين.
وأيضاً في قداس الجمعة السابعة من الخمسين وهي السابقة مباشرة لعيد الخمسين.

أما في اليوم الثامن فتتوقف هذه العملية حيث يُمنع العمل فيه. وقد وجد الرب أن هذه هي المناسبة الوحيدة حيث وقف ــ و يبدو أنه وقف على مكان عالٍ ــ ونادى قائلاً:

«إنْ عَطِشَ أحدٌ فَلْيُقْبِلْ إليَّ»:

إن طقس حمل الماء وصبَّه على المذبح كان يُمثل خروج الماء من الصخرة في البرية التي شرب منها الشعب(١٣). و بولس الرسول رأى أن هذه الصخرة التي كانت تتبعهم هي المسيح. ولم يكن استدلاله على ذلك من عنده، ولكنه أدرك ذلك بالروح، من موقف الرب في هذا اليوم الثامن بالذات من العيد ليقول، عِوَض ماء الصخرة: «إنْ عَطِشَ أحدٌ فَلْيُقْبِلْ إليَّ ويشربْ». وطبعاً، سبقت السامريةُ أهلَ أورشليم في شُرْبها من هذا الماء الحي عوض ماء بئر سوخار.

كما سبق أن علَّم المسيح بذلك في يو٦: ٣٥ في المناسبة التي أوضح فيها **أنه هو المنُّ الحقيقي، خبزُ الحياة،** جسدُه الذي سيبذله من أجل حياة العالم، ليأكل المؤمنون ولا يموتون بل يحيون إلى الأبد: «فقال لهم يسوع أنا هو خبز الحياة. مَنْ يُقْبِلْ إليَّ فلا يجوع، ومَنْ يؤمن بي **فلا يعطش أبداً**»، أي أنه هو المنُّ، وهو الصخرة في برية العالم، للأكل الحقيقي والشُرْب الحقيقي. لقد أخذ على عاتقه أن يعولنا في برية هذا العالم حتى نصل إلى الوطن السمائي الدائم بخبزه السرِّي للغاية ومائه السرِّي لأقصى غاية. فالإرتواءُ منه للقلب العَطِشْ لا يبقى إرتواءً وحسب ولكنه يحوِّل الصخرَ إلى نهرٍ، فيصير ينبوعَ إرتواءٍ للآخرين. شيء يفوق عقل العطشان!! أما السر في ذلك فلأن **الإيمان** بالمسيح، الذي هو مصدر الإرتواء، يأتي بالإتحاد بالرب. فالربُّ، حينما نشرب من ملئه، يصير فينا كما هو ينبوعَ إرتواءٍ للآخرين. نفتح فمنا والروح يتكلم، ونتكلم والروح يعلِّم، ونعلِّم والروح يعمِّد، ونعمِّد والمسيح يخلق إنساناً جديداً على صورة خالقه في القداسة والمجد. لقد ذهب زمان الحَبَلِ بالأنين والولادة بالوَجَع. فبطن الإنسان، عِوَض أن كانت مقرَّ الخطيئة والموت، صارت عرشاً لله والروح. وعِوَض أن كانت تحبل بالخطية وتلد بالألم والدموع، صارت تحبل بالروح لتجري منها أنهار ماء و ينابيع الفرح للحياة ... والإنسان الذي كان يأكل من تراب الأرض بعرق جبينه ويمزج لقمته بدموعه، صار يأكل خبز الله النازل من السماء و يغمس لقمته في دم ابن الله.

«مَنْ آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي»:

الكتاب هنا يعود بالسامع والقارىء إلى قصة الصخرة في البرية التي عليها سيبني المسيح كنيسته ويخلق منها الإنسان الجديد على صورته، وهي نفس قراءات مراسيم الهيكل في عيد المظال.

---

(١٣) راجع المدخل ص٢٧٦.

إذ يقرأون فصلاً من سفر الخروج: «ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة في حوريب فتضرب الصخرة **فيخرج منها ماء ليشربَ الشعب**» (خر١٧: ٦). وهكذا لم تعد الصخرةُ صخرةً، بل **ينبوعَ سَقي!**

كما يقرأون فصلاً من سفر العدد: «ورفع موسى يده وضرب الصخرة بعصاه مرتين، **فخرج ماءٌ غزير، فشربت الجماعة** ومواشيها» (عدد٢٠: ١١)، وهنا الصخرة لم تعد صخرة، بل **نهراً يفيض.**

ثم يقرأون فصلاً من سفر التثنية: «**الذي أخرج لك الماء من الصخرة الصوَّان**» (تث٨: ١٥)؛ ومن سفر المزامير: «**المحوِّل الصخرة إلى جداول مياه، الصوَّان إلى ينابيع مياه**» (مز١١٤: ٨)، وهنا الصخرة تتحول إلى جداولَ و ينابيعَ.

وهكذا فليس مثلَ الخاطىء الذي نشفت روحه وجفت مشاعره نحو الله إلاّ الصخرةُ الصوان.

وليس الذي آمن بالمسيح إلاّ هذه الصخرةُ عينها، حينما يمسُّها روح الله لتخرج منها أنهارٌ و ينابيعُ وجداولُ. وسِرُّ الماء والإرتواء يظل هو المسيح وحده!...

وهكذا يستعلن المسيح نفسه في الصخرة، ثم يستعلن عمله في النفس البشرية، مؤكداً أنه هو وحده الذي فيه ومنه الروح والحياة قديماً وجديداً.

«قالَ هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزمعينَ أن يقبلوه. لأن الروح القدس لم يكُنْ قد أُعطي بعدُ، لأن يسوع لم يكُنْ قد مجِّد بعد»:

هنا يتدخل ق. يوحنا لكي ـــ من خبرته الخاصة ومن مجرى الأيام والحوادث ـــ يشرح ما التبس في قول المسيح في حينه، إذ كيف تخرج من بطن الإنسان، إذا آمن بالمسيح، أنهارُ ماءٍ حيٍّ والكتاب لم يذكر شيئاً مثل هذا بالنسبة للماء؟ فهذا ظلَّ في الحقيقة أُحجية ولغزاً، إلى أن حلَّ الروح القدس بعد الصليب والقيامة وانسكب على التلاميذ، فشعروا كيف ينسكب الروح عليهم كالماء ويفيض الروح من قلوبهم وأفواههم كأنهار.

وهنا يتضح قول إشعياء: «لأني أسكب ماءً على العطشان، وسيولاً على اليابسة، **أسكب روحي على نسلك** و بركتي على ذُرِّيتك.» (إش٤٤: ٣)

ونبوة يوئيل: «و يكون بعد ذلك أني **أسكب روحي على كل بشر**، فيتنبأ بنوكم و بناتكم،

ويحلم شيوخكم أحلاماً، و يرى شبابكم رؤى، وعلى العبيد أيضاً وعلى الإماء **أسكب روحي في تلك الأيام**» (يوئيل٢: ٢٨و٢٩)؛ حيث «**السكْب**» صفة تختص بالماء. وهو هنا يصف بها عطية الروح القدس.

وإشعياء النبي يصف الماء الذي نبع من الصخرة على هذا المستوى من عمل الروح: «قولوا قد فدى الرب عبده يعقوب ولم يعطشوا في القفار التي سيَّرهم فيها. **أجرى لهم من الصخرة ماءً وشقّ الصخرة ففاضت المياه**» (إش٤٨: ٢٠و٢١). وهكذا، كما فاضت المياه من بطن الصخرة، هكذا فاض الروح القدس من بطن الذين شربوا من نعمة المسيح، ولم يتوقف فيضانهم، فصار كنهرٍ جارٍ، جرى هذه السنين كلها ولم يتوقف حتى جرفنا تياره نحن أيضاً في أواخر الدهور.

«لأن الرُّوح القدس لم يكُنْ قد أُعطِي بعد، لأن يسوعَ لم يكُنْ قد مجِّد بعدُ»:

نعلم أن انسكاب الروح القدس هو عطية الآب حسب وعد الآب (أع١: ٤)، حتى إن الروح القدس سُمِّي «**روح الموعد**» (أف١: ١٣). وقد ارتبط موعد انسكاب الروح بصعود المسيح وانطلاقه إلى الآب: «إن لم أنطلقْ لا يأتيكم المُعزِّي» (يو١٦: ٧)، فطالما بقي المسيح على الأرض على المستوى الزمني تعطل انسكاب الروح.

أما تمجيد المسيح فهو اصطلاح وضعه ق. يوحنا ليشمل النصرة على الصليب والموت والنصرة على العالم وتكميل العمل الخلاصي الذي آل إلى المجد.

أما مجد الصليب والموت فواضح من قول الرب: «**الآن تمجّد ابن الإنسان**» (يو١٣: ٣١)، عند أول خطوة في تقرير الموت على الصليب، لحظة خيانة يهوذا.

وأما النصرة على العالم فواضحة من قول المسيح: «الآن دينونة هذا العالم الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً» (يو١٢: ٣١)، وذلك في لحظة سماع صوت الآب: «مجدت وأمجد أيضاً.» (يو١٢: ٢٨)

وأما عن تكميل العمل الخلاصي فواضح من قول الرب في صلاته للآب: «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملتهُ، والآن مجّدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كَوْنِ العالم.» (يو١٧: ٤و٥)

أما مجد الصعود والعودة إلى الآب، فواضح من قول الرب: «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا، لينظروا مجدي الذي أعطيتني.» (يو١٧: ٢٤)

فكل خطوات ودرجات المجد جمعها ق. يوحنا في قول واحد: «لم يكن قد مُجِّد بعد». وهذا يقيِّم لاهوتياً على أعلى مستوى، إذ نرى أعمال المسيح متحدة في وحدة المجد الواحد. فالقديس يوحنا، بهذا القول الواحد الذي تبرهنه جميع أقوال الرب، يجعل أعمال المسيح الاستعلانية في الموت والقيامة والصعود وحدة مطلقة في المجد ليس فيها ما هو أقل من المجد، الذي تُصوِّره آلامه وتذللاته: «ظُـلِمَ أما هو فتذلَّل» (إش٥٣: ٧)، وقبوله الموت كخاطىء، وما هو ممجَّد الذي تصوِّره القيامة، وما هو على مستوى المجد الأسنى في أعلى السموات. بل إن ق. يوحنا يقرر، في واقعية مذهلة، أن جميع صور الآلام والصليب تقف في قوة مجدها وكرامتها على مستوى مجد الجلوس عن يمين الآب سواءً بسواء.

ولتوضيح ق. يوحنا لكلام المسيح وزن عالٍ جداً، فكلام المسيح: «من آمن بي تجري من بطنه أنهار ماء حي»، هو في ذاته وعد معطَّل، لأن المسيح لم يكن قد صُلب وقام وانطلق إلى الآب، ولم يكن قد انسكب الروح القدس بعد؛ مما جعل وعد المسيح غير المحقَّق موضع سؤال محيِّر، لولا تدخُّل ق. يوحنا بالشرح. فهو تدخُّل إلهامي أنقذ حيرتنا، لأن التلاميذ على سبيل المثال ظلوا عطاشى و بلا أنهار تفيض منهم حتى وإلى ما بعد القيامة. ولكن هناك، في يوم الخمسين، بدأ قول المسيح يتحقق ويُفهم.

وق. يوحنا يتدخل، لا ليشرح ما غمض من كلام المسيح، بل ليثبت صدق قول الرب بالدرجة الأولى.

«الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد»:

وهذا القول في ذاته أيضاً مُحيِّر، لأن في الأصل اليوناني في معظم المخطوطات لا توجد كلمة «أُعطي» فهي مُضافة. فكيف أن الروح لم يكن بعد، مع أن الروح عاملٌ في الخليقة وفي التجسد وفي كلام الرب وأقواله وجميع أعماله؟ الحقيقة هنا تختص بنا نحن، بالبشرية التي لم تكن مُهيَّأة بعد أن تتقبَّل الروح القدس وعطاياه إلاّ بعد أن دخل المسيح إلى الأقداس العليا فوجد لنا فداءً أبدياً(١٤). فالبشرية انتقلت تَنقُّلات متلاحقة في شخص المسيح و بشريته من تجسُّد، لموت، لقيامةٍ، لصعودٍ، وهي تترقى معه وفيه، ولكنها لم تبلغ كمال استحقاقها لتكون في شركة حقيقية مقدسة مع الله والمسيح إلاَّ بعد أن تراءى المسيح أمام الآب، وهو لابسٌ بشريتنا، وجروحُه فيه كَحَمَلٍ أُكملت ذبيحته، فكَمُلَ بذلك فداء الإنسان وتصالُحه مع الآب. لذلك ظل الروح القدس معطَّلاً

(١٤) راجع المدخل ص٢٨٤ـــ٢٨٥.

عن انسكابه على الإنسان، حتى أكمل المسيح في نفسه المصالحة النهائية مع الآب، واستعاد الابن كلَّ مجد الله كابن، فانفتح الطريق المُغْلَق والمحروس بلهيب نار الشاروبيم إلى قلب الآب ونعمته، فصار دخولنا إلى الآب بلا مانع. عندئذ انسكب الروح القدس ليعطينا كل ما اكتسبه المسيح لحسابنا: «يأخذ مما لي ويخبركم.» (يو١٦: ١٤)

وبذلك يلزمنا أن نفهم أن علاقة تمجيد المسيح بمجيء الروح لا تتعلق بشخص المسيح في حد ذاته، وهي لا تنصبُّ على طبيعة المسيح بالتالي وكأنه كان ينقصها المجد، بقدر ما تنصبُّ على طبيعتنا نحن. فتعذُّر مجيء الروح القدس قبل أن يُكمِّل المسيح مجده أمر يختص بطبيعتنا نحن بالدرجة الأُولى؛ إذ قبل أن يكمِّل المسيح **أعمال** الخلاص من نحونا — التي هي أعمال تمجيده — لم نكن نحن مؤهَّلين لمجيء الروح القدس.

٧: ٤٠–٤٤ **«فكثيرونَ من الجمع لما سَمِعُوا هذا الكلامَ قالوا: هذا بالحقيقةِ هو النبيُّ. آخرونَ قالوا: هذا هو المسيحُ. وآخرونَ قالوا: ألعلَّ المسيحَ من الجليلِ يأتي؛ ألَمْ يقل الكتابُ إنه من نسلِ داودَ ومن بيتِ لحمِ القريةِ التي كان داودُ فيها يأتي المسيحُ. فحدث انشقاقٌ في الجمع لسببه. وكان قومٌ منهم يريدون أن يُمسكوه ولكن لم يُلْقِ أحدٌ عليه الأياديَ».**

انقسم السامعون إلى ثلاثة أقسام:

فالبعض رأوا في المسيح تحقيق نبوة موسى كما جاءت في سفر التثنية (١٨: ١٥)، وبذلك تحقق لهم الرجاء على مستوى الأمة للخلاص السياسي. وللأسف، فإن المسيح لا يمثل هذا الرجاء الدنيوي، فهو حقاً جاء على مستوى النبوة، كما شرح ذلك بإسهاب بطرس الرسول في خطابه في سفر الأعمال في الأصحاح الثالث (٢٠–٢٦) — ونرجو القارىء الرجوع إليه — ولكن ليس لردّ الأمة من عبوديتها للرومان أو لإنزال المن من السماء، ولكن «لردّ **كل واحد** منكم عن شروره»؛ فهو خلاص فردي وروحي وليس خلاص أمة وسياسة.

أما البعض الآخر فوجد فيه المسيَّا، ودليله الآيات التي صنعها أمامهم. فهو مسيَّا المعجزات في نظرهم الذي يمثل القوة الخارقة لمزيد من البركات الدنيوية والجسدية. وللأسف أيضاً فإن المسيح لم يجيء ليصنع آيات، بل لتكون آياته وأعماله كلها آية تشير إلى شخصه كابن الله وإلى طبيعته الإلهية التي منحها للإنسان عامة: ليرفعه إلى خليقة جديدة جديرة بالموطن السماوي.

أما البعض الثالث فقد وقفت أمامه العثرات والعقبات التي فرضتها تعاليم الربيين أمامهم، فجعلتهم يتركون كل ما قاله وعمله المسيح جانباً ليبحثوا عن مولده وموطنه. وق. يوحنا يسجل لهم نتائج فحوصاتهم، إذ رأوا أنه لا ينبغي أن يأتي المسيح من الجليل بل يتحتم أن يأتي من بيت لحم كأقوال الأنبياء. وهنا يهدف ق. يوحنا من تسجيله الحرفي لأقوالهم هذه إلى هدفين:

الأول: وهو الأبسط في نظره، أنهم يجهلون تاريخ المسيح ــ لأنه وُلد فعلاً في بيت لحم ــ وجاهلون في تأكيداتهم ــ لأنهم يبحثون عن الظاهر.

أما **الهدف الثاني:** وهو الأعظم والأخطر، فإن ق. يوحنا يرى أنه حتى ولو صحّت أبحاثهم أنه ولد في بيت لحم فإن ميلاده في بيت لحم لا يشير ولا يؤكد من أين جاء المسيح على مستوى الإرسالية وعلى مستوى الوطن الحقيقي وعلى مستوى الطبيعة التي جاء بها: «تعرفونني وتعرفون من أين أنا، ولكن من نفسي لم آتِ بل الذي أرسلني هو حقٌّ الذي أنتم لستم تعرفونه» (يو٧: ٢٨). وهذه هي المبادىء الأساسية التي نهج عليها ق. يوحنا في إنجيله فلم يذكر قصة ميلاده أصلاً، لأنه اهتم بموطنه السمائي.

٧: ٤٥ــ٥٣ **«فجاء الخُدَّام إلى رؤساء الكهنة والفريسيين. فقال هؤلاء لهم: لماذا لم تأتوا به. أجاب الخُدَّام: لم يتكلم قط إنسانٌ هكذا مثل هذا الإنسان. فأجابهم الفريسيون: ألعلكم أنتم أيضاً قد ضللتم، ألعل أحداً من الرؤساء أو من الفريسيين آمن به، ولكن هذا الشعب الذي لا يفهم الناموس هو ملعون. فقال لهم نيقوديموس الذي جاء إليه ليلاً وهو واحد منهم: ألعل ناموسنا يدين إنساناً لم يسمع منه أولاً ويعرف ماذا فعل. أجابوا وقالوا له: ألعلك أنت أيضاً من الجليل. فتش وانظر. إنه لم يَقُمْ نبيٌّ من الجليل. فمضى كل واحد إلى بيته.**

٨: ١ **أما يسوع فمضى إلى جبل الزيتون».**

عادت حملة الضباط (البوليس) إلى السنهدريم المنعقد بحضور بعض الفريسيين المختارين ورؤساء الكهنة دون أن ينفذوا أمر المجمع بالقبض عليه. وكان السبب المباشر أنهم فعلاً لم يستطيعوا ذلك.

أولاً، لأنهم شعروا بقوة الرب الطاغية التي حلّت أوصالهم، فلم يستطيعوا الإقدام على القبض عليه.

ثانياً، لأن الرأي الشعبي أمامهم كان معظمه منحازاً للمسيح، وكان من الخطورة أن يُقْدِمُوا

على هذا العمل.

أما العذر الذي قدّموه فكان في حقيقته تحدياً لأوامر السنهدريم، لأن معناه أن هذا ليس إنساناً عادياً يليق به القبض عليه!! و يلاحظ القارىء التأكيد على نفي الوضع العادي **للإنسان** بالنسبة للمسيح في الكلام: «لم يتكلم قط **إنسان** هكذا مثل هذا **الإنسان**». فقوة الكلام هنا منصبّة على **هذا الإنسان** أنه **ليس إنسانٌ مثله**، وثانياً على الكلام الذي سمعوه أن **ليس كلامٌ قط سُمع من إنسان مثل هذا الكلام!!** وهذا في الواقع يسجله ق. يوحنا ليكشف الرأي الرسمي لبوليس السنهدريم الذي يعتمد في تقريره على صدق الحالة أمامه والذي يحمل معنى حقيقة المسيح في شخصه: «ليس إنساناً» وفي كلامه «ليس كلاماً قط لإنسان».

أما رد الفريسيين الذين أخذوا المبادرة في الكلام وليس رؤساء الكهنة، وذلك طبعاً بسبب توترهم الأعمى الذي يوقعهم دائماً في الخطأ حتى ضد القانون والناموس الذي يدّعون حمايته، فكان قولهم:

«ألعلكم أنتم أيضاً ضللتم»:

هنا الإتهام الموجه للضباط يصيب هدفين: **الأول**، أنهم خالفوا أوامر السنهدريم الصريحة بالقبض عليه دون فحص. **والثاني**، أنهم انحازوا إلى صفّه وأيّدوا صحة كلامه، و بالتالي عدم صحة الأمر بالقبض عليه. ولم يكن أمام الفريسيين المتسرعين في الإتهام وفي إصدار الأوامر إلاَّ أن يقدموا برهاناً واهياً جداً للدفاع عن أنفسهم أمام إصرار الضباط على عدم صحة قرار القبض عليه ألاَ وهو أن يلوذوا بتقديم أعذار واهية أن أحداً من الرؤساء أو الفريسيين لم يؤمن به. وواضح أن هذا العذر يخرج عن مستوى مسئولية الضباط ولا يدخل في اختصاصات هيئة البوليس.

ولكن شعور الفريسيين بالكراهية والحقد ضد المسيح جعلهم ينقلبون على الشعب الذي انحاز إلى المسيح والذي سبّب فشل مهمة الضباط في القبض على المسيح، فخرج السخط من أفواههم باللعنات على الشعب المسالم.

«ولكن هذا الشعب الذي لا يفهم الناموس هو ملعون»:

ومعروف أن طبقة المتعلمين من الكتبة والفريسيين والناموسيين، وهم المتشددون بحرفية الناموس والمترفّعون بعلمهم، ومعهم الصدُّوقيون (كهنة ورؤساء كهنة) وهم الطبقة الأرستقراطية المترفّعة بوظائفهم (الإلهية)، كانوا جميعاً ينظرون إلى الشعب المسالم غير المتعلم بنظرة الإحتقار الشديد باعتبارهم «مساكين الأرض»، كغنم تُساق بالعصيِّ، يُشرَب لبنها و يُنْتَف صوفها وتُسام

كما تُسام البهيمة لهوى صاحبها. كما كان الشعب الذي لا يدرس الناموس ويمارسه بحرفيته ــ في نظرهم ــ ملعونٌ، وذلك حسب حرفية أحكام الناموس والعمل به. وطبعاً العيبُ عيبُهم، لأن نقص التعليم والجهالة ليست هي خطية الجاهل بل خطية المتعلم. ويكفي للتدليل على ذلك تعليم الربيين عن عدم استحقاق المرأة نهائياً لنوال أي تعليم عن الناموس(١٥). أما هذا العذر الذي قدّمه هؤلاء الفريسيون بأن أحد الرؤساء أو الفريسيين لم يؤمن به، وهذه اللعنات التي صبّها هؤلاء الفريسيون على الشعب، لم ترُقْ لأحد الأعضاء الحاضرين لأنه كان يؤمن بالمسيح، ولكن خِفْيةً، وهو نيقوديموس «معلّم إسرائيل» (يو٣: ١٠)، الذي زار المسيح ليلاً. ويبدو أنه كان يتودد إلى المسيح، وكان صديقاً للقديس يوحنا، وقد اعترف للمسيح وكثيرون معه بأنه **«من الله»**: «يا معلم نعلم أنك أتيت من الله» (يو٣: ٢). لذلك انتهز نيقوديموس هذه الفرصة للرد على هؤلاء الفريسيين ردًّا أردعهم في الحقيقة، إذ أوضح لهم بطريق غير مباشر أنهم هم **الذين لا يعملون بالناموس**، أو بالحري ــ وبحسب أسلوب ق. يوحنا ــ هم المستحقون اللعنة وليس الشعب الذي انحاز للمسيح.

«ألعل ناموسنا يدين إنساناً لم يسمع منه أولاً ويعرف ماذا فعل»:

وبهذا القول يكون نيقوديموس قد انحاز للضباط الرافضين لصحة قرار القبض، وبطريق غير مباشر ساند المسيح إنما بالطريق القانوني.

٧: ٥٢و٥٣ **«أجابوا وقالوا له: ألعلّك أنت أيضاً من الجليلِ. فتّش وانظرْ. إنه لم يَقُمْ نبيٌّ من الجليلِ. فمضى كلُّ واحدٍ إلى بيتِهِ.**

٨: ١ **أما يسوعُ فمضى إلى جبلِ الزيتونِ».**

لم يستمعوا للنصيحة القانونية حسب الناموس، بل حثّهم غضبهم أن ينقلبوا على نيقوديموس أيضاً فأسندوا إليه جهالة الجليليين (الفلاحين)، وعن طريق خفي ألحقوا به عاراً أن يكون من أتباع المسيح لأنه يحاول الدفاع عن واحد منهم. وهذا يوضح مدى الشطط الذي اندفعوا فيه. ثم زوّروا الحقيقة حينما قالوا: **«لم يَقُمْ نبي من الجليل»**. وكأنهم أقاموا أنفسهم حُكّاماً على العناية الإلهية يربطونها حينما أو حيثما شاءوا؛ علماً بأن نبياً مرموقاً، وهو يونان، كان من «جتّ حافر»

(١٥) يذكر المعلم المشهور رابي إلعازر هذا القانون المستقر عند معلمي الناموس:

[أي رجل يعطي ابنته أي معرفة عن التوراة يكون بمثابة أنه يعلمها الدعارة].

أنظر أيها القارىء وتعجّب وتألم!! ارجع لكتاب: «شرح إنجيل يوحنا»، للعالم ليون موريس Leon Morris، ص٢٨٤.

بـالجـلـيـل، فهو من سبط زبولون وهم سكان الجليل الأصليون (٢مل١٤: ٢٥). ولكن ــ بلغة ق. يوحـنـا وأسـلـوبـه ــ حتـى ولو لم يكن قد قام نبي من الجليل، فهذا لا يمتُّ إلى قضية ابن الله في شيء، وهـو الـذي نـزل مـن الـسـمـاء وبقي هناك «ابن الإنسان الذي هو في السماء». وما كان الجليل ولا كانت اليهودية إلا «**موطئاً لقدميه**».



مدينة على بحر الجليل

الأصحاح الثامن

الأصحاح الثامن

استعلان طبيعة المسيح «النورانية»

«أنا هو نور العالم»

ويشمل هذا الأصحاح :

١ ــ المرأة الخاطئة : (٨ : ٢ــ١١).

٢ ــ حوار المسيح مع اليهود :

أ ــ «أنا هو نور العالم» : (٨ : ١٢ــ٢٠).

ب ــ «أنا هو» : (٨ : ٢١ــ٢٩).

ج ــ «إن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً» : (٨ : ٣٠ــ٥١).

د ــ المسيح وإبراهيم : «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» : (٨ : ٥٢ــ٥٩).

مكان البشارة
ثامناً (تابع):
في أورشليم
في عيد المظال

الأصحاح الثامن

١ ــ المرأة الخاطئة

(٨: ٢ــ ١١)

يفتتح ق. يوحنا الأصحاح الثامن بحادثة المرأة التي أُمسكت وهي تُخطىء، و يبدو أن القصة في ظاهرها لا تتمشى مع سياق أحاديث المسيح في الهيكل، و يعترض العلماء على وضع هذه القصة هنا في هذا الموضع من إنجيل يوحنا، كما يعترض البعض الآخر على خروج هذه القصة ــ من حيث صياغة الكلمات اليونانية والظروف المحيطة بالحديث ــ عن أسلوب ق. يوحنا، وخاصة لورود اسم «**الكتبة**» مع الفريسيين، وهو لقب لم يستخدمه ق. يوحنا في إنجيله قط، وكذلك ورود «جبل **الزيتون**» وذِكْر الرب أنه كان يعلِّم وهو «**جالس**» ... إلخ.

ولقد انقسم الآباء الأوائل ما بين مؤكد لصحة الرواية ولورودها في مكانها الصحيح أمثال: القديسين «**جيروم**» و«**أُغسطين**» و«**أمبروسيوس**» وكثير من آباء الكنيسة الغربية، على أساس ورود القصة بوضعها في نسخة الفولجاتا، وهي النسخة اللاتينية التي تقول إنها وُجِدَتْ في كثير من المخطوطات اليونانية وأنها تُقرأ في عيد القديسة بيلاجية في ٨ أكتوبر من كل عام.

و يكشف هؤلاء الآباء عن سبب غياب هذه القصة في المخطوطات الأخرى، وهو خوف الآباء الأوائل من استخدام هذه القصة كمشجِّع للإنحلال الخُلقي مما حدا بهم إلى حذفها من نسخ بعض المخطوطات (أغسطين، «ضد بيلاجيوس»، ٢: ١٧).

وقد وُجدت هذه القصة في المخطوطات الأكثر قدماً وهي النسخة الممفيسية: **Memphitic version** والنسخة الحبشية والنسخ الأرمنية. و يقرر العالم جرايزباخ **Greisbach** أنه وجدها بحالها في مائة مخطوطة، و يعود العالم ألفورد **Alford** و يقول إنه وجدها في ثلثمائة مخطوطة وخاصة النسخ اللاتينية، وهي التي لجأ إليها في الشرح كلٌّ من أمبروسيوس وأُغسطين وجيروم.

و يلاحظ الباحث أن الآباء الشرقيين كانوا هم الأكثر تحفظاً وامتناعاً، بل وحضّاً للإمتناع عن الخوض في شرح هذه القصة أو الرجوع إليها أو حتى ذكرها بالمرة، بل وقد لجأ البعض إلى جحد صحة هذه القصة برُمَّتها سواء بسبب اعتراضات خارجية في القصة أو اعتراضات جوهرية أخلاقية. والذين جحدوا هذه القصة أو صمتوا إزاءها هم: أُوريجانوس و يوحنا ذهبي الفم وكبريانوس. ومعروف أن أُوريجانوس كان مُحَارَباً جنسياً إلى الدرجة التي فيها خصي نفسه بنفسه، لذلك فإن حذفها من شرحه لإنجيل يوحنا له ما يبرِّره من ظروفه الخاصة. ويوحنا ذهبي الفم كان مضَّطهَداً على مستوى اضطهاد المعمدان بسبب التعليق على خطية الزنا، لذلك فإن حذف هذه القصة من تفسيراته يتمشى مع ظروف حياته وخدمته أيضاً.

ولكن الذي يقطع بصحة هذه القصة وورودها بحالها في الإنجيل هو ورودها في كتاب **تعاليم الرسل** .Apost. Const (٢ : ٢٤)، وذلك في سياق صحة وضرورة قبول عودة الخطاة التائبين إلى الكنيسة، الأمر الذي كان بعض المتعصبين وضيِّقي العقل يعلِّمون ضدّ ذلك، مما كان يمكن أن يؤدي إلى تفكُّك الكنيسة كلها. وقد أورد كتاب «تعاليم الرسل» القصة بكلماتها.(١)

المرأة الخاطئة:

٨ : ١—٦ **«أما يسوعُ فمضى إلى جبلِ الزيتونِ. ثم حضرَ أيضاً إلى الهيكلِ في الصُّبحِ وجاءَ إليـهِ جميعُ الشعبِ فجلسَ يعلِّمهم. وقدَّمَ إليهِ الكتبةُ والفريسيونَ امرأةً أُمسكت في زناً. ولما أقامُوها في الوسطِ، قالوا له يا مُعَلِّم هذه المرأةُ أُمسكت وهي تزني في ذاتِ الفعلِ، وموسى في الناموسِ أوْصانا أن مثلَ هذه تُرْجَمُ. فماذا تقولُ أنتَ؟ قالوا هذا ليجرِّبُوهُ لكي يكونَ لهم ما يشتكُونَ بِهِ عليهِ».**

«جبل الزيتون»:

ذهاب المسيح إلى جبل الزيتون كان أمراً معتاداً وذلك للصلاة هناك. وقد كان هذا محور قصة التسليم. وقد تعرف يهوذا على المكان بسبب اعتياد الرب قضاء الليالي مُصلِّياً هناك: «وكان في النهار يعلِّم في الهيكل، وفي الليل يخرج و يبيت في الجبل الذي يُدْعَى جبل الزيتون، وكان كل الشعب **يبكِّرون** إليه في الهيكل ليسمعوه» (لو٢١: ٣٧و٣٨). علماً بأن بيت عنيا التي كان يلجأ إليها الرب للراحة في بيت مريم ومرثا كانت خلف تلك التلال من جهة الشرق. وكان بستان

(١) Reynolds, H.R., *op. cit.*, pp. 312-316.

جثسيماني على منحدرات الجبل المواجهة لأورشليم.

وأما مجيئه إلى الهيكل في «الصباح **الباكر**» ὄρθρου أي «مبكراً»، **فهي** كلمة سقط معناها في الترجمة العربية ــ فهذا كان اعتياد الرب في الخدمة.

وجلوس الرب أثناء التعليم هو من اعتياد كبار المعلمين، إذا كانت التعاليم تمتد إلى أوقات طويلة.

وذِكْرُ كلمة «**الكتبة**» مع «الفريسيين» ليس أصلاً من استخدام ق. يوحنا وهي تخصيص للجماعة المدققة، ويُكْنَى عن الاثنين في إنجيل يوحنا عادة بـ «**اليهود**». وقد اعتنى هؤلاء المكدِّرون أن يزعجوا الجمع الملتفّ حول المعلم بهذه القضية الخاصة بهذه المرأة كحيلة مدبَّرة، والتي غالباً كانت جاهزة ومحجوزة لرفعها للجهات القضائية المختصة، ولكنهم أحضروها في الصباح للشوْشرة ولاستخدامها كوسيلة ليستخلصوا من المسيح حكماً منافياً للناموس يكون نواة للشكوى عليه. والقضية بالصورة التي قدموها للمسيح ناقصة ومبتورة. فالفاعل الأصلي مع المرأة غير موجود، والشهود غير موجودين، وهم الذين يلزم أن يكونوا اثنين على الأقل، مع زوج المرأة إذا كانت متزوجة.

وأحكام الناموس بمقتضى هذه الحالات هي كالآتي:

«إذا زنا رجل مع امرأة: فإذا زنا مع امرأة قريبه فإنه يُقتل، الزاني والزانية» (لا ٢٠: ١٠)، وهما حالتان متساويتان غير أن الحالة الثانية تعتبر **«فعل فاضح»**.

«إذا وُجِد رجل مضطجعاً مع امرأة زوجةِ بعلٍ يُقتل الاثنان، الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة.» (تث ٢٢: ٢٢)

«إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجلٍ فوجدها رجلٌ في المدينة واضطجع معها فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة والرجل من أجل أنه أذلّ امرأة صاحبه.» (تث ٢٢: ٢٣و٢٤)

«ولكن إن وجد الرجل الفتاة المخطوبة في الحقل وأمسكها الرجل واضطجع معها، يموت الرجل الذي اضطجع معها وحده. وأما الفتاة فلا تفعل بها شيئاً. ليس على الفتاة خطية للموت.» (تث ٢٢: ٢٥و٢٦)

«إذا وجد رجل فتاة عذراء غير مخطوبة فأمسكها واضطجع معها فوجِدا، يعطي الرجل الذي اضطجع معها لأبي الفتاة خمسين من الفضة وتكون هي له زوجة من أجل أنه قد أذلّها. لا يقدر أن

يُطلِّقها كل أيامه.» (تث٢٢: ٢٨و٢٩)

وقد أورد هؤلاء المنكِّدون سنداً قانونياً لا يمكن أن يفلت منه القاضي بأي حال من الأحوال، وهو حدوث القبض على الزانية «**في ذات الفعل** ἐπ' αὐτοφώρῳ» والذي يُسمَّى في القضاء: In ipso furto، وبالعربية: **«حالة تلبُّس»**.

وهكذا قدَّم هؤلاء المنكِّدون هذه القضية على حالها وتركوا للمسيح أن يختار الحكم القضائي في مقابل اختيارهم هم الرجم بحسب الناموس.

وفي الحقيقة حاول كثير من العلماء إقصاء هذه القصة برُمَّتها من إنجيل يوحنا لعدم توافقها مع أسلوب الإنجيل، علماً بأن ق. يوحنا أوردها كعادته كآية مخفية غاية في الأهمية والخطورة، إذ يُبْرِز هنا ق. يوحنا الصورة الحقيقية التي كانت في ذهن الكتبة والفريسيين عن مستوى المسيح التشريعي والقضائي؛ ومن ناحية أخرى يُبْرِز المسيح باعتباره المشرِّع الجديد الذي بحكمه وقضائه سيلغي حالاً وفي جملة واحدة غير مباشرة كل شريعة موسى القضائية القائمة على البيِّنة والملابسات، **والتي أهملت تماماً حكم الضمير، والباعث الأخلاقي، وتقوى الشهود ونزاهة القاضي!! وإني في الحقيقة لأتعجب كل العجب كيف يحدث هذا الهجوم المكثَّف من بعض الآباء والعلماء على هذه القصة التي قضت بعجز التشريع والقضاء الموسوي واستحدثت للقضاء المسيحي مستوى عالٍ من الاستنارة الروحية والأخلاقية وتقديس حق الحياة للخاطىء؟**

وعلى القارىء أن يتبصَّر معي في مطلب هؤلاء المتعطشين لسفك الدم، المطالبين بحياة امرأة هي إنسان له حق الحياة كما لهم. واعتمادهم الوحيد في هذا السلوك الدموي اللاإنساني هو ناموس موسى! ولم يكْفِهِمْ هذا المطلب القاتل الذي بيَّتوا له لهذه المرأة التي وقعت في أيديهم، بل استخدموه أسوأ استخدام لتلفيق تهمة قتل أخرى أضمروها وأحكموا التمهيد لها لاصطياد المسيح ذاته ...

وليلاحظ القارىء، إذا تبصَّر في نيَّة هؤلاء القتلة، مقدار إحكام الفخ الذي وضعوه للمعلم لأنه:

إن حَكَمَ المسيح بحسب الناموس القائم على الحرف والدينونة، فقُتلت المرأة أمام عينيه وبحُكْمٍ منه، يكون قد انحرف انحرافاً هائلاً عن مستوى الحب والرحمة والفداء الذي جاء ليرفعه عالياً كمعيار للحياة الجديدة بكل مقوماتها، سواء من جهة الأخلاق العامة أو السلوك أو الخدمة أو التشريع أو القضاء. فالمسيح رفع الرحمة فوق العدل، وجعل المحبة الينبوع والمصبَّ، وأسَّس عمل

التوبة ليحتوي كل بأس الإنسان.

وإن هو حَكَمَ بمقتضى الحب والرحمة، يكون قد تجاهل الناموس بنفس الجهالة التي في قلوب هؤلاء الأدعياء التي يرونها أنها هي هي الناموس الأقدس القائم ــ في أذهانهم ــ على الحرف القاتل، و يكون المسيح بذلك مستحقاً للقتل!! علماً أنهم يضعونه هنا في مأزق، لأنه سبق وقال إنه ما جاء لينقض الناموس بل ليكمِّله!! (مت ٥: ١٧)

والذي يلزم أن ننتبه إليه في هذا المضمار التشريعي والقضائي الذي أُقحم فيه المسيح، أن المسيح سبق أن قال، وسيعيد القول: «إني لم آتِ لأدين العالم بل لأخلِّص العالم» (يو٣: ١٧، ١٢: ٤٧)؛ و بالمعنى الأبسط أنه جاء ليُبْرِئ الخاطئ لا ليقتله، وهو سيبرئه على حساب نفسه، إذ سيدفع هو ثمن خطيته من دمه. فإن كنا سنسمع منه حالاً حكم براءة مُذهل لهذه المرأة الخاطئة المختارة: «أنا لا أدينُكِ، اذهبي ولا تخطئي أيضاً!!»، فهذا حكم قائم على دفع غرامة فادحة: حياة بحياة ونفس بنفس. لقد فداها المسيح قبل أن يعطيها البراءة ــ لقد حكم على نفسه بالقتل ليبرئها!! ــ إنه قاضٍ، نعم قاضٍ، ولكنه محامٍ بآن واحد، وليس محامياً فقط بل وأبٌ، بل وحبيبٌ يكره الخطية ولكنه يحب الخطاة.

٨: ٦ــ٩ **«وأما يسوعُ فانحنى إلى أسفلُ وكان يكتبُ بأصبعِهِ على الأرضِ. ولما استمرُّوا يسألونَهُ، انتصبَ، وقال لهم: مَنْ كان منكم بلا خطيةٍ فليَرْمِها أولاً بحجرٍ. ثم انحنى أيضاً إلى أسفلُ وكان يكتبُ على الأرضِ. وأما هم فلما سمعوا، وكانت ضمائرُهم تبكِّتهم، خرجوا واحداً فواحداً مبتدئين من الشيوخِ إلى الآخِرين، وبقي يسوع وحدَهُ والمرأة واقفةٌ في الوَسَطِ!»**

أمام حماس هؤلاء النكديِّين المتربِّصين للقتل والإيقاع بالمسيح، انحنى الرب في هدوء و بدا كمن يكتب على الأرض بأصبعه وكأنه غير مُبالٍ بتحمسهم. وقد اصطنع الرب هذا الموقف ليقلِّل من غلوائهم، ويمهد للدخول داخل ضمائرهم. ولكنهم استمروا يطالبونه بالجواب و بإلحاح، فما كان منه إلاَّ أن انتصب فجأة ليستحضر انتباههم و بادرهم بالحكم: **فهو موافق على ناموس موسى** تماماً، لأنه لم يأتِ لينقضَه، ولكنه **جاء ليكمِّل ما نقص فيه وفيهم**، ليصير **«ناموس الكمال»** وليس ناموس موسى بعد. فلكي يُرجَم الخاطئ بحسب نص ناموس موسى يلزم أن يكون مَنْ ينطق بالحكم، ومَنْ ينفِّذ الحكم، لم يأتِ الخطيئة، وإلاَّ يكون هو الأوجب بالرجم والموت: «مَنْ كان منكم **بلا خطية فليَرْمِها** أولاً بحجر».

فلما واجههم بالحق الذي في روح الناموس **واشترط على من ينفذ الناموس أن يكون على مستوى الناموس،** وهذا حق وعدل لا يختلف عليه اثنان، خرجوا من ساحة المحكمة التي أقاموها بأنفسهم، الواحد بعد الآخر، لأن ضمائرهم كانت تبكِّتهم. **لأنه من ذا الذي يستطيع أن يتصور أن خاطئاً يتحمل دم خاطىء أمام الله؟** لقد أصابتهم الرعبة أمام عيني المسيح التي اخترقت ضمائرهم، بل عظامهم، وكان تأثير كلام المسيح على الشيوخ شديد الوطأة لأنهم لم يكونوا أفضل من قضاة سوسنة في سفر دانيال(٢). لقد تخلَّوا عن فريستهم بين يديه، بل وتركوه هو أيضاً بعد أن بيَّتوا أن يكون هو فريستهم الأخرى.

٨ : ١٠و١١ **«فلما انتصَبَ يسوعُ ولم ينظرْ أحداً سوى المرأةِ قال لها: يا امرأةُ أين هم أولئك المشتكونَ عليكِ. أما دانكِ أحدٌ. فقالت: لا أحدَ يا سيدُ. فقال لها يسوعُ: ولا أنا أدينُكِ. اذهبي ولا تُخطِئي أيضاً».**

«أين هم أولئك المشتكون عليكِ. أما دَانَكِ أحدٌ. فقالت: لا أحد يا سيد»:

لقد خسر هؤلاء المشتكون قضيتهم واستقالوا كقضاة وتركوا منصتهم. فالمشتكون صاروا تحت الشكوى عينها والقضاة فقدوا صلاحيتهم، لأنهم صاروا تحت الدينونة. فإذا وضح أن الناموس هكذا أصبح بلا قضاة في إسرائيل فقد بطل الناموس!!

وهكذا عرَّى المسيح كُلًّا من الناموس والناموسيين، فالناموس صارم وأساسه **«رفع الشر»** أي **إبطال الخطية،** ولكن وضح أنه لا يوجد مَنْ يستطيع أن يحكم به **لأنه** لا يوجد مَنْ هو بلا خطية حتى يستطيع أن **يرفع الشر** من إسرائيل أو **يُبْطِلَ الخطية!**

إذن، الناموس ـــ بحد كلماته ـــ يحكم على الخاطىء ويدين الخطية، **ولكن لا يستطيع أن يبطل الخطية.** وهذا أول عمل استعلاني عمله المسيح إزاء الناموس، **لقد استعلن عجزه باستعلان عجز كلِّ مَنْ يحكم ويدين به، لأنه إذا حكم أي قاضٍ على الخاطىء أو أدانه، وهو نفسه خاطىء، يحكم ويدين نفسه بآن واحد.** هذا القانون المسيحي يذكره القديس بولس ـــ شيخ الفريسيين ـــ الذي يعلم ما هو الصحيح في الناموس حقاً: «لذلك أنت بلا عذر أيها الإنسان، كلُّ مَنْ يدين، **لأنك فيما تدين غيرك تحكم على نفسك،** لأنك **أنت الذي تدين تفعل**

(٢) ارجع لقصة سوسنة في كتاب: «الأسفار القانونية الثانية»، حيث تجدها في آخر سفر دانيال النبي ـــ وتُقرأ هذه القصة ضمن قراءات سحر سبت النور في نهاية أسبوع الآلام.

تلك الأمور بعينها ... أفتظنُّ هذا، أيها الإنسان الذي تدين الذين يفعلون مثل هذه وأنت تفعلها، أنك تنجو من دينونة الله.» (رو٢: ١و٣)

كما كشف المسيح نقص الناموس الخطير في كونه يحكم بحسب الظاهر والمنظور، ويتجاهل عن عَمْدٍ ما في الباطن والضمير، وذلك إزاء حكم المسيح الذي اعتمد اعتماداً قوياً على **حكم الضمير**، والذي ثبت أنه قادر أن يلغي حكماً بالإعدام ثابتاً على يد شهود عيان.

وهكذا حينما وقف المشتكون ــ والحجارة في أيديهم في لهفة لتنفيذ حكم الموت في هذه النفس الخاطئة ــ أيقظ المسيح ضمائرهم، فرأوا فجأة أنهم واقعون في نفس الفعل الذي يدينونه، فألقوا الحجارة من أيديهم، وخرجوا من ساحة قضاء الناموس، وتركوا الخاطئة للمسيح!! بل وتركوا المسيح أيضاً، إذ ذابت نفوسهم فيهم.

ويقول في هذا القديس أُغسطين:

[وبقي اثنان: المرأة التعسة (بل السعيدة) في مواجهة الرحمة المتجسدة.](٣)

وبذلك أصبح المسيح ــ وبموافقة القوّامين على الناموس ــ أنه هو وحده القادر أن يحكم على الخاطىء ويدين بمقتضى الناموس لأنه هو وحده والوحيد الذي بلا خطية! ولكن لكي تظهر رسالة المسيح واضحة كل الوضوح قال: **«ولا أنا أدينُكِ»**. ولماذا لا يدين؟ وأين الناموس؟

لقد أدان المسيح نفسه وأكمل حكم الناموس في نفسه عنا وعن هذه الخاطئة، وتقبّل عن كل خطاة الأرض حكم الموت؛ فأصبح الوحيد الذي له حق التبرئة، فهو يبرىء الخاطىء والفاجر، لأنه دفع دمه ثمناً **لخطية** الخاطىء **وفُجْرِ** الفاجر، كان مَنْ كان. لهذا يقول بولس الرسول: «وأما الذي لا يعمل ولكن **يؤمن بالذي يبرِّر الفاجر** فإيمانه يُحسَب له برًّا.» (رو٤: ٥)

وهنا يقول القديس أُغسطين أيضاً:

[لأنك فيَّ، أصبحت بلا خطية.](٤)

[وبقول المسيح «اذهبي ولا تخطئي أيضاً» فقد أدان الخطيَّة ولكن برَّأ الخاطىء.](٥)

---

[3] Tract. 33.5. *op. cit.*, p. 198.

[4] Ibid.

[5] Ibid., p. 199.

وحينما مات المسيح على الصليب عن الخطاة، أكمل كل مطالب الناموس وأحكامه ضد كل الخطاة. فحفظ للناموس كرامته، وأرسل كلَّ محافظ قضاياه للحفظ في دار مخازن رحمة الله. وبذلك يكون المسيح قد أنشأ بموته ناموساً آخر فوق ناموس موسى. فناموس موسى يحكم ويدين على أساس ثبوت الخطية، فالخطية هي قوة الناموس حيث تتنوع قوانين الناموس على أساس تنوع الخطية. فجاء المسيح ورفع الخطية بكل أنواعها بموته، وأبطلها بكل أشكالها نهائياً بذبيحة نفسه، فصار ناموس موسى بلا قوة، وتعطلت كل بنوده وقوانينه ونحّى قضاته. ألم يحدث هذا فعلاً أمام المسيح حينما خرج القضاة المشتكون بمقتضى الناموس؟ أما تنحّى القضاة؟ فانخفضت هامة الناموس وارتفعت هامة المسيح! فتجلّت محبة الله ورحمته في قوة ذبيحة المسيح. **فإن كانت قوة ناموس موسى هي الخطية لحكم الموت، فقد صارت قوة ناموس المسيح هي النعمة للبراءة. وهكذا حكمت النعمة في المسيح عوض النقمة في الناموس.** وعلى هذا الأساس قال المسيح للمرأة المرتجفة تحت نقمة الناموس، «**ولا أنا أدينك**، اذهبي ولا تخطئي أيضاً».

وللقارىء أن يتعجب كيف خرج المسيح من هذه القضية الشائكة المميتة وقد **برَّأ المرأة، وأدان المشتكين، وزكّى ناموس موسى، واحتفظ له بكرامته، وأخيراً أرسى قواعد ناموس النعمة والحياة.**

«اذهبي ولا تخطئي أيضاً»:

كلمة «**اذهبي**» بالمفرد، هي نفسها تأتي بالجمع («"اذهبوا" بسلام»)، والتي تُقال في نهاية الليتورجيا أي الصلاة العامة أو الإفخارستيا؛ وتسمى "Missa" وهي الإذن للمصلّين بالخروج من حضرة الله محمَّلين بالبركة. وهذه الكلمة تحمل بالفعل قوة إلهية للحفظ والرعاية من لدن الله القدير وكأن المسيح يدعو لها بالحفظ. ويكفي توضيحاً لذلك أن نتذكر أن هذه المرأة الخاطئة قد انتقلت من حكم الموت إلى حكم الحياة، ومن لعنة الناموس إلى رحمة المسيح.

كما يُلاحَظ أنه قبل أن يقول لها المسيح: «**لا تخطئي أيضاً**»، قال لها «**اذهبي**»، محمَّلة بقوة براءة أو تبرير من عنده، هي لا تستحقها بسبب أعمالها، ولكن استحقتها بسبب حضورها إليه، أو بالحري مثولها في حضرته، والمثول في حضرة الله نعمة عظمى؛ حتى وإن كان على غير دعوة أو ميعاد كالسامرية أو هذه الخاطئة أو كبولس الرسول نفسه!! يكفي أنها انتظرت منه رحمة، فوجدتها مضافاً إليها نعمة.

إن معظم الشرّاح والعلماء والآباء الأوائل لم ينصفوا هذه المرأة الخاطئة، ولكن كيف؟ ولماذا؟

نحن جميعاً سنمثل أمام كرسي المسيح على هذا الحال نفسه، وليس مَنْ يستحق أن يتزكى قط بسبب أعماله، ولكن إن كنا ننتظر رحمة فسنجدها، وإن كنا نرجو منه حياة فسنحيا.

«لا تخطئي أيضاً»:

أي لا تعودي إلى سيرتك الأُولى، هي دعوة للتوبة. ولكن الذي يدعو إلى التوبة هنا هو المسيح ويوجهها شخصياً منه إليها، فهي دعوة مدعّمة بالقوة، وكأنه يعرض نفسه كسند خفي لجهادها ويَعِدها سرًّا بالمؤازرة. إنه يستحث فيها إرادتها الحرة، ولكنه هو نفسه يشاء ذلك منها، أي أنه يضم مشيئته إلى مشيئتها، فأي رجاء ملأ قلب هذه الخاطئة في هذه الساعة. إنه في الحقيقة رجاء يمتد إلينا وإلى كل خاطىء يلقي نفسه بلا شفقة بين يديْ المسيح، كما ألقى هؤلاء الكتبة الأفظاظ هذه المرأة الخاطئة، بل السعيدة، في يديْ المسيح.

وفي نهاية قصة المرأة الخاطئة التي اعترضت حديث المسيح في عيد المظال، وفرّقت بين حديثه عن «الماء الحي» و«نور العالم»، نود أن نوجه نظر الباحث أن كلام المسيح بخصوص المرأة الخاطئة **كان بحد ذاته تعليماً هاماً للغاية عن ناموس موسى ومقارنته العملية بناموس المسيح.** أي أن قصة المرأة الخاطئة قدمها ق. يوحنا في مكانها الصحيح.



٢ ــ حوار المسيح مع اليهود

(٨:١٢ــ٥٩)

أ ــ الجزء الأول من الحوار
«أنا هو نور العالم»

(٨:١٢ــ٢٠)

«الشعبُ السالكُ في الظلمة أبصر نوراً عظيماً. الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نورٌ.» (إش٩: ٢)

«الجلوس في الظلمة وظلال الموت موثَقين بالذل والحديد ... أخرجهم من الظلمة وظلال الموت وقطّع قيودهم.» (مز١٠٧: ١٠و١٤)

٨: ١٢ «ثم كلمهم يسوعُ أيضاً قائلاً: أنا هو نورُ العالمِ. مَنْ يتبعْني فلا يمشي في الظلمةِ بل يكونُ له نورُ الحياةِ».

نحن لا نزال في عيد المظال.

عود على ذي بدء:

لقد توقف حديث المسيح الذي قدمه في الهيكل للشعب وهو في «الخزانة» عند قوله: «وفي اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع ونادى قائلاً: إن عَطِشَ أحدٌ فليُقْبِلْ إليَّ و يشرب. من آمن بي، كما قال الكتاب، تجري من بطنه أنهارُ ماءٍ حيٍّ» (يو٧: ٣٧و٣٨). توقف الحديث لشرح ق. يوحنا عن معنى هذه الآية بالنسبة لانسكاب الروح القدس، ثم تلا ذلك وصف انقسام الشعب بين مؤيِّد ومعارض، ثم أتت حملة الضباط التي أرسلها رؤساء الكهنة والفريسيون للقبض عليه، ثم التحقيق مع أعضاء الحملة بسبب عدم القبض عليه. و ينتهي الأصحاح السابع بانقسام أعضاء السنهدريم على أنفسهم، ثم انفضاض السنهدريم، وذهاب **كل واحد إلى بيته.**

ثم يبتدىء الأصحاح الثامن بحضور المسيح مبكراً من جبل الزيتون، واستئناف التعليم في الهيكل بحضور الشعب، ثم محاولة الكتبة والفريسيين الشوشرة على التعليم بإحضار المرأة الخاطئة، وتنتهي قصتها أيضاً بخروج الكتبة والفريسيين منهزمين **واحداً فواحداً**، وتخرج الخاطئة منتصرة.

ثم يستأنف المسيح تعليمه من بعد «الماء الحي» إلى «نور العالم».

«ثم كلَّمهم يسوع أيضاً...»:

هنا يرتبط الحديث بالآية: «من آمن بي، كما قال الكتاب، تجري من بطنه أنهار ماء حي.» (٧:٣٨)

ونحن هنا، من جهة مجرى الحوادث المترادفة، أمام حقيقة طقس آخر هو طقس «النور» في عيد المظال الذي كان يجري بإيقاد أربع منارات مرتفعة جداً داخل الهيكل، كل منها لها أربعة صحون على الظهر، يصلون إليها لإشعالها بواسطة سُلَّم، وفي كل صحن فتيلة مشتعلة مصنوعة من القماش الذي يستخدمه الكهنة كأحزمة لربط الوسط(٦). وكانت توضع في بيت النساء في رواق النساء، حيث كان المسيح يعلِّم. كذلك نحن الآن أيضاً في آخر أيام العيد وهو اليوم الثامن.

والإحتفال الطقسي بإيقاد النور في رواق النساء ــ في الخزانة التي في الهيكل، وفي كل المظال التي كانوا يعيشون فيها في هذه الأيام ــ كان تذكاراً **لعمود النور** الذي أرسله الله لهم، يقودهم في برية التيه **أثناء الليل** (خر١٣: ٢١). وهنا أيضاً يرى المسيح المناسبة لكي يستعلن لهم نفسه أنه هو النور الحقيقي الذي جاء لينير العالم.

«أنا هو نور العالم. من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة»:

أما عمود النور الذي قادهم في البرية في ليل تيههم وقتياً فكان قد انقطع لعدم الحاجة إليه، وأما المسيح فهو النور الذي جاء لينير العالم دائماً وإلى الأبد.

وحينما يعلن المسيح أنه «نور العالم»، فهذا تعبير عن روح رسالته وفعلها: إنه **«الكاشف والمُعلِن عن الله في العالم المظلم»**؛ إنه إعلان عن تحقيق كل مواعيد الله السابقة متركزة فيه شخصياً. كما أنه دعوة عامة لليهود والعالم كله أن ينتبه إلى هذا الشروق الإلهي. إنها دعوة موازية لدعوته السابقة في الأصحاح السابع: «إنْ عَطِشَ أحدٌ فليُقْبِلْ إليَّ و يشربْ» (يو٧: ٣٧). أما هنا فهي: "إن أعوز العالم معرفة الله في ما سبق، فها الآن المعرفة تغطي كل الأرض؛ المعرفة التي تشرح كلَّ وجودٍ كان ما كان، في حضرة وجود الله!!"

فحينما يقول المسيح: «أنا هو نور العالم»، فهو يعني، بحسب اللغة اليونانية: «أنا هو النور

٦ *Mishnah Sukkah* 5:2-4. Cited by: Raymond E. Brown, *op. cit.*, Vol. 1, p. 344.

للعالم»، الذي شرحه المسيح بعدها مباشرة في آية موازية: «بل يكون له ''نور الحياة''»، فهو النور للعالم، النور المعطي للحياة!! والتي لخصها ق. يوحنا شارحاً بقوله في مقدمة إنجيله: «فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس» (يو١: ٤)، حيث الحياة في المسيح تكون بعينها هي نور الناس، أو نور العالم!! «**فالنور**» بالمعنى الإلهي هو «**الحياة في عالم الله**». ودخول النور إلى عالم الإنسان حوَّله إلى عالم الله، ليحيا فيه الإنسان.

ثم لينتبه القارىء جداً، فقول المسيح: «أنا هو نور العالم» لا يعني به النور المختص **بمشاكل** الإنسان تجاه العالم، بل النور المختص **بالإنسان نفسه** تجاه الله!! لأن مشكلة الإنسان العظمى في العالم هي نفسه، هي معرفته لذاته على ضوء معرفته لله. وحينما يقول المسيح: «**أنا هو** نور العالم»، فهو يكشف بصورة مفاجئة وقوية مدى اقتحام **الذات الإلهية** للعالم، هذه القوة التي لا يشرحها إلاَّ التجسد. فهو وحده الذي يرفع الغموض منها، لأن قائلها هو الإنسان يسوع المسيح بحسب الفكر البشري.

لذلك لكي يرفع المسيح مفهوم «أنا هو نور العالم» من المستوى الرمزي أو التصوري، الذي قد يقع فيه السامع أو القارىء، دعَّمه في الحال بالفعل العملي والإختباري الذي يعلن مدى الحق الإلهي فيه، فيقول: «مَنْ يتبعني فلا يمشي في الظلمة، بل يكون له نور الحياة»، حيث يتحول «**النور**» إلى «حياة»، أي إلى عمل وسلوك يشهد بمدى الحق في هذا النور!! هنا النور يصير «كخبز الحياة» الذي مَنْ يأكله يحيا به إلى الأبد، أي يحيا بالمسيح، والماء الحي الذي مَنْ يشربه تخرج من بطنه أنهار ماء الحياة، أي يكرز بالمسيح الذي يحيا فيه؛ هكذا النور كلُّ مَنْ يقبلهُ، أي يؤمنُ به، يصير له «نور الحياة»، أي المسيح نفسه يحيا فيه.

هكذا، فالخبز الحي والماء الحي ونور الحياة هو هو شخص المسيح، عندما يؤمن به الإنسان يصير خبزه الجديد وماءَهُ الجديد ونوره الجديد في حياته الجديدة.

والمسيح هو الخبز الحي ومُعطي هذا الخبز، والماء الحي ومُعطي هذا الماء، ونور الحياة ومُعطي هذا النور. هنا لينتبه القارىء، لأن معنى هذا أن كل استعلانات المسيح يستحيل فهمها أو قبولها أو الإيمان بها أو الحياة فيها بدون المسيح نفسه. فهي ليست مُدْرَكات يمكن أن تُفهم وتُنسى، بل هي واقع حياة في حياة. فبقدر ما نؤمن بالمسيح، نأخذ، و بقدر ما نأخذ، نقترب، و بقدر ما نقترب، نفهم وندرك ونستعلن ونكرز!!

لقد دخل النور «الحقيقي» إلى العالم ملتحفاً جسد إنسان، وهو أصلاً «اللابس (الملتحف) النور كثوب» (مز١٠٤: ٢)، جاء لينير البشرية من داخل كيانها، فصارت حياة الإنسان نوراً بعد أن كان يتخبط في ظلمة العالم. لقد استنارت حياة الإنسان بالنور الإلهي، فأنارت، وصارت أنواراً في العالم: «أنتم نور العالم» (مت٥: ١٤). ولا يزال المسيح هو هو عمود النور الذي يسير بالبشرية المستنيرة به وبالله، في طريقها الضيق الحرج، داخل ليل برية العالم المظلم، يقودنا خطوة بعد خطوة. والذي يتبع النور لا يشعر بلَيْل العالم، ولن تدركه الظلمة، هذه حقيقة يدركها كلُّ من استنار بالمسيح والتصق به: «الرب نوري وخلاصي ممن أخاف» (مز٢٧: ١)، هذا نشيد داود الذي سار وراء الرب وتسبحته في فمه، وتهليل الخلاص في قلبه.

وحينما نطرق هذا الفكر من الوجهة اللاهوتية يتضح لنا عمقه، فالطبيعة البشرية بالنسبة للنور الإلهي **مظلمة** ــ خاطئة، ضيقة، يدبُّ فيها الموت ــ وشعاع الله لم يكن ينفذ إليها، ولكن حينما استعلن لنا الرب الطبيعة الإلهية التي فيه، وصيَّرنا شركاء فيها، نفذ النور الإلهي إلى أعماقنا، فأدركنا طبيعة الله وأسراره، واستنارت عقولنا وقلوبنا بفكره ومشيئته وكلماته. لأن طبيعتنا العمياء الخرساء، بالنسبة لشخص ذات الله، استهُدِفت لعمل روح الله القدوس، فدخلها النور، ودخلتها الحياة الإلهية، فتغيرت وتجددت، وصار لها أذنٌ تسمع ما لم تكن تسمع، وعينٌ ترى ما لم تكن ترى، وقلبٌ يستطلع بالروح حتى أعماق الله: «ورأينا مجده» (يو١: ١٤)، وروح تحيا مع الله: «من التصق بالرب فهو روح واحد.» (١كو٦: ١٧)

«أنا هو نور العالم»: Ἐγώ εἰμι τὸ φῶς τοῦ κόσμου

هذا القول يستحيل أن ينطقه إلاَّ الله وحده: «وقال لي أكتب، فإن هذه الأقوال صادقة وأمينة. ثم قال لي قد تمَّ. **أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية. أنا أُعطي العطشان من ينبوع ماء الحياة مجاناً ... والمدينةُ لا تحتاج إلى الشمس ولا إلى القمر ليضيئا فيها، لأن مجد الله قد أنارها، والخروف سراجها. وتمشي شعوب المُخَلَّصينَ بنورِها ... لأن ليلاً لا يكون هناك.**» (رؤ٢١: ٥و٢٣ و٢٤و٢٥)

ويلزم أن نرجع إلى مقدمة إنجيل يوحنا، لنرى كيف قدَّم الإنجيلُ المسيحَ باعتباره «**الكلمة**» و«**النور الحقيقي**» و«**الحياة الأبدية**»، ثم كيف يشهد ق. يوحنا ضمن شهادة التلاميذ: «و(نحن) رأينا **مجده**».

فالكلمة، وهو بهاء ونور مجد الآب والحامل للحياة الأبدية، تجسد، فاستُعْلِنَ فيه نور الآب،

واستُعْلِنَتْ الحياة الأبدية التي كانت عند الآب مخفية عن حياة هذا العالم. والنور لما أضاء في قلوب التلاميذ، كان هو التجلي بعينه حيث رأوا مجده، فالنور والمجد معاً لا يفترقان. والمجد هو التعبير البشري لرؤية الحضور الإلهي أو الكيان الإلهي في المسيح: «أنا هو». لذلك، فالنور الإلهي في المسيح: «أنا هو نور العالم»، الذي صار بتجسده، هو تعبير عن طبيعة الله التي استُعلِنَتْ للإنسان في تجسُّد الكلمة، خصيصاً لإعلان عهد الخلاص للإنسان. وبمعنى آخر يكون النور الإلهي المُعْلَن في المسيح والذي يشهد له المسيح «أنا هو نور العالم»، هو تعبير عن حقيقة فعل الخلاص الذي يُفهم أنه انعتاقٌ من ظلمة هذا الدهر وتفاهة مجده. وإشعياء النبي يصف هذا الإشراق العجيب في ملء الزمن بالنسبة لكنيسة الله هكذا: «قومي استنيري لأنه قد جاء **نورك ومجد الرب أشرق** عليك، لأنه ها هي الظلمةُ تغطي الأرضَ (الوثنية)، والظلامُ الدامسُ الأمم (الخطية). أما عليكِ فيشرقُ الرب (أنا هو نور العالم) ومجدُه عليكِ يُرى. فتسير الأمم في نوركِ، والملوك في ضياءِ إشراقك.» (إش ٦٠: ١ــ٣)

ثم انظر كيف يرى إشعياء النور الإلهي المتجلّي بالمجد في كنيسته يلتحم بالخلاص التحاماً، وباعتباره الغاية العُظمى في خطته الإلهية، يقول إشعياء: «تسمّين أسوارك خلاصاً وأبوابك تسبيحاً. لا تكون لكِ بعدُ الشمسُ نوراً في النهار ولا القمرُ ينير لك مضيئاً، بل الرب يكون لك نوراً أبدياً وإلهك زينتكِ (أنا هو نور العالم). لا تغيب بعدُ شمسُكِ وقمرُكِ لا ينقص، لأن الرب يكونُ لكِ نوراً أبدياً، وتكمُلُ أيامُ نَوْحِكِ، وشعبك كلهم أبرارٌ.» (إش ٦٠: ١٨ــ٢١)

ويطيب لهذا النبي القديس أن يمزج النور بالخلاص بالتسبيح بزينة النفس، أي التجلّي الروحي.

لقد أشار إليه إشعياء النبي: «أنا الربُّ، قد دعوتُكَ بالبِرِ، فأُمسكُ بيدِكَ وأحفظُكَ وأجعلُكَ عهداً للشعبِ، **ونوراً للأمم، لتفتح عيون العمي**، لتُخرجَ مِنَ الحبسِ المأسورين، من بيت السجن، الجالسين في الظلمة.» (إش ٤٢: ٦و٧)

وليلاحظ القارىء أن المسيح بعد أن قال: «أنا هو نور العالم»، فتَّح عيني الأعمى بالفعل!... كذلك يقول إشعياء، وكأنه يحكي ما يرى من وراء الزمان، كيف أُهين النور وحاولت الظلمة عبثاً إطفاءه، ولكنه انتصر، وصار خلاصاً لأقصى الأرض، واستنارت به الشعوب، وتحررت من سلطان الظلمة، وصارت الكلمة غذاءً للروح وماءً للحياة كينبوع أبدي: «قد جعلتُكَ نوراً للأمم لتكون خلاصي إلى أقصى الأرض. هكذا قال الرب فادي إسرائيل، قدُّوسُه **للمهان النفس، لمكروه**

الأمة، لعبدِ المتسلِّطين ... قائلاً للأسرى: اخرجوا، **للذين في الظلام: اظهروا** ... **لا يجوعون ولا يعطشون**، ولا يضربهم حرٌّ ولا شمس، لأن الذي يرحمهم يَهديهم، **وإلى ينابيع المياه يوردهم** ...» (إش٤٩ : ٦و ٧و ٩و ١٠)

وهنا يجمع إشعياء النبي **النور، وتفتيح العيون، وخبز الحياة، والماء الحي، والينابيع.**

«نور الحياة»:

وكذلك ملاخي النبي: «ولكم أيها المتَّقون "**اسمي**" تُشرقُ شمسُ البر والشفاءُ في أجنحتها.» (مل ٤ : ٢)

وما يهمنا هنا في هذه النبَّوة الأخيرة: أن **الله سيعطي اسمه مقروناً بإشراق النور، وبالحياة التي فيه**، التي بلا أسقام، كناية عن الخليقة الجديدة التي تتنفس بالروح، وسوف يرى القارىء أن الرب سيكشف عن اسم الله الذي يتكلم به، بعد أن قال: «أنا هو نور العالم»، وكيف أعطى الشفاء بالفعل للمولود أعمى، فأصبح له «نور الحياة» على المستوى المحسوس. ونبوة ملاخي تعطي المقارنة صحيحة وعملية؛ كما أن الشمس هي للعالم لحياة الجسد وتجديده وشفائه، كذلك الرب هو شمس الروح و بِرُّها ونورها وطهارتها.

وقد حاول الربيون تفسير **النور** كما جاء في العهد القديم، كما في المزامير: «الرب **نوري**... ممن أخاف» (مز٢٧ : ١)، بأنه هو الناموس، لأن الناموس يوضح السلوك في الحياة كالنور في الظلمة. وهذا لم يَغِبْ عن سماع الرب وفكره، فهو يصحح و يعلن نفسه أنه «**نور الحياة**»، و«**الطريق**» أيضاً، و«**الباب**»، وأن مَنْ يتبعه، لا تُدركه الظلمة ولا يُدركه ليل.

وحينما يوضع الناموس في مواجهة المسيح، يكون المسيح هو كمال الناموس. وكما قال الربِّيون إن «**الهيكل**» هو «**النور**»، قال المسيح انقضوه وأنا أُقيمه في ثلاثة أيام، هيكلاً يملأ لا الأرض فقط، بل والسماء، نوراً ومجداً، كناية عن الخليقة الجديدة بجسده.

وقد يوحنا في رؤياه رأى منظر هذا الهيكل الجديد بالفعل، والرب سِرَاجه، وشعوب المخلَّصين تمشي في نوره (رؤ ٢١ : ٢٣و ٢٤).

إن استعلان الطبيعة الإلهية في المسيح كان بقصد أساسي، وهو أن تمتد قُوَى هذه الطبيعة وتتخلل الإنسان ككيان مخلوق أصلاً على **صورة الله**. وتعاليم المسيح وكلماته كانت انبعاثاً

وامتداداً لهذه القُوَى الإلهية التي في طبيعة المسيح: «الكلام الذي **أكلِّمُكم** به هو **روح وحياة**» (يو٦: ٦٣)، **ونور** أيضاً بالضرورة، وخاصة حينما كان يتكلم المسيح عن نفسه وعن طبيعته «"**أنا هو**": نور العالم». هذه هي انبعاثات الطبيعة الإلهية في كلمات، وكأن الكلمات شعاع هذا النور، إذا أصاب قلباً مفتوحاً تخلله وأضاءه. هذا هو قول المسيح: «**مَنْ يتبعني** فلا يمشي في الظلمة بل **يكون له نور الحياة**». وهكذا فإن نور العالم يتضح أنه «**نور الحياة**».

وما معنى «**يكون له** نور الحياة»؟ أليس أن نور الحياة يكون قد استقر فيه ــ «المسيح يحيا فيَّ» (غل٢: ٢٠)، **وصار مِلْكاً له**؟ ثم ما معنى أن **نمتلك نور الحياة** الذي في المسيح؟ أليست **هذه هي الشركة** في أعلى وأعمق معناها، حيث يجمعنا فيه وإليه شعاع نوره وقوة حياته المنبعثة من تعاليمه وكلماته وروحه؟ وأليس هذا هو بعينه الذي يقوله المسيح في صلاته للآب: «**أنا فيهم** وأنت فيَّ» (يو١٧: ٢٣)؟ **هذا هو منبع النور ومَصَبُّه**. أما قوته فقد أوضحها المسيح على المستوى العملي: «أنتم الآن أنقياء (مضيئون) **لسبب الكلام الذي كلَّمتُكم** به. اثبُتوا فيَّ وأنا فيكم» (يو١٥: ٣و٤). «إنْ حَفِظتُم وصاياي (نور)، تثبتون في محبتي، كما أني أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبُتُ في محبته» (يو١٥: ١٠). أما رفع هذا المستوى العملي إلى المستوى الرؤيوي فقد هتف به داود: «بنورك نرى نوراً» (مز٣٦: ٩). فنور المسيح واسطة لمُعايَنة نور الآب، أي واسطة لرؤيا وإتحاد. لذلك فنور المسيح أو المسيح كنور، هو شاهدٌ للمسيح، سواء كان بالكلمة أو العمل.

فالنور أصلاً كطبيعة بحد ذاتها لا يحتاج إلى شاهد ــ أي إلى مَنْ يشهد له ــ بل يحتاج إلى مُشَاهِد، أي إلى مَنْ يرى ويفرح، لأن النور يكون دائماً شاهداً لنفسه.

٨: ١٣و١٤ «**فقال له الفريسيونَ: أنت تشهدُ لنفسِكَ. شهادَتُكَ ليست حقاً. أجابَ يسُوعُ وقال لهم: وإن كنتُ أشهدُ لنفسي فشهادتي حقٌ** ἀληθής**، لأني أعلمُ من أين أتيتُ وإلى أين أذهبُ. وأما أنتم فلا تعلمونَ من أين آتي ولا إلى أين أذهبُ**».

موضوع الشهادة والدينونة بالنسبة للمسيح أمرٌ خطير للغاية، فهو يلتحم التحاماً مُحْكَماً مع طبيعة المسيح **الكلمة المتجسد، الابن المُرْسَل**.

فالمسيح يطرق هذا الموضوع من ناحيتين: من ناحية مصدرها أي «**الكلمة**» أي «**الابن**»؛ ومن ناحية **التجسد** أي «**ابن الإنسان**». وهنا يلزم بل يتحتم التعارض فتظهر المضادة paradox: فهو من جهة ليس له أن يدين لأنه جاء «كمُرسَلٍ» ليُخلِّص فقط، كما أنه ليس له أن يشهد

لنفسه، لأنه لم يأتِ ليعمل مشيئته أو يتكلم من نفسه. هذا من وجهة نظر ابن الإنسان.

وفي نفس الوقت أيضاً، له أن يدين لأن الآب أعطى له كل الدينونة، لأنه وإن كان هو ابن الإنسان بالتجسد فهو لم يتغير كونه الابن الوحيد وهو والآب واحد، فهو يعرف كمُرْسَلٍ من أين أتى وإلى أين يذهب ليجلس عن يمين الآب.

كذلك له أن يشهد لنفسه، وشهادته تكون هي الحق، لأنه لا يطلب من شهادته القول الذي يقوله أو العمل الذي يعمله مجداً لنفسه، إنما هو يستعلن الآب كغاية ونهاية لكل قوله وعمله، لذلك تأتي شهادته حقاً ملءَ الحق، لأنه يطلب مجد الآب.

والمسيح يدرك جداً هذه الحقيقة و يضغط عليها ضغطاً بقوله: «و"**إنْ" كنتُ** أشهد لنفسي» وهي تجيء باليونانية: « κἂν » وتعني «**حتى ولو**»، موضحاً بها أنه بنوع من التنازل قال سابقاً: «**إن كنتُ** أشهد لنفسي **فشهادتي ليست حقاً**» (يو٥ : ٣١)، فهو يستدرك هنا هذا القول السابق بقوله: «وإنْ كنتُ أشهد لنفسي فشهادتي حق» للتأكيد على أن شهادتي لنفسي تبقى هي الأصح وهي الحق، بحسب الاستعلان الصحيح لشخصي الذي **وإن كنتم لا تدركونه أنتم**(٧) ولكني أنا أُدركه، فأنا أعرف من أين أتيتُ وإلى أين أذهبُ باعتباري الابن و«الكلمة»، حيث أن الابن يشهد له أبوه حتماً، فشهادة الابن لنفسه هي شهادة مزدوجة: شهادته لنفسه وشهادة أبيه له. كذلك **فهو** باعتباره «**الكلمة**» الذي يستعلن الآب لا يقبل شهادة إنسان، وإلاَّ ما كان **هو «كلمة الله»، فـ«الكلمة» لأنه كلمة الله** وقد جاء ليشهد لله تكون شهادته هي بعينها **شهادة الله، فهي الحق** عين الحق.

و يلاحظ القارىء ــ إثباتاً لقولنا هذا ــ أنه في حالة قول المسيح: «إنْ كنتُ أشهدُ لنفسي فشهادتي ليست حقاً» (يو٥ : ٣١) تجيء «**أنا**» في اليونانية مخفَّفة ἐγώ في وضعها الشخصي كإنسان ἐὰν ἐγώ μαρτυρῶ . ولكن في قوله: «أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني» (يو٨ : ١٨)، تأتي «**أنا هو**» في اليونانية بثقلها الإلهي ἐγώ εἰμι .

وهكذا، وبالنهاية، فإن «**شهادة**» المسيح و «**دينونة**» المسيح على السواء إذا نُظِرَتْ من وجهة نظر بشرية كالتي نظر بها الفريسيون للمسيح، **فهي فعلاً** ليست حسب الحق ولا هي

(٧) معلوم أن العالم يعرف خاصته، والمسيح ليس من هذا العالم. وهكذا يظل المسيح غريباً عن هذا العالم؛ وكلُّ من ينتمي إلى هذا العالم لن يعرف حقيقة المسيح من أين أتى وإلى أين يذهب.

تُحْسَبُ شهادة أو دينونة. ولكن يوم أن نعرف من أين جاء المسيح وإلى أين يذهب — أي نعرف حقيقة المسيح الإلهية **كواحد مع الآب** — حينئذ سنعرف أن شهادته حقٌ ودينونته حقٌ.

وهكذا نرى في هذا الاعتراض على شهادة المسيح لنفسه عجز الفريسيين عن اللحاق بفكر المسيح وطبيعته الإلهية الناطقة فيه. فالمسيح يقول: «أنا هو نور العالم» على أساس عملي قد قام بإثباته بالبرهان والدليل القاطع، بالكلمة القوية الحية الفعَّالة، وبالفعل الإعجازي. وهذه بحد ذاتها هي القوى المنبعثة من طبيعته الإلهية المنيرة، أو هذا هو النور الذي يشير بكل هدوء وبساطة إلى مصدره وهو الله الآب. **والنور يشهد لنفسه لا محالة** بمجرد ظهوره، حيث يكشف عن مصدره ويستعلن هدفه بآن واحد. لذلك يستحيل إخفاء النور الإلهي، فبمجرد أن ظهر النور الإلهي متجسداً، بدأ فعله يسري في القلوب والعقول ليستعلن ماهيته وليستعلن مصدره: «و(نحن) رأينا **مجده** مجداً كما لوحيدٍ من الآب.» (يو١: ١٤)

وشهادة المسيح باعتباره النور الإلهي حقٌ منتهى الحق، لأنه وإن كان يشهد لنفسه فهو يشهد بآن واحد إلى مصدره أي الله الآب — الذي منه أتى — فهو في الحقيقة «حقٌ من الحقّ»، أو كما كان يقول المسيح دائماً: «الحق الحق أقول لكم...». لأنه حقٌ مرتين: حق له وفيه، وحق الآب الذي هو منه!!

فقول الفريسيين: «أنت تشهد لنفسك. شهادتك ليست حقاً»، هو تماماً مثل قول الأعمى للنور: "أنتِ الظلمة"، أو مثل محاولة عابثة لإطفاء الشمس. هنا العيب ليس في النور على الإطلاق، ولكن العيب في غياب العين الروحية والعقل المميز للحق حتى يمكن أن يرى النور فيقول للنور: "أنت نور بالحقيقة".

هنا اعتراضٌ لا بد من توضيحه، إذ ما ذنب هؤلاء الفريسيين والرؤساء الذين ليست لهم عيون تبصر ولا آذان تسمع؟ هذا أجاب عنه المسيح مراراً وتكراراً: إن آمنتم بي ترون الروح، وتسمعون للحق وتدركون الحياة، وتعلمون من أين أتيت وإلى أين أذهب، وإذا لم تؤمنوا بي فعبثاً تحاولون إذ تظل عيونكم تبصر النور ولا تراه إلاَّ ظلمة، وآذانكم تسمع الحق ولا تميزه إلاَّ باطلاً، وتجهلون من أين أتيتُ وإلى أين أذهبُ، لأنكم تبحثون عن أنساب الجسد. أما مسوغات الإيمان بي فهي الأعمال التي عملتُها بينكم ولم يعملها أحدٌ غيري قط. فإن عَسُرَ عليكم الإيمان بي متكلماً وموضحاً، فآمنوا بالأعمال التي تنطق بأنها بالله معمولة!

أما قولكم أن شهادتي لنفسي ليست حقاً، فهذا دليل قاطع أن عيونكم لا ترى النور وآذانكم لا تتبين الحق؛ ولهذا لا تعرفون من أين أتيت وإلى أين أذهبُ، وهذا لا ينفي الحقيقة، فعدم رؤية النور ليست كفيلة بأن تلغي وجوده. و يكفي للنور أن يعرف أن مصدره هو الله، ورسالته هي أن ينير العالم، وأنه هو هو قائم في الله وممتد إليه، وحينئذ حقٌ له أن يقول: «"أنا هو" نور العالم»!

٨: ١٥و١٦ **«أنتم حَسَبَ الجسدِ تَدِينُونَ. أما أنا فلستُ أدينُ أحداً. وإن كنتُ أنا أدينُ، فدينونتي حقٌ، لأني لستُ وحدِي، بل أنا والآبُ الذي أرسَلَني».**

«أنتم حسب الجسد تدينون»:

هنا يستطرد المسيح من مجرد الشهادة لنفسه التي ينفون حقيقتها إلى هدف هؤلاء الفريسيين من هذا النفي. فقولهم: **«شهادتك "ليست حقاً"»، هو في الحقيقة اتهام مباشر له بالإدعاء والتزييف والكذب. فهم بذلك أقاموا أنفسهم «ديَّانين» للحق، بالرغم من أنه ليست لهم معرفة صحيحة به.** فالرب هنا يكشف من أين انخدعوا، وكيف أن دينونتهم هي الباطلة، وليس الحقُ الذي يشهد به هو. فيقول لهم: **«أنتم حسب الجسد تدينون»** ذلك لأن ليست لهم معرفة روحية. أي أن اعتمادهم هو فقط على المقاييس البشرية من رؤية جسدية ودراسة أنساب ووطن وفهم جسدي وتعاليم حرفية على مستوى الجسد؛ وكأنه يقول لهم: أنتم تحاولون أن تقيسوا الروحيات بالجسديات وتحكموا على الإلهيات بالمعرفة القائمة على الحرف، فعثرتم في الله الآب الذي أرسلني، وعثرتم فيَّ أنا الذي جئت لأُخرجكم من الظلمة إلى النور.

«أما أنا فلست أدين أحداً»:

أنا لا أدينكم على هذا، ولا أحكم عليكم في ذلك، ولا أدين أحداً غيركم بالمرة. لأني لم آتِ لأدين العالم بل لأُخلِّص (الذين في) العالم.

أما الدليل على صحة قوله هذا فهو أنه لم يَدِنْ المرأة الخاطئة التي أمسكوها في ذات الفعل، والتي يقضي الناموس برَجْمِها، بل دعاها للتوبة وآزرها بقوة من عنده دون أن يلغي الناموس.

٨: ١٦ **«وإنْ كنتُ أنا أدِينُ، فدينونتي حقٌ، لأني لستُ وحدي بل أنا والآبُ الذي أرسَلَني».**

المسيح هنا يعلن لهم أن هناك دينونة أخرى خطيرة ليست حسب الظاهر، وليست حسب

الجسد، بل حسب فكر الآب وموازين الله، وهي التي «أُعطيت كلها للابن». هذه الدينونة هي حسب الحق ἀληθινή، **وهي التي ستُدَانُ بها الخطية والعالم والشيطان**(٨)، أي دينونة كل الذين ليس فيهم الحق.

هذه يقول عنها المسيح: «وإن كنتُ أنا أدينُ فدينونتي **حقٌّ**، لأني لستُ وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني». أما من جهة الدينونة عامة، فالمسيح وعد أنه لن يدينهم على ما قالوه وتفكَّروا به من جهته ــ **إن كان على مستوى الجهل والجهالة والحكم حسب الظاهر والجسد:** «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم **لا يعلمون** ماذا يفعلون» (لو٢٣: ٣٤)، ولكن إن كانت مقاومتهم لشهادته وعدم الإيمان به ليس عن جهل أو جهالة وليس مجرد حكم حسب الظاهر والجسد، بل **كان مقاومة عن معرفة وانصياعاً وراء «الحسد»** لأنهم: «كانوا قد **أسلموه حسداً**» (مر١٥: ١٠)، **حفاظاً على مراكزهم ومجدهم الكاذب، فهم يكونون قد انحازوا إلى هذا العالم ورئيس هذا العالم وإلى الباطل، ويكونون قد وقعوا تحت «دينونة الحق»**: «لذلك الذي أسلمني إليك له خطية أعظم» (يو١٩: ١١)!! **لأن جوهر «دينونة الحق» هو الفصل بين الحق والباطل ــ وبالتالي وبالضرورة ــ إسكات صوت الباطل.**

«لأني لست وحدي، بل أنا والآب الذي أرسلني»:

ثم انتقل المسيح من الدينونة إلى الشهادة مرة أخرى لينفي عن نفسه، عندما قال: «**أنا هو** نور العالم»، أنه يطلب ما لنفسه أو يسعى لمجد نفسه. فأوضح لهم أن شهادته هذه ليست من ذاته أو لمجد نفسه، بل مستمدة من شهادة الله الآب له، وعلى ذلك **فهذه الشهادة التي يشهد لها هي شهادة اثنين: هو والآب.** وبذلك تكون صحيحة حسب مقاييس حرفية الناموس الذي يفهمونه.

---

(٨) أ ــ **أما دينونة الخطية** فهي عمل الآب والابن وقد أوضحها بولس الرسول: «**فالله إذ أرسل ابنه** في شبه جسد الخطية ولأجل الخطية، **دان الخطية** في الجسد. لكي يتم حكم الناموس فينا.» (رو٨: ٣و٤)

ب ــ **أما دينونة العالم** فهي أيضاً عمل الآب والابن: «الآن نفسي قد اضطربت وماذا أقول. **أيها الآب نجني من هذه الساعة**، ولكن لأجل هذا أتيتُ إلى هذه الساعة. أيها الآب **مجِّد اسمك**. فجاء صوت من السماء مجَّدتُ وأمجد أيضاً ... أجاب يسوع ... **الآن دينونة هذا العالم، الآن يُطرَحُ رئيسُ هذا العالم خارجاً**.» (يو١٢: ٢٧و٢٨ و٣٠و٣١)

ج ــ **وأما دينونة الشيطان** رئيس هذا العالم فهي أيضاً من عمل الآب والابن: «ولكن **إن ذهبتُ أُرسله (الروح القدس) إليكم**، ومتى جاء **ذاك يبكِّتُ العالم** على خطية وعلى برٍّ **وعلى دينونة**. أما على خطية، فلأنهم لا يؤمنون بي؛ وأما على برٍّ، فلأني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضاً؛ وأما على دينونة، فلأن رئيس هذا العالم قد دِينَ.» (يو١٦: ٧ــ١١)

٨: ١٧و١٨ «وأيضاً في ناموسكُم مكتوبٌ أن شهادةَ رَجُلينِ حقٌّ. "أنا هُوَ" الشَّاهِدُ لنفسي ويشهَدُ لي الآبُ الذي أرسَلَني».

يلاحظ هنا تأكيد المسيح لشخصيته الإلهية «أنا هو» ــ ἐγώ εἰμι ــ وهي تمهيد لشهادة واحدة: الآب والابن.

«وأيضاً في ناموسكم مكتوب أن شهادة رجلين حقٌّ(*)»:

هنا يعلن المسيح مقدار الهوّة التي تفصله ــ كصاحب العهد الجديد ــ عن «ناموس اليهود»، أي عن روح الأحكام التي صار يحكم بها الفريسيون بحسب الجسد فلوثوا روحانية العهد القديم.

لذلك فالمسيح عندما يقول هنا «ناموسكم»، فذلك لا يُحسَبُ تقليلاً من قيمة الناموس أو إلغاءً له، ولكنه يتكلم عن الناموس بحسب تفسيرهم الجسدي الذي رأيناه أنه أنشأ في فكرهم دينونة الحق والله نفسه. أما ناموس موسى الصحيح، فيعلن ويصرخ من جهة المسيح الذي سيأتي، بدينونة من يرفضه: «ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أُطالبه» (تث١٨: ١٩). فلو عاملهم المسيح حسب ناموس موسى الصحيح لقطعهم، ولكننا رأيناه لا يدينهم بالرغم من أنهم انحرفوا عن متطلبات الناموس وفهمه الصحيح: «لا تظنوا أني أشكوكم إلى الآب يوجد **الذي يشكوكم وهو موسى** الذي عليه رجاؤكم. لأنكم لو كنتم تصدقون موسى (الناموس) لكنتم تصدقونني لأنه هو كتب عني. فإن كنتم لستم تُصدّقون كتب ذاك فكيف تصدقون كلامي.» (يو٥: ٤٥ــ٤٧)

«أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني»:

ويلاحظ القارىء أن قول المسيح في الآية السالفة: «لأني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني»، ثم يكرر «أنا والآب الذي أرسلني»، ثم إذ يضيف عليها: «إن شهادة رجلين حقٌّ»، يوضح بأبرز تعبير عن «الوحدة» الذاتية القائمة بينه وبين الآب. بل ومن تطابق الشهادتين، شهادته عن نفسه وشهادة الآب عنه، تبرز وحدة المشيئة والفكر.

والذي نخرج به من شرح المسيح أن استعلان المسيح لذاته والآب هو حقيقة، بل حقٌّ مطلقٌ، لا يحتاج أن يكون له شهادة من بشر تؤيده. والتجاء المسيح للناموس: «إن شهادة رجلين حقٌّ»، هو احتقار لتفكير اليهود، وإخضاع لمنطق الناموس ليخدم الحق وليس ليؤيده. أما دليل جهلهم للحق وجهالتهم بالناموس فتظهر في سؤالهم الآتي:

(*) تث١٧: ٦.

٨: ١٩ «فقالوا له: أين هو أبوكَ؟ أجابَ يسوعُ: لستم تعرفونني أنا ولا أبي. لو عَرَفتُموني لَعَرَفْتُم أبي أيضاً».

يُلاحظ أن الفريسيين لا يسألون عن من هو أبوك؟ لأنهم أدركوا باليقين أنه يتكلم عن الله، ولكنهم في استهانة بهذه العلاقة يحاولون أن ينفوا عن المسيح قدرة هذا «الآب» على الشهادة لحساب المسيح، مدركين أنه يتعذر على المسيح أن يستحضر شهادة شفوية أو كتابية من هذا الآب.

أما إجابة المسيح ففيها ألمعيّة وحكمة عميقة، إذ واجههم بالغباء الذي وقعوا فيه حينما قالوا: «أين هو أبوك؟» لأنه كان يلزم التعرف بهذا الآب قبل أن يُسألَ عن مكان وجوده: فكأنه يقول لهم: كان يلزم أولاً أن تتعرفوا على أبي قبل أن تسألونني أين هو. فبقوله: «لستم تعرفونني أنا ولا أبي. لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً»، يجيب عليهم إجابة مستترة هي نفس الإجابة التي أجاب بها فيلبُّس حينما سأله: «أرِنَا الآب وكَفَانا» (يو١٤: ٨)؛ لأنهم لو كانوا قد عرفوا المسيح، لعرفوا الآب، لأن المسيح هو الصورة المنظورة للآب غير المنظور، وكلمته هي الكلمة المنطوقة من الآب، والعمل الذي يعمله معمول بتدبير الآب، وكذلك المشيئة هي مشيئة الآب. ولكن لأنهم عثروا في المسيح ولم يَرَوْا منه إلاَّ بشريَّته، انحجب عنهم لاهوته، لذلك غابت عنهم صلته بالآب، وبالتالي لم يدركوا من هو أبوه ولا أين هو أبوه.

كذلك لو كان اليهود على علم صحيح بالله «يهوه»، ولهم صلة حقيقية به، لأدركوا المسيح، لأنه ابنه والحامل لصفاته. وفي هذا تعيير مرٌّ لليهودية على وجه العموم التي اسْتُؤمِنَت أصلاً على معرفة الله دون بقية الشعوب، ولكنها برفضها للمسيح، أثبتت أنها متغرِّبة تماماً عن الله.

ومن حيث منهج الحوار، واضح أن اليهود برفضهم شهادة المسيح عن نفسه التي هي شهادة الآب حتماً وبالضرورة، فإن عيونهم وآذانهم انسدَّت عن إدراك الله. هم سَدُّوها بأعمالهم وأخلاقهم، والله سدّها لهم، لأنهم لم يستحسنوا أن يُبْقُوا الله في معرفتهم. وبهذا تلَفَتْ أدوات المعرفة الحقيقية عندهم ــ «لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» ــ وبالتالي تعذرت الطاعة لصوت الله لغياب الصوت ذاته!! وهكذا بلغ الاستعداد عندهم لادراك الاستعلان الذي جاء به المسيح إلى الصفر. فانتهى بهم الأمر إلى رفض المسيح **لأنهم لم يعرفوه**، أو بالحري لأنهم **لم يتعرَّفوا عليه**. وهكذا ذهبت دقات الإنذار المتوالية التي أطلقها الله شديدة ومتكررة في آذانهم: «تأتي ساعة وهي **الآن**»، «الآن»، «الآن» حتى انتهى الأوان! وصدر الحكم ووقعوا تحت الدينونة: «لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيري، لم تكن لهم خطية، وأما الآن **فقد رأوْا وأبْغَضُوني**

أنا وأبي، لكن لكي تتم الكلمة المكتوبة في ناموسهم إنهم أبغضوني بلا سبب.» (يو١٥: ٢٤ـ٢٥)

٨: ٢٠ **«هذا الكلامُ قالَهُ يسوعُ في الخزانةِ وهو يُعلِّمُ في الهيكلِ. ولم يُمسِكْهُ أحدٌ لأن ساعَتَهُ لم تكن قد جاءَت بعدُ».**

وضح الآن المكان الذي التجأ إليه المسيح لإجراء هذه التعاليم، وهو المكان المخصَّص لوضع خزائن جمع الأموال. وهو داخل رواق النساء المكان المحبب جداً للشعب حيث كانت توقد المنارات الأربع في عيد المظال. وقد اختار الرب هذا المكان بالذات داخل الهيكل لأنه قريب، بل في مواجهة المكان المخصَّص لانعقاد السنهدريم والذي يجتمع فيه اليهود عادة، وهذا المكان هو المسمَّى «جازت» Gazith، ويقع بين رواق النساء والرواق الداخلي. وهذا يوضح أن المسيح كان يلقي تعليمه على مسمع من أعضاء السنهدريم. وقد أشار إليه المسيح أثناء محاكمته: «فسأل رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه وعن تعليمه. أجابه يسوع: أنا كلَّمتُ العالم علانية. أنا علَّمتُ كل حين في المجمع وفي الهيكل حيث يجتمع **اليهود** (الفريسيون) دائماً وفي الخفاء لم أتكلم بشيء.» (يو١٨: ١٩و٢٠)

وعلى المفهوم الميستيكي الذي يرمي إليه ق. يوحنا، يكون قد صدر الحكم النهائي على اليهود من داخل هيكلهم، وعلى خلفية ناموسهم، وفي حضرة سنهدريمهم: أن ليست لهم معرفة بالله.

وليس عبثاً ولا هو لِماماً أن يذكر ق. يوحنا أن هذا الحكم صدر في هذا الموضع ومن هذا المنبر الرسمي، فهو إنما قصد قصداً أن يوثِّق الحكم ويسجله للتاريخ وللعالم وللإنسان ككلٍّ، فليس اليهود فقط، مَنْ حَضَرهُم هذا النطق، بل وكل مَنْ يدَّعي بادِّعاء اليهود وينتهي إلى ما انتهوا إليه.

«ولم يمسكه أحد لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد»:

مراراً وتكراراً انتهى اليهود إلى الأمر بإلقاء القبض عليه، ورُتِّبت كل الأمور، ولكن في آخر لحظة يلغيها المسيح بحق الفيتو الإلهي، لأن حكم الإنسان على الله هو محض افتراء لا يرقى أبداً إلى التنفيذ، فصَلْبُ المسيح لم يكن بأي حال من الأحوال بحسب مشيئة إنسان بل بحسب ضرورة رآها الله وحدَّد ساعتها، ولأن ساعة التسليم الإرادي لم تكن قد جاءت بعد، فهكذا تتفرق الأجهزة والأيدي المتربِّصة في مرارة وسخط يندهش لها رؤساء الكهنة الذين لم يستطيعوا أن يخفوا سخطهم من هذا الأمر أثناء المحاكمة.

ب ـــ الجزء الثاني من الحوار

«أنا هو»

(٨:٢١—٢٩)

٨:٢١—٢٤ **«قال لهم يسوعُ أيضاً: أنا أمضي وستطلُبونني وتموتونَ في خطيَّتكم. حيث أمضي أنا لا تقدِرُون أنتم أن تأتوا. فقال اليهود: ألعلَّه يقتلُ نَفْسَهُ، حتى يقولُ حيث أمضي أنا لا تقدِرُون أنتم أن تأتوا. فقال لهم: أنتم مِنْ أسفَلُ أما أنا فمِنْ فوقُ. أنتم من هذا العالم أما أنا فلستُ من هذا العالم. فقلت لكم: إنكم تموتونَ في خطاياكم لأنكم إن لم تؤمِنُوا أني أنا هو تموتونَ في خطاياكُم».**

«أفعالُهم لا تَدَعُهم يرجعون إلى إلهِهم، لأن روح الزنا في باطنهم، وهم لا يعرفون الرب. وقد أُذلَّت عظمة إسرائيل في وجهه، فيتعثَّر إسرائيلُ وأفرايمُ في إثمهما، ويتعثر يهوذا أيضاً معهما. يذهبون بغنمهم وبقرهم (ذبائح) ليطلبوا الرب ولا يجدونه، قد تنحَّى عنهم. قد غدروا بالرب.» (هو٥: ٤—٧)

مفتاح فهم هذه الآيات كلمة «أيضاً» والتي تأتي باليونانية: οὖν πάλιν = «ومن أجل ذلك»، أي أن هناك سبباً متكرراً يتكلم من أجله المسيح. ويلاحظ القارىء أن في الأصحاح السابع عدد ٣٣و٣٤ قال المسيح هذا الكلام نفسه تقريباً، وفي نفس الموقف لما جاءت حَمْلة ضباط الهيكل للقبض عليه، وهنا أحسَّ المسيح أن نيَّتهم متجهة أيضاً للقبض عليه مرة ثانية، لذلك وبسبب وضوح نيَّتهم للقتل، بدأ المسيح هنا يحذر بتأكيد وجدِّية أنهم هم الخاسرون في هذه القضية، خسارة لن تُعوَّض لأنها ستكون لهم للموت الأبدي، لأن خطيتهم ستبقى في عنقهم ولن تغفر لهم.

«تموتون في خطاياكم»:

يُلاحظ أن الخطية هنا هي خطية رفض المسيح: «والذي لا يؤمن بالابن ... يمكث عليه غضب الله.» (يو٣:٣٦)

«ستطلبونني»:

ولكن للأسف ستبحثون عني على الأرض وأنا سأكون في السموات، لذلك عبثاً تبحثون، ولن تجدونني لأنكم محبوسون في النظرة الجسدية الأرضية، ويا ليتكم كنتم تبحثون عني بصلاح نية، ولكنكم في حقدكم اليائس وعناد مقاومتكم لمشيئة الله، لن تكون خيبة أملكم هيِّنة أو يمكن تعويضها، بل ستكون حكماً مؤبداً بالموت في خطيتكم. أما هذه الخطية فسوف يكشف عنها المسيح بعد ذلك بوضوح.

«حيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا»:

يلاحظ أن المسيح هنا يركز على الفارق الشاسع بين «أنا» ἐγώ و«أنتم» ὑμεῖς . هذا هو أساس وجوهر الإنفصال الذي لا يمكن تلاحمه مرة أخرى كما هو حادث وسهل الآن بالجسد، الأمر الذي سيوضحه المسيح في آية قادمة.

٨ : ٢٢ **«فقال اليهودُ: ألَعلَّه يقتلُ نفسَهُ حتى يقولُ حيث أمضي أنا لا تقدِرُونَ أنتم أن تأتوا».**

اليهود هنا هم الفريسيون المتربِّصون، الذين سبق أن قالوا، ردًّا على تحذيره أنه سيمضي ولا يقدرون أن يأتوا إليه، إنه ربما يكون قد فكَّر أن يمضي إلى شتَات اليونانيين ليُعلِّم هناك (٧: ٣٥). ولكن هنا نجد أن ردَّهم يشتدُّ فيه التهجُّم والخساسة مع مرارة الحقد، ربما لشعورهم أن المسيح يتعالى عليهم ويترفَّع عن مستواهم. كما يكشف ردُّهم: إنه ربما «يقتل نفسه»، مقدار ضيق العقل والتفكير المسدود، إذ بحثوا في أنفسهم كيف لا يستطيعون أن يذهبوا إليه؟ باعتبار أن إمكانياتهم في نظرهم تفوق إمكانياته؟ فرأوْا أن هناك مكاناً واحداً لا يستطيعون الذهاب إليه، وهو جهنَّم، حيث تستقر أرواح الذين يقتلون أنفسهم (حسب مذهب اليهود). كل ذلك تفكروا فيه في ضمائرهم، ولكن المسيح عَلِمَ بما يُضْمرون وبما يُفكِّرون.

٨ : ٢٣و٢٤ **«فقال لهم: أنتم من أسفلُ أما أنا فمن فوقُ. أنتم من هذا العالمِ أما أنا فلست من هذا العالمِ. فقلت لكم إنكم تموتون في خطاياكم لأنكم إن لم تؤمنوا أني أنا هو ἐγώ εἰμι تموتون في خطاياكم».**

المسيح هنا يشرح السبب الذي سيحتِّم بعدم قدرتهم على تتبُّع المسيح. ويوضحه على أساس اختلاف الطبيعة واختلاف الوجود بين ما هو أرضي وما هو سماوي، هذا الإختلاف الذي هو أيضاً

السبب في قصور فهمهم.

هذا الاختلاف في الطبيعة سبق أن شرحه لهم الرب بصورة أخرى: «لأني أعلمُ من **أين أتيتُ** وإلى **أين أذهبُ**، وأما أنتم **فلا تعلمون** من أين آتي ولا إلى أين أذهبُ... **أنتم حسب الجسد...**» (٨: ١٤و١٥). هنا يكون عدم معرفتهم لطبيعة المسيح ومن أين جاء، هو الذي سبّب عدم معرفة المسيح؛ وأما عدم معرفتهم إلى أين يذهب فقد أضاع عليهم معرفة رسالته ومعرفة الذي أرسله.

هنا المسيح يوضح أكثر جداً من أي شرح آخر من أين هو وما هي طبيعته:

«**أنتم من أسفل**» ἐκ τῶν κάτω ، أي من الطبيعة الترابية، من الأرض، من المحدود الزمني المنتهي إلى الموت، من تحت الباطل والزيف والأقنعة الزائلة.

«**أما أنا فمن فوق**» ἐκ τῶν ἄνω أي من الطبيعة الخالقة، من السماء، من اللامحدود الأزلي، من الخالد الأبدي، من الحق القائم بذاته والدائم بكيانه.

«**أنتم من هذا العالم**»، المتغير والزائل المحكوم بالقُوَى الطبيعية، والذي أخضع للباطل، ويسوده الشر، ويغطيه الظلُّ ويعبث به الدوران!

«**أما أنا فلستُ من هذا العالم**»، **أتيت إليه** مُرْسَلاً، **وأتركه** وأذهب من حيث أتيتُ؛ **دخلتُه لأخلِّصه**، وأفْدِيه، وأُحييه، وأنيره، ثم أنطلقُ مفتتحاً الطريق المؤدي إلى السماء لمَن استطاعوا أن يغلبوه ـــ كما غلبتُه «بدم الخروف وبكلمة شهادتهم» (رؤ١٢: ١١). هنا ردٌّ يُخرس ظنَّهم الآثم أنه يذهب إلى الجحيم بقتله لنفسه.

وهنا ينبغي أن نلاحظ أن طبيعة المسيح هي «من فوق» ولم تنزل أبداً «إلى أسفل». فنزوله إلينا كان فقط من أجلنا، وأما هو من حيث طبيعته فهو لم يزل «من فوق»، وهو لم يَزَلْ موجوداً فوق في السماء حتى أثناء وجوده معنا على الأرض: «ليس أحد صعد إلى السماء إلاَّ الذي نزل من السماء، **ابن الإنسان الذي هو في السماء**» (يو٣: ١٣). فنزوله كان فقط من أجل أن يجذبنا معه إلى فوق ويرفعنا معه حتى إلى الآب(*)، كما قال هو نفسه في مناسبة أخرى: «**وأنا إن ارتفعتُ عن الأرض أجذبُ إليَّ الجميع**» (يو١٢: ٣٢)، حيث هذا الجذب السِّري يعتمد أساساً على كون طبيعته طبيعة إلهية «من فوق» وإلى فوق، فإن تم الإتحاد بينه وبيننا نحن الذين «من أسفل» فلا بد أن يجذبنا معه إلى فوق.

(*) «رفع قديسيه معه إلى العلاء وأعطاهم قرباناً لأبيه» (صلاة القسمة لعيد القيامة والخمسين المقدسة).

هنا تظهر للغاية أهمية الإتحاد بالمسيح. لأن الخطايا التي عُملت هي في الواقع شهوات ورغبات أرضية ارتبطت بها النفس وصارت تُشكِّل ثقلاً أرضياً شديداً جداً، يستحيل معه أن نرتفع إلى السماء، إن لم تتغلب عليها جاذبية المسيح. فالإرتفاع إلى فوق مع المسيح مذّخر للذين أحبوا المسيح وعاشوا معه وصادقوه واتحدوا به. فإن لم نكن عائشين معه في **شركة حقيقية** ــ وليس مجرد شركة فكرية أو عقائدية ــ يستحيل أن نرتفع معه إلى فوق، لأن طبيعتنا تُوقعنا من جديد إلى الأرض.

وأما هو فطبيعته سماوية «من فوق» وله القدرة على الرفع إلى فوق، بل إن هذه القدرة على الرفع هي قدرة **مطلقة**. وأما ثقلنا فهو غير مطلق ولكنه محدود، حتى إذا اعتبرنا ثقل البشرية كلها مجتمعة، فهي في مجموعها لا تخرج عن كونها خليقة محدودة ــ وخطايانا مهما كثرت هي أيضاً محدودة ــ وأما هو فله طبيعة إلهية مطلقة، ولذلك فقدرته على الجذب «إلى فوق» تفوق بلا قياس ثقل البشرية الذي يجتذبنا إلى أسفل.

من أجل ذلك، فالإتحاد بالمسيح في غاية الأهمية لأنه الوسيلة الوحيدة التي بها نرتفع معه إلى فوق، بكل هدوء وبكل سلام، لأنه هو الذي يجذبنا ويرفعنا ولسنا نحن من ذواتنا.

وبهذا المعنى أيضاً قال: «أنا أمضي لأُعدَّ لكم مكاناً. وإن مضيتُ وأعددتُ لكم مكاناً، آتي أيضاً **وآخذكم إليَّ** حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً» (يو١٤: ٢ــ٤). **«آخذكم إليَّ»** لأنكم بدوني لا تستطيعون أنتم أن تأتوا إلى فوق لأنكم أنتم بحسب طبيعتكم «من أسفل». ولذلك: «كما قلت لليهود حيث أذهب أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا أقول لكم أنتم الآن» (يو١٣: ٣٣). ولما اعترض بطرس قائلاً: «لماذا لا أقدر أن أتبعك الآن؟»، أوضح الرب أنه طالما الخطية كائنة فيه ــ وهي التي ستقوده إلى الإنكار ــ فهو لا يستطيع أن يتبع الرب ولا أن ينجذب إليه «إلى فوق». «ولكنك ستتبعني أخيراً» (يو١٣: ٣٦)، أي متى طهَّرتُك من خطيتك التي تثقِّلك الآن وتجذبك إلى أسفل.

فالأماكن النورانية الفوقانية التي لها الإرتفاع المهول تحتاج إلى خفة كبيرة للوصول إليها، فلن تبلغها إلاَّ بعد أن يرفع الرب عنا أثقالنا، ويعلمنا كيف نصعد معه إلى فوق ثم إلى فوق وإلى أبد الآبدين.

هذه هي في الحقيقة شهوة المسيح الأزلية التي من أجلها احتمل كل شيء، والتي طلبها من أجلنا بإلحاح من الآب: «أيها الآب **أريد** أن هؤلاء الذين أعطيتني، **يكونون معي حيث أكون أنا** لينظروا مجدي الذي أعطيتني، لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم.» (يو١٧: ٢٤)

هذا هو نصيبنا المفتخر فوق. ولكنهُ يُصنع هنا في الزمان الحاضر. فإن مُتنا قبل أن نحصل على هذا الإتحاد وقبل أن نحقّق هذه الصلات الحية بالمسيح، فكما يقول لليهود: «ستطلبونني وتموتون في خطيتكم» (يو٨: ٢١)، حيث الخطية هنا بالمفرد وهي خطية رفض المسيح وعدم التجاوب معه.

لذلك يجب أن نتنبه جداً أن في قول المسيح: «أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق» دعوةً سرية وتنبيهاً لأذهاننا لضرورة تكوين علاقة حية به حتى نتغيَّر ونتجدَّد، فنعرفه على حقيقته ونأخذه، وإذا ما أخذناه يحملنا معه إلى فوق!

أما إنْ تغاضينا عن الدعوة وأهملناها، فإننا نصير كاليهود الذين رفضوه ونبقى بعيدين عنه.

ولذلك، يوضِّح المسيح مدى الهوّة التي بينه، والتي تختبىء وراء كيانه الإلهي غير المنظور والمتغرِّب زماناً يسيراً بعدُ، وبينهم كبشر يهود عندما رفضوه ليَبْقَوا على الأرض التي استوطنوها. ويُعقِّب المسيح مستزيداً قوله توضيحاً: «**فقلت لكم إنكم تموتون في خطاياكم**». لأن مجيئي لم تدركوه، وخلاصي لم تقبلوه، وفدائي أهنتموه. لهذا بَقِيَتْ لكم خطاياكم مربوطة في أعناقكم.

«لأنكم إنْ لم تؤمنوا أني أنا هو، تموتون في خطاياكم»:

والمسيح هنا يَبْلغ في استعلان شخصه الإلهي أقصى المدى، حينما يقول: «إن لم تؤمنوا أني «**أنا هو**». **وأنا هو** ἐγώ εἰμι، كما قلنا مراراً، هو «**اسم الله**» الشخصي، أي الذاتي الذي عُرف به[٩]، ويُنطَقُ بالعبرية «Ani ho» (تث٣٢: ٣٩، إش٤٣: ١٠). وقد لقَّب المسيح نفسه بهذا الاسم، ليس اختطافاً، بل إن الآب **أعطاه اسمه ليعلنه ويتكلم به**: «أنا أظهرتُ اسمك للناس» (يو١٧: ٦)، «**عرَّفتهم اسمك وسأُعرِّفهُم**، ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم» (يو١٧: ٢٦). ومعنى كلام المسيح: أنه إذا لم يؤمنوا باسمه «أنا هو»، أي يؤمنوا به باعتباره حامل اسم الله والمتكلم عنه لكي يحمل خطاياهم ويفديهم، فسيموتون في خطاياهم.

ويلاحظ القارىء في هذه الآيات أننا الآن في اليوم الأخير من العيد، والكلُّ يتهيَّأ لأن **يمضي** إلى بلده ووطنه وأهله. فمن هذا المنطلق والإحساس قال لهم المسيح: «أنا **أمضي** وستطلبونني»، (أي لن يكون معهم في عيد المظال القادم)، ولن يستطيعوا أن يذهبوا وراءه بعد ذلك، وسيموتون في خطاياهم بسبب عدم إيمانهم ورفضهم له. كذلك كما لاحظنا في تسجيل ق. يوحنا لكلام الفريسيين السابق عندما قالوا عنه: «ألعله مزمع أن يذهب إلى **شتات اليونانيين ويعلّم**

(٩) راجع المدخل ص٢١٨—٢٤٦، وعلى الأخص ص ٢٢٢ و٢٢٩.

اليونانيين» (يو٧: ٣٥)، فإن ق. يوحنا يُنْبِىء من بعيد إلى **مستقبل الكنيسة وكرازتها في العالم اليوناني**، كذلك هنا يُنْبِىء بقول الفريسيين: «ألعله **يقتل نفسه**»، بما سيتم فعلاً على مستوى **تسليم ذاته** ليُذبح بإرادته، وذلك في أسلوب سرِّي مُبْدِع.

كذلك نلاحظ في قول المسيح: «**أنا من فوق**»، «أنا لست من هذا العالم»، أنه لتوجيه الذهن **إلى الآب** الذي جاء من عنده، ثم في قوله: «**أنتم من أسفل**»، «أنتم من هذا العالم»، أنه ليوجِّه ذهنهم **إلى أب الآباء** الذي منه انحدروا، أي إبراهيم، وهو سيستخدم هذا المعنى بعد قليل حينما يقول: «قبل أن يكون **إبراهيم، أنا** كائن»، مشيراً إلى أزليته. ويمتد بنفس المعنى ليعلن أن الذين أضمروا قتله، فقدوا أُبوَّة إبراهيم، فصاروا من أب هو إبليس.

ولكن اليهود أصابهم الدوار حينما سمعوا المسيح يقول بوضوح عن نفسه: «أنا هو» ἐγώ εἰμι، فاستدرجوه: «من أنتَ»؟

٨: ٢٥ «**فقالوا له: مَنْ أنت؟ فقال لهم يسوع: أنا من البدءِ ما أُكلِّمُكُم أيضاً بِهِ**».

«فقالوا له: من أنت؟»:

واضح أن الفريسيين يسألون، ولكن ليس على أساس من صحة الضمير والنية، فهم يطالبونه أن يوضح شخصيته لا لكي يؤمنوا به ولكن ليجدوا علّة أخطر يمسكونها عليه، خاصة وهو يستخدم اسم الله «أنا هو»: «آني هو ــ بالعبرية Ani ho» والتي تُرجمت في السبعينية بـ«أنا هو الكائن بذاتي». وحتى ولو كانت لهم أقل نية لمزيد من معرفة شخصه، بعد كل الذي قاله لهم، لكان سؤالهم يتحدد في طلب المزيد، ولكنهم هنا يطالبونه بإعلان محدد: «مَنْ أنت؟». وهو نفس السؤال الذي سألوه ليوحنا المعمدان، فالمعمدان ردَّ عليهم رداً واضحاً يتناسب مع نيتهم فقال: أنا لست المسيح. ولست إيليا. ولست النبي (الذي تنبأ عنه موسى). أي كان الرد بالسلب الكامل من جهة الأسماء الكبيرة، ثم **حدد شخصه بعمله** قائلاً: «أنا صوتُ صارخٍ». ثم أشار إلى المسيح الذي ينتظرونه: «ولكن في وسطكم قائمٌ الذي **لستم تعرفونه**». أما رد المسيح هنا فهو إيجابي، من نحو الإعلان عن شخصه والإعلان عن عمله.

«أنا من البدء ما أُكلِّمُكم أيضاً به»:

المسيح هنا يشير إلى شخصه [«**أنا**»]، وشخصه لا بد وأن يكون قد ظهر من الإعلانات العديدة التي تكلم بها عن نفسه: إنه هو «نور العالم»، و«الخبز النازل من السماء»، و«ينبوع

الماء الحي»، وأن كلامه على وجه العموم «روح وحياة». أما كلمة «**من البدء**»، فهي في أسلوب ق. يوحنا إشارة إلى أن **شخصه المتحدِّث لم يُستحدث في العالم**، بل هو ممتد في الأزل: «**في البدء** كان الكلمة والكلمة كان عند الله»، ولكن استعلانه ابتدأ منذ بَدأ المسيح يتكلم عن نفسه ورسالته: فكلمة في البداية «من البدء» تعود على الكلام مباشرة «أنا ... ما أكلمكم به»، ثم تعود على شخص المسيح بطريق غير مباشر بالتالي. فكلام المسيح لا يُقصد به أن يعلن لهؤلاء المقاومين أنه «البدء» ἀρχή أو أنه «في البدء» أو «من البدء»، لأن هذه الاصطلاحات اللاهوتية تحتم وجود ظرف يوناني معين مثل: ἐξ ἀρχῆς أو ἀπ᾽ ἀρχῆς، ولكن المستخدم في هذه الآية هو τὴν ἀρχήν، ومعها لم يجيء الكلام ــ أكلمكم ــ من أصل «الكلمة اللوغس» λόγος حتى كان يتبادر إلى الذهن «في البدء كان الكلمة»؛ بل جاء الكلام بمعنى «الحديث» λαλεῖν وليس λέγειν، وفي الفعل المضارع أيضاً. لذلك فكلمة «**بالبداية**» لا تعود على شخص المسيح، ولكن تعود على الحديث نفسه. أي أن المسيح منذ البداية أعلن عن شخصه في أحاديثه ــ وكان ينبغي أن يُعرف من كلامه ــ ولكن حديثه **منذ البداية** عن نفسه يحمل معنى يمتد بالضرورة الحتمية ليغطي وجوده أيضاً، الذي هو منذ البداية. أليس هو القائل بعد ذلك مباشرة: «**قبل أن يكون إبراهيم أنا كائنٌ**»، و«**إبراهيم تهلل بأن يرى يومي فرأى وفرح**» (٨: ٥٨و٥٦)؟

لذلك فردُّ المسيح: «أنا من البدء ما أكلمكم به»، يفيد أن شخصه من البدء قد استُعلن بواسطة حديثه. والملاحظ دائماً في كل ردود المسيح على المقاومين أنه لا يرد ردًّا مباشراً على السؤال، ولكنه كان يجيب إجابة تغطي أسئلتهم المخادعة، وتجيب على عدم **فهمهم** له، وتعطي معلومات جديدة وصحيحة عن حقيقة شخصه. لذلك يكمل المسيح ردَّه عليهم بما يفيد **نقص فهمهم مع مكرهم وخداعهم**، أي جهلهم ولؤمهم معاً.

٨: ٢٦و٢٧ **«إن لي أشياءَ كثيرةً أتكلَّمُ وأحكُمُ بها من نحوكم. لكن الذي أرسَلني هو حقٌّ، وأنا ما سمعتُه منه فهذا أقولُهُ للعالم. ولم يفهموا أنه كان يقولُ لهم عن الآب».**

واضح هنا من استطراد المسيح، أن رَدَّه: «أنا من البدء ما أكلمكم أيضاً به» لا يغطي اتساع جهلهم وعمق لؤمهم، وأن عنده «**كلامٌ**» و«**حُكْمٌ**»، كلام يغطي جهلهم وحُكم يحكم به على خداعهم ولؤمهم. ثم يستطرد المسيح، إنه مهما أشاعوا من الكذب والتضليل بين الشعب، فهو يكفيه أنه يعلن الحق الذي سمعه من الآب، ليس لهم بل للعالم كله. و يقول ق. يوحنا مُعلِّقاً،

إنهم لم يفهموا أنه كان يتكلم عن الآب عندما قال: «"الذي أرسلني" هو حقٌّ».

٨: ٢٨و٢٩ **«فقال لهم يسوعُ: متى رفعتُم ابنَ الإنسانِ، فحينئذٍ تفهَمُون أني أنا هو، ولستُ أفعلُ شيئاً من نفسي، بل أتكلمُ بهذا كما علّمني أبي. والذي أرسَلَني هو معي، ولم يتركني الآبُ وحدِي، لأني في كلِّ حينٍ أفعلُ ما يُرضيهِ».** (١٠)

وكأنما المسيح قطع كل الأمل في أن يتعرف عليه خاصته، أي اليهود، أو يُقْبِلوا إليه: «إلى خاصّته جاء وخاصته لم تقبله» (يو١: ١١). فلم يَبْقَ أمامهم إلا أن يعودوا ويدركوا، إنما بعد فوات الأوان، بعد أن يفعلوا به فِعْلَتهم، حينما تأتي ساعتهم متوافقة مع ساعة سلطان الظلمة، ويتم رَفْعُه على الصليب، وحينئذ تتجلى حقيقته أنه: «أنا هو»، الذي هو الاسم الجليل والكريم والمُرعِب الذي ليهوه، الذي حمله المسيح وأعلنه باعتداد نائباً عن الآب الذي أعطاه كل ما يقول ويعمل. أما من نفسه فلم يعمل شيئاً، بل في كل شيء لمرضاة ومشيئة الآب الحالّ فيه، والذي لم يتركه لأيديهم قط. وهنا ليس من الضرورة أن تكون إشارة المسيح إلى كونهم سيعرفونه، في الصَّلْب أو بعد الصليب، بل هي إشارة غير مربوطة بالزمن بل بالعمل، فالعمل الذي عملوه سيُنْقَش على عقولهم وقلوبهم، ولن يُنسى الآن قط، لأن السماء والأرض ما تزال تردد ما فعلوه إلى أن يُستعلن في مجده مجروح الجانب، وحينئذٍ «ستنظره كل عين والذين طعنوه و ينوحون عليه» (راجع رؤ١: ٧) نوح الندم بلا ندم، حينما يُستعْلَن، لا مسيًّا إسرائيل بعد، بل ديَّانَ العدل!

«متى رفعتم ابن الإنسان»:

هنا المسيح يستخدم الاصطلاح المحبَّب إليه، والمعروف في التقليد العبراني، والذي يشير إلى الصليب والقيامة معاً، فهو ارتفاع ورِفْعَة، هوان ومجد، فعلان مترافقان ومتضامنان. وقد استُخدم هذا التعبير في العهد القديم بنفس هذا المعنى. فنقرأ عن **ارتفاع المجد**: «في ثلاثة أيام أيضاً **يرفع** فرعون رأسك و يردك إلى مقامك.» (تك٤٠: ١٣)

أما عن **الرفع للهوان** والموت فنقرأ: «في ثلاثة أيام أيضاً **يرفع** فرعون رأسك عنك و يُعَلِّقك على خشبة» (تك٤٠: ١٩). وهكذا حينما تتعارض مشيئة الخطاة مع مشيئة الله، فلا بد من

(١٠) يُقرأ هذا الفصل (٨: ٢٨ــ٤٢) في عشية عيد الصليب (١٧ توت و١٠ برمهات) لما جاء فيه من إشارة إلى رفع المسيح على الصليب واستعلان لاهوته: «متى رفعتم ابن الإنسان فحينئذٍ تفهمون أني أنا هو».

الصليب ولا بد من المجد. وحينما يصلبون ابن الإنسان، حينئذ سيدركون أنه ابن الله.

«بل أتكلَّم بهذا كما علَّمني أبي»:

المسيح هنا يشير إلى كل تعاليمه، وإلى شرح مركزه بالنسبة لله الآب، وإلى قوله «أنا هو» ἐγώ εἰμι . هذه كلها هي نُطق الآب فيه، وهي حق كل الحق، وليس فقط أن كل قول وعلم وعمل هو من الآب وإلى الآب، بل والآب نفسه المتكلم والعامل فيه وبه، هو **«كائن معه»**. فالكلمة قبل التجسد كان عند الله كائناً معه، ابناً في حضن أبيه، وبعد التجسد صار الآب عند الابن كائناً معه. لأن الابن المتجسد لم يفارق الآبَ قط، ولم يفارق الآبُ الابنَ، فجوهر الألوهة يجمعهما، ويجمعهما جوهر الحب المتبادل أيضاً وبالتساوي، والحب بعد التجسد صار من جهة الآب مُعلَناً بالإرسالية، الآب أحبَّ الابن وأرسلَه. أما من جهة الابن فاستُعلن الحب فيه بالطاعة المطلقة للآب. طاعة مذعنة حتى إلى أداء الموت، ولكن لم تكن قط طاعة مَذَلَّة أو إذلال، بل طاعة رضىً وإرضاء، طاعة حب واسترضاء، طاعة تحيطها المسرة من كل جانب. طاعة قوتها العمل الجاد واحتمال المخاطر، وليست بمشاعر بشرية تتوقف عند الخطر: «ولم يتركني الآب وحدي، لأني في كل حين **أفعل ما يرضيه**».



ج ـ الجزء الثالث من الحوار

«إن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً»

(٨ : ٣٠ـ٥١)

٨ : ٣٠ـ٣٢ **«وبينما هو يتكلمُ بهذا، آمنَ بهِ كثيرونَ. فقالَ يسوعُ لليهودِ الذين آمنوا به: إنكم إن ثَبَتُّم في كلامي، فبالحقيقة تكونون تلاميذي. وتعرفون الحقّ والحقُّ يحرركم».**

في هاتين الآيتين يلزم التفريق بين مضمونهما، وهو **الإيمان.** فالترجمة العربية قاصرة جداً، حيث جاء الإيمان في الآية الأُولى بشكله اليقيني مثل الإيمان في الآية الثانية تماماً دون تفريق، مما يفوِّت على القارىء المعنى الحقيقي. أما في الأصل اليوناني **فيأتي «الإيمان» في الآية الأُولى بشكله اليقيني** πιστεύειν εἰς وتأتي ترجمتها الصحيحة **«يؤمن به»** وفي اللغة الإنجليزية **believe in him**. أما «الإيمان» في الآية الثانية فيأتي باللغة اليونانية πιστεύειν τινί بدون تأكيد، بمعنى «يصدق» فقط، و بالإنجليزية **believe him**، و بهذا يستقيم المعنى والشرح. فعندما سمع اليهود كلام المسيح المقنع **اقتنعوا**، إذ رأوا فيه ملامح المسيَّا، فأظهروا أو تظاهروا أنهم يؤمنون؛ ولكن المسيح عرف ما في ضمائرهم ونيَّاتهم، إذ كان ذلك مجرَّد تصديقٍ للأقوال فقط التي جاءت على هواهم لبلوغ غاية أمانيهم الوطنية، وليس إيمان التعرف على حقيقة المسيح المخلِّص والإلتصاق به. فكان في نيتهم أن يُجاروه حتى يتأكدوا أنه **«المسيَّا»** الذي سيعيد المجد لإسرائيل ويحررهم من الرومان، أي **مسيَّا السياسة ودنيا اليهود.** وكان في قلبهم أنه إذا ظهر أنه ليس هو المسيَّا الذي ينتظرونه، يكون مدَّعياً ومستحقّ الموت. لذلك بادرهم المسيح بأقوال كشفت في الحال أن إيمانهم هو مجرد تصديق أقوال جاءت على هواهم، بانتظار ما يستجد من الأمر، **وليس اتِّباعه أو الإلتصاق به على أساس الإيمان به ومعرفة الحق.**

«فقال يسوع لليهود الذين آمنوا به (أي صدَّقوه) إنكم إن ثبَتُّم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي»:

فالمسألة ليست تصديق كلام **«ولكن ثبوت فيه»**، بمعنى اتباعه واتخاذه منهجاً وطريقاً، وحينئذ يكونون من التابعين، أي تلاميذ مبادىء وطريقٍ وحقٍّ وحياةٍ، وهكذا يتحررون من المعرفة

الخاطئة لمعلمين دُخلاء: «وتعرفون الحقَّ، والحقُّ يحرركم».

هنا يضع المسيح موضوع تحرُّرهم من عبودية الرومان الذي كان يشغل بالهم، والذي هو منتهى آمالهم وإيمانهم في المسيا المنتظر، الذي سيحرِّرهم بالسيف، موضعاً حرجاً للغاية؛ إذ يكشف لهم أن عبوديتهم للرومان هيِّنة وبسيطة بجوار عبوديتهم للجهل والخرافات التي طمست معالم الحق الإلهي في قلوبهم، وأن المسيح جاء ليحرِّرهم من الجهالة، وليس ليحرِّرهم على مستوى السياسة. وفي الأصل اليوناني يجعل المسيح «**الثبوت**» ليس ثبوت فكر مع فكر بل **ثبوت أشخاص**: «أنتم»، «**إن** (أنتم ὑμεῖς) **ثبتُّم** في كلامي»، والنتيجة أنهم **هم** يصيرون تلاميذ. فالمسيح يردُّ تفكيرهم وآمالهم وظنونهم من أحوال دنياهم وهمومهم وأفكارهم السياسية، إلى أحوالهم القلبية الداخلية وحياتهم هم مع الله. فإذا صاروا تلاميذ للمسيح فإنهم يتتلمذون للحق، يعرفونه ويسيرون بمقتضاه، فيتحررون من سيرتهم الداخلية التي أبعدتهم عن الله وزيَّفت لهم خصائص المسيَّا. وقد سبق المسيح وقال: «إن لم تؤمنوا أني أنا هو تموتون في خطاياكم» (٨: ٢٤). وهنا يكمِّل التلمذة الصحيحة: «إن (أنتم) ثبتُّم في كلامي، فبالحقيقة تكونون تلاميذي»، ثم يعطي النتيجة للإيمان الصحيح والتلمذة الصحيحة وهي: «تعرفون الحقَّ، والحقُّ يحرركم». هنا يلمِّح المسيح إلى الصلة الجوهرية بين «**التلمذة له**» - أي التسليم المطلق للمسيح - و«**المعرفة**»، و«**الحق**»، و«**الحرية**»، فهذه الأصول الثلاثة «المعرفة، والحق، والحرية» تنبع منه هو، وبالتالي تنصبُّ فيهم بالطاعة وتسليم الحياة. فهو الذي جاء أساساً:

أولاً: ليعرِّف الناس بالله الآب، وبالحياة الأبدية، فالآب مصدر المعرفة الحقيقية: «**عرَّفتهم** اسمك وسأعرِّفهم» (يو١٧: ٢٦). واختصارها أن الابن استعلن الآب، وهذا هو جوهر المعرفة: «هذه هي الحياة الأبدية أن **يعرفوك** أنت الإله **الحقيقي** وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو١٧: ٣). واختصارها أن معرفة الإيمان بالآب والابن هي هي الحياة الأبدية.

وثانياً: ليعرِّف الناس **الحق**: «أنا هو الطريق **والحق** والحياة» (يو١٤: ٦)، واختصارها أن المسيح هو الطريق، أي الوسيلة العملية الوحيدة لمعرفة الحق، لأنه هو الوحيد الذي حمل اللاهوت وأعلنه جسدياً، أي الوحيد الذي أعلن الحق الإلهي المطلق منظوراً ومسموعاً ومعمولاً، والحق هو جوهر الحريات.

وثالثاً: الحرية: بموته فَكَّ أسْرَ الإنسان من عبودية الخطية، فأصبحت مشيئة الإنسان حسب مشيئة الله، لأن المحدود الزمني، وهو الإنسان، أصبح متوافقاً مع المطلق الأبدي وهو الله. وهي أقصى غاية الحرية التي يمكن أن يبلغها المخلوق.

ويلاحظ أن التلمذة الصحيحة تقوم على المعرفة الصحيحة للحق، ولكن لا يمكن أن تُحسَب التلمذة صحيحة إلاَّ إذا اختُبِرَ ثبوتها ورسوخها وعدم تزعزعها. وهذا كان محور تأكيد المسيح التعليمي من جهة التلمذة له: «اُثبُتوا فيَّ»، «**اُثبُتوا** في محبتي. إن حفظتم وصاياي، **تثبتون** في محبتي. كما أني أنا قد حفظتُ وصايا أبي **وأثبُتُ** في محبته.» (يو١٥: ٤و٩و١٠)

من هذا يتضح أن "ثبوت الإنسان في كلام المسيح" الذي يطالب به المسيح هنا اليهود، هو الطريق الوحيد المؤدي إلى بقية الآية: «وتعرفون الحق والحق يحرركم». فالثبوت في كلام المسيح يفتح البصيرة والذهن ويستعلن «**الحق**».

كذلك يكون «**الحق**» هنا ليس هو **الحق الفلسفي** الفكري، الذي ينتهي عند العقل لمعرفة حقيقة الأشياء وجوهرها وتمييزها من مظاهر الأشياء؛ بل «الحق» الروحي الذي يؤدي إلى الحياة في الله ومعه، **الحق** الذي يحرر المشيئة من التعلُّق بالباطل والأوهام والخطية، وهو «**حقٌ**» السلوك والعمل والحب والبذل.

هنا يلزم أن نضع «**المسيح**» موضع «**الحق**» لكي ينكشف لنا بساطة التعبير: «تعرفون الحق والحق يحرركم»، وهو ما فعله المسيح بعد ذلك في آية قادمة (٨: ٣٦). وهذا أيضاً ما علَّم به ق. يوحنا في رسالته الأُولى بوضوح: «لم أكتب إليكم لأنكم لستم تعلمون "**الحق**"، بل لأنكم تعلمونه، وأن كل كذب ليس من الحق. مَنْ هو الكذَّاب، إلاَّ الذي ينكر أنَّ يسوع هو المسيح، هذا هو ضد المسيح الذي ينكر الآب والابن.» (١يو٢: ٢١و٢٢)

هنا المسيح «كحق» تكون معرفته ليست من على بُعد كمعرفة التأمل في الأمور الخارجة عن الإنسان، بل معرفة المسيح هي **قبوله شخصياً** والخضوع له بالفكر والمشيئة والقلب، لاستقبال روحه وحياته ومشيئته وحبه وعلاقته السرية بالآب!! وبالتالي نوال الفداء والخلاص والتبرير والشفاعة والمجد والتبني، وهذا هو قمة بلوغ الحق والحرية. لذلك يستحيل بلوغ الحرية ــ للحياة بها ــ إلاَّ بمعرفة الحق، ويستحيل معرفة الحق ــ للحياة به ــ إلاَّ بالمسيح. هذا هو جوهر الإيمان المسيحي، فالإيمان بالمسيح ليس نطقاً ولا فكراً ولا فهماً، بل قبول المسيح ذاته. فالإيمان المسيحي، فعل حار، خبرة ساخنة تشعل القلب، ترفع الهم، تريح النفس، تبرىء الضمير، وهذه هي الحرية: «حرية مجد أولاد الله.» (رو٨: ٢١)

٨ : ٣٣ **«أجابوه: إننا ذُرِّيَّة إبراهيم، ولم نُستَعْبَد لأحد قط. كيف تقول أنت إنكم تصيرون أحراراً».**

لقد استثار المسيح في هؤلاء اليهود ــ الذين أظهروا في البداية قبولاً لكلام المسيح ــ أفكارهم الدفينة المترسِّبة عَبْر الأجيال والدهور، القائمة على الغُلُوّ في الوطنية السياسية المصبوغة من الخارج بالعبادة، والموضوع عليها شعار يَهْوَه، لتصبح السياسة المقدسة التي لا يستطيع أن يمسّها أحد. فكيف لهذا المعلم أن ينفي عنهم الحرية وهم قد أخذوا السيادة على العالم بكل شعوبه وأممه، بوعد وتعهُّد من الله لأبيهم إبراهيم! وإن كانت بلادهم وأرضهم اجتاحتها جيوش أعداءٍ على مر السنين، مصريين وبابليين وأشوريين ورومان، فكما جاءوا هكذا رحلوا دون أن يمسوا ميراثهم أو تراثهم أو عوائدهم أو عبادتهم. لقد خرج اليهود من نيْرِ الأسْرِ مراراً وهم أحرار كما كانوا، بوعد أبيهم إبراهيم. فكيف يَعِدُهم هذا بالحرية وهم في حريتهم قائمون؟

نظرة عامة في الحوار في الأصحاح الثامن: (٨: ٣١ــ٥٩).

في هذا الحوار بين المسيح واليهود الذين أظهروا في البداية قبولاً لكلام المسيح، واضح هنا المقارنة المفتوحة بين:

التمسك بافتقاد الله في القديم، وافتقاد الله الجديد الذي أُكمِل في المسيح؛ وبين النظرة الخلفية للتاريخ، والنظرة الأمامية التي للروح.

بين مظاهر الأمور الإلهية؛ وبين جوهر الفعل الأخلاقي.

بين المعالجة الزمنية للحياة الأرضية؛ وبين الخُلُق الجديد بالروح للحياة الأبدية.

والمقارنة التي في هذا الحوار تُعْتَبَر أكمَلَ في مشتملاتها من الحوار السابق كله، لأن هنا يبدأ الحوار من إبراهيم أب الآباء كممثِّل لليهود، بينما كان موسى الممثِّل لليهود في الحوار السابق.

ومن معارضة اليهود لكلام المسيح يتبين الخط الذهبي للمفهوم اليهودي الذي كان المسيح يخاطبه:

(أ) ٨:٣٣ **«إننا ذُرِّية إبراهيم، ولم نُستعبد لأحدٍ قط،**
كيف تقول أنت إنكم **تصيرون أحراراً**».

٨:٣٩ **«أبونا هو إبراهيم»**.

٨:٤١ «إننا لم نولد من زناً، **لنا أبٌ واحد وهو الله**».

(ب) ٨:٤٨ «**إنك سامريٌّ وبك شيطان**».
٨:٥٣ «**ألعلَّك أعظمُ** من أبينا إبراهيم الذي مات ... **من تجعل نفسك**».
٨:٥٧ «**أفرأيتَ إبراهيم**».

أ ــ وهنا نجد أن **الثلاث الإجابات الأُولى تختص:**
أولاً: بفكر اليهود عن المواعيد الروحية لميراث حسب الجسد.
وثانياً: بفكر اليهود عن القرابة الجسدية كمحلّ للإفتخار بأعمال الآخرين.
وثالثاً: باتخاذ العناية الإلهية للتمجيد الذاتي، كدرع يخفي فساد السيرة.

ب ــ **أما الثلاث الإجابات الأخيرة فهي ردودٌ على:**
إدانتهم للمسيح، والحكم القاطع ضده من جهة مظهر سلوكه ضدهم.
ثم من جهة مصدر سلطانه كما تراءى لهم،
ثم من جهة ادعائه بالوجود السابق لوجوده (الألوهة المستترة).

وبهذا التحليل نستطيع أن ندخل إلى فهم وهدف هذا الحوار. فالمسيح بدأ الحوار بالوعد بإعطاء الحرية للذين أرادوا أن يؤمنوا به، إنْ هم ثبتوا في تعليمه، ولكنهم رفضوا الكلام من أساسه باعتبارهم أحراراً (عدد٣٣). وكان ردُّ المسيح أن حريتهم التي يزعمونها ليست حرية، لأن الذي يخطىء يصير **عبداً** للخطية، فالخطية تسلب الإرادة وتسلب الاختيار. فحريتهم يلوِّثها عصيان أخلاقي، فهي حرية ليست روحية أو بحسب الحق والبر (٣٣ــ٣٦).

وأضاف المسيح أن الاحتفاظ بميراث الآباء الديني بينما هو لا يحمل معه السلوك والأخلاق بمقتضى الآباء، ينتفي أن يُدعى ميراثاً دينياً!! (٣٧ــ٤٢).

كذلك قال لهم إن إخفاقهم في الاستماع إليه، إنما يرجع لعدم قبولهم للحق وهذا ينبع من طغيان عنصر الشر فيهم (٤٣ــ٤٧).

وإن كان المسيح يحكم عليهم، فحُكمه عن حق (٤٨ــ٥٠).
والكلمة التي يتكلم بها، هي بحدّ ذاتها مُحيية (٥١ــ٥٣).
وإن الحرية التي يدعو إليها، أعلى من الحرية التي ورثوها من إبراهيم، لأنه كائن قبل أن يكون إبراهيم (٥٤ــ٥٨).

٨ : ٣٤–٣٦ **«أجابهم يسوعُ: الحقَّ الحقَّ أقولُ لكُمْ إنَّ كلَّ من يعمَلُ الخطيةَ هو عبدٌ للخطيةِ. والعبدُ لا يبقى فِي البيتِ إلى الأبدِ. أما الابنُ فيبقى إلى الأبدِ. فإن حرَّركم الابنُ** (ابن الله)**، فبالحقيقةِ تكونونَ أحراراً».**

لينتبه القارىء إلى أن تكرار النطق **«بالحق»** بالنسبة للمسيح، يشير إلى حقيقة ثابتة تمتُّ إلى طبيعة المسيح وعمله، فهو هنا يقرر ماهية **«الحرية الحقيقية»**، حيث ينسبها إلى القداسة الفردية كعلاقة وثيقة مع الله، إزاء زعمهم أن الحرية هي معيار وضع الأمة سياسياً، الأمر الذي دمَّر مستقبلهم الخلاصي. لأن الذي يفعل الخطية فهو يحيا حياة الإثم والتعدي، إذ يرتبط بالعالم و يفقد حريته ثم نفسه، و يكون قد فقد **حرية البنين** وصار **عبداً للخطية،** لأن إبليس يكون قد تسيطر على إرادته وتولى قيادته: «كلُّ مَنْ يفعل الخطية يفعل التعدي أيضاً، والخطية هي التعدي. وتعلمون أن ذاك أُظهر لكي يرفع خطايانا وليس فيه خطية. كلُّ من يَثْبُت فيه لا يخطىء» (١يو٣: ٤و٥و٦)، «**مَنْ يفعل الخطية فهو من إبليس،** لأن إبليس من البدء يخطىء. لأجل هذا أُظهر ابن الله، لكي ينقض أعمال إبليس.» (١يو٣:٨)

والمسيح هنا يتعقب الحرية ليوصِّلها إلى القداسة ثم إلى الله.
و يتعقب الخطية و يوصلها إلى العبودية ثم إلى إبليس.
وهكذا فكل من يحيا حياة الإثم **والتعدي،** يكون قد فقد حرية البنين بالنسبة لله. ولا سبيل إلى إعادة **حرية البنين** له إلاَّ بواسطة **ابن الله،** وذلك لأنه الوحيد الذي يرفع الخطيئة و يقدِّس، فيرفع يدَ إبليس عن المأسور، ويحرره ويعيده إلى حق البنين، و بالتالي يعيده إلى ميراث بيت الله، بمعنى الشركة في ميراث الابن.

وهكذا فإنه عوض أن كان الإنسان يفعل الخطية، أصبح يفعل الحق: «وأما **مَنْ يفعل الحق، فيُقْبِل** إلى النور لكي تظهرَ **أعمالهُ أنها بالله معمولة**» (يو٣: ٢١). والمسيح يقدِّم نفسه لهم كابن الله، الذي جاء ليحرِّرهم، بمعنى ينقلهم من عمل الخطية إلى عمل البر: «إنْ علمتُم أنه **بارٌّ هو،** فاعلموا أنَّ **كلَّ مَنْ يصنع البرَّ مولود منه.**» (١يو٢: ٢٩)

وهكذا يوضح المسيح لليهود أمراً هاماً للغاية بالنسبة إلى هدف حياتهم الكلي: «يبقى في البيت إلى الأبد»، وسلوكهم المربوط بهذا الهدف. **فالخطية تتسبب في فقدان هدف الحياة،** أما هدف الحياة فهو العلاقة مع الله. و بولس الرسول يضع هذه المقارنة وجهاً لوجه: «أنتم **عبيدٌ للذي تطيعونه،** إمَّا للخطية للموت أو للطاعة (للمسيح) للبرّ. فشكراً لله أنكم كنتم عبيداً للخطية،

ولكنكم أطعتم من القلب صورة التعليم التي تسلمتموها، وإذ أُعتِقتم من الخطية صرتم عبيداً للبرّ (أحراراً)» (رو٦: ١٦ــ١٨)؛

«لأنكم لما كنتم عبيد الخطية، كنتم أحراراً من البر. فأيُّ ثمر كان لكم حينئذ من الأمور التي تَستَحون بها الآن؟ لأن نهاية تلك الأمور هي الموت. وأما الآن، إذ أُعتقتم من الخطية وصرتم **عبيداً لله** ــ أبناء ــ فلكم ثمركم للقداسة، والنهاية حياة أبدية.» (رو٦: ٢٠ــ٢٢)

فانظر أيها القارىء العزيز، كم كانت تحمل كلمة المسيح من العمق الروحي واللاهوتي والخلاصي بآن واحد، حينما قال لهم: «إنْ حرّركم الابن، فبالحقيقة تكونون أحراراً»، وليست الحرية الكاذبة التي كانوا يفتخرون بها، وهم في الحقيقة كانوا عبيداً يعيشون في بيت الله اختلاساً، وكان طردهم وشيكاً، أما الابن (المسيح) فيبقى إلى الأبد كما يقول عنه بولس الرسول في سفر العبرانيين: «وموسى كان أميناً في كل بيته **كخادم شهادة** للعتيد أن يُتكلَّم به **(أي المسيح)**، وأما المسيح **فكابن على بيته**. وبيتهُ نحن، إن تمسّكنا بثقة الرجاء وافتخاره ثابتة إلى النهاية.» (عب٣: ٥و٦)

ثم انظر أيضاً مدى الضلالة التي يقع فيها الإنسان الشارد عن الحق والله، حينما يقول (أنا حرٌّ أفعلُ ما أشاء!)؛ أو حينما يقولون (إن الناس ولدتهم أمهاتهم أحراراً!)؛ أو حينما يفتخر أصحاب الأوطان بحرية أوطانهم، وهم يكونون وللأسف عبيداً للعالم الحاضر، وأَسْرَى الخطية ومشورات الشيطان.

فالحرية **الحقيقية** إنما هي علاقة مع الله تنشىء حرية من ربط الخطية، وحرية النفس من الإنحرافات المريضة حتى ولو كانت الأرجل في المِقْطرة أو الأوطان تحت الإحتلال والسُّخْرة. وهذا ما تكفَّل به المسيح على أعلى مستوى وأكمل وجه.

٨: ٣٧ــ٤٠ **«أنا عالمٌ أنكم ذُرّيّةُ إبراهيمَ لكنكم تطلبونَ أن تقتلوني لأن كلامي لا مَوْضِعَ له فيكم. أنا أتكلَّمُ بما رأيتُ عند أبي، وأنتم تعملُون ما رأيتم عندَ أبيكم. أجابوا وقالوا له: أبونا هو إبراهيمُ. قال لهم يسوعُ: لو كُنتم أولادَ إبراهيمَ لكنتُم تعملونَ أعمالَ إبراهيمَ. ولكنكم الآن تطلبونَ أن تقتلوني، وأنا إنسانٌ قد كلمكم بالحق الذي سَمِعَهُ من الله، هذا لم يَعْمَلْهُ إبراهيمُ».**

الرب هنا ينفي عن هؤلاء اليهود المعاندين أن يكونوا **أولاد** إبراهيم، إذ اكتفى أنهم **ذُرّية** له

وحَسْب، لأنهم إن كانوا أبناء إبراهيم فكيف يسلكون هكذا تجاه المسيح الذي اشتهى إبراهيم نفسه أن يرى يومه (يوم المسيح) فرأى وفرح (يو٨: ٥٦)؟ أليس أن هؤلاء الذين يدّعون أنهم أبناء إبراهيم، وأنهم على مستوى الوعد، قد انعَمَت بصيرتهم الروحية، وانسدّت آذانهم عن سماع كلماته، وأثبَتوا بذلك أنهم ليسوا **أبناء** الوعد بل غرباءَ بل أعداءَ؟

وواضح مقدار ضعف حجة اليهود، بل مقدار ضياعهم وجهلهم أن يقولوا إننا أولاد إبراهيم، كمصدرهم الوحيد للافتخار، ولا يذكرون مدى انتمائهم للناموس أو ميراثهم الأخلاقي والتقَويّ من الآباء أو معرفتهم الممتازة بالتوراة. وهذا واضح لأنهم بدّدوا ميراث تقوى آبائهم، ولم يبْقَ لهم منه إلَّا تاريخ ميت يتمسحون فيه وهم غرباء عنه. وواضح من كلام المسيح، أن اليهود كانوا غير أمناء لتاريخهم، غير أمناء على مواعيد الله لإبراهيم ولكل أنبيائهم، وقد تضخّمت عدم أمانتهم إلى أحط صورة في محاولة قتل المسيح للتخلص من تبكيته لهم، وهو يحاول إصلاحهم. إنهم يخافون الحق ويحاولون إسكاته.

لقد جاء المسيح «**الابن**» الحقيقي لله ليحقق وعد الله لإبراهيم ويكمل كل الموعود به، وها هم يريدون أن يقتلوه! هو يتودد **ويتكلم**، وهم يتربّصون **ليقتلوه**؛ هو يتكلم بما سمعه من الآب من نحوهم للحياة، وهم يتحركون لينفذوا خطة القتل كما رسمها أبوهم وسلّمها إليهم للتنفيذ. الرب يَجْهَدُ نفسه ليبلّغهم سر الحياة، وهم يَجهدون أنفسهم ليرتبوا خطة الصلب. فالقاتل ــ الذي نوى القتل ــ لا يسمع، وإن سمع لا يصغي، وإن أصغى لا يعي، وإن وعى نسي ما وعى. فكلام المسيح الذي للحياة لم يكن له موضع قط في قلوبهم، لأن قلوبهم كانت مملوءة حسداً وحقداً. ويكفي للتدليل على ذلك من قول الرب: «لكنكم **تطلبون** أن تقتلوني»، فهذا هو هدفهم وهذا هو فكرهم وسعيهم وقد صمُّوا آذانهم عما عداه. وفي هذا يتم التشبيه بين العبد الخائن لعهد صاحب البيت ــ الوشيك الطرد، وبين الابن صاحب البيت ــ الوشيك أن يقدم نفسه فدية عن أهل البيت الأمناء.

فالمسيح جاء ومعه خطة الآب للخلاص التي سيتممها بموته.
وهم استلموا خطة القتل كما رسمها لهم أبوهم الذي هو أبو كل كذاب وقاتل.
المسيح يحاول أن يكتسب ثقتهم ليسلمهم وديعة الحياة التي جاء بها من عند أبيه.
وهم بالإختفاء وراء إبراهيم يحاولون بالكذب أن يُخفوا عنه ضربة الموت التي رسمها الشيطان القتّال منذ البدء.

الرب يلفت نظرهم أنه يعلم كل شيء، و يؤكِّد لهم أن عمل الشيطان لا يتطابق مع صلاح إبراهيم.

وهم بانصياعهم وراء الشيطان جحدوا ميراثهم، وهو وشيك أن يُنزع منهم بالعدل.

وأخيراً يتنازل المسيح معهم و يُحدد قضيته معهم أمام قضاة الناس، و يطرح القضية على مستوى عدل قضاة الأرض:

فإن كان إنسانٌ ــ وليس ابن الله نفسه ــ تكلم **مجرد كلام** هو «**الحق**» فكيف تكون أجرته الموت؟ هذه تُحسب شناعة في حق قضاء العدل على مستوى الناس؟

فكم وكم إن كان هذا الإنسان هو هو ابن الله؟

وإبراهيم أبوهم لم يكن على هذا المستوى من فهم القضاء. لقد وقف إبراهيم أمام الله يوماً يحاجه في أمر حرق سدوم وعمورة و يراجعه في قضائه: «أديَّان كل الأرض **لا يصنع عدلاً؟**» (تك١٨: ٢٥)، وذلك خوفاً على الأبرار الذين فيها. وذلك حينما أعْلَمَه الله أن هذين البلدين المنكوبين سيحرقهما الرب وسيزيلهما من الوجود. فإبراهيم حاجج الله نفسه، وهو ديان كل الأرض، حاججه في بنود حكمه خوفاً أن يؤخذ البارُّ مع الأثيم، فكيف بلغ القضاء في قلوب هذا النسل الضال المُضلّ المدعي البنوة لإبراهيم، أن يقتل البار و يترك الأثيم!! اصلب المسيح وأطلق لنا باراباس: «خذ هذا (المسيح) وأطلق لنا باراباس... اصلبه اصلبه.» (لو٢٣: ١٨و٢١)

٨: ٤١ «أنتم تعملُونَ أعمالَ أبيكُم. فقالوا له إننا لم نولد من زِناً. لنا أبٌ واحدٌ وهُوَ الله».

ولكن كلام المسيح كان بالفعل ليس له موضع فيهم، فلم يفهم هؤلاء القتلة قول المسيح حينما قال لهم: «إنكم تعملون ما رأيتموه عند **أبيكم**». وهوذا الآن يوضحها لهم أكثر، أنهم يعملون «أعمال أبيهم». و واضح أن حقدهم وحسدهم و بغضتهم الشديدة له هي في الواقع أعمال إبليس، و بالأكثر نيَّةُ القتل المبيّتة ضده، ومحاولة اغتصاب البنوة لله: «لنا أب واحد وهو الله». هذا على غير صحة و بغير ذي حق، لأنهم لا يقبلون كلام الله بفم المسيح ولا أعمال الله بيده، ولا حتى كانوا أمناء لوصايا الله بحسب الناموس والآباء. فالآن، لأن عبادتهم لله مزيَّفة، فحتماً يصبح ادعاؤهم لأُبُوّة الله مزيفاً، هنا يتحتم بحسب قول النبيَّيْن إشعياء وإرميا، أن تُقيِّم بنوتهم أنها من زناً، لأن إبليس يكون هو الذي حبل بهم وتبنَّاهم.

وهكذا عندما أخذوا يدافعون عن بنوتهم الشرعية لإبراهيم، في حين أن المسيح كان يقصد أنهم أبناء إبليس، وأنهم صاروا بالفعل أولاد زنا وليسوا أولاد إبراهيم أو أولاد الله كما يدَّعون. وهاك قول النبي: «وقال الرب لي في أيام يوشيا الملك هل رأيتَ ما فَعَلَت العاصية إسرائيل؟ انطلقت إلى كل جبلٍ عالٍ وإلى كل شجرةٍ خضراءَ، وزنَتْ هناك (عبادة الأصنام) ... فطلقتُها وأعطيتُها كتابَ طلاقها. لم تَخَف الخائنة يهوذا، أختها، بل مضت وزنَت هي أيضاً ... نجَّستْ الأرض وزنتْ مع الحجر (أصنام الحجر) ومع الشجر (أصنام الخشب) ... لم ترجع ... يهوذا بكل قلبها بل بالكذب يقول الرب.» (إر٣: ٦ــ١٠)

ويوضح إشعياء النبي أن الرب، بعد أن اعتبر حُبَّه لإسرائيل ويهوذا كحب عريس لعروس، عاد وطلَّقها بسبب الآثام والذنوب التي اقترفوها، بمعنى أنه باع الشعب للأمم: «هكذا قال الرب: أين كتاب طلاق أمكم التي طلَّقتُها ... من أجل آثامكم قد بُعْتُمْ ومن أجل ذنوبكم طُلِّقَتْ أمكم» (إش٥٠: ١و٢). إذن، فلم يَعُدْ إبراهيم أباً لهم، ولا عاد الله يعاملهم كبنين!

هذه اللغة كان يعرفها جيداً هؤلاء اليهود المعاندون للمسيح حينما قالوا له: «إننا لم نُولَد من زناً. لنا أبٌ واحدٌ وهو الله» (يو٨: ٤١). ولكن، للأسف، كان كلامهم بالكذب لأن الله قالها مرة على لسان كلٍّ من إرميا النبي وإشعياء النبي: **«إني طلَّقتُ أمَّكم»**. فأصبحوا أولاد زناً بالفعل أي **أولاد عبادة الشيطان**، وإبراهيم يتبرأ منهم، وليس إبراهيم فقط بل والله والمسيح أيضاً.

ويلزم هنا أن نفهم من كلام المسيح أن «العبد لا يبقى في البيت إلى الأبد» (يو٨: ٣٥)، أن المسيح يطرح قضية الحرية كفعل حياة مستقبلي يحدده سلوك الحاضر. والمسيح يقصد الحياة الأبدية التي جاء ليفتتح عهدها الجديد بموته وقيامته. فابن الخطية الذي يمثله هؤلاء اليهود هو على مستوى العبد الذي ليس له حق في ميراث البيت؛ أما الذي يؤمن «بالابن» فينعتق من عبودية الخطية، ويكون قد سجل لنفسه التبرير في الحاضر، وحقَّ الحياة الأبدية عَبْر المستقبل وإلى الأبد في ميراث الابن لله!

٨: ٤٢ــ٤٤ **«فقال لهم يسوعُ لو كان الله أباكُم لكنتم تحبونَني لأني خرجتُ مِنْ قِبَلِ الله وأتيتُ. لأني لم آتِ مِنْ نفسي بل ذاكَ أرسلَني. لماذا لا تفهمونَ كلامي؟ لأنكم لا تقدِرُونَ أن تسمعُوا قوْلي. أنتم من أبٍ هو إبليسُ، وشهواتِ أبيكم تريدون أن تعملُوا، ذاكَ كان قتَّالاً للناس مِنَ البدءِ، ولم يثبت في الحقِّ لأنه**

ليسَ فيهِ حقٌّ. متى تكلَّمَ بالكذبِ، فإنما يتكلَّمُ مما لَهُ لأنه كذَّابٌ وأبُو الكذَّابِ».

المسيح هنا ينقض قولهم من جهة أن الله هو أبوهم الروحي، فبحسب إشعياء النبي وإرميا النبي تكون كل إسرائيل و يهوذا مُطَلَّقَتَيْن، وها قد باعهما الله بالفعل ليكونا تحت الإحتلال والتشتت بسبب شرورهما — فمن أين يكون الله أباً لهؤلاء اليهود المعاندين الذين يرفضون ابنه؟ وق. يوحنا يرفع هذه القضية إلى حكم الأمور المسلَّم بها: «كلُّ مَنْ يؤمنُ أن يسوع هو المسيح، فقد وُلد من الله.» (١يو٥: ١)

«لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني»:

واضح أن المسيح يتكلم هنا كابن الله الوحيد المحبوب. فكيف لا يتعرفون على أخيهم البكر، ثم كيف لا يحبونه؟ إلاَّ لأنهم ليسوا أبناء الله كما يدَّعون؛ ولأنهم زادوا على عدم تعرُّفهم على المسيح وعدم محبتهم له كابن الله أنهم طلبوا أن يقتلوه كبيِّنةٍ و برهانٍ أكيدٍ أنهم ليسوا أبناءً، بل أعداءً لله وللابن الوحيد، بل وقَتَلة، وليس قَتَلة وحسب بل وفيهم شهوة القتل كهواة ومحترفين يتلقَّنون فن العداوة والقتل من أستاذ عتيق. ولا يوجد أصل أو مبدأ أو أبٌ للقتل والقاتل إلاَّ القتَّال المحترف منذ البدء، هو الذي بخداعه أوْقَعَ حواء ثم آدم في خطية العصيان، بذلك دخل الموت إلى العالم، وهو إبليس. فهم بالضرورة أبناءٌ لهذا الأب.

«لأني خرجت من (ἐκ) قِبَل الله وأتيت»:

المعنى هنا يفيد التجسد، وقد استخدم الأساقفة المجتمعون في مجمع نيقية سنة ٣٢٥م هذا الاصطلاح لإثبات البنوة الإلهية للمسيح(١١). واللغة العربية هنا ركيكة ولا تفيد المعنى الصحيح. وفي الأصل اليوناني لا يوجد «من قِبَل الله» بل **«من الله»** مباشرة «ἐκ τοῦ θεοῦ». جوهر من جوهر، طبيعة من طبيعة و بالتالي يلزم حذف «قِبَل» من النسخة العربية لتصير **«من الله»** لتوضيح المعنى اللاهوتي الصحيح.

واللغة اليونانية(١٢) دقيقة دقة خطيرة بالنسبة للبحث اللاهوتي في حروفها، حينما تُضاف إلى الأفعال، فـ«الخروج من» تأتي على ثلاثة أوضاع بالنسبة للحرف المضاف، فهو إما:

---

(١١) «إله حق من إله حق»= θεὸν ἀληθινὸν ἐκ θεοῦ ἀληθινοῦ

[12] Westcott, *op. cit.*, p. 136.

(١) خروج الابتعاد أو تغرُّب الشخص　　ἐξελθεῖν ἀπό = away from

(٢) خروج بجانب ـ أي زمالة الشخصية　　ἐξελθεῖν παρά = from the side of

(٣) خروج من داخل مع بقاء في الداخل لتفيد بقاء جوهر الله في جوهر الابن المتجسد.　　ἐξελθεῖν ἐκ

وهذه كلها للتعبير عن التجسد جوهرياً وذاتياً :

(١) ἀπό :

أما الخروج والابتعاد فهو التعبير الضعيف عن مجيء المسيح من الله، وهذا الاصطلاح **استخدمه التلاميذ للتعبير عن فهمهم** (الخاطىء نوعاً ما) لقول المسيح «**خرجت من عند**»، وقد جاءت هكذا: «الآن نعلم أنك عالم بكل شيء ولست تحتاج أن يسألك أحد لهذا نؤمن **أنك من الله خرجت**» (يو١٦ : ٣٠). وهذا على قدر فهم التلاميذ أن خروجه يفيد مجيئه إلى الأرض، وهذا يستلزم تركه للسماء وابتعاده المكاني عن الله: ἀπό وهذا أيضاً هو فهم ق. يوحنا عن خروج يسوع من عند الله كتغرُّب ثم عودة ἀπό : «... يسوع وهو عالم أن الآب قد دفع كل شيء إلى يديه وأنه **من عند الله خرج** وإلى الله **يمضي**...» (يو١٣ : ٣)

(٢) παρά :

وتفيد خروج وبقاء بجانب، كزمالة، وهو تعبير المسيح ولكن من وجهة نظر التلاميذ للمسيح وليس من وجهة نظره لنفسه! «لأن الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني **وآمنتم أني من عند الله خرجت**» (يو١٦ : ٢٧). فهو على قدر فهمهم يعبِّر و يردد عمَّا آمنوا به من نحوه، الذي لم يكن قد بلغ بعد الفهم اللاهوتي الكامل.

(٣) ἐκ :

وهي الأخيرة، أي الخروج من الداخل ἐκ جاءت واضحة جداً في الآية: «**خرجت من عند الآب** وقد أتيت إلى العالم» (يو١٦ : ٢٨)، حسب القراءة الصحيحة باليونانية في النسخ الدقيقة، **وهذا هو تعبير المسيح عن نفسه.**

كما يلاحظ أن الفعلين: من الله «**خرجت**» و«**أتيت**» هما في اليونانية مضافان إلى «**من**» ἐκ بمعنى **من** الله خرجت و**من** الله أتيت. وهما يفيدان في المعنى اللاهوتي أغواراً عميقة للغاية، إذ يكون المعنى أن الابن هو من الله في وجوده وكيانه ومجده قبل الميلاد بالجسد، والباقي مع الله وفي الله بالرغم من خروجه وظهوره واستعلانه **كابن الله** المتجسد. وأيضاً هو من الله في مجيئه إلى

العالم وتجسده، وبقائه مع الله وفي الله بالرغم من ظهوره في الجسد كيسوع المسيح.

وبهذا يكون المسيح، وكذلك ق. يوحنا في تسجيله لقول المسيح قد جمع كل اللاهوت في هذه الجملة المضغوطة ضغطاً: «من الله خرجتُ ومن الله أتيتُ». وقد شرحها المسيح شرحاً إضافياً ليكون على مستوى هؤلاء اليهود بقوله:

«لأني لم آتِ من نفسي بل ذاك أرسلني»:
بمعنى أني أُمثِّل الآب تمثيلاً ذاتياً وكلياً في كل ما أقول وأعمل، بل وأُمثِّلهُ بشخصي كنائب عنه دون أن يكون العمل لشخصي، أي لمجد نفسي.
«تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني.» (يو٧: ١٦)
«أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً.» (يو٥: ٣٠)
«من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه. وأما من يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم.» (يو٧: ١٨)
كما سيوضحه في الآية: «الآب الحال فيَّ هو يعمل الأعمال.» (يو١٤: ١٠)

هذا يوضحه المسيح لليهود **ليبرهن لهم عن حقيقة طبيعته الإلهية، ووجوده بينهم كمرسل من الله وكممثِّل شخصي له**، موضحاً بذلك مقدار ما سقطوا فيه، ليس من نحوه بقدر ما هو من نحو الله الذي أرسله والذي يدَّعون أنه أبوهم!

«لماذا لا تفهمون كلامي لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي»:
وتصحيحها: "لماذا لا تفهمون **حديثي** (لغتي) لأنكم لا تسمعون **كلمتي**". المقارنة هنا بين "**الفهم والسماع**"، تجاه "**الكلام والقول**".
فالفهم أو الإدراك γινώσκετε، يختص **بالحديث** λαλιάν.
والسماع بالروح ἀκούειν، أي الكشف، يختص **بالكلمة** λόγον.

هنا يقدم الرب طبقتين من كلامه: الطبقة الأُولى هي متابعة حديث الرب بالفهم السريع والإدراك؛ والطبقة الثانية الأعلى هي التعمق لكشف طبيعة الكلمة.

أما الطبقة الثانية، فهي في المقدمة وهي الهامة جداً والخطيرة، فإذا لم يكن للإنسان أُذُنٌ روحية تسمع كلمة الله فتكشف طبيعتها الإلهية، يستحيل عليه أن يفهم ما يتحدث به المسيح ويقوله، لأنه كلام روحي يحتاج إلى أُذُن خاصة روحية: «من له أذن فليسمع ما يقوله الروح

للكنائس» (رؤ٢: ٧)، أما من ليس له الوعي فسيرى المسيح مجرد إنسان يتكلم. والمسيح لا يتكلم كإنسان، بل كإله، فهو يقول: «أنا هو نور العالم»، و«أنا هو الطريق والحق والحياة»، و«أنا والآب واحد» (يو٨: ١٢، ١٤: ٦، ١٠: ٣٠). فكيف يفهم الناس قول المسيح هذا إذا اعتبروه مجرد إنسان؟ إنه سيكون كمجدِّف، ولكن إن كان للسامع أُذن روحية كاشفة، **تكشف طبيعة «الكلمة»** القائلة والمقولة، فحتماً سيتعرف عليها أنها إلهية وأن صاحبها إلهي هو: «لأني لم أتكلم من نفسي» (يو١٢: ٤٩). وهنا ذات المسيح هي الذات المنظورة للناس، والمتكلم فيه هو الله. فحينئذ ــ وعلى أقل تقدير ــ سيفهمون ما يتحدث به المسيح على أنه رسالة الله لهم، وأن حديثه يحمل الصدق والحق والقوة والروح والحياة، وهو كما هو أمام أعينهم، فعَّال، يشفي ويقيم من الموت، لأن كلمة الله خالقة ومُحيية.

لذلك، فليفهم القارىء أنه يستحيل على أي إنسان مهما بلغ من قوة الذكاء والفهم والتمحيص، أن يفهم الإنجيل أو يدرك ما يقوله المسيح، إذا لم تكن له أُذن روحية يسمع بها طبقة رنين كلمة الله، وتحس بحركة الحياة التي فيها وتميِّزها عن كل ما عداها من كلمات الإنسان. فالأُذن التي تستطيع أن تلتقط الموجة الروحية، وتحس بالحياة والحق لكلمة الله، هي وحدها التي تستطيع أن تفهم ما يقوله المسيح والروح.

أما كيفية قبول الأُذن الروحية لكلمة الله وتفهُّمها، فلا يأتي بالتمرين أو التلقين أو الدراسة، بل بقبول الرب يسوع نفسه «الكلمة» أولاً، والدخول معه في شركة الحياة الجديدة. فهو الذي يرفع مستوى قلب الإنسان وروحه لمستوى الكلمة، أي لمستواه في المعرفة. ومستواه في المعرفة بعد التجسد لم يَعُدْ في السماء، بل في قلبنا وفمنا: «**تعلَّموا** مني لأني وديع ومتواضع القلب» (مت١١: ٢٩)، «أنتم الآن أنقياء لسبب **الكلام** الذي كلَّمتُكم به.» (يو١٥: ٣)

ولكن، ليفهم القارىء أن لكل إنسان أذناً روحية؛ وهي إما تنفتح بالإرادة والشوق والإيمان والحب لكلمة الله فتكشف طبيعتها، وإما تنقفل بالإرادة المدفوعة بالبغضة والتعالي والتجديف، فلا تعود تسمع، ولا يعود الإنسان قادراً أن يفهم أو ينفعل للكلمة.

وإرميا النبي يخاطبهم من جهة **الجهل وعدم الفهم**:

«اسمع هذا أيها الشعب الجاهل والعديم الفهم الذين لهم أعْيُنٌ ولا يبصرون، لهم آذان ولا يسمعون» (إر٥: ٢١). فالجهل هو انحطاط مستوى الكشف لطبيعة كلمة الله، والجهل يؤدي حتماً إلى عدم الفهم. وقد نسب إرميا النبي **الجهل** إلى **العمى** الروحي، ونسب **عدم الفهم** إلى **الصمم**

الروحي. ولذلك أيضاً كان يطيب للمسيح أن يفتح أعين العُمْي، و يفتح آذان الصُمّ، ليس كمعجزاتِ شفاءٍ لهذا الشعب، ولكن كآياتٍ لعمل كلمة الله في طبيعة الإنسان الخاطىء.

ثم يوضح إشعياء النبي العوامل التي أدت إلى عمى عيونهم وانسداد آذانهم: «قد أعْمى عيونهم، وأغْلَظ قلوبهم، لئلا يبصروا بعيونهم و يشعروا بقلوبهم و يرجعوا فأشفيهم» (يو12: 40). لذلك يصرخ أيضاً إشعياء النبي: «يا رب مَنْ **صدَّق خبرنا**، ولمَنْ استُعْلِنَت ذراعُ الرب. لهذا لم يقدروا أن يؤمنوا» (يو12: 38و39). ولكن مَنْ الذي سدّ آذانهم وأغْلَظ قلوبهم وأعمى عيونهم؟ هنا الضمير الفاعل هو العدو الشيطان، الذي **سلَّموا أنفسهم له**، ــ حقداً و بغضة وعداوة لله بلا سبب!! ــ والذي وجّه إليه المسيح سهمه الخاطف، ففضحه، وفضح إرادتهم: «أنتم من أبٍ هو إبليس».

«أنتم من أب هو إبليس ...»:

لم يكن المسيح في هذا القرار المرعب مهاجماً أو متعدّياً على مشاعر اليهود، بقدر ما كان مدافعاً عن الله الذي يريدون أن ينسبوا إليه أنفسهم وتعدّياتهم بقولهم إن الله هو أبوهم. فقرار قتل الابن الوحيد الذي للآب قد كتبوه في ضمائرهم، وهم يبحثون الآن فقط عن علة مناسبة لتنفيذه. الرب هنا، و بقوله هذا، يفصل بين قداسة أبوّة الله، و بين هؤلاء القَتَلة. وفي نفس الوقت كشف عن شخصية الأب المحرك لهؤلاء اليهود المدّعين. لأن المسيح بقوله: «أنتم من أبٍ هو إبليس ...»، يكون قد رفع الستار عن حربهم الخفية التي يشنُّونها ضد الله والمسيح تحت اسم الناموس وأبوّة الله للشعب المختار، وقد جعل المواجهة صريحة ومكشوفة بينه و بينهم، أو بين الله الذي يتكلم باسمه، و بين الشيطان الذي ينطق فيهم.

وإن كان المسيح هنا في إنجيل يوحنا قد كشف عن شخصيات هذه الحرب المريرة بينه و بين الشيطان مواجهة و بصراحة، نجد المسيح يصيغ هذه الحرب في تشكيلاتٍ رمزية غاية في الإبداع في الأناجيل الأخرى: «فأجاب وقال لهم: **الزارعُ الزرعَ الجيد هو ابن الإنسان**، والحقل هو العالم، والزرع الجيد هو بنو الملكوت، **والزوان هو بنو الشرير، والعدو الذي زرعه هو إبليس.**» (مت13: 37ــ39)

«وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتّالاً للناس من البدءِ ولم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق. متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مما له لأنه كذّابٌ وأبو الكذاب»:

من أعجب الأمور وأكثرها ألماً وحزناً للنفس، أن يكون للشيطان القدرة الغريبة لتسليم شهواته

الشخصية للذين يخضعون له كأب، و يسيرون في طريقه كمعلّم، لأن شهوة الشيطان تنبع من عداوة شخصية لله، ولابنه يسوع المسيح، ولكل من يتبعه و يطيعه. والإنسان ضعيف جداً وأصغر من أن يتقمّص شهوة الشيطان هذه و يقف لكي يعادي الرب يسوع، سواء بفكره أو قلمه أو عمله. ولكن الذين تبنّاهم الشيطان ألبسهم تاجه وأعطاهم صولجانه، وكانوا عظماء في عين العالم وعلى مدى التاريخ، وكانوا ذوي صيت و بطولات؛ ولكن التاريخ للعالم شيء، والتاريخ لملكوت الله شيء آخر.

«... شهوات أبيكم "تريدون = θέλετε "»:

«تريدون» تأتي باليونانية في صيغة **الإصرار المُنتهى منه**، وهذه في الحقيقة صفة غريبة يتقمصها الشخص الشارد في شرّه، حتى ليتعجب الناس من قوة الإصرار وشدة الاستمرار في تتميم ما صمم عليه، في حين أن الشخص يكون في طبيعته الأصلية بسيطاً و وديعاً ومُسالِماً حُلو الأخلاق ومُطيعاً، ولكن إذا استماله الشيطان وتبناه صار شرساً متنمراً، لا يلين ولا يحيد عن مقصده، ولا يهدأ حتى يتمم كل ما أفرزه الشيطان في فكره، حتى و بدون وعي؛ فالشيطان يتقمَّصه. لذلك فإن قول المسيح: «شهوات أبيكم **تريدون أن تعملوا**»، جاءت في صورة واقعية تصوِّر حقيقة ما كان يجري في قلوبهم تصويراً يُذهل العقل، من حقدٍ مجاني وغضب وسرعة الانفعال للقتل ومُهاجمة كلامية شرسة وعناد لا يهدأ.

وإن هذا هو في الواقع منهج كل الذين تركوا المسيح وأبغضوا الكلمة، إذ أصبحت فيهم عداوة لا تهدأ من جهة الحق ومهاجته والازدراء بالإيمان.

«ذاك كان قتّالاً للناس ἀνθρωποκτόνος منذ البدء»:

منذ أن أطلق المسيح هذه الصفة على الشيطان وأصبحت اسماً للشيطان في العهد الجديد، وهي موجودة في تعاليم الرسل[13]: ὁ ἀνθρωποκτόνος ὄφις وترجتها: **"الحيَّة القتالة للناس"** ويختصرها سفر الرؤيا بتسمية **«الحية القديمة»** (رؤ١٢: ٩؛ ٢٠: ٢)، سواء بسبب إدخال الموت على الإنسان ـــ آدم ـــ المخلوق أصلاً على غير فساد، أو إشعال الحقد والكراهية في قلب قايين، وإقحام إرادة القتل فيه ليقتل أخاه هابيل. **ولماذا قتله؟ يقول الكتاب: «لأن أعماله كانت شريرة وأعمال أخيه بارة.»** (١يو٣: ١٢)

[13] Apost. Constit. VIII.vii.5.

ولذلك، وعلى هذا الأساس، نبَّه الكتاب أن «كلّ من يبغض أخاه **فهو قاتل نفس** ἀνθρωποκτόνος» (١يو٣: ١٥)، لأن الرب يعلم أن **صاحب مشورة وقوة البغضة** هو نفسه **صاحب مشورة القتل**. والخطية الأُولى تحوي في بطنها الخطية الثانية، التي لا بد أن تلدها إن آجلاً أو عاجلاً، إنْ بالنيَّة أو بالفعل. و يصف ق. يوحنا هذه الخطية هكذا: «لأن هذا هو الخبر الذي سمعتموه من البدء أن يحب بعضُنا بعضاً. ليس كما كان قايين من الشرير وذبح أخاه، ولماذا ذبحه؟ لأن أعماله كانت شريرة وأعمال أخيه بارة.» (١يو٣: ١١و١٢)

وتسلسل الخطية حتى إلى القتل تجيء في تقليد القداس: «والموت الذي دخل إلى العالم **بحسد** إبليس»، وهذا مأخوذ من سفر الحكمة (٢: ٢٣و٢٤). وهكذا تبنَّى الشيطان خطية القتل والقاتل معاً، والذي يهمنا جداً في هذا المجال هو كلمة «**حسد** الشيطان»، فالحسد هو الذي دفع الشيطان لإسقاط آدم. وإسقاط آدم تم على مرحلتين: الأُولى «**غواية**» ثم «**فعل**» تعدي، والنتيجة موت. وكان في ظن الشيطان أن الموت سيُنهي على مستقبل آدم، و يظل ساقطاً إلى الأبد كما هو حال الشيطان نفسه: «والملائكة الذين لم يحفظوا رياستهم بل تركوا مسكنهم (بسبب الحسد وطلب ما هو أعظم)، **حفظهم إلى دينونة اليوم العظيم بقيود أبدية تحت الظلام**» (يهوذا ٦). ولكن آدم مخلوق على الترقي والنمو و بلوغ صورة الله في القداسة والحق. فدبَّر الله له الخلاص بالتوبة ودم المسيح. أما الشيطان وملائكته فخُلقوا على مراكز ورئاسات محددة ومساكن لا يتعدَّونها. وكل تعدٍّ لهم هو سقوط ليس له توبة أو قيامة: «لأنه إن كان **الله لم يُشفِقْ على ملائكة** قد أخطأوا، بل في سلاسل الظلام طرحهم في جهنم وسلَّمهم محروسين للقضاء...» (٢بط ٢: ٤)

«ولم يثبت في الحق»:

الأصل اليوناني يفيد أنه «لم يقف» بمعنى لم «**يَدُمْ**» ἔστηκεν بحسب القراءات الصحيحة(١٤). أي **لم يضع قدماً**، أو يَرسَخْ. هذا الأمر يهمنا للغاية، لأن فيه يوضح المسيح مسألة حساسة بالنسبة لطبيعة الله في الخلقة **على مستوى اللاهوت. فالشيطان لم يَدُمْ في الحق، أو لم يثبت في الحق**، يعني أنه كان في موقف رئاسي (رياسة)، أو موضع أو مسكن "مسئولية" (بحسب رسالة القديس يهوذا) على مستوى الحق، ولكنه تخلى عنه طمعاً أو حسداً فيما هو أعظم فحُسب له ذلك خطية؛ الأمر الذي يشرحه بطرس الرسول: «**الله لم يشفق على ملائكة قد**

(١٤) ἔστηκεν مشتقة من الفعل ἵστημι = يقف أو يضع قدماً أو يدوم. وأما ἕστηκεν التي قرئت في نسخ أخرى، فهي مشتقة من الفعل στήκω = يثبت.

أخطأوا...»، وهذا يفيد أن الله لم يخلق الشيطان على الشر أو الفساد أو الخطية، بل خلقه على مستوى الرئاسة. ولكنه تعدى وأخطأ وسقط، والله لم يشفق عليه.

«لأنه ليس فيه حق»:

هذه الجملة مربوطة بالسابقة فهو لم يثبت في الحق، بسبب أنه ليس فيه حق. ولكن المعنى هنا لا يتضح لنا إلاَّ إذا فهمنا كلمة **«يثبت»** حرفياً، حيث تعني «لم يضع **قدماً**» في الحق، أي «لم يرسخ» في الحق. بمعنى أن الله أعطاه رئاسة على مستوى الحق، وكان عليه أن يثبت، أو يرسخ، أو يضع قدمه، أو يخطو خطوة في الحق، ليكون و يدوم على مستوى الرئاسة التي أعطاه الله، **لكنه أخفق. وإخفاق الشيطان** في أن يثبت في الحق أو الرئاسة الموضوعة له، سببه أنه ليس فيه حق، بمعنى أنه ليس فيه أي شيء من «الأليثيا» التي في الله والمسيح، وكان عليه أن يكتسبها بحفظه وثباته في الرئاسة والموضع الذي وُضِعَ فيه، فلما لم يحفظ رئاسته ولم يثبت في الحق، كان سقوطه بلا شفاء ولا رجاء. ولمَّا فقد الحق، صار كذاباً وأبا الكذب كله وكلّ الكذابين. **وما هو الكذب إلاَّ فقدان الحق؟** ومَنْ هو الكذاب إلاَّ الذي ينكر الحق؟

هنا علينا، أيها القارىء العزيز، أن نتذكر كيف غَرَس الشيطانُ الكذبَ في شعور آدم وحواء، وفي اللاشعور أيضاً، حينما قال لحواء في حواره الخادع الماكر المميت، رداً على قول حواء: «أمَّا ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه **ولا تمسَّاه لئلا تموتا؛ فقالت الحية للمرأة لن تموتا**» (تك٣: ٣و٤). وهذا هو منطق الشيطان في نفي الحق وإخفائه تحت ستار المعقول والمرجَّح، والواقع **والأكثر فائدة**، والأسهل والألذ، والأسرع أيضاً. فالشيطان أبْرَزَ العصيان، ونفى الموت وأخفاه عن حواء تحت ستار المعرفة: «بل الله عالمٌ أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفَيْن الخير والشر.» (تك٣: ٥)

ولينتبه القارىء أن في نفي الموت عن الذي يعصي أوامر الله يكون بالتالي قد نفى الدينونة، بل ونفى الخطية، بل ونفى قيمة الخلاص، بل ونفى المخلِّص، وأخيراً نفى الحياة، حيث لا يبقى لمن يتبع الشيطان إلاَّ أن يخنق نفسه!!

«متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مما له لأنه كذاب وأبو الكذاب»:

في هذا الوصف يهمنا كلمتان: الأولى **«الكذب»**، والثانية «يتكلم **"مما له"**». فالكذب يجيء في اليونانية ψεῦδος وتعني **الزَّيْف**، أي ما هو ليس حقاً أو صحيحاً، وهنا يتضح لنا أن الكذب أو الزيف أو ما هو ليس حقاً أو صحيحاً ليس جوهراً في حد ذاته، أي ليس شيئاً معروفاً

أو محدد الوجود، بل هو نفي الشيء أو نفي الوجود، فعندما يقول إنسان قولاً حقاً و يأتي آخرُ و يصدِّقه على هذا القول، فهو يقول «**الحق**»؛ ولكن إذا جاء إنسان آخر ونفى هذا القول، فهو كاذب لأنه نفى الحقيقة. وإذا كان هناك شيء معروف كظهور الشمس مثلاً و يقول إنسان أن الشمس غير ظاهرة، فهو يكذب لأنه ينفي وجود الموجود. وهكذا فإن الحق يعتمد على طبيعته الموجودة، أما الكذب فليس له طبيعة بالمرة بل يعتمد على نفي الحق أو نَفْي ما هو صحيح.

وهذا هو التحليل الصحيح لطبيعة الشيطان وسلوكه وكلامه في تعريف الرب له أنه «يتكلم بالكذب، لأنه يتكلم مما له، لأنه كذاب وأبو الكذاب». لأن الشيطان بحسب خلقته لم تكن له طبيعة الحق ولا طبيعة الكذب، بل خُلق ووُضع في رئاسة محددة له، كان المفروض أنه إذا أطاع بحسب حريته المحددة له، أن يثبت في رئاسته، و بالتالي يثبت في أمر الله، أي يثبت في الحق. ولكنه رفض الأمر بحسب حريته المحددة له، وتعالى، فسقط من رئاسته، وسقطت طبيعته من موضع الحق نهائياً، فأصبح اعتماده قائماً على ذاته **وليس على الله، أي الحق.**

وهكذا أصبح الشيطان بمقتضى سلوكه وبمحض حريته وإرادته ضد الحق، لأنه فاقده. وصارت طبيعته تتغذى من مقاومة الحق، فتشكَّلت أفكاره وإيحاءاته وكلماته بحسب طبيعته، أي ضد الحق: وهذا ما يعرِّفه الرب بأنه متى تكلم، فإنه يتكلم مما له، أي ليس من الله ولا من مصدر حق، بل من ذاته، أي يتكلم بحسب طبيعته **التي اكتسبها لنفسه** والتي لم تُعطَ له، وهي طبيعة طفيلية تقوم على **نفي الحق ومقاومته**، وهي بذلك طبيعة كاذبة مزيفة، ينحصر نشاطها كله في مقاومة الحق ونَفْيه. وصحيح أن **نفي الحق هو لا شيء في ذاته، وهو السالبية وهو اللاوجود واللاصحيح واللاقيمة له على الإطلاق**؛ ولكنه في مقاومته للحق والوجود وكل القيم الصحيحة، اكتسب له وجوداً سلبياً قائماً على نفي وجود الحق. فهو يقوم على مدى احتمال **صاحب مشيئة «الحق»**، أي الله، له ولعمله السلبي، فهو وجود مُهدَّد بالفناء. لأنه في اللحظة التي يعلن فيها الحق المطلق أي الله عن إدانته للشيطان بمقتضى الحق، فإنه ينتهي من الوجود لأنه ليس له حق الوجود الذاتي.

هذا على مستوى الله، أما على مستوى الإنسان، فهو بنفس القياس ولكن بدرجة محدودة. فالشيطان يقدم مشورته السالبية التي تقوم على الكذب والتزييف، فإذا رفضها الإنسان بمقتضى وصايا الحق التي يعيش بها، تلاشى الشيطان من الوجود في محيط العمل الفردي لمدة تتحدد بصلابة الإنسان في الحق.

ولكن إذا قَبِل الإنسان مشورة الشيطان وأفكاره المزيفة والمعروف أنها ضد الحق مائة بالمائة، فإنه يكون قد أَوْجَدَ للشيطان محلاً ومسكناً ووجوداً، وهذا منتهى أمل الشيطان وغاية سَعْيِه أن يكون له وجودٌ مزيّف في ذات الإنسان، فهذا يوسِّع من دائرة تخريبه ومقاومته للحق، مما يُشبِع وجوده وجحوده. أما إذا أتقن الإنسان حيل الشيطان وتزييفه بشغف وحذق، وبرع في مقاومته للحق، فإن الإنسان يكون قد أخذ دور الشيطان بالكامل، ويكون الشيطان قد تبنى الإنسان وأحبه **ووهبه طبيعته بكل فنون التزييف** ومقاومة الحق. وهذا هو الدور الذي اتخذه اليهود لأنفسهم تجاه المسيح، وهذا ما أعلنه المسيح عنهم أنه قد صارت لهم طبيعة الشيطان في الكذب ومقاومة الحق: «أنتم **من أبٍ** هو إبليس، **وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا**»! ويكون الشيطان بذلك قد صار بالفعل أباً للكذب والتزييف في العالم وأباً لكل كذاب ...

أيها القارىء العزيز، احذر الكذب بكل أنواعه فهو صناعة الشيطان، وهي صناعة لا تبني بل تهدم، ولا تدوم بل تفنى. واحذر تزييف الحق أو الحقيقة في الأشياء والأقوال والأعمال، مهما كانت صغيرة، ومهما كان لها صورة المنفعة الوقتية، لأنها من طبيعة الشيطان التي مآلها الدينونة والفناء. الزم الحق بكل قوة وبكل إصرار، لأنه انتصار للحق والوجود والحياة ضد الفناء، وانتصار لله ضد الشيطان، فانظر كيف أعطانا الله الفرص في الحياة لكي نَنْصُر الحق، فننتصر ضد قوى الشر والظلام، ونبقى ونحيا وندوم.

٨: ٤٥و٤٦ «وأما أنا فلأني أقولُ الحقَّ، لستم تؤمنونَ بي. مَنْ مِنكُمْ يُبكِّتُني على خطيةٍ؟».

المسيح يبدأ قوله بـ «**أمّا**»، وكأنه يعطي المقابل لإبليس الذي تبنّاهم وأصبح ينطق فيهم كأولاد طاعة للشر وأساتذة لمقاومة الحق. المسيح هنا هو النقيض «لأبيهم»، والمناقض لهم ولأفكارهم. لو كان المسيح يتكلم بالكذب (وحاشاه)، لصدَّقوه، لأنه يتكلم مما لهم ولأبيهم وللعالم الذي أحبوه وعَبَدوه؛ ولكن «"**أما أنا**" فلأني أقول **الحق** لستم تؤمنون بي». التقابل هنا صارخ بين «**هم**» و«**الكذب**» من جهة، و«**أنا**» و«**الحق**» من جهة أخرى.

والآن يتضح لنا لماذا لا يؤمنون بالمسيح، مع أن المسيح يقول الحق؟! ذلك لأن طبيعتهم التي تساوت في سلوكها مع حيل الشيطان وتزييفه للحق، أصبحت ضد الحق – أينما كان – فأصبح إيمانها بالحق أو بالمسيح أمر مستحيل عليهم.

ثم أخيراً، وفي كلمة واحدة استعلنها لنا المسيح، فإن كلَّ مَنْ هو ليس ابن الحق، هو ابن إبليس بالضرورة.

«مَنْ منكم يبكِّتني على خطية؟»:

المسيح هنا يجمع كل أنواع الكذب ومقاومة الحق في كلمة واحدة هي «**الخطية**»، والتي ينصبُّ معناها على مَنْ يتعدَّى الحقَّ، بحسب قياس نص قانون الله، أي الوصية. والخطية لا تشمل العمل فقط بل والنيَّة أيضاً. كما أن الخطية مربوطة بالمشاعر والعواطف والسلوك، لذلك يستحيل أن تعيش الخطية في الإنسان دون أن تعلن عن نفسها، ومن هنا يمكن معرفة الخاطىء بأدلة كثيرة.

ويُلاحَظ هنا أن المسيح يُبلور الجزء الأول من الآية: «**لأني أقول الحق**» في مفهوم عملي واضح بقوله: «مَنْ منكم يبكِّتني على خطية؟»، بمعنى أن المسيح **يقول الحق ويعمله**؛ وبهذه الكلمة: «مَنْ مِنكم يبكِّتني على خطية»، يضع قياس الحكم على أن ما يقوله هو حق، فإذا لم يعثروا له على خطية، أصبح الحكم عليهم لازماً بأنهم يقاومون الحق. كما أصبح الحكم على المسيح بأنه من الله حتماً لأنه بلا خطية، في مقابل اضطراري أنهم من إبليس لأن ليس فيهم حقٌّ، ولكن ليس معنى هذا أن المسيح يعطي حقاً لليهود أو لأي إنسان أن يقيس عليه سلوكه أو يحكم على شخصه بأي حال من الأحوال، ولكن الذي طرحه المسيح دائماً ليكون قياساً هو «كلمته». فالكلمة طرحها المسيح للفحص لتُدرِكَ منها أنه هو من الله وابن الله؛ وهنا يقول المسيح لليهود: «وأما أنا فلأني "**أقول**" الحق»، وهكذا يطرح المسيح قوله للفحص قياساً على سلوكه الذي يتحدى به فكر الإنسان الفاحص. وكأنه يقولها صراحة: «**أنا بلا خطية**»، «**فكل ما أقوله هو الحق**»، وهكذا وبالضرورة فإن كلَّ مَنْ لا يؤمن يُدان، بل وكل مَنْ لا يؤمن، فهو ليس من الله.

«يبكِّتني»:

وتأتي في اليونانية ἐλέγχει، وهذه الكلمة بحد ذاتها هي اصطلاح قانوني يفيد الفحص المضاد من محامي الخصم، وهو نوع من «**إقامة الدليل الضِّد**»، وهي تقوم على إثبات الخطأ بالدليل المدعَّم، إما بشهادة الشهود، أو بالوثائق الدامغة، أو بمهارة المحقق في جعل المتهم يعترف ضد نفسه. وقد أورد إنجيل يوحنا هذا الاصطلاح في ١٦ :٨ عن الروح القدس أنه «يبكِّت العالم على خطية ...».

والمسيح بقوله: «مَنْ منكم **يبكِّتني** على خطية»، يكون قد كشف كشفاً واضحاً عن المستوى الذي تعيش به بشريته، **فهو** مستوى يفوق قامة البشر حيث **يستحيل أن يوجد إنسان بلا خطية.**

وبهذا يكون هذا النص هو استعلان للمستوى الإلهي الذي كان يعيشه المسيح في بشريته، وهو المعروف في اللاهوت: أن المسيح «**بلا خطية**» χωρὶς ἁμαρτίας : «لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضعفاتنا بل **مجرَّب في كل شيء مثلنا "بلا خطية."**» (عب٤ : ١٥)

«فإن كنت أقول الحق فلماذا لستم تؤمنون بي؟»:

والمسيح يقصد، بقوله هذا، أنه إذا لم يبكِّتني أحد على خطية الكذب والتزييف، إذن، فأنا لا أكذب ولا أُزيِّف الحق، أي إنـي **أقول الحق**، فإن كنتُ أقولُ الحق، فلماذا لم تستجيبوا للحق فـ«**تؤمنوا بي**»: حيث تجيء "تؤمنون" هنا خالية من الحرف «بي» أي بمعنى «**تصدقونني**» πιστεύετέ μοι في الأصل اليوناني.

٨:٤٧ **«الذي من الله يسمعُ كلامَ الله، لذلكَ أنتم لستم تسمَعُونَ لأنكم لستم من الله».**

هنا المسيح يذهب إلى جذور القضية، مرة أخرى، أي إلى المَصْدَرين اللذين ينحدر منهما الحق والكذب، وهما الله والشيطان. **فهو يسأل ثم يجيب: «لماذا لستم تؤمنون بي»؟** الجواب: **لأنني** أقول الحق ــ كلمة الله ــ لأنـي من الله. وأنتم تقولون الكذب وتضمرون القتل ــ لأنكم من إبليس ــ والذي من الله (ابن الله) هو وحده الذي يسمع كلام الله ــ و يقوله و يعمله ــ و يستطيع أن يقوله باسم الله ليسمعه الناس ــ الذين من الله ــ فيؤمنون أنه من الله. هذا يوضحه ق. يوحنا في رسالته الأولى هكذا: «**نحن من الله** فمن يعرف الله يسمع لنا ومن **ليس من الله لا يسمع لنا.** من هذا نعرف **روح الحق وروح الضلال**» (١يو٤ : ٦). أما الذي من إبليس **فهو** يسمع من إبليس و يقول الكذب الذي يسمعه من إبليس و يضمر القتل، حتى لا يؤمن الناس بالحق و يصدقوا الكذب. والذي يسمع الكذب لا يسمع الحق لأنه ليس من الله.

ومرة أخرى نقول أن كلمة «**يسمع**» هنا تأتي في معناها الروحي، **فهو** سماع القلب ــ الذي يلازمه التنفيذ ــ أي **السماع والطاعة معاً**: «فقال له بيلاطس: أفأنت إذاً ملك؟ أجاب يسوع: أنت تقول إني ملك. لهذا قد وُلدتُ أنا، ولهذا قد أتيتُ إلى العالم **لأشهد للحق، كلُّ مَنْ هو من الحق يسمع صوتي.**» (يو١٨ : ٣٧)

وأيضاً نود أن نؤكد أن السماع الروحي للحق يتبعه الطاعة حتماً، كعمل أو فعل تنفيذي ــ مؤازَر من الله بقوة خاصة ــ على مستوى الروح أيضاً. ولكي ندرك هذا الأمر الخطير، فلنتأمل معاً في قول الرب: «الحق الحق أقول لكم إنه تأتي ساعة وهي الآن حين **يسمع** الأموات صوت ابن

الله، والسامعون **يحيون**» (يو٥: ٢٥). هنا الطاعة تأتي كفعل تنفيذي حتمي، كنعمة، يَسْري في الميت روحياً فيقيمه الصوت المُحْيي من موت الخطية. وهنا أيضاً يلزمنا أن ننتبه أن فعل الطاعة التنفيذي الذي يَسْري في الميت روحياً، أي الميت بسبب الخطية، **لا يحتاج منه إلى جهد لأنه فِعْلُ إحياءٍ من موت، هو من صنع الله**، حيث الموت هو اللاإرادة والسكون القاتل، تماماً كما سمع لعازر صوت ابن الله وهو ميت منتن في القبر، فقام. المطلوب فقط هو «**السمع**» أي السماح للصوت المحيي أن يَسْري في الروح وذلك بعدم إقامة العوائق أمامه، سواء من الشكوك، أو الادّعاء بعدم الاستحقاق، أو التملُّص لعدم المناسبة الزمنية، أو من الهروب وتسويف العمر باطلاً، أو الانشغال الأحمق بالتلذذ بالخطية، **بل بتصميم ويقظة وإرادة مذعنة للصوت الإلهي المحيي، يعمل عمله بالاستعداد، والامتثال لتأثيره، في صمت الخضوع المريح**: «قلبي مستعد يا الله قلبي مستعد» (مز٥٧: ٧ حسب السبعينية). ولكن إن أبْقَيْنا على الخطية في القلب، فلن نسمع الله، ولن يسمَع لنا الله: «إن راعيتُ إثماً في قلبي، لا يستمع لي الرب.» (مز٦٦: ١٨)

أما هؤلاء اليهود المعاندون، فكانت لهم آذان حكيمة تستطيع أن تميز بين الحق والباطل، لكنهم فقدوا إرادة الصلاح، فسدُّوا آذانهم لكي لا تسمع صوت الله عن دراية وإرادة: «مثل الصِلِّ الأصمِّ (بإرادته) يسدُّ أذنه (لكي) لا يستمع إلى صوت الحُوَاة الراقِينَ رُقَى حكيمٍ» (مز٥٨: ٤و٥). هذا كان حال هؤلاء اليهود في عينَيْ الرب تماماً، وهُم أدركوا بالفعل أن المسيح قد كشف عوارهم، وسدَّ عليهم منافذ الهروب من مواجهة الحقيقة المُرَّة في حلقهم، فأثبتوا بسلوكهم أنهم ليسوا من الله كما سبق وواجههم، إنهم لا يؤمنون بالله، لأنهم استحوذوا على مجد الله لأنفسهم كمعلمين. كما أنهم لا يحبون الله، لأنهم **أبغضوا** مَنْ أحبه الله وأرسَلَه إلى العالم. لهذا كله، قال لهم، «أنتم من أبٍ هو إبليس»، مما هيَّج سُخْطهم:

٨: ٤٨ــ٥٠ **«فأجاب اليهودُ وقالوا له: ألَسْنا نقولُ حسناً إنك سامريٌّ وبك شيطانٌ؟ أجاب يسوعُ: أنا ليس بي شيطانٌ لكني اُكْرِمُ أبي وأنتم تُهينُونَني. أنا لستُ أطلبُ مجدِي، يوجدُ مَنْ يطلُبُ ويَدِينُ».**

لم يتزحزح هؤلاء اليهود عن موقفهم المعاند، فهم فقدوا، ليس فقط القدرة على السماع من الله، بل وقطعوا خط الرجعة على أنفسهم إذ بدأوا يهينون الله في شخص مَنْ يتكلم باسمه.

«سامريٌّ»:

هذا الوصف قالوه ليشفي حقدهم على المسيح لأنه قال لهم: «أنتم لستم أولاد إبراهيم»، وهو

ما اعتبروه تجريداً من وطنيتهم. فهذا هو الاتهام الأول والأساسي الذي يقول به السامريون ضد اليهود. ومعنى الكلام الموجَّه للمسيح، أنك بهذا الكلام تكون قد تبنَّيْت فكر السامريين ضدنا وضد مملكتنا وميراثنا. ومعلوم مدى العداوة التي يكنُّها اليهود نحو السامريين، فهم ضمناً ينفِّسون عن عداوتهم للمسيح بهذا الوصف.

أما قولهم: «وبك شيطان»، فهو إفلاس من وجود اتهام حاضر في ذهنهم. فلا هم استطاعوا أن يبكِّتوه على كذب، ولا استطاعوا أن يقلِّلوا من سلطانه في الكلام باسم الله، أو الرد على الآيات التي يعملها. فكما تسجَّل في بقية الأناجيل، فإن مُتنفَّسهم الوحيد ضد هذه النماذج الفائقة التي يقدمها بالقول والعمل للتدليل على سلطان بنوته لله، كان أن يتهموه بأن أعماله وأقواله إنما هي بعمل الشيطان: «ببعلزبول رئيس الشياطين يُخرِج الشياطين» (لو١١: ١٥). وهذا خداع منهم ومراوغة لكي يضلِّلوا أنفسهم والشعب معهم حتى لا يؤمنوا به. وهنا هم يكررون نفس الاتهام ليفلتوا من الحكم عليهم بأنهم يعملون أعمال إبليس. وذلك بتدبير خطة قتله، ليتخلَّصوا من سلطان الحق المسلَّط على رقابهم.

«أجاب يسوع: أنا ليس بي شيطان»:

المسيح ترك اتهامهم له بأنه سامريٌّ لأنه لا يريد أن يدخل في نقاش الأنساب والأجناس، ولأن نفي الاتهام في حد ذاته لا يغيِّر من حقيقة الأمر أنهم بالفعل لم يعودوا أولاداً لإبراهيم ولا شعب الله المختار، وأنه لن ينفعهم هيكل سليمان العظيم الذي لن يبقى فيه حجرٌ على حجر لا يُنقض! إنما احتفظ المسيح لنفسه بالرد على الاتهام الثاني لأهميته، بل ولخطورته في نظره لأنه يمسُّ كرامة أبيه، ولهذا استحال عليه أن يصمت تجاهه.

«لكني أكرم أبي وأنتم تهينونني»:

المسيح هنا يُوقِع اليهود في خطيئة لا تُغْتَفَر. فكما سبق وجاء في الأناجيل الأخرى، فإن رد المسيح على نفس الاتهام أنه: «برئيس الشياطين يُخْرِج الشياطين» (مت٩: ٣٤)، و«أن معه روحاً نجساً» (مر٣: ٣٠)، اعتبر ذلك خطيئة مباشرة ضد الروح القدس، لأنه إنما كان بروح الله يُخْرِجُ الشياطين؛ فإنْ هُمْ نسبوا إلى رئيس الشياطين عمل الروح القدس، يكونون قد جدَّفوا على الروح القدس: «الحق أقول لكم: إن جميع الخطايا تُغْفَرُ لبني البشر، والتجاديف التي يجدفونها، ولكن مَنْ جَدَّفَ على الروح القدس، **فليس له مغفرة إلى الأبد بل هو مستوجب دينونة أبدية. لأنهم قالوا إن معه روحاً نجساً.**» (مر٣: ٢٨ـــ٣٠)

وهنا في إنجيل يوحنا اعتبر المسيح قولهم: «بك شيطان» هو إهانة؛ وأنها وإن كانت موجّهة منهم له شخصياً، إلّا أنها قيلت له بسبب أنه يُكرم الآب، فهنا الإهانة موجّهة بالأصل و بالأساس إلى الآب الذي جاء ليُكرمه، وهم يهينونه بسبب ذلك. ولكي ينفي المسيح عن نفسه أنه يدينهم بسبب إهانتهم له، يكرر أنه لا يطلب مجد نفسه، ولكن الذي يطالب بالمجد هو الله الذي أهانوه، والذي سيدين مَنْ أهانَه. و بهذا ينتهي المسيح من تكييف إهانتهم له بقولهم «بك شيطان»، بأن هذه الإهانة هي موجهة ضد الله، وثمنها دينونة حتمية.

٨: ٥١ «الحقَّ الحقَّ أقولُ لكُمْ: إنْ كان أحدٌ يحفظ كلامي فلن يَرَى الموتَ إلى الأبدِ».

حينما يكرر المسيح قول «**الحق**» فهو إنما يبدأ استعلاناً جديداً عن نفسه.

فإزاء الدينونة الرهيبة التي يقع فيها مَنْ يهين الابن الذي جاء ليكرم الآب، يوجد في المقابل وَعْدٌ أبديٌّ بأنَّ مَنْ يحفظ **كلمة** المسيح τὸν λόγον ، أي تعاليمه في مجموعها الكلي، فإنه لن يرى الموت إلى الأبد. هنا كلمة «**يحفظ**» لا تجيء بمعنى الحراسة، بل بمعنى الاستيعاب والملاحظة والطاعة. كما تجيء كلمة («**يرى**» الموت» ليس بمعنى النظر، بل بمعنى التأمل المستديم (ثيئوريا θεωρεῖν) في مواجهة الموت، وهي تجيء هنا للمرة الأُولى والوحيدة في جميع كتب العهد الجديد، وتفيد المعنى العكسي للموت. أي أنَّ مَنْ يحفظ و يطيع تعاليم المسيح في مجموعها ــ علماً بأن كلام المسيح هو روح وحياة ــ فلن يكون للموت سلطان مرعب على النفس أو تأثير مخيف ودائم إلى الأبد: «لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس، و يعتق أولئك الذين، خوفاً من الموت، كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية» (عب٢: ١٤و١٥)، بل استمتاع برؤية وممارسة الحياة الدائمة إلى الأبد. والمعنى الكلي أن الحياة تسود بفرحها على الموت بصورته المخيفة والمستمرة إلى الأبد حتى ولو مات الإنسان بالجسد. و باختصار شديد يقول المسيح إنَّ مَنْ يهين الابن يسود عليه الموت بالدينونة والخوف من الموت إلى الأبد، ومَنْ يحفظ و يستوعب تعاليمه تسود عليه الحياة الأبدية.

د ــ الجزء الرابع من الحوار
المسيح وإبراهيم
«قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن»
(٨ : ٥٢ــ٥٩)

٨ : ٥٢و٥٣ **«فقالَ لهُ اليهودُ: الآنَ علمنا أن بكَ شيطاناً. قد مات إبراهيمُ والأنبياءُ، وأنتَ تقولُ إنْ كان أحدٌ يحفظ كلامي فلن يذوقَ الموتَ إلى الأبدِ. ألعلك أعظمُ من أبينا إبراهيم الذي ماتَ والأنبياءُ ماتوا. مَنْ تَجْعَلُ نفسَكَ؟»**.

اليهود المعاندون يقولون: «الآن "عَلِمْنا"». هذا هو العلم الكاذب بأصوله وفروعه. وماذا علموا، وماذا تأكدوا من علمهم؟ أن المسيح أيضاً وللمرة الثانية به شيطان؟ هذا يكشف عن مدى صدق المسيح ودقَّته في وصف هؤلاء: إنهم من أبٍ هو إبليس، وشهوات أبيهم يعملون. وفي نفس الوقت لم يَرُد المسيح الإهانة، فصَدَقَ قولُ بطرس الرسول: «الذي إذ شُتِمَ لم يكن يَشتم عوضاً، وإذ تألم لم يكن يُهدِّد، بل كان يُسلِّم لمن يقضي بعدلٍ.» (١بط ٢ : ٢٣)

«قد مات إبراهيم والأنبياء»:

المعنى هنا مختفي بسبب شدة الاختصار، والمراد من هذا القول أن الله كلم إبراهيم وهو أبو الآباء، وكلَّم الأنبياء وكانوا أمناءَ على كلمة الله وحفظوها، وبالرغم من ذلك ماتوا كلهم، ولم تَقْوَ كلمة الله على منع الموت عنهم.

«وأنت تقول إن كان أحد يحفظ كلامي فلن يذوق الموت إلى الأبد»:

لم يَكْفِكَ أن تكون كإبراهيم أو أحد الأنبياء بأن لا تذوق أنت الموت إن كنت حفظت كلام الله، بل تزيد وتقول إن كان أحد آخر يحفظ كلامك أنت فإنه لا يذوق الموت إلى الأبد؟

هنا الخطأ المتعمَّد الذي وقع فيه اليهود في تحويل كلمة **«يرى الموت»** θεωρεῖν θάνατον في كلام المسيح إلى **«يذوق الموت»** γεύεσθαι θανάτου. نجد أن هذا الاصطلاح عامٌّ، فالمسيح نفسه ذاق الموت: «ولكن الذي وُضِعَ قليلاً عن الملائكة يسوع نراه مكللاً بالمجد والكرامة **من أجل ألم الموت لكي يذوق بنعمة الله الموت لأجل كل واحد»** (عب ٢ : ٩)، كذلك هذا الاصطلاح معروف لدى التقليد اليهودي في التلمود، أي أنه كان على ألسنة اليهود. وقد اختار

هؤلاء اليهود هذا الاصطلاح «يذوق الموت» بدل الاصطلاح الذي وضعه المسيح لأول مرة في العهد الجديد وهو «يرى الموت» بمعنى «يتأمل و يتصور الموت»، بمعنى يعيش الخوف الدائم منه، فهذا الاصطلاح «يذوق الموت» يجيء في الواقع ليخدم اللاهوت في أعماقه، فالمسيح ذاق الموت مرَّة، ولكنه لم يتأمله أو يراه أو يعيش الخوف منه ولا إلى لحظة. كذلك كلُّ مَنْ يؤمن بالمسيح، فإنه ينتقل من الموت إلى الحياة، أي يحيا إلى الأبد، ولا يعود **«يتأمل الموت»** بفزعه **والخوف منه:** «لكي يبيد بالموت (الذي ماته على الصليب) ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس، ويعتق أولئك **الذين، خوفاً من الموت، كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية**» (عب٢: ١٤و١٥). هذا الخوف من الموت الذي كان يجعلنا كعبيد للخوف كل أيام حياتنا هو هو الذي يقصده المسيح بخصوص الذين يحفظون كلامه: «لن **يرى الموت** إلى الأبد».

«ألعلك أعظم من أبينا إبراهيم الذي مات والأنبياء ماتوا. مَنْ تجعَلُ نفسك؟»:

لا تزال الهوة التي تفصل قول المسيح عن قول اليهود سحيقة، كما كانت أيضاً في نظر السامرية: «ألعلك أعظم من أبينا يعقوب؟» (يو٤: ١٢). فالمسيح يتكلم عن موت الخطية الأبدي والحياة الأبدية، وهم يتكلمون عن الموت الزمني المحتم بحسب حياة الجسد. هو يتكلم عن الوجود الإلهي الفائق على الزمن، وهم يتكلمون عن الوجود التاريخي ــ المنظور تحت العدم. هو يتكلم عن نفسه كابن الله الأزلي، وهم يرونه ابن الناصرة، مواطن جليليٍّ، غير مثقف.

«مَنْ تجعل نفسك؟»:

سؤال على مستوى فكر اليهود المحدود، فهو يستنكر مقدماً أي احتمال أنه أعظم من إبراهيم. مَنْ تجعل نفسك بالنسبة لإبراهيم والأنبياء، تعبيراً عن حتمية الموت للإنسان مهما كان؟ سؤال لا يجيب عليه المسيح إجابة مباشرة، لأن ذلك سيكون على مستوى لاهوتي يفوق فكرهم الضيق. لذلك يبدأ المسيح يفحص الإعتراضات الجانبية، فسؤالهم: «مَنْ تجعَلُ نفسك؟»، يُستشعر منه أن المسيح **يمجد ذاته** أكثر من الآباء والأنبياء. وهنا يتحتم الرد على ذلك لئلا يُمسّ مجد الآب وتُجرحَ طاعته لمن أرسله:

٨: ٥٤و٥٥ **«أجاب يسوع: إن كنتُ أُمجّدُ نفسي، فليسَ مجدي شيئاً. أبي هو الذي يمجّدُني، الذي تقولونَ أنتم إنه إلهُكُم، ولَسْتُم تعرفونَهُ، وأما أنا فأعرفهُ. وإن قلتُ إني لستُ أعرفهُ أكونُ مثلَكم كاذِباً. لكني أعرفهُ وأحفظ قولَهُ».**

المسيح هنا يستعلن حقيقة لاهوتية، ولكن على مستوى فكر اليهود، وهي ما يسمى بالإخلاء

κένωσις ، وهو ما يقول عنه بولس الرسول: «لكنه **أخلى نفسه** آخذاً صورة عبد» (في٢: ٧). فبعد التجسد يظهر ابن الله في هيئة بشرية ليس لها مظهر الألوهة، أي «**المجد**»، ولكنه احتفظ بطبيعة الألوهة في القوة والعمل. فمن جهة بشريته يقول المسيح لليهود إنه ليس له مجد شخصي (كإنسان)، فإذا اعتبروا كلامه «إن كان أحد يحفظ كلمتي (لوغس) فلن يرى الموت إلى الأبد» أنه تمجيد لنفسه، يكونون قد أخطأوا، إذ ليس له مجد شخصي، أو أن مجده ليس شيئاً موجوداً في الاعتبار قط؛ ولكن الذي يمجِّده حقاً هو أبوه، ليس كأنه سيضيف إليه شيئاً للتكريم، وإنما **يسترد منه المجد الذي سبق أن تخلّى عنه** حتى يستطيع أن يتجسد ويصير في هيئة عبدٍ: «والآن مجِّدني أنت أيها الآب **عند ذاتك، بالمجد الذي كان لي عندك قبل كَوْنِ العالم**» (يو١٧: ٥)، و«عند ذاتك» في هذه الآية تعني أن مجد الابن هو مجد ذات الله. هذا الذي نصرخ به في الذُكْصا الكبرى: «المجد للآب والابن والروح القدس».

« ... الذي تقولون أنتم إنه إلهكم»:

هنا يوضح المسيح الفرق الجوهري بين أُبوَّة الله للمسيح، وبين علاقة الله باليهود. فأُبوَّة الله للمسيح قائمة على أساس بُنُوَّة المسيح لله، فالأُبُوَّة هي أبوّة في ذات الله، والبُنُوَّة هي بُنُوة في ذات الله، أي أن الله أبٌ وابنٌ ذات واحدة غير مفترقة. ومن ذلك يتضح سر قول المسيح إن **الله أبوه الشخصي «الذاتي»**. وفي نفس الوقت يدَّعي اليهود أن **الله هو إلههم**، ولكن هذه النسبة بين الله وبينهم مقطوعة، بسبب عدم معرفتهم الله معرفة شخصية، والتي مِنْ أوضح مظاهرها رفْضُهُمْ للمسيح الذي يحمل أقوى استعلان لذات الله. **فهو فوق أنه ابن ذات الله، فهو يعمل أعمال الله!** «إن كنتُ لست أعمل أعمال أبي، فلا تؤمنوا بي؛ ولكن إن كنت أعمل، فإن لم تؤمنوا بي، فآمنوا بالأعمال، لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ وأنا فيه.» (يو١٠: ٣٧و٣٨)

«الذي تقولون أنتم إنه إلهكم ولستم تعرفونه، وأما أنا فأعرفه»:

هنا معرفة المسيح للآب التي يسلِّط عليها الضوء هي معرفة الجوهر للجوهر، معرفة الطبيعة للطبيعة، معرفة الذات للذات، معرفة المثيل للمثيل. هنا معرفة الابن للآب تساوي معرفة الآب للابن، أي معرفة تمام الانطباق!! فإذا دخلنا على هذه المعرفة اللاهوتية بالعقل أو الفكر أو التحليل، نتوه ونضلُّ؛ ولكن قد أُعطي لنا أن ندخلها من باب الحب والطاعة والإرادة، أي بالصفات التي نشابه فيها الله. فنحن نحس بمعرفة المسيح لله من خلال حب الله الآب — المطلق — للمسيح الابن، ومن خلال طاعة الابن المطلقة للآب.

ثم نحن نقيس هذه المعرفة الإلهية أيضاً بمقياس الإرادة والمشيئة، فنشعر من خلال بَذْل الله الآب لابنه بمقدار إرادة الآب الفائقة جداً على الوصف، التي تنازلت حتى إلى بذل الابن إلى أقصى حد من المذلَّة والهوان بالموت على الصليب. وهذه الإرادة الأبوية التي فرَّطت في مجد الابن وكرامته جاءت على نفس الإرادة التي أحبَّ بها الله عالم الخطاة، بمعنى أن الله أحب العالم ففرَّط في ابنه وبَذْله ليخلِّصهم ــ أي أنا وأنت ــ وسعى لخلاصهم وحياتهم، وأعطاهم نصيباً خاصاً في مجده وكرامته الشخصية!!!

والآن نستطيع أن نفهم، ولو قليلاً من **معرفة المسيح**، سواء للآب أو لنا التي يصفها بولس الرسول هكذا: «ليحلَّ المسيح بالإيمان في قلوبكم، وأنتم متأصِّلون ومُتأسِّسون في المحبة، حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعمق والعُلو، **وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة**، لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله.» (أف٣: ١٧ــ١٩)

والمسيح يقول لليهود إنهم يقولون عن الله أنه إلههم، وهم لا يعرفونه، لأنهم لو عرفوه حقاً لما صلبوا ابن محبته. ثم يقول: «أما أنا فأعرفه»، ومن أعظم مظاهر هذه «**المعرفة**» وأقوى الأدلة على صدقها وعمقها اللانهائي، طاعة المسيح حتى الموت، موت الصليب. هنا جعل المسيح قياس المعرفة على المستوى العملي المطلق. فاليهود لم يعرفوا الآب، فصلبوا ابنه بجهالة وإصرار. والمسيح أظهر معرفته الخاصة بالله الآب، بأن حفظ كلمته، وأطاع مشيئة الآب طاعة مطلقة تحدَّى بها جهالة اليهود والعالم، ورضي بأن يصلبوه ليكمِّل بموته مصالحة العالم بالآب.

وهكذا يكون ادِّعاء اليهود أنهم يعرفون الله هو ادِّعاء كاذب، يفضحه ما عملوه بابنه على الصليب. والمسيح يقول إنه يستحيل عليه أن يجاريهم في هذه المعرفة التي هي منتهى عدم المعرفة... فلو كان قد تمشَّى معهم ــ في مستوى توقيرهم الحرفي للناموس وتكريمهم لموسى، والمنِّ، وتعظيمهم لميراث وعد الآباء عن إبراهيم ــ لما صُلب، ولكان احتفظ بمجد نفسه ومجد إسرائيل الكاذب، ولأصبح كاذباً مثلهم في ادِّعاء المعرفة والعمل ضدها في نفس الوقت. لأن معرفة الله هي التي تختص بخلاص العالم، والتي تبدأ من الصليب وتكمل بالقيامة من الأموات، وافتتاح الطريق إلى الحياة الأبدية!! «أيها الآب البار، **إن العالم لم يعرفك** (فأكمل صَلْب الابن). **أما أنا فعرفتُك** (ببرهان صليبي)، وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني (وكانوا شهود صليبي)، وعرَّفتُهم **اسمك، وسأُعرِّفهم** (بقيامتي)، ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به، وأكون أنا فيهم.» (يو١٧: ٢٥و٢٦)

٨ : ٥٦ **«أبوكم إبراهيمُ تهلل بأن يَرى يومي فرأى وفَرِحَ».**

يفتتح المسيح هذا الإعلان بكلمة **«أبوكم»**، باعتبار أن المسيح **«ابن الله»**؛ وهكذا يرتفع المسيح بمستوى رؤيته لنفسه بالنسبة لإبراهيم. فإبراهيم أبوهم بحسب مستواهم الجسدي، أما إبراهيم نفسه فهو لا يزيد عن كونه شاهداً للمسيح من وراء الزمن؛ وهذه دائماً هي نظرة إنجيل يوحنا لكل الآباء والأنبياء والناموس والمزامير بالنسبة للمسيح.

«تهلل»:

تأتي باليونانية ἠγαλλιάσατο وتعني الإبتهاج الروحي أو السرور المفرط. وقد تحيَّر جميع علماء الكتاب المقدس قديماً وحديثاً بالنسبة لشرح هذه الكلمة، وانتحوا نواحي شتى خرجت بهم عن المعنى المقصود. وصعوبة هذه الكلمة لا تأتي في معناها بل في عملها، **فالسرور المفرط** في الاختبار التصوفي هو نفسه **حالة رؤيا واختبار**. وقد جاءت هذه الكلمة التي تفيد هذا الاختبار على لسان القديسة العذراء مريم في نبوّتها وهي عند أليصابات، حينما تكلمت عن مستقبل المسيح، وهي حامل به لأيام قليلة في بطنها: «فقالت مريم: تعظِّم نفسي الرب **وتبتهجُ** روحي بالله مخلِّصي» (لو١: ٤٦و٤٧)، وهنا مريم تتكلم وهي في حالة ابتهاج ἠγαλλίασε، أي رؤيا واختبار يختص بوعد الله لإبراهيم!! فالعجيب حقاً أن يأتي الاصطلاح (الإبتهاج ــ السرور المفرط) على فم المسيح: «أبوكم إبراهيم **تهلل** ἠγαλλιάσατο»، كما جاء على لسان القديسة العذراء مريم ἠγαλλίασε وفي نفس الموضوع، إذ أكملت قولها: «عضَد إسرائيل فتاه، ليذكر رحمة، **كما كلم آباءنا، لإبراهيم** ونسله إلى الأبد.» (لو١: ٥٤و٥٥)

كذلك نأتي إلى كلمة «**بأن يرى**» ἵνα ἴδῃ على نفس الصعوبة وأشدّ. وقد خرج كل الشارحين والمترجمين لإنجيل يوحنا عن المعنى الصحيح لهذا التركيب اللغوي، لأنهم حرّفوا هذا الاصطلاح لكي يناسب الكلمة السابقة **تهلل**. إذ وجدوا أن الترجمة الصحيحة الحرفية لها «تهلل لكي» غير موافقة فجعلوها «تهلل بأن»، فطوّحوا بالمعنى كله بعيداً عن المفهوم الصحيح لهذا الاختبار الروحي التصوفي. فالترجمة الصحيحة الحرفية، والتي توافق المعنى تماماً بحسب الاختبار الروحي هي: «**تهلل لكي**»، وهذا يعني بحسب الاختبار الروحي لكلمة «تهلل»، أن إبراهيم دخل في هذا الاختبار الروحي: **«لكي يرى، فرأى وفرح».**

والصعوبة الأكثر التي واجهت الدارسين لإنجيل يوحنا هي: متى وكيف رأى إبراهيم يوم الرب فرأى وفرح؟ فريق قال: إن ذلك حدث في ميلاد إسحق، وإن ضحك إبراهيم وسارة هو هذا

«التهليل». وفريق آخر قال: عندما أَقْدَمَ إبراهيم على ذبح إسحق فمنعه الملاك ثم أبصر خروفاً قدَّمه عوض إسحق. وفريق آخر قال: وقت عتمة الليل أثناء تقديم قطع الذبيحة. وفريق قال: إن ذلك حدث على مرحلتين: مرحلة السؤال والطلبة أثناء حياة إبراهيم، ومرحلة الرؤيا والفرح تمت بعد الصَلْب أثناء نزول المسيح إلى الجحيم لفكِّ أرواح المأسورين.

ولكن بالرجوع إلى الكتاب المقدس نجد أن العذراء القديسة مريم قد حددت وعد الله لإبراهيم هكذا:

«فقالت مريم: تعظِّم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلصي لأنه نظر إلى اتضاع أَمَتِهِ... عضَّد إسرائيلَ فتاه ليذكرَ رحمةً، **كما كلَّم آباءنا. لإبراهيم ونسله** إلى الأبد.» (لو١: ٤٦و٥٤و٥٥)

وهنا الرد على السؤال **هل رأى إبراهيم يوم الرب؟** حيث جاء الرد على لسان العذراء أن الذي في بطنها **هو وعد الله لإبراهيم.**

ولكي نتحقق كيف تمت الرؤيا أثناء كلام الله مع إبراهيم نقرأ الآتي:

أ ــ في الرسالة إلى غلاطية: «وأما المواعيد فقيلت في إبراهيم وفي **نسله** (باليونانية σπέρμα وبالقبطية **ϫⲣⲟϫ**)، لا يقول وفي الأنسال كأنه عن كثيرين، بل **كأنه عن واحد، وفي نسلك** (مفرد)، **الذي هو المسيح.**» (غل٣: ١٦)

ب ــ كذلك نقرأ في سفر الأعمال: «أنتم أبناء الأنبياء والعهد الذي عاهد به الله آباءنا قائلاً **لإبراهيم: وبنسلك (مفرد) تتبارك جميع قبائل الأرض.** إليكم أولاً إذ أقام الله فتاه **يسوع، أرسله يبارككم** بردِّ كلِّ واحدٍ منكم عن شروره.» (أع٣: ٢٥و٢٦)

ج ــ ثم نقرأ في سفر العبرانيين: «فإنه لما وعد الله إبراهيم إذ لم يكن له أعظمُ يُقْسِمُ به، أقْسَمَ بنفسه قائلاً: إني لأُباركنَّك بركة وأُكثرنَّك تكثيراً. وهكذا إذ تأنَّى **نال الموعد.**» (عب٦: ١٣ــ١٥)

د ــ كذلك نقرأ في سفر العبرانيين: «بالإيمان قدم إبراهيم إسحق وهو مجرَّب. قَدَّم الذي قَبِلَ المواعيد وحيده، الذي قيل له: إنه بإسحق يُدْعَى لك نسلٌ (مفرد). **إذ حَسِبَ أن الله قادرٌ على الإقامة من الأموات** أيضاً، الذين منهم أخذه أيضاً في مثال.» (عب١١: ١٧ــ١٩)

وهنا تأكيد الوحي الإلهي على أن فعل إرادة الذبح عند إبراهيم كان مشفوعاً بإيمان قدرة الله بالإقامة من الأموات، وهذا هو جوهر الرواية كلها.

ومن مجموع هذه الآيات أ، ب، ج، د، يتضح لنا أن **الإشارة الأساسية التي تخصُّ المسيح في حديث الله مع إبراهيم جاءت بعد أن قدَّم إبراهيم ابنه وحيدَهُ إسحق** بنيَّة ذبحه، طاعة لأمر الله، والتي جاءت في سفر التكوين الأصحاح الثاني والعشرون.

ففي الآية أ ــ النسل الموعود به بالمفرد: **هو المسيح.**
وفي الآية ب ــ النسل الذي به تتبارك جميع قبائل الأرض: **هو يسوع.**
وفي الآية ج ــ الله أقسم بذاته ليؤكد ضمان الوعد بالنسل. وقد تم بالفعل إذ نال عربون الموعد في إسحق.
وفي الآية د ــ ثم إبراهيم يقدِّم ابنه إسحق الذي فيه تم عربون الموعد، يقدِّمه ذبيحةً بإيمان أن الله قادر أن يقيمه من الموت. وبذلك تمت كل مفردات رؤية إبراهيم للمسيح، وهذا نقرأه بوضوح في سفر التكوين:

+ «وقال (الله): إبراهيم إبراهيم فقال: هأنذا. فقال لا تمدَّ يدك إلى الغلام، ولا تفعل به شيئاً، لأني الآن علمتُ أنك خائفٌ الله. **فلم تُمسِك ابنك وحيدك عني.** فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبشٌ وراءَه ممسكاً في الغابة بقرنيه. فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه. فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع **يَهْوَه يِرْأه** (الرب يُرى). حتى إنه يقال اليوم في جبل الرب يُرَى.» (تك٢٢: ١١ــ١٤)

وهكذا عندما نفَّذ إبراهيم وصيَّة الله في ابنه بإيمان أن الله قادرٌ على الإقامة من الأموات (تماماً كما نفَّذ المسيح وصية الله في نفسه مقدِّماً نفسه على الصليب بإيمان القيامة من الأموات) ... **عند هذا تقف الرواية في سفر التكوين فجأة، ويتم الإعلان عن حدوث رؤية يصمت الوحي عن كشف تفاصيلها إلى أن يعلنها المسيح بنفسه: «أبوكم إبراهيم تهلل لكي يرى يومي فرأى وفرح».**

ومما سبق يتضح لنا تفاصيل معنى "**يرى يومي**"، فقد رأى إبراهيم الموت (الصليب) والقيامة معاً. رأى صورة الذبيحة بفعلها الكفَّاري لمسرة الله، ورأى القيامة في بهجة فعلها الخلاصي. ورأى كيف سيتم أن تتبارك قبائل الأرض في نسله «أي بالمسيح». ثم نكرر القول أن رؤية الرب تتم فقط للذين حفظوا كلمته من خلال السرور المفرط، أي التهليل الخلاصي. لذلك يقول المسيح: «**تهلل** "لكي" يرى يومي، فرأى **وفرح**».

٨ : ٥٧ــ٥٩ **«فقالَ لهُ اليهودُ: ليسَ لكَ خمسونَ سنةً بعدُ. أفَرَأيتَ إبراهيمَ؟ قال لهم يسوعُ: الحقَّ الحقَّ أقولُ لكم: قبلَ أن يكونَ إبراهيمُ أنا كائِنٌ. فرفعوا حجارةً ليرجموه. أما يسوعُ فاختفى وخرجَ من الهيكلِ مجتازاً في وَسْطِهِم، ومضى هكذا».**

ق. يوحنا يصمم على تسجيل هذه المفارقة للحقيقة من جهة سنِّه، فالمسيح لم يكن يتعدى في عمره الثلاث والثلاثين سنة، ولكن يبدو أن هيئة المسيح كانت في عيون هؤلاء اليهود تفوق سنَّه. ثم يسجل عليهم المفارقة الثانية، التي هي نوع من تزييف الكلام وتحويل الأبدي إلى زمني: «أفرأيت إبراهيم». المسيح لم يقل هذا، بل قال ما هو أعظم وأخطر من هذا. فقد قال إن إبراهيم هو الذي رأى يومي، كتعبير عن تكميل المواعيد في شخص المسيح! ولكنهم لما أرادوا أن يحرِّفوا الكلام ويهبطوا به إلى مستوى تواريخ الميلاد، واجههم المسيح باستعلان أقوى عن أزلية وجوده: «الحق الحق أقول لكم: قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن».

بهذا يكون المسيح قد أقرَّ بقولهم أن إبراهيم مات، ومات كل الأنبياء، ولكنه ــ أي المسيح ــ كان قبل كل هؤلاء حيًّا ومُعطي الحياة. وأقرَّ أن أباهم هو إبراهيم كما كانوا يفتخرون، ولكنه ــ أي المسيح ــ هو فخر إبراهيم ورجاؤه الذي تتم به بركة جميع قبائل الأرض. إبراهيم كان أرامياً تائهاً، آواه الرب في أرض غريبة، والمسيح هو ابن الله الذي نزل من السماء ليردَّ غُرْبَة إبراهيم ونسله إلى الوطن السماوي.

كان المسيح هذا وأكثر ألف مرة من هذا، وكان يدرك المفارقة التي لا تُحَدُّ بينه وبين إبراهيم. لذلك لم يكن أمام المسيح إلاَّ أسلوبه الإلهي العالي ليحطم به كبرياء اليهود المتعالين بالأنساب والألقاب: «الحق الحق أقول لكم...». أما المفارقة فلم يجعلها المسيح بين إبراهيم وبين شخصه، بل رفعها مرة واحدة وباستعلان متناهٍ ليبلغ بها جوهر كيانه الإلهي فقال: «قبل أن يكون γενέσθαι (يصير أو يُخلق) إبراهيم ἐγώ εἰμί أنا هو». و«أنا هو» هو اسم يهوه نفسه = أنا الكائن(١٥) الذي يكون.

ويلاحظ القارىء أن المسيح رفض أن يجعل المفارقة زمنية بأن يقول «قبل إبراهيم **كنت** أنا»، بل وضعها على مستوى المطلق الأزلي اللازمني: «قبل أن يكون إبراهيم **أنا كائن**»، لكي

(١٥) أنظر خروج٣: ١٤ النص اليوناني.

وقد تم شرح معناها اللاهوتي في المدخل ص٢١٨ــ٢٤٦، ويقابلها في العبري Ani ho.

يجعل المفارقة صارخة بين المخلوق والخالق، الزمني والأبدي. والتي على مستواها قال المسيح مرة لتلاميذه: «إني أنا حيٌّ فأنتم ستحيون» (يو١٤: ١٩). فنحن من ملء حياته الأبدية نأخذ حياة بل نأخذ ملئاً. فأية مقارنة يمكن أن توضع بين الحياة والموت؟ أو بين المحيي والميت؟

ولم يكن صعباً على هؤلاء اليهود أن يدركوا أنه يتكلم عن لاهوته، أو كما عبَّروا هم مرة، أنه يجعل نفسه مساوياً لله. إنه تجديف... فليحيا الناموس وليمت المسيح: «فرفعوا حجارة ليرجموه». كانت الحجارة جاهزة في جيوبهم (١٦) ورفعوها بالفعل بأعلى أذرعهم، ولكن أذرعهم وقفت بلا قوة على الرجم؛ إذ لم يروه؛ سقطت الحجارة من أيديهم واختفى هو عن أعينهم مع أنه جاز في وسطهم.

ولكي يمعن ق. يوحنا في إحكام ربط الأقوال بالأعمال، ثم ربط الأقوال والأعمال بالنبوات، يسجل في الختام جملة ذات مغزى سرِّي للغاية، إذ يقول: «أما يسوع **فاختفى وخرج من الهيكل** مجتازاً في وسطهم ومضى هكذا». هذا تعبير حزين وموجع، له إحساس نَبَويٌّ صادق. فاختفاء المسيح عنهم، وهو في وسطهم، يرمز لعمى بصيرتهم (إش٦: ١٠)، وخروجُه من الهيكل (مت٢٣: ٣٨) يرمز إلى التخلي عن الأمة اليهودية بأجمعها، وإن كثَّروا الصلاة فلن يعود يسمع بعد!! أما أنه اجتاز في وسطهم ومضى، فهي صورة لختام رسالته: «إلى خاصَّته جاء وخاصَّته لم تقبله.» (يو١: ١١)

إبراهيم والنسل والأولاد بمفهوم كلام المسيح:

ولكن لا يفوتنا هنا أن نبين أن كلام المسيح عن إبراهيم لا ينتقص من إبراهيم، ولكنه يحذف حق البنوَّة لإبراهيم بالقوة. فإبراهيم لم يأخذ مكانته أمام الله، إلا بعد أن أكمل الوصية: **«سِرْ أمامي، وكن كاملاً، فأجعل عهدي بيني وبينك وأُكثِّرك كثيراً جداً»** (تك١٧: ١و٢). فالعهد الذي أقامه الله مع إبراهيم تأسس على السلوك بالكمال. فإبراهيم لم يُخِلْ بالعهد، ولكن أولاد إبراهيم لم يسلكوا بالكمال، فنقضوا العهد من أساسه، فكيف سيصيرون بركة لكل الأمم، وهم صاروا لعنة لأنفسهم؟ حسبوا البركة ميراثاً يُنهب بالقوة، مع أنها رسالة ومسئولية! ولكي يصونَ الرب هذا الميراث الروحي ويفضح الناهبين ويوقظ الحالمين، ضرب الرب في إنجيل لوقا مَثَلَ إبراهيم ولعازر والبنين الشاردين، والمثل ينتهي بهذا المشهد الحزين: «فمات المسكين وحملتهُ الملائكةُ إلى حِضْنِ إبراهيم. ومات الغني أيضاً ودُفِنَ. فرفع عينيه في الجحيم وهو في العذاب ورأى

(١٦) الهيكل لم يكن قد أكمل بناؤه بعد، والحجارة متراكمة بين أركانه.

إبراهيم من بعيد ولِعازر في حِضْنهِ. فنادى وقال يا أبي إبراهيم ارحمني وأرسل لِعازر ليبلّ طرف إصبعهِ بماء ويبرد لساني لأني مُعذبٌ في هذا اللهيب. فقال إبراهيم يا ابني اذكر أنكَ استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك لِعازر البلايا. والآن هو يتعزى وأنت تتعذّبُ. وفوق هذا كلّه بيننا وبينكم هوةٌ عظيمةٌ قد أُثبتت حتى إنّ الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون ولا الذين من هناك يجتازون إلينا. فقال أسألكَ إذاً يا أبتِ أنْ تُرسلهُ إلى بيت أبي. لأنّ لي خمسة إخوة. حتى يشهد لهم لكيلا يأتوا هم أيضاً إلى موضع العذاب هذا. قال له إبراهيم عندهم موسى والأنبياء. ليسمعوا منهم. فقال لا يا أبي إبراهيم. بل إذا مضى إليهم واحدٌ من الأموات يتوبون. فقال له إنْ كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء ولا إنْ قام واحدٌ من الأموات يُصدقون.» (لو١٦: ٢٢ــ٣١)

ويوحنا المعمدان بنظرة نبوية ثاقبة، رأى من بعيد خطورة العثرة التي وقفت أمام شعبه لتكون حجر عثرة في الإيمان بالمسيح، فبصوته الصارخ نبّه الطالبين التوبة أن الإتكال على نسب إبراهيم لن يشفع فيهم أمام الله: «فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون إلى معموديّته قال لهم: يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي. فاصنعوا أثماراً تليقُ بالتوبةِ. ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم **لنا إبراهيم أباً**. لأني أقولُ لكم **إنَّ الله قادرٌ أنْ يُقيمَ مِنْ هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم**. والآن قد وُضِعت الفأس على أصل الشجرِ. فكل شجرةٍ لا تصنع ثمراً جيداً تُقطعُ وتُلقى في النار. أنا أُعمدكم بماءٍ للتوبة. ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني الذي لستُ أهلاً أن أحمل حذاءهُ. هو سيعمدكم بالروح القدس ونارٍ. الذي رفشهُ في يدهِ وسيُنقي بيدرهُ ويجمعُ قمحهُ إلى المخزنِ. وأما التبنُ فيحرقهُ بنارٍ لا تُطفأ.» (مت٣: ٧ــ١٢)

المسيح في إنجيل متى وضع التبني فوق البنوة الجسدية، بل وجعل الغرباء أهلاً لصحبة إبراهيم في وليمة الأبدية، والأبناء المنتفخون يُطْرَدُون: «وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتّكئون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت السموات. وأما بنو الملكوت فيُطرحون إلى الظلمة الخارجية. هناك يكون البكاء وصريرُ الأسنان.» (مت٨: ١١و١٢)

وإلى اليهود المتمسكين بأُبوّة إبراهيم فوق وصايا الله أعطى هذا المعيار الجديد بالذات في السلوك بالروح أمام الله: «لا تَدْعُوا لكم أباً على الأرض (المقصود هنا إبراهيم أبو اليهود) لأن أباكم واحد الذي في السموات.» (مت٢٣: ٩)

وعلى أساس التحديد الإلهي لقيمة النسب لإبراهيم الذي وضعه المسيح بتعاليمه، انطلق بولس الرسول ليؤكد ــ بالروح أيضاً ــ أن وعد الله وعهده لم يكونا مع أولاد إبراهيم بل مع ــ واحد ــ

نسل إبراهيم. وكلمة «نسل» بالعربية خاطئة ومُضلِّلة فهي في اليونانية **σπέρμα** أي «النُطْفَة» أو البذرة الحية من صُلبه (الصُلْب هو المركز الجنسي في أسفل الظهر)، وتأتي بالقبطية **xpox** أي البذرة بكل وضوح. وشرح بولس الرسول أن هذا لا يفيد النسل ــ ككثرة ــ على وجه العموم أو الإطلاق، بل **بذرة واحدة**، تنتهي عندها ذُرِّيَّة إبراهيم موضحاً **أنها تعني المسيح، ففي المسيح وحده تتبارك الأمم**: «وأما المواعيد فقيلت في إبراهيم وفي **نَسْلِهِ**. لا يقول وفي الأنسال كأنه عن كثيرين (من الأولاد) بل كأنه **عن واحد**: وفي نسلك sperm =σπέρματι **الذي هو المسيح**» (غل٣: ١٦)، و ينتهي بولس الرسول في شرحه لهذا الموضوع الخطير بقول يطابق تعاليم المسيح: «**إن كنتم للمسيح، فأنتم إذاً نسل إبراهيم، وحسب الموعد ورثة.**» (غل٣: ٢٩).

والمسيح سبق وأوضح مفهوم الحرية والأحرار على المستوى الروحي، ليقابل المفهوم الخاطىء للحرية على المستوى السياسي الذي يدّعيه اليهود، أنه ــ أي مفهوم الحرية ــ ضمن ميراث أولاد إبراهيم. إذ أدخل المسيح عنصر **الخطيئة كأساس للعبودية. أما الحرية فهي الأساس للخلاص من الخطية.**

وهذا يعني أن ميراث البنين لإبراهيم لا يكفي أن يجعل أولاد إبراهيم أحراراً، بل هم عبيد إنْ فعلوا الخطية، وأحرارٌ إنْ خلّصهم المسيح من الخطية.

و ينوِّه المسيح من بعيد على ابنيْ إبراهيم (**إسماعيل** ابن الجارية **وإسحق** ابن الحرة) قائلاً إن «**العبد** لا يبقى في البيت إلى الأبد، أما **الابن فيبقى إلى الأبد**» (يو٨: ٣٥). و بولس الرسول يلتقط هذا المعنى و يزيده وضوحاً وتطبيقاً، مشيراً إلى أن **هاجر** الجارية هي الرمز **لجبل سيناء** (غل٤: ٢٥) الذي وُلد فيه **الناموس** الوالد **للعبودية**: «لأن بدون الناموس الخطية ميتة. أما أنا فكنت بدون الناموس عائشاً قبلاً، ولكن لما جاءت الوصية، عاشت الخطية (بالوصية)، فمُتُّ أنا (بحكم الوصية)» (رو٧: ٨و٩). و بهذا الحكم يكون الناموس ــ **هاجر** ــ آيلاً للزوال، أي **الطرد** من البيت (الله)، لأنه ابن **الجارية**، لأنه والد **العبودية**.

أما **سارة الحرة** فهي باقية رمز «**الموعد**» نظير إسحق المستعلن في المسيح. والناموس الوالد للعبودية يقابله أورشليم الأرضية الواقعة تحت العبودية هي و بنيها.

وأما الموعد بسارة الحرة وبإسحق (المكمّل بالمسيح)، فيقابله **أورشليم** العليا، وهي (الكنيسة) حُرَّة التي هي أُمُّنا جيعاً (أُم المفديين من الخطية): «لكن ماذا يقول الكتاب اطرد الجارية وابنها

لأنه لا يرثُ ابن الجارية (الناموس) مع ابن الحرة (المفديين)» (غل٤ : ٣٠)؛ «إذاً أيها الإخوة لسنا أولاد جارية (عبودية الناموس)، بل أولاد الحرة (حرية المسيح بالفداء من الخطية))» (غل٤ : ٣١)؛ «فاثبتوا إذاً في الحرية التي قد حررنا المسيح بها، ولا ترتبكوا أيضاً بنير عبودية (الناموس).» (غل٥ : ١)

وهكذا، بحذق روحي مدهش ومهارة فائقة بمنطق فريسي متنصِّر، يردُّ بولس **كل اليهود الرافضين للمسيح إلى هاجر كأولاد للجارية، كعبيد الخطية المحكوم عليهم من الناموس ــ وهم المتمسكون به ــ بالطرد من البيت والحرمان من الميراث.**

أما الذين قبلوا المسيح وتحرروا من نير الخطية الذي بالناموس **فردَّهم إلى سارة وإسحق كأولاد شرعيين لميراث إبراهيم في الله: «إن كنتم للمسيح، فأنتم إذاً نسل إبراهيم، وحسب الموعد ورثة.»** (غل٣ : ٢٩)



الأصحاح التاسع

مكان البشارة
ثامناً (تابع):
في أُورشليم
في عيد التجديد
(٩:١ــ١٠:٣٩)

مقدمة للأصحاحين التاسع والعاشر

نحن الآن في الشتاء، وقد انقضى ثلاثة أشهر على موسم عيد المظال الذي احتفل به اليهود من ١٥ــ٢٢ من شهر تشري الموافق سبتمبر / أكتوبر. وقد اختص الأصحاح السابع ومعظم الأصحاح الثامن بتعاليم المسيح ومحاوراته مع اليهود، والمناسبة لطقوس وقراءات هذا الموسم. ولم يذكر الإنجيل أن المسيح غادر أورشليم، بل ظلّ يعلّم فيها وفيما حواليها. حتى جاء موسم عيد التجديد ٢٥ كِشلو الموافق ديسمبر والذي يستمر لمدة سبعة أيام، وابتدأ المسيح يعطي تعاليمه المناسبة لاحتفالات هذا العيد.

عيد التجديد:

يبدأ ذكر عيد التجديد في الأصحاح العاشر عدد ٢٢. و يلاحَظ أن ق. يوحنا بعد أن يسرد القصة وتعاليمها، يعلّق عليها إما من الوجهة الروحية أو التاريخية أو المكانية، وهنا يأتي التعليق تاريخياً ومكانياً، أي أن التعاليم والحوادث التي حدثت على مدى الأصحاحين التاسع والعاشر وحتى العدد ٢٢ كانت في زمن عيد التجديد وفي الهيكل.

«**وكان** عيد التجديد في أورشليم وكان شتاءٌ، وكان يسوع يتمشى في الهيكل في رواق سليمان.» (يو١٠: ٢٢و٢٣)

وقد احتار علماء الكتاب المقدس في تفسير «**وكان** عيد التجديد» ἐγένετο δέ ، والتي جاءت في مخطوطات أخرى منها الطيبية القبطية Thebaic ، والأرمنية Armenian : ἐγένετο τότε وقد أخذ العالم وستكوت بالنسخة الطيبية وترجمتها: «"**وفي ذلك الحين**" كان عيد التجديد»، مما يفيد أن هذا التوقيت يختص بكل ما سبق سرده، بعكس ما أخذه العلماء الآخرون ἐγένετο δέ على أنها: «**وكان قد صار**» أي أن التوقيت يختص بما سيجيء من الكلام.

ونحن نأخذ برأي وستكوت، لأنه واضح فيه الصحة والدقة، فإن تعاليم المسيح التي قدّمها ق. يوحنا في الأصحاحين التاسع والعاشر تختص بالفعل بطقوس عيد التجديد ومعناه.

وعيد التجديد يأتي ذكره في سفر المكابيين الثاني ١ : ٩، وهو خاص بذكرى انتصارات المكابيين لمدة ثلاث سنوات (١٦٧ — ١٦٤ ق.م)، وفيه يذكر طرد يهوذا المكابي للسوريين الذين نجّسوا مذبح المحرقة بإقامة صنم بعل «شاميم»، الذي اعتُبِرَ أنه «رجسة الخراب» التي تكلم عنها دانيال النبي (٩ : ٢٧)، والتي ذكرها المسيح في إنجيل القديس متى ٢٤ : ١٥ على أنها ستتكرر لتكون علامة خراب الهيكل وأورشليم، وقد تمت هذه بالفعل في أيام الرومان سنة ٧٠م. وقد بنى يهوذا المكابي المذبح من جديد ودُشّن الهيكل كله في يوم ٢٥ من شهر كسلو (١مكا ٤ : ٤١ — ٦١)، وصار يُعيَّد كل سنة لتذكار تجديد المذبح والهيكل.

والاسم اليهودي لعيد التجديد هو «حنُوكا» والتي تعني التدشين (أي المسح بالزيت = حنَّك بالتعبير العربي العامي)، وباليونانية ἐγκαίνια أي التجديد.

وكان اليهود يسمُّون هذا العيد بعيد الأنوار، وعيد مظال (مِظَلَّة) شهر كسلو، معتبرين أن تجديد الهيكل هو إعادة عودتهم تحت مظلة = خيمة الله، أو عودة حلول الله في وسطهم، كما في أول خيمة في البرية وفي تدشين هيكل سليمان حينما حلَّ الله ببهائه وملأ الخيمة أو الهيكل. وهذا في الحقيقة كان رمز قرب مجيء الرب بالفعل وحلوله في وسط إسرائيل = «عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا» (مت ١ : ٢٣)، ولكن ليس لكي يبني ويدشّن خيمة من جِلْدٍ أو هيكلاً من حجر وتحف، ولكن ليدشّن جسده هيكلاً سماوياً يجمع فيه وإليه كل مفديي الله ومختاريه منذ أول الدهور وإلى آخر الزمان. وقد أقام هيكله هذا لا في أورشليم ولا في جِرزيم، ولكن على جبل صهيون الحقيقي، في مدينة الله، أُورشليم العليا المزيَّنة بقديسيها من أرواح مكمَّلة بالمجد، وربوات هم محفل ملائكة (عب ١٢ : ٢٢و٢٣) وكنيسة حية على الأرض تصل أخبار كرازتها إلى السماء أولاً بأول: «لكي يُعرَّف الآن عند الرؤساء والسلاطين في السماويات بواسطة الكنيسة بحكمة الله المتنوعة...» (أف ٣ : ١٠)

أما العلاقة بين تعاليم الرب التي جاءت في هذين الأصحاحين وبين طقوس هذا العيد ومعناه، فكانت تتركز في الربط بين آمال اليهود الملتهبة التي تثيرها ذكرى انتصارات المكابيين وتخليص الأمة اليهودية من أعدائها، وبين موضوع الخلاص الذي ينادي به المسيح كقائد النور والخلاص الأبدي الذي خلَّص خرافه ودشَّن هيكله بدمه، وحيث كان يملأ الهيكل أصداء ترانيم العيد التي

تذكر جميع مواقف نجاة وخلاص الشعب في السابق، ودعاء وصلاة من أجل خلاص في الحاضر.

وبينما كانت تُضاء جميع الأنوار في الهيكل، لأن هذا العيد كان يُدعى عيد الأنوار، وقف المسيح كالعادة يقول: «ما دمت في العالم فأنا نور العالم» (يو٩: ٥). وحينما كان يُفتح باب الخراف في الهيكل لتدخل خراف العيد للذبائح اليومية، وقف المسيح يقول: «أنا هو باب الخراف» للهيكل الجديد، «كما هو مكتوب إننا من أجلك نُمات كل النهار، قد حُسبنا مثل غنم للذبح.» (رو٨: ٣٦)



الأصحاح التاسع

التطابق العملي لاستعلان طبيعة المسيح النورانية

الأعمى المستنير(١)

[وهبت النظر للعميان] (القداس الغريغوري).
[يا من فتح أعين العميان افتح عيون قلوبنا] (القداس الكيرلسي).

أ ــ آية تفتيح عيني المولود أعمى: (٩: ١ــ٧).

٩: ١ــ٣ «وفيما هو مجتازٌ، رأى إنساناً أعْمَى منذ ولادته. فسأله تلاميذُه قائلينَ: يا معلّمُ مَنْ أخطأ هذا أم أبواهُ حتى وُلِد أعمى؟ أجاب يسوع: لا هذا أخطأ ولا أبواه لكن لتظهرَ أعمالُ الله فيهِ».

«من أخطأ هذا أم أبواه حتى وُلد أعمى»:

سؤال يحيِّر العالم كله قديماً وحديثاً. ولكن إذا أخذنا بالعناصر الأساسية في موضوع الخطية والألم والعقاب، ربما نصل إلى أن حلَّ السؤال ليس هيِّناً. فهو سؤال مبتور، له أصول وفروع، وبداية واحدة ونهايات لا حصر لها.

البداية هي الخطية التي دخلت عالم الإنسان ودخل معها العقاب والألم والموت. أما الأصول التي ترتبت على دخول الخطية فمنها الطبيعي مثل:

١ ــ أن الإنسان فقد وضعه الروحي وعِشْرَته مع الله، التي كانت تحجب عنه عوامل الطبيعة المؤذية التي وقع فريسة لها: من مؤذيات حيوانية وحشرية وطفيليات وبكتريا وفيروسات لا حصر لها، بالإضافة إلى المؤذيات النفسية من جَوْر الإنسان والظروف المحيطة.

٢ ــ عوامل الزمن الذي يتعاهد مع المؤذيات الأخرى في سرعة شيخوخة خلايا الإنسان،

(١) إنجيل المولود أعمى يُقرأ مرتين في السنة:
ــ في الأحد السادس من الصوم الكبير، وهو أحد التناصير أي المعمودية، وهذا دليل على ارتباط هذا الإنجيل بالمعمودية في تقليد الكنيسة الأُولى.
ــ وفي الأحد الرابع من شهر طوبة بعد عيد الغطاس، وهذا أيضاً بسبب ارتباط هذا الفصل بالمعمودية.

لترجيح كفة الهدم على كفة البناء في فِسْيولوجيا أعضاء الإنسان، حتى يقع صريعاً للمرض والشيخوخة ثم الموت.

٣ ــ عوامل المعيشة، إما في بذل الجهد الزائد للحصول على لقمة العيش، حيث يبلغ الجهد فوق طاقة احتمال أجهزته العصبية والنفسية، فيمرض الإنسان و يتألم ويموت. وإما بعدم بذل الجهد اللازم، فيجوع الإنسان، و يتألم، ويمرض، ويموت. وإما لا جهد بالمرة، فتتلف أجهزة الإنسان ويمرض و يتألم ويموت.

٤ ــ عوامل كونية يتأثر بها الإنسان أشد التأثر، مثل البراكين والزلازل والحرائق الطبيعية والأوبئة والحروب والجفاف والحرارة والبرودة والمجاعات بأسبابها الكثيرة، و يستحيل على العالم أن يوجد بدونها، فهي لوازم كونية تجدِّده بأكثر مما تضرُّه. فإن كان الإنسان قد وقع تحتها لأنه خرج بحريته من حضرة الله الحافظة له، فالله لا يُلامُ في ذلك؛ إلاَّ أن هذه الآلام الطبيعية جزء لا يتجزأ من تاريخ تطوُّر حياة الإنسان إلى أفضل.

ولكن هناك أنواع من الآلام يجرُّها الإنسان على نفسه وعلى غيره ويتحمل عواقبها وأضرارها الشديدة: كأن يأكل ما يضرُّه سواء في الكَمّ أو النوع، أو يشرب ما يؤذيه كالخمر وغيرها، أو يتعاطى المخدرات بأنواعها، أو يعاشر المرضى بأمراض جنسية، فتجرّ عليه أنواعاً من الأمراض والآلام، لا قِبَلَ له بها، بل وتتسبب في توريث نسله أنواعاً من العاهات لا حصر لها. فالسيدات الحوامل إن هُنَّ تعاطين هذه المؤذيات وَلَدْنَ أطفالاً مشوَّهين بكل أنواع التشوُّهات الجسدية، ومنها العَمَى والخَرَس والصَمَم والشَلَل، الذي أصيب به ملايين البشر.

ولكن هناك أنواع مماثلة تماماً لمثل هذه التشوُّهات يولد بها الأطفال، ولم يكن الإنسان سبباً فيها سواء من جهة الأب أو الأم، حيث تكون التوليفات الجينية في خلايا الجنين فاقدة لعناصرها السليمة المطلوبة، وهذه تُحسب كإخفاقات في قوانين البيولوجيا الوراثية. وهذه تُحذف من مسئولية الإنسان لتُضاف لحساب مسئولية الله، مثل حالة هذا الإنسان المولود أعمى الذي لم يسأل المسيحَ ولا سأل التلاميذَ أن يُشفى، بل إن المسيح تقدم من نفسه لشفائهِ إذ حمل مسئولية عَمَى هذا الأعمى. لهذا قال لتلاميذه: «لا هذا أخطأ ولا أبواه، لكن لتظهَر أعمالُ الله فيه»، أو بوضوح أكثر: ليظهر نموذج عمل الله فيه!!

ولكن لا يزال السؤال المحيِّر: ما ذنبُ هذا الأعمى وغيره من الذين وُلدوا مشوهين لأي سبب كان؟ لماذا يتألمون و يُعانون من الحزن والأسى والحرمان، مما يجرح نفوسهم و يعصر مشاعرهم،

و يلازمهم الأنين واجترار المرارة كل أيام حياتهم ؟؟

لقد قلنا إن السبب المباشر لهذه التشوُّهات هو إخفاقٌ في قانون التحام الجينات والمواريث، وقلنا إن الله يتحمل مسئولية هذه الإخفاقات؛ و بالفعل فإننا نجد أن الطبيعة تتبرع من جهتها بعملية تعويض **تساوي** النقص الذي هي متسبِّبة فيه، كما يتبرع الله من جهته بعملية تعويض **تفوق** النقص وكل ما ينتج عنه من الآلام مئات المرات!!

تعويض الطبيعة:

قبل كل شيء يلزم أن نعرف أنه لا يوجد في الخليقة أو المخلوقات جميعاً قانون لا يقبل الخطأ، فالخطأ في قانون الطبيعة هو قانون. لأنه لا يوجد الكمال المطلق إلاَّ في الله. وكل قاعدة لها استثناء، والاستثناء يُثبِتُ القاعدة. ولكن لكي تحمي الطبيعة نفسها من امتداد الخطأ، فإنها تقوم بتعويضه لكي تتلافى طُغيانه، ولكي تُثبِت القاعدة. فإذا وُلد مخلوق ناقصاً في تكويناته العضوية لسبب طبيعي، فإن القوة الشاملة المخصَّصة لأعضائه تتوزع على باقيْ أعضائه، فتزداد باقي أعضائه كفاءة عن معدلها الطبيعي. فلو أخذنا مولوداً فاقد البصر، فإن حواسه الأربعة الباقية تزداد كفاءتها لتصبح كفاءة الأربع الحواس تساوي كفاءة خمس حواس عادية. ولكن قد تحتاج هذه الزيادة إلى تمرين أو تشجيع أو صبر لكي يظهر إمتيازها. وهكذا إذا فقد حاستين أو ثلاثاً، أو حتى أربعاً!! كما سمعنا عن الآنسة هيلين كيلر الواعظة والمبشِّرة العالمية التي كانت لا تملك من الحواس جميعاً سوى حاسة اللمس.

ولكن ليس هذا هو باب التعويض الوحيد في الطبيعة. فالطبيعة سبق وأن احتاطت لمثل هذه النقصانات في كيان الأفراد، بأن أضافت إلى باقي المجتمع الحيواني والإنساني، بوجه خاص وفائق، امتيازات إضافية للأصحَّاء تفوق حاجتهم. فالأم الصحيحة بوجه عام استودعتها الطبيعة من الحنوِّ والعطف والصبر والاحتمال، وكل مواهب الأمومة بوجه عام، ما يفوق حاجة تربية أولادها مهما بلغوا من الكثرة. فتوجد أمهات ممتازات في أمومتهن تستطعن، إذا شئن، تربية مائة طفل أو مائتين أو ربما ألفاً من الأطفال. كل هذا منحته الطبيعة لأ ولئكنَّ، احتياطاً لتلافي عجز أمهات أُخريات، أو تيتُّم أولادهن، أو تشوُّه أولاد آخرين. ومثل الأم كذلك الأب، إذ يوجد آباء لهم مواهب فائقة للغاية. فإذا جمعنا المواهب الممتازة والفائقة عن الحاجة في الطبيعة، لوجدناها في جملتها على أقل تقدير تساوي العجز المتولِّد من إخفاقات قوانينها!!

وبهذا يمكن تبرئة الطبيعة من أخطاء قوانينها، على أساس قانون التعويض الاحتياطي. وأصبح

على الإنسان المعوَّق بأي تشويه أن يطالب الطبيعة بحقِّه بالكامل، على أساس التعويض فيما بقي له من أعضاء وإمكانيات، وذلك بالجهد والمجاهدة، والتمرين والمِرَاس، والصبر، وروح الإنتصار. كما أصبح على المجتمع الإنساني أن يفرز مواهبه الممتازة والزائدة لخدمة وتعويض أعضائه المحرومين، سواء بالعلم الحديث، أو فنون التأهيل التي بلغت آفاقاً مذهلة بواسطة التكنولوجيا الحديثة. والأمثلة الناجحة في تطبيق هذا المبدأ تملأ الأقطار وتبرهن على صحة هذا الكلام.

تعويض الله:

في البدء يلزم أن نفهم أن الحياة هبة من الله مُعْطيها، والهبة لا تُصبح حقاً لمَنْ أُعطِيَتْ له. فهي هبة، وتظل هبة، إلى أن تعود إلى الله واهبها. وبالتالي فإن كل أجهزة هذه الحياة من صحة جسدية ونفسية بكل أعضاء وحواس الإنسان، هي كذلك هبة؛ أي أنها ليست حقاً من حقوق الإنسان، إذا أخذها بالكامل؛ أما إذا نقص شيء منها، فهذا ليس سلباً لحق من حقوقه. لذلك أصبح على الكامل أن يشكر فيما وُهب له وإلا يُؤخذ منه، كما أصبح على الذي افتقد شيئاً من أعضائه أن يشكر على ما أَخَذَ وإلا يُفْقَد ما بقي.

هذا بالنسبة للإنسان تجاه الله. أما بالنسبة لله تجاه الإنسان، فالله هو بمثابة الوالد للإنسان ولا يزال يحمل همَّه، يُرْضِعُه الحياة قطرة قطرة، كما ترضع الأم طفلها ليعيش. والله يحس بأحاسيس الإنسان، وليس ذلك فقط بل ويشارك الإنسان في أحاسيسه: «في كل ضيقهم تضايق وملاك حضرته خلَّصهم.» (إش٦٣: ٩)

فإذا كان الأب أو الأم يعتني بولده أو تعتني بولدها المعوَّق والضعيف أكثر من السليم المُعافَى، فهذا هو امتداد لصفة الله، وصَدَى عمل طبيعته في الإنسان. هنا يصعب علينا سرد مراحم الله وحنانه ولطفه وإحسانه على الضعفاء والمعوقين، كما يصعب علينا تحديد أنواع مراحمه، وأنواع وألوان حنانه لكل إنسان حسب حالته واحتياجه، يكفي أن نؤكد من واقع آية إشعياء السالفة وغيرها أن ملاكاً خاصاً مُرْسلاً من الله يُعينُ هؤلاء الضعفاء والمتضايقين في كل ضيقهم: «في الضيق دعوتَ فنجَّيْتُكَ» (مز٨١: ٧)، «معه أنا في الضيق، أُنْقِذُه وأُمجِّدُه.» (مز٩١: ١٥)

والسؤال هو: هل الأفضل للإنسان أن يكون الله بنفسه هو العامل عِوَضَ العضو الناقص في الإنسان، أم تكون الأعضاء كلها بدون الله؟ ثم بعد هذا، هل يمكن أن نوازن بين حزن الأعمى على فقدان بصره، وبين فرحه بحضور الله في حياته ينيرها ويهبها بصيرة تفوق كل أعوازه؟ وأيضاً

بعد هذا كله، يتحتم علينا وعلى كل معوّق أو مشلول أو ضعيف أو مَنْ فَقَد قليلاً أو كثيراً من مقوّمات الحياة الحاضرة بسنينها القليلة والشحيحة، أن يعلم أن حياة أخرى مفتوحة أمامنا بكل مباهج الروح، في ملء كمال حضور الله، وغِنَى نعمته المتفاضلة، ليس فيها حزنٌ ولا كآبةٌ ولا تنهُّدٌ فيما بعد.

لذلك، فحينما تقدَّم الرب من تلقاء نفسه ليشفي المولود أعمى، ثم بعد ذلك يُعِدُّ له مقابلةً في الهيكل حيث يدعوه للإيمان بابن الله، فيؤمن، و يسجد له، فما هذا إلاَّ آيةٌ ونموذجٌ رائعٌ لموقف الله ــ في النهاية ــ من المعوّق أيًّا كان.

٩: ٣ــ٥ «أجاب يسوع: لا هذا أخطأ ولا أبواهُ لكن لتظهرَ أعمالُ الله فيهِ. ينبغي أن أعمَلَ أعمالَ الذي أرسلَني ما دامَ نهارٌ. يأتي ليلٌ حين لا يستطيعُ أحدٌ أن يعملَ. ما دُمْتُ في العالمِ فأنا نورُ العالمِ».

الرب هنا جعل حالة هذا الإنسان المعوّق وأمثاله فرصة لكي تظهر أعمال الله فيه، وما عمله المسيح له هو نموذج لأعمال الله من نحو هؤلاء؛ عطفٌ ومحبةٌ فعَّالةٌ، وتبنِّي هذا النقص وتحمُّل تعويضه بصورة عملية مذهلة. وإن كانت الوسيلة هي بحدّ ذاتها معجزة، ولكنها في جوهرها إعادةُ تصحيح ما أخفقت فيه قوانين الطبيعة والتوريث الجيني والتحام الأصول من الأب والأم. هنا الخالق يصحح و يُعِيد نواقص الخلقة، ولكن المسيح يقدِّم هذه المعجزة ــ في الجسد ــ كآية لمعجزة أعلى ــ في الروح ــ فالربُّ لم ينزل من السماء لتصحيح نواقص خلقة الإنسان الجسدية، وإنما قدَّم تفتيح عيني الأعمى لرؤية العالم كآية لتفتيح قلب الإنسان لرؤية الله. فما دام المسيح في العالم فهو حتماً يعطي من ذاته ما يختص بحياة الإنسان في العالم. فالمسيح هو «النور» بكل مفهومه وعمله على كل مستوياته. فإن كان **«النور الحقيقي»** الذي يضيء الأبدية قد نزل إلى العالم، فهو حتماً يكون نور العالم أيضاً، أي لا بد أن يحقق ذاته في حياة الإنسان في العالم، و يعطي البرهان أنه «النور» على مستوى الرؤية في العالم. وهذا تم بالحرف الواحد في الأعمى الذي أصبح يرى نور العالم، إذ أثْبَتَ المسيح نفسه وكيانه الإلهي الخفيّ بإعطاء هبة النور المنظور، وتحقّق أن المسيح هو حقاً **«نور العالم»** حينما نزل إلى العالم. فإن كان بتفتيحه عَيْنَيْ الأعمى قد برهن على أنه واهب النور للعالم، فحتماً و بالضرورة يكون هو «النور الحقيقي».

فإذا دققنا النظر، وجدنا أن معجزة تفتيح عينيْ الأعمى هي أصلاً و بالأساس لا تخصُّ الأعمى، ولكن الرب استخدمها ليعمل عملية توضيحية Demonstration أثبت فيها بالنهاية أنه

«الكلمة» الخالق الواهب النور للعالم. وقد جاء للعالم ليكمّل عمل الآب في الخليقة، بإعطاء أو خلق عيون روحية جديدة للإنسان، يرى بها الله ونور الحياة الأبدية، وذلك بالفداء الذي أكمله للإنسان بذبيحة نفسه، رافعاً حجاب الظلمة الذي كان يحجز رؤية الإنسان لله.

وهكذا ينتقل المسيح بواسطة عملية تفتيح عيني الأعمى من الرحمة المنظورة المقدّمة من الله نحو المتعوّقين المتألمين الجالسين في ظلمة العالم، إلى عمل رحمة الآب ــ بواسطة المسيح الذي أرسَله خصيصاً ــ من نحو الخطاة الجالسين في الظلمة وظلال الموت.

«ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني ما دام نهار»:

قصة تفتيح عيني الأعمى المولود هكذا كانت نموذجاً دُفع به أمام المسيح لكي يُظْهِرَ فيه أعمال الله الآب، أي يُظْهِرَ مجد الله الآب، الذي وُضع للمسيح أن يَشْتغله و يتمجّد به ــ تماماً كموت لعازر. فآلام المولود أعمى كانت على مستوى مرض لعازر الذي أدّى إلى الموت، وهذا وذاك: «هذا المرض ليس للموت **بل لأجل مجد الله، ليتمجّد ابن الله به**» (يو١١: ٤). فتمجيد الله واستعلان مجد المسيح هو أساس المعجزتين! وعلى مستوى ما تم في عرس قانا الجليل: «**وأظهر مجده فآمن به تلاميذه.**» (يو٢: ١١)

كانت حياة المسيح في العالم هي نهار الإنسان الذي أشرق في الظلمة. ومنذ أن خرج آدم مطروداً من الفردوس، والليل يغطّي العالم، والظلمة تلفُّ البشرية من كل جانب، وطال ليل الإنسان جداً... إلى أن نادى منادٍ من السماء: «إنه وُلد لكم اليوم في مدينة داود مُخلِّص هو المسيح الرب» (لو٢: ١١). لقد ظل المسيح يعمل طول هذا النهار أعمالاً كثيرة **حتى أكملها**، قبل أن تغرب شمس يوم الصليب. كانت هي فرصة الإنسان منذ خمسة آلاف سنة و يزيد، وفرصة الله، بآن واحد منذ ملايين السنين. كان هذا هو اليوم الذي صنعه الرب، وكان يومَ خلاص، وساعةَ قبول. أما الإنسان فقد ضيّع ساعات هذا النهار التاريخي الجميل في مناقشات وحماقات، أكملها بذبح النور على مذبح الظلمة؛ هكذا تهيأ لمجانين الأرض. أما الله فقد غطّى كل ساعات هذا النهار بأعمال وأقوال مضيئة ومُحيِية، لا يزال العالم يرددها و يتمعّنها، ولن يَسَعَ عمر الإنسان، مهما طال، أن يبلغ أعماقها أو نهايتها التي لم يُسمع بمثلها قط، واختتمها بذبيحة المحبة. لقد أتى الليل فجأة، واختتم المسيح أعماله على الصليب، ورُفِعَ في مجدٍ، وظل الإنسان يشتهي يوماً من أيام ابن الإنسان!!

«يأتي ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل»(٢):

نحن لا نزال نستمتع بنهار المسيح، فالأعمال التي عمل حيّةٌ فينا، تعمل وتتكلم. والكلمات التي قال تُحيي قلوبنا كل يوم وتُشدِّد. ومراحمه تتجدد علينا كل صباح بإشراق نعمته في قلوبنا، فتُجدِّد فينا نهار المسيح بكل نوره وبهجته، فنعملُ ونعملُ. ولكن، حتماً، سيأتي ليلنا نحن، حين لا يَدٌ تتحرك، ولا رِجْلٌ تمشي، ولا عينٌ تنظر، ولا أُذُنٌ تسمع، ولا لسانٌ يتكلم، ولا عمل يُعمل.

فنهار المسيح حياتنا، فيه نعمل عمله ونكمّله، وحينئذ يأتي ليلنا نحن حيث لا عملَ، بل مجازاةٌ في نور المسيح الأبدي. وإن كان نهار المسيح بدا قصيراً جداً، فنهار حياتنا أقصرُ، يستغرقه ملعب الصبوَّة، فيضيع إشراق صباحه في لَهْوٍ بلا معنى. وما أن يَفيقَ الإنسان ليدرك هدف مساره، حين تنضج خبرات الرجولة فيه، حتى تداهمه الشيخوخة بخبالها، فيُضيِّع ما جمع، ويقف في الغَسَقِ يودِّع حياة ما أنْ بدأتْ حتى انتهت، لا يُحْمَل منها إلاَّ زادُ الصلاة وزِقُّ الدموع، لسَفرٍ طويل في سِرْدابِ الظلمة المُغْيِم، إلى أن يُشرق عليه نهار اليوم الجديد.

يا إخوة، إن نهارنا قصير، والعمل أمامنا جسيم، فافْتَدُوا الوقت لأن الأيام شريرة، وما أشْقانا بأنفسنا إن لم تَغْتَنِي بالرب.

«ما دمتُ في العالم، فأنا نورُ العالم»:

هذه الآية يصعب شرحها إلاَّ إذا رجعنا إلى النص اليوناني، لأنه فريد في نوعه. فهو يحذف ضمير المتكلم «أنا»، كما يحذف «الـ» أداة التعريف في «النور»:

ὅταν ἐν τῷ κόσμῳ ὦ, φῶς εἰμι τοῦ κόσμου.

وترجمتها الحرفية: «طالما كنتُ في العالم فنورَه أكون». وحذف «أنا» له أهمية كبيرة في المعنى، إذ أصبح التركيز في الآية ليس على شخص المسيح بمعنى استعلانه «أنا»، ولكن على عمل المسيح «أكون» نورَه. كذلك في حَذْف أداة التعريف في «النور»، يصبح تركيز المعنى ليس على «النور» **المطلق** في كيانه وعمله، ولكن على نور جزئي معرَّف بالعالم، أي أن التركيز على عمل المسيح كنورٍ في العالم.

وهكذا يصبح المعنى الكلي للآية ملتزماً بالتركيب اللغوي لها. وتصير الآية تختصُّ بعمل المسيح كنورِ العالم، في فترة وجوده الزمني في العالم. وهذا المعنى يزداد وضوحاً ودقة، إذا علمنا أن بعد

(٢) ارجع إلى المدخل ص١١٩ـــ١٢٢: «معيار النور في إنجيل يوحنا».
وانظر أيضاً ما سيأتي عند شرح الآية (يو١١: ٩و١٠) وأيضاً (يو١٢: ٣٥).

قول المسيح ذلك أجرى معجزة تفتيح عينيْ الأعمى مباشرة! وهكذا ينصبُّ المعنى بمقتضى الآية في كيف يمكن أن نفهم أن المسيح، على المستوى العملي، هو للإنسان «نورُ الحياة»، وأنه للأعمى «أضاء في الظلمة»، وأنه لليهود «والظلمة لم تدركه». وهذا كله هو عمل المسيح في العالم. صحيح أن الشمس تضيء العالم، ولكن لا قدرة لها أن ترسل أشعتها داخل مُقْلَةِ الأعمى أو قلب الجاهل!! وهكذا يظل الإنسان «يحيا الظلمة» في الداخل والخارج، وهو تحت الشمس يسير. أما المسيح فهو النور الذي ينفذ إلى أعماق الظلمة، فيبدِّدها «فيحيا الإنسانُ النورَ»، وتصير حياته أكثر ضياءً من نور الشمس، لأنه يستمد النور من المصدر الذي تستمد منه الشمس نورها: «أنتم نور العالم... فليضيء نورُكم هكذا قُدَّام الناس...» (مت ٥: ١٤و١٦)، «والفاهمون **يضيئون كضِيَاء الجَلَد** (السماء)، والذين ردُّوا كثيرين إلى البرّ **كالكواكب** إلى أبد الدهور.» (دا١٢: ٣)

٩: ٦و٧ **«قال هذا وتَفَلَ على الأرض وصَنَع من التفل طيناً وطلى بالطين عينَيْ الأعمى. وقال له: اذهب اغتسلْ في بركةِ سلوامٍ، الذي تفسيرُهُ مُرسَلٌ "Sent". فمضى واغتسَلَ وأتى بَصِيراً».**

الآية في **مضمونها الإلهي** تشير إلى **عملية خَلْق** أو على وجه الأصح عملية **«خِلْقَة تصحيحية»**. فكلُّ عمليات الشفاء التي أجراها المسيح تدخل تحت بَنْدِ **«الشفاء من المرض»**، أما تفتيح عيني الأعمى المولود بدون مُقْلَتَي العين فهي ليست شفاءً. فنحن هنا لسنا أمام طبيب البشرية الأعظم يسوع، بل نحن بصدد عملية خَلْقٍ، وأمام خالق.

والتركيز الأساسي في لغة الآية واقعٌ على كلمة «الطين»، لأن المقصود هو نقل عقولنا إلى سفر التكوين وكيف خَلَق الله الإنسان من **«تراب الأرض»**. وفي مواضع كثيرة يذكر الوحي الإلهي «التراب»؛ الذي صيَّره الله طيناً قبل أن يُشكِّل الإنسان:

+ «يداك كوَّنتاني وصنعتاني، كُلِّي جميعاً، أفَتَبْتَلِعُني (بغضبك)، اذكر أنك **جَبَلْتَني كالطين**، أفتُعِيدُني إلى التراب.» (أي١٠: ٨و٩)
+ «روحُ الله صَنَعني ونَسَمَة القدير أحْيَتْني... أنا أيضاً **من الطين** تقرَّصت.» (أي٣٣: ٤و٦)
+ «والآن يا ربُّ أنت أبونا، **نحن الطين، وأنت جَابِلُنا** وكلنا عمل يديك.» (إش٦٤: ٨)

لقد وُلِد الأعمى بدون عينين، وكأن الطينَ الذي جُبل منه تنقصه الصياغة. إذ لما شُكِّل الأعمى في بَطْنِ أمه سُهِيَ على الطبيعة أن تمدّه بمُقْلَتين. لقد أخفق **قانون** التوريث والتوليد في أن

يعطي صورة الكمال حسب الرسم. والمَرْجَعُ لواضعه، فهو يصحح ما نَقُصَ من صورته. وكأن عجنة الطين عادت إلى يَدِ خالقها الأول يشكِّل لها من ذات الطين عينين.

والملاحظ أن جميع الآيات التي فيها فتَّح المسيح أعين العُمْي، لم يكن فيها أعمى واحد وُلد من بطن أمه ناقص المُقْلَتين، فاكتفى المسيح بأن يمسح العينين المكفوفتين بريقه فانفتحتا ورأتا النور: «فأخذ بيد الأعمى وأخرجه إلى خارج القرية **وتفل في عينيه، ووضع يديه** عليه، وسأله هل أبْصَرَ شيئاً، فتطلَّع وقال: أُبصر الناس كأشجار يمشون. ثم وضع يديه أيضاً **على عينيه** وجعله يتطلع، فعاد صحيحاً، وأبصر كلَّ إنسان جليًّا.» (مر٨: ٢٣ــ٢٥)

أما هذا الأعمى المولود ناقص الخلقة، فالمسيح وقف منه موقف الخالق وجَبَلَ له من الطين ما نَقُصَ لجُبْلَته. وانصاع الطين ليد النور الإلهي الخالق، فاستنار.

والآن نأتي إلى استخدام الريق أو اللُّعاب («تَفَلَ على الأرض»)، فإذا علمنا أن لُعابَ الإنسان يحوي من الميكروبات ما يكفي لإمراض أي عين سليمة، وأمامنا الآن أن لعاب المسيح استرجع عيناً سليمة بكامل صحتها، أدركنا سر الحياة والصحة الكائنة في جسم الرب ولُعَابه بنوع خاص. فالرب نقل إلى الأعمى الفاقد مُقْلَتَيه «**سر الحياة الجسدية السليمة والكاملة**»، لتصحيح الصورة الجسدية المشوَّهة، لينطبق المثيلُ على المثيلِ، وليعودَ الإنسانُ بمثل الصورة الجسدية الكاملة للمسيح. فلو رَجِعْنَا إلى تقليد الآباء القديسين في فهم كيف خلق الله الإنسان في البدء من التراب، الذي حوَّله الرب الإله إلى طين، لأدركنا مدى انطباق ذلك على عمل المسيح بالنسبة للأعمى: «اذكر أنك جَبَلْتَني كالطين، أَفَتُعيدُني إلى التراب؟ ألم تصُبَّني كاللَّبَنِ وخثَّرتني كالجُبْنِ، كَسَوْتَني جلداً ولحماً فَنَسجْتَني بعظام وعَصَبٍ، مَنَحتني حياةً ورحمةً وحَفِظَتْ عنايتُك روحي. لكنك كتمتَ هذه في قلبك. علمتُ أن هذا عندك.» (أي ١٠: ٩ــ١٣)

فأيوب هنا يكشف كيفية ما تم في عملية الخلقة من درجات، التي أخفاها الله في قلبه، ولكنه أعْلَمَها لأيوب. ومنها نفهم أن عملية الخلق تمت على نمط نُمو الجنين في رَحِم الأم، حسب الصورة والمثال الذي كان في فكر الله. والآن كان أمام المسيح، الأعمى الفاقدُ مُقْلَتَيْهِ، وكان هو المثال الكاملَ والصحيح. فالمسيح أخذ من المثال سر الكمال، ووضعه في الصورة **لكي يقبل الأعمى سرَّ النورِ العاملِ في جسم الإنسان** الترابي، الذي كان ينقُصُ خِلْقَته.

«وقال له: اذهب اغتسل في بركة سلوام ـ الذي تفسيره مُرْسَل ـ فمضى واغتسل، وأتى بصيراً»:

قصة بركة سلوام قصة تحوَّلت إلى قضية ضد ق. يوحنا وإنجيله على مدى مائة عام من النقد المرير. فهذه البِرْكة رُدِمَتْ منذ زمان بعيد جداً، وضاعت معالمها كلية، فاتخذها النُّقَّاد تُكَأَة لنقد صحة الإنجيل بجملته، معتبرين أن ق. يوحنا لا يعرف جغرافية الأرض التي يكتب عنها، وإنما يؤلف أسماء ومسمَّيات من عنده. علماً بأن القديس جيروم (إيرونيموس) رآها رؤيا العين وكتب عنها في شرحه لسفر إشعياء (٨:٦). وفي حفريات أواخر القرن الثامن عشر اكتُشِفَت البِرْكة واكتُشِفَت القناة: «وبقية أمور حزقيَّا وكل جبروته وكيف عمل البِرْكة والقناة وأدخل الماء إلى المدينة أما هي مكتوبة في سفر أخبار الأيام لملوك يهوذا» (٢مل٢٠:٢٠)، هذه القناة التي تحت الأرض التي تسحب المياه من النبع العالي المسمَّى الآن **نَبْعُ مريم**(*). وقد حُفِرَت هذه البركة بقصد توصيل المياه داخل أسوار أورشليم منذ زمن بعيد ربما منذ أيام سليمان. وقد ذكرها إشعياء النبي تحت اسم «مِياهُ شيلوه، أو شيلون» (إش٨:٦). ومعنى الكلمة بالأرامي «مُرْسَل»، لأنها ليست مياه نابعة من مكانها، بل منحدرة ومُرْسَلَة إليها من نبع آخر أعلى. لذلك سمَّاها إشعياء النبي مياه شيلوه، أي مياه مُرْسَلَةٌ، أي مياه جارية، لأنها كانت ترتفع وتنخفض مرتين في اليوم. وهي مياه عذبة جيدة للشرب وكانت تسقي حدائق الملك في وادي قدرون، قبل أن يلتحم في وادي يهوشافاط. ويلاحَظ أن الاسم العربي لبركة «سلوام» هو **«سِلْوان»**. وجدران هذه البركة ملتحمة في الجدار الجنوبي للمدينة. والمكان الآن قد تحقق منه علماء الآثار أنه الحافة الجنوبية لجبل صهيون ومدينة داود.

وكانت بِرْكَة سلوام ذات اتصال وثيق بخدمات الهيكل، لأن مياهها اعتُبِرَتْ مياهاً مقدسة، وكانت تُحتسب أنها مثيلة بالمياه التي نَبَعت من الصخرة في سيناء، لذلك كانت تُستخدم في طقوس عيد المظالّ على أساس هذا المعنى.

وعندما أمر الرب المولود أعمى أن يذهب ويغتسل في بركة سلوام، كان وراء هذه الإرسالية معانٍ، فالإغتسال بالمياه المقدسة في المفهوم الإنجيلي هو بحدّ ذاته **معمودية**(٣). ومعروف في العهد الجديد أن اسم المعمودية السرّي أو الروحي هو **«الاستنارة»**(٤)، فالمعمودية هي سر الاستنارة.

(*) أنظر الصورة.

(٣) لذلك يُقرأ إنجيل المولود أعمى في أحد التناصير (أحد المعمودية وهو الأحد السادس من الصوم الكبير).

(٤) ارجع إلى المدخل ص٣٥٨.

وواضح أن هذا الضرير المحظوظ «أرسِلَ» أعمى، وعاد بصيراً، أرسل يتخبَّط في الظلام، وعاد في ضياء وملء «**نور العالم**». وكان ذلك يوم سبت!!

ب ــ الظلمة تطارد النور ولا تدركه، والنور يدين الظلمة:

٩ : ٨ ــ ١٢ **«فالجيرانُ والذينَ كانوا يرونَهُ قَبْلاً أنه كان أعمى، قالوا: أليس هذا هو الذي كان يجلسُ ويستَعْطي، آخرون قالوا: هذا هو، وآخرون إنه يُشبهُهُ. وأما هو فقال: إني أنا هو(٥). فقالوا له: كيف انفَتَحت عيناكَ. أجابَ ذاكَ وقالَ: إنسانٌ يُقالُ له يسوعُ صنعَ طيناً وطلَى عينيَّ وقالَ لي اذهب إلى بِركةِ سِلُوَامَ واغتَسِلْ. فمضيتُ واغتسلتُ فأبصرتُ. فقالوا له: أينَ ذاكَ. قال: لا أعلمُ».**

لقد صار الأعمى آية بحدّ ذاته. لقد كان معروفاً لدى كافة جيرانه، لأنه كان يجلس في مكان عام مكشوف ويستعطي تحت أيدي الناس. والآن أصبح وجوده فوق العادة وفوق رؤية جميع الناس. وحينئذ بدأ البعض يُشكّك في حقيقة الآية التي تمت فيه، ولكن كيف يمكن إخفاء الشمس، أو تُخفى الخليقةُ الجديدةُ التي وهَبَها المسيح كياناً من كيانه ووجوداً فعّالاً من وجوده!؟

حينما صَدَق الناس في رؤيتهم، قالوا: «**إنه هو**»، وحينما عَمِيَتْ بصيرتهم قالوا: لا «**ليس هو**». وينبري إنجيل يوحنا في إبراز معالم المسيح في الأعمى الذي يُبْصر، فيجعله ينطق «**أنا هو**».

والقديس يوحنا يرمي بالمعاني إلى بعيد!!... أليس هو الأعمى الذي يحمل ريق المسيح ولمسات يديه؟ والآن، آن الأوان ليـنطقَ بلسانه، ويكشف عن أثر لَمَساته؟؟؟ أليس هو الخالقَ لعينيه، والنورَ الواهبَ له نور الحياة؟ ألم يدخل الأعمى بذلك في زُمْرَةِ الأغصانِ التي استمدت عصارتها من حياة الكرمة، ويصحُّ فيه القول: أنتم نور العالم؟

صحيح أن الإمتحان ــ الذي دخل فيه صاحب العينين المخلوقتين جديداً ــ صعبٌ للغاية، لكنه لم يخطىء الرؤيا على كل حال: «إنسانٌ يُقال له يسوع». هنا الترجمة العربية مَعِيبة، ينقصها التشديد والتعريف، وصحتها باليونانية: «**الإنسان الذي** يُقال له يسوع». فالأعمى يرى

(٥) «**أنا هو**» جاءت باليونانية ἐγώ εἰμι، وإنجيل يوحنا يشير بهذا اللقب العالي إلى الإنسان الجديد أو الخلقة الجديدة في المسيح، باعتبار المعمودية والشهادة وحكم المجمع ضده؛ فهو قد لَبِسَ المسيح، والمسيح بفمه يتكلم.

هنا المسيح في وضع يفوق كل الناس الذين رأوه وعطفوا عليه... لقد قدم شهادة للمسيح تتساوى فقط مع لهفة السائلين، واحتفظ لنفسه في قلبه بشهادة أعلى بالنسبة لهذا الإنسان الفائق يسوع «**إنه نبي**». ولكنه قالها، عندما لَزِم التحدي!! وإنه «**من الله**»، عندما لَزِم الانحياز. ولما سألوه: «أين هو»، ردَّد ما يقولونه في ضمائرهم: لا أعْلَم من أين هو، ولا أين هو!!

كل الذي يعلمه الأعمى المُبْصِرُ عن يسوع، أنه هو صاحب الآية التي يحملها الآن في جسده!!

٩ : ١٣ــ١٥ «فأتوا إلى الفريسيينَ بالذي كان قَبْلاً أعْمَى، وكان سَبْتٌ حين صنعَ يسوعُ الطينَ، وفتحَ عينَيْهِ. فسأله الفريسيُّون أيضاً: كيف أبْصَرَ. فقال لهم: وضَعَ طيناً على عينيَّ، واغتسلتُ، فأنا أُبصِرُ».

كلمة «الفريسيين» هنا نفهمها على أنها هيئة صغرى متفرعة من هيئة السنهدريم، لأن السنهدريم يُكْنَى عنه في إنجيل يوحنا بـ«الفريسيين ورؤساء الكهنة». وكان يوجد في أورشليم هيئتان متفرعتان من السنهدريم، كل هيئة منهما عددها ٢٣ عضواً، وكان لها حق المحاكمة والقطع من الجماعة (شعب إسرائيل) في القضايا الصغرى، وقد كُني عنها أحياناً بـ«اليهود» في مواضع من الإنجيل. وكان يوجد في كل المدن الكبرى هيئة مماثلة.

أما نوع التعدي على قانون حفظ السبت، فيراه الفريسيون حسب تخريجاتهم المنصوص عنها في كتاب **الجمارا** "Jeros. Gemara 14": «إنه تُحسب خطيةٌ لكلِّ من يضع دواءً داخل العين». هذا بالإضافة إلى أن عَجْن الطين بالماء يوم السبت محسوب أيضاً أنه خطية "Sabbath 24:3"، وكذلك استخدام الريق أو اللعاب لعلاج العين هو أيضاً تعدٍّ. وبذلك يكون المسيح قد كسر السبت من عدة نواحٍ. (٦)

ولكن الرب، بحسب رؤيته الإلهية أن السبت لا يمنع الآب من أن يعمل، وهو يعمل عمل الآب بصفته ربَّ السبت، أي الذي يقدَّم له الاحترام والعبادة، لذلك، أقْدَمَ على شفاء الأعمى، العمل الذي أثبت به قطعاً صدق قوله وفكره أنه «ربٌّ لمجد الله الآب.» (في ٢ : ١١)

لقد تجاهل الرب قوانين الفريسيين، بل ونصَّ الناموس أحياناً كثيرة، باعتبار أن حياة الإنسان وروحَه أعلى قيمة وأكثر أهمية من السبت وناموسه.

[6] Lightfoot, R.H., *op. cit.*, on John.

أما سؤال الفريسيين للأعمى البصير («"كيف أبصر"»)، فكان ينصبُّ على العملية التي أجراها له المسيح من حيث خطواتها فقط، التي يرونها أنها مخالفة لقوانين حفظ السبت؛ أي لم يكن لهم أية رغبة في فحص نتيجة الآية. لا يهمُّهم أنه يرى الآن وقد كان مولوداً أعمى، ولكن الذي يهمهم جداً هو كيف انكسر السبت في عملية شفائه، وهذا هو معنى الانحراف بالناموس نحو الحرف، والحرف يقتل أو قتَّال، كما عزموا على قتل المسيح؛ أما الروح فيُحيي. فالناموس حرف، وكلامُ المسيح روح ونور وحياة.

عجيب حقاً أن يقف علماءُ وقضاةُ الناموس موقفَ القتلة، دفاعاً عن الناموس؛ و يقف الأعمى موقف النور والحق والحياة، دفاعاً عن المسيح.

وفي إجابة الأعمى البصير للفريسيين: «وضع طيناً على عينيَّ، واغتسلتُ، فأنا أبصر»، نوعٌ من الحِذْق الماهر الماكر. لقد أسقط الأعمى عملية عجن الطين بالريق، وهي العملية الأُولى الممنوعة في ناموس السبت، ثم أسقط عملية الذهاب إلى بركة سلوام التي فيها مسيرةٌ ربما تكون مُناقِضَة لأحكام السبت. وعلى العموم، فإن ردَّ الأعمى البصير فيه شعور واضح بالضيق، فقد اختصر القصة إلى مستوى التحدي. وسنرى في الآية ٢٧ كيف انفجر فيهم هذا البصير الذي كان أعمى ساخراً: «قد قلتُ لكم ولم تسمعوا. لماذا تريدون أن تسمعوا أيضاً، ألعلّكم أنتم تريدون أن تصيروا له تلاميذ.» (يو٩: ٢٧)

لقد أحس هذا الموهوب أنه صار تلميذاً للذي يدافع عنه ولو لم يره بعد، وهذا عجب. أما الذين رأوه وسمعوه وشاهدوا آياته ومعجزاته فأنكروا واستعلوا أن يكونوا له تلاميذَ — ذاك الذي هو ربُّ المجد!...

أنظر، أيها القارىء، إلى أي مدى أعْمَى التعصُّبُ للقانون والحرف عيونَ القضاة، فرأوا اليوطا (أصغر حروف الهجاء)، أي حرفية الناموس، أكبر من الألفا والأُوميجا معاً [«أنا هو الألف والياء.» (رؤ١: ٨)]

٩: ١٦ «فقال قومٌ مِنَ الفريسيين: هذا الإنسانُ ليس مِنَ الله لأنهُ لا يحفظُ السبتَ. آخرون قالوا: كيف يقدرُ إنسانٌ خاطىءٌ أن يعملَ مثل هذه الآياتِ. وكان بينهُمْ انشقاقٌ».

الانقسام الذي طالما سمعناه في ختام كل تعليم إلى الآن، ولكن كان في السابق انقساماً بين

الجموع ثم انقساماً بين اليهود. ولكن الانقسام هنا هذه المرة بين القضاة في المحكمة الجزئية. وهو انقسام بين قضاة متمسكين بالقانون وحرفيته Legalism، وقضاة منطقيين متمسكين بالواقع وتفسيره المتسع. فالقانونيون رفعوا السبت فوق كل منطق وواقع، واعتبروا المسيح مُدْمناً على كسر السبت حتى إلى سبع مرات: «**لا يحفظ السبت**». والمنطقيون حكَّموا الواقع وتفسيره في شرح معنى ومدى اعتبار أن كسر السبت خطية، بالنسبة لرجل أظهرت أعماله وآياتُه مدى إمكانية تبرير كسره للسبت. وهذا يُعتبَر تقدماً كبيراً في عقلية الفريسيين، فكان الانشقاق(٧). **فتأجل الحكم في القضية لإعادة الفحص.**

٩: ١٧ــ٢٣ **«قالوا أيضاً (ثانية) للأعمى: ماذا تقول أنتَ عنه من حيث إنه فَتَحَ عينَيْكَ. فقال إنه نبيٌّ. فلم يُصدِّق اليهود عنه أنه كان أعمى فأبصر، حتى دَعَوْا أبَوَيْ الذي أبْصَر. فسألوهما قائلينَ: أهذا ابنكما الذي تقولانِ أنه وُلِدَ أعمى؟ فكيف يُبصِرُ الآنَ؟ أجابهم أبواهُ وقالا: نعلمُ أنَّ هذا ابنُنا وأنهُ وُلِدَ أعمى. وأما كيف يُبصِرُ الآنَ فلا نعلَمُ، أو مَنْ فتَحَ عينيه فلا نعلَمُ. هو كامِلُ السنِّ، اسألوه فهو يتكلَّمُ عن نفسِهِ. قال أبواهُ هذا لأنهما كانا يخافانِ من اليهود، لأن اليهودَ كانوا قد تعاهَدُوا أنهُ إن اعترَفَ أحدٌ بأنه المسيحُ يُخرَجُ مِنَ المجمع. لذلك قال أبواه إنهُ كامِلُ السنِّ اسألوه».**

شهادة الأعمى الذي صار بصيراً تأكيد للنور الذي دخل أعماقه قبل أن يدخل مُقْلَةَ عينيه. لقد أحسَّه ذلك الموهوب وأحسَّ من أين أتى، لم يَقُلْ إن الذي أبْرَأني رجلٌ صالح أو طبيب، ولكنه تعرَّف عليه أنه من الله ونبيٌّ هو على أقل تقدير، بسبب القوة الإلهية التي هزَّت كيان خِلْقَته بأجمعها. فالعين ليست عضواً مفرداً قائماً بذاته، بل نسيج متصل بنسيج الجسم كله، ومركزُها في أهم مواقع المخ، وأعصابها منتشرة في أنحاء شتى. هذه الأنسجة وهذه الأعصاب جميعاً، بل هذا المخ، والجسد كله، اهتز كيانه اهتزازاً بدخول هذا الضيف الإلهي الغائب ليملأ الكيان المخلوق ويُكَمِّله كمالاً!! إن أول ما رآه هذا الأعمى، رأى قوة الله التي أنارت قلبه قبل أن تنير عينيه، وظل متشوِّقاً أن يُطبِّق هذه الرؤيا على الوجه النبوي الذي أبرأه، حتى رآه وتعرف عليه أنه ابن الله ورب الأنبياء، وسَجَد له متعبِّداً. لم يُلْقِ الأعمى المبصر أي اعتبار لمقصد هؤلاء الفريسيين لمَّا سألوه، وتجاوز انقسامهم وشكوكهم، بل وتجاوز علمهم وتعليمهم، بل تجاوز وعدهم ووعيدهم،

(٧) هذا الإنشقاق كان بين مدرستين من مدارس الفريسيين.
ارجع إلى المدخل ص٨٣ و٨٤.

وقال قولته بشموخ الإيمان الذي لا يهاب العقاب: **«إنه نبي»**.

ولم يكن أمام الفريسيين إلاَّ أن يلجأوا إلى أولياء أمره، عسى يُخضعونهم لإرهابهم. فلما فَلَتَ الأبوان مِنْ أيديهم، إذ أحالهم هذان إلى حامل المعجزة مرة أخرى، إذ هو كامل السن، بعد أن أقَرُّوا أنه هو هو الذي ولدوه أعمى، فعادوا إلى الأعمى مرة أخرى وقد بيَّتوا له النية بالقَطْع من الجماعة، والحرمان من حقوق إسرائيل.

٩: ٢٤و٢٥ **«فَدَعَوْا ثانيةً الإنسانَ الذي كان أعمى وقالوا له: أعطِ مجداً لله، نحن نعلم أنَّ هذا الإنسانَ خاطىءٌ. فأجابَ ذاكَ وقالَ: أخاطىءٌ هو لستُ أعلَمُ. إنما أعلمُ شيئاً واحداً أني كنتُ أعمى والآنَ أُبصِرُ».**

لقد ظن بعض علماء الكتاب المقدس أن كلمة «أعطِ مجداً لله»، هي مجرد إجراء قانوني يُلْزِمُ المتهم بالاعتراف بالحق خوفاً من الله. ولكنه في الحقيقة هو أيضاً إجراء ديني بجوار أنه إجراء قانوني، ومؤداه أنه مُزمَعٌ إصدار حكم ضده بأن يُقْطَعَ من الجماعة أو يُحْكَمَ عليه بالموت، كما حدث في قصة عاخان بن كرمي (يش٧: ١٩). فطَلَبُهم هذا منه أن يعطي مجداً لله هو كشهادة يشهدها لله قبل أن يموت أو يُقْطَعَ، وذلك حتى يحتفظ لنفسه بحق الرحمة في الدهر الآتي(٨)، بعد أن يكون قد حُرِمَ من كل حقوق الحياة كواحدٍ من شعب الله في الحاضر. وكان هذا الإجراء يكشف ضمناً للمتهم عن مدى خطورة شهادته التي سيشهدها، فكان هذا الإجراء يستخدمونه بالدرجة الثانية، بنوع من الدهاء، للتهديد ليُرعِبَ قلبُ المتهم، حتى يبتلع شهادته السابقة «أنه نبي» ويغيِّر من أسلوب عناده. كما كان تفكير هؤلاء الفريسيين المتعاهدين ضد هذا الشاهد الخطير، هو محاولة زحزحة اعترافه بالمسيح كنبي أو المسيَّا، وذلك بإعطاء «المجد لله» دون سواه. لذلك أرْدَفوا أمرهم هذا بتقرير رسمي عن حُكْمِهم كهيئة رسمية بالنسبة للمسيح: **«أنه إنسان خاطىء»**، حتى يلتزم بتغيير شهادته السابقة **«إنه نبي»**، عن إجبار واضطرار دون اختيار...

أليس هذا هو الإرهاب الديني بنصِّه ويقينه؟!... تبّاً للقانون إذا سُلِّم لقضاة جلادين، ويا لضَيْعَةِ الحق، إذا وُضع تحت رحمة الجهلة المنافقين!

ألم يأتِ المسيح من أجل ذلك، من أجل أن يُبْطِلَ صراع الحق مع الحرية؟ **«تعرفون الحقَّ**

---

(٨) تقول الميشْنا: [إنهم وهم رافعون الحجر، وهم على بُعْدِ عشرة أذرع يأمرونه بأن يعترف، وذلك بقولهم: «أعطِ مجداً لله»، وذلك بقصد أنه إذا مات، يكون قد اعترف وأعطى المجد لله، فيكون له نصيب في الدهر الآتي] (ارجع إلى المدخل ص٨٤).

والحقُّ يحرركـم»؟ ومن أجل أن يرفع الإنسان يده الثقيلة عن القضاء في شئون الله ليصير القضاء بمقتضى كلمة الله وحدها: «أما أنا فلستُ أدين أحداً ... الكلامُ الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير.» (يو٨: ١٥ و١٢: ٤٨)

«أخاطيءٌ هو لست أعلم، إنما أعلم شيئاً واحداً، أني كنت أعمى والآن أُبصِرُ»:

عسير جداً على الإنسان أن يطفيء الشمس بنفخة فمه، أو يرفس السيف (أو مناخِسَ) برجليه. أهكذا عميت بصائر هؤلاء الفريسيين حتى إنهم يحاولون أن يستنطقوا أعمى وُلِدَ أعمى، وعاش أعمى حتى بلغ سن البلوغ، أن يجحد من خَلَقَ له عينين يرى بهما النور والناس والدنيا والجمال؟ أمور كان قد كُتب عليه أن يُحرمَ منها حتى إلى القبر؟ أهكذا حقاً تعلّم الفريسيون علم اللاهوت وغوامض الناموس أن يقولوا للنور أنت ظلام؟

وهل الحقُّ والحياةُ والمعرفة والنور والله جُعلت هكذا مقيّدة بقيود معرفتهم وحدهم، فإذا وُجِدَت هذه بعينها ونصها وصميمها خارجَ علمهم ومعرفتهم، كانت هي الباطل والخطية؟؟

ما أبأس الإنسان إذا ظن أنه صار بعلمه قيّماً على أمور الله، وبسلطانه وصيًّا على وصاياه، ومتولّياً من دون الله شئون الله.

أليس من أجل هذا نادى الرب بصوته العالي: أنا لا أعمل **من نفسي**، أنا لا أتكلم **من نفسي**، أنا لست أصنع **مشيئتي**، أنا لا أطلب مجد **نفسي**، أنا لا أدين أحداً ... ثم رأى الرب تعالي الفريسيين بعلمهم ومعرفتهم، وأن تعاليهم هذا أسقط الله من قلوب الناس: «تهلل يسوع بالروح وقال: أحْمَدُكَ أيها الآب رب السماء والأرض، لأنك أخفيت هذه عن **الحكماء** (الحاخامات) والفهماء، وأعلنتها للأطفال، نعم أيها الآب لأن هكذا صارت المسرة أمامك.» (لو١٠: ٢١)

وهكذا، ولهذا، أخفى الله علم معرفته الحقيقية عن الحكماء عند أنفسهم والناس. وهذه هي بعينها رؤية القديسة مريم العذراء الصبيّة القديسة والنبية المختارة: «صَنَع قوة بذراعه، **شتَّت المستكبرين بفكر قلوبهم، أنزَلَ الأعزاء عن الكراسي** ورفع المتضعين، أشبع الجياع (إلى الله) خيراتٍ **وصَرَفَ الأغنياء فارغين.**» (لو١: ٥١-٥٣)

وهكذا وقف الشحاذ الأعمى الذي كان بالأمس يستعطي حسنة، وقف بين الحاخامات يجحد معرفتهم، وينفي صحة منطقهم، ويتجاهل بأس سلطان علمهم، "علمكم الذي يقول أنه خاطيء، هذا لست أعلم"، أما الذي أعلمه علم اليقين، علم الحق والواقع الملموس والمنظور، علم النور الذي هو أصْدَقُ لي من الشمس، أني كنتُ أعمى والآن أُبصر. خلقني الله بلا عينين، وهذا

الذي تقولون عنه أنه خاطىء هو الذي خلق لي عينين صحيحتين، فاحكموا أنتم مَنْ يكون هذا!... أما أنَّه خلق لي العينين يوم سبت، فمباركٌ هذا السبت، ومباركٌ العمل الذي عُمل لي فيه.

٩ :٢٦—٢٨ **«فقالوا له أيضاً ماذا صَنَعَ بك؟ كيف فتحَ عينيك؟ أجابَهُم: قد قلتُ لكم ولم تسمَعُوا. لماذا تريدونَ أن تسمَعُوا أيضاً. ألعلَّكم أنتم تريدُونَ أن تصيروا له تلاميذَ؟ فشتَمُوهُ وقالوا (له): أنت تلميذُ ذاكَ، وأما نحنُ فإننا تلاميذُ موسى».**

وعودة مرة أخرى إلى استجواب مُضَاد، لعلهم يظفرون بمعلومة تهدم شهادته وتُوقعه مُرْغماً في إدانة المسيح ... ماذا صنع بك؟ لعله يكون قد استخدم طريقة شيطانية أو استعان بقوى غير منظورة؟ ولكن الشاب كان قد طفح به الكَيْلُ، وتضايقت نفسه من محاولة الضغط عليه لكي يُفرِّط في حقِّ مَنْ أحْسَنَ إليه، فما كان منه إلاَّ أن استخدم أسلوب المراجعة والهجوم والتضييق عليهم: لقد قلت لكم ولم تسمعوا، فلماذا المحاورة؟ على ما تلوون؟ لماذا تريدون أن تسمعوا أيضاً؟

وهنا بلغت السخرية منهم أقصى حدودها: ألعلكم تريدون أن تصيروا له تلاميذ؟ وهنا نجح هذا البصير الأمّي في تغيير دفة الحديث والحوار كله، بل وأسْقَطهم في حيرة من أنفسهم جعلتهم يقفون منه موقف الدفاع، إنما في إحساس بالمهانة جعلتهم يشتمونه!! ولا نعلم بماذا شتموه، وإنما أضافوا إلى الشتيمة **إلصاق تهمة الخروج عن الناموس:** «أنت تلميذ ذاك»، باعتبار أن هناك فاصلاً عقائدياً يفصل بين المسيح وموسى: «أما نحن فإننا تلاميذ موسى». وهذا الاتهام هو الذي على أساسه أخرجوه خارج الجماعة. ولكنه في الحقيقة خرج بشهادة محفوظة له في السموات أنه **«تلميذ ذاك»!!**

٩ :٢٩—٣٤ **«نحن نعلمُ أن موسى كلَّمه الله، وأما هذا فما نعلمُ من أينَ هُوَ. أجابَ الرجلُ وقالَ لهم: إنَّ في هذا عَجَباً، إنكم لستُم تَعلَمُونَ من أين هو، وقد فتح عَيْنَيَّ، ونعلمُ أن الله لا يسمعُ للخطاةِ. ولكن إن كان أحدٌ يَتَّقي الله ويفعَلُ مشيئَتَهُ فلهذا يسمعُ. منذُ الدهرِ لم يُسمعْ أن أحداً فَتَحَ عينَيْ مولودٍ أعمى، لو لم يكن هذا من الله لم يقدِرْ أن يفعلَ شيئاً. أجابوا وقالوا له: في الخطايا وُلِدتَ أنت بجملَتِك وأنت تعلِّمنا. فأخْرَجُوهُ خارجاً».**

لا تزال عقول الفريسيين مشتبكة في المقارنة بين "أنت" و"نحن"، وبين التلمذة لذاك

ولموسى، ثم بين موسى وذاك، مما يكشف عن تشكك في عقولهم وتشكيك لعقول الآخرين. والذي زاد الهوّة والحقد أن مصدر السلطان الذي يستمد منه المسيح رسالته، لا يمرُّ بسلطانهم ولا بعلمهم ولا بمدارسهم، وهذا هو أصل المرارة التي كانت تطفح بها أقوالهم. لقد وطَّدوا كيانهم وسلطانهم على أساس أنهم تلاميذ موسى، وموسى استمد سلطانه من الله، إذن، فسلطانهم هو سلطان موسى، إنهم بفم موسى يتكلمون كأنهم من الله. والمسيح يهدم نظريتهم بكل أصولها وفروعها، وذلك ببراهين وآيات. هنا جاء الشك في قلوبهم، وكثير منهم آمن وانحاز للمسيح، إنْ سرًّا أو جهراً. أما الباقون، فأصبح عليهم التشكيك والهدم أو القتل لئلا يضيع سلطانهم. وهذا الأعمى الذي أبصر، صار يمثل أخطر تهديد لهم ولنظرياتهم، لأنه شاهد عَلَنٍ، بل شاهد عَلَم، أن "ذاك" — أي المسيح — هو في نظر الأعمى البصير في موقف الخالق. بل والأعمى البصير أدرك ضعف موقفهم منه ومن المسيح، فاستغل ذلك منهم أقوى استغلال، وبدأ يشدد النكير عليهم؛ وبنفس منطقهم، أخذ يسخر منهم في أسلوب استهجاني لاذع: «إنَّ في هذا عجباً إنكم...». لقد وَضَعهم في موضع ذوي التفكير الداعي للتعجب والاستهجان: «إنكم لستم تعلمون من أين هو وقد فتح عينيَّ». فالذي يفتح عيون العمي هو، عند جميع الأنبياء الذين تعلمتم عليهم، مسيًا، ومسيًا وحده، لأنه «منذ الدهر لم يُسمع أن أحداً فتح عيني مولود أعمى». حتى موسى الذي به يفتخرون لم يفتح عين أعمى واحد!

فإذا أنكرتم «أنه نبي» وإذا تجاهلتم أنه مسيًا، فلا ينبغي أن تنكروا تقواه، وأنه يصنع مشيئة الله، وأنه من الله. فلا يستقيم قط قولكم أنه إنسان خاطىء، لأن الله، إذ فتح عينيَّ على يديه، يكون قد سمع له، والله لا يسمع للخطاة!!

لقد أوقعهم الأعمى، الذي أبصر، في نفس الفخ الذي نصبوه له؛ وبنفس منطقهم ببساطة وهدوء قاتلٍ لكبريائهم. فإزاء قولهم: «نحن نعلم — ἡμεῖς οἴδαμεν — أن هذا الإنسان خاطىء»، حيث قصروا علمهم على أنفسهم فقط «نحن» (الفريسيين)، أجابهم بنفس منطقهم، إنما على أساس علم أعمّ وأشمل يعرفه الجميع وبلا استثناء، ولا يمكن أن يجهله أحد أو يماحك فيه إنسان، وذلك بقوله: « οἴδαμεν » **«معلوم لدى الجميع»** أو **«وكلنا نعلم»**. أما عِلْمُهم المحصور في عقولهم فينتهي عند «أن هذا الإنسان خاطىء»، وذلك بحسب قياسٍ جزئي على قانون أو ناموس كَسْرِ السبت. وأما عِلْمُ الجميع، فهو يقوم على أساس صفة مُطْلَقَة من صفات الله، وهي بديهية، لا يماحك فيها إنسانٌ قط: «إن الله لا يسمعُ للخطاة [«إن راعيتُ إثماً في قلبي لا يستمع لي الرب» (مز٦٦: ١٨)] وهذا الإنسان قد فتح عينيَّ».

وكالعادة حينما استبدت بهم الحيرة، وعجزوا عن التمشي مع منطقه، بدأوا يهينونه: «في الخطايا وُلدتَ أنت بجملتك، وأنت تُعلِّمنا».

ولقد وقع الفريسيون في المحظور، فقد نَسَبوا عَمَاهُ إلى خطيته وخطية أبيه وأمه، فلو لم يكن الله قد وهبه النظر وفتح عينيه بالفعل لكانت إهانةً من أشنع الإهانات التي يمكن أن تسمعها أُذُنُ بشر. ولكن الآن وقد وهبه الرب النظر الصحيح جسداً وروحاً ــ فقد ثبت أنه لا أخطأ هو ولا أبواه. وهكذا ارتدّت الإهانة عليهم مضاعفة، دون أن تصيب هذا الموهوب ولا أبو يه ولا قيد شعرة! ومن هذه الإهانة المقصودة، والتي لم تُصِبْ هدفها، يتضح مدى المرارة والحقد والاحتقار الذي ملأ قلوبهم نحو هذا الأعمى المُنْعَم عليه بالنظر، لأنه وقف موقف الشاهد للمسيح. كما نستشفُّ من ردود هذا الإنسان المبارك، مقدار الافتخار بالله والتمسك بكرامة المسيح وتمجيده، وعدم الانصياع إلى تهديد الفريسيين حتى إلى الطرد، مع أنه لم يكن قد رآه بعد!... ولكن كان همُّ المسيح أن يَهَبَه النور الأعظم، فسعى وراءه حتى وَجَده.

٩: ٣٥ــ٣٨ «فسمعَ يسوعُ أنهم أخرَجُوهُ خارجاً، فوَجَدَهُ وقالَ له: أتؤمنُ بابنِ الله. أجابَ ذاكَ وقال: مَنْ هو يا سيدِ لأُومِنَ به؟ فقال له يسوعُ: قد رأيتَهُ، والذي يتكلَّمُ معكَ هُوَ هُوَ. فقال: أُومِنُ يا سيدُ. وسَجَدَ له».

من روح هذه الآية ندرك أن الرب هو الذي سعى مرة أخرى ليتقابل معه. لأن كلمة «فوجده» يَسْبِقُها حتماً أنه كان يطلبه. لأن الفريسيين أخرجوه خارجاً، أي خارج حظيرتهم التي وضعوا أنفسهم عليها حُرَّاساً لا رعاةً. وحتى أبواه خشيا من إيوائه، خوفاً من أن يلحقهم الطرد. أما الراعي الصالح فكان يسعى خلف الغَنَمة التي غَنِمَها لحساب الآب، حتى يكمِّل عمل الآب فيها. فلما «وجده»، وجده وعلى فمه فرح الشهادة، أما نفسه فكان عليها سمات الرب: الإهانة والطرد. وحالاً فتح له باب الحياة الأبدية على سِعَته، وطلب منه إبراز تذكرة الدخول: «أتؤمن بابن الله»؟ فأبْرَزَها الأعمى البصير بكل شجاعة وفرح، لأنه كان قد دفع ثمنها بالكامل على باب المسلحة(٩) عند جباة المكوس.(١٠)

كان يظنه أولاً أنه نبي ولكن لما علم أن الواقف أمامه والذي يرى وجهه و يتكلم معه هو هو

(٩) المسلحة أي مصلحة الضرائب.

(١٠) المكوس، أي الجمارك، ومنها كلمة المكس بالإسكندرية وكان مكان الجمرك.

ابن الله صاحب الملكوت، والحامل لمفاتيح باب الحياة، خرَّ أمامه ساجداً؛ فللحال انفتحت بصيرته ورأى صاحب النور، لأن «بنورك (يا رب) نرى نوراً.» (مز٣٦: ٩)

٩: ٣٩-٤١ **«فقالَ يسوعُ: لدينونةٍ أتيتُ أنا إلى هذا العالمِ، حتى يُبْصِرَ الذين لا يُبصرونَ ويَعْمَى الذين يُبْصِرونَ. فسمعَ هذا الذين كانوا معه من الفريسيينَ، وقالوا له: ألعلَّنا نحن أيضاً عميانٌ. قالَ لهم يسوعُ: لوْ كنتم عُمْياناً لَمَا كانت لكم خطيةٌ، ولكن الآنَ تقولونَ إننا نُبْصِرُ فخطيَّتُكم باقيةٌ».**

كان المنظر مهيباً أخَّاذاً، عندما خرَّ الأعمى البصير عند قدمي الرب ساجداً في انفعال التعبُّد الصادق، وحول الرب تلاميذه والفريسيون المناكفون ينظرون ويتعجبون؛ ومن واقع هذا المشهد الشاهد لحقيقة النور الذي جاء إلى العالم، فانفتحت له أعين العُمْي بهتاف الشهادة والإيمان، والفاضح لموقف مدَّعِي الإبصار الذين يحاولون بكل جهد إطفاء النور أو إخفاءه لئلا يظهر خزيُ عَمَاهم، نادى حاملُ النور: «لدينونة أتيتُ أنا إلى هذا العالم» !!

ولكن المسيح لا يُشدِّد النكير على الفريسيين، لأنه ما ذنب النور أنه يفضح الظلام؟ إن هذا حتماً هو عمله حتى ولو لم يَشأ، وإذا شاء فهذا حقٌّ له لأنه طبيعته، وهذا هو الحق الذي يشاؤه الله أيضاً.

«حتى يبصرَ الذي لا يُبْصرون ويَعْمى الذين يُبْصرون»:

هذه الآية هي من واقع سجود الأعمى البصير، والشهادة للمسيح، والإعلان عن إيمانه بسجود وعبادة؛ كذلك هي من واقع مقاومة الفريسيين للمسيح، ورفضهم آية تفتيح عيني الأعمى، ورفضهم الإيمان بالمسيح معاً.

وهكذا نرى أن الأعمى قَبِلَ النورَيْنَ: نور الجسدِ ونورَ الله، فأبصر واستنار معاً !!

كما نرى هؤلاء الفريسيين المبصرين ومُدَّعي البصيرة يرفضون آية النور في الجسد، وشهادة نور الله معاً !! فانحجب عنهم النور بإرادتهم، فلأنهم استحسنوا أن لا يُبْقوا النور في معرفتهم عمَّتهم الظلمة وأعمَتهم. هؤلاء الذين قال عنهم المسيح: «**أحبَّ الناس الظلمةَ أكثرَ من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة**» (يو٣: ١٩)، وَوَصفهم الربُّ بأنهم «**عميان قادة عميان**» (مت١٥: ١٤)، وفي الحفرة حتماً ساقطون.

لما ذاق الأعمى النور وأحبَّه، سعى النورُ وراءَه فأدرك مصدره، ومن هوَّة الظلام الدامس انتقل إلى إشراق نور الله الكامل، هذا هو وعد الله بالمسيح يسوع لكل الجالسين في الظلمة وظلال الموت يُشْرِقُ عليهم النور، طالما سَعَوْا إليه وقَبِلوه وأحبوه ومَدَحوه. ومن الفقر المدقع والجلوس على عتبات البيوت جائعاً يستعطي خبزاً، انتقل الأعمى إلى عتبة بيت الله كتلميذ، يوزع شبعاً من غِنَى نعمته على الداخلين، وهذا هو وعد الله بالمسيح يسوع الذي نطقت به العذراء القديسة مريم النبية، والمسيح لا يزال في بطنها: «**شتَّت المستكبرين بفكر قلوبهم، أنْزَلَ الأعزَّاء عن الكراسي، ورفعَ المتضعين، أشْبَعَ الجياع خيرات، وصَرَفَ الأغنياءَ فارغين.**» (لو1: 51ـــ53)

هذه النبوة التي تحققت ولا تزال تتحقق، وسيتم كمال تحقيقها، تقوم على أساس رفض الله المطلق للمستكبرين بأفكار قلوبهم، والمعتزِّين بوظائفهم ومناصبهم، والمعتمدين على قوَّتهم وغناهم، في مقابل المتضعين والمساكين والمعتازين؛ لأن: «المستعلي عند الناس، هو رِجْسٌ قدام الله.» (لو16: 15)

ولكن المصيبة الكبرى والطامة العظمى ليست في مجرد الكبرياء بالأفكار الذاتية، ولا في التعظُّم بالوظائف والمناصب، ولا في الاعتماد على القوة والمال والعِزْوَة، ولكن أُمَّ المصائب كلها هي في عدم الانتباه وفُقْدان الشعور بأن هذه أمور باطلة ومكروهة، وأنها ضد الله، وسبب خراب الإنسان، التي شرحها الرب للفريسيين المتمسكين بها دون أن يدروا: «لو كنتم عمياناً لما كانت لكم خطية، **ولكن الآن تقولون أننا نُبصر فخطيتكم باقية**»، والذي سيأتي تفسيره.

ولكن لا انتصح الفريسيون في زمانهم ولا انتصح الفريسيون في كل زمان. فالفرِّيسية المتعجرفة، بغناها الكاذب، لا تزال تملأ أرجاء العالم، والتي أرهقت روح الرب أكثر مما أرهقته الفريسية الأولى؛ أي الذين تحصنوا واستغنوا **بالمال والعلم والتقوى الكاذبة**، وجلسوا على كرسي المسيح و«يقولون ولا يفعلون» (مت23: 3). هؤلاء رآهم ق. يوحنا الإنجيلي في رؤياه والمسيح يكاد يتقيَّأهم ويخاطبهم: «أنا مُزْمِعٌ أن أتقيَّأك من فمي، لأنك تقول إني أنا غنيٌّ، وقد استغْنَيْتُ، ولا حاجة لي إلى شيء، ولستَ تعلمُ أنك أنت الشقيُّ والبائسُ وفقيرٌ **وأعمى** وعُرْيان.» (رؤ3: 16و17)

وبهذا تتزكى عدم المعرفة في مقابل المعرفة التي بلا عمل. والكلام في ذلك كثير، والنصيحة لم تنقطع من فم الرب لمثل هؤلاء لو استطاعوا أن يستغنوا عن غناهم وهيهات: «أُشيرُ عليك أن تشتري مني ذهباً مُصَفًّى بالنار (الإيمان الممحَّص بالتجربة) لكي تستغني (بالحق)، وثياباً بيضاً

(مبيَّضة بآلام ودم الشهادة) لكي تلبس، فلا يظهر خِزْيُ عُرْيتك (نجاستك)، وكحِّل عينيك بكُحْلٍ (القداسة التي بدونها لا يعاين أحدٌ الله) **لكي تُبْصِرَ** (النور).» (رؤ٣: ١٨)

«فسمع هذا الذين كانوا معه من الفريسيين وقالوا له: ألعلَّنا نحن أيضاً عُميان. قال لهم يسوع: لو كنتم عمياناً لما كانت لكم خطية. ولكن الآن تقولون إننا نبصر فخطيتكم باقية»:

سؤال الفريسيين خارج من نفوس مستكبرة بفكر قلوبها باعتبارهم: «قادة للعميان ونور للذين في الظلمة» (راجع رو٢: ١٩). وردُّ المسيح مُرْعِبٌ، فهو نُطْقُ الدينونة التي ينطق بها النورُ الحقيقي.

ولكي ندرك عمق المعنى المدفون في هذه الآية، علينا أن نتصور أن الظلمة وقفت تتكلم أمام الشمس. فقالت الظلمة: أنا هو النور، فماذا تقول الشمس؟ تقول: مباركٌ عليكِ نورُكِ أيتها الظلمة، وتصمم الشمس أن لا تشرق عليها. ولكن إن قالت الظلمة: أنا ظلمة أغيثيني أيتها الشمس، فإن الشمس تقول: مرحباً هذا نوري وهذا إشراقي. هذا الحوار يصوِّره إشعياء النبي بهذه الآية: «قومي استنيري، لأنه قد جاء نورُكِ، ومجد الرب أشرق عليكِ. **لأنه ها هي الظلمة تغطِّي الأرض والظلام الدامس الأممَ**» (إش٦٠: ١و٢). ومعنى الكلام أن الرب يسوع لم يتجسد لتنفيذ إرسالية الخلاص إلاَّ بعد أن صارت الظلمة على كل الأرض، ظلمة المعرفة والسلوك والأخلاق، أي ظلمة الخطية.

وهنا تأتي آية الرب بكل إحكام: «وهذه هي الدينونة إن النور قد جاء إلى العالم، **وأحب الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة.**» (يو٣: ١٩)

فالذي يَعمِي الناسَ عن النور هي الأعمال الشريرة، أي الخطية. فإذا تبجَّح الناس وقالوا نحن نبصر، ونحن نور للذين في الظلمة، مع أن أعمالهم شريرة؛ فهذا معناه أنهم بالحقيقة عُميان، وخطيتهم هي التي زيَّفت عليهم النور كأنه ظلمة، والظلمة كأنها نور! وطالما أصرُّوا على أنهم يبصرون، وهم لا يبصرون، فهذا معناه أن خطيتهم أَعْمَتْ أعينهم، وهي باقية لهم.

الأصحاح العاشر

الأصحاح العاشر

أولاً: استعلان عمل المسيح الفدائي من نحونا «الراعي الصالح»(١)

(١٠:١ــ١٦)

نحن لا زلنا في موسم عيد التجديد. والحديث هنا هو امتداد للأصحاح التاسع، وهو يختص بالعلاقة التي تربط المسيح بخاصته الذين يؤمنون به. وهذا على أساس أن الأعمى الذي أبْصَرَ وشَهِدَ للمسيح، وصار من المؤمنين، أخرجوه خارج الجماعة، أي خارج حظيرة إسرائيل، وذلك باعتبار أنهم هم حُرَّاس الحظيرة ورعاة الخراف.

أ ــ «أنا هو باب الخراف»: (١٠:١ــ١٠).

١٠:١ــ٦ **«الحقَّ الحقَّ أقولُ لكُم: إنَّ الذي لا يدخُلُ من البابِ إلى حظيرةِ الخرافِ، بل يطلَعُ من موضعٍ آخرَ، فذاكَ سارقٌ ولصٌّ. وأما الذي يدخُلُ من البابِ فهو راعِي الخرافِ. لهذا يفتحُ البوابُ، والخرافُ تسمَعُ صوتَهُ، فيدعو خرافَهُ الخاصةَ بأسماءٍ، ويُخرِجُها. ومتى أخرجَ خرافه الخاصة، يذهبُ أمامها، والخرافُ تتبعُهُ، لأنها تعرفُ صوتَهُ. وأما الغريب فلا تتبعُهُ، بل تهرُبُ مِنْهُ، لأنها لا تعرفُ صوتَ الغرباءِ. هذا المثلُ قالَهُ لهم يسوعُ. وأما هم فلم يفهمُوا ما هو الذي كان يكلِّمُهُم به».**

كان طرد الأعمى ــ الذي أعطاه المسيح موهبة النظر ــ بإجراء حكم الطرد ضده، وحرمانه من حقوق شعب إسرائيل، وإخراجُه خارج حظيرة إسرائيل دون أي سبب قانوني، من أخطر الأعمال المضادة لله التي عملها الفريسيون بصفتهم رعاة الشعب وحُرَّاس إسرائيل. وللحال رفع المسيح هذا الإجراء الشاذ الذي يُنافي الحق والعدل والرحمة إلى التطبيق العملي، الذي سبق أن تنبأ

(١) إنجيل الراعي الصالح (يو١٠:١ــ١٦) يُقرأ كلما احتفلت الكنيسة بتذكار أحد البطاركة أو الأساقفة القديسين، مثل يوم ٣ **أبيب** تذكار نياحة **القديس كيرلس الكبير** والأيام المُحالَة إليه (٢٠ مناسبة في كل سنة)، ومثل ١٧ **هاتور** تذكار نياحة **القديس يوحنا ذهبي الفم** والأيام المُحالَة إليه (١٨ مناسبة في كل سنة).

به الأنبياء إرميا وحزقيال وزكريا، والذي يلزم أن نوضحه للقارىء ليدرك أبعاد المعاني التي يرمي إليها المسيح(٢):

إرميا النبي (٢٣: ١—٤):

«ويلٌ للرعاة الذين يهلكون ويبددون غنم رعيتي، يقول الرب. لذلك هكذا قال الرب إله إسرائيل **عن الرعاة الذين يرعون شعبي: أنتم بدَّدتم غنمي وطردتموها** ولم تتعهدوها، **هأنذا أُعاقبكم على شرِّ أعمالكم يقول الرب ... وأُقيم عليها رعاة يرعَوْنها، فلا تخاف بعد، ولا ترتعد،** ولا تُفقد، يقول الرب».

حزقيال النبي (أصحاح ٣٤):

«يا ابن آدم (ابن الإنسان) تنبأ **على رعاةِ إسرائيل**، تنبأ وقُل لهم: هكذا قال السيد الرب للرعاة، **ويلٌ لرعاة إسرائيل الذين كانوا يَرْعَوْن أنفسهم.** ألا يرعى الرعاةُ الغنم. تأكلون الشحم وتلبسون الصوف **وتذبحون** السمين ولا ترعون الغنم. المريضُ لم تُقَوُّوه، والمجروح لم تَعْصِبُوه، والمكسور لم تجبروه، **والمطرود لم تستردوه**، والضال لم تطلبوه، بل بشدة وبعنف تسلَّطتم عليهم، فتشتتتْ بلا راعٍ ... على كل وجه الأرض، تشتتت غنمي، ولم يكن مَنْ يسأل أو يفتش ...

فلذلك، أيها الرعاة، اسمعوا كلام الرب، هكذا قال السيد الرب: **هأنذا على الرعاة**، وأطلبُ غنمي من يدهم **وأكفهُّم عن رَعْي الغنم ...**

هأنذا أسألُ عن غنمي وأفتقِدُها، كما يفتقد الراعي قطيعَه يوم يكون في وسط غنمه المشتتة (عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا = في وسطنا). **هكذا أفتقد غنمي وأُخلِّصها ... في يوم الغيم والضباب ...**

أرعاها في مرعىً جيد ... في مراحٍ حسنٍ وفي مرعىً دسم ...

أنا أرعى غنمي وأُرْبِضُها، يقول السيد الرب، وأطلبُ الضالَّ، **وأستردُّ المطرود**، وأجبر الكسير، وأعصب الجريح، وأبيد السمين والقوي، **وأرعاها بعدل ...**

وأُقيم عليها راعياً واحداً، فيرعاها عبدي داود (المسيَّا)، **هو يرعاها، وهو يكون لها راعياً.** وأنا الربُّ أكون لهم إلهاً، وعبدي داود رئيساً **في وسطهم.** أنا الربُّ تكلمت، **وأقطعُ معهم عهد سلام، وأنزع الوحوش الرديئة** من الأرض، فيسكنون في البرية مطمئنين ...

---

(٢) أنظر أيضاً ما جاء بالمدخل ص٢٦٨—٢٧٠.

وأنتم يا غنمي، غنم مرعاي، **أُناسٌ أنتم**. أنا إلهكم يقول السيد الرب».

زكريا النبي (أصحاح ١١):

«**هكذا قال الرب إلهي: ارعَ غَنَم الذبح** ــ الذين يذبحهم مالكوهم ولا يأثمون، وبائعوهم يقولون: مباركٌ الربُّ قد استغنيت، ورُعَاتهم لا يُشفقون عليهم ...

فرعيتُ غنم الذبح ــ (**وهم**) **أذلُّ الغنم** ــ ... وأبَدْتُ الرعاةَ الثلاثة (الكتبة والفريسيين ورؤساء الكهنة) في شهر واحد (الزمن من بعد صلب المسيح حتى حرب السبعين التي أُحرق فيها الهيكل وخربت أُورشليم وبطُلت العبادة). **وضاقت نفسي بهم وكَرِهَتْني أيضاً نفسُهُم** ... فقلتُ لهم: إن حَسُنَ في أعينكم، فأعطوني أجرتي وإلاَّ فامْتَنِعوا، **فَوَزنوا أُجرتي ثلاثين من الفضة. فقال لي الرب: أَلْقِها إلى الفَخَّاري، الثمن الكريم الذي ثمَّنوني به**. فأخذتُ الثلاثين من الفضة وألقيتُها إلى الفخاري في بيت الرب».

ولكي أُسهل على القارىء التقاط الآيات الهامة بالنسبة للمسيح، طبعنا الآيات التي اتخذها المسيح لنفسه بالبنط الثقيل، فليهتم القارىء بقراءتها عدة مرات. ولكن لكي أركز هذه النبوات الثلاث في رؤية واحدة اخترت للقارىء هذه الآيات:

يا ابن الإنسان تنبّأ على رعاة إسرائيل.

الضالُّ لم تطلبوه، والمطرود لم تستردُّوه، بل بشدة وبعنف تسلَّطتم عليهم ... تذبحون السمين ولا تَرْعَوْن الغنم!

هأنذا على الرعاة، أكفُّهم عن رعي الغنم.

أنا أرعى غنمي وأُربضها، يقول السيد الرب، أسألُ عن غنمي وأفتقدُها وأُخلِّصها ... كراعٍ في وسط غنمه!

أرعاها في مرعىً جيد، في مراحٍ حسنٍ، وفي مرعى دسم.
أُقيم عليها راعياً واحداً، عبدي داود، هو يرعاها، وهو يكون لها راعياً.
فرعيتُ غَنَمَ الذبح، وهم أذلُّ الغنم، وأبَدْتُ الرعاة.
وضاقت نفسي بهم، وكرِهَتني أيضاً نفسُهُم.
فوزنوا أجرتي ثلاثين من الفضة، الثمن الكريم الذي ثمَّنوني به.

وبالعودة إلى ما قاله الرب يسوع، نجد أنه ألقى «**المَثَل**» على المستوى العام (من عدد

١ــ٥)، ولم يطبّقه على نفسه بشيء بل ألقى الكلام كمثل، وذلك ليمهّد أمام أذهان الفريسيين حقيقة استعلان جديد عن نفسه، وذلك بالنسبة لهم على أساس رعاية الشعب بمستوى رعاية الخراف، وباعتبار إسرائيل حظيرة واحدة، مستمّداً ذلك من النبوات السابقة لعلهم يتذكرون، وذلك على أساس المعاني الآتية بالترتيب:

١ ــ **الحظيرة** ...
٢ ــ **باب الحظيرة**، بالنسبة للراعي نفسه وليس الخراف.
٣ ــ **راعي الخراف**، كصاحب يدخل من الباب، وليس كسارق ولصّ يطلع من موضع آخر.
٤ ــ **البواب**، يفتح ويُغلق.
٥ ــ **الخراف**، تسمع صوت الراعي وتتبعه.
٦ ــ **الغريب**، تهرب منه الخراف ولا تتبعه.

ولأن المعاني تأتي في المثل مُكثّفة وذات أهداف بعيدة، فلم يفهمه الفريسيون. وعلينا هنا أن نشرحه على مستواه العام.

١ ــ **فالحظيرة**، هي إسرائيل القديمة **كأُمة** بيت إسرائيل، يقابلها الكنيسة وأهل بيت الله ورعية القديسين.

٢ ــ **والباب**، أي باب الحظيرة، هو في الحقيقة باب بيت الله. وباب بيت الله هو تعبير يعقوب إسرائيل نفسه: «ورأى حُلماً، وإذا سُلّم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء، وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها، وهوذا الرب واقف عليها، فقال: أنا الربُّ إله إبراهيم أبيك وإله إسحق ... فاستيقظ يعقوب من نومه وقال: حقاً إنَّ الرب في هذا المكان وأنا لم أعلم. وخاف وقال: ما أرهب هذا المكان، ما هذا إلاَّ بيتُ الله، **وهذا باب السماء**» (تك٢٨: ١٢ــ١٧)؛ حيث المعنى الإلهي لكلمة «**الباب**» هي الحضرة المنظورة والمسموعة لله. وقد عاد المسيح يؤكد هذا التعبير بقوله لنثنائيل: «الحق الحق أقول لكم من الآن **تَرَوْنَ السماء مفتوحة**، وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان» (يو١: ٥١). فالمسيح هنا هو الحضرة المنظورة لله على هيئة السلم، أو (الطريق) الموصّل إلى السماء، والباب المفتوح في السماء الموصّل للآب. وهذا الباب المفتوح في السماء رآه يوحنا في رؤياه: «بعد هذا نظرتُ، **وإذا بابٌ مفتوح في السماء**.» (رؤ٤: ١)

٣ ــ **راعي الخراف**، الذي ليس هو سارقاً ولا لصاً، يُعرَفُ من كونه يدخل إلى الحظيرة من

الباب، أي من التعليم الصحيح عن الآب الذي لا يعلمه أحد إلاَّ المسيح، **فهو الباب السماوي والوحيد الذي يوصِّل إلى الله** ـــ وأيُّ تعليم آخر عن الآب هو مسروق ولا يوصِّل إلى الله مهما كان.

ونلاحظ أن جميع الأنبياء أشاروا إلى المسيح (الباب)، **وبهذا كانت تعاليمهم صحيحة عن الله، فكانوا رعاةً صادقين**، وأكثرهم صحة وقوة في نبوته هو يوحنا المعمدان، لأنه رآه وأشار إليه، وشهد له، واعترف بأنه لم يأتِ إلاَّ ليعلن المسيح لإسرائيل كشاهد عيانٍ سماويٍّ. وهو الوحيد الذي رآه كما هو «ابن الله»، لذلك قال المسيح عنه إنه «**أفضل من نبي.**» (لو٧: ٢٦)

٤ ـــ **البواب**، هو مسيَّا، الذي سيسلمه الله مفتاح بيت داود: «وأجعلُ مفتاح بيت داود على كتفه، فيفتح وليس مَنْ يُغلق، ويُغلق وليس مَنْ يَفْتح» (إش٢٢: ٢٢). فالمسيح الباب، هو الإيمان بابن الله، المدخل الوحيد إلى الآب.

والمسيح البواب، هو المسيح الديَّان، الذي يمنح ويمنع، يفتح ويُغلق، وذلك بمقتضى الإيمان والتعليم الصحيح.

٥ ـــ **الخراف**، بحسب نبوة حزقيال هم أناس الله: «وأنتم **يا غنمي**، غَنَمُ مرْعَاي، **أُناسٌ أنتم**»، أي أخصَّاء الله. والراعي الذي يدخل إلى الحظيرة من الباب، يدعو خرافه **الخاصة** بأسماءٍ، وهي تسمع صوته، ويُخرجها، ويسير **أمامها**، وهي **تتبعه**.

هذا التعبير الرقيق العاطفي، هو لتوضيح الفرق بين العلاقة بين رعاة إسرائيل الذين تحدث حزقيال بشدة وعنف عن تسلُّطهم عليهم، وبين العلاقة الفردية الخاصة المطلوبة بين الراعي الحقيقي والرعية المحبوبة والتي عبَّر عنها المسيح هكذا: «ها أنا أُعطيكم سلطاناً لتدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو ولا يضركم شيء. ولكن لا تفرحوا بهذا أن الأرواح تخضع لكم، بل **افرحوا بالحري أن أسماءكم كُتبت في السموات.**» (لو١٠: ١٩و٢٠)

أما كونه يدعوها ويُخْرجها، فهذه هي الدعوة العُظمى للإنطلاق إلى ملكوته. وأما كونه يسير أمامها وهي تتبعه، فهذا عكس الرعاية الطبيعية تماماً، لأن الراعي في البرية يسير خلف الغنم. ولكن هنا المسيح، كراعي الرعاة الأعظم، سار أمامنا وافتتح الطريق إلى السماء، ودخل "**كسابقٍ**" من أجلنا، فوجد لنا فداءً أبدياً. (راجع عب٦: ٢٠؛ ٩: ١٢)

٦ ـــ **الراعي الغريب**، وهو الراعي الذي لم يدخل من الباب، وهو غير السارق واللصّ، ولكنه هو الذي لم يُرْسِلْه الله: "ليس عليه حُلَّةَ العُرْسِ" (راجع مت٢٢: ١١)، أي ليس له

التعليم الصحيح، الذي يوصِّل الخراف إلى صاحبها.

التطبيق:

لمَّا لم يفهم الفريسيون المثل الذي قاله، بدأ يُطبِّق المثل على نفسه هكذا:

١٠: ٧ــ١٠ **«فقالَ لهُمْ يسوعُ أيضاً الحقَّ الحقَّ أقولُ لكُمْ إني أنا بابُ الخرافِ، جميعُ الذينَ أتَوْا قَبْلي هُمْ سُرَّاقٌ ولصوصٌ، ولكنَّ الخرافَ لم تسمعْ لهُم. أنا هُوَ البابُ، إنْ دَخَلَ بي أحَدٌ فيخلُصُ ويَدخُلُ ويَخرُجُ ويجِدُ مَرْعىً. السارقُ لا يأتي إلاَّ ليسرِقَ ويذبَحَ، ويُهلِكَ. وأما أنا فقد أتيتُ لتكونَ لهُم حياةٌ، وليكونَ لهم أفضلُ».**

بعد أن رسم الرب الشرط الأساسي للراعي الحقيقي ومؤهلاته، ثم نوعية عمله، وذلك بناءً على رَسْمِ الوحي على فم الأنبياء، بدأ يطبِّق ذلك على نفسه، حتى يستعلنَ لهم وللعالم أنه جاءَ ـــ كما هو مكتوب عنه ـــ ليكمِّل عمل الله ويتمم مقاصده.

«أنا باب الخراف»:

لا يقول هنا «باب الحظيرة»، بل «باب الخراف» **بصورتها المفردة.** لقد انتقل الرب من كنيسة أُمَّةٍ، إلى كنيسة أفرادٍ؛ من عهده مع شعبٍ إلى عهده مع النفس. لأن ليس المطلوب بعدُ قائداً كموسى، أو قائداً كيشوع، ليفدي أُمَّة من عبودية الأمم، أو ليملِّك أسباطاً ميراث الأراضي، بل قائداً يفدي النفس من عبودية الخطية ويُقرِّبها إلى الآب ليُملِّكها ميراث السماء.

«الباب» هنا ليس لحفظ أنظمة وحدودٍ وتدابير ووصايا تختص بهيئة الشعب العامة أو بشكل الحكومةِ أو بقوانين ترابط الأفراد، بل الباب هو الإيمان بابن الله. هذا هو **باب الحياة** لتدخل به ومنه النفس البشرية، لتجد حياةً "سماوية" مع الآب، وهذا هو المرعى الدسم الحقيقي.

فالمسيح أعلن نفسه أنه ابن الله، هذا هو الباب الحقيقي الموصِّل إلى السماء: «الحقَّ الحقَّ أقولُ لكم، **من الآن ترون السماءَ مفتوحة**، وملائكةُ الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان» (يو١: ٥١)، السماء المفتوحة يعني «الباب».

وبهذه المعاني، يتبين أنه يستحيل أن يكون للآب أو للسماء إلاَّ هذا الباب الوحيد، كما رآه يوحنا في رؤياه: «بعد هذا نظرتُ وإذا بابٌ مفتوحٌ في السماء» (رؤ٤: ١). وبهذا يكون قد أُلغي

الحارسُ القديمُ الذي يمنع من الدخول إلى السماء: «الكروبيم ولهيبُ سيف متقلِّب لحراسة طريق شجرة الحياة» (تك٣: ٢٤)، حتى لا «يمدّ (الإنسان) يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً، ويأكل، ويحيا إلى الأبد» (تك٣: ٢٢)؛ وحلَّ محلّه بابٌ مفتوحٌ في السماء مسنودٌ عليه رأسُ سُلَّم موصّل بين الأرض والسماء، سُلَّمُ أمانٍ عليه ألوف وربوات الملائكة يحرسون ويخدمون الداخلين في باب السماء ليجدوا المرعى الدسم والحياة الأفضل. وواضح أن المسيح هو هو الباب السماوي المفتوح، وهو هو السُلَّم المرتكز على الأرض ورأسه في السماء: «لأنه هكذا يُقدَّم لكم بِسِعَةٍ دخولٌ إلى ملكوت ربنا ومخلصنا يسوع المسيح الأبدي.» (٢بط١: ١١)

«جميع الذين أتَوْا قبلي هم سُرَّاق ولصوص ولكن الخراف لم تسمع لهم»:

الحق كل الحق للمسيح أن يقول هذا، والكلام هنا منصبٌّ **أولاً**، على كل الذين جاءوا وادَّعوا أنهم قادرون بتعليمهم على تخليص إسرائيل ومُصَالحته مع الله، معتمدين على حساب نبوات الأنبياء فيما يختص **برجاء إسرائيل كأُمة**. لهذا، فقد اتخذوا اسم ومؤهلات المسيا اختطافاً وزيَّفوا عمله. فبدل أن يكونوا طريقاً وباباً للحياة، بتعليمهم الصحيح عن الله والحياة الأبدية، صاروا طريقاً لسَفْكِ الدماء بالثورات والحروب، وباباً للهلاك والموت. وبذلك حُسِبُوا في نظر المسيح: أنهم سرقوا الاسم وتلصَّصوا على النبوات والتعليم.

وثانياً، كذلك فإن أولئك الفريسيين الذي تجاهلوا هذا الباب السماوي الوحيد المفتوح، والموصِّل إلى الله والسماء، والمُشتَغلَن بالآيات والمعجزات والأعمال والتعليم الصحيح، وادَّعوا أنهم هم وتعاليمهم وتقاليدهم ومدارسهم الطريق الوحيد والباب الوحيد لمعرفة الله والخلاص، اعتبرهم المسيح سُرَّاقَ اسمٍ وطريقٍ، ولصوصَ نبوَّاتٍ وعهودٍ ومواعيدَ: **«والخراف لم تسمع لهم»**.

كان الشعب قد تزيَّفت عليه التعاليم الصحيحة، وتزيَّف عليه الطريق والحق والحياة: «كان شعبي خرافاً ضالة **قد أضلَّتهم رُعَاتهم**. على الجبال أتاهوهم، ساروا من جبلٍ إلى أكمةٍ، **نَسُوا مَرْبَضَهُم**» (إر٥٠: ٦). وبالرغم من ذلك، وحينما بدأ الرب يسوع يعلِّم ويتكلم، انتبه الشعب في الحال، وأدركوا أن كلام الكتبة والفريسيين كلامٌ ميت ومزيَّف: «فبُهتوا من تعليمه لأنه كان يعلِّمهم كمَنْ له سلطان وليس كالكتبة» (مر١: ٢٢). بل شهد له من أعدائه أمام السنهدريم، بأنه لم يتكلم إنسانٌ قط مثله: «أجاب الخدام لم يتكلم قط إنسانٌ هكذا مثل هذا الإنسان.» (يو٧: ٤٦)

والخراف قسَّمها الإنجيل إلى **«خراف خاصة»**، و«خراف ضالة».

فالخراف الخاصة هي التي لها أُذن للسمع، فتسمع لراعيها، لأنه يتكلم بكلام الله. ولا تسمع لصوت الغرباء عن الله أو السُّرَّاق واللصوص، الذين سرقوا وظيفة الراعي والمعلم، وهم ليسوا رعاةً ولا معلمين، وتلصَّصوا على أقوال الأنبياء والقديسين، وهم غرباء عنهم وعن روحهم ومنهجهم: «ويلٌ لكم أيها الكتبة والفرِّيسيون المراؤون، لأنكم تأكلون بيوت الأرامل ولعِلَّةٍ تطيلون صلواتكم، لذلك تأخذون دينونة أعظم.» (مت٢٣: ١٤)

وقد شهد المعمدان للفرق بين صوت المسيح وكلامه، وبين صوت الآخرين وكلامهم: «الذي **يأتي من فوق، هو فوق الجميع؛ والذي من الأرض، هو أرضي، ومن الأرض يتكلم. الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع؛ وما رآه وسمعه، به يشهد** وشهادته ليس أحد يقبلها. ومن قَبِلَ شهادته فقد ختم أن الله صادق. **لأن الذي أرسله الله يتكلم بكلام الله.**» (يو٣: ٣١-٣٤)

وهذا يؤكده ق. يوحنا في رسالته الأولى: «هم من العالم، من أجل ذلك **يتكلمون من العالم والعالم يسمعُ لهم؛** نحن من الله، فَمَنْ يعرف الله يسمع لنا؛ **وَمَنْ ليس من الله لا يسمع لنا.** من هذا نعرف روح الحق وروح الضلال.» (١يو٤: ٥و٦)

١٠: ٩-١٠ **«أنا هو الباب. إنْ دَخل بي أحدٌ، فيَخْلُص، ويدخل، ويخرج، ويجد مرعىً. السارقُ لا يأتي إلاَّ ليسرق، ويذبح، ويهلك. وأما أنا فقد أتيتُ لتكونَ لهم حياةٌ، وليكون لهم أفضلُ».**

هنا يقول الرب: «**أنا هو الباب**»، بمضمونه العام، أي بالنسبة للرعاة والخراف، بدلَ «**أنا هو باب الخراف**»، بمضمونه المنسوب للخراف فقط. لأنه سَبَقَ وقال إن: «الذي يدخل من الباب فهو راعي الخراف». فالباب هنا يجمع بين الإيمان بابن الله، حيث يكون هو المدخل الوحيد للخراف، وبين التعليم الصحيح الذي يدخل منه الرعاة. لذلك يقول: «إنْ دَخل بي أحدٌ»، و«أحد» تعني كل واحد، حيث الكلُّ يُعوِزُه الخلاص، والدخول لازم للجميع ليكون مع رعية القديسين وأهل بيت الله: «هذا الباب للرب والصدِّيقون يدخلون فيه» (مز١١٨: ٢٠). وفي مَثَلِ العذارى العشر: «يشبه ملكوت السموات عشر عذارى» (مت٢٥: ١)، واضح أن **الباب الذي أُغلق** بعد أن دخل منه الخمس العذارى الحكيمات المستضيئات بزيتهن خلف العريس، **هو باب الخلاص** الذي لا يعني إلا المخلِّص نفسه. فغَلْقُ الباب في ملكوت السموات يعني انتهاء عمل الخلاص؛ أما الخروج فهو الدعوة العظمى — سواء للرعاة أو الخراف — للانطلاق إلى المراعي الحقة

السماوية التي يُرِبض فيها راعي الرعاة الأعظم خرافه ورعاته من كل الحظائر.

وواضح أنه ليس لنا دخول مع رعية القديسين إلى الآب السماوي، إلاَّ بالمسيح: «لأنَّ به لنا كِلَيْنا (الأمم واليهود) قدوماً في روح واحد إلى الآب. فَلَسْتُم، إذاً، بعد غُرَباءَ ونُزُلاً، بل **رعيَّةٌ مع القديسين وأهلِ بيتِ الله.**» (أف ٢: ١٨و١٩)

كذلك، فبواسطة هذا الباب، أي الإيمان بابن الله، يصير لنا الدخول في غِنَى الله والإقامة فيها والتنعُّم بها. كما يُرْبِض الراعي غنمه في المرعى الدسم وهو في وسطها: «**الذي به أيضاً قد صار لنا الدخول بالإيمان إلى هذه النعمة التي نحن فيها مقيمون**، ونفتخر على رجاء **مجد الله.**» (رو٥: ٢)

والآن، فالراعي أو المعلِّم الذي ليس في قدرته أن يُرِبضَ غنماته في مرعى الإيمان الدسم لتَشْبَعَ من نعمة الله وتقيم فيها على الدوام، ثم لا يقوى بعد ذلك على أن يُحضرها بالروح إلى الآب لتنضم مع القديسين وأهل بيت الله، ماذا يكون؟ وماذا يكون غرضه؟ إلاَّ أن يكون هو السارق لوظيفةٍ ليست له وعتلك نفوساً لم يُسْتأمن عليها، ولصًّا يخطف ليذبح كل ما يقدر أن يخطفه أو يذبحه، «تأكلون الشحم (مال الشعب) وتلبسون الصوف (التنعم) وتذبحون السمين (الغنى) ولا تَرْعَوْنَ الغنم» (حز٣٤: ٣). هنا استغلالُ الوظيفة، واستغلال النفوس الضعيفة، هو اختطاف وسرقة الله. والويل لمَنْ لا يقف ضد السارق لوظيفةٍ ليست له، فهو إنْ لم يقتل الجسد، فسيضطهد حتى إلى هلاك النفس. وهو حتى وإنْ لم يضطهد أحداً، فهو لأنه لا يرعى أحداً بل يرعى نفسه، فستهلك الغنم من عدم المعرفة ومن الجوع إلى كلمة الله!

«السارق لا يأتي إلاَّ ليسرق ويذبح ويهلك»:

العجيب هنا أن المسيح يصوِّر نفس الصورة التي رآها زكريا النبي منذ مئات السنين: «غَنَم الذبْح الذين يذبحهم مالكوهم ولا يأثمون (لا يشعرون أن هذا إثم)، وبائعوهم يقولون مباركٌ الربُّ، قد استغنيتُ. ورعاتهم لا يُشْفِقُون عليهم.» (زك ١١: ٤و٥)

بل وحتى إذا علَّم السارقُ المغتصبُ، الذي لم يدخل من باب المسيح، فإنه يعلِّم تعليماً لا يُشْبِع ولا يُغني عن جوع، بل ويتلف حاسة القداسة عند سامعيه، ويطمس معالم الروح، ويقود النفس إلى هلاكها. «فدعاهم يسوع وقال لهم: أنتم تعلمون أن الذين يُحسبون رؤساء الأمم يسودونهم، وأن عظماءهم يتسلَّطون عليهم. فلا يكون هكذا فيكم. بل مَنْ أرادَ أن يصيرَ فيكم عظيماً، يكون لكم خادماً. ومَنْ أراد أن يصير فيكم أولاً، يكون للجميع عبداً. لأن ابن الإنسان

أيضاً لم يأتِ ليُخدَمَ، بل ليَخدِمَ وليبذل نفسه فِدْيةً عن كثيرين.» (مر١٠: ٤٢ـــ٤٥)

وأخيراً، نستطيع أن نلمح بسهولة صورة الشيطان من خلال سرد مثل المسيح عن السارق الذي يرعى وهو ليس راعياً، بل دخل خلسةً كلصٍّ يتلصَّص على الخدمة، يهدم ما بناه الأُمناء ويلوّث التعليم الصحيح، ويشكك في كل ما تعلمته الرعية، وأخيراً يبذر بذور الفُرْقَة والانقسام، فتقوم جماعة على جماعة، وينشغل الكلُّ في الخصام والاتهام، فتتوقف حركة النمو والبناء؛ وأخيراً تتبدد الجهود وتسود العداوة وتهرب النعمة وتحلُّ النقمة. عن هؤلاء وعن الشيطان الذي يعمل بهم، يقول بولس الرسول: «لأن مثل هؤلاء هم رُسُلٌ كَذَبة، فَعَلةٌ ماكرون، مغيِّرون شكلهم إلى شِبْه رُسُل المسيح. ولا عَجَبَ، لأن الشيطان نفسه يُغيِّر شَكْلَه إلى شِبْهِ ملاكِ نورٍ، فليس عظيماً، إن كان خُدَّامه أيضاً يغيِّرون شكلهم كخُدَّامٍ للبر.» (٢كو١١: ١٣ـــ١٥)

«أما أنا فقد أتيتُ لتكونَ لهم حياة، وليكونَ لهم أفْضَلَ»:

هنا المسيح يقدم لخرافه حياتين: «لتكون لهم **حياة**، وليكون لهم **أفضل**»، في مقابل ما يعمله السارقون «**ذَبْحٌ وهَلاك**». فعِوَض «**الذبح**»، يقدم المسيح «**حياة**»: «النعمة التي نحن فيها مقيمون» (رو٥: ٢) = «لتكون لهم حياة». وعِوَضَ «**الهلاك**» يقدم المسيح «**الأفضل من الحياة**»: «يكون لهم أفضل»، والمقصود هو ملكوت الله.

فهو ينجِّي من الذبح بأن يعطي الحياة، وينجي من الهلاك بأن يعطي وعد الحياة الأبدية: «لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل»، كما جاءت في اليونانية περισσὸν ἔχωσιν بمعنى «يأخذون الحياة **ويأخذونها بفيض أو بغزارة**» وهي صفة الملكوت. وهذا يفيد أن الحياة التي يعطيها المسيح هي بنفسها تنبع إلى حياة أبدية، فالمسيح لا يعطي حياة جسدية تموت بموت الجسد. والمعنى بالنهاية، أنه يعطي هنا حياة لها شِبَعُ السرور، بالروح والنعمة، وهي نفسها تبلغ إلى الملء هناك في الحياة الأبدية.

وهكذا وضع المسيح المقارنة بين الرعاية في صورتها المزيَّفة وصورتها الأصيلة في أحدِّ وأخرَجِ صورة لها، إذ جَعَلها مقارنة بين حياة وموت، وبين خلاص وهلاك! وبالنهاية بين راعٍ صالح ولصٍّ سارق.

ب ــ «أنا هو الراعي الصالح»: (١٠: ١١ــ١٦).

١٠: ١١ــ١٣ «أنا هو الرّاعِي الصالحُ، والراعي الصالح يبذلُ نفسَهُ عن الخرافِ. وأما الذي هو أجيرٌ وليس راعياً، الذي ليست الخرافُ له، فيرى الذئبَ مُقْبلاً ويتركُ الخرافَ ويهربُ. فيخطفُ الذئبُ الخرافَ ويبدِّدُها. والأجيرُ يهرُبُ لأنه أجيرٌ ولا يُبالي بالخرافِ».

نلاحظ في تحليل الآيات السابقة، أن الرب يقدم نفسه في الآيات (١ــ١٠) باعتباره الباب، حيث الباب إما أن يكون هو التعليم الصحيح عن الآب الذي يدخل منه الرعاة المستأمَنون على الخراف من قِبَل راعي الرعاة الأعظم، وإما أن يكون هو الإيمان الذي تدخل به ومنه الخراف وتخرج. وبذلك يكون المثل قد انتهى عند العدد ٦: «هذا المثل قاله لهم يسوع، وأما هم فلم يفهموا ما هو الذي كان يُكلِّمهم به». ثم أكمل المسيح شرح المثل لهم من عدد ٧ــ١٠.

ثم ابتداءً من عدد ١١ يكمِّل المسيح شرح وتوضيح استعلانه لنفسه ــ من داخل المثل حيث لا يزال المثل مستمراً ــ فبالإضافة إلى: «أنا هو الباب»، يقول: «أنا هو الراعي الصالح»، حيث يوضح الرب معنى الراعي الصالح ومؤهلاته:

١ ــ الراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف (١٠: ١١ــ١٣).

٢ ــ الراعي الصالح يعرف خرافه الخاصة وخرافه تعرفه (١٠: ١٤).

٣ ــ الراعي الصالح يضع نفسه عن الخراف (١٠: ١٥).

٤ ــ الراعي الصالح لا يلتزم بحظيرة معيَّنة، بل يجمع خرافاً أُخَر، لتكون له رعية واحدة وليست لحظيرة واحدة (١٠: ١٦).

١ ــ بذل نفس بنفس لإعطاء حياة:

يبدأ الرب استعلانه عن نفسه بأنه الراعي الصالح، بقوله: **«أنا هو»**. وهنا تقع ἐγώ εἰμι في موضع التعريف أو الاستعلان، وكأنها الرد على سؤال: «ومَنْ أنتَ بالنسبة للآخرين». فهنا الرب يعرِّف نفسه على أساس النسبة التي بين الراعي الصالح والأجير ــ حيث يقصد بالأجير كل طبقة الكهنوت والكتبة والفريسيين.

وكما هو معلوم أن ἐγώ εἰμι هو التعريف الخاص جداً باسم الله (أنظر المدخل ص ٢١٨ــ٢٤٦). وكأن المسيح يقول لهم: «أنا ــ **الحامل لاسم الله** ــ هو الراعي». ويلزمنا هنا أن نوضح أنه قد سئل الرب فعلاً عن مَنْ هو بالنسبة لكل مَنْ جاءوا ويجيئون باسم المسيَّا. ولكن

تأجّل السؤال في هذا الأصحاح حتى عدد ٢٤: «فاحتاط به اليهود وقالوا له: إلى متى تعلّق أنفسنا، **إن كنتَ أنت المسيحَ فقُلْ لنا جهراً**».

فقول المسيح **«أنا هو»**، فيه ــ بحد ذاته ــ كشف لا يُستهان به عن مَنْ هو **بالنسبة لله نفسه**. ولكن بسبب ضعف الأذن وعَمَى البصيرة، اضطر الربُّ أن يعرِّف نفسه **بالنسبة للآخرين** أيضاً الذين أخذوا وظيفته خلسة ــ أو بالإيجار (أي بالأجرة) ــ، والمتكلمون معه هم عيِّنةٌ من هؤلاء الأُجَراء، الذين يعتبرون أنفسهم رعاة الشعب: فـ«أنا هو الراعي الصالح» تجيء في مقابل: أنتم رعاة مستأجَرون.

وكلمة **«الصالح»** لا تفيد معنى الصلاح، وهي تجيء في اليونانية καλός. فهي لا تفيد صلاح الله كطبيعة. وبحسب أسلوب إنجيل يوحنا كان يلزم أن تجيء «الحقيقي» ἀληθινός لتتمشى مع الاستعلانات السابقة كـ**«النور»** و**«الخبز»**، واللاحقة كـ**«الكرمة»**. ولكن وظيفة الراعي هي وظيفة مؤقتة مستمدة من التشبيه بالبشر، وتجيء داخل مَثَلٍ، فهي ليس لها وجود دائم في المطلق الإلهي كالخبز الحقيقي والنور الحقيقي، ولكنها صفة لله منسوبة للبشر، وهي تنتهي (أي الرعاية) بانتهاء الدينونة، لذلك فـ«الحقيقي» لا تتمشى مع الراعي.

كذلك كان من المنتظر أيضاً أن تجيء الصفة بالكلمة المعروفة بـ**«الصالح»** فيما يخص الله، وهي ἀγαθός. ولكن صلاح الله هو طبيعته المطلقة فيه. أما الرعاية فلأنها صفة منسوبة للبشر، بسبب جهلهم وعوَزهم، فهي وظيفة تطلَّبتها الحاجة، لذلك جاءت كلمة καλός التي تفيد **«الحسن»**، وهي صفة عمل وليست صفة شخص، كما هي في الآية: «فليضيء نوركم هكذا قدام الناس لكي يروا **أعمالكم الحسنة**» (مت٥: ١٦). لذلك، فبسبب قصور كلمة «حسن» (صالح) καλός عن أن تفيد صلاح المسيح الشخصي (الداخلي)، وضع لها الرب تكملة لتغطّي معنى صلاح العمل، فقال: «والراعي الصالح **يبذل نفسه عن الخراف**».

وهنا يلزم أن نعود إلى مستوى «صلاح الرعاة» في تاريخ إسرائيل، لنرى موقع المسيح منهم. فالله سبق أن أقام موسى راعياً: «أصعدهم من البحر **مع راعي غَنَمه**» (إش٦٣: ١١)، «هَدَيتَ شعبك **كالغنم بيد موسى** وهارون» (مز٧٧: ٢٠). كما أقام داود أيضاً: «اختار داود عَبْدَه، وأخذه من حظائر الغنم، من خلف المُرْضِعَات أتى به **ليرعى يعقوب، شعبه، وإسرائيل، ميراثه.**» (مز٧٨: ٧٠و٧١)

ولكن هؤلاء الرعاة جميعاً لم يزيدوا عن أنهم كانوا بدورهم خرافاً، كان الله يرعاهم، ويهدي

لهم رعيتهم. فداود يعترف بذلك: «الرب راعيَّ فلا يعوزُني شيء. في مراعٍ خُضرٍ يُرْبِضُني، إلى مياه الراحة يوردني، يردُّ نفسي، يَهْديني إلى سُبُل البرِّ من أجل اسمه» (مز٢٣: ١—٣). ولا يمكن أن ننسى أن داود، كراعٍ، رعى رعية الله حَسَناً، **ولكنه افترس نعجة من قطيعه.**

وموسى، الذي ضُربت به الأمثال في القيادة والأمانة، نجده يقف مرة واحدة عن القيادة والمسئولية ويطلب — مُسْتصرخاً — أن يُعْفيه الله: «فقال موسى للرب: لماذا أسأتَ إلى عبدك؟ ولماذا لم أجد نعمة في عينيك حتى أنك وضعت ثِقْل جميع هذا الشعب عليَّ. **ألعلّي حَبِلْتُ بجميع هذا الشعب؟ أو لعلّي وَلَدتُه** حتى تقول لي احْمِله في حضنك، كما يحمل المربي الرضيع إلى الأرض التي حلفت لآبائه ... لا أقدر أنا وحدي أن أحمل جميع هذا الشعب، **لأنه ثقيل عليَّ. فإن كنتَ تفعل بي هكذا فاقتلني قتلاً إن وجدتُ نعمةً في عينيك، فلا أرى بليَّتي**» (عد١١: ١١—١٥). وبسبب هذه العثرة التي عثرها موسى عيَّن الله — مضطراً — سبعين شيخاً يشاركون في القيادة والمسئولية، الأمر الذي لم يكن في أصل تدبير الله، وهذا هو منشأ السنهدريم الذي اجتمع ضد المسيح وقتله! ...

فبالنسبة لهؤلاء الرعاة — قادةً وحكاماً — وهم أفضل الرعاة في تاريخ البشرية، يقول المسيح ويعلن نفسه: «أنا هو الراعي الصالح». ويكمِّل معنى الرعاية والصلاح بقوله: «والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف».

ويلاحَظ أن المسيح لم يقدِّم نفسه للموت عَرَضاً، بل نزل من السماء خصيصاً من أجل ذلك، بل إنه تجسد ووُلد ليموت: «أيها الآب نجِّني من هذه الساعة. ولكن لأجل هذا أتيتُ إلى هذه الساعة» (يو١٢: ٢٧)، ليس عن خرافِ حظيرةِ إسرائيل وحسب، بل وعن الخراف الأخرى من جميع أنحاء العالم وفي كل الأجيال.

على أن كل راعٍ — سواء كان قائداً أو حاكماً أو كاهناً أو أيًّا مَنْ كان — إذا مات دفاعاً عن خرافه فهو لن يمنحها من حياته شيئاً، بل وعلى أقصى تقدير يحفظها حيةً، أما الراعي الصالح فهو يبذل نفسه ليعطي حياته لكل مَنْ يؤمن به، فهو بذل نفساً بنفس، أو بكل النفوس على وجه الأصح. وهذا هو الخلاص في أعلى مفهوم له وقمة معناه. فالخلاص ليس خلاصاً من ذنبٍ أو موتٍ وحسب، بل **للفداء وإعطاء حياة**: «أما أنا فقد أتيتُ **لتكون لهم حياة**، وليكون لهم أفضل».

فبذْلُ يسوع «لحياته» ليعطيها لأخصائه، يرفع من مفهوم «**الراعي**» بكل أبعاده البشرية، حتى يكاد يلغي معنى الراعي بالمفهوم البشري ويجعله **الإله الفادي**. لأنه هكذا انتهت وظيفة

المسيح المنظور ــ كراعٍ ــ على الأرض بالموت، ليَظْهرَ بحقيقة الإله. وزكريا النبي يرى هذه الصورة ويصفها بدقة عجيبة: «استيقظ **يا سيفُ على راعيَّ**، وعلى رَجُلِ رِفْقتي، يقول رب الجنود. اِضرب الراعي **فتتشتتَ الغنم** ...» (زك١٣: ٧). ويعود المسيح ويُحيِّي هذه النبوة وينطقُها على نفسه: «حينئذٍ قال لهم يسوع: كلكم تشكُّون فيَّ في هذه الليلة، لأنه مكتوب أني أضرب الراعي فتتبدَّد خراف الرعية. ولكن بعد قيامي أسبقكم إلى الجليل» (مت٢٦: ٣١و٣٢). وهكذا ينتهي موت الراعي إلى قيامته واستعلان لاهوته.

والملاحظ أن كلمة «تتشتَّتُ» أو «تتبدَّد» الرعية أو الغنم، التي هي مقصد الشيطان الأول في موت المسيح، أي الراعي، والتي تأتي باليونانية διασκορπίζειν في نبوة زكريا كما استشهد بها المسيح في إنجيل متى، هي نفس الكلمة التي يستخدمها إنجيل يوحنا في نبوة رئيس الكهنة التي تتضمن أن موت الراعي سينشيء بالتالي تجمُّع المتفرقين أو المتبدِّدين مرة أخرى: «تنبأ أن يسوع مُزْمِع أن يموت عن الأمة، وليس عن الأمة فقط، بل ليجمع أبناء الله **المتفرقين** إلى واحد» (يو١١: ٥١و٥٢) حيث جاءت كلمة «**المتفرقين**» على نفس أصل الكلمة διεσκορπισμένα.

بهذا ينتهي خط هذه النبوة العجيبة بأن «موت الراعي» الذي يُقصد منه تبدُّد الرعية، أنشأ بذاته تجمُّع المتبدِّدين من الرعية إلى واحد!! بهذا الإحساس النبويِّ الفريد، كان يسوع يتكلم حينما قال: «والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف»، لأنه عالمٌ أنَّ بموته، تتجمع الخراف إليه لتصير رعية واحدة لراعٍ واحد. لهذا قلنا ونقول إن وظيفة الراعي التي أخذها المسيح لنفسه، إنما استعارها استعارةً ليقارن بها نفسه بالآخرين الذين أرادوا أن يتشبَّهوا به، ليُظْهِرَ مدى الفارق المستحيل تصويره. فرعاية المسيح لخرافه في المثل الذي قاله ــ لمجرد المثل ــ إن هي إلاَّ عمليةُ موتٍ وخلاصٍ بالدرجة الأُولى وبالأساس ــ فهي ليست مَثَلاً! فإن كانت هذه هي الرعاية الصالحة فمرحباً بالراعي الصالح، بل برئيس الرعاة الأعظم ــ الإله الذي تجسد واتخذ صورة الراعي، بل والحمل المذبوح ليُذْبَح عِوَضَ خرافه، إن صحَّ الكلام والتعبير:

«وأما الذي هو أجيرٌ وليس راعياً، الذي ليست الخراف له، فيرى الذئب مقبلاً، ويترك الخراف ويهرب، فيخطف الذئب الخراف ويبدِّدها. والأجير يهرب لأنه أجير ولا يبالي بالخراف»:

المقارنة هنا تتركز في العلاقة بين الخراف والراعي، والراعي والخراف، علاقة مشتركة تكشف الصاحب من الأجير. فصاحب الخراف يرعى خرافه، لأنه **يمتلكها ويحبها**، ويطلب صلاحها، فهو صالح لأنه يطلب لها الصلاح. أما الأجيرُ فهو قد توظَّف، ليرعى الخراف من أجل نفسه. **فأولاً** هو

يطلب **الأجرة ثمناً للرعاية. وثانياً** وبصورة شاملة، **هو يطلب تأمين حياته. فهو** يرعى الخراف لكي يرتزق، ويرتزق لكي يؤمِّن معيشته هو. فالمنطق على هذا الوضع يجعله غير مستعد أن يموت من أجل الخراف. والذي يفضح هذا الموقف هو حدوث خطر مفاجىء، الذي يمثّله ظهور الذئب. والذئب هنا لا يرصده المسيح أنه الشيطان، بل أي ضيقة أو اضطهاد يفرضه العالم. فهو في الحال يهرب، لأنه يبالي أولاً وآخراً بحياته، ولا يبالي بالخراف. وهكذا يجد الذئب الفرصة ليفتك بالخراف ويبددها. وهنا تصوير أليم لتفكُّك الجماعة، وفقدان الأفراد، عند انهزام الراعي، واكتشاف عدم كفاءته.

والرب هنا لا يهدف إلى فضح فئة معيَّنة، لأنه يشرح حقيقة لا يمكن تعديلها أو تصحيحها، فالأجير لا يمكن تحويله إلى صاحب، ولكن الرب هنا يستعلن نفسه أنه الراعي الوحيد والفريد في نوعه ــ لأنه الابن الوحيد ــ ولن يكون له مثيل، لأنه «صاحب الخراف»، بمعنى الامتلاك الكلي. وبالتطبيق لا يوجد إنسان، ولن يوجد قط، مَنْ يمكن أن يمتلك أرواح ونفوس البشر، إلاَّ خالقُها ومخلِّصُها الربُّ يسوع. فالرب هنا يضع هذه المقارنة بين الصاحب والأجير، لكي يستعلن نوعية رعايته للنفوس التي تفوق قامات الملوك والآباء والأنبياء والكهنة والخدام، في كل زمان ومكان. لذلك جاءت النبوة واضحة: «وأُقيم عليها راعياً واحداً فيرعاها ــ "عبدي داود" ــ هو يرعاها وهو يكون لها راعياً.» (حز٣٤: ٢٣)

والراعي الواحد هو الذي يكلِّف آخرين للرعاية من تحته، وهؤلاء لا يكونون بعد غُرَباء ولا أُجراء، بل مستأمنين ومختارين حسب قلب الله: «وأُقيم عليها رعاة يرعونها، فلا تخاف بعد ولا ترتعد ولا تُفقد، يقول الرب» (إر٢٣: ٤)، لأنها تحت رعاية الراعي الأعظم بالدرجة الأُولى: «وأعطيكم **رعاةً حسب قلبي**، فيرعونكم بالمعرفة والفهم» (إر٣: ١٥). هؤلاء الرعاة ليسوا أُجراء بعدُ، لأنهم يَرْعَون بالمعرفة والفهم وليس للمال والمنفعة، ولا هم غُرَباء أيضاً ولا نُزلاء، بل هم رعية مع القديسين وأهل بيت الله، فهم أبناءٌ للراعي الصالح وليسوا عبيداً، لا يعملون لحسابهم بل حُبّاً في الذي فداهم، وهم أيضاً شُرَكَاء للراعي، وشهودٌ، سواء في موته أو في مجده، مستعدين أن يَفْدوا الرعية بأرواحهم، لأن مستوى حبهم هو حسب قلب الله. هذا واضح في قول الرب لبطرس: «يا سمعان بن يونا أتحبني ... ارعَ غنمي» (يو٢١: ١٦). وهذه هي إستجابة بطرس ومنهج رعايته: «أطْلُبُ إلى الشيوخ الذين بينكم، أنا الشيخ رفيقهم، **والشاهد لآلام المسيح، وشريك المجد** العتيد أن يُعلن، ارعَوْا **رعيّة الله**، التي بينكم، نُظَّاراً لا عن اضطرار بل بالاختيار، ولا لربح قبيح بل بنشاط، **ولا كَمَنْ يسود على الأنصبة** بل صائرين أمثلة للرعية. ومتى ظهر رئيسُ الرعاة تنالون

إكليل المجد الذي لا يَبْلى.» (١بط ٥: ١—٤)

ولينتبه كل قارىء وكل راعٍ، فالرعية هي رعية الله من الألف للياء، أما الراعي هنا فيتحتم أن يكون مَثَلاً أعلى للرعية بشبه المسيح، وإلاَّ فليمتنع. والربح القبيح ممنوع، والتجبُّر والسيادة علامة فساد، والأُجرة ليست مالاً، بل إكليلاً لا يفنى، من فوق، وليس هنا بالذهب الفاني، وحساب الوكالة سيُنشر علناً عند ظهور رئيس الرعاة.

«والأجير يهرب لأنه أجير ولا يبالي بالخراف»:

هو لا يبالي كما تأتي باليونانية = οὐ *μέλει* αὐτῷ بمعنى **«لا يعتني»**، لأن الخراف ليست له. ولكن شكراً لله ولرئيس الرعاة الأعظم، لأنه، وإن كان الرعاة الأُجراء لا يعتنون بالرعية، فالله يعتني وسيظل يعتني بكل من يصرخ إليه، كما يقول بطرس الرسول الذي تعيَّن راعياً من فم الرب: «مُلْقِين كل همَّكم عليه لأنه هو يعتني بكم.» αὐτῷ *μέλει* περὶ ὑμῶν (١بط ٥: ٧)

٢ ــ الراعي الصالح يعرف خاصته وخاصته تعرفه:

١٠: ١٤و١٥ **«أما أنا فإنِّي الراعي الصالحُ، وأعرِفُ خاصَّتي، وخاصتي تعرِفُني، كما أن الآبَ يعرِفُني وأنا أعرِفُ الآبَ».**

لأول وهلة قد يظن القارىء أن الرب يضع مقارنة متساوية بين معرفته لخاصته ومعرفة خاصَّته له، بالمقارنة مع معرفة الآب له ومعرفته للآب. ولكن بحسب الفكر السائد في إنجيل يوحنا، نعرف أن الرب دائماً يجعل العلاقة بين الآب وبينه **مصدراً** يستمد منه كل عمله وفكره في العالم، وعلى وجه الخصوص بالنسبة لعلاقته بخاصَّته: «أنا حيٌّ بالآب، فمن يأكلني فهو يحيا بي» (يو٦: ٥٧)؛
كذلك: «في ذلك اليوم تعلمون أني أنا في أبي، وأنتم فيَّ وأنا فيكم» (يو١٤: ٢٠)؛
كذلك: «إن حفظتم وصاياي، تثبتون في محبتي، كما أني أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبُتُ في محبته» (يو١٥: ١٠)؛
كذلك: «ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيَّ، وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا.» (يو١٧: ٢١)

معنى هذا أن المسيح كابن الله نزل من السماء ومعه ذخيرة من العلاقة الفعَّالة التي تجمعه وتربطه بأبيه، يريد أن يجعلها هي نفسها فعَّالة في علاقته بالذين أحبوه وآمنوا به، حتى نصير نحن

أيضاً مربوطين ومجموعين فيه وفي الآب بآن واحد. فالقياس في العلاقات بينه وبين الآب ينطبق على علاقته بنا، مع حفظ الفارق الوحيد، وهو أن العلاقة بين الآب والابن، وبين الابن والآب هي علاقة صفات جوهرية وشخصية (أقنومية) مطلقة Absolute، بمعنى أنها بلا حدود ولا فواصل ولا فوارق على وجه الإطلاق؛ أما العلاقة معنا فهي مطلقة من طرف واحد فقط، أي من جهة المسيح والآب، فهو يحبنا حباً بلا حدود ولا قيود، ولكن نحن نحبه حباً له حدود وقيود. وكذلك في المعرفة، فهو يعرفنا بمعرفة مطلقة، أي أنه لا يخفى عليه شيء قط من أمورنا، أما نحن فنعرفه معرفة محدودة بحدود قدرتنا الهزيلة، ومقيَّدة بسبب ضعف إدراكنا للحق الإلهي. لذلك يقول: «أعرفُ خاصتي وخاصتي تعرفني»، فذلك يتضمن الحقيقة السابقة أن معرفته لنا مطلقة ومعرفتنا له مقيَّدة. ولكن شكراً لله، فهذه المعرفة على وجه العموم قابلة للنمو والتكامل كل حين وإلى أبد الآبدين: «انموا في النعمة وفي **معرفة** ربِّنا ومخلِّصنا يسوع المسيح.» (٢بط ٣: ١٨)

كما أن هذه المعرفة تشمل في طيَّاتها الحب والمشاعر الرقيقة للغاية، من جهته هي غنية بالعطاء، ومن جهتنا هي مفتوحة للأخذ كيفما شئنا وكيفما شاء الله. ألا يكفي أنه أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له؟؟

وهل توجد معرفة أغنى وأعمق من معرفة تعطي كل الذي لها حتى أعماق الله، وتمتص كل ما لنا من جهالات؟؟؟

وإن الصورة المبدعة التي يصوِّرها الروح للمسيح كراعٍ يحمل على منكبيه (لو١٥: ٥) حملاً صغيراً أجْهَدَه السيرُ في الطريق الوَعر، يحتضنه في احتمال وصبر واشفاق يفوق الوصف، هي صورة عاطفية نبيلة تصوِّر مقدار معرفة المسيح لكل شئون ضعفنا. ثم ألستَ أنت وأنا هو هذا الحَمَل الضعيف الذي لم يَعُدْ يَقْوَى على السير فوق الصخور؟؟

ولأن المسيح يمدُّنا بالمعرفة المستمدة من معرفته لله ومعرفة الله له على أساس الحب المطلق بينهما، استطاع بولس الرسول أن يقول بجراءة وتأكيد: «وأما الآن إذ عرفتم الله، بل بالحري عُرِفْتم من الله ...» (غل ٤: ٩)

أما كون هذه المعرفة قائمة على أساس المحبة، فهذا يؤكده بولس الرسول أيضاً: «ولكن إن كان أحدٌ يحبُّ الله فهذا معروف عنده» (١كو٨: ٣). ويزيد هذا التأكيد ق. يوحنا من قول المسيح نفسه: «وعرَّفْتُهُم اسمك **وسأُعرِّفُهُم** (أيضاً)، **ليكون فيهم الحب** الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم.» (يو١٧: ٢٦)

والآن، يا قارئي العزيز، إن كانت تنقُصُك معرفة المسيح بعد، فهذا لأنك لم تحبه كما ينبغي، ولم تَشتعِلْ بحبه كما يرتضي. فلا كتابَ ولا مدرسة ولا وعظَ ولا أيَّ شيء من أمور العلم والمعرفة، يمكن أن يُزيدَك معرفة بالمسيح و يزيدَ معرفة المسيح لك، بقدر أن تحبَّه وأن تكون محبوباً عنده.

٣ ــ الراعي الصالح يضع نفسه عن الخراف:

١٠ : ١٥ «وأنا أضَعُ نفسي عن الخِرَافِ».

هنا وضع النفس للموت، هو غايةٌ ونهايةٌ للتجسد. وهذا أيضاً بالنسبة للمحب الحقيقي ممكن جداً، ولائقٌ للغاية بالنسبة لحب المسيح الإلهي.

عاملان أساسيان كانا يعملان في «وضع» المسيح لنفسه، أي في موته من أجل خاصَّته الذين في العالم كله: الأول **الحب**، والثاني **الطاعة**. فالحبُّ كان يملأ كل كيان المسيح **«الإلهي البشري»**. كما أن الحب من نحو الآب أنْتجَ طاعة مُذْعِنة لمشيئة الآب من أجل خلاص العالم، جعل الموت الفدائي موضع سرور: «من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب.» (عب١٢ : ٢)

أما الحب من نحونا فكان مملوءاً مشاعرَ عميقة وقوية، لا يمكن لأي عقل بشري أو قلم كاتب أن يَصفَها، عبَّر عنها بولس الرسول هكذا: «ليحلَّ المسيح بالإيمان في قلوبكم، **وأنتم متأصِّلون ومتأسِّسون في المحبة**، حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعُمْق والعُلو، **وتعرفوا محبة المسيح "الفائقة المعرفة" لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله.**» (أف٣ : ١٧ــ١٩)

أنظر أيها القارىء وتمعَّن الكلام جيداً: إن **المسيح إذ حلَّ في القلب بالحب، انطلقت المعرفة بلا قيود**، لتدركَ محبةَ المسيح لنا إدراكاً يفوق كل قوى العقل الطبيعي، إلى أن يبلغَ الإنسان إلى ملء الله أو الامتلاء بالله. **فالمحبة والمعرفة** هما مفتاحا سر الملء من الإلهيات، والمحبة هي الأساس. و يكفي أن نلمِّح للقارىء أن حالة الحب الإلهي الناضج، أي المسنود بالمعرفة، يسمَّى عند المتصوفين بـ**«الشهادة»**، أي أنها حالة رؤيا واستشهاد، فالشهادة مشاهدة تُنْتج بَذْلاً، أي موتاً إرادياً عذباً. أما عند المسيح، فالحب يساوي الفداء تماماً. فالفداء الذي صنعه، استوفى الحبَّ الذي كان يملأ قلبه. وعلى القارىء أن يستجلي السر المدفون في هذه الآية: «أما يسوع قبل عيد الفصح، وهو عالم أن ساعته قد جاءت **لينتقل من هذا العالم إلى الآب، إذ كان قد**

أحبَّ "خاصته الذين في العالم" أحبَّهم إلى المنتهى...» (يو١٣: ١)

هذا التصوُّر الفريد من نوعه، أي تصوُّر الحب الذي يؤدي إلى الموت طواعيةً، سبق أن رآه زكريا النبي بكل دقائقه، إذ رأى من وراء الزمن هذه المعركة الأخيرة والمريرة بين المسيح الراعي الصالح وهو يحاجج رعاة إسرائيل الغشاشين، كهنةً وكتبةً وفرِّيسيين، إلى أن أعْيَتْ نفسه فيه، حتى تقيَّأهم، وأبادهم من خطة الخلاص التي أزمع أن يكملها لحساب الخراف المذلولة والمسحوقة. ونظر من بعيد، فرأى رؤساء الكهنة وهم يَزِنون الثلاثين من الفضة و يُسلِّمونها ليهوذا، كمندوب فوق العادة عن قتل المعلم:

«فرعيتُ غنم الذبح، لكنهم أذَلُّ الغنم... وأبَدْتُ الرعاة الثلاثة في شهر واحد(٣)، وضاقت نفسي بهم وكَرِهَتْني أيضاً نفْسُهم... فقلتُ لهم إن حَسُنَ في أعينكم فأعطوني أجرتي وإلا فامتنعوا. فوَزَنُوا أجرتي ثلاثين من الفضة. فقال لي الرب: ألقها إلى الفخَّاري ـــ **الثمن الكريم الذي ثمَّنوني به**» (زك١١: ٧و٨و١٢و١٣). وقد تم: «حينئذ ذهب واحد من الاثني عشر الذي يُدعى يهوذا الإسخريوطي إلى رؤساء الكهنة وقال ماذا تريدون أن تعطوني وأنا أسلِّمه إليكم. فجعلوا له ثلاثين من الفضة. ومن ذلك الوقت كان يطلب فرصة ليسلمه... حينئذ لما رأى يهوذا الذي أسلمه أنه قد دين ندم وردَّ الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ قائلاً قد أخطأت إذ سلمت دماً بريئاً. فقالوا ماذا علينا، أنت أبصر. فطرح الفضة في الهيكل وانصرف، ثم مضى وخنق نفسه. فأخذ رؤساء الكهنة الفضة وقالوا لا يحلُّ أن نلقيها في الخزانة **لأنها ثمن دم.** فتشاوروا واشتروا بها حقل الفخَّاري.» (مت٢٦: ١٤ـــ١٦؛ مت٢٧: ٣ـــ٧)

وهكذا مات الراعي الصالح على يد الرعاة الخونة واللصوص؛ ولكن كان موته لحياة الخراف.

٤ ـــ الراعي الصالح لا يلتزم بحظيرة معينة:

١٠: ١٦ «ولي خراف أُخَرُ ليست من هذه الحظيرة، ينبغي أن آتي بتلك أيضاً، فتسمع صوتي وتكون رعيَّةٌ واحدة وراعٍ واحد».(٤)

يلاحظ القارىء الصلة الجوهرية بين «أنا أضَعُ نفسي عن الخراف» وبين «لي خراف أُخَرُ

(٣) في حساب النبوات يُحسب أسبوع الأيام بسبع سنوات، فالثلاثين يوماً هي الثلاثين سنة التي انقضت بعد موت المسيح وقيامته إلى أن تم خراب أورشليم وحرق الهيكل وإبادة النظام الكهنوتي لليهود برعاته الثلاثة.

(٤) راجع شرحنا لهذه الآية في مفهوم الكنيسة في إنجيل يوحنا ـــ المدخل ص٢٥٨.

ليست من هذه الحظيرة ينبغي (مستقبلاً) أن آتي بتلك أيضاً». فموت المسيح هو الذي سيوسّع من دائرة الرعية: «وأنا إنْ ارتفعتُ عن الأرض أجذبُ إليَّ الجميع» (يو١٢: ٣٢). فالمسيح لا يقْصِرُ رعايته الصالحة على حظيرة إسرائيل، سواء في فلسطين أو خارجها. وهذا هو نص نبوة رئيس الكهنة، التي قالها دون أن يدري مضمونها: «ولم يَقُلْ هذا من نفسه، بل إذْ كان رئيساً للكهنة في تلك السنة، تنبأ أن يسوعَ مزمعٌ أن يموتَ عن الأمّةِ؛ وليس عن الأمة فقط بل ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد.» (يو١١: ٥١و٥٢)

ولقد مهّد ق. يوحنا لهذه الحقيقة في مطلع إنجيله: «كان النور الحقيقي، الذي ينير كل إنسان، آتياً إلى العالم» (يو١: ٩). وقد ألْمَحَ المسيح إلى ذلك في قصة قائد المائة في إنجيل متى: «وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب و يتكئون مع إبراهيم وإسحق و يعقوب في ملكوت السموات. وأما بنو الملكوت فيُطْرَحون إلى الظلمة الخارجية.» (مت٨: ١١و١٢)

و يلاحَظ أنه بالنسبة للخراف الأُخر، لا يذكر الرب كلمة «حظيرة» أو «حظائر»، فهي خراف متفرقة في جميع أنحاء ممالك الأرض، لا توحّدهم عبادة سابقة، ولا يجمعهم ناموس ولا أرض.

«ينبغي أن آتي بتلك أيضاً»:

هنا يبدأ العمل بالنسبة للخراف الأُخر بأن «يأتي» بها وليس «يجمعها»، فالرب يأتي بها إلى الآب أولاً بعمل دمه المسفوك عنها، **وحينما يجمعها ويوحّدها بالروح مع الآب، يجمعها و يوحّدها معاً.** فالوحدة المسيحية أو الوحدة الإيمانية أو الكنسية، يستحيل أن تتم في دائرة المجهود الإنساني، بل يتحتم و بالضرورة أن يتحد **كل واحد وكل جماعة أو كنيسة بالله أولاً، بعمل الروح، وبعد ذلك يمكن وينبغي أن يتحد الكل معاً، حتى تصبح رعية واحدة لراعٍ واحد. والراعي الواحد يبقى دائماً وإلى الأبد هو الرب يسوع دون سواه، لأنه هو المُصَالِحُ وليس آخر،** وهو الوحيد الذي **يجمع** لأنه يجمع في شخصه، وليس في المبادىء أو القوانين، ثم هو الوحيد الذي **يوحّد** بعمل روحه القدوس الذي يرفع الفوارق من كل نوع، سواء كانت فوارق لون أو جنس أو فكر أو ثقافة أو تقليد. و يكون معيار الواحد هو معيار الكل: «أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ.» (غل٢: ٢٠)

«فتسمع صوتي وتكون رعية واحدة وراعٍ واحد»:

السمع هنا لا يزال يتعلق بالمثل، أي الخراف وصوت الراعي. فهي لا تتبع إلاَّ إذا ميّزت

صوت الراعي وتعرَّفت عليه. أما بالنسبة للرب وأخصّائه، فسماع صوته خبرة روحية ذات قيمة ومدلولات غنية يصعب على الفكر والقلم أن يجمعها في سطور.

فالإنسان خُلِقَ وله حاسة تمييز صوت الله، وهذا نسميه «**السماع**»، فالله كان يتكلم مع آدم وحواء، وكانا يسمعان صوت الله. وقبل الخطية كان السمع يلازمه الطاعة، ولما أخطآ لم يفقدا تمييز صوت الله: «فنادى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت. فقال: **سمعتُ صوتك** في الجنة **فخَشِيتُ لأني عريان**، فاختبأت» (تك٣: ٩و١٠). وهكذا تحوّل السمع من «**سمع وطاعة**» إلى «سمع وخوف»، وهكذا ظل الإنسان الخاطىء يلازمه الخوف عند سماع صوت الله، إلى أن تعلَّم كيف يتوب ويعود إلى الله. فصار صوت الله للتائب للبهجة والخلاص عِوَضَ الخشية والخوف. وتُعتبر خبرة التائب إلى الله من جهة سماع صوت الله وتمييزه، الركيزة الأُولى والعظمى في كل خبرات الإنسان على مدى حياته كلها، والتي على أساسها يبدأ يتعلم الفهم والحكمة، ويتدرب على قبول صوت المشورة الإلهية، و ينمو في تمييز صوت الله من درجة إلى درجة. فدرجة سماع صوت الله تتغير في شدتها ورِقَّتها ولُطفها وحنانها وحُبّها وقُربها من مستوى العبد الخاضع، إلى الابن، إلى الخادم الأمين، إلى النبي، إلى الملك، إلى الكاهن، إلى العروس، وكل درجة لها مسئوليتها. وهي تتعدد بتعدُّد الأشخاص، ولكن قد يحوزها إنسان واحد على مدى خبرات حياته.

ولكن أعجب درجات صوت الله، عموماً، هي درجة صوت المسيح التي تخترق كل الحواجز والمستحيلات. فالميت يسمعها ويستجيب لها ويقوم، سواء من موت الجسد كأليعازر، أو موت الخطية مثلي ومثلك، أو في اليوم الأخير حيث يكون صوت المسيح هو للقيامة العتيدة التي يتحرك لها كل مخلوق، الأموات والأحياء جميعاً بلا استثناء لقيامة الدينونة. ويعوزني الوقت والأذن التي تسمع لنتكلم عن صوت المسيح مع النفس التي دخلت معه بالتوبة في عهد حب أبدي، كيف يملأها فرحاً ونعيماً وسروراً، يفيض عليها من دسم السماء ويشرق عليها بالمراحم كل صباح، يزيِّنها بكل زينة الروح و يقودها في مراعٍ خضر، كما في المزمور (مز٢٣).

لقد جمع المسيح له رعية من كل لسان وشعب وأمة ــ لأنه ذُبح واشتراها جميعاً ــ ألوف ألوف وربوات ربوات مغتسلين بالدم، يقدمون له الخدمة و يَسْتقون من نبع الحكمة. صوتهم بالفرح لا ينقطع عن التسبيح، يدوم على وجه كل الأرض بدوام مجرى الشمس!... وهكذا صارت بالحق رعية واحدة لراعٍ واحد، تسمع صوته، وتُسمعه صوتها، شهادة أبدية لصالح راعيها... أما إسرائيل فثقلت أذنه عن السمع، وتم فيهم القول: «إنه حسناً كلَّم الروح القدس آباءنا بإشعياء النبي قائلاً: اذهب إلى هذا الشعب وقُلْ **ستسمعون سمعاً ولا تفهمون**، وستنظرون نظراً ولا تبصرون. لأن قلب

هذا الشعب قد غَلُظ، وبآذانهم سمعوا ثقيلاً، وأعينهم أغمضوها، لئلا يبصروا بأعينهم ويسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم، ويرجعوا فأشفيهم. فليكن معلوماً عندكم أن **خلاص الله قد أُرسِل إلى الأمم وهم سيسمعون.**» (أع٢٨: ٢٥ــ٢٨)

«رعية واحدة وراعٍ واحد»:

قول الرب هنا مطابق حرفياً لنبوة حزقيال النبي: «وأقيم عليها **راعياً واحداً** فيرعاها، **عبدي داود هو يرعاها**، وهو يكون لها راعياً» (حز٣٤: ٢٣). وهكذا، فإن ما كان منذ الأزل وما صوَّره حزقيال بالرؤيا من وراء الزمن، تحقق في عمق التاريخ في شخص يسوع المسيح، الراعي الواحد.

ويلاحَظ أن الرب لم يذكر أنها تصير حظيرة واحدة، وكأنها أمة أو شعب محدد بحدود وقيود، وهذا يُحتسب في المفهوم الكنسي غاية في الأهمية. فلا عودة إلى حظيرة إسرائيل، ولا شَرِكة في نظام تلك الحظيرة كأنه انضمام أو تهوُّد، ولكن هو اكتساب للأصل فقط، **وليس الفروع**، بمعنى اكتساب لكل مواعيد الله للآباء والأنبياء التي تحققت في شخص المسيح. فمن خلال المسيح وحده نستقي من نبع العهد القديم، **فهو الأصل** الذي تَصوَّر عليه العهد القديم كله بكل أمجاده: «أنا يسوع أرسلتُ ملاكي لأشهد لكم بهذه الأمور عن **الكنائس، أنا أصلُ وذُرِّية داود، كوكب الصبح المنير.**» (رؤ٢٢: ١٦)

وعلى هذا الأصل بُنيَت **الكنائس**، ولم يقل هنا «كنيسة» بل «كنائس»، كنائس شعوب وكنائس دهور وأحقاب ــ ولا سيادة لكنيسة على كنيسة!! عن هذا الأُصل الواحد الغني بالله والدسم بالنعمة يقول بولس الرسول: «وإن كانت الباكورة مقدسة فكذلك العجين. وإن كان **الأصل مقدساً** (المسيح) **فكذلك الأغصان. فإن كان قد قُطِع بعض الأغصان** وأنت زيتونة برية **طُعِّمتَ فيها فصرت شريكاً في أصل الزيتونة ودسمها**... من أجل عدم الإيمان قُطِعتْ وأنت بالإيمان ثبتَّ. لا تستكبر بل خَفْ.» (رو١١: ١٦ــ٢٠)

فالمسيح هو الأصل **«أصل داود»**، أي أصل الوظيفة التي تعيَّن عليها داود كملكٍ ورئيس وراعٍ ونبيٍّ للشعب. وكلمة «أصل» تجيء باليونانية «جذر» ῥίζα، فإن كان جذر داود هو المسيح، فالمعنى أن داود كان يستمد من المسيح كل كيانه.

كذلك فالمسيح هو أصل ذرية داود، حيث **«ذرية»** تجيء باليونانية τὸ γένος وتفيد معنى الجنس أو غصن ينبت من الأصل shoot. فالمسيح هو الأصل الذي قام عليه داود هو وذريته، أي

امتداده. هذا هو "الشدّاي" (القدير)، "الأدوناي" (الرب)، "يهوه" (الله)، رب إبراهيم، وراعي إسرائيل وداود، المسيَّا، ملك الدهور إلى الأبد.

وهنا لو نظرنا إلى المسيح كراعٍ واحد أي وحيد، فباعتباره أصل داود فهو وحده الذي يملك مراعي العهد القديم؛ و باعتباره هو ذُريَّة داود، فعليه تقوم الرعاية إلى الأبد. والآن إذ طُعِّمتْ الكنائس على هذا الأصل، صارت تمتلك في **المسيح وحده** كل مراعي العهد القديم وامتدادها فيه إلى الأبد.

على هذا الأساس قامت العلاقات بين الأمم واليهود، لا على أساس ناموس وتعاليم ووصايا بحدّ ذاتها، بل على أساس المسيح نفسه ــ كفكر وخلاص وفداء وحياة ــ فكل ناموس في القديم يعترف بالمسيح ربًّا وإلهاً فهو عهد جديد، وكل تعاليم أو وصايا في العهد القديم تشهد للمسيح أنه رب وإله، فهي تعاليم ووصايا العهد الجديد.

و باختصار، نلقي شعاعاً من نور يوضِّح هذا القانون الإلهي: فإن إسرائيل في القديم كانت حياتها، وكان كيانها كله و بقاؤها متعلقاً بعلاقتها بالله ــ يهوه ــ، والآن قد استُعلن يهوه في المسيح. فكلُّ مَنْ لم يؤمنْ و يعترف بالمسيح من شعب إسرائيل، يكون قد فقد علاقته بالتالي مع الله يهوه. وكلُّ مَنْ آمن بالمسيح من الأمم بأنه هو «يهوه» المسيَّا الله الآتي بالجسد والمُستعلن للعالم ــ «الله ظهر في الجسد» (١تي٣: ١٦)، يكون قد اكتسب بالتالي كل ميراث العهد القديم في شخص يسوع المسيح.

فالمسيحية ليست امتداداً لليهودية، ولكن المسيحية هي استعلان الله في شخص يسوع المسيح، لتكميل مقاصد الله وخطته الأزلية من أجل خلاص العالم الذي كانت إسرائيل مرحلة بدائية من مراحله الأُولى، والتي انتهت برفضها المسيح.

«رعية واحدة»:

كان هناك نزاع قديم بدأ منذ القرون الوسطى في الكنيسة الغربية ــ وقد تعدل فيما بعد ــ من جهة تغيير قراءة «رعية» ποιμήν إلى حظيرة αὐλή، بقصد جعل بابا روما هو **«الراعي الواحد»**، وكنيسة روما هي **«الحظيرة»** الواحدة للراعي الواحد، وللأسف فهذا بعينه هو الرجوع إلى الفكر اليهودي العنصري، حيث إسرائيل هي الحظيرة الأوحد ولا حظائر غيرها قط، فالأمم كلاب لا غنم!!

ولكنها جاءت في النسخة اليونانية وفي النسخ السريانية والمصرية هكذا: «رعية واحدة وراع واحد» = μία ποίμην εἰς ποιμήν .

ولكن الفولجاتا اللاتينية حصل فيها تعديل لتناسب الفكر البابوي الروماني(٥)، وذلك في بداية سنة ١٥٨٢م، وجعلوها قراءة مقدسة؟ غير قابلة للتغيير: «**حظيرة** واحدة لراع واحد» **unum ovile unus pastor** . وللأسف أخذت عنها بعض الطبعات الأخرى. وكانت هذه القراءة المغلوطة سبباً في التأثير على فكر الكنيسة الرومانية إلى يومنا هذا.

والسؤال الذي بلا جواب هو: إن كانت الخراف الأُخَر التي سيجمعها المسيح من كل الشعوب والأمم لم تنشأ من أصل الحظيرة اليهودية في قليل أو كثير: «خراف أُخر **ليست من هذه الحظيرة**»، ولم يرتِّب لها الرب أن تنضم إلى الحظيرة اليهودية لتأخذ مبدأها من هناك، فقد قال: «**ينبغي أن آتي بها**»، ولم يقل أنه يجمعها إلى الحظيرة، بل جعلها رعية لا يجمعها إلاَّ شخصه المبارك في حظيرته السمائية، فكيف يمكن أو كيف يتصوَّر أحد أنْ يقوم في الرعية (من الخراف الأُخر) مَنْ يدَّعي هذا الحق، حتى أن تتبعه الخراف الأخرى أو تأخذ مبدأها ومنشأها منه؟ ثم فوق هذا وذاك هل «**الراعي الواحد**» الذي جمع الخراف استقال وسلَّم وظيفته لآخر؟ أم أنه يقيم رعاة كيفما يشاء ولا يميِّزهم عنده إلاَّ حساب الوكالة؟ ثم كلمة راعٍ «**واحد**»، هل كلمة «**الواحد**» هنا عددية أم أنها قرينة الابن «**الوحيد**» بل ونابعة من الله «**الواحد**»؟! فالراعي **الواحد** هنا ليس إنساناً هو كأحد الخراف، بل هو بكل المعايير إله! «وأنتم يا غنمي غنم مرعاي أُناسٌ أنتم، **أنا إلهكم** يقول السيد الرب.» (حز٣٤: ٣١)

وكأنه بالمَثَل الذي قاله المسيح، يريد الوحي الإلهي أن يصوِّر لنا المسيح بصورة شاملة وعجيبة، فهو الباب، وهو البواب، وهو الحظيرة الجديدة ــ إسرائيل الجديد ــ التي بلا حدود، وهو الراعي، والخراف هي من لحمه ومن عظامه!!! فالوحدة الشخصية معه القائمة على الخلاص الفردي وهبها المسيح لكل مَنْ يؤمن به و يأكله. وهذه الصورة الفردية الوحدوية لعلاقة الراعي الصالح بالرعية، أنهت على عهد احتكار الرعاة للغنم إلى الأبد.

[5] Westcott, *op. cit.*, pp. 155,162.

ثانياً: استعلان بنوة المسيح ومساواته للآب

(١٠: ١٧ـ٣٩)

○ «أنا والآب واحد.» (١٠: ٣٠)
○ «لأني قلت إني ابن الله.» (١٠: ٣٦)

١٠: ١٧و١٨ **«لهذا يحبني الآبُ لأني أضعُ نفسي لآخُذَها أيضاً. ليس أحدٌ يأخُذُها مني بل أضعُها أنا من ذاتي. لي سلطانٌ أن أضعَها ولي سلطانٌ أن آخُذَها أيضاً. هذه الوصيةُ قبلتُها من أبي».** (٦)

هنا يلتفت المسيح نحو الآب ليقدّم له ذبيحته، التي هي في الواقع ذبيحة حب، لتجد عند الآب ما يساويها. وإن كان هو يقدمها بحرية إرادته، إلا أنها أيضاً مُقدَّمة في الطاعة المطلقة للآب، لأنها في الأصل هي استجابة لوصية الآب.

ولكن لكي يُبرز المسيح العنصر الإلهي في تقديم نفسه ذبيحة حسب الطاعة لوصية الآب، عاد وأوضح أنه لا يقدّم نفسه جزافاً، كمَنْ يضيعها أو يفقدها برجاء التعويض، ولكنه قدّمها قصداً ليَعْبُر بها الموت بكل أهواله وآلامه، وهو عالم أنه سيقيمها من الموت بسلطانه وبتأكيد الآب. فالذبيحة ليست ذبيحة للموت وحسب، بل هي ذبيحة «موت وقيامة» بحسب مضمون وصية الآب، أو بحسب اتفاق الآب والابن معاً، كخطّة أزلية. لأن الابن وُضع عليه أن يخوض الموت بالجسد من أجل افتتاح طريق القيامة من الأموات ليقيم من الموت كل ذي جسد.

هنا لا ينبغي أن يغيب عن بالنا صورة المثل الذي وضعه المسيح من جهة الراعي والخراف والمرعى. فهنا يبلغ المسيح بنفسه حدّ التفوق المطلق على مفهوم الراعي والرعية والمرعى. فالراعي في مفهوم المسيح هو القادر بإرادته وسلطانه وحده أن يموت من أجل الخراف، ويقوم من الأموات، ليقيم الرعية من الموت ويعطيها المرعى الذي بتذوُّقه لا تذوق الموت أبداً... هذا هو راعي الخلاص الأبدي.

(٦) يُقرأ هذا الفصل في الساعة الأولى من ليلة الخميس من البصخة المقدسة لِمَا جاء فيه من تصميم المسيح على بذل ذاته بمنتهى حريته طاعة للآب.

بهذا ينتقل المسيح ــ من داخل المثل الذي قاله ــ من صورة الراعي إلى حقيقته الأزلية أنه المخلِّص القادر أن يذهب وراء خروفه الضال حتى إلى أعماق الموت والهاوية، ليقيمه حيًّا، وليحيا أمامه إلى الأبد. ولتأكيد معنى اهتمام هذا الراعي العجيب بكل خروف على حدة يقول بولس الرسول: «ولكن الذي وُضع قليلاً عن الملائكة ــ يسوع ــ نراه مُكلَّلاً بالمجد والكرامة، من أجل ألم الموت **لكي يذوق** ــ بنعمة الله ــ **الموت لأجل "كل واحد".**» (عب ٢: ٩)

إن الموت الذي كان يمثِّله الذئب، والذي كان يُرعب قلب الراعي والخراف معاً، لا يوجد له مكان في قلب المسيح. لقد افترس المسيح الموت والذئب معاً، وأعطى خرافه صكَّ الخلاص من موت، ووهبهم حقّ الحياة الأبدية: «فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم، اشترك هو أيضاً كذلك فيهما، لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس، و يعتق أولئك الذين خوفاً من الموت كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية.» (عب ٢: ١٤و١٥)

١٠:١٨ **«ليس أحد يأخذها مني، بل أضعُها أنا من ذاتي، لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضاً، هذه الوصية قَبِلْتُها من أبي».**

عجيب حقاً أن يضع المسيح هذه المعادلة الصعبة في صورتها البسيطة المتناهية في البساطة. فهو يستعلن لنا سلطانه المطلق على الموت والحياة معاً، ثم يضع هذا السلطان في توافق مطلق أيضاً مع الآب. هنا جوهر اللاهوت حيٌّ ومتلألىء أمام عيوننا وقلوبنا. فالابن متساوٍ مع الآب في المفاعيل الذاتية للجوهر الإلهي، أي السلطان والقوة والمجد، لأن الآب والابن واحد في هذا الجوهر الإلهي المطلق، فكل ما للآب هو للابن، وما هو للابن هو للآب، **ليس على وجه التساوي بالمفهوم الحسابي الذي يفهم الثنائية في الجوهر، بل على وجه الوحدة المطلقة التي تلغي الثنائية في جوهر الله.**

على ضوء هذه الحقيقة اللاهوتية، يقول المسيح و يعلن عن سلطانه الفائق بالتالي على كل بشر وكل سلطان بني البشر: «ليس **أحدٌ** يأخذها مني، بل أضعها **أنا** من ذاتي...». المسيح هنا يتحدى كل قُوَى الظلام وكل قوى البشر المتعاهدة مع الظلام، المسيح يضع «أنا» ἐγώ إزاء أي أحد οὐδείς .

المسيح هنا يجعل موته «أضع حياتي» فعلاً إلهياً، يفوق أي تطاول شيطاني أو بشري. وقد عزَّز المسيح تأكيده هذا في مواقف عدة: «فخرج يسوع **وهو عالم بكل ما يأتي عليه**، وقال لهم:

مَنْ تطلبون، أجابوه: يسوع الناصري. قال لهم يسوع: **أنا هو**» (يو١٨: ٤و٥). وحينما جازف بيلاطس ليعلن سلطانه أمام المسيح بموته أو بإطلاقه، أنكر عليه المسيح هذا السلطان واستعلن هو سلطانه السامي الذي له أن يلغي أي سلطان آخر: «أما تكلمني؟ ألستَ تعلم أن لي سلطاناً أن أصلبك وسلطاناً أن أطلقك؟ أجاب يسوع: **لم يكن لك عليَّ سلطان البتة** لو لم تكن قد أُعْطِيْتَ من فوق» (يو١٩: ١٠و١١). وبهذا القول استعلن المسيح حريته المطلقة في اختيار الموت حسب مشورة الآب الأزلية. لذلك لم يكن صعباً عليه ولا ثقيلاً أن يحمل صليب العار والموت على كتفه: «فخرج وهو حامل صليبه إلى الموضع...» (يو١٩: ١٧). وفي اللحظة الحاسمة لاقتراب الموت، استقبله المسيح كمَنْ ينتظره وعلى رأسه إكليل الحياة والمجد: «فلما أخذ يسوع الخلَّ قال قد أُكمل، ونكَّس رأسه، وأسْلَمَ الروح» (يو١٩: ٣٠). قالها وهو فاتح ذراعيه يُسْلِمُ الروح في يد الآب إلى حين...

«لي "سلطان" أن أضعها ولي "سلطان" أن آخذها أيضاً. هذه الوصية قَبِلْتُها من أبي»:

لم يكن كافياً لعقول السامعين أن يعلن المسيح عن سلطانه في «أن أضعها من ذاتي»، لذلك أردف هذا السلطان ــ أي سلطان الموت الإرادي الذي يمكن أن يكون على مستوى البشر ــ بسلطان آخر ليس في طاقة البشر قط، وهو سلطان الإقامة من الموت! هنا يعزِّز المسيح موته كفعل إرادة إلهي غير منظور بفعل إرادة إلهي منظور ومحسوس، وهو القيامة، ليستعلن موته أنه فعل فداء وخلاص، وليبرِّىء موته من مفهوم الاضطرار أو الانهزام لقوى الظلام.

فقول الرب: «لي سلطان أن آخذها أيضاً» ــ الأمر الذي حقَّقه بالفعل ــ يستعلن فيه سلطانه على الموت، بمعنى أنه يأخذ الموت لنفسه عندما يشاء و يلقيه عنه كما يشاء. وهذا بعينه هو **«سلطان عدم الموت»** القائم والدائم في طبيعة الابن وجوهره الإلهي.

وإذا تعمقنا قليلاً في هذه الطبيعة الفائقة التي فيها يتساوى سلطان حرية الموت، مع سلطان حرية القيامة من الموت، لأدركنا أن **فعل الموت والقيامة هما حاضران معاً، كحدث واحد، في تدبير المسيح بدون اهتزاز ولا افتراق.** هذا السلطان على الموت والقيامة من الموت قَبِلَهُ المسيح من الآب، كوصية للتنفيذ لينفذه في ذاته لتكميل تدبير خطة الآب لخلاص العالم. ومن هذا **«السلطان»** عينه على الموت والإقامة من الموت ــ الذي نفَّذه المسيح الكلمة المتجسد في ذاته، حسب وصية الآب من أجل الإنسان، صار بالتالي للمسيح نفس **«هذا السلطان»** على إعطاء عبور الموت والقيامة ــ أي الميلاد الجديد السماوي ــ لكل مَنْ يؤمن به، «وأما كل الذين **قبلوه**، فأعطاهم **"سلطاناً"** أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه، الذين وُلدوا... من الله» (يو١:

١٢و١٣). **أي أنه نفَّذ هذا «السلطان» في نفسه ليعطيه للآخرين، إنما من خلال إخضاعه الموت والقيامة لنفسه أولاً!!**

«فسلطان» المسيح على إعطاء الحياة الأبدية للإنسان يستمده **من طبيعته، ومن وصية الآب،** ومن فعل ذبيحته التي جاز بها الموت وظفر بالحياة بالقيامة من الموت: «تكلم يسوع بهذا ورفع عينيه نحو السماء وقال: أيها الآب قد أتت الساعة، مجِّد ابنك ليمجِّدك ابنك أيضاً، **إذ أعطيتَهُ "سلطاناً" على كل جسد ليعطي حياة أبدية لكل مَنْ أعطيته.**» (يو١٧: ١و٢)

أما بعد قيامته من الأموات، بعد أن داس الموت وأبطل سلطانه وأخضع كل سلاطين الظلمة تحت قدميه، أعلن لتلاميذه عن سلطانه المطلق هكذا: «فتقدم يسوع وكلمهم قائلاً: **دُفع إليَّ كل "سلطان"** في السماء وعلى الأرض.» (مت٢٨: ١٨)

ولكن لم يكن المسيح أبداً بدون هذا السلطان حتى قبل موته وقيامته، لأن هذا السلطان في طبيعته ــ فقد أعلن بالقول والفعل عن **سلطانه** على مغفرة الخطايا (مت٩: ٦) **وسلطانه** على الدينونة (يو٥: ٢٧) **وسلطانه** على إعطاء الحياة (يو١٧: ٢) **وسلطانه** على القيامة من الموت (يو١٠: ١٨). لذلك، فإعلانه عن سلطانه المطلق في السماء وعلى الأرض لتلاميذه بعد القيامة (مت٢٨: ١٨)، لم يكن إلَّا استعلاناً وتحقيقاً فعلياً لما كان ولما هو موجود ولكل ما سمعوه ورأوه من أقواله وأعماله، ولإعطائهم هذا **«السلطان باسمه»** على مغفرة الخطايا وإجراء المعمودية لقبول الميلاد الجديد.

وهنا يلزمنا أن نصالح بين الزمني والأبدي في أفعال المسيح من جهة موته وقيامته. **فكلُّ** ما صار إليه المسيح تحت الزمن والناموس، كان قائماً في العلم والمشيئة والإرادة الإلهية قبل إنشاء العالم. فكلُّ النبوات أعلنت ما سيكون قبل أن يكون، خاصة عن موته الخلاصي وقيامته المُحْيية. اسمع ما يقوله بولس الرسول حينما رفع عينيه فرأى ما هو قائم في نص الخطة الأزلية من جهة أسمائنا المكتوبة بين المخلَّصين قبل تأسيس العالم؟! «مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح، **كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة.**» (أف١: ٣و٤)

أما ق. يوحنا فقد اطَّلع على السفر المكتوب فيه أسماء الخراف الناطقة المعيَّنين للحياة الأبدية: «فسيسجد له (للوحش) جميع الساكنين على الأرض، الذين ليست **أسماؤهم مكتوبة منذ تأسيس العالم في سفر حياة الخروف الذي ذُبح.**» (رؤ١٣: ٨)

كذلك، حينما خاطب المسيح الآب، فإنما كان يخاطبه كابن ليُسْمِعنا نحن عن سرّ علاقته الأزلية بالآب، التي لم تتغير ولم تنقص ولم تزِدْ إلّا بما استلزمته مظاهر التجسد التي قَبِلَها الابن لحسابنا. فالمجد والحب وكل شيء بين الآب والابن انحجبت قليلاً بالتجسد، لتعود كما كانت بالقيامة من الأموات: «والآن مجّدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كَوْن العالم» (يو١٧: ٥)، «كلُّ ما هو لي فهو لك، وما هو لك فهو لي...» (يو١٧: ١٠)، «... لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم» (يو١٧: ٢٤). والمسيح ألمح إلى ذلك في لفتةٍ سريعة، إنما ذات عمق لانهائي بقوله: «فإن رأيتم ابن الإنسان صاعداً **إلى حيثُ كان أولاً...**» (يو٦: ٦٢). هنا يكشف المسيح عن سر كينونته الدائمة والأزلية مع الآب منذ البدء، عابراً على فعل تجسده وموته وقيامته على أنها إرسالية زمنية عابرة لغُرْبَة على الأرض، أكمل واجباتها حسب الوصية دون أن تحتجز أو تنتقص شيئاً من كيانه.

وسفر الرؤيا يعلن ذلك في اختصار شديد ورتابة مبدعة: «نعمة لكم وسلام من **الكائن** والذي **كان** والذي **يأتي...**» (رؤ١: ٤)، «**أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية، يقول الرب الكائن** والذي **كان** والذي **يأتي** القادر على كل شيء.» (رؤ١: ٨)

وهكذا يتبين لنا من كل هذه الأقوال والنبوات، أن أعمال الله تقطع فراسخ الزمن في ومضة البرق وتطوي الأماكن والأجيال والخلائق وكل ما كان وما سيكون، في كلمة: «أنا هو الألف والياء البداية والنهاية». والمسيح جاء ليكمّل بالفعل الزمني ما كان كائناً وكاملاً في الحق الأبدي. أو باختصار أشد: إن كل أعمال الكلمة الابن المتجسد كانت جاهزة وحاضرة، بل ومكمَّلة أيضاً، لحظة مجيئه وظهوره، وذلك واضح في قوله: «**لي سلطان...**». وإن هذا السلطان هو «وصية **قَبِلْتُها من أبي**» وهي قائمة بالنبوة في انتظاره، «**لذلك عند دخوله إلى العالم** يقول: ذبيحة وقرباناً لم تُرِدْ ولكن هيّأت لي جسداً... ثم قلت **هأنذا أجيء**، في درج الكتاب **مكتوب عني، لأفعل مشيئتك يا الله.**» (عب١٠: ٥و٧)

١٠: ١٩ــ٢١ **«فحدث أيضاً انشقاقٌ بين اليهودِ بسببِ هذا الكلامِ. فقال كثيرونَ منهم: به شيطانٌ وهو يَهذِي، لماذا تستمِعُون له؟ آخرون قالوا: ليس هذا كلامَ مَنْ به شيطانٌ. ألعلّ شيطاناً يقدِرُ أن يفتحَ أعينَ العُميانِ».**

وكما هي العادة، فبعد كل تعليم يقدمه المسيح، ينقسم السامعون إلى مُناقِضٍ فاقد الاتزان في النقد، وإلى مُدافِعٍ خائف متراجع عن إعلان إيمانه. كما أن الانقسام ــ كما رأينا سابقاً ــ إما

يكون بين الجموع، وهو تعبير عن عامة الشعب غير المتعلم: «فحدث انشقاقٌ في الجمع لسببه. وكان قوم منهم يريدون أن يمسكوه، ولكن لم يُلقِ أحدٌ عليه الأيادي» (يو٧: ٤٣و٤٤)؛ وإما يكون بين الفريسيين، وهي طبقة المتعلمين وحَفَظَةِ الناموس: «فقال قوم من الفريسيين: هذا الإنسان ليس من الله لأنه لا يحفظ السبت، آخرون قالوا: كيف يقدر إنسان خاطىء أن يعمل مثل هذه الآيات؟ وكان بينهم انشقاق» (يو٩: ١٦)؛ وإما أن يكونَ بين اليهود، وهو تعبير عام يشمل المتعلّمين وغالباً من سكان أورشليم، كما جاء في الآية التي نحن بصددها.

وهذا الحكم المتهوّر على تعاليم المسيح: «به شيطان وهو يهذي»، يوضح تغرُّب الأذن والقلب عند هؤلاء السامعين عن مستوى إدراك صوت الله وفهم مقاصده الإلهية. ونحن لا نستكثر عليهم هذه الجهالة والحماقة، فالتعاليم التي أسسوا عليها فكرهم وإيمانهم بلغت حدًّا من التفاهة، وذلك بالخوض في صغائر التخريجات الخرافية للوصايا والإنشغال بالأمور السياسية والدنيوية، حتى انطمست معالم الحكمة من قلوبهم فعميت بصائرهم عن رؤية الحق المُسْتعلَن لهم في المسيح قولاً وعملاً.

ولا تزال هذه الخطورة محدقة بالإيمان المسيحي حتى اليوم عندما يترك الرعاة جوهر الإيمان، والتمسك بمبادىء الفداء والخلاص، والدعوة إلى التوبة وتسليم الحياة في سيرة القداسة والطهارة، و ينشغلون بالأمور الأخرى.

١٠: ٢٢ــ٢٤ «وكان عيدُ التجديدِ في أورشليمَ وكان شتاءٌ. وكان يسوعُ يتمشى في الهيكلِ في رواقِ سليمانَ. فاحتاط به اليهودُ وقالوا له إلى متى تعلّقُ أنفسَنا؟ إن كُنْتَ أنتَ المسيحَ فَقُلْ لنا جَهْراً».

من جهة ما هو عيد التجديد، نرجو الرجوع للشرح في أول الأصحاح التاسع. أما من جهة المناسبة، فقد كان من أسلوب ق. يوحنا أن يذكر مناسبة الحديث، إما في بدء الكلام أو في نهايته. فحديث الراعي الصالح كان هو حديث عيد التجديد في أورشليم. كما يذكر ق. يوحنا أيضاً أن المسيح كان يتمشى في رواق سليمان لأن الوقت كان شتاء ــ وموسم أمطار ثقيلة ــ فكان الهيكل ورواق سليمان ملجأً للمعلم من البرد والمطر. ولو حسبنا التاريخ لوجدنا أن عيد التجديد الواقع في هذه السنة كان في ٢٥ من شهر كسلو اليهودي لسنة ٢٩م و يقابل الآن ١٩ ديسمبر.

أما المناسبة الأساسية التي تربط سؤال اليهود للمسيح بهذا العيد، فهو الرجاء الملتهب الذي

تثيره ذكريات هذا العيد في قلوب اليهود من جهة الخلاص السياسي من المستعمر والعبودية للسلطة الرومانية، كما عمل الله على يديْ يهوذا المكابي وهَزَمَ السوريين وطردهم من البلاد. والآن، قد ظنُّوا أن على يديْ المسيح أيضاً يتم الخلاص من عبودية الرومان، فكان هذا الإلحاح على المسيح لكي يكشف لهم عن شخصه، لأن أحاديث المسيح كلها كانت تمس الخلاص ولكن بنوع لم يفهموه، فتعلقت نفوسهم بين القبول والرفض. فأجابهم المسيح وكشف لهم، لا عن شخصه بل عن شخصهم، وكيف أنهم أخطأوا الرؤية والفهم، فهو هو المسيَّا ولكن ليس لهم، وهم اليهود ولكن ليسوا يهود الموعد.

«فاحتاط به اليهود وقالوا له: إلى متى تعلِّق أنفسنا؟»:

هذا الوصف لا يمتُّ إلى شدة التعلق أو عن رغبة مُلحَّة للسماع، ولكن هي محاولة للضغط والإرهاب، فسؤال اليهود كان على مستوى التحقيق والإلزام النهائي بكشف السرِّ عن شخصيته؛ لأن المعروف عن المسيح أنه كان دائماً أبداً يتكلم بالأمثال مع الذين ليسوا من خاصَّته، مما أرهق فكرهم الضيق، فوجدوها الآن فرصة سانحة في هذا العيد أن يُلزِمُوه بالإفصاح العلني عن شخصه. فهذا هو عيد الأنوار، وهو يقول: إنه هو «نور العالم» (٩ : ٥). وهذا عيد الحرية، وهو يقول: «إن حرَّركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً» (٨ : ٣٦). وهذا هو عيد تطهير الهيكل، وهو سبق أن تولَّى تطهيره بنفسه (٢ : ١٣ــ١٧). فلماذا إذن لا يحمل راية القائد المحرِّر؟

والآن على القارىء أن يتصور مدى تعلُّق أنفسهم فعلاً بكل كلام المسيح، ولكن لشدة الأسف كان ذلك على المستوى السياسي والوطني. كانوا على أتم استعداد لإعلان الثورة وحَمْله على الأعناق، وتقديم أجسادهم للذبح والحريق بلا أي تردد، ولكن وللأسف لم يكونوا مستعدين للتوبة عن خطاياهم أو إعلان تجديد حياتهم! أليس هذا حال الكثيرين من المتحمسين للكنيسة والدين حتى إلى سفك الدم، وهم غرباء عن الإنجيل، وغير مستعدين لقبول كلمة التوبة أو الخلاص؟

١٠ : ٢٥و٢٦ **«أجابهم يسوع: إني قلتُ لكم ولستم تؤمِنُونَ. الأعمالُ التي أنا أعمَلُها باسم أبي هي تشهَدُ لي. ولكنَّكُم لستم تؤمِنُونَ لأنكم لستم من خِرافي كما قلتُ لكم».**

«إني قلت لكم ولستم تؤمنون. الأعمال التي أعملها باسم أبي هي تشهد لي»:

لم يكن كلام المسيح لهم إلاَّ اختباراً لإيمانهم. المسيح يتكلم بكلام هو بحدِّ ذاته نور وحق

وحياة؛ إذن فهو دينونة مريعة للذين يرفضونَ بلا عذر، ولكن إنْ قالوا إنَّ الكلام صعبٌ عليهم، فهوذا الأعمال تشهد لصدق القول وتحكم بصدق الدينونة. إذن، الكلام والأعمال هي بحدّ ذاتها تتكلم أن المسيح هو من عند الآب، وباسمه كل ما يقول و يعمل. إذن، فلا داعي أن «يقول جهراً» إنه المسيح، هذا متروك لهم هم أن يقولوه و يشهدوا له ويؤمنوا به: أليسوا هم معلمي إسرائيل؟ كيف لا يعرفون مسيحَ الكتب والأنبياء؟ لو كان رجاؤهم صحيحاً لعرفوا المسيح، ولكن رجاءهم مزيّفٌ هو، ومعرفتهم غاشة صنعتها أهواؤهم ونسجها كبرياؤهم.

١٠: ٢٦ ــ ٣٠ **«ولكنكم لستم تؤمِنُونَ، لأنكم لستم من خِرافي كما قلتُ لكم. خِرافي تسمعُ صَوْتي وأنا أعرفُها فتتبعُني. وأنا أُعطيها حياةً أبديةً ولن تَهلِكَ إلى الأبدِ، ولا يخطفُها أحدٌ من يَدِي. أبي الذي أعطاني إيّاها هو أعظمُ من الكلِّ، ولا يقدِرُ أحدٌ أن يخطفَ من يدِ أبي. أنا والآبُ واحِدٌ».**

المسيح هنا يكشف السبب الأساسي لإخفاقهم في معرفته وبالتالي عدم إيمانهم. **وما هو السبب الرئيسي في عدم إيمانهم؟** يقول الرب: إن خرافه تسمع صوته فتجري إليه، وهو أيضاً يعرف خرافه و يسير أمامها وهي تتبعه، وما معنى هذا؟

معناه، أن للإنسان أذناً روحية مُنحت له ووُضعت في تركيب كيانه ليسمع بها صوت الله. هذه الأذن الروحية إما تنشغل بصوت الله، وتتمرن على تمييزه فتتعرف عليه بسهولة، وتطيع مشوراته بدون حذر أو خوف أو شكوك، فتسير أمام الله بالكمال الروحي الذي يرضيه، «سر أمامي وكُنْ كاملاً» (تك١٧: ١)؛ وإما تنشغل بمشاغل الدنيا وتتلهى بها، إلى الدرجة التي تطمس معالم صوت الله، فلا يعود الإنسان ينشغل بصوت الله، بل يجد صعوبة في طاعته، وتتربى عنده حاسة العقل الشكّاك على قياس المعارف والمنطق الدنيوي الناقص، فيشكُّ في كل إيحاءات الخير التي تصطدم بها أذناه، فيلقيها جانباً ريثما يتحقق منها، وهيهات إن تحقق، فإنها تتلاشى ولا تعود...

هؤلاء اليهود سلّموا آذانهم **لمجد الدنيا**، وإعلاء شأن **أرض الوطن**، **ومحبة المال** ــ أصل كل الشرور (١تي٦: ١٠) ــ **والتمسك بالحرف** القاتل، وفهم ميراث الآباء الروحي على أنه تركة تؤول من تلقاء ذاتها لأبناء الجسد؛ كل هذا أضْعَفَ حاسة سماع صوت الله في الأذن الروحية وازداد طنين العالم المادي فيها حتى أتلفها... فلما ظهر الله بالجسد وتكلم معهم وجهاً لوجه أشد مما كلم الله موسى في القديم، لم يسمعوه على قياس أذن الآباء والأنبياء في القديم. ولما سمعوه لم

يفهموه، لأن قياس العطايا والمواهب الإلهية تلوثت عندهم بالتراب تلوُّثاً شديداً، ولم يعودوا يميِّزون بين السماويات والأرضيات. ولما سمعوه ولم يفهموه، لم يأتوا باللوم على أنفسهم، بل شتموه وأهانوه ورفعوا أيديهم عليه ليقتلوه مرات كثيرة. فقامت ضدهم القضية وتثبَّتت الدينونة عليهم؛ لأن منهم مَنْ سَمِع الصوت، وتعرَّف على الله، وأطاع، وتبع، هؤلاء هم بالحق أبناء الميراث وحَفَدَة الآباء والأنبياء، هؤلاء كانوا معروفين لله والمسيح منذ البدء منذ إنشاء العالم، أسماؤهم مكتوبة كنقش الحجارة على كفِّ الله الآب منذ الدهر، هؤلاء هم بنو الله الحي، أبناء الملكوت، أهل بيت الله، خراف اليمين، أصدقاء العريس، ومدعوو العرس السماوي، ورثة العهد الأبدي، وأصحاب صهيون الجديدة: «وقالت صهيون: قد تَرَكَني الرب، وسيدي نسيني. هل تنسى المرأةُ رضيعَها فلا ترحم ابن بطنها؟ حتى هؤلاء يَنْسَيْنَ وأنا لا أنساكِ. **هوذا على كفَّيَّ نقشتُكِ.** أسوارُكِ أمامي دائماً.» (إش٤٩: ١٤ــ١٦)

هؤلاء قد تثبَّتتْ لهم الحياة الأبدية كميراثٍ، كما بقسمٍ إلهي، ليس لأنهم عرفوا الرب وكأنهم اكتشفوه، بل لأنهم لما لم يريدوا أن يعرفوا سواه، أدركوا أنهم معروفون عنده، وبقي هو نصيبهم كما هو!! «نصيبي هو الرب قالت نفسي» (مرا٣: ٢٤)، «إلى مَنْ نذهب كلام الحياة الأبدية عندك.» (يو٦: ٦٨)

هؤلاء لم يحبُّوا الرب كأنهم أصحاب فضلٍ، ولكن لأنهم لما «**لم يحبوا حياتهم حتى الموت**» (رؤ١٢: ١١)، انسكب روحُ الحياة وحبُّ الله في قلبهم، فصاروا أحياءً، أحباءً، ومحبوبين.

هؤلاء يقول الرب عنهم إنهم خراف الحياة الأبدية، فهي لن تهلك إلى الأبد، ليس لأنه حصَّنها ضد الهلاك، ولكن لأنها تحصَّنت بالرب ضد نفسها، فلا يُهلكُ النفسَ إلاَّ نفسُها... وهل الخراف الناطقة بالروح التي سمعت صوت الله وظفرت بالمسيرة خلف الراعي الصالح تخشى موارد الهلاك؟ «**أيضاً إذا سرتُ في وادي ظل الموت لا أخاف شراً، لأنك أنت معي**» (مز٢٣: ٤). وهل يستطيع الذئب أن يخطف نفساً أمسك بها الرب يسوع؟ فأن يُمسِكَ الربُّ نفساً هو هو على المستوى اللاهوتي أن يتَّحد بها؛ وعلى المستوى الإنجيلي هي تصير من «**أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه**» (أف٥: ٣٠). وبعد هذا هل يمكن أن يخطفها أحدٌ من يده؟

الإعلان الأعظم عن سر الحياة والأمان المطلق لمختاري الله:

١٠: ٢٩و٣٠ **«أبي الذي أعطاني إيَّاها هو أعظمُ من الكلِّ، ولا يقدرُ أحدٌ أن يخطفَ من يَدِ أبي. أنا والآبُ واحِدٌ».**

المعنى سهل لو تتبعنا تداعي المعاني السابقة، فالفريسيون يدّعون السيادة على الشعب، بصفتهم رعاة استلموا الرعاية من آبائهم بمقتضى تلمذتهم لموسى والناموس الذي استلمه موسى بيد ملائكة. لكن المسيح يستعلن المصدر الذي استلم منه الرعاية، وبالتالي الخراف، فليس هو الآباء ولا موسى ولا الناموس من يد ملائكة، بل من الله مباشرة بصفته أباه «أبي»، والله بصفته أبا ربنا يسوع المسيح هو أعظم من الكل، أعظم من الآباء جميعاً ومن موسى ومن الملائكة ومن كل ما في السموات أو الأرض. والخراف المختارة هي في الحقيقة مِلْكُ الله وحده. والله، وإن كان قد استأمن الآباء والأنبياء والملوك قديماً — على خرافه، إلاَّ أنهم كانوا كلهم عبيداً أخطأوا، وزلُّوا جميعاً على مستوى الخراف ذاتها. أما المسيح فقد أعطاه الآب الخراف عن جدارة بصفته الابن المحبوب القدوس والممجّد والمساوي للآب. فانتقلت الخراف من يد الآب إلى يد الابن كما من المثيل إلى المثيل: «كانوا لك وأعطيتَهُم لي» (يو١٧: ٦). انتقلَتْ من يد المالك إلى الفادي، ولو تمعن القارىء، لوجد **أن الفادي والمالك واحد**، لأن الفادي فدى خراف الآب الضالة بحياته، وإذ فداها بحياته يكون قد امتلكها، ولكنه بالنهاية امتلكها لحساب المالك: «وبعد ذلك... متى سَلَّم المُلْك لله الآب...» (١كو١٥: ٢٤). «أنا أظْهرتُ اسمك **للناس الذين أعطيتني من العالم، كانوا لك وأعطيتَهم لي... وكل ما هو لي فهو لك**، وما هو لك فهو لي...» (يو١٧: ٦و١٠)

«ولا يقدر أحدٌ أن يخطف من يد أبي»:

الذين فداهم المسيح، قدّسهم بالروح القدس، ثم قدّمهم للآب بالتالي لينالوا تقديس الآب كما نالوا تقديس الابن والروح القدس: **«لأن به** (بالمسيح) لنا كلينا (اليهود والأمم) **قدوماً في روح واحد إلى الآب»** (أف٢: ١٨). ثم يكمّل بولس الرسول ليوضح منتهى مشيئة الله من جهة مختاريه هكذا: «فلستم إذاً بعدُ غرباءَ ونُزُلاً، بل رعية (خراف) مع القديسين وأهل بيت الله» (أف٢: ١٩). فالذين كانوا ممسوكين بيد المسيح (متحدين)، ولم يستطعْ أحدٌ أن يخطفهم من يد المسيح لأنه وضع حياته ثمناً لحياة كل خروف، وصاروا أعضاء جسده من لحمه ومن عظامه، هؤلاء صاروا بالتالي في يد الآب محفوظين مع القديسين، مختومين رعية الله الآب، محسوبين أهلاً في بيت الله. أما الذين هم في يد الآب فلم يَعُدْ يقدر أحد أن يخطفهم، ولا حتى الشيطان يستطيع أن يمسّهم، لأن **روح الله صار هو بذرة الحياة التي يحيونها في الله كأبناء**، أي صاروا متحدين

بالآب كما هم متحدون بالابن والروح القدس.

فالقديس يوحنا مهّد لهذا المعنى، من قبل، بقوله: «أما كلُّ الذين قَبِلوه (قَبِلوا المسيح) فأعطاهم سلطاناً (الروح القدس) أن يصيروا **أولاد الله**، أي المؤمنون باسمه (المسيح)، الذين **وُلِدوا** ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل **بل من الله**» (يو١: ١٢و١٣). ويكمل ق. يوحنا مفهوم «المولود من الله» هكذا: «كلُّ مَنْ هو مولودٌ من الله لا يفعل خطية، لأن زَرْعَه ــ sperma ــ (بذرة حياة الله) يَثْبُتُ فيه ولا يستطيع أن يخطىء لأنه مولودٌ من الله...» (١يو٣: ٩)

ولكن، إذ يظهر من هذا أن هناك وعداً من الله بالحفظ الكامل والنهائي للذين قَبِلُوا المسيح وصاروا أولاد الله، يتحتم علينا أن نفرّق بين تأكيدات وعود الله النابعة والمتمشّية مع قدراته السرمدية اللانهائية من جهة، وبين ضعف الإنسان وتغيُّرات مشيئاته من جهة أخرى. فإذا سقط الإنسان من حياته الروحية في مرحلة من مراحل نموّه وتكامله، فهذا ليس قصوراً في عمل النعمة الإلهية، ولا هو بسبب طغيان الشر فوق ما يحتمل الإنسان، ولكن السبب والعلّة إنما هما في عدم استخدام الإنسان لعوامل النعمة المتعددة والموضوعة لخدمته، واستهانته بخديعة الخطية، **فالإنسان يستحيل أن يُحفَظَ ضد نفسه رغم مشيئته!!!**

إذن، لماذا أعطى الله لنا هذه التأكيدات، وكأنها أسوار تحمينا حمايةً كلية وكاملة؟ السبب في ذلك غاية في العجب وغاية في القوة: وهو أنَّ من يتمسك بهذه التأكيدات الإلهية تمسُّكاً قوياً بكل قلبه وفكره وقوته ومن كل نفسه، يفوز بعملها الكامل بلا نقصان، والقصص في ذلك كثيرة. لهذا يعطي ق. يوحنا تكميلاً لمفهوم الميلاد من الله وعمل بذرة sperma الله في كيان الإنسان إيجابياً من قِبَل استجابة الإنسان هكذا: «نعلم أنَّ كل مَنْ وُلد من الله لا يخطىء، بل المولود من الله "**يحفظ نفسه**"، والشرير لا يمسُّه» (١يو٥: ١٨). هنا «"بذرة" sperma الله» أثمرت قوة في الإنسان، يحفظ بها نفسه ضد إغراءات الخطية وسطوة الشر والشرير، إلى الدرجة التي فيها ــ في هذه القوة ــ لا يستطيع الشيطان أن يقترب إليه!! وهذا ما نسمعه كثيراً وكثيراً جداً في تاريخ حياة القديسين في كل جيل وفي كل أمة.

وهذا الكلام الذي يقوله الرب يسوع عن الأمان والعناية والرعاية معاً والحفظ في يد الله، هذه التي يطرحها كوثيقة من الآب نفسه ويضمنها المسيح بحياته للذين يتبعونه ويعيشون تحت رعايته، سبق أن عبّر عنها الروح في العهد القديم كوعدٍ سيكون وقد كان: «أنتم شهودي يقول الرب،

وعَبْدِي، الذي اخترتُه، لكي تعرفوا وتؤمنوا بي، وتفهموا **أني أنا هو، قبلي لم يُصوَّر إلهٌ وبعدي لا يكون. أنا أنا الربُّ وليس غيري مُخلِّص. أنا أَخْبَرْتُ وخلَّصتُ وأَعْلَمت** وليس بينكم غريب، وأنتم شهودي، يقول الرب، **وأنا الله. أيضاً من اليوم أنا هو ولا مُنْقِذَ من يدي، أفعل ومن يردُّ**» (إش٤٣: ١٠ـــ١٣). وتوضيح ذلك، أن كلَّ الذين هم تحت رعاية المسيح، هم بالتالي تحت حماية الله نفسه كوعد... **لأن حماية الله الفائقة** المتساوية مع قدراته، **تضمنُها الآن علاقةُ المسيح بالآب.**

١٠: ٣٠ـــ٣٣ «**أنا والآبُ واحِدٌ، فتناولَ اليهودُ أيضاً حجارةً ليرجُمُوهُ، أجابَهم يسوعُ: أعمالاً كثيرةً حَسَنةً أريتُكم من عندِ أبي بسببِ أيِّ عملٍ منها ترجُمُونني؟ أجابَهُ اليهودُ قائلينَ: لسنا نرجُمُك لأجلِ عملٍ حسنٍ بل لأجلِ تجديفٍ، فإنَّك وأنتَ إنسانٌ تجعلُ نفسَكَ إلهاً**».

كثير من المفسرين غير المستقيمي الفكر أرادوا أن يُضعفوا من فهم هذه الآية على أنها لا تختص بلاهوت المسيح ومساواته لله الآب. ولكن ردَّ فعل هذه الآية على أسماع وأفهام اليهود، وهم أقدر العلماء قاطبة في فهم وتحديد مفهوم الله، هو الذي يؤكد المعنى الذي قصده الرب يسوع: «**أنت تجدِّف**»، «**وأنت إنسان**»، «**أنت تجعل نفسك إلهاً**». ولكن المسيح لا يجدِّف، ولا يجعل نفسه غير نفسه، **فهو إله**، وليس ذلك فقط، فقَوْلُ المسيح: «أنا والآب واحد»، يفوق ما تصوَّره اليهود أيضاً. فهو عندما قال: «أنا والآب واحد»، لا يقصد أن يعرِّف نفسه أنه إله وحسب، بل أراد أن يعرِّف ماهية نفسه بالنسبة لماهية الآب، حيث الـ «ماهية» هي الطبيعة، فالمسيح والآب طبيعة واحدة، ولكن لم يذكر المسيح كلمة الطبيعة ولكنه كان يعبِّر عنها في كل أحاديثه.

فالمسيح احتوى معنى الطبيعة الواحدة ــ أي الجوهر، أي الكيان اللاهوتي ــ الذي له كما هو للآب في معنى **الفداء الواحد** الذي أكمله المسيح بالعمل مع الآب، بالمشيئة، بالنسبة للخراف. فقوة الفداء غير منقسمة ولا متوزعة بالتساوي بين الآب والمسيح، بل هي قوة واحدة لله مشيئةً وعملاً. كذلك **الحب الواحد** كقوة فعَّالة، لم يتنازل عنها الآب للابن من نحو الخراف، ولم تنقسم أو تتوزع أعمال الحب الواحد بين الآب والمسيح، بل المسيح أكمله تماماً ولا يزال يكمِّله مع الآب. فمحبة الله واحدة من نحو الأخصَّاء ــ الخراف ــ والآب يعبِّر عنها تعبيراً كلياً كما يعبِّر عنها المسيح تعبيراً كلياً. وهذا كان واضحاً تمام الوضوح، دون أي مفارقة أو تمييز بين الحفظ **في يد** المسيح والحفظ **في يد** الآب. فلا استطاعةَ لأحدٍ ما أن يخطفها من يد المسيح، كما لا استطاعة

لأحدٍ ما أن يخطفها من يد الآب. وهنا تعبير ضمني عن وحدة القوة الإلهية مع وحدة الحب الإلهي من نحو الخراف للآب كما للمسيح.

فإذا انتقلنا من وحدة قوى الجوهر الإلهي ــ وهي القدرة اللانهائية والحب الأبدي للآب والابن ــ إلى الأُبوَّة والبنُوَّة وهي صفة الجوهر الإلهي، نجد أن الآب والابن هما ذات واحدة (مع الروح القدس)، وشخصية معنوية واحدة (الله)، وكيان إلهي واحد: «أنا هو»، أزليٌّ لا بداية ولا نهاية له.

فقول المسيح: «أنا والآب واحد»، آية مانعة للخَلْطِ في الجوهر الإلهي، وهي محمَّلة بكل المعاني الإلهية، لأنها تشمل مفهوم وحدة قوى الجوهر، أي الطبيعة، ووحدة الذات أي الصفة الجوهرية، حيث لا يتبقى للتمييز بين الآب والابن إلاَّ صفة الأُبوَّة والبُنوَّة. فالآب ليس ابناً والابن ليس آباً، والأُبوَّة والبُنوَّة هما في الذات الواحدة لله. والذي يجعل هذه الآية معياراً لاهوتياً غنياً نستقي منه أعمق وأخصب، بل وأعزَّ المكاسب الروحية والخلاصية، هو أن الذي يقولها هو «**المسيح**»، الابن **متجسداً** ــ أي الحامل جسد إنسان، فالتجسد هنا داخلٌ في الاعتبار، أي داخلٌ في التكوين المعنوي لقول المسيح: «**أنا والآب واحد**».

فإذا تنبهنا أن **البشرية المفديَّة**، أي الأخصَّاء الذين يؤمنون ويحبون ويحيون في الرب، **هم داخلون ومتحدون «بالجسد السري» الذي للمسيح**، لأدركنا كم تكون هذه الآية ذات اعتبار خطير وضمان وثيق لحياتنا الأبدية ورجائنا العتيد في المجد، كأبناء وورثة مع المسيح في الله، كقول بولس الرسول.

وفي النهاية، يلزم أن ننبِّه أن كل تماحُكٍ لإضعاف مفهوم هذه الآية: «أنا والآب واحد»، كأنْ ينسبَها البعض إلى واحدية أدبية أخلاقية أو روحية، يلزم أن نعترف في وجهه بشرح اليهود لهذه الآية، وهم المتعصبون لمفهوم لاهوت الله إلى أقصى حدود التعصب حتى إلى الرجم: «لسنا نرجمك لأجل عمل حسن بل لأجل **تجديف**، فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك **إلهاً**»، علماً بأن المسيح لم ينفي هذا المعنى الذي فهموه، الذي هو نفس القصد الذي قصده هو، بل زاده تأكيداً!!

ولا يفوتنا أن نعرف هنا، أن المسيح يكشف عن وحدة لاهوته مع الآب ليرفع من مستوى مفهومنا لمقدار الحفظ والأمان اللذين يتمتع بهما المؤمنون المتمسكون بالرب، فهما قائمان بضمان وحدة الابن والآب معاً. وهذا بحد ذاته هو قوة الله وقوة الرجاء في الخلاص الذي أكمله المسيح لنا.

١٠ : ٣٤ــ٣٦ **«أجابهم يسوعُ: أليسَ مكتوباً في ناموسِكُم أنا قلتُ إنكم آلِهَةٌ. إن قال آلِهَـةٌ لأُولئك الذي صارت إليهم كلمةُ الله، ولا يمكنُ أن يُنقَضَ المكتوبُ، فالذي قدَّسَهُ الآبُ وأرسَلَه إلى العالمِ، أتقولونَ له إنكَ تجدِّف لأني قلتُ إني ابنُ الله».**

المسيح يستشهد بالمزمور الثاني والثمانين: «**الله قائم في مجمع الله، في وسط الآلهة يقضي ... أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلي كلكم**». فالوحي الإلهي هنا يُعطي صفة الآلهة للمجمع الذي يجتمع على أساس الحكم بكلمة الله. **فالذي أُعطي كلمة الله ليعيش وليحكم بها كمدعوٍّ من الله**، هو في الناموس اليهودي (ناموسكم) محسوب بصفة إله **من نحو الناس** من أجل كلمة الله؛ «ولا يأخذ أحد هذه **الوظيفة** بنفسه بل **المدعوُّ من الله** كما هرون أيضاً» (عب٥: ٤). وصفة إله أُطلقت أيضاً على موسى لأن **الله وضع كلمته في فمه يكلم بها هرون كأنها من الله**: «وهو يكلم الشعب عنك. وهو يكون لك فماً وأنت تكون له إلهاً.» (خر٤: ١٦)

المسيح هنا يشير إشارة بالغة الخطورة إلى القيمة الإلهية للناموس، كعهد الله مع الإنسان، الذي لم يُنقض بالرغم من أن هؤلاء الناس (القضاة) الذين دُعُوا آلهة نقضوا الناموس وأهانوا الكلمة وأتعبوا قلب الله: «الله قائم ... في وسط الآلهة يقضي. **حتى متى تقضون جوراً وترفعون وجوه الأشرار ... لا يعلمون ولا يفهمون. في الظلمة يتمشَّون. تتزعزع كل أسس (الحق) الأرض.** أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلي كلكم. لكن مثل الناس تموتون، وكأحد الرؤساء تسقطون. **قُمْ، يا الله، دِنْ الأرض، لأنك أنت تمتلك كل الأمم.**» (مز٨٢: ١ــ٨)

والإشارة هنا بليغة، تهدف إلى رفض هؤلاء القضاة الظَّلَمَة وإلى إسقاطهم من رتبتهم العالية، وهو تعبير عن نقض العهد القديم بقوله: «لكن مثل الناس تموتون»، بمعنى فُقدان الصفة الإلهية التي كانت تؤهلهم للإتحاد بالله وبالتالي ميراث الحياة الأبدية؛ بل ويزيد على ذلك أن سقوطهم سيكون كسقوط الشيطان: «وكأحد الرؤساء تسقطون». وبنهاية سقوط حكمهم وقضائهم بالناموس، ينتهي العهد القديم، فيقوم الله ليدين ويملك على الأمم، والإشارة هنا للمسيح.

كذلك يلزم أن ننتبه إلى بقية الآية التي اختارها المسيح من المزمور: «أنا قلت إنكم **آلهة**»، لأن باقي الكلام «**وبنو العلي** كلكم»، وهذا يأتي حبكاً محكماً على تطبيق المسيح الكلام على نفسه: «أتقولون له إنك تجدف، لأني قلت **إني ابن الله؟**» فالتطبيق هنا يتم على جزئين:
الجزء الأول: «أنا قلتُ "إنكم آلهة"»، حيث التطبيق يأتي ردًّا على ادّعائهم أن كون المسيح

إلهاً يُعْتبر تجديفاً، في حين أن كل الذين صارت إليهم كلمة الله يُدْعَوْن في الناموس آلهة.

والتطبيق الثاني يأتي كتغطية إيجابية على قول المسيح أنه «ابن الله»، فلا عجب في ذلك إذا كان كلُّ مَنْ صارت إليهم كلمة الله دُعُوا في الناموس **بني العليّ، وأبناءِ الله.**

وقصد المسيح من طرح هذا الاقتباس من الناموس، وخاصة عند قوله: «ولا يمكن أن يُنقض المكتوب»، هو أن الناموس سَبَق ومهّد بالحق للأذهان إمكانية دعوة الإنسان في شخص يسوع المسيح لحمل صفة اللاهوت، كما أن هذه الدعوة نفسها أعطت الإنسان في شخص يسوع المسيح الإمكانية أن يكون هو ابن الله. هذا من جهة الفكر الناموسي. ولكن المسيح الآن يرتفع من هذا الفرض إلى الواقع، و يقدّم نفسه كإله وابن الله بالفعل، مبرهناً على صدق ذلك بأنه إنْ كان مجرد الذين صارت إليهم كلمة الله ليحكموا بها أو ليحكم هو (الكلمة) بهم، هكذا دُعُوا آلهة و بني العلي، فكم يكون بالحري الذي هو هو «**الكلمة**» ذاتها، الذي إذ أخذ جسداً قدّسه الآب وأرسله إلى العالم، ليستعلن الله الآب، وليعطي الناس كلمة الله؟ فهل يُحسب مجدّفاً إن قال: «**أنا ابن الله**»؟ أو إن قال: «**أنا والآب واحد**»؟

وفي الحقيقة، إن المقارنة هنا غير معقولة وغير متكافئة، و يقدمها المسيح تهكُّماً من عقولهم، لأنه إذا أردنا أن نوضح هذه المقارنة على حقيقتها تكون كالآتي: «كلمة الله»، وهو المسيح قبل التجسد، عندما أعطى رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين أن يحكموا بمقتضى إلهامه بحسب الحق، وهم لم يحكموا أبداً بالحق، دُعُوا آلهة و بني العلي، وهم لم يكونوا من القداسة في شيء. ولما جاء «كلمة الله» ذاته متجسداً، وهو المسيح، مقدّساً ومرسَلاً من الآب، وقال إنه ابن الله، قالوا له أنت تجدّف. علماً بأن كلمة «قدّسه» تفيد التخصيص لعمل الله في العالم، والذي يتمحور حول خلاص الإنسان.

وعلينا أن ننتبه إلى العلاقة بين قول المسيح: «إني ابن الله»، وقوله السابق: «أنا والآب واحد»، وقول اليهود له: «وأنت إنسانٌ تجعل نفسك إلهاً»، فبهذه الإعلانات الثلاثة يقوم علم اللاهوت، فيما يختص بالمسيح في العهد الجديد، بكل امتداده من نحو الإنسان من جهة الإتحاد بالله والتبني.

فقول المسيح: «إني ابن الله»، هو تكميل لاهوتي مُحْكَم لقوله السابق: «أنا والآب واحد». هنا يكمل الإعلان أن الله آب وابن معاً، في وحدة ذاتية مطلقة لا تقربها الثنائية إطلاقاً، لا في

الجوهر ولا في الذاتية. كما أن شرح اليهود لمضمون معنى «أنا والآب واحد» بأن المسيح وهو إنسان (جعل) نفسه إلهاً - وموافقة المسيح على ذلك - يضيف «سر التجسد» داخل **وحدة** الآب والابن، وبالتالي يُدخل البشرية في سرّ الله. وهنا كمال السر وكمال العجب.

ولكن العجيب حقاً أن تكون هذه الصورة اللاهوتية موجودة كاملة في العهد القديم بالذات: هذا المزمور الذي اختاره المسيح ليستعلن فيه نظرة الناموس كله من نحو لاهوته و بُنوّته الفريدة، و بالتالي من نحو إتحاد الإنسان به؛ فقوله: «**أنا قلت إنكم آلهة**»، هذه عملية مثيلة لعملية الخلق ومكمِّلة لها: «**وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشَبَهنا**» (تك ١ : ٢٦). ومن الاثنين يتضح أصالة تدبير الله من حيث قبول الإنسان للإتحاد بالله والحياة معه، ليس خلسةً، بل بقدر ما تنطبق الصورة على الأصل، لأنها لهذا خُلقت ولهذا عاشت، وإن ماتت فلكي تقوم وتزداد أصالة.

هذا هو روح الناموس وخلاصته، فالناموس في العهد القديم ليس كما يراه اليهود: أنه دعوة لإفراز الله بعيداً عن الإنسان بُعْداً مطلقاً، وتوحيده توحيداً مطلقاً، ضماناً لعدم مساسه بنجاسات فكر الإنسان؛ ولكن الناموس في حقيقته، وكما كشفه المسيح، على العكس تماماً، فالعهد القديم وكل الناموس يقوم على تقريب الإنسان إلى الله تقريباً شديداً جداً: «نعمل الإنسان **على صورتنا، كشبهنا**». و يظهر ذلك أكثر في محاولة الله من جهته لرفع الفوارق والحواجز التي تحرم الإنسان من الدخول في دائرة اختصاصات الله الخاصة جداً: «أنا قلتُ: إنكم آلهة».

هنا الله يمنح نفسه للإنسان بمقولة نافذة الفعل والمفعول تتخطى كل عجز الإنسان، لتُلْبِسَه تاج الألوهة بلا قيد ولا شرط، وعلى الإنسان أن يأخذ منه قدر ما يحتمل وقدر ما تطمع نفسه في سخاء حب الله، حيث أعطى المسيح لنا الصورة الأعلى والأعظم والمطلقة بلا حدود لكيف يحلُّ الله في الإنسان: «**الآب الحال فيَّ** هو يعمل الأعمال» (يو١٤ : ١٠)، «**فإن فيه يحلُّ كل ملء اللاهوت** جسدياً، وأنتم مملوؤون فيه» (كو٢: ٩و١٠). ثم أليس في المسيح رُئيَ الإنسان إلهاً، أو على وجه الأصح رُئي الله في صورة الإنسان «الذي وُضع قليلاً عن الملائكة يسوع نراه مكللاً بالمجد والكرامة» (عب٢ : ٩)؟ إذن، لم يكن عبثاً أن يقول الناموس «أنا قلتُ إنكم آلهة»، فالإشارة هادفة رأساً إلى المسيح، ومنه إلينا، فالوحي الإلهي هنا يخاطب الناس في المسيح!

ثم في قول الناموس: «و بنو العليِّ كلكم»، تظهر نتيجة عطاء الله لنفسه، كيف يشدُّ الإنسان ليرفعه من العبودية إلى التبني، فالذي يأخذه الإنسان من الله كفيلٌ - بحدِّ ذاته - أن يمنحه حقَّ التبني. ولكن، و بطريق غير مباشر، يظهر الابن كوسيط لهذا التبني والتقرُّب إلى الآب. فالمسيح

الذي أخذ الآب لنفسه أخذاً كليًّا ومطلقاً، كابن وحيد لأبيه، أُعطِيَ أن يعطي لأحبائه قدر ما يشاء من ميراثه البَنَوي لأبيه. «الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله، فإن كنا أولاداً فإننا ورثة أيضاً، ورثة الله ووارثون مع المسيح.» (رو٨: ١٦و١٧)

ولكن الناموس في العهد القديم قد أخفق في أن يعطي الناس الألوهة والبنوة للعلي التي نطق بها الله، التي كان يلزم أيضاً أن يرافقها عدم الموت، كما يقول المزمور: «ولكنكم مثل الناس **تموتون** وكأحد الرؤساء **تسقطون**». هنا يكشف الناموس عن عجزه، لأن الناموس في كُلّيَاته وجزئياته لم يكن إلاَّ **شِبْه السماويات وظلها**... كذلك لم يكن إلاَّ ليمهد **للحق** الإلهي **النازل من السماويات، النور الحقيقي** الذي ليس فيه ظل دوران، الذي له ملء الحياة، القائم والمقيم من الأموات، الواهب التبني لبني العلي، بضمان بنوته الإلهية القائمة في ذات الله منذ الأزل. لذلك، فإنه بالمسيح وحده يكمل الناموس، وفيه يتحقق وعد الله و يظفر الإنسان بكل المواعيد الصادقة والأمينة.

١٠: ٣٧و٣٨ **«إن كنتُ لستُ أعملُ أعمالَ أبي فلا تؤمِنُوا بي. ولكن إن كنتُ أعملُ، فإن لم تؤمِنُوا بي، فآمِنُوا بالأعمَالِ لكي تَعرِفُوا وتُؤمِنُوا أن الآبَ فيَّ وأنا فيهِ».**

الرب هنا ينتقل من الإقناع الفكري إلى الإقناع العملي، فيجعل أعماله التي يعملها بالآب هي القاعدة التي يبني عليها كيفية إدراك لاهوته. فهو يبدأ ببرهان العمل، و ينتهي بنتيجة أنه هو والآب واحد؛ وهذا على أساس أن يكون ماثلاً على الدوام في الأذهان أنه «مُرْسَلٌ» من الآب ليعمل أعمال الآب!! الأمر الذي أشار إليه: «فالذي قدّسه الآب **وأرسَلَهُ** إلى العالم...». الرب هنا يعتمد إمكانية رفض الإيمان بأقواله إذا لم تكن له أعمال الله الآب. وفي هذه الحالة يمكن رَفْضُ أقواله ــ باعتبار أنها غير صحيحة فرضاً ــ ولكن يتحتم أن يؤمنوا بأن الأعمال صحيحة، لأنها واضحة أمامهم وتشهد أنها بالله معمولة. وهنا لا يطلب المسيح ــ مبدئياً ــ **أن يؤمنوا به شخصياً** بل **أن يقبلوا صحة أعماله**، وهي حسب النص اليوناني واضحة، حيث تأتي بمعنى: «إن كنتم **لا تصدقونني، فصدقوا الأعمال**». وهي تأتي مُطَابِقَة لآية سابقة: «لو كنتم تُصدِّقون موسى، لكنتم تصدقونني لأنه هو كتب عني» (يو٥: ٤٦)، وهي تأتي باللغة الإنجليزية واضحة بسبب الفرق بين «صدِّقْني» = believe me، وبين «آمِنْ بي» = believe **in** me. فالمسيح يركِّز أساساً على الأعمال، و يطلب أن يقبلوها في حدّ ذاتها، فإذا قبلوها، فهي نفسها

تحمل الشهادة له، لأنها عُملت على أساس أنها آية تشير إلى أن الذي قام بتفتيح العين هو أعظم وأهم من العين ذاتها بلا نزاع.

فالمسيح له الحق منتهى الحق أن يجعل الآيات التي عملها علةً وسبباً مُلْزِماً لليهود أن يؤمنوا به، لأنها تفوق عمل أي بشر: «صدقوني أني في الآب والآب فيَّ، وإلاَّ فصدِّقوني لسبب الأعمال نفسها» (يو١٤: ١١)، ولكن إذا تمادَوْا في المقاومة ولم يصدقوا الأعمال أيضاً، فهذا يصير لهم سبب دينونة: «لو لم أكن قد عملتُ بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيري لم تكن لهم خطية، وأما الآن فقد رأوْا وأبْغَضُوني أنا وأبي.» (يو١٥: ٢٤)

«فآمنوا بالأعمال، لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ وأنا في الآب»:

الرب هنا يستخدم الأعمال للإقناع الفكري ثم للإيمان القلبي، وذلك بالنسبة للذين رفضوا استعلانه بالكلمة. وهنا يواجهنا في هذه الآية أربعة أفعال، كل فعل منها له أبعاده و يؤدي إلى الآخر حتى تبلغ الحقيقة الإلهية:

الفعل الأول: هو الأعمال التي عملها الرب، وهو الفعل الذي يحوي في أعماقه حقيقة صانعه. فأبعاد عمل الرب تحوي بالأساس عمل الآب وعمل الابن، و يلزم الإحساس بهما من داخل العمل، أي من قوة المعجزة المصنوعة. فتفتيح عين الأعمى هو بالأساس عمل الله، ما من ذلك شك على الإطلاق. والذي قام بالعمل هو المسيح علانية.

الفعل الثاني: هو تصديق العمل «آمنوا بالأعمال»، وفعل التصديق مستمد من صحة العمل المعمول. فالأعمى وُلد أعمى بشهادة أبويه، وهو الآن يبصر، فالتصديق أصبح حتميًّا. ولكن التصديق بالآية المعمولة معناه مواجهة لتصديق صانع الآية من داخل الآية، أي مواجهة الله صاحب المشيئة والمسيح صاحب العمل الذي يعمل بحسب مشيئة الآب.

الفعل الثالث: هو «لكي تعرفوا». الفعل «تعرفوا» هنا جاء في اليونانية γνῶτε وأمامها ἵνα «لكي». المعرفة في هذا الفعل ليست معرفة سطحية عابرة، بل معرفة تؤدي إلى ما هو أكثر من معرفة، فالفعل هنا جاء بالمفهوم المَدْخَلي، أي معرفة تنتهي إلى معرفة. فإذا انتبهنا لقول المسيح: «فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا»، ندرك في الحال ماذا يريد المسيح. فتصديق الأعمال يؤدي حتماً «لكي ἵνα» إلى معرفة مستقرة ومتعمقة أو مستغرقة في الآية، لكشف قوتها وفهم مقاصدها وأهدافها، وتستمر هذه المعرفة تأخذ مجراها من كشف إلى كشف لكي تبلغ:

الفعل الرابع: «**تؤمنوا** πιστεύσητε». وفي الحقيقة جاء هذا النص هكذا في معظم المخطوطات اليونانية، فأضاعت عمق المعنى، ولكن في بعض الترجمات اللاتينية القديمة وبعض المخطوطات اليونانية ذات الحروف الكبيرة "uncials" جاءت γινώσκητε بمعنى الإدراك النهائي أو الاستقرار في المعرفة، وهذا مما جعل المخطوطات اليونانية تحوّلها إلى «**تؤمنوا**» الذي هو الاستقرار الأخير في المعرفة، أو «**إيمان المعرفة**».

ولكن ما هو موضوع المعرفة المؤدية إلى الإيمان؟ هنا المسيح يستعلن نفسه: «إن الآب فيَّ وأنا في الآب»، كفاية ونهاية وكل مقصد الأعمال التي يعملها. والاستعلان ــ كالعادة ــ لا يأتي بصورة شخصية مفردة، بل بالنسبة للآب؛ ولا يأتي كمعلومة ليس لها برهان، بل ببرهان وقوة الآيات، فـ «الآب فيَّ» لأن العمل الإعجازي هو أصلاً عمل الله مائة بالمائة. وهذا بالتأكيد هو مسئولية «**المعرفة**» الفاحصة المستغرقة في الآية. و «أنا في الآب» لأني أنا الوحيد الذي عملتُ أعمالاً مثل هذه: «أعمالاً لم يعملْها أحدٌ غيري.» (يو١٥: ٢٤)

لذلك، أصبحت أعمال المسيح في حقيقتها استعلاناً ناطقاً لسرِّ وحدة العلاقة بين المسيح والله الآب. لهذا جعل المسيح الإيمان بأعماله هو المدخل لمعرفة مَنْ هو، بالنسبة لليهود المتشكّكين الذين قالوا له: «إلى متى تُعلِّق أنفسنا، إن كنتَ أنت المسيح فقُلْ لنا جهراً».

ولكننا نرى أن المسيح أعلن نفسه بواسطة الكلمة فقط لتلاميذه الذين تركوا كل شيء وتبعوه، وليس بواسطة الأعمال، لأن «سِرَّ الرب لخائفيه» (مز٢٥: ١٤): «أنتم الآن أنقياء لسبب **الكلام الذي كلَّمتُكم به**» (يو١٥: ٣)، «**الكلام الذي أعطيتني قد أعطيتُهم**، وهم قَبِلُوا وعلموا يقيناً أني خرجت من عندك، وآمنوا أنك أنت أرسلتني.» (يو١٧: ٨)

فالرب يسوع المسيح مُسْتَعْلَنٌ بالكلمة بالنسبة لأحبائه: «الله... كلَّمنا... في ابنه» (عب١: ١). والذين يقبلون الكلمة في قلب صالح، هم الذين لهم آذان روحية للسمع، تدخلها الحياة الأبدية مع صوت ابن الله: «الحق الحق أقول لكم: إن مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية، ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو٥: ٢٤). والذي ليست له أذن مفتوحة لسماع «الكلمة»، هيهات أن يؤمن: «لماذا لا تفهمون كلامي؟ لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي» (يو٨: ٤٣)، «الذي من الله يسمع كلام الله لذلك أنتم لستم تسمعون، لأنكم لستم من الله» (يو٨: ٤٧). أما الذي يطلب آية فهو الجيل الشرير، الذي لا يتبقى له إلاَّ خبر القيامة (راجع لو١١: ٢٩).

وأخيراً، فلينتبه القارىء، لأن المسيح هو «الكلمة». هكذا جاء، وهكذا تجسد، وهكذا استُعْلِن، وهذا هو إنجيل يوحنا كله. فالذي يمتلك الأذن الروحية، هو الذي له الطوبى، والقادر أن يتعرّف على المسيح «الكلمة» و يُقْبِلَ إليه: «قال له يسوع: لأنك رأيتني يا توما آمنت. طوبى للذين آمنوا ولم يَرَوْا.» (يو٢٠:٢٩)

ولكن، فلينتبه القارىء أيضاً، فلا تعارضَ إطلاقاً بين «**الكلمة**» و«**الآية**»، **فالآية هي كلمة معمولة، أو هي فعلٌ**. والفعل هو الكلمة فعّالة. وليس أدلَّ على ذلك من الترجمة الفرنسية لمطلع إنجيل يوحنا: «في البدء كان الكلمة»، حيث تأتي: «في البدء كان الفعل...»:

''Au commencement était le Verbe''.

و يلاحظ هنا أن اليهود يطلبون «**الكلمة**»: «**قلْ لنا** إن كنت أنت المسيح»، ولكن حينما «**يتكلم**» المسيح و يعلن نفسه أنه هو المنُّ (الخبز) الحقيقي النازل من السماء، يطلبون منه «**آية**»: «أية آيةٍ تصنع لنرى ونؤمن بك؟» (٦: ٣٠). وفي هذا يتعجب عليهم ذهبي الفم بقوله:

[حينما تصرخ الأعمال عاليةً يطلبون منه قولاً؛ وحينما يعلِّم بالكلمة، فحينئذ ينسحبون و يطلبون الأعمال. وهكذا يقفون الموقف المعاكس] (على الآية ٣٠ من الأصحاح العاشر).

وفي رأي المسيح، فإن الأعمال تكفي كشهادة لليهود للإيمان به، وأما المؤمنون، فالكلمة تكفي لتكون لهم قاعدة للإيمان، ولا ينبغي أن يطلبوا معها آية ليزداد إيمانهم أو يثبت.

١٠: ٣٩ «**فطلبوا أيضاً أن يُمْسِكوهُ فخرجَ من أيديهم**».

عجبي على هؤلاء اليهود! كم مرة حاولوا هذه المحاولة الفاشلة، ولكن إلحاحهم على التخلُّص منه يعكس مدى الضيق الذي ألَمَّ بهم بسبب الحق الظاهر في حياته وأعماله، والذي يوبِّخ و يدين حياتهم وأعمالهم. ولكن العجب الأكثر هو محاولتهم «**أن يمسكوه**»، مع أنه كان في التوِّ يقول لهم إن لا أحد **يقدر أن يخطف خروفاً واحداً من يده**. فبرهنوا على أنهم فعلاً يسمعون ولا يفهمون!! فهل استطاع الذئب الذي لم يقوَ على خطف الخروف من يد الراعي أن يضع يده على الراعي ويخطفه؟ لذلك يسخر منهم ق. يوحنا و يصف كيف انشلّت أيديهم، وخرج الرب و يدهم قابضة على الريح... مقارنة تحكي في صورة ساخرة بين أيديهم التي لم تقوَ على الإمساك به، و يده التي تمسك ولا أحد يَخطف البتة. وأخيراً، صورة ملكية ذات جلال ووقار لله الآب وهو **ممسك** أيضاً بالابن، يقوده ويحفظه ولا يخطفه أحد ساعة الخطر: «أنا الرب قد دعوتُك بالبرِّ، فأُمسك

بيدك، وأحفظك، وأجعلك عهداً للشعب ونوراً للأمم، لتفتح عيون العمي لتُخرِج من الحَبْس المأسورين من بيت السجن الجالسين في الظلمة.» (إش٤٢: ٦و٧)

ختام الأصحاح العاشر: اعتزال مؤقت في عبر الأُردن: (١٠: ٤٠ـ٤٢).

١٠: ٤٠ـ٤٢ **«ومَضى أيضاً إلى عَبْرِ الأُرْدُن إلى المكانِ الذي كان يُوحَنَّا يعمِّدُ فيهِ أولاً، ومكَثَ هناكَ. فأتى إليهِ كثيرونَ وقالوا: إن يوحنا لم يفعل آيةً واحدةً. ولكن كلُّ ما قالَهُ يوحنا عن هذا كان حقًّا. فآمَنَ كثيرونَ به هناكَ».**

هنا اهتم إنجيل يوحنا ــ في ختام روايته ــ أن يكمل عامل الأعمال في استعلان الرب والإيمان به، بعامل آخر اهتم به إنجيل يوحنا منذ أول مَطْلَعِه، وهو شهادة المعمدان التي لا زالت راسخة في أذهان الناس وأفواههم.

«كلُّ ما قاله يوحنا عن هذا (المسيح) كان حقاً»:
والتشديد هنا على «**كل**» وعلى «**حقاً**» من قِبَل الراوي وهو ق. يوحنا، ينبع أيضاً من شهادة ق. يوحنا ورؤيته وخبرته الشخصية. وهذه الشهادة تُعتَبَر في جملتها، سواء من شعب عَبْرِ الأُردن وهو بعيد عن مراكز العداوة للمسيح، أو من ق. يوحنا، تأتي كتاج على قمة رواية إنجيل يوحنا. كما أراد الإنجيل أن يضع في مقابل رفض أورشليم واليهودية الإيمان به، قبول أهل عَبْرِ الأُردن له والإيمان به. وبسبب ازدياد تهديد رؤساء الكهنة والفريسيين له، ترك اليهودية وانطلق إلى **عَبْرِ الأُردن**، وهي «بلاد بيرية» التي ذكرها إنجيل متى ١٩: ١، وإنجيل مرقس ١٠: ١.

ويفيد إنجيل القديس مرقس أن الجموع تقاطرت من كل الجهات تستمع إليه (١٠: ١)، وذلك بسبب شهادة المعمدان عن المسيح، والتي كانت لا تزال تملأ أسماعهم وقلوبهم. على أن عدم قدرة المعمدان على إتيان الآيات، أضافت أهمية كبيرة للمسيح، لأن الآيات التي صنعها أوضحت لهم شدة المفارقة بين «النبي» و«المسيا». وهذا بحدِّ ذاته يراه إنجيل يوحنا سبباً مباشراً لإيمان «**الكثيرين به**». وهذا أيضاً هو ما يراه المسيح نفسه داعياً للإيمان به: «لو لم أكُنْ قد عملتُ بينهم أعمالاً **لم يعملْها أحد غيري**، لم تكن لهم خطية» (يو١٥: ٢٤). ومن هنا تتضح الحكمة الإلهية **أولاً** في تقييد عمل الآيات عند المعمدان إذ لم يكن لها داعٍ على الإطلاق؛ **وثانياً** في كثرة الآيات التي صنعها يسوع لتكون شاهداً له بحدِّ ذاتها: «الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي.» (يو١٠: ٢٥)

وبإشارة غاية في الحكمة والإحكام، وتَنُمّ عن نعمة زاخرة وإلهام، يختم ق. يوحنا خدمة الرب بأن ينتهي في التسجيل لها بالإشارة إلى حيث ابتدأ أولاً: «**المكان** الذي كان يوحنا **يعمِّد فيه أولاً**»، وهو عينه المكان الذي فيه أَخْضَعَ الرب نفسه للمعمودية تحت يد المعمدان ليبدأ خدمته بالصوم والتجربة. وق. يوحنا يتجاوز هنا ـ بأسلوبه السرِّي ـ مجرد الانتهاء من خدمة الرب إلى جوهر قوتها وغايتها ـ وهو الصليب ـ لأنه بقوله: «حيث كان يوحنا يعمِّد أولاً»، فهو يذكِّر ـ بغير تذكرة ـ قول المعمدان عن مضمون وجوهر خدمة الرب هذه: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو١: ٢٩و٣٦). وهكذا ينتهي ق. يوحنا إلى الصليب من حيث ابتدأ به أولاً.

وليس ذلك فقط كل ما يحويه أسلوب ق. يوحنا السري البديع من ذكره هذا المكان: حيث ابتدأ المعمدان وابتدأ الرب، بل وحيث ابتدأ هو نفسه، أي ق. يوحنا، لأن هذا المكان يحمل الذكرى العطرة لمقابلته للرب هناك والانتقال من تلمذة المعمدان إلى تلمذة المسيح. فهذا المكان هو أيضاً الذي وُلِدَتْ فيه الشهادة للرب والإيمان به.

«فأتى إليه كثيرون وقالوا إن يوحنا لم يفعل آية واحدة»:

هنا يتضح لنا كيف أن الناس البسطاء كانوا يُعوِّلون على عمل الآيات في تزكية الرب، وطالما لم يتدخل رؤساء الكهنة والفريسيون، كان الإيمان بالمسيح سهلاً عليهم للغاية. ولكن تسجيل ق. يوحنا الإنجيلي لهذا القول كان في الحقيقة ذا إتجاهين:

الإتجاه الأول: كان ليرفع مستوى حرارة المقارنة بين المسيح والمعمدان إلى أقصاها، وذلك لكي يضع المعمدان أخيراً في حجمه الصحيح بالنسبة للرب.

أما الإتجاه الثاني: وهو الذي يأتي دائماً بصورة سرية وبديعة، فهو لتمهيد ذهن القارىء لاستقبالِ آخرِ وأعظمِ آية صنعها المسيح، والتي كان يعتبرها ق. يوحنا ذات مضمون لاهوتي وفريد للغاية، وهي آية إقامة لعازر من الموت، التي مهَّد بها الرب لاستعلان سلطانه على الموت، والحياة بالقيامة من الأموات، المزمع أن يتمثلها بجسده.

كذلك لنا في هذه الآية: «ومضى أيضاً إلى عَبْرِ الأُردن، إلى المكان الذي كان يوحنا يعمِّد فيه أولاً، ومكث هناك»، لنا في هذه الآية رأي خاص. فالمسيح هنا ذهب بمفرده، أو ربما مع ق. يوحنا الرسول، ولم يكن تلاميذه الآخرون معه، وهذا واضح غاية الوضوح. ولكن كان له في عَبْرِ الأُردن تلاميذٌ قدامى يُقال أن عددهم كان خمسة بحسب رواية بعض الرابيين اليهود في التلمود(٧)، وكان منهم توما، هؤلاء هم الذين رافقوه من بيت عنيا عَبْرِ الأُردن إلى بيت عنيا،

---

[7] A.M.Hunter, *The Gospel according to St. John,* p. 34.

لعازر ومرثا ومريم، حيث أقام المسيح لعازر من الموت. فلم يكن حاضراً هذه الآية من الإنجيليين إلاَّ ق. يوحنا. لذلك فهو الوحيد الذي سجَّلها كشاهد عيان، ولهذا سقطت هذه الآية من روايات الأناجيل الثلاثة الأخرى، كما سقطت معها حوادث خدمة الرب في عبر الأُردن لهذه المدة.



الأصحاح الحادي عشر

مكان البشارة
تاسعاً ــ في اليهودية
في بيت عنيا
(١١: ١ــ٥٣)

الأصحاح الحادي عشر

استعلان قوة المسيح المحيية والمقيمة من الموت

«أنا هو القيامة والحياة»

آية إقامة لعازر من الموت(١)

[أقَمْتَ الموتى مِنْ القبور، أقَمْتَ الطبيعة بالكلمة].
(القداس الغريغوري القبطي).

مقدمة عامة:

إقامة لعازر من الموت آية اختص بها إنجيل يوحنا بمفرده دون بقية الأناجيل الأخرى. ولكن الأناجيل الثلاثة تقدم ما يمكن اعتباره المقوّمات الأساسية للتركيب الإعجازي والتاريخي لهذه الآية:

فإنجيل القديس مرقس في الأصحاح الخامس (٢١ــ٤٣) يقدم الموازي الإعجازي وهو إقامة ابنة يايرس من الموت.

وإنجيل القديس لوقا في الأصحاح السابع (١١ــ١٧) يقدم المثيل الإعجازي أيضاً وهو إقامة ابن أرملة نايين.

وامتناع إنجيل ق. يوحنا عن ذكر هاتين الآيتين إنما ينبع من التقليد الذي يقوم على أساسه تدوين الإنجيل الرابع بجملته، وبعد ما يقرب من نصف قرن من تدوين أسفار العهد الجديد بأناجيله الثلاثة ورسائله، وهو تقديم آيات أخرى جديدة مختارة بنوع خاص، تكون على نفس

(١) إنجيل إقامة لعازر يُقرأ مرتين في السنة:
ــ في سبت لعازر قبل أسبوع الآلام مباشرة.
ــ وفي الأحد الرابع من شهر أبيب.

المستوى الإعجازي العالي، ولكن ذات اعتبار هام من جهة تدعيم الإيمان، وليس لمجرد السرد التاريخي، لتغطية سني حياة المسيح في الخدمة(٢). وهذا واضح غاية الوضوح من المنهج العام الذي اختطَّه ق. يوحنا في كتابة إنجيله ودوَّنه بنفسه في ختام الإنجيل: «وآيات أُخَرَ كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تُكتب في هذا الكتاب. وأما هذه فقد كُتِبَت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله، ولكي تكون لكم، إذا آمنتم، حياة باسمه» (يو٢٠: ٣٠و٣١)؛ مما يؤكد لنا أن الأناجيل الثلاثة، بل والأربعة لم تستوفِ السرد الكامل لجميع الآيات التي صنعها الرب الأمر الذي لم يَفُتْ على إنجيل ق. يوحنا أن يسجله أيضاً: «وأشياءُ أُخَرُ كثيرة صنعها يسوع، إن كُتِبَت واحدة فواحدة، فلستُ أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة آمين.» (يو٢١: ٢٥)

كذلك لو لاحظنا الخط الفكري لإنجيل يوحنا في تدوينه للآيات الأخرى، نجده ينتقي الآيات ذات العناصر الخارقة لحدود الطبيعة والعقل لتخدم الغرض الأساسي من جهة الإيمان، مثل شفاء مريض بيت حسدا المشلول **لثماني وثلاثين سنة** (يو٥: ٥)، **وشفاء المولود أعمى من بطن أمه** (يو٩)، وفي الآية التي نحن بصددها إقامة لعازر من الموت ــ **وأيّ موت؟ بعد أربعة أيام في القبر**، وهذا هو العنصر الأساسي في الآية. وهكذا نرى أن آية إقامة لعازر من الموت تأتي في إنجيل يوحنا، وفي منهج كاتبه، متوافقة تماماً مع مستوى الآيات الأُخرى فيه.

القصد الأساسي من آية إقامة لعازر من الموت:

ينبغي أن نستبعد من إنجيل يوحنا ومن منهج كاتبه فكرة أنه يعرض لنا المسيح كصانع معجزات على أعلى مستوى؛ هذا خطأ. ولكنه، ومنذ مطلع إنجيله يودُّ أن يعرض لنا ــ وخاصة في هذه الآية ــ أن المسيح عنده الحياة الأبدية، وأن القيامة من الموت في حوزته وتحت سلطانه. ولكي يُلْفِت نظر إيماننا أنه حقاً صاحب سلطان على الموت في أعنف سطوته، ترك لعازر لأربعة أيام في القبر حتى استبد الموت بجسده، ومزَّق أوصال لحمه، وجمَّد دمه، وأنتن. وهنا صورة مصغَّرة ولكنها ذات ملامح متكاملة لقيامة الأجساد في اليوم الأخير. إذن، **فبإقامة لعازر من الموت هكذا بعد أربعة أيام في القبر، يُحضِرُنا المسيح ويوقفنا أمام القيامة في اليوم الأخير**؛ وعلى الوجه الأصح، يُحضرنا و يوقفنا أمامه باعتبار أنه هو هو القيامة وهو هو الحياة؛ الأمر الذي التبس على مرثا وصحَّحه لها المسيح: «قالت له مرثا: أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة في اليوم الأخير، قال لها يسوع أنا هو ἐγώ εἰμι القيامة والحياة» (يو١١: ٢٤و٢٥). هنا يظهر القصد الرئيسي من آية

(٢) راجع المدخل ص٦٢و٦٣: الغرض الأساسي من كتابة إنجيل يوحنا كما يراه ق. يوحنا نفسه، وأيضاً ص٢٩٠ــ٢٩٣: الآيات في إنجيل ق. يوحنا.

إقامة لعازر من الموت. فالقيامة والحياة هما في المسيح، وعلينا أن نواجههما **الآن** وليس في اليوم الأخير، ولا حتى في يوم مماتنا، بل **الآن** لأن الآن هو في حوزتنا أما اليوم الأخير و يوم مماتنا فليسا في حوزتنا. و«الآن» في إنجيل يوحنا يعني «الآن»، والانتقال من الموت ونَتَنِ الموت إلى ملء الحياة هو أيضاً «الآن»: «الحق الحق أقول لكم إنَّ **من يسمع كلامي** و يؤمن بالذي أرسلني، **فله حياة** أبدية، ولا يأتي إلى دينونة، بل **قد انتقل من الموت إلى الحياة**» (يو٥: ٢٤). ولكي يؤكد بل يزيد صحة مفهوم «الآن» يضيف المسيح مباشرة: «**الحق الحق** أقول لكم إنه **تأتي ساعة وهي الآن**، حين يسمع الأموات (بالخطية) صوت ابن الله والسامعون (التائبون) يحيون.» (يو٥: ٢٥)

والمسيح يطبّق قوله من جهة سماع صوته **«الآن»** في القلب وقبول العفو من الدينونة، بالتوبة والاعتراف والحصول على الانتقال من الموت الأبدي بالخطية إلى الحياة الأبدية، يطبّقه على ما سيحدث تماماً **في اليوم الأخير**، إذ عاد وقال نفس الكلمات، مع حذف كلمة «الآن»: «لا تتعجبوا من هذا فإنه تأتي ساعة (وهي ليست الآن) فيها يسمع جميع الذين **في القبور** صوته فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (يو٥: ٢٨و٢٩). هنا ينطبق سماع الخطاة صوت ابن الله **الآن**، على سماع الأموات صوته **في اليوم الأخير** من جهة القيامة من الموت تمام الإنطباق، مما يؤكد، حتماً و بالضرورة، أن القيامة والحياة الأبدية يعملان فينا منذ الآن كاليوم الأخير تماماً. وهذا أيضاً هو نفس جوهر تعليم المسيح **من جهة أكل الجسد وشُرب الدم**، الذي يأتي بالتساوي في مقابل سماع صوت ابن الله الآن بالتوبة، وقبول الانتقال من الموت إلى الحياة، وفي اليوم الأخير، استجابة لنداء الدينونة الأخيرة للقيامة العامة: «مَنْ يأكل جسدي و يشرب دمي فله حياة أبدية، وأنا أُقيمه في اليوم الأخير.» (يو٦: ٥٤)

هذا المفهوم الإيماني هو جوهر القضية في آية إقامة لعازر من الموت. ولكن المسيح امتد بهذا الإيمان، ليزيده توضيحاً من وضع لعازر هكذا: «قال لها يسوع: أنا هو القيامة والحياة. مَنْ آمن بي، ولو مات، فسيحيا» (يو١١: ٢٥). ثم بعد ذلك قال: «لعازر قُمْ»، فقام. والقصد هنا إعطاء النموذج التطبيقي لقدرة المسيح على الإقامة من الموت الجسدي، ليوضح نفس مستوى **قدرته على الإقامة من موت الخطية**، لكي يبرهن المسيح على أن قوة القيامة والحياة فيه هي واحدة بالنسبة للخطاة، ببرهان إقامة لعازر من الموت بعد أن أنتن. هذا من جهة قدرة المسيح، أما من جهة المسيح ذاته فواضح أنه وهو أمام قبر لعازر يبكي، ثم وهو يأمر الميت المنتن في القبر لأربعة أيام ـــ ليقوم و يهبه الحياة، يكون قد حقق في شخصه ما هو للإنسان وما هو لله **بآن واحد** ـــ دون

أي قصور أو نشاز! وأنه حقاً «لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضاً» (يو١٠: ١٨) فيما لنفسه، وأنه هو ديّان الأحياء والأموات.

العناصر التاريخية في الأناجيل الأخرى عن إقامة لعازر من الموت:

لقد رأينا أنه، وإن كان إنجيل يوحنا قد انفرد بهذه الآية، إلاَّ أنها ليست غريبة عن مثيلاتها في الأناجيل الأخرى. والآن إذا دققنا وجدنا أن عناصر قصة هذه الآية بعينها قد وردت في الأناجيل الأخرى هكذا:

أ ــ مثل الرجل الغني و«لعازر» في إنجيل لوقا (١٦: ١٩ــ ٣١):

ليس التشابه هنا مجرد ورود اسم «**لعازر**» الذي مات وانتقل إلى حضن إبراهيم، بل الكيفية التي انتهى بها المثل عندما طلب الغني الذي مات من إبراهيم أن يرسل لعازر ــ أي يقيمه من الموت ويرسله إلى بيت أبيه، ليشهد لهم بالقيامة والدينونة ــ فقال له إبراهيم: «**إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء، ولا إن قام واحد من الأموات يصدِّقون.**» (لو١٦: ٣١)

واضح هنا أن ما سمعه القديس لوقا وسجَّله في إنجيله عن «مَثَل» الغني ولعازر، هو الذي رآه ق. يوحنا وسجَّله في إنجيله كشاهد عيان. فالمعجزة واحدة، القديس لوقا سجَّل جانبها التصوُّري التعليمي ــ بحسب مثل المسيح ــ عن الدينونة والقيامة والإيمان والتوبة؛ والقديس يوحنا سجَّل وقائعها، ليعلِّق بحسب الرؤية الواقعية على أن المسيح هو صاحب الدينونة والقيامة، وأساس التوبة والإيمان. فتسجيل الآيات في الأناجيل يعتمد على الغرض الذي من أجله اختار كل إنجيليٍّ آياته. وكملاحظة عامة، نجد أن الآيات التي صنعها المسيح في أورشليم وما حولها لم يسجلها الإنجيليون الثلاثة، بينما اهتم ق. يوحنا بتسجيلها أقصى اهتمام.

القصد التصوُّري النهائي في ختام مَثَل لعازر والغني في إنجيل لوقا، يقدمه إنجيل يوحنا مطبَّقاً تطبيقاً عملياً؛ فلعازر الفقير قام من الأموات فعلاً، ولكن لم يصدِّق قيامته إخوة الغني الجشع، وهم الفريسيون، لأنهم لم يسمعوا لموسى والأنبياء، ولا صدَّقوا مَنْ أقام لعازر من الأموات أمام عيونهم، ولا خافوا من الدينونة.

أما صحة قصة لعازر في إنجيل يوحنا، كونها آية قد حدثت ــ أو يمكن أن تحدث بالفعل، فهذا يتضح من قول المسيح لتلميذَي المعمدان اللذين جاءا ليستفسرا من المسيح عن المسيح هل هو الآتي أم ينتظرون آخر؟ فكان ردُّ المسيح عليهما: «فأجاب يسوع وقال لهما: اذهبا وأخبرا يوحنا بما **رأيتما** وسمعتما، أن العُمْي يبصرون، والعُرْج يمشون، والبُرْص يُطهَّرون، والصُّمّ يسمعون،

والموتى يقومون، والمساكين يُبَشَّرون.» (لو٧: ٢٢)

ب ـ «مرثا ومريم» في إنجيل لوقا:

مَنْ يقرأ إنجيل لوقا (١٠: ٣٨ــ٤٢)، يسمع عن مرثا ومريم التي جلست عند قدمي الرب لأنها اختارت النصيب الصالح، وهما نفس الأختان المذكورتان في إنجيل يوحنا (١١). **والمسيح هو في الإنجيلين ضيف الشرف.**

ج ـ مريم بصفتها المرأة التي دهنت الرب بالطيب:

وتشترك الأناجيل الأربعة ــ في تقليد واحد ــ وهو توصيف **«مريم»** بالمرأة التي دهنت المسيح بطيب ناردين غالي الثمن ــ كانت قد حفظته عندها ــ ولم تعلم أنه كان بمثابة تكفين الجسد حسب قول الرب، وذلك في بيت سمعان الأبرص ــ الفريسي. وهذا التقليد مُحقَّق، لأنه وإن كانت الأناجيل الثلاثة لم تذكر مريم بالاسم بل ذكرتها باعتبارها المرأة التي دهنت المسيح بالطيب، إلاَّ أن إنجيل يوحنا انفرد عنهم جميعاً بأن ذكرها بالاسم، مما يوضِّح أن تقليد ق. يوحنا في إنجيله هو الأكثر مطابقة (أنظر يو١١: ٢؛ ١٢: ١ــ٨؛ مر١٤: ٣ــ٩؛ مت٢٦: ٦ــ١٣؛ لو٧: ٣٦ــ٣٩).

بهذا نرى أن التقليد الإنجيلي التاريخي العام يقف خلف مفردات قصة قيامة لعازر من الموت في إنجيل يوحنا، ليعطيها صحتها التقليدية والتاريخية معاً.

وآية إقامة لعازر من الموت هي بحسب ترتيبها في إنجيل يوحنا تكون هي الآية السابعة والأخيرة:

الآية الأُولى: تحويل الماء إلى خمر ــ الأصحاح الثاني.
الآية الثانية: شفاء ابن خادم الملك ــ الأصحاح الرابع.
الآية الثالثة: شفاء مشلول بيت حسدا بعد ٣٨ سنة ــ الأصحاح الخامس.
الآية الرابعة: إشباع الجموع من خمس خبزات وسمكتين ــ الأصحاح السادس.
الآية الخامسة: السير على الماء وإسكات الريح والموج ــ الأصحاح السادس.
الآية السادسة: شفاء الأعمى المولود هكذا من بطن أُمه ــ الأصحاح التاسع.
الآية السابعة: إقامة لعازر من الموت بعد أربعة أيام في القبر ــ الأصحاح الحادي عشر.

ويلاحظ الباحث أن كلًّا من الآية الأُولى والأخيرة صنعهما الرب في الوسط العائلي، **وبقصد**

اظهار مجده (١١:٢): «هذا المرض ليس للموت بل **لأجل مجد الله،** ليتمجد ابنُ الله به»، «ألم أَقُلْ لكِ إن آمنتِ ترين **مجد الله؟**» (يو١١: ٤ و٤٠) **ولتشديد الإيمان:** «وأنا أفرح لأجلكم إني لم أكن هناك لتؤمنوا. ولكن لنذهب إليه.» (يو١١: ١٥)

العناصر التاريخية داخل القصة:

الملامح الزائدة الحساسية الواردة في قصة إقامة لعازر من الموت، والتي تشير إلى حضور ق. يوحنا كشاهد عيان شديد الملاحظة دقيق التدوين، هي بحدّ ذاتها تزيد ثقل كفة الصدق التاريخي للرواية وهي:

- إبراز العلاقات الحميمة بين عائلة لعازر والمسيح (١١: ٥).
- تأخُّر المسيح عن الذهاب لبيت عنيا يومين عن قصد (١١: ٦).
- موقع قرية بيت عنيا بدقة (١١: ١٨).
- حضور اليهود (١١: ١٩).
- الرسالة السرية (١١: ٢٨).
- لقب المسيح المحبوب «المعلم» (١١: ٢٨).
- صمت يسوع (١١: ٣٠).
- انزعاج الرب لبكاء اليهود مع مريم (١١: ٣٣).
- سجود مريم أمام المسيح (١١: ٣٢).
- إظهار عواطف المسيح البشرية بحرية دون أي حذر (١١: ٣٣ و٣٥و٣٨).
- وصف هيئة لعازر عند ظهوره (١١: ٤٤).

القيمة اللاهوتية لآية إقامة لعازر من الموت:

لقد أصاب ق. يوحنا كثيراً في جعل آية لعازر ختاماً للآيات التي صنعها يسوع ولتعاليمه العامة جميعاً. فهو بهذه الآية، يجيب على جميع الأسئلة والاستفسارات التي كانت تتتابع وراء الحقائق التي أبرزها الإنجيل دون برهان أو توضيح: فالآن يتضح كيف أن المسيح هو «الكلمة» التي يسمعها الميت فيقوم من الأموات، وهو الله المتكلم الذي يُحيي من يشاء، وهو الذي يمكن أن يخلق كل شيء من العدم أو الموت؛ وكيف أن فيه الحياة، وأن الحياة هي نور الناس، وكيف أن النور أضاء في الظلمة، ثم كيف يولد الإنسان من جديد؟ وكيف أن الأموات يسمعون صوت المسيح ابن الله؟ وكيف يستطيع المسيح أن يعطي حياة للعالم؟ وكيف يمكن أن يقوم الأموات

بالجسد؟ بل كيف سيقوم المسيح من الموت بسلطانه وحده تحقيقاً لقوله: «لي سلطان أن أضعها، ولي سلطان أن آخذها أيضاً» (يو١٠: ١٨)؟ وكيف أن المسيح يبطل الموت و يقهر سلطانه؟ وأخيراً كيف يكون المسيح بالنسبة للعالم هو فعلاً الألف والياء البداية والنهاية؟

كل هذه الأسئلة يرد عليها كلُّ مَنْ يتعمق في هذه المعجزة التي صنعها الرب يسوع المسيح جهاراً أمام تلاميذه واليهود. وما عليك، أيها القارىء العزيز، إلاَّ أن تسير مع مفردات هذه المعجزة كأحد المشاهدين، وتتأمل الرب وهو واقف أمام قبر لعازر ومريم وأختها تبكيان، ومعهما اليهود والمُعَزُّون يبكون، وصوت ابن الله ــ الكلمة ــ يدوِّي فجأة ليخترق ظلام القبر والهاو ية وحُجُب *العالم الآخر غير المنظور، كما يخترق النور حُجُب الظلام و يهتكها جميعاً*، و يُصرعُ الموت في داره ليقوم لعازر! الهاو ية انشقت وخرجت منها روح لعازر، والمادة الميتة والمنتنة في القبر تقبلت رعشة الحياة، فوُلِدَ لعازر من رَحِم الحياة مرة أخرى، ووطىء الموت وقام من جديد!

كان المسيح ــ كما هو الإنسان المحبوب ــ واقفاً على باب القبر، وكلمته باعتباره ابن الله تزلزل أركان الهاو ية بسلطانها الإلهي، لترتعب لها سلاطين الظلمة والموت، فينفكَّ من أسرها أسيرُ محبة المسيح: «**سبى سبياً**، وأعطى الناس عطايا» (أف٤: ٨)، ويخرج لعازر إلى الحياة بقوة الكلمة المحيية.

ثم ــ يا قارئي العزيز ــ مَنْ هو لعازر الحقيقي إلاَّ أنا وأنت الملفوف برُبُط الخطية التي أقعدَته عن حركة الروح وأسكنته صمت القبور إزاء تسابيح صهيون والأرواح المكمَّلة في المجد مع كل ملائكة الله؟ آذاننا إليك، يا ابن الله، بانتظار كلمة الحياة، «الإرادة حاضرة عندي وأما أن أفعل الحُسْنَى فلستُ أجد» (رو٧: ١٨). ألستُ أنا ميّتك؟ ليست لي مريم ولا مرثا ليبكوا عليَّ! وليس لي رسول يحمل رسالتي سرًّا إليك إلاَّ روحك القدوس ــ لا تتأخر كثيراً وتعالَ، نعم تعال سريعاً، قبل أن تعكِّر نتانتي صَفْوَ محبتك، قُلْ لمَنْ دحرج الحجر عن قبرك أن يدحرجه عني، قُلْ كلمتك وأوعِزْ إلى ملائكتك أن «حلُّوه ودعوه يذهب...»(٣)

(٣) [السلام للعازر الذي أقامه بعد أربعة أيام
أقم قلبي يا ربي يسوع الذي قتله الشرير] (مرد إنجيل سبت لعازر).

القصـــة:

لعازر ومريم ومرثا وبيت عنيا: (١١: ١ـ ٢).

١١: ١ **«وكان إنسانٌ مريضاً وهو لِعازَرُ من بَيْتِ عَنْيَا من قريةِ مريم ومرثا أختِها».**

شخصية لعازر غير واردة إلاَّ في إنجيل يوحنا. و يبدو أن صداقته للمسيح ومحبة المسيح له كانت عائلية، فلم يكن يتبع المسيح في ترحاله، ولكن كان المسيح يحط ترحاله في بيته ليجد راحة هناك. ولهذا يبدو أنه لم يكن معروفاً لدى بقية التلاميذ. لذلك نجد ق. يوحنا يضيف إليه صفة أخرى معروفة أو معلومة ثابتة تجعله معروفاً، وهي أنه من بيت عنيا وأنه أخو مريم ومرثا أختها. واسم لعازر هو مختصر «أليعازر»، ومعناه الحرفي «إيليْ عزار»، أي الله قد آزر أو أعان.

وقرية بيت عنيا هي قريبة من أورشليم على مسافة ١٥ غلوة، أي ما يساوي تقريباً ٢ كيلومتراً على الجهة الشرقية لجبل الزيتون، وهي المسافة المسموح بها للسفر يوم السبت عند اليهود، والقرية الآن مسمَّاة «ألعازاريا» نسبة لآية إقامة المسيح للعازر هناك. و يلاحَظ أنه توجد قرية أخرى مسماة بهذا الاسم عبر الأُردن والتي يُقال لها في بعض المخطوطات «بيت عبارا» (يو١: ٢٨). **وبيت عنيا** تعني بالعبرية «بيت العناء». وقد ذكرها سفر نحميا تحت اسم **«عننية»** (نح ١١: ٣٢).

«مريم ومرثا أختها»:

بحسب الشهرة الإنجيلية، تأتي مريم قبل مرثا، ولكن مرثا هي الأخت الكبرى. وهذان الاسمان كانا معروفين لدى الوسط الإنجيلي بين التلاميذ، وذكرهما القديس لوقا (١٠: ٣٨) في موضوع المحبة للمسيح باعتبارها هي الحاجة الوحيدة التي نحتاجها حقاً في هذه الدنيا. ولكن إنجيل القديسَيْن مرقس ومتى يُعرِّفان مريم بأنها «امرأة معها قارورة طيب» (مت٢٦: ٧)، ولكنهما عادا فسجَّلا لها ذكراها إلى الأبد في كل أنحاء الدنيا «الحق أقول لكم: حيثما يُكرز بهذا الإنجيل في كل العالم، يُخبر أيضاً بما فعلته هذه تذكاراً لها.» (مت٢٦: ١٣)

ولكن ق. يوحنا يختص الأختين بكثير من التعريف والعناية والملاحظة، مما يؤكد معرفته الشخصية لهما وللعازر أخيهما، وذلك بسبب تأثُّره الشديد بالمعجزة التي تمت لأخيهما.

١١ : ٢ «وكانت مريمُ ـ التي كان لعازرُ أخوها مريضاً ـ هي التي دهنت الربَّ بطيب ومَسَحَت رجليه بشعرِها».

هنا تعريف مريم أنها هي التي دهنت الرب بطيب ومسحت رجليه بشعرها؛ وهذا العمل جاء بنصه في الأصحاح القادم (١٢: ٢و٣).

«**الطيب**» وجاء باليونانية μύρον و يعني العطر المستخرج من النباتات ذات الروائح الذكية، وكان يُستخدم إما نقيًا وهو المعبّر عنه بطيب «**خالص**» πιστική ، أو مخلوطاً بالزيت. وكان زيت الزيتون هو الزيت الوحيد المستخدم في صناعة الميرون و يُسمى ἔλαιον ، وكان يُستخدم أيضاً في دَهْن أعضاء الجسم وخاصة الرِجْلين بعد السفر الطويل.

والرب في قصة سمعان الفريسي (لو٧: ٤٦) يفرِّق بين الدهن «**بالزيت**» العادي والدهن بالميرون، وهو الزيت المعطَّر أو العِطْر الخالص: «بزيت لم تدهن رأسي وأما هي فقد دهنت بالطيب رجليَّ». والدّهن بالزيت العادي يُعبَّر عنه في القديم باليونانية بالفعل ἀλείφω .

أما المسح بالزيت المقدس في العهد القديم فيسمى χρίω ، والعمل نفسه أي «**المسحة**» χρίειν ، وهما مُشتقاتٌ من χριστός . أما المسحة في أسفار العهد الجديد فهي عمل يتم بالروح القدس سرًا و يسمى χρίσμα . والكنيسة القبطية تستخدم الميرون وزيت الغلاليون وزيت الزيتون البسيط مع صلوات لحضور الروح القدس في أنواع الخِدَم المقدسة المتعددة.

الرسالة الخاصة:

١١ : ٣ «فأرسلت الأختانِ إليهِ قائلتين: يا سيدُ هوذا الذي تحبُّه مريضٌ».

رسالة مختصرة تحمل معناها في مبناها، كمعلومة مقدّمة إلى طبيب حاذق، تذكر الأعراض دون التدخل في شئون العلاج. وهذه هي من أروع الرسائل التي تُقدم إلى الله كصلاة، وهي نفس النموذج الذي قدمته القديسة مريم العذراء إلى الرب من أجل إسعاد ضيوف حفل زفاف عرس قانا الجليل. أما الطبيب فمُلْزَم بالعلاج، لأن الثمن مدفوع مقدماً وهو الحب المتبادل. وعن نوع هذه الطلبات المقدمة في الصلاة إلى المسيح والآب، يقول ق. يوحنا أنها معتمدة حال النطق بها، ولا يُعوز المتوسل إلاَّ انتظار التحقيق، وأيضاً يسجل ق. يوحنا هذه المعلومة الإلهية باختصار غاية في الروعة وغاية في اليقين: «وهذه هي الثقة التي لنا عنده أنه إن طلبنا شيئاً حسب مشيئته يسمع لنا، وإن كنا نعلم أنه مهما طلبنا يسمع لنا، **نعلم أن لنا الطلبات التي طلبناها منه**.» (١يوه:

١٤و١٥)

والذي يلفت نظرنا في هذه الآية هو قول الأختين «الذي تحبه» حيث تأتي في اليونانية ὃν φιλεῖς . وهنا المعنى ينصبُّ على محبة **روحية خالصة** تعبيراً عن مودة العلاقات الشخصية والصداقة الشديدة الطبيعية، علماً بأنه لا يوجد في اليونانية كلمة «صديق»، وهذه الكلمة يحل محلها φίλος أي محب. وتأتي هذه الكلمة في إنجيل يوحنا ثلاث عشرة مرة، تعبيراً عن محبة الله الآب للابن، وعن محبة الله للذين يحبون ابنه، ومحبة المسيح لتلاميذه، ومحبة التلاميذ نحو المسيح. وتغيب هذه الكلمة من جميع رسائل يوحنا. أما محبة الأغابي ἀγαπᾶν فتنمُّ عن الثقة والتوقير والإعجاب، وهي محبة المشاعر، وتأتي نتيجة اختبار واختيار أخلاقي وحكم عقلي.

١١ : ٤ **«فلما سَمِعَ يسوعُ قالَ: هذا المرضُ ليسَ للموتِ، بل لأجلِ مجدِ الله ليتمجَّدَ ابنُ الله بهِ».**

هنا رد فعل المسيح مطابق تماماً لرد الفعل على سؤال التلاميذ بالنسبة للمولود أعمى **«لتظهر أعمال الله فيه»** (يو٩ : ٣)!! وهذا هو رد الله دائماً ــ ومنذ القديم ــ على كل نقص أو عوز أو ألم أو ضيق أو فقدان أو خسارة أو موت بالنسبة لأولاده. فهو أولاً وقبل كل شيء **«في كل ضيقهم تضايق**، وملاك حضرته خلّصهم» (إش٦٣ : ٩)، وثانياً: «اذبح لله حمداً وأوفِ العليَّ نذورَك. **وادْعُني في يوم الضيق أُنقِذْك فتمجّدني**» (مز٥٠: ١٤و١٥)، وثالثاً: «تكفيك نعمتي **لأن قوتي في الضعف تكمل**.» (٢كو١٢ : ٩)

و يلاحظ في الاصطلاح اليوناني:

οὐκ ἔστιν πρὸς θάνατον ἀλλ᾽ ὑπὲρ τῆς δόξης τοῦ θεοῦ.

أن المعنى لا يفيد "من أجلِ مجد الله" ولكن ὑπέρ يفيد معنى ἵνα التي تعني **«لكي»**. فهنا قصد الله حاضر، وليس مصادفة، فالله يقصد إعلان مجده بواسطة يسوع المسيح، بقصد أن يتمجد يسوع أيضاً، و بالنهاية لكي نرى ونؤمن. فالمرض **لا يتجه** πρός **نحو** الموت في قصد الله، ولكنه مقصود لإعلان مجد الله بالمسيح. ولكن لا يزال المعنى يمتد ليشمل استعلان مجد الله في المسيح نفسه، الذي سيمجده الله على نفس النمط بالقيامة من الموت.

كان هذا الرد على الرسالة المُرْسَلة من الأختين بمثابة تأشيرة في أسفل التذكرة الطبية مؤدّاها: [لا داعي للقلق، انتظروا مجد الله].

الرد مثير للإيمان، ومؤكِّد للرجاء، ومستجيبٌ للمحبة. وهذا هو رد الله دائماً، أقوى من أقوى رسالة تصل إلينا من خلال يأسنا ودموعنا واضمحلال رجائنا. وها نحن الآن عالمون تماماً أن الرب آنئذ كان عالماً تماماً بأنه قد مات فعلاً. لأنه حينما وصل الرب بيت عنيا كان لعازر له أربعة أيام في القبر، والرحلة من عَبْر الأُردن إلى بيت عنيا تستغرق يوماً واحداً، فإذا أُضيف إليها يومان تأخّرهما الرب، يكون لعازر — وقت أن بَلّغ الرسول رسالته — قد مات وله يوم كامل في القبر.

وهكذا فإن ما يراه الرب غير ما نرى نحن، دوافعنا ليست واقِعةً، ولو تركنا تقديراتنا لحساباته لجاءت النتائج جدّ مخالفة لظنوننا.

فالموت عندنا هو الموت، مهما أعطيت له من المسمّيات الملطّفة، فهو قاسٍ أقسى ما تكون القسوة على مشاعر الإنسان وأفكاره وحساباته. فهو يحطم الآمال، ويُنهي على الرجاء، ويخنق المحبة، ويكفي أن يصفه الروح على فم بولس الرسول أنه «آخر عدو» يتواجه معه الإنسان قبل الرحيل. ولكن كل هذه الأوصاف تتصفى كلها في مِصفاةِ رؤية الله وقدراته وإمكانيته، ليأخذ الموت عنده صفة الرقاد لا غير، حيث تكون اليقظة منه حتمية، ومعها بهجة القيامة لحياة ملؤها الحياة. وهذا الذي يراه الله لأحبائه، رآه المسيح وأجراه كنموذج أبقاه لنا على الأرض في قصة لعازر المحبوب، حتى لا يستبدّ بنا يأس الموت أبداً، فوراء آخر عدو، أعظمُ حبيب لنا. ذاك يُرْدينا التراب، وهذا يُوْلِجُنا السماء.

حينما ترصّد الموت للعازر وأراد أن يسخر من رباط المحبة التي تربطه بالمسيح، ونوى أن يتعالى بقوته وسطوته فوق سلطان رب الحياة، ويثير الإنزعاج والرعبة في قلوب النسوة، ويطيح بهيبة المسيح أمام التلاميذ والمحبين، ويكفي للتدليل على ذلك قول اليهود: «ألم يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت» (يو١١: ٣٧)؛ حينئذ أدرك ذلك كله المسيح من على بُعْدٍ، فأرخى الحبل للعدو ليصنع بفريسته كل ما أراد! وعقد الرب العزم أن يتمجد في لعازر من أجل نفسه والمحبين، فيستعلن للعالم قوة القيامة والحياة التي فيه، ويظفر بالموت في مَعْقِله، ويشق الهاوية، ويحطم قيود الموت، ليفكَّ النفس علناً، ويقيم الجسد بالكلمة، ويُخرِجَ لعازر وسط هتاف «المجد لله».

١١: ٥—٧ **«وكانَ يسوعُ يحبُّ مرثا وأختَها ولعازَرَ، فلما سَمِعَ أنه مريضٌ مكثَ حينئذٍ في الموضعِ الذي كان فيه يومَين. ثم بعد ذلك قال لتلاميذِهِ: لنذهب إلى اليهوديةِ أيضاً».**

محبة المسيح لهذه العائلة تأتي بالكلمة أغابي « ἠγάπα » التي تنم عن الاختيار والأفضلية

الأخلاقية. وبهذا نفهم من هذه الكلمة، أن هذه العائلة اختارها المسيح لدخوله وخروجه بعد فحص ومراقبة، فارتاح إلى أفرادها **جميعاً**، فأحبهم جميعاً. وبالملاحظة نجد أن الفعل الذي استخدمته الأختان للتعبير عن محبة المسيح للعازر، جاء من الأصل φιλέω تعبيراً عن المودة الروحية أو **الصداقة** الخاصة والطبيعية. أما الكلمة التي عبَّر بها ق. يوحنا عن محبة المسيح للعائلة كلها فجاءت عن الأصل ἀγαπᾶν ، التي تعني أن المحبة تأتي بعد فحص عقلي ومعرفة وتقدير وحكم شخصي.

وهكذا، لك أيها القارىء العزيز، أن تدرك مقدار الدقة التي يسجل بها ق. يوحنا إنجيله، وليس الدقة فحسب، بل ومقدار المطابقة الشديدة الإحكام بين مشاعر كل شخص والكلام المسجَّل عنه، كلًا على حدة، جملة جملة.

ولكن هذه الآية يصعب **فهمها** بحسب ترتيب الكلام الذي كُتبت به، إذ يَفهم منها القارىء لأول وهلة أن المسيح تأخر يومين **خصيصاً** وعن **قصد** لكي يصنع معجزة لعازر لأنه كان يحبه. ولكن بحسب الحساب الذي سبق أن أجريناه، فإنه حينما بلغ المسيحَ خبرُ مرض لعازر، كان لعازر في الحقيقة قد مات ودُفِنَ ليوم كامل، فلو كان قد تحرك في الحال لكان قد بلغ بيت عنيا ولعازر في القبر وله يومان، من هذا يتضح لنا أن تأخُّر الرب لم يكن عن قصد.

لذلك فإن ترتيب الكلام ينبغي أن يكون هكذا: [فلما سمع يسوع أن لعازر مريض قال لتلاميذه بعد أن مكث يومين في الموضع الذي كان فيه، لنذهب إلى اليهودية أيضاً، لأن يسوع كان يحب مرثا وأختها ولعازر].

أما حبه لمرثا فكان بحكم أنها كانت ـــ كما يبدو ـــ كبيرة العائلة، فكانت هي دائماً صاحبة الضيافة، وكانت شديدة العناية بخدمة الرب، وهذا يتضح في إنجيل القديس لوقا «وفيما هم سائرون دخل قرية، **فقبِلَتْه امرأة اسمها مرثا في بيتها**. وكانت لهذه أختٌ تُدعَى مريم، التي جلست عند قدمي يسوع، وكانت تسمع كلامه، **وأما مرثا فكانت مرتبكة في خدمة كثيرة.**» (لو١٠: ٣٨ــ٤٠)

وأما محبة المسيح لمريم، فكانت بسبب كونها شديدة الإنتباه، تسمع كلامه بوعيٍ وباتضاع، كتلميذة تركت كل شيء لتتبعه روحياً. وهذا العطاء النفسي والروحي يتضح أشد الوضوح من احتفاظها بكمية كبيرة من عِطْرِ الناردين النقي الكثير الثمن، لتضمّخ به جسد المسيح المتعب، والذي حسبه لها المسيح بصفة التكفين.

أما حب المسيح للعازَر، فكان بشهادة الأختين حبّاً شخصياً ὃν φιλεῖς .

أما الموضع الذي مكث فيه الرب يومين فكان ــ إقليم بيريه ــ كما جاء في نهاية الأصحاح السابق، على جبال موآب.

أما لماذا مكث اليومين وهو يعلم أن البيت الذي يحبه قد اشتعل حزناً وغمًّا وعويلاً كثيراً، وهو بنيَّةٍ أن يرفع عنهم هذا الكرب الشديد، وقد عقد العزم على إقامة لعازر من الموت منذ أن بلغه الخبر، بدليل قوله: «هذا المرض ليس للموت... **لكني أذهب لأُوقظه... وكان يسوع يقول عن موته...** فقال لهم يسوع علانية لعازر مات...»، سؤال لا يجيب عليه إلاَّ سؤال آخر ــ أثار حيرة التلاميذ إلى حدّ الغضب ــ لماذا مكث المسيح نائماً في مؤخرة السفينة والرياح والأمواج تعصف بها حتى إلى حدّ الغرق؟ «وكان هو في المُؤخَّرِ على وسادة نائماً. فأيقظوه وقالوا له: يا معلّم **أما يهمُّك** أننا نهلك» (مر٤: ٣٨). هنا ينبغي علينا أن لا ننسى أن المسيح كان يتصرف بين أحبائه وأعدائه كإنسان وإله معاً. فهو كان نائماً فعلاً ولكن حضرته الإلهية قائمة؛ كذلك كان المسيح بعيداً عن بيت عنيا على سفر يوم كامل، ولكنه كان حاضراً في بيت محبيه، وغيابه بالجسد لا يمنع عمله كإله. فهو الذي شفى ابن خادم الملك من الموت، وهو بعيد على سفر يوم كامل، بكلمة!

ولكن الرب أعلن لتلاميذه أن غيابه عن بيت عنيا، هو الذي آل إلى كل الحوادث التي صارت من مرض شديد وموت: «وأنا أفرح لأجلكم **أني لم أكُنْ هناك**، لتؤمنوا...»، وهذا تماماً كما تصوَّرته مرثا: «لو كنت ههنا لم يَمُتْ أخي». وهذا بحدّ ذاته صار فرصة جديدة لتلاميذه ليَروْا فيها الرب وهو يقيم لعازر من الموت، فيؤمنوا بالقيامة والحياة في المسيح. وهذا بعينه ما سيحدث بالرغم من الارتباك والحزن اللذين أصابا الأسرة المحبوبة، إلاَّ أنه سيؤول إلى إيمان تلاميذه ومحبيه.

وهكذا وبنظرة متسعة، نرى أن تأخر الرب يومين عبر الأُردن لم يغيِّر في الموقف إلى أسوأ بل ربما إلى أفضل. لهذا لم نَرَ الرب في عجلةٍ للعودة، كمَنْ تؤثر فيه الحوادث لاتخاذ عملٍ أو تحرك انفعالي تمليه عليه الظروف أو الحوادث. بل كان الرب يتحرك ــ **ولا يزال** ــ بحسب رؤيته الشاملة وسَبْق معرفته للأمور والحوادث. فعمل الله ينبع من مسرة مشيئته، ليُخْضِع كل شيء لإرادته. لهذا فكلُّ صمت من قبل الله إزاء إلحاحات توسلاتنا، إنما يخفي غرضاً أسمى!...

١١: ٧و٨ **«ثم بعد ذلك قالَ لتلاميذِه: لنذهبْ إلى اليهوديةِ أيضاً. قالَ له التلاميذُ: يا مُعلِّمُ، الآنَ كانَ اليهودُ يطلبونَ أن يرجموكَ، وتذهبُ أيضاً إلى هناكَ؟».**

يلاحَظ أن الربّ لم يقل لنذهب إلى بيت عنيا، بل إلى **اليهودية** ــ فعين الرب قد بدأت تتثبت على الصليب وعلى أورشليم ــ، ومشيراً بذلك إلى أن الأرض التي هم ذاهبون إليها أرض عداوة. وكأنه هو الذي نبّه ذهن التلاميذ إلى الخطر المخبّأ في هذه الرحلة. علماً بأنهم كانوا في بيريه قد لقوا حفاوةً وإيماناً عند الكثيرين. فلما تنبه التلاميذ، عادوا هم وذكّروه بما قد انتهى إليه هؤلاء الأعداء من تقرير رَجْمِه، وكأنهم يلوِّحون إليه بخطورة هذا القرار على حياته.

١١: ٩و١٠ **«أجاب يسوع أليست ساعاتُ النهارِ اثنتي عشرةَ. إن كان أحدٌ يمشي في النهارِ لا يعثُرُ، لأنه ينظُرُ نورَ هذا العالمِ، ولكن إن كانَ أحدٌ يمشي في الليلِ، يعثُرُ، لأن النورَ ليسَ فيهِ».**

وعلى مستوى أسلوب ق. يوحنا في فهمه وتسجيله لأقوال المسيح فالرد هنا يحمل معنيين: معنى ظاهر مؤدّاه أن على الإنسان أن يعمل طالما أن النهار قائم بنوره وساعاته، فقد وُضع على الإنسان أن يعمل ليغطّي ساعات النهار الاثنتي عشرة جميعاً. والعمل هو على نمط المسيرة، فالسائر في النور وفي النهار لا يعثُر، أما إذا جازف وسار في عتمة الليل، أي في غياب النور، فالعثرة واردة. وهذا بعينه يراه المسيح أنه مأخوذ في الإعتبار بالنسبة له كما هو للتلاميذ.

ولكن المعنى الخفي متّجه رأساً نحو الصليب. فتخويف التلاميذ له غير لائق، ولا هو وارد في حساباته، فنهارُه بالنسبة للعالم لا يزال قائماً ولا يزال هو نوره، فساعته لم تتحدد بعد، وساعة أعدائه لا تزال على بُعْدٍ، وهي التي تمثل ظلمة هذا العالم بكل كثافتها وثقلها: «هذه ساعتكم وسلطان الظلمة» (لو٢٢: ٥٣). فهو إذن لا يزال يسير في وقته المحدد، ولم يدخل بَعْد في منطقة ليل العالم بعثراته وإعثاره. وقد أوضح المسيح ذلك لهم فيما بعد بأكثر وضوح: «فقال لهم يسوع: **النور معكم** زماناً قليلاً بَعْدُ، فسيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام» (يو١٢: ٣٥). أما بالنسبة للمسيح، فقد سبق وأن أوضح ذلك أيضاً فيما يخص عمله: «ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني ما دام نهار. يأتي ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل. ما دمتُ في العالم فأنا نور العالم»[٤] (يو٩: ٤و٥)، مشيراً بذلك إلى ظلمة العالم القادمة، التي تمثل بالنسبة للمسيح الآلام والموت.

---

(٤) راجع شرح هذه الآية في موضعها (يو٩: ٥).

وبالنهاية نلتقط إشارة خفية من وراء هذه الآية، تفيد أن المسيح يريد أن يُطمئن التلاميذ أن يستبعدوا الموت أو العثرات طالما هم معه، لأنه هو نور العالم، وذلك بالنسبة لرحلته القادمة. فإن كانوا قد امتلكوا النور فكيف يخافون؟ لأن الخوف يكون حينما لا يكون «النور **فيهم**»(٥)، ولم يَقُل: «النور حولهم». وهنا ينكشف قصد المسيح من النور والظلمة والنهار والليل. فنهار الإنسان هو المسيح في القلب والفكر، وغياب المسيح من القلب (النور ليس فيهم) هو هو ليل الإنسان، الذي حتماً يكون متوازياً مع الخوف والموت، ومنفتحاً عليه. وإن كان الموت وارداً بالنسبة للمسيح ـــ طالما أن وراء ساعات النهار الاثنتي عشرة ليلاً قادماً ـــ إلاَّ أن الظلمة لن تدرك النور أبداً. ولكن التلميذ الذي تعوَّد أن يضع إصبعه في كل ثغرة، أدرك بحساسيته الحسابية الشكَّاكة، أن الخطورة لا بد مُحْدِقَة بهم من جراء هذه الرحلة. وله رأيٌ في ذلك سنقدِّمه في حينه.

١١:١١-١٣ «قال هذا، وبعد ذلك قال لهم: لعازرُ حبيبُنا قد نامَ، لكني أذهبُ لأُوقِظَـهُ. فقال تلاميذُهُ: يا سيدُ إنْ كان قد نامَ فهو يُشفَى. وكان يسوعُ يقولُ عن موتِهِ، وهم ظنوا أنه يقولُ عن رقادِ النومِ».

الرب هنا يعبِّر عن العلاقة الروحية التي لا تزال قائمة بينه وبين لعازر، ويضمُّ التلاميذ معه فيها، وهي علاقة **الصداقة الروحية** " φίλος " لأن كلمة «حبيبنا» هنا تأتي في معنى الصداقة أكثر منها في الحب، وهي نفس الكلمة الواردة على فم المعمدان: «أما صديق " φίλος " العريس» (يو٣: ٢٩). كذلك هو نفس الاصطلاح الوارد في الآيات ١٣و١٤و١٥ من الأصحاح ١٥: «ليس لأحدٍ **حبٌّ** ἀγάπην أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل **أحبائه** φίλων، ... أنتم **أحبائي** φίλοι إن فعلتم ما أُوصيكم به. لا أعود أُسميكم عبيداً، لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده. لكني قد سمَّيتُكم **أحباءَ** φίλους ...». وهكذا نرى كيف أن اللغة اليونانية تجعل الصداقة الروحية على مستوى المحبة بنوع ما. ونرى أيضاً كيف قصَّرت اللغة العربية في التقاط هذه الفوارق الجوهرية في التعبيرات الروحية.

وينبغي أن نلاحظ أن المسيح أبقى على العلاقة الروحية التي على مستوى صداقة المحبة، كما هي، بعد موت لعازر؛ ما يشير أن نفس لعازر ظلت تتمتع بهذه الصداقة والمحبة الروحية في الموت،

(٥) الترجمة العربية للآية: «إن كان أحد يمشي في الليل يعثر، لأن النور **ليس فيه**» غير واضحة لأن كلمة «فيه» يمكن أن تعود على «الليل» أو على «الذي يمشي». ولكن في الأصل اليوناني «فيه» جاءت بالضمير المذكر ἐν αὐτῷ الذي لا يمكن أن يعود على «الليل» (مؤنث) بل يعود بكل وضوح على «الذي يمشي» (مذكر).

ليس مع المسيح فقط بل ومع التلاميذ. **وهذه هي حال النفس في العالم الآخر بالنسبة لأُلفة الجماعة هنا وهناك.** «**لعازر حبيبنا قد نام**، لكنني أذهب **لأُوقظه**.»

هذا الاصطلاح الجديد (تقريباً) الذي وضعه الرب للتعبير عن الموت بأنه مجرد «**نوم**»، هو نموذج لمعيار تفكير الرب وتعبيره عن الروحيات، و يتضح منه كيف يسعى المسيح لرفع مستوى الفكر البشري للتلامس مع الواقع الروحي الفائق على الطبيعة، وقد صار هو التعبير الطقسي الرسمي في الكنيسة في كل صلواتها ولكن بإضافة هامة: «**فلان رقد في الرب**»[٦] تعبيراً عن «**موت القيامة**». لأنه طالما كان الموت في الإيمان بالمسيح، فإنه يكون مؤدياً إلى قيامة وحياة. لذلك، فهو مجرد رُقاد ــ حتى وإن طال زمنه ــ لأن الزمن غير محسوب بالنسبة للحياة بعد الموت.

[ليس موتٌ لعبيدك، بل هو انتقال] (القداس القبطي ــ أوشية الراقدين).

ولكن تأتي في العهد القديم: «رَقَد وانضم إلى آبائه» (أع١٣: ٣٦ راجع ١مل٢: ١٠) بمعنى الموت المقيم. وإن كان يحتج بعض النقاد أن هذا الاصطلاح كان مستخدماً عند الربيين وعند غير اليهود أيضاً؛ ولكن أن يقوله المسيح و ينطقه بروحه، فقد صار ذا معنى غير كلِّ ما كانت تعنيه الفئات الأخرى من يهودية ووثنية، خاصة وأن الرب أكمل ما يقول بالفعل. فإقامة لعازر من الموت كانت بمثابة اليقظة الجسدية العُظمى للإنسان، والتي لم يكن لها مثيل ولا مُشابِه لرجل أنتن جسده في القبر لأربعة أيام، بعد لعنة الموت الدائم التي حلّت عليه، توطئة ليقظة القيامة الروحية العتيدة أن تكون، وقد صارت بقيامة الرب من الموت.

فالمسيح الآن له هذا القدوم العظيم والمبارك، لإيقاظ النفوس التي غرقت في بحر الخطيئة وأخرجت نتن رائحتها ليَزْكم الأنوف: يأتيها المُبشِّر ببشرى الخلاص من ليلها الطويل: «يقول، استيقظ أيها النائم، وقُمْ من الأموات، فيضيء لك المسيح» (أف٥: ١٤)، حيث يتلقّفه صوت صاحب الرؤيا: «مباركٌ ومقدَّس "مَنْ" له نصيب في القيامة الأُولى، هؤلاء ليس للموت الثاني (موت الدينونة) سلطان عليهم.» (رؤ٢٠: ٦)

هذه هي القيامة الأُولى الروحية ــ الشخصية والفردية ــ من موت الخطية القاتل، التي هي بمثابة جواز الدخول إلى الأمجاد العليا عند استعلان القيامة الأخيرة العامة العتيدة أن تكون على كل العالم. وكما أن نوم الجسد هو محدّد بالساعات؛ هكذا نومُ الموت فهو حتماً إلى ميعاد، وكما أن

(٦) راجع ١كو١٥: ١٨.

النفس تأخذ خبرة الأحلام، إن بأفراح أو بأحزانٍ هي شبه الحقيقة أثناء نوم الجسد؛ هكذا قد أعطي للنفس أن تأخذ خبرة الأفراح والأحزان الحقيقية ــ كسَبْقٍ تذوُّق للقيامة العامة ــ أثناء نوم الموت الطويل إلى أن تحين القيامة العامة لتعيش أفراحَها أو أحزانها الأبدية.

والصوت الذي أيقظ لعازر من نوم موت الأربعة الأيام، هو هو نفس الصوت الذي يسمعه جميع الذين في القبور، «فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (يو٥: ٢٩). والصوت هو صوت الله، ينطقه الابن بالسلطان الذي أعطي له أن يضع النفس ويأخذها أيضاً. وواهب الحياة هو وحده الذي يستطيع أن يُعيدها بأقوى وأشمل صورة، إذا تعدّى عليها الموت إلى حين. فالموت دائماً إلى زمن، والحياة دائماً إلى الأبد!... «لأني أنا حيٌّ فأنتم ستحيون» (يو١٤: ١٩). وكلمة الله التي نطقت هذا هي حيّة وفعالة ...

١١: ١٢ــ١٤ **«فقال تلاميذُهُ يا سيدُ إن كان قد نامَ، فهو يُشْفَى. وكان يسوعُ يقول عن موتِهِ، وهم ظنوا أنه يقولُ عن رقادِ النومِ. فقال لهم يسوع حينئذٍ علانيةً: لعازرُ ماتَ».**

يلزمنا هنا الرجوع إلى اللغة اليونانية لندرك سبب هذا الالتباس عند التلاميذ. فكلمة نام κοιμάομαι في اليونانية تأتي بصيغتين:

الصيغة الأولى بمعنى رقاد الراحة κοίμησις، وتفيد بالتالي إمكانية الرقاد الثقيل بالمرض، كالحمى مثلاً، أو **الموت**، كما جاءت في مواضع كثيرة جداً فى العهد الجديد؛ بل وتفيد أيضاً بصيغة التورية مكان رقاد راحة الموت، وهي الصيغة التي أخذتها اللغات الأخرى من الأصل اليوناني ــ κοιμητήριον ــ ولكن نطقتها كالآتي «cemetery» حيث قلبوا k إلى c، وهي مكان القبور وأصلاً نوم الراحة الطويل.

أما الصيغة الثانية فهي «النوم» بمعنى فقدان الوعي أو الشعور الوقتي، والذي يوضحه جداً تركيب هذه الصيغة ὕπνου، حيث مقطع νου يعني العقل، وὕπο = hypo يعني تحت أو دون. ولكن لم تأتِ كلمة ὕπνου قط بمعنى الموت، في حين أن كلمة κοιμᾶσθαι تأتي لتفيد معنى الموت في العهد الجديد(٧)، وقد تأتي أيضاً بمعنى النوم كراحة.

فالتلاميذ اعتبروا قول الرب أن لعازر κεκοίμηται رقد رقاد المرض كالحمى مثلاً. وهكذا،

(٧) ١تس٤: ١٣: «من جهة **الراقدين** لكي لا تحزنوا كالباقين».

فلا داعي أن يرتحل الرب والتلاميذ معه هذه الرحلة الخطرة التي تحمل في طيَّاتها شبح الموت للمعلم ولهم، فالذي رقد للمرض فهو يُشفَى. ولكن «يُشفَى» σωθήσεται جاءت في اليونانية بلغة التلاميذ بقصد «يتعافى» أو **يعود صحيحاً**، وهذا هو المعنى الذي أخذت به في اللغة الإنجليزية he will get well؛ ولكن بالمعنى الأكثر شمولاً فهي تأتي بمعنى «يخلُص» (سوتيس باليونانية). وهنا تنفذ اللغة السرية لإنجيل يوحنا لتبلغ ــ دون أن يقصد التلاميذ ــ إلى معنى الخلاص الحقيقي بالقيامة.

ثم يعود إنجيل يوحنا ليفسر أن التلاميذ ظنوا أن المسيح يتكلم عن «**رقاد النوم**»، أو راحة النوم، على وجه الأصح، وهنا ضمَّ الإنجيل الرقاد إلى النوم الخفيف κοιμήσεως τοῦ ὕπνου ، حيث استبعد التلاميذ رقاد الموت. وتضيف الآيات: لكن «كان يسوع يقول عن موته περὶ τοῦ θανάτου »، وهنا يكشف ق. يوحنا بوضوح عن لغة المسيح الفائقة للطبيعة وللفكر العادي حينما قال عن الموت أنه نوم.

١١ : ١٤ـــ١٦ **«فقال لهم يسوعُ حينئذٍ علانيةً: لعازرُ ماتَ، وأنا أفرحُ لأجلِكُم أني لم أكُنْ هناك لتؤمنوا؛ ولكن لنذهب إليه. فقال توما، الذي يقالُ له التوأمُ، للتلاميذِ رفقائِهِ: لنذهب نحن أيضاً لكي نموتَ معه».**

قول ق. يوحنا هنا أن المسيح عاد وابتدأ يتكلم "علانية" أي بدون تورية. والتورية التي تكلم بها الرب سابقاً هي أسلوبه الخفي ــ الرمزي ــ والفائق عن الطبيعة والفكر المادي، الذي يصيب المعنى الروحي أكثر مما يفيد المعنى الظاهري العادي. فقول الرب سابقاً: «لعازر ... نام لكني أذهب **لأُوقظه**» أرْبَكَ التلاميذ، لأنه استخدم كلمة **النوم** التي تفيد إما معنى **الموت** أو معنى الرقاد للراحة، مع كلمة **اليقظة** « ἐξυπνίσω » التي تفيد الاستيقاظ من النوم العادي. ولكن هنا كلمة «علانية» παρρησίᾳ تفيد الوضوح وبلا خوف، حيث تخلى الرب ــ مؤقتاً ــ عن المعنى الروحي من رقاد النوم بما يفيد إمكان اليقظة أو القيامة منه. علماً بأن الفعل المستخدم في «لعازر **قد نام** κεκοίμηται وأنا أذهب **لأُوقظه**» جاء في زمن المضارع التام perfect وهو يفيد حالة دوام النوم التي تحتمل التوقف واليقظة، أما الفعل المستخدم هنا «**لعازر مات**» ἀπέθανεν فقد جاء في زمن الماضي البسيط aorist وهو يفيد الوصول إلى نقطة تغيُّر مفاجيء قاطعة.

وذِكْرُ استخدام المسيح لهذه التورية لا يقتصر على إنجيل يوحنا، ففي إنجيل القديس مرقس في

الأصحاح الخامس عدد ٣٩، نجد المسيح يستخدم نفس الأسلوب في نفس الموقف و بنفس المعنى: «فدخل وقال لهم لماذا تضجُّون وتبكُون، لم تَمُتْ الصبية ولكنها نائمة. فضحكوا عليه ...»، لأنها كانت ميتة ولزمن ليس بقصير. وهذا الأسلوب السائد في إنجيل يوحنا يتناسب مع مستوى الإنجيل في تقديم الرب بصفته المُسْتعلِن لله: Revealer of God.

وحينما يسبق المسيح و يتكلم عن أمور قادمة، لا يقدم نفسه كمَنْ يتنبأ عن بُعْدٍ زمني، ولكن يقدم نفسه ككاشف ومُسْتعلِنٍ للحقائق، باعتبارها واقعة وكائنة في معرفته، و يعلنها قبل حدوثها الزمني، حتى إذا حدثت أدرك منها التلاميذ قدرته الإلهية كمُسْتعلِنٍ لله ذاته: «أقول لكم الآن قبل أن يكون، حتى متى كان تؤمنون أني أنا هو» (يو١٣ : ١٩). وقد كرَّر نفس القول في ١٤ : ٢٩، وكذلك بالأكثر عن آلامه التي ظل يكشف عن مجيئها الحتمي وقبولها بسرور: «لكني قد كلَّمتُكُم بهذا، حتى إذا جاءت الساعة تذكرون أني أنا قلته لكم» (يو١٦ : ٤). وقد لاحظ التلاميذ ذلك بالفعل، واقتنعوا بأنَّ سَبْقَ إعلانات الرب هي لتثبيت إيمانهم: «الآن نعلم **أنك عالمٌ بكل شيء**، ولست تحتاج أن يسألك أحد، **لهذا نؤمن** أنك من الله خَرَجْتَ» (يو١٦ : ٣٠). و يلاحظ أن الإيمان الذي كان يهدف إليه المسيح من إعلانه المسبق ليثبِّت به تلاميذه، ليس مجرد إيمان بقدرته على الشفاء والإقامة من الموت بحد ذاتها، ولكن **الإيمان به هو: «حتى تؤمنوا أني أنا هو»** ابن الله والمُرْسَل من الله. والقصد الأساسي من آية إقامة لعازر من الموت التي كانت موضوع فرح المسيح لأجل التلاميذ، هو ليثبِّت إيمانهم من جهة قدرته على إقامة نفسه هو من الموت الحتمي القادم، و بالتالي سلطانه الأعظم في القيامة العامة والدينونة وإعطاء حياة للعالم. وأما الآن، فإعطاء النصرة في الضيقات: «في العالم سيكون لكم ضيق ولكن ثقوا أنا قد غَلَبْتُ العالَم.» (يو١٦ : ٣٣)

«وأنا أفرح لأجلكم أني لم أكن هناك، لتؤمنوا، ولكن لنذهب إليه»:

معروف قطعاً أن الموت لا يجرؤ أن يتسحَّب على حبيب للمسيح وفي حضرته، فإن كان المسيح قد أبى أن يموت لعازر، حتى في غيبته، وصمم على إقامته من الموت فكم بالحري في وجوده؟

هذه قضية مُسَلَّم بها، قالها الأعداء من اليهود: «ألم يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت؟»، كما قالتها أخت الميت: «فقالت مرثا ليسوع: يا سيد لو كنت ههنا لم يَمُتْ أخي». وهذا حقاً و بالحقيقة، لأنه في حضرة رئيس الحياة يختشي الموت أن يفرد جناحيه. ولقد سبق للمسيح أن شلَّ حركة الموت في جميع السقماء الذين أَتَوْا إليه، وهم مشرفون على الموت؛ واستخلص من براثنه كل فرائسه.

أما فرح المسيح من أجل الذهاب إلى بيت الحزن في بيت عنيا، **فهو** كفرح حضوره إلى بيت الفرح في قانا الجليل، تماماً وبلا تمييز. في هذه أعلن مجده، فآمن به تلاميذه (يو٢ : ١١)؛ وفي تلك سيُعلِن أيضاً مجده، ليؤمن به تلاميذه. فرحُ المسيح هو دائماً إيماننا، وهو يسعى إليه دائماً، ليُظْهِر مجده من وراء أحزاننا وأفراحنا على السواء.

كانت هذه بداية آياته التي صنعها أمام تلاميذه؛ وتلك ختام آياته وإنجيله الذي سلَّمه إليهم. سلسلة من الآيات ينتقل فيها كل مَنْ آمن بالمسيح من مجد إلى مجد، وكما المجد ليس له نهاية كذا الإيمان يكون. وهذا هو بعينه المعيار الروحي البديع الذي يقوم عليه إنجيل يوحنا: فرح المسيح، الذي لا يُحدُّ، في إيماننا الذي ينمو من وراء كل آياته التي صنع.

«ولكن لنذهبْ إليه»:

لا يقول الرب نذهب هناك، بل نذهب إليه. لعازر الميت والمنتن لا يزال حيًّا أمام المسيح، والرب يُحضره حيًّا في مُخيِّلة التلاميذ. الجسد لا يهم ولا يفيد شيئاً، فلعازر هو هو، قبل أن يموت وبعد أن مات، هذه هي حقيقة الذين يؤمنون بالمسيح: «مَنْ آمن بي ولو مات فسيحيا» (يو١١ : ٢٥). هذا هو أساس «**الرجاء**» الكائن في الإيمان: «ليس هو (الله) إله أموات بل إله أحياء.» (لو٢٠ : ٣٨)

١١ : ١٦ **«فقال توما، الذي يقالُ له التوأمُ، للتلاميذِ رفقائِهِ: لنذهب نحن أيضاً لكي نموتَ معه».**

كان سهلاً على توما أن **يموت**، استجابة لمحبة المسيح؛ ولكن كان صعباً عليه أن يؤمن **بالقيامة من الموت!**

كان سهلاً عليه أن **يقدم الذي يملكه** بالفعل، وهو المحبة؛ **واستحال عليه أن يقدم ما ليس عنده** وهو الإيمان. توما كان يسير وإصبعه يسبق عقله، وعقله يسبق قلبه.

ولكن العجيب حقاً أن تلقائية الإستجابة عند توما لقول المسيح: «لكي تؤمنوا (بقيامة لعازر)»، جاءت لتكون: «**لنموت معه**»، عوض أن نحيا معه!! ولكن كم صار هذا التلميذ الشكَّاك مؤمناً قويًّا بعد رؤيته المسيح قائماً من الأموات بلَمْس إصبعه، فصار مبشراً ورسولاً لأكبر بلاد العالم عدداً آنئذ وهي الهند، لأنه صار رسولاً لها.

بقي أن ننبه ذهن القارىء بخصوص إصرار الإنجيل على تعريف اسم توما «الذي يقال له التوأم». ذلك هو بسبب أن «توما» بالعبرية تعني التوأم، وقد ترجمت كلمة «توما» إلى اليونانية بالكلمة «ديديموس». هذا يحاول الإنجيل دائماً التعريف بأصل الاصطلاح اليوناني، لأنه وإن كان عبرانياً وطناً ولغة، إلاَّ أنه يكتب للأمم.

«المنظر في بيت عنيا»:

١١:١٧—١٩ **«فلما أتى يسوعُ، وَجَدَ أنه قد صار له أربعةُ أيامٍ في القبرِ. وكانت بيتُ عنيا قريبةً من أورشليمَ نحوَ خمسَ عشرةَ غلوةً. وكان كثيرونَ من اليهودِ قد جاءوا إلى مرثا ومريم ليعزُّوهما عن أخيهما».**

حينما وصل المسيح مع تلاميذه إلى بيت عنيا، «وجد» ما كان يترقَّبه، أو ما كان يعرفه تماماً: ليس أن لعازر قد مات فقط، بل وله أربعة أيام في القبر. وذِكْرُ عدد الأيام في القبر، هو لتأكيد انحلال الجسد انحلالاً يؤدي إلى تهرُّؤ هيئة الجسم والوجه وفساده. والإمعان في ذكر الأربعة الأيام في القبر لثاني مرة في الآية: «يا سيد قد أنتن، لأن له أربعة أيام (في القبر)»، هو لوضع الرمز اللاهوتي في المقابلة بين رعبة انحلال الجسد ونتانته، إزاء الفرحة بمجد الله التي ينتقل إليها المؤمن الذي يشاهد القيامة من الموت ويشهد لها. كما أن هذه الآية تتوازى في العمق اللاهوتي مع آية تفتيح عيني الأعمى المولود أعمى، الذي انتقل من الظلام الدامس في عالمه المظلم إلى إشراق النور بكلمة المسيح.

كما أن القصد من ذكر عدد الأيام، هو استبعاد دخول الروح في الجسد استبعاداً مطلقاً. لأنه بحسب إيمان اليهود وتقليدهم الموروث من جهة الميت، فإن الروح تبقى في الأرض ثلاثة أيام تتردد فيها على القبر وتحاول الدخول في الجسد، ولكن بعد تغيُّره وانحلاله وفساده ــ وذلك بعد ثلاثة أيام ــ تشمئز الروح ولا تعود إلى الجسد مرة أخرى، حيث تذهب وتنضم إلى بقية أرواح الموتى. هذا التقليد اليهودي سجَّله الرابي اليهودي «بار كبَّارا» سنة ٢٠٠م تقريباً، وكذلك رابي «ليفي» سنة ٣٠٠م تقريباً(٨). وهذا التقليد القديم هو الذي تأخذ به الكنيسة القبطية منذ القديم، حيث تقيم صلاة خاصة لروح الميت في **اليوم الثالث** في المنزل الذي تُوفِّي فيه، بقصد مساعدة الروح لانطلاقها إلى مكان راحتها.

---

[8] Schnackenburg, Rudolf, *The Gospel accord. to St. John*, Vol. II, pp. 228,515.

أما بقية التقليد القديم الذي يذكره التلمود بالنسبة للميت فهو كالآتي:
[ثلاثة أيام للبكاء على الميت. ثم سبعة أيام نواح (تراتيل حزينة). ثم ثلاثين يوماً حداداً يُمنَع فيها قصُّ الشعر ولبس الملابس الثمينة].(٩)

إذن، فمجيء اليهود من أورشليم لتعزية مرثا ومريم ــ لمدة سبعة أيام حسب طقس اليهود كأعلى تعبيرات المحبة التي لا يمكن لليهودي أن يفرِّط فيها ــ لا تأتي في القصة مصادفة، بل هي الوَصْلَة الملتهبة التي تفجَّرت في أورشليم بسرعة بعد قيامة لعازر من الموت، حيث بلغ الخبر للرؤساء المتربِّصين، فطار صوابهم. وتشكَّل الصليبُ في أُفق جنونهم في الحال.

ومجيء هؤلاء اليهود لم يكن بقصد التلصُّص على أخبار الرب، ولكن بانفعال صادق لِمَا رأوه سابقاً من الآيات في أورشليم، وبالأخص الآية الأخيرة التي تم فيها تفتيح عيني الأعمى بحضورهم. وهذا واضح من قولهم عندما رأوا المسيح يبكي: «ألم يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى، أن يجعل هذا أيضاً لا يموت».

المسيح ومرثا: (٢٠ ــ ٢٧).

١١ : ٢٠ «فلما سمعت مرثا أن يسوع آتٍ لاقَتْهُ. وأما مريمُ فاستمرت "جالسةً" في البيتِ».

رد فعل خبر مجيء «المعلم» المحبوب يسوع بالنسبة لمرثا ومريم، هو مطابق لما جاء عنهما في إنجيل لوقا ١٠ : ٣٨ من جهة طبيعة كل واحدة. فمرثا خرجت في الحال لاستقباله، فهي كانت ربة البيت ذات الإحساس بالواجب وصاحبة الضيافة بنشاط والخدمة الكثيرة. ولا ننسى كيف رأت في نفسها الكفاءة أن تُلفِت نظر المعلم أن يزجر مريم أختها لتساعدها، وكأنها ذات إدارة وإمارة. ولم ترَ أنه كان من الواجب عليها أن تدعو أختها قبل أن تسرع للخروج. لذلك ظلت مريم جالسة في البيت وسط المعزِّين، ولم تعلمْ بخروج أختها(١٠)، علماً بأن طبيعة مريم كانت هادئة مُذْعِنة، ليست كثيرة الحركة، تتقن الجلوس تحت أقدام مَنْ يُعلِّمها، ولكن كانت قد

[9] Leon Morris, *op. cit.*, p. 547.

(١٠) **«جلوس مريم»** وسط المعزِّين يذكره ق. يوحنا بعناية لأن هذا هو طقس العزاء بالنسبة للميت. ويذكر العلاَّمة اليهودي المتنصر إدرزهيم هذا الترتيب كالآتي: [حالما يخرج جسد الميت من البيت للدفن، فإن كل المقاعد في البيت سواء كراسي أو دكك أو مساند (أي شلت) تُقلب (معكوسة أرجلها إلى فوق). والمعزُّون يجلسون على الأرض مباشرة أو على مقاعد واطئة بدون ظهر]. ويلاحظ أن هذا التقليد اليهودي القديم بقي كما هو بالضبط في أصول الطقس الكنسي في الكنيسة القبطية، وذلك في الإحتفال **بأسبوع الآلام**، وخاصة يوم الجمعة الحزينة، كما هو جارٍ تماماً في الأديرة.

«**أحبت الرب كثيراً**» في صمت بالغ يشهد عليه الناردين الخالص الكثير الثمن.

١١ : ٢١ــ٢٤ **«فقالت مرثا ليسوع: يا سيد لو كُنتَ ههنا لم يَمُتْ أخي، لكني الآنَ أيضاً أعلمُ أن كلَّ ما تطلبُ من الله يعطيكَ الله إيَّاهُ. قال لها يسوع: سيقومُ أخوكِ. قالت له مرثا: أنا أعلمُ أنه سيقومُ في القيامةِ في اليومِ الأخيرِ».**

مرثا تطرح انفعالها أمام الرب في صورة إيمانية بسيطة، مع حسرة على حاجة فَلَتَتْ من يديها ومن يد الزمن. ولكن عادت تتعلق برجاء. والرجاء دائماً أبداً يغطّي قصور ما لم يحققه الزمن، رجاءٌ يستند، لا على الإيمان الشخصي فقط، بل وعلى العلم بقدرة المسيح ــ «أنا أعلم» ــ، مرثا ألقت بكل ما تبقَّى لها من أملٍ على وعد المسيح: «مَنْ آمن بي ولو مات فسيحيا»، مستندة على يقينها أنَّ طَلَبَ المسيح مستجابٌ لدى الله. وهنا تكرر مرثا حضور الله إزاء طلب المسيح مرتين: «أعلم أن كل ما تطلب من **الله** يعطيك **الله** إياه»، وذلك تأكيداً للعلاقة التي تربط المسيح بالله.

ثم، لا بد أن أحد التلاميذ أسرَّ إليها بقول المسيح لهم: «أنا أذهب **لأُوقظه**». لذلك اشتد يقينها بأن شيئاً عظيماً سيحدث على يدي المسيح، فبدأت تستحثُّ الرب على ذلك، مؤكدةً له أنها على يقين أن «كل ما تطلب من الله يعطيك الله إيَّاه». لقد انطلق إيمانها مع هذه الكلمات، يحلّق بقوة الرجاء في قوة الحياة التي يمكن أن يَهَبَها المسيح، ولكن كيف؟ لم تجرؤ مرثا أن تطلب علانية ما يعزُّ على أي إنسان طَلَبُه. ولكن المحبة التي كانت تتأجج في قلبها كانت تضيء أمامها المجهول، وأن لا شيءَ مستحيلٌ لدى الرب.

«وكلُّ» ὅσα التي قالتها مرثا من عمق أعماق قلبها كفيلة بأن تغطي كل شيء حتى القيامة من الموت: «أنا أعلم أن "**كل**" ما تطلب...». و«كل» تترجم بالإنجليزية: whatsoever أي «مهما».

«قال لها يسوع: سيقوم أخوكِ. قالت له مرثا: أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة في اليوم الأخير»:

المسيح يتكلم عن القيامة كقوة إلهية فيه، سيستعلنها في شخصه كحقيقة حاضرة لا يحصرها زمان ولا تحدُّها أية قوة في العالم، وسيمارسها تجاه الموت ليُلْغي وجوده علناً، و يُظْهِر الحياة كقوة غالبة ومنتصرة من داخل الموت.

والغاية من قول المسيح هذه الحقيقة: «سيقوم أخوكِ»، هو ليعلن لمرثا أن الموت ليس هو العدو

الذي ينتصر فوق الحياة، إذ توجد القيامة التي تُبْطِلُه، يقولها هنا المسيح كخبر، قبل أن يكمّله كفعل، ليصير هذا هو معيارنا الجديد بالمسيح يسوع تجاه الموت: «سيقوم أخُوكِ». وفعلاً فإن مرثا أخذت قول المسيح كتعليم وفلسفة، وليس كعمل سيتم تجاه الميت. فوافقت عليه وشرحته حسب تقديرها الإيماني، كحقيقة عامة معروفة، وليس كفعل شخصي: «أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة في اليوم الأخير».

وبهذا تكون مرثا قد أخذت قول المسيح على مستوى التعزية ليس إلاَّ، وذلك حسب أصول المجاملة في حالة الموت. وعزَّزته باستذكار التعليم اليهودي من جهة قيامة الأجساد، الذي كان الفريسيون يعلّمون به ضد الصَّدُّوقيين الذين لم يكونوا يؤمنون بالقيامة على وجه الإطلاق (مر١٢: ١٨، أع٢٣: ٨). وهذا التعليم اللاهوتي اليهودي ظهر بوضوح منذ القرن الثاني قبل الميلاد: «وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي.» (دا ١٢: ٢)

وقد دخلت هذه الحقيقة الإيمانية كجزء في العبادة الرسمية اليومية حيث تُقال في البركة الثانية ضمن الثماني عشرة بركة:

[أنت الجبار إلى الأبد يا رب، أنت الذي تحيي الموتى](١١).

ولكنها كانت حقيقة مفهومة من جهة الأمور الأخروية، ولا تدخل قط في مفهوم إمكانية القيامة في الحاضر، الأمر الذي حقَّقه المسيح لنفسه وللآخرين.

وهكذا أراد إنجيل يوحنا أن يضع في مقابلة ومواجهة: قانون الإيمان اليهودي، تجاه قانون الإيمان المسيحي، من جهة التعليم بالقيامة. فالأول يرى القيامة مجرد مقولة إيمانية في أمور آخر الزمان، والثاني يراها حقيقة خلاصية حاضرة الآن وكل يوم، في المسيح، وبالمسيح. وهذا هو ردُّ المسيح الاستعلاني.

١١: ٢٥ــ٢٧ **«قال لها يسوع: أنا هو القيامةُ والحياةُ. "مَنْ" آمنَ بي، ولو ماتَ، فسيحيا. و"كلُّ مَنْ" كان حيّاً وآمنَ بي، فلن يموتَ إلى الأبدِ. أتؤمنينَ بهذا؟ قالت له: نَعَمْ يا سيدُ، أنا قد آمنتُ أنك أنت المسيحُ ابنُ الله الآتي إلى العالم».**

رد المسيح لا يُخطِّىء مِنْ قول مرثا واعترافها بالإيمان اليهودي. ولكن التصحيح هو أن القيامة

(١١) ارجع إلى كتاب: «الإفخارستيا والقداس»، للمؤلف، ص١١٨.

ليست تعليماً ولكن **حقيقة،** ليست للمستقبل بل هي **للحاضر،** ليست لجماعة (قيامة جماعية) ولكن **لكل فرد** من واقع فردية حياته، ليست نعمة يتحصَّل عليها المسيح من (الله) كطلب مرثا، بل هي كيان المسيح نفسه «أنا هو» حينما يتصل بنا، سواء الآن وكل أوان أو المستقبل.

وينبغي الآن أن نفرِّق بين أقوال المسيح السابقة عن: «أنا هو» ἐγώ εἰμι التي يَنْسب فيها إلى لاهوته تشبيهات بنور العالم والطريق والكرمة وباب الخراف والراعي الصالح وخبز الحياة، هذه كلها تصويرات لفظية تصوِّر عمل المسيح لقيادة الإنسان وتقويته وبنائه روحياً، وضمان صلته بالحياة الأبدية. أما هنا فقوله: «أنا هو "القيامة"»، ليس تشبيهاً **ولا تصويراً، ولكن استعلانُ حقيقة كائنة فيه، وهي من صميم كيانه وطبيعته،** تلك التي كان يُظنُّ ـ كما كانت مرثا أيضاً تظن ـ أن فاعليتها متوقفة على اليوم الأخير، وأن قوة هذه الإقامة من الموت هي من عمل الله. ولكن هنا يستعلن المسيح أنها من عمله هو، **وأنها ليست عمله الخاص وحسب، بل هي طبيعته: «أنا هو القيامة».** المسيح هنا يستعلن نفسه، أو كما سبق وقال: «أنا الشاهدُ لنفسي» (يو٨: ١٨). هنا "**فعل**" الإقامة من الموت المستقبلي ينسبه المسيح إلى حاضر طبيعته الإلهية، أو على الوجه الأصح، إلى لاهوته القائم الآن فيه وإلى الأبد، وليس هو مجرد **«فعل إقامة»،** بل **"مصدر"** القيامة: **«أنا هو القيامة (ذاتها)»**(١٢). وهكذا وبهذا يكون قد أضاف المسيح إلى كل أقواله السابقة عن «وأنا **أقيمه** في اليوم الأخير»: «وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني أن كل ما أعطاني لا أتلف منه شيئاً بل **أقيمه** في اليوم الأخير» (يو٦: ٣٩و٤٠و٤٤) إضافة جديدة في غاية الأهمية وهي عمله في الحاضر أيضاً للإقامة من الموت، وبالتالي إعطاء الحياة الأبدية الآن في الحاضر: «أنا هو القيامة والحياة».

وبالتوازي مع **الإقامة من الموت الآن، وإعطاء الحياة الآن،** يؤكد المسيح في إنجيل يوحنا أنه أيضاً يباشر **الدينونة والإعفاء من الدينونة الآن أيضاً،** أو على وجه أصح منذ الآن: «الحق الحق أقول لكم: إن مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة.» (يو٥: ٢٤)

والمسيح لا ينفي هنا الدينونة في اليوم الأخير، ولا القيامة في اليوم الأخير، ولا استعلان الحياة الأبدية في اليوم الأخير، ولكن يضيف ويكمل الإيمان اليهودي بالقيامة في اليوم الأخير بالإيمان

(١٢) بخصوص أن القيامة هي من صميم كيان المسيح وطبيعته وليست مجرد عمل يقوم به، فإن القديس كيرلس الكبير يدعو المسيح بعبارة تكررت مئات المرات في كتاباته هي: ἡ κατὰ φύσιν ζωή ، أي: «الذي هو بطبيعته الحياة».

المسيحي، أن القيامة والدينونة والحياة تبدأ من الآن، وذلك في المسيح و بالإتحاد معه. وكأن المسيح يخاطب الذين يبكون و ينوحون على ميّتهم الذي يكون قد آمن بالمسيح وأحبه وعاش في حضرته، هكذا:

[لا تبكوا ولا تحزنوا بل ثقوا وآمنوا أن أخاكم حيٌّ الآن، وهو معي، لقد «انتقل من الموت إلى الحياة» ــ «لأنه قد أحب الإخوة» (راجع ١يو٣: ١٤) ــ وهو يستمتع بالحياة الأبدية بلا حزن ولا كآبة ولا تنهُّد في النور الأبدي، لقد قام أخوكم بالروح، ولكن الجسد هو الذي استُهْدِفَ وحده للفساد والفناء ــ الجسد لا يفيد شيئاً، الروح هو المؤهَّل للحياة الأبدية. الله روح وهو طالبٌ الساجدين له بالروح والحق. لا تهتموا بعد بما هو على الأرض، «فإن كنتم قد قمتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله. اهتموا بما فوق لا بما على الأرض. لأنكم قد مُتُّم، وحياتكم مستترة مع المسيح في الله. متى أُظْهِرَ المسيح حياتنا، فحينئذٍ تُظْهَرُون أنتم أيضاً معه في المجد» (كو٣: ١ــ٤)].

و«أنا هو "**القيامة**" قبل "**الحياة**"»، لأن المسيح سيبدأ من الموت ليعلن الحياة. ولكن لا بد من الاثنين معاً، لأن القيامة والحياة استعلان واحد وهو **شخصه. فهو** لم يقل أن القيامة عمل يُحضره لنا أو يقودنا إليه أو يَعِدُنا به، ولكنه يقول: **«أنا هو القيامة».** والقيامة التي يعلنها المسيح أنها كيانه الخاص: «أنا هو»، لا يعلنها لنعرفها فيه مجرد معرفة، بل إنه يعلنها باعتبارها لنا ومن أجلنا. هي كائنة أصلاً في صميم لاهوته، **لأنه هو الحياة ذاتها**(١٣) التي ليس فيها الموت. ولكن لأنه تجسد وأخذ بشرية الفرد الكاملة التي يمكن أن يموت بها، صارت القيامة كائنة في ناسوته أيضاً، لذلك إن مات فهو حتماً يقوم، وهكذا حقق المسيح للبشرية فردية الإنسان الدائمة والقائمة والحية إلى الأبد. ولكن قبل أن يموت، باشر إقامة لعازر من الموت، لندرك أن القيامة كائنة فيه، بل هي كيانه الذي نوى أن يمنحنا إيَّاه، بالاتصال بنا أو باتحادنا به، فنقوم به وفيه، أو نصير به قائمين. و يصير كل فردٍ مؤمنٍ ومتحدٍ به، حيًّا به؛ أو أن المسيح يصير حياة كل أحد: «أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ» (غل٢: ٢٠)، «... احسبوا أنفسكم... أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا.» (رو٦: ١١)

لذلك، كان الإيمان بالمسيح غلبة للموت وقيامة في الحياة، لأن الإيمان بالمسيح الذي هو الإتحاد بالمسيح، هو إتحاد بالقيامة والحياة: «مَنْ يسمعْ كلامي و يؤمنْ بالذي أرسلني، فله حياة أبدية، ولا

(١٣) القديس أثناسيوس الرسولي يدعو المسيح ἡ αὐτοζωή أي: «الذي هو بذاته الحياة» أو «الحياة بذاتها» (أنظر كتاب: «تجسد الكلمة»، للقديس أثناسيوس الرسولي، ٢١: ٤).

يأتي إلى دينونة، بل **قد انتقل من الموت إلى الحياة**» (يو٥: ٢٤)، «مَنْ **يأكلني فهو يحيا بي**» (يو٦: ٥٧). المسيح هنا يعطي ذاته بكيانها القائم والحي. لذلك نستطيع أن نفهم قوله:

«مَنْ آمن بي ولو مات فسيحيا»، و«مَنْ كان حيًّا وآمن بي فلن يموت إلى الأبد».

فلأنه هو القيامة = فمَنْ يؤمن به، فهو حتى ولو مات موت الجسد، فهو سيحيا ثانية، الآن أو في القيامة.

ولأنه هو الحياة = فمَنْ كان حيًّا بالروح، أي **مؤمناً** به، فهو لن يذوق الموت الروحي إلى الأبد، لأن الحياة الأبدية التي فيه قائمة وستتجلى حتماً.

وواضح أن هذا القول يشمل فئتين:

فئة الذين آمنوا وماتوا، ويهدف إلى لعازر كمثل؛ وفئة الذين هم أحياء وآمنوا فنالوا عطية الحياة الأبدية، ويهدف إلى مرثا على سبيل المثال أيضاً. فالأول سيحيا بالرغم من أنه مات، وذلك بسبب **إيمان** لعازر وحبه للمسيح. والثاني، وهو مرثا، فلن تذوق الموت (الروحي)، لأنها نالت الحياة الأبدية **بالإيمان** بالمسيح، الإيمان الذي أعلنته واضحاً: «أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم».

كما يلاحَظ أن في المثل الأول: «**الذي مات وقام**»، يكون المسيح له هو «**القيامة والحياة**»، حيث تأتي القيامة قبل الحياة لأنها سببها وعلّتها: «أنا هو القيامة والحياة».

أما في المثل الثاني، مثل الذي وُهب الإيمان وهو الآن يتمتع بمواهب الحياة الأبدية ويأكل الجسد ويشرب الدم بمعنى الشركة القائمة والإتحاد الكائن مع المسيح، يكون المسيح له هو «**الحياة والقيامة**» حيث تأتي الحياة قبل القيامة، وحيث تكون الحياة الأبدية هي سبب وعلة القيامة: «كلُّ مَنْ يرى الابن ويؤمن به تكون له **حياة أبدية**، وأنا أُقيمه في اليوم الأخير» (يو٦: ٤٠)، «مَنْ يأكلْ جسدي ويشرب دمي **فله حياة أبدية، وأنا أُقيمه في اليوم الأخير**» (يو٦: ٥٤). بمعنى أننا **الآن** نتمتع بالحياة الأبدية التي من فوق، والتي نلناها بالإيمان بالمسيح وبفعل الروح القدس، للاتحاد به بشركة تناول جسده ودمه، وهذه الحياة الأبدية التي من فوق هي هي قوة القيامة التي في كياننا منذ الآن، وهي التي سنعبر بها الموت وكأنه لم يكن!! «لأنه ليس موتٌ لعبيدك بل هو انتقالٌ» (أوشية الراقدين).

وباختصار شديد يكون المسيح [حياتنا كلنا وقيامتنا كلنا] — القداس الإلهي القبطي (أوشية الإنجيل): «متى أُظهِر المسيح **حياتنا**، فحينئذ تُظهَرون أنتم أيضاً معه في المجد.» (كو٣: ٤)

ولكن علينا أن نلمح أن محور قيامتنا وحياتنا الأبدية هو **الإيمان**، فالإيمان هو الحياة الأبدية. ليس الإيمان بالقيامة في حد ذاتها، بل الإيمان بالمسيح أنه هو حقاً وبالحقيقة قيامتنا وحياتنا، لذلك **يكون الموت قد أصبح طريقاً للحياة لا غير!!** «مَنْ آمن بي **ولو مات فسيحيا**». ولأن الحياة الأبدية قوة ذات كفاءة إلهية قادرة أن تصرع الموت ـــ أينما كان ـــ وتلغي وجوده، لذلك: «مَنْ كان حيًّا وآمن بي **فلن يموت** إلى الأبد»، «أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء، إنْ أكل أحد من هذا الخبز **يحيا إلى الأبد**» (يو٦: ٥١)، «مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي **فله حياة** أبدية **وأنا أُقيمه** في اليوم الأخير» (يو٦: ٥٤)، «الحق الحق أقول لكم: إن كان أحد يحفظ كلامي، **فلن يرى الموت إلى الأبد**» (يو٨: ٥١)، «وهذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو١٧: ٣)

هكذا يستعلن المسيح ذاته بالنسبة لنا، أنه حقاً القيامة والحياة، وأن الموت لا يزيد عن كونه نعاساً مؤقتاً، لا يلغي الحياة الأبدية التي صارت في كياننا الروحي. فهبة الحياة الأبدية التي ننالها بالإيمان بالمسيح وبالميلاد من الروح القدس من فوق، هي بحد ذاتها إلغاء صريح وواضح لعقوبة الموت التي دخلت إلى العالم بالخطية. فإذا فقد الموت عامل العقوبة واللعنة، أصبح الموت لا يزيد عن كونه راحة للجسد الذي أشقاه العالم، أو أصبح كالنوم أو النعاس حسب ما وصفه المسيح، حيث الإنسان (الصالح) لا يفقد بالموت إلا عوامل الفناء فقط التي دخلت عليه!!

المسيح أراد أن يرفع إيمان مرثا، لتفهم وتتذوق طعم الحياة الأبدية الحقيقية الآن بالإيمان بالمسيح، فيصغر سلطان الموت في عينيها، وتدرك أن القيامة صارت الآن بالمسيح حقيقة قائمة حاضرة فينا بالروح، بقوة الإيمان الذي يوحّدنا بالمسيح ويملّكنا ما لطبيعته، وأن القيامة ليست هي رجاء المستقبل. وهذا بدا واضحاً من إجابة مرثا على سؤال المسيح: «أتؤمنين بهذا؟ قالت له: نعم يا سيد أنا قد آمنتُ أنك أنت المسيحُ ابنُ الله الآتي إلى العالم».

ويلاحَظ هنا، أن سؤال الرب واضح في اللغة اليونانية، أنه لا يعني «هل توافقين على هذا»: πιστεύεις τοῦτο; بل: «هل هذا هو إيمانكِ ـــ أتؤمنين بهذا؟» τούτῳ πιστεύεις;.
وهكذا استنفر المسيح إيمان مرثا الخاص، لمواجهة المعجزة قبل أن يباشرها، واستحضر مرثا في مواجهة القيامة أو الإقامة من الموت العتيد أن يكمّله في الحال، كفعلٍ قائمٍ في المسيح الآن في الحاضر، يقبله لعازر بالروح ويستقبله بالإيمان الذي له ـــ والذي لا يفنى ولا يضمحل بالموت ـــ كحق من حقوق مَنْ أحب المسيح والتصق به، ليقوم من الأموات ويشهد للقيامة وللحياة التي في المسيح والتي صارت أيضاً فيه وله: «الحق الحق أقول لكم: إنه تأتي ساعة **وهي الآن**، **حين**

يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون!!!» (يو٥: ٢٥)

لقد عبَّرت مرثا عن إيمانها بالمسيح مباشرة، دون أن تذكر الموت أو القيامة، وهو تعبيرٌ ليس ابن وقته، بل يبدو أنه كان محفوظاً في قلبها، وهو نفس إيمان المعمدان أن المسيح **هو ابن الله الآتي إلى العالم**، وهو إيمان نثنائيل، وإيمان الأعمى المفتوح العينين والقلب، وإيمان بطرس نيابة عن التلاميذ وعن نفسه، الإيمان الذي بدأ يشرق على العالم بتؤدة ويقين، والذي كان العالم يتلهف عليه و يتطلع بشوق نحوه، باعتباره رجاء الدهور الذي سينقذنا من الموت، الذي سبق أن رآه الأنبياء بالروح، المسيَّا الآتي للخلاص، وها هوذا قد أتى: «**أنت المسيح** ابن الله **الآتي** إلى العالم» (يو١١: ٢٧). المسيَّا الآتي إلى العالم، رجاء الأنبياء بل وأكثر من رجاء الأنبياء، لأنه ابن الله الذي يُقيمنا من الموت، و يهبنا الحياة، و يصالحنا مع أبيه. لأن «**الإيمان بالمسيح**» ليس معلومة قائمة بذاتها، بل الإيمان بالمسيح يُنشيء **خلاصاً**، يُنشيء **علاقة**، يُنشيء **شركة** معه، يُنشيء **إتحاداً** فيه، يُنشيء **قبول القيامة** التي في المسيح **والحياة الأبدية**، التي فتحها علينا وعلى الآب، لتسري في كياننا كأعظم عطية يمكن أن ينالها الإنسان، لأن بها يبدأ الإنسان كالأول يعيش مع الله، هنا كما هناك وإلى الأبد.

كلمة «**ابن الله**» التي أضافتها مرثا إلى اسم «**المسيح**»، ترفع المسيح فوق كل رجاء اليهود والآباء والأنبياء وتوضح أيَّ انفتاح قد صار لنا مع الله.

لقد نطقت مرثا أعظم وأصدق قانون إيمان يطلبه الله والمسيح والإنجيل والأنبياء. انظر إلى ختام رواية ق. يوحنا التي يُبَلْوِر فيها كل الإنجيل وكل حياة المسيح وأعماله وآياته هكذا: «وآياتٍ أُخَرَ كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تُكتب في هذا الكتاب. وأما هذه فقد كُتبت **لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح** (المسيَّا) **ابن الله**، ولكي تكون لكم، **إذا آمنتم**، **حياة باسمه**» (يو٢٠: ٣٠و٣١). هذه الخلاصة الإيمانية المسيَّانية للإنجيل هي هي بذاتها التي عبَّرت عنها مرثا، تعبيراً تسنده المحبة القوية، والعِشْرَةُ الصادقة، والأمانة، والخدمة، في أحلك ساعات تجربتها ومرارة نفسها!!

انظر، أيها القارىء العزيز، واعلم وتعلَّم، أننا لسنا بقوانين ومفردات كثيرة للإيمان نعيش، بقدر ما يكون لنا حياة صادقة باسمه لا تُزَعزعها أعنف التجارب، حينئذ يصير إيماننا بابن الله حقيقة حيَّة فينا!

المسيح ومريم: (٢٨ـ٣٢)

١١:٢٨ـ٣٢ **«ولما قالت هذا مَضَتْ، ودَعَتْ مريمَ أختها سرًّا قائلةً: المعلِّمُ قد حضرَ وهو يدعوكِ. أما تلك فلما سَمِعَتْ، قامَت سريعاً وجاءَتْ إليه. ولم يكن يسوعُ قد جاء إلى القرية، بل كان في المكانِ الذي لاقَتْهُ فيه مرثا. ثم إنَّ اليهودَ الذين كانوا معها في البيتِ يعزُّونها لما رَأَوا مريمَ قامت عاجلاً وخرجت تبِعُوها قائلينَ: إنها تذهبُ إلى القبرِ لتبْكي هناكَ. فمريمُ لما أتت إلى حيث كان يسوعُ، ورأتهُ، خَرَّتْ عند رجليه قائلةً له: يا سيِّدُ، لو كُنْتَ ههنا لم يَمُتْ أخي».**

عجيبٌ ق. يوحنا في سرده للرواية، فهو يعلِّق من عنده تعليقاتٍ تجعل القصة حيَّة ناطقة.

«ولما قالت هذا مضت»:

يقصد أنها قالت كل ما عندها، كل ما تملك من الإيمان الذي ارتفع فوق الموقف كله، لقد استجابت لاستعلان المسيح، وردَّت عليه بما ملأ قلبها راحة وسلاماً. و بقدر ما ارتاحت مرثا ودخل قلبها مناطق النور والرجاء، فإنها دعت أختها لتغترف من مراحم الرب وتعزياته، وكلمة «سرًّا» تتجه ناحية اليهود الذين جاءوا من أورشليم حتى لا يعكِّروا صفو اللقاء بفكرهم المريض.

ولقب «المعلم» الذي احترفه التلاميذ بحكم تلمذتهم، اختطفته الأختان، إذ اعتبرتا نفسيهما من التابعين، حتى وإن كانتا قد قَبعتا في عقر دارهما. فقد أتْقنَتا فن السماع والحب. ودعوة المعلم لمريم أكيدة، فهو يعلم مقدار الحزن والأسى الذي يعتصر قلبها. وكما سقى مرثا من ماء الحياة فارتوت، وانطفأت نار قلبها، هكذا أراد أن يسقي هذه الأخرى العزاء بعيداً عن عقول المرائين. لقد صدق الرب حينما ألْمَح عن نفسه بقدرة التعزية وسلطان العزاء، حينما وعدهم بإرسال الباراقليط المُعزِّي قائلاً: «وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد» (يو١٤: ١٦)؛ باعتبار أنه هو المعزي الأول!!

مريم لما سمعت، «قامت سريعاً»، وجاءت إلى المعلم حيث لاقى مرثا، لأنه لم يشأ أن يدخل القرية مباشرة. ولكن خروج مريم السريع نبَّه اليهود خطأً أنها ذاهبة لتبكي في القبر، فتبعوها، فكانت مقابلة الرب لمريم في وسط جمع اليهود. ولم تستطع مريم، بانفعالها البادي عليها من جراء هيبة الرب، إلاَّ أن تخرَّ عند رجليه ساجدة، الأمر الذي فات على مرثا، لكنها احتفظت بتكريم الرب بمشاعر قلبها الخفية. ولكن كان الفكر الطاغي على قلب مريم، هو نفس ما فكَّرت

فيه مرثا وقالته للرب: «يا سيد، لو كُنْتَ ههنا لم يمتْ أخي». أمل مفقود، ولكن كان وراءه نوعٌ من التوسل يملأ قلبها، فالمحبة تصدّق كل شيء، وترجو كل شيء، ولا تسقط أبداً، حتى وإن وقف العقل حائلاً دون النطق. لم تُسْعِفها الكلمات أكثر من ذلك، فقدّمت أعزّ وأقوى ما تملك المرأة: **دموعها!!**

إقامة لعازر: (٣٣ــ٤٤)

١١: ٣٣ــ٣٥ «فلما رآها يسوعُ تَبْكِي، واليهودُ الذين جاءُوا معها يبكونَ، انْزَعَجَ بالرُّوحِ، واضطربَ. وقالَ: أينَ وَضَعْتُمُوهُ. قالوا له: يا سيِّدُ، تَعَالَ وانظُرْ. بَكَى يَسُوعُ».

مريم تبكي، واليهود يبكون، والمسيح يبكي:

هنا تنفرد اللغة اليونانية بتعبيرات البكاء، التي تُفرِّق فيها بين بكاء مريم واليهود وبين بكاء المسيح، في هذا الموقف بالذات. فبكاء مريم واليهود عبَّرت عنه اللغة اليونانية بالكلمة κλαίουσαν، وهي تفيد المعنى العربي «بكاء بالصوت المسموع **للتعبير الظاهري عن الحزن**»، وهو كمهنة عند النسوة له أصول. أما كلمة «**بكى** يسوع» فتأتي ἐδάκρυσεν وهي بمعنى «أدمعت عيناه بدون صوت». وتأتي كتأثُّرٍ مباشر عفْوِيٍّ للحزن غير المنضبط، في صمت.

انزعج بالروح:

وتأتي باليونانية ἐνεβριμήσατο τῷ πνεύματι وتفيد الانفعال الانعكاسي للمنظر الذي أمامه (تأثّر)، وهي لا تفيد الانزعاج كما تجيء في الترجمة العربية، ولكن تفيد التأثُّر بعدم الرضا، وهي نفس الكلمة التي جاءت في المواقف الآتية بمعنى **الانتهار**:

ــ «فانفتحت أعينهما، **فانتهرهما** يسوع قائلاً: انظرا لا يعلم أحد.» (مت٩: ٣٠)

ــ كذلك: «فللوقت وهو يتكلم ذهب عنه البرص، وطهر، **فانتهره**، وأرسله للوقت.» (مر١: ٤٢و٤٣)

ــ وتأتي بمعنى التأنيب: «لأنه كان يمكن أن يُباعَ هذا بأكثر من ثلثمئة دينار، و يُعطى للفقراء. وكانوا **يؤنِّبونها**.» (مر١٤: ٥)

وهكذا يَظْهر أن هذا الاصطلاح «انزعج»، كما جاء في الترجمة العربية، يفيد مجرد التأثُّر ولا يفيد الحزن.

أما كلمة «بالروح»، فهي تفيد أن الرب **تحرّك أو تأثّر بالروح** إزاء منظر البكاء **في عدم ارتياح**، وتحرك روحياً ليصنع أمراً (إقامة لعازر) يوقف به هذا العويل والنواح.

فقد يؤخذ هذا الانزعاج الروحي على أنه استنفار الروح للقيام بالمهمة الخطيرة، وهي إقامة الميت إلى الحياة. ونحن نعلم أن هذا العمل يستلزم خروج قوة هائلة من المسيح، كما حدث في نازفة الدم: «فقال يسوع قد لمسني واحد، لأني علمتُ أن قوة قد خرجت مني.» (لو٨: ٤٦)

ويلاحظ أن الكلمة اليونانية ἐνεβριμήσατο التي تُرجمت هنا «انزعج»، جاءت بالترجمة «انتهر»، في إثر المعجزات ذات الثقل العالي التي استلزمت انفعالاً روحياً من الرب لا يُستهان به، وهي معجزة شفاء الأبرص (مر١: ٤٣)، وشفاء الأعمى (مت٩: ٣٠)، وإقامة لعازر (يو١١: ٣٣و٣٨). لذلك لا ينبغي أن نستخفّ بما تستلزمه المعجزة من الضغط الروحي العالي الواقع على جسد المسيح الذي جعله يهتز ويئن وتدمع عيناه في مواقع كثيرة.

«واضطرب»:

وهذا طبعاً نتيجة **ما تحمّله جسده من أحزان واضطراب الآخرين، تلك التي أخذها على نفسه في تعاطف ومشاركة وبمحض إرادته**، فجاءت كلمة «واضطرب» ἐτάραξεν ἑαυτόν للتعبير عن ذلك، والتي تفيد حرفياً **«جعل نفسه تضطرب»** = stir up، وتفيد أيضاً الارتجاف والقشعريرة.

وبذلك تكون الأصول النفسية والروحية التي استهدفها المسيح في جسده للانزعاج والاضطراب، هي عملية طوعية إرادية، اعتبرها الله أبوه، واعتبرها هو، واعتبرها علم اللاهوت بناء على ذلك وبناء على سبق النبوة عنها، أنها جزء لا يتجزأ من عملية الخلاص الكبرى التي جاء المسيح وتجسد من أجلها، فهو لم يحمل خطايانا على نفسه فقط، بل وحمل أحزاننا وأوجاعنا واضطرابنا وموتنا، ويصفها إشعياء النبي بقوة بالغة العمق في قوله:

«رجل أوجاع **ومُختبر الحزن**».
«لكن **أحزاننا حَمَلها، وأوجاعنا تحملها**، ونحن حسبناه مضروباً من الله ومذلولاً».
«**وهو مجروحٌ لأجل معاصينا. مسحوقٌ لأجل آثامنا...**»
«والرب **وضع عليه** إثم جميعنا».
«**أما الرب فسُرَّ بأن يسحقه بالحزن.**» (إش٥٣)

إذن، فانزعاج المسيح بالروح واضطرابه، بل وبكاؤه، هذا كله وهو يمثل ضعف الإنسان عامة،

حمَّل المسيح نفسه به، وثقَّل روحه تحت عبئه، وأخذه وتبنَّاه، واشترك فيه كمقدمة ومؤخرة للموت ذاته الذي أخذه لنفسه وهو غريب عن هذا كله، بل وإن الله الآب سُرَّ بهذه المشاركة الحزينة والأليمة باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من «ذبيحة الإثم» التي قدَّمها المسيح ــ (عن خطية الإنسان) ــ قدَّمها بجسده ونفسه وروحه!!!

و يلزم هنا أن نوضح أن ق. يوحنا، في إنجيله، ميَّز بين النفس والروح للمسيح في شركة الألم والموت:

«لما قال يسوع هذا، اضطرب **بالروح** πνεῦμα ، وشهد وقال: الحق الحق أقول لكم إن واحداً منكم سيسلمني.» (يو١٣: ٢١)

«فلما أخذ يسوع الخلَّ قال: قد أُكمِل. ونكَّس رأسه **وأسلم الروح.**» (يو١٩: ٣٠)

«أنا هو الراعي الصالح، والراعي الصالح يبذل نفسه ψυχή عن الخراف.» (يو١٠: ١١)

«الآن **نفسي قد اضطربت**، وماذا أقول، أيها الآب نجِّني من هذه الساعة ولكن لأجل هذا أتيتُ إلى هذه الساعة.» (يو١٢: ٢٧)

والآن يلزم أن نفهم أن آية إقامة لعازر من الموت، مع كل ما لابسها من مشاعر وعواطف وأحزان واضطراب وانزعاج، لا يمكن اعتبارها أنها حادثة قائمة بذاتها تمثل ظروفها فقط، بل هي نموذجٌ، وصورة واقعية توضح صلة المسيح، وليس صلة المسيح فقط، بل وصلة الله بموتنا وقيامتنا، وما يُلابس موتنا من جميع النواحي البشرية كما حدث في قصة لعازر، و يكفي أن نسمع عن الله أنه «في كل ضيقهم تضايق ...» (إش٦٣: ٩). المسيح يكرِّر حضوره، ويمارس إظهار مشاعره وعواطفه من جهة كل إنسان في الكنيسة يتألم أو يموت لحسابه: «إن عِشْنا فللرب نعيش، **وإن مُتْنا فللرب نموت**» (رو١٤: ٨). ونحن أيضاً نمارس **إيمان** قيامتنا في كل ميت يموت لنا، و بهذا الإيمان بالقيامة نرى مجد الله: «إن آمنتِ ترين مجد الله».

إذن، إقامة لعازر من الموت هي منهج إيماني للكنيسة. لقد رفع إنجيل يوحنا «إقامة لعازر من الموت» من حادثة إلى آية لاستعلان مجد الله، لتدخل في الكنيسة كآية لكل من يموت، ولكل من يموت له أحد.

«وقال: أين وضعتموه. قالوا: يا سيِّدُ تعال وانظر. بَكَى يَسُوعُ»:

لأول مرة يذكر الإنجيل عن الرب أنه يستفسر، أي يطلب معرفةً عن شيء. ولكن يبدو في الحقيقة أنه يعلن بذلك عن نيته في إقامة لعازر من الموت، وليس مجرد معرفة المكان. وهذا أيضاً

بدوره هو رد الفعل المباشر في إظهار تأثره ومشاركته لعواطف الباكين، باعتبار أن الرب لا يشارك بالعواطف أو الكلمات وحسب، بل و بالعمل المباشر.

«بكى يســوع»(١٤):

الكلمة اليونانية ἐδάκρυσεν ، و يقابلها باللغة اللاتينية في الفولجاتا **Lacrimatusest**، وهي المرة الوحيدة في كل أسفار العهد الجديد التي ذُكرت فيها هذه الكلمة ولا تفيد أكثر من أن: «أدمع يسوع»، أي سالت دموعه. وهي تُعتبر أصغر آية وردت في الإنجيل. ولكن قد ذُكر أن المسيح بكى بكاء الحزن بصوت مسموع: ἔκλαυσεν في إنجيل القديس لوقا: «وفيما هو يقترب، نظر إلى المدينة، وبكى عليها» (لو١٩: ٤١). ولكن كان هذا البكاء على هلاك شعب، وكنيسة، وليس على صديق.

دموع يسوع هنا هي صورة لأحزان الرب على مصير الإنسان ــ ككلٍّ ــ الذي جلبه على نفسه بالخطية. وق. يوحنا أسهب في تصوير بشرية المسيح الكاملة وذلك بالأنواع التي تعبِّر عن الإنسانية التي فيه:

التعب: «فإذ كان يسوع قد **تعب** من السفر جلس هكذا على البئر.» (يو٤: ٦)

العطش: «فقال لها يسوع **أعطيني لأشرب.**» (يو٤: ٧)

« ... قال أنا **عطشان.**» (يو١٩: ٢٨)

المحبة: « ... وجاءت إلى سمعان بطرس وإلى التلميذ الآخر الذي كان يسوع **يحبه.**» (يو٢٠: ٢)

كما جاءت تعبيرات أخرى مكملة في الأناجيل الأخرى:

الجوع: «فبعدما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة، **جاع أخيراً.**» (مت٤: ٢)

التهليل: «وفي تلك الساعة، **تهلل** يسوع بالروح، وقال: أحمدك أيها الآب...» (لو١٠: ٢١)

الغضب: «فنظر حوله إليهم **بغضب، حزيناً** على غلاظة قلوبهم...» (مر٣: ٥)

الحزن: «فقال لهم: **نفسي حزينة جداً حتى الموت...**» (مت٢٦: ٣٨)

لذلك كان من المستحيل على المسيح الذي تعب وعطش وجاع وأحب وفرح وغضب وحزن

---

(١٤) [والرب قد بكى لما رأى الإنسان المخلوق على صورته الخاصة منساقاً للفساد، وذلك حتى ببكائه يضع حدًّا لدموعنا. فإنه لهذه الغاية أيضاً قد مات حتى يخلصنا من الموت!]

(القديس كيرلس الكبير في تفسير يو ١١: ٣٥).

حزناً ثقيلاً حتى الموت، أن لا يبكي وتدمع عيناه، ليس مع الإنسان وحسب بل وعلى الإنسان أيضاً. فالذي ارتضى أن يقبل غُصَّة الموت من أجلنا، كيف لا يترك عيناه تنهمر منها الدموع علينا، والذي ارتضى أن يحمل خطايانا في جسده على الصليب، كيف يمتنع عن أن يذرف الدمع علينا حينما يحل البكاء؟ لقد أحلَّ لنفسه البكاء علينا، ولكنه أبى أن يبكي عليه أحد: «يا بنات أورشليم لا تبكين عليَّ، بل ابكين على أنفُسِكنَّ وعلى أولادِكنَّ.» (لو٢٣: ٢٨)

يقول اللاهوتيون أن بكاء المسيح أكبر شهادة على كمال ناسوت المسيح، ونحن نقول أيضاً أن بكاء يسوع هو أكبر شهادة على استعلان كمال مشاعر قلب الله!... إن دموع يسوع هي حبات الياقوت التي سقطت علينا من جوهر الله الأزلي، لنصنع منها عقوداً للبهاء والجمال وللتباهي بها لدى الملائكة والرؤساء التي لا تملك أن تبكي.

وكما أبطل المسيح الموت بموته، فلم يَعُدْ الموت للعار والعقاب، بل للقيامة والحياة؛ كذلك فالمسيح ببكائه مسح الدمع من العيون، فلم تَعُدْ دموعنا لليأس والقنوط، ولكن للحب والعزاء، كدموعه... «يبلع الموت إلى الأبد، ويمسح السيد الرب الدموع عن كل الوجوه، و ينزع عار شعبه عن كل الأرض، لأن الرب قد تكلم.» (إش٢٥: ٨)

و يا لفخرنا بدموع الرب هذه، فبعد أن مُسِحَتْ دموعنا، وقفت هذه الدموع عينها تشهد أن «ليس لنا رئيس كهنة غير قادرٍ أن يرثي لضعفاتنا، بل مُجرَّبٌ في كل شيء مثلُنا بلا خطيةٍ، فإذ لنا رئيس كهنة عظيم قد اجتاز السموات، يسوع ابن الله، فلنتمسك بالإقرار.» (عب٤: ١٥و١٤)

١١: ٣٦و٣٧ «فقالَ اليهودُ: انظُروا كيف كانَ يُحِبُّه. وقال بعضٌ منهم: ألم يَقْدِر هذا الذي فَتَحَ عَيْنَي الأعمى، أن يَجْعَلَ هذا أيضاً لا يَمُوتُ».

هنا أراد ق. يوحنا أن يسجل الوجه الخاطىء لمعنى دموع المسيح، إذ حسبها هؤلاء اليهود أنها دموع جسدية ــ سقطت عن ضعف ــ لأنها نابعة من صداقة مفقودة. والعجيب في أسلوب ق. يوحنا السرِّي للغاية أنه يورد بعد قول اليهود هذا، ومباشرة، الرد الذي يصحح هذه النظرة الخاطئة لدموع الرب. إذ يرى اليهود أيضاً ــ بعضٌ منهم ــ أن الذي فتح عيني الأعمى، هو قادر بالتالي أن يمنع الموت؛ فالذي يعطي النور يهب الحياة، والذي يعطي النور كيف يبكي على الظلام؟

وعلى العموم كانت تعليقات اليهود هنا، ودائماً، تنمُّ عن فقدان القدرة على مجاراة الرب في

استعلاناته، فلم يستطيعوا ولا مرة واحدة أن يلتقطوا المعنى الروحي في أقوال الرب ولا حتى في آياته. وردُّ فعلهم هنا لدموع الرب، هو مماثل لردّ الفعل الذي أحْدَثَه الصوت الذي جاء من السماء استجابة لنداء المسيح: «أيها الآب مجّدْ اسمك، فجاء صوت من السماء "مجّدت وأمجّد" أيضاً. فالجمع الذي كان واقفاً وسمع، قال: قد حدث رعد وآخرون قالوا قد كلّمه ملاك. أجاب يسوع وقال: ليس من أجلي صار هذا الصوت بل من أجلكم» (يو١٢: ٢٨ــ٣٠). هكذا، ولهذا، بكى يسوع، ليس من أجل نفسه، ولكن من أجل الذين «لم يعرفوا بعد ما هو لسلامهم.» (راجع لو١٩: ٤١)

١١: ٣٨و٣٩ **«فانزعجَ يسوعُ أيضاً في نفسِهِ، وجاءَ إلى القَبْرِ. وكان مغارةً وقد وُضِعَ عليه حَجَرٌ. قالَ يسوعُ: ارْفَعُوا الحَجَرَ. قالت له مرثا أختُ الميتِ: يا سيِّدُ قد أنْتَنَ لأنَّ لهُ أربعةَ أيامٍ».**

لا يزال المسيح في حالة الاستنفار العليا، والجسد واقع تحت استعداد خروج أكبر قوة خرجت من المسيح لإتيان معجزة. فإقامة الميت من القبر ــ والجسد قد انحل وتهرأ وأنتن ــ تحتاج إلى عملية تخليق وخَلْقٍ ليعود اللحم المنحلّ والفاسد إلى لعازر الأول الكامل والصحيح المتعافى. المسيح هنا ــ يا إخوة ــ هو **«الكلمة»** الخالق، وهو نفسه **«المخلِّص»** من براثن الموت، وهو هو **«الديّان»** الذي تسمع الموتى صوته في القبور، وهو أخيراً «القيامة والحياة»، أقصى قوة في السماء والأرض يحتاجها الميت المنتن ليقوم ويحيا ويعيش ويتكلم مرة أخرى. أيُّ جسد هذا ــ الذي للمسيح ــ الذي تحمَّل خروج هذه القوى المتعاظمة التي للخالق الديّان والمخلِّص المحيي!!

سار المسيح إلى القبر في تؤدة، وجسده يرتجف من ثقل هذه القوى التي تموج في داخله تنتظر الكلمة الأخيرة لتخرج منه، لتصارع قوات الظلام في ظلمة الهاوية، وتحطِّم مصاريع الجحيم، وتفكَّ قيود الموت، لتُطْلِقَ سبي الروح: «أخرجهم من الظلمة وظلال الموت وقطع قيودهم. فليحمدوا الرب على رحمته وعجائبه لبني آدم. لأنه كسَّر مصاريع نحاس وقطَّع عوارض حديد.» (مز١٠٧: ١٤ــ١٦)

كان القبر عبارة عن مغارة، إما منحوتة في الجبل أو طبيعية، إما على مستوى الواقف أو منخفضة عنه حيث يوضع الحجر على فم القبر وليس أمامه، وتُغْلَقُ الفتحة بحجر كبير، يمكن لأكثر من واحد إما أن يرفعه أو يدحرجه ليقفل باب المغارة، لتُحفظ الأجساد من تعدّي الوحوش.

«قال يسوع: "ارفعوا الحجر"؛ قالت له مرثا أخت الميت: "يا سيد قد أنتن لأن له أربعة أيام"»:

«ارفعوا الحجر»: هذا كان أمر المسيح لليهود الواقفين، وذلك ليشتركوا في التمهيد للمعجزة كشهود عيان، كما أمرهم بعد ذلك أن يحلُّوا الميت من أربطة الكَفَنِ، لكي تكون شهادتهم بلمس اليد أيضاً. وهذه يعتني ق. يوحنا في تسجيلها، لأنها جزء لا يتجزأ من برهان صدق الآية. ويجيء تعليق مرثا باحتجاجها أن رائحة الميت ستواجه الذين يرفعون الحجر، لتكمل الشهادة العينية والملموسة والمحسوسة بالشمِّ أن لعازر مات وله أربعة أيام في القبر، حتى لا يكون منفذ للمتشككين.

أما على المستوى الروحي السرِّي، فرفع الحجر قبل المعجزة عمل حتمي بالنسبة لنصيب خدام الرب وجهد الكنيسة الذي يمهِّد بالتعليم والتوضيح، لتتدخل قوة الرب بالروح القدس ليوقظ النفوس من موت الخطية لتقوم وتتقبل الحياة الأبدية.

أما تعليق مرثا من جهة نَتَنِ رائحة الميت، فيجيء بصفتها أخت الميت. وهي تمثل صوت النفس المتألمة في صراخها إلى الرب من جهة نتن أعمال الجسد وعفن نجاسته، حينما تتوسل ليقيم الرب سيرة الجسد من وحل الخطية إلى قداسة وبرِّ المسيح: «أنقِذْ من السيف نفسي، من يَدِ الكلب وحيدتي.» (مز٢٢: ٢٠)

«قد أنْتَنَ لأن له أربعة أيام»:

لعازر المحبوب هنا هو «**الإنسان**»، «آدم» الذي ينضوي تحت شخصه واسمه كلُّ بني البشر، وقد انقضى عليه بالفعل أربعة آلاف سنة ــ وذلك بحساب الله، فيوم الله ألف سنة، وألف سنة كيوم أمس الذي عَبَرــ منذ أن قَبِلَ في جسده الخطيةَ وحُكْمَ الموت معاً، ولوَّثتْ رائحته الأرض وأفسَدَتْها. وهوذا الرب مزمعٌ أن يرفع عنه الخطية وحكم الموت معاً، ويزكِّي رائحته برائحته لدى الله والملائكة، وتتولى مريم الإعلان عنها بالناردين الخالص الكثير الثمن، الذي ملأ رائحته الدنيا كلها حيث بُشِّر بالإنجيل. ولا يفوتنا هنا أن نُلمِّح أن المسيح جعل رحلته تقودها **المحبة**، بقوله «لعازر "**حبيبنا**"»، و«حبيبنا» جاءت بلفظ الجمع، «قد نام وأنا أذهب لأُوقظه»، وبهذا قد ألمح إلى **محبة الآب** من نحو الإنسان عامةً التي هي سرُّ رحلته العظمى لخلاص العالم: «**هكذا أحب الله العالم**، حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به.» (يو٣: ١٦)

١١ : ٤٠ **«قالَ لها يسوعُ: أَلَمْ أَقُلْ لكِ إن آمنتِ، تَرَيْنَ مجدَ الله».**

هوذا الرب يعلن عن عمل الله إزاء فساد الإنسان، فعوض نتن الموت ينبثق مجد الله، والإيمان وحده هو الذي يرى ذلك ويحققه. فبدون الإيمان يستشري الموت وتفوح نتانة الجسد وتسود عتمة القبر ويأس الإنسان. وبالإيمان تُستعلن القيامة، ويشرق النور، وتفوح رائحة المسيح الزكية لله، ويقيم الفرح في الذين يخلصون!

أما «رؤية المجد» التي تخصّص فيها ق. يوحنا وشهد لها: «ورأينا مجده مجداً كما لوحيدٍ من الآب» (يو١ : ١٤)، **فهي في نُصرة القيامة على الموت**. وهذا هو الذي سبق وأعلن عنه المسيح، كمعيار عام تُقاس به قصة لعازر في جملتها: «هذا المرض ليس للموت، بل **لأجل مجد الله، ليتمجد ابنُ الله به**». أما المجد الذي يقصده المسيح، فهو ليس في مجرد قيامة لعازر، بل في استعلان المسيح أنه ابن الله الغالب لسلطان الموت ومُنقِذُنا من الفساد!!

١١ : ٤١و٤٢ **«فرفعوا الحَجَرَ، حيث كان الميتُ موضوعاً. ورفعَ يسوعُ عَيْنَيْهِ إلى فوقُ وقالَ: أيها الآبُ أشكُرُكَ لأنك سَمِعْتَ لي. وأنا عَلِمْتُ أنك في كلّ حينٍ تَسْمَعُ لي، ولكن لأجل هذا الجَمْعِ الواقِفِ قلْتُ، ليُؤمِنوا أنك أرسَلْتَني».**

يبدو أن الحجر الموضوع على فم القبر كان مواجهاً مباشرة للميت، بمعنى أن المغارة كانت ضيقة يحتل الجسد كل مساحتها، فظهر جسد لعازر الملفوف بالأكفان «حيث كان الميت موضوعاً»، ولا بد أن فاحت معه رائحته حسبما قدّرت مرثا، مما يفيد أنها تعلم أن الجسد لن يتأثر بالحنوط والعقاقير التي تحفظه، أو تعطيه رائحة مقبولة لسبب انحلاله. وأمام هذا المشهد الذي يمثل الإنسان ومصيره الحزين والكئيب، الذي هو نهاية كل أحد، حيث تتجلى اللعنة بكل مؤثراتها على الميت وأهل الميت وعلى الأرض التي احتوته، وقف رب القيامة وفي يده مفتاح الحياة. هذا هو المسيح، في الهيئة كإنسان يبكي بكاءً مع الباكين، وأمام الموت صاحب «كلمة الله» التي لا ترتدّ فارغة (إش٥٥ : ١١). «**برٌّ**» من الله، و«**قداسة**»، و«**فداء**»، «الذي صار لنا حكمة من الله وبرًّا وقداسة وفداء» (١كو١ : ٣٠). وهو «الابن المحبوب»، الذي يتكلم مع أبيه جهاراً بخصوص المشيئة الواحدة، والعمل الواحد، والمجد الواحد والاسم الواحد « ἐγώ εἰμι ». والآب يسمع، وليس فقط يسمع، بل ويمجّد أيضاً: «مجّدتُ وأُمجّدُ أيضاً»، وتسمع البشرية والأرض والسماء: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سُرِرْتُ له اسمعوا.» (مت١٧ : ٥)

ونحن نعلم أن المسيح حينما خاطب الآب قبل الصليب ـــ وهو على أبواب المحنة العظمى ـــ لم يخاطبه فقط كإنسان يطلب أن تُرفع عنه هذه الكأس، بل وكابن الله يطلب ما له: «والآن مجِّدني أنت، أيها **الآب، عند ذاتك** بالمجد **الذي كان لي عندك** قبل كَوْنِ العالم.» (يو١٧: ٥)

وحينما طلب المسيح من الآب المجد الذي له **في ذات الآب**، طلبه «**بالمثل**»، لأن مجد الآب هو مجد الابن: «كل ما هو لي فهو لك، **وما هو لك فهو لي**» (يو١٧: ١٠). هذه الكلمة لم يجرؤ، ولن يجرؤ، إنسان أو نبي أو ملاك أن يقولها.

أما عن هذا المجد المتساوي أو الواحد، فهذا ما أعلنه المسيح فيما يختص بإقامة لعازر من الموت، من جهة المجد المتحصِّل من المعجزة، فإن كان **الله سيتمجد حتماً** بإقامة لعازر من الموت، **فهذا المجد عينه سيستقر لحساب الابن بالضرورة**: «هذا المرض ليس للموت، بل **لأجل مجد الله، ليتمجد ابنُ الله به**». ويلاحظ هنا أن مجد الابن ليس مُضافاً لمجد الآب، بل مجدُ الآب هو نفسه لمجد الابن.

«ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال: أشكُرك أيها الآب، لأنك سمعتَ لي. وأنا علمتُ أنك في كل حين تسمع لي»:

كان يتحتم على المسيح، وهو بصدد استعلان مجد الله الآب من جهة قوة القيامة من الموت المزمع أن يظهر في الحال، أن يتكلم مع الآب وذلك:

أولاً: حتى يعلم الجمع أن العمل المزمع أن يتم بأمر المسيح، هو عمل الله الآب، لكي يؤمنَ الجمعُ الواقف، ولكي يدرك الأعداء والمتشككون أنه سيتم بقوة الله، وليس بعمل السحر أو بقوة الشيطان.

وثانياً: لكي لا ينسبَ المسيح عمل القيامة أو المجد المتحصِّل منها لنفسه، من دون الله. لهذا ظهر المسيح وكأنه يصلي. ولكن صلاة المسيح هذه خلت خلوًّا تاماً من أي طلب، فهي للشكر فقط، وكأنها صلاة تسبيح واستجابة. فقد ظهر فيها توافق المشيئة بصورة مُسْبَقة وعلنية: «أنك سمعت لي، وأنا علمتُ أنك في كل حين تسمع لي» ـــ مما يكشف سرَّ المحبة والمشيئة الواحدة بين الآب والابن، سِرَّ الوحدة: فالابن على الأرض يسأل بفم الإنسان، والآب في السماء يستجيب دائماً وبلا تحفُّظ ولا استثناء. فهي استجابة مطلقة بسبب تطابق المشيئة تطابقاً مطلقاً: «في كل حين تسمع لي». وهذا بحد ذاته كان مسرة للمسيح وموضع شكره، لأنه يكشف للسامعين والناظرين علاقة الآب بالابن. فالابن المُرْسَلُ في صورة الإنسان، يسوع المسيح، يسمع لمشورة الآب

و يطيعها طاعة مطلقة. وحينما يطلب من الآب من أجل الإنسان و باسم الإنسان، يستجيب الآب **استجابة مطلقة**، لأنه يفعل كل حين ما يرضيه. هذا **«التوافق» المطلق** بين الطلب **والاستجابة** لحساب الإنسان يَستعلن فيها المسيح، بكل يقين، أنه مُرْسَلٌ من الآب، وهو ابن الله بالضرورة.

ثالثاً: يلزمنا أن ننتبه جداً أن صلاة المسيح هذه هي لحسابنا، وهي بفمنا(١٥)، والمسيح يقدّمها للآب بدالة بنويته، التي سلّمنا سر نعمتها وسر قوتها وخصوبتها؛ لكي في دالة بنوة المسيح للآب هذه عينها، نتقدم نحن أيضاً كبنين لله بالتبنّي بيسوع المسيح، ونسأل ونطلب بحسب روح الله الذي يُهذِّب مشيئتنا و يقويها، لتكون بحسب مشيئة الآب والابن لتُستَجابَ كل طلباتنا لدى الله — كلّ ما طلبنا ونطلب.

هذا الأمر خطير في الحقيقة، لأنها عطية فائقة، **سلّمها لنا المسيح لنكمّل بها عمله**، وليس لنتمجد بها نحن. هذا السرُّ يدخل دخولاً عملياً في مسئوليتنا لتكميل عملية الخلاص التي وُهبت لنا بموت الرب وقيامته. فالصلاة هي قوة منبعثة من العمل الفدائي، الذي أُعطي لنا أن نكمّله في أنفسنا وفي الآخرين، وهي سرُّ فعل الخلاص الذي يقتحم القلوب القاسية، لتباشر كلمةُ المسيح فاعليّتها داخل النفس، لتخلّصها من براثن الخطية والشيطان. فالصلاة هي الموهبة العامة التي أُعطيت للجميع: «لأجل تكميل القديسين لعمل الخدمة لبنيان جسد المسيح» (أف ٤ : ١٢). **فالصلاة المستجابة هي أيضاً من سمات العهد الجديد، المميّزة لأولاد الله**. ثم أخيراً، هي المنفذ الذي وعد به الرب أخصّاءه وأحبّاءه، تجاه الضيقات والمِحَن والتجارب، التي تَحتّم علينا أن نواجهها في العالم الحاضر: «ولكن الله أمينٌ الذي لا يَدَعُكم تُجرَّبون فوق ما تستطيعون، بل **سيجعل مع التجربة أيضاً المنفذ**، لتستطيعوا أن تحتملوا» (١ كو١٠ : ١٣). وهذا هو الوعد الذي قطعه الرب على نفسه:

+ «**ومهما** سألتم باسمي، فذلك أفعله، **ليتمجد الآب بالابن**. إن سألتم شيئاً باسمي، فإني

---

(١٥) يقول في ذلك القديس أثناسيوس:

[إن كل صلاة صلاّها المخلّص، إنما قد صلاّها بالنيابة عن طبيعة الإنسان] (تفسير مزمور ٦٨).

و يشترك معه القديس كيرلس الكبير قائلاً:

[إنه يفعل ذلك (الصلاة) بالنيابة عنا، وطِلْبَتنا نحن هي التي صارت فيه].

(الكنز في الثالوث — PG 75,388).

[فإننا نحن الذين كُنّا فيه نصلي بصراخ شديد ودموع، ونطلب أن يُبطِلَ سلطانَ الموت، وأن تتقوى الحياة الموهوبة قديماً لطبيعتنا].

(عن الإيمان القويم PG 76,1392).

أفعله.» (يو١٤: ١٣و١٤)

وواضح هنا أن الرب يكمل نفس صلاته وسؤاله عنا لدى الآب بواسطة صلواتنا!! فصلواتنا داخلة، بالنعمة التي لنا في المسيح، دخولاً لاهوتياً ــ أي في سر علاقة الابن بالآب ــ في صلاة المسيح. ولأن علاقة الابن بالآب لا تحتمل الرفض ولا الإهمال على وجه الإطلاق، لذلك فالمسيح يؤكد ــ بسبب هذه العلاقة السرِّية بينه وبين الآب ــ أنه «**مهما** سألتم باسمي، فذلك أفعله»!!

+ «إن ثبتم فيَّ وثبت كلامي فيكم، **تطلبون** ما تريدون **فيكون لكم.**» (يو١٥: ٧)

واضح هنا أيضاً أن الرب يرفع من نوعية صلواتنا من مستوى السؤال الذي ينتظر الجواب، إلى صلاة الشكر بسبب الاستجابة المؤكدة: «تطلبون... فيكون لكم»، وهي نفس نوعية صلاة المسيح لدى الآب، حيث المسيح ألغى «السؤال» من لدن الآب من جهة قيامة لعازر ــ ووضع مكانه «**الشكر**» لثقته في الاستجابة الحتمية.

+ «**وفي ذلك اليوم لا تسألونني شيئاً**. الحق الحق أقول لكم: إن **كلَّ ما طلبتم من الآب باسمي، يعطيكم**.» (يو١٦: ٢٣)

+ «**في ذلك اليوم** تطلبون باسمي، ولست **أقول** لكم إني أنا أسأل الآب من أجلكم، لأن الآب نفسه يحبكم، لأنكم قد أحببتموني، وآمنتم أني من عند الله خرجت.» (يو١٦: ٢٦و٢٧)

وهذه هي آخر درجة في نوعية الصلاة. فهي لا تعود تحتاج أن يتدخل المسيح بدالَّة بُنُوَّته لدى الآب ليرفع صلواتنا إلى الآب، بل المسيح يسلِّمنا **دالة بُنُوَّته** عينها **مع محبة الآب له**، لنطلب بمقتضاها ومن داخلها وكأننا بفم الابن نتكلم مع الآب، ونشكر. فكما يستجيب الآب للابن، يستجيب لنا، حيث اسم يسوع المسيح فقط يقدِّمنا للآب في شخصه: «الذي به، لنا جراءة وقدوم بإيمانه (إلى الآب) عن ثقة.» (أف٣: ١٢)

+ «إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي. **اطلبوا، تأخذوا**، ليكون فرحكم كاملاً.» (يو١٦: ٢٤)

هنا، **أولاً، يستحثُّنا المسيح أن نسأل باسمه**، وذلك الإحثاث يكشف عن لزومية السؤال والأخذ بالنسبة لنا ولحياتنا وبالنسبة لخلاص الآخرين. وهذا العمل (أي السؤال) هام بالنسبة للمسيح نفسه، **فهو** استمرار لاستعلان قوة وفاعلية اسم المسيح في العالم، لتكميل عمل الخلاص الذي بدأه، كما هو هام لازدياد ونموّ اختبارنا لقوة المسيح وفاعلية اسمه.

وثانياً: يرى المسيح أن وراء السؤال باسمه واستجابة الآب للسؤال، استعلاناً لمحبة الله لنا: «الآب نفسه يحبكم»، وذلك نتيجة لثقتنا وإيماننا وحبنا للمسيح: «لأنكم قد أحببتموني، وآمنتم أني من عند الله خرجت.» (يو١٦: ٢٧)

واستعلان محبة الآب لنا، هي مصدر «**الفرح الكامل**». وليس سرًّا أن نقول، بحسب خبرة النعمة، أن **الفرح الروحي الكامل هو الإعلان الحسّي عن حضور الله**، أو الحياة في حضرته، التي هي منتهى قصد الإنسان.

وق. يوحنا يشهد من خبرته العملية على صدق هذا الكلام، بقوله: «**ومهما سألنا ننال منه**، لأننا نحفظ وصاياه (يَثْبُت كلامي فيكم)، ونعمل الأعمال المَرْضِيَّة أمامه» (١يو٣: ٢٢)، «وهذه هي الثقة التي لنا عنده، أنه إن طلبنا شيئاً حسب مشيئته، يسمع لنا. وإن كنا نعلم أنه مهما طلبنا، يسمع لنا، نعلم أن لنا الطِّلبات التي طلبناها منه.» (١يو٥: ١٤و١٥)

١١: ٤٢و٤٣ « ... ولكن لأجلِ هذا الجَمْعِ الواقِفِ قلْتُ، ليُؤمِنُوا أنكَ أرسَلْتَني. ولما قالَ هذا صَرَخَ بِصَوْتٍ عظيمٍ: لِعَازَرُ هَلُمَّ خَارِجاً».

بعد أن هيأ المسيح عقول الجمع والتلاميذ ومرثا ومريم لقبول المعجزة، ورفع حرارة قلوبهم وإيمانهم إلى أعلى درجة في الإيمان، حتى صار الجميع يثقون أن لعازر سيقوم مائة بالمائة: «**لأنك في كل حين تسمع لي**»، وبعد أن اطمئن المسيح أن الجميع قد تعلّق قلبهم بالله الآب كصانع المعجزة «القيامة»، ورأى الجميع المسيح وهو رافع يديه نحو السماء وسمعه وهو يتحدث مع الله الآب؛ شعر الجميع بالصلة السرية بين المسيح والآب والدالّة والتوافق بينهما، فأدرك أن ما سيعمله المسيح هو هو عمل الآب، وأن العمل الوشيك أن يعمله المسيح بسلطان فائق هو لمجد الله الآب ليتمجد به المسيح: «صرخ بصوت عظيم لعازر هلّم خارجاً».

واضح أن الرب يتعامل هنا مع قوة أخرى عنيدة، يأمرها بقوة واقتدار وجلال عظيم: «صوت الرب بالقوة، صوت الرب بالجلال... صوت الرب يقدح لُهُبَ نارٍ، صوت الرب يزلزل البرية.» (مز٢٩: ٤و٧و٨)

نعم، سمعت الهاوية فتزلزلت وأَخْلَتْ قوات الجحيم أسيرها: «استجب لي سريعاً، اقترب إلى نفسي، فُكَّها، بسبب أعدائي افْدِني.» (مز٦٩: ١٧و١٨)

هنـا صورة حية ناطقة لما يصفه بولس الرسول فيما سيكون حتماً: «لأن الرب نفسه بهُتافٍ، بـصوت رئيس ملائكة، و بوق الله، سوف ينزل من السماء، والأموات في المسيح سيقومون أولاً.» (١تس٤: ١٦)

وصراخ المسيح **«بصوت عظيم»**، يلمّح به ق. يوحنا إلى أن **«نوم»** لعازر كان عميقاً للغاية، و يتوافق مع كلمة الرب أنا أذهب **«لأُوقظه»**. وهكذا يستصغر الإنجيل من قدر الموت أمام ربّ الحياة. ولكن، وفي الحقيقة أيضاً، فإن صراخ الرب بصوت عظيم يكاد يرعب السامع والناظر وحتى القارىء، لأننا تعوّدنا أن نسمع عن الرب أنه «لا يصيح ولا يسمع أحد في الشوارع صوته» (مت١٢: ١٩)، فهنا وفي يقيني أن قوة هائلة خرجت من الرب لم يستطع جسد المسيح إلاّ أن ينوء تحتها مُعْلِناً عنها بهذا الصراخ العظيم. فهذه بعينها قوة الحياة التي تفوق قوة الخَلْق، لأنها تتعامل مع نفس مقيّدة بقيود الجحيم، ومع جثة منتنة عبثت بها كل عوامل الانحلال. والعقل يقف حائراً وقد أخذه الذهول، لأن النفس والجسد استجابا في الحال، وعادا إلى الحياة برجع صدى صوت المسيح.

١١: ٤٤ «فخَرَجَ المَيِّتُ، ويَدَاهُ ورِجْلاهُ مَرْبُوطاتٌ بأقْمِطَةٍ، ووجهُهُ مَلفُوف بمِنْدِيلٍ».

خروج لعازر الميت من القبر بأقمطته، صورةٌ مرعبة حقاً لا يستطيع أن يلاحقها الخيال دون أن يُصَاب الفكر بالدوار. فالإنسان تآخى مع الموت وصورة الموتى، ولم يتآخ بعد مع القيامة وصورة الخارجين من القبور. فالقيامة وإن كان اسمها حلو للغاية بالمفهوم الروحي، إلاّ أن تصوُّرها بالجسد مرعب لأقصى حدٍّ. وهذا ما عاناه التلاميذ عند قيامة المسيح في أول الأمر: «وقف يسوع في وسطهم وقال لهم: سلام لكم. **فجزعوا وخافوا**، وظنوا أنهم نظروا روحاً. فقال لهم: **ما بالكم مضطربين**، ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم» (لو٢٤: ٣٦ــ٣٨)؛ لأن قيامة الجسد لم تكن تخطر على بال.

أما خروج الميت **وهو مربوط**، فلا داعي أن يُرْبِكَ الفكر، لأن عادة اليهود في تكفين الميت أخذوها عن المصريين الفراعنة، حيث يُلَفُّ كل ذراع بمفرده وكلُّ رِجْل بمفردها، بحيث يمكن تصوُّر لعازر وهو يقوم و يقف ويمشي ويخرج.

و بالنهاية، فإن منظر لعازر خارجاً من القبر يبسِّط لنا معنى القيامة، و يوضح لنا القوة المذخرة في المسيح التي قام بها من الموت.

١١ : ٤٤ «... **فقال لهم يسوعُ: حُلُّوهُ ودَعُوهُ يذهَبْ**».

عجيب المسيح في حاسته الحاضرة دائماً لاحتواء الذهول والرعبة التي كانت تعقب معجزاته. فهنا لا يمكن أن نتصور مدى الفزع والرعبة والخوف الذي أصاب الجميع حينما رأوا لعازر خارجاً من القبر، لذلك بادرهم المسيح في الحال بأمرٍ يستعيد به حركتهم و يطبّع به شعورهم تجاه الأمر الواقع أمامهم: «**حُلُّوه ودعوه يذهب**». هذا حدث أيضاً في المواقف الأخرى المماثلة: «فقال: أيها الشاب لك أقول قُمْ، فجلس الميت وابتدأ يتكلم ـــ **فدفعه إلى أمه**» (لو٧: ١٥)، «ونادى قائلاً: يا صبيّة قومي. فرجعت روحها وقامت في الحال ـــ **فأمر أن تُعطى لتأكل.**» (لو٨: ٥٥)

هذا، يا إخوة، ما حدث، وما حدث أمر لم يحدث له مثيل قط: ميت يقوم من القبر بعد أربعة أيام، وقد أنتَنَ وتحلّل جسده. ولكن الذي نعرفه جيداً، أن آياتٍ أخرى كثيرة حدثت لم يُكشف عنها ولم يذكرها هذا الإنجيلي الرائي الفريد في روحه وأسلوبه، ولا نعلم يا إخوة ما الذي منعه عن ذكرها غير أن نموذج قيامة لعازر يجعلنا نؤمن أن المسيح هو ابن الله الحي ديّان الأحياء والأموات، ونتيقَّن أن قيامتنا حقيقة واقعة، ونحن بانتظار صوت المسيح «**الآن**» **وكل يوم!**

التعقيب على آية إقامة لعازر: (١١: ٤٥ـــ٥٣).

١١: ٤٥و٤٦ «**فكثيرونَ من اليهودِ الذين جاءُوا إلى مريمَ ونظروا ما فَعَلَ يسوعُ، آمنوا بِهِ. وأما قومٌ منهم، فمَضَوْا إلى الفريسيينَ وقالوا لهم عمَّا فعلَ يسوعُ**».

واضح هنا أن اليهود الذين جاءوا للتعزية كان بعض منهم أصدقاء أوفياء رأوا وآمنوا بالمسيح، وكأنما الصوت الذي سمعه لعازر في القبر سمعوه، وقوة الحياة التي سَرَتْ في أوصال الميت فأقامته، سَرَتْ فيهم وأقامتهم، وذاقوا الحياة في المسيح، فآمنوا به كَرَبّ القيامة والحياة الآتي إلى العالم، وهذا منتهى قصد المسيح والآب الذي أرسله. أما البعض الآخر من اليهود فلم تكن لهم آذان روحية تسمع ولا عيون روحية تبصر، وهؤلاء هم الذين قال عنهم المسيح على لسان إبراهيم في قصة لعازر والغني: «فقال له إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء. ولا إن قام واحد من الأموات يُصدّقون» (لو١٦: ٣١)، **لأن غيرتهم كانت منحصرة في الأرضيات، فكانت إقامة** المسيح للعازر من الموت تمثل عندهم ضياع هيبة السنهدريم والرؤساء والكهنة والكتبة والفريسيين جميعاً، وكلّ من ارتزق من الهيكل وتمسك بالأرض والميراث والتراث التي ينادي بها المتعصبون للأمة وقضاياها. فذهبوا في الحال ليخبروا رؤساءهم بما حدث ويخبروا عن الذين آمنوا.

١١: ٤٧و٤٨ **«فجمع رؤساءُ الكهنةِ والفريسيُّون مَجْمَعاً، وقالُوا: ماذا نَصْنَعُ فإن هذا الإنسانَ يعملُ آياتٍ كثيرةً. إن تركناهُ هكذا، يُؤمِنُ الجميعُ بِهِ، فيأتي الرُّومانيُّونَ ويَأْخُذُونَ مَوْضِعَنا وأُمَّتَنا».**

يلاحَظ هنا أن رؤساء الكهنة بدأوا يتحركون بسرعة، عن خوف وحقد معاً، لأن رؤساء الكهنة هم الصدُّوقيون الذين لا يؤمنون بالقيامة، فكانت إقامة لعازر من الأموات تمثل بالنسبة لهم ولمبادئهم هزيمة بالضربة القاضية، لذلك أصبح التخلص من المسيح بمثابة قضيتهم الأُولى وخلاصهم الوحيد.

وفي هذه المرة لم يرسل رؤساء الكهنة ولا الفريسيون مَنْ يحقق في صدق هذه الآية، لأنها كانت ثابتة بشهود وفوق الشبهات.

أما الفريسيون المجتمعون معهم، فلم تؤثر فيهم هذه الآية ــ أي القيامة من الموت ــ كثيراً لأنهم كانوا يؤمنون بالقيامة. ولكن عداءَهم للمسيح كان نابعاً من تعارض تعاليم المسيح مع مصالح ومستقبل مهنتهم، وبالأكثر تعارضٌ مع سلوكهم وأخلاقهم. غير أن بعضاً منهم كانوا قد آمنوا بالمسيح، ولكن بسبب الخوف أخْفَوْا أنفسهم. ولذلك لا نعود نسمع كثيراً عن تحرُّك الفريسيين في كل الأصحاحات القادمة، بل كانت القيادة والحركة دائماً لرؤساء الكهنة ولا يُسمع عن الفريسيين إلاَّ داخل السنهدريم لأنهم أعضاء بالضرورة. وفي النهاية تخلى الفريسيون عن المقاومة، وتمثَّلت العداوة للمسيح في رؤساء الكهنة وحدهم، وكانت عداوة حتى الموت. وهذا الاتجاه واضح أيضاً في الأناجيل الأخرى.

وهكذا نرى من تركُّز حركة قيادة المقاومة في رؤساء الكهنة، وذلك بصفتهم فئة الصدوقيين الذين لا يؤمنون بالقيامة، أن آية إقامة لعازر من الموت **كانت السبب الأخير والمباشر** الذي بَلْوَرَ في أذهان رؤساء الكهنة حتمية سرعة موت المسيح الذي سبق وقرروه عدة مرات.

ونحن نقرأ ما كان يدور في أذهان الفريسيين ورؤساء الكهنة منذ البداية عن ضرورة موت الرب هكذا:

+ «فأجابهم يسوع: أبي يعمل حتى الآن، وأنا أعمل. فمن أجل هذا **كان اليهود يطلبون أكثر أن يقتلوه،** لأنه لم ينقض السبت فقط، بل قال أيضاً إن الله أبوه، معادلاً نفسه بالله.» (يو٥: ١٧و١٨)

+ بعد التعليم عن أكل الجسد وشرب الدم: «وكان يسوع يتردد بعد هذا في الجليل. لأنه لم يُرِدْ أن يتردد في اليهودية، لأن اليهود **كانوا يطلبون أن يقتلوه.**» (يو٧: ١)
+ بعد تعليمه في الهيكل وتوبيخه للفريسيين: «أليس موسى قد أعطاكم الناموس وليس أحد منكم يعمل الناموس. لماذا تطلبون أن تقتلوني.» (يو٧: ١٩)
+ «فقال قومٌ من أهل أورشليم: أليس هذا هو **الذي يطلبون أن يقتلوه.**» (يو٧: ٢٥)
+ «ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلَّمكم بالحق الذي سمعه من الله. هذا لم يعمله إبراهيم.» (يو٨: ٤٠)
+ «فرفعوا حجارة ليرجموه. أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازاً في وسطهم، ومضى هكذا.» (يو٨: ٥٩)
+ «... أنا والآب واحد. فتناول اليهود أيضاً حجارة ليرجموه.» (يو١٠: ٣٠و٣١)

ثم جاءت أخبار آية إقامة لعازر من الموت التي جعلتهم يعقدون مجمعاً في الحال، لينظروا بجدية في أمر قتله:

«ماذا نصنع، فإن هذا الإنسان يعمل آيات كثيرة. إن تركناه هكذا يؤمن الجميع به»:
كان فكر رؤساء الكهنة والفريسيين قد انشغل منذ البداية بالآيات التي كان يصنعها المسيح. وكان القلق والخوف يتزايدان بتزايد الآيات. وكانت العوامل التي تثير هذا الخوف والقلق تنبع من ثلاثة أسباب، هي بحسب أهميتها لهم كالآتي:

الأول: الخوف على مراكزهم، بصفتهم رؤساء وقضاة الأمة، وفي نفس الوقت لم يتحنَّن عليهم الرب بأي مواهب أو مميزات روحية تحفظ لهم حق هذه الرئاسة والكرامة، في مقابل الآيات التي كان يصنعها المسيح والتي بدأت تتزايد ويتزايد معها المؤمنون به.

الثاني: خلاصة تعاليم المسيح كانت تتجه نحو الحياة الروحية واستيطان السماء وإضعاف التقاليد وبخاصة حفظ السبت، مما تراءى لهم أن هذا يخلخل تمسك الشعب وخاصة الغيورين منهم بميراثهم الأرضي والآبائي والناموسي. وهذا يسهِّل على المستعمر الروماني الاستيلاء على الأرض والحكم معاً. وبذلك تتلاشى عناصر الأمة اليهودية التي تقوم على الأرض والناموس. وهذا كان يؤرقهم للغاية.

ثالثاً شخصية المسيح كانت قد بدأت تأخذ ملامحها الإلهية، ويتزايد العنصر الإلهي فيها بزيادة الآيات التي كانت تنطق كلها بأنه ليس مجرد نبي، وتصريح المسيح بأنه ابن الله (يو١٠: ٣٦)،

وأنه هو والله الآب واحد (يو١٠: ٣٠). وهذه كانت تتعارض تعارضاً جذرياً مع مفهوم وحدانية الله عندهم. وكانت كلمات المسيح تطيح بعقولهم وتتركهم شبه مجانين. فكان المسيح يمثل عندهم حد التجديف الأعلى الذي يستوجب الموت.

وهكذا، كلما كان المسيح يتزايد قوة بالآيات التي يصنع؛ كانوا هم يتزايدون ضعفاً بسبب عدم قدرتهم على عمل أي شيء يجتذب نظر الشعب و يوقف معركة الإيمان به. فكانت حيرتهم فوق العقل: «ماذا نصنع؟».

وهكذا شكّل المسيح في قلوبهم حركة ضياع تراءت لهم أنها مصيرية، خاصة حينما رأوا أن أعداد الذين يؤمنون به تتزايد بصورة رهيبة: «إن تركناه هكذا، يؤمن الجميع به».

«فيأتي الرومانيون و يأخذون موضعنا وأُمتنا»:

وهكذا كانت سرعة الحسم في أخذ قرار متعجّل جاهل مملوء أخطاء شيئاً خارجاً عن نطاق العقل. وقد اتجه قرار مجمع السنهدريم نحو «الخوف السياسي» أكثر منه نحو الخوف على الناموس والأنبياء والتقليد والمبادىء الإلهية، مما يوضح مدى انحراف الرؤساء عن جوهر رسالتهم وعبادتهم.

وهذا الاتجاه السياسي في التفكير بالنسبة لقضية المسيح المطروحة في المجمع، يفيد أن عنصر الصدوقيين كان هو السائد والمحرك للمجمع وليس العنصر الفريسي ذي الإتجاه التعليمي.

و يقرر العلاّمة الألماني شناكنبرج **R. Schnackenburg** في كتابه: «حكم الله والملكوت» (في الصفحات ٥٧ــ٦٢)، موقف الفريسيين الشديد التمسك بالتوراة الذي ــ في اعتقادهم ــ هو الطريق الوحيد الذي يمهد لمجيء المسيا وبداية حكم الله. كما يصفهم العلامة الألماني W. Foerster بأنهم، أي الفريسيين، حاولوا باستمرار، أولاً في أيام بومبي **Pompey** الوالي الروماني، أن يعفوا أنفسهم من شئون الحكم على يدي الهاشمونيين والهيروديين بعدهم لكي يتفرغوا و يكرسوا أنفسهم تكريساً كليًا لخدمة الناموس، راضين بالحكم الروماني الذي تولى شئون التنظيم الخارجي.

و يقرر العلاّمة الألماني شناكنبرج أيضاً أن موقف الفريسيين هذا ظهر بوضوح عند معارضتهم ومقاومتهم للثورة المسلحة ضد الرومان عند قيام الحرب اليهودية، كما يقرر العلامة يوسيفوس المؤرّخ اليهودي (Bell II-411-24).[١٦]

---

[16] Schnackenburg, *op. cit.*, p. 519.

«يأخذون موضعنا»:

الموضع هنا باليونانية τόπος لا يعني الأرض ولا المدينة المقدسة كما يظن بعض العلماء، ولكنه الاسم الطقسي للهيكل المقدس ـ الذي ينبغي أن يُسجد فيه وحده ـ كما جاء في يو٤: ٢٠: «تقولون أن في أورشليم **الموضع** τόπος الذي ينبغي أن يُسجد فيه». ولا يزال هذا الاصطلاح يُستخدم حتى الآن في الكنيسة القبطية في القداس، وفي كل الصلوات عند البداية، في صلاة الشكر: «كل حسد وكل تجربة وكل فعل الشيطان ومؤامرات الناس الأشرار وقيام الأعداء الخفيين والظاهرين انزعها عنا وعن سائر شعبك وعن **موضعك** المقدس هذا».

ومعروف أن الهيكل المقدس في أورشليم كان هو رمز الوجود والحياة بالنسبة لليهود، أكثر من أورشليم ذاتها ومن كل الأرض. والعجيب حقاً أن قتلهم للمسيح بسبب خوفهم من ضياع الهيكل، سبق المسيح وأعلن إزاءه أن موته سيكون سبباً مباشراً لهدم الهيكل ولقيام الهيكل الجديد (جسده) عوضاً عنه: «انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أُقيمه.» (يو٢: ١٩)

«يأخذون... أُمّتنا» ἔθνος :

ويقصد بها الأمة اليهودية ـ (الجنس اليهودي) ـ بمفهوم فقدان **«الحرية الدينية»** التي كان الرومان قد سمحوا بها لليهود. وهذه هي بعينها ـ أي الحرية الدينية السياسية ـ التي وقفت حجر عثرة في تقبُّلهم الحرية التي في المسيح، التي تنقذهم من عبودية الخطية وعبودية المجد الدنيوي. ولكنهم فقدوا هذه وتلك: «أجاب رؤساء الكهنة ليس لنا ملك إلاَّ قيصر» (يو١٩: ١٥)؛ «لأنهم أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله» (يو١٢: ٤٣). ومعروف أنه بعد صلب المسيح بأربعين سنة، أي في سنة ٧٠م، دخل الجيش الروماني وهدم وأحرق الهيكل، وأسَر الشعب اليهودي.

١١: ٤٩و٥٠ **«فقال لهم واحدٌ منهم وهو قيَافا، كان رئيساً للكهنةِ في تِلْكَ السنةِ، أنتم لستم تعرفونَ شيئاً. ولا تُفكِّرُونَ أنه خيرٌ لنا أن يموتَ إنسانٌ واحدٌ عن الشعبِ ولا تَهلِكَ الأمةُ كلُّها».**

«قيافا»:

في الأصحاح الثامن عشر من إنجيل يوحنا نقرأ أن رئيس الكهنة الذي حوكم المسيح أمامه هو حنان ثم قيافا: «ثم إن الجند والقائد وخدام اليهود قبضوا على يسوع وأوثقوه ومضوا به إلى "**حنان**" أولاً، لأنه كان حَمَا قيافا الذي كان رئيساً للكهنة في تلك السنة.» (يو١٨: ١٢و١٣)

وفي إنجيل لوقا نقرأ: «في أيام **رئيس الكهنة حنان وقيافا**» (لو٣: ٢)، أي أن كلًّا من حنان وقيافا كان يباشر وظيفة رئيس كهنة في ذات الوقت.

وفي سفر الأعمال نقرأ: «وحدث في الغد أن رؤساءهم وشيوخهم وكتبتهم اجتمعوا إلى أورشليم مع حنان رئيس الكهنة وقيافا و يوحنا والإسكندر وجميع الذين كانوا من عشيرة رؤساء الكهنة.» (أع٤: ٥و٦)

هذه الشبكة المتشابكة من رؤساء الكهنة، يحلُّ لنا لغزها العلاَّمة والمؤرخ اليهودي يوسيفوس[17] حيث يقول إن فاليروس جراتوس أسقط حنان رئيس الكهنة من وظيفته سنة ١٤م، بعد أن كان قد شغلها سبع سنوات. ولكن ظلَّ تأثير حنان قويًّا بسبب شخصيته، حتى إن الشعب ظلَّ يعتبره رئيساً رسميًّا للكهنة بالرغم من إقالته. وظلَّت رئاسة الكهنوت الرسمية يتداولها أفراد عائلة حنان بالتتابع، فشغلها إشماعيل، ثم ألِعازار ابنه، ثم سمعان ابن ألِعازار، وأخيراً شغلها يوسف قيافا، وهو الذي يذكره ق. يوحنا في إنجيله أن حنان حماه، موضحاً بذلك رئيس الكهنة الرسمي ورئيس الكهنة بالتدخل، وهو حنان، المعروف عنه أنه كان جريئاً وغير مستقيم.

وقد شغل قيافا رئاسة الكهنوت من سنة ٢٥ حتى سنة ٣٦م، أي طوال مدة خدمة الرب يسوع، وكان معروفاً بالجهل والقسوة وأنه أرستقراطي النزعة كما يصفه يوسيفوس.

اجتمع السنهدريم مع رؤساء الكهنة والفريسيين، ونُظرت قضية المسيح، وكانت أمامهم معقَّدة أشد التعقيد، فلم يكن الرأي متفقاً على شيء، وظل النقاش مستمراً بصورة عابسة و يائسة. وهذا واضح كل الوضوح من الإشارة الواردة في محضر الجلسة: «أنتم لستم تعرفون شيئاً». وهذا يعني أن المجلس كله كان في حالة إرتباك، وهذا معروف ضمناً لأن الصراع التقليدي بين الصَّدُّوقيين الذين لا يؤمنون بالقيامة و بين الفريسيين الذين يؤمنون بها وارد قطعاً، لأن المجلس انعقد على أساس المعلومات الواردة بخصوص آية إقامة لعازر من الموت. ولكن مجلس اليهود لا يُعْدَم الحيل والمناورات. فقد انبرى «واحد منهم» وكأنه أشجعهم، وهو قيافا، ليُسْعف المجلس برأيه، وكان محسوباً أنه الرأس المسئولة عن سياسة الأمة، لذلك كان يتكلم بلسان رجل دولة للأمة كلها. ولكنه ــ وللأسف ــ كان معروفاً أنه أكثرهم جهلاً.

[17] Josephus, *Ant.*, XVIII, 2-2 and 4-3.

«كان رئيساً للكهنة في تلك السنة»:

ق. يوحنا هو المتكلم. وكلام ق. يوحنا لا يؤخذ بسهولة، فكلمة «في تلك السنة» لا تعني أن التعيين بالنسبة لرؤساء الكهنة كان يجرى سنوياً، فهذا ليس صحيحاً. فقيافا استمر في رئاسته (٢٥ــ٣٦م) حتى أسقطه الوالي فيتلُوس بعد سقوط بيلاطس بقليل. والمعروف أن رئيس الكهنة يُعيَّن لمدى الحياة، ولكن المعنى السرِّي (mystical أي الروحي غير الحرفي) يهدف إلى أن «هذه السنة» لا تعني الضبط التاريخي ولكنها منسوبة إلى «**حياة المسيح**»، فهي سنة المسيح أي «سنة الرب المقبولة» (إش٦١ : ٢) حسب النبوات. وقيافا كان هو رئيس الكهنة لهذه السنة التي في لاهوت ق. يوحنا هي سنة النهاية والبداية، الموت والقيامة، وحيث النهاية بالنسبة للقديم، وحكم الموت بالنسبة إلى حبرية هذا الكاهن حسب كلامه، حيث ماتت (هلكت) أمة وقامت الأمم: «خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها».

هذا القول الذي قاله قيافا اعتبرته الكنيسة الأُولى أقوى تعبير نبوي نطقه رئيس كهنة العهد القديم ــ دون أن يدري ــ عن مفهوم الفداء الذي تم بموت المسيح. وهذا في الواقع هو صدى تعبير المسيح نفسه، لأن «ابن الإنسان أيضاً لم يأتِ ليُخدَم بل ليَخدُم، **وليبذُلَ نفسه فِدْيَةً عن كثيرين.**» (مر١٠ : ٤٥)

وكلام قيافا صار حقيقة واقعة، لأنه بموت المسيح صار الخلاص لشعب الله الحقيقي، وهو إسرائيل الجديد. غير أن قيافا كان يرى و يؤمن ويخطط أن يموت المسيح لتتخلص منه الأمة. ولكن الذي حدث أنه مات لتتخلَّصَ به، وليس لتتخلَّص منه. وكان سبب الإقدام على قتل المسيح عند قيافا هو إحكام إغلاق حدود الأمة اليهودية على نفسها، لتمنع تدخُّل الرومان ــ الذين كانوا في ذلك الوقت يمثِّلون جميع الأمم ــ ولكن في المقابل كان السبب الأساسي عند المسيح في قبوله الموت، هو كَسْرُ هذه الحدود بالذات التي كانت تطوِّق الأمة اليهودية عن الرومان واليونان و باقي الأمم، والتي كانت تمنع عنهم معرفة الله وقبول الخلاص.

لذلك، فإن قرار مجلس السنهدريم الذي كان يمثل في الحقيقة خلاصة «**الناموس**» على أيدي أئمة العلماء القيِّمين عليه؛ والذي يتلخص في ضرورة بل وصلاح عملية قتل المسيح الذي ثَبَتَ أنه هو رجاء وكمال الناموس... كان هذا القرار هو القرار النهائي ضد صلاحية الناموس!

وأبسط الحلول التي كان قيافا يتقنها كرجل دين ودولة في فنون السياسة الكهنوتية، هي القتل للتخلُّص من أي ما يعكِّر صفو الجو الكهنوتي. وسفر الأعمال يذكر استمرار هذه السياسة: «فقام

رئيس الكهنة وجميع الذين معه الذين هم شيعة الصدوقيين وامتلأوا غيرة. فألقوا أيديهم على الرسل ووضعوهم في حبس العامة.» (أع٥ : ١٧و١٨)

«أنتم لستم تعرفون شيئاً ولا تفكرون»:

هكذا ظهر قيافا كصاحب الحكمة وسط أعضاء السنهدريم الذين لا يعرفون شيئاً من دبلوماسية الأمة ولا يفكرون جيداً لمصلحتها، حيث يلزم أن يُسفك دم البريء من أجل صالح الأمة هكذا!!

هذا ما انتهى إليه ناموس موسى على يد قيافا ومجمع السنهدريم، لذلك كانت بحق «هي السنة الأخيرة» بحساب صلاحية الناموس والكهنوت القيِّم عليه.

أما يسوع، ففي رأي قيافا، كان لا ينبغي أن يُذكر اسمه بعد، بل يكفي أن يكون مجرد «**إنسان واحد**». ووقتُ المجلس ليس يتسع بعد لرأي الفريسيين، الذي كان على ما يبدو هو إعادة فحص سلطان المسيح وبأي سلطان كان يفعل الآيات، ولماذا أقبل الشعب على الإيمان به، وكيفية تحديد نشاطه. فقد كان قول قيافا: «أنتم لستم تعرفون شيئاً ولا تفكِّرون»، هو الرد الحاسم الذي أسكت الفريسيين وأنهى على المداولة بأكملها. وجاء مشروع القرار مع مسبباته في جملة واحدة: «أن يموت إنسان واحد عن الشعب، ولا تهلك الأمة كلها».

ونحن لو أردنا أن نعرف ماذا كان يتداوله الفريسيون قبل هذا القرار وبعده، نجده هكذا: «فقال الفريسيون بعضهم لبعض: انظروا إنكم لا تنفعون شيئاً هوذا العالم قد ذهب وراءه.» (يو١٢ : ١٩)

واضح من القرار قدرة قيافا على إلباس الحق ثوب الزور، وتعليل القتل بأنه عين الخلاص للحياة.

ثم يلتقط ق. يوحنا هذا القرار ويقلبه رأساً على عقب لتظهر فيه النبوة واضحة. فبحسب نظرية قيافا، كانت النتيجة شؤماً على الأمة، لأن الرومان أخذوا موضعهم وحرقوه وأهلكوا الأمة وشتتوا الشعب. فحكمة قيافا، كانت هي حكمة الشيطان بعينها بالنسبة لمصير اليهود كيهود. وإن أبدع تصوير يحقق هذه العملية، هو المثل الذي قاله المسيح قبل موته مباشرة عن الكرَّامين الأردياء: «ولكن أولئك الكرَّامين قالوا فيما بينهم: هذا هو الوارث هلُّموا نقتله فيكون لنا الميراث، فأخذوه وقتلوه وأخرجوه خارج الكرم. فماذا يفعل صاحب الكرم؟ يأتي ويُهلك الكرامين ويعطي الكرم إلى آخرين... عرفوا أنه قال المثل عليهم...» (مر١٢ : ٨و٩و١٢)

١١: ٥١و٥٢ **«ولم يَقُل (قيافا) هذا من نفسِهِ بل إذ كان رئيساً للكهنةِ في تلكَ السنةِ، تنبأ أن يسوعَ مُزمِعٌ أن يموتَ عن الأمةِ. وليس عن الأمة فقط بل ليجمعَ أبناءَ الله المتفرقينَ إلى واحدٍ».**

وق. يوحنا يشير إلى قول المسيح: «وأنا أضع نفسي عن الخراف (خراف بيت إسرائيل). ولي خراف أُخَر ليست من هذه الحظيرة، ينبغي أن آتي بتلك أيضاً فتسمعَ صوتي، وتكون رعية واحدة وراعٍ واحد» (يو١٠: ١٥و١٦)، على أن «**أبناء الله**» المتفرقين الذين في عُرْف قيافا هم يهود الشتات، يعتبرهم ق. يوحنا هم أولاد الله المعيَّنين للحياة الأبدية (يو١: ١٢).

«إذ كان رئيساً للكهنة في تلك السنة تنبأ»:

كان رئيس الكهنة يُمثل الرئاسة الإلهية لليهود، فهو الذي يسأل الله عن الشعب، ومن فمه تُطلب الشريعة، وقوله هو القول الملهم من الله في الأمور التي يعسر فهمها أو يحوطها الشك، وهذا نقرأه في (خر٢٨: ٣٠)، وفي (لا٨: ٨)، وفي سفر العدد عند تكريس يشوع قائداً للشعب: «فقال الرب لموسى: خُذْ يشوع بن نون، رجلاً فيه روحٌ وضَعْ يدك عليه... وأوْقِفْه قُدّام أَلِعَازار الكاهن... **فيقف أمام ألعازار الكاهن فيسأل له بقضاء الأوريم أمام الرب...**» (عد٢٧: ١٨—٢١). وهذا كان معناه أن رئيس الكهنة يسأل الرب عن كل ما يريد أن يعرفه قائد الشعب.

وفي الإنجيل يوجد ما يفيد مثل هذه النبوات التي خرجت من أفواه أصحابها بعكس ما كانوا يقصدون أو يتمنَّون، مثل بيلاطس حينما قال لرؤساء الكهنة: «هوذا ملككم» (يو١٩: ١٤)، أو حينما قال رؤساء الكهنة: «دمه علينا وعلى أولادنا» (مت٢٧: ٢٥)، أو حينما خاطبوا المسيح المصلوب: «خلَّص آخرين أما نفسه فما يقدر أن يخلِّصها.» (مت٢٧: ٤٢)
وفي أقوال فيلو الفيلسوف اليهودي المعاصر للقديس يوحنا، ما يفيد أن رئيس الكهنة كان يُحْسَبُ كنبي.(١٨)

على هذا الأساس، يرى ق. يوحنا أن ما نطق به قيافا، كان نبوة حقيقية من الله دون أن يقصد أو يعلم، أو على وجه الأصح، بعكس ما كان يفكر فيه، ربما مثل بلعام بن بعور الذي كان كلما أراد أن يلعن إسرائيل كانت تأتيه النبوة ليباركه ويمدحه. ومعروف في العهد القديم أن نبوة الأعداء تكون أحياناً منطوقة بفم الله.

[18] Cited by Westcott, *op. cit.*, p. 174.

«تنبأ أن يسوع مزمع أن يموت عن الأمة، وليس عن الأمة فقط بل ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد»:

هنا يتدخل ق. يوحنا ليوسّع دائرة النبوة، أو بالحري ليكمّلها، لأن موت المسيح لم يقتصر سببه ولا اقتصرت نتيجته على الأمة اليهودية من جهة الخلاص بل امتد ليشمل الأمم، لأن مَنْ آمن بين الأمم مع مَنْ آمن من شعب إسرائيل أصبحوا يمثلون إسرائيل الحقيقية: «وأبناء الغريب الذين يقترنون بالرب ليخدموه وليحبوا اسم الرب ليكونوا له عبيداً... آتي بهم إلى جبل قُدْسي **وأفرّحهم في بيت صلاتي**، وتكون محرقاتهم وذبائحهم مقبولة على مذبحي **لأن بيتي بيت الصلاة يُدعَى لكل الشعوب**. يقول السيد الرب جامع منفيِّي إسرائيل...» (إش٥٦: ٦و٧و٨). هذا حينما يصير هيكل الرب الجديد هو جسد المسيح الذي سيجمع كل الشعوب: «و **يرفع رايةً للأمم، ويجمع منفيِّي إسرائيل، و يضم مشتتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض.**» (إش١١: ١٢)

ومن أبدع ما صوَّر الآباء الرسل عن جمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد ما تقوله الديداخي (تعاليم الرسل) في الإفخارستيا التي هي جسد المسيح:

[وفيما يخص «الكِسَر»(١٩) κλάσμα : نحن نقدم الشكر εὐχαριστεῖν إليك يا أبانا... فكما أن كِسَر الخبز هذه التي كانت مشتَّتة على الجبال (حقول القمح) ولكنها جُمعت συνάγειν (تفيد معنى المجمع أي الكنيسة)، وصارت واحداً (خبزة واحدة، وجسد واحد)، هكذا الكنيسة فلتجتمع من **أربعة أطراف الأرض** إلى ملكوتك.](٢٠)

وهذا التصوير الإفخارستي اللاهوتي، هو قائم على أساس قول المسيح في معجزة الخمس الخبزات والسمكتين: «اجمعوا Συναγάγετε الكِسَر κλάσματα المتبقية لكي لا تضيع (تهلك = ἀπόληται)» (يو٦: ١٢)، بالإضافة إلى قول ق. يوحنا في إنجيله أعلاه: «**ليجمع** συναγάγῃ أبناء الله المتفرقين إلى واحد.» (١١: ٥٢)

وهكذا يمكن أن يتأكد القارىء من لاهوت إنجيل يوحنا القائم على أساس نبويٍّ إفخارستي كنسي غاية في الإحكام.

---

(١٩) «الكِسَر» هنا في الحقيقة هي «القربانة» بعد إجراء عملية التقسيم أو القسمة عليها، فصارت «كِسَراً»، وهي العملية الهامة جداً في الإفخارستيا التي يتم فيها حلول الرب واستعلانه، وهي أيضاً محور عملية الشكر أو البركة ــ ثم يعود الكاهن ويجمع هذه الكسر في الصينية لتعود على هيئة القربانة الواحدة ــ الخبزة الواحدة (الجسد الواحد بعد أن تمزق على الصليب) جمعت ثم صارت جسداً حيًّا صحيحاً واحداً بالقيامة، مُعدًّا للأكل الروحي.

(٢٠) الديداخي ٩: ٣ــ٤ ارجع إلى كتاب: «الإفخارستيا والقداس»، للمؤلف، ص٣٠٠.

وقد أخذ المجمع بمنطق رئيس الكهنة باعتباره القول الفصل، وكأنه من الله. وهكذا صدر حكم الموت بالموافقة العامة. وهكذا كان رد الجميل؛ بحكم الموت على مَنْ أقام الميت، وأعطى الحياة للناس؛ إنها مهزلة الإنسان.

و يلاحَظ أن قيافا استخدم كلمة «الشعب λάος»، ولكن ق. يوحنا لما ذكرها غيَّرها إلى ἔθνος. وفي هذا معنى روحي عميق. لأن المسيح مات بالفعل عن الشعب كالنبوة «خراف بيت إسرائيل الضالة»، حيث كلمة "الشعب" في التوراة تفيد شعب الله، فهي تحوي معنى العلاقة بين الناس والله التي كانت قائمة في شعب إسرائيل فقط، والتي مات المسيح ليصححها و يعيدها إلى أوج قوتها في مفهوم الكنيسة، وهي تفيد الآن شعب الله في العالم كله. أما كلمة «**الأمة**» التي ذكرها ق. يوحنا بدل كلمة **الشعب**، فقصَدَ بها ق. يوحنا **المعنى المدني**، لأن إسرائيل، كشعب، لما رفض المسيح وأكمل جريمته بقتل الراعي، فَقَد صفته كشعب الله، وفَقَدَ صلته الفريدة بالله «كالشعب المختار»، وأصبح **أمَّة** مثل باقي الأمم، تمهيداً لضمِّ الأمة اليهودية إلى باقي الأمم دون تمييز... «وليس عن الأمة فقط بل ليجمع أبناء الله المتفرقين (خراف أُخر ليست من هذه الحظيرة) إلى واحد (لتكون رعية واحدة وراعٍ واحد)».

فانظر، أيها القارىء، إلى أي حدٍّ بلغت دقة التعبير اللاهوتي عند ق. يوحنا. وهذا المعنى نفسه عبَّر عنه ق. يوحنا في رسالته الأُولى هكذا:

«وهو كفَّارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط، بل لخطايا كل العالم.» (١يو٢: ٢). كما عبَّر عنه أيضاً في افتتاح إنجيله: «**وكلُّ** الذين قبلوه أعطاهم سلطاناً أن يصيروا **أولاد الله**.» (يو١: ١٢)

١١: ٥٣ «فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه».

ما كان في كل المرات السابقة رغبة ملحَّة للقضاء على المسيح، أصبح الآن بعد قرار هذا المجمع خطة داخلة في حكم التنفيذ، ولا يبقى إلَّا انتهاز الفرصة المناسبة.

ونعلم من رواية القديس لوقا في إنجيله، أن بعضاً من أعضاء السنهدريم، وهم قِلَّةٌ مثل يوسف الرامي، كان غير موافق على قرارهم: «وإذا رجل اسمه يوسف، وكان مشيراً ورجلاً صالحاً باراً، هذا لم يكن موافقاً لرأيهم وعملهم، وهو من الرامة مدينة اليهود...» (لو٢٣: ٥٠و٥١)

ختام خدمة الرب:

١١ : ٥٤ «فلم يكُنْ يسوعُ أيضاً يمشي بين اليهودِ علانيةً، بل مضى من هناكَ إلى الكورةِ القريبةِ من البريةِ، إلى مدينةٍ يُقالُ لها "أفرايمُ"، ومكثَ هناكَ مع تلاميذِهِ».

وإليك، أيها القارىء العزيز، صورة نبويّة مؤثرة تستحوذ على كل مشاعر الإنسان وعواطفه، تصف المسيح وهو يُعطي ظهره لأُورشليم والهيكل والشعب والأمة اليهودية كلها، وينسحب حزيناً منكسراً باكياً على هذه الأمة التي لم تعرف ما هو لسلامها؛ يصفها **إرميا النبي: «يا ليت رأسي ماء، وعينيَّ ينبوع دموع، فأبكي نهاراً وليلاً قتلى بنت شعبي(٢١). يا ليت لي في البرية مبيت مسافرين، فأترك شعبي، وانطلق من عندهم، لأنهم جميعاً زناة، جماعة خائنين. يمدُّون ألسنتهم** كقسيِّهم. للكذب لا للحق، قوُوا في الأرض، لأنهم خرجوا من شَرٍّ إلى شَرٍّ وإيّاي لم يعرفوا، يقول الرب. **احترزوا كل واحد من صاحبه(٢٢)** (يهوذا)، **وعلى كل أخ لا تتَّكلوا(٢٣)، لأن كل** أخ يعقب عقباً وكل صاحب يسعى في الوشاية. ويختُل الإنسان صاحبه ولا يتكلمون بالحق. **علَّموا ألسنتهم التكلم بالكذب وتعبوا في الإفتراء(٢٤).»** (إر٩: ١ـــ٥)

مدينة أفرايم:

يقول العلاَّمة وستكوت Westcott أن هذه المدينة ذُكرت في أخبار الأيام الثاني مع مدينة بيت إيل تحت كلمة «عفْرون» (٢أي١٣: ١٩). ويقول العلاَّمة روبنسن Robinson في قاموسه: (Bib. Res. II, 127)، وكذلك العلاَّمة ستانلي Stanley في كتابه («سيناء وفلسطين»، ص٢١٠) أن بين حدود بنيامين وأفرايم يوجد تلٌّ هرمي الشكل على أعلاه قرية على ارتفاع ٢٦٠٠ قدم اسمها الطيِّبة، هي مدينة أفرايم القديمة. وهي نفس المدينة التي كانت تسمى «عفْرة» أو «عفرون» بمعنى عفريت. وقد غيَّرها السلطان صلاح الدين إلى اسم الطيبة. والقديس جيروم والمؤرخ يوسابيوس يحدِّدانها على الطريق الموصِّل من أورشليم إلى شكيم شرقاً على بعد اثني عشر ميلاً = عشرون كيلو متراً من أورشليم.

(٢١) «وفيما هو يقترب **نظر إلى المدينة وبكى عليها** قائلاً: إنكِ لو علمتِ أنت أيضاً حتى في يومكِ هذا ما هو لسلامك ولكن الآن قد أُخفي عن عينيكِ.» (لو١٩: ٤١و٤٢)

(٢٢) «فللوقت تقدم (يهوذا) إلى يسوع وقال له: سلام يا سيدي، وقبَّله. فقال له يسوع: **يا صاحب لماذا جئت؟** حينئذٍ تقدموا وألقوا الأيادي على يسوع وأمسكوه.» (مت٢٦: ٤٩و٥٠)

(٢٣) «هوذا تأتي ساعة، وقد أتت الآن، **تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته وتتركوني وحدي.»** (يو١٦: ٣٢)

(٢٤) «وكان رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع كله **يطلبون شهادة زور على يسوع** لكي يقتلوه **فلم يجدوا**، ومع أنه جاء **شهود زور كثيرون لم يجدوا.»** (مت٢٦: ٥٩و٦٠)

ما قبل الرحلة الأخيرة للفصح الأخير:

١١:٥٥ «وكان فِصْحُ اليهودِ قريباً، فصَعِدَ كثيرونَ من الكُورِ إلى أورشليمَ قبل الفصح ليطَهِّروا أنفسَهم».

«فصح اليهود»:

هذا هو الفصح الثالث الذي يذكره ق. يوحنا في إنجيله. ففي الفصح الأول كان المسيح حاضراً ومُشارِكاً (يو٢: ١٣)، أما في الفصح الثاني (يو٦: ٤)، فلم يذكر ق. يوحنا أن المسيح حضر الإحتفال به، بل على ما يبدو كان المسيح وقتها في الجليل.

«وكان فصح اليهود قريباً»:

هذه الكلمة **«قريباً»** لا ينبغي أن تعبر علينا بسهولة، فمعناها أن ساعات المسيح والصليب صارت معدودة، والقلب يستقبل هذه الكلمة بانفعال يهزّ كيان الجسد قبل الروح. فبالرغم من أن آلام المسيح وموته انتهت ببهجة القيامة، ولكن مهما كانت بهجة القيامة فيستحيل أن تقلل من مسحة الحزن المفرط الذي نعيشه في آلام المسيح.

«فصعد كثيرون من الكور إلى أورشليم»:

بحسب المؤرخين ذوي الخبرة في تاريخ وعوائد اليهود، كان يتراوح عدد الحجاج بين خمسةٍ وثمانين ألفاً ومائة وخمسةٍ وعشرين ألفاً. وذلك بحسب تقدير العالم اليهودي المتنصّر يواكيم إرميا. فإذا أضفنا إلى هذا الرقم عدد سكان أورشليم الأصليين، وكان يقرب من الخمسة والعشرين ألفاً، كان مجموع المعيِّدين لا يقل عن مائة ألف. ولكن يوسيفوس[٢٥] المؤرخ اليهودي المعاصر لخراب أورشليم (٧٠م) يعطي رقماً غير عادي، إذ يقول إن الحجاج في الفصح كانت جملتهم لا تقل عن مليونين ونصف حاج. وهذا الرقم مأخوذ من التسجيلات الرومانية المعروفة بدقتها.

«ليطهِّروا أنفسهم»:

بحسب أصول الناموس، كان ممنوعاً على المتنجّسين أن يحضروا مراسيم عيد الفصح، لأن نظام ذبح خروف الفصح يستلزم من الشخص أن يمرّ برواق الكهنة، وهذا كان يستلزم شروطاً دقيقة من جهة الطهارة: «وليعمل بنو إسرائيل الفصح في وقته في اليوم الرابع عشر من الشهر الأول، بين

(25) Josephus, *War*, VI-IX, p. 422-25.

العشاءين تعملونه في وقته... لكن كان قوم قد تنجَّسوا لإنسان ميت فلم يحلّ لهم أن يعملوا الفصح في ذلك اليوم.» (عد٩: ٢و٦)

ولكن حدث تساهل بعد ذلك في هذا الأمر «لأن كثيرين من الشعب، كثيرين من أفرايم ومَنسَّى و يسَّاكر وزبولون لم يتطهَّروا بل أكلوا الفصح ليس كما هو مكتوب. إلا أن حزقيا صلَّى عنهم قائلاً: الرب الصالح يكفِّر عن كل مَنْ هيَّأ قلبه لطلب الله الرب إله آبائه وليس كطهارة القدس. فسمع الرب لحزقيا وشفى الشعب» (٢أي٣٠: ١٨ــ٢٠). وكانت عدم طهارة أولئك، راجعة لاختلاطهم بالأمم.

و يقول المؤرخ يوسيفوس أن أهل الكور كانوا يسبقون بالذهاب قبل الفصح ليتطهروا في أورشليم. وهذا ما حاول أن يعمله بولس الرسول (بعد أن اعتمد للمسيح)، فدفع ثمن هذه الرجعة إلى اليهودية أهوالاً أوقفته عن الخدمة: «حينئذ أخذ بولس الرجال في الغد، وتطهّر معهم، ودخل الهيكل مُخْبِراً بكمال أيام التطهير، إلى أن يقرَّب عن كل واحد منهم القربان. ولما قاربت الأيام السبعة أن تتم، رآه اليهود الذين من آسيا في الهيكل، فأهاجوا كلَّ الجمع وألقَوْا عليه الأيادي» (أع٢١: ٢٤ــ٢٧). وظل بولس يعاني من هذا التصرف إلى أن استشهد!!!

ولكن حسب ما عوَّدنا ق. يوحنا، فهو لا يسرد رواية تاريخية قط، إلاَّ وفي ثناياها معلومة روحية، وإشارة ذات قيمة لاهوتية. والقارىء يتذكر كيف بدأ ق. يوحنا إنجيله بأن سرد لنا آية تحويل الماء إلى خمر، حيث استُخدمت الأجران الستة للتطهير، فحوَّلها المسيح إلى أجران خمر، مفتتحاً إنجيله بمعنى الانتقال من التطهير بالماء إلى التطهير بالدم لنوال الحياة الأبدية، باعتبار الخمر في إنجيل يوحنا هو مادة الإفخارستيا ذات الاعتبار التقديسي بالروح القدس، ومنتهياً بالآية إلى أن الرب أظْهَرَ فيها مجده لتلاميذه، فآمنوا به. وها نحن قادمون هنا إلى الفصح الأخير، أو على وجه الأصح لاهوتياً و بحسب إنجيل يوحنا، الفصح الأول والأساسي في العهد الجديد، حيث يعطي المسيح دمه للعالم كله «**للتطهير**» ومغفرة الخطايا، واستعلان مجد المسيح، لحساب الآب.

من هنا كان التلميح بالقول: «**ليطهِّروا أنفسهم**». و بعدها مباشرة يذكر ق. يوحنا اسم «يسوع» بلغته التي لا تفوت على القارىء اللبيب: «قبل الفصح "**ليطهِّروا**" **أنفسهم، فكانوا يطلبون "يسوع"**».

١١ : ٥٦و٥٧ **«فكانوا يطلبونَ يسوعَ ويقولونَ فيما بينهم وهم واقفونَ في الهيكلِ، ماذا تظنونَ، هل هو لا يأتي إلى العيد؟ وكان أيضاً رؤساءُ الكهنةِ والفريسيونَ قد أصدروا أمراً أنه إن عَرَفَ أحدٌ أين هو فليَدُلَّ عليهِ لكي يُمْسِكُوهُ».**

أولاً: هذه اللهفة على رؤية المسيح وسماعه توضِّح إلى أيِّ مدى تعلّق به الشعب سواء من أورشليم أو الأرياف، الأمر الذي سنراه بوضوح في دخوله أورشليم يوم أحد السعف.

وثانياً: هذا التردد والشك بل وربما البلبلة التي أصابت الحجاج الآتين من الكور ومن أورشليم للتطهير، فيما إذا كان المسيح سيظهر في العيد أم لا، مردُّها إلى الجزء الثاني من الآية، لأن رؤساء الكهنة والفريسيين كانوا قد أعلنوا في وسط الشعب عن قرارهم بموت المسيح، بل واستخدام الشعب للقبض عليه أو التخابر عن مكان وجوده. وكان المعقول لديهم أن المسيح لا يُظْهِر ذاته خوفاً من أو تلافياً للقبض عليه. ولكن الرب خيَّب ظنهم وظنَّ كل ما هو معقول لديهم. فالمسيح الذي أقام لعازر من الموت، كيف يخشى الموت أو كل ما يؤدي إلى الموت، ولكن فوق كل هذا، فهو قادم إلى أورشليم، ليصنع آية مجده ليحوِّل الموت إلى حياة، وظلمة العالم إلى نور، و يفكَّ المأسورين بالخطية، و يُصَالح الإنسان بالله. والحقيقة أن السنهدريم هو الذي كان يخشاه.



بيت عنيا

الأصحاح الثاني عشر

مكان البشارة:
عاشراً ـ من بيت عنيا
إلى أُورشليم
للمرة الأخيرة

الأصحاح الثاني عشر

استعلان ملوكية المسيح ودينونة رئيس هذا العالم

ويشمل هذا الأصحاح:
١ ـ بيت عنيا وتكفين الجسد قبل الموت: (١٢: ١ـ ١١).
٢ ـ دخول المسيح إلى أورشليم: (١٢: ١٢ـ ١٩).
٣ ـ رد المسيح على طلب اليونانيين:
«إن ارتفعتُ عن الأرض أجذب إليَّ الجميع.» (١٢: ٢٠ـ ٣٦).

ثم ينتهي إنجيل الاستعلان بالآية ١٢: ٣٦: «ثم مضى واختفى عنهم».
وينتهي الأصحاح الثاني عشر بالجزئين التاليين:
ـ ختام لإنجيل الاستعلان: (١٢: ٣٧ـ ٤٣).
ـ ملخص لإنجيل الاستعلان: (١٢: ٤٤ـ ٥٠).

١ ــ بيت عنيا وتكفين الجسد قبل الموت(١)

لم يُسمع قط أن يُكفَّن الجسد قبل الموت، ولكن هذا هو جسد يسوع الذي لن يرى فساداً: «لن تَدَعْ قدوسك يرى فساداً» (أع١٣: ٣٥). وهكذا ظل جسد المسيح معطَّراً بناردين خالص تفوح منه رائحة محبة الإنسان لابن الإنسان، والتي لم يستطع القبر أن يمحوها فبقيت إلى أن قام من الموت، وتجلَّى في ملء لاهوته، وفاحت منه رائحة لاهوته الذكية التي وهبها للإنسان بالتالي عوض ناردين مريم، لِيَعْبر بها كلُّ إنسان الموت وتُرفع عنه رائحة فساد الخطية، فيتقدم بهذه الرائحة عينها إلى الله، فيشتمُّ الله فينا رائحة ذبيحة المسيح: «لأننا رائحة المسيح الذكيَّة لله ... رائحة حياة لحياة.» (٢كو٢: ١٥و١٦)

١:١٢ **«ثم قبلَ الفصح بستةِ أيامٍ، أتى يسوعُ إلى بيتِ عَنْيا حيث كانَ لِعَازَرُ الميتُ الذي أقامَهُ من الأمواتِ».**

«قبل الفصح بستة أيام»:

الفصح يقع في ١٤ نيسان، فالمسيح وصل إلى بيت عنيا قادماً من «أفرايم» ــ حيث كان معتكفاً ــ يوم ٨ نيسان، وهذا يقع يوم الجمعة قبل الغروب مباشرة، فاحتسب السبت واستراح السبت وحضر وليمة العشاء بعد غروب السبت وهذا يوافق أن مرثا كانت تخدم، لأنه لا يحلُّ الخدمة يوم السبت.

أما من حيث «الستة الأيام»، فأسلوب ق. يوحنا يرمي نحو الإشارة إلى ستة أيام الخليقة القديمة، حيث اليوم السابع استراحة ليجعل منها ستة أيام الخليقة الجديدة، وفي السبت استراح المسيح (الله) في القبر، وقام يوم الأحد ليعلن بدء الحياة الأبدية غير الزمنية.

ولو دققنا، نجد أن ق. يوحنا يفتتح إنجيله **«بالأسبوع»** المقدس ويختمه **«بالأسبوع»** المقدس. إذ نقرأ في بدء الإنجيل:

«هذا كان في بيت عَبْرة (بيت عنيا شرق الأُردن)، في عبر الأُردن حيث كان يوحنا يُعمِّد»

(١) يُقرأ هذا الفصل في مساء سبت لعازر (عشية أحد الشعانين) تطبيقاً لقول الإنجيل: «قبل الفصح بستة أيام»، وتكرر قراءته في يوم الأربعاء من البصخة المقدسة (الساعة السادسة) لِمَا جاء فيه عن يهوذا الإسخريوطي.

(يو١: ٢٨). هذا أول يوم.

ثم «وفي الغد نظر يوحنا يسوع مقبلاً إليه فقال هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو١: ٢٩)، هذا اليوم الثاني.

ثم «وفي الغد أيضاً كان يوحنا واقفاً هو واثنان من تلاميذه (يوحنا واحد منهما) فنظر إلى يسوع ماشياً فقال هوذا حمل الله» (يو١: ٣٥و٣٦)، هذا ثالث يوم.

ثم «في الغد أراد يسوع أن يخرج إلى الجليل فوجد فيلبس ...» (يو١: ٤٣)، هذا رابع يوم.

ثم «وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل ...» (يو٢: ١)، هذا هو اليوم السابع!!!

ثم ليس جزافاً أن يختار الرب بيت عنيا قبل الفصح ليعتزل هناك، لأنه من المعروف في طقس ذبح خروف الفصح أن يُعزل الخروف قبل الفصح بخمسة أيام بعيداً عن الحظيرة. وهكذا يُوقِّع المسيح حياته على نغمات الفصح بشيء من الإبداع الطقسي، وكما كان يجرى على الخروف عملية تكريس استعداداً لتقديمه بعد خمسة أيام، هكذا سلَّم المسيح جسده لأيدي محبيه ليمسحوه بالطيب والدموع بعد وصوله بيوم، وذلك مساء السبت بعد الغروب وبعد الوليمة:

« ... في العاشر من هذا الشهر يأخذون لهم كل واحد شاة ... شاة صحيحة ذكراً ابن سنة ... **ويكون عندكم تحت الحفظ إلى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر**. ثم يذبحه كل جمهور جماعة إسرائيل في العشية.» (خر١٢: ٣-٦)

«لأنه كان يليق بنا رئيس كهنة مثل هذا قدوس بلا شر ولا دنس **قد انفصل عن الخطاة**، وصار أعلى من السموات.» (عب٧: ٢٦)

٢:١٢ «فصنعوا لهُ هناكَ عشاءً. وكانت مرثا تَخدِمُ، وأما لعازرُ فكان أحدَ المُتَّكئين معهُ».

أراد كثير من الشراح أن يجمعوا بين ما جاء في إنجيل ق. يوحنا وما جاء في الأناجيل الثلاثة الأخرى، عن قصة العشاء في بيت عنيا، وافترضوا أن بيت سمعان الأبرص الوارد في إنجيل ق. متى (٢٦: ٦)، وفي إنجيل القديس مرقس (١٤: ٣)، غير بيت مرثا ومريم ولعازر، بدليل أن لعازر كان مدعواً كضيف، على أن مرثا أيضاً حضرت لتخدم في الوليمة في بيت سمعان الأبرص، إيفاءً للدين الذي صنعه الرب لأخيها لعازر. كذلك فمريم انتهزت الفرصة وأحضرت ناردينها لتطيِّب رجلي الرب اللتين كانت هي تجلس بجوارهما تستمع لكلمات الحياة، وأن سمعان الأبرص

هو أحد العشرة البُرْص الذين شفاهم الرب.

ولكن من رأينا أن قصة إنجيل يوحنا ذات طابع سري ولاهوتي خاص يستلزم منا أن نأخذها كما هي بحد ذاتها.

ومرة أخرى يقدم لنا ق. يوحنا مرثا ومريم: الأولى تخدم، والثانية تتأمل وتحب. وليكن في علمك، يا قارئي العزيز، أن حياة التصوُّف بجملتها في المسيحية تأخذ منهجها وأسلوبها وفلسفتها من «مريم»، كما تأخذ حياة الخدمة أسلوبها ومنهجها وفلسفتها من «مرثا»، وما أبدع قول كتاب بستان الرهبان حينما حسم الخلاف القديم بين المتصوِّفين (التأمل) والنُّسَّاك (التمرُّن بضبط الجسد والخدمة)، محاولاً أن يجمع بين خدمة مرثا وتأمل مريم بقوله إن «مريم بمرثا مُدِحَتْ»، فلولا شكوى مرثا لَما مدح المسيح مريم!

ثم إن إصرار ق. يوحنا على ذكر لعازر متكئاً مع المسيح، هو في الحقيقة لفتة لا تخلو من عمق؛ فالمسيح يبدو، بينما لعازر بجواره، كمن هو قابضٌ على زمام الموت والهاوية تحت قدميه. فكان منظره كمنظر القيامة والحياة التي تتحدى قرار السنهدريم.

٣:١٢ «فأخذت مريمُ مَناً من طيبِ ناردِينٍ، خالِصٍ، كثيرِ الثمنِ، ودَهَنَتْ قَدَمَيْ يَسُوعَ، ومَسَحَتْ قدميهِ بشَعْرِها. فامتلأَ البيتُ من رائحةِ الطيبِ».

«المَنُّ» هو الرطل الروماني و يساوي ثلثمائة وسبعة وعشرين جراماً وربع الجرام، أي ما يساوي ثلث اللتر.

«ناردين خالص»:

في مفهوم العقاقير يعني أنه نقي أي غير مُضَافٍ إليه شموع أو راتنجات التي تعطيه قوام المرهم أو الدهان، فهو خلاصة أو أكْسِير حرٌّ.

والناردين هو الزيت الطيار المستخرج من الجذور وشعيرات الساق لنبات **Spikenard**، و ينمو في شمال الهند في الجهات الجبلية العالية. وكان ثمن الرطل الروماني منه حوالي ثلثمائة دينار، علماً بأن الدينار هو أجرة العامل في اليوم في ذلك الزمان. فإذا حولناه إلى لغة زماننا الحاضر يكون ثمن الرطل منه ما يقرب من ٣٠٠×٥=١,٥٠٠ جنيهاً مصرياً، بحساب أن أجرة العامل العادي هي خمسة جنيهات في اليوم.

«ودهنت قدمي يسوع، ومسحت قدميه بشعرها، فامتلأ البيت مِنْ رائحة الطيب»:

في إنجيل القديس متى نقرأ أن امرأة تقدمت إليه (دون ذكر اسمها) ومعها قارورة طيب كثير الثمن، حيث سكبته على رأسه وهو متكيء (٢٦: ٦). وفي إنجيل القديس مرقس: «جاءت امرأة معها قارورة طيب ناردين خالص كثير الثمن، فكسرت القارورة وسكبته على رأسه.» (١٤: ٣) وفي إنجيل ق. يوحنا يقتصر الوصف على «دَهْن قدمي يسوع».

فلو أخذنا بهذا الوصف المزدوج معاً، يمكننا أن نستخلص القصد الذي يهدف إليه الوحي على فم هؤلاء الإنجيليين القديسين وذلك حينما نرجع إلى العهد القديم:

«... والكاهن الأعظم بين إخوته الذي صُبَّ على رأسه دهن المسحة ... لأن إكليل دهن مسحة إلهه عليه. أنا الرب.» (لا ٢١: ١٠و١٢)

وفي ذلك يتأمل العلاَّمة والمتصوِّف فيلو اليهودي المعاصر للقديس يوحنا:

[إن رأس اللوغُس (الكلمة) بصفته الكاهن الأعظم يُمْسَحُ بالزيت، بمعنى إظهار جوهره المتألق بالنور البهي].

وكان فيلو اليهودي يرى ما يمكن أن نراه نحن أيضاً، أن دهن المسيح بالناردين، وإن جاء على يدي امرأة امتلأ قلبها حباً وإيماناً بالمسيح، إلاَّ أن الفعل في حد ذاته كان بإيحاء من الله الآب. وهنا سرُّ جزع يوحنا في إحجامه عن ذكر دهن رأس الرب، لأنه فوق متناول الإنسان. وعِوَض أن يذكر ق. يوحنا دهن رأس الرب بيدي امرأة، عاد وصحَّح الوضع، أنها هي التي مسحت قدميه بشعر **رأسها**، وهكذا تكرمت مريم وأكرمت بني جنسها إذ توَّجت رأس المرأة بإكليل الطيب المنحدر من جسد المسيح.

و يقيناً أن رطلاً من عطر فاخر نقي قد اندفق على ثياب الرب وقميصه أيضاً، وصح قول سليمان في نشيده الإلهي حيث تخاطِب النفس البشرية ربَّها:

«ما دام "**الملك**" في مجلسه، أفاح نارديني رائحته.» (نش ١: ١٢)

وقد تمهد المعنى الإلهي لهتاف ثاني يوم أي يوم الأحد: «مبارك الآتي باسم الرب "**ملك**" إسرائيل.» (١٢: ١٣)

هذه المعاني البديعة لا تخرج قط عن قصد الوحي الإلهي، فكل حركة في إنجيل ق. يوحنا محسوبة بالحساب اللاهوتي. ولكي يتأكد القاريء أننا نستخلص الدرر من أعماق نهر الروح،

فليسمع ما يقوله ق. يوحنا بعدما استفاق التلاميذ من عتمة الحوادث المتتابعة، إنْ في دهن الجسد، أو في هتاف يوم الأحد: «وهذه الأمور لم يفهمها تلاميذه أولاً، ولكن لمَّا تمجَّد يسوع، حينئذ تذكَّروا أن **هذه كانت مكتوبة عنه**، وأنهم صنعوا هذه له.» (يو١٢: ١٦)

ولكن، وللأسف، لم يذكر لنا ق. يوحنا «**هذه المكتوبة عنه**» ولكننا على كل حال نطوف على كل الزهور نلتقط من رحيق «المكتوبات» ليذوق القارىء والسامع مجرد الذوق!

«وامتلأ البيت من رائحة الطيب»:

لقد استرعى انتباه ق. يوحنا، كشاهد عيان، جمال الرائحة وهي تُعَبِّقُ كل البيت، و يقيناً فإن هذا كان هو نفسه شعور الرب، فصمم المسيح أنه كما ملأت مريم عليه البيت برائحة ناردينها الفاخر، أن يملأ الكنيسة كلها وإلى آخر الدهور برائحة محبة واسم هذه المرأة التي **أنابت نفسها عن بشرية الأجيال كلها، لكي تقدم إليه بسخاء فقرها عمل المحبة في يوم المحبة.**

وجدير بالذكر أن هذا الإنجيل (يو١٢: ١—٨) هو أول قراءة تُقرأ في أسبوع الآلام (عشية أحد الشعانين)، وكأن الكنيسة بذلك تريد أن تقدم لنا في بداية هذا الأسبوع مثال المحبة التي سكبتها هذه المرأة على قدمي الرب «للتكفين»، كنموذج أعلى للمحبة التي يجب أن نقدمها للمسيح إزاء آلامه المحيية من أجلنا.

١٢: ٤—٦ **«فقال واحدٌ من تلاميذِهِ، وهو يهوذا سِمْعَانُ الإِسْخَرْيُوطِيُّ المُزْمِعُ أن يسلِّمَهُ. لماذا لم يُبَعْ هذا الطيب بثَلَثِمِئَةِ دينارٍ ويُعطَى للفقراءِ. قال هذا، ليس لأنه كان يُبَالي بالفقراءِ، بل لأنه كان سَارِقاً، وكان الصُّنْدُوقُ عنده وكان يَحْمِلُ ما يُلْقَى فيهِ».**

معذرة، أيها القارىء العزيز، فقد كنا نحلق معاً في سماء الحب والسخاء، ورائحة المسيح الذكية، ومسحة الآب على رأس ابن الإنسان؛ وإذ بنا فجأة وعلى غير انتظار نقع في نَقْع الطين ونتوحل في حمأة الغباء. فيعوِّض الوجه المشرق الوديع المتواضع الذي لهذه الأخت الممدوحة، وهي في ملء سعادتها، فَرِحَةً مستبشرة أنها صنعت للرب شيئاً كانت قد عَبَّأت له طاقات حبها ومالها، يظهر في المشهد وبسرعة وجه قبيح غاضب، غاضب على إسراف «**عمل المحبة**»، وفي حقده رأى أنه «كان يمكن أن يُبَاع»! ... كلُّ شيء كان عنده يمكن أن يُبَاع إن لم يكن بثلثمائة[٢]

(٢) يقول إنجيل مرقس ١٤: ٥: «أكثر من ثلثمائة دينار». كذلك فإن إنجيل يوحنا يتفق مع إنجيل مرقس: «ثلثمائة دينار».

فبثلاثين !!!

ولكن مهما أعطينا من نظرة ناقدة نحو هذا التلميذ الذي باع سيده، فلن نستطيع أن نبلغ أعماقه لأنه كان كالهاوية. ويكفي أن نحصر، فيما حصره ق. يوحنا عنه من جهة أخلاقه، أنه سارق يلتقط ما يُلْقَى في الصندوق.

فالذي يخون مال الله، سهلٌ عليه أن يبيع المسيح. ولكن الذي يسترعي انتباهنا، أن المسيح ترك الصندوق معه ولم يمانع من أن يسرق منه كما يشاء، ولا هو مَانَع حتى أن يبيعه (أي يبيع المسيح): «ما أنت تعمله، فاعمله بأكثر سرعة» (يو١٣ : ٢٧)، وآخر كلمة قالها له الرب عندما تقدم ليسلِّمه: «**يا صاحب** لماذا جئت!!» (مت٢٦ : ٥٠)

يا إخوة، الرب لا يحصِّن تلاميذه أو خدامه من السرقة، والاختباء وراء صندوق الفقراء، ولكن يا ويلهم عندما يستيقظ ضميرهم.

والآن قد وضع الإنجيل هذه المفارقة أمام أعيننا، بين امرأة مُحِبَّة من كل قلبها، باذلة بكل مالها، مؤمنة حقاً، ولها شهادة من المسيح؛ وبين تلميذ من الاثني عشر الأخصَّاء التابعين، طماعٍ، جشعٍ، سارقٍ لمال الله، خائنٍ باع المسيح بثمن بخس. وهذه المفارقة ليست مصادفة ولا هي مجرد قصة في الإنجيل، ولكنها تقسيم قائم في كنيسة الله يمارسه مَنْ أحبوا المسيح من كل القلب حسب الوصية و«**النموذج**»، ومَنْ يسلبون المسيح ويبيعونه «**كالمثال**» حباً في المال.

١٢ : ٧و٨ «فقال يسوعُ اتركوها. إنها ليوم تكفيني قد حَفِظَتْهُ. لأن الفقراءَ معكم في كلِّ حينٍ. وأما أنا فلستُ معكم في كلِّ حينٍ».

الإشارة هنا منطلقة سرًّا نحو الخائن الذي انتهت عِشْرَته وخُطَّته إلى موت المسيح ــ عَمْداً ــ، مع لفتة سريعة نحو مريم التي ــ ودون أن تدري ــ أكرمَتْ وعظَّمت موته بأعز ما ملكت حياتها. فالأول طعن الجسد طعنة الموت؛ والثانية تلقفت الجسد بعِطْرِها ومسحته بشعرها.

لقد بدأت مريم ما أكمله يوسف ونيقوديموس، فالأُولى كفنت الجسد حيًّا برطل واحد من الطيب، والآخرون كفَّنوه ميتاً بمائة رطل، ولكن ذُكر عَمَلُ الأُولى من فم المسيح بالجميل والعرفان والشكر والذكرى الأبدية، أما عمل الآخرين فلم يذكره إلاَّ التاريخ.

يا إخوة، إن تكريم الأحياء خالدٌ خلود الروح، أما تكريم الأموات فهو سريع الزوال لا يقوى على حفظه وعي الإنسان!

«ليوم تكفيني قد حفظته»:

وتأتي هذه الجملة باللاتينية هكذا: **ut in die sepulture mae servet illud**، حيث «تكفيني» تعني "يوم القبر". مريم أجْهَدَتْ نفسها في حصولها على هذا العطر الكثير الثمن، ولا نعلم كم قتَّرت على نفسها حتى اكتمل عندها ثمنه، ثم حفظته عندها دون أن تدري أنه كان **ليوم القبر.**

وإنجيل القديس مرقس يشرحها بالتفصيل: «أما يسوع فقال: اتركوها لماذا تُزْعجونها، قد عَمِلت بي عملاً حسناً، لأن الفقراء معكم في كل حين، ومتى أردتم تقدرون أن تعملوا بهم خيراً. وأما أنا فلست معكم في كل حين. عملت ما عندها. قد سبقت ودهنت بالطيب جسدي للتكفين. الحق أقول لكم حيثما يُكرَزْ بهذا الإنجيل في كل العالم يُخْبَرُ أيضاً بما فعلته هذه تذكاراً لها.» (مر١٤: ٦—٩)

«الفقراء معكم في كل حين»:

المسيح هنا يستعيد على أذهان التلاميذ كلام الناموس: «لأنه لا تفقد الفقراء من الأرض. لذلك أنا أوصيك قائلاً: افتح يدك لأخيك المسكين والفقير في أرضك» (تث١٥: ١١). ومن الجانب الآخر السرّي في كلام المسيح، والذي سبق أن استعلنه، أن المسيح نفسه هو موجود في الفقراء، فالمساكين والفقراء يمثلون شخص المسيح: «الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم.» (مت٢٥: ٤٠)

والمعنى واضح أن إمكانية خدمة المسيح ومحبته الشخصية قائمة بصورة دائمة في خدمة ومحبة الفقراء؛ حتى بعد أن يختفي المسيح عن أعينهم عائداً إلى حيث كان.

١٢: ٩—١١ **«فعَلِمَ جمعٌ كثيرٌ من اليهودِ أنه هناكَ. فجاءُوا، ليس لأجلِ يسوعَ فقط، بل لينظروا أيضاً لعازرَ الذي أقامه من الأمواتِ. فتشاورَ رؤساءُ الكهنةِ ليَقتُلوا لعازرَ أيضاً. لأن كثيرينَ من اليهودِ كانوا بسببهِ يذهبونَ ويؤمِنُونَ بيسوعَ».**

ق. يوحنا يضع أمام القارىء المقارنة المخزية بين حاسة الشعب العامة التي لا تخطىء،

وسياسة الرؤساء التي دائماً تضلِّل البسطاء ... فالحُجَّاج بدأوا يتقاطرون من أورشليم إلى بيت عنيا، منذ أن أقام المسيح لعازر من الأموات، وازدادوا الآن عندما علموا أن الرب هناك، وهكذا تشكَّل أمام الرؤساء خطر وجود لعازر كبيِّنة لا تُدحض على قوة المسيح وتفوُّقه. وهكذا أُضيف إلى قرار قتل المسيح قتل لعازر أيضاً: «لأنه إن كانوا بالعود الرطب يفعلون هذا فماذا يكون باليابس.» (لو٢٣: ٣١)



٢ ــ دخول المسيح إلى أُورشليم
(عدد ١٤ إلى عدد ١٩)
أحد السعف، بدء أسبوع الآلام حسب الطقس (٣)

١٢:١٢و١٣ «وفي الغدِ سَمِعَ الجمعُ الكثيرُ الذي جاءَ إلى العيدِ، أن يسوعَ آتٍ إلى أُورشليمَ، فأخذوا سُعُوفَ النَّخلِ وخرجوا للقائِهِ، وكانوا يَصرُخُونَ أُوصَنَّا، مبارَكٌ الآتي باسم الربِّ مَلِكُ إسرائيلَ».

كان حفلُ العشاء، بعد غروب شمس السبت، وهكذا حُسِبَ الأحد أنه «الغد» بحساب النهار. والذي حدث أن اليهود الذين حضروا حفل العشاء الذي عُمل في بيت عنيا، عادوا إلى أورشليم وأشاعوا النبأ السار، أنَّ يسوع قادم إلى أورشليم. وحالما سمع «الجمع» ــ وهنا كلمة «الجمع» كما سبق وأن عرفنا يُقْصَدُ بها أهل الجليل، وهم أصدق أصدقاء الرب ــ هؤلاء احتشدوا في صورة موكب عظيم. ولكي نأخذ صورة عن قرب لهذا المشهد ــ الصاخب الرائع ــ نقرأ في الأناجيل الأخرى:

«فذهب التلميذان، وفَعَلا كما أمرهما يسوع. وأتيا بالأتان والجحش ووضعا عليهما ثيابهما فجلس عليهما. والجمع الأكثر فرشوا ثيابهم في الطريق، وآخرون قطعوا أغصاناً من الشجر وفرشوها في الطريق. والجموع الذين تقدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون قائلين: أوصنَّا لابن داود. مباركٌ الآتي باسم الرب. أوصنَّا في الأعالي. ولما دخل أُورشليم، ارتجت المدينة كلها قائلة: مَنْ هذا؟ فقالت الجموع: هذا يسوع النبيُّ الذي مِنْ ناصرة الجليل.» (مت٢١: ٦ــ١١)

وهكذا تحققت كل مخاوف رؤساء الكهنة والفريسيين، ووقفوا ينظرون خائفين، وحاقدين، وفاقدين كل قدرة على تحجيم الموقف.

ويضيف القديس لوقا إضافات ذات أهمية بالغة في تصوير الموقف، وفي توضيح رعبة الفريسيين وفقدانهم السيطرة على الجماهير:

«ولما قرب عند منحدر جبل الزيتون ابتدأ كل جمهور التلاميذ يفرحون ويُسبِّحون الله بصوت

(٣) يُقرأ هذا الفصل في قداس أحد الشمانين.

عظيم لأجل جميع القوات التي نظروا. قائلين: مباركٌ الملكُ الآتي باسم الرب. سلامٌ في السماء، ومجدٌ في الأعالي. **وأما بعض الفريسيين من الجمع فقالوا له: يا معلم، انتهر تلاميذك، فأجاب وقال لهم: أقول لكم إنه إن سكت هؤلاء، فالحجارة تصرخ. وفيما هو يقترب، نظر إلى المدينة وبكى عليها.** قائلاً: إنكِ لو علمتِ أنتِ أيضاً، حتى في يومك هذا، ما هو لسلامِكِ (أي المسيح المخلِّص). ولكن الآن قد أُخفي عن عينيكِ (حتى يتم الصلب). (وبناءً على ذلك) فإنه ستأتي أيام ويحيط بكِ أعداؤكِ بمِتْرسَة، ويُحْدِقُون بكِ، ويحاصرونكِ من كل جهة، ويهدمونكِ وبنيكِ فيكِ، ولا يتركون فيك حجراً على حجر لأنكِ لم تعرفي زمان افتقادكِ.» (لو١٩: ٣٧-٤٤)

يُفهم من إنجيل القديس متى، أن الرب أرسل تلميذين ليستحضرا جحشاً (ابن أتان) ليركب عليه، ومن إنجيل القديس لوقا أن الرب كان راضياً بهتاف التلاميذ، ورفض رجاء الفريسيين أن ينتهر التلاميذ. هذا معناه أن الرب كان راضياً بهذا الموكب وهذا الهتاف الذي يتضمن الهتاف بملك إسرائيل، وهذا الاستقبال الملكي بكل ملابساته. فلو تذكرنا موقفاً سابقاً للرب يوم صنع معجزة الخمس الخبزات والسمكتين، إذ كان رفضه حاسماً لمثل هذا الاتجاه كله، لأنه **أولاً**، لم تكن ساعة استعلان مُلْكِهِ قد حانت بعد؛ **وثانياً** لأنهم ظنوه ملكاً سياسياً: «وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً، انصرف أيضاً إلى الجبل وحده.» (يو٦: ١٥)

لو علمنا هذا، لأدركنا أن الرب هنا يستعلن حضور ساعة ملوكيته إلهياً على إسرائيل: «وأنا إن **ارتفعتُ عن الأرض أجذب إليَّ الجميع**» (يو١٢: ٣٢). فالموكب الملكي الذي ارتجَّت له المدينة، لم يكن في نظر الرب واعتباره إلاَّ موكب الصليب: «أفأنت إذاً ملك؟ أجاب يسوع: أنت تقول إني ملك. لهذا قد وُلِدْتُ أنا، ولهذا قد أتيتُ إلى العالم.» (يو١٨: ٣٧)

ويُلاحَظ أن ق. يوحنا هو الوحيد الذي أضاف إلى جمل الهتاف جملة «ملك إسرائيل»، إمعاناً في توضيح المعاني الخفية في مفهوم دخوله أورشليم كاستعلان لملوكيته التي ليست من هذا العالم.

«فأخذوا سعوف النخل وخرجوا للقائه»:

كان المعروف أن الملوك والقادة حينما يعودون من مواقع الحرب كانوا يُستقبلون بسَعَف النخل وهذا نقرأه في ١مكا١٣: ٥١ و٢مكا١٤: ٤:

«ودخلها في اليوم الثالث والعشرين من الشهر الثاني في السنة المئة والحادية والسبعين بالحمد وبالسعف والكنّارات والصنوج والعيدان والتسابيح والأناشيد لانحطام العدو الشديد من

إسرائيل.» (١مكا١٣: ٥١)

«فأتى ديمتريوس الملك في السنة المئة والحادية والخمسين، وأهدى إليه إكليلاً من ذهب **وسعفةً** وأغصاناً من زيتون مما يختص بالهيكل وبقي في ذلك اليوم ساكتاً.» (٢مكا١٤: ٤)

وتوجد عملات مسكوكة أيام سمعان المكابي سنة ١٤١ــ١٣٥ ق.م. وعليها سعف النخل رمز النصرة.

وفي سفر الرؤيا نجد موكب أحد الخوص يتكرر بكل بهائه في منظر المسيح آتٍ وهو مُتَجَلٍّ بخلاصه لتستقبله كل شعوب الأرض:

«بعد هذا نظرت وإذا جمع كثير لم يستطع أحد أن يَعُدَّه من كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة، واقفون أمام العرش وأمام الخروف، متسربلين بثياب بيض، وفي أيديهم **سعف النخل**، وهم يصرخون بصوت عظيم قائلين: **الخلاص** (= أوصَنَّا) لإلهنا الجالس على العرش وللخروف.» (رؤ٧: ٩و١٠)

وتصوير دخول الرب بهذا الوصف المتضمِّن معنى النصرة، كان بمثابة اللطمة الأخيرة على وجه أعداء المسيح من رؤساء الكهنة والفريسيين، والتي عجَّلت جداً بعملية الصليب، الذي هو في الحقيقة التعبير الإلهي الأخير والأبدي لنصرة المسيح، ليس على الناس بل من أجل الناس.

كما كانت سعوف النخل تُستخدَم في أعياد المظالّ والتجديد. والنخلة شجرة محبوبة كونها ترتفع شامخة نحو السماء، فارشة أغصانها مثل التاج، كأذرع تتوسل، خضراء على الدوام، تزهر وتثمر إلى مئات السنين. لذلك ترنم بها صاحب المزمور كصورة للصدِّيق: «الصدِّيق كالنخلة يزهو ... مغروسين في بيت الرب في ديار إلهنا.» (مز٩٢: ١٢و١٣)

وقد استخدم سليمان الملك النخلة في نشيد الأنشاد ليعبِّر بها عن النفس المحبوبة للمسيح: «ما أجملك وما أحلاك أيتها الحبيبة ... قامتك هذه شبيهة بالنخلة ... قلت إني أصعد إلى النخلة وأمسك بعذوقها.» (نش٧: ٦ــ٨)

وللكنيسة القبطية شغف بها يفوق الوصف. ففي يوم أحد السعف، أو أحد الخوص الذي نحن بصدده، يتبارى كل بيت وبلا استثناء في اقتناء عدة أغصان منها، ويستمرون السبت مساءً (عشية الأحد) في جَدْل الخوص بأشكال ومناظر غاية في الإبداع، والحاذقون في جدلها يملأونها

بالزهور والورود، و يصنعون في الجريدة جيوباً يضعون فيها «قربانة» ويحتفظون بها في البيوت على مدار السنة. و يقوم بعض الكهنة ــ وهذا خطأ فاحش ــ بتكريسها بماء طقس "لقان الموتى" الذي يجريه الكهنة تحسُّباً لمن يموت في أسبوع الآلام، حيث يُمنع إجراء الصلوات على الميت، و يُكتفى برشه بماء اللقان الخاص بالموتى. كما يتبارى الباعة بالنداء على الخوص المجدول على شكل قلوب: «قلبك يا مسيحي، قلبك». وأصبح الخوص في هذا اليوم يشكِّل أجمل مظاهر الفرح، ليس عند الصغار فقط بل والكبار أيضاً. وقلَّ مَنْ يدخل الكنيسة وليس في يده سعفة يعود بها إلى بيته يحتفظ بها للتذكار والبركة. وقد احتفظت الكنيسة القبطية بهذا التراث منذ العصور الأُولى.

«أُوصنا، مبارك الآتي باسم الرب ملك إسرائيل»:

هو ترديد لمقاطع المزمور ١١٧ (حسب الترجمة السبعينية) وخاصة الآية ٢٥:

«احمدوا الرب لأنه صالح لأن إلى الأبد رحمته ...»

«قوتي ونسبحتي هو الرب وقد صار لي خلاصاً ...»

«افتحوا لي أبواب البر لأدخل فيها ...»

«هذا هو باب الرب والصدِّيقون يدخلون فيه ...»

«الحجر الذي رذله البناؤون صار رأساً للزاوية ...»

«هذا هو اليوم الذي صنعه الرب نبتهج ونفرح فيه ...»

«آه يا رب خلص (أُوصنا). آه يا رب أنقذ. مبارك الآتي باسم الرب»،

«باركناكم من بيت الرب ...»

«الرب هو الله ...»

ومن الآية «**أُوصنا مبارك الآتي باسم الرب**» يُبدأ في نشيد أحد الخوص لحن «إفلوجيمينوس»، مع إضافة «أوصنا لابن داود. أوصانا في الأعالي. أُوصنا لملك إسرائيل».

و يُستخدم من المزمور الآية: «**قوتي وتسبحتي هو الرب وقد صار لي خلاصاً**» في الكنيسة القبطية مئات المرات طوال ساعات الليل والنهار ليوم الجمعة الكبيرة في أسبوع الآلام، كمقطع ترديدي. كما تستخدم الآية: «**هذا هو اليوم الذي صنعه الرب فلنبتهج ونفرح فيه**» في كل أيام الآحاد عند تقديم الذبيحة.

وهذا المزمور يبدو أنه أُلِّف ليكون تسبحة لتدشين الهيكل الثاني، وربما عند وضع حجر أساسه:

«الحجر الذي رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية.» (مز١١٨: ٢٢)

والطقس اليهودي الحالي يستخدم هذا المزمور بعناية فائقة ويحتل في العبادة مركزاً أساسياً، وذلك في عيد ظهور الهلال كل شهر.

وأما الآن، فقد تحولت النبوة وتحول الطقس بجملته إلى حقيقة واقعة تاريخية، استُعلن فيها كل المعنى والقصد الإلهي من المزمور والطقس، إذ صار هذا المزمور كله موقَّعاً على حياة المسيح آية آية، بصورة إعجازية.

وكلمة: «**أُوصنا**» أصلها الأرامي هُوشِيْعَنَّا، ومعناها: «من فضلك خلِّصنا»، وقد أصبحت صلاة لطلب المعونة وخاصة أيام عيد المظال ولطلب المطر. ولكنها أصبحت هتافاً للتحية والتكريم كما جاءت في ٢صم ١٤: ٤:
«وكلمت المرأة التقوعيَّة الملك، وخرَّت على وجهها إلى الأرض، وسجدت، وقالت: **هوشعنا (أعِنْ)** أيها الملك».

والسبب في أن الإنجيل لم يترجمها إلى اللغة العربية (أو أي لغة أخرى) بل بقيت بلفظها الأرامي تقريباً، هو أنها تثبَّتت كاصطلاح للمديح. ولكن الكنيسة تصرفت فيها وجملتها مقطعاً للصلاة أيضاً.

أما كلمة: «**مبارك الآتي باسم الرب**»، فكان يقولها الكهنة واللاويون ترحيباً بالحُجَّاج الآتين إلى الهيكل من الأماكن البعيدة، وهوذا الرب يأتي إلى هيكله بغتة (ملا٣: ١)، ليس حاجًّا، بل كصاحب البيت، كابن على بيته، وبيته نحن (عب٣: ٦) الحاجُّون إليه.

ولكن في التعبير المسيحي: «الذي كان والذي يأتي» (رؤ١: ٨) ὁ ἐρχόμενος مأخوذ على أنه تعبير عن لقب الرب يسوع «**الآتي إلى العالم**» (يو١: ٩) من عند الآب:
«أنت هو المسيح ابن الله **الآتي إلى العالم**.» (يو١١: ٢٧)
«**أنا أتيتُ باسم أبي**، ولستم تقبلونني، إن أتى آخر **باسم نفسه** فذلك تقبلونه» (يو٥: ٤٣).
أما اسم أبيه **فهو** ἐγώ εἰμι الذي طالما استخدمه المسيح ليعلن عن نفسه أنه والآب واحد.
«وعرَّفتُهم اسمك» (يو١٧: ٢٦)، «كنت أحفظهم في اسمك» (يو١٧: ١٢)، «إن لم تؤمنوا إني **أنا هو** ἐγώ εἰμι تموتون في خطاياكم.» (يو٨: ٢٤)

«ملك إسرائيل»:

ليست واردة في النص النبوي في المزمور، ولكنها واردة في نصٍ نبويٍّ آخر مأخوذ من نبوة صفنيا النبي والذي سيأتي ذكره في شرح الآية (١٥).

١٢ : ١٤و١٥ **«ووجد يسوعُ جَحْشاً، فجلسَ عليه، كما هو مكتوبٌ: لا تخافي يا ابنةَ صهيونَ هوذا مَلِكُكِ يأتي جالِساً على جحشِ أتانٍ».**

«جحشاً» أي «حماراً» والكلمة الأرامية حيمور **Hemor** واليونانية هيبوزيجيون **hypozygion** **ὑποζύγιον** (زك ٩ : ٩)، ومعناه «حيوان للحَمْل»، أي لحَمْل الأثقال. والحمار (أو الأتان) **ὄνος** وتصغيره **ὀνάριον** وجحش ابن أتان **πῶλον ὄνου** . ولقد أخذ ق. يوحنا الكلمة من أصلها المكتوب في سفر زكريا «ابتهجي جداً يا ابنة صهيون، اهتفي يا بنت أورشليم، هوذا مَلِكُكِ يأتي إليكِ. هو عادلٌ ومنصور، وديع، وراكبٌ على **حمار، وعلى جحش ابن أتان.**» (زك ٩ : ٩)

ومعروف أن في الأدب النبوي اليهودي، وخاصة ما يأتي منه بالأشعار، يأتي تكرار الكلام لتحسين النغم والوزن ولتوضيح المعنى. وهنا يتضح في هذه الآية عملية التكرار، أولاً في «يا ابنة صهيون» ثم «يا بنت أورشليم»، ثم عاد يكرر «راكباً على حمار» ثم أراد أن يوضح أنه حمار صغير «ابن أتان»، فأخطأ النساخ وبعدهم المترجمون وكتبوها **«على حمار» وعلى «جحش ابن أتان»** بإضافة الواو فجاء المعنى مغلوطاً، وكأنه جالس على حمار وعلى جحش معاً. والصحيح أنه حمار صغير أي جحش.

ولكن كلمة «صغير» **πῶλος** لا تستخدم للتعبير عن صغار الحمير فقط بل وصغار الخيل أيضاً، فلزم أن تُميِّز كلمة «صغير»، فجاءت «صغير» (جحش بالعربية) مضافة إلى أنثى الحمار أي الأتان. فصار المعنى الصحيح هكذا: حمار صغير ابن أتان. ولكن كما فهم النساخ للترجمة السبعينية، هكذا نقل عنها القديس متى في إنجيله كما هي، واضطر أن يعدِّل المعاني والألفاظ لتصير بالمثنَّى، أي حمار وجحش ابن أتان معاً، فجاءت هكذا: «فللوقت تجدان **أتاناً** مربوطة **وجحشاً معها، فحُلاَّهما** وأتياني بهما. وإن قال لكما أحد شيئاً، فقولا: الرب محتاج **إليهما،** فللوقت **يرسلهما.** فكان هذا كله لكي يتم ما قيل بالنبي القائل: قولوا لابنة صهيون، هوذا ملكِكِ يأتيكِ وديعاً راكباً على **أتان وجحش ابن أتان.** فذهب التلميذان وفعلا كما أمرهما يسوع، وأتيا **بالأتان والجحش،** ووضعا **عليهما** ثيابهما فجلس **عليهما.**» (مت ٢١ : ٢ــ٧)

هـذا الخطأ بالنقل غير المقصود، تلافاه كلٌ من القديسين مرقس ولوقا و يوحنا، حيث ذكروا أنه جحش واحد فقط. و يزيد كلٌ من القديس مرقس والقديس لوقا كلمة: «جحشاً لم يجلس عليه أحد من الناس» (مر١١: ٢، لو١٩: ٣٠) كما جاءت في النسخة السبعينية: «جحشاً صغيراً πῶλον νέον.» (زك٩: ٩)

«جالساً»:

لم يشأ ق. يوحنا أن ينقل الكلمة الأصلية التي جاءت في النبوة، أنه «يأتي **راكباً**» بل جعلها «يأتي جالساً» [«فجلس عليه»] كما يليق بالمسيح كملك.

«لا تخافي يا ابنة صهيون»:

جاءت في أصل نبوة زكريا: «ابتهجي جداً يا ابنة صهيون، اهتفي يا بنت أورشليم».

وفي إنجيل القديس متى اختزلها وصارت «قولوا لابنة صهيون»، أما ق. يوحنا فيبدو أنه أضاف على نص زكريا النبي نصاً آخر من نبوة صَفَنْيَا النبي:

«لا تخافي يا صهيون... الرب إلهك في وسطكِ جبَّارٌ يُخلِّص... ملك إسرائيل، الربُّ في وسطك» (صف٣: ١٦و١٧و١٥). وواضح جداً أن ق. يوحنا أخذ هذا التعبير «**ملك إسرائيل**» في تسبحة الهتاف: «أوصنا، مبارك الآتي باسم الرب **ملك إسرائيل**».

وكلمة «لا تخافي»، المضافة إلى ركوبه على جحش رمز التواضع والوداعة والمسكنة، والتي استرعت انتباه ق. يوحنا فالتقطها من نبوة صَفَنْيَا، توضح أنه ليس ملكاً للنقمة من الأعداء يهوداً ورومانيين، بل للسلام: «لا تخافي». فدخول المسيح إلى أورشليم بهذه الصورة السلامية، هو الذي عبَّر عنه التلاميذ في إنجيل القديس لوقا: «سلامٌ في السماء، ومجدٌ في الأعالي.» (لو١٩: ٣٨)

فهذا الموكب المتواضع، بقدر ما أبْهَجَ التلاميذ والأخصَّاء العارفين بمقاصد المسيح السلامية، بقدر ما ألهب قلوب الطالبين للخلاص من الرومان وسيادة اليهود على الأمم، وظنوا أنه بمثابة إعلان بقيام ثورة، مما أرعب قلوب الفريسيين.

ولكن بقية نبوة زكريا كانت هي وحدها التي استقرت في قلب الرب ومقاصده:

«هوذا ملكُكِ يأتي إليك، هو عادل، ومنصور، وديع، وراكب على حمار (بل) على جحش ابن أتان. **وأقطع** المركبة (مركبة الحرب) من أفرايم، **والفَرَسَ** من أورشليم (جيوش الحرب)، وتُقطع **قوس الحرب، و يتكلم بالسلام للأمم...**» (زك٩: ٩و١٠)

ولكن حتى التلاميذ لم يفهموا ما هو حادث أمامهم، فاشتركوا في الموكب وهلّلوا مع المهللين، وظلوا غير مُدْرِكِين للقيم الحقيقية التي تقوم عليها الحوادث التي كانت تجري أمامهم.

١٢:١٦ **«وهذه الأمورُ لم يفهَمْها تلاميذُهُ أوّلاً. ولكن لَمّا تمجّد يسوعُ، حينئذٍ تذكّروا أن هذه كانت مكتوبةً عنه، وأنهم صَنَعُوا هذه له».**

يقول القديس كيرلس الكبير الإسكندري في تعليقه على هذه الآية:

[إن ق. يوحنا الإنجيلي لم يخجل من أن يعترف بجهل التلاميذ، ثم عاد فأظهر معرفتهم؛ لأنه لم يكن يضع في اعتباره احترام الناس، ولكنه كان يدعو لمجد الروح].

والحقيقة أن ق. يوحنا أراد أن يكشف عن مدى الخطأ الذي وقعت فيه كل الفئات، على وجه العموم، بالنسبة لدخول المسيح أورشليم ليكمل عمله الخاص ويختمه.

أولاً: فرؤساء الكهنة والفريسيون، رأوا ذلك أنه بمثابة إعلان ملكيته ببرهان هتاف تلاميذه، فكان ذلك مأخذهم الحاسم لاستخلاص سبب حكم الصلب من فم بيلاطس: «كانوا يصرخون قائلين: إن أطلقتَ هذا، فلستَ مُحباً لقيصر. **كلُّ مَنْ يجعل نفسه ملكاً، يقاوم قيصر.**» (يو١٩: ١٢)

ثانياً: اليهود والجموع الذين احتشدوا لتحيته بصفته المسيّا الآتي لإعلان بدء مملكة داود، لتخليص إسرائيل من أيدي الرومان.

ثالثاً: التلاميذ، وقد لخص ق. يوحنا موقفهم بأنهم لم يفهموا هذه الأمور. وقد توضّح لهم أن كل ما عملوه، **تلقائياً**، كان موضوعاً في خطة الله لاستعلان أعماله من جهة الخلاص المعدّ.

أما تعليق المسيح على هذا الموكب وهذا الاستقبال فجاء في نفس الأصحاح: «وأما يسوع فأجابهما قائلاً: قد أتت الساعة **ليتمجّد** ابن الإنسان. الحق الحق أقول لكم، إن لم **تقع** حبة الحنطة في الأرض **وتَمُتْ**، فهي تبقى وحدها. ولكن إن ماتت، تأتي بثمر كثير.» (يو١٢: ٢٣و٢٤)

وهذا هو عين موقف الكنيسة الآن من الاحتفال بأحد الخوص. إذ تشترك فيه وتهتف للمسيح

باعتباره قادماً للصليب(٤)، لكي يعلن من عليه انتصاره الحقيقي على الموت والخطية، من أجل خلاص العالم واستعلان حقيقة شخصه كملك المجد.

١٢: ١٧و١٨ **«وكان الجمعُ الذي معه يشهَدُ أنه دَعَا لعازرَ من القبرِ وأقامه من الأمواتِ. لهذا أيضاً لاقاهُ الجمعُ، لأنهم سَمِعُوا أنه كان قد صَنَعَ هذه الآيةَ».**

يلاحظ القارىء أن ق. يوحنا يضع في إنجيله السبب الواضح جداً والمباشر للاحتفال المهيب الذي لاقاه به الشعب يوم أحد السعف كاستقبال الملوك، كل الشعب على كافة طبقاته، ليس الجليليون فقط الذين رافقوه في رحلته بل **واليهود** عامة حتى من سكان أورشليم ذاتها، وهذا على غير العادة، وذلك بسبب معجزة إقامة لعازر من الموت، وهي الآية التي صنعها الرب قبل مجيئه مباشرة إلى أورشليم:

«فكثيرون من اليهود الذين جاءوا إلى مريم ونظروا ما فعل يسوع، آمنوا به.» (يو١١: ٤٥)
«لهذا أيضاً لاقاه الجمع، لأنهم سمعوا أنه كان قد صنع هذه الآية.» (يو١٢: ١٨)

في حين أن الأناجيل الثلاثة الأخرى للقديس مرقس والقديس متى والقديس لوقا لم توضح لماذا لاقاه الشعب بالسعف والهتاف في دخوله أورشليم، بل ذكروا حادثة دخوله أورشليم مقطوعة عما قبلها وعما بعدها.

كذلك يوضح هنا ق. يوحنا أن إقامة لعازر من الموت كانت هي السبب المباشر والقوي الذي جعل رؤساء الكهنة والفريسيين يجمعون مجمعهم الأخير والخطير و يتخذون قرارهم بالقتل المسبَّب: «فكثيرون من اليهود الذين جاءوا إلى مريم ونظروا ما فعل يسوع، آمنوا به. وأما قوم منهم فمضوا إلى الفريسيين وقالوا لهم عما فعل يسوع. فجمع رؤساء الكهنة والفريسيون مجمعاً، وقالوا: ماذا نصنع فإن هذا الإنسان يعمل آيات كثيرة؟ إنْ تركناه هكذا، يؤمن الجميع به، فيأتي الرومانيون و يأخذون موضعنا وأُمّتنا... إنه خيرٌ لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب...» (يو١١: ٤٥—٥٠). «فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه» (يو١١: ٥٣)؛ بل و يؤكد ق. يوحنا أن آية إقامة لعازر من الموت هي التي أنهت على كل أمل الفريسيين في محاولة محاصرته سلمياً، واستسلموا لقرار القتل:

(٤) لذلك يقول مزمور عشية أحد الشعانين: «رتبوا عيداً في الواصلين إلى **قرون المذبح**»، على اعتبار ذراعي الصليب هما قرون المذبح الحقيقي وأحد الشعانين هو «العيد» الموصّل إلى الصليب.

١٢: ١٩ «فقالَ الفريسيونَ بعضُهُم لبعضٍ. انظُرُوا، إنَّكم لا تنفعونَ شيئاً، هوذا العالمِ قد ذَهَبَ وراءَهُ».

هذه آخر مقارنة يعقدها الإنجيل بين المؤمنين والرافضين، بين أبناء النور وأبناء الظلمة والموت؛ بين الجمع الذي شاهد وآمن وشهد بحماس، وبين الفريسيين الذين رفضوا، وأخيراً شهدوا ليأسهم. وفي كلام اليأس الذي عبّروا به عن عدم نفعهم، وعن ذهاب العالم وراء يسوع، كانت آخر نبوّة من فم الأعداء عما سيكون حتماً: «هوذا العالم قد ذهب وراءه»، وإنهم لن ينفعوا شيئاً وأبداً.



٣ ــ رد المسيح على طلب اليونانيين
«إن ارتفعتُ عن الأرض، أجذب إليَّ الجميع»(*)

١٢ : ٢٠ــ٢٢ **«وكان أناسٌ يونانيون من الذين صَعِدُوا ليسجُدُوا في العيدِ. فتقدَّمَ هؤلاء إلى فيلُبُّسَ الذي من بيتِ صيدا الجليلِ، وسألوهُ قائلينَ: يا سيِّدُ نريدُ أن نرى يسوعَ. فأتى فيلُبُّسُ وقال لأندرَاوُسَ، ثم قال أندرَاوُسَ وفيلُبُّسُ لِيَسُوعَ».**

وهكذا يصوِّر لنا ق. يوحنا الوجه المقابل من الغرب للمجوس الذين أتوا من المشرق، أولئك أتوا لتحية «المولود ملك اليهود» (مت٢ : ٢)؛ وهؤلاء لتحية «المصلوب ملك اليهود»، لكي يجمع المسيح في حياته ومماته الشرق بالغرب، وليحمل له الكلُّ الشهادة والعبادة والسجود والتمجيد.

المجوس قالوا: «أتينا لنسجد له»، واليونانيين «صعدوا ليسجدوا في العيد»، والاثنان كانا طلائع «الخراف الأُخَر التي ليست من هذه الحظيرة»، جاءوا ليفتتحوا عصر الأمم. ولكن كانت بعثة شرف الشرق مبكرة للغاية إذ سجلت نفسها في نفس سجل الميلاد، لتحفظ حقها بأولوية الانضمام لرعية القديسين وأهل بيت الله، وهذه سمة النشاط في أهل الشرق. أما بعثة الغرب فتأخرت للغاية، ولكنها لحقت الساعة الحادية عشرة، فأخذوا وعداً ــ من خلف الباب ــ بنصيبهم الكامل من الثمر الكثير: «وأنا إن ارتفعت عن الأرض، أجذب إليَّ الجميع» (يو١٢ : ٣٢). ولكن هذا كله يتم بعد أن تقع حبة الحنطة وتموت أولاً، لكي تملأ حقول الغرب كلها، مبشِّرين وقديسين ومعلِّمين وعلماء!!

كان صوت هؤلاء اليونانيين الأتقياء، بالنسبة لصخب هذا الموكب الزاخر، يبدو في المظهر خافتاً وغير مُلْفِتٍ للنظر إزاء هتاف الآلاف. ولكن في مقدَّرات الأمم وسجلات أمجاد المؤمنين، كان صوت هؤلاء اليونانيين كالرعد كما في بلاد الغرب، كصوت مياه كثيرة، كصوت الله نفسه

(*) يُقرأ هذا الفصل في مساء أحد الشعانين (الساعة الأولى من ليلة الاثنين)، لأن هذا هو الوقت المحدد الذي دار فيه هذا الحديث بعد دخول الرب أورشليم، ثم أيضاً لأن فيه دعوة صريحة من الرب لأن نشاركه في آلامه: «إنْ كان أحدٌ يخدمني فليتبعني». وكأن الكنيسة تنبهنا بهذه القراءة في بداية أسبوع الآلام أن لا نقف موقف المتفرجين، بل أن ندخل في شركة سرية مع الرب أثناء آلامه.

كما يُقرأ هذا الفصل أيضاً في باكر عيدي الصليب لما جاء فيه من إشارة إلى رفع الرب على الصليب وتأثير ذلك على الجميع: «إن ارتفعت عن الأرض، أجذب إليَّ الجميع».

الذي تراءى لبولس في الحلم على هيئة الرجل المكدوني (يوناني) يطلب المعونة (أع١٦ : ٩)؛ أو بلغة أحد الخوص: «هوشَعْنا خلّصنا» !...

١٢ : ٢٣و٢٤ **«وأما يسوعُ فأجابَهما قائلاً: قد أتت الساعةُ ليتمجّد ابنُ الإنسانِ. الحقَّ الحقَّ أقولُ لكم: إن لم تقع حبّةُ الحنطةِ في الأرضِ وتَمُتْ، فهي تَبْقى وَحْدَها. ولكن إنْ ماتت، تأتي بثمرٍ كثيرٍ».**

«قد أتت الساعة»:

الرب يعلن انتهاء الخدمة العامة في الرواقات الخارجية، وبدء خدمته الخاصة أمام أبيه في قدس الأقداس، كرئيس كهنةٍ ينضح بدمه سرًّا على العالم من فوق الصليب. الزمن بعد ليس زمن رؤية وحديث مع الناس، ولكنها الآن ساعة معصرة الدم، وينبغي أن أدوسها وحدي:

«قد دُسْتُ المعصرة وحدي، ومن **الشعوب** لم يكن معي أحد» (إش٦٣ : ٣). لذلك حينما سمع باليونانيين (الشعوب)، علم أن المعصرة قد أعدّت.

على طول خدمة الرب، سمعنا منه أن ساعته لم تأتِ بعد، وحينئذ لم يقوَ عليه أعداؤه، لا بالتهديد ولا بالوعيد، ولا حتى برفع الحجارة، ولا رفع الأيادي، إذ كان يعبر من وسطهم دون أن يروه وأيديهم قابضة على الهواء. ولكن هذه ساعتهم وسلطان الظلمة (لو٢٢ : ٥٣)، وقد أحنى رأسه للصليب وعلى الصليب برضاه، لأنه كان يرى السرور الموضوع أمامه (عب١٢ : ٢)، والمجد الذي كان ينتظره. لأنه بالصليب غلَب الموت، وقام مكلّلاً بالمجد، وظهر «يسوع قائماً عن يمين الله.» (أع٧ : ٥٥)

إذن، فكانت هي الساعة التي ينتظرها للعودة إلى الآب. ولكن كان عليه أن يضع نفسه أولاً لكي يأخذها ثانياً، يضعها في هوانٍ ويأخذها في مجد، والموت والقيامة متشابكان تشابكاً مستتراً، لا يُفهم الواحد بدون الآخر، ولكن الموت كان فريضة على الواحد (يسوع)، أما القيامة فصارت عطاءً للجميع.

«حبة الحنطة»:

يلاحظ القارىء أن إجابة المسيح على سؤال اليونانيين بخصوص رؤيته والتمتع به وبالتالي التلمذة له ــ تأتي على ثلاثة مستويات:

المستوى الأول: التشبيه بالطبيعة، وهو سقوط حبة الحنطة، وأن موتها الظاهري هو الذي يحوّلها

إلى ثمر كثير.

المستوى الثاني: التطبيق على مستوى النفس، على أساس **إماتة الذات** عن وفي هذا العالم، فهو الذي يُقيمها ويُحييها إلى حياة أبدية، حيث العالم هنا هو بمثابة الأرض بالنسبة لحبة الحنطة.

المستوى الثالث: الإلتصاق بالنموذج الإلهي، فالمسيح مات بإرادته وقام. فإذا اتَّبعناه تماماً، نصير مثله، ونأخذ تجربته، فنموت معه ونقوم معه، إذ نأخذ قوة موته وقوة حياته: «**وهم غلبوه (أي غلبوا المشتكي علينا) بدم الخروف، وبكلمة شهادتهم، ولم يحبوا حياتهم حتى الموت.**» (رؤ١٢: ١١)

والنتيجة التي نخرج بها من طرح هذه المستويات الثلاثة هي:
أولاً: أن المسيح سيموت ليعبر إلى اليونانيين وإلى العالم كله، بل وإلى ملء السموات والأرض.
ثانياً: ليس مجرد رؤية المسيح وسماعه يحوِّلنا إلى تلاميذ، بل يتحتم من جانبنا أن نكون مثل حبة الحنطة نموت عن ذواتنا التي تحدُّنا وتربطنا بالأرض والعالم، وذلك حتى نرى المسيح والحياة.
ثالثاً: موت المسيح وقيامته سيكون النموذج الفعَّال الذي إذا التصقنا به وخدمناه، نأخذ قوته ونشترك في نتائجه، وهذا متوفر لدى كل إنسان في العالم.

وبهذه الثلاثة المستويات، نبلغ إلى تلمذة المسيح وشركة حياته. فبدل أن يأتوا إليه ليروه، يمكنهم أن يعيشوا معه دون أن يأتوا إليه.

أولاً: التشبيه بالطبيعة:

حبة الحنطة المهيَّأة للدفن في الأرض هي الواحد (يسوع)، بكل معنى الوحدة في العزلة عن الكلِّ. هذا كان عمق أعماق شعور المسيح الذي كان يعتصره ويهزُّ كل كيانه: «نفسي قد اضطربت» (يو١٢: ٢٧)، «نفسي حزينة جداً حتى الموت» (مت٢٦: ٣٨)، «أيها الآب نجني من هذه الساعة» (يو١٢: ٢٧)، «وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض» (لو٢٢: ٤٤). ولولا شعوره الدائم بحلول الآب فيه، لسمعنا أكثر وأكثر، ولكنه كان يعود سريعاً لأعماقه، فيرى راحته في الآب: «**وأنا لستُ وحدي، لأن الآب معي.**» (يو١٦: ٣٢)

ولكن كما أن حبة الحنطة تغلب وحدتها بموتها ودفنها في الأرض فتصير كثيراً، هكذا رأى

المسيح «يسوع» في موته عبوراً من وحدته أي فَرادته التي عانى منها، إذ لم يفهمه أحد ولم يسمعه أحد، وإلى خاصَّته جاء وخاصته لم تقبله، وحتى إخوته لم يكونوا يؤمنون به (يو٧: ٥)، ورئيس الكهنة مزَّق ثيابه لأنه لم يفهم كلامه، وتلاميذه خانوه و واحد منهم باعه، والمتقدِّم فيهم أنكره والباقون تركوه وهربوا؛ ثم تمَّت معجزة حبة القمح التي دُفنت في الأرض، إذ خرجت منها السنبلة تحمل **ثمراً كثيراً، كله من جسم حبة الحنطة، «من لحمه ومن عظامه»** (أف٥: ٣٠)، «وجيش عظيم جداً جداً» (حز٣٧: ١٠)، «فقال لي تنبأ للروح **"تنبأ يا ابن آدم"**، وقل للروح هكذا قال السيد الرب: هلم يا روح من الرياح الأربع وهُبَّ على هؤلاء القتلى ليحيوا. فتنبأتُ كما أمرني، فدخل فيهم الروح، فَحَيُوا، وقاموا على أقدامهم، جيش عظيم جداً جداً» (حز٣٧: ٩و١٠). «بعد هذا نظرت، وإذا جَمْعٌ كثيرٌ لم يستطع أحد أن يَعُدَّه، من كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة، واقفون أمام العرش وأمام الخروف متسربلين بثياب بيض، وفي أيديهم سعف النخل.» (رؤ٧: ٩)

انتقل المسيح من وحدته إلى كُلِّيتهِ، من فَرادته إلى مُطْلَقِه، من انحصاره في فلسطين إلى مِلْئه للسماء والأرض: «صعد فوق جميع السموات لكي يملأ الكل» (أف٤: ١٠). بموته عَبَر المسيح إلى كل إنسان كان أو سيكون، وعِوَض أن كان على كل إنسان أن يَعْبُر إليه، صار هو الذي يَعْبر إلى الكل في كل مكان وزمان. عِوَضَ أن نذهب إليه ونقرع، صار هو الذي يقف على كل باب و يقرع: «هأنذا واقف على الباب، وأقرع، إنْ سمع أحد صوتي وفتح الباب، أدخل إليه، وأتعشى معه وهو معي.» (رؤ٣: ٢٠)

بموت المسيح ودفنه، استُعْلِنَت القيامة والروح والحياة الأبدية التي فيه، والتي طرحها الروح القدس مع الرياح الأربع على قتلى الشعوب يهوداً و يونانيين، فدخل فيهم روح المسيح فَحَيُوا، وقاموا، جيشٌ عظيمٌ جداً جداً.

وهكذا كان ردُّ الرب على سؤال اليونانيين، متضمناً رسالته الإلهية المحيية لهم من داخل آلامه وموته ومجده الذي حانت ساعته. فكأن المسيح يخاطبهم: أتركوني الآن وحدي، لأدوس معصرتي، لأنضح دمي عليكم فتحيون. سأطرح روحي عليكم، وحياتي، وكلمتي، ورسالتي، لتصيروا شعبي.

+ «ولكي يبيِّن غنى مجده على آنية رحمة قد سبق فأعدَّها للمجد، التي أيضاً دعانا نحن إيَّاها، ليس من اليهود فقط، بل **من الأمم أيضاً**. كما يقول في هوشع أيضاً: **سأدعو الذي ليس**

شعبي شعبي، والتي ليست محبوبة محبوبة. و يكون في الموضع الذي قيل لهم فيه (رواق الأمم) لستم شعبي، أنه هناك يُدْعَوْن أبناء الله الحي.» (رو٩: ٢٣ــ٢٦)

ثانياً: التطبيق على مستوى النفس:

١٢: ٢٥ «من يحبُّ نفسَهُ يُهلِكُها، ومَنْ يُبغضُ نفسَهُ في هذا العالمِ، يحفظُها إلى حياةٍ أبديةٍ».

هنا التطبيق على المستوى الأعلى، إذ نحن لسنا بصدد موت طبيعي ولا أرض طبيعية ولا حياة طبيعية ولا ثمر طبيعي، ولكن التطبيق على الطبيعة فقط نقلنا إلى المستوى الروحي الأعلى.

وهذا هو قانون الحياة المسيحية، فكل ارتقاء إلى مستوى أعلى يحتاج أو يتم على أساس خسارة المستوى الأقل: «إن كنتم قد سمعتموه، وعُلِّمتم فيه، كما هو حق في يسوع (الموت الطبيعي بالجسد)، أن تخلعوا (الموت أو الإماتة للنفس)، من جهة التصرف السابق، الإنسان العتيق الفاسد (أهواء وشهوات النفس) بحسب شهوات الغرور، وتتجددوا بروح ذهنكم، وتلبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله (الحياة الأعلى) في البرِّ وقداسة الحق» (أف٤: ٢١ــ٢٣). وهذا هو عين مَثَل حبة الحنطة، وإنما على المستوى الأعلى. و يشرحه القديس بولس الرسول عملياً: «لكن ما كان لي ربحاً (فريسيٌّ ومعلِّم إسرائيل)، فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة. بل إني أحسب كل شيء أيضاً خسارة، من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي، الذي من أجله خسرتُ كل الأشياء، وأنا أحسبُها نفاية لكي أرْبَح المسيح» (في٣: ٧و٨). وواضح هنا أن الربح الروحي هو على أساس الخسارة المادية والمعنوية، والخسارة أصابت الذات والربح هو الحصول على المسيح عوض الذات: «فأحيا، لا أنا، بل المسيح يحيا فيَّ.» (غل٢: ٢٠)

وهكذا، فإن التضحية بما هو أقل، مهما كان شهيًّا ومرغوباً ومريحاً لعظمة الذات، يفتح الطريق إلى بلوغ ما هو أعظم بكثير بالنسبة لروح الإنسان وحياته الأبدية.

كذلك، فإن بذل الذات وإخضاعها لمطالب الحياة الروحية، يُعوِّض بالربح الذي يفوق البذل، وهو ربح المسيح؛ فالمسيح يحلُّ محل الذات. كذلك أيضاً، فإن قبول الموت الإرادي، أي الإماتة، والإماتة تصيب كل ما هو قابل للفناء، يفتح باب الحياة الأبدية خطوة بخطوة.

وباختصار، فإن الذي يلتصق بما هو فانٍ، يفنى معه؛ وكلُّ مَنْ يلتصق بالحياة يمتلىء بها.

وهكذا كلُّ طمَّاع يأخذ ويخزن ويضيف إلى ذاته من مسرات **الدنيا** وأمجادها، يُحطّم **ويُهلِكُ** ذاته، بمعنى أنه يجعلها بلا قيمة بالنسبة للوجود الروحي ومسراته. وكل جاحد لمُشتهيات ومسرات وأمجاد الذات، تصبح ذاته نفسها هي السُلَّم الذي يصعد به إلى السماء.

هنا المسيح على ضوء سؤال اليونانيين الذين يطلبون المجيء إليه لرؤيته، **يجيب ويوضح كيفية المجيء إليه**؛ فرؤية المسيح ليست بالسهولة التي يراها هؤلاء اليونانيون، أو يراها الحجاج الذين يذهبون إلى أورشليم أو الهيكل أو الجبل المقدس ليروا الله ويجتمعوا إليه: «قال لها يسوع: يا امرأة صدّقيني، إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للآب ... ولكن تأتي ساعة **وهي الآن** حين الساجدون الحقيقيون **يسجدون للآب بالروح والحق.**» (يو٤: ٢١و٢٣)

ولكي يكون السجود لله **بالروح**، يتحتم أن يسبقه إخضاع وإماتة عن العالم **للجسد.**

وحبة **الحنطة** هي هنا **النفس**، **والأرض** هي هنا العالم، **والثمر** هو هنا **الحياة** الأبدية.

والملاحظ في هذه الآية أن المسيح يضع المحبة الخاطئة في مقابل البغضة الممدوحة بالنسبة للذات. ولو رجعنا إلى المحبة الخاطئة في الإنجيل نجدها محصورة في الخمسة الاتجاهات أو المجالات التي تؤدي إلى الهلاك:

١ ــ محبة **الظلمة.** ٢ ــ محبة **العالم.** ٣ ــ محبة **المجد** بين الناس.
٤ ــ محبة **الجسد.** ٥ ــ محبة **المال.**

وهذه الخمسة هي **المداخل** المتوازية لمملكة الشر أو الشيطان. **والإنحياز** لأي اتجاه أو مجال من هذه المجالات يُظْهِرُ عدم رغبة في محبة المسيح والله.

١ ــ **والظلمة**، هي الضدُّ لـ«نور» الكلمة: «وهذه هي الدينونة **إن النور قد جاء إلى العالم، وأحب الناس الظلمة** أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة.» (يو٣: ١٩)
٢ ــ **والعالم**، هو الضدُّ للمسيح **ولله**: «مملكتي ليست من هذا العالم» (يو١٨: ٣٦)، «**محبة العالم عداوة لله.**» (يع٤: ٤)
٣ ــ **ومجد الناس**، هو الضدُّ **لمجد الله**: «كيف تقدرون أن تؤمنوا **وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض. والمجد الذي من الإله الواحد** لستم تطلبونه.» (يو٥: ٤٤)
٤ ــ **والجسد**، هو ضدٌّ لله: «لأن اهتمام الجسد هو موت ... هو عداوة لله.» (رو٨: ٦و٧)

٥ ــ **والمال، هو ضدُّ الإيمان بالله**: «لأن **محبة المال** أصل لكل الشرور، الذي إذ ابتغاه قوم **ضلّوا عن الإيمان.**» (١تي٦: ١٠)

فإن كان موت المسيح حتمياً، للحصول لنا على القيامة والحياة الأبدية، فلا مفرَّ من أن يكون الموت الإرادي حتمياً لنا (شركة الموت مع المسيح)، لنحصل ونشترك في القيامة والحياة الأبدية.

١٢: ٢٦ **«إن كان أحدٌ يخدِمُني فليتبَعْني. وحيثُ أكونُ أنا، هناكَ أيضاً يكونُ خادِمِي، وإن كان أحدٌ يخدِمُني يُكرِمُهُ الآبُ».**

لو أننا وضّحنا هذا المثل، سَهُلَ علينا التفسير، والمثل الأمثل هنا هو التلاميذ الذين ساروا على دَرْبِ المعلِّم: «يكفي التلميذ أن يكون كمعلِّمه» (مت١٠: ٢٥). هؤلاء خدموا المسيح، حيثما سار بهم المسيح في مشارق الأرض ومغاربها، وهؤلاء كرَّمهم الآب السماوي أيما تكريم:

+ «فأجاب بطرس حينئذ وقال له: **ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك**، فماذا يكون لنا؟ فقال لهم يسوع: الحق أقول لكم: إنكم **أنتم**، **الذين تبعْتُمُوني** في التجديد، متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر... وكل مَنْ ترك... مِنْ أجل اسمي، يأخذ مئة ضعف، ويرث الحياة الأبدية.» (مت١٩: ٢٧ــ٢٩)

وعن الذين أحبوا وصمموا أن **يخدموا المسيح**، قدّم المسيح عنهم صلاة خاصة للآب:

+ «أيها الآب، أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني، يكونون معي، حيث أكون أنا، لينظروا مجدي الذي أعطيتني...» (يو١٧: ٢٤)

الملاحَظ هنا في طلب المسيح من الآب: «**يكونون معي حيث أكون أنا**»، أنها ليست هي نفس الطلبة التي طلبها من التلاميذ: «حيث أكون أنا هناك أيضاً يكون خادمي»، لأن طلبة المسيح من الآب هي **النتيجة**: «لينظروا مجدي»، أما طلبة المسيح من التلاميذ فهي **المنهج**، أي شركة الآلام والموت: «في العالم سيكون لكم ضيق» (يو١٦: ٣٣)، «يكفي التلميذ أن يكون كمعلِّمه» (مت١٠: ٢٥). والذي يتبع المسيح، يتحتم أن يحمل صليبه حتى يستطيع أن يتبعه، ولكن الذي يتبع المسيح حاملاً الصليب، فهو حتماً سيبلغ القيامة والحياة والمجد. فخدمة المسيح، هي بحد ذاتها تبدأ بالموت وتنتهي بالمجد، أي بتكريم الآب، كالمسيح وفي المسيح. ولكن لا كرامة من الآب لإنسان ما بدون المسيح، كما أنه لا كرامة مع المسيح بدون الصليب!! من أجل

هذا يقول بولس الرسول عن خبرة و يقين: «لأن لي الحياة هي المسيح، والموت هو ربح.» (في١: ٢١)

١٢: ٢٧ **«الآن نفسي قد اضطربت. وماذا أقول. أيها الآب نجني من هذه الساعة. ولكن لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة».**

الحديث عن الموت والحياة حديث، **والمذاقة** مرعبة. والمبادىء **العامة** يَعْبُرُ عليها العقل بخفة، ولكن الإختبار **الشخصي** محنة.

وما أبهج الحديث عن الخلاص والمجد هللويا!! ولكن لا يأتي الخلاص إلاَّ بمرارة النفس وذوْق الحنظل. و يكفي، يا قارئي العزيز، أن تسمع من فم المسيح ــ الذي أقام لعازر بكلمة ــ وهو يئن هكذا: «نفسي قد اضطربت»، «أيها الآب نجني». فالخلاص لم يكسبه لنا المسيح سهلاً: «لأنه لاقَ بذاك ... **أن يُكمّل رئيسَ خلاصهم بالآلام.**» (عب٢: ١٠)

«نفسي» = ψυχή و باللاتينية anima:

نفس المسيح هي المركز الذي يتجمع فيه ملء **الحياة البشرية**، وقاعدة المشاعر الإنسانية. أما الروح πνεῦμα وباللاتينية spiritus. فهي، في المسيح، قاعدة التأثرات الروحية، استقبالاً وانعكاساً؛ استقبالاً بالحديث مع الله، وانعكاساً للتعبير والتأثير.

والنفس في المسيح جاءت بهذه الصور:

«الراعي الصالح **يبذل نفسه** عن الخراف.» (يو١٠: ١١)

«ابن الإنسان لم يأت ليُخدَمَ بل ليَخدُمَ، **وليبذل نفسه** فِدْيةً عن كثيرين.» (مت٢٠: ٢٨)

«**نفسي حزينة** جداً حتى الموت.» (مت٢٦: ٣٨)

«**لأنك لن تترك نفسي في الهاوية.**» (مز١٦: ١٠ وأع٢: ٢٧)

أما الروح فجاءت في:

«ونكّس رأسه وأسْلَمَ الروح.» (يو١٩: ٣٠)

«يا أبتاه، في يديك أستودع روحي.» (لو٢٣: ٤٦)

والموت في المسيح تم هكذا:

١ ــ **بانفصال النفس عن الجسد**، ولكن اللاهوت بقوة القيامة التي له لم ينفصل قط، لا

عن النفس التي باشرت نزولها إلى عالم الأرواح المحبوسة، ولا عن الجسد الذي بقي مسجّى في القبر ميتاً ينتظر عودة النفس.

٢ ــ وبتسليم الروح ليد الآب.

وموقع هذه الآية: «الآن نفسي قد اضطربت» بالنسبة للآيات السابقة مهم للغاية. لأن المسيح، رداً على طلب اليونانيين، طرح ثلاثة افتراضات يتحتم أن تتم أولاً، حتى يستطيع لا اليونانيون فقط بل وكل الناس أن يروه ويتعرفوا عليه ويقبلوه ويتحدوا به!

أولاً: أن يموت هو، هنا أعطى لصورة موته وقيامته المثل من الطبيعة في حبة الحنطة.

ثانياً: أن يموت الإنسان بإرادته (الإماتة) عن الذات ومتعلقاتها المادية والدنيوية.

ثالثاً: أن يكون الإنسان مستعداً لأن يخدم المسيح بأن يتبعه أينما سار، للآلام، ثم الموت، وبالتالي القيامة والمجد.

وأخيراً جاءت هذه الآية لتتنزل بهذه النظرية كلها، بفروضها الثلاثة، إلى مستوى **التجربة العملية الواقعة حالاً «الآن»**، لكي يكشف المسيح لتلاميذه واليونانيين وكل العالم، أن الموت الذي جازَه لم يكن سهلاً، ولا كأنه بدون مجاهدة، فكشف عن رِعْدَة الموت التي بدأت تُداهم نفسه البشرية، عندما قرر، وانتهى من قراره، قبول الموت، وجاءت ساعته فعلاً.

وهذا أوضحه ق. يوحنا من عنده، بصورة تكشف عن قدرة هذا القديس في فهم حركات النفس داخل المجال الإلهي بصورة مبدعة: «قال هذا مشيراً إلى أيَّة ميتةٍ كان مُزمعاً أن يموت» (يو١٢: ٣٣). ق. يوحنا هنا يرى أن كلام المسيح هو كشف عن حقيقة وعنف وطريقة الموت الذي سيواجهه. فالنفس البشرية ــ وهي قاعدة المشاعر ومجتمع ملء الحياة البشرية فيه ــ بدأت تنوء تحت ثقل قبوله الدخول في تجربة الموت. وهذه هي غُصَّة الموت!! التي هي بعينها المعروضة علينا دائماً حينما نقرر ونباشر عملية الإماتة عن العالم، **بقمع النفس**، وبغضة ميولها وشهواتها التي تبدو **لها** كأنها حيوية بنوع من خداع البصر.

«نفسي قد اضطربت»:

«اضطربت» باليونانية **τετάρακται** وباللاتينية **Turbata**، والاضطراب لا يعني الخوف (وقد جاءت أيضاً في يو١١: ٣٣ ويو١٣: ٢١)، بل هو انفعال عاطفي شديد داخل النفس.

ق. يوحنا هنا يقدّم نفس الوصف الذي قدمه الإنجيليون الثلاثة عن المجاهدة التي عاناها

الرب في جثسيماني. ولكن لاهوت المسيح، عند ق. يوحنا، يستحيل أن يتداعى أمام سطوة الموت، حتى وإن تداعت النفس البشرية فيه نحو الاضطراب، بل يقدم ق. يوحنا لاهوت المسيح دائماً دائماً منتصراً وساحقاً للعدو. لذلك يسجل ق. يوحنا القول المقابل لهذا الاضطراب النفسي من الموت من جهة الرب، بالرعبة والانحدار اللذين أصابا الشيطان بالمقابل: «الآن دينونة هذا العالم، الآن يُطْرَحُ رئيسُ هذا العالم خارجاً.» (يو١٢: ٣١)

«وماذا أقول؟»:

يعتقد بعض الشُّرَّاح أنه سؤال استنكاري، الردُّ عليه جاء بكلمة «لا» في الكلمة **«ولكن»**. ولكن الحقيقة أن المسيح هنا لا يسأل أحداً، ولكنه ينبِّه السامع ليدرك عنف الانفعال الناتج عن اضطراب النفس إزاء التجربة. فهو ليس موتاً عادياً، بل أعنف موت ماته إنسان في الوجود. فهو ليس حكم موت واقع عليه، بل صراعٌ مع الموت ذاته ومع من له سلطان الموت (عب٢: ١٤)، والذي سينتهي بموت الموت ذاته، واستعلان الغلبة على الموت بالقيامة التي ستُضَافُ إلى حقوق الإنسان. نعم، سيموت المسيح بكل معنى الموت، ولكن في المقابل سيندحر الشيطان، وتنكسر شوكة أو سيف الخطية في يده. علماً بأن ما جاء بعد سؤال: «وماذا أقول»، لم يكن بالسَّلْب بل بالإيجاب، فهو يطلب، والطلب استُجيب بالفعل.

«أيها الآب نجّني من هذه الساعة»:

والجواب جاء من الآب بعد ذلك: «مجّدتُ وأمجّدُ أيضاً». هذه صلاةٌ وتوسُّلٌ لدى الآب، ليس لإلغاء هذه الساعة من حياة المسيح، لأنه من أجلها جاء، ولكنه يطلب النجاة من التجربة الآتية عليه فيها، بمعنى أن يُخْرِجَه منها سالماً ومنتصراً.

والتعبير اليوناني أكثر توضيحاً؛ فهو يطلب **الخروج** خارج هذه الساعة سالماً σῶσόν με ἐκ وهنا ἐκ تفيد خارجاً (وليس من ἀπό)، وباللاتينية تجيء بأكثر وضوح أيضاً **salvica me ex hora hac**، أي **الخلاص خارج**، أو الخروج من، وليس الخلاص من:

not deliverance from , but deliverance out of.

وق. يوحنا يهتم بأقصى اهتمام أن لا يجرح اللاهوت من أي جانب. فالموضع الذي جاء في الأناجيل الأخرى عن هذه الصلاة بصورة مسترسلة مثل: «يا أبا الآب، كل شيء مستطاع لك. فأجز عني هذه الكأس» (مر١٤: ٣٦)، يدقق فيها ق. يوحنا ليشرحها على مستوى **«النجاة منها»**، **أي الخروج من التجربة بصورة تمجّد الآب: «أيها الآب مجّد اسمك»**، وليس

إلغاءها بأي حال من الأحوال. ثم يؤكد المسيح طاعته للآب بقبوله التجربة: «**لأجل هذا أتيْتُ** إلى هذه الساعة». فليست الساعة بحد ذاتها التي يطلب المسيح الخلاص منها بل التجربة، وهي **تجربة الصراع الرهيب** مع الموت «لأجل هذا». **فهو جاء** «**لأجل هذا الصراع**»، **وهو يطلب** أن يخرج من هذا الصراع سالماً بصورة تمجّد اسم الآب.

هذا واضح في قول سفر العبرانيين: «الذي في أيام جسده، إذ قدَّم بصراخ شديد ودموع، طلبات وتضرعات (في جثسيماني) للقادر أن **يخلّصه من الموت، وسُمِعَ له من أجل تقواه.**» (عب ٥: ٧)

إذاً، فالمسيح كان مُحِقاً في توسله: «نجّني من هذه الساعة» أي نجّني من **تجربة الصراع مع الموت، بأن أخرج منها منتصراً.** التي جاءت هنا في سفر العبرانيين «**أن يخلّصه من الموت» والنتيجة جاءت كما توقع المسيح وكما طلب، «وسُمِعَ له»!!**

١٢: ٢٨-٣٠ **«أيها الآبُ مجّد اسمَكَ. فجاءَ صوتٌ من السماءِ مجّدتُ وأمجّدُ أيضاً. فالجمعُ الذي كان واقفاً وسَمِعَ، قال قد حَدَثَ رَعْدٌ. وآخرونَ قالوا: قد كلّمَهُ ملاكٌ. أجابَ يسوعُ وقال: ليس من أجلي صارَ هذا الصوتُ بل من أجلِكم».**

«أيها الآب مجّد اسمك»:

وهنا ينبغي أن ننتبه لئلا يفوت منا المعنى، فاسم الآب «أنا هو» εγώ ειμι، قد أُعطي للمسيح أن يعمل به، ويستعلن نفسه فيه، ويُبرهن به أنه والآب واحد، كيان واحد؛ و«أنا هو» εγώ ειμι يعني «أنا الكائن بذاتي»، قد صار كاسم المسيح.

فالمسيح هنا يطلب من الآب أن **يمجّد اسمه الذي منحه للمسيح، بأن يُمجّد الآب نفسه في المسيح،** وبالمسيح. وذلك **بأن يمجّد المسيح من خلال تجربة الموت، فيقوم منتصراً على الموت،** وبهذا يتمجد اسم الآب في المسيح. وحينئذ يدرك الناس من قيامة المسيح من الموت أن **الاسم الإلهي، «أنا هو»، قد صار اسم المسيح لمجد الآب حقاً،** وأن «المسيح هو ربٌّ لمجد الله الآب» (في ٢: ١١)، وهذا ما سبق أن نبَّه عليه المسيح لندركه في حينه.

«**فقال لهم يسوع: متى رفعتم ابن الإنسان** (الصليب وبعده القيامة)، **فحينئذ تفهمون أني أنا هو** ἐγώ εἰμι» (يو٨: ٢٨). «**لأنكم إن لم تؤمنوا أني أنا هو** ἐγώ εἰμι **تموتون في خطاياكم**» (يو٨: ٢٤)، أي «أني أنا حامل لاسم الآب».

أي أن **القيامة من الموت** ستكون بمثابة إعلان **مجد الله في المسيح**، على أساس غَلَبة المسيح على الموت والخطية، وبالتالي تكميل التكفير عن الخطايا وغفرانها لحساب الإنسان، الأمر الذي من أجله جاء إلى العالم وجاء إلى هذه الساعة.

واضح إذاً كل الوضوح، أن المسيح يطلب الخروج من الموت وليس إلغاءه، والخروج بصورة تمجد «**اسم الآب**» الذي عليه. وهذا هو الرد على السؤال الذي سبق أن سأله: «والآن ماذا أقول (أطلب)»؟ نعم هذا هو الذي يطلبه.

وفي هذا نرى أن المسيح لم يفصل بين آلامه التي عبَّر عنها بأن نفسه قد **اضطربت**، وبين هدفه الذي هو الصراع مع الموت: «من أجل هذا أتيتُ إلى هذه الساعة». أي أن المسيح أوضح أن **آلامه** جاءت جزءاً من **عمله**: «من أجل هذا أتيتُ». كما لم يفصل المسيح في رؤيته وإحساسه وانفعاله بين **الموت والمجد، أي القيامة**، لذلك كانت «**الساعة**» تحمل له إحساس الألم والموت والقيامة بصورة مترابطة، حرص المسيح أن تكون هكذا عند الآب: «الكأس التي أعطاني الآب ألا أشربها؟» (يو١٨: ١١). وردُّ الآب على سؤال: «مجِّد اسمك»، جاء كموافقة كاملة من الآب لقبول الابن الكأس التي أعطاه الآب ليشربها، مع وعدٍ باستمرار تمجيد عمل المسيح حتى النهاية: «مجَّدت وأُمجِّد أيضاً».

«فجاء صوتٌ من السماء: مجَّدتُ وأمجِّد أيضاً»:

يلاحظ قارىء إنجيل يوحنا أن حادثة «التجلي» لم يذكرها هذا الإنجيل كحادثة قائمة بذاتها. ولكنه هنا يكشف بهذا الصوت العلني الآتي من السماء، والذي سمعه كل التلاميذ والجمع واليونانيون، عن تصميم الآب على استمرار رفع اسمه ــ في المسيح ــ إلى مستوى المجد؛ سواء في الماضي الذي يشمل كل حياة المسيح منذ أن أُعلن عن ميلاده بيد ملاك، ثم بواسطة جمهور من جند الملائكة، ثم بالملائكة التي جاءت لتخدمه في تجربة صومه الأربعين يوماً وغَلَبته على الشيطان، وبعد ذلك بالآيات المستمرة وآخرها إقامة لعازر من الموت، والتي سجلها المسيح على أنها «لأجل مجد الله، ليتمجَّد ابن الله به» (يو١١: ٤)، على أن المجد مُتبَادَل.

ثم يضيف الآب أنه «**يمجِّد أيضاً**» في زمن المستقبل بمعنى الاستمرار. والمعنى يشمل «الساعة» بكل مشتملاتها حتى النهاية، وما بعد الساعة من قيامة. ففي حادثة التجلي ناداه الآب من السماء: «هذا هو ابني الحبيب له اسمعوا» (مر٩: ٧)، وتكلم معه موسى وإيليا عن الخروج المُزْمَع أن يكمِّله في أورشليم (لو٩: ٣١)؛ وهنا، وقد أصبح بالفعل ميعاد خروجه على الأبواب، فهوذا صوت الآب من السماء يؤكد استمرار تمجيده لاسمه في المسيح على طول المدى، وعلى مستوى العالم أجمع.

لم يكن هذا الصوت لتقوية المسيح، أو استجابةً شخصية له، لأن المسيح سبق وأعلن بصوت مسموع وفي خطابه للآب: «وأنا علمتُ أنك في كل حين تسمعُ لي» (يو١١: ٤٢). بل إن هذا الصوت العلني، والشديد كالرعد، قد كان ليسمعه جميع الواقفين ــ وليس المسيح ــ ومفَادُه هو إعلان الآب لقبوله طاعة الابن وخضوعه، وموافقته على دخول التجربة مع وعدٍ علني بالمجد! وهذا يدخل حتماً في «الشهادة التي قد شهد بها الله عن ابنه» (١يو٥: ١٠). تماماً كما جاء صوت الآب من السماء في التجلي ليسمعه التلاميذ، وليس المسيح: «هذا هو ابني الحبيب. له اسمعوا» (لو٩: ٣٥). **لأن الموت الذي سيكمِّله المسيح هو لأجلهم**، ولأجل العالم كله.

لهذا أسرع المسيح لكي يصحح ما فهمه الجمع خطأ، أن ملاكاً قد كلَّمه، وقال لهم: «ليس من أجلي صار هذا الصوت بل من أجلكم»، فهو شهادة علنية مسموعة من الآب للمسيح، وموافقة علنية أمام الجميع بقبول طاعة الابن للدخول في مواجهة العدو من داخل الموت. وبذلك يُعتبر موت المسيح تكليفاً من الآب السماوي، ووعداً علنياً أيضاً بالمجد المتبادل، الآب بالابن والابن بالآب، بالقيامة العتيدة أن يكمِّلها المسيح بسلطانه وتدبير الآب.

ولكن المسيح، بسماعه صوت الآب من السماء بالموافقة النهائية وقرار المجد من داخل الموت، تهلَّل، وأدرك في الحال انهزام الشيطان وسقوط مملكته من السماء.

١٢: ٣١ «**الآنَ دينونةُ هذا العالمِ. الآنَ يُطْرَحُ رئيسُ هذا العالمِ خارجاً**».

يلاحَظ أن المسيح لم يقل «الدينونة» بصورتها النهائية، بل «دينونة» بدون تعريف، كدينونة أولى بالنسبة لدينونات قادمة، كلٌّ في ميعادها. ولكن هنا دينونة حاسمة أيضاً وذات مفعول خطير، لأن آلام المسيح التي بدأ يدخلها، يقع وِزْرُها على نظام العالم القضائي من جهة العدالة المذبوحة، والتي يمسك زمَامها الشيطانُ، ويُحرِّكها ضد الأتقياء والضعفاء، لذلك تُعتبرُ هذه الدينونة الأولى

للعالم جَزاءَ جُرْم القضاة والرؤساء، وتجريماً لروحهم التي يمتلكها الحقد والكراهية لكل ما هو حق وعدل. وهذه هي الدينونة التي ألمح إليها الروح القدس على فم سمعان الشيخ، الرجل البار الذي تكلم بروح النبوة للقديسة مريم، والمسيح كان ما زال رضيعاً في حضنها:

«وباركهما سمعان، وقال لمريم أمه: ها إن هذا قد وُضِعَ **"لسقوط"** وقيام كثيرين في إسرائيل، **ولعلامة تُقَاوَمُ**» (لو٢: ٣٤)، حيث بدأ هنا السقوط الفعلي لرأس الحية المدبِّرة لهلاك الإنسان منذ البدء.

«هذا العالم»:

لم يُفرِّق المسيح بين عالم اليهود أو اليونانيين، **فهو عالم الشر المستحوذ على الرؤوس والرؤساء بلا تفريق**، فشرُّ اليونانيين، وإن كان قد بلغ حد السَفَهِ والمُجون، **فهو لا يزيد بأي حال عن شرِّ** اليهود الذين قاوموا الله والروح القدس وذبحوا ابن صاحب الكرم، لتؤول الكرامة لهم من دون الله.

«الآن دينونة ... **الآن يُطرَحُ»:**

تكرار كلمة **«الآن»** يوضح الحد الحاسم بين المدّ والجَزْرِ، **مدّ** العالم الكاذب اللاهي عن الله والحق، **ومدّ** الشيطان في استغلال النفوس الخاضعة له، **وجَذْر** القوة الإلهية الرادعة للاثنين.

وهنا يقف الزمن عند كلمة **الآن** ــ وهي التي عرَّفها المسيح هكذا: «قد أتت الساعة» ــ وهي الفاصلة بين مرحلة الظلمة القاتمة التي خَيَّمت على العالم بتضامن الشيطان، وبين مرحلة انبثاق النور العتيد أن يَسْطع على العالم وشيكاً، بقيامة المسيح.

«الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً»:

«رئيس هذا العالم» هو الآن في مواجهة علنية أمام **«رئيس الحياة»!! صاحب الموت رفع** قرنه على حامل جوهر الحياة!

«أنتم أنكرتم **القدوس البار**، وطلبتم أن يُوهَب لكم **رجل قاتل**، **ورئيس الحياة قتلتموه**، الذي **أقامه الله من الأموات** ونحن شهود لذلك.» (أع٣: ١٤و١٥)

وهكذا لم يَقْوَ سلطان الموت في يد الشيطان على سلطان الحياة في جسد المسيح.

«فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما، **لكي يبيد، بالموت، ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس.**» (عب٢: ١٤)

«يُطْرَحُ خارجاً»:

وقد جاءت في اليونانية بصيغة المستقبل **«سيُطْرَح»**. الطرح هو السقوط أو الإسقاط إلى أسفل بعنف نتيجة لطمة قاضية، أخرجت الشيطان من دائرة نفوذه وخارج حلقة مصارعيه، والتي كسب فيها سابقاً كل الجولات ضد الإنسان، ولكن هنا: «رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيَّ شيء» (يو١٤: ٣٠)، وهكذا خسر كل جولاته مع المسيح.

ومعروف من الكتاب أن «**العالم** كله قد وُضِعَ في الشرير» (١يو٥: ١٩)، فكانت دائرة نفوذ الشيطان تشمل العالم كله، ولكن بصورة مستورة. كلما طُرح رئيس هذا العالم في معركة ضد المسيح، تعرَّى القائمون بتنفيذ مشوراته، ووقعوا تحت نور المسيح الكاشف، ودينت كل أعمالهم. وها الآن قد عُرف لدى كل المسكونة، بكل شعوبها وأجيالها، فضيحة رؤساء إسرائيل وقضاته، في مدى تزييفهم للحق والعدل والإيمان في معاملة المسيح، كما تعرَّى قضاة روما أمام ضمير العالم فيما صنعه بيلاطس بالمسيح ضد المنطق والعدل والقانون. وهكذا لم يَعُدْ الشيطان ولا أعوانه مخفيين: «لأننا لا نجهل أفكاره.» (٢كو٢: ١١)

وهكذا، ومنذ صلب المسيح وقيامته، قد نُصِبَتْ على الأرض محكمة الله العليا من داخل ضمير الإنسان المستنير بنور المسيح ــ أي كل المؤمنين ــ لمحاكمة كل أعمال الشيطان وأعوانه، «كتبت إليكم أيها الأحداث لأنكم أقوياء، وكلمة الله ثابتة فيكم، **وقد غلبتم الشرير**» (١يو٢: ١٤)، «لأن كل مَنْ وُلِدَ من الله **يغلب العالم، وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم، إيماننا.**» (١يو٥: ٤)

«الآن صار خلاص إلهنا وقدرته ومُلْكُه وسلطان مسيحه. لأنه قد طُرِحَ المشتكي على إخوتنا، الذي كان يشتكي عليهم أمام إلهنا نهاراً وليلاً. وهم غلبوه بدم الخروف، وبكلمة شهادتهم، ولم يحبوا حياتهم حتى الموت.» (رؤ١٢: ١٠و١١)

وهكذا فقد العالم وجوده وإغراءه بالنسبة للمؤمنين بالمسيح، وفقد الشيطان سلطانه على أولاد الله، كما فقد الموت فاعليته على حياة الذين وُلِدُوا جديداً من الله؛ وهذا هو المفهوم الواقعي والجوهري لمعنى دينونة العالم وطَرْح رئيسه خارجاً، تمهيداً لانحلال هيئة هذا العالم انحلالاً نهائياً من دائرة حياة المؤمنين، بالانتقال إلى ملكوت الله وتلاشي الشيطان تلاشياً كليًّا من الوجود، بالنسبة لحياة المؤمنين، وذلك بدخولهم تحت سلطان المسيح والله، بل وتلاشي الموت من كيان المفديين، بدخولهم نهائياً في دائرة الحياة الأبدية مع الله.

١٢ : ٣٢و٣٣ «وأنا إنْ ارتفعتُ عن الأرض، أجذبُ إليَّ الجميعَ. قالَ هذا مشيراً إلى أيَّةِ ميتةٍ كان مُزمِعاً أن يَموتَ».

هذه هي غاية المسيح التي من أجلها قَبِل أن يدخل إلى «ساعة» الصراع مع «هذا العالم» ومع رئيس هذا العالم، الذي طرحه أرضاً ليرتفع هو عن الأرض إلى أعلى لأنه ماذا بعد أن يكون قد دان **«عالم الشر»** وفضح مداخل الظلمة والشر فيه، وحكم عليه، وأعلن الحق عالياً فوق الكذب والخداع، إلاَّ افتتاح عالم النور ونقل مركز الجذب من الأرض إلى السماء؟ ثم ماذا بعد أن يكون قد طرح رئيس هذا العالم من دائرة نفوذه وسلطانه المتعالي فوق أفق الإنسان، و بعد أن حطَّه إلى أسفل تَحت موطىء قدميه، إلاَّ أن يرفع الإنسان فوق هامة الشيطان ليتسامى بروحه إلى حيث المسيح؟

لأن المسيح، بموته مرتفعاً على الصليب، رفع الإنسان معه من داخل الموت إلى القيامة والحياة، **فتحرر الإنسان من جَذْبِ الأرض المستمر والمستبدِّ المؤدي إلى الموت الأبدي.** ولأن المسيح، بموته، قد ظفر بالشيطان على الصليب وفضحه وأشهره جهاراً، **صار الصليب هو مركز الجذب الأقوى والأعلى للإنسان.** وهذا هو المعنى المباشر الذي يتضمنه موت المسيح **«مرتفعاً»** على الصليب، مرتفعاً عن الأرض، ومرتفعاً فوق هامة الشيطان.

وقد سبق أن ركَّز إنجيل يوحنا على معنى **ارتفاع المسيح بالموت على الصليب** بقوله: «وكما رفع موسى الحية في البرية، هكذا ينبغي أن **يُرْفَعَ** ابن الإنسان، لكي لا يهلك كلُّ مَنْ يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو٣: ١٤). حيث «رَفْعُ ابن الإنسان» هنا يتضمن القيامة بالموت أو الحياة من داخل الموت. فالحية النحاسية المرفوعة بواسطة موسى، كان مجرد النظر إليها **يُحْيي من الموت** أولئك الذين عضَّتهم الحية وسكبت سُمَّها في أجسادهم.

والتطبيق هو أن المسيح ألغى على الصليب فِعْلَ الحية، أي الشيطان، وأبطل الموت المتحصِّل منها؛ إذ عِوَضَ سُمِّ الحية المميتة، أعطانا دمه ترياق الحياة الأبدية. فكلُّ مَنْ نظر، نظرة الإيمان، إلى المسيح مرفوعاً على الصليب، تبطل فيه قوة الخطية التي هي سُمُّ الموت أو شوكته القاتلة: «لأنه هكذا أحبَّ الله العالم، **حتى بذل ابنه الوحيد** (على الصليب)، **لكي لا يهلكَ كلُّ مَنْ يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية.»** (يو٣: ١٦)

كذلك يعود إنجيل يوحنا في موضع آخر ليركز أيضاً على ارتفاع المسيح ــ على الصليب ــ،

كونه يتضمن أيضاً استعلان حقيقة المسيح: «متى رفعتم ابن الإنسان، فحينئذ تفهمون أني أنا هو» (يو٨: ٢٨)، لأنه بصلب المسيح استُعْلِنَتْ قيامته «وتعيَّن ابنُ الله، بقوة، من جهة روح القداسة، بالقيامة من الأموات.» (رو١: ٤)

وهكذا يصرُّ إنجيل يوحنا دائماً على أن لا يفصل **الموت** عن **القيامة** عن **المجد**، ويجعل مفهوم «**الارتفاع**» على الصليب هو «**ارتفاع**» القيامة أيضاً، بل «**ارتفاع**» الصعود!

لذلك فقول المسيح هنا: «وأنا إن ارتفعتُ ... أجذب إليَّ الجميع»، يشير إلى الموت على الصليب وما يتبعه بالضرورة من قيامة وصعود ومجد، والذي يتضمن جَذْب المؤمنين واتحادهم بجسده.

«ارتفعت "**عن الأرض**"» ἐκ τῆς γῆς وتفيد ليس الارتفاع فوق الأرض بالمعنى الموضعي فقط، بل وبالمعنى الروحي، فهو ارتفاع عن مستوى الفكر الأرضي والجذب الأرضي، الذي يتضمن، ليس معنى الصلب فقط بل والقيامة بمفهومها الروحي العالي.

«أجذب إليَّ»:

المعنى هنا يتضمن شيئاً من العنف بسبب الجذب المضادّ من الأرض ومن العدو، وهذا المعنى يوضحه الروح القدس في العهد القديم: «كنت **أجذبهم بحبال البشر، برُبُط المحبة، وكنت لهم كمَنْ يرفع النير عن أعناقهم**، ومددتُ إليه مطعماً إياه.» (هوشع ١١: ٤)

وعملية الجذب هي عملية روحية بحتة، تدخل في وظيفة الروح القدس مباشرة.

«الجميع»:

وتأتي بدون تخصيص، فهو «الكل»، حتى ما في السموات والأرض: «وأنْ يُصالح به "**الكلَّ**" لنفسه عاملاً الصلح بدم صليبه بواسطته سواء كان ما على الأرض أم ما في السموات.» (كو١: ٢٠)

ولكن ليس الكلُّ كمجموع كلِّي، ولكن «الكلُّ» بالمعنى الفردي واحداً واحداً: «ولكن الذي وُضع قليلاً عن الملائكة، يسوع، نراه مكلَّلاً بالمجد والكرامة، من أجل ألم الموت، لكي يذوقَ بنعمة الله الموت لأجل **كل واحد**.» (عب٢: ٩)

وعملية الجذب لا تقتصر على التقريب إلى المسيح، بل وتمتد إلى داخل المسيح، كعملية تجميع

في شخص المسيح، في جسده السري الذي يملأ السماء والأرض: «لتدبير ملء الأزمنة **ليجمع كلَّ شيء في المسيح**، ما في السموات وما على الأرض، **في ذاك**.» (أف ١: ١٠)

٣٤:١٢ «فأجابَه الجمعُ: نحن سَمِعْنَا من الناموسِ أن المسيحَ يبقى إلى الأبدِ. فكيف تقولُ أنت إنه ينبغي أن يرتفعَ ابنُ الإنسانِ. مَنْ هو هذا ابنُ الإنسانِ؟».

الصعوبة التي واجهت الجمع في فهم معنى «ارتفاع ابن الإنسان»، مزدوجة. فمعروف من نبوة دانيال وبقية النبوات أن ابن الإنسان قرَّبوه إلى عتيق الأيام: «فأُعطيَ سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبَّد له كل الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض» (دا٧: ١٣و١٤). هذا لو كان ابن الإنسان بصفته العامة التي هم لا يفهمونها أصلاً، لأن المسيَّا هو ابن داود، وليس ابن الإنسان. وابن داود سيأخذ مملكة أبيه ليحكم إلى الأبد: «أقسَمَ الربُّ ولن يندم، أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق» (مز١١٠: ٤)، «قطعت عهداً مع مختاري. حلفتُ لداود عبدي، إلى الدهر أُثبِّت نسلك، وأبني إلى دور فدور كرسيَّك. سلاه» (مز٨٩: ٣و٤)، «لنموِّ رياسته وللسلام لا نهاية، على كرسي داود وعلى مملكته، ليثبِّتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد» (إش٩: ٧)، «ويسكنون فيها هم وبنوهم وبنو بنيهم إلى الأبد، وعبدي داود رئيسٌ عليهم إلى الأبد.» (حز٣٧: ٢٥)

وهذه النبوات الخاصة بالمسيَّا كابن داود كانت محفوظة في قلوب اليهود، حفظاً يتجدد كل صباح وكل مساء، بانتظار تحقيق الوعد. لذلك كانت كلمات الرب يسوع توزن في أذهانهم عليها كلمة كلمة، بل وحرفاً حرفاً، بطريقة يستحيل معها مصالحة الحرف الناموسي مع الروح الذي يتكلم به المسيح؛ حيث الكهنوت كهنوت سماوي، وحيث المملكة هي الملكوت السماوي، وحيث كرسي داود هو العرش السماوي والرئاسة هي من واقع أنه «رئيس الحياة وملك الدهور» غير الزمنية.

ولكنهم فهموا، على كل حال، أن الارتفاع يعني الموت والانقطاع عن الوجود في الأرض، ولكن كان معنى الصليب غير مفهوم، وكان على كل حال مُثبِّطاً لعزائمهم، إذ كانوا ينتظرون المسيَّا بوضعه السياسي، مما أوقف حماسهم في الترحاب بالمسيح والإنحياز له.

١٢ : ٣٥و٣٦ **«فقال لهم يسوعُ النورُ معكم زماناً قليلاً بعدُ. فسيروا، ما دام لكم النورُ، لئلا يدرككم الظلامُ. والذي يسيرُ في الظلامِ، لا يعلم إلى أين يذهبُ. ما دام لكم النورُ، آمنوا بالنورِ لتصيروا أبناءَ النورِ. تكلّم يسوعُ بهذا ثم مضى، واختفى عنهم».** (٦)

هذه هي آخر نصيحة يقدمها المسيح لليهود، على وجه الإطلاق، وهي نصيحته أيضاً لكل متشكِّك أو مُرتبك من جهة من هو المسيح. وتتلخص في أنْ انتهزْ **الفرصة القليلة** التي أمامك، **وبالقدر الضئيل** الذي يملأ فكرك وقلبك، عن صحة وصلاحية المسيح في أن يقودك **ولو خطوة واحدة إلى الأمام**، تقدّم، تقدّم ولا تقف أو تتقهقر، فالخطوة الواحدة الإيجابية كفيلة أن تدفعك إلى الأمام وباستمرار، لأن المسيح واثق من أنه هو نور العالم، وهو قادر أن يقود ويجذب ويدفع ويكشف أمام الإنسان حقيقة الحياة.

فما دام هاتف الخير مسموعاً، اتبع، ومادام بصيص النور يسيراً، سِرْ لأنك إن استسلمت للخير تصير ابناً للخير، وإن سلَّمت للنور قلبك ورجليك، صرت ابناً للنور وقائداً لغيرك. وكل صوت يأتيك من الخلف ليُشكِّكَكَ في النور، فهو صوت الظالم وأبي الظلمة، وهو حتماً للضلال والتضليل.

وكعادة المسيح دائماً، فهو لم يُجِبْ على سؤالهم، بل قطع طريق الشك عليهم بإلقاء شعاع من النور على فكرهم حتى لا يعثروا فيه، لو آمنوا. أما آمالهم في مسيًّا يبقى معهم إلى الأبد، فاختزلها المسيح إلى «زمان قليل بعد». وحينما قال لهم: «سيروا في النور ما دام لكم النور»، فهو يذكِّرهم بعمود النور الذي قاد آباءهم في سيناء وأضاء لهم ظلمة القفر، لو يتذكرون!...

«ثم مضى واختفى عنهم»:

الكلام هنا، بحسب أسلوب ق. يوحنا الخفي، يحمل معنى اختفاء النور، ويوحي بغشيان الظلمة لعقولهم التي لم تَعِ النور، ولا هي سارت على هداه. هذا هو الحبك القصصي للقديس يوحنا، لأن هنا يختم هذا القديس على كل تعاليم المسيح. فكما كانت آية إقامة لعازر من الموت

(٦) يُقرأ هذا الفصل (يو١٢: ٣٥–٥٠) في قداس الأحد الرابع من الخمسين المقدسة، وذلك بعد انتصاف الخمسين المقدسة، واقتراب عيد الصعود الذي فيه يُرفع العريس عنا، وفي ذلك دعوة صريحة من الكنيسة لأن ننتفع من نور المسيح قبل أن يُرْفع عنا: «النور معكم زماناً قليلاً بعد. فسيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام».

آخر آياته لاستعلان حقيقة شخصه كونه «**القيامة والحياة**»، وهي منتهى قصد الإنسان، فهنا كذلك يعطي ق. يوحنا آخر كلمة للمسيح من جهة استعلان شخصه «**كنور الحياة**»، وهو منتهى رجاء الإنسان وآخر تعاليم المسيح. وقد تحقَّق قول المسيح هذا عملياً، فعندما صلبوه اظلمّت الدنيا، وصارت ظلمة على الأرض كلها، تعبيراً عن اختفاء النور عندما أنكروه. وهم لم يدروا أنهم قتلوا رجاءهم لما قتلوه، فلا حصلوا على مسيّا يبقى لهم إلى الأبد، ولا انتفعوا بالزمان القليل بعد!



ختامٌ لإنجيل الاستعلان
(١٢: ٣٧—٤٣)

١٢: ٣٧—٤١ **«ومع أنه كانَ قد صَنَعَ أمامَهم آياتٍ هذا عددُها، لم يؤمِنوا بِهِ. ليتمَّ قولُ إشعياءَ النبيِّ الذي قالَهُ: يا ربُّ مَنْ صدَّق خبَرنا؟ ولِمَن استُعْلِنَتْ ذراعُ الربِّ وهذا لم يَقْدِرُوا أن يُؤمِنُوا. لأن إشعياءَ قالَ أيضاً: قد أعْمَى عُيُونَهُم، وأغْلَظَ قلوبَهم، لئلا يُبْصِروا بعيونِهم، ويَشعُرُوا بقلوبِهم، ويرجِعُوا فأشفِيَهم».**

إن عدم إيمان اليهود لا بد أن يسترعي كل من يطّلع على الإنجيل، سواء من جهة الآيات أو الأعمال والتعاليم. والقديس يوحنا يضع نفسه الآن، وفي ختام سرده للآيات والتعاليم، كمن ينظر إلى رسالة الخلاص التي أكملها المسيح ككلٍّ، فهو يندهش من عدم إيمان اليهود، بل والمسيح نفسه اندهش من عدم إيمانهم، بل وحتى إشعياء النبي لم يصدِّق ما يقول. والحقيقة كذلك، فإنه لا يوجد شعب في العالم قاوم رسالة الخلاص، كما قاومها اليهود في شخص المسيح نفسه، مع أنهم خاصته!!

و يعود ق. يوحنا إلى العهد القديم، عهد النبوات والأضواء، التي أرسلها الله من بعيد سابقاً ليُظهرَ بها ويمهِّد لما سيكون؛ حتى إذا كان، سَهُلَ الإيمان.

ونبوات إشعياء فيها ما يكفي، سواء بالنسبة للمسيح من هو، وما هو عمله، أو بالنسبة لليهود، عن ما هو ردُّ الفعل عندهم.

والنبوة في الواقع تصوِّر ما سيكون، ولكن لا تتحكم في مجريات الأمور، ولا تعفي المجرم من إجرامه، أو الخاطىء من خطيته، فسبْقُ العلم عند الله لا يؤثر في حرية وإرادة مَنْ سيعمل، ولا تقلل من العقوبة المحتَّمة عليه. ولكن القصد الإلهي في الإعلان السابق عما سيكون، فوق أنه يمهد به الطريق والأذهان لقلوب المؤمنين، فهو يوضح مدى الإحاطة التي يشملها تدبير الله، ومدى العناية الإلهية التي تسبق وتعدُّ المتكلم والسامع معاً، الآية، وصانعها، ورائيها معاً؛ قلب المؤمن وقلب الرافض معاً. لأن الله يشمل بكيانه كل كيان، فهو يحيط بالبداية والنهاية لكل ما كان وما

سيكون، وهو سابقٌ للزمن، وكائنٌ بعد أن ينتهي الزمن. فالكل واقع في بؤرة رؤيته، ومشيئته تُهيمن بالنهاية على كل مشيئات خلائقه.

وهنا نأتي إلى لاهوت ق. يوحنا، فهو حينما يلجأ إلى نبوة إشعياء فإنما يود أن يقول أنه بقدر ما كان يعمل المسيح بحسب تدبير الآب قولاً وعملاً، بقدر ما كان اليهود المعاندون يزدادون عدم إيمان. ولكن حتى عنادهم ورفضهم هذا، كان واقعاً تحت سَبْق المعرفة، ولم يخرج عن التدبير. فكل ما قالوه وعملوه، سبق أن كشفه إشعياء، ليدرك به ق. يوحنا، وندرك نحن معه، أن العناية الإلهية تحيط بقصة الإنجيل. ولكن عدم إيمان اليهود لم يوقف تدبير الله للخلاص، بل دخل فيه كعنصر مكمِّل؛ فعدم إيمانهم وعنف رفضهم لم يَزِدْ عن أن يكون عثرة لهم وحدهم. فالصليب صار عثرة لليهود، ولكن اليهود لم يستطيعوا أن يكونوا عثرة للصليب.

«آيات هذا عددها»:

من كلام ق. يوحنا، يتبين لنا أنه كان مُلمًّا بآيات كثيرة جداً عملها الرب يسوع، ولكنه اكتفى بذكر بعض منها، وهي سبعة على وجه التحديد، رآها كافية لنؤمن على ضوئها أن المسيح هو ابن الله:

الأولى: تحويل الماء إلى خمر ــ الأصحاح الثاني.
الثانية: شفاء ابن خادم الملك ــ الأصحاح الرابع.
الثالثة: شفاء مقعد بيت حسدا ــ الأصحاح الخامس.
الرابعة: إشباع الجموع من الخمس الخبزات ــ الأصحاح السادس.
الخامسة: السير على الماء ــ الأصحاح السادس.
السادسة: شفاء المولود أعمى ــ الأصحاح التاسع.
السابعة: إقامة لعازر من الموت بعد أربعة أيام ــ الأصحاح الحادى عشر.

وفي ختام الكل آية قيامته من الأموات، مع علامات وآيات في السماء والأرض والبحر، لم يقصد بها المسيح أن يؤثر على إيمان الناس، ولكن لتُعلن فقط عن رسالته.

«ليتم قول إشعياء»:

«ليتم» وتأتي في اليونانية بمعنى «ليكمل للملء» **ἵνα πληρωθῇ**. هنا لا يأتي يوحنا بالنبوة ليعلّل بها تصرف بيت إسرائيل من نحو المسيح رجائهم، ولكن النبوة أتت لتغطي الفراغ المخيف الذي يتركه تصرُّف اليهود، في تفكير أي إنسان، من نحو معاملتهم للمسيح باعتباره أنه

طابعهم وسلوكهم منذ القديم، وهذا لا غرابة فيه، فهو استمرارٌ لتكميل مكيالهم (مت٢٣: ٣٢).

«مَنْ صدَّق خَبَرنا؟ ولمن استُعْلِنَتْ ذراع الرب؟»:

هذه آية إشعياء النبي (٥٣: ١)، وهنا يجمع ق. يوحنا تعاليم الرب يسوع مع الآيات التي صنعها معاً، و«**الخبر**» هو التعليم بالكلمة ومقصده هو الإيمان، و«**ذراع الرب**» كناية عن القوات التي صنعها المسيح، وجاءت على مستوى الآيات أي بصفة إشارات تشير إلى لاهوت صانعها. والاثنان معاً كانا شهادة الله المنطوقة والمعمولة بواسطة ابنه. والاثنان أيضاً رُفِضَا، فالخبر لم يُصدَّق، والآية لم تُفْهَمْ باعتبارها استعلاناً للمجد الإلهي لصاحبها.

«لهذا لم يقدروا أن يؤمنوا»:

هنا يتعرض ق. يوحنا إلى استحالة أخلاقية عند اليهود، موروثة عَبْر تذمُّرات بلا عدد أعلنوها في وجه الله، منذ أن كانوا في مصر، ثم في خروجهم من مصر، وفي وجه موسى. وكلُّ قاضٍ ونبيٍّ أتى بعد ذلك لم ينجُ من هياجهم ومقاومتهم: «قد تركوا عهدك، ونقضوا مذابحك، وقتلوا أنبياءك بالسيف، فبقيتُ أنا وحدي، وهم يطلبون نفسي ليأخذوها» (١مل١٩: ١٠). هذا كان صراخ إيليا، ويردُّ عليه القديس استفانوس الشهيد الأول: «يا قُسَاةَ الرقاب وغير المختونين بالقلوب والآذان، أنتم دائماً تقاومون الروح القدس. كما كان آباؤكم، كذلك أنتم. أيُّ الأنبياء لم يضطهده آباؤكم؟ وقد قتلوا الذين سبقوا فأنبأوا بمجيء البار الذي أنتم الآن صِرْتُم مُسَلِّميه وقاتليه، الذين أخذتم الناموس بترتيب ملائكة ولم تحفظوه.» (أع٧: ٥١ــ٥٣)

لهذا لم يستطيعوا أن يؤمنوا!! تِرْكَةٌ ثقيلة جداً من مقاومة ورفض استعلانات الله على مدى الدهور، عيونٌ أعماها عدم استعدادها للرؤيا، وآذان أصمَّها تكرار رفضها لصوت الله، وقلوبٌ منعتها قساوتها عن الندم أو التوبة!!

«لأن إشعياء قال أيضاً: قد أعمى عيونهم، وأغْلَظَ قلوبهم، لئلا يبصروا بعيونهم، ويشعروا بقلوبهم، ويرجعوا فأشفيهم»:

النص هنا من إشعياء (٦: ٩و١٠)، ولكنه بالفحص، استقر العلماء أنه غير منقول لا من النسخة السبعينية ولا من النسخة العبرانية الماسورتيك Masoretic، والتي لجأ إليها كُتَّاب الأسفار الأخرى.

فأما النسخة السبعينية: والتي يتبعها كل من إنجيل متى وكاتب سفر الأعمال فهي ترد

كالآتي:

«فقد تمت فيهم نبوة إشعياء القائلة تسمعون سمعاً ولا تفهمون. ومُبْصِرين تُبْصِرُون ولا تنظرون. لأن قلب هذا الشعب قد غَلُظَ، وآذانهم قد ثقل سماعها، وغمضوا عيونهم، لئلا يبصروا بعيونهم، و يسمعوا بآذانهم، و يفهموا بقلوبهم، و يرجعوا فأشفيهم.» (مت١٣: ١٤و١٥)

أما إنجيل القديس مرقس (٤: ١٢) فجاءت فيه كالآتي:

«لكي يُبْصِرُوا مبصرين ولا ينظروا، و يسمعوا سامعين ولا يفهموا، لئلا يرجعوا فتُغْفَر لهم خطاياهم».

والاختصار والتصرف هنا واضحان، و يرى العلماء أن النص يقترب من النسخة العبرية الماسورتيك.

النسخة العبرية الماسورتيك: «اجعل قلب هذا الشعب غليظاً، وثقِّل آذانهم، وأغمض عيونهم، لئلا ينظروا بعيونهم، و يسمعوا بآذانهم، و يفهموا بقلوبهم، فيعودوا و يُشْفَوْا».

أما في سفر الأعمال، فإن كاتبه يتبع النسخة السبعينية حرفياً تقريباً (أع٢٨: ٢٥—٢٧):

«حسناً كلَّم الروح القدس آباءنا بإشعياء النبي قائلاً: اذهبْ إلى هذا الشعب وقُلْ ستسمعون سمعاً ولا تفهمون، وستنظرون نظراً ولا تُبصرون، لأن قلب هذا الشعب قد غَلُظ، و بآذانهم سمعوا ثقيلاً، وأعينهم أغمضوها، لئلا يبصروا بأعينهم و يسمعوا بآذانهم و يفهموا بقلوبهم، و يرجعوا فأشفيهم».

أما إنجيل ق. يوحنا فيبدو النص حراً لا يتبع السبعينية. وقد حوَّل ما جاء في النسخة العبرية بصيغة الأمر الموجَّه للنبي، إلى تأكيد مخيف بعمل يضطلع به الله نفسه. فبدل **«إغمضْ عيونهم»** كأمر صادر للنبي، في النسخة العبرية، يأتي «غمضوا عيونهم»، كعمل قاموا به في أنفسهم؛ وما جاء في السبعينية جعله ق. يوحنا **«قد أعمى عيونهم»** τετύφλωκεν، حيث الله هنا هو الذي يصنع بهم هذا كردِّ فعلٍ لعصيانهم، **«وأغلظ قلوبهم»**... لئلا يرجعوا **فأشفيهم.**

و يلاحظ هنا أن ق. يوحنا أنهى النص على أساس أن المسيح هو الذي يشفيهم، وبذلك انتقل بالنبوة إلى الواقع بالنسبة للتاريخ الذي أُكمل على يديه! ومعناها: أني أعطيتكم فرصة لتروا وتشعروا بحقيقتي بكل الطرق فلم تستجيبوا، بل عاندتم، وقاومتم، وأسأتم إليَّ بلا سبب؛ ها أنا أطمس عيونكم، وأسدُّ قلوبكم، وأقطع الرجعة عليكم فلا تعودون بعد.

ونحن نخرج من الأوضاع المختلفة التي جاءت بها هذه النبوة بفكر واحد، وهو أن أخلاق الشعب اليهودي وسلوكه مع الله أدّيا إلى انغلاق أعينهم عن رؤية استعلانات الله، وأصابا آذانهم بالثقل، فلم تَعُدْ تميز صوت الله أو تسمعه أصلاً. وانتهى الأمر بهم إلى أن قلوبهم فقدت الإحساسات والمشاعر التي يمكن أن تتفاعل مع محبة الله، وانتهى الأمر بأن حجز الله صوته عنهم. ويَصْدُق فيهم القول: هذا ما جناه عليَّ جهلي، وما جَنَى عليَّ أحد. ولكن ليس من الهيِّن مقاومة الله، لأن إمكانية التغيير والتوبة، مفتاحها في يد القدير، فإذا تمادى الإنسان أو الشعب في معاندة الله، «**أغلق الله عليهم في العصيان**» (راجع رو١١: ٣٢). وهنا يبدو الله وكأنه هو الذي أغمض عيونهم وسدَّ آذانهم وقسَّى قلوبهم، بينما في الحقيقة أنهم هم الذين بعصيانهم المستمر حرَّضوا الله أن **يغلق عليهم فيما أغلقوا هم على أنفسهم** من جهالة وحماقة. فسيَّان أن يُقال أنهم أغمضوا عيونهم، أو أن الله أغمض عيونهم. فالذي لا يريد أن يرى الله أو يسمعه لا يستطيع الله أن يُظْهِر له ذاته أو يتكلم معه: «لماذا **لا تفهمون** كلامي. لأنكم **لا تقدرون** أن تسمعوا قولي.» (يو٨: ٤٣)

وهكذا انقلبت عدم الرغبة المستمرة في السماع لكلمة الله إلى **عدم قدرة**: «**لا تقدرون** أن تسمعوا».

١٢: ٤١ «**قال إشعياءُ هذا، حينَ رأى مَجْدَهُ وتكلَّمَ عنه**».

ق. يوحنا هنا ينقل عن نسخة «الترجوم»، أو النسخة الأرامية. وهي التي جاء فيها نص (إش٦: ١) بدل «رأيت السيد (أدوناي) جالساً...»، جاء «رأيت **مجد** السيد (أدوناي)...». لأنه بحسب ق. يوحنا ــ وبالتالي بحسب فكر المسيح ــ أن: «**الله لم يَرَهُ أحد قط**» (يو١: ١٨). وهذا هو التقليد القديم (الأرامي). وبهذا يكون ق. يوحنا بقوله: «**قال إشعياء هذا حين رأى مجده وتكلم عنه**»، قد فسَّر النبوة أيضاً على أساس أن إشعياء رأى «**مجد** المسيح» وتكلم عنه، باعتبار أن إشعياء كان يتنبأ عن المسيح وعن استعلان مجده، وأنه رأى المسيح على أنه هو «أدوناي». وفي نفس أصحاح إشعياء ٦: ٥ يقول: «لأن عينيَّ قد رأتا الملك رب الجنود». وفي الترجمة الأرامية أي «الترجوم» تأتي هكذا: «**لأن عينيَّ رأتا شاكيناه الرب**»، حيث الشاكيناه هي الحضرة المنيرة أو نور الله. وهو التعبير عن المسيح أيضاً باعتباره «**نور الرب**»، «بهاء ــ شُعاع ــ مجده ورسم جوهره.» (عب١: ٣)

١٢ : ٤٢و٤٣ **«ولكن مع ذلك آمنَ به كثيرُونَ من الرؤساءِ أيضاً، غيْرَ أنهم لسببِ الفريسيِّينَ لم يعترِفُوا به، لئلا يصيرُوا خارجَ المجمعِ. لأنهم أحبُّوا مجدَ الناسِ، أكثرَ من مجدِ الله».**

هنا يورد ق. يوحنا نوعاً من الإيمان يساوي عدمه، وهو الإيمان الفاقد الاعتراف أو الشهادة. وهذا إيمان مصاب بإصابة مرضية قاتلة، فهو يؤدي إلى **الإنكار**، وهو أشر من عدم الإيمان.

أما السبب الذي جعل الإيمان فاقداً الاعتراف والشهادة، فهو الخوف. والخوف بالنسبة للخطايا التي تحرم الإنسان من القيامة والحياة، يأتي في المقدمة كأخطر معوّق: «وأما **الخائفون**، وغير المؤمنين والرجسون والقاتلون والزناة والسحرة وعبدة الأوثان وجميع الكذبة، فنصيبهم في البحيرة المتَّقدة بنار وكبريت، الذي هو الموت الثاني» (رؤ٢١ :٨). ووضع الخوف هنا لا يُغْتَفَر، فهو ليس خوفاً على الحياة أو خوفاً من الآلام والتعذيب، بل **الخوف لئلا يفقدوا كرامتهم ومجدهم الدنيويين**، كأعضاء في مجمع اليهود!! الأمر الذي فضحه ق. يوحنا: «لأنهم أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله»؛ وبهذا يكونون قد وضعوا الله في مركز أحطّ من مركزهم. وهذا وصفه المسيح هكذا: «**كيف تقدرون أن تؤمنوا**، وأنتم **تقبلون مجداً** بعضكم من بعض، والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه.» (يو٥ : ٤٤)

ولكن هذا لا يمنع أن كثيرين آمنوا **واعترفوا**، والرسالة إلى العبرانيين هي رسالة مكتوبة إلى رؤساء وكهنة قبِلُوا الإيمان واعترفوا به:

ــ «من ثمَّ، أيها الإخوة القديسون، شركاء الدعوة السماوية، لاحظوا **رسول اعترافنا ورئيس كهنته** المسيح يسوع.» (عب٣ : ١)

ومكتوب أيضاً:

ــ وكان «جمهور كثير من الكهنة يطيعون الإيمان.» (أع٦ : ٧)

دير القديس أنبا مقار

شرح إنجيل القديس يوحنا

الجزء الثاني

من الإصحاح الثالث عشر إلى الإصحاح الحادي والعشرين

الأب متى المسكين

ملخص لإنجيل الاستعلان

(١٢ : ٤٤ـ٥٠)

بعد أن ختم إنجيل يوحنا على أقوال المسيح، وبعد أن سجّل في يوميات المسيح أنه **«مضى واختفى عنهم»** (يو١٢ : ٣٦)، عاد وسجّل بعضاً من أقوال المسيح أتت بصورة جديدة غير مكررة، وبتلخيص جميل ومركّز للمبادىء العامة: النور، والدينونة، والحياة. ويختص جزؤها الأول بالمؤمنين وعلاقتهم مع المسيح، وبالتالي مع الآب، والجزء الآخر يختص بغير المؤمنين، وكيفية وقوع الدينونة عليهم.

١٢ : ٤٤و٤٥ «فنادى يسوعُ وقالَ: الذي يؤمِنُ بي، ليسَ يؤمِنُ بي بل بالذي أرسَلَني، والذي يراني يَرى الذي أرسَلَني».

«فنادى»:

وتأتي في اليونانية «صرخ» = ἔκραξεν ، والمعنى ليس مجرد مناداة، فالمسيح هنا ليس في موقف تعليم بين الناس.

وكلمة «يصرخ» κράζειν في العهد الجديد عامة تفيد الانفعال العاطفي في صورة نُطْق. وقد جاءت في مواضع متغيرة لمواقف وأشخاص متباينة جداً.

فصراخ الجموع المنفعلة بالفرح هو κράζειν : «والذين تقدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون ἔκραζον قائلين أوصنا» (مر١١ : ٩)؛ وصراخ الجموع الغاضبة هو κράζειν : «فصرخوا أيضاً ἔκραξαν أصلبه» (مر١٥ : ١٣)؛ وكذلك الصراخ لطلب المعونة: «ابتدأ يصرخ κράζειν ويقول يا يسوع ابن داود ارحمني» (مر١٠ : ٤٧)؛ كما جاءت أيضاً بخصوص يوحنا المعمدان: «يوحنا شهد له ونادى (صرخ) κέκραγε » (يو١ : ١٥). ولكن ق. يوحنا حصر كلمة κράζειν في معنى الإعلان دون الانفعال أو مجرد الصراخ(٧).

لم ترد مثل هذه الأقوال سابقاً في تعاليم المسيح، فهي صياغة جديدة لمجمل أقوال المسيح.

---

[7] C.H.Dodd, *The Fourth Gosp.*, p. 382.

ترتيب الأماكن التي تردد فيها المسيح أثناء الخدمة

ينفرد إنجيل القديس يوحنا بتوضيح المراحل المتعددة التي مرت بها خدمة الرب بين اليهودية والسامرة والجليل. فبينما نجد بقية الأناجيل تقتصر على ذكر معمودية المسيح في اليهودية، ثم انتقاله إلى الجليل حيث تدور معظم تعاليمه ومعجزاته ثم صعوده مرة واحدة فقط إلى أورشليم التي انتهت بصلبه، نجد إنجيل يوحنا ينفرد بكشف انتقال الرب مرات متعددة بين اليهودية والسامرة والجليل، وذلك على النحو التالي(١):

أولاً: في اليهودية أيام المعمدان: ١:٢٨ــ٥١.

ثانياً: في الجليل: ٢:١ــ١٢.

ثالثاً: في أورشليم واليهودية: ٢:١٣ــ٣:٣٦.

رابعاً: في السامرة: ٤:٤ــ٤٢.

خامساً: في الجليل: ٤:٤٣ــ٥٤.

سادساً: في أورشليم: ٥:١ــ٤٧.

سابعاً: في الجليل: ٦:١ــ٧١.

ثامناً: في أورشليم: ٧:١ــ١٠:٣٩.

أ ــ في عيد المظال: ٧:١ــ٨:٥٩.

ب ــ في عيد التجديد: ٩:١ــ١٠:٣٩.

(اعتزال مؤقت في عبر الأردن ١٠:٤٠ــ٤٢).

تاسعاً: في اليهودية في بيت عنيا: ١١:١ــ٥٣.

(اعتزال مؤقت في مدينة أفرايم ١١:٥٤ــ٥٧).

عاشراً: من بيت عنيا إلى أورشليم: للمرة الأخيرة ١٢:١ــ١٩:٤٢.

حادي عشر: بعد القيامة في أورشليم: الأصحاح العشرون كله.

ثاني عشر: بعد القيامة في الجليل: الأصحاح الحادي والعشرون كله.

---

(١) ارجع إلى المدخل ص٣٠٠ــ٣٠١، حيث تجد السبب الذي جعل القديس يوحنا يتمسك بالتركيز على خدمة الرب في اليهودية.

والمسيح، في هاتين الآيتين، يربط ربطاً وثيقاً ــ مع التأكيد ــ بين الآب وبين كل مَنْ يؤمن به، وكذلك بين الآب وبين كل مَنْ يراه رؤية الاستعلان الإيماني ــ كابن الله ــ وليس رؤية العين.

وهدف المسيح من ذلك عدم الفصل بين اختبار الإيمان به واختبار الإيمان بالآب، باعتبار أن ذات الآب وذات الابن ذات واحدة وجوهر إلهي واحد. فالإيمان بالمسيح هو الإيمان بالله، لأن الابن والآب واحد: «**أنا والآب واحد**» (يو١٠: ٣٠)، وهذا هو الإيمان المسيحي، فالمسيح والآب **ذات واحدة**، ولاهوت واحد، آب وابن معاً، وإنما شخصان هما أو أقنومان.

علماً بأن اختفاء المسيح باستمرار وراء مَنْ أرسله، قولاً وعملاً، هو محاولة جدّ خطيرة للإحتفاظ بوحدانية الفكر والمشيئة والعمل والقول بين الابن المُرْسَل والآب المُرْسِل، لأن هذا هو صميم جوهر اللاهوت، فلا ثنائية في الله قط.

١٢: ٤٦ «أنا قد جئتُ نوراً إلى العالم، حتى كلُّ مَنْ يؤمِنُ بي، لا يمكُثُ في الظلمةِ».

أن يعرف الإنسان حقيقة الله، فهذا هو النور. فالله نور، بمعنى «**الحق المُدرَك الكامل**»، وكل إدراك لله هو إدراك للحق، وإدراك **جزئي** للكمال، لأن الحق في الله لا يُدْرَكُ كماله، **فهو** فائق على كل الإدراكات. لذلك، مَنْ يستنير بمعرفة الله، يظل كلما يمتدُّ في نوره يمتدُّ في معرفته، ومعرفة كل شيء إلى مالانهاية.

والمسيح جاء ليستعلن ذات الله المخفية، ويستعلنها في ذاته هو، أي في شخصه، لأنه ابن الله الوحيد الحامل لكل حقيقة الله في ذاته؛ لذلك، فبتجسده دخل نور الله إلى العالم، فصار نور الله ــ أو حق الله ــ مُستعْلَناً ومُدْرَكاً للإنسان. علماً بأن معرفة حقيقة الله في ذاته، وهي اكتشاف ذات الله كآب وابن، هي النور الحقيقي(٨)، أو الحق المنير الذي لا يمكن أَخْذُه أو إدراكُه كمعلومة أو كمعرفة قائمة بذاتها منفصلة عن ذات الله، هذا أمر مستحيل. فكل معرفة حقيقية عن الله بدون الاتصال الفعلي بالله، هي معرفة الظل، وليست معرفة النور. ولكن المسيح أعطانا معرفة الآب في ذاته هو: «الذي رآني فقد رأى الآب» و«أنا والآب واحد» (يو١٤: ٩، ١٠: ٣٠)؛ وذلك بالاتصال والاتحاد الروحي بشخصه: «بنورك نرى نوراً» (مز٣٦: ٩)، «من التصق بالرب فهو روحٌ واحدٌ.» (١كو٦: ١٧)

(٨) راجع المدخل ص١٢٠و١٢١.

المحتويات

وهكذا جعل المسيح الطريق إلى الله عَبْرَ نفسه التي وضعها على المستوى الإفخارستي هكذا: «مَنْ يأكلني فهو يحيا بي» (يو٦ :٥٧). فالمسيح هو نور العالم، وذلك لحساب الله، بمعنى أن حياته وكلماته هي الاستعلان الدائم لله. على أن الوصول النهائي إلى الله نبلغه، إنْ بَلَغْنا مستوى الاتحاد بالمسيح: «لأن الله الذي قال أن يشرق نورٌ من ظلمة، هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه (شخص πρόσωπον) يسوع المسيح.» (٢ كو٤ :٦)

ومعروف أن الله ليس فيه ظلمة البتة، بمعنى أن الله حقٌ مطلقٌ، والحق هو الضدُّ للباطل، والباطل هو كل ما يتغير إلى زوال.

لذلك، فكل مَنْ يؤمن بالمسيح، أي يتحد به بالروح، يعيش بالحق، ولا يطيق حتى شبه الباطل، إنه يتغير إلى النور، ولا يتغير قط إلى الباطل: «وهذا هو الخبر الذي سمعناه منه، ونخبركم به، أن الله نور وليس فيه ظلمة البتَّة. إنْ قلنا إن لنا شركة معه، وسلكنا في الظلمة، نكذب، ولسنا نعمل الحق.» (١يو١ : ٥و٦)

١٢ :٤٧ «وإن سَمِعَ أحدٌ كلامي، ولم يُؤمِن، فأنا لا أَدِينُهُ. لأني لم آتِ لأَدينَ العالَمَ بل لأُخلِّص العالَمَ».

اتفق معظم علماء الكتاب المقدس، بل وعلماء المخطوطات، أن القراءة الصحيحة لهذه الآية هي كالآتي: «إن سمع أحد كلامي، **ولم يحفظه** φυλάξῃ guard»([9])، لأن السمع لكلام المسيح جاء هنا إيجابياً، بمعنى أنه سماعٌ وفهمٌ. فالمفروض أن يأتي بعده إما حفظٌ أو إهمالٌ، إما قبولٌ أو رَذْلٌ.

والآن، وبعد أن أوضح المسيح أنه جاء نوراً للعالم حتى كل مَنْ يؤمن به لا يمكث في الظلمة، يعود ويأتي باللوم على مَنْ لا يحفظ كلامه، إذ هو كلام الله وهو روح وحياة؛ وهو، بحسب القديس بولس الرسول، السيف ذو الحدين، الذي يخترق ويميِّز أفكار القلب ونيَّاته، حتى إلى مفارق النفس والروح، فهو ميزان القلوب والأفكار. فكلام المسيح، بحد ذاته، لأنه نور، فهو يحمل قوة الكشف والإدانة؛ فكل مَنْ لا يحفظه، سيقع تحت كشف النور، لذلك فهو حتماً سيدين نفسه على ضوء الكلمة اللوغُس λόγος التي سمعها ورفضها.

---

[9] See The Pulpit Commentary, *op. cit.*, p. 148.

الجزء الثاني: إنجيل قوة الكلمة ٣١٣

(٤:٤٦—٥:٤٧)

الجزء الثالث: إنجيل الاستعلان ٣٨٨

(٦:١—١٢:٥٠)

ولكن المسيح وعد أنه لن يدين ــ بمعنى يعاقب ــ مَنْ لا يحفظ كلامه، ولكن الكلام نفسه سيدينه، لأن عمله الأساسي بالنسبة للعالم هو عمل الخلاص والحياة والإنارة وليس الدينونة.

قد يلاحظ القارىء التقليدي الملمُّ بعقيدة الكنيسة، أن قانون الإيمان ينص صراحة و بوضوح على أن المسيح سيأتي في مُلْكِه «**ليدين الأحياء والأموات**»، وهنا يبدو أنه توجد مناقضة بينه وبين هذه الآية ومثيلاتها (يو٨: ١٥؛ يو٣: ١٧). ولكن لكي نزيل هذا التعارض، يلزمنا أن نعيد فهم كلمة «يدين κρίνω »، **فهي لا تعني الحكم بالعقاب أو إيقاع غير المؤمنين تحت التأديب أو التغريم**، بل تعني مجرد التمييز أو التفريق to discriminate، أي التمييز بين المستحق وغير المستحق للحياة الأبدية، وهذا يتم بفعل النور. فالمسيح بصفته نور العالم ونور الحياة، فقد جاء ليميز بين أبناء النور الذين قبلوا النور، وأبناء الظلمة الذين رفضوا النور. والمسيح نور وحياة معاً، لذلك يكرر المسيح باستمرار أنه جاء إلى العالم، كنور وحياة، لتخليص العالم من الظلمة، وليس ليحكم على العالم. ولكن لأن المسيح نور، والعالم ظلمة، فبالضرورة ودون قصد منه، فضح الظلمة لأنه **دان** أي **ميّز** النور عن الظلمة، والظلمة لم تَطِقْهُ.

وهذا واضح جداً في فهم بولس الرسول لمعنى الدينونة بالنسبة للظلمة والنور: «لأنكم كنتم قبلاً ظلمة، وأما الآن فنورٌ في الرب. اسلكوا كأولاد نور... ولا تشتركوا في أعمال الظلمة غير المثمرة، بل بالحري وبّخوها... ولكن الكلّ إذا توبخ، **يُظْهَرُ** بالنور، لأن كل ما **أُظْهِرَ**، فهو نور. لذلك يقول: استيقظ أيها النائم، وقُمْ من الأموات، فيضيء لك المسيح.» (أف٥: ٨ــ١٤)

المسيح هنا هو المضيء والمنير في مواضع العالم المظلمة، وهو بالتالي الموبِّخُ والمميِّزُ بين أعمال الظلمة وأعمال النور، بين النائم الميت وبين اليَقِظ الحي.

هذا هو عمل المسيح، **كديان العالم، وديان الأحياء والأموات**. بمعنى أنه عندما يضيء على النائم والميت بالخطيئة، العائش في الظلمة، يدينه في الحال و يوبّخه، فيبتدىء النائم في الخطية والميتُ بسُمّها يميز بين الظلمة التي يعيشها وبين نور المسيح، فيستيقظ و يضيء له المسيح فيحيا، لأن المسيح هو النور المحيي: «فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس».

فالمسيح جاء نوراً للعالم، وفي الحال صار نور المسيح (الكلام والتعليم) بمثابة دينونة للعالم، ليس على أساس القضاء السلبي والهدم، بل على أساس التمييز والتفريق الإيجابي بين ما هو للنور وما هو للظلمة:

ــ «فقال يسوع لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم، حتى يبصر الذين لا يبصرون (محبو النور) ويعمى الذين يبصرون (مبغضو النور).» (يو٩: ٣٩)

وقد شرح ق. يوحنا معنى الدينونة وفعلها بوضوح في قوله: «وهذه هي الدينونة، أن النور قد جاء إلى العالم، وأحب الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة. لأن كلَّ مَنْ يعمل السيئات، يبغض النور، ولا يأتي إلى النور لئلا توبَّخ أعماله. وأما مَنْ يفعل الحق فيُقبِلُ إلى النور، لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة.» (يو٣: ١٩—٢١)

إذن، فالدينونة التي صارت بمجيء المسيح، كنور، ليست هدَّامة أو سلبية، بل إيجابية مطلقة وخالقة ومحيية، ولكنها مميِّزة تمييزاً حاداً وقاطعاً بين الحق والباطل، بين الخير والشر. وهكذا أصبح نور المسيح، أي «**كلامه**»، دياناً للأحياء والأموات. فبالنسبة للأحياء، فالدينونة (أي النور، أي كلام المسيح) تَسْتَغِلِن استحقاقهم للحياة، وفي نفس الوقت تفرز الأموات الرافضين للمجيء إلى النور، فيدركون من أنفسهم أنهم غير مستحقين للحياة: «فسمع هذا الذين كانوا معه من الفريسيين، وقالوا له: ألعلَّنا نحن أيضاً عميانٌ» (يو٩: ٤١). فإن كانت الدينونة قائمة منذ الآن، فهي ستُستعلن بصورة شاملة في اليوم الأخير.

١٢: ٤٨—٥٠ **«مَنْ رَذَلَني ولم يقْبَل كلامي، فله مَنْ يَدينُهُ. الكلامُ الذي تكلَّمتُ به هو يَدينُهُ في اليوم الأخير. لأني لم أتكلَّمْ من نفسي لكن الآبَ الذي أرسلَني هو أعطاني وصيةً ماذا أقولُ، وبماذا أتكلَّمُ. وأنا أعلَمُ أن وصيَّتَهُ هي حياةٌ أبديةٌ. فما أتكلَّمُ أنا به، فكما قالَ لي الآبُ هكذا أتكلَّمُ».**

رَذْلُ المسيح هو درجة أحط من الدرجة السابقة، فليس هنا عدم سماع لكلمة المسيح وحسب بل رفضٌ وعدم قبول، وهذا ناتج من رَذْلِ شخص المسيح، حيث الرَذْل هنا يحمل معنى الإزدراء، وهي خطية عامدة متعمَّدة، تدخل تحت السلوك الأخلاقي الرديء الذي هو أشرُّ من عدم الإيمان ومضافٌ إليه.

هنا كلمة المسيح بالمفرد «اللوغُس λόγος » يفرزها المسيح لتقوم بحد ذاتها بالشهادة والإدانة ضد مَنْ لم يقبلها، وبالأكثر والأخطر ضدّ مَنْ يرذل أو يزدري بشخص المسيح. فكلمة المسيح بقدر ما تقدِّس، وتطهِّر، وتُحيي، وتَلِدُ من جديد وتحرر؛ فهي لها جانبها الخطر، لأن الذي يُحيي بسلطان كلمته، هو بسلطان كلمته أيضاً يُميت؛ والكلمة التي لها قوة الخلاص لها بالضرورة قوة

الدينونة (١٠).

وكلمة المسيح، التي هي الآن وعلى طول المدى تذكّر وتُبكّت، في النهاية ستحكم حتماً وتدين **«في اليوم الأخير»**. وهذا التحذير الأخير الذي يعلنه الرب لسامعيه، هو ما جاء بالنص في سفر التثنية كنبوة عن المسيح: «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، **وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به.** و يكون أن الإنسان الذي **لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي، أنا أطالبه.**» (تث١٨: ١٨و١٩)

و يُلاحَظ هنا، في نبوة موسى عن المسيح، أنه لا يدين، بل الآب هو الذي يدين: **«أنا أُطالبه»**. كما يُلاحَظ التكرار فيما يخص الكلام:

فأولاً: «الآب يضع كلامه في فمه»،
وثانياً: «يتكلم بكل ما أُوصيه به»،
ثالثاً: «الذي لا يسمع **لكلامي**»،
رابعاً: «الذي **يتكلم به باسمي**».

و يكاد هذا التكرار يطابق التكرار الذي أعلنه المسيح:
أولاً: «**إن سمع أحد كلامي** ولم يؤمن...».
ثانياً: «مَنْ رذلني **ولم يقبل كلامي...**».
ثالثاً: «**الكلام الذي تكلمتُ به**، هو يدينه في اليوم الأخير».
رابعاً: «لأني لم **أتكلم من نفسي**».
خامساً: «الآب الذي أرسلني **أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم**».
سادساً: «وأنا أعلم أن **وصيته هي حياة أبدية**».
سابعاً: «فما أتكلم أنا به، فكما قال لي الآب، هكذا أتكلم».

(١٠) راجع المدخل ص١٤٤ــ١٤٥.

كلام المسيح	كلام موسى
«إن سمع أحد كلامي»...	«يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلي **له تسمعون**.» (تث١٨ : ١٥)
«فما أتكلم أنا به، فكما قال لي الآب هكذا أتكلم».	«الإنسان الذي **لا يسمع لكلامي** (أنا) **الذي يتكلم به (هو) باسمي**».
«من رذلني ولم يقبل كلامي، فله مَنْ يدينه. الكلام (ὁ λόγος) الذي تكلمتُ به هو يدينه».	«أنا أطالبه» (تث١٨ : ١٩) [**كلام الله يدينه** — «ممرا إلوهيم» — بحسب الترجوم النسخة الأرامية].
«الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم».	«وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به.» (تث١٨ : ١٨)
«وأنا أعلم أن وصيته هي حياة أبدية».	«أنا أشهد عليكم بها اليوم، لكي **توصوا** بها أولادكم ... **لأنها هي حياتكم**.» (تث٣٢ : ٤٦و٤٧)

كما يلاحظ الباحث أن الوارد في سفر التثنية (النسخة السبعينية) من جهة «أنا أطالب»، أي "أنا أنتقم"، أي الدينونة التي يضطلع بها الآب، جاءت في نسخة الترجوم (الأرامية) أن الذي سينتقم ليس «أنا» بل «**كلام الله**»: «**ممرا إلوهيم**». وهو المطابق لما قاله المسيح في إنجيل يوحنا: «**الكلام الذي تكلمتُ به (وهو كلام الآب) هو يدينه في اليوم الأخير**». وما جاء في التوراة مُطابقاً لما قاله المسيح يدعو للدهشة، لأن الله كرَّر مراراً أن كلام التوراة أي كلامه سيكون شاهداً عليهم (أي سيدينهم):

«خذوا كتاب التوراة هذا، وضَعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم، **ليكون هناك شاهداً عليكم**. لأني أنا عارف تمرُّدكم ورقابكم الصلبة. هوذا، وأنا بعدُ حيٌّ معكم، اليوم، قد صرتم تقاومون الرب، **فكم بالحري بعد موتي**.» (تث٣١ : ٢٦و٢٧)

كما يلاحظ الباحث أن الله كلم موسى بهذا الكلام **وأوصاه أن يقول لبني إسرائيل قبل موته مباشرة وبعد أن أكمل كتابة التوراة**: «وقال الرب لموسى **هوذا أيامك قد قربت لكي تموت** ... **فالآن اكتبوا لأنفسكم هذا النشيد**، وعلِّم بني إسرائيل إيّاه، **ضعه في أفواههم** ... فعندما كمَّل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها، أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلاً: **خُذُوا كتاب التوراة هذا، وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم،**

ليكون هناك شاهداً عليكم.» (تث ٣١: ١٤و١٩ و٢٤و٢٥و٢٦)

فإذا عدنا إلى كلام المسيح في إنجيل يوحنا بخصوص سماع كلامه وحفظه، وأنه **«كلام الآب»**، **«ووصية الآب»**، وأن الكلام الذي قاله هو **شاهد عليهم وسيدينهم** في اليوم الأخير، نجد التطابق الشديد، ليس في نص الكلام فقط، بل وفي المناسبة، لأن المسيح قال هذا في نهاية خدمته، وقبل أن يموت مباشرة، إذ نقرأ بعد هذا الكلام مباشرة: «أما يسوع قبل عيد الفصح، وهو عالم أن ساعته قد جاءت ...» (يو١٣: ١)

من هذا يتضح، بأبلغ بيان، أن اختيار ق. يوحنا هذا الموضع المناسب لكلام المسيح في نهاية الأصحاح الثاني عشر ــ أي قبل موته مباشرة ــ جزءٌ أساسي وهام جداً من خطة تنسيق الإنجيل، وليس كما طلع علينا النُّقَّاد أن هذا الكلام غير مناسب وليس له موضع في هذا الأصحاح، وعلى حدِّ قولهم أنه إضافة غريبة من وضع كاتب آخر غير ق. يوحنا!! وأنه جاء غير مناسب في نهاية سرد حياة المسيح؛ ولكن ورود هذه الوصية على فم المسيح، في نهاية سرد ق. يوحنا لحياة المسيح، تجيء مُحْكَمَةً غاية في الحكمة والإحكام، ومتوازية تماماً مع ما جاء في نهاية سيرة موسى النبي وقبل موته مباشرة وعن المسيح أيضاً، وهذا بحسب رأيي إعجازٌ يضع صياغة إنجيل يوحنا على مستوى الإلهام الرفيع الذي يهزُّ القلوب ويبهرها.

والذي يسترعي انتباهنا أيضاً هنا، في ختام خدمة المسيح، تكرار كلمة **«الكلام»** سبع مرات في ثلاث آيات، مع توضيح أن كلمة «الكلام» باللغة العربية في هذه الآية: **«الكلام الذي تكلمتُ به، هو يدينه في اليوم الأخير»**، لم تأتِ بصيغة الجمع بل بصيغة المفرد **«الكلمة»**: **اللوغس** ὁ λόγος فالذي سيدين هو **«الكلمة»** اللوغس.

نستخلص من هذا أنه، كما بدأ إنجيل ق. يوحنا بـ**«الكلمة»** في البدء، انتهى بـ**«الكلمة»** في النهاية كديَّان. ولكي يتضح ذلك أمام ذهن القارىء، نورد أول آية يفتتح بها ق. يوحنا إنجيله، وآخر كلمة يُنْهي بها سرد روايته:

1. ἐν ἀρχῇ ἦν *ὁ λόγος* = «في البدء كان الكلمة»

2. *ὁ λόγος* ὃν ἐλάλησα ἐκεῖνος κρινεῖ αὐτὸν ἐν τῇ ἐσχάτῃ ἡμέρᾳ

«الكلام (الكلمة) الذي تكلمتُ به هو يدينه في اليوم الأخير.»

هذه هي أيضاً لفتة من اللفتات التي تجعلنا على قناعة أن وراء قلم ق. يوحنا، روحاً يشهد ويُمْلِي ويُبْدِع!

الجزء الرابع: إنجيل المحبة

العشاء الأخير وأحاديث الوداع

مع التلاميذ الأخصاء

من الأصحاح الثالث عشر إلى الأصحاح السابع عشر

في هذه الأصحاحات، يرتفع ق. يوحنا في تسجيلاته إلى أعلى خصائص أسلوبه الروحي في التعبير عن المحبة، حيث لا يتخللها ما يجرح المحبة ويدميها إلاّ التنويه عن خيانة يهوذا، أحد المحبوبين الذي باع المحبة وذبحها.

ويمكن تقسيم ما جاء في هذه الأصحاحات إلى:

١ ــ آخر أعمال المحبة وتاجها، وجُرْحها القاتل: (الأصحاح ١٣).

٢ ــ الأحاديث الأخيرة، والمواعيد السخية: (الأصحاحات ١٤و١٥و١٦).

٣ ــ صلاة التكريس، والوجه متجه نحو السماء: (الأصحاح ١٧).

وأهم محتويات هذه الأجزاء هي:

عشاء المحبة: (١٣: ١ــ ٢٠)

- «إذ كان قد أحب خاصته الذين في العالم، **أحبهم إلى المنتهى**،
- قام عن العشاء، وخلع ثيابه، وابتدأ يغسل أرجل تلاميذه ...
- فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض ...
- ليس رسول أعظم من مُرْسِله».

فرز الخائن: «فغمس اللقمة وأعطاها ليهوذا» (١٣: ٢٦).

الوصية الجديدة: وصية المحبة (يو١٣: ٣٤و٣٥).

التحذير لبطرس: (١٣: ٣٦ــ٣٨).

حديث الوداع الأول: الذهاب والعودة: (الأصحاح ١٤).

- «أنا **أمضي** لأُعِدَّ لكم مكاناً ... **(ثم) آتي أيضاً** وآخذكم **إليَّ**».
- «أنا هو الطريق، والحق، والحياة».
- «ليس أحد يأتي إلى الآب إلاَّ بي».
- «الذي رآني، فقد رأى الآب».
- «أنا في الآب، والآب فيَّ».
- «إن كنتم تحبونني، فاحفظوا وصاياي».
- «أنا أطلب من الآب، فيعطيكم **معزياً آخر، ليمكث معكم إلى الأبد**».
- «لا أترككم يتامى، **إني** آتي **إليكم**».
- «**إليه نأتي** وعنده نصنع منزلاً».
- «سلاماً أترك لكم، سلامي أعطيكم».

حديث الوداع الثاني: الوحدة العضوية مع المسيح: (الأصحاح ١٥).

- «أنا الكرمة الحقيقية، وأبي الكرام».
- «أنا الكرمة، وأنتم الأغصان».
- «كما أحبني الآب، كذلك أحببتكم أنا. **اثبتوا في محبتي**».
- «هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً، كما أحببتكم».
- «أنتم أحبائي إن فعلتم ما أوصيكم به».
- «إنْ كان العالم يبغضكم، فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم».
- «ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب، روح الحق الذي من عند الآب ينبثق، فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً».

حديث الوداع الثالث: الانطلاق والعودة: (الأصحاح ١٦).

- «إنه خير لكم أن **أنطلق**، لأنه إن لم أنطلق، لا يأتيكم المعزِّي».
- «ولكن إن **ذهبت** أرسله إليكم».
- «ومتى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق».
- «**سأراكم أيضاً** (ثانية)، فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحد فرحكم منكم».
- «كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم».

- «تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضاً بأمثال بل **أخبركم عن الآب علانية**».
- «**الآب نفسه يحبكم** لأنكم قد أحببتموني».
- «تأتي ساعة تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته وتتركونني وحدي وأنا لست وحدي لأن الآب معي».

ختام أحاديث الوداع: (١٦: ٣٣).

- «كلَّمتُكُم بهذا ليكون لكم فيَّ سلام
- في العالم سيكون لكم ضيق
- لكن ثقوا **أنا قد غلبت العالم**».

صلاة المسيح التي غيَّرت مجرى الدهور: **(الأصحاح ١٧).**

صلاة المسيح رفعت الإنسان إلى أعلى من رتبته الأولى: (١٧: ٢١ و٢٣و٢٤).
صلاة المسيح سلَّمت الإنسان المفديَّ صكَّ الحياة الأبدية: (١٧: ٢).
صلاة المسيح فتحت معرفته وقدَّستهُ لاستيعاب طبيعة الله في ذاته: (١٧: ٣ و١٧و٢٦).
صلاة المسيح استعلنت وحدة أبوَّة و بنوة الله في ذاته: (١٧: ٥ و١٠و٢١).
صلاة المسيح أدْخلَت الإنسان الجديد في الوجود الإلهي الفائق، ليفقد أنانيته وتفتُّته إلى الأبد: (١٧: ٢١و٢٣).
صلاة المسيح أنعَمَتْ عليه بحب الآب، بوساطة الابن الوحيد، ليعيش فيه التبني: (١٧: ٢٣و٢٦).



مكان البشارة
عاشراً ــ في أورشليم
للمرة الأخيرة

الأصحاح الثالث عشر

خدمة المحبة: غسل الأرجل

أ ــ الرب يقوم عن العشاء، ليغسل أرجل تلاميذه، لتكريسهم للخدمة، كنموذج لِمَا ينبغي أن تكون عليه المحبة بين المُرْسَلين، وما هو الاتضاع، كسرٌ الكمال للكرازة والرسالة (١٣: ١ــ٢٠).

ب ــ الرب يكشف مُسْبَقاً عن خيانة يهوذا. و يعطي يوحنا علامة خاصة ليتعرف عليه (١٣: ٢١ــ٣٣).

ج ــ الوصية الجديدة: المحبة (١٣: ٣٤و٣٥).

د ــ الرب يحذر بطرس من تجربة الانكار التي سيسقط فيها (١٣: ٣٦ــ٣٨).



بذل المحبــة

(١٣ : ١ــ ٢٠)

في صميم سر العشاء، ومن جوهر لاهوت الإفخارستيا، يقدم إنجيل يوحنا سَرْدَه التاريخي الفريد لطقس «**غسل الأرجل**»، كنموذج حي لكرازة المحبة، في جو روحي مُشْبَع بالعواطف. والرواية تمتاز بالدقة الحركية والحيوية الناطقة، وتسودها شفافية المسيح الحساسة والرقيقة والخجولة في إشارته نحو التلميذ الخائن الذي اندسَّ وسط الأطهار. كما يظهر القديس بطرس، بملامحه المتدفقة حيوية، سواء في اندفاعه أو في إحجامه.

ورواية غسل الأرجل تنقسم إلى قسمين: قسم يسرد عملية غسل الأرجل بملابساتها (٢ــ ١١)، والقسم الآخر يسرد الدرس المتحصِّل منها (١٢ــ ٢٠).

١٣ : ١ «**وأما يسوعُ، قبلَ عيدِ الفصح، وهو عالِمٌ أن ساعَتَهُ قد جاءَت لينتقِلَ من هذا العالمِ إلى الآبِ؛ إذْ كان قد أحبَّ خاصَّتَهُ الذين في العالمِ، أحبَّهُم إلى المنتهى...**».

قبل الفصح:

الحديث عن زمن العشاء الأخير الذي حدده إنجيل يوحنا قبل الفصح أي قبل ١٤ نيسان، وهو يختلف في ذلك عن الثلاثة الأناجيل الأخرى التي حددته بوقت الفصح نفسه، أي أن عشاء الفصح كان في ١٤ نيسان.

ولكن سواء إنجيل يوحنا أو الأناجيل الثلاثة الأخرى، فكلٌّ منها كان يجتهد لإثبات أن الفصح اليهودي قد أُكمل وإلى الأبد، سواء بهذا العشاء الأخير الذي ذَبَحَ فيه المسيح نفسه بالنية، أو بذَبْح المسيح فعلاً على الصليب على أيدي اليهود، عِوَضَ خروف الفصح.

ومن جهة ق. يوحنا، فقد أكَّد أن الفصح الحقيقي ــ الذي كانت كل أعياد الفصح السابقة رمزاً له ــ قد أُكمل وإلى الأبد بذبح «**حَمَلِ الله**»، يسوع المسيح، على الصليب لرفع خطايا العالم؛ وذلك في نفس ميعاد ذبح خروف الفصح في ١٤ نيسان، ليُصبح المسيح فِصْحَ الدهور

كلها: «**الخروف القائم في السماء كأنه مذبوح**». وهذه الصورة الفصحية الدائمة للمسيح في السماء، باعتباره خروف الفصح الأبدي، ملأت كل رؤيا ق. يوحنا حيث ظهر المسيح بصورته الفصحية هذه، كخروف الفصح، ما يقرب من خمس عشرة مرة!!

وحتى الكنيسة المعتَبرة جسده، ظهرت في الرؤيا كامرأة «**الخروف**» التي جُبِلَتْ من ضلعه، بل «**من لحمه وعظامه**»، بل من دم صليبه، ورآها ق. يوحنا متهيِّئة ومُزيَّنة بصلوات وتبرُّرات القديسين، وأنها وشيكة الظهور معه: «لنفرح ونتهلل ونُعْطِهِ المجد، لأن عُرْسَ **الخروف** (استعلان الملكوت الأخير) قد جاء، وامرأته هيَّأت نفسها، وأُعطيت أن تلبس بَزًّا (كتان أبيض **وهو** لباس خدمة الكهنوت) نقيًّا بهيًّا، لأن البَزَّ هو تبرُّرات القديسين.» (رؤ١٩: ٧و٨)

والعجيب جداً أن الكنيسة المجيدة المحبوبة والمشوقة لدى عريسها «**الخروف**» الفصحي، الذي ذُبح من أجلها فاشتراها بدمه وَوَلَدها من روحه يوم ١٤ نيسان، هي نفسها التي رآها ق. يوحنا في رؤياه بصورة أورشليم الجديدة عينها، مدينة الملك العظيم ــ وَطَن القديسين ــ بأسوارها الكريمة وأبوابها اللؤلؤية: «تُسمِّين أسوارَكِ خلاصاً وأبوابكِ تسبيحاً» (إش٦٠: ١٨)؛ «ثم جاء إليَّ واحد من السبعة الملائكة... وتكلم معي قائلاً: هَلُمَّ فأُريك العروس امرأة **الخروف**. وذهب بي بالروح إلى جبل عظيم عالٍ، وأراني المدينة العظيمة، أورشليم المقدسة، نازلة من السماء من عند الله. (لها) مجدُ الله... ولم أرَ فيها هيكلاً، لأن الرب... **والخروف هيكلها... والخروف** سراجُها... ولن يدخلها شيء دنس، ولا ما يصنع رجساً وكذباً، إلا المكتوبين في سِفْر حياة **الخروف!!**» (رؤ٢١: ٩و١٠و١١و٢٣و٢٢و٢٧)

لقد تجلى المسيح في سفر الرؤيا، ليأخذ أقصى صورة للفداء والخلاص الذي أكمله على الصليب ــ في ١٤ نيسان ــ أمام عينَيْ التلميذ المحبوب، ليظهر في سفر الرؤيا بشكل **خروف الفصح، كأعمق تعبير عن بذلِ المحبة الدائم والخالد والأبدي**، وكصفة ثابتة أزلية للمسيح «**الفادي**».

«وهو عالمٌ أن ساعته قد جاءت، لينتقل من هذا العالم إلى الآب»:

ق. يوحنا يتكلم عن «**عِلْم**» المسيح، ليس كأنه وليد الظروف والحوادث، بل هو العلم الفائق على الزمن وحوادثه، فهو العلم الكلِّي Omniscience الذي يرى و يفحص كل الدهور، وما وراء الدهور، كلَّ ما للإنسان، وكلَّ ما لله بآن واحد. لذلك تأتي الكلمة كحال دائم «**هو عالم**» εἰδὼς بصورة العلم المطلق. وأمام الحوادث القادمة، يقف عِلْم المسيح المُسْبَق، لا

كمحرِّك للحوادث، بل كمصوِّر للآلام القادمة في نفسه ليعطيها مزيداً من الواقعية، وقد استخدم المسيح عِلْمَه بآلامه المُزْمِع أن تكون(١)، ليستعلن لاهوته، ويكشف عن صدق حُبِّه لأخصَّائه، الذي هو مزمع أن يتركهم في العالم ليمضي هو إلى الآب. ثم طرح آلامه المزمعة وراء ظهره، ليتفرغ لتعزية أحبائه ويمارس عمل محبته.

«ساعته قد جاءت»:

قبل أن **«تأتي ساعته»**، لم يكن لأحد عليه سلطان. وطالما رفع أعداؤه الأيدي بالحجارة، ولكن أن يكمِّلوا مشيئتهم فهذا مستحيل، ولكن الآن **«أتت الساعة»**، فانفكَّ قيدُ سلطانهم الأثيم، وانطلقت حريتهم الشريرة، ليصنعوا كل ما شاءوا: «هذه ساعتكم وسلطان الظلمة!» (لو٢٢: ٥٣)

وهكذا يبدو مجيء الساعة وكأنها حتمية، ولكن الحتمية الزمنية لا تخضع إلاَّ لمشيئة الله: «لأن الرب يصنع أمراً مقضيًّا به على الأرض» (رو٩: ٢٨). وقضاء الله وحتمياته ذو غايات وأهداف. فحتمية الله لا بد وأن تنشيء حتمية، فحتمية الساعة (الموت) كان وراءها بالضرورة حتميةُ القيامة: «لأنهم لم يكونوا، بَعْدُ، يعرفون الكتاب أنه **ينبغي** أن يقوم من الأموات.» (يو٢٠: ٩)

والترجمة العربية «**ينبغي**» يلزم هنا أن تكون «حتماً» = must = δεῖ . فالقيامة بالنسبة للمسيح المُسَجَّى في القبر ليست هي أمراً لائقاً وحسب، بل هي أمر حتمي بأقصى ما تكون الحتمية.

في إنجيل القديس لوقا نجد المسيح يسير نحو هذه «الساعة» متجهاً إليها بكل مشيئته: «وحين تمت الأيام لارتفاعه، ثبَّت وجهه لينطلق إلى أورشليم» (لو٩: ٥١). فهو لم يكن عالماً بها وحسب، بل وكان يريدها، بل جاء من أجلها: «لأجل هذا أتيتُ إلى هذه الساعة» (يو١٢: ٢٧). كان المسيح يتجاوز مرارتها بسهولة لأنه كان يتطلع إلى غايتها السعيدة: «لينتقل إلى الآب»، «الذي من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب مُسْتَهيناً بالخزي.» (عب١٢: ٢)

لم يقلق المسيح من مجيء «الساعة»، فقد غطَّى حبُّه لأخصائه كلَّ مرارة ما قبلها. وحبُّه للآب غطَّى ما بعدها، أما الساعة نفسها فكانت فرصته العظمى ليكشف حبّاً: «ليس لأحد حب

---

(١) بخصوص رؤية المسيح لآلامه المزمعة أنظر كتاب: «مع المسيح في آلامه حتى الصليب»، للمؤلف، طبعة ١٩٨٧، ص٩٣–١٣٩.

أعظم من هذا» (يو١٥: ١٣)، حيث سيرى العالم سلطانه الفريد، كيف سيضع نفسه من أجل مَنْ أحبَّهم إلى المنتهى، وكيف سيأخذها مستهزئاً بالموت وظلام القبر وظُلْم القاتلين. وحينئذ ستصبح «الساعة» بكل آلامها سِجلَّ مجدٍ في السماء وسجلَّ شرفٍ في الأرض، يتوق ملوكٌ ورؤساء وأنبياء كثيرون لو يفوزوا بوضع إمضائهم على صفحاته، شهوداً أو شهداءَ، ليُحْسَبُوا من أبناء هذه «الساعة».

فالآن، لو نظرنا إلى هذه «الساعة» وما تحمله من معانٍ ومفاعيلَ وعواطفَ مزدحمة، لوجدنا أنها لحظة القِمَّة في حياة المسيح، فهي ساعة العودة إلى الآب، إلى الحضن الأبدي، حيث المجد القائم من قبل إنشاء العالم، وهي ساعة ختام مسيرة الحب بين الرفاق، الحب إلى المنتهى أو الذي بلا نهاية، وهي ساعة الضربة القاضية لدَحْرِ سلطان الموت والخطية لخلاص الإنسان، الساعة التي رأتها كل الأجيال السالفة بالرؤى والأحلام، نظروها من بعيد وحيُّوها (عب١١: ١٣). وقد سلَّح الآبُ ابْنَه بكل سلطانه الخاص: «قد دَفَعَ كلَّ شيء إلى يديه» (يو١٣: ٣)، حتى اسمه الخاص، ليجوز هذه الساعة ضد كل قُوَى الأعداء المتضافرة، ليخرج منها غالباً لحسابنا، ولكي يغلب دائماً: «وقد أُعطي إكليلاً، وخرج غالباً ولكي يغلب[٢]» (رؤ٦: ٢). فهي ساعة النصرة والمجد للإنسان، كلِّ إنسان.

«إذ كان قد أحب خاصته الذين في العالم، أحبهم إلى المنتهى»:

ق. يوحنا هو المتكلم، وهو خير مَنْ يتكلم عن حب الرب لخاصته الذين اختارهم من العالم. ولكن الحب هنا يُشتَعَلَن بروح يوحنا وروح المسيح على مستوى «المنتهى»، أي نهاية قدرة المسيح على العطاء، عطاء الذات، وقدرة الأحِبَّة على الأخذ. فهو حب الشركة، شركة الروح مع الروح، وهي الشركة التي استعلنها بل استكملها على العشاء. فيوحنا يتكلم الآن بعد أن أدرك، وقاس، وذاق طعم الدم في كأس الخلاص، وقوة الجسد المُقَام في الخبزة المكسورة في تلك الليلة الخالدة، التي فيها أذاب حُبَّه، كل حبه، مع روحه في كأس!!

— «لأن حُبَّكَ أطْيَبُ من الخمر... نبتهج ونفرح بك. نذكر حبك أكثر من الخمر، بالحق يحبونك.» (نش١: ٢و٤)

---

(٢) في بعض الأيقونات القبطية العتيقة، وُجد تحت المسيح المصلوب حرف اتشيما القبطي 6 ، وقد تحيَّر علماء الأيقونات سنين طويلة في معنى هذا الحرف، إلى أن فكَّ لُغزَه العالم المرحوم يسى عبد المسيح، إذ تعرَّف عليه أنه الحرف الأول من كلمة "الغالب πiϭpo"، وهو لقب المسيح في سفر الرؤيا.

لقد اختفى طعم الخمر وبقي حبه مع روحه، فكيف لا يقول يوحنا «أحبهم إلى المنتهى»؟
ـ «اشربوا واسكروا أيها الأحباء.» (نش٥: ١)

٢:١٣ «فحين كان العشاءُ، وقد ألقى الشيطانُ في قلبِ يهوذا سِمْعَان الإسخَرْيُوطِي أن يُسَلِّمَهُ».

لا يستطيع الإنسان أن يحيط بهذا المنظر وما احتواه، كيف جمع أقدس الحب مع أشنع الخيانة وعلى مائدة واحدة، حتى في أقدس ليلة من ليالي الحياة على الأرض، والله قائم على مائدة حبِّه، ممثَّلاً بابنه وسط أخْيَر مختاريه، يبثُّهم حبه، يسقيهم من روحه، ويطعمهم من لحمه، كيف يندسُّ هكذا الشيطان، بعد أن وجد له مسكناً في إنسان؟

أيُّ قلب هذا الذي ليهوذا ابن سمعان الإسخريوطي؟ هل قُدَّ من حديد بارد، حتى يتقمصه هكذا الشيطان المارد؟ ألم يأخذ نصيبه الكامل من الحب المنسكب من قلب الله كبقية المختارين، كيف بدَّده، بل كيف مزَّقه وداسه برجليه، والتفت ليفتِكَ بالقلب الذي أحبه؟ ولكن هذه هي الخطية، وهذا هو الإنسان حينما يغويه الشيطان! «لأن محبة المال أصل لكل الشرور، الذي إذ ابتغاه قوم ضلُّوا عن الإيمان، وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة.» (١تي٦: ١٠)

إنها زيارتان مشئومتان استضاف فيهما يهوذا صديقه المُهلك، الأولى ألقى في قلبه المشورة، فقبِلها، وهان عليه أن يسلِّم مَنْ أحبه؛ والثانية جاءه ساكناً كصاحب بيتٍ لينفذ معه الخطة.

لهفي على قلب يوحنا الملتهب حبّاً ورِقَّة، كيف استطاع وهو يتأمل يهوذا، أن يحتمل جرأته وفجوره وهو يجلس بجوار الرب يصطنع التلمذة ويتصنَّع المودَّة بلسانه الألين من الزيت وهو نُصَال(٣)؟ أيُّ دموع كتمها هذا الحبيب؟ وأي غُصَّة أصابت حلقه فمنعته من الصراخ؟

ولكن إن كان مثل هذا قد جرى ليوحنا، فماذا كان يجري في قلب المخلِّص؟ وهو لا يرى فقط النُّصَال الذي يخفيه يهوذا، بل كان يحسُّه في جنبه بل في قلبه! ولكن العجيب في الرب ــ وهو صانع العجائب كلها ــ أن قلبه لم يهتز بالبغضة إزاء يهوذا ولا قيد شعرة، ألا يُشْرق الرب شمسه على الأبرار والأشرار؟ بل ظل يلاطفه، ويغمس اللقمة ويعطيها له بيده كما يحنو الأب

(٣) «كلامه ألين من الدهن وهو نصال. فلو كان العدو عيَّرني إذاً لاحتملت. ولو أن مبغضي عظَّم عليَّ الكلام لاختفيت منه» (مزمور ٥٤: ١٨و١٠ حسب الترجمة القبطية، ويُقال في باكر خميس العهد).

على صغيره بما لم يصنعه مع الآخرين، وحتى حينما جاءه بقبلة التسليم بادره الرب بنداء الصداقة: «يا صاحب لماذا جئت؟» (مت٢٦: ٥٠). وهذه هي قدرة الرب التي لا يبلغها عقل بشر، كيف يعزل، في حبّه، الخاطىء عن خطيئته. فمعركته الأولى والأخيرة هي مع الخطيئة، وليس مع الخاطىء، ولكنه نَعَى يوم مولده، فتمناه لو لم يولد، لأنه علم كيف سيخنق نفسه رافضاً الحياة التي أخذ!!

غسل الأرجل = Pedilavium:

١٣: ٣و٤ «يسوعُ، وهو عالمٌ أن الآبَ قد دفعَ كلَّ شيءٍ إلى يَدَيْهِ، وأنه من عند الله خرجَ وإلى الله يمضي، قامَ عن العشاءِ وخَلَعَ ثِيابَهُ، وأخذَ مِنْشَفَةً، واتَّزَرَ بها».

«وهو عالمٌ أن الآب قد دفع كل شيء إلى يديه»:

ق. يوحنا هو المتكلم، وكأنه بلسان المسيح، يمهّد لصورة العبد الخديم التي استعارها لنفسه منحنياً على أرجل تلاميذه. فيوحنا يحاول أن يرفع ذهن القارىء، ليدرك من أي مركز علوي يتنازل المسيح وهو قابض بيديه على أعنّة كل ما في السموات والأرض من سلطان، وهو يستخدم هاتين اليدين في غسل أرجل تلاميذه. ويشدد يوحنا، هنا، على كلمة «يديه»، لأنها مركز الأعجوبة الإلهية، فهي وهي قابضة على مصائر العالمين استطاعت أن تتعامل مع وسخ الأقدام بآن واحد.

إبهجي أيتها السموات وافرحي يا أرض الإنسان! فالذي جاء من العلاء ليغسل قذر بني آدم، ليس فقط إلى مواضع القلب الداخلية بل إلى وسخ السيرة والمسيرة!

ويجيء سفر العبرانيين ليكمل هذه العجيبة، فبعد أن نزل وتنازل هكذا، يقول سفر العبرانيين: «بعدما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا، جلس في يمين العظمة في الأعالي، صائراً أعظم من الملائكة...» (عب١: ٣و٤)

«وأنه من عند الله خرج، وإلى الله يمضي»:

ولكنه كما لم يخرج ببهاء مجده، إذ استلزم منه التجسد أن يُخلي ذاته من عظمة لاهوته فتسربل باتضاع قامة الأرضيين، هكذا وفي طريق العودة استكثر على نفسه أن يعود ببهاء البشريين، بل ذهب وجروحه في يديه وجنبه مفتوح، حتى إذا تعذّر علينا أن نتمثل بإخلاء الألوهة في نزوله، لا يتعذر علينا أن نتمثل باتضاع بشريته في صعوده. ومن ذا الذي يتأمل في إخلاء ألوهته

ولا يبهت؛ إنها معجزة الله!! ولكن أن نتأمل في إخلاء حتى بشريته فهذا أمر يُذْهِل؛ إنها معجزة ابن الإنسان!!

ولكن إن كان قانون الخروج من عند الله يخص ابن الله وحده وهي معجزته، فالمضيُّ إلى الله قد صار قانون الإنسان وهي معجزتنا. فبالأُولى: «ظهر الله في الجسد» (١تي٣: ٤) وهو أمر يفوق طاقة تصورنا؛ ولكن بالثانية: «نُظْهر نحن معه» (راجع كو٣: ٤)، وهي بالإيمان في حدود رؤيتنا.

وهكذا، بحسب تدبير نعمة الله وحكمته الفائقة بالإخلاء، اقتحم ابن الله الطريق إلينا، خرج من عند الله وحيداً فريداً وسط تهليل السمائيين، ليعود إليه باتضاع العبيد محمَّلاً بأبناء كثيرين، مفتتحاً الطريق وسط تهليل الأرضيين والسمائيين حتى إلى قلب الله!! وصادقة هي الكلمة التي قالها: «أنا هو الطريق» (يو١٤: ٦)، إنَّ في مجيئه إلينا من عند الله ما يساير ذهابه بنا إليه!!

«وإلى الله يمضي»:

هنا بيت القصيد، فبسبب هذا المضيِّ إلى الله، وهو عالم أنه سيترك تلاميذه لخدمة هذا طولها وهذا عرضها: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم» (مت٢٨: ١٩)، رتب المسيح إعداد تلاميذه لهذه الخدمة بإجراء تقديسي **يحمل الرمز والحقيقة معاً**، وهو غسل أرجلهم بيديه لتقديسها وإعدادها لمسيرة التبشير عَبْر جميع الأُمم، ثم دعَّمهم بقوله: «الحق الحق أقول لكم الذي يقبل من أرسِله، يقبلني ...» (يو١٣: ٢٠)

وكأني بالرسل المبشرين الأطهار، كلما أعياهم المشي وكلَّت أقدامهم عن المسير، جلسوا يتحسسون لمسات أصابع المسيح التي مرت على أقدامهم، فيجددون قوة، ثم يرفعون أعينهم إلى فوق فيجدونه ناظراً عليهم!

وليس عبثاً، أيها القارىء العزيز، أن نجد في الإنجيل هاتين الآيتين ملتصقتين معاً: «يسوع وهو عالم ... أنه **إلى الله يمضي، قام عن العشاء وخلع ثيابه** ...»

وغَسْلُ الأرجل، الذي أجراه المسيح، **قَصَرَه على تلاميذه** من جهة الإرسالية لتبشير الأُمم: «**أنتم الذين ثبتوا معي في تجاربي**» (لو٢٢: ٢٨). لذلك لم يُجْرَ بعد ذلك في الكنيسة إلاَّ مِنْ وجهة اتضاع المحبة، وتذكاراً سنوياً لخدمة غسل أرجل الرسل.

«قام عن العشاء»:

إذن، لم يكن غسل الأرجل استعداداً للعشاء كإجراء يستلزمه سر الإفخارستيا، بل هو إجراءٌ قائمٌ بذاته، فهو موازٍ لقوة العشاء وملتحمٌ به، لم يصنعه المسيح قبل العشاء ولا بعد العشاء. فبعد غسل الأرجل، جلسوا مرة أخرى وأكملوا العشاء. ومن شرح الرب لإجراء غسل الأرجل ومن ملابسات امتناع بطرس في البداية، نفهم أنه كما كان للعشاء ـــ كشركة مع الرب ـــ فرصة لتوزيع الأنصبة في ملكوت الله، هكذا فإن لقوة غسل الأرجل ـــ كشركة مع الرب ـــ فرصة لنوال ذات النصيب: «إن كنتُ لا أغسِلُك، فليس لك **معي نصيب**.» (يو١٣: ٨)

إذن، فغسل الأرجل قد صار سرّاً ملتحماً بسر الإفخارستيا. فإن كان سر الإفخارستيا يقوم على سر بذل الجسد والدم على الصليب، أي هو شركة في موت الرب وقيامته، فسرُّ غسل الأرجل يقوم على سر انحناء الأكبر للأصغر بشبه العبد لسيده، فهو سرُّ «**أخْذِ شكل العبد**» (راجع في٢: ٧)، أحد أسرار المسيح الجوهرية. الأول سرائري يُجْرَى بالطقس، حيث يصير التحوُّل من خبز وخمر إلى جسد ودم؛ والثاني سرِّيٌّ يُجْرَى بخلع الكرامة، وبالائتزار بالاتضاع، بشبه المسيح. الأول صورته عشاء، وجوهره شركة مع المسيح في موته وقيامته؛ والثاني صورته غسل أرجل، وجوهره شركة مع قامة برِّ المسيح في اتضاع الألوهة؛ **حيث يأخذ كلٌّ من الإفخارستيا وغسل الأرجل كلاهما صورةَ «البِرّ» وقوته، من منطلق لاهوت المسيح المتحد بناسوته، فكلا السرَّين إلهي وبشري بآن واحد.**

لذلك، فاتضاع المسيح لا يُحسَب عملاً بشريًّا مجرَّداً، بل هو عمل إلهي في جوهره، بشريٌّ في مظهره، خلاصيٌّ المفعول والهدف. لذلك نسمع المسيح يقول للمعمدان، الذي جَفَل وارتعب أن يضع يده على رأس المسيح لتكميل العماد: «اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل برٍّ» (مت٣: ١٥)، برُّ ماذا؟ برُّ الاتضاع(*)!! أما المعمدان فيكمل برَّ الطاعة لصوت الله؛ وأما المسيح فليكمل برَّ الاتضاع الإلهي ومسحة المعمودية معاً، كمعمل يهيىء لسر الصليب، وكما اقترنت **المعمودية ببر الاتضاع** توطئة لسر الصليب، هكذا اقترنت الإفخارستيا أيضاً في سرَّي العشاء وغسل الأرجل، لأنهما الصليب بعينه. فاتضاع المسيح الخلاصي كان هو كل حياة المسيح الذي تُوِّج بالصليب.

(*) راجع مقال: «برُّ الاتضاع» في كتاب: «أعياد الظهور الإلهي»، للمؤلف، الطبعة الأولى ١٩٨٠، ص٢٦٣ـــ٢٦٨.

«وخلع ثيابه، وأخذ منشفة، واتزر بها»:

الثياب هنا هي «ثياب العشاء»، وهي أفخر ما يلبس الداعي أو المدعوُّ لحفل العشاء الفصحي؛ وهي غالباً ما تكون مخصصة على مستوى كرامة الداعي والمدعوين. ولا يغيب عن بالنا أن المسيح عالمٌ بأنه العشاء الأخير، ومن رواية الصليب ندرك أنه كان لباساً خاصاً جداً تعارك عليه جنود الرومان، وأخيراً اقترعوا عليه.

ونقرأ في المثل الذي وصفه المسيح عن حفل عشاء العُرْس: «فلما دخل الملك لينظر المتكئين، رأى هناك إنساناً لم يكن لابساً **لباس العرس**. فقال له: يا صاحب، كيف دخلت إلى هنا، وليس عليك لباس العُرْس.» (مت٢٢: ١١و١٢)

من هذا نستشف قيمة الثياب التي يرتديها الإنسان لحضور حفل عشاء. فخَلْع المسيح لثيابه، أي ليس فقط الثوب المطرَّز غالباً والمفتوح من أمام، بل وما تحته لأن الكلمة اليونانية لم تأتِ بالمفرد لتخصيص «الروب» الخارجي **ἱμάτιον** فقط، بل جاءت بالجمع **ἱμάτια**.

وهذا الإجراء ـــ أي خَلْع الثياب ـــ يُحتسب خارجاً عن اللياقة بالنسبة لكرامة أي إنسان وسط جماعة، لأنه سيظهر بالملابس الداخلية فقط، هذا الأمر لا يدركه علماء الكتاب الغربيون، فهذا الخَلْع هو من شأن الخدم والعبيد: أن يقف العبد بالقميص واللباس الداخلي يغسل أرجل أسياده! ولكن المسيح قصد ذلك قصداً ليتراءى أمامهم كعبد وبصورة لا تُنْسَى. كان يمكن للمسيح أن يغسل أرجل تلاميذه، دون أن يخلع ثيابه، ولكنه أصرَّ على أن **«يأخذ شكل العبد»** (في٢: ٧)، **لأنها في عُرْف اللاهوت هي «درجة»** دون درجة **«شكل الإنسان»**[٤].

ومعروف رسمياً لدى قوانين العصور الأُولى، وفي صميم القانون الروماني، أن «العبد» فاقدٌ لحقوقه الإنسانية، يُباع، و يُشترى، و يُرتهن، و يُعاقب، و يُقتل بيد صاحبه أو سيده، دون مؤاخذة.

والمسيح في تجسده، **«أخذ شكل العبد»**، لا اتضاعاً فحسب، بل ونزولاً إلى الدرجة الحقيقية التي نزل إليها الإنسان بالخطية. فالإنسان لم يَعُدْ حُرّاً أمام الله، أو حتى أمام الشيطان، و بالأكثر أمام الخطية. فقد استُعبد الإنسان فعلاً **تحت سلطان الخطيئة القاتل** وتحت سيادة الشيطان المستبد

(٤) «كان منظره كذا **مُفْسَداً أكثر من الرجل**، وصورته أكثر من بني آدم... لا صورة له ولا جمال فننظر إليه... محتقرٌ ومخذولٌ.» (إش٥٢: ١٤ و٥٣: ٢و٣)

المهلك، وهذا هو واقع طبيعة الإنسان التي نزل إليها المسيح. فالمسيح لمَّا تراءى أمام تلاميذه خُلواً من ثياب كرامة الإنسان، فهو كان على حقيقة ما نزل إليه وليس مجرد تراءٍ. ولم يكن مجرد «شكل العبد» بل وظيفته!! وهي هي الوظيفة التي سيرتفع فيها وبها إلى قمة المجد، إلى ما فوق شكل الإنسان وطبيعته، حيث نُستدعى نحن لكي نتغير عن «شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده» (في٣: ٢١)، أي من عبودية الخطية إلى حرية مجد أولاد الله.

ولا ننسى أننا على مائدة الفصح، والفصح الأول في القديم هو فصح مصر، فصح الخروج من عبودية فرعون، حيث كان كل من وقف حوله ليتناول منه كان عبداً. وكان من شأن هذا الفصح الأول، أو من أعمق أسراره، أنه أكْلَةُ التحرير، وطعام الفكاك والقوة، التي عبرت بهم أهوال الخروج وعبور البحر والبرية والتيه أربعين سنة، حتى أوصلتهم أرض الوعد والميعاد. ودمه، أي دم الخروف، بقدر ما كان كفَّارةً للعبيد وأماناً لهم وسلاماً، كان رعبة على المستعبِدين وهلاكاً للمستبِدين.

والمسيح هنا، أمام الفصح، يعود بالبشرية في نفسه ــ ممثِّلاً للبشرية كلها، إلى وضعها الحقيقي كعبيد مُستعبَدين، وليعود بذهن التلاميذ إلى حال آبائهم المُبَاعين عبيداً تحت السُّخرة. فإلى تحت الصفر، هكذا نزل المسيح، حتى لا يغيب عبد واحد عن التحرير وحرية الخلاص.

«وأخذ منشفة، واتَّزر بها»:

هذا طقس العبيد المتضمين، بحسب قول العلامة اليهودي المتنصر إدرزهيم، وتأتي كلمة «اتزر» باليونانية διέζωσεν، كما وردت في موضع آخر عن بطرس حينما كان عُرْياناً وعلم أنه الرب: «فقال ذلك التلميذ الذي كان يسوع يحبه لبطرس: هو الرب. فلما سمع سمعان بطرس أنه الرب، **اتَّزر بثوبه**، لأنه كان عرياناً وألقى نفسه في البحر.» (يو٢١: ٧)

وبذلك يظهر لنا أن كلمة «اتَّزر بالمنشفة» تفيد معنى رَبْط المنشفة حول الوسط، على أن يكون جزءٌ كبيرٌ منها حُرّاً للتنشيف به، وهذا هو السائد في طقس غسل الأرجل يوم خميس العهد في الكنيسة القبطية.

١٣: ٥　«ثم صبَّ ماءً في مِغْسَلٍ، وابتدأ يغسلُ أرجُلَ التلاميذِ ويَمْسَحُها بالمِنْشَفَةِ، التي كان مُتَّزِراً بها».

واضح أن الرب قام بعملية غسل الأرجل بكل جزئياتها، وكان ق. يوحنا دقيق الملاحظة

للغاية في تسجيل الحركات وكأنها حية ناطقة. فالرب هنا أمسك بالإبريق الذي به الماء، وصبَّ الماء في «المغسل»، الذي يجيء في الترجمة القبطية «لقان» ⲖⲀⲔⲀⲚⲎ، وابتدأ يغسل أرجل تلاميذه واحداً بعد واحد.

المنظر هنا يفوق قدرة أي إنسان أن يمسك بطرفيه، فهذا هو ابن الله الإله المنحدر من المجد الأسنى، من أعلى السموات، منحنياً على أرجل ملوثة عَلاَها الوسخ والتراب، منشغلاً في غسيلها. ولكن، أليس هذا هو بمقتضى الطبيعة التي نزل إليها: أخذ شكل العبد؟ ثم أليس هذا هو عمل المسيح وصميم رسالته، أن يستعلن ما هو عمل المحبة الإلهية في أقصى حدودها؟

هنا يستعلن المسيح حدود محبة الله وموضوع انشغالها ومسرتَّها. ماذا؟ غسل رِجْلي الإنسان! إلى هذا الحد بلغ المسيح في استجلاء «المنتهى»، ألم يَقُلْ أنه أحب خاصته الذين في العالم، أحبهم إلى «المنتهى»؟ نعم هذا «**منتهى اتضاع المحبة**»، وهل بعد ذلك يمكن أن يكون شيء؟ صعب على الإنسان أن يغسل إنساناً، وعسير غاية العسر أن يغسل رجلي خادمه، ومستحيل أن يغسل رجلي عبدٍ له. نعم، هذه هي طبيعة الإنسان، لا يستطيع أن ينزل دون ذاته، ولكن الله ليس كذلك!! اسمعه وهو يقول في سفر حزقيال النبي، مخاطباً أورشليم، أو بالحري الشعب الذي لوثته الخطية، والمزمع أن يَـلِدَ منه الكنيسة: «**فَحَمَّمْتُكِ بالماء، وغسلتُ عنكِ دماءَكِ**، ومسحتُكِ بالزيت.» (حز١٦: ٩)

وهكذا جاء المسيح ليتمم وعد الله. لهذا، فعمل المسيح يُحسب عمل الألوهة وفي صميم الفداء لميلاد الكنيسة.

١٣: ٦و٧ **«فجاء إلى سمعانَ بطرسَ، فقالَ لهُ ذاكَ: يا سَيِّدُ أنتَ تغسلُ رجليَّ؟ أجابَ يسوعُ وقال له: لستَ تعلمُ أنت الآنَ ما أنا أصنعُ، ولكنكَ ستَفْهَمُ فيمَا بَعْدُ».**

لا نعلم إن كان الرب قد غسل أرجل تلاميذه حسب ترتيبهم في الجلوس على المائدة، وإن كان ق يوحنا ذهبي الفم يرى أنه ابتدأ بيهوذا، الذي لم يمانع. أما القديس أغسطينوس فيرى أن الرب ابتدأ بالقديس بطرس الذي أبدى احتجاجه بانفعال واستنكار لأنه نظر إلى الإجراء وكأنه امتهان للسيد والمعلِّم أن يغسل رجلي تلميذ. ومن جهة أخرى لم يرَ في عمل المسيح سوى مجرد اغتسال، لذلك أحجم عن أن يمدّ رجليه.

وردُّ المسيح هنا هام للغاية، لأنه يكشف أبعاداً عميقة لمفهوم غسل الأرجل، ربما تكون تائهة حتى الآن: «لستَ تعلمُ أنت الآن ما أنا أصنع، ولكنك ستفهم فيما بعد»، وهو نفس ما حدث في تطهير الهيكل: «فلما قام من الأموات تذكَّر تلاميذه أنه قال هذا، فآمنوا بالكتاب، والكلام الذي قاله يسوع» (يو٢: ٢١). أي أن الأمر يتعدى مجرد غَسْلِ أرجلٍ بالنسبة للتلاميذ، أو مجرد اتضاع من جهة الرب، ولكن يتعدى إلى شيء؟؟ ما هو؟؟

١٣ : ٨ **«قالَ لهُ بطرسُ لن تَغْسِلَ رِجْلَيَّ أبداً. أجابه يسوعُ: إن كنتُ لا أغسِلُكَ، فليسَ لكَ معي نصيبٌ».**

إزدياد تصميم بطرس هنا على الرفض القاطع والأبدي قائم على جهل مُطْبَق بأهداف المسيح العامة، وعدم فهم المعيار السرِّي لغسل الأرجل بصورة خاصة، مما جعل المسيح يبوح قليلاً بالسرِّ، موضِّحاً مدى الخطورة في التسرُّع برفض غسل رجليه، **فهو يعني الحرمان من نصيبه مع الرب!!**

وهنا يبدأ مفهوم غسل الأرجل يتجلى نوعاً ما. فهو، من جهة بطرس، ليس عملَ غسيلٍ وحسب، بل هو عمل تأهيلي لنوال نصيب مع الرب؛ أما من جهة المسيح، فهو مهمة سماوية تتعلق بصميم خدمة الخلاص العام، كاختصاص هو مكلَّف من الآب بأدائه.

ولكن يتعذَّر على بطرس الآن فهم كُنْه فاعليته، طالما المسيح واقف أمامه يخدم كعبد، وبطرس لم يأخذ بعد قوة من الأعالي لبدء إرساليته وفهم رسالته، ولكن بعد ما قام المسيح من الأموات واستعلن لاهوته ونفخ المسيح في وجههم الروح القدس قائلاً: «كما أرسلني الآب أُرسلكم أنا» (يو٢٠: ٢١)، وكلفهم بخدمة البشارة، أدرك **بطرس**، وبطرس بالذات، مع التلاميذ أنهم نالوا بغسل أرجلهم تقديساً مُسْبَقاً بيد الرب الإله إعداداً وتجهيزاً لبشارة الإنجيل.

إسمع بولس الرسول وهو يعبِّر عن ذلك: **«حاذين أرجلكم باستعداد إنجيل السلام»** (أف٦: ١٥)، أي لابسين في أرجلكم قوة ونعمة استعداد البشارة بإنجيل السلام.

هنا تظهر الصلة الجوهرية بين الإفخارستيا (العشاء السري) وبين غسل أرجل التلاميذ بيد المسيح. وهذا يبدو واضحاً وأكيداً من قول القديس بولس (١كو١١: ٢٦) الذي أدخلته الكنيسة في صميم ليتورجيتها في الإفخارستيا: «لأن **كل مرة** تأكلون من هذا الخبز وتشربون من هذه الكأس **تبشرون** بموتي وتعترفون بقيامتي وتذكرونني إلى أن أجيء» (القداس الباسيلي).

فالتقديس الذي ناله التلاميذ بيد المسيح في غسل الأرجل، هو لحفظ أرجلهم في طريق السلام للبشارة. فالإنجيل صار نصيب الكنيسة كلها للبشارة الدائمة، تجدده وتقويه، وتدفعه قوة التناول من الجسد والدم المتواترة والمتجددة: «كل مرة».

والذي أخذه المسيح من يد الله والملائكة، سلّمه بيده وبالروح القدس: «لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك لكي يحفظوك. وأنهم على أياديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك.» (لو٤: ١٠و١١)

ومعروف في أدب الإنجيل الكرازي أن الله هو الذي يتولى هداية أقدام المبشرين بالإنجيل: «ليضيء على الجالسين في الظلمة وظلال الموت، **لكي يَهْدِي أقدامنا في طريق السلام**» (لو١: ٧٩). وهكذا تبدو أقدام المبشرين وكأنها ذات امتياز وكرامة وقداسة وبركة، وهي تحتاج فعلاً إلى تقديس خاص: «وكيف يكرزون إن لم يُرسَلُوا، كما هو مكتوب: **ما أجمل أقدام المبشِّرين بالسلام المبشِّرين بالخيرات.**» (رو١٠: ١٥)
والآن واضح معنى قول الرب لبطرس: «إن كنتُ لا أغسلك فليس لك معي نصيب». فما هو النصيب؟

النصيب هنا μέρος الذي يعني جزءاً من الشركة الخاصة، فهي لا تعني ميراث التبنِّي العام لله الآب الذي هو بغسيل المعمودية ومسح الدم، ولكن نصيباً شخصياً مع المسيح، وهي تنطبق على قول الرب انطباقاً أكيداً: «لأن مَنْ هو أكبر، ألذي يتكيء أم الذي يخدم؟ أليس الذي يتكيء؟ ولكنني أنا بينكم كالذي يخدم (غسل الأرجل). أنتم الذين ثبتوا معي في تجاربي. **وأنا أجعل لكم**، كما جعل لي أبي ملكوتاً، **لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي، وتجلسوا على كراسي تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر.**» (لو٢٢: ٢٧ـ٣٠)

أي أن تقديس أرجل التلاميذ لاستعداد التبشير بإنجيل السلام، سيعطيهم حقَّ نوال أنصبة في الدهر الآتي الخاصة جداً مع المسيح، وشركة في دينونة الكنيسة بصورتها القديمة والجديدة، والمعبَّر عنها بالأسباط الاثني عشر.

١٣ : ٩ــ١١ **«قالَ له سمعانُ بطرسُ: يا سَيِّدُ ليسَ رجليَّ فقط، بل أيضاً يَدَيَّ ورأسي. قالَ له يسوعُ. الذي قد اغتسَلَ ليسَ له حاجةٌ إلاَّ إلى غسلِ رجلَيْهِ(*)، بل هو طاهرٌ كلُّهُ. وأنتُمْ طاهِرُونَ، ولكن ليسَ كُلُّكُم. لأنه عَرَفَ مُسلِّمَهُ، لذلك قالَ: لَسْتُم كلُّكم طاهِرِينَ».**

هنا وَضَح أن غسل الأرجل لا يمتُّ إلى المعمودية. وماذا يحتاجه الطاهر بعد أن يتقدس بالمعمودية ومسحة الروح القدس معها؟ إلاَّ إلى التقديس الخاص للخدمة الخاصة، أي البشارة.

هنا إلى الآن لم يَلمح بطرس بعد ما هو القصد من غسل رجليه؟ إذ اعتبره امتيازاً بلا ثمن، ربما يزداد لو ازداد جسمه غسيلاً، يداه ورأسه.

هذه هي عقلية اليهود التطهيرية، ولكن، وبعد أن أدركنا معنى غسل الرجلين كإعداد وتقديس لخدمة البشارة الرسولية الباهظة الثمن، والتي أورثتهم فيما بعد السجون والمقاصل وقبور الشهداء، نستطيع الآن أن نفهم قول المسيح تماماً أنهم كانوا أطهاراً بحميم المعمودية والروح، ولم يكن يُعْوِزهم إلا تقديس الأرجل فقط، لإزالة وسخ طُرُق العالم، بغسيل النعمة على يدي المسيح، لينالوا تقديساً خاصاً للسير في طريق الخلاص الأبدي.

ولكن كيف تُطهِّر المعمودية من أضْمَرَ بَيْع الرب؟ أو كيف تتقدس أقدام مَنْ سَعَى في طريق الباطل والخيانة لتسليم المسيح للموت؟ «هوذا الذي يسلِّمني قد اقترب» (مر١٤: ٤٢). لذلك قال: «لستم كلكم طاهرين»!

لقد اعتمد يهوذا كالتلاميذ ولم يتطهر، وغسل المسيح رجليه ولكنها لم تتقدس! لذلك حُرم يهوذا من خدمة التبشير، بل حُرم من نصيبه مع المسيح جملة وتفصيلاً، بل حُرم من الحياة نفسها. فالطقس لا يغيِّر القلوب، ولكن يختم على ما فيها من كنوز.

(*) للأسف الشديد حاول كثير من أئمة الشرّاح أن يحذفوا هذه الجملة: «إلا إلى غَسْل رجليه»، حتى يتخلصوا من عقدة فَهْم «غسل الأرجل» بجملته، لأنهم يَرَوْن الموضوع كله إشارة إلى المعمودية وحسب. ولكن بعد أن يطلع القارىء على شرح مضمون هذا السر، يرى مقدار التشويه والخسارة التي تلحق بالإنجيل والكنيسة كلها من حذف هذه الجملة. كذلك قد انتحى شُرّاح إنجيل يوحنا في فهم سر غسل الأرجل مناحي متعددة، كلها خارج المعنى الصحيح والوحيد.

فهي لا تمتُّ إلى المعمودية بصلة، ولكنها إجراء تقديسي إضافي بعد المعمودية، وبعد التطهير في المعمودية، وبعد الإفخارستيا أيضاً. وهذا واضح غاية الوضوح من قول المسيح أن الذي اغتسل (اعتمد) ليس له حاجة إلا إلى غَسْل رجليه، أي طقس التقديس للبشارة وقوتها.

أي أن غسل الأرجل عمل أساسي زيادة على المعمودية.

ولكي يتأكد القارىء من اتجاه المسيح السري في غسل أرجل تلاميذه، من جهة إعدادهم للإرسالية لخدمة الإنجيل، أكَّد المسيح مرتين على موضوع إرساليتهم وهو يشرح لهم معنى غسل أرجلهم: «الحق الحق أقول لكم: إنه ليس عبد أعظم من سيده، **ولا رسول أعظم من مُرْسِله**» (يو١٣: ١٦)؛ «الحق الحق أقول لكم الذي يقبل **مَنْ أُرسله**، يقبلني؛ والذي يقبلُني، يَقْبل الذي **أرسلني**.» (يو١٣: ٢٠)

١٣: ١٢ــ١٥ **«فلما كان قد غَسَلَ أرجُلَهم، وأخذ ثِيَابَهُ، واتَّكأ أيضاً، قالَ لهم: أتفهمُونَ ما قد صَنَعْتُ بكم؟ أنتم تدعُونَني مُعَلِّماً وسَيِّداً، وحَسَناً تقُولُونَ، لأني أنا كَذلِكَ. فإنْ كنتُ وأنا السيِّدُ والمُعَلِّمُ قد غَسَلْتُ أرجُلَكم، فأنتم يجبُ عليكُم أن يَغْسِلَ بعضُكُم أرجُلَ بعضٍ. لأني أعطيتُكم مِثالاً، حتى كما صَنَعْتُ أنا بِكُم، تَصْنَعُونَ أنتم أيضاً».**

اتجاه المسيح التعليمي فيما يخص غسل الأرجل دقيق للغاية، ويحتاج إلى حصر الفهم لإدراك المقاصد العميقة والبعيدة منه. فالأمر جدّ خطير بالنسبة للكنيسة بل الكنائس(٦).

واضح من كل ما سبق أن فسّرناه وشرحناه، أن غَسْلَ الأرجل هو إجراء خاص: **«أنا السيِّدُ والمعلِّم قد غسلتُ أرجلكم»**، اختُصَّ به، ليس جميع التلاميذ، بل الاثنا عشر فقط (وكلُّ سيِّد ومُعلِّم)، حيث سقط منهم يهوذا ليحل محله آخر، ربما بولس الرسول. لأن عددهم قد تسجل في سجلات السماء وأسماؤهم كُتبت فوق كراسيهم الاثني عشر، وأنه ليس هو اغتسال المعمودية العام لكل المؤمنين، بل هو اغتسالٌ لأرجل التلاميذ الاثني عشر، كطقس تقديس وإعداد للإرسالية.

على هذا الأساس نرى المسيح يعطي الموجبات الحتمية: **«يجب عليكم»**، الخاصة بطقس غسل الأرجل، لكي يكون قِوَام الإرسالية وقوتها من منطلق الاتضاع والمحبة وخدمة الأكبر (السيِّد والمُعلِّم) للأصغر. فالاثنا عشر نالوا التقديس الخاص بالإرسالية بغسل الأرجل **بالتساوي**، ولما أراد القديس بطرس، بمعنى التواضع، أن يحتج إنما من منطلق الشعور بالولاية أو التحدث باسم بقية

(٦) أكثر مَنْ أدرك على مدى تاريخ الكنيسة الطويل أهمية غسل الأرجل كإعداد للخدام والمرسلين هو القديس أثناسيوس الرسولي، إذ رتَّب أن تُقام ثلاث مرات في السنة أغابي خاصة بين الأسقف وكهنته، على أن يقوم الأسقف بنفسه بغسل أرجلهم. (راجع كتاب: «الإفخارستيا والقداس»، للمؤلف، ص٣٣٢ــ٣٣٤).

التلاميذ بصفته الأول أو الأكبر، زجره المسيح محذّراً إياه بشدة بالحرمان من نصيب التلاميذ، فانصاع كالبقية.

ثم بدأ المسيح يشرح هذا الطقس الخطير، طقس غسل الأرجل، أو طقس الإرسالية والبشارة والخدمة بمضمونه السري، بأنه يقوم أساساً على المحبة، التي هي الأساس الأول الذي عليه اجتمع شملهم في هذا العشاء: «إذ كان قد أحبَّ خاصته الذين في العالم، أحبَّهم إلى المنتهى... حين كان العشاء» (١٣: ١و٢). ومن عمق أعماق المحبة المذبوحة على العشاء، قام المسيح، وهو لم يستكمل العشاء، ليكرّس التلاميذ للإرسالية العظمى التي عيَّنها لهم من قبل الدهور، في طقس تواضُعي مهيب، إذ جلس كخادم بل كعبد في موطىء أقدام تلاميذه لغسل أرجلهم واحداً فواحداً، ولم يذكر الإنجيل أنه قدَّسهم بحسب الترتيب، لأن هذا يتنافى قطعاً مع روح هذا الطقس بجملته؛ وهذا لكي يرفع طقس خدمة الكرازة إلى أقصى حدود التواضع التي يمكن أن يتصورها إنسان، حتى لا يعود في محيط البشارة كلها كبيرٌ أو صغيرٌ، ولا عظيمٌ أو حقير. وقد أعطى نفسه مثالاً، فهو السيِّد والمعلم، وقد انحنى على أرجلهم يغسلها و يُنشِّفها بأمانة خدمة العبيد، لكي يرتدع الكبير فيما بعد و ينحني للصغير حتى إلى غسل الأرجل أو تقبيلها!... لأن العامل في خدمة الكبير هو العامل في خدمة الصغير، وهو الروح القدس والمسيح نفسه، لأنه قال «أنا هو الطريق» (١٤: ٦)، فطريق البشارة هو الذي يحملنا ولسنا نحن الذين نحمل همَّ الطريق.

١٣: ١٦و١٧ «الحقَّ الحقَّ أقولُ لكم: إنه ليس عبدٌ أعظمَ من سَيِّدِهِ ولا رسولٌ أعظمَ من مُرْسِلِه. إن عَلِمْتُم هذا، فطُوبَاكم إن عَمِلْتُمُوهُ».

هنا يضع المسيح نفسه كمثال للسيد الذي اتضع لعبيده المُرْسَلين، فأصبح من غير المعقول روحياً وإلهياً أن يتعظَّم العبدُ (المرسَلُ) بأي حال من الأحوال على عبدٍ (مُرسَل) آخر، لأن المسيح وهو السيد لم يتعظَّم على عبيده المزمع أن يُرسلهم، بل عَكَس الأمر عكساً شديداً، إذ صار السيد، وهو الراسل، عبداً؛ والعبد، وهو المُرسَل، سيداً! هذا هو روح الإنجيل والبشارة، بل هذا هو روح الله.

ثم عاد المسيح ليطبق مرة أخرى مَثَل السيد والعبد على الراسل والمُرْسَل، كمَنْ يضع النقط على الحروف لينطق «**سر غسل الأرجل**» نطقاً مُبيناً أنه طقس الرسل والمُرْسَلين. فقال إنه ليس رسول أعظم من مُرْسِلِه. والمُرسِل هنا هو المسيح دائماً وإلى الأبد، والرسول هو التلميذ، والكارز،

والأسقف، والبطريرك. فلا يتعظمَّ رسول لأنه على كل حال وعلى أي حال هو عَبْدٌ، والذي أرسله هو المسيح، وهو الذي يرسل كل رسول آخر. فلا يتعظَّم رسول على رسول، وإلَّا يكون قد تعظَّم على المسيح الذي أرسله، وتعالى على الرسالة ذاتها.

ثم أرجأ «**العِلْمَ والعمل**» بهذا: «إن عَلِمْتُم هذا، فطوباكم إن عملتموه»، إلى أن يحين زمان الإرسالية والملء من الروح القدس، حينما يستعلنون بالروح (يَعْلَمون) ما جرى لهم في هذا السر، حيث يكون عليهم حينئذ أن «يعملوه»، أي يرسلوا بعضهم بعضاً بروح هذا الإتضاع عينه. وحينئذ تحل عليهم «الطوبى» μακάριοι، أي يصيروا مكاريين أي طوباويين.

والحقيقة أن «**غسل الأرجل**» في الكنيسة أُخذ بمفهوم التواضع وحسب، وحوصر في إجراء الطقس شكلياً، وقد اهتمت الكنيسة القبطية في كل عصورها إلى ما قبل عصرنا هذا، بهذا الطقس بالنسبة للكاهن، فكان يتحتم عليه بمقتضى طقس «تحفِّي (تعرِّي) القدمين أثناء الخدمة» أن يغسل، أي **يَرْحَضَ قدميه** قبل الدخول إلى الهيكل لإجراء طقس سر الإفخارستيا بنوع من الإلزام، وكذلك قبل قراءة الإنجيل. وقد رأيت بعينيَّ في بكور رهبانيتي (عام ١٩٤٨) المِرْحَضة بجوار كل هيكل، والمخصصة لغَسْل قدمي الكاهن.

فيما عدا ذلك ثُبِّت طقس غسل الأرجل في يوم خميس العهد قبل القداس (قبل تقديم الحمل)، كما أيضاً في عيد الرسل قبل القداس. وهذا دليل على إدراك الكنيسة القبطية للعلاقة الصميمية بين غسل الأرجل وإرسالية المُرْسَلين.

١٣: ١٨ «لستُ أقولُ عن جميعِكُم، أنا أعلَمُ الذينَ اخترتُهُم. لكن ليتمَّ الكتابُ: الذي يأكُلُ معي الخُبزَ، رَفَعَ عليَّ عَقِبَهُ».

أسرع الرب ورفع وعده ووصيته عن رأس يهوذا، ثم حدَّد إرساليته بالمختارين فقط الذين سبق وأعلن عن عددهم مستثنياً منهم مَنْ تقمَّصه الشيطان واستولى على شخصيته واسمه: «أليس إني أنا اخترتكم الاثني عشر، وواحد منكم **شيطان**. قال عن يهوذا سمعان الإسخريوطي، لأن هذا كان مُزْمِعاً أن يسلِّمه، وهو واحدٌ من الاثني عشر.» (يو٦: ٧٠و٧١)

أما عن السؤال: كيف اختار الرب يهوذا بين الاثني عشر وقد ظهر أنه «شيطان»؟ فللرد على ذلك نقول: إن اختيار الرب هو اختيار الله **لا يقوم قط على سَبْقِ العلم**، وإلَّا ينعدم مفهوم الحرية والإرادة عند الإنسان، كما ينعدم مفهوم الجزاء والاجتهاد.

ولكن الاختيار لدى المسيح كان يقوم على اللياقة الفردية للعمل المطلوب أداؤه، بهذا تتوطد أسس العدل الإلهي؛ ثم يُترَكُ لكل فرد أن يسلك بمقدار مقوِّماته الشخصية، من مواريث، واجتهاد في التعلم وإرادة، واختيار، وحرية، و بالأكثر جداً **مقدار الإلتصاق بالرب وطاعة وصاياه، التي** تأتي كإكليل على رأس كل المقومات؛ على أن كل نقص في المقومات الشخصية للفرد، يمكن أن يعوِّضه الله بآلاف الأضعاف إن هو كان أميناً ومُحباً وخائفاً من اسمه القدوس: «لأن قوتي في الضعف تُكمَلُ.» (٢كو١٢: ٩)

واضح، إذاً، أن يهوذا بدأ لائقاً كتلميذ، وربما كان أكبرهم سناً وأكثرهم خبرة بأمور الحياة وشئون المال ورجال الدين. فَجَرَفَه تيار المال وحب الفضة والتودد للرؤساء، حتى أوقعه في خطايا السرقة، ونقل الأخبار للرؤساء، وحب الرئاسة، وأخيراً سقط في يد الشيطان فابتلعه.

«الذي يأكل معي الخبز رفع عليَّ عقبه»:

هذا جزء من المزمور ٤١ من النسخة العبرية، أما بقية الكلام فيكشف عن فكر الرب الذي سيستطرد فيه: «أيضاً رجُل سلامتي، الذي وثقت به، آكل خبزي، رفع عليَّ عَقِبَه. أما أنت، يا رب، فارحمني، **وأقمني** (ارفعني Raise me up)» (مز٤١: ٩و١٠). وعلى ضوء المزمور، يستطرد الرب و يقول:

١٣: ١٩ **«أقولُ لكم الآن قَبلَ أن يكونَ** ــ تسليم يهوذا والصليب ــ **حتى متى كانَ** ــ القيامة ــ **تؤمِنُونَ أني أنا هو».**

الرب هنا يشير إلى قيامته التي ستكون، وحينئذ سيفهم تلاميذه، فعلاً، أن خيانة يهوذا العنيفة التي بلا رحمة ولا لياقة («رفع عليَّ عَقِبَه» = رَفَسَني)، تمت كما قالها الله على لسان دواد عن المسيح، فتبين لهم أن الرب هو حقاً «أنا هو» ἐγώ εἰμι .

ثم قول المسيح هذا: «أقول لكم الآن قبل أن يكون، حتى متى كان، تؤمنون أني أنا هو»، نجده مطابقاً لقول الله على لسان حزقيال النبي: «إذا جاء هذا تعلمون أني أنا السيد (يهوه) الرب.» (حز٢٤: ٢٤)

وكذلك ما جاء في إشعياء النبي: «أنتم شهودي، يقول الرب، وعبدي الذي اخترتُه لكي تعرفوا وتؤمنوا بي وتفهموا أني **أنا هو** ἐγώ εἰμι . قبلي لم يُصوَّر إله و بعدي لا يكون، أنا أنا الرب

وليس غيري مخلّص» (إش٤٣ : ١٠و١١). هكذا نجد الحوادث بكل ملابساتها تتوقع بدقة وبكلماتها بحسب ما سبق الروح وتنبأ.

١٣ : ٢٠ «الحقّ الحقّ أقولُ لكم الذي يَقبَلُ مَنْ أُرسِلُهُ، يَقبَلُني، والذي يَقبَلُني، يَقبَلُ الذي أرسَلَني».

قد بدا هذا الكلام، عند غالبية شرّاح الكتاب، غريباً وغير متوافق مع تسلسل الكلام، حتى قال معظمهم بأن هذه الآية دخيلة، وهذا بسبب انحراف تفكيرهم عن المعنى الحقيقي **«لغسل الأرجل»**. ولكن بعد ما أوضحنا أن هذا الطقس هو روحي وسرّي، وهو خاص جداً بالإرسالية للتبشير بالإنجيل، يُصبح المعنى والموقع لهذه الآية غاية في الإحكام. فهي تأتي في ختام التوجيهات الخاصة بالمُرْسَلِيْن أو الرسل، وهي هنا تخص المُرْسَلَ إليهم، فكل جماعة أو مدينة أو شعب يقبل رسول البشارة، أي العامل بإنجيل الكلمة، فكأنه قَبِلَ المسيح نفسه. وبالتالي فإن كلَّ مَنْ قَبِلَ المسيح المبشَّر به على لسان الرسل، يكون قد قَبِلَ الله الآب نفسه. وإن كان يبدو هذا الكلام خاصاً بالشعوب والأمم، ولكنه في الحقيقة تشجيع، أيّما تشجيع، للتلاميذ الذين سيخرجون بالبشارة، لأنه يعطيهم حقّ التكلم باسم المسيح وقوته بكل جرأة، كما يعطيهم الشعور بالسلام وسط ضيقات الكرازة، وكأنما يعيشون تحت سَمْعِهِ وبَصَرِه.

وكأنما لم يكن على التلاميذ حينما تتعب أرجلهم من المشي، وتتسلخ أقدامهم من وعورة طرق البشارة، إلاَّ أن يفكّروا في يدي الرب اللتين غسّلتا أرجلهم، ويتحسسون أصابع المسيح التي مرّت فوق أقدامهم، حتى يجددوا قوة لمزيد من السير ومزيد من الكرازة.

١٣ : ٢١ «لما قالَ يسوعُ هذا، اضطرَبَ بالروح، وشَهِدَ وقالَ: الحقّ الحقّ أقولُ لكم، إنَّ واحِداً مِنكُم سَيُسَلِّمُني».

المسيح هنا ناظر ما لا يُنظر، والروح ترى بالروح ما وراء الحجب والضمائر ما لا يمكن لقلم بشر أن يعبّر عنه، يكفي أن يكون انفعال يوحنا قد بلغ هذا الإحساس، فاضطراب مَنْ يقبض على أعِنَّة مقادير كل شيء «الآب دفع كلَّ شيء في يديه»، أمر يوضّح عمق المأساة التي سيتحمَّلها وحده. كان عزيزاً على نفسه جداً، أنَّ واحداً ممَّن أحبهم إلى المنتهى، يجازيه هكذا عوض حلاوة الحب عَلْقَمَ العداوة.

اضطراب المسيح بالروح هو ما طفا على السطح من مصارعة النور مع الظلمة، كيف لا ترتعب لها السماء؟ فما بالك بالطبيعة البشرية التي تعاين معركة الله مع الشيطان ومركزها جسد ابن الإنسان؟

الباطل رفع قرنه على «الحق»، واستغل الجسد ليسدد فيه الطعنات، فكيف لا يهتز؟

لما انبرى الشيطان ظاهراً للمسيح على جبل التجربة صرعه المسيح، وطوّح به خلفه؛ ولكن ماذا والشيطان الآن مُتَخَفٍّ في تلميذ، بل في ذئب، يلبس رداء المحبة و ينتحل صفة السفير لدى أصحاب الهيكل؟

كلمات المحبة كانت تتساقط من فم الرب، والنفس تتلقى ضربات الغدر، كيف لا يتداعى لها الجسد؟

يد المسيح امتدت بلقمة البركة، و يد يهوذا تتحسس موضع الطعنة، كيف لا تَجْفَلُ الروح؟

قوى الموت وأدواته تُطْبِقُ على الحياة، محصورة في جسد تحاصرها من الداخل والخارج، ورائحة الدم تهبُّ من بعيد، فتفتح شهية الشيطان ليضرب مخالبه، فتترنح النفس، كعصفور وَاجِفٍ في قبضة صَقْرٍ.

تهلل الشيطان لما اضطرب المسيح بالروح، ولكن أُخفي عنه أن المسيح إنما يسير بقدميه نحو الصليب: «ولي صبغة أصطبغها، وكيف أنحصر حتى تكمل؟» (لو١٢: ٥٠). كانت ضربات الشيطان بيد يهوذا أعظم مأساة واجهتها البشرية تحت نور الشمس، قابلتها ضربة المسيح على الصليب لقوات الظلمة، كأعظم نعمة انسكبت على بني الإنسان.

١٣: ٢٢ «فكان التلاميذُ يَنْظُرُونَ بعضُهُم إلى بَعْضٍ، وهم مُحْتَارُونَ في مَنْ قالَ عنه».

لم تكن هذه هي المرة الأُولى التي يشير فيها المسيح إلى التلميذ الذي سيسلّمه، ولكن هذه المرة كان إعلان المسيح يصاحبه صوتٌ متهدِّجٌ حزين مهيب، عبَّر عنه ق. يوحنا بالكلمة اليونانية ἐταράχθη τῷ πνεύματι وهي تفيد اضطراب الحزن العميق، وقد أضاف إليها ق. يوحنا أي «بالروح» ليوضح حفظ الاتزان للجسد والعقل.

ولكن أتى تصريح المسيح كالصاعقة المباغتة على نفوس التلاميذ، فلم يستطع الإنجيليون الثلاثة أن يعطوا صورة واقعية ملموسة لهذا المشهد الحزين، مثل ق. يوحنا. ربما لأنه كان يشعر

بنفس شعور المسيح وكان ملتصقاً بحضنه، إذ يقول إن التلاميذ أخذتهم الحيرة وهم ينظرون بعضهم لبعض، فالأمر جدّ خطير، فهوذا ذئب داخل الحظيرة!... لقد عمَّ الجميعَ الصمتُ والغمُّ والهمُّ، إلاَّ واحداً.

١٣ : ٢٣و٢٤ **«وكان متَّكِئاً في حِضْنِ يَسُوعَ، واحِدٌ من تلاميذِهِ كان يسوعُ يُحِبُّه. فأوْمأ إليه سِمْعانُ بطرسُ أن يَسأَلَ مَنْ عَسَى أن يكون الذي قال عنه».**

من حركة بطرس يتبين لنا ترتيب التلاميذ. فكان المتَّبع في جلوس الأسرة أن الابن الأكبر يجلس عن يمين رب البيت، ثم بالتدريج يجلس باقي الأسرة حتى تنتهي بالصغير ليجلس في حضن رب البيت على شماله، أقرب مكان إلى قلبه. وبطرس لأنه لم يكن بجوار المسيح، إذ جلس بحسب ترتيب الكبر في السن بعد يهوذا، اضطر أن يتحاشى الكلام المسموع في مخاطبته ليوحنا، فأومأ إليه، أي أعطاه إشارة بالعين وهزّ الرأس، مما يفيد أن يهوذا هو الذي كان على يمين الرب مباشرة بصفته الأكبر سناً، ويليه بطرس. وهذا يفيد سبب لماذا حدث شِجَارٌ بين التلاميذ مَنْ منهم أكبر (لو٢٢ : ٢٤) لكي يجلس عن يمين الرب، وغالباً كان الشجار بين بطرس ويهوذا. فبطرس يشعر بالقيادة والأولوية، ولكن يهوذا كان يعتمد على سِنّه وحيازته للصندوق، وبلغة العصر، أنه سكرتير الجماعة.

١٣ : ٢٥و٢٦ **«فاتَّكأ ذاك على صَدْرِ يسوعَ، وقال له: يا سَيِّدُ مَنْ هو؟ أجاب يسوعُ: هو ذاك الذي أغْمِسُ أنا اللُّقْمَةَ وأُعْطِيهِ. فغَمَسَ اللُّقمة وأعطاها لِيَهُوذا سِمْعَانَ الإسخريوطي».**

كان من السهل على ق. يوحنا أن يقترب من صدر المسيح ويُسرُّ إليه بسؤاله. والمسيح أيضاً أعطاه إشارة كيف يعرف مُسلِّمه، ثم أليس هذا عجباً أن يتحاشى المسيح حتى إلى هذه اللحظة أن يجرح إحساسات يهوذا؟ ثم ألا ترى معي، يا قارئي العزيز، أن رقَّة المسيح كانت فائقة الوصف؟

«فغمس اللقمة وأعطاها ليهوذا»:

عجبي أيضاً أن يكون هذا هو الأسلوب الذي ارتآه ديَّانُ الأحياء والأموات في التعريف بالخاطيء، بل بالخائن، بل بالقاتل؛ فتغميس لقمة (أو قطعة لحم) في صحن به مزيج من عصير الفواكه الممزوجة بالنبيذ (أو الخل عند الفقراء) هو تقليد فصحي كان **يكرِّم به رب البيت دائماً**

الابن الأكبر!

فانظروا، يا إخوة، كيف يحوّل المسيح صيغة الإتهام من منطوق كلمات جارحة إلى حركة احترام وتضييف ومودة!

أما عن مزيج الخلّ والفواكه والتغميس فيه تحية بالمكرَّمين فنقرأ عنه في سفر راعوث: «فقالت (راعوث لبوعز): ليتني أجد نعمة في عينيك، يا سيدي، لأنك قد عزَّيتني، وطيَّبت قلب جاريتك، وأنا لست كواحدة من جواريك. فقال لها بوعز عند وقت الأكل تقدمي إلى ههنا **وكُلِي من الخبز، واغمسي لقمتكِ في الخلّ.**» (راعوث ٢:١٣و١٤)

١٣:٢٧ــ٢٩ **«فبَعْدَ اللُّقمةِ دَخَلَه الشيطانُ. فقالَ له يسوعُ: ما أنت تعملُهُ فاعمَلْه بأكثرِ سرعةٍ. وأما هذا، فلم يفهمْ أحدٌ من المتكئينَ لماذا كلَّمه به. لأن قوماً إذ كانَ الصندوقُ مع يهوذا ظنُّوا أن يسوعَ قالَ له اشترِ ما نحتاجُ إليه للعيدِ. أو أن يُعطِيَ شيئاً للفقراءِ».**

«فبعد اللقمة دخله الشيطان»:

المعنى هنا عميق وكثيف، والأفكار فيه مزدحمة. ولكي ندرك ما تعنيه، علينا أن نعود إلى الآية التي استعارها المسيح من سفر المزامير بلغة المسيح الخاصة: «الذي يأكل معي الخبز رفع عليَّ عَقِبَه». وفي النسخة السبعينية تأتي هكذا: **«آكِلُ خبزي رفع عليَّ عَقِبَه».**

المسيح شكَّل الآية، لتحمل معنى خبز الإفخارستيا وأثناء أكل خبز الإفخارستيا. **فهو** كأنه يصف حالة يهوذا وهو يتناول مع الرب ومن يده أثناء سر الشركة. وهكذا يتضح لنا أن يهوذا تجرّأ وتناول من الخبز السري، ومن يد الرب يسوع نفسه، بدون استحقاق، بل و بنيّة الخيانة والغدر.

ـــ «إذاً أيُّ مَنْ أكَلَ هذا الخبز، أو شرب كأس الرب **بدون استحقاق**، يكون **مجرماً في جسد الرب ودمه.**» (١كو١١:٢٧)

والنتيجة الحتمية يعرِّفها بولس الرسول:

ـــ «**فكم عقاباً أشرَّ تظنون أنه يُحسَبُ مستحقاً، مَنْ داس ابن الله**، وحَسِبَ دم العهد الذي قُدِّس به دنساً، **وازدرى بروح النعمة.** فإننا نعرف الذي قال: لي **الإنتقام، أنا أجازي، يقول الرب.** وأيضاً، الرب يدينُ شعبه. **مخيفٌ هو الوقوع في يدي الله الحي.**» (عب١٠: ٢٩ــ٣١)

وهكذا تمت في يهوذا النبوة المذكورة عنه بالذات: «بدل محبتي يخاصمونني، أما أنا فصلاة. وضعوا عليَّ شراً بَدَلَ خير، وبُغْضاً بَدَلَ حبي. فأقِمْ أنت عليه شريراً، **وليقف شيطانٌ عن يمينه.**» (مز109: 4—6)

وليس مستغرباً على العين المفتوحة التي للقديس يوحنا الذي طالما قرأ ما في قلب الرب وفَهِمَ ما في فكره، أن يرى الشيطان وهو يقتحم نفس يهوذا وعقله، و يتملك أسارير وجهه وحركاته!

«فقال له يسوع: ما أنت تعمله فاعْمَلَه بأكثر سرعة»:

ظاهر الكلام لطيف وطيِّب، وفيه الثقة ممتدة، هكذا ظن التلاميذ، وحتى ق. يوحنا لم يعرف ما وراء هذا الكلام الطيب: «فلم يفهم أحد من المتكئين لماذا كلَّمه به». ولكن يبدو أن يهوذا بدأ يشعر بالقلق، وأحس أن الوجوه بدأت كلها تصوِّب نظراتها نحوه، ولم يستطع التلاميذ أن يضبطوا مشاعر الاستنكار، أما يهوذا فلما ضَاقَ به الأمر، وجَّه إيماءة نحو الرب رغبة في الخروج، فعاجله الرب بالموافقة السريعة مع جملة مؤدبة رقيقة لتغطية موقفه المفضوح، ولكنها كانت تحمل إليه رسالةِ مَنْ هو عارف بكل حركاته، وإنما بأسلوب مَنْ يستهين بكل مخططاته.

موافقة الرب على خروج يهوذا ليصنع ما يريد، هي موافقة على الصليب، وكأنما المسيح لا يريد أن تبدأ المأساة بدون موافقة، فهو وحده الذي له السلطان أن «يضعها»، أي تسليم نفسه للموت.

وبهذا أكَّد الرب أن الحوادث لا تُفرضُ عليه، فهو فوق أنه «**كان عالماً بكل شيء**»، كان يرتفع أيضاً فوق كل شيء، فوق مخططات الشرير، بإرادته، فيطأها بقدميه. فهو لم يكن يُساق في عربة الشيطان كفريسة مكبَّلة، ولكنه كان يسبقها برؤيته و يتبعها بإرادته: «مَنْ تطلبون؟ أجابوه: يسوع الناصري. قال لهم يسوع: أنا هو. وكان يهوذا مُسَلِّمه أيضاً واقفاً معهم.» (يو18: 4و5)

«... إذ كان الصندوق مع يهوذا، ظنوا أن يسوع قال له اشترِ ما نحتاج إليه للعيد»:

هذه الآية في إنجيل يوحنا توضح، عَرَضاً، أن هذا **العشاء السري** الذي أسَّس فيه الرب سر الإفخارستيا ليس هو **عشاء الفصح**، بل يسبقه بأربع وعشرين ساعة، لأنه لو كان هذا عشاء الفصح، لاستحال القول بشراء حاجة العيد، علماً بأنه بالرغم من أن عشاء الخميس الذي أسس فيه المسيح سر الإفخارستيا لم يكن هو عشاء الفصح، إلا أن المسيح أعطاه كل صفات ومميزات الفصح. غير أن بعض الشُّرَّاح المقتدرين لا يأخذون بهذا الاعتراض.

١٣ : ٣٠ «فذاكَ لمَّا أخَذَ اللُّقْمَةَ، خَرَجَ للوقتِ، وكان لَيْلاً».

واحدٌ في حضن يسوع، والآخر في الظلمة الخارجية؛ ق. يوحنا في حضن يسوع كالابن في حضن الآب: «أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مُكمَّلين إلى واحد... كما أننا نحن واحد» (يو١٧: ٢٣و٢٢)، ويهوذا في حضن الشيطان: «هذه ساعتكم وسلطانُ الظلمة.» (لو٢٢: ٥٣)

«خرج للوقت وكان ليلاً»:

كلام ق. يوحنا هنا يحمل الأسلوب السري والنبرات اللاهوتية، فبدخول الشيطان في يهوذا بدأت ساعة الظلمة. وبمغادرة يهوذا للمسيح، خرج من دائرة النور إلى «الظلمة الخارجية». لقد سبق المسيح أن حذَّر من مثل هذه المخاطرة: «ولكن إن كان أحد يمشي في الليل يَعْثُر، لأن النور ليس فيه» (يو١١: ١٠)، وواضح غاية الوضوح أن يهوذا أحب الظلمة: «أحب الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة.» (يو٣: ١٩)

لقد بدأ العدُّ التنازلي للساعة الأخيرة. وبدأ شَبَحُ الموت يخيم على اللحظات الأخيرة للعشاء الأخير، لتبتدىء بعدها، ولأول مرة، التسبيحات للفصح بنغمات حزينة!...



أحاديث ما بعد العشاء(٧)

لقد اجتهد علماء الكتاب لتبويب أو عَنْوَنة حديث المسيح فيما بعد العشاء، وهو يقع من الأصحاح ١٣ : ٣١ إلى نهاية الأصحاح السابع عشر. ولكن أحاديث الرب لا يحدُّها باب ولا يحتويها عنوان، فهي أحاديث تفوق التحديدات الذهنية، لأنها روح وحياة؛ جاءت مسترسلة من أقداس قلب ابن الله المجروح، تنطلق لتنير خفايا المجهول في ذهن التلاميذ. ومجمل أقواله جاءت لتشرح حتمية الفراق وأفراحه، ومهمته العظمى في السماء وثماره، وعمله على الأرض وآثاره، مع وصايا ثمينة ووعود صادقة، وعلى قمتها إرسال الروح القدس لعزاء الدهور كلها وتكميل عمل الابن، مع شرح سر سريان دم الكرمة في عروق الإنسان، وكيفية تهذيب الأغصان، ونَقْله العبيد إلى أحباء، مع أخبار كثيرة ستسوقها الأيام يكون فيها مشقة واضطهاد وقتل وعناء، مع عتاب مُرٌّ من جهة الذين أبغضوه بلا سبب، وراحة وسلام من جهة الذين سيشهدون له مع الروح.

ولما رآهم والحزن يعتصر قلوبهم من أجل الفراق، وعدهم برؤيا خاصة وفرح وشيك، ولكنه أنبأهم عن هروبهم المزمع أن يقترفوه، وفُرقةٍ مشينة تُلمُّ بهم، ثم بقاؤه وحيداً ليدوس المعصرة وحده. ثم، وعلى مرأى ومسمع منهم، رفع ناظرَيْه نحو الآب، وصلَّى صلاة طويلة، أطول صلاة، كان فيها كل سر اللاهوت، وبقيت لنا مطبوعة في قلب يوحنا.

١٣ : ٣١و٣٢ «فلمَّا خرجَ، قالَ يسوعُ: الآن تمجَّد ابنُ الإنسانِ وتمجَّد الله فيهِ، إن كان الله قد تمجَّد فيهِ، فإن الله سيمجِّدُهُ في ذاتِهِ، ويمجِّدُهُ سَرِيعاً».

«الآن تمجَّد... وتمجَّد... قد تمجَّد»:

الآن: بخروج يهوذا بدأ تزامُنُ **الحَسْم في موت الرب**، مع حَسْم الرب في تقديم ذبيحة نفسه، بتقديم الكأس **قائلاً: «هذا دمي».**

---

(٧) تُقرأ هذه الأحاديث في الكنيسة مساء خميس العهد (الساعة الأولى من ليلة الجمعة)، وتُسمى بحسب الطقس **«فصول البارقليط»**، لما فيها من كلام معزٍّ، ومن وعود متكررة بإرسال الباراقليط. وهي عبارة عن أربعة فصول: الثلاثة الأولى أحاديث الوداع (الأول من يو١٣ : ٣٣ إلى يو١٤ : ٢٥، والثاني من يو١٤ : ٢٦ إلى يو١٥ : ٢٥ والثالث من يو١٥ : ٢٦ إلى يو١٦ : ٣٣). والفصل الرابع هو صلاة الرب (يو١٧ كله).

على أن رنين «المجد» المتكرر ثلاثاً في **هذه الآية**، يذكّرنا في الحال ببداية التقديس في سر الإفخارستيا: **مجداً** وإكراماً، إكراماً **ومجداً** للثالوث الأقدس: الآب والابن والروح القدس. إنها تسبحة الذُّكصَا الأبدية، الذُّكصَا التي ملأت السماء، وفاضت على كل بني الفداء.

ولا يغيب عن بالنا أن المسيح قال **هذه الآية** والكأس في يديه لم يوزَّع بعد. وإن كان ق. يوحنا لم يذكر ذلك لأسباب وضعتها الكنيسة في أيامه من جهة عدم إذاعة أسرار الكنيسة، إلاَّ أن المجال والكلام ينطق بقُدسية ورَهبة سر الإفخارستيا القائم بكل تأكيد. ونحن لا يمكننا أن نفهم سر تمجيد المسيح لنفسه: «الآن تمجّد ابن الإنسان» إلا بسبب سقوط ظلّ الموت عليه، وفي يده الكأس المصوَّر فيها الصليب، وقد رفعها عالياً في يده، عندما انتهى من ذَبْح نفسه بسكين إرادته. فالمسيح، بنُطقه: «هذا هو دمي الذي للعهد الجديد، الذي يُسفَك من أجل كثيرين» (مر١٤: ٢٤)، كان قد أكمل الصليب، وانتهى من تقديم ذبيحته للآب.

فإن كانت الأناجيل الثلاثة الأخرى اهتمت بتسجيل تقديم جسده ودمه للتلاميذ، **فالقديس يوحنا اهتم بتسجيل تقديم الجسد والدم للآب**. وعوض التمجيدات للآب والابن والروح القدس على مواد السر، استعلن المسيح «**هذا المجد**» عينه لحظة حدوثه «**الآن**»، الذي مجّده الله به، إذ تقبَّل ذبيحة نفسه، الذي أيضاً تمجد الله فيه وبسببه. وهذا المجد الذي ناله ابن الإنسان على الأرض يوم الخميس، كان بلوغ منتهاه وشيكاً يوم الجمعة بعودة ابن الإنسان لذات الله: «سيمجّده في ذاته سريعاً»، ليجلس وإلى الأبد عن يمين الآب حاملاً البشرية فيه.

وعلى القارىء أن يلاحظ أن المسيح يتكلم هنا، ليس كـ«ابن الله» بل كـ«ابن الإنسان»، لأنه يتكلم والكأس في يده كخروف مذبوح، لذلك يتكلم عن «الآب» بصفته «**الله**» بالنسبة له كـ«**ابن الإنسان**».

وعلينا أن نتذكر قول المسيح سابقاً: «وأما يسوع فأجابهما قائلاً: قد أتت الساعة، **ليتمجّد ابن الإنسان**» (يو١٢: ٢٣)، وقول ق. يوحنا، معلِّقاً على موت الرب: «لأن الروح القدس لم يكن قد **أُعطي** بعد، لأن يسوع لم يكن قد **مُجّد** بعد.» (يو٧: ٣٩)

أما كون الله قد تمجّد في ابن الإنسان، وتمجّد بسببه وأيضاً سيمجده سريعاً، فهذا يعلنه المسيح بوضوح: «أنا مجّدتك على الأرض، العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملتُه، **والآن مجّدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك** قبل كَوْن العالم» (يو١٧: ٤و٥). على أنه

بعد عودة الابن إلى الآب، سيبقى الابن مصدر تمجيد دائم للآب: «لأني ماضٍ إلى أبي، ومهما سألتم باسمي، فذلك أفعله، ليتمجد الآب بالابن» (يو١٤: ١٢و١٣). أما عن كيف سيمجد الله ابنَ الإنسان سريعاً، فهذا رآه القديس إسطفانوس رؤيا العين: «وأما هو فشَخَصَ إلى السماء وهو ممتلىء من الروح القدس، فرأى مجد الله و يسوع قائماً عن يمين الله.» (أع٧: ٥٥)

على أن مجد المسيح السابق واللاحق ومجد الآب، لا يُدرَكان، بحسب الأصول اللاهوتية، منفصلين، لا زمانياً ولا كيانياً، فهما مجد واحد لله. ولكن بسبب توقيع اللاهوت على الزمن أو ظهور الله بالجسد في صميم الزمان والمكان والعمل، أصبح على الإنسان أن يدرك هذا المجد موزعاً في مراحله.

فمن وجهة النظر اللاهوتية، يكون مجد المسيح واحداً سواء على الصليب، أو في القبر، أو في القيامة، أو في الصعود، أو في الجلوس عن يمين الآب؛ والنظرة لأي حالة مجد في هذه تشمل المجد في كل حالاته: «لكي تجثو، باسم يسوع، كلُّ ركبة ممَّن في السماء، ومن على الأرض، ومن تحت الأرض.» (في٢: ١٠)

«يمجِّده في ذاته» ἐν ἑαυτῷ :

الاصطلاح هنا لاهوتي، وهو يفيد **وحدة الاتحاد الذاتي**، أي وحدة الكيان، باعتبار أن الآب والابن كيان واحد، ذاتٌ واحدة لأقنومين، لأنهما جوهر إلهي واحد، أو طبيعة واحدة إلهية للآب والابن.

كما يُلاحَظ أن «**في** ذاته» ἐν ἑαυτῷ تأتي مطابقة ومتبادلة مع: «خرجتُ **من عند** الآب» ἐξ αὐτοῦ ، فهو كيان واحد يخرج منه و يعود إليه، دون انقسام الكيان، لأنه كيان إلهي للآب والابن غير محدود ولا متجزِّىء.

٣٣:١٣ «يا أوْلادِي أنا معكم زَمَاناً قَلِيلاً بعدُ. ستطلُبونَني، وكما قلتُ لليهودِ، حيث أذهبُ أنا لا تقدرُونَ أنتم أن تأتُوا. أقولُ لكم أنتُم الآنَ».

من واقع الإفخارستيا، وحيث انتهى المسيح، بالنية، من تقديم نفسه ذبيحة فداء عن العالم، ووزع جسده ودمه على التلاميذ، ومن واقع خروج يهوذا ليعدّ خطة التسليم بموافقة المسيح بعد إحساسه بقبول الذبيحة لدى الآب والردّ عليه بحصوله على المجد، ابتدأ يحس أيضاً بانسحابه

الإرادي من العالم، **فابتدأ المسيح يوجِّه إلى تلاميذه حديث الوداع الأخير.**

لاحظ أن موت المسيح على الصليب بالجسد لا يعني أن بشرية المسيح وحدها **هي التي واجهت** الموت على الصليب، بل إن المسيح واجه الصليب والموت كَكُلٍّ لا يتجزأ، **بلاهوته وناسوته معاً**. إذ لم يظفر بقوات الظلمة و يفضحهم و يشهرهم جهاراً بجسده الميت، بل بلاهوته، الذي اقتحم مجالات الموت والجحيم، وصرع سلطان الموت وصاحِب سلطان الموت. وبهذا صار **موت المسيح هو قوة نصرة وخلاص ومجد**، لأنه عمل إلهي و بشري معاً، و بآن واحد صار موت المسيح عملاً بلا حدود، يشمل و يغطّي كلَّ مَنْ يؤمن و يدخل في مجال فعله الإلهي الكفَّاري العام.

لذلك، فنحن الذين نؤمن **بالطبيعة الواحدة من الطبيعتين** بعد الاتحاد، لا نوافق على أن المسيح جاز الموت بطبيعة واحدة بشرية، بل إن المسيح عندما جاز الموت **قامت كل طبيعة بعملها** الخاص بها. الجسد تقبَّل طعنة الموت وفارقت النفس الجسد، أما اللاهوت **فلم يفارق النفس ولم** يفارق الجسد فلم يفسد، واضطلع اللاهوت مع النفس بمواجهة طبيعة الموت، **فشجب الموت وأخرجه** من دائرة الإنسان والله، **فأصبح الموت لا يفصل الإنسان عن الله في المسيح**؛ ثم واجه الشيطانَ الذي له **سلطان الموت** فجرَّده من سلطانه وسلَّم سلطان الحياة لروح الله، أي الروح القدس، الذي له الآن سلطان القيامة من الموت مع قوة قيامة المسيح واستحقاقها.

وبنظرة الانسحاب من العالم، تَساوَى لديه الأعداء والأحبَّاء. **فهؤلاء وهؤلاء لن يروه، ولو** طلبوه لن يجدوه. لذلك، كما قال لليهود (٧: ٣٤) على بُعْدٍ من الميعاد، يقول لتلاميذه الآن عن قُرْب، والصليب قد لاح في الأفق.

والظرف الزماني **«الآن»** νῦν قد يفيد الزمان حسب الظاهر، ولكن بالعمق الروحي يفيد استعلان نهاية التدبير الإلهي لغياب المعلم عن التلاميذ و بقاء التلاميذ وحدهم. هذا الشعور كان طاغياً على المسيح، كما على التلاميذ ربما بنفس القياس، «لن أترككم يتامى»، غير أن المسيح يعلم أنه سيعود ليراهم.

«ستطلبونني»:

إن كانوا سيطلبونه في الحزن، فلن يجدوه، ولن يستطيعوا أن يأتوا إليه، ولكن حينما **يعود هو** إليهم و يراهم ــ بعد القيامة ــ أي يفتقدهم، فلن يعودوا يطلبونه بعد لأنه سيكون معهم كل حين: «ها أنا معكم كل الأيام، إلى انقضاء الدهر» (مت٢٨: ٢٠)، ليس فقط بالحضرة الإلهية

الشخصية المعزِّية والمفرحة من خلال تمهيدات الروح القدس وإعلاناته، بل وأيضاً في شركة الإفخارستيا حيث:

١ ــ **يتحد موت المسيح بإماتتنا، «قوة بقوة»، قوة إلهية** قوامها غلبة المسيح على العالم (الشهوات) وعلى قوات الظلمة التي ظفر بها على الصليب، أي بموته، **بقوة إرادتنا لإخضاع الجسد وقمع شهواته.**

٢ ــ **وتتحد قيامة المسيح** بتجديد حياتنا، قوة بقوة أيضاً، **قوة إلهية** قوامها غلبة الموت، **بقوة توبتنا** لنوال جِدَّة حياة يوماً بيوم.



المحبـــة

١٣: ٣٤و٣٥ **«وَصِيَّـةً جَدِيدَةً أنا أُعطيكم، أن تُحِبُّوا بعضكم بعضاً، كما أحبَبْتُكم أنا تحبـون أنـتم أيضاً بعضُـكم بعضاً. بهذا يَعْرِف الجميعُ أنكم تلاميذي إنْ كان لكم حبٌّ بعضاً لبعضٍ».**

يتبـادر إلى الذهـن عنـد غـالـبية النـاس أن «المحبة وصية» أو هي وصية المسيح، ولكن، في الحقـيقة، تركيب الجملة باللغة اليونانية يكشف المعنى كالآتي: «أنا أعطيكم وصية جديدة، لكي (ἵνα) تحبـوا بـعـضـكـم»، والتركيز في معنى الآية يأتي على الكلمة «جديدة» بالنسبة للوصية بخصـوص المـحـبـة، وذلك في مقابلها القديم الحرفي والجسدي بالنسبة للعهد القديم: «تحب قريبك كنـفـسـك» (لاويين ١٩: ١٨)؛ حيث ينبغي أن نبحث عن معنى «جِدَّة» الوصية، أو الجديد في هـذه الوصية على أساس الواقع الجديد الذي أنشأه المسيح من جهة الدوافع والمحيط الذي تعمل فيه المحبة في العهد الجديد.

فالآن، قد استعلن المسيح آفاقاً للمحبة جديدة فعلاً لم تكن معروفة في العهد القديم، ولا يمكن الإحـاطة بها أو بلوغ كمالها. وأولها وأعظمها **«محبة الآب للابن»**، ثم **«محبة الله للعالم»**، التي **أنشأت** حـركـة جـديـدة تحـركـت لها السموات كلها والأرض، وهي **«تجسد الابن»**، هتف لها الـسمائيون والأرضيون مجداً في السماء وسلاماً على الأرض، ثم أنشأت محبة الله نحو العالم: "بَذْل الابـن متجسداً": «لأنه هكذا **أحب الله العالم، حتى بذل** ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية.» (يو٣: ١٦)

وهـكـذا بـلـغ استعلان محبة الله للإنسان قمتها العظمى في **موت الابن على الصليب. وموت المسيح** أكمله حُبّاً في الإنسان الخاطىء: «الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي» (غل٢: ٢٠)، الذي أنشأ بدوره التزامات (غفراناً وتكفيراً وخلاصاً) من جهة الله نحو جميع الخطاة التائبين الذين يؤمنون بـابـنـه. كـذلـك أدخـل المـسـيـح **قـوة جديدة** في محيط الإنسـان تعمل فيه، هي **قوة الحب الإلهي الفاعلة بالروح القدس، الذي هو «أقنوم أو شخص المحبة».**

إذن، الوصية القديمة المنطوقة والمكتوبة كأمر بالنسبة **«لمحبة القريب» تغيَّرت تغيُّراً جذريًّا، إذ أصبحت قوة تعمل داخل العالم وداخل الإنسان.**

على أن قوة المحبة المنسكبة داخل قلب الإنسان بالروح، هي نابعة من مصدرها الأساسي وهو حب الله الذي استعلنه المسيح ببذل ذاته وموته على الصليب. أي أن قوة المحبة التي أصبحت في العهد الجديد تعمل في قلب الإنسان، هي **قوة محبة باذلة، أو قوة بذل المحبة** المنبعثة من موت المسيح.

أي أن المحبة لم تعد فرضاً وواجباً يُفرض على الإنسان من خارج، بل قوة تعمل طواعية وبسرور لا مناص من الإعلان عنها، والتنفيس عن طاقتها بأعمال بذل الذات «على نموذج محبة المسيح». فالمسيح، بسبب حبه للآب وحبه لنا، لم يستطع إلاّ أن يموت عنا، أي يُصْلَب!!! «ليس لأحدٍ حبٌّ أعظم من هذا، أن يضع أحدٌ نفسه لأجل أحبائه.» (يو١٥: ١٣)

هذا صنعه المسيح، ولكنه صنعه من أجل كل العالم، أحباءً وأعداءً، خطاة ومنبوذين، ومن واقع حبه هذا وامتداداً له بعدئذ بالروح القدس أعطى التلاميذ وصيته الجديدة: «وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم»، لا كأنها فَرْضٌ بعد أو واجب أو تكليف، بل **انتباهة**، ليكتشفوا ما قد وهبه لهم بالفعل وسكن فيهم بالسر بالجسد والدم الذي أعطاهم و بسرِّ غَسْل أرجلهم.

ونحن نعلم أن التلاميذ أقاموا هذه الوصية، وقاموا بها، وعاشوها، وعاشوا عليها، في بادىء الأمر و بعد الصعود مباشرة، وما اجتماعهم يوم الخمسين إلاّ صورة ناطقة بثمار الوصية الجديدة، فقد جمعهم حب المسيح على الصلاة والصوم وإقامة سر الشركة والعبادة الحارة، حتى حلّ عليهم الروح القدس بكل ارتياح، فاستعلن المسيح فيهم، وصاروا شهوداً مع الروح القدس للمسيح كالوصية، وظلت بعد ذلك المحبة الأخوية بينهم هي شهادة بحد ذاتها، وعليها قام الإنجيل وقامت الكنيسة. وظل ق. يوحنا يعظ بهذه الوصية وحدها في شيخوخته حتى مات(٨)، مما يؤكد تأثُّره الشديد بوصية المسيح فعلاً.

و بالإنتباه لوصية المسيح بخصوص المحبة نجد أنه قدّمها على صورتين:

الصورة الأُولى، خاصة بالتلاميذ، كغسل الأرجل: «كما أحببتكم أنا، تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً»؛ بالتطابق مع: «لأني أعطيتكم مثالاً، حتى كما صنعتُ أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً... فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض».

(٨) Jerome on Galat. VI:10. راجع المدخل ص٤٠.

وهذا في الحقيقة لبنيان الكنيسة، أولاً في صورتها الرسولية الأولى: «بهذا يعرف العالم أنكم تلاميذي»؛ أما وصية المحبة في صورتها العامة الخاصة بالمؤمنين عامة، فقد أطلقها بلا قيد ولا شرط لتكون حياة لكل إنسان ومنهج لكل مسيحي: «سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك؛ وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحْسِنوا إلى مُبْغِضيكم، وصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم و يطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات.» (مت٥: ٤٣—٤٥)

كذلك غَسْلُ الأرجل، وضع أساساً لتكريس التلاميذ للبشارة ومسيرة الإنجيل في كل أنحاء العالم، كما احتفظ به الرسل كطقس اتضاع لتمارسه الكنيسة بالنسبة للشعب عامة، والتقطه الرهبان الأوائل وأدخلوه كعمل محبة وطقس اتضاع دائم يمارسونه مع كل زائر أو متردد، و بعد أسفارهم الطويلة، لبعضهم البعض.

ثم إن الوصية القديمة كانت المحبة فيها **تختص بالقريب، أي بني جنس اليهود فقط، أي لحساب التاريخ والجنس اليهودي**، ولكن المسيح أعطى حبه في وصيته الجديدة على أساس مهمته العظمى الخالدة ورسالته الأبدية في العالم بكل أجناسه، لذلك لما سألوه: «مَنْ هو قريبي؟»، أعطى جواباً في قصة، حطّم فيه هذا القيد الحديدي الذي وضعته الوصية القديمة في عنق المحبة، حينما جعلها لا تعمل إلاَّ بين يهودي و يهودي وحسب، ولكن قالت القصة أن **قريب اليهودي هو السامري!!!** (لو١٠: ٣٦و٣٧)، ومن هذا المنطلق سبق ونادى بحدود وصيته الجديدة: «**أحبوا أعداءكم.**» (مت٥: ٤٤)

كما أنه بطقس غسل الأرجل، جعل المحبة المسيحية والرسولية تنزل إلى مستوى خدمة الأرجل.

والآن نأتي إلى الظروف التي أحاطت بإعطاء المسيح وصيته الأخيرة والجديدة لتلاميذه، **فأولاً** نحن على مائدة عشاء الرب الذي أسس فيه سر الإفخارستيا بتقديم جسده ودمه للأكل والشرب من خلال التزام ذبيحة الصليب التي جاء ليكمّلها في نفسه، وقبِلَها منه الآب. فهنا بذل الذات في أقصى صورة يمكن أن يُقدَّم فيها الحب، حيث أصبح الحب الإلهي المذبوح من أجل كثيرين هو أساس العهد الجديد: «هذا **هو دمي** الذي للعهد **الجديد** الذي يُسْفَكُ من أجل كثيرين» (مر١٤: ٢٤)، «كما أحببتُكم أنا (هكذا حتى الموت)، تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً.» (يو١٣: ٣٤)

غرض الوصية الجديدة بالنسبة للمحبة:

ولكي يتضح بأجلى بيان أن المحبة ليست هي كل الوصية الجديدة، ولا يمكن أن تستنفذ كل

أبعادها، عاد المسيح ووضع للوصية غاية فوق المحبة: «**بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي**»، وغاية هذه أيضاً هي **استعلان المسيح نفسه للعالم** من خلال حب التلاميذ بعضهم لبعض، ولأن محبة التلاميذ بعضهم لبعض لا يمكن أن تأخذ صورتها الإيمانية وقوتها الكرازية إلاَّ بوجود المسيح، كقول القديس بولس الرسول: «ليحلَّ المسيح بالإيمان في قلوبكم، وأنتم متأصلون ومتأسسون في المحبة...» (أف٣: ١٧و١٨)

وهكذا يتضح لنا الترابط المتزامن بين قبول المسيح وفاعلية الحب في القلب، فإنه بعد أن تناول التلاميذ من الجسد والدم، وهما قوة العهد الجديد واللذان يمثلان الحضرة الإلهية عمليًّا: «**مَنْ يأكلني فهو يحيا بي**» (يو٦: ٥٧)، أعطى المسيح الوصية الجديدة. أي أنه بمجرد أن حلّ المسيح بالإيمان في القلب، وتأسست وتأصلت فيه المحبة؛ أصبح الإعلان عن المسيح تحصيلَ حاصلٍ، من جراء أفعال المحبة الباذلة في الحياة المسيحية. إلى هذا الحد أخذ ق. يوحنا هذه الحقيقة، وجعلها معياراً للخلاص والحياة الأبدية: «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة» (١يو٣: ١٤)، وهكذا انتشر اصطلاح محبة الإخوة φιλαδελφία (فيلادلفيا) في الغرب، و يقابله في الشرق وفي الكنيسة القبطية بالذات «**الأغابي**» بصورة أوسع وأعمق وأكثر روحانية، حيث يجتمع الشعب العلماني كله في الكنيسة، وتُقام الموائد، ويحضرها الأسقف ويصلي ويبارك، ويفرح الشعب، ويأكل في حضرة الرب. فقد صارت الأغابي تعني «**شركة المحبة**»، وصار لها طقس ووجود كنسي. وبعد أن دعمتها الرهبنة كأعلى نموذج للأغابي الإنجيلية، فقد صارت شركة حياة تخصَّصت لعمل المحبة، والعبادة، والتأمل، والبذل والخدمة، وتقديم الأمثلة المسيحية من قديسين وقديسات، ملأوا صفحات السنكسار واحتلوا الصفوف الأُولى في السماوات.

وهكذا، فالمحبة إذا سكنت في القلب بإيمان المسيح وأخذت طريقها عملياً نحو الآخرين، وخاصة بين التلاميذ على مستوى الصليب، فحتماً يُستعْلَن المسيح. ومعروف أن من مفاعيل المحبة الإلهية قيام الوحدة الروحية على المستوى السري الإلهي، لأن طبيعة المحبة الإلهية فوق أنها تجمع، فهي توحِّد:

+ «ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به، وأكون أنا فيهم.» (يو١٧: ٢٦)
+ «ليكون الجميع **واحداً**، كما أنك أنت أيها **الآب فيَّ وأنا فيك**، ليكونوا هم أيضاً **واحداً فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني**.» (يو١٧: ٢١)
+ «أنا فيهم وأنت فيَّ، ليكونوا مكمَّلين إلى واحد، **وليعلم العالم أنك أرسلتني**، وأحببتَهُم كما أحببتني.» (يو١٧: ٢٣)

هذه، في الحقيقة، هي أعماق الوصية الجديدة التي هي ناموس المسيح الجديد:
المحبة: وهي بحد ذاتها "إبيفانيا" **إلهية بظهور واستعلان المسيح**، «ابن محبته».
الوحدة: موضوع المحبة الإلهية، وهي أيضاً بحد ذاتها "إبيفانيا" **الآب والابن فينا.**

وليكن في ذاكرتنا دائماً، أن استعلان المسيح فينا هو برهان محبة الله نحو العالم، واستعلان الآب والابن فينا هو برهان قيام الوحدة، فهو بحد ذاته كرازة للعالم.

أي أن الوصية الجديدة التي يشدّد عليها المسيح في نهاية رسالته، تهدف نحو خلاص العالم واستعلان ملكوت الله والحياة الأبدية.

وهكذا، كما بدأنا إنجيل يوحنا بحركة محبة الله للعالم، هكذا تنتهي غاية رسالة المسيح في الإنجيل.

اعتذار: نحن هنا لا نقدم موضوعاً مستوفياً عن المحبة في العهد الجديد، ولكننا التزمنا بحدود المناسبة وفي إطار مفهوم وصية المسيح.

١٣ : ٣٦ «قالَ له سِمعَانُ بطرسُ: يا سَيِّدُ إلى أين تذهبُ؟ أجابَه يسوعُ: حيث أذهبُ لا تقدرُ الآن أن تتبعَني، ولكنك ستتبعُني أخيراً».

إنطلاق القديس بطرس بهذا السؤال بعد وصية المسيح بالمحبة، يوضح أن مغادرة المسيح الوشيكة أمرٌ شدَّ انتباه التلاميذ، لأن بيان الموصي بالمحبة وتوضيح الغرض منه وهو لكي يعلم العالم أنهم تلاميذ المسيح، يعني بكل صراحة أن المسيح سيذهب ويختفي وسيتركهم وحدهم. هذا الأمر حيَّرهم، وأظهر جانب الضعف فيهم.

«يا سيد إلى أين تذهب؟»:

وأصلها باللاتيني: Quo vadis domine?، والتي بُني عليها الفيلم السينمائي الديني المشهور "كوفاديس"، وقصته مأخوذة من سفر أبوكريفا "أعمال بطرس وبولس"، وهي القصة الجميلة لاستشهاد القديس بطرس في روما؛ إذ لما انتهز بطرس فرصةً، وهو محكوم عليه بالإعدام صلباً، هرب من الجلادين قبل تنفيذ حكم الاستشهاد، وانسلَّ خارجاً من روما، فقابله الرب، وظهر كأنه عابرٌ به وذاهبٌ إلى روما، ففوجىء بطرس بالمسيح نفسه أمامه فسأله: يا سيد إلى أين أنت ذاهب؟ فبادره الرب بنظرة عتاب ["لأُصلب بدلاً منك"]. وهي تذكرة لاذعة لادعاء بطرس في قوله

للمسيح في الليلة التي أسلم فيها ذاته: «إني أضع نفسي عنك.» (١٣: ٣٧)

«حيث أذهب لا تقدر الآن أن تتبعني ولكنك ستتبعني أخيراً»:

يصرخ إرميا، وكأنى به ينادي بطرس من بعيد: «إن جريتَ مع المشاة فأتعبوك، فكيف تُباري الخيل، وإن كنت منبطحاً في أرض السلام، فكيف تعمل في كبرياء الأُردن؟» (إر١٢: ٥)

فبطرس، ليلة الصليب، يسأل الرب: «يا سيد إلى أين تذهب؟»، لأنه كان يُضمر في قلبه أن يقلِّد أليشع النبي في جريه وراء إيليا، وكأنه يريد أن يصعد معه؛ والرب أدرك ذلك بالروح، وكان الرد خالصاً: «لا تقدر الآن أن تتبعني». ولكن لم يحرمه الرب من نظرة تطلُّعية من وراء الأفق: إنه سيتبعني أخيراً، أو بالحري سيأتي الرب ليأخذه بيده، لأن قصة هروبه من الموت معروفة، فلولا حضور الرب إلى روما خصيصاً ليردَّه إلى صليبه المقلوب، لما عثر بطرس على الباب الذي منه يتبع الرب أخيراً!! وهنا يليق جداً أن نذكِّر القارىء بقول الرب لبطرس في نهاية رواية ق. يوحنا: «ولكن متى شِخْتَ، فإنك تمدُّ يديك، وآخر يمنطقُك، ويحملك حيث لا تشاء.» (يو٢١: ١٨)

و«حيث لا تشاء» هي إشارة بليغة إلى هروبه من الصلب الذي صحَّحه له الرب.

١٣: ٣٧ «قالَ لهُ بطرسُ: يا سَيّدُ لماذا لا أقدِرُ أن أتبعَكَ الآنَ؟ إني أضعُ نَفْسِي عَنْكَ».

إنها لخطورة بالغة أن تأخذ الإنسان حرارة الثقة بالذات، ليتكلم و يقرِّر و يَعِدَ بما يفوق قَدْرَه ومقداره. وأخطر من ذلك أن يُقلِّد الإنسان أمثلة أعلى من قامته، فيبدو في أعين الناس أقل مما هو، أي أقل مما وهبه الله. لأن الفرق بين قامته الأصلية و بين ما ادَّعى لنفسه اختلاساً يُخصم من أصل رصيده. هذا هو قانون المسيح: «من له سيُعْطَى. ومن ليس له فالذي يظنه له يُؤخذ منه.» (لو٨: ١٨)

هذا الأمر خطير، وخطير للغاية، في الأصول التربوية المسيحية، أي في بناء النفس الروحي وفي الجهاد النسكي. فالله لا يطالبنا أن نعطي أكثر من قدرتنا، أو نبذل من رصيد وهمي سواء في الصحة أو الإيمان. والله أعطى وقسَّم المواهب، وعلى قدر ما أعطى يُطالِب. فالذي يَدَّعي بأنه يقدر أن يبذل أو يخدم، وهو لم يأخذ، يُلام و يَضعُف و يتقهقر.

فبطرس الذي رأى نفسه أكفأ مَنْ يستطيع من التلاميذ أن يلازم المسيح، أو حتى أن يموت

عنه، هكذا نجده قد تخلف في منتصف الطريق. ولما عزم أكثر من عَزْمِه أن يرافقه حتى ولو إلى الموت، انتهى عزْمُه عند الجواري في الدور الأرضي، وجلس يستدفىء مع الخدم. والذي مدّ في عافيته ــ ليشهد في صفّ المسيح ــ دون أن يكون لها امتداد من قوة الإيمان، أنكر المسيح عند استجواب جارية!!! وبدل أن يقول مجرد قول: نعم أنا تلميذ المسيح، وإذا لزم الأمر يُقْسِمُ بالحق: «ابتدأ يلعن ويحلف أني لا أعرف هذا الرجل الذي تقولون عنه» (مر١٤: ٧١) ــ عفارم ــ وأخيراً جلس خارج الباب يُعزِّي نفسه ببكاءٍ مرٍّ. وصحّ قول الرب لبطرس، ولي ولك أيها القارىء العزيز: «بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً.» (يو١٥: ٥)

١٣: ٣٨ «أجابه يسوع: أتضعُ نَفْسَكَ عني؟ الحقَّ الحقَّ أقولُ لك لا يصيحُ الديكُ حتى تنكرني ثلاث مرات».

لقد اهتم الإنجيليون الأربعة بتسجيل نبوة المسيح هذه عن «بطرس والديك»، إذ سجلوا تحقيقها تسجيلاً مؤثراً للغاية، وكان أدقُّهم وأقدرهم في التسجيل هو القديس مرقس، لأنه أخذ البيانات من فم بطرس نفسه.

لم يكن بطرس يدري هَوْل المعركة التي يسير المسيح نحوها، ولا إزاء من تسجَّلت؟ ولا لحساب مَنْ سيكون الحساب؟ بل وفوق هذا كله لم يدرِ بطرس مَنْ هو المسيح الذي يقول إنه مستعد أن يضع نفسه من أجله؟ فالمعركة فوق طاقة جميع البشر مجتمعين، إنها ضد من استعلى على الله نفسه، أي الشيطان الذي دوَّخ العالم كله والذي قال في قلبه: «أصعد إلى السموات، أرفع كرسي فوق كواكب الله... أصعدُ فوق مرتفعات السحاب، أصير مثل العليِّ. لكنك انحدرت إلى الهاوية، إلى أسافل الجب.» (إش١٤: ١٣ــ١٥)

لقد أشفق الرب على شجاعة بطرس المنهارة، ولكي يردعه حتى لا يرتكب حماقة، أعلن له أقصى ما يمكن أن يبلغه من حدود الدفاع عن الرب بدون الرب، ذلك قبل أن ينفجر نور النهار أو يصيح الديك، أو يظهر كوكب الصبح المنير، أو يُستعلن نور العالم في القلوب، لأنه في ظلمة الرؤيا وعتمة القلب سينكر بطرس سيِّده ثلاث مرات، وعَمْداً مع الإصرار، وبلَعْنٍ وحِلْفَانٍ وبشهودِ عيان.

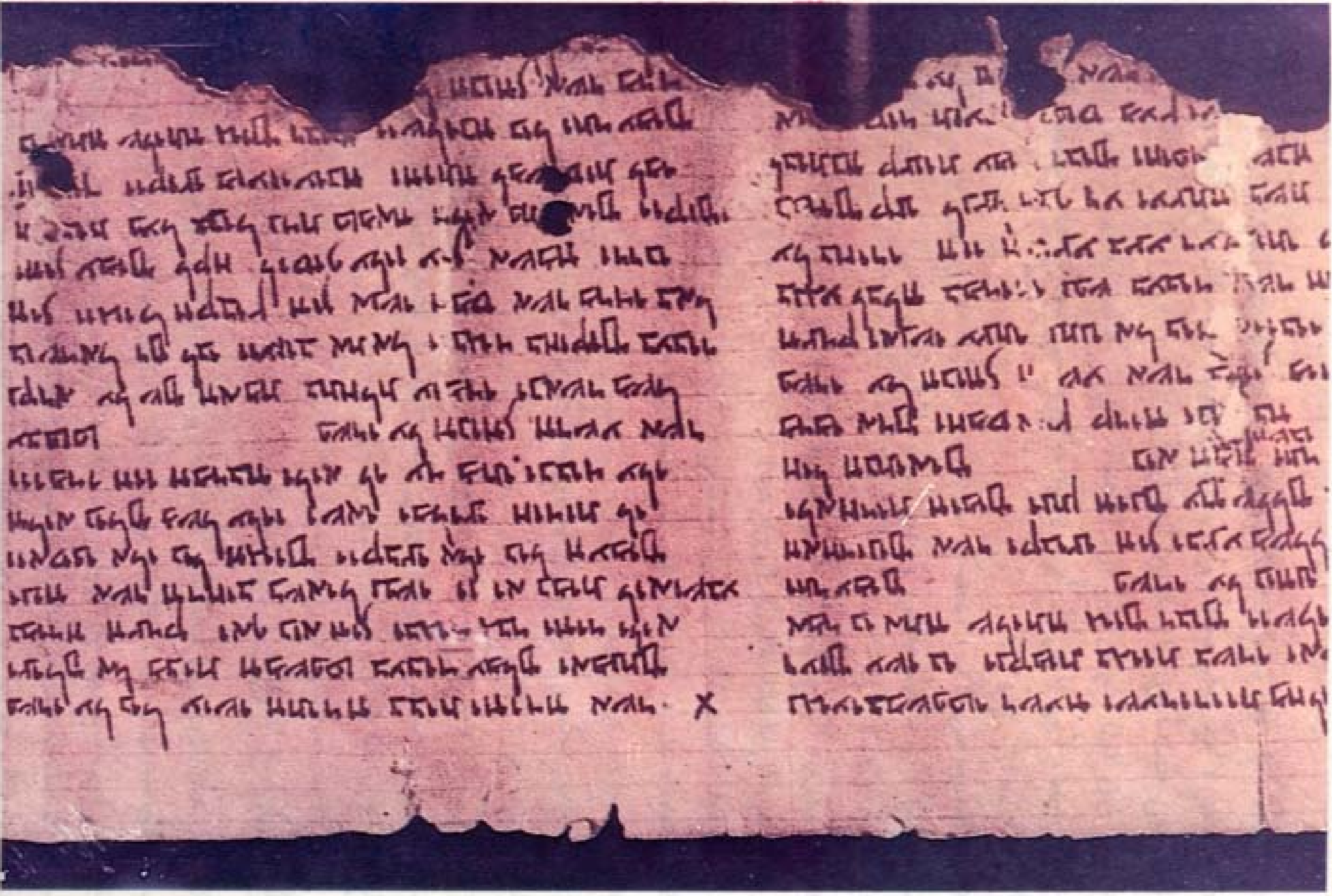
ولكن، في النهاية، وبعد أن أمدّه المسيح بصلاته وروحه القدوس، استطاع القديس بطرس أن يحقق ما ظن وما قال، ووضع نفسه من أجل المسيح، وحقَّق أمنية حبه، ومات مصلوباً شهادةً أمام

العالم كله.

وهذا هو الدرس الفريد الذي يطرحه أمامنا ق. يوحنا كباقي الإنجيليين: أن بطرس كان مثلك ومثلي، بحسب الجسد لا شيء، مُكابِرٌ، شُجَاعٌ بلا قوة، مِقْدامٌ بلا رَويّة، مُعْتَدٌّ بلا أصل، متسرِّعٌ سريع الندم، مدَّعي الأولوية دون دعوة أو تزكية. ولكن عندما لمسته النعمة، انقلبت موازينه غير المتزنة، وصار بعد أن حلَّ عليه الروح القدس أوَّلَ من نَطَقَ بلسانٍ يومَ أن تقسَّمت موهبة الألسن، وأول واعظ ارتجت له المنابر، وصاحب أول حصاد لحساب ربِّ الحصاد، ثلاثة آلاف نفس يهودية نقية اعتمدوا في يوم واحد. وكانت هي أول كنيسة في العالم.

فبطرس هو أقوى عمود من ثلاثة أعمدة، حملت سقف وأسقفية كنيسة أورشليم، وأول مَنْ ملأ كيسه بعملة سماوية مسكوكة باسم يسوع المسيح الغالي القيمة، دفع منه ثمن شفاء أعرج من بطن أمه، كان يُحْمَل على الكتف أربعين سنة (راجع أع٣: ١–٤: ٢٢). فكانت أول معجزة بعد معجزات المسيح أجراها من داخل الهيكل أمام كهنة وفريسيين وآلاف من شهود عيان في رواق سليمان؛ حيث اتخذها بطرس فرصة، وأخذ يوبِّخ بلا رحمة الذين بجهالة صلبوا رب المجد، ولما هددوه مع يوحنا صلَّيا مع بقية الرفاق صلاة تزعزع لها المكان (راجع أع٤: ٢٣–٣١). وهكذا جاهر بطرس بالإيمان، وشدَّد إخوته حسب الوصية، ثم مَنْطَقُوه، وحيث لا يشاء صلبوه، وهكذا تبع المسيح أخيراً حسب الوعد!





أحد المخطوطات التي عُثر عليها ضمن مخطوطات البحر الميت في وادي قمران . وهي تحوي تفسيراً على نبوة حبقوق

«وقلت لكم الآن قبل أن يكون، حتى متى كان تؤمنون.» (يو ١٤: ٢٩)

«فأجابني الرب وقال اكتب الرؤيا وانقشها على الألواح لكي يركض قارئها. لأن الرؤيا بعد إلى الميعاد وفي النهاية تتكلم ولا تكذب. إن توانت
فانتظرها لأنها ستأتي إتياناً ولا تتأخر.» (حب ٢: ٢ و٣)

الأصحاح الرابع عشر

حديث الوداع الأول

الحديث عن الآب والمضيُّ إليه

(أ) المسيح يعزِّي تلاميذه بالرجاء السماوي.
(ب) يعرِّف نفسه بأنه الطريق والحق والحياة، وأنه واحد مع الآب.
(ج) يَعِدُهم بتأكيد استجابة الصلاة التي تُقدَّم باسمه.
(د) يوصي بالمحبة والطاعة.
(هـ) الوعد بإرسال الروح القدس المعزِّي.
(و) يترك سلامه لهم.

تمهيد: جولة حول الأصحاح بأكمله:

القديس يوحنا، في الأصحاحات القادمة، يصف لنا المسيح من مستوى عملي وقيادي، كيف قاد تلاميذه بهدوء فائق الوصف في أعنف عاصفة هوجاء يمكن أن تواجه جماعة صغيرة للغاية، كقطيع وديع من خراف مُحاصَرة من كل ناحية، ووسطها ذئبٌ فاجرٌ يَغوي لتسمعه الذئاب في الخارج، لتتعرف على المكان وعلى أسراره. والراعي يُطمْئِن خرافه أن لا تضطرب ولا تجزع، فقد اشترى حياتها بدمه، وهو ضامنٌ سلامها، وها هو ذاهب في رحلة سماوية وسيعود بعدها إليهم مُحمَّلاً بالأخبار السارة والمفرحة، ليسلِّمهم سر الطريق الصاعد إلى فوق، وسوف يتحدث مع الآب بخصوصهم مع توصية خاصة أن يتسمَّع الآب نفسه أصواتهم. وقد أخذ يصف لهم صورة الآب، فأراهم نفسه مؤكداً لهم أنه هو هو الصورة المنظورة للآب غير المنظور، وأنه هو والآب واحد في كل شيء، وفاجأهم بكشف أعظم سِرٍّ عند الآب، وهو الروح القدس الذي يوحِّدهما بالحب، واعداً بأنه سيطلب من الآب أن يرسله إليهم ليعزِّيهم عن فراقه لهم بالعَيَان، وليملأهم بالمعرفة وكل الحق، ليتذكَّروا كل ما قاله لهم وما عمله أمامهم، حتى يتكلموا بكلمته عينها و يشهدوا بها ولها مقروءة ومكتوبة. ثم ترك المسيح لهم سلامه الخاص، الذي ينسكب من السماء من فوق مناطق العقل والاضطراب، فيكون لهم مصدر أمان سماوي واطمئنان دائم في كل زعازع العالم ومكايد الشيطان. وسلامه هذا سيكون عِوَضَ سلام العالم الذي يعطيه باليمين و يسحبه بالشمال، يمنحه

اليوم وينزعه غداً، و بالنهاية هو قبض الريح.

وفي نهاية الحديث، اكفهر وجه الرب لمنظر، لم يتبيَّنه يوحنا ولا التلاميذ، إذ ظهر للمسيح رئيسُ العالم قادماً للحرب، ولكن عبثاً يحارب، فليس له في المسيح مأخَذٌ. لم يؤخذ المسيح، ولم يرتد، بل كفَّ عن الحديث، وأعلن عن انتهاء زمان الأحاديث إلاَّ قليلاً. ثم أمرهم أن يغادروا المكان فوراً، لأن العدو كان يتربَّص بهم، ولم يشأ الرب أن يُقبض عليهم داخل البيت.

يعتقد العالم اللُّغوي وشارح الإنجيل Burney (¹) أن في الآيات من (١ـــ١٠) يوجد شعر أرامي منظوم على أساس كل أربعة توقيعات وحدة شعرية. لذلك فهي تحوي خطاً فكرياً مُوحَّداً.

١:١٤ «لا تضطرِبْ قلوبُكم. أنتم تؤمِنُونَ بالله فآمِنُوا بي».

بعد أن حذَّر الرب بطرس، وهو مِقْدام التلاميذ، أنه سينكره هذه الليلة ثلاث مرات، صمت بطرس، وصمت أيضاً التلاميذ، مع جزعٍ ورعبٍ؛ لأنه إن كان الرب ذاهباً ليموت، وإن كان هذا هو يهوذا، وهذا هو بطرس أيضاً، فمن نكون نحن؟

لقد ملأ الحزن قلوبهم ... وفجأة قطع الرب الصمت بكلمات، افتتح بها كُوى السماء لتفيض سلاماً في قلوب التلاميذ. فكانت كلمات الرب هذه تُعتبر الدرَّة الثمينة في إنجيل المسيح.

«لا تضطرب قلوبكم»:

«يضطرب»:

كلمة «يضطرب» باليونانية ταράσσω (²) وباللاتينية Turbata.

فإن كنا قد عرفنا سابقاً أن المسيح «اضطرب بالروح» (١٢: ٢٧ و١٣: ٢١)، فاضطراب المسيح لم يكن عن فقدان الصلة بالآب، التي هي قاعدة الثبوت العليا، ولا عن خوف لأنه لم يرهب للموت جانباً، إذ وطأ هامته بقدميه، ولا كان اضطرابه بسبب الخوف من المجهول لأنه كان «عالماً بكل شيء». ولكن اضطرابه، كما علمنا، كان ردَّ فعل الجسد لهول المعركة الروحية التي

---

[1] Brown, *op. cit.*, p. 623.

(٢) كلمة «يضطرب» ταράσσω، والمصدر منها «الاضطراب» ταραχή، وهي كلمة معروفة في علم النفس بأنها حالة فكرية تأتي بسبب الخوف من المجهول أو بسبب شدة الحزن أو الشك الكثير، ويُعْطى لها الدواء المشتق من اسم الداء وهو تراكسان. وعكس ταραχή هو ἀταραξία وهي تعني الطمأنينة وهدوء النفس أو عدم المبالاة أو البرود الفلسفي.

كان قابضاً على زمامها. فاضطراب المسيح شيء واضطراب التلاميذ شيء آخر، فالاضطراب لا يتملك على الإنسان، إلاَّ إذا تخلخل رباط الإيمان بالله. فاضطراب التلاميذ كان بسبب تزعزع رباط الإيمان بالله.

«قلوبكم»:

الترجمة العربية متصرِّف فيها، فهي في الأصل اليوناني مفرد ἡ καρδία ، وهذا أسلوب أرامي وعبري. و«القلب» في المفهوم الشرقي هو مصدر الشعور. أما في اللغة القبطية، فالقلب (ϩΗΤ) هو مصدر جميع العواطف والفهم والذكاء والغباء أيضاً، فالرجل الذكي يُسمى ⲛⲉⲃ-ϩΗΤ والرجل القوي الشجاع يُسمى ϫⲁⲣ-ϩΗΤ والرجل الرحيم ϣⲉⲛ-ϩΗΤ والرجل الغبي ⲁⲧ-ϩΗΤ أي بلا قلب أصلاً.

و«تضطرب» باليونانية تُستخدم كالعربية في اضطراب البحر أيضاً، والشَّبه بين اضطراب القلب واضطراب أمواج البحر مصطلح يستخدمه الوحي الإلهي في الكتاب كثيراً. فالخوف من الموت، وأخطر منه الخوف من المجهول، يطيح بفكر الإنسان فلا يَعود يستقرُّ له قرار. والمعروف في الاختبار الإيماني، أن سبب الخوف دائماً وبلا استثناء هو فقدان الصلة مع الله. فأمان الإنسان الوحيد هو في تطلُّعه نحو الله والإمساك به بالإيمان، فإذا ركَّز الإنسان فكره في الواقع المفزع أمامه يغرق في الحال، هذا كان حال القديس بطرس أيضاً، إذ لماذا بدأ يغرق والرب واقف أمامه؟: «ولكن لما **رأى الريح** شديدة، **خاف**؛ وإذ ابتدأ يغرق، صرخ قائلاً: يا رب نجني. ففي الحال مدَّ يسوع يده، وأمسك به، وقال له: **يا قليل الإيمان لماذا شككْتَ**» (مت١٤: ٣٠-٣١). أي، لما ركَّز رؤيته في الريح، فَقَد رؤيته للمسيح، وهكذا فَقَدَ قاعدة ثبوته فوق الماء.

وهنا الرب أيضاً لا يتكلم مجرد كلمة «لا تضطرب قلوبكم»، بل يمدُّ يده لينتشل التلاميذ، فحينما يأمر المسيح، فأمره يَنْفُذ بقوة الكلمة الحية، ويحمل تنفيذه في طاعته، وهو، مع المعونة الإضافية التي يمنحها لهم بالكلمة، يذكِّرهم بالقاعدة الثابتة التي ينبغي أن يربطوا، أو يكونوا قد ربطوا فيها ثقتهم وهي: الإيمان بالله.

«أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي»:

«**الإيمان**» باللغة الأرامية (لغة ق. يوحنا) تعني «الثبوت» (firmness)، لأن قاعدة الثبوت الجوهرية أو «الثبوت الحق» هو الله، في الأدب العبري. فالذي يؤمن بالله يعني الذي يثبُتُ في الله

أو يشترك في ثبوته، كما في الصخر، فالله «صخر الدهور» (إش٢٦: ٤)، أي الثابت على مرِّ الأيام وكرِّ السنين.

خطر الثنائية في اللاهوت ينبغي أن نحترس منه دائماً، عندما نضع المسيح نفسه في مقابل الله أو الآب، فالمعنى هنا هو: إن كنتم تؤمنون بالله فأنتم تؤمنون بي أيضاً، وبالضرورة، حتى وإن كنتم لا تعرفون الآن!! وهنا يلزم أن نربط هذه الآية بالكلام الوارد بعدها، لأنه يعطيها الرؤية اللازمة والتوهُّج اللاهوتي المطلوب. فالمسيح بعد ذِكْره **الله**، يعود و يذكره باسم **«أبي»** (١٤ : ٢)، ثم يذكره باسم **«الآب»** (١٤: ٦)، وبذلك يكون المعنى، بعد ضم الصفات، كالآتي:

أنتم تؤمنون بالله، هذا جيد جداً، وأنا أترككم لأذهب إلى **الله**، الذي هو **أبي**، وهو **الآب** (أبوكم). فإن كنتم تؤمنون بالله حقاً، وهذا صحيح وواجب، فإيمانكم بالله فيه الكفاية ليجعلكم تؤمنون بي.

إذن، فاربطوا ثقتكم ورجاءكم بما هو فوق، ولا تنظروا إلى مفازع الموت وتهديداته، لأن الموت وارد حتماً كل حين. لهذا أنا ذاهبٌ إلى الآب لأُعِدّ لكم هناك مكاناً، حتى إذا دعاكم داعي الموت ــ وهو حتماً سيدعو ــ فأنا آتي سريعاً وآخذكم.

وهو بهذا الكلام، يجعل من موته مهمة عظمى في السماء تختصُّ بهم هم، أما موته بالنسبة له، فهو مجرَّد سَفَر إلى موطنه السعيد الذي يذهب إليه ليعود أيضاً لنكون معه دائماً. فلماذا الخوف، ولماذا الاضطراب؟

وحتى سفره السعيد هذا، لا يكون كأنه بلا عمل بل هو، في الحقيقة وواقع الأمر، يمهِّد طريقاً إلى الله، ومنه إلينا، ليعود إلى الآب، ومعه دائماً أبناءٌ كثيرون إلى المجد (عب٢: ١٠)، لأن كل ما يصنعه المسيح هو لأجلنا.

٢:١٤ «في بيتِ أبي منازلُ كثيرةٌ، وإلاَّ فإني كنتُ قد قلْتُ لكم، أنا أمضي لأُعِدَّ لكم مكاناً».

الصحيح ينبغي أن تُقرأ هذه الآية هكذا: «في **بيت** أبي "**مواضع**" كثيرة»، لأن البيت هو المقابل الروحي للهيكل الذي قال عنه المسيح: «بيتي بيت الصلاة يُدعى» (مت٢١: ١٣)، «لا تجعلوا **بيت أبي** بيت تجارة» (يو٢: ١٦)، وأما **المواضع** الكثيرة أو **المساكن** الكثيرة في البيت،

فهي المقابل للأروقة. والأروقة بها غُرف كثيرة (١مل٦: ٥و٦)، وقد وصف القديس بولس الرسول ذلك: «فلنا في السموات بناءٌ من الله، بيت غيرُ مصنوع بيدٍ أبديٌّ.» (٢كو٥: ١)

و"المواضع" قال عنها القديس بولس أيضاً: «فإننا في هذه أيضاً نئنُّ، مشتاقين إلى أن نلبس فوقها مسكننا، الذي من السماء.» (٢كو٥: ٢)

«منازل كثيرة» μοναί :

الكلمة اليونانية منحوتة من μονή وتعني «مسكن دائم» أو «بيت» (وليس «منزل»). وهي التي جاءت في الآية (٢٣): «وإليه نأتي وعنده نصنع بيتاً (منزلاً)»، أي إقامة دائمة!!

ولكن كلمة منزل باللغة العربية خاطئة ومُفْسِدة للمعنى، لأن «المنزل» غير «البيت». فالمنزل يعني مكاناً ينزل فيه الإنسان عابراً وليس مُقيماً، ومنه النُزُل أي الخان أو الأُوتل حيث الإقامة الدائمة منعدمة؛ أما البيت فللإقامة الدائمة. وفي كتابات هامة للقديس إيرينيئوس («ضد الهرطقات»، الجزء الخامس، المقطع ٣٦: ١٢) قطعة ينقلها لنا من أقوال الشيوخ Elders، و يقصد بهم بابياس(٣) وغيره، يُفْهَمُ منها أن الـ μοναί هي «المساكن» أو «المواضع» الدائمة للطوباويين التي تتمايز في المجد، ولكنها ليست مقيَّدة، بل ينتقل داخلها الطوبانيون من درجة إلى درجة أعلى.

و يقول في μοναί ، أيضاً، القديس كلمندس الإسكندري، أنها أماكن متراقية من مجد إلى مجد، وأن الله له μονή الخاصة به.

وهنا يلزمنا أن نشير إلى المكان الرهباني الجغرافي المجاور لمنطقة القلالي، بجوار هرموبوليس بارفا (دمنهور الآن)، والذي كان يُسمى μοναί ؛ هذه الكلمة سُمِّيَتْ بالعربية «المُنى» بالمدّة المفتوحة دون ترجمة لجهل المترجم. وحقيقة الأمر أن الآباء الرهبان كانوا يرون في حياتهم وسُكْناهم صورة سماوية على الأرض، فأطلقوا على مساكنهم هذه اللفظة المستعارة من إنجيل يوحنا، أي المواضع أو المساكن أو البيوت السماوية μονή .

«وإلاَّ فإني كنتُ قد قلتُ لكم، أنا أمضي لأُعِدَّ لكم مكاناً»:

احتار علماء الكتاب في شرح هذه الآية ولكنهم استقروا على أنها استفهامية منفية، هكذا:

[إذا لم يكن هذا حقيقياً ـــ أي أنه ليس في بيت أبي منازل كثيرة، فهل كنت قد قلت

(٣) ICC, Bernard, *op. cit.*, pp. 531-533.

لكم إني أمضي وأعد لكم مكاناً ؟]

والمعنى يزداد وضوحاً إذا أخذنا أيضاً بمفهوم المسكن في سفر العبرانيين:
«وأما المسيح، وهو قد جاء رئيس كهنة للخيرات العتيدة، فبالمسكن الأعظم والأكمل، غير المصنوع بيد، أي الذي ليس من هذه الخليقة. وليس بدم تيوس وعجول، بل بدم نفسه، دخل مرة واحدة إلى الأقداس، فوجد فداءً أبدياً» (عب٩: ١١و١٢)، «حيث دخل يسوع كسابقٍ لأجلنا» (عب٦: ٢٠). هذه الآية تنطبق انطباقاً عجيباً وعميقاً على آية إنجيل يوحنا، وتشرحها، وتشرح كيف وبماذا هيأ لنا المسكن السماوي، وكيف دشّنه بدمه، حتى يصلح لسُكْنَى الخطاة.

«أنا أمضي لأُعدّ لكم مكاناً»:

الموضوع كله تعزية، الرب يهوّن على أحبائه ثقل الفراق، و يدخل إلى الحقيقة الروحية مباشرة، فالإقامة في الأرض خرافة، الإقامة الحقيقية والدائمة هي فوق، الأرض ليست «موضعاً» للروح بل هي أولاً وأخيراً مقبرة حزينة للجسد، والجسد مهما تجمّل فالذبول مآله. إذن، فالرجاء كله يتحتم أن يُربَط بالموطن الحقيقي، وعند مَنْ؟ عند الآب. وللابن عند الآب مجالٌ إلهي، كله مجد و بهاء وسلطان، كان قد تخلى عنه ليتفرغ إلى مهمته على الأرض بالجسد.

والآن قد آن الأوان للعودة إلى الأحضان الأبوية واستعادة المجد الذي له عند الآب واستلام كل سلطانه على قوات السموات، ليس كابن الله فقط، بل وابن الإنسان أيضاً، فالابن يعود إلى الآب حاملاً البشرية فيه. فعندما يوطّد سلطانه بوضعه الجديد من جهة «بشريته»، أي عندما يوطّد «للإنسان» مكانة جديدة لدى الآب، و يوطّن الإنسان بعد غُرْبته الطويلة في موطنه الأول مع الله، من داخل البنوّة العزيزة والفريدة التي له عند الآب، و يطمئن أن الحضن الأبوي يَسَعُ الإنسان الجديد المتبنَّى في ميراث بُنوّته الإلهية الوحيدة، حينئذ يعود ليأخذ الإنسان المَفْدي والمبرَّر والمتقدّس والمولود جديداً من الماء الحي والروح المحيي، المغسول بالدم الإلهي، المتهييء بالنعمة، والمستضيء بالنور الإلهي لميراثه الجديد في النور الذي لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل المحفوظ في السموات.

وربما تكون هذه المهمة، أي توطين الإنسان عند الله مرة أخرى، هي أعظم وأخطر عمل للمسيح سيقوم به عند الآب بعد تكميل مهمة الصليب، فهي النتيجة النهائية وختام التدبير الإلهي المتحصل من عمليتي التجسد والفداء.

أما تعدد «المنازل» في البيت الأبوي فراجع إلى درجات الاستنارة والإنارة. فعالم الله فوق، هو

عالم النور، ولا يوجد فيه أية خليقة غير منيرة. لذلك يقول عنه سفر الرؤيا إنه ليس فيه شمس ولا قمر، بل الله والخروف سراجه (رؤ٢١: ٢٣). فالمسيح هو النور الحقيقي، وباتحادنا به بالسر الآن يعطينا استنارة فقط، تُنشِّط الذهن الروحي لإدراك ما لا يُدْرَك ورؤية ما لا يُرى، وهذا عربون ما سيكون بالقيامة أي بالاستعلان والتجلِّي، حينما يتغيَّر جسدُنا المعتم، جسدُ الخطية المظلم، ليكون على شِبْه جسد مجد المسيح المضيء (في٣: ٢١). وهذا هو قول المسيح نفسه: «حينئذ يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم» (مت١٣: ٤٣)، بأنوار تتعدد وتترقى درجاتها، تبعاً لتعدُّد وتميُّز درجات الاستنارة الذهنية فيما يخص الإلهيات الآن.

والكلام يكاد يكون واضحاً أنه، منذ الآن، أمامنا طريق الاستنارة بالكلمة وعمل البر مفتوحاً لتنقية القلب، **لأن أنقياء القلب هم الذين يعاينون الله** (مت٥: ٨)، لنستزيد منه قدر ما نشتهي، وقدر ما نطلب ونسعى ونجتهد بالحب والحق، بانتظار القيامة والتجلي بنور المسيح، حينئذ نأخذ مواضعنا المناسبة لاستنارتنا في المنازل العليا المُعَدّة في نور القديسين: «حينئذ يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم.» (مت١٣: ٤٣)

٣:١٤ **«وإن مضيتُ وأعددتُ لكم مكاناً، آتي أيضاً وآخُذُكم إليَّ، حتى حيثُ أكونُ أنا تكونُونَ أنتم أيضاً».**

هنا يلطِّف المسيح من أثر صدمة الفراق، ويجعلها كأنها ضرورة حتمية، من أجل التلاميذ والعالم، فالمعنى يحمل العودة، والعودة ذات شأن وشئون، من أجل ضمان الخلود، فكأني بالمسيح يقول لهم: أنتم الآن «غرباء» و«يتامى»، **ولا يمكن أن أترككم كذلك، فلا بد أن أمضي لأُعد لكم «موطناً»** في «بُنوّة» الله، وآتي مرة أخرى، لا من أجل الخطية وغفرانها بعد، بل من أجل ميراث ومجد مُعَدٍّ!! «هكذا المسيح أيضاً بعدما قُدِّم مرة لكي يحمل خطايا كثيرين، سيظهرُ ثانيةً بلا خطيةٍ، للخلاص للذين ينتظرونه» (عب٩: ٢٨)، وبالأسلوب اللاهوتي: هي فُرْقة وقتية الآن، لحساب اتحاد أبديٍّ آتٍ.

«آتي أيضاً»:

مجيء المسيح الثاني أمر، وإن كان قد وقَّعه المسيح مُسْبَقاً على مستوى الزمن، إلا أنه لا يُستغَلَن زمنياً، فلا هو معروف متى سيكون أو كيف سيكون، لأن ظهوره سيكون مقصوراً على ذوي البصائر المفتوحة بالروح فقط: «قال له يسوع: إن كنتُ أشاءُ **أنه يبقى حتى أجيء**، فماذا لك؟! اتبعني

أنت.» (يو٢١:٢٢)

+ «والآن، أيها الأولاد، اثبتوا فيه، حتى إذا أُظهِر، يكون لنا ثقة ولا نخجل منه في مجيئه.» (١يو٢:٢٨)
+ «أيها الأحباء، الآن نحن أولاد الله، ولم يُظهر بعد ماذا سنكون، ولكن نعلم أنه **إذا أُظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو.**» (١يو٣:٢)
+ «وأخيراً قد وُضع لي إكليل البر، الذي يَهَبُهُ لي، **في ذلك اليوم، الربُّ** الديّان العادل، وليس لي فقط، بل **لجميع الذي يحبون ظهوره أيضاً.**» (٢تي٤:٨)
+ «**متى أُظهر المسيح حياتنا، فحينئذ تُظْهَرون أنتم أيضاً معه في المجد.**» (كو٣:٤)
+ «فإن سيرتنا نحن هي في السموات، التي منها **ننتظر أيضاً مخلصاً هو الرب يسوع المسيح،** الذي سيغيِّر شكل جسد تواضعنا، ليكون على صورة جسد مجده، بحسب عمل استطاعته أن يُخضِعَ لنفسه كل شيء.» (في٣:٢٠و٢١)

و«**مجيء المسيح**»، في لاهوت إنجيل يوحنا، غير محدود، فهو، كما لَخَّصه في المقدمة، في صورته الدائمة والمستمرة على مدى الزمن والأزمان كلها: «كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان **آتياً** إلى العالم» (يو١:٩)، أي أن المسيح ــ كنور العالم ــ هو في حالة مجيء مستمر ومتعدد «آتياً» ἐρχόμενον . **فهو أتى، ويأتي، وآتٍ، وسيأتي:** «أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية، يقول الرب الكائن والذي كان، **والذي يأتي،** القادر على كل شيء» (رؤ١:٨)؛ «لأنه بعد قليل جداً **سيأتي الآتي** ولا يبطيء» (عب١٠:٣٧)؛ «لا أترككم يتامى، **إني آتي إليكم.**» (يو١٤:١٨)

وواضح أن **مجيء المسيح خبرة إيمانية، فهو حالة استعلان أو ظهور أو حلول الحضرة الإلهية** في الحياة الحاضرة كاختبار فرحة الإيمان بحضور المسيح، أو حالة انطلاق الروح بعد الموت واستعلان المسيح المفاجيء للروح وحصولها على حالة غبطة فائقة، أو مع مجيء الروح القدس للتوبيخ والتبكيت والإنذار، وظهور المسيح بمظهر القاضي والديان لرَدْع النفس، وفَتْح طريق التوبة أمامها، أو في مجيئه اليومي والأسبوعي في الكنيسة، لقيادة صلواتها ومسيرتها، وتقديس أسرارها، ومنح نفسه لأولادها، أو في مجيئه الأخير لإخضاع كل شيء ولتغيير هيئة العالم، واستعلان سماء جديدة وأرض جديدة. كل هذا واقع في صميم مجيء المسيح كحقيقة أبدية فائقة على الزمان ولكنها مُشتعلة فيه.

«آخُذُكم إليَّ»:

التعبير اليوناني أغنى من العربي، وأكثر عمقاً: παραλήψομαι ὑμᾶς πρὸς ἐμαυτόν أي **«أستقبلكم إلى نفسي»**، حيث كلمة πρὸς باليونانية تفيد استمرار الاندفاع نحو الآخر. وكأنما التلاميذ، وهم مدفوعون بالشوق الشديد ومنجذبون بالروح نحو المسيح، من جراء الحب أو العِشْق الإلهي الذي احترقت به قلوبهم، إذ بالمسيح يستقبلهم و يضمُّهم إلى حضنه فيكمِّل عجز اندفاعهم نحوه، يجذبهم إلى نفسه حسب شدة قوة حبه الفائق على حبهم؛ وما نَقُصَ من استحقاقهم للقرب منه، يعوِّضه باستحقاق برِّه القادر أن يوحِّدهم بنفسه.

وهنا يلزمنا، أيها القارىء العزيز، أن ننوِّه بالفارق الكبير بين ما نستمتع به الآن من استعلانات حضرة المسيح التي نَنْعَم بها في صلواتنا وحبنا وشدة فرحتنا التي تغمر مشاعرنا وكأننا بلغنا المنتهى، وبين ما أعدَّه لنا المسيح في ملكوته؛ الأمر الذي لو تأملناه، لهانت علينا الآن كل آلام الزمان الحاضر مع أوجاع الجسد وهموم العالم...

«حتى حيث أكون أنا، تكونون أنتم أيضاً»:

ما دفعه المسيح في تعذيبات الذبح وكل التغريمات التي فُرِضَت عليه ودَفَعَها راضياً، سيذهب إلى الآب ليأخذ ثمنها بالكامل، كحقوق ثابتة تضاف بكاملها لحسابنا. فالمجد الذي يستردُّه، يُعطَى له مضافاً إليه اتساعات تَسَعُ كل مدعوِّيه الذين دعاهم ولبُّوا الدعوة لوليمة مجد سمائي، تهتز لها كل العروش والسيادات. إنها حفلة عرس الخروف والكنيسة، مزيَّنة بكامل زينة المسيح عريسها. وتاج البُنُوَّة الإلهية، الذي للمسيح الفريد والوحيد في السلطان والعظمة والرئاسة، يتسع ليشمل رؤوس كل المدعوين، الذين رفعهم من درجات العبيد إلى درجة أصدقاء وأحباء العريس، بصكِّ التبنِّي المكتوب والمختوم بالدم؛ لأن العريس، وهو ابن الله الوحيد ــ المونوجانيس ــ أخذ في تغرُّبه على الأرض جنسية البشر، وبهذا أعطى البشرية حقَّ التجنُّس بجنسية العريس، فنالوا استحقاق التواجد الدائم معه، وكأنهم صاروا أهلية له، أو **«أهل بيت الله»** (أف ٢: ١٩)، أو عروساً مع عريسها في خدر سمائي واحد.

قول المسيح: «حيث **أكون** أنا **تكونون** أنتم أيضاً»، تعبير لاهوتي يعبِّر عن كيانٍ غير مفترق، بحسب عمل شدة قوته، وتفاضل غنى نعمته، التي أكمل بها عجز الإنسان في عيني الله، هذا العمل الذي انتهى إلى عمل وحدة غير مفترقة مع المسيح والله (يو١٧). أما بحسب العيان، فقد رأى ق. يوحنا هذه الكينونة غير المفترقة على صورة راعٍ ورعية: «... **هؤلاء هم الذين يتبعون**

الخروف حيثما ذهب... لأنهم بلا عيب قدام عرش الله.» (رؤ١٤: ٤و٥)

وقد عاد المسيح وركّز على هذا الوجود أو الكيان المتلازم بينه وبين أحبائه، في صلاته الأخيرة للآب: «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني، **يكونون معي حيث أكون أنا**، لينظروا مجدي الذي أعطيتني، لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم.» (يو١٧: ٢٤)

لذلك كان مُنْتَهى شهوة القديسين أن يفلتوا من سطوة الجسد ويكونوا مع المسيح: «فإني محصورٌ من الاثنين، لي اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح ذاك أفضل جداً، ولكن أن أبقى في الجسد أَلْزَمُ من أجلكم.» (في ١: ٢٣و٢٤)

١٤: ٤ «وتعلَمُونَ حيث أنا أذهبُ، وتعلَمُونَ الطريقَ».

المسيح يفترض في تلاميذه، أو هو يدعوهم إلى هذا الافتراض، أنه بحسب كلّ ما سمعوه منه حتى الآن وكل ما صنعه أمامهم، فهم يعرفون **أنه ذاهب إلى الصليب، ومن الصليب إلى أبيه.** وبذهابه إلى الصليب بإرادته، وكأنه ذاهب إلى مهمة خاصة وعاجلة، ثم بارتفاعه ــ عن طريق الموت ــ إلى الآب كمَنْ يقدم تقريراً عن اكتمال مهمته، يكون قد افتتح طريقاً جديداً من الأرض إلى السماء ومن الإنسان إلى الله، طريقاً صالحاً لعبور كل الذين نالوا العتق من حكم الموت.

ثم جاء سؤال توما وسؤال فيلبس، فاستقبلهما المسيح كما استقبل حديث تلميذي عمواس ــ فيما بعد ــ حيث أكمل عجز الفكر البشري وتخلُّفه عن متابعة استعلانات الروح من واقع الحوادث.

ألم يقدم لهم، منذ ساعة، جَسَدَه المكسور ودمَه المسفوك؟ ألم يخرج أمامهم يهوذا بعد أن أخذ شهادة من الرب أنه المعيَّن من قِبَلِ الشيطان لتسليم الرب للموت؟

١٤: ٥ «قال له تُومَا: يا سَيِّدُ لسنا نعلَمُ أين تذهبُ، فكيف نَقْدِرُ أن نعرفَ الطريقَ؟».

ما معنى الذهاب إلى الآب، وما معنى إعداد المكان، وكيفية العودة؟ ما أسرار هذه الرحلة التي لم يسمع بها أحدٌ قط ولا خَطَرَتْ على قلب بشر؟ هل ستأخذه مركبة نارية؟ هل ستقوده ملائكة؟ هل على سلم يعقوب؟ ثم إلى أين، هل إلى حضن إبراهيم؟ أم إلى حضن أعلى؟ وكيف يتبعونه في طريق لا يعرفونه، فكيف يقول لهم: تعرفون الطريق؟ تسرُّعٌ على كل حال!!

ثم إن الصعوبة التي قامت في ذهن التلاميذ كانت تدور حول كيف يُنشىءُ الموت أملاً ورجاءً؟ لأن «القيامة» كانت مختفية عن أذهانهم. والموقف هنا شبيه بموقف مرثا، فهي تعرف أن أخاها سيقوم في اليوم الأخير، ولكن ما علاقة ذلك بالمسيح؟ مما جعل المسيح يعلن نفسه لها أنه هو «القيامة والحياة»، وبرهن لها ذلك بالفعل، إذ أقام أخاها من الموت.

توما هنا يسأل عن معنى الذهاب وكيفية الذهاب وإلى أين يكون الذهاب، فكيف بعد هذا يعرفون الطريق؟ لقد بدا لهم الموضوع على مستوى جسدي، فتحيرت عقولهم كتلميذي عمواس، مما اضطر المسيح أن يقول له، كما قال لمرثا: «أنا هو القيامة والحياة»، ولكن بصورة أخرى: «أنا هو الطريق والحق والحياة». مرثا لم تفهم علاقة القيامة بالمسيح، وتوما لم يفهم علاقة **«الطريق»** بالمسيح. الموت وقف ليسدّ كل منافذ التفكير والأمل عند مرثا، وكذلك أيضاً عند توما. ولكن عند توما، كانت العقبة هي في **«حقيقة»** الموت كطريق حياة، هذا كان أمراً صعباً **«كحقيقة»**.

فالمسيح فسَّر كل هذه الخفيَّات واستعلنها «في نفسه» أنه هو الطريق، وهو الحقيقة التي تعلن الطريق وتقود إليه، وهو الحياة كنهاية وغاية. وبمعنى مختصر ولكن يفوق التصور الجسدي ولا يمكن أن يمسكه العقل، أن الذي يمسك بالمسيح يكون قد عبر الطريق دون أن يجوزه، وعبر الموت دون أن يعبر رُعبته، ويكون قد قام دون أن يموت، بل يكون قد بلغ موضعه في السماء واستقر دون أن يغادر الأرض، أو يكون قد غادرها، سيّان. ألم يَقُلْ المسيح مرة أنه هو ابن الإنسان الذي على الأرض الذي هو في السماء؟ (راجع يو٣:١٣)، وكأنه هنا وهناك بآن واحد، ونزل وصعد دون أن يغادر لا هنا ولا هناك، وأنه وهو معنا لم يغادر حضن الآب، وألم يقل لهم في بكور أيام تلمذتهم أنهم من الآن... «يرون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون و ينزلون على ابن الإنسان» (يو١: ٥١)؟ فَلِمَنْ كانت الملائكة تصعد بهذه السهولة؟ إلاَّ للإنسان، لتمهد له الصعود؟ ولِمَنْ كانت تنزل؟ إلا لنا، لكي تمسك بأيدينا لنصعد بسهولة، فكيف لا يصعد الإنسان؟ والسلم قد أقامه لنا من جسده الذي ثبَّت به الأرض بالسماء، وأطعمهم به علناً ليثْبُتْ فيهم إلى الأبد و يثْبُتون فيه، فلا يحتاجون إلى مَنْ يُعرِّفهم الطريق بعد، إذ هو قائم في داخلهم، وسقاهم دمه ليسكن فيهم روحه الأزلي، ليصيروا من الروحيين إلى الأبد، إذا نفضوا غُرْبتهم عن الأرض والأرضيين.

ألم يظهر الله في الجسد، فصار معنا، لكي بالجسد نصير في الروح ونظهر معه؟ ألم يلتصق ببشريتنا، فصار واحداً منا، لنلتصق بروحه، فنصير فيه واحداً مع أبيه؟ «وأما مَنْ التصق بالرب فهو روح واحد» (١ كو٦:١٧)، ألم يتغرَّب عندنا قليلاً ليفكَّ أَسْرَ غربتنا، و يأخذنا لنستوطن

عنده إلى الأبد؟ ألم يأخذ من الآب كل شيء: «وهو عالم أن الآب قد دفع كل شيء إلى يديه...» (يو١٣: ٣)، ليعطيه لنا، ليمكّننا من العودة معه إلى الآب، لنرث كل شيء: «وأنه من عند الله خرج (إلينا)، وإلى الله يمضي (ونحن معه)»؟ (يو١٣: ٣)

١٤: ٦ **«قالَ لهُ يسوعُ: أنا هُوَ الطريقُ والحَقُّ والحياةُ، ليسَ أحدٌ يأتي إلى الآبِ إلاَّ بي».**

ثم ما هو الطريق؟ نحن قلنا، كما قالت الرسالة إلى العبرانيين، أن: «... لنا أيها الإخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس، بدم يسوع طريقاً كرّسه لنا حديثاً، حيًّا، بالحجاب أي جسده» (عب١٠: ١٩و٢٠). ولكن أيضاً ما هو الطريق؟

لو علمنا أن جوهر رسالة المسيح تقوم على فِعْلَيْن أساسيين أكملهما المسيح:

الفعل الأول: هو استعلان الآب السماوي. فالمسيح، وهو الابن المتجسد، استطاع بصفته هذه، أي من خلال بنوته المطيعة المُحِبّة للآب، أن **يعلن** لنا الآب ــ والأفضل أن نقول **يَسْتَعْلِن** لنا الآب ــ **لأن الإعلان يختص بالمعرفة عن شيء مُدْرَك**، أما **الاستعلان فهو معرفة الخفيّات وما لا يُدْرَكُ.** فالمسيح استطاع بتعليمه وبروحه الأزلي وطاعته المطلقة للآب، أن يستعلن لنا الآب غير المُدْرَك ولا المعروف، وذلك من خلال تكميل مشيئته والعمل بوصاياه: «أنا قد حفظتُ وصايا أبي» (يو١٥: ١٠). «الله لم يَرَهُ أحد قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر.» (يو١: ١٨)

هذا هو الفعل الأول والهام جداً الذي قام به المسيح، وهو استعلان الآب للعالم.

أما الفعل الثاني: فهو أنه، وهو حامل لجسد البشرية، استطاع كابنٍ الصعود به إلى الآب من حيث جاء، وذلك من خلال قوة قيامته، وبواسطة روح الحياة الأبدية التي فيه: «... أنه من عند الله خرج وإلى الله يمضي.» (يو١٣: ٣)

بهذين الفعلين: أي باستعلان الآب للعالم، وبرَفْع البشرية التي فيه إلى الآب السماوي، **يكون المسيح هو الطريق الوحيد الموصّل إلى الآب، باستعلان شخص الآب في نفسه، وبالوصول إلى الآب، وهو حامل لجسم بشريتنا.** وبذلك يكون المسيح حقاً وبالفعل الطريق الوحيد إلى الآب، ولا يستطيع أحد أن يأتي إلى الآب إلاَّ به.

أما فيما يخصُّ الردَّ على سؤال توما، فقد أصبح على توما أن يفهم من كلام المسيح أن المسيح

ذاهبٌ إلى الآب، ردًا على قوله: «لسنا نعرف أين تذهب»؛ وأن المسيح، بموته عنا وقيامته بنا وصعودنا معه إلى الآب، يكون هو الطريق الوحيد المؤدي بنا إلى الآب، ردًا على قوله: «فكيف نعرف الطريق»؟

والمسيح بقوله المختصر والمركّز والمشدّد: «أنا هو الطريق» — ἐγώ εἰμι ἡ ὁδός — حيث التشديد يأتي مُركّزاً في «أنا» (أنا هو ἐγώ εἰμι)، وحيث «أنا» ككيان حي إلهي — أنا وليس أي كيان أو شيء آخر — حيث تأتي «أنا» لتجيب على كل ما هو مطلوب للمعرفة، وكل ما هو «كيف»، وبأي «قوة»، وبأي «استحقاق»، وبأي «عمل». فتكون المسألة لا تعود تحتمل سؤالاً واستفساراً عن الذهاب وعن الطريق، يكفي الإنسان أن يمسك بالمسيح ليصل إلى الآب: «لأن به لنا كلينا قدوماً، في روح واحد، إلى الآب» (أف٢:١٨)، لأنه هو الطريق بكل مستلزماته، من معرفة كل الحقائق عنه، ومن الحصول على جوهر الحياة اللائقة به.

وبقول الرب هذا، يكون المسيح قد قطع خط الرجعة على أي ادّعاء بأي وساطة أخرى، لأي علم أو معرفة أو روح، ليشترك من قريب أو بعيد في الوصول إلى الله. فهو طريق الخلاص الوحيد الموصّل للآب، كما رأيناه سابقاً في (١٠:٩) أنه هو الباب الوحيد أيضاً.

«أنا هو... الحق والحياة»:

المسيح لا يعلّم الحق عن الله، بل هو الحق الإلهي، هو الله الابن، وهو استعلان «الآب» في ذاته مباشرة وبلا أي وسيط آخر. فهو «الحق» وهو الوحيد الذي يشهد للحق: «لهذا قد وُلِدْتُ أنا، ولهذا قد أتيتُ إلى العالم، لأشهد للحق.» (يو١٨:٣٧)

أي أن الذي يدرك المسيح، يدرك الله الآب. فالمسيح هو استعلان للآب، يستعلنه في ذاته من خلال «الكلمة والعمل».

كذلك «الحياة»، فالمسيح لا يمنح حياة غير حياته، وحياته هي ذاته: «فيه كانت الحياة» (يو١:٤)؛ «فمَنْ يأكلني، فهو يحيا بي» (يو٦:٥٧). وحياته هي الحياة الأبدية، وهي حياة الآب، وهي رسالته: «أتيتُ لتكون لهم حياة، وليكون لهم أفضل» (يو١٠:١٠)، وكلماته هي روح وحياة (٦:٦٣)، والذي يسمع كلام المسيح يحيا ولو كان ميتاً (٥:٢٤)، «ولكي تكون لكم، إذا آمنتم، حياة باسمه.» (٢٠:٣١)

كثير من الشراح لم ينتبهوا إلى أن المسيح يركّز على الفصل بين الطريق، والحق، والحياة، فهو

كلٌّ واحد من هذه؛ فهو الطريق، وهو الحق، وهو الحياة. الطريق يؤدي إلى **الآب**، والحق هو استعلان **الآب**، والحياة هي في ذاته وفي **الآب**.

لذلك لا يستقيم القول بأن الطريق يؤدي إلى الحق والحق يؤدي إلى الحياة، هذا خَلْطٌ بين النظريات الفكرية والواقع الإلهي القائم بالكيان الذاتي في المسيح. فالمسيح، بالكيان الذاتي، هو الطريق الموصِّل إلى الآب، وبالكيان الذاتي يستعلن الحقَّ، وهو **الآب فيه**، وبالكيان الذاتي هو الحياة، فيه وفي الآب. فالمجال هنا لا يتسع لنظريات يصطنعها الفكر البشري، لتولِّف بين الطريق والحق والحياة وكأنها مواضيع، هذا خروج عن المعنى اللاهوتي الصحيح، **فهي «ذات»** وليست موضوعاً.

كذلك يقول أحد العلماء الكبار، وهو توما الأكويني، في نظريته التي وضعها في القرون الوسطى بأن المسيح هو طريقٌ بحسب بشريته، ولكنه هو الحق والحياة بلاهوته. هذا تمزيق للمسيح لا يقبله الفكر اللاهوتي الصحيح. فبشرية المسيح لا وجود لها بدون لاهوته، ولا عمل لها خارج عمل لاهوته. وجسد المسيح صار طريقاً حديثاً إلى الأقداس العليا بلاهوته لأنه **«جسد الكلمة»**، و**«الكلمة المتجسد»** قام بقوة الحياة الإلهية التي فيه، وصعد كجسد مجدِ الابن الوحيد. ولا ينبغي أن يغيب عن بالنا أنه وهو يقول: «أنا هو " ἐγώ εἰμι " الطريق»، **فهو يعبِّر عن كيانه الذاتي الإلهي الكلي** وليس عن **«جزء»** منه أي جسده؟؟؟ وللأسف قد جرى مجرى هذا العالم الكبير كثيرٌ من العلماء المحدثين بلا وعي(٤).

كذلك أيضاً يرى بعض علماء اللاهوت الغربيين(٥) أن **«الطريق»** هو الأساس و يأتي بعد ذلك «الحق» و«الحياة»؛ بمعنى أن المسيح هو الطريق وأن الحق والحياة هما مجرد شرح للطريق، وهذا خلط لا ينبغي أن يكون. والخطأ واضح هنا، لأن المسيح اتخذ كلًّا من الطريق والحق والحياة معياراً لاهوتياً قائماً بذاته، وكلًّا بمفرده جعله هويَّته، أي منسوباً لذاته وكأنه هو، بمعنى: **أنا هو الطريق، أنا هو الحق، أنا هو الحياة!** فالطريق والحق والحياة لم تَعُدْ صفات في ذاتها يمكن التمايز والتواصل بينها، بل صفات لذاته. وذاته يستحيل التمايز فيها ما هو أول وثان وثالث. هذه الصفات التي اتخذها هويَّة ذاتية له، طرحها أمام تلاميذه لتكون مِلْكاً لهم بالإيمان به، فيعرفون الطريق به، و يعرفون الحق فيه، و يعرفون الحياة معه؛ والمعرفة في الإلهيات خبرة وممارسة وشركة. وهكذا يطرح المسيح أمامهم معرفته، لتكون لهم منهجاً كاملاً للحياة الأبدية مع الله.

---

[4] Brown, *op. cit.*, pp. 619-622.

[5] Ibid.

لذلك سنسمعه يوضح هذا، بكل بيان، بقوله: «**لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً. ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه... الذي رآني فقد رأى الآب**». كلام الرب هنا يؤكد للقارىء أن المسيح يركِّز على نفسه، أي على ذاته هو، «أنا هو ἐγώ εἰμι »، فلا طريقَ خارج عنه، ولا حقَّ بدونه، ولا حياةَ إلاَّ فيه، ولا آبَ إلاَّ بواسطته وفيه.

كذلك، لا ينبغي أن تغيب عنا البداية التي بدأ بها الحديث: «**لا تضطرب قلوبكم، أنتم تؤمنون بالله، فآمنوا بي**». فالرب وجد التلاميذ في حالة انزعاج لأنهم شعروا أنهم على وشك أن يفقدوا المسيح، وأنهم بذلك سيصيرون يتامى، فاختلت موازين إيمانهم، وضاعت من أمامهم علامات الطريق. وأصبح على الرب أن يثبّتهم في قاعدة إيمانهم بالله، و يقدم لهم نفسه ــ أي ذاته ــ كحقيقة دائمة حيّة، كفاية لكل شيء، فهو باقٍ لهم، وإنْ ذهب إلى الآب فسيأتي، وفي ذهابه ومجيئه يكون قد **عبَّد الطريق لهم في ذاته**، وأنه هو باقٍ لهم بذاته و بجسده ودمه، **مصدرَ الحق لاستعلان كل حقائق الله في ذاته**، وهو أيضاً باقٍ لهم ينبوعَ **الحياة الأبدية التي تسري لهم من ذاته فلا يخافوا من الموت**.

«ليس أحد يأتي إلى الآب إلاَّ بي»:

الآن قد استعلن لهم أن الله هو آب وابن معاً، فأصبح من البيِّن والواضح أن القصد الأساسي للاستعلان الذي جاء في ملء الزمان، بواسطة تجسد الابن وظهوره، هو وصول الله للإنسان، ثم وصول الإنسان إلى الآب. هذا أكمله الابن بتجسده أولاً، ثم بموته وقيامته وصعوده إلى السماء وجلوسه عن يمين الآب. فهي عملية أكملها الابن في ذاته حسب مشورة الآب، ليُصَالح العالم لنفسه بواسطة المسيح، فأصبح الوصول إلى الآب في المسيح و بواسطته **حقيقة إلهية وبشرية بآن واحد**، يتحتم الإيمان بها وقبولها. كما أصبح الدخول إلى الآب هو من داخل الحياة الأبدية التي في المسيح والتي يتحتم الإيمان بها وقبولها. كما أصبح واضحاً أنه من المستحيل الوصول إلى الله بدون المسيح، لأن الله «آب وابن»، إذن: «كل مَنْ ينكر الابن ليس له الآب أيضاً» (١يو٢: ٢٣)، حتماً و بالضرورة، لأن الآب لا يوجد ولا يُرَى إلاَّ بالابن وفيه.

وهكذا يقرر المسيح أن: «ليس أحد يأتي إلى الآب إلاَّ بي». وواضح أن الطريق الذي اتخذه الله بواسطة المسيح، ليبلغ به الإنسان إلى الحقيقة الإلهية والحياة الأبدية معه كان:

أولاً: نزل باللاهوت إلى الطبيعة البشرية في ذاته بسرٍّ إلهي لا يُنْطَق به.

ثانياً: استعلن هذا السر منظوراً ومحسوساً ومدركاً في ذاته بالقول والعمل، ليوصله إلى كل إنسان **«كحق»**.

ثالثاً: ثم سكب حياته بموته، ليمنحها لكل مَنْ يتقبّلها بالسر و بالروح القدس، ليحيا في الله إلى الأبد.

هذه الثلاث الخطوات يقدمها المسيح لتلاميذه وللعالم في ثلاث عمليات أو ثلاثة أعمال روحية:

أولاً: الإيمان بابن الله آتياً إلى العالم بالجسد.
ثانياً: قبول حقيقة استعلان سر الله الآب في المسيح.
ثالثاً: قبول حياة المسيح المنسكبة بالموت والمُستعلَنة بالقيامة والممنوحة بالروح القدس في السر.

هذه الثلاثة الأعمال الروحية هي المعبَّر عنها: «أنا هو الطريق والحق والحياة»، والمشروحة باختصار في قوله: «ليس أحد يأتي إلى الآب إلاَّ بي».

١٤:٧ «لو كنتم قد عَرَفتُمُوني لعَرَفتُم أبي أيضاً. ومن الآن تعرِفُونَهُ وقد رأيتمُوهُ».

مراجعة وعتاب لا بد منهما. كم سنة وأنا معكم أُعلن لكم نفسي «أنا هو» وأستعلن في ذلك أبي أيضاً؟ كم من الإعلانات قدّمتُها لكم عن مَنْ هو أنا ومن هو أبي؟ ثم كَمْ من الآيات والمعجزات الكاشفة، الواحدة تلو الأخرى والواحدة أوضح من الأخرى، لتدركوا رسالتي وتدركوا مَنْ أرسلني؟ والآن تسألونني عن أين أنا ذاهب؟ وتسألونني عن الطريق التي تذهبون أنتم فيها ورائي؟

لقد لخَّص ق. يوحنا في مقدمة إنجيله رسالة الابن الكلمة المتجسد في آية واحدة: «الله لم يَرَهُ أحدٌ قط الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر» (يو١ : ١٨). لقد استُعلن الابن ظاهراً في الجسد، ليعلن الآب غير المرئي، ليكون منظوراً فيه؛ وهذا ما أوضحه سفر العبرانيين بقوله: «الله ... كلَّمنا ... في ابنه ... الذي به أيضاً عَمِل العالَمِين، **الذي، وهو بهاء مجده ورسم جوهره** وحاملٌ كل الأشياء بكلمة قدرته، بعدما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا، جلس في يمين العظمة في الأعالي صائراً أعظم من الملائكة، بمقدار ما ورث اسماً (ἐγώ εἰμι) أفضل منهم» (عب١ : ١ــ٤). «الذي رآني فقد رأى الآب» (١٤ : ٩)، لأن الابن والآب واحد، فإن نُظر الواحدُ (بالروح) نُظر الآخر، وإن عُرف الواحد (بالروح) عُرف الآخر. الابن والآب ذات واحدة، إن قال الابن: «**أنا هو الكائن بذاتي** ἐγώ εἰμι»، كان الآب هو المتكلم بفم الابن ــ لأن هذا هو اسم الآب ــ

وكان الابن متكلماً باسم الآب. إن صنع الابن آية، فهي مشيئة الآب مُعْلَنَةً. وإن أجرى الابن قوات، فهي قوة الآب مُعْلَنَةً. وإن رأيتموني مصلوباً، فهذه وصية الآب مُطاعة، وإن رأيتموني أسلم الروح، ففي يد الآب أستودعها، ومن يده آخذها. وموتي هو موتكم، أموته لأجلكم لأُحييكم بقيامتي. حياتي هي بالآب، وفي الآب قائمة، حياتي أعطيكم، فأُعطيكم الآب الذي فيَّ، أنا أظهرتُ ثبوتي في الآب بتكميل وصيته حتى الموت، فإن ثبتُّم في وصيتي حتى الموت ثبتم فيَّ، وثبتُّم في أبي أيضاً. لقد عرَّفتُكم نفسي بحياتي، وعرَّفتُكم حياتي بموتي، وعرَّفتكم أبي الذي يعمل فيَّ.

«ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه»:

«من الآن»، هنا، تعني «من هذه الساعة»، ساعة المحنة العظمى التي تُكمَّل فيها كل مشيئة الآب وكل طاعة الابن. فتُستعلن رسالة الحب الأبوي في قمة بذلها، ورسالة حب الابن في قمة طاعتها وسحقها. والرائي يرى الآب من خلال تكميل عمل حبه الفائق في ابنه من نحونا، سواء بالصليب أو بالقيامة: «لا أزال شاكراً لأجلكم، ذاكراً إياكم في صلواتي، كي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح أبو المجد **روح الحكمة والإعلان في معرفته، مستنيرة عيون أذهانكم لتعلموا (لتروا)** ما هو رجاء دعوته، وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين، **وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا، نحن المؤمنين، حسب عمل شدة قوته الذي عمله في المسيح، إذ أقامه من الأموات، وأجلسه عن يمينه في السماويات.**» (أف١: ١٦-٢٠)

وليلاحظ القارىء أن كلمة «تعرفونه» هنا: «من **الآن** تعرفونه» تأتي في زمن المضارع القابل للامتداد، كما يوحي اللفظ اليوناني γινώσκετε، أي من ساعة الآلام هذه التي تبلغ شدَّتُها بالموت، وقمَّتُها بالقيامة، واستعلان كل ذلك يوم الخمسين. ولكن الآلام عند المسيح، وفي إنجيل ق. يوحنا، هي هي المجد بعينه، والمجد في قمة استعلانه، حيث تُرى المحبةُ متجلِّيةً بدمها، ومسرة الآب تحيطها من كل جانب: «أما الرب فسُرَّ بأن يسحقه بالحزن، إن جعل نفسه ذبيحة إثم» (إش٥٣: ١٠)، «**الآن، تمجَّد ابنُ الإنسان، وتمجَّد الله فيه.**» (يو١٣: ٣١)

إن أعظم استعلان للآب حقَّقه المسيح، هو بتكميل مشيئته في **قبوله للموت**، إذ من هذا المنطلق **تفجَّرت «الحياة الأبدية» من دمه المسفوك**، والتي فيها استُعلن الآب: «**وهذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك** أنت **الإله الحقيقي** وحدك، و يسوع المسيح الذي أرسلته، **أنا مجَّدتُك على الأرض، العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملتُه ... أنا أظهرتُ اسمك للناس**

... وعرَّفتُهم اسمك وسأُعرِّفهم، ليكون فيهم "الحب" الذي أحببتني به، وأكون أنا فيهم.» (يو17)

فالآب غير مُدْرَك ولا منظور، استطاع الابن أن يعلنه في نفسه و يعرِّف العالم به قولاً وعملاً، إنما فقط للذين آمنوا وقَبِلُوا الابن. لأن الآب لا يُدرَكُ ولا يُرى قط إلا في الابن (أي في البُنُوَّة التي له): «ليس أحد يعرف من هو الابن، إلاَّ الآب ولا من هو الآب إلاَّ الابن، **ومن أراد الابن أن "يعلن له".**» (لو10: 22)

وفي لحظات تجلي الابن، التي انفعل لها التلاميذ مراراً وتكراراً وصرخوا وشهدوا أنه هو ابن الله الحي، لفت المسيح نظرهم: «إنَّ لحماً ودماً لم **يُعلِنْ لك**، لكن **أبي الذي في السموات.**» (مت16: 17)

أي أن بتجلي الابن، كان الآب يتجلَّى للتلاميذ من خلال الرؤية الإيمانية الروحية: «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو14: 9). على أن معرفة الآب لم تكتمل للتلاميذ إلاَّ بعد الصعود وحلول الروح القدس، الذي استعلَن لهم سر الابن والآب، استعلاناً هو الرؤيا بعينها. لذلك نسمع ق. يوحنا يفتخر بمعرفة الآب التي سلَّمها للأبناء: «أكتب إليكم، أيها الأحداث، لأنكم قد غَلَبتُم الشرير، أكتب إليكم أيها الأولاد لأنكم قد عرفتم الآب» (1يو2: 13)، حيث تقع **معرفة الآب** عملياً عند ق. يوحنا على التوازي مع غلبة الشرير، واضعاً أمام أولاده بعد ذلك المضادة العظمى بين محبة العالم ومحبة الآب: «إن أحب أحد العالم، فليست فيه محبة الآب» (1يو2: 15)؛ بمعنى أن معرفة الآب، يكون **صدقُ وجودها من واقع فعلها المنحصر** في بُغْضة شهوة الأشياء الزائلة التي في هذا العالم. والقديس بولس الرسول يعطي نفسه نموذجاً: «... قد صُلِبَ العالم لي، وأنا للعالم.» (غل6: 14)

و يا قارئي العزيز، إن الذي يذوق صليب المسيح من داخل بُغْضَة واضطهاد العالم له، و بُغضته هو للعالم واحتقاره لأباطيله، يدرك عملياً معنى معرفة الآب بل وتُسْتعلَن له، بل وتنسكب فيه محبته.

لذلك، فقول المسيح: «ومن الآن تعرفونه»، أي من ساعة الصليب، قول صادق يحمل سر نصرة المسيح في معركته مع العالم: «لأن رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيَّ شيء»؛ «ثقوا أنا قد غلبت العالم» (يو14: 30؛ 16: 33)، لأنه حينما اكتملت وصية الآب بالموت، وَجَبَ

استعلان شخصه!

كذلك يلزم، للغاية، أن ندرك كم كانت «**معرفة الآب**» رسالة هامة جداً عند المسيح، بل وكأعزّ ما جاء ليعلنه ويُسلِّمه للتلاميذ، وبالتالي للعالم كله، وعلينا أن نتمعن في قوله عن ذلك:

ــ «وفي تلك الساعة تهلل يسوع بالروح، وقال: **أحمدُك أيها الآب رب السماء والأرض، لأنك أخفيت هذه (معرفة الآب) عن الحكماء والفُهَمَاء وأعْلَنْتَها للأطفال**. نعم، أيها الآب، لأن هكذا صارت المسرَّة أمامك. والتفت إلى تلاميذه وقال: كلُّ شيء قد دُفِعَ إليَّ من أبي، وليس أحدٌ **يعرف من هو الابن إلاَّ الآب، ولا من هو الآب إلاَّ الابن، ومن أراد الابن أن يعلن له**، والتفت إلى تلاميذه على انفراد، وقال: **طوبى للعيون التي تنظر ما تنظرونه (شخص الآب في صورة المسيح)**، لأني أقول لكم إن أنبياءَ كثيرين وملوكاً أرادوا أن ينظروا ما أنتم تنظرون (الله)، ولم ينظروا، **وأن يسمعوا** ما أنتم تسمعون (صوت الآب)، ولم يسمعوا.» (لو١٠: ٢١ــ٢٤)

ولم يدرك التلاميذ معنى هذه **الطوبى** وقيمتها العظمى، إلاَّ بعد أن حلَّ عليهم الروح القدس وعرَّفهم **سر الآب في الابن**: «وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح.» (١يو١: ٣)

على أنه يتبقى أمامنا استجلاءٌ إضافيٌّ لمعنى «ومن الآن تعرفونه، وقد رأيتموه»، فإن كنا قد رأينا أن الذي استطاع أن يؤمن حقاً بالمسيح ويحبه في ذاته، يكون قد رأى فعلاً الآب، لأن المسيح هو الصورة المنظورة للآب غير المنظور: «الله ظهر في الجسد» (١تي٣: ١٦)؛ كذلك، والعكس أيضاً صحيح، فإن كلَّ مَنْ بلغ الإيمان الحقيقي بالله وأحبه من كل قلبه بإخلاص العبادة والتقوى، فإنه حتماً سيكشف له الآب عن المسيح أنه هو صورته الخاصة ورسم جوهره.

لذلك، فالذين رفضوا المسيح يكونون قد برهنوا عملياً أن ليس لهم إيمان حقيقي كامل بالله، ولا محبة صادقة أو تقوى مخلصة، وإلاَّ كيف يرفضون وينبذون صورة مَنْ أحبوه وآمنوا به؟

أما التلاميذ فيقول لهم الرب: «من الآن»، أي من خلال الصليب والقيامة، سيبلغون حتماً إلى الإيمان الصحيح بالمسيح أنه فعلاً ابن الله، وبالتالي سيُستعلَن لهم الآب في المسيح على أساس إيمانهم الصادق بالله، لهذا بدأ المسيح قوله بهذه الحقيقة: «أنتم تؤمنون بالله، فآمنوا بي».

وفي موضع قادم سينعي المسيح إيمان اليهود الكاذب بالله، مؤكداً أنه بسبب عدم إيمانهم الحقيقي أو الصادق بالله أخطأوا معرفة المسيح، وعثروا فيه، وأبغضوه: «الذي يبغضُني يبغض أبي أيضاً ... وأما الآن فقد رأوْا وأبغضوني أنا وأبي ... إنهم أبغضوني بلا سبب.» (يو١٥: ٢٣ــ٢٥)

كما أنه في موضع سابق أراد المسيح أن يؤكد لسامعيه، أنه جاء حاملاً كل ملامح مَنْ أرسله قولاً وعملاً، واسماً وروحاً، ومشيئة وحُبّاً، لذلك فإنه يصبح من تحصيل الحاصل أن الذي يراه يكون قد رأى مَنْ أرسله بالفعل و بالصدق: «الذي يؤمن بي ليس يؤمن بي، بل بالذي أرسلني. والذي يراني، يرى الذي أرسلني» (يو١٢: ٤٤ــ٤٥). وهكذا يتضح أمامنا الآن، بكل جلاء، قوله عن الآب: «من الآن تعرفونه، وقد رأيتموه».

١٤: ٨ «قال له فيلبُّس: يا سيّدُ أرِنا الآبَ وكَفانَا».

سؤال حسّي، يخرج بالذهن، أو ينمُّ عن ذهنٍ، خارج دائرة اللاهوت كلية، فيلبُّس يريد أن يرى بعينيه اللامحدود والمطلق، كطفلٍ يحاول أن يقيس الأوقيانوس(٦) بمسطرة، أو يجمع الرياح في كفه. لقد تهيَّأ له أنه كما يُرى المسيح بالعين وهو الابن، إذن فالآب قد يُرى على هذا القياس، غير مُدرِكٍ أن تجسُّد الابن هو الذي وفَّر للعين أن تراه جسدياً فقط، ورؤية العين لا توفِّر رؤيا اللاهوت قط. وهذا يعني أن فيلبُّس لم يَرَ المسيح قط، ولم يعرفه بعد.

فالله لم يره أحد قط (يو١: ١٨). وإن كان الله قد ظهر في الجسد، فهو ظهور بسِرِّ الإيمان وليس بالعيان؛ أما الجسد فوعاء حل فيه كل ملء اللاهوت جسدياً، «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا» (يو١: ١٦). الجسد يُرى و يُسمع و يُلمس بالحواس، واللاهوت فيه لا يُرى ولا يُحس إلاَّ بالروح. فالله أخذ جسد إنسان ليتكلم مع الإنسان بالكلمة، والكلمة هي أيضاً منطوقة جسدياً، فالجسد للكلمة وعاء، ومن داخل وعاء الصوت المسموع والمحدود يسكن اللاهوت بكل ملئه الفعّال، وهو الذي لا تَسَعهُ السموات والأرض.

فإذا أُخذت كلمة المسيح جسدياً، فلن تُسمع إلاَّ مجرد صوت إنسان نَعرف أباه وأمه (يو٦: ٤٢)، وإخوته وأخواته أليسوا جميعاً عندنا (مت١٣: ٥٥و٥٦)؟... ولكن إذا سكنت «الكلمة» قلبَ الإنسان بغنى اللاهوت الذي فيها، احتضن الإنسان الله وأدرك أبعاده التي لا

(٦) الأوقيانوس كلمة يونانية الأصل Ὠκεανός تعني المحيط أي البحر العظيم.

تُدرك ولا تُحدُّ: «لماذا لا تفهمون كلامي؟ لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا **كلمتي** τὸν λόγον τὸν ἐμόν (أي اللوغُس)» (يو٨:٤٣). هنا سَمَعُ الكلمة، هو تقبُّل حقيقة المسيح، بمعنى انفتاح الوعي المسيحي لتقبُّل الله: «**وتعرفون محبة المسيح الفائقة المعرفة، لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله.**» (أف٣:١٩)

الله لاهوت، لاهوت خالص، ليس له جسد ولا وعاء يظهر فيه أو يتكلم منه. ولكن من أجل هذا، تجسد الابن، فصار وعاؤه يتكلم فيه الله الآب و يعمل. جسد الابن يُظهِرُ الابن للعين جسداً **فقط**؛ ولكن إذا تكلم الابن أو عمل، يظهر فيه الله الآب غير المنظور المتكلم والعامل في الابن و به.

فيلبُّس أخفق تماماً أن يرى الآب المتكلم والعامل بالابن وفيه، هذه السنين كلها!! و بكل صراحة، فإن فيلبُّس لم يَرَ اللاهوت في الابن، وإلاَّ لكان رأى الآب حتماً؛ لهذا فإن سؤال فيلبُّس أحزن قلب المسيح، وجعله ينظر إلى تعب السنين هذه وكأنها بلا فائدة ...

٩:١٤ «قالَ له يسوعُ: أنا معكم زمَاناً هذه مدَّته، ولم تَعرِفْني يا فيلبُّس. الذي رآني فقد رأى الآبَ، فكيف تقولُ أنت أرِنَا الآبَ».

المسيح يندهش كيف أنه لم يُستَعْلَن بعد كما ينبغي عند التلاميذ، حتى يتعرف عليه فيلبس؟ حيث يجيء التركيز على «**أنا معكم**»، ولم يقل المسيح «أنت معي». فالملامة التي يطرحها المسيح يطرحها على أساس احتجاب لاهوته عن فيلبس والبقية دون سبب، فلا هو يوم واحد قضاه مُتكلماً أو عاملاً أعمالاً لم يعملها أحد غيره قط، ولا هو شهر ولا سنة، بل ثلاث سنوات و يزيد وعن قرب شديد، وهو يَستَعْلِن الآب الذي فيه بالكلمة والعمل! ولكن إخفاق فيلبُّس في إدراك لاهوت المسيح، وهو التعرُّف الصحيح على المسيح: «لم تعرفْني»، لم يكن نتيجة تقصير في اجتهاد فيلبُّس. فالاستعلان لا يأتي كثمرة للاجتهاد بل لانفتاح الذهن الروحي، الأمر الذي يتوقف أساساً على مقدار عدم ارتباط الروح بالماديات وعلى الاستعداد لفُقْدان الصلة بالعالم.

فحينما يتحرر الإنسان من جذب العالم، و يتحرر من الجسد والخوف من الموت، يبدأ يَستَعْلِن ما وراء العالم وما وراء الموت. وهذا الأمر قد أثبتته الأيام، بل الساعات القليلة القادمة، أن فيلبُّس كان مربوطاً فعلاً بالعالم ولا يزال، بل لا يزال أيضاً يخاف من الموت، فقد ترك معلمه وهرب مع البقية ساعة المحنة، خوفاً من القبض عليه والمحاكمة والعقاب: «هوذا تأتي ساعة، وقد

أتت الآن، تتفرقون فيها كلٌّ واحد إلى خاصته، وتتركونني وحدي...» (يو١٦: ٣٢). فكيف يستقيم مثل هذا السلوك مع ذهن يفترض أنه قد استعلن لاهوت المسيح، وتعرَّف على حقيقة المسيح، كابن الله وكحامل للآب في كيانه؟

لذلك صحَّ أن تجيء مراجعة المسيح لفيلبُّس على أساس طول الزمان الذي توفَّر لفيلبس، لكي يقرر ويُنفِّذ فكَّ رُبُطِهِ من العالم والجسد والخوف، كاستجابة لوعظ المسيح وإرشاده وإعلانه واستعلانه، حتى يتسنى له الدخول في مجال الروح والإلهيات، فيدرك حقيقة المسيح، وتنفك من أمام ذهنه رموز استعلان الآب في المسيح، وهو ما كان شُغْلَ المسيح الشاغل.

يستحيل لأي إنسان أن يتعرف على المسيح كإله ــ ومعرفة الإلهيات أَخْذٌ واشتراكٌ، أو يُسْتَعلَنَ له لاهوته ووحدته مع الآب ــ والاستعلان بصيرة من الله، والإنسان لا يزال منجذباً نحو محبة العالم، لأن: «محبة العالم عداوةٌ لله» (يع٤: ٤)، أي بُعْدٌ ورفضٌ.

«الذي رآني، فقد رأى الآب، فكيف تقول أنت أرِنَا الآب»:

هنا حقيقة صارخة مفضوحة، وهي أن فيلبس لم يَرَ المسيح بعد. هنا عتاب آخر لا يخلو من الملامة، وهو لفت نظرٍ حزينٍ إلى حقيقة مقطوعٍ بها ما كان ينبغي أن تفوت على فيلبُّس وهي: أن الآب منظورٌ في الابن بالنظرة الروحية العميقة. فحياة المسيح كلها استعلانٌ للآب فيه، فإن كان فيلبُّس يطلب رؤية الآب، فعليه أن يُعيد النظر في رؤية المسيح، لأن كل رسالة المسيح قولاً وعملاً، هي لاستعلان الآب الذي فيه.

١٤: ١٠ «ألستَ تؤمِنُ أنّي فِي الآبِ، والآبَ فيَّ، الكلامُ الذي أُكلِّمُكُم بِهِ، لستُ أتكلّمُ بِهِ من نفسِي، لكنَّ الآبَ الحالَّ فيَّ هو يعمَلُ الأعمالَ».

هنا دعنا نترك موضوع **الرؤيا** جانباً، ونعود إلى الإيمان من حيث كونه حقائق الله في الحياة مع الإنسان، والتي أعلنها المسيح مراراً وتكراراً، وهي أن المسيح، كابن، كيانه هو في كيان الآب، ويظل قائماً فيه، وغيرُ منفصل عنه، لأنهما كيان واحد، **ذات واحدة:** «أنا والآب واحد» (يو١٠: ٣٠). أما الجسد الذي أَخذَه الابن لذاته ووحَّده بلاهوته، فقد دخل في هذا الكيان دخولاً أبدياً متميِّزاً، كإنسان في ابن الله، فشملته وحدة الابن بالآب بالضرورة. وهكذا صار المسيح بآن واحد يُعبَّر عنه بـ«ابن الإنسان ــ الذي هو على الأرض ــ الذي هو في السماء» (يو٣: ١٣)، بل وإنه، وهو متجسد، بقي كما كان في حضن الآب، كأعظم تعبير عاطفي عن الكيان المتحد، أو

وحدة الكيان للمسيح في الآب والآب في المسيح: «الابن الوحيد، الذي هو في حضن الآب، هو خبَّر.» (يو١ :١٨)

هنا يلزم العقل البشري أن يرتفع فوق القصور المادي للأمور، لأننا الآن نتكلم عن طبيعة الله التي ليست من طبيعة الماديات، ولكننا مُرْغَمُون، أو بالأصح، مُصرَّح لنا أن نتكلم كبشر عما هو للمسيح بسبب الجسد الذي أخذه منا وكيف وحّده بذاته الإلهية.

أما في الماديات، فلا يوجد قط هذا التصوُّر الذي نتصور به تساوي شيئين أو شخصين تساوياً مطلقاً أي تساوياً كليًّا، لأن المُطْلَقات أو الكُلّيات هي صفة ما فوق الطبيعة، وبالتحديد هي صفة الله. فالله مُدرَك كامل يُدرَك، ولكن لا يُدرَك كماله.

والحقيقة العظمى المطروحة للإدراك بالنسبة للإنسان، هي الأُبُوَّة والبُنُوَّة في الله(٧):
«الذي يراني يرى الذي أرسلني» (يو١٢: ٤٥): وصفة الابن صفة مطلقة وكلية في الله، لأنها من صميم جوهره وطبيعته، والآب كذلك صفة مطلقة وكلية في ذات الله. لذلك، فبسهولة غاية السهولة، نقول إنهما واحد، لأن جوهرهما واحد وذاتهما واحدة، أي متحدان كُليَّة الاتحاد على وجه الإطلاق الإلهي، فهما واحد. هذا سهل الإدراك فيما نحن نتكلم عن الله، ولكن تصوُّره مادياً يكون عَسِراً غاية العُسر، بل تعترضه الاستحالة، لأنه لا يوجد في الخليقة كلها أو في المخلوقات عامة ما يناظر هذا التساوي. لأن جوهر المخلوقات، عموماً وبلا استثناء قط، مُرَكَّبٌ، أما جوهر الله فبسيط لا ينقسم قط، وذات الله كاملة أزلية.

لذلك لا يلجأ المسيح في شرح وحدته مع الآب إلى التشبيه، ولا إلى أسلوب التعليم، ولا يستحثُّ الفهم البشري ليدرك هذه الحقيقة الإلهية، ولكنه يلجأ إلى الإيمان، وهو التصديق على حقائق ليست أصلاً من اختصاص العقل وليست من اختصاص طبيعة الإنسان، ولكن مجرد التصديق عليها يرفع مخصَّصات الذهن فوق طبيعته ليدخل بالروح أو بالنعمة الموهوبة إليه والمُضَافة عليه إلى مجال الإلهيات ليتقبَّل معرفة حقائق الله. وتقبُّل حقائق الله والتصديق عليها، وهو المعبَّر عنه بالإيمان، يعطي الإنسان شركة فيها. لأن إدراك الله بالتصديق والإيمان لا يمكن فصله عن طبيعة الله، حتى يصبح معلومة قائمة بذاتها؛ هذا مستحيل.

فمعرفة الله بالإيمان هي دخول إلى الله مُصرَّح به، والدخول في طبيعة الله هو أَخْذٌ وشركة

(٧) راجع المدخل ص٢١٦ هامش (١٠) وص١١٣ هامش (١).

وامتلاك، وهذه هي نعمة الله في عطاء ذاته المجاني. هذا العمق، أدركه الآباء العظماء اللاهوتيون الأوائل، فقالوا باختصار إن اللاهوتي هو من دَخَل إلى الله وخرج وخبَّر.

والمسيح، بقوله لفيلبس: «ألست تؤمن أني أنا في الآب والآب فيَّ؟»، وهو سؤال يستنكر النفي، يستحثه أن يخرج من دائرة الجهالة ليدخل إلى دائرة معرفة طبيعة الله، يدخلها بسهولة الإيمان، بتصديق كلمة الله. المسيح يأخذ بيد فيلبُّس، أو بالأصح، يأخذ بيد عقله ليدخل إلى دائرة ما فوق العقل ليتقبَّل بالإيمان، ليس مجرد معرفة حقيقة الابن في الآب والآب في الابن، بل يتقبَّل معرفة أخذٍ واستيعابٍ ليتبرر بها ويحياها أو يحيا بها، إنها هي الحق، بل هي روح الحياة: «مَنْ اعترف أن يسوع هو ابن الله، فالله يثبُت فيه وهو في الله» (١يو٤: ١٥). هذا هو الدخول بالإيمان إلى طبيعة الله، والثبوت فيها!!

«مَنْ هو الذي يغلب العالم إلا الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله» (١يو٥: ٥). هذا هو الخروج من طبيعة العالم والمادة، الذي يؤهِّل للدخول إلى طبيعة الله، حيث **الغَلَبَةُ** هنا هي العبور المنتصر فوق العالم.

«مَنْ له الابن (بالإيمان)، فله الحياة (في الله). ومَنْ ليس له ابن الله، فليست له الحياة» (١يو٥: ١٢)، هذا الامتلاك للحياة الأبدية هو بالدخول بالإيمان إلى حقيقة طبيعة الله، وذلك بإدراك حقيقة ابن الله:

«الذي يؤمن بالابن (دخل بالإيمان في طبيعة الله)، له حياة أبدية. والذي لا يؤمن بالابن (لم يدخل إلى معرفة حقيقة الله)، لن يرى حياة، بل يمكث (في الطبيعة البشرية الساقطة) عليه غضب الله» (يو٣: ٣٦). هذا هو الفارق الهائل بين البقاء في محيط العقل المادي، وبين تجاوزه بالإيمان، لإدراك ما هو ليس من طبيعة الماديات. وهو نفس الفرق بين الموت والحياة، بين البقاء في الخطية تحت الغضب الإلهي والدخول إلى نعمة الله، وهذا هو قيمة الإيمان وعمله.

«الكلام الذي أكلِّمكم به لست أتكلم به من نفسي،
لكن الآب الحال فيَّ هو يعمل الأعمال»:

هذا ما يعبِّر عنه سفر العبرانيين بقوله: «الله، بعد ما كلَّم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة، **كلَّمنا** في هذه الأيام الأخيرة **في ابنه**...» (عب١: ١و٢)

فالله كلَّمنا في المسيح، لم يكن الكلام الذي تكلم به المسيح كلاماً بشرياً بل هو كلام الله،

لذلك وصفه المسيح أن: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يو٦: ٦٣)، وأن مَنْ يسمعه يحيا ولو كان ميتاً (يو٥: ٢٤و٢٨و٢٩)، لأن الكلام يحمل طبيعة الله الحية والمحيية. فكلام المسيح فعلٌ نافذ المفعول، لا يرتد فارغاً (إش٥٥: ١١)، ولعازر يشهد على ذلك.

ويُلاحَظ أن المسيح يقدِّم برهان وحدة كيانه في الآب والآب فيه على مستويين، **الأول:** الكلام، **والثاني:** الأعمال، وواضح أن الرب يهدف بهما إلى تحديد شخص الآب الحالّ فيه على مستوى **الفكر والقوة**، وهو تغطية كاملة لوجود الآب كأقنوم إلهي فعَّال. فكان كلام المسيح بمثابة استعلان لصفات الآب جميعاً، كما كانت أعمال المسيح استعلاناً لسلطان الآب ومشيئته من نحو الإنسان. فكان الآب يهدف بكلامه، بفم المسيح، إلى مخاطبة ذهن الإنسان، لإنارة بصيرته بقوة الروح القدس في كلمته ولفتح آفاق رؤيته الروحية، ليدخل الإنسان أكثر في أعماق معرفة الآب ليعدَّه للحياة معه بواسطة المسيح. كما كان الآب يهدف، من وراء أعماله الإعجازية التي كانت كآيات تشير إلى شخصه العامل والفعال، إلى توصيل «**الفعل**» الإلهي الناطق إلى الطبيعة، لكي يبدأ يأخذ عمله في طبيعة الإنسان العاجزة، ليرفعها إلى مستوى خليقة أخرى جديدة ومنيرة.

فمعجزة تحويل الماء إلى خمر تحوي سر التحول من طبيعة ميتة إلى طبيعة حية؛ ومعجزة شفاء المُقْعَد المشلول بعد ٣٨ سنة تحوي سر تصحيح ما فسد في الطبيعة العتيقة، ورفعها إلى مستوى الصحة؛ ومعجزة تفتيح الأعمى المولود هكذا من بطن أمه تحوي سر عمل النور الإلهي في الطبيعة العتيقة المظلمة لتأخذ النور والاستنارة؛ ومعجزة إقامة الميت بعد أن أنتن تحوي سر القيامة الجديدة للإنسان للحياة الأبدية.

وهكذا كانت أعمال المسيح هي استعلاناً لمشيئة الآب بخصوص القوة الإلهية، التي قصد أن يبثَّها في طبيعة الإنسان، ليؤهِّله للحياة الأفضل، أي الروحية.

وبكلام أكثر وضوحاً، كان الآب العامل والمتكلم في المسيح قد بدأ خطته العظمى في تجديد طبيعة الإنسان وصياغة ذهن جديد فيه، منذ أن بدأ المسيح يكرز للإنسان بملكوت الله. وكان المسيح يقدِّم نفسه للناس دائماً، كالمثل الأعلى للإنسان الجديد، الذي يسمع الآب ويطيع، ولكن كانت طاعة المسيح بصورة ممتازة، إذ كانت طاعة المثيل للمثيل!!

ولا ينبغي أن يفوتنا أبداً، أن الآب أرسل ابنه متجسداً ليتكلم فيه معنا، ولنسمع بآذاننا صوت الآب غير المسموع الذي انحجب عنا كل الأزمنة السابقة، أزمنة تغرُّب الإنسان على الأرض.

فالمسيح عاد بالإنسان إلى جنة عدن الجديدة، فردوس الله الروحي، حيث اجتمعنا فيه مع الآب مرة أخرى، في شخص ابنه، وسمعنا صوت تعزيته وانسكبت علينا محبته ونعمته، عوض اللعنة القديمة.

لذلك، ينبهنا المسيح دائماً أبداً: «الكلام الذي أكلِّمكم به، لست أتكلم به من نفسي، لكن الآب الحال فيَّ هو يعمل الأعمال».

١٤: ١١ «صدِّقوني أني في الآبِ، والآبَ فيَّ وإلا فصدِّقوني لسببِ الأعمالِ نفسِها».

يلتجيء المسيح إلى شهادة نفسه لنفسه، حينما يتحدث إلى أخصائه، معتمداً على ما سبق وقاله: «وإن كنتُ أشهد لنفسي، فشهادتي حق» (يو٨: ١٤)، وهذا يُعْتَبَر بالنسبة لنا تنازلاً ما بعده تنازل. فإلحاح الرب على توصيل رسالة الآب التي تتفجّر في أحشائه جعلته وكأنه يتوسَّل لدينا أنْ نقبل ما هو لحياتنا وما هو لسلامتنا. إن أقصى ما يشتهيه المسيح، وكأنه طعامه الفاخر، هو أن يعمل مشيئة الآب الذي أرسله. ومشيئة الآب تتركز في إسعاد البشرية وعودتها إلى الحياة مع الله، أما سعادة المسيح الخاصة جداً فتتركز في توصيلنا إلى الآب، لنشترك في نفس الحب الذي به يحب الآبُ الابنَ: «وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني، وعرَّفتُهم اسمك، وسأُعرفهم، ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم.» (يو١٧: ٢٥و٢٦)

المسيح هنا انتقل من مخاطبة فيلبُّس إلى مخاطبة التلاميذ، فهي رسالة الجميع. وعِوَضَ أن يقول: «الحق الحق أقول لكم»، أراد هنا أن يسند هذا الحق بشهادته الخاصة، وكأنه يرهن نفسه ويجازف بكل ثِقْله الإلهي والبشري معاً، ليرفع ما يقوله إلى مستوى الصدق المختوم بختم الله، لكي يقبلوا هذه الحقيقة الجوهرية بكل يقين، والتي يتوقف عليها كل الإيمان، بل كل الخلاص، وينتهي عندها كلُّ غاية استعلان المسيح للآب: «أني في الآب والآب فيَّ». هذا الوجود المتبادل يجعل بالفعل كل ما للآب للابن وكل ما للابن للآب، ويَشْتعِلُ، بقوة، الذات الواحدة للآب والابن؛ وهذا هو السِرُّ الأعظمُ للثالوث، باعتبار الروح القدس هو ثالث الأقانيم، وهو ينبثق من الآب في الابن، وهو الذي يوثِّق هذه الوحدة وينقلها إلى أذهاننا كحقيقة محيية!

أما إذا أخفق أي إنسان في تصديق المسيح، كشاهد صادق فيما لنفسه، فإن المسيح يعود ويتنازل عن حتمية شهادته، مشيراً إلى أعماله الفائقة للطبيعة التي عملها كآيات تشير وتحكي عن سلطان الآب الذي يعمل به المسيح وكأنه سلطانه: «... وإلاَّ فصدقوني لسبب الأعمال نفسها».

فالأعمال تتكلم من ذاتها وتؤمِّن أن ما يقوله المسيح عن نفسه صِدْقٌ؛ لأن ما يعمله، يشهد أن سلطانه هو من سلطان الله وعلى مستواه. أما كَوْنُ الآب هو العامل بالمسيح أو أنَّ المسيح هو العامل بالآب، فسيَّان! يكفي أن المسيح في الآب والآب في المسيح، فهذه حقيقة العمل ذاته.

١٤: ١٢ **«الحقَّ الحقَّ أقولُ لكم، مَنْ يُؤمِنُ بي، فالأعمالُ التي أنا أعملُها، يعملُها هو أيضاً، ويعملُ أعظَمَ منها، لأني ماضٍ إلى أبي».**

في الآيات السابقة (٨-١١) كان التركيز على العلاقة الداخلية بين الآب والابن، والآن ينتقل المسيح لتوضيح هذه العلاقة بالنسبة للتلاميذ.

وفي الآيات الأخيرة، كان التركيز على الأقوال والأعمال التي يعملها المسيح بأنها معمولة بالآب، أو أن الآب الحالّ في المسيح هو الذي يعمل الأعمال.

ومن هذا المنطلق، يبدأ المسيح يسلِّم تلاميذه هذه الحقيقة الإلهية. والحقائق الإلهية أو اللاهوتية لم يَشتغلنها المسيح من أجل أن يدركها العالم في ذاتها، كحقائق الله وحسب، بل ولكي يحياها المؤمنون ويعملوا بها. فهنا نحن بصدد الأعمال التي يعملها المسيح، والتي هي في حقيقتها يعملها الآب الحالّ في المسيح، هذه الأعمال عينها أعطي للذين يؤمنون بالمسيح (وبالآب حتماً) أن يعملوها.

والنقطة الهامة في الموضوع والتي لا ينبغي أن تفوت على عقولنا، هي أن المؤمنين يعملون أعمال المسيح نفسها، ولكنهم بحسب مجرى الكلام لن يكونوا هم العاملين لهذه الأعمال، بل المسيح، بل الآب في الحقيقة وعين الأمر! أما تلك الأعمال التي كان يعملها المسيح، فقد كانت قاصرة على فترة محددة وعلى غاية محددة، محورها استعلان الآب والتمهيد لرسالة الخلاص بالصليب. أما بعد صعود المسيح إلى الآب، ونواله كل سلطان مما في السماء وما على الأرض واستعادة مجده الأسنى، فالمسيح سوف يعمل حتماً فيهم وبهم هم أعمالاً أعظم، تتناسب مع طول الأجيال وضيق الأيام وشدة اضطهاد العالم، وتتناسب كذلك مع استعلان الخلاص وتكميله، ومجد المسيح العامل فيهم والحالّ فيهم، ومع أعوازنا الكثيرة وطلباتنا مهما غالينا فيها: «ليحلَّ المسيح بالإيمان في قلوبكم ... لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله، **والقادر أن يفعل فوق كل شيء أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر بحسب القوة التي تعمل فينا.**» (أف٣: ١٧-٢٠)

ونعود ونـنبه ذهن القارىء، أن **ذهاب المسيح إلى الآب** هو محور الحديث كله، ولسان حال الواقع، حسب موضوع الحديث وإلحاح الساعة، فالمسيح يعدِّد لتلاميذه مميزات موته وصعوده وذهابه إلى الآب، من حيث أنها ستعود عليهم بفيض من القوة الغامرة ليعملوا ما كان يعمله هو أمامهم، تلك الأمور التي أبهرتهم، بل وكيف أنهم سيعملون أعظم منها بسبب صعوده وذهابه إلى الآب. وهو في ذلك يجاهد ليرفع عنهم مسحة الحزن والكآبة والخوف من جهة، ومن جهة أخرى هو يسبق الزمن والحوادث ويكشف لهم ما سيكون، حتى إذا كان، يزدادون إيماناً وثقة وقوة، ويشعرون بحقوقهم الممنوحة لهم رسمياً حسب الوعد، ليطالبوا بها ويتمسكوا بسلطانها، لتكميل خدمة الخلاص وتمجيد المسيح والآب.

والآن، أيها القارىء العزيز، أرجو أن ألفت نظرك إلى أن هذا الوعد غير مقصور على التلاميذ، فأرجو الرجوع إلى نص الآية إذ تقرأ: «**الحق الحق ... مَنْ يؤمن بي (أي كلُّ من يؤمن بي)**» ... فأنت مُسْتَهْدَف لهذه العطية الفائقة. فإن كنت تشعر بالخجل والصغر دون ألطاف الله (٨) وعظم سخائه، فلا مانع، ولكن لا تَشُكَّ في صدق وعده. ثم إني أشرح لك لماذا تستكثر على نفسك أن تعمل أعمالاً أعظم مما عمل المسيح، فالسبب ينطوي على نقطتين:

الأولى: ظنُّك أنك أنت الذي ستعمل، وهنا أحيلك لما سبق وأوضحنا: «لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا.» (في ٢ : ١٣)

والثانية: أن عمل المسيح فينا يبدو، بحسب خداع البصر، غير متكافىء مع ضعفنا وهوان طبيعتنا وأخطائنا التي يحسبها علينا الضمير بإلحاح.

ولكن أنبِّه ضميرك، أن الرب سبق وقاس هذه المفارقة الخطيرة بين ما هو لائق لنا، وما هو لائق له، بقوله في الآية السابقة أن عطاياه ستكون: «أكثر جداً مما نطلب أو **نفتكر**»، لأنها ستكون «**بحسب القوة التي تعمل فينا**». فالأمر يخصُّ المسيح أولاً وآخراً، فأمسك به، يُمْسِك بك ...

١٤ : ١٣ «وَمَهْمَا سألتُم باسْمِي، فذلك أفعَلُهُ، ليتمجَّدَ الآبُ بالابنِ».

هنا مزيد من التوضيح بحسب الشرح الذي قدمناه، أن المسيح هو العامل فينا. ولكنه يتمادى

(٨) «صغير أنا عن جميع ألطافك وجميع الأمانة التي صَنَعْتَ إلى عبدك.» (تك ٣٢ : ١٠)

في رفع حدود الطلب إلى أقصى تصوُّرنا و يزيد: «**مهما**». وهنا يسأل سائل: هل هذا معقول أن كل ما يطرأ على فكري أو قلبي، أطلبه، فآخذه؟

هنا أيضاً الرد منبثٌّ ضمناً في «**القوة التي تعمل فينا**»، التي تباشر التنفيذ من قِبَلِ الله. وهي لن تكون غير قوة الروح **المشير والمدبِّر**. لأن كلمة «مهما **سألتم**» تفيد حالة صلاة وتوسُّل وحاجة، والصلاة الصحيحة الفعّالة هي تحت هيمنة الروح القدس بصورة قانونية: «**لأننا لسنا نعلم** ما نصلي لأجله كما ينبغي، ولكن **الروح نفسه يشفع** فينا بأنَّاتٍ لا يُنطقُ بها» (رو٨: ٢٦). هكذا يتبين أنَّ «مهما سألتم» تقع ضمن اختصاصات الروح القدس، الذي يقدِّم السؤالات بفمنا، بكل حكمة وفطنة بما يليق أن يُقدَّم لله الآب، ليكون السؤال حسب مشيئة الله!!

و يلاحَظ أن السؤال يقدَّم إلى الآب باسم المسيح، والمسيح يقوم بالتنفيذ: «أنا أفعله»، والاستجابة هنا تكون أكيدة بقدر استيفاء تقديم السؤال، بحسب القوانين المعمول بها في دائرة الله، وهي كالآتي:

١ ــ يلزم أن يكون الروح القدس هو صاحب الاستشارة والموكَّل إليه التدبير على طول المدى، سواء في حالة ما قبل السؤال، أو حالة السؤال، أو حالة ما بعد السؤال، بمعنى أن يكون الإنسان عائشاً في ملء تدبير الروح القدس.

٢ ــ أن يكون الروح القدس مشتركاً إشتراكاً محسوساً في تقديم السؤال، ولدى الضمير شهادة برضى الروح القدس وموافقته على كل كلمة من كلمات السؤال. وهنا إذا توفر ذلك حقاً، فإن الإنسان يحس في الحال أثناء الصلاة أن الصلاة استُجيبت.

٣ ــ أن يكون السؤال مقدَّماً للآب، كما من فم ابنه يسوع، لأن الذي يوازن سؤالنا و يزيد هو برُّ المسيح الشخصي.

٤ ــ أن يكون السؤال مُقدَّماً باسم المسيح، لأنه يستحيل استحالة كلية أن تبلغ كلماتنا مسامع الآب إلاَّ بواسطة المسيح: «لأن به لنا كلينا قدوماً في روح واحد إلى الآب» (أف٢: ١٨)، لأنه هو الطريق الوحيد والباب الوحيد الموصل إلى الآب؛ «لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً» (يو١٥: ٥)، لأن المسيح هو الحامل لصك غفران خطايا كل إنسان وهو يتراءى أمام الله الآب «ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا» (عب٩: ٢٤)، حاملاً أسماءنا المكتوبة على كفه ــ كلَّ واحد باسمه ــ محسوباً: «برًّا وقداسةً وفداءً»

(١كو١: ٣٠)، لكل من يتقدم به إلى الله (عب٧: ٢٥). وهكذا إذ نُرْفِقُ اسم المسيح بسؤالنا الذي نقدمه للآب، نكون كمن يُرْفِق كل وثائق الصلاحيات التي تجعل السؤال مستجاباً.

«ليتمجد الآب بالابن»:

واضح من تسلسل المعاني، أن الاستجابة تكون من عند الآب، والتنفيذ بواسطة المسيح. وهنا يكمن سرُّ تمجيد الآب، لأن المسيح إنما **ينفِّذ بكل سخاءِ الآب وحبِّه**، بحسب صلاحياته لدى الآب، والتي حازها لنا بالصليب، حتى إنه أصبح قادراً أن **«يملأنا إلى كل ملء الله»** (أف٣: ١٩)، أي أن يملأنا بالعطايا والنعم والمواهب المذّخرة لنا في قلب الآب بلا حدود، والتي كانت محجوزة عنا بسبب عدم لياقتنا روحياً؛ ثم لما صار المسيح وسيطاً مؤتمناً، فكَّ حجوزاتها، واستعلن كل سخاء الآب من نحونا: «لأن الآب نفسه يحبكم.» (يو١٦: ٢٧)

وهكذا صار المسيح، بتنفيذه لكل استجابة ننالها من الآب من جهة سؤالاتنا، هو سبب تمجيد للآب دائماً، وسبب استعلان حبه وسخاء عطائه الذي لا يُحَدُّ. ونحن لا يمكن أن ننسى ما كرره المسيح كثيراً جداً، أن الابن لا يعمل من نفسه شيئاً، أي أن أعمال المسيح التي يعملها لنا لتغطية كل أعوازنا وسؤالاتنا هي بالآب معمولة ولمجده. وبالنهاية، تكون طلباتنا وسؤالاتنا التي نطلبها هي لمجد الله! فكيف لا نطلب وكيف لا نلحُّ في السؤال والطلبة، إن كان ذلك لحساب مجد الله؟

١٤: ١٤ **«إن سألتُم شيئاً باسمِي، فإني أفعلُهُ».**

تكرار حرفي للآية السابقة، فهل من جديد فيها؟ واضح في الآية ١٣ السابقة، أن عمل المسيح في الاستجابة لسؤالنا، وضعه المسيح كعملٍ يدخل ضمن رسالته الخاصة بالنسبة للآب: «ليتمجد الآب بالابن»، فهو يَقْرب من أن يكون واجباً على المسيح بالنسبة للآب، أو بتعبير أصح، عملاً وظيفياً من اختصاص الابن المتجسد نحو الآب، فهو يدخل ضمن رسالة الخلاص. وهذا، بحد ذاته، أمرٌ يُسْعِدنا إسعاداً، إذ يجعل سؤالاتنا وطلباتنا لدى الآب عملاً **يهمّ** الآب جداً، وبالتالي **يهمُّ** المسيح ويُسرُّه.

أما في الآية ١٤، فهو عمل يدخل في العلاقة المتوطدة بيننا وبينه. فهو بمثابة وعد خاص يضع فيه المسيح كل إمكانياته رهن سؤالنا، وأنه وإن كان ليس له هدف مباشر، إلاَّ أنه يتضمن استعلان قدرته الفائقة بالضرورة، لذلك فهو لمجد المسيح بلا نزاع. كذلك **«باسمي»** تشير إلى اسم

المسيح الخاص، حيث الاسم في لاهوت العهد القديم يعبّر عن الشخص بكل قوته وكرامته. هذا بالإضافة لما كان يقوله المسيح « ἐγώ εἰμι »، الذي هو في الحقيقة اسم الهويّة لله، الذي كان يعمل المسيح تحته و بقوته وفي وجوده وحلوله.

وهكذا يكون الدعاء بالاسم، أو الصلاة أو السؤال باسم المسيح، حالة تواجد شخصي للمسيح، وهو استدعاء ودخول في الحضرة الإلهية لابن الله المتجسد بكل يقين. لذلك فصراخ الكاهن:

ϧⲉⲛ ⲫ̀ⲣⲁⲛ ⲙ̀ⲫⲓⲱⲧ ⲛⲉⲙ ⲡ̀ϣⲏⲣⲓ ⲛⲉⲙ Ⲡⲓ̀ⲡⲛⲉⲩⲙⲁ ⲉ̀ⲑⲟⲩⲁⲃ

أي: «بـاسـم الآب والابـن والـروح الـقدس» في بداية صلاة الإفخارستيا، وعلى الخبز والخمر، هو استدعاء الثالوث للحلول، كما هو أيضاً نقْلة للموجودين في الهيكل للدخول في الحضرة الإلهية التي للثالوث الأقدس، فهي عملية تقديس وتجلي بآن واحد.

وهكذا، فكأن المسيح باعطائهم حق النداء والسؤال «باسمه»، يكون كمن أبقى على حضوره السرّي معهم في كل حين، كلما احتاجوه كمصدر قوة وعمل وعزاء. كل هذا وفّره المسيح لتلاميذه ولكل المؤمنين به، تعويضاً عن غيابه في المنظور الجسدي.

١٤: ١٥و١٦ «إن كـنـتـم تحبُّونَني، فاحفَظُوا وصاياي. وأنا أطلُبُ من الآبِ، فيعطيكم مُعَزِّياً آخرَ، ليمكُثَ مَعَكُم إلى الأبدِ».

تـرتـيـب الآيـات يـبرز هنا نوراً باهراً يخطف الأبصار، و يُلهب القلوب: ففي الآية (١٢) وضع المسيح الإيمان كأساس، ثم بنى فوقه في الآية (١٥) برج المحبة، بارتفاع الوصايا؛ وعلى القمة، كتاج، يستقر الروح القدس ككشّاف يضيء إلى أقصى حدود النواحي البعيدة، إلى الأبد!

أما الإيمان، فالمسيح جعل طبيعته تُختَبَر بالأعمال والأسئلة الفائقة عن الحب حينما تُستجاب! (اقرأ الأعداد ١٢و١٣و١٤). أما المحبة، فجعل المسيح طبيعتها تُختَبَر بالفضيلة المحفوظة والمصونة (١٥). أما بيت الروح القدس في القمةِ، أو في القلب، فيشعُّ منه عزاءٌ ونعيمٌ وسرورٌ يعوّض عزاء على وشك أن يفقدوه ظاهراً!

في الآية (١٥)، صوت الوداع و بيان الموصي. فالمعلم حدّد الساعة، وحديثه السابق صار كله في حكم الوصايا: وصايا الحب والتواضع والوداعة، وأمانة الراعي، وقول الحق، والصفح عن الجهالات وعدم الدينونة، حتى ولو كانت الخطية قائمة على يد شهود عيان، ومكافأة الإساءة

بالصلاة، واللعنة بالبركة، والعداوة بالمحبة، وألفة الخُدّام حتى إلى غسل الأرجل لئلا تُلامَ الخدمة، وعدم الجري وراء الكرامة، وأخيراً أمانة الشهادة. فإذا كان المسيح قد صادف هوَى النفس وصار لها كعريس، كانت هذه الوصايا كلها وأكثر؛ وإلاَّ عَسُر على النفس حتى احتمال الإساءة!... هي وصايا الروح، عِوَض وصايا العدوّ والجسد، فالروح إلى نموٍّ، والجسد إلى زوال.

أما في الآية الثانية (١٦)، فيفيح منها عطرٌ أزكى من الناردين الخالص، ولكن يتخللها رنة حزن، فهي تحمل بروتوكول وداع الأقانيم على مستوى التسليم والتسلُّم: فمُعزٍّ ذاهبٌ ومُعزٍّ آتٍ. الذاهب ذاهبٌ ليجلس في المَقْدِسِ الأعلى، ليغيب بالنظر عن أرض الإنسان؛ والآتي آتٍ ليقيم بغير رؤيا في معيّة الإنسان إلى أبد الآبدين. والآب سُرَّ بأن يستقبل (الذاهب) حاملاً روح الإنسان؛ ومنبهجٌ بأن يرسل الآتي وهو ملء روح الله!!

أما نسبة الآية الثانية (١٦) إلى الآية الأُولى (١٥)، فهي علاقة حبٍّ بحب؛ فإن أحْبَبْناه أحبّنا، وإن حفظنا وصاياه، أرسل لنا مَنْ يذكّرنا بها ويشرحُها لنا، ويحفظُها في قلوبنا، ويعزينا عن كل غرامة يفرضها العالم علينا بسبب الأمانة. لأن وصايا يسوع يبغضها العالم ولا يطيق مَنْ ينطقها، ويفرض عليها غرامات فادحة، فيتلقّف الروح القدس هذه الغرامات عنا ويحوّلها برأ وسلاماً ...

وأخيراً نودُّ أن نلفت نظر القارىء، إلى أن الرب هنا يقصر وصيته الختامية على حفظ **وصاياه الخاصة**، التي تأخذ سلطانها الإلهي من فمه، ولا ذِكْرَ لوصايا سيناء وموسى والألواح التي كانت سراجاً منيراً، في سماءِ ليلِ شعبٍ، ضاقَ بها وضاقت به، إلى أن انفجر نور النهار، واستُعْلِن شمس البر ليضيء على العالم كله.

١٤: ١٧ «روحُ الحقّ الذي لا يستطيعُ العالمُ أن يقبلَهُ، لأنه لا يَرَاهُ ولا يَعْرِفُهُ. وأما أنتم فتعرِفُونَه، لأنه ماكِثٌ معكم، ويكونُ فيكم».

«روح الحق»:

وأيضاً حقٌّ بحقٍّ، وحقٌّ عوضاً عن حقٍّ، كما مُعَزٍّ عوضاً عن مُعَزٍّ. فالمسيح كان لهم «الحق»: **«أنا هو... الحق»** (١٤: ٦). فإن كان الفم البشري الإلهي للابن المتجسد الذي ينطق بالحق سيختفي عن ناظريهم وأسماعهم، فهوذا الآب يرسل لهم **«روح الحق»** الذي ينطق في أفواههم وقلوبهم، ليسمعهم العالم كله!... كان الحق الذي يقوله المسيح ويعمله هو الإعلان عن الآب

الكائن في الابن والحالّ في تجسده؛ والحقُّ الذي يقوله و يعمله الروح فيهم و بهم يكون هو الإعلان عن الابن، واستعلان اللاهوت في تجسده، و بالتالي استعلان الآب الذي في الابن والذي لا يُعرف ولا يرى بدونه ...

وق. يوحنا يتدرج في كشف الحق الذي بالمسيح وفيه، والذي بالروح القدس وفينا، هكذا:

فبالنسبة للحق الذي هو المسيح يقول: «ونعلم أن ابن الله قد جاء، **وأعطانا بصيرة لنعرف الحق. ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح، هذا هو الإله الحق** والحياة الأبدية ــ («أنا هو الطريق والحق والحياة» يو١٤: ٦).» (١يو٥: ٢٠)

و بالنسبة للحق الذي بالروح وفينا يقول: «**بهذا نعرف أننا نثبت فيه وهو فينا، أنه قد أعطانا من روحه**، ونحن قد نظرنا **ونشهد أن الآب قد أرسل الابن مخلِّصاً للعالم. من اعترف أن يسوع هو ابن الله، فالله يثبت فيه، وهو في الله.**» (١يو٤: ١٣ــ١٥)

«**وبهذا نعرف أنه يثبت فينا من الروح الذي أعطانا**» (١يو٣: ٢٤).

وشرح كلام ق. يوحنا هو كالآتي بالنسبة للحق بالمسيح ثم بالروح القدس:

+ **بالنسبة للمسيح:** أنه فتح بصيرة التلاميذ ليعرفوا الحق من كلامه وحسب الكتب، وذلك قبل مجيء الروح القدس هكذا: «هذا هو الكلام الذي كلَّمتُكم به وأنا بعدُ معكم ...حينئذ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب ...» (لو٢٤: ٤٤و٤٥)

وهذه هي «**البصيرة**» التي يتكلم عنها ق. يوحنا، وهي لمعرفة **الحق**، الذي ركَّزه ق. يوحنا بهذه الجملة المختصرة، والتي هي كل الحق: «**هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية**»، تماماً كما عرَّف المسيح نفسه لهم: «**أنا هو الطريق والحق والحياة**».

+ **بالنسبة للروح القدس:** أولاً، كانت عطية الروح القدس الأُولى والعظمى أنه حلّ هو فيهم، وذلك باستحقاق عمل المسيح الفدائي والخلاصي، و بحلول الروح القدس فيهم تهيأ هيكلهم لقبول ألوهية المسيح، لأن الروح القدس أُرسل ليعمل لحساب المسيح، يعلنه و يعطيه، وهذا يوضحه القديس بولس غاية الوضوح: «**لكي يعطيكم، بحسب غنى مجده، أن تتأيدوا بالقوة، بروحه، في الإنسان الباطن؛ ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم ...، لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله** (حيث ملء اللاهوت: الآب والابن والروح القدس).» (أف٣: ١٦و١٧و١٩)

وبحلول الروح القدس والمسيح في وعي التلاميذ، الذي انتهى إلى ملء كيانهم الروحي، فإنه ينطلق ليشهد فوراً لهذا الثبوت والملء، وبالتالي، فإن هذا الثبوت وهذا الملء يصبحان شاهداً على أن الروح القدس قد أعطي لهم، ويشهد لعملية الخلاص العظمى، أن الآب أرسل ابنه مخلّصاً للعالم، ويعترف أن يسوع هو ابن الله!! هذا هو الحق الذي بالروح القدس والذي صار في التلاميذ وكل المؤمنين.

«لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه»:

نحن هنا أمام مواجهة حادة بين روح الله، وهو روح الحق؛ وروح العالم، وهو روح الضلال والتزييف. لقد دخل المسيح هذه المواجهة عينها باعتباره **الحق**، في مقابل رئيس هذا العالم باعتباره المُضِلّ والكذّاب، فكان الصليب، الذي به دخل الخلاص إلى العالم، واكتسب الإنسان حياة مابعد الموت. والآن، يبدأ الروح القدس عمله على أساس الصليب، وعلى نفس المواجهة وشدّتها. فكما لم يقبل العالم الحق الذي في المسيح، بل أبغضه، أشد البُغْض، ورفضه أشدّ الرفض، ولم يشأ أن يعرفه أبداً هكذا: «وأما الآن، فقد رأوا **وأبغضوني أنا وأبي ... إنهم** أبغضوني بلا سبب» (يو١٥: ٢٤و٢٥)، «ولكن ينبغي أولاً أن يتألم كثيراً، **ويُرفَضَ من هذا الجيل**» (لو١٧: ٢٥)، «**لستم تعرفونني أنا ولا أبي، لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً**» (يو٨: ١٩)؛ كذلك على هذا المستوى، واجه العالمُ الروحَ القدسَ باعتباره روح الحق الذي يشهد لكل الحق. واجهه بعدم القبول، أي بالرفض والبُغضة، أولاً ضد التلاميذ الذين يعمل فيهم الروح القدس: «إن كان **العالم يبغضكم**، فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم. لو كنتم من العالم، لكان العالم يحب خاصته، ولكن لأنكم **لستم من العالم** بل أنا اخترتكم من العالم، لذلك يبغضكم العالم» (يو١٥: ١٨و١٩)، «**إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم** ... لكنهم إنما **يفعلون بكم هذا كله من أجل اسمي، لأنهم لا يعرفون الذي أرسلني**» (يو١٥: ٢٠و٢١). ومن بعد التلاميذ، الكنيسة كلها وإلى نهاية الدهور.

وهكذا يتضح من كلام المسيح، أن عدم قبول العالم للروح القدس هو بسبب أنه يشهد للمسيح، والمسيح غير مقبول، لأن المسيح يشهد للحق، أي للآب، باستعلان الآب الحالّ فيه بالكلمة والعمل: «إنما يفعلون بكم هذا كله، **من أجل اسمي.**» (يو١٥: ٢١)

«الاسم»: اسم ابن الله الذي رَفْضُه، يعني رَفْضَ الآب، وبالتالي عدم قبول إرسالية الآب للابن لخلاص العالم. أي بصريح العبارة، فإن العالم يرفض الخلاص من أصوله، لأن العالم

يعمل تحت سلطان روح الضلالة وحسابه. وهكذا، فإن **الخلاص يبقى وقفاً على كل مَنْ يرفض العالم، بل ويبغض العالم**، وذلك بأن يرفض أن يعرف أو يتعرَّف على روح الضلالة الذي في العالم! لذلك كانت الآية: «إن أحب أحدٌ العالم فليست فيه محبة الآب.» (١يو٢: ١٥)

«لايراه ولا يعرفه»:

العالم لا يرى الروح القدس ولا يعرفه. الرؤيا هنا بالاثنين: رؤيا العين المجردة، ورؤيا العقل الروحي. فـ«العالم» هنا، يُعَبَّر به عن الأشخاص الطبيعيين الذين يعيشون، بحسب ظواهر الوجود المادي، لا يَرون الروح على أي حال، **لأن الروح جوهر إلهي**، فلا هم بالعين يرونه، لأن ليس له مظهر، ولا بالعقل يدركون كُنْهه أو ماهيته، **لأنه حقٌّ**، والحق درجة في المُدْرَكات أعلى وأعمق من المظهر بلا قياس. فكلُّ مظاهر العالم من مصنوعات ومخلوقات تحوي في أعماقها بالضرورة لَمْسة الخالق الذي صنعها؛ فهي تحوي حقاً، ولكنها ليست الحق، لأن المظاهر كلها زائلة والجوهر الخالق أزلي وأبدي:

«لأن غضب الله مُعْلَنٌ من السماء على جميع فجور الناس وإثمهم، الذين يحجزون الحقَّ بالإثم. **إذ معرفة الله ظاهرة فيهم، لأن الله أظهَرها لهم. لأن أموره غير المنظورة، تُرى منذ خلق العالم مُدْرَكة بالمصنوعات، قدرته السرمدية ولاهوته، حتى إنهم بلا عذر.**» (رو١: ١٨—٢٠)

يلاحظ هنا أن محور هذه الآية، هو كلمة الوحي: **«لأن الله أظهرها لهم»**، فهي عطية فائقة على عقل الإنسان الطبيعي المخلوق، وفوق مقدرته الطبيعية المحدودة بإدراك الظواهر فقط. هذا الإمتياز أُعطي للإنسان هبةً، أن لا يكون غريباً عن الله، ولكن هذا الإمتياز ليس من روح العالم أصلاً، بل من الله.

ويلزمنا هنا أن نوضح أن **«الإنسان الطبيعي»** مخلوقٌ ليرتقي إلى **«إنسان روحي»**. ففي صميم خلقة الله للإنسان — كما نتصوره في آدم — يوجد مركز للإدراك الإلهي، وإلاَّ لما **عرف** آدمُ الله، **وأحبَّه، واستمع إليه، وخشي** منه حينما تعدَّى على وصيته. لذلك، نستطيع بكل يقين أن نقول، إن عقل الإنسان له **مركزٌ فوق كل مراكزه** الشعورية الطبيعية، لإدراك ما هو فوق الطبيعيات، أي إدراك الله وكلّ **«أمور الله غير المنظورة»**. هذا المركز الفائق والممتاز، ينشط ويترقَّى بالممارسة، أي بالإشتغال في أمور الله: «وأما الطعام القويُّ فللبالغين، الذين بسبب التمرُّن قد صارت لهم الحواس مُدرَّبةً على التمييز بين الخير والشر» (عب٥: ١٤). وهذا يؤدي إلى يقين

الشعور بالله، ثم الإيمان به، ثم التأهُّل لأخذ الروح القدس، أي روح الله.

فالإيمان بالله لا يأتي من فراغ، وإلاّ ما أصبح له ثوابٌ وعقابٌ. ولكن، بإهمال الإنشغال بالله والتوقُّف عن تشغيل هذا المركز الخاص الفائق والممتاز، تضعف وتُفقَد حساسيته، فتصبح معرفة الله غير واضحة، ثم صعبة، ثم مستحيلة، ثم مجهولة كلية؛ وكأن الله صار غير موجود، وذلك بسبب نشاط مراكز العقل الحسية الأخرى وانشغالها الزائد بالظواهر، والانغماس في الأخذ منها لإشباع نَهَم العقل، والتعدّي حتى على المركز الفائق الخاص بالله وتغطية احتياجه بالأمور الحسّية وظواهر الأمور. هنا ينحصر الإنسان في صفته الدنيا، وهي كونه إنساناً طبيعياً، أي إنسان العالم، وليس إنسانَ الله بعد. هذا ما يعبّر عنه بولس الرسول بقوله: «هكذا أيضاً أمور الله، لا يعرفها أحدٌ إلاّ روح الله. ونحن لم نأخذ روح العالم، بل الروح الذي من الله، لنعرف الأشياء الموهوبة لنا من الله. التي نتكلم بها أيضاً لا بأقوال تعلّمها حكمة إنسانية، بل بما يعلّمه الروح القدس، قارنين الروحيات بالروحيات. ولكن الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله، **لأنها** (أي أمور الروح) عنده جهالة. ولا يقدر أن **يعرفها** (يعرف الأشياء الموهوبة لنا من الله)، لأنه إنما يُحكم (أي يُدْرَكُ) فيها روحياً. وأما الروحي، فيحكم في كل شيء، وهو لا يُحْكَم فيه من أحد. لأنه مَنْ عَرِفَ فكرَ الرب فيعلّمه؟ وأما نحن فلنا فكر المسيح» (١كو٢: ١١ــ١٦ ترجمة عن الأصل اليوناني).

وإني أنتهز هذه الفرصة، يا قارئي العزيز، لأرسم أمامك صورة واقعية للعالم والأشياء التي في العالم القابلة كلها للزوال: «والعالم يمضي وشهوته» (١يو٢: ١٧)، في مقابل أمور الله الباقية والثابتة إلى الأبد: «مولودين ثانية، لا من زرع يفنى، بل مما لا يفنى، بكلمة الله الحية الباقية إلى الأبد. لأن كلَّ جَسَدٍ كعُشبٍ، وكلَّ مجدِ إنسان كزهر عُشب. العُشب يَبِسَ وزهرُه سقط. وأما كلمة الرب فتثبت إلى الأبد.» (١بط١: ٢٣ــ٢٥)

فالعالم يقوم على الظواهر والمحسوسات، وهذه كلها تتغير وتتبدل وتزول. وظواهر العالم التي يصادفها الإنسان في حياته، تأخذ وجودها في وجدانه، لأنها تتحرك ببطء نحو الزوال، فلا يشعر بزوالها إلاّ بصعوبة. ولكن لو أمكن تصوُّرها وهي تتحرك بسرعة أكثر، كأن يتصور اختزال فترة تعليمه في المدارس من عشرين سنة إلى عشرين دقيقة، لظهرت وكأنها خيالٌ عابر. ولكن هي كذلك في الحقيقة، فكل ظواهر الحياة خيالات تتحرك على شاشة العقل ببطء، فترسخ فيه، وكأنها وقائع وحقائق، وهي في حقيقتها ليست إلاّ صوراً تظهر لتزول. ولكن وراء هذه الصور توجد

الحقيقة، وخلف هذه المظاهر والأقنعة يوجد الجوهر القائم والثابت، وهي اليد الإلهية التي تديرها وتتحكم في ظهورها وتلاشيها، والتي تحدد أزمنة بقائها وزوالها، وتُبرز للنفس البشرية أهميتها أو تفاهتها، لتزداد النفس معرفة، وتنمو في الفهم والحكمة، وتترقَّى في أحاسيسها ومُدْرَكاتها في درجات تصاعُدِيَّة تقترب بها النفس إلى جوهر الحقيقة أو الحق القائم خلف هذه المناظر والظواهر والصور المتحركة التي تسوقها الطبيعة وتتفنن فيها من جانبها، بإيعاز من الخالق، لتُرغِّب النفس فيها. وهكذا يبقى الله، في النهاية، بالنسبة للنفس الواعية، هو الغاية العظمى من حركة العالم، باعتباره الحقيقة أو الحق الذي يُشْبع قلب الإنسان، أو على وجه الأصح لن يَشْبع منه أبداً. فعالم الله والروحيات، هو أصدق ما تحتاجه النفس، فالنفس البشرية مخلوقة على صورة الله، والصورة لا ترتاح إلاَّ على أصلها، كما يرتاح المثيل إلى المثيل.

ولكن أن يبقى الإنسان مشدوداً إلى هذه الصور الزائلة والمناظر والخيالات وحسب، و يكتفي منها بالتغيير والتبديل، و يتعزَّى من زوال بعضها بظهور غيرها، فهذه مهزلة. شأنه في ذلك شأن شاب طائش لا يشبع من النظر إلى الأفلام السينمائية، يخرج من عرض ليدخل عرضاً آخر، يصرف ماله وزمانه مستمتعاً بخيالاتٍ، تظهر له كأنها حيّة وهي قد تكون لممثلين صارت أجسادهم تراباً وقصتهم خرافة.

فالعالم، يا صديقي، عالم أقنعة وخيالات يحيطه الخداع من كل جانب. وعليك أن تدرك أن كل ما هو قابل للإزدواج فهو خداع، فالفرح الذي يمكن أن ينقلب حزناً هو خداعٌ: الفرح والحزن كليهما!... كذلك الصحة والمرض، والسلام والكآبة، والنور والظلمة، والحياة والموت، والغِنَى والفقر، والعلم والجهل، والاطمئنان والخوف. فكل ما يمكن أن ينقلب إلى ضدِّه هو صورة متحركة، وهو خداع؛ أما «الحق» فهو قائم في كل هذه المتضادات، قائم ثابت، لا يتغير، ولا يتبدل، والذي عنده «روح الحق»، يأخذ من الصورة ومما هو ضدها، يأخذ من الفرح قدر ما يأخذ من الحزن ليرتفع فوق الفرح والحزن جميعاً. يأخذ من الغِنَى قدر ما يأخذ من الفقر، ليرتفع فوق هذا وذاك؛ ولا يَطَالُه الغِنَى بغروره، ولا يطأه الفقر بنَكَدِه!

أما الذي ينحاز إلى العالم، فلن يقرَّ له قرار؛ يعيش بين المتضادات، إلى فوق، ثم إلى أسفل وبالعكس، إلى أن يحطّه اليأس، وتأكل أيامه المتغيِّرات. لذلك يقول الرب: «سلاماً أترك لكم. سلامي أعطيكم. **ليس كما يعطي العالم** أعطيكم أنا» (يو١٤: ٢٧). كما يقول: «ولكني سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحد فرحكم منكم» (يو١٦: ٢٢)؛ «كلُّ مَنْ يشرب من

هذا الماء يعطش أيضاً، ولكن مَنْ يشرب من الماء الذي أُعطيه أنا، فلن يعطش إلى الأبد؛ بل الماء الذي أُعطيه، يصير فيه ينبوع ماءٍ، ينبع إلى حياة أبدية!!!» (يو٤: ١٣و١٤)؛ «اعملوا لا للطعام البائد، بل للطعام الباقي للحياة الأبدية، الذي يُعطيكم ابن الإنسان، لأن هذا، الله الآبُ قد ختمه... أنا هو خبزُ الحياة. مَنْ يُقْبِلْ إليَّ فلا يجوع، ومَنْ يؤمنْ بي فلا يعطش أبداً... مَنْ يأكل جسدي و يشرب دمي، فله حياة أبدية.» (يو٦: ٢٧و٣٥و٥٤)

هذه هي طبيعة العالم وعطاياه، وهذه هي طبيعة الله وهباته. وهكذا، فالحق الذي يعطيه المسيح: «أنا هو الحق»، لا يزول، ولا يؤول إلى الضدّ أبداً، فالحق واحد دائماً، لا ينثني ولا يتجزأ، ولا يتغير، وهو هو من طبيعة الله، وهذا هو جوهر عطاياه.

«روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه»:

كلمة **«أنْ يَقْبَلَه»** تأتي باليونانية بمعنى يستقبله λαβεῖν = receive، والآن نستطيع أن ندرك عمق المعنى اليوناني لكلمة يستقبله، إذ أن إنسان العالم ــ أي الإنسان الطبيعي الفاقد لمراكز الوعي الروحي ــ ليس لديه جهاز الاستقبال الذي يدرك به الحق المطلق، لأن كل إدراكه العقلي حيٌّ قائمٌ، ومقصور على إدراك المظاهر والصور فقط؛ أما كلُّ ما يخص طبيعة الله، أي الحق كجوهر، فهو مفقود عنده أو غير موجود ولا يمكن إدراكه، و بالأخص ما يتعلق باستعلان هذه الطبيعة في الآب والابن والروح القدس. على أنه يستحيل استقبال الروح القدس إلاَّ في القبول لحقيقة المسيح متجسداً: «هل قبلتم الروح القدس لما آمنتم؟» (أع١٩: ٢)

وتقول الآية أن العالم لا يستطيع أن يستقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه. جيد، لأن العالم قائم على رؤية المظاهر والصور، والمعرفة لدى العالم قائمة على التحليل الذهني لهذه المظاهر والصور، والروح القدس ليس له منظر ولا مظهر ولا صور، لأنه أقنوم إلهي غير مخلوق وغير متجسد، فهو ليس من هذا العالم بالمرة، ولكنه قائم فيه كمدبِّر، ومحيي وضابط للخليقة، حالٌ في كل مكان، ومالىء الكل، وأصل الصلاح، ومعطي الحياة لكل ذي جسد. يبكِّت العالم على خطاياه من داخل ضمير الأتقياء، و بالأكثر تجاه الذين يرفضون الإيمان بابن الله. لذلك فإن وظيفة الروح القدس الأُولى في العالم، أن يشهد لبرِّ المسيح داخل قلوب المؤمنين، و ينطق بأفواههم، و يدين كل الذين انحازوا وراء العالم ورئيسه. لذلك يبقى الروح القدس غير مقبول للذين أحبوا العالم الحاضر، وحُجّتهم أنه غير منظور لديهم، وأن كل ما هو غير منظور أو محسوس غير معروف، فهم ينكرونه، كما ينكرون الابن والآب بالضرورة، لأن كلَّ مَنْ لا يقبلَ الروح القدس، لا يدرك الآب والابن. هذه هي

طبيعة العالم، وطبيعة الله تبقى غريبة عن طبيعة العالم، إلى أن يُقبَل الروح القدس، المنوط به استعلان كل أعماق الله للإنسان:

+ «ما لم ترَ عين، ولم تسمع أذن، ولم يَخْطُرْ على بال إنسان، ما أعدَّه الله للذين يحبونه. فأعلنه الله لنا نحن بروحه. **لأن الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله**، لأن مَنْ مِنَ الناس يعرف أمور الإنسان إلا روحُ الإنسان الذي فيه. هكذا أيضاً أمور الله، لا يعرفها أحد إلاَّ روح الله. ونحن لم نأخذ روح العالم، بل الروح الذي من الله، لنعرف الأشياء الموهوبة لنا من الله.» (١ كو٢: ٩—١٢)

«وأما أنتم فتعرفونه، لأنه ماكث معكم، ويكون فيكم»:

ماكث معهم الآن بمكوثهم مع المسيح، ولكن لما يُرفع المسيح سيجيء الروح القدس ليقيم فيهم(٩)!

التلاميذ هنا عيِّنة من باكورة الإنسان الذي أفرزه الله، ليقف معه ضد العالم. فسلوك الطبيعة الجديدة للإنسان في التلاميذ والمؤمنين، هو عكس سلوك طبيعة العالم تجاه الروح القدس. العالم لا يراه ولا يعرفه، وأما التلاميذ والمؤمنون فيعرفونه. العالم لا يقبله، وأما التلاميذ والمؤمنون فيقبلونه: «اقبلوا الروح القدس» (يو٢٠: ٢٢)، وبذلك **يمكث معهم**. والحرف اليوناني المستخدم هنا ليوضح المعيَّة هو (παρά)، وهو يفيد الشركة والوجود مع By the side of، كما جاء في قول المسيح: «بهذا كلَّمتُكم وأنا عندكم παρ' ὑμῖν μένων .» (يو١٤: ٢٥)

«ويكون فيكم»:

والحرف اليوناني هنا (ἐν) ويفيد السكنى الفردية الشخصية (الحلول). كما شرحها المسيح بقوله: «الآب الحال فيَّ، هو يعمل الأعمال.» (يو١٤: ١٠)

وهنا، ومن استخدام الحروف اليونانية، يتبين لنا أن المسيح يمهد في أذهان التلاميذ كيفية تعامل الروح القدس معهم كشخص يحلُّ محلَّه: فكما كان المسيح عندهم «بهذا كلمتكم وأنا عندكم» (يو١٤: ٢٥)، هكذا سيدخل الروح القدس في **شركة دائمة أبدية معهم ككنيسة**. ثم

(٩) في الأصل اليوناني الفعل الأول «ماكث» في الزمن المضارع والفعل الثاني «يكون» في المستقبل:
ὅτι παρ' ὑμῖν μένει (present) καὶ ἐν ὑμῖν ἔσται (future).

كما كان الآب حالاً في المسيح، وكان هو الذي يعمل الأعمال التي كان يعملها المسيح باتفاق مدهش، هكذا سيحل الروح القدس فيهم حلولاً فردياً وشخصياً، ليعمل فيهم و بهم كل الأعمال التي كان يعملها المسيح.

ولكن هذا الحلول الذي ستناله طبيعة التلاميذ بالروح القدس، لن يكون كحلول الآب في المسيح، لأن حلول الآب في المسيح هو حلول الآب في الابن على أساس الذات الواحدة في الجوهر الواحد والطبيعة الواحدة؛ أما حلول الروح القدس في الطبيعة البشرية، فهو حلول تقديس حيث تُستهدَف كلٌّ من الطبيعة والشخصية البشرية لعملية تغيير وتجديد، بشبه الخَلْق الجديد، لاكتساب الصفات المسيحية على نمط الصفات التي اكتسبها لنا المسيح بتجسُّده وتألُّمه وصَلْبه وقيامته وصعوده إلى السماء: «تعلَّموا مني» (مت١١: ٢٩)، «اثبتوا فيَّ وأنا فيكم» (يو١٥: ٤)، «أنتم فيَّ وأنا فيكم» (يو١٤: ٢٠)، «أنا فيهم، وأنت فيَّ، ليكونوا مُكمَّلين إلى واحد.» (يو١٧: ٢٣)

١٤: ١٨ **«لا أترُككُم يتامَى، إني آتي إليكم».**

لا يزال المسيح يُعزِّي تلاميذه عن الفراق الذي سيواجهونه بعد موته وقيامته وذهابه إلى الآب. لقد أدرك المسيح مقدار تعلُّق تلاميذه به كأب وتعلُّقه بهم كأولاد: «**يا أولادي**، أنا معكم زماناً قليلاً بعد» (يو١٣: ٣٣)، وكلمة «أولاد» هنا تأخذ صورتها المحبَّبة جداً على مستوى الأولاد الصغار τεκνία ، «إذ كان قد **أحب خاصَّته**، ... أحبَّهم إلى المنتهى.» (يو١٣: ١)

فإن كان المسيح قد شرح لهم ضرورة ذهابه إلى الآب، وأوضح لهم أن هذا الفراق سيكون لصالحهم، إذ سيرسل لهم الروح القدس المعزِّي، روح الحق، ليمكث معهم و يكون فيهم؛ إلا أنه كان يدرك أن ذلك لا يُغْنِيهُم عن عودته إليهم ورؤيته لهم.

«إني آتي إليكم»:

حيث فعل «آتي» هو في زمن المضارع المستمر بلا حدود ولا نهاية، وهو الذي ورد في الأصحاح الأول بهذا النحو: «كان النور الحقيقي... **آتياً** إلى العالم» (يو١: ٩)، أي يظل يأتي و يأتي ليغطي كل الزمان إلى مالانهاية. فوعد المسيح لتلاميذه: «إني آتي إليكم»، هو وعد «**المجيء الدائم**» الذي تحقَّق أولاً بعد القيامة، بظهوره مرايت معدودة. ولكن بعد حلول الروح القدس يوم الخمسين، ظل مجيئه على مستوى الإقامة الدائمة الروحية في الكنيسة: «ها أنا معكم كل الأيام، إلى انقضاء الدهر.» (مت٢٨: ٢٠)

فوجود المسيح في الكنيسة، هو وجود عضويٌ عامل ودائم، لأن المسيح بالنسبة للكنيسة كالرأس بالنسبة للجسد: «وإياه جعل رأساً فوق كل شيء للكنيسة، التي هي جسده، ملءُ الذي يملأ الكل في الكل.» (أف١: ٢٢و٢٣)

ومعروف أن حلول الروح القدس، سواء كان ذلك في الكنيسة أو في الأفراد المؤمنين، إنما يتم لحساب المسيح، بمعنى أن وجود الروح القدس يكشف في الحال عن وجود المسيح. وحتى العزاء الذي يضطلع به الروح القدس في قلوب المؤمنين، يقوم على أساس استعلان الروح القدس لشخص المسيح، وتجلّيه ـــ في كل مواقفه المحببة ـــ داخل قلوب المؤمنين. وقد أمدّنا بولس الرسول بصورة للصليب، واقعية ومؤثّرة، استعلنها الروح القدس في قلب بولس لشخص المسيح بالنسبة لبولس نفسه، فتأوه مُعْلِناً عن صدقها: «الذي أحبَّني وأسْلَم نفسه لأجلي.» (غل٢: ٢٠)

وهكذا يأخذ الروح القدس من أعمال المسيح العامة، و يصوِّرها للمؤمن كعملٍ شخصي يخصه هو بالدرجة الأُولى، لذلك نجد الرب يذكر إرساله للروح القدس أولاً، ثم يذكر مجيئه الشخصي لكل واحد!! لأن مجيئه إنما يُستعلَن و يُصوَّر بواسطة الروح القدس الساكن في القلب.

و يلزم أن ننوه هنا أن الروح القدس هو روح الآب وروح الابن، فهو يحمل الوِحْدة الإلهية الكائنة بين الآب والابن، بقدر ما يحمل طابع الآب وطابع الابن، أي الحب الأبوي والحب البنوي معاً. فيا لغنى المجد الذي يرضع منه قلب الإنسان، حينما يحل فيه الروح القدس و يقيم. بل وإن الروح القدس يحمل رُبُط الأُلفة والانسجام للوحدة القائمة بين ابن الله وابن الإنسان، ويحمل القوة التي جعلت وصيَّرت الكلمة جسداً (لو١: ٣٥)، والتي أقامت المسيح من القبر في اليوم الثالث (رو٨: ١١). والروح القدس، روح الحق، بسُكْناه في قلب الإنسان، يغذّي فكر الإنسان على الحق بالكلمة، كما يغذّي روحه بهذا الحق، إنما بالفعل والقوة، ليدرك الإنسان و يرتقي إلى نصيبه في التبنّي، وشركة ميراثه مع المسيح في الله. إنه يأخذ من الرأس، و يعرِّف بالسرِّ الأعضاءَ في الجسد، و يظل يملأ، حتى إلى كل ملء الله.

«لا أترككم يتامى»:

هذه إشارة بليغة إلى موته، حيث الموت الذي بدأ يخطو إليه بقدميه، والذي به يتيتم التلاميذ إلى زمن؛ وهذه هي الجملة التي أوحت بالرد عليها مباشرة: «إني آتي إليكم»، ليرد تيتُّمهم إلى بُنُوَّة جديدة لأُبوة جديدة، التي هي بدورها إشارة بليغة إلى قيامته. فإن كان بموت المسيح يصبح التلاميذ يتامى، فبقيامته ومجيئه إليهم يدخلون توّاً في عهد التبني وحنو الآب الدائم.

١٤ : ١٩ «بعد قليل لا يراني العالمُ أيضاً، وأما أنتم فترَوْنَني، إني أنا حيٌّ، فأنتم ستحيَوْنَ».

في الحقيقة، إن العالم لم يَرَه أبداً متجلياً على حقيقته «أنا هو ἐγώ εἰμι»، وإنما كان يراه كمواطن جليلي لا أكثر، وبهذه الرؤية يكون العالم قد قارب أن يفقد هذا المواطن الجليلي، إذ لم يَعُدْ له أكثر من اثنتي عشرة ساعة يقضيها بين المحاكمات. أما تلاميذه، فقد «رأوا مجده» بالاستعلان ـــ أي بالرؤيا الروحية ـــ وآمنوا به. فإن كان سيختفي عنهم بالأنظار ساعات قليلة، فلكي يظهر لهم ثانية متجلياً برؤيا المجد، ولا يعود يختفي عن عيون إيمانهم قط: «هذا أقامه الله في اليوم الثالث، وأعطى أن يصير ظاهراً، ليس لجميع الشعب، بل لشهودٍ سَبَقَ الله فانتخبهم، لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات.» (أع١٠: ٤٠و٤١)

«إني أنا حي»:

المسيح يَعْبُر هنا على الموت، وكأنه لم يكن، ليُلْفت نظر تلاميذه إلى قوة القيامة الكائنة فيه، فهو يرى نفسه هنا حيًّا وكأن القيامة كائنة في كيانه لا تفارقه. وبهذه الحياة الأبدية التي فيه، يضمن لتلاميذه معه شركة أكيدة فيها. ألم يقل: «وكلُّ مَنْ كان حيًّا وآمن بي، فلن يموت إلى الأبد.» (يو١١: ٢٦)

هذا القول يلتقطه بولس الرسول ويشهد له، من واقع حياته هو أيضاً الكائنة في حياة يسوع وبها: «الله الذي هو غنيٌّ في الرحمة، من أجل محبته الكثيرة التي أحبنا بها، ونحن أموات بالخطايا، **أحيانا مع المسيح**» (أف٢: ٤و٥)؛ «مع المسيح صُلِبْتُ، فأحيا ـــ لا أنا ـــ **بل المسيحُ يحيا فيَّ**، فما أحياه الآن في الجسد، فإنما **أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله**، الذي أحبني، وأسلم نفسه لأجلي.» (غل٢: ٢٠)

تركيز بولس الرسول هنا على **قوة الإيمان الفعَّالة بالروح، لبلوغ شركة فعلية مع المسيح الحي**، لنوال حياة دائمة بحياة المسيح وفيها. لأنه بحسب إيمان القديس بولس، فكلُّ مَنْ آمن بالمسيح، يُصبح له شركة في المسيح: في موته، وفي قيامته، وفي حياته، وجلوسه معه في السماويات؛ من أجل هذا تجسد ابن الله، ليُعطينا هذه الحياة.

وعن كيفية حياته وامتدادها في تلاميذه بالروح يوضح المسيح هكذا:

١٤: ٢٠ **«في ذلك اليومِ تَعْلَمُونَ أني أنا في أبي، وأنتم فيَّ، وأنا فيكم».**

«في ذلك اليوم تعلمون»:

هنا واضح أنه **يوم الاستعلان**، وهو بلا شك يوم الخمسين، عندما حل الروح القدس، روح المعرفة والفهم، روح الاستعلان والكشف، وأول مَنْ سيَشْغَلِه وسيشهد له الروح القدس **هو المسيح، أنه ابن الله**، الحقيقة التي من أجلها كتب ق. يوحنا إنجيله كله: «**لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله، ولكي تكون لكم، إذا آمنتم، حياة باسمه**» (يو٢٠: ٣٠و٣١)؛ الأمر الذي أكمله الروح القدس منذ يوم الخمسين فصاعداً، باستعلان علاقتنا بالمسيح، إذ يشهد بولس الرسول على شهادة الروح القدس في أعماقه: «لأن كلَّ الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناءُ الله... أخذتم روح التبني الذي به نصرخ يا أبا الآب. الروح نفسه أيضاً يشهدُ لأرواحنا أننا أولاد الله. فإن كنا أولاداً، فإننا ورثة أيضاً، **ورثة الله، ووارثون مع المسيح...**» (رو٨: ١٤ــ١٧)

وعلى مدى سفر الأعمال كله والرسائل، يشهد الروح القدس أن المسيح هو ابن الله. فأول عمل عَمِلَه بولس الرسول بعد أن اعتمد، هو الكرازة بابن الله: «وتناول طعاماً فتقَوَّى... وللوقت جعل يكرز في المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله» (أع٩: ١٩و٢٠). وهكذا تم قول الرب أن: «في ذلك اليوم تعلمون أني أنا في أبي».

«أني أنا في أبي»:

هذا اصطلاح لاهوتي، أي يختص بطبيعة الله، و يفيد الوحدة القائمة بين الآب والابن، هذه الوحدة تؤمِّنها وحدة الطبيعة أي الجوهر. وجوهر الله هو ألوهيته؛ فالآب والابن جوهرهما واحد، ولا يوجد ثنائية في جوهر الله، لأنه بسيط غير منقسم ولا مركَّب. والآب والابن صفات جوهرية أي صفات لطبيعة الإله الواحد. والآب والابن ذات واحدة، كاملة كمالاً مطلقاً؛ و يستحيل أن تكون الذات الكاملة آباً فقط أو ابناً فقط، فكل ذات هي آب وابن معاً. وإذا أخذنا الذات البشرية، أي الإنسان، نجده كذلك. فكلُّ ذاتٍ (أي أنا وأنت) هي ابن ثم هي أيضاً أب، أي أن الذات فيها البُنُوَّة وفيها الأُبوَّة، كامنة، تُظْهِرُها عوامل زمنية ونُضْجية. ولكن ذات الله كاملة أزلياً وأبدياً، فيها الأُبوَّة والبنوَّة معاً، لا متقدِّمٌ فيهما ولا متأخِّرٌ، ولا مُسْتَحْدَثٌ فيهما ولا مُتغيِّرٌ.

لهذا، فإن الآب والابن هما بالطبيعة متحدان ليكونا الذات الإلهية الواحدة ــ الله. ومن السهل بعد ذلك أن نقول، أن الآب في الابن كائن، وأن الابن في الآب كائن، وأن لهما المشيئة الإلهية الواحدة التي للذات الواحدة. ومن السهل البيِّن أن تمارس الأُبوَّةُ في الله رسالتها بالانعطاف والحب

نحو البنوة وتعلنها، خاصة بعد التجسد، وأن تمارس البُنوَّة رسالتها بالطاعة والحب، بعد التجسد، نحو الأُبوة.

فلما شاء الله أن يخلِّص الإنسان بنفسه بأن يرفعه إليه، و يَهَبُهُ الحياةَ الأبدية، بَذَلَ البنوَّة التي فيه، أي ابنه، ليتجسد. وهكذا ظهر الله في الجسد، وهو الابن، وأطاع الآب، حتى أكمل رسالة الخلاص. وقد استطاع المسيح أن يبرهن عملياً، بحياته وموته وقيامته، أنه هو والآب واحد، قولاً وعملاً وسلوكاً. ولما حلَّ الروح القدس على التلاميذ، أكمل الروح القدس الشهادة للمسيح أنه ابن الله، وأنه واحد مع الآب، الأمر الذي صار محور الكرازة وأساس الخلاص.

«وأنتم فيَّ وأنا فيكم»:

المتكلم هنا هو المسيح ابنُ الله المتجسد، ولولا تجسُّده لما استطاع أن يقول هذا القول، ولكنه لما **أخذ الطبيعة البشرية واتحد بها، استطاع أن يقول: «أنا فيكم»، أي في طبيعتكم**، و«أنتم فيَّ» **أي طبيعتكم صارت فيَّ.** وهذا، بحد ذاته، هو الذي فتح أمامنا المجال لنتجرأ ونطالب ــ بحق هذا التجسد ــ أن يكون لنا شركة معه أو فيه أو في حياته على وجه الأصح، وأيضاً أن يكون له وجود وشركة في حياتنا، بل هو الذي دعانا إلى تلك الشركة ومنحنا حقوقها بالتجسد. هذه الشركة مع المسيح كابن الله، الذي دعانا إليها، ومنحنا كل حقوقها، هي أيضاً حالة اتحاد. ولكن هناك فرقٌ شاسعٌ بين كلمة المسيح: **«أنا في أبي»** وبين **«أنتم فيَّ وأنا فيكم»**. ففي الأولى، يقوم الاتحاد على أساس وحدة الطبيعة أي الجوهر الإلهي، وهو ينشيء ذاتاً واحدة؛ أما الوجود المتبادَلُ في الحالة الثانية، فهو لا يرفع الفوارق ولا يوحِّد الذات بل يعطي حقوقاً مجاناً و يُعَبَّر عنه بمفهوم الشركة في حياة المسيح: «فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فيَّ» (غل٢: ٢٠)؛ «مَنْ يأكلْ جسدي و يشرب دمي، يثبت فيَّ وأنا فيه» (يو٦: ٥٦)؛ «فمَنْ يأكلني، فهو يحيا بي.» (يو٦: ٥٧)

هذا الاتحاد الذي يدعو إليه المسيح في موضع آخر: «أنا فيهم وأنت فيَّ، ليكونوا مكمَّلين إلى واحد» (يو١٧: ٢٣)، هو أيضاً حالة شركة، و يعبِّر عنها ق. يوحنا هكذا: «وأما شَرِكتنا نحن، فهي مع الآب، ومع ابنه يسوع المسيح» (١يو١: ٣). وهذه الشركة لا يمكن أن تبلغ مداها الحقيقي سواء بالإدراك أو بالفعل، إلاَّ في الحياة الأخرى، حيث يكون فيها الله الكلَّ في الكل، ولكنها تبدأ تتحقق منذ الآن جزئياً، وقليلاً قليلاً، على مستوى الاستعلان بواسطة الروح القدس، وعلى مستوى الفعل بتقديس الروح أيضاً، وذلك بالتغيير والتجديد المتواصل، بخلع الإنسان العتيق ولبْسِ الجديد

الذي يتجدد حسب صورة خالقه، وعلى أساس الإتفاق الكامل في العمل والمشيئة مع الروح القدس، لتكميل الحياة المسيحية.

وإليك، أيها القارىء العزيز، محاولة مختصرة غاية الاختصار للتعبير عن اختبار الشركة مع المسيح بالروح، حيث نتتبَّع النفس وهي تنطلق من عُقالها، لتطّلع على الطبيعة الإلهية، وتتآلف معها، من خلال نافذة الروح القدس. حيث تُفَاجَأُ النفس ــ من خلال وعيها الجديد المتفتح ــ برؤية الحقيقة لأول مرة، فتبدو الحقيقة كانكشاف فجائي في الرؤيا الشخصية، حيث تُدْرِك النفس حقيقة المسيح المنيرة، بالإحساس الواعي لحضوره الإلهي.

هذا الإحساس ينطبع في النفس، ليخطّ فيها خطوطاً أبدية لا تفارق النفس مدى الحياة، وحيث صورةُ المسيح لا تُفارق النفسَ الواعية بوجوده، وكأنه يلازم الروح: «أنتم فيَّ وأنا فيكم». إنه نوعٌ من الاتحاد الروحي العميق، تكتسب منه الروح تكاملاً جديداً، في كل اختيار، يقرِّبها أكثر من المسيح، و يزيد وعيها نوراً وإدراكاً بألوهيته البسيطة المتناهية في البساطة. حيث يتذوق الإنسان حياة أخرى تماماً، بمواصفات جديدة على الفكر تماماً، أقوى ما فيها هو الفرح والسلامُ اللذان يسكنان في القلب: «سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحدٌ فَرَحَكم منكم.» (يو١٦: ٢٢)

ثم يبدأ الوعي المسيحي فيتحرك بنور حضرة المسيح، فينكشف أمامه سرَّ الخلق، وسرَّ التجديد، وسر القيامة والخلود، لا كأن هذه معارفُ جديدة، بل باعتبارها خصائص النفس ذاتها. أما الزمن، فيغيب بماضيه وحاضره ومستقبله عن وعي الإنسان، فلا يعود يشعر بمرور الساعات والأيام، أو تتابع الليل والنهار، إذ تستغرق النفس في رؤيتها وهي تتتبَّع المسيح في حياته وكلماته، وهو متجلي في أفق النفس بملء بهائه، فتختفي من أمام العين كل الصور والمناظر، وهي في موضعها، فلا تعود العين الروحية تصطدم إلاَّ بالحقائق وهي تتكشف أمامها. ولا يعود للبصر الروحي حواجزُ مادية تمنعه عن التغلغل في الوجود الروحي اللامحدود واللامُحاصَر. لا يعود البَصَرُ بالعين هو واسطة الرؤيا، بل تنفتح حواس الروح لتتعامل مع الحقائق الإلهية بوعي جديد. وهكذا تدخل الروح في بيتها الأبوي: «في بيت أبي مَنَازِلُ كثيرة... أنا أمضي لأُعِدَّ لكم مكاناً، وإن مضيتُ وأعْدَدْتُ لكم مكاناً، آتي أيضاً وآخذكم إليَّ، حتى حيث أكون أنا، تكونون أنتم أيضاً.» (يو١٤: ٢و٣)

٢١:١٤ «الذي عندهُ وصاياي ويحفظُها، فهو الذي يُحبُّني، والذي يُحبُّني، يُحبُّه أبي، وأنا أُحِبُّهُ، وأُظهِرُ له ذاتي».

آية اختبارية يطرحها المسيح أمام عُشّاق الحب الإلهي، ليستكمل فيهم ظهوره الإلهي. حينما قال المسيح في موضع آخر: «ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت٢٨: ٢٠)، لم يقلها عفوياً، وكأنه يسند قلبهم بالكلمة، ولكنه كان فِعْلاً وحقاً على وعد مع المحبين والعاشقين وحافظي عهده ووصاياه، وليس بمجرد التواجد غير المُعْلَن، ولكن بالظهور الحقيقي المُسْتَعْلِن للروح المنفتحة الحواس والقادرة على اجتلاء الرؤية.

وهل للرب وصايا فوق بساطة المحبة، التي لا تعرف أن تفرق بين صديق وعدو، أو تميز بين جميل وذميم، أو تُفضِّل مادحاً على قادح. أو هل له وصية أقوى من اتضاع الإخلاء الصادق من كل ادِّعاءِ الكرامة، وطلب المجد الدنيوي، والتسابق على الظهور، وشهوة المديح والسيادة. لقد أوصى الرب **وأكدَّ** على أهمية الصلاة **بدون مَلَلٍ**، حتى تَشْتعلن قوتها، ولمَّح على حتمية الطِلْبة **ليلَ نهارَ**، حتى ينسكب الروح القدس الحامل لكل أسرار الحياة. لقد شرح الرب، وأوضح الشرح بالتمثيل، كيف تقوم قوة الكرازة على أيدي الكارزين، حينما يغسلون أرجل بعضهم البعض، ليؤمن العالم أنهم تلاميذ الرب حقاً، ثم جعلها وصية عملية لكل الخادمين، لا حفلة تمثيل على مسرح الكنيسة.

لقد أوصى الرب الذين ثبَّتوا وجههم نحو أورشليم العليا، أن لا يلتفتوا إلى الوراء ليودِّعوا الأهل والأقرباء، مُحذِّراً إياهم أن أعداءَ الإنسان يكونون هم أهلُ بيته، إن هو طلب وجه الرب. وأنه بقدر ما يترك الإنسان من مباهج الدنيا وعواطف اللحم والدم، بقدر ما يأخذ مائة ضعف، كيلاً مهزوزاً مُلبداً، من مباهج الحياة الأبدية.

لقد أوصى الرب كثيراً بالأذن التي تسمع، والعين التي تبصر، والقلب الجيد الذي تنبت فيه الكلمة لتعطي ثمارها، وطوَّب حبة الحنطة التي فضَّلت أن تموت، من أن تبقى وحدها، ووعدها بثمر كثير. ووصايا الرب تُمسك بعضها ببعض، والواحدة تجرُّ الأخرى، لأن قوة خفية تنبع منها، لا تسكت ولا تهدأ، حتى تأتي على الكل.

«يحبه أبي»:

«الذي عنده وصاياي» هي الأساس الذي عليه تقوم كل علاقة كلية وجزئية مع الله منذ القديم. فاحترام كلمة الله، هو التكريم الحقيقي والمباشر لشخص الله: **«أكرم الذين يكرمونني،**

والذين يحتقرونني يصغرون.» (١صم٢: ٣٠)

وأين ومتى وكيف نُكْرِمُ الله؟ إلاَّ في كلمته واسمه. **فكلمة الله واسمه يحملان شخصه، وينوبان عن وجوده، ويعملان عمله، والمسيح ـــ تبارك اسمه ـــ هو كلمة الله مُشخَّصة ومنظورة، وهو الحامل لاسمه ἐγώ εἰμι**، فالتعامل الموقر مع المسيح هو تعامل مباشر مع الآب، وكيف نتعامل مع المسيح إلاَّ في وصاياه؟ فالذي عنده وصايا يسوع، عنده الرب نفسه. والذي جلس تحت كلماته يتأدب بها ويتهذب، هو الذي اختار النصيب الصالح الذي لن يُنْزَع منه (لو١٠: ٤٢). «ومَنْ يثبت في تعليم المسيح فهذا له الآب والابن جميعاً» (٢يو٩)، «والذي يحب كثيراً، يُغْفَر له الكثير» (راجع لو٧: ٤٧)، أي يصير من المقرَّبين إلى الآب.

وفي القديم، تعلَّمنا أن الله ـــ الحكمة ـــ يمكن أن يتبادل معنا الحب مباشرة: «أنا أحب الذين يحبونني، والذين يبكرون إليَّ يجدونني» (أم٨: ١٧)، وما التبكيرُ إلى الله ـــ أو إلى حكمته ـــ إلاَّ الصلاة، والهذيذ بكلمته الحية، في بكور النهار وبكور الحياة معاً.

والآن، وقد تجسد الكلمة، وسمعنا من فمه وصية جديدة، صار حبُّ الوصية هو حبُّ الابن والآب معاً. وردُّ الفعل عند الله لا يزال قائماً، فالذي يحبُّ الابن يحبُّه الآب؛ وحينما يحبُّنا الآب، فهذا معناه أنه تمت المصالحة وأثمر الصليب والغفران، ودخلنا فعلاً في ميراث البنين.

«وأنا أُحبه»:

محبة الرب لنا قائمة على الصليب، أما بعد الصليب فهي مُخَضَّبة بالدماء، حيث لا يمكن أن يكون حبٌّ أعظم من هذا. ولكن «الذي» عنده وصايا يسوع، وقد حفظها في قلب واعٍ «وعمل بها وعلَّم» (مت٥: ١٩)، فهذا يكون قد دخل في عهد نشيد الأنشاد، وتأهَّل أن يطَّلع على سر الحب الإلهي، ويكون قد انتقل من ميراث البنين إلى ميراث العروس، هذا يقول عنه القديس بولس الرسول إن: «مَنْ التصق بالرب، فهو روح واحد.» (١كو٦: ١٧)

«وأُظْهِر له ذاتي»:

الكلمة اليونانية ἐμφανίσω تفيد معنى «يعرض بوضوح وبشكل بارز»، وهي نفس الكلمة التي جاءت في ظهور المسيح أمام الله: «لأن المسيح لم يدخل إلى أقداس مصنوعة بيدٍ، أشباهِ الحقيقية، بل إلى السماء عينها **لِيَظْهَرَ** الآن أمام وجه الله لأجلنا» (عب٩: ٢٤)، لذلك، فهي تفيد أكثر بكثير من معنى الاستعلان المنظور لشيء كان خفياً وأُظْهِرَ والتي تأتي هكذا:

ἀποκαλύπτω، ولا هي ظهور شيء كان غير معروف سابقاً: φανερόω . ومعروف أن ظهور المسيح العلني المجسّم والواضح لا يمكن أن تحيط به العين في حالتها الطبيعية، لأن المسيح الآن هو في حالة مجده الإلهي، الذي يفوق قدرة إحساس العين، إذ يتحتم أن يكون الروح متداخلاً وفعّالاً في الحواس الروحية، حتى يتمكن الإنسان المؤمن، وليس المؤمن فقط، بل مَنْ بلّغت روحه درجة نقاوة القلب والصفاء، بممارسة المحبة والهذيذ في كلمة الحياة، لكي يدرك المسيح في ظهوره الإلهي الفائق لمظاهر المادة والعالم.

ويلزم أن ننتبه جداً لتصريح الرب في هذا الأمر الفائق، إذ يقول **إنه هو الذي سيُظْهِرَ ذاته**، بمعنى أنه سيمارس عملاً فائقاً أو إعجازياً. وهذا يجعل ظهوره عملاً خاصاً به، يعطيه كيفما يشاء، ومتى شاء، ولكنه جعله في متناول كل إنسان: «**الذي عنده وصاياي، ويحفظها، فهو الذي يحبني**»، أي يؤدي شروط المحبة.

أما ظهور الرب، فيقينٌ كالفجر، رآه بولس وهو ناظرٌ إليه من السماء، في ضوء منتصف النهار، بوجه يلمع أكثر من الشمس، لأن الشمس وكلّ الأنوار هي ظلال وأقنعة للنور الحقيقي؛ فالأقنعة تختفي، والظلال تنمحي، حينما تنفتح عين الروح ليتجلّى أمامها النور الحقيقي، و يظهر عالم الروح على حقيقته، والرب سِراجُه.

لولا النور (المسيح) ما كان الظلُّ (الخليقة)، ولكن الظلَّ لا وجودَ له من ذاته، بل الوجود هو للنور وحده: «بنورِكَ نرى نوراً» (مز٣٦: ٩)، إذ لا يعود البَصَرُ بالعين بل تنفتح حواسُّ الروح المضيئة، لرؤية النور الحقيقي، فلا تعود الرؤيا تصطدم بالظِلاَل (جوامد المادة)، بل تخترقها بلا عائق، وكأنها شفافة، دون أن تفارِقَ موضعها، أو تضيع معالمها وأشكالها. وليست جوامد المخلوقات وحدها هي التي تخترقها أشعة الخلود فتذوب صورها المتباينة، بل وكلُّ ما يصدر عن المادة والإنسان من الانفعالات الثُنائية الهوجاء ذات الصعود والهبوط والدّفع المتواصل، من نورٍ وظلمة، وفرح واكتئاب، ورجاء وشقاء، وراحة وعناء، وميلاد وموت، هذه كلها تخترقها أشعة الخلود الصادرة من مَصْدَرِ الخلق، من النور الحقيقي، من وجه يسوع فتهدأ وتكفّ جميعاً، ولا يبقى إلاّ الوجود الحقيقي الموحَّد، في مجال الإله المتجلي بنور لا يُدْنى منه، في هدوء الأبدية اللامتناهية، وتتجلى أشِعّة النور تنساب من مصدرها الخالق، لتملأ كل الوجود، تَنْفُذ وتخترق كل ما يصادفها، وبها يستنير الذهن الذي يطير على أجنحتها، ليَغْشَى بها الوجود، و يستجلي بها الموجودات، وكأنه ملتحم بالوجود الكلي، لا ينتهي عند حدٍّ أو أُفق، فتتسع دائرة العقل الروحي، وتتقدس حركاته،

ولا يعود يرتاح أو يبتهج إلاَّ في إرادة خالقه، وذلك حينما يخضع لها برفق ودون عناء، ويُصغي إلى الصوت الآتي إليه من الأبدية: «شاول شاول لماذا تضطهدني...» (أع ٩: ٤)

القديس بولس الرسول خبَّرنا خبر اليقين عما رأى وسمع وعاين، حينما حُمل بالروح، وطار على أجنحة النور، واخترق كل ظلال الأرض والسموات، حتى السماء الثالثة، التي تصفو فيها الرؤيا، ليتجلى عالم الروح دون أقنعة أو ظلال أو خيالات، حيث لا تعدو الحركات المادية تؤثر على الرؤيا أو تزيِّف المنظور، وحيث تتحرر الروح، وينفتح الوعي المسيحي، ليرى ما لم تَرَهُ عين، ويسمَعَ ما لم تَسْمعْه أذنٌ، ويعي ويدرك ما لم يخطُرْ على قلب بشر، هذا أعلنه له الله خاصة، وكشف له بالروح كل مكنونات قلبه، أو كما قال بولس نفسه: «حتى أعماق الله!!» (١كو٢: ٩و١٠)

ولكن، واحسرتاه! كنا نظن أنه قادر، بل أقدر مَنْ يستطيع أن يصف ويُسْهِب في الوصف، عن هذا الذي رأى، ولكنه كفَّ عن النطق! غير أنه، بحذق الكاتب الماهر، حوَّل المناظر إلى كلماتٍ، وأخضع الرؤيا إلى تعاليمَ وعبارات. وظهور الرب له، بالبيان الروحي حوَّله إلى استعلان إنجيلي، وسلَّمنا الرؤيا كبشارة: «وأعرفكم أيها الإخوة **الإنجيل الذي بُشِّرتُ به**، أنه ليس بحسب إنسان، لأني لم أقبله من عند إنسان، ولا عُلِّمتُهُ، **بل بإعلان يسوع المسيح.**» (غل١: ١١و١٢)

وهكذا، أيها الإخوة، كان الإنجيل الذي بشَّر به بولس الرسول أحَدَ مناظرِ الرب وإعلاناته: «إنه لا يوافقني أن أفتخر، فإني آتي إلى مناظر الرب وإعلاناته، أعرف إنساناً (هو بولس نفسه) في المسيح قبل أربع عشرة سنة، أفي الجسد، لست أعلم، أم خارج الجسد، لست أعلم، الله يعلم، اختُطِفَ هذا إلى السماء الثالثة... اختُطِفَ إلى الفردوس، وسمع كلماتٍ لا يُنْطَقُ بها، ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم بها.» (٢كو١٢: ١ـ٤)

فقَوْل الرب: «الذي يحبني أحبه، "**وأُظهر له ذاتي**"»، هذا حقَّقه لبولس الرسول إنجيلاً وبشارة، وعلماً ودراية، وحكمة روحية لم يُدَانِهِ فيها أحدٌ. فقد وقَّع مناظر الرب على الكتابة، فكانت مبادىءَ وتعاليمَ، جعلت حياة ربنا يسوع المسيح، وكأنها صورة إلهية متألقة بالمجد والجلال. وحوَّل صورة ذات الرب إلى إدراك، ومعرفة للاهوت المسيح، صار العقل يلبسها كإكليل مجد، لا يدانيه إكليل، في كل معارف بني الإنسان.

وق. يوحنا الإنجيلي رأى «**ذات**» الرب في رؤياه على هيئة ابن الإنسان، بعد أن عرَّفه باسمه:

+ «وسمعت ورائي صوتاً عظيماً، كصوت بوق، قائلاً: أنا هو الألف والياء، الأول والآخر... فالتفتُّ لأنظر الصوت الذي تكلم معي، ولما التفتُّ، رأيت سَبْعَ منايرَ من ذهبٍ، وفي وسط السبع المناير شِبْهَ ابن إنسان، متسربلاً بثوب إلى الرجلين، ومتمنطقاً عند ثدييه بمنطقة من ذهب، وأما رأسه وشعره فأبيضان كالصوف الأبيض كالثلج، وعيناه كلهيب نار، ورجلاه شِبْه النحاس النقي، كأنهما محمّيتان في أتون، وصوته كصوت مياه كثيرة، ومعه في يده اليمنى سبعة كواكب، وسيف ماض ذو حدين يخرج من فمه، ووجهه كالشمس وهي تضيء في قوتها.» (رؤ١: ١٠—١٦)

هنا لا نريد أن ندخل في شرح سفر الرؤيا. ولكننا بصدد «ظهورٍ» علنيٍّ للرب يسوع، حسب وَعْده الذي وعد أمام تلاميذه. ها هو يعلن ذاته، مستحسناً أن يظهر كابن الإنسان، وسط الكنائس على مدى عصورها السبعة حتى ختام الدهور، وهو قائم بينها بلبّاس الخدمة الأبيض المسترسل إلى القدمين، وطوقُ الذهب حول الصدرِ كرئيس كهنة الخيرات العتيدة، وشعرُه أبيضُ كالثلج بصورة «قديم الأيام»، وهو الله، عند دانيال النبي، وعيناه كلهيبِ نارٍ تمحّص ضمائر القائمين على الخدمة، ورجلاه كنحاس محمّى في أتون، تصلح أن يدوس بها معصرة الآلام وحده على هامة أعدائه، وصوته كهدير مياه كثيرة، لأنه صوت الروح المتدفق بالحياة، تتكدس فيها كل كلماته التي خرجت من شفتيه، لأن حرفاً واحداً منها لا يسقط. وفي يده اليمنى سبعة كواكب، الحاملة لمصائر المختارين من كل الناس والشعوب، وعليها أسماؤهم. ومن فمه يخرج سيفٌ ماضٍ ذو حدين، وهو سيف القضاء بكلمته، وحدُّ الدينونة ـــ بحسب إنجيله ـــ العتيدة أن تأتي على كل المسكونة، ووجهه كالشمس وهي تضيء في ملء قوتها. فهو هو نور العالم، ومعه لا يوجد شمسٌ ولا قمرٌ.

هكذا يُظهر المسيحُ ذاتَه ـــ كما يتراءى له ـــ وحسب حاجة الناظرين. فهو يظهر كمعلّم غريبٍ ومسافرٍ لتلميذي عمواس، والربُّ العالي الممجَّدِ في أعلى السموات لشاول، ورئيس الكهنةِ على كنائس الدهور ليوحنا الرائي، وابن الإنسانِ الجالسِ عن يمينِ العظمةِ في السماوات لإستفانوس الشهيد، ومسيح الصليبِ في روما لبطرسَ الهاربِ من حكم الموت!

١٤ : ٢٢ «قالَ له يهوذا، ليسَ الإسخريوطيّ: يا سَيّدُ ماذا حَدثَ حتى إنك مُزْمِعٌ أن تُظهِرَ ذاتَكَ لنا، وليس للعالم».

«يهوذا» اسم مزعج. لقد تيقظ له ق. يوحنا بسرعة وأضاف ما ينفي عنه عار سميّه؛ ربما كان

هـذا في بدء المناداة بإنجيل يوحنا على مستوى الوعظ من على منبر كنيسة أفسس. فحينما نَطَقَ بهذا الاسم رأى الوجوه قد اكفهرَّت، فاستطرد في الحال، وأصلح الحال: «ليس الإسخريوطي»!

كـان آخر مـنـظـر ليسوع خَطَّ خطوطه العميقة والمفرحة في قلب التلاميذ وفِكْرِهم، هو يوم أحد الخوص، يوم دخول أورشليم الأخير، حين أعلن يسوعُ نفسَه ملكاً بفم تلاميذه والأطفال، والمفهوم سرًّا لديهم أنه ــ ولا شك ــ هو المسيَّا الآتي، والباقي إلى الأبد. ألم ينادي علانية باقتراب ملكوت الله؟ إذاً، فلـمـاذا هـذا التغيير المفاجيء في الخطّة؟ لماذا يحبس ظهورَه على خاصته دون العالم؟ ولكن الفارق بين ما قال الرب، وما فَهِم يهوذا ــ ليس الإسخريوطي ــ هو: على أي مستوى يَمْلِكُ يسوع المسيَّا؟ وعلى أي مستوى يظهر و يعلن ذاته؟ فالرب يتكلم عن السموات، و يهوذا يفكر في الأرض. الرب يعلن عن ألوهيته، و يهوذا ينظر إلى الجسد.

٢٣:١٤ «أجابَ يسوعُ وقالَ لهُ: إن أحبَّني أحدٌ، يَحْفَظ كلامي، ويُحِبُّهُ أبي، وإليه نأتي، وعندهُ نَصْنَعُ مَنزِلاً».

«إليه نأتي»:

مفتاح هذه الآية، وما قبلها، يأتي في كلمة «نأتي» بالجمع ــ الآب وأنا ــ حيث كأنما يردُّ المسيح على يهوذا ــ ليس الإسخريوطي ــ قائلاً: إن أردتَ أن تعرف ماذا حدث، وماذا سيحدث، وأين أظهر، وكيف ولِمَنْ أظهر، فاعلم أني **سأكون مع الآب**؛ وهذه إشارة مباشرة إلى لاهوته ووحدانيته مع الآب، والكلام هنا يأتي موازياً لما قاله لفيلبس: «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو١٤: ٩)، وحيثما سيكون الآب سأكون أنا!! فإن أردتَ أن تراني، وإن أردتني أظهر لك ذاتي، فاعمل ما يحبُّه الآب، والآب يحبُّ مَنْ أحبني، وليس أحدٌ يستطيع أن يحبَّني إنْ لم يحفظْ كلامي!... حيث **«كلامُ»** المسيح يعني هنا، الإنجيلَ بل الكتابَ المقدس ككلمة موحَّدة الهدف، وليست الوصايا المقسَّمة والمتعددة الأهداف، وحيث الحفظ هو حِفْظ القلب، لا العقل وحده، وحفظ القلب لا يكون ولا يدوم، إلاَّ بالممارسة عن حبٍّ وشَغَف!

«وعنده نصنع منزلاً»:

«عنده» باليونانية παρ' αὐτῷ وهي تفيد إقامة المَعِيَّة، وليس إقامة الحلول. ونحن نذكر أن علاقة الروح القدس بالتلاميذ والمؤمنين كانت: «**ماكث معكم** παρ' ὑμῖν و يكون **فيكم** ἐν ὑμῖν» (يو١٤: ١٧). أي التواجد أولاً على مستوى تواجد المسيح ــ قبل الصليب ــ معهم

كمعلم وقائد ومُلهِم ومخلِّص، ثم تواجد المسيح **فيهم** بعد القيامة والصعود والجلوس عن يمين الله: «ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أف٣: ١٧)، وهذا لا يتم إلَّا بالروح القدس.

فهنا، في هذه الآية، يعود المسيح ويخبرهم، أنه في جو المحبة، ومن خلال التمسُّك بالوصايا، وباللهج في «**الكلمة**» التي أعطاها ككل، ليس فقط يأتي الروح القدس والمسيح ويكونان معهم للقيادة والتعليم والشهادة والدفاع عن الإيمان؛ بل ويأتي الآب أيضاً مع المسيح ليصنع منزلاً µov٦v في قلوبهم، كأبٍ يسكب عليهم من روح أبوّته، فيستمتعوا بالبنوة لله، ويناودنه بالروح الصارخ فيهم بالحب: "يا أبا الآب": «لننال التبني، ثم بما أنكم أبناءٌ أرْسَلَ الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً: يا أبا الآب.» (غل٤: ٥–٦).

المنازل السماوية المعدَّة لنا فوق، والمنازل التي يصنعها المسيحُ والآبُ معنا الآن:

وهكذا يستعلن لنا المسيح «المنازل السماوية» فوق، التي أعدَّها المسيح ليأخذنا إليها، لنكون معه ومع الآب: **ربما** كل حين ومنذ الآن، **ويقيناً**، عندما نخلع الإنسان الترابي ونستوطن عند الرب في النهاية. والقديس بولس عاين المنازل السماوية العليا، واطَّلع على أمجادها، ولم يكن واثقاً هل كان ذلك بالجسد أم خارج الجسد، ولكنه كان واثقاً أنه رأى وعاين، وشاهد وشهد، لعظمة تلك المنازل العليا. وأيضاً هو القديس بولس نفسه، الذي يؤكد لنا مراراً أن الرب كان **ينزل عنده** من حين إلى حين، ليتكلم معه في وسط الضيقات مُرْشِداً ومُشجِّعاً: «فقال الرب لبولس برؤيا في الليل: لا تَخَفْ، بل تكلَّم، ولا تسكت. لأني **أنا معك**، ولا يقع بك أحدٌ ليؤذيك، لأن لي شعباً كثيراً في هذه المدينة.» (أع١٨: ٩و١٠)

والرب نفسه وصف تواجده مع بولس، كمَنْ يوجد في إناء مختار يستريح فيه: «فقال له (لحنانيا) الرب: اذهب، **لأن هذا لي إناءٌ مختار** ليحمل اسمي أمام أمَمٍ وملوكٍ وبني إسرائيل.» (أع٩: ١٥)

وهكذا، أُعْطِينا هذه السُّكنى بالروح مع الآب والابن، فوق، في المنازل العليا. وتَنازَلَ الآب والابن ليسكنا عندنا هنا، تحت، في منازل كخيمة مؤقتة يعدّانها في قلوبنا، ليحملا معنا حرَّ النهار، ويشتركا معنا في ضيق الحياة. وهذا تنازلٌ ما بعده تنازلٌ من جهتهما، وتكريمٌ ما بعده تكريمٌ من نحونا، إذ بذلك نفهم أننا لسنا يتامى، بل صِرْنا فعلاً «أهل بيت الله» (أف٢: ١٩)؛ وأنه قد صَدَقَ الوعد الذي وعد: «وها أنا معكم كل الأيام، إلى انقضاء الدهر.» (مت٢٨: ٢٠)

ثم علينا أن ندرك ونتحقق، أن هذه السكنى لها ما يشهد عليها في أعماقنا، **فهي حقيقة ناطقة محسوسة**، هذا يؤكده ق. يوحنا: «ومَنْ يحفظ وصاياه، يثبت فيه (في المسيح)، وهو (المسيح) فيه، **وبهذا نعرف أنه يثبت فينا، من الروح الذي أعطانا**» (١يو٣: ٢٤). وأيضاً: «**بهذا نعرف أننا نثبت فيه وهو فينا، أنه قد أعطانا من روحه.**» (١يو٤: ١٣)

«فإنكم أنتم **هيكل الله الحي**، كما قال الله، إني **سأسكن فيهم، وأسير بينهم**، وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً.» (٢كو٦: ١٦)

وهذه الآية مجموعة من عدة نبوّات كالآتي: خروج ٢٩: ٤٥، ولاويين ٢٦: ١١و١٢، وإرميا ٣١: ٣٣و٣٢: ٣٨، وحزقيال ١١: ٢٠و٣٦: ٢٨و٣٧: ٢٦:

«وأقطع معهم عهدَ سلامٍ، فيكون معهم عهداً مؤبداً، وأقرُّهم، وأكثرهم، **وأجعل مقدسي في وسطهم** إلى الأبد، **ويكون مسكني فوقهم**، وأكون لهم إلهاً، ويكونون لي شعباً.» (حز٣٧: ٢٦و٢٧)

وينبغي أن نلاحظ أن ما صنعه الله قديماً من تواجده في وسط الشعب في خيمة الاجتماع وحلوله في الهيكل المصنوع بالأيادي، الذي كان صورة أو شبه السماويات وظلها، هذا حقَّقه الله بالفعل بذاته بسُكْناه في الكنيسة كجسده السري:

[أيها الإكليروس وكل الشعب، بطِلْبَةٍ وشكر، بهدوء وسكوت، ارفعوا أعينكم إلى ناحية المشرق، لتنظروا المذبح وجسد ودم عمانوئيل إلهنا موضوعين عليه. الملائكة ورؤساء الملائكة قيام، السارافيم ذوو الستة الأجنحة، والشاروبيم الممتلئون أعيناً، يَسْترون وجوههم من بهاء عظمة مجده، غير المنظور ولا المنطوق به، يسبِّحون بصوت واحد، صارخين قائلين: قدوس، قدوس، قدوس، ربُّ الصاباؤوت، السماءُ والأرضُ مملوءتان من مجدكَ الأقدس.] (١٠)

وبحلوله في قلب المؤمن، كهيكله الخاص تماماً، يكون كمن أعاد كتابة نواميسه وكلمته من على الألواح الحجرية إلى ألواح القلب اللحمية وإلى أذهانهم الروحية: «**قد سمعتم أنه قيل للقدماء ... أما أنا فأقول...**» (راجع متى ٥)

وإليك، أيها القارىء العزيز، أسوق كلمة توضيح، أن هذه الوعود تمت بكل صدق ودقة، وقد

(١٠) القداس الإلهي (بعد صلاة الصلح).

عاشها القديسون واختبروها، وشهدوا لها في الكنيسة الحية الخالدة. فعليك يقع اللوم، إذا لم تكن قد اختبرت شهادة الروح القدس في قلبك، واستمعت بالوعي الروحي المسيحي الذي فيك إلى صوت الروح، وهو يهتف في أعماقك: يا أبا الآب، وتلذذت بتعطفات أبوّة الآب الحانية، وعاشرتَ المسيح الوديعَ المتواضعَ بالحبِّ المتبادَلِ، ومسكتَ بيده، ومسك بيدك ليَعْبُرَ بك مضايقَ العالم وأهواله، وذُقْتَ تعزيات الروح القدس، وانسكبت من عينيك دموعُ الفرح، وطفر قلبُك فيك من قوة الروح المشتعلة بنار المسيح. فهذه حقائق أشدُّ يقيناً من كل ما وَعَيناه في هذا العالم، والحب يعرف هذا.

١٤ : ٢٤ «الذي لا يُحِبُّني لا يَحفَظُ كلامِي. والكلامُ الذي تَسْمَعُونَهُ، ليسَ لي، بل للآبِ الذي أرسَلَني».

المسيح، هنا، ينفي إمكانية مجيئه وسُكْناه في القلوب، عن الذين **أحبُّوا الظلمة، فأبغضوا النور** لِزَاماً، والذين **أحبوا العالم** الحاضر فانجرفوا في تياره وعَدِموا حبَّ الله تماماً، والذين **حَفِظوا علومَ الدنيا** وغرقوا في فلسفات هذا العالم **وأغانيه ولَهْوِهِ ومَسَرَّاته**، فجهلوا وتنكَّروا لله وكلماته.

والمسيح، هنا، يشهد على نفسه، أن كل ما قاله وسمعوه منه هو من الآب وله؛ لذلك فالذين لم يقبلوه ولم يحفظوه، هؤلاء صيَّروا أنفسهم غُرباءَ عن الآب وأعداءَ: «محبة العالم عداوةٌ لله» (يع ٤ : ٤). والمسيح، هنا، يردُّ من بعيدٍ على كلام يهوذا ــ ليس الإسخريوطي ــ لماذا سيظهر **لهم وليس للعالم**. هنا المسيح يُبْرِز السبَبَ بدقَّة ووضوح، وهو انعدام المحبة وتجاهل الوصية. فمحبَّةُ العالم تفصل الإنسان عن الله، ومحبة الله تفصل الإنسان عن العالم. والذي يمارس أعمال الظلمة، يُبْغِضُ النور وأعمال النور رغماً عنه، بل ويَحْقِد على أبناء النور.

«والكلام (الأصح «**والكلمة**» اللوغُس بالمفرد) **الذي تسمعونه ليس لي، بل للآب الذي أرسلني»:**

كرر المسيح، في أوضاع كثيرة، أن الآبَ هو المصدر الذي يتكلم منه المسيح ويستمد فكره، بقصد استعلان الآب في ذاته، واستعلان وحدته الذاتية مع الآب، ورفع الكلام الذي يتكلم به إلى مستوى الرسالة الإلهية ــ اللوغس الخارج من عند الآب ــ الكلمة ــ التي إذا قَبِلَها الإنسانُ بالأذن الروحية، واحتفظ بها في قلبه، ومارس مُحْتَواها الروحي، فإنه يدرك سر الآب والابن، سر الحبِّ الإلهي، ويحياه ويلتحم به.

١٤: ٢٥و٢٦ «بهذا كلّمتكم، وأنا عندكم، وأما المُعَزّي (الباراكليت)، الروحُ القدُسُ، الذي سيُرسِلُه الآبُ باسمي، فهو يعلّمُكم كُلَّ شيءٍ، ويذكّرُكم بكلّ ما قُلتُه لكم».

المسيح هنا يُجْمِل جميع ما قاله في هذا المساء. وقد شعر المسيح، مراراً، أن التلاميذ لم يكونوا على مستوى الفهم الصحيح لهذا الكلام، الأمر الذي لم يمنع المسيح من الاستمرار في الحديث، مستنداً على أن الروح القدس حينما يحلُّ عليهم، سيُذكّرهم بكل ما قاله و يشرحه لهم. وهذا ما تم بالفعل، إذ نحن هنا في إنجيل يوحنا بصدد تسجيلات هي من إلهام الروح القدس بلا نزاع، والتي بلغت من العمق والدقة في المعاني، والترتيب في سردها، درجة أرهقت أذهان جميع العلماء، بسبب الحكمة المذهلة التي كُتبَتْ بها هذه الأحاديث. و يكفي أن يطّلع القارىء على الأصحاح السابع عشر، ثم يسأل كيف سجل ق. يوحنا صلاة المسيح هذه بكل العمق والدقة اللذين فيها، والوقت كان مساءً، (وغالباً كان المكان جبل الزيتون)، والظلام يلفُّ المكان كله، والعقول متحيرة مما يحدث أمامهم، والمخاطر التي كانوا يتوقعونها كل لحظة؟ نعم، كيف كتب ق. يوحنا، أو كيف وَعَى كلمات هذه الصلاة التي جاءت كلماتها، بل وحروفها، موزونة بكل دقة بميزان اللاهوت بما يفوق كل حكمة الإنسان وإدراكاته. نعم، كيف تم ذلك؟ وكيف احتفظ بها ق. يوحنا أكثر من ستين سنة حتى دوّنها؟ أليس هذا هو الروح القدس الذي كان حاضراً في ذهن ق. يوحنا، حسب وعد المسيح، ليرفع فكره كلمة كلمة إلى فكر المسيح نفسه: «أما نحن فلنا فكر المسيح» (١كو٢: ١٦). فكما كان المسيح يتكلم بفم الآب، هكذا كان ق. يوحنا يكتب بفكر المسيح، والروح القدس يوحي إليه بالإنجيل كلمة كلمة، كما يقول القديس بطرس: «مسوقين من الروح القدس.» (٢بط١: ٢١)

«الباراكليت الروح القدس»(١١):

و يلاحظ هنا أن الاسم الكامل لشخص الروح سبق أن وضعه الإنجيل: **«الباراكليت» وهو** اسم عَلَم مذكَّر، بعد أن كان «روح الآب» و«روح الابن» و«الروح القدس» كلها تأتي في حالة الحياد الجنسي أي لا مذكر ولا مؤنث τὸ πνεῦμα τὸ ἅγιον . أما الباراكليت فهو، وإن كان يعبِّر عن صفة، إلاَّ أنه يجيء كاسم شخص مذكَّر عاقل، تماماً على مستوى أل آب وأل ابن ὁ παράκλητος.

(١١) راجع المدخل ص٢٤٧ هامش (٢).

«يرسله الآب باسمي»:

هنا يتذكر القارىء أن **المسيح جاء باسم الآب**: «أنا قد أتيتُ باسم أبي» (يو٥: ٤٣) = أنا هو ἐγώ εἰμι؛ وها **هو الروح القدس يأتي باسم المسيح**. فكما كانت مهمة المسيح هي الإعلان والتعريف بالآب وتمجيده، هكذا الروح القدس، فمهمته هي الإعلان عن المسيح، والتعريف بالابن وتمجيده: «**ذاك يمجِّدُني**، لأنه **يأخذ ممّا لي** ويخبركم» (يو١٦: ١٤)، «... روح الحق الذي من عند الآب ينبثق، **فهو يشهد لي**» (يو١٥: ٢٦). وكما كان المسيح لا يتكلم من نفسه بل من الآب، هكذا الروح القدس «لا يتكلم من نفسه، بل كلُّ ما يسمع يتكلم به» (يو١٦: ١٣). وكما أن المسيح اقتصرت رسالته التعليمية على التلاميذ، كذلك الروح القدس، فإن رسالته تقتصر على الكنيسة.

المسيح فتح وعي الرسل ليتقبَّلوا سرَّ الآب؛ والروح القدس أعطى الكنيسة الوعي المسيحي لتتقبل سرَّ التجسد: أن «يسوع ربٌّ» (١كو١٢: ٣)، وأن «الله ظهر في الجسد.» (١تي٣: ١٦)

و يلزم أن ندرك المعنى الإنجيلي لكلمة «**الاسم**» الذي طالما شرحناه[١٢]، والذي يفيد الشخص الإلهي وطبيعته وقوته وعمله وقوله ومشيئته. لذلك جاء قول المسيح: «يرسله الآب "**باسمي**"»، أي يرسله حاملاً مهمة الكشف والإعلان والتسليم لشخص المسيح، من حيث أقنومه الإلهي، وطبيعته، وقوته، وعمله، وقوله، ومشيئته.

وهذا المعنى يوضحه، على المستوى العملي، قولُ القديس بولس: «أن تتأيَّدوا، بالقوة، **بروحه**، في الإنسان الباطن، **ليحلَّ المسيحُ بالإيمان** في قلوبكم، وأنتم متأصِّلون ومتأسِّسون **في المحبة**.» (أف٣: ١٦-١٨)

«يرسله الآب»:

«يرسله» هنا فعلٌ يأتي في صيغة المستقبل الدائم؛ فالروح القدس هو في حالة إرسال دائم من الآب، للإعلان وللتكميل والشهادة فيما يخص الابن المتجسد، **وإرساليته**، أي الخلاص؛ كما أن «يرسله الآب» تجيء في زمن المستقبل الدائم بمعنى امتداد إرسالية الابن. فكأن المسيح لا يزال يكمِّل إرسالية الآب له، من واقع إرسالية الروح القدس للكنيسة كلها!

«يُعلِّمكم كلَّ شيء، ويُذكِّركم بكل ما قلتُه لكم»:

عمل الروح القدس كان يؤدي هاتين الوظيفتين: يعلِّم، و يذكِّر. أي يعلِّم بحسب قدرته

(١٢) راجع المدخل ص٢٢٠ و٢٣٤-٢٣٧.

الفائقة في الاستعلان لكل الأمور التي تخصُّ المسيح في شخصه، والتي تختص بالخلاص، وأسرار الحياة مع الله: وأيضاً يذكِّر التلاميذ بأقوال المسيح وكلماته، كما خرجت من فم المسيح، بمزيدٍ من الاستنارة، وقوة البصيرة، وحدّة الذكاء والذاكرة. وهذه كلها واضحة في إنجيل يوحنا ورسائله، وبقية الأناجيل والرسائل.

وقوله: «**يعلِّمكم كل شيء**»، يوضح قول المسيح لتلاميذه: «إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى **جميع الحق**.» (يو١٦: ١٢و١٣)

١٤: ٢٧ **«سَلاماً أتْرُكُ لكم. سَلامِي أُعْطِيكُم، ليسَ كما يُعطِي العالمُ أُعطيكم أنا، لا تضطرِب قلوبُكم ولا ترْهَبْ».**

«وأقطع معهم **عهد سلام**، فيكون معهم عهداً مؤبداً.»
(حز٣٧: ٢٦)
«ويُدعَى اسمه عجيباً، مشيراً، إلهاً، قديراً، أباً أبدياً، **رئيس السلام**.» (إش٩: ٦)

«سلام»:

أصل الكلمة العبرية هو «شالوم»، وهي في العهد القديم ذات معانٍ واستخدامات كثيرة، وأكثرها يختص بالحياة في الدنيا. ويقابلها باليونانية: إيريني εἰρήνη . وفي الاستخدامات المدنية، ينحصر معناها في المعنى المقابل للعداوة؛ أما في الاستخدامات في أسفار العهد الجديد، فتنطلق انطلاقة رأسية بارعة لتشرح **العلاقة الصحيحة مع الله**، التي هي أصل ومنبع كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر، وما يتحكَّم في سلوكه وصفاته وأهدافه وكل حياته، ليس الحاضرة فقط بل والمستقبلة أيضاً!!

ولا تكفي مئات الصفحات لنجمع فيها أصل وتفرُّعات هذه الكلمة الخصبة جداً، **فهي نظير «المحبة»**. فالله محبة، والمسيح هو إله «السلام» (٢كو١٣: ١١، في٤: ٩)، وهو الذي صالحنا مع الله، بعد عداوة، فأسَّس فينا «السلام» «**بدم صليبه**» (كو١: ٢٠) أخذاً وعطاءً، فنحن الآن «**لنا سلام مع الله**» (رو٥: ١)، «**والمسيح هو سلامنا**» (أف٢: ١٤)، والسلام الذي يعطيه الله **يسكن عقولنا**، وهو «**يفوق العقل**» (في٤: ٧)، أي يرفعه فوق ذاته، ويُدخِله في الهدوء والسكينة

الإلهية، وكذلك يسكن قلوبنا «**ويملك عليها**» (كو٣: ١٥)، فيوقف اضطرابها وجزعها و يُدْخِلُها في مجال الفرح الإلهي الذي يسود على الضيق والألم ويملك فوقه: «فَرِحِينَ في الرجاء، صابرينَ في الضيق» (رو١٢: ١٢)، «وسلامُ الله الذي يفوق كل عقل، يحفظ قلوبكم وأفكاركم في المسيح يسوع.» (في٤: ٧)

وهكذا، فإن مجال سلام الله في الإنسان هو في القلب والعقل كليهما، القلب منبعٌ والعقل مَصبٌّ.

«سلاماً أترك لكم. سلامي أُعطيكم»:

السلام الذي يتركه المسيح، والسلام الذي يعطيه، هنا، هو في موضعه اللائق تماماً، لأن الرب يتكلم و يُركِّز على **الفراق**. وفي الآية (٢٥) قال: «بهذا كلَّمتُكم **وأنا عندكم**»، فهو الآن على أُهبَةِ الذهاب، وكأنه يُقْرِؤهم السلام قبل ذهابه.

ولكن السلام عند المسيح يعني شيئاً مختلفاً عن السلام عند العالم: «ليس كما يعطي العالم أعطيكم». والمسيح هنا يذكر السلام في وضعين: الوضع الأول عهدٌ، إنه يقطع عهداً مؤبَّداً يتركه لهم، بوضعه العام بدون تعريف: «سلاماً أترك لكم». والوضع الثاني، سلامه الخاص: «سلامي أعطيكم». أما السلام الأول بغير تعريف، فهو ليس التحية التي اعتاد أن يقولها لهم: «شالوم»، ولكنه في مفهومه الوداعي الأخير: «أتركه»، بمعنى «التركة» كميراث، بعد عِشرةٍ ستدخل تسجيلها النهائي لبداية عهدٍ جديد. أما سلامُه الخاص في وضعه الثاني، فهو «عطية» أو هبة، من نوع عطية الحياة الأبدية، وصفة دائمة لها: «وأنا أُعطيها حياة أبدية، ولن تهلك إلى الأبد.» (يو١٠: ٢٨)

فالمسيح هنا يَهَبُ تلاميذه هبة السلام الإلهي الذي **يفوق العقل** (في٤: ٧)، **ويملك على القلب** (كو٣: ١٥)، **ويُهدي الأقدام إلى طريق السلام** (لو١: ٧٩)، **وثمرُ برِّه يُزرع في السلام** (يع٣: ١٨)، **ويحلُّ على أبناء السلام** (لو١٠: ٦)، وأخيراً، سوف يتجلى بحلول الروح القدس ليدوم معهم ولهم إلى الأبد.

و يلاحَظ أن المسيح كرَّر عطيته للفرح مع السلام، وأيضاً فرحه الخاص: «وأتكلم بهذا في العالم، ليكون لهم فرحي كاملاً فيهم» (يو١٧: ١٣). لأن الفرح والسلام صِنْوان عزيزان لا يفترقان. والسلام، إذا اقترن مع الفرح، فهو في مفهوم الإنجيل سَبْقُ تَذَوُّقٍ لطبيعة الحياة الأبدية، منتهى أمَلِ الإنسان في الوجود: «لأنكم بفرحٍ تخرجون، و بسلام تحضرون. الجبال والآكام تشيدُ

أمامكم ترنُّماً، وكل شجر الحقل تُصفِّق بالأيادي، عِوَضاً عن الشوكِ ينبتُ سروٌ، وعِوَضاً عن القريس يطلع آسٌ، و يكون للرب اسماً علامةً أبديةً لا تنقطع» (إش٥٥: ١٢و١٣)، «لأن ليس ملكوت الله أكلاً وشرباً، بل هو برٌّ وسلامٌ وفرحٌ في الروح القدس» (رو١٤: ١٧)، «وأما ثمر الروح فهو محبة، فرح، سلام، طول أناة، لُطف، صلاح، إيمان.» (غل٥: ٢٢)

و يلاحَظ أن كلًا من الفرح والسلام الذي يَهَبُهُ المسيح، سواء للتلاميذ أو للذين يؤمنون به، هو عطية روحية سماوية فائقة، يعطيها المسيح للذين يحبُّونه، الآن في هذا الزمان الحاضر ليحوِّل به طبيعة الموت داخلنا (بسبب الخطية) إلى حياة (بسبب برِّه الشخصي). الأمر الذي لخَّصه في قوله: «بل قد انتقل من الموت إلى الحياة.» (يو٥: ٢٤)

كما يلاحَظ بشدَّةٍ قوله: «ولا ينزع أحدٌ فرحكم منكم» (يو١٦: ٢٢)، بمعنى أنه يوازن كل أتعاب وضيقات الزمان الحاضر ويغلبها، على مستوى: ليس كما يعطيكم العالم، أعطيكم أنا سلامي!!

والسِرُّ في هذا السلام القوي الدائم والفرح الكامل المقيم، هو أنهما سلام المسيح الشخصي وفرح المسيح الشخصي، الذي يمارس بهما الإعلان عن حضوره وعمله في القلب: «كلَّمتُكم بهذا، لكي يثبت فرحي فيكم و يَكمُل فرحكم» (يو١٥: ١١)، بمعنى أن فرحي يتحول فيكم إلى فرحكم، فيصبح فرحاً ثابتاً في المسيح و به!! وهذه هي النتيجة الحتمية لقوله: «اثبُتوا في محبَّتي» (يو١٥: ٩)، «اثبتوا فيَّ وأنا فيكم» (يو١٥: ٤). وهذا هو ميدان الجهاد المطروح أمام المسيحي.

«ليس كما يعطي العالم أُعطيكم أنا. لا تضطربْ قلوبكم ولا تَرْهَبْ»:

نعم، فعطية المسيح إلهية، روحية، ثابتة باقية إلى الأبد؛ أما عطية العالم فهي تبدو ناضرة، مخضرَّة، زاهية، وجميلة إلى زمن، كالزرع اليانع والزهرة الجميلة، ولكن سرعان ما يذبل الزرع، ويجف الزهر فيسقط. فسلام العالم مع الناس ومع الجسد إلى يوم أو إلى ساعة، وحزنه وغمُّه وقلقُه إلى أيامٍ وسنين. ما يُعطى باليمين يأخذه بالشمال، وما يُوهَبُ في الشباب يُنْزَعُ في الشيخوخة. وأن يدوم في العالم سلام، فهذا ضَرْبٌ من المحال، فأعظم سلام يعطيه العالم للإنسان هو سلام الموت؛ أما سلام المسيح، ففوق أنه يبقى و يدوم، فهو يسود فوق اضطرابات الحياة، و يرفع القلب والفكر فوق زعازع الدنيا: «ثقوا، أنا قد غلبتُ العالم.» (يو١٦: ٣٣)

«لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب»:

موقف التلاميذ بفراق المسيح سيكون غاية في الحرج؛ غنمات مُسْتَضْعَفة وسط ذئاب شَرِهة

للقتل وسفك الدماء، ولكن هوذا المسيح يستودعهم وديعة السلام، ضامناً لهم وللكنيسة كلها بهم، ومِنْ بعدهم، هذا السلام كعطية فائقة. وقد أثبتت كل الأزمنة السالفة، بكل محنها البالغة حد الهول، صِدْقَ الرب.

و«السلام» في الأصل العبري يأتي من أصل «سالم»، أي غير منقوص أو مفقودٍ شيءٍ مهما اعتُدي عليه. وبهذا تَغَنَّى إشعياء النبي: «يجعل الخلاص أسواراً ومِتْرَسَةً. افتحوا الأبواب لتدخل الأمة البارة الحافظة الأمانة. ذو الرأي الممكَّن **تحفظه سالماً سالماً، لأنه عليك متوكِّلٌ.**» (إش٢٦: ١-٣)

المسيح لما أعطي سلامه الخاص، حقَّ له أن يُنَبِّههم عن الاضطراب، لأن سلامه يُعْتَبر قوة غالبة ومنتصرة فوق كل أسباب الاضطراب. ثم ينبغي أن نفهم أن المسيح هنا يعطي **«أمراً»**: «لا تضطربْ قلوبكم، ولا ترهبْ»، هذا أمر واضح وصريح، فهو وصية، ووصية المسيح تحمل وعداً إلهياً وكأنها دُعَاءٌ، ودُعاء الله له قوة التنفيذ في داخله. فكل أمر للمسيح يحمل في طاعته قوة التنفيذ. وقد شرحنا الاضطراب سابقاً (انظر شرح الآية ١٤: ١)، أنه يكون بسبب الخوف من المجهول، كنتيجة لانقطاع الرُبُط التي تربط القلب بقاعدته الثابتة الأمينة، وهو الله. كذلك الرهبة، وهي الجزع، وتكشف عن فقدان الإيمان، أيضاً كنتيجة للارتباط بالجسد والعالم. والرهبة و الخوف هما على قمة الخطايا التي تحرم الإنسان من الحياة الأبدية (رؤ٢١: ٨).

وقد صارت عطية السلام، كقوة، تُوهَبُ من فم الرسل والتلاميذ ضمن أهم مؤهلاتهم: «وأيُّ بيت دخلتموه، **فقولوا أولاً سلامٌ** لهذا البيت. فإن كان هناك ابن السلامِ، **يحلُّ سلامكم عليه**، وإلاَّ فيرجع إليكم» (لو١٠: ٥و٦). وقولُ الرب إن السلام يرجع إليهم في حالة عدم استحقاق أَخْذِه، يفيد إفادةً قاطعةً أن السلام قوةٌ روحيةٌ فعَّالةٌ من الله، تخرج مع النُطق لتسكن القلب والفكر، وتملأ النفس. فإذا لم تجد لها مكاناً في الآخرين، تعود مرة أخرى إلى ناطقها، لتسكن فيه وتُزيده سلاماً، لأن كلمة الله لا تعود فارغة: «هكذا تكون كلمتي التي تخرج من فمي، لا ترجع إليَّ فارغة، بل تعمل ما سُرِرْتُ به، وتنجحُ فيما أرسلتُها له.» (إش٥٥: ١١)

والرسل والتلاميذ وكلُّ خدام الله الأمناء الأقوياء بالروح، أُعطي لهم أن يمنحوا سلامَ الله الذي يتبعهم أينما ساروا وأينما حلُّوا، كقوة روحية مرافقة.

وقد أخذت الكنيسة هذا الدعاء الوداعي للمسيح «سلامي أعطيكم»، ووضعته في فم الكاهن

ليعطيه للشعب ــ أهل بيت الله ــ عند بدء كل صلاة: السلام للجميع Ιρнин πacι ، وختاماً لكل صلاة: «اذهبوا بسلام، سلامُ الرب مع جميعكم». وفي كلا الدعائين يكون ردُّ الشعب: «ومع روحك أيضاً». وهذا الدعاء يستمد قوته من عطاء المسيح، فسلام المسيح هو قوة الصلح الذي أقامه المسيح بين الإنسان والله بدم صليبه (كو١ : ٢٠)، وكأنما يفتتح الكاهن الصلاة باستحقاق دم المسيح، ليملك سلامُ المسيح على عقول المؤمنين، ليشتركوا في العبادة بأذهان صاحية، ويختمها بعطاء السلام، كوديعة في قلوبهم، يعيشون بها في مواجهة أتعاب الحياة.

١٤ : ٢٨ «سَمِعتُم أني قُلْتُ لكم: أنا أذهَبُ ثم آتي إليكُم، لو كنتم تُحِبُّونَني، لكنتم تفرَحُون لأني قلت أمضِي إلى الآبِ، لأن أبي أعظَمُ مِنِّي».

كانت هذه الآية موضع اجتهاد ونقاش ومساجلة وحوار؛ بل ومقاومة، وقد اتخذها الهراطقة أساساً لإيمانهم الخاطىء وعقائدهم المنحرفة، إذ اعتبروها تفيد أن الابن أقل من الآب من جهة طبيعته، أي أنه ليس مساوياً للآب من جهة اللاهوت.

إن محور الجدل والمحاولات الكثيرة التي أرهقت اللاهوت المسيحي في هذه الآية هي قول المسيح: **«لأن أبي أعظم مني»**. وفي هذه المعلومة، إذا انحرف الفكر عن البساطة الإعجازية التي فيها، يسقط في هوة تقسيم اللاهوت إلى أعظم وأقل، وبالتالي وضع الابن في وضع متدنٍّ عن الآب، ورَفْع الآب إلى درجة المسئول عن الابن.

وسنعرض للقارىء الشرح ونقدمه على جزئين:
الجزء الأول: «لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون».
الجزء الثاني: «لأن أبي أعظم مني».

وسوف نقدم الجزء الثاني على الجزء الأول لأن هذا يستلزمه الشرح، بسبب تقديم المسيح كلمة «لأن» γάρ في الجزء الثاني من الآية، وهذا يجعل الجزء الأول «كنتم تفرحون» تابعاً للجزء الثاني من الآية: «لأن أبي أعظم مني».

فترتيب الشرح يكون هكذا: «لأن أبي أعظم مني، لو علمتم ذلك، لكنتم تفرحون لأني أنا ذاهب ثم آتي إليكم». ولكن قوة الآية تكمن في جزئها الثاني الذي قدّمناه هنا.

وبادىء الأمر نقول، إن شرح الآية يستلزم دائماً التمسك بموضعها في الكلام. فلا يصح إطلاقاً

أن نخلع الآية من مجرى الحديث ومن موضعها في الكلام، لكي نشرحها بمفردها، ونقيسها على الأصول اللاهوتية، بطرق اجتهادية تأملية.

فإذا أخذنا الآية التي نحن بصددها، ومحورها هو: «لأن أبي أعظم مني»، نجد أن الظروف التي أوْحَتْ إلى قولها هي كالآتي:
أولاً: المسيح يتكلم في هذا الأصحاح وما قبله وما بعده عن الفراق الذي سيتم بينه وبين التلاميذ، بذهابه إلى الآب، وهو يجتهد ليوضح لهم أهميته.

ثانياً: روح التعزية التي حاول المسيح أن يحيط بها تلاميذه، حتى يخفف عنهم الحزن والضيق الذي ألمَّ بهم.

ثالثاً: محاولة التهوين من شأن الموت الذي سيجوزه، باعتباره فترة قصيرة، يقوم بعدها، ويتراءى لهم، ويكون معهم وهم معه.

رابعاً: إن الموت الذي سيجوزه هو الوسيلة الهامة جداً التي بها سينطلق إلى الآب، مفتتحاً طريق الخلود، حاملاً معه المختارين.

خامساً: إن ذهابه إلى الآب هو مرتبط ارتباطاً أساسياً بإرسال الروح القدس، الذي سيقوم بتعزيتهم وتعليمهم وتذكيرهم بكل ما قاله لهم وعمله لهم، وأنه سيكون معهم وفيهم عِوَضاً عنه، بل ويكشف لهم حضوره الدائم.

سادساً: تأكيده لهم أن ذهابه إلى الآب، ولو أنه سيُفقدهم رؤيته، إلاَّ أنه **"خيرٌ لهم أن أنطلق"** (راجع يو١٦: ٧) من أن يبقى معهم. **فهنا، ذهاب المسيح إلى الآب هو حالة قيَّمها المسيح، أنها أعظم وأكثر خيراً بالنسبة لهم هم.**

واضح، إذن، أن قول المسيح: «لأن أبي أعظم مني» هو مقولة خاصة بالظروف المحيطة بها وهي ذهاب المسيح إلى الآب، الذي **هو حالة أفضل للتلاميذ وأكثر خيراً بالنسبة لهم. وهذا يجب أن يجعلهم يفرحون.** لأن النتائج المتحصِّلة من ذهابه إلى الآب قد أجْمَلَها لهم بقوله أنه إذا انطلق، سيطلب من الآب أن يرسل لهم باسمه معزِّياً آخر، هو الروح القدس. والروح القدس سيتولى شرح وتذكير التلاميذ بكل ما قاله المسيح، بالإضافة إلى أنه سيستعلن لهم كلَّ الحق، ويُعرِّفهم بكل شيء، ويكشف لهم حقيقة المسيح وكل ما يختص به، لأنه سيكون واسطة حلول

المسيح فيهم، بالإضافة إلى أنه سيمجِّد المسيح فيهم وبهم، أي يجعلهم شهوداً وآلاتٍ لتمجيد المسيح.

هذا كله سيكون ثمرة ذهابه إلى الآب، فكيف لا يفرحون، إن كانوا قد أحبوا المسيح حقاً؟

الجزء الثاني: «لأن أبي أعظم مني»:

حينما يقول الابن إن أبي أعظم مني، **فهو يتعرَّض لقانون الأُبوة والبُنوَّة، في وضعه الإلهي الأمثل، الذي منه خَرجَتْ كل أُبوَّة وبُنوَّة في العالم، فالآب أعظم من الابن ليس لأنه أعظم جنساً، فاللاهوت في هذا واحدٌ لا ينقسم ولا يتعالى، أو يتعاظم في نفسه على نفسه،** فالجوهر، أي الطبيعة، في الله واحد وبسيط غير متجزِّىء.

ولكن لما يقال أن جنس بني آدم هو بُنُوَّةٌ وأُبُوَّة، أو بالاختصار أن جنس الإنسان كجنس هو وَحدة أو «واحد» يقوم على الذات الإنسانية التي فيها الأُبوَّةُ والبُنوَّةُ، فالإنسان ذكراً كان أو أنثى هو إنسان، أي جنس واحد، وأصلاً خلق الله الجنس الإنساني ليكون واحداً وأتت المرأة كجزءٍ منه وضِلْعاً من ضلوعه، لذلك يُقال أن الرجل والمرأة حينما يتزاوجان، يصيران مرة أخرى جسداً واحداً.

فلو ارتفعنا إلى جنس الأُلوهة، وهو واحد حتماً، فهو حتماً يقوم على الذات الواحدة التي تمثِّله أو تُكوِّنه، وهذا الجنس يقوم بالتالي على الأُبوَّة الواحدة الوحيدة والبُنوَّة الواحدة الوحيدة في الذات الكاملة الواحدة. وكَوْنُ **الآب أعظم من الابن في ذات الله الواحدة لا يفرِّق ولا يثنِّي في الذات، ولكن هذا هو قانون الأُبوَّة والبُنوَّة في الله، الذي انبثقت منه كل أُبوَّة وبُنُوَّة في العالم بقانونها الأدبي، أن الآب يكون دائماً أعظم من الابن، أدبياً، وليس طبيعةً، ولا جنساً، ولا موهبة، ولا قوة، لأن الأعظم في الأُبوَّة الإنسانية لا يفيد أي صفة كانت سوى صفة الأُبوَّة، أو اسم الأب في الذاتية البشرية وحسب.**

فكون الآب أعظم من الابن، فهذا هو قانون قيام الذات الذي يضمن وحدتها وكمالها، فالله الآب يعطي الله الابن ليس لأنه أغنَى ولا أقوَى، ولكن منطق الذات المتكاملة يحتم بالحب عطاءً وأخذاً لتصير الذات مكتفية بذاتها وفي ذاتها. والحب يمثل العطاء الأعظم والأقوى في الذات الإلهية: «فالآب يحب الابن»، لأن هذا هو قانون الأُبوَّة الحتمي، والابن يحب الآب، إنما كَرَدٍّ فعلٍ مساوٍ تماماً، فهذا أيضاً قانون وفعلُ البُنوَّة

الحتمي. وهذا الحب المتبادل، يعطي للذات اكتفاءها. لذلك حينما يقول المسيح باعتباره الابن: «أبي أعظم مني»، فهو يشير إلى علاقة، فالحب في الله هو طبيعة العلاقة القائمة في الذات المتكاملة. لذلك، فالذات الإلهية هي «الاكتفاء» المطلق الوحيد (الكائن بذاته).

لذلك يقول المسيح في الأصحاح الخامس: «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك **أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته**» (يو٥ : ٢٦)، فهو لم يُعْطِهِ حياة بل **«أعطاه» أن يكون له حياة في ذاته.** هذا أيضاً هو قانون الأُبُوَّة والبُنُوَّة العام. وفي الإنسان يكون نفس الوضع، لو أخذناه ليس على مستوى الفرد الواحد كأب إنما لو أخذناه على مستوى الذات الإنسانية الواحدة كجنسٍ، فإن الأُبُوَّة في الذات الإنسانية أعطت بكيانها أن يكون للبُنُوَّة حياة في ذاتها. وهذه الحقيقة لا تظهر على مستوى الفرد الواحد في الجنس البشري إلاَّ على مستوى النسل. حيث يعطي الأب حياةً لابنه بالنسل، فتظهر الحياة، وهي تنتقل من الأب إلى الابن. وهذا حتَّمه حكم الموت، لأنه بدون أن ينسل الإنسان تتوقف حياته على الأرض وتتلاشى الذات الإنسانية من العالم المادي. فلكي تظل الذات الإنسانية كائنة، وقائمة على الأرض، تَحَتَّم عليها أن تُسلِّم شُعْلَةَ الروح التي فيها، بالنسل، إلى خَلَفٍ لها، لتبقى وتدوم على الأرض.

أما الله فهو الكائن بذاته، والحيُّ بجوهره الذي لا يعرف الموت ولا التغيير، وهو قائمٌ دائمٌ بذاته ليس فيه ظل دوران (الحركة و يتبعها الزمن)، فهو فوق الزمان والأكوان، وكلُّ كيانٍ يستمدُّ منه كيانه، وهو هو، لا يتغير، ولا يتبدَّل، وسنوه لا تفنى!!

لذلك، فالذات الإلهية منزَّهة عن النسل لذاتها. لأن الأُبُوَّة فيها دائمة بحياتها الأزلية فيها، والبُنُوَّة دائمة بحياتها الأزلية فيها أيضاً. فلا الأُبُوَّة تحتاج إلى مَنْ يقيمها، فهي قائمة دائمة، ولا البُنُوَّة تحتاج إلى مَنْ يُكمِّلها، فهي كاملة مع الآب في ذات واحدة.

والأُبُوَّة في الله غير منحصرة في ذاتها، بل تُعْطِي عطاءً أزلياً وأبدياً، كل ما لها للابن. والابنُ غير منحصر في هذا الميراث الأبوي، بل يعمل به لحساب الآب، فكلُّ غِنَى ميراثه في الآب يردُّه للآب، عملاً، سواء كان الحب أو المجد أو الكرامة، حتى أن الابن ــ كما عرفناه في المسيح ــ سُمِّيَ بل تعيَّن لنا رباً ــ **لمجد الآب!!** «و يعترف كلُّ لسانٍ **أن يسوع المسيح هو ربٌّ لمجد الله الآب.**» (في٢ : ١١)

والمجد الذي أعطاه الآب للابن: «المجد الذي كان لي عندك قبل كَوْنِ العالم» (يو١٧ : ٥)،

رَدَّه الابن للآب أعمالاً: «أنا مجَّدتُك على الأرض» (يو١٧: ٤)؛ والحب الذي أعطاه الآب للابن: «الحب الذي أحببتني به» (يو١٧: ٢٦)، ردَّه المسيح للآب بصورة منظورة لنا، في ذبيحة محبته على الصليب، صُلْحاً للعالم كله مع الآب: «أي إن الله كان في المسيح مُصَالِحاً العالم لنفسه» (٢كو٥: ١٩)، وتطهيراً لكل خطاة الأرض: «الله، بعد ما كلم الآباء بالأنبياء قديماً، بأنواع وطرق كثيرة؛ كلَّمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه، الذي جعله وارثاً لكل شيء، الذي به أيضاً عَمِلَ العالَمينَ؛ الذي، وهو بهاء مجده، ورَسْمُ جوهره، وحاملٌ كل الأشياء بكلمة قدرته، بعد ما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا، جلس في يمين العظمة في الأعالي.» (عب١: ١-٣)

وبالاختصار، وبشمول يفوق العقل، فإن كلَّ ميراث الابن في الآب، أو بمعنى آخر كلُّ غِنَى الروح والمعرفة والمجد كميراث للابن، منحه الابن للذين آمنوا بالآب وبه. فورث الإنسان مع الابن في الله، الأمر المذهل للعقل، فقد صرنا بالمسيح وفيه «ورثة الله، ووارثون مع المسيح» (رو٨: ١٧). وأهم ما في هذا الميراث هو «البُنوَّة» الدائمة، فهذا هو الملكوت الممنوح للإنسان، ميراثُ خيرات الله الروحية كبنين. وهكذا، بقدر ما ورث الابنُ الآبَ، ردَّه للآب مشمولاً بدخول الإنسان هذا الميراث عينه، ليستوعب هذا الغِنَى الأبدي اللانهائي.

ولكن ميراث الابن للآب لا يشمل عطايا خارج الكيان الجوهري في الذات الإلهية، لأن كلَّ ما للآب هو للابن، وكلُّ ما هو للابن هو للآب: «وكلُّ ما هو لي، فهو لك. وما هو لك، فهو لي» (يو١٧: ١٠). لهذا يقول المسيح: «أنا والآب واحد» (يو١٠: ٣٠). **ولكن يتضمن العطاء والأخذ في الله بين الآب والابن تواجُدَ الآب في الابن والابن في الآب. فكلُّ واحد يعطي ذاته للآخر، بصورة فائقة، بحسب الطبيعة الفائقة لله. ولكن حتى هذا التواجد المطلق بين الآب والابن، استثمره الابن في الإنسان، لحساب غِنَى اللاهوت. فكما تواجَدَ «الابن» في الجسد البشري، فتجسد، وصار «ابناً للإنسان»، وهو حاملٌ البُنوَّة الإلهية وكل غِناها وميراثها؛** هكذا أعطى الإنسان، بصورة ما، كلَّ مَنْ يؤمن و يقبل الابن المتجسد، أي المسيح، أن يتواجد الابن فيه، على قدر ما يطيق الإنسان ويحتمل: «اثبتوا فيَّ، وأنا فيكم» (يو١٥: ٤). **وعاد يخاطب الآب بهذا القول العجيب: «ولستُ أسألُ من أجل هؤلاء فقط (التلاميذ)، بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم، ليكونَ الجميعُ واحداً، كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا.» (يو١٧: ٢٠و٢١)**

والمسيح، لكي يمهّد لهذا التواجد العالي القدر ويجعله مناسباً وممكناً، يقول: «وأنا قد أعطيتُهم المجد الذي أعطيتني، ليكونوا واحداً، كما أننا نحن واحد.» (يو١٧: ٢٢)

ثم يعود المسيح ليُطبّق التوازي في الوجود ــ مع حفظ الفارق بين ما للاهوت وما للإنسان ــ هكذا: **«أنا فيهم، وأنت فيَّ، ليكونوا مُكَمَّلين إلى واحد.»** (يو١٧: ٢٣)

وهنا، وفي كل مرة يشدد المسيح أن هذا الوجود الجديد للإنسان في عمق الصلة الأبوية والبنوية في الله هو آية، دائماً تكون لحساب الآب ليراها العالم: **«ليعلَمَ العالم أنك أرسلتني، وأحببتهم كما أحببتني.»** (يو١٧: ٢٣)

وهكذا تبدو رسالة الابن المتجسد في العالم كلها لحساب الآب.

وهكذا، أيها القارىء العزيز، ينكشف سر الإيمان المسيحي الأعظم، الذي كان مَخْفِيًّا مدى كل الدهور السالفة، الذي أعلنه الله بإرساله الابن إلى العالم متجسداً، ليستعلن لنا «سر الآب والابن»، الذي به صار تجديد الخليقة البشرية ورفعها إلى مستوى البُنُوّة لله، ومنحها كل مميزاتها، لحياة أبدية مجيدة، لسعادة الإنسان وفرحه، عِوَضَ كآبة عبودية الدهور السالفة والحزن والتنهد والبكاء تحت سُخْرَة الشيطان والجسد، الذي كتب به الإنسان تاريخه السالف.

نستخلص من هذا، أن الآب أعظم من الابن لأن هذا هو قانون الأُبوّة والبُنُوّة؛ كذلك فالآب يعطي والابن يأخذ، وهذا أيضاً قانون الأُبوّة والبُنُوّة، وهذا يرتد على الذات ليعطيها الاكتفاء والكمال والوحدانية الخصبة.

وبالنهاية، نكون قد بلغنا العمق والغِنَى في قول المسيح: «أبي أعظم مني»، والذي ينتهي إلى الاكتفاء والتكامل في الذات الإلهية، على أساس هذه الصفة التي تميز الأُبوّة تمييزاً أدبياً مُطلقاً، وهذا التمييز يجعل الذات الإلهية مُحِبّة ومحبوبة، عاملة غير ساكنة، متكلِّمة غير صامتة، بل متكلِّمة سامعة، مُريدة فاعِلَة، ناظرة ومنظورة، راسِلَة ومُرْسَلة، عالِمة ومتعلَّمة، مجيدة وممجَّدة.

وباختصار، هي ذات كاملة كمالاً مطلقاً، مكتفية في كيانها اكتفاءً مطلقاً. فالذات الإلهية، كآب وابن، واحدة، ووحدتها غير واقعة تحت العجز والعَوَز. فوحدانية الله خِصْبة، ومن خصوبتها يغتني العالم. هذا، وعلى أساس ذلك، نسمع من فم المسيح أسرار هذا التكامل بين الآب والابن:

+ «لأن الآب يحب الابن، ويُريه جميع ما هو يعمله.» (يو٥: ٢٠)
+ «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني، وأُتمم عمله.» (يو٤: ٣٤)

+ «لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً، إلاَّ ما ينظر الآب...» (يو٥: ١٩)
+ «أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً، كما أسمعُ أدين، ودينونتي عادلة.» (يو٥: ٣٠)
+ «لأني لا أطلب مشيئتي، بل مشيئة الآب الذي أرسلني.» (يو٥: ٣٠)
+ «تعليمي ليس لي، بل للذي أرسلني.» (يو٧: ١٦)
+ «أنا هو، ولست أفعل شيئاً من نفسي، بل أتكلم بهذا كما علَّمني أبي.» (يو٨: ٢٨)
+ «الذي أرسلني هو معي، ولم يتركني الآب وحدي، لأني في كل حين أفعل ما يرضيه.» (يو٨: ٢٩)
+ «أنا إنسان قد كلَّمكم بالحق الذي سمعه من الله.» (يو٨: ٤٠)
+ «لأني لم آتِ من نفسي، بل ذاك أرسلني.» (يو٨: ٤٢)
+ «لكني أكرم أبي، وأنتم تهينونني.» (يو٨: ٤٩)
+ «لأني لم أتكلم من نفسي، لكن الآب الذي أرسلني، هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم.» (يو١٢: ٤٩)
+ «الكلام الذي أكلِّمكم به، لست أتكلم به من نفسي، لكن الآب الحال فيَّ هو يعمل الأعمال.» (يو١٤: ١٠)

هذه هي الأُبوَّة في الله، وهذه هي البُنُوَّة في الله، ليس بينهما أيُّ تنافرٍ أو شقاقٍ أو تعالٍ. يستحيل لأي إنسان يتمعن هذه الآيات أن يعثر على أي انقسام أو ثنائية، فالوحدة المطلقة بين الآب والابن والتكامل المطلق في الذات، يضمنها الحبُّ المطلق من الآب نحو الابن، والطاعة المطلقة من الابن للآب. فالآب يشاء، والابن يكمِّل المشيئة بنفس القوة، والآب يتكلَّم والابن يعلِّم بنفس الكلام وبنفس الحكمة، والآب يعمل والابن يعمل بنفس القوة والاقتدار.

فإذا قال الابن أن «الآب أعظم مني»، فلأنه «آب» فقط والابن يُكرم الآب لأنه «ابن»: «لكني أكرِمُ أبي، وأنتم تهينونني» (يو٨: ٤٩). ولكن إذا خرجنا خارج هذه الدائرة الخاصة جداً والنورانية الفائقة بين الآب والابن، أي ندخل إلى ما يخصُّنا نحن من هذه الأُبوَّة والبُنُوَّة الإلهية، نسمع من المسيح التساوي المطلق في الكرامة والمجد.

«لكي يُكرم الجميع الابن، كما يُكرمون الآب. مَنْ لا يُكْرم الابن، لا يكرم الآب الذي أرسله.» (يو٥: ٢٣)	= كرامة واحدة للآب والابن = إله واحد.
«أنتم تؤمنون بالله، فآمنوا بي.» (يو١٤: ١)	= الإيمان بالآب يُحتِّم الإيمان بالابن، لأنهما ذات واحدة.
«أبي يعمل حتى الآن، وأنا أعمل.» (يو٥: ١٧)	= العمل واحد بين الآب والابن.
«أنا والآب واحد.» (يو١٠: ٣٠)	= واحد في الجوهر والذات = إله واحد.
«وكل ما هو لي فهو لك، وما هو لك فهو لي.» (يو١٧: ١٠)	= كل صفات ومميزات الآب هي في الابن وكل صفات وميراث الابن هي في الآب = وحدة الصفات والمميزات.
«الذي رآني، فقد رأى الآب.» (يو١٤: ٩)	= الله الآب غير منظور. الله الابن هو منظورُ الآبِ. = الآب والابن منظورٌ واحد.
«أنت أيها الآب فيَّ، وأنا فيك.» (يو١٧: ٢١)	= الكيان الواحد.
«وهذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو١٧: ٣)	= معرفة الآب والابن فيها الحياة الأبدية.

هذه الآيات، تشير، بتأكيد، أن عَمَلَ الآب غير الظاهر يعمله الابن في الظاهر، كذلك المشيئة وكل شيء، فالآب والابن لهما عمل واحد ومشيئة واحدة.

وفي الختام نقول، إن المسيح إذا قال: «أبي أعظم مني»، فذلك لأنه هكذا ينبغي أن يرى الابن أباه، فالآب يتحتم أن يكون عظيماً في عين الابن، لتكون الذات الإلهية كآب وابن عظيمة في تكامُلها ووحدتها. أما من جهة العمل، فالتساوي في المشيئة والقدرة والحكمة هو مطلق بين الآب والابن، وأما من جهة الكرامة والمجد والعبادة والسجود فهو واحد بلا تفريق.

الجزء الأول: «لو كنتم تحبونني، لكنتم تفرحون»:

يلاحظ القارىء أن هناك صلة قوية وأساسية بين قوله: **«لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون»**، وبين قوله: «**لأني** قلت أمضي إلى الآب لأن أبي أعظم مني».

«لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون»:

هذه المعادلة قائمة بذاتها، كحقيقة أساسية في الإيمان المسيحي، لأن كل مَنْ أحبَّ المسيح، أحبه المسيح؛ وحب المسيح معه الفرح الدائم، الفرح الذي لا يُنْطَقُ به ومجيدٌ: «الذي، وإن لم تروه، تحبونه. ذلك، وإن كنتم لا ترونه الآن، لكن تؤمنون به، فتبتهجون بفرح لا يُنْطَقُ به ومجيد.» (١بط ١: ٨)

هذا ليس تعليماً بل اختباراً، وهو اختبار صادق مفتوح لكل مَن يريد. ولكن المسيح يكمِّل هذا الاختبار، بأن يسبِّبَه بسبب آخر هام، وهو: **«لأني قلتُ أمضِي إلى الآب»**، أي أن هذا بحد ذاته ينبغي أن يكون سبباً أيضاً لكي تفرحوا، إن كنتم تحبونني!

فلماذا يكون ذهاب المسيح إلى الآب سبباً لكي نفرح، إن كنا صادقين في محبة المسيح؟

هنا يمكن أن نفهم أن فرحنا يكون، إما للمسيح الذي نحبه لأنه سيكتسب مكاسب أخرى لحسابه، أو يكون فرحنا لأنفسنا بسبب المسيح الذي نحبه لأنه سيكتسب مكاسبَ أخرى لحسابنا.

أولاً: مكاسب المسيح حينما يمضي إلى الآب لأن الآب أعظم منه:

واضح أن مضـيَّ المسيح إلى الآب، معناه أنه يختم رسالته الجسدية على الأرض ليبدأ رسالته عند الآب، أي ينتقل من الرسالة الأقل إلى الرسالة الأعظم. وهذا يشمل عدة مكاسب لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، نذكر منها القليل الذي يُسْعِفُنا به درايتنا بسر الإنجيل:

+ بادىء ذي بدء، سيقدِّم إلى الآب ذبيحته الحية، ليقف أمام الآب بجسده، كخروف قائم على عرش الله كأنه مذبوح (رؤ٥: ٦). وهذه إضافة عجيبة ورهيبة لمركز الابن عند الآب، إذ سيأخذ الابن وصفاً جديداً دائماً لدى الآب بالنسبة لنا:

+ «بعد هذا نظرتُ، وإذا بابٌ مفتوح في السماء، والصوت الأول الذي سمعته كبوق يتكلم معي قائلاً: اصعد إلى هنا فأُريك ما لا بد أن يصير بعد هذا. وللوقت صرتُ في الروح، وإذا عرش موضوع في السماء وعلى العرش جالسٌ ... يخرُّ الأربعة والعشرون شيخاً (قسيساً) قُدأم الجالس على العرش، و يسجدون للحي إلى أبد الآبدين، و يطرحون أكاليلهم أمام العرش،

قائلين: أنت مستحقٌ، أيها الرب، أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة، لأنك أنت خَلَقْتَ كل الأشياء، وهي بإرادتك كائنة وخُلِقَتْ.

ورأيتُ على يمين الجالس على العرش سِفْراً مكتوباً من داخل ومن وراء، مختوماً بسبعة ختوم (سفر الدينونة). ورأيت ملاكاً قوياً ينادي بصوت عظيم: مَنْ هو مستحق أن يفتح السفر و يفك ختومه؟... فقال لي واحد من الشيوخ: لا تَبْكِ، **هوذا قد غَلَبَ الأسدُ الذي من سبط يهوذا** أصل داود، ليفتح السفر و يفكَّ ختومه السبعة. **ورأيتُ فإذا وسط العرش ... خروف قائم كأنه مذبوح** ... فأتى وأخذ السفر ... ولما أخذ السفر، خرّت الأربعة الحيوانات والأربعة والعشرون شيخاً أمام الخروف، ولهم كل واحد قيثارات وجامات من ذهب مملوءة بخوراً، هي صلوات القديسين، وهم يترنمون ترنيمة جديدة قائلين: **مستحق أنت أن تأخذ السفر وتفتح ختومه، لأنك ذُبِحْتَ واشتريتنا لله، بدمك، من كل قبيلة ولسان وشعب وأُمة، وجعلتنا لإلهنا ملوكاً وكهنة، فسنملك على الأرض ونظرت وسمعتُ صوتَ ملائكةٍ كثيرين حول العرش** ... وكان عددهم ربوات ربوات وألوف ألوف قائلين بصوت عظيم: **مستحقٌ هو الخروف المذبوح، أن يأخذ القدرة والغِنىَ والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة.**

وكلُّ خليقة مما في السماء وعلى الأرض وتحت الأرض وما على البحر، كل ما فيها، سمعتها قائلة **للجالس على العرش وللخروف: البركة والكرامةُ والمجدُ والسلطانُ إلى أبد الآبدين** ... فقال لي: هؤلاء هم الذين أتوا من الضيقة العظيمة، وقد غسّلوا ثيابهم و بيّضوا ثيابهم في دم الخروف، من أجل ذلك هم أمام عرش الله، ويخدمونه نهاراً وليلاً في هيكله، والجالس على العرش يحلُّ فوقهم. لن يجوعوا بعد، ولن يعطشوا بعد، ولا تقع عليهم الشمس ولا شيء من الحر، **لأن الخروف الذي في وسط العرش يرعاهم، و يقتادهم إلى ينابيع ماءٍ حية، ويمسح الله كلَّ دمعةٍ من عيونهم.**» (رؤ٤ و٥ و٧)

فكيف لا يفرح، ليس التلاميذ فقط، بل كلُّ من آمنوا بذبيحة المسيح الحية! وهو جالس وسط عرش الله أبيه.

+ ونفرح له لأنه سيدخل ملكوته: «أما كان ينبغي أن المسيح يتألم بهذا **ويدخل إلى مجده.**» (لو٢٤: ٢٦)

هذا الملكوت الذي أعطاه إياه أبوه العظيم في أبوته: «شاكرين **الآب** الذي أهّلنا لشركة ميراث القديسين في النور، الذي أنقذنا من سلطان الظلمة، **ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته**» (كو١:

١٢و١٣)، فكيف لا يفرحون، إن كانوا فعلاً قد أحبوا المسيح، لأنه ذاهب إلى أبيه؟

+ «لتعلموا ما هو رجاء دعوته، وما هو غِنَى مجد ميراثِهِ في القديسين، وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين، حسب عمل شدة قوته الذي عمله في المسيح، **إذ أقامه من الأموات، وأجلسه عن يمينه في السماويات، فوق كل رياسة وسلطان وقوة وسيادة وكل اسم يُسَمَّى، ليس في هذا الدهر فقط، بل في المستقبل أيضاً؛ وأخضع كلَّ شيء تحت قدميه، وإياه جعل رأساً فوق كل شيء، للكنيسة التي هي جسدهُ، ملءُ الذي يملأ الكل في الكل.**» (أف١: ١٨-٢٣)

فكيف لا يفرحون بالمسيح وللمسيح، لأنه ذاهب إلى أبيه، إن كانوا يحبونه حقاً؟

+ «فتقدم يسوع وكلَّمهم قائلاً: **دُفِعَ إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض، فاذهبوا، وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس.**» (مت٢٨: ١٨و١٩)

فكيف لا يفرحون لأنه ذاهبٌ إلى الآب إن كانوا يحبونه حقاً؟

+ «إذ صعد إلى العلاء سبى سبياً (خلَّص المسبيين تحت الخطية وأخذهم كأسرى الرجاء)، وأعطى الناس عطايا. وأما أنه صَعِد، فما هو إلا إنه نزل أيضاً أولاً إلى أقسام الأرض السفلى. الذي نزل، هو الذي **صعد أيضاً فوق جميع السموات، لكي يملأ الكل.**» (أف٤: ٨-١٠)

فكيف لا يفرحون للمسيح لأنه ذاهب إلى أبيه، إن كانوا يحبونه حقاً؟

ثانياً: مكاسبنا التي تدعونا أن نفرح، لأن المسيح ذاهبٌ إلى أبيه إن كنا نحبه:

أسباب لا حَصْرَ لها تدعونا أن نفرح ونتهلل لذهاب المسيح إلى أبيه.

+ «بدم نفسه، **دخل مرة واحدة إلى الأقداس، فوجد فداء أبدياً.**» (عب٩: ١٢)

+ «لم يدخل إلى أقداس مصنوعة بيدٍ، أشباه الحقيقية، بل إلى السماء عينها، **ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا.**» (عب٩: ٢٤)

+ «وأما هذا، فمن أجل أنه يبقى إلى الأبد، له كهنوت لا يزول، فمن ثَمَّ يقدر أن **يخلِّص أيضاً إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله، إذ هو حيٌّ في كل حين، ليشفع فيهم.**» (عب٧: ٢٤و٢٥)

+ «وإن أخطأ أحدٌ، **فلنا شفيعٌ عند الآب، يسوع المسيح البار.**» (١يو٢: ١)
+ «**أنا أمضي لأُعدَّ لكم مكاناً**، وإن مضيتُ، وأعددتُ لكم مكاناً، **آتي أيضاً وآخذكم إليَّ، حتى حيث أكون أنا، تكونون أنتم أيضاً.**» (يو١٤: ٢و٣)
+ «الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي، فالأعمال التي أنا أعملها، يعملها هو أيضاً، ويعمل أعظم منها، **لأني ماضٍ إلى أبي. ومهما سألتم باسمي فذلك أفعله، ليتمجد الآب بالابن.**» (يو١٤: ١٢و١٣)
+ «**وأنا أطلب من الآب، فيعطيكم معزياً آخر، ليمكث معكم إلى الأبد ... وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكثٌ معكم، ويكون فيكم، لا أترككم يتامى، إني آتي إليكم.**» (يو١٤: ١٦ـــ١٨)
+ «**وأما المعزِّي، الروح القدس، الذي سيرسله الآب باسمي، فهو يعلِّمكم كل شيء، ويذكِّركم بكل ما قلته لكم.**» (يو١٤: ٢٦)
+ «الحق أقول لكم، إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد، **متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده، تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسياً، تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر.**» (مت١٩: ٢٨)
+ «**وأنا أجعل لكم، كما جعل لي أبي، ملكوتاً** لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي ...» (لو٢٢: ٢٩)
+ «لأنه إن كنا، ونحن أعداء، **قد صولحنا مع الله بموت ابنه، فبالأولى كثيراً، ونحن مُصَالَحون، نخلص بحياته. وليس ذلك فقط، بل نفتخر أيضاً بالله بربنا يسوع المسيح، الذي نلنا به الآن المُصَالحة.**» (رو٥: ١٠و١١)
+ «الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله. فإن كنا أولاداً، فإننا ورثة **أيضاً، ورثة الله، ووارثون مع المسيح.**» (رو٨: ١٦و١٧)

وهكذا، في هذه الآية المزدحمة بالمعاني اللاهوتية (يو١٤: ٢٨)، التي أُعثِرَ فيها ذوو البصائر الكليلة، وطوَّحت بهم في عدم الإيمان بوحدة الأبُوَّة والبُنُوَّة، وبمساواة الابن للآب في المجد والكرامة، رأينا كيف أسس بها هذا الإنجيل **مبدأ تعظيم الأبُوَّة**، ليس على حساب تعالي الآب عن الابن في أيِّ القُدرات أو الاختلاف بينهما في أيِّ الصفات، بل على أساس تكريم الابن للآب المردود من الآب للابن بنفس المقدار والقوة. فإن كان الآب أعظم من الابن، فالابن هو الوارثُ والمالِك لهذه العظمة وحده، وهي مردودة له، لأنه الواحدُ الوحيدُ الذي له أن يقول لله

«**أبي**» بنوع الملكية والتخصص. فالله هو أبوه خاصة، والابن وحده هو الذي يملك الله كآب.

فإن قال الابن: «أبي أعظم مني»، فعظمة أبيه هي له، وهي له خاصة، وهو يملكها، بل وقد أتى هو لكي يستعلنها في نفسه، وذهب إلى الآب ليُغْدِقَ منها علينا.

وبالنهاية، يلزم أن نفهم وننظر إلى **تسامي عظمة الأُبوة الإلهية** على لسان المسيح «**الابن**» في هذه الآية، أنها في نطاق الوحدة والتساوي المطلق بين الآب والابن في جوهر اللاهوت الواحد، بكل خصائصه وشمائله.

أما بالنسبة للآية، ككلٍ، فإن الذي يحب المسيح حقاً ويؤمن أنه ذهب إلى الآب فعلاً، **فهو** الذي ينال وعد مجيئه، ووعد إرساله الروح القدس من عند الآب.

١٤: ٢٩ «وقُلْتُ لكمُ الآنَ قبلَ أن يكونَ، حتى متى كانَ، تؤمِنُونَ».

«الآن»:

«الآن» هنا هي ساعة المحنة التي ابتدأت بالفعل: «الآن دينونة هذا العالم. الآن يُطْرَحُ رئيس هذا العالم خارجاً» (يو١٢: ٣١). لقد أحاط المسيح ذهن التلاميذ بكل الجوانب المظلمة لهذه التجربة القادمة، فكان «صادقاً وأميناً» (رؤ٣: ١٤)، ولكنه أعطاهم كل الدلائل الواثقة، التي يمكن أن يعتمدوا عليها ليعبروا هذه المحنة، دون أن يتزعزعوا: «لا تضطربْ قلوبكم، **أنتم تؤمنون بالله**، فآمنوا بي» (يو١٤: ١). ولكن المسيح اعتمد كثيراً على ما بعد المحنة، حينما يكتشف التلاميذ ــ ونحن معهم ــ صِدْقَ وأمانة المسيح في كل ما قال، قبل أن يحدث، بخصوص المحنة العظمى التي سيجوزها: الموت!! بكل أهواله؛ ليجدوا في القيامة تحقيق الوعد، ليصير إيمانُهم بالمسيح وثيقاً، وإلى الأبد، وعلى مستوى **الإيمان بالله**: «أقول لكم الآن، قبل أن يكون، حتى متى كان، تؤمنون أني أنا هو ἐγώ εἰμι.» (يو١٣: ١٩)

«قلت لكم»:

ما قاله المسيح في كل ما يختص بالآلام المزمعة والمحنة التي سيواجهها التلاميذ لفترة قصيرة للغاية، هي بحساب الزمن لم تَزِدْ عن ثلاثة أيام، ولكنها بحساب استعلان أعمال الله **فهي** مُخَاض الدهور السالفة كلها، منذ واجه الإنسان خروجه من لَدُنِ الله.

لقد تحمَّل التلاميذ أصعب فترة انتقال واجهتها البشرية، ولا يمكن وصف صعوبتها وحقيقتها،

إلاَّ بما وصفه المسيح: «أنتم ستحزنون، ولكن حزنكُم يتحول إلى فرح. المرأة وهي تَلِدُ تحزن، لأن ساعتها قد جاءت. ولكن متى وَلَدَتْ الطفل، لا تعود تذكر الشدة لسبب الفرح، لأنه قد وُلِدَ إنسانٌ في العالم. فأنتم كذلك، عندكم الآن حُزْنٌ. ولكني سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحدٌ فرحكم منكم.» (يو١٦: ٢٠—٢٢)

ولكن اسمع الوجه الآخر لهذا الحزن وهذه المحنة، إنها «**التجديد**»: «أنتم الذين تبعتموني في **التجديد** παλιγ-γενεσίᾳ » (مت١٩: ٢٨). حيث هذه الكلمة اليونانية من أصل γένεσις، حيث يصير معنى الكلمة: **يولد ثانية أو يولد من جديد،** أو تفيد معنى «**العودة من السبي**». وعلى العموم تفيد في العهد الجديد: «**القيامة**» أو **التجديد بالمعمودية**([13]).

هذا الوصف، بكل عمقه، ينطبق على كل إنسان مسيحي، حينما يعاني نفس المحنة بكل أبعادها، لينتقل من الظلمة إلى النور، فيجوز المخاض بعينه، لِيُستعْلَن له المسيح المُقام، ليشرق عليه نور القيامة، فيقوم، ليعيش جِدَّة الحياة كإنسان جديد، خليقة جديدة تحيا في فرح المسيح الدائم وسلامه ونصرته فوق العالم. حيث لا يعود ينظر الماضي بحزنه وضيقه وكآبته، إلاَّ كفترة تحضير قصيرة للغاية، مهما تكون قد أكلت من طول العمر وعرضه، يكفي أن يصير ما بقي من العمر في دائرة الوعد الإلهي بقيادة الروح القدس (١٤: ٢٦).

١٤: ٣٠　«لا أتكلَّمُ أيضاً معكم كثيراً، لأن رئيسَ هذا العالم يأتي، وليسَ له فيَّ شيءٌ».

«كثيراً»: πολλά

لا يمكن أن يستقيم المعنى هنا بدون كلمة «**كثيراً**»، لأن المسيح استمر بالفعل يتكلم ويعلّم، ولكن لقدر محدود. أما لماذا قال المسيح: «لا أتكلم أيضاً معكم...». فهو بسبب إحساسه الفائق باقتراب الشيطان، «رئيس هذا العالم»، ممثَّلاً في الأشخاص الذين استخدمهم في مهمته المفضوحة، وبالتالي انتهاء زمن الكرازة والتحضير لعملية الخلاص العظمى. أو بمعنى أوضح، أن المسيح أكمل رسالة استعلان الآب بالكلمة، سواء بالتعليم، أو الآية، وقد حان تكميل رسالة الخلاص بذبيحة نفسه المحددة منذ الدهور. فالشيطان لا يتجاسر أن «يأتي»، دون إذن صادر من الآب ومن الابن أيضاً: «فبعد اللقمة دخله الشيطان، فقال له يسوع: ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة.» (يو١٣: ٢٧)

[13] Liddell & Scott, A Greek English Lexicon.

والمسيح قدير في الإحساس بخطوات العدو: «قوموا لنذهب، هوذا الذي يسلّمني قد اقترب» (مر١٤: ٤٢)، ويهوذا ليس في الحسبان، فهو مجرد آلة، ولكن إحساس الرب مُركّز تجاه رئيس العالم نفسه.

«رئيس هذا العالم»:

هذا الاصطلاح لم يرد في أسفار العهد الجديد إلاَّ في هذه الآية، وفي الآية الأخرى ١٢: ٣١ و١٦: ١١، وذلك في إنجيل ق. يوحنا. ولكن الاصطلاح المقابل الذي ورد في إنجيل القديس لوقا يُفهم من الحديث الذي جرى له مع المسيح على جبل التجربة: «ثم أصعده إبليس إلى جبل عال، وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان، وقال له إبليس: لك أُعطي هذا السلطان كله ومجدهنَّ، **لأنه إليَّ قد دُفع**، وأنا أُعطيه لمَنْ أُريد.» (لو٤: ٥و٦)

أما القديس بولس الرسول فقد أعطاه لقب «إله الزمان»: «ولكن إن كان إنجيلنا مكتوماً، فإنما هو مكتوم في الهالكين، الذين فيهم **إله هذا الدهر** قد أعمى أذهان غير المؤمنين، لئلا تضيء لهم إنارة إنجيل مجد المسيح، الذي هو صورة الله» (٢كو٤: ٣و٤). حيث كلمة الدهر = αἰῶνος تفيد هذا الزمان أو هذا العالم. كما سمَّاه بولس الرسول: «رئيس سلطان الهواء، الروح الذي يعمل الآن في أبناء المعصية.» (أف٢: ٢)

كما سمى أعوان إبليس: **"ولاة العالم"**، من **"رؤساء وسلاطين"** شريرة، **"وأجناد الشر الروحية"**:

+ «فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم، بل مع الرؤساء، مع السلاطين، مع ولاة العالم، على ظلمة هذا الدهر، مع أجناد الشر الروحية في السماويات.» (أف٦: ١٢)

ولكن إزاء كل الأسماء الضخمة التي خُلعت على الشيطان، وكل جنوده، وبالرغم من سلطانه الذي يدَّعيه على ممالك العالم ومجدها، فقد أثبت المسيح تفاهة مُنتهاه، فمظهره مُرعب حقاً: «**عندما يأتي العدو كنهر**»، ولكن نهايته تافهة جداً «**فنَفْخَةُ الرب تدفعه**» (إش٥٩: ١٩ ــ قارن مع ٢تس٢: ٨). ولقد صال يهوذا الإسخريوطي وجال، كأخطر آلة استخدمها الشيطان فعلاً (تلميذ من التلاميذ الاثني عشر)، ولكنه انتهى إلى خَنْقِ نفسه.

كذلك، فإن لنا أن نتأمل تلك الثورة الكبرى التي قادها الشيطان ضد المسيح، أثناء خدمته على الأرض، والتي انتهت بأعظم انتصار شكلي ضد المسيح، بأن استطاع استصدار حُكم صَلْب

ضده من أعظم محكمتين للعدل في العالم: محكمة السنهدريم، ومحكمة روما؛ وكيف انتهت إلى فضيحة المحكمتين مع فضيحة الشيطان وأعوانه: «إذ جرَّد الرياسات والسلاطين، أشهرهم جهاراً، ظافراً بهم فيه (في الصليب).» (كو٢: ١٥)

ولينتبه القارىء، و يتشجع، فإنه إزاء قوة الشيطان على القتل: «ذاك كان قتَّالاً للناس من البدء» (يو٨: ٤٤)، تقف قوة «الحياة الأبدية» ζωή في المسيح.

وإزاء الكذب ــ قوة الشيطان الأُولى للتزييف والقتل ــ تقف قوة «الحق» = ἀλήθεια التي تُحْيي في المسيح.

فالقتل جسديٌّ، والجسد زائل بطبيعته؛ أما الحياة الأبدية فهي الخلود بالروح مع الله. الكذب هو حيلة الشيطان للغش، التي يحيك بها المكائد و يزوِّر بها الحقائق إلى حينٍ، أما الحق «الأليثيا» فهو القائم الدائم، الذي له الغَلَبَةُ النهائية بالحياة الأبدية.

فشكراً لله، الذي أعطانا في المسيح يسوع الحق والحياة، لنغلب بهما العالم ورئيسه.

«وليس له فيَّ شيءٌ»:

بمعنى أن ليس فيَّ شيءٌ يقع تحت سلطانه. كلُّ إنسان، للشيطان فيه شيءٌ، لهذا يطالب بدعوى الموت ثمناً للخطية، ولكن المسيح يُقدِّم نفسه للموت بحرية إرادته، ثمناً لخطايا غيره. المسيح لم يكن من هذا العالم: «لأنهم ليسوا من العالم، كما أني أنا لستُ من العالم» (يو١٧: ١٤)، «أنتم من هذا العالم، أما أنا فلست من هذا العالم» (يو٨: ٢٣)، قال هذا لليهود.

فالمسيح ليس من هذا العالم، لذلك فرئيس هذا العالم ليس له فيه شيء بالضرورة. هذا يعني، بصورة غير مباشرة، أنه بلا خطية واحدة! «مَنْ منكم يبكِّتني على خطية.» (يو٨: ٤٦)

هذا، من جهة لاهوت الخلاص، غاية في الأهمية، لأنه يكون بالتالي قد مات من أجل غيره، وهذه هي الكفَّارة العظمى:

ــ «على قَدْرِ ذلك، قد صار يسوع ضامناً لعهدٍ أفضل. وأولئك (كهنة العهد القديم) قد صاروا كهنة كثيرين، من أجل منعهم بالموت عن البقاء. وأما هذا، فمن أجل أنه يبقى إلى الأبد، له كهنوتٌ لا يزول. فمن ثَمَّ يقدر أن يُخلِّص أيضاً إلى التمام، الذين يتقدمون به إلى الله،

إذ هو حيٌّ في كل حين ليَشْفَعَ فيهم، لأنه كان يليق بنا رئيسُ كهنة مثل هذا، قُدُّوس، بلا شرٍّ ولا دنس، قد انفصل عن الخطاة، وصار أعلى من السموات. الذي ليس له اضطرار كل يوم؛ مثل رؤساء الكهنة، أن يُقدِّم ذبائح، أولاً عن خطايا نفسه، ثم عن خطايا الشعب، لأنه فعل هذا مرة واحدة إذ قدَّم نفسه!» (عب٧: ٢٢ـ٢٧)

١٤: ٣١ **«ولكن ليفهَمَ العالمُ أني أُحبُّ الآبَ، وكما أوصاني الآبُ هكذا أفعَلُ. قومُوا ننطلِقْ من هُهُنا».**

الكلام هنا يحتاج إلى توضيح، لأن الآيتين مرتبطتان معاً، والمعنى هو:

ولو أني لست من هذا العالم، وليس لي خطية واحدة مدين بها لرئيس هذا العالم، إلاَّ أني سمحتُ للشيطان أن يأتي إليَّ، وسمحتُ لنفسي أن أموت، كمديونٍ عن خطايا كل العالم؛ ولكن ليس هذا تطوُّعاً مني، ولكن ليَفْهَم العالم أني أُحب الآب، والآب أوصاني أن أموت، وأفدي العالم بحياتي، لذلك أنا أفعل هذا مدفوعاً بحبِّ أبي وطاعتي لوصيته.

ثم أن المسيح يعلم أن هذه التضحية العظمى، بأن يقف أمام رئيس العالم، مديوناً بالخطية، مسفوكاً دمه، وهو ديَّان العدل لكل المسكونة أحياءً وأمواتاً؛ نعم كان يعلم أن ثمن كل هذا هو مغفرة خطايا كل العالم، وانتزاع سلطان الإدانة من الشيطان إلى الأبد، لذلك قال: «ثقوا، أنا قد غلبتُ العالم.» (يو١٦: ٣٣)

«قوموا ننطلق من ههنا»:

هيَّا نواجه الصليب، أليس عَمَلُه أن يعلن حب الآب و ينفِّذ وصيته؟

لقد تلكأوا في الجلوس، بل وناموا في جثسيماني، مثلما نعمل نحن الآن؛ ولكن إنْ آجلاً أو عاجلاً سنتبعه: «ولكنك ستتبعني أخيراً.» (يو١٣: ٣٦)

إنه القائد، يهتف بجنوده أن لا يهابوا، وأن يتقدَّموا، هوذا رئيس هذا العالم آتٍ، لا تضطرب قلوبكم ولا ترْهَبْ، قوموا ننطلق للمقابلة! «والسيد الرب يعينني، لذلك لا أَخْجَل. لذلك جعلتُ وجهي كالصوَّان، وعرفت أني لا أَخْزَى. قريبٌ هو الذي يبرِّرُني. مَنْ يخاصمني؟ لنتواقف! مَنْ هو صاحبُ دعوى معي، ليتقدَّم إليَّ: هوذا السيد الرب يُعينني، مَنْ هو الذي يحكم عليَّ... السيد الربُّ فَتَح لي أذناً، وأنا لم أعاند، إلى الوراء لم أرتد!!!» (إش٥٠: ٧ـ٩و٥)

الأصحاح الخامس عشر

حديث الوداع الثاني

الوحدة العضوية مع المسيح

عودة على ذي بدء:

لقد بدأ حديث المسيح مع تلاميذه، على العشاء، **بعد غسل أرجلهم (الأصحاح ١٣)**، بشرح معنى هذا الإجراء كإعداد للإرسالية العظمى، حيث كان التركيز على اتضاعهم بعضهم لبعض كمُرْسَلِين أو كرُسُلٍ وتلاميذ. فكما غسل هو أرجلهم، وهو الذي أرسلهم، ينبغي أن يصنعوا كذلك بعضهم لبعض، ضماناً لنجاحهم وألفتهم وسلامهم لحساب الرسالة.

ثم بدأ المسيح **حديث الوداع الأول (الأصحاح ١٤)**، وكان عن فراقه لهم، وذهابه إلى الآب، وكان أكثر الأحاديث عاطفية، وكان كله للتشجيع والاطمئنان أنه سيعود إليهم.

والمسيح يبدأ هنا **(في الأصحاح ١٥)** حديثاً فردياً دون أيِّ تَحَاوُر مع أحد، حيث يُعتبر هذا الحديث المفرد (مونولوج) أطول حديث في إنجيل يوحنا، وهو يستغرق الأصحاح الخامس عشر كله وحتى الآية (١٥) من الأصحاح السادس عشر. و يأتي الفكر فيه مترابطاً، أولاً عن اتحاده بتلاميذه والمؤمنين، ثم ثمن هذا الاتحاد من اضطهاد العالم. فالمسيح يؤكد، بصورة قاطعة وعملية، أنه متحد بتلاميذه اتحاد الأصل في الكرمة بالأغصان. وهذه الحقيقة ممتدة إلى جميع المؤمنين به. فالحديث عن فراق مؤقت، يوازنه حضورٌ دائمٌ في سرِّ الشركة الأبدية. وكما عانى المسيح من اليهود، عداوةً و بغضةً واضطهاداً، فلا بد أن يشترك معه في هذا النصيب كلُّ مَنْ اتحد به.

الكرمة: المسيح يصوِّر شكل الكنيسة، وعلاقته الدائمة بالمؤمنين بعد انطلاقه.

الكنيسة: سر دوامها، وسر قوتها هو من الداخل، وهو «المحبة»، كأغصان مثمرة، وكأعضاء عاملة معاً وفي المسيح وفي الآب.

العالم: يضطهد الكنيسة بدون سبب، على مستوى المسيح، ولأجل اسمه! لأن رسالة المسيح يمارسها تلاميذه.

الباراكليت: روح الحق، يشهد للمسيح في التلاميذ، والتلاميذ يشهدون في العالم.

١:١٥ «أنا (هو) الكرمةُ الحقيقيّة وأبي الكرّامُ».

وكأنما يعلن المسيح هنا أنه أكمل حضوره التاريخي في العالم، بل وما هو فوق التاريخ أيضاً، فقد زُرِعَتْ الكرمةُ، إسرائيلُ الجديدة: جِذرُها في السماء وأغصانُها على أرض الإنسان، وأكمل كيانها المنظور وغير المنظور، فقد أخرجت أغصانها الغضّة، وجرى فيها عصيرها ودبّت الحياة الإلهية في أعماقها، وهي على وشك أن تعطي ثمارها!!

ونحن هنا لا زلنا نعيش جو العشاء الأخير، إفخارستيا الذبيحة ــ و«عصيرُ الكرمة» وكأسُها الخلاصي هو عنصرها الأول السرائري ــ ثم نحن لا زلنا في حديث الوداع، ومشاعرُ الفراق الأليم. المسيح يتكلم عن الذهاب إلى الآب والمجيء، كل هذا ضمَّنه استعلان نفسه «بالكرمة»، تصويراً يحمل الحقائق في شكل الرموز، هي ليست رموزاً ولكن حقائق في سرٍّ ــ لا يَخْفَى عن الذهن المفتوح ــ لأن الكرمة وكأسَها المزوج على العشاء الأخير تضمَّن، بالفعل، الذهاب إلى الآب وكذلك المجيء:

+ «فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز، وشربتم هذه الكأس، تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء.» (١كو١١: ٢٦)

فإن كان المسيح، في الأصحاح الرابع عشر، قد تكلم شارحاً الذهاب والمجيء، ففي الأصحاح الخامس عشر وضَّح كيف نعيش هذا الذهاب وهذا المجيء، وكيف نشهد له!

وحينما يقول المسيح: «أنا هو» فهو يتكلم عن حقائق سماوية ثابتة(١) (الأليثيا) تدخل لأول مرة إيماننا وحياتنا. فالكرمة عندما أخذت هذه السِمَة الإلهية: «أنا هو»، أصبحت حقيقة ممتدة عبر الدهور وفي السماء: «وأقول لكم، إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا، إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي» (مت٢٦: ٢٩). ولكن هذا لا يُفهم على أن المسيح يشرب من كأس الخلاص في السماء، بل المعنى أنه ــ وهو في السماء الآن، وهو في ملكوت أبيه، لا يزال يشاركنا كأس الخلاص في إفخارستية الأحد، التي يمارِسُ حضورها، ويتولى بنفسه تقديم سرِّ الدم والجسد فيها لكل مختاريه: «لأني أقول لكم: إني لا أشربُ من نتاج الكرمة، حتى يأتي ملكوت الله» (لو٢٢: ١٨). فانقطاع المسيح من مشاركة تلاميذه في وليمة الإفخارستيا لم يتعوّق كثيراً، فلم يكن أكثر من أيام حينما عاد إليهم بعد القيامة وشاركهم

(١) راجع المدخل ص٢٤٢.

إفخارستيته من جديد. وهذا هو إيمان الكنيسة الأُرثوذكسية، أن المسيح يقوم بإجراء سر العماد وسر الإفخارستيا بنفسه، أما الكاهن فهو خادم السر وحسب(٢).

«أنا هو الكرمة»:

أنا هو ἐγώ εἰμι، المسيح يتكلم على مستوى الذات الإلهية: «أنا الكائن بذاتي». المجال، هنا، لا يحتمل المقارنة أو التشبيه. فما يجيء بعد ذلك من صفات، لا يحتمل القول بأنه مَثَلٌ من الأمثال. فـ«الكرمة» هنا هي في موضع ذات المسيح وصفته الإلهية ـــ «أنا هو» ـــ إنما في الواقع البشري، **الكنيسة!!** هذا هو المقابل السرائري للقول: «والكلمة صار جسداً». فالامتداد بالمعنى هو: **والكلمة صار جسداً ليُصبح كنيسة!** فالكنيسة هي غاية التجسد: «وإياه جعل رأساً فوق كل شيء، للكنيسة» (أف ١: ٢٢)، «وهو رأس الجسد، الكنيسة.» (كو١: ١٨)

فملء المسيح الإلهي انفتح علينا لما تجسد، أي لما اتحد بجسدنا:

+ «فإنه فيه يحلُّ **كلُّ ملء اللاهوت جسدياً، وأنتم مملوؤون فيه.**» (كو٢: ٩و١٠)

وبالمقابل، لما اتحدنا بالمسيح ـــ إيماناً وثبوتاً ومحبةً ـــ صرنا أعضاءً في جسده:

+ «هكذا، نحن الكثيرين، جسدٌ واحدٌ، في المسيح، وأعضاء بعضاً لبعض كلُّ واحد للآخر.» (رو١٢: ٥)

+ «وأما أنتم فجسد المسيح، وأعضاؤه أفراداً.» (١كو١٢: ٢٧)

+ «لأننا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه.» (أف٥: ٣٠)

«الكرمة الحقيقية»(٣): ἀληθινή

أول ما تكلم إنجيل ق. يوحنا عن **«الحقيقي»** ἀληθινή كان بالنسبة للنور الحقيقي (١: ٩) τὸ φῶς τὸ ἀληθινόν، باعتباره نور الله الفائق للطبيعة في كيانه وعمله.

ثم تكلم عن «الحق» (١: ١٧) ἡ ἀλήθεια، باعتبار أن المسيح هو الذي أعلنه وأدخله إلى العالم، في شخصه، إذ هو حاملٌ لملء اللاهوت.

وبعد ذلك تكلم المسيح عن **«الخبز الحقيقي»** (٦: ٣٢) τὸν ἄρτον τὸν ἀληθινόν، باعتبار أنه عطية الله، وهو هو المسيح ذاته متجسداً، حيث صار جسد المسيح ذبيحةً مقدمة لله

---

(٢) أنظر كتاب «العنصرة» في «الروح القدس الرب المحيي»، للمؤلف، ص١٥٧ـــ١٥٨.

(٣) راجع المدخل ص٢٧٠ـــ٢٧٢.

للفداء، صُرِّح للإنسان أن يأكل منها سرًا بالإيمان، ليعيش إلى الأبد.

والآن، يقدم لنا المسيح نفسه كرمةً حقيقيةً ἡ ἄμπελος ἡ ἀληθινή ، على أساس أن الآب هو الكرَّام، فهي كرمة ذات مصدر إلهي سماوي. هنا الجسد، والحياة في المسيح، وشخصه الكلِّي ككلمة، ينفتح على الإنسان ليقبل الاتحاد به بسِرٍّ إلهيٍّ، ليصير الإنسان عضواً حياً في المسيح على مستوى الغصن في الكرمة. و يقف الآب حارساً لهذا الإلتحام والثبوت، لأنه ثبوت إلهيٌّ هو وليس ماديًّا، ينفتح على الآب حينما ينفتح على الابن.

المقارنة هنا بين هذه الكرمة الحقيقية والكرمة التي هي ليست حقيقية، تقوم على أساس صفة «الحق»: الأليثيا، وهي صفة الطبيعة الإلهية التي لها البقاء الأزلي، أي الخلود، وعدم التغيير أو الفساد؛ حيث الكرمة التي في المقابل، لا بد وأنها وقعت تحت التحوُّل والفساد. إرميا النبي يصف هذا التحول المؤسف لشعب إسرائيل، والمُكْنىَ عنه بالكرمة: «وأنا قد غرستُكِ كرمةَ سوُرَقَ، **زَرْعَ حقٍّ كلها**. فكيف تحولتِ لي سُرُوغ جَفْنَةٍ غريبة. فإنكِ وإن اغتسلتِ بنطرون وأكثرتِ لنفسكِ الأشنان، فقد نُقش إثمُكِ أمامي، يقول السيد الرب» (إر٢: ٢١و٢٢). والترجمة عن الأصل السبعيني تكون هكذا: «وأنا قد غرسْتُكِ كرمةً ذات ثمار طيبة، صِنفُها المزروع جيِّدٌ بالحق كليًّا، فكيف تحولتِ إلى كرمة غريبة مُرَّة؟ فإنكِ حتى وإنْ اغتسلتِ بالنطرون، وأكثرتِ لنفسك الصابون، فقد نُقِشَ إثمْكِ أمامي، يقول السيد الرب».

والمعنى واضح: فشعبُ إسرائيل هو الكرمة التي غرسها من أصول جيدة جداً وكلياً، سواء في الإثمار أو في نوعها المؤسَّس على الحق، وهو الإيمان بالله والتقوى بفضائل العبادة. ولكن تحول الشعب مع السنين عن الله، واقترف أعمالاً رديئة، وصار كالعنب المُرّ. وإذا تحولَّتْ الكرمة إلى مثل هذه المرارة، فلن تفيدها تطهيرات الناموس ولا إلى ألف مرة، أو تنفعها المخصّبات ولا إلى أقصى حد من الكثرة!! هنا كان ولا بد أن تُقْطَعَ الكرمة الرديَّة لتُزرعَ كرمةُ الأليثيّا!

نعم، كان ولا بد لكي يحيا آدم مع الله مرة أخرى بعد أن تعدَّى وفسدَ، أن يزرع له الله شجرة حياة ليأكل منها ويحيا؛ عوض الشجرة التي أكل منها عن تعدٍّ، فمات.

كانت شجرة الحياة التي في وسط الجنة هي بعينها المنوط بها **استعلان الله الآب** في الميعاد المعيَّن، حينما يبلغ آدم قامة الإنسان الكامل في الإدراك، فكان الأكل منها آنذاك يفتح عينيه لإدراك معرفة سرِّ الله والحق والخلود، فيخلد. ولكنه أكل قبل الميعاد، وعن تعدٍّ، فانفتحت عيناه

على المعرفة للخير والشر معاً، دون أن يكون له قوة على التمييز، ولا قوة على الإنحياز إلى الخير.

فلما **أكل عن تعدٍّ**، نال المعرفة. ومع المعرفة، لصق به **الانحياز إلى الشر**.

فمجداً لله! الذي أقام لنا الكرمة **الحقيقية** التي تُثمر «الحق» والحق كلياً، «أنا هو... الحق» (يو١٤: ٦)، فالذي يأكل منه تنفتح عيناه على «الحق» وعلى «الحياة»، فيعرف الحق والله، ويحيا: «فمن يأكلني فهو يحيا بي.» (يو٦: ٥٧)

وليلاحظ القارىء، أن المسيح في الكلام قَدَّم «أنا هو» على كلمة «الكرمة». «**أنا هو** الكرمة الحقيقية»، لكي يقطع خط الرجعة على كل فكر يحاول أن يفلت من هذه الحقيقة، ليحوّلها إلى مجرد التأمل، أو التحليق في المُثُل العليا: «فأنا هو الكرمة» يعني أنه قد أدْخَلَ بالفعل والحق والواقع «الكرمة **الحقيقية**» بكل خصائصها الإلهية، إلى عالم الإنسان الجديد، ليأكل منها بالحق أكلاً حقيقياً، لينشىء في الإنسان ليس فقط معرفة «الحق»، بل والحياة في الحق: «فمن يأكلني فهو يحيا بي»، وليس فقط معرفة الحياة الأبدية مع الله وفي الله بل والثبوت في هذه الحياة: «من يأكل جسدي و يشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه.» (يو٦: ٥٦)

فلينظر القارىء و يتحقق، بل و يتثبَّت، فهنا في الأصحاح الخامس عشر من إنجيل يوحنا، يؤسِّس المسيح جنة جديدة للإنسان، وفي وسطها الكرمة الحقيقية، شجرة الحياة الأبدية، حيث هنا لا يحذِّر الله أن لا يأكل منها الإنسان وإلاَّ يموت، بل إن الله يحرِّضنا، بلسان ابنه، أنه إن لم نأكل منها موتاً نموت!!! «الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم.» (يو٦: ٥٣)

الكرمة هنا سماوية، حية، ومُحيية، و بشرية، بآن واحد، قائمة في العالم وهي ليست من العالم، بسبب الأغصان، لذلك فقد دخلت تحت عناية الآب مباشرة. الإنسان أصبح على امتداد يد الله، بكل حنوّ الآب، وصرامة الكرّام.

ولكن منذ القديم، والوحي الإلهي يتنقل بين **الكرمة، وشخص ابن الإنسان**، وكأنما هما معاً، أو واحد(٤).

«يا إله الجنود ارجِعَنَّ، اطّلع من السماء، وانظر وتعهّد هذه الكرمة، والغَرْسَ الذي غرَسَتْه

(٤) راجع المدخل ص٢٠١ و٢٥٦—٢٥٧.

يمينك، **والابن الذي اخترته**(*) لنفسك ... لتكن يَدُكَ على رَجُلِ يمينك، **وعلى ابن آدم الذي** اخترته لنفسك. فلا نرتدّ عنك. أحْيِنا فندعُوَ باسمك. يا رب إله الجنود، أرجعنا، أنِرْ بوجهك فنخْلُصَ.» (مز٨٠: ١٤ــ١٩)

المسيح في هذا الأصحاح يحدد هوية الكرمة الحقيقية، حيث لا يذكر قط إسرائيل؛ ولكنه يعلن، بقوة، ما جاء في المزمور عن «رجل يمين الله»، «والابن»، «وابن الإنسان» بقوله «أنا هو» **ἐγώ εἰμι**

وفي الكرمة الحقيقية، التي هي جسد المسيح السري وأعضاؤه نحن، تتوزع الأعمال بين الآب والابن هكذا: **فالابن** يحمل في جسده المؤمنين الذي ثبتوا فيه، كأنهم أعضاءٌ له من لحمه وعظامه، يعطيهم من جسده طعاماً ومن دمه شراباً، وهكذا من خلال المفهوم السرائري، إذ بعد أن حملهم في جسده أعضاءً، حمل خطاياهم عنهم غافراً وماسحاً لكل ذنوبهم، مقدماً إياهم إلى أبيه الكرَّام.

أما الآب وهو الذي، في القديم، غَرَسها على الأرض: «كرمة من مصر نَقَلْتَ، طردتَ أمماً وغرستها» (مز٨٠: ٨)؛ فهو في الجديد أيضاً، الغارسُ في السماء. و بولس الرسول يصف عمل الله الآب في الكنيسة بكل قوة ووضوح هكذا: «كي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح، أبو المجد، روح الحكمة والإعلان في معرفته (معرفة الله الآب)، مُسْتنيرة عيون أذهانكم، لتعلموا ما هو رجاء دعوته (دعوة الله الآب)، وما هو غِنَى مجد ميراثه في القديسين (ميراث الله الآب)، وما هي عظمة قدرته الفائقة (قدرة الله الآب) نحونا نحن المؤمنين، حسب عمل شدة قوته (قوة الله الآب)، الذي عَمِلَه (الله الآب) في المسيح إذ أقامه من الأموات، وأجلسه عن يمينه في **السماويات** (رجل يمينه)، فوق كل رياسة، وسلطان، وقوة، وسيادة، وكلِّ اسم يُسَمَّى، ليس في هذا الدهر فقط بل في المستقبل أيضاً. وأخضع كل شيء تحت قدميه (قدمي يسوع المسيح)، **وإياه جعل رأساً فوق كل شيء، للكنيسة، (الكرمة) التي هي جسده، ملء الذي يملأ الكل في الكل.**» (أف١: ١٧ــ٢٣)

واضح هنا عمل الله الآب بالنسبة للكنيسة، أي الكرمة. فهو الذي «جعل» المسيح رأساً لها. وهو الأصل والسبب الذي يقف وراء كل ما عمله المسيح من أجلنا. و«من أجلنا» تجيء واضحة كل الوضوح في رسالة أفسس هكذا: «**وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين** (أعضاء الجسد، أغصان الكرمة)، حسب عمل شدة قوته، الذي **عمله في المسيح** ...» (أف١: ١٩و٢٠)

(*) «اخترته» جاءت في الترجمة السبعينية: «قوَّيته» أو «شدَّدته».

إذن، فالله الآب هو الذي أقام الرأس، وثبّت الأعضاء حسب عمل شدة قوته في المسيح: «لا يقدر أحدٌ أن يُقبِلَ إليَّ، إنْ لم يجتذبه الآب» (يو٦: ٤٤). لذلك، يجيب المسيح نفسه على هذه الحقيقة بقوله: «كلُّ ما يعطيني الآب فإليَّ يُقْبِلُ، ومَنْ يُقْبِلْ إليَّ، لا أُخرجه خارجاً» (يو٦: ٣٧)، «الذين أعطيتني حَفِظْتُهم، ولم يهلك منهم أحدٌ إلاَّ ابنُ الهلاك، ليتم الكتاب.» (يو١٧: ١٢)

وقصد المسيح، كابن، هو أن تثمر الأعضاء، وذلك لكي يقدم أثمارهم للآب، كما قدَّم هو نفسه للآب: «بهذا يتمجد أبي أن تأتوا بثمر كثير، فتكونون تلاميذي.» (يو١٥: ٨)

فإذا نظرنا إلى الكرمة (الكنيسة) ككلٍّ، فإننا نسمع من القديس بولس أن الله هو الذي يُنْميها، بمعنى أنه هو يعتني بها و يتسيطر على كيانها: «إذاً، ليس الغارسُ شيئاً، ولا الساقي، بل الله الذي يُنْمي ... فإننا نحن عاملان مع الله، وأنتم فِلاحة الله، بناءُ الله» (١ كو٣: ٧و٩). ولكن يلزم أن ندرك أن الآب لا يعمل بدون الابن، أي المسيح: «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكْمَلْتُهُ.» (يو١٧: ٤)

٢:١٥ «كلُّ غُصْنٍ فيَّ لا يأتي بثمرٍ، ينزِعُهُ. وكلُّ ما يأتي بثمرٍ يُنقّيه، ليأتي بثمرٍ أكثرَ».

هنا عمل الكرَّام في الكرمة هو، بالدرجة الأُولى، مع الأغصان وليس مع المسيح؛ لأن بقية الصفات التركيبية للكرمة خلاف الأغصان، سواء الجذر وما يتبعه من ريٍّ ومُخْصِبات، لا وجود لها في تشبيه المسيح لنفسه وللمؤمنين بالكرمة. وأيُّ محاولة اجتهادية لاقتحام مجال التفكير فيها يُخرج تشبيه المسيح عن الغرض والهدف والواقع. فالكرمة، فوق كل شيء، ليست نباتاً، والأغصان ليست خشباً وورقاً، والثمر ليس عنباً، وإلاَّ نصبح وكأننا نشرب دم أنفسنا؟ فالكرمة هي جسد المسيح، وجسد المسيح السرّي هو الكنيسة، والأغصان هم المؤمنون «من لحمه وعظامه»، والثمار هي الإيمان والمحبة والشهادة.

فقول المسيح أنه الكرمة الحقيقية هو على مستوى قوله: «أنا هو الطريق». فالمسيح، بتجسُّده ثم موته ثم قيامته، أوْصَلَ الإنسان بالله. والمسيح، ككرمة، أعطى فرصة للإنسان، من خلال التحامنا بجسده الذي فيه ملءُ اللاهوت، أن يجعلنا في مواجهة الآب وفي متناول يده للتنقية والمزيد من الإثمار.

عملان يقوم بهما «الآب» في صميم حياة الكرمة، فهو ككرَّام يطلب الثمر، وعلى أساس الثمر يتعامل مع الأغصان. فالغصن غير المثمر ينزعه، لأنه يعطل نموَّ الكرمة، و ينزل بمستوى الإثمار (أي مجد الله)، والغصن المثمر يعتني به، و ينقيه، ليأتي بمزيد من الثمر (أي مزيد من المجد).

+ أما النَّزْعُ أو القَطْعُ، فبقدر ما هو كارثة للغصن، إلاَّ أنه نافع وجيِّدٌ ولائقٌ للكرمة؛ علماً بأن الغصن غير المثمر لا ينفع فيه التنقية أو التقليم. والأمثلة على هذا الغصن المنزوع من الأصل كثيرة: فأمامنا يهوذا، كيف لما قطعه الله، قطع هو نفسه، ووقع ومات وجَفَّ، ولكن ربما كان القطع الأكثر خطورة في حياة الكرمة، أي في حياة الكنيسة، قديمها وجديدها، هو قطع إسرائيل ذاتها، ولو أن الوصف يعطيه بولس الرسول على الزيتونة: «فستقول: **قُطِعَتْ الأغصان (إسرائيل) لأُطَعَّم أنا، حسناً، من أجل عدم الإيمان قُطِعَتْ، وأنت بالإيمان ثَبَتَّ** ...» (رو١١: ١٩و٢٠)

+ **وأما التنقية:** καθαίρει فهي غريبة على مفهوم الأغصان والشجر، لأنها تفيد التطهير الروحي، والتطهير يتعامل مع النجاسة والشهوة بكل أصنافها! واضح من ذلك أن المسيح، باستخدامه لفظة التطهير، أراد أن يعطي للكرمة هنا مفهومها الروحي الصافي. أما بالنسبة للغصن، في مفهومه كغصن شجرة: فإذا انشغل بكثرة الأوراق مثلاً فإزالة الزائد منه هو تطهير، الذي يوازي التباهي بالأعمال والجمال والشكل عند المؤمن المسيحي؛ الذي يستحق، إزاء هذا، نوعاً من إختزال شيءٍ من جماله أو قوته: «ولئلا أرتفع بفرط الإعلانات أُعطيتُ شوكةً في الجسد، ملاك الشيطان، ليلطمني، لئلا أرتفع.» (٢كو١٢: ٧)

«ليأتي بثمر أكثر»:

الله، منذ القديم، يعطي الاعتبار في اقتنائه لشعبه على مستوى الثمر الأكثر، وقد أوضح ذلك مراراً، وعلى مستوى الكرمة والعنب!! «لأُنْشِدَنَّ عن حبيبي نشيدَ مُحِبِّي لكرمه. كان لحبيبي كَرْمٌ على أَكَمَةٍ خَصِبَةٍ، فنَقَبَه، ونقَّى حجارته، وغرَسَه كَرْمَ سَورَق (كلمة عبرية = طيب الثمر)، وبنى برجاً في وسطه، ونَقَرَ فيه أيضاً معصرة، **فانتظر أن يصنع عنباً فصنع عنباً رديئاً.** والآن، يا سكان أورشليم ورجال يهوذا (هم المقصودون)، احكموا بيني وبين كرمي، ماذا يُصنع أيضاً لكرمي وأنا لم أصنعه له؟ لماذا إذ **انتظرتُ أن يَصْنَعَ عنباً، صنع عنباً رديئاً؟** فالآن، أُعرِّفكم ماذا أصنع بكرمي، أَنزِعُ سِيَاجَه، فيصير للرعي، أهدم جدرانه، فيصير للدَّوْس ــ تخريب أورشليم والهيكل ــ، وأجعله خراباً لا يُقضَبُ ولا يُنقبُ، فيطلع شوك وحَسَكٌ، وأُوصي الغَيْمَ أن لا يُمْطِرَ عليه مطراً.»

(إش٥: ١ـ٦)

فلينتبه القارىء إلى أسلوب المسيح في إنجيل يوحنا، الغصن الحي في الكرمة لا يُترَكُ وشأنه، فكلُّ غصن مُطالَبٌ بالثمر، فإما ثمرٌ، فحياة؛ وإما لا ثمرَ فلا حياةَ! ليست هناك أنصاف حلول. حتى الثمرُ القليل مُطالَبٌ بأن يصير كثيراً!

هذا الثمر في الكرمة الإلهية الحقيقية ليس كالثمر في كرمة إسرائيل، أي مجرد الإنتظام في أعمال الناموس. فالثمر، في العهد الجديد، روحيٌّ هو، وفي إنجيل يوحنا بالذات هو «المحبة»، الثمرة المجّدة التي لها رائحة المسيح الذكية، بحسب بولس الرسول (٢كو٢: ١٥). وأما بحسب يوحنا الرسول: «كل مَنْ يحبُّ فقد وُلد من الله، و يعرف الله؛ ومَنْ لا يحب، لم يعرف الله، لأن الله محبة» (١يو٤: ٧و٨)، «مَنْ يثبت في المحبة، يثبت في الله، والله فيه» (١يو٤: ١٦). و بالنهاية تكون المحبة هي علامة «الحياة»، وغيابها علامة الموت. «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة، لأننا نحب الإخوة» (١يو٣: ١٤). «مَنْ لا يحب أخاه، يبقَ في الموت؛ كلُّ مَنْ يبغض أخاه، فهو قاتل نفس.» (١يو٣: ١٤و١٥)

القديس أغسطينوس يوضح ذلك بقوله:

[الغصن يصلح فقط لواحد من اثنين، إما في الكرمة مثمراً، أو للحريق.](٦)

«اذهبوا وامشوا بين صفوف كَرْمهم وحطّموها... انزعوا أغصانها، لأنهم ليسوا للرب» (إر٥: ١٠ حسب الترجمة السبعينية).

٣:١٥ **«أنتم الآنَ أنقياءُ لسبَبِ الكلامِ (الصحيح: «الكلمة») الذي كلَّمتُكم به».**

ما سبق المسيح وقاله عن الكرمة والكرّام والأغصان بصفة عامة ــ (الكنيسة) ــ يعود و يوضحه بصفة خاصة للتلاميذ. فأولاً، أراد أن يوضح لهم أنه هو شخصياً قد أكمَلَ عمله من نحوهم "الآن". فالتعليم الذي أعطاهم، على مستوى الكلمة الحية، الفاحصة، والبانية، والمؤنّبة، والمعزّية، والمُشتَعِلة للحق الإلهي، قد أجزله لهم بكل حكمة، حتى إنهم أصبحوا فعلاً أطهاراً بسبب هذا التعليم. ولا ننسى أنه سبق أن أعلن لهم ذلك: «الذي قد اغتسل، ليس له حاجة إلاَّ إلى غسل رجليه، بل هو طاهر كله، وأنتم طاهرون، ولكن ليس كلكم. لأنه عرف مُسلِّمه»

6 **Aug.**, *op. cit.,* **Hom. LXXXI:3.**

(يو١٣: ١٠و١١). وسنرى في الآيات القادمة ماذا كان ينقص التلاميذ بالفعل. فهم بالرغم من أنهم أنقياء بسبب التعليم، إلاَّ أنه كان ينقصهم الثبات فيه، وهذا ما ركَّز عليه المسيح كثيراً. وهذا ما ظهر في تَفرُّقهم ساعة المحنة، وتَرْكهم المسيح وحده!! مما يكشف عن إرادة غير متلمذة جيداً للحق آنئذ. فالثبوت في المسيح، لا يَظْهر إلاَّ في ساعة الضيق، في أوقات الخسارة والاضطهاد، في المرض الشديد والألم، في التهديد بالتعذيب أو النقمة. هنا قوة الكلمة في تثبيت الغصن أو العضو، والإرادة الثابتة في إرادة المسيح لا تتزعزع، بل ترتقي إلى سلام داخلي، وهدوء، وصبر بديع!

والملاحَظ هنا أن الآب ينقِّي، والابن ينقِّي، فهو عمل مشترك؛ الآب ينقِّي بالتجارب النافعة، والابن ينقِّي بالكلمة المطهِّرة.

أطهار: καθαροί

كلمة «أطهار» ولو أنها تختص بالروحيات، ولكن العهد القديم استخدمها أيضاً في مواضع مشابهة للكرمة. وهنا يجدر بنا الإشارة إلى المنبع الذي أشار إليه المسيح في العهد القديم، بصورة سرية غاية في الروعة:

«ومتى دخلتم الأرض، وغرستم كل شجرة للطعام، تحسبون ثمرها **غُرْلَتها** (أي نجاستها) **"ثلاث سنين"** تكون لكم **غَلْفاء** ــ غير طاهرة ــ ἀπερικάθαρτος لا يؤكل منها، وفي السنة الرابعة يكون كل ثمرها قُدْساً لتمجيد الرب، وفي السنة الخامسة تأكلون ثمرها لتزيد لكم غَلَّتها، أنا الرب إلهكم.» (لا١٩: ٢٣ــ٢٥)

ويكاد هذا التشبيه بألفاظه هو الذي قيل في الكرمة: **«غرستم»**، **«ثمرها»**، **«لتمجيد الرب»**، **«بهذا يتمجد أبي**، أن تأتوا بثمر كثير» (يو١٥: ٨). «لتزيد لكم غلتها» = **«يأتي بثمر كثير»**.

وإذا لاحظنا أن المسيح يتكلم هنا في نهاية خدمته على الأرض التي استغرقت بحسب إنجيل يوحنا **«ثلاث سنوات»** ونصف تقريباً، إذن فَمَثَلُ الكرمة قيل في السنة الرابعة، حيث أصبحت أغصان الكرمة طاهرة وثمرُها قُدْساً لتمجيد الرب.

وهنا ينطلق أمامنا المجال لمعانٍ أعمق لكلمة «أنتم أطهار». فالأمر لا يختص بالخطايا، شأنهم شأن الشجرة في أرض الميعاد، وقد جازت سنين الإختبار الثلاث. فالآن، ليس ما يمنع أن يصبح

إثمارهم قُدْساً للرب، بمعنى النضج الكامل الذي يليق بالآب: «إذ طهَّر بالإيمان قلوبهم.» (أع١٥: ٩)

ولكن في ختام هذه الآية، نود أن نحتفظ بقول الرب: «أنتم أنقياء لسبب الكلام الذي كلَّمتكم به». فكلمة المسيح لها هذه القوة، لها أن تُطهِّر وتُقدِّس، وتُحيي، وتَلِدُ من جديد!! فهل يمكن أن نسهر لها كل يوم متعلِّمين ومتتلمذين؟ إن الإنجيل هو سرُّ القداسة!

١٥ : ٤ «اُثبُتوا فيَّ وأنا فيكُم، كما أن الغُصْنَ لا يَقْدِرُ أن يأتيَ بثَمَرٍ من ذاتِهِ، إن لم يَثْبُتْ في الكَرْمةِ، كذلك أنتم أيضاً إنْ لم تَثْبُتوا فيَّ»!

«اثبتوا»: μείνατε, μένειν

هذه الكلمة جاءت في أسفار العهد الجديد ١١٢ مرة، منها ٦٦ مرة في إنجيل ورسائل ق. يوحنا وحده: ٤٠ مرة في إنجيله و٢٣ مرة في رسالته الأُولى و٣ مرات في رسالته الثانية.

وإنجيل يوحنا يستخدم هذا الفعل للتعبير عن الحلول، أو التلازم غير القابل للتغيير، بنوع من التحصين بين المؤمنين ممثَّلين في التلاميذ. ويُقْصَدُ بذلك الحلول غير المتغير، أن يُرْفَع الواقع المسيحي في العبادة والإيمان على ما يدَّعيه فلاسفة اليونان من خبرات التأمل وبلوغ العقل حالات الإتصال بالنور، التي تكون في أعظم حالاتها وقتية، وإلى لحظات خاطفة. كذلك يفرِّق بين العبادة المسيحية وبين تلك اليهودية القائمة على حالات حلول الروح وقتياً على الأنبياء، وهذا كان أفخر خبرات إسرائيل.

لذلك يقرر الإنجيل، أولاً وبوضوح، أن الله يثبت في المسيح: «الآب الحال فيَّ ὁ πατὴρ ὁ ἐν ἐμοὶ *μένων* هو يعمل الأعمال.» (يو١٤: ١٠)

هنا كلمة «الحالُ فيَّ»، تُترجَم: «الآب الحال فيَّ بثبوت دائم». هذا هو نموذج الحلول الثابت المحصَّن. ثم يستخدم الإنجيل هذا الثبوت نفسه بنفس الكلمة في حالة ثبوت المؤمنين في المسيح كما المسيح فيهم: «مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت μένει فيَّ وأنا فيه» (يو٦: ٥٦). هنا تطبيق عمليٌّ لثبوت الله في المسيح، حيث إذ يتناول المؤمن جسد المسيح ودمه يحلُّ المسيح ويثبُتُ في المؤمنين على مستوى عمل جسده ودمه؛ وعمل الجسد والدم هو: الفداء، والتقديس، وإعطاء الحياة التي فيهما، لتبقى وتدوم في المؤمنين.

وفي الرسالة الأولى للقديس يوحنا يضع التوازي بين ثبوت المسيح في الآب وثبوت المؤمنين في المسيح على المستوى العملي هكذا: «من قال إنه **ثابت μένειν** فيه (في المسيح)، ينبغي أنه كما سلك ذاك (المسيح)، هكذا يسلك هو أيضاً» (١يو٢: ٦)، بمعنى أن المسيح أثبت ثبوته في الآب بطاعته حتى الموت، هكذا يكون ثبوتنا نحن في المسيح. ثم ينتقل ق. يوحنا من الثبوت الشخصي في المسيح إلى الثبوت في «المَسْحة»، أي نعمة الروح القدس التي نالها المؤمن وقت العماد بدهن الزيت ووضع اليد، ليس من جهة الشكل بل بالفعل، وهو **الإستنارة الروحية والإفراز:**

«وأما أنتم، فالمسحة التي أخذتموها منه **ثابتة μένει فيكم**، ولا حاجة بكم إلى أن يُعلِّمكم أحدٌ، بل كما تُعلِّمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء، وهي حق وليست كذباً؛ كما علَّمَتْكُم، تثبتون μένετε فيه.» (١يو٢: ٢٧)

أما عن قوله: «فهي ثابتة فيكم»، فهذا وعدُ الله ــ الحق ــ من جهة عطاياه فهي بلا ندامة (رو١١: ٢٩)، أي أنه **يتحتم علينا** أن نؤمن، ونثق، ونشكر، معاً، أن مسحة القدوس التي نلناها منه مرة هي ثابتة فينا إلى الأبد، هذا من جهته هو. أما ما تُعلِّمه هذه المسحة لنا، فهو أن نثبت فيه كما هي ثابتة فينا، وهذا حقٌّ، ولا يحتاج إلاَّ إلى ثقة الإيمان واليقين بصدق عمل الله.

ثم ينتقل ق. يوحنا من الثبوت في المسحة، إلى الثبوت في عمل المسحة، وهو المحبة: «من **يثبُتْ في المحبة، يثبت μένει** في الله، والله فيه» (١يو٤: ١٦). وهذا هو قمة الثبوت المتبادل على المستوى العملي والواقعي. فالحب الحقيقي من كل القلب والفكر والقدرة موصِّل إلهي جيد بين الله والإنسان والإنسان والله، حيث يتجلى ثبوت الله بثبوت «الكلمة» (يو٥: ٣٨ ويو١٥: ٧)، وثبوت الحق (٢يو٢)، وثبوت الحياة (١يو٣: ١٥)، وهذه كلها هي علائق الخلاص المُشْتَهى.

لقد أعطى المسيح لنفسه هذا التقييم أنه هو الكرمة الحقيقية، بقصد واحد أن يحدد موضع التلاميذ أو المؤمنين منه. وهنا يحدد المسيح مدى قوة الوحدة السرية والإلهية التي تربطه بالتلاميذ، والتي تربط التلاميذ به بالتالي. ولكن يعود و يوضح، أن هذا **الاتحاد العضوي** الوثيق الذي يربط التلاميذ والمؤمنين به، يتوقف على الثبوت، وهنا الشرط القاطع المانع: فإما ثبوتٌ فإثمارٌ، وإلاَّ فلا إثمارَ البتة.

«لا يقدر أن يأتي بثمر من ذاته»:

الثمر الروحي من إيمان ومحبة وشهادة هو من عمل المسيح، كمنبع، والروح القدس كموصِّل؛

وهو ليس اجتهاداً من صُنع الذات البشرية، وإلاَّ يصير ثماراً مزيفة، لها الشكل والاسم وليس لها الفعل والقوة: «لهم صورة التقوى، ولكنهم منكرون قوتها، فأعرض عن هؤلاء.» (٢تي٣: ٥)

وللأسف الشديد، فإن الكثرة في العاملين باسم المسيح فاقدون لهذا الثبوت الداخلي والعضوي، الذي عن طريقه يأخذون بالروح القدس ثمر برِّ المسيح و يقدمونه كما هو، بل هم يجتهدون من ذواتهم، و يعرضون ثمر فكرهم وتصوراتهم، وهذا كله ينطق بأنه من صنع ذواتهم، إذ يكون فاقداً لقوة تقوى الإيمان والثبوت في المسيح:

«وأكتُبْ إلى ملاك الكنيسة التي في ساردس ... أنا عارف أعمالك أن لَكَ اسماً أنك حيٌّ وأنت ميت. كُنْ ساهراً وشدِّد ما بقي، الذي هو عتيد أن يموت، لأني لم أجد أعمالك كاملة أمام الله.» (رؤ٣: ١و٢)

« ... إنْ لم يثبُتْ في الكرمة، كذلك أنتم أيضاً إنْ لم تثْبُتوا فيَّ»:

المسيح يوعِّي التلاميذ أن لا يعتمدوا على برِّ أنفسهم، متكلين على المواظبة على أعمال الناموس وكأنها تجعلهم مُثْمرين لله. فهذا عهد جديد، لا يقوم على الجهد الإنساني من أي نوع، بل على الاتحاد بالمسيح والثبوت في هذا الاتحاد، **حيث يصير المسيح نفسه فينا هو العامل، والمُريد أن نشاء وأن نعمل. وبذلك يكون العمل هو عمل الله، لمجد الله. فكل عمل ليس مصدره الله، فهو لا يمجد الله، بل يمجد ذواتنا.** «إذ نعلم أن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس، بل بإيمان يسوع المسيح، آمنَّا نحن أيضاً بيسوع المسيح، لنتبرَّر بإيمان يسوع، لا بأعمال الناموس، لأنه بأعمال الناموس لا يتبرَّر جَسَدٌ ما.» (غل٢: ١٦)

والمسيح سبق وأعطى نفسه مثالاً للعمل الذي يكون مصدره الله «لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً، إلاَّ ما ينظر الآب يعمل» (يو٥: ١٩)، «لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا، وأن تعملوا من أجل المسرة» (في٢: ١٣). وهذا صحيح في حالة واحدة، وهي عندما يسلِّم الإنسان نفسه لتدبير نعمة الله.

وليلاحظ القارىء، أن كل أمر يعطيه المسيح هو وصية، وكل وصية تحمل قوة الوعد الإلهي، لذلك فهي تحمل قوة تنفيذها في الطاعة لها. فلا يرتبك الإنسان قط في أوامر المسيح، فهي بمثابة دُعاء يصدره، ومعه بركة وقوة التنفيذ. فهنا المسيح يأمر: «اثبتوا فيَّ»، وهو المسئول عن قوة الإستمرار والفعل، أي فعل الثبوت، لكل من يطيع من القلب. وحتى الجزء الثاني الذي لا يبدو أن يكون أمراً في شكله، فهو في واقعه أمرٌ: «وأنا فيكم»، حيث يكون المعنى: «وليكن أيضاً

ثبوتي فيكم ...». فهو أمر بمعنى «اقبلوا ثبوتي فيكم». وهكذا، فهو أمر يحتاج إلى طاعة، بانفتاح القلب لدخول المسيح للعمل: «بسبب هذا أحني رُكبتيَّ لدى أبي ربنا يسوع المسيح الذي منه تُسمَّى كل "أبوّة" πατριά في السموات وعلى الأرض، لكي يُعْطيكم بحسب غنى مجده أن تتأيدوا بالقوة، بروحه في الإنسان الباطن، **ليحلَّ المسيح بالإيمان في قلوبكم.**» (أف٣: ١٤ــ١٧)

والآن، أيها القارىء العزيز، هل تؤمن بصدق المسيح؟ ثم هل تؤمن بأمانة المسيح في تتميم ما وَعَد به؟ ثم هل لك قلبٌ بسيط في الإيمان، لتثق بأنَّ ما وعد الله به، هو يتممه بكل دقة، بحسب غناه في العطاء؟ إذن، فثِقْ أنك ثابتٌ في المسيح، والمسيح ثابت فيك، وعليك أن تعمل بحسب مشورته، معتمداً على صدق مواعيده.

ولكن اعلم، أيها القارىء العزيز، أن الإنسان المسيحي ليس مختاراً أن يثبت في المسيح أو لا يثبت، لأن في الآية (٦) القادمة تحذيرٌ مُريعٌ لدينونةٍ، نحن لسنا قادرين أن نحمل عقوبتها على الإطلاق؛ فهو يقول: «إن كان أحدٌ لا يثبت فيَّ يُطْرَحُ خارجاً، كالغصن، فيجف ويجمعونه، و يطرحونه في النار فيحترق.» (يو١٥: ٦)

ولكن في مقابل هذا التحذير بهذا المصير، يوجد تشجيع ما بعده تشجيع، حينما يثق الإنسان بصدق وعد المسيح، ويطرح نفسه أمامه متوسلاً أن يكون غصناً مُثمراً، أو عضواً لائقاً بجسد المسيح، فإنه يُسمَع له فوراً، ويعطيه الرب قوة إضافية ترفعه فوق ضعفه، فوق موته، فوق كل الظروف المعاكسة، لينال من الرب تحقيق وعده. وهذا يقدمه المسيح في الآية (٧) القادمة: «إن ثَبَتُّم فيَّ، وثَبَتَ كلامي فيكم، تطلبون ما تريدون، فيكون لكم». ونحن لا نطلب إلاَّ دوام الثبوت، بقوةٍ من عنده.

ولكن عودة على ذي بدء: «أنتم أطهارٌ من أجل الكلام (الصحيح = «الكلمة») الذي كلَّمتُكم به». إذن، فكلمة المسيح (اللوغُس) هي الصلة العظمى والأقوى للثبوت في الرب، وحلوله في القلب. وشهادة الضمير والنمو والإثمار هي علامة.

١٥: ٥ «أنا الكرمةُ وأنتُمُ الأغصانُ. الذي يَثْبُتُ فيَّ وأنا فيهِ، هذا يأتي بثَمَرٍ كثيرٍ؛ لأنكم بِدُوني لا تَقْدِرُونَ أن تَفْعَلُوا شيئاً».

الرب يشير إشارة مباشرة إلى العلاقة العضوية، حيث يوضح أنه الآن مصدر الحياة الحقيقية

بالنسبة لهم، فالكرمة الحقيقية لا بد وأن تعطي أغصاناً حقيقية. الإشارة هنا إلى بلوغ منتهى قصد الله من الإنسان، إذ أصبح يستمد الحياة الحقيقية بصفة ثابتة من المنبع الإلهي.

هذا شرحٌ توقيعيٌّ على الآية الثالثة في المقدمة: «فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس» (يو١ : ٣)، حيث يدين الإنسان بكل وجوده وكيانه وحياته ونور بصيرته لله. وهنا يقدم المسيح تفسير ذلك على المستوى العملي كيف يكون!! كيف يعتمد الإنسان بإرادته على الله، ليستمد كيانه وحياته، ويحقق تدبير الله منذ «البدء» فيما يخص العلاقة الوثيقة بينه وبين الخالق. والمسيح يكشف السر عن طريقة تطهير الإنسان مما لوَّثه العالم فيه؛ فالكلمة حينما تخاطب القلب والضمير، فهي بعينها الكلمة التي خَلَقَتْ، فإن كانت لها القدرة أن تخلق، فإن لها القدرة أن تصحح وتعيد إلى الأصل وتغذّي بالحق. بل ولا تزال هي هي الكلمة التي تزرع كل يوم أعضاءً جُدداً في الكرمة الممتدة، ليس نحو البحر كالسابق، بل نحو السماء؛ وهي تغسل وتطهِّر كنيسة برُمّتها عَبْر الدهور، والكلُّ يسير وينمو حسب قصد خالقها: «... صادقين في المحبة، ننمو في كل شيء إلى ذاك الذي هو الرأس، المسيح.» (أف ٤ : ١٥)

كلُّ ذلك على أساس مِفْصَل الحياة الذي يربط الخشب في الكرمة بالحياة، ليستمد عصير الحق والنور والحب.

«الذي يثبت فيَّ وأنا فيه، هذا يأتي بثمر كثير»:

الخشب في الفرع لا يُقيَّم بحسب طبيعته إلاَّ بالنار، ولكن الفرع الثابت في الكرمة يُقيَّم بالثمر، قيمة الغصن تكمن في الثمر، وبالثمر يُقيَّم كلُّ غصن لدى الكرَّام، وبالصبر وطول الأناة ودوران الشتاء بتجاربه ومجيء الصيف بخيراته، يزداد الفرع ثبوتاً ويزداد إثماراً، طالما كان مِفْصَل الحياة ــ الكلمة ــ سليماً عاملاً ... الفروع المثمرة هي غِنَى الحياة المسيحية، وكرامة متزايدةٌ للكرمة، ومجدٌ للكرَّام! لذلك فالغصن صاحب الثمر الكثير، هو موضع مسرَّة للكرمة لمزيدٍ من العطاء والغذاء، وهو مجد للكرَّام يأخذ منه ويوزِّع بالأحضان.

والمهم، أيها القارىء العزيز، لا أن نفهم ماذا يعنيه الثمر الكثير وما هي أنواعه، فهي بالصدق متعدِّدة جداً، وتكاد لا تكون ثمار كل مؤمن في المسيح مثل ما للآخر، ولكن المهم جداً أن نفهم هذا الكلام على أنه وَعْدٌ، وعد يضمنه المسيح، لأنه هو الذي سيعطي الثمر. فالمطلوب أن نصدق الوعد، ونتقدم بثقة الإيمان، لندخل في عهد الثبوت بلا تردُّد، غير حاسبين تكاليفه، والرب متكفِّلٌ بها، وغير ناظرين إلى ضعفنا، فالضعيف إذا ثبت في الكرمة لا يعود يُحسَبُ ضعيفاً، فالثمر هو من

سخاء الكرمة وليس من صُنع الغصن، علماً بأن الثبوت متبادلٌ. فحلول المسيح في الضعيف، أيُّ قوة يعطي؟

«لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً»:

هذا يعني أن كل ما نفعله بدون المسيح ليس شيئاً؛ هو محسوب ضمن خشب الغصن، وليس له قيمة في حساب الكرمة. أعمالاً كثيرة جداً نعملها من ذواتنا ولإرضاء نزواتنا، وكلها ليست مُدْرَجة في حساب الكرمة، بل هي العدم، عينُ العدم. مع أننا لو أخضعنا ذواتنا للمسيح، لعَمِلَ بنا المسيح أعمالاً يتمجَّد بها الآب، ولحُسِبَتْ في حساب الحياة الأبدية. هكذا قال الإنجيل بالروح: «كلُّ شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان» (يو١ :٣). فالذي عمِله «الكلمة» المسيح «كان»، وصار هو الحياة، والذي لم يعمله المسيح ظل هو العدم. لذلك، كلُّ من ينفصل عن المسيح، يصير هو العدم بالضرورة، حيث لا ثمر البتَّة، لا قليلَ ولا كثيرَ!! وكلُّ من اتحد وثَبَتَ في المسيح، صار «كلَّ شيء».

«أن تفعلوا شيئاً»:

هنا «الفعل» يقصد به المسيح العمل الروحي، الذي يدخل ضمن تدبير الآب السماوي. فالتلاميذ هم الذين أسَّس بهم ملكوته، أي الكنيسة على الأرض، التي وُضِعَ عليها أن تُكمِّل عمل المسيح في العالم عَبْرَ الأجيال والدهور، وكان لكل تلميذ عمل ورسالة، وهكذا كانوا بكور ثمرة الكرمة التي ملأت العالم. والآن، لا تزال الكرمة تعمل، وتثمر، وتجدِّد أغصانها. ولا يزال يُقاس كل غصن بقياس الثمر الذي يعطيه لحساب الملكوت، ويُقاس الثمر بقياس مقدار الثبوت في المسيح والتأصُّل فيه. وحساب الكرمة يُحسبُ بحساب الثمر، والأغصان تُقيَّم بتأصُّلها في المسيح. فالكرمة، أي الكنيسة، هي كرمةُ ثمر، وليست مجرد أغصان ولا مجرد أوراق. فحبة الحنطة وقَعَت وماتت، لتعطي ثمراً كثيراً. فالمسيح، إن كان كرمةً، فهو يطلب ثمراً؛ وإن كان حبة حنطة، فهو يطلب ثمراً. وهكذا، فهو بحياتنا يطلب ثمراً كأغصان؛ وبموتنا، يطلب ثمراً كحنطة في سنابل، ثلاثين وستين ومائة.

٦:١٥ «إن كان أحدٌ لا يَثْبُتُ فيَّ، يُطْرَحُ خارِجاً كالغُصْنِ، فيَجِفُّ، ويجمَعُونَه ويَطْرَحُونَه في النَّارِ، فيَحْتَرِقُ».

عدم الثبوت في الكرمة يعني الانفصال حتمياً، لأن الغصن كيف يعيش؟ وعلى مَ يعيش؟ فالكرمة تسنده حتى لا يسقط، وتغذيه حتى لا يموت. المسيحي إذا ابتعد عن المسيح، وبالأخص

الذي يدّعي أنه غصن وله ثمر، فإنه يتعرّى من سر البقاء في الروح وسر القيام في النعمة، فتجفّ الكلمة من فمه، ويذبُل.

«يُطْرَحُ خارجاً»:

اللفظ اليوناني يوضح، مثل العربي، أن الإطراح في الخارج ليس فقط يعني الانفصال من الكرمة، بل والخروج من دائرة الكرمة، حيث الكرمة هنا تعني بستان الكرمة بأكمله، وهذه إشارة بليغة إلى الكنيسة. فالمسيحي الذي ارتأى أن يعيش بإمكانياته ومعرفته ومواهبه وحِذْقه الذاتي، غيرِ المستمدّةِ من سرِّ الكرمة ككلٍّ، فإنه لا يُحسَبُ من الكرمة في شيء. فجسد المسيح السرّي يحمل أغصاناً ثابتة ثبوتاً، تشهد عليه ثمارها التي تغلُّها لحساب الكرّام في حينها الحسن.

«ويجمعونه ويطرحونه»:

في الأصل اليوناني يأتي الفعلان بالجمع «يجمعونهم ويطرحونهم»، بمعنى: كلُّ الذين تعاهدوا مع روح الضلال ليستقلوا بذواتهم، ويستغنوا عن مصدر حياتهم وخلاصهم الأبدي (مت٢١: ٤١) ــ وهذه إشارة خطيرة لانحراف المؤمنين آخر الزمان والذي سيكون بالجملة ــ ولهذا المنظر نبوة سبقت بفم حزقيال النبي لتصف هذا العمل على الواقع:

+ «لذلك قُلْ لبيت إسرائيل، هكذا قال السيد الرب... كلُّ إنسان من بيت إسرائيل أو من الغُرباء المتغرّبين في إسرائيل، إذا ارتد عني، وأصْعَدَ أصنامه (أخطر الأصنام هي الذات) إلى قلبه، ووضع معثرة إثمه تلقاء وجهه (انشغل بلذّاته)، ثم جاء إلى النبي ليسأله عني، فإني أنا الرب أجيبه بنفسي، وأجعل وجهي ضد ذلك الإنسان، وأجعله آية ومثلاً، واستأصله من وسط شعبي، فتعلمون أني أنا الرب.» (حز١٤: ٦ــ٨)

الإشارة هنا واضحة نحو المؤمنين الذين تأصّلوا في المسيح: معمودية، وإيماناً، وإعلاناً، واسماً؛ ولكنهم إمّا لم يأتوا ثماراً بالمرة، أو كانوا قد أتوا بثمار ثم انحصروا في ذواتهم، وكفُّوا عن الإثمار الحقيقي، واكتفوا بجمال الأوراق، وهي المواهب الطبيعية. هنا انفصال الأغصان أو المؤمنين سرّي، لأن لا أحدَ يلمح انفصالهم ظاهرياً، ولكن الكرّام وحده هو الذي يعرف الثمار وصِنْفَها، ويعرف من أين انحصرت العُصارة عن أن تغذي الفرع بالغذاء المَلكي الذي يتحول إلى ثمار. وكيف استغل الفرعُ عُصارة الكرمة، ليحوّلها إلى أوراق دون ثمر.

«يطرحونهم في النار، فيحترقون» (حسب النص اليوناني):

لا تزال نبوة حزقيال منبعاً خصباً لهذا المنظر:

+ «يا ابن آدم ماذا يكون؟ **هل** عود الكَرْم (خشب) فوق كل عود (خشب) أو فوق القضيب الذي من شجر الوَعْر (الغابة)؟ هل يؤخذ منه عود (خشب) لاصطناع عمل ما؟ أو يأخذون منه وتداً ليعلّق عليه إناءٌ ما؟ (طبعاً خشب العنب لا يصلح أبداً). وهوذا يُطرح أكْلاً للنار. تأكل النار طَرَفَيْه، ويُحْرَقُ وَسَطه، فهل يصلح لعمل؟ هوذا حين كان صحيحاً، لم يكن يصلح لعمل ما. فكم بالحري لا يصلح بعد لعمل إذ أكلته النار فاحترق؟ لذلك، هكذا قال السيد الرب، مثل عود الكرم بين عيدان الوَعْر (الغابة) التي بَذَلْتُها أكلاً للنار، كذلك أبْذُلُ سكان أورشليم.» (حز١٥: ٢-٦)

وهكذا، أيها القارىء العزيز، يكرر الرب الإله نفس القول، لا لسكان أورشليم، بل لأهل بيته، لأعضاء جسده، الذين دفع دمه الثمين ثمناً لإثمارهم لحساب الآب صاحب الكرم. مثل شجرة التين التي حملت ورقاً دون ثمر، فلعنها المسيح (في إنجيل متى ٢١: ١٨ ومرقس ١١: ١٢-١٤)، تشبيهاً للذين حوّلوا نعمة الله والروح إلى مظاهر جسدية ومجد دنيوي. فالثمر الصادق والثبوت الصادق هو طلب الرب قديماً وجديداً، والإلتصاق بالرب من عدمه هو أيضاً طلب الرب قديماً وجديداً. أما العقاب بالنار، فهو صادق منتهى الصدق، حتى لو قِسْنَاه على آخر ما وصل إليه علم الذَّرة والطاقة. فآخر صورة للمادة قبل أن تُخلي مكانها في عالم الوجود الظاهري هي النار!!! ولا ينبغي أن نأخذ النار في عقاب الله بالصورة المادية، ولكنها تعبير عن غضب الله كما عرّفها الله مرّة في سفر التثنية بمنتهى الوضوح هكذا: «إنه قد اشتعلت نارٌ **بغضبي**، فتتّقد إلى الهاوية السفلى، وتأكل الأرض وغلّتها، وتحرق أسس الجبال.» (تث٣٢: ٢٢)

وآخر صورة يقدمها المسيح لنا، وهي كفيلة أن توقظ كل ضمير مهما غاب عنه التعقّل كل أيام حياته، قول الرب في إنجيل القديس متى: «وأما **بنو الملكوت فيُطْرَحون** إلى الظلمة الخارجية» (مت٨: ١٢)، أو باختصار، كما قالها القديس أغسطينوس:

[إما في الكرمة أو في النار.](٧)

٧:١٥ «إن ثبتُّم فيَّ، وثَبَتَ كلامي فيكُم، تطلُبُونَ ما تُريدُونَ فيكونُ لكم».

هذا وعد مقدس ثابت كثبوت السماء من فوق، والأرض من تحت؛ كحقيقة لا تحتاج إلاّ إلى تصديق وعد الله تصديقاً بسيطاً، كتصديق الطفل لوعد أبيه. هذا نُطْقُ الله بالحق، يلزم أن نختبره،

(٧) عظة ٣١ مقطع ٣.

بل يلزم أن نحققه ونعيشه، أولاً بالثبوت القلبي وليس الثبوت بالفكر. والثبوت القلبي ينتشر في كل أعضاء الجسم والنفس والروح، فيخضع الكلُّ بمقتضى صدق الوعد، لأن الله «قال فكان» (مز٣٣: ٩). نعم و يتحتم أن يكون!

وليلاحظ القارىء هنا، أنه لا يقول كما في الآية (٤): «**وأنا فيكم**»، بل: «وثَبَتَ **كلامي** فيكم». هنا ثبوت «**كلام المسيح**» يعني ما قلناه من قبل، أي تصديق وعد المسيح في هذه الكلمات، بكل ما أوتينا من إرادة وفكر وقلب. أي أن ثبوت كلام المسيح فينا، يصير جزءاً من كياننا الذي نعيش به؛ حيث تصير الأذن ماهرة في سماع صوت المسيح من خلال الكلمات، أي تفرز «**اللوغُس**» من جملة الكلام. «لماذا لا تفهمون كلامي τὴν λαλιάν لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي (وصحتها كلمتي) = τὸν λόγον .» (يو٨: ٤٣)

القلب الصالح، صاحب الكنز الصالح، يعرف نبرة صوت المسيح، و يستخلصُها من كل أصناف الأحاديث. فالمسيح يخاطبنا من وسط كل أحداث اليوم، ومن خلال كل ما نسمع، من جيد ورديء!!!

«تطلبون ما تريدون فيكون لكم»:

واضح هنا أن الطلب سيكون حتماً من واقع كلام المسيح، سيكون صدًى لإرادته. لأن كلام المسيح يصبح مادة نصنع منها كل ما نريده ونشتهيه، وخارجاً عن كلام المسيح لا نريد ولا نشتهي، وإلاَّ نكون غير ثابتين في كلام المسيح حسب الوعد. هذا بالإضافة إلى أن الذي يثبت في المسيح والمسيح فيه، لا يعود يطلب شيئاً في المستقبل، لأنه لا يخشى المستقبل، بل هو محصورٌ في حاضر الملكوت، ولا يتمنى ولا يشتهي إلاَّ أن يبقى في ملكوته: «اطلبوا ملكوت الله وهذه كلها تزاد لكم» (لو١٢: ٣١). والذي ذاق هذا الكلام، يفهم كيف يطلب، وماذا يطلب، وكيف يُستجاب إلى ما يطلب، بل و يفهم لماذا وعد المسيح وعداً ثابتاً وأكيداً أنه لا بد يستجيب، لأن طِلْباتنا حينئذ تهمُّه، بل تكون موضع مسرَّته، لأنها تكمل عمله!!!

«ما تريدون»: ὃ ἐὰν θέλητε

وتعني الحرية المطلقة في الإرادة، وهي ليست مجازفة من المسيح، لأنه يعلم أن الذين ثبت فيهم كلام المسيح وثبتوا فيه، تصبح إرادتهم الحرَّة حسب حرية البنين لا العبيد، والابن يطلب ما يسرّ الآب، لأن مشيئة الابن الذي قَبِلَ التعليم وثبت فيه، هي مشيئة صالحة.

ق. يوحنا يشرح مستوى هذه الحرية وسببها: «أيها الأحباء، إن لم تلُمْنا قلوبُنا، فلنا ثقة من نحو الله، ومهما سألنا ننال منه، لأننا نحفظ وصاياه، ونعمل الأعمال المرضيَّة أمامه.» (١يو٣: ٢١و٢٢)

«فيكون لكم»:

باللغة اليونانية γενήσεται ، وباللاتينية fiet وتعني «يُصنع» أو «يُعمل». وكأن الطِلْبة ذات فعل تنفيذي. والسر هنا كائن في تماثل الإرادة والمسرة عند الطالب وعند المنفِّذ. بل يتمادى بولس الرسول، بصفته الغصن الممتاز الذي ضرب القياس المعلَّى في الإثمار والثبوت، فيقول: «والقادر أن **يفعل** فوق كل شيء، أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر، بحسب القوة التي تعمل فينا» (أف٣: ٢٠). وهنا يكشف بولس الرسول سر استجابة الطلب بهذه الصورة الفريدة: «أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر»، وهو سر «**القوة** التي تعمل فينا»، وهي قوة مسرة ومحبة الله الآب التي يستودعها أولاده الذين أحبهم، لأنهم أحبوا ابنه يسوع المسيح.

فإذا نظرنا إلى الأغصان ككلٍّ، أي الكنيسة، فإنه بحسب قوة الله التي فيها من الداخل تكون قوتها من الخارج، وقوة الله العاملة في الكنيسة من الداخل، هي نتيجة ثبوت دائم في كلام المسيح، وتمسُّك به إلى المنتهى.

١٥: ٨ **«بهذا يتمجد أبي، أن تأتوا بثمر كثير، فتكونون تلاميذي».**

هذه الآية تحوي من الدسم السماوي ما يُشْبِع الروح. والمعنى عميق.

«بهذا»، بأي شيء؟ هذا الحرف البسيط يَجُرُّ كلَّ ما سبق. أي أنه بثبوتكم فيَّ، ثم بثبوتكم في كلامي، وبالتالي ثبوتي فيكم، الذي ينشيء بالضرورة استجابة صلواتكم وطلباتكم، كونها تتفق وإرادة الآب السماوي، ــ هذا كله هو ما يجرُّ وراءه هذا الحرف «بهذا» ــ ثم يلحمه فيما هو آتٍ من الكلام: **«أن تأتوا بثمرٍ كثيرٍ»**، كنتيجة مباشرة لاستجابة الصلاة. ثم يضع المسيح الخاتمة التي تكشف سرَّ الكلام بأكمله: **«فتكونون تلاميذي»**، بمعنى أن الثمر الكثير الذي سيتحصل من طلباتكم، **هو هو نفس الثمر الذي ماتت حبة الحنطة لتأتي به**: «ولكن إن ماتت، تأتي بثمر كثير.» (يو١٢: ٢٤)

وهنا ينكشف في الحال أن عمل التلاميذ أو المؤمنين على ممر الدهور هو تكميل لعمل المسيح، وبالتالي: «تكونون تلاميذي»؛ «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم.» (مت٢٨: ١٩)

هنا يتضح المعنى المتسع للتلمذة للمسيح. فالمسيحية تلمذة، الإيمان تسليم، والثمر هو برهان صِدْق التلميذ الذي حمل النير والرسالة. الكرمة كلها فروع مُثْمِرة، الكنيسة كلها تُسبِّح بفم واحد، وتعطي الكرامة والسجود والمجد الدائم لمَنْ أحبها وفداها بدم ابنه الحبيب.

«يتمجَّد أبي»:

نعم، إن كان ثبوتنا في المسيح وثبوت المسيح بالتالي فينا ينشيء ثماراً على مستوى التلمذة للمسيح، أي لخدمة الملكوت واستعلانه، وربح النفوس لحسابه، الذي هو منتهى الثمر وأفْخَره، فهذا حتماً وبالضرورة يمجِّد الآب السماوي ويُفرِحُ قلب المسيح: «نائلين غاية إيمانكم خلاص النفوس» (١بط١: ٩)، «لكي يَرَوْا أعمالكم الحسنة، **ويمجدوا أباكم** الذي في السموات.» (مت٥: ١٦)

والآن، نلخص الكلام، ليظهر منه قانون العلاقة التي تربطنا بالمسيح والآب السماوي. فعلاقتنا الوثيقة بالمسيح والإنجيل وتمسُّكنا الشديد بمواعيده تجعلنا نُثْمِر. وإثمارُنا على مستوى المسيح، هو أساس علاقتنا بالآب السماوي، وهذا هو غاية إيماننا وحياتنا.

ولكي تبقى «**كلمة السر**» في كل هذه الآيات، وهي الثبوت، فليتنا نلقي عليها نظرة أخيرة: **أنْ نثبُتَ في المسيح**، هو أن يصير المسيح حقيقة حياتنا التي نعيش فيها، بل نعيش من أجلها، بل نعيشها. أن يثبُتَ كلام المسيح فينا، هو أن يصير كلامُ المسيح، كلُّ كلام المسيح، حقيقة نأخذها كما هي، نصدقها كما هي، نعيشها كما هي، آية آية، كلمة كلمة، وعداً بوعد.

٩:١٥ «كما أحبَّني الآبُ، كذلك أحببتُكم أنا، أثبُتوا في مَحبَّتي».

هنا سرُّ التحام الغُصن في الكرمة. هنا الكشف عن مادة العصير التي تغذي الغصن وتُنْميه، هنا داعي الثبوت وقيمته. فالثبوت ممتدٌّ من الآب، وراجع إلى الآب من الابن، هنا النموذج الإلهي الأعظم الذي ينبثق منه المثيل ــ الغصن: «أنا الكرمةُ وأبي الكرَّام». سر الغصن الملتحم في الكرمة ممتدٌّ، ومنبثقٌ من سر الكرمة الملتحمة بالآب. الآب يحب الابن، والحب سر الوحدة أو الوحدانية القائمة بالآب والابن. حبُّ المسيح لنا هو سرُّ الالتحام، سر الوحدة، التي جاء الابن ليؤسسها مع بني الإنسان لحساب الله: «أنا فيهم، وأنت فيَّ، ليكونوا مكمَّلين إلى واحد» (يو١٧: ٢٣). هكذا صار الغصن في متناول الكرَّام العظيم المخوف غير المنظور، هكذا صرنا تحت تهذيب وتنقية الآب، وبذلك قرَّبنا هو إليه، ورفَّعَنا إلى مستوى البنين، بل الأحباء: «لكني قد

سمَّيتُكم أحباءَ، لأني أعْلَمْتُكم بكل ما سمعته (العصارة) من أبي.» (يو١٥: ١٥)

لا ينبغي هنا أن نخطىء فنفهم كلمة «أعْلَمْتُكم» أنها تهذيب فكر أو زيادة معرفة؛ بل هي توصيل أسرار الآب التي يعيشها الابن. معرفة الآب ليست ثقافة فكرية ولا فهماً لاهوتياً، بل هي أخذٌ، هي قبول، هي امتلاك، «اقبلوا الروح القدس» (يو٢٠: ٢٢)، فهي معرفة على مستوى التعرُّف على الله أبينا وأبي ربنا يسوع المسيح. والذي يتعرَّف على أبيه الجديد (الابن الضال حينما عاد) يتعرف عليه بالأحضان وليس على مستوى الفكر اللاهوتي على بُعْدٍ!! وحب الآب للابن أعطاه المسيح لنا: «... ليكون فيهم الحبُّ الذي أحببتني به، وأكون أنا فيهم» (يو١٧: ٢٦). محبة المسيح والآب هنا هي محبة فائقة على المعرفة الطبيعية التي للإنسان، لا يستطيع العقل أن يبلغ مداها أو يحيط بها، هو يعيش فيها فقط، و يتنعم، ولكن لا يُفَلْسِفُها بالفكر أو يتعظَّم: «وتعْرِفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة، لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله» (أف٣: ١٩). معرفة المحبة بالوعي المسيحي العالي تملأ الإنسان بلا كيل، تملأه بملء أسرار الأبوّة الحانية المترفِّقة، فلا نصير بعدُ غرباءَ عن الله: «لأن به لنا كلينا (اليهود المتنصِّرين والأمم)، قدوماً، في روح واحد، إلى الآب. فلستم، إذاً، بَعْدُ غُرباءَ ونُزُلاً، بل رعيَّةٌ مع القديسين وأهل بيت الله.» (أف٢: ١٨و١٩)

«كما أحبني الآب، كذلك أحببتُكم أنا»:

المسيح يوضح نوع ومستوى المحبة التي أحبنا بها، فهي محبة آب لابنٍ. المسيح تبنَّانا بالحب لحساب أبيه، ليَضُمَّنا معه في بُنُوَّته الرفيعة القدر والمجد: «انظروا أية محبة أعطانا الآب، حتى نُدعى أولاد الله» (١يو٣: ١). الآن، ولو أننا أولاد الله بالحق، ولكن لا نستطيع أن نرى أنفسنا على مستوى هذه البنوة العالية، بسبب نقص الرؤية، و بسبب أعمال العبيد التي لا زلنا مرتبكين فيها: «أيها الأحباء، الآن نحن أولاد الله، ولم يُظْهَرْ بعد ماذا سنكون، ولكن نعلم أنه إذا أُظْهِرَ نكون مثله، لأننا سنراه كما هو.» (١يو٣: ٢)

ولكن حينما ينتهي دهر هذا العالم، سواء بالانتقال أو بالنهاية الأخيرة، و يُسْتَعْلَنُ المسيح، حينئذ سنراه كما هو، كما عرفناه تماماً، الابنُ الوحيد في حضن الآب. ولكن العجب أننا سنَسْتَعْلن أنفسنا في نوره، فنرى أنفسنا فيه في نفس بُنُوَّته: «نكون مثله»، ملتحفين بها كامتياز بالنعمة، التي تقيمنا أمام الآب بلا لوم في نفس هذه المحبة.

«اُثْبُتُوا في محبتي»:

لقد حَقَّ له أن يشجعنا و يلحَّ في دعوته، فالثمن الذي ندفعه ثمناً لثبوتنا لا يمكن أن يتوازى مع

الغاية والنهاية التي تكلمنا عنها. أن نثبت في محبة المسيح، فهذا يعني أن نصير أحباءَ، نصير أبناءً، نتحد معه، نرث من مخصصاته كابن الله، نصير محبوبين لدى الآب، نتراءى أمام الله في ظل محبته، بل في نورها، كأبناءٍ ولا نعود نُدعى عبيداً، وينتهي منا زمن الحزن والكآبة والتنهد، وتبطل عداوة العالم الذي يغرينا بأباطيله، ليحرمنا من حقنا وحياتنا الأبدية.

أن نثبت في محبة المسيح، فهذا لا يزيد عن كوننا نصدِّق دعوته هذه ونقبلُها في داخل أنفسنا، ونتبادل معها حباً بحب، وهي هي نفسها التي تُزيدنا ثبوتاً فيه. فوصية المسيح تحمل قوتها سرًّا في داخلها، والذي ينفذها يكتشف أن الوصية تحمل سرَّ تنفيذها، وتكشف معناها للجاهل، أكثر مما تكشفه للعالِم، وللطفل الذي يتهجى الكلمات أعظم من الفيلسوف صاحب الاسم والدرجات. فوصية المسيح تُؤخذ ولا تُدرس، وتُقبل ولا تُفحص، فإذا أُخذت وقُبلت كما هي، فهي تكشف أعماقها لصاحبها وتشرح أسرارها لمنفِّذها.

والذي يشرح الوصية ويفسر معناها، دونَ أن يختبرها أو ينفذها، فهو كمَنْ يصوِّر الماء على الحائط للعطشان، ويقول إن هذا هو الماء؛ هذا يقوله القديس مار إسحق.

إذاً حقٌّ للمسيح أن يُلِحَّ علينا أن نثبت في محبته؛ فهذا هو الباب، وهذا هو الطريق.

١٥ : ١٠ **«إنْ حَفِظْتُم وصَايَاي، تَثْبُتُونَ في محبَّتي، كما أني أنا قد حَفِظْتُ وصايا أبي، وأثْبُتُ في محبَّتِهِ».**

إن «حَفِظْتُم»: τηρήσητε

الكلمة اليونانية تحمل معنى أكثر من الحفظ. فهي تعني الملاحظة الشديدة الدقيقة، وتعني السهر الدائم على الشيء، والحراسة الدائمة، والاعتناء والانتباه نحو الشيء.

وهل يمكن أن يتم هذا الاهتمام بالوصية بهذا القدر، إذا لم تدخل حيِّز التنفيذ الفعلي؟ الأمر هنا يتعدّى محيط الفهم، والاستذكار، والهذيذ، والتأمل؛ ليدخل دائرة الفعل الجاد المتشبث بالوعد.

المسيح يعطي نموذجاً للفهم الصحيح لكلمة «حفظ» بما أجراه هو بنفسه من جهة **«وصايا أبي»**. فما هي «وصايا» الآب التي أعطاها له الآب والتي حفظها الابن؟

عندنا صورة طبق الأصل من هذه الوصايا جيعها، محفوظة في محفوظات دار النبوَّة، في خزانة

العهد القديم. نقدم للقارىء صورة منها للحفظ والوعي.

أولاً: تسلَّم إشعياء النبي صورة من هذه الوصايا حوالي سنة ٧٠٠ ق.م. ليعلنها مُسْبقاً، وهي التي كان قد تسلَّمها الابن من الآب منذ الأزل وقد جاء في هذه الوصايا:

١ ــ أن يأخذ الابن منظر الإنسانية التي فسدت وصورة الإنسان على مستوى بني آدم، بلا صورة حسنة ولا جمال إطلاقاً:
«كان منظره كذا مُفْسَداً أكثر من الرجل، وصورته أكثر من بني آدم» (إش٥٢: ١٤) ليس في الشكل طبعاً ولكن في التنازلات بالكرامة.
«لا صورة له ولا جمال، فننظر إليه، ولا مَنْظرَ فنشتهيه.» (إش٥٣: ٢)

٢ ــ أن يحتمل الابن احتقار الناس وخذلانهم له، واتهاماتهم الموجعة، ويختبر الأحزان المرّة، وأن لا يهتم الناس برؤيته، ولا يَعْتدُّ به أحدٌ من الناس.
«مُحتقر ومخذول من الناس، رجل أوجاع، ومُخْتبِرُ الحزن وكمستَّرٍ عنه وجوهنا، مُحتقَر فلم نعتدَّ به.» (إش٥٣: ٣)

٣ ــ يضربه الناس، و يُذَلُّ و يُجرَح و يُسحَق و يُؤدَّب (بالسياط) و يسيل دمه. دون أن يكون مستحقاً لشيء من هذا.
«لكن أحزاننا حملها، وأوجاعنا تحمَّلها، ونحن حسبناه مُصَاباً، مضروباً من الله ومذلولاً، وهو مجروحٌ لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا، تأديب سلامنا عليه، وبحُبُرِهِ شُفِينا.» (إش٥٣: ٤و٥)

٤ ــ يتحمل الابن إثم جميع بني البشر، ويُظلم، ويتذلل لظالميه، ولا يحتج أو يفتح فمه، إلى أن يُوَارَى في القبر:
«الرب وضع عليه إثم جميعنا. ظُلِمَ، أما هو فتذلَّل، ولم يفتح فاه ... من الضغطة ومن الدينونة (المحكمة) أُخذ، وفي جيله مَنْ كان يظن أنه قُطِعَ من أرض الأحياء: [«يسوع الناصري الذي كان إنساناً نبياً مقتدراً في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب، كيف أسلَمه رؤساء الكهنة وحُكَّامنا لقضاء الموت، وصلبوه، ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدي إسرائيل. ولكن مع هذا كله اليوم له ثلاثة أيام منذ حدث ذلك» لو٢٤: ١٩ــ٢١] ... وجُعل مع الأشرار قبره.» (إش٥٣: ٦ــ٩)

وختم إشعياء النبي على صدق هذه الصورة التي تسلمها بالروح بالوحي، التي هي نص الوصايا التي أعطاها الآب للابن، وقَبِل الابن تنفيذها، حفظها حفظاً، وعاش لتنفيذها، ومات لتكميلها: «قد أُكْمِلَ.» (يو١٩: ٣٠)

ثانياً: وقد كشف الله عن عيني عقل بولس الرسول، ليرى شخصية المسيح على حقيقته قبل التجسد وبعده، أي بعدما أطاع وصايا الآب، ونفَّذها بالحرف الواحد هكذا:

«**فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضاً:** [أي «إن حفظتم وصاياي ... كما حفظت أنا وصايا أبي»]، الذي إذ كان في صورة الله، لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله، لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد، صائراً في شِبْه الناس، وإذ وُجِدَ في الهيئة كإنسان، وضع نفسه وأطاع حتى الموت، موت الصليب.» (في٢: ٥ــ٨)

هنا بولس الرسول يطلب أن يكون لنا فكر المسيح من جهة حفظ وصايا الآب عملياً. وبولس الرسول نفسه حفظ وصايا المسيح بجدارة، لا عن ظهر قلب بل على ظهره، ٤٠ جلدة إلاَّ واحدة خمس مرات وتحت حدّ السيف:

«في الأتعاب أكثر، في الضربات أوفر، في السجون أكثر، في الميتات مراراً كثيرة، من اليهود خمس مرات قبلتُ أربعين جلدة إلاّ واحدة، ثلاثَ مرّات ضُرِبْتُ بالعصي. مرة رُجِمْتُ. ثلاث مرات انكسرت بي السفينة، ليلاً ونهاراً قضيت في العمق (أي عمق البحر)، بأسفار مراراً كثيرة، بأخطار سيول، بأخطار لصوص، بأخطار من جنسي، بأخطار من الأمم، بأخطار في المدينة، بأخطار في البرية، بأخطار في البحر، بأخطار من إخوة كذبة.» (٢كو١١: ٢٣ــ٢٦)

ولكن ليس كلُّ تلميذ ولا كل رسول كان كبولس، لأنه هو نفسه يقول مُقارناً نفسه بجميع الرسل هكذا: «أهُمْ خدام المسيح؟ أقول كمختلِّ العقل، **فأنا أفضل، في الأتعاب أكثر.**» (٢كو١١: ٢٣)

وبذلك يقدم لنا الإنجيل، في بولس الرسول، نموذجاً أعلى للغصن الذي ثبت في المسيح، وحفظ وصاياه، تحت أسوأ ظروف قابلها رسول أو أي مؤمن آخر، حيث يظهر حِفْظُه وتمسُّكه بوصايا المسيح متعادلاً مع «الثمر الكثير» الذي مجَّد به الآب. وبولس الرسول، في النهاية، يوضح هذه المعادلة بقوله: «وقتُ إنحلالي قد حَضَر، قد جاهدتُ الجهادَ الحسن، أكملتُ السعي، **حفظت الإيمان**، وأخيراً قد وُضِعَ لي إكليلُ البر الذي يَهَبُهُ لي، في ذلك اليوم، الرب الديّان العادل. وليس

لي فقط، بل لجميع الذين يحبون ظهوره أيضاً.» (٢تي٤: ٦ــ٨)

هكذا، وعلى هذا القياس، يدعونا المسيح أن نكون مثله، وأن لا نستثقل وصاياه، لأنه كما قلنا نقول أيضاً، إن وصية المسيح تحمل قوة تنفيذها في طاعتها، كما أن وصيته تؤخذ ولا تُفحص، وهي هي نفسها تحمل لحسابنا الثمر المتكاثر الذي يمجِّد الآب.

«إن حفظتم وصاياي، تثبتون في محبتي»:

علاقة حفظ الوصية بالثبوت في محبة المسيح، هي أن الثانية نتيجة حتمية للأولى، أي أننا إن كنا نريد أن نثبت في محبة المسيح ثبوتاً مستمراً ودائماً لا ينقطع، فلتكن الوصية بين عينينا، نحفظها كمُقْلةِ العين. ولا يمكن شرح ذلك شرحاً نظرياً، وإلاَّ نكذب، فسرُّ المحبة كائن وكامن في طاعة الوصية، كيف يكون ذلك؟ هذا يعرفه مَنْ ينفِّذ الوصية. الأمر يختص بخبرة عملية وليس فكرة نظرية، لأننا بصدد «سر المحبة» التي تفوق العقل والمعقول. اسمع هذا التقرير من فم المسيح: «الآب نفسه يحبكم، لأنكم قد أحببتموني» (يو١٦: ٢٧). فمَنْ ذا الذي يستطيع أن يصف محبة الآب، أو يشرح ماهيتها؟ هي سِرٌّ مُطْلَقٌ داخل سر محبة الابن، ومحبة الابن في متناول يدنا، لأن الوصية هي المفتاح الذهبي لهذا الكنز السمائي.

١٥: ١١ «كلَّمْتُكُم بهذا لكي يَثْبُتَ فَرَحِي فيكُم ويُكْمَلَ فَرَحُكُم».

«كلمتكم بهذا»: ταῦτα λελάληκα ὑμῖν

يكررها الرب في حديث الفراق هنا سبع مرات، في يو ١٥: ١١؛ ١٦: ١و٤و٦ و٢٥و٣٣؛ ١٤: ٢٥). وهي طبق الأصل من المقولة نفسها في العهد القديم التي تركزت في سفر حزقيال: «أنا الرب تكلمت» ἐγὼ κύριος λελάληκα (حز٥: ١٣و١٥و١٧؛ ٦: ١٠؛ ١٧: ٢١و٢٤ وغيرها). وهكذا يتوازى أسلوب المسيح هنا مع رنَّة النبوَّة، لعله يوقظ عقول الذين يفتشون الكتب لكي يجدوا فيها الحياة الأبدية.

اثبتوا فيَّ، ثم اثبتوا في كلامي، ثم اثبتوا في محبتي، ثم اثبتوا في فرحي. هذا تدرُّج عملي، يمر عليه كلُّ مَنْ يمسك بالمسيح. والغصن يَثْبُت في الكرمة، فيثْبُت سريان العصارة فيه، فيَثْبُت فيه الثمر، وبالنهاية يَثْبُت الفرح. والمعنى السري وراء هذا عميق للغاية.

الثبوت في المسيح يكون بالإيمان. وهو يؤدي إلى الثبوت في كلام المسيح، الذي يكون

بالتصديق الكامل. وهذا يؤدي إلى الثبوت في المحبة، وهذا يكون بانفتاح الوعي على شخص المسيح وقبوله كعريس حقيقي: «أما صديق العريس، الذي يقف ويسمعه، فيفرح فرحاً من أجل صوت العريس. إذاً فرحي هذا قد كَمُل» (يو٣: ٢٩). وهذا يؤدي إلى الثبوت في الفرح، الذي يكون هو بلوغ ثمرة الحب عملياً، وهو البذل. وق. يوحنا يشرح هذا المسلسل عملياً في رسالته الأُولى هكذا:

«بهذا نعرف أننا قد **عرفناه، إن حفظنا وصاياه.** مَنْ قال قد عرفتهُ وهو لا يحفظ وصاياه، فهو كاذب، وليس الحقُّ فيه، وأما مَنْ حَفِظَ كلمته، فحقاً **في هذا قد تكمَّلت محبة الله.** بهذا نعرف أننا فيه. مَنْ قال إنه ثابت فيه، ينبغي أنه كما سلك ذاك، هكذا يسلك هو أيضاً.» (١يو٢: ٣ـــ٦)

«كلَّمتُكم بهذا»:

المسيح يكشف القصد والغاية من سر الكرمة، التي من خلال أوصافها شَرَح المسيح حتمية الثبوت فيه، وفي كلامه، وفي حبه، وفي فرحه. هذا على مستوىً عمليٍّ جداً.

«يثبت فرحي فيكم»، «ويكمل فرحكم»:

فرح المسيح غير فرح التلاميذ والمؤمنين عامة. فرح المسيح كلي وكامل؛ بينما فرح التلاميذ وكلّ مؤمنٍ يحتاج إلى تكميل. **فالأول ينسكب** في القلب: **«فيكم»**، والثاني **يأخذ ليمتلىء: «يُكمَّل»**.

فرح المسيح: في ذبيحته التي قدَّمها للآب عنا فقُبِلَتْ، لأنها كاملة ومقدسة.

فرحنا: هو في خدمة ذبيحة المسيح؛ هو أيضاً ذبيحة سواء بالبذل أو بالصلاة أو بالتسبيح، ولكن ذبائحنا كلها ناقصة، لذلك فرحُنا غير كامل، ويحتاج دائماً إلى ذبيحة المسيح ليَجْبر نقصها، ويداوي عجزنا، ويحجز عنا عوامل إفساد العالم والذات، لتصير ذبيحتنا كاملة فيه ومقبولة أمام الآب السماوي، ليَكْمُل فرحنا. فرحنا يظل ناقصاً، إلى أن يحتضنه المسيح، ويغذيه بدم ذبيحة محبته. فأعظم فرح، وأصدق فرح، وأكمل فرح، هو فرح الخلاص.

والآن، منظر الكرمة بأغصانها المثمرة، وبيد الكرام تُقَلَّم وتُنَقَّى، وتُقْطع، طرحه المسيح داخل وعينا المسيحي، لكي ينفتح على معنى الثبوت وخطورته، وحتمية الثمر والتنقية، ورُعْبة القطع والإلقاء في النار. والقصد النهائي هو تصوير الكنيسة، وهي جسده ونحن أعضاؤه من لحمه وعظامه، وعمل الأعضاء في خدمة الكرمة: «... لأجل تكميل القديسين، لعمل الخدمة لبُنيان

جسد المسيح، إلى أن ننتهي جميعنا إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله، إلى إنسان كامل، إلى قياس قامة ملء المسيح ... صادقين في المحبة ننمو في كل شيء، إلى ذاك الذي هو الرأس المسيح، الذي منه كل الجسد مركباً معاً، ومقترناً بمؤازرة كل مفصل، حسب عملٍ، على قياس كلّ جزء، يحصِّل نموَّ الجسد لبنيانه في المحبة.» (أف٤: ١٢—١٦)

ونلاحظ العلاقة بين «تطلبون ما تريدون فيكون لكم»، وبين «يثبت فرحي فيكم ويكمل فرحكم»، هذا اختبار يعرفه جيداً كل مَنْ دخل فيه، أن استجابة الصلاة هي إذْنٌ بالدخول في مجال الحب الإلهي، ومن ثَمَّ تَذَوُّق ''الفرح الذي لا يُنْطَقُ به ومجيد''. وذلك لسببين: الأول، التخلص من ربقة وكثافة وضغطة العالم الحاضر؛ والثاني تذوُّق السمائيات التي فيها تَنْعَمُ النفس بالنور والبهجة التي للسمائيين. لأن الفرح والبهجة هما طقس السمائيين.

+ «ومفديُّو الرب يرجعون، ويأتون إلى صهيون، بترنُّم وفرح أبديٍّ على رؤوسهم. ابتهاجٌ وفرحٌ يدركانهم، ويهرب الحزن والتنهد.» (إش٣٥: ١٠)
+ «الشعب السالك في الظلمة، أبصر نوراً عظيماً. الجالسون في أرض ظلال الموت، أشرق عليهم نور. أكْثَرْتَ الأمة، عظَّمْتَ لها الفرح، يفرحون أمامك كالفرح في الحصاد، كالذين يبتهجون عندما يقتسمون غنيمة.» (إش٩: ٢و٣)
+ «لأنكم بفرح تخرجون، وبسلام تحضرون. الجبال والآكام تشيد أمامكم ترنُّماً، وكلُّ شجر الحقل تصفِّق بالأيادي.» (إش٥٥: ١٢)
+ «بل افرحوا وابتهجوا، إلى الأبد، في ما أنا خالقٌ، لأني ها أنذا خالق أورشليم بهجة وشعبها فرحاً، فأبتهجُ بأورشليم وأفرحُ بشعبي، ولا يُسمع بَعْدُ فيها صوتُ بكاء ولا صوتُ صراخ.» (إش٦٥: ١٨و١٩)
+ «ترنمي يا ابنة صهيون، اهتف يا إسرائيل، افرحي وابتهجي بكل قلبكِ يا ابنة أورشليم... الرب إلهُكِ في وسطك جبار. يخلِّص. يبتهج بكِ فرحاً، يسكت في محبته. يبتهج بكِ بترنُّم.» (صف٣: ١٤و١٧)

والفرح عنصر خلاصي، لا يمكن أن يوجد إيمان حقيقي بدونه، ولا رجاءٌ يُعْرَفُ بدون فرحٍ، ولا روحٌ قُدُسٌ بدون فيض منه:

+ «وليملأكم إله الرجاء كلَّ سرور (فرح) وسلام، في الإيمان، لتزدادوا في الرجاء، بقوة الروح القدس.» (رو١٥: ١٣)

هذا الاختبار عاشه آباء الجيل الأول بملء زَخْمِه الروحي السمائي:

+ «وإذ هم يكسرون الخبز في البيوت (الإفخارستيا)، كانوا يتناولون الطعام بابتهاج و بساطة قلب.» (أع ٢: ٤٦)

و ينبغي أن نلاحظ المعنى الخفي في قوله: «يثبُتُ فرحي فيكم، و يكمل **فرحكم**»، لأن المسيح يطلب دائماً أن كلّ ما فيه من حق وحياة، هكذا ينتقل إلى المؤمنين به. وهذا هو السر الأساسي في إلحاح الرب على الثبوت فيه، حتى يتمّ انتقالُ كل ما له إلينا. كذلك إلحاحه على الثبوت في كلامه، حتى ينتقل كلُّ حق وروح وحياة في كلامه إلى أعماقنا، وكذلك الثبوتُ في محبته، حتى تنتقل محبة الآب له إلينا.

١٥: ١٢ **«هذه هي وَصِيّتي، أن تُحِبُّوا بعضُكم بَعْضاً، كما أحبَبْتُكم».**

يلاحظ أن قيمة المحبة عند المسيح لها القدر المعلَّى، ليس كأنها وصية محددة، بقدر ما هي روحُ كل الوصايا. فهي تشمل كل الوصايا، ثم تتركز وكأنها وصية واحدة، لأنها فريدة في معناها ومبناها. وأساس قيمة المحبة عند المسيح، أن رسالته قائمة عليها و بها. فأصل الرسالة هكذا: «**هكذا أحب الله العالم، حتى بذل ابنه الوحيد...**» (يو٣: ١٦). فـ«محبة الآب للعالم» حملها المسيح معه إلى العالم، لتتضمن روح كل تعاليمه ووصاياه، التي كان القصد الأساسي منها أن يشرح و يكشف و يستعلن للعالم «محبة الله الآب» له، ثم لكي تأتي ذبيحة المسيح على الصليب لتعبِّر أعظم وأقوى تعبير عن «محبة الآب للعالم» التي أعلنها المسيح على الصليب واستعلنها في قيامته؛ لأن القيامة من الأموات أظهرت بوضوح أن المسيح مات بإرادته، متحمّلاً كل ما لابَسَ الموت من عناءٍ وألم وظلم ومرارة وهوان، إمعاناً في الإعلان العملي الفعّال عن محبة الآب، لأن موت المسيح على الصليب أنشأ فداءً وخلاصاً و برًّا وفرحاً وسلاماً للعالم. وهكذا تكشّفت محبة الآب عن ثمار غاية في الهناء للعالم المظلوم المتألم، تحت عبودية الخطية والشيطان.

من هنا جاءت وصية المسيح بالمحبة، لأن محبة الآب التي أتى بها المسيح لا تسكن ولا تعمل إلاّ في قلوب لها هذه الصفة عينها. فالمحبة الإلهية لا تعمل إلاّ في مجال المحبة. وبمعنى أكثر خطورة، يكون الصليب ــ وهو الذبيحة المتضمِّنة محبة الآب ــ لا يعمل إلاّ في القلوب التي أحبَّت.

من هنا جاء أيضاً إلحاح ق. يوحنا على المحبة، باعتبارها الرَّحِم الجديد الذي يولد منه الإنسان لله: «كل مَنْ يحب، فقد وُلِد من الله» (١يو٤: ٧). لماذا؟ لأن الذي انفتح قلبه على المحبة،

يقبل عمل ذبيحة الصليب الفدائي، الذي هو أساس ميلاد الخليقة الجديدة.

فالصليب، هو هو حبُّ الآب عملياً لفدائنا من الموت، ولولادتنا للحياة الأبدية، ولتبنِّينا لنفسه:

+ «بهذا أُظهِرَتْ محبة الله **فينا**، أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم، لكي نحيا به.» (١يو٤: ٩)

«هذه هي وصيتي أن تحبوا...»:

تظهر المحبة هنا أنها **«وصية»** المسيح، و يلزم أن نتذكر أن المسيح يتكلم من موقف الفراق، فهو حديث الوداع، أي حديث مَنْ يستودع **«وصاياه»** لتلاميذه.

وصيغة الجملة هنا باليونانية شَرْطِيّة، في المضارع الدائم، وترجمتها الحرفية: **«حتى تكونوا مُحِبِّين»**، وهذا التصريف في الجملة يفيد الديمومة في المستقبل، فهذه وصية المسيح للكنيسة كلها على مدى الدهور.

والمحبة التي يستودعها المسيح لتلاميذه، كوصيته الأخيرة، تظهر هنا كأنها وصية مفردة، ولكن هذا يأتي بنوع من التركيز الشديد على المحبة، فالمحبة تسود على كل الوصايا، وقد عبَّر المسيح عن ذلك بقوله: «إنْ كنتم **تحبونني، فاحفظوا وصاياي**» (يو١٤: ١٥)، «الذي عنده **وصاياي ويحفظها، فهو الذي يحبُّني**» (يو١٤: ٢١)؛ وذلك في مقابل وصية المحبة كمفرد: «هذه هي **وصيتي** أن **تحبوا**...»: «**وصية** جديدة أنا أعطيكم أن **تحبوا** بعضكم بعضاً» (يو١٣: ٣٤). والتبادل بين الجمع ἐντολαί (وصايا)، والمفرد ἐντολή (وصية)، فيما يخص وصية المحبة، نراه بالمقابل نفس التبادل بين الثبوت في «الكلمة» كمفرد(٨) τὸν λόγον : «إن كان أحد يحفظ كلامي (**كلمتي** λόγον) فلن يرى الموت إلى الأبد» (يو٨: ٥١)، «إن أحبني أحد يحفظ كلامي (**كلمتي** λόγον)»؛ والثبوت في «الكلام» كجمع(٩) λόγους : «الذي لا يحبني لا **يحفظ كلامي، والكلام** الذي تسمعونه ليس لي، بل للآب الذي أرسلني» (يو١٤: ٢٤)، كذلك «الكلام» كجمع ῥήματα : «إن ثبتُّم فيَّ وثَبَتَ **كلامي** فيكم...» (يو١٥: ٧)

(٨) للأسف فالأمثلة هنا جاءت في ترجمتها باللغة العربية غير دقيقة، فهي في اليونانية بالمفرد «كلمة»، وليس بالجمع «كلام».

(٩) الترجمة هنا صحيحة وهي الجمع.

وق. يوحنا لمح في كلام المسيح هذا الانتقال بين المفرد والجمع بالنسبة لوصية المحبة، فاقتبسها، وردّدها في آيتين متلاحقتين هكذا: «**وهذه هي وصيته**، أن نؤمن باسم ابنه يسوع المسيح، **ونحب** بعضنا بعضاً، كما أعطانا **وصية**» (١يو٣: ٢٣)، «**ومَنْ يحفظ وصاياه**، يثبت فيه، وهو فيه.» (١يو٣: ٢٤)

فالمحبة وصية قائمة بذاتها، بالدرجة الأُولى، ولكنها تجمع في ذاتها كل الوصايا: «المحبة التي هي رباط الكمال» (كو٣: ١٤)، «لأن مَنْ أحبَّ غيره، فقد أكمل الناموس.» (رو١٣: ٨)

أما وَصْفُ المسيح لخطورة المحبة وامتدادها، فتشمل كل الكتاب: «فقال له يسوع: تحبُّ الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، هذه هي الوصية الأُولى والعظمى؛ والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك. بهاتين الوصيتين، يتعلّق الناموس كله (أسفار موسى الخمسة) والأنبياء!» (مت٢٢: ٣٧ــ٤٠)

وينبغي أن لا يفوتنا تركيز المسيح على المحبة المتجهة نحو الآخرين، سواء لبعضنا البعض، أو حتى للأعداء، لأن عثرة إسرائيل الكبرى كانت احتكارها لمحبة الله وحَبْسَها حبساً مطلقاً مؤبداً عن الأمم (الأنجاس في نظرهم). والمسيح جاء ليفكَّ أَسْرَ محبةَ الله، التي احتكرتها إسرائيل لنفسها، وجعلها ترف على وجه الأرض كلها بلا مانع، تُحيي وتُنعش النفوس. ولأول مرة يُسمع في الأرض كلها، أن إنساناً يمكن أن يحب عدوّه! ليس دين من جميع الأديان على الأرض كلها، منذ خُلقت الأرض وخُلق الإنسان، قال بصيغة الأمر: «**أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم**، صلّوا **لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم**» (مت٥: ١٤). لأن وصية المسيح هذه مستمدة من صليبه: «**ونحن أعداء** (مع الله)، قد صُولحنا مع الله، بموت ابنه.» (رو٥: ١٠)

إن وصية المسيح بمحبة الأعداء، ألقاها أمامنا كأمر أكثر منها وصية!! أما قوة تنفيذها، **فهو** المتكفِّل بها، إن نحن عزمنا من كل القلب على تنفيذها، لأن المسيح لا يأمر أمراً من فراغ، بل هو يبني دستور وصاياه على أساس ما عَمِلَ هو، وعلى أساس ما هو مستعدٌ أن يعمل أيضاً، حتى يجعل لمحبة الآب عرشاً له في قلب العالم.

١٥: ١٣ **«ليس لأحدٍ حُبٌّ أعظمُ من هذا: أن يَضَعَ أحدٌ نفسَهُ لأجلِ أحبّائه».**

الكلام هنا عميق للغاية. فليس معناه، كما يبدو لأول وهلة، مجرد تقييم عظمة المحبة

بإمكانية أن يموت «أحدٌ»، أي يضع نفسه لأجل أحبائه. ولكن المسيح هنا يشير إلى أن موته الذي ماته عن أحبائه، ينبغي أن يؤخذ على أنه **غاية المحبة! فالمحبة مُطَالَبَةٌ بأن يكون لها هدف وغاية**، وهي إمكانية أن يضع الإنسان نفسه من أجل الآخرين.

فحرف الإشارة هنا: «**هذا**»، لا يعود على الحب، كأن يُقال: «**حب أعظم من هذا** الحب»، ولكن «هذا» تعود على «أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه». وبهذا يكون المعنى، أن الحب العظيم هو الذي يكون هدفه أن يضع الإنسان نفسه لأجل أحبائه. وهذا ما فهمه ق. يوحنا وشرحه في رسالته الأُولى هكذا: «بهذا قد عرفنا المحبة، أن ذاك وضع نفسه لأجلنا، فنحن ينبغي لنا أن نضع نفوسنا لأجل الإخوة.» (١يو٣: ١٦)

«لأجل أحبائه»:

المسيح لم يضع نفسه من أجل أحبائه (القديسين)، بل من أجل الخطاة، والذين هم في عداوة مع الله (هؤلاء هم أحباؤه): «ونحن أعداء (مع الله)، قد صولحنا مع الله بموت ابنه» (رو٥: ١٠). فالمعنى المقصود من «الأحباء»، هو أولئك الذين دُعُوا ليدركوا هذه المحبة. ولكي نفهم ذلك بسهولة، نضع القديس بولس مثلاً لذلك، حينما قال: «الذي أحبَّني، وأسْلَمَ نفسه لأجلي» (غل٢: ٢٠)، مع أن المسيح مات من أجل شاول عدو الكنيسة ومضطهد المسيحيين والشاهد على قتل إستفانوس! ولكن لما أدرك شاول حقيقة موت المسيح، تيقَّن أن المسيح مات من أجله، لأنه كان يحبه حتى وهو في وحل خطاياه وجرائمه!! فإذا أردنا أن نشرح المعنى أكثر، يكون هكذا: المسيح وضع ذاته من أجل أحبائه الخطاة والأثمة والمجرمين، وكل مَنْ تلوثت أيديهم وقلوبهم بالخطايا. هؤلاء هم أحباء يسوع.

أما إذا أردنا التطبيق، فيكون ذلك بحسب قول ق. يوحنا: «**ينبغي أن نضع نفوسنا لأجل الإخوة**»: الخطاة والمنبوذين والذين ليس لهم مَنْ يحبهم أو يعطف عليهم!! بهذا، وبهذا وحده، يكون الغصن حقاً وبالحقيقة هو ابن الكرمة، والراضع من عصارتها!!

والأمر ليس بمستغرب، فأولئك المبشرون الأُوربيون والأمريكان الذين برَّح الحبُّ بقلوبهم من نحو إخوتهم في البشرية من الأجناس الأخرى، جعلهم يتركون بيوتهم وعائلاتهم وحياتهم الهنيَّة، ليذهبوا في مجاهل أفريقيا في القرن الثامن عشر ليبشِّروا أهلها الذين كانوا من آكلي لحوم البشر، وقد كان بالفعل من أُكل منهم بعد أن شُوِيَ لحمُه بالنار!! ولم يجزع الفوج وراء الفوج، ولا ارتدوا إلى الوراء، حتى نجحوا وربحوا البلاد السوداء وجعلوا أهلها من أبناء النور.

هذا هو «الحب المسيحي» في مضمونه ومعناه وأهدافه: إنه حبٌّ ذبائحي، نارٌ ألقيت على الأرض! ما لبثت أن أشعلت كل شعوب الأرض: «فكونوا متمثلين بالله، كأولاد أحباء، واسلكوا في المحبة، كما أحبَّنا المسيح أيضاً، وأسْلَمَ نفسه لأجلنا، قرباناً وذبيحة لله، رائحة طيبة.» (أف٥: ١و٢)

١٥ : ١٤ «أنتم أحبائي، إنْ فَعَلْتُم ما أوصيكم بِهِ».

«أحبائي» φίλοι (خِلاَّني):

المسيح هنا يسلم تلاميذه المخلصين لقب إبراهيم أب الآباء: «وتم الكتاب القائل: فآمَنَ إبراهيمُ بالله، فحُسِبَ له برًّا، ودُعِيَ **خليلَ الله**: φίλος θεοῦ » (يع٢: ٢٣)، «إبراهيم حبيبي ὃν ἠγάπησα »، «وأما أنت يا إسرائيل عبدي، يا يعقوب الذي اخترته، نسل إبراهيم خليلي (حبيبي)» (إش٤١: ٨). وبالفعل قد كان، وصار أن الرسل أصبحوا هم آباء الكنيسة الأوائل وأعمدتها!

المسيح هنا ينبه ذهن تلاميذه إلى وضعهم الممتاز بالنسبة له. لقد سبق وقال لهم: «أنا الكرمة **وأنتم الأغصان**»، والآن يفسِّرها **«أنتم أحبائي»**. ولكن لكي يرفع هذه الدرجة إلى المستوى القانوني لكي تكون درجة لكلّ مَنْ يشاء، وضع لها الشرط الذي يعطيها هذه الكفاءة: «إنْ فعلتم ما أوصيكم به». وهنا يقصد ما سبق وأن أعطاه كوصية خاصة: «**هذه هي وصيتي أن تحبوا** بعضكم بعضاً كما أحببتكم» (يو١٥: ١٢)؛ بمعنى أن التلاميذ طالما كانوا على الحب الإلهي قائمين، فهم أحباءُ المسيح. ولقد ظل التلاميذ أمناء على هذه الوصية بصورة واضحة للغاية، بعد صعود المسيح: «هؤلاء كلهم كانوا يواظبون بنفس واحدة على الصلاة والطلبة مع النساء، ومريم أم يسوع، ومع إخوته» (أع١: ١٤). وما تخلَّوا قط عن وصية المسيح، وحبه، والأمانة له، حتى استودعوا أجسادهم قبور الاستشهاد.

١٥ : ١٥ «لا أعودُ أُسمِّيكُم عبيداً، لأن العَبْدَ لا يعلمُ ما يعملُ سيِّدُهُ، لكنني قد سمَّيتُكم أحباءَ، لأني أعْلَمتُكُم بكل ما سمعتُه من أبي».

نحن لا زلنا في الكرمة الحقيقية والأغصان التي اكتسبت صفة «الحقيقية» بالانتساب إلى الأصل، لم تَعُدْ بعدُ أغصانَ كرمةٍ بريَّةٍ، بل كرمةٌ غرسها الآب بيده، والأغصان نمت عليها، وصارت شريكة في أصالتها السماوية، ووريثة لكل أثمارها الفاخرة، وأهمها الصليب.

الكرمة الأولى التي نقلها من مصر، أتلفَتْها أيدي الكرّامين الأردياء الأجراء، ولكي يرثوها اختطافاً، ذبحوا ابن الكرّام الحقيقي، ظناً منهم أنها تؤول إليهم، لكن الكرّام انتزعها من أيديهم، وعوّضَ الصورة والرمز غَرْسَ الكرمة الحقيقية، التي جِذْرُها في السماء، وأغصانها مسّت الأرض، وملأت كل ربوعها. لم تَعُدْ الأغصان تذكر عهد العبودية، بل صارت تمتُّ إلى أصلها السماوي، لقد نالوا حق البُنُوّة، فصاروا من جنس المحبوب الوحيد، أحباءَ كالأصل، ليس بنوع الإنعام الصوري أو الرمزي، ولكن من واقع الدم الإلهي الذي امتزج بالدم، واللحم باللحم. فالأغصان صارت من لحمه وعظامه. ليسوا عبيداً بعد، بل محبوبين في المحبوب: «الآب نفسه يحبكم، لأنكم أحببتموني.» (يو١٦: ٢٧)

«... أحباء، لأني أعلمتُكم»:

مصدر الحب المنسكب عليهم هو **«استعلان الآب لهم»**. ليس كأنه معرفة فكر أو اكتساب معلومات، **بل هو قبول حقيقة**، فالاستعلان الذي أكمله المسيح الابن لتلاميذه بالنسبة للآب هو استعلان الكُنْه والكيان، استعلانُ «أنا هو الكائن بذاتي». «الله لم يَرَهُ أحدٌ قط» (يو١: ١٨)؛ ولكن الابن رآه و يعرفه، لأنه هو الابن الوحيد الكائن في حضنه الأبوي، هو الكائن في الآب، والآب كائنٌ فيه. لقد استعلن المسيح الآبَ لتلاميذه، بأن كشف لهم حقيقة ذاته، والابن والآب واحد في الكيان والذات، فلما رأوْا الابن، رأوا الآب؛ فلما استعلن لهم حبَّه، استعلن لهم حبَّ الآب، وكل علم وعمل علّمه لهم وقاله أمامهم، كان هو الآب الذي عرفوه وسمعوه ورأوه، ولما أسلمهم ذاته سلّمهم الآب الذي فيه.

كان موسى خادماً في بيت الله، أميناً حقاً، ولكنه كان خادماً هو وكل إسرائيل من بعده؛ إلى أن جاء الابن الوريث، فصار البيت في يد صاحبه. موسى كخادم، بنى بيت الله من جلود معزى وخشب، وقدّم فيها الذبيحة غنماً وبقراً، أما الابن فأقام بيت الله من جسده: «انقضوا هذا الهيكل، وفي ثلاثة أيام أقيمه... أما هو فكان يقول عن هيكل جسده» (يو٢: ١٩و٢١)، ثم رفع الحجاب الثقيل عن أعيننا، فرأينا، وإذا بنا نحن جسده، أهل بيته: «خذوا كُلُوا هذا هو جسدي!» (مت٢٦: ٢٦)

لقد انتهى عهد العبيد، بانتهاء الناموس والخيمة والذبيحة من تيوس وعجول؛ والكهنة الأجراء. وجاء عهد الآب والابن المذبوح، وشَرِب الإنسان واغتسل، وبيَّضَ ثيابه في دم الحمل، بدعوة من الآب.

وهكذا رُفع اسم الإنسان وقَدْرُه من رتبة العبيد، خادمي دم تيوس وعجول، إلى أبناء وأحباء متناولي دم ابن الله، حينما شربوا فيه روحه الأزلي، الذي جدّد خِلْقَتهم الأُولى، فصاروا على شكل خالقهم في القداسة والحق.

هذا هو علم الآب واستعلانه، الذي قاله المسيح لهم في حديث الفراق المعزّي: «لأني أعْلَمْتُكم كلّ ما سمعتُه من أبي»؛ «والسامعون يحيون» (يو٥: ٢٥)، «وهذه هي **الحياة** الأبدية أن **يعرفوك أنت الإله** الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو١٧: ٣)

وليلاحظ القارىء، أن المسيح قال لهم هذا الكلام (يو١٥: ١٥)، بعد أن أقام فصحه الأزلي بإفخارستية العشاء الأخير، وسلّمهم كأس دمه فشربوه، وقسّم لهم جسده وأكلوه.

١٥: ١٦ «ليس أنتم اخترتُموني، بل أنا اخترتُكُم، وأقمتُكم، لتذهَبُوا وتأتُوا بثمر، ويَدُومَ ثَمَرُكم. لكي يعطِيَكم الآبُ كلَّ ما طلبْتُم باسمي».

الله هو صاحب المبادرة في كل ما يمتُّ إلى الإنسان من الخيرات السماوية.

وحينما قال المسيح لتلاميذه: «أنتم أحبائي ...، لا أعود أُسمّيكم عبيداً»، فهو هنا يوضح أنه هو ابن الله صاحب مبادرة تقريبهم إلى نفسه والآب، وبالتالي صاحب مسئولية دعوتهم العظمى هذه. إنه الآن يوثّق دعوتهم واختيارهم، ليرفع عنهم صعوبة مسئولية المهمة الخطيرة وثِقَلها، خاصة حينما يتلفتون فلا يجدونه أمامهم "إلى حين"! وفي الأصول الدنيوية يختار التلميذ معلمه الذي يتلقى على يديه المعرفة، والتلميذ هو الذي يرفع معلمه إلى مواضع التكريم والتجلّة. ولكن المسيح يقلب موازين العالم، لأنه هو الإله المعلم الذي يختار من يعلّمهم، ومَنْ يرفعهم من الرتبة الدنيا إلى ذات مرتبة معلّمهم في الكرامة والمجد: «وأنا قد أعطيتُهم المجدَ الذي أعطيتني، ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد.» (يو١٧: ٢٢)

«والاختيار» هنا متعلق صميمياً بكلمة **«لتذهَبُوا»**. هنا دعوته لهم كأحباء هي ذات هدف ورسالة وليست مسألة محبة شخصية أو عواطف تبيت في الصدور، بل لاختيار الرسولية والخدمة وتمثيل الكنيسة في العالم، لأن حبه لهم هو لتكميل حب أبيه للعالم! أما كلمة **«يدوم ثمركم»**، فهذا تشهد عليه الكنيسة حتى اليوم، ونشاهده في كل أنحاء العالم، فثمر الرسولية لا يزال حياً جديداً مجدّداً.

وينبغي أن نلاحظ أن المسيح حمل بالفعل ثقل الرسولية مع الرسل، وحقق بالفعل مسئوليته في اختيارهم «ليذهبوا». فقد عضَّدهم بقوة فائقة، حتى حطموا أعتى إمبراطورية للوثنية، والتي كانت قد مَلَكت العالم فكراً وثقافة وسلطاناً وجبروتاً وضلالاً!

لذلك، أية قوة وأية شجاعة وأيّ اقتحامٍ يملكه الذين لم يختاروا لأنفسهم أن «يذهبوا»، بل كان اختيارهم من عنده، «كما هرون أيضاً» (عب ٥ : ٤)!!

و يلاحَظ مدى تحمُّل المسيح لمسئولية الإرسالية في قوله: «أقمتُكم **لتذهبوا، وتأتوا بثمر، ويدومُ ثمركم**». فهو المتكفِّل بعد اختيارهم بكيف وأين يذهبون، ثم كيف وكم يأتون بالثمر، ثم إلى متى يدوم ثمرهم!!

وليس ذلك فقط، بل هو المتكفِّل بكيف يعطيهم الآب كلَّ ما يطلبون (باسمه)، سواء فيما يخصُّهم شخصياً أو يخصُّ مخاطرَ ذهابهم، أو جمع ثمارهم، أو تثبيت ثمارهم. وهكذا تلتحم الصلاة المستجابة، بالطاعة، مع الثمر المتكاثر!!

«لتذهبوا»:

هنا إشارة واضحة أنهم هم الذين سيبدأون بالذهاب، أي يتركون الالتصاق ببعضهم وبمعلمهم، لينطلقَ كلٌّ في طريقه. وهي إشارة توقيت لبدء رحلة الكنيسة عبر العالم.

«ثم خرج نحو الساعة الثالثة (ساعة حلول الروح القدس)، ورأى آخرين قياماً في السوق بطَّالين، فقال لهم: اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم، فأُعطيكم ما يحقُّ لكم، فمَضَوْا» (مت ٢٠ : ٣و٤)؛ «وقال لهم: اذهبوا إلى العالم أجمع، وأكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها» (مر١٦ : ١٥). لقد أطاع الرسل الأمر، وانفصلوا عن معلِّمهم بالجسد، ليتحدوا معاً و به بالروح إلى الأبد، ليسلِّموا العالم مسيح الملكوت، لا مسيح التاريخ، ومُسَلْسَل رسوليتهم، كما هو، من وضع يد معلمهم ونفخة فمه!!

«يعطيكم الآب كل ما طلبتم باسمي»:

الآن يطمئن المسيح أنه سلَّمهم العلاقة المباشرة بالآب!! لقد استعلن لهم الآب في نفسه، واستعلن لهم كلَّ ما عند الآب، بكل ما قاله وعمله. فالآن، عليهم أن يتجهوا مباشرة للآب، ليطلبوا كل ما يشاءوا، حيث «**اسم**» المسيح هو ضمان الاستجابة الأكيد، إذ يتدخل في الحال، ودمه على يديه، لتصبح كلُّ صلاة وكلُّ طلبة، ملتحمة **بصوت دمه**: «أتيتم ... إلى وسيط العهد

الجديد، يسوع، وإلى دم رشٍّ، يتكلم أفضل من هابيل.» (عب١٢: ٢٤)

وهنا يلزم أن ننبه، أن الصلاة في أصولها تُقدَّم للآب باسم يسوع المسيح، في الروح القدس. وأي إغفالٍ للآب، يُخلُّ بأصول الصلاة والعبادة. فالمسيح أكمل رسالته، بأن سلّمنا ليد الآب، أما هو فبقي وسيطاً ضامناً للعهد. وعلينا أن ننتبه جداً لقوله: «في ذلك اليوم تطلبون باسمي، ولست أقول لكم إني أنا أسألُ الآب من أجلكم، لأن الآب نفسه يُحبُّكم، لأنكم قد أحببتموني، وآمنتم أني من عند الله خرجت.» (يو١٦: ٢٦و٢٧)

التلاميذ، ثم الكنيسة، في مواجهة العالم: (١٥: ١٨ــ٢٧).

ــ اختلاف الطبائع، هو الذي سيحتم المواجهة.
ــ و يغذّي الاختلاف، الجهل بحقيقة الآب والابن.
ــ ولكن العالم ليس له عذر في هذه العداوة، لأن حقيقة المسيح مُعْلَنَةٌ عملياً و بشهود.
ــ وعلى التلاميذ أن يكمّلوا الصراع، الذي بدأه العالم مع المسيح.
ولكن الروح القدس، سيقدم المعونة والشهادة في وقتها.

المحبة المسيحية، تولّد في العالم المعاكس بغضة:

١٥: ١٧و١٨ **«بهذا أُوصيكم، حتى تُحِبُّوا بعضُكم بَعْضاً، إنْ كان العالَمُ يُبغِضُكم، فاعلَمُوا أنه قد أبغَضَني قَبْلَكُم».**

وأول مواجهة كشفت عن صدق إنذار المسيح بعد بدء الكرازة هي هكذا: «ودعوا الرسل، وجلدوهم، وأوصوهم أن لا يتكلموا باسم يسوع، ثم أطلقوهم. وأما هم، فذهبوا فرحين من أمام المجمع، لأنهم حُسِبُوا مستأهلين أن يُهانوا من أجل اسمه.» (أع٥: ٤٠ــ٤١)

الصراع هنا بين الإيمان الثابت في محبة المسيح، وعدم الإيمان الثابت في محبة العالم، هو صراع بين محبة النور ومحبة الظلمة؛ بين معرفة الله الآب وابنه يسوع المسيح، و بين الجهل بالآب والابن معاً؛ بين أبناء الله وأبناء هذا الدهر. ق. يوحنا يتكلم هنا عن هذا، كمختبرٍ، في رسالته الأُولى: «انظروا أية محبة أعطانا الآب، حتى نُدْعَى أولاد الله. **من أجل هذا لا** يعرفُنا العالم، لأنه لا

يعرفه.» (١يو٣: ١)

واضطهاد العالم و بُغْضَته لتلاميذ الرب ومؤمنيه الأتقياء المخلصين، يبدو دائماً ومنذ أول يوم، غريباً جداً في أعين مُتَّقيه!

«أيها الأحباء، لا تستغربوا البَلْوَى المحرقة (مشتعلة أو نارية) التي بينكم حادثة، لأجل إمتحانكم، كأنه أصابكم أمر غريب، بل كما اشتركتم في آلام المسيح، افرحوا، لكي تفرحوا في استعلان مجده أيضاً مبتهجين. إن عُيِّرتم باسم المسيح، فطوبى لكم، لأن روحَ المجد والله يحلُّ عليكم. أما من جهتهم، فيُجدَّفُ عليه، وأما من جهتكم فيُمجَّد. فلا يتألم أحدكم كقاتل أو سارق أو فاعل شر أو متداخل في أمور غيره، ولكن إن كان كمسيحيٍّ (يتألم)، فلا يخجل، بل يمجِّد الله من هذا القبيل ... فإذاً الذين يتألمون بحسب مشيئة الله، فليستودعوا أنفسهم كما لخالقٍ أمينٍ في عمل الخير.» (١بط٤: ١٢ــ١٩)

وهكذا ظهر بوضوح أن المحبة، **كوصية أولى وعظمى**، ركَّزَ عليها المسيح قبل الفراق هنا، ولآخر مرَّة، لأنها الدرع الوحيد لمواجهة صدام العالم. فمحبة التلاميذ للمسيح، وثبوتهم فيه، ثم محبتهم نحو بعضهم البعض، وقفت تصدُّ عنهم عُنْفَ بغضة العالم للمسيح ولهم. وواضح للغاية، أن بُغْضَةَ العالم واضطهاده كانا موجَّهين ضد فضائل المسيحيين، وليس لأخطائهم وعيوبهم وتعدِّياتهم. وهذا الموقف يُذكِّرنا بشيء من التطابق بين موقف الفريسيين والأعمى الذي فتح عينيه المسيح، المتهم بأنه فتح عينيه في سبتٍ. فـ«العالم» هنا هو في موقف الفريسيين تماماً في الأصحاح التاسع، والأعمى الذي فتح المسيح عينيه هم التلاميذ الذين دخلوا النور، والمسيح هو هو المتهم الأول الذي كَسَرَ القوانين المزعومة.

ومن تسلسل الآيات السالفة، يتضح كيف، وبحكمة إلهية بالغة الدقة والرتابة، أسس المسيح في التلاميذ أساس المحبة الثابت، ثم كشف بعد ذلك عن عنف المقاومة المضادة المزمعة أن تواجههم، حتى يحتملوها بجدارة. وكأنما يُعدُّ الكنيسة لتاريخها الطويل في جهادها ضد العالم.

«إن كان العالم يبغضكم، فاعلموا أنه قد أبْغَضَني قبلكم»:

«فاعلموا»:

تأتي بصيغة الأمر. الرب يرفع ذهن التلاميذ على مستوى «اذكروا» التي جاءت موازية لها في الآية (٢٠) بعد ذلك. وهذه وتلك، ولكي ينفتح وعي التلاميذ لالتقاط صورة صحيحة لِمَا أكمله

العالم مع المسيح، تنطبعان على ذاكرتهم وذاكرة الكنيسة على الدوام، لتكونا للتلاميذ والكنيسة من بعدهم عوناً شديداً لاحتمال المصادمات المتكررة، والتي لن تنقطع.

فإن كان العالم قد أبغض المسيح واضطهده بشدة وبمرارة، فيلزم فَهْمُ السبب الكامن وراء هذه العداوة التي لا تعرف التعقل. فالمسيح كان في العالم (على مستوى اليهود)، مصدر قلق ونكدٍ ورعبة وارتباك وخوف شديد. فقداسته فضحت فجورهم، ووداعته استفزت وحشيتهم، وتكريمه وتمجيده للآب هيج عداوتهم له وللآب، والحق الذي فيه جمعهم على الكذب وتلفيق التهم: «إن كنتُ قد تكلمتُ ردياً، فاشهدْ على الرديّ، وإنْ حسناً، فلماذا تضربني؟» (يو١٨: ٢٣)

فالمسيح قد صار للتلاميذ النموذج الكامل، الذي يسند قلوبهم في وقت هياج العالم وسخطه، والذي يستمدون منه قوة على الاحتمال والصبر، بل والفرح في الضيق: «ناظرين إلى رئيس الإيمان ومكمِّله يسوع، الذي من أجل السرور الموضوع أمامه، احتمل الصليب مستهيناً بالخزي، فجلس في يمين عرش الله. فتفكَّروا في الذي احتمل من الخطاة مقاومة لنفسه، مثل هذه، لئلا تكلُّوا وتخوروا في نفوسكم.» (عب١٢: ٢و٣)

ويخاطب القديس أغسطينوس مَنْ تسوِّل له نفسه أن يخور ويلقي السلاح هكذا: [إن أنتَ استعفيتَ من أن تحمل مع المسيح بغضة العالم، فأنت تعفي نفسك من أن تكون في الجسد]. أليس الغصن في الكرمة؟ والعضو يحمل ما يقع على الرأس في الجسد. فإذا كان العضو سيتمجد حتماً مع الرأس، فكيف لا يحمل معها همَّ المقاومة نصيباً بنصيب؟ إن احتمال ثقل التجارب في العالم، مهما كان شكلها ومصدرها، لَهُوَ ختمٌ لملكوت السموات، وعلامة صحة لالتحامه في الجسد وقُرْبِه من الرأس! فإن كان اتحادنا بالمسيح وحبه هو الذي يوقعنا تحت غضب العالم، فمرحباً!

١٥: ١٩ «لو كُنتُم من العالم، لكانَ العالمُ يُحِبُّ خاصَّتَهُ. ولكن لأنكم لستُم من العالم، بل أنا اخترتُكم من العالم، لذلك يُبغِضُكم العالَمُ».

العالم يغرِّم مَنْ يخرج من تحت نيره، بل ويناصبه العداء. إنها مهانة عظمى لرئيس هذا العالم، أن يخرج من تحت يده إنسان يقف قُبالته ليشهد ضده.

لقد تجمعت الشياطين ــ كما تجمَّع على المسيح بيلاطُس وهيرودسُ وقيافا و يهوذا ــ على الفتى الغضّ أنطونيوس قديس براري مصر وهو ابن العشرين سنة وواجهوه بهزأة: [يا صبيَّ العمر

والعقل، كيف تجاسرت ودخلت بلادنا (البراري القفرة التي ليس بها ماء)]، ولكن الفتى صَبرَ وثابر، وردَّ عليهم: [أنا أصغر من جميعكم، فلماذا اجتمعتم عليَّ كلكم]، وبالنهاية مَلَكَ أنطونيوس ناصية البراري لحساب النسك والعبادة والتسبيح المتواصل الذي لم ينقطع، ليس في مصر وحدها، بل وفي كل العالم.

كلام المسيح يحمل حقيقة معزِّية للغاية، فكلُّ بغضة نواجهها في العالم، دون أن نكون نحن سبباً فيها، فهي تُحسَبُ، حتماً، دليلاً على اختيار الرب لنا: «أنا اخترتُكم من العالم، **لذلك** يبغضكم العالم». واختيار الرب قائم أساساً على أننا لسنا من هذا العالم، والعالم لا يليق أن يكون لنا وطناً ومقرّاً، لذلك فكلُّ حقد وبغضة يناصبنا بها العالم، يذكِّرنا بالرجاء الذي لنا عند الرب: «إن كنا نتألم معه، لكي نتمجد أيضاً معه.» (رو٨: ١٧)

«لو كنتم من العالم، لكان العالم يحب خاصته»:

ما أشد ألفة الخطاة بعضهم ببعض، يجذبون بعضهم البعض لارتكاب الإثم والمعصية بسخاء وبذخ. إنها تظهر لهم وكأنها محبة وعلى مستوى التضحية والبذل، حتى ليكاد الأبرار يغيرون من هذه الألفة وهذا السخاء وهذا البذل المجنون. ولكن كل ذلك يتم بدفْعٍ من الشيطان، حتى يغوص الواحد منهم في الوحل دون أن يدري، وهو مسرور غاية السرور. وإن للعدو قدرة على إخفاء العاقبة والنهاية المُرَّة التي تنتظر هؤلاء المتسابقين في وضع الأغلال في أعناقهم، حتى لا يكون قيام.

محبة العالم لأخصائه هي محبة للاستعباد، لنزف الشباب والمال والجمال والكرامة والعمر!

«يحب خاصته»: τὸ ἴδιον ἐφίλει

«خاصته» هنا، وإن كانت تفيد الأشخاص المنجذبين إليه، كما يتراءى لأول وهلة، ولكن هي تفيد في الحقيقة الذين أصبحوا عبيداً له. فالعالم يحب الذين له، الذين يعملون لحسابه. والفاعل العاقل المضْمَر هنا، هو الشيطان رئيس هذا العالم: «أنتم من أبٍ هو إبليس، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا، ذاك كان قتَّالاً للناس من البدء.» (يو٨: ٤٤)

ويلاحظ القارىء، أن المسيح يكرر كلمة **«العالم»** خمس مرات في الآيتين ١٨و١٩، وذلك عن شعور منه بخطورة هذا العدو، وتوعيةً لنا أن نأخذ الحيطة، ونضع خطورته في الاعتبار.

٢٠:١٥ **«"أذكُرُوا الكلام الذي قُلْتُه لكم، ليسَ عبدٌ أعظمَ من سيِّدِهِ. إن كانوا قد اضْطَهَدُوني، فَسَيَضْطَهِدُونَكُم. وإن كانوا قد حَفِظُوا كلامي، فسيَحْفَظُون كلامَكُم».**

واضح أن هذا النص وارد في إنجيل يوحنا أصحاح ١٣: ١٦. فبالرغم من أن التلاميذ، في نظر المسيح، ليسوا عبيداً بل أحباء، ولكن في نظر أنفسهم ينبغي أن يدركوا أنهم عبيد الله.

فالسيد والمعلم الذي غسل أرجلهم ليُعِدَّهم للإرسالية العُظمى، الآن يكشف لهم مجد الإرسالية على مستوى مجد إكليل الشوك والصليب. لأنه حقاً لا يليق أن الرأس ــ المقدس ــ يلبس إكليلاً من شوك، والأعضاء يجلسون على أرائك من حرير، أو أن يُلقَّب رب الكنيسة ببعلزبول، وأهل البيت ينعمون بالألقاب: «إن كانوا قد لقَّبوا رب البيت بعلزبول، فكم بالحري أهل بيته» (مت١٠: ٢٥). وإن هبَّت ريحُ العالم العاتية على الكرمة، فلا بد أن تترنح الأغصان.

والرب هنا لا يريد أن يواجه التلاميذ بمصيرهم المحتم، من جهة الاضطهاد، مباشرة، حتى لا يجزعوا؛ ولكنه في حُنوٍّ وتوعية ورفق، وضع نفسه في المقدمة كعيِّنة، وتركهم يقيسون على أنفسهم: «إن كانوا قد اضطهدوني، فسيضطهدونكم». ثم بتوعية أكثر وأعمق، أراد أن ينبه ذهنهم أن يتذكروا كيف كان اليهود يترصدونه «ليصطادوه بكلمة» (مت٢٢: ١٥) من كلامه، يؤوِّلونها كما يشاءون، حتى ينصبوا له الفخاخ. فلا ينتظر التلاميذ من المقاومين لهم إلاَّ نفس الأسلوب، والذين للعالم لن يحترموا كلامهم، فالرب يضعه على مستوى كلامه: «إن كانوا قد حفظوا كلامي، فسيحفظون **كلامكم**»، بل سوف يؤوِّلون ويحوِّرون ويعوِّجون، لعلهم يفوزون بحجة للمنازعة والتشهير أو الحكم، لإفساد تعليمهم في أذهان الناس.

٢١:١٥ **«لكنَّهم إنما يفعَلُون بِكُم هذا كُلَّهُ من أجلِ اسمي، لأنهم لا يَعْرِفُونَ الذي أرسَلَني».**

«لكن» وباليونانية ἀλλὰ، تفيد الانتقال بالمعنى وبالحديث إلى تكملة متصلة به، ولكن جديدة. فالمسيح يكشف أن سر الاضطهاد سيكون هو بسبب الارتباط بالمسيح، والغصن المتحد بالكرمة نصيبه من نصيب الكرمة، والمناداة **باسم** المسيح لها تكلفة باهظة: «ودَعَوا الرسل، وجلدوهم، وأوصوهم أن لا يتكلموا "**باسم**" يسوع، ثم أطلقوهم. وأما هم، فذهبوا فَرِحين من أمام المجمع، لأنهم حُسِبُوا مستأهلين أن يهانوا من أجل **اسمه**» (أع٥: ٤٠و٤١). وبطرس الرسول

أيضاً يركّز على الاسم: «إن عُيِّرتُمْ باسم المسيح، فطوبى لكم، لأن روح المجد والله يحلُّ عليكم.» (١بط٤: ١٤)

لماذا اسم المسيح في العالم مكروه، والعالم يناصبه العداء؟ ثم لماذا هذا الاسم هكذا محبوب جداً لدى المؤمنين الصادقين؟

إن اسم المسيح هو هذا: «ابن الله الحي»، وهذا الاسم يحمل استعلان حقيقة الله الآب التي جاء الابن لاستعلانها. وفي استعلان الله كآب، واستعلان المسيح كابن متجسد، ينجمع كل مفهوم الخلاص والفداء والمصالحة. فالله أرسل ابنه إلى العالم، ليصالح به العالم لنفسه. والابن تمّم مشيئة الآب، بأن صالح العالَمَ بذبيحة نفسه. وهكذا بالصليب، انفتح باب العودة لكل خطاة العالم من سلطان الشيطان والظلمة إلى الله. لأجل هذا لا يطيق العالم، الذي يعمل لحساب الظلمة، سماع اسم ابن الله. فأبناء الظلمة يبغضون أبناء النور، هذه حقيقة كل الدهور. أما الذين آمنوا باسم ابن الله، وقبلوه، فيكونون قد انتقلوا من الظلمة إلى النور، ودخلوا في عهد بُنُوّة صادقة لله، وصاروا أبناءً وأحباءً بعد أن كانوا عبيداً وأعداءً. لذلك صار اسم ابن الله هو قوتهم وفخرهم وحصنهم، إزاء بغضة العالم لهم وللاسم!

«لأنهم لا يعرفون الذي أرسلني»:

إن معرفة سر الآب والابن الذي يتضمن إرسالية الابن إلى العالم، هو من أعمق مخصَّصات الله، التي جعلها سرًّا مكتوماً منذ الدهور السالفة، ولم يُعرَّف به أحد، إلى أن استُعلن للتلاميذ والرسل: «أنه بإعلان عرَّفني بالسرِّ... سرِّ المسيح، الذي في أجيال أُخَرَ لم يُعرَّف به بنو البشر، كما قد أُعلِنَ الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح، أن الأممَ شركاءُ في الميراث، والجسد، ونوال موعده في المسيح بالإنجيل.» (أف٣: ٣ــ٦)

لذلك فإن سرَّ الآب والابن استُودع لدى الرسل، واستلمته الكنيسة من يد الرسل، وبالروح القدس. وفي معرفة هذا السر، وبه، أعطيتِ الحياةُ الأبدية للمؤمنين: «هذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وَحْدَك، ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو١٧: ٣)

وهكذا أصبحت معرفة الله «الآب» مقصورة على الذين قَبِلوا «الابن»، وآمنوا بالصليب والفداء، ونالوا الحياة الأبدية. والذي لا يعرف إرسالية ابن الله، يستحيل عليه معرفة الآب، وبالتالي فهو يجدِّف على الآب والابن دون أن يدري، إنه يسيء إلى نفسه!! «يا أبتاه اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون.» (لو٢٣: ٣٤)

ولكن ليس عذرٌ للعالم، لأن المسيح استعلن سرَّ الآب والابن،
وسرَّ الخلاص بالقول والعمل: (يو١٥: ٢٢ــ٢٥).

إن الرب، وقد وضَّح السبب والحقيقة التي سيقوم عليها حقد العالم و بغضته لتلاميذه، أوضح أيضاً أن هذا العداء السافر ليس له عذر، ولكن سيكون مفروضاً فرضاً عليهم. ولهذا بدأ يشرح كيف أكمل شهادته ضد العالم، سواء بالقول أو العمل، جاعلاً معرفة الآب ظاهرة. وقد جاءت شهادة المسيح لنفسه وللآب في وضع متوازٍ موزون:

+ «لو لم أكن قد جئتُ وكلَّمتُهم، لم تكن لهم خطية،
وأما الآن، **فليس لهم عذر** في خطيتهم،
الذي يبغضني، يبغض أبي أيضاً».

+ «لو لم أكن قد عملتُ بينهم أعمالاً، لم يعملْها أحد غيري، لم تكن لهم خطية،
وأما الآن فقد رأوْا،
وأبغضوني أنا وأبي».

١٥: ٢٢ «لو لم أكُن قد جِئتُ وكلَّمتُهُم، لم تكُن لهم خطيةٌ، وأما الآن فليسَ لهم عُذرٌ في خطيَّتهم».

«قد جئتُ»:

هذه الكلمة تحمل معنى كبيراً وممتداً، فهي تشير إشارة واثقة إلى أن مجيئه يحوي تحقيق الوعود النبوية السابقة لمجيئه، وانتظار كل شعب إسرائيل بفارغ الصبر، شعباً ورؤساءَ، وهوذا **قد جاء!!** اليهود ليس لهم أي عذر في عدم التعرُّف على المسيح، بل لم يكن هناك أيُّ داعٍ لبغضته بهذا المقدار، ومحاربته أينما ذهب، وهو يشرح ويوضح بالقول والعمل المعجزي؛ بل وإن القول أيضاً كان على مستوى الإعجاز، مع إشارات قوية أشار بها إلى حقيقة نفسه، أنه المسيَّا الذي ينتظرونه من واقع أكبرِ وأقوى وأصدقِ نبوّة كانت تشير إشارة مباشرة إلى مجيئه على لسان موسى: «**يقيمُ لك الربُّ إلهُكَ نبياً** من وسطك، من إخوتك، مثلي، له تسمعون...، **وأجعلُ كلامي في فمه، فيكلِّمهم** بكل ما أوصيه به، و يكون أن الإنسان الذي لا يسمع **لكلامي** الذي يتكلم به **باسمي**، أنا أطالبه.» (تث١٨: ١٥و١٨و١٩)

والحقيقة أن اليهود بلا عذر، فقد كانت لهم القدرة والفهم لمعرفة المسيح والتعرُّف عليه تماماً، باعتباره المسيَّا الآتي، بل وإن منهم مَنْ نجح بسهولة في معرفته والإيمان به، لذلك فهذه المقاومة العنيدة، والبُغْضة العنيفة، والقسوة في المصادرة، توضح أنهم أسْلَموا ذواتهم للشيطان، وأنهم كانوا مُغْرِضين، ومنحازين لشهواتهم الجامحة المجنونة.

«لَمَا كانت لهم خطية»:

هذا التعبير سَبَقَ أن قاله المسيح لهم بوضوح، عندما قاوموا المسيح، وأرادوا قَتْلَه، لأنه شفى أعمى، مولوداً من بطن أمه أعمى، وأعطاه موهبة البَصَر في يوم سبت، فقال لهم: «لو كنتم عمياناً، لما كانت لكم خطية» (يو٩: ٤١). لأن أمامهم إنساناً أعمى منذ ولادته وَهَبَهُ النور والرؤيا، فما رأوا الآية، ولا نظروا إلى المعجزة، بل انحازوا إلى عمى قلوبهم وتعصُّبهم الأعمى للحرف الذي يعبدونه عوض الروح.

وحرف «لهم» في قوله: «**لهم خطية**» الذي هو في الأصل اليوناني الفعل ἔχω بمعنى: «يمتلك، يقتني» خطية، هو اصطلاح وارد في العهد القديم، يفيد أن الإنسان بجهله وشرِّه يكتسب لنفسه خطية، أو يحمل أو يقبل أو يستلم خطية λαμβάνω: «لكن مَنْ كان طاهراً، وليس في سَفَرٍ، وترك عمل الفصح، تُقطَعُ تلك النفس من شعبها، لأنها لم تُقرِّب قربان الرب في وقته، ذلك الإنسان **يحمل** λήψεται **خطيته.**» (عد٩: ١٣)

وبذلك تظهر خطورة قول الرب على اليهود: «لَمَا كانت **لهم** خطية»، أي لما حملوا على أنفسهم خطية. وهذا الاصطلاح عبَّر اليهود عنه أحسن تعبير عندما قالوا لبيلاطس: «دمه **علينا، وعلى** أولادنا» (مت٢٧: ٢٥). فالاصطلاح: «لما كانت **لهم** خطية»، يشير إلى ثبوت خطيتهم عليهم، لأن العمل الذي عملوه في مقاومته وصلبه، كان بدون وجه حق!! «وأما الآن فليس لهم عذرٌ في خطيتهم»، لأن توضيح المسيح لرسالته وإرساليته وكلامه عن الآب وعن نفسه، كان فيه الكفاية. بمعنى أنه ليس عن جهالة قاوموه، أو عن قلة معرفة، وعن إلتباس في الفهم، بل بإصرارٍ وعنادٍ وحقدٍ جنوني، ما كان له داعٍ على الإطلاق!!

١٥: ٢٣ «الذي يُبغِضُني، يُبغِضُ أبي أيضاً».

هذه الآية تدخل في المفهوم اللاهوتي التجريدي، فالذي ليس له الابن، فبالضرورة ليس له الآب (١يو٢: ٢٣)! كما أن الذي يؤمن بالابن، فله الآب أيضاً. والذي يحب الابن، يحبه الآب

بالضرورة. هنا يتضح ببساطة أن الابن والآب واحد، هما ذات واحدة فيها ملء البُنُوَّة كشخص، وملءُ الأُبُوَّة كشخص، وهما ذات واحدة كاملة، وكلُّ ما يصيب الابن يصيب الآب حتماً. والابن تجسَّد، ليعلن في نفسه الآب، و يستعلن بكلامه وأعماله كلام الآب وأعمال الآب. لذلك، فالمسيح هو صورة الآب المتجسدة، هو إنسان من حيث تجسُّده أو هيئته الإنسانية، ولكن هو الإله من حيث حقيقة ذاته وجوهره. لذلك، فمَنْ أبْغَضَ المسيح، أبغض الآب حتماً.

١٥ : ٢٤ «لو لم أكُن قد عَمِلْتُ بينهم أعمَالاً لم يعملْها أحدٌ غيري، لم تكُن لهم خطيةٌ. وأما الآنَ، فقد رأوْا وأبغَضُوني أنا وأبي».

هنا توكيد القول بالعمل يتسجل تاريخياً: «الآن فقد رأوْا وأبْغَضُوني». والعمل الذي عمله المسيح، يفوق في إثباته القول. لأن العمل كان عظيماً، كان مملوءاً حباً وعطفاً وحناناً وقوة، كان ينطق نطقاً بوجود الله نفسه عاملاً: «الآب الحال فيَّ، هو يعمل الأعمال» (يو١٤: ١٠). والتي يمكن ترجمتها ترجمة صحيحة عن الأصل اليوناني هكذا: «الآب الحال فيَّ يعمل أعماله»(١٠). والمعنى، أن الآب، بالمسيح، يعمل مشيئته، و يعلن عن ذاته، و يقترب من الإنسان، بواسطة يسوع المسيح، اقتراباً عجيباً، وجهاً لوجه، وفماً لأُذُن، و يداً لعين (الأعمى).

نحن الآن، وعلى بعد، نستطيع بقوة الإيمان والامتداد باليقين الروحي أن نحس تماماً بالآب، ونكاد نراه في شخص يسوع المسيح. فما بالك بالذين عاينوا، ورأوْا، وشاهدوا، ولمسوا هذه الحقيقة، التي عبَّر عنها تلميذٌ مُخلِصٌ وصادق، بقوله: «الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولَمَسَتْه أيدينا، من جهة "كلمة الحياة"، فإن الحياة أُظْهِرَتْ، وقد رأينا، ونشهد، ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب، وأُظْهِرَتْ لنا. الذي رأيناه وسمعناه، نخبركم به، لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا، وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح، ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً» (١يو١: ١-٤). هذا يوحنا الحبيب تلميذٌ يهودي، مفتوح العينين والقلب؛ هذا رأى وشاهد ولمس وعاين وآمن؛ و ينقل لنا خبرته حيَّة نابضة بالروح، ونحن — بالإيمان — أيضاً لمسنا معه، وشاهدنا معه، وعايَنّا معه، لأننا نؤمن، والإيمان رؤيا!

وهكذا، فإن شهادة المسيح للآب ولنفسه بالكلمة والتعليم، هي استنفارٌ للوعي الروحي فينا، لإيقاظه، ليقوم ويَعي. أما شهادة المسيح بالأعمال، فهي مقارعة للفكر، أن يتيقَّظ، ويدركَ،

10 Westcott, *op. cit.*, p. 203.

ويتيقن مما يرى، ويستخلص الحق بالعيان!!

«... أعمالاً لم يعملها أحدٌ غيري»:

صحيح أن أنبياء كثيرين عملوا معجزات خارقة، فموسى معروف بعجائبه العشرة التي ضرب بها المصريين، وشقّ البحر الأحمر، وعَبَره ماشياً هو وشعبه، وطلب فنزل المنُّ، وضرب الصخرة فجرى ماءً، وصنع حية نحاسية، كلُّ مَنْ نظر إليها شُفيَ من لدغة الحيات. و يشوع بن نون فلق الأردن ليعبر الشعب وسطه، و بصلاته أوقف حركة الأرض أمام الشمس. وشمشون، أروى عَطَشَه من نبع ماء خرج من المكان الذي رمى فيه لَحْي حمار ميت. وإيليا صعد إلى السماء في مركبة نارية، وأليشع أقام ميتاً. ودانيال تمشَّى في الجب وسط أسود شرسة جائعة. والثلاثة الفتية القديسون تمشُّوا في وسط أتون النار المرتفعة تسعة وأربعين ذراعاً.

ولكن، لا هؤلاء، ولا غيرهم قط، قيل عنهم هكذا: «ولما صار المساء، إذ غربت الشمس، قدَّموا إليه **جميعَ** السُّقماء والمجانين، **وكانت المدينة كلها مجتمعة على الباب**، فشفى كثيرين كانوا مرضى بأمراض مختلفة، وأخرج شياطين كثيرة، ولم يَدَعْ الشياطين يتكلمون، لأنهم عرفوه.» (مر١: ٣٢ـــ٣٤)

كذلك: «وحيثما دخل إلى قرى أو مدن أو ضياع، **وضعوا المرضى في الأسواق، وطلبوا إليه أن يلمسوا ولو هدب ثوبه، وكلُّ مَنْ لَمَسَه شُفي**» (مر٦: ٥٦). وقال عنه القديس متى: «فأخرج الأرواح **بكلمة**، وجميع المرضى شفاهم، لكي يتم ما قيل بإشعياء النبي القائل: هو أخَذَ أسقامنا، وحمل أمراضنا.» (مت٨: ١٦و١٧)

فأعمال المسيح الإعجازية لم تكن مجرد معجزة صنعها في حياته، بل كانت حياته معجزة، وكلها معجزات. فإذا جئنا إلى الأعمال الفردية، كتفتيح الأعمى المولود من بطن أمه وكيف صنع له مُقْلَةَ عينٍ من الطين، فنحن هنا أمام خالقٍ، لا صانع معجزات! والذي أقام لعازر بعد أربعة أيام في القبر، وقد أنْتَنَ أيضاً، هنا نحن أمام الديَّان الذي يقيم الموتى و يُحْيِي مَنْ يشاء. كل هذا كان يعمله المسيح لا ليُظْهِر قوته، بل ليَبْتَعلن رسالته، لكي تنطق أعماله بحقيقة الله فيه.

١٥: ٢٥ «لكن لكي تتمَّ الكلمةُ المكتوبةُ في ناموسِهم، إنهم أبغَضُوني بلا سَبَبٍ».

هنا المسيح يرتفع بالعمل الرديء الذي عملوه فيه، فيراه في ضوء كلمة الله، أنه بالرغم من كل

ما قصدوه من الشر، فقد تمّ به، دون أن يدروا ودون أن يشاءوا، قصد الله الأزلي الذي استودعه الله بالنبوّة في ناموسهم.

«في ناموسهم»:

خطر أن يفصل المسيح بين ناموسه الإلهي و"**ناموسهم**"، فقد أرداه أرضاً، وعزله عن رضى الله إلى الأبد! فلم يَعُدْ بعد هذه اللحظة يُدْعى ناموسَ عهدِ الله، بل «**ناموسهم**»، ناموس الكرّامين الأردياء الذين تعاهدوا على قتل ابن صاحب الكرم، فتربّصوا به، في يوم فصحهم، وعوض خروف الفصح، ذبحوا حَمَلَ الله الوديع!

«الكلمة المكتوبة في ناموسهم»:

هذه هي الكلمة المكتوبة في ناموسهم: «لا يشمتْ بي الذين هم أعدائي باطلاً، ولا يتغامزْ بالعين **الذين يُبْغضونني بلا سبب**» (مز٣٥: ١٩)، ثم تكررت في مزمور آخر: «أكثر من شعر رأسي، **الذين يُبْغضونني بلا سبب.**» (مز٦٩: ٤)

«بلا سبب»: δωρεάν ، وفي الفولجاتا اللاتينية gratis :

«بلا سبب» لا تفي بالمعنى الذي جاء في اليونانية واللاتينية، فهي تفيد الهديّة المجانية، أو بدون مقابل! وفعلاً، فالعمل الذي عملوه في المسيح، لو حاول الإنسان أن ينتحل لهم أي عذر أو أي داعٍ، فلا يجد؛ لأن كل التهم التي أقاموها ضده، كانت غير جادّة، وقد تعبوا في تلفيقها. وليست تهمة واحدة من التهم التي قدموها، كانوا يؤمنون بأنها صحيحة! كذلك، فكل مرة أقدموا فيها على رَجْمِهِ ادعاءً منهم أنه كَسَر الناموس وتعدّى على وحدانية الله، لم يستطيعوا أن يبلغوا فيها حدًّا قاطعاً، لأنه ردَّ عليهم وأفحمهم، فسقطت الحجارة من أيديهم، وتفرقوا شَذَرَ مَذَرَ.

والواقع أن قداسة المسيح واستقامته الحادة، جَعَلَت عداوتهم له وبُغْضتهم إياه تافهة بلا أي معنى، بل وتافهة أقصى ما تكون التفاهة، فأوقفهم مواقف الدينونة، كلما رفعوا عقيرتهم عليه!! وتكشّفت عداوتهم أنها عداوة صافية مائة بالمائة، لا يسندها أيُّ مبرر! وهذه تُحسب، في مفهوم الدينونة، أنها تعبير مكشوف عن «**سرّ الإثم**» الذي يعمل في أبناء المعصية، والذي سيكشفه يوماً الله الديّان: «لأن سرّ الإثم الآن يعمل فقط إلى أن يُرْفَع من الوسط الذي يحجز الآن، وحينئذ سيُسْتعْلَن الأثيم، الذي الربُّ يُبيده بنفخة فمه، و يُبْطِله بظهور مجيئه.» (٢تس ٢: ٧و٨)

وإزاء هذا العنف المجنون للأئمة الذين قاوموا المسيح، وهم متهيئون لمقاومة تلاميذه والكنيسة

المولودة حديثاً، ارتأى الآب والمسيح أنه لا بد من أن يسند التلاميذ والكنيسة بالروح القدس، المُدَافِع القويّ، والمحامي القدير، والشفيع، والشاهد.

الآيات ١٥ : ٢٦ و٢٧:

إزاء مقاومة رسالة المسيح وإنكار اليهود لعمله واسمه وفكره، كان من الطبيعي أن يُرسِلَ المسيح الروح القدس، القوةَ الإلهية الجبارة، التي تشهد وتدعو سرًّا القلوب الأمينة التي تقبل الكلمة، وتحتاج إلى إقناع وشهادة وتشجيع، فيؤديها الروح القدس. وبهذا يُحيِّد القوة الأثيمة العاملة في اليهود وغير اليهود والتي تتربص بالمؤمنين وتطارد الكارزين. وقد أبْلَى الروح القدس في ذلك المجال بلاءً فائق القوة والوصف. وكان الروح القدس لسان شهادة في التلاميذ لحساب المسيح والآب.

ثم يجيء بعد ذلك الأصحاح السادس عشر، ليصف عمل الروح القدس في مساندة ومؤازرة التلاميذ.

١٥ : ٢٦ **«ومتى جاءَ المُعَزِّي ــ الباراكليت ــ الذي سأرسِلُه أنا إليكم، من الآبِ، رُوحُ الحقّ، الذي من عندِ الآبِ ينبَثِقُ، فهو يَشْهَدُ لي».**

«المُعزّي»:

ليست هذه الكلمة ترجمة دقيقة للأصل اليوناني، ولكنها ترجمة جزافية للكلمة الأصلية التي هي **«الباراكليت»**. وكان يجب أن تُتْرَكَ كما هي، لأن «الباراكليت» هنا اسم وليس صفة(١١). والباراكليت ὁ παράκλητος باللاتينية تترجم **advocatos**.

«أُرسله "أنا" إليكم من الآب»:

هنا الضمير ἐγώ عليه تركيز زائد، لإبراز صفة الألوهية، فالمسيح هنا هو الابن الذي بذهابه إلى الآب سيرسل الأقنوم الثالث الروحي، وهو «روح الحق» الإلهي. وقد أوضح المسيح بعد ذلك في الأصحاح السادس عشر الآية السابعة، أن إرساله مُتعلِّق بانطلاق المسيح بعد تكميل خدمته على الأرض بالصليب: «لكني أقول لكم الحق، إنه خيرٌ لكم أن أنطلق، لأنه إنْ لم أنطلق لا يأتيكم المعزِّي.» (يو١٦ : ٧)

---

(١١) راجع شرح الآية ١٤ : ٢٦. وراجع أيضاً المدخل ص٢٤٧ وما يليها.

وهنا، نحن بصدد أحرج ساعات المسيح، وهو يتكلم عن الفراق، مما جعله يسبق ويشجعهم بخصوص ما سيُقابلهم من ضيقات وبُغضةِ العالم، موضحاً ما عاناه المسيح نفسه في العالم، أصبح الحديث عن سلطانه اللاهوتي بإرساله الروح القدس ذا قيمة عظمى لتشجيعهم، فهو يؤسس فيهم الثقة الكاملة في شخصه وسلطانه الإلهي، كما يؤمّنهم إزاء عنف الاضطهاد القادم، وذلك بإرساله الروح القدس.

«من الآب»، «من عند الآب»: παρά

تفيد الموضع، أي من جانب الآب، ولا تفيد الخروج من المنبع(١٢)، لأن الحرف المنوط به توضيح الخروج من داخل المنبع هو في اليونانية ἐκ أو ἐξ خارجاً من (out of)، وقد جاءت واضحة في مره ٥: ٣٠ : «القوة التي خرجت منه» = ἐξ .

«روح الحق»: τὸ πνεῦμα τῆς ἀληθείας

الأليثيا هنا هي استعلان الحقيقة الإلهية (في المسيح)، وهي لا تُعَلَّم قط، ولكن تؤخذ بالروح وتصديق الحق: و«الروح القدس والحق» يوجدان و يعملان معاً: «ولكن تأتي ساعة، وهي الآن، حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق، لأن الآب طالبٌ مثل هؤلاء الساجدين له» (يو٤: ٢٣). وكلٌّ منهما يشرح الآخر و يزكيه. و يلاحَظ أنهما معاً علامة أكيدة ودامغة على الحياة فوق الطبيعية، والدخول في مجال الاسكاتولوجيا، أي أمور الآخرة، التي يقول المسيح عنها أنها «الآن»: «تأتي ساعة وهي الآن» (يو٤: ٢٣ و٥: ٢٥)، لأن «الآن» في المسيح، هو والمستقبل شيء واحد، وهو بعينه استعلانُ الحضور الإلهي فوق الزمن؛ لأن استعلان الحق بالروح القدس للإنسان معناه تعامل الله مباشرة مع الإنسان، حيث يتقدس الإنسان، أي يصير بجملته يحيا لله وليس للعالم.

وقد تكرر سابقاً هذا الوصف للروح القدس في يو١٤: ١٧، وسيتكرر أيضاً في ١٦: ١٣. وقد ذكره ق. يوحنا في رسالته الأولى ٤: ٦. و يلاحظ أن إرسال روح الحق هو مناسبة من واقع الحال، لكي يقف ضد روح الباطل والتزييف في العالم: «كلُّ روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد، فليس من الله، وهذا هو روح ضد المسيح.» (١يو٤: ٣)

ومعروف أن الله هو «الحق». فهنا واضح أن «روح الحق» هو روح الله. فالروح القدس هو

(١٢) راجع المدخل ص٢٥١.

الأقنوم الذاتي في الله الواحد مع الآب والابن. والمسيح قال: «أنا هو الحق»، فهو «روح المسيح» أيضاً. لذلك واضح أنه سيُرسله، ليشهد للحق الذي في المسيح تجاه العالم المقاوم. كما أنه الوحيد الذي له السلطان الصادق لشرح كلمة الله، والتذكير بها، والتعريف بما ستؤول إليه: «ويخبركم بأمور آتية» (يو١٦: ١٣). ولكن سواء الشهادة للحق أو شرح الحق الذي في المسيح والكلمة أو التذكير بها والتنبؤ بما ستؤول إليه، فهذه ليست مجرد صفات للروح القدس، ولكنها من صميم طبيعته. وهذا يُلاحَظ من تركيب كلمة الروح على كلمة الحق كمضاف إليه، فالحقُّ يصير ملك الروح وله.

«من الآب ينبثق» ἐκπορεύεται وباللاتينية procedit:

وهي تفيد معنيين: معنى الخروج من داخل، والخروج هذا نفسه هو إرسال. وهنا نجد أن الفعل الملازم للروح القدس بالنسبة للمسيح يأتي أولاً في «المستقبل»: «سأرسله»، لأن إرساله متوقف على عمل سوف يكمله المسيح بعد الصليب، وهو الانطلاق إلى الآب.

ثم يأتي الفعل الآخر وهو خاص بالروح القدس والآب: «ينبثق»، ويأتي في المضارع بصفة الاعتياد، أي من عند الآب يخرج، فهو فعلٌ لازمنيٌّ فوق مفهوم الحركة، وهو نفس المعنى الذي يُستخدَم بخصوص المسيح أنه من عند الآب يخرج. من هذا نفهم، أن إرسال الروح القدس بواسطة الابن من عند الآب بعد أن يكون قد تمجّد، هو في الحقيقة التكميل النهائي لعمل الخلقة الأُولى التي اضطلع بها الكلمة سابقاً بالروح القدس. وفي نفس الوقت نفهم من قول المسيح أنه **سيرسل الروح القدس من عند الآب**، أن ذلك يستعلن الصلة الذاتية والجوهرية بين **الآب والابن والروح القدس** وموضع الروح القدس وعمله في الثالوث «من الآب بالابن».

«من الآب»:

يلاحظ هنا أنه لم يقل: «من "أبي"»، لأن العمل الذي سيقوم به الابن والروح القدس هو لحساب الإنسان، الذي أصبح الله بالنسبة له هو **«الآب»** بواسطة الابن والروح القدس. لذلك فإرسالية الروح القدس هنا هي خاصة بالإنسان.

«يشهدُ لي»:

لشرح شهادة الروح القدس، الرجاء الرجوع إلى المدخل صفحات ١١٧ و١١٨ و٢٥٢. ولكن ينبغي أن نوضح هنا أن الروح القدس سيضطلع بمفرده بالشهادة للمسيح خارج عمل التلاميذ، أي أنه سيشهد بواسطة التلاميذ، وسيشهد هو من تلقاء ذاته، وذلك في قلوب المؤمنين مباشرة بعمل

الإلهام والنعمة، في كل ما يخصُّ حياة المسيح وأقواله وأعماله. كذلك بتوجيه المؤمنين للقيام بأعمال، هي بحد ذاتها تصير شهادة للمسيح، وهذا هو العمل الأعظم للروح القدس والذي بقي في الكنيسة، وهو باقٍ إلى الأبد: «لأنه ماكثٌ معكم و يكون فيكم.» (يو١٤: ١٧)

واضح هنا أن الروح القدس هو روح مناداة وإعلان! ينطق بالكلمة في الأفواه وفي القلوب، في فم الكارز، وقلب السامع معاً وفي نفس الوقت؛ و بدون عمل الروح القدس في الشهادة للمسيح، لا الكارز يستطيع أن يستجلي الكلمة بالروح ويستعلن قوة وحق المسيح فيها، ولا السامع يستطيع أن يحسها ويقبلها ويعمل بها!

لذلك يلزم، بل يتحتم أن نعلم، أن الروح القدس هو الشاهد الشرعي الوحيد، الذي به ومن خلاله يشهد التلاميذ، وتشهد الكنيسة، وتتحرك القلوب للإيمان والعمل بالإيمان!

علماً بأن الشهادة بالروح القدس للمسيح ليست فضيلة، أو واجباً أو عملاً يتعزَّى به التلاميذ أو الكنيسة على مدى العصور، بل إن الروح القدس تعيَّن لمقارعة العالم وتحطيم كبريائه وإخماد حركة الكذب والتزييف فيه فيما يخص حقيقة الله وعبادته. لذلك فالعمل بالروح القدس هو تجنُّد لحمل الحق ضد الباطل في العالم، هو عمل جدِّي وخطير يختص بالله نفسه، وسنقرأ عنه بعد ذلك هكذا: «يبكِّت العالم» (١٦: ٨)؛ بل ومن شهادة الروح القدس غير المحدودة، تأتي شهادته للتلاميذ أنفسهم أنهم حقٌّ وحسب الحق: «ديمتريوس مشهود له من الجميع ومن الحق نفسه، ونحن أيضاً نشهد، وأنتم تعلمون أن شهادتنا هي صادقة.» (٣يو١٢)

ولكن يلزم أن ننتبه إلى قيمة قول المسيح: «الذي من عند الآب ينبثق»، حيث "ينبثق" تأتي في المضارع بالصيغة الدائمة. لذلك فشهادة الروح القدس لحقِّ المسيح مستمدَّة أصلاً من الآب: «والآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي» (يو٥: ٣٧)، فالآب يشهد للابن بالروح القدس لأن: «ليس أحد يعرف الابنَ إلاَّ الآبُ.» (مت١١: ٢٧)

وأخيراً ــ وهذا هو في الحقيقة عمل الروح القدس الأول والأساسي ــ اضطلاع الروح القدس بإلهام التلاميذ لكتابة الأناجيل وكل الرسائل، أي أسفار العهد الجديد. فهذه تُعتَبَرُ شهادة الروح القدس للمسيح بالدرجة الأُولى. ونستطيع أن نقول إن الروح القدس هو الذي اضطلع بوضع أسس الإيمان للكنيسة منذ اليوم الأول وحتى اليوم.

٢٧:١٥ «وتَشهَدُونَ أنتم أيضاً، لأنكُم مَعِي من الابتِداءِ».

لاحظ أن صيغة: «وتشهدون أنتم أيضاً»، تأتي في أعقاب بغضة العالم للمسيح، ومقاومته لتعاليمه ولإرساليته، وبالأخص فيما سيكون بعد ذلك من جهة قيامته من الأموات. لذلك، فشهادة التلاميذ تأتي من واقع ضرورة الشهادة ضد واقع العالم المعاند، وتزييف الحقيقة بأديان الوثنية الكاذبة التي تتكلم عن الله. فالشهادة في هذا المجال ضرورة لحساب الحق، أكثر منها واجباً مفروضاً على التلاميذ أو المؤمنين يؤدونه بحسب مسرتهم. لذلك، فالتفريط فيها تفريط في الحق والله، وليس مجرد إهمال واجب، علماً بأن كل مطالبة بالشهادة يقف وراءها المسيح نفسه: «في احتجاجي الأول لم يحضر أحد معي، بل الجميع تركوني، لا يُحسب عليهم، **ولكن الرب وقف معي وقوّاني**، لكي تتم بي الكرازة ويسمع جميع الأمم، فأُنقذت من فم الأسد.» (٢تي٤: ١٦و١٧)

«لأنكم معي من الابتداء»:

لا زلنا في أعقاب صورة الكرمة الحقيقية والأغصان الثابتة في الكرمة منذ الابتداء، ونحن الآن بصدد الثمر الذي يأتي صورة طبق الأصل من الكرمة، يحمل صفاتها وينطق بحقيقتها.

والمسيح يتكلم هنا عن رحلة الكرازة منذ يومها الأول، إنها تاريخ حياة لحياة، هذا نلحظه بوضوح في تدوين إنجيلي القديس متى والقديس لوقا، إذ تتبعا كل شيء من الابتداء بتدقيق. إنها دعوة المسيح وإلحاح الروح القدس لتسجيل حوادث وأعمال كلها للخلاص، ولكن القديس مرقس ارتأى أن يبدأ الرحلة وتاريخها بحسب الأنبياء بعمل الروح القدس في المعمدان، ثم بالمسيح. أما ق. يوحنا فانطلق من البدء الأزلي، لأنه يبدو أن ق. يوحنا انكشف له سِرُّ البدء الأزلي فوق البدء الزمني، فاكتفى به معتمداً على تسجيلات السابقين له في التسجيل التاريخي.

ويُلاحَظ أن ق. يوحنا جمع بين التسجيلين فيما يخص الأقوال والأعمال، وفيما استُعلن له خاصة بالروح القدس من واقع خبرات روحية سرية وخاصة جداً.

وعلى العموم، نلاحظ في نهاية هذا الأصحاح، سواء فيما يخص شهادة الروح القدس أو شهادة التلاميذ، صورة جميلة ومختصرة لنهايات الثلاثة الأناجيل الأخرى التي تتلخص في: «دُفِعَ إليَّ كلُّ سلطان في السماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به. وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر»

(مت٢٨: ١٨ــ ٢٠). وما حدث بالفعل يسجله سفر الأعمال مطابقاً تماماً لما جاء به ق. يوحنا هنا في الأصحاح الخامس عشر:

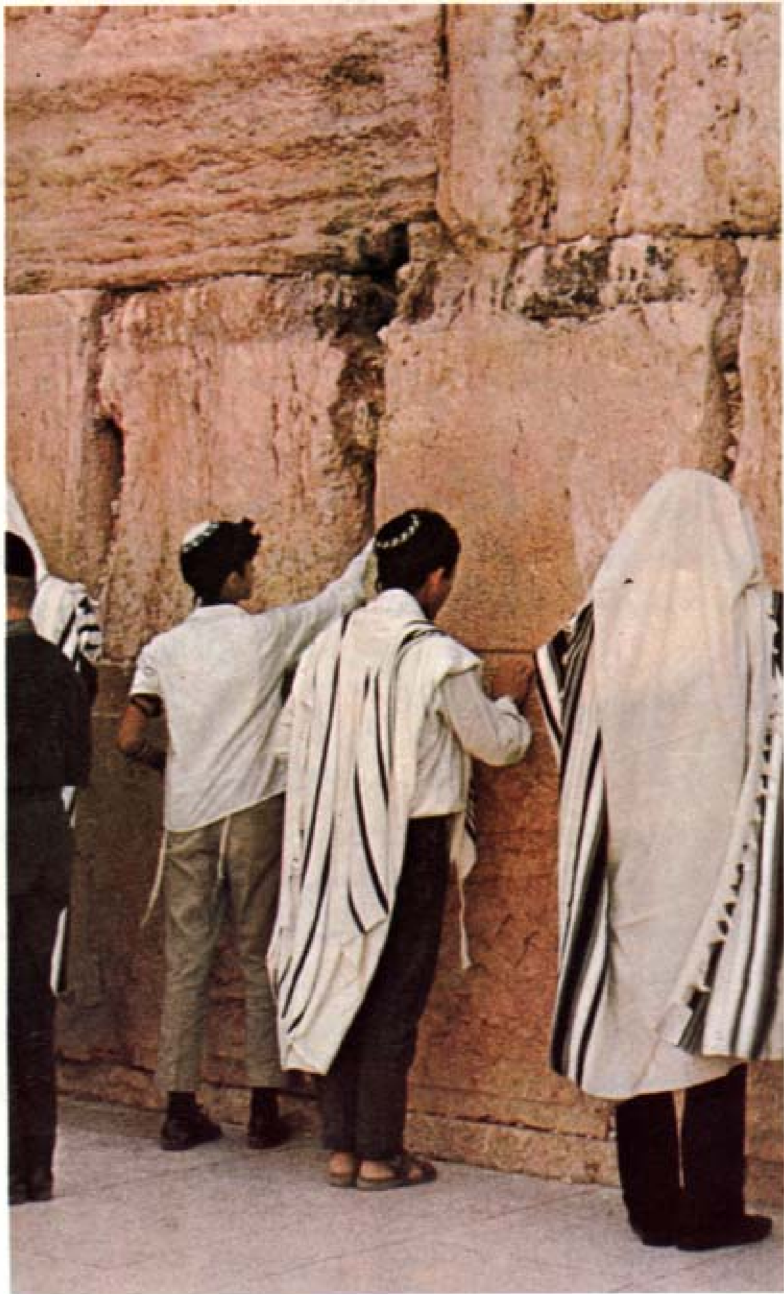
«**ونحن شهودٌ** له بهذه الأمور، **والروح القدس أيضاً**، الذي أعطاه الله للذين يطيعونه.» (أع٥: ٣٢)

كذلك أيضاً، وبصورة واضحة زاهية، فيما يخص متابعة رحلة خدمة المسيح، وَصَف سفر الأعمال كيف اعتنى التلاميذ جداً بالشهادة لها: «فينبغي أن الرجال الذين اجتمعوا معنا كل الزمان الذي فيه دخل إلينا الرب يسوع وخرج، منذ معمودية يوحنا إلى اليوم الذي ارتفع فيه عنا، يصير واحدٌ منهم (بدل يهوذا الإسخريوطي الذي سلَّم المسيح) **شاهداً معنا** بقيامته.» (أع١: ٢١و٢٢)



«أنا هو الكرمة الحقيقية وأنتم الأغصان.» (يو١٥: ٥)

تاج أثري منقوش عليه أغصان متشابكة لكرمة، يظهر فيها عنقود العنب مع الورقة الخضراء بالتبادل.
(من دير أنبا إرميا بسقارة ــ القرن السادس)



حائط المبكى (السور الغربي لأورشليم)

وهو جزء من السور الذي بناه هيرودس حول الهيكل الثاني عام ٢٠ قبل الميلاد. وقد أبقى تيطس على هذا الجزء من السور بحجارته الضخمة لتكون شاهداً للأجيال القادمة على عظمة جنود الرومان الذين استطاعوا هدم الهيكل كله، بل عظمة الذين بنوه وعظمة الساكن فيه.

الأصحاح السادس عشر

حديث الوداع الثالث

الانطلاق والعودة

الآيات الخمس عشرة الأُولى من هذا الأصحاح تُعتبر من جهة المعنى تكملة للحديث السابق (الأصحاح الخامس عشر)، وهي عن المعاناة التي سيواجهها التلاميذ بعد انطلاق المسيح، من اضطهاد مجامع اليهود لهم، ثم من أباطرة روما ومحاكمها، كميراث يسلّمونه للكنيسة من بعدهم، وسيكون هذا الاضطهاد على شكل غيرة دينية كاذبة. وبسبب عنف هذه المواجهة الدموية «يقتلونكم»، فسيكون الروح القدس هو المرشد للحق، والمحامي، والشفيع لهم، أمام محاكم العالم، والمعزّي، الذي سيخبرهم مُقدَّماً بما سيأتي عليهم، ليكونوا على استعداد، كما أنه سيستعلن مجد المسيح في قلوبهم حتى يهوِّن عليهم الألم والعذاب، و يتحول إلى شركة حقيقية في مجد المسيح.

وبعد ذلك وحتى نهاية الأُصحاح، يكشف لهم أخيراً عن انتهاء زمن وجوده أمامهم بالجسد المنظور: «بعد قليل لا تبصرونني»، ولكن يكشف لهم أيضاً عن حتمية عودته سريعاً ليتراءى لهم هم خاصة، دون العالم، حيث يتحدث معهم عن الآب علانية دون أمثال، وهي نفس النصوص التي أوردها ق. يوحنا في إنجيله. ثم يخبرهم بانفتاح طريق الآب لهم، فيسألونه مباشرة باسم المسيح، لأن الآب يحبهم وسيستمع لكل طلباتهم. ثم يلخِّص لهم إرساليته من أولها إلى آخرها في آية واحدة: **«خرجتُ من عند الآب، وقد أتيتُ إلى العالم، وأيضاً أتركُ العالم، وأذهب إلى الآب.»** (يو١٦: ٢٨)

ولكن في نهاية الحديث، يكشف لهم عن سر ضعفهم الشنيع، كيف سيهربون هذه الليلة، و يتفرقون، و يتركونه «ليدوس المعصرة وحده» (راجع إش٦٣: ٣)! ولكن سلام المسيح الذي فيهم سيرتد إليهم سريعاً، و ينتهي حديث الإنجيل كله بهذه الآية: **«ثقوا أنا قد غلبتُ العالم»**.

١:١٦ «قد كلَّمْتُكُم بهذا، لكي لا تَعْثُروا».

«كلَّمْتُكم بهذا»(١):

لقد أجمل المسيح كل ما قاله، ليس فقط عن اضطهاد العالم الذي ينتظرهم بعد انطلاقه، بل وعن كل ما قاله بخصوص اتحادهم به مثل اتحاد الأغصان في الكرمة وثبوتهم في وصاياه ومحبته، وعن قانون المحبة العظمى وهو بذل النفس عن رِضىً على مستوى محبة المسيح لهم التي كلفته الصليب، كذلك عن استعداد الآب لسماع كل طلباتهم، واستجابته لهم من أجل اسم ابنه الذي أحبوه وآمنوا به؛ كل ذلك حتى يبقوا أُمناءَ للرسالة التي وُضِعتْ عليهم تجاه العالم، لتكميل مشيئة الآب وعمل الابن، وذلك بمساعدة الروح القدس، وحتى يتحملوا ثِقَلَ مقاومة العالم.

«لكي لا تَعْثُروا»: σκανδαλισθῆτε

العثرة كانت مُحْدِقة بالتلاميذ، فقد سبق أن سقط بعض منهم وانطرحوا خارجاً: «فعلم يسوع في نفسه أن تلاميذه يتذمرون على هذا (أكل الجسد وشرب الدم)، فقال لهم: أهذا **يعثركم؟** σκανδαλίζει » (يو٦: ٦١). ولقد تعقَّب المسيح «العثرة» في أصولها، وعرَّفها قائلاً: «إن كان أحدٌ يمشي في النهار **لا يعثر**، لأنه ينظر نور هذا العالم، ولكن إنْ كان أحدٌ يمشي في الليل **يعثر، لأن النور ليس فيه**» (يو١١: ٩و١٠). وطبعاً هو سبق وقال: «أنا هو نور العالم، مَنْ يتبعني فلا يمشي في الظلمة» (يو٨: ١٢)، فواضح أن معنى العثرة في هذه الآية هو إلقاء نير المسيح والتنكُّر له. وقد حدث ذلك أثناء حديث المسيح عن الجسد والدم: «من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء، ولم يعودوا يمشون معه» (يو٦: ٦٦)، لأن النور انحجز عنهم، فغَشِيَتْهُم الظلمة.

ق. يوحنا يُبرز سطوع النور باستعلان مجد المسيح والإيمان به: «أكتب إليكم ما هو حقٌ فيه وفيكم، أن الظلمة قد مضت، والنور الحقيقي الآن يضيء» (١يو٢: ٨). ونور ق. يوحنا هو «المسيح».

إن العثرة التي كانت تهدد الرسل ــ (اليهود أصلاً) ــ هي من اليهود إخوتهم في الدم واللحم والميراث والتراث، لأن الغيرة الكاذبة على الدين اليهودي، ومجد شعب إسرائيل في صورته المادية، جعلت مقاومة اليهود للمسيح (النور) فوق ما يتصور العقل من: البغضة، والعنف، والتنكيل:

(١) راجع شرح الآية ١١:١٥.

«لأني أشهد لهم أن لهم غيرةً لله، ولكن ليس حسب المعرفة» (رو١٠: ٢). لهذا السبب قدَّم المسيح لتلاميذه كل وصاياه وتشجيعاته السابقة، ليكونوا مُسْبَقاً على علم بما سيحدث، مع وعده بمؤازرتهم بالروح القدس، ليصمدوا أمام قوة السلطان الرسمي للمحاكم اليهودية ومحاكم روما بعدها. صحيح أن شهادتهم للمسيح وللاسم (اسم ابن الله) في العالم ستُواجَهُ بمقاومة واضطهادٍ ومرارة؛ ولكن يوجد ما هو أشدُّ مرارة وخسارة، بل وكارثة، تنتظر المرتدّين الذين يغلبهم العالم لنفسه. لذلك فإن أعظم سند قدمه لهم المسيح في حديثه كان في آخر آية: «ثقوا، أنا قد غلبتُ العالم». ولِمَنْ غَلَبَ المسيح العالم، إلاَّ للذين آمنوا وتبعوه ليرثوا الأمجاد العليا. و يرد ق. يوحنا على غلبة المسيح للعالم بقوله: «وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم، إيماننا» (١يو٥: ٤). إن جَوْرَ العالم وظُلْمه ودينونته لهم، لا يمكن أن تعادل خسارة المجد الذي ينتظرهم أو شناعة الدينونة التي ستواجههم: «من ينكرني قدام الناس، أنكره أنا أيضاً قدام أبي الذي في السموات.» (مت١٠: ٣٣)

٢:١٦ «سيُخرِجونَكم من المجامِع، بل تأتي ساعةٌ فيها يَظُنُّ كلُّ من يَقتُلُكم، أنه يقدِّم خِدْمَةً لله».

«سيُخرِجونكم من المجامع»:

هذه كانت خطة اليهود التي نفَّذوها في أيام المسيح: «لأن اليهود كانوا قد تعاهدوا، أنه إن اعترف أحد بأنه المسيح، يُخْرَج من المجمع» (يو٩: ٢٢). وكلمة «تعاهدوا» تعني أنهم أخذوا قراراً بإجماع السنهدريم فصار قانوناً رسمياً. كذلك، فإنه بسبب هذا القرار ظل كبار الشخصيات التي آمنت بالمسيح تحتفظ بإيمانها سراً، خوفاً من تطبيق هذا القرار عليهم: «ولكن مع ذلك آمن به كثيرون من الرؤساء أيضاً، غير أنهم لسبب الفريسيين لم يعترفوا به لئلا يصيروا خارج المجمع، لأنهم أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله.» (يو١٢: ٤٢و٤٣)

ولكن بحسب ثُقَاة العلماء من المسيحيين المتضلعين في نظام اليهود التشريعي ومن ربيين، يظهر أن اصطلاح «خارج المجمع» « ἀποσυνάγωγοι » إجراءٌ بُدِيءَ في تنفيذه في أيام المسيح فقط، فكان يُحسب مثل هذا الشخص غير مسموح له بحضور الصلوات أو الاحتفالات الرسمية؛ وهذا الإجراء أقل قليلاً من إجراء الحرمان الكلي من شركة رعوية إسرائيل، أي الانفصال الكلِّي عن شعب الله(٢).

---

[2] Bultmann, *op. cit.*, p. 335 n. 5.

«وخارج المجمع» هو حكم يحرم الشخص أيضاً من حق حماية التصاريح الدينية التي يتمتع بها اليهودي العادي. ويقول العالم بولتمان في نفس الموضع أن هذا الإجراء ظل معمولاً به منذ أيام بولس الرسول حتى الشهيد يوستين أي حتى سنة ١٦٥م.

وكان ردُّ القديس بولس الرسول على إخراجه من المجمع أنه اعتبر أن الكنيسة هي إسرائيل الجديد «الحقيقي»، ووضع قانونه الجديد المضاد: «لأنه في المسيح يسوع ليس الختان ينفع شيئاً، ولا الغرلة، بل الخليقة الجديدة، **فكل الذين يسلكون بحسب هذا القانون عليهم سلام ورحمة وعلى إسرائيل الله.**» (غل٦: ١٥و١٦)

ولما حدث حَرْمٌ كامل للمسيحيين الذين من أصل يهودي، **بدأت الكنيسة تصير هي المقابل للمجمع**، حيث تجرى فيها العبادة بالروح كاملة.

«بل تأتي ساعة، فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله»:
«بل تأتي ساعة»:

تعبير عن تدرج أعمال النقمة والتنكيل بالمسيحيين، من حرمان العبادة في المجامع اليهودية، إلى الحرمان الكامل من الانتساب إلى العبادة اليهودية، ثم تزداد إلى درجة سفك الدماء، على اعتبار أن سفك دماء المسيحي هو خدمة لله، أي بنوع «الذبيحة» التي تُقدَّم للإله المزيَّف، سواء لدى اليهود الذين ضلُّوا تماماً عن معرفة الله الصحيحة: «لم يعرفوا الآب ولا عرفوني» (يو١٦: ٣)، أو عند الوثنيين الذين بلا إله جملة.

«كلٌّ من يقتلكم»:

«كلٌّ» هنا توضح انتشار الروح العدائية إلى ما هو خارج اليهود أيضاً. فاليهود هم الذين بدأوا بهذا السلوك الشيطاني وسلَّموه للوثنيين. وقد وصف المسيح مجمعهم في سفر الرؤيا بأنه صار مجمع الشيطان بالفعل: «وتجديف القائلين إنهم يهود وليسوا يهوداً، بل هم مجمع الشيطان» (رؤ٢: ٩)، «ها أنذا أجعل الذين من مجمع الشيطان من القائلين إنهم يهود وليسوا يهوداً بل يكذبون، ها أنذا أصيِّرهم يأتون ويسجدون أمام رجليك، ويعرفون أني أنا أحببتُك.» (رؤ٣: ٩)

وقد زاد عليه الوثنيون ادعاءات كاذبة، بأن المسيحيين يقترفون جرائم، وهي من صنع خيالهم طبعاً(٣)، وذلك لكي يوقعوهم تحت عقوبات القوانين بدون وجه حق.

[3] Tacitus, *Annals*, XV.44. Suet (Nero) 16, cited by Westcott, *op. cit.*, p. 226.

«يقدِّم خدمة لله»: λατρείαν προσφέρειν τῷ θεῷ

واضح من النص اليوناني أن كلمة «خدمة» هي الخدمة الطقسية العبادية، وكلمة «يقدِّم» هي الكلمة المخصصة لتقديم الذبائح في الطقس اليهودي في عبادة الله. وهذا واضح غاية الوضوح في تقديم المسيح نفسه عندما ذبحوه في عيد فصحهم، باعتباره ثائراً على عبادتهم، كذبيحة استرضاء لإلههم، حتى تنجو الأمة من أيدي الرومان: «إنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب، ولا تهلك الأمة كلها.» (يو١١: ٥٠)

وقد صار بعد ذلك تقليداً عرفياً سارت عليه المجامع في اعتبار أن المسيحيين ثائرون على يهوه، لذلك يحلُّ دمهم استرضاءً لوجه هذا «اليهوه». وهذا ما صنعوه باستفانوس أول شهداء الكنيسة (أع٧: ٥٧و٥٨): «وأخرجوه خارج المدينة ورجموه». وكان شاول الفريسي الضليع في الناموس، شاهداً على صحة قتله حسب الناموس. وكان لا يصعب عليهم أن يقيموا شهوداً كذبة، كالذين أقاموهم ضد المسيح، ليتمموا ذبيحتهم مثل الشهود الذين أقاموهم ضد القديس إستفانوس: «وأقاموا شهوداً كذبة يقولون هذا الرجل لا يفتر عن أن يتكلم كلاماً تجديفاً ضد هذا الموضع المقدس والناموس.» (أع٦: ١٣)

فقتل المسيحيين ــ حسبما سبق وقال المسيح ــ صار عند اليهود المتعصبين الغيورين، عن جهل وجهالة، نوعاً من التقوى ترضي الله! وهذه الحقيقة المخزية مسجلة في كتاب المدراش اليهودي، حيث أخذوا حادثة العهد القديم أيام موسى وما صنعه فينحاس الكاهن (عدد ٢٥: ٦ــ ١٥)، عندما قتل الرجل الإسرائيلي الذي اقتنى زانية من المديانيين علناً، فقتله مع الزانية، فاعتُبر ذلك تكفيراً عن ما صنعه الآخرون: «فكلم الرب موسى قائلاً: فينحاس بن أليعازر بن هرون الكاهن قد ردَّ سخطي عن بني إسرائيل، بكونه غار غيرتي في وسطهم، حتى لم أُفنِ بني إسرائيل بغيرتي» (عدد٢٥: ١٠ــ ١١). ويقول المدراش تعقيباً على هذا: [هل هذا قيل على أساس أنه قدَّم قرباناً؟ لا، ولكن ليعلِّمهم أن كل واحد يسفك دم إنسان شرير فكأنه قدَّم تقدمة (ذبيحة)] ــ المدراش على سفر العدد ٢٥: ١٣[4].

وبولس الرسول يشهد على هذا التعليم وهذا السلوك الجاهل بقوله: «فأنا ارتأيت في نفسي أنه ينبغي أن أصنع أموراً كثيرة مضادة لاسم يسوع الناصري، وفعلت ذلك أيضاً في أورشليم؛ فحبستُ في سجون كثيرين من القديسين، آخذاً السلطان من قِبَلِ رؤساء الكهنة. ولما كانوا يُقتلون ألقيت

[4] Westcott, *op. cit.*, p. 226.

قرعة بذلك. وفي كل المجامع كنت أعاقبهم مراراً كثيرة، وأضطرهم إلى التجديف، وإذ أفْرَط حنقي عليهم، كنت أطردهم إلى المدن التي في الخارج.» (أع٢٦: ٩ــ١١)

وبولس الرسول أيضاً يوضح لنا صلة هذه الجرائم التي كان يرتكبها بالغيرة على الناموس هكذا: «فإنكم سمعتم بسيرتي قبلاً في الديانة اليهودية، أني كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط وأتلفها، وكنت أتقدم في الديانة اليهودية على كثيرين من أترابي في جنسي، إذ كنت أوفَرَ غيرة في تقليدات آبائي.» (غل١: ١٣و١٤)

١٦: ٣ «وسيفعَلُونَ هذا بكم لأنهم لم يعرِفُوا الآبَ ولا عَرَفُونِي».

واضح أن كل خطأ جاهل نصنعه بإرادتنا، يكون نتيجة حتمية لجهلنا بالله: «أنا الذي كنتُ قبلاً مُجدِّفاً ومُضطهِداً **ومفترياً**. ولكنني رُحمتُ، **لأني فعلت بجهل في عدم إيمان.**» (١تي١: ١٣)

وهكذا، إذ سبق الرب فأوضح ذلك لتلاميذه وللمؤمنين إلى منتهى الدهور، جعلهم لا يرتاعون من عنف الاضطهاد، ولا يحنقون على قاتليهم: «يا أبتاه اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» (لو٢٣: ٣٤). في هذه الآية يكشف الرب الأساس الذي يقوم عليه اضطهاد العالم للمسيحيين خاصة، وهو عدم انكشاف حقيقة الآب وحقيقة رسالة الابن التي هي موضوع شهادتهم بالدرجة الأولى، والتي هي نفسها مصدر خلاص وغنى بل وفرح وسلام الإنسان المسيحي. فإن كان قد قيل عن المسيح أنه تعلَّم الطاعة مما تألم به: «مع كونه ابناً، تعلَّم الطاعة مما تألم به، وإذ كُمِّل صار لجميع الذين يطيعونه سبب خلاص أبدي» (عب٥: ٨و٩)؛ فقد صارت اضطهادات العالم بكل صنوفها فرصة للشركة فيما تألم به المسيح على نفس المنوال: «إن كانوا قد اضطهدوني، فسيضطهدونكم.» (يو١٥: ٢٠)

١٦: ٤ «لكنِّي قد كلَّمْتُكم بهذا، حتى إذا جاءَتِ السَّاعَةُ، تذكُرُونَ أني أنا قُلْتُهُ لَكُم. ولم أقُلْ لكم من البِدَايَةِ لأني كُنْتُ مَعَكُم».

«لكن»: ἀλλά

وكأنما يسترجع الرب الحديث من أوله، متأسفاً للغاية أنه ربما يكون قد أحْزَنهم بهذا السبق في الإعلان عما سيعانونه، **ولكن** الضرورة حكمت بذلك، حتى إذا جاءت ساعة الاضطهاد يكونون

على بيِّنة تماماً مما يحدث لهم: **أولاً** أن ذلك هو من أجل اسمه؛ **ثانياً** لأن هؤلاء المضطهدين لا يعرفون الآب ولا الابن، فهم عن جهلٍ يصنعون كل ما يصنعونه بهم. وهكذا إذ يتذكر المؤمنون كلام الرب، يدركون أن ما يحدث لهم وأمامهم هو معروف تماماً ومكشوف أمام الله، وحينئذ يتشجعون أن عين الله عليهم.

والمسيح، إذ يضطر أن يخبرهم بهذا كله الآن، لأنه ماضٍ إلى الآب ولن يروه، وحينما كان معهم لم يكن من المناسب أن يتكلم معهم لأن حديث الساعة هو للساعة، فإنهم لما كانوا في حضنه كان يحفظهم من الذئاب؛ ولكن يتحتم الآن، وبعد أن تعلموا كيف يجاهدون الجهاد الحسن أن يتركهم لخوض المعركة لنوال النصرة: «أمَا كان ينبغي أن المسيح يتألم بهذا ويدخل إلى مجده» (لو٢٤: ٢٦). والمسيح ضامن لهم هذه النصرة الآن، بسبب عطية الروح القدس الذي سيعطيهم القوة والمعرفة والشهادة، والحقَّ كل الحق.

١٦: ٥ «وأما الآنَ فأنا ماضٍ إلى الذي أرسَلَني، ولَيسَ أحدٌ مِنكُم يسألُني أينَ تَمضِي».

هنا محور الحديث كله وسببه، فقد انتهت رسالة المسيح بالنسبة لهم، أما بالنسبة لنفسه، فأمامه الرحلة الخالدة من الصليب إلى السماء من حيث أتى؛ رحلة تبدأ حينما تبلغ الآلام ذروتها، «لأنه لاقَ (يليق) بذاك الذي من أجله الكلُّ، وبه الكلُّ، وهو آتٍ بأبناء كثيرين إلى المجد، أن **يكمِّل** رئيس خلاصهم بالآلام.» (عب٢: ١٠)

ولكن المسيح يعتب على التلاميذ المغمورين والمهمومين في حزنهم، سواء من جهة الفراق الحتمي الذي أدركوا حقيقته أو بسبب ما حدَّثهم عنه المسيح من جهة المصير الذي ينتظرهم في العالم من بغضة وعداوة ومطاردة وقتل! هذا وذاك ابتلع تفكيرهم كلية فلم ينتبهوا أن يسألوا المسيح إلى أين سيمضي: «وليس أحد منكم يسألني أين تمضي»!! التلاميذ في حزنهم لم يدركوا: «أين تمضي»، الذي كان ينبغي أن يكون سؤالهم الملحّ، الأمر الذي يعنيهم بالدرجة الأولى أكثر ألف مرّة من التفكير في مصيرهم بعد ذهاب المسيح. ثم يعود المسيح يعاتبهم:

١٦: ٦ «لكن لأني قُلتُ لكم هذا، قد مَلأَ الحُزنُ قلوبَكم».

على مَ الحزن؟ التلاميذ كانوا يتشبثون بوجود المسيح معهم بالجسد المنظور. كانوا مبهورين بأيام ابن الإنسان على الأرض. كانت فرحة دخوله وخروجه معهم قد جعلت من الأرض ملكوتاً منظوراً

ملموساً ومُعَاشاً. التلاميذ كانوا على حق؛ كيف يُفرِّطون بمصدر فرحتهم العظمى؟ لقد رأوا فيه الحياة الأبدية التي عند الآب وقد أظهرت، لقد عاشوها مضاعفاً، لمسوها، وشاهدوها عن قُرْب: «كلام الحياة الأبدية عندك» (يو٦: ٦٨)، إلى مَنْ نذهب بعد أن تذهب؟

« ليُقبِّلني بقُبْلات فمه لأن حُبَّك أطيب من الخمر،
لرائحة أدهانك الطيبة، اسمُك دهن مُهْراق،
لذلك أحبَّتك العذارى،
اجذبْني وراءك فنجري...،
تحت ظلِّه اشتهيتُ أن أجلس، وثمرته حلوة لحلقي...،
شماله تحت رأسي، ويمينه تعانقني...،
في الليل على فراشي طلبت مَنْ تحبه نفسي، طلبته فما وجدته،
إني أقوم وأطوف في المدينة، في الأسواق، وفي الشوارع،
أطلب مَنْ تحبُّه نفسي، طلبته فما وجدتُه...،
أرأيتم مَنْ تحبه نفسي؟ فما جاوزتُهم إلاَّ قليلاً،
حتى وجدتُ مَنْ تحبُّه نفسي، فأمسكته ولم أرْخِه...،
فتحت لحبيبي، لكن حبيبي تحوَّل وعبَر،
نفسي خرجت عندما أدْبَر،
طلبتُه فما وجدتُه، دعوتُه فما أجابني...،
مُعْلَمٌ بين ربوة، رأسه ذهبٌ إبريز...،
طَلْعَتُه كلبنان، فتًى كالأرز،
حَلْقُه حلاوة، وكله مشتهيات.
هذا حبيبي، وهذا خليلي...،
أنا لحبيبي وحبيبي لي، الراعي بين السوسن...،
أنا لحبيبي وإليَّ اشتياقه...،
اجعلني كخاتم على قلبك، كخاتم على ساعدِك،
لأن المحبة قوية كالموت، الغيرة قاسية كالهاوية،
لهيبُها لهيبُ نارِ لَظَى الرب،
مياهٌ كثيرة لا تستطيع أن تطفىء المحبة، والسيول لا تغمرها،
إن أعطى الإنسان كلَّ ثروة بيته بدل المحبة، تُحتقر احتقاراً» (سفر نشيد الأنشاد).

« قال له سمعان بطرس: **يا سيد إلى أين تذهب** (دومينه كوفادِس؟ Domine quo Vadis?).» (يو١٣ : ٣٦)

« يا سيد لسنا نعلم أين تذهب.» (يو١٤ : ٥)

مع أنهم لو عرفوا حقيقة الآب وحقيقة ذهابه إلى الآب، لكان لهم الفرح عِوَض الحزن. ولكن لأنهم لم يعرفوا بعد ماذا بعد ذهابه، صاروا متشبِّثين بوجوده، وفضلوا عدم ذهابه.

لقد انحصر التلاميذ في مسرَّة العشرة الحلوة التي أسسها المسيح معهم، لأنه كان قد أحبهم جداً: «إذ كان قد أحب خاصته الذين في العالم، أحبهم إلى المنتهى...» (يو١٣ : ١)

ولكن كل مضمون أفراح التلاميذ كان ــ في الحقيقة ــ بسبب استعلاناته الخفية لشخصيته وعلاقته بالآب، فإن كانت هذه قد تسبَّبت في تعلُّقهم به وحبهم له، فذهابه إلى الآب سيحقق لهم هذا الاستعلان نفسه أضعاف أضعاف.

١٦ : ٧ **«لكني أقولُ لكم الحقَّ، إنه خيرٌ لكم أن أنطلقَ؛ لأنه إنْ لم أنطلقْ، لا يأتيكم المعزِّي، ولكن إن ذهبتُ أُرسله إليكم».**

لقد أخفى الحزن حقيقة إرسالية المسيح عن التلاميذ التي لن تأخذ استعلانها النهائي إلاَّ بعد تكميل الآلام والانطلاق إلى الآب. لذلك يتجاوز المسيح حالة حزنهم، ويكشف لهم حقيقة انتهاء رسالته معهم، وضرورة انطلاقه ليأتي الروح القدس ليحلَّ محلَّه، لتكميل استعلان المسيح للتلاميذ والكنيسة، وقيادة التلاميذ لتكميل عمل المسيح على الأرض.

لاحِظ أن قول المسيح: «إنه خيرٌ لكم»، هو تنبيه لذهن التلاميذ أن تكميل مشيئة الآب ينبغي أن يكون محل رضى مشيئة التلاميذ أيضاً، فمسرة الآب يلزم أن توافق مسرَّتنا. فالخير كل الخير هو دائماً في اتِّباع رأي الله.

«أقول لكم الحق»:

الرب هنا لا يقصد التأكيد وحسب، بل وينبه الأذهان، أنه يستعلن حقيقة أساسية ينبغي أن تصير قاعدة للإيمان. فذهاب المسيح إلى الآب عن طريق الصليب هو لحسابنا؛ لذلك فحزن التلاميذ ورغبتهم في عدم انطلاق المسيح، معناه خسارة جسيمة لهم، لأن رسالته معهم بلغت نهايَتَها، وتكميلُها إنما سيكون بالروح القدس.

ومن واقع ما حدث بالفعل، عرفنا أن الروح القدس فوق أنه استعلن لنا حقيقة المسيح، فهو حقَّق وجود المسيح الدائم معنا وإلى منتهى الدهر، وكأن المسيح لم يغادر الأرض: «ها أنا معكم كل الأيام، إلى انقضاء الدهر» (مت٢٨: ٢٠). وهكذا صار انطلاق المسيح سبباً في بقاء حضوره وسط الكنيسة على الدوام بالروح القدس.

بقاء المسيح مع تلاميذه، يحصر عمل المسيح في اتضاعه في الإعداد لصليبه، في استعلان الأمور الآتية فقط دون تحقيقها، كالخلاص والفداء وحب الآب والتبنّي والمجد العتيد. ولكن انطلاق المسيح عَبْر تحقيق الصليب، وهو قمة أعمال طاعته واتضاعه، حيث قاعدة انطلاقه إلى الآب مُحمَّلاً بمصالحة العالم وعلى يديه ذبيحة الخلاص؛ يكون قد حقق بالفعل كل ما كان يخبرهم عنه و يستعلنه لهم.

انطلاق المسيح يحقق دخوله في المجد الذي له، حينئذ لا يعود يخبر تلاميذه بالخبر أو يُسْتعلن لهم بالمعرفة، بل يحقق لهم العطاء نفسه، عطاء الخلاص والفداء والحب الأبوي والتبنّي والمجد، وهذا العطاء يتم لهم بالروح القدس الذي يأخذ ممَّا للمسيح الممجَّد ويخبرهم ويعطيهم. فانطلاق المسيح أنتج عملين: الأول أنه حقَّق للبشرية كل ما سبق واستعلنه بالإنجيل، والثاني إرسال الروح القدس الذي يسلِّمهم غنائم الابن الممجَّد: «وأنا قد أعطيتُهم المجدَ الذي أعطيتني» (يو١٧: ٢٢). و باختصار نقول، إن المسيح حقَّق كل ما قاله، وحقَّق ذاته كابن الله، وحقَّق سلطانه بانطلاقه، أي بقيامته وصعوده إلى الآب: «وتعيَّن ابنَ الله بقوةٍ، من جهة روح القداسة، بالقيامة من الأموات.» (رو١: ٤)

إذن، فحديث الوداع هذا في جملته لم يحمل فقط توعية لتلاميذه أو تعزية نفسانية ترفع عنهم أحزانهم وثقل الخبر عن نفوسهم، ولكن هذا الحديث بالذات، المبنيَّ أصلاً على الكرمة والأغصان، هو لإعلان حقيقة الوضع الكياني الروحي الدائم للمسيح بالنسبة للتلاميذ والتلاميذ بالنسبة للمسيح، وبالتالي تصوير كنيسة المستقبل بالصورة السماوية الواقعية، وخاصة فيما هو للروح القدس، العامل الأساسي الجديد في علاقة المسيح بالتلاميذ والكنيسة.

وإن كان المسيح بانطلاقه وإرساله الروح القدس، قد نقل رؤية التلاميذ له من محدودية الجسد والعواطف كظاهرة تاريخية، إلى دائرة الرؤية الإلهية الكاملة والمطلقة كحقيقة اسكاتولوجية، أي أخروية، يعيشونها بالفعل، فقد أسَّس بهذا منهجاً حيًّا للكنيسة كلها عبر الدهور والأبد. فالمسيح، بالنسبة لنا الآن، هو أوضح وأشمل وأكثر استعلاناً مما كان للتلاميذ بالجسد، وهذا هو قيمة

«الانطلاق» الذي ركّز عليه المسيح، لكي يكون للتلاميذ مصدر الفرح، وليس الحزن.

ولكن يتحتم أن نضيف أن المسيح لم يتغير في نفسه من وجوده كظاهرة تاريخية إلى حقيقة إسكاتولوجية، فالله هو الله على الأرض وفي السماء. ولكن الذي تغيّر وتغيّر جداً، هو رؤية التلاميذ للمسيح التي أثرت على كيانهم ونقلتهم من واقع أرضي إلى واقع سماوي، من حالة السؤال الدائم كيف ولماذا وإلى أين أنت ذاهب، إلى حالة الإجابة عن وعي كامل ومفتوح، إلى بشارة مفرحة، إلى نقل كل خبراتهم الحيَّة إلى الآخرين.

ومنظر التلاميذ الحزانى والمسيح أمامهم، يحكي لهم عن انطلاقه وهو في غاية السرور: «الذي من أجل السرور الموضوع أمامه، احتمل الصليب، مستهيناً بالخزي، فجلس في يمين عرش الله» (عب١٢: ٢). هذا الموقف هو المثيل المُطابق للآب الذي سمح بأن يسحق ابنه بالحزن وهو مسرور، بسبب المجد الذي سيجوزه والصلح الذي سيقيمه! «أما الرب فسُرَّ بأن يسحقه بالحزن، إنْ جعل نفسه ذبيحة إثم، يرى نسلاً تطول أيامه (كنيسة الدهور) ومسرة الرب بيده تنجح» (إش٥٣: ١٠). على هذا الأساس المتين، شبّه المسيح حُزْن التلاميذ بامرأة ماخض قربت على الولادة، فحزنها سيولّد سروراً، لذلك لا يلتفت أحد إليها وهي تصرخ متوجّعة!! فحزنُ التلاميذ كان بسبب تعلقات جسدية وقتية زائلة هي من صنع التاريخ، وسيبتلعها الماضي، أما انطلاق المسيح فهو البقاءُ الأزلي، وهو المستقبل الحي، الذي سيبقى هو كما هو، فرح لا يُنْطَقُ به ومجيد.

والخطر هنا مُحْدق بنا نحن، إذا اشتهينا التعرُّف على المسيح أو حاولنا تحقيق وجوده لنا بالعيان، هو أو عطاياه من مواهب تخدم الوجود الأرضي أو الزمني، فكأنما نجلب على نفوسنا أحزاناً بلا رجاء كأحزان التلاميذ لما واجهوا انفصال الأزليّ عن الوقتي؛ لأن كلّ ما هو زائل، يرافقه الحزنُ والندمُ، حينما يسلبه منا الزمن.

وكما التلاميذ، نحن أيضاً، لا يليق أن نقبض على الأزلي بأيدينا لنُبْقِيَهُ لمُتْعة عيوننا وآذاننا. يتحتم أن نحزن كما حزنوا، حينما نمزّق عن أنفسنا كل ما تعلّقت به أنفسنا من جهة النظر والسمع بل وحتى العواطف الجسدية. نحن الآن نقبض على المسيح بالإيمان، لا باليد ولا بالعيان. تأكيدُ الإيمان لا يوازيه تأكيد على الأرض، إنه النعيم المقيم. بالإيمان نحصل عليه (على المسيح) داخل قلوبنا كحقيقة لا تفارقنا: «ليحلّ المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أف٣: ١٧). بالإيمان نمتلىء بروحه القدوس: «امتلئوا بالروح» (أف٥: ١٨). وإذا حلّ المسيح في القلب وامتلأ بالروح القدس، يتحرر الإنسان من الجسد، من الفكر، من الناس، من الزمن ومن العالم. لا بد

أن نمارس أحزان الترْك والفراق، إن كنا نود أن نذوق الفرح الدائم الذي لا يُنزع منّا. الروح القدس يسَرُّ بأحزاننا الأرضية، بل يشجعنا على اقتحامها، لأنه سيؤسس في موضعها أفراحه الدائمة.

١٦: ٨–١١ **«ومتى جاءَ ذاكَ، يُبكِّتُ العالمَ على خطيَّة، وعلى برٍّ، وعلى دينونة. أما على خطيَّة فلأنهم لا يؤمنُونَ بي، وأما على برٍّ فلأني ذاهِبٌ إلى أبي ولا ترونني أيضاً، وأما على دينونةٍ فلأن رئيسَ هذا العالمِ قد دِينَ».**

«يبكّت»: ἐλέγξει

الترجمة العربية لهذه الكلمة اليونانية لا تفي بالمعنى الذي يقصده الإنجيل. لذلك لَزِمَ شرح المواضع التي جاءت فيها هذه الكلمة في العهد الجديد والقديم لتوضيح المعنى المقصود.

في العهد الجديد: تأتي دائماً مع المفعول به كشخص، وتعني تماماً **التوضيح للشخص** بشأن **خطيئته ودعوته إلى التوبة**. وغالباً ما يكون ذلك سراً وفي الخفاء بين اثنين كما جاءت في (مت١٨: ١٥): «وإن أخطأ إليك أخوك فاذهب **وعاتبه** بينك وبينه وحدَكما، إن سمع منك فقد **ربحت أخاك**»... كذلك جاء ذلك في (أف٥: ١١): «ولا تشتركوا في أعمال الظلمة غير المثمرة بل بالحري **وبخوها**»، طبعاً يقصد توبتهم وليس التشهير بهم، ولكن قد يكون ذلك في **وسط الجماعة** ولكن بفم المدبّر لها، كما جاء في (١تي٥: ٢٠): «الذين يخطئون **وبخهم** أمام الجميع لكي يكون عند الباقين خوف». كذلك كما في (تي١: ٩): «مُلازماً للكلمة الصادقة التي بحسب التعليم، لكي يكون قادراً أن يَعِظَ بالتعليم الصحيح، **ويوبِّخَ** المناقضين»، هذا في أمر تعيين الأسقف. ومن الأمور الهامة أن يأتي هذا المعنى كعمل للرب الممجَّد بالنسبة لأعضاء جسده على الأرض: «إني كلُّ مَنْ أحبه، أوبخه وأؤدبه، فكن غيوراً **وتُبْ**.» (رؤ٣: ١٩)

ويأتي هذا الفعل ἐλέγχω بمعنى المستذنِب بالنسبة للمسيح كديَّان حينما يأتي في مجده: «ليصنع دينونة على الجميع **ويعاقب** جميع فُجّارِهم على جميع أعمال فجورهم التي فجروا بها، وعلى جميع الكلمات الصعبة التي تكلَّم بها عليه خُطاةٌ فُجّارٌ.» (يهوذا ١٥)

فصحة ترجمة ἐλέγχω هنا ليس «يعاقب» ولكن «يثبت عليه الجريمة» أي «**يَسْتَذْنِبُه** ويقنعه بجريمته أولاً قبل أن يدينه»، (بالإنجليزية convict)، لأن كلمة «يدين» جاءت أولاً واضحة وعامة في أول الآية.

وقد استخدم المسيح نفسه هذه الكلمة بهذا المعنى على نفسه، بمعنى أنه يستحيل على أحد أن

يستذنبه، أي يثبت عليه خطية واحدة: «مَنْ منكم **يبكّتني** على خطية» (يو٨: ٤٦). وهنا كلمة «يبكّتني» لا تفي بالمعنى، لأنها في دائرة الحديث عن المحاكمة، فقد حكم المسيح على اليهود هنا أولاً بأنهم: «أنتم من أب هو إبليس، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا» (يو٨: ٤٤)، ثم بعد ذلك تحدّاهم: «مَنْ منكم **يبكّتني** على خطية». والكلمة بصيغة المبني للمجهول ἐλέγχομαι تأتي بمعنى قبول التوبيخ الشديد إزاء مواجهة الشخص واستذنابه وشدة وقع ذلك عليه: «أما هيرودس رئيس الرُّبْع، فإذ قد **توبخ** منه (من المعمدان) لسبب هيروديا...» (لو٣: ١٩). وأيضاً بصيغة المبني للمجهول ἐλεγχόμενοι: «ولكن إن كنتم تحابون تفعلون خطية، **موبَّخين** من الناس كمتعدِّين.» (يع٢: ٩)

وهكذا نرى أن الفعل ἐλέγξει «يبكّت العالم» لا يعني فقط «يبكّت» أو «**يوبِّخ**»، أو «**يعيِّر**»، أو «**يستذنب**» بمعنى إثبات خطية فقط، ولا حتى يُفيد معنى كشف الخطية وإعلان الخاطىء، ولا فضح الخطية وعرضها، ولكن يفيد توضيح الخطية على أساس إيجابي لغايةٍ هي أن يقف صاحبها موقفاً صحيحاً، أو بمعنى أوضح لينتقل صاحبها من الخطية للتوبة. فهو يهدف مباشرة إلى «**تلمذة تعليمية**» أو «**تعليم تهذيبي وتأديبي**». وهذا المعنى يأتي متكاملاً تقريباً في الآية (٢تي٣: ١٦): «كل الكتاب هو موحى به من الله ونافع **للتعليم**، و"**التوبيخ**"، **للتقويم**، **والتأديب** الذي في البر». وهكذا اضطر بولس الرسول لكي يعطي كلمة «**التوبيخ**» كل مضمونها وضعها بين التعليم والتقويم والتأديب.

فهذه الكلمة خصبة جداً وغنية بالمضمون التعليمي الهادف للتصحيح، وتُعتبر إحدى الكلمات الهامة جداً في العهد القديم التي تبرز حرباً إيجابية على الخطية والتعدِّي والجهالة[5].

وفي هذا المعنى تأتي هذه الكلمة في الآية التي نحن بصددها، لتفيد أن الروح القدس له دور كبير وخطير في العالم قبل أن تأتي الدينونة الأخيرة. و«العالم» هنا المقصود به ليس الأفراد أو الهيئات، ولكن الروح العامة لمضمون كلمة «**العالم**».

وفي سياق هذه الآية، فإن الروح القدس له دور أساسي في إدخال معايير جديدة على معايير العالم القديم، سواء كان عالم اليهود المحدود الضيق، أو عالم اليونان التائه وراء الفكر الفلسفي المتخبِّط في ظلمات الجهالة الوثنية التي بلا حدود.

وأول معيار يُدْخِلُه الروح القدس على العالم، هو المعيار الجديد لمفهوم «**الخطية**».

---

[5] Kittel, *Theol. Dict. of NT*, Vol. II, p. 474f.

«يبكت العالم على خطية»:

وكلمة «الخطية» هنا تأتي بدون تعريف «أل»: περὶ ἁμαρτίας «على خطية»؛ هذا يفيد أن العالم حتى مجيء الروح القدس إليه، لم يكن لديه معيارٌ صحيحٌ عن «الخطية» المعرَّفة بـ«أل» كخطية معلومة يُحاكَمُ عليها و يُحاكَمُ بمقتضاها. ولكن هنا، فإن الروح القدس، كمدَّعٍ عام، يُدْخِلُ لأول مرة في تاريخ العالم المعيار أو الميزان الأساسي للخطية التي سيُحَاكَمُ و يُدَان عليها العالم أمام ديَّان الأرض كلها وهي: «عدم الإيمان بابن الله»، كما جاء من فم الرب الديَّان «... **لأنهم لا يؤمنون بي.**» (يو١٦: ٩)

والروح القدس، إذ يقف تجاه العالم كمدَّعٍ عام لأول مرة في تاريخه الطويل، يفرض القانون الجديد الذي سيُحاكَمُ العالمُ بمقتضاه. إنما يتكل، في نشر بنود هذا القانون، على التلاميذ الذين أرسلهم «يسوع» ــ الرب الإله ــ مزكَّين منه كمعلِّمين، لتلمذة الخليقة كلها، مُؤازَرين بالروح القدس والشهادة، ومدعَّمين بالآية والكلمة!! وقد كان؛ فقد خرج صوتهم إلى كل أقطار الأرض، على حد تعبير النبوَّة (مز١٩: ٤).

فإن كان، في البدء، قد جاء النور إلى العالم «ولم يعرفه العالم» (يو١: ١٠)، فالآن دخل الروح القدس إلى العالم ليجعل من النور مصابيحَ تضيء الملايين من قلوب البشر: «فليضيء نوركم هكذا قدام الناس» (مت٥: ١٦). والروح القدس يُلهب و يُشعل هذا اللهيب الذي لا ينطفىء، حتى يأتي الرب الديَّان: «جئت لأُلقي ناراً **على الأرض** (العالم كله)، فماذا أريد لو اضطرمت.» (لو١٢: ٤٩)

الروح القدس الآن له دور فعال في كل أنحاء العالم بالنسبة لخطية واحدة، وهي التي تتفرع منها كل الخطايا، وبمحاصرتها وكشفها تنحصر كل خطية العالم وهي: «عدم الإيمان بابن الله».

«يبكِّت العالم على برٍّ»:

لا يمكن أن يكون عدلاً ولا حقاً، أن يدخل في الميزان القضائي للعالم المعيار الذي تُقَاس به خطايا وانحرافات العالم التي على أساسها ستتم المحاكمة والدينونة، دون أن يوازنها أسباب البراءة التي سيُثَابُ عليها و يتبرأ.

والآن، وقد ثبت ثبوتاً قاطعاً بواسطة الإنجيل عدم نفع برّ الناموس وقصوره الفاضح عن أن يُبْرِىءَ إنساناً في ساحة قضاء الله، بل على النقيض رأينا إنساناً فريسيًّا متضلِّعاً في الناموس، مهذباً

ومتدرباً بالفكر والضمير على ما هو البر بالناموس، غيوراً فيما هو لله بالنسبة لقضاء بر الناموس، وهو شاول، وجدناه يحكم بقتل إنسان بريء ويشهد عليه وهو مرتاح الضمير، وهو إستفانوس الذي يظهر بعد ذلك أنه شهيد المسيح، أي شهيد البرّ الأبدي! وبذلك يكون الناموس قد حكم على نفسه بعدم نفعه، وبطلانه لتبرئة الإنسان.

أما العالم الوثني فلم يكن له برٌّ، ولم يعرفه، لأن عبادة الأوثان كانت تمجّد بالزنا والفجور.

لأجل هذا دخل الروح القدس إلى العالم ليستذنب العالم على برّه الكاذب، أو على عدم وجود «بر» له على وجه الإطلاق، ثم وليقوده إلى «البرّ» الحقيقي الذي أسسه المسيح بموته دافعاً ثمن خطايا العالم كله بسَفْكِ دمه، الذي بروحه الأزلي برّأ كل خطاة الأرض، وهيّأهم للوقوف أمام محكمة الدينونة الأخيرة بلا لوم.

ولكي يظهر «برُّ ابن الله» وتظهر قوته الأزلية على تبرئة كلِّ مَنْ آمن به أمام الله الآب، وذلك لما قام من الأموات وصعد أمام أعين تلاميذه كشهود، ذاهباً إلى الآب ليبقى إلى الأبد شفيعاً في المذنبين مبرئاً كل من آمن بدمه؛ وضع المسيح قانون عمل الروح في العالم على هذا الأساس: أنه «يبكّت على برٍّ»، «**لأني ذاهب إلى الآب**»، «وبالإجماع عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد، تبرَّر في الروح، تراءى لملائكة، كُرِزَ به بين الأمم، أُومِنَ به في العالم، رُفِعَ في المجد.» (١تي٣: ١٦)

وارتفاع المسيح في المجد وعدم رؤيته بعد، هو بحد ذاته برهان غلبته على العالم، كما هو برهان على أنَّ ليس لرئيس العالم أيُّ مأخذ على المسيح، وهذا دلالة على برّه الكامل والكلّي.

أما أساس البر الذي بالمسيح فهو ليس بالعيان: «ولا ترونني أيضاً»، بل بالإيمان وحده «إيمان ابن الله»، الإيمان الذي له القوة والفاعلية، بما هو في غير مقدور العيان بالمرّة. فقوة عمل الإيمان تنقل الجبال. لذلك، فالبر الذي بإيمان ابن الله هو قوة العالم الجديد التي تفوق كل قوة عرفها العالم حتى الآن أو سيعرفها، والذي يوم أن تستعلن للعالم حقيقة الإيمان ببرّ ابن الله، فسوف يدخل (العالم) في أمجد أحقابه التاريخية، أو بالحري سوف يرتفع فوق التاريخ.

«ويبكّت العالم على دينونة، لأن رئيس هذا العالم قد دِينَ»:

إن أعظم محكمتين في العالم عرّاهما المسيح وفضحهما أمام التاريخ هما:

محكمة اليهود: المنعقدة على لواء السنهدريم، برئاسة أعظم حكماء اليهود ودارسي قانون التوراة وحرفية قضاء الناموس،

ومحكمة روما: ومن ذا الذي لا يعرف القانون الروماني الذي أخذت به كل دساتير العالم، وصار النواة الأولى لكل تشريع معروف لدى العالم كله. فالقانون الفرنسي وليدهُ، والقانون الإنجليزي ابنه الأصغر.

لقد انضم صوت قضاة محكمة السنهدريم إلى صوت قضاة محكمة الرومان، وأدانوا ابن الله أنه خاطىء، ومذنب، ومجدِّف، ومضلِّل، وحكموا عليه بإجماع الرأي أنه مستوجب الموت صلباً.

ولكن قام المسيح من الموت **ناقضاً حكم الموت،** كاشفاً بطلان أحكام اليهود، موضحاً خروجها عن الحق وموجباً إيقافها إلى الأبد. كما كشف بطلان أحكام الرومان وخروجها عن الحق، ونحَّاها من أن تصلح للحكم على مصير العالم وضمائر الناس.

وهكذا دخل الروح القدس إلى العالم، ليستذنب العالم أولاً على ما فعل، وعلى دينونته الكاذبة القائمة بتحريض من رئيس عالم الكذب والضلال، الذي أدانه المسيح بالصليب وعلى الصليب، إذ فضح كذبه وأنه قتَّالٌ للناس منذ البدء؛ إذ ضبطه متلبساً بالحكم بالقتل على إنسان أنه خاطىء ومُذنب بحسب أحكامه الكاذبة والمزوَّرة، وهو في حقيقته ابن الله الذي بلا خطية ولا لوم، والذي لم يوجد في فمه غش!!

وهكذا رفع الروح القدس يد رئيس هذا العالم عن أن تتدخل بعد اليوم، ولا أن يكون له صوتٌ ما في الدينونة التي سيتولاها ابن الله: «فطُرح التنين العظيم، الحيَّة القديمة، المدعوُّ إبليس والشيطان الذي **يضل العالم كله،** طُرح إلى الأرض، وطُرحت معه ملائكته. وسمعت صوتاً عظيماً قائلاً في السماء: الآن صار خلاص إلهنا وقدرته ومُلْكهُ وسلطان مسيحه، لأنه **قد طُرِحَ المُشتكي على إخوتنا، الذي كان يشتكي عليهم أمام إلهنا نهاراً وليلاً،** وهم غلبوه بدم الخروف وبكلمة شهادتهم ولم يحبوا حياتهم حتى الموت.» (رؤ١٢: ٩ـــ١١)

لقد غلب المسيح العالم: «ثقوا أنا قد غلبتُ العالم»، وصار هو ديَّان الأحياء والأموات.

الوعد باستئناف الكلام فيما بعد

آيتـان هـامتان جداً جاءتا في عروض بقية هذا الأصحاح، تفيد وعد المسيح باستئناف الحديث فيما بعد ــ أي بعد تكميل مشيئة الآب.

الآية الأولى: **«إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن.»** (آية ١٢)

الآية الثانية: **«قد كلَّمتُكم بهذا بأمثال، ولكن تأتي ساعة حين لا أُكلِّمكم أيضاً بأمثال، بل أُخبركم عن الآب علانية.»** (آية ٢٥)

من هاتين الآيتين نفهم أن المسيح استأنف حديثه هذا الذي لا يستطيعون الآن أن يحتملوه، وهو طبعاً الخاص بموته ومعناه، والذي تلقاه بولس الرسول بدقة وعمق فائقين، بإعلان خاص به. والحديث الآخر عن الآب، وهو العلاقة بين الآب والابن، والتي تلقاها ق. يوحنا وسجلها لنا في إنجيله بصورة فريدة.

١٦ : ١٢ **«إن لي أُموراً كثيرةً أيضاً لأقُول لكم، ولكن لا تستطيعونَ أن تحتَمِلوا الآنَ».**

لقد سبق المسيح وأعلن لتلاميذه أنه قد عرّفهم **بكل ما عند الآب**: «لكني قد سمَّيتُكم أحباءَ، لأني أعلمتُكم **بكل ما سمعته من أبي**» (يو١٥: ١٥)، موضحاً بذلك اكتمال تعاليمه الخاصة باستعلان مشيئة الآب من جهة الإيمان بالآب والابن، والميلاد الجديد للإنسان، والصلاة بالروح والحق، والدينونة التي أُعطيت له، وأنه بالإيمان بالآب والابن يُعطى الانعتاق من الدينونة والانتقال من الموت إلى الحياة؛

وأن مجرد سماع صوت الابن كفيل للمريض أن يُشفَى، والخاطىء ليتجدد، والميت ليقوم؛ وأنه بصفته الابن الكائن في حضن الآب، فهو الوحيد الذي يخبر بكل ما عند الآب ويعمل كل أعمال الآب ويُحْيي مَنْ يشاء، وأنه هو الذي كتب عنه موسى، فهو رجاء ونهاية الناموس؛

وأنه بكلمةٍ يُشبع الألوف من خبز الأرض ومن خبز السماء الذي هو جسده، الذي يعطيه للعالم، باذلاً إياه لخلاص كلِّ من يؤمن به، وأن جسده ودمه هما طعام الحق، ومَنْ يأكلهما يحيا إلى الأبد ويثبت فيه، وأنه هو الماء الحي الذي كلُّ من يؤمن ويشرب من تعاليمه لا يعطش إلى العالم بل ينبع فيه الروح إلى حياة أبدية، وأنه هو نور العالم ونور الحياة للناس، وكلُّ من يتبع

تعاليمه يعيش في نور الله ولا تطغى عليه ظلمة العالم وهمومه، وقد فتح عيني أعمى منذ ولادته ليرى بالفعل نور الحياة والعالم؛

وأن الإيمان بابن الله يعتق الإنسان من عبودية الخطية و به ينال حرية أولاد الله، فلا يعود تحت سلطان الخطية القاتل؛ وأن التبنّي لله بالمسيح هو فوق التبني لإبراهيم، لأن المسيح كائنٌ قبل إبراهيم، وأن إبراهيم نفسه كان يشتهي أن يراه؛

وأنه هو الراعي الصالح، و يعرف أولاده، وأولاده يعرفونه، وأنه سيضع حياته من أجلهم ليرفع عنهم تهديد الشيطان، وأن الشيطان لن يستطيع أن يخطف منه ابناً له؛

وأنه هو القيامة والحياة، وقد أقام لعازر من الموت، ليؤمنوا أنه هو الذي يقيم الموتى ويحييهم.

وعلى العشاء الأخير كشف لهم سِرَّ موته القادم، الذي به سينال المؤمنون غلبة الموت في سر جسده وسر دمه، وسيقبلون سر القيامة لتسكن فيهم.

ولكن كل ذلك والتلاميذ لا يفهمون ما يقول، ولكنهم قَبِلوا الكلام وحفظوه، لأن تفسيره قبل حدوثه صعبٌ عليهم لا يحتملونه وعسير عليهم غاية العسر، الأمر الذي نفهمه نحن الآن، و بعد أن تم، يكون بمنتهى اليُسْر.

لذلك ختم على أحاديث تعاليمه، التي هي كلها بشارة الإنجيل؛ وأبقى منها أسرار موته وقوته، وأسرار قيامته وقوتها، وشركة المؤمنين فيها. وقد خصَّ بولس الرسول بشرحها واستعلان كل أسرارها في رسائله، والتي جاءت تتمة لتعاليم المسيح في الأناجيل وشرحاً لكل أسرارها. «... أنه بإعلان عرَّفني بالسِرِّ، كما سبقتُ فكتبتُ بالإيجاز، الذي بحسبه حينما تقرأونه تقدرون أن تفهموا درايتي بسر المسيح، الذي في أجيالٍ أُخَرَ لم يُعرَّف به بنو البشر كما قد أُعلِنَ الآن لرُسله القديسين وأنبيائه بالروح. ... الذي صرتُ أنا خادماً لهُ، **حسب موهبة نعمة الله المُعطاة لي، حسب فعل قوتِهِ، لي أنا أصغر جميع القديسين أُعطِيَتْ هذه النعمة**، أن أُبشِّر بين الأمم بغنى المسيح الذي لا يُستَقْصى، وأنير الجميع فيما هو شركة السر المكتوم منذ الدهور في الله، **خالق الجميع بيسوع المسيح**، لكي يُعَرَّف الآن عند الرؤساء والسلاطين في السماويات بواسطة الكنيسة.» (أف٣: ٣ـــ١٠)

«وأعرفكم، أيها الإخوة، الإنجيل (البشارة المفرحة) الذي بشَّرتُ به، **أنه ليس بحسب**

إنسان، لأني لم أقبله من عند إنسان ولا عُلِّمتهُ، بل بإعلان يسوع المسيح. ... لكن لما سَرَّ الله الذي أفرزني من بطن أمي، ودعاني بنعمته، **أن يعلن ابنه فيَّ لأُبشِّر به بين الأمم**، للوقت لم أستشِر لحماً ودماً، ولا صعدتُ إلى أورشليم إلى الرسل الذين قبلي بل انطلقتُ ... ثم بعد ثلاث سنين صعدت إلى أورشليم لأتعرف ببطرس، فمكثت عنده خمسة عشر يوماً، ولكنني لم أرَ غيره من الرسل، إلاَّ يعقوب أخا الرب.» (غل ١: ١١ــ١٩)

وكلام بولس الرسول الذي تلقاه بإعلان خاص من الرب يسوع، الذي ظهر له، والذي فسَّر فيه سر الإيمان، وسر الخلاص، وسر الشركة، وسر التبنِّي، وسر الميراث الأبدي للمؤمنين، كل ذلك في موت المسيح وقيامته، ظلَّ أيضاً **كلاماً صعباً**، كما وصفه المسيح تماماً حتى في أيام الرسل أنفسهم. وهذه هي شهادة بطرس الرسول: «كما كتب إليكم أخونا الحبيب بولس أيضاً بحسب الحكمة المعطاة له، كما في الرسائل كلها أيضاً **متكلماً فيها عن هذه الأمور التي فيها أشياء عسرة الفهم**، يحرِّفها غيرُ العلماء وغيرُ الثابتين كباقي الكتب (الأناجيل) أيضاً لهلاك أنفسهم.» (٢بط٣: ١٥و١٦)

ولكن هذه الأسرار كلها تولَّى الروح القدس بواسطة رجال الكنيسة المُلهمين على مر العصور شرحها وتوضيحها، فصارت كلماتها حلوة مضيئة تنير العينين، وتُلهب القلب، وتفتح طريق الخلاص بلا عائق أمام كل من يجلس إليها متتلمذاً ساهراً كل يوم.

ونلاحظ في كلام المسيح في هذه الآية قوله عن صعوبة احتمال ما يريد أن يقوله بأنه «الآن»(٦)، وذلك لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد، وهو العامل الأول في استعلان ما صَعُبَ من الأقوال.

الروح القدس وعمله مع التلاميذ ليعدَّهم للمستقبل: (١٦: ١٣ــ١٥).

لقد أوضح المسيح علاقة الروح القدس بالعالم، كون العالم لا يستطيع أن يراه أو يعرفه، طالما كان العالم في حوزة ضلالة الشيطان (١٤: ١٧). ولكن المسيح حَصَر عمل الروح القدس في العالم في حدود عمل التلاميذ بالشهادة في مواجهة العالم، للتعريف بما هي خطية العالم، وما هو البر المرفوض، وما هي الدينونة الحتمية التي سيقع تحتها والتي لا يزال يجهلها.

(٦) راجع شرح ذلك في المدخل ص٢٥٣ــ٢٥٤.

وهنا يبدأ المسيح ليوضح عمل الروح القدس بالنسبة للتلاميذ لكي يعدّهم للمستقبل.

لقد سبق المسيح في الأصحاح الرابع عشر وحدّد أعمال الروح القدس كالآتي:
+ «معزّياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد» (١٤: ١٦) بمعنى تكميل عزاء المسيح لكنيسته على مدى الدهور.
+ روح الحق الذي يعرفه التلاميذ: «لأنه ماكثٌ معكم، و يكون فيكم» (١٤: ١٧). وهذا حال الكنيسة أيضاً.
+ «يُعلّمكم كل شيء، و يذكّركم بكل ما قلته لكم» (١٤: ٢٦). وهذا أيضاً يستمر مع الكنيسة إلى مدى الدهور.

وفي الأصحاح الخامس عشر، وبالإضافة إلى ما سبق، حدّد أعمالاً أخرى:
+ أن الروح القدس يشهد للمسيح في التلاميذ، والتلاميذ يشهدون بواسطته أيضاً (١٥: ٢٦و٢٧).

ثم في الأصحاح السادس عشر، يضيف المسيح على الأعمال السابقة أعمالاً أخرى:
+ «يرشدكم إلى جميع الحق.» (١٦: ١٣)
+ «يخبركم بأمور آتية» (١٦: ١٣)، مثلما حدث مع ق. يوحنا حينما كان في الروح في جزيرة بَطْمُس وأملاه سفر الرؤيا بأصحاحاته الاثنين والعشرين.
+ «يأخذ مما لي ويخبركم» (١٦: ١٤)، وبذلك «يمجّدني»، «وكل ما للآب هو لي»، بمعنى أن الروح القدس يستعلن للتلاميذ كلَّ ما للآب وما للابن، وهذا ما حدث مع ق. يوحنا في إنجيله.

والواقع أن هذه العطايا المكثّفة، والموعود بها للتلاميذ، حدثت بالفعل، وكان من نتيجتها العملية كتابة الأناجيل الأربعة والرسائل كلها وسفر الرؤيا مع سفر الأعمال، و بشارة المسكونة!!

وهذا الوعد المكثف بالعطايا، أجّل المسيح استعلانه حتى آخر لحظة من خدمته على الأرض. ولكن من مضمون هذه العطايا والمواهب الغنيّة، بدا المستقبل بالنسبة للتلاميذ، والكنيسة من بعدهم، مشرقاً حقاً من جهة الروح والحياة مع الله. وفي أحاديث المسيح عن الفراق، جاء هذا الحديث أقواهم وأكثرهم عزاءً بالنسبة لعزائمهم الخائرة من هول الموقف الغامض المجهول أمامهم.

ثم، أيها القارىء العزيز، أليس هذا الموقف عينه لا زلنا نحن نعانيه من جهة المستقبل

الغامض بالنسبة للكنيسة في العالم؟ فما أشدَّ ما نرى اليوم أمامنا في كل أنحاء العالم، وخاصة في الغرب، والذي بدأ يتغرَّب عن فاديه!! ولكن عزاء الروح القدس، بنوع العزاء الذي تلقَّاه التلاميذ يوم الخمسين، والذي لا يزال حيًّا عاملاً في الكنيسة في قلوب المؤمنين الأمناء، والذي يقوّي و يُثبّت و يُعزّي بالرجاء غير المنظور، يجعلنا نثق ونتيقن من نصرة الكنيسة بفاديها على قُوَى الظلمة التي أحاطت بعقل الإنسان واستعبدته لحساب هذا الدهر.

فقِتامُ الظلمة المحيطة بالعالم المتقدّم في العلم والمعرفة الأرضية، ليس أشدّ من قِتام حُكم أباطرة الرومان وانحلال العالم الوثني في أيام الكنيسة الأُولى والتي بدأت بالاثني عشر!! والروح القدس هو هو، نفس النار التي أُلقيت على الأرض ولن تنحصر.

يكفينا أن نواجه المستقبل، أقوياءَ بالإيمان، مستندين على الروح القدس وليس بسَبْق المعرفة. وكلمات المسيح تضيء لنا العالم مهما تعتَّم في ذاته؛ والروح يفرِّح قلوبنا، مهما تكثَّفت فوقنا أحزانه.

١٦ : ١٣ **«وأما متى جاءَ ذاكَ، روحُ الحقّ، فهو يُرشِدُكُم إلى جميعِ الحقّ، لأنه لا يتكلَّمُ مِنْ نفسِهِ، بل كلُّ ما يَسْمَعُ يتكلَّمُ بِهِ، ويُخبِرُكُم بأمورٍ آتيَةٍ».**

فليلتفت القارىء: فهذه الآية هي «**وَعْدٌ مقدَّس**» يختص بالفرد كما الجماعة، هي حقٌّ من حقوق كلّ مَنْ آمن ووثق وصدَّق كلام الله. لاحظ هذا الإتفاق: «**روح الحق**» يرشدكم إلى «**جميع الحق**»، كما نلاحظ أن الحق هنا مُعرَّف بـ«أل»؛ فهو يتجه مباشرة إلى المسيح!

فروح المسيح يرشدكم إلى كل الحق الذي في المسيح. والمعنى البسيط المباشر والعملي، أن الذي حاز رِفْقَة الروح، فإنه ينال استعلان المسيح في ذاته: «والذي يحبُّني يحبه أبي، وأنا أحبه، وأُظهر له ذاتي» (يو١٤: ٢١). فالحق الذي في المسيح يعني المسيح تماماً كما هو، مُسْتعلَناً بشخصه وحبه وفرحه **وقوة كلامه**. وق. يوحنا يرى أن ما تحقَّقه هنا جزئياً، يكمّله هناك كليًّا: «لأننا سنراه كما هو» (١يو٣: ٢). والقديس بطرس يمتّعنا بفرح المسيح من خلال قوة الإيمان: «الذي، وإن لم تروه تحبونه؛ ذلك، وإن كنتم لا ترونه الآن، لكن تؤمنون به فتبتهجون بفرحٍ لا يُنْطَقُ به، ومجيد.» (١بط١: ٨)

«**والحق**» الذي يقصده المسيح هنا ليس هو الحق العقلي المجرَّد، عند اليونانيين، بل الحقُّ

الفعّال بالروح في القلب والفكر، العامل في النفس لمعرفة المسيح واستعلان كل ما قال وعمل.

كذلك الحق في قول المسيح هنا ليس كالحق في العهد القديم كما جاء في المزامير مراراً وتكراراً، فالحق في العهد القديم هو الناموس والسلوك بحسب أوامر الناموس حرفياً. أما الحق، عند المسيح، فهو معرفة الآب والابن، هو الله ذاته، هو استعلان الابن وإرساليته من عند الآب. فإن كان الحق عند اليونانيين يحرر الفكر من الجهل، والحق عند اليهود يحرر الجنس كشعب غير مُسْتَعْبَدٍ للأمم؛ فالحق عند المسيح يحرر من الخطية والشيطان والعالم.

«يرشدكم إلى جميع الحق»:

لاحظ أن المسيح أكمل استعلان الحق للتلاميذ بكل تعاليمه وأقواله وأمثاله وآياته، والآن نحن بصدد التأمين على تعليم المسيح هذه السنين الطوال. والتأمين هو على عاتق الروح القدس. فهو سيرشدهم إلى جميع الحق الذي قاله المسيح، كلمةً كلمةً، لذلك أكمل المسيح القول كالآتي:

«لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كلُّ ما يسمع يتكلم به»:

أي أن الروح القدس لا يضيف تعاليم جديدة، بل يرشد إلى كل تعاليم المسيح. والمسيح سيتولى الكلام والروح القدس ينقله إلى القلب كما هو. فالابن كما كان يسمع من الآب ويتكلم، كذلك الروح القدس كما يسمع من المسيح ينطق في القلب. فكما أن الابن كان عمله استعلان «الآب» بالكلمة، كذلك الروح القدس سيتولى استعلان المسيح «الابن» في ذات الكلمة! لذلك يقول المسيح بعد ذلك: «كل ما للآب هو لي». والعجيب أن بالروح القدس يصير كلُّ ما للمسيح مستعلناً أيضاً لنا. هنا تمام وكمال استعلان الله!

ولكن من الوجهة العملية الاختبارية، فإن الروح القدس لا ينقل كلام المسيح كما هو بالحرف، بل يكشف النور الذي فيه، ليس من زاوية واحدة بل من ألف زاوية إنْ شئت. فالآية الواحدة يشرحها الروح القدس مرات ومرات، وكل مرة بنور جديد. هذا معنى «"يرشدكم" إلى جميع الحق» بألوانه الزاهية، والتي ينير بها القلب كل مرة جديداً، ولكن الحق لا ينتهي أبداً ولا يُحَدُّ. ولكن حذارِ من مزج التأمل الشخصي بادّعاء أنه استعلان الروح القدس، ولا حتى الإلهام الخاص الذاتي الذي ينبع من مزاج الإنسان وفكره. فإلهام الروح القدس لا يحيد عن حق المسيح، واستعلان الروح القدس يشهد به الحق الذي يختزنه الإنجيل ككلٍّ.

«ويخبركم بأمور آتية»:

«ويخبركم»: ἀναγγελεῖ

هذه الكلمة تستخدم دائماً في معنى البشارة والإعلان والاستعلان أيضاً. لذلك، فالآية هنا محصورة في دائرة البشارة، أي عمل الروح القدس بالبشارة، بالأمور الخاصة بالمسيح، سواء في الأعمال التي ستتم قريباً أي القيامة والصعود، أو التي ستتم في المستقبل البعيد أي المجيء الثاني، والذي تلقى ق. يوحنا رؤيته حينما كان سجيناً في جزيرة بطمس: «فإن شهادة يسوع هي روح النبوّة.» (رؤ١٩: ١٠)

ولكن، ليحذر الإنسان من أن يظن أن للروح القدس عملاً في العهد الجديد مثل الذي كان في القديم، أي التنبُّؤ بمستقبل الخلاص؛ فالخلاص قد أُكمل، ولم يَعُدْ له تكميلٌ على الأرض. لذلك لم يَعُدْ للروح القدس عمل فيما يختص بتمليك أراضٍ أو دفاعٍ في الحروب أو نُصرةٍ على أعداء الجسد، فالإنسان المسيحي أصبحت سيرته في السماويات. مع ملاحظة أن كلام المسيح كله يختص دائماً بمستقبل الإنسان الروحي؛ فكل كلمة تحمل ضوءاً يلقيه الروح القدس في قلب الإنسان ليتعرَّف به على ماذا ينبغي أن يَعْمَلَ في مستقبله. فعلى المستوى العملي للإنسان المسيحي، فإن الروح القدس يُلقِّنه أولاً بأول من خلال كلمة الإنجيل عن كل ما هو قادم بالنسبة له، وما ينبغي أن يفعله في كل ساعة قادمة، فحياتنا بالروح القدس هي ممتدة إلى قُدَّام، وتسبق الزمن: «أنسَى ما هو وراء، وأمْتَدُّ إلى ما هو قُدَّام.» (في٣: ١٣)

ولكن حتى عمل الروح القدس في أن يخبرنا بأمورنا القادمة بالنسبة لما يجب أن نعمله روحياً، سواء أعمال توبة، من صوم وصلاة، أو من أعمال خدمة ومحبة وبذل، فهي في دائرة المسيح والإنجيل، ولا تخرج قط عما هو للمسيح، لأن اختصاص الروح القدس هو أن يأخذ مما للمسيح ويخبرنا؛ ومن ذاته لا يخبر بشيء: «أنه كما سلك ذاك هكذا يسلك هو أيضاً.» (١يو٢: ٦)

١٦: ١٤ **«ذاك يُمجِّدُني، لأنه يأخُذُ مما لي ويُخبِرُكُم».**

المجد هنا هو استعلان حقيقة المسيح الإلهية كابن الله الوحيد، وهذا يدخل في صميم القول: «يرشدكم إلى جميع الحق». وهنا تمجيد الروح القدس لشخص المسيح، لا يُفهم على أنه يزيد على حقيقة المسيح شيئاً، بل إن استعلان حقيقة المسيح تماماً هي التمجيد الكامل له. ويلاحَظ هنا أن عمل الروح القدس في تمجيد الابن هو المقابل والمكمِّل لتمجيد الابن للآب. بهذا نفهم أن الذات

الإلهية آب وابن وروحٌ قدسٌ مجيدة حقاً، فهي تقبل المجد وتعطيه لذاتها. هذا هو الإكتفاء الذاتي لله المذهل للعقل، فالله لا يحتاج إلى تمجيد أحد، لا ملائكة ولا بشر، فهو ممجَّد في ذاته بذاته، وكاملٌ مكمَّلٌ في المجد!

فحينما نقول «المجد لله» أي الذُكصا الكبرى، فنحن ننطق بما هو حاصل، لا نضيف شيئاً على الله بل نُسبِّح بمجده! لذلك فاستعلان الله في قلب الإنسان، هو اشتراك فعلي في تمجيده. واستعلان الروح القدس لله، كآب وابن، لا يكون من محيط إدراكات الإنسان المادية، بل هو ولوج حقيقي إلى دائرة ما فوق الطبيعة، إلى ما لله. فكلمة «يخبركم» ἀναγγελεῖ = «يعلن إعلاناً فائقاً» (declare)، أي يكشف كشفاً إنجيلياً مُفرِحاً. فكل إعلان يعلنه الروح للإنسان، هو دخول حقيقي في حق المسيح، في فكره الإلهي، في حبه «الفائق المعرفة» (أف٣: ١٩)، في علاقته السرية بالآب.

١٦: ١٥ **«كلُّ ما للآبِ هُوَ لي. لهذا قلتُ إنه يأخذُ مِمَّا لي ويُخبِرُكُمْ».**

المسيح ينبه أذهاننا، أن مجده هو مجد الآب، وأن كل ما يخبرنا به الروح القدس عن المسيح فهو عن الآب أيضاً. أي أن الروح القدس يمدُّنا باستمرار بمعرفة الآب والابن، أي الله في خصائص ذاته الجوهرية، لأن استعلان علاقة الآب بالابن هو موضوع خلاصنا؛ فحبُّ الآب للابن، صار من نصيبنا أن نشترك فيه بقدر استعلاننا له. وعلاقة الابن بالآب من جهة طاعة المشيئة حتى الصليب، هي حياتنا التي نستمدها من قوة موته، من قوة دمه.

فطاعتنا للمسيح ووصاياه، وفي قمتها أن نبذل حياتنا من أجل الآخرين، هي مستمدة أصلاً من قوة طاعة المسيح للآب. لذلك، فإن قول الرب إن: «كل ما للآب هو لي»، هو أصل وقوة قوله: «يأخذ مما لي ويخبركم»، فهو بالسماح للروح القدس أن يأخذ كل ما للمسيح ويخبرنا، يعني أن يستعلن لنا كل ما للآب، وهذا في الحقيقة تكميل سرِّي ورائع لقوله لتلاميذه: «لأني أعلمتُكم بكل ما سمعته من أبي» (يو١٥: ١٥). وهذا الاستعلان الإخباري الإنجيلي للمسيح الابن وللآب هو بعينه الذي يُدْخِلُنا في السر الرهيب الأعظم: «أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد» (يو١٧: ٢٣). بمعنى أن الروح القدس سيتولى إدخالنا في سر الآب والابن، بالاستعلان المتواصل. هذا السر عينه هو المدخل الوحيد إلى كمال الوحدة التي نحن مدعوون إليها معاً في الله: «مكمَّلين إلى واحد»، والتي عبَّر عنها بولس الرسول: «إلى أن ننتهي جميعنا إلى وحدانية الإيمان،

ومعرفة ابن الله، إلى إنسان كامل، إلى قياس قامة ملء المسيح.» (أف ٤: ١٣)

نعم، فالسبيل الوحيد للوحدة التي تبتغيها الكنائس، كما قلنا مراراً، هو أن يتحد كلٌّ منها أولاً بالمسيح بالتقوى، بالعبادة بالروح والحق، بالاستعلان، **لاستعلان حق المسيح الذي هو وحده** يوحِّد و يؤلِّف، والوحدة لا تكون ولن تكون إلاَّ في «حقِّ المسيح»، وليس في الكلام عن المسيح.

قد أزفت الساعة، الحزن الحتمي ينشىء الفرح حتماً: (١٦:١٦–٢٤).

للإنسان المسيحي الحقيقي؛ الحزنُ دائماً يتبع الماضي، وهو دائماً جسديٌّ؛ وأما الفرح المتحصِّل بالنصرة فهو مستقبليٌّ دائماً وممتد في المستقبل، وهو دائماً روحي. ولكن أن ينجح الإنسان في حصر الحزن وتجاوزه بالرجاء الكائن في الإيمان، فهو بهذا يدخل في الفرح ويَسْتَبِقُ رؤيته. والإنسان الذي يختبر الحزن ويغلبه ويعيش الفرح حتى في الحزن، يكون قد قهر الزمن والجسد.

والإنسان المسيحي مدعوٌّ أن يختبر الحزن ويعيش الفرح: «وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم، إيمانُنا.» (١يو٥: ٤)

الزمن القليل:

٧: ٣٣ = «أنا معكم **زماناً يسيراً بعد**». *ἔτι μικρὸν χρόνον μεθ' ὑμῶν*
١٢: ٣٥ = «النور معكم **زماناً قليلاً بعد**». *ἔτι μικρὸν χρόνον*
١٣: ٣٣ = «أنا معكم **زماناً قليلاً بعد**». *ἔτι μικρὸν μεθ' ὑμῶν*
١٤: ١٩ = «**بعد قليل** لا يراني العالم أيضاً، أما أنتم فترونني». *ἔτι μικρόν*
١٦: ١٦ = «**بعد قليل** لا تبصرونني». *μικρόν*

١٦:١٦ «بَعْدَ قَلِيلٍ لا تُبْصِرُونَني، ثم بعدَ قليلٍ أيضاً تَرَوْنَني، لأني ذاهِبٌ إلى الآبِ».

لقد ظل الزمن يتضاءل ويتناقص حتى انتهى الزمن:
– «أنا معكم زماناً يسيراً بعد.» (٧: ٣٣)
– «أنا معكم زماناً قليلاً بعد.» (١٣: ٣٣)
– «بعد قليل لا تبصرونني.» (١٦: ١٦)

هذا التدرج البديع في سياق الحديث المنسَّق عن انتهاء الزمن وانسحابه من فترة وجود المسيح

على الأرض ومع تلاميذه، يوضح مدى يقظة المسيح وحساسيته لأمرين:

الأمر الأول: لمحدودية رسالته المحسوبة بالساعة: «**لم تأتِ ساعتي بعد**» (يو٢: ٣)، قالها في أول ظهوره العلني في عرس قانا الجليل؛ و«**قد أتت الساعة**» (يو١٧: ١)، ليلة العشاء الأخير!!

الأمر الثاني: رقة مشاعره من نحو تلاميذه، وتأثره لتأثرهم الشديد من صدمة الفراق!! لقد ظل الزمن يتقلص وينسحب من حول بهجة اللُّقيا والعِشْرة المتواصلة بين التلاميذ والمسيح، حتى انتهى: «بعد قليل لا تبصرونني».

بعد قليل **لا تبصرونني**: οὐ *θεωρεῖτέ* με

بعد قليل **ترونني**: *ὄψεσθέ* με

ق. يوحنا يقدم لنا في هذه الآية، ومن خلال هاتين الكلمتين، منهجاً فكرياً غاية في الأهمية اللاهوتية على الواقع المسيحي الحي. فقد استخدم الكلمة الأولى للرؤية وهي *θεωρεῖτε* لتعبِّر عن رؤية شبه صحيحة، رؤية فكرية لا رؤية حق، رؤية تصوُّر وليس رؤية واقع، مع أنها مستخدمة في رؤية المسيح بالجسد في الجسد المادي!! ثم استخدم الكلمة الثانية للرؤية وهي *ὄψεσθε* لتعبِّر عن رؤية صحيحة، رؤية الحق كما هو، بلا أي خيال فكري، أو أي تصوُّر عقلي بشري!! مع أنها مستخدمة لرؤية المسيح القائم من الموت بالجسد الروحاني الممجَّد!

هذه المحاولة المعكوسة من ق. يوحنا، يحاول بها البرهنة على أن رؤية التلاميذ للمسيح، قبل أن يتمجد، لم تكن رؤية تامة أو صحيحة، من حيث أنهم رأوه كإنسان وكانوا يحاولون بالجهد أن يتصوروه عقلياً بأنه أكثر من إنسان فلم يُفلِحوا كثيراً. من هنا، صمم ق. يوحنا على أن رؤية التلاميذ للمسيح قبل أن يُستعلَن في مجده كانت رؤية ناقصة تعتمد على العقل، لأن المسيح لم يكن مُستَعلَناً استعلاناً كاملاً. أما رؤية التلاميذ للمسيح بعد القيامة، وبعد أن استُعْلِنَ في مجده، فهي هنا الرؤية الصحيحة، رأوه على حقيقته الممجَّدة، رأوه إلهاً: «ربي وإلهي» (توما) (يو٢٠: ٢٨)، رأوه غالباً الموت في ملء ملكوته وحياته الأبدية، رأوه بالعين الروحية المباشرة التي تَستَعْلِن الحق حقاً دون تزييف الفكر.

ومعروف لدى الصوفيين، أو في اللاهوت التصوفي، أن الثاورية θεωρία هي «رؤية العقل»، وهي تختلف من إنسان لإنسان في رؤية الشيء الواحد، لأنها تعتمد على خواصّ كلّ عقل بحد ذاته؛ في الاتساع والتصور والإدراك والفهم. وفي اللاهوت التصوفي، تُعتبر الثاورية قمة

الاستعلان.

ولكن هنا، عند ق. يوحنا، يستصغر هذه الرؤية وهذه الكلمة «التاورية»، ويجعلها قاصرة عن أن ترى الحق، فاستخدم رؤية «العين» الطبيعية كعضو إبصار للأمور الطبيعية، باعتبار أنها ترى الأشياء على حقيقتها، استخدمها ليعبّر عن مقدار الحق الذي رآه التلاميذ بأعينهم الروحية للمسيح المُقَامِ والممجّد، باعتبار أنه هو المسيح الحقيقي، على حقيقته، وليس كما كان، مختفياً في الجسد ومُستتراً به عن الرؤية الصحيحة للإنسان.

وكأنما المسيح يريد أن يقول لتلاميذه: أنتم الآن لا ترونني على حقيقتي بالرؤية الصحيحة، ولكن بعد قليل حينما «أكمّل» استعلاني وأظهر في مجدي، حينئذ ترونني حقاً؛ سواء كان بعد قيامته أو أثناء صعوده أو حتى في استعلان ذاته، كما رآه شاول وهو في طريقه إلى دمشق، وبالأكثر من يوم الخمسين فصاعداً، حيث يتدخل الروح القدس ليعطي صورة للمسيح هي الحق كل الحق!!

وأخيراً، وكما يقول ق. يوحنا، فإنه حينما يُظْهَرُ المسيح ــ ونُظْهَرُ نحن معه في المجد كقول بولس الرسول: «متى أظهر المسيح حياتنا، فحينئذ تُظْهَرون أنتم أيضاً معه في المجد» (كو٣: ٤) ــ «**إذا أُظْهِرَ، نكون مثله، لأننا سنراه كما هو**» (١يو٣: ٢)، وهنا أيضاً، يستخدم ق. يوحنا للتعبير عن رؤية الحق بالحق، كلمة «نراه»: ὀψόμεθα .

١٦: ١٧-١٩ **«فقالَ قَوْمٌ من تلاميذِهِ بعضُهم لبعضٍ ما هو هذا الذي يقولُهُ لنا: بعدَ قليلٍ لا تبصرُونَنِي، ثم بعدَ قليلٍ أيضاً تَرونَني، ولأني ذاهبٌ إلى الآبِ. فقالوا: ما هو هذا القليلُ الذي يقولُ عنه؟ لسنا نعلَمُ بماذا يتكلَّمُ. فعلِمَ يسوعُ أنهم كانوا يريدُونَ أن يسألُوهُ. فقال لهم: أَعَنْ هذا تتساءَلون فيما بينَكم، لأني قلتُ بعد قليلٍ لا تُبصِرُونَني ثم بعدَ قليلٍ أيضاً تَرونَني»؟**

ق. يوحنا يتكلم هنا، ويصوِّر لنا منظر التلاميذ، كشاهد عيان دقيق الملاحظة، يسجل حركات التلاميذ مع تعبيراتهم تسجيلاً غاية في الواقعية، فيوضح حالة الإرتباك التي ألمّت بهم مع عدم الفهم للكلمات؛ وبالأكثر حزنهم العميق الذي أسكَتَ أفواههم. فلم يسألوه عما يجيش في صدورهم وهم ذاهلون، بل اكتفوا بالتعجب وهم يطرحون أسئلتهم بعضهم لبعض. والذي استرعى انتباههم وكرروه مراراً: «ما هذا القليل الذي يقول عنه؟ لسنا نعلم بماذا يتكلم»، لأن المسيح لم

يَقُلْ: «بعد قليل من الزمن»، ولكن اكتفى بقوله: «بعد قليل».
ولكن ارتباكهم وحيرتهم وتساؤلهم لم يَغِبْ عن المسيح، فبادرهم بقوله:

١٦: ٢٠و٢١ **«الحقَّ الحقَّ أقولُ لكم: إنكم ستبكُونَ وتنوحُونَ، والعالمُ يفرحُ. أنتم ستحزنُونَ، ولكن حُزنَكم يتحوّلُ إلى فَرَحٍ. المرأةُ وهي تَلِدُ، تحزنُ، لأن ساعتها قد جاءَت. ولكن متى وَلَدتِ الطِّفلَ، لا تعُودُ تذكرُ الشِّدَّةَ، لسببِ الفرحِ، لأنه قد وُلِدَ إنسانٌ في العالم».**

حينما يقول المسيح: «الحق الحق أقول لكم»، فهو يعطي حقاً جديداً على معلوماتنا، ويستعلن لنا سرًّا يدخل في صميم إيماننا. فالكلام كان موجَّهاً للتلاميذ، ولكنه موجَّه للكنيسة كلها وكل أولاد الله أينما كانوا، فإيمان الإنسان المسيحي يفصله عن شكل هذا العالم ومعاييره الوهمية خاصة ما يُحزن وما يُفرح، **فكل ما يُحزِنُ العالم** هو خسارة في الجسد أو في المادة، الجسد بحياته وصحته وعاطفته وقرابته ونَسَبه له أو للآخرين أيًّا كانوا، آباءَ وأمهاتٍ وزوجاتٍ وأخوةً وأخواتٍ وأولاداً. والمادة هي كل ما يُبَاع ويُشترى ويُقتنى. أما ما يُفرِّحه، فهو الربح في كل ما مضى مما يخص الجسد والجسديات أو المادة والماديات.

ولكن ما يُحزِنُ المسيحي، هو ما يَفْقده بالروح، وما لا يحققه من مشيئة الله ووصاياه؛ وأما ما يُفرِّحه، فهو رِضَى الله، وتكميل مسرَّة مشيئته، وتحصيل هباته التي بلا كَيْلٍ و بلا ندامة.

هذا التباين الجذري بين ما يُحزِن وما يُفْرِح، بين العالم والإنسان المسيحي، جعل المعايير بينهما يتعاكس وَضْعُها تماماً، فما يُحزن هذا يُفرح الآخر، وما يُفرح الأول يُحْزِنُ الثاني.

وعلى هذا القياس المتعاكس، أعطى المسيح مثلاً مادياً، فيه يتضح أن الحزنَ الجسدي يؤول إلى فرحٍ نفساني، حيث يُقيِّم الحزنُ أنه خداع أو نوعٌ من التزييف. فالمرأة تشتهي الطفل، ولكن حينما يحلُّ وقت ولادته، تعاني شدة الآلام في ولادته فيعتريها الحزن، ولكنه حُزنٌ يحمل في طياته الأملَ والرجاءَ والفرحَ، وسريعاً ما يتحول بالفعل إلى فرح؛ هكذا الإنسان المسيحي، فهو يرجف من البذل رجفاناً، يرهب الصوم الشديد إذا حتَّم به الروح، ويجزع من إدارة الخدّ الآخر للمُعتدي اللاطم على الوجه أو على الظهر، و يؤكل قلبه أكلاً حينما تُسْلَبُ أمواله أو يُهان اسمه، أو تُهدَّد كرامتهُ من أجل الاسم الحسن. ولكن حينما ينتهي العالم من فِعْلته الشنعاء التي يفعلها، وهو راضٍ ومسرور ومُتَشَفٍّ، وحينما ينتهي كل شيء وتعود النفس تحسب حساب المكسب والخسارة أو

حساب البيدر كما يقولون، أي الزرع والحصاد، حيث يُزْرَعُ بالدموع ويُحْصَدُ بالابتهاج، حينئذ نتهلل فرحاً، فالمكسب الروحي لا يُقَاسُ عظمةً بتفاهة الخسارة:

+ «ودَعَوْا الرسل، وجلدوهم، وأوصوهم أن لا يتكلموا باسم يسوع، ثم أطلقوهم. وأما هم فذهبوا فرحين من أمام المجمع لأنهم حُسِبُوا مستأهلين أن يُهَانوا من أجل اسمه.» (أع٥: ٤٠و٤١)

+ «لأنكم رثيتم لقيودي أيضاً، وقَبِلْتُم سَلْبَ أموالكم بفرح، عالمين في أنفسكم أن لكم مالاً أفضل في السموات وباقياً، فلا تطرحوا ثقتكم التي لها مجازاة عظيمة.» (عب١٠: ٣٤و٣٥)

والمرأة التي تحزن بإرادتها على رجاء الفرح القادم، هي الكنيسة التي كان يسعى كارزُها حاذياً رجليه بإنجيل البشارة، يجوب مجاهل البلاد والصحاري والقِفَار، محتملاً أقصى ما يكون من التعب والمقاومة والمعاثر التي بلا عدد، في سبيل أن يكتسب ابناً جديداً للمسيح، يَلِدُه في العالم لحساب الله، وبعد أن يضمّه إلى حضن أمّه، ينطلق مُنْشِداً، ناشداً ولداً آخر، غير ذاكرٍ التعب، من أجل الثمر المتكاثر.

كذلك الإنسان المسيحي، حينما يَعْزِم أن يترك كل شيء، ليتبع المخلِّص، حيث تبدو هذه الخطوة كأنها قفزة في الفراغ، وتأخذه الرهبة إلى حين، لأنه يحسُّ، وهو يَعْبُر اختبار الانتقال من حضن العالم إلى حضن المسيح، من الإلتحام بالزمن إلى الإلتحام بالخلود، يحسُّ بالجزع والخسارة والترك كمَنْ يعبر من الموت إلى الحياة أو من رحم العالم المظلم إلى نور الحياة الأبدية، ولكن سرعان ما تستقبله الحقيقة ἡ ἀλήθεια، مجسَّمة في شخص المسيح، ويغشاه النور والسلام والفرح المقيم.

ثلاثة عوامل تقذف الإنسان من رَحِم العالم المظلم إلى نور الحياة مع الله:
العامل الأول: الإيمان الواثق بصدق مواعيد الله وقوته في كلماته.
العامل الثاني: الروح القدس الذي يتبع الإيمان اتِّباعاً.
العامل الثالث: قوة جذب الآب السرية غير الملحوظة.
هذه هي العوامل الثلاثة، وقوة الآب أعظمها.

١٦ : ٢٢ «فأنتُمْ كذلك عندكُم الآنَ حزنٌ. ولكنّي سأرَاكُم أيضاً، فتفرَحُ قلُوبُكم، ولا يَنزعُ أحدٌ فرَحكُم مِنكُم».

الحزن الأكبر قادمٌ على التلاميذ؛ فحزن الفراق غطاه الحزن على منظر المسيح وهم يقيّدون يديه ويقودونه كشاةٍ تُساقُ إلى الذبح، وهو صامت، وكأنه مقهور، ثم منظر المحاكمة من بعيد، وهم يلطمونه على الخدّ، والعسكر يضربونه على الرأس، ثم يمددونه على الصليب ويدقون الحديد في يديه ورجليه، وهو حزين منكّس الرأس يُسْلِمُ الروح! أيُّ حزن مثل حزن كهذا، وأي نحيب نحبت به النسوة وهن يلطمن على خدودهن: «والنساء اللواتي كن يلطمن أيضاً ويَنُحْنَ عليه» (لو٢٣: ٢٧)، على فتى الناصرة الغضّ، وهو منحنٍ واقع تحت ثقل الصليب!! حزن التلاميذ ونحيب النسوة ستظل تردد أصداءه السموات، بانتظار ظهوره، حين ينعكس هذا الحزن وهذا النحيب واللطم على صالبيه ومُسَلّميه: «هوذا يأتي مع السحاب، وستنظره كل عين، والذين طعنوه، وينوح عليه جميع قبائل الأرض، نعم آمين.» (رؤ١: ٧)

وفي الحقيقة، قد سبق الأنبياء ووصفوا هذا الحزن وهذا الفرح، بنفس المثل الذي قاله المسيح عن المرأة عندما تلد، فلم يفت على إشعياء النبي أن يعرّج بالنبوّة على التلاميذ الخائفين بعد موت المسيح، والمتجمعين في العلية، والباب مغلق عليهم من الخوف، وهم مختبئون، ولكن كان كل ذلك إلى لحظة!! «بعد قليل ترونني»:

« زِدْتَ الأمة، يا رب، زِدْتَ الأمة (ببنين جدد) تمجدت (بالقيامة)، وسّعت كل أطراف الأرض (لاستقبال إيمانك)، يارب في الضيق طلبوك، سكبوا مُخافَتَةً (دُعَاءً) عند تأديبك إياهم (ما قبل المسيّا). كما أن الحبلى التي تقارب الولادة تتلوى وتصرخ في مخاضها، هكذا كنا قدامك يا رب، حَبِلْنا تَلَوَّينا ... **تحيا أمواتك، تقومُ الجُثَثُ، استيقظوا ترنموا يا سكان التراب** ... هلم يا شعبي، **ادخل مخادعك، وأغلق أبوابك خلفك، اختبىء نحو لُحَيْظَة** (μικρόν) **حتى يعبر الغضب**، لأنه هوذا الرب يخرج من مكانه ....» (إش٢٦: ١٥ــ ٢١)

ثم يعود إشعياء، يضيف مقياس زمان الحزن القليل بالنسبة لعظم الفرح المستديم، كما يقول بولس الرسول: «فإني أحسِبُ أن آلام الزمان الحاضر لا تُقاس بالمجد العتيد أن يُسْتَعْلَن فينا» (رو٨: ١٨). فحزن التلاميذ لم يَدُمْ أكثر من ثلاثة أيام، بعدها وُلِدَتْ أمّة بكاملها، وأولادها ملأوا كل أقطار الأرض! والعجيب أن يصف إشعياء التلاميذ بأنهم يمثّلون أورشليم القديمة وهي

تَمْخَضُ، والرب نفسه يولِّدها، فينفتح رحم أورشليم المُغْلَق لتَلِدَ وتفرح، أي يفرح التلاميذ و يفرح معهم كلُّ مَنْ أحَبُّوها ـــ أي مَن أحبَّ الآباء ـــ فإنهم جميعاً يصيرون أولادها، أي أولاد الكنيسة، أورشليم الجديدة، أمُّنا الحرّة:

«قبل أن يأخذها الطَّلْقُ، وَلَدَتْ. قبل أن يأتي عليها المَخَاض، وَلَدَت ذكراً. مَنْ سَمِعَ مثل هذا؟ مَنْ رأى مثل هذه؟ هل تَمْخَضُ بلادٌ في يومٍ واحدٍ، أو تُولَدُ أمةٌ دفعة واحدة؟ فقد مَخَضَتْ صهيون، بل وَلَدَت بنيها. هل أنا أُمخِضُ ولا أوَلِّدُ، يقول الرب. أو أنا المولِّد. هل أُغلقُ الرحم، قال إلهك. افرحوا مع أورشليم، وابتهجوا معها يا جميع مُحبِّيها، افرحوا معها فرحاً، يا جميع النائحين عليها. لكي ترضعوا وتشبعوا من ثدي تعزياتها. لكي تعصروا وتتلذذوا من دِرَّةِ (ضِرعِ) مجدها ... فترضعون، وعلى الأيدي تُحْمَلُون، على الركبتين تُدَلَّلونَ، كإنسان تُعزِّيه أمُّه، هكذا أُعزِّيكُمْ أنا، وفي أورشليم تُعَزَّون، **فتَرَوْنَ، وتفرح قلوبكم** ....» (إش٦٦: ٧ـــ١٤)

و يضيف هوشع النبي:

«من يد الهاوية أفديهم، من الموت أخلِّصُهم، أين أوْبَاؤكَ(٧) يا موت؟ أين شوكتك يا هاوية؟ تختفي الندامة عن عينيَّ.» (هو١٣: ١٤)

و يكاد رنين نبوَّة إشعياء يُسمع سمعاً في كلام هذا الفصل من إنجيل ق. يوحنا، بل أحياناً نفس الألفاظ، فكلمة السر التي احتار فيها التلاميذ، يذكرها إشعياء بنفس حروفها: «أدخل مخادعك وأغلق أبوابك خلفك اختبىء **نحو لحيظة** μικρόν» (إش٢٦: ٢٠). وهي نفس الكلمة التي قالها الرب: «بعد قليل μικρόν ترونني»، والتي وقَّعها ق. يوحنا بعد ذلك على ما تم بالفعل: «ولما كانت عشية ذلك اليوم، وهو أول الأسبوع، **وكانت الأبواب مغلقة حيث كان التلاميذ مجتمعين لسبب الخوف من اليهود، جاء يسوع**» (يو٢٠: ١٩). كذلك قول إشعياء: «فتَرَوْنَ وتَفْرَحُ قلوبكم»، جاءت على لسان المسيح: «سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم».

وواضح من روح النبوات في أسفار العهد القديم، فيما يختص بآلام الحَبَلِ وفرحة الولادة، أنها جاءت تعبيراً عن الموت والقيامة. فأقوى تعبير عن الألم الاختياري، هو ألم الولادة، والتعبير عن الفرح الحتمي الذي يعقب الألم هو الولادة. لذلك، لم يكن المثل الذي قدّمه المسيح عن المرأة التي

---

(٧) «أوباؤك» جاءت في السبعينية ἡ δίκη أي حكمك. وفي الترجمة الإنجليزية plagues وتترجم أحياناً: «أين أسبابك يا موت». وقد ترجمها بولس الرسول: «أين شوكتُك يا موت» (١كو١٥: ٥٥)، وهذا أجل حيث الشوكة هي بمثابة عضَّة الحية.

جاء ميعاد ولادتها، إلا تعبيراً عن اقتراب ساعة الموت. وقول المسيح عن «القليل» أو «الزمن القليل» هو تعبير عن قِصَرِ فترة الموت، كذلك عن صغر حجم ألم الموت بالنسبة للقيامة كحياة أبدية وفرح أبدي. والتلاميذ جازوا، بالحقيقة، بالمشاركة مع المسيح هذه المحنة، محنة ألم الموت، مضافاً إليها ألم الفراق، وفزع الخوف من اليهود، ولكنها كانت «إلى قليل»، كما خرجوا من المحنة هذه ــ بعد قليل ــ بخروج المسيح من القبر التي وصفها إشعياء: «لأن هوذا الرب يخرج من مكانه.» (إش٢٦ : ٢١)

ويكاد مَثَلُ المخاض والألم ينطبق على المسيح نفسه، فهو بعبوره آلام الموت ومروره من خلال القبر إلى السماء، وَلَد لنا في العالم إنساناً جديداً.

أما فرح التلاميذ: «سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحدٌ فرحكم منكم»، فهو لسببين، الأول: النصرة الباهرة التي قهر بها المسيح الموت والهاوية، والتي عبَّر عنها هوشع النبي أروع تعبير: «أين أوباؤك يا موت أين شوكتك يا هاوية»؛ والسبب الثاني هو الرب المُقَامُ، فقيامة الرب صارت بالفعل قيامتهم من موتٍ محقق ويأس مقيم، وقام العالم معهم، وقُمْنَا نحن أيضاً وفَرِحنا، حيث فَرَحنا في قلوبنا لا يستطيع العالم ولا الموت أن ينزعه منا. وهكذا تحوَّل العالم أيضاً من فرحه، كغالبٍ، ضد المسيح بحكم الصلب والموت، إلى مغلوب ومقهور بقيامة المسيح: «ثقوا، أنا قد غلبتُ العالم» (يو١٦ : ٣٣). والترجمة الأدقُّ: تشجعوا، أنا قد غلبتُ العالم.

وقول المسيح هنا يأتي في صيغة المتكلم: **«سأراكم»**، وجاءت في مقابل **«بعد قليل لا تبصرونني»**، ثم **«بعد قليل ترونني»**. هنا المسيح يفيض على التلاميذ من مجده الأسْنَى بعد قيامته. فرؤية الله لنا، فيها اعتبار غاية الاعتبار أكثر ألف مرة من أن نسعى نحن لنراه فلا نستطيع، ويكفي التلاميذ مجداً أن المسيح يتطلع عليهم من مجده. فمع رؤية المسيح لهم تنسكب عليهم فَرْحَتُه، مع انسكاب نور عينيه! ولأنه فرح الله فلن يستطيع أحد أن ينزعه منهم: «لأن فرح الرب هو قوَّتكم» (نح٨ : ١٠). وهنا مقارنة مبدعة بين: «الحزن القليل» الذي عَبَرُوه، والفرح المقيم الذي سيبلغونه.

كذلك فَمَثَلُ المخاض والولادة، عند بولس الرسول، استخدمه ليعبِّر عن ميلاد الإنسان الجديد، حيث يظل هو ــ أي بولس الرسول ــ يعاني آلام المخاض كأُمٍّ (كنيسة)، إلى أن يولَدَ الإنسان على صورة المسيح. أي أن المسيح نفسه يتصوَّر في هذا الإنسان الجديد، وكأن الإنسان يُولد جديداً بصورة المسيح عينها: «يا أولادي، الذين أتمخض بكم أيضاً، إلى أن يتصوَّر المسيح فيكم»

(غل٤: ١٩). في هذا المَثَل، نرى بولس وهو يعبّر عن الرسولية ككلٍّ، وعن الكنيسة أيضاً بالدرجة الأُولى، أنه وهو رجل يتمخض كوالدةٍ، ويلد إنساناً جديداً له صورة المسيح. هذا التعبير جيّد بالنسبة للكنيسة، وقد صوّرها سفر الرؤيا بهذه الصورة عينها في الأصحاح الثاني عشر.

١٦: ٢٣ «وفي ذلِكَ اليومِ لا تسألونَني شيئاً. الحقَّ الحقَّ أقولُ لكُم إنَّ كلَّ ما طلَبْتُم من الآبِ باسمي يعطِيكُم».

«في ذلك اليوم»:

يوم ينفتح عهدٌ جديدٌ من العلاقات فوق الطبيعية، حينما يستعلن التلاميذ ملءَ مجد المسيح المُقَام، وقد سبق أن أوضح المسيح ماذا يكون في ذلك اليوم هكذا: «في ذلك اليوم، **تعلمون** أني أنا في أبي، وأنتم فيَّ، وأنا فيكم.» (يو١٤: ٢٠)

هذا اليوم هو اليوم الذي انفتحت فيه أعين التلاميذ على حلول الروح القدس يوم الخمسين، واستمر هذا اليوم إلى هذا اليوم! فعرفوا الحقَّ كلَّ الحق. عرفوا أن المسيح في الآب، ونحن مدعوون بالوعد الإلهي والروح القدس لنكون: «أنتم فيَّ، وأنا فيكم». وحينما تبلغ المعرفة بالروح إلى هذا الملء يمتنع السؤال، حينئذ تبلغ «الطِلْبَة» حد الإجابة الفورية، فملءُ المعرفة يؤهِّل لصحة الطِلْبَة، و يؤكد مِلءَ الفرح.

لقد سأل التلاميذ أسئلة كثيرة، حتى ملَّ المسيح من أسئلتهم، التي تدل على أنهم كانوا دائماً غير فاهمين، أو بالمعنى المسيحي أنهم لم يكونوا على مستوى الحياة الأبدية أو الإنسان الجديد، أو بحسب تعبير بولس الرسول إيجابياً: «وأما نحن، فلنا فكر المسيح» (١ كو٢: ١٦)! فلم يكونوا في ذلك الوقت على مستوى فكر المسيح ورسالته. لذلك يسبق المسيح الآن، ويريح أفكارهم وضمائرهم الحائرة عن ما هو بعد هذا: «القليل الذي يقول عنه»، لأنهم بعد قليل فعلاً سيبلغون حالة الاستعلان الكامل عن المسيح وعن أقواله ورسالته، حتى إنهم في ذلك اليوم لن يحتاجوا قط أن يسألوه شيئاً من هذا، لأنهم سيكونون عارفين بكل شيء؛ كما يذكر بولس الرسول في إحدى رسائله: «أشكر إلهي في كل حين من جهتكم، على نعمة الله المعطاة لكم في يسوع المسيح، أنكم في كل شيء استغنيتم فيه، في كل كلمة وكل علم، كما ثُبِّتَتْ فيكم شهادة المسيح، حتى إنكم لستم ناقصين في موهبة ما.» (١ كو١: ٤ــ٧)

«الحق الحق أقول لكم، إن كلّ ما طلبتم من الآب باسمي، يعطيكم»:

المسيح هنا يحوّل فكر التلاميذ من حالة السؤال ἐρωτήσετε، إلى حالة الطلب αἰτήσετε (٨). ففي الحالة الأولى يأتي السؤال بسبب **عدم الفهم للمعرفة**؛ أما في الحالة الثانية، فهنا الطلب بمعنى أن الإنسان **يطلب شيئاً بالصلاة، ويلتمس أخذه**، وهو يساوي تماماً الانتقال من حالة الجهل والظلمة إلى حالة الدالّة كمن يسعى في النور، حالة الفرح الدائم الذي فيه يكفُّ كل سؤال من فكر الإنسان.

إن السرّ في قول المسيح: «في ذلك اليوم لا تسألونني شيئاً»، يكمن في الآية السابقة: «سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحدٌ فرحكم منكم». هذا ليس تعليماً فكريًّا، بل توقيعاً وتسجيلاً اختبارياً؛ علينا أن نؤمن به ونتذوقه، لأن مَنْ يبلغ حالة الفرح هذه، يبلغ حتماً أو تلقائيًّا، حالة الاكتفاء الكلّي بالله، ينسى كلّ سؤال، ينسى نفسه لأنه يكون مُبتلَعاً في فرح حضور الرب، لأن كلمة «سأراكم» تعني أننا نكون واقعين تحت عينيه في مجال وجوده وعمله. وحالة الفرح التي نبلغها في وقوعنا تحت رؤية المسيح، ليس لها أي سبب. إنها بحد ذاتها اختبار الحياة الأبدية جزئياً. فأن نحيا أمام الله الآب والمسيح، فهذا معناه أن نفرح فرحاً هو فرح الحق ἀλήθεια، فرحاً جوهرياً، لأن طبيعة الحياة مع الله لها فرح الله والمسيح الذي لا يُنْطَقُ به، ولا يُدْرَكُ سببه، لا نستطيع أن نستزيده، ومعه لا نطلب إلاَّ مجدَ الله. هذا الفرح الكلي في طبيعته، طلبه المسيح للتلاميذ في الأصحاح السابع عشر بقوله: «ليكون لهم فرحي كاملاً فيهم.» (يو١٧: ١٣)

وفي المقابل، فإن فرح العالم له أسبابه الكثيرة وشروطه، ولكن لا يمكن أن يفرح أحدٌ بحسب العالم بدون سبب. لا يوجد في العالم فرحٌ حقيقي، لذلك فكلُّ فرح فيه يتناقص من ذاته، ويتلاشى، وقد يترك مكانه عَوَزاً وحزناً.

ولكون فرح المسيح فرحاً حقيقياً ودائماً، فلا يستطيع أحد انتزاعه منا، لأنه ليس من سبب يمكن أن يُبْطِلَه. فرح «ذلك اليوم» هو فرح أبدي: «ومفديُّو الرب يرجعون، و يأتون إلى صهيون بالترنُّم، وعلى رؤوسهم **فرحٌ أبدي، ابتهاج وفرح يدركانهم**. يهرب الحزن والتنهد. أنا أنا هو مُعَزِّيكم.» (إش٥١: ١١و١٢)

«من الآب»:

كانت الأسئلة توجَّه سابقاً للمسيح بسبب غياب الروح القدس، وانعدام الصلة المباشرة مع

---

٨ **Bultmann**, *op. cit.*, p. 583.

الآب؛ أما بعد ذهاب المسيح إلى الآب ــ الأمر الذي كرره المسيح مراراً ليرسخ في ذهن التلاميذ أن هذا «خيرٌ لهم» ــ فإنه بذهاب المسيح إلى الآب حاملاً على يديه دم ذبيحته الكفارية، استعاد المسيح للإنسان صلته الأُولى بالله، كاملةً غير منقوصة. وصار دخولنا إلى الله الآب بلا مانع: «فإذ قد تبرَّرنا بالإيمان، لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح، الذي به أيضاً قد صار لنا الدخول بالإيمان إلى (الآب) هذه النعمة، التي نحن فيها مقيمون، ونفتخر على رجاء مجد الله.» (رو٥: ١و٢)

لذلك، رفع المسيح صلتنا لتكون مع الله الآب مباشرة، إنما باسم يسوع المسيح، الذي به نلنا المصالحة والتبنِّي، ولذلك وجَّه المسيح تلاميذه نحو الآب لتكون طلبتهم إليه، واعداً أن كل ما يطلبونه باسمه يعطيهم. على أن عطية الآب الأُولى والعظمى، هي الروح القدس نفسه (راجع لو١١: ١٣)، الذي بواسطته يعطي الآب عطاياه.

«باسمي»:

اسم المسيح ليس مجرد ذِكْرِ «المسيح» ككلمة نضعها في الصلاة الربانية «بالمسيح يسوع ربنا». هنا اسم «المسيح» يعني وجوده وعمله، سواء في سماع الصلاة لدى الآب أو في الاستجابة لها. أن نطلب من الآب باسم المسيح، يعني أن نطلب في حضرته كخروف مذبوح يتراءى أمام أبيه، ودمُه عليه يَشْتَمّ ويتكلم ويشفع ويطهِّر. والصلاة التي نصلِّيها، يزكيها، لتدخل إلى الله بلا لوم، ويحمِّل الروح القدس الاستجابة لنا مع العطية. لذلك، فهي صلاة تُسمع لدى الآب بالضرورة وتُسْتجابُ، لأن حضرة الابن تقوِّيها وتُلبسها المسرَّة. فليس باستحقاق برِّنا يسمع الآب لصلاتنا، بل باستحقاق دم المسيح وبرِّه، الذي أعاره لنا لنعمل تحت لوائه.

الآن نستطيع أن نفهم أن الله الذي تُسمِّي «إله إبراهيم وإسحق ويعقوب» (خر٣: ١٦)، هذه الصفة التي كانت فخر عبادة إسرائيل؛ قد أخذ صفته الأعلى من نحونا: «**إله ربنا يسوع المسيح أبو المجد**» (أف١: ١٧)، «**مباركٌ الله أبو ربنا يسوع المسيح.**» (أف١: ٣)

لقد انتقلت صلتنا بالله من نسبة إلى الآباء القديسين بني البشر إلى صلتنا بالله في نسبته لابنه الوحيد. الصفة الأُولى كانت بتوسط برِّ الإنسان، أما الصفة الجديدة فهي جوهرية، هي صميم استعلان الله الآب لنا في حقيقته الجوهرية بتجسُّد ابنه وتأنُّسه، وبتوسط برِّه ودم صليبه. في القديم كان شعب إسرائيل قد اعتفي من الاقتراب إلى الله أو سماع صوته، فاستجاب الله للشعب ووعد بأن يقيم لهم النبي الذي يتكلم بصوت الله، ويكون كلام الله في فمه، ويتكلم بكل ما يوصيه الله. وطبعاً ليس موسى، لأن موسى هو الذي نقل هذا الكلام للشعب، بل كان هو المسيح:

«يُقيمُ لك الرب إلهك نبياً من وسطك، من إخوتك، مثلي له تسمعون. حسب كل ما طلبت من الرب إلهك في حوريب يوم الاجتماع قائلاً: لا أعود أسمع صوت الرب إلهي، ولا أرى هذه النار العظيمة أيضاً لئلا أموت. قال لي الرب: قد أحسنوا في ما تكلموا، أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، **وأجعلُ كلامي في فمه، فيكلّمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي، أنا أطالبه.**» (تث١٨: ١٥—١٩)

هذا هو يسوع المسيح كلمة الله وصوته والحامل لاسمه، الذي قدّمنا إلى الله أبيه لنستمع إليه ونطلب منه.

أما طلبة الإيمان التي نتقدم بها إلى الآب، فهي تعمل عملها، وتنجح نجاحاً، حيث قوة الإيمان لا تكون مستمدة من قوتنا ولا متوقفة على طهارة أيدينا وبرّنا، بل تنبع من شدة ثقتنا بصدق مواعيد الله وأمانته، ومن يقيننا، الذي لا يتزعزع، أن كل ما قاله الله قاله ليتمّ وليتحقق لنا وفينا، وأن كلَّ أمرٍ قاله المسيح هو وصية الله، وكل وصية تحمل قوة تنفيذها فيها ولا تحتاج لقوة أخرى لتنفيذها، سوى الإيمان الصادق بها. كلام المسيح كالمسيح، والمسيح قال: «مَنْ يأكلني، فهو يحيا بي» (يو٦: ٥٧)، كذلك كل كلمة قالها المسيح فهي للأخذ والأكل: «وُجِد كلامك فأكلته، فكان كلامك لي للفرح ولبهجة قلبي، لأني دُعِيتُ باسمك، يا رب إله الجنود» (إر١٥: ١٦). وأن نأكل كلام المسيح، يعني أن نحيا به ساعة بساعة، لأنه روح وحياة.

ومرة أخرى نقول، إن ثقتنا بصدق مواعيد الله وأمانته هي من ثقتنا بالله المطلقة. وثقتنا بالله وبمواعيد الله وكلام الله لا تتوقف على برّنا وطهارة قلوبنا، فقلوبُنا لا تخلو من ملامة، ولكن ق. يوحنا يزيد ثقتنا بالله وكلامه ومواعيده مضاعفاً حينما يقول: «لأنه إن لامَتْنا قلوبُنا، فالله أعظم من قلوبنا ويعلم كل شيء. أيها الأحباء إن لم تَلُمْنا قلوبُنا، فلنا ثقة من نحو الله، ومهما سألنا ننال منه» (١يو٣: ٢٠—٢٢)، فثقتنا المطلقة بالله تغطي عجزنا وتزيد: «وهذه هي الثقة التي لنا عنده، أنه إنْ طلبنا شيئاً حسب مشيئته، يسمع لنا» (١يو٥: ١٤). واسم المسيح كفيل أن يغطي كل عيب فينا، فهو ضمين لصدق وَعْدِه: «اسألوا تُعْطَوْا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يُفْتَحُ لكم.» (مت٧: ٧)

١٦: ٢٤ **«إلى الآن لم تطلبُوا شيئاً باسمي. اطلُبوا تأخُذوا، ليكونَ فرحُكم كامِلاً».**

«الآن» لا يزال في «الوقت القليل» μικρόν الذي لم يُشتعلن فيه بعد اسم المسيح

بالكامل، والتلاميذ ليسوا بعدُ على مستوى الطِلْبة، فهم لا يزالون حَيَارَى، وصدمة الفراق أسكتت أفواههم وعقولهم. فالطلبة الروحية، التي هي نفسها الصلاة، لم ينفتح بابها، لا في قلوبهم ولا عند الآب، فالمسيح لم يُكمَّل بعد، ولم يُعرَف أنه المخلِّص والفادي.

أما الأمر الآتي بعد ذلك: «اطلبوا» αἰτεῖτε ، فهو تصريح مُسْبَقٌ ومُطْلَقٌ، يستخدمونه بعد انطلاقه، أي بعد كمال استعلانه، لذلك جاء فعل الأمر في الصيغة الدائمة أو المستمرة، لا كأنه أمر بالصلاة والطلبة لمرة واحدة αἰτήσατε (كما جاءت في مر٦: ٢٢ αἴτησον)، ولكن كتصريح مرور دائم مختوم باسم المسيح، يقدِّمونه للآب، فتدخل به الصلاة والطلبة إلى الآب، حينما وكلَّما طُلِبت. لأنه بموت المسيح على الصليب سيكون قد رُفع الحجاب الفاصل بين الإنسان والله، وافتُتح قُدْسُ الأقداس الأعلى في وجه الإنسان، وذلك بدخول الابن متجسداً حاملاً بجسده ذبيحة نفسه، ليدشِّن بها عهد الصلح والسلام والحب مع الآب السماوي:

+ «وليس بدم تيوس وعجول، **بل بدم نفسه، دخل مرة واحدة إلى الأقداس فوجد فداءً أبدياً.**» (عب٩: ١٢)

+ «فإذ لنا أيها الإخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس (لنتراءى أمام وجه الآب)، بدم يسوع، طريقاً كرَّسه لنا حديثاً، حيًّا بالحجاب أي جسده، وكاهن عظيم على بيت الله؛ **لنتقدمْ بقلب صادق، في يقين الإيمان،** مرشوشة قلوبنا من ضمير شرير، ومغتسلة أجسادنا بماء نقي، **لنتمسك بإقرار الرجاء راسخاً، لأن الذي وَعَدَ هو أمين.**» (عب١٠: ١٩ــ٢٣)

«ليكون فرحكم كاملاً»:

فَرَحُ «الآن» القليل μικρόν هو قليل، لأنه زمني، ويطفئه الحزنُ المفسد، فهو ليس فرحاً؛ أما الفرح الذي سيسكبه المسيح عليهم حينما يشرق بوجهه من السماء ويطَّلع عليهم: «سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم»، فهو فرحه الخاص، مثل سلامه الخاص الذي تركه لهم وديعةً ثمينةً وميراثاً وتراثاً لعهد السلام، من رئيس السلام. هكذا «الفرح» الإلهي الذي يرافق السلام والحب الإلهي، العطايا الجديدة من السماء الجديدة، التي افتتحها المسيح لعبور الإنسان.

يختبر المتصوفون «الفرح» على أنه حالة اختطاف العقل rapture، ليعيشوا فيه لحظات، ثم يرتدون سريعاً للواقع الأليم. لكن ليس هذا فرح المسيح؛ فرح المسيح انفتاح داخلي على «الكلمة» الحيَّة الفعَّالة، لتستقي النفسُ منها الفرحَ كغذاءٍ يُشْبعها ويُرويها، تدخل إليه، كلما دخلت فيها. فرحُ المسيح الذي في وصاياه هو سرداب سرِّي يوصِّل إلى الآب، حينما تمتد فيه الروح من خلال

الوصية تجد نفسها وجهاً لوجه مقابل الحقيقة المهيبة لشخص الآب، فتحسُّه وإن كانت لا تراه: «أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً **واحداً فينا**، ليؤمن العالم أنك أرسلتني» (يو١٧: ٢١). «أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا **مكمَّلين** إلى واحد» (يو١٧: ٢٣). هذا هو «**الفرح الكامل**» الذي وهبه لنا المسيح بأن «نكمِّل» علاقتنا بالآب، أن يصير لنا دخول إلى الآب بإيمان المسيح، أن نتذوق بهجة الحياة الأبدية مُسْبَقاً.

وليلاحظ القارىء المدقق، الفرق بين «يَكْمُل فرحكم» πληρωθῇ كما جاءت في (يو١٥: ١١)، وبين ما جاء هنا بمعنى الفرح الكامل الثابت والدائم «ليكون فرحكم كاملاً» (على الدوام) ᾖ πεπληρωμένη التي جاءت أيضاً في يو١٧: ١٣ حيث جاءت ترجمتها الحرفية بالإنجليزية: having been fulfilled. وقد استخدم ق. يوحنا نفسه هذا الوضع لمعنى الفرح الكامل والثابت في رسالته، كحالة ناتجة حتماً من «**الشركة في الآب والابن**»: «لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا. وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح. ونكتب إليكم هذا **لكي يكون فرحكم كاملاً** ᾖ πεπληρωμένη.» (١يو١: ٣و٤)

المسيح يختتم تعليمه، ويَعِدُ بالإستنارة وبمزيد من الخبر:

- «تأتي ساعة... أخبركم عن الآب علانية».
- «الآب نفسه يحبكم».
- «أنا لست وحدي».
- «في العالم سيكون لكم ضيق، ولكن ثقوا، أنا قد غلبت العالم».

١٦: ٢٥ «قد كلَّمتُكُم بهذا بأمثالٍ. ولكن تأتي ساعةٌ حينَ لا أكلِّمُكم أيضاً بأمثالٍ، بل أخبِرُكم عن الآبِ علانيةً».

الأمثال، والعلانية: ἐν παροιμίαις & παρρησίᾳ

«**الأمثال**» بالعبرية هي الماشال **mashal** وهي قريبة من المسائل الحسابية، لأن الأمثال تحتاج إلى ما تحتاج إليه المسائل الحسابية من فهم واستفسار. والمقابل لها عند الآباء هي الأبوفثجماتا **"apophthegmata"** (٩).

---

9 **Hoskyns**, *op. cit.*, p. 489.

وحينما قال المسيح: «كلَّمتُكم بهذا»، لا يقصد فقط الكلام الوارد في الآيات السابقة، ولا حتى فيما يخص مَثَل الكرمة والمرأة عندما تلد، بل الإنجيل كله. لأن «**كلَّمتُكم بأمثال**» يأتي في مقابلها «**أخبركم علانية**». فهنا المقصود ليس الكلام في حد ذاته، بل مستوى الكلام ومستوى فهمه، الأول كان بدون عطية الروح القدس، فالفهم كان صعباً على مستوى الفكر، والثاني يجيء على مستوى عمل الروح القدس في الاستعلان، حيث يصير الكلام واضحاً على مستوى الوعي الروحي.

وقد ثبت ذلك بالفعل بالنسبة للتلاميذ أمامنا، ففي ١٣ : ٣٦ نسمع القديس بطرس يسأل: «يا سيد إلى أين تذهب؟»، وفي ١٤ : ٥ يسأل القديس توما: «يا سيد لسنا نعلم أين تذهب»، وفي ١٣ : ٢٨: «وأما هذا، فلم يفهم أحد من المتكئين لماذا كلَّمه به»، وفي ٨ : ٢٧: «ولم يفهموا أنه كان يقول لهم عن الآب»، وفي ١٣ : ٧: «لستَ تعلمُ أنت الآن ما أنا أصنع، ولكنك ستفهم فيما بعد»، وفي ٨ : ٢٨: «متى رفعتم ابن الإنسان، فحينئذ تفهمون أني أنا هو».

بل وهذه المواقف التي تدل على عدم الفهم لكلام المسيح كثيرة وواضحة جداً في الأناجيل الأخرى أيضاً (أنظر على سبيل المثال مر٧: ١٨؛ مر٨: ٢١؛ ٩: ٣٢، لو٩: ٤٥؛ ١٨: ٣٤)(١٠). ولكن الكلام في الإنجيل عامة هو صعب بالحقيقة، إذا انبرى له عقل الإنسان ليفهمه، لأن العقل وحده ليس من طبيعة كلمة الله. الكلام نفسه ليس صعباً، ولكنه صعب إذا دخل إليه الإنسان من مستوى دون مستواه. فمستوى «الكلمة» إلهي سماوي أُخروي، ليس من هذا الدهر ولا لهذا الدهر. الإنجيل هو كتاب الحياة الأبدية، هو وثيقة ندخل بها السماء، هو دليل طريقٍ نسترشد به في السير نحو الله، هو حلٌّ للغز الحياة المتناقضة على الأرض في هذا العالم، هو الدواء المخصص للذين عضَّتهم الحية وسَرَى سُمُّها في الجسد؛ فهو ترياق عدم الموت. فأين مستوى العقل البشري من هذه الأمور؟

ولكن التلاميذ حينما قَبِلُوا الروح القدس «في ذلك اليوم» دخلوا في العلانية، انفتح وعيهم الروحي المسيحي بالروح القدس، لأن عمل الروح القدس هو: «يرشدكم إلى جميع الحق». هذا هو الانفتاح على الحياة الأبدية، وبالتالي على كلام المسيح: «يُذكِّركم بكل ما قلته لكم». هذه هي العلانية أن يدركوا في الإنجيل أسرار ملكوت السموات وبالأكثر «سر الآب والابن»، الذي هو قمة الاستعلان. فرسالة المسيح يمكن أن نلخِّصها في كلمة «استعلان الآب» الذي كمل في

(١٠) راجع المدخل ص٣٠٧–٣١٠.

قوله: «الآب نفسه يحبكم».

و«البارّيسيا» أي «العلانية» لا تأتي بكلام جديد ولا تشرح الكلام، فالكلام في الإنجيل باقٍ كما هو بحروفه، ولكن وعي الإنسان هو الذي ينفتح ليقبل كلام المسيح مجدّداً وهو منطوق بالروح، وكأنه مصوَّب لقلبه، وكل كلمة كأنها يد إلهية تكشف الغطاء عن معنى جديدٍ فيها، ومعنى وراء معنى، شيء لا ينتهي والكلمة هي هي.

وقول المسيح: «تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضاً بأمثال، بل أُخبركم عن الآب علانية»، هذه الساعة هي ساعة كل واحد حينما يُخضِعُ قلبه، لا ذهنه، لسلطان الإنجيل، وذلك حينما يلتزم بالكلمة ويجلس ساهراً يفتش بالروح عن نفسه في الإنجيل، ويبحث عن وجوده وكيانه في وصاياه: «طوبى للإنسان الذي يسمع لي ساهراً كل يوم» (أم٨: ٣٤). وقد أدرك ذلك بولس الرسول فكتب مشدّداً: «واظبوا على الصلاة، ساهرين فيها بالشكر» (كو٤: ٢)، وحذّر من أجلها القدوسُ الساهرُ على كلمته، ليجريها، بقوله: «فاذكر كيف أخذت وسمعت، واحفظْ وتُبْ، فإني إنْ لم تسهرْ، أُقدِمُ عليك كلص.» (رؤ٣: ٣)

و يلزم أن نفهم أن العلانية موجودة في كلام المسيح، ولكنها تحتاج إلى الأذن المفتوحة والعين المفتوحة. لقد طلب اليهود أن يكلمهم المسيح علانية و يكفّ عن الألغاز والأُحجيات والأمثال، فكان ردُّه أنه كلّمهم بالعلانية ولكنهم لا يفهمون، لأن ليست لهم آذان ولا قلوب تتقبل العلانية!! «فأحتاط به اليهود وقالوا له: إلى متى تُعلّق أنفسنا؟ إن كنت أنت المسيح فقُلْ لنا جهراً (علانية) παρρησίᾳ . أجابهم يسوع: إني قلتُ لكم (جهراً)، ولستم تؤمنون» (يو١٠: ٢٤و٢٥). الإيمان بصدق المسيح وأمانة مواعيده وكلامه، هو الذي يرفع الحجاب عن كلمات المسيح، فتظهر العلانية و يتجلى الآب!!

هل المسيح لم يكلّم اليهود عن رسالته، وعن سر علاقته بالآب، وعن من أين أتى، وإلى أين يذهب؟ هل لم يصنع أمامهم وفيهم أعمالاً تشهد أنه هو هو يهوه الذي كان يدلّلهم في القديم؟ أيُّ نبي صنع جلة ما صنع المسيح أمامهم وفيهم؟ أيُّ نبي استعلن صلته بالله هكذا: «أنا والآب واحد»؟ ولكن صَدَقَ إشعياء النبي حينما قال عنهم: لهم عيون تبصر ولا يبصرون ولهم آذان تسمع ولا يسمعون، قد غَلُظَ قلبُ هذا الشعب!!!

ولكن أليس هذا الكلام عينه مُصَوَّباً إلينا، ألسنا نقول قولتهم: «نريد العلانية»؟ ونتمنى يا ليت المسيح يعلن نفسه لنا؟ يا ليته يظهر فجأة فنؤمن به؟ أليس هذا هو القلب الغليظ والعين

الكليلة والأذن التي انسدَّت وانصدّت عن أن تسمع الصوت المحيي: «مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو٥: ٢٤). هل سمعنا؟ هل حيينا؟ هل نشعر أنه لا دينونة الآن علينا؟ هل انتقلنا من الموت إلى الحياة؟ وإلاَّ فنحن لم نسمع الصوت بعد!

لقد بلغ التلاميذ حالة الاستعلان هذه، وبلغوها كاملة، فبلغوا قمة المعرفة بالحق وبالله، والأناجيل تشهد بذلك وبالأخص ق. يوحنا الذي كتب إنجيله بعد أكثر من ٦٠ سنة من سماعه هذا الكلام!! لقد كتبه بالاستعلان، والاستعلان يطلُّ على القارىء في كل آية، بل في كل كلمة!! هذا إن كان القارىء على مستوى الاستعلان؛ وإلاَّ فإنجيل يوحنا أكثرهم ألغازاً وأحجيات!!

٢٦:١٦ «في ذلك اليوم تطلبونَ باسمي. ولست أقولُ لكُم إني أنا أسألُ الآبَ من أجلِكُم».

«هذا هو اليوم الذي صنعه الرب نبتهج ونفرح فيه» (مز١١٨: ٢٤)، يوم حلول الروح القدس على الكنيسة الأولى، الذي لم تَغِبْ شمسه ولن تغيبَ إلى الأبد، هذا هو يوم النار الإلهية التي ألقيت على الأرض لتُضرِمَ الحب والمعرفة والنور في قلب الإنسان، يوم يوئيل النبي الذي رأى الروح وهو ينسكب على كل بشر وعلى العبيد والإماء. ومنذ ذلك اليوم بدأ الرسل يطلبون باسم «فتاك يسوع»، فيسمع الآب ويستجيب: «ولما صلوا تزعزع المكان الذي كانوا مجتمعين فيه، وامتلأ الجميع من الروح القدس، وكانوا يتكلمون بكلام الله بمجاهرة (علانية) μετά παρρησίας.» (أع٤: ٣١)

أن يطلب التلاميذ باسم الرب ويستجيب الله، هذا الكلام يأتي مكرراً لما سبق في الآيات ١٦: ٢٣؛ ١٥: ٧و١٦؛ ١٤: ١٣و١٤. ولكن الجديد هنا هو قول المسيح: «ولست أقول لكم إني أسأل الآب من أجلكم، لأن الآب نفسه يحبكم».

لكي لا نبتعد عن المعنى الصحيح لهذه الآية، يلزم أن نضع الشرط الأساسي لسماع واستجابة الطلبة لدى الآب وهو: «باسمي». فنحن نطلب باسم المسيح، وقد قلنا سابقاً: أن نطلب باسم المسيح، فهذا يعني أن نتقدم إلى الآب في وجوده، في حضرته، في دمه، في آلامه. ففي كل كلمة نرفعها للآب، لا ترتخي أعيننا عنه، وهو قائم أمام الآب كخروف مذبوح ودمه عليه!

إذن، المعنى هنا أنه قد تمّت المصالحة، وانفتح الطريق المباشر إلى قلب الله وأذنه، ونحن لا نحتاج بعد أن نصرخ إلى المسيح أن يتكلم عنا كما كان يفعل شعب إسرائيل. لقد زالت الرعبة من قلوبنا من نحو الله كنار آكلة، لقد أكمل المسيح لنا كل صلاحيَّة الدخول إليه والوقوف أمامه بلا لوم، وذلك في دم ذبيحته: «ويصالح الاثنين (يهوداً وأمماً) في جسد واحد مع الله، بالصليب، قاتلاً العداوة به. فجاء وبشَّرَكُم بسلام، أنتم البعيدين والقريبين، **لأن به لنا كلينا قدوماً في روح واحد إلى الآب، فلستم إذاً بعد غرباءَ ونُزُلاً** بل رعيةٌ مع القديسين وأهل بيت الله.» (أف ٢: ١٦—١٩)

كان عمل المسيح الأعظم أن «**يستعلن لنا الآب» في شخصه، ويعرِّفنا بكل ما عنده**: «لأني أعْلَمْتُكم بكل ما سمعته من أبي» (يو١٥: ١٥)، **وهذه المعرفة بالآب صيَّرتْنا أحباءَ**، بعد أن كنا بجهلنا عبيداً: «لا أعود أسمِّيكم عبيداً، لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده، لكني قد سمَّيتُكم أحباءَ لأني أعْلَمْتُكم بكل ما سمعتُه من أبي» (يو١٥: ١٥)، ومعرفة الآب ليست علماً وفهماً، بل رفع حواجز وفوارق.

كانت هناك ضرورة حتمية أن يتوسط المسيح، فيتكلم بلساننا أمام الآب عنا، وذلك عندما كان حجاب الخطية حاجزاً بين قلوبنا وقلب الله. لذلك كان فيلبُّس على حقٍّ، عندما تأوَّه وقال للمسيح: «أرِنَا الآبَ وكفانا» (يو١٤: ٨). لأن الآب كان، بغير المسيح، محجوزاً عنا، وكنا نحن محجوزين عنه، هكذا صرخ إشعياء متوجعاً: «حقاً أنت إلهٌ مُحتجِبٌ يا إلهَ إسرائيلَ المخلِّصَ» (إش٤٥: ١٥)، وداود يستصرخ الله: «لماذا تحجب وجهك وتنسى مذلَّتنا وضيقَتَنا.» (مز٤٤: ٢٤)

ولكن الأمر لم يَعُدْ كذلك، بعد أن ارتفع المسيح بجسده ذاهباً إلى الآب، «بدم نفسه دخل مرَّةً واحدة إلى الأقداس، فوجد فداءً أبدياً» (عب٩: ١٢). لقد رُفِع الحاجز المتوسط، وأعطانا رتبة البنين، وأهَّلَنا للدخول بإيمان عن ثقة.

بهذا المعنى يقول المسيح: «لست أقول لكم إني أنا أسأل الآب من أجلكم، لأن الآب نفسه يحبكم». ليس كأن دور المسيح في التوسط والشفاعة قد انتهى، بل هو هو الذي يقدِّمنا إلى الآب، وكأنه يقول لنا: تكلموا، اطلبوا، لا تخافوا، الآب يسمعُ لكم، الآب يحبُّكم، لأني أكملت كلَّ ما يرضيه.

فإن كان قد أصبح لنا رئيس كهنة يرثي لضعفاتنا (عب٤: ١٥)، فقد أصبح بواسطته الله لنا أباً، يعاملنا كبنينَ وأحباءَ: «انظروا أية محبة أعطانا الآب، حتى نُدْعَى أولاد الله.» (١يو٣: ١)

٢٧:١٦ «لأن الآبَ نفسَهُ يُحِبُّكم، لأنكم قد أحبَبْتُموني، وآمَنْتُم أني مِنْ عندِ الله خَرَجْتُ».

المسيح يوضح هنا أكثر، لماذا أصبح من غير الضروري أن يسأل المسيح الآب من أجلنا، فالسبب هو أننا نحب ابنه، وقد أوضح المسيح هذه المحبة المتبادلة وما تُنْشِئهُ: «**الذي يحبُّني، يحبُّه أبي**، وأنا أحبُّه، وأظهر له ذاتي» (يو١٤: ٢١). فعلاقتنا بالآب توطَّدت بسبب حبِّنا للمسيح ابنه.

يلزمنا أن نفهم أن حبنا للمسيح هو استجابة لمحبته: «لأنه هو أحبنا أولاً» (١يو٤: ١٩)، كذلك محبة الآب، فهي سبَّاقة على محبتنا: «في هذا هي المحبة، ليس أننا نحن أحببنا الله، بل أنه هو أحبنا، وأرسل ابنه كفَّارة لخطايانا» (١يو٤: ١٠). محبة الله، سواء الآب أو الابن، هي أحد أسرار الله التي كانت مَخْفيَّة عن الإنسان بسبب طبيعته التي اشتبكت مع التعدِّي والعداوة، فأصبحت متغرِّبة عن سِرِّ الله. لذلك جاءت مبادرة المحبة من طرف الله، واستجابتنا لها، فأدخلَتْنا في سرِّها العجيب. فلما قَبِلْنَا المسيح، اكتشفنا فيه محبته المجانية والسخية: «أحبني وأسْلَمَ نفسه لأجلي» (غل٢: ٢٠)، فأحببناه كالتزام، لأن موته من أجلنا أسَرَ قلوبنا: «لأن محبة المسيح تحصرنا» (٢كو٥: ١٤). ومن هنا دخلنا في سر محبة الآب، واكتشفنا ما كان مخبأً عنده لنا. لذلك يكرر ق. يوحنا هذا بانفعال: «نحن نحبه، لأنه هو أحبنا أولاً» (١يو٤: ١٩). ولكن يبقى مفتاح سر محبة الآب لنا موجوداً في حُبِّنا للمسيح، الذي كشف لنا سِرَّ محبة الآب، وفتح الطريق أمامنا لنتقبَّلها من يديه: «مباركٌ الله أبو ربنا يسوع المسيح، الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح، **كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم، لنكون قديسين، وبلا لوم قُدَّامه في المحبة.**» (أف١: ٣و٤)

«وآمنتم أني من عند الله خرجتُ»:

هذه الحقيقة اللاهوتية يتوقف عليها خلاص العالم. فرسالة المسيح في العالم هي أن يؤمن العالم أن الله «أرسل ابنه كفَّارة لخطايانا» (١يو٤: ١٠). هذا هو الرجاء الحي الذي عليه ينعقد لواء الكرازة في كل كنائس العالم. لذلك لم يكف المسيح عن التركيز عليها في صلاته الأخيرة

لدى الآب: «كما أرسلتني إلى العالم أرسلتُهم أنا إلى العالم» (يو١٧: ١٨)، «... ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني» (يو١٧: ٢١)، «ليكونوا مُكمَّلين إلى واحد، ليعلم العالم أنك أرسلتني» (يو١٧: ٢٣)، «أما أنا فعرفتُك، وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني.» (يو١٧: ٢٥)

«من عند الله خرجتُ»: παρὰ τοῦ θεοῦ ἐξῆλθον

«من عند» παρά، اصطلاح لاهوتي يعني «من جوار». هنا توكيد ضمني على وجود الابن مع الآب أو في الآب، فالابن ترك موضعه متغرِّباً في جسد إنسان، هذا الاصطلاح كان لا يمكن أن يُقال إذا لم يكن التجسد. فقبول التجسد، جعل الابن يُرى على الأرض وكأنه ترك موضعه، وهو في الحقيقة، ومن الوجهة اللاهوتية الخالصة، لم يترك، فالابن قائمٌ دائمٌ في حضن الآب، ولكنه إذ وُجِدَ في الجسد، ظَهَرَ وكأنه خرج من عند الله، (أو "من عند الآب" على وجه أصح، حسب كثرة من المخطوطات). لذلك يقال أنه، وإن كان على الأرض يُرى، فهو في السماء قائمٌ: «وليس أحدٌ صعد إلى السماء، إلاَّ الذي نزل من السماء، ابن الإنسان الذي هو في السماء.» (يو٣: ١٣)

لذلك، أصبح الخروج من عند الآب، في معناه اللاهوتي، هو هو التجسد، الذي أكمله على أساس العودة إلى الآب محمَّلاً بالبشرية المفديَّة التي حملها عليه!

لذلك، فالإيمان بأن المسيح خرج من عند الله، يعني الإيمان برسالة المسيح للعالم، و يعني الإيمان بالتجسد، الذي هو رجاء كل العالم.

١٦: ٢٨ «خرجتُ من عند الآبِ، وقد أتيتُ إلى العالمِ، وأيضاً أتركُ العالمَ وأذهبُ إلى الآبِ».

قولٌ على قولٍ!! هذا هو كل الإنجيل، مختصر الإيمان والعقيدة، مجمل الإرسالية ــ تاريخ الخلاص: الإرسال، الميلاد، الآلام، الصعود! والرب هنا يتكلم بلغة عقائدية، الرب يؤسس بهذا المنطوق عقيدة الجماعة، تلاميذ وكنيسة. الكنيسة إذن ليست من صنع معلم عظيم أو ائتلاف جماعة مسحورة بعظمة فيلسوفها، بل وليست حركة بشرية من حركات التاريخ الإنساني الطويل، بل عمل من أعمال استعلان الله للإنسان على الأرض. دخلت العالم من فوق، من فوق التاريخ، لم تأخذ وجودها من تطور الفكر البشري، ولا هي درجة من درجات ارتقاء الثقافة أو الفلسفة

الإنسانية؛ بل هي اقتحام فكر الله للزمن الإنساني الخامل المتعطل، ودخول الله المفاجىء والمباغت لطبيعة الإنسان التي فقدت تاريخها الإلهي ونسيت الصورة التي انحدرت منها وانحطت إلى مستوى الحيوانية التي جُعلت في البدء سيدة عليها.

«خرجتُ من عند الآب»: ἐξῆλθον ἐκ

هو تعبير لاهوتي يفيد وحدة الجوهر والذات، ذلك بداعي التجسد. و بدون التجسد، لا خروجَ ولا دخولَ في اللاهوت. فالله غني عن الحركة والزمن، فهو محور كل الوجود، بل هو الوجود الكلي المطلق The whole presence. هذا الوجود الكلي المطلق غير المحدود صار محدوداً في شكل الجسد، وظل غير محدود في الجسد وخارج الجسد. خرج من عند الآب لأنه «رأيناه بعيوننا» (١يو١: ١) بدون الآب، مع أنه، بالحق والجوهر والإيمان، لم يغادر الآب لحظة واحدة ولا طرفة عين. فالآب والابن واحدٌ مطلق، لا ينقسم ولا ينفصل إلى إلَهَيْن. فهما ذات واحدة في شخصين متَّحدين: الآب في الابن والابن في الآب، بل هما الواحد الكامل في أبوّته و بُنُوّته. الابن تجسد، فرئي وحده في الجسد، مع أنه قائم دائم في أبيه.

«أتيتُ إلى العالم»:

«عمانوئيل الله معنا». هذا في لغة اللاهوت إخلاءٌ، وفي لغة الإنسان تنازلٌ وتواضعٌ، تنازلٌ عن هيئة لاهوته المـمجَّدة غير المنظورة، ليأخذ هيئة إنسان ــ عبدٍ ــ في العالم، له منظرُ إنسانٍ متضع، لا يشتهي أن ينظر إليه أحد. وكإنسان، أخذ طبيعة الإنسان لنفسه بكل متعلقاتها وأتعابها وهمومها، ما عدا الخطيئة الدخيلة على طبيعة الإنسان، فلم يأخذ جذراً منها ولا فرعاً؛ وُلد بدونها من عذراء طاهرة و بالروح القدس، وعاش قاهراً كل حركاتها، سيداً على الجسد والعالم: «ثقوا، أنا قد غلبت العالم» (يو١٦: ٣٣). والذي يغلب العالم، فهو حتماً و بالضرورة غالبُ الجسد!

ومجيء المسيح إلى العالم كان هو رسالته، أخذها من الآب لما جاء ميعاد خلاص العالم واكتملت فيه دواعي محبة الله. وأخذ المسيح على عاتقه تكميل رسالة حب الآب من نحو العالم، وكان مضمونها أن يصالح هذا العالم الشارد للآب. وشرودُ العالم، كان بتحريض الشيطان، فبات العالم مقهوراً لكل شهوات الدنيا، وضلالة الفكر، وخداع العقل، وزيف الحق. فكانت رسالة الابن أن يستعلن الحق لفكر الإنسان باستعلان الله، و يفدي الجسد بحمل خطاياه في جسده، ويقهر الخطية التي قهرته، و يغلب الموت الذي تغلب عليه، فقام من الموت وجروحه في جنبه و يديه، وأعطى الإنسان غلبته هذه على الخطية والموت، لا بقوة مثل قوته، بل بنعمة قوته،

وباستحقاق دمه يغفر الخطايا ولا تعود تُحسَبُ، ويَهَبُ نعمته لتقديس الجسد والنفس والروح معاً.

«وأيضاً أترك العالم»:

تَرَكَ العالم، في المنظور البشري، ولكنه بقي فيه بسِرّ حضرته الدائمة كوعدٍ وعهدٍ: «بعد قليل لا يراني العالم، أيضاً، وأما أنتم فترونني» (يو١٤: ١٩)، برؤيا الإيمان والروح، لا بالخيال ولا بتدريب العقل بالتاوريا الصوفية، بل برؤية حقيقية من واقع استعلانه لذاته: «والذي يحبني، يحبه أبي، وأنا أحبه، وأظهر له ذاتي» (يو١٤: ٢١)، «وظهر للأحد عشر» (مر١٦: ١٤)، «الذين **أراهم** أيضاً نفسه حيًّا ببراهين كثيرة، بعد ما تألم، وهو **يظهر لهم** أربعين يوماً، ويتكلم عن الأمور المختصة بملكوت الله» (أع١: ٣)، «**وظهر** أياماً كثيرة للذين صعدوا معه من الجليل إلى أورشليم، الذين هم شهوده عند الشعب» (أع١٣: ٣١)، «هذا أقامه الله في اليوم الثالث، وأعطى أن **يصير ظاهراً**، ليس لجميع الشعب، بل لشهود سبق الله فانتخبهم، لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات» (أع١٠: ٤٠و٤١). نعم، وهو لا يزال يظهر منذ قيامته وحتى اليوم، حسب وعده المقدس: «الذي يحبُّني يحبه أبي، وأنا أحبُّه، وأظهر له ذاتي» (يو١٤: ٢١)، فهو القائل لبولس الرسول: «لكن قُمْ، وقِفْ على رجلَيْكَ، لأني لهذا **ظهرتُ** لك، لأنتخبك خادماً وشاهداً بما رأيت، وبما **سأظهر** لك به.» (أع٢٦: ١٦)

«وأذهب إلى الآب»:

الذهاب المبارك، الذي تم به مجيء الروح القدس المعزِّي، ليبقى مع التلاميذ والكنيسة أبد الدهر، ويكون فيهم: «ماكثٌ معكم، ويكون فيكم» (يو١٤: ١٧)، ويستعلن المسيح ويمجّده ويذكِّر بكل كلمة قالها المسيح، لتُكتب كما هي في الإنجيل، وليشهد للمسيح في التلاميذ، وبالتلاميذ والكنيسة.

لقد ذهب إلى الآب ودمه عليه، ليبقى شفيعَ الخطاة أبد الدهر، وليصير دمه لدى الآب متكلّماً عن الخطاة المعترفين بخطاياهم، المتمسكين بدم العهد، فتُغْفَر خطاياهم أولاً بأول، ويغتسلون ويبيِّضون ثيابهم باستعداد العرس: «حيث دخل يسوع كسابقٍ لأجلنا» (عب٦: ٢٠)، لندخل معه إلى ما داخل الحجاب، لنتراءى أمام وجه الآب بلا لوم. وجلس عن يمين الآب ببشريَّتنا، فجلسنا فيه ومعه، في مواضع الكرامة والمجد، وعوملنا معاملة البنين، وأخذنا نصيباً وميراثاً مع القديسين محفوظاً لنا في السموات.

شجاعة مفتعلة واندفاع في إيمان صحيح، يفوق الإيمان الحاضر:

١٦ : ٢٩ **«قال له تلاميذُهُ: هُوَذَا الآنَ تتكلَّمُ علانيةً، ولستَ تقولُ مَثَلاً واحِداً».**

المسيح لم يقل «تأتي ساعة وهي الآن»، بل قال: «**تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضاً بأمثال، بل أخبركم عن الآب علانية**». ويقيناً، لم تكن هذه الساعة التي يتكلم فيها، ولا يمكن أن تكون، لأن المعنى المقصود هو: **بالاستعلان بالروح القدس** سوف يتكلم المسيح إليهم، ويخبرهم **على مستوى الروح**، وليس الأذن. لذلك فتصوُّرهم أن هذا الذي يقوله المسيح هو «العلانية» أو الاستعلان، سابق جداً لأوانه. صحيح أن اعتراف التلاميذ الذي جاء بعد ذلك بخصوص أنه خرج من الله، هو إيمان صحيح للغاية، ولكنه يسبق ويتعدى واقع إيمانهم، فإمَامُهم والمتقدِّم عليهم، بطرس، جَاهَرَ علناً وأمام العالم وشهود أنه لا يعرف المسيح، وأكد ذلك بقَسَمٍ أمام جارية.

ولكن شجاعة التلاميذ هنا وحرارة إيمانهم، إنما جاءت انعكاساً وصدىً لشجاعة المسيح وثقته العالية جداً بنفسه. فلما غاب عنهم، غابت شجاعتهم، وغاب إيمانهم بسرعة لا يصدقها العقل. ولكن الإنسان هو الإنسان، وبدون نعمة الروح القدس، سيكون هو الإنسان دائماً.

١٦ : ٣٠ **«الآنَ نَعْلَمُ أنَّكَ عَالِمٌ بكلِّ شيءٍ، ولستَ تحتاجُ أن يسألَكَ أحَدٌ، لهذا نؤمِنُ أنكَ من اللهِ خَرَجْتَ».**

كلام التلاميذ هنا هو ردٌّ مباشر على ما قاله المسيح لهم في الآية (١٩) من هذا الحديث، حينما قال ق. يوحنا: «فعَلِمَ يسوع أنهم كانوا يريدون أن يسألوه، فقال لهم: أعَنْ هذا تتساءلون فيما بينكم، لأني قلت ...». وهنا في هذه الآية (٣٠) يُظْهِرون اندهاشهم لمعرفته لما في قلوبهم وأفكارهم، ويعبِّرون عن اندهاشهم باعترافهم بأنهم أصبحوا على يقين من أن المسيح «عالمٌ بكل شيء»، ولا يحتاج أن يسأله أحد، بل هو يعرف ما في القلوب، ويرُدُّ عليها من تلقاء ذاته: «لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه، قبل أن تسألوه» (مت٦ : ٨)، «إني قبلما يَدْعُونَ، أنا أجيب.» (إش٦٥ : ٢٤)

ولكن حتى اعتراف التلاميذ بهذا العلم بكل شيء، لا يأتي في مفهومه الإلهي المطلق بمعنى المعرفة الكلية لله Omniscience، ولكن معرفةِ قلوب التلاميذ وحسب، وهذا اعتراف ناقص.

«لهذا نؤمن أنك من الله خرجت»: ἀπὸ θεοῦ

وهي تفيد الإرسالية، وهو يستخدم لكلمة «مِنْ» حرفَ جرٍّ غير ἐκ أو παρά . هذا إيمان عام لا يدخل إلى عمق حقيقة لاهوت المسيح، ولقد سبق نيقوديموس وقاله: «يا معلم، نعلم أنك قد أتيتَ من الله معلّماً ...» (يو٣:٢)، وهنا استخدم نيقوديموس أيضاً حرف ἀπό التي تفيد الإرسال ولا تفيد الخروج الجوهري اللاهوتي الذي يقتصر التعبير عنه على استخدام حرفي παρά أو ἐκ ، ولو أن التمييز بين هذه الحروف لا يأتي بدقة، لأن الرواية الإنجيلية تشغل الفكر أحياناً عن التحديدات الدقيقة.

ولكن على كلٍّ، كانت ردود التلاميذ محصورة في واقعهم الزمني «الآن»، في حين كان كلام المسيح يختص بما سيكون. لذلك كان اجتهاد التلاميذ للتعبير عن المستقبل بمعرفتهم المحصورة في الحاضر فقط، هو اجتهادٌ مشكورٌ، ولكنه ناقص، ولا بد أن يكشفه المسيح لهم.

١٦:٣١　«أجابهم يسوعُ: الآنَ تُؤمِنُونَ».

في هذه الآية، يأتي الظرف الزماني للتعبير عن الحال في أضيق حدوده، أي في هذه اللحظة **«الآن»:** ἄρτι ، وليس اللفظة المستخدمة عن الزمن المطلق **«الآن»** بمعنى الحاضر دون حدود νῦν. واستخدام ق. يوحنا لهذا التعبير، توجيه ندرك منه صلة الحادث الآن، بما سيحدث الآن بعد قليل. والمعنى الذي يقصده المسيح، هو عمل مقارنة موجَّهة للتلاميذ بين إيمانهم «الآن» وهروبهم بعد قليل وتَرْكِه وحدَه للمحاكمة والموت. وهكذا يأتي تسلسل الكلام: «**الآن** تؤمنون ... **الآن** تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصَّته وتتركونني وحدي»! وقصد المسيح من هذا، أن إيمانهم **«الآن»** ليس على مستوى قدرتهم واحتمالهم، ولا هو قادر على أن يواجه الواقع الذي يتطلبه الإيمان.

المسيح هنا لا يسأل ولا يوبِّخ، لأنه بحسب منهج إنجيل ق. يوحنا في نظرته تجاه التلاميذ، فهو لا يوبخهم ولا يُظْهِر عيوبهم، ولا يقلِّل من قدراتهم(١١). فهو بنفسه في ١٨: ٨ فتح أمامهم الطريق ليهربوا و ينجوا بحياتهم! لذلك، فالمعنى هنا يقتصر على مراجعة التلاميذ أنهم **«الآن»** ليسوا على مستوى الإيمان، ولا قِبَلَ لهم باحتمال مواجهة ما يتطلَّبه الإيمان، فعليهم أن لا يتكلوا على مثل هذا الإيمان الناقص، وكأنما لسان حالهم هو: «أومن يا رب، فأعِنْ عدم إيماني.» (مر٩: ٢٤)

(١١) أنظر المدخل ص٢٦٢ــ٢٦٣ و٣٥٢.

ولا شك أنه بصلاة المسيح من أجلهم، خلصوا من هذه الساعة، كما حدث لبطرس حينما تمادى في التعبير عن إيمانه في نفس هذا الموقف: «يا سيد لماذا لا أقدر أن أتبعك "الآن"، إني أضع نفسي عنك». ــ فِكْرٌ طفولي، حينما ينبري الطفل ليُقْنِعَ أباه أنه قادر أن يحميه ــ فكان ردُّ المسيح: «أتضعُ نفسك عني»؟ نفس كلام المسيح للتلاميذ: «الآن تؤمنون؟»، «الحق الحق أقول لك لا يصيح الديك حتى تنكرني ثلاث مرات.» (يو١٣: ٣٧و٣٨)

وهكذا، وفي وقت المحنة، حينما يقع الإنسان في مأزق العدو ومحاصرته، حيث تُطلب الشهادة أو الإستشهاد، فلولا صلاة المسيح ومؤازرة الروح القدس، لوقفنا جميعنا موقف بطرس أو التلاميذ في محنتهم.

١٦ : ٣٢ «هُوَذَا تأتي ساعةٌ وقد أتتِ "الآنَ"، تتفرَّقُونَ فيها كلُّ واحدٍ إلى خاصَّتِهِ، وتتركُونَني وَحْدِي، وأنا لستُ وَحْدِي لأن الآبَ معي».

المسيح هنا لا يراجع ولا يؤاخِذ ولا يوبِّخ، ولكن يشرح لهم عِظَمَ الضربة التي ستقع عليهم من قِبَلِ العدو ليُخَلْخل إيمانهم و يُرْعِبهم رعباً، حتى يهربوا و يتركوه وحده. فالقصد النهائي من تجربة العدو لهم، هو أن يبقى المسيح وحده، إمعاناً من الشيطان في تحطيم وحدة الجماعة، ليتعرَّى المسيح من أي مساندة أو معونة. وهذا لم يَفُتْ على الوحي المقدس أن يُلقِّنه للأنبياء، حتى يصبح عمل العدو نفسه معرًى إزاء إيمان الجماعة بعد ذلك، حينما تلتئم وتراجع مواقفها، وتدرك أن عمل العدو ضدهم وضد المسيح داخلٌ ضمن المشورة الإلهية: «استيقظ يا سيف على راعيَّ، وعلى رَجُلِ رِفْقتي، يقول رب الجنود. اضرب الراعي فتتشتَّت الغنم، وأردّ يدي على الصغار» (زك١٣: ٧). وهذه النبوة عينها ردَّدها المسيح نفسه أمام التلاميذ، قبل أن تبدأ المحنة: «حينئذ قال لهم يسوع: كُلُّكم تشكُّون فيَّ في هذه الليلة، لأنه مكتوب: أني أضرب الراعي فتتبدَّد خراف الرعية» (مت٢٦: ٣١). ثم عاد القديس متى ليعلِّق على ذلك بعد أن بدأ العدو ضربته: «وأما هذا كله فقد كان، لكي تُكمَّل كتب الأنبياء، حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا.» (مت٢٦: ٥٦)

«وتتركونني وحدي»:

ليست هذه مُعَاتبةً، فقد تعيَّن في الأزل أن يتألم المسيح وحده، ولا معين! هذا المنظر يصفه إشعياء النبي، في عظمةٍ وشموخ، فيجعل الصليب وكأنه قمة النصرة في حرب خفية ضَرُوس، يدوس فيها كراديس الأعداء وجحافل الظلمة ومملكة الشيطان، وكأنها شعوب متراصة:

«مَنْ ذا الآتي من أدومَ؟ بثيابٍ حُمْرٍ من بُصْرَة؟
هذا البهيُّ بملابسه، المتعظِّم بكثرة قوته؟
أنا المتكلمُ بالبرِّ، العظيمُ للخلاصِ!!
ما بالُ لباسِك مُحَمَّرٌ، وثيابك كدائسِ المعصرة؟
قد دُسْتُ المعصرة وحدي، ومن الشعوب لم يكن معي أحد.
فَدُسْتُهم بغضبي ووطئتُهم بغيظي
فَرُشَّ عصيرُهُم على ثيابي، فَلَطَخْتُ كلَّ ملابسي.
لأن يوم النَّقمة في قلبي، وسنة مفديِيَّ قد أتت.
فنظرتُ، ولم يكن معينٌ، وتحيَّرت، إذ لم يكن عاضدٌ
فخلَّصتْ لي ذراعي، وغيظي عَضَدَني.
فدُسْتُ شعوباً بغضبي، وأسْكَرْتُهُم بغيظي
وأجْرَيْتُ على الأرض عصيرَهم.» (إش٦٣: ١-٦)

«وأنا لست وحدي لأن الآب معي»:

هنا ينبري داود بالنبوة ليصف منظر الرب في وحدته، وقد أحاط به اليهود يصرُّون بأسنانهم، والنقمة تملأ قلوبهم وعيونهم، والتف حوله العسكر والشامتون يدقُّون الحديد في يديه ورجليه وهو ينادي الله!! «لأنه قد أحاطت بي كلاب، جماعة من الأشرار اكتنفتني، ثقبوا يديَّ ورجليَّ. أحصي كل عظامي، وهم ينظرون و يتفرسون فيَّ. يقسمون ثيابي بينهم، وعلى لباسي يقترعون. أما أنت يا رب، فلا تَبْعُدْ، يا قوتي أسرع إلى نصرتي، أنقذ من السيف نفسي، من يد الكلب وحيدتي.» (مز٢٢: ١٦-٢٠)

فيَّ سلام، وفي العالم ضيق:

١٦: ٣٣　**«قد كلَّمتُكم بهذا، ليكونَ لكُم فيَّ سلامٌ. في العالمِ سيكونُ لكم ضيقٌ، ولكن ثِقُوا، أنا قد غَلَبْتُ العالمَ».**

بهذه الآية يكون قد انتهى حديث المسيح الأخير، وانتهى تعليم المسيح في إنجيل يوحنا.
هنا يستدرك المسيح ما قاله التلاميذ، وما أجاب به عليهم، كونهم سيتركونه وحده، و يتفرقون كلٌّ واحدٍ إلى خاصَّته، أي بيته وأهله ومهنته! ثم يكشف المسيح عما كان يقصده من كلامه

هذا: «ليكون لكم فيَّ سلام»، وذلك حينما يتم بالفعل ما تنبأ به المسيح عن هروبهم وتَرْكِه وحده، فيتذكرون ما قاله، وحينئذ يستردون إيمانهم وثقتهم بالمسيح. لأن وديعة المسيح التي تركها لهم، وإن غابت بعض الوقت عن أعينهم «**سلاماً أترك لكم**» (يو١٤: ٢٧)، **فهي قائمة وثابتة فيهم لن تغادرهم.**

والذي يهمنا جداً في هذه الآية، قولُ المسيح: «ليكون لكم فيَّ سلام»، فهو لم يَقُلْ: «ليكون لكم سلام»، بل «ليكون لكم **فيَّ** سلام»، فحينما ننهزم أمام التجربة، كما انهزم التلاميذ في محنة الصليب، وحينما نفقد السلام الذي فينا، فإنه يتبقى لنا «سلامٌ **في المسيح**»، فسلام المسيح هو القوة المُدْخرة لنا، حينما تنتهي قوتنا. يكفي أن نلقي همَّنا عليه (١بط٥: ٧)، لنجد فيه سلامنا المفقود: «لأنه هو سلامنا.» (أف٢: ١٤)

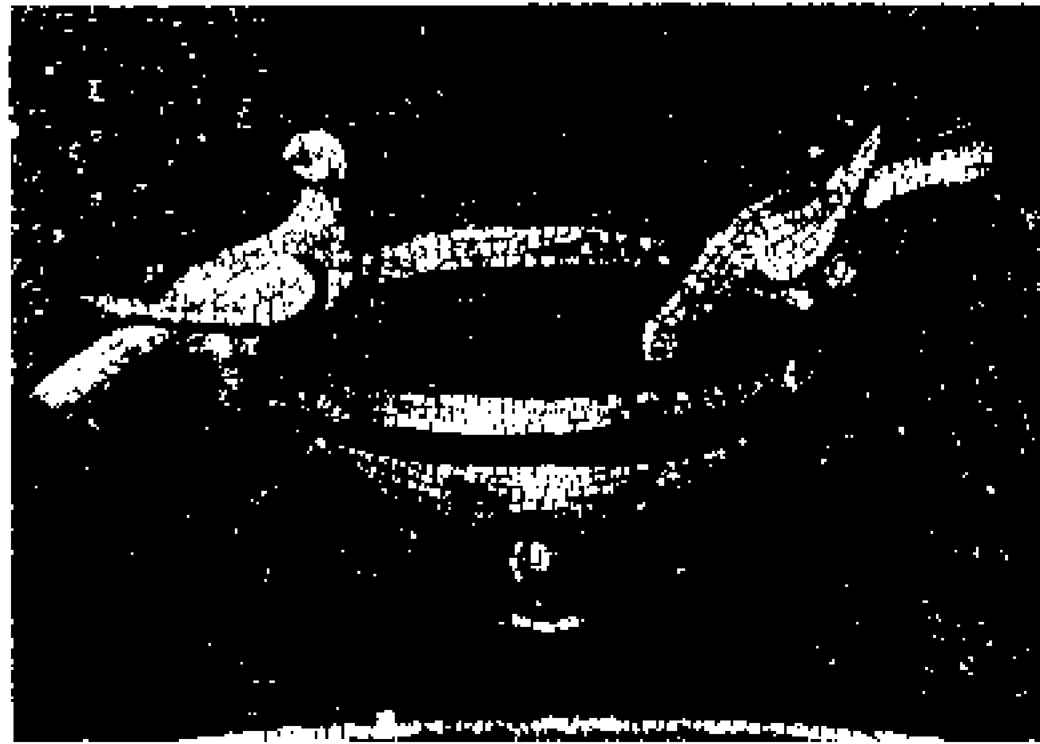
أنظر كيف تحول انهزام التلاميذ إلى نُصرة، وشكُّهم إلى يقين، وحزنُهم إلى فرح إنجيلي ملأ المسكونة كلها. إن خبرة التلاميذ في هذا التحول القوي والغالب، سلَّمُوها للكنيسة. الكنيسة بعد ذلك عبرت مثل هذه المحنة، ومحنٍ بلا عدد أقوى من محنة التلاميذ، وغَلَبَتْ، وها هي غالبة وستَغْلِب؛ والسرُّ هو سلام المسيح الذي تركه لها ميراثاً ثابتاً دائماً لها: «وأبواب الجحيم لن تقوى عليها.» (مت١٦: ١٨)

وليلاحظ القارىء المقارنة التي وضعها المسيح بين سلامه وبين ضيق العالم: «ليكون لكم فيَّ سلام. في العالم سيكون لكم ضيق». المسيح يضع نفسه مباشرة في المقابل المضادّ للعالم. هذه هي الحقيقة بغير مواربة، فالذين للمسيح تماماً **يضطهدهم العالم** حتماً. ولكن السلام الحقيقي في المسيح يوازن الضيق في العالم، مهما تعالى ويزيد. بمعنى أن الذين في المسيح هم فوق العالم دائماً. لذلك أكمل المسيح المعادلة المنتصرة بقوله: «ثقوا، أنا قد غلبتُ العالم». فالذين هم في المسيح ولهم سلام "في" المسيح، قد غلبوا العالم. هذه المعادلة لخَّصها ق. يوحنا بقوله في رسالته الأُولى: «وهذه هي الغلبةُ التي تغلب العالم، إيماننا.» (١يو٥: ٤)

والآن يلزمنا أن ندخل قليلاً في اختبار الإيمان والسلام في المسيح، لندرك حقيقة غَلَبة العالم، لأن هذا بالحقيقة هو الميراث المسيحي العملي، الذي استلمناه من الإنجيل ومن القديسين الأوائل والشهداء والأتقياء، الذين اختبروا المسيح وعاشوه، وغلبوا العالم وعَبَروا: فالإيمان العملي بالمسيح هو الثقة الكاملة والمطلقة بكل الكلام الذي قاله. فكل آية أعطاها لنا، هي كنز مغلق، سُلِّم لنا لكي نغتني بما تحويه الآية من مواعيد صادقة وأمينة. كل وصية للمسيح، تحمل وعداً منه بالتنفيذ،

فإذا آمنا حقاً بكلام المسيح وتمسكنا به بقلب واحد غير منقسم، يكون لنا فيه كل الوعد تماماً كما وعد.

فقوله هنا: «ليكون لكم فيَّ سلام» معناه أنه يتحتم أن يكون لكم «فيَّ سلام»، إن كنتم تؤمنون، فهل تؤمن أيها القارىء العزيز؟ المسيح يعرض سلامه مجاناً، ومقابل ضيقات العالم. ولكن يلزم أن نرث منه هذا السلام، الآن مُسْبَقاً، حتى إذا جاءت الضيقات انبرى سلام المسيح في قلوبنا ليخفِّض من كبرياء التجربة، مهما كانت عنيفة، ويخفِّضها ثم يخفِّضها حتى يضعها تحت رجليك. هذه هي غلبة العالم، وهذا هو إيماننا الذي نغلب به العالم.



«أيها الآب قد أتت الساعة. مجِّد ابنك ليمجِّدك ابنك أيضاً، إذ أعطيته سلطاناً على كل جسد ليعطي حياة أبدية لكلِّ من أعطيته. وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو١٧: ١-٣)

جزء مقتطع من رسم بالفسيفساء يحوي رسم القديسين بطرس وبولس الرسولين وهما يعظان،
وقد وُضع أسفلهما هذا الجرن وبه الماء الذي تستقي منه الحمامتان،
رمز الماء الحي، أي الروح القدس.
(من كنائس رافنا ــ القرن الخامس)

ملخص أحاديث الفراق

والآن، ونحن داخلون إلى صلاة المسيح الأخيرة، ينبغي أن نلقي نظرة إلى مجمل أحاديث الفراق، لأنها تُعتبر المدخل الوحيد لفهم صلاة المسيح الأخيرة، لأن العلاقة بين أحاديث المسيح السابقة على هذه الصلاة والصلاة نفسها، وثيقة للغاية.

لقد رأينا أن الأحاديث الأخيرة تدور **حول محور واحد أو غاية واحدة**، أن **«نتحد بالمسيح»**، بمعنى الإيمان الفعلي بالمسيح المصلوب والقائم من الموت، إيماناً نمارسه بحياتنا. فالاتحاد بالمسيح المصلوب، نمارسه بعبورنا نفس الضيقات والاضطهاد والألم والرفض والصلب، إذا تحتَّم؛ بشجاعة المسيح وصبره. واتحادنا بالمسيح القائم من الموت؛ نمارسه في آلامنا وضيقاتنا واضطهاداتنا وفي الرفض وتهديد الموت؛ بالفرح والتهليل والسلام الداخلي، كمن جازوا الموت بالقيامة الأكيدة، ولكن غلبوا العالم بكلمة شهادتهم.

ولكن هذا المحور الدوَّار، أو الهدف الواحد، الذي يتغلغل كل حديث قاله المسيح وكلّ تصوير صوَّره، يمكن تحديد مفرداته كالآتي:

أ ــ الحديث بدأ بغسل الأرجل، وقد جعل المسيح مفهوم هذه العملية محدداً في قوله لبطرس: «إن كنتُ لا أغسلُكَ، فليس لك معي نصيب» (يو١٣: ٨). إذن، فغسل الأرجل يدخل في عمل المسيح الكرازي، أي نفس إرساليته. الغسيل هو تكريس أرجل تلاميذه، لإرسالية الكرازة بإنجيل الخلاص، إنجيل الموت والقيامة! فبكرازة التلاميذ بالإنجيل، **دخلوا في نصيب المسيح على الأرض** بالصليب، **وفي السماء** بالمجد المذَّخر لهم عند الآب، **وفي الكنيسة** نالوا كرامة مع المسيح. هذا عقَّب المسيح على غسل الأرجل بقوله: «الذي يَقْبَلُ مَنْ أُرسِلهُ، يقبلني، والذي يقبلني، يقبل الذي أرسلني.» (يو١٣: ٢٠)

ب ــ وحدة التلاميذ معاً، هي الرباط الذي يربطهم، فلا يؤثر فيهم الفراق ــ كتلاميذ للرب أمام العالم. لذلك، فالوصية الجديدة لمواجهة العالم هي المحبة، محبة بعضهم البعض (١٣: ٣٤). ولكن محبة على مستوى وطبيعة محبة المسيح لهم، أي أن يكونوا دائماً على استعداد البذل حتى الموت، بعضهم للبعض ومن أجل الكنيسة. والصورة المصغَّرة، هي أن يغسلوا أرجل بعضهم البعض، لتبقى وحدة الرسولية والكرازة، وتبقى رسالة المسيح.

ج ــ محبة المسيح لتلاميذه، تحققت بعودة المسيح إليهم (١٤: ١ــ٩)، فتأكدت وحدته معهم. فبعد أن ماتت حبة الحنطة وحدها، قامت، فجاء زمن الثمر الكثير الذي مثَّله المسيح بالكرمة والأغصان، الذي هو أبهى وأعظم تصوير للوحدة بين المسيح والكنيسة. فالثمر لا يأتي إلاَّ عن طريق «**الوحدة**»، معاً، وبالمسيح (١٥: ١ــ٩).

د ــ فالثمر الذي تُنْشِئهُ وحدة التلاميذ، معاً وبالمسيح، هو في الحقيقة وفي الأصل، فِعْلٌ لمحبة الآب التي استُعْلِنَتْ في المسيح، وهو نفسه (أي الثمر الكثير) يُعْتَبَرُ رداً مباشراً على محبة الآب. «**بهذا يتمجد أبي أن تأتوا بثمر كثير**، فتكونون تلاميذي» (يو١٥: ٨). فالثمر، الذي هو خدمة اسم الآب والمسيح في العالم لتكميل رسالة الخلاص، هو الرد الصحيح والمباشر على محبة الآب لنا التي استُعْلِنَتْ في المسيح، هو (أي الثمر) في الحقيقة وبالنهاية **عمل الوحدة** التي تمت في المسيح.

هـ ــ حتى الاضطهاد الذي سيجوزه التلاميذ في العالم، هو ثمرة الوحدة مع المسيح، وحدة عضوية كذاتٍ في ذاتٍ. نسمعها قوية من فم المسيح نفسه، وهو في السماء: «شاول شاول لماذا تضطهدني؟» (أع٩: ٤)؛ وكأن المسيح يتألم بتألُّم أعضاء جسده على الأرض. هذا الاتحاد العجيب والسرِّي الذي كشفه المسيح في قصة شاول، هو أعمق تعبير عن «**وحدة**» حقيقية قائمة بين المسيح والتلاميذ، أي الكنيسة. «إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم ... إنما يفعلون بكم هذا كله من أجل اسمي.» (يو١٥: ٢٠و٢١)

و ــ وحتى إرساله الروح القدس، كان ويكون لتعميق **الوحدة** واستعلان أسبابها وموجباتها، والحفاظ عليها بين المؤمنين والمسيح والآب.

ز ــ والمحبة التي تكلم عنها المسيح في كل أحاديث الفراق، ليست محبة كلامٍ ووعودٍ، بل محبة فعلٍ وعطاءٍ **واتحادٍ** سرِّي، له نتائجه الفورية: «**لا أعود أُسمِّيكم عبيداً**، لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده، **لكني قد سمَّيْتُكم أحباءَ**، لأني أعْلَمْتُكُم بكل ما سمعتُهُ من أبي.» (يو١٥: ١٥)

ولكي يثبت قوله، بل فعله هذا، كشف عن سِرِّ موته أنه موْت بداعي الحب لفداء مُحبِّيه؛ لكي بموته لأجلهم، يفديهم من الموت ويعطيهم حياته (١٥: ١٣). هذه هي «**محبة الاتحاد**». فأن يموت المحب لأجل أحبائه ليحييهم معه إلى الأبد، فهذا أقوى «**فعل لاتحاد المحبة**» عرفه الإنسان على الأرض، «ليس لأحد حبٌّ أعظم من هذا» (يو١٥: ١٣)، «أحبَّني، وأسْلَمَ نفسه لأجلي.» (غل٢: ٢٠)

ح ــ وأوضح مظاهر «**محبة الاتحاد**»، أو «**الاتحاد بالمحبة**» في أحاديث الفراق، هي ذات هذه الأحاديث عينها، كونها جَرَتْ بين «حبيب ومَنْ أحبَّهم». فهي تنطق بكيف يكون الاتحاد بين المسيح والإنسان!! وعلى مَ جرت هذه الأحاديث؟ أليس عن حب الآب ومعرفته ورؤيته والحياة الأبدية عنده والذهاب إليه؟ وهل يكون حديث الاتحاد وممارسته أكثر من هذا؟

ط ــ والواضح أن كل العلاقة التي تربط المسيح بتلاميذه وأتباعه ومحبيه، جرت على أساس ما هو حادثٌ بينه ــ أي بين المسيح ــ والآب، ليس كنموذج وحسب بل كمصدر فعَّال ومثيل، يحتَذِي به المثيلُ، و ينهلُ منه. فإن كان المسيح قد قصد الوحدة بينه و بين مُحبِّيه قصداً، ونفَّذ بالفعل السرّي ذلك تنفيذاً، حين فرَّق جسده عليهم وأسقاهم كأس دمه، فالأمر كان في حاجةٍ أشد الحاجة لإعطائهم صورة مسموعة **للوحدة** «**الأصل**»، والمثيل الإلهي القائم بين الآب والابن. فكانت صلاة (يوحنا أصحاح ١٧).

ثم ما هي صلاة يوحنا ١٧؟

+ هي الإخلاء الكلِّي بالروح، في ذبيحة حبٍّ، مطعَّمةٍ بالطاعة القُصوى، قبل الإخلاء التاريخي على الصليب!!
 ــ «أيها الآب، قد أتت الساعة، مجِّد ابنك»!
 ــ «العمل الذي أعطيتني لأعمل، قد أكملتُه»!

+ هي صعودٌ حقيقي بالروح إلى الآب، ومعه قلوب وأرواح مُحبِّيه، قبل الصعود الجسدي المنظور بالعين.
 ــ «لستُ أنا بعد في العالم، وأما هؤلاء فهم في العالم، وأنا آتي إليك».
 ــ «أيها الآبُ، أريد أن هؤلاء يكونون معي، حيث أكون أنا».

+ هي عملٌ تقديسيٌّ فوري يتم بعد كل كلمة، كما ينطقها تكون، لأن الآب يسمع له في كل حين، و يستجيب في الحال!
 ــ «قدِّسْهم في حقِّك».
 ــ «ولأجلهم أُقدِّس أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضاً مقدَّسين في الحق».

+ **هي** ممارسة اتحاد فائق بالروح مع الآب، والتلاميذ داخلون بالسِّرِّ في دائرة الاتحاد غير المنظور.

ــ «كما أنك أنت، أيها الآب، فيَّ وأنا فيك»

ــ «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا».

+ **هي** سكيبٌ روحيٌّ للحب الأبوي، انسكب فيهم، إيذاناً بسُكْنَى المسيح!

ــ «ليكون فيهم الحبُّ الذي أحببْتني به».

ــ «وأكونُ أنا فيهم».





بستان جتسيماني حيث صلى المسيح الصلاة الأخيرة

الأصحاح السابع عشر

صلاة المسيح للآب

[وبعد ما أعطى تلاميذه كل التعاليم فيما يختص بالخلاص، وأكمل معرفتهم وهيأهم لمواجهة التجارب، نقل الحديث إلى صلاة.](1)

القديس كيرلس الكبير

مقدمة:

مقارنة بين صلاة المسيح الأخيرة
في إنجيل القديس يوحنا والثلاثة الأناجيل الأخرى:

+ صلاة (يوحنا ١٧) المدموغة بالمجد والتجلي، وغلبة العالم، والتي فيها يستعلن المسيح لاهوته على مستوى الوحدة غير المنفصلة مع الآب، يقابلها في الثلاثة الأناجيل الأخرى، وفي نفس المكان، صلاة جثسيماني بأحزانها ودموعها وسجودها وعرقها المتصبِّب كالدم، مع طلب إعفاء من شُرْب هذه الكأس، لو أمكن! فهل من تفسير؟

نعم، فهذه مضادة paradox، مثل كل المتضادات في حياة المسيح التي نشأت من كون أن: «**الكلمة صار جسداً**» بلغة إنجيل يوحنا (١٤:١)، أما بلغة القديس بولس فهي: «**الله ظهر في الجسد**» (١تي٣:١٦). لذلك يلزم أن لا نقرب المقارنة بين هاتين الصلاتين، إلَّا على أساس الرؤية المتكاملة لشخص المسيح، باعتباره «**الإله المتجسد**». لأننا بهذا نرى في الصلاتين معاً منتهى حقيقة المسيح الإلهية والبشرية معاً، في ضوء الإخلاء الذي أُكْمِل بالمجد، واتضاع العبد الذي ارتفع إلى أن استوى على العرش في مُلْكِه الأزلي مع الآب، لتسجد له كلُّ ركبة ما في السماء وعلى الأرض.

+ لذلك ينبغي غاية الانتباه أن نفرِّق بين رؤية المسيح لنفسه التي يتحرك بها و يتصرف و يعلن

(1) Cyril the Great, *op. cit.*, p. 478.

ما يراه صالحاً للإعلان، ويحبس ما لا يلزم أن نعرفه قبل الأوان، وبين ما نراه نحن بعجز إدراكنا الذي لا يرقى أبداً إلى حقيقة ذاته، فأحياناً نراه إنساناً فيما لا ينبغي أن يكون، ثم نراه إلهاً فنستكثر عليه ما للإنسان: فمثلاً، نستكثر جداً في أنفسنا ما يقوله سفر العبرانيين أنه: «قدَّم بصراخ شديد ودموع، طلباتٍ وتضرعاتٍ للقادر أن يخلِّصه من الموت، وسُمِعَ له من أجل تقواه» (عب٥: ٧). في حين أن هذا هو عمله الأعظم الذي من أجله نزل من السماء؛ لكي يحمل من أجل الإنسان هذا الخزي عينه، وهذا الضعف المشين بكل ما يعنيه و ينطوي عليه، من رهبة الموت ورعبته، ومن الجزع من مواجهة فراغ القبر وعَدَميَّته؛ لكي يقوم بالإنسان ـــ هذا الذي حمله في نفسه ـــ منتصراً غالباً ودائساً الموت تحت رجليه؛ لكي لا يسود عليه الموت بعد، وكأنه صار إلى العدم، بل لكي يلاشي هذا الموت وجبروته، فيتحوَّل موت الإنسان إلى مجرد انتقال إلى حياة أفضل، أي سماوية. فالصُّراخ والدموع والرعبة والجزع، حوَّلها له جميعاً إلى هتاف النصرة وسلطان الغلبة، بل واستحقاق مجد!

+ فصلاة المسيح في يو ١٧ هي وقفة للمسيح لمراجعة رسالته، في شموخ لاهوته كما جاءت في إنجيل يوحنا. أما صلاة جثسيماني بانبطاح المسيح على الأرض ـــ كما جاءت في الأناجيل الثلاثة ـــ فهي قمة ذِلَّة الإنسان التي تبنَّاها المسيح عن الإنسان، كمدخلٍ لائق للصليب. فهذه وتلك هي المضادة التي نشأت أصلاً من «تجسد الكلمة»، والتي فيها وبها دُعِيَ الإنسان من سُكْنَى القبر إلى سُكْنَى السماء.

+ لقد جاءت لتعبِّر عن أعلى مستوى لشركة الابن مع الآب، وأجلى صورة لابن الإنسان المُستَعلَن كابن الله، مسيَّا الدهور، حاملَ الاسم العظيم «أنا هو» ἐγώ εἰμι، «وكان الكلمة الله» (يو١: ١)، «أنا هو نور العالم» (يو٨: ١٢)، «أنا هو القيامة والحياة» (يو١١: ٢٥)، «أنا والآب واحد» (يو١٠: ٣٠)، «الذي رآني، فقد رأى الآب.» (يو١٤: ٩)

+ وصلاة جثسيماني كما جاءت في إنجيل مرقس ١٤: ٣٢، بدموعها وتضرعاتها، جاءت لتستعلن تنازل الابن، كيف أخلى ذاته وأخذ شكل العبد! وكيف «أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة مولوداً تحت الناموس» (غل٤: ٤)، وكيف «أرسل ابنه في شبه جسد الخطية، ولأجل الخطية، دان الخطية في الجسد» (رو٨: ٣)، وكيف «أخلى نفسه آخذاً صورة عبد، صائراً في شبه الناس. وإذ وُجِدَ في الهيئة كإنسان، وَضَع نفسه، وأطاع حتى الموت موت الصليب» (في٢: ٧و٨). وكيف وُضِع قليلاً عن الملائكة «من أجل ألم الموت، لكي يذوق، بنعمة الله، الموت لأجل كل

واحد، لأنه لاقَ بذاكَ الذي من أجله الكل، وبه الكل، وهو آتٍ بأبناء كثيرين إلى المجد، أن يُكَمِّل رئيسَ خلاصِهم بالآلام» (عب٢: ٩و١٠)، وكيف أن «الذي في أيام جسده، إذ قدَّم بصراخ شديد ودموع طلبات وتضرعات، للقادر أن يخلِّصه من الموت، وسُمع له من أجل تقواه؛ مع كونه ابناً، تعلَّم الطاعة مما تألَّم به» (عب٥: ٧و٨)، وكيف «من أجل السرور الموضوع أمامه، احتمل الصليب، مستهيناً بالخزي» (عب١٢: ٢)، «فتفكَّروا في الذي احتمل من الخطاة مقاومة لنفسه مثل هذه، لئلا تكلُّوا وتخوروا في نفوسكم.» (عب١٢: ٣)

+ وق. يوحنا، وإن قدَّم لنا صلاة المسيح في (يو١٧) رافعاً المسيح إلى قمة الاستعلان الإلهي، لم يفُته أيضاً أن يسجِّل بعضاً مما سجلته الأناجيل الأخرى والرسائل من مظاهر اتضاعه وضعفه البشري. ففي الأصحاح ١٢ الآية ٢٧، سجَّل له: «الآن نفسي قد اضطربت، وماذا أقول؟ أيها الآب نجني من هذه الساعة، ولكن لأجل هذا أتيتُ إلى هذه الساعة». كذلك، وفي موجة الحزن الأليم الذي اجتاح النسوة وهُنَّ يَبْكينَ على لعازر، انتبه المسيح وهو في مواجهة سلطان الموت، وفي الحال تراءت أمامه ساعته القادمة تحمل نفس المنظر والمشاعر، فاضطرب أيضاً و«بكى يسوع.» (يو١١: ٣٥)

+ فإن كان في صلاته في (يو١٧) قد رفع عينيه نحو الآب، لكن لم يَغِبْ عن عينيه أيضاً صورة الصليب بمروِّعاته القادمة، وظلمة القبر البارد، ولكن كانت القيامة حاضرةً فيه أيضاً والمجدُ المُستَرَدُّ! هذه كلها كانت داخلةً حتماً في اعتباره وهو يصلي، ولكن كان قد جمعها كلها في رؤية واحدة وكأنها قد تمَّت!! ألم ينتهِ من كَسْرِ جَسده وسفك دمه مُسْبقاً على العشاء؟

+ بل إن خلفية هذه الصلاة في (يو١٧) التي أعطتها هذه القوة والشموخ والرزانة والجلاء البصري المنقطع النظير، مع السلام الذي يفوق العقل بالرغم من ظل الصليب المنعكس على نفسه بكل ثِقَله. هذه الخلفية كانت قائمة على أساس أنه قد انتهى مع نفسه وتخطَّى الألم الكثير الذي ينتظره. فعندما رفع عينيه إلى السماء، كان يتطلع إلى رحلة المجد القادمة، بعد أن استوفى في ضميره الرضى برحلة المذلَّة وكل مقاومة منتظرة: «ثقوا، أنا قد غلبتُ العالم».

+ لقد حبس أنينَ الألم القادم في صدره؛ ورعبةُ مواجهةِ الموت ومَنْ له سلطان الموت ألقاها خلف ظهره إلى حين؛ والدموعُ التي هطلت في مشهد الباكين على لعازر ألَحَّت عليه، فالمشهد واحدٌ، فجفَّت في عينيه حينما تطلَّع إلى الآب. وشعور الرغبة في الإعفاء من الكأس وساعة الظلمة كانت على شفتيه، ولكنه أجَّلها إلى ما بعد أن ينتهي من تقديم حساب

الوكالة، وتسجيل وصيته الأخيرة من نحو تلاميذه والكنيسة القادمة من وراء الدهور.

+ فلما استوثق من سماع الآب له، كما أنه هو في كل حين يسمع للآب، انطلق مع تلاميذه صوب جثسيماني صامتاً؛

+ ليبكي هناك مع كل الذين بكوا موتاهم، ليستوفي أحزان بني الإنسان؛

+ وسجد وأمعن في السجود للآب، ليقدِّم آخر تعبيرات الخضوع والطاعة وواجبات التوبة عن كل جهالات الإنسان؛

+ وتصبَّب العرق كالدم من جبين آدم الثاني، استيفاءً للعنة «عرق الجبين» التي اكتسبها آدم الأول، لما عصى الله وخرج من لَدُنْهِ ملوماً محسوراً (تك٣: ١٩)؛

+ وتحت ظلال أشجار جثسيماني أخذت نفسه تحزن وتكتئب حُزناً حتى الموت، ليتقيأ الشهوة التي استقرت في أحشاء أبوينا الأولين، التي ورَّثاها لكل مَنْ أتوا بعدهما، حينما أكلا من الشجرة وأتيا الحرام.

+ في هذه الليلة الخالدة (يو١٧)، أكمل المسيح في صلاته مع الآب منتهى استعلان لاهوته. وفي جثسيماني (مر١٤: ٣٢)، استعلن المسيح بدموعه وسجوده وعرقه المتصبِّب كالدم مِلْءَ تجسده...

+ ولم يجد صعوبة أن ينتقل من الأُولى إلى الثانية، أليس هو الذي انتقل من حضن الآب بملء مسرته، ليحتضن الإنسان؟ تاركاً مجد السماء، ليعيش على أرض الأحزان؟

+ ووقف المسيح في صلاته (يو١٧) مرفوع الرأس باعتباره «الكاهن الأعظم»، يستمدُّ ويستبرىء ذمَّته أمام الآب ليكون أهلاً لتقديم ذبيحته، ليس عن نفسه، فهو لم يوجد فيه خطية ولا في فمه غش، ولكن من أجل العالم كلِّه بمفهومه الإنساني البائس، على مستوى كل فرد على حدة!

+ أما في صلاته في جثسيماني (مر١٤: ٣٢)، فكان هو الذبيحة والخروف نفسه! يُسَاقُ إلى الذبح، منحنياً، ساجداً حتى الأرض، باكياً، صارخاً، يستنزف شحنة عواطفه حتى يحتفظ بهدوئه وصمته لدى حاكميه وصالبيه! لقد صلب المسيح ذاته قبل أن يصلبه العالم، واستدعى كل آلام الموت، ليجوزها بإرادته قبل أن تأتي عليه، فأكمل النبوة بيديه، قبل أن

يكمِّلها فيه الشامتون: «أحزاننا حملها، وأوجاعنا تحملها، ونحن حسبناه مُصاباً مضروباً من الله ومذلولاً.» (إش٥٣: ٤)

الجلال الذي أحاط بصلاة المسيح في (يو١٧):

منذ أول آية في الأصحاح السابع عشر، بدأ الجو الذي يحيط بالتلاميذ والمسيح يدخل في هدوءٍ مفاجىء، كهدوء السماء، مع رهبةٍ وهيبةٍ وجلالٍ!، يحسُّها القارىء إن كان حقاً على مستوى إنجيل يوحنا ...

والانطباع الشديد الذي يلقي بظله على فكر القارىء، أننا أمام مواجهة حقيقية بين الآب والابن؛ إنه حديث السماء، حديث الله مع نفسه، فيما يخص مستقبل الإنسان...

نحن لا نعلم بالضبط أين صلَّى المسيح صلاته هذه:

هل في العلِّية؟ لقد سبق أن قال: «قوموا ننطلق من ههنا» (يو١٤: ٣١)؛

هل في الطريق؟ وهل يمكن أن تقوم صلاة مثل هذه بين الغادي والرائح؟

هل في جثسيماني؟ ربما! لكن يقول العالم وستكوت ومعه آخرون([2])، إن الظن الغالب الذي يوحي به روح الكلام، أن هذه الصلاة قُدِّمت إلى الآب في الهيكل. و يرجح ذلك، خَبَرٌ سجله المؤرخ اليهودي يوسيفوس ([3]) أنه كان من عادة رؤساء الكهنة أن يفتحوا أبواب الهيكل في منتصف الليل للشعب، وخاصة الحُجاج، لحضور صلاة الفصح. فهل عرَّج المسيح على الهيكل مع تلاميذه، لكي يتخاطب رسمياً مع الآب، و يضع أساس كنيسة الدهور القادمة؟ ربما.

ومما يرجح ظننا هذا ــ أي احتمال حدوث صلاة المسيح في الهيكل ــ ما جاء في بداية الأصحاح الثامن عشر، حيث يقول معقِّباً على الصلاة مباشرة: «**قال يسوع هذا "وخرج مع تلاميذه إلى عَبْر وادي قدرون" حيث كان بستانٌ دخله هو وتلاميذه**» (يو١٨: ١). والمعروف أن وادي قَدْرُون يفصل الهيكل عن جبل الزيتون، حيث البستان المدعوُّ «جثسيماني». وهكذا ينحصر المعنى أن «**خروج**» المسيح هو وتلاميذه كان من الهيكل بعد الصلاة.

على كل حال، كان هدوء ذلك الليل في هذا الميعاد، وهذه المناسبة، في هذا المكان، يُزيد الشعور بخطورة الموقف.

---

[2] Westcott, *op. cit.*, p. 237.

[3] Jos., *Ant.*, XVIII, 2.2.

كل هذا جعل من هذه الصلاة نقطة تحوُّل عظمى في تاريخ، لا الجماعة الأولى وحدها، بل والكنيسة على مدى الدهور والعالم كله! لقد كانت البدء الحقيقي لاستعلان العلاقة الإلهية التي بدأت تربط الله بالإنسان، والدعوة العليا التي تلقَّاها الإنسان من خلال هذه الصلاة، ليدخل في وحدة مع الله وشركة. و يكفي برهاناً على ذلك وتوثيقاً، أن تسجيل هذه الصلاة العلنية هكذا في الإنجيل أعطت الفرصة لكل إنسان أن يسمع هذا الحديث، ويفهمه، ويحتفظ به لنفسه، ويأخذه كوثيقة لحسابه إن يشاء!!

والمسيح حينما بدأ صلاته، بدأ وكأنه في حالة تجلّي، مُعطياً للعالم ظهره، ليبدأ رحلته السِّرية الظافرة نحو الآب. وكان المسيح يصلي بتركيز شديد، موجّهاً كل مشاعره نحو الآب، ولكن كان التلاميذ حاضرين في صلاته وكأنه يستعلن لهم أقصى ما يمكن من أسرار حياته الخاصة وتعاليمه ومشاعره، كاشفاً لهم ومن أجلهم صلته السرية بالآب، وكنا نحن أيضاً حاضرين بصفتنا كلَّ الذين يؤمنون بكلامه، ولا زلنا حاضرين نسمع صوت الابن يصلي من أجل الكنيسة، وكلَّ الذين يؤمنون به و بكلامه.

وصارت صلاة المسيح هذه كنز إلهامات للكنيسة على مدى الدهور، تستمد منها دستور إيمانها، ومفردات تعليمها، وضوابط سلوكها، ومنتهى رجائها!

أما قلب هذه الصلاة النابض، فهو قول المسيح: «ولأجلهم أقدِّس أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضاً مقدَّسين في الحق» (يو١٧: ١٩). بمعنى أن المسيح ارتضى وتعيَّن منذ البدء أن يجعل نفسه ذبيحة خاصة من أجل العالم، لكي يقدِّم التلاميذ ذواتهم أيضاً ذبائح حية ومقبولة في ذبيحة المسيح، وهكذا يستمر الخلاص حيًّا فعَّالاً، حتى يتغير وجه العالم، و بهذا ينتهي عمل المسيح بتكريس البشرية لله!

تقسيم الصلاة:

من العسير تقسيم الصلاة تقسيماً منهجياً صحيحاً، لأنها صلاة؛ والمسيح لم يبوِّبها مُسْبقاً، بل كان يعود إلى ذكر الأمر نفسه في مواضع متباينة.

ولكن بقدر الإمكان قسَّمها الشُرَّاح إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

القسم الأول: (١-٥): حيث يقدِّم الابن نفسه إلى الآب في المجد المشترك.

القسم الثاني: (٦-١٩): يقدِّم وصيته للآب فيما يخص التلاميذ الحاضرين معه الصلاة.

القسم الثالث: (٢٠-٢٦): يقدِّم وصيته للآب فيما يخص الكنيسة على طول المدى.

القسم الأول فيما يخص صلته بالآب: (يو١٧: ١ــ٥).

حيث يصلي من أجل:

١ ــ مجده الذي يُنشيء مجداً للآب.

٢ ــ عمل الابن على الأرض من حيث غايته.

٣ ــ من حيث أسلوب عمله على الأرض.

٤ ــ من حيث اكتمال عمله حسب المواصفات المعطاة.

٥ ــ طلب استعادة مجده السالف على أساس اكتمال كل شيء.

١:١٧ **«تكلَّم يسوعُ بهذا، ورفَعَ عينَيهِ نحوَ السماءِ وقالَ: أيُّها الآبُ قد أتَتِ السَّاعةُ، مَجِّدِ ٱبْنَكَ لِيُمجّدَكَ ٱبْنُكَ أيضاً».**

«تكلم يسوع بهذا»:

واضح هنا العلاقة الصميمة بين التعليم السابق وبين هذه الصلاة، صحيح أنها كانت نقلة مفاجئة ولكن دون انقطاع في المنهج العام، فهو انتقال من التعليم فيما يخص الخلاص إلى الدخول العملي في سِرِّ الفداء.

كانت آخر جملة قالها المسيح قبل دخوله في الصلاة هي: «ثقوا، أنا قد غلبتُ العالم» (يو١٦: ٣٣)! كان هذا هو المدخل الرسمي لصلاة التكريس التي كرَّس فيها نفسه للموت، كآخر مرحلة في مراحل خطة الخلاص التي جاء بها من عند الآب.

و«أنا قد غلبتُ العالم» معناه تقديم الوثيقة التي تعني أنه غلب كل شيء في العالم، ولا يوجد فيه خطيَّة واحدة تمنعه من أن يقدم ذبيحته لأجل الآخرين، وليس عن نفسه. فبطهارته وقداسته الكاملة تأهَّل أن تكون ذبيحته شاملةً لكل العالم، لأنه غلب في معركة العالم. وبناءً عليه، فقد استحق أن تُقبل ذبيحتهُ على أساس استعلان مجده جنباً إلى جنب، حتى تُفهَمَ الذبيحة أنها ذبيحةٌ إلهية، لها ما لها من أثر وفاعلية دائمة، ذبيحة الغالب، وكلُّ من يشترك فيها يشترك في انتصارها. فهي ذبيحة إنتصار لحسابنا، كما يقرر ذلك ق. يوحنا في رسالته الأُولى: «كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح، فقد وُلد من الله، ... لأن كل من وُلِدَ من الله **يغلب العالم**. وهذه هي

الغلبة التي تغلب العالم، إيماننا. **مَنْ هو الذي يغلب العالم؟ إلاَّ الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله.»** (١يو٥: ١و٤و٥)

وما هي «**غلبة العالم**» بالنسبة للذين آمنوا بالمسيح واشتركوا في ذبيحته، قولاً بالإيمان، وعملاً بأكل الجسد وشرب الدم؟ هي اقتفاء حياة المسيح والاقتداء به: «ينبغي أن أكون فيما لأبي» (لو٢: ٤٩)، «لكن ما كان لي ربحاً، فهذا قد حسبتهُ من أجل المسيح خسارةً. بل إني أحسب كل شيء أيضاً خسارةً من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي، الذي من أجله خسرتُ كل الأشياء، وأنا أحسبُها نفايةً لكي أربح المسيح.» (في٣: ٧–٨)

غلبة العالم هي الانتباه، حتى لا نتعلق بالمادة أو بمظاهر العالم الجاذبة «للرغبة»، المشوقة لاستعباد الحواس؛ وهي إما خداع راقٍ كالجمال والحب والفن، وإما خداعٌ منحطٌّ كالجنس ولذة الأكل والشرب. لذلك نجد أن عنصر «غلبة العالم» سيصبح أساساً لتنويع درجاتنا في السماء، كنهاية النهاية: «مَنْ يَغْلِبْ، فسأُعطيه أن يجلس معي في عرشي، كما غلبتُ أنا أيضاً وجلستُ مع أبي في عرشه» (رؤ٣: ٢١)؛ وهذا بحد ذاته أعلى مستويات الوجود الروحي للإنسان، الذي آمن بالمسيح واقتفى أثر حياته وتقوَّى بها.

والملاحظ أن غلبة المسيح على العالم بحياته، أعطته بالضرورة أن يغلب الموت بموته: «رئيسُ هذا العالم يأتي وليس له فيَّ شيء» (يو١٤: ٣٠). وصار لقب المسيح في السماء «الغالب»: «خرج غالباً، ولكي يغْلب» (رؤ٦: ٢). وغلبة المسيح منحها لنا كشركة في موته وقيامته، بهذه هتف بولس الرسول: «يَعْظُـم انتصارُنا بالذي أحبَّنا» (رو٨: ٣٧)، أي أن المسيح كمنتصر سيمسك بيدنا لننتصر ونعْبُرَ. فالانتصار أساس الانتقال من العالم إلى الله؛ لأنه لما أكمل المسيح الانتصار على العالم، تهيَّأ للانتقال إلى الآب.

«ورفع عينيه نحو السماء وقال»:

هنا انتقل المسيح بنفسه وبسامعيه ودخل مباشرة في الحديث على المستوى الإلهي، فرفع عينيه إلى السماء، يعني اتجه بكل كيانه نحو الوجود الإلهي المطلق. فالسماء رمز الحضرة الإلهية الدائمة. ولأول مرة يسمع الإنسان حديثاً سرياً بين الابن والآب السماوي. فالحديث موجَّه للآب مباشرة، ولكن على مستوى الأذن البشرية لتسمع، والقلب ليفهم، ويرتقي بوعيه الروحي للمدارك الإلهية العالية. فالإنسان في هذه الصلاة، وبهذه الصلاة، مدعوٌّ رسمياً للدخول في هذه الشركة السرية بين الابن والآب، من خلف الابن الواقف يصلي بنا.

«أيها الآب»(٤):

هكذا جاءت الترجمة اليونانية. ولكن الأصل العبري الذي تكلم به المسيح هي اللفظة المشهورة أبّا ἀββα وبالإنجليزية Father . والنطق بهذه الكلمة معناه الاتجاه المباشر بين المسيح وأبيه السماوي. ولكن لم يقل: «يا أبانا»، فالصلاة لا تحسَب أنها عامة وكأنه واحد من العامة. ولم يقل «يا أبي»، لذلك فالصلاة تُحسَب هنا أنها **ليست سرِّية خاصة**، فهي داخلة في الصفة التي تجعلها صلاة البشرية كلها بفم المسيح بين الابن والآب بآن واحد. لذلك يقولها علناً وبالصوت المسموع: «أيها الآب»، ويُحسَب هذا استعلاناً وكشفاً لسر العلاقة المباشرة والاتصال الجوهري الذاتي بين الابن والآب في وضعه المطلق، هذا الذي استلمته الكنيسة وعبَّرت عنه أيضاً بالنداء «يا أبَّا الآب»: «إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف (من الله بعد) بل أخذتم **روح التبنِّي** الذي به نصرخ "**يا أبا الآب**"» (رو٨: ١٥)، وقد كررها بولس الرسول لترسخ في أذهاننا كميراث حقيقي: «ثم بما أنكم أبناءٌ، أرسل الله روح ابنه (البُنوّة) إلى قلوبكم، صارخاً **يا أبا الآب**» (غل٤: ٦)، وكأن المسيح في قلوبنا يدعو الآب بدالة البنوة.

ففي الحقيقة، هذه الصيغة التي خاطب بها المسيح الله: «أيها الآب»، توضح كيف يحصر المسيح نفسه في الجنس البشري، لا كواحد بل كمَنْ يمثِّل الإنسان ككلٍّ، ولكن بجرأة تفوق قامة البشرية، إنها جرأة مَنْ هو وحده يعرف الآب، وله الآب، وهو آتٍ إليه!

«قد أتت الساعة»:

لاحظ أن المسيح كان يعرف ميعاد الساعة بالضبط، بل وما تحمله هذه الساعة من المهانة والمجد، من الذِلّة والرفعة، من الموت والقيامة! فلما كان العالم يستحثُّها للمجيء: إما بدفع المسيح للظهور في مجده سواء من أمه أو من إخوته؛ وإما لاستعلان المهانة المخبأة فيها وذلك من اليهود ورؤساء الكهنة؛ كان المسيح يحجزها بسلطانٍ: «لم تأتِ ساعتي بعد» (يو٢: ٣). ولكن الآن أدرك أنه قد استنفذ زمانه على الأرض، وحان موعد الكأس ليشربها بكل ما فيها، وليعبرَ إلى الآب

---

(٤) نقول باختصار أن «الآب» هو مصدر القوة الإلهية المفكِّرة الواعية اللانهائية، ومصدر النور والحياة والإرادة والقداسة والمحبة التي لها القوة لتجذب كل شيء. و«**الابن**» هو الفعل: الفعل لقوة الآب وفكره ووعيه، وهو كلمة هذا الفكر وفعل حياة الآب وعمل إرادته، والمنفِّذ لحبه المطلق. لذلك كان بالضرورة أن الفعل (الكلمة) يكون هو الخالق، كفعل إرادة الآب للخلق. وهو أيضاً وبالضرورة، الخالقُ للكائنات الروحية كفعل حياة وروح مطلق للخلق الواعي. و«**الروح القدس**» هو روح الآب، وروح الابن، قوة الحياة المطلقة في الآب والابن، فهو الشاهد لما بين الآب والابن، شهادة مدركة ومنطوقة في الآخرين، وهو قوام الحياة وديمومتها ونموها وسر غبطتها واتحادها بالله.

عَبْر الصليب والهوان: «وأما يسوع، قبل عيد الفصح، وهو عالمٌ **أن ساعته قد جاءت** لينتقل من هذا العالم إلى الآب (أخذ الكأس وذاق وأعطى التلاميذ)» (يو١٣: ١). المسيح كان يعلم أنه (أي العبور) ليس هو موتٌ بل انتقالٌ!! في ذلك يقول القديس أغسطينوس:

[وقد بيَّن (المسيح) أن الزمن كله، وأن كل مناسبة عمل فيها عملاً، أو سمح بشيء ما أن يُعمل، فإن ذلك كله هو بتدبيرٍ منه، بينما هو لا يخضع للزمن.](٥)

«مجّد ابنك، ليمجّدك ابنُك أيضاً»:

هذا هو مضمون الساعة، فقد أتت الساعة التي يتمجّد فيها الابن. وقد سبق وأن أعطى المسيح لهذه الساعة مضمونها: «وأما يسوع فأجابهما (فيلبُّس وأندراوس) قائلاً: **قد أتت الساعة، ليتمجّد ابن الإنسان**» (يو١٢: ٢٣). كما أن طلب التمجيد هذا يغطي مضمون هذا الجزء الأول من الصلاة (١ــ٥).

والتمجيد هنا هو في مفهوم المسيح **استعلان طبيعته الإلهية للعالم**. وحقيقة طبيعته تظهر للعالم بواسطة قيامته المنتظرة، أي انتصاره على الموت؛ التمجيد الذي يستحقه بالفعل في مقابل انتصاره على العالم. فهنا طلب المسيح يختص بصميم الإعلان عن رسالته للعالم للخلاص المنشود. على أن قيامته علناً وصعوده إلى الآب ستؤول حتماً إلى استعلان وتمجيد الآب! حيث يتضح أن خطة الخلاص تبتدىء بإرسال الآب للابن لخلاص العالم، وتنتهي بذهاب الابن إلى الآب، مُتمِّماً هذا الخلاص. وهكذا تُستعلن حقيقة وطبيعة الآب، باستعلان حقيقة وطبيعة الابن، الأمر الذي عبَّر عنه المسيح: «مجّد ابنك، ليمجّدك ابنُك أيضاً». هذا يفسره بولس الرسول بمنتهى الوضوح والقوّة في رسالته إلى فيلبي: «لذلك رفَّعه الله أيضاً، وأعطاه اسماً فوق كل اسم. لكي تجثو، باسم يسوع، كلُّ رُكبة ممَّن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض، و يعترف كلُّ لسان أن يسوع المسيح هو **"ربٌّ"** (اسم يَهْوَه في القديم) **لمجد الله الآب.**» (في٢: ٩ــ١١)

ويلاحظ من هذا الطلب في الصلاة، أن «**مجّد** ابنك» تجيء ولها هدف مباشر: «**ليمجّدك ابنُك**». هنا واضح العلاقة الصميمة والمتبادلة على المستوى الواحد بين مجد الابن ومجد الآب، كما يتضح بالمنطق أن أيًّا من مجد الابن أو مجد الآب لا يُستَعْلَن بدون الآخر، فالارتباط بين مجد الابن ومجد الآب جوهري ولكن المطلوب في النهاية هو مجد الآب! لهذا يلزم أن نربط هذا الطلب: «مجّد ابنك ليمجّدك ابنُك أيضاً»، بطلب سابق ألحَّ عليه المسيح وهو في بدء التجربة: «الآن نفسي قد

(٥) Augustine, *op. cit.*, p. 394.

اضطربت، وماذا أقول، أيها الآب نجّني من هذه الساعة، ولكن لأجل هذا أتيتُ إلى هذه الساعة، أيها الآب مجّد اسمك. فجاء صوت من السماء: مجّدتُ وأُمجّد أيضاً» (يو١٢: ٢٧و٢٨). وكان تعقيب المسيح على هذا الصوت: «ليس من أجلي صار هذا الصوت بل من أجلكم» (يو١٢: ٣٠). وواضح أن هذا الطلب السابق كان هو الطلب لتمجيد اسم الآب، وذلك بالتدخُّل في عمل المسيح الذي يعمله باسم الآب، والقصد أن يتمجّد الآب بموت المسيح، حينما يَستعلِنُ غلبته على الموت بالقيامة، فيتمجّد عمل المسيح كله، وبالتالي الاسم الذي يعمل به ومن أجله!

وهنا في هذه الآية (١٧: ١) يتكرر الطلب بوضوح، على أساس أن تمجيد الابن يُنشِئُ تمجيدَ الآب، وهو القصد والنهاية. ثم لا ننسى، أنه تطبيقاً للآية الأولى (١٢: ٣٠)، فإن طلبَ المسيح المجد من الآب، لم يكن من أجل نفسه، بل من أجل السامعين، أي التلاميذ والعالم من بعدهم، وبالنهاية "ليتمجّد الآب".

كذلك، فإن قول الآب من السماء ردًّا على طلب الابن في الآية (١٢: ٢٧): «مجّدت وأُمجّد أيضاً»، يوضّح أن الآب مجّد اسمه في أعمال المسيح كلها، وهو يتمجّد في ختام عمله بقيامة المسيح من الموت!

هنا أيضاً بالمثل في الآية (١٧: ١)، فإنه بقدر ما سيتمجّد المسيح بالقيامة من الأموات، هكذا سيتمجّد الآب حتماً: «... الذي أقامه الله» (أع٢: ٢٤). ويجمل تعليم المسيح لخّصه المسيح في "السعي لمجد الآب" هكذا: «مَنْ يتكلّمُ من نفسه، يطلبُ مَجْدَ نفسه، وأما مَنْ **يطلب مجد الذي أرسله، فهو** صادقٌ، وليس فيه ظلم.» (يو٧: ١٨)

تماماً كما يلخِّص المسيح كل عمله على الأرض، أنه كان لحساب الآب، أي لمجده **ولاستعلانه:** «العمل الذي أعطيتني لأعمل، قد **أكملته**. أنا **مجّدتُكَ** على الأرض... أنا **أظهرتُ اسمك** للناس.» (يو١٧: ٤و٦)

والمعنى البسيط الذي نستنبطه من مفهوم المجد بالنسبة للمسيح، هو في الواقع استعلانُ لاهوته وسلطانه المطلق على الموت، أو بمعنى إنجيلي عملي: استعلان قوة قيامته الإلهية وذهابه إلى الآب وجلوسه عن يمينه: و«المجد» في مفهومه الأساسي كأصلٍ ومنبعٍ، هو طبيعة الله في مفهوم سُمُوّه المطلق والفائق، وبقدر القرب منه ينتقل المجد إلى الآخرين. فللملائكة «**مجدٌ**»، وللأرواح

كُرز به بين الأمم، أومِنَ به في العالم (أخيراً أدرك العالم حقيقته)، **رُفع في المجد** (آخر منظر سماوي له).» (١تي٣:١٦)

كذلك يلزم أن نتنبه أن «مجد» المسيح ليس صفة يمكن أن ندركها بمفردها، لأنها كما سبق وقلنا هي استعلان حقيقته الإلهية التي لا تُدْرَكُ إلاَّ بالإيمان، ومن خلال عمله الذي أكمله على الأرض والذي لا يزال يكمِّله عنا في السماء. وغاية استعلان المسيح، هي أن يدرك العالم حقيقته الإلهية الجوهرية، أنه والآب واحد في المجد؛ إلى هنا ينتهي عمل المسيح و ينتهي معه التاريخ. فالتاريخ كله وُضع لكي ينتهي عند كمال استعلان المسيح، أي بلوغ الخلاص الكلي.

٢:١٧ **«إذْ أَعْطَيْتَهُ سُلطاناً على كلِّ جَسَدٍ، ليُعْطِي حياةً أبديةً لكلِّ مَنْ أَعْطَيْتَه».**

«إذ»: καθώς

«إذ» أتت هنا بمعنى **«كما»**، كما جاء في الآية ١٧: ٢٢: «ليكونوا واحداً، **كما** καθώς أننا نحن واحد»؛ وأيضاً في ١٧: ٢١: «ليكون الجميع واحداً، **كما** καθώς أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك». فالمعنى هنا **هو التساوي في المناسبة**. لذلك، فهذه الآية تشرح لزومية وأحقيَّة ما سبق، بمعنى أن يطلب المجد على قياس، أو بداعي، أنه أُعْطِيَ سلطاناً ليعطي الحياة الأبدية لكل جسد!

هنا القول: **«أعطيْته سلطاناً على كل جسد»**، تفيد بحد ذاتها ألوهيته المطلقة. فـ«كلِّ جَسَدٍ» تعني «كلِّ بشرٍ» بتعبير العهد القديم. وهذا هو سلطان الله وحده! «يا سامع الصلاة إليك يأتي **كلُّ بَشَرٍ**» (مز٦٥: ٢). وإعطاء الابن الحق بإعطاء الحياة الأبدية لكل بشر، هي واحدة من المُطْلَقَاتِ التي استلمها الابن، فقد أعطاه الآب كلَّ شيء بصورة مطلقة: «الآبُ يحبُّ الابن. وقد **دَفَعَ كلَّ شيء في يده**» (يو٣: ٣٥)، «يسوع وهو عالمٌ أن الآب قد **دفع كل شيء إلى يديه...**» (يو١٣: ٣)، وأعطاه الدينونة: «الآب لا يدين أحداً، بل قد **أعطى كلَّ الدينونة للابن.**» (يو٥: ٢٢)

من هذا يتبين أن المسيح كان يخدم خدمة المجد، وهذا معنى قول الصوت من السماء: «مجَّدتُ» (يو١٢: ٢٨)، أما طلب المسيح للمستقبل فقد حُفظ له بوعد: «وأُمجِّد أيضاً».

ولكن للأسف فإن خدمة المجد هذه، بالرغم من أنها كانت في صميم المجد، إلاَّ أنها لم تكن

مفهومة ولا مُدْرَكَةً، بل وكان مُفْترياً عليها. هذا يعني أن مجد المسيح في أعماله وحياته كلها على الأرض، كان مختبئاً في النهاية، أو أنه كان يعمل على أساس استعلان النهاية.

«على "كلّ" جسد... "لكلّ" مَنْ أعْطَيْته»:

المعنى قد يبدو متضارباً، إذ كيف أعطي الابن سلطاناً على كلّ جسد، ثم يعود و يقتصر الفعل على مَنْ أعطاه الآب فقط؟! فهل للمسيح سلطانٌ على مَنْ يريد الآب أن يعطيهم حياة أبدية؟ نعم، فسلطان الابن مُطلق بالفعل على كل جسد، ولكن منهم مَنْ لن يقبل الحياة الأبدية التي يدعو إليها الآب، برفضه المسيح، هؤلاء يبقى سلطان المسيح عليهم للدينونة وليس للحياة الأبدية!!

ولكن ما هي الحياة الأبدية التي أعطي الابن سلطاناً أن يعطيها لنا؟

٣:١٧ **«وهذه هي الحياةُ الأبديةُ أنْ يَعْرِفوكَ أنتَ الإلهَ الحَقِيقيَّ وَحْدَكَ، ويَسُوعَ المَسِيحَ الذي أرسَلْتَهُ».**

الحياة الأبدية(٦):

أ ـــ هي اسم قد استخدمه المسيح ـــ في إنجيل ق. يوحنا ـــ للتعبير عن نفسه: «أنا هو القيامة والحياة» (يو١١: ٢٥)، وعن عطائه لهذه الحياة.

فلأن له هذه الحياة في ذاته، مثل الآب، فهو يُحْيي مَنْ يشاء مثل الآب (٥: ٢١و٢٦).

ولأنه نزل من السماء، ودخل العالم ملتحماً فيه بتجسُّده، فقد أعْطَى العالم هذه الحياة بجسده (٦:٣٧).

وفوق كل شيء، فهو يمنح حياته لأخصَّائه الذين يلتصقون به ويتبعونه من كل قلوبهم (١٠: ٢٨)، وللذين يسمعونه ويدخل صوته إلى أعماق قلوبهم (٥: ٢٤). وبسبب كل هذا العطاء المتعدِّد الوسائل للحياة، يقول المسيح إنه هو «الحياة» (١١: ٢٥)، كقوة فعَّالة مُحْيِيَة.

ولكن كل هذا العطاء يتركز في تقديمنا إلى الله أبيه من خلال عطائه لهذه الحياة (١٤: ٦).

أما الوسائل التي استودعها سر الحياة لكي نَقْرُبَها ونحن في موضعنا على الأرض، دون عناء، فهي تكمن في سر الشكر بكسر الخبز وشُرب الكأس بعد البركة (الإفخارستيا) (٦: ٣٥و٤٨)، وفي سر الماء بالدفن فيه، وكأننا نموت لنحيا ونقوم معه (المعمودية) (٣: ٥)، وفي سر الكلمة (٤: ١٠

(٦) راجع المدخل ص١٣٥ــ١٤١.

و٦: ٦٣ و٦: ٦٨)، وفي سر الإيمان الحقيقي (٧: ٣٨).

أما كُنْهُ هذه الحياة بالمفهوم الإنساني الاختباري، فهي النور الحقيقي(٧) ــ أنا هو نور العالم ــ ونور الحياة (٨: ١٢)، «والحياة كانت نور الناس» (يو١: ٤)، النور الذي يدخل الإنسان فيضيء كيانه ويفتح وعيه، ليدرك نفسه فيُدرِكَ خالقه. يدخل الإنسان في النور، فيُدرِكُ الله، ويعيش في حضرته (١يو١: ١ــ٤)، لأن «الله نور.» (١يو١: ٥)

ب ــ **«والحياة الأبدية»** في إنجيل ق. يوحنا هي المقابل **«لملكوت الله»** في الثلاثة الأناجيل الأخرى. غير أن اسم «ملكوت الله» هو تعبير من تعابير التراث اليهودي، يفهمه اليهود على أساس أن الله كان يملك على إسرائيل على المستوى الفكري الضيق. في إنجيل يوحنا، المسيحُ يخاطب العالم كله، فالحياة الأبدية بالنسبة له هي الحياة الأفضل والأعلى والدائمة، بالمقارنة مع الحياة الأقل التي يألفها الناس عامة تحت نور الشمس على الأرض، وفي «**ظلّ** الله» وليس في نوره، حياةٌ طبيعتها المادة المحسوسة التي تقيم أَوَدَها من أكلٍ وشُرْبٍ وتَنَفُّس، يحكمها الزمان والمكان والحرارة والجاذبية، ويحدُّها الطولُ والعرضُ والارتفاعُ. الحياة الأبدية ليست كذلك، فهي حياة متحرِّرة من كل ضوابط المادة. فإن كانت الحياة الحاضرة يلزمها عقل الحسيَّات والمُدْرَكات الحسية، فالعقل لا يصلح كأداة لمعرفة الحياة الأبدية. هنا تنبري الروح الواعية بالعقل العالي الواعي، الذي يدرك المُطْلَقَاتِ، من نوع طبيعة الحياة الأبدية نفسها؛ هذا العقل يعمل الآن بصورة جزئية، لذلك فالإنسان أُعطي له في هذا الزمان إدراك الله والحياة الأبدية إدراكاً جزئياً.

وكلمة «الحياة الأبدية» ليست غريبة عن الفكر والتراث اليهوديين، فهي واردة في الأسفار بمفهوم معنى الخلاص، بصيغة مبهمة. ولكي نفرق بين الحياة في العالم والحياة مع الله، أُعطي للحياة صفة الديمومة الإلهية **«الأبدية»**. فكلمة «الحياة» وهي مُعرَّفة وموصوفة بالأبدية، تُعرف وتُقرأ على مستوى الإنسان، أما على مستوى الله والمسيح، فلا يقال أنه الحياة الأبدية بل **«الحياة»**، ــ كقوة وليس كاسم ــ فهو الذي يخلق الحياة ويقيمها، وهذا يتضح من وصف المسيح لكلماته الخارجة من فمه بل من كيانه الإلهي: «الكلام الذي أُكلِّمُكم به هو روح وحياة» (يو٦: ٦٣)، لأن **«الكلمة»**، في المفهوم الاعتباري العالي، هي تعبير عن الذات والكيان (يو٦: ٦٨).

ج ــ فإذا فهمنا الحياة الأبدية على ضوء معنى ملكوت الله، فهي الحياة التي يملك الله عليها

(٧) راجع المدخل ص١٤١.

بروحه، حيث يحيا الإنسان بقيادة روحه القدوس، وحسب مشيئته، سواء بالفكر أو بالعمل وجعله الغاية لكل شيء. ودخول الإنسان الحياة الأبدية هو كدخوله ملكوت الله، وكأن الإنسان يولد لحياة أعلى، ليس عشوائياً كما يُولَدُ الإنسان من بطن أُمه، بل بالوعي الجديد لحياة أخرى، حيث عامل الإيمان هو الأساس، فيرتقي الإنسان بأفكاره وأعماله وكل مَلَكَاتِه، وكأنه خُلِق من جديد. وفي الحياة الأبدية ــ التي يحصل عليها الإنسان ــ يكون الله قُطْبها الجاذب وعنصر ديمومتها الفعّال، يستمد منه الإنسان صفاته الجديدة، حيث يُقال ــ عن حقٍّ ــ أن الإنسان يصير شريكاً في الطبيعة الإلهية: «بمعرفة الذي دعانا بالمجد والفضيلة، اللذين بهما قد وَهَب لنا المواعيد العظمى والثمينة، لكي تصيروا بها شُرَكَاءَ الطبيعة الإلهية، هاربين من الفساد الذي في العالم بالشهوة.» (٢بط ١: ٣و٤)

وتكون حيازة الحياة الأبدية، هنا، كالعربون، كسَبْقِ مَذاقٍ، وهناك بالامتلاك والإقامة. لهذا يُقَالُ عن حقٍّ أننا نرث ما لله في المسيح يسوع كأبناءٍ بالتبنِّي.

د ــ إعطاء الحياة الأبدية:

هنا يجيء إعطاء الآب السلطان للابن على كل جسد، أي على الخليقة البشرية كلها، ليعطي الحياة الأبدية حسب مشيئة الآب، في هذا الزمان استعلاناً سرياً لماهية «الابن» المتجسد، فهو يمتلك الحياة في ذاته أولاً: «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياةٌ في ذاته» (يو٥: ٢٦). ثم إن له سلطان الله في إعطاء الحياة الأبدية منذ الآن: «من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية، ولا يأتي (مستقبلاً) إلى دينونة، بل (الآن) قد انتقل من الموت إلى الحياة.» (يو٥: ٢٤)

معنى ذلك أن الآب والابن يشتركان معاً في إعطاء الحياة الأبدية، حسب نص الآية: «**ليعطي** حياة أبدية لكلِّ **من أعطَيْتَه**»؛ المسيح يعطي بالفعل، والآب بالمشيئة والاختيار. ويستحيل فصل الفعل عن المشيئة المتمّمة له، ولا المشيئة عن الفعل؛ فالآب «والابن المسيح» يعطيان الحياة الأبدية؛ وبناء على ذلك يتحتم أن تكون الحياة الأبدية هي معرفة الآب والابن معاً، بحيث لو قال المسيح: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك» فقط، لاستحال الأمر، لأن الحياة الأبدية أُعطيت بالابن يسوع المسيح. فبدون الابن يسوع المسيح، لا تكون حياة أبدية للناس. وكما أنه بغياب الحياة الأبدية، تغيب معرفة الله في ذاته، وهي المعرفة المؤدية لخلاص الإنسان، وتنحجب طبيعة الله كآب وابن عن الوعي البشري؛ كذلك فإنه بدخول

الحياة الأبدية، تنكشف حقيقة الآب والابن، و يدرك الإنسان سرَّ الله والخلاص.

من هذا يتضح حتمية ذكر: «**ويسوع المسيح الذي أرسلته**»(٨) مع «**يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك**»، لأن معرفة الآب والابن هي جوهر الحياة الأبدية، وهي جوهر الإيمان بالتالي؛ هي معرفة ليست بالفكر المجرَّد، بل بطاقة الحياة الواعية العاملة لحساب الله والحياة الأبدية، كقوة وعي إيماني تُقرِّبُنا إلى الله، وتُحْضِرُنا أمامه.

هـ ــ ولكن ما هي الحياة الأبدية على مستوى الاختبار؟

لكي نعرف ما هي الحياة الأبدية على مستوى الاختبار اليومي، يلزم أن نعرف أولاً الفرق بين الحياة الأرضية التي تنتهي بالموت، وبين الحياة الأبدية التي لا يوجد فيها موتٌ. فالحياة المائتة كلها متغيِّرات؛ فالفرح المعروف فيها قابلٌ للتغيير وينقلب إلى حزن، والسلام ينقلب إلى قَلَقٍ واضطراب، والحب ينقلب إلى بُغضة وكراهية، والأمل والرجاء إلى يأسٍ وقنوط.

أما طبيعة الحياة الأبدية، فكلُّ صفاتها وأحوالها دائمة، غير قابلة للتغيير للضد، بل إلى الأفضل دائماً.

والآن، فإن كلَّ مؤمن بالمسيح لا بد وأن يكون قد جاز فترة من فترات الفرح الروحي المُبْهِج، وحمل آثارها في نفسه، يذكرها فتنتعش روحه، سواء كان ذلك على أثر سماع عظة أو قراءة كتاب روحي أو فصل من الإنجيل أو أثناء الصلاة. تلك اللحظات التي لا زالت منطبعة في نفسه وروحه، هي لحظة من لحظات الحياة الأبدية، ومَذَاقُها فوق الطبيعة، وهي كافية أن تعزِّي الإنسان أثناء مصادماته لتجارب الحياة. ولكن يوجد مؤمنون جازوا فترات أطْوَل، من هذا النوع من الفرح أو السلام أو الغبطة الروحية، حيث صارت لهم مجالاً دائماً يلوذون به في مواجهة العواصف وزعازع الحياة الأرضية.

وما يُقَالُ عن الفرح، يقال عن السلام الروحي، وكل تذوُّقات نِعَم الحياة الأبدية الأخرى التي تطفح على النفس، فتملأها هدوءاً وطمأنينة ورجاءً وعفَّة وقداسة وتمجيداً دائماً والتصاقاً حاراً بالرب. وهؤلاء الذين يذوقون هذه، يختبرون الصلاة بالروح، والسجود بالروح، والتسبيح بالروح، ببهجة تفوق العقل.

(٨) راجع المدخل ص١٦٢.

هذه هي الحياة الأبدية، وهذا هو سَبْقُ مذاقها. وأوضح صفاتها، أن أثرها لا يزول على مدى عمر الإنسان كله، وهي تجعله يَسْخَر من تقلُّبات الأيام والسنين، وتبقى حصناً أميناً للنفس.

هذه هي الحياة الأبدية المبهجة التي سوف نحيا مِلْئها فوق. هذه هي الحياة الأبدية التي هي عينها الحضرة الإلهية، وهي نفسها تذوُّق العِشْرةَ مع المسيح، بل هي حياة المسيح والآب. لذلك يقول ق. يوحنا، إنه لما أُظهرت الحياة الأبدية في شخص يسوع المسيح، والتي كانت مخفية في الله، ورآها في شخصه، وشاهدها بروحه في تعاليمه، ولمسها بقلبه وروحه لَمْسَ اليد، صارت له شركة مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح (اقرأ ١يو١: ١ـ٤)؛ أي أن معرفة الآب وابنه يسوع المسيح، بالاستعلان، هي عينها الحياة الأبدية، وهي عينها الشركة مع الآب والمسيح! بل والإخبارُ بها يعطي نفس الشركة: «الذي رأيناه وسمعناه، نخبركم به، لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا.» (١يو١: ٣)

«أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته»:

«يعرفوك»: γινώσκωσι

صيغة الفعل هنا استمرارية، فنحن هنا بصدد الحياة الدائمة والأبدية. والمعرفة هنا منصبّة على «أنت الإله الحقيقي وحدك» أي الآب؛ و«يسوع المسيح الذي أرسلته» هو الابن المتكلِّم عن نفسه ولكن بصيغة الغائب. ومعرفة الله ليست كمعرفة الناس أو الأشياء أو المعارف العالمية. فأداة معرفة الدنيا هي العقل المحسوس العامل بالمخ البشري. وأما معرفة الله، فلا تُؤْتَى بالعقل، بل بالوعي الروحي، وهو العقل أو الذهن العالي المختص بالمُطْلَقات؛ وهذا يكتسب المعرفة بالاستعلان، أي يُسْتَعْلَنُ له الحق، فيدركه. والاستعلان يأتيه من فوق، من خارج الكيان الإنساني، بالخبر الإلهي، أي بالبشارة بأمور الله المُفرِحَة والسارة، سواء بالكلمة المنطوقة أو المكتوبة أو الرؤيا: «إن كان منكم نبي للرب. **فبالرؤيا أَسْتَعْلِنُ له، في الحلم أُكلِّمه**؛ وأما عبدي موسى، فليس هكذا بل هو أمين في كل بيتي، **فماً إلى فم وعياناً أتكلم معه**، لا بالألغاز، وشِبْهَ الرب يُعاين.» (عد١٢: ٦ـ٨)

والمسيح افتتح عهد الملكوت أو الحياة الأبدية للإنسان، على مستوى كلمته: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يو٦: ٦٣). هنا المسيح يُعرِّفنا بالحياة التي فيه، بواسطة سماع الكلمة وقبولها: «الحق الحق أقول لكم: إن مَنْ **يسمع كلامي**، ويؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية، ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة.» (يو٥: ٢٤)

التعرُّف على المسيح، هو هو التعرُّف على الآب، لأن رسالة المسيح هي استعلان الآب الذي فيه، بالكلمة والعمل: «الذي رآني، فقد رأى الآب» (يو١٤: ٩). فالمسيح هو مُسْتَعلِنُ الآب. والتعرُّف على المسيح والآب، هو الحياة الأبدية. على أن المعرفة هنا لا يمكن أن تسمى معرفة فكرية أو عقلية، بل معرفةً بالاستعلان، أي كشف الحقيقة؛ والحقيقة لا تنكشف إلاَّ لمستحقِّيها، أي تُسْتعلَن للآخذين فقط. فالله يُستعلن، أو يُعرف معرفة حقيقية، لأخصائه، أي الذين له، أي الذين استملكهم وامتلكوه. **فالمعرفة للآب والابن هي بعينها شركة مع الآب والابن،** كما يعلن ق. يوحنا: «فإن **الحياة** أُظهِرَتْ، وقد رأينا، ونشهد، ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب، وأُظهِرَتْ لنا. الذي رأيناه وسمعناه، **نُخبِرُكم به، لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا.** وأما شركتُنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح.» (١يو١: ٢و٣)

واضح هنا أن «الحياة» هي المسيح، و«أظهرت» بالتجسد، وقد استُعلنت في المسيح، **فعرفوا** الآب والابن. وما أدركه ق. يوحنا بالاستعلان المباشر بمعاشرته للمسيح نفسه، ينقله لنا، أي ينقل الاستعلان الذي حصل عليه، ينقله لنا بالخبر، ونحن من هذا الخبر نحصل على الاستعلان كاملاً بالإيمان بصدق الإنجيل. أما ق. يوحنا، فبالاستعلان الذي بالإيمان حصل على شركة في المسيح والآب، وهو يدعونا إلى نفس الشركة معه، على مستوى تصديق الإيمان لقبول الاستعلان. **هذه هي** «معرفة» الآب والابن.

كما نلاحظ في هذه الآية (١٧: ٣) أن «معرفة الآب» تساوي «معرفة يسوع المسيح»، في بلوغ الحياة الأبدية. هذا التساوي هو على مستوى الفعل والعمل. هنا ممارسة حقيقية نحصل بها حالياً على الغبطة، التي هي عربون سعادتنا القادمة الدائمة. ولكن ملءَ معرفة الآب والمسيح مدَّخرة لنا في الحياة الأخرى، التي هي بعينها ممارسة سعادة الحياة الأبدية ذاتها.

في سفر الرؤيا نجد أن الصفات الأساسية التي بها يُخاطَبُ الله الآب هي نفسها التي يُخاطَبُ بها ويوصف المسيح الممجَّد. ففي الآية (٦: ١٠) نسمع أرواح الشهداء تصرخ لدى الله قائلة: «وصرخوا بصوت عظيم قائلين: حتى متى أيها السيد "**القدوس والحق**" لا تقضي وتنتقم لدمائنا من الساكنين على الأرض»، ثم نجد الوحي يصف المسيح بنفس الصفات: «هذا يقوله "**القدُّوس الحق**"، الذي له مفتاح داود، الذي يفتح ولا أحد يغلق، و يغلق ولا أحدٌ يفتح.» (رؤ٣: ٧)

«أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته»:

المسيح يوجِّه الكلام للآب. ولكن كما يوجِّه المسيح الكلام للآب، نوجِّه نحن نفس الكلام للمسيح، حيث نقول: «أنت الإله الحقيقي وحدك». **لأن صفة الألوهة هي للآب كما للابن، وصفة الحق هي للآب كما للابن،** لأن الحق في المفهوم اليهودي ينصبُّ على أمانة الله، واستقامة وصاياه، واستجابته لسؤال الإنسان البارّ، ووفائه بوعده إذا وعد. هنا يظهر الإتجاه الفعلي العملي «للحق». وبالمفهوم الهلليني (أي اليوناني)، فإن الحق هو ما ليس «شِبْهَ حقٍّ» ψεῦδος ، **فهو** ليس خيالاً أو كذباً، أي الاتجاه الفكري التصوُّري. والمسيح هو كذلك بالمفهومين: فهو «الصادق الأمين» (رؤ٣: ١٤؛ ١٩: ١١). وصفة «الواحدية» هي للآب كما للابن، لأنها صفة الطبيعة والجوهر الإلهي أساساً. فالطبيعة الإلهية بسيطة بساطة مطلقة، أي غير مركَّبة، فالإنسان له طبيعة مركَّبة من جسد ونفس وروح، الله ليس كذلك. فالله روح كلِّي مُطلق، لهذا يستحيل معه الثنائية، كما يستحيل فيه التقسيم أو الانقسام. فالله واحد كلِّي صافٍ، فالآب واحدٌ، والابن واحدٌ، لأن جوهرهما واحد بسيط غير منقسم قط.

من هنا نفهم صفة الواحدية لله، أنها صفة جوهرية من واقع طبيعته وليس من جهة عدده؛ فحينما نقول: «الله واحد» فنحن نتعمق طبيعته، لا دَرْءًا لتعدد الآلهة، ولكن وصفاً لحقيقة الله ذاته، على أن **«الواحد المطلق»** هو بآن واحد **«الحق المطلق»**، وهو هو **«الإله الواحد»** حتماً.

ولكن المسيح جاء ليعلن الآب المحتجِب. فمعرفة الآب يستحيل أن تتم بدون المسيح، الذي جاء ليستعلنه، ويستعلنه في ذاته، وفي طبيعته. فذكر المسيح مع الله الآب، هو بقصد التكميل الاستعلاني وليس الإضافة. وكما أن الابن يمجِّد الآب، والآب يمجِّد الابن، كذلك فالابن يستعلن الآب، والآب يستعلن الابن بالروح الذي أرسله. لذلك، يستحيل معرفة أحدهما بدون الآخر. لذلك يقول المسيح ما هو مُعْتَبَرٌ أنه تحصيل حاصل، أن «الحياة الأبدية هي أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسَلْته». وكأنما هو يقول: إن **الحياة الأبدية هي معرفة الآب والابن، الله الواحد بذاته.**

والمسيح لم يَقُلْ هذا بصيغة المتكلم، لأن المنطق يمنع القول بأن الإله الحقيقي هو «أنت وأنا»، فقال بصيغة الغائب: **«أنت، وهو»**، حيث مضمون «هو» في المفهوم اليهودي اللاهوتي بحسب الأسفار المقدسة تعني «الإله» في أبلغ تعبيرٍ سريٍّ، هذا إذا جاءت من موقف المتكلم،

كما وردت بالعبري مئات المرات في الأسفار المقدسة Ani ho «**أنا هو**» الله(٩) ἐγώ εἰμι .

وتطبيقاً لما قلناه، نقرأ للقديس يوحنا في رسالته الأُولى: «ونحن في **الحق**، في **ابنه يسوع المسيح**، هذا هو **الإله الحق والحياة الأبدية**» (١يو٥: ٢٠). وواضح هنا أن ق. يوحنا يعطي للمسيح كل الصفات التي لله الآب بلا تفريق، وهذا يعني بصورة جلية أن المسيح يسوع هو الاستعلان الكامل لله الآب الحامل لكل صفاته، الذي فيه وبه يُعرف الله الآبُ معرفة حقيقية وكاملة، وأنَّ ملء الله الآب الكامل فيه.

١٧: ٤و٥ **«أنا مجّدتُك على الأرض. العملُ الذي أعطيتني لأعملَ، قد أكملتُه. والآنَ مجّدْني أنت أيُّها الآبُ عندَ ذاتِك، بالمجدِ الذي كانَ لي عندَكَ قَبْلَ كَوْنِ العالمِ».**

الآيتان هنا مترابطتان، وكأنهما شطران لبيت شِعْرٍ واحد. مضمونه: «أنا مجدتك على الأرض، والآن مجدني أنت في السماء». كان المجد الذي طلبه المسيح في أول صلاته: «مجّد ابنك»، يختص بتدخُّل الآب لتكميل باقي المهمة العظمى، وهي الجزء الأكثر إيلاماً وإذلالاً لابن الله في عملية الموت، بكل ما تشمله من العار والهزيمة الصورية.

أما المجد الذي يطلبه هنا، فهو مجد الاستحقاق للعمل، وكأنه قد أُكمل «الآن» على الأرض وهو على عتبة الانطلاق إلى الآب. إذ لم يَعُدْ سببٌ للبقاء في حالة الإخلاء التي بقي فيها لحين تكميل المهمة العظمى.

أما طلب المجد في البداية، فالمسيح قدّمه بصيغة الغائب غير المباشرة: «ابنك». ولكن هنا يُقدّمُ الطلب بصيغة المتكلم: «**أنا**»، لأن الأول يختص بعلاقة عامة، الابن بالآب. أما في الثاني فيسوع المسيح يتكلم على الأرض بمواجهة في حالة التجسد، وقد أكمل الابن المهمة. ولكن في كلتا الحالتين تظهر العلاقة الوثيقة بين الآب والابن بصورة صارخة.

«أنا مجّدتُكَ على الأرض»:

الرسالة التاريخية أُكْمِلَتْ، وهي بحكم المنتهية، وجاهزة الآن لتقديم الختام. صحيح أنها في اتضاع العبد، ولكن العبد نجح في اتضاعه الكامل وطاعته المطلقة في تنفيذ المهمة، وأكمل استعلان

(٩) راجع المدخل ص ٢٢٠ــ٢٣٠.

الآب بالقول والعمل والآية. وهذا قمة التمجيد للآب. فتمجيد الآب تمَّ باستعلان أبوّته للمسيح وللإنسان في كل العالم. هذا نراه اليوم بعد ألفي سنة بصورة فائقة النجاح، فالكلُّ ينادي الآب: «يا أبانا»، بألوف وملايين الأفواه والقلوب، في كل يوم، بل في كل لحظة.

أما تمجيد المسيح على الأرض، فقد تمَّ باستعلان بُنُوَّته لله، وهذا صار دستور إيمان كل مسيحيي العالم.

وأما تمجيدُه في السماء، فقد حازه بالدرجة الأولى، إذ صار المسيح والآب واحداً في كل إيمان.

ومن الآن وإلى الأبد سيظل تمجيد الله الآب يتم عن طريق تمجيد الابن يسوع المسيح و به. فبدون الابن، لا يُمجَّدُ الآب، لأنه لا يوجد إلا وسيط واحد بين الله والناس، يسوع المسيح، ولأن بدون استعلان الابن (تمجيده) لا يُستعلَن الآب (تمجيده). فالتمجيد هو إعلان الحق. فهو والاستعلان واحدٌ.

«العمل الذي أعطيتني لأعمل، قد أكملتُه»:

«أكملتُه» ἐτελείωσα ، تفيد الكمال أكثر مما تفيد الانتهاء منه، و يتضح ذلك من المقابل اللاتيني consommasi، وقد سبق أن استخدم الإنجيل نفس اللفظة «أكمل» كمعيار أساسي وضعه المسيح نصب عينيه منذ البداية: «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني **وأتمم** τελειώσω عمله» (يو٤ : ٣٤). واللفظتان العربيتان «أكمل» و«أُتمم» لا تفيدان صميم المعنى الذي يهدف إلى الكمال "perfect" أي التكميل على مستوى الكمال. فعمل المسيح يفوق معنى الأداء وحسب!!

وقول المسيح عن العمل "ككلٍّ" أنه قد «أُعطي له»، يفيد أنه يعمل عمل طاعة المشيئة الأبوية. فالعمل لم يختَرْهُ المسيح لنفسه، لذلك حُسب بالفعل أنه ذبيحة وفداءٌ، كإسحق تحت يد إبراهيم مربوطاً. وقد سبق المسيح وأوضح هذا مراراً: «لأن الأعمال التي أعطاني الآب لأُكَمِّلها، هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني» (يو٥ : ٣٦). لهذا يستعذب النُّسَّاك والرهبان الطاعة، وبالأخص إذا كانت تحت يد شديدة، للقيام بأعمال شاقة أو حقيرة، إذ تُحسب لدى الضمير الصاحي والنفس الواعية أنها ذبيحة مقبولة لدى الله. ولا يستثقلُ العملَ الحقير إلاَّ الجُهَّالُ الذين لم تتفتح بصيرتهم بعد على ذبيحة المسيح. ولذلك قيل أيضاً عن موسى النبي: «... مفضِّلاً بالأحرى أن يُذلَّ مع شعب الله، على أن يكون له تمتُّع وقتيٌّ بالخطية، حاسباً عار المسيح غنًى أعظم من خزائن مصر، لأنه كان ينظر إلى المجازاة.» (عب١١ : ٢٥و٢٦)

«والآن مجّدني أنت أيها الآب عند ذاتك، بالمجد الذي كان لي عندك قبل كَوْنِ العالم»:

الآن في فم المسيح رفيقة الساعة التي جاء من أجلها، وقد أكمل ذبيحة التاريخ الطوعية التواضعية بحسب مشيئة الآب تماماً وكمالاً، وقد أضمر لنفسه ما أضمر اليهود ضده وكما صمم عدو البشرية لهم، أن يُكمِّل ذبيحة تواضعه بذبيحة موته موت الصليب. والآن المسيح يطلب أن يرتفع ابن الإنسان من الأرض إلى السماء، لأن عمل المسيح على الأرض وعمله في السماء وحدة واحدة لا تتجزأ!! والآن، وهو يطلب المجد والبهجة، كختام لعمله المضني على الأرض الذي أكمله في عمق التاريخ الإنساني الحزين، يطلب في الحقيقة تجلّي تاريخ الإنسان و بلوغ نهايته المفرحة، و بالتالي تجلّي الخليقة العتيقة، بعد أن دان عالم الظلمة الذي رفض أن يتبع النور، وطرح رئيسه خارج دائرة التجديد، وقاد عالم الإنسان في النور كخليقة أخرى تماماً، وأدخلها في مجالها الأعلى الأُخروي. وهي وإن بدتْ محصورةً نوعاً ما في شخصه، إنما كان هو ولا يزال كباكورة وكسابقٍ لأجلنا. فالذين دخلوا معه، ويدخلون كل يوم، هم شهادة مدموغة بالتحوُّل الخفي والسِرِّي الذي يتغيَّر به العالم دون ضجيج. وهكذا تم، بالمسيح، القولُ الأول: «فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس.» (يو١ : ٣)

«عند ذاتك»: παρὰ σεαυτῷ

حيث παρά تُترجم أحياناً «عند» وأحياناً «مع»:

ففي الآية (يو٨ : ٣٨): «أنا أتكلم بما رأيت **عند أبي**»، وفي الآية (يو١٤ : ١٧): «... لأنه **ماكث معكم** و يكون فيكم». ولكن بالنسبة للمسيح والآب، فمجد الابن ومجد الآب هما المجد الواحد للذات الإلهية. فكلمة «عند ذاتك» تأتي هنا بمعنى الاتصال اللاهوتي المباشر الذي يفيد استعلان الوحدة القائمة بالمجد في الله بين الآب والابن. هنا عودة إلى القول الأول: **«وكان الكلمةُ الله»** (يو١ : ١)، لأن طلب المسيح أن يأخذ المجد الذي كان له عند ذات الآب قبل كون العالم، هو بالنسبة لنا مقارنة استعلانية واضحة بين حالة المسيح الآن في الجسد، وحالته قبل تجسد «الكلمة». الآن في تخلٍّ طوعيٍّ عن مجده لتأدية مهمّة لا تقبل الظهور في المجد، لأنها مُهمة تحمل عار الإنسان وذُلّه تحت الخطية والناموس، وقبول هوان الموت كعقوبة عن كل ذي جسد. ومن الآن يتطلع المسيح لِمَا كان له قبل التجسد، أي **يستعلن لاهوته، لتُستعلن وحدته مع الآب**، هاتان اللتان لم تفارقاه قط، لا بالروح ولا بالجسد ولا لطرفة عين؛ ولكن الإخلاء كان على مستوى **الإخفاء** عن أعين الناس ومدارك الشيطان. والآن يطلب المسيح **الاستعلان** لما هو له ــ عند ذات الآب ــ قبل الخليقة، أمام تلاميذه واليهود والعالم كله، حتى تبلغ رسالة تواضعه وطاعته حتى

الموت على الصليب ذُرْوَة قوتها وفِعْلِها الفدائي الخلاصي. فالذي تألّم وصُلب وقُبر وقام، لم يكن هو ابن الإنسان وحسب، بل هو هو ابن الله الوحيد الواحدُ مع الآب.

وفي قول المسيح: «بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم»، تصريح بلاهوته كحقيقة ينبغي أن يُعترف بها، فقبل كَوْنِ العالم لم يكن إلاَّ الله وحده!

هذا الطلب الذي يطلبه المسيح الآن، أي استعلان حقيقة نفسه كابن الله وطبيعته الإلهية، كان قد ألمح إليه سابقاً حينما أُعثر فيه تلاميذه لما قال عن أكْلِ جسده وشُرْب دمه: «فعلم يسوع في نفسه أن تلاميذه يتذمّرون على هذا، فقال لهم: أهذا يُعْثركم؟ فإن رأيتم ابن الإنسان صاعداً إلى حيث كان أولاً؟» (يو٦: ٦١و٦٢)

ويأتي الطلب الأول والطلب الثاني بخصوص المجد، في تطابق بديع مع مجد الآب واستعلان الذات الواحدة التي تتبادل المجد في ذاتها هكذا:

أنا مجّدتُكَ على الأرض، فمجّدني أنت عند ذاتك في السماء.

أنا أعلنت حقيقة أبوّتِك فيَّ ــ أي في ذاتي ــ للناس، أعلِن أنت حقيقة بُنُوّتي فيك، أي في ذاتك.

أنا استعلنتُ حقيقتك في عمق الزمان وفي العالم، استعلن أنت حقيقتي **الآن** في الأزلية قبل كَوْنِ العالم.

والآن، أيها القارىء العزيز، قد يبدو في نظرك أن طلبَ المسيح المجدَ لنفسه واستعلانَ لاهوته ووحدتَه مع الآب، أمراً هيِّناً وتحصيلَ حاصلٍ، وكأنه ليس من جديدٍ في الموضوع. ولكن لننبه القارىء، أن المسيح الآن يحمل جسد الإنسان ونفسه وروحه وفكره في ذاته، فهو مثقَّل بطبيعة عاجزة غريبة كل الغرابة عن طبيعة الله!! فصعوبة هذا الطلب لا تخصُّ المسيح **«كابن الله»** في ذاته، الذي لم يفارقه مجد اللاهوت؛ ولكن هذا يخصُّ تجسده، أي طبيعة الإنسان الذي فيه، أنت وأنا وكل خاطىء مثلنا!! المسيح بطلبه هذا يطلب استحقاقَ ما لا يحقُّ، بجراءة منقطعة النظير، تسندُها طاعته حتى الموت، أن يكون للإنسان الذي فيه ولطبيعته البشرية هذه الشركة في المجد عينه الذي يطلبه كابن الله!! فهذا الطلب هو بحد ذاته أعظم أعمال المسيح التشفعية لحساب الإنسان، باستحقاق ذبيحة طاعته، فهو الذي يحمل إكليل جوهر الفداء والخلاص لبني الإنسان، والذي ينتهي بالمجد!

+ «ونحن أموات بالخطايا، **أحيانا مع المسيح.** بالنعمة أنتم مُخَلَّصون، **وأقامنا معه وأجلسنا معه في السماويات في المسيح يسوع.**» (أف٢: ٥و٦)

+ «... وتعرفون محبة المسيح الفائقة المعرفة، **لكي تمتلئوا إلى كل ملءِ الله.**» (أف٣: ١٩)

+ «**الذي سيغيِّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده،** بحسب عمل استطاعته أن يُخْضِعَ لنفسه كل شيء.» (في٣: ٢١)

+ «شاكرين الآب الذي **أهَّلَنا لشركة ميراث القديسين في النور،** الذي أنقذنا من سلطان الظلمة، **ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته.**» (كو١: ١٢و١٣)

+ «متى أُظهِرَ المسيحُ حياتُنا، فحينئذ **تُظْهَرُون أنتم أيضاً معه في "المجد".**» (كو٣: ٤)

+ «ونُشهِدُكم لكي تسلكوا كما يحقُّ لله، **الذي دعاكم إلى ملكوته "ومجده".**» (١تس٢: ١٢)

+ «الأمر الذي **دعاكم إليه بإنجيلنا، لاقتناء "مجد" ربنا يسوع المسيح.**» (٢تس٢: ١٤)

+ «وإله كل نعمة، الذي دعانا إلى **"مجده" الأبدي في المسيح يسوع.**» (١بط٥: ١٠)

+ «لأنه لاقَ بذاك الذي من أجله الكل، وبه الكل، **وهو آتٍ بأبناءٍ كثيرين إلى المجد،** أن يُكمِّل رئيسَ خلاصهم بالآلام.» (عب٢: ١٠)

+ «إن كنا نتألم معه، لكي **نتمجَّد أيضاً معه.**» (رو٨: ١٧)

والآن، ليعلمْ كل إنسان، أن المسيح ابن الله هو جالس الآن بجسدنا هذا عينه عن يمين الله، ينتظر ذهابنا إليه. والبشرية فيه، بعد أن تمجَّد بها، صارت هكذا شريكة في مجد الله. هذه هي الخليقة الجديدة والإنسان الجديد.

وهذا يتضح بأبلغ بيان في طلب المسيح الذي سوف يقدمه في الآية (٢٤):
«أيها الآب، أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني، يكونون معي حيث أكون أنا، لينظروا مجدي الذي أعطيتني، لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم».

وإن كنا سوف نقدم الشرح الوافي لهذه الآية البليغة في محلِّها، ولكن ما يهمُّنا هنا في الآية (٥)

التي نحن بصددها، هو: «**يكونون معي، حيث أكون أنا**»، فهنا شركة في المجد البنوي لله!!، ثم «**لينظروا مجدي**»، ليس بنظر العين، بل بشركة الرؤيا والإدراك والمعرفة الإلهية الفائقة، ثم «**الذي أعطيتني**» تفيد بكل وضوح المجد الإضافي الذي حازه المسيح «**كابن الإنسان**» **لحساب الإنسان.**

وقد ألمح المسيح لهذه الشركة القائمة في المجد الفائق عن **الزمن** والرؤية العينية الآن، عند قوله لبطرس: «حيث أذهب، لا تقدر **الآن** أن تتبعني، ولكنك ستتبعني **أخيراً**» (يو١٣: ٣٦). وأخيراً، هذه الشركة تفيد الأخروية (الإسكاتولوجيا) والتي جازها بطرس على الأرض وقت الشهادة تحت حد السيف، وكما رآها إستفانوس وهو تحت رجم الحجارة:

«وأما هو فَشَخَصَ إلى السماء وهو ممتلىء من الروح القدس، فرأى مجد الله، ويسوع قائماً عن يمين الله. فقال: ها أنا أنظر السموات مفتوحة، وابن الإنسان قائماً عن يمين الله.» (أع٧: ٥٥و٥٦)



القسم الثاني: فيما يخص التلاميذ: (يو١٧: ٦ــ١٩).

وتتركز الصلاة في استعلان الآب للتلاميذ:
(أ) كيف استعلن الآب، وكيف قبلوه: (٦ــ٨).
(ب) كيف كان يحفظ التلاميذ، وقد حان وقت تركهم: (٩ــ١١).
(ج) العمل السابق، والعمل اللاحق: (١٢و١٣).
(د) محنة التلاميذ في العالم: (١٤و١٥).
(هـ) المسألة المطلوبة من أجلهم: (١٦ــ١٩).

بعد أن أفرغ المسيح ما في قلبه علناً، فيما يخص نفسه، لدى الله أبيه وأمام تلاميذه، اتجه بطلبه من أجل تلاميذه.

ويلاحظ أن عمل المسيح الذي أكمله على الأرض في حدوده الضيقة كان يشمل في الحقيقة الوعد بالتكميل الأعظم، في حدوده اللانهائية في السماء لدى ارتفاعه وعودته إلى الآب!

ونحن نجد في سؤاله الآب من أجل نفسه: «مجّدني» اتجاهاً سرياً ولكن ملحوظاً نحو التلاميذ، فالمجد الذي يطلب هو يخص التلاميذ والإنسان عموماً. والآن من داخل سؤاله المجد لنفسه يسأل من أجل تلاميذه أن: «احفظهم» (١١)، «وقدّسهم» (١٧)؛ وأن المجد الذي يُلحّ عليه من أجل نفسه والآب إنما يتجه في الواقع وضمناً إلى تكميل خلاص التلاميذ والعالم الذي بدأه بتجسده. والآن هو يطلب له الكمال.

أ ــ كيف استعلن الآب وكيف قبلوه:

١٧: ٦ **«أنا أظْهَرتُ آسمَكَ للناسِ الذينَ أعطيتَني مِنَ العالمِ. كانوا لَكَ، وأعطيتَهُم لي، وقد حَفِظُوا كلامَكَ».**

المسيح يقدم تلاميذه على ثلاثة مستويات:
الأول: علاقتهم بالمسيح: «أنا أظهرتُ اسمك للناس».
الثاني: علاقتهم بالآب: «كانوا لك».
الثالث: من واقع حالهم: «قد حفظوا كلامك».

وكل مستوى من هذه المستويات جعله المسيح سبب سؤال وطلبة، والثلاثة معاً يكوّنون الصورة المتكاملة للتلمذة الصحيحة التي يودُّها لهم ويعمل من أجلها.

«أنا أظهرتُ اسمك للناس»:

«أنا أظهرتُ اسمك» تأتي متوازية ومتساوية لقوله: «أنا مجّدتُك» (عدد ٤)، والاثنان يقعان تحت بند الاستعلان. فقد أكمل المسيح استعلان الله **«كآب»** له وللآخرين؛ له بنوع الخصوصية، وللآخرين بالنعمة المنحدرة بتوسُّطه، وذلك بكل إصرار وتكرار، ليس في قوله وعمله فحسب بل وبحياته. وقد وضح أن هذا الاستعلان كان جديداً بالفعل على الذهن اليهودي، بالرغم من ادعائهم البنويّة لله. وكم هو واضح في قول إشعياء النبي وهو يصف المسيح: «وأنا الرب إلهك، مُزْعج البحر فتعجُّ لُجَجهُ، رب الجنود اسمه. وقد جعلتُ أقوالي في فمك، وبظل يَدِي سترتُك، لغرس السموات، وتأسيس الأرض، ولتقول لصهيون: أنتِ شعبي.» (إش٥١: ١٥و١٦)

بثلاثة أمور أظهر المسيح اسم الآب:

أولاً: بكونه هو الابن الذي أطاع الآب حتى الموت، لأنه باستعلان بُنُوته الخاصة الجوهرية لله، أظهَرَ وأعلن أُبُوّة الله.

ثانياً: بإعطاء تعاليم الآب وكلماته تحت اسم الآب: «أنا هو ἐγώ εἰμι.»(*)

ثالثاً: بصنع القوات والآيات التي تعلن عن الآب الحالّ فيه. وكل نور أدخله المسيح إلى عالم الإنسان بإعلان الحق وممارسة الحب كان في الحقيقة هو بهاءُ أو شعاعُ مجدِ الآب، ورَسْمٌ أو صورةٌ لجوهره.

ولكن ليس الكل قَبِل هذا الاستعلان، فالاستعلان أُعطي تماماً، ولكن الذين انفَتحت أعينهم وقَبِلوا حقيقة رسالة المسيح كابن، هم هؤلاء الذين عبَّر عنهم المسيح: **«للناس الذين أعطيتني»**. فالاستعلان العام لأُبُوّة الله، قَبِلَه الناس، إنما على مستوى التلاميذ أولاً، الذين اجتذبهم الآب، كعيِّنة نموذجية وخميرة، حسب قوله السابق: «لا يقدر أحدٌ أن يُقبِلَ إليَّ، إن لم يجتذبه الآب» (يو٦: ٤٤)، «لا يقدر أحدٌ أن يأتي إليَّ، إن لم يُعْطَ من أبي» (يو٦: ٦٥). والحقيقة أن الذي يجتذبه الآب، يجتذبه الابن بالضرورة: «وأنا إنْ ارتفعتُ عن الأرض، أجذِبُ إليَّ الجميع» (يو١٢: ٣٢). والمسيح يختار أيضاً: «ليس أنتم اخترتموني، بل أنا اخترتكم

(*) راجع المدخل ص ٢٣١ وما يليها.

وأقمتكم...» (يو١٥: ١٦). ولكن على الناس أن يطيعوا هذا الاختيار، أو يرفضوه كيهوذا، ليصيروا عِبْرَة للرافضين. ولكن كان عمل المسيح العام، هو إظهارُ اسم الله الآب لشعب إسرائيل أولاً: «أُخْبِرُ باسمك إخوتي. في وسط الجماعة أُسبِّحُك.» (مز٢٢: ٢٢)

«من العالم»:

تفيد أن الله اختارهم **وأخرجهم من حيازة العالم**: «ولكن لما سَرَّ الله، الذي أفرزني من بطن أمي ودعاني بنعمته، أن يعلن ابنه فيَّ لأُبشِّر به بين الأمم، للوقت لم أستشِرْ لحماً ودماً، ولا صعدتُ إلى أُورشليم إلى الرسل الذين قبلي، بل انطلقتُ إلى العربية» (غل١: ١٥—١٧). هنا في هذا الوصف للدعوة يتضح كيف يدعو الله الذين له، حيث يكمن في هذا الكلام المعنى المتسع والعميق لقول المسيح: «**كانوا لك**». فدعوة بولس الرسول كان يقف خلفها علاقة مع الله ذات أبعاد لا يعرف مداها إلاَّ الله وحده، أي أن بولس كان لله أولاً، ثم أعطاه الله للمسيح، فصار بولس للمسيح. وهكذا وراء كل إنسان دعاه الله إلى ابنه، قصة وحكاية ذات أبعاد غائرة في القلب والضمير والوجدان بين الإنسان والله، قصة حق مستعلن، وحب طاغٍ، ومشاعر قلقة وملتهبة قادها الله إلى ملكوت ابن محبته!!

«كانوا لك، وأعطيتهم لي»:

كان التلاميذ يمثلون في الحقيقة الشعب المختار، وبسلوكهم تجاه المسيح كانوا «إسرائيليين حقاً لا غش فيهم»، وأثبتوا بذلك أنهم «خاصَّة لله» يهوه، وبذلك اعتبرهم المسيح أنهم كانوا يتبعون، بإيمانهم الإسرائيلي، الله الذي جاء المسيح ليستعلنه الآن كآب. وبإيمانهم بالمسيح، وضح أن الآب سلَّمهم للابن ليكمِّل خلاصهم وفداءهم.

«وأعطيتَهم لي»:

«خرافي تسمع صوتي، وأنا أعرفها فتتبعني، وأنا أُعطيها حياة أبدية... **أبي الذي أعطاني إياها**» (يو١٠: ٢٧—٢٩). «**الذين أعطيتني** حفظتُهم، ولم يهلك منهم أحد» (يو١٧: ١٢). هنا، يتضح أن عمل الآب في اجتذاب النفوس يسبق عمل الابن، وهذا حتمي. والإنسان يعرف أولاً الله، وحينما يُخْلِصُ الإنسان في عبادته لله، يكشف له الله عن طريق الخلاص ويُعرِّفه بابنه: «وكانت نبيَّة حنَّة بنت فنوئيل من سبط أشير، وهي متقدمة في أيام كثيرة، قد عاشت مع زوج سبع سنين بعد بكوريتها. وهي أرملة نحو أربع وثمانين سنة، لا تفارق الهيكل عابدة بأصوام وطلبات ليلاً ونهاراً، فهي في تلك الساعة وقفت تسبِّح الرب، وتكلمت عنه مع جميع المنتظرين

فداءً في أورشليم» (لو٢: ٣٦–٣٨)؛ «وكان رجل في أورشليم اسمه سمعان. وهذا الرجل كان باراً تقياً ينتظر تعزية إسرائيل. والروح القدس كان عليه. وكان قد أوحي إليه بالروح القدس أنه لا يرى الموت قبل أن يرى مسيح الرب، فأتى بالروح إلى الهيكل، وعندما دخل بالصبي يسوع أبواه ليصنعا له حسب عادة الناموس، أخذه على ذراعيه وبارك الله وقال: الآن تُطْلِقُ عبدك، يا سيد، حسب قولك، بسلام، لأن عينيَّ قد أبْصَرَتا خلاصك الذي أعددته قدام وجه جميع الشعوب.» (لو٢: ٢٥–٣١)

حنَّة النبية وسمعان الشيخ كانا لله، وأخلصا جداً في إيمانهما بالله، فشاء الله أن يكلل إيمانهما بإيمان المسيح.

واضح أن العمل يبدأ بالآب، وينتهي بالابن عَبْرَ الروح القدس، ليستقر الثالوث في قلب الإنسان. واختيار التلاميذ وكل المؤمنين الذين لم يكونوا يعرفون إلاَّ الله، كان على أساس أن أرواحهم كانت ملتهبة فيهم مُسْبَقاً. ونحن نقرأ في بداية إنجيل يوحنا، كيف كان التلاميذ يبحثون عن الخلاص بكل قلوبهم: «**وجدنا** (المسيَّا) الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء.» (يو١: ٤٥)

«حفظوا كلامك»: τὸν λόγον σου

الترجمة العربية هنا تجاوزت المعنى، فالصحيح هو: «حفظوا "كلمتك" اللوغس». فالمعنى هنا عميق، ويفيد أنهم استعلنوا كلمة الله التي هي المسيح، باعتباره جوهر التوراة، وبذلك كرَّموا كلمة الله في شخصه، و«حفظوها»، بمعنى أدركوا سرَّها؛ فسهروا عليه وأبقوه في كنز قلوبهم، وهكذا أبقَوْا الآب والحق في معرفتهم!

هذا المعنى شرحه المسيح سابقاً: «إنه مكتوب في الأنبياء ويكون الجميع متعلمين من الله، فكل مَنْ **سمع من الآب** وتعلَّم يُقبِلُ إليَّ» (يو٦: ٤٥). هنا «سَمِعَ من الآب» تكشف عن قلب انفتح على صوت الله وقبل سرَّ الكلمة.

وهنا يطيب لنا أن نكشف عن القوة المستترة في قول المسيح هذا، **فحِفْظُ كلمة الله هو هو** التلمذة الحقيقية لله والمسيح، وهو يعني السهر على الإنجيل بقديم أسفاره وجديدها، لاجتلاء كنوزه وبركاته المذخرة لنا: «طوبى للإنسان الذي يسمع لي ساهراً كل يوم... لأنه مَنْ يجدني يجد الحياة وينال رضىً من الرب» (أم٨: ٣٤و٣٥). وما من قديس أو واعظ مُلْهَم إلاَّ وكان السهر على الإنجيل والكلمة طعامه وشرابه وفرحه وعزاءَه.

وكلمة «يحفظ τηρεῖν الكلمة» في إنجيل يوحنا ورؤياه تعني السهر عليها، يقابلها في الإنجليزية watch وليس guard، أي «يسهر» وليس «يحرس»، فعكس «يسهر» على الكلمة هو «يرفضها و يزدري بها ولا يعتبرها»، أما عكس «يحفظها» بمعنى «يحرسها» هو أنها تسقط منه وتضيع. ومن هذا نفهم أن حفظ الكلمة بمعنى السهر عليها هو قبولها قبولاً شهيًّا: «وُجد كلامك فأكلتُه. فكان كلامك لي للفرح، ولبهجة قلبي، لأني دُعِيْتُ باسمك، يا رب إله الجنود.» (إر١٥: ١٦)

والمزمور حينما يقول: «أما الآن فحفظت قَوْلَك (كلامك، اللوغس)» (مز١١٩: ٦٧)، فهو يعني: «اذَّخرتُه لنفسي ذُخراً». فالمسيح يشبِّه الملكوت بإنسان باع كل ما عنده واشترى اللؤلؤة الكثيرة الثمن وحفظها (مت١٣: ٤٦)، وكذلك بالذي وجد الكنز في حقل، ومن فرحه باع كل ما كان له واشترى ذلك الحقل (مت١٣: ٤٤). هذه الأمثلة كلها تدور حول قيمة كلمة الخلاص، أي الإنجيل، بالنسبة للحياة. فاللؤلؤة والكنز هما كلام الله، في تعبير المسيح، وقد أعطى المسيح لذلك مثلاً أقوى وضوحاً في مثل الزارع: «الذي في الأرض الجيدة هو الذين **يسمعون الكلمة فيحفظونها** في قلب جيِّد صالح، و يثمرون بالصبر... فانظروا كيف تسمعون.» (لو٨: ١٥و١٨)

لذلك فقول المسيح عن التلاميذ أنهم «حفظوا كلامك» هو الإعلان عن سر التلمذة الصادق والوحيد، وهو سر التقدم أيضاً والنمو والانفتاح. ولعل أقوى قيمة لمفهوم حفظ الكلمة عند المسيح، جاء في قوله: «الحق الحق أقول لكم، **إن كان أحد يحفظ كلامي، فلن يرى الموت إلى الأبد**» (يو٨: ٥١). وهكذا أصبح حفظ كلام المسيح في القلب، هو بذرة الحياة الأبدية التي تحوِّل قلب الإنسان إلى ملكوت الله.

وإنْ أنسى فلن أنسى في حياتي ما قرأته عن السائح الروسي، لما أشعل أخوه الأكبر النار في كوخهم الوحيد، بعد أن سرق مذخرات أبيهم ليخفي فِعْلَته الشنعاء، وفرَّ هارباً، وكان السائح الروسي راقداً مع زوجته في الدور الأعلى، فدلَّى زوجته من النافذة، وقفز وراءها، وذهبا كلاهما يسيران في الشارع خاليَيْ الوفاض من كل ما امتلكاه، إلاَّ الإنجيل في نسخة مخطوطة جلسا على قارعة الطريق يقرآن فيه؛ فأخذت زوجته تبكي، فسألها: لماذا تبكين يا أختي؟ فقالت له: كلام الإنجيل يا أخي حلو يُعزِّيني عن كل ما فقدتُ!

٧:١٧ «والآنَ عَلِمُوا أنَّ كلَّ ما أعْطيتني هو من عندِك».

هنا يشرح المسيح معنى أو ثمرة حِفْظِهم لكلمة الآب، أو معنى سهرهم على تعاليم المسيح وفَهْمِهم لسرِّ الآب المتكلم فيه والعامل الأعمال. فالكلمة أضاءت بصيرتهم وألهمت قلوبهم، وفتحت أعينهم، وأدخلتهم في نور الحق والحياة، وحكَّمتهم بكل حكمة.

«علموا أن كل ما أعطيتني هو من عندك»:

إذا أردنا أن نترجم هذا القول إلى أبسط معنى، فهو أن التلاميذ أدركوا أني جئتُ لأستعلنك قولاً وفعلاً وعملاً وحياةً!!

«الآن»: ٧ٓ٥ٓ٧

إن وَضْعَ هذا الظرف الزماني «الآن» هنا في هذه الآية خطير. فهو تعبير صادق عن وقفة أمام الموت! وبهذا يصبح معنى اكتمال معرفتهم بأن كل ما للمسيح هو من عند الآب، يعني أنهم بلغوا إلى حد الصلة التي تربطهم وسوف تربطهم إلى الأبد بالمسيح، لا كإنسان بَعْدُ، لأنه هو بحد ذاته استعلانُ الآب؛ فإزاء الموت الذي كان كفيلاً سابقاً أن يفك بل أن يقطع كل رباط بين الإنسان والإنسان، «الآن» لن يجرؤ الموت أن يصنع هذا مع المسيح بالنسبة لتلاميذه!! لذلك، فهو يدخل إلى محنة الموت واثقاً من متانة الرباط، الذي لن يَنْفصِم عُرَى العلاقة التي تربطهم به!!

٨:١٧ «لأنَّ الكلامَ الذي أعْطيتني قد أعْطيتُهُم، وهم قَبِلُوا وعَلِمُوا يَقِيناً أنّي خَرَجْتُ من عندِكَ، وآمَنُوا أنكَ أنتَ أرسَلْتَني».

المسيح يصعد بالدرجات نفسها التي صعدها التلاميذ، موضحاً أولاً أن حِفْظَهُم كلمة الآب المُعْلَنَة بالمسيح وفيه، هو الذي أوصلهم إلى معرفة أن كلَّ ما للمسيح هو من الآب، ثم يرتقي إلى درجة اليقينية التي بلغوها، موضحاً أن سرَّها كان في أن المسيح سلَّمهم تسليماً وأعطاهم عطاءً كل ما استلمه وكل ما أعطاه له الآب، **وكان قبولهم** للكلمة هو سرَّ يقينهم بكل هذا. وهذا في الحقيقة أحد الأسرار المخفية في الإنجيل بخصوص كلمة الله أو وصيته وأوامره، فإنه بمجرد قبولها بالإيمان على أساس تصديق الله تصديقاً مطلقاً لا يقبل افتراض الشك ولا يطلب البرهان، ولا يعتمد على المشاعر والعواطف المخادعة، بل تصديقاً قلبياً دون تدخُّل العقل الفاحص ــ فإن الكلمة، أو الآية أو الوصية أو الأمر الإلهي، يتحول في القلب إلى قوة تنفيذ!! فكلام الله ووصاياه، مهما بلغت في مظهرها الخارجي أنها صعبة التنفيذ أو حتى بلغت حد الاستحالة لدى العقل، فإنه

بمجرد قبولها بالتصديق الكامل، تبدأ قوتها الكامنة تعمل في الحال. **فكلام الله يحمل قوة تنفيذه في داخله لدى الذين يؤمنون بصدق الله وأمانة وعده.**

وعليك أيها القارىء أن تلحظ ذلك في ترتيب الأفعال التي جاءت في هذه الآية:

أعطيتُهم الكلام، وهم قَبِلُوا (بالإيمان)، وعَلِمُوا، يقيناً، وآمنوا باليقين، و بالنهاية بلغوا الإدراك الكلي الواثق بالمسيح ورسالته أنه خرج من عند الآب، كخروج الشعاع من مصدر النور، وأن الآب أرسله لتكميل الفداء والتقديس. **هكذا يتحول القبول بالتصديق إلى علم، ثم إلى يقين، ثم إلى إيمان واثق، فاستعلانٍ للحق.** أي مِنْ عِلْمٍ إلى خبرة حية وشركة!! وعلى هذه الخبرة الحية والشركة الفعلية تأسست كنيسة الله التي نحيا خبرتها وإيمانها الحي اليوم. ولكن تبقى الحقيقة الأولى والأعظم أهمية «**قَبِلُوا**»: «وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله.» (يو١: ١٢)

«**عَلِمُوا يقيناً**»: ἔγνωσαν ἀληθῶς

هنا الترجمة العربية جاءت بتصرف، فهي «علموا حقاً و بالحقيقة». فالعلم بالحق، هو أكثر من اليقين. لأن الإنسان قد يتيقن من العلم بالشيء، ولكن يظهر أن يقينه جاء غير صحيح. ولكن إن كان العلم هو عن حق، أو باكتشاف الحق، فهو الاستعلان الإلهي، لأن الحق هو الله؛ وهذا العلم بالحق لا يقبل الزيف على وجه الإطلاق. **على أن قبول العلم بالحق لا يأتي بالفهم والملاحظة أو المنطق والقياس، ولكن قبول الحق يأتي بالخضوع والطاعة المذعنة تحت سلطان كلمة الله!** وهذا ينشىء، ليس مجرد إيمان أعمى بالعقيدة، بل **إيماناً يسنده استعلان الحق، إيماناً منفتحاً على الله. فالإيمان الحقيقي هو حياة وسلوك في نور معرفة الله، والإيمان الحقيقي يظل حياً بالكلمة يستمد نموّه من سرّها بلا انقطاع.**

«**أني خرجتُ من عندك، وآمنوا أنك أنت أرسلتني**»:

«أني خرجت من عندك» هي نفسها «أنك أرسلتني»؛ ولكن الأول هو فعل الابن والثاني هو فعل الآب. الأول يفيد عملية التجسد، والثاني يفيد عملية الصليب ومهمة الفداء.

والمسيح سوف يبني على هذا المعنى قوله فيما بعد: «إني لست من هذا العالم»، وسوف يبني عليه إيمان التلاميذ بأنه خرج من عند الآب، وأن الآب أرسله، وأنهم أيضاً أصبحوا ليسوا من هذا العالم، باعتبار أن إيمانهم بهذا يفصلهم عن العالم و يضمهم إلى الابن الذي خرج والآب الذي أرْسَل!! إذ تصبح حياة التلاميذ مستمدة من الله كأصل وجودهم وليست مستمدة من العالم!!

والعالم رفض المسيح وذبحه، وبذلك أثبت أن المسيح ليس منه، وكذلك التلاميذ، فقد رفضهم العالم بشدة وقتلهم، وأثبت أنهم ليسوا من العالم (يو١٥: ١٨ـــ٢١). ويعلق على ذلك ق. يوحنا في رسالته الأولى بقوله: «لا تتعجبوا، يا إخوتي، إن كان العالم يبغضكم» (١يو٣: ١٣). «هم من العالم، من أجل ذلك يتكلمون من العالم، والعالم يسمع لهم. نحن من الله، فمَنْ يعرف الله يسمع لنا، ومَنْ ليس من الله لا يسمع لنا.» (١يو٤: ٥و٦)

ب ـــ كيف كان يحفظ التلاميذ، وقد حان وقت تركهم:

١٧: ٩ **«من أجْلِهم أنا أسألُ. لستُ أسألُ من أجلِ العالمِ، بل من أجلِ الذينَ أعطيتني لأنهم لكَ».**

«أنا أسأل»: ἐγὼ ἐρωτῶ

تأتي بمعنى «أصلّي»، وهكذا ترجمت بالإنجليزية: I pray، وهو نوع رفيع من السؤال. وهذا الاصطلاح، وإن كان شائعاً في العهد الجديد في معاملة الناس في التخاطب معاً وليس للصلاة، إلا أن ق. يوحنا قد اختُصَّ به فقط دون جميع الأسفار، في مخاطبة الله. فهو سؤال يُقدَّم كطلب، بدالة، ولم يستخدمه إلاَّ المسيح في مخاطبة الآب.

هنا المسيح يفرِّق بين الذين لله وبين الذين عليه. فالذين كانوا لله الآب وأعطاهم للمسيح الابن، هؤلاء الذين «قَبِلُوا» كباكورة لجميع الذين «يقْبَلون» الابن حتى نهاية الدهور، هم الأعمدة التي ستقوم عليها الكنيسة وتبقى وتدوم.

المسيح هنا يطابق الصوت القائل لإرميا النبي: «وأنت فلا تصلِّ لأجل هذا الشعب، ولا ترفع لأجلهم دعاءً ولا صلاة، ولا تلحَّ عليَّ لأني لا أسمعُك» (إر٧: ١٦). والسبب قاله المسيح، ردًّا على سؤالهم: «إلى متى تعلِّق أنفسنا؟ إن كنتَ أنتَ المسيح، فقُلْ لنا جهراً؟ أجابهم يسوع: إني قلتُ لكم ولستم تؤمنون... لأنكم لستم من خرافي» (يو١٠: ٢٤ـــ٢٦)، وأيضاً: «لو كان الله أباكم، لكنتم تحبونني، لأني خرجت من قبل الله وأتيت؛ لأني لم آتِ من نفسي بل ذاك أرسلني. لماذا لا تفهمون كلامي، لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي (= كلمتي «لوغس»). أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا.» (يو٨: ٤٢ـــ٤٤)

أما من جهة محبة الله للعالم ومحبة المسيح له، والتي كلفته ذبيحة نفسه على الصليب من أجل كل العالم، فهي قائمة لا تستثنيها الصلاة ولا تتغاضى عنها، **فذبيحته نفسها هي أعظم صلاة**

قُدِّمت لخلاص كل العالم: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو١: ٢٩). ولكن المسيح يصلّي هنا خاصة من أجل الذين سيتركهم في العالم، العتيد أن يضطهدهم ويقتلهم أيضاً!

فالعالم المحبوب من الله سيَرُدُّ الحب إيماناً، والذين لا يؤمنون سيُخْرِجون أنفسهم بأنفسهم من دائرة حب الآب وذبيحة الابن. المسيح أمرنا أن نحب أعداءَنا ونبارك لاعنينا ونصلي من أجل الذين يسيئون إلينا ويطردوننا، لأنه بذلك يُسْتَعْلَنُ فينا حب المسيح، وتُسْتَعلَنُ ذبيحة صليبه، ويتجلى الفداء والبذل. فإذا رأى ذلك الأعداء يؤمنون، وإذا لم يؤمنوا ربحنا نحن أنفسنا.

والمسيح هنا يسأل ويصلي من أجل الذين سيقعون فريسة اضطهاد العالم الذي استثنى نفسه من إيمان المسيح وحب الآب؛ فمن أجل هؤلاء، هو لا يسأل، لأنهم أوْقَعُوا أنفسهم تحت دينونةٍ وليس تحت تشفُّع صلاته: «الآن دينونة هذا العالم.» (يو١٢: ٣١)

١٧: ١٠ **«وكلُّ ما هُوَ لي فهُوَ لكَ، وما هُوَ لَكَ فهُوَ لي، وأنا مُمجَّدٌ فيهِم».**

هذا هو المعيار الجديد الذي يضع الآب والابن على مستوى واحد يقوم على أساس تبعية أو ملكية التلاميذ، أي المؤمنين فرادى أو ككنيسة. فالتلاميذ، وكذلك المؤمنون، يُعتبرون تابعين لله الآب، بقدر ما هم تابعون للمسيح. وبمعنى أعمق، يُعتبر الإيمان بالمسيح تأكيداً لتبعية المؤمن لله الآب. وكذلك، فإن المؤمن بالله، يصير إيمانُه حقيقةً مؤكدة، إن كان يؤمن بالمسيح ويتبعه، ذلك لأن استعلان حقيقة الله هي كائنة بصورة فريدة في المسيح يسوع الابن المتجسد.

فالآن، ها هو المسيح بنفسه واقفٌ يسأل الآب ويصلي من أجل تلاميذه، أَلَيْسَ ذلك تأكيداً لصدق تبعيَّتهم لله والمسيح، وعلى أنهم يستمدون من الله والمسيح حياتهم ووجودهم، وليس من العالم؟! وهذا هو سرُّ صلاة المسيح لأجل تلاميذه، والمؤمنين، والكنيسة ككلٍّ، التي باستمداد حياتها ووجودها من الآب والمسيح، أصبحت ليست من هذا العالم، وبالتالي فإنها أصبحت في حاجة شديدة ــ بل وتستحق كل استحقاق ــ أن يسأل المسيح الآب من أجلها، ولو أن الآب نفسه يحبُّ كلَّ مَنْ أحب الابن، فهو لا يحتاج بعد أن يسأله المسيح من أجلها.

ولكن في قول المسيح: «وكلُّ ما هو لك فهو لي»، نقلة سرية إلى التعريف به، أي بشخصه، أكثر من التعريف بمَنْ هو له. فقول المسيح: «كل ما لي فهو لك»، يمكن أن يقوله كل واحد. ولكن قوله لله الآب: «وكلَّ ما لك فهو لي»، هو قولٌ لا يجرؤ عليه ملاكٌ ولا إنسان، كان مَنْ

كان، أو أي مخلوق، غير الابن الذي له ما للآب وهو واحد معه. هذا يحققه لنا سِفْرُ الرؤيا، بأن يعطي للمسيح ما للآب تماماً هكذا:

+ «قائلين بصوت عظيم: مستحقٌ هو "الخروف المذبوح" أن يأخذ **القدرة، والغِنى، والحكمة، والقوة، والكرامة، والمجد، والبركة.**» (رؤ ٥: ١٢)

ثم يعود سفر الرؤيا و يعطي لله الجالس على العرش هذه السبعة العظائم هكذا:

+ «وخرُّوا أمام العرش على وجوههم، وسجدوا "لله"، قائلين: آمين. **البركة، والمجد، والحكمة، والشكر، والكرامة، والقدرة، والقوة** لإلهنا إلى أبد الآبدين. آمين.» (رؤ٧: ١١و١٢)

لذلك، فقول المسيح بعد ذلك: **«وأنا مُمجَّد فيهم»**، واقعٌ في دائرة ما للآب حتماً وبالضرورة. فإنْ كان المسيح ممجَّداً فينا، فهو بالتالي تمجيدٌ للآب. فالمسيح هنا يقدِّم للآب واحداً من أعظم نجاحاته أكمله لحساب الله: أن صار الإنسان البائس العاجز مصدر تمجيد لله على مستوى استعلان حقيقة الآب والابن. وإن كان يبدو هذا أنه لحساب الله شكلاً، فالحقيقة هي أن الإنسان هو الذي فاز بهذه الرتبة العليا: أن يعطي المجد لله، و يلهج بتسبيح الآب وحبِّ الابن.

وإنها لحقيقة جديرة بالتعريف والتأكيد، أنه ليس في جميع أعمال الإنسان وأقواله أعظم وأجلّ من أن يمجِّد الله و يسبِّح بمجده. فالتسبيح بمجد الله، هو عمل الملائكة، وإكليل الأرواح البارّة المكلَّلة في السماء، التي لا تكفُّ عن تقديس الاسم المبارك وتقديم الشكر والسجود المتواصل والمجد الدائم. يعرف هذا الذين يحبون التسبيح و يُتْقِنون السهر فيه، و يعترفون بما حصَّلوه من بركات، وتحصَّلوا عليه من قُربَى ورؤيا وسماع!

«وأنا مُمجَّد فيهم»:

مرة أخرى يلزم أن نفهم أن تمجيد المسيح يعني **«استعلان حقيقة»** بنوَّته لله وطبيعته وصفاته وأعماله. والآن، قد أصبح المسيح مُسْتعلَناً بكل صفاته في تلاميذه، بكل يقين الإيمان أنه ابن الله الآتي إلى العالم، وهو هكذا في الحقيقة: «وأنا ممجَّد فيهم»، حيث انطبعت فيهم صفاته، وذلك إلى الدرجة التي إن أردتَ فيها أن تعرفَ مَنْ هو المسيح، فتأمل في حياة التلاميذ وسيرتهم وأعمالهم وكلامهم، فستعرف مَنْ هو المسيح حقاً. فالاستعلان بالنسبة للحقائق الإلهية هو شركة فيها، لذلك فالتمجيد والدوام فيه، هو الإرتفاع بالسيرة الذاتية من الأرض إلى السماء: «فإن سيرتنا نحن هي في السموات» (في٣: ٢٠). لذلك، فالتسبيح بمجد الله والمسيح هو دخول سرِّيٌّ في ذلك المجد.

١٧: ١١ **«ولستُ أنا بَعْدُ في العالم وأما هؤلاءِ فهم في العالم، وأنا آتي إليكَ. أيُّها الآبُ القدُّوسُ، احفظهم في آسمِكَ "الذي" أعطيتني، ليكونوا واحِداً كما نحنُ».**

«ولست أنا بعد في العالم»:

هنا علَّة هذه الصلاة بمجملها، فلولا أنه قد أكمل رحلته، ووجَّه وجهه شَطْرَ السماء لما صلَّى من أجلهم، إذ كان يكفيهم أنه معهم. ولكن الآن وقد حان الوقت أن يتركهم وحدهم ليدخل في عمله الأعلى طبيعة وشأناً، وهو أن يتراءى أمام الآب متشفعاً عنهم؛ لذلك وقف يمارس مقدِّماً عيِّنة منظورة من عمله غير المنظور والدائم إلى مدى الدهور، عن الذين له، طالما بقَوْا وحدهم في هذا العالم.

«وأنا آتي إليك»: ἔρχομαι

الفعل «آتي» في المضارع الدائم، والمقابلة بين حالات المسيح الثلاث التي فيها يوصف المسيح أنه **«آتٍ»**، تحتاج إلى تأمل:

١ ــ «أنت المسيح ابن الله **الآتي** إلى العالم.» (يو١١: ٢٧)

٢ ــ «وأنا **آتي** إليك أيها الآب القدوس.» (يو١٧: ١١)

٣ ــ «**آتي** أيضاً وآخذكم إليَّ.» (يو١٤: ٣)

وكأن الزمن مُلْغىً، فهو آتٍ باستمرار إلى العالم، وآتٍ إلى الآب وآتٍ إلينا ليأخذنا! ولكن لكل حالة فعلها الخاص بها، وكل حالة مترتبة على ما قبلها، وهي تبدو وكأنها جديدة، مع أنها ليست بجديدة. فالزمن وحده يتغير عندنا، أما عنده هو فلا يتغير: «بعد قليل لا تبصرونني ثم بعد قليل أيضاً ترونني» (يو١٦: ١٦)، «ولست أنا بَعْدُ في العالم»، و«لا أترككم يتامى، إني آتي إليكم» (يو١٤: ١٨)، «وأنا آتي إليك»، «وأنا لست وحدي لأن الآب معي.» (يو١٦: ٣٢)

تأمَّل في ذلك بولس الرسول فقال:

+ «وأنت يا رب (يعني المسيح الذي مُسح بزيت البهجة أكثر من رفقائه)، في البدء أسَّست الأرض، والسمواتُ هي عمل يديك. هي تبيد، ولكن أنت تبقى. وكلُّها كثوب تَبْلَى، وكرداءٍ تطويها فتتغير. ولكن أنت أنت، وسِنُوك لن تفنى.» (عب١: ١٠ــ١٢)

وأيضاً:

+ «يسوع المسيح هو هو، أمساً واليوم وإلى الأبد.» (عب١٣: ٨)

ففي الظاهر الزمني، سيتركهم المسيح وحدهم؛ ولكن في الحقيقة، فإن ذهابه للآب هو دخوله في نطاق القوة الأكثر فعالية، وهذا يُزيد من قُرْبه إليهم، تماماً كما سبق وقال عن نفسه: «وتتركونني وحدي، وأنا لستُ وحدي، لأن الآب معي.» (يو16: 32)

ولكن الحقيقة الأشد عزاءً، هو أنه طالما كان معهم على الأرض، فقد كانوا منه على بُعْدٍ! ولكن لما تركهم وحدهم ذاهباً إلى الآب، أصبح وهو في السماء متحداً بهم وهم به متَّحدون، وعن قرب. لذلك كان يقول لهم مراراً: «إنه خير لكم أن أنطلق» (يو16: 7)!! ولذلك عينه قال لتوما: «لأنك رأيتني، يا توما، آمنت. طوبى للذين آمنوا ولم يَرَوْا» (يو20: 29). هذه الطوبى، هي الاتحاد عينه بالروح. أما إيمان العيان، فلا يزال يحتاج إلى الطوبى!!

والرؤيا العينية لا تفيد الإيمان شيئاً: «وأما الآن فقد رأوْا وأبغضوني أنا وأبي.» (يو15: 24)
والعيان لا يسعف اللحاق بالمسيح: «لا تقدر **الآن** أن تتبعني، ولكنك ستتبعني **أخيراً**.» (يو13: 36)

ولكن عدم رؤياه، رؤيا العين، لا يمنع أن يرانا هو: «ولكني سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم» (يو16: 22) فنمتلىء به حباً وفرحاً. «الذي وإن لم تَرَوْه، تحبونه. ذلك، وإن كنتم لا تَرَوْنَه الآن، لكن تؤمنون به، فتبتهجون بفرحٍ لا يُنْطَقُ به ومجيدٍ.» (1بط1: 8)

«أيها الآب القدوس»:

بعد أن أوضح المسيح أن تلاميذه سيُتركون وحدهم في العالم، وأنه آتٍ إلى الآب، يُصبح دَوْرُ الآب وارداً بصورة مُلحَّة؛ وبسبب أن العالم قوة معادية للإيمان ومركز تجارب، يكون الالتجاء إلى «قداسة» الآب أمراً حتمياً. فالنداء هنا من واقع الحال، وليس مجرد تسمية.

التجاء المسيح إلى «قداسة» الآب، هو بحد ذاته، يكشف عن خطورة وضع التلاميذ في غيابه بالنسبة لإمكانية ابتلاع العالم لهم. هنا تبلغ الصلاة ذروة توسُّلها الواقعي. فـ«قداسة» الآب هي حصن الذين في العاصف تجاه قدرة العالم على ابتلاع الضمائر الجزعة والواقعين تحت التهديد والوعيد والخوف أو الإغراء والترغيب.

هنا يبدو واضحاً، لماذا علَّمنا المسيح أن نخاطب الآب طالبين أن: «يتقدس اسمُكَ». فهنا اللهفة في طلب تقديس اسم الآب، من حال واقعنا المهدَّد كل يوم ولحظة في العالم؛ فالشر محيط، والجذب عنيف، والإغراء ملبَّس بقوة شيطانية. فالالتجاء إلى اسم الله القدوس ليتقدَّس في حياتنا

وأفكارنا وعيوننا وقلوبنا وضمائرنا، هو قوة غالبة وحصن منيع: «اسم الرب برج حصين، يركض إليه الصِّدِّيق و يتمنَّع.» (أم١٨: ١٠)

وسوف تُكمَّل هذه الطلبة بالآية القادمة: «قدِّسهم في حقِّك»، حيث يُجري الآب فيهم فعل قداسته، ليحوِّلهم من العالم إلى نفسه، من المستوى الجسداني إلى الروحاني، من الزَّيْف إلى الحقيقة، من الزائل إلى الأبدي.

«احفظهم في اسمك "الذي" أعطيتني»:

لقد أجمع العلماء المختصون بالمخطوطات أن «الذي أعطيتني» هنا تختص بالاسم وليس بالتلاميذ. وكذلك الاسم الوارد في الآية (١٢) الآتية بعد ذلك. و يقع هذا المعنى موقعاً لاهوتياً قو ياً وصحيحاً، وهو مطابق تماماً لما جاء بالنبوة عن المسيح: «لأن اسمي فيه» (خر٢٣: ٢١). فالاسم هو الاستعلان الحقيقي للشخص، والمسيح حاز هذا الاستعلان حيازة ذاتية لنفسه، فكان يقوله وكأنه له، أو كأنه هو ἐγώ εἰμι «أنا هو»، وهو اسم «يَهْوَه» في كل أسفار العهد القديم.

وحيازة المسيح لاسم الله، معناه حيازته الكاملة لطبيعة الله وقوته وصفاته. وهذا واضح من قول الله لموسى مُنبِّهاً بخصوص النبي الذي سيقيمه مثله أن «اسمي فيه»، بجعل عصيانه موجِباً للقضاء وللدينونة ولا غفران، وهو هنا يتكلم عن المسيح: «احترز منه واسمع لصوته ولا تتمرد عليه، لأنه لا يصفح عن ذنوبكم، لأن اسمي فيه» (خر٢٣: ٢١)، «وأعطاه اسماً فوق كل اسم، لكي تجثو، باسم يسوع، كلُّ رُكبةٍ ممَّن في السماء، ومَنْ على الأرض، ومَنْ تحت الأرض، و يعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو ربٌّ، لمجد الله الآب.» (في٢: ٩ــ١١)

كل هذا يوضح أن المسيح يستعلن الآب استعلاناً ذاتياً. لذلك، يصبح معنى «احفظهم في اسمك الذي أعطيتني» يعني «أعلِن ذاتك لهم»، فهذا هو الحفظ البالغ منتهى القوة بالنسبة للإنسان الذي يواجه قوى العالم الشريرة!! وهذا الإعلان الذاتي لله ــ الذي هو الاسم في جوهر معناه ــ قائم في «الكلمة»، في الإنجيل، في تعاليم المسيح التي تركزت في استعلان الآب بالدرجة الأولى. والمسيح بعد ما أُكمل، باشر هذا العمل للتلاميذ: «فتح ذهنهم ليفهموا الكتب» (لو٢٤: ٤٥). هذا هو نفسه استعلانُ ذات الله، وهو بعينه الحفظ الذي يعطي المناعة ضد قوى العالم السلبية.

وصلاة المسيح لكي يحفظهم الآب «في اسمك الذي أعطيتني» تطلب أن يُثبِّتهم الآب في صفات أبوَّته، التي هي فعَّالة في المسيح كابن، لكي يعيشوا معاً في دائرة وجوده وعمله ومشيئته.

«"في" اسمك»: ٤٧

الاسم هنا طاقة وقوة. والحفظ هو، إما بإدخال التلاميذ في مجال فعل الاسم أي الاستعلان الذاتي، وإما شمول التلاميذ بهذه الطاقة لتدخل فيهم. الأُولى تكون بفعل استعلاني يجذب القلوب إلى مجال قوته، والثانية بفعل نعمةٍ تنسكب داخل قلوبهم بحسب منتهى خيرية الله.

وفي التراث اليهودي التقَوِيّ الذي ورثته الكنيسة، فإن مجرد النطق باسم الله يُدخلنا في مجال قوة عمله، وكأنه هتاف بحضور الله أو بالدخول في حضرته. وقد دخل ذلك في صميم الطقس الدُّعائي، فالصلاة تُفتتح باسم الآب والابن والروح القدس، والتقديس يتم بدعاء الاسم على الماء ليصير مقدَّساً للتقديس والتعميد، وعلى الخبز والخمر ليصيرا إلى الجوهر الجسدي الإلهي، وعلى رأس المريض وبدهنه فيُشفَى. وباختصار، فلا يجرى أيُّ طقس في الكنيسة إلا بدعاء الاسم، الذي هو بمثابة الحضرة الإلهية. وباسم الله الآب والابن والروح القدس، تُبْنَى الكنيسة، وتتقوّى، وتعمل، وتُبشِّر. وبدون اسم الله الآب والابن والروح القدس، لا توجد كنيسة. لذلك، فكلُّ عمل العالم هو أن يُخفي اسم الثالوث عن المؤمنين به، أو يزعزع سلطانه في القلوب، أو ينتزعه كلية بجحد الإيمان، أو الإلحاد، أو التمادي في الملذات التي تغمر القلوب ليُنسَى الاسم.

على أن نسبة «القدوس» للآب، تفيد السلطان المطلق والفائق للآب، الذي يفصله كل الفصل عن الخطية والخطاة والعالم المخلوق الذي ينحرف عن التعبُّد له: «لأنه كان يليق بنا رئيس كهنة مثل هذا، **قدوسٌ = بلا شر ولا دنس، قد انفصل عن الخطاة وصار أعلى من السموات**» (عب٧: ٢٦). هنا، الجزء الثاني «انفصل عن الخطاة» شَرْحٌ للجزء الأول «قدوس بلا شر»!!

ومن هنا تكون قوة قداسة الآب في حفظ تلاميذه والمؤمنين من سلطان العالم الخاطىء! «لأني (أنا) الله، لا إنسان، القدوس في وسطك، فلا آتي بسَخَطٍ.» (هو١١: ٩)

«ليكونوا واحداً كما نحن»:

الوحدة المطلوبة هنا هي أساساً للحفظ، فاحفظهم في اسمك، لأنهم في العالم، بأن تجعلهم واحداً. والوحدة ليست مجرد أُلفة العِشْرَة ورابطة المودة والإجماع على الرأي أو المشورة، بل هي وحدة الطبيعة التي تأخذ قوتها وتحقيقها وانسجامها الفائق من المسيح وفيه. فالمسيح في وحدة مع الآب، قائمة بحضور التجسد. والقصد أن قوة الوحدة التي في التجسد مع الإنسان، ثم قوة الوحدة بين المسيح والآب هي القوة التي يطلبها لنا لتجعل كل المؤمنين في المسيح واحداً. هكذا يطلب المسيح

للتلاميذ أولاً أن يكونوا واحداً بهذه القوة، فتتكون الكنيسة في قوة الاسم.

والوحدة، كقوة نابعة من وحدة الآب والمسيح، والتي يطلبها المسيح، لا يقصد أن تأتيهم مفروضة عليهم من خارجهم، بل يطلبها لتنشأ فيهم من داخلهم، وذلك بثبوتهم في الاسم، وبالكلمة، وبالصلاة؛ الأمر الذي استجاب له الآب بقوة في تكميل وعده بإرساله قوة الروح القدس الفعَّالة لهذه الوحدة عينها، كما حدث فعلاً يوم الخمسين.

والإنسان ينزع بطبيعته إلى هذه الوحدة، ولكنه يخطىء دائماً الوسيلة، كما اجتمع في بابل قديماً. فالجمعيات والجماعات والمؤسسات والنوادي والرحلات والرياضات، كلها محاولات للوحدة، ولكنها وحدة كاذبة تجمع على الظواهر وليس على الحقائق والجوهر. تجمع على الراحة والفسحة والتسلية والمرح والمسرات واللهو، وكلها خداع يزول مع الوقت، وربما تؤول إلى الضدّ، وغالباً تنتهي بمزيد من الفُرْقةِ والعداوة والانقسام، وربما الخطية والانحدار للاستغراق في الفردية.

أما الوحدة الحقيقية، فهي التي يطلبها لنا المسيح في اسم الآب وحِفْظِه وقوة استعلان ذاته وجَذْبِه، وهي تقوم على تقديس الاسم واستعلان الحق الإلهي في الكلمة. لذلك، فالإنجيل والصلاة هما وحدهما منبع الوحدة بين أعضاء جسد المسيح. والوحدة التي طلبها المسيح وقد تمت بالفعل بقوة الروح القدس، هي الكنيسة الواحدة الوحيدة الجامعة الرسولية. لقد كان الرسل والتلاميذ بِذْرَتَها الأُولى، وصلاة المسيح كانت المخاضَ الذي وُلدت منه يوم الخمسين، وسِرّ العليّ الذي حَفِظها في العالم من العالم حتى اليوم!

وقوة الاسم ــ إذا تمسك بها كلُّ واحد ــ هي بحد ذاتها قادرة أن توحِّد وترفع الفوارق بين طبائعهم، وتُخفي ذواتهم عن أعينهم، وتُخلي مشيئاتهم من أنفسهم، وذلك حينما يتوقف جَذْبُ العالم لشهواتهم و يتحرك الروح فيهم. وهذه هي الصورة التي أرادها لهم المسيح، فكانت:

+ «وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات. وصار خوف في كل نفس، وكانت عجائب وآيات كثيرة تُجرى على أيدي الرسل. وجميع الذين آمنوا كانوا معاً، وكان عندهم كل شيء مشتركاً، والأملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها و يقسمونها بين الجميع، كما يكون لكل واحد احتياج. وكانوا كل يوم يواظبون في الهيكل **بنفس واحدة**، وإذ هم يكسرون الخبز في البيوت كانوا يتناولون الطعام بابتهاج و بساطة قلب، مُسبِّحين الله، ولهم نعمة لدى جميع الشعب. وكان الرب كل يوم يضمُّ إلى الكنيسة الذين يَخْلُصون.» (أع ٢: ٤٢ــ٤٧)

ولكن لنَعُدْ إلى: «أيها الآب القدوس احفظهم»، فالوحدة التي يطلبها المسيح هي داخل نطاق عمل الاسم القدوس، فهي وحدة تقديس وطهارة. لأنه خارج القداسة والتقديس، يوجد العالم؛ والقداسة والتقديس في مضمونها الفعلي هي الانفصال عن ما هو للعالم. هنا تكون الوحدة التي تجمع التلاميذ، هي بُعْدُ كلٍّ منهم وانفصاله عن ما هو للعالم، وهذا لا يتم إلاَّ بالانجذاب المشترك نحو الآب والقداسة لتستمد الجماعة أو الكنيسة حياتها من مصدر خارج العالم، من قربهم من الآب والابن، من قوة استعلان الآب وعمله بالإنجيل. أما هذا الاتجاه التقديسي فسيوفي المسيح حقَّه في بقية الصلاة والتوسل (١٧: ١٧–٢٣).

وبعد أن يعمل اسم الآب في الجماعة، أي الكنيسة، ويوحِّدها معه وفيه، تبقى أبعاد أسرار هذا الاسم فائقة عن الزمان الحاضر. ففي هذا الاسم يكمن الميراث المحفوظ لنا في السموات: «مَنْ له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس: مَنْ يغلبْ فسأُعطيه أن يأكل من المنِّ المُخْفَى، وأعطيه حصاة بيضاءَ، وعلى الحصاة "اسم" جديد مكتوب لا يعرفه أحدٌ غير الذي يأخذ.» (رؤ٢: ١٧)؛ «وهم سينظرون وجهه، و"اسمه" على جباههم.» (رؤ٢٢: ٤)

ج ـ العمل السابق والعمل اللاحق:

١٢:١٧ «حينَ كنتُ معهم في العالمِ، كنتُ أحفظُهم في اسْمِكَ "الذي" أعطيتَني، حفظتُهم، ولم يَهْلِكْ منهم أحدٌ، إلاَّ ابنُ الهلاكِ، ليتِمَّ الكتابُ».

إن صلاة المسيح التي يقدمها في هذا الأصحاح هي أصلاً لإلغاء الفوارق الزمنية، في اعتبار العناية الإلهية. ويكاد المعنى يكون هكذا: لما كنتُ معهم في العالم بالجسد، كنتُ أحفظهم في اسمك، والآن لا تتركهم أنت حينما آتي أنا إليك، بل اشملهم بحِفْظِكَ ورعايتك. وهذا يتسحب، بالتالي، على كل الأجيال الآتية هكذا: هذا الجيل، جيل التلاميذ، أنا كنتُ معهم بالجسد أحفظهم، فالأجيال القادمة ليكُنْ نصيبهم محفوظاً في اسمك الذي هو اسمي: «عمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس.» (متى٢٨: ١٩)!

كنتُ أحفظهم ἐτήρουν ... **حفظتهم** ἐφύλαξα:

الفعل الأول: «كنت أحفظهم» وتعني «**سهرت عليهم**» (kept them). والفعل الثاني: «حفظتهم» بمعنى «**حرستهم**» (guarded them)، سهرت عليهم بالتعليم، فحفظت قلوبهم باستعلان الحق في اسمك. وحفظتهم، وحرستهم، وحميتهم من جَذْبِ العالم، وذلك بأن حصرتُ

قلوبهم في دائرة معرفتك.

والفعلان يفيدان قدرة المسيح على استعلان اسم الآب، أي صفاته، لهم وتعليمهم بكلماته وتعريفهم بكل ما عند الآب. وهذا بالطبع ظل مذخراً لنا بالإنجيل، كما علَّم به تلاميذه، مضافاً إليه الاستعلان الفائق بالروح القدس الذي أصبح يُعرِّفنا بكل الحق، ويذكِّرنا بكل ما قاله المسيح.

والآن، وقد ذهب إلى الآب، وجلس عن يمينه، أصبح وجوده أكثر وضوحاً لنا الآن مما كان بالجسد مع تلاميذه آنذاك.

«ولم يهلكْ منهم أحدٌ»:

هذه ثمرة الحفظ والسهر والحماية التي أعطاها المسيح لتلاميذه، الذين أثمرتْ فيهم تعاليمه وكلماته المحيية واستعلانه لمحبة الآب التي قَبِلوها، فانسكبت في قلوبهم فلم يُفقد أحد، وظلوا محفوظين ومحروسين في الاسم وقوته. وكان الرب مرتاحاً لموقفهم، ولكن كان يُقلِقه ذاك التلميذ الذي هو مزمع أن يسلِّمه!

«إلاَّ ابن الهلاك ليتم الكتاب»:

كان يهوذا في فكر الرب آنئذ، ولكن لم يذكر اسمه، لأن حساسيته تجاه الخطاة كانت رقيقة للغاية، شأن الراعي الصالح، وقد بلغت ذروتها تجاه صالبيه: «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» (لو٢٢: ٣٤). أما يهوذا فلم ينظر المسيح إليه منذ البدء كتلميذ قط، وإنما كابن الهلاك: «أليس إني أنا اخترتكم الاثني عشر، **وواحد منكم شيطان**، قال عن يهوذا سمعان الإسخريوطي، لأن هذا كان مزمعاً أن يسلِّمه، وهو واحد من الاثني عشر.» (يو٦: ٧٠و٧١)

لقد دخل في جماعة الاثني عشر لكي يسقط منها، وصار تلميذاً لا ليتتلمذ على معلمه بل ليسلِّمه! لم يكن غنمةً، بل ذئباً اندسَّ في وسط الغنم. لم يكن من عمل الفادي أن يحرسه، بل أن يحترس منه، لم يَسْتَثْنِهِ من تعليمه وحُبِّه وثقته، شأنه شأن شمسه التي يشرقها على الخطاة، فقد سلمه الصندوق ليبرِّر ضميره تجاهه، وهو عالم أنه يسرقه، ووهبه ما وهب التلاميذ من الحب والثقة، ولكنه خانهما.

«ابن الهلاك»:

إن وَصْف المسيح ليهوذا بهذه الصفة، لم يكن بقصد أن يدينه أو يحكم عليه، بل ليوضح لماذا

فُقِد وهَلَك. فيهوذا اختار ذلك لنفسه، وصمم عليه، ونفَّذ خطته، بالرغم من تلميحات المسيح وتصريحاته، بل وكسَّر كل العوائق التي وضعها المسيح في طريق خيانته، باللطف حيناً، والوعيد أحياناً، بالحب مرة وبتهديد الدينونة مراراً. ولكن في النهاية فرَّط فيه المسيح: «ما أنت تعمله، فاعمله بأكثر سرعة»!! (يو١٣: ٣٧)، لذلك فـ«هلاك» يهوذا لا يَحُطُّ قط من قدر المسيح، كمعلِّم، ولا يقلل من شمولية فدائه: «أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته، غير عالِمٍ أن لطف الله إنما يقتادُك إلى التوبة. ولكنك من أجل قساوتك، وقلبك غير التائب، تذْخر لنفسك غضباً في يوم الغضب واستعلان دينونة الله العادلة.» (رو٢: ٤و٥)

لقد اختار يهوذا بنفسه لنفسه الدور الذي تتم به النبوات ويكمل المكتوب، واختيار المسيح له مع الاثني عشر بالرغم من معرفته المُسْبَقَة لمصيره والدور الذي سيقوم به، ليتم الكتاب! «لست أقول عن جميعكم، أنا أعلم الذين اخترتهم، لكن ليتم الكتاب: الذي يأكلُ معي الخبز، رَفَع عليَّ عَقِبَهُ» (يو١٣: ١٨). والكتاب المذكور هنا هو المزمور ٤١: ٩: «أيضاً رَجُلُ سلامتي، الذي وثقتُ به، آكلُ خبزي رفع عليَّ عَقِبَهُ»، والكلام هنا على أخيتوفل (اقرأ ٢صم١٧: ٢٣).

«قد جعلت قدامك الحياة والموت ... فاخْتَرْ الحياة لكي تحيا» (تث٣٠: ١٩). ولكن يهوذا اختار الموت دون الحياة. أن يهلك إنسان وهو في رفقة المسيح وواحد من التابعين له حتى النهاية، لا يمكن إلاَّ أن يكون «ابناً للهلاك». لقد اختار يهوذا أن يهلك من أعلى وأميز موضع للأمان والخلاص!! ولا عَيْبَ على المخلِّص، لأنه إن كان قد اختار الصليب لنفسه، فلا عيب أن يختار أدواته!

١٣:١٧ «أما الآنَ، فإني آتي إليْكَ، وأتكلَّمُ بهذا في العالم، ليكون لهم فَرَحِي كاملاً فيهم».

المعنى هنا جميل وعميق للغاية. فالمسيح على الأرض يتكلم، ولكن من منطلق تكميل الرسالة، وهو في حالة التأهُّب لترك العالم والانطلاق إلى الآب. فالكلام يأخذ طابعه الأُخروي. والتلاميذ يسمعون حديث السماء وكأنه تم في السماء. والمسيح يقصد هذا قصداً، حتى يشعر التلاميذ بوجودهم في حضرة الابن والآب. فالكلام يخصُّهم. ووجودهم في حضرة الآب، يسمعون الابن متكلماً عنهم، يسأل ويطلب من أجلهم هو بعينه عيِّنة من وجودهم الأُخروي المزمع أن يكون، الذي يشدِّدهم بالفرح الآخر أو الأخروي، وهو الفرح الكامل في طبيعته الأخرى، الذي سبق أن

أعْلَمَهُم به: «اطلبوا تأخذوا، ليكون فرحكم كاملاً» (يو١٦: ٢٤)، والآن هو يطلب، وهم بالسِّرّ يأخذون، ليكون فرحهم كاملاً فيهم!

ومعروف في التقليد اليهودي أن الفرح لن يكون فرحاً كاملاً، إلاَّ في أيام المسيَّا!
ولكن هنا فرح أعظم، وهو فرح الابن حينما يستودعه تلاميذه بأن يسلِّمهم إلى حِفْظِ الآب القدوس.

فرح المسيح الخاص، الآن يبلغ ذروته وهو يترك العالم ذاهباً إلى الآب، وهو هو نفس الفرح الذي يريد أن يُسِرَّ به لتلاميذه عَبْرَ هذه الصلاة. إذ، وهم محفوظون ومحروسون في اسم الآب، يكونون وكأنهم قد انتقلوا من هذا العالم إلى الآب، أو بالحري انتقلوا من الموت إلى الحياة. ولم يَعُدْ للعالم سلطانٌ عليهم!

هنا يطيب لنا أن نقول للقارىء، إن هذا اختبارٌ حيٌّ يبلغه الإنسان بالصلاة، حينما ينطلق بروحه نحو الآب والمسيح، تاركاً العالم خلف ظهره، حيث يكون لسان حاله: «مَنْ لي في السماء، ومعك لا أريد شيئاً في الأرض.» (مز٧٣: ٢٥)

د ـــ محنة التلاميذ في العالم:

١٧: ١٤ «أنا قد أعطيتُهم كلامَكَ، والعالمُ أبغَضَهُم، لأنهم ليسُوا من العالم، كما أني أنا لستُ من العالم».

«كلامك»: τὸν λόγον «كلمتك» بالمذكر:
المسيح يشدد على «أنا ἐγὼ» باعتبار وجوده الكامل، مشيراً بذلك أن استعلانه لكلمة الله حقَّقه بذاته وفي ذاته. ولما قَبِلُوا استعلان الآب وكلمته، و«تَقَوَّوْا من ضعف» (عب١١: ٣٤)، وظهروا أمام العالم بشخصيتهم الجديدة وكلمة الآب في فمهم، أبغضهم العالم بُغْضاً بائناً قاطعاً، إذ لم يَعُدْ لهم شكل العالم ولا لغته!!

وهكذا إذ صارت لهم هيأتهم الأخروية الجديدة، نبذهم العالم، وعَزَلَهم وأبغضهم، لما اعتزلوا هم العالم وأبغضوا أعماله. ولكن هذه هي بعينها هيئة الرسولية في العالم. جماعة تحيا الحياة الجديدة التي تستمدها من الله، مولودين ولادة جديدة أخرى من فوق بالروح من خارج العالم، ولكنها تعيش على دَرْبِ الصليب المؤدي إلى الحياة الأبدية إلى فوق، ولكنها تبقى في العالم لتتلقى

منه الضربات الموجعة، لأنها ليست من شكله ولا تتكلم لغته. هذه هي محنة الرسولية المحبوبة عندهم: «ودَعَوْا الرسل، وجلدوهم وأوصوهم أن لا يتكلموا باسم يسوع، ثم أطلقوهم. وأما هم فذهبوا فرحين من أمام المجمع، لأنهم حُسِبُوا مستأهلين أن يُهانوا من أجل اسمه» (أع٥: ٤٠و٤١). وهذه المحنة عينها ورثتها الكنيسة عَبْر الدهور فَرِحَةً في الضيقات، تفتخر بآلامها من أجل اسمه، ككنيسة رسولية، لها سماتُ الرب يسوع، كأغصان مثبتة في الكرمة الحقيقية التي جِذْرُها في السماء. وقد حَسِبَ خادم المسيح أن خدمته أفضل، إن كان يتلقى إزاءها ضربات أوْفَر!!

+ «ولكن الذي يجترىء فيه أحد أقول في غباوة أنا أيضاً أجترىء فيه ... أهُمْ خُدّام المسيح (الرسل)؟ أقول كمختلِّ العقل: **فأنا أفضل، في الأتعاب أكثر، في الضربات أوْفر، في السجون أكثر، في الميتات مراراً كثيرة،** من اليهود خَمْسَ مراتٍ قبلتُ أربعين جلدة إلاَّ واحدة، ثلاث مراتٍ **ضُربتُ بالعِصِيّ،** مرة **رُجمتُ،** ثلاث مراتٍ انكسرتْ بي السفينة، ليلاً ونهاراً قضيت في العمق (المياه)، بأسفار مراراً كثيرة، بأخطار سيول، بأخطارِ لصوص، بأخطارٍ من جنسي، بأخطار من الأمم، بأخطارٍ في المدينة، بأخطارٍ في البرية، بأخطارٍ في البحر، بأخطارٍ من إخوة كذبة، في تعب وكدّ في أسهارٍ مراراً كثيرة، في جوع وعطش، في أصوام مراراً كثيرة، في برد وعُرْي.» (٢كو١١: ٢١ــ٢٧)

ويلاحظ في هذا السجل الافتخاري بالآلام، أن بعضها كان بفعل الأعداء المقاومين لإنجيل المسيح، ولكن بعضها أيضاً ساقهُ عليه رئيسُ هذا العالم بنوع من التعقُّب والانتقام. فالذي ينسحب من هيئة هذا العالم ليحيا لله، يدخل مباشرة في مواجهة سافرة مع العدو وأتباعه.

لقد وُهب للكنيسة أن تتألم، إنها الشركة السرِّية مع المسيح في آلامه، التي هي سمة المفديين والمعيَّنين للحياة الأبدية، إنها إكليلُ المجد الذي سيوضع على رؤوس الذين يصبرون إلى المنتهى نظير إكليل الشوك الذي يتلألأ الآن على رأس المسيح، وهو جالس عن يمين العظمة في السموات.

إنها الزوفا التي يغسلنا بها المسيح الآن من قَذَرِ العالم، لنؤهَّل لمَسحَة الدم والخلاص.

المسيح هنا في هذه الآية، يدافع عن تلاميذه وكل المضطهَدين من أجل اسمه، الذين سيشربون من كأس آلامه واضطهاده. المسيح هنا شفيع حقيقي، وباراكليت شرعي، له حقُّ الدفاع، لأنه حاملٌ ثوبَ المحاماة المغموس بدم صليبه، فهو وحده له حق إقامة الدعوى والخصومة ضد العالم

الذي قتله بالغش والكذب والخداع، وذلك لحساب كل الذين يدخلون شهوداً لآلامه وصليبه. فقضية الصليب مرفوعة حتى إلى نهاية الدهر، والشهود يتوارثون الشهادة جيلاً بعد جيل: «تكونون لي شهوداً» (أع١: ٨)؛ «روح الحق الذي من عند الآب ينبثق، فهو يشهد لي، وتشهدون أنتم أيضاً.» (يو١٥: ٢٦و٢٧)

١٧: ١٥ «لستُ أسألُ أن تأخُذَهُم من العالم بل أن تحفَظَهُم من الشرير».

حين أعيي إيليا النبي من اضطهاد إيزابل، «سار في البرية مسيرة يوم، حتى أتى وجلس تحت رَتَمَةٍ، وطلب الموت لنفسه، وقال: قد كفى الآن، يا رب، خُذْ نفسي، لأنني لستُ خيراً من آبائي» (١مل١٩: ٤). ليست هكذا خدمة الرسولية والبشارة المفرحة بملكوت الله والمناداة بإنجيل الخلاص!!

المسيح هنا يوعّي التلاميذ بصلاته، حتى لا يقعوا في خطأ إيليا، فلا يكلُّوا في الضيقات: «كي لا يتزعزع أحدٌ في هذه الضيقات، فإنكم أنتم تعلمون أننا موضوعون لهذا. لأننا لما كنا عندكم، سبقنا فقلنا لكم إننا عتيدون أن نتضايق، كما حصل أيضاً وأنتم تعلمون.» (١تس٣: ٣و٤)

«من الشرير» ἐκ τοῦ πονηροῦ، وفي اللاتينية Ex malo:

في اللغة اليونانية لا يتضح من هذه التسمية «الشرير»، نوع الجنس إن كان مذكراً أو محايداً. ولكن الذي أخذ به معظم العلماء، أنه مذكّر وأنه يقصد الشيطان بالذات، رئيس هذا العالم، لأن الشر في العالم نابع من سيطرته على نفوس الناس: «والعالم كله قد وُضع في الشرير» (١يو ٥: ١٩). والاصطلاح «من الشرير» = ἐκ τοῦ πονηροῦ واضح. «وفي الشرير» = ἐν τῷ πονηρῷ، هو المقابل لعبارة «في المسيح» ἐν Χριστῷ. فكما يعيش المؤمنون في دائرة قوة المسيح وحفظه، يعيش الآخرون في قوة الشرير وإغرائه. ومعروف أن علاقة الإنسان بالشر هي علاقة شخصية. والمسيح، وهو عالم بأصل الشر ومصدره، يصلي أن يحفظ الآب أولاده من سلطان وتأثير الشرير المخادع والمقتحم، ليس فقط من جهة أعماله الظاهرة، بل ومن سلطانه الخفي غير المنظور، حتى لا يقع أحد في حبائله: «لأننا لا نجهل أفكاره.» (٢كو٢: ١١)

وحينما يضع المسيح هذه المقابلة بوضوح بين «لست أسأل أن تأخذهم من العالم، بل أن تحفظهم من الشرير»، **فهو يؤكد رسوخ الكنيسة في العالم، كمكان عملها الوحيد، الذي ينبغي أن تتعاطاه بفرح في وسط الضيقات، كما يقول بولس الرسول:** «تعلمون أننا

موضوعون لهذا» (١تس٣: ٣). والعالم، كما أنه مركز الشر، هو أيضاً بالكنيسة مركز الشهادة.

وحينما يقول: «بل أن تحفظهم من الشرير»، فهو يؤكد عمل الخدمة الرسولية في وسط الشر وتجاه الشر وفي وسط الأشرار، دون الرضوخ للشر أو التنازل معه أو إليه. فالحفظ من الشرير لا يعني الهروب من مواجهته، بل الهروب من إغرائه وإغوائه.

وصلاة المسيح من أجل التلاميذ أن يحفظهم الآب من الشرير، مرادفة لما جاء في الصلاة الربانية التي علمنا فيها المسيح أن نطلب النجاة من الشرير. وهو أيضاً تراث يهودي استلمه اليهود من يعقوب أب الآباء في دعائه للبركة على أولاد يوسف: «الله الذي رعاني منذ وجودي إلى هذا اليوم، **الملاك الذي خلصني من كل شر**، يبارك الغلامين ...» (تك٤٨: ١٥و١٦). وقد دخل الكنيسة منذ البدء كدعاء رسمي سجلته لنا الديداخي ــ **والديداخي هو كتاب «تعليم الرسل الاثني عشر»** (١٠٠م ــ ١٥٠م) اكتشف سنة ١٨٨٣م ــ في الصلاة الليتورجية على القربان:
الباب العاشر بند ٥: [أذكر يا رب كنيستك، وأنقذها من كل شر، واجعلها كاملة في حبك].

وفي قول المسيح سابقاً: «احفظهم في اسمك»، وقوله هنا: «احفظهم من الشرير» ترابط شديد. فالاسم القدوس يحيط النفس بجو القداسة، وبستار الطهارة يخفي عن عينها الشر، ويبطل قوة العدو وسهامه فلا تصيبها. ولكن «احفظهم من الشرير» لا ينحصر المعنى في الحماية، بل ويمتد ليشمل المقاومة حتى الموت، لأن الأخطر أن ينهزم الإنسان أمام سطوة الشرير فيضع حداً لجهاده المرير ضد الشر، فيقبل غوايته منهزماً، ويخضع لمطالبه. لذلك، فدعاء المسيح لتلاميذه بالحفظ من الشرير يؤمِّن شهادتهم للمسيح، حتى ولو بلغ الضيق حد الموت: «لم تقاوموا بعد حتى الدم، مجاهدين ضد الخطية» (عب١٢: ٤). فكلما تعاظم الضيق، تعاظمت الشهادة: «فلما سمعنا هذا، طلبنا إليه نحن والذين من المكان أن لا يصعد إلى أورشليم. فأجاب بولس: ماذا تفعلون؟ تبكون وتكسرون قلبي؟ **لأني مستعد ليس أن أُربط فقط بل أن أموت أيضاً في أورشليم، لأجل اسم الرب يسوع**» (أع٢١: ١٢و١٣)، «وفي الليلة التالية وقف به الرب وقال: ثق، يا بولس، لأنك كما شهدت بما لي في أورشليم، هكذا ينبغي أن تشهد في رومية أيضاً.» (أع٢٣: ١١)

وقد كان! وأصبحت المصادمة مع الشر فرصة عظمى للشهادة.

هـ ــ المسألة المطلوبة من أجلهم:

١٦:١٧ «لَيْسُوا من العالم، كما أني أنا لَسْتُ من العالم».

هذا تكرار يُقصد به التعقيب على الآية السالفة والتمهيد للآية القادمة: فاحفظهم من الشرير، لأنهم ليسوا من العالم ــ كما أنا ــ ولأنهم ليسوا من العالم، قدِّسهم في الحق، حتى يُحفظوا من الشرير، و يغلبوه كما غلبت!

وهنا «ليسوا من العالم» تعني أن حياتهم ورجاءهم وحبهم وفكرهم الشاغل أصبح من الله، وفي الله، وليس من العالم، أو في العالم. هنا أصبح الحفظ حقاً لهم، والتقديس جزاءً واجباً يستحقونه. وقوله أنهم «ليسوا من العالم كما أني أنا لست من العالم»، يوضح أنهم استمدوا من المسيح هذا الكيان الفائق، أنهم أغصان مثبتة في الكرمة، وهو تلميح للاتحاد الكائن في المسيح بالتجسد، كيف حصل فيه الإنسان على الانتماء الكلي للاهوت!!؟

وهكذا انفتح الباب أمام البشرية أن تتحد بالله وتنجو من التبعية للعالم كياناً وفكراً وعملاً وهدفاً: «فإن سيرتنا نحن هي في السموات» (في٣: ٢٠)، «فإن كنتم قد قُمتم مع المسيح، فاطلبوا ما فوق» (كو٣: ١)، «لي اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح، ذاك أفضل جداً.» (في١: ٢٣)

١٧:١٧ «قدِّسْهم في حقِّكَ، كلامُكَ هُوَ حَقٌّ».

«قدِّسهم في الحق»: ἁγίασον... ἐν τῇ ἀληθείᾳ

الترجمة العربية جاءت بتصرف، فالأصل اليوناني هو: «قدِّسهم في الحق»، وليس «قدسهم في حقك»، أي دون إضافة.

الطلبة الأُولى التي طلبها المسيح للتلاميذ كانت: **«احفظهم في اسمك»**، و«أن تحفظهم من الشرير»، على أساس أنهم ليسوا من العالم، وهم باقون في العالم. هذه الطلبة **في حدود العالم**: «لستُ أسأل أن تأخذهم من العالم، بل أن تحفظهم من الشرير.» (١٧: ١٥)

الطلبة الثانية: أن «قدِّسهم في (حقِّك) الحق». هنا الطلبة جاءت خارج حدود العالم. الحقيقة هنا عميقة وممتدة، فالمسيح يطلب لتلاميذه من الآب النَّقْلَة العظمى لكيانهم الشخصي، من تبعيتهم للعالم إلى تبعيتهم لله، لتنتقل حياتهم وأفكارهم ورغباتهم وتعلقاتهم من عالم الشهوات

والماديات التي كانوا مرتبطين بها ومنفعلين لها، إلى حياة «الحق» ἀλήθεια ، التي منها و بها تتغذى الأفكار والرغبات والتعلُّقات لخدمة الله، حيث يتصفَّى الجسد بتقديس الروح ويتنحَّى من القيادة العشوائية، ليعطي للنفس المتحررة من ربقة العالم والماديات القدرة على السيادة والحركة والانطلاق لتكميل خدمة المسيح الكفَّارية، بالبذل على مستوى المحبة المتطهرة.

المسيح يدرك عمق وخطورة هذه الطلبة التي نوَّه عنها فيما يخص نفسه قائلاً: «فالذي قدَّسه الآب وأرسله إلى العالم، أتقولون له إنك تجدِّف، لأني قلتُ إني ابن الله» (يو١٠: ٣٦). لقد قدَّسه الآب قبل أن يرسله، بأن أعطاه اسمه القدوس، و بالمعنى اللاهوتي الكامل أعطاه وجوده وحضرته بالكامل: «الآب الحال فيَّ» (يو١٤: ١٠)، «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم، مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلِّمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع "لكلامي" الذي يتكلم به "باسمي" أنا أطالبه.» (تث١٨: ١٨و١٩)

وها هوذا نفسه يطلب لتلاميذه أن يقدِّسهم الآب!! فلننتبه إلى علوِّ وخطورة هذا الطلب: «قدِّسهم في حقك»، ثم يردف الطلبة حالاً بالإرسالية على مستوى تقديسه وإرساله هو: «كما أرسلتني إلى العالم أرسلتُهم أنا إلى العالم.» (يو١٧: ١٨)

هنا يربط المسيح بين تقديس الآب له، وتقديس الآب لهم؛ هذا التوازي يحمل معاني كبرى؛ كذلك فهو قائم على أساس إرسال الآب له كما على إرساله لهم!! وهنا التوازي في الإرسالية خطير، بل و يزيد الأمر ربطاً وانسجاماً وخطورةً حينما يضيف أيضاً ومباشرة قائلاً: «**ولأجلهم أقدِّس أنا ذاتي ليكونوا هم أيضاً مقدَّسين في الحق**» (يو١٧: ١٩). الآب يقدِّسهم بالروح وهو يقدِّسهم بالدم!! أما تقديس المسيح لهم بالدم فمعروف، أما تقديس الآب فهو سر من الأسرار العالية.

والأمر، يا قارئي العزيز، تتعدَّى أهميته وخطورته حدود تلاميذه، فهو إنما يعلن بهذا قداسة الكنيسة وإرساليتها في العالم على أساس تقديس الآب والابن لها، فهو يطلب لها تقديس الآب من فوق من الأعالي لتصير كنيسة السماء على الأرض مُتغرِّبة ولكن محفوظة بالدم، على أساس تقديس نفسه لها، حتى تبقى في العالم، وهي ليست من العالم، ويكون لها قوة وسلطان الله الآب والابن في تقديس أولادها واحداً فواحداً وواحدة فواحدة، لحفظهم من الحياة بحسب دنيا الغرور والشرور والماديات والشهوات والجسد، ثم نقلهم إلى الحياة بالروح في تقديس الحق.

ما هو تقديس الحق:

إن صلاة المسيح لدى الآب من أجل تقديس التلاميذ، والكنيسة بالتالي، هي مُبتدأ الأسرار، فهذا هو سر التقديس الأعظم الذي انحدرت منه وبمقتضاه كل الأسرار.

والتقديس في الحق هو بحد ذاته التخصيص لله وللحياة الأبدية، أو هو الانتقال من الخضوع والانفعال لأعداء الحق الثلاثة، العالم والجسد والخطية، ورأسها الشيطان أبو التزييف والكذب، إلى الحرية، حرية أولاد الله، من كل صور وخداعات العالم المتركِّزة في الخطية المتسيطرة بالغش على الجسد، بتزييف أوهام يغرسها الشيطان في الفكر والتصوُّر والعاطفة، لينخدع لها الإنسان ويقبلها، فينطوي تحتها كعبد: «إنَّ كلَّ مَنْ يعمل الخطية هو عَبْدٌ للخطية.» (يو٨: ٣٤)

الحق: الله هو الحق الكلِّي، والمسيح هو الحق، والروح القدس هو روح الحق. الحق واحد، بسيط، لا ينقسم أبداً، ولا يُرَى منقسماً على ذاته.

العالم: «العالم كله قد وُضِعَ في الشرير» (١يو٥: ١٩). وهكذا بسبب تزييف الشيطان لكل ما هو حقٌّ فيه ــ لأنه لا يملك العالم بالحق، ولكن يملكه بالغش، ويملك الغش الذي فيه!! ــ لذلك جعله مركز الانقسام والازدواج الصارخ فأصبح الخداع يحيط العالم، و يتغلغل أجل ما فيه. فالجمال مثلاً: كل جمالٍ تتربص به الخديعة لاصطياد الجُهَّال. والفرح؛ كلُّ فرح سرعان ما ينقلب إلى حزن، والفرح الذي لا يدوم هو خداع، والفرح الذي ينقسم على ذاته و يتحول إلى حزن يكشف عنصر الخداع في الفرح والحزن كليهما. لذلك يقول المسيح، فاضحاً عنصر الخداع في الفرح الذي يعطيه العالم، هكذا: «ولكني سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم، **ولا ينزع أحدٌ فَرَحَكم منكم**» (يو١٦: ٢٢). وعلى مستوى الفرح، يعطي المسيح السلام: «سلامي أُعطيكم، ليس كما يعطي العالم أُعطيكم أنا.» (يو١٤: ٢٧)

هنا يكشف المسيح الازدواج المؤلم في السلام الذي يعطيه العالم، فهو سرعان ما ينقلب إلى قلق واضطراب وضيق يخنق النفس. وهكذا فالسلام الذي يمكن أن ينقلب إلى كآبة، هو خداع، السلام والكآبة كليهما.

والجسد: هو ملتقى الخداع الذي يبثُّه تزييف رئيس هذا العالم: «فإني أُسَرُّ بناموس الله، بحسب الإنسان الباطن، ولكني أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني، و يسبيني إلى ناموس الخطية الكائن في أعضائي. ويحي أنا الإنسان الشقي مَنْ ينقذني من جسد هذا الموت؟» (رو٧: ٢٢ــ٢٤)

وبنظرة واحدة مرتفعة عن العالم، نرى كيف ينتهي الجسد ويؤول إلى فساد وتراب، فيتضح مدى الخداع الذي عاش فيه بين الصحة والمرض، والغنى والفقر، والشبع والجوع، والعطش والارتواء، والعلم والجهل، والمتعة والحرمان، والرِّضى والغضب، والاطمئنان والخوف، والنور والظلمة وأخيراً الحياة والموت؟ فبنظرة من الأعالي، ترى الروحُ وهي في مقرّها السماوي مدى زيف هذا الازدواج المؤلم الصارخ الذي يعبث بالانسان ويظنّه الإنسان، وهو واقع تحته، أنه حق، وهو الخداع والسراب، عين الخداع وعين السراب!!

ولكن ليس وحدها العينُ الروحية للنفس وهي في السماء تكتشف هذا الخداع، بل وعينُ الإنسان الذي تَقَدَّس بالحق هنا على الأرض، ودخل مجال تقديس الآب والمسيح، فقد أُعْطِي له أن يرى مهزلة هذه الازدواجية، ولكن أُعطي أن يعيش فوقها، ويراها، ولكن لا يُمسَكُ منها؛ يعيشها، ولكن لا تعيش فيه، لأنه يحيا الحقيقة، يحيا النور الدائم والفرح الدائم والسلام الدائم، يأكل الخبز السماوي الباقي إلى الأبد، «المأكل الحقُّ»، فلا يجوع أبداً، ويشرب ماء الحياة ودم الخلاص المحيي فيرتوي أبداً ولا يعطش أبداً لأنه «المشرب الحق». ويحيا حياة الأبد، لا يخشى الموت وما يؤدي إلى الموت، فلا يموت أبداً «فقد انتقل من الموت» الخادع «إلى الحياة» الحقيقية التي ليس فيها موت أو خداع. والحق يعلو الزمن، وكلَّ ما يغيِّره الزمن، وكل ما يفنيه الزمن. وهذا تاج الإنسان الذي قَبِلَ تقديس الآب والمسيح.

المسيح حينما أكمل كرازته، وضمن خلاص الإنسان وتحريره من الخطية وخداع العالم، قال قولته الغالية: «الآن دينونة هذا العالم، الآن يُطرَحُ رئيسُ هذا العالم خارجاً» (يو١٢: ٣٢). دينونة العالم يعني الحكم على الخداع والتزييف الذي فيه، بظهور الحق الإلهي، وبدء عمله على مستوى الإنسان. أما طَرْحُ رئيس العالم خارجاً، فهو بعينه عَزْلُ قوة التزييف، واستعلان قوة الحق التي بدأت تُفرِزُ الكذب والغش الذي يلفُّ به الشيطان الخطية، والتي بها قتل الإنسان لذلك دعاه المسيح: «قتّالاً للناس من البدء.» (يو٨: ٤٤)

وهكذا، وبعد أن قال المسيح: «ثقوا، أنا قد غلبتُ العالم» (يو١٦: ٣٣)؛ صلَّى إلى الآب قائلاً: «العمل الذي أعطيتني لأعمل، قد أكملتُهُ» (يو١٧: ٤)، وعليه فقد استطاع أن يتقدم بطلبته العظمى الآن: «قدّسهم في حقّك»، بمعنى أن يملك الحق فيهم، فلا ينجذبوا قط إلى العالم، بل بالحري يكونون نوراً للعالم يبدد ظلمته الخادعة، ومَصْدَرَ توبيخ يفضح أكاذيبه: «ولا تشتركوا في أعمال الظلمة غير المثمرة، بل بالحري وبِّخوها.» (أف٥: ١١)

تقديس الحق: ليس هو إجراءً ظاهرياً، بل هو انفتاح الوعي الداخلي للإنسان بقوة الروح الذي يسكبه الآب على التلاميذ، والذي كان يومُ الخمسين قمّةَ استعلانه. الوعي المسيحي بعمل الروح القدس، يعمل على رفع رؤية الإنسان وإدراكه، فهو بسهولة يكشف كلَّ خداع العالم والشيطان: «لأننا لا نجهل أفكاره» (٢كو٢: ١١)، وبالتالي، فهو يصبح قادراً على أن يتعامل مع الظلمة بكل أفكارها وأدواتها، يدركها منذ أول حركتها، ويطاردها، ويطردها، لأنه يكشف زَيْفَها وخطورتها وعدمها: «قاوموا إبليس، فيهرب منكم» (يع٤: ٧)، هروبَ الظلمة أمام النور. لذلك، فالذي يسلك في الحق، يغلب العالم! «فرحت جداً لأني وجدتُ من أولادك بعضاً سالكين في الحق، كما أخذنا وصية من الآب.» (٢يو٤)

القديس يوحنا أدرك قوة الحق وفعله ودخوله إلى العالم بالمسيح: «لأجل هذا أُظهر ابن الله، لكي يَنْقُضَ أعمال إبليس.» (١يو٣: ٨)

«النور»:

وهو التعبير عن الحق في أوسع معانيه، مُشخَّصاً في المسيح يسوع، وقد جاء إلى العالم، فارتكز الحق على الأرض ارتكازاً أبدياً مُشخَّصاً ومُسْتَعْلَناً في المسيح وكلمته وأسراره وإنجيله وكنيسته.

ولكن الحق ليس كالكذب، وليس كالخداع الذي يُغْوِي الجهال، فالحق لا يستهوي إلاَّ مَنْ انفتحت بصائرهم، فاستَجْلَتْ النور في مصدره، أما الذين يستهويهم الزَّيْفُ والوهم والكذب والحق المغشوش، فلا يرون في النور نوراً بل حرماناً للملذات وهمية مائتة: «النور قد جاء إلى العالم، وأحب الناس الظلمة أكثر من النور» (يو٣: ١٩). فالإنسان الأعمى لا يرى إلاَّ ما هو تحت رجليه!!

وليس الانجذاب إلى الخداع هو قطيعة مع النور فحسب، بل إنه ولكي ينفضح عنصر الكذب والكذاب الذي فيه، فإن مُحبَّ الظلمة تجده باغضاً للنور أيضاً: «لأن كل مَنْ يعمل السيئات يُبغض النور، ولا يأتي إلى النور (الصلاة، الكنيسة، خدام الله) لئلا تُوبَّخ أعماله.» (يو٣: ٢٠)

ولا يمكن أن يتقابل الحق مع الكذب والخداع، أو صاحب هذا مع صاحب ذاك، فهذا كأس حياة وهذا كأس موت، ولا يمكنك أن تجمع النور مع الظلمة؛ ليس لأن الظلمة شيء أو لأن الكذب شيء، بل لأنه هو اللاشيء، وحتماً يؤول إلى العدم. الظلمة والكذب تأخذ وجودها الكاذب خلف الحق، فهي قائمة لأنها تزيِّف الحق وتزيِّف النور، ولولا النور ما كانت ظلمة، ولولا الحق ما كان كَذِبٌ. فإذا عمَّ الحق والنورُ يوماً، تلاشى الكذب والظلمة حتماً!!

«الله نور، وليس فيه ظلمة البتة» (١يو١: ٥). هذا يقيناً، فهو الحق كل الحق. فالنور والحق ليسا صفاتٍ لله بل هما طبيعة قائمة فعَّالة فيه. فلا وجود للحق بدون الله، فهو صاحبه الوحيد. فالحق والنور قُوى إلهية لا تُدرك قط في طبيعتها، لأن مَنْ ذا الذي يدرك طبيعة الله؟ وإنما نحن ندرك فِعْلَها في الإنسان: في فكره، فينعكس النور على عقل الإنسان الواعي للمعرفة الفائقة فيخشع الإنسان أمام الله؛ وفي قلبه وروحه، فتنطبع المحبة، التي هي محصِّلة فعل النور مع الحق، فينجذب قلب الإنسان نحو الله. لذلك «إن قلنا إن لنا شركة معه ـــ (ومسيرة ومعرفة لله) ـــ وسلكنا في الظلمة، نكذب ولسنا نعمل الحق» (١يو١: ٦)، «مَنْ قال إنه في النور، وهو يبغض أخاه، فهو إلى الآن في الظلمة... وفي الظلمة يسلك، ولا يعلم أين يمضي، لأن الظلمة أعمَتْ عينيه.» (١يو٢: ٩و١١)

ثم ما هو سلام الله الكامل؟ إلاَّ حينما يملك الحق بالكامل؟ وما هو الإتضاع الحقيقي إلاَّ حينما يُستعلَن النور في قمة قوته؟ ثم ما هي القداسة أو التقديس إلاَّ حينما تُستعلن طبيعة الله بمفاعيلها، فتحوِّل طبيعة الإنسان القابلة للخداع والتزييف، إلى طبيعة محصَّنة بالحق وقوته، و بالنور وقوته، فلا يعود الإنسان يُحْمَلُ بكل ريح، بل يثبت في الله: «الله محبة، ومَنْ يثبت في المحبة، يثبت في الله والله فيه.» (١يو٤: ١٦)

أما الحق، وأما النور، فقد استُعلنا للعالم في شخص يسوع المسيح: «أنا هو نور العالم» (يو٨: ١٢)، «أنا هو... الحق...» (يو١٤: ٦)، بالقوة في الأعمال الإلهية، و بالفعل في حياة شخصية مِلْؤها الحب الذي بَلَغَ قمته في الصليب وفي أعمال المسيح وحبّه المبذول، استُعلنت أُبوّة الله فيه واستُعلنت بُنُوّته الفريدة لله، فكانت قمة الحق الذي عرفناه، فتحررنا من الخطية التي ملكت علينا، ومن الشيطان الذي أفْسَدَ وَعْيَنا، ومن العالم الذي زيَّف الحق في أعيننا، هذا عندما فدانا الابن بدمه، وكفَّر عن كل ذنبنا، وجمعنا في جسده، ووحَّدنا وقدَّمنا إلى الله أبيه، فتبنَّانا.

ومن جهة هذا التحصيل الحاصل، يقول ق. يوحنا: «إننا نحن من الله، **والعالم كله قد وُضِعَ في الشرير.** ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق، **ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح**» (١يو٥: ١٩و٢٠). هنا يكشف ق. يوحنا قُطْبَيْ الحق والخداع، في مواجهة. ثم يختم على استعلان معرفة يسوع المسيح هكذا: «هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية» (١يو٥: ٢٠). نعم، فقد وَضَحَ أن المسيح هو الإله الحق بسبب الحق الذي استُعْلِن فيه لنا ـــ إذ لم يوجد فيه غش، وإذ قام من الأموات ونِلْنا منه خلاصاً ونصرة على العالم: «مَنْ هو الذي يغلب العالم، إلاَّ

الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله» (١يوه : ٥). والحق الذي استعلنه المسيح وعاشه، أعطاه كما عاشه، فأثبت بالفعل أنه هو الإله الحق، لذلك يضع ق. يوحنا مقابل المسيح الآلهة الكاذبة بغشِّهم المفسود: «ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح... أيها الأولاد، احفظوا أنفسكم من الأصنام آمين» (١يوه : ٢٠و٢١)، وما الأصنام إلاَّ أدوات عبادة الشيطان: المال بأمجاده الكاذبة، والملذات، والشهوات التي حلَّلتها العبادة المغشوشة.

عبد الخطية المتعبِّد لملذات الجسد وشهوات النفس الجسدية، العائش في دنيا الأوهام، يشعر بنفسه شعوراً محدوداً ضيقاً وكأنه محصورٌ في الجسد ودنيا الأطماع والجسديات. أما الذي تقدس بالروح لله وعبادته واستُعلن له الحق، فإنه يشعر وكأن نفسه وروحه قد تحررتا من ضيق الجسد وانحصار أطماعه ورغباته وملذاته الكاذبة، فلا يعود للجسد وجوده الطاغي وكأنه كل شيء، بل وتفقد الآمال والأطماع والملذات والشهوات جمالها المخادع، وتنحطُّ قيمتها وتنحصر في عين الروح، وتنحط حتى تصير تحت قدميه، فتبدو مُبْتَذَلة يحيطها الندم، وتسرح الروح حُرَّة في عالم الله الواسع، يقودها روح الله من حق إلى حق ومن سموٍّ إلى سموٍّ، فتكبر النفس مع الحقيقة وتتسع مع الحق، فلا تعود الدنيا تَسَعُها باتساع آفاقها، إذ يبدأ الخلود ينبض في القلب فترتفع مُدْرَكات الروح، وتدخل في غبطة استعلانات الله، وهي تمتد نحو مصدر الخلود والحياة الحقيقية. وهكذا تبدأ النفس تخلع أردية أوهامها السابقة، وتندم وتتأسف على المشاعر الكاذبة التي لصقت بها، وتخلع أرديتها المزيَّفة من القلق والضيق والغضب والحسد والحقد والنقمة والخصام والتهديد والوعيد والحزن والكآبة مع الفرح الكاذب والتهليل المصطنع والآمال الترابية، التي هي كلها أبناء الزنى الروحي والجسدي ومخلفاته المخزية:

+ «لأنكم لما كنتم **عبيد الخطية**، كنتم أحراراً من البر، فأيُّ ثمرٍ كان لكم حينئذ من **الأمور التي تَستَحُون بها الآن**. لأن نهاية تلك الأمور هي الموت. وأما الآن، إذ أُعتقتم من الخطية، **وصرتم عبيداً لله، فلكم ثمركم للقداسة**، والنهاية حياة أبدية.» (رو٦: ٢٠ــ٢٢)

وبعد أن قال المسيح عن تلاميذه إنهم ليسوا من العالم كما أنه هو ليس من العالم، عاد وقال: «أما هؤلاء، فهم في العالم، وأنا آتي إليك» (يو١٧ : ١١)، ثم عاد وقال: «ولست أسأل أن تأخذهم من العالم، بل أن تحفظهم من الشرير.» (يو١٧ : ١٥)

واضح هنا أن التلاميذ كانوا قد بدأوا في الانسحاب من مظاهر العالم الكاذب، فلم تعد هذه

المظاهر مصدر انفعال وقبول وحوار وتملُّك، ولم تَعُدْ حواسهم تعمل وفق العالم في غياب الله والحق؛ «وقد حفظوا كلامك» (يو١٧: ٦)، فصار كلام الله حافظاً لهم، حارساً لانفعالاتهم، متدخلاً إزاء طغيان العدو إذا طغى. هنا تنبري قوة الحق في كلام الله، تعمل بسلطانها في قلب الإنسان، لضبط القوة المخادعة الشريرة التي دأبت على تخريب طبيعة الإنسان، لضمِّها إلى سلطان رأس التخريب والخراب.

وهكذا يأتي طلب المسيح من أجل تقديسهم في الحق: «قدِّسهم في حقِّك»، لكي يصيروا مُكرَّسين للحق وخدمته، يمسكون بالحياة الأبدية فيصيرون في مأمنٍ من مُزيِّفات عدو الحق. يعيشون في العالم خارج مظاهر العالم وأغلفته الكاذبة، لأنه حينما يتحررون من كذب العالم وخداعه، لا يكون من داعٍ بَعْدُ لأخذهم من العالم، بل بالأولى بالعمل فيه بروح الله، وهو روح الحق، لإبطال خداعه: «يُبكِّت العالم على خطية، وعلى برٍّ، وعلى دينونة.» (يو١٦: ٨)

«كلامُكَ هو حقٌّ»:

كلامُ الحقِّ، أو الكلامُ الذي هو حقٌّ، ليس حروفاً مكتوبةً، ولا منطوقة أو مسموعة، ولا مُصوَّرةً في الذهن؛ بل هو استعلان الله للوعي الداخلي للإنسان. وما «الكلمة» إلاَّ مرشدٌ وقائدٌ ومُشيرٌ للروح الأمينة المصدِّقة لله، المفتوحة العينين، المستعدَّة للمقابلة!

«الكلمة» تقود الذهن الملتهب بالحب والوقار لتُدْخله إلى حضرة الله الآب، فترتسم على صفحة النفس صورة الله ينقشها شعاع نور الحق، فتتعدَّل النفس، وتتبدَّل وتتصحَّح وتتقدَّس، حيث تحترق منها كلُّ شوائب الخداع والظنون والجهالة، وكل صور العالم الكاذبة، وتنطبع فيها ملامح الله في القداسة والحق! «كما هو حقٌّ في يسوع، أن تخلعوا من جهة التصرف السابق **الإنسان العتيق الفاسد بحسب شهوات الغرور** (الخداع) deceit = ἀπάτης، وتتجدَّدوا بروح ذهنكم، وتلبسوا الإنسان الجديد **المخلوق بحسب الله، في البرِّ وقداسة الحق.**» (أف٤: ٢١—٢٤)

«كلام الله» هو واسطة الدخول إلى الله، «الكلمة» هي باب ينفتح على طبيعة الله القدوسة. لا أحَدَ يدخل عَبْر «الكلمة الحق» إلى الله إلاَّ و يتقدَّس. ولكن العبرة ليست في «الكلمة» في حد ذاتها، تلك المكتوبة أو المقروءة، ولكن العبرة في النيَّة والقصد والضمير التي بها نقترب «للكلمة» كما يكون الاقتراب إلى الحق. فإنْ لم يكن القصد هو الدخول إلى الله، وإن لم يكن القصد من الدخول إلى الله هو كشف الحال وتغيير الأحوال، ونوال التغيير، والتقديس حسب الوعد، فالكلمة تفوتنا، ونحن نفوتها: «لذلك يجب أن نَتَنبَّه أكثر إلى ما سمعنا لئلا نفوته»

(عب٢: ١). فلنعلم، بكل يقين الإيمان والاختبار، أن الكلمة في الإنجيل كانت ولا تزال إلى الأبد مصدر تقديس ملايين من نفوس أولاد الله، الساعين لمعرفة الحق وخدمته: فقد فتحوا الإنجيل برعدة الخطاة، واقتربوا من الكلمة وكأنها كنز الحق، فانفتح لهم الكنز، فاغترفوه، وصاروا قديسين بالحق والعمل والشهادة.

كل هذا، كان السبب فيه ومنشاؤه وقوته صلاةَ المسيح من نحو تلاميذه والكنيسة: «قدِّسهم في الحق. كلامُك هو حقٌ»! فصار التلاميذ قدِّيسين مقدَّسين في الحق. نطقوا الحق، وعلَّموه، ثم كتبوه، فكان لنا إنجيلاً ناطقاً بقداسة هؤلاء التلاميذ وبالحق الذي قدَّسهم.

١٨:١٧ «كما أرسَلْتني إلى العالم، أرسَلْتُهم أنا إلى العالم».

تقديس التلاميذ الذي يطلبه المسيح من الآب، يطلبه ليس لكي يترفَّع به التلاميذ وينعموا، بل ليقتحموا به ظلمة العالم، وليحطموا به أعظم بناء بنته الآلهة الكاذبة لأكبر إمبراطورية ظهرت في العالم، والتي استولى عليها الشيطان كملك وجلس في هياكلها كإله. قداسة التلاميذ لم تَزِدْهُم مجداً في عين العالم، بل سخرية وشقاءً وبلاءً وسجناً وسيفاً وقبْرَ شهادةٍ. كانت إرساليتُهم إرسالية آلام. ولكن آلام هؤلاء القديسين كانت كفيلة بأن تهدم حصون الشر. وعلى أنقاض أعمدة الباطل وقِبَابه، قامت كنيسة الله، عمود الحق وقاعدته.

المسيح الكلمة، قدَّسه الله، وأرسله إلى العالم (يو١٠: ٣٦) ليشهد لحق الآب، فشهد وذُبح. «**هكذا**» أرسل المسيح تلاميذه إلى العالم، ليشهدوا وهم تحت حدِّ السيف وعلى الصليب عينه.

«كما καθώς أرْسَلْتني... أرسلتُهم»:

«**كما**» = «كاثوس» وهي هنا لا تفيد المشابهة، بل تفيد الشرح والتوضيح، حتى إنه لا يصح أن نفصل أبداً إرسال الآب للمسيح عن إرسال المسيح لتلاميذه، فالثانية مشروحة ومستمدة من الأُولى. وكما كان لا بد من تقديس المسيح مُسْبَقاً لكي يُرسَلَ إلى العالم: «الذي قدَّسه الله، وأرسله إلى العالم...» (يو١٠: ٣٦)، كذلك فإن تقديس الآب للتلاميذ كان ضرورة حتمية، حتى يستطيع المسيح أن يرسلهم إلى العالم: «كانوا لك ــ فقدِّسهم في حقِّك، لكي إذا ما أعطيتَهُم لي، أرْسِلُهُم».

كان نظر المسيح مثبَّتاً نحو إرساليته التي قدَّسه الآب لها، وكان ينظر إلى استمرارها. لهذا أعدَّ

منذ البدء الذين سيُرْسِلهم، اختارهم، وتلْمَذَهم، وأعْلَمَهُمْ بكل ما عند الآب، وأسماهم أحباءً، لأنه أخذهم من يدِ الآب: «كانوا لك، وأعطيتَهُمْ لي» (يو١٧: ٦)، كانوا عبيد يَهْوَه الأتقياء، المختارين من نسل المختارين! وصاروا مسيحيين. لقد قدَّمهم إلى الآب أبيه، كأولادٍ وليس بَعْدُ عبيداً، جاهزين للتقديس، لأنه كان قد أعدَّ لهم موطناً آخر، الموطن الذي منه أتى: «هؤلاء (أصبحوا) ليسوا من العالم كما καθώς إني لستُ من العالم». ونجح أن ينقل قلوبهم، فلم يعودوا يطلبون وطنهم الأول بل وطناً أفضل أي سماويًّا. ولما أتت الساعة، وتحتَّم الفراق والانطلاق، أوصى الآبَ أن يقدّسهم تقديس مَنْ يُرسلهم.

ولينتبه القارىء إلى تسلسل الأفكار. فإن تقديس الآب المُسْبَق للمسيح، أهَّله أن يقول: «أنا لستُ من العالم»، وهذا أهَّله للرسالة. وليس التلاميذ كالمسيح، إذ تحتم أن يصيروا أولاً «ليسوا من العالم»، ليتأهلوا للتقديس، ثم الإرسال.

١٧: ١٩ «ولأجْلِهم أُقَدِّسُ أنا ذاتي، ليكُونُوا هم أيضاً مُقدَّسِينَ في الحَقِّ».

ليس إنسانٌ قط بمستطيع أن يقول: «أُقدّس ذاتي»، بل ولم يُعْطَ للإنسان قط أن يُقدِّس تقديساً، فالتقديس هو عمل الله وحده؛ لأن التقديس هو أن يصير الإنسان من خاصَّة الله. فالله وحده هو مَنْ يعيِّن خاصَّته، ويقيمهم تحت ولايته وخدمته ونعيمه. وللإنسان فقط أن يطلب التقديس، ولكن لا يعطيه قط. هو يطلب أن يكون من خاصَّة الله، و يظل يرجو ذلك رجاءً.

أما المسيح، فهو يردُّ على تقديس الله له بأن يستجيب بنفس القَدْر والقصد، فيقدّس ذاته للآب تقديساً. وهنا، تقديسُ الآب للابن يتساوى مع تقديس الابن نفسه للآب، فهذا بحد ذاته إعلانُ مساواتِه في الألوهة؛ بمعنى أنه بقدر ما اختار الآب أن يخصص الابن المتجسد ليمثِّله في العالم تمثيلاً، بقدر ما استجاب المسيح وقطع على نفسه أن يحيا ويموت له وحده خاصة، وقد أكمل، حتى بحياته يتقدس تلاميذه لله أبيه، باتِّباع تعاليمه ووصاياه التي أخذها من الآب وأعطاها لهم، وبموته يموتون هم أيضاً عن العالم موتاً، فيتقدمون كذبائحَ لله وللحق: «وأما من جهتي، فحاشا لي أن افتخر إلاَّ بصليب ربنا يسوع المسيح، الذي به قد صُلب العالم لي، وأنا للعالم.» (غل ٦: ١٤)

في العهد القديم الذي جاء المسيح ليكمّله ثم يستوفي قصده، كان التقديس لله هو من نصيب البِكْر. والمسيح هو بِكْرٌ، بحكم مولده البشري، و بِكْرٌ بحكم قيامته من الأموات حيًّا بالروح القدس، أي بكرُ الخليقة الجديدة: البُكورية الأُولى وضعته **تحت حكم** التقديس، والبكورية الثانية

أهّلته أن يقدّس هو الناس. كما أنه هو بكر الله لأنه الابن الوحيد للآب ليس عن ولادة ولكن بالطبيعة، فالوحيد (المونوجانيس) بالطبيعة هو بكر بالتسمية أو اللقب: «هو يدعوني أنت أبي، إلهي وصخرة رجائي. وأنا أيضاً **أجعله** بكراً أعلى من ملوك الأرض» (مز٨٩: ٢٦و٢٧)؛ «وأيضاً متى أدْخَلَ "**البكر**" إلى العالم يقول ولتسجد له كل ملائكة الله.» (عب١: ٦)

والمسيح، باعتباره البكر المقدَّس لله، يقول عنه سفر العبرانيين إنه دخل العالم ليصنع مشيئة الله حيًّا ومذبوحاً: حيًّا بطاعته الكلية، ومذبوحاً لتقديس الإنسان:

+ «عند دخوله إلى العالم ـــ [«متى أدخل البِكْرَ إلى العالم» (عب١: ٦)] ـــ يقول ذبيحة وقرباناً (حيوانياً) لم تُرِدْ، ولكن هيَّأتَ لي جسداً. بمحرقات وذبائح للخطية لم تُسَرّ. ثم قلتُ (أنا) هأنذا أجيءُ، في دَرْجِ الكتاب ـــ (مز٤٠: ٦) ـــ مكتوبٌ عني لأفعل مشيئتك يا الله. إذ يقول آنفاً إنك ذبيحة وقرباناً ومحرقات وذبائح للخطية لم تُرِدْ ولا سُرِرْتَ بها، التي تُقَدَّمُ حسب الناموس. ثم قال: هأنذا أجيء، لأفعل مشيئتك يا الله: ينزع الأول لكي يثبّت الثاني: فبهذه المشيئة نحن **مقدَّسون** بتقديم جسد يسوع المسيح مرة واحدة.» (عب١٠: ٥ـــ١٠)

فإذا فحصنا هذه الإشارات معاً بترتيب، يتضح من تقديس البكر لله حسب العهد القديم وتعبيره: «**إنه لي**» (خر١٣: ٢)، أن المسيح يكشف سرًّا كان مكنوناً في الأزلية وخطيراً! وهو أن الله سبق أن قدَّسه **بالمشيئة**، وأرسله للعالم. ذلك كله في المشورة الأزلية ليكون الابن المتجسد «**مخصَّصاً لله في العالم**» كمُرْسَلٍ، وذلك **لتقديس البشرية**. هذا هو المعنى: «فبهذه المشيئة نحن مقدَّسون بتقديم جسد يسوع المسيح مرة واحدة».

ثم أن النبوة تأتي في (مز٤٠: ٦)، لتكشف التمهيد لهذه المشيئة الأزلية: أن الله رَفَضَ الذبائح والقرابين، ولم يُسَرَّ بالمحرقات؛ إذ صارت مشيئة الآب متركِّزة في تقديم المسيح الذي سبق فخصَّصه، أي قدَّسه، لتكميل هذه المشيئة، **فهيَّأ** له جسداً يُكمِّل به هذه المشيئة.

ثم يعود المسيح ويكشف كيف طابق مشيئة الآب بمشيئته الخاصة الحُرَّة، كابنٍ في الأزلية، وذلك في نفس المزمور ٤٠: ٨ بقوله مجيباً لمشيئة الآب هكذا: «أن أفعلَ مشيئتك يا إلهي سُرِرْتُ». أي أن مشيئة الآب، من نحو تقديم المسيح ذبيحة عِوَضَ كل الذبائح المرفوضة التي لم تكمِّل مسرة الآب، طابقت تماماً وفي الأزلية أيضاً مشيئة الابن الشخصية في تقديم جسده بمسرَّةٍ، كذبيحة خطية من أجل العالم. بمعنى أن مشيئة الآب صدرت للابن، كوصية منذ الأزل، وقَبِلَها الابن في الأزلية، ونفَّذَها بالجسد في ملء الزمن كيسوع المسيح.

وهكذا، وفي إنجيل ق. يوحنا، يكشف المسيح عن التطبيق العملي لنبوات العهد القديم التي

التقطت صورة مُسْبَقَة لِمَا دار بين الآب والابن في الأزلية، عما سيحدث حتماً في الزمن، وذلك حسب قول المسيح نفسه عن نفسه، أنه حان الزمن ليكمّل الوصية، هكذا: «لأجلهم أنا ــ (الآن) ــ أُقدّس ذاتي». ويجيء سفر العبرانيين ليكشف هذه الدراما، في صورتها الأزلية وفي توقيعها العملي على مسرح الزمن، ثم ينتهي بذلك إلى مفهوم التقديس في العهد الجديد: «**فبهذه المشيئة نحن مقدَّسون**»!! سواء المشيئة **بصورتها الأزلية** أو بتطبيقها العملي: «بتقديم جسد يسوع المسيح مرة واحدة» (عب١٠: ١٠). وقول سفر العبرانيين هذا، يوضح بأجلى بيان ما قاله بولس الرسول أيضاً من جهة هذه المشيئة الأزلية في رسالته إلى أفسس: «كما **اختارنا** فيه قبل **تأسيس العالم**، لنكون **قديسين**، وبلا لوم قُدَّامَه في المحبة، إذ سبق فعيَّننا للتبنّي، بيسوع المسيح لنفسه حسب **مسرة مشيئته**.» (أف١: ٤و٥)

كما عاد وأوضحها، بقوة، في رسالته إلى تيموثاوس: «الذي خَلَّصَنا، ودعانا **دعوة مقدسة**، لا بمقتضى أعمالنا، بل **بمقتضى القصد والنعمة التي أُعطيت لنا في المسيح يسوع، قبل الأزمنة الأزلية**.» (٢تي١: ٩)

«ليكونوا هم أيضاً مُقدَّسين في الحق»: ἐν ἀληθείᾳ

يلاحظ أن كلمة «الحق» جاءت في اليونانية في هذه الآية بدون «أل» التعريف، فهي تُتَرجَمُ ليس «الحق» بل «**حقًّا**» أو «بالحق». يعني ليس تقديساً اسمياً، كما كان يجري في العهد القديم بإجراء ظاهري، ولكن تقديسٌ إلهيٌّ من عمل الله نفسه. وتقديس التلاميذ الذي يهدف إليه المسيح هو على مستوى تقديس ذاته هو: «ولأجلهم **أُقدِّس** أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضاً **مُقدَّسين بالحق**»؛ لأن تقديس المسيح لذاته هو صميم الحق. والمعنى هنا عميق وخطير، وهو يرمي إلى أن المسيح قدَّس حياته تقديساً روحياً لله أبيه؛ وقدَّس موته: أي أن ذبيحة نفسه قدَّسها لله خاصةً، لا على مستوى الظاهر كذبائح الحيوانات التي كانت تُقدَّم قديماً على مذبح المحرقة المصنوع بالأيدي، بل ذبيحة فائقة في طبيعتها وجوهرها، إلهية، دَمُها دمٌ أزليٌّ، حيٌّ بروح أزليٍّ. لذلك كان تكفيرها مطلقاً غير محدود، من جهة فعلها، على مستوى المكان والزمان والحياة. هذا هو تقديس المسيح لذاته في حياته ومماته. وهكذا هو يطلب لتلاميذه أن يكون تقديسهم لله من داخل فعل تقديسه، ليس بالمظاهر والاسم، ولكن بأن يشملهم تقديسُ ذبيحته، ليُحْسَبُوا أمام الله الآب مقدَّسين بالحق وقديسين بلا لوم (أف١: ٤)، لهم رائحة المسيح الذكيّة لدى الآب (٢كو٢: ١٥)، والتي «اشتمها أبوه وقت المساء على الجلجثة» (التسبحة اليومية ــ ثيئوتوكية الأحد)، رائحة حياة لحياة (٢كو٢: ١٦)!!

ومرة أخرى، يلزم التفريق بين تقديس المسيح لذاته، فهو ἀλήθεια ، هو «الحق»: هو «الله». أما تقديس التلاميذ فهو بالحق، أو حقاً، فهو إنعام إلهي. وبالمعنى العملي، فإن ذبيحة المسيح أعلنت لاهوته بالقيامة من الأموات، لأنها لم تكن ذبيحة ميتة قابلة للفساد، بل ذبيحة لم ترَ فساداً، حية بلاهوتها للحياة، لذلك صارت مُحْيية. أما ذبائح التلاميذ، في حياتهم بالكرازة وفي موتهم بالاستشهاد، فهي ذبائح ناطقة شاهدة "بموتهم" للآب والمسيح. «**دماء الشهداء بذار الكنيسة**».

ذبيحة المسيح ذبيحة الحق المحيي التي فتحت الطريق إلى الحياة الأبدية. وذبائح التلاميذ والشهداء والكنيسة ذبائح مؤهّلة للحياة الأبدية، وخدمتها، أي الكرازة بها. ذبيحة المسيح هي ذبيحة تقديس البكر، بِكْرِ الإنسان وبِكْرِ الله. فكان هو البِكْرَ الذي دخل إلى العالم: «متى أدخلَ البِكْرَ إلى العالم، يقول ولتسجد له كل ملائكة الله» (عب١: ٦)؛ والبكر القائم من الأموات: «الذي هو البداءة، بِكْرٌ من الأموات، لكي يكون هو متقدماً في كل شيء» (كو١: ١٨). فلذلك، أصبح التلاميذ والكنيسة المنتصرة كنيسة أبكارٍ بالضرورة: «رَبَوَاتٌ هم محفلُ ملائكةٍ، وكنيسةُ أبكارٍ، مكتوبين في السموات» (عب١٢: ٢٢)؛ لأن قداسة بُكُورية المسيح الإلهية شملت ـــ إخوته في الموت ـــ أحباءه الذين أحبوه وماتوا من أجله كما مات من أجلهم: «لأن الذين سبق فعرفهم، سبق فعيَّنهم، ليكونوا مشابهين صورة ابنه، ليكون هو بِكْراً بين إخوة كثيرين.» (رو٨: ٢٩)

والسؤال في الختام، هل صرنا مقدّسين في حق المسيح، في ذبيحته وقيامته وحياته؟ إنها لا زالت طِلْبَةَ المسيح من أجلك ومن أجلي. إنها عطية تُسألُ، فتُعْطَى، وتُدْرَكُ بالكلمة والسر والإنجيل، فتُعَاشُ. والحق لا يصير حقاً فينا، إلاَّ بالتقديس. والقداسة سيرةٌ، قَوَامُها جَحْد العالم والالتصاق بالله: «نظير القدُّوس الذي دعاكم، كونوا أنتم أيضاً قدّيسين في كل سيرة.» (١بط ١: ١٥)

تذكرة:

«المكسور **لأجلكم**.» (١كو١١: ٢٤)

«يُسْفَكُ من **أجل** كثيرين.» (مت٢٦: ٢٨)

هذا الدعاء لتقديس التلاميذ: «قدّسهم في حقك ... من **أجلهم** أقدّس أنا ذاتي»، ينسحب على الماضي القريب، على ما تم في سر العشاء، والحبيبُ جالسٌ وسط أحِبَّته، يُطْعِمهم لحم آلامه،

خبز السماء الذي تشتهي الملائكة أن تطّلع عليه، أو يسقيهم دم تقديسه بيديه! وبشيء من التعمق في المعاني والمقاصد، نجد أن كل ما صلىَّ به المسيح في يو17، إنما هو تفسير "مِسْتيكي" لِمَا جرى على العشاء الأخير، في نفس الليلة، فالرَّبْطُ الروحي الخفي بينهما وثيق!

أما كلمة «السر» التي تصل الفعل التقديسي بالدعاء، فهي «لأجل» و«من أجل». فالجسد المكسور بالنيَّة أمامهم ولأجلهم أخذه بالروح وأعطاهم بالسِّرِّ، كسر آلام ذبيحته، الآلام الشافية والمُحيية، وبالروح أيضاً سقاهم دمه المسفوك لأجلهم، وروحه الأزلي فيه قائم للتقديس، وهذا وذاك قال لهم إنه يُقدِّمُ «**لأجلكم**».

فتقديس المسيح سلَّمه لنا في ذبيحته تسليماً، أكلاً وشرباً: «مأكلٌ حقٌّ ومشربٌ حقٌّ.» (يو6: 55)

ولكي ينالنا ما نالهم ويكون التقديس لنا كما كان لهم، قال في دعائه الممتد عبر الدهور: «أنا أُقدِّس ἐγὼ ἁγιάζω» بالفعل الحاضر الدائم ولم يقل «قدَّستُ». فالأمر لم يكن محصوراً في تمثيل السر أو إعطاء نموذجه مرة، بل سرُّه قائمٌ دائمٌ فيه وفينا، فهو «مكسور κλώμενον» بصيغة المضارع الدائم present participle: «هذا هو جسدي "**المكسور**"»، نعم، المكسورُ مع كلِّ نفس مكسورة، و«هذا هو دمي الذي "**يُسْفَكُ**"»، أو «المسفوك» ἐκχυννόμενον بفعل مضارع ممتد present participle، مسفوك مع كل نزيف ينزفه الإنسان إزاء آلام الزمان الحاضر من أجله: «إن كنا نتألم معه، لكي نتمجد أيضاً معه.» (رو8: 17)

وتقديس المسيح أو قداسته هو مثل مجده ومثل بُنُوَّته لله، فهذه وإن كانت كلها أزلية إلا أنها استُعْلِنَتْ لنا «**لأجلنا**»، لتكون لنا كما كانت له وسواء كانت قداسته، أو كان مجده أو بُنُوَّته لله، فهذه كلها ليست صفات إلهية جامدة فيه static، ولكنها صفات استُعلنت استعلاناً، كعمل بالنسبة للعالم والإنسان، وكانت بقصد أن ننال نصيباً فيها. فتجسده وميلاده، كبشر، أعلن اتضاعه الفائق على كل اتضاع «**مِنْ أجلنا**». وموته الفدائي العجيب أعلن حُبَّه التقديسي والأزلي الفائق والمتعظم على كل حب «**مِنْ أجلنا**». وقيامته أعلنت مجده العالي فوق أعلى السموات «**مِنْ أجلنا**». وهذا كله ليشمل الإنسان بكل شمائله وينقلنا إلى مستوى بُنُوَّته ليقدمنا إلى أبيه، لتحيا وتتجلى خليقتنا مقدَّسة في الله من جديد.

ولكن هل هذا كله محبوسٌ ومقصور فقط للعصر الأُخروي القادم، الذي نتحرق إليه شوقاً من

خلف ستار الموت الكثيف؟

إننا مدعوون إليه **الآن** لنحياه كما سنحياه هناك، هنا في وسط ضيق العالم الحاضر الخانق، كسَبْقٍ مَذاقٍ أو عربون؛ وإلاَّ فلماذا التقديس؟ والتقديس لا يُرى إلا على ضوء هذا العالم، لأن التقديس لا يعني لنا الآن إلاَّ جحداً لهذا العالم بكل شروره وأباطيله ووسائله المملوءة غشاً وكذباً ورياءً: «لست أسأل أن تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير.» (يو١٧: ١٥)



ينبوع الحياة

نقش على اللوح المقدس للمذبح (من القرن السادس). ويظهر فيه كأس الإفخارستيا وقد ظهرت أغصان الكرمة وكأنها نمت من داخله، يتوسطها اختصار اسم المسيح ومن حوله طاؤوسان رمز الخلود. وكل هذا يرمز إلى نعمة الحياة الأبدية الكامنة في سر الإفخارستيا المسمى: ترياق عدم الموت.

(من كنائس رافنا ــ إيطاليا)

القسم الثالث: المسيح والكنيسة:

المسيح يصلي من أجل الكنيسة: (يو١٧: ٢٠-٢٦).

هنا يرتفع المسيح بصلاته من الواقع التاريخي، التلاميذ، إلى الأفق الممتد عَبْر الدهور؛ ومن الوحدة المحدودة للاثني عشر (آية ١١)، إلى الوحدة التي بلا حدٍّ: «ليكون الجميع واحداً»؛ ومن المعرفة المُغْلَقة للتلاميذ بحضوره، إلى المعرفة المستعلنة بالروح والممتدة عبر العالم كله.

١٧: ٢٠ **«ولستُ أسألُ من أجلِ هؤلاءِ فقط، بل أيضاً من أجلِ الذينَ يُؤمِنُونَ بي، بكَلامِهِم».**

نظرة المسيح للكنيسة القادمة لا تخرج عن حيز الفعل المضارع الحاضر الممتد: «**الذين يؤمنون**» τῶν πιστευόντων وليس «**الذين سيؤمنون**». وهكذا لم يجعل الكنيسة تحت رحمة الزمن المترامي، بعيداً عن عينيه المرفوعتين نحو السماء، ولا كأنها غائبة عن حضوره. فكما أنه يرى التلاميذ أمامه، ويُسْمِعُهم صوته، ويسأل لهم وعنهم، هكذا يرى كنيسة الألفي سنة الآن، وكأننا حاضرون نسمع له، تحت بركة يديه الموضوعتين على رؤوس تلاميذه.

«يؤمنون بي بكلامهم»: διὰ τοῦ λόγου

الترجمة العربية تصرفت، والأصل اليوناني: «يؤمنون بي "بكلمتهم" (= اللوغُس)». وفرقٌ بين الإيمان بالكلام والإيمان «بالكلمة». فـ«الكلمة» في المفهوم الروحي الخالص «اللوغُس» هي التعبير عن «الحق». لذلك جاء هنا التعبير عن الإيمان بـ«الكلمة» وليس بـ«الكلام»، فهي ليست مسألة صياغة حديث أو كثرة ألفاظ، بمعنى أن الإيمان ليس منطوق كلمات، بل إن جوهره كلمة واحدة، وتعني الحق. وهذا المعنى مُضْمَرٌ في الكلمة التي قبلوها من المسيح، والتي هي التعبير عن طبيعة «اللوغُس». لذلك فـ«الذين يؤمنون بي بكلامهم» تفيد الذين يعيشون في الإيمان الحق، أو يعيشون فيَّ بالإيمان!! وكان المسيح يرى، على امتداد الدهور، الذين له، أمام عينيه، يصلي من أجلهم!!

وهكذا، يكفينا أن نكون تحت مرمى ناظرَيْه: «ولكني سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم.» (يو١٦: ٢٢)

١٧: ٢١—٢٣ «ليكونَ الجميعُ واحِداً، كما أنَّكَ أنتَ أيُّها الآبُ فيَّ وأنا فيكَ، ليكونُوا هم أيضاً واحِداً فينا، ليُؤمِنَ العالمُ أنكَ أرسَلْتني. وأنا قد أعطيتُهُم المَجْدَ الذي أعطيتَني، ليكونُوا واحِداً كما أننا نحنُ واحدٌ. أنا فيهِمْ وأنت فيَّ، ليكونُوا مُكمَّلينَ إلى واحِدٍ، وليعْلَمَ العالمُ أنك أرسَلْتني وأحبَبْتَهُم كما أحبَبْتني».

يُلاحَظ أن المسيح تدرَّج، في صلاته من أجل التلاميذ، من الحفظ في اسم الآب (١١)، إلى التقديس في الحق (١٧)، ثم إلى الوحدة في الآب والابن (٢١—٢٣)

هذا في الواقع تدرُّج منهجي؛ لأننا إذا حُفظنا في **اسم الله**، ونحن في العالم، فإننا نتأهَّلُ للتقديس **في الحق**، وإذا تقدَّسنا في حق الله، نتأهَّل لهذا الاتحاد في الله، الفائق الوصف.

موضوع الوحدة أو الاتحاد بالآب والابن (١٠)

في الأصحاح السابع عشر

أولاً: الوحدة، كما سبق وعلَّم بها المسيح تلاميذه،
قبل أن يجعلها موضوع صلاته لدى الآب:

لقد وردت هذه الآيات المتوالية، في الأصحاح السابع عشر، للتعبير عن الوحدة أو الاتحاد بالله في صلاة المسيح كالآتي:

١ — الآية (١١): «أيها الآبُ القدُّوس، احفظهم في اسمك "الذي" أعطيتني، **ليكونوا واحداً كما نحن**».

٢ — الآية (٢١): **«ليكون الجميع واحداً؛ كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا»**.

٣ — الآية (٢٢): «وأنا قد أعطيتُهم المجد الذي أعطيتني، **ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد**».

٤ — الآية (٢٣): «أنا فيهم وأنت فيَّ، **ليكونوا مكمَّلين إلى واحد**».

وبالعودة إلى الأصحاحين العاشر والرابع عشر، نجد أن المسيح علَّم تلاميذه، كاشفاً سرَّ الوحدة بينه وبين الآب، ثم مُعْلِناً عن قصده المبيَّت في نفسه، من جهة وحدة التلاميذ والكنيسة به هكذا:

(١٠) راجع المدخل ص١٧٣—١٧٦.

١ - يو١٠: ٣٨: «ولكن إن كنتُ أعمل، فإن لم تؤمنوا بي، فآمنوا بالأعمال، لكي تعرفوا وتؤمنوا **أن الآب فيَّ وأنا فيه**».
وهذا هو المقابل لآية الصلاة في يو١٧: ٢١و٢٣.

٢ - يو١٤: ٢٠: «في ذلك اليوم، تعلمون أني أنا في أبي، **وأنتم فيَّ، وأنا فيكم**».
وهذا هو المقابل لآية الصلاة في يو١٧: ٢٣.

ومن هاتين الآيتين، يتضح لنا منهج المسيح في بلوغ الوحدة:

+ فمن الآية (١٠: ٣٨)، يقدِّم المسيح موضوع الوحدة بينه وبين الآب، أنه **مطلب أساسي يتحتم أن نبلغه**:

أولاً: بالمعرفة؛ وثانياً: بالإيمان: «**لكي تعرفوا وتؤمنوا** أن الآب فيَّ وأنا في الآب».

أي أن ذلك يتم على أساسين:

الأول: الإيمان التصديقي بالروح، بدون برهان: «**تؤمنوا بي**».

والثاني: برهان الأعمال التي عملها المسيح، ولم يعملها أحد غيره: «**فآمنوا بالأعمال**».

وقد كانت هذه الآية هي التمهيد والسبب في الآية الثانية:

+ الآية يو١٤: ٢٠، والتي فيها يضيف المسيح على استعلان وحدته بالآب استعلان وحدتنا في المسيح والمسيح فينا، وبالتالي نحن (في المسيح) في الآب: «تعلمون أني أنا في أبي، **وأنتم فيَّ وأنا فيكم**».

وقد قدَّم المسيح هذه الحقيقة الإيمانية العظمى: «إني أنا في أبي، وأنتم فيَّ وأنا فيكم»، **كاستعلان** سيتم في وقته: «**في ذلك اليوم، تعلمون**»، وهو اليوم الذي فيه تحقق التلاميذ بالفعل من قيامة الرب وصعوده وجلوسه عن يمين الآب ممجَّداً؛ و«ذلك اليوم» نحن نعيشه الآن، وكل يوم، متحققين من، ومُسْتَعْلِنين بالروح والإيمان، الوحدة التي أكملها المسيح فينا ولنا مع الآب.

ثانياً: العلاقة الوطيدة بين «المعرفة»، ووحدة الوجود المتبادل (الاتحاد)، في إنجيل يوحنا[11]**:**

على أساس ما سبق أن أوضحه المسيح من جهة استعلان الوحدة القائمة بين الآب والابن،

(١١) راجع ما جاء أعلاه في شرح الآية ١٧: ٣ تحت عنوان «أن يعرفوك»: المعرفة للآب والابن هي بعينها شركة مع الآب والابن.

نسوق إلى القارىء هذه العلاقة بين «**المعرفة المتبادَلة**» و«**الاتحاد المتبادل**» كما يؤكدها إنجيل يوحنا.

أ ـ يو١٠ : ١٥ «الآب **يعرفني**، وأنا **أعرف** الآب» = المعرفة المتبادلة.
يو١٤ : ١٠ «ألست تؤمن أني **أنا في الآب والآب فيَّ**» = الاتحاد المتبادل.
واضح هنا أن المعرفة المتبادلة في ذات الله، قابلها وجودٌ متبادل، أي اتحاد.

هنا يلزمنا أن نتنبه، ونحن بصدد الحديث عن طبيعة اللاهوت، أننا نتعامل مع المُطْلَقات. فمعرفة الآب للابن معرفة مطلقة، لذلك يقابلها حتماً معرفة الابن للآب معرفة مطلقة. وهاتان المعرفتان، اللتان هما معرفة واحدة بالضرورة، يقابلهما الوجود الكياني الكلي أو المطلق المتبادَلُ بين الآب والابن، فالآب موجود كُليًا في الابن، والابن موجود كليًا في الآب. وهذا الوجود هو مطلق، بحكم الجوهر الإلهي الواحد، لذلك فهو وجود كياني واحد: «أنا والآب واحد.» (يو١٠ : ٣٠)

ثم يعود إنجيل يوحنا، و يعطينا هذه المماثلة في الآب والابن على مستوى الإنسان والله، أي أن معرفة الإنسان للآب والابن تنشىء وجوداً في الآب والابن، ولكن، بسبب أن معرفة الإنسان محدودة جداً، فوجوده في الآب والابن محدودٌ بمعرفته.

ب ـ يو١٤ : ٧ : «**لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً**،
ومن الآن **تعرفونه** وقد رأيتموه» = معرفة الإنسان للآب والابن.
يو١٧ : ٢١ : «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا» = اتحاد في الابن والآب.
وعلينا أن ندرك: ما هو مستوى المعرفة هذه التي يقصدها المسيح[١٢]؟

لأننا هنا بصدد **معرفة توصِّل إلى الاتحاد، أو منبثقة منه، فهي** ليست معرفة فكر؛ و يكفينا أن ندرك أنها معرفة تَقَابُلٍ أو تماثُلٍ على وجه ما، معرفةُ المسيح للآب: «أبي هو الذي يمجِّدني، الذي تقولون أنتم إنه إلهكم، ولستم تعرفونه، وأما أنا فأعرفه» (يو٨ : ٥٤و٥٥). ونحن نعلم تماماً أن هؤلاء الفريسيين يُتْقِنون معرفة الله بالفكر، و يفتخرون بتفوُّقهم في المعارف الإلهية. ولكن المسيح يعتبر أنهم: «لستم تعرفونه»! **إذن، هي معرفة كشف الحق**، أو استعلان الحقيقة الإلهية

(١٢) نرجو الرجوع إلى كتاب المدخل باب المعايير الروحية الفصل الرابع تحت حرف ب رقم ٣ (ص١٥٥–١٥٧)، وبالأخص الفقرة الأخيرة.

الغائبة عن اليهود، وأهمها وأخصُّها هي أن الآب والابن واحد، وأن الآب في الابن والابن في الآب. ومن قوله: «لو كنتم عرفتموني، لعرفتم أبي أيضاً»، يتضح أن المسيح يقصد بـ«معرفته»: **استعلان بُنوَّته للآب**، وبالتالي فإن معرفته توصِّل حتماً لمعرفة الآب.

هنا «**المعرفة**» التي يقصدها المسيح هي استعلان الحقيقة الإلهية! وهذا بحد ذاته «**سرُّ الله**»(١٣). **وسر الله لا يُستعلن إلاَّ للمدعوين للاشتراك فيه**، أي الاشتراك في هذا السر، أي الشركة في حقيقة الآب والابن: «إن السيد الرب لا يصنع أمراً، **إلاَّ وهو يعلن سرَّه** لعبيده الأنبياء» (عا٣: ٧). «سرُّ الرب لخائفيه.» (مز٢٥: ١٤)

ق. يوحنا يربط ربطاً مباشراً بين استعلان سرِّ الله المخفي في الله، وبين الشركة في حقيقة هذا السر هكذا: «وقد رأينا ونشهد ونخبركم "**بالحياة الأبدية**"، التي كانت عند الآب "**وأُظهِرَتْ لنا**". الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به، لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا، **وأما شركتنا نحن، فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح.**» (١يو١: ٢و٣)

وبولس الرسول يربط أيضاً بين سِرِّ الله، واستعلان هذا السر المخفي، ونوال الشركة في **مضمون هذا السر، أي الشركة في المسيح** هكذا: «الذي في أجيال أُخَر لم يُعرَّف به بنو البشر، كما **قد أُعْلِنَ** الآن لرُسُلِهِ القديسين وأنبيائه **بالروح**، أن الأمم **شُركاءُ في الميراث والجسد ونوالِ موعده (الروح القدس)، في المسيح، بالإنجيل**» (أف٣: ٥و٦)؛ «وأُنير الجميع فيما هو **شركة السر** المكتوم منذ الدهور في الله.» (أف٣: ٩)

إذن، فكل مَنْ يُسْتَعْلَن له سرُّ الله الآب والابن، فإن هذا يعني أنه صار شريكاً في ميراث البنوَّة والحياة الأبدية، أي أنه يكون قد دخل في شركة مع الآب وابنه يسوع المسيح، بالروح.

ثالثاً: مستويات الوحدة التي يطلبها المسيح لتلاميذه والكنيسة:

من الآية ٢١-٢٣:

لو دققنا في عرض المسيح لِطِلْبَتِهِ التشفُّعية لدى الآب، من جهة «الوحدة المسيحية»، نجدها على ثلاثة مستويات، في ثلاث طِلْبَاتٍ، جاءت في الأصحاح السابع عشر مماثلة للثلاث الصلوات، مع السَّجْدات الثلاث التي قدَّمها في جثسيماني، كما جاءت في الثلاث الأناجيل الأخرى:

---

(١٣) راجع المدخل ص١١٣ وهامش (١) عن «سر الله الأعظم» الذي هو العلاقة بين الآب والابن.

المستوى الأول للوحدة: «ليكون الجميع واحداً».
المستوى الثاني للوحدة: «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا».
المستوى الثالث للوحدة: «ليكونوا مكمَّلين إلى واحد».

المستوى الأول للوحدة: «ليكون الجميع واحداً»:

لا يقصد المسيح هنا أن يجتمعوا معاً في وحدة أو اتحاد مظهري تحت اسم، تجمعهم أهداف واحدة، أو تجمعهم الأخلاق الواحدة أو الاسم الواحد أو حتى منطوق الإيمان الواحد! لأنهم هم مؤمنون جاهزون. لأن المسيح الآن يطلب من أجل «الذين **يؤمنون** بي **بكلامهم**»، أي يطلب الوحدة للذين هم جاهزون في الإيمان الواحد بالكلمة! لذلك يلزمنا أن نلاحظ أن الوحدة التي يطلبها المسيح تأتي هنا أعلى من الإيمان، ومكمِّلة له. **فهي** وحدة داخلية جوهرية حقيقية بالروح، مثَّلها المسيح تمثيلاً بالوحدة الكائنة في الآب والابن!! والتي هي ليست وحدة إيمان ولكنها وحدة «**ذاتية**»، أي وحدة «**كيان واحد وطبيعة**»، وحدة ليس فيها ثنائية ولا كثرة.

ويلزمنا أن ننتبه أن المسيح يطلب هنا الوحدة، بعد أن أكمل طلبته لهم سابقاً أن «**يحفظهم في اسمه القدوس**» في العالم، ثم «**يُقدِّسهم في الحق**»؛ والآن يطلب لهم، بعد أن تأهَّلوا بالحفظ في الاسم القدوس وتقدَّسوا في الحق، أن يبلغوا «الوحدة».

فلو انتبهنا أيضاً إلى ما حدث للإنسان بعد أن أخطأ آدم، كيف تَفَتَّت **وتحطَّمت فيه** صورة الله، وفَقَد وحدانيته التي كان يتراءى بها في حضرة الله؛ **لفهمنا** لماذا الآن يطلب المسيح "للجميع" هذه "الوحدة"؟ لكي، مرة أخرى، يتراءى بها أمام الله في هيئة «**كنيسة واحدة**» مقدَّسة بلا عيب!! هذا نفهمه بكل يقين من شرح القديس بولس الرسول في قوله:

+ «وهو أعطى البعض أن يكونوا رسلاً، والبعض أنبياءَ، والبعض مبشِّرين، والبعض رعاةً ومعلمين، لأجل **تكميل** القديسين لعمل الخدمة، **لبُنْيان جسد المسيح** (الكنيسة)، إلى أن ننتهي **جميعنا إلى وحدانية الإيمان، ومعرفة ابن الله، إلى "إنسانٍ كاملٍ"**، إلى قياس قامة ملء المسيح.» (أف ٤: ١١ــ١٣)

يلاحظ هنا هذا التدرج التكاملي: «**وحدانية الإيمان**»، ثم «معرفة ابن الله»، إلى «**إنسان كامل**»، إلى «**قياس قامة ملء المسيح**»، وكلٌّ من هذه التأهيلات، حتميٌّ لبلوغ الغاية، ولكن التدرج هام للغاية، فوحدانية الإيمان توصِّل إلى معرفة ابن الله، أي استعلان سرِّ الله، أي سرّ

علاقة الآب بالابن والحياة الأبدية. واستعلان سرّ الله بالمعرفة الروحية، يوصّل إلى «الإنسان الكامل»، وهو قصد المسيح من صلاته من أجل الوحدة، أي الإنسان غير المنقسم على ذاته، الإنسان الجديد المنطبعة فيه صورة الله الواحد، المعبّر عنه بـ«جسد المسيح السرّي»، أي الكنيسة، كنيسة الإنسان في المسيح، والمسيح في الإنسان، والتي لها بالضرورة «قياس قامة ملء المسيح».

هنا نفهم أن الله قسّم في الكنيسة المواهب على قدر استعداد وإيمان كل عضو فيها: «كما قسّم الله لكل واحد مقداراً من الإيمان» (رو١٢: ٣)، لكي تعمل المواهب في الأعضاء، والأعضاء بالمواهب، لتكميل «وحدة الكنيسة» في كل شيء، حتى تبلغ في النهاية إلى صورة المسيح الكاملة، التي يعبّر عنها بولس الرسول هكذا: «إلى قياس قامة ملء المسيح» (أف٤: ١٣). ولكن على الأعضاء من جهتهم أن «يجدّوا للمواهب» (١كو١٢: ٣١). **فمسئولية الوحدة، بعد أن أعطى الله كل إمكانياتها للكنيسة، أصبحت واقعة عليها وأصبحت الكنيسة مسئولة عنها: «مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح برباط السلام، جسدٌ واحد وروحٌ واحد، كما دُعيتُم أيضاً في رجاء دعوتكم الواحد: ربٌّ واحد، إيمان واحد، معمودية واحدة»** (أف٤: ٣-٥). وهنا أيضاً نلاحظ أن بولس الرسول يلحّ في طلب **«الوحدة»** للكنيسة، بممارسة التصالح الذي لا يهدأ لكي تكون الوحدة مماثلة (= **«كما دُعيتم»**) للإيمان الواحد الذي أخذوه!! أي أن الوحدة مطلوبة كضرورة حتمية، لأنها مطلبُ الإيمان، الأعظم، والأول والأخير(١٤).

وعلينا أن نلاحظ أن الأساس الأول، الذي بمقتضاه يطلب المسيح الوحدة عَبْرَ الدهور، هو من أجل «الذين يؤمنون بي، بكلامهم»؛ هذا الأساس يجعل الوحدة مؤسسة على الإيمان، أي أصالة «الكلمة» المسلّمة من المسيح للرسل، ومن الرسل للذين على بُعْدٍ. بالتقليد والتسليم الرسوليين وهذا ما عبّر عنه بولس الرسول: «مبنيين على أساس الرسل والأنبياء، ويسوعُ المسيح نفسه حَجَرُ الزاوية.» (أف٢: ٢٠)

المستوى الثاني للوحدة: «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا»:

هنا ينتقل المسيح في سؤاله من أجل وحدة الكنيسة في ذاتها، إلى الوحدة «فينا»، أي: في المسيح والآب!

(١٤) أنظر كتيب: «الوحدة المسيحية»، للمؤلف، الطبعة الثانية، ١٩٧٨، ص٧.

واضح هنا أن بلوغ الكنيسة حالة الوحدة في ذاتها، هو الذي يؤهّلها للاتحاد بالمسيح والآب، وهذا ظاهرٌ من تسلسل الارتقاء بمفهوم الوحدة: «ليكون الجميع واحداً، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا».

فالطِلْبَةُ بدأت أولاً بأن: «يكون الجميع واحداً»، كعطية من لَدُنِ الآب، يَهَبُها للكنيسة بسكب مواهب الروح في أعضائها، هذا «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا»، فوحدتهم في ذاتهم تصير سبباً ومناسبة لكي يصيروا واحداً في المسيح والآب، أي تُوَحِّدهم في الابن والآب.

ولكن المسيح يعطي نوعية خاصة للوحدة التي يطلبها للكنيسة المتحدة في ذاتها، لتحياها في الآب والابن، وهي وحدة: «**كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك**»، «**ليكونوا هم أيضاً** واحداً فينا»!!!

وهنا يلزمنا أن نفهم الآتي:

حدود التشبيه بين الوحدة الإلهية القائمة بين الآب والابن، وبين الوحدة المطلوبة للكنيسة المتحدة لتحياها في الآب والابن:

أولاً: ماهية النموذج الذي يقدِّمه المسيح:
«كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك».

يُلاحَظ من هذا التصريح الإلهي أن المعنى ينصبُّ في أن الكيان الذاتي للآب قائمٌ في الابن، كما أن الكيان الذاتي للابن قائمٌ في الآب. هذا يمكن فهمه بصورة أوضح، حينما ندرك أن **«الأُبوَّة»** في الله هي خاصة بـ«البُنوَّة». وكذلك البُنوَّة في الله خاصة بالأُبوَّة. بمعنى أن **الآب آب للابن وَحْدَه، وأن الابن ابنٌ للآب وَحْدَه**. كذلك أيضاً نفهم أن **الابن ليس ابناً لنفسه، بل هو كلُّه للآب؛ والآب ليس آباً لنفسه، بل هو كله للابن**. هذا الوجود الكياني المتبادَل كُليًّا، يجعل للآب والابن «كياناً واحداً ذاتياً». وهذا يعني أن «الله واحد أحَدٌ»، أو أن الله ذات واحدة آب وابن.

هذه الخاصية الإلهية، لو أردنا تشبيهها مجرد تشبيه بما يمكن أن يكون لدى البشر من تشبيه، لتصوير الوحدة، فهي تعني أن لا يكون **الإنسان لنفسه**، وأن يكون قادراً على أن يعطي نفسه أو يبذلها لله، أو للآخرين من أجل الله. وهذا أكمله ابن الله المتجسد، كإنسان، حينما وضع نفسه

لله، وأسْلَمَها له حتى الموت، طاعة له وحبّاً، مُبَرهِناً، على مستوى الناس، أن الابن كله للآب بالحقيقة!!! وكان ذلك نموذجاً لنا في كيف نطيع الله ونحبُّه، ونبذل النفس حتى الموت، فيصير الإنسان كلُّه لله! وهذه صورة عملية لبلوغ حقيقة الوحدة مع الله.

بولس الرسول بلغ هذه الصورة عملياً، وعبَّر عنها بقوله: «فأحيا، لا أنا، بل المسيحُ يحيا فيَّ، فما أحياه الآن في الجسد، فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله، الذي أحبني، وأسلم نفسه لأجلي» (غل٢: ٢٠)، «كي يعيش الأحياء فيما بعد، لا لأنفسهم، بل للذي مات لأجلهم وقام» (٢كو٥: ١٥)، «ولكنني لست أحتسب لشيء ولا نفسي ثمينة عندي.» (أع٢٠: ٢٤)

بولس الرسول بلغ الوحدة السرية في المسيح، وبالتالي في الآب، من واقع الحياة والاختبار الشخصي، قبل أن يطرح ذلك كعقيدة: «جسدٌ واحدٌ وروحٌ واحدٌ، كما دُعيتُم أيضاً في رجاءِ دعوتكم الواحد.» (أف٤: ٤)

ثانياً: ماهية النموذج الذي يقدِّمه المسيح، في قوله مخاطباً الآب:
«كلُّ ما هو لي فهو لك، وما هو لك فهو لي».

هنا يمهد المسيح، في صلاته، لمعنى الوحدة وكيفيَّتها بالنسبة للكنيسة. فكما عبَّر عن تبادل الوجود الكلي الذاتي بين الآب والابن لتصوير أعلى نموذج عن الوحدة في صورتها الإلهية المطلقة، يعود ويعبِّر عن هذه الوحدة ذاتها بتبادل «كلُّ» πάντα مخصَّصات الآب للابن والابن للآب، كنتيجة حتمية لتبادل الوجود والكيان. فهي ليست وحدة ذاتٍ وكيانٍ فحسب، بل وحدةَ مخصَّصات وإمكانيات أيضاً. وهذه الخاصية الإلهية، لو أردنا تشبيهها بمجرد تشبيه، بما يمكن أن يكون لدى البشر لتصوير الوحدة، هي تعني أن لا يكون لأحدٍ شيءٌ لذاته: «مَنْ سألك فأعْطِه، ومَنْ أراد أن يقترض منك فلا تَرُدَّه» (مت٥: ٤٢). وقد بلغت الكنيسة الأُولى هذا الحدَّ من الوحدة العملية بالفعل: «وجميع الذين آمنوا، كانوا معاً، وكان عندهم كلُّ شيء مشتركاً. والأملاك والمقتنيات، كانوا يبيعونها ويَقْسِمونها بين الجميع، كما يكون لكل واحدٍ احتياجٌ. وكانوا، كل يوم، يواظبون في الهيكل بنفس واحدة» (أع٢: ٤٤ــ٤٦)؛ «وكان لجمهور الذين آمنوا قلبٌ واحد ونفسٌ واحدة. ولم يكن أحدٌ يقول إن شيئاً من أمواله له، بل كان عندهم كلُّ شيء مشتركاً» (أع٤: ٣٢)؛ ولكن يلزم أن نفهم ذلك على المستوى الروحي.

ثالثاً: ماهية النموذج في محبة الآب للابن والابن للآب، الذي يقدِّمه المسيح ليكون معبِّراً عن الوحدة التي يطلبها من أجلنا،
في قوله: «ليفهم العالم أني أُحب الآب» (يو١٤: ٣١)،
ومن قوله: «الآب يحب الابن، وقد دفع كل شيء في يده» (يو٣: ٣٥)،
كذلك: «كما أحبني الآب، كذلك أحببتُكم أنا» (يو١٥: ٩)،
وأخيراً: «ليكونَ فيهم الحبُّ الذي أحببتني به» (يو١٧: ٢٦)؟

المحبة المتبادلة بين الآب والابن، صفة جوهرية، أي هي من صميم طبيعة الله؛ لذلك فهي تَبْرز لتكون برهاناً على الوحدة المطلقة في الآب والابن. فالمحبة في الله ليست وليدة إرادة أو عاطفة أو انفعال، من واقع الصلة بين الآب والابن، ولكنها متجذِّرة أزلياً في طبيعة الله، فهي صفة ملازمة حتماً للوحدة. لذلك، فحينما نأخذها نموذجاً لنا لتكون قرينة للوحدة المطلوبة، فلا يجب أن تُحسَبَ أنها معيارٌ أخلاقيٌّ يُحتذى به ليؤهِّل للوحدة، ذلك لأنها أُعطِيَتْ لنا على مستوى التشبيه والتشبُّه، لأن حرف «كما» الذي يأتي دائماً للتشبيه هو على مستوى الشرح لا على مستوى المطابقة: «**كما** أحبَّني الآب» (يو١٥: ٩)، «**كما** أحببتني» (يو١٧: ٢٣)؛ وأيضاً تشديد المسيح على التمثيل بالمحبة الأزلية الكائنة بين الآب والابن: «لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم» (يو١٧: ٢٤)، لا يقتصر فيها على التشبيه وإنما يُقصد به أن هذه المحبة ستكون لنا مصدر انسكاب قوة محبة، عاملة فينا، وعلى مستوانا البشري. وهذا صار واقعاً بالفعل: «لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا، بالروح القدس المُعْطَى لنا» (رو٥: ٥). **هذا الحب المنسكب علينا من الآب بالروح القدس، هو أعظم بُرْهان على حدوث وحدة حقيقية مع الآب والمسيح.** وهذا جاء نتيجة لصلاة المسيح وتشَفُّعِهِ بالكلمة والدم!

ومن هذا نفهم أن المحبة التي يحثنا المسيح أن نحب بها، سواء بعضنا لبعض أو نحبه هو أو الآب، للتدليل على صدق بَنويَّتنا لله أو وحدتنا في المسيح به، ليست على مستوى الأخلاق ولا العاطفة كإرادة تحضر وتغيب، ذلك لأن هذه المحبة هي محبة **مُشابِهة** بل **ومستمدَّة** من محبة الآب للابن ومحبة الابن للآب، فهي محبة من طبيعة الروح لا الجسد، أي محبة فائقة للطبيعة البشرية، أو بالمفهوم الإلهي هي «موهبة»، كما سبق وقلنا: «لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس **المُعْطَى** لنا».

من هنا تنقشع الغمامة التي تعتِّم الفكر، حينما يسأل الإنسان متحيراً: كيف نقيم حدًّا

الوصية: «أحبوا أعداءكم» (مت٥: ٤٤)!! هنا استحالة أن يكون ذلك على مستوى الإرادة أو العاطفة!! ولكن هذا يمكن إتمامه فقط في حالة واحدة وهي أن تكون المحبة هي «**محبة الله**»، المحبة الروحية الفائقة، الموهوبة لنا، والعاملة بالروح القدس، لتذليل كبرياء الإنسان، وإعلاءً لإتضاع المسيح. هذه المحبة التي سبق وأن عملت فينا ونحن أعداء لله وخطاة: «الله، الذي هو غني في الرحمة، **من أجل محبته الكثيرة التي أحبنا بها، ونحن أموات بالخطايا** أحْيَانَا مع المسيح، بالنعمة أنتم مخلَّصون» (أف٢: ٤و٥ وراجع رو٥: ٨و١٠). هذه هي المحبة القادرة بالفعل أن تحب حتى الأعداء، والتي سمَّاها بولس الرسول بالمحبة الفائقة المعرفة: «وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة، لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله» (أف٣: ١٩)، والتي تكون أقوى دليل على أن الإنسان بلغ الوحدة مع الله، الذي أحب العالم، وهو يشرق شمسه على الأشرار والأبرار سواء بسواء.

المحبة أحد إلتزامات الوحدة:

واضح أن المحبة كوصية أولى وعظمى، كما طلبها المسيح لنا من الآب، وكما طلبها منا مراراً، ليست مفروزة كعمل أخلاقي كما سبق وقلنا، لأن العمل الأخلاقي يعجز عن أن يلغي الذات في **وصية محبة الأعداء**؛ كما أن العمل الأخلاقي يَقْصُر عن أن **يُقدِّم الذات فِدْيَةً من أجل الآخرين**. فالمحبة هِبَةٌ روحية وعطية؛ وعلى هذا الأساس يطالبنا بها المسيح، إذ كما أخذناها كهبة نعطيها كهبة أيضاً بل بالمقابل: «الذي أحبني **وأسْلَمَ نفسه لأجلي**» (غل٢: ٢٠)، ويقابلها: «بهذا قد عرفنا المحبة، أنَّ ذاك **وضع نفسه لأجلنا**، فنحن ينبغي لنا أن **نضع نفوسنا لأجل الإخوة**.» (١يو٣: ١٦)

من هنا جاءت وصية المحبة كحالة التزام: «هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتُكم» (يو١٥: ١٢). والتزام المحبة حتميٌّ، لا مفرَّ منه، في اللاهوت المسيحي: «أيها الأحباء لنحب بعضنا بعضاً، **لأن المحبة هي من الله**، وكلُّ من يحبُّ فقد وُلِدَ من الله ويعرفُ الله. **ومن لا يحبُّ، لم يعرف الله، لأن الله محبة.**» (١يو٤: ٧و٨)

المحبة هنا ثمرة حتمية للعلاقة الإيمانية التي تربطنا بالله، وغيابها يعني غياب الإيمان المسيحي كله، وغياب الله من حياتنا. أما حضور المحبة ونشاطها وفرحها بالبذل من أجل الآخرين، فهذا يعني حضور الله في روح الإنسان وقلبه، وإعلاناً عن إيمان حار وفعَّال.

ق. يوحنا يجعل ثبوت المؤمن في المحبة دليلاً قاطعاً على الثبوت في الله، وثبوت الله فيه، أي

دليل حالة اتحاد: «الله محبة، ومَنْ يَثْبُتْ في المحبة، يثبتْ في الله، والله فيه.» (١يو٤: ١٦)

صحيح أن المحبة، هبة عظمى مجانية، ولكننا لا نأخذها إلاَّ لنعطيها. وعطاؤها هو هو بذلُ النفس وانكارُها حتى الموت. ومن لا يتشجّع ويعطيها، تُسحَبُ منه، فيبيت بلا محبة، ويمسى غريباً عن صليب المسيح. أما الذي تَشَجّع «**وأبْغَضَ** ذاته» «**وأهلكها**»، بمعنى أهلَكَ كبرياءها وجعلها تحت أقدام الآخرين، حُبّاً لهم وللمسيح، وذلك حسب الوصية، أي من أجل المسيح والإنجيل، فقد عاش بل وقد انتقل من الموت إلى الحياة: «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة، لأننا نحب الإخوة. ومَنْ لا يحبُّ أخاه يبقَ في الموت.» (١يو٣: ١٤)

إذن، **فالوحدة** التي وهب لنا الله أن نبلغها في المسيح في الله، ليست بدون مقابل أو التزام؛ فالذات أو الذاتية في الإنسان يلزم أن تكون «**الأنا** ἐγώ» هي ضحيّتها الأولى، «مع المسيح صُلبت، فأحيا، **لا أنا** οὐκέτι ἐγώ، بل المسيح يحيا فيَّ» (غل٢: ٢٠). فإن كانت «الأنا» التي فيَّ قد ماتت، فقد انفتح لي باب الحب على مصراعيه، فأُحبُّ أعدائي، حتى صالبيَّ، وأبارك مَنْ يلعن ذاتي، لأني قد دَفَنْتُها في قبر المسيح، أُصلّي لمن يُسيءُ إلى نفسي، و يطاردها، فنفسي لم يَعُدْ لها حساب عندي بعد (راجع أع٢٠: ٢٤)، إنها ليست هنا!!!

رابعاً: الفرق بين «الوحدة في الله»، وبين الوحدة المطلوب أن تكون لنا فيما بيننا، أو بيننا وبين الآب والابن:

وحدة الله في ذاته: «أنا والآب واحد»، «أنا في الآب، والآب فيَّ»، «**كل ما هو لي فهو لك وكل ما هو لك فهو لي**»؛ هذه الوحدة الإلهية الفائقة تقوم على أساس التساوي المطلق بين الآب والابن في الذات وفي كلٍّ منهما، حتى إن كلمة "التساوي" هنا هي أضعف من أن تُعبِّر عن الحقيقة، لأن لفظة "تساوي" هي وليدة القياس والله لا يُقاس؛ والأصح أن نقول أنهما واحد، لأن الله مُطْلَقٌ في صفاته، فوحدته مطلقة، و بلا قياس، ومُنَزَّهَةٌ عن مفهوم العدد. لذلك، يستحيل أن يكون للوحدة في الله شبيهٌ في الإنسان، وإنما ساقها المسيح للشرح والتمثيل وليس للطباق أو المساواة، لأنه إذا استحال حتى القياس بالتساوي بين إنسان وإنسان، فكيف يمكن أن يبلغا اتحاداً على مستوى الله؟

فالاتحاد، أو الوحدة التي يطلبها لنا المسيح فيما بيننا ثم فيما بيننا و بين الآب، هي وحدة تتناسب قبل كل شيء مع تفرُّدنا واختلاف أجناسنا وتَبايُن طبائعنا. فنحن لسنا متساوين في

كياننا الداخلي، في أي شيء البتة، إلا في الخطية والعجز والقصور الروحيين.

لذلك، فالوحدة التي يطلبها لنا المسيح، لا تقوم البتَّة على ماهية أشخاصنا أو ما هو لنا، بل على أساس أن نتساوى فيه والآب، وليس تساوينا في ذواتنا. فبقدر ما تنسكب فينا قوة وحدة المسيح في الآب، سواء من جهة الحب بينهما أو من جهة الحق أو القداسة، بقدر ما نبتدىء نحن نتساوى ونتقارب ونتحد بهذه القوة الخارجة عنا والآتية إلينا من لَدُن الله. فمحبة الله تحصُرُنا، فتلغي عداواتنا وتُنْهِي على انقساماتنا؛ وحقُّ المسيح والآب يصهر أفكارنا وقلوبنا، فيبدِّد جهالاتنا، ويوقف حماقاتنا ويقدِّس أرواحنا وأجسادنا: «ولأجلهم أقدِّس أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضاً مقدَّسين في الحق» (يو١٧: ١٩)؛ ونور معرفة المسيح والآب ينسابان في طبائعنا الروحية ووعينا **«بالكلمة»**، فتُشتَعَلَنُ لنا الوحدة الكائنة في المسيح والآب بقوة تُدْخِلُنا في الإحساس والوجود الفعلي في حضرة الآب والابن بلا أي عائق فكري. وهكذا نتحد فيما لله، وليس فيما لنا، ونصير واحداً بسبب الروح الواحد الذي نستقي منه (١ كو١٢: ١٣)، والجسد الواحد الذي نغتذي عليه: «كأس البركة التي نباركها أليست هي شركة دم المسيح؟ الخبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح؟ فإننا نحن الكثيرين خبزٌ واحدٌ، جسدٌ واحد، لأننا جميعنا نشترك في الخبز الواحد.» (١ كو١٠: ١٦و١٧)

فإن فسَّرنا معنى قول المسيح مراراً: «أنتم فيَّ وأنا فيكم»، عمليًا في حياتنا اليومية، يكون المعنى هو التبادل غير العادل بالمرة بين ما له وما لنا، كقول الأبصلمودية السنوية: «هو أخذ الذي لنا، وأعطانا الذي له، فلنسبِّحه ونمجِّده ونُزِده علُواً» (مرد ثيئوتوكية الجمعة). نعم، فالوحدة التي سعى إليها المسيح نحونا هي تبادُلُ القوة والطاقة. ولكن للأسف، أو يا للسعادة، فهو تبادلٌ ليس على مستوى التساوي كما للآب والابن، بل على أساس تغطية عجزنا بكماله وجُبْران نقصاننا بملئه. فهو فينا بملئه وكماله، ونحن فيه بعجزنا ونقصاننا؛ هو فينا بقداسته الكلية، ونحن فيه بلا قداسة بالكلية. ولكننا بالنهاية صرنا مملوئين فيه، أحباءَ وقديسين و بلا لوم أمام الله.

الوحدة والملء:

القديس بولس يُعبِّر عن أسمى صورة للاتحاد بالمسيح بقوله: «فإن فيه يحلُّ كلُّ ملءِ اللاهوت جسدياً، وأنتم مملوؤون فيه» (كو٢: ٩و١٠). فما هو **«ملءُ اللاهوت»**؟ وما هو **«ملء اللاهوت جسدياً»**؟ أما **«ملء اللاهوت»** فهو للابن قبل تجسده، وهذا هو الذي عبَّر عنه المسيح بقوله: **«الآب فيَّ»**؛ وهذا ليس لنا أن نَقْرُبَه، أو حتى نطَّلع عليه؛ أما **«ملءُ اللاهوت**

جسدياً» فهو ملء اللاهوت الذي صار في الجسد من أجلنا، منظوراً، وملموساً، ومُشَاهَداً، كما يقرر ق. يوحنا: «الذي كان من البدء، الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه، ولَمَسَتْهُ أيدينا من جهة كلمة الحياة؛ فإن الحياة أُظْهِرَتْ، وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية، التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا... وأما شركتُنا نحن، فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح.» (١يو١: ١ـــ٣)

فملء اللاهوت جسدياً هو مِلْءُ الله، الذي جعله في متناول أَخْذِنَا!! «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا، ونعمةً فوق نعمةٍ» (يو١: ١٦). أخذنا من ملئه الإلهي القداسةَ، الحياةَ الأبدية، والحبَّ، والوداعةَ، وتواضعَ القلب، والنورَ، والخبزَ الحقيقيَّ، وماءَ الحياةِ، أخذنا قُدُوسيَّته برضاه: «من أجلهم أُقدِّس أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضاً مُقدَّسين في الحق» (يو١٧: ١٩). كل هذا وأكثر عَبَّر عنه المسيح بقوله: **«أنا فيهم»**. وبقوله: **«أنا فيكم»**، **«وأنتم فيَّ»**، يكون المسيح قد عبَّر تعبيراً مزدوجاً عن اتحاد غير منفصم. وهكذا صارت طرقُ الله التي كانت في القديم تعلو عن طرقنا (إش٥٥: ٩، رو١١: ٣٣) عُلوَّ السموات عن الأرض، صارت هي نفسها لنا طريقاً وباباً: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو١٤: ٦)، «أنا هو الباب» (يو١٠: ٩). وفِكْرُ الله الذي كان يعلو عن أفكارنا، صار هو هو بذاته «فِكْرَنا». فما هو فكر الله إلاَّ **«الكلمة»**، كلمة الله الفائقة عن الإدراك، الخالقةُ السمواتِ والأرضَ وكلَّ ما فيها، أتتنا على الأرض متجسِّدة ومتأنِّسة في هيئة إنسان، لنسمعها من فم الله، سَمْعَ الأذن، ونراها رؤيا العين، ونلمسها لَمْسَ اليد. فأدركناه، بل وصار لنا فِكْرُهُ: «وأما نحن فلنا فِكْرُ المسيح» (١كو٢: ١٦). والنور الذي لم يعرفه العالم سابقاً، عرفناه. والقداسة والبر الإلهي، أمورُ الله غيرُ المُقْتَرَب إليها حتى بالفكر، صارت كلها في متناول حياتنا: «الذي صار لنا حكمةً من الله وبرًّا وقداسةً وفداءً» (١كو١: ٣٠). نعم لقد أسَّسَ المسيحُ، بسرِّ تجسده وصليبه، أُسُسَ الاتحاد المقدَّس.

الوحدة كعطاء ونعمة:

وقد صوَّر المسيحُ في سفر الرؤيا هذه الوحدة العملية التي يسعى إليها من نحونا هكذا: «هأنذا واقفٌ على الباب وأَقْرَعُ. إن سمع أحد صوتي وفتح الباب (باب الحب)، أدخل إليه، **وأتعشَّى معه، وهو معي**» (رؤ٣: ٢٠). هو يتعشَّى من صحن هموم الإنسان وأوجاعه وأنينه، يتعشى متقاسماً معه لُقْمة الشقاء والتغرُّب. والإنسان يتعشى معه ـــ بالنعمة ـــ من صحن أفراحه وبهجة خلاصه، ويتناول من يده خُبْزَ حُبِّه وخَتْمَ استيطانه!!

إن وحدة الآب والمسيح تقوم على التساوي كلياً وفي كل شيء، فهي وحدة ذاتٍ وكرامةٍ ومجدٍ وكمالٍ مطلق. فالوحدة بين المسيح والآب هي طبيعة جوهرية، أما الوحدة التي لنا في المسيح والآب فهي نعمةٌ ورحمة، هي تفضُّل، هي هِبَة، هي مجرد إشعاع فعَّال لوحدة المسيح والآب، حتى لا تبقى الوحدة في الله بلا عمل فـ «نحن عَمَلُه.» (أف ٢ : ١٠)

ولكن يُلاحَظ أن المسيح لم يطلب "الوحدة" لتلاميذه، إلاَّ بعد أن قدّم شهادته للآب أنهم: «قد حفظوا كلامك» (يو١٧ : ٦)، وأنهم أصبحوا: «ليسوا من العالم» (يو١٧ : ١٤)، **فهي ليست** بلا ثمن كلية.

المستوى الثالث للوحدة: «ليكونوا مُكمَّلين إلى واحد»:

المسيح هنا يسمو بالوحدة التي يطلبها لنا، **أولاً:** فيما بيننا، **وثانياً:** فيما بيننا وبينه والآب، ثم **أخيراً:** إلى تكميلها إلى الكمال.

والإنجيل يعبّر عن «التكميل» بكلمة τετελειωμένοι ، وهي لا تعني تكميل الناقص، بل تكميل الكمال، وتُترجم بالإنجليزية: perfected. فالذين اتحدوا بالابن والآب، لم يعودوا ناقصين يحتاجون إلى التكميل بل هم مهيَّأون لقبول الكمال. فالمسيح سبق ومنحهم خصائصه بقوله: «وأنا قد أعطيتُهم المجد الذي أعطيتني... ليكونوا **مكمَّلين** إلى واحد»، أي ليبلغوا "**كمال**" الوحدة. هذا الكمال عبّر عنه بولس الرسول بقوله: «**لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله**» (أف٣ : ١٩)، حيث يستخدم الكلمتين: «تمتلئوا = πληρωθῆτε »، و«الملء = πλήρωμα » وهي المرادفُ تماماً لتكميل الكمال. كما عبّر عنها ق. يوحنا بقوله: «**مملوءاً نعمة وحقاً... ومن ملئه** نحن جميعاً أخذنا، ونعمة فوق نعمة» (يو١ : ١٤و١٦). وبولس الرسول يستخدم مرة أخرى كلمة «الملء» فيما يخصنا من ملء لاهوته، وذلك على مستوى الملء الذي له، ولكن على قدر ما تتسع له طبيعتنا العاجزة: «**فإنه فيه يحلُّ كل ملء اللاهوت جسدياً، وأنتم مملوؤون فيه**» (كو٢ : ١٠). حيث لا يتحول الملء الإلهي الذي له إلينا، ولكن نصير باتحادنا به مملوئين فيه! وهذا أوضحه بولس الرسول أيضاً في قوله: «بسبب هذا أحني ركبتيَّ لدى **أبي ربنا يسوع المسيح**، الذي منه تُسمَّى كلُّ عشيرة (أبوَّة = πατριά = fatherhood) في السموات وعلى الأرض، لكي **يُعطيكم**، بحسب **غِنى مجده**، أن تتأيَّدوا بالقوة، **بروحه** في الإنسان الباطن، **ليحلَّ المسيحُ بالإيمان في قلوبكم**، وأنتم متأصِّلون ومتأسِّسون في المحبة، حتى تستطيعوا أن **تُدْرِكُوا مع جميع**

القديسين ما هو العرض والطول والعمق والعُلو، وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة، **لكي تمتلئوا إلى كل ملءِ الله**. والقادر أن يفعل فوق كل شيء أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر، **بحسب القوة التي تعمل فينا**» (أف٣: ١٤ــ٢٠). ولكي ننبه ذهن القارىء إلى محور القوة في هذه الآيات نوجز الخلاصة كالآتي:

+ **«يعطيكم... غِنى مجده... بروحه... ليحلّ** المسيح... **في قلوبكم... تدركوا مع جميع القديسين** (الكنيسة)... **تمتلئوا إلى كل ملء الله... بحسب القوة التي تعمل فينا»**.

ومرة أخرى نختصر المعنى لتبرز القوة كالآتي:

+ **«يعطيكم... مجده... المسيح في قلوبكم... تدركوا... ملء الله... بحسب القوة التي تعمل فيكم»**.

وهذا هو روح كلمات المسيح يذكرها ق. يوحنا: «أنا قد أعطيتُهم المجد الذي أعطيتني... ليكونوا مكمَّلين إلى واحد». واضح أن عطية المجد التي يعطيها الآب للمسيح لحسابنا، والتي سلَّمها لنا المسيح، تكون سرَّ الملء لبلوغ كمال الوحدة في المسيح والآب.

ولكن ما هو المجد الذي أعطاه الآب للمسيح، فأعطاه المسيح لنا؟

قطعاً ليس هو مجد الأُلوهة الذي «للكلمة الله» المساوي للآب، فهذا المجد ليس **مُعْطى** للابن، بل هو من خصائص لاهوته. ولكن المقصود هنا هو المجد الذي **أُعطي** للابن حالَ تجسُّده لحسابنا. فهو مجد فائق، وإنما على مستوى إدراك الإنسان ليبلغَ به الإنسان في النهاية كمال الشركة في المسيح والآب. فما هو هذا المجد المُعْطى؟ والذي هو لنا وتحت حسابنا؟

توجد آيات بسيطة غاية البساطة تشير إلى هذا المجد مثل: «... لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد بعد» (يو٧: ٣٩)، أي لم يكن قد صُلِبَ. فهل آلام الصليب هي المجد الذي أعطي للمسيح ليكمِّله لحسابنا؟ ثم قول المسيح ليلة العشاء الأخير، وهو يقسم جسده مصلوباً بالنيَّة قبل أن يُصْلَبَ "بأيدي الأَثَمَةِ": «قال يسوع: **الآن قد تمجَّد ابن الإنسان**، وتمجَّد الله فيه. إن كان الله قد تمجَّد فيه، فإن الله سيمجِّده في ذاته، ويمجِّدُه سريعاً.» (يو١٣: ٣١و٣٢)

واضح أن المسيح يتكلم عن مجد الصليب، إذ ينعته زمنياً: «**سريعاً**»، وأن بالصليب سيتمجَّد المسيح، وسيُمجِّد الله الآب. فإن الأنبياء سبقوا وتنبأوا بآلام المسيح والمجد المتأتِّي منها: «باحثين أي وقت، أو ما الوقت الذي كان يدلُّ عليه روحُ المسيح الذي فيهم، إذ سبق فشهد بالآلام التي

للمسيح **والأمجاد** التي بعدها.» (١بط١ :١١)

وقد حدث بالفعل، إذ قد «رُفع (المسيح) في المجد» (١تي٣:١٦) من بين الأموات! «ودخل إلى مجده» (لو٢٤ :٢٦)، و«جلس في يمين العظمة في الأعالي» (عب١ :٣)، مسبِّباً مجداً لله الآب من كل لسان وشعب وأمة في كل زمان ومكان وإلى أبد الآبدين، وهكذا صار الصليب بما يحتويه من جوهر الاستعلان: «متى رفعتم ابن الإنسان، فحينئذ تفهمون أني أنا هو» (يو٨ :٢٨) ــ وبما يؤدي إليه ــ مجداً، ومؤدياً إلى مجد، وممجِّداً الآب، وسبباً للمجد لكلِّ مَنْ يحمل أو يتحمَّل عاره!!

وهذا المجد عينه، مجدُ الاستعلان لحقيقة الله الخلاصية، وما يؤدي إليه من احتمال الآلام، ببذل الذات حتى الموت، موت الصليب، شهادة للابن والآب؛ قد تحول بجملته لحساب الإنسان، لكلِّ مَنْ يتألم من أجل اسم المسيح: «... أنتم الذين ثبتوا معي في تجاربي، وأنا أجعلُ لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً، لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي، وتجلسوا على كراسيَّ تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر.» (لو٢٢: ٢٨ــ٣٠)

وبولس الرسول يقولها واضحة مختصرة: «إن كنا **نتألم** معه لكي **نتمجَّد** أيضاً معه» (رو٨ :١٧). ثم يشرحها بوضع يفوق التساوي والتعادل بقوله: «فإني أحسب أن **آلام الزمان الحاضر لا تُقَاسُ بالمجد العتيد** أن يستعلن فينا» (رو٨ :١٨). وبطرس الرسول يقول بنفس القول: «إن **عُيِّرتم باسم المسيح** فطوبى لكم، لأن **روحَ المجدِ والله يحلُّ عليكم.**» (١بط٤ :١٤)

هذا هو المجد الذي أعطاه الله الآب للابن حَالَ تجسده، أي «آلام الصليب»، لكي يفتح به المسيح طريق المجد للإنسان، ثم يسلِّم هذا الصليب عينه لكل من أحبُّوه وآمنوا به. لكي يبلغ الإنسان، **بنفس الآلام** التي كان قد وُضع تحتها **بسبب خطيئته**، بعد أن حوَّلها له المسيح إلى آلام من أجل اسمه، طاعة لله وحُبّاً للآب والمسيح، **فصارت له سبب مجد، بعد أن** كانت بسبب خطيئته. وهكذا، ومن **نفس عقوبة الإنسان الأوَّل**، صنع له المسيح **إكليلَ مجدٍ** لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل، محفوظاً له في السموات! وهذا هو المجد، الذي إذ نتحصَّل عليه، نصير مؤهَّلين لشركة «الوحدة» وسرِّها.

وهكذا أيضاً، وبالتالي، فكما فتَّتْ الخطيئةُ الإنسانَ ــ بآلامها المتنوعة التي كانت على

مستوى اللَّعنة، ومزَّقته تمزيقاً، وشوَّهت صورة الله فيه، استطاع المسيح أن يحوّل هذا التفتُّت، بهذه الآلام عينها، وبجسد الخطيئة نفسه وبلعنة الآلام عينها ــ يحوّله إلى وحدة!!! إذ بجسده الممزَّق، جَمَع شَمْلَ البشرية الممزَّقة، ووحَّدها في نفسه وفي جسده وفي روحه!!! «لأنه جعل الذي لم يعرف خطية، خطية لأجلنا، لنصير نحن برَّ الله فيه» (٢كو٥: ٢١)، «المسيح افتدانا من لعنة الناموس، إذ صار لعنةً لأجلنا، لأنه مكتوب: ملعونٌ كلُّ مَنْ عُلِّقَ على خشبة.» (غل٣: ١٣)

هكذا صار الصليب هو المجد، وروحَ المجد، وإكليلَ المجد، الذي وُهِبَ للإنسان أن يتقلَّده، كمثل المسيح، كأعلى وسام للكمال يدخل به إلى شركة المجد والوحدة مع المسيح والآب. والآن، تصبح آية صلاة المسيح ساطعة بنور أخَّاذ: «وأنا قد أعطيتُهم المجد الذي أعطيتني ... ليكونوا **مكمَّلين إلى واحد**»!

علاقة كمال الوحدة بتكميل الآلام:

وهكذا لاَقَ بنا أن نبلغ كمال الوحدة بمجد الآلام، كما لاَقَ به هو أن يبلغ الكمال بالآلام: «لأنه لاَقَ بذاك الذي من أجله الكلُّ وبه الكل، وهو آتٍ **بأبناءٍ كثيرين إلى المجد**، أن **يُكمِّل** رئيسَ خلاصِهم **بالآلام**» (عب٢: ١٠)، «وإذ كُمِّل، صار لجميع الذين يطيعونه سبب **خلاص أبدي**» (عب٥: ٩). هنا علاقة سرية وطيدة بين كمال المسيح الذي بلغه بالآلام، وبين أن نُكَمَّل نحن إلى واحد. فهنا شرح عملي لعلاقة الآلام وسُمُوّها بمجد الخلاص بالصليب. هذا الصليب الذي تأهَّل به «ابن الإنسان»، بنوع ممتاز كابن الله، المُسْتَأمَنِ على كل سرِّ الله، ليصنع صُلحاً وسلاماً أبدياً بين الخليقة وخالقها، وليكشف بواسطته عن سرِّ وحدته مع الآب، هذا السرُّ بكل عُمقه وسرِّه وسموِّه، سلَّمه المسيح لخواصه، لا ليتصالحوا فقط مع الله بدم صليبه بل ليتحدوا أيضاً به، ليُصالحوا الآخرين بالله: «ولكن الكلّ من الله، الذي **صالحنا لنفسه بيسوع المسيح، وأعطانا خدمة المصالحة**. أي إن الله كان، **في المسيح، مُصَالِحاً العالم لنفسه، غير حَاسِبٍ لهم خطاياهم**، وواضعاً فينا كلمة المصالحة. إذاً، نسعى كسفراءَ عن المسيح، كأن الله يعظ بنا، نطلب عن المسيح: **تصالحوا مع الله**» (٢كو٥: ١٨ــ٢٠)، «**من غَفَرْتُمْ خطاياه، تُغْفَر له.**» (يو٢٠: ٢٣)

واضح هنا مبدأ "التكميل بالآلام" الذي بلغه المسيح، فبلغ به المجد، وأعلن به عن وحدته بالآب، وكيف سلَّمه لنا خلاصاً. فصرنا، بتكميل الآلام عينها "من أجل اسمه"، شُرَكَاءَ مجدٍ ووحدة وعلاقة سرية معه ومع الآب، وسُفَرَاءَ لله فوق العادة.

نعم، فليس في كلّ ما يعمله الإنسان ما هو مثل الآلام التي للشهادة، إذ لها قدرة أن توحّد الإنسان في نفسه والآخرين والله، وتورّث مَجْدَ الحياة الأبدية: «أطلبُ إلى الشيوخ الذين بينكم، أنا الشيخ رفيقهم، **والشاهد لآلام المسيح، وشريك المجد العتيد** أن يُعلن ...» (١بط ٥: ١)

الوحدة المسيحية أعظم شهادة لرسالة المسيح في العالم،
وأوثق برهان لمحبة الآب الخالصة:

١٧: ٢٣ **«أنا فيهم وأنت فيَّ، ليكونوا مُكَمَّلِينَ إلى واحدٍ. وليَعْلَمَ العالمُ أنك أرسَلْتني، وأحببْتَهم كما أحببْتني».**

حينما يُسْتَعلَنُ المسيح فينا **فنتوحد معاً فيه، وتوحّدنا شركةُ آلامه،** حينئذ تصير وحدتنا وتصير شركةَ آلامنا مصدراً دائماً ومستمراً، يدرك منه العالم صِدْقَ رسالة المسيح؛ كما ينبع من وحدتنا فيه ومن شركة آلامه، شهادةٌ صادقة لمحبة الآب لنا، كما نَبَعَ من الصليب الشهادة لحب الآب للمسيح حينما استُعْلِنَ مَجْدُ الله فيه.

إن أشدَّ ما يتأثر به العالم ويقنعه برسالة المسيح المصلوب، هو استعلان سرِّ الصليب في المسيحيين، وذلك حينما يتألّمون من أجل اسمه، شاكرين، فرحين، متحدين، كقول بطرس الرسول: «إن عُيِّرتُم باسم المسيح فطوبى لكم، **لأن روحَ المجدِ والله يحلُّ عليكم.**» (١بط ٤: ١٤)

هنا يبرز عاملان يسندان طلب المسيح للوحدة المسيحية: **الأول** أن يؤمن العالم برسالة المسيح، **والثاني:** إمكانية انسكاب محبة الله الأبوية في قلوب المؤمنين.

إذن، واضح، وللأسف الشديد، أن في غياب الوحدة المسيحية ضياع الفرصة من العالم لكي يؤمن برسالة المسيح، وضياع الأمل من الكنيسة لانسكاب محبة الآب؛ وإن كانت هناك نماذج قليلة وفردية لا تزال تبثُّ رسالة المسيح في العالم بنموذج وحدتها، حيث تشهد لها محبة الآب التي تلهب قلوب متّقيها.

والوحدة المقدّسة، أو الاتحاد المقدس في المسيح والآب، هي في اللاهوت المسيحي **"هبة"** جعلها المسيح في متناول سؤالنا وإلحاحنا وسَعْينا المقدّس بالروح. وهي هبة سماوية، لا تتطلب إلاَّ أن يخضع لها الموهوب بالشكر، ويثبت استحقاقه لها بالطاعة الروحية الباذلة للجسد ومشيئته حتى

الموت والمحبة الصادقة عديمة الغش، حتى يستعلن الله ذاته ووجوده بلا مانع في القلب. وإن الرب يسوع المسيح جعل هذا «**الاتحاد المقدس**» موضوع اهتمامه حتى آخر لحظة من حياته على الأرض، وختمه بدمه على الصليب، وفتح الباب للدخول فيه بإرساله الروح القدس الذي يقودنا نحوه بالصلاة.

و"**الاتحاد المقدس**" بالمسيح والآب "**هبة**"، وهي التي سنكتسب بها الخلود، وقد مُنحت لنا بمقتضى صلاة المسيح، الذي عضَّدها بصليبه، وأحدرها لنا من عُلُوّ سمائه بدمه. **فهي فائقة** حقاً، ومتعاظمة في المجد، بحسب عُلُوّ مجد مُعْطِيها. ونحن ننظر إلى هذه الهبة ونرتعب، بسبب عدم لياقة خساسة طبيعتنا، ولكن عندما ننظر إلى عُلُوّ سخائه في المجد وعظمة قدرة محبته الفائقة نحونا، ونتمعن في استحقاق الثمن المدفوع لعطائها، نقول: نعم نشكرك، أيها الآب، لأنك أعطيتنا هذا الاتحاد المقدس في المسيح، لنحيا معك، استجابة لدُعَاءِ ابنك الوحيد ودمه الذي به اشترانا من الأرض لك.

١٧ : ٢٤ **«أيُّها الآبُ، أُريدُ أن هؤلاء الذين أعْطيتَني، يكُونُون معي، حيثُ أكونُ أنا، ليَنظُروا مَجْدِي الذي أعْطيتَني، لأنك أحبَبْتَني قَبْلَ إنشاءِ العالمِ».**

كلمتان تتصدران هذه الآية، لتعطيها ثقلاً روحياً؛ **الكلمة الأولى**: «أريد» θέλω: فالمسيح هنا لا يتوسل، بل يريد، لأنه إذ يختم توسلاته التي قدّمها للآب **من أجل الوحدة** ــ وهو على الأرض ــ وذلك من مُنطلق ما قبل الصليب، بدأ يتكلم ويطلب من منطلق ــ مجد ــ ما بعد الصليب: **«أُريد»!!**

المسيح هنا يكشف عن دالة البُنوّة عند الابن، الذي يكون قد أكمل مشيئة الآب، إنه يضع على الآب تكليفاً يتوازن مع التكليف الذي وضعه الآب عليه!!!

علماً بأننا لا نستطيع أن نفرّق كثيراً بين أن يطلب المسيح، أو أن يُطالِبَ، أو بين أن يصلي، وأن يتوسل، وأن يريد، لأنه ضامن الإجابة: «وأنا علمتُ أنك في كلّ حين تسمع لي» (يو١١: ٤٢). كما يعلم أن إرادته هي إرادة الآب، وإرادة الآب هي إرادته، **فهو لا يملي إرادته** على الآب، بل يعبّر بإرادته عن إرادة الآب!! **ولكن هي لغة الدالّة حينما تبلغ أقصى وثوقها.**

ونلاحظ أن المسيح استخدم سابقاً كلمة «أنا أسأل» = ἐγὼ ἐρωτῶ، وهي أيضاً لغة الدالّة التي لم يستخدمها أحد في مخاطبة الله إلاّ المسيح. ولكن هنا ينتقل إلى التعبير الأعلى والأكثر وثوقاً

في الاستجابة: «أريد θέλω» ، كمن يتكلم بسلطان؛ ليس سلطانه لدى الآب، ولكن بالسلطان الذي أعطاه إياه الآب: «إذ أعطيته سلطاناً على كل جسد، ليعطي حياة أبدية لكل من أعْطَيْته.» (يو١٧: ٢)

ويطيب لنا أن نقارن بين «أريد»، هنا، فيما بعد الصليب بالنسبة لأحبائه، وبين «لا أريد» وهو تحت الصليب بالنسبة لنفسه!! «يا أبا الآب، كل شيء مستطاع لك، فأجِزْ عني هذه الكأس، ولكن ليَكُنْ، **لا ما أُريد أنا**، بل ما تريد أنت.» (مر١٤: ٣٦)

أما الكلمة الثانية: ذات الثقل العالي، فهي أن هؤلاء «**يكونون معي**» حيث أكون أنا! فهذا هو مجد الوحدة وإكليلها الفاخر.

لقد سبق وأعلن المسيح عن هذه "الإرادة" التي تلحُّ في داخله من أجل أحبائه: «إن كان أحدٌ يخدمني، فليَتْبَعْني، **وحيث أكون أنا، هناك أيضاً يكون خادمي**، وإن كان أحدٌ يخدمني **يُكْرِمه الآب**» (يو١٢: ٢٦). وواضح أنه إن كنا نتبعه هنا على درب الصليب، فسوف نتبعه هناك في دروب أمجاد العُلا: «**هؤلاء هم الذين يتبعون الخروف حيثما ذهب**، هؤلاء اشتُرُوا من بين الناس، باكورة لله وللخروف، وفي أفواههم لم يوجد غشٌّ، لأنهم بلا عيب قُدَّامَ عرش الله.» (رؤ١٤: ٤و٥)

ولقد عبَّر المسيح مرَّةً عن هذه الإرادة المحبَّبة إليه، أن يكون أحبَّاؤه معه حيثما يكون، وذلك بتأكيد في صورة "**وعد**": «وإن مضيتُ وأعددتُ لكم مكاناً، آتي أيضاً وآخذكم إليَّ، حتى **حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً**» (يو١٤: ٣). ولقد أفْصَحَ المسيح مرة أيضاً لبطرس الرسول أنه (أي بطرس) سيتبعه من فوق ذات الصليب إلى هناك في ذات المجد: «**حيث أذهب لا تقدر** الآن أن تتبعني، **ولكنك ستتبعني أخيراً**.» (يو١٣: ٣٦)

ولكن ما لنا نبتعد كثيراً عن سر «هؤلاء الذين أعطيتني»؟ أليسوا هم هم العروس؟ الكنيسة المفديَّة، المغسولة، والمطهَّرة، التي بلا عيب ولا دنس، كيف لا تكون حيث يكون، وكيف لا تبقى عن قُرْب، بل وأقرب المقرَّبين، لترى مجده، بل تُقَاسمه إياه؟ ثم أليس هو الوعد الذي وعد ليوحنا، في رؤياه، كآخر ما يقوله الروح للكنائس السبع: «من يَغْلِبْ، فسأُعطيه أن يجلس معي في عرشي، كما غلبتُ أنا أيضاً، وجلستُ مع أبي في عرشه» (رؤ٣: ٢١). وعجيب أن يطابق هذا الوعد، بحروفه، مع آخر كلمة قالها المسيح في كل تعاليمه التي جاءت في نهاية الأصحاح السادس عشر: «... ولكن ثقوا أنا قد غلبتُ العالم.» (يو١٦: ٣٣)

ولكن السؤال الذي يتحتم الإجابة عليه هو: ما الفرق بين المجد الذي سبق أن رآه **التلاميذ في المسيح وهو معهم**: «وحلَّ بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً» (يو١: ١٤)، والمجد الذي عاد المسيح يطلب من الآب أن يراه هؤلاء التلاميذ وهم معه: «أريد أن هؤلاء ... يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي» (يو١٧: ٢٤)؟

ق. يوحنا في الآية ١: ١٤، يتكلم عن المجد الذي استطاع أن يستوعبه من خلال "حجاب الجسد"، سواء جسد المسيح وهو في حالة الإخلاء، أو جسد التلاميذ الذي لا يستوعب إلاَّ جزئياً، وكما من خلال مرآة، "كما في لغز"، ولا يبلغ إلاَّ إلى «بعض المعرفة.» (١كو١٣: ١٢)

ولكن المسيح هنا يتكلم عن رؤيا مجده، وهو في كامل استعلان لاهوته في السماء مع الآب، وهي رؤيا لا يحجز عنها الجسد شيئاً من جلالها، بل رؤيا الكلِّ والكمال، التي عبَّر عنها ق. يوحنا أيضاً في رسالته هكذا: «لأننا سنراه كما هو.» (١يو٣: ٢)

والذي نلحظه بوضوح أن حالة «يكونون معي حيث أكون أنا»، هي حالة أشدُّ استعلاناً وعلانية من: «أنا فيكم وأنتم فيَّ»، والتي تمثل الوحدة في مفهومها الحاضر! لأن المسيح يكون فينا، ونكون فيه الآن «بالإيمان» فقط: «ليحلَّ المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أف٣: ١٧). والوحدة المتأتية من ذلك هي وحدة "سرّ" أو سرائرية غير منظورة: «مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي، يثبت فيَّ وأنا فيه» (يو٦: ٥٦). وهذه الوحدة بالحلول وبالسرِّ يعوِّقها الجسد، ويحدُّ من فاعليتها واستعلانها، ويُنقِصُ من بهجتها، بسبب عجزه وقصوره ورغباته المعاكسة. لذلك حقَّ للمسيح أن يطلب لنا ما فوق الحلول والسرِّ، يطلب التواجد معه في حالة استعلانٍ ورؤية كاملة، ترتقي إليها الروح، بعد أن تطرح عنها الفاسدَ وتلبس عدم الفساد.

ولكن المسيح كعادته أحْجَمَ عن ذِكْرِ ماذا سيراه المؤمنون هناك، فهو يسكت دائماً عن ذِكْرِ ما لا طاقة لنا بمعرفته: «إن كنتُ قد قلتُ لكم الأرضيات، ولستم تؤمنون، فكيف تؤمنون إن قلت لكم السمويات» (يو٣: ١٢)، أو كما حاول بولس الرسول أن يصفها: «ولا يسوغُ لإنسان أن يتكلَّم بها» (٢كو١٢: ٤)، إذ أنها «لا تخطر على قلب بشر» (أنظر ١كو٢: ٩).

ولكن الذي نعرفه والذي نثق فيه بالروح، أننا سنستوعب من مجده الأسنى قدر ما تستطيع الروح أن تستوعب، في غيبة جسدنا المعتم هذا، وسنرى العلاقة الأزلية بين الآب والابن، وسينفذ فينا شعاع مجد لاهوته لينطبعَ علينا بهاءُ صورته ولن تُمْحَى منا إلى الأبد: «ولكن نعلم أنه إذا أُظهر

نكون مثله، لأننا سنراه كما هو» (١يو٣: ٢)، «متى أظهر المسيح حياتنا، فحينئذ تُظْهَرُون أنتم أيضاً معه في المجد.» (كو٣: ٤)

لأنه إن كان قد أعطي لنا الآن أن نكون «نحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف، كما في مرآة، نتغيَّر إلى تلك الصورة عينها، من مجد إلى مجد، كما من الرب الروح» (٢كو٣: ١٨)؛ فماذا حينما لا تكون مرآة، بل يكون هو هو بملء لاهوته، وقد تخلى عن إخلائه، واستردَّ جلال جوهر مجده، والجسد فيه يتلألأ بضياء نور الآب، الذي ليس فيه ظلمة البتة. فإذا كانت صورته في المرآة تنطبع علينا لنتغير إليها من مجد إلى مجد، فماذا يكون حينما ندخل الأقداس العليا لنتراءى معه أمام أبيه لنُستأمَنَ على سر الأزل، ونور الخلود، وحب الآب للابن، وشركة ميراث الوحيد المحبوب؟

ولكن يُستدلُّ من قول المسيح، أنه «يريد» أن يكون المؤمنون به معه حيث يكون، أن الموت هنا في فكر المسيح غيرَ محسوبٍ البتة وكأنه لا يكون. فقد ألغى المسيح الموت بالنسبة للذين يؤمنون به، كما ألغى الحياة بصورتها المادية المتعارَفِ عليها: «أنا هو القيامة والحياة. مَنْ آمن بي ولو مات فسيحيا.» (يو١١: ٢٥)

«لينظروا مجدي الذي أعطيتني، لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم»:

المجد هنا ليس هو مجد **«الكلمة»**، ولكنه مجد الكلمة "**المتجسد**": «وإذ وُجد في الهيئة كإنسان، وضع نفسه، وأطاع حتى الموت، موت الصليب. لذلك **رفَّعه** الله أيضاً، وأعطاه اسماً **فوق كل اسم**، لكي **تجثو باسم يسوع** كلُّ رُكْبَةٍ ممَّن في السماء، ومن على الأرض، ومن تحت الأرض، و يعترف كلُّ لسان أن يسوع المسيح هو ربٌّ **لمجد** الله الآب.» (في٢: ٨ـــ١١)

ومعلومٌ في اللاهوت المسيحي، أنه يمتنع أن يُقَال عن **«مجد»** الابن قبل تجسُّده، أنه "مُعْطَى"، بل هو مجد واحد للآب والابن سواء بسواء، فهو حقُّه الأزلي. أما المجد "المُعطَى"، فهو المجد الذي اكتسبه المسيح بطاعته للآب بآلامه الطَوْعيَّة حتى الصليب: «ولكن الذي وُضع قليلاً عن الملائكة، يسوع، نراه **مكلَّلاً بالمجد** والكرامة، **من أجل ألم الموت**، لكي يذوقَ بنعمة الله الموت لأجل كل واحد» (عب٢: ٩). وعلينا أن نمعن النظر في الرباط الوثيق بين غاية المسيح في التجسد وبين طِلْبَتِه هذه: أن نكون شركاء مجده الذي حازه بالصليب؛ لأنه إن كانت غاية التجسد هي الصليب، وغاية الصليب هي أن يصنع لنا تطهيراً، فغاية التطهير الذي نلناه هو أن يؤهِّلنا لأن نرتفع إليه ونبقى معه حيث هو: «بعد ما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا، جلس "**في يمين العظمة**"

في الأعالي صائراً أعظم من الملائكة، بمقدار ما ورث اسماً أفضل منهم» (عب١: ٣و٤)؛ ثم لِمَنْ أعدَّ هذا المكان: «في يمين العظمة في الأعالي» إلاَّ لنا؟ «وإن مضيتُ وأعددتُ لكم مكاناً، آتي أيضاً وآخذكم إليّ. حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً.» (يو١٤: ٣)

هذا المجد هو "مجد مُصَالَحة الله مع الإنسان"، أو هو عودة مجد الإنسان المتصالِح مع الله الذي استردَّه المسيح للبشرية، بالثمن الذي دفعه بالصليب غالياً، لذلك حقٌ له ولنا أن يعطيه لنا كما أُعطِي له: «وأنا قد أعطيتُهم المجد الذي أعطيتني» (يو١٧: ٢٢). هذا مجدُ المُصَالَحة مع الله، الذي دخلنا فيه، فاتحدنا في ظلّ حب الله الذي انسكب علينا كبنين، بنفس حبِّ الآب للمسيح كقوله: «وأحببتَهم كما أحببتني.» (يو١٧: ٢٣)

حبُّ الله الآب للابن أزليٌّ هو، وليس مستحدثاً قط: «هذا هو ابني الحبيب، له اسمعوا» (مت١٧: ٥). وحبُّ الله الآب للابن الوحيد لم يتغيَّر بالتجسد، ولم يتناقص، بل امتدت مجالاته نحو العالم بالتجسد: «هكذا أحبَّ الله العالم، حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو٣: ١٦). لقد امتدَّ مجال حبِّ الله الأبوي لابنه الوحيد، فشمل كل الذين آمنوا به وقبلوه، إذ أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله. لقد نلنا بالتبنّي عيّنة من حب الله الأزلي للابن: «لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم»، و«أحببتَهم كما أحببتني». المسيح هنا يستشهد بحب الآب له قبل إنشاء العالم، ليدعِّم طَلَبه أن تصير محبة الآب بالمثل وعلى مستوى الزمن والدهر لأخصائه الذين أحبُّوه، وآمنوا به، وحملوا صليبه. فشركاء آلامه، كيف لا يكونون شركاءَ مجده وحب الآب له؟

لقد حقَّ للمسيح أن يطالب الآب، وليس يطلب فقط («أيها الآب أريد...»)، أن نكون معه، نتأمل مجده الذي اكتسبه لحسابنا، ونحيا في مجال حبِّ الله الأزلي له، لأنه اشترانا بدمه لحساب الآب وأدْخَلَنَا عهد التبنّي، وأكمل لنا المصالحة مع أبيه بجروحه النازفة، وشوك لعنة الأرض، الذي أدمى أقدام الإنسان، لَبِسَه عوضاً عنا كإكليل فوق رأسه: «فكيف لا يَهَبُنا أيضاً معه كلَّ شيء.» (رو٨: ٣٢)

١٧: ٢٥ «أيها الآبُ البارُّ، إنَّ العالمَ لم يعرفْك. أما أنا فعرفتُك، وهؤلاء عَرَفوا أنك أنت أرسَلْتني».

تعقيب بديع على بنود الصلاة كلها، يُبرزُ سببها، ويسند ضرورتها. وكأنه يريد أن يقول:

"أيها الآب البار، أنا طلبتُ طلباتي هذه كلها على أساس برِّك الفائق قبل كل شيء! ثم أنا طلبت، وأطلتُ طلباتي، وعمَّقتُها، لا لشيء إلاَّ لأن العالم لم يعرفْك بعد. والآن، وقد أرسلتني إلى العالم، وأنا وحدي الذي أعرفُك، لذلك توسَّلتُ إليك من أجل الذين اجتذبتَهم أنت إليَّ من العالم. وهؤلاء عرفوا يقيناً أنك أنت الذي أرسلتني، لذلك أسألك من أجلهم، وأنت أصلاً المتكفِّل بهم، لأنهم لك وقد أعطيتَهم إليَّ".

«أيها الآب البارُّ»:

هي المقابل المساوي لقول المسيح في آية سابقة: «**أيها الآب القدوس.**» (يو١٧: ١١)

ولكل صفة يذكرها المسيح للآب يلحقها بما يناسبها من الطلب: «أيها الآب **القدوس**، احفظهم في اسمك (القدوس)... ليسوا من العالم كما أني أنا لستُ من العالم. **قدِّسهم** في حقك» (يو١٧: ١١و١٦و١٧). المقارنة هنا قائمة بين العالم والتلاميذ، والطلب أن يحفظهم من العالم الشرير بأن يقدِّسهم في الحق الإلهي.

أما في هذه الآية: «أيها الآب البارُّ، إن العالم لم يعرفك، أما أنا فعرفتُك، وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني»:

«الآب البارُّ» = πάτερ δίκαιε

«**البارُّ**» هنا صفة تشمل العدل والرحمة معاً، وقد تترجَمُ بالعادل فقط، كما أوردها ق. يوحنا: «إن اعترفنا بخطايانا، فهو أمين وعادلٌ δίκαιος حتى يغفر لنا خطايانا» (١يو١: ٩)، وهكذا وَضَع صفة "العادل" في الله على مستوى غفران الخطية في الإنسان، وهذا أعلى مستوى لمفهوم العدل الرحيم أو "البرّ" الذي يفوق تصوُّر الإنسان.

وهكذا يستعلن لنا المسيح صفةَ العدل "البارّ" في الأُبوَّة، ليعبِّر بها عن الحب المتفجِّر من قلب الآب، الذي يتجاوز حدود العالم الضيِّق في ذاته.

المقارنة هنا أيضاً بين العالم الذي لم يعرف الآب، والتلاميذ الذين عرفوه ــ عَبْر المسيح. ولكن هنا لا يطلب المسيح شيئاً، ولكن يقرر حقيقة واقعة، أن هؤلاء إذ قبلوا الإيمان بإرسالية الآب للمسيح، وعرفوا «**اسم**» الآب، حقَّ لهم كبنين عند برِّ الآب، أن يكون فيهم حب الآب للابن! ذلك من واقع برِّ الله الآب، إذ ليس من المعقول أن يكون نصيبهم كنصيب العالم الذي لم يعرفه.

وكأننا، مرة أخرى، أمام إبراهيم وهو يحاجج الله: «حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر، أن

تُميت البارَّ مع الأثيم، فيكون البارُّ كالأثيم، حاشا لك. أديّانُ كل الأرض لا يصنع **عدلاً؟**» (تك١٨: ٢٥)

«إن العالم لم يعرفك، أما أنا فعرفتُك، وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني»:

المعرفة هنا تقع في ثلاثة أوضاع: العالم «**لم يعرفك**»، أنا «**عرفتُك**»، هؤلاء «**عرفوا أنك أنت أرسلتني**». أما معرفة العالم، فهي الجحود والإنكار، أما معرفة المسيح فهي «الاستعلان». وأما معرفة المسيح، والذين آمنوا بإرسالية المسيح، فهي هي الحياة الأبدية التي استُعْلِنَتْ: «هذه هي الحياة الأبدية، أن **يعرفوك** أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو١٧: ٣)

ومرة أخرى نكرر: إن "معرفة الله"، في المفهوم الروحي الاختباري، هي شركة(١٥)، لأن الحقّ الإلهي لا يُسْتَعْلَنُ إلاَّ لمَنْ استحق أن يقبله.

واضح هنا أن المسيح يدين العالم، في ختام صلاته، وفي قرارة قلب المسيح مرارة، لأن عدم معرفة العالم للمسيح والآب تأتي بلا سبب: «أبغضوني أنا وأبي... أبغضوني بلا سبب» (يو١٥: ٢٤و٢٥). وبولس الرسول أكَّد هذا مراراً: «لأنه إذ كان العالم في حكمة الله، لم يعرف الله بالحكمة» (١كو١: ٢١)، «حتى إنهم بلا عذر، لأنهم لما عرفوا الله، لم يمجّدوه أو يشكروه كإله.» (رو١: ٢٠و٢١)

ولكن يعود المسيح ليطيِّب قلب الآب: «أما أنا فعرفتُك». والمسيح هنا يتكلم بفم الإنسان الجديد، بفم الكنيسة التي اشتراها من بين كل شعوب الأرض طُرًّا والتي لقَّنها «عِلْمَ معرفته».

١٧: ٢٦ **«وعرّفتُهم آسمَك، وسأُعرِّفُهُم، ليكونَ فيهِم الحبُّ الذي أحببْتني به، وأكُونَ أنا فيهِم».**

التعريف "**باسم الله**" جاء هنا على مستوى **استعلان الله في ذاته**، أي استعلان أبوّته القائمة في الابن الذي أرسله، وهو هو استعلان "**الحقّ** ذاته". والحق ليس إلاَّ الله في ذاته، وكل ما عداه هو حقٌّ فقط، بمقدار خضوعه وانسجامه مع الله. و"اسمُ الله"، معرفته هي هي الحياة الأبدية.

---

(١٥) راجع أعلاه ص١٠٦٩: "ثانياً: العلاقة الوطيدة بين «المعرفة» ووحدة الوجود المتبادل «الاتحاد» في إنجيل يوحنا".

أن يعرِّف المسيحُ الناس "**باسم الله الآب**"، هو أن يعرِّفهم بالحق الإلهي، لينفُضُوا عنهم كلَّ ما هو مزيَّفٌ وزائل ومنتهٍ بالموت. فإن كان اسمُ الله هو الحق الأليثيا ἀλήθεια ، فكلُّ ما عداه هو التزييف ψεῦδος . والمسيحيون المؤمنون حقاً، يدعوهم ق. يوحنا في رسالته الثانية: «الذين قد عرَفوا الحق.» (٢يو١)

وأن يُعرِّف المسيحُ الناسَ "**باسم الله الآب**"، فلا يكون هذا من على بُعْدٍ، ولا كأنه على مستوى الفكر؛ بل يعني أنه استودع "الاسم" قلوبهم، ليعيشوا و يَخْلُصُوا به؛ ليستنيروا بنوره، لا كمعرفة بعد، بل **كقوة حياة لا تزول.**

والتعريف باسم الله الآب، ليس عملاً يمكن أن يَكْمُل أو يمكن أن ينتهي، بل هو عملُ الابن منذ أن تجسَّد وإلى أبد الآبدين، عملٌ يغطي الزمن، ويمتدُّ في الأبدية. فالله مُدْرَكٌ كامل، يُدرَكُ، ولكن لا يُدْرَكُ كمالُه. لذلك أردف المسيح القول: «عرَّفتُهم اسمك» بقوله: «وسأُعرِّفهم». فهو عمل المسيح حتى وإلى ما بعد الصليب. لقد وعد بذلك، حينما وعد بإرسال الروح القدس: «فهو يرشدكم إلى جميع الحق» (يو١٦: ١٣). ولكن معرفة الله في المستقبل، تقوم فقط وتمتدُّ على أساس المعرفة في الحاضر الزمني، فالذي أسقط من حسابه التعرُّف على اسم الله الآب هنا بسبب مشقَّة الصليب، ظالمٌ هو، إن ظنَّ أنه يعوِّض ما فاته هناك! ولكن معرفة اسم الله الآب في الحاضر مهما كانت شاقة، و يكتنفها الآلام، فهي تبدو جليلة وعظيمة القدر، حينما تكمَّل وتمتد هناك.

فإذا سكن اسمُ الآب في قلوب مُتَّقيه عن وعي، فقد سكن الحبُّ الأبوي حتماً و بضمان سُكْنَى المسيح: «وأكون أنا فيهم». لكن حبَّ الآب، يستحيل أن نذوقَه في غَيْبَة الابن المحبوب. لذلك صحَّ القول: «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا» (يو١: ١٦)، والمسيح يوجِّه نظرنا إلى أصل ومَنْبَع حُبِّ الآب هكذا: «لأن الآب نفسه يُحبُّكم، لأنكم أحببتموني» (يو١٦: ٢٧). هذا الحبُّ الأبدي الذي يتفجَّر من قلب الآب، كالنور الذي يتفجَّر من قلب الشمس، استطاع المسيح، بالروح القدس، أن يحوِّله في أمواجه الجارفة نحو قلوبنا. ولكي يضمن سخاء انسكابه، أمَّن على ذلك بوجوده الدائم: «وأنا فيهم».

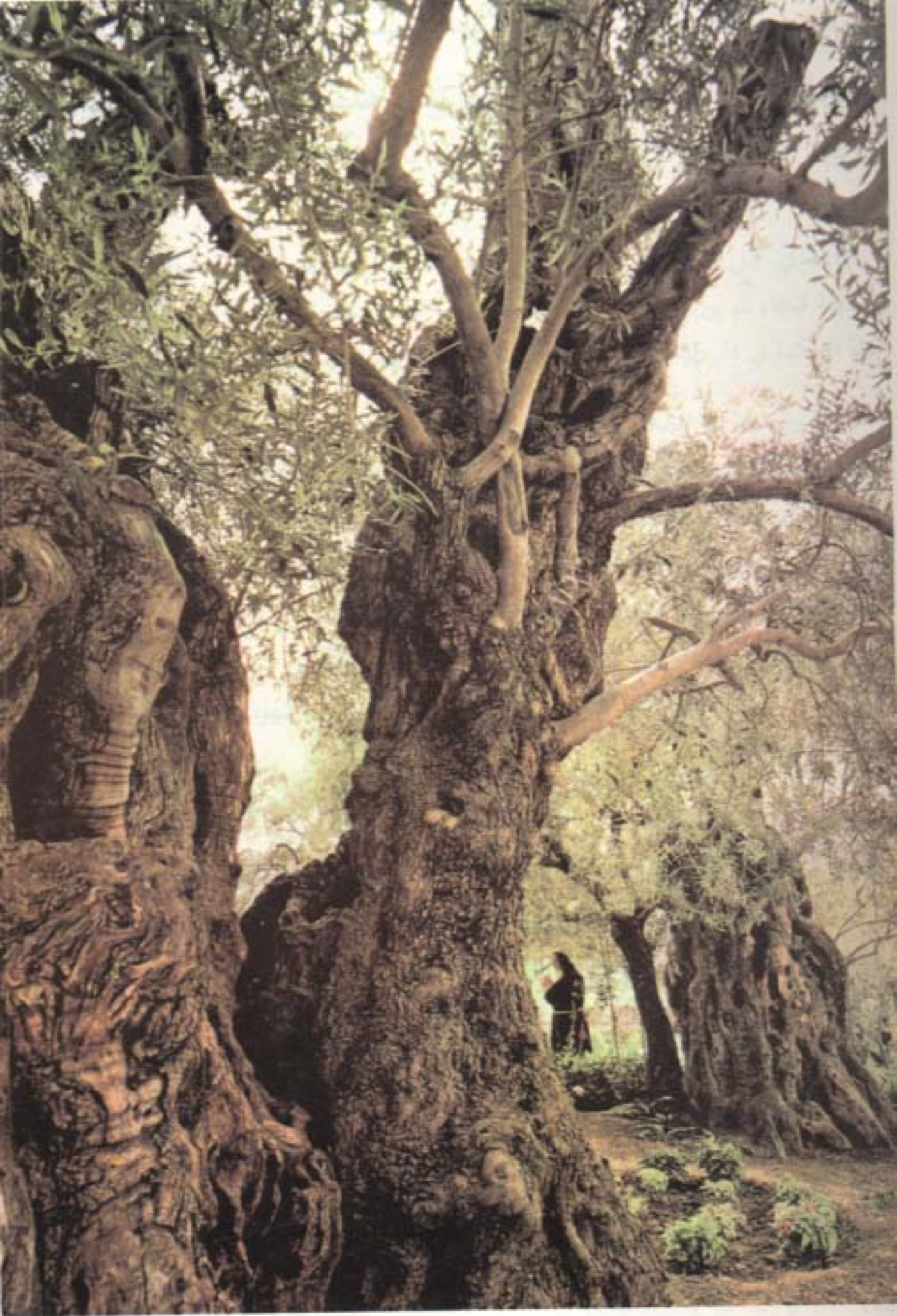
لهذا كان شُغْلُ المسيحي الشاغل، أن يحوز على حلول المسيح في القلب: «لكي يعطيكم، **بحسب غنى مجده**، أن تتأيَّدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن، **ليحلَّ المسيح بالإيمان في قلوبكم**، وأنتم مُتأصِّلون، ومُتأسِّسون **في المحبة.**» (أف٣: ١٦-١٨)



وادي قدرون

عَبَره المسيح عدة مرات، سواء وهو ذاهب إلى الهيكل أو وهو صاعد إلى جبل الزيتون، وحيث قضى الليل في جثسيماني مساء الخميس المقدس.

هذا الوادي يفصل بين جبل الزيتون ومدينة أورشليم، ويحوي أربعة مدافن قديمة العهد، يُعتقد أنها لأبشالوم ويهوشافاط والقديس يعقوب والقديس زكريا.



أقدم شجرة زيتون في بستان جتسيماني

الجزء الخامس: إنجيل الفداء

(الأصحاحات ١٨و١٩و٢٠و٢١)

هذه الأصحاحات تشمل:

أولاً ــ التسليم [١٨: ١ــ١١]

ثانياً ــ المحاكمة أمام الهيئات الدينية، المحاكمة أمام الدولة الرومانية [١٨: ١٢ــ١٩: ١٦]

ثالثاً ــ النهاية [١٩: ١٧ــ٤٢]

رابعاً ــ القيامة (الحياة الجديدة) [٢٠]

خامساً ــ صور مستيكية لمستقبل الكنيسة الرسولية [٢١]

الأصحاحان الثامن عشر والتاسع عشر

مقدمة: خصائص الأصحاحين الثامن عشر والتاسع عشر

في إنجيل يوحنا:

+ يرتفع فيهما ق. يوحنا فوق السرد التاريخي لحوادث الآلام والصلب، ليجذب انتباه القارىء إلى ما تحمله الحوادث من معانٍ هامة.
+ فالآلام، والموت، وحتى القيامة، تحمل أقصى الاستعلان عن شخصية المسيح.
+ كلُّ حَدَثٍ وكلُّ قَوْلٍ جاء معه، يحمل في أعماقه صفة الآية، التي تشير إلى مضمون يتفوق كثيراً عن مجرد السرد التاريخي الذي جاء به هذا الحدث وهذا القول.
+ ليس من الصواب أن نعتبر ما أضافه ق. يوحنا في رواية الآلام والصلب أنه تكميلٌ لما جاء في الثلاثة الأناجيل، بل الصواب هو أن هذه الإضافات تنطلق من قاعدة شاهد عيان كان على قُرْبٍ وثيق مع المسيح في كل تحركاته، إذ لازمه ولم يتخلَّ عنه لحظة واحدة، مما أهَّله أن يَصِف، عن ملء الرؤيا والمعرفة المباشرة، الأمر الذي لم يتسنَّ لبقية التلاميذ.

ق. يوحنا، في سرده لحوادث الآلام والصلب، اكتفى ــ كباقي رواية الإنجيل ــ بمواقف اختارها خصيصاً دون بقية الحوادث والآيات، ليتَّخذ منها أساساً يبني عليه القصد الكلي والنهائي من الإنجيل، وهو استعلان شخص المسيح باعتباره ابن الله، الأمر الذي اعتبره دستوراً للإيمان المسيحي والحياة الأبدية، واعتبرته الكنيسة من بعده كذلك.

وعلى هذا الأساس، يمكن أن نستخلص من رواية ق. يوحنا عناصر استعلانية واضحة تكشف عن لاهوت المسيح، وهو يجوز آلامه.

أولاً: المسيح جاز الآلام عن مشيئة وإرادة طوعية:

١٨: ٤ «فخرج يسوع وهو عالمٌ بكل ما يأتي عليه، وقال لهم: مَنْ تطلبون».

١٨: ٨ «قد قلت لكم: إني "أنا هو" فإن كنتم تطلبونني، فدعوا هؤلاء يذهبون».

١٨: ١١ «فقال يسوع لبطرس: اجعل سيفك في الغمد، الكأس التي أعطاني الآب ألا أشربها؟».

١٨: ٣٦ «أجاب يسوع **مملكتي** ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم، لكان خُدّامي يجاهدون لكي لا أُسلَّم إلى اليهود».

١٩: ٢٨ «بعد هذا رأى يسوع أن كل شيء **قد كَمُلَ**. فلكي يتم الكتاب قال أنا عطشان».

١٩: ٣٠ «فلما أخذ يسوع الخلّ، قال: **قد أُكمِل** ...».

ثانياً: الحوادث تنطق أن المسيح كان يكمّل بآلامه خطة إلهية مرسومة مُسْبَقاً:

١٨: ٨و٩ «فإن كنتم تطلبونني، فدعوا هؤلاء يذهبون، ليتم القول الذي قاله: **إن الذين أعطيتني، لم أُهلك منهم أحداً!**».

١٨: ١١ «**الكأس التي أعطاني الآب**، ألا أشربها؟».

١٩: ١١ «أجاب يسوع لم يكن لك عليَّ سلطان البتة، **لو لم تكن قد أُعطِيتَ من فوق**».

١٩: ٢٤ «فقال بعضهم لبعض: لا نشُقُّه، بل نقترع عليه، لمن يكون. **ليتمَّ الكتابُ القائل**: اقتسموا ثيابي بينهم، وعلى لباسي ألقوا قرعة».

١٩: ٢٨ «**فلكي يتم الكتاب**، قال: أنا عطشان».

ثالثاً: سمات التفوُّق الإلهي من داخل ذِلَّة القبض، وغُصَّة الآلام، وعار الصليب:

١٨: ٦ «فلما قال لهم إني **أنا هو**، رجعوا إلى الوراء، **وسقطوا على الأرض**».

١٨: ٢٠و٢١ «أجابه يسوع: أنا **كلَّمتُ العالم علانية**. أنا علَّمتُ كل حين **في المجمع وفي الهيكل**، حيث يجتمع اليهود دائماً، وفي الخفاء لم أتكلم بشيء. **لماذا تسألني** أنا؟ اسأل الذين قد سمعوا ماذا كَلَّمْتُهم».

١٨: ٣٧ «فقال له بيلاطس: أفأنت إذاً ملك؟ أجاب يسوع: أنت تقول إني ملكٌ. **لهذا قد وُلِدْتُ أنا، ولهذا قد أتيت إلى العالم، لأشهد للحق**. كلُّ مَنْ هو من الحق يسمع صوتي».

١٩: ٣٦و٣٧ «لأن هذا كان، ليتم الكتاب القائل: **عَظْمٌ لا يُكسرُ منه**. وأيضاً يقول كتاب آخر: **سينظرون إلى الذي طعنوه**».

أما العناصر الجديدة التي ساهم بها إنجيل يوحنا في خزانة الإنجيل، فنحن نلخصها في الآتي:

١ ــ كلمات القوة والسلطان لحظة القبض عليه: (١٨: ٤ ــ ٩).
٢ ــ الفحص والمحاكمة أمام حنان (رئيس الكهنة): (١٨: ١٣ ــ ٢٤).
٣ ــ الاجتماع الأول بين اليهود وبيلاطس، الذي أعقبه إجراء سري لاستجواب بيلاطس له: (١٨: ٢٨ ــ ٣٧ و١٩: ٩ ــ ١١).
٤ ــ الاستهزاء الأول بالمسيح وهو مقبوض عليه. وخروج بيلاطس بجملته المشهورة: «هوذا الإنسان»: (١٩: ٢ ــ ٥).
٥ ــ إصرار بيلاطس على كتابة ما كتب بخصوص ملك اليهود: (١٩: ٢١ و٢٢).
٦ ــ تسليم المسيح والدتهُ القديسة مريم العذراء للتلميذ الذي يحبه يسوع: (١٩: ٢٥ ــ ٢٧).
٧ ــ الجملة الأخيرة: «أنا عطشان»، و«قد أُكْمِلَ.» (١٩: ٢٨ ــ ٣٠)
٨ ــ طَعْنُ جَنْبِ المسيح بالحربة، وخروج دم وماءٍ: (١٩: ٣١ ــ ٣٧).
٩ ــ عودة نيقوديموس علناً، وقيامه بواجب الأمانة التي أخفاها طويلاً في الظلام: (١٩: ٣٩).

وقد برزت في رواية ق. يوحنا إضافات، استطراداً للشرح الضمني، هي ذات وزن تاريخي للرواية، وعلى غاية من الأهمية، وتوضح أن الذي يقولها شاهدُ عيانٍ وخبير بأمور الرب:

١ ــ «قال يسوع هذا (صلاة يو١٧)، "وخرج" مع تلاميذه إلى عَبْرِ وادي قدرون حيث كان بستانٌ ...» (١٨: ١)
٢ ــ «وكان يهوذا مُسلِّمه يعرف الموضع، لأن يسوع اجتمع هناك كثيراً مع تلاميذه.» (١٨: ٢)
٣ ــ «ثم إن سمعان بطرس كان معه سيف، فاستلَّه، وضرب عبد رئيس الكهنة، فقطع أُذنه اليمنى. وكان اسم العبد مَلْخُس.» (١٨: ١٠)
٤ ــ «فقال يسوع لبطرس: اجعل سيفك في الغِمْدِ، الكأس التي أعطاني الآب ألا أشربها؟» (١٨: ١١)
٥ ــ «ثم إن الجند والقائد وخدَّام اليهود قبضوا على يسوع، وأوثقوه.» (١٨: ١٢)
٦ ــ «ومضوا به إلى حنان أولاً، لأنه كان حَمَا قيافا، الذي كان رئيساً للكهنة في تلك السنة.» (١٨: ١٣)
٧ ــ «وكان سمعان بطرس والتلميذ الآخر يتبعان يسوع. وكان ذلك التلميذ معروفاً عند

رئيس الكهنة، فدخل مع يسوع إلى دار رئيس الكهنة.» (١٨: ١٥)

٨ ــ «وأما بطرس فكان واقفاً عند الباب خارجاً. فخرج التلميذ الآخر الذي كان معروفاً عند رئيس الكهنة، وكلَّم البوابة، فأدخل بطرس.» (١٨: ١٦)

٩ ــ «قال واحد من عبيد رئيس الكهنة، وهو نسيب الذي قطع بطرس أُذنه: أما رأيتُكَ أنا معه في البستان؟» (١٨: ٢٦)

١٠ ــ «ثم جاءوا بيسوع من عند قيافا إلى دار الولاية، وكان صُبْحٌ. ولم يدخلوا هم إلى دار الولاية، لكي لا يتنجسوا، فيأكلون الفصح.» (١٨: ٢٨)

١١ ــ «وكان استعدادُ الفصح، ونحو الساعة السادسة، فقال لليهود: هوذا ملككم.» (١٩: ١٤)

١٢ ــ «فخرج وهو حامل صليبه، إلى الموضع الذي يُقالُ له موضع الجمجمة، و يقال له بالعبرانية جلجثة.» (١٩: ١٧)

١٣ ــ «وكتب بيلاطس عنواناً، ووضعه على الصليب، وكان مكتوباً: يسوع الناصري ملك اليهود.» (١٩: ١٩)

١٤ ــ «ثم إن العسكر لما كانوا قد صلبوا يسوع، أخذوا ثيابه وجعلوها أربعة أقسام، لكل عسكري قسماً. وأخذوا القميص أيضاً، وكان القميص بغير خياطة، منسوجاً كله من فوق.» (١٩: ٢٣)

١٥ ــ «وكان في الموضع الذي صُلِبَ فيه بستان، وفي البستان قبر جديد لم يوضع فيه أحد قط.» (١٩: ٤١)

الآلام والصليب ساعة بساعة

يقدم لنا الأسقف التقليدي والعالم الكتابي وستكوت حوادث القبض والمحاكمة والآلام والصلب مُوَقَّعَةً على الساعات في جدول زمني رتيب، نقدمه للقارىء، على أساس الساعة المعمول بها الآن في العالم. أما الحساب الزمني لساعات اليهود، والتي لا تزال تعمل بها الكنيسة، فنضعها بين أقواس:

الساعة	الحادثة الزمنية
الواحدة بعد نصف الليل (السابعة من الليل)	أ ــ معاناة الآلام في صلاة البستان. ب ــ ظهور يهوذا مع الجند والخدّام. ج ــ القبض على المسيح، والذهاب به إلى منزل رئيس الكهنة.
الثانية بعد نصف الليل (صباحاً) (الثامنة من الليل)	المحاكمة الأولية أمام حنان، بحضور قيافا.
الثالثة بعد نصف الليل (صباحاً) (التاسعة من الليل)	محاكمة قيافا، ومجلس السنهدريم في اجتماع غير عادي.
الخامسة بعد نصف الليل (فجراً) (الحادية عشر من الليل)(١)	أ ــ خروج حكم السنهدريم(١). ب ــ وساقوه إلى بيلاطس حيث الفحص الأول في دار الولاية.
الخامسة والنصف (صباحاً) (منتصف الثانية عشر من الليل)	أ ــ الفحص أمام هيرودس. ب ــ الجلد، والاستهزاء الأول في قصر هيرودس.

(١) لو ٢٢ : ٦٦ : «ولما كان النهار (الفجر)، اجتمعت مشيخة الشعب ورؤساء الكهنة والكتبة، وأصعدوه إلى مجمعهم».
مت٢٧ : ١ : «ولما كان الصباح، تشاور جميع رؤساء الكهنة، وشيوخ الشعب على يسوع، حتى يقتلوه».
مر١٥ : ١ : «وللوقت، في الصباح، تشاور رؤساء الكهنة والشيوخ والكتبة والمجمع كله، فأوثقوا يسوع، ومضوا به، وأسلموه إلى بيلاطس».

السادسة والنصف (صباحاً) (منتصف الساعة الأُولى من النهار)	النطق بالحكم من فم بيلاطس.
السابعة (صباحاً) (الساعة الأُولى من النهار)	الاستهزاء الثاني للعسكر «بالملك».
التاسعة (صباحاً) قبل الظهر (الساعة الثالثة من النهار)(٢)	أ ــ بدء الصلب(٢). ب ــ رفض الخلّ.
الساعة الثانية عشرة ظهراً (الساعة السادسة من النهار)	بدءُ النَّزْع الأخير.
من الساعة الثانية عشرة إلى الساعة الثالثة (من السادسة حتى التاسعة)(٣)	«كانت ظلمة على الأرض»(٣).
الساعة الثالثة (الساعة التاسعة من النهار)	النهاية: «قد أُكْمِلَ»!

(٢) مر١٥: ٢٥: «وكانت الساعة الثالثة، فصلبوه».

(٣) مت٢٧: ٤٥: «ومن الساعة السادسة، كانت ظلمة على الأرض إلى الساعة التاسعة».

مر١٥: ٣٣: «ولما كانت الساعة السادسة، كانت ظلمة على الأرض كلها، إلى الساعة التاسعة».

لو٢٣: ٤٤: «وكان نحو الساعة السادسة، وكانت ظلمة على الأرض كلها، إلى الساعة التاسعة».

أولاً: التسليم

(١٨: ١–١١)

والآن قد حانت الساعة ليقدِّم المسيح ذبيحة نفسه، علناً، أمام التلاميذ والعالم والتاريخ.

١:١٨ «قالَ يسوعُ هذا، وخَرَجَ مع تلاميذِهِ إلى عَبْرِ وادي قِدْرُونَ، حَيْثُ كانَ بُسْتانٌ، دَخَلَه هو وتلاميذُهُ».

«خَرَجَ»: ἐξῆλθεν

لأول وهلة، تفيد هذه الكلمة أن الرب خرج من العِلِّية التي كانوا مجتمعين فيها، ولكن في موضع آخر، وفي نهاية الأصحاح الرابع عشر، بعد الحديث على العشاء، نسمع الرب يقول: «قوموا ننطلق من ههنا» (يو١٤: ٣١)، كإفادة للخروج من العِلِّية. لذلك يعلّق بعض الشُّرَّاح على الخروج هنا، أنه كان من أحد الأروِقة في الهيكل التي عرَّج عليها الرب في طريقه إلى جثسيماني في جبل الزيتون([4]).

و يرجح ذلك، العالِم وستكوت، بسبب قول الإنجيل أنه خرج إلى عَبْر وادي قدرون، وهو الوادي الذي يفصل الهيكل عن جبل الزيتون، بمعنى أن الرب اجتاز الأرض من الغرب ــ ناحية الهيكل ــ إلى الشرق. وهذا لا يتأتى، إلا إذا كان خارجاً من الهيكل، وغالباً من باب دمشق، وهو المرسوم عليه الكرمة الذهبية بأفرُعِها الممتدة. ولكن الذي يُزيدُنا شعوراً بصدق هذا الاحتمال، هو الإحساس الشديد الذي يُخلِّفه المسيح في صلاته التي قدَّمها إلى الآب بالحضرة الإلهية المهيبة التي يصوِّرها الهيكل: «بيتي بيت الصلاة يُدعى» (مت٢١: ١٣). خاصة وهو يرفع بصره بعيداً، نحو الكنيسة الجديدة الأزلية، حيث السجودُ للآب سيكون بالروح والحق!

و«**قِدْرون**» هو نهر يجفُّ صيفاً، فيترك قاعه جافاً كالوادي، ليمرَّ فوقه المارة.

ولكن يبدو أن ق. يوحنا اعتنى أن يقدم لنا هذا الوصف التفصيلي للرحلة الحزينة للمسيح، وهو خارجٌ من المدينة صوب جبل الزيتون، مُطارَداً من التلميذ الخائن والشعب الأحمق، ليعطينا

---

[4] Westcott, *op. cit.*, p. 337; The Pulpit Commentary, *op. cit.*, p. 379.

نفس الصورة النبوية لداود «ملك إسرائيل»، وهو خارج باكياً حافيَ القدمين، هارباً من وجه «ابنه» أبشالوم الطامع في مُلْكِ أبيه، متسلّحاً بمشورة أخِيتُوفَل، وبجيش من الشعب الأحمق الذي أغْوَاه ضد أبيه:

+ «وكانت جميع الأرض تبكي بصوت عظيم، وجميع الشعب يعبرون، وعَبَر الملك **في وادي قدرون**، وعبر جميع الشعب نحو طريق البرية.» (٢صم١٥: ٢٣)

+ «وأما داود فصعد في مصعد جبل الزيتون، كان يصعد باكياً، ورأسه مغطّى، ويمشي حافياً، وجميع الشعب الذين معه غطّوْا كل واحد رأسه، وكانوا يصعدون وهم يبكون.» (٢صم١٥: ٣٠)

أما أبشالوم الابن الجاهل، فأصابه سهم في ظهره وعُلّق على شجرة ميتاً. وأما أخيتوفل، صاحب المشورة، فذهب وخنق نفسه (٢صم١٧: ٢٣)!!

«... حيث كان بُستان، دخله هو وتلاميذه»:

هذا هو بستان «جثسيماني»، الاسم الذي أطلقه كلٌّ من القديس متى والقديس مرقس. ويحكي لنا المؤرخ يوسيفوس اليهودي، أن مثل هذه البساتين الصغيرة كانت منتشرة على جبل الزيتون، وكانت تُدعى بالبراديسوي παράδεισοι أي «الجنّات».

وكلمة **«جثسيماني»** من مقطعين «جاث ــ شمّاي»، وتعني "**معصرة الزيت**":

+ «مَنْ ذا الآتي من أدوم بثياب حُمْرٍ من بُصْرَة، هذا البهيُّ بملابسه، المتعظّم بكثرة قوته؟ أنا المتكلّمُ بالبرّ، العظيمُ للخلاصِ. ما بال لباسُك مُحَمّرٌ وثيابُك **كدائس المعصرة؟ قد دُسْتُ المعصرة** وحدي، ومن الشعوب لم يكن معي أحد. فدُسْتُهُم بغضبي، ووطئتُهم بغيظي، فرُشّ عصيرهم على ثيابي، فلطختُ كل ملابسي. لأن يوم النقمة في قلبي، وسنة مفديي قد أتتْ.» (إش٦٣: ١ــ٤)

كثير من الشُرّاح والقديسين الأوائل تغنّوا ببستان جثسيماني كبستان، أو بالتعبير الإنجيلي الصحيح جَنّةٌ παράδεισος، وبتعبيرنا «جنينة» أي تصغير «جَنّةٌ»، وذلك في مقابل جنة عدن، فكما فقد الإنسان الأول فيها هويّته، إذ طغى عليه الشيطان وأغْوَاه وأحْدَرَه إلى الأرض عرياناً، مفضوحاً، ميتاً بجهله؛ جاء ابن الإنسان ودخلها مصلّياً، وانتقم للإنسان، بأن أسْقَط الشيطان من السماء كالبرق المنطفىء، وأحْدَرَه إلى الهاوية، مُكبّلاً بقيود الظلام، وأعاد آدم إلى رتبته الأُولى حيًّا، غالباً الموت، لميراث نعيم الحياة الأبدي.

وربما يكون ق. يوحنا قد وضع موضوع المقابلة في أمر جنة عدن والبستان = «الجنة» ضمن اعتباره، إذ يكرر مرة أخرى أن موت الرب وقيامته كانا في بستان (جَنَّة) أيضاً: «وكان في الموضع الذي صُلِبَ فيه **بستان**، وفي **البستان** قبرٌ جديد لم يوضَعْ فيه أحد قط» (يو١٩: ٤١). بل وأمعن في أمر البستان، أن مريم توهمت أن المسيح القائم من الموت أنه هو «البستاني»: «فظنت تلك أنه البستاني، فقالت له: يا سيِّد إن كُنْتَ أنت قد حَمَلْتَه، فقُلْ لي أين وضعته وأنا آخذه» (يو٢٠: ١٥). ولم تَعْلم مريم أنه «البستاني» الحقيقي، الذي فَلَّح لنا الفردوس الجديد، عِوَضَ آدم الذي أفْقَدَنا الفردوس الأول.

«دخله هو وتلاميذه»:

واضح أن البستان له أسوار وبابٌ. لقد كان مكاناً مختاراً للرب والتلاميذ لقضاء أوقات وأيام للراحة والصلاة والتأمل. هنا يذكر الإنجيل التلاميذ بكامل عددهم: «تلاميذه»، بعد أن أسقط يهوذا، فتلاميذ المسيح لا يجمعهم عَدَدٌ، بل يجمعهم الحبُّ والإيمان اللذين فقدهما يهوذا، فَفَقَد نفسه، ولم يفقد التلاميذ شيئاً بفقده.

لم يذكر ق. يوحنا شيئاً عن معاناة الرب في الصلاة التي اشتهرت بها جثسيماني، ولكن لم يغفل ق. يوحنا مرارة الروح التي صلّى بها المسيح في جثسيماني، وعمق المعاناة التي جازها، وصرخة الجَزَع التي خرجت لتعبِّر عن ثقل التجربة؛ ولكنه ذكرها مُسْبقاً عَبْر أحاديث هادفة، ولم يشأ أن يركِّز عليها تركيزاً كباقي الإنجيليين. لقد ذكرها في موضوع تعليمي يليق بموت الذات الإرادي في موضوع موت حبَّة الحنطة، وضمها إلى ساعة الصليب، ليفهمها القارىء اللبيب:

+ «وأما يسوع فأجابهما قائلاً: **قد أتت الساعة**، ليتمجد ابن الإنسان. الحق الحق أقول لكم: **إنْ لم تقعْ حبة الحنطة في الأرض وتَمُتْ**، فهي تبقى وحدها؛ ولكن **إن ماتت، تأتي بثمر كثير**. مَنْ يحب نفسه يهلكها، ومَنْ يبغضْ نفسه في هذا العالم، يحفظها إلى حياة أبدية... الآن نفسي قد اضطربت. وماذا أقول؟ أيها الآب، نَجِّني من هذه الساعة، ولكن لأجل هذا أتيتُ، إلى هذه الساعة. أيها الآب، مجِّد اسمك... الآن دينونة هذا العالم. الآن يُطْرَحُ رئيسُ هذا العالم خارجاً. وأنا إن ارتفعتُ عن الأرض، أجذبُ إليَّ الجميع. قال هذا، مشيراً إلى أية ميتة كان مُزْمِعاً أن يموت.» (يو١٢: ٢٣ــ٣٣)

نعم، هكذا استوفى ق. يوحنا كلَّ تعبيرات جثسيماني وكل أنينها وتنهداتها، بل وكل رِعْدَتِها وجَزَعها، ولكنه صبَّها صبّاً في قالبٍ تعليميٍّ. اسمع كيف يسرد ق. يوحنا قول المسيح ــ في

جثسيماني ـــ عن موضوع «**شُرْبِ الكأس**»، مخاطباً بطرسَ ـــ وكلَّ بطرسٍ ـــ الذي جَزِعَ من شُرْبِها، مع أنه شربها في النهاية: «اجعل سيفك في الغِمْدِ، **الكأس التي أعطاني الآب، ألا أشربُها؟**» (يو١٨: ١١)

واضح أن ق. يوحنا ثبَّت نظره على الصليب كمجد، والآلام كطريق للمجد، والموت كانتصار. هكذا اختزل ق. يوحنا محنة جثسيماني في جملة واحدة: «الكأس التي أعطاني الآب، ألا أشربُها؟» (يو١٨: ١١)

٢:١٨ «**وكان يهوذا مُسلِّمُهُ يَعْرِف المَوْضِعَ. لأن يَسُوعَ اجتَمَعَ هناكَ كثيراً مع تلاميذِهِ**».

القول فيه دفاعٌ عن كَوْنِ المسيح لم يخرج من المدينة و يذهب إلى ظلال شجر جبل الزيتون هروباً من يهوذا والمطاردين، فالقديس يوحنا يؤكِّد أنه المكان المختار الذي كان يلجأ إليه المسيح كثيراً. والمسيح، كيوحنا، يعلم أن يهوذا يعرف الموضع جيداً، فكأنه ذهب إلى هناك لا هروباً من التسليم بل تسهيلاً للخائن أن يكمل مشورته: «ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة»!!! فوقت الاختباء قد ولَّى، والآن هي ساعة العلانية.

و يبدو أن بستان جثسيماني كان يمتلكه سرًّا أحد تلاميذ الرب، تماماً كالعِلِّية التي تم الاجتماع فيها، فالقديس متى يلمِّح على ذلك: «اذهبوا إلى المدينة إلى **فلان** (سرٌّ)، وقولوا له: المعلم يقول: إن وقتي قريب، عندك أصنع الفصح مع تلاميذي.» (مت٢٦: ١٨)

وفي رواية القديس مرقس لحوادث جثسيماني، يذكر عرضاً أمراً عجيباً يلفُّهُ السر من كل جانب، إذ يذكر بالحرف الواحد أنهم وهم داخل البستان، أقبلَ عليهم يهوذا ومعه جمع كثير، و يردف و يقول: «فأجاب يسوع وقال لهم: كأنه على لصٍّ خرجتُم بسيوف وعِصِيٍّ لتأخذوني. كل يوم كنت معكم في الهيكل أُعلِّم ولم تمسكوني، ولكن لكي تُكْمَلَ الكتب. فتركه الجميع، وهربوا. **وتبعه شاب لابساً إزاراً على عُرْيِهِ، فأمسكه الشبان، فترك الإزار، وهرب منهم عرياناً.**» (مر١٤: ٤٨ــ٥٢)

والمعتقد أن هذا الشاب لم يكن إلاَّ صاحب البستان «جثسيماني»، حيث كان فيه يؤانس ضيوفه و يرحب بهم، ثم ذهب لينعس بإزار خفيف على عُرْيه. ثم هبَّ من نومه على ضجَّة العسكر، وأراد أن يتبع المعلِّم، وأخيراً هرب بجلده، وساعده عُرْيه على ذلك. ولم يكن هذا الشاب

أيضاً حسب التقليد إلاَّ مرقس الرسول، صاحب العِلِّية أيضاً، وهو الوحيد الذي كتب قصة عُرْيه وهَرَبه، كما أنه هو الوحيد الذي ذكر اسم البستان «جثسيماني»، وقد أخذ عنه القديس متى وحده هذا الاسم!

«لأن يسوع اجتمع هناك كثيراً مع تلاميذه»:

«اجتمع»: συνήχθη

واضح من اللفظة اليونانية أن البستان كان مخصَّصاً "**لاجتماع**" الرب مع تلاميذه، بمعنى اجتماع للصلاة والتعليم والقيادة الروحية أكثر منه مكان راحة واستجمام: «خرج إلى الجبل ليصلي، وقضى الليل كلَّه في الصلاة» (لو٦: ١٢)، «وكان في النهار يعلِّم في الهيكل، وفي الليل يخرج ويبيت في الجبل، الذي يُدْعَى جبل الزيتون» (لو٢١: ٣٧). وربما إذ كان التلاميذ قد تعوَّدوا النوم هناك، أنهم بمجرد أن تركهم المسيح ليصلي فإنهم ناموا جميعاً! بل وربما على هذا الأساس، اعتقد يهوذا أنه سيُدَاهِمُ الرب والتلاميذ وهم نيام، كما اعتادوا في الأيام السابقة.

كذلك واضح من الآية: «اجتمع هناك **كثيراً**»، أن تواجد المسيح في أورشليم لم يقتصر على موسم الفصح هذه المرة فقط، فإنجيل يوحنا يذكر زيارات المسيح لأُورشليم لثلاثة أعياد فصح خَلَتْ، مع الأعياد الأخرى الرسمية، وهو في هذه المرة لم يغادر أورشليم منذ عيد المظالّ وحتى هذا الفصح الأخير.

٣:١٨ «فأَخَذَ يهوذا الجُنْد وخُدَّاماً من عندَ رؤساءِ الكهنةِ والفرِّيسيِّينَ، وجاءَ إلى هناكَ بمَشَاعِلَ ومَصَابيحَ وسِلاحٍ».

وأخيراً، انضمت قوات الظلمة معاً على ثلاث درجاتها: تلميذ من الخاصَّة الاثني عشر المختارين؛ ورؤساء كهنة وفريسيون ــ حكماء صهيون ــ مختفين وراء خُدَّامِهم؛ ثم سِفَارة عن هيئة هذا العالم، والكلُّ بقيادة الشيطان: فبالنسبة للتلميذ، قال المسيح بخصوصه: «فَغَمَسَ اللقمة، وأعطاها ليهوذا سمعان الإسخريوطي. فبعد اللقمة، دخله الشيطان، فقال له يسوع: ما أنت تعمله، فاعمله بأكثر سرعة.» (يو١٣: ٢٦و٢٧)

وبالنسبة لرؤساء الكهنة والفريسيين، حكماء إسرائيل، فقد خصَّهم المسيح بالقول: «أنتم من أبٍ هو إبليس، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قَتَّالاً للناس من البدء.» (يو٨: ٤٤)

أما عن هيئة هذا العالم، فقد سخَّرها رؤساء الكهنة لخدمة أغراضهم وهم أبرياء.

هؤلاء خرجوا بمشاعلَ يفتشون عن النور الحقيقي الذي ينير كل العالم مُسلَّحين، يتستَّرون بالسلاح خلف رُعْبَتهم. وعند أول مواجهة سقطوا على الأرض، وسيوفهم في أيديهم.

ومن الآية (١٢) القادمة، التي يذكر فيها ق. يوحنا: «**الجُنْد، والقائد**، وخدام **اليهود**» (يو١٨: ١٢)، يتضح من اللغة اليونانية نوعُ وعددُ العساكِر ورُتبةُ القائد:

«**الجند**»: σπεῖρα ، ومقابلها باللاتينية menipulus، وتعني الأُورطة، وتعدادها حوالي ٢٠٠ جندي. وهي ثُلْث الفرقة المكلَّفة أصلاً بحراسة الهيكل، ومقرُّها قلعة أنطونيا شمال شرقي الهيكل.

«**والقائد**»: χιλίαρχος ، وهو كما يتضح من اليونانية رئيس ألف، وهي رتبة كبيرة.

أما كلمة «**خُدَّاماً**» من عند رئيس الكهنة التي جاءت في الآية (١٢) تحت «**خدام اليهود**»، فهي في اللغة اليونانية ὑπηρέται ، وترجمتها «ضُبَّاطاً» officers. وهؤلاء، بعضُهم ضباط رومانيون مكلَّفون بخدمة حراسة الهيكل، ولكنهم كانوا يأتمرون بأمر أعضاء السنهدريم لحفظ الأمن، بالنسبة لخدمة الهيكل، خاصة في أيام الأعياد(٥).

ومن هذه المجموعة المشكَّلة من كافة اختصاصات القوات الرومانية واليهودية، يتضح مقدار الرُّعْبة التي ملأت قلوب رؤساء الكهنة والفريسيين والسنهدريم من جهة خطورة القبض على المسيح، لا خوفاً من هياج الشعب، كما يدَّعون، بل بسبب الرُّعْبة من شخص الربِّ.

وقد اعتنى ق. يوحنا في تعداد أنواعها ودرجاتها وعددها ضمناً ليعطي صورة حقيقية لمشهد القبض المخيف والمرعب.

كذلك من قول المسيح في إنجيل القديس متى: «أتظنُّ أني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي، فيقدِّم لي أكثر من اثني عشر جيشاً من الملائكة، فكيف تُكمَّلُ الكتب أنه هكذا ينبغي أن يكون» (مت٢٦: ٥٣و٥٤)، نستشفُّ أن المسيح كان يهدىء من رَوْع بطرس، الذي ارتاع من كثرة الجند، وخرج من هدوئه وبدأ يضرب بالسيف.

وهذا كله لا يمكن أن يجري بهذه الضخامة والسهولة، بدون ترتيب مُسْبَقٍ مع الحكومة

---

[5] Westcott, *op. cit.*, p. 252.

الرومانية. وإذا لاحظنا مجريات الحوادث بدقة، نجد أن دورة الفحص لقضية المسيح انتهت عند قيافا بعد منتصف الليل، ثم في الحال رحّلوا المسيح إلى دار الولاية، أي مقر الحكومة الرومانية.

ويقول ق. يوحنا: «ثم جاءوا بيسوع من عند قيافا إلى دار الولاية وكان **"صُبْحٌ"**» (يو١٨: ٢٨). كلمة «صُبْحٌ» هنا، ترجمة غير معبِّرة تماماً، فهي باليونانية πρωί، وتعني «مبكراً جداً» أي early بالإنجليزية. وتكميل الكلام: «فخرج بيلاطس إليهم...» (يو١٨: ٢٩)

هذا الاهتمام من جانب بيلاطس وخروجه باكراً جداً، حوالي الساعة الخامسة صباحاً لمقابلة المشتكين، وقبوله فحص القضية في الحال أمرٌ يثير الدهشة، ويُخْفي وراءه سعاية ضخمة من رؤساء الكهنة إنْ لم تكن مؤامرةٌ مُدَبَّرة مع بيلاطس نفسه. إلى هذا الحد بلغ تدبير رؤساء الكهنة، أو بلغة العصر «التكتيك»(*)، الذي يحوطه الشكُّ في ذمة هؤلاء وهؤلاء!

ومن جهة أخرى لا تخلو من الأهمية، فهناك ما جاء في إنجيل القديس متى من جهة بيلاطس: «وإذ كان جالساً على كرسي الولاية، أرسلت إليه امرأته قائلة: **إيَّاك وذلك "البار"**، لأني تألمتُ اليوم كثيراً في حُلْمٍ من أجله» (مت٢٧: ١٩). ولكنه ضرب بتحذير امرأته عرض الحائط. ويعلِّق القديس متى على ذلك بقوله: «ولكن رؤساء الكهنة والشيوخ **حرَّضوا الجموع** على أن يطلبوا باراباس و **يُهْلِكُوا** يسوع» (مت٢٧: ٢٠). يتضح من هذا، ثِقَل الضغط الذي مارسه رؤساء الكهنة بوسائلهم على الحاكم الروماني المهزوز.

١٨: ٤ **«فخَرَجَ يَسُوعُ، وهو عالِمٌ بكلِّ ما يأتي عَليهِ، وقالَ لهم: مَنْ تطلُبُون؟»**.

لم يتركهم المسيح ليقتحموا أسوار البستان، بل خرج إليهم. لقد شعر المسيح بضرورة الملاقاة لاهوتيًا، إذ لم يكن ممكناً أن يُعطي للشرّ فرصة لمباغتة ابن الله. والعكس في اللاهوت صحيح، إذ أن عمل الله في الأساس، هو أن يباغت الشرير في عُقْرِ داره: لذا خرج للمباغتة، وهو عالم بكل ما سيأتي عليه، لأنه أراده بل لأنه نزل من السماء ليلاقيه!

كانت رؤية المسيح سبَّاقة لاكتشاف مجيئهم واقترابهم قبل أن يكتشفوا هم وجوده: «هوذا ابن

(*) "التكتيك" كلمة من أصل يوناني، وتُستخدم في وصف بعض الأفعال والوسائل التي يبلغ بها المرء أو الهيئات سريعاً إلى أهداف قريبة، حيث قد يصاحبها أحياناً، وعلى الأخص في مجال السياسة والحرب، بعض الحيل والخداع والمكر والتمويه، للوصول إلى الهدف المنشود.

الإنسان يُسَلَّمُ إلى أيدي الخطاة. قوموا لنذهب (للملاقاة)، هوذا الذي يسلِّمُني قد اقترب» (مر١٤: ٤١و٤٢). لقد تمت المقابلة داخل البستان، لأنه يبدو أن المسيح فتح لهم الباب، بدليل أن نسيب «مَلْخُس» الذي قطع بطرس أُذنه اليمنى قال لبطرس متعرِّفاً عليه: **«أما رأيتُك أنا معه في البستان؟»** (يو١٨: ٢٦)

«عالمٌ بكل ما يأتي عليه»:

هذا اصطلاح فريد، يوضح أن الآلام أتت عليه من فوق، ولم تقتحم إرادته، كان يعلمها مُسْبَقاً، بل أعدّ نفسه لها منذ ما قبل التجسد. لم يسُقْها عليه أحد مهما كان: «لم يكن لك عليَّ سلطان البتَّة، لو لم تكن قد أُعطيتَ من فوق.» (يو١٩: ١١)

«وقال لهم: من تطلبون؟»:

مبادرة، بل مباغتة غير متوقَّعة، لم يكن يخطر لهم على بال أن الرب نفسه سيلاقيهم. لقد ظنوا، على أقصى تقدير، أنه أحد التلاميذ، لم يتعرَّفوا عليه على أضواء مشاعلهم الخافتة، ولم يُسْعفهم ضوءُ القمر وهو في اكتمال استدارته، فالليلة ليلة الرابع عشر من نيسان. لقد أدرك المسيح عجزهم عن التعرُّف عليه، فتقدَّم بسؤالٍ مَنْ هو مُشْفِقٌ على جهلهم، وقد أعَدّ لهم المفاجأة، إذ نوى أن يُعْلن لهم عن "شخصه"، لا عن اسمه فحسب!

١٨: ٥ **«أجابُوهُ: يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ. قالَ لهم يَسُوعُ: "أنَا هُوَ" ἐγώ εἰμι . وكان يهوذا مُسلِّمُهُ أيضاً واقِفاً معهُم».**

اللقب فيه استهزاء، فهو الذي يدور على ألسنة غير المؤمنين به، لأنه فَرْقٌ أن يُقَالَ: «يسوع الناصري» τὸν Ναζωραῖον ، وأن يُقَالَ «يسوع الذي من الناصرة» τὸν ἀπὸ Ναζαρέτ كما جاء في التعريف الإنجيلي به (يو١: ٤٥).

«أنا هو»: ἐγώ εἰμι

بحسب الفهم البسيط، فإن المسيح هنا يعلن عن نفسه باعتباره أنه هو الذي يطلبونه، يسوعُ الناصريُّ. ولكن كان مصاحباً لهذا النطق، استعلانٌ فائقٌ لشخصه، أراده المسيح إرادة، لكي يستخدمه كمساومة لفكِّ الطوق عن التلاميذ الحاضرين!

أما يهوذا، فوقف مشدوهاً، والقُبْلَة ميتة على فمه، فقد ألغى المسيحُ تدبيره، وأفْقَدَه قيمة المبادرة التي قام بها، إذ أعلن المسيح عن نفسه بل عن شخصه الإلهي.

١٨: ٦ «فلمَّا قَالَ لهُمْ إنِّي أنا هُوَ ἐγώ εἰμι ، رَجَعُوا إلى الوَرَاءِ ، وسَقَطُوا على الأرْضِ».

واضح هنا أيما وضوح، أن المسيح رفع الحجاب عن شخصه، فظهر بمجده إلى لحظةٍ، فكان ذلك أشدّ مباغتة، تدافعوا على الأثر إلى الوراء: القائد والجند وفرقة الحرس، وسقطوا على الأرض، وسيوفهم وعِصيُّهم ومصابيحهم ومشاعلهم بأيديهم أمام المسيح، وهو واقف بقامته في جلالٍ مَهيب. كان هذا هو صورة مصغَّرة لقول الكتاب: «عندما يأتي العدوُّ كنهرٍ، فنفخةُ الربّ تَدْفعهُ» (إش٥٩: ١٩). وكانت هذه من المرات القليلة جداً التي استخدم المسيح فيها سلطانه، وهدفه الوحيد في ذلك لا أن ينجو من أيديهم بل يُنجّي تلاميذه، في سبيل أن يتمم لهم مسعاهم، و يُسلِّم نفسه لهم بحرية إرادته: «فلما رأيته، سقطت عند رجليه كميت، فوضع يده اليمنى عليَّ قائلاً لي: لا تَخَفْ، أنا هو الأول والآخر.» (رؤ١: ١٧)

الآن علم القائد وأعضاء فرقته والحرس مَنْ هو الذي يطلبون القبض عليه، والآن أصبح من السهل على المسيح أن يطلب، وكأنه على مستوى الأمر، أن يُطْلَقَ سراح تلاميذه.

١٨: ٧ «فسألَهم أيضاً: مَنْ تطلبُون؟ فقالوا: يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ».

محاولة من المسيح لتلطيف الجو، وإعطائهم فرصة لاسترجاع وعيهم وشجاعتهم. وكأن تكرار السؤال بمثابة تذكيرهم بواجبهم المكلَّفين بتتميمه. ولكن بعد سقوطهم أمامه، عرفوا تماماً كيف يلتزمون حدود القبض، وفي الحدود الواجبة، بل ويصغون تماماً لما يقول.

١٨: ٨ «أجابَ يسوعُ: قد قُلتُ لكم إني أنا هو، فإنْ كنتُم تطلُبُونَني، فَدَعُوا هؤلاءِ يَذهَبُونَ».

«استيقظ يا سيفُ على راعيَّ، وعلى رَجُلِ رِفْقَتي، يقول ربُّ الجنود. اِضربِ الراعيَ، فتتشتَّت الغنم، وأردُّ يدي على الصغار.» (زك١٣: ٧)

الآن يُملي المسيح شروطه، لم يتوسل المسيح، بل كان يأمر، وذلك من موقع التفوُّق على القائد والجند، ولم يكن أمامهم إلاَّ قبول الشرط.

الذين يُشْترون بالمال، كانوا في المقدمة. وهَمَّ واحدٌ منهم بشيء من الخشونة، وألقى يده على المسيح؛ فأثار هذا المنظر بطرس، فعَمِل ما عمل. وربما لم يلحظ ذلك القائدُ ولا الجندُ، لأنهم كانوا على بُعْدٍ.

والذي أنقذ بطرس من القبض عليه، هو سرعة تحرُّك الرب، بأن مدَّ يده وشفى أُذُنَ ذلك العبد، كما جاء في رواية القديس لوقا: «وضرب واحد منهم عبد رئيس الكهنة، فقطع أذنه اليمنى، فأجاب يسوع وقال: دعوا إلى هذا، ولمس أُذُنَه، وأبرأها.» (لو٢٢: ٥١ــ٥٣)

«مَلْخُس»: Μάλχος

وهو اسم العبد، ويبدو أنه اسم عربي لأن أصل الاسم بعد حذف الأداة « ος » يكون «مَلِك» وهو أصل الكلمة، بحسب تحقيق علماء اللغة.

١٨ : ١١ «فقال يسوعُ لبطرسَ: اجعلْ سيفَكَ في الغِمْدِ. الكأسُ التي أعطاني الآبُ ألا أشربُها؟».

«السيف والكأس»!!

لقد وضع المسيح، بهذه الآية، المعيار الأعلى، أو المُعلَّى، للإيمان المسيحي.

فالمسيحي لا يمد يده بالسيف إزاء الخطر، بل يتقبَّل كأس الموت طواعية!

فالدفاع عن النفس، عمل غير مشروع على حَمَلَةِ الصليب! فالذي يحمل الصليب، لا يحمل الخنجر. ولماذا السيف، والموت ربح؟ «لأن لي الحياة هي المسيح، **والموت هو ربح**» (في١: ٢١). لقد صلَّى المسيح في جثسيماني، منذ لحظات، بحسب البشرية التي فيه: «**أَجِزْ عني هذه الكأس**» (مر١٤: ٣٦أ). ثم عاد المسيح، بعد أن أكمل الصلاة وسلَّم الإرادة ليد الآب: «**ولكن، ليَكُنْ، لا ما أريد أنا، بل ما تريدُ أنتَ**» (مر١٤: ٣٦ب)؛ وبهذا جعل الكأس، إذا تحتم بكل ما يحمله من خطر، «**عطية**» مباشرة من يد الآب: «الكأس التي **أعطاني** الآب ألا أشربها؟» (يو١٨: ١١)

بطرس أراد أن يحمي المسيح بسيفه ليعطِّله عن الصليب!! فكرَّر غلطته الكبرى التي نال عليها توبيخاً مُرًّا! «حاشاك يا رب، لا يكون لك هذا، فالتفت وقال لبطرس: اذهب عني يا شيطان، أنت مَعْثَرَةٌ لي، لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس.» (مت١٦: ٢٢و٢٣)

الذين يُشترون بالمال، كانوا في المقدمة. وهَمّ واحدٌ منهم بشيء من الخشونة، وألقى يده على المسيح؛ فأثار هذا المنظر بطرس، فعَمِل ما عمل. وربما لم يلحظ ذلك القائدُ ولا الجندُ، لأنهم كانوا على بُعْدٍ.

والذي أنقذ بطرس من القبض عليه، هو سرعة تحرُّك الرب، بأن مدَّ يده وشفى أُذُنَ ذلك العبد، كما جاء في رواية القديس لوقا: «وضرب واحد منهم عبد رئيس الكهنة، فقطع أُذنه اليمنى، فأجاب يسوع وقال: دعوا إلى هذا، ولمس أُذُنه، وأبرأها.» (لو٢٢: ٥١ــ٥٣)

«مَلْخُس»: Μάλχος

وهو اسم العبد، و يبدو أنه اسم عربي لأن أصل الاسم بعد حذف الأداة « ος » يكون «مَلِك» وهو أصل الكلمة، بحسب تحقيق علماء اللغة.

١١:١٨ **«فقال يسوعُ لبطرسَ: اجعلْ سيفَكَ في الغِمْدِ. الكأسُ التي أعطاني الآبُ ألا أشربُها؟».**

«السيف والكأس»!!

لقد وضع المسيح، بهذه الآية، المعيار الأعلى، أو المُعلَّى، للإيمان المسيحي.

فالمسيحي لا يمد يده بالسيف إزاء الخطر، بل يتقبَّل كأس الموت طواعية!

فالدفاع عن النفس، عمل غير مشروع على حَمَلَةِ الصليب! فالذي يحمل الصليب، لا يحمل الخنجر. ولماذا السيف، والموت ربح؟ «لأن لي الحياة هي المسيح، **والموت هو ربح**» (في١: ٢١). لقد صلَّى المسيح في جثسيماني، منذ لحظات، بحسب البشرية التي فيه: «**أجِزْ عني هذه الكأس**» (مر١٤: ٣٦أ). ثم عاد المسيح، بعد أن أكمل الصلاة وسلَّم الإرادة ليد الآب: «**ولكن، ليَكُنْ، لا ما أريد أنا، بل ما تريدُ أنتَ**» (مر١٤: ٣٦ب)؛ و بهذا جعل الكأس، إذا تحتم بكل ما يحمله من خطر، «**عطية**» مباشرة من يد الآب: «الكأس التي **أعطاني** الآب ألا أشربها؟» (يو١٨: ١١)

بطرس أراد أن يحمي المسيح بسيفه ليعطِّله عن الصليب!! فكرَّر غلطته الكبرى التي نال عليها توبيخاً مُرًّا! «حاشاك يا رب، لا يكون لك هذا، فالتفت وقال لبطرس: اذهب عني يا شيطان، أنت مَعْثَرَةٌ لي، لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس.» (مت١٦: ٢٢و٢٣)

ثانياً ــ المحاكمة المزدوجة

أ ــ المحاكمة الأُولى أمام المحكمة الكنسية (١٨: ١٢ــ٢٧).
ب ــ المحاكمة الثانية أمام المحكمة المدنية (١٨: ٢٨ــ١٩: ١٦).

مقدمة:

أ ــ المحاكمة الأُولى: أمام المحكمة الكنسية: (١٨: ١٢ــ٢٧).

لقد انفرد ق. يوحنا في إنجيله بسرد وقائع المحاكمة الكنسية. ومن لغة الرواية يُستدَلُّ أنه كان حاضراً وشاهد عيان: «وكان سمعان بطرس والتلميذ الآخر يتبعان يسوع. وكان ذلك التلميذ معروفاً عند رئيس الكهنة، فدخل مع يسوع إلى دار رئيس الكهنة» (يو١٨: ١٥). «فسأل رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه وعن تعليمه.» (يو١٨: ١٩)

وقبل أن نخوض في خطوات المحاكمة الكنسية، وجدنا من المفيد أن نُطْلِعَ القارىء على القوانين اليهودية الكنسية التي جمعها العالم وستكوت[6]، والتي كان معمولاً بها في ذلك العهد تقريباً، من واقع كتب المِشْناه. علماً بأنه من العسير تحديد زمان كتابة هذه القوانين التي جاءت تحت رأس عنوان «السنهدريم». ومن هذه القوانين نستشف، إلى حد ما، كيف اتفق بعضها مع الإجراءات التي اتُّخِذَتْ في محاكمة المسيح، وكيف ابتعدوا جداً في كثير منها عن أصالة التقليد:

١ ــ القضايا الخاصة والمخالفات الرئيسية، يصير الحكم فيها بواسطة مجمع من ثلاثة وعشرين عضواً: (الفصل الأول مقطع ٤).

٢ ــ القضايا الخاصة بمحاكم إدعاء النُّبوَّة ــ أي النُّبوَّة الكاذبة ــ يصير الحكم فيها على وجه الخصوص بحضور المجمع الكبير للسنهدريم، أو واحد وسبعين عضواً: (الفصل الأول مقطع ٥).

٣ ــ بخصوص الشهود، يلزم أن يُفحصوا بدقة، وعلى انفراد، في جميع الأحوال. على أن اتفاق اثنين منهم يُعتبر كافياً وصحيحاً: (فصل ٣ مقطع٦؛ فصل ٥ مقاطع ١ وما بعده).

٤ ــ في القضايا الرئيسية، يُختبر الشهود اختباراً خاصاً من جهة دوافعهم التي أتت بهم

[6] Westcott, *op. cit.*, pp. 262-263.

للشهادة، ويُحذَّروا من جهة خطورة هلاك النفس: (الفصل ٤ مقطع ٥)، على أن لا تُقبَلُ شهادة عن طريق السماع المنقول.

٥ ــ يجلس القضاة على شكل نصف دائرة، على أن يجلس الرئيس في الوسط، حتى يواجه الكلُّ بعضهم وجهاً لوجه: (فصل ٤ مقطع ٣).

٦ ــ في القضايا الرئيسية، يُرتَّب كل شيء، حتى يُعطى للمتهم حقُّ الاستفادة من جنوح القضية نحو الشك! وحينئذ تؤخذ أصوات المُبرِّئين أولاً: (فصل ٤ مقطع ١).

٧ ــ في القضايا المدنية، يمكن أن تستمر المحاكمة ويُفرغ منها في الليل. على أن التقرير يمكن أن يخرج في نفس يوم فحص القضية.

٨ ــ في القضايا الرئيسية، تصير المحاكمة فقط بالنهار؛ بينما الحكم بالبراءة يمكن أن يُنْطَق به في يوم القضية نفسه، لكن النُّطْق بالاتهام والإدانة لا يُنْطَقُ به إلا في اليوم الثاني للقضية. على أن مثل هذه القضايا لا يجوز فحصها مساء السبت ولا في عيدٍ: (الفصل ٤ المقطع ١؛ الفصل الخامس مقطع ٥).

٩ ــ في حالة الاتهام، يلزم أن يُمنح المتهم أربع أو خمس مرات حسب مقتضيات الحاجة، ليأتي بحُجَجٍ والتماساتٍ جديدة: (فصل ٦ مقطع ١)

١٠ ــ في ختام الاتهام والإدانة، يُستَحَثُّ المتهم أن «**يعترف**»، حتى لا يهلك فيما بعد: (فصل ٦ مقطع ٢).

١١ ــ يتقدم المُدَان منادٍ، ويقول بصوت عالٍ: إن فلان الفلاني ابن فلان الفلاني ذاهبٌ للرجْم بسبب كذا وكذا من السيئات. والشهود عليه هم فلان وفلان، وكلُّ مَنْ يستطيع أن يدلي ببيانات تثبت براءته فليتقدمْ، ويُعطي الأسباب: (فصل ٦ مقطع ١).

١٢ ــ في قضايا التجديف يُفحص الشهود فحصاً شديداً فيما يخص اللغة التي استخدمها المتهم، فإذا ثبتت صحة شهادة الشهود ثبوتاً قاطعاً يقف القضاة ويشقُّون ثوبهم: (فصل ٧ مقطع ٥).

١٣ ــ المجدِّف يُرْجَمُ. (فصل ٧ مقطع ٤)

١٤ ــ بعد رجم المجدِّف، يُعلَّق على المشنقة: (فصل ٦ مقطع ٤)، ويُنزَل عنها في المساء، ليدفن في مقبرة عامة، تُعَدُّ خصيصاً لهذا الغرض: (فصل ٦ مقطع ٥).

ب ــ المحاكمة الثانية أمام المحكمة المدنية: (١٨: ٢٨ــ١٩: ١٦).
«رئيس هذا العالم يأتي، وليس له فيَّ شيء.» (يو١٤: ٣٠)

لقد أثبتت كل التحقيقات التي قام بها بيلاطس، سواء مع اليهود أو مع المسيح أنه لا توجد علَّةٌ واحدة توجب الحكم عليه. لقد اعتنى ق. يوحنا أن يسجل ما كرره بيلاطس علناً، لثلاث مرات، كَوْنَ المسيح بريئاً تماماً:

١ ــ **«أنا لست أجد فيه علة واحدة.»** (يو١٨: ٣٨)
٢ ــ **«إني لست أجد فيه علة واحدة.»** (يو١٩: ٤)
٣ ــ **«خذوه أنتم واصلبوه لأني لست أجد فيه علة.»** (يو١٩: ٦)

بل إن نية القاضي استطاع أن يكشفها ق. يوحنا بوضوح، أنها اتجهت منذ أول المحاكمة وحتى نهايتها ناحية التبرئة والإطلاق: **«من هذا الوقت، كان بيلاطس يطلب أن يطلقه.»** (يو١٩: ١٢)

لقد اختلى بيلاطس بيسوع مرتين:

الاختلاء الأول: يستفسر عن لقب «ملك اليهود»، وانتهى الحديث الأول عند تصريح المسيح: **«لهذا قد وُلدتُ أنا ... لأشهدَ للحق»** (يو١٨: ٣٧)، فوقف بيلاطس عند كلمة «الحق»، وارتعب، وخرج ليعلن تقريره الأول: **«أنا لستُ أجدُ فيه عِلَّةً واحدة.»** (يو١٨: ٣٨)

الاختلاء الثاني: عندما سمع بيلاطس من اليهود أن **«المسيح ابن الله»**، **«ازداد خوفاً، فدخل أيضاً إلى دار الولاية وقال ليسوع: من أين أنت؟؟»** (يو١٩: ٨و٩). وانتهى الحديث بتصحيح مفهوم بيلاطس، أن له سلطاناً ليصلب أو يُطْلِق المسيح، ولكن السلطان إنما يأتيه من فوق، أما هو فليس له على المسيح سلطان البتة!! **«من هذا الوقت كان بيلاطس يطلب أن يُطْلِقه»** (يو١٩: ١٢)، لا لشيء إلاَّ لأنه لا بد وأنه اقتنع بما قاله المسيح مباشرة.

واضح أن المحاكمة أمام بيلاطس انتهت بوقوف المسيح في المستوى الأعلى، وقوف الواثق من قضيته، في الوقت الذي ملأ الخوف قلب القاضي.

أما وثوق المسيح، فلأنه كان قد قَبِلَ حُكْمَ القضية من فوق قبل أن يُنطق بها، بل قبل أن يولد: «لهذا قد أتيتُ إلى العالم» (يو١٨: ٣٧)، «الكأس التي أعطاني الآب ...» (يو١٨: ١١)، «لم يكن لك عليَّ سلطان البتة، لو لم تكن قد أُعطيت من فوق» (يو١٩: ١١). أما ازدياد خوف

بيلاطس، فلأنه سيحكم على بريء، وليس فيه علة واحدة. ولكنه، للأسف، حَكَمَ تحت تأثير تهديد اليهود: «إن أطلقتَ هذا، فلستَ مُحِباً لقيصر. كلُّ مَنْ يجعل نفسه ملكاً، **يقاوم قيصر**» (يو١٩ : ١٢)، «فلما سَمِعَ بيلاطس **هذا القول**، أخرج يسوعَ وجَلَسَ على كرسي الولاية ... فحينئذ أسْلَمَهُ إليهم لِيُصْلَبَ.» (يو١٩ : ١٣و١٦)

من كل هذا، نفهم من صميم التقرير الذي يقدمه ق. يوحنا بذكاء ومهارة قانونية، وكشاهدِ عيان، أن الحكم الروماني المدني في قضية المسيح كان قائماً على غير أساس، بحسب ما تنصُّ عليه أصول القوانين الجنائية الرومانية، فقد نطق القاضي ثلاثاً أن المتهم ليس فيه عِلَّة واحدة، وأنه بحسب الضمير كان عاملاً لإطلاقه؛ وأن الحكم صدر، فقط وفي آخر لحظة، تحت التهديد، والقاضي في حالة: «**ازداد خوفاً**» من جهة المتهم. أما من جهة القاضي نفسه، فقد نجّى نفسه بأن أصدر حُكْمَ الإدانة، وهو غير مقتنع؛ وكان في حالة فقدان إرادة الحياد المطلق الذي ينص عليه القانون الروماني.

اليهود فقدوا مَلِكَهُم والمسيَّا والله:

الذي خسر القضية هم اليهود فقط: «قال لهم بيلاطس: **أأصْلِبُ مَلِكَكُم؟ أجاب رؤساء الكهنة: ليس لنا مَلِكٌ إلاَّ قيصر!**» (يو١٩ : ١٥). وهكذا، وفي سبيل حقدهم على المسيح وتحرُّق قلوبهم بشهوة قتله، فرَّطوا في الله الذي اعتبروه منذ الدهر أنه ملك إسرائيل، بل والله الذي كان يعتبر نفسه فعلاً ملك إسرائيل، خسروه بالإعلان العلني الذي نطقوه أمام الأمم، والذي يشبه سَبْق حَنَثِهم في الله ملكهم سابقاً:

«فاجتمع كل شيوخ إسرائيل، وجاءوا إلى صموئيل إلى الرامة، وقالوا له ... **فالآن اجعل لنا ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب** ... فقال الرب لصموئيل: اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك، **لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياي رفضوا، حتى لا أملك عليهم.**» (١صم٨ : ٥ — ٧)

وحتى قول بيلاطس: «**أأصْلِبُ مَلِكَكُم**»، فلم يكن عن غير وعي بل: «**لأنه عرف أن رؤساء الكهنة كانوا قد أسْلَمُوه حسداً.**» (مر١٥ : ١٠)

الشرح:

أ ــ المحاكمة الأولى: أمام المحكمة الكنسية: (١٨: ١٢ــ٢٧).

١٨: ١٢ «ثم إن الجُنْد والقائد وخُدَّامَ اليهودِ، قبضوا على يسوع، وأوثَقُوه».

«إلهي إلهي لماذا تركتني ... لا تَتَباعَدْ عني لأن الضيق قريب ... أحاطت بي ثيران كثيرة ... فغروا عليَّ أفواههم، كأسد مفترس مزمجر ... لأنه قد أحاطت بي كلابٌ، جماعة من الأشرار اكتنفتني ... أنْقِذْ من السيف نفسي» (المزمور الثاني والعشرون).

«فيا ربَّ الجنود، القاضي العَدْلَ! فاحص الكُلَى والقَلْب، دَعْني أرى انتقامَكَ منهم، لأني لك كشفتُ دعواي. لذلك، هكذا قال الرب، عن أهل عناثوث، الذين يطلبون نفسك، قائلين: لا تتنبأ باسم الرب فلا تموت بيدنا ...، هأنذا أعاقبهم. يموت الشبان بالسيف، ويموت بنوهم و بناتهم بالجوع، ولا تكون لهم بقية، لأني أجلبُ شراً على أهل عناثوث، سنة عقابهم.» (إر١١: ٢٠ــ٢٣)

«الجند»:

أورطة σπεῖρα وعددها حوالي ٢٠٠ عسكري، والقائد χιλίαρχος رئيس ألف، وخدَّامُ اليهود ὑπηρέται الضباط المكلفون بخدمة الهيكل والرؤساء (اليهود).

يُلاحَظ في إعادة ذِكْرِ هذه الأسماء المخصَّصة لتشكيل الجند، أن ق. يوحنا يضعُها في بداية الجملة، بنوع من الضغط والتركيز للأهمية.

«وأوْثَقُوه»:

كان يطيب لجميع الآباء القديسين الأوائل الذين شرحوا هذا الإنجيل، أن يقفوا عند هذه الكلمة كثيراً و يتذكروا معها كيف أمسك إبراهيم ابنه إسحقَ وأوْثَقَه: «فلما أتيا إلى الموضع الذي قال له الله، بنى هناك إبراهيم المذبح، ورتَّب الحطب **وربَطَ (أوْثَقَ) إسحقَ ابنه**، ووضعه على المذبح فوق الحطب.» (تك٢٢: ٩)

والملاحظ، سواء في موضوع رَبْطِ إسحق أو المسيح، أن الاثنين يشتركان معاً في عدم المقاومة، بل كانا في صورة خضوعية مذهلة. ولكن ما كان لإسحق أن يقاوم وهو تحت يد أبيه، إذ لم يكن

معقولاً قط أن يُبْدِي أية مقاومة، وهو واثق من شدة رحمة أبيه الذي يحبه حباً كنفسه. ويتسحب الأمر نفسه على المسيح، وهو في الظاهر واقعٌ بين أيدي جماعة أشرار هربت الرحمة من قلوبهم، وتحرَّقت أسنانهم لافتراسه بسيوفٍ وعِصيٍّ، لكنه وقف موقف إسحق عينه، إذ كان في الحقيقة واثقاً أنه تحت يدي أبيه السماوي الذي أحبه كوحيد له: «الكأسُ التي أعطاني الآب، ألا أشربها؟» (يو١٨: ١١)

وهكذا لما لم يجد القائد والجندُ والخدّام أية مقاومة، مَدُّوا أيديهم عليه وأوثقوه،
هذا الذي أعطى للإنسان أن يربط ما في السماء ويحلّه، ربطوه بحبل!!،
هذا الذي كسّر مصاريع النحاس وقطّع حديد الهاوية وفكَّ أسرى الجحيم، ربطوه بحبال!...
اليدُ التي ضمّدت جراحهم، ولمس حنانُها قلوبَهم، وشفت مرضاهم، وأقامت موتاهم، ربطوها بحبال!...
هذا الذي فكَّ قيودَ خطاياهم، وحلَّ رباط الشيطان عنهم، وأطلقهم أحراراً، قبضوا هم عليه وأوثقوه!

لقد صدق موسى حينما خاطبهم بالقول: «ألربَّ تكافئون بهذا، يا شعباً غبيًّا غيرَ حكيمٍ، أليس هو أباك ومُقْتنيك، هو عملك وأنشأك.» (تث٣٢: ٦)

لسنا ندري لماذا أوثقوه، وهو الذي قدّم نفسه طواعية، ولكن ليتم القول الذي قيل في هذا المقام: «أَوْثِقُوا الذبيحة برُبُطٍ إلى قرون المذبح.» (مز١١٨: ٢٧)

ملابسات محاكمة المسيح

توجد بعض أركان خاصة جاءت في المحاكمة ذات مدلولات هامة، يفيدنا كثيراً لو جمعناها وتتبّعناها في أصولها وأسبابها ومعانيها، ودرسنا معاً إلى أي حدٌّ، يمكن أن تهدِمَ الأساس الذي قامت عليه هذه القضية.

١ ــ واضح، بَدْءَ كلَّ ذي بدءٍ، أن قضيَّة المسيح لا ترتكز على أصول جنائية، أو حتى مخالفاتٍ يمكن أن تعطي لها الشكل القضائي، والذي بمقتضاه تُحتسب قضية صحيحة، وذلك من واقع سَبْقِ تحدي المسيح للجهات القضائية بقوله: «**مَنْ مِنكم يبكّتُني على خطية. فإن كنتُ** أقول الحقَّ، فلماذا لستم تؤمنون بي؟» (يو٨: ٤٦). وهم لم يستطيعوا بالفعل أن يقيموا عليه أية

حجّة. كذلك، ومن واقع تحدّيه لرئيس الكهنة عند أول استجواب له: «فسأل رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه وعن تعليمه. أجابه يسوع: **أنا كلّمتُ العالم علانية. أنا علّمتُ كل حين في المجمع وفي الهيكل** (أي تحت نظركم وسَمَعِكُمْ، وكنتم تشتركون في الأسئلة، وتستمعون إلى الأجوبة)، **حيث يجتمع اليهود دائماً. وفي الخفاء، لم أتكلم بشيء. لماذا تسألني أنا؟ اسأل الذين قد سمعوا ماذا كلّمتُهم. هوذا هؤلاء يعرفون ماذا قلتُ أنا؟**» (يو١٨: ١٩–٢١). ولم يستطع رئيس الكهنة أن يردَّ، أو يستطرد في الأسئلة.

ولكن هناك سؤال نقدمه نحن إلى قيافا: ألا تعلم حقيقة كل ما قاله المسيح وعلّم به؟ ثم ألا تعرف حقاً تلاميذه جميعاً وبالأخص يوحنا؟ وإلاَّ لماذا استحلفتهُ بالله الحي أن لا يعلّق أنفسكم ويقول صراحة هل هو المسيح ابن الله؟ أليس لأن تعاليمه أذهلتْ عقولَكُم، وصغّرت نفوسكم، وبكّتت ضمائركم؟

٢ ــ هذه القضية مُسْتَوْجِبةُ السقوطِ قانونياً من واقع ضرورة «**ردِّ القاضي**»، إذ سبق له الحكمُ فيها قبل رفعها وقبل القبض على المسيح. وهذا ألمَحَ إليه ق. يوحنا، عند ذكر اسم رئيس الكهنة المكلّف بالمحاكمة هكذا: «**وكان قيافا هو الذي أشار على اليهود، أنه خيرٌ أن يموت إنسان واحد عن الشعب.**» (يو١٨: ١٤)

٣ ــ تقديم المسيح للمحاكمة أمام «**حنان**» ليبدي رأيه أو ليحكم، كان عملاً غير قانوني بالمرة. فحنان ليس رئيس كهنة، بل **كان** رئيس كهنة وعُزل منذ مدة. ولكن الأمر الوحيد الذي جعله يقوم بهذا الإجراء غير القانوني، أعلنه ق. يوحنا متهكّماً عند ذكر اسم حنان هكذا: «ثم إن الجند والقائد وخُدّام اليهود قبضوا على يسوع، وأوثقوه، ومضوا به إلى "**حنان أولاً**"، **لأنه كان حما قيافا الذي كان رئيساً للكهنة في تلك السنة.**» (يو١٨: ١٢و١٣)

وهنا في هذه الآية يوجد ثلاثة أمور يلزم الانتباه إليها:

أولاً: أنه لم يذكر أن حنان رئيس كهنة، فكيف يُقدَّم إليه وبأي صفة يحاكمه؟

ثانياً: يقول ق. يوحنا ويشدّد: «ومضوا به إلى حنان **أولاً**». هنا كلمة «**أولاً**» لا يمكن أن تغيب عن ذهن الرجل القانوني، فهي تهكّمية إلى أقصى حد. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن ق. يوحنا يعقّب على الثلاثة الأناجيل الأخرى أنها لم تذكر محاكمة المسيح أمام «حنان»، بل ذكرت مباشرة أنها كانت أمام قيافا. فالقديس يوحنا يقرر هنا حقيقة لم ترد في باقي الأناجيل، يعلمها هو تمام العلم، لأنه كان حاضراً تلك المحاكمة الباطلة!

ثالثاً: يعود ق. يوحنا ويشرح السبب الذي دعا إلى تقديم المسيح إلى **«حنان أولاً»**، وهو أنه **«كان حما قيافا»**(٧). وهذا هو المؤهل الوحيد والباطل الذي أعطاه هذا الشرف أن يحاكم المسيح.

٤ ــ في كل رواية ق. يوحنا عن المحاكمة الكنسية، سواء أمام «حنان» أو أمام رئيس الكهنة قيافا، لم يورد ق. يوحنا أي إشارة إلى أي اتهام استقروا عليه، لا كأنه أغفلَ ما تم داخل قاعة المحكمة في دار رئيس الكهنة، ولكن تأكيداً منه أنهم لم يمسكوا على المسيح خطية واحدة.

فإذا رجعنا إلى الثلاثة الأناجيل الأخرى، نجد في إنجيل القديس متى كيف تعلّق قيافا بتصريح قاله المسيح وشقّ ثيابه(٨)، **إدعاءً كاذباً منه أن المسيح جدَّف على الله**، وهكذا أصدر حكمه بالإجماع أن المسيح جدَّف أمامه وأنَّ لا حاجة بعد إلى شهود. أما الذي قاله المسيح، ردًّا على إلحاح قيافا واستحلافه له هكذا: «وأما يسوع، فكان ساكتاً. فأجاب رئيس الكهنة وقال له: أستحلفُكَ بالله الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله؟ قال له يسوع: أنت قلت. وأيضاً أقول لكم: من الآن تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً على سحاب السماء. فمزَّق رئيس الكهنة حينئذٍ ثيابه قائلاً: قد جدَّف، ما حاجتنا بعد إلى شهود، ها قد سمعتم تجديفه.» (مت٢٦: ٦٣ــ٦٥)

فإذا دققنا في ردِّ المسيح، نجد أنه لم يجدِّف ولم يدَّعِ لنفسه شيئاً. بل ردَّ عليه قائلاً: **«أنت قلت»**؛ ثم أكمل كلامه بنبوة دانيال. فكيف يفسِّر قيافا ردَّ المسيح الإيجابي أنه تجديف. حتى ولو قال: نعم أنا المسيح ــ كما جاء في إنجيل القديس مرقس ــ فهل هذا تجديف؟ ولكن المسيح بأسلوبه المتواضع الرقيق غير المتهجِّم ولا المتعالي، قال: «أنت قُلت». أما باقي الكلام فهو نبوَّة دانيال التي قيلت والتي لا بد أن تتحقق، فكيف يكون هذا تجديفاً؟ **«ماذا ترون؟ فأجابوا وقالوا: إنه مستوجب الموت!»** (مت٢٦: ٦٦). إن هذا حكم افتراء لا يقوم على واقع ولا يستند إلى حقيقة.

* * *

(٧) يقول عنه العالم هنجستنبرج: «تقديم المسيح للمحاكمة أمام حنان لم يكن بناءً على أية وظيفة رسمية كان يقوم بها حنان في ذلك الوقت، بل إن قيافا كان مديناً لصهره حنان بمركزه الذي رفعه إليه كرئيس كهنة، وهو هنا يردُّ الجميل الذي ناله على يديه». Hengstenberg, *op. cit.*, p. 351.

(٨) يقول العلامة إدرزهايم اليهودي المتنصِّر، إن رئيس الكهنة إزاء التجديف يقف علناً و يشقُّ ثوبه الخارجي وثوبه الداخلي شقاً لا يمكن إصلاحه. Edersheim, *op. cit.*, Vol. II, p. 561.

كذلك نرى أن بعض الملابسات، كما جاءت في سرد رواية المحاكمة، كانت على شيء من الغموض، ويهمنا أن نوضحها للقارىء حتى تصير خطوات المحاكمة واضحة.

١ ــ يقول إنجيل يوحنا إن «الجند والقائد وخُدّام اليهود قبضوا على يسوع، وأوثقوه، **ومَضَوْا به إلى حنان أولاً،** لأنه كان حما قيافا الذي كان رئيساً للكهنة في تلك السنة.» (يو١٨: ١٢و١٣)

٢ ــ ثم يستطرد: «وكان سمعان بطرس والتلميذ الآخر يتبعان يسوع، وكان ذلك التلميذ معروفاً عند رئيس الكهنة، **فدخل مع يسوع إلى دار رئيس الكهنة.**» (يو١٨: ١٥)

هنا يلزمنا أن نوضح أن «**دار حنان**»، و«**دار رئيس الكهنة قيافا**» هي دار واحدة(*)، وكان كلٌّ منهما يباشر مهامه في مكان منفصل داخل الدار الواحدة، وكانت قاعة المحكمة مشتركة بينهما(٩). علماً بأن حنان كان صهراً لقيافا، وكان رئيساً للكهنة سابقاً.

كذلك يقول الإنجيل: «وكان حنان قد أرسله موثقاً إلى قيافا رئيس الكهنة» (يو١٨: ٢٤). وهنا أيضاً، المسيح لم ينتقل من دار رئيس الكهنة إلى مكان آخر، بل انتقل من أمام حنان إلى أمام قيافا في نفس الدار(١٠).

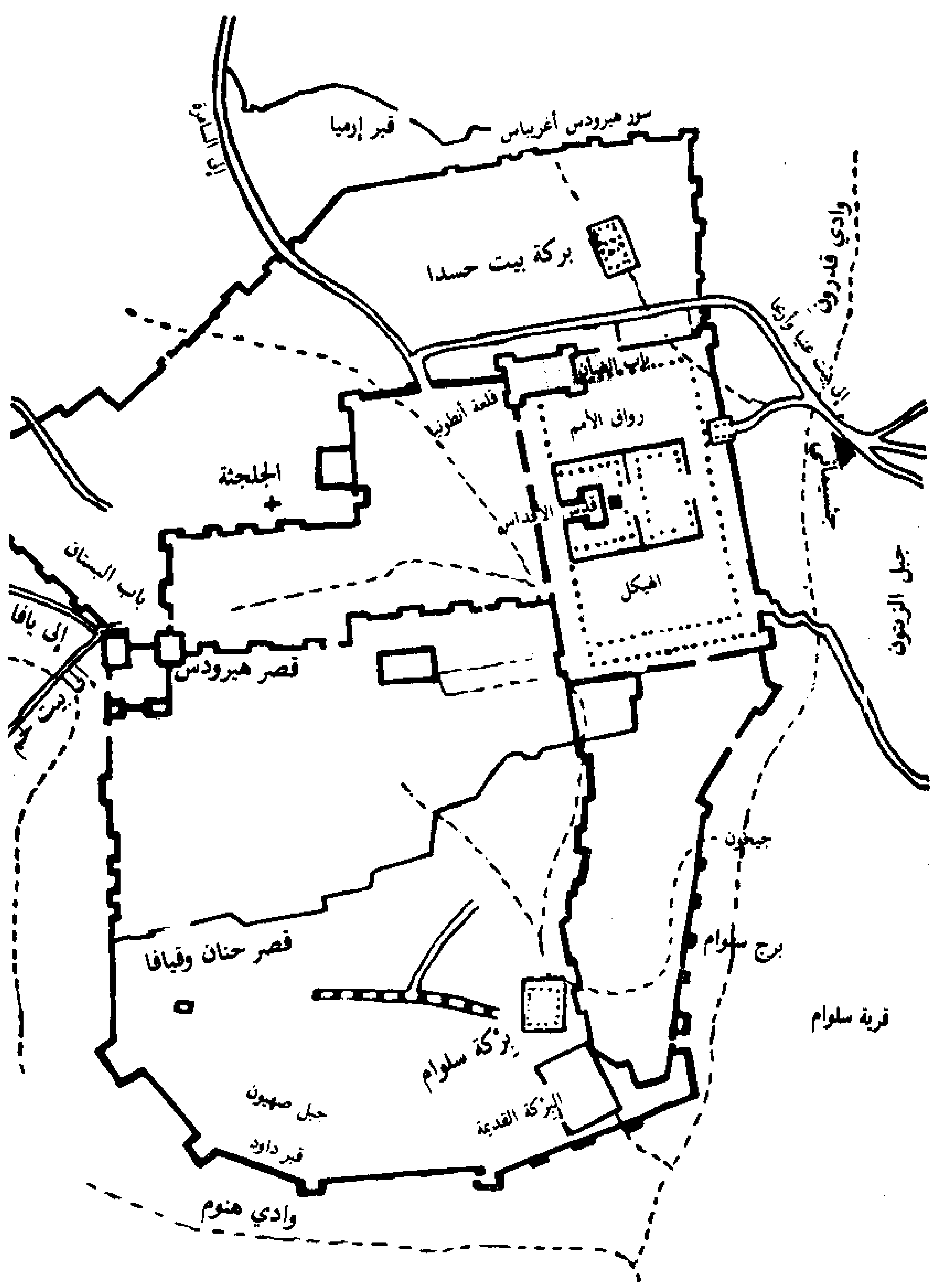
٣ ــ كذلك يقول إنجيل يوحنا: «ثم جاءوا بيسوع من عند قيافا إلى دار الولاية» (يو١٨: ٢٨). وبهذا يكون ق. يوحنا قد أغفل المحاكمة التي تمت أمام السنهدريم! وهذا ليس صحيحاً، لأن مجلس السنهدريم انعقد أيضاً في دار رئيس الكهنة حيث كان حنان أيضاً. فالمسيح لم يخرج من دار رئيس الكهنة إلاَّ إلى دار الولاية، كما ورد في إنجيل القديس مرقس: «فمضوا بيسوع إلى رئيس الكهنة فاجتمع معه جميع رؤساء الكهنة والشيوخ والكتبة (أي مجمع السنهدريم بكامل هيئته).» (مر١٤: ٥٣)

وظل هذا المجمع مجتمعاً حتى الفجر: «**وللوقت في الصباح** (الساعة الخامسة)، تشاور رؤساء الكهنة والشيوخ والكتبة والمجمع كله. فأوثقوا يسوع ومَضَوْا به وأسلموه إلى بيلاطس.» (مر١٥: ١)

(*) إلى الآن، ومن واقع الآثار، مسجّل على خريطة أورشليم موضع دار رئيس الكهنة، ومكتوب عليه: "قصر حنان وقيافا". أنظر الخريطة.

9 Hengstenberg, *op. cit.*, p. 353.

10 Ibid., p. 352.



خريطة أورشليم أيام المسيح

أما كون ق. يوحنا قد أغفل ذِكْرَ المجمع، فالسبب واضح، وهو أنه اعتبر منذ البدء أن الكلمة والحكم النهائي كانا كليهما بيد قيافا وحده، وأنه سبق وأن أصدر حكمه قبل المحاكمة!! وأن المجمع قال بقول قيافا، فلم يكن له وجود فعلي في المحاكمة.

إزاء كل هذا الخلل الواضح في مجريات المحاكمة الأُولى أمام الهيئات الكنسية اليهودية، نفهم لماذا لم يعطِ ق. يوحنا للنتائج المترتبة على هذه المحاكمة أي اهتمام، بل كان اتجاهه مصوَّباً ناحية المحاكمة الثانية المدنية أمام بيلاطس والتي وقف عندها طويلاً.

وفي الحقيقة والواقع، نرى وبكل تأكيد، أن ميعاد محاكمة المسيح أمام الهيئات الكنسية قد تأخر عن موعده كثيراً، بل تخطَّى الوقت المسموح به لرئيس الكهنة وكل مجمع سنهدريم اليهود وفرِّيسييه وحكمائه للقيام بواجبهم إزاء أُسُس ديانتهم وتقاليدهم وكل تعاليمهم التي نقضها المسيح من الأساس. فلو كانت الأمة اليهودية صاحية حقاً لواجباتها الدينية وبقيادة رؤسائها، لكانت حققت مع المسيح طويلاً وطويلاً جداً بمجرد ظهور المعمدان وشهادته للمسيح وبدء خدمة المسيح العلنية التي بدأت هكذا: «قد سمعتم أنه قيل للقدماء... وأما أنا فأقول لكم...» (مت٥: ٢١)

أما الآن، وقد مضى على كرازة المسيح ثلاث سنوات ونيف، فالوقت ليس هو وقت محاكمة المسيح، بل هو حقيقة وقت محاكمة الأمة اليهودية محاكمة عسيرة للغاية!! إذ أين كانوا هذه السنين الطوال، وتعاليم المسيح قد ملأت ربوع البلاد طولاً وعرضاً؟ وكيف يفسرون وجود مسيح الدهور كلها والفادي، هذا الذي ترَجَّتْهُ كل الأجيال بكل آبائها وأنبيائها، بينما هو في وسطهم قائمٌ، يعلِّم في المجامع والهيكل، ويشفي ويصنع المعجزات، وإلى ثلاث سنوات!!!

إن محاكمة المسيح بعد ثلاث سنوات وأكثر من ظهوره وتعاليمه هي أكبر فضيحة، بل ومهزلة، لأمانة الرسالة اليهودية التي حملها رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيون، وهم لم يكونوا عليها أمناء قط: «لا تظنوا أني أشكوكم إلى الآب، **يوجد الذي يشكوكم وهو موسى** الذي عليه رجاؤكم، لأنكم لو كنتم تصدِّقون موسى، لكنتم تصدِّقونني لأنه هو كتب عني.» (يو٥: ٤٥و٤٦)

١٨: ١٣ «وَمَضَوْا به إلى حَنَّانَ أولاً لأنه كان حَمَا قَيَافَا الذي كان رئيساً للكهنةِ في تلكَ السنةِ».

«حنان»:

وهو حنان بن شيث، حسب تسمية المؤرخ يوسيفوس. كان واحداً من أكبر الشخصيات

اليهودية. ولقد تبوأ عرش رئاسة الكهنوت من سنة ٧م. حتى السنة ١٤ــ١٥م.، حينما أسقطه فاليريوس جراتوس الحاكم السابق على بيلاطس، ومن بعده تقلد الرئاسة الكهنوتية ابنه أليعازر إلى سنة ١٦ــ١٧م، أي سنة واحدة، ومن بعده جاء يوسف قيافا نسيبه ــ الذي تزوج ابنته ــ والذي بقي في الرئاسة حتى سنة ٣٥ــ٣٦م[١١]. ومن بعد قيافا تولى الرئاسة ابن آخر لحنان، هو يوناثان سنة ٣٦ــ٣٧م، ومن بعده توالى على الرئاسة ثلاثة آخرون من أولاده، أي أولاد حنان، ثاوفيلس ٣٧ــ٤١م، متياس ٤١ــ٤٤م، وكان آخرهم حنان الصغير سنة ٦٢م (؟) الذي حمل اسم أبيه، أي كان اسمه حنان بن حنان، وهو الذي مدّ يده وقتل يعقوب أخا الرب[١٢]. والمعروف عن هذه العائلة أنها عائلة الرشوة والدسائس الدينية.

وقد وردت إشارات في التلمود، أن رؤساء الكهنة في أيام حنان وبقيادته كانت عبارة عن عصابة لها الصفة الدينية شكلاً فقط، وكانت غير وطنية، يحتكرون الزمنيات، وأغلبهم دُخَلاء، أي ليسوا من فلسطين أصلاً، وحنان يقال أنه من الإسكندرية، وقد استدعاه هيرودس ليعاونه في خططه، وكانت الحكومة تناصرهم. وكان حنان محور النشاط السياسي للسنهدريم الذي كان شِبْه معطل رسمياً (انظر فارار، «حياة المسيح»، ص ٧٢٢و٧٢٣).

وفي التلمود (كتاب سجلات وتواريخ وعلوم اليهود)[١٣]، يذكر المؤلف بلا احتياط أنه تمت اللعنة على بيت حنان وعلى سيرتهم التي أسْمَوْها «فحيح الأفعى»، ولم يكن قول المعمدان عنهم إلاَّ مِصْدَاقاً لسيرتهم: «يا أولاد الأفاعي، مَنْ أرَاكُم أن تهربوا من الغضب الآتي.» (مت٣: ٧)

وفي الواقع لم يذكر أحد من الإنجيليين هذه العلاقة التي تربط حنان بقيافا إلاَّ ق. يوحنا، وحينما يذكره هنا دون أن يذكر أنه كان رئيس كهنة، فهو ينبّه ذهن القارىء أنه يمارس الرئاسة خلسة وبالقوة الشخصية التي فرضها على نسيبه[١٤]. كما يلاحظ القارىء أن ق. يوحنا يذكر تقديم المسيح للمحاكمة أمام حنان قبل قيافا، مع أن قيافا هو رئيس الكهنة الرسمي، وذلك لكي يؤكد طغيان حنان على سلطة رئيس الكهنة من جهة، ومن جهة أخرى لكي يلمّح إلى ضعف شخصية رئيس الكهنة قيافا.

ولكن من الواضح جداً أن هذا كان هو التدبير المتَّفق عليه مع بيلاطس، لأنه من غير المعقول

[11] Josephus, *Ant.*, XVIII.2,1f.

[12] Ibid., XX.8,1.

[13] *Pesach* 57, quoted by Derenbourg, p. 232.

[14] Hengstenberg, *op. cit.*, p. 357.

أن يأمر القائد الروماني بأخذ يسوع إلى منزل حنان وهو ليس رئيس كهنة في اعتبار الحكومة الرومانية. فالأصول الواجبة هي أن يؤخذ إلى **دار الولاية أولاً**، ثم على أسوأ الفروض إلى دار رئيس الكهنة الرسمي. ولكن أن يُذهَب به **أولاً** إلى دار حنان، فهذا إجراء غير قانوني مكشوف، يكمن وراءه عوامل غير عادية، تُخِلُّ إخلالاً شديداً بحياد المحاكمة والوالي ورئيس الكهنة. وليس عبثاً أن يضع ق. يوحنا هذه الكلمة: «**أولاً**» في هذا الموضع، إلاَّ لينبِّه القارىء إلى هذا الخلل الخطير.

كما يلاحظ القارىء أن الحامية العسكرية الكبيرة العدد (٢٠٠ جندي على الأقل)، وبقيادة القائد «رئيس ألف»، انسحبت فوراً بعد تسليم المسيح لحنان (؟) هذا إجراء عسكري يُتعجَّب منه! وكأن الحامية العسكرية كانت تعمل لحساب حنان!!!

وبهذا يراجع ق. يوحنا، بأسلوبه الناقد المهذَّب، على صحة المحاكمة، كَوْنَها كانت خارجة عن العُرْفِ التقليدي وعن أصالة القانون: [فلم تكن المحاكمة أمام حنَّان إلاَّ إجراءً سياسياً](١٥). وسوف يلاحظ القارىء أنه، حتى بينما كان المسيح يقف أمام رئيس الكهنة قيافا، كان يجري ذلك (يو١٨: ١٩) في دار حنان نفسه(١٦). وهذا يتضح لنا أكثر بالرجوع إلى أيام المعمدان، حينما ظهر المعمدان في أيام **الاثنين كليهما**: «في أيام **رئيس** (واحد) الكهنة حنان وقيافا...» (لو٣: ٢)، حيث لم يكن هنا حنان رئيس كهنة بالمرة ولكنه كان يمارس الوظيفة خلسة من خلف قيافا نسيبه، وهذا واضح ومفضوح بسبب مجيء الوظيفة بالمفرد: «في أيام **رئيس** الكهنة» التي يمارسها اثنان!! والذي يتقدم هو المغتصب.

وواضح من حادثة تطهير الهيكل من جهة وقف البيع والشراء وطرد البائعين والصيارفة، أن هذا العمل كان له أكبر وأخطر الأثر على أطماع وسياسة حنان، فهو الذي كان يدير هذه الحركة التجارية كلها، وكانت الأموال تنهال عليه كالنهر. فبهذا العمل الذي أتاه المسيح، والذي نبَّه أذهان اليهود الأتقياء والغيورين بل والفريسيين الأمناء، إلى فضيحة سلوك حنان ونسيبه قيافا، هذا العمل شكَّل أساس عداوة وحقد وتربُّص في قلب حنان لا يُنْسَى. لهذا ظل يعمل بوحي هذه الحادثة، ليل نهار، حتى يقضي على المسيح بأي ثمن(١٧).

---

[15] Edersheim, *op. cit.*, p. 546.

[16] Hengstenberg, *op. cit.*, p. 546.

[17] Edersheim, *op. cit.*, p. 547.

وهذا واضح من محاولة إقامة شهود ضده بأنه قال إنه قادر أن ينقُضَ الهيكل و يبنيه في ثلاثة أيام (مر١٤: ٥٨)، في حين أن المسيح قال ذلك عن هيكل جسده وليس عن هيكل اليهود. كذلك نفس موضوع تطهير الهيكل الذي كان يفزع حنان وقيافا، كان هو موضوع الشماتة الأكثر عندهم عندما اطمأنوا إلى صلبه: «يا ناقضَ الهيكلِ و بانيَهُ...» (مر١٥: ٢٩)

وليفهم القارىء مدى خطورة فهمهم الخاطىء لقول المسيح أنه قادر أن ينقض الهيكل ـــ أي هيكل اليهود ـــ و يبني غيره في ثلاثة أيام. فهم تصوروا أنه فعلاً سيقوم بثورة، و بالتالي سيغيِّر نظام الهيكل بأجمعه ليعمل هيكلاً جديداً يتناسب مع تعاليمه الجديدة. فإذا أضفنا إلى ذلك، الأثر الذي تركته حادثة مقابلته لخُدَّام الهيكل ـــ وهم ضباط على مستوى عال من الدراية والمعرفة "officers"، والذين أرسلهم رؤساءُ الكهنة للقبض على يسوع، فلما استمعوا إليه وتأثروا بكلامه، أحبوه وآمنوا به: «فجاء الخُدَّام إلى رؤساء الكهنة والفريسيين. فقال هؤلاء لهم: لماذا لم تأتوا به؟ أجاب الخدام: **لم يتكلم قط إنسانٌ هكذا مثل هذا الإنسان.** فأجابهم الفريسيون: ألعلَّكُمْ أنتم أيضاً قد ضللتم. ألعلَّ أحداً من الرؤساء أو من الفريسيين آمن به. ولكن هذا الشعب الذي لا يفهم الناموس هو ملعون.» (يو٧: ٤٥ـــ٤٩)

ولكن قد تحققت مخاوفهم بصلبه، فقد نُقِضَ الهيكل القديم المصنوع بالأيادي، وأُقيم الهيكل الجديد غير المصنوع بالأيادي. وقُضي على هيكل اليهود، وانتهى رؤساء الكهنة من قاموس العبادة اليهودية!

ولكن المُتابِعَ لتاريخ سلوك حنَّان من جهة التربُّص للمسيح منذ ظهوره، وحتى لتلاميذه من بعده، يدرك لماذا قدَّم قيافا المسيح للمحاكمة أولاً أمام حنَّان، و بالإضافة إلى التكتيك السياسي، كَوْنَهُ يعلم مدى العداء الذي كان يُكنُّه للمسيح، فقد قدَّمه له إرضاءً لنزواته، واستطاع أن يحبك القضية منذ البداية بغش الأفعى ودهائها. وفي غالب الظن أن حنَّان هو الذي تعاهد مع يهوذا، وأرسل معه الجند والقائد والضباط. وقد لعبت الأموال دورها، فكان يُغْدِقُ على يهوذا عطفاً وأموالاً، مما شجَّعه أن يلعب هذا الدور الخاسر.

ولكن ق. يوحنا ضَرَب عرض الحائط بكل محاكمة حنان، ولم يورد منها أي نَصٍ، بحسب ما كانت تستحق في نظره.

وقد ورث ابن حنان الأصغر نفس هذا العداء والحقد، واستطاع أن ينفثه في يعقوب الرسول

المدعوّ أخا الرب، فتجرأ على قتله هو وكثيرين معه(١٨)، مجازفاً بوظيفته، بتحدّيه للسلطة الرومانية التي لم تكن تسمح أبداً بهذا التعدّي على حقوقها السياسية، فيما يخص حياة أو موت الأفراد الذين تحت حكمها، ومستغلاً أيضاً غياب الحاكم الروماني، وكان ذلك حوالي ٦٢م. ولم يرد ذكر هذه الحادثة إلاَّ في تاريخ يوسيفوس(١٩). و يعقوب هذا غير يعقوب أخي يوحنا، الذي قتله هيرودس مبكراً جداً كما جاء في سفر الأعمال (أع١٢: ١و٢).

«الذي كان رئيساً للكهنة في تلك السنة»:

كان رئيس الكهنة إذا اختير مرة، يبقى إلى نهاية حياته حاملاً الرتبة وكرامتها، حتى ولو تنحَّى عن العمل لأي سبب أو نُحِّي عنها. ولكن إذا نُحِّي عن القيام بمهام وظيفته رسمياً، فكان لا بد أن يَخْلِفَه آخر، كما في حالة حنان الذي خَلَفَهُ قيافا في إدارة الشئون الدينية للبلاد، والتكلم رسمياً باسم الأمة اليهودية، فهو الناطق بلسانها لدى الجهات الرسمية الرومانية. أما قول ق. يوحنا: «كان رئيساً للكهنة في تلك السنة»، فهو لا يعني أن رئاسة الكهنوت كانت بالمناوبة سنوياً. ولكن بلغة يوحنا الروحية، فإن «هذه السنة» تعني سنة خيبة آمال اليهود ونهاية مجدهم، و بداية تعاستهم؛ ولكنها في نفس الوقت هي «**سنة الرب المقبولة**»، أو سنة الخلاص الأبدي للعالم. فهي «سنة» وليس «كل السنين»، إذ استُعلن فيها الأول والآخر، البداية والنهاية، وهي التي عرفت في القديم بكلمة «هذا اليوم»، «وتلك الأيام»، «وآخر الزمان».

١٨: ١٤ **«وكان قَيَافَا هو الذي أشَارَ على اليهودِ، أنه خَيْرٌ أن يموتَ إنسانٌ واحدٌ عن الشعبِ».**

الإشارة هنا إلى ما ورد في إنجيل يوحنا (١١: ٤٩و٥٠): «فقال لهم واحد منهم، وهو قيافا، كان رئيساً للكهنة في تلك السنة: أنتم لستم **تعرفون** شيئاً **ولا تفكرون**، أنه خير لنا **أن يموت** إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها».

وكما سبق وقلنا، هذه لغة ق. يوحنا التي يضرب بها ذات اليمين وذات اليسار، فهو يعلن بها مُشتقاً ماذا ننتظره من الحكم الذي يصدره إنسان له هذا التفكير وهذه المعرفة وهذا المستوى من سهولة القتل بلا سبب، والغاية الكاذبة عنده تبرر الواسطة الدنيئة. ولكن أسلوب ق. يوحنا لا

---

[18] Josephus, *Antiquities*, XX.9.1, quoted by Hengstenberg, *op. cit.*, p. 352.

[19] Westcott, *op. cit.*, p. 267.

يقف عند هذا الحد، فهو يضرب بعِصِيِّ الإنجيلِ فوق رأس القضاء اليهودي العابث بالحق، والملفَّق، بغير حياءٍ. إذ كما سبق وقلنا أن هذا الإعلان القضائي المقدَّم من ق. يوحنا هو بمثابة: «ردّ المحكمة»، وإعلان لفساد ذمة القاضي، وبالتالي سقوط الدعوى والقضية، لأن القاضي قيافا سبق وأعلن مقدماً عن الحكم الذي سيُبْرِمُه والذي في سبيل إبرامه ــ حتماً ــ سيُلفِّق التهم المناسبة ويزوِّر الشهود ليبلغ قصده المبيَّت في نفسه، والذي أعلنه على مسامع مجمع السنهدريم.

ولكن لم يَفُتْ على بيلاطس أن يكتشف هذا السلوك المبيَّت، ولا هذه الأساليب السفلى، فقد أظهر من كلامه ومن مشاعره، سواء تجاه زمرة رؤساء الكهنة أو تجاه المتهم المبرَّأ، ما جعل الإنجيليين يسجلون للقاضي هذه اللفتة: «فأجابهم بيلاطس قائلاً: أتريدون أن أُطلق لكم ملك اليهود، لأنه عرف أن **رؤساء الكهنة كانوا قد أسلَموه حسداً**.» (مر١٥: ٩و١٠، مت٢٧: ١٨)

ويُلاحَظ أنه سواء في **عملية القبض**، أو في **بدء المحاكمات**، أو في **حضور الصلب**، لا نجد أيَّ ذكرٍ للفريسيين على الإطلاق. ويبدو أنهم انسحبوا من هذه العمليات وتركوا لزمرة رؤساء الكهنة (الصدوقيين) وكل مَنْ يتبعهم، القيام بهذه المهمة. ومن المعتقد أنهم كانوا غير متفقين فيما بينهم: «انظروا إنكم لا تنفعون شيئاً، هوذا العالم قد ذهب وراءه» (يو١٢: ١٩)، «وإذا رجل اسمه يوسف وكان مشيراً ورجلاً صالحاً باراً (سنهدريمي أي فرِّيسيٌّ، بحسب تحقيق كثير من العلماء) **هذا لم يكن موافقاً لرأيهم** وعملهم» (لو٢٣: ٥٠و٥١). «وجاء أيضاً نيقوديموس (فرِّيسيٌّ بحسب رواية إنجيل يوحنا ٣: ١) الذي أتى أولاً إلى يسوع ليلاً وهو حامل مزيجَ مُرٍّ وعودٍ، نحو مائة مَناً.» (يو١٩: ٣٩)

١٨: ١٥ «وكان سمعانُ بطرسُ والتلميذُ الآخرُ يتبعانِ يسوعَ. وكان ذلكَ التلميذُ مَعْرُوفاً عند رئيسِ الكهنةِ (قيافا)، فدَخَلَ مع يسوعَ إلى دارِ رئيسِ الكهنةِ».

ق. يوحنا يورد هذه المعلومة الهامة، ليوضح بها أولاً أنه كان شاهدَ عَيَانٍ لكلِّ ما سيُرويه، فهو والقديس بطرس، دون جميع التلاميذ الذين آثروا الهروب، تبعا يسوع.

ولكن عند الباب، احتُجِز بطرس لأنه لم يكن معروفاً بالوجه، أما يوحنا فدخل، لأنه بحسب تعبيره، كان معروفاً عند رئيس الكهنة؛ وهنا «قيافا» هو المقصود وليس «حنان». وبالتالي كان يوحنا معروفاً لدى الخُدَّامِ والبوابين.

هذه المعرفة الخاصة عند رئيس الكهنة هي التي جعلته يعرف العلاقة الأسريَّة بين حنان وقيافا،

وهي التي أهّلته أن يعرف عبد رئيس الكهنة بالاسم، الذي قطع بطرس أذنه بالسيف، كذلك جعلته يتعرَّف على نسيب مَلْخُس أيضاً من بين الخدام!! وهي التي أهّلته أن يدخل دار رئيس الكهنة في أخطر المواقف دون حرج، بل وهي التي أهّلته أن يأمرَ البوابة أن تسمح لبطرس بالدخول، بل هذه المعرفة الخاصة أيضاً هي التي جعلته يوضح لنا أن الجارية التي أنكر بطرسُ المسيحَ أمامها في الثلاثة الأناجيل هي البوّابة!

وعلاقة ق. يوحنا برئيس الكهنة تلقي ضوءاً كثيراً على رواية إنجيله. فهو، وإن لم يكن ذا قرابة برئيس الكهنة، فهو على الأقل يحمل المؤهلات الدينية والروحية والتقليدية التي تتناسب مع إنسان معروف لدى رئيس الكهنة، وله من الدالّة والجُرأة أن يدخل داره بلا استئذان، وأن يُدخل رفيقاً لمتهم على أعلى مستوى من العداوة والخطورة بالنسبة لرئيس الكهنة وكل عشيرته؛ بل وله من الدالة أن يأمر البوابة أن تسمح بدخول شخص آخر غريب ومشكوك في أنه أحد أتباع المتهم.

والسؤال هو كيف أن البوابة والخدم لم يتصرفا تجاه ق. يوحنا، كما تصرَّفا مع بطرس، بالرغم من علمهم الأكيد أن ق. يوحنا أحد تلاميذ المسيح؟ اللهم إلاَّ إذا كان ق. يوحنا يمتُّ بقرابة، وليس بمجرد معرفة، لرئيس الكهنة؟

ولكن، وبصورة غير مؤكَّدة، يقص لنا المؤرخ الكنسي يوسابيوس القيصري أن ق. يوحنا والقديس يعقوب البار أخا الرب كانا يلبسان أثناء الخدمة في عهدهما المسيحي تاجاً Mitre من نفس النوع الذي يلبسه رؤساء الكهنة، وعليه القلادة الذهبية πέταλον الخاصة برئيس الكهنة[20]. وهذا يكشف عن أن أسرة كل منهما كانت تمتُّ بصلة أكيدة إلى الكهنوت. ونحن لا ننسى أن ق. يوحنا كان من تلاميذ المعمدان الأوائل، ويقيناً أنه كان قبل تعرُّفه على المعمدان يلتمس النور من مصادره التقليدية، أي من الهيكل ومن علمائه. وأخيراً باع كل شيء واشترى اللؤلؤة!!

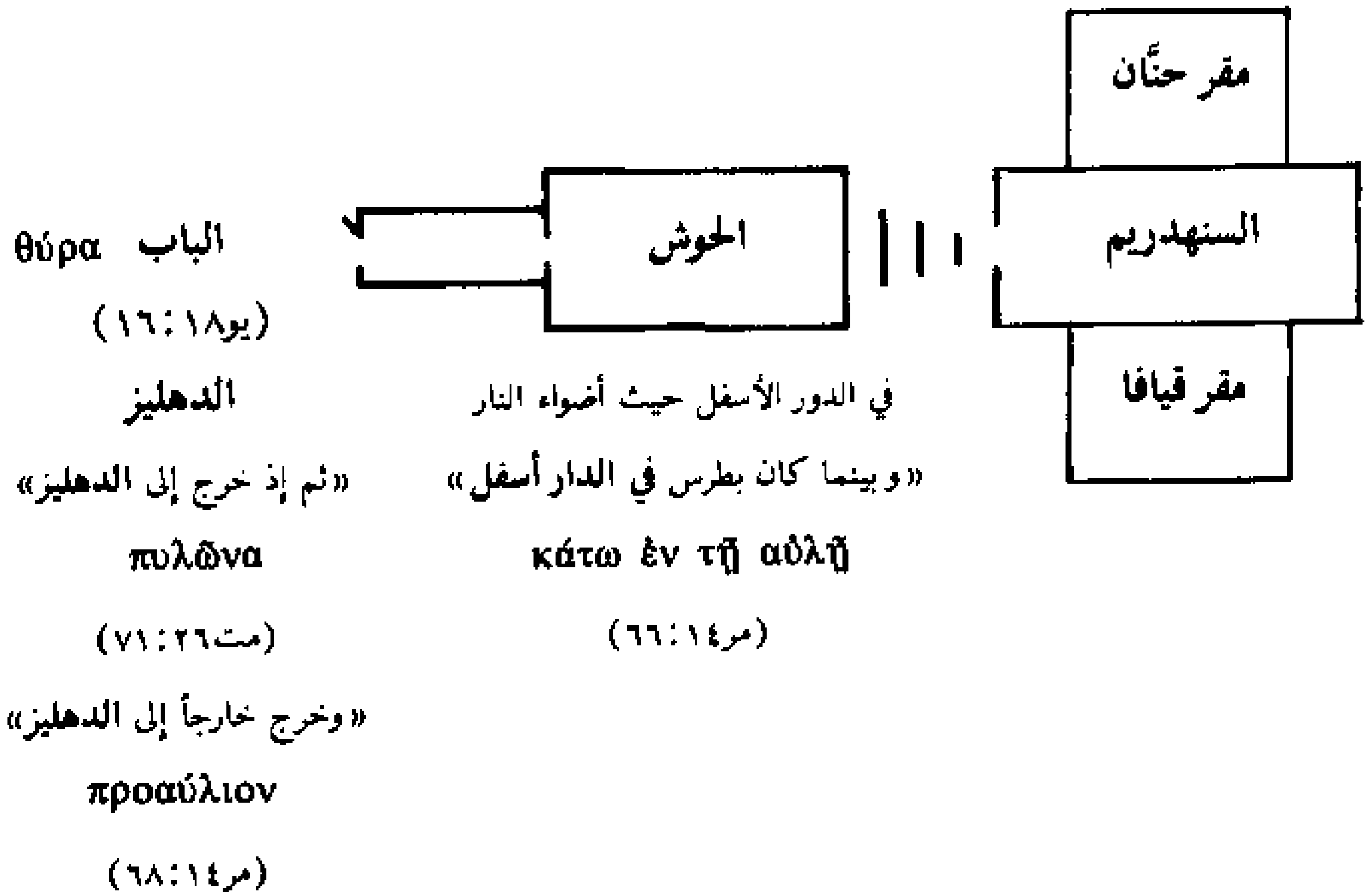
إن سيرة ق. يوحنا قبل المسيح كانت شديدة الشبه بتلك التي للقديس بولس، أما بعد المسيح فهما مؤتلفان في الروح، وفي الوعي المسيحي النادر، وفي الرؤى السماوية.

« دار رئيس الكهنة »:

بحسب تحقيقات بعض العلماء، ومنهم هنجستنبرج ووستكوت، يبدو أن قصر حنان كان

[20] Euseb., *H.E.*, V.24; Epiphan., *Adv. Haer.*, LXXVIII.14, quoted by Westcott, *op. cit.*, p. 256.

مكان اجتماع «رئاسة الكهنة»؛ خاصة وأنه توالى على رئاسة الكهنة ــ كما علمنا ــ أولادُهُ من بعده. وهذا قيافا أيضاً، وقد تزوج بنت حنان، فقد كان من الطبيعي أن يبقى مقر اجتماع رئاسة الكهنة كما هو في دار حنان حيه. وهذا يوضح لنا كيف تمت المحاكمة الأولى والمحاكمة الثانية، دون أن ينتقل المسيح خارج الدار. كما يتضح لنا بالأكثر كيف أن بطرس بقي في موضعه في الطابق السفلي، حتى أكمل إنكاره المعهود إلى ثلاث مرات، دون أن ينتقل خارج الدار.



رسم يوضح مكان المحاكمة ومقر حنان وقيافا والسنهدريم. والفَسَحةُ (الحوش) في الدور الأرضي، حيث اجتمع العبيد والخدم. ثم الدهليز، وهي الطُرْقَةُ بين الباب والحوش.

والمعروف في التاريخ اليهودي، أن السنهدريم وهو الجهة القضائية العليا المنوط بها الفحص والحكم في القضايا الكبرى التي تختص باليهود، قد توقف عن العمل أربعين سنة قبل خراب أورشليم، أي في أيام المسيح. وقد مُنِعَ من الاجتماع في الدار المخصصة بالسنهدريم المسمَّاة جازيت Gazit. كذلك فإنه بحسب التقليد اليهودي، كان لا يجوز لمجمع السنهدريم أن يحكم بالموت إلاَّ داخل داره الرسمية هذه المسمَّاة جازيت. لذلك اجتمع اجتماعاً غير قانوني في دار حنان

المتسعة، بناءً على استدعاء رؤساء الكهنة، وذلك بعد منتصف الليل للتصديق الشكلي على أحكام رؤساء الكهنة(٢١).

١٨ : ١٦ **«وأما بُطْرُسُ فكان وَاقِفاً عند البابِ خَارِجاً. فخَرَجَ التلميذُ الآخرُ الذي كان معرُوفاً عندَ رئيسِ الكهنةِ، وكلَّمَ البوابةَ، فأدخلَ بطرسَ».**

حينما استقر ق. يوحنا في الداخل، وعن قُرْب من سيده، عاد يطلب صديقه بطرس. أما بطرس فكان راضياً بوقوفه خارج الباب، لأن الإساءة التي ارتكبها في حقّ عبد رئيس الكهنة كانت تقلقه خوفاً من أن يُكتشف أمره، إضافة إلى لمسة من الرعبة سرت في أوصاله، زادها البرد وظلمة الليل، وبدأ يسأل نفسه لماذا أنا هنا؟!

وأخيراً فتحت البوابة، وظهر ق. يوحنا، ودعا بطرس للدخول في صمت. هنا يمدُّنا ق. يوحنا للمرة الثانية، وبشيء من التأكيد، بصورة صادقة واثقة عن شجاعته الهادئة الثابتة، ويكرر على مسامعنا مرة أخرى معرفة رئيس الكهنة له، ليمهّد لحديثه مكاناً واثقاً في إيماننا، كمَنْ يتكلم عن سماع ورؤيا.

بينما اتجه بطرس إلى جماعة الخَدَم والعبيد، واندسَّ بهدوء بينهم، راضياً أن يكون كأحد المتفرجين، أو على الأقل من الذين لا يعنيهم أمر «**هذا الرجل**». كان هذا قد استقر في قرارة نفسه، كقرار لم يستطع أن يخفيه، لمَّا اضطُرَّ أن يعلن عن علاقته «**بهذا الرجل**».

أ ــ «فأنكر قائلاً لست أدري ولا أفهم ما تقولين.» (مر١٤ : ٦٨)

ب ــ «فابتدأ يلعن ويحلف أني لا أعرف هذا الرجل الذي تقولون عنه.» (مر١٤ : ٧١)

لقد ارتضى بطرس أن يجلس بين الناكرين، فأنكر.

١٨ : ١٧ **«فقالَت الجاريَةُ البَوَّابَةُ لبطرسَ: أَلَسْتَ أنتَ أيضاً من تلاميذِ هذا الإنسانِ، قالَ ذاكَ لستُ أنا».**

ولج بطرس داخل الدار بشيء من الإرتباك، وكمن يريد أن يُخْفي شخصيته، ولكن البوابة تفرَّست فيه في ضوء مصباحها الخافت، وتطلعت إلى شكله وعينيه، وكانت على شيء كثير من الذكاء والفراسة، فخمَّنت، وأصابت الحقيقة. وفي تساؤل غير واثق بادرته بسرعة: «ألستَ أنت

[21] Westcott, *op. cit.*, p. 267.

أيضاً من تلاميذ هذا الإنسان؟». لم تقصد البوابة شيئاً غير وَضْعِه في موضعه، إنها مجرد بوَّابة. فقولها **«أيضاً»** يفيد أنها كانت قد تعرَّفت على ق. يوحنا أولاً أنه تلميذ **«هذا الإنسان»**. وها هي ترى ق. يوحنا يترفق بزميله، فكيف لا يكون تلميذ هذا الإنسان أيضاً؟ هنا خانت بطرس شجاعته وارتجَّ عليه الأمر، بحث فلم يجد في خزانة إيمانه حبة خردل. ولمح من بعيد صورة مَلْخُس بين العبيد الواقفين، أو تصوَّر ذلك، فأخذته الرعدة، وبسرعة أراد أن ينفي عنه كل شيء: **«لستُ أنا»**. وكأنه التقط الاستنكار من فم البوابة: «ألستَ أنتَ؟»، وحوَّله إلى جواب: «لستُ أنا». لقد سهُلت عليه الرد، كالحيَّة التي أغوت حواء.

«لستُ أنا»: οὐκ εἰμί

في لغة إنجيل يوحنا، هذا القول هو النقيض البغيض للقول المحبوب المُهاب لاسم المسيح ووجوده **«أنا هو»** I am = ἐγώ εἰμι. لقد ألغى القديس بطرس بقوله هذا οὐκ εἰμί **وجوده وكيانه،** لأنه فقدهما في الحقيقة لما أنكر تلمذته لذاك الذي يستمدُّ منه **وجوده وكيانه!!!**

أما ق. يوحنا، فتجاسر ودخل ليكون بجوار الرب، فكان كمن ارتكن إلى حصن؛ وأما القديس بطرس فاكتفى أن يكون بعيداً بين البُعَداء فزلَّ، ولكن أنْ يتبع بطرسُ المسيح ولو من بعيد، أفضل من أن يظل بعيداً ولا يتبعه!!! وكان ممكناً بعد أن تعرَّفوا على بطرس أنه كان في البستان، ولولا قليل لعَرِفوا أنه هو صاحب السيف، أن يوقعوا به أذيَّة ومَهانةً، ولكن: «ولكني طلبتُ من أجلك ...» (لو٢٢: ٣٢)، كانت صلاة المسيح من أجله حِصْناً حصيناً ومِجَنًّا وسِتْراً.

١٨:١٨ «وكانَ العبيدُ والخُدَّامُ واقِفِينَ، وهُمْ قد أضرَمُوا جَمْراً لأنه كان بَرْدٌ. وكانوا يَصْطَلُونَ، وكانَ بطرسُ واقِفاً معهم يَصْطَلِي».

لقد انسحب القائد والجند ولم يتبقَّ إلاَّ عبيدُ رؤساء الكهنة وضُبَّاط الحراسة اليهود، هؤلاء تجمعوا معاً في فَسَحَةِ الدار في الدور الأرضي، وأضرموا جمراً، أي أوقدوا فحماً وليس خشباً. ومعروف أنه في أيام الفصح في ١٤ نيسان، غالباً يكون الجو دافئاً إلاَّ في بعض السنين. لهذا يقول ق. يوحنا: «لأنه كان بردٌ»، مُعبِّراً أن ذلك كان على غير المعتاد.

أما ذِكْرُ الجَمْرِ المتَّقد وهو يتلألأ ويرسلُ وَهَجَهُ المنير هنا وهناك، فلأنه هو الذي فضح بطرس في الحقيقة. لأن الذي ينقل لنا هذا المشهد بدقة ليس ق. يوحنا بعد، لأنه دخل إلى مقر المحاكمة ولم يَعُدْ يعرف ماذا حدث كشاهدِ عيانٍ، ولكن هنا يعطينا القديس لوقا ما سمعه من شهود عيان

هكذا: «ولما أضرموا ناراً في وسط الدار وجلسوا معاً، جلس بطرس بينهم، فرأته جارية (البوابة عند ق. يوحنا) **جالساً عند النار** πρὸς τὸ φῶς (أي في مواجهة نور الجمر). فتفرَّست فيه، وقالت: وهذا كان معه» (لو٢٢: ٥٦). لقد ساعد ضوء الجمر على التعرُّف على شخصية بطرس.

و يكمِّل لنا القديس مرقس في إنجيله، على لسان القديس بطرس نفسه، حسب التقليد: «فلما رأت بطرس يستدفىء، نظرت إليه، وقالت: وأنت كُنتَ مع يسوع الناصري. فأنكر قائلاً: لست أدري ولا أفهم ما تقولين. وخرج خارجاً إلى الدهليز προαύλιον (الطُرقة الخارجية بين الفسحة الوسطى والباب)، فصاح الديك. فرأته الجارية أيضاً وابتدأت تقول للحاضرين: إن هذا منهم، فأنكر أيضاً. و بعد قليل أيضاً قال الحاضرون لبطرس: حقاً أنت منهم، لأنك جليلي أيضاً، ولُغتك تشبه لغتهم، فابتدأ يلعن ويحلف أني لا أعرف هذا الرجل الذي تقولون عنه. وصاح الديك ثانية، فتذكر بطرس القول الذي قاله له يسوع: إنك قبل أن يصيح الديك مرتين تنكرني ثلاث مرات. فلما تفكَّر به بكى.» (مر١٤: ٦٧ــ٧٢)

واضح من رواية القديس مرقس أن بطرس لم يغادر دار رئيس الكهنة، بل كان أسفل الدار يَصْطلي، والمسيح فوق يُحاكَمُ، أولاً عند حنان، ثم عند رئيس الكهنة قيافا و بالتالي السنهدريم.

١٨: ١٩ «فسألَ رئيسُ الكهنةِ يسوعَ عن تلاميذِهِ وعن تعليمِهِ».

«شهود زور يقومون، وعمَّا لم أعلم يسألونني.»
(مز٣٥: ١١)

«لو لم أكن قد جئتُ وكلَّمتهُم، لم تكن لهم خطية،
وأما الآن فليس لهم عُذْرٌ في خطيتهم.» (يو١٥: ٢٢)

الكلام هنا يتبع مباشرة الآية (١٤)، أي بعد أن أجرى حنَّان تحقيقه غير الرسمي، وهذا واضح من تعقيب ق. يوحنا في نهاية تحقيق قيافا، إذ يقول مستدركاً: «**وكان** حنان قد أرسله موثقاً إلى قيافا رئيس الكهنة.» (يو١٨: ٢٤)

قيافا رئيس الكهنة يبدأ تحقيقه الرسمي بكل دقة وترتيب حسب الأصول القضائية تماماً. نعم، **لأنه بقدر ما يكون الحكم المُعَدُّ مُسْبقاً غير عادل وغير معقول بالمرة، بقدر ما تكون إجراءات المحاكمة غاية في الدقة وحسب الأصول بكل انضباط. هذه سُنَّة المُحقِّقين المُفْسِدين،**

وفلسفة القضاة الذين لا يخشَوْن الله ولا الضمير، حينما ينوون تعويج القضاء والتدليس على الضمير، يستمعون للدفاع بكل انتباه ويناقشون المتهم بكل حرص وأدب، ويطيلون فرص الدفاع ويكررون نظر القضية في جلسات تلو جلسات دون تعب أو تململ. ثم ينطقون بالحكم الظالم الغاشم المتعسِّف بأقل كلمات وفي أدب جمٍّ، ثم يشرحون أسبابه بإسهاب وبمنطق القضاء العادل الذي يخشى الله والحق والتاريخ. هكذا حقَّقوا مع المسيح بكل اهتمام، وقتلوه بغير اكتراث.

رئيس الكهنة سأل المسيح عن «**تلاميذه**» أولاً، ثم عن «**تعليمه**». لم يكن القصد معرفة من هم تلاميذه لأنهم كانوا يعرفونهم، وق. يوحنا يقف كعيِّنة فاخرة من هذه الزُّمْرة. ولكنه كان يسأل عن مدى العلاقة التي تربطه بتلاميذه، لأن بيت القصيد في التهمة والاتهام أنه جعل نفسه «**ابن الله**»، وبالتالي فهو ــ بحسب ادعائهم هذا ــ يكون فوق السلطة الكهنوتية والراكب فوق رؤوسهم! وتلاميذه هم، والأمر كذلك، رؤساء كهنة بالدرجة الأُولى والقيِّمون على الرسالة وانتشارها والمعلِّمون المنوط بهم تعليم الشعب. هذا أمر يخص رئيس الكهنة من الاتهام. أما الإعداد لتقديم الاتهام للرومان، فلأنه «**المسيح الملك**»، فتلاميذه بالتالي يكونون هم الحُكَّام والقُوَّاد والمنوط بهم القيام بالثورة. هذا دور التلاميذ الذي يُسألُ عنه.

أما من جهة «**تعليمه**»، فقد جمع مُسْبقاً من فم المسيح ما يكفي لتغطية الحكم بالرجم، وأعطى آنئذ علامة التزكية للنطق بالحكم فيما بعد بأن «**شقَّ ملابسه**» أمام السنهدريم، حسب التقليد القضائي. وهو الآن يريد المزيد ليستوفي من فمه مسبِّبات الحكم.

ولكن المسيح فَوَّت عليه البند الأول من جهة تلاميذه، فلم يلتفت إليه أصلاً، لأن مبدأ المسيح الذي حرص عليه منذ البدء: «**أن لا يهلك منهم أحد**» (يو٦: ٣٩ و١٧: ١٢). ثم ابتدأ المسيح يهاجم فكرة التعليم السِّرِّي، التي يدور حولها قيافا، وكأنها خطة خفية عن مملكة وملكوت يعدُّه بالشِّفْرَة، ليُعلنه في الوقت المناسب لينصِّب نفسه «**مسيًّا الملك**». وهذا من واقع الاتهام الذي قدَّمه لبيلاطس، كما جاء في إنجيل لوقا: «ومنع أن تُعْطى جزية لقيصر، قائلاً، إنه هو **مسيحٌ ملكٌ**» (لو٢٣: ٢). وهذا هو الذي حدا ببيلاطس أن يسأله ــ كما جاء في إنجيل يوحنا: «ودعا يسوع وقال له: أنت **ملك اليهود**» (يو١٨: ٣٣). هنا واضح أن ق. يوحنا يكمِّل ويشرح عَرَضاً ما جاء في إنجيل لوقا.

١٨ : ٢٠ «أجابه يسوعُ أنا كلَّمتُ العالمَ علانيةً. أنا علَّمتُ كلَّ حينٍ في المَجْمَع وفي الهيكلِ، حيث يجتمعُ اليهودُ دائماً. وفي الخفاءِ، لم أتكلَّم بشيءٍ».

«أنا كلَّمتُ ... أنا علَّمتُ»:

واضح كيف أن المسيح لكي يفوِّت على قيافا الإجابة عن «التلاميذ»، ابتدأ يركِّز بصورة قوية وشامخة على نفسه: «فأنا ... أنا» تحمل المجاهرة القوية الصلبة والشجاعة.

ويلاحظ أن كلمة **«أنا كلَّمتُ ... أنا علَّمتُ»**، يجيء كلٌّ منهما في التصريف الكامل المنتهي (الماضي التام perfect) لتمهِّد لآخر كلمة قالها، بعد التطبيق العملي على الصليب، لكل ما قال وعلَّم: **«قد أُكْمِلَ.»** (يو١٩: ٣٠)

كما يتضح من مجيء كلمة «أنا كلَّمتُ» قبل «أنا علَّمتُ»، أن التعليم الذي يسأل عنه قيافا لم يكن سرِّياً ولا بالشَّفْرَة أو الرموز، بل بالكلام العلني الحرِّ، المسموع والمفهوم لدى «العالم»، وكلمة «العالم» هنا تشمل كل درجات الناس بلا تمييز، تلاميذَ وغيرَ تلاميذ: «كما قلت لليهود ... أقول لكم أنتم الآن» (يو١٣: ٣٣). والعلنية التي يفتخر بها المسيح، تجيء موبِّخةً وفاضحة للسرِّية التي اتَّخذها قيافا ومَنْ معه في خطَّة القبض عليه والتخابر السري مع يهوذا ودفع الثمن له! وتدبير هذه المحكمة وجَمْع شهود الزور. ثم يعود المسيح ويخصِّص تعاليمه لكل العالم على مستوى العلانية في البيوت والشوارع إلى: **«أنا علَّمتُ كل حين في المجمع، وفي الهيكل، حيث يجتمع اليهود، وفي الخفاء لم أتكلم بشيء»**. لاحظ هنا تأكيد المسيح على موضوع **«الخفاء»**.

واضح أن المسيح يقدِّم نفسه كمعلِّم دولة أولاً على مستوى «العالم»، ثم معلِّم الشعب اليهودي كافةً بكل فئاته، حيث استمع إليه رؤساء كهنة وكتبةٌ وفرِّيسيون، خاطبهم وخاطبوه وناقشهم وناقشوه. إذن، لم يكن معلِّم جماعة، أو شيخَ طريقةٍ، أو صاحبَ مذهبٍ، أو إمام شيعة، بل هو الناطقُ بكلمة الله في كل مكان وزمان ولكل إنسان!

«وفي الخفاء لم أتكلم بشيء»:

«لم أتكلم بالخفاء في مكان من الأرض مُظْلِمٍ. لم أقل لنسل يعقوب باطلاً اطلبوني. أنا الرب متكلِّمٌ بالصدق، مُخْبِرٌ بالاستقامة.»
(إش٤٥: ١٩)

إن أقوى ما كان في تعاليم المسيح وإعلاناته هي «العلانية»، بل وأقوى إعلان نطقه كان لقيافا هذا عينه، حينما توسَّل إليه مُستحلِفاً بالله: «والذين أمسكوا يسوع، مَضَوْا به إلى قيافا رئيس الكهنة ... **وقال له: أستَحْلِفُكَ بالله الحي أن تقول لنا: هل أنت المسيح ابن الله؟ قال له يسوع: أنتَ قُلْتَ (أو نعم كما قُلْتَ)؛ وأيضاً أقول لكم من الآن تُبصِرُونَ ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً على سحاب السماء.»** (مت٢٦: ٥٧و٦٣و٦٤)

وفي إنجيل القديس مرقس جاءت العلانية صارخة: «فسأله رئيس الكهنة أيضاً وقال له أأنت **المسيح ابنُ المبارَكِ؟ فقال يسوع: أنا هو.** وسوف تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً في سحاب السماء.» (مر١٤: ٦١و٦٢)

بل ولم يصرِّح المسيح قط أن ما يعلِّم به يبقى في الخفاء: «الذي أقوله لكم في الظلمة قولوه في النور، والذي تسمعونه في الأذن، نادوا به على السطوح» (مت١٠: ٢٧). المسيح هنا يشجب كل تعليم سرِّي، لأن كل تعليم سرِّي يخلو من الحق. أما الحق فهو علم العلانية ومعرفة النور، و يكفي أن يقول المسيح كمعلِّم: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو١٤: ٦). على الجبل علَّم، وفي الطريق علَّم، وفي البيوت وفي الخلاء وفي القفر وعلى شاطىء البحر وأمام القبر علَّم! بالليل مع نيقوديموس الذي آثر الظلام علَّم، وفي منتصف النهار ضرب ميعاده مع السامرية وعلَّم، وعلى مدى النهار كله وحتى خار الشعب، علَّم وأطعم. اختار السبوت للمجامع، والأعياد للهيكل. وما قاله هنا وهناك سمعناه كلنا، وفي كل مكان، وفي الدنيا كلها الآن. وحديث القلب الخاص جداً في العِلِّية لتلاميذه ــ الذين أحبَّهم إلى المنتهى ــ على العشاء الأخير، صار حديثنا، بل صار إنجيلنا، بل صار طَقْسَنا نرتِّل به، ونسبِّح، ونهذُّ فيه الليل مع النهار!

هذه الإجابة التي ردَّ بها المسيح على سؤال قيافا، نسمعها بصورة أخرى يقولها المسيح لبعثة قيافا عينه، التي تسلحت بالسيوف والعصيِّ للقبض عليه كما على مجرم ثائر ضد الأمة، هكذا: «فأجاب يسوع وقال لهم: كأنه على لصٍّ خرجتُم بسيوف وعصيٍّ لتأخذوني. **كل يوم كنت معكم في الهيكل أُعلِّم**، ولم تمسكوني، ولكن لكي تُكمَل الكتب» (مر١٤: ٤٨و٤٩). وكأن قيافا أراد، ببعثة القبض عليه، أن يصوره بصورة المجرم الثائر.

٢١:١٨ **«لماذا تَسألُني أنا؟ إسْألِ الذينَ قد سَمِعُوا ماذا كلَّمْتُهم، هوذا هؤلاءِ يَعْرِفُونَ ماذا قُلْتُ أنا».**

واضح جداً من قول المسيح هذا أنه، في الحقيقة، إنما كان يخاطب السامعين أنفسهم!! رؤساء

الكهنة والمحقِّقين. يخاطب، إن لم يكن شجاعتهم ليُدْلُوا بشهادتهم لو أرادوا ـــ هذا لو كانت لهم حرية الإرادة ـــ فضمائرهم!! ثم أنه في قول المسيح هذا، رَجْعَةٌ قانونية على المحقِّق المتحامل المدلِّس. فبحسب القانون اليهودي، يلزم حضور شهود الدفاع أولاً لتبرئة ذمة المتهم(٢٢)! هو هنا يطلب شهود الإيجاب، أي يطلب تعديل وضع المحكمة!! فالوضع القانوني الصحيح في المحاكمات اليهودية العريقة في القدم أن المتهم بريء إلى أن تثبت إدانته. ولكن المسيح كان، في قرارة نفسه ولسان حاله، قد أكْمَل التعليم والأجوبة والشهادة والبراهين الكلامية التعليمية والإعجازية، والوقت لم يَعُدْ وقتَ شهادةٍ وسؤالٍ وجوابٍ، ولكن هي شدةٌ وضيقٌ كان عليه أن يجوزهما في صمت، لو أمكن!

ثم أليس هو الذي تكلَّم جهراً أمام مجلس السنهدريم مُعْلِناً بنوَّته لله وصدق مسيَّانيَّته؟ وإننا، في الحقيقة، نلمح في قول المسيح: «لماذا تسألني»، رفضاً مقنَّعاً للإجابة، وهو ما نسمعه في الأناجيل الأخرى أنه صمت وأنه لم يَرُدّ بشيء!! «فقام رئيس الكهنة في الوسط، وسأل يسوع قائلاً: أما تُجيبُ بشيء ماذا يشهد به هؤلاء عليك. أما هو فكان ساكتاً، ولم يُجِبْ بشيء.» (مر١٤: ٦٠و٦١، مت٢٦: ٦٢و٦٣)

ثم كيف يجيب المسيح على قاضٍ صمَّم وأعلن عن قتله؟

لقد أُعييَ رئيسُ الكهنة، لكي يجمع شهاداتِ زورٍ، فلم يوفَّق أبداً: «وكان رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع كله يطلبون **شهادة زور** على يسوع، لكي يقتلوه، فلم يجدوا» (مت٢٦: ٥٩و٦٠)، «لأن كثيرين شهدوا عليه زوراً، ولم تتفق شهادتهم.» (مر١٤: ٥٦)

ولكن حينما حلَّ دور الشهادة للحق أمام المجمع عن بُنُوَّته لله، وأمام بيلاطس عن ملكوته، أجاب الإجابة القاطعة: «وشهد الاعتراف الحسن»، وهو الأمر الذي صار من صُلب إيماننا: «أوصيك أمام الله الذي يحيي الكل والمسيح يسوع الذي **شهد لدى بيلاطس البنطي بالاعتراف الحسن**.» (١تي٦: ١٣)

١٨: ٢٢ «ولمَّا قالَ هذا، لَطَمَ يَسُوعَ واحِدٌ من الخُدَّامِ كانَ واقِفاً، قائلاً: أهكذا تُجاوِبُ رئيسَ الكهنةِ؟».

لقد سجَّل إشعياء النبي هذا المنظر قبل أن يحدث بستمائة سنة وصوَّره أروع تصوير: «بذلتُ

---

[22] *Sanh.* f.32.1; f.40.1, quoted by Lightfoot (Hor, Hebr. ver. 15).

ظهري للضاربين، وخديَّ للناتفين (في السبعينية: **للَّطم** ῥαπίσματα)، وجهي لم أستر عن العار والبصاق» (إش٥٠ :٦)، [وخدَّيك أهلتهما للَّطم] (القداس الغريغوري القبطي).

لم يكن العبدُ أسوأ من سيِّده، فلو كان رئيس الكهنة "**الأضعف**" احترم حقوق المتهم بحسب القانون، ما تجرأ العبد ومدَّ يده على رئيس الكهنة "**الأعظم**".

١٨ : ٢٣ **«أجابه يَسُوعُ: إنْ كنتُ قد تكلَّمْتُ رَدِيًّا (κακῶς)، فاشهَدْ على الرَّدِيِّ، وإنْ حَسَناً، فلماذا تَضْرِبُني»؟**

المسيح هنا لا يردُّ على العبد، بل على قيافا حامي التوارة، وهل أعطت التوراة هذا العبد علة هذا التعدي: «لا تَسُبَّ الله، **ولا تلعن** رئيساً في شعبك» (خر٢٢ :٢٨)، وقد قرأها القديس بولس «رئيس شعبك لا تَقُلْ فيه **سوءاً** κακῶς » (أع٢٣ :٥). فالمسيح هنا يسأل رئيس المحكمة الذي رأى ووافق على اللَّطم. إن القانون يقول: «**لا تقل سوءاً**»، فما هو هذا السوء الذي تكلَّمتُ به حتى تعطي لعبدك الحق في الإساءة؟ وأنا لم أتكلم سوءاً، بل حسناً!! لقد احتسب المسيح هذه الإساءة ـــ دون سبب ـــ أنها مُخِلَّة بإجراءات المحاكمة وخروجاً على القانون والتوراة. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن القانون اليهودي ينص على أنه ليس للقاضي الحق إلا ليطرح المذنب، إذا ثبت عليه الذنب، ثم يأمر بعد ذلك بالجلد في حدود كرامة الإنسان "لئلا يُحْتَقَرَ في عينيك"!!!

+ «إذا كانت خصومة بين أناس، وتقدَّموا إلى القضاء ليقضي القضاة بينهم فليبرِّروا البارَّ، ويحكموا على المُذْنِبِ. فإن كان المذنبُ مستوجبَ الضرب، يطرحه القاضي، ويجلدونه أمامه على قدر ذنبه بالعدد. أربعين يجلِدُهُ، لا يَزِدْ، لئلا إذا زاد في جَلْدِهِ على هذه ضرباتٍ كثيرة، يُحتقر أخوك في عينيك.» (تث٢٥: ١ــ٤)

ولكن كان هذا مبتدأ الأوجاع، فقد زحفت ساعة الظلمة، وتحرَّك العقرب على يد هذا العبد المتعوس، وبعد ذلك وبتحريض من رئيس الكهنة، أُكْمِلَتْ الآلام، كما جاء في الأناجيل الأخرى:

+ «حيث اجتمع الكتبة والشيوخ (أعضاء السنهدريم)... ها قد سمعتم تجديفه **ماذا ترون. فأجابوا وقالوا: إنه مُستوجب الموت. حينئذ بصقوا في وجهه، ولكموه، وآخرون لطموه.** قائلين: تنبَّأْ لنا أيها المسيح مَنْ ضَرَبَك.» (مت٢٦: ٦٥ــ٦٨)

+ «فابتدأ قومٌ **يبصقون عليه**، و يغطُّون وجهه، **و يلكمونه**، و يقولون له: تنبأ. وكان الخُدَّام **يلطمونه.**» (مر١٤: ٦٥)
+ «والرجال الذين كانوا ضابطين يسوع، كانوا **يستهزئون** به وهم **يجلدونه. وغطُّوه وكانوا يضربون وجهه**، و يسألونه قائلين: تنبَّأ مَنْ هو الذي ضربك؟ **وأشياء أُخَر كثيرة**، كانوا يقولون عليه، مجدِّفين.» (لو٢٢: ٦٣—٦٥)

وقد انقسمت الآلام والتعديات على المسيح إلى ما كان منها قبل النطق بالحكم من فم قيافا، وما بعد النطق بالحكم، أي بعد انتهاء المحاكمة. وكانت التي قبل النطق بالحكم هي السبَّة العظمى في القانون اليهودي، ودلالةً قاطعة على أن المحاكمة كانت على مستوى التشفِّي(٢٣).

لماذا؟ إشعياء يتأمل ويتعجب والروح يجيب!

+ «مخذول من الناس، رجل أوجاع، ومُخْتبر الحزن... مُحتقَرٌ فلم نعتدَّ به!!
نحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومذلولاً؟...
لكن: أحزاننا حملها، وأوجاعنا تحمَّلها،... مجروحٌ لأجل معاصينا، مسحوقٌ لأجل آثامنا.
تأديبُ سلامِنا عليه وبِحُبُره (μώλωπι = Bruises كدمات أو رض أو سحق) **شُفِينا!**
ظُلِمَ، أما هو فتذلل، ولم يفتح فاه؛ كشاةٍ تُساقُ إلى الذبح...
ضُرِبَ من أجل ذنب شعبي... على أنه لم يعمل ظُلْماً، ولم يكن في فمه غِشٌّ!
أما الرب فسُرَّ بأن يسحقه بالحزن. إنْ جَعَلَ نفسه ذبيحة إثم.» (إش٥٣: ٣—١٠)

الآن أدركتُ لماذا ضُرب المسيح بالكفِّ على وجهه،
فأسرع ينفي عن نفسه نفياً باتاً أنه يستحق اللطم!
لكي يصير عارُ اللَّطم الذي كان عليَّ أن أحتمِلَه،
احتَمَلَه وجهه ثمناً مدفوعاً عن عاري أنا،
وأتبرَّأ عن اللطم الذي أستَحِقُّه لتأديبي،

(٢٣) وكثيرون تساءلوا لماذا لم يُدِرْ المسيح الخدَّ الآخر حينما لُطِم على الخدِّ الأول؟
يردُّ على ذلك القديس أغسطينوس قائلاً:
[إن وصايا المسيح لا تُتَمَّم بالجسد، ولكن باستعداد القلب، لأنه يمكن أن إنساناً غاضباً حاقداً يحوِّل الخد الآخر. ولكن كم يكون من الأفضل للإنسان أن يكون في ملء السلام الداخلي، ليردَّ بجواب فيه الحق، و بهدوء الفكر يُمسِكُ نفسه باستعدادٍ لاحتمال آلام أكثر تأتي عليه].
Cited by John Leon Morris, *op. cit.*, p. 757 n. 49.

ألم يقل إشعياء: «تأديبُ سلامنا عليه»!! (إش٥٣: ٥)

الآن فهمتُ لماذا عرَّض المسيح وَجْهَه للبصاق!!
إنه ثمن فضيحتي الذي سَتَرَ به خزيي.

اقشعري يا نفسي وارتعدي،
فعارُكِ حَمَلَه على وجهه لطماً وبُصاقاً،
ليجعلكِ بلا لوم أمامه.

ليس مجاناً اغتسلنا بل تقدَّسنا بل تبررنا،
بل بالثمن الغالي الذي تقشعر منه السماء والأرض معاً.

أربعون جلدة إلَّا واحدة، تحمَّلها على ظهره الغضّ بتأوُّهاتٍ وأنينٍ وآلام مبرِّحة،
واللحم يتهرأ والدم يتفجر.
والعقوبة أصلاً هي عقوبتي، فالجناية جنايتي،
والذنب ذنبي، والتعدِّي صَنَعَتْهُ حماقتي.

ذوبي يا نفسي خجلاً، وانطرحي إلى الأرض، وعفِّري وجهكِ بالتراب،
فالثمن المدفوع لتبرئتكِ لا تطيقه السماء،
والأرض كلها تميد من تحته!

١٨ : ٢٤ «وكانَ حنَّانُ قد أرسَلَهُ مُوثَقاً إلى قَيَافَا رئيسِ الكَهَنَةِ».

هذه الآية ليس موضعها هنا، ولكنها أتت استدراكية، استدرك بها الكاتب ما كان يجب أن يقوله قبل البدء في المحاكمة أمام قيافا قبل الآية: «فسأل رئيس الكهنة يسوع...» (يو١٨: ١٩)، لأن حنَّان أنهى تحقيقاته المبدئية قبل أن يرسله «**مُوثَقاً**» إلى قيافا. وكلمة «موثقاً» هي الإشارة الوحيدة للإدانة.

وإلى هنا تكون قد تمت التحقيقات المبدئية أمام «حنَّان» شكلياً، ثم التحقيقات التسجيلية في مضابط الجلسة أمام قيافا ومجلس السنهدريم. على أن التقليد اليهودي والتقليد المسيحي معاً، لا يقول أيٌ منهما أن المسيح حوكم أمام السنهدريم رسمياً(٢٤)، وهي التحقيقات التي انتهت بتمزيق رئيس الكهنة ثوبه إعلاناً عن تجديف سجَّله على المسيح، زوراً، وأشهد عليه السنهدريم، وهيَّج الأعضاء، فقاموا على المسيح وصنعوا به كل ما أرادوا. وهذا جاء في إنجيل القديس مرقس

[24] Edersheim, *op. cit.*, p. 556.

من الآية (٥٥) حتى الآية (٦٥) من الأصحاح الرابع عشر.

١٨ : ٢٥ **«وسِمْعَانُ بُطرُسُ كانَ واقِفاً يَصْطَلي. فقالُوا له: ألستَ أنتَ أيضاً من تلاميذِه؟ فأنكَرَ ذاكَ وقالَ: لستُ أنا».**

هذا الإنكار هو الثاني لبطرس، وقد تم في نهاية التحقيقات أمام حنان، وكان الداعي لهذا الانكار هو بمناسبة ظهور المسيح مُوثَقاً، وهو يمرُّ محروساً بالخدم من مكان حنَّان، إلى مكان قيافا، إذ كانت فرصة جديدة للخدم، لإعادة النظر في هذا الغريب الجالس وسطهم دون أن يتعرَّفوا عليه.

١٨ : ٢٦ **«قالَ واحدٌ من عَبِيدِ رئيسِ الكهنةِ، وهو نَسِيبُ الذي قَطَعَ بطرسُ أذنَه: أما رأيتُكَ أنا معه في البستانِ».**

هنا تظهر إمكانيات ق. يوحنا في التعرُّف على أهل بيت رئيس الكهنة وخُدَّامه، التي تشير إلى احتمال شديد للقرابة أكثر منها للمعرفة عند بيت رئيس الكهنة. كانت هذه اللفتة من نسيب مَلْخُس مُرعبة بالنسبة للقديس بطرس، لذلك أسرع في النفي.

١٨ : ٢٧ **«فأنكرَ بُطرُسُ أيضاً، وللوَقْتِ صَاحَ الدِّيكُ».**

هذا هو الإنكار الثالث لبطرس، والآن وقد تم العدد المتفق عليه، إذ صاح الديك بالفعل!

هنا، **في هذه اللحظة**، كانت قد تمت المحاكمة أمام قيافا والسنهدريم، وخرج يسوع موثقاً في طريقه لبيلاطس، وكان لا بد أن يمر بالفَسْحَة في الدور الأرضي التي كان بطرس واقفاً فيها مع الخدم يصطلي. وكان تدبير الله للخلاص أن مرَّ الرب بجوار القديس بطرس في اللحظة التي أنكر فيها، فصاح الديك، ونظر إليه، فانتبه بطرس وقرأ ما في عينيِّ الرب، هذا بحسب إنجيل القديس لوقا: «فقال بطرس: يا إنسان، لستُ أعرف ما تقول. **وفي الحال، بينما هو يتكلم صاح الديك. فالتفت الرب ونظر إلى بطرس.** فتذكر بطرس كلام الرب، كيف قال له إنك قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات، فخرج بطرس إلى خارج، وبكى بكاءً مراً.» (لو٢٢: ٦٠ـ٦٢)

أما ق. يوحنا، فبحسب أسلوبه المحافظ جداً، لم يشأ أن يورد أي إشارة لإدانة القديس بطرس، أو الحطّ من كرامته، شأنه في ذلك مع بطرس شأنه مع جميع التلاميذ الذين كانوا موضع

تكريم دائماً في إنجيل يوحنا (٢٥).

وواضح أن اهتمام ق. يوحنا في تسجيل حادثة إنكار بطرس، ومثل تسجيله لبقية الحوادث، كان منصبّاً على توجيه النظر ناحية لاهوت المسيح، وكيف تمَّ ما قاله المسيح لبطرس بالحرف الواحد: «وقلت لكم الآن قبل أن يكون، حتى متى كان تؤمنون.» (يو١٤: ٢٩)

«لا تُحرِّف حق فقيرك في دَعْواه. ابتعد عن كلام الكذب، ولا تقتل البريء والبار، لأني لا أُبرِّر المذنب.» (خر٢٣: ٦و٧)

«هكذا قال رب الجنود قائلاً: اقضوا قضاء الحق واعملوا إحساناً ورحمة، كلُّ إنسان مع أخيه، ولا تظلموا... ولا يفكر أحدٌ منكم شراً على أخيه في قلبكم. فأبوا أن يصغوا، وأعطوْا كتفاً معاندة، وثقّلوا آذانهم عن السمع... فجاء غَضَبٌ عظيم من عند رب الجنود.

فكان كما نادى هو، فلم يسمعوا، كذلك يُنادون هم فلا أسمع، قال رب الجنود، وأعصِفُهم إلى كل الأمم الذين لم يعرفوهم. فخربت الأرض وراءهم، لا ذاهبَ ولا آئبَ، فجعلوا الأرض البهجة خراباً.» (زك٧: ٩—١٤)

في ختام رواية محاكمة المسيح أمام رؤساء الكهنة ــ ومجلس السنهدريم من الباطن(٢٦) ــ لا نعثر على قرار واضح أُجري عليه التصويت، ولا حتى إجراءات قانونية واضحة. وهذا ما لا يخفى على القارىء، أن رؤساء الكهنة ومجلس السنهدريم لم يكن له أي سلطة قضائية للمحاكمة أو لإصدار قرارات في عهد الحكم الروماني: «لا يجوز لنا أن نقتل أحداً» (يو١٨: ٣١). وكل ما عملوه هو الإنتهاء إلى قرار موحَّد يستطيعون تقديمه لبيلاطس، ليحكم لهم بمقتضاه، إن أمكن. فالمسألة كانت مجرد اجتهاد بالنسبة لهم، وقد استخدموا كافة وسائل الضغط والترغيب، ثم

(٢٥) أنظر المدخل ص٢٦٣و٣٥٢ وأيضاً شرح الآية يو١٦: ٣١.

(٢٦) معروف أن مجلس السنهدريم كان قد توقف عن إصدار قرارات رسمية أربعين سنة قبل هدم الهيكل وأورشليم.

Edersheim, *op. cit.*, p. 556.

الإرهاب، ليبلغوا إلى غايتهم.

وقد كشف بيلاطس العوامل النفسية الواضحة والصارخة التي حرّكتهم ضد المسيح، والتي استخلصها من قضيتهم ودعواهم، فوق كل صراخهم وإدعاءاتهم: «لأنه عرف أن رؤساء الكهنة كانوا قد أسلموه حسداً» (مر١٥: ١٠). كما كشف بيلاطس عدم استنادهم على أي أدلّة واضحة أو صادقة لإقامة هذه الدعوى برُمّتها، وبالتالي المطالبة بصَلْبِه.

١ ــ شهادة بيلاطس ثلاث مرات بعدم وجود علّة واحدة في المسيح (يو١٨: ٣٨؛ ١٩: ٤و٦).
٢ ــ «وأيّ شر عمل؟ فكانوا يزدادون صراخاً قائلين ليُصلب.» (مت٢٧: ٢٣).
٣ ــ «فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئاً، بل بالحري يحدث شغب، أخذ ماءً **وغسل يديه قدام الجميع، قائلاً: إني بريء من دم هذا البار، أبصِرُوا أنتم.**» (مت٢٧: ٢٤)
٤ ــ «أتريدون أن **أُطْلِقَ لكم ملك اليهود.**» (مر١٥: ٩)
٥ ــ «قد قدَّمتم إليَّ هذا الإنسان كمَنْ يفسد الشعب، **وها أنا قد فحصتُ قدَّامكم ولم أجد في هذا الإنسان عِلّة مما تشتكون به عليه**، ولا هيرودس أيضاً لأني أرسلتكم إليه. **وها لا شيء يستحق الموت صُنع منه.**» (لو٢٣: ١٤ــ١٥)
٦ ــ «فقال لهم ثالثة: فأيَّ شرٍّ عمل هذا؟ إني لا أجد فيه علة للموت.» (لو٢٣: ٢٢)

ب ــ المحاكمة الثانية: أمام المحكمة المدنية: (١٨: ٢٨ــ١٩: ١٦).
الملك السماوي أمام الحاكم الروماني:

يختص إنجيل يوحنا بمفرده بالكشف عن التحقيقات الخاصة التي أجراها بيلاطس مع المسيح في غياب اليهود، وقد جاءت على مرتين: (١٨: ٣٣ــ٣٧ و١٩: ٨ــ١١).

ولكننا نسمع عنها باختصار بالغ في رواية القديس متى ٢٧ : ١١. كما تأتي عرضاً كمُسلَّمة من المُسَلَّماتِ الإيمانية العالية القيمة جداً في وصية القديس بولس الرسول الأخيرة لتيموثاوس هكذا: «أوصيك أمام الله الذي يُحْيي الكلَّ، والمسيح يسوعَ، **الذي شهد لدى بيلاطس البنطي بالاعتراف الحسن**» (١تي٦: ١٣). من هذا نستنتج أن ق. يوحنا يلزم أن يكون قد رافق المسيح ودخل معه دار الولاية، وربما كان هذا أسهل بكثير من دخوله مع المسيح دار رئيس الكهنة. كما يتضح ذلك أيضاً من شرح ق. يوحنا للغة بيلاطس سواء لليهود أو للمسيح، فقد كانت بوضوح وإسهاب، في حين أن ما ورد في الثلاثة الأناجيل عما تم لدى بيلاطس كان باختصار و بدون ترتيب.

ورواية ق. يوحنا لمحاكمة المسيح لدى بيلاطس يمكن تقسيمها إلى فواصل واضحة؛ ما تم منها داخل دار الولاية (البريتوريون πραιτώριον) وما تم منها خارج الدار:

الجزء الأول:	خارج دار الولاية	وفيه يطالب بيلاطس اليهود بنفاذ **حكم الإعدام الذي نطقوه** (١٨: ٢٨ــ٣٢).
الجزء الثاني:	داخل دار الولاية	**«الاعتراف الحسن»**: المسيح ملك (١٨: ٣٣ــ٣٧).
الجزء الثالث:	خارج دار الولاية	**الإعلان الأول عن براءة المسيح**؛ وموضوع باراباس (١٨: ٣٨ــ٤٠).
الجزء الرابع:	داخل دار الولاية	**الحكم بالجَلْد، والاستهزاءُ الأول** (١٩: ١ــ٣).
الجزء الخامس:	خارج دار الولاية	**الإعلان الثاني والثالث عن براءة المسيح: «هوذا الإنسان»، «ابن الله»** (١٩: ٤ــ٧).
الجزء السادس:	داخل دار الولاية	**مصدر السلطان، والخطية الأعظم** (١٩: ٨ــ١١).
الجزء السابع:	خارج دار الولاية	**تهديد القاضي. يحيا قيصر، وليَمُتْ المسيح** (١٩: ١٢ــ١٦).

الجزء الأول من سير القضية

خارج دار الولاية (١٨: ٢٨ـــ٣٢)

بيلاطس واليهود. المطالبة بالإعدام والردُّ بالرفض

١٨: ٢٨ «ثم جاءوا بيسوعَ من عندِ قَيَافا إلى دارِ الوِلايَةِ، وكان صُبْحٌ، ولم يدخُلوا هم إلى دارِ الوِلايَةِ، لكي لا يَتنجَّسُوا، فيأكُلونَ الفِصْحَ».

إن آخر مرحلة عَبَرَ عليها المسيح في المحاكمة لدى رئيس الكهنة، كانت باشتراك جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب حيث قرروا قتله، وذلك حسب رواية إنجيل القديس متى: «ولما كان الصباح، تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يسوع حتى يقتلوه، فأوثقوه، ومضوا به، ودفعوه إلى بيلاطس البُنْطيِّ الوالي.» (مت٢٧: ١ـــ٢)

كانت أحكام اليهود ـــ مهما أخذت من رسميات ـــ بلا قوة وغير قابلة للتنفيذ بدون السلطة الرومانية. أما دار الولاية، فبالرغم من أنه كان لها مقرٌّ رسميٌّ في قصر خاص كان قد بَنَاهُ هيرودس الملك على التلال الغربية الشمالية لمدينة أورشليم، إلاَّ أن المعروف أن بيلاطس كان مقرهُّ المؤقَّت في قلعة أنطونيا Antonia في الشمال الشرقي، لأن مقرَّه الدائم كان في مدينة قيصرية. إلاَّ أنه كان ينتقل من مقره الرسمي، إلى أُورشليم، في الأعياد، ليشرف بنفسه على الأمن والنظام(٢٧)، لأن المدينة حينذاك تكون مكتظَّة باليهود الآتين من الشَّتات، الذين يبلغ عددهم في الفصح ما يقرب من ثلاثة ملايين(٢٨).

«وكان صُبْح πρωΐ (٢٩) (الفجر)»:

هذا التعبير الروماني، يقابله في تقسيم الزمن اليهودي، الهزيع الرابع من الليل (ويبدأ من الساعة الثالثة بعد نصف الليل حتى الساعة السادسة صباحاً). ومعروف في القانون اليهودي أنه يَحْظُرُ إصدارُ حكمٍ بالموت أثناء الليل.

---

27 Hengstenberg, *op. cit.*, p. 364.

(٢٨) فردريك وليم فارار: «حياة المسيح»، ص٦١٤.

29 Westcott, *op. cit.*, p. 258.

وهكذا عُقد السنهدريم بكامل هيئته في الصباح، ليوافقوا على حكم الليل، لمجرد استيفاء الشكليات القانونية، وهذا هو العبث ــ عين العبث ــ بروح القانون(٣٠).

ولكن ظل القرار الذي أخذوه بالإجماع في الصباح مخالفاً لنص القانون اليهودي، وهو أن حكماً بالموت لا يصدر في يوم المحاكمة، إذ لا بد أن يؤجّل إلى يوم آخر غير يوم المحاكمة. ولكنهم، باعتبارهم الهيئة العليا المُهَيْمِنة على الشئون القانونية، أعطت لنفسها الحرية أن تعبث بالقانون، ظنًّا منها أنه لن يوجد من يؤاخذها. ولكن العالم كله، وكل جيل، وفي كل أمة، يشهد الآن على فساد ذمة القضاة اليهود الذين تولَّوا الحكم على يسوع.

ذهبوا إلى دار الولاية في وقت مبكِّر للغاية، مع أن القانون الروماني ينصُّ على انعقاد المحكمة بعد شروق الشمس على كل حال(٣٠). ولكن يبدو أنهم كانوا على ميعاد مع بيلاطس، وأنه هو الذي أرسل الحامية العسكرية. ومعروف أن حنَّان ــ أغنى أغنياء اليهود ــ كان على صلة بكل الذين في دار الولاية، وأنه كان يرشو الجميع بالأموال. ولكن بيلاطس ظلَّ محتفظاً برأيه فيما يختص بالحدود التي تفصل بين قضاء اليهود والقضاء الروماني.

«ولم يدخلوا، لكي لا يتنجسوا، فيأكلون الفصح»:

كانوا يخشَوْن نجاسة الجسد، ولا يخشون سَفْكَ دم بريء!! وصحَّ فيهم قول المسيح أنهم: «يصفُّون عن البعوضة و يبلعون الجمل.» (مت٢٣: ٢٤).

قبل أن نخوض في إثبات تقليد إنجيل ق. يوحنا في كَوْنِ المسيح ذُبح في يوم ١٤ نيسان، وهو ميعاد ذبح الخروف(٣١)، يلزم أن نوضح الآتي:

أولاً: ذَبْحُ خروف الفصح، حسب الناموس، يكون في يوم ١٤ نيسان قبل الغروب بين العشائين، أي: (من الساعة الثالثة حتى الساعة السادسة بالتوقيت الإفرنجي)(٣٢).

ثانيا: اليوم اليهودي يبدأ من بعد غروب الشمس حتى غروب الشمس في اليوم التالي (أربع وعشرون ساعة).

ثالثاً: يوم ذبح الخروف يسمى **يوم الفصح**، أو **عيد الفصح**، وهو ١٤ نيسان. واليوم الذي

30 Ibid.

(٣١) أنظر كتاب: «الإفخارستيا والقداس»، للمؤلف، طبعة ١٩٧٢، ص١٤٣ــ١٦٢.

32 The Pulpit Commentary, *op. cit.*, p. xcii.

يليه وهو ١٥ نيسان يسمى أول أيام العيد، وهو أول أيام عيد الفطير، وفيه محفل رسمي. ففي يوم الفصح يُذبَح الخروف وقت الغروب. ويكون أَكْلُ الفصح بعد الغروب، أي يدخل في يوم ١٥ نيسان، وهو أول يوم لعيد الفطير.

رابعاً: بعد يوم ١٤ نيسان يبدأ أسبوع الفصح الذي لا يؤكل فيه خبزٌ قط بل فطير، ويسمى عيد الفطير. ولكن عدد أيام أكل الفطير هي ٨ أيام، لأن في يوم ١٤ نيسان يُقْطَع الخمير، ويُصْنَعُ الفطير.

خامساً: بحسب رواية الثلاثة الأناجيل، يبدو أن المسيح صَنَع العشاء الأخير في غروب يوم الفصح نفسه أي في ١٤ نيسان، وأنه صُلِبَ ثاني يوم، أي أنه في ١٥ نيسان بدأ عيد الفطير.

سادساً: بحسب رواية إنجيل يوحنا، يبدو أن المسيح صَنَع العشاء الأخير قبل يوم الفصح(٣٣)، لأنه يعلم أنه هو نفسه سيكون خروف الفصح: «حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو١: ٢٩)، وأنه صُلب يوم ١٤ نيسان، وهو يوم ذبح الخروف ــ عن علمٍ سابقٍ وقَصْدٍ. والمسيح بذلك يكون قد ألغى الفصح اليهودي بذبح الخروف، وأسس الفصح المسيحي بذبح نفسه. وهذا يؤكده شهادة بولس الرسول القوية: «**لأن فصحنا أيضاً المسيح، قد ذُبِحَ لأجلنا، إذاً لنعيِّد** ليس بخميرة عتيقة، ولا بخميرة الشر والخبث، **بل بفطير الإخلاص والحق.**» (١كو٥: ٧و٨)

سابعاً: إمكانية التوفيق بين رواية الثلاثة الأناجيل ورواية إنجيل يوحنا قام بها كثيرٌ من العلماء، وأثبتوا صحة الروايتين، محاولين التوفيق بينهما:

١ ــ فمثلاً في الثلاثة الأناجيل، وفي إنجيل يوحنا، معروف أن ليلة العشاء الأخير كانت هي ليلة التسليم.

٢ ــ من رواية القديس لوقا، يتضح أن القيامة حدثت يوم الأحد. **ومعروف أن الكنيسة عيَّدت يوم الخمسين بحسب سفر الأعمال (الذي هو ملحق لإنجيل لوقا) من تلك السنة إلى اليوم بعد خمسين يوماً وكان يوم الأحد ولا يزال.** ومعروف في الناموس أن

[33] Brown, *op. cit.*, p. 556: "Jesus ate with his disciples a meal that had Passover characteristics".

حساب يوم الخمسين هو بعد خمسين يوماً بعد أول سبت من عيد الفصح مباشرة. وعيد الفصح سنة صلب المسيح، إذا حسبناه يوم السبت أي بحساب الخمسين يوماً يكون ١٤ نيسان هو يوم الجمعة ميعاد ذبح الخروف، وهكذا يتفق إنجيل لوقا مع إنجيل يوحنا تماماً:

«ثم تحسبون لكم **من غد السبت** (أول سبت بعد عيد الفصح)، من يوم إتيانكم بحزمة الترديد، سبعة أسابيع تكون كاملة، إلى **غد السبت السابع**، تحسبون خمسين يوماً، ثم تقرِّبون تقدمة جديدة للرب ... وتنادون في ذلك اليوم عينه محفلاً مقدساً يكون لكم» (لا٢٣: ١٥و١٦و٢١)، وهو عيد الخمسين.

٣ ــ معروف أن المسيح صنع عشاء الفصح في بداية يوم رفع الخمير وبدء الفطير، يوم ١٤ نيسان، لأن هذا اليوم يبدأ بعد غروب يوم ١٣ نيسان (الخميس) مباشرة. وفي هذا اليوم صنع العشاء الأخير ١٣ــ١٤ نيسان، بدأه في غروب الخميس وأكمله في دخول الجمعة، وفي منتصف نهار ١٤ نيسان رُفِعَ على الصليب. إذن، فالمسيح أكمل العشاء الأخير في الساعات الأولى من ١٤ نيسان، وقدَّم ذبيحة نفسه على الصليب في الساعات الأخيرة ليوم الفصح ١٤ نيسان أيضاً.

ومن هذا يتضح أن اللَّبس في مفهوم عشاء الخميس وفصح الجمعة هو بسبب عدم فهمنا لنظام توقيت اليهود؛ لأن يوم الخميس، بحسب التوقيت الإفرنجي الآن، ينتهي في منتصف ليلة الخميس عشية الجمعة؛ أما بحسب توقيت اليهود، فيوم الخميس ينتهي الساعة السادسة في غروب شمس يوم الخميس عشية الجمعة. لذلك حينما نقول إن العشاء الأخير تأسَّس في مساء الخميس، يكون هذا التعبير مساوياً للتعبير اليهودي أن العشاء الأخير تأسس في الساعات الأولى من يوم الجمعة الذي يبدأ بعد غروب شمس الخميس مباشرة.

٤ ــ التلمود اليهودي، مسجَّل فيه اليوم الذي صُلِبَ فيه المسيح هكذا: [أن يسوع عُلِّق على خشبة في مساء الفصح][٣٤].

٥ ــ قول المسيح في إنجيل متى: «المعلِّم يقول **إن وقتي قريب**، عندك أصنع الفصح مع

[34] Cited by: The Pulpit Commentary, *op. cit.*, p. xcv.

تلاميذي» (مت٢٦:١٧). فكلمة: «**وقتي قريب**»، يتضح من هذا التعبير أن الرب لا يقصد الفصح الرسمي بل عشاءً فصحياً يصنعه تحت اضطرار[٣٥] عدم إمكانية إقامة الفصح الرسمي مع التلاميذ بسبب «وقتي قريب»، أي أن «الساعة» ستكون هي ساعة ذبح الخروف، وقد صنعه خصيصاً ليؤسِّس فيه سر دمه وجسده.

٦ ـــ قول المسيح: «شهوةً اشتهيتُ أن آكل هذا الفصح معكم، قبل أن أتألم، لأني أقول لكم إني لا آكل منه بعد، حتى يُكْمَلَ في ملكوت الله» (لو٢٢: ١٥و١٦). ومن هذا التعبير يتضح أن الرب، وهو عالم أنه لن يأكل هذا الفصح رسمياً مع تلاميذه، صنع هو هذا الفصح مُسْبَقاً، ليؤسِّس فيه سر الشكر والحب، لأن هذه هي شهوته الحقيقية.

٧ ـــ هذا كله، يكشف سرَّه ويوضحه توضيحاً بليغاً ق. يوحنا في تسجيله لهذا العشاء: «أما يسوع **قبل عيد الفصح**، وهو عالمٌ أن **ساعته قد جاءت** لينتقل من هذا العالم إلى الآب، إذ كان قد أحبَّ خاصَّته الذين في العالم، أحبَّهم إلى المنتهى، فحين كان العشاء ...» (يو١٣: ١و٢)

هنا يأتي تصريح ق. يوحنا القاطع، أن المسيح صنع الفصح الخاص الذي قَدَّم فيه جسده ودمه سراً للعالم، قبل أن يصنعه عملياً وعلناً على الصليب. وكان بالفعل يتحتم أن يكون ذلك قبل عيد الفصح، فإن كان كلا الفصحين واحداً، ففصحُ الخميس يُقدِّم أعظم شرح لما تمَّ في فصح الجمعة، وسرُّ فصح الخميس يستمد قوته وفِعْله من فصح الجمعة. وكان يستحيل على الكنيسة أن تفهم فصح الصليب أو تنتفع به، إلا بتأسيس فصح الخميس!!

٨ ـــ واضح من تسمية الخبز الذي أخذه المسيح على يده باعتباره جسده أنه خبز خمير: «خبز» ἄρτος ، وليس «فطيراً» ἄζυμα ، في حين أنه في يوم الفصح يتحتم تحتيماً أن يكون فطيراً، والكنيسة المسيحية لا تزال تستخدم الخبز المختمر، وحتى الكنيسة الكاثوليكية كانت تستخدم الخبز الخمير وليس «البرشامة» (الفطير) حتى القرن الحادي عشر[٣٦].

---

[35] R.H. Fuller, cited by: The Pulpit Commentary, *op. cit.*, p. 782.

[36] See: A.J.B. Higgins, *New Testament Studies*, Vol. I, (1954-55), p. 2028 note 3.

٩ ــ لم يُذْكَرْ في طقس عشاء الرب، في الثلاثة الأناجيل، المكونات الأساسية لعشاء الفصح الرسمي، وهي الأعشاب المرة والخروف.

١٠ ــ استُخدم كأسٌ واحدٌ من الخمر، مرَّ على الجميع، في حين أن طقس عشاء الفصح الرسمي يتحتم أن يكون في يد كل واحد كأسُهُ، أثناء بدء قراءة خدمة الفصح.

١١ ــ ذهاب المسيح من أورشليم إلى جثسيماني خارج المدينة، هو ممنوع يوم العيد.

١٢ ــ حَمْلُ بطرس سيفاً، هو أمر محرَّم قطعاً يوم العيد.

١٣ ــ مجيءُ سمعان القيرواني من الحقل، وهو الذي سخروه لحمل الصليب، يعني أنه كان يعمل في ذلك اليوم، وهو أمر محرَّمٌ قطعاً يوم العيد.

١٤ ــ شراءُ يوسف الرامي الكتَّان والحنوط، أمرٌ مستحيل يوم العيد، فلا محلات مفتوحة، ولا سماحَ للبيع والشراء في يوم العيد.

١٥ ــ مكتوب في إنجيل يوحنا: «وكان استعداد الفصح ونحو الساعة السادسة فقال لليهود هوذا ملككم» (١٩: ١٤)، «ثم إذ كان استعداد، فلكي لا تبقى الأجساد على الصليب في السبت ...» (١٩: ٣١). هذا هو الاستعداد «الجمعة» الذي يسبق الفصح.

وهنا ينقسم العلماء إلى مجموعتين: مجموعة تقول بأن «أكل الفصح» (يو١٨: ٢٨) عند ق. يوحنا هو ذبح الخروف الفصحي، بينما العشاء الفصحي هو يوم الجمعة ١٤ نيسان. وهذه المجموعة يتبعها بعض الآباء القديسين الذين شرحوا إنجيل ق. يوحنا مثل القديس كيرلس الكبير ومن العلماء: ماير **Meyer**، كيم **Keim**، دي برسّانسيه **De Pressancé**، بوير **Baur**، نياندر **Neander** (حاخام يهوديٌّ مُتنصِّر)، دووت **Dewet**، إبرارد **Ebrard**، إيفالد **Ewald**، وستكوت **Westcott**، جوديه **Godet**، لوكه **Lücke** وآخرون.

أما المجموعة الأخرى فتقول بأن يوم الصلب ليس هو يوم الفصح ١٤ نيسان، بل إن يوم الفصح هو ١٥ نيسان، وأن يوم الجمعة هذا يتبع الفصح فقط وهو المخصَّص لأكل «الشجيجة»، وليس الفصح، وهي ذبيحة سلامة إضافية للعيد، وهؤلاء لا يعنوننا، لأننا نعتقد أن الرأي الأول هو الأصحُّ.

قول للقديس كيرلس الكبير في هذا المعنى:

[«اقضوا قضاءً عادلاً ولا تقتلوا البريء ولا البار»، كان هذا نص الناموس. ولكن هؤلاء البؤساء لم يخجلوا، كَوْنَ أدلة الإتهام لم تُشعِفْهم ليقيموا دعواهم ضد المسيح، بل إذ وجدوا أن قيامهم أصلاً ضد المسيح بلا سبب (!)، **وإذ هم ممنوعون من قتله بأيديهم، وقد اقترب ميعاد ذبح الكفَّارة، فإذ قَرُبَ ميعاد ذبح خروف الفصح بحسب الناموس،** ولو أنهم كانوا فاقدين قوته ـــ أحضروه إلى بيلاطس معتقدين بجنونهم أنهم لن يحملوا وِزْرَ إهراق دمه ظلماً ما داموا لم يسفكوا دمه بأيديهم، فأحضروه ليُقْتَلَ بيدِ آخر؛ مع أن الذي أضمروه في قلوبهم مخالفٌ بجملته لقانون موسى.](٣٧)

واضح هنا أن القديس كيرلس الكبير يقول بأن يوم صلب المسيح هو ١٤ نيسان ميعاد ذبح الخروف.

والسبب الأول على أن قول ق. يوحنا **هو ما يخصُّ أكل الفصح الرسمي**، وأن اليهود لم يدخلوا دار الولاية لئلا يتنجسوا فيمتنع عليهم أكل الفصح الرسمي، هو أن معظمهم كان رؤساء كهنة وكهنة، **وهم المنوط بهم ذبح خروف الفصح** باعتباره عملاً طقسياً رسمياً في الهيكل. فالأمر لا يختص بالأكل فقط وإلاَّ كان مجرد الاستحمام بعد غروب الشمس يعطيهم حق الأكل من الفصح، ولكن الذي منعهم بالفعل هو خوفهم من تعطيل طقس ذبح الخروف الذي يتحتم أن يكون في الغروب. فإذا تنجَّسوا، امتنع عليهم الاقتراب من طقس الذبح حتى إلى ما بعد الغروب.

أما السبب الثاني: الذي يؤكد أن يوم الجمعة هذا هو يوم الفصح ١٤ نيسان،الذي يُذْبَح فيه الخروف، فهو أنه يتعذر، بل ويستحيل أن يكون يوم الخميس وهو يوم القبض على المسيح ومحاكمته طول الليل، هو اليوم الذي يذبحون فيه الفصح، لأن هذا معناه أن صَلْبَ المسيح يكون بالتالي في العيد (١٥ نيسان)، الأمر الذي تحاشاه اليهود ما أمكن.

السبب الثالث: يُلاحَظ أن رؤساء الكهنة ومجمع السنهدريم أرادوا أن يتحاشَوْا إصدار حكمهم بموت المسيح، حسب الأصول القضائية الناموسية، **ثاني يوم بعد التحقيق،** لئلا يكون ذلك في العيد ١٥ نيسان، فاضطروا اضطراراً أن يصدروه في نفس يوم التحقيق ١٤ نيسان في الفجر، مخالفين بذلك قواعد الناموس، ولكن عن اضطرار تورَّطوا فيه.

---

[37] Cyril the Great, *op. cit.*, p. 502-503.

١٨: ٢٩ «فخَرَجَ بيلاطُسُ إليهِم وقالَ: أيَّةَ شِكَايةٍ تُقَدِّمُونَ على هذا الإنسَانِ».

لا بد أن بيلاطس أخذ علماً بعذر اليهود عن الدخول إلى دار الولاية، ولعلمه بتعصُّبهم العنيد لعوائدهم الدينية لم يَشأ أن يُرْغمهم، بل خرج هو خارج دار الولاية، وبدأ يستجوبهم بشيء من الرسمية.

«أية شكاية تقدمون على هذا الإنسان»؟

تعبير يحمل كثيراً من المعاني والأحاسيس، فهو أولاً يعرف موضوع هذه القضية جيداً، فهو الذي أصدر الأمر للقائد بالقبض على يسوع بناءً على طلب وإلحاح من رؤساء الكهنة، وكان سلوك القائد يدل على أنه كان هناك توصية خاصة بترحيل المقبوض عليه إلى المكان الذي عيَّنهُ اليهود «بيت حنَّان»، وهو بيتٌ غير رسمي. ولكن معروف أن هناك علاقات بين هذا الرئيس المتقاعد وكل الهيئات الرسمية.

والسؤال هنا، لماذا يبدو بيلاطس وكأنه يتجاهل القضية برُمَّتها؟ بل وسؤاله يحمل شيئاً من الارتياب في نِيَّات اليهود، بل ومن قَوْلِه: «هذا الإنسان»، يبدو وكأنه يعطف نوعاً ما على وضعه.

هنا يفيدنا أن نأتي بقول للقديس متى، له وزنه: «وإذ كان جالساً على كرسي الولاية، أرسلت إليه امرأته قائلة: إياكَ وذلك البار. لأني تألَّمتُ اليوم كثيراً في حُلْمٍ من أجله» (مت٢٧: ١٩). إذن، فامرأة بيلاطس، وبالتالي كل أسرته، وشخصه أيضاً، يعرفون ماذا كان يجري من وراء الكواليس في الخفاء، ويعلمون مَنْ هو «هذا البار»، وهم قد سمعوا عنه الشيء الكثير والكثير!! في سؤال بيلاطس، شيءٌ من الاستنكار لِمَا عملوه واتفقوا عليه، ولكل الإتهامات التي لُفِّقَتْ مُسْبَقاً، وبَلَغت أسماع بيلاطس من بعيد. وقد ظل هذا السؤال على فم بيلاطس طوال المحاكمة، إذ لم يكن مقتنعاً قط بكل ما يقولونه ويطلبونه، وإلى آخر لحظة.

«بيلاطس»:

هو خامس والٍ على البلاد (أي اليهودية، وهي الجزء الجنوبي من فلسطين وعاصمته أورشليم)، وذلك من سنة ٢٦م وظل حتى سنة ٣٦م. ويصفه العلاَّمة فيلو اليهودي الإسكندري أنه [متغطرس، إنسان لا يمكن أن يُضْبَط، يُبْغض العوائد اليهودية المتعصبة المتحيزة. وقد اشتبك كثيراً مع اليهود فأظهر طباعاً شرسة، له نوبات من الغضب الذي يثير أحاسيس الناس بقسوته،

فمن الممكن أن يحكم بالإعدام بدون محاكمة وبدون اتهام، كما اشتهر أنه بلا إنسانية](٣٨).

١٨ : ٣٠ **«أجابوا، وقالوا له: لو لم يَكُنْ فاعِلَ شَرٍّ، لما كُنَّا قد سلَّمْناهُ إليكَ».**

صُدم اليهود من سؤال بيلاطس، إذ لم يكونوا مستعدِّين لأي تردُّد، فكشفوا في الحال عن آخر ما في نيَّتهم من الأمر ملحِّين أن ينفِّذوا حُكْمَهُم، في اقتضاب وخشونةٍ ووقاحة، وفي الحال كان ردُّ بيلاطس على رغبتهم في الاستقلال برأيهم، أن: «خذوه أنتم واصنعوا به كل ما تريدون»، بجفاء أشدّ، مُلمِّحاً إلى أن ناموسهم طالما هو مقيَّد ــ إذ كان ممنوعاً عليهم إصدار أحكام بالإعدام ــ إذاً، فيلزم أن يخضعوا للقانون الروماني.

١٨ : ٣١ **«فقالَ لهُم بيلاطُسُ: خُذُوهُ أنتُم، واحكُمُوا عليه حَسَبَ نامُوسِكُم. فقالَ له اليَهُودُ: لا يجوزُ لنا أن نَقْتُلَ أحَداً».**

يكاد بيلاطس أن يسخر «بهم» و«بناموسهم»: «خذوه "أنتم" واحكموا عليه حسب "**ناموسكم**"»، إنما بشيء من التعالي والغطرسة، في مقابل وقاحتهم.

واليهود، وإذ ضُيِّق عليهم الخناق هكذا، لم يكن أمامهم أي اختيار غير أن يعلنوا عن طلبهم ويقفوا عنده بعناد وإصرار، واختاروا من الاتهام ما يجعل بيلاطس ينتبه إلى خطورة مطلبهم، وإلى حتمية النظر فيه لأنه من صميم اختصاصه.

«لا يجوز لنا أن نقتل أحداً»:

أما «القتل» فهو فعلاً من اختصاص المحكمة الرومانية وحدها. ولكن كان في اعتبارهم أنهم لم يأتوا إلى بيلاطس ليناقشهم في حكمهم الذي حكموا به وانتهوا منه، إنهم يطلبون التنفيذ وحسب!

وعند هذه النقطة الحرجة للغاية، يتدخل ق. يوحنا، ويرفع عنا هذا الكابوس الضاغط على صدورنا نتيجة مسلك رؤساء الكهنة هذا، والذي بلغ هنا أقصى ما يحتمل بشرٌ، وذلك بجملة إعتراضية:

---

[38] Cited by: The Pulpit Commentary, *op. cit.*, p. 391.

١٨ : ٣٢ «ليتمَّ قولُ يَسُوعَ الذي قالَهُ، مُشيراً إلى أيَّةِ مِيتةٍ كان مُزمِعاً أن يَمُوتَ».

لأنه معروف أن اليهود لو كانوا هم الذين نفذوا الحكم الذي انتهوا إليه بقتل المسيح، لتم ذلك بحسب الناموس ــ «احكموا عليه حسب ناموسكم» ــ **رجماً** بالحجارة. **ولكن المسيح أعلن مراراً أنه سيُصْلَبُ!!** وبتعبير إنجيل يوحنا أنه سيُرْفَعُ أو يرتفع عن الأرض، كما رفع موسى الحية النحاسية على العصا، في البرية. وليس ذلك فقط، بل إن المسيح سبق وأعلن أن ابن الإنسان **يُسَلَّم لأيدي الأمم!!**

من هذا نفهم ونتأمل في أعاجيب سياسة الله. كيف دخلت الأمم في قلب الأمة اليهودية، وتعيَّن بيلاطس على اليهودية حتى يشترك اليهود والأمم، ممثِّلين عن العالم كله، في تقديم ذبيحة الفداء والخلاص عن اليهود وأمم العالم كله!! كما هو مكتوب: «ها نحن صاعدون إلى أورشليم، وابن الإنسان يُسلَّم إلى رؤساء الكهنة والكتبة، فيحكمون عليه بالموت، ويُسلِّمونه إلى الأمم لكي يهزأوا به، ويجلدوه، ويصلبوه، وفي اليوم الثالث يقوم» (مت٢٠: ١٨و١٩)، الأمر الذي تممه اليهود والأمم بالفعل والحرف الواحد!

وفي موت المسيح على الصليب، استُعلن على الملأ كيف تنازل المسيح عن حياته متكبِّداً في ذلك أفدح الآلام والمهانة والمذلَّة، ليكمِّل كل عقوبة ممكنة عن كل مَنْ يستحق العقوبة، فيبرِّر مجاناً كلَّ مَنْ يؤمن بهذا الصليب وآلامه! أما من وجهة نظر توراة اليهود، فقد أكمل اللعنة التي ينبغي أن يتحملها الإنسان وحده كميراث آدميَّته، لما عُلِّق على الخشبة!!

عجيب هو هذا القديس، يوحنا الإنجيلي، كيف استطاع في هذه اللحظة التي اشتبكت فيها السياسة اليهودية مع السلطة الرومانية لتقدح منها نار الغضب مع الكبرياء، والتعصب مع العنف، فيفكُّ هذا الاشتباك المعقَّد المفزع بأن يردَّه إلى سرِّ الخلاص والفداء، وحتمية الصلح بالصليب؛ كما رسمها المسيح نفسه المحسوب أنه هو الذي وضع الخطَّة التي قام بتنفيذها، دون أن يدري المتنازعون!!

وربما يعطينا القديس لوقا مفتاحاً سهلاً ندخل به إلى سر تحوُّل قلب بيلاطس من قاضٍ يستنكر الاتهامات التي كان يصبُّها رؤساء الكهنة على المتهم: «أية شكاية تقدمون على هذا الإنسان»؟ إلى قلب يأمر بالصلب! يقول القديس لوقا: «وابتدأوا يشتكون عليه قائلين: إننا وجدنا هذا **يُفْسد الأمة، ويمنع أن تُعْطَى جزية لقيصر** قائلاً إنه هو مسيح **ملك**» (لو٢٣: ٢). فكان وقْع هذا الاتهام شديد الوطأة بالنسبة لبيلاطس. ولو أنه تعجب أن هؤلاء الكهنة المتعصبين الثائرين يقولون

هذا، وهم كانوا دائماً على نزاع وتمرد مع السلطة الرومانية بسبب امتناعهم عن الإلتزام بدفع الضرائب. كان رياؤهم ممزوجاً بخبث شنيع، مسنوداً بصياح وهياج شعبي منسَّق بدعوى الوطنية، وهو مدفوع دفعاً ليلعب دور التهديد. لقد أحس بيلاطس بنذير الشؤم يزحف نحو كرسيه!!

ولكن لم يَفُتْ على بيلاطس، كما لا يمكن أن يفوت على القارىء، أن **هذه التهمة عينها لو** صحَّت ــ وهي إدّعاء مناداته بعدم إعطاء الجزية لقيصر، وهي التهمة التي يتسترون وراءها ــ لكان يمكن أن تَرْفَعَ من شأن هذا المتهم المطلوب قتله ليكون زعيم الأمة اليهودية والمنادِي بخلاصها، لأنهم كانوا في تلهُّف على مثل هذا المخلِّص، لولا ما يحملونه نحوه من حقد وحسد وضغينة.

الجزء الثاني من سير القضية

داخل دار الولاية: (١٨: ٣٣ــ٣٧)

«الاعتراف الحسن»

١٨: ٣٣ **«ثم دَخَلَ بيلاطسُ أيضاً إلى دارِ الوِلايةِ، ودَعَا يَسُوعَ، وقالَ له: أنتَ مِلكُ اليَهُودِ؟».**

هذا الفحص السرّي داخل دار الولاية الذي جرى بين بيلاطس والمسيح دون حضور رئيس الكهنة، ولا شهود من أي نوع، يختص به ق. يوحنا وحده في إنجيله، فقد اختص وحده بسرد وقائع محاكمة المسيح أمام حنَّان أيضاً بدون شهود. لذلك، فالمعروف أن ق. يوحنا كان حاضراً في كلٍّ من المحاكمتين(٣٩).

هذا السؤال الأول الذي سأله بيلاطس للمسيح، نجده في الأناجيل الأربعة على السواء، لأن هذا اللقب «ملك اليهود» استرعى انتباه بيلاطس، لأنه خطير بحد ذاته، فهو يحمل وراءه حركة تعصُّب لـ**«ملك اليهود»**، كما يحمل وراءه أطماعاً وخططاً، وهذا ما قصد اليهود قصداً أن يرسموه في فكر بيلاطس. لقد سمع بيلاطس هذا اللقب عن المسيح أول ما سمع، وذلك عندما «... **دخل أورشليم، ارتجت المدينة كلها قائلة: مَنْ هذا؟** فقالت الجموع: هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل» (مت٢١: ١٠و١١)، «قائلين مبارك **الملك الآتي باسم الرب**، سلامٌ في

---

[39] Westcott, *op. cit.*, p. 266.

السماء ومجدٌ في الأعالي» (لو١٩ :٣٨)، «أوصَنّا (خلِّصنا)، **مباركٌ الآتي باسم الرب ملك إسرائيل.**» (يو١٢ :١٣)

هذا الهتاف المدوّي، الذي ملأ سماءَ أورشليم، ورجَّ الهيكل، وأرعب قلوب رؤساء الكهنة، لم يَنْسَهُ حنَّان ولا قيافا أبداً: «فلما رأى رؤساء الكهنة والكتبة العجائب التي صنع، والأولاد يصرخون في الهيكل و يقولون: أوصنا لابن داود، **غضبوا، وقالوا له: أتسمع ما يقول هؤلاء**» (مت٢١: ١٥و١٦)، «... **يا معلم انتهر تلاميذك** فأجاب وقال لهم: أقول لكم إنه إنْ سَكَتَ **هؤلاء، فالحجارة تصرخ**» (لو١٩: ٣٩و٤٠). أما الآن، فقد جاء وقت التشفِّي وتصفية الحساب ... ولم يدرِ هؤلاء الحاقدون والمتشفُّون أن **هذا اليوم هو هو يوم التجلي وتنصيب الملك على خشبة**، هو يوم الخلاص الآتي من الأعالي فعلاً، يومُ سلامٍ في السماءِ ومجدٍ على الأرض حقاً، يومُ إعلان بدء مملكة أبينا داود الأبدية، مملكة المسيح أصل وذُريَّة داود، كوكب الصبح المنير.

والآن يسمع بيلاطس هذا اللقب من رؤساء الكهنة وحشود الشعب المأجور والمدفوع على أنه هو علَّةٌ للصلب: «وكان رؤساء الكهنة يشتكون عليه كثيراً (بخصوص لقب الملك). فسأله بيلاطس أيضاً قائلاً: أما تجيب بشيء. انظر كم يشهدون عليك. **فلم يُجِبْ يسوع أيضاً بشيء، حتى تعجب بيلاطس**» (مر١٥: ٣ـــ٥). هذه المواجهة أغفلها إنجيل يوحنا، ولكن القانون الروماني يحتِّم أن تكون كلُّ شكوى في حضور المتهم، ولكن ذلك تم قبل أن يدخل بيلاطس إلى دار الولاية، وذلك بحسب رواية مرقس الرسول. فدخل بيلاطس دار الولاية واستدعى المسيح سراً و بدأ يسأله كما في الآية السابقة (١٨ :٣٣)، لا كمتأثِّر بطبيعة المتهم الهادىء الصامت، ولكن كمتعجِّب من سلوك متَّهم مُقدَّم للموت، وكأنه لا يبالي بالموت. ولو كان هؤلاء المتعطِّشون إلى الدماء صادقين في إلصاق هذه التهمة السياسية عليه، فأين أتباعُه ومعاونوه؟، أين الذين يَسْعَوْنَ لتمليكه؟ كان هذا يدور في فكر بيلاطس ويتعجب!!

١٨ :٣٤ **«أجابه يَسُوعُ أمِنْ ذاتِكَ تقولُ هذا أمْ آخَرُونَ قالوا لك عنّي».**

ليس هذا جواباً، بل سؤالاً من المسيح، تحذيراً خطيراً، وذلك لكي يفرق بيلاطس بين ما يشعر به هو من جهة الحق وبين ما يسمعه كذباً وتلفيقاً من اليهود. أما إن كان الآخرون هم الذين يقولون عني هذا، ففي توراتهم مكتوب إني لهذا وُلدتُ بقَسَم الله من فوق: «**أقسم الرب لداود بالحق، لا يرجع عنه، من ثمرة بطنِكَ أجعلُ على كرسيك**» (مز١٣٢ :١١)، لا كملكٍ

وحسب، بل وملك الملوك ورب الأرباب، لا كَمَلِكٍ على أجساد، بل على أرواح وضمائرَ وقلوب!! كرسيَّ ليس على الأرض، بل في السماء، ومجلسي عن يمين عرش الله!

المسيح لا يجاوب، بل يسأل مرة أخرى، ماذا يعني بيلاطس من سؤاله، هل لكي يعرف الحقيقة: **«أمن ذاتك تقول هذا»**؟ وكأن ضميرك يطلب الحق؟ أم آخرون يدسُّون عليك اللقب لتحاكمني بمقتضاه؟ هل هذا اللقب يُغنيكَ أنت **«ذاتك»** (شخصياً)؟ وهنا **«الملك»** يأخذ معناه الروحي العالي الذي لا يتعارض مع وظيفتك وسياستك ورئيسك! أم أنه يعني الشاكين، الذين يُلْبِسون اللقب ثوب السياسة والخيانة والغدر؟

لقد نجح المسيح في استجوابه لبيلاطس أن يصحح عنده مفهوم لقب **«ملك»**. فإن كان هو من ذاته يقول هذا، فهو لقب صحيح مائة بالمائة، لأنه يكون قد قاله عن وعي صادق؛ أما إن كان نقلاً عن آخرين فهو مرفوض من المسيح، كما هو مستنكر من بيلاطس سواء بسواء!! وإلا أين أعواني وما هي مظاهر مُطالبتي بالمُلْكِ؟

١٨: ٣٥ «أجابه بيلاطسُ: ألعَلِّي أنا يَهُودِيٌّ؟ أُمَّتُكَ ورؤسَاءُ الكهنةِ أسْلَمُوكَ إليَّ. ماذا فَعَلْتَ؟».

لقد فهم بيلاطس الدرس تماماً، وعن صحة، مما يفيد أن روحه بالفعل تتحرك فيه، لأنه يردُّ على الإحتمال الأول كأنه بالإيجاب: «ألعلي أنا يهودي؟»، لأن الذي يقول عنك أنك ملكٌ بالحق يلزم أن يكون يهودياً، أو ينبغي أن يصير يهودياً، ولكني على غير استعداد. أنا روماني، ووظيفتي محقِّق، ماذا فعلت؟ إجابة بيلاطس فيها وعي حقيقي، وفيها أيضاً رَجْعَةٌ عن الحقّ والوعي!!

«أُمَّتُكَ τὸ ἔθνος τὸ σόν ورؤساءُ الكهنة أسْلَمُوكَ إليَّ»:

«أُمَّتُكَ» بالمعنى السياسي الجنسي: «أمة اليهود»، أسْلَمَتْ مَلِكَ اليهود؟ يا للعجب عند بيلاطس! لأن أشدَّ ما كان يتوق إليه اليهود هو أن يرزقهم الله بملك يحرِّرهم من نير الرومان، هذا كان يعلمه بيلاطس تمام العلم. والآن هم يقدِّمون مَنْ يقولون إنه ملك اليهود، ليُقتَلَ: «إلى خاصَّته جاء، وخاصَّتهُ لم تقبله» (يو١: ١١). بيلاطس يتبرَّأ من أي مفهوم **«للمُلْكِ»** قال عنه المسيح، لا المفهوم الإلهي ولا المفهوم السياسي، وألقى اللوم المضاعف على أُمَّته وعلى رؤساء الكهنة!! «ضعوا أنتم هذا الكلام في آذانكم، إن ابن الإنسان سوف يُسَلَّمُ إلى أيدي الناس» (لو٩: ٤٤)، «إن إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، إله آبائنا، مجَّد فتاه يسوع، الذي أسْلَمْتُمُوه أنتم، وأنكرتموه

أمام وجه بيلاطس، وهو حَاكِمٌ بإطلاقه.» (أع٣: ١٣)

ويكاد ردُّ بيلاطس أن يكون صارخاً، مؤكِّداً للمسيح أنه إذا كان هو الآن بين يدي الحاكم الروماني، فأُمَّتُك اليهودية ورؤساء الكهنة هم الذين جحدوا ملوكيتكَ ـــ كانت ما كانت ـــ وكلّ مؤهلاتك.

ماذا فَعَلْتَ: أو ما هو السبب في كل هذا؟ هذا ما كان يحيِّر بيلاطس بالفعل.

١٨: ٣٦ **«أجابَ يسوعُ: مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هذا العالَم. لو كانت مَمْلَكَتِي من هذا العالَم، لكانَ خُدَّامِي يُجَاهِدُونَ لكي لا أُسَلَّمَ إلى اليَهُودِ، ولكن الآنَ ليسَتْ ممَلَكَتِي من هُنَا».**

«كنت أرى في رؤى الليل، وإذا مع سُحُبِ السماء مثل ابن إنسان، أتى وجاء إلى القديم الأيام فقرَّبوه قدامه. فأُعطيَ سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبَّد له كل الشعوب والأمم والألسنة. سلطانهُ سلطانٌ أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض.» (دا٧: ١٣و١٤)

لا يزال المسيح يفتح وعي العالم على حقيقته: «أنتم من أسفل، أما أنا فمن فوق. أنتم من هذا العالم، أما أنا فلست من هذا العالم» (يو٨: ٢٣). وهذا هو سرُّ التعارضِ الهائل الذي أنتج هذا الهياج، وهذه المحاكمة، وهذه المرارة. أما «**ماذا فعلتَ**»، فالرد الذي لا يُقالُ ولا يُسْمَعُ: ما فعلتُ هو أني نزلتُ إلى الأرض، جئتُ إلى خاصَّتي، النورُ أضاء في الظلمة، والظلمة لم تدركه. أنا ملكُ السلامِ، ومملكتي هي الحق، وخدَّامي هم أبناءُ النور.

حينما طلبتم القبض عليَّ سلَّمت نفسي لكم في سلام وخضوع، لأن ملكوتي لا يُضِيرهُ القيودُ ولا يُشينه القبض ولا المحاكمة، ولا الموت يجوز عليه، فهو فوق هذا وذاك!

لستُ كأمَّتي، أنا لا أعتبركم أعداءً لي، فأنا صديقُ العالم كلِّه. وحتى لو كنتم أعداءَ أمّتي، فأنا أحبُّكم، لأني أنادي: «أحبوا أعداءكم» (مت٥: ٤٤)، فكيف تَظُنُّ فيَّ العُنْفَ؟ مملكتي ليست هنا ولا من هنا، فأنا أستمدُّ سلطاني من فوق، وخُدَّامي هم أيضاً ليسوا من هذا العالم، كما إني أنا لستُ من هذا العالم. فلو كانت مملكتي من هذا العالم وخُدَّامي (officers) من هذا العالم، لكانوا الآن يحاربون عني حتى لا أُسَلَّم إلى اليهود.

«لكي لا أُسلَّم إلى اليهود»:

اليهود هنا، ومن فم المسيح، ليسوا يهود التوراة، ولا إسرائيل الله، ولا الشعب المحبوب المختار، بل يهودُ العالم والسياسة الذين جعلوا «بيت أبي بيت تجارة» (يو٢: ١٦)، والذين يُصفُّون عن البعوضة تأفُّفاً من النجاسة، ويَبلعون الجمل بما حَمَلَ بلا ملامةٍ، الذين ينهبون بيوت الأرامل، ولِعلَّةٍ يُطيلون الصلوات، الذين جلسوا على كرسيِّ موسى يُعلِّمون الحق، وعملوا أعمال أبيهم، الذي كان قتّالاً للناس منذ البدء!

واضح هنا لماذا اشترط المسيح، لكي يُسلِّم نفسه لهم طواعيَة، أن يتركوا التلاميذ يذهبون أحراراً!! لأن المسيحَ أراد أن يُسلِّم نفسه في سلام، ورفض أن يكون له في الضيق أعوان! كذلك، فإن ردَّ المسيح هنا على بيلاطس يشرح معنى ما قاله القديس متى في إنجيله: «إذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين: أين هو المولود ملك اليهود؟» (مت٢: ١و٢). كما يشرح أيضاً معنى «ملكوت السموات»؛ فهي «مملكتي التي ليست من هذا العالم».

خُدّامي هم خُدّامُكم، وخدام العالم كله، لأنهم كما قلتُ ليسوا من العالم أصلاً. أسلحتي هي الحق والبرُّ والحب والفرح والسلام؛ جئتُ لأغزو بها قلبَ العالم كله. أما وسائلي في الاستيلاء على القلوب عُنْوَةً، فهي الوداعة والاتضاع والحب الباذل حتى الموت.

حكومتي تقوم على أساس أن السيدَ هو الذي يَخْدِمُ، ويغسل أرجل الذين يخدمهم؛ والأول هو الذي يجلسُ آخرَ الكلّ، والعظيمُ منهم هو أصْغَرُهم. حربي مُعْلَنَةٌ على الخطية، ولا مهادنة، والذي يريد أن يُسخِّرنا ويأخذ ثوبنا، فإننا نخلع له الرداء أيضاً؛ والذي يسخرنا ميلاً نسير معه اثنين.

هذه مملكتي، وهذه سماتها، وشروطها.

«والآن مملكتي ليست من هذا العالم».

١٨: ٣٧ **«فقالَ بيلاطسُ: أفأنت إذاً مَلِكٌ؟ أجابَ يَسُوعُ: أنتَ تقولُ إنّي مَلِكٌ. لهذا قدْ وُلِدْتُ أنا، ولهذا قد أتَيْتُ إلى العالَمِ، لأشْهَدَ للحقِّ. كلُّ مَنْ هو مِنَ الحقِّ، يَسْمَعُ صَوْتي».**

جملة نصفها استفهامي، ونصفها تعجبي، بروح تهكمية نوعاً. إجابة المسيح: «أنت تقول»، معناها أن ما قاله بيلاطس يقع في موضع لا يقبل النفي ولا الإيجاب! فلا هو يقبل هذا اللقب من فم بيلاطس، ولا هو يرفضه؛ لأن بيلاطس يضع اللقب في موضع الفهم اليهودي كما سمعه منهم

دون أن يلتفت إلى المعنى والشرح الذي قاله المسيح. ثم ابتدأ المسيح يوضح له المعنى الحقيقي لِمَا قاله بيلاطس نفسه:

«هذا قد وُلِدتُ أنا، ولهذا قد أتيتُ إلى العالم»:

[هنا يورد القديس يوحنا النصّ الوحيد الذي يفيد ميلاد المسيح].

«لهذا قد وُلِدتُ أنا»، تجعل لملوكيّته سَبْقَ تعيينٍ. **فهو لم يُولَدْ كأي إنسان لكي يعيش** أولاً، ثم الظروف هي التي تحدد إمكانية أن يكون ملكاً، بل إنه وُلِدَ ليكون ملكاً؛ أو أنه تعيَّن ملكاً قبل أن يُولَد، فلما وُلِدَ استُعْلِنَ **ملكاً بالضرورة**، أي أن ملكوته غير مُسْتَحْدَث ولا هو زمنيٌّ، فهو معيَّن قبل الزمن، وقائم في الزمن بلا تعيين أي بلا حدود، فهو ملكوتٌ، من فَوْقَ يستمدُّ وجوده، وهو أزلي! **هذا هو الاعتراف الحسن أمام محكمة تمثل أقوى دولة في العالم آنئذ.**

«ولهذا قد أتيتُ إلى العالم»:

توضيحٌ ما بعده توضيحٌ، أنه ليس من هذا العالم، وأن كيانه الدائم فوق العالم، ولكن «لهذا» ــ أي «لقيام مملكته أو ملكوته في العالم بين الناس»، هو أتى إلى العالم من خارج العالم: **«تجسد»**.

فالمسيح هنا، لا يجيبُ بكونه ملكاً فقط، بل هو يجيب ليؤكد لبيلاطس أن مملكته قائمة على أسس ثابتة وأزلية، وأنها لا تستمدُّ قوّتها أو وجودها من سلطة أرضية، ولا من أي قوة أرضية. علماً بأن كلمة **«أتيتُ»** ἐλήλυθα تفيد الإتيان المستمر غير المنتهي، وليس كما جاءت في الترجمة العربية كفعلٍ ماضٍ مُنتهٍ، فهو آتٍ، ويأتي، وسيأتي، ويبقى **«آتٍ إلى العالم»**: هذا هو الاعتراف الحسن، والجملة كلها تفيد لاهوته.

«لأشهد للحق»:

هنا، الحق هو بمفهومه المطلق، أي الحقيقة الكلية، التي هي المجال الذي يحيا ويعمل فيه المسيح.

والإنسان الذي ينفتح قلبه وتنفتح بصيرته لهذا الحق، يدرك في الحال معنى ما يقوله المسيح بمجرد أن يسمعه.

والمسيح يشهد للحق، لا كأنه يشهدُ لشيء خارج عنه، بل هو يشهد للحق باستعلان ذاته، وعلاقته بالله أبيه، لأنه هو الحق! = **هذا هو الاعتراف الحسن.**

«كلُّ مَنْ هو من الحق»:

أي «كلُّ مَنْ يستمدُّ من الحق فِكْرَهُ وقوله وعمله وسلوكه، كلُّ مَنْ جعل الحق مصدراً يستمد منه حياته، كلُّ مَنْ أحبَّ الحقَّ وعَشِقَهُ وسار على هداه ووحيه...». هذا، حتماً، يسمع صوت المسيح ويفهمه؛ وصوت المسيح يصير له حياة أبدية: «الحق الحق أقول لكم: إن مَنْ يسمع كلامي، ويؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية» (يو٥: ٢٤). المسيح، هنا، يخاطب ضمير بيلاطس وكلَّ ضميرٍ لكل إنسان.

«الاعتراف الحسن» الذي شهد به المسيح أمام بيلاطس، شمل عناصر الإيمان جميعاً:

أ ــ أنه وُلِدَ ليُعْلِنَ ملكوت الله بالحق الذي يقوله، ويملكه، ويملك عليه.

ب ــ أنه نَزَل من السماء، وأتى إلينا على الأرض، ليؤسس ملكوت الحق.

ج ــ كلُّ مَنْ يسعى ويجدُّ في أثر الحق، يُسْتَعْلَنُ له المسيح والحق والحياة.

١٨: ٣٨ (أ) **«قالَ لهُ بيلاطسُ: ما هو الحقُّ؟».**

لم يرفض بيلاطس كلام المسيح، ولكنه لم يفهمه، ولم يجد في داخله مدخلاً إليه؟

ويُلاحَظ أن كلمة «الحق» الذي يستفسر عنه بيلاطس لا يأتي قبلها (في الكلمة اليونانية الأصلية) أداة التعريف «أل» ἡ ــ ἀλήθεια. أما «الحق» الذي يتكلم عنه المسيح فهو «الحق» مُعَرَّفاً بـ«أل» ἡ ἀλήθεια ليُغطي ويغطّي مفهوم الحقّ الكلّي. وهذا يوضح أنه لم يعثر على مفتاح الحقّ الحقيقي. سؤال بيلاطس يخلو من الجدّية؛ سؤالُ مَنْ لا يعرف، ومَن لا يريد أن يعرف، سؤالٌ نصفه حزين، يمثل العجز والقصور، والنصف الآخر استنكاريٌّ، يمثل الجهل والتمادي فيه، لأن بيلاطس أراد أن يبحث عن الحقّ في الحياة الأرضية، وفي حياة الإنسان الأرضي. والحق لا يوجد في الزائلات، فكلُّ ما هو متغيِّر ليس حقاً، ولا يؤول إلى حقٍّ، وكلُّ ما هو زائل يحكم على نفسه بالخداع والتفاهة. الحقُّ يبقى إلى الأبد، ولا يؤول إلاَّ إلى حقٍّ أكثر.

«الحق عند المسيح» هو «كلامُكَ هو حقٌّ» مخاطباً الآب (يو١٧: ١٧). كلُّ ما يصدر من الله هو الحق. ولأن عمل المسيح الأول، هو استعلان الله، وكلمةِ الله وعملِ الله وإرادةِ الله، لذلك فالمسيح وكل ما يقوله المسيح هو «الحق». لذلك قال: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو١٤: ٦)؛ ولأنه يوصِّل إلى الله، فهو الطريق الواحد الوحيد الحقيقي، ولأنه يوصل إلى الله، فهو الحياة الأبدية، وكل مَنْ يسمع لصوته، يحيا إلى الأبد.

«معرفة الحق» هي، بآنٍ واحد، **الدخول فيه**(٤٠)، والحياة به وامتلاكه. لذلك كلُّ مَنْ يعرف الحق، يتحرر من كل باطلٍ وفاسد، فالحق يحرِّر. ولأن المسيح ابن الله، فقد وَهَبَنا أن نتحد به لنبلغ إلى بُنُوَّة الآب، لذلك «فالابن يحرِّر»: «فإن حرَّركم الابن، فبالحقيقة تكونون أحراراً.» (يو٨: ٣٦)

والحق حينما يحرِّر يقدِّس، أي يحفظ الإنسان من الشر والعالم، يحفظه في الله لله: «قدِّسهم في حقِّك» (يو١٧: ١٧). فالحق والله، والحق والمسيح، والحق والحرية، والحق والقداسة، والحق والحياة الأبدية، هي متساويات مطلقة. والحق لا ينقسم، ولا يتجزأ، فهو كلٌّ مُطْلَقٌ. لذلك، فهو مصدر الوحدة الحقيقية. لذلك أيضاً، فالذين أحبوا الحق وعاشوه، هم واحد، لأنهم صاروا متحدين في الواحد و بالواحد، فالحق يوحِّد، وهو رجاء الإنسان المتفتت.

الحق واحدٌ أحدٌ مُطْلَق. لذلك، كلُّ ما هو قابل للإزدواج، وكل ما ينقلب إلى ما هو ضده، هو خداع وزائل(٤١).

فالنور الذي ينقلب إلى ظلمة، هو خداع، النور والظلمة كلاهما. أما النور الحقيقي، فهو لا ينطفىء قط، وليس فيه ظلمة البتة.

والفرح الذي ينقلب إلى حزن، هو خداعٌ، الفرح والحزن كلاهما، أما الفرح الحقيقي فهو لا يُنزع قط، ولا يقدر العالم أن يلغيه.

والسلام الذي يتحول إلى قلق واضطراب، هو خداعٌ، السلام والقلق كلاهما، لأن السلام الحقيقي يبدِّد كلَّ قلق واضطراب في العالم.

والحياة التي تنتهي بالموت هي خداع، الحياة والموت كلاهما، أما الحياة الحقيقية فليس فيها موت، وهي حياة أبدية.

كلُّ مَنْ يعرف الحق، ينفتح وَعْيُه المسيحي، ويدرك الغشَّ والخداع. والإنقلاب والتقلُّب هما

(٤٠) سبق أن شرحنا هذا المبدأ في سياق شرح الآية يو١٤: ١٠ صفحة ٨٣٦: «تقبُّل حقائق الله والتصديق عليها... يعطي الإنسان شركة فيها»؛ وأيضاً في شرح الآية ١٧: ٣ صفحة ١٠٢٢: «المعرفة للآب والابن هي بعينها شركة مع الآب والابن».

(٤١) راجع شرح ذلك بأكثر تفصيل في شرح الآية يو١٤: ١٧: صفحات ٨٥٠ــ٨٥١.

الأساس الذي يقوم عليه العالم بكل مظاهره وأمجاده، لأن «العالم كله قد وُضع في الشرير» (١يوه ٥: ١٩)، ولأن رئيس هذا العالم «ليس فيه حق» (يو٨: ٤٤). ولا يمكن أن يتآلف الحقُّ مع الخداع، فكأسُ الله ليس فيها موضعٌ لكأس الشيطان (١كو١٠: ٢١).

لذلك، فأولاد النور يبغضون أعمال الظلمة، وأولاد الحق يقاومون إبليس فيهرّب منهم!

وتماماً تماماً، كما لا يمكن أن يتعامل النور مع الظلمة، فالنور أيضاً يبدِّد الظلمة أينما وكيفما كانت، والظلمة لا تُدرك النور قط. لذلك، إن قلنا أننا في الحق أو أن لنا شركة مع الله، ثم سلكنا في الظلمة، نكذب وليس الحق فينا (راجع ١يو١: ٦).

وق. يوحنا أقوى مَنْ أدرك قطبي الحق والخداع: «نعلم أننا نحن من الله، والعالم كله قد وُضِعَ في الشرير» (١يوه ٥: ١٩). أما الحق فقد أسَّسه المسيح: «ونعلم أن ابن الله قد جاء، وأعطانا بصيرة (الوعي المسيحي) لنعرف الحق. ونحن في الحق، في ابنه يسوع المسيح، هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية.» (١يوه ٥: ٢٠)

وبسؤال بيلاطس للمسيح: «ما هو الحق؟»، يتضح أنه نسي، إلى حين، أن مَنْ يسأله عن الحق هو متَّهم مقدَّم للإعدام. ولكن المسيح أنشأ بوجوده أمام بيلاطس مجالاً ذا تأثير على فكره، جعله يَشرَح ببصره فيما هو أعلى من قامته: ما هو؟ ما هو الحق؟

وإلى هنا فقد بيلاطس صبره تجاه تجنِّي اليهود على المسيح، وإزاء هذه الإتهامات الهابطة التي لا تتناسب قط مع هذا الإنسان الشامخ والمتعاظم في تفكيره، الذي جاء ليشهد للحق! لقد عيل صَبْرُهُ، وتحركت فيه أحاسيس العدالة، فانفجرت فيه غَضْبَةُ الحاكم الروماني، وصمَّم أن ينتزع من هؤلاء الملفَّقين حقَّ إطلاقه:

+ «ولما قال هذا خرج أيضاً إلى اليهود، وقال لهم: أنا لست أجدُ فيه عِلَّة واحدة».

الجزء الثالث من سير القضية

خارج دار الولاية (١٨ : ٣٨(ب)ــ ٤٠)

الإعلان الأول عن براءة المسيح

١٨:٣٨ (ب) **«ولما قالَ هذا خَرَجَ أيضاً إلى اليَهُودِ، وقالَ لهم: أنا لَستُ أجِدُ فيه علَّةً واحِدةً».**

كان حديث المسيح مع بيلاطس، هو الذي أقنع بيلاطس أن يخرج إلى اليهود ويعلن عن براءة المسيح من كل التهم التي وُجِّهت إليه. فكانت هذه صفعة غير متوقَّعة لرؤساء الكهنة، الذين كانوا قد أحْكَمُوا كل الخطط أن ينتهوا من المسيح بأسرع ما يمكن.

وكان ردُّ فِعْلِ رؤساء الكهنة واليهود سريعاً ومنسَّقاً:

+ «فدعا بيلاطسُ رؤساءَ الكهنة والعظماءَ والشعب، وقال لهم: قد قدَّمْتُم إليَّ هذا الإنسان كَمَنْ يُفسد الشعب، وها أنا قد فحصتُ قدامكم، ولم أجد في هذا الإنسان عِلَّة مما تشتكون به عليه، ولا هيرودس أيضاً، لأني أرسلتكم إليه، وها لا شيء يستحق الموت صُنِعَ منه! فأنا أؤدبه وأُطلقه. وكان مضطراً أن يطلق لهم كل عيد واحداً».
«فصرخُوا بجملتهم قائلين: خُذ هذا، وأطلق لنا باراباس»!...
«فناداهم أيضاً بيلاطسُ، وهو يريد أن يطلق يسوع. فصرخوا قائلين: اصْلِبْه اصْلِبْهُ».
«فقال لهم ثالثة: فأيَّ شرٍّ عمِلَ هذا؟ إني لم أجد فيه عِلَّة للموت! فأنا أؤدبه وأُطلِقُه».
«فكانوا يلجُّون بأصوات عظيمة طالبين أن يُصْلَبَ».
«فقوِيَتْ أصواتُهم، وأصواتُ رؤساء الكهنة.» (لو٢٣: ١٣ــ٢٣)

لم يكن الشعب، من نفسه، يطلب باراباس ولا أن يُصلب المسيح، ولكن كان هذا قد لقَّنه لهم رؤساء الكهنة: **«فهيَّج رؤساءُ الكهنة الجمعَ لكي يطلقَ لهم بالحريِّ باراباس.»** (مر١٥: ١١)

المفارقة هنا شاسعة بين هدوء واتزان ورجاحة فكر بيلاطس، في مقابل هياج وخُبْثِ وعُنْفِ وفُقدانِ أعصابِ رؤساءِ الكهنة، ممثلي الله والشعب المختار.

وقفة قصيرة

مراجعة قانونية في أسلوب الاتهام:

كيف يطلب رؤساءُ الكهنة أن يُطْلَقَ لهم باراباس، وهو متهم مسجون بالفعل ومُدَانٌ كفاعلِ شرٍّ، بنفس التهم وأكثر مما يلصقونها بالمسيح؟

«وذاك كان قد طُرِحَ في السجن، لأجل فتنة حدثت في المدينة وقَتْلٍ» (لو٢٣: ١٩). (فتنة أدَّت إلى إزهاق أرواح، وتعني نوعاً من المظاهرات أو الثورات المحدودة، سياسية أو اجتماعية، من نوع تلك التي يقوم بها أرباب المِهَنِ أو الصناعات أو أحزاب الأمة من أجل مبادىء عامة). كما يتضح من رواية مرقس الرسول أن باراباس سجينٌ سياسي: «وكان المسمى باراباس موثقاً مع رفقائه في الفتنة، الذين في الفتنة فعلوا قتلاً.» (مر١٥: ٧)

وكان الهياج والصَّخَبُ المصطنَعُ المغالَى فيه جداً، من جهة شكله وأسبابه إزاء صمت المسيح وهدوئه وسكوته، سبباً لإقناع بيلاطس أكثر، ببراءة المسيح. لقد أدرك بيلاطس، في هدوء وذكاء، الحقيقة التي أعلنها القديس متى: «لأنه عَلِمَ أنهم أسلموه حسداً.» (مت٢٧: ١٨)

١٨: ٣٩و٤٠ **«ولكم عَادَةٌ أن أُطلِقَ لكم واحِداً في الفِصْحِ، أفَتُرِيدُونَ أن أُطلِقَ لكم مَلِكَ اليَهُودِ؟ فصَرَخُوا أيضاً جَمِيعُهُم قائِلِينَ: ليس هذا، بل بَارابَاسَ، وكان بَارابَاسُ لِصًّا».**

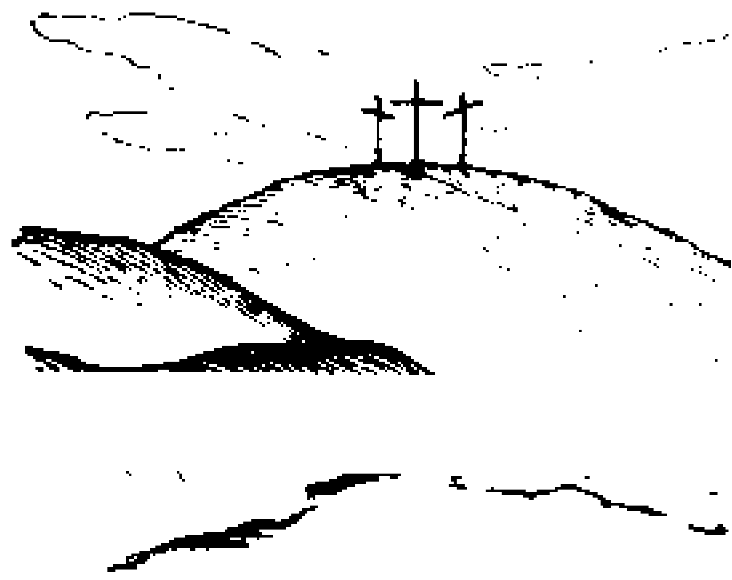
[اليهود يعطون الكرامة للّص قاتلٍ، و يُلحُّون إلحاحاً في قتل البارّ!!].

«أفتريدون أن أُطلق لكم ملك اليهود»:

هذا تعبيرٌ خطيرٌ يمسُّ الاتهام الذي ترجَّى اليهود أن يُصلب المسيح بسببه! بيلاطس هنا يَسْخَرُ، لا من ملك اليهود ولا من اليهود، بل من رؤساء الكهنة الذين ألْبَسُوهُ هذه التهمة!! وكَوْنُ بيلاطسَ يقول ــ بعد فحصه على أساس بنود الاتهام كلها ــ أنه يُطْلِقُ هذا الملك، فهذا معناه مباشرة أن المسيح ليس هو ملكاً بحسب إتهام رؤساء الكهنة بأنه مَلِكٌ يمنع جباية الضرائب لحساب قيصر (أي ينادي بالتحرر من نير الرومان). فلو كانت مثل هذه التهمة محتملة مجرد احتمال، لكان قد احتجزه لتكميل الفحص، ولكنه الآن برَّأه تماماً من كل تهمة، وأهمها أنه «ملك سياسي»

يطالب بمُلْك!

ولكن واضحٌ أن بيلاطس وهو يسعى لإطلاق المسيح، لم يتخذ الطريق القانوني، ولا استخدم سلطاته كقاضٍ يقطع بالأمر بدون مشورة الشعب. لقد انزلق بيلاطس وراء فكرة الاستعانة بالشعب ضد رؤساء الكهنة، يستفتيه في أمر إطلاق المسيح في العيد حسب عادة اليهود في إطلاق أحد السجناء، وكان كأنه يستجدي الشعب، وهذا ضعف ورخاوة قضائية مَعِيبة. ولكن الشعب، وبسرعة، تلقَّن من فم رؤساء الكهنة ماذا يقول، وبعكس ما يطلب بيلاطس، أي أن يُطلَقَ لهم باراباس(٤٢)، ويُصْلَبَ المسيحُ. لقد أُسقط بيلاطس بين يدي نفسه، وفوَّت عليه رؤساءُ الكهنة هذه المحاولة التي خرج منها خاسراً مُضَعْضَعاً.



(٤٢) «باراباس» نُطقها الصحيح بار ـ أبّاس، ـ بار أبّا ـ أي تعني ابن الأب الذي يُنطق: أبّاس، حسب تفسير إدرزهايم ص٥٧٦.



موضع البلاط

حيث يُعتقد أنه الموضع الذي جلس فيه بيلاطس على كرسي الولاية، «في موضع يُقال له البلاط، وبالعبرانية جبّاثا»، ليحاكم المسيح (يو١٩: ١٣).

اكتشف هذا المكان الأثري بين عام ١٩٣١ و١٩٣٧ راهبة وراهب من مدرسة الكتاب المقدس في أورشليم. ويوجد بجانب هذا الموضع دير أسسه فرنسي متنصّر اسمه الأب ألفونس راتيسبون من استراسبورج الذي أتى إلى أورشليم عام ١٨٥٥ واشترى المكان المجاور لهذا الموضع وبنى فيه ديراً للراهبات.



«جلجثة» أي «جمجمة» (يو١٩: ١٧)

حديقة القبر. في عام ١٨٨٣ لفت نظر القائد البريطاني الجنرال تشارلس غوردون منظر هذا التل الصخري الذي يشبه الجمجمة البشرية، وخمّن أن يكون هذا الموضع هو الجلجثة التي تعني «الجمجمة»؛ وعلى الأخص أنه يوجد بالقرب منها قبر منحوت في الصخر، يرجح أنه يرجع إلى القرن الأول الميلادي. (أنظر صفحة ١١٩٧)

الأصحاح التاسع عشر

الجزء الرابع من سير القضية

داخل دار الولاية (١٩: ١ــ٣)

الجَلدُ بدون حُكْمٍ مُسْبَقٍ ــ والاستهزاء بالمسيح كملك

١:١٩ **«فحينئذٍ أخَذَ بيلاطُسُ يَسُوعَ، وجَلَدَهُ».**

«بذلتُ ظهري للضاربين، وخديَّ للطم، ووجهي لم أسْتُر عن خِزْيِ البصاق.» (إش٥٠: ٦ حسب الترجمة السبعينية)

«وبجَلْدَاتهِ شُفِينا ...» (إش٥٣: ٥ حسب الترجمة السبعينية)

لا يزال بيلاطس يأمل في إطلاق المسيح. ورأى أنه يمكن إرضاء الشعب الهائج بإجراء عقوبة شكلية ــ دون حكم رسمي ــ تستدرُّ عطف الشعب، فأقْدَمَ على هذا العمل وهو مقتنع ببراءة المسيح، وقد أعلن ذلك وعمل على إطلاقه، لهذا قام بعملية الجَلْدِ: «إني لم أجد فيه علّة للموت، فأنا أؤدِّبه وأُطلقه.» (لو٢٣: ٢٢)

وهنا تجدر الإشارة للتنبيه، أن هذا التجاوز المُجْحِف الذي تورَّط فيه بيلاطس بعملية الجلد والاستهزاء، كان ــ دون أن يدري ــ أساساً لاهوتياً للخلاص، لأن المسيح أكمل به ما هو مستحق توقيعه بالفعل من العقوبة على الإنسان، فحمله هو على ظهره ورأسه ليعطينا حق البراءة. فالآلام، والجَلْدُ على الظَّهر، والاستهزاء الذي احتمله المسيح، **إضافياً فوق الموت**، استكمل به المسيح الخلاص اللازم لنا. لذلك تحمَّل هذه الآلام من يد الحاكم الروماني، وهي غير اللازمة وغير القانونية أيضاً، إذ لم تَثْبُتْ عليه تهمة واحدة من التي سُجِّلت في عريضة الدعوى.

وقد تفنَّن بيلاطس في الاستهزاء بالمسيح، بقصد أن يُجرِّده من كرامة الملوكية التي كرهها اليهود، وذلك فقط استرضاءً لهم. وواضح أن جميع أنواع التهكُّمات التي أُجْرِيَتْ عليه، أُجريت

للتهزئة بملوكيته فقط:

«فَعَرُّوه وألبَسوه رداءً قِرمِزيّاً»، وهو اللون الخاص بملابس الملك.

«وضَفَرُوا إكليلاً من شوكٍ، ووضعوه على رأسه»، وواضح أنه كان بمثابة إكليل الغار الذي يوضع على رأس الملوك الراجعين من الانتصار!!

«وقصبة في يمينه»، هي قضيب المُلْكِ.

«وكانوا يجثون قُدَّامَه»، كما يسجد الناس للملوك عادة.

«و يستهزئون به قائلين: السلام يا ملك اليهود».

«و بصقوا عليه»، أقصى ما يمكن أن يُهَانَ به ملك.

«وأخذوا القصبة، وضربوه على رأسه»، أي على إكليل الشوك، استهزاءً بملوكيته (مت٢٧: ٢٨ــ٣٠).

ولم يدرِ الحاكم أنه إنما يكمِّل كأس آلام الخلاص، ليستطيع بها المسيح أن يستردَّ للإنسان كرامته وملوكيته أمام الله أبيه. وبإكليل الشوك الذي أُلبِسَه أخيراً فوق رأس المسيح، أعاد للإنسان بالنهاية إكليل المجد الذي كان قد نُزِعَ منه: «الذي أحبَّنا، وقد غسَّلنا من خطايانا بدمه، وجعلنا ملوكاً وكهنة لله أبيه، له المجد والسلطان إلى أبد الآبدين آمين.» (رؤ١: ٥و٦)

تصحيح المفهوم:

+ يقول القديس كيرلس الكبير: [إنه جُلِدَ ظُلْماً] (في شرحه لإنجيل يوحنا ــ صفحة ٦٠٦).

+ يتهيأ لكثيرين، أنه بعد الحكم بصَلْبِ المسيح، أعاد الجند الجَلْدَ والاستهزاء مرة أخرى. وهذا خطأ يلزم التنبيه إليه. وقد نتج هذا من اللَّبْس الحادث في سَرْدِ الرواية. فمثلاً، في إنجيل مرقس يقول بغاية الوضوح هكذا: «وأسْلَمَ يسوع ــ **بعد ما جَلَدَهُ** ــ ليُصْلَبَ» (مر١٥: ١٥)، بمعنى أنه بعد أن جلده بيلاطس أمام الجموع، وهو في حالة الاستهزاء، ولابسٌ إكليل الشوك والثوب الأرجواني، بقصدٍ من بيلاطس أن يكتفي بذلك، وبعدها يأمر بإطلاقه، هاج الشعب وزاد الصخب، وطلبوا صَلْبَهُ، فيئِسَ من كل محاولات الإفراج عنه وسلَّمه لهم ليُصْلَبَ. ولكن القديس مرقس جمع كل ما تم من عمليات الجَلْدِ والاستهزاء، ولم يفصلها ــ أثناء سرده ــ عن الصلب، بل أضافها لها، لأنه لم يُشِرْ سابقاً إلى المحاولة التي قام بها بيلاطس لإطلاقه، والتي استلزمَتْ الجلد والاستهزاء!

+ كذلك في إنجيل القديس متى نجد أنه جَمَعَ عملية الجلد والاستهزاء مع الصلب. لأنه أيضاً

لم يتعرض لمحاولة بيلاطس لإطلاق المسيح بالمرَّة.

+ أما إنجيل لوقا، فكان واضحاً للغاية في سرد هذه الأحداث، إذ فصل بين محاولة إطلاق المسيح وبين الحكم بالصلب. وبعد النطق بالحكم بالصلب، لم يذكر أيَّ شيء عن جَلْدٍ أو استهزاء.

+ ولكن في إنجيل يوحنا اتضحت الحقائق، إذ سُرِدَتْ رواية محاولة بيلاطس إطلاق المسيح ومعها الجَلْد والاستهزاء. ولما لم تأتِ هذه المحاولة بالنتيجة التي كان يطلبها بيلاطس، اضطُر اضطراراً وتحت التهديد، أن يُسلِّم لهم يسوعَ ليُصْلَبَ مباشرة، دون أي جَلْدٍ أو استهزاء.

+ ولكن حتى وإن كانت الكتيبة قد اجتمعت فعلاً على المسيح بعد النطق بالحكم، كما يُفهم خطأً من سرد إنجيلي متى ومرقس، وأكْمَلَتْ تمثيليتها بل تمثيلها بالملك، فهذه العملية تتناسب فعلاً مع الوحشية الرومانية لدى الجنود.

+ وحينما يقول كلٌّ من القديس متى والقديس مرقس: «وبعدما استهزأوا به، نزعوا عنه الرداء ــ الثوب الأُرجواني ــ وألبسوه ثيابه، ومَضَوْا به للصلب» (مت٢٧: ٣١؛ مر١٥: ٢١)، فإنه يُفْهَمُ من هذا أنه بعد ما تمت عملية الاستهزاء العلني أمام اليهود خارج دار الولاية، ولم تأتِ بالنتيجة التي كان يترجاها بيلاطس وهي أن يتمكن من إطلاق سراحه بعد ذلك، أُدخل المسيح مرة أُخرى إلى دار الولاية، ونزعوا عنه إكليل الشوك والثوب الأُرجواني (رمز الملوكية)، وذلك ليتسنى ــ بمقتضى كرامة القانون وهيبة المحكمة ــ محاكمته بملابسه العادية. فحكموا عليه وسُلِّمَ لهم ليصلبوه.

وقد كشفت لنا أبحاث الحفريات الحديثة في أورشليم التي قام بها الضابط وارن Warren، عن صالة كبيرة تحت الأرض، قرر مستر فرجسون بعد فحصها أنها المكان الذي تألم فيه المسيح وجُلد واستُهزيء به. وهي في موقع قلعة أنطونيا ــ مركز دار ولاية بيلاطس ــ وفيها لا يزال هناك عمود مقطوع، تاجه قائم بمفرده، وليس له اتصال بتركيب هيكل المبنى (لأن الصالة مقبَّبة بقبو يعلو العمود، ولكن دون أن يتلامس معه، وواضح أنه العمود الذي كان مُسْتَخْدَماً لربط المحكوم عليه وجَلْدِه). وتاريخ هذه الصالة يرقى إلى زمن هيرودس([1]).

[1] Fergusson, *The Temples of the Jews*, p. 176-242; cited by Westcott, *op. cit.*, p. 268.

١٩ : ٢ «وضَفَرَ العَسْكَرُ إكْليلاً من شَوْكٍ، ووَضَعُوهُ على رأسِهِ، وألْبَسُوهُ ثَوْبَ أُرْجُوَانٍ».

«مُخْتَقَرٌ ومخذولٌ من الناس، رجلُ أوجاعٍ ومُخْتَبِرُ الحزنِ
... مُحْتَقَرٌ فلم نعْتَدَّ به.» (إش٥٣ : ٣)

كان هذا العمل بأمر بيلاطس، ليمثّلوا بالمسيح تمثيلاً كملك تحت الإهانة، وقد أتقنوا جداً عملية الاستهزاء بكل صنوف الوقاحة المتاحة، وقد فلت زمام تعقّلهم، لأن الأمر صادر من رئيسهم!

«ضَفَرَ العسكرُ إكليلاً من شوك، ووضعوه على رأسه»:
القصد أن يهزأوا بملوكيته، فألبسوه إكليلاً من شوك عِوَضَ إكليل الغار الذي يُطوّقُون به الملوك عند رجوعهم من انتصاراتهم. ولكن ألَمْ يقُلْ المسيح: «**ثقوا أنا قد غلبتُ العالم**» (يو١٦ : ٣٣)؟ لقد رجع المسيح من نصرته العظمى غالباً العالمَ ورئيسَه وكلَّ مصادرِ الخطية والموت والهلاك، وحمل لعنة الإنسان في جسده، فلاَقَ به أن يلبسَ إكليلاً من شوك رمز لعنة الإنسان: «ملعونةٌ الأرضُ بسببك ... **شوكاً** وحَسَكاً تُنْبِتُ لك.» (تك٣: ١٧و١٨)

كان منظر المسيح وهو لابس إكليل الشوك، هو منظر الإنسان مطروداً من أمام وجه الله، خارجاً من جنة عدن، حاملاً اللعنة والشوك، ومُستقبلاً التعب والشقاء. وها هو المسيح قد وفَّى العقوبة بكل بنودها، وما بقي منها إلاَّ الموت، آخر عدوٍّ للإنسان، والذي هو (أي المسيح) وشيكٌ أن يدوسه ليعود بالإنسان إلى حيث خرج.

يعتقد بعض العلماء أن نوع هذا الشوك اسمه العلمي هو: **Lycium spinosum**، وهو موجود بكثرة في أورشليم، وأشواكُه حادَّة جداً، إذا انغرستْ في اللحم تُدْميه. و يقول آخرون إنه نبات **Poterium spinosum**، واسمُه العبري «سارَح» أو «سيراخ».

«وألبسوه ثوب أرجوان»:

«من ذا الآتي من أدوم بثياب حُمْرٍ، من بُصْرة، هذا البهيُّ بملابسه ...
ما بالُ لباسِك محمرٌ، وثيابُك كدائسِ المعصرة؟
قد دُسْتُ المعصرة وحدي، ومن الشعوب لم يكن معي أحد.»
(إش٦٣ : ١-٣)
«وهو مُتسربلٌ بثوبٍ مغموسٍ بدمٍ، ويدعى اسمه كلمةَ الله.»
(رؤ١٩ : ١٣)

وهو الثوب الذي خلعه عليه هيرودس تهكُّماً من ملوكيته أيضاً، عندما أرسله بيلاطس إليه، لما علم هذا أن المسيح من الجليل. وكان هيرودس والي الجليل، ولكنه كان مقيماً في أورشليم، «فاحتقره هيرودس مع عَسْكَره، واستهزأ به، وألبسه "لباساً لامعاً"، وردَّه إلى بيلاطس.»[٢] (لو٢٣: ١١)

ومعروف أن لباس الملوك هو الأحمر اللامع.

١٩: ٣ «وكانوا يقُولُونَ: السلامُ يا مَلِكَ اليَهُودِ، وكانُوا يَلْطِمُونَهُ».

+ «في ظَلْعي فرحوا واجتمعوا، اجتمعوا عليَّ شاتمين ولم أعلم، مزَّقوا ولم يكفُّوا.» (مز٣٥: ١٥)

كانت هي تحية قيصر الرسمية: Hail Caesar — Ave Caesar، كما كان يقولها الألمان لهتلر: «هايل هتلر». وهي التي أُخذ عنها كلمة «السلام الملكي»، ليقال بالموسيقى وليس بالفم؛ وهي تحية الملوك العظام.

لم يدرِ هؤلاء الجنود البؤساء أنهم فعلاً يحيُّون ملك الملوك، «ورئيس ملوك الأرض» (رؤ١: ٥)، ولم يكن استهزاؤهم إلاَّ استهزاءً بجهالتهم وعمى عيونهم، التي نَضَحَ عليها اليهود فعميوا بعمَاهِم!

«وكانوا يلطمونه»:

كان المسيح، بعد الجلد، ينزف دماً، وظهره متورِّمٌ تجتاحه الآلام، كموجات مرعبة تسري في جسده المهرَّأ بلا توقف، ثم بدأوا يلطمونه على الوجه وعلى الرأس: «وبَصَقُوا عليه، وأخذوا القَصَبَة، وضربوه على رأسه.» (مت٢٧: ٣٠)

«إسمعي أيتها السموات وأصغي أيتها الأرض ...،
ربَّيْتُ بنينَ ونشَّأتُهم، أما هم فعَصَوْا عليَّ،
الثور يعرف قانيهُ والحمارُ مِعْلَفَ صاحبه، أما إسرائيلُ فلا يعرفُ،
شعبي لا يفهمُ!!
ويلٌ للأمة الخاطئة، الشعبِ الثقيلِ الإثم، نسلِ فاعلي الشرِّ، أولاد مُفْسِدِينَ!!

[2] The Pulpit Commentary, *op. cit.*, pp. 416-417.

تركوا الربَّ، استهانوا بقدوسِ إسرائيلَ، ارتدُّوا إلى وراء ...،
كلُّ الرأسِ مريضٌ، وكلُّ القلبِ سقيمٌ، من أسْفَلِ القَدَم، إلى الرأسِ ليس فيه صحة!
بل جرحٌ، وأحْباطٌ، وضَرْبةٌ طريَّةٌ، لم تُعْصَرْ ولم تُعْصَبْ ولم تُليَّن بالزيت.
بلادكم خَرِبة، مدنكم مُحرَقة بالنار!!» (إش ١: ٢ـــ٧)

«وكانوا يقولون: السلام يا ملك اليهود، وكانوا يلطمونه»! هذا هو سلام العالم، سلامٌ بالفم ولَطْمَةٌ باليد، وحقَّ للمسيح أن يقول: «سلامي أعطيكم، ليس كما يعطي العالم...» (يو١٤: ٢٧)

الجزء الخامس من سر القضية

خارج دار الولاية (١٩: ٤ـــ٧)

الإعلان الثاني والثالث عن براءة المسيح

«هذا هو الرجل» ECCE HOMO، «جعل نفسه ابن الله»

١٩: ٤ «فخَرَجَ بيلاطسُ أيضاً خارجاً. وقالَ لهُم: ها أنا أُخرِجه إليكم، لتَعْلَمُوا أنِّي لستُ أجِدُ فيهِ عِلَّةً واحِدةً».

كانت حيرة بيلاطس واضحة، فلو كان لديه من الأدلة ما يكفي للحكم، لَحَكَمَ. ولكن لم يكن أمامه أية أدلة يستند عليها، بل كان أمامه من الأدلة الدامغة على براءته، ما جعله يكاد يتوسل ملتمساً براءته. وقد أقْدَمَ على فِعْلةٍ شنعاء، بأن ظَلَمَهُ ظُلماً قاسياً وعنيفاً، ليُرْضِي ظُلْمَ رؤساء الكهنة القساة وعنفهم! ولسان حاله أنه: يهون جَلْدُه، حتى الدم، وتهون إهانته حتى التراب، أمام تبرئته من الصلب! ولكن هيهات، فبحسب لسانه هو: "ما كُتِبَ قد كُتِبَ"!

«ها أنا أخرجه إليكم لتعلموا أني لستُ أجد فيه علَّة واحدة»:

بيلاطس يحاول أن يوقظ روح الإنسانية في اليهود، ويدفعهم دفعاً إلى روح العدالة، بإعلانه الجهوري عن براءة مَنْ يتهمونه، براءة لا يشوبها الشك ولا «**علة واحدة**»!! و يستدرُّ رحمتهم بمنظر المسيح الدامي والمُهَان جداً! هذا كله من وراء المسيح، فالمسيح كان حتى هذه اللحظة داخل دار الولاية: «ها أنا أُخْرِجُه إليكم».

«لست أجد فيه علة واحدة»:

«رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيَّ شيء».

وبيلاطس هنا يدين نفسه إدانة مُخْزِية. فلماذا، إذن، وبأي حق، وبأي إنسانية، تأمرُ بجَلْدِه بضربات قد تؤدي إلى موته، وتأمر بإهانته هكذا وهو بريء!!

١٩ : ٥ **«فخَرَجَ يَسُوعُ خَارِجاً، وهُوَ حَامِلٌ إكليلَ الشَّوْكِ، وثَوْبَ الأُرْجُوَانِ. فقال لهم بيلاطسُ: هُوَذَا الإنْسَانُ (الرجل) ECCE HOMO».**

+ «يا جميع عابري الطريق، تطلعوا وانظروا إن كان حزنٌ مثل حزني...» (مراثي ١ : ١٢)

+ «بَلِيَتْ عِظَامي. عند كل أعدائي صرتُ عاراً،... ورُعْباً لمعارفي...
الذين رأوني خارجاً هربوا عني، نُسِيتُ من القلبِ مثل الميت،
صرتُ مثل إناء مُتْلَف، لأني سمعتُ مذمَّة من كثيرين،
الخوف مستدير بي بمؤامرتهم معاً عليَّ، تفكَّروا في أخذِ نفسي.» (مز٣١: ١٠ــ١٣)

+ «اذكُر يا رب عار عبيدك الذي أحتمله في حضني!!
...، الذي به عيَّر أعداؤك...، عيَّروا آثار مسيحك!!» (مز٨٩ : ٥٠)

+ «كان منظره كذا مُفْسَداً أكثر "من الرجل"، وصورته أكثر من بني آدم...
لا صورةَ له ولا جمالَ، فننظرَ إليه، ولا منظر فنشتهيه. محتقَرٌ ومخذول من الناس،
رجُلُ أوجاع ومُخْتَبِرُ الحزن، وكمُستَّر عنه وجوهنا.
محتقَرٌ فلم نعتدَّ به، لكن أحزاننا حَمَلها، وأوجاعنا تحمَّلها،
ونحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومَذْلولاً،
وهو مجروح لأجل معاصينا، مسحوقٌ لأجل آثامنا،
تأديبُ سلامِنا عليه، وبحُبُرِهِ شُفِينا...
والرب وضعَ عليه إثمَ جميعنا.
ظُلِمَ، أما هو فتذلَّل، ولم يفتح فاه...،
ضُرِبَ من أجل ذنب شعبي.» (إش ٥٢ : ١٤ ــ ٥٣ : ٩)

«هوذا الإنسان» ECCE HOMO :

هوذا الإنسان ليس ملكاً بعد، لقد رفع عنه كل كرامة، «الذي له الكرامة والمجد إلى دهر الدهور.» (١تي١: ١٧)

ألبسه الهُزْء والسُّخرية، «اللابسُ النور كثوب» (مز١٠٤: ٢)،
أزال بهاءَ منظرِه، وحطَّم قوته «البهي بملابسه، المتعظِّم بكثرة قوته» (إش٦٣: ١)،
ألبَسَه تاجَ الشوك، وهو الذي «على رأسه تيجان كثيرة.» (رؤ١٩: ١٢)

قال لهم: «هوذا الإنسان»، لعلهم يتعرفون عليه في أُخوَّة الإنسانية وآلامها!! فجحدُوه كإنسانٍ متألم، وهو الإله المتمجِّد، ملك الملوك ورب الأرباب. أهانوا خروجه إليهم، الذي سيأتي في مجده ومجد أبيه مع ملائكته القديسين ليدين المسكونة بالعدل: «العار قد كَسَرَ قلبي فمَرِضتُ، انتظرتُ رقَّةً، فلم تكنْ، ومعزِّين فلم أجِدْ.» (مز٦٩: ٢٠)

هوذا الإنسان!! هذا هو التجسُّد! نعم وكيف صار الكلمة جسداً! هذا هو الإخلاء في أعمق مظاهره ومعانيه! كيف صار الإله «في هيئة عبد» (راجع في٢: ٧)؟ ولم يكتفِ بهيئة العبد، بل حمل على هيئة العبد عارَ العبيد والأسياد ومَذَلَّةَ بني الإنسان، ودفع بمذلَّته ثمنَ كبريائنا، تمهيداً ليدفع بموته ثمن موتنا ويعطينا الحياة!

هذه هي طاعة العبد، أدخلوه دار الولاية، فدَخَلَ. وألبسوه عار الإنسان، فلَبِسَ. وأخرجوه ليكون منظراً للناس والملائكة، فخرج. هو راضٍ بكأسه الذي أخذه من يد الآب ليشربه رشفةً رشفةً!

في يوم ميلاده، يوم إعلان تجسده، ظهرت الملائكة في السماء جوقاتٍ جوقاتٍ تُسبِّح لملكها وتمجِّد مُهَلِّلةً، ولكنها في هذا اليوم انحصرت مذعورة، وصمتت السماء، استعداداً لساعة الظلمة على الأرض.

أما بيلاطس فخاب رجاؤه لأنه ترجَّى أن يسمع كلمة رحمة من اليهود، فسمع «اصلبه» «اصلبه»، لأن لصوص الكَرْم تعاهدوا وتربَّصوا: «فلما رآه الكرَّامون تآمروا فيما بينهم قائلين: هذا هو الوارثُ هلموا نقتله، لكي يصير لنا الميراث.» (لو٢٠: ١٤)

٦:١٩ «فلما رآهُ رؤساءُ الكهنةِ والخُدّامُ، صرخوا قائلينَ: اصْلِبْهُ اصْلِبْهُ. قالَ لهُم بيلاطسُ: خُذُوهُ أنتم، واصْلِبُوهُ، لأني لستُ أجِدُ فيه علَّةً».

نعم، لا يكفيهم الجَلْد على الظهر، ولا الضرب على الرأس؛ واللطم والبُصاق على الوجه لا ينفعان شيئاً! هذا كله لا يكفي لغسل خطاياهم ورفع تعدّياتهم، هذا لا يكفي ولا يصلح قط ليكون ذبيحة للفداء، إنهم بروح جميع الأنبياء يطلبون بل و يصرخون بأعلى أصواتهم أن «يُذبح المسيح»، فليس أقلّ من الذبح فداءً، ولا دون الصليب خلاصاً.

«خُذوه أنتم واصْلِبوه، لأني لستُ أجِدُ فيه عِلَّة»:

قول بيلاطس يُتَرْجَم هكذا: أنا غير موافق على صَلْبِ المسيح، إذا كنتم مُصمِّمين على صَلْبِه، فخذوه كما أتيتم به، واصلبوه أنتم! قالها بيلاطس مع شيء من السخرية.

أراد بيلاطس أن ينفُضَ عن نفسه تحمُّل «دم البارّ»: «لستُ أجِدُ فيه علة واحدة» (يو١٨: ٣٨)، «إياك وذلك البارّ» (مت٢٧: ١٩). و بقوله مرة ثالثة: «لست أجد فيه عِلَّةً»، وضع القضية بكافة ملابساتها على رؤوسهم وحمَّلهم دَمَ فريستهم! وكلٌّ نتيجة أعمالهم. إن تصريح بيلاطس بهذا الوضوح والعلانية، جعل اليهود وحدهم هم المسئولين عن صلب المسيح أمام هيئة القضاء العالي في السماوات، ولدَى ذوي البصيرة من الروحيين والأنبياء: «إلهُ آبائنا أقام يسوع الذي أنتم قتلتُموه، معلِّقين إياه على خشبة» (أع٥: ٣٠). وليس هنا ذِكْرٌ لبيلاطس، أو الرومان! «إن إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، إله آبائنا مجّد فتاهُ يسوع، الذي **أسْلَمْتُموه أنتم، وأنكرتموه أمام وجه بيلاطس، وهو حاكمٌ بإطلاقه، ولكن أنتم أنكرتم القدُّوس البارّ، وطلبتم أن يوهب لكم رجلٌ قاتلٌ، ورئيسُ الحياةِ قتلتموه**، الذي أقامه الله من الأموات، **ونحن شهود لذلك.**» (أع٣: ١٣ــ١٥)

وهذا ذِكْرٌ تاريخي يُبَرِّىءُ بيلاطس من دم المسيح حقاً. ولكن الخطأ الذي وقع فيه، هو أنه لم يستطع أن يقف عند قوله، بمعنى أنه لم يستطع أن ينفذ ما يعتقده من جهة تبرئة المسيح. هنا لعنة السياسة، فسياسة الدولة تضحي بالحق في سبيل سلامة كيانها: يموت هو ولا أموت أنا. هذا هو عجز السياسة!! وعجز السياسة يأكل من جسم القانون!!

٧:١٩ **«أجابَهُ اليَهُودُ: لنا نامُوسٌ، وحَسَبَ نامُوسِنا يَجِبُ أن يَمُوتَ، لأنه جَعَلَ نَفْسَهُ ابنَ اللهِ».**

رفضٌ باتٌ للمساومة التي دخل فيها بيلاطس. وما كان يجب عليه أن يفتح باب الحوار مع الشعب والشاكين، في أمر إزهاق روح بريء. ثم الخطأ الثاني أن يخيِّرهم بين إطلاقه من عدمه، بأنِ يوازنه بمجرم محترف محكوم عليه بالفعل.

اليهود هنا يزكُّون طلبهم بضغطٍ، مُعْتَبِرين أن حُكْمهم «إلهيٌّ»، وما عليه إلاَّ التنفيذ، كما تراءى لهم، أو ربما كما أعطتهم الدولة الحاكمة من ضمانات في عدم التدخل في شئونهم الدينية. فالناموس اليهودي يقول بحسب سفر اللاويين (٢٤:١٦): «مَنْ جدَّف على اسم الرب فإنه يُقْتَلُ، يرجمه كل الجماعة رجماً، الغريبُ كالوطنيِّ، عندما يجدِّف على الاسم، يُقْتَلُ».

ولكن ما هو عمل بيلاطس كقاضٍ تأكد له بالفحص الشخصي والسماع المتأني لليهود من براءة المسيح؟ بالإضافة إلى معرفته السابقة كوالٍ للبلاد بشئون قيام هذه الحركة الجديدة التي يقودها المسيح في البلاد والتي يتبعها كثيرٌ من الشعب والرؤساء، هل كان من واجبه، بل بالأحرى هل هو في حدود صلاحياته، أن يبرِّىءَ إنساناً يتهمه اليهود بمخالفات دينية تدخل في اختصاصات رؤساء الكهنة؟

الجزء السادس من سير القضية

داخل دار الولاية (١٩:٨ـ١١)

الإعلان عن مصدر السلطان الذي يحكم به بيلاطس، والخطية الأعظم التي يتحمَّلها رؤساءُ الكهنة وحدهم

٨:١٩ **«فلما سَمِعَ بِيلاطسُ هذا القَوْلَ ازدَادَ خَوفاً».**

لقد أحسَّ بيلاطس بالرهبة تَسْري في كل كيانه، منذ تحدث مع المسيح في اختلائه الأول معه (١٨: ٣٣ـ٣٨)، وسماعه القول الذي قاله المسيح والذي يوحي بأصله الإلهي، وبرسالته فوق العادة من أجل الحق في العالم كله. وهنا، وعند سماعه بأصل المسيح يُعَادُ وَصْفُه مرة أخرى بأكثر

وضوح أنه ابن الله، زاد إحساسه بالخوف. إذ الآية لا تقول أنه ابتدأ يخاف بل «ازداد خوفاً». وقد انعكس هذا الخوف على الإجراء الذي كان قد عمله في التوِّ، إذ أمر بجلده؛ صحيحٌ أنه جَلَدَ إنساناً له علاقة بالآلهة اليهودية مُرْسَلاً من عالم آخر! إن العبادات الرومانية ليست غريبة عن هذا اللقب: «ابن الله»، خصوصاً وأن عبادات الشرق كان لها إشعاعات مؤثرة في السنين الأخيرة. فبولس الرسول يحكي لنا، بل ويستخدم معلومة مستمدة من أشعارهم: «**كما قال بعض شعرائكم أيضاً لأننا أيضاً ذُرِّيته.**» (أع١٧: ٢٨)

فالسؤال الذي بدأ يُرعب قلب بيلاطس، هل سيجرُّه اليهود لكي يدخل في حرب مع الآلهة؟ «وإن كان من الله، فلا تقدرون أن تنقضوه، لئلا توجدوا محاربين لله أيضاً» (أع٥: ٣٩)... لقد بدأ يزداد عنده، مع الخوف، الإحساسُ بالشؤم في هذه القضية. وكان بيلاطس على حقٍّ في كل أحاسيسه. فالواقفُ أمامه هو حقاً وبالحقيقة ابن الله، الذي تهتز وتسجد أمامه كل عروش السموات والأرض. وكان على حقٍّ، كلَّ الحق، عندما أحسَّ بالشؤم من صراخ اليهود الذي ظل يرنُّ في أُذنه حتى اليوم: «اصلبه اصلبه»، فقد تلوَّثَتْ يداه بالفعل بدم «ذلك البار»، الذي لم تكن حقيقته عن زوجته ببعيدة...

إن إحساس بيلاطس بالخوف، ثم بازدياد الخوف بتقدم القضية نحو لحظة الصلب، يكشف تماماً عن أن أحاسيس هذا الرجل كانت صادقة. وصراخه في وجه اليهود مرات ثلاث: «أنا لا أجد فيه عِلَّةً واحدة»، هو ليس فقط الصدق والحق، بل هو النُّبوَّة العفْويّة التي تستمد وَحْيَها من فم المسيح: «مَنْ منكم يبكِّتُني على خطية.» (يو٨: ٤٦)

٩:١٩ **«فدخل أيضاً إلى دار الولاية، وقال ليسوع: من أين أنت؟ وأما يسوع فلم يُعْطِهِ جواباً».**

«ظُلِمَ، أما هو فتذلَّل، **ولم يفتح فاه**، كشاةٍ تُساقُ إلى الذَّبْح،
وكنعجة صامتة أمام جازِّيها، **فلم يفتح فاه.**» (إش٥٣: ٧)

«من أين أنت»:

هل أتيتَ من نسل إنسان؟ أم من كائنٍ إلهي: أمِنَ السماءِ أنت أم من الأرض؟ «فالجموع لما رأوا ما فعل بولس، رفعوا صوتهم بلغة ليكأونية قائلين: إن الآلهة تشبَّهوا بالناس، ونزلوا إلينا.» (أع١٤: ١١)

كان من الصعب جداً على المسيح أن يقول لليهود من أين هو: «فاحتاط به اليهود وقالوا له: إلى متى تعلّق أنفسنا، إن كنت أنت المسيح، فقُلْ لنا جهراً» (يو١٠: ٢٤). ولما قال لم يصدقوا: «أجابهم يسوع: إني قلتُ لكم ولستم تؤمنون» (يو١٠: ٢٥)، فكم وكم يكون لبيلاطس؟ لا يمكن بالكلام أن يدرك إنسانٌ مَنْ هو المسيح، لا بد من الاستعلان، والوسيلة الوحيدة لدى المسيح لكي يعرف بيلاطس مَنْ هو حقاً، هي أن يُصلب!! حتى يعرف، ليس بيلاطس وحده، بل كل العالم! لهذا كان صمتُ المسيح، لم يكن تمنُّعاً، أو عزوفاً عن الكلام، لأنه لا يستطيع أن يزيد على ما قاله سابقاً (١٨: ٢٥)، أما استعلانُه الكلّي، فيستحيل، لأن عقاربَ الساعة لم تكن قد بلَغَتْ السادسة بعد!

كان الذي يُقْلِقُ بيلاطس الآن، هو الإجراءاتُ العنيفة التي اتخذها في حقه، لقد بدأت تضغطُ على أعصابه، إنه يودُّ أن يعرفَ نفسه هل هو بريء فيما صنع، أم أنه واقعٌ تحت اتهام الآلهة!! لذلك حاول بصورة أخرى أن يبتزَّ من المسيح الجواب:

١٩: ١٠ «فقال له بيلاطسُ: أما تُكلّمُني؟ ألستَ تَعْلَمُ أنَّ لي سُلْطاناً أنْ أصلِبَكَ، وسُلْطاناً أنْ أُطْلِقَكَ؟».

لم يكن بيلاطس، بهذا القول، يُرْهِب المسيح. كما لم يكن يهدِّد، بل كان يتوسَّل باسم السلطان ἐξουσία الذي في يده. لم يرفع السلطان فوق المسيح، بل جعله تحت أمره، لو هو أسَرَّ إليه بسِرِّه، فيريح نفسه ويُنير الطريق أمام النطق اللائق بالحكم. أنْ يصمت المسيحُ، في نظر بيلاطس، وأمام الناس، وفي أي مكان وزمان، فهذا معقول ولا ضررَ يتأتّى منه، أما الآن فأنا بيلاطس، لي الكلمة الأخيرة لأُسْدِلَ بها الستار على هذه القضيّة العصيّة! فكيف تصمت ولماذا؟ كان بيلاطس الروماني يظن في بادىء الأمر، أن على المسيح أن يرتجف أمامه، وبالنهاية انعكس الوضع.

المسيح لم يكسر صمته بالنسبة للسؤال، بل أراد أن يصحح لبيلاطس من أين يستمد مصدر سلطانه، في أن يَصْلِبَ أو يُطْلِقَ! المسيح لم يكن مشغولاً فيما سيحدث له على يد بيلاطس، بل عينه كانت فوق، مسلّطة على الآب الذي خرجت من لدُنه المشورة الأزلية، لتتم في وقتها على يد بيلاطس أو غيره.

أما صمتُ المسيح، مع جلال هدوئه، فقد صوَّر في قلب بيلاطس الرد على سؤاله: «من أين

أنت؟» (٣).

١٩: ١١ **«أجابَ يَسُوعُ: لم يَكُنْ لَكَ عليَّ سُلْطانٌ البَتَّةَ، لَوْلَمْ تكُنْ قد أُعْطِيتَ من فَوْقُ. لذلكَ الذي أسْلَمَني إليكَ، له خطيةٌ أعظَمُ».**

هذا التصوُّر المديد الذي تصوَّره بيلاطس في أمر سلطانه، أنه هكذا كما يريد يفعل، هو الذي حرَّك المسيح ليردَّه إلى الصواب، و يضعه هو وسلطانه تحت التدبير السماوي العالي.

كان هذا، من فم المسيح، القولَ الفَصْلَ في العلاقة بين السلطة المدنية والسلطة الإلهية في حكومة الناس والعبث بمصائرهم.

فليس تعيين الحاكم والقاضي من قِبَل السلطة المدنية العليا كالإمبراطور، يعطيه السلطان المطلق أن يعمل كما يشاء أو حتى كما تشاء السلطة العليا التي تُشرف عليه وتراجعه بمقتضى القوانين الوضعية. إذ لا يزال فوق حكومة الناس حكومة الله، فالله يضع حدوداً لصاحب السلطان لا يتعداها: «ليس سلطانٌ إلاَّ من الله، والسلاطين الكائنة هي مُرتَّبة من الله.» (رو١٣: ١)

حينما قال المسيح لبيلاطس: «لو لم تكن قد أُعطيتَ من فوق ἄνωθεν »، فقد كان يشير إلى المكان الذي أتى منه، ردًّا على سؤال بيلاطس: «من أين أنت»؟ هذه أوَّليات المعرفة الإنجيلية لسلطان الله في العالم وعلى الناس: «قامت ملوك الأرض، واجتمع الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه. لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك القدوس يسوع، الذي مَسَحْتَه، هيرودسُ وبيلاطسُ البنطي، مع أمم وشعوب إسرائيل، ليفعلوا كل ما سَبَقَتْ فعيَّنَتْ يَدُكَ ومشورتك أن يكون» (أع ٤: ٢٦-٢٨)، «هذا أخذتموه مُسلَّماً بمشورة الله المحتومة، وعلمه السابق و بأيدي أثمة صلبتموه وقتلتموه» (أع ٢: ٢٣). فإن كان بيلاطس يحكم بسلطان، ففوق سلطانه الشخصي، هناك القانون الذي يعمل بسلطانه. فبقدر أمانته للقانون، يكون أميناً في سلطانه. وفوق القانون والسلطان المدني، عينُ الله التي لا تغفل ولا تنام!!

(٣) جاء في قاموس أكسفورد للكنيسة المسيحية عن بيلاطس البنطي، أنه بحسب يوسابيوس القيصري في تاريخ الكنيسة (H.E. II,7) قد انتحر. ولكن في التقليد الشرقي أنه صار مسيحياً هو وزوجته كلوديا بروكيولا Claudia Procula. والتقليد القبطي، كما يقول قاموس أكسفورد، أنه صار شهيداً وقديساً. وتعيِّد له الكنيسة الأثيوبية في يوم ٢٥ يونيو.
أنظر كتاب: «حياة المسيح»، فردريك و. فارار، تعريب: د. جورجي يوسف عقداوي، ١٩٤٩، ص٧٧٠.

بيلاطس لم يكن أميناً في سلطانه الذي يعتزُّ به، بل أساء إليه؛ فبينما هو ينطق بالبراءة ثلاثاً، نَطقَ بالإعدام تحت الخوف والإرهاب. هذه تُحسَبُ له خطية إزاء القانون، و بالتالي إزاء الله. ولكن الذي دسَّ هذه القضية، بل هذه الخطية، في يدِ بيلاطسَ، يتحمَّل أضعاف ما يتحمَّله بيلاطس. يقول المسيح: **«لذلك الذي أسْلَمني إليك له خطية أعظم»!!**

فبيلاطس أخطأ في الإلتزام بالقانون والسلطان الذي أعطاه أن يقضي، وهو قانون مدني، تحت عينِ الله على كل حال. أما قيافا ـــ ومَنْ معه ـــ فقد فاق في خطئه كلَّ تعقُّل وكلَّ تصوُّر، فقد استخدم " القانون "، أي الناموس الإلهي نفسه وسلطانه الذي أخذه من الله، استخدمه لتلفيق تهمة القتل: «لنا ناموسٌ، وحسب ناموسنا يجب أن يموت» (يو١٩: ٧). بيلاطس أخطأ في الإلتزام بالقانون المدني فله خطية، وقيافا واليهود استخدموا القانون الإلهي وسلطان الله في ارتكاب خطية قَتْلٍ عمداً مع سبق إصرار واعتراف، فلهم خطية أعظم!

الله هو الذي دفع المسيح ليد قيافا ـــ ومَنْ معه ـــ و يد بيلاطس، لا لكي يحكم قيافا ـــ ومَنْ معه ـــ بقتله مخالفين الناموس، بل ليتعرَّفوا على المسيَّا حسب الناموس، ودفعه لبيلاطس لكي يحكم بيلاطس بحسب عدل القانون الروماني، وليس لكي يُلغي القانون الروماني، بسلطانه الشخصي، فيحكم بسلطانه بغيرِ ما يحكم به القانون الروماني! ولكن لأن الكأس، كأس الآلام المبرِّحة والفضيحة والإهانة والصليب والدم المسفوك، قد تسلَّمها المسيح من الله راضياً بمشورة الله الأزلية، وإن كانت خلَّفت خلاصاً لنا ومجداً له ـــ إلا أن الخير الوفير المترتِّب على شُرْب المسيح لكأس الموت، لا يمكن أن يشفع أبداً في خطية بيلاطس والخطية الأعظم التي لقيافا ومَنْ معه!

نعم، كان لا بد أن يموت المسيح، ولكن موتَ المسيح كان لا بد له من قلب الإنسان الخائن ونفوسٍ طامحةٍ وحاقدةٍ وقلوبٍ جامدةٍ وشخصياتٍ مهزوزة، وهي حاضرة في كل زمان ومكان. لم يُضِفْ الله على خبثهم، ولا كلَّفهم بتشغيل مواهبهم الشيطانية، بل تَرَكَهُم يعملون حسب مشيئاتهم وغرائزهم، «حيثما تكن الجثة فهناك تجتمع النسور» (مت٢٤: ٢٨). ولكنهم، وقت الحساب، يقفون في الصفِّ وخطاياهم أمامهم!!

وقيافا، كان بحكم وظيفته التي أعطاها له الله، له الامتياز الأول والأعظم في التاريخ اليهودي كله، ومن بين جميع رؤساء الكهنة منذ أن قامت للكهنوت رئاسة على يد هارون، وذلك أن يتعرَّف على المسيَّا و يقدِّمه للشعب والعالم!!

قيافا خيَّب آمال هارون، أباه الأول في كرامة كهنوته؛ وخيَّب آمال موسى نبيِّه في نبوَّته؛ وخيَّب آمال داود، مَلِكِهِ الأغرّ في ملوكيته؛ وخيَّب آمال الآباء جميعاً والأنبياء الذين اجتهدوا بكل جهد، ووصفوا المسيح الآتي بكل الإشارات والإمارات، حتى يُسهِّل على الكُهَّانِ ورؤساء الكهَّان في ملء الزمان أن يتعرَّفوا عليه. ولكن قيافا ونسيبه اشتركا في التربُّص بالمسيح، الابن الوحيد الوريث، كلصوصِ الكَرْم، ووضعوا الخُطَط، ونصبوا الشَّرَاكَ، خارج الكرم في جثسيماني، وقالوا: «هلموا نقتله» (مت ٢١:٣٨). استخدموا سلطانهم الكهنوتي، وناموسهم الإلهي، وزوَّروا الحقائق، ولفَّقوا التُّهم، وقبضوا عليه، وأوثقوه كلِصٍّ، وأسلموه للحكم، وتوسَّلوا بكل وسيلة لدى بيلاطس القاضي الأممي أن يَحْكمَ لهم. ولما أحسُّوا أنه كشف حسدهم وكيدهم وغشَّهم، بينما هو طالبٌ بإطلاقه، تمسَّحوا في الحال في قيصر الملك الوثني، وادَّعوا الرعوية له، وجحدوا الله ملكهم الأبدي، وأنكروا مسيحهم الأزلي، وباعوا أُمَّتهم ثمناً لقتل مسيَّا الدهور ومسيح الخلاص.

«لذلك الذي أسْلَمَني إليك، له خطية أعظم»:

كانت هذه هي آخر كلمة قالها المسيح في ختام هذه المحاكمة، وكانت بمثابة كشف الحساب النهائي لكل القضاة بكل أتعابهم، وأصحاب الأدوار الذين قاموا بتكميل قصة الصليب، وحيث أعلن المسيح أنه هو الديَّان الحق الوحيد، الذي سوف يَمْثُل أمامه كل الذين خانوا الحق والأمانة، وتعدَّوا القانون والناموس عمداً، وباعوا ضمائرهم وإلهم في سبيل أمجادهم الشخصية وأطماعهم الدنيوية.

الجزء السابع والأخير من سير القضية

خارج دار الولاية (البريتوريون) (١٩: ١٢–١٥)

تهديد القاضي. فليحيا قيصر، ولْيَمُتْ المسيح!

١٢:١٩ **«من هذا الوقتِ، كانَ بيلاطسُ يطلبُ أنْ يُطلِقَه. ولكن اليهودَ كانوا يَصرُخونَ قائلينَ: إنْ أطلقتَ هذا، فلستَ مُحِبّاً لقيصَرَ. كلُّ مَنْ يَجعَلُ نفسَهُ مَلِكاً، يُقاوِمُ قيصَرَ».**

«من هذا الوقت»:

ليس بعد هذا الوقت، ولكن لحظة قال المسيح قَوْلَتَه وكشف لبيلاطس: إن «العليّ متسلِّط في

مملكة الناس، وأنه يعطيها مَنْ يشاء ... وعند انتهاء الأيام أنا نبوخذنصّر رفعت عينيَّ إلى السماء، فرجع إليَّ عقلي، وباركتُ العلي، وسبّحتُ، وحمدتُ الحيَّ إلى الأبد، الذي سلطانه سلطانٌ أبدي، وملكوته إلى دَوْرٍ فَدَوْرٍ. وحُسِبَتْ جميعُ سكان الأرض كلا شيء، وهو يفعل كما يشاء في جند السماء وسكان الأرض، ولا يوجد من يمنع يده أو يقول له ماذا تفعل ... الذي كل أعماله حقٌّ، وطُرُقُهُ عدل، ومن يسلك بالكبرياء فهو قادر على أن يُذلّه.» (دا٤: ٣٢و٣٤ و٣٥و٣٧)

فعندما أدرك بيلاطس ما قاله المسيح، تأكد له خوفه الذي خافه، وابتدأ يسعى (يطلب) بنفسه، وليس لدى اليهود، أن يُطلِقه. ولكن إصرار بيلاطس على الإطلاق، كان يقابله من قيافا المتربّص ازديادٌ وهياجٌ في الصراخ، فكانت وراءه جوقة خُدّامِ (ضباط) الهيكل المدرَّبة والملقَّنة متى وكيف يعلو صوتها! كان سعي قيافا ومن معه لسفك دم المسيح، جنونياً، رصد له كل قوته وماله وسلطانه ودهاءه، وبمساعدة الشيطان! «هذه ساعتكم، وسلطانُ الظلمة.» (لو٢٢: ٥٣)

«إن أطلقتَ هذا، فلستَ محبّاً لقيصر، كلُّ من يجعل نفسه مَلِكاً يقاوم قيصر»:

ليحيا قيصر، وليَمُتْ المسيح!! وفي جنون وفقدان وعي المسئولية عن ثبات الأمة وكرامتها، استهان قيافا بيهوديته وانزلق إلى التهديد، حتى راهن بولائه لله، في سبيل سَفْكِ دم المسيح، وارتمى تحت رجلي قيصر، متقمصاً الولاء للإمبراطورية الرومانية والدفاع عن «الحب والأمانة» لقيصرها!! وكان ذلك منه بقصد اكتساب الحق بعدئذ في إلقاء التهمة على بيلاطس، أنه يخون أمانته وحبه لقيصر، بل ويقاومه متسبّباً في قيام الثورة ضد روما!!

وهكذا، وبعد ما استفرغ قيافا اللعب بكل أوراقه الدينية، من جهة الولاء للناموس، وتعدّي الناموس، والإلتزام بالناموس «لنا ناموس»، وبعد أن وجد أن كل ذلك كان لعبة مكشوفة لدى بيلاطس، الذي حينما وَزَنَها بميزان العدالة وَجَدَ أنه ليس فيه علّة واحدة مما يقولون! أسرع قيافا بالورقة الأخيرة والخطيرة، ورقة اللعب بالسياسة، وترك الولاء للناموس وصاحب الناموس للإلتجاء إلى الولاءِ لقيصر وحبّ قيصر، لمحاولة زعزعة كرسيّ بيلاطس من تحته بالإلتجاء إلى الشكاية لقيصر!

ولكن يا للحزن المرير؛ كان مجرد التهديد بهذه السياسة، بإعلان الولاء لقيصر، معناه إعطاء الله القفا دون الوجه. فكان هذا السلوك المشين من رئيس كهنةٍ، بمثابة تَرْكِ عبادة الله الحي والسجود للأوثان! وهكذا، وفي ساعة، انقلبوا من يهودٍ متعصِّبين للناموس إلى رومان متعصِّبين لقيصر!! وكانت هذه التهديدات الخطيرة قد لقَّنها قيافا لخُدّامِهِ (الضباط)، ولكل الشعب،

ليصرخوا بها صراخاً بلغ عنان السماء، وظلَّ يتردد في أذن يوحنا ستين سنة! وظلت تردِّده أجواء السماء والأثير، وتردِّده الأيام إلى يوم الدين!

«مُحبّاً لقيصر Amicus Caesaris»:

هذا النعت ليس تركيباً من ألفاظ اليهود، بل كان هذا «**لقباً**» للضباط العِظَام الذين يقومون بأعمال جليلة لحساب الإمبراطورية، وبالتالي لقيصر. ولكن اللقب المضادّ وهو «**ليس محباً لقيصر**»، معناه نوع من الخيانة، أو نعتٌ لمن يتكلم ضد قيصر: "crimen majestatis"([4]). ومعروف أن طيباريوس قيصر كان ذا أذنٍ مفتوحةٍ لكل وشاية!!([5])

ولْيُلاحِظ القارىء، كيف انتقل اليهود من الوضع الأقل في الاتهام (بالكلام): «**ليس مُحباً لقيصر**»، إلى الوضع القاتل: «يُقاوِمُ قيصر»، الذي معناه الخيانة والثورة السافرة.

فلو أخذنا في الاعتبار ــ وهذا مهم للغاية ــ أنه كان معروفاً لدى اليهود أن بيلاطس كان على غير وفاق مع قيصر([6])، بالإضافة إلى معرفتهم الوثيقة بالتصرفات الأخرى، سواء كانت رشاوي، أو تجاوزاتٍ أخلاقية ووظيفية، لأدركنا مدى خطورة هذا التهديد عليه.

١٩ : ١٣ «فلما سَمِعَ بيلاطسُ هذا القولَ، أَخْرَجَ يَسُوعَ، وجَلَسَ على كُرْسِيِّ الوِلايَةِ في موضعٍ يُقالُ له: البَلاَطُ، وبالعبرانية جَبَّاثَا».

بمجرد أن أدرك بيلاطس ما يُخطِّطه اليهود، وأنهم على استعداد فعلاً أن يبيعوا أنفسهم لقيصر ليتخلصوا منه، لم يكن أمامه إلاَّ حلّ من اثنين: إما الوقوف مع الحق والقانون، وبالتالي مع المسيح لتبرئته، وإما الانسحاب نهائياً من أمام العاصفة الهوجاء وتسليم المسيح لهم ليصنعوا به ما يريدون. وفي الحل الأول فقط، تكون المجازفة بكرسيه وربما بحياته هو. لذلك فضَّل الحل الثاني: فلأحيا أنا، ولْيَمُتْ المسيح! وقد تغلَّب الخوفُ من قيصر على خوفه من المسيح. فقد أيقظت فيه تلويحات اليهود بالإلتجاء إلى قيصر، القسوة التقليدية التي لا تعرف الرحمة.

«أَخْرَجَ يسوعَ، وجلس على كرسي الولاية»:

كان المسيح داخل دار الولاية، فأخرجوه خارجاً. وجلس بيلاطس على كرسي الحكم، بمعنى

---

4 Hengstenberg, *op. cit.*, p. 397. وتعني في اللاتينية: «مجرمٌ في حق الجلالة»!

5 The Pulpit Commentary, *op. cit.*, p. 421.

6 Josephus, *Ant.*, XVIII.3.1.2.

جلس ونطق في الحال بحكم الصَّلْبِ. وهنا يكمِّل القديس متى هذا المشهد هكذا:

«فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئاً، بل بالحري يحدث شَغَبٌ، أخذ ماءً وغسل يديه قدام الجمع، قائلاً: إني بريءٌ من دم هذا البارّ، أبْصِروا أنتم. فأجاب جميع الشعب، وقالوا: دَمُهُ علينا وعلى أولادِنا.» (متى٢٧: ٢٤و٢٥)

«جَبَّاثَا Gab-Baitha (٧)»: Λιθόστρωτον

ومعناه «الرصيف الذي يتبع البيت»، وهو مكان مرتفع مستدير، يقع بين قلعة أنطونيا و بين الهيكل، حيث كلمة Baitha أي «البيت» تعني هنا «الهيكل». هذه الأوصاف كلها هي ذكريات شاهد عيان.

١٤:١٩ «وكان استعدَادُ الفِصْحِ، ونحوُ الساعةِ السادسةِ، فقالَ لليهودِ: هُوَذَا مَلِكُكُمْ».

بعد ما حدَّد ق. يوحنا المكان الذي فيه نُطِقَ بالحكم، حدَّد اليوم ثم حدَّد الساعة. أما اليوم فحدَّده بالنسبة للفصح، وليس لأيام الأسبوع، كما يقول بعض الشراح. فهو يوم الاستعداد للفصح، ولكن كلمة «الاستعداد» تُستخدَم كالعادة لتدل على الاستعداد للسبت أيضاً، ولكن ق. يوحنا أوضحها صراحة أنه استعدادٌ للفصح. ولكن الحاصل أنه كان يوم الجمعة وهو بطبيعته يسمى الاستعداد للسبت «باراسكيفي» (παρασκευή)، ففي هذه السنة كان الاستعداد للفصح هو أيضاً الاستعداد للسبت، لأن عيد الفصح كان يوم السبت.

وفي مكان قادم (الآية ١٩: ٣١) عاد ق. يوحنا وأوضح ما يدلُّ دلالة قاطعة أن يوم عيد الفصح في هذه السنة كان يوم السبت بقوله: «لأن يوم ذلك السبت كان عظيماً»، أي كان يوماً مقدساً كَوْنَه عيد الفصح، ومُقدّساً كَوْنَه يوم السبت أيضاً.

«الساعة السادسة (من النهار)»:

يقول العلماء، ومنهم وستكوت، إن التوقيت الذي سجَّل به ق. يوحنا الساعات، كان توقيتاً على غرار التوقيت الغربي في روما، وكان سائداً في شمال آسيا الصغرى(٨)، وهو التوقيت بالساعة

---

[7] Westcott, citing the Talmud, *op. cit.*, p. 272.

[8] Westcott, *op. cit.*, p. 282.

الرسمية التي يُذْبَحُ فيها الفصح(٩)، والتي يُبْدَأُ فيها بأكل الفطير(١٠).

هنا يبدو قول القديس بولس الرسول مفصّلاً على الواقع والتقليد حرفاً بحرف: «إذاً، نقُّوا منكم الخميرة العتيقة، لكي تكونوا عجيناً جديداً كما أنتم فطير. لأن فصحنا أيضاً، المسيح، قد ذُبحَ لأجلنا. إذاً، لنعيِّد ليس بخميرة عتيقة ولا بخميرة الشر والخبث، بل بفطير الإخلاص والحق.» (١ كو٥: ٧و٨)

وهنا حَبْكٌ للتاريخ الخلاصي. فإن الساعة التي خلّص الله فيها إسرائيل من عبودية مِصر وسُخْرَةِ فرعون، كانت هي نفس الساعة التي انخبلت فيها إسرائيل وقدّمت فيها عريسها ليُذبَحَ، ليَخْلُص به العالم من عبودية الخطية وسُخْرَةِ الشيطان. نعم، وفي هذه الساعة، حلَّ الأصلُ محل الصورة، وذُبح حَمَلُ الله عِوَضَ الخروف الداجن، واستُعْلِنَ المخلِّص الذي عَبَرَ بشعبه؛ فانتهى الطقس، وبلغت الذكرى منتهى تحقيقها، وفِصْحُ مِصْرَ صار فصحَ العالمِ.

«هوذا مَلِكُكُم»:

+ «أنا هو الرجل!!
الذي رأى مذلَّةً بقضيب سخطه،
أبْلَى لحمي وجِلْدي. كَسَّر عظامي،
ثَقَّل سِلْسلتي، فلا أستطيع الخروج،
مَيَّل طُرقي، ومزَّقني. جعلني خراباً،
مَدَّ قوسَه ونَصَبَني كغرضٍ للسهم،
أدْخَل في كُلْيَتيَّ نِبالَ جُعْبته،
صِرْتُ ضُحْكةً لكل شعبي، وأغنية لهم اليوم كله،
أشْبَعَني مرائرَ، وأرْوَاني أفْسنْتيناً، وجَرَشَ بالحصى أسناني،
ذِكْراً تَذْكُرُ نفسي، وتنحني فيَّ،
جيدٌ أن ينتظر الإنسان، و يتوقَّع بسكوت خلاصَ الربِّ!» (مراثي ٣: ١ــ٢٦)

هنا بيلاطس يقول الحقيقة، دون أن يدري. فحقاً بالحقيقة «هوذا ملككم»!! ولكن عيونهم لا تُبْصر، وآذانهم لم تسمع!! هنا بيلاطس يسخر، ولكن ليس من المسيح، بل من اليهود. ولكن

[9] Bultmann, citing others, *op. cit.*, p. 664.
[10] Ibid.

ق. يوحنا لم يكن يسخر، بل هو يسجِّل أمام التاريخ، أنه في هذا اليوم وفي الساعة السادسة صدر الأمر الإلهي بأن يُرْفَعَ ابنُ الإنسان عن الأرض، ليجذب الجميع، ويملِكَ على العالم.

١٥:١٩ «فصرخوا: خُذْهُ خُذْهُ آصلِبْه. قالَ لهُم بيلاطسُ: أأَصْلِبُ مَلِكَكُم؟ أجَابَ رؤساءُ الكهنةِ: ليسَ لنا مَلِكٌ إلاَّ قيصَرَ».

«فصرخوا»: ἐκραύγασαν

وتعني: «صرخوا بصوت واحد عالٍ، وبجميع الأصوات كلها». إنهم يجحدون أي علاقة تربطهم بالملك المسيح. خُذْهُ خُذْهُ، وكأنه أصبح عاراً عليهم، وهم يتبرأون من وجوده. اصْلِبْه، ليتخلَّصوا من تعييره وتبكيته لهم ولأعمالهم. كانت شهوة رؤساء الكهنة في التخلُّص من المسيح ممزوجة بالتَّشَفِّي، فلم يكن أقل من الصَّلْبِ يريح نفوسهم، التي أقلقها فيهم.

«قال لهم بيلاطس: أأصْلِبُ ملككم»:

هنا بيلاطس يُضْمر لليهود إحراجاً ما بعده إحراج. فنحن لو نحَّينا جانباً نظرة اليهود، أن هذا إدعاءٌ من المسيح، وأنه ليس ملكاً، نجد هنا بيلاطس يُطلق سؤالاً عاماً قد لا ينصبُّ على المسيح! أأصْلِبُ ملككم؟ وفي الحقيقة، فإن ملكهم هنا، في ضمير ق. يوحنا، هو الله. كان يجب أن يلتفت رؤساء الكهنة إلى هذا التحذير، فهو يمس كرامة اليهود، ولكنهم قَبِلُوا المهانة، وزادوا عليها لأنفسهم.

«أجاب رؤساء الكهنة ليس لنا مَلِكٌ إلاَّ قيصر»:

لينتبه القارىء، فالذي يردُّ هنا هذه المرة ليس اليهود عامة، ولا رؤساء الكهنة والخُدَّام أصحاب جوقة الهتاف، ولكن رؤساء الكهنة فقط، ممثلو الأمة اليهودية، فهؤلاء هم الذين يستنكرون أنْ يكون لهم ملك. كيف؟ وأين الله؟ لقد طمسوا معالم إيمانهم وفخر أُمَّتهم، لقد جدَّفوا تجديفاً.

كيف؟ ومَنْ الذي قال: «إننا ذُرِّية إبراهيم ولم نُسْتَعْبد لأحد قط» (يو٨: ٣٣)؟ أهكذا يبيعون حريتهم، ويقبلون العبودية علناً في سبيل سَفْكِ دم مخلِّصهم؟! لقد مات رجاؤهم في المسيَّا إلى الأبد، ليس لنا ملكٌ إلاَّ قيصر! نعم، هذا حقٌّ، لأنهم أنكروا ملكهم، بل أسْلَمُوه لقيصر ليقتله لهم!! انزلاقهم في منحدر السياسة الرهيب، أسقطهم بالنهاية في يد قيصر، وجعلهم يتنازلون برضاهم عن ملكوت الله، واستبدلوه بملكوت العالم ورئيسه!

لقد تخلَّصوا من المسيح، وارتاحوا لقيصر، لقد جحدوا مُلوكيَّته أولاً، ثم تمادوا فجحدوه كلية.

لقد سمع الله هذا الصوت من السماء، وكتب أمامه سِفْرَ تَذْكِرَةٍ، واستجاب. كما حدث في أيام صموئيل النبي: «فقال الرب لصموئيل: اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك، **لأنهم لم يرفضوك أنت، بل إياي رفضوا، حتى لا أملِكَ عليهم.**» (١صم٨: ٧)

هم طلبوا أن يملكَ عليهم قيصر، فملَّكه الله عليهم بالفعل، فاستعبدهم، وأذلَّهم، وخرَّب أورشليمَ فَخْرَ مدائنهم؛ مدينةُ الملك العظيم صارت هي وهيكلهم مُحْرقةً بالنار، ذَبَح كهنتهم على مذبح ذبائحهم، نجَّس قُدْسَ أقداسِهم، نفاهم إلى أقصى الأرض وشتَّتهم في جميع ممالك العالم: «مخيف هو الوقوع في يدي الله الحي!» (عب١٠: ٣١)

في نهاية هذا المشهد، لا يسعُنا إلاَّ أن نقول إن اليهود و بيلاطس، على السواء، متهمون بالخيانة، اليهود للسلطان الذي أخذوه من الله وللمبادىء والناموس ومَلِكهم الإلهي، و بيلاطس لمركزه كقاضٍ ووالٍ، وأمانته للحقيقة والعدالة.

ثالثاً ــ النهاية
(١٩ : ١٦ــ٤٢)

في هذا الجزء من رواية المسيح يختص إنجيل يوحنا ببعض الوقائع، التي لم يذكرها أحدٌ غيره من الإنجيليين:

(أ) الإصرار على كتابة العنوان (٢٠ــ٢٢).

(ب) الوصية الأخيرة بخصوص والدته العذراء القديسة مريم والتلميذ المحبوب (٢٨ــ٣٠).

(ج) الطعن بالحربة في جنب المسيح وخروج الدم والماء (٣١ــ٣٧).

(د) خدمة نيقوديموس للجسد (٣٩ــ٤٢).

(هـ) يوحنا شاهد عيان حتى الآية (٣٥).

و ينقسم هذا الجزء من الإنجيل إلى العناصر الآتية:

١ ــ الصَّلْب (١٦ــ٢٢).

٢ ــ المرافقون للصليب (٢٣ــ٢٧).

٣ ــ النهاية: «قد أُكمل.» (٢٨ــ٣٠)

٤ ــ طلبان يُقدَّمان إلى بيلاطس، يستجيب لهما في الحال (٣١ــ٤٢).

و يلاحظ في رواية ق. يوحنا أن أسلوبه يتميز بالتلميح المستمر لتكميل ما قيل بالأنبياء في العهد القديم، سواء من جهة النبوّات أو تحقيق الصور (٢٤و٢٨ و٣٦و٣٧)، رافعاً المسيح إلى مُرْتَفع المجد، فوق مجرى حوادث الآلام. مؤكِّداً إرادة الله والمسيح في كل ما يحدث، و بصورة خاصة، يقف عندها ق. يوحنا وقفة استعلان وإشارة وتنبيه، عندما يطبع على الرب صورة «**الحَمَلِ الفصحي**» كمذبوح ومأكول.

١ ــ الصلب
(١٩: ١٦ــ٢٢)

١٩: ١٦ **«فحينئذٍ أسْلَمَهُ إليهم ليُصْلَبَ. فأخَذُوا يَسُوعَ، ومَضَوا به»**[11].

«أخذوه»: παρέλαβον

أي قبلوه منه، وهي نفس الكلمة التي جاءت في الأصحاح الأول «إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله οὐ παρέλαβον ». وهكذا أسلوب ق. يوحنا في اختياره للكلمات يحمل وراءه الشرح والمقارنة والتهكم والاستعلان، بطريقة غاية في الحِذْقِ، أو على الأصح غاية في الاستنارة. فاليهود لم يقبلوه من يد الله، ولا من الآباء، ولا من نبوات الأنبياء ليفرحوا به ويحبوه، و يصيروا به أبناء الله الحي؛ بل قبلوه من يد بيلاطس الوالي الأممي ليصلبوه، قبلوه كمدَّعي البنوَّة لله، وكمضلِّل الشعب ومفسد الأمة، بل وفاعل شر وكاسر الناموس، كمقاومٍ لقيصر، وهادمٍ للهيكل؛ قبلوه ليسفكوا دمه، ويشفوا غليلهم فيه ويقبلوا دمه عليهم وعلى أولادهم إلى الأبد!

تسلَّموا فريستهم، وأسرعوا، فلم يَعُدْ من الزمن ما يكفي أن يواروه التراب قبل حلول السبت وهو العيد، حيث لا يحلُّ بقاء أجساد معلَّقة على خشبة.

كانت لهفة ونشاط وتشفِّي اليهود الغيورين على اليهودية وعلى الناموس وعلى الحرف القاتل، متساوية تماماً مع لهفة الجنود الرومان المتعصبين لغطرسة الجنس الروماني المتفوِّق المتعصب لسيادته، وكان كل منهما يسعى للفتك بفريسته!! «لماذا ارتجَّت الأمم... قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساءُ معاً على الربِّ وعلى مسيحه.» (مز٢: ١و٢)

بيلاطس لم ينطق بنفسه بالحكم، كما تقتضي الأصول المتَّبعة في القضايا، وهذا نتحققه أيضاً من الأناجيل الثلاثة. فقد سلَّمه لرؤساء الكهنة ومَضَوا به (مت٢٧: ٢٦؛ مر١٥: ١٥؛ لو٢٣: ٢٥). لقد حاول أن يختزل إجراءاته ضد العدالة، إلى أقصى حد ممكن. فكان مُساقاً في هذه القضية ضد إرادته[12]. وهذا واضح غاية الوضوح، في رواية إنجيل القديس متى: «فلما رأى

(١١) حسب القانون الروماني، يتحتم أن يمر يومان ــ على الأقل ــ بين يوم إصدار الحكم بالإعدام و يوم تنفيذه. ولكن لم تكن القوانين الرومانية مرْعية في هذه القضية بصورة عامة. (Edersheim, A., op. cit., p. 582).

12 Westcott, *op. cit.*, p. 273.

بيلاطس أنه لا ينفع شيئاً (محاولاته المتكررة لإطلاقه)، بل بالحري يحدث شَغَبٌ، أخَذَ ماءً وغسل يديه قدام الجمع، قائلاً: إني بريءٌ من دمِ هذا البار، أبْصِرُوا أنتم. فأجاب جميع الشعب، وقالوا: دمُهُ علينا وعلى أولادنا.» (مت٢٧: ٢٤و٢٥)

فبهذا الإجراء وهذه السياسة التي سار عليها بيلاطس من أول القضية لنهايتها، أصبح اليهود وعلى رأسهم رؤساءُ الكهنة هم وحدهم المتحمّلين **تنفيذ سَفْكِ الدم**، بل **وتنفيذِ الحكم إرادياً**، (لأن عَسْكَرَ الرومان قاموا بالعمل) بمقتضى قانون غريب عنهم ــ أي الصَلْبِ، لأن الموت صَلْباً ليس في صُلب الناموس، بل هو وسيلة رومانية وثنية.

كما يُلاحِظ القارىء المدقِّق، أن بيلاطس لم يَقُلْ «**أسْلَمَه إليهم ليصلبوه**» كَمَنْ يعطيهم حق الصَّلْب، بل النطق الوحيد فيما يختص بالصلب جعله بيلاطس مبنيًّا للمجهول وفاعلُه غير محدَّد «**ليُصْلَب**». صحيح أنهم لم يصلبوه بأيديهم، ولكن هم الذين صلبوه، وإنما بأيدي الأمم، وهي أيدي أقوام أثمة: «وبأيدي أثمة صلبتمُوه وقتلتمُوه» (أع٢: ٢٣)، «ورئيس الحياة قتلتموه... ونحن شهودٌ لذلك.» (أع٣: ١٥)

ولكن كما سبق وقلنا، فإن كُلًّا من اليهود وبيلاطس مُدَانَان بالخيانة للحق والقانون والعدالة، وبالتالي لله!!

١٩: ١٧ «فخَرَجَ، وهو حَامِلٌ صَليبَهُ، إلى المَوْضِعِ الذي يُقَالُ له مَوْضِعُ الجُمْجُمَةِ. ويُقَالُ له بالعبرانيةِ جُلْجُثَةُ».

«**خرج**»: ἐξῆλθεν

«فقال الرب لموسى: قَتْلاً يُقْتَلُ الرجلُ. يرجمه بحجارة كل الجماعة خارجَ المحلّة.» (عدد ١٥: ٣٥)

«فأخذ إبراهيم حَطب المحرقة، ووضعه على إسحق ابنه وأخذ بيده النار والسكين.» (تك٢٢: ٦)

خرج خارج المدينة، فمكان المحاكمة كان قريباً من الباب الشمالي الغربي المؤدي إلى خارج المدينة، حيث مكان الصلب.

ولكن في كلمة «خرج» معانيَ روحية التقطها القديس بولس في رسالته إلى العبرانيين: «فإن

الحيوانات التي يُدْخَلُ بدمها عن الخطية إلى الأقداس، بيد رئيس الكهنة، تُحرَقُ أجسامُها خارج المحلة. لذلك، يسوع أيضاً، لكي يقدّسَ الشعب بدم نفسه، تألم خارج الباب. فلنخرج، إذاً، إليه خارج المحلة، حاملين عَارَه (الصليب)، لأنْ ليس لنا هنا مدينةٌ باقيةٌ، لكننا نطلب العتيدة.» (عب١٣: ١١ــ١٤)

طريق الآلام VIA DOLOROSA(١٣):

هو الطريق الذي سار فيه المسيح وهو حامل صليبه من أمام قلعة أنطونيا، أي دار الولاية، من المرتَفَع الذي يُقالُ له جَبَّاثا، أي البلاط، ماراً بشوارع المدينة، حيث استقبلته النسوة بالبكاء والنواح، ليس على مستوى المعرفة والروح، بل من منظره الذي كان يستدرُّ الدموع من الصخور، لو عزَّت دموعُ الإنسان. ولكن المسيح أبىَ بشدة أن يُبكى عليه وهو مصدر الفرح السماوي الذي لا يؤول إلى حزن: «وتبعه جمهور كثير من الشعب والنساء اللواتي كُنَّ يلطِمْنَ أيضاً و يَنُحْنَ عليه. فالتفت إليهن يسوع وقال: يا بنات أورشليم، لا تبكين عليَّ، بل ابكين على أنفسِكُنَّ وعلى أولادِكُنَّ، لأنه هوذا أيام تأتي يقولون فيها: طوبى للعواقِر والبطون التي لم تَلِدْ، والثُدِيَّ التي لم تُرْضِع ... لأنه إن كانوا بالعود الرطب يفعلون هذا، فماذا يكون باليابس» (لو٢٣: ٢٧ــ٣١).

والذي يُلفت النظر، أنه لا يزال في كل يوم جمعة، وقبل الفصح، كل سنة، وحتى اليوم يُقام احتفالٌ بمسيرةٍ في طريق الآلام عينه، حيث تسير نفس الجموع و يشكل النساء فيها الجزء الأعظم، وبكاؤهن لم يجفّ. وتقف المسيرة في أربع عشرة محطة، بعضها مأخوذ اسمه من الكتاب المقدس، والآخر من التقليد، و ينتهي طريق الآلام الآن عند كنيسة القبر المقدس حيث تقام صلاة احتفالية كبرى بواسطة آباء الفرنسيسكان (أنظر الصورة).

«حاملٌ صليبه»:

حينما حمل المسيحُ الصليبَ، اختفى مفهوم الصليب من العالم كأداة للموت والتعذيب؛ وحلَّ محلَّ هذه الصورة المرعبة المفهومُ الجديدُ للصليب، كرمز الإيمان والرحمة والرقة والبذل والإسعاف والحب والسلام والقداسة والكرامة والمجد؛

يحمله الأطفال للفرح،

ويحمله الشباب للنصرة الأخلاقية،

(١٣) هذا الاسم أصبح تقليداً تُقام له الشعائر الدينية يوم الجمعة الحزينة في أورشليم. وأول مَنْ رتّبه هم جماعة الفرنسيسكان منذ القرن الرابع عشر، ولا يعرف التقليد القبطي عنه شيئاً. ونحن نعتبر أنه منذ أن وُلد المسيح في بيت لحم حتى رفعوه على الصليب وهو في «الفيادولوروزا Via Dolorosa» أو على وجه الأصح منذ أن تجسّد!!

وتحمله النساء للعفة والطهارة،
ويحمله الرجال للحكمة والكمال،
ويحمله الرهبان كسلاح على الصدر والظهر،
ويحمله الشيوخ كغلبةٍ على العالم،
تحمله الهيئات للرحمة المجانية،
وعلامة الإسعاف في المخاطر والإنقاذ المجاني،
كأعلى ما بلغت إليه المشاعر الإنسانية،
وترفعه الجيوش علامةً لوقف القتال وطلب الصلح والسلام،
ويحمله الملوك مرصّعاً في تيجانهم للكرامة والمجد.
وصار للصليب عشرات الأشكال ومئات الألوان، وصار هو الوحدة الزخرفية المفضلة لتكميل كل الفنون.

كان يئنُّ تحت ثقْله، وهو الحاملُ كلَّ شيءٍ بكلمة قدرته. عَرَقُه يتصبب ويتساقط من جبينه، وهو منحنٍ، فكان يتقطّر ممزوجاً بالدم، من الأشواك المغروسة حول رأسه، لم يَذُقْ طعاماً ولا ماءً ولا نوماً منذ عشاءِ الخميس. الظَّهْرُ مُتورِّمٌ وجروحُه تنزف، والوجه مُتألِّم من اللطم، والرأسُ مرضوضٌ من الضَّرْب، والمهانة أخنَت نفسه فيه، وبلغ به الحزن حتى الموت قبل الموت! «تطلعوا وانظروا، إنْ كان حزنٌ مثل حزني» (مراثي ١: ١٢)، «نفسي حزينة جداً حتى الموت!!» (مت٢٦: ٣٨). لقد سبق أن أحسَّها قبل أن تأتي عليه!!

الدوار ألَمَّ به، عيناه لم تعودا تنظران الطريق، موجات الوجع تلو موجاتٍ، ونوباتٌ من الرِّعْدَةِ العصبية تسري وتعصف بالجسد، «من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحة بل جُرْح وأحْبَاطٌ وضربة طَرِيَّة لم تُعصر ولم تُعصب ولم تُلَيَّن بالزيت» (إش١: ٦)، هاوية ليس لها قرارٌ، يُشيِّعه إليها جمهور الشامتين!!

«إن المياهَ قد دَخَلَت إلى نَفْسي، غَرِقْت في حَمْأةٍ عميقَةٍ وليسَ مقرٌّ،
دَخَلْتُ إلى أعماقِ المياهِ، والسَّيْلُ غَمَرَني،
تَعِبْتُ من صُرَاخي، يَبِسَ حَلْقي، كَلَّتْ عيناي...،
أكثر من شعر رأسي الذين يُبغِضُونَني بلا سببٍ،
اعتزَّ مُستهلِكيَّ أعدائي (فوقي) ظُلْماً،

حينئذٍ رَدَدْتُ الذي لم أخطفْهُ، ...
لأني من أجلِكَ احتَمَلْتُ العارَ، غطَّى الخَجَلُ وجهي،
صِرْتُ أجنبياً عند إخوتي...، وتعْييراتُ معيِّريكَ وَقَعَتْ عليَّ...،
نجِّني من الطِّينِ فلا أغرَقَ، نجِّني من مُبْغِضيَّ ومن أعماقِ المياهِ،
لا يَغْمُرَنِّي سيلُ المياهِ ولا يبتلعَنِّي العُمْقُ، ولا تُطْبِقُ الهاويةُ عليَّ فاها...،
أنت عرفتَ عاري وخزيي وخجلي، قُدَّامَكَ جميعُ مُضَايِقيَّ،
العارُ قد كَسَرَ قَلْبي فمَرِضْتُ،
انتظَرْتُ رِقَّةً فلم تكن ومُعزِّين فلم أجِدْ.» (مز٦٩: ١ــ٢٠)(*)

من دار حنَّان إلى دار قيافا، إلى دار هيرودس، إلى دار الولاية، من الداخل إلى الخارج، ومن الخارج إلى الداخل، مهانةٌ تِلْوَ مهانةٍ، ومن تعذيب إلى تعذيب، مُصنَّفاتٌ من الضرب والتنكيل والفضيحة صنَّفَتْها قلوبُ رؤساءَ وخدامٍ وجنودٍ، أعظمهم مَنْ لم يعرف الرحمة، وأقلهم وُلد فيها. جَمَعَتهم جميعاً قسوةُ الإنسانِ، وحرَّكتهم طاعة الشيطان!

سار حاملاً عار الصليب، محمولاً بمجد الله، منحنياً تحت ذُلَّة الخطاة، شامخاً بعمل الخلاص. في الهيئة كإنسانٍ، مُعْثِرٌ فيه رؤساء اليهود، فقتلوه؛ وفي الحقيقة هو ابن الله، فارتاع منه قاضي الرومان، وعمل على إطلاقه. «لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم، حتى يُبصر الذين لا يبصرون، ويعمى الذين يبصرون» (يو٩: ٣٩). لاهوته لم يفارق ناسوته، ليكمِّل ناسوته أشنع صنوف الألم والذبح، لنبلغ بهما الخلاص!

النسوة لم يحتملْنَ منظره، فتوجَّعْنَ، ولطمنَ، ونُحنَ؛ «أما الرب فسُرَّ بأن يسحقه بالحزن» (إش٥٣: ١٠)، وأما نحن فنعبده حاملاً الصليب ونسجد لجسده الممزَّق ودمِهِ المسفوك، ونقبِّل جروحَه التي بها شُفينا وحَيينا. ضعفه صار لنا قوة، وانحناؤه صار لنا استقامة، وسقوطه تحت الصليب صار لنا قيامة. خطواته على طريق الآلام Via Dolorosa صارت لنا طريقاً نَعْبُر به من الضيق إلى السَّعَةِ، ومن هوان الأرض إلى مجد السماء. فإن كنا نبكي، نبكي على خطايانا، التي حمَّلته ثِقَلَ هذه الآلام، ولكن حزننا حتماً يتحوَّل إلى فرح للخلاص.

(*) داود النبي كتب مزاميره قبل المسيح بألف سنة، وهو يصف صلب المسيح هنا وصفاً هو الواقع بعينه.

«إلى الموضع الذي يقال له موضع الجمجمة ويقال له بالعبرانية جلجثة»:

لقد اخترق الموكب، والمسيح في المقدمة، المسافة من دار الولاية (قلعة أنطونيا) حتى إلى ما بعد باب سور المدينة الشمالي الغربي الذي يُدعى باب دمشق ــ وقديماً كان يُدعى «باب إسطفانوس» ــ لأن خارج هذا الباب رجموا الشهيد الأول للمسيحية. أما بعد خروج المسيح من باب المدينة، فكانت الحقول المتاخمة وطريقٌ رئيسي، وهنا وبحسب رواية القديس مرقس، ثَقُل حمل الصليب على الجسد المنهوك: «فسخَّروا رجلاً مجتازاً (نحو المدينة) كان آتياً من الحقل وهو سمعان القيرواني، أبو ألكسندروس ورُوفُس، ليحمل صليبه»(١٤) (مر١٥: ٢١)، وفي إنجيل القديس لوقا: «رجلاً قيروانياً كان آتياً من الحقل ووضعوا عليه الصليب ليحمله خلف يسوع وتبعه جمهور كثير من الشعب والنساء اللواتي كُنَّ يلطمن أيضاً ويَنُحْنَ عليه.» (لو٢٣: ٢٦و٢٧)

عندما نزل المسيح من فوق جبل الزيتون **داخلاً إلى أورشليم**، بكى عليها لأنها لم تعرف زمان افتقادها. والآن، **وهو خارج منها**، **هُمْ** يبكون لأنهم لم يعرفوا أن هذا هو زمان افتقادهم.

«موضع الجمجمة» = عبراني "Γολγοθᾶ"، يوناني "Κρανίον"، لاتيني "Calvaria":

تقول المصادر التقليدية أن هذا الاسم يرجع إلى أن جمجمة آدم كانت مدفونة هناك. ويرجِّح العلماء أن هذا الاسم هو صفة لشكل المرتفع الذي كان يتم فوقه عمليات الصلب، إذ أن شكله الجغرافي (الأرضي) يشبه الجمجمة (أنظر الصورة).

وكان الموضع خارج باب المدينة وبالقرب منها، على بُعْد دقائق: «لأن المكان الذي صُلِبَ فيه يسوع كان قريباً من المدينة» (يو١٩: ٢٠)، وكان المكان بقرب مدافن أخرى وعلى الطريق الرئيسي(١٥). وتقول أحد المصادر اليهودية أن هذا المكان بالذات كان مخصَّصاً للرجم، وفيه توجد «مغارة إرميا»(١٦). وكان المسطَّح المرتفع شبه هضبة، ولها شكل الجمجمة، تعلو قليلاً عن الأرض المجاورة، حيث يوجد بستان، وفي البستان صار أقدس مكان على الأرض، مغارة جديدة منحوتة، هي التي استودع فيها يوسف ونيقوديموس الجسد الطاهر، وربما كان يملكها القديس يوسف الرامي كما سيجيء.

(١٤) واضح أن ذكر اسم هذا الرجل بالتفصيل يرجع إلى قبوله الإيمان ودخوله المسيحية حيث صار معروفاً في الكنيسة. وتوجد إشارات نحو هذا الاسم (رو١٦: ١٣).

[15] Edersheim, A., *op. cit.*, Book II, p. 585.

[16] Ibid.

١٩ : ١٨ «حيثُ صَلَبُوهُ وصَلَبُوا آثنَيْنِ آخرَيْنِ معه من هُنا ومن هُنا ويَسُوعُ في الوسطِ».

«وكان المجتازون يُجدِّفون عليه وهم يهزُّون رؤوسهم
قائلين: يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام خلِّص نفسك
إن كنت ابن الله فانزلْ عن الصليب،
وكذلك رؤساء الكهنة أيضاً وهم يستهزئون مع الكتبة
والشيوخ قالوا: خلَّص آخرين، وأما نفسه فما يقدر أن يخلِّصها.
إن كان هو ملك إسرائيل فلينزلْ الآن عن الصليب فنؤمن به.
قد اتكل على الله فَلْيُنْقِذْه الآن، إن أراده، لأنه قال: أنا ابن الله.»
(مت٢٧: ٣٩—٤٣)

«فأرى الدمَ وأعْبُر عنكم، فلا يكون عليكم ضربة للهلاك».
(خر١٢: ١٣)

ق. يوحنا يَعْبُر على **صلب** المسيح عبوراً، بذِكْر «**الكلمة**» فقط دون أي مزيد من الوصف أو التوضيح، إما لفظاعة الآلام، أو لرُعْبة المنظر، أو حتى لتعيير المعيِّرين، تماماً كما عَبَر على حادثة الجلد بذِكْرِ الكلمة فقط، مع أن الصليب هو قمة الحوادث كلها وقمة الآلام كلها.

والرومان هم وحدهم الذين جعلوا هذا العقاب على مستوى المجرمين الخطرين، وخصصوه بالأكثر للعبيد، وكانوا ينكِّلون بالمحكوم عليهم شرَّ تنكيل. ويقول الخطيب شيشرون الروماني عن عملية الصلب: [إنها قسوةٌ ورُعْبٌ](١٧).

وللأسف كانت رِجْل اليهود قد انزلقت في استخدام هذه العقوبة قبل ذلك. فالمعروف في التاريخ، أن رئيس الكهنة ألكسندر حناؤس، سنة ٨٨ ق.م.، صَلَبَ ٨٠٠ شخصاً في وقت واحد(١٨). ولما جاء الإمبراطور قسطنطين الأول وقَبِل الإيمان المسيحي، ألغى الحكم بالصَّلْبِ وانتهى نهائياً من العالم بمنشور تحذيري.

لقد ورثت الكنيسة القبطية هذا المنهج الروحي الميتافيزيقي في التعبير والتصوير عن الصلب والآلام. فمن أجل التقاليد القبطية المعروفة التي عبَّرت عنها بالتصوير، بإحدى الأيقونات القديمة، لصلب المسيح، أنها صوَّرته وهو بكامل ملابسه (أنظر الصورة)، وليس بحالة العُرْي كما

17 Brown, Raymond E., *op. cit.*, p. 900.

18 Josephus, *War,* 1, IV, 68, 97.

يظهر في الصور الأجنبية التي دخلت خلسة إلى الفن القبطي بعد ذلك. كذلك، فإنه محظور في الفن القبطي التعبير عن آلام الشهداء بالتصوير. فأي صورة لأيِّ شهيد، مهما كان نوع استشهاده، تُصوِّر والشهيد لابسٌ ملابسَ بيضاءَ وعلى رأسه إكليلٌ مرصَّعٌ، وفي يديه سعفةُ نخيل رمزَ النصرة، دون أي إشارة فنية عن الألم الذي جازه. لأن الصلب لا يُرى عند الروحيين، أو بالعين الروحية، في إطاره الجسدي المحدود، بل يُنظرُ بالمنظر المعقول أنه «موتٌ لفِدَاء» و«ألمٌ للخلاص» و«بذلٌ لحُب» و«وضعٌ للنفس لقيامةٍ». وهكذا يمتنع، بحسب الفكر اللاهوتي السليم، أن يُنظر للصليب نظرة جسدية محصورة ومتوقِّفة فقط عند الآلام والعذاب، بل لا بد من الانطلاق بها فوراً لرؤية القيامة الكائنة فيه والحياة والغفران والمجد وبهجة الخلاص، حتى إن الكتاب المقدس نفسه عبَّر عن حادثة الصلب بالمجد: «... لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد بَعْدُ» (يو٧: ٣٩)، أي لم يكن قد صُلب.

وفي الحقيقة، نجد أن تراث الغرب التقليدي هو الذي يتمادى جداً، بل ويتوقف كثيراً عند الإحساس بالصليب، والحياة في آلامه، والتأمل في تعاذيب المسيح، وعبادة قلبه المطعون وجروحه الخمسة. أما التراث الشرقي فيحيا القيامة و يتوقف عندها كثيراً، ولا يرى الصليب إلاَّ في نور القيامة. وإلى الآن كثير من الشرقيين، تحيتهم التقليدية اليومية وعلى مدار السنة هي: "خِرِسْتُوس آنستي"، أي "المسيح قام".

«وصلبوا اثنين آخرين معه، من هنا ومن هنا، ويسوع في الوسط»:

«ما هذه الجروح في يديك؟ فيقول: هي التي جُرِحْتُ بها في بيت أحبائي.» (زك١٣: ٦)

«ثقبوا يديَّ ورجليَّ. أُحصي كل عظامي، وهم ينظرون و يتفرسون فيَّ.» (مز٢٢: ١٦و١٧)

يقول عنهما كلٌّ من القديس متى والقديس مرقس إنهما كانا لصَّين: «وصلبوا معه **لصَّين** واحداً عن يمينه وآخر عن يساره، فتم الكتاب القائل: "وأُحصي مع **أثمة**"» (مر١٥: ٢٧و٢٨)، و يقول القديس لوقا إنهما: «صلبوه هناك مع **المُذْنِبَيْن** واحداً عن يمينه والآخر عن يساره» (لو٢٣: ٣٣)، وكلمة «مذنب» هنا κακοῦργος لا تفيد "مذنب" بل "مجرم" criminal. وغير إشارة إشعياء النبي المشار إليها في إنجيل القديس مرقس، يجب الإشارة هنا أيضاً إلى المزمور ١٦:٢٢: «جماعة من الأشرار اكتنفتني (أحاطوا بي)».

ويختص القديس لوقا وحده بسرد الحديث الذي دار بين اللصَّين وخاصة كلام اللص التائب:

«أوَ لا أنت تخاف الله» (لو٢٣: ٤٠)، وعَجَبِي هنا على اللص الذي يخاف الله!! ثم بين التائب والمسيح الذي قال للمسيح: «اذكُرني يا رب متى جئت في ملكوتك» (لو٢٣: ٤٢)، وهي المقطع المحبوب الذي تسبّح به الكنيسة في يوم الجمعة العظيمة أو الحزينة، ساعة ذكر الصلبوت، وتردده مراتٍ ومراتٍ، وكأن كل متعبِّد ينطق بلسان هذا **اللص الطوباوي** الذي سرق ملكوت السموات بعد سرقة العالم، ولكن كان فيه بارقة من خوف الله، قادته إلى التوبة. والكنيسة تناجيه أنه «الحلو اللسان والمنطق»، ثم توازن بينه وبين الذين عاشروا المسيح، وتأملوا مجده على الجبل المقدس، وكيف أعوزهم هذا الإيمان وقت المحنة؛ وتقارن بينه وبين بطرس التلميذ المِقْدام، صاحب السيف المسلول، والذي سمع الصوت آتياً من المجد الأسنى: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سُرِرْتُ، له اسمعوا» (مت١٧: ٥)، كيف أنكر بينما اللص آمن واعترف به وهو على الإقرانيون!! وفي التقليد القبطي يُقال أن اسم هذا اللص «دِيماس»، وقد ردَّ المسيح عليه، فاستُجِيبَت طِلْبَتُه في الحال: «الحق أقول لك: إنك اليوم تكون معي في الفردوس» (لو٢٣: ٤٣)، مما يوضح لنا بأجلى بيان، أن بالصليب افتتح المسيح الفردوسَ المفقود، واستردَّه لحساب الإنسان. وإن أول قدم وطئته كانت هي قدم هذا اللص الطوباوي «ملك التائبين» يسير وراء «ملك المجد». وكان هذا إيذاناً بدخول أفواج الخطاة التائبين من كل لسان وأمة وشعب!!

وفي الحقيقة تقدم الكنيسة القبطية هذا الفصل الكنسي رسمياً، مسنوداً بالألحان من الخورس على مدى وقتٍ ليس بقليل، كدرس تعبيري ذي وزن عالٍ، من جهة معنى انفتاح القلب بالإيمان البسيط الذي يُورِّث الحياة الأبدية. الإيمان الذي لا يقوم على براهينَ ونصوصٍ ومعرفةٍ وعلمٍ. فاللص، وهو في أشد محنته، آمن بالمسيح المصلوب معه، وهو على مستواه في نفس المحنة والمهانة وقسوتها! لا تعليمَ ولا إغراءَ ولا فهمَ ولا منطقَ، فهي ومضة من النور الحق، انفتح لها قلبه فرأى المسيح في مجده وفي مجيئه الآتي في مُلْكِه. فنُطْقُ الفم، كان كما أحس القلب. كيف اشتهى أن يذكره المسيح مجرد ذِكْرٍ وهو آتٍ في مجد ملكوته، فكانت له شهوته وأعظم، إذ رافق المسيح في رحلته لانفتاح الفردوس المغلق، ولم تذهب نفسه إلى الهاوية، فكان أول الغالبين للموت والناجين من الهاوية وراء المسيح، لأنه كان أول مَنْ آمن بالقيامة والمجيء الثاني.

وفي تقليد الإنجيل بحسب القديس لوقا، كان هذا النطق الملكي للمسيح على الصليب هو النطق الثاني، لأن الأول قال فيه: «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون.» (لو٢٣: ٣٤)

أما لماذا لم يذكر ق. يوحنا حديث اللصَّين معاً، وحديث اللص مع المسيح وردَّ المسيح عليه، فيقول العالم والمؤرخ الكنسي إدرزهايم اليهودي المتنصِّر إنه يبدو أن ق. يوحنا، وبعد أن سلَّم بيلاطسُ المسيحَ للعسكر للصلب، انطلق بسرعة إلى المدينة، وأحضر الأم العذراء القديسة مريم وأختَها، ومريمَ زوجة كليوباس ومريم المجدلية. فلم يكن يوحنا حاضراً بداية عملية الصلب ولا الأم القديسة(١٩)، ولهذا لا نجد في إنجيل ق. يوحنا ذكراً لأيٍّ من التعبيرات التي كان الشامتون يُعيِّرون بها المسيح، سواء كانوا من رؤساء الكهنة أو الذين ساروا في موكبهم، فلم يذكر إنجيله شيئاً من ذلك قط. وهذا، بحدِّ ذاته، يوضح لنا إلى أي مدى كان القديس يوحنا يعتمد على المشاهدة والسماع الشخصي في تسجيلاته.

١٩:١٩ «وكتبَ بيلاطُسُ عُنوَاناً ووَضَعَه على الصَّلِيبِ وكان مكتُوباً يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ مَلِكُ اليَهُودِ».

«عنواناً» τίτλον , Titulus:

يلاحظ أن ق. يوحنا يستخدم الاصطلاح اللاتيني الرسمي. وكان من عادة الرومان أن يضعوا فوق رأس المصلوب لوحة بها اسمه وعِلَّة صَلْبه، كما يتضح ذلك من إنجيل القديس مرقس وإنجيل القديس متى: «**وجعلوا فوق رأسه علَّته مكتوبة** هذا هو يسوع ملك اليهود.» (مت٢٧: ٣٧)

ومن كلام ق. يوحنا يفهم العلماء ــ بحسب أصول اللغة ــ أنه يقصد أن بيلاطس كتب بنفسه هذا العنوان، ومن كلمة: «كتب» ἔγραψε يفسرون أنه كتب هذا العنوان، بعد أن شيَّعوا المسيح إلى المكان المعدّ؛ بل و يعتقدون أيضاً أن بيلاطسَ هو الذي أمر بصلب المسيح في الوسط.

وعلى كل حال ــ سواء كتابة العنوان أو الوضع الذي صُلِبَ فيه المسيح ــ فبيلاطس عبَّر وإلى آخر لحظة، عن المرارة والسخط الذي كان يشعر به طوال المحاكمة من اتهام اليهود، وخاصَّة لمَّا ركَّزوا ــ بغير حق وبغير وعي ــ على كونه «ملك». فهو هنا ضرب سهمين في طلقة واحدة، فأصاب كرامة اليهود في الصميم، الأمر الذي احتج عليه رؤساء الكهنة بشدة، فقابل احتجاجهم بإصرار على ما كتب؛ والسهم الثاني ألغى به كل صدى لصراخهم من جهة استخدامهم هذا اللقب لتهديد بيلاطس لدى قيصر، فالآن "ملككم قد مات" وفرصتكم في الشكاية قد ماتت

(١٩) Edersheim, A., *op. cit.*, p. 602.

أيضاً! ولكن لا يستبعد بعض الشراح أن بيلاطس كان يكنُّ للمسيح شعوراً فائقاً، أراد أن يعبِّر عنه[٢٠].

وهكذا، وبالنهاية، حقق بيلاطس رغبة قيافا التي ظل يحلم بها ويعمل لها: «أنتم لستم تعرفون شيئاً، ولا تفكرون أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب، ولا تهلك الأمة كلها.» (يو١١: ٤٩و٥٠)

وهذه النبوة نفسها كانت، في وجهها المنظور لقيافا، أن يهلك المسيح هلاكاً لتنجو الأمة من الرومان، الأمر الذي أكمله بقتل المسيح بسكين الحقد والتشفِّي، وأهلك أمَّته، بحماقته، هلاكاً؛ لأنه لم يُخمِّن الرؤيا ولم يُفسِّر الحلم كدانيال المبارك، ولكنه كان كهامان الذي أعدَّ الصليب ليصلب نفسه عليه.

أما في وجهها غير المنظور ليوحنا وللمسيح ولنا، فهي أن يُقدَّم المسيح ذبيحة على مذبح محبة الله، فيقوم، لينجو من الهلاك مَنْ آمن من اليهود، ويخلِّص العالم، ولا يهلك كلُّ مَنْ يؤمن به!

١٩: ٢٠ «فقرأ هذا العنوانَ كثيرُونَ من اليَهُودِ لأن المكانَ الذي صُلِبَ فيهِ يَسُوعُ كان قَرِيباً من المَدِينَةِ وكان مكتُوباً بالعِبْرانِيَّة واليُونانِيَّة واللاَّتينيَّة».

يُعتقد أن الوضع الأصح كما جاء في بعض المخطوطات، أن اللاتينية قبل اليونانية.

كان المكان لا يبعد عن سور المدينة أكثر من بضع دقائق، وكان على الطريق العام ـــ Highway ـــ المؤدي إلى دمشق. فبطبيعة الحال قُرِىء من كثيرين، بل من عشرات الألوف، سواء الخارجين أو الداخلين إلى المدينة أو المسافرين نحو الشمال. ويُلاحَظ أن الوقت هو الفصح، وكان يؤمُّ أورشليم عدة ملايين من اليهود الذين في الشتات من جميع أنحاء العالم، وبكل اللهجات واللغات. وهكذا حملوا معهم الأخبار، وملأوا الدنيا ومهَّدوها للبشارة بالمصلوب الذي تعيَّن بالقيامة من الأموات أنه ابن الله، ملك الملوك ورب الأرباب؛ حيث صار الصليب هو هو عرش النعمة الذي نستمد منه القوة والخلاص والحياة، بل وبه ومِنْ عليه، نَمْلُكُ معه.

أما ترتيب اللغة التي كتب بها العنوان هنا، فهو بحسب التقليد الرسمي: أولاً اللغة الوطنية

---

[20] The Pulpit Commentary, *op. cit.*, p. 427.

التي تخص البلد (العبرية)، ثم لغة الدولة الرسمية (اللاتينية)، ثم اللغة العامة (اليونانية). وفي الحقيقة، فإن هاته اللغات الثلاث توافق لغة «الدين» ثم لغة «المجتمع» ثم اللغة «الفكرية». وكأنما كان عمل الرومان حتى وفي صلب المسيح أن يمهدوا للكرازة بالمسيح على مستوى العالم بمستوياته الثلاثة: الدينية والاجتماعية والفكرية.

وكانت قد بدأت حركة تنوير العالم بكل ممالكه وفَرْض اللغة اليونانية على جميع البلاد، كلغة رسمية للتكلُّم بها، والتعامل مع الحكومات الرومانية المحلية. كما بُدِيءَ بشقِّ الطرق العامة الرئيسية لتربط ممالك الدنيا كلها مع روما ـــ ومن هنا جاء المثل المشهور: كلُّ الطرق تؤدي إلى روما! ـــ بل وعلى كل طريق وُضِعَتْ العلامات التي تدلُّ على عدد الفراسيخ التي تَبْعُدُ عن قلب روما من أول الطريق حتى نهايته. كل هذه، كانت الدولة الرومانية جادّة في تنفيذه، وكأنما كانت تمهّد للكرازة بملكوت الله في العالم كلّه.

١٩ : ٢١ «فقالَ رُؤساءُ كَهَنَةِ اليَهُودِ لبيلاطُسَ: لا تَكْتُبْ مَلِكُ اليهودِ بل أن ذاكَ قالَ أنا ملكُ اليهُودِ».

لأول مرة يكتب ق. يوحنا «**رؤساء كهنة اليهود**»، وكأنما يضعها ق. يوحنا في مستوى ملك اليهود.

لقد أدركوا في الحال، وربما قبل أن يُعلِّق العنوان على الصليب، أن بيلاطس قصد تسجيل تهمتهم على أنها حقيقة رغماً عن أنفهم. قابلوه محتجين وبلغة شبه آمرة: «**لا تكتبْ**»، اللهجة التي قابلها بيلاطس بجفاء ظاهر وتعالي الحاكمِ الآمرِ.

ويُلاحظ في المقابلة بين ما كتبه بيلاطس بخصوص كلمة «ملك» إذ وضع لها أداة التعريف (ألْ) والنسب معاً لليهود: «الملك الخاص باليهود» ὁ βασιλεὺς τῶν Ἰουδαίων ليجعل منه الشخصية الملكية الأُولى. فكان احتجاج اليهود وطلبهم أن يَكتُبَ «ملك» بدون أداة التعريف، ليعطوها صفة الإدِّعاء وليس الحقيقة: «قال أنا ملك» βασιλεύς εἰμι . وكأنما أراد بيلاطس أيضاً، ومن جهة أخرى، أن يجرّدهم من تملّقهم الكاذب، ونَسَبِهم المزعوم لقيصر: «ليس لنا ملك إلاَّ قيصر»، ولكن لا هذا ولا ذاك!!

١٩ : ٢٢ **«أجابَ بيلاطُسُ ما كَتَبْتُ قد كَتَبْتُ».**

إن تعالي بيلاطس في الرد وعناده في عدم التغيير، يُعبِّر عن وقفة الحاكم الروماني المعتدّ بعمله الرئاسي. ولكن وراء صوت بيلاطس الحاكم، كان صوت الحكومة الأعلى التي تُملي ماذا ينبغي أن يكتب التاريخ، وماذا يسجِّل؛ لأن من فوق الصليب هذا، ومن تحت هذا العنوان عينه، طالب المسيح بمُلْكِهِ الحقيقي. فقد نصَّب المسيح نفسه على الصليب ملكاً بجدارة، إلى أبد الآبدين: «دُفع إليَّ كلُّ سُلطانٍ في السماء وعلى الأرض» (مت٢٨ : ١٨). ولم تكن الكتابة التي كُتبت إلاَّ إعلاناً ثابتاً أبدياً، أملاه بيلاطس على كل ممالك العالم، ليسود ويملك على العالم، وبكل لغة! "ما كتبتُ قد كتبتُ" ــ «أحتى الآن لا تفهمون.» (مت١٦ : ٩)

٢ ــ المرافقون للصليب

(١٩ : ٢٣ــ٢٧)

١٩ : ٢٣و٢٤ **«ثم إنَّ العَسْكَرَ، لمَّا كانوا قد صَلَبُوا يَسُوعَ، أَخَذُوا ثِيَابَهُ، وجَعَلُوها أربَعَةَ أقسامٍ، لكلِّ عسكريٍّ قِسْماً. وأَخَذُوا القَمِيصَ أيضاً، وكان القَمِيصُ بغَيرِ خياطَةٍ مَنْسُوجاً كُلُّهُ من فَوْقُ. فقالَ بعضُهم لبعضٍ: لا نشُقُّه، بل نقترِعُ عليه لِمَنْ يَكُونُ. ليتمَّ الكتابُ القائلُ: اقتَسَمُوا ثِيابي بينَهُم، وعلى لِبَاسِي ألقَوْا قُرْعَةً. هذا فَعَلَهُ العَسْكَرُ».**

«إلهي إلهي لماذا تركتني ...،
كلُّ الذين يرونني يستهزئون بي. يفغرون الشفاه،
و يُنْغِضُون الرأس، قائلين، اتكل على الرب، فلْيُنَجِّه، ليُنقِذه لأنه سُرَّ به ...،
كالماء انسكبتُ. انفصلتْ كل عظامي، صار قلبي كالشمع،
قد ذاب في وسط أمعائي. يَبِسَتْ مثل شَقْفَةٍ قوتي
ولَصِقَ لساني بحنكي ...،
جماعة من الأشرار اكتنفتني، ثقبوا يديَّ ورجليَّ،
أُحصِي كلَّ عظامي، وهم ينظرون و يتفرّسون فيَّ،
يقسمون ثيابي بينهم، وعلى لباسي يقترعون.» (مز٢٢ : ١ــ١٨)

«العسكر»:

هم عساكر الرومان، الذين تحت إمرة بيلاطس خاصة. بعد أن انتهوا من رفع المسيح، جلسوا تحت الصليب يقتسمون الغنيمة. ومن النصّ يبدو أن الجو كان بارداً، إذ أن المسيح كان يلبس أربعة أنواع من الثياب، منها ما كان على الرأس وحول الكتف، ومنها ما يدَّثر به فوق الجسد، ومنها الملابس الداخلية، وتحتها كان يلبس قميصاً منسوجاً نسيجاً واحداً بغير خياطة. هذه كلها، جرَّدوه منها، وبقي ما يستر جسده فقط. لأنه وإن كان الرومان قد اعتادوا أن يصلبوا ضحاياهم عرَايا تماماً (كما نرى تماثيلهم التي نحتها أشهر مثَّاليهم)، إلاَّ أنه في الشرق، وعند اليهود، كان محظوراً حسب الناموس أن يُعرَّى المحكومُ عليه من كل ملابسه[21].

ويصف العلاَّمة اليهودي المتنصّر إدرزهايم بشيء من التفصيل، ومع ذكر الأسماء، كل أنواع هذه الملابس[22].

كان عدد العساكر أربعة، فكان من السهل تقسيم الملابس الخارجية، وهي تنطق بالعبرية «لابوس» Labus، أما القميص وبالعبرية Ketonet فهو ثوب رئيس الكهنة، وهو قصير إلى الركب فقط: «وفي وسط السبع المنائر شِبْهُ ابن إنسان، متسربلاً بثوب إلى الرجلين، ومتمنطقاً عند ثدييه، بِمِنْطَقَةٍ من ذهب» (رؤ١: ١٣)، وهو ــ بحسب وصف إدرزهايم ــ ثمينٌ جداً، وهو الذي يلبسه رؤساء الكهنة لأنه خاص بالنذيرين، وهو منسوجٌ من أوّله إلى آخره بغير قَطْعٍ ولا خياطة. وهذا الطقس بدأ به موسى أيام خدمته، فكان يلبس مثل هذا الثوب الأبيض بدون خياطة، ويخدم به أمام الله[23].

وهكذا ذهب المسيح، كرئيس كهنة، بملابسه المستورة في الداخل إلى الصليب، ليباشر تقديم الذبيحة. ولأنه هو الحَمَلُ، نُزِعَ عنه الرداء وهو صامتٌ أمام من يَجُزُّهُ!!

«فقال بعضهم لبعض: لا نشقُّه، بل نقترع عليه لمن يكون»:

لقد أطال الشُّرَّاحُ قديماً وحديثاً الحديث عن هذا القميص، واتفقوا على أنه يمثّل الكنيسة التي لا تنقسم، كقول القديس كبريانوس، الذي يضيف أنه «منسوجٌ كلُّه من فوق»، أي أن وحدة الكنيسة مقرَّرة ومُعَانَةٌ من فوق، من الله، وليس لإنسان أن يُمزِّقها. ويزيد على ذلك العالم بولتمان

[21] Brown, R.E., *op. cit.*, p. 902.

[22] Edersheim, *op. cit.*, p. 592.

[23] Ibid.

ــ وهو غير تقليدي ــ فيقول على ضوء الأبحاث والتعاليم الرابيّة في التلمود وغيره، إن هذا الثوب هو مثل الثوب الذي صنعه الله لآدم، وأعطى مثله لموسى ليخدم به. و يقول آخرون، إنه مثل قميص يوسف الخاص الذي أعطاه له أبوه علامة الحب، الذي نزعه من عليه إخوته ولَطَّخوه بالدم، ثم ألقَوْا قرعة على يوسف نفسه، يموت أو لا يموت(٢٤).

ولكن بهذه الأعمال التي كان يقوم بها العَسْكَرُ في غير اكتراث، و بالمنظر الدامي أمامهم وكأنهم بلا شعور إنساني، كانوا مدفوعين، يوقّعون أعمالهم على صوت داود النبي الآتي من وراء الزمان كلمة كلمة، كما قالها في المزمور الثاني والعشرين أعلاه.

«هذا فَعَلَهُ العَسْكَرُ»:

لفتة لتأكيد الفعل: تقسيم الثياب وإلقاء القرعة، والفاعل «العَسْكَرُ»، وردُّه إلى المستوى التاريخي والنّبويّ، بشيء من الضمان الشخصي كشاهدِ عيانٍ.

ولا يفوتنا هنا، في أسلوب ق. يوحنا، كيف يوزع في ختام المشهد الأدوار التي قام بها كلُّ فريق حسب نوع عمله، و يردُّه إلى النبوة الخاصة به، وكمن يُوقِّع الحوادث على النبوات.

فالأول: بيلاطس (كملك): كتب ما يخصُّه: «هذا هو ملك اليهود» إعلاناً للعالم كله.

والثاني: رؤساءُ الكهنة: «ينبغي أن يموت إنسانٌ واحد عن الشعب»، وبهَدْمِهم هيكل جسده، هدموا هيكل عبادتهم.

الثالث: اللصُّ: قدّم التوبة مُعْلِناً عن أول ثمرة للصليب: «اليومَ تكون معي في الفردوس». وهو أول نُطقٍ مَلَكيٍّ من فوق عرش الخلاص.

الرابع: العَسْكَرُ: اقتسموا ثيابه، وألقوا قرعة على القميص، اكتفوا من اللؤلؤة بصندوقها.

الخامس: النِّسْوَة: أتَيْنَ ليُقدِّمنَ مُشاركتهُنَّ القلبية بعواطف النساء، كمندو بين فوق العادة عن البشرية التي في المسيح: «يا امرأة».

السادس: التلميذ الذي كان يحبُّه: في صمت، قدّم ما يجب أن يُقدَّم من أمانة التلمذة للمعلم الذي "أحبَّهم إلى المنتهى".

السابع: المسيح يسوع: «يا امرأة هوذا ابنك ... هذه أمك». البشرية التي في المسيح تُسلِّم الأمانة لمن يستحقها، وسِرُّ «الكلمة صار جسداً»، يستودعه المسيح للكنيسة.

---

24 Brown, R.E., *op. cit.*, p. 923.

١٩ : ٢٥ «وكانت واقفاتٍ عند صليبِ يسوعَ أُمُّهُ، وأختُ أُمِّهِ، (و) مَريمُ زوجةُ كِلُوبَا، ومَريمُ المَجْدَلِيَّةُ».

كان الذين يحيطون بالصليب نوعين من الناس: نوع العسكر الذين يقومون بوظيفتهم الكريهة، ومعهم رؤساء الكهنة والمُعيِّرون، ومعهم جوقة الهتَّافةِ الملازمين لهم، يرددون أصواتهم، وربما بالثمن.

أما النوع الثاني، فكانوا واقفين على بُعْدٍ، في بدء عملية الصلب، ولكن بعد أن خفَّت حِدَّة العملية وتَفرُّق رؤساء الكهنة ومَنْ معهم، لأن الساعة التاسعة كانت بالنسبة لهم من أحرج الساعات التي يتحتم عليهم أن يكونوا فيها داخل الهيكل يؤدُّون وظائفهم من جهة الصلوات وإعداد خراف الفصح. فلما ابتعد الأعداء، اقترب الأحباء، وهن النسوة اللاتي أحضرهن يوحنا ووقف معهن يحرسهن.

وكُنَّ مجموعتين: المجموعة الأقرب للمسيح، وهُنَّ مريم الأم العذراء القديسة، وأختها. والمجموعة الثانية، مريم زوجة كلوبا ومريم المجدلية. هذا الترتيب والتفصيل بين الأسماء، أخذ به أكثر العلماء تدقيقاً، ومنهم العالم والأسقف وستكوت(٢٥).

ويوضح لنا هذا الترتيب بالنسبة للنسوة الثلاث القديس متى هكذا: «وكانت هناك نساءٌ كثيرات يَنظُرْنَ من بعيد، وهُنَّ كُنَّ قد تَبِعْنَ يسوع من الجليل، يَخْدِمْنَه، وبينهنَّ مريم المجدلية، ومريم أمُّ يعقوب ويوسي، **وأمُّ ابنَيْ زَبْدي**» (مت٢٧: ٥٥و٥٦). فإذا طابقنا هذه الأسماء على الأسماء الواردة في إنجيل القديس مرقس: «وكانت أيضاً نساءٌ ينظُرْنَ من بعيد، بينهنَّ مريم المجدلية، ومريم أم يعقوب الصغير، ويوسي **وسالومة**» (مر١٥: ٤٠). بهذه المقارنة يتبين لنا أن **أمَّ ابنَيْ زبدي** هي سالومة. وهي التي جاء ذِكْرُهَا في إنجيل يوحنا مع القديسة مريم هكذا: **«وأُختها»**. ونحن نعلم أسلوب ق. يوحنا في ذِكْرِ الأسماء، فهو يمتنع نهائياً في إنجيله عن ذكر اسمه أو اسم أمِّه، أو حتى اسم أمِّ المسيح.

والأمر المحيِّر للعلماء هو أن ذِكْرَ «مريم المجدلية» يجيء هنا مفاجأة باعتبارها شخصية معروفة دون إشارات سابقة! أو أي تفسير.

ويُلاحَظ أيضاً أن ق. يوحنا حرص على وَصْفِ مريم أنها **زوجة كلوبا**، بدل أن يقول مريم

---

[25] Westcott, *op. cit.*, pp. 275,276.

أمُّ يعقوب ويوسي، لئلا يُظَنَّ من جهة «يعقوب» أنه أخو ق. يوحنا. كذلك نجد أن القديس مرقس حرص أن يصف يعقوب بالصغير، لئلا يُظَنَّ أنه يعقوب أخو القديس يوحنا. لأنه كان يوجد شخصان باسم «**يعقوب**»، واحد منهما، وهو الأكبر سنّاً هو يعقوب ابن زَبْدي، أخو يوحنا. كذلك، ولأن القديس متى أورد اسم «ابنيْ زَبْدي»، فلم يجد ضرورة أن يصف يعقوب بـ «**الصغير**».

والملاحظ كذلك، أن ق. يوحنا يسلك في ترتيبه لذِكر الأسماء سلوكاً إنجيلياً واعياً، فيجعل القديسة مريم الأساس، ويضيف إليها «**أختها**» إضافة دون أن يذكر اسمها لأنها أمُّهُ، ولأنه يبدو أن القديسة مريم العذراء لم يكن لها إلاَّ أختٌ واحدة، هي أمُّ يوحنا.

وبعد ذلك، يذكر مريم الأخرى زوجة كليوباس، وآخر الكل يضع مريم المجدلية، مع أن كُلًّا من القديس متى والقديس مرقس يضعها في المقدمة لِمَا كان يبدو أنها ذات أهمية وتقوى كثيرة بين النسوة.

ويقول كلٌّ من «وستكوت» و«هنجستنبرج» و«إدرزهايم»، ومعهم شُرَّاحٌ كثيرون، أن كلوبا أو كليوباس، هو **حَلْفَاوُس** أو «**حَلْفَى**»، الذي ورد اسمه في إنجيل القديس متى، كوالد لأحد التلاميذ المدعوّ يعقوب، المدعو هنا بالصغير: «فيلبس وبرثولماوس توما ومتى العشار **يعقوب بن حلفى** ولبَّاوُس الملقب تَدَّاوُس.» (مت ١٠: ٣)

أي أن المريمات الثلاث اللاتي كُنَّ عند الصليب، هنَّ: مريم القديسة العذراء أم المسيح، ومريم أم يعقوب الصغير أحد التلاميذ وهي زوجة كلوبا أو كليوباس، ومريم المجدلية.

وفي نهاية عملية الصلب وانفضاض معظم الملتفِّين حول الصليب، تسنَّى للعذراء مع ق. يوحنا الاقتراب من الصليب فصارا في مواجهة المسيح.

٢٦:١٩ «فلمَّا رَأى يَسُوعُ أُمَّهُ والتِّلميذَ الذي كانَ يُحِبُّهُ واقِفاً، قال لأُمِّه: يا آمرأةُ، هُوَذَا ابنُكِ».

بعد أن انجلت الظلمة التي خيَّمت على الأرض حُزناً على قتل النور الذي انحجب عن قلوب صالبيه، وقفت العذراء القديسة مريم تحت الصليب ــ مصلوبة!! تَشْخَصُ نحو ابنها، وسيفٌ يجوز في نفسها، كما سبق وأنبأت به نبوة سمعان الشيخ، حينما كانت تحمل ابنها طفلاً، وهي تدخل

الهيكل لتكمَّل عنه القرابين!! «و باركهما سمعان، وقال لمريم أمه: ها إن هذا قد وُضِعَ لسقوطِ وقيام كثيرين في إسرائيل، ولعلامةٍ تُقَاوَمُ، وأنتِ أيضاً يجوز في نفسكِ سيفٌ، لتُعْلَنَ أفكارٌ من قلوب كثيرة» (لو٢: ٣٤و٣٥). لقد كانت على علمٍ سابقٍ بما هو حادث أمامها الآن، فالمسيح سبق ووعَّاها بكل ما سيحدث له، كما قال لتلاميذه، حتى إذا كان، تستطيع من وراء حزنها أن تُدرِكَ سرَّ الذبيحة والخلاص والمجد. لم تكن آلام المسيح غريبةً عنها، فلحمه من لحمها ودمه من دمها، وسر القداسة وحَّد الآلام بينهما. لم نسمع أنها صرخت، كما لم نسمع أنه صرخ. فالآلام امتصَّها الجسد، والروح هَيْمَنَت، فكان الصمت وكان الهدوء.

هذه هي الأمُّ، هذه هي الامرأة، الوحيدة من بين كل الناس التي شاركت المسيح آلامَ صليبه! حول الصليب تجمَّع الشامتون والحاقدون، ولم يكن أحدٌ يذرف دمعةً إلاَّ هذه الأمُّ، التي بكت بالدمع الهَتُونِ (*)! لقد نابت عن البشرية في وداع فاديها.

يلاحَظ أن إنجيل يوحنا يستظهر هنا على الأناجيل الثلاثة في أمر النسوة حول الصليب. فبينما نجد الأناجيل الثلاثة يلخِّصون موقف النسوة في نهاية مَشْهَدِ الصليب باختصار، و يتفقون على أنَّهنَّ كُنَّ ثلاثاً فقط، وكُنَّ واقفاتٍ على بُعْدٍ يُشاهِدْنَ فقط، ولم يذكروا حضور العذراء القديسة مريم؛ نجد أن إنجيل يوحنا ينفرد بالعدد أربع من النسوة، و يُقسمهنَّ إلى قسمين: اثنتان منهن قريباتٍ وأخصَّاء للمسيح، أمُّه وأختُ أمه، واثنتان ذوات صلةِ التلمذة فقط وهما مريم أم أحد التلاميذ ــ يعقوب الملقَّب بالصغير ــ ومريم المجدلية.

كذلك ينفرد إنجيل يوحنا بذِكْرِ العذراء مريم، و بذِكْرِ نفسه التلميذ المحبوب، وكيف اقتربا من الصليب، فكانا على مستوى النَّظَرِ والسماع والكلام للمسيح المرتفع على الصليب. وظهور القديسة مريم العذراء فجأة مع ق. يوحنا، يوضح ببيان أن ق. يوحنا ترك مشاهد الصلب الأُولى، وأسرع بإحضار الأم الحزينة، لإحساسه الذي لم يَخِبْ قط بما يريد المسيح أن يقوله لأُمِّه، ككلمة وداعٍ أخيرة يستودع بها أنْبَلَ وأقْدَسَ قَلْبٍ بعد قَلْبِه. إن الإنسانية، في المسيح، تؤدي دور بنوَّتِها المُخْلِصة للأمومة.

وهذا لم تسجِّله الأناجيل الثلاثة، لأن يوحنا وحده فقط كان هو الحاضر، وهو وحده الذي سجَّل هذا الحضور.

(*) الدمع الهتون = الدمع المتواصل.

«التلميذ الذي كان يُحبّه»:

إن وضع هذه الصفة لهذا التلميذ في هذا المكان والزمان يُنبيءُ في الحال بما سيكلّفه به المسيح.

«يا آمرأة»: Γύναι

أعطى المسيح لأمه صفتها الأُولى: «يا امرأة»، والمسيح يرفع البشرية ــ التي منها أخذ ــ من صفتها الخاصة به كأُمّه، إلى مستواها العام للإنسان ككلّ، أمَّنا. فهي، بموته، تأخذ صفة الأمومة للتلميذ، وبالتالي للكنيسة كلها.

فالمسيح هنا لا يُسلّم أُمّه باعتبارها الخاص به وحده، بل يُسلّم ــ فيها ــ البشرية التي قَبِلَتْ ــ من أجْلِه ــ قوة العليّ وتقدّست بحلول الروح القدس فيها ليأخذ منها ابنُ الله الوحيدُ القدوسُ جسَدَهُ المعلّق الآن على الصليب، والمزمع أن يحتلّ يمين العظمة لله. فكما أن الجسد المقدس صار جسدنا، هكذا ينبغي أن الأمُّ التي حلت به وَوَلَدَتْهُ تصير أمَّنا.

المسيح هنا يرد الأمَّ ــ المرأة المولود منها ــ إلى صفتها الطبيعية «امرأة»، ولكن في وضعها الجديد، الذي يعلو فوق حواء الأُولى عُلُوَّ المسيح عن آدم.

نحن لا نولد الآن من مريم العذراء، نحن نولَدُ بالروح من المسيح، ونعيش بالروح من الجسد الإلهي بدمه الإلهي والروح الأزلي الذي فيه. ولكن كلّ مَنْ يُوْلَد من المسيح بالروح، يحمل في ولادته الروحية الجديدة علاقة المسيح **بالأُمّ التي ولدته بالجسد حتماً.**

إن كان كلُّ ابن لآدم يولد الآن، وله علاقة متسلسلة حتمية «بحواء»، فهذه **«المرأة حواء»** هي أمٌّ عامة لأجسادنا، فكيف نولد الآن من المسيح ولا تكون لنا علاقة **«بالأُم العذراء»** التي وَلَدَتْهُ. هذه **«المرأة مريم»** هي أمٌّ عامة لأرواحنا. والمسيح بقوله لمريم العذراء أُمّه: **«يا امرأة»** يضعها في مستواها الروحي العام للإنسان عامة؛ كأُمٍّ ليوحنا التلميذ المحبوب أولاً، وكأُمٍّ لكلِّ مَنْ أحبَّ المسيح وأحبّه المسيح بالتالي.

«هوذا ابْنُكِ»:

إن العذراء القديسة مريم لم يكن لها أبناءٌ قط إلاّ المسيح، وهوذا المسيح يهبها يوحنا ابناً بالتبنّي، عوضاً عنه، يسند قلبها المكسور.

المسيح لم يَخْتَرْ العذراء مريم لتكون أمًّا له، بل لقد تعيَّنت أمًّا له من السماء بقوة يمين العلي وروحه القدوس. فمن السماء، اتخذها أمًّا، وتعيَّنتْ لذلك مُسْبَقاً بوعود، وتقديسٍ، ونبواتٍ، رآها

إشعياء النبي: «ها العذراء تحبل، وتلد ابناً، وتدعو اسمه عمانوئيل» (إش٧: ١٤). إنها ثمرة قَسَمٍ إلهيٍّ صَدَرَ من فم العليّ، أن تخرج من نسل داود في الميعاد ليَمْلُكَ الخارجُ من أحشائها مُلْكَهُ الأبدي. والذي بَشَّرها بالحَبَلِ الإلهي ملاكٌ، والذي حضر الولادةَ ملاكٌ.

وإن كان المسيح، بهذه اللفتة: «هوذا ابنُكِ»، قد رفع ق. يوحنا إلى مرتبة الأُخوّة بالنسبة لنفسه أي للمسيح: «لا يستحي أن يدعوهم إخوة» (عب٢: ١١)، فكيف نستحي أن ندعو أمَّه أمَّنا؟

كذلك لا ننسى أن القديسة مريم العذراء هي من **أصل يسَّى، من جِذْر داود**، التي بواسطتها يستمدُّ المسيح علاقته بداود والآباء، كابن له: «أوصنَّا لابن داود» (مت٢١: ٩)، ومنها يستمدُّ المسيحُ علاقَته بالقَسَم الذي أقْسَمَ به الله لداود من جهة مملكته الأبدية: «أقْسَمَ الربُّ لداود بالحق لا يَرْجع عنه، من ثمرةِ بطنِكَ أجعلُ على كرسيِّك» (مز١٣٢: ١١)، «حينئذ كلَّمتَ برؤيا تَقِيَّك... وجدتُ داود عبدي، بدهنِ قُدْسي مسحتُه... أنا أيضاً أجعلُه بِكْراً أعلى من ملوك الأرض... وكُرْسيُّه مثل أيام السموات... والشاهدُ في السماء أمينٌ.» (مز٨٩: ١٩-٣٧)

معنى هذا، أن القديسة مريم العذراء هي الصلة القائمة والدائمة بالجسد بالآباء والأنبياء والسماء، التي يستمد المسيحُ عَبْرَها كلَّ وعود الله لداود والأنبياء كافة. فكأنما تسليم القديسة العذراء مريم «أُم» المسيح إلى يوحنا ليكون هو ابنها ولتكون هي «أُمًّا» له، هو بمثابة تسليم العهد القديم بمواعيده الصادقة والأمينة التي تحققت في المسيح ليوحنا، وبالتالي للكنيسة، لتكون للكنيسة، كما كانت مريم العذراء للمسيح، صلةٌ حيَّة ثابتة ودائمة بكل ميراث وتُراث الآباء والأنبياء، وتكون الكنيسة الجديدة بمثابة الابن بالتبنِّي (للعهد القديم)، الابنُ الذي وَرِثَ من أمه أمجادها وتراثها وهي محفوظة ومُصانَةٌ في كَنَفِهِ.

إن وصية المسيح كآخر وصية، وهو على الصليب، هي وَمْضَةُ النور التي ربطت العهدين(٢٦).

١٩: ٢٧ **«ثمَّ قالَ للتلميذِ: هُوَذَا أُمُّكَ. ومِنْ تِلكَ الساعةِ أخذَها التلميذُ إلى خاصَّتِهِ».**

«أخذها التلميذ إلى خاصته»:

إلى صميم رسالته، إلى عِلِّية صِهْيَوْن و يوم الخمسين، إلى الكرازة منذ لحظتها الأولى.

(٢٦) راجع المدخل ص ٣٠١.

كان ق. يوحنا مرتبطاً بالقديسة مريم أمِّ المسيح برباط الدم، فهو ابن أختها سالومة. فكان أقرب إليها بالروح وبالجسد من إخوة الرب الذين كانوا إخوة من يوسف خطيب مريم، أي إخوة ليس بالدم ولا حتى بالنَّسَب، لأن يوسف لم يتزوَّج العذراء بل ظلَّ خطيبها فقط، يرعاها حتى مات. وهوذا ق. يوحنا يأخذ دور يوسف في الرعاية مرة أخرى.

الله يرفع الأمومة والبنوَّة بارتفاع المسيح على الصليب من مستوى الدم واللحم، إلى مستوى الوحدة الروحية لبناء الكنيسة، الكنيسة التي بُنِيَتْ على الأمومة الإلهية والبنوَّة الرسولية. والملاحَظ أن المسيح لما ارتاح إلى هذا الإجراء الذي صنعه، وكان آخر إجراء من إجراءات الخلاص، قال: «قد أُكْمِلَ».

القديس أفرآم السرياني يتغنَّى بأشعاره ــ في القرن الرابع ــ وهو يتأمل العذراء القديسة تحت أرجل المسيح المصلوب واقفةً، فيراها صورة متجلِّية للكنيسة. ويضيف قائلاً: كما أن موسى عيَّن يشوع ليرعى الشعب من بعده، هكذا، وبصورة ما، عيَّن المسيحُ يوحنا، ليرعى أمَّه العذراء، أي الكنيسة، من بعده(٢٧).

«ومن تلك الساعة، أخذها التلميذ إلى خاصته»:

كان للقديس يوحنا منزل في أورشليم، ولو أن إقامته كانت في الجليل؛ وذلك حسب تحقيق كثير من العلماء. ولقد نفَّذ التلميذُ الوصية في الحال، فلم تحضر العذراء الساعة الأخيرة ولا يوحنا، وذلك عن قصدٍ، لأنها كانت ساعة لا تطيقها مشاعر الأم. لقد أسرع بها يوحنا إلى بيته، ولهذا نجد أن وصف ق. يوحنا للساعات الأخيرة للصَّلْبِ مُخْتَصَرٌ، فهو كان غائباً في البداية، ولم يحضر عند إنزال الجسد.

يُلاحَظ هنا أهمية هذا التسجيل بالنسبة لعقيدة الكنيسة بخصوص عذراوية القديسة مريم أم المسيح، فهنا يُثْمِنُ الآباء العظام القديسون أثناسيوس وإبيفانيوس وإيلاريون، في اتخاذ تسليم العذراء ليوحنا البتول وليس لإخوة الرب أو لأي أحد آخر، برهاناً واضحاً هادئاً رزيناً كَوْنَ العذراء لم يكن لها أولادٌ سوى المسيح ابنها وابن الله.

والمعروف بحسب التقليد، أن القديسة مريم العذراء بقيت مع ق. يوحنا تمارس حياة التقوى

[27] Koehler, Th., cited by Brown, R.E., *op. cit.*, p. 924.

والشهادة في أورشليم مدة إحدى عشرة سنة[٢٨] بعد موت الرب، وتنيحت عن ٥٩ سنة. ومكان قبر القديسة العذراء مريم يقع في وادي قدرون. ولما جاءت الملكة هيلانة، بَنَتْ عليه كنيسة. والكنيسة الموجودة الآن بناها الصليبيون (أنظر الصورة).

كما يوجد تقليد آخر، أنَّ العذراء رافقت ق. يوحنا في سَفَرِه إلى أفسس وعاشت ودُفِنَتْ هناك[٢٩]، لأنه يوجد حتى الآن ــ في تركيا الحديثة ــ على أحد التلال الواقعة على بُعْدِ خمسة أميال من سلقوك Selçuq، وهي أزمير أصلاً، واسم التل بانايا كابيولو Panaya Kapulu، قبر للعذراء القديسة يحكي في صمت وإصرار أن العذراء رافقت يوحنا في كل مكان ذهب إليه.

٣ ــ النهاية: قد أُكْمِلَ
(١٩: ٢٨ــ٣٠)
الموت الإرادي

١٩: ٢٨ «بَعْدَ هذا، رَأى (عَلِمَ) يَسُوعُ أن كلَّ شيءٍ قد كَمَلَ، فلِكَي يتمَّ الكِتَابُ قالَ: أنا عَطْشَانُ».

«لَصِقَ لساني بحنكي.» (مز٢٢: ١٥)
«وفي عَطَشي يسقونني خلًا.» (مز٦٩: ٢١)

إذ أكمل المسيح رغبته في تسليم أُمِّه إلى يوحنا، وبعد أن أكْمَلَ الإطار الكلي للخلاص حسب الترتيب الذي بدأه: «وهو عالمٌ بكلِّ شيء»، والآن رأى، وصحتها عَلِمَ، أن كل شيء قد كَمُلَ.

«كلُّ شيء قد كَمَلَ»: τετέλεσται

يُلاحَظ المقابلة بين قول ق. يوحنا «قد كَمُلَ»، وقول المسيح بعد ذلك «قد أُكْمِلَ» τετέλεσται، وهي نفس اللفظة. وقد اهتم ق. يوحنا، منذ البدء، بمقابلة كُلِّ أحداث الآلام بما جاء عنها في النبوات، حاسباً ذلك شهادة ذات وزنٍ إنجيلي عالٍ للغاية. والآن، يؤكد أنه لكي يتم الكتاب، يورد هنا قمة الآلام ونهايتها: أي قول المسيح: «أنا عطشان». وق. يوحنا هو

---

[28] Westcott, *op. cit.*, p. 276, quoting Nicephoros Callisti (+c. 1350 *Hist. Eccl.* 11.3).

[29] Westcott, *op. cit.*, p. 276.

الوحيد الذي سجّل هذا القول للمسيح، الذي به يدرك العالمون ببواطن الأمور، وخاصة الأطباء، ماذا يعني: «أنا عطشان» بالنسبة للمسيح الذي لم يتأوَّه أو يشتكي من أي ألم سابق في أنواع العذاب التي صادفها، بل يصفه الواصف كما تَنَبَّأ عنه النبي، أنه "كشاةٍ سِيقَ للذبح، ولم يَفْتَحْ فاهُ". ولكنه هنا لم يستطع، بل فتح فاهُ اضطراراً، كإنسان بلغ به العذاب ما بَعُدَ أقصاه، لأنها لحظة الاحتضار الحتمي، لفُقْدانِ كلّ الدم، حيث بلغ الإحساسُ بالعَطشِ إلى مراكز المخّ العُلْيَا، التي لا يمكن لإنسان التحكُّم فيها. وهنا، العطش يحمل داخله قمة «كل شيء»، أي كل التعذيب اللائق بالخلاص، الذي يوازنه «قد أُكْمِلَ»، لأن وراء العطش القاتل لا يتبقى إلاَّ تسليمُ الروح.

يُلاحظ هنا أن ق. يوحنا ضمَّن القول: «رأى يسوع أن كل شيء قد كَمَلَ»، كل ما سبق وسجّله الإنجيليون الثلاثة، سواء من جهة التعيير من كل فئة، أو من جهة ساعات الظلمة الثلاث، وانشقاق حجاب الهيكل، والزلزلة، وشهادة رئيس الجند، وقول المسيح: «أَلُوِي أَلُوِي لَمَا شَبَقْتَني»، وتفسير الجموع الخاطىء لهذا القول. لأن تركيز ق. يوحنا كان على شخص المسيح نفسه، وعلى ما فات على الإنجيليين تسجيله من أقواله وهو على الصليب.

وكلُّ شيء قد أُكْمِلَ، في نظر المسيح، يعني أنَّ كل ما يلزم لذبيحة الخلاص وتقديمها أمام الآب قد استوفاه لقيام حياة جديدة للإنسان. فقد أُكْمِلَتْ خِلْقَةُ السماوات الجديدة والأرض الجديدة ليسكن فيها البر، على نَمَطِ ما صنعه الله بالكلمة في البدء حينما «أُكملت السموات والأرض وكلُّ جُنْدِها. وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل» (تك٢: ١و٢)، وهوذا المسيحُ قد فَرَغَ للتوّ، في اليوم السادس، ليدخل راحته في اليوم السابع أيضاً ليستريح من كل أعماله التي عمل.

لقد استجابت الطبيعة لكلمة المسيح: «قد أُكمل». فابتدأ العالم القديم يعطي إشاراته أنه تداعى أمام العالم الجديد الذي خُلق، فتزلزلت الأرض، وتشققت الصخور، لأن صخر الدهور المُقْتَطَع بغير يدٍ من لحم الإنسان ودمه، صار هو الجبلَ الذي يملأ العالم والسماء، وهو الذي سَحَقَ العالم الوثني سحقاً مع رؤساء وسلاطين عالم الظلمة. كما تداعى النظام القديم للعبادة المرتبطة بالعالم القديم، فانشقَّ حجاب الهيكل من أعلى إلى أسفل، وكأنها وَمْضَةٌ من السماء أتته من فوقُ لتُلغي وجودَه، لمَّا انشقَّ جنب «الحجاب الجديد» ــ أي جسده ــ ليفتح عالم الله على الإنسان، وليصير طريقاً للعبور إلى قُدْسِ أقداسِ الله. وانحلَّ سلطان الموت لحظةَ قبولِ المسيح للموت في

داخله، فظفرت به الحياةُ التي فيه، وحاصرتْهُ، وأطْبَقَتْ عليه، وسَحَقَتْهُ سحقاً، فبَطُلَ عملُه. وتَفَتَّحت القبورُ وخَرَجَتْ أجسادُ الراقدين، تستقبلُ فجرَ اليومِ الجديدِ الذي صنعه الله لأزمنة الخلاص (مت٢٧: ٥٢و٥٣).

هذا التكميل أو التتميم فهمته الكنيسة، كما قاله المسيح تماماً: «وأقوال الأنبياء التي تُقْرأ كلَّ سبتٍ، تمموها، إذ حكموا عليه، ومع أنهم لم يجدوا علّة واحدة للموت، طلبوا من بيلاطس أن يُقتل، ولما تمّموا (أكمَلُوا) ἐτέλεσαν كلَّ ما كُتِبَ عنه، أنزلوه عن الخشبة، ووضعوه في قبرٍ» (أع١٣: ٢٧—٢٩). يلاحظ القارىء في هذه الآية صدىً قوياً لتسجيل ق. يوحنا، وبنفس الكلمات، فهو تقليد كُتِبَ قبل أن يكتب يوحنا إنجيله.

لقد كانت مسرّةُ الرب أن يعمل في السبوت، والآن قد أكمل تعاليمه، بل وآلامه، قبل أن يلوح السبتُ ليدخلَ، ونحنَ معه، إلى راحته الأبدية في سبتِ الله الروحي.

١٩: ٢٩ «وكان إناءٌ موضوعاً مملوًّا خلًّا، فملأُوا إسفنجةً من الخلّ، ووَضَعُوها على زُوفا، وقدَّمُوها إلى فَمِهِ».

هذا الإناء يذكره فقط ق. يوحنا، كذلك نوع هذا الخل ὄξους، وهو نوعٌ من النبيذ الفاسد، يشربه العَسْكَرُ لرخصه([٣٠]). ولكن وجود إسفنجة وقصبة أو زوفا خاصة لرفعها، يُعْني تماماً أنها جزءٌ من ترتيبات الصَلْبِ كلها، كانت موجودة ومُعدَّةً لمثل ذلك العمل. فالوعاء للإسفنجة، والإسفنجة للوعاء، لأنه يستحيل إعطاؤه كأساً ليشرب([٣١]). وقد اشتركت الأناجيل كلها في ذكر هذا المشهد، ولكن ق. يوحنا هو الوحيد الذي يقول أنه قَبِلَ أن يَشْرِبَ. وواضح أن تقديم الخل كان عملاً فيه نوع من الرحمة، وليس المقصود به المضايقة.

---

[30] Brown, R.E., *op. cit.*, p. 909.

(٣١) ويقول العالم جون ليون موريس في كتابه: «الإنجيل بحسب القديس يوحنا» ص٨١٤ نقلاً عن آخرين، أن من تقاليد قوانين السنهدريم المعمول بها مُنْذُ القدم: [إذا اقتيد أحد من الناس للقتل، فإنه يعطى جُرْعَةً من الخمر، مُذاباً فيه قطعة من اللبان (المرّ) حتى تتخدّر حواسه. لأنه مكتوب: «أعطوا مُسْكِراً لمن سيهلك، وخمراً لمُرّي النفس. يشرب وينسى» (أم٣١: ٦). وقد صار التعليم أن النساء الشريفات في أورشليم كنّ تعودن أن يَقُمْنَ بتقديم هذا].

Leon Morris, *op. cit.*, p. 814.

١٩ : ٣٠ «فلما أخذَ يسوعُ الخلَّ قالَ: قد أُكْمِلَ. ونَكَّسَ رأسَهُ وأسْلَمَ الرُّوحَ».

هنا يذكر الكتاب أن المسيح رَضِيَ أن يشربَ من الخَلّ. أما في بداية الصلب، كما جاء في إنجيل القديس متى (٢٧ : ٣٤)، رفض المسيح المشروب المخدِّر حينما قدموه إليه، وكان خلاً ممزوجاً بمرارة، ليلطِّف من آلام الجسد المبرِّحَة، ولكن المسيح جاء **«ليذوق الآلام لأجل الكل»** وقد «لاَقَ ... أن يُكمِّل رئيس خلاصهم بالآلام» (عب٢ : ١٠)، و«ينبغي أن المسيح يتألم بهذا» (لو٢٤ : ٢٦). وأخيراً، ذاق الخلَّ ليستطيع أن ينطق الكلمة الأخيرة: «قد أُكْمِلَ»، ويكمِّل الكتاب القائل: «وفي عَطَشِي، يَسْقُونَنِي خَلًّا.» (مز٦٩ : ٢١)

وواضحٌ في إنجيل ق. يوحنا، أنَّ المسيح أسْلَمَ الحياة وهو في ملء الحياة، ومالكاً لكل قواه. وتَمَّ قولُه: «ليس أحدٌ يأخذها مني، بل أضعُها أنا من ذاتي، لي سلطان أن أضعها، ولي سلطان أن آخذها أيضاً» (يو١٠ : ١٨). وإن كان المسيحُ قد طلب هنا أن يشربَ، فلكي يستطيع أنْ ينطِقَ الكلمة الأخيرة ـــ بصوتٍ عالٍ كما جاء في الأناجيل الأخرى، لهذا قيل: «فلما أخَذَ ... قال».

«قد أُكْمِلَ»:

«العملُ الذي أعْطَيْتني لأعْمَلَ قد أكْمَلْتُه.» (يو١٧ : ٤)

إنها صرخة النَّصْرِ الأخيرة، فقد أكْمَلَ عملاً، يشقُّ على أي كاتب ماهر أن يصفه، بل يشقُّ على أي تصوُّرٍ أنْ يَصِفَهُ. لم يَسْتطِعْ ق. يوحنا، بكل ما كانَ له من وعي إنجيلي ورؤيوي أن يزيد على هذا كلمة، أو يشرح ما تحتويه بكلمة. ففي ظنِّه أن كُتُبَ الأرض لا تَسَعُها، ولا الأرض تَسَعُ الكتبَ إذا كُتِبَتْ. فقد أكمل عملاً أخذه من الآب، وأكمله بكل شروطه التي عرفناها والتي لم نعرفها بعد، أن ينزلَ من الحِضْنِ الأبَوِيّ، ويلبس عار الإنسان عوض النور الذي يلبسه. وأن يصير في الهيئة كَعَبْدٍ، ويتَّضع تحت أرجل عبيده، أن يأخذ خطية الإنسان أخذاً، لتدخل جسده دخولاً، فيقْبل بها اللعنة قبولاً! فيصبح بالخطية واللعنة قابلاً للمذلَّةِ، مُتَقَبِّلاً للإذلال، ومستحقاً للموت، بسبب ما وَضَعَه على نفسه، لا بسبب ما وَضَعه عليه الآخرون. منظوراً للناس، كأنه مستحقٌّ الضربِ والإذلال، وهو مضروبٌ ومُذَلٌّ بسبب ما أخذه عنا. ومن واقع ما حمله من شرِّ الإنسان، طمع فيه الشيطان، إذ وجد له فيه مدخلاً وليس مأخذاً! لأنه من الداخل، كان ما كان، نورٌ ليس فيه ظُلمةٌ البتة، قدُّوس بلا عيب ولا شر.

زحف عليه الموت حتى غطَّاه، عن حق وعدالة، لأن الخطية التي لَبِسَها واللَّعنة التي صار إليها

هما والموت رفيقان وصِنْوَان لا يفترقان! فلا يمكن أن يؤخذ واحدٌ و يُتْرَك الآخر، فأخذهما كليهما ليوفي بالواحد كَيْلَ الآخر! فبالموت، داس الموت، لما داس الخطية، و بالحياة والقدوسيَّة التي له، انفصل عن الخطية والخطاة، وارتفع إلى أعلى السموات، بعد أن صنع تطهيراً أبدياً لخطايانا، وجلس في يمين العظمة في الأعالي (عب١: ٣).

قام، حقا قام، ولكن لم يكن في ذلك عَجَبٌ، لأن القيامة كانت فيه، قبل أن يموت، وفي الموت، وما بعد الموت، فهو الحيُّ الأزليُّ الذي لا يموت. ولكن العَجَب العجاب والمعجزة الكبرى أن يموتَ مَنْ هو حقاً «القيامةُ والحياة». يقولون إنه مات بالجسد! ولكن، وحتى هذا الجسد، كيف يموتُ وهو الذي وُلِدَ من الروح القدس، ومن عذراء تقدَّست بالروح القدس؟ فله جسدٌ بلا خطية، وعاشَ ولم يَقْبَلْ أن يدخل على جسده خطية، فأعلن المسيح إعلاناً: «من منكم يُبَكِّتُني على خطية؟» (يو٨: ٤٦)، متحدياً لا الأعداء، بل فكر الإنسان؟ فكيف يموت جسدٌ مثل هذا، والموت هو استحقاق الخطاة: «لأن أجرة الخطية هي موت» (رو٦: ٢٣)؟ هنا معجزةُ المسيح والصليب والموت. فلولا أنه أخذ منا عنصر الموت، أي الخطية، وقَبِلَه في جسده قبولاً، وارتضى بملء إرادته أن يقفَ من الله أبيه موقفَ الإنسان المتعدِّي عِوَضَ المتعدِّين، ليقبل منه التخلِّي مع مَنْ قَبلُوا التخليَةَ من الله، لا شكلاً، بل بالحقيقة، وإلاَّ ما استطاع أن يلطمه عَبْدُ رئيس الكهنة، ولا أن يَبْصِقَ في وجهه أعضاءُ السنهدريم، ولا أن يهزأ به العسكرُ، ولا أن يمدُّوه على الصليب، ولا أن يتجرأ عليه الموتُ ويدخل إلى أعماقه!!

أن يموت المسيح بالحقيقة، فليست هذه معجزة الإنسان، بل معجزة الله، أن يبذل ابنه الوحيد بذلاً، و يتركه للموت تركاً، بل و يسحقه بالحزن سحقاً! ومعجزة موت المسيح كلها، هي معجزة حبٍّ وقداسة. حبُّ الله للعالم الساقط واللاهي عن سقوطه! وقداسةُ المسيح التي أَلْبَسَها الخطية والموت لِبْساً! فحبُّ الله الآب للإنسان وازن ثِقَلَ الصليب والآلام لابنه الحبيب، فتعادلا، وفاض الحبُّ ولا يزال فائضاً! وقداسة المسيح وازنت **«عنصر»** الخطية في **«الإنسان»** بكل صنوفها وقُبْحِها، وفي الناس جميعاً كل الناس، فرفعَتْها عن كاهل الإنسان، بل مَحَتْها محواً، بعنصرها القاتل، كما من جسد المسيح المُقَامِ، كذلك من كل جسد في المسيح يؤمن بمن مات وقام! فهذا الخلاص **«قد أُكْمِلَ»** **«وتمَّ الفداءُ»**.

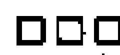
«ونكَّس رأسه» وصحتها «أمالَ (أو أحنَى) رأسه» κλίνας :

الذي لم يَكُنْ له أين يسند رأسه، أسنَدَها أخيراً على الصليب كما على حضن الله. لأنه «كان

ينبغي أن المسيح يتألم بهذا، و يدخل إلى مَجْدِه» (لو٢٤: ٢٦)، «لأن الذي دَخَل راحته، استراح هو أيضاً من أعماله، كما الله من أعماله.» (عب٤: ١٠)

«وأسْلَمَ الروح»:

رآه إشعياء، بالنبوَّة، في هذا المنظر عينه: «أنه سَكَبَ للموت نفسه» (إش٥٣: ١٢). لم تؤخذ رُوحُه منه كبشَرٍ؛ بل سَكَبَ هو، بنفسه، روحَه بإرادته، كمن يَذْبح ذبيحة ويَسْكُب روحها مع دمها. هكذا المسيح قَبِلَ سَفْكَ دمِهِ بيد الذابحين، أما روحُه فسكَبَها بيده في يد الآب سكيباً. فأسْلَمَها له تسليماً، كمن يستودع وديعة، هو وشيك أن يستردَّها: «يا أبتاه في يديك أسْتَوْدِعُ روحي.» (لو٢٣: ٤٦)



والآن، يليق بنا أن نسترجع من إنجيل ق. يوحنا والثلاثة الأناجيل الأخرى، ما قاله المسيحُ على الصليب. هي سبع كلمات:

ما قبل الظلمة التي جاءت على الأرض:

١ ـــ «يا أبتاه اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون.» (لو٢٣: ٣٤)

٢ ـــ «الحقَّ الحقَّ أقول لك إنَّك اليومَ تكونُ معي في الفردوس.» (لو٢٣: ٤٣)

٣ ـــ «يا امرأة هوذا ابنُكِ ... هوذا أُمُّكَ.» (يو١٩: ٢٦)

أثناء الظلمة:

٤ ـــ «إيلي إيلي لَمَا شَبَقْتَني.» (مت٢٧: ٤٦؛ مر١٥: ٣٤)

بعد الظلمة:

٥ ـــ «أنا عطشان.» (يو١٩: ٢٨)

٦ ـــ «قد أُكْمِلَ.» (يو١٩: ٣٠)

٧ ـــ «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي.» (لو٢٣: ٤٦)

هي سبعُ كلمات لم يحْوِها إنجيل واحد بأكملها، ولكن الأربعة معاً احتووها، لتخرج لنا هكذا، باتحاد الأصوات، كما من قيثارةٍ بيد داود!

٤ ــ طلبان يُقدَّمان إلى بيلاطس، يستجيب لهما في الحال

(١٩ : ٣١ــ٤٢)

الأول: طلب تكسير السيقان للتعجيل بالموت: (١٩ : ٣١ــ٣٧).

١٩ : ٣١ **«ثمَّ إذ كان استعدادٌ، فلكي لا تَبْقَى الأجسادُ على الصَّليبِ في السَّبْتِ، لأن يَوْمَ ذلك السَّبْتِ كان عظيماً، سأل اليهودُ بيلاطُسَ أن تُكْسَرَ سيقانُهم ويُرْفَعُوا».**

«المسيح افتدانا من لعنة الناموس، إذ صار لعنة لأجلنا، لأنه مكتوبٌ ملعونٌ كل من عُلِّق على خشبة.» (غل٣: ١٣)

ق. يوحنا ينفرد بسرد دقائق هذه الحادثة، ويركِّز كثيراً على أهميتها بشهادته.

«الاستعداد»: παρασκευή

هو اليوم السادس من الأسبوع في العادة. الآن «اليهود»، ويقصد بهم ق. يوحنا أعضاء السنهدريم، وهم لا يزالون يناورون، وقد تمموا شهوة حقدهم، وأكملوا تزييف قضية القتل حتى النهاية؛ سبقوا وذهبوا إلى بيلاطس يطالبون بضرورة إنزال الجسد من على الصليب تتميماً لحرفية الناموس: «وإذا كان على إنسان خطية حقها الموت، فقُتِلَ، وعلَّقته على خشبة. فلا تَبِتْ جُثَّتُهُ على الخشبة، بل تَدْفِنُه في ذلك اليوم. لأن المعلَّق ملعونٌ من الله. فلا تُنجِّس أرضك التي يعطيك الرب إلهك نصيباً.» (تث٢١: ٢٢و٢٣)

ولأن في ظنِّهم، لن يموت المسيح سريعاً، وهكذا يدخل (السبت) اليوم التالي للصَّلْب فتتنجس به الأرض وهو معلَّقٌ، طلبوا مُسْبَقاً بكسر سيقان الكل أي المسيح واللصين، ليعجِّلوا من الآن بموته. وواضح من هذا، الإتجاهُ إلى مزيدٍ من التشفِّي لكسر ساقيه وهو حيٌّ!! بالإضافة إلى الاطمئنان إلى أنه يموت أيضاً ميتة لا قيام منها حينما تُكسر ساقاه! وكان الطلب، ولو أنه لا يدخل في صلاحية القانون الروماني وممكن رفضه(٣٢)، إلاَّ أن بيلاطس وافق عليه.

[32] ICC, Bernard, *op. cit.*, p. 642.

وكلمة «الاستعداد» تجوز على يوم ما قبل السبت كما تجوز على يوم ما قبل العيد، فالثلاثة الأناجيل أخذوها بمعنى الاستعداد للسبت، أما ق. يوحنا فأخذها بالاعتبارين أي اعتبار السبت، ولأن هذا السبت هو المحسوب أول أيام الفطير وهو «عيد الفطير» اعتُبرَ يوم هذا السبت عظيماً: «سبعة أيام تأكلون فطيراً، اليوم الأول تعزلون الخمير من بيوتكم. فإن كلَّ من أكَلَ خميراً من اليوم الأول إلى اليوم السابع تُقْطَعُ تلك النفس من إسرائيل. و يكون لكم في اليوم الأول محفلٌ مقدسٌ. وفي اليوم السابع محفلٌ مقدسٌ. لا يُعمل فيهما عملٌ ما، إلاَّ ما تأكله كل نفس، فذلك وحدهُ يُعْمَل منكم.» (خر١٢: ١٥و١٦)

السبت العظيم:

كان لا بد أن يأتي هذا السبت هكذا عظيماً، ليس على مستوى أيام طقس اليهود بعد، بل على أزمنة الخلاص، وكل ساعاته مقبولة، لأنه كان لا بد أن يدخل المسيح بعد عناء الصليب وتكميل الرسالة الشاقة جداً إلى راحة سَبْتِهِ العظيم، الذي أشرقت شمسه في السماء وليس على الأرض، ليبقى سبتاً إلهياً إلى أبد الأبد. لم يُخلق سبتٌ، منذ أن خُلق الزمن وإلى أن يزول الزمن، مثل هذا السبت الذي دخل فيه المسيح إلى راحته وأدْخَلَنا معه حيث لا زمنَ بعدُ، بل حياة أبدية وسيرة مقدسة مكتوبة مُفْرداتُها في السموات: «فلْنَخَفْ أنه، مع بقاء وعدٍ بالدخول إلى راحته، يُرَى أحدٌ منكم أنه قد خاب منه ... فَلْنجتهدْ أن ندخل تلك الراحة.» (عب٤: ١و١١)

و يوم الاستعداد يبدأ من مساء الخميس، من الساعة السادسة وحتى الساعة السادسة مساء يوم الجمعة عشية السبت. و بعض الشراح الذين ينحازون لتوقيت الثلاثة الأناجيل الزمني، يعتبرونه يوم ١٥ نيسان، مثل بولتمان وكثيرون، وآخرون يعتبرونه ١٤ نيسان اليوم الذي يُذبَحُ فيه الفصح، والذي صُلب فيه المسيح، مثل وستكوت وريبون براون وآخرون كثيرون، حيث يوم ١٦ نيسان يكون أيضاً عيداً رسمياً هو عيدُ ترديد حُزْمَةِ **الباكورة**، أي **باكورة القمح**:

«وكلم الرب موسى قائلاً: كلِّم بني إسرائيل، وقل لهم: متى جئتُم إلى الأرض التي أنا أُعطيكم وحصدتُم حصيدَها، تأتون **بحزمة أول حصيدكم** إلى الكاهن، فيردِّد الحزمة أمام الرب للرضا عنكم، في **غد السبت** يرددها الكاهن.» (لا٢٣: ٩ــ١١)

وهذا السبت هو السبت الأول بعد الفصح. أما «**غد السبت**» بالنسبة للمسيح ولنا، فهو عيد القيامة، حيث قدَّم المسيح نفسه للآب **كباكورة من بين الراقدين**، كحصادٍ وفير جداً لحبَّة الحنطة التي ماتت يوم الجمعة!! فعندما كان رئيس الكهنة وزمرته منهمكين في استلام باكورات الشعب

منذ فجر الأحد، والشعب كله مسرعٌ إسراعاً لتقديم باكوراته، كان المسيح قد قام وقدَّم نفسه باكورة، وابتدأ يجمع أول حُزمة من حصيده من المريمات والتلاميذ، ليرفعها و يردِّدها على المذبح الناطق السمائي، رائحة بخور تدخل إلى عظمة الآب السمائي.

و يلاحَظ أن كلًا من إنجيلي القديس مرقس والقديس يوحنا يتفقان، كل واحد مع الآخر، في كَوْنِ المسيح صُلِبَ يومَ الجمعة، وهو يوم الاستعداد: «ولما كان المساء، إذ كان **الاستعدادُ، أي ما قبل السبت**، جاء يوسف الذي من الرامة مُشِيرٌ شريف، وكان هو أيضاً مُنْتظراً ملكوت الله، فتجاسر ودخل إلى بيلاطس، وطلب جسد يسوع» (مر١٥: ٤٢و٤٣). ولكن يتفق إنجيل القديس متى مع القديس لوقا في أن ذلك اليوم كان ١٥ نيسان، أي ثاني يوم ذبح الخروف، في حين أن إنجيل يوحنا يؤكد في مواضع كثيرة، كما سبق وذكرنا، أن المسيح صُلِبَ يوم الفصح ١٤ نيسان.

«لكي لا تبقى الأجساد على الصليب»:

كان القانون الروماني يُمْعِنُ في التشهير بالمجرمين، فكان يُبْقِي على أجسادهم معلَّقة على الصلبان ربما لأيام، وحتى لكي تفتك بها طيور السماء، وذلك عِبْرةً للمجرمين، ولزيادة هيبة القانون. ولكن الناموس اليهودي يمنع ذلك، باعتبار أن مَنْ عُلِّق على خشبة هو ملعون من الله، فإذا بقي على الخشبة لثاني يوم فإنه ينجِّس الأرض، أي أرض إسرائيل! «فلا تبت جثَّته على الخشبة، بل تدفنه في ذلك اليوم، **لأن المعلَّق ملعون من الله. فلا تنجِّس أرضك** التي يعطيك الرب إلهك نصيباً.» (تث٢١: ٢٣)

«أن تُكْسَرَ سيقانهم»(٣٣): Crurifragium (اصطلاح كسر السيقان):

كانت الآلة التي تكسر بها السيقان مِطرَقةٌ خشبية ثقيلة. وكانت هذه العملية بحد ذاتها عملاً وحشياً، لا يطيق الإنسان النظر إليها، وكانت الآلام الناتجة لا يمكن وصفُها. وكان هذا الإجراء عقوبةً قائمةً، بحد ذاتها، عند الرومان، والآن أرفقوها بالمصلوب. ولكنهم بالنسبة للمصلوب المعلَّق الذي تتعذب روحه من طول فترة النزاع الأخير، ربما كان يُحْسَبُ هذا عمل رحمة (أعتقد أنها حتى للحيوان لا تُعْتَبرُ رحمة). والمعروف أن المصلوب قد يمكث على الصليب في نَزْعِه الأخير ربما إلى أيام(٣٤). لهذا نجد أن بيلاطس، في إنجيل القديس مرقس، يتعجب كثيراً من سرعة موت الرب

(٣٣) في الحفريات الحديثة في أورشليم، وُجِد هيكلٌ عظمي لرَجُل من القرن الأول. ووُجد كلا ساقيه مكسورين.

See: Brown, *op. cit.*, p. 934.

[34] Edersheim, *op. cit.*, p. 613.

على غير العادة.

وفي العادة، لم تكن تكمل الوفاة بتكسير الساقين، فكان يجري على المصلوب ما هو معروف في القضاء بـ coup de grâce أي «الضربة القاضية من أجل الرحمة» بحد السيف، أو بضربة percussio sub alas، وتعني ضربة عنيفة تحت الإبط والذراع ممدودة([35]) أو بطعنة حربة مصوَّبة للقلب لتقضي في الحال على المتألم([36]). وهذه كانت تُعتبر ملحقات لعقوبة الصلب، لتقليل زمن النزاع للموت.

واليهود اختاروا سَحْقَ العِظَامِ للساقين. ولكن احتراسَهم الشديد جداً للقضاء على المسيح، جعلهم حتى وبعد موته يستوثقون من غرضهم بطعنة الحربة.

١٩ : ٣٢ «فأتى العسكرُ وكَسَرُوا سَاقَي الأولِ والآخَرِ المصلوبِ معه».

العسكر كانوا أربعة، فكان لكل مصلوب حارسه. بهذا تفهم لماذا ذُكر اللصان أولاً مع أن المسيح في الوسط. فكل حارس كمَّل الأمر الصادر إليه، فلما جاء الحارس المنوط بحراسة المسيح، رأى أنه مات، فامتنع عن إجراء الكسر. وهكذا كُسِرَت ساقا اللصِّ المجدِّف والتائب كليهما. فالعالم لا يستطيع، في صبِّ غضبه، أن يفرِّق بين البار والشرير، فحادثة واحدة تحدث لكليهما: لواحدٍ تُحْسَبُ له نِقْمَةً، ولآخر تُحْسَبُ له نِعْمةً، لواحدٍ يأخذها كأجرٍ، والآخر يأخذ عنها الأجر!!

١٩ : ٣٣ «وأما يَسُوعُ، فلمَّا جاءُوا إليه، لم يَكْسِرُوا سَاقَيْهِ، لأنهم رَأَوْهُ قد مَاتَ».

«لأنهم رأوه قد مات»:

الرب مات سريعاً! هذا كان موضع تعجُّب بيلاطس، الذي أراد أن يستوثِقَ من هذه الحقيقة، فاستدعى قائد المائة، وسأله وتحقق فعلاً أنه مات: «فتعجب بيلاطس أنه مات كذا سريعاً، فدعا قائدَ المائة، وسأله: هل له زمانٌ قد مات؟» (مر١٥ : ٤٤)

إن كان القديس بولس اشتهى أن ينطلق وهو صحيحٌ وسليمٌ يدبُّ على الأرض، فكم تكون نفسُ الرب بعد هذا العذاب المرير، لقد كان الموت بيده كما كانت الحياة، فلما استوفى متطلَّبات

35 Ibid., quoting others.

(٣٦) فارار، «حياة المسيح»، ص ٧٨١.

الموتِ وعلاماته، وأكمل نزيف الذبيحة بالقَدْرِ الذي يكفي لخلاص العالم، اكتفى الرب بهذا الحد وانطلق: «إنه خير لكم أن أنطلق» (يو١٦: ٧)، فلماذا التأخير في إتيان الخير؟

النفس بقدر تعلُّقها بالعالم، والأهل والأحبَّة، ومسرات الدنيا، تتعوَّق في الجسد كثيراً، لا تشاء أن تفارقه. والرب أنهى معركته مع العالم، وسلَّم الأم للحبيب، وكانت أمامه في الأعالي مَسرَّاتٌ عظمى تنتظره، فلماذا التعوُّق على الأرض؟ وبقدر ما كانت أعمالُ الأرض الكثيرة، التي أعطاه الآب ليكمِّلها، تشدُّه كما يشدُّ الجوعُ والعطشُ الإنسانَ للجري وراء الأكل، بقدر ما أسرع في فكِّ الرُّبُطِ عنها، لمَّا أكمَلَها حتى النهاية، كالشبعان الذي يزهد الأكل في النهاية: «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله» (يو٤: ٣٤)، «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملتُه» (يو١٧: ٤)، «قال قد أُكمل ونكَّس رأسَه وأسْلَمَ الروح.» (يو١٩: ٣٠)

وكلُّ إنسان يسلِّم الروح، تتنكَّسُ رأسُه عن غير إرادة. أما يسوع فنكَّس رأسه أولاً، ثم أسْلَمَ الروح، هذه بإرادته وتلك بإرادته، ليبقى سيداً على الموت لمَّا يستقبله. فقد استدعى المسيح الموت، ومات، كما يستدعي الإنسان النوم وينام: «لي سلطان أن أضعها»، «ليس أحدٌ يأخُذُها مني، بل أضعُها أنا من ذاتي» (يو١٠: ١٨). فالموت، في اعتبار الرب، ليس أكثر من نوم تعقُبُه اليقظة: «لعازر حبيبنا قد نام، لكني أذهب لأُوقظه... وكان يسوع يقول عن موته، وهم ظنوا أنه يقول عن رقاد النوم. فقال لهم يسوع حينئذ علانية: لعازر مات» (يو١١: ١١–١٤). وذهب، وبالفعل أيقظه!... وداود في المزمور لم يرَ في موت الرب وقيامته معاً إلاَّ كنائم ثمل من الخمر استيقظ فجأة: «فاستيقظ الرب كنائمٍ كجبارٍ معيِّطٍ (ملتهبٍ) من الخمر، فضرب أعداءه إلى الوراء، جعلهم عاراً أبدياً» (مز٧٨: ٦٥و٦٦)، «لماذا تطلبْنَ الحي بين الأموات، ليس هو ههنا، لكنه قام.» (لو٢٤: ٥و٦)

وبعدما سلَّم المسيح أُمَّه لتلميذ سَبَقَ فأحبَّه، وسلَّم الجسد لفريسي سبق وولَدَه مع غنيٍّ له قبر، سبق فأعدَّه، حينئذ انسلَّ من الجسد الميت، لمهمة أخرى كانت تنتظره إذ «ذهب فكرز للأرواح التي في السجن.» (١بط٣: ١٩)

١٩: ٣٤ «لكنَّ واحداً من العَسْكرِ طَعَنَ جَنْبَهُ بحَرْبَةٍ، وللوَقْتِ خَرَجَ دَمٌ وماءٌ».

«فينظرون إليَّ، الذي طعنوه، وينوحون عليه كنائح على وحيدٍ له.»
(زك١٢: ١٠)

«و يكون في ذلك اليوم أن لا يكون نور... و يكون في ذلك اليوم أن مياهاً حيّة تخرج من أورشليم، نصفُها إلى البحر الشرقي ونصفُها إلى البحر الغربي... و يكون الرب مَلِكاً على كل الأرض.» (زك ١٤: ٦و٨و٩)

لقد كان ذلك ليستوثق الحراس من صحة موت المسيح. وكان الطعن بالحربة إحدى الوسائل القانونية للإجهاز على المحكوم عليهم بالموت للتعجيل بالموت. ولكن يدُ النبوّة كانت هي التي حرّكت هذا الشكَّ في قلب ذلك العسكري، ليتمّم ما كان مقضيًّا به على الأرض.

«الحربة»: باليونانية λόγχη و باللاتينية Lancea :
وهي الحربة التي نراها الآن في أيدي الجنود الخيّالة. وطعنة الحربة تخترق الجسم بسرعة شديدة، فهي مدبَّبة الطَرْفِ، حادة إلى أقصى حد. و يقول العلماء، أنه لكي تصل إلى القلب وتمزّقه، وهذا هو الغرض الأساسي من الطعن، يلزم أن تأتي الضربةُ من اليمين إلى اليسار. وهذا هو ما تسلّمناه بالتقليد تماماً، فالمتوارَثُ عند الآباء أنه طُعِنَ في جنبه الأيمن.

«وللوقت خرج دمٌ وماءٌ»:

«الذي أحبّنا وقد غسّلنا من خطايانا بدمه.» (رؤ١: ٥)
«وقد غسّلوا ثيابهم و بيّضوا ثيابهم في دم الخروف.» (رؤ٧: ١٤)

اهتمام ق. يوحنا لهذه الحقيقة بشهادة موثّقة من الحق، جعل الآباءَ ينظرون إليها نظرة روحية ولاهوتية خاصة. لأن اشتغال ق. يوحنا الأساسي هو الشهادة للاهوت المسيح، وأول وأهم معنى لخروج الدم والماء من جسد المسيح الميت هو الأمر الذي يخالف طبيعة الإنسان، هذا يَعْني أن الجسد مات، ولكن لم يَرَ فساداً و بالتالي فهو جسدُ ابن الله حقاً.

ـ فخروج الدم والماء معاً شيءٌ، وخروج الدمِ له معناه، ثم خروج الماء له معناه أيضاً.

ـ فخروج الدم والماء معاً، يذكّرنا بكأس العشاء، وهو كأس الإفخارستيا الممزوج[٣٧]. فنحن هنا أمام صورة حيّة لذبيحة ميّتة، على مستوى التحقيق البشري، بالرؤيا العينية، والمعاينة الفاحصة، وشهادة شهود جنودٍ متمرِّسين في القتل. وفي نفس الوقت، ذبيحةٌ حية على المستوى

(٣٧) «(الحكمة) ذَبَحَتْ ذِبحها، مَزَجَتْ خَمرَها، أيضاً رتبت مائدتها... هلموا كُلوا من طعامي، واشربوا من الخمر التي مزجتها.» (أم٩: ٢و٥)

الفائق على الطبيعة، فينبوع الدمِ والماءِ، ولو أن له الشكل والقِوَام والمادة الطبيعية، ولكنه في مناسبة وفي وضع يخالف كليًّا وبصورة قاطعة كلَّ دلائل الموت الطبيعي وعلاماته التي تمَّت وكَمُلَتْ. فالحياة هنا التي يتحرك بها الدم والماء، هي حياة فائقة عن علامات الحياة الطبيعية للدم. إذن، فهي جسدٌ ميِّتٌ بحسب الإنسان، وهي، وبآن واحد، ذبيحة حية ناطقة على المذبح الناطق السمائي، بحسب الإيمان، تعلن أنه قد تمَّ الفداء، وأن العقوبة استُكْمِلَتْ، فتم الغفران أيضاً. **فالموتُ بآلامه** قُبِل بكل شروطه من الحيِّ الذي لا يموت، وبه استطاع البارُّ أن يبرِّرَ كثيرين.

كذلك، نحن هنا أيضاً أمام صورة حيَّة طبق الأصل من ليلة العشاء: «هذا هو دمي الذي للعهد الجديد، الذي يُسْفَكُ من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا» (مت٢٦: ٢٨). فخروجُ الدم والماء من جسد المسيح الميت، هو بمثابة ينبوع الحياة الأبدية، الذي انفتح على الكنيسة على يد ق. يوحنا وبشهادته. فالكأس الذي قدَّمه المسيح ليلة العشاء، بعد أن قسّم ومزّق الجسد، والدمُ فيه على مستوى السرِّ، استعلنه اليوم والجسد مُمزَّق (مكسور) بالفعل، والدم مسفوكٌ بالحق. فهناك إفخارستيا سرِّية، وهنا إفخارستيا علنية مشروحة.

ـ **أما خروج الدم بحد ذاته**، سائلاً يسيل ويجري، ويخضِّب الجسد، فهذا علامة الحياة ولا شك، ولكن أيَّ حياة؟! فدم المسيح هو «**بروح أزلي**»، «فكم بالحري يكون **دم المسيح الذي بروح أزلي قدَّم نفسه لله**، بلا عيب يطهِّر ضمائركم من أعمال ميتة، لتخدموا الله الحي.» (عب٩: ١٤)

وعلى خروج «الدم» من جنب المسيح المطعون، ورثنا صلاة القسمة السريانية التي يقولها الكاهن وهو «يقسِّم الجسد»:

هكذا بالحقيقة تألم كلمة الله بالجسد،
وذُبِحَ وأحنَى رأسه على الصليب، وانفصلت نفسُه من جسده؛
اما لاهوته فلم ينفصل قط لا من نفسه ولا من جسده.
وطُعِنَ في جنبه بالحربة وجرى منه دم وماء غفراناً لكل العالم،
وتخَضَّب بهما جسده وأتت نفسه واتحدت بجسده،
وعوَّضَ الخطية المحيطة بالعالم مات الابنُ بالصليب.
وردَّنا من التدبير الشمالي إلى اليميني،
وأمَّن بدم صليبه ووحَّد وألَّف السمائيين مع الأرضين،

والشعبَ مع الشعوبِ والنفسَ مع الجسد.
وفي ثالث يومٍ قام من القبر.
واحدٌ هو عمانوئيل وغيرُ مفترقٍ من بعد الاتحاد،
وغير منقسم إلى طبيعتين، هكذا نؤمن، وهكذا نعترف، وهكذا نُصدِّق،
أن هذا الجسد لهذا الدم، وهذا الدم لهذا الجسد.
أنت هو المسيح إلٰهنا الذي طُعِنَ في جنبه
فوق الجلجثة بأورشليم لأجلنا،
أنت هو حمل الله الحاملُ خطية العالم،
اغفر ذنوبنا، واترُكْ خطايانا وأقِمْنا عن جانبك اليمين.

[القسمة السريانية]

بهذا المعنى يقدم لنا العالم وستكوت، بكل جرأة، وهو أسقف كرسي درْهام بإنجلترا، وكان أحد لوردات مجلس العموم في زمانه، يقدم لنا هذا التفسير بهذا المعنى:

[نحن نؤمن، أنه من اللحظة التي مات فيها المسيح بدأ جسد الرب يأخذ استعداده بالتغييرات التي انتهت باستعلان القيامة. وأن خروج الدم والماء من جنبه، يلزم أن يُعتبر كعلامة حياة من موت. وهي تكشف عن حقيقة بشريته ـــ وبمعنًى سري ـــ دوام الحياة البشرية فيه. فهو، ولو أنه ميِّتٌ، فهو ميِّتٌ بالنسبة لحياتنا المائتة، إلا أن الرب كان حيًّا، وبينما كان معلَّقاً على الصليب أعلن علناً أنه ينبوع لقوة التطهير والحياة التي كانت تتبعه حيًّا وميِّتاً.](٣٨)

ـــ **وأما خروج الماء بحد ذاته**، فهو يذكِّرنا في الحال بقول الرب: «مَنْ آمن بي، كما قال الكتاب، تخرج من بطنه أنهارُ ماءٍ حيٍّ. قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يَقْبَلُوه» (يو٧: ٣٨و٣٩). إذاً، أصبح خروج الماء من جنب المسيح، هو بالحريِّ **أعظمَ تعبير عن الروح الذي استُعْلِنَ مُنسكباً من جسد المسيح الميت!** وهل مات المسيح إلاَّ لكي يعطينا حياته؟ إذن، فالماء الذي خرج من جنب المسيح كان يحمل الحياة. ونحن لو تأملنا في **سر المعمودية**، باعتباره **سرَّ الموت مع المسيح**، لانتبهنا في الحال أننا في المعمودية ننال الاغتسال الروحي بالماء، الذي خرج من جَنْبِ المسيح الميِّت الحامل للحياة. أي أننا، إذ نموت معه، ننال الحياة من سرِّ

38 Westcott, *op. cit.*, p. 279.

الماء لنحيا كما هو حيٌّ. فسرُّ المعمودية هو سرُّ **موت** مع المسيح، **لحياة** مع المسيح. وبمعنى آخر هو ولادة جديدة؛ لأن الولادة الجديدة ـ الثانية ـ تحتِّم موتاً مسبقاً للولادة الأُولى. وموتُ هذه الولادة اللحمية ماته المسيح من أجلنا، حتى نجوز مباشرة بموته إلى الولادة الثانية الروحية، أي نحيا معه. هكذا نفهم أن الماء الخارج من جنب المسيح، هو حقاً خارجٌ من جسدٍ ميت، ولكنه حقاً بالحقيقة مُحْيِي وحاملٌ الحياة الجديدة لميلاد الإنسان الجديد. فهو أعظمُ تعبير لاهوتي عن سر المعمودية.

ونقدِّم هنا بعض تفسيرات للآباء القديسين والعلماء الأولين:

أولاً: الشرقيون:

١ ـ كلوديوس أبوليناريوس Claudius Apollinarius(٣٩):

هو قديس تُعيِّد له الكنيسة الغربية إلى الآن في ٨ يونيو، عاش في القرن الثاني سنة ١٧٠م. وله كتابات وصلت إلينا أسماؤها وبعض محتوياتها، ولكن معظمها ضاع. كان مدافعاً قوياً عن الإيمان، له دفاع قوي ضد ماركوس أوريليوس، ويعتبر أول من شَرَحَ معنى خروج الدم والماء، وقد نَسَبَهُما إلى الكلمة λόγος ـ كلمة الإنجيل ـ والروح πνεῦμα التقديسي، بمعنى أنهما شهادة تاريخية وسرية.

٢ ـ أُوريجانوس:

مصري إسكندري (١٨٥ـ٢٥٤م). وهو عالم لاهوتي وشارح للإنجيل (وله أخطاء مأخوذة عليه). وقد أخذ عنه القديس جيروم رأيه في الدم والماء أنهما علامتا حياة في الجسد الميت:

[في كل الأجساد الميتة يتجمد الدم ولا يخرج منها ماءٌ نقي. ولكن نجد في المسيح العجيبة في جَسَدِه، أنه وحتى بعد الموت كان في الجسد دم وماءٌ، خرجا من جَنْبِهِ](٤٠).

٣ ـ كيرلس الأُورشليمي:

نسب الدم والماء إلى نوعي المعمودية، معمودية الماء ومعمودية الدم:

[إن المخلِّص إذ قد فدى العالم بالصليب، لما طُعِنَ في جنبه، أعطى الدم والماء حتى إن البعض في أيام السلام يعتمدون بالماء، والآخرين في أيام الاضطهاد يعتمدون بصبغة دمائهم، أي بدمِ موتهم](٤١).

---

39 Idem., p. 284.

40 Origen, *Contra Celsus,* 11, 36,39.

41 Cyril of Jerusalem, *Cat.* III.10.

٤ ــ يوحنا ذهبي الفم (عظة ٨٥):

[ليس كأنه بدون سبب أو كأنها صُدْفَةٌ أن يخرج هذان من جنب المسيح. ولكن لأن الكنيسة تأسَّست بهذين معاً. والذين انفتحوا على الإيمان يعلمون هذا، إذ أنهم وُلِدُوا ثانية من الماء، وأُطعموا من الدم والجسد. إذاً، فهذان السرَّان ابتدآ من هنا، حتى حينما تتقرب إلى الكأس المقدس الرهيب، تعلمُ أنك تشربُ في الحقيقة من ذات الجنب المطعون](٤٢).

٥ ــ القديس كيرلس الكبير الإسكندري:

[إن الرب قد عيَّن هذه الحقيقة لتكون هي الصورة الأُولى لسِرِّ الأُولوجيا (الإفخارستيا) وسر المعمودية المقدسة. لأن المعمودية المقدسة هي بالحقيقة من المسيح ابتدأت، وبالمسيح تكْمُلُ، وقوة الأُولوجية المقدسة تنبع لنا من جَسَدِهِ المقدس](٤٣).

٦ ــ القديس اغريغوريوس (النزينزي):

[ومزجتَ لنا كأساً من كرمة حقيقية
التي هي جنبُك الإلهي غيرُ الفاسد
هذا الذي من بعد أن أسلمت الروح
فاض لنا منه ماءٌ ودمٌ،
هذان الصائران طُهْراً لكل العالم](*)

(القداس الغريغوري، صلاة القسمة)

٧ ــ أبوليناريوس من لاوديكا:

[الرب قدَّم لنا جنباً عوضاً عن جنب، فالمرأة ــ حواء ــ التي أتت من الجنب، الشرُّ الذي أتى منها حَلَّهُ الرب بآلامه، لأن من جنبٍ أتت المشورة التي أفسدت الإنسان، ولكن من الجنب المقدس نَبَعَ لنا ماءٌ ودمٌ، وبهما اغتسل العالم من خطاياه. والمادتان اللتان كانتا تعملان بانفراد في الناموس، جاءتا معاً فيه، كان في الناموس رشُّ الدم للتطهير، والماء للتقديس. لأن كل شيء قد رُتِّب مُسْبَقاً، ليكون بجسد المسيح، الدمُ والماءُ الأقدسان، حتى وإن كان الجسدُ قد مات بالفعل على الوضع البشري، إلاَّ أنه يملك في نفسه قوة الحياة

---

42 Chrysostom, *op. cit. Hom.* LXXXV.

43 Cyril the Great, *op. cit.*, p. 645.

(*) الخولاجي المقدس.

العظمى](٤٤).

ثانياً: العلماء والآباء اللاتين (الغرب):
ترتُليان:

[الاستشهاد هو معمودية أخرى. والدم والماء، عنصرا التطهير والتقديس، نبعا من الجَنْبِ المجروح للرب ... فلنا تطهيرٌ ثانٍ قائمٌ بذاته، هو تطهير بالدم، الذي قال عنه الرب: «لي صِبْغَةٌ أصْطَبِغُ بها» (لو١٢: ٥٠). وها هوذا قد اصطبغ وجاء لنا بالماء والدم. وإذ نعتمد بالماء، نتمجّد بالدم. نُدْعَى بالماء، ونُخْتَارُ بالدم. لهذا أرسل لنا هاتين المعموديتين من جنبه المجروح، حتى إن كلَّ مَنْ يؤمن، يغتسل بدمه، والذي يغتسل بالماء يستعدُّ لشرب الدم]، [لقد مات، لكي من الجُرْح الذي أصاب جنبه، تتشكل الكنيسة الأم للأحياء بالحقيقة](٤٥).

ق. أمبروسيوس:

يأخذ نفس أفكار أوريجانوس ثم يشرحها:

[بعد الموت يتجمد الماء في أجسادنا، ولكن من الجسد الذي لا يفسد، مع أنه ميت، نَبَعَتْ منه حياة للكل، الماء والدم اللذان خرجا منه، الماء للإغتسال، والدم للفداء](٤٦).

ق. أغسطينوس:

[إن رقادَ آدم (لكي يصنع الله من ضِلْعِه حواء)، كان موتاً للمسيح؛ لأنه لما عُلِّق على الصليب بلا حياة، وطُعِنَ جنبهُ بالحربة، خَرَج منه دم وماء، ونحن نعلم أنهما السِّرَّان اللذان بهما بُنِيَتْ الكنيسة، التي هي رمز حواء](٤٧).

***

هكذا يرى القارىء أن موضوع خروج الدم والماء من جَنْبِ المسيح، احتلَّ رُكناً هاماً من تفسيرات الآباء في الشرق والغرب، الذين ردُّوه إلى العناية الإلهية، كتدبيرٍ سابق تأسيسه منذ خروج حواء من جنب آدم، ومنذ أن ضربت الخطية جذورها السامة في طبيعة الإنسان وقتلته. وقد

44 Westcott, *op. cit.*, p. 284.

45 Westcott, *op. cit.*, p. 285.

46 Ibid.

47 Augustine, *De Civitate*, xxii,c.17.

استعلن الآباء عموماً في هاتين العلامتين «الدم والماء» العنصرين المؤسِّسين **لسرّيْ الكنيسة**، الإفخارستيا والمعمودية، أو بالمعنى الذي يحويه «الدم والماء» **سرُّ** استبدال الموت بالحياة في الاغتسال بالماء الحيِّ الخارج من جنب المسيح، الميت؛ وذلك بعد **الانفكاك من أسر العبودية للخطية، بالفداء** بسرِّ **الدم** الذي نبع من الجنب المطعون، أي من الذبيحة الحية!

هذا الحادث يسجله ق. يوحنا في رسالته الأُولى.

ولكن عند تدوين ق. يوحنا لإنجيله، كانت قد ترسخت في ذهنه هذه الرؤية الواقعية التي رآها وهو واقف تحت الصليب، والكنيسة (الأم) مستندة على ذراعيه. **وقد سجّلها في رسالته** قبل كتابة إنجيله بزمن ليس ببعيد، ووثّقها أيضاً بالشهادة، ثم رفع شهادته إلى مستوى شهادة الحق، أي الله:

«هذا هو الذي أتى بماءٍ ودمٍ، يسوعُ المسيح. لا بالماء فقط، بل بالماء والدم، والروحُ هو الذي يشهدُ، لأن الروح هو الحق.» (١يو٥:٦)

المعنى المختبىء هنا هام للغاية، فكلمة «أتى» فيها إفادة تاريخية قائمة على انتظار سابق، بلا شك حدَّده الله بواسطة الأنبياء. وتشديد ق. يوحنا على تلقيب المسيح بأنه «يسوع المسيح»، يفيد أن «**الماء والدم**» يتعلقان به شخصياً من واقع رسالته وشخصه الإلهي (المسيَّا = يسوع) المُشتَعْلَن. أي أن عنصري الماء والدم يتعلقان تعلُّقاً أساسياً بوظيفة المسيح الخلاصية وطبيعته الإلهية، ويعلنان هذا، لأن ق. يوحنا سيتمادى بعد ذلك ويجعل هذين العنصرين يشهدان للمسيح ولنا.

الدم:

بلا شك يتعلَّق «الدم» هنا بما تمَّ على الصليب؛ فالمسيح **«جاء بالدم»** من واقع ذبيحته. والدمُ على الصليب هو عملُ الفداء، الذي هو موضوع مجيئه الأساسي. **فينبوع الدم** الذي انفتح بالحربة، بعد **كمال الموت** أي بعد **تكميل ذبيحة الفداء**، هو بعينه ينبوع الفداء والخلاص. فالمسيح جاء بهذا الدم، وإن كان بشكله وقوامه الطبيعي، ولكن أيضاً بمستواه **«الإلهي»**، **«بروح أزلي»**، **«وبقوّته الفدائية»** بسبب **«ذبيحته الكفارية»**، **«وقوة الحياة»** التي فيه التي **«لا تزول»**، وذلك عِوَض رشِّ دمِ الحيوانات المذبوحة في العهد القديم، والتي كان مفعولُها قاصراً على تخليص الجسد من العقوبة الجسدية. وفي هذا المعنى، وبهذا الدم، أصبحت كلمة «الفداء بالدم»، وعمل الدم الإلهي، بكل معانيها الروحية العالية التي وردت في الأسفار المقدسة، منبثقة

من هذا الدم المنسكب حياً من الجَنْبِ الميّت المطعون، لذبيحة المسيح الفدائية.

+ فبهذا الدم **صرنا** نحن غير اليهود **قريبين** من الله والمسيح: «ولكن الآن في المسيح يسوع، أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين، صرتم قريبين **بدم المسيح**.» (أف ٢ : ١٣)
+ وبهذا الدم **تم الصلح** بين مطالب الله العالية وعجزنا الفاضح: «**عاملاً الصلح بدم صليبه**.» (كو١ : ٢٠)
+ وبهذا الدم **يتم تقديس** الإنسان ودخوله في العهد الجديد لله: «... **دم العهد** الذي قُدِّسَ به.» (عب ١٠ : ٢٩)
+ وبهذا الدم **يعبر عنا ملاك الهلاك** لننجو: «وهم غلبوه **بدم الخروف**، وبكلمة شهادتهم.» (رؤ١٢ : ١١)
+ وبهذا الدم **نحصل على الكفَّارة** فلا نُطالَبُ بدَيْنِ الموت: «... **بالإيمان بدمه، لإظهار برّه**، من أجل الصفح عن الخطايا السالفة.» (رو٣ : ٢٥)
+ وبهذا الدم **نحصل على التبرير المجاني** باعتبار الدم ثمناً مدفوعاً عن كل الخطايا: «متبرِّرون الآن **بدمه**.» (رو٥ : ٩)
+ وبهذا الدم **نكون قد اغتسلنا** من كل دنس وتعدٍّ، وصرنا أطهاراً أمام الله: «غسّلنا من خطايانا **بدمه**.» (رؤ١ : ٥)
+ وبهذا الدم **يكون المسيح قد اشترانا** من العالم لحساب الله أبيه، لنحيا معه: «... واشتَرَيْتنا لله **بدمك**.» (رؤ٥ : ٩)
+ وبهذا الدم **نتطهر من جميع خطايانا**: «ودم يسوع المسيح ابنه، **يطهِّرنا من كل خطية**.» (١يو١ : ٧)

واضح أيضاً هنا أن اللاهوت المسيحي المتركِّز في عملية الفداء والكفَّارة والخلاص، يدور كله حول «الدم»، ولكن أية حالة من حالات الدم؟ لا بد أن يكون الدم الذي له هذه الفعاليّات والصلاحيات العظمى، **دماً مسفوكاً**، دم ذبيحة **أُكمِلَتْ حتى الموت التام**، دماً حيًّا، **فيه قوة** حياة أبدية **من ذبيحة إلهية ميتة موتاً اختيارياً، ولكن بلا أي عيب ولا لوم**. وهذه الشروط جميعاً تنجمع في الدم الخارج من جَنْبِ المسيح المطعون، بعد أن قال: «قد أُكمل»، وقد شهد شهود محايدون بصحة وكمال موته، بعد أن تأكدوا، بطعنة قاتلة، التي لم تَزِدْ الموت موتاً، ولكنها فجَّرت من الموت حياة!!

الماء:

كان الماء الخارج من جنب المسيح الميِّت يشبه الماء الذي صبَّه إيليا على الذبيحة ولحستها النار الإلهية وقت إصعاد الذبيحة، والقصة شيِّقة وهي كالآتي: كان إيليا يتحدَّى أنبياء البعل الذين قدَّموا ذبيحتهم فلم يقبلها الله، فقدَّم هو ذبيحته، ووضع الماء عليها للتعجيز، أو لإظهار معجزة قبول الله لذبيحته كالآتي: «ثم رتَّب الحطب، وقطَّع الثور، ووضعه على الحطب، وقال: املأوا أربع جرَّاتٍ ماءً، وصُبُّوا على المحرقة وعلى الحطب، ثم قال: ثنُّوا، فثنُّوا. وقال: ثلِّثوا، فثلَّثوا. فجرى الماء حول المذبح، وامتلأت القناة أيضاً ماءً. وكان عند إصعاد التقدمة، أن إيليا النبي تقدَّم وقال: أيها الرب، إله إبراهيم وإسحق وإسرائيل، ليُعْلَم اليوم أنك أنت الله في إسرائيل، وأني أنا عبدُك، وبأمرِكَ قد فعلتُ كل هذه الأمور. استجبني، يا رب، استجبني. ليعلَمَ هذا الشعب أنك أنت الرب الإله، وأنك أنت حوَّلت قلوبهم رجوعاً. فسقطت نار الرب، وأكلت المحرقة، والحطب، والحجارة، والتراب، ولحست المياه التي في القناة.» (١مل١٨: ٣٣-٣٨)

كانت «المياه» في ذبيحة إيليا هي المعجزة الأُولى، لأن عنصر الماء عنصر يقاوم النار، ويمكن أن يطفئها إذا لم تكن ناراً إلهية، لها شكل النار المادية، ولكنها فائقة ومتفوقة عن كل عجزها، ولها القدرة أن تُشْعِل الماء كالحطب سواء بسواء.

هكذا كان خروج الماء من ذبيحة المسيح يخالف ويقاوم معنى الموت الذي ماته، لو لم يكن موت المسيح الذي ماته موتاً له شكل الموت الجسدي ولكنه موتٌ فائقٌ عن عجز الجسد، وله قدرة أن يطفيء الموت ذاته ويُحْيي الجسد!

حينما تقدم المسيح ليعتمد من يد يوحنا المعمدان، امتنع هذا وقال: «أنا محتاج أن أعتمد مِنْك وأنت تأتي إليَّ؟ فأجاب يسوع وقال له: اسمح الآن، لأنه هكذا يليق بنا أن نكمِّل كلَّ برٍّ. حينئذ سمح له» (مت٣: ١٤و١٥) إذاً، فالمعمودية في نظر المسيح هي **تكميلٌ للبرّ.**

الماء الخارج من ذبيحة المسيح هو **لتكميل البرّ.** لذلك ذكره ق. يوحنا في إنجيله بعد الدم، وليس قبل الدم. المسيح لما صعد من ماء المعمودية، انفتحت السموات، ونزل روح الله وحلَّ على المسيح، واستقر، وصوت الآب من السماء قال: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سُرِرْتُ». هذا كله يستعلن لنا معنى المعمودية وقوَّتها عند المسيح، وفيه، بل ومنه أيضاً. فهي أولاً مرتبطة بالسماء من فوق، وعلاقتها أساسية بروح الله، فهي سرٌّ من أسرار السموات، وسرٌّ يقوم فيه روح الله بالعمل الأساسي. أما قوتها فواضحة في استعلان البنوَّة لله الحائزة على مسرَّة الله. وماء الأُردن تحت

يد يوحنا، استعلن لنا سر المعمودية الأعظم في المسيح. إلى هنا تنتهي مهمة معمودية يوحنا، أي تنتهي باستعلان وقيام المعمودية القائمة في المسيح بالروح. هنا تسليم وتسلُّم، ماء المعمدان يسلِّم ماء الروح في المسيح، فينتهي عمله.

معمودية يوحنا انتهت، أي توقفت، بخروج ماء الحياة من جنب ذبيحة المسيح المطعون؛ التي هي المعمودية الجديدة من جنب المسيح، حيث بدأت الحياة الجديدة للإنسان بروح الله وبدأ فعلُ برِّ العهد الجديد يملأ العالم: «فاذهبوا وتلمذوا **جميع الأمم، وعمّدوهم** باسم الآب والابن والروح القدس.» (مت٢٨: ١٩)

والآن، لننظر مرة أخرى لينبوع الماء والدم الفائض من جنب ذبيحة المسيح المطعون وهو ميِّت، كيف امتدَّ هذا الينبوع ـــ ينبوع الدم والماء ـــ امتداداً تاريخياً وسرِّياً بآن واحد، من ناموس موسى كعنصر للتطهير المادي والتقديس الشكلي في العهد القديم؟

«الماء والدم»:

الماء، كان في العهد القديم لغسل الأدوات أو لغسل الجسد للتطهير المادي من الدنس الشكلي؛ كمجرد غسيل.

والدم، وهو دم حيوانات، كان يُستخدمُ بالرش أيضاً للتطهير الشكلي: «لأن موسى بعد ما كلَّم جميع الشعب بكل وصية بحسب الناموس، أخذ **دم العجول والتيوس،** مع **ماء** وصوفاً قرمزياً **وزوفا**[٤٨]، ورشَّ الكتاب نفسه وجميع الشعب، قائلاً: **هذا هو دم العهد** الذي أوصاكم الله به. والمسكن (الهيكل) أيضاً **وجميع آنية الخدمة،** رشَّها كذلك بالدم، **وكلُّ شيء تقريباً يتطهَّر حسب الناموس بالدم، وبدوم سفك دم لا تحصل مغفرة**» (عب٩: ١٩ـــ٢٢)؛ حيث المغفرة، هي رفع عقوبة جسدية عن خطية اقتُرفت بدون عَمْدٍ ضد وصايا شكلية للناموس.

بهذا يتجلى أمامنا مسارُ التاريخ وسرُّ الله، من ناموس موسى إلى ناموس المسيح، فينبوع الماء والدم الخارج من جنب المسيح يحمل نفس العنصرين إنما للتطهير والتقديس الروحي للعهد الجديد: «دم المسيح الذي، بروح أزلي، قدَّم نفسه لله بلا عيب، **يطهِّر ضمائركم من أعمال ميتة**

---

(٤٨) واضح أن اختيار ق. يوحنا كلمة «**زوفا**» بدل القصبة التي استخدمها القديس مرقس، كان لكي ينبه ذهن القارىء للمقابلة بعد ذلك بين العهد القديم والعهد الجديد فيما يخص رشَّ الدم: «فملأوا إسفنجة من الخل ووضعوها على **زوفا** وقدموها إلى فمه.» (يو١٩: ٢٩)

لتخدموا الله الحي» (عب٩ : ١٤)، «**هذا هو دمي الذي للعهد الجديد** الذي يُسْفَكُ من أجل كثيرين **لمغفرة الخطايا.**» (مت٢٦ : ٢٨)

كذلك الماء الذي كان «لغسل كؤوس وأباريق وآنية نحاس وأسِرَّة» (مر٧ : ٤)، أصبح ماء المعمودية الجديدة بالروح، **ماءً لغسل الخطايا:** «قُمْ، واعتمد واغسل خطاياك» (أع٢٢ : ١٦)، ماءً يُغتسل به للخلاص: «لا بأعمال في برٍّ عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته **خلَّصنا بغسْلِ الميلاد الثاني، وتجديد الروح القدس»** (تي٣ : ٥)، وماءً لميلاد جديد للإنسان بالروح، لميراث ملكوت الله: «إن كان أحد لا يولد من **الماء** والروح، لا يقدر أن يدخل ملكوت الله.» (يو٣ : ٥)

هكذا نرى أن شهادة ق. يوحنا لهذا السر الذي استُعْلِنَ في آخر لحظة بطعنة الحربة، والذبيحة معلَّقة على الصليب، ربطت ربطاً محكماً بين تسلسل الدور التاريخي بالنسبة لعمل **الماء والدم** في العهد القديم الذي لم يكن له أي قيمة من جهة الروح، وعمل الماء والدم بجوهرهما الروحي، بل الإلهي، في العهد الجديد، كَوْنَهما نبعا من ذبيحة المسيح الفدائية بعد تقديمها على الجلجثة وقت المساء:

«هذا هو الذي أتى بماءٍ ودمٍ، يسوع المسيح، **لا بالماء فقط، بل بالماء والدم.** والروح هو الذي يشهد، لأن الروح هو الحق.» (١يو٥ : ٦)

ق. يوحنا في رسالته الأُولى، يحذِّر من الانتحاء ناحية الفَصْلِ بين عمل الماء وعمل الدم، فالفداء حتميٌّ، وله الأولوية في قبول المسيح وفي شهادة الإيمان. لذلك وضع ق. يوحنا الشهادة لخروج الدم قبل الماء (يو١٩ : ٣٤). فقبل العماد، يلزم الاعتراف والشهادة بالدم المسفوك بموت المسيح على الصليب كفَّارة للخطايا. هنا يجوز العماد، و يكون العماد بمثابة خَتْم الروح على الخليقة الجديدة المفديَّة لله. ق. يوحنا لا يقبل فصل السرَّين، ويؤمن بعملهما معاً.

ولقد انتحى الآباء، في إقامة سر الأُولوجيا (الإفخارستيا) منذ بكور ممارسته في الكنيسة سواء في تعاطيه أو في شرحه، إلى مزج الخمر بالماء لهذا الغرض بالذات، أي لجمع فعل الدم والماء الخارجَيْنِ من جنب المسيح معاً في كأس واحدة.

وإليك طعن في صحة تقديم كأس الإفخارستيا بدون مزجه بالماء:

[ليت الأرمن يخزون، الذين لا يمزجون الماء بالخمر في الأسرار، لأنه يبدو أنهم لا يؤمنون

بخروج الماء ـــ بل الدم فقط ـــ من جنب المسيح التي هي المعجزة الأعظم](٤٩).
ثيئوفيلاكت.

وثيئوفيلاكت هذا كان بطريركاً لبلغاريا في القرن الحادي عشر. وهو يتبع القديس ذهبي الفم في آرائه، وقد شرح كل العهد الجديد بلغة سهلة وتأمل عميق.

«والذين يشهدون في الأرض هم ثلثة: الروح، والماء، والدم، والثلثة هم في الواحد.» (١يو٥: ٨)

واضح أن جمع «الماء» و «الدم» و «الروح» معاً كثلاثة على التساوي، هو محاولة لجعلها شهادة قانونية من ثلاثة: «على فم شاهدين أو على فم ثلاثة شهود يقوم الأمر.» (تث١٩: ١٥)

ويلاحظ أن مفردات هذه الآية جاءت لغوياً هكذا: كلمة «الروح» (محايد) **τὸ** ، و«الماء» (محايد) **τὸ** ، و«الدم» (محايد) **τὸ** ثم في الحال يرفع الكاتب المحايد إلى حالة المذكر العاقل في لفظة «ثلاثة»، سواء في البداية بقوله: «**هم يشهدون**» **οἱ μαρτυροῦντες** ، أو في النهاية بقوله: «والثلاثة هم ...» **οἱ τρεῖς** .

وق. يوحنا جعل شهادة الدم والماء والروح، كلًّا من الثلاثة له شهادة في الإنسان كقوة. ولكن ق. يوحنا لما أضاف «الروح» و«الدم» و«الماء» معاً، صار الثلاثة ولهم ضمير مذكر سالم. أي أن «الثلاثة» يُعبِّرون بفم شخصي واحد، بمعنى أن كُلًّا من الماء والدم ينطق بالروح في الإنسان نُطقاً، بفعل الله الذي تمَّ. ففي المعمودية، الروح يَشْهَدُ لأرواحنا أننا أولاد الله، والدم في الإفخارستيا: «إلى وسيط العهد الجديد يسوع، وإلى دم رشّ، يتكلم أفضل من هابيل.» (عب١٢: ٢٤)

وفي الحقيقة إن الذي يشهد للمسيح في العالم من داخل الكنيسة، هو الماء في المعمودية، والدم في الإفخارستيا، والروح في التكريس والتقديس من داخل هذه الأسرار: «فإنكم كلما أكلتُمْ هذا الخبز، وشربتُمْ هذه الكأس، تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء» (١كو١١: ٢٦)، «ونحن شهود له بهذه الأمور، والروح القدس أيضاً الذي أعطاه الله للذين يطيعونه.» (أع٥: ٣٢)

والإهتمام البالغ الذي ركَّز به ق. يوحنا على ينبوع الدم والماء الخارج من جنب ذبيحة المسيح

49 Theophylact, cited by Hoskyns, *op. cit.*, p. 535.

المطعون، والذي استجبنا نحن أيضاً له وركّزنا على تركيزه، إنما كان لسبب لاهوتي واضح، وهو أن ق. يوحنا يرى في الجسد المصلوب على الصليب قمة إنجيل الخلاص، ومنتهى عمل الله للفداء، وأنه هو هو «حَمَلُ الله الذي يرفع خطية العالم»، كما سمع ذلك من فم معلمه الأول المعمدان (يو١: ٢٩)، وهو ينبِّه ذهن القارىء إلى أن الدم والماء الخارجَيْن من جَنْبِ المسيح، يحملان له الغَسْلَ الحقيقي من خطاياه، والتقديس الداخلي لحياة جديدة، والدخول في عهد المسيح بدمه. وهو يعدِّد في رسالته، ويكشف، عمل الروح القدس من خلال سرَّي الدم والماء، والشهادة الحية الشخصية التي يشهد بها الروح والماء والدم بفم واحد للمسيح في داخلنا أنه ابن الله، وأنه أعطانا الحياة الأبدية. فإذا قبلنا شهادة الروح للمسيح، صارت لنا حياة أبدية؛ وكل ذلك في تسلسل بديع:

«والذين **يشهدون** — للمسيح — في الأرض هم ثلاثة الروح والماء والدم، والثلاثة هم في الواحد»،

«هذه هي **شهادة** الله، التي قد شهد بها عن ابنه»،

«من يؤمن بابن الله، فعنده **الشهادة** في نفسه»،

«وهذه هي **الشهادة**، أن الله أعطانا حياة أبدية، وهذه الحياة هي في ابنه»،

«مَنْ لَهُ الابن، فله الحياة؛ ومن ليس له ابن الله، فليست له الحياة.» (١يو٥: ٨—١٢)

١٩ : ٣٥ «والذي عَايَن شَهِد، وشَهَادَتُهُ حقٌّ. وهو يَعْلَمُ أنه يقولُ الحقَّ، لتؤمِنُوا أنتم».

ق. يوحنا يعلن صراحة أنه كان شاهدَ عيانٍ، وليس بالمشاهدة العابرة. بل إنه «**عاين**»، أي تحقق من الرؤيا، وكلمة «**شَهِدَ**» تفيد هنا أنه سجّلها في إنجيله، وهو نفسه يختم على هذا التسجيل أنه حقٌّ، لسبب هام وخطير، لا يستطيع أن يبوحَ به علناً، وهو لا يخرج عن أن الروح القدس كان يوضّح له الحقائق التي يرى بالإلهام والفهم، ويؤكد له بالروح صحة ما يمليه عليه ويكتبه.

ثم يعود ق. يوحنا يختم على صدق روايته ومُعَايَنَتِه لهذه المعجزة فيقول، **إنه يعلم أنه يقول الحق**، بمعنى أنها ليست رواية شخصية من رؤيا شخصية، إنه في كمال إدراكه ووعيه المسيحي وليس عن دَهَشٍ أو منظر معقول أو غيبة. بمعنى أن الإملاء الروحي من الروح القدس لم يأتِهِ وهو في غيبوبة، بل وهو في صحو الذهن وكمال مَلَكَةِ الإدراك والتمييز. أما لماذا هذا الإثبات لصحة

ما كتب، فهو ليؤمن القارىء. ليس مجرد الإيمان بخروج الدم والماء فقط بل بكل ما كتبه. فغاية ق. يوحنا من إنجيله هي الإيمان الكلّي بالمسيح!

٣٦:١٩ «لأن هذا كانَ ليتمَّ الكتابُ القائلُ عَظْمٌ لا يُكْسَرُ منه».

ق. يوحنا بقوله: «هذا كان ليتم الكتاب» يجمع بين حادثة عدم كَسْرِ عظام الساقين مع حادثة طعن جنبه بالحربة، لأن الأُولى تسببت في الثانية. وهنا موضع التدبير العجيب، فلأنهم وجدوه قد مات، فلم يجدوا ضرورة لكسر الساقين، وهكذا تحاشى التدبير الإلهي أن تُمسَّ عظامُ المسيح بأذىً، وذلك بحسب الطقس والنبوّة معاً. ولكن لكي يتأكدوا من موته بالأكثر لجأوا إلى طعن جنبه بالحربة، فكان هذا بدوره تدبيراً آخر لتتم النبوّة، وفي نفس الوقت لتُسْتَغَلّ قوة الحياة النابعة من ذبيحة الموت.

«عَظْمٌ لا يُكْسَرُ منه»:

الإشارة المباشرة هنا لطقس خروف الفصح الذي كان هو الرسم التحضيري لذبيحة الفصح الحقيقية، كما سبق الشرح في الآية ٣١:١٩ وما بعدها. أما الإشارة الثانية، فهي تخص تتميم النبوّة «كثيرةٌ هي بلايا الصِّدِّيق، ومن جميعها يُنَجِّيه الرب، **يحفظ جميع عظامه، واحد منها لا ينكسر.**» (مز٣٤: ١٩و٢٠)

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن: وهل كان المسيح يجوز هذه الحوادث المحدّدة ليتم المكتوب عنه في النبوات؟ والجواب على هذا هو العكس تماماً، فالله سبق وأنبأ بالروح على فم الأنبياء على مدى عصور مختلفة ومتباعدة ما سيلاقيه المسيح عند مجيئه. والسبب في ذلك هو غاية في الأهمية والخطورة، وهو لكي حينما يتمّم المسيحُ المكتوبَ عنه، يتعرف عليه حَفَظَةُ الناموس والأنبياء، ولا يكون عُذْرٌ البتة لمن ينكره أن يَتنكَّر له: «لو لم أكن قد جئتُ وكلّمْتُهُمْ، لم تكن لهم خطية، وأما الآن فليس لهم عُذْرٌ في خطيتهم» (يو١٥: ٢٢)، «لو كنتم تصدِّقون موسى، لكنتم تُصدِّقونني، **لأنه هو كتب عني. فإنْ كُنتُم لستم تصدِّقون كتب ذاك، فكيف تصدِّقون كلامي**» (يو٥: ٤٦و٤٧)، «**فتشوا الكتب، لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية، وهي التي تشهد لي.**» (يو٥: ٣٩)

فالإيمان بالمسيح، في بداية الكرازة، كان يقع بين النبوّة وتتميمها؛ لأن ما سبق وكتبه الله بالروح على قلوب الأنبياء ونطقه على ألسنتهم، كان يلزم حتماً أن يتم! ولهذا السبب كان التشديد

على إجراء طقس تقديم الفصح وأكله بكل حَذَرٍ وتدقيق، حتى يتسلط نورُ النبوّة الطقسي على ذبيحة المسيح في حينها، للتعرُّف عليه والحفاظ على هيكل جسده سالماً: «لا يُبْقُوا منه إلى الصباح، ولا يكسروا عظماً منه، حسب كل فرائض الفصح يعملونه.» (عد٩: ١٢)

ولعل الأمر المشدَّد عليه بأن «لا يبقى منه إلى الصباح»، هو الذي كان وراء سرعة إنزاله من على خشبة الصليب لتُكَمَّل فيه ملامح الفصح، خُلْواً من كرامة السبت التي ظهرت في الطريق.

وإن كان الأمر في الطقس يختص بخروف الفصح بحد ذاته، فماذا كان يضيره لو تكسَّرت كل عظامه؟ أو لو بقي منه شيء إلى الصباح، إن كانت هي مسألة أكل وذكرى وتاريخ؟ ولكن **كان الطقس يحمل ملامح إلهية دقيقة وحسَّاسة، ليُبْرِزَ في الميعاد الصورة المجيدة للفصح الحقيقي الذي عَظْمُهُ هو هيكل الله، الذي لا يستطيع أحدٌ أن يُفْسِده،** بل هو الإنسان الجديد الكامل في كل شيء حسب صورة خالقه، بل هو الكنيسة التي لا عَيْبَ فيها! فنحن، وعلى ضوء حقيقة ذبيحة المسيح الإلهية، لو عُدْنا إلى تدقيقات الطقس، نجد كيف أحاط الناموس ذبيحة الفصح القديم بهيبة وجلالٍ وتقديسٍ تفوق في اهتمامها البالغ ما تستحقه ذبيحة حيوانية! وذلك كان، في الحقيقة، هو سَبْقُ تصويرٍ بارع لحقيقة ومضمون الفصح الإلهي! ومجد القيامة بذات الهيكل الجسدي الذي مات مُقاماً في المجد والكرامة.

١٩: ٣٧ «وأيضاً يقولُ كتابٌ آخرُ: سينظُرُون إلى الذي طَعَنُوهُ».

الإشارة هنا إلى سفر زكريا: «وأفيض على بيت داود وعلى سكان أورشليم روح النعمة والتضرعات، فينظرون إليَّ (أنا) الذي طعنوه، و ينوحون عليه، كنائح على وحيد له، و يكونون في مرارة عليه، كمن هو في مرارةٍ على بِكْرِه» (زك١٢: ١٠). ولكن ق. يوحنا، هو نفسه، سبق في سفر الرؤيا وسجَّل هذا المشهد الحزين لعودة المسيح وجنبه هو كما هو مفتوحٌ، فيتعرَّف عليه الذين طَعَنُوه سواء بالحربة، أو بالتجديف، أو الإنكار، أو بالخطية: «هوذا يأتي مع السحاب، وتنظره كلُّ عين، والذين طعنوه، وينوح عليه جميعُ قبائل الأرض، نعم آمين» (رؤ١: ٧). ولكن من حيث تكميل النبوّة، يكون المقصود هو سفر زكريا فقط. وقد عدَّل ق. يوحنا ما جاء في السبعينية في قول النبي من: «فينظرون إليَّ» بصيغة المتكلم، إلى «ينظرون إلى الذي طعنوه» بصورة الغائب و يقال أن هذا هو الأصحُّ.

وهكذا، كما جاءت الطعنةُ لتكميل نبوّة سابقة، هكذا أيضاً جاءت الطعنة كعلامة مرافقة

لجنب المسيح، حيث ستكون علامة تبكيت مُرٍّ للذين طعنوه، كالذي ذاقهُ بطرس عند صياح الديك بعد أن أنكر مَنْ أحبَّه.

ولنا مقابلة أخرى وشيكة مع جنب الرب المفتوح، الذي وضع توما يده فيه فصرخ: «ربي وإلهي». وهكذا أصبح الجنب المفتوح في إنجيل ق. يوحنا علامة تكميل نبوة سابقة منذ الدهر السالف، وعلامة استعلان قادمة في الدهر الآتي، كما أنه علامة تعرُّف وإيمان، والجرح طريٌّ ينطق بالقيامة من الأموات. منه خرج سرَّان، وتشكَّلت كنيسة، وانفتح لنا باب السماء عَبْرَ الحجاب الذي شقَّته الحَرْبَةُ المباركة.

الثاني: طلب جسد يسوع:
"مبادراتُ محبة نَشِطة من تلاميذ، جريئة، ولكن في الخفاء"!

١٩: ٣٨ **«ثمَّ إنَّ يُوسُفَ الذي من الرَّامَةِ، وهو تِلْميذُ يَسُوعَ، ولكن خِفْيَةً لسببِ الخَوْفِ من اليَهُودِ، سألَ بيلاطسُ أن يأخذَ جسدَ يسوعَ. فأذِنَ بيلاطسَ فجاءَ وأخَذَ جسدَ يسوعَ».**

هنا، وفي الآية القادمة، نشعر بحركة صحوة بين تلاميذ خاملين كانوا في الظلِّ، أو بحسب تعبير ق. يوحنا: «خِفْيَةً لسبب الخوف»، هذا من جهة هذا الرجل المِقْدَامِ يوسف الرامي. أما من جهة نيقوديموس، فيسرع ق. يوحنا ويعرِّفنا بزيارة الليل والظلام، هناك في البداية!

الموت الذي شتَّت صف تلاميذ النهار، ورحلات الحب ودروس الجبل، جذب الصفَّ الثاني من تلاميذ الخفاء والخوف وزيارات الليل؛ لأن جلال الموت لمعلم محبوب، يشعل نار الجرأة في بعض القلوب النبيلة. والعرفان بالفضل والجميل، له عُشَّاقه ورُوَّاده في وقت المحنة وزمن الملمَّات. والمحبة الصادقة، لا تَهابُ المخاطر، وإن كان يُحسَبُ لها الحساب.

«يوسف الذي من الرامة»:

«الرامة»: ويختلف على موقعها العلماءُ، فمنهم من يقول إنها المدينة المعروفة باسم «رام الله»(٥٠)، وآخرون «الرملة»(٥١)، وآخرون «رامتايم صوفيم»(٥٢) بلد صموئيل النبي. وكَوْنُ

[50] Brown, R.E., *op. cit.*, p. 938.

[51] Ibid.

[52] Ibid.

يوسف هذا من الرامة أصلاً، يعني أنه كان مستوطناً في أورشليم بداعي وظيفته التي عُيِّن فيها كـ "مشير" في السنهدريم، مما اضطره للإقامة في أورشليم. وأن يُذْكَرَ أنَّ له «قبراً جديداً» بجوار سور المدينة في بستان، يعني أنه مستوطن حديثاً مما كلَّفه أن يكون له مِلْكُ أرضٍ، وأن يحفر له فيها قبراً: «فأخذ يوسف الجسد ولفَّه بكتَّانٍ نقي، ووضعه في "**قبره الجديد**" الذي كان قد نحتهُ في الصخرة.» (مت٢٧: ٥٩و٦٠)

هذه الأمور، لو تأملناها معاً، لشعرنا بالعناية الإلهية التي هيَّأت هذا الإنسان بهذه الظروف معاً. وقد تجمَّعت له صفاتٌ ذُكِرت في الأربعة الأناجيل هي غاية في الكرامة.

فالقديس متى يقول عنه: «**رجلٌ غنيٌّ**». وهنا الإشارة واضحة لسفر إشعياء: «وجعل مع الأشرار قبره **ومع غنيٍّ عند موته**.» (إش٥٣: ٩)

والقديس مرقس يقول: «**مُشيرٌ شريف**، وكان هو أيضاً منتظراً ملكوت الله، فتجاسر ودخل إلى بيلاطس، وطلب جسد يسوع.» (مر١٥: ٤٣)

والقديس لوقا يقول: «**وكان مشيراً ورجلاً صالحاً بارًّا**. هذا لم يكن موافقاً لرأيهم وعملهم» (لو٢٣: ٥٠و٥١). ثلاث صفات عالية القدر، وآخرها هي التي أهَّلته لهذا الموقف الأخير، والصلاحُ والبرُّ هما اللذان أهَّلاه لشرف التلمذة ولرفض رأي اليهود وعملهم الدنيء.

أما ق. يوحنا، فاكتفى باللقب الأكثر شرفاً: «**وهو تلميذ يسوع**»، وإن كان قد سبق وألمح إلى موقفه في الآية (١٢: ٤٢): «ولكن مع ذلك آمن به **كثيرون من الرؤساء** أيضاً، غير أنهم لسبب الفريسيين لم يعترفوا به لئلا يصيروا خارج المجمع، لأنهم أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله.» (يو١٢: ٤٢و٤٣)

ويُلاحَظ أن الصفة التي يذكرها القديس لوقا كونه «مشيراً βουλευτής»، تعني، بحسب العلامة إدرزهايم، أنه عضوٌ في مجلس السنهدريم[٥٣]، خاصة ما أضافه بقوله إنه «**لم يكن موافقاً لرأيهم وعملهم**». «فالرأي» هنا هو رأي مجلس السنهدريم الأخير، «وعملهم» هو الإجراءات التي اتُّخِذَتْ في سبيل القبض عليه أو صَلْبِه.

والقديس مرقس يستعلن لنا الصفة البارزة في هذا العضو الصالح والبارِّ، أنه كان «**متجاسراً**»

[53] Edersheim, *op. cit.*, p. 615.

في ذهابه إلى بيلاطس شخصياً وطلبه جسد يسوع، مما يكشف ضمناً عن موقف لا بد أن يكون قد وقفه إزاء زملاء السوء في المجلس المشئوم، إذ لا بد أنه حَجَبَ صوته ولم يُعْطِهِم الموافقة على ما قالوه وعملوه. كما أن أقوال الأناجيل الثلاثة عن هذا الرجل توضح كيف كان يجتمع مع التلاميذ ومع المسيح، و يكشف نيات وأعمال مجلس السنهدريم والرؤساء. من هنا نعتقد أن بواسطته صارت المعرفة للتلاميذ بكل التفاصيل الدقيقة لمجريات الحوادث في الجانب الآخر سواء قبل الصليب أو بعده.

«سأل بيلاطس أن يأخذ جسد يسوع»:

لقد سبق أن وافق بيلاطس لرؤساء اليهود على هذا الطلب ضمناً مع طلب تكسير سيقان المصلوبين الثلاثة: «سأل اليهود بيلاطس أن تكسر سيقانهم، **ويُرْفَعُوا**.» (يو١٩: ٣١)

ولكن يوسف هذا ذهب بمفرده ليمنحه بيلاطس حقَّ استلام الجسد وإنزاله، فأَذِنَ له بيلاطس بنوع من الإمتياز، لأن هذا الإجراء لم يكن سهلاً، إذ كان الولاة عادة يتعاطون رشاوي لمنح مثل هذه التصاريح(٥٤). ولكن بيلاطس أعطى تصريحه بإيجابية سهلة، وكان هذا العمل النبيل آخر ذِكْرٍ لاسمه في الإنجيل.

وليس من السهل أن نعبر على الاسم المبارك «يوسف» دون أن نشير إلى العناية الإلهية التي احتفظت بهذا **«الغنيّ، المشير، الصالح، البارّ، المتجاسر»**، كتلميذ ولكن في سرٍّ، إلى الميعاد الذي جُهِّز له، بل وربما وُلِدَ من أجله، ليستلم الجسد المقدس الذي للابن الوحيد من فوق خشبة الصليب، الأمر الذي لم يتجاسر عليه لا تلميذ من التلاميذ ولا حتى قريب من المقرَّبين. ولا شك أن هذه الصفات الخمس أهّلته لهذه المهمة الجليلة والخطيرة والحرجة جداً بآنٍ واحد!

ثم هل لنا أن نتأمل في ما عمله "**يوسف مصر**" في أبيه "**إسرائيل**" المتغرب في مصر، كيف **«وقع يوسف على وجه أبيه، وبكى عليه وقبّله**، وأمر يوسف عبيدَهُ الأطباء أن يُحنّطوا أباه، فحنّط الأطباء إسرائيل ... فقال فرعون **اصعد وادفن أباك كما استحلفك ... ودفنوه في مغارة** حقل المكفيلة التي اشتراها إبراهيم مع الحقل **مُلْكَ قَبْرٍ**، من عِفْرُون الحثي أمام مَمْرا.» (تك٥٠: ١—١٣)

ووجه المقارنة يتعدى الأسماء والمواقف، و يدخل في صميم اللغة، فقد استخدم ق. يوحنا

٥٤ Westcott, *op. cit.*, p. 281.

لفظة: «فأخذا جسد يسوع ولفّاه بأكفان مع الأطياب، كما لليهود عادة، **أن يُكفّنوا** ἐνταφιάζειν »، وهي نفس كلمة «**يحنّطوا**» كما جاءت في سفر التكوين في تكفين إسرائيل على أيدي أطباء يوسف: «وأمر يوسف عبيده الأطباء **أن يحنّطوا** ἐνταφιάσαι أباه».

وهذا هو يوسف الجديد، يحنّط ويدفن جسد إسرائيل الجديد، في قبره الذي نحته جديداً، الذي اشتراه مُلْكَ قَبْرٍ أمام سور أورشليم الغربي.

٣٩:١٩ «وجاءَ أيضاً نيقُوديمُوسُ الذي أتى أولاً إلى يَسُوعَ ليلاً، وهو حَامِلٌ مزيجَ مُرٍّ وعودٍ، نَحْوَ مِئةِ مَناً».

«وجاء أيضاً نيقوديموس»:

«نيقوديموس» هو المعروف في التلمود باسم نيقوديموس بن جوريون، وأنه كان غنيًّا جداً، ويقال أنه في حفل زواج ابنته قدّم لها عريسها صداقاً قيمته مليون دينار ذهبي. وفي التقليد القديم يُذْكَرُ أنه تنصّر وصار مسيحياً. وفي روايات التاريخ يُقَالُ أنه مات في حصار أورشليم(٥٥).

بداية الآية تشير إلى موقف موحّد حدث بالضرورة بين يوسف ونيقوديموس، فهما عضوان في مجلس السنهدريم، وكانا ولا شك على رأي مخالف لرأي المجمع والرؤساء، بل وعلى مستوى المعارضة للإجراءات والأعمال التي اتخذها رؤساء الكهنة، والتي كانت في نظرهما غير قانونية، فوق أنها شائنة وفظيعة، بالنسبة لمعلّم يعلمون أنه قد أتى من الله معلماً؛ بل ويؤمنون به؛ بل وينتظرون على يديه ملكوت الله (راجع يو٣:٢؛ يو١٢:٤١؛ مر١٥:٤٣).

ونيقوديموس سبق له أن حاول الدفاع عن قضية المسيح، ولكنه ارتدع تحت رادع إرهاب الفريسيين: «قال لهم نيقوديموس الذي جاء إليه ليلاً وهو واحد منهم، ألعل ناموسنا يدين إنساناً لم يسمع منه أولاً ويعرف ماذا فعل؟ أجابوا وقالوا له: ألعلك أنت أيضاً من الجليل؟ فتش وانظر إنه لم يَقُمْ نبيٌّ من الجليل، فمضى كل واحد إلى بيته» (يو٧: ٥٠ــ٥٣). لذلك كان يجمعهما للأسف «الخوف من الفريسيين» بصفتهما عضوين في مجلس السنهدريم، وكانا يعلمان المصير المرعب إذا هما جاهرا بتلمذتهما للمسيح: القطع من السنهدريم، وربما من شعب إسرائيل، وهذا كان هو السيف المُسلّط.

---

(٥٥) فارار، «حياة المسيح»، ص٨٠٦.

وواضح أنهما تعاهدا، بعد أن رأيا المسيح قد رُفع على خشبة الصليب بالفعل، أن يوزِّعا الأدوار على نفسيهما بغاية السرعة لأن غروب الشمس كان وشيكاً. فاضطلع يوسف بشراء الكتان النقي للفّ الجسد، ونيقوديموس قام بشراء مزيج المرّ والعود. كما عُهد إلى يوسف بعملية طلب جسد يسوع من بيلاطس لصفته البارزة وهي الجسارة «τολμήσας». ثم تقابلا عند الصليب، وقد فارقهما الخوف والرعب من الفريسيين وابتدءا عملهما بجسارة وعلانية بانزال الجسد المقدس، بكل كرامة، لأن روح الله كان ثالثهما.

«وهو حاملٌ مزيجَ مرٍّ وعودٍ نحو مئة منأ»:

> « كلُّ ثيابكَ مرٌّ وعودٌ وسَليخةٌ. » (مز٤٥: ٨)
>
> «بسلامٍ تموت، وبإحراق (أطياب الدفن) آبائك الملوك الأولين الذين كانوا قبلك، هكذا يحرقون لك ويندبونك قائلين: آه يا سيد. » (إر٣٤: ٥)

«مرٌّ وعود»:

أما المرُّ فهو المادة الراتنجية المستخرجة من سيقان شجرة معروفة باسم «كوميفورا مولمول Commiphora molmol»، وتنمو في شبه الجزيرة العربية. واسم المادة بالعبرانية كالعربية «مرّ». وقد أخذ الأوربيون الاسم كما هو: Myrrh. وقد ذُكِر كثيراً في مواضع عديدة من العهد القديم.

والمرُّ له مفعول مطهِّر، ويستخدم في الطب على هذا الأساس، وهو معروف منذ القدم، من أكثر من ألفي سنة، وقد استخدمه قدماء المصريين في التحنيط (هيرودوت ٢: ٨٦)، كما استخدمه بنو إسرائيل في عمل المسحة المقدسة (خر٣٠: ٢٢). ويُضرب به الأمثال في التعطير. وكان أحد مكوِّنات الهدايا التي قدمها المجوس للمسيح في بيت لحم (مت٢: ١١)، كما قُدِّم للمسيح على الصليب ممزوجاً بخل (مر١٥: ٢٣).

أما «العود»:

فهو غالباً المادة المستخرجة من شجرة تسمى بشجرة الفردوس، وخشبها يسمى خشب النسر، واسمها العلمي Aquilaria agallocha، وتنمو نواحي آسيا الإستوائية. وهو أيضاً ثمين للغاية يوزن بوزن الذهب، ورائحته نفاذة تبقى لسنين عديدة. وهو أيضاً مذكور في الكتاب المقدس. يُضرَبُ به المثل «كشجراتِ عودٍ غرَسَها الرب» (عد٢٤: ٦)، «كلُّ ثيابِكَ مرٌّ وعودٌ وسَليخَة (قِرْفَة).»

(مز٤٥: ٨)

أتى نيقوديموس وهو حامل هذه الهدية التذكارية الثمينة جداً سواء في قيمتها المالية العالية التي يُقدِّرها العلاَّمة إدرزهايم بمقدار ما يساوي الآن مئتين وخمسين جنيهاً إنجليزياً، آنئذ(٥٦)، أو في قيمتها بالنسبة للجسد المقدس ــ بحد ذاته ــ أو قيمتها بالنسبة للبشرية ككلٍّ وهي تستودع جسد ابن الله سِرَّ مجدها وخلاصها، جسدَ إكليلها وفخرها كابن الإنسان، أو قيمتها في المقابل بالنسبة لما صنعه اليهود عامة والرؤساء الذين أهانوا اسمهم، واسم اليهود، واسم إسرائيل، واسم شعب الله المختار، بل واسم الإنسانية جميعاً بما فعلوه بهذا الجسد الطاهر.

والمزيجُ منهما هو أبسط ما يمكن أن يُسمَّى بمواد للتحنيط، أي لحفظ الجسد من الفساد، حسب العادة التي اكتسبوها من فراعنة مصر بتحنيط أجساد عظمائهم؛ لأن المزيج الكامل للتحنيط يتعدى العشرات من الأصناف.

والكمية التي ذكرها ق. يوحنا، ليست في الحقيقة مُبالَغاً فيها، لأن لفَّ الجسد كله يحتاج إلى مثل هذه الكمية التي يساوي وَزْنها بالموازين الحالية ما يقرب من ٣٦ كيلو.

ونحن نقرأ في تحنيط جسد «آسا» الملك: «ثم اضطجع آسا مع آبائه ... فدفنوه في قبوره التي حفرها لنفسه في مدينة داود، وأضجعوه في سرير كان مملوًا أطياباً وأصنافاً عطرة حسب صناعة العطارة، وأحرقوا له حريقة عظيمة جداً.» (٢أي١٦: ١٣و١٤)

ويُحْكَى في التلمود اليهودي:

[إنه عند دَفْنِ غمَّالائيل الأكبر، عملوا له حريقاً من الأطياب والعطور بلغ ٨٠ رطلاً (الرطل ٣٦٠ جراماً تقريباً) فلما سألوا أونكيلوس (أحد الربيِّين) عن سبب هذه الكثرة ردَّ قائلاً: أليس غمالائيل أفضل من مائة ملك (مثل آسا)؟](٥٧)

واضح، إذاً، أن الكثرة التي حملها نيقوديموس من الأطياب هي في الحقيقة تعبيرٌ رائعٌ وصامتٌ عن التوقير الملكي الذي كان يُكنُّه هذا الفرِّيسي المتمرِّس في تاريخ ملوك آبائه.

ولكن لا يفوتنا أن هذه الأطياب الحلوة، ذات الرائحة اللذيذة والمُسِرَّة، هي أيضاً تعبير آخر

---

56 Edersheim, *op. cit.*, p. 618.

57 Hoskyns, *op. cit.*, p. 537.

عن صنف الذبيحة المقدَّمة، كما رتب لها ــ ليس الأنبياء وحسب، بل والمسيح نفسه كان يرى أن ذبيحة حبِّه لا بد أن تكون عطرة الرائحة عند أحبائه كما هي عند أبيه: «فأخذت مريم مناً (واحداً بـ ٣٠٠ دينار) من طيب ناردين خالص كثير الثمن، ودهنت قدمي يسوع، ومسحت قدميه بشعرها. فامتلأ البيت من رائحة الطيب ... فقال يسوع: اتركوها، إنها ليوم تكفيني قد حَفِظَتْه.» (يو١٢: ٣و٧)

ولقد اختزنت الكنيسة المرتشدة بالروح أطياب الرب وعطوره التي تركها مع أكفانه في القبر الفارغ، واعتبرتها ذخيرة حياة أو مَسْحةَ موتٍ لقيامةٍ، عجنتها بالزيت الطيب وصنعت منها دهن مَيْرونِها μύρον وأوقفته على مَسْح المعمَّدين الخارجين من جرن المعمودية، الذين دُفِنُوا مع الرب لشركة موته، فتمسحهم بهذا الميرون عينه، كمسحة قيامة من الأموات لشركة الرب في قيامته. وظلَّت هذه الذخيرة، تتناقلها أيدي الأساقفة الأمناء على ممرِّ الأجيال، وحتى زماننا هذا. وصدق في ذلك قول بولس الرسول: «لأننا رائحةُ المسيح الذكية لله» (٢كو٢: ١٥)، وكأن بولس الرسول يرى مفديِّي الرب ذبائحَ سرورٍ، تفيح منها رائحة ذبيحة المسيح: «واسلكوا في المحبة، كما أحبنا المسيح أيضاً، وأسْلَمَ نفسه لأجلنا، قرباناً وذبيحة لله، رائحة طيبة.» (أف٥: ٢)

١٩: ٤٠ **«فأخذا جَسَدَ يَسُوعَ، ولَفَّاهُ بأكفانٍ معَ الأطْيَابِ، كما لليهودِ عادةٌ أن يُكفِّنُوا».**

وتحقق قول الرب في الحال والتو، إذ لما ارتفع، جذب إليه أكثر التلاميذ بُعْداً وأشدَّهم خوفاً، وأقلَّهم إيماناً، عربوناً «للجميع»!! «وأنا إن ارتفعتُ عن الأرض أجذبُ إليَّ الجميع.» (يو١٢: ٣٢)

وإن كان الملائكة قد خُلقوا لأعمالٍ وخَدَماتٍ تعيَّنوا لها وتعيَّنت لهم، فيوسف ونيقوديموس وُلِدا، معيَّنَيْنِ في المقاصد الأزلية، لخدمة الجسد المصلوب وتكريم جروح الرب.

لقد تبدد خوف يوسف وتحوَّل إلى جَسَارة ما بعدها جَسَارة، وليلُ نيقوديموس الذي كانت تحلو له فيه الزيارة، والظلام حالك، تحوَّل له إلى نهارٍ ومجاهرة. لقد أفاض عليهما الجسد تباشيرَ من أنوار العهد الجديد. وكأن الروح الذي أسْلَمه يسوع على الصليب اتخذ طريقه في الحال، وتوزَّع على قلوب الذين كانوا ينتظرون ملكوت الله!

«فأخذا جسد يسوع ولفّاه بأكفان مع الأطياب»:

حملوا الذي يحمل المسكونة كلها على كفِّه؛ وأنزلوا الذي علقوه على خشبة، وهو الذي «يُعلِّق الأرض على لا شيء» (أي٢٦: ٧). كنز الحياة حملوه ميتاً على الأذرع. وأسندوا الرأس التي تسند الأكوان، وتقيم الجبال الرواسي، فلا تميد!

طيَّبوا الجسد، وهو منبع الطيب، وعطَّروه، وهو الذي «يجعل البحر كقِدْرِ عِطارةٍ.» (أي٤١: ٣١)

لفُّوه بالكتان، وهو اللابسُ النورَ كالثوب، وكفَّنوا بالدموع، مَنْ هو مصدر الفرح والابتهاج.

في **صمت** مهيب، تبادلا إحكام الرباط، **«والكلمة»** بين أيديهما بلا حراك، وهو يعدُّ لجسده القيامةَ!

«ولفَّاه بأكفانٍ»:

ق. يوحنا يستخدم كلمة **«لفَّاه»** **ἔδησαν** في إعداد الجسد للدفن، وتأتي بمعنى **«رَبْطٌ»** Bound. كذلك يستخدم كلمة «الأكفان» بالجمع **ὀθονίοις**، بمعنى أن القماش مقسَّمٌ لكلِّ عضوٍ بمفرده.

أما كلٌّ من القديس متى والقديس مرقس والقديس لوقا، فيستخدمون كلمة مشابهة **ἐνετύλιξεν** تُرجِمَتْ بالعربية «لفَّهُ» أيضاً، وتأتي بمعنى «لَفَّهُ» صحيحاً wrapped. كما تأتي كلمة «الكفن» بالمفرد بدون اصطلاح الدفن، كمجرد قماش «لَفَّهُ بكتَّانٍ نقي» **σινδόνι καθαρᾷ** (مت٢٧: ٥٩).

والفارق في المعنى يبدو وكأن في إنجيل يوحنا أن يوسف ونيقوديموس أجريا عملية التكفين الأصولية، وهي ربط كل ذراع وكل ساق بأشرطة من الكَفَنِ، كذلك لفَّا الجسد كله والرأس بمفرده.

أما في الأناجيل الأخرى، فتبدو العملية وكأنها مُجرد لفّ الجسدِ بثوب واحد من الكتان على سبيل التكفين المبدئي، ليتم تكفينه حسب الأصول، بعد انقضاء السبت.

وهكذا يأتي تقليد ق. يوحنا في التكفين مخيِّباً لآمال الذين يأخذون بقصة اكتشاف كَفَنِ تورين Turin shroud المنطبع عليه صورة جسد المسيح ووجهِهِ. وهذا الكَفَن هو قطعة واحدة من

القماش بطول ١٤ قدماً، وأقل من أربعة أقدام عَرْضاً. وأول ذِكرٍ لاكتشاف كَفَن تورين حدث سنة ١٣٥٣م في كنيسة ليراي Lirey بمدينة تروي Troyes بفرنسا. ولو أنه حدث ذِكْرٌ لهذا الكفن قبل ذلك بمائة سنة في نواحي تركيا(٥٨). وقد قامت بعض الهيئات العلمية الأمريكية حديثاً بتحليل الألوان المنطبعة على الكفن وأثبتوا أنها لا تحمل أي أثر عضوي، بل أصباغاً من أكاسيدَ ومعادنَ.

«مع الأطياب»: ἀρωμάτων

يبدو أن المُرَّ والعودَ كانا على هيئة مسحوق، وقد أُضيف إليهما بعض الزيوت العَطِرَة، فتكوَّن مزيجٌ سائلٌ يمكن دَهْنُ الجسد به قبل ربطه.

«كما لليهود عادة أن يكفِّنوا»:

عادة اليهود هذه سبق أن وصفها القديس يوحنا في دفن لعازر: «فخرج الميت و يداه، ورجلاه مربوطات بأقمِطة، ووجهُه ملفوف بمنديل، فقال لهم يسوع حُلُّوه ودعوه يذهب.» (يو١١: ٤٤)

الساقان اللتان سارتا على الماء ولم تميدا، ربطوهما بقماط! والذراع التي فكَّت أسْرَ شعبِ إسرائيل (مز٧٧: ١٥)، قَمَّطوها برباط! والرأس مع الوجه بمنديل لفُّوه، وحجبوه، وأنت الذي «تحجب وجهك، فترتاع (كل خليقة).» (مز١٠٤: ٢٩)

لقد تعلم اليهود من المصريين كيف يحنِّطون الجسد. ولكن احتفظ اليهود بتمسكهم أن لا يُفْصَلَ من الجسد شيء؛ في حين أن المصريين كانوا ينزعون الأعضاء الأكثر تحلُّلاً مثل المخ والأحشاء، فكانت توضع في قوارير خاصة بجوار التابوت، بعد أن يُجْرُوا عليها أصولاً أخرى للتحنيط.

والمصريون كانوا يحنِّطون برجاء عودة الروح من العالم الآخر؛ وأما اليهود فكانوا يحنِّطون لمجرد تكريم الجسد.

وأما يوسف ونيقوديموس، فبينما كانا منهمكين في خدمة الجسد الممزَّق، كانت النفس تعمل عملها العظيم لكرازة العالم الآخر: «مُمَاتاً في الجسد، ولكن مُحْيًى في الروح، الذي فيه أيضاً ذهب فكَرَزَ للأرواح التي في السجن.» (١بط٣: ١٨و١٩)

---

[58] Brown, R.E., *op. cit.*, pp. 941-942.

وهكذا كَسَر المسيح السبت حتى في موته، إذ ذهب وكرز للأرواح المحجوزة في سجن سَبْي خطاياها، بانتظار الفادي الذي ألقى عليهم ظلَّ صليبه، فانفكت قيودهم، وقادهم صاعداً في موكب نصرته: «سبى سبياً وأعطى الناس عطايا.» (أف ٤: ٨)

١٩: ٤١ **«وكانَ في الموضعِ الذي صُلِبَ فيه بستانٌ، وفي البستانِ قَبْرٌ جَدِيدٌ، لم يُوضَعْ فيهِ أحدٌ قطُّ».**

حملوا الجسد بين أيديهم، وساروا به، وهو الذي تسير الأفلاك والنجوم على هُداه! من فوق رابية الجلجثة، انحدروا قليلاً حيث أعدَّ يوسف بستاناً ونحت فيه قبراً بوحي من الروح و بإلزام. ولم يدرِ آنئذ أنه وضع الأساس لأقدس بقعة على الأرض، لتُبنى عليها أعظم كاتدرائيات العالم عَبْرَ كلِّ العصور والأزمان، ليؤمَّها شعوب الأرض طُرّاً، وحيث يطرح على أعتابها الملوك تيجانهم، ويحنون الرؤوس والرُّكَبَ. لقد أراد يوسف قبراً لدفن موتاه! فصار قبراً لإعلان القيامة والحياة! وسواء في بستان جثسيماني، حيث تألم متوجِّعاً، أو في بستان الجلجثة، حيث حَمَل لعنة الخطية في الجسد حتى القبر، فالمسيح يُعيد في أذهاننا صورة آدم كيف خالف وهو في بستان الفردوس، وكيف حلَّ عليه العقاب وحلَّت عليه وعلى أولاده لعنة الموت، وذلك تمهيداً للقيامة من البستان أيضاً التي بها أعاد آدم و بنيه إلى الفردوس مرة أخرى.

«قبرٌ جديد لم يوضع فيه أحد»:

مضادة كبرى، أن يُستودعَ جسدُ الابن الوحيد في قبر، ليس لدى الإنسان وحسب، بل ولدى الملائكة، إذ حسبوها أيضاً مضادة أعظم من أن تُحلَّ: «**لماذا تطلبْنَ الحيَّ بين الأموات.**» (لو٢٤: ٦)

فإن كان ولا بد أن يُسند الجسدُ القدُّوس في قبر، فلا بد أن يُخلَى القبرُ من معناه، فلا يكون قبراً قط فيما **كان** وفيما سيكون، لأن الذي توسَّده هو قاهرُ الموت ومُقيمُ الحياة!

والذي لا تَسَعَهُ السمواتُ العُلا، إنْ وَسَعَهُ قبرٌ فهو السماء الجديدة بعينها.

وصَخْرُ الدهور، لا يسكن الصخور؛ وإن هو سَكَنَها فهي قُدَّتْ من خلود.

والجسد، بالرؤيا العتيقة، هو قِسْطُ المنِّ، وهو هو لوحا العهد! فجسد «الكلمة» لا يحتويه لَحْدٌ؛ وإن احتواه، فهو تابوت عهد الله الذي مَقَرُّه السماء: «وانفتح هيكل الله في السماء، وظهر تابوت

عهده في هيكله.» (رؤ١١: ١٩)

السلامُ للقبر، مخزن الحِنْطَةِ، وأَهْرَاءِ الحياة، الذي اختزن فيه «يوسف» مؤونة الدنيا، لِسَدِّ عوز عِجَافِ السنين لكل العالمين!

السلامُ للقبر، الذي انهزمت فيه ظلمةُ الموتِ، وخرج النورُ ليضيء طريقَ الخلود.

السلامُ للقبر، الذي احْتَجَزَ الأطيابَ والحنوطَ، التي سَقَطَتْ عن الجسد، فصَنَعَتْ منها الكنيسة مَسْحةَ الروحِ والحياةِ، ليَعْبُرَ بها أولادُها نهرَ الموت، كعَبَاءَة إيليا التي سقطت عنه، ففَلَقَ بها أليشعُ الأُردنَّ، وعَبَرَ.

١٩ : ٤٢ «فهناكَ وَضَعَا يَسُوعَ، لسَبَبِ استِعْدادِ اليهودِ، لأن القَبْرَ كانَ قَرِيباً».

الآية اعتذارية عن عدم تقديم كل واجبات التكفين أو التجنيز. فعامل السرعة هو الذي حتَّم اختصار الإجراءات في تكريم الجسد، من جهة؛ وعامل السرعة بسبب اقتراب السبت، من جهة أخرى، هو الذي حتَّم اختيار هذا القبر الخاص بيوسف، كَوْنَه قريباً من الجلجثة، حيث الصليب.

«هناك وضعا يسوع»:

في سفر الأعمال يبرز «فعل الوضع في القبر» كمرادف حتمي لفعل القَتْل! فالموت لا يُصْبِح موتاً إلاَّ إذا أصبح الجسد موضوعاً في قبر: «... إذ حكموا عليه، ومع أنهم لم يجدوا علة واحدة للموت، طلبوا من بيلاطس **أن يُقْتَلَ**، ولما تمَّموا كلَّ ما كُتِبَ عنه، أنزلوه عن الخشبة، **ووضعوه في قبر.**» (أع١٣: ٢٧ــ٢٩)

يلاحظ القارىء في هذا الوصف المؤثِّر الحزين اللائم أن وضع الجسد في القبر، بالرغم من أنه تمَّ على يدين حانيتين لصدِّيقين مؤمِنَين: يوسف ونيقوديموس؛ إلاَّ أن فِعْلَ الوضع في القبر كان في نظر القديس لوقا كاتب سفر الأعمال، عملاً جحودياً وعدائياً من أمَّة اليهود التي خانت عريسها وقتلته، ثم دفنته بيديها! وكأن دَفْنَهُ هو التكميل لشماتة مَوْتِه. ولكن الدفن، في الوجه اللاهوتي، أعْطَى توكيداً لموته، وبالتالي لاكتمال موجبات الفِدْيَة.

لقد شدَّد المسيح على أن تكون هذه آيَته التي يعطيها لجيل فاسق وشرير، «جيلٌ شرِّيرٌ وفاسقٌ، يطلب آية، ولا تُعْطَى له آية إلاَّ آية يونان النبي. لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، هكذا يكون ابن الإنسان في **قلب الأرض** ثلاثة أيام وثلاث ليال» (مت١٢:

٣٩و٤٠). ليس جزافاً أن يقول المسيح «**قلب الأرض**» καρδία ، لم يَقُلْ «تحت التراب» ولا «في باطن قبر» بل في «**قلب الأرض**» ἐν τῇ καρδίᾳ ، مُشيراً إلى المركز الأعمق الذي يحتجز الأرواح، والذي انطلق هو إليه ليقوم برسالته التبشيرية في عالم الأرواح المحبوسة، على مستوى يونان الذي اتخذه المسيح مثلاً ــ عن قَصْدٍ ــ بسبب إرساليته بالمناداة لخلاص أهل نينوى.

وهذا ما يراه القديس بولس، في نزول المسيح إلى القبر بالجسد، مشيراً إلى نزول آخر على مستوى الكرازة: «إذ صعد إلى العَلاَء، سَبَى سبياً، وأعطى الناس عطايا، وأما أنه صعد، فما هو إلاَّ أنه **نزل أيضاً أولاً إلى أقسام الأرض السفلى. الذي نَزَلَ**، هو الذي **صعد أيضاً** فوق جميع السموات لكي يملأ الكلَّ» (أف٤: ٨ــ١٠). وبهذا يُحْكِمُ القديس بولس الربط اللاهوتي بين «**نزول المسيح**» إلى القبر بالجسد ومنه لنزول النفس إلى أقسام الأرض السفلى، وبين صعوده إلى أعلى السموات. فكما أنه، بنزوله، أفْرَغَ من البشرية كلَّ أوْزَار خِزْيِها وعقوبتها حتى التراب؛ هكذا، بصعوده، ملأ الكل حتى إلى أعلى السموات. ويُلاحَظ توكيد بولس الرسول على النزول أولاً، كسببٍ وعِلَّةٍ وقُوَّة صعوده: «وأما أنه **صعد**، فما هو إلاَّ إنه **نزل أيضاً أولاً**».

فسلامٌ للقبر، محطّ «قلبِ» كلِّ الأرض، محطّ «الأقسام السفلى». والجسد فيه مُسَجَّى، بانتظار تكميل الرسالة، بخروج المقيَّدين في الهاوية، المقيدين بالذُّلِّ والحديد، المسبيين في ظُلمة الخطية، والمأسورين منذ الدهر في الجحيم بقيود من لهُ سلطانُ الموت.

هوذا أشرق عليهم نورٌ، فَكَّ أسرى الرجاء، وسبى سَبْيَ الجحيم، وصَعِدَ بهم كجبَّارٍ، وهم في موكب نصرته، وعلى رؤوسهم فرحٌ وابتهاجٌ أبدي.



المجدل

وتقع على بعد ٤ أميال من طبرية. وحالياً هي قرية صغيرة للصيادين. ولكنها في أيام المسيح كانت ذات أهمية كبيرة. وهي مدينة مريم المجدلية، التي شفاها المسيح، والتي كانت أول مَنْ ظهر لها المسيح بعد قيامته، إذ كانت أول من توجه إلى القبر فجر القيامة (يو ٢٠: ١ــ ١٤).

الأصحاح العشرون

رابعاً : القيامــة ἡ ἀνάστασις

أي «الحياة الجديدة»

مقدمة :

"القيامة حدث يفوق التاريخ":

١ ــ القيامة من بين الأموات «**بذات الجسد**» الذي صُلب، وبجروحه، وبطعنة الحربة النافذة إلى القلب؛ هذا الفعل الذي أجراه المسيح في نفسه، هو فعل غريب على البشرية. وكلمة «**القيامة**»(١) التي دخلت قاموس المسيحية، ليست أصلاً من كلمات بني آدم؛ إنها تختص بعمل لا يختص بالأرض ولا بأية خليقة، إن في السماء أو على الأرض.

القيامة حدث هبط إلينا من السماء: «إن يُؤلَّم المسيح يكُنْ **هو أول قيامة الأموات**» (أع٢٦: ٢٣)، ومفهومه يفوق العقل والحواس والمشاعر والتفكير وأعماق الضمير، لأنه يفوق اللحم والدم. إنه فعل خلقة جديدة في صميم الخلقة العتيقة، أضافت إلى الإنسان سواء في فكره أو كيانه بُعْداً جديداً سماوياً.

لذلك ينبغي أن يستعد الفكر الآن قبل أن نخوض في كيف ظهرت القيامة واستُعلنت ورُئيت وسُمعت وجُسَّت ولُمِسَت، يلزمنا في هذا ذهن مستعد لقبول حقائق جديدة لا تُقاس بأي حقائق أو قياسات سابقة في تاريخ الإنسان ومفهومه، وإن كانت هي ــ في ذات الوقت ــ حقائق ليست وهمية أو تصورية أو رؤيوية بل حقائق واقعية يمكن أن تمسكها العين مسك اليد، وتلمسها اليد لمس اليد لليد، وتتحسسها كما تحس العظم واللحم. ولكن بالرغم من واقعيتها الصلبة فهي لا تمتُّ إلى واقع الإنسان!

لأنه يلزم أن نعرف من بولس الرسول أن هذا الذي يقوم من الموت هو جسدٌ روحاني: «هكذا

---

(١) إذا فحص القارىء في فهرس الكتاب لا يجد لكلمة «**القيامة**» أي شواهد من أسفار العهد القديم.

أيضاً قيامة الأموات، يُزرع في فساد ويُقام في عدم فساد، يُزرع في هوان ويُقام في مجد، يُزرع في ضعف ويُقام في قوة، يُزرع جسماً حيوانياً ويُقام جسماً روحانياً، يوجد جسم حيواني (أو نفساني ψυχικόν) ويوجد جسم روحاني» (١كو١٥: ٤٢ــ٤٤). والجسم الروحاني لا يُقاس بعد بقياسات الجسم الحيواني؛ إنه يحتاج لعيون روحانية لكي تراه ــ أو على وجه الأصح ــ يحتاج إلى البعد الروحي في قياسات العين الترابية لكي ترى العين ما لم يكن في حيِّز طبيعتها.

هذا من جانب الإنسان، أما من جانب المسيح المُقَام، فقد أوضح القديس بطرس الرسول ــ بوصفه قد اختبر شخصياً ــ أن المسيح أُعطي من الله **أن يصير ظاهراً**، بمعنى أنه كان يُظهر ذاته بإرادته للذين انتخبهم ليكونوا شهود قيامته وليس للجميع: «هذا أقامه الله في اليوم الثالث **وأَعطى أن يصير ظاهراً ليس لجميع الشعب** بل لشهود سبق الله فانتخبهم، لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات.» (أع١٠: ٤٠و٤١)

والصعوبة كل الصعوبة هي بسبب سلطان الموت الذي استبد بوعي الإنسان أشد استبداد، حتى إنه ألقى ستاراً من الظلمة كثيفة العتامة على كل ما هو بعد الموت! فالموت تصوَّر في شعور الإنسان ولاشعوره أنه العدم، عين العدم! هكذا تجبَّر الموت على وعي الإنسان وتَسَيْطَر ظلماً وعَسْفاً وكَذِباً وبُهتاناً. والسبب في ذلك لا يخفى على الإنسان الروحي. فالموت بحدِّ ذاته عقوبة، وعقوبة الموت رسخت في كيان الإنسان كعقدة لا تُحلُّ، وعقدة الموت لا يتخللها رجاء بالحياة، أيُّ رجاء. وهكذا قتل الموت فكرة الحياة بعد الموت قتلاً، وبدَّد مجد الروح وما للروح! لذلك أصبحت القيامة، وهي الحياة بعد الموت بكل ملء الحياة، داخلة في نطاق المستحيل لمَنْ صدَّق الموت وعاش عقدته واستسلم لعقوبته: «ويحي أنا الإنسان الشقي، مَنْ ينقذني من جسد هذا الموت.» (رو٧: ٢٤)

لذلك نعود ونقول، إنه بالرغم من أن القيامة ظهرت علناً كحقيقة تُرى وتُسمع وتُجس بملء الحواس وملء المشاعر، إلاَّ أن عقدة الموت هزَّت الواقع المنظور والمحسوس هزًّا عنيفاً وحاولت بكل جهد أن تلغي المنظور إلغاءً، وأن تُدْخِل الواقع الحيَّ المتكلم أمامها في دائرة الخيال عنوةً وتجبُّراً:

+ «فقال لهما يسوع **لا تخافا...**» (مت٢٨: ١٠)، مع أن المسيح نفسه كان قائماً بشخصه تماماً كما كان!

+ «ولكن بعضهم **شكُّوا...**» (مت٢٨: ١٧)، مع أن المسيح أراهم كل العلامات أنه هو هو!

+ «فخرجن سريعاً وهربن من القبر، **لأن الرعدة والحيرة أخذتاهن**، ولم يقُلن لأحد شيئاً

لأنهن كُنَّ خائفات.» (مر١٦: ٨)

+ «فلما سمع أولئك أنه حيٌّ، وقد نظرَتْهُ (المجدلية)، **لم يصدِّقوا**» (مر١٦: ١٣)، مع أنه سبق وأخبرهم بكل ما سيحدث!

+ «وذهب هذان وأخبرا الباقين **فلم يصدِّقوا ولا هذين**» (مر١٦: ١٣)، بالرغم من تكرار الشهادة!

+ «أخيراً ظهر للأحد عشر، وهم متكئون، **ووبَّخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم، لأنهم لم يصدِّقوا الذين نظروه قد قام.**» (مر١٦: ١٤)

+ «وإذ كُنَّ **خائفات ومنكِّسات وجوههن** إلى الأرض، قال لهن: لماذا تَطْلُبْنَ الحيَّ بين الأموات.» (لو٢٤: ٥)

+ «فقام بطرس وركض إلى القبر، فانحنى ونظر الأكفان موضوعة وحدها، **فمضى متعجباً في نفسه مما كان.**» (لو٢٤: ١٢)

+ «فقال لهما: أيها الغبيان والبطيئا القلوب في الإيمان بجميع ما تكلَّم به الأنبياء، أما كان ينبغي أن المسيح يتألم بهذا و يدخل إلى مجده» (لو٢٤: ٢٥و٢٦)، حتى العقل وحتى القلب تقهقرا أمام حقيقة القيامة!!

+ «وقف يسوع نفسه في وسطهم وقال لهم: سلام لكم، **فجزعوا وخافوا وظنوا أنهم نظروا روحاً، فقال لهم: ما بالكم مضطربين ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم، انظروا يديَّ ورجليَّ إني أنا هو، جسُّوني وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي.** وحين قال هذا، **أراهم يديه ورجليه، وبينما هم غيرُ مصدِّقين من الفرح ومتعجبون،** قال لهم: أعندكم ههنا طعام... **فأخذ وأكل قدامهم.**» (لو٢٤: ٣٦ــ٤٣)

+ «ثم قال لتوما **هاتِ إصبعك إلى هنا وأبصر يدي، وهات يدك وضعها في جنبي، ولا تكن غيرَ مؤمنٍ بل مؤمناً.**» (يو٢٠: ٢٧)

بهذا الجزع، والخوف، والرعدة، والحيرة، وعدم الإيمان، والتعجُّب، وعدم التصديق، بل والغباء وقساوة القلب، استقبل التلاميذ «القيامة»، ولهم في ذلك الحقُّ، كل الحق، فهم أموات بالخطية وأولاد المائتين الذين ماتوا جميعاً، وعلى بكرة أبيهم، لا يعرفون إلاَّ لغة الموت، أما ما هو بعد الموت فليس له لغة، وإن وُجدت فليس لها وعي يدركها.

كل هذا يجعلنا، حينما نتعرض لرواية القيامة التي حدثت على مستوى التاريخ، أن نتيقن أنها

لا تمتُّ إلى التاريخ بصلة. فالموت هو ختم نهاية التاريخ لكل إنسان، وليس من بعد الموت تاريخ لإنسان قط. فأنْ يقوم المسيح من الموت حيًّا بجسده، وبجروحه القاتلة وطعنة جنبه النافذة، يتكلم ويُحَيِّي، ويكشف جروحه في يديه ورجليه وجنبه، ويأخذ يد توما ويضعها في مكان الحربة؛ فهنا حديث ما فوق التاريخ، وأحاسيس خاصة بجسد القيامة، ولغة الحياة الجديدة التي دخلت عالم الإنسان.

إذاً، يتحتم على الإنسان الذي يريد أن يؤمن بالقيامة أن يبدأ يتعلم عِلْمَ ما بعد الموت، وكلام ما فوق التاريخ، وحديثَ ما يخص الحياة الجديدة للإنسان. وليس معقولاً قط أن يُفسَحَ المجال هنا لناقدٍ يقيس بقياساته العتيقة ما يخص الحياة الجديدة.

كذلك على قارىء القيامة في الأناجيل الأربعة أن يستعد ليسمع متفرقات موقَّعة بغاية الصعوبة على التاريخ من الذين عاينوا وسمعوا وشهدوا، كلٌّ على قدر ما اتَّسع وعيه لإدراك هذا الحدث الجلل الفائق الإدراك الذي لا يمتُّ للطبيعة البشرية بأية صلة. والقارىء إن وَعَى ذلك تماماً، وَعَى القيامة وهتف مع الكنيسة الأُولى: المسيح قام، بالحقيقة قام!

٢ ــ ولكي نمهِّد للوعي المسيحي أن يدرك «القيامة»، يلزم بالأساس أن نضع في الاعتبار أننا في تعاملنا مع المسيح فنحن نواجه «**الله ظهر في الجسد**» (١تي٣: ١٦). فمعجزة المسيح العظمى هي الموت وليست القيامة، لأن المسيح هو القيامة والحياة، وهو ابن الله المتعالي جداً عن مفهوم الموت، وحتى بعد تجسده لم يكن فيه خطية واحدة. ومعروف أن الموت هو عقوبة الخطية، فكيف يموت مَنْ هو القيامة والحياة، ومَنْ هو المتعالي عن الموت، ومَنْ هو بلا خطية قط؟ فكَوْنُ المسيح يقبل أن يدخله الموت، فهذه هي **معجزة الفداء**، وقد استلزم منه أن يقبل الخطية، بمعنى أن يُحسب متعدِّياً حقيقياً ليتسنى للموت أن يدخله كعقوبة! دفع ثمنها بالفعل ومات وقُبر. ولكنه دفع ثمنها ليس عن نفسه بل من أجل الإنسان ليعفي الإنسان من الموت كعقوبة التعدِّي أو الخطية.

الموت دخل إلى المسيح، فمات المسيح حقاً، وقُبر، وبقي ميْتاً من الثالثة بعد ظهر الجمعة إلى فجر الأحد ما يقرب من ٣٦ ساعة. ولكن لم يستطع الموت أن يتعامل مع جسد المسيح أكثر من انفصال النفس عن الجسد، بمعنى أنه لم يقرب الفساد خلية واحدة من الجسد: «لا تَدَعْ قدوسك يرى فساداً» (أع٢: ٢٧)، لأن الجسد كان في حراسة روح الحياة باستعداد القيامة. لذلك، فالمسيح مات ليقوم، ويقوم بذات الجسد في ملء كماله وجروحه عليه، وعلامات الموت صارت

برهان وصدق القيامة. والقيامة صارت برهان وصدق التجسد «عن ابنه الذي صار من نسل داود من جهة الجسد، وتعيَّن ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات.» (رو١: ٣و٤)(٢)

(٢) إذا أراد القارىء أن يستزيد من معنى القيامة وقوتها فيمكنه أن يرجع إلى هذه المقالات بتواريخها التي ألقيت ليلة عيد القيامة منذ عام ١٩٥٨ وحتى عام ١٩٨١:

المقالات التالية يجدها القارىء في كتاب: «سلسلة الرؤية الإلهية للأعياد الكنسية، الجزء الرابع: القيامة والصعود»:

إنجيل آلام وأمجاد قيامة	١٩٥٨	أحد توما وإضافة «حقاً قام»	١٩٧٤
لأعرفه وقوة قيامته	١٩٥٩	المسيح قام... حقاً قام	١٩٧٥
قيامتنا كلنا	١٩٧٠	القيامة والمصالحة	١٩٧٧
وظهر لبطرس	١٩٧٠	القيامة والفداء في المفهوم الأرثوذكسي	١٩٧٨
فرح القيامة	١٩٧١	وأراهم نفسه حياً ببراهين كثيرة	١٩٧٨
قيامة المسيح من بين الأموات أنشأت طبيعة		الإيمان بالمواعيد	١٩٧٨
جديدة تستمد كيانها وعملها منه شخصياً	١٩٧١	بين الإيمان والرؤيا	١٩٧٨
قوة القيامة مستترة في الموت الإرادي	١٩٧١	يا سمعان بن يونا أتحبني؟	١٩٧٨
القيامة والعمل الروحي بالنسبة للخليقة الجديدة	١٩٧١	القيامة حدث فوق الطبيعة	١٩٧٩
القيامة كحياة	١٩٧٢	عيد القيامة يوم الخليقة الجديدة	١٩٨٠
أين شوكتك يا موت أين غلبتك يا هاوية	١٩٧٣	القيامة إيمان قائم على مشاهدة فائقة	١٩٨١
القيامة	١٩٧٤	القيامة حياة وشهادة	١٩٨١

وبالإضافة إلى هذه المقالات يمكن الرجوع إلى المقالتين التاليتين اللتين نُشرتا في مجلة مرقس:

ـــ «وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي» (يونيو ١٩٨٣).

ـــ «من الصليب إلى القيامة» (أبريل ١٩٨٥).

صفحة المجد في تاريخ الإنسان
انفتاح سفر الحياة الأبدية
بقيامة يسوع المسيح من بين الأموات وجروحه عليه
(٢٠: ١ـــ٢٩)

ق. يوحنا يكتب عن قصة القيامة التي عاصرها في أيامه، لكنيسة تعيش القيامة بالفعل على مدى ستين سنة سالفة، وعلى دراية بتاريخ حوادثها من واقع ثلاثة أناجيل.

لذلك، لا نتوقع من ق. يوحنا تدقيقات في السَّرْدِ التاريخي. ولكنه يطرق المواقف البارزة التي رسخت في قلبه وذهنه، والتي فَرَضَتْ عليه الإيمان بالقيامة فرضاً، عن اقتناع جارف بدّد الحزن المريع الذي خلَّفته حوادث الصلب، وأطاح بشعور الشكّ والخوف. لذلك جاءت تقاريره عن القيامة كردٍّ حاسم للموت على الصليب بعذاباته.

وكما هبطت حوادث الآلام والموت في تصويراته لحوادث الصلب إلى مستوى العدم واليأس والتشتُّت والبؤس معاً للتلاميذ، ارتفعت تصويراته للقيامة في المقابل إلى مستوى الإيمان الكامل واليقين والتجمُّع والفرح لنفس التلاميذ. وهذا الانقلاب الجذري السريع في حياة التلاميذ، هو بحدّ ذاته برهان حاسم لصدق القيامة وقوة فاعليتها.

محتويات الأصحاح العشرين:

المنظر الأول: عند القبر (١: ١٨):

١ ـــ رؤية القبر مفتوحاً:

(أ) (٢٠: ١و٢) المجدلية في فجر الأحد تذهب إلى القبر، وتجده مفتوحاً، فتخبر التلاميذ.

(ب) (٢٠: ٣ـــ١٠) بطرس والتلميذ الآخر يركضان نحو القبر، ويجدان الأكفان واللفائف موضوعة بحرص. فيتعجب الأول و يؤمن الثاني.

٢ ـــ المسيح يظهر للمجدلية:

(أ) (٢٠: ١١ـــ١٣) المجدلية تنظر داخل القبر، فتجد الملائكة.

(ب) (٢٠: ١٤ـــ١٨) المسيح يظهر للمجدلية بجوار القبر، فتخطىء معرفته، و يلفت نظرها بأن

يدعوها باسمها. والمجدلية تبشّر التلاميذ أنها رأت الرب.

المنظر الثاني: في العِلّية، والتلاميذ مجتمعون:

١ ــ (٢٠: ١٩ــ٢٣) في مساء الأحد المسيح يظهر للتلاميذ، ويُحيّيهم، والتلاميذ يفرحون برؤية الرب. ثم يفتتح سِفْرَ الإرساليات في العالم. ويؤازرهم بنفخة الروح القدس وسلطان مغفرة الخطايا.

٢ ــ المسيح يظهر خصيصاً للأحد عشر من أجل توما في العِلّية.

(أ) (٢٠: ٢٤و٢٥) توما كان غائباً عن الاجتماع الأول، ويرفض تصديق القيامة، ويرفض شهادة إخوته التلاميذ.

(ب) (٢٠: ٢٦ــ٢٩) في الأحد الثاني (الأُوكتاف Octave = اليوم الثامن من القيامة)، المسيح يظهر للتلاميذ المجتمعين ومعهم توما، والمسيح يدعو توما أن يرى ويتحسس جروحه. توما يعلن المسيح رباً وإلهاً.
والمسيح يطوِّب الذين آمنوا ولم يروا.

المنظر الأول: عند القبر
(٢٠ : ١ــ١٨)

١ ــ رؤية القبر مفتوحاً فارغاً: (٢٠ : ١ــ١٠).

(أ) المجدلية في فجر الأحد تذهب إلى القبر، فتجده مفتوحاً، فتخبر التلاميذ: (٢٠ : ١و٢).

٢٠ : ١ **«وفي أوَّلِ الأسْبُوعِ جاءَتْ مَرْيَمُ المَجْدَلِيَّةُ إلى القَبْرِ باكِراً، والظَّلامُ بَاقٍ، فنَظَرَت الحَجَرَ مَرْفوعاً عن القَبْرِ».**

«أنا أحبُّ الذين يحبُّونني،
والذين يُبكِّرون إليّ يجدونني.» (أمثال ٨ : ١٧)

«وفي أول الأسبوع»: τῇ δὲ μιᾷ τῶν σαββάτων

وترجمتها الحرفية: وفي ” الأول للسبت “، لأن السبت محسوب أنه تاج الأيام في التعبيرات العبرية، لذلك فكل أيام الأسبوع تُحسب من بعده، أي الأول للسبت يعني (الأحد)، الثاني للسبت يعني (الاثنين)، وهكذا. فالسبت يحمل في طياته كل الأسبوع، حتى إن كلمة «السبت» قد تأتي بمعنى الأسبوع كله. ففي قول الفريسي المتفاخر بتقواه: «أصوم مرتين في الأسبوع»: δὶς τοῦ σαββάτου (لو١٨ : ١٢) تأتي كلمة «السبت» بمعنى الأسبوع كله، لأنه يحتويه بكرامته.

وقد صار هذا الاصطلاح «أول الأسبوع» أي **«الأحد»** هو اليوم الذي كرّمته القيامة فوق السبت وكل أيام الأسبوع. و يسميه الآباء القديسون اليوم **«الثامن» = الأكتاف، أي يوم ما بعد الأسبوع، أي يوم ما فوق الزمان بالحساب الإنساني. لأنه يوم الرب.**

وهذا التعبير يأتي موازياً لليوم الأول في الخليقة، الذي سُمّي «الأسبوع» أي السبعة الأيام للخليقة كلها من خلفه، أي بعده وقياساً عليه. ففي اليوم الأول قبل أن توجد الأيام الأخرى بدأ الله الخلقة الأولى مبتدئاً: «ليكن نور» (تك ١ : ٣). هكذا في «أول» الأسبوع «الأحد» قام المسيح من الموت ليبدأ الخليقة الجديدة: «أنا هو نور العالم (الجديد)».

«باكراً، والظلامُ باقٍ»:

لم يهدأ لها بالٌ ولم يغمض لها جفنٌ. لقد أعدّت الحنوط مع الزميلات المريمات بعد أن انقضى

السبت، ثم باتت تنتظر الفجر، أسرعت أكثر من الباقيات، وكانت أوّل من وَلَجَ باب أورشليم الذي يُطلُّ على الجلجثة ... كان أملها الوحيد أن تطيِّب جسد مَنْ أسْدى إليها الشفاء والمحبة، وما كانت تظن أنها ستسمع اسمها من فمه مرة أخرى، وتراه حيًّا بل وأكثر حياة. والذي يذوق محبة المسيح، يستعذب سَهَرَ الليالي، والإسراع إليه والظلامُ باقٍ. ولكن فوق كل شيء، يا لشجاعة تلك المرأة العجيبة!

أين التلاميذ؟ أين بطرس والزُّمرة كلها؟ ألا يتراءى أحد عند القبر باكراً إلاَّ هذه المرأة؟ وهل للنساء السَّيْرُ في الظلام، واقتحام المخاطر، والتواجد عند القبر خارج أسوار المدينة!؟ منذ أن صُلِبَ الرب، والتلاميذ يلوذون بالصمت، وهم مشلولو الحركة، والخوف يعصف بهم من كل جانب. ولكن هذه النكسة التي تكشف عن فداحة عثرة الصليب، هي هي عينها التي تضاف إلى مجد القيامة «وقوتها»، التي استطاعت أن تغيِّر مثل هذه الرِعْدة والجبانة إلى قمة الشجاعة والمجاهرة وفصاحة البشارة، التي هدّت أركان أعْتَى إمبراطورية ظهرت في التاريخ، ومعها سرطانُ الوثنية التي كانت تنخر في جسم البشرية كلها.

إذا جمعنا ما يقوله القديس مرقس على ما يقوله ق. يوحنا فيما يخص ذهاب النسوة إلى القبر، تبرز الحقيقة؛ يقول القديس مرقس:

«وباكراً جداً في أول الأسبوع أتَيْنَ إلى القبر، إذ طلعت الشمس.» (مر١٦: ٢)

واضح من رواية القديس مرقس، أن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومة (أم ق. يوحنا) قُمْنَ من بيوتهن **«باكراً جداً، والظّلامُ باقٍ»**، كقول ق. يوحنا. ولكن مريم المجدلية سَبَقَتْهُنَّ مُسرعة إلى القبر، فوصلته سريعاً قبل أن ينقشع الظلام تماماً، فتسجّلت شهادتها أولاً وبمفردها في إنجيل يوحنا، أما أمُّ يعقوب وسالومة فوصلتا ببطء وكانت الشمس قد طلعت. وهكذا تبدو المجدلية الأُولى دائماً بين التقيات.

«فنظرت الحجر مرفوعاً عن القبر»:

ق. يوحنا يتميز باستخدامه الاصطلاح: «مرفوعاً» بالنسبة للحجر الموضوع على فوهة القبر، تماماً كما وصف فتحة القبر والحجر عليها في قصة لعازر: «وجاء إلى القبر، وكان مغارة، وقد وُضِعَ عليه حَجَرٌ، قال يسوع ارفعوا الحجر» (يو١١: ٣٨و٣٩). وهذا يوحي أن الحجر الموضوع على فوهة القبر يكون مستديراً، ساقطاً في مجرًى محفورٍ له، يلزم إمّا رفعه، أو دحرجته، حسب الأناجيل الأخرى.

والحجر عادة يكون ثقيلاً(٣)، ويلزم أكثر من رجل لدحرجته أو رفعه من مكانه، «مَنْ يُدَحْرِجُ لنا الحَجَر عن باب القبر ... لأنه كان عظيماً جداً.» (مر١٦: ٣و٤)

٢:٢٠ **«فرَكَضَتْ، وجاءَت إلى سِمْعَانَ بُطرسَ، وإلى التلميذِ الآخرِ، الذي كانَ يَسُوعُ يَحِبُّه، وقالَت لهما: أَخَذُوا السَّيِّدَ من القبرِ، ولَسْنا نَعْلَمُ أينَ وَضَعُوهُ».**

جاءت إلى القبر مسرعة كأول زائر، وخرجت مسرعة كأول بشير، كانت السرعة إلى مستوى الركض تكشف عن مقدار اللهفة وشدة التأثر. ذهبت أولاً لبطرس، ومن هذا نستدل على أن مركز القديس بطرس لم يهتز بالرغم من السَّقْطة التي وقع فيها قبل صياح الديك منذ ٤٠ ساعة لا غير. وتكرار القول عن ذهاب المجدلية: «إلى» سمعان بطرس، و«إلى» التلميذ الآخر، يكشف عن أنهما كانا يقطنان كلٌّ واحد في بيت بعيداً عن الآخر. وكونها تختار هذين الاثنين من بين التلاميذ، يكشف عن التساوي في المركز الأول بين القديسين بطرس ويوحنا. ولكن من شهادة القديس مرقس الإنجيلي، يبدو أن تعيين اسم «بطرس» كان بواسطة ملاك (مر١٦: ٧).

«أخذوا السيد من القبر، ولسنا نعلم أين وضعوه»:

هذا التقرير يكشف عن أن المجدلية، إما اكتفت برؤيتها الحجر مرفوعاً عن فم القبر كدلالة على أن الجسد رُفع أيضاً من القبر، سواء بيد اليهود، أو بيد آخرين ليضعوه في المكان الأليق؛ وإما أنها تحققت وهي عند القبر أن الجسد فعلاً كان مرفوعاً وغير موجود. والاحتمال الأول هو الأكثر توقعاً.

وقولها «لسنا نعلم» بالجمع، يفيد أن آخرين يشاركونها هذا التقرير، فربما أن النسوة كُنَّ قد حضرن أيضاً وشارَكْنَها في اكتشاف الحجر مرفوعاً.

ويا له من تعبير غاية في الوقار: «أخذوا السيد»، أي الرب، وهو ينمُّ عن إحساس عميق بأن المسيح لا يزال ــ بعد مأساة الصلب والإهانة والموت والدفن ــ هو السيد الأكرم والمتعالي. إنها المحبة الصادقة، هي التي تصوِّر للعين والقلب كل ما هو عظيم ومجيد لمن تحبه النفس؛ والقول الشائع هنا صحيح: «وعينُ الحبِّ (الرضى)، عن كل عَيْبٍ كَلِيلةٌ».

ولكن إذا عدنا إلى شهادة بقية النسوة وبقية شهادة المجدلية، ننتهي إلى حقيقة راسخة مرئية

(٣) أنظر شرح الآية يو١١: ٣٨.

رؤى العين، لخَّصها القديس لوقا عن لسان تلميذَيْ عمواس في إنجيله في آية واحدة: «بل بعضُ النساء منّا حيَّرْنَنا، إذ كُنَّ باكراً عند القبر. ولمّا لم يجدن جسده، أتين قائلات إنهن رأيْنَ منظر ملائكة قالوا إنه حيٌّ» (لو٢٤: ٢٢و٢٣)؛ ... ثم يكمل شهادة النسوة بشهادة بعض التلاميذ قائلاً: «ومضى قوم من الذين معنا (يقصد بطرس و يوحنا)، إلى القبر، فوجدوا هكذا كما قالت أيضاً النساء، وأما هو فلم يروه.» (لو٢٤: ٢٤)

و يلاحظ القارىء في آخر الآية القول: «وأما هو فلم يروه»، الذي يفيد أن النسوة رأيْنَه كما قرر القديس متى: «وفيما هما منطلقتان (مريم المجدلية ومريم الأخرى) لتخبرا تلاميذه، إذا يسوع لاقاهما وقال سلام لكما. فتقدَّمتا وأمسكتا بقدميه وسجدتا له.» (مت٢٨: ٩)

لذلك ينبغي لنا أن نفحص جيداً، وبتمعن، في تقرير المجدلية الذي قدّمه إنجيل يوحنا باختصار زائد: «أخذوا السيِّد من القبر، ولسنا نعلم أين وضعوه»، إذ نلاحظ أنها لم تكن تبكي، بل قَدَّمت تقريرها بعد أن قطعت المسافة كلها ركضاً. إذن، فهي كانت مُفْعَمة بمشاعر صاحية يحدوها نوع من الأمل، فلما فقدته عادت إلى القبر الفارغ **تبكي**.

ثم ليتنبه القارىء لحركتين تحملان معهما إحساساً قوياً، بأن شيئاً هاماً وخطيراً قد حدث، رَكْضُ المجدلية لتخبر بطرس و يوحنا، ثم رَكْضُ بطرس و يوحنا بالتالي لاستطلاع الأمر، ثم رَكْضُ يوحنا بالذات ركضاً فائقاً ليسبق. هذا الركض اللاهث المتلهف لمعرفة ما حدث، يحمل معنى الأمل الذي كان شبه نائم في أعماق وجدانهم جميعاً: هل قام الرب؟ وأين هو؟ القبر الفارغ وحده، أي عدم وجود الجسد، لم يقنع المجدلية، ولم يُقنع بطرس كدليل على قيامة الرب، إنهم كانوا يبحثون عن دليل آخر للقيامة. فالمجدلية تُعلِّق على ما بعد القبر الفارغ: «أين وضعوه»، إنها تبحث عما سبَّب الفراغ للقبر. أما بطرس، فبعد أن نظر القبر الفارغ، وحتى الأكفان نفسها موضوعة وحدها، لم يفهم شيئاً، فالقيامة عنده كانت تحتاج إلى دليل آخر: «فقام بطرس وركض إلى القبر، فانحنى، ونظر الأكفان موضوعة وحدها، فمضى متعجباً في نفسه مما كان.» (لو٢٤: ١٢)

إذاً، نفهم من هذا جيداً، أن القبر الفارغ وحده وحتى الأكفان التي وُجدت كما هي ملفوفة بلفَّتها، والجسد منسحب منها، ومنديل الرأس في موضع الرأس وليس بداخله الرأس، لم تكن كافية لتكون العامل الأساسي للإيمان بالقيامة ــ إذا استثنينا إيمان ق. يوحنا، وهو الوحيد الذي رأى القبر فارغاً والأكفان وحدها **«فآمن»**.

أي أن القيامة استُعْلِنَتْ من خلال ظهور الرب نفسه. ولِمَنْ ظهر أولاً وكان أكثر ظهوراً؟ إلاّ لمن كانت المحبة تتأجج في قلبها تأجُّجاً: «الذي يحبني ... أحبه وأظهر له ذاتي.» (يو١٤: ٢١)

أما «إيمان» ق. يوحنا بالقيامة مباشرة قبل أن يظهر له المسيح شخصياً، كالمجدلية، فهو نموذج الإيمان الأعلى غير القائم على العيان (النقيض الشديد لإيمان توما). وإيمان يوحنا هو الذي استلمته الكنيسة كلها كميراث رسولي فائق القدر، وعليه نحن نعيش الآن: «الذي وإنْ لم تروه تحبونه، ذلك وإنْ كنتم لا ترونه الآن، لكن تؤمنون به فتبتهجون بفرح لا يُنْطَقُ به، ومجيدٍ» (١بط١: ٨)؛ «طوبى للذين آمنوا ولم يروا.» (يو٢٠: ٢٩)

(ب) بطرس والتلميذ الآخر يركضان نحو القبر، ويجدان الأكفان واللفائف موضوعة بحرص، فيتعجَّبُ الأول، ويؤمن الثاني: (٢٠: ٣ــ١٠)

٢٠: ٣ **«فخرَجَ بطرسُ والتلميذُ الآخرُ وأتيا إلى القبرِ».**

التعبير يوحي بأن كُلًّا منهما خرج من بيته في طريقه إلى القبر، فتلاقيا في الطريق، وتابعا الركض معاً نحو القبر.

هنا في هذا الموضع، يكشف لنا القديس لوقا في إنجيله عن كيف استقبل التلاميذ عموماً رسالة المجدلية بفتور ممزوج بعدم التصديق، والتقليل من انفعال المجدلية ومن معها إلى درجة الإتهام بالهذيان «... اللواتي قُلن هذا للرسل، فتراءى كلامهن لهم كالهذيان، ولم يُصَدقوهن.» (لو٢٤: ١٠و١١)

ولكن يخص إنجيل لوقا بطرس من دون التلاميذ بمراجعة موقفه بسرعة، وقيامه وذهابه للقبر راكضاً، كما جاء في إنجيل يوحنا: «فقام بطرس وركض إلى القبر» (لو٢٤: ١٢). ولكن في موضع آخر من رواية القديس لوقا وحينما يروي بشارة النسوة على لسان تلميذي عمواس، نستشف أن بطرس لم يذهب وحده إلى القبر هكذا: «بل بعض النساء منا حيَّرْنَنا، إذ كُنَّ باكراً عند القبر ولما لم يَجِدْنَ جسده، أتَيْن قائلات: إنهن رأين منظر ملائكة قالوا إنه حيٌّ. **ومضى قوم من الذين معنا** إلى القبر، فوجدوا هكذا، كما قالت أيضاً النساء، وأما هو فلم يروه.» (لو٢٤: ٢٢ــ٢٤)

٢٠ : ٤ «وكان الاثنان يركُضانِ معاً، فسَبَقَ التِّلميذُ الآخَرُ بطرسَ وجاءَ أولاً إلى القبْرِ».

عن قصد وإصرار وللَفْت نظر القارىء، يسجِّل ق. يوحنا لنفسه هذا السَّبْق، ويخطىء من يقول بعامل السن، أن هذا شاب وذاك متقدم في السن، فالآيات القادمة تخطِّىء مثل هذا الزعم، لأن السرعة في الجري لو كانت من رعونة الشباب، ما تأخر يوحنا عامداً، ولم يدخل القبر، إذ ترك هذا السَّبْق لبطرس توقيراً واحتراماً للسن.

إذاً، فالسبب واحد ووحيد هو أن يوحنا هو: «التلميذ الذي يحبه يسوع». وهذا قصد ق. يوحنا أن يوحي به للقارىء ليفهمه. فمحبة المسيح له جعلت له أجنحة يطير بها أكثر من أن يجري، هذا لم يَنْسَهُ ق. يوحنا قط، فقد كان يوماً فريداً وساعة فريدة في حياته. وليفهم القارىء أن ق. يوحنا أخْفَى اسمه واستبدله بـ: «التلميذ الذي يحبه يسوع»، وعلى مستوى إنجيله كله يبرهن على صدق دعواه. وهنا، فأن يسبق يوحنا بطرس، فهذه مسألة تعبير عما تفعله المحبة. فالذي يريد أن يجري إلى المسيح و يسبق، تَلْزمه قوة المحبة. أما لماذا يصرُّ ق. يوحنا أن يسجِّل لنفسه هذا التفوق على بطرس، فهو لكي يوحي للقارىء أيضاً تلميحاً لماذا اختاره المسيح ليسلِّمه أُمَّه، وليس بطرس.

٢٠ : ٥ «وانحنى فنَظَرَ الأكفَانَ موضُوعَةً، ولكنَّهُ لم يَدْخُلْ».

كان المكان الذي يوضع فيه الجسد في غرفة منخفضة نوعاً ما عن الغرفة الخارجية للقبر حيث كانت تجتمع النسوة للتحنيط والبكاء؛ فكان على الواقف خارج غرفة الجسد أن ينحني على فتحة الباب لينظر ما بداخل غرفة الدفن حيث الجسد يكون مسجًّى على مصطبة (أنظر الرسم).

أما كَوْنُ يوحنا لم يدخل، فهذا قطعاً ليس لعامل الخوف أو الرهبة أو النجاسة من لَمْسِ القبر ـــ كما يقول بعض الشُّرَّاح؛ ولكن لأن بطرس كان قد وصل، فأعطاه الفرصة ليكتشف الأمر أولاً. والذي يوضح ذلك، أن فعل «نَظَرَ» الذي استخدمه ق. يوحنا في تعبيره عن استطلاعه لما في داخل القبر جاء باليونانية βλέπει ، و يفيد النظرة العابرة البسيطة من بُعْدٍ. أما الفعل الذي استخدمه لاستطلاع بطرس لما دخل القبر فهو θεωρεῖ ، و يفيد التطلُّع مع التأمل الفاحص عن قُرْب. وما نشأ عن اختلاف النظرتين: البسيطة والمتعمقة، أن بطرس استطاع أن يرى منديل الرأس الذي كان داخلاً على بُعْدٍ، أما يوحنا فلم يَرَه.

وكل هذه الدقة في وصف ق. يوحنا لحادث دخولهما القبر، كانت بسبب انطباع هذه

قطاع طولي للجلجثة والقبر المقدس

١ القبر المقدس

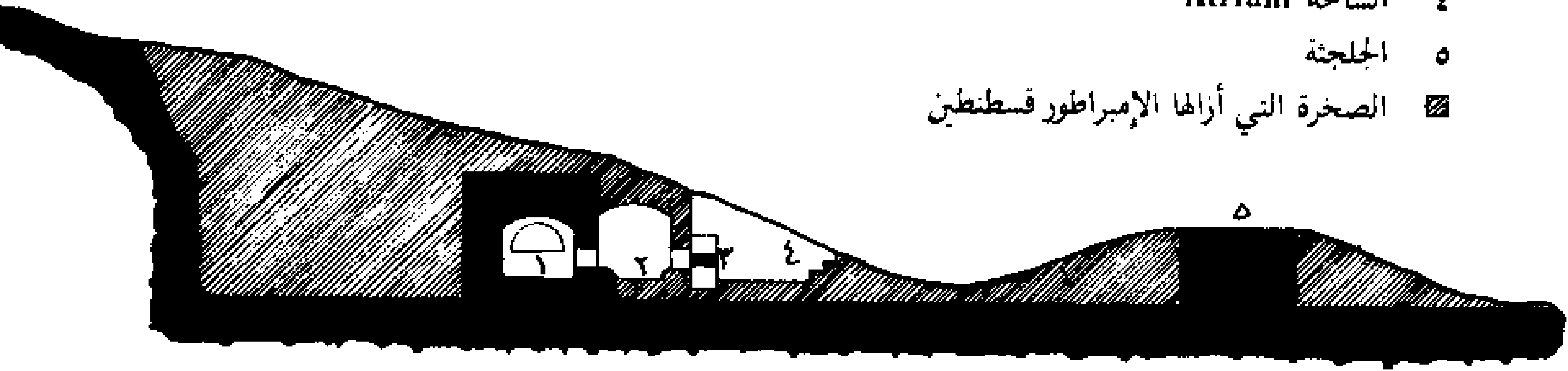
٢ الفَسحة

٣ الحجر الذي وُضع على القبر

٤ الساحة Atrium

٥ الجلجثة

▨ الصخرة التي أزالها الإمبراطور قسطنطين



مقياس ٥ ٠ ٥ ١٠ ١٥ ٢٠ ٢٥ ٣٠ ٣٥ أمتار

الحوادث بشدة في ذهن ق. يوحنا وهو يصفها من واقع حضورها في ذهنه، الذي لم يفارقه أكثر من ستين سنة!!

وليلاحظ القارىء أن الفكر الذي كان طاغياً على كلٍّ من بطرس و يوحنا، والذي دعاهما إلى الجري ودخول القبر والفحص، كان بسبب رواية المجدلية أن: «السيد أخذوه». فكان السؤال الذي يفتشون عن جواب له هو: هل الجسد قد أُخِذَ من القبر فعلاً؟ وكيف؟ ومَنْ هم الذين تجرَّأوا على ذلك؟

ولعل رواية ق. يوحنا هذه، وكيف ابتدأ بخبر: «أخذوا السيد، ولسنا نعلم أين وضعوه»، بالرغم من أنها جاءت معطِّلة للتفكير في القيامة، فقَصْدُ الروح القدس والوحي منها كان هو فحص القيامة فحصاً متأنيًا؛ لا يبدأ من الصفر فقط بل ومن تحت الصفر. فهذا الخبر السلبي: «أخذوا السيد، ولسنا نعلم أين وضعوه»، هو فرضُ تكذيب القيامة، من هذا المستوى بدأ القديسان بطرس و يوحنا معاً يفحصان موضوع القيامة حتى انتهى بهما الأمر إلى يقين الظهور الإلهي.

٦:٢٠ «ثم جاءَ سِمْعَانُ بطرسُ يتبَعُهُ، ودَخَلَ القبرَ، ونَظَرَ الأكفانَ موضوعَةً».

كان دخول بطرس سريعاً جريئاً تحمله اللهفة لمعرفة كيف «سُرِق» الجسد، ولكن بدخوله داخل غرفة الدفن ــ وهي مظلمة بطبيعة الحال ــ استلزم منه نظرة فاحصة متأملة؛ فأخذ يجول ببصره و بكل انتباه وإعمال التفكير والذكاء والملاحظة، فللحال اصطدم بالحقيقة شبه المظمى أن اللفائف التي كُفِّن بها الجسد هي هي، وموضوعة في مكانها. **إذاً، فالجسد لم يُسْرَق**: هذه هي الحقيقة الأُولى التي كانت تهم الراوي في روايته، لتفتح مجرى القيامة قبل استعلانها بظهور المسيح قائماً من الموت. وهنا نفى كل تفكير في أي شيء غير القيامة.

وكلمة «اللفائف **موضوعة**»، و بعد ذلك في الآية القادمة: «والمنديل ... ملفوفاً **في موضع وحده**»، هو وصفٌ يختص بنفي إمكانية السرقة نفياً قاطعاً، لأن اللفائف كانت بحسب كلمة «موضوعة»، والمنديل بحسب كلمة «ملفوفاً في موضع وحده»، وليس مع اللفائف بل «ملفوفاً وحده»، هذا الوضع في جملته يصوِّر الجسد كيف كان راقداً مُسجًى، ثم انسحب من داخل اللفائف دون أن يُفقِدها نظامها التي كانت ملفوفة به حول الجسد. هذا المنظر، بحدِّ ذاته، يُذهل العقل الذي عُبِّر عنه في إنجيل لوقا: «فمضى **متعجباً** في نفسه مما كان».

٢٠ : ٧ **«والمنديلُ الذي كانَ على رأسِهِ ليسَ موضُوعاً مع الأكفانِ، بل مَلفُوفاً في مَوْضِعٍ وَحْدَهُ».**

كان وضع المنديل مكمّلاً لشكل الجسد كما كان مسجّى سابقاً؛ فهو لم يُفَكّ من حول الرأس ليوضع مع اللفائف، ولا اللفائف فُكّت من مكانها ومن لفّتها حول الجسد. كان المنظر ينطق نُطقاً بأن الجسد غادر الكفن ... لقد طرح أردية الموت لبني الموت، ليلبس النور كالثوب (مز١٠٤: ٢)، وخلع أثواب الجسد ليلبس الجلال (مز٩٣: ١). لم تفُكّه يدُ بشرٍ، ولا يَدُ سارقٍ، بل انفكّ هو من الكفن، كما دخل العِلّية والأبواب مغلقة!! ألَمْ يَقُلْ سابقاً: «أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق» (يو٨: ٢٣)!!

لقد وقف تفكير بطرس عند حد استحالة سرقة الجسد، بدليل الأكفان الموضوعة في مكانها، ولكن لم يتقدم إلى فكر القيامة الذي يحتّم الإعتقاد بالحياة التي لا تخضع لقوانين هذه الحياة. وبهذا انحصر في لغز يصعب حلّهُ.

٢٠ : ٨ **«فحينئذٍ دَخَلَ أيضاً التلميذُ الآخَرُ الذي جَاءَ أوّلاً إلى القبرِ، ورأى فآمَنَ».**

رأى يوحنا ما رأى بطرس، اللفائف الموضوعة والمنديل بعيداً عنها موضوعاً بحرص وحده، وكل شيء في ترتيب ونسق طبيعي، ولا علامة لأي يد تدخلت في خروج الجسد من الكفن. ولكن الصمت عند بطرس والتعجب مما كان، ارتفع عند يوحنا إلى حدّ «الإيمان» ولكن ليس بالقيامة، وإلاّ لكان الإنجيل قد ذَكَرَ ذلك بوضوح، ولكن «الإيمان» كان بأن شيئاً قد تمّ!! وإن نور فجر هذا الإيمان العريض بالمسيح كان يُحْوَى فيه بصيصُ تكميل وعد المسيح. ولكن إلى هنا توقّف الإيمان عند يوحنا بانتظار استعلان أكثر. على كل حال، لم يكن غبياً كتلميذَيْ عِمْواس، أو بطيء الإيمان بالقلب، فقد تسحّبت عليه أنوار القيامة، ولكن من بُعْدٍ. ق. يوحنا يقدم اختباره للإيمان دون أن يرى؛ هو إيمان، ولكن لا يجزم ق. يوحنا أنه إيمان مباشر بالقيامة، بل كان ممهّداً لها بكل تأكيد. ق. يوحنا نعرفه بعد ذلك في حادثة صيد السمك بعد القيامة، كيف عرف الرب تلقائياً دون الآخرين، «إنه الرب». هو حَدْسٌ إلهاميٌّ أكثر منه تحقيقَ رؤيا أو إدراكَ نَظَرٍ.

٢٠ : ٩ **«لأنهم لم يكُونوا بَعْدُ يَعْرِفُونَ الكِتَابَ، أنه يَنْبَغِي أنْ يَقُومَ من الأمواتِ».**

هنا يقدم لنا ق. يوحنا حقيقة جوهرية، وهي أن الأسفار المقدسة بالرغم من النبوات المرشِدَة

والهادية إلى حقيقة المسيح لم تكن هي القائد للتلاميذ للتعرُّف على القيامة، بل الحوادث المتابعة هي التي ألْمَعَتْ في ذهنهم، وأعطت للأسفار المقدسة فرصة لفرض ذاتها: الحجر المرفوع من على القبر، القبر الفارغ، بشارة المجدلية والنسوة، الأكفان الموضوعة بمفردها وبنظام؛ هذا كله في الحقيقة يوضح لنا بأجلى بيان أن التلاميذ لم يكونوا قط مستعدين لتقبُّل القيامة، ولم يكن في ذهنهم أيُّ تمهيد من واقع الأسفار المقدسة، مما يفيد أن القيامة كحدث فائق اقتحمت مجالهم الفكري اقتحاماً، وفرضت ذاتها عليهم كموضوع إيمان.

وق. يوحنا كان دقيقاً وواضحاً وصريحاً في ذكر ضعف إيمان التلاميذ وتباطؤ ذهنهم في قبول هذه الحقيقة: «لم يكونوا بَعْد يعرفون الكتاب أنه ينبغي أن يقوم من الأموات». وهذا بدوره يوضح لنا منتهى صدق القيامة بحد ذاتها، فهي حَدَثٌ إلهيٌّ دخل إلى عالم التلاميذ عُنْوةً، وبدون تمهيد، ولا باستعداد سابق. كما كشف لنا هذا التباطؤ الشديد أن كل الشهود، شهود العيان بدون إيمان، صمتوا جميعاً. ولكن، للأسف الشديد، فإن صراحة الإنجيل في سَرْدِ نُقَطِ ضعف إيمان التلاميذ وبُطْء قبولهم لحقيقة الإيمان، اتخذه بعض النُّقَّاد والهراطقة والمقاومين للإيمان المسيحي كمحاولة لمهاجمة القيامة ونفي حدوثها. وهكذا يتبيَّن للقارىء، كيف أن نُقَط القوة في استعلان الحق الإلهي تتحول عند المحرومين من نور النعمة إلى نُقَطِ ضعف، وأن أسباب الإيمان الشديدة الصدق تصير عند الفاقدين للبصيرة الروحية، أسباب هُزْءٍ وتجديف ومقاومة.

«يعرفون الكتاب»:

ق. يوحنا هنا لا يشير إلى مجمل الأسفار، بل إلى كتاب واحد بالذات، وغالباً يقصد المزمور السادس عشر، وهو الذي استشهد به بطرس الرسول بعد الخمسين: «لذلك فرح قلبي وابتهجت روحي. جسدي أيضاً يسكن مطمئناً. لأنك **لن تترك نفسي في الهاوية. لن تَدَعْ تقيَّك يرى فساداً.**» (مز١٦: ٩و١٠)

ويعلِّق بطرس الرسول في سفر الأعمال على هذا النص، موضحاً بشدة أنه نَصُّ نُبوة القيامة بالدرجة الأُولى هكذا: «أيها الرجال الإخوة يسوغ أن يقال لكم جهاراً عن رئيس الآباء داود، إنه مات، ودُفن، وقبره عندنا حتى هذا اليوم، فإذ كان نبيًّا وعلم أن الله حَلَفَ له بقسمٍ أنه من ثمرة صُلْبه يقيم المسيح حسب الجسد، ليجلس على كرسيِّه، **سبق فرأى وتكلَّم عن قيامة المسيح، أنه لم تُترك نفسه في الهاوية، ولا رأى جسده فساداً.** فيسوع هذا، أقامه الله، ونحن جميعاً شهود لذلك.» (أع٢: ٢٩ــ٣٢)

۲۰ : ۱۰ **«فَمَضَى التِّلمِيذانِ أيضاً إلى مَوضِعِهِمَا».**

واضحٌ أن لكل منهما موضعه، أو خاصَّته، كما جاءت في اليونانية: **πρὸς αὑτούς** ، ق. يوحنا في بيته الخاص مع القديسة العذراء مريم، والقديس بطرس في العِلّية مع التلاميذ في بيت يوحنا مرقس. و يعطينا القديس مرقس صورة حزينة يخيِّم عليها اليأس لهؤلاء التلاميذ المجتمعين في العلية مع كل الذين من خاصتهم هكذا: «فذهبت هذه، وأخبرت الذين كانوا معه (مع يسوع)، **وهم ينوحون و يبكون.**» (مر١٦ : ١٠)

هذا هو منظر التلاميذ قبل القيامة. وحتى بعد أن رأوْا الحجر مدحرجاً والقبر فارغاً واللفائف موضوعة في مكانها، ذهبوا إلى مواضعهم صامتين، وحتى المحبوبة بقيتْ عند القبر الفارغ تبكي.

٢ ــ المسيح يظهر للمجدلية: (٢٠ : ١١ــ١٨).

(أ) المجدلية تنظر داخل القبر فتجد الملائكة: (٢٠ : ١١ــ١٣).

۲۰ : ۱۱ **«أما مَرْيَمُ فكانت واقِفَةً عِنْدَ القَبْرِ خارِجاً تَبْكِي، وفيما هِيَ تَبْكِي آنْحَنَتْ إلى القَبْرِ».**

الأناجيل الثلاثة تتفق في ذكر زيارة واحدة لمريم المجدلية إلى القبر، وق. يوحنا هو الذي ينفرد بذكر الزيارة الأولى التي تمت باكراً جداً، ثم يذكر الزيارة الثانية ببيانات أوفى؛ والقصد هو توضيح تدرُّج استعلان القيامة خطوة خطوة، بكل دقة.

وهذا التدرُّج نلاحظه أيضاً في سياق الرواية هكذا:

١ ــ المجدلية ترى الحجر مرفوعاً والقبر فارغاً، فتقول: «أخذوا السيد».

٢ ــ يوحنا يرى أولاً الأكفان موضوعة ولم يدخل.

٣ ــ بطرس يرى اللفائف وحدها ومنديل الرأس وحده، فيتقدم خطوة: أن الجسد لم يؤخذ.

٤ ــ يوحنا يرى أيضاً كل هذا، فيؤمن.

كذلك نرى التدرُّج الذي يعتني ق. يوحنا بتسجيله للقيامة في استخدامه ثلاثة أفعال مختلفة لفعل «يرى»، بالنسبة ليوحنا أولاً، ثم بطرس ثانياً، ثم يوحنا ثالثاً:

١ ــ فيوحنا أولاً نَظَرَ βλέπει الأكفان موضوعة، نظرة **بسيطة** عابرة.

٢ ــ بطرس ثانياً نَظَرَ θεωρεῖ الأكفان والمنديل، نظرة **تأملية فاحصة.**

٣ ــ و يوحنا ثالثاً رأى εἶδεν فآمن، وهي **نظرة تصديق** وإيمان.

واضح أن المجدلية بعد أن أخبرت بطرس و يوحنا، تبعتهم هي أيضاً إلى القبر، وربما تركض أيضاً، إذ لما خرج التلميذان من القبر كانت المجدلية خارجاً. أما التلميذان فخرجا من القبر، وذهبا، كُلٌ في طريقه، وكأن القبر لم يعد فيه ما يحلُّ لغز المسيح طالما ليس فيه الجسد. أما المجدلية فتشبثت بالقبر ولم تغادره، وكأنها تطالب القبر أن يحلّ لغز نفسه، وتستعطفه ببكائها أن رجاءها كان لا يزال منعقداً عليه. و يعبّر القديس أغسطينوس عن وقفتها هذه هكذا:

[إن ضعْفَ طبيعتها والمشاعر الجياشة في قلبها سمّرتها في الموضع].

لم تحاول الدخول إلى غرفة الدفن ولكنها تشجعت وانحنت أيضاً لتنظر هي الأخرى. إنه وحي الروح فيها، وقد اجتذبها نور السماء من داخل القبر.

١٢:٢٠ **«فنَظَرَتْ مَلاَكَيْنِ بِثِيابٍ بِيضٍ جالِسَيْنِ، وَاحِداً عِنْدَ الرَّأسِ والآخَرَ عِنْدَ الرِّجْلَيْنِ حَيْثُ كَانَ جَسَدُ يَسُوعَ مَوْضُوعاً».**

«يا جالساً على الكروبيم أشْرِقْ... أيْقِظْ جبروتك وهلمّ لخلاصنا...» (مز ٨٠: ١و٢)

هذه أول مرة يذكر فيها ق. يوحنا شيئاً عن ظهورٍ فعليٍّ للملائكة.

وضعُ الملاكين هنا في غاية الأهمية اللاهوتية، لأنه يمثل مطابقة لِمَا نَصّتْ عليه التوراة في مكان الحضرة الإلهية من الشاروبيم فوق غطاء التابوت المسمّى: «كرسي الرحمة» أو «الغفران»: «فاصنع كروباً واحداً على الطرف من هنا، وكروباً آخر على الطرف من هناك... **وأنا أجتمع بك هناك، وأتكلم معك من على الغطاء، من بين الكروبين** اللذين على تابوت الشهادة بكل ما أوصيك به.» (خر٢٥: ١٩ــ٢٢)

وهنا وضع الملاكين على طرفي مصطبة القبر حيث كان الجسد موضوعاً، يشير إشارات بليغة إلى مركز الجسد الإلهي المسجّى بمفهوم الحضرة الإلهية، وإلى قداسة المكان على المستوى العالي كموضع الحضرة الإلهية؛ كما يشير إلى أن القبر صار بمفهوم تابوت العهد الجديد بلا نزاع، ليس في مكانه ومظهره، لأنه فارغ، ولكن في معناه. فمن القبر استُعلنت القيامة التي هي الركن والسند للإيمان المسيحي، واستُعلن المسيح ابن الله. أما جلوس الملاكين وليس وقوفهما فهو يشير إلى انتهاء نوبتهما في الحراسة، بعد أن قام المسيح وغادر القبر. فمجرد وجودهما جالسَيْن عند طرفي القبر هو بمثابة إشارة، أول إشارة، بالقيامة. وبالفعل كان الملاكان ــ أو الرجلان الإلهيان بحسب إنجيل لوقا ــ أول مَنْ أعلن القيامة: «لماذا تطلُبْنَ الحي بين الأموات؟ ليس هو ههنا لكنه قام.» (لو٢٤: ٥و٦)

ولكن في إنجيل يوحنا كان عمل الملاكين هو تحديد مكان وضع الجسد، «واحداً عند الرأس والآخر عند الرجلين». وهذا التحديد الملائكي هو بحدّ ذاته شهادة فائقة ليقين موت الرب و يقين الدفن. إنه ختم تصديقٍ لكل رواية ما بعد الصليب، وبالتالي إشارة صامتة ولكن دامغة أنه قام. لقد كان عمل الملاكين هو استعلان سرّ القبر وسرّ القيامة، الأمور التي فاقت قدرة بطرس والآخرين، ثم تحويل البكاء والعويل إلى بشارة وتهليل.

وكان ظهور الملاكين في قبر المسيح، كحرّاس سمائيين، ردًّا حاسماً دامغاً على القول أنهم أخذوه ولسنا نعلم أين وضعوه، بل تبكيتاً وتقريعاً مُرًّا على اليهود الذين حاولوا أن يشيعوا هذا الإدعاء.

لقد اعتنى ق. يوحنا أن يوضح، بالبرهان السمائي، إلى أي مدى كان الجسد والقبر في حوزة السماء وحراسة جبابرة الأرواح العليا.

وإن وجود الملاكين في قبر المسيح هو مِصْداقٌ وِفاقٌ لقول المسيح لبيلاطس: «مملكتي ليست من هذا العالم» (يو١٨: ٣٦). فهوذا الجنود يحرسون جسد رب الجنود. لقد رافقوه في ميلاده (لو٢: ١٣)، وفي تجربته (مت٤: ١١)، وفي جثسيماني (لو٢٢: ٤٣)، وفي قبره وفي قيامته وفي صعوده (أع١: ١٠)!!

السلام للقبر مَهْبَط الملائكة وبيت النور، الموضع الذي انطلقت منه بُشْرَى الحياة.

١٣:٢٠ «فقالا لها يا آمرأة لماذا تَبْكِينَ؟ قالَت لَهُما: إنَّهُم أخَذُوا سَيِّدِي ولَسْتُ أعلَمُ أيْنَ وَضَعُوهُ».

[لماذا الطيب والنحيب...
إن زمن البكاء قد انقضى، لا تَبْكِين،
بل بشِّرن بالقيامة للرسل.]
(الأبصلمودية المقدسة السنوية).

«يا امرأة لماذا تبكين»؟

ليس هذا سؤالاً بل مراجعة وعتاب.

لقد هال الملائكة في يوم ارتفاع الرب بالمجد إلى أعلى السموات، أن يقف البشر في القبر يبكون

و ينوحون، وعلى أيديهم حنوطٌ للجسد، والجسد قام وصار أعلى العليِّين!

« أخذوا سيدي »:

لا تزال الفكرة التي تسلَّطت عليها، أنهم « أخذوا الجسد ». ولا تزال هي تبحث وتفكر: « أين وضعوه؟ ». فالحنوط على كتفها وهي تودُّ أن تحنِّط الجسد مهما كان و بأي ثمن، والبكاء يقطع نياط قلبها، وقد كفَّتْ عيناها عن أن ترى قيمة لأية قيمة، حتى للملاكين اللذين يحدثانها! أنا أريد «سيدي» وحسب.

عجيب في عينيها وفي مسامعها أن يسألها الملاكان: " لماذا تبكين "؟ إنه «سيدي»، أخذوه، كيف لا أبكي؟ إن غيبة المسيح عنها ألغت حضرة الملائكة أمامها؛ بل ألغت الخوف والجزع من كل رهبة، فلم تَعُدْ للملائكة مكانة بعد غياب «سيدي»، ولسان حالها بالنسبة للملاكين هو: إن كنتما تعرفان أين وضعوه قولا لي وإلاَّ فلماذا الكلام؟

(ب) المسيح يظهر للمجدلية، فتخطىء معرفته و يلفت نظرها بأن يدعوها باسمها، والمجدلية تبشر التلاميذ أنها رأت الرب: (٢٠: ١٤ــ١٨).

١٤:٢٠ «ولما قالَتْ هذا، التَفَتت إلى الوَرَاءِ، فنَظَرَت يَسُوعَ واقِفاً ولم تعلمْ أنه يَسُوعُ».

لمَّا احتار الملاكان من بجاحة هذه المرأة وعنادها، استغاثا بالرب فأغاثهما، وظهر خلفها. فلما ظهر، جَفَلَ الملاكان وتغيَّرت جلستهم؛ لمحت المجدلية هذا منهم ورأت أعينهما مسلَّطة على أمر خطير خلفها، فأدارت وجهها لترى، فكان يسوع، ولكنها لم تعرفه. كانت عيناها مملوءتين بالدموع، بل بالحزن والهموم، ولكن الرب يتراءى بالفرح. فالفرح نور القيامة، وضوؤها الذي به نرى الرب والسماء والآب والحياة الأبدية.

«بعد قليل لا يراني العالم أيضاً، وأما أنتم فترونني» (يو١٤: ١٩)، المجدلية كانت لم تخرج بعد من نطاق العالم، إنها كانت تعيش ماضيها، والماضي غريب دائماً عن الجديد، و«هوذا الكل قد صار جديداً.» (٢ كو٥: ١٧)

المعمدان كان يعيش قبل أزمنة الجديد «وأنا لم أكن أعرفه» (يو١: ٣٣)، فلما جاء زمن الاستعلان، رآه، وعرفه، وسمع صوته، وفرح، وأعلن شهادته؛ والمجدلية لما دخلت زمن الاستعلان عندما ناداها الراعي باسمها، عرفته. فانطلقت للبشارة بأنها «رأت الرب».

تماماً كما حدث للتلاميذ بعد انقضاء «ليل» الصيد الفاشل، الذي يمثل النكسة نحو عالم الشقاء وصيد الطعام البائد، فلما ظهر الرب على الشاطىء **لم يعرفوه** لأن غمَّ الفشل ونَكد السهر الخاسر **أفقدهم** القدرة على رؤية «الطريق والحق والحياة»؛ **إلاَّ** يوحنا الذي كان جالساً وسط المركب، يهدس بأفكار الحب، وسط أنين الخسارة واللعنات على ليلٍ ناءَ عليهم بكَلْكَلِهِ، وانجلى دون سمكة واحدة يتقاسمونها، فلما وقعت عيناه على الإنسان الواقف على الشاطىء نسيَ همَّه، وقلبه دَلَّهُ على الحبيب، فصرخ: «إنه الرب». فيا لبؤس وشقاء العمل بدون لمسات الحب!

٢٠: ١٥ «قال لها يَسُوعُ يا آمرأةُ لِمَاذا تَبْكِينَ؟ مَنْ تطلُبِينَ؟ فظَنَّت تِلْكَ أنَّهُ البُسْتَانيُّ. فقَالَت له: يا سَيِّدُ إنْ كُنْتَ أنتَ قد حَمَلْتهُ، فقُلْ لي أينَ وَضَعْتَهُ وأنا آخُذُهُ».

«في الليل على فراشي طلبتُ من تحبُّه نفسي، طلبتهُ فما وجدتهُ،
إني أقوم وأطوف في المدينة، في الأسواق، وفي الشوارع أطلب من تحبه نفسي،
طلبته فما وجدته
وَجدني الحرسُ الطائف في المدينة،
فقلت: أرأيتم من تحبه نفسي،
فما جاوزتهم إلاَّ قليلاً حتى وجدت من تحبه نفسي فأمسكته ولم أرْخِه!!!» (نش٣: ١ـــ٤)

«يا آمرأة»:

كانت هذه أول كلمة نطق بها المسيح بعد القيامة.

أعاد المسيح استنكار الملاكين لبكائها في يوم فرح السمائيين، لماذا تبكين؟

المسيح القائم من الموت يتساءل أكثر مما يسأل، مَنْ تطلب هذه المرأة؟ أو كيف تطلب الجسد الميت وهو حيٌّ؟ هو نفس استنكار الملاكَيْن للنسوة والمجدلية في إنجيل القديس لوقا: «لماذا تطْلُبْنَ الحيَّ بين الأموات» (لو٢٤: ٥)، «...اذكرن كيف كلّمكُنَّ وهو بعد في الجليل، قائلاً: إنه ينبغي أن يُسلَّم ابن الإنسان في أيدي أناس خطاة، ويُصلب، وفي اليوم الثالث يقوم.» (لو٢٤: ٦و٧)

يُلاحَظ أن المسيح يسأل المجدلية عن «مَنْ» تطلب، مع أنها تطلب شيئاً (ماذا) وليس «مَنْ». هنا محاولة لردِّها إلى موضوع طلبها الذي ينبغي أن يكون شخص المسيح وليس جسده.

المسيح، هنا، يتوسَّم في المجدلية جلاء البصر!! إنه واقف أمامها، «إنه حي»، فينبغي أن

تحيا بحياته، فلا تبكي موته ومواتها.

«**إنه يراها**»، فكان عليها أن تفرح، لا أن تبكي، وأن يدوم فرحها!! «سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم.» (يو١٦: ٢٢)

إنه يتكلم معها، وقد «**سمعت صوته**»[٤] فيتحتم أن تقوم هي من موتها، لا أن تبكي موته!!

إنه قام من القبر، فكان ينبغي أن تكون قد قامت معه، لا أن تعيش في قبره!!

ولكن المجدلية تعود تجترُّ جهالتها، وفي عَتْمَةِ الرؤيا تظنُّه البستاني، فتستعطفه أن يدلّها على الجسد!! لقد تجاهلت سؤاله، لقد فقدت كل رؤيا لكل ما بعد القبر. إنها فقط تريد أن تحيا باكية على جسدٍ تأخذه لنفسها، لتُشبع بؤس حبِّها بالبكاء والنواح عليه!

هكذا الإنسان الذي يفقد رؤيا القيامة والقائم من بين الأموات، إنه يعيش ذكرى أمواته، يرتاح بالنواح عليهم، ويجوس بين مقابرهم ــ إن لم يكن برجله فبِفِكْرِهِ ــ يندب أيامهم إلى أن تفنى أيامه!

«وأنا آخذه»:

في تفجُّر عواطف حبها رأت في قوتها الكفاءة التي يمكن أن تجعلها تحمله بنفسها لنفسها. وهكذا إن كان الإيمان يقدر أن ينقل الجبال، فالحب قادر أن يحمل الأهوال!

١٦:٢٠ «قالَ لها يَسُوعُ: يا مَرْيَمُ. فالتَفَتَتْ تِلْكَ، وقالَت لَهُ: رَبُّوني، الذي تَفْسِيرُهُ يا مُعَلِّمُ».

ناداها بالاسم كما نادى لعازر، نبَّه روحها فاستيقظت من موت حالها، دخل صوت ابن الله (يو٥: ٢٥)، إلى أعماق نفسها التائهة في مجاهل القبر، ففكَّ عنها أكفانها، فانفتحت عيناها وأبْصَرَتْ نور القيامة «ربُّوني»!!

ناداها باسمها، كراعٍ ينادي خرافه بأسمائها **فتعرفه حالاً، وتتبعه**. حينما كانت تطلبه في القبر، كانت قد نأت بعيداً عن درب الحظيرة، فناداها من فوق، من عالم النور والقيامة، فعرفته بعض المعرفة، تذكرت فيه صوت نداءِ المعلِّم لها، فحسبَتْهُ أنه لا يزال هو المعلِّم، في يومٍ من أيام

(٤) راجع شرح الآية يو٥: ٢٥ في موضعها: «يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون».

ابن الإنسان، ولكن هيهات، هذا لا يعود، إنه لم يَعُدْ «ربوني» بل ربُّ القيامة، التي باسمها افتتح سجلات الخلود.

١٧:٢٠ «قال لها يَسُوعُ: لا تَلْمِسِيني لأني لم أصْعَدْ بَعْدُ إلى أبي، ولكن اذهَبِي إلى إخْوَتي وقُولي لهُم، إنّي أصعَدُ إلى أبي وأبيكُم وإلهي وإلهكم».

كان المسيح هو هو بلحمه وعظامه، فحقَّ لها أن يطير صوابها. أرادت أن تُخضِعَ الوهم للحقيقة، لم تَطِقْ أن تبقى ناظرة إليه تسمعه، لقد اندفعت نحوه تتشبث به بكل قواها، أرادت أن تطوّقه بذراعيها فتقبض عليه قبضاً حتى لا يفلت منها. إنها اكتشفته وحدها، فهو لها وحدها: «أين وضعته **وأنا آخذه**»، نسيت التلاميذ والناس: «حبيبي لي (وحدي)، وأنا له.» (نش٢:١٦) !!

أرادتْها مصارعةً كمصارعة يعقوب مع الملاك وحتى الفجر: «لا أطلقك إن لم تباركني» (تك٣٢:٢٦)، ولما ضجر الملاك من تشبث يعقوب به وهو ماسك بتلابيبه ضربه على حُقِّ فخذه حتى يفلت من يديه؛ هذا لم يُرِدْه المسيح، لم يشأ أن **يلمسها بسوء**، فاكتفى أن حذَّرها: «**لا تلمسيني**».

إن كان «الإنسان لا يراني و يعيش» (خر٣٣:٢٠)، فكيف لهذه أن تعانقه؟

توما لما لمس حقيقته، صرخ «ربي وإلهي»! لقد رجَّه اللاهوت رجّاً، وسرى فيه سريان النار في الحطب، فكيف لهذه أن تضمَّ النار في حضنها ولا تحترق.

فرقٌ أن يقول هو: «جِسُّوني والمسوني» (راجع لو٢٤:٣٩)؛ وأن نحاول نحن أن نجسَّه ونلمسه، فهو وحده الذي يُخضِع طبيعة جسدِهِ الإلهي للجسّ أو اللمس في حدود إحساسنا، لأنه أصلاً لا يُحسُّ. أما نحن، فيستحيل أن نبلغ من أنفسنا مستوى مَجَسّته ومُلامَسته بطبيعتنا؛ أو هل يمكن أن تُجسَّ النارُ؟ أو يُلمسَ النور؟ أو يُعانقَ الهواء؟

النسوة تمسّكن بقدميه كإله، وخَرَرْنَ ساجداتٍ عابداتٍ، فارتضى. ولكن أن تلمسه «امرأة» لمسة الصداقة كمعلِّم سبق وشفاها، فهذا غير وارد. لقد تغيرت هيئته، وتغيَّرت وظيفته. إنه في لحظة العبور وليس الإقامة، ولسان حاله: «إني صاعد إلى أعلى السموات، لتجثو لي كلُّ ركبة ممن في السموات ومن على الأرض. إني صاعد لأفتتح لكم الطريق إلى الحياة الجديدة، إلى الآب

وإليَّ، لتكونوا حيث أكون، لا لتعيشوا معي وحسب بل وتعيشوا فيَّ. لا تلمسوني أو تجسُّوني بَعْدُ، لتتأكدوا منِّي، أو لتستمتعوا بي، بل لتتحدوا بي بل لتأكلوني، فأصير فيكم وتصيرون فيَّ».

لقد كان النور معهم زماناً قليلاً، وها الآن لم يَعُدْ زمانٌ. فالنور يومض في ابن الإنسان وَمْضَته الختامية على الأرض، ليصعد النور لأبي الأنوار، و يكفينا منه الغَسَقُ مدى الأيام. لقد حَسِبَتْ النور لها وحدها، فقال لها: اذهبي خبِّري «إخوتي»، إني صاعدٌ إلى أبي ليكون أباكم كلكم، صاعدٌ بأخوّتي التي لكم ومنكم التي قدَّمتُها ذبيحة لكم، ومن أجلكم، أمام إلهي وإلهكم، لتشتركوا معي في بُنُوّتي لأبي، فيكون أباكم.

القيامة أعطت المسيح طبيعته المهيَّأة للإقامة في الأعالي وعن يمين العلي. الجسد المُقامُ من الموت، لم تناسبه الإقامة على أرض الإنسان تحت طبيعة عالم الناس. «أنتم من أسفل، أما أنا فمن فوق.» (يو٨: ٢٣)

أن يقوم المسيح من بين الأموات، فلا بد أن يصعد أيضاً، فالقيامة تمهيد للصعود، والصعود تكميلُ القيامة.

والصعود الذي تكلم عنه القديس لوقا في سفر الأعمال شيء، والصعود الذي يتكلم عنه المسيح هنا في إنجيل يوحنا شيء آخر. الأول يتبع مراحل الفداء الأربع: التجسد (الميلاد)، والموت (الصلب)، والقيامة، ثم الصعود، في تدرُّجها المحسوس والمنظور لنا. أما الصعود في إنجيل يوحنا، فهو العمل السِّري غير المنظور، والخاص بالمسيح في علائقه السرية بالآب؛ لأنه من جهة علاقة المسيح بالآب، لا يمكن التفريق «الزمني» بين القيامة والصعود، فهما عمل واحد لدى الآب، عبَّر عنه المسيح: «وأنا إن ارتفعتُ عن الأرض، أجذب إليَّ الجميع» (يو١٢: ٣٢)، حيث يشير هنا إلى ارتفاع الجسد على الصليب، والارتفاع من الموت بالقيامة، والارتفاع بالصعود. هذا كله عند المسيح والآب، عمل فدائي واحد متكامل. لذلك لا يصح هنا في قوله: «إني صاعد، وأصعد» اللجوء إلى التمييز الزمني في الأفعال.

ولأن المسيح هو ابن الإنسان، لذلك صحَّ أن يقول إن الله إلهُهُ؛ ولأنه هو ابن الله أيضاً حقّ له أن يدعو الله «أبي». وأن يجمعهما لنفسه معاً «أبي وإلهي» فهو يوضح بُنُوّته الإلهية المتجسدة كطبيعة.

وقد اعتنى القديس بولس الرسول جداً في إظهار نَسَب الله للمسيح، كإله، مؤكداً على بشرية

المسيح تماماً، بحسب تسجيل ق. يوحنا، وذلك في مواضع كثيرة: «كي يعطيكم **إله ربنا يسوع المسيح** أبو المجد روح الحكمة والإعلان في معرفته» (أف ١: ١٧). ويُلاحَظ أن الترجمة العربية في الآيات التالية خرجت عن النص الدقيق كالآتي: «مباركٌ (الله) **إله وأبو ربنا يسوع المسيح** أبو الرأفة وإله كل تعزية.» (٢كو١: ٣)

«لكي تمجدوا (الله) **إله وأبا** ربنا يسوع المسيح بنفس واحدة وفم واحد.» (رو١٥: ٦)
«مبارك (الله) **إله وأبو** ربنا يسوع الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح.» (أف ١: ٣)

وقد حَذفت الترجمة العربية حرف «و» και الواقعة بين «الله وآب»، فضاع مفهوم نَسَب الله للمسيح «**كإله**» توكيداً لبشريَّته، من ناحية، ونسبته الطبيعية اللاهوتية لله كآب من الناحية الأخرى. «فالله» في الآيتين السابقتين يجمع الصفتين معاً بالنسبة للمسيح «**إله وآب**» تماماً كما قال المسيح للمجدلية.

وأن يطلقهما معاً بالنسبة لنا «أبوكم وإلهكم»، يوضح ماذا صار لنا بموته وقيامته وصعوده من مشاركتنا في مخصَّصاته كنعمة وُهبت لنا.

وهذا ينطق به نُطقاً قوله: «**قُولي لإخوتي**». هذا الاصطلاح الأول من نوعه، وبعد القيامة، يفيد الوضع الجديد الذي صار للإنسان والكنيسة المؤمنة بقيامة المسيح؛ فبالتعليم عن كل ما عند الآب، صار التلاميذ «**أحباء**» (يو١٥: ١٥)، أما بالقيامة من الأموات فقد اكتسب المسيح لهم علاقة إلهية به، وبالتالي بالآب: «**إخوتي**» وبالتالي «**أبوكم**».

المسيح، بالنسبة للتلاميذ بعد القيامة، لم يَعُدْ هو المسيح ابن الإنسان النازل من السماء، وكلام الحياة الأبدية عنده، بل المسيحُ الذي صعد إلى الآب وعاد بالحياة الأبدية ليسكبها علينا بغِنىً. لقد حقق وعده: «إنه خير لكم أن أنطلق» (يو١٦: ٧). لقد عاد من عند الآب بعد أن أسس المكان والمنازل، ومعه عطية الآب: "الروح القدس"! الذي أعطاهم في نفس المساء.

ويلزم أن ننتبه إلى التفريق المتعمَّد الذي أوضحه المسيح بقوله: «**أبي وأبيكم**»، **فهو لم يَقُلْ** «أبونا»، بل «أبي» خاصة «وأبوكم» عامة، «أبي» بالطبيعة «وأبوكم» بالنعمة والتبني الذي وهبه لنا المسيح كشركة في بُنُوَّته.

كذلك «**إلهي**» خاصة، لما تنازل وأخلى ذاته وأخذ شكل العبد، وصار إنساناً بإرادته — غير مخلوق — من تحت لاهوته، «**وإلهكم**» عامة، كعبيدٍ اقتناهم الله لنفسه من خليقته.

١٨:٢٠ «فجَاءَتْ مَريَمُ المَجْدَلِيَّةُ، وأخبَرَت التلاميذَ أنها رَأت الرَّبَّ وأنه قَالَ لها هذا».

في اليونانية «**جاءت**»، و«**أخبرت**» تفيد الحال والتو، بمعنى أنها تركت الرب راضية في الحال، لتقوم ببشارتها ἀγγέλουσα الأُولى لعالم الإنسان الجديد، للكنيسة التي قبلت هذه الكلمة: «**قد رأيتُ الرب**»، كإنجيل الحياة الجديدة، وبشارة الملكوت الذي دبَّ منذ تلك اللحظة في روح التلاميذ، وإلى الآن يتفرَّخ ألْفي سنة، ولا يزال، ثم إلى الأبد.

لقد خرج النص في الترجمة العربية عن الأصل، وحوَّل البشارة إلى الغائب «أنها رأت الرب»، ولكن النص اليوناني واضح وأكيد: «**مبشِّرة التلاميذ: قد رأيتُ الرب**».

ἀγγέλουσα τοῖς μαθηταῖς ὅτι ἑώρακα τὸν κύριον

وهكذا تبوَّأت المجدلية الصدارة في سجل البشارة كأول إنسان رأى المسيح قائماً من بين الأموات، وكأول بشيرٍ نادى بالقيامة.

السلام لمريم بنت ذات البرج(٥)، التي حرست حراسات الليل حتى تقبّلتْ أول شعاع النور...

السلام للتي بكَّرت جداً، والظلام باقٍ، تسعى، يقودها الحب، تطلب تكريم مَنْ تحبه، فوجدها وَوَجدتْهُ.

التلاميذ رأوا القبر قبراً فارغاً؛ وهذه رأته سماءً مزينةً بالملائكة. هؤلاء لما دخلوا القبر ما طلبوا شيئاً؛ وهذه تشبثت ببكاءٍ تطلب جَسَدَ مَنْ تحبه، حتى استُعْلِنَ لها صاحبُه في ملء الحياة وقوتها.

هؤلاء عادوا صامتين من القبر إلى حيث أتوا؛ وهذه تسمَّر قلبها ورِجْلاها في الحجر كالحجر، تتأوَّه، والدموع مِلءُ عينيها، فاستحقت أن ترى مجد الله!

---

(٥) المجدل هو البرج العالي الذي للمراقبة لرؤية المسافات على بُعْد. أنظر مقالة: «الوعد — تأملات في الميلاد»، ضمن كتاب: «أعياد الظهور الإلهي»، طبعة ١٩٨٠، ص٤٥: "ميجدال عدر = برج القطيع".

السلام لمبشِّرة صهيون، أول مَنْ قَطَفَ من ثمرة شجرة الحياة، وأعطى التلاميذ، فأكلوا، وانفتحت أعينهم، وعاينوا النور، وادَّثروا بثوب الخلاص.

السلام لمَنْ استُؤْمنت، أول مَنْ استُؤمِنَ على رؤية الرب المُقَام، وعلى سماع أول كلمة من فيه.

السلام لمَنْ تسجَّل اسمُها، أول ما تسجَّل في سفر الخلود وسجلات ملكوت السموات. بورِكْتِ يا مجدلية الأناجيل الأربعة، وبورِكَتْ دموعُك وجُرأتُك ولجاجتك وأمانتك للجسد.

شهوةً اشتهيتِ تكريم الحبيب الميت، وتطييب الجسد، فاستحققتِ حبَّ الحيّ ونوال رائحة المسيح الزكية ببشارة الحياة.

المنظر الثاني: في العِلّية والتلاميذ مجتمعون

(١) ٢٠ : ١٩ــ٢٣ : في مساء الأحد المسيح يظهر للتلاميذ الخائفين وهم مجتمعون و يعطيهم السلام، والتلاميذ يفرحون برؤية الرب. المسيح يفتتح سِفْرَ الإرساليات للعالم، و يؤازرهم بنفخة الروح القدس وسلطان مغفرة الخطايا.

٢٠ : ١٩ **«ولما كانت عَشِيَّةُ ذلكَ اليومِ، وهو أوّلُ الأسبُوعِ، وكانت الأبوابُ مُغلّقةً حيثُ كان التّلاميذُ مُجتمِعِينَ لسَبَبِ الخَوْفِ من اليَهُودِ، جاءَ يَسُوعُ ووَقَفَ في الوَسْطِ وقالَ لهُم: سَلامٌ لَكُم».**

ينفرد ق. يوحنا بذكر حوادث ومناظرَ لم يأتِ عليها الإنجيليون الثلاثة: الأبواب المغلقة، الخوف من اليهود، غياب توما، السلطان بالروح القدس.

من ملابسات ظهور المسيح للمجدلية، واضح أنه كان لا بد سيظهر للتلاميذ، كما كانت بشارة المجدلية الحافز السريع لاجتماع التلاميذ مع الترقُّب والانتظار. وهذه تمهيدات لازمة بالفعل لجو الاستعلان.

والمعتقد أن عدداً كبيراً من الأخصّاء كانوا مجتمعين غالباً في العلية حيث صنع الرب عشاءه الأخير، هذا يتأكد لنا من رواية القديس لوقا بخصوص عودة تلميذَيْ عمواس إلى التلاميذ المجتمعين: «فقاما في تلك الساعة ورجعا إلى أورشليم ووجدا الأحد عشر مجتمعين هم **والذين معهم**» (لو٢٤ : ٣٣)، كما يتأكد لنا من الصورة الموازية لاجتماعهم يوم الخمسين: «ولما دخلوا، صعدوا إلى العلية التي كانوا يقيمون فيها... هؤلاء كلهم كانوا يواظبون بنفس واحدة على الصلاة والطِلْبَةَ مع النساء ومريم أم يسوع ومع إخوته.» (أع١ : ١٣و١٤)

«عشية ذلك اليوم»:

كان هو اليوم المشهود والخالد في تاريخ الكنيسة، بل على وجه الصدق في تاريخ الإنسان. فقد استُعلِنَ المسيحُ غَالِبُ الموتِ الذي هو عدوُّ الإنسان الأول والأخير. ووهب للإنسان الحياة الجديدة التي لا سلطان للموت عليها. ونفخ في الإنسان من روح الله القدوس ليتقبّل قوة الحياة التي لا تموت، عِوَضَ نفخة الله في نفس آدم التي أطفأتها لعنة العقوبة، فسادَ عليها الموتُ كتأديب.

ويُلاحَظ أن المسيح اختار يوم الأحد بالذات، ليقدِّسه للكنيسة بحضوره في وسط التلاميذ. ونقول **يومَ الأحد بالذات** وهو اليوم الذي قام فيه، لأنه عاد وظهر مرة أخرى للتلاميذ ولتوما في يوم الأحد التالي، وليس يوم السبت أو أي يوم من أيام الأسبوع الأخرى!

من هنا يتأكد لنا بكل قوة وبيان أن المسيح قصد قصداً تقديس يوم الأحد ليكون «يوم الرب» على مدى الدهور، وهو يوم القيامة، فصار كلُّ يوم أحد للكنيسة يومَ القيامة. وهذا هو تقليد الكنيسة الثابت.

وبحسب التقليد الإفخارستي الذي عاشته الكنيسة ألفي سنة، فيوم الأحد هو يوم الإفخارستيا بالأساس. والمعروف والثابت من تقليد الإفخارستيا أن الرب يظهر فيه وقت «**كسر الخبز**»، أي أثناء التقسيم، أي **القسمة**، تماماً كما ظهر في العلية وسط التلاميذ المجتمعين. فنحن على ميعاد مع الرب في إفخارستية كل أحد(٦).

كذلك، ومن التقليد الرسولي الذي يقدِّمه لنا ق. يوحنا في سفر الرؤيا، نعلم أن ق. يوحنا أُخذ بالروح في يوم الأحد وتسلَّم أسرار السبع الكنائس والأمور الخاصة بالأزمنة الصعبة التي ستأتي على العالم. وهكذا نفهم أن يوم الأحد تعيَّن ليكون يوم الاستعلان والكشف لأسرار الله والمسيح.

«وكانت الأبواب مغلقة، حيث كان التلاميذ مجتمعين بسبب الخوف من اليهود»:

كانوا عشرة تلاميذ من الاثني عشر، فيهوذا سقط من حساب الاثني عشر، وتوما تغيَّب، وعلى أغلب الظن أنه غادرَ أورشليم إلى وطنه كما صنع تلميذا عمواس في ذلك اليوم أيضاً، اللذان عادا قبل المساء مُسْرِعَيْن إلى العلية بعد أن ظهر لهما الرب.

أما الأبواب المغلقة والخوف من اليهود، فهذا إعلان صريح عن غياب الإيمان بالرب، وغياب مفهوم القيامة وقوتها جملة وتفصيلاً، بل وغياب عنصر الرجاء، الأمر الذي نلمسه بشدة في حديث تلميذَيْ عمواس، الذي يعطينا صورة لما كان يدور الحديث حوله في العلية قبل ظهور الرب: «فقال لهما: ما هذا الكلام الذي تتطارحان به وأنتما ماشيان **عابسَيْن**؟ فأجاب أحدهما الذي اسمه كليوباس وقال له: هل أنت متغرِّب وحدك في أورشليم ولم تعلم الأمور التي حدثت فيها في هذه الأيام؟ فقال (يسوع) لهما: وما هي؟ فقالا: المختصة بيسوع الناصري، الذي كان إنساناً نبيًّا

---

(٦) كان تقليد الكنيسة الذي سارت عليه كل العصور السالفة يحدِّد يوم الأحد للاحتفال بالإفخارستيا. ولكن قليلاً قليلاً بدأ ينحل هذا التقليد، حتى فقد يوم الرب كثيراً من هيبته وقدسيته (أنظر كتاب: «الإفخارستيا والقداس»، للمؤلف، ص٣٩٨).

مقتدراً في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب. كيف أسلَمَهُ رؤساءُ الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه. **ونحن كنا نرجو** أنه هو المزمع أن يفدي إسرائيل. **ولكن مع هذا كله، اليوم له ثلاثة أيام منذ حدث ذلك.** بل بعض النساء منا حيَّرنَنا إذ كُنَّ باكراً عند القبر. ولما لم يجدن جسده، أتين قائلات إنهن رأين منظر ملائكة قالوا إنه حي.» (لو٢٤: ١٧–٢٣)

وذكر «**الأبواب**» المغلَّقة بالجمع، يفيد مدى الخوف والرعبة، فباب البيت الخارجي، والباب الموصِّل إلى العليَّة، وباب العلِّية، كلها أُحكم غلقها بمتاريس وأقفال. وتعبير ق. يوحنا لا يخلو من الرمز، فغياب «**أنا هو الباب**» المفتوح على السماء، ينشىء حتماً إغلاقاً على النفس بكل الأبواب الممكنة.

ولكن، والخوف يحيط بالتلاميذ من كل جانب، حضر تلميذا عمواس على عَجَلٍ، يلهثان من الركض، ليخبرا المجتمعين أنهما رأيا الرب وكسر الخبز بيديه، وشرح لهما «**من موسى وجميع الأنبياء والمزامير** مفسِّراً لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب» (لو٢٤: ٢٧). وهنا تطابقت شهادة المجدلية، والنسوة، مع القبر الفارغ والأكفان وحدها، وغياب الجسد! فكادت القيامة تحاصرهم وتملأ عليهم تفكيرهم. ولكن وحتى بعد ظهور الرب لهم، في عشية ذلك اليوم، نسمع أيضاً وبعد أسبوع وفي عشية الأحد التالي عن خوفهم واجتماعهم والأبواب المغلقة عليهم. لقد كانت القيامة يتنازعها عتمة فكرية من صُنْع الواقع المرير، وخبرة أهوال الصليب، وجبروت السنهدريم ورؤساء الكهنة، عتمة لم تنقشع قط إلاَّ بعد أن لبس التلاميذ قوة من الأعالي يوم الخمسين، ونطق فيهم الروح القدس بقوة تفوق كل سلطان العالم.

«فجاء يسوع ووقف في الوسط»:

دخل الرب إلى حيث كان التلاميذ مجتمعين والأبواب مغلقة عليهم. هذا أول مفهوم لطبيعة القيامة، فالقيامة من الموت لم تعُد تخضع بعد لكل ما هو خاضع للموت، أي الطبيعة البشرية بكل القوانين التي تحكمها وتتحكم فيها المادة والمكان والزمان والجاذبية والحركة والحرارة والضغوط والأشكال والألوان التي كلها تختص بالمادة، فالجسد القائم من الموت هو جسد روحاني له عالَمُه الروحي، وله قوانينه الروحية. وكل أعمال الروح هي معجزة لدى المادي.

ظهور الرب «**وَسْط**» التلاميذ ألغى الأولويات والترتيب والكرامات في حضرة الرب، فالكل في الحضرة الإلهية واحد! ومَنْ ذا يتجرأ في حضور الله ليرى نفسه أعلى من أخيه.

«سـلام لكم»:

ليست هي تحيّة بل عطية: «سلامي أُعطيكم»، وليس كما يعطي أهل العالم السلام بعضهم لبعض، أو كما يَعِدُ الملوك والرؤساء شعوبهم بالسلام وهم أحوج الناس إليه. سلامُ المسيح هنا، أنشأ فيهم الفرح في الحال والتو، «ففرح التلاميذ إذ رأوا الرب» (يو٢٠: ٢٠). وهكذا ابتدأ يُداخلهم الفرح وسط الخوف الشديد الذي كان يعتريهم من اليهود. هذه أول مفاعيل القيامة وأشدُّها وأكثرها دواماً: «ولكني سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم ولا ينزع أحد فرحكم منكم» (يو١٦: ٢٢). إنها بهجة القيامة، أمضى أسلحة الإيمان التي نغلب بها أهوال العالم ومخاوف الشيطان ومقاومة الأشرار. فالمسيحي الذي قام مع المسيح لا يعود يرهب الموت وكل تهديدات الموت، لأن حياته ممتدة فوق الموت وأهواله، لأن سيرته مكتوبة في السماويات.

٢٠: ٢٠ **«ولمَّا قالَ هذا أراهُم يَدَيْهِ وجَنْبَهُ. ففَرِحَ التَّلاميذُ إذْ رأوُا الرَّبَّ».**

مسيح القيامة هو مسيح الصليب: «لا تَخَفْ. أنا هو الأول والآخر، الحيُّ وكنت ميتاً، وها أنا حيٌّ إلى أبد الآبدين.» (رؤ١: ١٧و١٨)

لا يمكن أن تُفهم القيامة إلاَّ على توقيعات الصليب وجروحه وموته، ولا يمكن أن يُفهم عذاب الصليب ومعنى الموت، إلاَّ على نور القيامة. المسيح الذي مات مصلوباً أمام أعينهم، وكأنه قُضي «وقُطع من أرض الأحياء»، ها هو هو بجروحه المميتة، واقف أمامهم حيًّا في ملء قوة الحياة. الموت الذي تراءى لأعينهم أنه ساد عليه وأنزلَه القبر، طرحه المسيح عنه وداسه، وقام بذات الجسد وذات الروح شامخاً فوق الموت ومَنْ له سلطان الموت.

جروح اليدين والرجلين لم تُشفَ، ولا الجنب المفتوح التأم، وكأن الجسد اقتبل روح الشفاء، بل احتفظ المسيح بجروحه الغائرة وجنبه المفتوح كعلامة الموت الذي جازه، احتفظ بها كلها كما هي؛ لأن الجسد الذي قام لم يَعُدْ يستمد حياته من عناصر الحياة على الأرض، بل من فوق، من الحياة التي له خاصة: «كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أن يكون له حياة في ذاته» (يو٥: ٢٦). فصارت علامات الموت وسِمَاته، شهادة للموت الذي جازه والقيامة التي قام. «ورأيت ... وسط الشيوخ، خروف قائم كأنه مذبوح ...» (رؤ٥: ٦)، «مستحق أنت أن تأخذ السفر، وتفتح ختومه، لأنك ذُبحتَ واشتريتنا لله بدمك.» (رؤ٥: ٩)

سِمَاتُ الموت التي تقبَّلها الرب في الجسد، صارت هي سمات القيامة والمجد، ومن جروحه

وجنبه المفتوح يخرج لنا الآن الشفاء والعزاء والحياة والمجد.

[اقتل أوجاعنا بآلامك المشفية المحيية. وبالمسامير التي سُمِّرْتَ بها، أنقذ عقولنا من طياشة الأعمال الهيولية (= الأعمال المادية) والشهوات الجسدية] (الأجبية ـــ الساعة السادسة).

«ففرح التلاميذ إذ رأوا الرب»:

هنا فعل «يرى» **ἰδόντες** ملؤه الإيمان. لقد حقق الرب وعده لهم: «أنتم كذلك عندكم الآن حزن، ولكني سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحد فرحكم منكم.» (يو١٦: ٢٢)

إنها تجربة واختبار فريد من نوعه حَظِيَ به التلاميذ، وقصده الرب قصداً، ليكون خبرة لكل من آمن بالمسيح بالإيمان الرسولي المسلَّم بالروح.

يلاحظ القارىء أن المسيح دخل إلى حيث كانوا مجتمعين والأبواب مغلَّقة، هذا شأن جسد القيامة، الجسد الجديد للخليقة الجديدة الروحانية. ولكن المسيح، وبالجسد القائم من الموت، وبمواصفاته الجديدة غير المنظورة ولا الملموسة، أخضع جسده للرؤيا واللمس لتصير لدى التلاميذ، وبالتالي لدى الكنيسة، الخبرة الحقيقية والصادقة بحقيقة القيامة بالجسد وصدقها: «وأعطى أن يكون ظاهراً ليس لجميع الشعب، بل لشهودٍ سبق الله فانتخبهم؛ لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات.» (أع١٠: ٤٠و٤١)

«ففرح التلاميذ»:

هنا الفرح من نوع خاص جداً، لا يمتُّ بصلة إلى أيٍّ من أنواع الفرح التي نعرفها واختبرناها على الأرض. هذا الفرح هو فرح الروح بالروح، وهو ينسكب على النفس نتيجة **استعلان فائق، وهو هنا المسيح نفسه.**

وهذا الفرح يشمل ثلاثة مفاعيل:

الأول: توقُّف الحواس الجسدية، دفعة واحدة، ومعها كل المؤثرات العصبية التي تؤثر على المخ بمراكزه الأربعة والعشرين، وهكذا يتوقف الخوف والاضطراب والحزن والقلق بكل صنوفه.

الثاني: انفتاح النفس على المجال الروحي أمامها بلا عائق، فتتسلل النفس وتمتد لتستجلي الحقيقة المستعلنة أمامها، المسيح الواقف في الوسط.

الثالث: تتقبَّل النفس، بقدر استعدادها، قُوَى الروح المنبعثة من المسيح من سلام ونور وسكينة.

هذا الاختبار الروحي نفسه يمكن أن نحصل عليه أثناء تأمُّلنا في الحقائق الانجيلية إذا بلغ الإيمان التصديق الكلي لكل ما يقول الرب.

لذلك، فالفرح المنسكب علينا من الله في هيئة استعلان، هو مصدر قوة لا يُسْتَهَان بها لدى الإنسان، وقد عبَّر عن ذلك العهد القديم بمنتهى الوضوح هكذا: «لأن فرح الرب هو قوتكم.» (نح٨: ١٠)

٢٠: ٢١و٢٢ «فقالَ لهُم يَسُوعُ أيضاً سَلامٌ لكُم، كما أرسَلَني الآبُ أُرسِلُكُم أنا. ولمَّا قالَ هذا، نَفَخَ وقالَ لهُم: اَقْبَلُوا الرُّوحَ القُدُسَ».

في هاتين الآيتين يُرسي المسيح قواعد التقديس والإرسالية للتلاميذ، والتي سبق أن طلبها من الآب في صلاة الوداع (يو١٧: ١٧و١٨).

+ في البداية يعيد المسيح **إعطاءهم السلام**، فالسلام الذي أعطاهم في البداية في حديث الوداع (يو١٤: ٢٧) هو لحساب أنفسهم الخائفة الجَزِعَة، ليصيروا مهيَّئين لتحمُّل الرسالة بأعبائها الخطيرة. أما عطية السلام الثانية هنا، فهي لحساب الإرسالية، هي ذخيرة وأمانة، لكي كما قبلوا السلام لحساب الآخرين، يُعْطونه للآخرين من عند الله والمسيح: «وحين تدخلون البيت سلِّموا عليه. فإن كان البيت مستحقاً، فليأتِ **سلامكم** عليه. ولكن إن لم يكُنْ مستحقاً، **فليرجعْ سلامُكم إليكم.**» (مت١٠: ١٢و١٣)

+ **ثم يعطيهم المسيح مهمة الإرسالية**، لا كأنها عمل منفصل عنه يقومون به بأنفسهم، بل كعملٍ ممتدٍّ منه، ومتصل به، ومكمِّل له. فإرسالية المسيح للرسل تقوم على أساس ونمط وقوة إرسالية الآب للمسيح (التي هي أساس الإنجيل كله). هذا سبق المسيح وأكَّده في صلاته الختامية: «كما أرسلتني إلى العالم، أرسلتُهم أنا إلى العالم.» (يو١٧: ١٨)

المسيح، في صلاته، كان قد أكمل الإطار الكلي للمهمة العظمى التي أرسله الآب لتكميلها، ولم يبقَ منها آنئذٍ إلاَّ صبغُها بالدم، لتصير كلها أعمال فداء. ولأنه كان قد أكمل العمل، حقَّ له أن يرسلهم أو، على وجه التحديد، أن يصوِّر لهم إرساليتهم على أساس ختم الرسالة المزمَع أن يضعه على الجسد: «وبالصبغة التي أصطبغ بها أنا تصطبغان» (مت٢٠: ٢٣)؛ أما الآن، وقد اصطبغت إرساليته بالدم وخُتِمت، فقد صارت جاهزة للاستعلان والكرازة. وكما لم يكن، وحده، يعمل

أعمال إرساليته: «لأني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني ... والذي أرسلني هو معي ولم يتركني الآب وحدي، لأني في كل حين أفعل ما يرضيه» (يو٨: ١٦و٢٩)، كذلك وهو في طريقه إلى السماء أعطاهم المعزّي ــ الآخر ــ ليكون «معهم ويمكث فيهم». فالإرسالية الرسولية كريمة ومجيدة للغاية، فهي نابعة من إرسالية الآب للمسيح، وتابعة لإرسالية المسيح، وممسوكة ومُقادة بالروح القدس.

لذلك، يكرر المسيح هنا هذه الحقيقة، كأساس: «كما أرسلني الآب أرسلكم أنا». وهنا ليست المساواة في الإرسالية هي المقصودة، بل الامتداد، والمؤازرة، والديمومة، والاحتفاظ بالمصدر الذي تقوم عليه ومنه الإرسالية. ق. يوحنا هو أول من يشير إلى ذلك، ولكن في اقتضاب شديد، إذ غيّر الفعل فقط، فجعل إرسالية الآب له على فعل ἀπέσταλκεν ، وإرسالية المسيح للتلاميذ πέμπω.

والفرق بين الفعلين دقيق للغاية، لأن ورودهما كثيراً ما كان متبادلاً بلا فرق، ولكن في إنجيل ق. يوحنا يلاحظ العلماء أن فعل ἀποστέλλω جاء على لسان المسيح فيما يخص إرساليته من الآب باعتبارها إرسالية فائقة، أي ذات سلطان على اليهود والتلاميذ، إذ أن وراء إرساليته، الله الآب نفسه، حيث الإرسالية يتبعها تكليفٌ عالٍ.

أما فعل πέμπω، فيَرِدُ في إنجيل يوحنا بمعنى الإرسالية وحسب، دون تكليف محدَّد[7]. لذلك، فهذه الآية تحمل التقليد اللاهوتي للإرسالية الذي فهمته الكنيسة وَوَعَتْهُ وقدّسَتْه للغاية. إن الرسولية مقصورة على الاثني عشر (متياس حلّ محل يهوذا)، كامتياز رسمي دخل فيه بولس الرسول باختيار فوق العادة: «فقال له الرب اذهبْ، لأن هذا لي **إناء مختار ليحمل اسمي أمام أُمم وملوك وبني إسرائيل** ... قد أرسلني الرب يسوع الذي ظهر لك ... لكي تُبصر وتمتلىء من الروح القدس ...» (أع٩: ١٥و١٧)

وإن المُرسَلَ يحمل كرامة الذي أرسله: «الذي يقبل من أرسِلُه يقبلني، والذي يقبلني يقبل الذي أرسلني.» (يو١٣: ٢٠)

و يلاحظ هنا أنه بعد أن أعطاهم التكليف بالإرسالية، **قدّسهم بنفخة الروح القدس للعمل**، باعتبار أن الإرسالية عملٌ مقدس، أي خاصٌ بإعلان الله: «**لأجلهم أُقدّس أنا ذاتي، ليكونوا هم**

[7] Kittel, G., TDNT (Theological Dictionary of the New Testament), Vol. 1, p. 404.

أيضاً مُقدَّسين في الحق» (يو١٧ : ١٩). وهنا يعطيهم المسيح الروح القدس، وهو روح التقديس والشهادة معاً، لأنه هو الناطقُ فيهم والذي يعرِّفهم بالحق!

ومنذ هذه اللحظة التي أرسى فيها المسيح قاعدة الإرسالية على الرسل، مقدِّساً إياهم بالروح القدس، والكنيسة تحمل هذه الإرسالية بجدارة بالتتابع الرسولي، من الرسل إلى الآباء الرسوليين، إلى الآباء القديسين خلفاء الرسل، إلى الآباء الأساقفة ــ رؤساء الكراسي القانونية ــ في كل المسكونة المعتبَرين خلفاءَ الرسل. وبذلك صار إيمان الكنيسة مدموغاً بالرسولية، فهو يُسمَّى منذ مجمع نيقية بـ«**الإيمان الرسولي**». ووُضِعَ في قانون الإيمان هكذا: «نؤمن بكنيسة واحدة مقدسة جامعة **رسولية**».

ومن جهة الإيمان الحيِّ الذي نعيشه اليوم كأفراد وجماعة، فهو يقوم على ما تم للرسل في عشية ذلك اليوم، مُضافاً إليه «**شهادة الرسل**» بعد ذلك، التي تملأ الأسفار المقدسة. فنحن نستمتع بإيمان مسيحي، متأسِّس على نُطْقٍ إلهيٍّ، واثني عشر رسولاً، شهودِ عيانٍ، وإلهامِ الروح القدس، بالإضافة إلى ما تسجَّل في الأسفار المقدسة من الوحي المقدس، سواء بالنبوَّة في العهد القديم، أو بالاستعلان المشاهد في العهد الجديد.

ولكن الإمتياز الأعظم الذي صار لهذا «**الإيمان الرسولي**»، أنه كان وظل ولا يزال يستمد قوته وسلطانه وكرامته من المسيح بالدرجة الأُولى: «الحق الحق أقول لكم الذي يَقبل مَنْ أُرسله، يقبلني. والذي يقبلني، يقبلُ الذي أرسلني.» (يو١٣ : ٢٠)

ويلاحظ أنه كما أن الإرسالية، التي عُقد لواؤها على المسيح أولاً من عند الآب، تآزرت وتقدَّست في مضمونها الظاهر للعالم بالروح القدس، وظهر هذا واضحاً للغاية سواء في تقديس العذراء بالروح القدس لقبول الحمل الإلهي: «مولود من الروح القدس ومن العذراء القديسة مريم» (قانون الإيمان)، أو بحلول الروح القدس على المسيح وقت العماد بصورة ظاهرة لاستعلان المسحة الإلهية ودفع الإرسالية بالروح القدس؛ كذلك الإرسالية التكميلية التي عَقَدَ لواءَها المسيحُ على الكنيسة الممثَّلة بالرسل القديسين، تآزرت وتقدست في مضمونها الداخلي والخارجي بالروح القدس.

ونلاحظ من كلا الأناجيل وسفر الأعمال أن الروح القدس أُعطي أولاً للتلاميذ، ثم حلَّ عليهم ثانياً في يوم الخمسين:

أولاً: بعد القيامة مباشرة بنفخة الروح القدس من فم المسيح، تماماً كما نفخ الله الخالق في جُبْلة الإنسان لما خلقه فصار آدم نفساً حيّة. ففي نفخة القيامة هذه صار الإنسان خليقة جديدة حيّة تتنفس بالروح القدس لحياة أبدية.

«نفخ»: ἐμφυσάω

وهذه هي المرة الأولى والوحيدة التي فيها ترد هذه الكلمة في العهد الجديد. وهي تفيد «ينفخ في» بالمعنى الشائع في العهد القديم أنه «نفخ الحياة»، وهي خاصة بالله وحده: «وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض **ونفخ** ἐνεφύσησεν في أنفه نسمة **حياة** فصار آدم **نفساً حية**.» (تك ٢: ٧)

«هكذا قال السيد الرب هلمّ يا روح من الرياح الأربع وهُبَّ على هؤلاء القتلى ليحيوا.» (حز٣٧: ٩)

هكذا أعطى المسيح القائم من الأموات للتلاميذ شركة في روح حياة القيامة التي فيه، وهذه الروح ليست فقط روح قيامة بل وأيضاً روح غسيل وتطهير وإحراق، لأنه لم ينفخ فيهم روحاً وحسب، بل الروح **القدس**. و«القُدُس» هنا يفيد التقديس والتطهير والغسل والإحراق للتأهيل للحياة الجديدة: «لكن اغتسلتم بل **تقدستم** بل تبررتم باسم الرب يسوع **وبروح إلهنا**» (١ كو٦: ١١). وهذا هو ما يتضمنه قول المسيح للتلاميذ: «أما أنتم فستتعمَّدون بالروح القدس» (أع١: ٥). بل وهذا هو تحقيق قول المسيح للتلاميذ: «إني أنا حيٌّ فأنتم ستحيون» (يو١٤: ١٩)، وهي حياة قائمة من موت لا يسود عليها الموت ثانياً قط.

وقد أخذت الكنيسة الشرقية عامة والقبطية خاصة عن إنجيل يوحنا عملية نَفْخ الروح القدس في طقس العماد، فصار «**النفخ**» عملية طقسية يتكمل بها سر الخليقة الجديدة، بالماء والروح، كوعد المسيح. وقد امتد عمل «النفخ» كإعطاء روح من الله في بعض الأعمال الطقسية الأخرى عند بعض الكنائس، وفي الكنيسة القبطية قديماً، كما في إعطاء الحلّ من الخطايا في سرّ التوبة والاعتراف. ولكن هذا التقليد ضَعُف في أيامنا وبَطُل. كذلك كان هذا يجري في طقس رسامة «أبونا» الرأس الحبشي على الكنيسة الحبشية، وذلك بأن ينفخ البطريرك القبطي أسقف الإسكندرية في قِرْبة حتى يملأها من نَفَسِه ويرسلها بيد مخصوص لتُفتح في وجه المختار فتتم رسامته بالتتابع الرسولي بتقديس الروح (٨).

8 **Brown,** *op. cit.,* Vol. II, p. 1023.

وكما خلق الله الإنسان في البداية على صورته، هكذا خلقه المسيح بعد القيامة بالروح القدس على صورة خالقه في البر وقداسة الحق (أف٤ : ٢٤)، وواضحٌ غاية الوضوح أنها «**إعادة خلقة**» على مستوى الروح القدس لإعطاء الحياة الأبدية.

+ «لأننا نحن عمله مخلوقين في المسيح يسوع.» (أف٢ : ١٠)
+ «إذ خلعتم الإنسان العتيق مع أعماله **ولبستم الجديد** الذي يتجدد للمعرفة **حسب صورة خالقه**.» (كو٣: ٩و١٠)
+ «إن كان أحد **في المسيح فهو خليقة جديدة**...» (٢كو٥ : ١٧)
+ «... تلبسوا **الإنسان الجديد، المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق**.» (أف٤ : ٢٤)
+ «يا أولادي الذين أتمخض بكم أيضاً إلى أن يتصوَّر المسيح فيكم.» (غل٤ : ١٩)

وهكذا في هذه الليلة الخالدة في تاريخ الكنيسة السمائي، إذ بعدما أكمل المسيح الإنجيل، خلق المسيح من الرسل، بنفخة فمه، باكورة خلائقه بالروح القدس لميراث جديد في السماء لحياة أبدية: «شاء **فولَدنا** بكلمة الحق لكي نكون **باكورة من خلائقه**.» (يع١ : ١٨)

ثانياً: حلول الروح القدس على التلاميذ المجتمعين يوم الخمسين، فواضح أنه كان لحظة الانطلاق لبدء الخدمة والكرازة بقوة الروح القدس: «لكنكم **ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم وتكونون لي شهوداً**...» (أع١ : ٨). لذلك نسمع أنه بمجرد أن حلَّ الروح القدس «**ابتدأوا** يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا» (أع٢ : ٤). لذلك فحلول الروح القدس يوم الخمسين على باكورة الخليقة الجديدة المقدسة، يُحسَب أنه كان قوة الدفع للإرسالية والكرازة والشهادة بالروح القدس، التي صوَّرها الله جهاراً بالنار المتحوِّلة إلى **ألسنة ناطقة** بكل لغات الأمم!! والتي سبق أن ألمح إليها المسيح بقوله: «جئتُ لأُلقي ناراً على الأرض...» (لو١٢ : ٤٩). وهذه هي النار التي تُضْرِم روح الحب والبذل والتضحية والشجاعة والشهادة في قلوب الأتقياء حتى اليوم وإلى الأبد.

وللقديس كيرلس الكبير شرح للتفريق بين عمل عطية الروح القدس للتلاميذ بالنفخ من فم المسيح وبين حلول الروح القدس يوم الخمسين عليهم وهم مجتمعون، ورأيه هنا يُعتبر الأوفق والأكمل:

[إن مخلصنا أعطى الروح بواسطة العلامة الظاهرة وهي «**نفخته**» للتلاميذ القديسين، **باعتبارهم باكورة للخليقة المجددة**. لأن موسى يكتب فيما يخص خلقتنا في القديم أن الله

«**نفخ**» في أنف الإنسان نفخة الحياة. فكما تشكل في البدء وجاء إلى الوجود، هكذا بالمثل يتجدد. وكما أنه تشكل آنذاك في صورة خالقه هكذا الآن بالمثل، **فبالشركة في الروح يتغيَّر على شكل خالقه. لأن الروح يطبع صورة المخلِّص على قلوب الذين يقبلونه،** وهذا بكل تأكيد لا يسمح لأي تساؤل. لأن بولس يستحث بوضوح الذين سقطوا في الضعف تحت إلزام العودة للتمسك بالناموس بهذه الكلمات: «**يا أولادي الذين أتمخَّض بكم أيضاً إلى أن يتصوَّر المسيح فيكم**» (غل ٤: ١٩). لأنه يقول إن المسيح لا يتصور فيهم إلاَّ بالاشتراك في الروح القدس والحياة بمقتضى ناموس الإنجيل... **لأنه يلزم لنا نحن أيضاً أن ندرك هذه الحقيقة، أي أنه أحدر لنا الروح ليمنحه لنا أيضاً.**

ولكن في أيام عيد الخمسين المقدس، عندما أذاع الله نعمته بوضوح أكثر **معلناً عن الروح القدس الذي في قلوبهم**، ظهرت لهم ألسنة من نار، **لا كأنها تعني بداية لعطية الروح القدس في قلوبهم، بل بالحري لتشير إلى بدء الزمن الذي فيه وُهِبَت لهم عطية اللغات** (الألسن). ومكتوب هذا حقاً إنهم «**بدأوا يتكلمون** بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا» (أع ٢: ٤). ولاحظ أنهم "**بدأوا يتكلمون**" **وليس "بدأوا يقبلون التقديس"... وهذا كان من عمل الروح الذي فيهم.**](٩)

وأيضاً للقديس يوحنا ذهبي الفم رأيٌ في الفرق بين عطية الروح القدس بعد القيامة وحلول الباراكليت يوم الخمسين، ولكنه رأي غير مأخوذ به:

[إلا أنه لا يكون الإنسان مخطئاً إذا أكَّد أنهم أيضاً قبلوا **قوة روحية ما ونعمة**، ليس لكي يُقيموا موتى أو يصنعوا معجزات، ولكن لكي يغفروا الخطايا... ولكنهم من جهة الحالة الأخرى، أي بعد الأربعين يوماً فإنهم تقبَّلوا قوة صنع المعجزات... وصاروا شهوداً بواسطة صنع المعجزات.](١٠)

وهذا الرأي الذي يقول به القديس ذهبي الفم يقوم على أساس ورود كلمة «الروح القدس» (في يو ٢٠: ٢٢) بدون أداة التعريف «ألْ»، فاعتُبر ذلك نوعاً من القوة وليس هو الروح.

ولكن هذا القياس مرفوض من علماء اللغة المقتدرين الذين قالوا بأن ورود كلمة «الروح» بدون أداة التعريف هو مثل وروده بأداة التعريف، لا فرق، وذلك بناءً على استقراءات متعددة من

[9] St. Cyril, *op. cit.*, pp. 675-677.

[10] St. John Chrysostom, *Hom.* LXXXVI, p. 325.

مخطوطات مختلفة[11]. وأيضاً يُذكر الروح بدون التعريف في مواضع لا يمكن إلاّ أن تكون للتعبير عن الروح القدس نفسه و بشخصه، مثل ما جاء في سفر الأعمال ٢ : ٤ . لذلك لا نستغرب بأن لاهوتيي الأرثوذكس الروس[12] يرفضون رأي ذهبي الفم في هذا الموضوع.

وكثير من الشراح المقتدرين يجدون في عطية الروح القدس بعد القيامة للتلاميذ القمة النهائية للعلاقات الشخصية التي تأسست بين المسيح والتلاميذ[13].

ولقد كان موضوع عطية الروح القدس بعد القيامة للتلاميذ موضوع جدل لاهوتي عنيف عند الكنائس الخلقيدونية. فالمجمع المسكوني الخامس (٥٥٣م) ــ وهو غير معترف به عند الأرثوذكس غير الخلقيدونيين ــ شجب عقيدة ثيئوذور الموبسويستي لقوله إن المسيح بعد القيامة لم يعطِ الروح القدس في الحقيقة ولكن الأمر كان مسألة شكلية كأنه مجرد وعد[14]. وهكذا نستطيع أن نقول أن شرح القديس كيرلس الكبير لهذا الموضوع هو الأصح والأكمل.

و يلاحظ القارىء أن المسيح لم ينفخ الروح القدس على التلاميذ واحداً واحداً، لأن الروح القدس لا يُعطى بكيل أو بالتقسيم، بل أُعطي للتلاميذ عطاءً كليًّا وقبلوه ككل، كجسد واحد ككنيسة مجتمعة متحدة، فحتى القديس توما رسول الشكّ ــ الذي كان غائباً في هذه الليلة ــ وإن لم يكن أهلاً لتقبُّله في البداية، الأمر الذي تسبب في تغيبه قصداً، لكن عندما آمن ــ لما رأى ــ قَبِلَهُ في الحال قبول التلاميذ قدراً بقدر. وليس توما وحده بل الكنيسة أفراداً وجماعات في كل أنحاء الأرض قبلت الروح القدس لما قبله التلاميذ، لأنه لم يُعطَ الروح لأسماء وأشكال وأعداد ولكن للإنسان ــ كل مَنْ يؤمن ــ كخليقة جديدة. فالكنيسة الكارزة في العالم وُلدت وتقدست في المسيح والروح، ثم أُرسلت يوم الخمسين وكان التلاميذ باكورة مقدسة لهذه الخليقة المولودة بالكلمة والروح.

ولكي يثق القارىء في عمومية وشمولية فعل الروح القدس في الكنيسة خُلْواً من زمان ومكان، لنا مثال في قصة حلول الروح على السبعين شيخاً في جماعة إسرائيل، عندما أخذ الله من الروح الذي على موسى وأعطى هؤلاء الشيوخ فتنبأوا، ولكن كان اثنان منهم غائبين بعيداً في المحلة ولم

---

11 Brown, *op. cit.*, p. 1023.

12 Cassien, Serge Besobrasoff, *La Pentecôte Johannique*, pp. 156-59. Cited by Raymond E. Brown, *op. cit.*, p. 1023.

13 C.H. Dodd, *The Interpretation of the Fourth Gospel*, p. 227.

14 Brown, *op. cit.*, p. 1038.

يحضرا هذا المشهد الرهيب. ولكن الروح باغتهما وحلّ عليهما بالمثل وهم بعيداً داخل المحلة. فلما غار يشوع تلميذ موسى، إذ كيف يتنبأ هذان الشيخان وهما لم يحضرا طقس الرسامة والتنصيب؟ وفي غيرته احتج لموسى: «يا سيدي موسى **ارْدَعْهما. فقال له موسى: هل تغار أنت لي؟ يا ليت كل شعب الرب كانوا أنبياء إذ جعل الرب روحه عليهم!!**» (عد١١: ٢٤ــ٢٩). وقد تم ما نطق به موسى كليم الله وصار بالفعل يوم الخمسين وما بعده سكيباً متصلاً للروح القدس على كل مَنْ آمن واعتمد للرب.

وعلينا أن نلاحظ الصلة بين الإرسالية وعطية الروح القدس للتلاميذ، أنها صلة متبادلة وجذرية. فلا إرسالية بدون عطية الروح القدس، ولا عطية للروح القدس دون كرازة أو شهادة.

٢٠: ٢٣ **«مَنْ غَفَرْتُم خطاياهُ تُغفَرْ لهُ، ومَنْ أمْسَكتُم خطاياهُ أُمسِكَتْ».**

«وأجعل مفتاح بيت داود على كتفه، فيفتح وليس مَنْ يُغلق، و يُغلق وليس من يفتح.» (إش٢٢: ٢٢)

هذه الآية ملتحمة بالآية السابقة، أي بعطية الروح القدس، في نفخة الحياة الجديدة في المسيح المُقَامة من الموت ثم بالإرسالية الممتدة من الآب أيضاً. وهكذا يكون غفران الخطايا وحجزها عن الغفران داخلاً في عمل الروح القدس المباشر، وفي نطاق خدمة الإرسالية، أي خدمة الخلاص.

هذه الآية، من واقع منطوقها، سلاحٌ خطير ذو حدَّيْن: حدٌّ يقطع الخطية ويفرزها عن الداخل في الحياة الجديدة، وحدٌّ يقطع الخاطىء نفسه عن جسد الكنيسة الحي حتى لا يفسدها.

وقد ذهب المفسِّرون لهذه الآية كل مذهب، ولكن لا يعنينا في شرحها إلاَّ ما جاء في منهج الفكر الأُرثوذكسي الكنسي.

رأي القديس كيرلس الكبير:

[بأية طريقة، وبأي معنى وهب المخلص تلاميذه الكرامة التي تليق فقط بطبيعة الله وحده؟ لقد فكَّر (الرب) أنه من الموافق أن الذين وُهبوا مرة روحه، وهو الرب الإله، ينبغي أن يحوزوا قوة مغفرة أو مَسْك الخطايا، فكيفما صنعوا يكون الروح القدس الساكن فيهم هو الذي يغفر أو يمسك هذه الخطايا حسب مشيئته، على أن العمل الذي يعمل يكون بواسطة الإنسان.

وحسب ما أرى، يكون أن الذين نالوا روح الله، يغفرون أو يمسكون الخطايا على مستويين:

الأول: فهم يدعون إلى المعمودية الذين هم أهلٌ لهذا البرّ، من واقع نقاوة حياتهم واختبار مدى تمسُّكهم بالإيمان، كذلك فإنهم يؤخِّرون و يستثنون الذين لم يبلغوا بعد إلى استحقاق هذه النعمة الإلهية.

الثاني: وفي معنى آخر، هم يغفرون ويمسكون الخطايا بأن يزجروا و يعزلوا أبناء الكنيسة (أي المعمَّدين)، كما يمنحون العَفْو للذين تابوا. تماماً كما قطع بولس ذلك الذي اقترف الزنا في كورنثوس: «لهلاك الجسد حتى تخلُصَ النفس» (١ كو٥: ٥)، ثم عاد وقبله في الشركة «حتى لا يُبتلَع من فرط الحزن.» (٢ كو٢: ٧)][15]

ولقد كان لهذه الآية الخطيرة تاريخ حافل باختلاف الآراء خاصة في الكنيسة الكاثوليكية، ولا يزال هذا الخلاف قائماً بين المتحررين في الكنيسة الرومانية وبين التقليديين، إلى هذا اليوم. ولكن الرأي الذي يكاد أن يكون سائداً هو الرأي الذي قال به القديس كيرلس الكبير بأن الحِلّ والمَسْك للخطايا يخص سرَّيْ العماد والتوبة، أي ما قبل العماد وما بعد التوبة[16].

المعروف أن آباء الكنيسة على مدى الثلاثة القرون الأُولى، ركَّزوا على مغفرة الخطايا ومَسْكِها فيما يخص المعمودية فقط. ونرى هذا واضحاً في قانون الإيمان: «ونعترف **بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا**». وإنجيل ق. يوحنا يشير إلى هذه الحقيقة إشارة قوية في قصة تفتيح عينَيْ الأعمى **بالاغتسال**، الذي هو رمز **العماد**، باعتبار أنه عاد بصيراً، **لأن خطاياه غُفِرَتْ**، في مقابل **عدم إيمان** الفريسيين الذين وضعهم الرب في مستوى **العميان** ــ أي غير المعمَّدين ــ على أساس **عدم غفران خطاياهم**: «فخطيتكم باقية» (يو٩: ٤١). وفي هذه القرون الثلاثة الأُولى، كان الاتجاه عنيفاً ضد مغفرة الخطايا بعد المعمودية. ولكن يأتي إنجيل القديس لوقا، ليشير إلى الغفران والمسك للخطايا، في معنى التوبة، بصورة واضحة في قول المسيح نفسه: «وقال لهم: هكذا هو مكتوب وهكذا كان ينبغي أن المسيح يتألم و يقوم من الأموات في اليوم الثالث، وأن يُكرز باسمه **بالتوبة ومغفرة الخطايا** لجميع الأمم مبتدأً من أورشليم.» (لو٢٤: ٤٦و٤٧)

وإنجيل يوحنا يعطي أيضاً الانطباع بأن مغفرة الخطايا موصولة بالكرازة، لأن كلام المسيح

---

[15] Cyril the Great, *op. cit.*, p. 680.

[16] Brown, *op. cit.*, p. 1039.

يعطي فكراً واحداً متصلاً بين الإرسالية، ونفخة الروح القدس، ومغفرة الخطايا. ولكن سواء في إنجيل القديس لوقا، أو ق. يوحنا فمغفرة الخطايا متركِّزة نوعاً ما وبصفة مبدئية في الدعوة للمعمودية، التي هي غاية الكرازة، وهي الخاصة **«بالأمم»**. ولكن واضح من رسالة القديس يوحنا الأُولى ربط مغفرة الخطايا بالاعتراف أي التوبة (راجع ١يو١: ٩).

والملاحَظ من روح إنجيل يوحنا أن موضوع مغفرة الخطايا وعدم مغفرة الخطايا يأتي بصورة رئيسية كمنهج اختطَّه المسيحُ نفسه؛ بمجيئه إلى العالم، كنور وقداسة وبرّ: «فقال يسوع: لدينونةٍ أتيتُ أنا إلى هذا العالم، حتى يبصِرَ الذين لا يُبصرون ــ (المعمودية لمغفرة الخطايا) ــ ويَعْمى الذين يُبْصرون (حرمان المدَّعين المعرفة والمتجاهلين لخطاياهم من مغفرة الخطايا)» (يو٩: ٣٩). وعلى هذا المنوال تماماً، يكون التلاميذ المُرْسَلون من قِبَلِ الرب ليقوموا بنفس رسالة المسيح: «كما أرسلني الآب أرسلكم أنا.» (يو٢٠: ٢١)

ولكن لا يزال لاهوت القديس يوحنا يُسيِّج حول موضوع مغفرة الخطايا، حتى لا يتسرَّب إلى الذهن أن مغفرة الخطايا من عدمه هي تحت سلطان رسول أو تلميذ أو أي بشر، خُلْواً من تدخُّل ومتابعة إلهية وتصديق، وذلك بما قدَّمه في رسالته الأُولى: «إن اعترفنا بخطايانا، فهو أمينٌ وعادل، حتى **يغفر لنا خطايانا ويُطهِّرنا من كل إثم**» (١يو١: ٩). المسيح هنا هو قابِلُ الاعتراف بالدرجة الأُولى بل هو المعرِّف الإلهي الحقيقي في سر الاعتراف، ويزيد أنه يطهِّر الضمير والنفس. أما الرسول أو التلميذ أو الأسقف أو الكاهن فما هو إلاَّ خادمُ السر، يأخذ الاعتراف، ليس لنفسه، بل ليقدِّمه إلى المسيح:

[ثم يصعد الكاهن إلى الهيكل ويعطي البخور فوق المذبح **عن اعتراف الشعب** جميعه في عشية وباكر والبولس، وهو يقول: «يا الله الذي قَبِلَ إليه اعتراف اللص على الصليب المكرم، **اقبل إليك اعتراف شعبك واغفر لهم جميع خطاياهم من أجل اسمك القدوس الذي دُعي علينا**»] (رفع البخور سر اعتراف الشعب ــ الخولاجي المقدس).

ويعود ق. يوحنا ليوضح في رسالته الأُولى وظيفة المسيح الدائمة أمام الله، متشفِّعاً عن خطايانا كَدَيْنٍ علينا، دفع ثمنه كاملاً: «وإن أخطأ أحدٌ، فلنا **شفيع عند الآب** يسوع المسيح البار، وهو **كفَّارة لخطايانا**، ليس لخطايانا فقط (المعمَّدين) بل **لخطايا كل العالم أيضاً**» (١يو٢: ١و٢)، كل المدعوِّين للإيمان به.

ويتحتم في هذا المضمار الخاص بإعطاء الكنيسة سلطان مغفرة الخطايا، أن يكون إيماننا

بالغفران الكامل لكل خطايانا التي نعترف بها، قائماً ومتأسساً في الفكر والقلب والشعور على سفك دم المسيح على الصليب(١٧)، **ثمناً كاملاً ليس للغفران فقط بل ولتطهير الفكر والقلب والضمير.** و يضبط هذا الإيمان آيتان:

الأولى في العهد القديم: «بدون سفك دم لا تحصل مغفرة» (عب٩: ٢٢؛ راجع لا١٧: ١١)، حيث كان دمُ تيوسٍ وعجولٍ مذبوحة تكفِّر عن خطية المعترف، ولكن إلى **طهارة الجسد فقط لأنه دم حيواني.**

أما في العهد الجديد، فدم يسوع المسيح «كما من حمل بلا عيب» (١بط١: ١٩)، **قيل عنه:** «إنه حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو١: ٢٩). وأيضاً: «لأنه إن كان دم ثيران وتيوس ورماد عِجْلَةٍ مرشوش على المنجَّسين، يقدِّس إلى طهارة الجسد، **فكم بالحري يكون دم المسيح،** الذي **بروح أزلي** قدَّم نفسه لله بلا عيب، **يطهِّر ضمائركم من أعمال ميِّتة لتخدموا الله الحي.»** (عب٩: ١٣و١٤)

وهكذا ترى، يا عزيزي القارىء، **أن الإيمان الإنجيلي الكامل بمغفرة الخطايا ينبغي أن يتغلغل إلى أعماق «الضمير» ليُطهِّره تطهيراً كاملاً بل وإلى التقديس. وهكذا يكون سرُّ الاعتراف والتوبة** لمغفرة الخطايا، له التأثير النفساني الفعَّال القادر أن يصحح ويشفي، ليُعيد للإنسان نفساً سويَّةً، بعد أن تكون قد أفْسَدَتْها الخطية وأمرضَتها.

وأما قوة فعالية دم المسيح، فتوضِّح الآية أنه قائم على أساس **«الروح الأزلي»، أي روح الله** القدوس، فدم المسيح الذي سُفك على الصليب، **دمٌ حيٌّ** وحياته أزلية، أي دائمة فيه، منذ أن سُفِكَ وإلى اليوم وإلى الأبد، فقُدرته الذبائحية على الغسل والتطهير والتقديس **قائمة وقادرة قدرة**

---

(١٧) صلاة التحليل التي يقرأها الكاهن على المعترف في سر الاعتراف (وهي المعروفة باسم «تحليل الابن» وتقال أيضاً في نهاية رفع البخور)، توضِّح كيف أن سلطان مغفرة الخطايا الذي سلمه المسيح للرسل في هذا المساء بنفخة الروح القدس، هو مؤسَّس أصلاً على عمل المسيح الكفَّاري على الصليب:

[أيها السيد الرب يسوع المسيح، الابن الوحيد، وكلمة الله الآب،
الذي قطع كل رباطات خطايانا من قِبَل آلامه المخلِّصة المحيية،
الذي نفخ في وجه تلاميذه القديسين ورسله الأطهار، وقال لهم:
اقبلوا الروح القدس، من غفرتم خطاياهم، غُفرت لهم، ومن أمسكتموها عليهم أُمسكت.
أنت الآن أيضاً، يا سيدنا، من قِبَلِ رسلك الأطهار أنعمتَ للذين يعملون في الكهنوت كل زمان في كنيستك المقدسة، **أن يغفروا الخطايا على الأرض...]**

(الخولاجي المقدس).

لانهائية إزاء خطية العالم كله.

على أن كلًّا من الكنيسة الأرثوذكسية والكاثوليكية تحصر السلطة الرسولية لمغفرة الخطايا وإمساكها في الرتبة الكهنوتية وفي داخل سر التوبة بأصول وواجبات وشروط، وقد انحصرت تقريباً في معاملة الشعب بعد المعمودية. وقد عالج هذا الأمر مجمع ترنت Trent (١٥٤٥ — ١٥٦٣م) الخاص بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وهو المجمع الثامن عشر، وكان مخصصاً ضد البروتستانت الإصلاحيين، وأدان كلّ من يقول بأن سلطان مغفرة الخطايا هو لكافة المؤمنين في الكنيسة. كما زاد بأن هذا السلطان **لا يتبع** رسالة بشارة الإنجيل بل هو سر قائم بذاته(؟)، ولو أن كثيراً من اللاهوتيين الكاثوليك المحدَثين لا يرون أن هذا القرار يتناسب مع قصد الآية الواردة في إنجيل يوحنا، فالآية واضحة أنها تخص قوة الكرازة ذاتها من جهة الله نفسه لمغفرة الخطايا في المسيح أو مَسْكها(١٨).

والخطأ الحادث والمستمر هو التمادي في استخدام هذا السلطان بمفهوم يخرج عن تحديدات الروح في الإنجيل حسب هوى الشارح.

ولو أن إنجيل يوحنا لم يتعرض للخطايا وغفرانها بالنسبة للمعاملات الشخصية مع الآخرين، إلاّ أننا نفهم من إنجيل القديس متى أنه علينا أن نفرق بين خطايا تُقترف وتمس الإيمان أو العقيدة أو العبادة أو الله أو الكنيسة أو جسد الإنسان ذاته (كالزنا)، باعتبار أن الجسد تَقَدَّس بالمعمودية والروح القدس في الأسرار وخاصة الاشتراك في جسد ودم المسيح، فصار جسد الإنسان هيكلاً لله وعضواً في جسد المسيح كالغصن في الكرمة؛ وبين خطايا تُقترف في المعاملات الشخصية مع الناس والإخوة لتمسّهم بالسوء.

فالخطايا التي تُقترف ضد الله وكل ما يخصُّه، يدخل غفرانها بالدرجة الأُولى في سلطان الكنيسة. أما الخطايا في التعامل الشخصي مع الناس والتي تمسُّهم بالسوء، فيتحتم طلب الغفران أولاً ممن أسأنا إليه مع الاستعداد للتغريم: «وإن أخطأ إليك أخوك فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما. إن سمع منك فقد ربحت أخاك. وإن لم يسمع فخُذْ معك أيضاً واحداً أو اثنين لكي تقوم كل كلمة على فم شاهدين أو ثلاثة. وإن لم يسمع منهم فقُلْ للكنيسة. وإن لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كالوثني والعشار» (مت١٨: ١٥—١٧)؛ «حينئذ تقدم إليه بطرس وقال:

18 Brown, *op. cit.*, p. 1041.

يا رب كم مرّة يخطىء إليّ أخي وأنا أغفر له، هل إلى سبع مرات؟ قال له يسوع: لا أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة سبع مرات.» (مت١٨: ٢١و٢٢)

وواضح جداً من هذا العرض أن على الفرد المؤمن واجب الغفران أو قانون الغفران. **إذ يتحتم** أن يكون جاهزاً وبلا استثناء، حتى ولو أخطأ الإنسان نحوه سبعين مرة سبع مرات؛ **بمعنى أنه ليس في يد المؤمن سلطان حرٌّ لمغفرة الخطايا للآخرين بل هو واجب وقانون حتمي مفروض عليه.** وقول المسيح أنَّ عليك، كمؤمن، أن تغفر لمن أخطأ إليك سبعين مرة سبع مرات، يحمل ضمناً أنَّ **ليس لدى المؤمن أي حقٍّ لعدم الغفران.** «فمسْكُ الخطايا» ليس من سلطان المؤمن قط، بل رَفَعه المسيح من يد المؤمن ووضعه في نصابه القانوني: «وإن لم يسمع **فخُذْ** معك أيضاً واحداً أو اثنين ...، وإن لم يسمع منهم **فقُلْ للكنيسة**». هنا يأتي دور الكنيسة القانوني في مسك الخطية على الخاطىء المكابر والمعاند، وفرزه من الكنيسة: «وإنْ لم يسمعْ من الكنيسة، فليكن عندك كالوثني والعشار»، بمعنى أن الكنيسة تقطعه من عضويتها، إذ لم يَعُدْ أخاً في الإيمان بل وثنياً يعبد البغضة والعداوة و يبخِّر للذات.

الاعتراف "بالزلاّت": ἁμαρτίας

يعطينا القديس يعقوب صورة محدودة لتصريح الكنيسة وتحت سلطانها بمكاشفة المؤمنين بعضهم بعضاً بالخطايا، بمعنى الاعتذار عن كل إساءة في وقتها حتى لا تثقل ضمائرهم من نحو بعضهم البعض: «اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات، وصلوا بعضكم لأجل بعض لكي تُشْفَوْا.» (يع٥: ١٦)

واضح هنا أن نوع الخطايا ليس موجَّهاً للإيمان أو الله أو الكنيسة، بل هي أخطاء شخصية. وقد ربط القديس يعقوب هنا بين الخطايا والأمراض، وبين الاعتراف الفردي والصلاة. وهذا التصريح من رئيس كنيسة أورشليم أمّ كنائس العالم آنئذ يأتي بعد أن أوضح دور قسوس الكنيسة الأساسي في دهن مسحة الزيت والصلاة ومغفرة الخطايا المتسببة في المرض.

لذلك لا نجد هنا في القول: «اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات»، أي انتقال أو تنازل لسلطان الكنيسة الرسولي لمغفرة الخطايا أو إمساكها إلى عامة المؤمنين، بل هي على مستوى الأمر أو التوصية، كعمل مبدئي في غاية الأهمية والضرورة، تستكمله الكنيسة بقوتها وسلطانها الرسولي الفائق المستجاب لدى الله في السماء.

القيمة السرّية والثمينة لسلطان مغفرة الخطايا في الكنيسة:

يقدم لنا القديس يعقوب الصلة السرية والخطيرة بين الخطية والمرض، وبالتالي بين غفران الخطية وقوة الشفاء عند الكنيسة المفتقِدة لأولادها: «أمريضٌ أحدٌ بينكم، فلْيدْعُ شيوخ الكنيسة فيُصلُّوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب. وصلاة الإيمان تشفي المريض، والرب يقيمه، وإن كان قد فَعَل خطية تُغفرُ له.» (يع٥: ١٤و١٥)

هنا يسجل لنا القديس يعقوب نوعاً هاماً من قيمة سلطان مغفرة الخطايا الذي استودعه الرب في قلب الكنيسة، فهو هنا ليس منطوقاً بالحِلّ أو الغفران بل يُقدَّم على مستوى صلاة يقودُها قسوس الكنيسة المجتمعون مع أهل المريض من أجل الشفاء باستخدام زيت المسحة المفروض أنه يحمل قوة وحضور الروح القدس. هنا يكشف لنا القديس يعقوب أن غفران الخطية الذي في سلطان الكنيسة والعامل بالروح القدس في سر المسحة هو أساس الشفاء، باعتبار أن هذا المريض عِلّته الخطية. بهذا يكون سلطان مغفرة الخطايا في الكنيسة بمثابة قوة وذخيرة لشفاء أجساد ونفوس وأرواح المؤمنين.

التوبة μετάνοια والغفران:

«ولكن الآن يقول الرب ارجعوا إليَّ بكل قلوبكم وبالصوم والبكاء والنوح، ومزِّقوا قلوبكم لا ثيابكم، وارجعوا إلى الرب إلهكم لأنه رؤوف رحيم، بطيء الغضب، وكثير الرأفة.» (يؤ٢: ١٢و١٣)

«قد محوتُ كغَيْم ذنوبك، وكسحابة خطاياك. ارجع إليَّ لأني فديتُكَ.» (إش٤٤: ٢٢)

أوضح تعبير عن علاقة التوبة بمغفرة الخطايا، هو ما قاله بطرس الرسول بعد حلول الروح القدس مباشرة لشعب إسرائيل النادم والباكي: «توبوا وارجعوا لتُمْحى خطاياكم، لكي تأتي أوقات الفرج من وجه الرب» (أع٣: ١٩). ولكنها أولاً وقبل كل شيء وصية الرب المخلِّص فيما يخص عمل مغفرة الخطايا، كما قالها بعد القيامة بحسب إنجيل القديس لوقا: «وقال لهم ... أن يُكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدأً من أورشليم.» (لو٢٤: ٤٦)

وقد سبق الرب في تعاليمه أيضاً أن ربط المغفرة بالتوبة ربطاً لا محيص عنه: «وإن أخطأ إليك أخوك فوبِّخه، **فإن تاب فاغفرْ له**، وإنْ أخطأ إليك سبع مرات في اليوم ... قائلاً **أنا تائب، فاغفر**

له.» (لو١٧: ٣و٤)

أما ربط التوبة نفسها بالخلاص، فقد جعلها المسيح كالأساس: «إن لم تتوبوا، فجميعكم كذلك تهلكون» (لو١٣: ٣). أما مركز التوبة والتائب في السماء، فوصَفَه المسيح كذلك: «أقول لكم، إنه هكذا يكون فرحٌ في السماء بخاطىء واحد يتوب...» (لو١٥: ٧)

إذن، لا توجد مغفرة للخطايا إلا بالتوبة، فمغفرة الخطايا تكون فقط للتائب كحالة حاضرة ومستمرة. لذلك لا يمكن أن نعبر على هبة المسيح في إنجيل يوحنا للرسل بأن كل ما يغفرونه يُغفر وكل ما يمسكونه يُمسك، حيث يأتي فعل الغفران والمسك في حالة الفعل التام المستمر أي يكون مغفوراً و يكون ممسوكاً، إلا و يكون نتيجة مباشرة للتوبة الدائمة، والمسك يصير نتيجة مباشرة لمن رفض حياة التوبة.

وما هي التوبة؟

التوبة في اللغة اليونانية هي بحسب الحرف **«تغيير الفكر»**، ولكن المعنى في اللغة الأرامية التي كان يتكلم بها المسيح تعني أكثر وأعمق من هذا: فهي بحسب الفحص الدقيق تحمل معنى[19]:

١ ــ حالة الإنسان فيما يخص كل كفاءاته،

٢ ــ مبادرة عبادية تحمل تحوُّلاً نحو الله بتصميم وعناد،

٣ ــ ليس الكفُّ عن سيرة سابقة أو التكفير عنها بتحمُّل تضحيات وعقوبات وحسب، بل لا بد وأن تشمل نزوعاً جديداً نحو المستقبل،

٤ ــ تغيير جذري في العقيدة والإيمان، أو بمعنى أبسط معرفة أعمق وأصحُّ بالله ودراية واعية بإرادته المقدسة،

٥ ــ استجابة واضحة لنداء نعمة الله، وانتهاز فرصة الخلاص التي يعرضها الله.

والتوبة ولو أنها حالة قلبية داخلية للإنسان، ولكن يتحتم أن يكون لها أفعال وردود أفعال ظاهرة وعلنية، كأعمال رحمة ومحبة وتواضع: «فاعملوا أعمالاً تليق بالتوبة.» (لو٣: ٨)

فالصوم مثلاً له أعمال:

١ ــ «أليس هذا صوماً أختاره (أنا الله): **حلّ قيود الشر، فكّ عُقَد النير** (أي إطلاق

[19] Schnackenburg, Rudolf, *The Moral Teaching of the New Testament*, p. 25-26.

سراح الذين نعاقبهم ونستعبدهم)، **وإطلاق المسحوقين أحراراً، وقطع كل نير** (القيود التي وضعناها على من كانوا تحت سلطاننا).» (إش٥٨: ٦)

٢ ــ «أليس أن **تكسر للجائع خبزك**، وأن **تُدخِلَ المساكين التائهين إلى بيتك**».

٣ ــ «**إذا رأيت عرياناً أن تكسوه**، وأن **لا تتغاضى عن لحمك**.» (إش٥٨: ٧)

النتيجة: «حينئذ ينفجر مثل الصبح نورُك، وتنبت صحتك سريعاً، و يسير برُّك أمامك، ومجد الرب يجمع ساقتك. حينئذ تدعو فيجيب الرب، تستغيث فيقول هأنذا.» (إش٥٨: ٨و٩)

٢ ــ المسيح يظهر للأحد عشر خصيصاً من أجل توما في العلية:

أ ــ توما كان غائباً عن الاجتماع الأول، ويرفض تصديق القيامة، ويرفض شهادة إخوته التلاميذ: (٢٠: ٢٤و٢٥).

٢٠: ٢٤ **«أما تُومَا ــ أحَدُ الاثْنَي عَشَرَ ــ الذي يُقَالُ لهُ التَّوأمُ، فلم يَكُنْ مَعهُم حِينَ جاءَ يَسُوعُ».**

«وكان روح الله على عزَرْيا بن عوديد، فخرج للقاء آسا وقال له: اسمعوا لي يا آسا وجميع يهوذا و بنيامين.
الرب معكم ما كنتم معه. وإن طلبتموه، يوجد لكم. وإن تركتموه، يترككم.» (٢أي١٥: ١و٢)

توما:

«ديديموس» باليونانية المترجم بالتوأم، تعني ضمن ما تعني في لغة ق. يوحنا المِسْتِيكية ــ أي السرِّية ــ معنى أنه واحد باثنين، وهي ما توضحه ولادة التوائم (Twin). فكون توما واحداً باثنين، ثم تقول الآية إنه واحد من الاثني عشر، فهو هنا يعني أنه يكمِّل بالسِّرِّ مكان التلميذ الذي كان معدوداً من الاثني عشر وسقط؛ لأن "الاثني عشر" هو الاصطلاح الذي تحمله الكنيسة عِوَضَ الاثني عشر سبطاً، خُلْواً من أعداد وأسماء وحظوظ فردية. هذا كان يدركه بطرس الرسول تماماً حينما دعا الأحد عشر إلى اجتماع عاجل وإلى صوم وصلاة، ليعيِّن آخرُ عِوَضَ يهوذا الذي صار من نصيب الشيطان، حتى يَكْمُلَ نِصَابُ الكنيسة(*)، لا عدداً بل اسماً دهرياً:

(*) نِصَاب: عددٌ من الناس لا بد منه لكي يتم الاجتماع و يصبح قانونياً (عن: «المعجم العربي الأساسي»، ص١١٩٨).

«وذهب بي بالروح إلى جبل عظيم عال، وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من السماء من عند الله لها مجد الله ولمعانها، شبه أكرم حجر كحجر يَشْب بلّوري، وكان لها سور عظيم وعالٍ (سور الخلاص)، وكان لها اثنا عشر باباً (مداخل التعليم الرسولية)، وعلى الأبواب اثنا عشر ملاكاً (حُرّاس التعليم الصحيح)، وأسماء مكتوبة هي أسماء أسباط بني إسرائيل (الجديد) الاثني عشر (رسولاً) ... **وسور المدينة كان له اثنا عشر أساساً، وعليها أسماء رُسُل الخروف الاثني عشر.**» (رؤ٢١: ١٠—١٤)

لقد أنهت أخبار المحاكمة الشنيعة والصَّلْب والموت للمعلم المحبوب، على كل أمل في بقاء توما في أورشليم مع الرِفْقة على ما يُظن. وربما يكون قد قفل راجعاً إلى بلدته، وهي في غالب الأمر ليست في الجليل بل اليهودية، فهو كان ــ على ما يُعتقد ــ من الخمسة التلاميذ الأوائل الذين تبعوا الرب في بداية خدمته في اليهودية قبل الجليل ولكن لما ترامت إليه أخبار القيامة، رجع إلى أورشليم. وهذا ما تم بالحرف الواحد لتلميذَيْ عمواس اللذَيْن قفلا راجعَين إلى مدينتهما، يلفُّهما اليأس والحسرة.

أما لماذا تسرَّع توما في الانسحاب من دائرة الأحداث هكذا دون بقية التلاميذ، فواضح من الحديث القادم أن اليأس كان قد استبدَّ به أكثر من جميعهم، فكان ردُّ فعل النعمة أنها انسحبت من دائرة حياته ــ مؤقتاً ــ وهكذا ينكشف سلوك توما، التراجعي، كما تتبين معاملة الله للمتراجعين: «الرب معكم ما كنتم معه، وإن طلبتموه يوجد لكم وإن تركتموه يترككم.» (٢أي١٥: ٢)

فغيابُ توما عن ذلك الحدث العظيم، سببهُ توما نفسه، ولكن تقف وعود الله بلا ندامة: «وهل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها؟ حتى هؤلاء ينسَيْنَ، وأنا لا أنساكِ.» (إش٤٩: ١٥)

٢٠: ٢٥ **«فقالَ لهُ التَّلاميذُ الآخَرونَ: قد رَأَيْنا الرَّبَّ. فقالَ لهُم: إن لم أُبْصِرْ في يَدَيْهِ أثَرَ المَسامِيرِ، وأضعْ إصْبَعِي في أثَرِ المَسامِيرِ، وأضعْ يَدِي في جَنْبِهِ، لا أُومن».**

الإنجيل لم يذكر لنا حادثة توما هذه المخجلة لكي يحطَّ من قدر توما، بل لكي يوضح صعوبة الإيمان بالقيامة. فإنجيل القديس متى يذكر أن أكثر من واحد منهم شكُّوا: «ولما رأوه سجدوا له، ولكن **بعضهم شكُّوا**» (مت٢٨: ١٧). هذه هي صراحة الإنجيلي في روايته، التي من واقعها ندرك صدق الرواية وصدق القيامة ذاتها. وإنجيل القديس مرقس لم تَفُتْهُ هذه المحنة الإيمانية لدى

البعض، فهي جزء لا يتجزأ من الحقيقة: «**أخيراً ظهر للأحد عشر وهم متكئون ووبّخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم، لأنهم لم يصدِّقوا الذين نظروه قد قام.**» (مر١٦: ١٤)

وهنا يزيد القديس مرقس من لوم التلاميذ الذين لم يؤمنوا إذ كان يجب أن يصدِّقوا الذين نظروه قد قام. وهذه تعود وتنعكس علينا لا محالة، فنحن أمام هذه الحالة عينها. فرواية القيامة بلغتنا على يد شهود عيان كثيرين، فالإيمان بها أصبح يحفُّه القبول من اليمين بالمديح، كما يحفُّه الشك من الشمال بالتوبيخ. أما الطوبى، أي السعادة، فهي نصيب الذين يؤمنون ولا يطلبون لا العيان ولا شهادة العيان، لأن الحق يضيء قلوبهم.

إذاً، فرواية توما لا تخصُّ توما ولا التلاميذ، بل هي حدثت لتكون ركناً ركيناً في استعلان شخص المخلِّص، كجزء حيٍّ في درجات سلَّم استعلان قيامة المسيح، كطَوْقِ نجاةٍ للذين ستعصف بهم شكوكٌ مثل شكوكِ توما!

وق. يوحنا يقدم لنا رواية توما على التوازي مع رواية تلميذَيْ عمواس التي قدمها القديس لوقا. فكلٌّ من الروايتين حَظَتْ بظهور الرب خاصة. ولكن حَظِيَ كلٌّ منهما بالتوبيخ المناسب.

«قد رأينا الرب»:

نفس ما قالته المجدلية: «قد رأيتُ الرب».

لم تكن رؤيا وحسب بل وفرحاً، هي شهادة ستبقى خالدة أبد الدهر ترددها كلمة «آمين»، من كل مَنْ في السموات والأرض، بانتظار الاستعلان المنظور الذي تراه كل عين آمنت أو لم تؤمن. أما التي آمنت، فبتهليل تردد صداه السموات وسماء السموات، وأما التي لم تؤمن فبالبكاء والنحيب على الذي طعنوه بلسانهم أو جحودهم أو ارتدادهم.

لم تقع هذه البشارة المفرحة عند توما موقع التصديق، عن قصد من النعمة، ليكون أباً ومرشداً لكل الذين صاروا بعقولهم قوَّامين على قلوبهم، ومدُّوا أيديهم وأصابعهم عِوَضَ البصيرة ليتحسسوا بها طريق الحق. لقد صار توما في تاريخ الإيمان إمامَ الشكَّاكين. ولكن يا ليت كل من يشكُّ، ينطق بالنهاية بما نطق به توما.

«فقال لهم: إنْ لم أُبصر في يديه أثر المسامير، وأضع إصبعي في أثر المسامير، وأضع يدي في جنبه لا أُومن»:

جروح الصليب مميتة، فكيف تصبح علامة حياة؟ إنه تعجيز!! ولكنها هي حقاً معجزة!! توما

يطلب المستحيل بالعيان واللَّمس، يطلب اقتران الموت بالحياة والحياة بالموت، فكان له ما شاء!! إنها حقاً القيامة!!

توما أراد أن يمسك بنار اللاهوت، فمسك ولم يحترق، إنه فَضْل التجسد ومجد القيامة!!

توما أراد أن يمثِّل بيده طعنة الحربة، وكمثل يَدِ موسى، دخلت برصاءَ بعدم الإيمان، وخرجت تضيء بصراخ الإيمان (خر٤: ٦). إن أهوال الصلبوت ضيَّعت من عقل توما كل معقولية الحياة من بعد الموت، لقد أصابت المسامير فكر توما بأكثر مما أصابت به يد الفادي، الفادي قام بيديه في ملء الحركة والحياة، وفِكْرُ توما تسمَّر بالموت وبقي بلا حراك. الجَنْبُ المفتوح بالحربة صار كهوَّة في إيمان توما، تفصل الميت عن الحياة، مع أن الدم والماء النازفين منه، كفيلان بأن يُحييا كل الأموات.

«لا أُومن»:

لقد جازف توما بكل إيمانه، لقد وضع إيمانه بالمسيح قائماً من الموت في كفَّة، ورؤية عينيه ولَمْسِ يده لآثار المسامير وطعنة الحربة في الكفَّة المقابلة! لقد ظن توما أن الإيمان بالقيامة رهنُ نَظَرِ العين ولَمْسِ اليد!!

ولكن المسيح نفسه عندما ظهر للتلاميذ المجتمعين **«أراهم يديه وجنبه»**، فتوما وإن كان يطالب بحقِّه الرسولي، كتلميذ له، في الرب المُقَام ما كان للباقين في غيابه، إلاَّ أن ما كان ينقص توما حقاً والذي وبَّخه المسيح على فقدانه، كما وبَّخ الآخرين، فقد كان هو الإيمان: «ووبخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم لأنهم **لم يصدقوا الذين نظروه قد قام**» (مر١٦: ١٤)، وهنا يستحيل الأخذ بنموذج توما ليكون نموذجاً لنا للإيمان. ولكن نموذج توما الذي شكَّ واشترط لإيمانه الرؤيا واللمس، هو نموذج رسولي وحسب، قرَّره الرب أن يكون، وقرَّر له الاستجابة، فظهر له بمقتضى نفس شروطه، ليؤمن، فلا يبقى هو، ولا أحد غيره، غيرَ مؤمن بعد!!

أما ما انتهت إليه خبرة القديس توما والتي ينبغي أن تنتقل إلينا، أنه ليس بالعيان ولا باللمس يكون الإيمان بل بتصديق الخبر الإنجيلي، بطاعة الكلمة، بالاستجابة لنداء الروح القدس!! «طوبى للذين آمنوا ولم يروا.» (يو٢٠: ٢٩)

٢٠ : ٢٦ **«وبَعْدَ ثمانِيَةِ أيّامٍ كانَ تلاميذُهُ "أيضاً" داخِلاً وتُومَا مَعَهُم. فجاءَ يَسُوعُ والأبوابُ مُغَلَّقَةٌ، ووَقَفَ في الوَسَطِ، وقالَ: سَلامٌ لكُم».**

لا يزال التلاميذ في أورشليم ولا يزالون مجتمعين؛ إن حقائق القيامة وظهور الرب رَبَطتْ قلوبهم بالمكان الذي ظهر فيه، لم يعودوا قادرين على مبارحة أورشليم. كانوا ينتظرون بفارغ الصبر مزيداً من الاستعلان والظهور. لقد بدأت تتبلور في قلوبهم رسالتهم، ولكن لم يكونوا حائزين بعد على «**القوة**» اللازمة للحركة.

كان يوم الأحد الذي قام فيه الرب وظهر لهم فيه «**أيضاً**» في المساء، كان قد أخذ قُدْسيّة خاصة زادت بصورة مؤكدة بعد أن ظهر لهم وللمرة الثانية في نفس المكان ونفس المساء، مساء الأحد. وهكذا تقررت عليّة أورشليم أن تكون مركز ميلاد الكنيسة في أورشليم، كما تقرر يوم الأحد ليكون يوم الرب، يوم القيامة، يوم الظهور والاستعلان.

في هذا يقول القديس كيرلس الكبير:

[إذاً، هو لسبب صالح لنا عادة أن يكون لنا اجتماعات مقدسة في الكنائس في اليوم الثامن (الأحد). ويُستحبُّ أن نستعير لغة التشبيه بالإنجيل فنقول، وكما تستلزمه الحاجة، نحن نقفل الأبواب. وبالرغم من ذلك يأتي المسيح ويظهر لنا جميعاً منظوراً وغير منظور بآن واحد، غير منظور بصفته الإلهية ومنظوراً بالجسد (في الإفخارستيا). ويجيز لنا أن نلمس جسده المقدس ويعطيه لنا أيضاً. لأننا بنعمة الله، ونحن نؤهَّل أن نشترك في الإفخارستيا المقدسة، نستقبل المسيح في أيدينا(٢٠) بغرض أن نؤمن يقيناً أنه حقاً أقام هيكل جسده](٢١).

كان اجتماع التلاميذ وتوما معهم بمثابة داعٍ دعا الفادي للظهور: «حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي، فهناك أكون في وسطهم» (مت١٨ : ٢٠). **ولكن هنا ليس اثنان أو ثلاثة، بل «أول كنيسة» تجتمع بكامل هيئتها، ليعطي لها المسيح أول درس في الإيمان غير المعتمد على المنظور.**

---

(٢٠) كان الطقس قديماً ينص أن يعطي الكاهن الجسد في يد المتناول، والمتناول يضعه في فمه (أنظر كتاب: «الإفخارستيا والقداس»، للمؤلف، ص٤٢٦ و٤٥٢ و٧٢٥).

[21] Cyril the Great, *op. cit.*, p. 684.

«فجاء يسوع والأبواب مغلّقة، ووقف في الوسط»:

اللغة التي صيغت بها هذه المعلومة **«فجاء يسوع»** توضح في اللغة اليونانية أنه كان هناك نوعٌ من الترقُّب(٢٢)؛ وهذا ما نعتقده نحن بكل تأكيد. فالآن قد حاز التلاميذ على عطية الروح القدس الكفيل أن يجعلهم يشعرون «بالأمور الآتية»، وخاصة فيما للرب ومجيئه. ولكن الذي يُلْهِبُ قلوبنا نحن أيضاً، هو كيفية ظهوره بكامل عظمة هيئته، وفي وداعة بشريَّته ولطف محبته، بل ونقول بروح نشيد الأنشاد: يا لطلعته البهيَّة، يا لبأس منظر عينيه كغالبِ الموت وقاهرِ الهاوية، يا لبهاءِ نورِ الآب الذي يشعُّ من كل كيانه، تخرج من جروح يديه ورجليه طاقات وموجات من الأشفية والأدواء لعلاج كل أوجاع البشرية، ومن خَلْفِ جنبه منظر كنهر الحياة ليغطي كل أمم وشعوب الأرض للاغتسال بغُسْلِ الحياة، لاستنشاق نسيم روح الله. هكذا جاء يسوع خصيصاً ليتحادث مع توما بشأن عدم لياقة عدم إيمانه، بعد سنين هذا عددها وهو يسقيه فيها من روح نعمته.

جاء يسوع ووقف **«في الوسط»**، صحيح أنه جاء خصيصاً لتوما، ولكن حينما يظهر المسيح يظهر في الوسط فهو للجميع والجميع له. ليس كبير أو صغير بينهم، فالكل فيه كبير والكل فيه كريم مُكرَّمٌ.

«وقال: سلامٌ لكم»:

ليست هي مجرد تحية، ولكنها وديعة يستودعها الرب لكنيسته: «سلامي أعطيكم» فالرب لا يُقْرِىءُ السلامَ، بل يُعطيه، بل يسكبه ويبثُّه بثاً، ليَسْري في القلوب والأفكار والأرواح، ليبقى ويدوم ويترسَّخ داخل النفس، تلتجىء إليه يومَ العاصف فتجده، وتستغيث به في الضيقة فتتسربل به.

ويلزم أن ننتبه أن التلاميذ كانوا لا يزالون خائفين، لأن الأبواب كانت لا تزال مغلقة عليهم. فكان المسيح، بإعطائهم السلام، كمن يقول لهم: «أما خوفهم فلا تخافوه، ولا تضطربوا، بل قدِّسوا الرب الإله في قلوبكم.» (١بط٣: ١٤و١٥)

٢٠: ٢٧ **«ثمَّ قالَ لتُوما: هَاتِ إصْبعَكَ إلى هُنا، وأبْصِرْ يَدَيَّ، وهَاتِ يَدَكَ وضَعْها في جَنْبِي، ولا تَكُنْ غَيْرَ مُؤمِنٍ بَلْ مُؤمِناً».**

عجيب أن الرب يعيد نفس الكلمات التي نطق بها توما وهو يتحدث مع زملائه، فكأن الرب

22 ICC, Bernard, *op. cit.*, Vol. II, p. 682.

كان واقفاً يستمع إلى شروط توما المغلَّظة، لم يعاتبه ولا حتى آخذه، بل بلطف يفوق كلّ لطف، أخضع جسده الذي ترتعب منه الأجناد السماوية لرؤية عين توما، ولِلَمْسِ أصابعه. عرَّى جُروحَه، وجنبُهُ المفتوح جعله في متناول يده!

وهكذا احتفظ الرب بعلامات الموت ليجعلها برهان الحياة، وآثار الذِّلة والانسحاق ليجعلها أسباب المجد!

ولعل إخضاع الرب جُرُوحَه النازفة لِلَمْسِ أصابع توما، كان قمة استعلان الموت في الحياة وقمة الحياة في الموت. وهذه هي القيامة نصًّا وفصًّا. ثم، أما كان ق. يوحنا صادقاً في رؤياه لما قال في افتتاح إنجيله: **«وكان الكلمة الله»**؟ وهكذا بَقِيَتْ هذه الحقيقة العظمى تحتاج إلى برهان، إلى أن تَجسَّد الكلمة وذُبح على الصليب وقام، إلى أن باشرها توما بالروح والعين المفتوحة قبل أصابع يديه، فصرخ: **«ربي وإلهي»**.

ولكن ماذا كان وَقْعُ كلمات الرب المُقامِ على توما، حينما ردَّد على مسامعه كُلَّ الكلام والشروط التي قالها للتلاميذ، متحدِّياً جميعهم ليؤمِنَ بقيامة الرب؟ أعتقد أنها فوق أنها أخجلته، فقد جعلته في غيرِ حاجةٍ لأن يمدَّ يده أو إصبعه. ولكن حينما مدَّها وحينما لمس إطاعةً للأمر الذي صدر له، كان قد بلغ الإيمانُ في قلبه حدَّ الصراخ بالشهادة. خبرة العين الروحية ابتلعت خبرة عين الجسد، ولمسة الروح في القلب طَغَتْ على لمسة اليد.

«لا تَكُنْ غيرَ مؤمنٍ، بل مؤمناً»:

لم يكن توما غَيْرَ مؤمنٍ، لهذا ظهر له الرب. وإلاَّ لو كان فعلاً غيرَ مؤمنٍ، لما ظهر له الرب على الإطلاق؛ لقد قلنا إن عطية الروح القدس التي نفخها الرب في التلاميذ كانت جماعية لا فردية، كانت في جسم الجماعة المتحدة، وليس على مستوى فردٍ دون فردٍ. وهكذا انتقلت من فم المسيح للرسل، ومن الرسل للكنيسة، ككلٍّ، كجسدٍ حيٍّ. القديس توما، إذاً، لم يكن غريباً عن جسم التلاميذ، جسم الكنيسة، ولا عن عطية الروح القدس، ولكن لما استبدَّ به الشك، كَوْنَه استُثْنِيَ من رؤية الرب، كان يطلب حقَّه في الرؤيا العينية، وزاد عليها لَمْسَ الأصابع، إمعاناً في الوثوق الذي يطلبه. بمعنى أن توما كان في طريقه إلى الإيمان في حالة حصوله على ما احتاجه إيمانه: «أومن، يا سيد، فأعِنْ عدم إيماني.» (مر٩: ٢٤)

الرب تنازل إلى مستوى شروط توما، ليقطع على توما ــ وعلى كلِّ مَنْ يذهبُ مذهبه ــ الطريق إلى عدم الإيمان!

ولكن الذي اعتاد على أسلوب ق. يوحنا في التلطيف الفائق الوصف عند سرد سلوك التلاميذ خاصة(٢٣)، يدرك كيف يُخفِّف هذا الإنجيليُّ الوديعُ المحبُّ من عنف أسلوب المسيح في مقارعة التلاميذ الذين قسُّوا قلوبهم، ولم يبلغوا سريعاً إلى درجة الإيمان الفوري حسب رواية القديس مرقس: «أخيراً ظهر للأحَدَ عشر (توما في الحسبان) وهم متكئون (ثاني مرة أي الأحد الثاني)، **ووبخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم، لأنهم لم يُصدِّقوا الذين نظروه قد قام.**» (مر١٦: ١٤)

ولكن هاتين الرؤيتين لكلام الرب، هما في الحقيقة لموضوع واحد رآه القديس مرقس بما كان من ضعف التلاميذ، ورآه ق. يوحنا بما سيكون من لطف المسيح للتلاميذ، الأول رآه يستحق التعنيف، والآخر رآه يستحق التشجيع.

٢٠: ٢٨ **«أجابَ تُوما، وقالَ لهُ: رَبِّي وإلهي».**

«هو يدعو باسمي وأنا أجيبه. أقول هو شعبي **وهو يقول الرب إلهي.**» (زك١٣: ٩)

هذا الخطاب الموجَّه للمسيح رأساً من القديس توما هو، نصاً وحرفاً، نفس الخطاب الموجَّه من أي إسرائيلي نحو يهوه الله. وهكذا بلغ الإنجيل بالفعل والقول إلى أقصى ما عبَّر عنه المسيح أن يكون: «لكي يُكرِمَ الجميع الابن، كما يُكرِمُون الآب» (يو٥: ٢٣). وتم بالفعل قول المسيح الذي قال: «فقال لهم يسوع: **متى رفعتم ابن الإنسان، فحينئذ تفهمون أني «"أنا هو ἐγώ εἰμι** "» (يو٨: ٢٨)

إن نُطْقَ القديس توما: «ربي وإلهي» يكون قد وقَّع على المنظور الحي ما قاله ق. يوحنا في رؤياه للكلمة: «وكان الكلمة الله».

هذه هي قمة الاستعلانات التي تتبَّعها هذا الإنجيليُّ الدقيق الدؤوب. إنها قمة إنجيل يوحنا، التي ما أن بلغها هذا القديس، حتى تنفس الصُّعْدَاءَ وأرخى الفكر وسجَّل الخاتمة: «وآياتٍ أُخَرَ كثيرة صنع يسوع قُدَّامَ تلاميذه لم تُكتَب في هذا الكتاب. وأما هذه فقد كُتِبَتْ لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله، ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه.» (يو٢٠: ٣٠و٣١)

(٢٣) أنظر كتاب: «المدخل لشرح إنجيل يوحنا» من حيث أسلوب القديس يوحنا في وصف سلوك التلاميذ ص٢٦٣ و٣٥٢. وانظر أيضاً ما جاء في سياق شرح الآية ١٦: ٣١.

والذي يزيد من قيمة هذا الاستعلان الذي استلهمه القديس توما من رؤية الرب المقام، أنه يأتي بعد أسبوع كامل من عذاب الشك وليل الظنون. فهو وإن تأخر عن التلاميذ ثمانية أيام في التعرف على القيامة وتصديقها، إلاَّ أنه سجَّل للكنيسة أول اعتراف علني بألوهية المسيح، خرج منه بتلقائية تعبِّر عن الحق الذي رآه كاعتراف إيمان بلغ الذروة، ليس في كل الأناجيل ما يضاهيه.

يتفق معظم الشرَّاح في أن القديس توما لم يمدَّ يده نحو الجسد المقدس، ولم يكن في حاجة أن يتفرَّس في ثقوب المسامير باليدين، ولا تحسَّس الجنب المفتوح، وإن خالف ذلك كثيرون أيضاً(٢٤)؛ بل إنه، حال ظهور الرب والأبواب مغلقة، أُخذ في دهشةٍ، وانفتحت بصيرتهُ في الحال فنَطَقَ بما نَطَقَ. لقد شعر، والرب أمامه بلحمه وعظامه، بهيئته الجديدة المجيدة و بصوته هو هو، أنَّ كلَّ مطاليب ضعف إيمانه السابق من جهة رؤية أثر المسامير والجروح والجنب المفتوح، هي أتفه من الحقيقة المعلنة أمامه.

إن ظهور الرب بحال قيامته كان كفيلاً بأن يغيِّر، لا فكر توما بل روحه وحياته. إن ظهور الرب قوة، فالقيامة هي المجال الإلهي الفائق، الذي إذا دخله الإنسان يفقد رؤيته لنفسه والعالم، وكأنها أقنعة، يخلعها ليرى الحقيقة الدائمة، ولا يعود يرى نفسه إلاَّ في الله: «**ربي وإلهي**».

إنه يذكر نفسه بياء الملكية = μου مرتين «ربي وإلهي»، تأكيداً منه أن مَنْ يراه واقفاً أمامه، يرى نفسه فيه ويراه هو في نفسه، وكأنه يردِّد بلسان صاحب نشيد الأنشاد: «أنا لحبيبي، وحبيبي لي» (نش٦: ٣). إنه تعبير عن إيمانٍ حيٍّ محسوس وشخصي. وقول توما للمسيح: «**إلهي**» = ὁ Θεός μου = (my God)، إنما يعبِّر تعبيراً حيًّا صادقاً منظوراً بالروح لقول المسيح: «الذي رآني فقد رأى الآب.» (يو١٤: ٩)

لقد صار له المسيح وصار هو للمسيح، فاستُعْلِنَ له المسيح في ذاته ربًّا وإلهاً. لقد تعرَّف على الله في المسيح، وتعرَّف على المسيح في الله!!

وأخيراً، أدرك توما أن المسيح ليس لِلَمْسِ اليد أو نَظَرِ العين!! فهو الملءُ الذي يملأُ الروح والبصيرة والقلب، الملءُ الذي لا تَسَعُه عينٌ ولا يحيطه فكر.

وكان ردُّ المسيح على اعتراف توما: «**ربي وإلهي**»، أن أمَّن على إيمانه، موافقاً على إعلانه

---

[24] Schnackenburg, *op. cit.*, Vol. III, p. 332.

بلاهوته كمن أصاب الحقيقة بكلمة، فلو لم يكن المسيح إلهاً بالحق، ما كان قد ارتضى بهذا الإعلان!! ولو لم يكن المسيح والآب واحداً، ما رأى توما ما رأى!! لقد رأى توما المسيح كما يريد المسيح نفسه أن يُرى!

أما «ربّي» فهي تخصُّ إيمان توما بالمسيح «المعلّم» الذي أكل وشرب معه، وها هو واقفٌ أمامه. إنها كصرخة المجدلية «ربُّوني»، تعبّر عن إيمان القيامة. وأما **«إلهي»** فتخصُّه مُشتَعلَاً في حقيقته الأزلية، إذ ارتفع توما بإعلانٍ حَارّ، به رأى الله في المسيح! إنها رؤيةٌ حقٌّ، للحقِّ، لقد واجه توما المسيح في حقيقة ذاته: «الذي رآني فقد رأى الآب.» (يو١٤: ٩)

وهكذا، بقدر ما انحط إيمان توما حتى شكَّ في القيامة، بقدر ما أعطى للقيامة معيارها الإلهي العالي. وهكذا أثمر ظهورُ الرب للتلميذ الضعيف الإيمان، قوةً إيمانية باقية تسند الكنيسة على مدى الأزمان.

ولكن حذارِ أن نفهم من هذا أن ظهور الرب لتوما كان ظهور «العيان»، إذ يتحتم أن نفهم أن الظهور الإلهي الذي كان يظهر به المسيح بعد القيامة لم يكن ظهوراً تتحكم فيه العين البشرية وتفحصه. إنه ظهور إعجازي، يحتاج إلى عين روحية مفتوحة، إلى وعي روحي فائق عن وعي الجسد والحواس؛ يحتاج إلى عمل الروح: «وحينئذ **فتح ذهنهم** ليفهموا الكتب» (لو٢٤: ٤٥). أو القول الآخر الأكثر انطباقاً الذي تم بالحرف الواحد لتلميذيْ عمواس: ففي الأول كان المسيح سائراً معهم ولم يعرفاه: **«ولكن أُمسكتْ أعينهما عن معرفته»** (لو٢٤: ١٦). ولكن، في النهاية، تمت المعجزة من خلال إفخارستيا: «فلما اتكأ معهما، أخذ خبزاً، وبارك، وكسر، وناولهما، **فانفتحت أعينهما وعرفاه**، ثم اختفى عنهما.» (لو٢٤: ٣٠و٣١)

بهذه الرؤيا وحدها، يمكن التعرُّف على المسيح كإله، على أساس الآية التي قالها الرب: «الذي يراني يرى الذي أرسلني» (يو١٢: ٤٥). هنا يستحيل أن تكون رؤية العين هي التي ترى مَنْ أرسل الرب؛ إنها حتماً وبالضرورة رؤية الروح، «الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله» (١كو٢: ١٠). وهذه هي رؤية الإيمان، بمعنى رؤية منشؤها التصديق، ونهايتها التعرُّف على الله في المسيح والمسيح في الله. هنا بلغ توما عن حقِّ رؤية المسيح الإله: «**ربي وإلهي**».

٢٠: ٢٩ «قالَ لهُ يَسُوعُ: لأنَّكَ رأيتني يا تُوما، آمنتَ. طُوبَى للذينَ آمَنُوا ولم يَرَوْا».

أخيراً ظهرت رنّة التوبيخ والعتاب في صوت المسيح لتوما؛ لأنه ما كان لائقاً بتلميذٍ عاشر

الرب، وسمع منه أنباء القيامة العتيدة، بل ورأى قوتها عياناً عند قبر لعازر، مع تنبيه دائم ركَّز عليه الرب: «قلتُ لكم قبل أن يكون، حتى متى كان تؤمنون» (يو١٤: ٢٩). **فلما «كان»** ما سبق وأنبأ عنه المسيح، وحدث كما قال، لا آمن توما ولا صدَّق مَنْ رأوا وآمنوا!!

لقد شابه توما بطرس في ضعف إيمانه، فذاك صلَّى المسيح من أجله، حتى لا يفنى بَصيصُ إيمانه الذي كان كفَتيلةٍ مُدخِّنة، ودخانها يعمي العيون: «فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف إني لا أعرف هذا الرجل (المسيح)!!» (مت٢٦: ٧٤ ومر١٤: ٧١). أما هذا، **فظهر** المسيح له خصيصاً، وأراه جروحه، وأخضعها لِلَمْسِ يده، حتى يصير مؤمناً ولا يكون غَيْرَ مؤمنٍ بعد!!

ولكن شكراً لك، أيها القديس توما، لأن بشكِّك ورَّثتنا الطوبى، أحسن الطوبى **μακάριοι**!

«أنتم الذين بقوة الله **محروسون بإيمان، لخلاصٍ** مستعدٍ أن يُعلَن في الزمان الأخير، الذي به **تبتهجون، مع أنكم الآن إن كان يجب تُحزَنُون يسيراً بتجارب متنوعة ... الذي وإنْ لم تَرَوْهُ تحبونه. ذلك، وإن كنتم لا ترونه الآن، لكن تؤمنون به فتبتهجون بفرحٍ لا يُنْطَقُ به ومجيدٍ.»** (١بط١: ٥–٨)

وفي نهاية هذه الآية المجيدة التي ورَّثتنا الطوبى، تلفت نظر القارىء أنها تحمل بين طيَّاتها عزمَ المسيح على الانسحاب الأخير، بحيث لا يراه أحدٌ، بَعْدُ، إلاَّ بالإيمان. وهكذا عبَّر إنجيل يوحنا عن الصعود دون أن يَصِفَهُ.

القصد الأساسي من كتابة إنجيل يوحنا: (٢٠: ٣٠و٣١).

٢٠: ٣٠ **«وآياتٍ أُخَرَ كَثِيرَةً، صَنَعَ يَسُوعُ قُدَّامَ تَلاَمِيذِهِ، لم تُكتَبْ في هذا الكِتَابِ».**

والآن، وقد أنهى ق. يوحنا إنجيله الذي كثَّف فيه من الآيات ذات المدلول الإلهي، وخاصة آيات القيامة، رفع عينيه نحو الأفق، نحو مستقبل الأجيال القادمة الذين كتب لهم هذا: «الكتاب» بكل صدق الروح وحراسة النعمة، وكتب هذه الكلمات. إنه الآن يخاطبك، أيها القارىء السعيد، باعتبارك أنك بُلِّغتَ الرسالة.

لقد سبق ق. يوحنا وأن وقف هذه الوقفة عينها، ناظراً إلى الماضي بكل آياته ومعجزاته الباهرة، ولكن ليس في غمرة فرح القيامة لبشارة الأمم كما هو هنا الآن، إنما في أسًى وحزنٍ،

وقد امتد ظلُّ الصليب ليُغطِّي كل الآيات التي صَنَع، ليلقى عليها مسحة من الجحود والعَمَى والصَمَم التي أصابت الأمة المختارة: «ومع أنه كان **قد صنع أمامهم آياتٍ هذا عددها**، لم يؤمنوا به ليتم قول إشعياء النبي الذي قاله، يا ربُّ **من صدَّق خبرنا**، ولمن استُعلنت ذراع الرب. لهذا لم يقدروا أن يؤمنوا. لأن إشعياء قال أيضاً قد **أعْمَى عيونَهم**، وأغْلَظ قلوبهم، لئلا يبصروا بعيونهم، و يشعروا بقلوبهم، و يرجعوا فأشفيهم.» (يو١٢: ٣٧ــ٤٠)

ولكن هنا يسجل لنا ق. يوحنا، كتلميذ أمين ومحبوب، شهادة ذات وزن رسولي وإنجيلي، أن الآيات التي صنعها المسيح سواء وسط الشعب في اليهودية أو أورشليم (يو٢: ٢٣) أو الجليل شيءٌ لا يحصُره عدٌّ، وبوجه خاص يذكر هنا «**قدام تلاميذه**»، وهو بصدد الظهور للقديس توما، لكي يرفق بها ظهورات الرب بعد القيامة، كنوع هام وممتاز من المعجزات التي اعتبرها آياتٍ تتكلم وتشير إلى لاهوته بلا نزاع. ومعلوم، على وجه العموم، أن المسيح اقتصر ظهورهُ على تلاميذه بعددهم الرمزي (الاثني عشر)، وأيضاً بعد ذلك بعددهم العام نحو «خمسمئة أخ» (١ كو١٥: ٣ــ٨)، معتبراً أن هذه الظهورات كانت آيات تشير كلها وتتكلم عن صحة موته وقيامته، تأكيداً لرسالة الفداء التي أكملها كابن الله المتجسد.

و يلاحظ القارىء كيف جعل ق. يوحنا هذه الآية: «وآيات أُخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه»، تأتي ملتحمة بشهادة القديس توما «**ربي وإلهي**»، لكي تصير كنموذج يؤكد به للقارىء القصد من كل الآيات التي اختارها وسجَّلها: «لتؤمنوا أن يسوعَ **هو المسيح ابن الله**»، معتبراً أن اعتراف توما بألوهية المسيح هو المعيارُ النهائي للإنجيل كله.

و يعود ق. يوحنا و يذكِّرنا أن إنجيله الذي كتبه، إنما لا يمثِّل كل أعمال الرب، بل هو مختارات من آياته قولاً وعملاً، وكأنما يعتذر ق. يوحنا للقارىء الذي كان يريد أن يطَّلع على كل أعمال الرب. فهو بصريح العبارة يعترف أنه لم يكتب سيرة المسيح = **Biography**، ولكن اختار للقارىء، الذي يريد أن يؤمن بابن الله ويكون له الحياة الأبدية، ما يكفي لإيمانه. أما بقية أمجاد المسيح وأعماله فهو يتركها للمؤمن لكي يستلمها من المسيح رأساً، ألم يستلم بولس الرسول ما يكاد أن يكون إنجيلاً بأكمله، ما لم يستلمه الآخرون؟ إذن، يكفي للقديس يوحنا أن يوصِّلنا إلى المسيح الحيِّ، والباقي يتركه للمسيح الذي حسب قول القديس بولس الذي لم يَرَهُ: «أحبني وأسلم نفسه لأجلي.» (غل٢: ٢٠)

وهذا الأسلوب أيضاً نقرأه للقديس لوقا: «و بأشياء أُخر كثيرة كان يَعظ الشعب و يبشِّرهم.»

(لو٣:١٨)

وفي هذه اللفتة العميقة في نهاية إنجيله، يريد ق. يوحنا أن يسرِّب إلى وجداننا «**غِنَى المسيح الذي لا يُسْتقْصَى**» (أف٣:٨)، والملء الذي يملأ الكل (أف١:٢٣)، من ذا الذي يستطيع أن يحيط به؟؟

وق. يوحنا بهذا التقرير، إنما يلفت نظرنا إلى استعداد المسيح أن يكمِّل ويستزيد من الآيات والعلم والمعرفة لمن أصبح مستحقاً للكمال والاستزادة، أليس هو القائل: «إن لي أموراً كثيرة أيضاً، لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن» (يو١٦:١٢)؟

٢٠:٣١ **«وأمَّا هذِهِ فقد كُتِبَتْ لتُؤمِنُوا أنَّ يَسُوعَ هُوَ المَسِيحُ ٱبنُ الله، ولكي تكونَ لكُم إذا آمَنتُم حياةٌ باسمِهِ».**

هدفان أساسيان كانا يعملان في قلب هذا القديس ويملكان عليه كل تفكيره، عندما كان يكتب إنجيله، لكي يخرج بهما القارىء من قراءته:

الأول: الإيمان بيسوع أنه هو المسيح ابن الله، وهذا هو جوهر المسيحية.

الثاني: وهو مترتِّب على الأول، أن تكون له حياة أبدية، وهذا هو جوهر الخلاص، فلا مسيحية بدون خلاص.

أما الهدف الأول، وهو الإيمان بأن يسوع هو المسيح ابن الله، فاعتبره ق. يوحنا في رسالته الأولى أنه هو غلَبَة العالم: «من هو الذي يغلب العالم إلاَّ الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله.» (١يو٥:٥)

ما معنى هذا؟ معناه أن العالم بأمجاده وغروره وشهواته قادر أن يبتلع حياة الإنسان، وأنه لا توجد أية قوة أو وسيلة تنقذ الإنسان من طغيان العالم، إلاَّ الإيمان بابن الله! لماذا؟ لأنه هو الذي تجسَّد وصار إنساناً، وغلب العالم بموته عن العالم: «**ثقوا أنا قد غلبت العالم.**» (يو١٦:٣٣)

وما هي غلبة العالم؟ هي الحصول على الحياة الأبدية مع الله، التي لا يمكن أن يعرفها العالم أو يعطيها. فالمسيح، وهو ابن الله، مات عن العالم وقام حيًّا، إذ كان لا بد أن يقوم، فافتتح بحياته الحياة الأبدية لكل من يؤمن بموته (يسوع) وقيامته (المسيح ابن الله).

وهكذا، فالهدف الثاني الذي من أجله كتب ق. يوحنا إنجيله: أن **«تكون لكم، إذا آمنتم، حياة باسمه»**. فـ**«الإيمان»** بالمسيح ابن الله يحمل في شهادته غلبة المسيح على العالم، يحمل قوة موت المسيح عن العالم، كما يحمل قوة قيامة المسيح من الأموات، أي يحمل الخلاص بكل معناه ومَبْناه، وبالتالي يحمل حياة المسيح ابن الله التي انفتحت على كل من يؤمن به: «لكي لا يهلك كلُّ من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية.» (يو٣: ١٥)

«حياة باسمه»:

اسم المسيح حينما ننطقه فهو شهادة، واعتراف، وصكُّ إيمان، وشركة معه بالحب في موته وحياته.

واسم الله، بحسب لاهوت العهد القديم، هو الله حاضراً وقائماً وفعّالاً. لذلك كان محظوراً أن ينطق اليهوديُّ باسمه(٢٥)، لأن النطق باسم الله هو استدعاء لحضرته، أو بمثابة الدخول في حضرته التي لا يطيقها أي إنسان مهما كان طاهراً. أما اسم المسيح، وهو على التوازي، بل التساوي مع اسم الله، فهو الحامل لحضرة المسيح الحي. ولكن المسيح مات من أجل كل خاطىء ليُحْييه: «إني أنا حيٌّ فأنتم ستحيون» (يو١٤: ١٩)، لذلك أصبح اسم المسيح الذي يحمل وجوده الشخصي، هو هو الحياة الأبدية.

ق. يوحنا يحاصرنا منذ بدء إنجيله بهذه الحقيقة، حيث يبدأ في تعريفنا بالمسيح، وهو الكلمة اللوغُس بقوله: «فيه كانت الحياة»، ولما تجسَّد وابتدأ «يتكلم»، قال هو عن نفسه: «إن الكلام الذي أُكلمكم به هو روحٌ وحياةٌ» (يو٦: ٦٣)، ولما تكلم مع الأعمى أبصر، ولما سمع لعازرُ الميتُ صوتَه، قام حيًّا. هذا هو المسيح الذي يقدمه للقارىء في ختام إنجيله: «لكي تكون لكم، إذا آمنتم، حياة باسمه».

(٢٥) الرجاء الرجوع إلى المدخل لشرح إنجيل يوحنا فصل "أنا هو"، ص٢٢١.

الصورة الإنجيلية العامة لظهورات الرب،

والتسجيلات التي ازدحمت بها أسفار العهد الجديد عن مفردات عقيدة القيامة

بحسب الإيمان الذي ورثته الكنيسة من شهادة الرسل والتلاميذ

حتى كتابة إنجيل يوحنا سنة ٩٥ـــ١٠٠م

وكلها بشهادة شهود، وبالتدرج بحسب التاريخ الزمني تقريباً

١ ـــ «ولما قالت هذا، التفتت إلى الوراء، فنظرت يسوع واقفاً ولم تعلم أنه يسوع. **فقال لها يسوع: يا امرأة لماذا تبكين، مَنْ تطلبين،** فظنت تلك أنه البستاني فقالت له: يا سيد، إن كنت أنت قد حملته، فقُلْ لي أين وضعته، وأنا آخذه. **قال لها يسوع: يا مريم،** فالتفتت تلك وقالت له: رَبُّوني، الذي تفسيره يا معلِّم ... **فجاءت مريم المجدلية وأخبرت التلاميذ أنها رأت الرب، وأنه قال لها هذا.**» (يو٢٠: ١٤ـــ١٨)

+ ظلت حواء تبكي على الفردوس المفقود، وتطلب لنفسها ذلك الفادي الذي يعود بها إلى شجرة الحياة، حتى وُلِدَ لها في المجدل بِنْتٌ ورثت بكاءها في طلب الفادي. هذه لما رأته رؤيا العين ظنته البستاني، مع أنه هو هو شجرة الحياة بعينها. ناداها باسمها، فعرفت فيه صوت الله. ولما أرادت أن تأخذه لنفسها، أرسلها لتدعو آدم أولاً.

٢ ـــ «فحينئذ دخل أيضاً التلميذ الآخر (يوحنا)، الذي جاء أولاً إلى القبر **ورأى فآمن.**» (يو٢٠: ٨)

+ أول إيمان ورثته الكنيسة، ورثته من قلب التلميذ المحبوب. لم يَرَ المسيح، ولم يَرَ الجسد، بل رأى قبراً فارغاً ولفائف ملفوفة بلفَّتها في مكان الجسد وبوضعه. فأدرك القيامة، قبل أن يرى القائم من الأموات، ووثق بنصرة الحياة على الموت، قبل أن يشهد ويرى ويلمس الحياة التي كانت عند الآب. إيمانه صار إيمان الكنيسة، إيمان الحب والبتولية، إذ جعلت الرهبنة أساساً لها، ولا تزال ترضع من ثدي تعزيات آباء الصحاري، والقيامة هي لنا ـــ كما كانت لهم ـــ حياتنا كلِّنا ورجاؤنا كلِّنا.

٣ ـــ «جاء يسوع، ووقف في الوسط، وقال لهم: سلامٌ لكم. ولما قال هذا، أراهم يديه وجَنْبَه، ففرح التلاميذ، إذ رأوا الربَّ.» (يو٢٠: ١٩و٢٠)

+ أول تسجيل جماعي للقيامة: الكنيسة الأولى بالأحد عشر وُلدت، فاقدةً للخائن، فصدق فيها القول أنها بلا عيب كسيِّدها. ظهورُ المسيح المُقَامِ مِلْكٌ لكلِّ مَنْ يراه؛ فلا يقول أحدٌ بَعْدُ لأخيه اعرف الرب، لأن «الجميع يكونون متعلِّمين من الله» (راجع يو٦: ٤٥). أراهم يديه ملآنة جروحاً، ومن الجروح يفيض شِبَعُ سرور، وأراهم أيضاً جنبه المفتوح نابعاً منه «نهر صافٍ من ماء حياة لامعاً كبلُّورٍ خارجاً من عَرْشِ الله والخروف.» (رؤ٢٢: ١)

٤ــ «فأجاب الملاك وقال للمرأتين: لا تخافا أنتما، فإني أعلم أنكما تطلبان **يسوع المصلوب. ليس هو ههنا، لأنه قام** كما قال، هلمَّا انظرا الموضع الذي كان الرب **مضطجعاً فيه**، واذهبا سريعاً **قولا لتلاميذه إنه قد قام من الأموات** ... وفيما هما منطلقتان لتخبرا تلاميذه، إذا يسوع لاقاهما، وقال: سلامٌ لكما. فتقدَّمتا وأمسَكَتا بقدميه وسجدتا له. فقال لهما يسوع: لا تخافا، اذهبا قولا لإخوتي أن يذهبوا إلى الجليل وهناك يرونني.» (مت٢٨: ٥ــ١٠)

+ شهادة الملاك بقيامة الرب تُحدِّث عن صدى القيامة، كيف أُذيعت أولاً في السموات، والنسوة كنَّ أول من تلقَّين الخبر على الأرض من فم الملاك. امتزج عندهما الخوف بالفرح العظيم، لما علمتا بالقيامة، فمهَّد الفرح العظيم في قلبيهما لانفتاح أعينهما لرؤية الرب لما لاقاهما. فلما أمسكتا بقدميه كانتا كمن أمسكتا بالحياة الأبدية، وسجدتا، وكان سجودهما أول عبادة بالروح قُدِّمت للمسيح على الأرض. وانطلقت حواء تبشر آدم بالعودة إلى الفردوس.

٥ــ «**وإذا اثنان منهم** كانا منطلقين في ذلك اليوم إلى قرية بعيدة عن أورشليم ستين غلوة اسمها عمواس ... وفيما هما يتكلمان ويتحاوران **اقترب إليهما يسوع نفسه وكان يمشي معهما.** ولكن أُمسكت أعينهما عن معرفته ... فقال لهما: **أيها الغبيَّان والبطيئا القلوب في الإيمان** بجميع ما تكلم به الأنبياء، أمَا كان ينبغي أن المسيح يتألم بهذا ويدخل إلى مجده. ثم ابتدأ من موسى ومن جميع الأنبياء، يفسِّر لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب ... فلما اتكأ معهما، أخذ خبزاً، وبارك، وكسَّر، وناولهما، **فانفتحت أعينهما، وعرفاه، ثم اختفى عنهما** ... فقاما في تلك الساعة (في الغروب) ورجعا إلى أورشليم، ووجدا الأحد عشر مجتمعين هم والذين معهم، **وهم يقولون إن الرب قام بالحقيقة وظهر لسمعان.** وأما هما فكانا يخبران بما حدث في الطريق، وكيف عرفاه عند كَسْرِ الخبز.» (لو٢٤: ١٣ــ٣٥)

+ القيامة أنشأت هيئة أخرى جديدة للإنسان تختلف عن هيئته الأُولى، لأن نوع الحياة تغيَّرت، فبيئة الأرض شيءٌ نحن نعلمه، وبيئة القيامة هي السماء. وحواسنا لم تتدرب على معرفة السمائيات بعد، إلاَّ كعطية خاصة.

+ باثنين معاً تصحُّ الشهادة بقيامة الرب، كانا منطلقين نحو عالم الإنسان، واليأسُ يملأ قلبيهما، بنية العودة إلى العمل اليومي شبه المائت. قابلهما الرب في منتصف الطريق ليردَّهما مرة أخرى إلى الصليب والبشارة بقيامته، كانت عبوستهما نوعاً من الغباء الذي تُنشئه القراءة في الأسفار دون معرفة وإيمان. والقيامة تسير بجوارهما على استعداد أن تتجاوزهما، إن هما أبطآ أكثر في غبائهما. ولكن إلحاحهما وتوسلهما ومحبتهما للغرباء واستعداد ضيافتهما، أنقذهما من ابتعاد القيامة عنهما. فلما ألزما القيامة أن تحلَّ عندهما ــ حتى في جهلهما بها ــ حلَّتْ، ولم تَسْتعْلن نفسها لهما إلاَّ في الإفخارستيا، وفي لحظة القسمة، أي كسر الخبز.

والغبيان صارا عالمينْ بسِرِّ الله، والبطيئا الإيمان في القلب انطلقا بالشهادة.

٦ ــ «وأما الأحد عشر تلميذاً فانطلقوا إلى الجليل إلى الجبل، **حيث أمرهم يسوع. ولما رأوه سجدوا له**، ولكن بعضهم شكُّوا. **فتقدم يسوع وكلمهم قائلاً: دُفع إليَّ كلُّ سلطان في السماء وعلى الأرض. فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس.**» (مت٢٨: ١٦ــ١٩)

+ استعلان القيامة يُنشيءُ في الحال عند الإنسان روحَ عبادةٍ حارة لا تنطفيء، لأنه يسكن القلب: «وإن كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكناً فيكم، فالذي أقام المسيح من الأموات سيُحيي أجسادكم المائتة أيضاً بروحه الساكن فيكم» (رو٨: ١١). واستعلان القيامة هو استعلانٌ لسلطان المسيح المتفوِّق على السماء والأرض. واستعلان سلطان المسيح يتحول في القلب إلى قوة كرازية، تكفي لكرازة جميع الأمم، ولصَبْغ كل من يؤمن بصبغة الحياة الأبدية.

٧ ــ «وبعد ثمانية أيام كان تلاميذه أيضاً داخلاً وتوما معهم. فجاء يسوع والأبواب مغلقة، ووقف في الوسط وقال: سلامٌ لكم. ثم قال لتوما: هاتِ إصبعك إلى هنا، وأبصر يديَّ، وهاتِ يدك وضَعْها في جنبي، ولا تكُنْ غيْرَ مؤمنٍ بل مؤمناً. أجاب توما وقال له: ربي وإلهي.» (يو٢٠: ٢٦ــ٢٨)

+ القيامة أعطت الإنسان الجديد سلطاناً على مغاليق عقلٍ وقلب وباب العالم، وحرَّرته من

قيود وقوانين الطبيعة. وغيابُ القيامة أنشأ الخوف والرعبة في قلب التلاميذ، فالإيمان بالصليب بدون القيامة لا يغيِّر شيئاً من طبيعة الإنسان العتيق.

دخول القيامة في القلب الخائف المغلّق يعطيه «**السلام**». توما هو نظير العالم الشكّاك. وأصبع الشك إذ تلامس مع إصبع الله في جُرْح الصليب، أنتج الإيمان بربوبية المسيح. واليدُ الجاحدة حينما مسّت الجنبَ المفتوح، أحسّت بدم الفداء النازفِ من القلب المطعون، فحقّ لها الصراخ بألوهية الفادي.

٨ ــ «بعد هذا أظهر أيضاً يسوعُ نفسَه للتلاميذ على بحر طبرية ... فقال لهم يسوع: يا غِلْمان، ألعل عندكم إداماً (صَيْد)، أجابوه: لا. **فقال لهم: ألقوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن،** فتجدوا. فألقوا، ولم يعودوا يقدرون أن يجذبوها من كثرة السمك. فقال ذلك التلميذ الذي كان يسوع يحبه لبطرس: **هو الرب** ...» (يو٢١: ١ــ٢٤). حينئذ جرى حديث المسيح للقديس بطرس خاصة.

+ واضح أن القيامة هنا تعتمد على فعل فائق من جهة المسيح، يجعل جسده ظاهراً لمن يختاره لكي يراه، رؤية طبيعية بحواسه الطبيعية، وإنما بفعل وسيط من طرف المسيح.

القيامة هنا للتلاميذ الحانثين والراجعين إلى مهنتهم القديمة في الصيد، بعد أن قال لهم: هلم أجعلكم صيادين للناس، هي لتوبيخهم وردّهم إلى السير المستقيم. فالمركب هي السيرة، والصيد في الشمال هو الانحراف نحو الخطأ والفشل الذي انتهى بهم إلى الإخفاق **الكلي**. والصيد على اليمين، هو تعديل المسار لصيد الناس، والكرازة بالذي يلهمهم الصواب، وليس بهواجس الفكر والجري وراء الذات. والصيد الكثير، هو الصيد الروحي. والمئة والثلاث والخمسون سمكة: الثلاث سمكات لليهودية والمائة والخمسون لشعوب الأرض كلها.

٩ ــ «الكلام الأول أنشأتُه يا ثاوفيلس عن جميع ما ابتدأ يسوع يفعله و يعلّم به إلى اليوم الذي ارتفع فيه، بعدما أوصى بالروح القدس الرسل الذين اختارهم، الذين أراهم أيضاً نفسه حيًّا ببراهين كثيرة، **بعدما تألم، وهو يظهر لهم أربعين يوماً، ويتكلم عن الأمور المختصّة بملكوت الله**...» (أع١: ١ــ٣)

+ القيامة هنا كان لها عملان رئيسيان: الأول استعلان شخصيته القائمة من الأموات ببراهين

كثيرة ولمدة طويلة ولأشخاص مُنتخَبين قادرين على الشهادة. والثاني استكمال استعلان الأمور المختصة بملكوت الله التي كان قد أجّل التعليم بها.

١٠ ــ «فينبغي أن الرجال الذين اجتمعوا معنا كل الزمان الذي فيه دخل إلينا الرب يسوع وخرج، منذ معمودية يوحنا **إلى اليوم الذي ارتفع فيه عنا، يصير واحدٌ منهم شاهداً معنا بقيامته...**» (أع ١: ٢١و٢٢)

+ واضح هنا أن التلاميذ أحسُّوا بعظم أهمية الشهادة الكاملة لقيامة الرب كعمل كرازي بالأساس، للكنيسة التي هي عامود الحق وقاعدته المؤسسة على الاثني عشر رسولاً. كما أنه واضح، هنا، ذِكْرُ الصعود، باعتباره الارتفاع الذي به أنهى المسيح رسالته التعليمية ووجوده المنظور على الأرض الدنيا، كما رأوه بأعينهم.

١١ ــ «يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قِبَلِ الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم، كما أنتم أيضاً تعلمون. هذا أخذتموه مُسلَّماً بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق، وبأيدي أثمةٍ صلبتموه وقتلتموه. **الذي أقامه الله ناقضاً أوجاع الموت إذ لم يكن ممكناً أن يُمسك منه.**» (أع ٢: ٢٢ــ٢٤)

+ هنا يعلن القديس بطرس أن عملية الصلب والموت هي أصلاً خطة موضوعة بمشورة الله، تُصوِّرها النبوات، وكلُّ دقائقها محسوبة حَسَبَ علم الله السابق، وكذلك بالضرورة قيامته المرسومة بكل تأكيد. فالله، بعد أن أكمل بالمسيح ابنه عقوبة الموت وأوجاعه على بني الإنسان، فألغى العقوبة، أقام المسيح من الموت الذي لم يكن ممكناً أن يُمسَك منه، لأنه حيٌّ بالله، فقام منتصراً على عدو الإنسان الأول والأخير الذي هو الموت.

١٢ ــ «أيها الرجال الإخوة يَسُوغُ أن يُقال لكم جهاراً عن رئيس الآباء داود إنه مات ودُفن، وقبره عندنا حتى هذا اليوم. فإذ كان نبيًّا وعلم أن الله حَلَفَ له بقَسَمٍ أنه من ثمرة صُلْبِه يقيم المسيح حسب الجسد ليجلس على كرسيه، **سبق فرأى وتكلم عن قيامة المسيح أنه لم تُترك نفسه في الهاوية ولا رأى جسده فساداً. فيسوع هذا أقامه الله ونحن جميعاً شهود لذلك.**» (أع ٢: ٢٩ــ٣٢)

+ قول داود: «ولن تَدَعَ قدُّوسك يرى فساداً» لم يكن على داود، لأن داود أكله الدود، ولكن هذه النبوة استُعْلِنَت بكل وضوح وقوة في قيامة الرب من الأموات، التي أعْلَنَت في الحال أن الجسد

لم يَفْسَد، فصارت هذه النبوة هي التي تشير إلى القيامة مباشرة، والتي استشهد بها الرسل والتلاميذ بكلمة «حسب الكتب».

١٣ ــ «ولكن أنتم أنكرتُم القدُّوس البارّ، وطلبتم أن يوهَبَ لكم رجل قاتل. ورئيس الحياة قتلتموه، **الذي أقامه الله من الأموات ونحن شهود لذلك.**» (أع٣: ١٤و١٥)

+ هنا القيامة من الأموات جاءت في مواجهة إنكارٍ لقداسة المسيح وبرّه والتجرؤ الأعمى على قتل مَنْ هو في الحقيقة رئيس الحياة.

١٤ ــ «إليكم أولاً **إذ أقام الله فتاه يسوع**، أرسله يبارككم بردّ كلّ واحد منكم عن شروره.» (أع٣: ٢٦)

+ أصبحت قيامة المسيح استمراراً لكرازة المسيح، على مستوى التبكيت للتوبة والرجوع عن الخطية.

١٥ ــ «وبينما هما يخاطبان الشعب، أقْبَل عليهما الكهنةُ وقائدُ جُنْدِ الهيكل والصدوقيون، متضجرين من تعليمهما الشعب وندائهما في يسوع بالقيامة من الأموات.» (أع٤: ١و٢)

+ القيامة من الأموات صارت المسامير التي تُدَقُّ كل يوم في قلب رؤساء الكهنة، وطعنة موجعة في جنب الصدوقيين.

١٦ ــ «فليكن معلوماً عند جميعكم وجميع شعب إسرائيل، أنه **باسم يسوع المسيح الناصري الذي صلبتموه أنتم الذي أقامه الله من الأموات**، بذاك **وقف هذا أمامكم صحيحاً**. هذا هو الحجر الذي احتقرتموه، أيها البناؤون، الذي صار رأس الزاوية. وليس بأحد غيره الخلاص. لأن ليس اسمٌ آخر تحت السماء قد أُعطي بين الناس به ينبغي أن نخلص.» (أع٤: ١٠ــ١٢)

+ أول فاعلية ظهرت واستُعْلِنَتْ علناً نتيجة لقيامة المسيح من الأموات، كانت في «**قوة اسم**» يسوع المسيح، الذي بمجرد أن استدعاه بطرس حلَّت قوة قيامة المسيح على الأعرج من بطن أمه، **فقام** في الحال ومشى وجرى أمام الناس. فصار معلوماً أن الدعاء **باسم** المسيح المُقَام من

الأموات، هو بمثابة حضور المسيح شخصياً و برهان دائم بقيامته. والإيمان بالقيامة، صار القوة الأساسية للكرازة بالعهد الجديد: «و بقوة عظيمة كان الرسل **يؤدُّون الشهادة بقيامة الرب يسوع**، ونعمة عظيمة كانت على جميعهم.» (أع ٤: ٣٣)

١٧ــ «**إله آبائنا أقام يسوع**، الذي أنتم قتلتموه معلّقين إيّاه على خشبة. **هذا رفعه الله بيمينه رئيساً ومخلِّصاً**، ليعطي إسرائيل التوبة وغفران الخطايا، **ونحن شهود له بهذه الأمور**، والروح القدس أيضاً الذي أعطاه الله للذين يطيعونه.» (أع ٥: ٣٠ــ٣٢)

+ القيامة التي قامها المسيح بيمين الله، كوعده للآباء، هي في حقيقتها ارتفاع، أي تمجيد لاستعلان رئاسته الكلية والشاملة على السماء والأرض، ولاستعلان قوة الخلاص العامل للتوبة ومغفرة الخطايا التي كان يعيشها التلاميذ ويمارسونها بتفوق.

١٨ــ «يسوع الذي من الناصرة، كيف مسحه الله بالروح القدس والقوة، الذي جال يصنع خيراً، ويشفي جميع المتسلّط عليهم إبليس، لأن الله كان معه. ونحن شهود بكل ما فعل في كورة اليهودية وفي أورشليم، الذي أيضاً قتلوه مُعلّقين إياه على خشبة. **هذا أقامه الله في اليوم الثالث، وأعطى أن يصير ظاهراً ليس لجميع الشعب، بل لشهودٍ سبق الله فانتخبهم. لنا نحن الذي أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات.**» (أع ١٠: ٣٨ــ٤١)

+ بطرس الرسول يقرر أن القيامة في اليوم الثالث كانت علنية، وصار المسيح ظاهراً، ولكن القيامة انحصرت في أشخاص انتخبهم المسيح ليكونوا شهوداً. هؤلاء أظهر المسيح نفسه لهم؛ ويقرر القديس بطرس أنه هو والتلاميذ أكلوا وشربوا معه بعد قيامته، وذلك إمعاناً في تقرير القيامة الجسدية، وفي حقيقة قيامة «اللحم والعظم»، كما شدد عليها المسيح.

١٩ــ «وأقوال الأنبياء التي تُقرأ كل سبت تمموها إذ حكموا عليه، ومع أنهم لم يجدوا علّة واحدة للموت، طلبوا من بيلاطُس أن يُقتَل. ولما تمموا كل ما كُتب عنه أنزلوه عن الخشبة، و وضعوه في قبر. **ولكن الله أقامه من الأموات، وظهر أياماً كثيرة للذين صعدوا معه من الجليل إلى أورشليم الذين هم شهوده عند الشعب.** ونحن نُبَشِّركم بالموعد الذي صار لآبائنا، إن الله قد أكمل هذا لنا نحن أولادهم، **إذ أقام يسوع كما هو مكتوب** أيضاً في المزمور الثاني... **أنه أقامه من الأموات غير عتيد**

أن يعود أيضاً إلى فساد... وأما الذي أقامه الله فلم يرَ فساداً.» (أع١٣: ٢٧—٣٧)

+ قيامة المسيح بجسده وجروحه عليه، أثبتت صدق النبوة أنه قدوس ولم يرَ فساداً في القبر، لذلك فقيامته هنا نهائية أبدية، لا يمكن أن الموت يسود عليه قط مرة أخرى. وهذا معناه أنه الآن حيٌّ ويبقى حيًّا إلى الأبد، وذلك لأجلنا «وأما أنتم فترونني. إني أنا حيٌّ فأنتم ستحيون» (يو١٤: ١٨). ويشدد بولس الرسول أن المسيح بعد القيامة ظهر أياماً كثيرة للذين اختارهم، ليكونوا شهوداً لدى الشعب والعالم، وبهذا تم وعد الله الذي وعده للآباء ولنا نحن أولادهم.

٢٠ — «إن يؤلَّم المسيح، **يكُنْ هو أول قيامة الأموات**، مزمعاً أن ينادي بنور للشعب وللأمم.» (أع٢٦: ٢٣)

+ القيامة من الأموات تستعلن أن آلامه وموته كانا فدائيين، وهذه أول قيامة حدثت في تاريخ الإنسان، وهدفها إنارة اليهود والعالم.

٢١ — «فإنني سلَّمتُ إليكم في الأول ما قبلتُه أنا أيضاً، أن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب، وأنه دُفن، **وأنه قام في اليوم الثالث حسب الكتب. وأنه ظهر لصفا، ثم للاثني عشر. وبعد ذلك ظهر دفعة واحدة لأكثر من خمسمئة أخ، أكثرهم باقٍ إلى الآن، ولكن بعضهم قد رقدوا. وبعد ذلك ظهر ليعقوب ثم للرسل أجمعين. وآخِر الكل كأنه للسِّقْطِ ظهر لي أنا.**» (١كو١٥: ٣—٨)

+ بولس الرسول يصنِّف ظهورات الرب هكذا: ظهر أولاً لبطرس، ثم الاثني عشر تلميذاً (ناقص واحد وهو يهوذا)، وهم الأخصاء جداً، ثم ظهر مرة واحدة لخمسمئة من الأخصاء التلاميذ كانوا مجتمعين، وبولس يعرف أكثرهم وربما قابلهم. وبعد ذلك ظهر ليعقوب، وواضح أنه أخو الرب، ثم ظهر لكل الرسل، وواضح أنه ظهر لهم تباعاً وليس مرة واحدة، وأخيراً ظهر له. ويبدو أن ظهور الرب لبولس الرسول هنا: «أما رأيتُ الربَّ» هو غير الرؤية التي رآها وهو في طريقه إلى دمشق. وكان منطوق الاعتراف الإيماني الذي رسخ بالتسليم في الكنيسة الذي استلمه بولس من الرسل، يضم أربع فقرات: أن المسيح مات من أجل خطايانا، وأنه دُفِنَ لثلاثة أيام في القبر، وأنه قام في اليوم الثالث، وأنه ظهر. وهذا الإيمان مُوَقَّع على نبوات الكتب المقدسة.

٢٢ — **«ولكن إن كان المسيح يُكرَزُ به أنه قام من الأموات، فكيف يقول قومٌ بينكم إن ليس قيامة أموات. فإن لم تكن قيامة أمواتٍ، فلا يكون المسيح قد قام،**

وإن لم يكُنْ المسيح قد قام، فباطلة كرازتنا وباطل أيضاً إيمانكم، ونوجد نحن أيضاً شهودَ زورٍ لله، لأننا شهدنا من جهة الله أنه أقام المسيح.» (١ كو١٥: ١٢ـ١٥)

+ نحن نؤمن بقيامة الأموات، لأن المسيح مات من أجلنا، وليس من أجل نفسه، وقام من أجلنا لأنه هو القيامة وجوهرها؛ وكان لا يمكن أن يبقى في الموت، فقيامة المسيح هي قيامتنا. فإن كنا لا نقوم، يكون هذا معناه أن المسيح لم يَقُمْ من الموت، وهذا تجديفٌ على المسيح، وتكذيبٌ للرسل، ولكل الذين شهدوا بقيامته.

٢٣ ــ **«وتعيَّن ابنَ الله، بقوة، من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات: يسوع المسيح ربنا.»** (رو١: ٤)

+ القيامة من الأموات استعْلَنت الروح القدس الذي أقامه، والروح القدس بالتالي استعلن حقيقة بُنُوَّته لله التي كرز بها.

٢٤ ــ «بل من أجلنا نحن أيضاً، الذين سيُحْسَبُ لنا (برًّا)، الذين نؤمن **بمَنْ أقام يسوع ربنا من الأموات**، الذي أُسلم من أجل خطايانا، وأُقيم لأجل تبريرنا.» (رو٤: ٢٤و٢٥)

+ كلُّ مَنْ يؤمن بموت المسيح، يُرفع عنه ثقل خطاياه، وكل مَنْ يؤمن بقيامته بقوة الله يتبرر، كما آمن إبراهيم بأمر الله، فقدّم ابنه للموت على أساس أن الله قادر أن يقيمه من الموت، فحَسِبَ الله له إيمانه برًّا.

٢٥ ــ **«وإن كان روحُ الذي أقام يسوع من الأموات ساكناً فيكم، فالذي أقام المسيح من الأموات سيُحْيي أجسادكم المائتة أيضاً بروحه الساكن فيكم.»** (رو٨: ١١)

+ روح القيامة الذي كان في المسيح وهبه المسيح ليسكن فينا فيُقيمنا من الموت.

٢٦ ــ **«والله قد أقام الربّ وسيُقيمنا نحن أيضاً بقوته.»** (١ كو٦: ١٤)

+ الله أقام المسيح بقوة خاصة خُصِّصَتْ من أجلنا.

٢٧ ــ **«عالمين أن الذي أقام الرب يسوع، سيقيمنا نحن أيضاً بيسوع ويُحضرنا معكم.»** (٢كو٤: ١٤)

+ القوة الإلهية التي أقامت جسد المسيح من بين الأموات، هي الآن عاملة فينا بالإيمان بالمسيح.

٢٨ ــ **«وهو مات لأجل الجميع، كي يعيشَ الأحياء فيما بعد، لا لأنفسهم، بل للذي مات لأجلهم وقام.»** (٢كو٥: ١٥)

+ كنا نعيش كأموات للخطية، فمات لأجلنا لنعيش كأحياء له.

٢٩ ــ **«لأنه لهذا مات المسيح وقام وعاش، لكي يسود علي الأحياء والأموات.»** (رو١٤: ٩)

+ كان الأموات في الخطية أحراراً من المسيح، فلما مات المسيح من أجل الخطاة مَلَكَ على الأموات ليُحييهم.

٣٠ ــ **«لأنه إن كنا نؤمن أن يسوع مات وقام، فكذلك الراقدون بيسوع، سيُحْضِرُهم أيضاً معه.»** (١تس٤: ١٤)

+ الذين ماتوا في الإيمان بالمسيح، هم الآن أحياء معه وسيظهرون معه.

٣١ ــ **«إن كنتم قد قمتم مع المسيح، فاطلبوا ما فوق، حيث المسيح جالس عن يمين الله.»** (كو٣: ١)

+ الذين يؤمنون بقيامة المسيح وجلوسه عن يمين الله، ارتبطت قلوبهم به.

٣٢ ــ «الذي مثاله (مِثَالُ فُلْك نوح) يُخلِّصنا نحن الآن ــ أي المعمودية ــ لا إزالة وسخ الجسد، بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح **الذي هو في يمين الله، إذ قد مضى إلى السماء وملائكة وسلاطين وقواتٌ مُخْضَعةٌ له.»** (١بط٣: ٢١و٢٢)

+ المعمودية أساسها دمُ المسيح الذي يطهِّر ضمير الإنسان تجاه الله، لأن المسيح دخل إلى

الأقداس العليا ودمه عليه.

٣٣ ــ «اذكر يسوع المسيح المُقَام من الأموات من نسل داود بحسب إنجيلي.» (٢تي٢:٨)

+ ذِكْرُ قيامة المسيح بصورة منطبعة على القلب والذهن، هي أساس الحياة الجديدة للإنسان.

٣٤ ــ «وإله السلام الذي أقام من الأموات راعي الخراف العظيم ربنا يسوع بدم العهد الأبدي...» (عب١٣: ٢٠)

+ الله أقام المسيح بصفته الراعي ورئيس الكهنة الأعظم، أقامه ودمه عليه كعهدٍ جديدٍ أبديّ للسلام بين الله والإنسان.



بحيرة طبرية (الجزء الغربي من بحر الجليل)

«بعد هذا أظهر أيضاً يسوع نفسه للتلاميذ على بحر طبرية.» (يو٢١: ١)

مكان البشارة:
ثاني عشر ـ بعد القيامة
في الجليل

الأصحاح الحادي والعشرون

خامساً ـ صور مستيكية لمستقبل الكنيسة الرسولية

موضوع الأصحاح الحادي والعشرين في إنجيل القديس يوحنا:

كثير من الشراح عثروا في هذا الأصحاح، واعتبروه أنه مُضاف بيدٍ غير يد ق. يوحنا. ولكن يتفق أكثر التقليديين منهم أنه من وضع ق. يوحنا وبنفس أسلوبه ولغته وبعض تعبيراته المحبَّبة إليه(١).

والسبب الذي حدا بقول هؤلاء أنه مضاف بيد آخر، هو الأصحاح العشرون الذي أتى بخاتمة واضحة لرواية الإنجيل. ولكن إنجيل يوحنا، كإنجيل بحسب التقليد الرسولي، لا ينتهي عند آيات ظهور الرب لتلاميذه، بل هو يذكر حتماً الإرسالية للعالم والأمم كنهاية للإنجيل باعتباره البشارة المفرحة التي يلزم توصيلها تحت رعاية المسيح وبوعد مؤازرته، بل وبدوام حضوره، وذلك مثلما أتى ذكرُها (أي ذِكْرُ الإرسالية) في الأناجيل الثلاثة على مستوى الأمر:

إنجيل القديس متى: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلِّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به. وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر. آمين.» (مت٢٨: ١٩و٢٠)

إنجيل القديس مرقس: «اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها، مَنْ آمن واعتمد خَلَصَ ومَنْ لم يؤمنْ يُدَنْ. وهذه الآيات تتبع المؤمنين. يُخْرِجُون الشياطين باسمي، ويتكلمون بألسنة جديدة، يحملون حيَّاتٍ، وإنْ شربوا شيئاً مميتاً لا يضرُّهم، ويضعون أيديهم على المرضى فيبرأون. ثم إن الرب بعد ما كلَّمهم، ارتفع إلى السماء، وجلس عن يمين الله.» (مر١٦: ١٥ــ١٩)

إنجيل القديس لوقا: «حينئذ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب (أسفار العهد القديم)، وقال لهم: هكذا هو مكتوب وهكذا كان ينبغي، أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات في اليوم الثالث وأن

---

1 Westcott, Plummer, & Hoskyns.

يُكْرَز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم، مبتدأً من أورشليم، وأنتم شهود لذلك. وها أنا أرسل إليكم موعد أبي، فأقيموا في مدينة أورشليم إلى أن تُلْبَسُوا قوّة من الأعالي. وأخْرَجَهُم خارجاً إلى بيت عنيا، ورفع يديه، وباركهم؛ وفيما هو يباركهم انفرد عنهم، وأُصعد إلى السماء.» (لو٢٤: ٤٥ـ ٥١)

ولكن بشيء من التدقيق، نكتشف أن القديس لوقا سجل لنفس هذه الخاتمة كتاباً آخر بأكمله، هو سفر الأعمال، ذاكراً فيه ظهور الرب وبركته للتلاميذ وإرساليته لهم والوعد بالروح القدس ومؤازرته لهم بقوة من الأعالي، ثم كرازة التلاميذ في أورشليم والسامرة، وإلى روما وأقصى الأرض؛ ومسجّلاً للمسيح صوراً رائعة لحضوره أثناء خدمة التلاميذ وتوعيته لهم وتشجيعهم.

ولكن ينفرد إنجيل يوحنا في تقديم هذه الخاتمة عينها، وإنما في رموز من داخل قصة وحديث.

فالحقائق الجوهرية المختبئة في الرموز هي:

(أ) الإرسالية إلى العالم، ككنيسة معذّبة في ليل التجارب، وتحت خطر الاعتماد على القدرات البشرية،

(ب) ثم حضور الرب الفعلي، بعد دروس التجارب، وإعطاء المشورة الحسنة في وقتها الحسن،

(ج) وطاعة الكنيسة لوصية المخلّص على رجاء قوة كلمته وكيف تثمر،

(د) ونجاح الكنيسة في اكتساب الأعداد الضخمة بقوة سرية تفوق التوقُّعات،

(هـ) ذلك كله بوسائل الكرازة البسيطة وأميّة التلاميذ، التي وراءها صنّارة الروح القدس.

(و) وعيد الكنيسة الإفخارستي، الذي يكلّل العمل بحضور الرب وخُبْزُه جاهزٌ في يديه يُشْعِلُ القلوب بجمر محبته.

أما الرموز في داخل القصة فهي في المقابل حرف بحرف أَلِفٌ بأَلِف وباءٌ بباء:

(أ) قصة صيد سمك دعا إليه القديس بطرس، تعذبوا فيه طول الليل ولم يصطادوا شيئاً.

(ب) في الصباح وقرب الشاطىء ظهر الرب، وقال: ألقوا الشبكة على الجانب الأيمن.

(ج) فألقوا الشبكة بالفعل على الجانب الأيمن.

(د) وجذبوا الشبكة، وإذ هي ممتلئة سمكاً كبيراً ١٥٣ عدًّا.

(هـ) ولم تتخرّق الشبكة مع هذه الكثرة من السمك.

(و) ثم جاء يسوع، وأخذ الخبز، وأعطاهم، وكذلك السمك: ونظروا جمراً موضوعاً.

ثم يعود ق. يوحنا، وعلى ضوء قصة صيد السمك، يقدم حواراً حيًّا بين المسيح والكنيسة، ممثّلة في بطرس، وهو في أضعف حالاته، يُوصيها فيه بالرعية التي آؤتمنت عليها، وشروط الراعي:

(أ) المُرْسَلُ والخادم، الشرط الأساسي لتقدُّمه على الآخرين أن يكون أكثرهم حباً للمسيح: «يا سمعان بن يونا أتحبني أكثر من هؤلاء؟ ... **أطعمْ حملاني**».

(ب) والكنيسة، رأس مالها في الرعاية هو محبة المسيح: «يا سمعان بن يونا أتحبني؟ ... **ارعَ غنمي**.»

(ج) والكنيسة، قمة مسئوليتها هي أن تُطعم كل الرعيَّة من فائض حبها: «يا سمعان بن يونا أتحبني؟ **أطعم غنمي**».

ثم يعود ق. يوحنا أيضاً ليعطي، من خلال اللغة السرية، كيف يتقدم الخادم أو الكارز، وبالتالي الكنيسة، من حداثة الاعتماد على الذات إلى رزانة التسليم المطلق للروح القدس، لكي يُقتادَ بالروح حتى ضد هواه ليتبع المسيح حتى الصليب:

«لما كُنتَ أكثر حداثة (في الروح) كنت تُمَنْطِقُ ذاتك، وتمشي حيث تشاء؛ ولكن متى شِخْتَ، فإنك تمدُّ يديك، وآخر يُمَنْطِقُك، ويحملك حيث لا تشاء. قال هذا مشيراً إلى أية ميتة كان مزمعاً أن يمجّد الله بها. ولما قال هذا قال له: اتبعني.» (يو٢١: ١٨و١٩)

وأخيراً يلقي ق. يوحنا ضوءًا على رُكْنَي الكنيسة الأساسيين:

الخدمة العاملة، ويمثلها القديس بطرس، والتي تعيش دائماً بانتظار الصليب.

وحياة التأمل الرهباني، ويمثلها ق. يوحنا، والتي تعيش وتبقى كما هي إلى أن يجيء الرب.

وهكذا، وبالنظرة الفاحصة، نجد أن الأصحاح الأخير في إنجيل يوحنا يستوفي شروط التقليد الرسولي في أصالة خاتمة الإنجيل، بطرح العمل الرسولي في شكله الإرسالي، تحت رعاية المسيح وتدخُّله المباشر، وإعطاء شروطه ومواصفاته، ولكن في قالب القصة وبصياغة رمزية تنطق بالمضمون اللاهوتي والروحي.

تقسيم الأصحاح:

ينقسم الأصحاح إلى ثلاثة أقسام:

الأول: المسيح والتلاميذ: (٢١: ١ــ١٤).

الثاني: المسيح والقديس بطرس: (٢١: ١٥ــ١٩).

الثالث: المسيح والقديس يوحنا: (٢١: ٢٠ــ٢٣).

القسم الأول

المسيح والتلاميذ

(٢١ : ١ ــ ١٣)

١ : ٢١ «بعدَ هذا أظْهَرَ أيضاً يَسُوعُ نفسَه للتلاميذِ على بحرِ طبريةَ. ظهرَ هكذا».

«بعد هذا»:

تجيء في هذه الآية لتربط بين ظهورات الرب في أورشليم بعد قيامته مباشرة، وبين ظهوره بعد ذلك في الجليل لتلاميذه أيضاً على بحر طبرية.

«أظْهَرَ أيضاً يسوع نفسه»:

واضح من هذا التعبير أنه بعد القيامة، يكون الجسد الروحي فائقاً عن الحواس البشرية، فلا يمكن رؤيته بالعينين الجسديتين. فلكي يمكن أن يعلن المسيح عن وجوده، يتحتم أن يُخْضِعَ جسده الروحاني للرؤية العينية. وهذا أيضاً ليس بكافٍ، بل يلزم أن تنفتح بصيرة الإنسان الروحية ليتحقق من الرؤية ومن شخص الواقف أمامه، وإلاَّ فلن يمكنه أن يتعرف على شخص الرب؛ وهذا ما يقول عنه الإنجيل في مواضع أخرى عديدة بأنه: «أُمْسِكَ عن عينيه» فلم يرَ أو لم يتعرف على المسيح كالمجدلية، فهي أولاً ظَنَّته أنه البستاني، وبعد ذلك أدركته فقط أنه «المعلّم»، ثم انفتحت بصيرتها وتحققت أنه الرب: «... أنها رأت الرب وأنه قال لها هذا.» (يو٢٠ : ١٨)

فعمليات الظهور التي أجراها المسيح في نفسه بعد القيامة هي عمليات تنازلية يُجريها في نفسه، وهي لا تقل إعجازاً عن بقية المعجزات، وهي قريبة الشبه من التجسد. أما القصد الأساسي منها، فهو الإيمان بأنه انتصر على الموت بنفس الجسد الذي مات به ليفتتح طريق الخلود والحياة الأبدية للبشرية، بأن يَهَبَ قوة قيامته للذين يؤمنون به: «الذي يحبُّني، يحبه أبي، وأنا أحبه، وأُظْهِرُ له ذاتي.» (يو١٤ : ٢١)

ويلاحَظ أن قول الإنجيل: «أظهر أيضاً يسوع نفسه»، يحمل معنى مسرة الإرادة، فالمسيح كان يُظْهِرُ ذاته لأحبائه عن مسرةٍ: «سأراكم أيضاً، فتفرح قلوبكم» (يو١٦ : ٢٢). وإظهار المسيح لنفسه وهو في حالة القيامة، تعني إنجيلياً وبحسب لاهوت ق. يوحنا، أن الحياة الأبدية نفسها قد

استُعْلِنَتْ: «فإن الحياة **أُظْهِرت**، وقد رأينا، ونشهد، ونخبركم **بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظْهِرت لنا**» (١يو١: ٢). فجسد القيامة كان يحمل الحياة الأبدية. وبظهور جسد القيامة، أُظهرت الحياة الأبدية التي كانت مخفية عند الآب. وفي نفس الوقت، فإن ظهور الحياة الأبدية يشمل حتماً وبالضرورة غلبة العالم وغلبة رئيس العالم: «لأجل هذا أُظهِرَ ابن الله، لكي ينقُض أعمال إبليس.» (١يو٣: ٨)

حينما كان المسيح مع التلاميذ قبل الصليب، كان «يُظْهِرُ لهم مجده»، كما حدث في عُرْسِ قانا الجليل، لكي يتأكدوا من **«لاهوته»**، وأنه **«ابن الله»!!** أما بعد القيامة المحسوبة أنها بحد ذاتها مجدٌ، وأنها برهان بُنُوّته لله (رو١: ٤)، فيكفي أن **يُظْهِرَ نفسه ليتحققوا أنه هو يسوع المسيح.**

حينما كان معهم قبل أن يُصلب، كانوا يقولون له: «يا معلّم، كُلْ»، فكان يرد عليهم: «أنا لي طعام لآكل، لستم تعرفونه أنتم» (يو٤: ٣٢)؛ أما بعد القيامة: «قال لهم: أعندكم ههنا طعام؟ فناولوه جزءًا من سمك مشوي وشيئاً من شهد عسل، فأخذ، وأكل، قُدّامهم.» (لو٢٤: ٤٢و٤٣)

في الأولى، أراد أن ينبه ذهنهم أنه **ليس مجرد إنسان** جاء ليأكل ويشرب، بل ليتمم رسالة إلهية؛ وفي الثانية أراد أن ينبه ذهنهم أنه **لا يزال هو الإنسان**، وأنه في ملء التجلي بالألوهة، وأن القيامة في مجد الله لم تلغ صفاته البشرية.

حينما كان ابن الله معهم قبل الصليب، قيل عنه أنه «الله ظهر في الجسد» (١تي٣: ١٦)؛ أما بعد أن مات وقام، قيل أنه «أظْهَرَ نفسه». الحالة الأولى، وهي التجسد، كان وراءها معجزةُ الإخلاء ليَظْهَرَ الله في جسد إنسان؛ والحالة الثانية هي بحد ذاتها معجزة التجلي، ليظهر جسد الإنسان الطبيعي في مجد الألوهة، وليُثْبِت أن القيامة هي مجال حياة جديدة متوافقة مع طبيعة الإنسان، ولكن متفوقة بصورة عظمى عن واقع الماديات.

على بحر طبرية:

ق. يوحنا، دون جميع الإنجيليين، ينسب بحر الجليل إلى مدينة طبرية، وهي مدينة استُحْدِثَتْ على بحر الجليل كعاصمة للمنطقة. وهي مدينة فخمة، ولكن خليعة، بناها هيرودس لنفسه عندما كان رئيس رُبْعٍ على الجليل. وتسمى هذه البحيرة أيضاً في إنجيل يوحنا (٥: ١) بحيرة جِنّيسارتْ وتعني «جنة السرور». وق. يوحنا لا يذكر متى عاد التلاميذ من أورشليم إلى الجليل حسب أمر

الرب بعد القيامة.

٢:٢١ «كانَ سِمْعانُ بُطرُسُ وتُومَا الذي يُقالُ له التوأمُ، ونَثَنائيلُ الذي من قَانَا الجَلِيلِ، وابنا زَبْدِي، وآثْنانِ آخرانِ من تَلامِيذِهِ مع بعضِهم».

سبعة تلاميذ، خمسة منهم معروفون، وهم من ضمن «الاثني عشر»، أما الاثنان الآخران فيبدو أنهما من عامة التلاميذ غير الرسل، لذلك لم يشأ ق. يوحنا أن يُرْبِكَ القارىء باسميهما. أما كَوْنُ الكاتب يذكر ابني زبدي في آخر المجموعة، مع أن «يوحنا» يُذْكَرُ دائماً بعد بطرس هو وأخوه يعقوب، فهذا يكشف عن هويَّة الكاتب أنه ق. يوحنا بعينه. ولكن ليس جزافاً أن يذكر الكاتب اسم سمعان بطرس مع توما على رأس هذه القائمة وهم ذاهبون في مأمورية مخجلة، فبطرس لا يزال تحيطه الشكوك بعد حادثة الجارية والديك، ومعه توما الذي أفْرَزَ نفسه من «الاثني عشر» في موضوع الإيمان بالقيامة، مما اضطر الرب أن يظهر من أجله خصيصاً حتى يداوي انفصاله عن الجماعة ويردّه إليها كصاحب شهادة، أما بطرس فإن عودته للجماعة استلزمت هذه القصة بكاملها. أما ابنا زبدي أي «يعقوب ويوحنا»، فقد رافقا بطرس في هذه الرحلة كارهين مُكْرَهين، لأنهما مرتبطان ببطرس أصلاً من جهة هذه المهنة، مهنة الصيد: «وكذلك أيضاً يعقوب ويوحنا ابنا زبدي اللذان **كانا شريكَيْ سمعان.**» (لو٥: ١٠)

ولكن ليفهم القارىء، أن ليس جميع هؤلاء السبعة أصحاب صيد، ولكنها كانت لهم بمثابة رحلة مع الرفاق، ولم يكن لهم دور ذو بال في هذه القصة كلها.

٣:٢١ «قالَ لهُم سِمْعانُ بطرسُ: أنا أذهَبُ لأتصيَّد. قالوا له: نذهبُ نحنُ أيضاً مَعَكَ، فخرجُوا ودخلُوا السفينةَ للوقتِ، وفي تلكَ الليلةِ لم يُمسِكُوا شيئاً».

هل هي رِدَّةٌ نحو العالم لاستئناف المهنة؟ عسيرٌ على النفس غاية العُسْر أن تقبلها على التلاميذ، بعد أن أدركوا القيامة وقبلوا إرسالية من فم الرب، مع نفخة الروح القدس للتجديد! لولا أن القديس لوقا يمدُّنا بمعلومة توضح أن الرب توقَّع منهم هذا بالفعل، وسهَّل لهم هذه العودة إلى حين أن يقبلوا القوة العظمى من الأعالي، التي أركبتهم على مَتْن سفينة الخلاص، ودفعتهم في بحر الكرازة بلا عودة، بعيداً عن شاطىء الوطن، لترسو بهم هناك على شاطىء الأبدية السعيدة: «ثم قال لهم: حين أرسلتُكم بلا كيس ولا مِزْود ولا أحذية هل أعوزكم شيء؟ فقالوا: لا. فقال لهم: لكن الآن (بعد تركهم مؤقتاً لمهمة الصليب) مَنْ له كيسٌ فليأخذْهُ، ومزود (صيد السمك)

كذلك، ومَنْ ليس له فليَبِعْ ثوبه ويشترِ سيفاً.» (لو٢٢: ٣٥و٣٦)

بل وق. يوحنا نفسه ألمح إلى ذلك في إنجيله: «هوذا تأتي ساعة، وقد أتت الآن، تتفرقون فيها كلُّ واحدٍ إلى خاصَّته (بيته ومهنته) وتتركونني وحدي، وأنا لستُ وحدي لأن الآب معي.» (يو١٦: ٣٢)

وحتى بعد أن نال التلاميذ قوة الروح القدس في يوم الخمسين وانطلقوا يكرزون، وبعد أن أصبحت الخدمة بحد ذاتها هي المهنة التي استحوزت على كل نشاطهم ووقتهم واهتمامهم، وبعد أن أفرزوا أنفسهم للصلاة وخدمة الكلمة غير مهتمين بشيء ولا حتى بترتيب الأكل والشرب، إذ عينوا لها طبقة خاصة من الذياكونيين للقيام بمطاليبها؛ نسمع من بولس الرسول أن بعضهم كان يكدُّ ويعمل بيديه ليُقيتَ نفسه والآخرين معه: «لأننا لم نسلك بلا ترتيب بينكم، ولا أكلنا خبزاً مجاناً من أحد، بل كنا نشتغل بتعب وكدٍّ ليلاً ونهاراً، لكي لا نثقِّل على أحد منكم» (٢تس٣: ٨)، وأيضاً: «فضة أو ذهبَ أو لباسَ أحدٍ لم أشْتهِ. أنتم تعلمون أن حاجاتي وحاجات الذين معي خدمتها هاتان اليدان.» (أع٢٠: ٣٤)

القديس غريغوريوس الكبير يقول:

[بطرس عاد إلى مهنته للصيد، ولكن متَى لم يَعُدْ عشاراً يجبي الضرائب، لأنه توجد أعمال لا يمكن مباشرتها بدون الخطية وهي التي لا نستطيع العودة إليها بعد التجديد.](٢)

ولكن من واقع هذه القصة عينها سوف نستشف أن عمل اليدين والكدَّ الجسدي لاكتساب لقمة العيش لمَنْ قَبِلُوا الرسالة واستؤمنوا على خدمة، يلزم أن لا يكون بحسب القدرة الذاتية أو الحِذْق والمهارة في فنون المعرفة والصيد مثلاً الذي كان مآله الفشل الذريع بعد ليل المعاناة، بل يكون معتمداً كليًّا على «كلمة الرب» وإطاعة الصوت المقدس، الذي غالباً ما يكون مخالفاً للأصول الفنيَّة كما سنرى، إلاَّ أن نتائجه تكون مذهلة.

والخطأ الذي تعرض له بطرس والآخرون معه، هو أنهم **عادوا إلى المهنة الأُولى خُلْواً من خدمة أو كرازة**، وقد صحَّحها لهم المسيح أنه **باتباع الرب يمكن مباشرة العمل** كالنموذج الذي أعطاه بولس الرسول بعد ذلك.

[2] Cited by Schnakenburg, *op. cit.*, p. 470.

«وفي تلك الليلة لم يمسكوا شيئاً»:

«أما أنا فقلت: عبثاً تعبتُ باطلاً، وفارغاً أفنيتُ قدرتي، لكن حقِّي عند الرب وعملي عند إلهي.» (إش٤٩: ٤)

مع أنه بحسب أصول الصيد يكون الليل في البحيرة أنسب للصيد، ولكن بحسب لغة ق. يوحنا السرِّية، فالليل هنا لا يعني ليل الصيد بل ليل الإيمان وظلمة النفس!!

فلو أخذنا بأصول الصيد، يكون عدم مسكهم شيئاً عملاً غير عادي، أما بحسب سر إنجيل ق. يوحنا، فلو أخذنا الليل باعتباره ليل الإيمان وظلمة النفس ــ أو بالمفهوم العملي «غياب المسيح» ــ يكون عدم صيدهم ولا سمكة واحدة هو عين الحق وصلب الصواب جزاءً بجزاء!! وعلى المستوى الرمزي يكون الشرح أجل وأجمل.

فاسم المسيح بالكامل هو مجموع حروف السمكة " ΙΧΘΥΣ "، فغياب المسيح هو غياب السمك جملةً وفرادى.

هو الذي أمَرَ السمك أن يسلك غير مسالكهم، والبحر ليناصبهم، هربت فنونهم من بين أيديهم، وخابت كل أحابيلهم، يطرحون الشباك ويجمعونها كما طرحوها، طار صوابهم، وكلّت أيديهم مع قلوبهم، ناءَ الليل بكَلْكَلِه، فتمنّوا الصباح ولم يأتِ، تناجوا فيما بينهم لعلَّ يوناناً آخَرَ بينهم؟ حسبوه حظاً عاثراً والعثرة هي في إيمانهم. ظنوا أن نزهةً للنفس يمكن أن تعوضهم عن أحزان اتِّباع الصليب، فاستبدلوا صيد الناس بصيد السمك، ولكن الرب كان لهم بالمرصاد.

٢١: ٤ **«ولـمَّا كانَ الصُّبحُ وقفَ يَسُوعُ على الشَّاطِىءِ. ولكنَّ التَّلامِيذَ لم يَكُونُوا يعلَمُونَ أنه يَسُوعُ».**

«ثم صرخ كأسدٍ: أيها السيد أنا قائم على المرصد دائماً في النهار، وأنا واقف على المحْرَسِ كل الليالي...
يا حارسُ ما من الليل؟ قال الحارس: أتى صباح وأيضاً ليلٌ، إن كنتم تطلبون فاطلبوا، ارجعوا، تعالوا!!» (إش٢١: ٨ــ١٢)

بحسب لغة ق. يوحنا، إذ تناهى ليل الإيمان عن خسارة حتماً، فإن الرب يشرق من السماء، فيطارد النورُ الظلمة، و يكون صباح!!

وهكذا تبدو المقابلة صارخة بالمفارقة:

التلاميذ والليل والبحر والعذاب والجوع والبرد والشباك فارغة، والرب والصبح والشاطىء وجمر النار وفي يمينه «شِبَعٌ» سرور!!

الرب سمع أنينهم، عندما بلغ إخفاقُهم حد اليقين، عندما أدركوا خطأ ما تورطوا فيه، عندما بلغ الدرس أقصاه، عندما تبددت منهم شهوة المهنة، عندما ذاقوا منها عَلْقَمَ الإخفاق. نظروا، وإذا هو الفجر، و يسوع واقفٌ على الشاطىء!!

كان قد انقضى الليل، وما انقضى الليل من قلوبهم. أشرقت الشمس، والظلمة ما تزال تلف أفكارهم. فظهر يسوع، وما عرفوه!! عثروا في النور، لأنه لم يكن لهم عندئذ نور! لقد استبدَّ بهم اليأس والحزن كما استبد بالمجدلية، فظهر لها يسوع وما عرفته، لأن الحزن يُفْسد البصيرة، والحسرة على أفراح مضت تودي بشفافية الروح! حَزِنَ التلاميذ على صيدٍ مفقود، وكان كحزن يونان على يقطينته التي أوْدَتْ بها الريح: «فقال الله ليونان: هل اغتظت بالصواب من أجل اليقطينة؟ فقال: اغتظتُ بالصواب حتى الموت» (يونان ٤: ٩). يا لخطأ التعلُّق بأهداب الدنيا ومَسَرَّاتها...

«ولما كان الصبح، وقف يسوع على الشاطىء»:

كلمة «الصُّبح» πρωΐας لا تفيد الصباح والشمس ساطعة كما نعرفه، بل بكور الصباح وهو «الفجر». والفجر هو الذي يعقب الليل وليس الصبح. وق. يوحنا يستخدم اللفظتين الليل والفجر في معنيهما الروحي الميْستيكي كما استخدمه القديس بولس الرسول: «قد تناهى الليل وتقارب النهار، فلنخلعْ أعمالَ الظلمة، ونلبسْ أسلحة النور» (رو١٣: ١٢). ق. يوحنا يصف المسيح وهو على شاطىء الأمان يستقبل أولاده الراجعين من خوض بحر العالم، مثقَّلين بالإخفاق والجهد معاً! منظرٌ وضعه هذا القديس بقياسه النموذجي، تراه الكنيسة في ليل جهادها حينما تتكل على قوتها أو غناها أو برِّها الذاتي، فيصيبها الإخفاق والإعياء، و يناصبها الدهرُ العداءَ، كما يراه كل فرد سواءً بسواء، في جهاده اليومي العاثر أو بعد غيبة طويلة في طريق الأشواك أو طريق الذئاب، يعود بجروحه، وقدماه تَدْميان، وإذا هو الفجر والربُّ واقفٌ على الشاطىء.

٢١: ٥ **«فقالَ لهُم يَسُوعُ: يا غِلْمَانُ ألعَلَّ عِنْدَكُم إدَاماً. أجابُوهُ: لا».**

في الأصل اليوناني يأتي السؤال بالنفي: "أما عندكم إدامٌ؟" وهو سؤال كمَنْ هو عالم

بالحال أنه بالفعل ليس عندهم ما يؤكل بالمرَّة.

كلمة «إدام» بالعربية جميلة، والكلمة اليونانية تعني «الغموس»، أي ما يمكن أن يؤكل به الخبز، أو تُبْلَع به اللقمة، حيث غياب ما تُبْلَع به اللقمة، كناية عن الفقر المُدْقِع وبؤس الحال.

والرب لا يسأل في الحقيقة، ولكن يمهد لما هو عازم أن يصنع. فهو شريك عَوَزِهم: «في كل ضيقهم تضايق» (إش٦٣: ٩). فالأب الغني لا يطيق إملاق أولاده(*).

«أجابوه لا»:

قولٌ مُقتَضَبٌ وراؤه همٌّ ثقيل، وخِزْيٌ ما بعده خِزيٌ، فهم أئمّة الصيادين. هذا حال الإنسان الذي يتغرب عن إلهه ويذهب برجليه إلى الكورة البعيدة. ولكن بينما كان الابن المتغرّب يأكل الخرنوب مع الخنازير، كان الأب يُسمِّن العجل ليوم عودته. ولقد أعدَّ المسيح لمحبيه التائهين في ليل البحيرة وليمةً سَوَّاها على جمر حُبه، وأمر أسراب السمك أن تتجمع نحو اليمين.

٢١ : ٦ **«فقالَ لهُم: ألـقُوا الشَّبكَةَ إلى جانِبِ السَّفينَةِ الأيمنِ فتَجِدُوا. فألقَوْا ولم يعُودُوا يَقدِرُونَ أن يَجذِبُوها من كَثْرَةِ السَّمَكِ».**

قبل أن نحاول فهم هذه الآية، يلزم أن نردَّ مفرداتها إلى ما يمكن أن تعنيه روحياً:

«فالشبكة» في الإنجيل: «يشبه ملكوت السموات شبكة مطروحة في البحر وجامعة من كل نوع...» (مت١٣: ٤٧)

«والجانب الأيمن» في لغة الإنجيل هو الجانب المكرم والمحبوب، وفي الأسماء اسم بنيامين يعني «ابن "اليمين"» أي ابن المحبة والإعزاز. وعند «يمين» الرب تقف الخراف المختارة (مت٢٥: ٣٣)، والمسيح يجلس عن «يمين» الله، وعن يمين مذبح البخور ظهر الملاك لزكريا (لو١: ١١)، «وجبروت خلاص يمين (الرب)» (مز٢٠: ٦)، أي عمل ذراع الله اليمين أي «المسيح».

كأن التلاميذ لم يستخدموا الجانب الأيمن! أي أن صيدهم كان من الجانب الشمال، هذا تعبير مِستيكي، وليس في الواقع المنظور، بمعنى أن جهادهم كان شمالياً، حيث الشمال يعني التدبير المناقض للحق والأصول، بل والنعمة أيضاً. أما التدبير اليميني فهو الذي بحسب الحق

(*) أي: افتقار أولاده.

والأصول وبرعاية النعمة. هكذا أخذت الكنيسة هذا المعنى واستخدمته في صُلْب الإفخارستيا: ففي القسمة السريانية أثناء تقسيم الجسد، وهو الجزء الأكثر سرًّا في القداس(٣) يصيح الكاهن قائلاً: [وعِوَضَ الخطية المحيطة بالعالم، مات الابن بالصليب، **وردَّنا من التدبير الشمالي إلى التدبير اليميني.**] (الخولاجي المقدس ــ القسمة السريانية).

ومن واقع هذه الصلاة، يتبين أن الكنيسة تعتبر أن الإيمان اليهودي بحسب الناموس كان هو التدبير الشمالي الذي كانت تحيط به الخطية، وقد نقلنا المسيح بموته إلى التدبير اليميني، أي الإيمان بابن الله لملء النعمة.

نفهم من هذا، أن قول المسيح للتلاميذ أن يلقوا الشباك إلى الجانب الأيمن من السفينة هو بمثابة دعوة إلى الكرازة باسم المسيح، حيث الشبكة هي شبكة الروح القدس المطروحة على العالم وكل الأمم بالكرازة، والسفينة هي الكنيسة التي أُعطيَتْ أن تبلغ بالمسيح إلى شاطىء الأبدية السعيدة بعد أن عبرت ليل الناموس بلا صيد يُذْكَرُ أو حتى بلا صيد بالمرَّة!

«فألقَوْا ولم يعودوا يقدرون أن يجذبوها من كثرة السمك»:

لقد ألقى بطرس بالفعل أول عظة يوم الخمسين فمسك سمكاً كثيراً جداً: «فقبلوا كلامه بفرح **واعتمدوا** وانضم في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف نفس.» (أع ٢: ٤١)

نعم ومنذ ذلك اليوم والشبكة مطروحة، ولكن لم يجذبوها بعد، ولن يستطيع أحدٌ قط أن يجذبها بسبب الصيد الذي لا يُحْصَى ولا يُعَدُّ، ولن يجذبها إلاَّ ملائكة الله من أربعة أطراف الأرض، يوم يأتي الرب ونراه على الشاطىء فعلاً ويتعرف عليه المحبُّون!

٢١: ٧ **«فقالَ ذلكَ التِّلميذُ الذي كانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ لبُطرُسَ: هُوَ الرَّبُّ. فلمَّا سَمِعَ سمعان بطرس أنَّه الرَّبُّ آتَّزَرَ بثَوبِهِ، لأنه كانَ عُريَاناً وألقَى نَفْسَهُ في البَحْرِ».**

ق. يوحنا دائماً في إنجيله صاحب رؤية يُغذيها الإيمان: «ورأى وآمن» (يو ٢٠: ٨). والقديس بطرس صاحب حركة وسرعة. هنا ق. يوحنا عرف الرب مباشرة، لأن الاستعلان الذي يقدم المسيح نفسه به ليس طبيعياً بل فائقاً للطبيعة، لا تراه العين الجسدية إلاَّ إذا كانت مفتوحة على

(٣) أنظر كتاب: «الإفخارستيا والقداس»، للمؤلف، طبعة ١٩٧٧، ص ٧١٤ــ٧٢٨.

الروح. وق. يوحنا يعيش العين المفتوحة: «الذي يحبُّني يحبه أبي، وأنا أحبه، وأظهر له ذاتي» (يو١٤: ٢١). إن إنجيل يوحنا يلزم جداً أن يُفهم و يُعرف أنه إنجيل المحبة التي لها الاستعلان، وصاحبه كتبه من واقع أنه محبوب: «التلميذ الذي كان يسوع يحبه». لذلك ينبغي أن نتوقع فعلاً أن يكون هو الأوَّل ــ أو ربما الوحيد ــ الذي يتعرَّف سريعاً على الرب أينما وكيفما ظهر!! وهنا نجد أن ق. يوحنا يوحي إلى القارىء بهذا المعنى تماماً، كونه يقول عن نفسه: «**التلميذ الذي كان يسوع يحبه**» قبل أن يقول «**إنه الرب**»!

و يا للخجل الذي يكاد يمسك مني القلم!... كيف أن ق. يوحنا يظهر متسربلاً بالروح والنعمة والعين المفتوحة، يقابله في نفس المكان والزمان والمقام القديس بطرس عرياناً. وقد حاول الشرَّاح الأجانب أن يهوِّنوا من كلمة «عريان»، وجعلوها أنه خالع ثوبه الخارجي فقط. ولكن الذي يعرف مهنة الصيادين في الشرق و يعاشرهم، يعلم تماماً أن الصياد يضطر لخلع ملابسه الداخلية و يكون نصفه الأسفل عرياناً تماماً لأنه يضطر دائماً إلى النزول في البحر. فهنا القصة على الواقع صحيحة ومحبوكة، ولكن على المستوى الرمزي تكشف حال بطرس أنه كان في غاية الحاجة أن «تشتري مني ذهباً مُصَفًّى بالنار (الإيمان) لكي تستغني، وثياباً بيضاً لكي تلبس، فلا يظهر خِزْيُ عُرْيَتِك.» (رؤ٣: ١٨)

«اتَّزر... وألقى نفسه في البحر»:

هذا التصرف عكس ما هو متوقع طبيعياً، أن يخلع الإنسان ملابسه و يلقي نفسه في البحر. إذن، كان القديس بطرس في وضع غير طبيعي، كان يرى نفسه عرياناً أمام عيني ذاك الذي يرى خفايا الضمائر والقلوب. سَتْرَ جسده، والقصد الحقيقي أن يطلب سَتْرَ ضميره. فالقديس بطرس ولو أنه بكى بكاءً مرًّا بعد أن أنكر سيده، إلاَّ أنه لم يسمع بعد كلمة تُريح قلبه. وهوذا الآن «الرب» على الشاطىء، فهي فرصته العظمى و بالدرجة الأُولى.

ق. يوحنا بارع في تصوير المناظر التي تُرى بالعين الجسدية محبوكة وجيِّدة، بينما هي بآن واحد تصوِّر مناظرَ روحية تخلب الألباب وتُذيب القلوب. فهذا المنظر عينه، منظر القديس بطرس وهو يلقي بنفسه في المجهول سابحاً من البحر إلى الشاطىء، متسربلاً بثوب يستره، هو نفسه منظر النفس وهي خارجة من بحر العالم ومحيطه الخانق، تسعى نحو خالقها، سابحة في أجواء الروح المجهولة، لتَلْقَى مَنْ هو فاتح ذراعيه على شاطىء الأبدية يستقبل مُتَّقيه...

٢١ : ٨ **«وأمَّا التَّلاميذُ الآخَرُونَ فجاءُوا بالسَّفِينَةِ، لأنهم لم يكُونُوا بعيدِينَ عن الأرضِ، إلا نَحْوَ مِئتَيْ ذِرَاعٍ وهم يَجُرُّونَ شبكةَ السَّمَكِ».**

التركيز في الرواية والوصف واضح أنه متجه نحو القديس بطرس، أما ذِكْر بقية التلاميذ فهو لتكميل الرواية. السفينة مثقَّلة، تجر خلفها الشبكة الملآنة بالسمك الكبير. فبالإضافة إلى ثِقَل السمك، فالسمك يحاول أن يسبح في الاتجاه المعاكس للقرب من الشاطىء. أما مسافة المئتي ذراع فهي حوالي مئة ياردة أي ستٌّ وتسعون متراً تقريباً.

منظر بديع، والكنيسة تحتضن المخلَّصين الذين انتشلتهم من أعماق بحر العالم، تجُرُّهم جرًّا بالتعليم والخدمة والتعزية، وهم ممسوكون في شبكة الروح القدس، والرسل والتلاميذ والخدام الأمناء على كل درجاتهم واقفون يوجِّهون السفينة، وهي تسير الهُوَيْنَى بعد أن تكون قد بلغت مناطق الأمان على شاطىء الأبدية، والقباب الذهبية لأُورشليم السمائية تخطف الألباب.

٢١ : ٩ **«فلمَّا خَرَجُوا إلى الأرضِ، نَظرُوا جَمْراً مَوضُوعاً وسَمَكاً مَوضُوعاً عليهِ وخُبزاً».**

إنها الوليمة التي أعدَّها الرب للواصلين إلى الشاطىء، تشير من بعيد وبصورة مصغَّرة للغاية إلى قوله السابق: «وأنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً **لتأكلوا وتشربوا على مائدتي ...**» (لو٢٢: ٢٩و٣٠)

على كل حال هي مائدة قد أعدَّها الرب، والجمر فيها أساسي كالخبز، وإن كان السمك لا يدخل في مضمون الإفخارستيا إلاَّ أنه من جهة اسمه **العام** ΙΧΘΥΣ هو طعام الإيمان، الإيمان «بيسوع المسيح ابن الله المخلِّص»، وهذه الكلمات الخمس هي مدلول الحروف الخمسة في كلمة «إخثوس» (السمك) Ἰησοῦς Χριστὸς Θεοῦ Ὑιὸς Σωτήρ (=ΙΧΘΥΣ)

٢١ : ١٠ **«قالَ لهُم يَسُوعُ: قَدِّمُوا من السَّمَكِ الذي أمسَكتُم الآنَ».**

هم لم يمسكوه بحذقهم، ولكنه هو الذي جمعه لهم في شبكتهم! هذا الصيد الثمين يمثل باكورة الذين انضموا إلى الإيمان، وهو موضوع مسرة التلاميذ، والرب نفسه بنوع ممتاز: «**مِنْ تَعَبِ نفسه يرى ويشبع ... أقسِمُ له بين الأعزاء**، ومع العظماء **يَقْسِمُ غنيمة**، من أجل أنه سكب للموت نفسه، وأُحصي مع أثمة، وهو حمل خطية الكثيرين، وشفع في المذنبين.» (إش٥٣: ١١و١٢)

١١:٢١ **«فَصَعِدَ سِمعانُ بُطرسُ، وجَذَبَ الشَّبَكةَ إلى الأرضِ مُمتلِئةً سَمَكاً كَبِيراً، مِئةً وثلاثاً وخَمْسِينَ. ومع هذه الكَثْرَةِ لم تتخَرَّقِ الشَّبَكةُ».**

سبق وأن ألمحنا أن مفهوم الشبكة بلغة الإنجيل هي دعوة الملكوت المطروحة على نفوس الناس، وهي مغزولة بالسَّداة الرسولية ولُحْمَةِ الروح القدس، وعيونها تضيق لتصطاد أضعف أولاد الله. وهي إما تُطرَحُ على مستوى الناموس فتسمى «طَرْحَة شمالية» أو التدبير الشمالي فلا تصطاد شيئاً حتى ولو سهر الساهرون الليل بطوله؛ وإما تُطرَح على مستوى اليمين، على كلمة الرب، فيكاد لا يفلت منها إلاَّ ما هو غير قابل للصيد.

ولقد سبق القديس لوقا القديس يوحنا في وصفه رحلة مشابهة كانت واضحة اللمسات، مطابقة لمتطلبات الشرح الروحي الخالص. كما قدم القديس متى في إنجيله الأساس الذي يمكن أن نبني عليه الشرح:

القديس متى:

«يشبه **ملكوت السموات شبكة، مطروحة في البحر** وجامعة من كل نوع. فلما امتلأت، أصعدوها على الشاطىء، وجلسوا **وجمعوا الجِيَادَ** إلى أوعية، **وأما الأردياء فطرحوها** خارجاً. **هكذا يكون في انقضاء العالم،** يخرج الملائكة و يفرزون الأشرار من بين الأبرار.» (مت١٣: ٤٧—٤٩)

القديس لوقا:

«ولما فرغ من الكلام قال لسمعان: ابعد **إلى العمق** وألقوا شباككم للصيد، فأجاب سمعان وقال له: يا معلِّم، **قد تعبنا الليل كله ولم نأخذ شيئاً، ولكن على كلمتك أُلقي الشبكة.** ولما فعلوا ذلك أمسكوا **سمكاً كثيراً جداً،** فصارت **شبكتهم تتخرق** ... وملأوا السفينتين حتى أخذتا في الغرق.» (لو٥: ٤—٧)

القديس يوحنا:

«**وفي تلك الليلة لم يمسكوا شيئاً. ولما كان الصبح وقف يسوع على الشاطىء** ... فقال لهم: **ألقوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن فتجدوا. فألقَوْا، ولم يعودوا يقدرون أن يجذبوها من كثرة السمك** ... وجذب الشبكة إلى الأرض ممتلئة **سمكاً كبيراً، مئة وثلاثاً وخمسين.** ومع هذه الكثرة **لم تتخرق الشبكة.**» (يو٢١: ٣—١١)

الشرح :

أولاً: المكونات المشتركة في الثلاثة الأناجيل ومدلولها الروحي.

المَرْكِب، البحر، الشبكة، السمك.

الكنيسة، العالم، المناداة بالملكوت، المؤمنون.

ثانياً: المفارقة بين قصة إنجيل لوقا وقصة إنجيل يوحنا، ومدلولها على أساس إنجيل متى:

القديس لوقا	القديس يوحنا
أ ــ المركب لم تفارق البحر = الكنيسة في الحاضر	المركب بَلَغَت الشاطىء = الكنيسة بلغت الأبدية
ب ــ المسيح لم يفارق المركب = المسيح يقود الكنيسة في الحاضر	المسيح على الشاطىء = المسيح يستقبل المخلَّصين
ج ــ السمك لم يفارق المركب = المؤمنون في جهاد الحاضر	السمك قدموه على الشاطىء = المخلَّصون يُقدَّمون إلى المسيح
د ــ المركب أخذت في الغرق = طغيان العالم على الكنيسة	المركب وصلت بكامل سلامتها = الكنيسة المنتصرة على شاطىء الأبدية
هـ ــ الشباك تتخرق = أتعاب الكرازة وتجاربها	الشباك لم تتخرق = تجلّي الملكوت
و ــ السمك لم يُفرَز، جيد مع رديء = المؤمنون تحت الاختبار	السمك كبير كله ومعدود ١٥٣(٤) = إحصاء المفديين المعروفين بالاسم

١٢:٢١ **«قالَ لهُم يَسُوعُ: هَلُمُّوا تَغَدَّوا. ولم يَجسُر أحدٌ من التَّلاميذِ أن يَسأَلَهُ مَنْ أنتَ؟ إذْ كانُوا يَعلَمُونَ أنَّهُ الرَّبُّ».**

«تغدوا» : ἀριστήσατε

هي "**افطروا**" وليس «تغدُّوا». فالوقت هو الصباح الباكر!! كان التلاميذ واجفين ينظرون إليه متعجبين، يعرفونه تماماً أنه هو، ولكن غير واثقين ولا يستطيعون أن يسألوه بسبب هيبته

(٤) بخصوص ما يشير إليه العدد ١٥٣، ارجع إلى ص١٣١٧.

المضاعفة، فهو المسيح نفسه، ولكن في حالته الجديدة الفائقة على الإدراك والحواس! كيف يكون هو؟ ولكن هو هو!!

وهكذا، وبعد أن رست السفينة ونزل التلاميذ وانتهى القديس بطرس من جرِّ الشبكة وهي بكامل حمولتها وأزيد، كان المسيح على قُرْب، وهم الآن يتقدمون نحوه ببطء تملأهم الرهبة والهيبة. انعقد لسانُهم، فهو يكلمهم وهم صامتون، ينظرون إليه بدهشة، ولم يستطيعوا أن يبادروه لا بسؤال ولا بتحية، ولكنهم تقدموا خاضعين، ثم توقفوا على بُعْدٍ ينتظرون منه المبادرة.

«هلموا تغدوا»:

المسيح أينما كان، يُطْعم الذين يتبعونه. في القفر أطْعَمَهم بالخبز والسمك، وهنا حتى على شاطىء الأبدية يستقبل بالخبز والسمك الآتين إليه خائرين من هول ليل العالم الطويل وشقاء إخفاقات الصيد التي مرَّرت حياتهم. هوذا يطعمهم مما له، كما عضَّد ملكي صادق في القديم إبراهيمَ بخبز وخمر وهو راجع من هول معركة كَدَرْ لَعَوْمَر (تك ١٤ : ١٨). فكانت أول صورة من صور إفخارستية محبة الله نحو أبي الإيمان، تتويجاً للحرب التي خاضها. أما هنا، فهي إكليل ختام صُوَرِها جميعاً، وإن كان الخمر فيها غائباً، فذلك لأن عمل الدم قد استوفى زمانه، وليس حربٌ بعد(٥).

١٣:٢١ «ثمَّ جاءَ يَسُوعُ وأخَذَ الخُبْزَ، وأعطاهُم، وكذلِكَ السَّمَكَ».

كان ردُّ المسيح على توقُّفهم الحَذِر وتوقُّعهم المبادرة منه، أن تقدَّم المسيح نحوهم بالفعل واقترب من المائدة التي أعدَّها. ولكن لا يذكر هنا أي حركة من حركات الإفخارستيا المعتادة، فلا هو نظر إلى فوق، ولا هو كسر، ولا هو بارك. والسبب واضح، فالمنظر يصوِّر شاطىء الأبدية. فنحن «الآن» **فوق، والكَسْرُ انتهى بانتهاء زمان الصليب! والبركة كملت،** والآن وقت حصيدها. وهكذا لا يبقى من الإفخارستيا إلاَّ شركتها: «وأعطاهم». فالخبز هو شركة جسده في قمة تجلِّيه، والسمك رمز الحياة الذي يحمل اسمه I,X,Θ,Y,Σ «يسوع المسيح ابن الله المخلِّص».

وعن هذه الشركة الأخيرة يقول القديس أغسطينوس:

[وبهذا «الغداء» يستعلن كيف تتم بركة الشركة الفائقة القدر **Super eminent**](٦).

(٥) [ولما تنتهي الحرب نُكلَّل، نعم نُكلَّل في الموطن السعيد].

6 Augustine, *op. cit.*, p. 444.

و يقول القديس أغسطينوس أن ق. يوحنا بهذه الآية يكون قد انتهى من إنجيله(٧).

٢١ : ١٤ «هذه مرَّةٌ ثالِثةٌ ظَهَرَ يَسُوعُ لتلامِيذِهِ بَعْدَ ما قامَ من الأمواتِ».

لا يمكن أن يكون قصد ق. يوحنا أنه ظهر لتلاميذه ثلاث مرات وحسب، ولكن كان قصده في الحقيقة كما يرى القديس أوغسطينوس أن هذا هو يوم ثالث للأيام التي ظهر فيها المسيح لتلاميذه، باعتبار أن يوم القيامة بظهوراته العديدة هو اليوم الأول، واليوم الثامن لقيامته هو الثاني، وهذا هو الثالث(٨). ولكن يرى العالم وستكوت(٩) أنه يقصد الظهور الخاص بالتلاميذ مجتمعين.



[7] Ibid.

[8] Ibid.

[9] Westcott, *op. cit.*, p. 302.

القسم الثاني

المسيح والقديس بطرس

(٢١: ١٥—١٩)

[ودعا يعقوب بنيه وقال لهم اجتمعوا لأنبئكم
بما يصيبكم في آخر الأيام.] (تك٤٩: ١)

٢١: ١٥ **«فبعْدَ مَا تَغَدَّوْا، قالَ يَسُوعُ لسِمْعانَ بُطرُسَ: يا سِمعَانَ بْنَ يُونَا، أتحبُّني أكثرَ من هؤلاءِ؟ قالَ لهُ: نَعَمْ يا ربُّ أنتَ تعلَمُ أني أُحِبُّكَ. قالَ لهُ: آرعَ خِرَافي».**

«فبعد ما تغدَّوا»:

تماماً وعلى نمط ما تم بعد الإفخارستيا الكبرى التي قدم لهم فيها جسده ودمه، حيث بعد أن **قام عن العشاء** وغسل أرجلهم، وجلس وأعطاهم وصية المحبة، «قال له بطرس: يا سيد، لماذا لا أقدر أن أتبعك الآن، إني أضع نفسي عنك. أجابه يسوع: أتضَعُ نفسك عني؟ الحق الحق أقول لك، لا يصيح الديك حتى تنكرني **ثلاث مرات**.» (يو١٣: ٣٧و٣٨)

وبعد العشاء أيضاً: «قال لهم يسوع كلكم تشكون فيَّ في هذه الليلة، لأنه مكتوب أني أضْرِبُ الراعي، فتتبدد خراف الرعية، ولكن بعد قيامي أسبقكم إلى الجليل. فأجاب بطرس وقال له: وإن شَكَّ فيك الجميع فأنا لا أشك **أبداً**. قال له يسوع: الحق أقول لك، إنك في هذه الليلة قبل أن يصيح ديك تنكرني ثلاث مرات. قال له بطرس: ولو اضطررتُ أن أموت معك، لا أنكرك.» (مت٢٦: ٣١—٣٥)

وللأهمية القصوى يلزم أن نقرأ مرة أخرى هذه الآية التي سبقت آية بطرس هذه والتي جاءت هكذا: «ولكن بعد قيامي أسبقكم إلى الجليل»، حيث يأتي هذا الوعد ليخفف من تأثير إنكار بطرس وكأنه يتناساه، وبهذا يأتي سؤال المسيح للقديس بطرس ــ في إنجيل يوحنا ــ بعد القيامة وفي الجليل أيضاً حسب النص الإنجيلي السابق، ليُزيد من صدق رواية ق. يوحنا ومن دقَّتها وحَبْكِ موضوعها وتتميم وعد الرب بالحرف الواحد!

أما في إنجيل القديس لوقا فجاءت هكذا: «وقال الرب: سمعان سمعان هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة، ولكني طلبتُ من أجلك لكي لا يفنى إيمانك. وأنت متى رجعت

على المحبة، جاعلاً المحبة الشرط الأساسي للكنيسة لاختيار مُرْسِليها وخدامها: رؤساء أساقفة وأساقفة وكهنة وكل مصافّ خُدَّامها. **وهنا تُقدَّم المحبة على الإيمان، على أساس أن المحبة الصادقة تحوي حتماً إيماناً صادقاً:** «أما الآن فيثبت الإيمان والرجاء والمحبة، هذه الثلاثة ولكن أعظمهن المحبة.» (١كو١٣: ١٣)

كان الرب قد أبْدَى رفضه فيما سبق لأية محاولة للتسابق على أيهم أكبر: «وكانت بينهم أيضاً مشاجرة، من منهم يُظَنُّ أنه يكون أكبر. فقال لهم: ملوك الأمم يسودونهم، والمتسلطون عليهم يُدعَوْن محسنين. وأما أنتم فليس هكذا، بل الكبير فيكم ليكن كالأصغر، والمتقدِّم كالخادم.» (لو٢٢: ٢٤ــ٢٦)

أما قول المسيح: **«أكثر من هؤلاء»**، فهذا بالنسبة للوضع الرسولي أو للخُدَّام على وجه العموم، ولكن الرب هنا يضع شرطاً للتقدُّم في الخدمة أو الرئاسة، فالأكثر حباً يُستأمَنُ للخدمة الأكثر، وهذا حقٌّ، فالمحبة وحدها هي التي تتسع للعمل الأكثر.

«نعم يا رب أنت تعلم أني أحبك»:

يوافق القديس بطرس على سؤال الرب أنه كان يحبه، ولكن تأتي الموافقة خُلْواً من ادِّعاء الأكثرية في المحبة، فلقد تعلَّم بطرس أن لا يقدِّم نفسه على الآخرين، وهذا تصحيح مليح لمواقفه السابقة. وهذا يلزم أيضاً أن يكون منهاجاً لكل مُرْسَل وخادم. فليس لإنسان قط، كان مَنْ كان، قديساً أو نبياً، أن يدَّعي لنفسه الحب الأكثر للمسيح.

كذلك يأتي ردُّ بطرس مسنوداً بالتسليم لمعرفة الرب، فمحبة بطرس حتماً يعرفها المسيح، وهو لا يدَّعي لنفسه محبة إلاَّ بالقدر الذي يعرفه الرب. لقد تنازل القديس بطرس عن غُلْوَاء مشاعره الخاصة التي فضحته وأخرجته عن حقيقة ما له وما فيه. وهذا أيضاً يتحتم أن يكون منهاجاً لكل مُرْسَلٍ وخادم في كنيسة الرب، أن لا يشهد لنفسه إلاَّ بالقدر الذي يشهد به الآخرون له وعنه!!

«آرعَ غنمي»:

«آرعَ» βόσκε، ومعناها الدقيق: «أطْعِمْ»، لأن «آرعَ» ποίμαινε جاءت بعد ذلك بالنسبة للقطيع، و«غنمي» تجيء بمعنى «حملاني» في اليونانية. ولكن في عدة أبحاث عميقة قام بها علماء مدققون في أصول اللغة اليونانية(١٠) واستخدامها، اتفقوا على أنه بالرغم من تعدد

---

[10] Brown, *op. cit.*, p. 1102-1106.

الكلمات المعبّرة عن المحبة مثل: «أغابي»، و«فيلي»، أو أفعال الإطعام والرعاية مثل «بوسكين» و«بويمينين»، أو أسماء القطيع بين «حملان» و«خراف» و«غنم»، إلاَّ أنها جميعاً لا تختلف في معناها، فهي كلها «**محبة**»، وهي كلها «**رعاية**»، وهي كلها «**غنم**»، وذلك في الثلاثة الأسئلة التي طرحها المسيح على القديس بطرس.

وفي قول المسيح «ارعَ غنمي»، يضع المسيح القديس بطرس في موضع الرسولية الصحيح، بعد أن كان قد أفرز نفسه بإنكاره المسيح ثلاثاً. وهنا يشدد القديس أغسطينوس جداً على قول المسيح «غنمي» باعتبارها غنم الرب، مكرراً مراتٍ ومراتٍ أن يلتفت المُرْسَلُ أو الخادمُ المؤتمن على الرعية إلى أنها غنم الرب، وليست غَنَمَه هو، معطياً نصائح نافعة وجيدة وكثيرة جداً لمَنْ يطّلع عليها([11]).

والملاحظ أن كلمة «**غنمي**» يقابلها في إنجيل القديس متى «**كنيستي**»: «وأنا أقول لك أيضاً أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبني **كنيستي**، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها.» (مت١٦: ١٨)

فإذا أضفنا إلى هذه التصريحات ما قاله الرب لبطرس في إنجيل القديس لوقا: «وأنت متى رجعتَ، ثَبِّتْ إخوتك» (لو٢٢: ٣٢)، يتبين لنا مدى سخاء الرب المنقطع النظير في تشجيع القديس بطرس: «ولكني طلبتُ من أجلك لكي لا يفني إيمانك» (لو٢٢: ٣٢)، لكي يعود ويتبوّأ مركزه بين التلاميذ، بل وفي الكنيسة على مدى الدهور. ولكن تشجيع المسيح لم يبلغْ أبداً حدَّ مَنْحِه الرئاسة على كل الرعية أو التلاميذ. فليتذكر القارىء جيداً أن الرب شجب المشاجرة بينهم حول مَنْ فيهم يكون أكبر!!! فلماذا تكرِّس الكنيسة «**المشاجرة**» عينها لتكون جزءًا من إيمان الكنيسة ؟؟؟

٢١: ١٦ «قالَ لهُ أيضاً ثانِيةً: يا سِمعَانَ بن يُونَا، أتُحِبُّني؟ قال له: نَعَم يا ربُّ أنتَ تعلَمُ أني أُحبُّكَ. قالَ لهُ: آرعَ غَنَمِي».

المسيح يكرر السؤال الأول، ولكن يحذف منه الجزء الخاص بـ«أكثر من هؤلاء»، وكأنه اكتفى من رد القديس بطرس بأن حذفها من قلبه كما حذفها من ردّه، فلم تَعُدْ تقلق الرب من جهة الرعاية المزمع أن يلقيها عليه.

---

[11] Augustine, *op. cit.*, p. 446.

ولكن التكرار انحصر في «**المحبة**» فقط، وكأن الرب لم يكتفِ باعتراف القديس بطرس الأول أنه «يحب المسيح»، فهو هنا يطلب المزيد. فليس عبثاً يكرر المسيح السؤال عن المحبة!! وليس عبثاً يخرج الكلام من فم المسيح وكأنه يعتمد على التصحيح، والمزيد من طرف القديس بطرس وحده.

ولكن لينتبه القارىء، فالمسيح عندما **كرر السؤال** عن محبة بطرس له، كان ينبه القديس بطرس أنه **يأخذ من المسيح طاقة حب جديدة** يضيفها على ما عنده. فالمسيح لا يسألنا عمّا عندنا كأنه من عندنا؛ ولكن على أنه من عنده: «لأنه مَنْ يميّزك؟ وأي شيء لك لم تأخذه، وإن كنت قد أخذتَ، فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذ؟» (١كو٤: ٧)

وهكذا عندما أعطى المسيح فرصة للقديس بطرس أن يعيد النظر في مستوى محبته على محبة المسيح، كانت فرصته لبطرس أن يستزيد من المحبة أخذاً وعطاءً.

وعلى مستوى طاقة المحبة الثانية، ثنّى له المسيح لياقة الرعاية على غنم الرب.

١٧:٢١ **«قالَ لهُ ثالِثَةً: يا سِمْعانَ بْنَ يُونَا أتُحِبُّني. فحَزِنَ بُطرُسَ لأنه قالَ لهُ ثالثةً أتحبُّني. فقالَ لهُ: يا ربُّ أنتَ تعلَمُ كلَّ شيءٍ، أنتَ تَعْرِفُ أنّي أحِبُّكَ، قالَ لهُ يَسُوعُ: آرْعَ غَنَمِي».**

كان حزن القديس بطرس في المرة الثالثة يرجع لإحساسه بأنه كان دون المستوى اللائق برسول، إذ تذكر الفراغ المخيف الذي كان يملأ قلبه تجاه المسيح أثناء المحاكمة لما سألوه ثالث مرة عن علاقته بالمسيح فأنكر!! هنا حُزْنُ بطرس عند سؤال الرب الثالث، إذ تذكر أيضاً بكاءه المرّ بعد إنكاره الثالث (مر١٤: ٧٢). وهنا كان ردُّ بطرس هو التسليم الكلي للمسيح: «يا رب أنت تعلم كل شيء»، على مستوى الاعتراف بكل ضعفه؛ فقط «**أنا أحبك**»!! لقد قَبِلَ المسيح اعتراف بطرس، وقَبِلَ محبته، وزادها له ثلاثة أضعاف!!! فصار بطرس راعياً أميناً للغاية على غنم الرب. والدليل القاطع على صلاح القديس بطرس وصلاحيته كراعٍ في نظر الرب، أن أردف الرب في الحال بالنبوءة له **كيف سيضع نفسه عن الخراف!!** «أية ميتة كان مزمعاً أن يمجّد الله بها.» (يو٢١: ١٩)

لقد ظلت كلمات الرب ونصائحه ترنُّ في قلب القديس بطرس حتى أواخر أيامه، والتي منها

صاغ نصائحه للأساقفة نظرائه: «أطلب إلى الشيوخ الذين بينكم، أنا الشيخ رفيقهم، والشاهد لآلام المسيح، وشريك المجد العتيد أن يُعلَن: ارعوا رعية الله التي بينكم، نُظَّاراً (أساقفة)، لا عن اضطرار بل بالاختيار، ولا لربح قبيح بل بنشاط، ولا كَمَنْ يسود على الأنصبة بل صائرين أمثلة للرعية. ومتى ظهر رئيسُ الرعاة تنالون إكليل المجد الذي لا يبلى.» (١بط ٥: ١ــ٤)

١٨:٢١ **«الحقَّ الحقَّ أقولُ لكَ: لـمَّا كُنتَ أكثرَ حداثةً، كُنتَ تُمَنطِقُ ذاتَكَ وتَمْشِي حيثُ تشاءُ، ولكن متى شِخْتَ فإنَّكَ تمُدُّ يَدَيكَ، وآخَرُ يُمَنْطِقُكَ ويحمِلُكَ حيثُ لا تشاءُ».**

بعد أن تأكد الرب أو بالحري بعد أن تأكد بطرس من نفسه من جهة محبته للرب، وبعد أن حمَّله الرب رعاية غنمه، أي استأمنه على الرسولية في كنيسته، بدأ الرب يؤكد لبطرس ماذا ينتظره في مستقبل الأيام. ولكن الرب وضعها كمقارنة بين حرية الخدمة التي ينعم بها في حداثته، وبين ما ينتظره من شدة سيُحمل عليها وتُفْرَضُ عليه في شيخوخته. ولكن ليس القديس بطرس وحده هو الذي يُفْرَزُ له هذا النصيب، ولكنه منهج خدمة الكنيسة كلها الذي افتتحه الرب بنفسه: «وكان يُقتاد بالروح في البرية أربعين يوماً يُجَرَّبُ من إبليس.» (لو٤: ١و٢)

وواضح من هذا أن «الآخر» الذي سيمنطق القديس بطرس ويحمله حيث لا يشاء ــ وهو مفرود الذراعين ــ هو هو الروح القدس، فهو الذي يقتاده حيث سيُصْلَبُ وحيث لم يكن يشاء أولاً. فمعلوم من قصة استشهاد بطرس أنه بعد صدور الحكم عليه بالصلب استطاع الهرب من السجن، ولكن في خروجه سريعاً من روما قابله الرب في الاتجاه العكسي فسأله بطرس: "إلى أين أنت ذاهب يا رب Domine quo vadis?" «كوفاديس»، فردَّ عليه الرب: لأُصلب بدلاً منك، فعاد بطرس أدراجه وسلَّم نفسه للصليب، وأبى إلاَّ أن يُصلَب منكساً! إذ حسب أنه كثير عليه أن يُصلَبَ كالمسيح.

ومعلوم أن بطرس استشهد سنة ٦٤م على يد نيرون، أي بعد حديث الرب هذا بحوالي ٣٤ سنة. ولكي يوضح الرب له أنه سيختطُّ له منهجه بالتمام، عاد مباشرة وللتو وقال له كلمة السرِّ: «اتبعني» !!

١٩:٢١ «قالَ هذا مُشيراً إلى أيَّةِ ميتةٍ كان مُزمِعاً أن يمجّد الله بها. ولمّا قالَ هذا، قالَ لهُ: آتبَعْني»!!

يعلق ق. يوحنا هنا على الكلام بحسب ما كان وما صار، لأنه يكتب إنجيله هذا سنة ٩٥م تقريباً، والقديس بطرس استشهد سنة ٦٤م، وصار ذلك معلوماً لدى الكنيسة كلها(١٢)، كيف مجّد القديس بطرس الله بموته، وهكذا أخيراً قَبِلَ الله استعداده الذي قاله في بكور حياته: «لو اضطررتُ أن أموتَ معك... إني أضع نفسي عنك...»!!!

هكذا وضع القديس بطرس ذاته حُبّاً في المسيح والكنيسة، وهكذا مات على الصليب سعياً وراء الذي أحبه ومات!! وتم قول الرب حرفياً: «ولكنك ستتبعني أخيراً.» (يو١٣: ٣٦)

لقد ظل القديس بطرس يترقب واجفاً مجيء مَن سيُمَنْطقُه ويحمله حيث لا يشاء كل يوم، إذ حسب ذلك أنه لائقٌ مهما كانت مشيئته. لذلك نسمعه يقول في رجفة اليقين: «عالماً أن خَلْعَ مسكني قريب كما أعلن لي ربنا يسوع المسيح أيضاً.» (٢بط١: ١٤)

وفي هذا يقول القديس أغسطينوس:

[هذه هي خاتمة حياة الذي أنكر، والذي أحب، الذي تاه عُجْباً بظنونه، والذي انحنى بالمذلة من جرّاء انكاره، الذي اغتسل بدموعه، والذي استُحسن اعترافه، ثم تكلل بآلامه! هذه كانت خاتمة ما بلغ: أن مات على حب مكتمل لاسم مَنْ صمم أن يموت معه ولكن منكّساً.](١٣)

(١٢) رسالة كلمندس الأولى ٥: ٤، الشهيد يوستين: الدفاع ١: ٣٥، ترتليان scorpiace 15,3، يوسابيوس القيصري: «تاريخ الكنيسة» ٣: ١و٢ وقد ذكر صلبه مُنكّساً.

[13] Augustine, *op. cit.*, p. 445.

القسم الثالث

المسيح والقديس يوحنا

(٢١: ٢٠–٢٣)

٢١: ٢٠ **«فالتفَتَ بُطرُسُ، ونَظَرَ التلميذَ الذي كانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ يَتْبَعُهُ، وهو أيضاً الذي اتَّكَأَ على صَدرِهِ وَقْتَ العَشَاءِ وقالَ: يا سَيِّدُ مَنْ هو الذي يُسَلِّمُكَ».**

ق. يوحنا هنا يضع نفسه في الصورة في ختام إنجيله ليؤكد وجوده الحي في الجماعة وفي الإنجيل معاً. وهنا يحاول الربط بينه وبين القديس بطرس، الأمر الذي نجده دائماً موجوداً في الإنجيل عامة؛ فـ«بطرس و يوحنا» صِنْوَان عزيزان لا يفترقان. فنحن لا ننسى أنهما هما الاثنان كانا يتبعان معاً الرب وهو مقبوض عليه في طريقه إلى بيت حنان: «وكان سمعان بطرس والتلميذ الآخر يتبعان يسوع» (يو١٨: ١٥)، والاثنان ركضا معاً إلى القبر. وحتى في هذه الآية يحاول أن يذكِّر القارىء بموقعهما على مائدة العشاء عندما أومأ القديس بطرس من الطرف الآخر للمائدة[١٤] نحو ق. يوحنا لكي يسأل الرب عن الخائن مَنْ يكون! وبآنٍ واحد يحدد ق. يوحنا موقعه من المسيح ــ على الصدر من جهة الشمال حتماً حسب التقليد (أي ملاصقاً للقلب)، ثم يزيد من إزاحة الستار عن علاقته مع الرب بقوله: «كان يسوع يحبه».

أما كون ق. يوحنا حسب قول القديس بطرس كان «يتبعه»، فهنا كلمة «يتبعه» تبدو لأول وهلة أنه كان يسير خلف المسيح. ولكن لغة ق. يوحنا تضرب باليمين وبالشمال، أي تشير إلى الواقع المتحرك وتهدف إلى الروح الثابت الأزلي. فالمعنى الروحي، أن ق. يوحنا لم يكن في حاجة أن يدخل مدرسة المحبة التي مرَّ القديس بطرس على فصولها الثلاثة بغاية الصعوبة، ثم فاز بالرسولية بعد محنة وامتحان وصار من الثابتين. فالقديس يوحنا هو ابن محبة المسيح، وقد وُلد يوم استضافه الرب (يو١: ٣٩)، وتسجَّل في سجل الحب الإلهي يوم أن انحنى على صدر يسوع، ويوم أن ترك التلمذة خلف المعمدان واتَّبع الحمل الذي يرفع خطية العالم. فإن كان بطرس قد رآه الآن بعد القيامة «يتبع»، فقد كان منذ أن نادى المسيح بالملكوت، هو أول التابعين.

(١٤) أنظر صفحة ٧٩٥.

٢١:٢٠ **«فلمَّا رَأى بُطرسُ هذا قالَ ليَسُوعَ: يا ربُّ وهذا مَا لَهُ؟»**.

لقد ظنَّ بطرس في نفسه أكثر مما ينبغي أن يَظن. ظن أنه بعودته إلى مركزه في الجماعة الرسولية بهذا السخاء، ونواله صك تكريم الشهادة بين الشهداء، أن يسود على الجماعة ويقود. وكان أول اختباره على ق. يوحنا، نِدّه في الحبّ وفي القُرْبى، فكان بطرس يتلهف على أن يعرف مستواه بالنسبة لموقع هذا التلميذ الآخر بين الرسل التابعين وبين الشهداء المكرَّمين، فابتدر الرب بالسؤال **«وهذا ما له؟»**. يقصد: أنا عرفت موقعي وبدايتي، وهذا ما نصيبه؟ فكان السؤال برُمَّته خارج اختصاصه بل وخارج اللياقة؛ ورحم الله آمْرِئاً عرف قَدْرَ نفسه!! فلقد كان وَقْعُ السؤال عند الرب موقعاً غير حسن وهل يُسأل الرب عن مشيئته؟

٢٢:٢١ **«قالَ لهُ يَسُوعُ: إن كُنتُ أشاءُ أنه يَبقَى حتى أجِيءَ، فماذا لَكَ، آتبَعْني أنتَ»**.

الرد هنا عميق ومتشعب؛ يضرب في الواقع، ويضرب حتى إلى منتهى الزمن؛ يكشف عن ألوهة متفوّقة، وسلطان على الزمن وعلى الموت والحياة، وعلى مصائر الناس وأقدار الناس. فالمسيح يستعلن وجوده القائم والدائم، وكيف يقبض على زمام الكنيسة في تحرُّكها عَبْر الزمن برُسُلها وآبائها وأنبيائها، يحدد أيامهم ويقيس أعمارهم بخطة تنتهي حتماً بمجيئه.

كان سؤال بطرس يختص بمشيئة المسيح قبل أن يختص بحياة يوحنا، لأن حياة رسول لا تحددها الأقدار المحتومة، بل مشيئة الله المحتومة التي لا يفك ختومها إلا المسيح، مضيفاً عليها، أو مختزلاً منها كما يشاء؛ لأنه كالآب يُحْيِي مَنْ يشاء!

وقول المسيح: «إن كنتُ أشاء أنه يبقى إلى أن أجيء»، ليس هو افتراضاً للجدل، بل هو حق قائم بالحقيقة. فالذي أقام لعازر من الموت بعد أن أنْتن، أعسيرٌ عليه أن يُبقِي يوحنا لا يموت؟ والذي قام من بين الأموات ناقضاً الموت وأوجاعه، أكثيرٌ عليه أن يفصل بين يوحنا والموت؟

ولكن هل قالها الرب كمجرد ردٍّ لبطرس كي لا يرتئي فوق ما ينبغي أن يرتئي؟ أم يقصد بها قصداً يلوِّح بإجراء ينوي أن يأتيه؟

لم يكن سؤال القديس بطرس نابعاً من ذاتية تتحرق شوقاً لمعرفة مصائر الرسل، بقدر ما كان يشعر أنه يمثِّل في كنيسة الله حركة ناشطة وعملاً، هما من واقع طبيعته التي هذَّبها له المسيح لتعمل

على مستوى الروح.

وكان يشعر أن ق. يوحنا يمثل الحب الهادىء الوديع المتأمل والمتأجج كالنار شديدة الفعل بطيئة الحركة. فكان بطرس يصبو أن يدرك في يوحنا مسار هذه القوة الفعَّالة، كما أدرك هو في نفسه مسار حركته التي ستنتهي بالشهادة! كانت غَيْرة بطرس من يوحنا كغيرة مرثا من مريم. لقد ضجَّت مرثا من قعود أختها تحت رِجْلَيّ المسيح تسمع كثيراً ولا تعمل شيئاً؛ بينما هي قد هدَّها الجهد وأجهدتها الحركة في أعمال كثيرة لخدمة ضيافة الرب. وأخيراً انفجرت، لا في مريم، بل في المسيح تؤاخذه بصراحة: «**يا رب أما تُبالي** بأن أختي قد تركتني أخدم وحدي، فقُلْ لها أن تعينني» (لو١٠: ٤٠). فكان الرب لها لائماً، ولسلوكها مؤاخذاً، وعلى أسلوبها مُعنِّفاً، مع أنه كان يحبها، وأعطى لمريم الطوبى لأنها اختارت النصيب الصالح، «الذي لن يُنْزَعَ منها.» (لو١٠: ٤٢)

وهنا تجيء كلمة: «لن يُنزَعَ منها»، بالنسبة لمريم موازية ومطابقة لقوله لبطرس بالنسبة ليوحنا: «**أنه يبقى حتى أجيء**». فحياة ق. يوحنا ومنهجه وأسلوبه، واضح أنه يَمُتُّ بصلة وثيقة لأسلوب مريم ومنهجها. فكلٌّ منهما اختار المحبة والاستماع إلى «الكلمة» والتأمل فيها واتِّباع الرب من كل القلب، وكلاهما فاز بإعجاب المسيح واستحوذ على محبته. وهذا كان بالنسبة لمريم «النصيب الصالح الذي لن يُنْزَعَ منها»، وبالنسبة ليوحنا كان يشاء أن يبقى إلى الأبد. ولكنه، فيما يبدو لنا، أن المسيح أبْقَى على منهجه وإنجيله يحياه عاشقوه في كل العالم عوضاً عنه إلى أن يجيء. وأليست الرهبانية الباقية إلى الأبد صورة لحياة يوحنا؟؟ هذا هو ق. يوحنا وهذه هي حياته الهادئة التي تحياها له الكنيسة ولسوف تحياها له الرهبنة إلى الأبد!

أما بطرس فليس له أن يتذمر، فالرب سبق وأن ثبَّت اسمه وثبَّت إيمانه النشيط الشجاع العمَّال في الكنيسة، على نفس المنوال وإلى الأبد: «أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها»[(١٥)] (مت١٦: ١٨)، وها هي الكنيسة تحيا إيمانه، فتتزلزل أبواب الجحيم كل يوم.

لقد استُؤمن بطرس على مفاتيح ملكوت السموات، وأما يوحنا فاستؤمن على أسرار السماء ذاتها

(١٥) الصخرة هنا بحسب القديس أغسطينوس هي المسيح في اعتراف بطرس: «أنت هو المسيح ابن الله الحي»، شرح إنجيل يوحنا، المقالة ١٢٤: ٥.

واطّلع على كل ما هو عتيد أن يكون، وشاهد السماء الجديدة والأرض الجديدة، وقاس مع الملاك أورشليم السماوية، وعاين عرش الله، وتعرَّف على كل الأجناد السماوية!

والآن: «بطرس» مات وإيمانه لا يزال يتكلم بعد!...
و«يوحنا» مات ولا يزال حبه يُسبِّح به تسابيح الأزل...

«فماذا لك؟ اتبعني أنت»:

ليس من شأن القديس بطرس أن يتابع حياة الرسل الآخرين، إن حدود مسئوليته تقف عند اتّباعه هو للمسيح وحسب. فإن عاش يوحنا حتى مجيء المسيح فهذا ليس «له» ولا يخصُّه، وإن مات شهيداً أو بغير شهادة، فهذا أيضاً ليس له، يكفيه هو أن يتبع المسيح. هذا الرد ينفي أن يكون المسيح قد أعطى لبطرس حق الرئاسة على الرسل ولا حتى الإشراف أو القيادة. الرب أعطى بطرس أن يشدد إخوته عندما يرجع من محنته بعد أن ذاق مرارة الإنكار وحيرة الجحود. فكما تثبَّت إيمانه بصلاة الرب عنه، هكذا كان ينبغي أن «يثبِّت» بإيمانه إخوته عن اختبار.

ولقد كان بطرس حقاً عموداً ثابتاً وقوة مركزية ذات إشعاع وسط التلاميذ. وقد أبدى شجاعته في مواجهة رؤساء الكهنة وعنَّف سلوكهم واتهمهم علناً وبكل قوة بتحمُّل جُرْم قتل المسيح «رئيس الحياة قتلتموه» (أع٣: ١٥)، حتى ضَجَّ منه رؤساء الكهنة واستصرخوه ليكفّ عنهم: «فلما أحضروهم، أوقفوهم في المجمع، فسألهم رئيس الكهنة قائلاً: أمَا أوصيناكم وصية أن لا تعلِّموا بهذا الاسم، وها أنتم قد ملأتم أورشليم بتعليمكم **وتريدون أن تجلبوا علينا دم هذا الإنسان.** فأجاب بطرس والرسل وقالوا: ينبغي أن يُطَاعَ الله أكثر من الناس. إله آبائنا أقام يسوع الذي **أنتم قتلتموه معلّقين إياه على خشبة،** هذا رفَّعه الله بيمينه رئيساً ومخلِّصاً، ليعطي إسرائيل التوبة وغفران الخطايا.» (أع٥: ٢٧-٣١)

كان بطرس بالنسبة للكنيسة قلبها الخفَّاق، ولسانها الناطق، وروحها الوثَّابة، جريءٌ جُرأة الأسد، لا يلين ولا يهادن في مواجهة النظام اليهودي وعتوّ الرئاسة الكهنوتية. فاستطاع أن يحفظ **«الكيان الرسولي»** مستقلاً عن سطوة النظام اليهودي، فجعل له مكانة لا تقل عن مكانة السنهدريم وسلطانه، وعلى يديه بزغ نجم الكنيسة الأُولى في فلسطين مبشِّراً بشروق شمس المسيحية على العالم كله.

«آتبعني أنت»:

وكانت كلمة المسيح هذه لبطرس، هي آخر كلمة قالها المسيح بحسب إنجيل يوحنا، والمعتقد أن بعدها اختفى عنهم! وهي لم تُكْتَب لبطرس فقط، بل كدعوة لكل قارىء وسامع.

٢١: ٢٣ «فذاعَ هذا القَولُ بينَ الإخوَةِ أن ذلكَ التِّلمِيذَ لا يمُوتُ، ولكن لم يَقُلْ لهُ يَسُوعُ إنه لا يمُوتُ، بل إنْ كنتُ أشاءُ أنه يَبقَى حتى أجِيءَ فمَاذا لَكَ».

المعنى الذي دافع به ق. يوحنا عن الخطأ الذي ارتكبه الإخوة (التلاميذ) بقولهم أن ق. يوحنا لا يموت، ينتهي بنا إلى فهم حقيقة أراد ق. يوحنا أن نفهمها دون أن يكتبها، وهي أن بقاءه إلى أن يجيء المسيح شيء وأنه لا يموت شيء آخر؛ أو بمعنى آخر أن بقاءه إلى أن يجيء المسيح لا يستلزم حتماً أن لا يموت؛ أو بمعنى أوضح، أن بقاءه إلى أن يجيء المسيح يمكن أن يكون حتى ولو مات، وهذا ما اعتبرناه لغة ق. يوحنا السرِّية التي قصد بها قيام ودوام الكنيسة الروحية التأملية المتبتِّلة[16]، التي تحيا روح ق. يوحنا وإنجيله من بعده، تسبِّح المسيح وتمارس الحب والتصوُّف mysticism، أي الحياة بحسب أسرار الروح التي يمثلها إنجيل يوحنا وتمثلها الحياة الرهبانية الحيَّة المتعففة، والمتخصِّصة في الصلاة والتسبيح، والتي ستبقى إلى أن يجيء الرب!!

ويحاول بعض شُرَّاح إنجيل يوحنا أن يتخذوا من دفاع هذا القديس عن ضرورة موته، أنه كان قد مات بالفعل. ولكن الرد على هذا أنه لو كان قد مات فما هي الحاجة للدفاع عن ضرورة موته؟

وأيضاً فإن الآية القادمة (٢١: ٢٤) توضح بأجلى بيان أن ق. يوحنا الذي قال هذا، كان ما زال حياً وأنه هو الذي كتب هذا وشهد بهذا!! وأنه بقوله هذا، يكون قد نقل هذه القضية لحكم الزمن والتاريخ إن كان هذا الأمر سيحدث من عدمه!

وكما كان القديس بطرس يترقب كل يوم الضيف الذي سيُمَنْطِقُه ويحمله حيث لا يشاء: «عالماً أن خَلْعَ مسكني قريب، كما أعلن لي ربنا يسوع المسيح أيضاً» (٢بط ١: ١٤)، كذلك كان ق. يوحنا يشتهي كل يوم مجيء الرب ليحمله على السحاب. هكذا كتب بيده خاتمة سفر رؤياه، ردًّا على ما جاء على لسان الرب في الرؤيا: «أنا آتي سريعاً. آمين. تعالَ أيها الرب يسوع.» (رؤ٢٢: ٢٠)

---

[16] Jerome, Book I, Against Jovinian.

٢١ : ٢٤ **«هذا هو التِّلميذُ الذي يَشْهَدُ بهذا وكَتَبَ هذا. ونعلَمُ أن شَهَادَتَهُ حقٌّ».**

هذه الآية تُبرز شخصية ق. يوحنا كتلميذ، ورسول، وشاهد لحياة المسيح وموته وقيامته، ثم كاتباً لهذا الإنجيل، مُلْقياً بكل ثقله ومؤهلاته السابقة للتصديق على كل ما جاء في إنجيله.

وبصورة سرِّية ومبدعة، ينقل كل هذه المؤهلات من شخصه لإنجيله، فهو يقدم لنا إنجيلاً يحمل ختم **التلمذة** المدموغة بالحب والأمانة والصلة الفريدة بالمسيح؛

ويحمل ختم الرسولية المستودَع فيها كل أسرار المسيح التي اطّلع عليها بصفة خاصة جداً، لا نعلم إلاّ بعضاً من أسبابها وخصوصيتها بسبب شخصيته المحافظة المُقتِّرة في الشرح والمحجمة عن الإسهاب!

ويحمل ختم الشهادة، ولا نقصد هنا شهادة العين بل شهادة الروح. وشهادة الروح هي الحق، لأنها تقوم على الاستعلان، أي على رؤية ما لا يُرَى، بتدخل المشيئة الإلهية لازدياد المعرفة.

«نعلم أن شهادته حق»:

ق. يوحنا يدرك الأصول التقليدية اليهودية في الشهادة، فهي لا تستقيم بواحد يشهد لنفسه حيث تكون شهادته ليست حقاً. هذا قاله المسيح نفسه عن نفسه سابقاً: «إن كنتُ أشهد لنفسي، فشهادتي ليست حقاً» (يو٥: ٣١)، ولو أنه عاد ونفى أن يخضع لمقولة يهودية وهو ابن الله: «وإن كنت أشهد لنفسي، فشهادتي حق، لأني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب... لأني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني.» (يو٨: ١٤و١٦)

فالقديس يوحنا يعطي شهادته بصورة الجمع: «نحن نعلم»، فمَنْ هم «نحن»؟ لقد تهرَّب الشُّرَّاح من تفسير هذه الآية. ولكننا بصورة مبدئية، إذا عدنا إلى كيفية وظروف كتابة إنجيل يوحنا[١٧]، نرى أن التقليد يقول إن بعض الرسل (كما يذكر نصٌّ للعلاّمة اكلمندس الإسكندري، ووثيقة موراتوري) مع بعض الأساقفة فيما حول أفسس، كانوا العامل المحرك للقديس يوحنا بمحاولتهم المتكررة ورجواتهم له أن يكتب إنجيله. هنا يقول بعض الشُّرَّاح[١٨] إن

---

(١٧) نرجو العودة إلى كتاب: «المدخل لشرح إنجيل القديس يوحنا»، فصل: "ظروف وملابسات كتابة إنجيل القديس يوحنا وزمانها"، ص٤٥ وما يليها.

18 Hoskyns, *op. cit.*, p. 559, 560.

هؤلاء في مجموعهم يحملون مسئولية التصديق الأخير، فقد أعطاهم ق. يوحنا أن يكتبوا ــ عن أنفسهم ــ هذا المقطع من الآية: «ونحن نعلم أن شهادته حق».

ولكن ليست هذه هي الحقيقة، لأننا إذا عدنا إلى أسلوب ق. يوحنا في الكتابة عن نفسه فيما يخص المسيح والحق، نجده دائماً يتكلم بصيغة «**الجمع**» مُعْتبراً نفسه جزءاً لا يتجزَّأ من جسم الجماعة الرسولية بكاملها، أي الكنيسة المعاصرة للمسيح والشاهدة له(١٩). لذلك نجده قد استهل رسالته الأولى بهذه الشهادة الجماعية هكذا:

+ «الذي كان من البدء، الذي **سمعناه**، الذي **رأيناه بعيوننا**، الذي **شاهدناه** ولمسته **أيدينا**، من جهة كلمة الحياة.» (١يو١:١)

وعلى هذا المنوال ظل يكتب الرسالة كلها بصيغة الجمع من أول آية إلى آخر آية:

+ «**ونكتب** إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً.» (١يو١:٤)
+ «ولكن **نعلم** أنه إذا أظهر، **نكون** مثله، لأننا **سنراه** كما هو.» (١يو٣:٢)
+ «**نحن نعلم** أننا قد **انتقلنا** من الموت إلى الحياة، **لأننا** نحب الإخوة.» (١يو٣:١٤)
+ «**ونحن قد نظرنا ونشهد**، أن الآب قد أرسل الابن مُخلِّصاً للعالم.» (١يو٤:١٤)
+ «**نحن نحبه**، لأنه هو أحبنا أولاً.» (١يو٤:١٩)
+ «**ونحن في الحق** في ابنه يسوع المسيح، هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية.» (١يو٥:٢٠)

إذاً، فواضح من هذا كله، ومن خاتمة إنجيل يوحنا التي أتت بصيغة الجمع هذه، أن شخصية ق. يوحنا نفسه تقف تماماً وراء هذه الشهادة التي ختم بها ق. يوحنا إنجيله كما هي في رسالته أيضاً.

وهكذا يتبين للقارىء أن موضوع شكِّ العلماء في أن ق. يوحنا هو الكاتب لهذه الخاتمة، هذا الفرض الذي استنبطوه من هذه الآية، أنه هو نفسه موضوع اليقين عندنا بكل يقين!!

٢١: ٢٥ «وأشياءُ أُخَرُ كثيرةٌ صَنَعَها يَسُوعُ إنْ كُتِبَتْ واحِدَةً واحِدَةً، فلستُ أظنُّ أنَّ العالَمَ نَفْسَهُ يَسَعُ الكُتُبَ المَكتُوبَةَ. آمينَ».

العجيب في هذه الآية، أنها تكشف أنه لا يزال فكر ق. يوحنا ووعيه الروحي بعد المائة سنة

(١٩) راجع المدخل ص٧٠و٧١.

التي بلغها من عمره يحتفظ بهذه الصور المكدَّسة من أعمال الرب وكلماته، وما تُشعُّه في قلبه من معانٍ، والتي يهذُّ بها في ليله ونهاره. وق. يوحنا لا يلجأ إلى التهويل ليصف ضخامة الحصيلة الروحية التي يعيها من حياة المسيح وأعماله، ولكن الأعماق التي تتوالى في ذهنه من خلف كل حادثة، والعمقُ منها ينادي عمقاً، هي التي صوَّرت له كيف تضيق الدنيا بعجائب المسيح! وهل يمكن أن يتسع العالم لمعطيات الله وملكوته؟

انتهى

عيد القديسة العذراء مريم
٢٢ أغسطس ١٩٨٩م

• • •

ما كنت يا عزيزي القارىء أودُّ أبداً أن انتهي من شرح إنجيل القديس يوحنا،
فعلى مدى سنوات ثلاث كاملاتٍ عشت في نعيم هذا السفر،
أستمتع كل يوم بل كل ساعة بأضوائه التي تبهر النظر الروحي.
ولكن الذي يعزِّيني أن الرب قوَّاني بالرغم من ضعفي ووهن إمكانياتي
لكي أنقل للقارىء شيئاً من ذخائر نعمته في هذا الإنجيل،
ليعيش فيها، ليس ثلاث سنوات
بل الحياة كلها.

فهرس الآيات

(م = المدخل ؛ ش١ = الجزء الأول من الشرح ؛ ش٢ = الجزء الثاني من الشرح)

***

١٢	٥:	٨-	ش١	٤٣٦
	٦:	٨-	ش١	١٠٦
			ش٢	١٠٢١
١٥	٣٥:		ش٢	١١٩٣
١٦	٤:	٥-	م	١٦٠
٢٠	١١:		ش١	٤٩٩
٢١	٧:		ش١	٢٢٨
٢٢	٢٢:	٣٥-	م	٢٣٤
٢٤	٦:		ش٢	١٢٤٣
٢٥	٦:	١٥-	ش٢	٩٥٠
	١٠:	١١-	ش٢	٩٥٠
٢٧	١٨:	٢١-	ش١	٧٠٥
٢٩	١٢:	٣٨-	ش١	٤٧٦
٣٥	٣٠:		م	٨٣

عزرا الرابع (أبوكريفا)

١٣	٥١:		ش١	٤٩١

غلاطية (رسالة)

١	١١:	١٢-	م	٤٠١
			ش١	٢٣
			ش٢	٨٦٢
	١١:	١٣-	ش١	٤٨
	١١:	١٩-	ش٢	٩٦٤
	١٣:	١٤-	ش٢	٩٥١
	١٥:	١٧-	ش٢	١٠٣٢
٢	١:	٢-	م	١٨
	١:	١٠-	م	٣٩
	٩:		م	٣٤
	٩:		م	٣٥
	١٦:		ش٢	٩٠٤
	١٩:	٢٠-	م	١٣٣
	٢٠:		م	١٧٢
			ش١	٨٨
			ش١	٣٤٨
			ش١	٥٢٤
			ش١	٦٢٥
			ش١	٦٧٩
			ش١	٧٣٧
			ش٢	٨٠٤
			ش٢	٨٥٤
			ش٢	٨٥٥
			ش٢	٨٥٧
			ش٢	٩٢٣
			ش٢	٩٨٨
			ش٢	٩٩٩
			ش٢	١٠٧٥
			ش٢	١٠٧٧
			ش٢	١٠٧٨
			ش٢	١٣١١
٣	١٣:		ش٢	١٠٨٤
			ش٢	١٢١٩
	١٦:		ش١	٥٧١
			ش١	٥٧٦
	٢٣:	٢٥-	م	١١٥
	٢٨:		ش١	٣٠١
	٢٩:		ش١	٥٧٦
			ش١	٥٧٧
٤	٤:		ش٢	١٠٠٥
	٤:	٧-	م	٤١٣
	٥:	٦-	ش٢	٨٦٥
	٦:		ش٢	١٠١٢
	٩:		ش١	٦٢٢
٤	١٩:		ش٢	٩٧٨
			ش٢	١٢٨٩
			ش٢	١٢٩٠
	٢٥:		ش١	٥٧٦
	٣٠:		ش١	٥٧٧
	٣١:		ش١	٥٧٧
٥	١:		ش١	٥٧٧
	٦:		م	١٧٢
	٢٢:		م	١٣٤
	٢٢:		ش٢	٨٧٢
	٢٥:		م	١٣٣
٦	٢:		م	٢٥٤
	١٤:		ش٢	٨٣١
	١٤:		ش٢	١٠٦١
	١٥:	١٦-	ش٢	٩٤٩

فيلبي (رسالة)

١	٢١:		م	١٣٣
			م	٢٨٣
			ش١	٧٤٠
			ش٢	١١١٣
	٢٣:		ش٢	١٠٥٢
	٢٣:	٢٤-	ش٢	٨٢٣
٢	٥:	٨-	ش٢	٩١٦
	٦:	٧-	ش١	٨٦
	٦:	١١-	ش١	٢٢
	٧:		ش١	٤٦٥
			ش١	٤٨٧
			ش١	٥٦٨
			ش٢	٧٨٢
			ش٢	٧٨٣
			ش٢	١١٧٧
	٧:	٨-	ش٢	١٠٠٥
	٨:	١١-	م	٢٣٦
	٨:	١١-	ش٢	١٠٨٩
	٩:	١١-	ش٢	١٠١٣
			ش٢	١٠٤٢
	١٠:		ش٢	٨٠١
	١١:		ش١	٤٠٧
			ش١	٥٩٤
			ش١	٧٤٣
			ش٢	٨٧٧
	١٣:		ش١	٢٤٥
			ش١	٣٤٨
			ش٢	٨٤١
			ش٢	٩٠٤
	١٦:		م	١٣٢
٣	٧:	٨-	ش١	٧٣٧
			ش٢	١٠١١
	١٣:		ش٢	٩٦٨
	٢٠:		م	٤٠٥
			م	٤١٥
			ش٢	١٠٣٩
			ش٢	١٠٥٢
	٢٠:	٢١-	ش٢	٨٢١
	٢١:		ش٢	٧٨٤
			ش٢	٨٢٠
			ش٢	١٠٢٨
	٧:		ش٢	٨٧٠
			ش٢	٨٧١
	٩:		ش٢	٨٧٠

قضاة

٦	١٢:		ش١	٢٠٦
٧	٢٤:		ش١	١٣٦
١١	٣٤:		ش١	١٠٢
١٤	١١:	١٢-	ش١	١٧١
١٩	٥:		ش١	٤٠٢

كولوسي (رسالة)

١	١٢:	١٣-	ش٢	٨٨٣
			ش٢	١٠٢٨
	١٣:		ش١	٢١١
	١٥:		م	١٠٧
			ش١	٨٤
	١٥:	١٧-	م	٢٠٤
	١٥:	٢٠-	ش١	٢٣
	١٦:		ش١	٦٢
	١٦:	١٧	ش١	٣٩
			ش١	٤١
			ش١	٤٣
	١٨:		م	١٣٢
			ش٢	٨٩٤
			ش٢	١٠٦٤
	١٩:		ش١	١١٠
	١٩:	٢٠-	ش١	١١١
	٢٠:		ش١	٧٤٩
			ش٢	٨٧٠
	٢٠:		ش٢	٨٧٤
			ش٢	١٢٣١
	٢٤:		ش١	٣١٠
٢	٩:		م	١٨٦
			ش١	٨٦
			ش١	٩٣
	٩:	١٠-	ش١	١١١
			ش١	٦٤٥
			ش٢	٨٩٤
			ش٢	١٠٧٩
٢	١٠:		ش١	٩٢
			ش٢	١٠٨١
	١٤:	١٥-	ش١	٥٤
	١٥:		م	٩٨
			ش٢	٨٨٩
٣	١:		ش١	٢١٧
	١:		ش٢	١٠٥٣
			ش٢	١٣٢٣
	١:	٤-	ش١	٦٧٩
	٢:	٤-	م	١٣١
	٤:		ش١	٦٨٠
			ش٢	٧٨١
			ش٢	٨٢١
			ش٢	٩٧٢
			ش٢	١٠٢٨
			ش٢	١٠٨٩
	٩:	١٠-	ش٢	١٢٨٩
	١٤:		ش٢	٩٢٢
	١٥:		ش٢	٨٧١
	١٧:		ش١	٣٥٤
٤	٢:		ش٢	٩٨٥

كورنثوس الأولى (رسالة)

١	٤:	٧-	ش٢	٩٧٨
	٢١:		ش١	٥٢
			ش٢	١٠٩٢
	٢١:	٢٤-	م	٢٠٤
	٣٠:		م	١١٠

	٤٦:	-٤٧	ش١	٥٧٠
	٤٦:	-٥٥	ش١	٥٧١
	٥١:	-٥٣	ش١	٥٩٨
			ش١	٦٠٣
	٥٤:	-٥٥	ش١	٥٧٠
	٥٩:	-٦٦	ش١	٥٥
	٦٧:	-٧٩	ش١	٦٠
	٧٦:	-٧٧	ش١	١٢٥
	٧٩:		ش٢	٧٨٧
			ش٢	٨٧١
	٨٠:		ش١	١٤٣
	١١:		ش١	٥٨٨
	١٣:		ش٢	١٢٧١
	٢٥:	-٣١	ش٢	١٠٣٣
	٢٩:	-٣٠	ش١	٤٨٥
	٣٢:		م	٩٣
			ش١	٥٢
	٣٤:		ش١	٤٦٠
			ش١	٧٤٦
	٣٤:	-٣٥	ش٢	١٢٠٩
	٣٥:		م	٣٢
	٣٦:	-٣٨	ش٢	١٠٣٣
	٣٧:		ش١	١٨٧
	٤٦:		ش١	١٨٧
	٤٩:		ش١	١٩١
			ش٢	١٠١١
	٤٩:	-٥١	ش١	١٨٠
	٥٢:		م	٣٣٩
			م	٤١٢
	٢:		ش١	٧٠٢
			ش٢	١١٢٦
	٨:		ش٢	١٢٩٩
	١٥:		م	٣٥٠
			ش١	٥٦
			ش١	١٣٠
	١٦:		م	٢٣
			ش١	١٠٩
	١٨:		ش٢	١٣١٢
	١٩:		ش٢	٩٥٨
	١:		ش١	٢١٨
	١:	-٢	ش٢	١٣٤٨
	٥:	-٦	ش٢	٨٨٨
	١٠:	-١١	ش٢	٧٨٧
	٢٢:		ش١	٤٨٥
	٢٥:		ش١	٣١٩
	١:	-١١	م	٣٥٠
	٤:	-٧	ش٢	١٣٣٩
	١٠:		ش٢	١٣٣١
	٥:		ش١	٣٣٥
	١٢:		ش٢	١١٠٧
	١٢:		ش١	١٠٢
	١٥:		ش١	٦٩٧
	٢٢:		م	١٤١
			م	٤٠٨
			ش١	٦٥٨
	٢٢:	-٢٣	م	٢٩٠
	٢٦:		ش١	٦١٠
	٢٦:	-٢٨	ش١	٥٨
	٢٩:	-٣٠	ش١	٣٧٥
	٣٠:		ش١	٢١٥
	٣٦:	-٣٩	ش١	٦٥٨

٧	٣٦:	-٥٠	م	٣٥١
	٤٦:		ش١	٦٦٢
	٤٧:		ش٢	٨٦٠
٨	١٠:		ش١	٤٥٦
	١٥:	-١٨	ش٢	١٠٣٤
	١٨:		ش٢	٨٠٩
	٤١:	-٤٢	ش١	١٠٢
	٤٦:		ش١	٦٨٥
	٥٥:		ش١	٦٩٧
٩	١٠:		ش١	٣٩٣
	١٠:	-١٧	ش١	٣٩١
	١٢:		م	٢٩٨
	١٧:		ش١	٤٠١
	١٨:		م	٤٠٢
	٢٠:	-٢١	م	٩١
	٢٦:		ش١	١٠٣
			ش١	٤٦٣
	٢٨:	-٣٥	ش١	٩٧
	٣٠:	-٣١	ش١	١٣٩
	٣٠:	-٣٣	ش١	٤٧٦
	٣٥:		ش١	٧٤٥
	٤٤:		ش٢	١١٥٨
	٤٥:		ش٢	٩٨٤
	٥١:		ش٢	٧٧٧
	٥٢:	-٥٦	ش١	٢٦٩
	٥٣:	-٥٤	م	٣٣
	٦٠:		م	٤٠٤
١٠	٥:	-٦	ش٢	٨٧٣
	٦:		ش٢	٨٧١
	٩:		م	٢٩٠
	١٦:		م	٢٠٠
	١٧:		ش١	٧٢
	١٩:	-٢٠	ش١	٦١٠
	٢١:		ش١	٥٩٨
			ش١	٦٨٧
	٢١:	-٢٤	ش٢	٨٣٢
	٢٢:		ش٢	٨٣١
	٢٣:	-٢٤	ش١	٣١٠
	٢٤:		ش١	٤٠٠
	٣٣:	-٣٦	ش١	٢٦٧
	٣٦:	-٣٧	ش٢	٨٠٦
	٣٨:		ش١	٦٦١
			ش١	٦٧٥
	٣٨:	-٣٩	ش١	٤٨٢
	٣٨:	-٤٠	ش١	٦٦٥
	٣٨:	-٤٢	م	٣٥١
			ش١	٦٥٨
	٤٠:		ش٢	١٣٥٢
	٤٢:		ش٢	٨٦٠
			ش٢	١٣٥٢
١١	١٣:		ش٢	٩٨٠
	١٥:		ش١	٥٦٤
	٢٠:		م	٢٩٠
	٢٩:		ش١	٦٤٨
١٢	٦:		ش١	٤٣
	١١:		م	٢٤٨
	١٣:		م	١١٠
	٣١:		ش٢	٩١٠
	٣٩:		م	٣٥٣
	٤٩:		ش٢	٩٥٩
	٥٠:		ش٢	٧٩٤

١٢	٥٠:		ش٢	١٢٢٩
١٣	٣:		ش٢	١٢٩٩
	٢٧:	-٢٨	ش١	٣٥٢
	٣٤:		ش١	٤٩٦
١٤	١١:		ش١	١١٣
	١٦:	-٢٣	ش١	٢٨١
	١٦:	-٢٣	ش١	٣١١
	٢٤:		ش١	٣١١
١٥	٥:		ش١	٦٢٢
	٧:		ش٢	١٢٩٩
١٦	١٥:		ش١	٦٠٣
	١٩:	-٣١	ش١	٦٥٧
	٢٢:	-٣١	ش١	٥٧٥
	٣١:		ش١	٦٩٧
١٧	٣:	-٤	ش٢	١٢٩٩
	١٥:	-١٨	ش١	٢٦٧
	٢١:		ش١	٢١١
	٢٤:		م	٣٢
	٢٥:		ش٢	٨٤٧
١٨	١٢:		ش٢	١٢٥٩
	١٤:		ش١	١١٣
	٢٨:		ش١	٤٦٧
	٢٩:		ش١	٢١٠
	٣٤:		ش٢	٩٨٤
١٩	٣٠:		ش١	٧٢٩
	٣٧:	-٤٤	ش١	٧٢٤
	٣٨:		ش١	٧٢٩
			ش٢	١١٥٧
	٣٨:	-٣٩	م	٣٥١
	٣٩:	-٤٠	ش٢	١١٥٧
	٤١:		ش١	٦٨٧
			ش١	٦٨٩
	٤١:	-٤٢	ش١	٧٠٨
	٤٦:		ش١	١٩١
			ش١	١٩١
٢٠	١٢:		ش١	١٦٣
	١٤:		ش٢	١١٧٧
	٣٨:		ش١	٦٧٣
٢١	٢٢:	-٢٤	م	٥٤
	٢٤:		ش١	٢٣٣
	٣٧:		ش٢	١١٠٧
	٣٧:	-٣٨	ش١	٥١٠
٢٢	٣:		م	٣٥٣
	١٥:	-١٦	ش٢	١١٥٠
	١٨:		ش٢	٨٩٣
	٢٤:		ش٢	٧٩٥
	٢٤:	-٢٦	ش٢	١٣٤٥
	٢٤:	-٢٨	م	٣٥٢
	٢٧:	-٣٠	ش٢	٧٨٧
	٢٨:		ش٢	٧٨١
	٢٨:	-٣٠	ش٢	١٠٨٣
	٢٩:		ش٢	٨٨٥
	٢٩:	-٣٠	ش٢	١٣٣٨
	٣١:	-٣٤	ش٢	١٣٤٤
	٣٢:		ش١	٤٧١
			ش٢	١١٣٣
			ش٢	١٣٤٦
	٣٥:		م	٣٥٢
	٣٥:	-٣٦	ش٢	١٣٣٢
	٤٢:		ش١	٤٤٦
	٤٣:		ش٢	١٢٧١

٢٦	٣١:	٣٥-	ش٢	١٣٤٣
	٣٣		ش٢	١٣٤٤
	٣٦	٣٩-	م	٣٤٠
	٣٨		ش١	٦٨٧
			ش١	٧٣٥
			ش١	٧٤٠
			ش٢	١١٩٥
	٤٩	٥٠-	ش١	٧٠٨
	٥٠		ش١	٧٢٠
			ش٢	٧٨٠
	٥٣		ش١	١٦٢
	٥٣	٥٤-	ش٢	١١٠٨
	٥٦		ش٢	٩٩٤
	٥٧	٦٤-	ش٢	١١٣٧
	٥٩	٦٠-	ش١	٧٠٨
			ش٢	١١٣٨
	٦٢	٦٣-	ش٢	١١٣٨
	٦٣	٦٥-	ش٢	١١٣١
	٦٥	٦٨-	ش٢	١١٣٩
	٦٦		ش٢	١١٢١
	٧١		ش٢	١١٣١
	٧٤		ش٢	١٣١٠
٢٧	١:		ش٢	١١٠١
	١	٢-	ش٢	١١٤٦
	٣	٧-	ش١	٦٢٤
	٥		ش١	١٨٧
	١١		ش٢	١١٤٤
	١٨		ش٢	١١٣٩
			ش٢	١١٦٦
	١٩		ش٢	١١٠٩
			ش٢	١١٥٣
			ش٢	١١٧٨
	٢٠		م	٢٩٨
			ش٢	١١٠٩
	٢٣		ش٢	١١٤٤
	٢٤		م	٢٧٨
			ش٢	١١٤٤
	٢٤	٢٥-	ش٢	١١٨٧
	٢٤	٢٥-	ش٢	١١٩٣
	٢٥		م	٢٧٨
			ش١	٦٨
			ش١	٧٠٥
			ش٢	٩٣٥
	٢٦		ش٢	١١٩٢
	٢٨	٣٠-	ش٢	١١٧١
	٣٠		ش٢	١١٧٤
	٣١		ش٢	١١٧٢
	٣٤		ش٢	١٢١٦
	٣٧		ش٢	١٢٠١
	٣٩	٤٣-	ش٢	١١٩٨
	٤٢		م	٩٠
			ش١	٧٠٥
	٤٥		ش٢	١١٠٢
	٤٦		ش٢	١٢١٨
	٥١		ش١	١٨٧
	٥٢	٥٣-	ش٢	١٢١٥
	٥٥	٥٦-	م	٢٨
			ش٢	١٢٠٧
	٥٩		ش٢	١٢٤٦
	٥٩	٦٠-	ش٢	١٢٤٠
	٦٢	٦٤-	ش١	١٩٤

٢٨	٥:	١٠-	ش٢	١٣١٥
	٩		ش٢	١٢٦٢
	١٠		ش٢	١٢٥٣
	١٦	١٩-	ش٢	١٣١٦
	١٧		ش٢	١٢٥٣
			ش٢	١٣٠١
	١٨		ش١	٦٣٣
			ش١	٦٣٣
			ش٢	١٢٠٤
	١٨	١٩-	ش٢	٨٨٤
	١٨	٢٠-	ش٢	٩٤٤
	١٩		م	٢١٧
			ش١	٧٢
			ش٢	٧٨١
			ش٢	٩١١
			ش٢	١٠٤٥
			ش٢	١٢٣٣
	١٩	٢٠-	ش٢	١٣٢٦
	٢٠		م	٢٩٢
			ش١	٩٦
			ش٢	٨٠٢
			ش٢	٨٥٣
			ش٢	٨٥٩
			ش٢	٨٦٥
			ش٢	٩٥٥

مرقس (إنجيل)

١	١		م	٢٣
	١	٤-	ش١	١٢٥
	٤	٨-	م	٣٤٧
	٧		م	٣٤٧
			ش١	١٠٩
	٨	١١-	م	٣٤٨
	٩		ش١	١٨٠
	١٠	١١-	م	٢٤٩
	١٣		ش١	١٦٢
	١٤		م	٣٤٧
			ش١	١٦٨
	١٤	١٥-	م	٣٣٥
			م	٤١٢
			ش١	٢٤٨
	١٥		ش١	٢٤٧
	١٩		م	٢٩
	٢٠		م	٢٩
			م	٢٩
	٢١		ش١	١٥٦
	٢١	٢٢-	ش١	٤٨٥
	٢٢		م	١٩٥
			ش١	٦١٢
	٢٩		ش١	١٥٦
	٣٢	٣٤-	ش٢	٩٣٧
	٤٢	٤٣-	ش١	٦٨٤
	٤٣		ش١	٦٨٥
٢	١٨:	٢٠-	ش١	١٦٨
	٢٧		م	٤١٠
	٢٧	٢٨-	ش١	٣٤١
	٢٨		ش١	٣٣٥
٣	٥:		ش١	٦٨٧
	١٦	١٩-	ش١	١٥٧
	١٧		م	٣٢
	١٨		ش١	٢٥٩
	٢١	٣١-	ش١	٤٧٨

٣	٢٨:	٣٠-	ش١	٥٦٤
	٣٠		ش١	٥٦٤
٤	١٢:		ش١	٧٥٦
	١٩		ش١	٢٤٥
	٣٧	٤١-	ش١	٤١١
	٣٨		ش١	٦٦٦
	٣٨	٤١-	م	٢٨٠
	٤٠:		ش١	٤١١
٥	٢٧:	٣٠-	ش١	١٧٦
	٣٠		ش٢	٩٤٠
٦	١:		م	٣٤٠
	١	٤-	ش١	١٨٢
	١	٦-	ش١	١٨١
	٣		ش١	١٨٠
	٢١		ش١	٤٨٥
	٢٢		ش٢	٩٨٢
	٣٠	٤٤-	ش١	٣٩١
	٣٢	٤٤-	م	٤٠٨
	٣٤		ش١	٣٩٥
	٣٤	٣٥-	م	٢٩٨
	٣٤	٤٤-	م	٣٤٧
	٣٧	٤٤-	م	٣٤٨
	٣٩	٤٠-	ش١	٣٩٨
	٤٢		ش١	٤٠١
	٤٥		ش١	٤٠٨
	٤٥	٤٦-	ش١	٤٠٨
	٤٥	٥٢-	م	٣٤٧
	٤٧	٤٨-	ش١	٤٠٩
	٤٨		ش١	٤١٠
	٥٠		م	٣٤٨
	٥١		ش١	٤١٠
	٥٦		ش٢	٩٣٧
٧	٢:	٧-	م	٢٧٩
	٣	٤-	ش١	١٧٤
	٤		ش٢	١٢٣٤
	٧		م	٩٣
	١٨		ش٢	٩٨٤
٨	٢١:		ش٢	٩٨٤
	٢٣	٢٥-	ش١	٥٩١
	٢٤	٢٥-	ش١	٢٨٩
	٢٧		م	٤٠٣
	٢٩		م	٣٤٧
			م	٣٤٨
	٢٩	٣١-	م	١٩٩
	٣١		ش١	١٩٧
٩	١:		م	٤١٣
	٧		ش١	٧٤٥
	٩		ش١	١٩٧
	١٣		ش١	١٣١
	٢٤		ش١	٣١٦
			ش٢	٩٩٣
			ش٢	١٣٠٦
	٣٠		م	٣٤٧
	٣٢		ش٢	٩٨٤
	٤١		ش١	٢٩٩
	٤٣		م	١٣٠
			م	١٣٠
	٤٧		ش١	٢١٠
١٠	١:		م	٣٤٧
			ش١	٤٨٢
			ش١	٦٥٠

١٠	٢:	-٩	ش١	١١٦
	٦		ش١	٤٠
	١٥		ش١	٢١٠
	١٧		م	١٣٠
			ش١	٢٠٤
	٢٣		ش١	٢١٠
	٣٠		م	١٣٠
	٣٢		م	٣٤٧
	٤٢	-٤٥	ش١	٦١٥
	٤٥		ش١	٧٠٣
	٤٦		م	٣٤٧
	٤٧		ش١	٧٥٩
١١	١	-١٠	م	٣٤٧
	٢		ش١	٧٢٩
	٩		م	٣٤٩
			ش١	٧٥٩
	١٢	-١٤	ش٢	٩٠٩
	١٧		ش١	١٩١
١٢	٨	-١٢	ش١	٧٠٤
	١٨		ش١	٦٧٧
١٣	٢٦		م	١٢٦
١٤	٣		م	٣٤٩
	٣		ش١	٧١٦
			ش١	٧١٨
	٣	-٩	م	٣٤٧
			ش١	٦٥٨
	٥		م	٣٤٩
			ش١	٦٨٤
			ش١	٧١٩
	٦	-٩	ش١	٧٢١
	٧		م	٣٤٩
	١٧	-٢٦	م	٣٤٧
	١٨		م	٣٤٩
	٢٢		م	٤٠٧
	٢٢	-٢٤	ش١	٤٥٤
	٢٤		ش٢	٨٠٠
			ش٢	٨٠٦
	٣٠		م	٣٤٩
	٣٢		ش٢	١٠٠٥
			ش٢	١٠٠٧
	٣٦		ش١	٧٤٢
			ش٢	١٠٨٧
			ش٢	١١١٣
	٤١	-٤٢	ش٢	١١١٠
	٤٢		ش٢	٧٨٨
			ش٢	٨٨٨
	٤٣	-٥٢	م	٣٤٧
	٤٤	-٤٧	ش٢	١١١٢
	٤٧		م	٣٥٠
	٤٨	-٤٩	ش٢	١١٣٧
	٤٨	-٥٢	ش٢	١١٠٦
	٥٣		ش٢	١١٢٢
	٥٦		ش٢	١١٣٨
	٥٨		ش٢	١١٢٧
	٦٠	-٦١	ش٢	١١٣٨
	٦١	-٦٢	م	١٩٩
			ش٢	١١٣٧
	٦٥		ش٢	١١٤٠
	٦٦		ش٢	١١٣١
	٦٧	-٧٢	ش٢	١١٣٤
	٦٨		ش٢	١١٣١

١٤	٦٨:		ش٢	١١٣٢
	٧١		ش٢	٨١٠
			ش٢	١١٣٢
			ش٢	١٣١٠
	٧٢		ش٢	١٣٤٧
١٥	١:		ش٢	١١٠١
			ش٢	١١٢٢
	٣	-٥	ش٢	١١٥٧
	٧		ش٢	١١٦٦
	٩		ش٢	١١٤٤
	٩	-١٠	ش١	٥٤
			ش٢	١١٢٩
١٥	١٠:		ش١	٥٢٨
			ش٢	١١١٧
			ش٢	١١٤٤
	١١		ش٢	١١٦٥
	١٣		ش١	٧٥٩
	١٥		ش٢	١١٧١
			ش٢	١١٩٢
	٢١		ش٢	١١٧٢
			ش٢	١١٩٧
	٢٣		ش٢	١٢٤٣
	٢٥		ش٢	١١٠٢
	٢٦		م	٣٥٠
	٢٧	-٢٨	ش٢	١١٩٩
	٢٩		ش٢	١١٢٧
	٣٢		م	٩٠
	٣٣		ش٢	١١٠٢
	٣٤		ش٢	١٢١٨
	٤٠		م	٢٨
	٤٠		ش٢	١٢٠٧
	٤٢	-٤٣	ش٢	١٢٢١
	٤٣		ش٢	١٢٤٠
			ش٢	١٢٤٢
	٤٤		ش٢	١٢٢٢
١٦	١		م	٢٨
	٢		ش٢	١٢٦٠
	٣	-٤	ش٢	١٢٦١
	٧		ش٢	١٢٦١
	٨		ش٢	١٢٥٤
	١٠		ش٢	١٢٦٩
	١٣		ش٢	١٢٥٤
	١٤		ش٢	٩٩١
			ش٢	١٢٥٤
			ش٢	١٣٠٢
			ش٢	١٣٠٧
	١٥		ش٢	٩٢٧
	١٦		م	٢١٧
	٢٤		ش٢	١٣٠٣

مراثي إرميا

١	١٢:		ش٢	١١٧٦
			ش٢	١١٩٥
٣	١:	-٢٦	ش٢	١١٨٨
٣	٢٤:		ش١	٦٣٨

مزامير

٢	١:	-٢	ش٢	١١٩٢
٧	٩:		ش١	٢٠٠
٨	٢:		ش١	١٩٠
	٤	-٥	م	١٩٩
	٧		ش١	١٩٠
١٤	٣:		ش١	٤٤٠

١٦	٩:	-١٠	ش٢	١٢٦٨
	١٠		ش١	٧٤٠
	١١		م	٣٠٨
			ش١	٣٩٦
			ش١	٤٢٧
١٩	٤:		ش٢	٩٥٩
٢٠	٦:		ش٢	١٣٣٥
٢٢	١:	-١٨	ش٢	١٢٠٤
	١٥		ش٢	١٢١٣
	١٦		ش٢	١١٩٩
	١٦	-١٧	ش٢	١١٩٩
	١٦	-٢٠	ش٢	٩٩٥
	١٩	-٢٠	ش١	١٠٢
	٢٠		ش١	٦٩٠
	٢٢		ش٢	١٠٣٢
٢٣	١	-٢	ش١	٣٩٩
	١	-٣	ش١	٦١٨
			ش١	٦٢٦
	٤		ش١	٦٣٨
٢٥	١٤:		ش١	٤٥٦
			ش١	٦٤٨
			ش٢	١٠٧١
	١٦		ش١	١٠٢
٢٦	٦:		م	٢٧٨
٢٧	١:		م	٣٨٨
			ش١	٤٥
			ش١	٥٢١
			ش١	٥٢٣
٢٩	٣:		م	٣٢
	٤	-٨	ش١	٦٩٥
٣١	١٠:	-١٣	ش٢	١١٧٦
٣٣	٩:		ش٢	٩١٠
٣٤	١٩:	-٢٠	ش٢	١٢٣٧
٣٥	٥:		م	٢٢٨
	١١		ش٢	١١٣٤
	١٥		ش٢	١١٧٤
	١٧		ش١	١٠٢
	١٩		ش١	٦٨
			ش٢	٩٣٨
٣٦	٨:		م	٢٨٥
	٨	-٩	م	٢٧٩
			ش١	٤٢٦
			م	١٢٢
			ش١	٤٤
			ش١	٤٣٣
			ش١	٤٥٢
			ش١	٥٢٤
			ش١	٦٠٢
			ش١	٧٦٠
			ش٢	٨٦١
٣٧	٣٢:		ش١	٣٣٩
٤٠	٦:		ش٢	١٠٦٢
	٨		ش٢	١٠٦٢
٤١	٩		م	١٠١
			م	٣٠٤
			ش٢	١٠٤٧
	٩	-١٠	ش٢	٧٩٢
٤٢	١:		م	٢٧٩
	٢		م	٢٧٩
٤٤	١٧:	-١٨	ش١	٤٦٦
	٢٤		ش٢	٩٨٧

٢٠: ٢١-	ش١	١٩٤
٢٠: ٢٤-	م	٥٥
	م	٧٩
٢١:	ش١	١٩٠
	ش١	٤٢٣
٢١: ٢٣-	ش١	٧٣٨
٢٢:	م	٩٤
	م	٩٦
	م	٣٠٠
	م	٣٠١
	م	٣٢٧
	ش١	١٨٢
٢٣:	ش١	٣٦١
	ش١	٤٢٢
	ش٢	٩٤٠
٢٣: ٢٤-	م	٢٤٨
	م	٢٥٦
٢٤:	م	١٠٩
	م	١٤٦
	م	١٦٨
٢٥:	م	٨٩
	م	٣٠٧
٢٦:	م	١٥٨
	م	٢٣٢
	م	٣٠٧
٢٧:	ش١	٢٧٦
	ش١	٢٧٨
٢٩:	م	٣٠٧
	ش١	٢٨٨
٣١: ٣٤-	ش١	٤٢٠
٣٢:	ش٢	١٣٣٠
٣٤:	م	٢٩٦
	ش١	٣٤٨
	ش١	٣٥٠
	ش١	٣٥٣
	ش١	٣٧١
	ش١	٣٧٦
	ش٢	٨٧٩
	ش٢	١٠٢٥
	ش٢	١٢٢٣
٣٨:	م	٢٦٢
٣٩:	م	٣٤٥
٤٢:	م	١٤٧
	م	١٧٩
	م	٣٠٦
٤٤:	ش١	١٨٢
٤٥:	م	٢٩٧
٤٦: ٥٤-	م	٣٤٥
	م	٣٤٥
٤٧:	م	٣٠١
٤٨:	م	١٣٩
	م	٢٩٥
٥٤:	م	٣٠١
٥ ١:	م	٣٠١
	ش٢	١٣٣٠
٢:	م	٣٤٥
٣:	م	١٩٢
٥:	ش١	٦٥٥
٦:	م	١٣٨
٩:	م	٩٨
١٠:	م	٢٩٩
٥ ١١:	م	٢٤٩
١٣:	ش١	٣٢٦
١٤:	م	٢٩٤
	ش١	٣٣٠
	ش١	٣٣١
١٦: ١٨-	م	٣٤٠
١٧:	م	٩٨
	م	١١٤
١٧:	م	١٨١
١٧:	م	٢٠٨
١٧:	م	٢١٤
١٧:	م	٢٩٣
١٧:	م	٢٩٤
١٧:	م	٤١٠
١٧:	ش١	٣٣٨
	ش٢	٨٨١
١٧: ١٨-	ش١	٦٩٨
١٨:	م	١٨١
	م	٢١٥
١٩:	م	١٧٩
	م	١٧٩
	م	١٨١
	م	٢٠٨
	ش١	٣٣
	ش١	٣٧
	ش١	٣٤٦
	ش٢	٨٨٠
	ش٢	٩٠٤
١٩: ٢١-	م	١١٥
٢٠:	م	١٧١
	م	٢٠٨
	م	٢١٢
	م	٤١٢
	ش٢	٨٧٩
٢٠: ٢٣-	ش١	٣٧
٢٠: ٢٦-	ش١	٣٤٦
٢١:	م	٢٠٨
	م	٢٣١
	ش١	٤٤
	ش١	٣٢٠
	ش١	٣٣٤
	ش١	٣٣٨
	ش١	٣٦٧
	ش٢	١٠١٧
٢٢:	م	٢٠٨
	م	٢١١
	ش١	٣٣٨
	ش١	٣٧٧
	ش٢	١٠١٦
٢٣:	م	٢٠٨
	ش١	٣٣٨
	ش١	٤٥٢
	ش٢	٨٨١
	ش٢	١٣٠٧
٢٤:	م	٦١
	م	١٢٩
	م	١٣٦
	م	١٣٨
	م	١٤٧
	م	١٨٩
	م	٣٢١
٥ ٢٤:	م	٣٢٩
	م	٤٠٥
	ش١	٢٧
	ش١	٩٢
	ش١	٢٤١
	ش١	٣٢٠
	ش١	٣٢٨
	ش١	٣٨١
	ش١	٤٦٧
	ش١	٦٤٨
	ش١	٦٥٦
	ش١	٦٧٨
	ش١	٦٨٠
	ش٢	٨٢٦
	ش٢	٨٢٨
	ش٢	٨٧٢
	ش٢	٩٨٦
	ش٢	١٠١٧
	ش٢	١٠١٩
	ش٢	١٠٢١
	ش٢	١١٦٢
٢٤: ٢٥-	م	٣٢٤
٢٥:	م	١٢٩
	م	١٣٦
	م	٣١٥
	م	٤٠٨
	ش١	٣٣٤
	ش١	٣٣٨
	ش١	٣٥٨
	ش١	٥٦٣
	ش١	٦٥٦
	ش١	٦٨٢
	ش٢	٩٢٦
	ش٢	٩٤٠
	ش٢	١٢٧٤
٢٦:	م	١٣٥
	م	١٥٣
	م	١٩٨
	م	٢٠٩
	م	٢١١
	م	٣١٥
	ش١	٤٤
	ش١	٣٣٩
	ش١	٣٧٧
	ش١	٤٥٣
	ش٢	٨٧٧
	ش٢	١٠١٧
	ش٢	١٠١٩
	ش٢	١٢٨٣
٢٦: ٢٧-	م	١٩٦
٢٧:	م	١١٦
	م	٢١١
	م	٣٢٤
	ش١	٣٣٩
	ش١	٣٧٧
	ش١	٦٣٣
٢٨:	م	٣١٨
	م	٣٢٤
	ش١	٣٣٤
	ش٢	٨٣٨
٢٨: ٢٩-	م	١٢٩

٥	٢٨:	٢٩-	م	٤٠٨
			ش١	٣٣٩
			ش١	٣٥١
			ش١	٦٥٦
	٢٨:	٣٠-	م	١٤٥
	٢٩:		م	١٤٥
			م	٣٢٤
			ش١	٦٧٠
			ش٢	٨٣٨
	٣٠:		م	١١٦
			ش١	٣٤٧
			ش١	٥٥٣
			ش٢	٨٨٠
	٣١:		م	١١٦
			ش١	٥٦
			ش١	٥٢٥
			ش٢	١٣٥٥
	٣١:	٣٩-	م	٧٩
	٣٢:	٣٣-	ش١	١٢٨
	٣٢:	٣٤-	م	٣٢٠
	٣٣:		م	٣١٥
	٣٣:	٣٤-	م	١١٧
	٣٣:	٣٦-	م	٦٣
	٣٤:		م	٧١
			م	١١٢
			م	١١٦
			ش١	٥٦
			ش١	٣٧٢
			ش١	٣٨٢
	٣٥:		م	١١٦
	٣٦:		م	٢١٠
			م	٢١١
			م	٢١٣
			ش١	٥٦
			ش١	٣٤٧
			ش١	٣٤٧
			ش١	٣٥١
			ش١	٣٧٧
	٣٦:	٣٧-	م	١١٤
	٣٧:		م	١١٣
			م	٢١٠
			م	٢١٣
			ش١	٥٦
			ش١	١١٨
			ش٢	٩٤٢
	٣٧:	٣٨-	م	٩٤
			ش١	٣٧٤
	٣٧:	٣٩-	ش١	٢٩
	٣٧:	٤٠-	م	٨٥
	٣٨:		م	٣٢١
			ش٢	٩٠٣
			م	٩٦
			ش١	٥٦
			ش١	٤٨٨
			ش١	٦٧٢
			ش٢	١٢٣٧
	٣٩:	٤٠-	م	١١٥
	٤١:		ش١	٣٧٢
			ش١	٤٨٧
	٤٢:		م	٢٠٦
			ش١	٣٧٤

٥	٤٢:		ش١	٣٨١
	٤٣:		م	٢١٤
			م	٢٣٤
			ش١	٧٢٧
			ش٢	٨٦٩
	٤٤:		م	١٥٢
			ش١	٣٨١
			ش١	٤٨٧
			ش١	٧٣٨
			ش١	٧٥٨
	٤٤:	٤٥-	ش١	٤٨٣
	٤٥:		ش١	٤٨٨
	٤٥:	٤٦-	ش٢	١١٢٤
	٤٥:	٤٧-	م	١١٥
			ش١	٣٢٦
			ش١	٥٢٩
	٤٦:		م	٩٧
			ش١	٥٦
			ش١	١٥٨
			ش١	٦٤٦
	٤٦:	٤٧-	م	٩٥
			ش٢	١٢٣٧
٦	١:		م	٣٤٥
			ش١	٣٢٥
	١:	١٣-	م	٣٤٧
	١:	١٥-	ش١	٣٩١
	٢:		ش١	٤٠٥
	٣:	٤-	م	٣٠٠
	٤:		ش١	٣٢٦
			ش١	٧٠٩
	٥:		م	٣٠٨
	٦:		م	٣٠٨
	٧:		م	٣٠٨
	٧:	١٣-	م	٣٤٨
	١٠:		ش٢	١٠٢٢
	١٢:		ش١	٢٣٨
			ش١	٤١٧
			ش١	٧٠٦
	١٢:	١٣-	ش١	٣٩٦
	١٤:	١٥-	م	٣٠
	١٥:		م	٢٩٨
			ش١	٧٢٤
	١٦:	٢١-	م	٣٤٧
	١٧:	٢٠-	م	٢٤٥
	١٨:	١٩-	م	٢٨٠
	١٩:		م	٢٠٧
	٢٠:		م	١٥٨
			م	٢٣٢
	٢٠:		م	٣٤٨
	٢٣:		م	٣٤٥
	٢٤:	٢٥-	م	٩١
	٢٦:		ش١	٤٠١
			ش١	٤٢٨
	٢٧:		م	١٣٧
			م	١٥٨
	٢٧:		م	١٩٦
			م	٢٩٢
	٢٧:		ش١	٢٣٨
			ش١	٢٥٧
			ش١	٣٠٩
			ش٢	٨٥١

٦	٢٧:	٥٨-	م	٧٩
	٢٨:	٢٩-	م	١٤٩
			ش١	٣٦٥
	٢٩:		م	٢١٠
			ش١	٣٠٨
			ش١	٤٢٨
	٣٠:		ش١	٦٤٩
	٣١:	٣٥-	م	٨٧
			م	٩٩
	٣٢:		م	٩٩
			م	٢١٤
			م	٢٧٤
			ش٢	٨٩٤
	٣٢:	٣٥-	م	٢١٢
	٣٣:		م	٢٧٤
	٣٤:		م	١٧٩
			م	٢٩٩
	٣٥:		م	١٥٨
			م	٢٠٣
			م	٢٣١
			م	٢٤٠
			م	٢٧٤
			م	٢٨٣
			م	٢٩٢
			ش١	٢٨٤
			ش١	٤٢٣
			ش١	٤٩٨
			ش٢	٨٥١
			ش٢	١٠١٧
	٣٦:		ش١	٤٣٢
	٣٧:		م	٥٩
			م	١٥١
	٣٧:		م	١٥١
			م	٢١١
			م	٢١٣
			ش١	٣١٨
			ش١	٤٦٦
			ش٢	٨٩٨
			ش٢	١٠١٧
	٣٨:		ش١	٢٢٧
	٣٩:		م	٢١٣
			ش١	٣٧٧
			ش١	٤٠٢
			ش٢	١١٣٥
	٣٩:	٤٠-	ش١	٣٦٨
			ش١	٣٧١
	٣٩:	٤٤-	ش١	٦٧٨
	٤٠:		م	١٣٨
			م	٢٠٩
			م	٣١٨
			ش١	٣٤٦
			ش١	٦٨٠
	٤١:		م	١٥٨
			م	٢٤٠
			م	٢١٤
			م	٢٩٩
	٤١:	٤٢-	ش١	٤٤٣
	٤٢:		ش١	٢٢٧
			ش٢	٨٣٣
	٤٣:	٤٧-	ش١	٤٤٣
	٤٤:		م	٥٩

١٣	١٦:		م	٣٥٢
			ش٢	٧٨٩
			ش٢	٩٣٢
	١٨:		م	١٦١
			م	٢٨٠
			م	٣٠٤
			ش٢	١٠٤٧
	١٩:		م	١٥٨
			م	٢٣٣
			ش١	٦٧٢
			ش٢	٨٨٦
	٢٠:		م	٢٠٠
			م	٢٦٢
			ش٢	٧٨١
			ش٢	٩٩٨
			ش٢	١٢٨٦
			ش٢	١٢٨٧
	٢١:		م	٣٤٩
			ش١	٦٨٦
			ش١	٧٤١
			ش٢	٨١٥
	٢٣:		م	١٧١
	٢٦:	-٢٧	ش٢	١١٠٧
	٢٧:		ش١	٤٧١
			ش١	٧٢٠
			ش٢	٨٨٧
	٢٨:		ش٢	٩٨٤
	٣٠:		م	٣٥٣
			ش١	٢٠٦
	٣١:		م	١٢٧
			م	١٩٧
	٣١:		م	٢٠٢
	٣١:		ش١	٣٨٩
	٣١:		ش١	٥٠٠
			ش٢	٨٣٠
	٣١:	-٣٢	م	١٩٦
			ش٢	١٠٨٢
	٣٢:		م	١٢٧
	٣٣:		م	٤١
			م	٦٨
			م	٣١٥
			ش١	٥٣٥
			ش٢	٨٥٣
			ش٢	٩٧٠
			ش٢	١١٣٦
	٣٤:		م	٣٢١
			ش٢	٩٢١
			ش٢	٩٩٨
	٣٥:		م	١٤٠
			م	٢١٢
			م	٢٥٧
	٣٦:		ش١	٥٣٥
			ش٢	٨٩٠
			ش٢	٩٥٤
			ش٢	٩٨٤
			ش٢	١٠٢٩
			ش٢	١٠٤١
			ش٢	١٠٨٧
			ش٢	١٣٤٩
	٣٧:		ش٢	١٠٤٧
	٣٧:	-٣٨	ش٢	٩٩٤

١٣	٣٧:	-٣٨	ش٢	١٣٤٣
	٣٨:		م	٣٤٩
١٤	١:		م	٥٨
			م	١٤٨
			م	٣٠٩
			ش٢	٨٧٣
			ش٢	٨٨١
			ش٢	٨٨٦
	١:	-٣	م	٤١٥
	١:	-٩	م	٢١٦
			ش٢	٩٩٩
	٢:		م	٣١٤
			م	٣٢٩
			ش١	٤٦٢
			ش١	٤٧٧
	٢:	-٣	ش٢	٨٥٨
			ش٢	٨٨٥
	٢:	-٤	م	٣١٠
			ش١	٥٣٥
	٣:		م	٢٣٨
			م	٣١٨
			ش١	٢٨٧
			ش١	٤٩٥
			ش٢	١٠٤٠
			ش٢	١٠٨٧
			ش٢	١٠٩٠
	٤:		ش١	٤٦٢
			ش١	٤٦٣
			ش١	٤٩٥
	٤:	-٦	م	٢٤٥
	٥:		م	٣١٠
			ش٢	٩٥٤
	٦:		م	٦٠
			م	١٠٨
			م	١١٠
			م	١١٤
			م	١٣٦
			م	١٥٨
			م	١٧٩
			م	٢٣١
			م	٢٣٢
			م	٢٤١
			م	٣١٠
			ش١	٢٨
			ش١	٤٦
			ش١	٦٢
			ش١	١٠٥
			ش١	١٠٧
			ش١	١٦١
			ش١	٤٤٢
			ش١	٤٥٣
			ش١	٥٤٢
			ش١	٥٥٤
			ش٢	٧٨١
			ش٢	٧٩٠
			ش٢	٨١٧
			ش٢	٨٤٥
			ش٢	٨٤٦
			ش٢	٨٩٦
			ش٢	١٠١٧
			ش٢	١٠٥٧

١٤	٦:		ش٢	١٠٨٠
			ش٢	١١٣٧
			ش٢	١١٦٢
	٦:	-١٠	م	٥٧
	٧:		م	١٦٢
			م	٢١٤
			ش١	١١٨
			ش٢	١٠٧٠
	٨:		م	٣٠٩
			ش١	٥٣٠
			ش٢	٩٨٧
	٨:	-٩	ش١	٣٩٥
	٩:		م	٥٧
			م	٦٨
			م	١٤٦
			م	١٦٢
			م	١٦٣
			م	١٩٣
			م	٣٠٩
			م	٤١٣
			ش١	٣٢
			ش١	٣٧
			ش١	١٠٠
			ش١	١٠٧
			ش١	١١٨
			ش١	٣٤٥
			ش١	٤٢٨
			ش١	٤٣٦
			ش١	٧٦٠
			ش٢	٨٢٩
			ش٢	٨٣١
			ش٢	٨٦٤
			ش٢	٨٨١
			ش٢	١٠٠٥
			ش٢	١٠٢٢
			ش٢	١٣٠٨
			ش٢	١٣٠٩
	٩:	-١٠	م	٣٠٩
	١٠:		م	١١٤
			م	١٨٨
			م	١٩١
			م	١٩١
			م	٢٠٨
			م	٢٣٢
			م	٢٩٤
			ش١	٣٧
			ش١	١٢٠
			ش١	٣٤٥
			ش١	٣٤٨
			ش١	٥٥٣
			ش١	٦٤٥
			ش٢	٨٥٢
			ش٢	٨٨٠
			ش٢	٩٠٢
			ش٢	٩٣٦
			ش٢	١٠٥٣
			ش٢	١٠٧٠
			ش٢	١١٦٣
	١٠:	-١١	م	١١٥
			ش١	٣٧٦
	١١:		م	٢٣٢

١٦	٣٢:	ش٢	١٠٤٠
		ش٢	١٠٤١
		ش٢	١٣٣٢
	٣٣:	م	٣٢٢
		ش١	٢٧
		ش١	٦٧٢
		ش١	٧٣٩
		ش٢	٨٣١
		ش٢	٨٧٢
		ش٢	٨٩٠
		ش٢	٩١٧
		ش٢	٩٩٠
		ش٢	١٠١٠
		ش٢	١٠٥٥
		ش٢	١٠٨٧
		ش٢	١١٧٣
		ش٢	١٣١٢
١٧	١:	م	٢٠٩
		م	٣٩٧
		ش١	٣٤٦
		ش٢	٩٧١
	١: –٢	ش١	٤٣٠
		ش١	٦٣٣
	١: –٥	م	٣٤٠
	٢:	م	٢١١
		ش١	٧٨
		ش١	٣٧٨
		ش١	٤٣٠
		ش١	٩٣٣
		ش٢	١٠١٥
		ش٢	١٠٨٧
١٧	٣:	م	٦١
		م	١١٣
		م	١٤١
		م	١٥٣
		م	١٦٢
		م	٢١٠
		ش١	٤٥
		ش١	٦٠
		ش١	١١٥
		ش١	٢٨٤
		ش١	٢٩٤
		ش١	٥٤٢
		ش١	٦٨١
		ش٢	٨٨١
		ش٢	٩٢٦
		ش٢	٩٣٣
		ش٢	١٠١٥
		ش٢	١٠٦٩
		ش٢	١٠٩٢
		ش٢	١١٦٣
١٧	٤:	م	٢١١
		م	٢٩٣
		م	٢٩٦
		ش١	٢٣٥
		ش١	٣٠٥
		ش١	٣٥٠
		ش١	٣٥٣
		ش١	٣٧٦
		ش١	٣٧٨
		ش١	٣٧٨

١٧	٤:	ش١	٤٠٧
		ش٢	٨٧٨
		ش٢	٨٩٨
		ش٢	١٠١٥
		ش٢	١٠٣١
		ش٢	١٠٥٥
		ش٢	١٢٢٣
	٤: –٥	ش١	٥٠٠
		ش٢	٨٠٠
	٤: –٦	م	٢٩٥
		ش٢	١٠١٤
١	٥:	م	٥٨
		م	١٩٢
		ش١	٢٦
		ش١	٣٣
		ش١	١٠٠
		ش١	٥٦٨
		ش١	٦٣٤
		ش١	٦٩١
		ش١	٦٩٢
		ش٢	٨٧٧
١٧	٦:	م	٥٨
		م	١٥١
		م	١٦٠
		م	٢١٢
		م	٢٣٥
		ش١	٣٥٤
		ش١	٣٧٨
		ش١	٥٣٦
		ش١	٦٣٩
		ش٢	١٠٥٩
		ش٢	١٠٦١
		ش٢	١٠٨١
	٧:	م	٢١٢
	٨:	م	٧٦
		م	١٧٥
		م	١٨٨
		م	٢١١
		م	٢١١
		ش١	٣٥٨
		ش١	٤٦٨
	٩:	م	٥٨
		م	١٥١
	١٠:	م	١٧٥
		م	١٩٢
		ش١	٣٥٤
		ش١	٤٣٦
		ش١	٦٣٤
		ش١	٦٣٩
		ش١	٦٩٢
		ش٢	٨٧٨
		ش٢	٨٨١
	١١:	م	١٧٥
		م	٢١١
		م	٢٣٥
		ش١	٤٦٢
		ش١	٤٦٨
		ش٢	١٠٤٠
		ش٢	١٠٥٨
		ش٢	١٠٦٧
		ش٢	١٠٦٨

١٧	١١:	ش٢	١٠٩١
	١٢:	م	١٥١
		م	٢١١
		م	٢١٨
		م	٢٣٥
		ش١	٣٧٨
		ش١	٧٢٧
		ش٢	٨٩٨
		ش٢	١٠٣٢
		ش٢	١١٣٥
	١٣:	ش١	٤٦٢
		ش٢	٨٧١
		ش٢	٩٧٩
		ش٢	٩٨٣
		م	١٦٥
		م	١٨٨
		ش١	٢٨
		ش٢	٨٨٩
		ش٢	١٠٨١
	١٤: –١٥	م	١٦٨
		م	٣٠٣
	١٥:	ش٢	١٠٥٢
		ش٢	١٠٥٨
		ش٢	١٠٦٦
	١٦: –١٧	ش٢	١٠٩١
		م	١١٠
		ش١	٢٨
		ش٢	١١٦٢
		ش٢	١١٦٣
	١٧: –١٨	ش٢	١٢٨٥
	١٧: –٢٣	ش٢	١٠٤٥
	١٨:	م	٢١١
		ش١	٤٥٢
		ش٢	٩٨٩
		ش٢	١٠٥٣
	١٩:	ش١	٨٥
		ش١	١٧٢
		ش١	٣٠٥
		ش٢	١٠٠٩
		ش٢	١٠٥٣
		ش٢	١٠٧٩
		ش٢	١٠٨٠
		ش٢	١٢٨٧
	٢٠: –٢١	م	١٧٥
		ش٢	٨٧٨
	٢١:	م	١٧٣
		م	٢١١
		م	٢٥٧
		م	٢٦٠
		ش١	٩٠
		ش١	٤٥٣
		ش١	٦٢١
		ش٢	٨٠٧
		ش٢	٨٨١
		ش٢	٩٨٣
		ش٢	٩٨٩
		ش٢	١٠١٦
	٢٢:	م	١٢٤
		م	١٢٧
		م	١٣٧
		م	١٧٥

الإصحاح	الآية	إلى	المصدر	الصفحة
١٧	٢٢:		م	١٧٥
			م	٢١٠
			م	٢١١
			م	٣٠٣
			ش١	١١١
			ش١	٤٦٥
			ش٢	٨٧٩
			ش٢	٩٢٦
			ش٢	٩٥٥
			ش٢	١٠١٦
			ش٢	١٠٩٠
	٢٢:	–٢٣	ش٢	٧٩٨
	٢٣:		م	٥٩
			م	١٤٣
			م	١٥٧
			م	١٧٥
			م	١٨٧
			م	١٩١
			م	٢١١
			م	٢٥٠
			م	٢٦١
			ش١	٩٠
			ش١	١١٣
			ش١	٣٧٨
			ش١	٥٢٤
			ش٢	٨٠٧
			ش٢	٨٥٣
			ش٢	٨٥٧
			ش٢	٨٧٩
			ش٢	٩١٢
			ش٢	٩٦٩
			ش٢	٩٨٣
			ش٢	٩٨٩
			ش٢	١٠٧٦
			ش٢	١٠٩٠
	٢٤:		م	٥٨
			م	١٣٧
			م	١٥١
			م	١٦٨
			م	١٨٠
			م	١٩٣
			م	٢١١
			م	٢٣٨
			ش١	٢٦
			ش١	٣٣
			ش١	١٠٠
			ش١	١٥٣
			ش١	٣٧٨
			ش١	٥٠٠
			ش١	٥٣٥
			ش١	٦٣٤
			ش١	٧٣٩
			ش٢	٨٢٣
			ش٢	١٠٢٨
			ش٢	١٠٧٦
	٢٥:		م	٧٦
			م	١٥٠
			م	١٥٦
			م	٢١١
			ش٢	٩٨٩
	٢٥:	–٢٦	م	٢٩٩

الإصحاح	الآية	إلى	المصدر	الصفحة
١٧	٢٥:	–٢٦	ش١	٥٦٩
			ش٢	٨٣٩
			م	١٥٠
			م	١٧٤
			م	٢٣٥
			م	٢٩٦
			م	٣٤٧
			ش١	٥٣٦
			ش١	٥٤٢
			ش١	٦٢٢
			ش١	٧٢٧
			ش٢	٨٠٧
			ش٢	٨٧٨
			ش٢	٩١٣
			ش٢	١٠٧٦
١٨	١		ش٢	١٠٠٨
	١	–١١	م	٣٤٧
	٢	–٤	م	٣٥٣
	٣		م	٣٠٢
			ش١	٤٩٤
	٤		م	٢٠٦
			م	٣٤٠
			ش٢	١٠٩٧
	٤	–٥	م	٢٣٣
			ش١	٦٣٢
	٥		م	١٥٨
	٦		م	١٥٨
			م	٢٣٣
			ش١	١٨٩
			ش٢	١٠٩٨
	٨		م	١٥٨
			م	٢٣٣
			ش٢	٩٩٣
			ش٢	١٠٩٧
	٨:	–٩	ش٢	١٠٩٨
	٩:		م	٢١٢
	١٠:		م	٣٥٠
	١١:		م	٢١٢
			ش١	٢٣٥
			ش١	٧٤٤
			ش٢	١٠٩٧
			ش٢	١٠٩٨
			ش٢	١١٠٦
			ش٢	١١١٢
			ش٢	١١١٩
	١٢:		ش٢	١١٠٨
	١٢:	–١٣	ش١	٧٠١
			ش٢	١١٢٠
	١٤:		م	٣٠٠
			ش٢	١١٢٠
	١٥:		م	٣٠
			م	٣٨
			ش٢	١١١٤
			ش٢	١١٢٢
			ش٢	١٣٥٠
	١٦:		ش٢	١١٣١
	١٨:		م	٣٥٤
	١٩:		ش٢	١١١٤
			ش٢	١١٢٦
			ش٢	١١٤١
	١٩:	–٢٠	ش١	٥٣١

الإصحاح	الآية	إلى	المصدر	الصفحة
١٨	١٩:	–٢١	ش٢	١١٢٠
	٢٠		م	٧٨
			م	٩٧
	٢٠	–٢١	ش٢	١٠٩٨
	٢٣		ش٢	٩٣٠
	٢٤		ش٢	١١٢٢
			ش٢	١١٣٤
	٢٥		ش٢	١١٨١
	٢٥	–٢٧	م	٣٥٤
	٢٦		ش١	٧٣٨
			ش٢	١١١٠
	٢٨		ش٢	١١٠٩
			ش٢	١١٢٢
	٢٩		ش٢	١١٠٩
	٣١		م	٣٠٠
			م	٣٠٣
			ش٢	١١٤٣
	٣١	–٣٤	م	٥١
	٣٣		م	٩٠
			ش٢	١١٣٥
	٣٣	–٣٤	م	٩٠
	٣٣	–٣٧	م	٣٤١
	٣٣	–٣٨	ش٢	١١٧٩
	٣٥		م	٣٠٣
	٣٦		م	٣٠٠
			م	٣٢٤
			ش٢	١٠٩٨
			ش٢	١٢٧١
	٣٦	–٣٧	م	٩٠
	٣٧		م	٩٣
			م	١١٤
			ش١	٥٦
			ش١	٥٦٢
			ش١	٧٢٤
			ش٢	٨٢٦
			ش٢	١٠٩٨
			ش٢	١١١٦
			ش٢	١١١٦
	٣٧:	–٣٨	م	٥١
	٣٧:	–٣٨	م	١١٠
	٣٨:		م	٣٠٣
			م	٣٥٤
			ش٢	١١١٦
			ش٢	١١١٦
			ش٢	١١٧٨
	٣٨	–٤٠	م	٣٠٠
١٩	٤:		ش٢	١١١٦
	٤	–٦	م	٣٥٤
	٦		م	٣٠٣
			ش٢	١١١٦
	٦	–٦	ش١	٣٤٣
	٧		ش٢	١١٨٣
	٧	–٨	م	٢٠٧
	٨	–٩	ش٢	١١١٦
	١٠	–١١	ش١	٦٣٢
	١١		م	٣٠٤
			م	٣٥٣
			ش١	٢٠٨
			ش١	٤٧٠
			ش١	٥٢٨
			ش٢	١٠٩٨

يوحنا الأولى (رسالة)

١	١:	-٣	ش١	٢١
	١:	-٣	ش٢	١٠٨٠
	١:	-٤	ش١	٢٢
			ش٢	٩٣٦
			ش٢	١٠١٨
			ش٢	١٠٢١
	٢:		م	١٦٢
			م	٣٢٠
			م	٤٠٤
			ش١	٤٥
			ش١	٣٨٢
			ش١	٤٥٣
			ش٢	١٣٣٠
	٢:	-٣	م	٦٧
			ش٢	١٠٢٢
			ش٢	١٠٧١
	٢:	-٤	ش١	٣٥٩
	٣:		ش٢	٨٣٢
			ش٢	٨٥٧
			ش٢	١٠٢١
	٣:	-٤	م	١٧٤
			م	١٩٠
			م	٢٦١
			م	٢٦٣
			ش٢	٩٨٣
	٤:		م	٤٩
			م	٣٢٢
			ش٢	١٣٥٦
	٥:		م	٧٨
			م	١٢٢
			م	١٢٢
			ش١	٤٧
			ش١	٥١
			ش٢	١٠١٨
			ش٢	١٠٥٧
	٥:	-٦	ش١	٧٦١
	٥:	-٧	م	٣٢٠
	٦:		م	١١١
			م	١٢٢
			ش٢	١٠٥٧
			ش٢	١١٦٤
	٧:		م	١٦٩
			م	٢٦٦
			ش٢	١٢٣١
	٨:		م	٧٨
			م	١١١
	٨:	-٩	م	١٦٩
			م	٢٦٦
			م	٣١٩
	٩:		ش٢	١٠٩١
			ش٢	١٢٩٤
	١٠:		م	٧٨
			م	١٦٩
			م	٢٦٦
٢	١:		ش٢	٨٨٥
	١:	-٢	م	٢٦٦
			م	٣١٩
			ش٢	١٢٩٤
	٢:		ش١	٧٠٧
	٣:	-٤	م	١١١
٢	٣:	-٦	ش٢	٩١٨
	٤:		م	٧٨
	٦:		ش١	٤٥٢
			ش٢	٩٠٣
			ش٢	٩٦٨
	٨:		م	٣٢٢
			م	٤١٥
			ش٢	٩٤٧
	٨:	-١١	م	١٢٢
	٩:	-١٠	م	٣٣
	٩:	-١١	ش٢	١٠٥٧
	١١:		م	٣٢١
	١٣:		ش٢	٨٣١
	١٣:	-١٤	م	٤١
	١٤:		م	٣٢١
			ش١	٢٨٦
			ش١	٧٤٧
	١٥:		ش٢	٨٣١
			ش٢	٨٤٨
	١٧:		ش٢	٨٤٩
	١٨:		م	٤١
			م	٦٣
	٢٠:		م	٣١٩
	٢٠:	-٢١	م	١١٠
	٢١:	-٢٢	ش١	٥٤٣
	٢٢:		م	٦٣
	٢٣:		م	١٤٩
			م	٣٢٠
			ش٢	٩٣٥
	٢٤:		م	٢٦٣
	٢٧:		م	١٤٩
			م	٣١٩
			ش١	٢٨٦
			ش٢	٩٠٣
	٢٨:		م	٤١
			م	٧٨
			م	٣١٩
			ش٢	٨٢١
	٢٩:		ش١	٧٥
			ش١	٢٠٨
			ش١	٥٤٦
٣	١:		ش٢	٩١٣
			ش٢	٩٢٩
			ش٢	٩٨٨
	١:	-٢	م	٣٢٣
			ش١	٧٥
	٢:		م	١٥١
			ش١	٩٠
			ش١	٢٠٩
			ش٢	٨٢١
			ش٢	٩١٣
			ش٢	٩٦٦
			ش٢	٩٧٢
			ش٢	١٠٨٨
			ش٢	١٠٨٩
			ش٢	١٣٥٦
	٤:	-٦	ش١	٥٤٦
	٥:		م	٣٢١
			ش١	١٤١
	٧:	-٩	م	١٦٦
	٨:		م	٣٢١
٣	٨:		ش١	٥٤٦
			ش٢	١٠٥٦
			ش٢	١٣٣٠
	٩:		ش١	٧٥
			ش١	١٠٦
			ش١	٢٠٨
			ش١	٢٨٦
			ش١	٦٤٠
	١١:	-١٢	ش١	٥٥٧
	١٢:		ش١	٥٥٦
	١٣:		م	٣٢٢
			ش٢	١٠٣٧
	١٤:		م	١٧١
			م	٣٢١
			م	٤٠٥
			ش١	٦٧٩
			ش٢	٨٠٧
			ش٢	٩٠٠
			ش٢	١٠٧٨
			ش٢	١٣٥٦
	١٤:	-١٥	م	٣٣
			م	١٤١
			ش٢	٩٠٠
	١٥:		ش١	٥٥٧
			ش٢	٩٠٣
	١٦:		م	١٧٢
			م	٣٢١
			ش٢	٩٢٣
			ش٢	١٠٧٧
	١٨:	-١٩	م	٣٣
			م	١٧٣
	١٨:	-٢١	م	١٤١
	١٩:	-٢١	م	١٤٤
	٢٠:	-٢٢	ش٢	٩٨١
	٢١:	-٢٢	ش٢	٩١١
	٢٢:		م	٣٢١
			ش١	٦٩٥
	٢٣:		م	٣٢١
			ش٢	٩٢٢
	٢٤:		ش٢	٨٤٦
			ش٢	٨٦٦
			ش٢	٩٢٢
٤	١:	-٣	م	٦٤
	٢:		م	٣٢٣
			ش١	٨٥
	٢:	-٣	م	٣١٨
	٣:		ش٢	٩٤٠
	٥:	-٦	ش١	٦١٣
			ش٢	١٠٣٧
	٦:		م	١١١
			م	٣٢١
			ش١	٥٦٢
			ش٢	٩٤٠
	٧:		م	١٤٠
			ش١	٧٥
			ش١	١٠٧
			ش١	٢٠٨
			ش٢	٩٢٠
	٧:	-٨	م	٣٣
			م	١٧٢
			ش٢	٩٠٠

فهرس الإقتباسات من كتابات آباء الكنيسة

(م = المدخل ، ش = الشرح)

فهرس موضوعي
لكتاب شرح إنجيل القديس يوحنا

(م = المدخل ؛ ش = الشرح)

ooo

إرادة الله / مشيئة الله :

استعلان :

اسم الله:

أم يسوع:

أنا هو: Ego Eimi

إنجيل:

إيمان:

آية :

باب :

باراكليت ، الروح القدس المعزي :

توراة / ناموس / عهد قديم وصلته بإنجيل يوحنا:

الثبات في المسيح:

خاصة الله :

خبز :

ختان :

خدمة :

رسول ؛ إرسالية ؛ مُرسَل :

رعاية ؛ راعي ؛ رعية :

شفاء :

شهادة :

ش ٣٤٦ ــ ٣٤٩

ــ لأن الآب يحب الابن و يريه جميع ما يعمله :

ش ٣٤٩ ــ ٣٥١

ــ الأعمال التي أعطاها الآب للابن ليكملها هي تشهد له :

ش ٣٧٦ ــ ٣٧٩ و٦٣٦ و٦٣٧

ــ المولود أعمى وأمثاله فرصة لإظهار أعمال الله فيه :

ش ٥٨٧ ــ ٥٩١

ــ والمسيح يعمل أعمال الذي أرسله ما دام نهار :

ش ٥٨٨ و٥٩١

ــ أعماله تشهد أن الآب فيه وهو في الآب :

ش ٦٤٦ ــ ٦٤٩ و٨٣٥ ــ ٨٤٠

ــ وكل من يؤمن به يعمل أعماله وأعظم منها :

ش ٨٤٠ ــ ٨٤٤

ــ خطية الذي لا يؤمن هي أن المسيح عمل أعمالاً لم يعملها أحد غيره :

ش ٩٣٦ و٩٣٧

ــ العمل الذي أعطاه الآب لكي يعمله قد أكمله إلى الكمال :

ش ١٠٢٥

ــ الذي يعمل السيئات يهرب من النور لئلا توبَّخ أعماله :

ش ٢٤١ ــ ٢٤٣

ــ أما من يعمل الحق فيقبل إلى النور لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة :

ش ٢٤٤ و٢٤٥

ــ اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية :

ش ٤١٦ ــ ٤١٨

ــ عمل الله أن تؤمن بالذي هو أرسله :

ش ٤١٨ ــ ٤٢٠

ــ من يعمل مشيئة الله يعرف المصدر الإلهي لتعليم المسيح :

ش ٤٨٦ و٤٨٧

ــ من يعمل الخطية هو عبد للخطية وابن إبليس :

ش ٥٤٦ ــ ٥٥٦

عيد / أعياد اليهود في إنجيل يوحنا :

ــ أول فصح لليهود يحضره الرب بعد بدء خدمته :

ش ١٨٥

ــ صاحبه تطهير الهيكل :

ش ١٨٦ ــ ١٩٩

ــ في أول عيد للفصح آمن كثيرون باسمه ، ولكنه لم يأتمنهم على نفسه :

ش ٢٠٠

ــ صعود يسوع ثانية لأورشليم في عيد لليهود هو عيد الخمسين أو عيد الفصح الثاني :

ش ٣٢٥ و٣٢٦

ــ وفيه صنع معجزة شفاء مريض بيت حسدا :

ش ٣٢٦ ــ ٣٣٣

ــ المسيح في أورشليم في عيد المظال :

ش ٤٧٤ ــ ٤٨٤

ــ محادثاته في منتصف عيد المظال :

ش ٤٨٤ ــ ٤٩٧

ــ محادثاته في اليوم الأخير من العيد :

ش ٤٩٧ ــ ٥٠٦

ــ تكملة حديث المسيح في اليوم الأخير من عيد المظال :

ش ٥١٩

ــ الموضع الذي تكلم فيه الرب :

ش ٥٣١

ــ المسيح ظل في أورشليم حتى عيد التجديد :

ش ٥٨٠ ــ ٥٨٢

ــ فيه شفى المولود أعمى :

ش ٥٨٣

ــ وفيه تكلم المسيح عن مثل الراعي الصالح :

ش ٦٠٦ ــ ٦٣٥

ــ وفيه سأله اليهود : إلى متى تعلّق أنفسنا ، ورده عليهم :

ش ٦٣٥ و٦٥٠

ــ قبل عيد الفصح الأخير بستة أيام في بيت عنيا :

ش ٧١٥

ــ الجمع الذي جاء إلى العيد يستقبل المسيح بالسعف في أورشليم :

ش ٧٢٣

قيامة :

انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه :

ش ١٩٣ ــ ١٩٨

كما أن الآب يقيم الأموات و يُحيي كذلك الابن أيضاً :

ش ٣٥١ ــ ٣٥٢

قيامة الحياة وقيامة الدينونة :

ش ٣٦٤ ــ ٣٦٩

من يُؤمن بالابن له حياة أبدية ويقيمه في اليوم الأخير :

ش ٤٣٢ ــ ٤٣٥

من يأكل جسد المسيح و يشرب دمه له حياة أبدية ويقيمه في اليوم الأخير :

ش ٤٤٧

« أنا هو القيامة والحياة... » :

ش ٦٧٦ ــ ٦٨٢

القيامة أي الحياة الجديدة :

ش ١٢٥٢ ــ ١٣٢٤

ينبغي أن يقوم الرب من الأموات :

ش ١٢٦٧ و١٢٦٨

+ ظهوره للمجدلية :

ش ١٢٧٢ ــ ١٢٧٩

+ ظهوره للتلاميذ بدون توما الرسول :

ش ١٢٨٠ ــ ١٢٨٥

+ ظهوره للتلاميذ ومعهم توما الرسول :

ش ١٣٠٠ ــ ١٣١٠

+ ظهوره لبعض التلاميذ على بحيرة طبرية :

ش ١٣٢٩ ــ ١٣٥٣

+ الصورة الإنجيلية العامة لظهورات الرب بعد القيامة :

ش ١٣١٤ ــ ١٣٢٤

الكأس :

الكأس والسيف : الذي يحمل الصليب لا يحمل السيف :

ش ١١١٣

كتاب ؛ كتب ؛ المكتوب :

« وجدنا الذي كتب عنه موسى » :

ش ١٥٧ و١٥٨

« فتذكر تلاميذه المكتوب : غيرة بيتك أكلتني » :

ش ١٩٢

تذكر التلاميذ ما قاله الرب فآمنوا بالكتاب والكلام الذي قاله :

ش ١٩٧ و١٩٨

« فتشوا الكتب فهي تشهد لي » :

ش ٣٨١ و٣٨٢

« لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونني لأنه هو كتب عني » :

ش ٣٨٥

كيف يعرف المسيح الكتب وهو لم يتعلم ؟ :

ش ٤٨٥ و٤٨٦

« من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي » :

ش ٤٩٨ و٤٩٩

الإنجيل كُتب لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ، ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه :

ش ١٣١٢ و١٣١٣

أشياء أخر كثيرة صنعها يسوع إن كتبت جميعها لا يسع العالم الكتب المكتوبة :

ش ١٣٥٦ و١٣٥٧

كرمة :

ــ الفردية والجماعية في الكنيسة في مثل الكرمة :

م ٢٥٦ و٢٥٧

ــ رمز الكرمة ولبوة إشعياء ، ونبوة كرمة داود :

م ٢٧٠ ــ ٢٧٢

ــ اتحاد المسيح بالمؤمنين به كاتحاد الأصل في الكرمة بالأغصان :

ش ٨٩٢ ــ ٩٠٩

+ الكرمة في موضع ذات المسيح وصفته الإلهية : «أنا هو...» :

ش ٨٩٤

+ وهي كرمة حقيقية :

ش ٨٩٥ ــ ٨٩٧

+ الآب هو الكرام الفارس يطلب الثمر وينقي الغصن المثمر وينزع غير المثمر :

معمودية: (أنظر أيضاً: سر / أسرار).

مغفرة:

ملك؛ ملكوت؛ ملاك؛ ملائكة:

صورة الغلاف

لقد أعطى التقليد المسيحي لكل إنجيلي من الإنجيليين الأربعة شعاراً خاصاً، يُفصح عن المضمون الفكري العام للإنجيل المختص به. وقد أعطى للقديس يوحنا الإنجيلي رمز «النسر»، لأنه حلّق في سماوات الروح وأعطانا صوراً خاطفة للمسيح في وجوده قبل التجسد.

والصورة المرسومة هي لنِسْرٍ جسور، اقتنص سمكة ضخمة. والسمكة في التقليد المسيحي المبكّر جداً هي شعار المسيحي الذي كان يتعارف به المسيحيون مع بعضهم، برَسْمِها أو بكتابة اسمها ΙΧΘΥΣ وهذه الحروف الخمسة هي اختزال اسم المسيح وصفته، وتعني: «يسوع، المسيح، ابن، الله، المخلِّص».

فالصورة تعني القدرة الفائقة للقديس يوحنا على استعلان اسم المسيح وصفاته.